تاريخ ابن خلدون

عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي

(ابن خلدون)

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبدُ الفقيرُ إلى رحمة ربه ، الغنيُّ بلطفه ، عبدُ الرحمن بنُ محمد بن خلدون الْحَضْرَمِيُ وفَّقه الله تعالى : الحمد للّه الذي له العزَةُ والجبروتُ ، وبيدهِ الْمُلكُ والملكوتُ ، ولهُ الأسماءُ الحُسنى والنُعوتُ ، العالِم فلا يعزُبُ عنه ما تُظْهِرُهُ النَّجوى أو يُخفيه السُّكوتُ ، القادرُ فلا يُعجِزُهُ شيءٌ في السَّماوات والأرضِ ولا يفوتُ . أنشأنا من الأرضِ نَسَماً، واستَعْمَرَنا فيها أجيالاً وأمماً، وَيسَّر لنا منها أرْزاقاً وقسَماً . تكنُفُنا الأرحامُ والبُيوتُ ويكفُلُنا الرِّزقُ والقوتُ ، وتُبلينا الأيامُ والوقُوتُ ، وتَعتَورُنَا الآجالُ التي خُطَ عَلينا كتابُها الْمَوقوتُ ، وله البقاءُ والثُّبوت ، وهو الحيُّ الذي لا يموتُ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدنا ومَولانا محمَّد النَبيِّ الأمِّيّ العربيِّ المكتوبِ في التوراةِ والإنجيلِ المنعوتِ ، الذي تمحضَ لِفصالهِ الكونُ قَبل ان تَتعاقَبَ الآحادُ والسبوتُ ، وَيتَبَايَنَ زُحَلُ واليَهْموتُ وشَهِدَ بصدقِه الحمامُ والعنكبوتُ ؛ وعلى آلهِ وأصْحَابهِ الّذينَ لهم في محبتهِ واتِّباعهِ الأثَرُ البَعيدُ والصِّيتُ ، والشَّمْل الجميعُ في مُظاهَرَتهِ ولعدوِّهم الشمْلُ الشتيتُ ، صَلَّى الله عَلَيْه وعَلَيْهِمْ ما اتَّصلَ بالإسلام جَدُّهُ الْمَبْخوتُ ، وآنْقَطَعَ بالكُفْرِ حَبْلُه المبتوتُ ، وسلّم كثيراً .

أما بعدُ، فَإِنَّ فَنَّ التَاريخ من الفُنونِ التي تَتَداوَلُها الأمَمُ والأجْيالُ ، وتشَدُّ إِلَيْه الركائبُ والرِّحالُ ، وتسمو إلى مَعرِفَتِه السُّوَقَةُ والاغْفَالُ ، وتَتنافسُ فيه الْمُلوكُ والأقْيالُ ، وَيتَساوى في فَهْمِه العُلَماءُ والجُهَالُ ، إذْ هُوَ في ظاهِرِه لا يزيدُ على إخْبارٍ عن الأيَّامِ والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيه أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها. وأدوها إلينا كما سمعوها، و لم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال و لم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل ، ومرعى الجهل بين أنام وخيم وبيل. والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل ، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل.

هذا وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا، وجمعوا تواريخ أمم والدول في العالم وسطروا. والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة، واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة، هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل، ولا حركات العوامل، مثل ابن إسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي و المسعودي وغيرهم من المشاهير، المتميزين عن الجماهير؛ وإن كان في كتب المسعودي و الواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات ، و مشهور بين الحفظة الثقات ، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم، واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم، والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار، وتحمل عليها الروايات والآثار.

ثم أن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك، لعموم الدولتين صدر الإسلام في الآفاق والممالك، وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ و المتارك. ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم ، و الأمر العمم ، كالمسعودي ومن نحا منحاه. وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد، ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد، فقيد شوارد عصره، واستوعب أخبار أفقه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته ومصره. كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها، وابن الرفيق مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان.

ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على ذلك المنوال، ويحتذي منه بالمثال، ويذهل عما أحالته الأيام من أحوال، و استبدلت به من عوائد الأمم والأجيال. فيجلبون الأخبار عن الدول، وحكايات الوقائع في العصور الأول، صورا قد تجردت عن موادها، وصفاحا انتضيت من أغمادها، ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلادها ، إنما هي حوادث لم تعلم أصولها، وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها، يكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها، اتباعا لمن عني من المتقدمين بشأنها، ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها، بما أعوز عليهم من ترجمانها، فتستعجم صحفهم عن بيانها. ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا، محافظين على نقلها وهما أو صدقا، لا يتعرضون لبدايتها، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها، واظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعا بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتشاً عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها، باحثاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها، حسبما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب.ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار، وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار، مقطوعة عن الأنساب والأخبار، موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار، كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل، ومن اقتفي هذا الأثر من الهمل. وليس يعتبر لهؤلاء مقال، ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال، لما أذهبوا من الفوائد، وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد.

ولما طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم، نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم، وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس، أحسن السوم. فأنشأت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً باباً، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسباباً وبنيته

على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار ، وملؤوا أكناف النواحي منه والأمصار، وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار، ومن سلف من الملوك والأنصار، وهم العرب والبربر؛ إذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما، وطال فيه على الأحقاب مثواهما، حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداهما، ولا يعرف أهلة من أجيال الآدميين سواهما. فهذبت مناحيه تهذيبا، وقربته لإفهام العلماء والخاصة تقريبا، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا. وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها؛ حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك.ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب:

المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمغالط المؤرخين.

الكتاب الأول: في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب.

الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من أمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجة.

الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومن إليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول.ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء أنواره، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره، والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره، فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار، واتبعت بها ما كتبته في تلك الأسطار ، وأدرجتها

في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي، وملوك الأمصار والضواحي، سالكا سبيل الاختصار والتلخيص، مفتديا بالمرام السهل من العويص، داخلا من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا، وذلل من الحكم النافرة صعابا، وأعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا، وأصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا.

ولما كان مشتملا على أخبار العرب والبربر، من أهل المدن والوبر، والإلماع بمن عاصرهم من الدول الكبر، وأفصح بالذكرى والعبر، في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر، سميته كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ولم أترك شيئا في أولية الأجيال والدول، وتعاصر الأمم الأول، وأسباب التصرف والحول، في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملة، ومدينة وحلة، وعزة وذلة ، وكثرة وقلة، وعلم وصناعة، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة، وبدو وحضر، وواقع ومنتظر، إلا واستوعبت جمله، وأوضحت براهينه وعلله. فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة، والحكم المحجوبة القريبة. وأنا من بعدها موقن بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز

عن المضاء، في مثل هذا القضاء، راغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتسعة الفضاء، النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء. فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة، والاعتراف من اللوم منجاة، والحسنى من الإخوان مرتجاة، والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وبعد أن استوفيت علاجه، وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه،

وأوضحت ين العلوم طريقه ومنهاجه، وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه، وأدرت سياجه، أتحفت بهذه النسخة منه خزانة مولانا السلطان الإمام المجاهد، الفاتح الماهد، المتحلي منذ خلع التمائم ولوث العمائم، بحلي القانت الزاهد، المتوشح من زكاء المناقب والمحامد ، وكرم الشمائل والشواهد، بأجمل من القلائد، في نحور الولائد، المتناول بالعزم القوي الساعد والجد المواتي المساعد، والمجد الطارف والتالد، ذوائب ملكهم الراسي القواعد، الكريم المعالي والمصاعد، جامع أشتات العلوم والفوائد، وناظم شمل المعارف الشوارد ، ومظهر الآيات الربانية، في فضل المدارك الإنسانية، بفكره الثاقب الناقد، ورأيه الصحيح المعاقد، النير المذاهب والعقائد، نور الله الواضح المراشد، وبعمته العذبة الموارد، ولطفه الكامن بالمراصد للشدائد، ورحمته الكريمة المقالد، التي وسعت صلاح الزمان الفاسد، واستقامة المائد من الأحوال والعوائد، وذهبت بالخطوب الأوابد، وخلعت على الزمان رونق الشباب العائد، وحجته التي لا يبطلها إنكار الجاحد ولا شبهات المعاند، (أمير المؤمنين) أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير المؤمنين، أبي الحسن، ابن السادة الأعلام من بني مرين، الذين جددوا الدين، ونهجوا السبيل للمهتدين، ومحوا آثار البغاة المفسدين. أفاء الله على الأمة ظلاله، (وبلغه في نصر دعوة الإسلام آماله).

وبعثته إلى خزانتهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم، وكرسي سلطانهم، حيث مقر الهدى، ورياض المعارف خضلة الندى، وفضاء الأسرار الربانية فسيح المدى، والإمامة الكريمة الفارسية العزيزة أن شاء الله بنظرها الشريف، وفضلها الغني عن التعريف، تبسط له من العناية مهادا، وتفسح له في جانب القبول آمادا، فتوضح بها أدلة على رسوخه وأشهادا. ففي سوقها تنفق بضائع الكتاب، وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب، ومن مدد بصائرها المنيرة نتائج القرائح و الألباب. والله يوزعنا شكر نعمتها، ويوفر لنا حظوظ المواهب من رحمتها، ويعيننا على حقوق خدمتها، ويجعلنا من السابقين في ميدانها، المجلين في حومتها، ويضفي على أهل إيالتها، وما أوى من الإسلام إلى حرم عمالتها، لبوس حمايتها وحرمتها وهو سبحانه المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة في وجهتها، بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابه0ا

إعلم أنَّ فنَّ التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهمْ، والملوك في دولهم وسياستهمْ، حتى تتمَّ فائدةُ الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاجٌ إلى مآخذ متعدَدةًومعارف متنوعة، وحسن نظرو تثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، و لم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط؛ ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد.

وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه، بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون.ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش. لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها؛ تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة.ثم أن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر. والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.

ولقد كان ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بني إسرائيل بكثير، يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم، والتهامه بلادهم، واستيلائه على أمرهم، وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم، وهو من بعض عمال مملكة فارس. يقال إنه كان مرزبان المغرب من تخومها. وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير. ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه. وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفا، كلهم متبوع على ما نقله "سيف " قال: وكانوا في أتباعهم اكثر من مائتي ألف. وعن عائشة والزهري: أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع.وأيضا فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح

مدى دولتهم فإن العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول. والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام، وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف.

وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون، فإنه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بفتح الهاء وكسرها، ابن لاوي بكسر الواو وفتحها، ابن يعقوب وهو إسرائيل الله، كذا نسبه في التوراة. والمدة بينهما على ما نقله المسعودي، قال : دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة، تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة. ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد. وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضا إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أبا. فإنه سليمان بن داود بن إيشا بن عوفيذ (ويقال ابن عوفذ) بن باعز (ويقال بوعز) بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب (ويقال حميناذاب) بن رم بن حصرون (ويقال حسرون) بن بارس (ويقال بيرس) بن يهوذا بن يعقوب. ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد. وأعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف، تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا.

والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفا خاصة، وأن مقرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه. هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم. وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم.هذا، وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه، وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى، أو اخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين، توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد، وطاوعوا وساوس الإعراب. فإذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم، واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم ، واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم، لن تجد معشار ما يعدونه. وما ذاع إلا لولوع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد، حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة، ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش، فترسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه، ويتخذ آيات الله هزءاً، ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، وحسبك بها صفقة خاسرة.

ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب انهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب، وأن إفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم أول، وكان لعهد موسى عليه السلام او قبله بقليل. غزا أفريقية واثخن في البربر، وانه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال: ما هذه البربرة ، فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ، وانه لما انصرف من

المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها، ومنهم صنهاجة، وكتامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وبن الكلبي والبيلي إلى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسابة البربر، وهو الصحيح.وذكر المسعودي أيضا أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل إفريقش وكان على عهد سليمان عليه السلام، غزا المغرب ودوخه، وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده، وأنه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل، فرجع. وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو اسعد أبو كرب، وكان على عهد يستاسف من ملوك الفرس الكيانية ، إنه ملك الموصل وأذربيجان ولقي الترك فهزمهم وأثخن، ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك، وإنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس، وإلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم، فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع المفازة إلى الصين، فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها، فاثخنا في بلاد الصين ورجعا جميعاً بالغنائم، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد، وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع.

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث اقصص الموضوعة. وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن. وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها: فبحر الهند من الجنوب، وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق، وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب، كما تراه في مصور الجغرافيا. فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقا من غير السويس. والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما. ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله، هذا ممتنع في العادة.وقد كان بتلك الأعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر، ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو إسرائيل الشام، ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحدا من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئا من تلك الأعمال.وأيضا فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى إنتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه، ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة عادة، وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله، فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها. وإن قلنا أن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة، فذلك أبعد وأشد امتناعا، فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة وأما وادي الرمل الذي يعجز السالك، فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة، وهو على ما ذكروه من الغرابة تتوافر الدواعي على نقله.وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك، وإن كانت طريقه أوسع من مسالك السويس، إلا أن الشقة هنا أبعد، وأمم فارس والروم معترضون فيها دون الترك. ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم، وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما ين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال، وقد وقع ذلك بين يدي الإذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية، وبين تبع الأصغر أبي كرب ويستاسف منهم أيضا، ومع

ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم، بمجاوزة أرض فارس بالغزو إلى بلاد الترك والتبت، وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة منهم، والحاجة إلىالأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر. فالأخبار بذلك واهية مدخولة. وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحا فيها، فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح. وقول ابن إسحق في خبر يثرب والأوس والخزرج: أن تبعا الآخر سار إلى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس. وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما تقرر. فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه. والله الهادي إلى الصواب.

فصل

وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة

"والفجر"

في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} [الفجر: 6، 7]، فيجعلون لفظة {إِرَمَ} اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين. وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده، وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة، فقال لأبنين مثلها، فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة. ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم. ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه، وبلغ خبره إلى معاوية، فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال، هي: "إرم ذات العماد"، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل.

وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض. وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن، وما زال عمرانها متعاقبا والأدلاء تقص طرقها من كل وجه، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الإخباريين ولا من أمم. ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه. إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة. وبعضهم يقول إنها دمشق، بناء على أن قوم عاد ملكوها. وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر. مزاعم كلها أشبه بالخرافات.والذى حمل المفسرين

على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظه ذات العماد أنها صفة إرم، وحملو العماد على الأساطين فتعين أن يكون بناء، ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير "عادُ إرم" على الإضافة من غير تنوين. ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة والتي هي أقرب إلى الكذب، المنقولة في عداد المضحكات. وإلا

فالعماد هي عماد الأخبية بل للخيام. وإن أريد بها الأساطين فلابدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم، بما اشتهر من قوتهم، لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها. وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة، كما تقول قريش كنانة، وإلياس مضر، وربيعة نزار. وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي يتره كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة.

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين، ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحمى بن خالد مولاه، وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه، وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به، لما شغفها من حبه حتى واقعها ، (0زعموا في حالة سكر)، فحملت ووشي بذلك للرشيد، فاستغضب.

وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء، ابن عبد الله ترجمان القران، ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، ابنة خليفة، أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته، وإمامة الملة ونور الوحي ومهبط

الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش. فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها، أو أين توجد الطهارة و الزكاء إذا فقد من بيتها، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم، بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش. وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف. وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته، وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها، وفي سلطان قومها، واستنكره ولج في تكذيبه. وأين قدر العباسة والرشيد من الناس. وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجافهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه. فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عن سواهم، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. ويقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب، ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة، حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره ، وكان يدعوه يا أبت. فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتخطت

إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة، أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء، وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة، وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تعطفهم، لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم، ولا وزعتهم أواصر القرابة. وقارن ذلك عند مخدومهم نواشي الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة، وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور. ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه، وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره ا لطبري، ودفعه الرشيد إلى جعفر، وجعل إعتقاله لداره وإلى نظره. فحبسه مدة، ثم حملته الدالة على تخلية سبيله، والاستبداد بحل عقاله، حرما لدماء أهل البيت بزعمه، ودالة على السلطان في حكمه. وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه، ففطن، وقال: أطلقته ، فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه. فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه، حتى ثل عرشهم، وألقيت عليهم سماؤهم، وخسفت الأرض بهم وبدارهم، وذهبت سلفا ومثلا للآخرين أيامهم. ومن تأمل أخبارهم، واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب.وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم، وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم، تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه. وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال: "إي والله إني عاجز" حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته، وسلطوا عليهم بأس انتقامه، نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال.وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر، واقتران سكره بسكر الندمان،فحاش لله "ما علمنا عليه من سوء". وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها. حكى الطبري وغيره انه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عاما ويحج عاما. ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له

بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرا {وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} [يس: 22]، وقال والله ما أدري لم؟ فما تمالك الرشيد أن ضحك، ثم التفت إليه مغضبا، وقال: يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك

والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدهما.وأيضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك، و لم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن، إنما خلفه غلاما. وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها. وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطإ: "يا أبا عبد الله إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وإني قد شغلتني الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به، تجنب فيه رخص ابن عباس، وشدائد ابن عمر، ووطئه للناس توطئة". قال مالك: "فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ". ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال. ودخل عليه يوما وهو بمجلسه يباشر الخياطين في إرقاع الخلقان من ثياب عياله، فاستنكف المهدي من ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين علّيّ كسوة العيال عامنا هذا من عطائي، فقال له لك ذلك و لم يصده عنه، ولا سمح بالإنفاق فية من أموال المسلمين. فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوته، وما ربي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته، والتخلق بها، أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها. وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة، و لم يكن الكرم شجرتهم، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم، والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم، والتخلق بالمحامد و أوصاف الكمال ونزعات

العرب.وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين احضر له السمك في مائدته فحماه عنه، ثم أمر صاحب المائدة بحمله إلى مترله وفطن الرشيد وارتاب به، ودس خادمه حتى عاينه يتناوله، فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح: خلط إحداهما باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء

مثلجاً، وعلى الثالثة خمرا صرفا. وقال في الأول والثاني هذا طعام أمير المؤمنين، أن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه، وقال في الثالث: هذا طعام ابن بختيشوع، ودفعها إلى صاحب المائدة حتى إذا انتبه الرشيد، وأحضره للتوبيخ، أحضر الثلاثة الأقداح، فوجد صاحب الخمر قد اختلط وأماع وتفتت، ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما. فكانت له في ذلك معذرة. وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع.وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق(1). وفتاويهم فيها معروفة وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه به، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها. فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة. ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنحاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد. فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر، وعن الحلة إلى الحرمة.ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق

والسيوف واللجم والسروج، وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد. وهكذا كان حالهم أيضا في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم؟ ويتبين ذلك بأتم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الأول أن شاء الله. والله الهادي إلى الصواب.ويناسب هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه، وأنه كان يعاقر الخمر وأنه سكر ليلة مع شربه، فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه:

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جار في حكمه من كان يسقيني

إني غفلت عن الساقي فصيرني كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد. وشرابه إنما كان النبيذ؛ ولم يكن محظورا عندهم. وأما السكر فليس من شأنهم، وصحابته للمأمون إنما كانت خلة في الدين. ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت . ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليله عطشان فقام يتحسس ويتلمس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى ابن أكثم. وثبت أنهما كانا يصلين الصبح جماعة فأين هذا من المعاقرة وأيضا فإن يحيى ابن أكثم كان من علية أهل الحديث . وقد أثنى عليه الإمام أ حمد بن حنبل وإسماعيل القاضي، وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع، وذكر المزني الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع، فالقدح فيه قدح في جميعهم.وكذلك ما ينبزه المجان بالميل إلى الغلمان بهتانا على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه فإنه كان محسودا في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزها عن مثل ذلك. ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله، سبحان الله، ومن يقول هذا؟ وأنكر ذلك إنكارا شديدا. وأثنى عليه إسماعيل القاضي، فقيل له ما كان يقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد. وقال أيضا: يحيي بن أكثم أبرأ إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان ولقد كنت اقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله، لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي به. وذكره ابن حيان في الثقات ، وقال: لا يشتغل بما يحكى عنه لأن أكثرها لا يصح عنه.ومن أمثال هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل، في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران، وانه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل

من الحرير فاعتقده وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صعدا إلى مجلس شأنه كذا. ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس، وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن، فحيته ودعته إلى المنادمة، فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح، ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه على الإصهار إلى أبيها. وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه، وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه. فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين في

التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر، سبيل عشاق الأعراب. وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف.وأمثال هذه الحكايات كثيرة، وفي كتب المؤرخين معروفة، وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة، وهتك قناع المخدرات، ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم، فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار وينقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين. ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون.ولقد عذلت يوما بعض الأمراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالأوتار، وقلت له: ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك، فقال لي: أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه؟ فقلت له: يا سبحان الله، وهلا تأسيت بأبيه أو بأخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي وأعرض، والله يهدي من يشاء.

ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله

عليهم، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق. يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم، وتفننا في الشمات بعدوهم، حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم، ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم.

فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدإ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد، واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر، وانهما خرجا من الإسكندرية في زي التجار، ونمي خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والإسكندرية، فسرح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي، فأفلتوا إلى المغرب، وأن المعتضد أوعز إلى الأغالبة أمراء إفريقية بالقيروان، وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما، فعثر إليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده،واعتقلهما مرضاة للخليفة.

هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغالبة بالقيروان. ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وإفريقية، ثم باليمن، ثم بالإسكندرية، ثم بمصر والشام والحجاز. وقاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الإبلمة، وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم. ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري في من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم، وخطب لهم على منابرها حولا كاملا. وما زال بنو العباس يغضون بمكانهم ودولتهم، وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب

منهم. وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الأمر. واعتبر حال القرمطي إذ كان دعيا في انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت اتباعه وظهر سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم، وذاقوا وبال أمرهم. ولو كان أمر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة، وملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ومصلاه، وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه، وموقف الحجيج ومهبط الملائكة، ثم انقرض أمرهم، وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. ولقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها، داعين إلى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم، يزعمون استحقاقهم للخلافة، ويذهبون إلى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الأئمة. ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار لهم، فصاحب البدعة لا يلّبس في أمره ولا يشبّه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله.

والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين يجنح إلى هذه المقالة المرجوحة، ويرى هذا الرأي الضعيف. فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضية، فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم، وليس إثبات منتسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئا في كفرهم، فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [هود: 46]. وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها: " يا فاطمة اعملي فلن اغني عنك من الله شيئا ".

ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمرا وجب عليه أن يصدع به، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم، وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى، فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون، كما قيل:

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت وأين مكاني ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن إسماعيل جد الإمام عبيد الله المهدي بالمكتوم، سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه حذرا من المتغلبين عليهم. فتوسل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم إلى الطعن في نسبهم. وازدلفوا بهذا الرأي القائل للمستضعفين من خلفائهم، واعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتامين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم، حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب، وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي، ومن العلماء أبو حامل الأسفراييني والقدوري والصيمري وابن الأكفاني والأبيوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد في يوم مشهود، وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر، وكانت شهادتهم

في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد، وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب، فنقله الإخباريون كما سمعوه، ورووه حسبما وعوه، والحق من ورائه.

وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم. فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد. والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع، وتلتمس فيه ضوال الحكم، وتحدى إليه ركائب الروايات والأخبار، وما

نفق فيها نفق عند الكافة. فإن تنزهت الدولة عن التعسف والميل واللأفن والسفسفة وسلكت النهج الأمم ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الإبريز الخالص واللجين المصفى وان ذهبت مع الأغراض والحقود، وماجت بسماسرة البغيوالباطل، نفق البهرج والزائف. والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه وملتمسه.

ومثل هذا وابعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين، الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ويعرضون تعريض الحسد بالتظنن في الحمل المخفف عن إدريس الأكبر انه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم، ما أجهلهم أما يعلمون أن إدريس الأكبر كان أصهاره في البربر وأنه منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو، وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية، إذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب، وأحوال حرمهم أجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشد يتولى خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم. وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على بيعة إدريس الأصغر من بعد أبيه، وآتوه طاعتهم عن رضا وإصفاق وبايعوه على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته. ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة، أو قرعت أسماعهم، ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب، لتخلف

عن ذلك ولو بعضهم. كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الأغلب عمالهم، كانوا بإفريقية وولاتهم.

وذلك أنه لما فر إدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة بلخ ، أوعز الهادي إلى الأغالبة أن يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون، فلم يظفروا به، وخلص إلى المغرب، فتم أمره وظهرت دعوته، وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الإسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وإدهانه في نجاة إدريس إلى المغرب. فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحيل على قتل إدريس، فاظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه. فاشتمل عليه إدريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سمّا استهلكه به. ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع، لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها. ولما تأدى إليهم خبر الحمل المخلف لإدريس فلم يكن لهم إلا كلا ولا. وإذا بالدعوة قد عادت، والشيعة بالمغرب قد ظهرت، ودولتهم بإدريس بن إدريس قد تجددت، فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام، وكان الفشل.والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية. فلم يكن منتهى قدرة

الرشيد على إدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب، واشتمال البربر عليه إلا التحيل في إهلاكه بالسموم. فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة بإفريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم، وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم، واقتلاع تلك العروق قبل أن تشبح منهم، يخاطبهم بذلك المأمون، ومن بعده من خلفائهم. فكان الأغالبة عن برابرة المغرب الأقصى أعجز، ولمثلها من الزبون

على ملوكهم أحوج، لما طرق الخلافة من انتزاء ممالك العجم على سدتها، وامتطائهم صهوة التغلب عليها، وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها، وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فخشي هؤلاء الأمراء الأغالبة بوادر السعايات ، وتلوا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب وأهله، وطورا بالإرهاب بشأن إدريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقابه يخاطبونهم بتجاوزه حدود التخوم من عمله، وينفذون سكته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم ، تعريضا باستفحاله وتهويلا باشتداد شوكته وتعظيما لما دفعوا إليه من مطالبته ومراسه ، وتهديدا بقلب الدعوة أن ألجئوا إليه، وطورا يطعنون في نسب إدريس بمثل ذلك الطعن الكاذب، تخفيضا لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه، لبعد المسافة، وأفن عقول من خلف من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل فائل والسمع لكل ناعق. و لم يزل هذا دأبهم حتى انقضى أمر الأغالبة ، فقرعت هذه الكلمة الشنعاء أسماع الغوغاء، وصر عليها بعض الطاعنين أذنه، واعتدها ذريعة إلى النيل من خلفهم عند المنافسة. وما لهم قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة،فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون. وإدريس ولد على فراش أبيه، والولد للفراش.

على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان، فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. ففراش إدريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن. ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإثمه وولج الكفر من بابه. وإنما أطنبت في هذا الرد سدا لأبواب الريب ودفعا في صدر الحاسد، لما

سمعته أذناي من قائله المعتدي عليهم، القادح في نسبهم بفريته، وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت، وارتاب في الإيمان بسلفهم. وإلا فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه، ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب. لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا، وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة. ولتعلم أن أكثر الطاعنين في نسبهم إنما هم الحسدة لأعقاب إدريس هذا من منتم إلى أهل البيت أو دخيل فيهم، فإن ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الأمم والأجيال من أهل الآفاق، فتعرض التهمة فيه.

ولما كان نسب بني إدريس هؤلاء بمواطنهم من فاس وسائر ديار المغرب، قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه، إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف، وبيت جدهم إدريس مختط فاس ومؤسسها بين بيوتهم، ومسجده لصق محلتهم ودروبهم، وسيفه منتضى برأس

المئذنة العظمى من قرار بلدهم، وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات، وكادت تلحق بالعيان، فإذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب إلى ما أتاهم الله من أمثالها، وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب، واستيقن أنه بمعزل عن ذلك، وانه لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، وأن غاية أمر المنتمين إلى البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم، لأن الناس مصدقون في أنسابهم، وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم، فإذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة و وضعاء حسدا من عند أنفسهم فيرجعون إلى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن الفائل والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال، وهيهات لهم ذلك. فليس في

المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن. وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد يحيى العوام بن القاسم بن إدريس بن إدريس، وهم نقباء أهل البيت هناك، والساكنون ببيت جدهم إدريس، ولهم السيادة على أهل المغرب كافة، حسبما نذكرهم عند ذكر الأدارسة أن شاء الله تعالى.ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت. وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه. فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطؤ العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه

والتكذيب لمدعياته. وأيضا فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم، لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة. فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى، كل في بلده وعلى قدره في قومه. فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناصبة لهم، تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم. ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم. وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم، فنادى في قومه ودعا إلى

جهادهم بنفسه، فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية، وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها قد بايعوه على الموت، ووقوه بأنفسهم من الهلكة، وتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم، ودالت بالعدوتين من الدول، وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا، حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه، حتى الولد الذي ربما تجنح إليه النفوس، وتخادع عن تمنيه. فليت شعري ما الذي قصد بذلك أن لم يكن وجه الله، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في

عاجله. ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته. سنة الله التي قد خلت في عباده.وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم، مع أنه أن ثبت انه ادعاه وانتسب إليه فلا دليل يقوم على بطلانه، لأن الناس مصدقون في أنسابهم. وإن قالوا أن الرئاسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتي في الفصل الأول من هذا الكتاب، والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد إليه وإلى عصابته من هرغة حتى تم أمر الله في دعوته، فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه، وإنما كان اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها. وكان ذلك النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم. فيكون النسب الأول كأنه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء، وظهر فيها فلا يضره الانتساب الأول في عصبيته، إذ هو مجهول عند أهل العصابة. ومثل هذا واقع كثيرا إذ كان النسب الأول خفيا.وانظر قصة عرفجة وجرير في رئاسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الأزد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رئاستهم عند عمر رضي الله عنه، كما هو مذكور، تتفهم منه وجه

الحق. والله الهادي للصواب.وقد كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب في هذه المغالط، فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء، وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس، وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهياً مختلطاً، وناظره مرتبكاً، وعد من مناحي العامة.فإذا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها، وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث، واقفا على أصول كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإلا زيفه واستغنى عنه.وما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك، حتى انتحله الطبري والبخاري وابن إسحق من قبلهما، وأمثالهم من علماء الأمة وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة، واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه، فاختلط المرعي بالهمل واللباب بالقشر، والصادق بالكاذب. وإلى الله عاقبة الأمور.ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة. وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم و،نحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال كما يكون ذلك في الأشخاص

والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول {سنة الله التي قد خلت في عباده } . وقد كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو إسرائيل والقبط، وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم، وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم. ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب، فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى ما يجانسها أو يشابهها، وإلى ما يباينها أو يباعدها. ثم جاء الإسلام بدولة مصر فانقلبت تلك الأحوال أجمع انقلابة أخرى، وصارت إلى ما أكثره متعارف لهذا العهد، يأخذه الخلف عن السلف. ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الأسلاف الذين شيدوا عزهم، ومهدوا ملكهم، وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال، فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها.والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه، كما يقال في الأمثال الحكمية: الناس على دين الملك. وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد وان يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك. فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول. فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا بعض الشيء، وكانت للأولى أشد مخالفة. ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة. فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان، لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة. والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده، وتعوج به عن مرامه، فربما يسمع

السامع كثيرا من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط فمن هذا الباب ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين، مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية، والمعلم مستضعف مسكين، منقطع الجذم. فيتشوف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويعدونها من الممكنات لهم. فتذهب بهم وساوس المطامع، وربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف، ولا يعلمون استحالتها في حقهم، وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش، وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك، ولم يكن العلم بالجملة صناعة، إنما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ ، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم ، على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم، قاتلوا عليه وقتلوا، واختصوا به من بين الأمم وشرفوا، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة ، لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الأنفة. ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه و سلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين. بعث في ذلك من أصحابه

العشرة فمن بعدهم. فلما استقر الإسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها، واستحالت بمرور الأيام أحوالها، وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها، فاحتاج ذلك القانون لمن يحفظه من الخطإ وصارالعلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية بالقيام

بالملك والسلطان، فدفع للعلم من قام به من سواهم، وأصبح حرفة للمعاش، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم، واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك. والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت. ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش، وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام ومن هذا الباب أيضا ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرئاسة في الحروب وقود العساكر، فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب، يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل يظنون بابن أبي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف بإشبيلية إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد، ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الأول. وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها، وكان مكانهم فيها معلوماً، ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد، بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها، كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب. وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي واكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد

لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة، لفناء العرب ودولتهم بها، وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات من البربر، فبقيت أنسابهم العربية محفوظة، والذريعة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة، بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر، ورئموا للمذلة، يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكم، فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين في نيله. فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية، وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر، فقلما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره.ومن هذا الباب أيضا ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره، كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناؤها متشوفون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم، حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصبية الدول

وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون إلى ذكر ذلك كله. وأما حين تباينت الدول، وتباعد ما بين العصور، ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في

قوتها وغلبتها، ومن كان يناهضها من الأمم أو يقصر عنها، فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم و مقاماتهم إنما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين والذهول عن تحري الأغراض من التاريخ، اللهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم، كالحجاج وبني المهلب والبرامكة وبني سهل بن نوبخت وكافور الإخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير نكير الإلماع بآبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك.ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها، وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل. فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره. وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب، شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم، فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه. ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الأحوال، لأن الأمم والأجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم، هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن

العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن. وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة. والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة وعالم محدث. فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لإهلها، ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحا أو مندرجا في أخباره وتلويحا، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب، وأحوال أجياله وأممه، وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه، وأن

الأخبار المتناقلة لا تفي كنه ما أريده منه والمسعودي إنما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد، كما ذكر في كتابه، مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء أحواله، وفوق كل ذي علم عليم، ومرد العلم كله إلى الله، والبشر عاجز قاصر، والاعتراف متعين واجب، ومن كان الله في عونه تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب. ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف، والله المسدد والمعين وعليه التكلان

وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في كتابنا هذا.

إعلم أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد، هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع

الحنك والحلق والأضراس، أو بقرع الشفتين أيضا، فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع، وتجيء الحروف متمايزة في السمع، وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر. وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف. فقد يكون لإمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى. والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت. ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا، وفي لغتنا أيضا حروف ليست في لغتهم، وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم أن أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها، كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين، وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملا عن الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان، وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا قبله أو بعده. وليس ذلك بكاف في الدلالة، بل هو تغيير للحرف من أصله. ولما كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض العجم، وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا، اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه، لإنه عندنا غير واف بالدلالة عليه.

فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه، ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين، فتحصل تأديته وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام، كالصراط في قراءة خلف، فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي ، فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي، ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين. فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا ، كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف، مثل اسم بلكين فأضعها كافا وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوقأو اثنتين، فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف. وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر. وما جاء من

غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا، ليعلم القارئ أنه متوسط فينطق به كذلك ، فنكون قد دللنا عليه. ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم. فاعلم ذلك، والله الموفق للصواب بمنه وفضله.

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليقة

وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب

إعلم أنه إنما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه. فمنها التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله. ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضا الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح. ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب. ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين. ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع، فينقلها المخبر كما رآها، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه. ومنها تقرب الناس

في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فيستفيض الأخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعةبحب الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها. ومن الأسباب المقتضية له أيضا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض.وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم. كما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر، حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها، وعمل تماثيلها من أجساد معدنية، ونصبها حذاء البنيان، ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها، وتم له بناؤها، في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجي، ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه، ومن قبل أن الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرر، ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره، وفي ذلك إتلافه، ولا ينتظرون به رجوعه، عن غروره ذلك طرفة عين، ومن قبل أن

الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها، إنما هي قادرة على التشكل، وما يذكر من كثرة الرؤوس لها فإنما المراد به البشاعة والتهويل لا أنه حقيقة.وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية. والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله. وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق قد يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته، فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح

القلبي، ويهلك مكانة. وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات إذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد، والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها بالعفونة و لم تداخلها الرياح فتخلخلها، فإن المتدلي فيها يهلك لحينه. وبهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر، فإن الهواء لا يكفيه في تعديل رئته إذ هو حار بإفراط، والماء الذي يعدله بارد، والهواء الذي خرج إليه حار، فيستولي الحار على روحه الحيواني ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك.ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضا في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون، ومنه يتخذون زيتهم. وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت.ومنها ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب. والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضا في حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ، ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب، وأنها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر، في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص. وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء و لم يقفوا لهذه المدينة على خبر. ثم أن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف لأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها ، وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي، وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد.وأمثال ذلك كثير، وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق

على التمحيص بتعديل الرواة، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع. وأما إذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح. ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل. وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية، لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط.وأما الإخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه، وصار في ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه، إذ فائدةالإنشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة. وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الإخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز

الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه. وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه. وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه. وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا.وكان هذا علم مستقل بنفسه. فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شان كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا.واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب الترعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص. وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية، فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة

النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه. ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية، إذ السياسة المدنية هي تدبير المترل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة، ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه. فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه.وكأنه علم مستنبط النشأة. ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة. ما أدري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه و لم يصل إلينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الإنساني متعددون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل. فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل، وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها وأين علوم القبط ومن قبلهم وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة، لكلف المأمون بإخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها. و لم نقف على شيء من علوم غيرهم.وإذا كانت كل حقيقة متعقلة طبيعية يصفح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها، وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه. لكن الحكماء لعلهم إنما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات، وهذا إنما ثمرته في الأخبار فقط كما رأيت، وإن كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة، فلهذا هجروه، والله اعلم ، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85] وهذا الفن الذىلاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم، وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب: مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم، فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع، ومثل ما يذكر في أصول الفقه، في باب إثبات اللغات، أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع، وتبيان العبارات أخف، ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب

مفسد للنوع، وأن القتل أيضا مفسد للنوع، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع، وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام، فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران، فكان لها النظر فيما يعرض له، وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة.وكذلك أيضا يقع إلينا القليل من مسائله في

كلمات متفرقة لحكماء الخليقة، لكنهم لم يستوفوه. فمن كلام الموبذان بهرام بن بهرام في حكاية البوم التي نقلها المسعودي: "أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك ". ومن كلام أنو شروان في هذا المعنى بعينه: "الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه ".وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة، المتداول بين الناس جزء صالح منه، إلا انه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره، وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبذان وأنوشروان، وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها، وهو قوله: "العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تحيا به السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يكنفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم، العالم بستان... " ثم ترجع إلى أول الكلام. فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض، وارتدت أعجازها على صدورها، واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها، فخر بعثوره عليها، وعظم من فوائدها. وأنت إذا

تأملت كلامنا في فصل الدول والملك، وأعطيته حقه من التصفح والتفهم، عثرت في أثنائه على تفسير هذه الكلمات، وتفصيل إجمالها مستوفى بينا بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان، أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبذان. وكذلك تجد في كلام ابن المقفع، وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه ، إنما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام. وكذلك حوم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك، وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله، لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة إنما يبوب الباب للمسالة، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة، ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا، إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ، وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه، ولا تحقق قصده، ولا استوفى مسائله.ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما، وأعثرنا على علم جعلنا سن نكره وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه، فتوفيق من الله وهداية. وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره مسائله، فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق. والله يهدي بنوره من يشاء.ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة، وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك ونقول:لما كان الإنسان

متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها. إنما العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات، وشرف بوصفه على المخلوقات. ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك، من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد، وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهامي لا بفكر وروية. ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه، لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه، وهداه إلى التماسه وطلبه، قال تعالى: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: 50]. ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه . ومن هذا العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضريا، وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها. وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له، فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول:الأول- في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.والثاني- في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية.والثالث- في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.والرابع- في العمران الحضري والبلدان والأمصار.والخامس- في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.والسادس- في العلوم واكتسابها وتعلمها.وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد، وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار، وأما تقديم المعاش فان المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي أو حاجي، والطبيعي أقدم من الكمالي وجعلت الصنائع مع الكسب لأنها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران، كما نبين لك بعد. والله الموفق للصواب والمعين عليه.

الباب الأول

من الكتاب الأول

في العمران البشري علي الجملة وفيه مقدمات

الأولى: في أن الاجتماع الإنساني ضروري. ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدني بالطبع "، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله. إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه. ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ. وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. هب أنه يأكله حبا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل. ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن توفي بذلك كله أو ببعضه

قدرة الواحد. فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف. وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه. لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها، وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرة الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الإنسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته. ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره. وجعل للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد. فاليد مهيأة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع: مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة، والتراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء.

فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه. وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء، ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات، ويعاجله الهلاك عن مدى حياته، ويبطل نوع البشر. وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه. فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم.وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له. وهذا وإن لم يكن واجبا على صاحب الفن، لما تقرر في الصناعة المنطقية انه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضا من الممنوعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات، والله الموفق بفضله.ثم أن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم. فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض. ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم. فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك. وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للإنسان طبيعية ولا بد لهم منها. وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة: "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي، وأنها خاصة طبيعية للإنسان، فيقررون هذا البرهان إلى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم

الوازع، ثم يقولون بعد ذلك. وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزييف. وهذه القضية للحكماء غير برهانية بما كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه، أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته. فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لفم كتاب فإنهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب. بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فإنه يمتنع. وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وإنما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأمة. والله ولي التوفيق والهداية.

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم

إعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه. فانحسر الماء عن بعض جوانبها، لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها. وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض ؛ وليس بصحيح؛ وإنما النحت الطبيعي قلب الأرض، ووسط كرتها الذي هو مركزها، والكل يطلبه بما فيه من الثقل؛ وما عدا ذلك من جوانبها . وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض. وإن قيل في شئ منها أنه تحت الارض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه. وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحرا يسمي البحر المحيط، ويسمى أيضا لبلاية بتفخيم اللام الثانية، ويسمى أوقيانوس ، أسماء أعجمية، ويقال له البحر الأخضر والأسود. ثم أن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانه والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال، وإنما المعمور منه قطعة أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى

خط الاستواء، ومن جهة الشمال إلي خط كروي ووراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينما سد يأجوج ومأجوج. وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق. وينتهي من المشرق والمغرب إلى عنصر الماء أيضا بقطعتين من الدائرة المحيطة. وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالأقاليم السبعة.وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق، وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلثمائة وستين درجة، والدرجة من مسافة الارض خمسة وعشرون فرسخا، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال، لأن الميل أربعة إلا ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع لست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهراً لبطن. وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض، وين كل واحد من القطبين تسعون درجة. لكن العمارة في الجهة

الشمالية من خط الاستواء اربع وستون درجة والباقي منها خلاء عمارة فيه لشدة البرد والجمود، كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله أن شاء الله تعالى.ثم أن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل: بطليموس في كتاب الجغرافيا، وصاحب كتاب "روجار" من بعده، قسموا هذا المعمور بسبعة اقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحد وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالإقليم الأول أطول مما بعده وكذا الثاني إلى آخرها فيكون السابع اقصر لما اقتضاه وضع

الدائرة الناشئة من انحسار الماء عن كرة الارض. وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة اجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي. وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه.

البحار:

وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف. ويبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشرميلا أو نحوها ما بين طنجة وطريف وبسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا وينفسح إلى عرض ستمائة ميل. ونهايتها في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام. وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب، أولها طنجة عند الخليج، ثم إفريقية، ثم برقة إلى الإسكندرية. ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج، ثم البنادقة، ثم رومة، ثم الإفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة. ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية.قالوا: ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين. احدهما مسامت للقسطنطينية، يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم، ويمر ثلاثة بحار: فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال، ويمر في جريه ستين ميلا، ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال، فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هريقلية، وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته، وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس. والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال، فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة، وينتهي إلي بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبدإه. وعلى حافتيه من

البنادقة والروم وغيرهم أمم، ويسمى خليج البنادقة.قالوا: وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر إلى الجنوب قليلا حتى ينتهي إلى الإقليم الأول، ثم يمر فيه مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج، وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي. وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب، ثم بلد مقدشو، ثم بلد سفالة، وأرض الواق واق، وأمم آخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء. وعليه من جهة

الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند؛ ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها، ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة. قالوا: ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران احدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقا، ثم يمر مستبحرا إلى ناحية الشمال ومغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدئه، ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل. وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة، ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع، ثم بلاد الحبشة عند مبدئه، وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل. وما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك. والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي، ويسمى الخليج الأخضر، يخرج

ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى الأبلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس. وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس، والأبلة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر، والأحقاف عند مبدئه. وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها داخل من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما. وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وإيوان كسرى والحيرة. ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم. وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان جهة الشرق منها، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها، وسواحله على البحر الحبشي.قالوا: وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان، طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان والديلم، وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم، وفي جنوبية طبرستان، وفي شمالية أرض الخزر واللان.هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

الأنهار:

قالوا: وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون. فأما النيل فمبدأهُ من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول ويسمى "جبل القمر" ولا يعلم فى الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها فى بحيرة هناك وبعضها فى أخرى ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر

مراحل من الجبل ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر

الرومي عند الإسكندرية ويسمى " نيل مصر " وعليه الصعيد من شرقية والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعطفا إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في البحر المحيط وهو " نهر السودان " ، وأممهم كلهم على ضفتيه .وأما الفرات فمبدؤه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الإقليم الخامس ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية إلى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة إلى أن ينتهى إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط ومن هناك يصب في البحر الحبشى تنجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة .وأما دجلة فمبدؤها عين ببلاد خلاط من أرمينية أيضاً وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد إلى واسط فتتفرق إلى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفض إلى بحر فارس وهو في الشرق على يمين الفرات وينجلب إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب ، وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتى الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة وأما نهر جيحون فمبدؤه من بلخ في الجزء الثامن من الإقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتجلب إليه أنهار عظام ويذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس فيصب في بحيرة الجر جانية التي بأسفل مدينتها وهى مسيرة شهر في مثله وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتى من بلاد الترك وعلى غربى نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمذ و سمرقند ، ومن هنالك إلى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزلجية وأمم الأعاجم .وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب رجار وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك

ما لا حاجة لنا به ؛ لطوله ؛ ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هى بالمغرب ، الذي هو وطن البربر، وبالأوطان التي للعرب من المشرق ، والله الموفق .

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمراناً

من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة أن الأول والثانى من الأقاليم المعمورة أقل عمراناً مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما ، وأمم هذين الإقليمين وأناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك ، والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أبى معدومة وأممها وأناسيها تجوز الحد من الكثرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس فلنوضح ذلك ببرهانه ويتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس والسابع ، فنقول : إن قطبى الفلك الجنوبى والشمالى إذا كانا على الأفق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هى أعظم الدوائر المارة من المشرق إلى المغرب وتسمى " دائرة معدل النهار " وقد تبين في موضعه من الهيئة أن الفلك الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة

يومية يحرك بها سائر الأفلاك التي في جوفه قهراً وهذه الحركة محسوسة ، وكذلك تبين أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق وتختلف آمادها باختلاف حركة الكواكب السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين وهى " دائرة فلك البروج" منقسمة باثنى عشر برجاً وهى على ما تبين في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما : أول الحمل وأول الميزان فتقسمهما دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة، ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو : من أول الميزان إلى آخر الحوت ، وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحى الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق ويسمى " خط الاستواء" ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الإقليم الأول من الأقاليم السبعة والعمران كله قى الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالى يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهى ارتفاعه إلى أربع وستين درجة وهنالك ينقطع العمران وهو آخر الإقليم السابع .وإذا ارتفع على الأفق تسعين درجة وهى التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرءوس وصارت دائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهى الشمالية وستة تحت الأفق وهى الجنوبية والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتنعة ، لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين فإذا الشمس تسامت الرءوس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة إلى رأس السرطان ورأس الجدى وبكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعا وعشرين درجة ثم إذا ارتفع القطب الشمالى عن الأفق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبى كله بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت " عرض البلد"، وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرءوس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من الأفق كذلك إلى رأس الجدى لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الأفق الشمالى يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرءوس وذلك حيث يكون عرض . البلد أربعاً وعشرين في الحجاز وما يليه ، وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالى حتى صار مسامتاً فإذا ارتفع القطب أكثرمن أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبى عن الأفق مثلها فينقطع التكوين لإفراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر .ثم إن الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الأشعة على الأرض على زوايا قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة ، وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما يقرب منها كثر منه فيما بعد ؛ لأن الضوء سبب الحر والتسخين .

ثم إن المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتى الحمل والميزان وإذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي إلا إن صعدت إلى المسامتة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الأفق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدهّا وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء إلى عرض أربعة وعشرين فان الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقريب من إلحاحها في خط الاستواء وإفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفاً ويبساً يمنع من التكوين ؛ لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات ؛ إذ التكوين لا يكون إلا بالرطوبة ، ثم إذا مال رأس السرطان عن سمت الرءوس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر إلى الاعتدال أو يميل عنه ميلاً قليلاً فيكون التكوين ويتزايد على التدريج إلى أن يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد إلا أن

فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد ؛ لأن الحر أسرع تأثيراً في التجفيف من تأثير البرد في الجمد ؛ فلذلك كان العمران في الإقليم الأول والثانى قليلاً وفى الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفى السادس والسابع كثير النقصان الحر ، وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر ؛ إذ لا تجفيف فيها إلا عند الإفراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم.ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك ؛ والظاهر أهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية إنما أداهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوى بإفراط الحر والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلى وهو كذلك ، فان خط الاستواء والذى وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا .وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراء في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين ولما امتنع المعتدل لغيبة الماء تبعه ما سواه ،لأن العمران متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع ، وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر ، والله أعلم .

ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب " رو جار " ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره .

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليماً فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله .فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهى كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الإقليم الثانى

ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهى إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب ، ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالى عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهى طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الإقليم الثانى مما يلى الشمال فينتهى طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفى إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوى برأس الجدى ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهى دورة الفلك الكاملة وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلى الشمال أيضا ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة وفى آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة

ونصف ساعة وفى آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة وفى آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف وفى آخر السابع إلى ست عشرة ساعة وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد . وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبى عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالى عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل . والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها ىى المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار ىى البحار في كل جزء منها ونحاذى بذلك ما وقع في كتاب " نزهة المشتاق " والذى ألفه العلوي الإدريسي الحموي لملك صقلية من الإفرنج وهو زخار بن زخار عندما كان نازلاً عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتبا جمة للمسعودى وابن خرداذبه والحوقلى والقدرى وابن إسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها ، والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله .

الإقليم الأول : وفيه من جهة غربية الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الإقليم وإنما هى في البحر المحيط جزر متكثرة كبرها وأشهرها ثلاثة ويقال : إنها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض

أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربى أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم

المعز وقتالهم بالحجارة يرموها إلى خلف وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ولا يعرفون دينا و لم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها ، لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب . وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذى به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفى عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هى عليه في الوجود وفى وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها " الكنباص " وعليها يعتمدون في أسفارهم ، وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن ؛ لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدى إلى الرجوع إليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهى لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء إليها وصعب الوقوف على خبرها .وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتى من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالى من أمم السودان وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها وفى جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال لهم

لملم وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسى أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافى والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما يكل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر .وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين وورکلان فكان في غانة فيما يقال : ملك دولة لقوم من العلويين يعرفون ببنى صالح وقال صاحب كتاب "روجار" إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان "مالى" .وفى شرقى هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الإقليم بلد "كوكو" على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالى وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالى في محلها من تاريخ البربر وفى جنوبى بلد كوكو بلاد كاتم من أمم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه .وفى شرقى بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدإه عند خط الاستواء إلى البحر الرومى في الشمال ، ومخرج هذا ،النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوءه وفى كتاب "

المشترك "، الياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد، فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة

واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ، وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربى منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقى منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة، والنوبة وفيها بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومى عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول ، وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهى في غربى هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صباً مهولاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة والواحات في غربيها عدوة النيل وهى الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة .وفى وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتى من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر ، وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب "الجغرافيا " وذكر أنه ليس من هذا النيل ، وإلى وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس. ينتهى بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الإقليم إلى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران إلا ما كان في الجزائر التي في داخله وهى متعددة يقال : تنتهى إلى ألف جزيرة أو فيما على سواحله الجنوبية وهى آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواحله من جهة الشمال وليس منها فىء هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفى بلاد اليمن .وفى الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندى إلى جهة الشمال وهما بحر قلزم

وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندى وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما كما نذكره في الإقليم الثانى وما بعده ، فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالى الحبشة ما بين جبل العلاقى في أعالى الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندى وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندى ممتداً مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول اثنى عشر ميلاً فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى " باب المندب " وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ومن

شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحله بلد على بن يعقوب وفى جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضا وينعطف مع جنوبيه إلى آخر الجزء السادس ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحله الجنوبى في الجزء السابع من هذا الإقليم وفى شرقى بلاد سفالة من ساحله الجنوبى بلاد الواق واق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط . وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل. وبها الجبل المشهور يقال : ليس في الأرض أعلى منه وهى قبالة سفالة ، ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى الشمال إلى أن تقرب من سواحل أعالى الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق ومن شرقيها جزائر السيلان إلى جزائر أخر في هذا البحر كثيرة العدد ، وفيها أنواع الطيب

والأفاويه وفيها يقال : معادن الذهب والزمرد ، وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون ، وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل - الجغرافيا ، وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية وهى بعيدة عن البحر الجنوبى وعن البحر الشرقى وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفى شماليها صنعاء وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبى وبحر فارس ، وهذه القطعة من الجزء السادس هى التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالى بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها ، وهذا آخر الكلام في الإقليم الأول ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق بمنه وفضله .

الإقليم الثانى

وهو متصل بالأول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفى الجزء الأول والثانى منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالى أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفى الجانب الأسفل منهما صحراء نستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة.وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان ثم مجالات أزكار من قبائل البربر ذاهبة إلى أعالى الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء الثالث وهي جهة. الشمال منه بقية أرض وذان ،وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة. وفى الجزء الرابع من أعلاه

بقية أرض من الباجويين ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبدإه في الإقليم الأول إلى مصبه في البحر فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما : جبل الواحات من غربيه، وجبل

المقطم من شرقيه وعليه من أعلاه بلد إسنا وأرمنت ويتصل كذلك حفافيه إلى أسيوط وقوص ثم إلى صول ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهى الأيمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دلاص وفيما بينهما أعالى ديار مصر.وفى الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهى إلى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندى في الجنوب إلى جهة الشمال وفى عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجار من جبل يلملم إلى بلاد يثرب، وفى وسط الحجاز مكة شرفها الله وفى ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر .وفى الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش ألى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز؛ وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ثم أرض الشحر. وينتهى إلى بحر فارس وهو البحر الثانى الهابط من البحر الهندى إلى الشمال كما مر ، ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهات وهى ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء وفى الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوبران وهى من السند أيضاً فيتصل السند كله في الجانب الغربى من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتى من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندى في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندى وفى سمتها شرقاً بلاد بلهرا وتحتها الملتان بلاد الصنم

المعظم عندهم، ثم إلى أسفل من السند، ثم إلى أعالى بلاد سجستان. وفى الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقاً بلاد القندهار ثم بلاد منيبار وفى الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندى وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل وبعدها شرقا إلى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الإقليم.وفى الجزء التاسع ثم في الجانب الغربى منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقى فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط ،والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولى الفضل والكرم .

الإقليم الثالث

وهو متصل بالثاني من جهة الشمال. ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره. ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكره. وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة، ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول، وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة، ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نستر المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني. وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء، وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه إلى

أن ينتهي. وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك، ثم كدميوة، ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه، ثم قبائل صنهاجة وهم صنهاجة. وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة. ويتصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامة. وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم. ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه فط ل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه ففي

الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وأغمات وتادلا.وعلي البحر المحيط منها رباط اسفى ومدينة سلا. وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة. وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها. وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان: أصيلا؛ والعرايش. وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان، وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر. لان هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع، ويذهب مشرقاً فينتهي إلى بلاد الشام، فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالاً فدخل في الإقليم الثالث والخامس.

فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده. ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر، ثم قسطنطينية في الشرق منها. وفي آخر الجزء الأول، وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير، ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة تحت جبل اوراس المتصل بدرن كما مر. وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق.والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول، ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهباً فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين.

ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله. فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز، وفي الشرق منها بلد عذامس ، و في سمتها شرقاً أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر. والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل اوراس وتبسة والأوبس. وعلى ساحل البحر بلد بونة. ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلادأ فريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس، ثم سوسة؛ ثم المهدية. وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد: توزر؛ وقفصة؛ ونفزاوة. وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة. وعلى سمت هذه البلاد

كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي. وبإزائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن، وفي مقابلة غذامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية. وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر. وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضاً فيه جبل درن، إلا انه ينعطف عند

آخره إلى الشمال ويذهب على سمته إلى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان. والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن. فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية ارض ودان ومجالات العرب فيها، ثم زويلة ابن الخطاب، ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق. وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر. ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب. ثم

أجدابية، ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمسة على البحر هنالك، ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة إلى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق، وأسفل منها بلاد هيب ورواحة. ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه إلى الجنوب، حتى يزاحم طرفه الأعلى، ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب. وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثاني. ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمته شرقا ارض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني. ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شنطوف وزفتي. وينقسم الأيمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب

جميعها في البحر الرومي. فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية، وعلى مصب الوسط بلد رشيد، وعلى مصب الشرقي بلد دمياط. وبين مصر والقاهرة، وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمرانا وفلجاً وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام، وأكثرها على ما أصف، وذلك

لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس، لأنة في ممر؛ مبتدىء من البحر الهندي إلى الشمال ينعطف آخذاً إلى جهة الغرب، فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه إلى السويس. وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها. ومن هنالك ينعطف بساحله إلى الجنوب في ارض الحجاز كما مر في الإقليم الثاني في الجزء الخامس منه. وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيراً من غربيه عليها الفرما والعريش، وقارب طرفها بلد القلزم، فيضايق ما بينهما من هنالك، وبقي شبه الباب مفضيا إلى ارض الشام. وفي غربي هذا الباب فحص التيه أرض جرداء لا تنبت؛ كانت مجالاً لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم إلى الشام أربعين سنة كما قضه القرآن. وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الإقليم الرابع كما نذكره. وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش، وهو آخر الديار المصرية، وعسقلان؛ وبينهما طرف هذا البحر ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك إلى الإقليم الرابع عند طرابلس وغزة. وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق. وعلى هذه القطعة اكثر سواحل الشام. ففي شرقه غزة ثم عسقلان، وبانحراف يسير عنها إلى الشمال بلد قيسارية. ثم كذلك بلد عكاء ثم صور ثم صيدا ثم ينعطف البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع. ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر

القلزم، ويذهب في ناحية الشمال منحرفاً إلى الشرق إلى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكام؛ وكأنه حاجز بين ارضي مصر والشام. ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر إلى مكة، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من

شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق، ثم ينعطف قليلا. وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل وهي أسافل الحجاز. وفوقها جبل رضوى، وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها. وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك. وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الأردن ثم طبرية. وفي شرقيها بلاد الغور إلى أذرعات. وفي سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز. وعند منعطف جبل اللكام إلى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية، وجبل اللكام يعترض بينها وبينها. وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك، ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام. وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية إلى آخر الجزء وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات الإعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان إلى البحرين وهجر على بحر فارس. وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات. وفيما بعدها شرقاً مدينة البصرة. وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والأبلة من أسافل الجزء من شماله. ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات، ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس. وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاه متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه. وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر والأحساء، وفي غربها أخطب والصمان وبقية ارض اليمامة، وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها، وهو من عند آخر الجزء من الشرق

على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقاً. ووراءه إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر. وفي شرقيه إلى آخر هذا الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودار أبجرد ونسا واصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها. وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان، ومنها الأهواز وتستر وصدى وسابور والسوس ورام هرمز؛ وغيرها وأرجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان. وفي شرقي بلاد خوزستان جبال الأكراد متصلة إلى نواحي أصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها في ارض فارس، وتسمى الرسوم.وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القفص، ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران، ومن مدنها الرودان والشيرجان وجيرفت ويزدشير والبهرج. وتحت ارض كرمان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصبهان، ومدينة أصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله. ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس ارض سجستان وكوهستان في الجنوب. وأرض كوهستان في الشمال عنها. ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان، في وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها. ومن مدن سجستان بست والطاق. وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان. ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء.وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الخلج من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها. وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند. وفي آخر الغور من

الشمال بلاد أستراباذ، ثم في الشمال غرباً إلى آخر الجزء بلاد هراة أوسط خراسان. وبها أسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطالقان والجوزجان. وتنتهي خراسان هنالك إلى نهر

جيحون. وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ، وفي شرقيه مدينة ترمذ، ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك. وهذا النهر، نهر جيحون، مخرجه من بلاد وجار في حدود بذخشان مما يلي الهند. ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغرباً إلى وسط الجزء، ويسمى هنالك نهر خرناب؛ ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان، ويذهب على سمته إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الإقليم الخامس كما نذكره. ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب إلى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل والوحش من شرقيه، وانهار أخرى من جبال البتم من شرقيه أيضاً وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له، ومن هذه الأنهار الخمسة الممدة له نهر وخشاب، يخرج من بلاد التبت، وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغرباً بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء، ويذهب مشرقاً بانحراف إلى الشمال، إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء، فيجوز بلاد التبت إلى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء.

ويحول بين الترك وبين بلاد الختل؛ وليس فيه إلا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبنى فيه باباً كسد يأجوج ومأجوج. فإذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد إلى أن يمر في بلاد الوحش، ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ، ثم يمر هابطاً إلى الترمذ في الشمال إلى بلاد الجوزجان. وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان. وفي العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال، وبلاد الوحش، ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون، وتذهب مشرقة إلى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت. ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل

به عند باب الفضل بن يحيى. ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال، وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوحش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ إلى جهة الشمال، ونهر بلخ يخرج من جبال البتم من مبدإه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه. وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان. وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد وأسروشنة من بلاد الترك، وفي شرقها ارض فرغانة أيضاً إلى اخر الجزء شرقاً. وفي بلاد الترك تحوزها جبال البتم إلى شمالها.وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت إلى وسط الجزء، وفي جنوبيها بلاد الهند وفي شرقيها بلاد الصين إلى آخر الجزء. وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك إلى آخر الجزء شرقاً وشمالا. ويتصل بها من غربيها ارض فرغانة أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً، ومن شرقيها أرض التغرغر من الترك إلى آخر الجزء شرقاً وشمالا.وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأسافله. وفي الشمال بقية بلاد التغرغر. ثم شرقاً عنهم بلاد خرخير من الترك أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً. وفي الشمال من ارض خرخير بلاد كتمان من الترك. وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ

منه إليها ولا مسلك؛ والصعود إلى أعلاه من خارجه صعب في الغاية. وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة؛ فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجه بما يلهمهم الله إليه. وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر- فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك- أمم لا تحصى؛ وهم ظواعن رحالة أهل إبل وشاة وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم إلا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر- نهر جيحون- ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية، فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان والهند والعراق.

الإقليم الرابع

يتصل بالثالث من جهة الشمال

والجزء الأول منه في غربيه

قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوباً إلى آخره شمالاً وعليها في الجنوب مدينة طنجة، ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلاً ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالاً وقصر المجاز وسبتة جنوباً؛ ويذهب مشرقاً إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم، وينفسح في ذهابه بتدريج إلى أن يغمر الأربعة أجزاء واكثر الخامس ويغمر عن جانبيه طرفاً من الإقليم الثالث والخامس كما سنذكره. ويسمى هذا البحر "البحر الشامي" أيضاً. وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة، ثم مايرقة، ثم منرقة، ثم سردانية ثم صقلية وهي أعظمها، ثم بلونس، ثم أقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها. ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه، وفي الجزء الثالث من الإقليم الخامس، خليج البنادقة، يذهب إلى ناحية الشمال، ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه، ويمر مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس. ويخرج منه أيضاً في آخر الجزء الرابع شرقاً من الإقليم الخامس خليج القسطنطنية، يمر في الشمال متضايقاً في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم. ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم السادس، وينعطف إلى بحر نيطش ذاهباً إلى الشرق في الجزء الخامس كله ويصف السادس من الإقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه. وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة، وينفسح إلى الإقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين، وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس. ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقاً، ويخرج إلى الثالث. وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه، وهي كلها بلاد الأندلس الغربية، ومنها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي، أولها طريف عند مجمع البحرين، وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة، ثم المنقب ثم المرية. وتحت هذه من لدن البحر المحيط غرباً وعلى مقربة منه شريش، ثم لبلة، وقبالتها فيه جزيرة قادس، وفي الشرق عن شريش ولبلة أشبيلية، ثم استجة وقرطبة ومديلة، ثم غرناطة وجيان وائدة، ثم وادياش وبسطة، وتحت هذه شنتمرية وشلب على البحر المحيط غرباً، وفي الشرق عنهما بطليوس ووماردة ويابرة، ثم غافق وبزجالة، ثم واحة رياح. وتحت هذه أشبونة على

البحر المحيط غرباً، وعلى نهر باجة، وفي الشرق عنها شنترين وموزية على النهر المذكور، ثم قنطرة السيف. ويسامت أشبونة من جهة الشرق جبل الشارات، يبدأ من المغرب هنالك، ويذهب مشرقاً مع آخر الجزء من شماليه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النصف منه. وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشرق من فورنة، ثم طليطلة، ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم. وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قلمرية، وهذه غربي الأندلس. وأما شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة، ثم لفتة، ثم دانية، ثم بلنسية إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق، وتحتها شمالاً ليورقة وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رياح من غرب الأندلس. ثم مرسية شرقاً، ثم شاطبة تحت بلنسية شمالاً، ثم شقر ثم طرطوشة، ثم طركونة آخر الجزء. ثم تحت هذه شمالاً أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب، ثم أفراغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالاًعنها. ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقاً وشمالاً.والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غربيه في الشمال،فيها بقعة جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا. والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس، يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً، ويمر في الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني، فيقع فيه قطعة منه، تفضي ثناياها إلى البر المتصل، وتسفى ارض غشكونية، وفيه مدينة خريدة وقرقشونة. وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم أربونة. وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة، والكثير منها غير مسكون لصغرها. ففي غربيه جزيرة سردانية، وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل، وبها مدن كثيرة مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية، وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة.والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية؛ والوسطى من أرض أبكيردة؛ والشرقية من بلادا لبنادقة.والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث. والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية، وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه.والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب،ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال، وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء، ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث، يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه. وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام، ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا إلى القطر الشرقي الشمالي، ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة، ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس. ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق. ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى ان ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال. وبين هذه الجبال ثنايا تسفى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن وفي

هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة. فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام، وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال، فعلى ساحل البحر منه بلد أنطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الإقليم الثالث، وفي شمال أنطرطوس جبلة ثم اللاذقية ثم إسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالاً بلاد الروم. وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة الإسماعيلية؛ ويعرفون لهذا العهد بالفداوية، ويسمى الحصن "مصيات " وهو قبالة أنطرطوس. وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حمص. وفي الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية. ويقابلها في شرق الجبل المعرة، وفي شرقها المراغة، وفي شمال أنطاكية المصيصة ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشام. ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة. وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب. ويقابل عين زربة منبج آخر الشام. وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان. وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا. وأما بلاد الأرمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي. ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بها جيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب، ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة، ثم ينعطف هابطاً إلى الشمال ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية. ويمر نهر سيحان مؤا زيا لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام، ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف إلى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة

ومن غربها. وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام إلى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة والرقة، ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة. وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقيه، ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الإقليم الخامس ويمران في بلاد الأرمن جنوباً إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة؛ فيمر نهر الفرات من غربي سميساط وسروج وينحرف إلى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقة ويخرج إلى الجزء السادس. ويمر دجلة في شرق آمد وينعطف قريباً إلى الشرق فيخرج قريباً إلى الجزء ا لسادس.وفي الجزء السادس من هذا الإقليم من غربيه بلاد الجزيرة، وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق إلى قرب آخر الجزء. ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصبهان هابطاً من جنوب الجزء منحرفاً إلى الغرب، فإذا انتهى إلى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغرباً إلى أن يخرج من الجزء السادس، ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس، فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية، ففي الغربية من جنوبيها مخرج الفرات من الخامس، وفي شماليها مخرج دجلة منه. أما الفرات فأول ما يخرج إلى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول إلى الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها، ويمر من قرقيسيا غير بعيد، ثم ينعطف إلى الجنوب فيمر بقرب الخابور إلى غرب الرحبة؛ ويخرج منه جداول من هنالك، يمر جنوباً ويبقى صفين في غربيه. ثم ينعطف شرقاً وينقسم

بشعوب فيمر بعضها بالكوفة، وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين، و تخرج جميعاً في جنوب الجزء إلى الإقليم الثالث، فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية. ويخرج الفرات مر الرحبة مشرقاً على سمته إلى هيت من شمالها يمر إلى الزاب والأنبار من جنوبهما، يصب في دجلة عند بغداد. وأما نهر دجلة فإذا دخل من الجزء الخامس إلى هذا الجزء يمر مشرقاً على سمته ومحاذيا لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته يمر بجزيرة ابن عمر على شمالها، ثم بالموصل كذلك وتكريت، وينتهي إلى

الحديثة فينعطف جنوباً وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك، ويمر على سمت جنوباً وفي غرب القادسية إلى أن ينتهي إلى بغداد ويختلط بالفرات، ثم يمر جنوباً على غرب جرجرايا إلى أن يخرج من الجزء إلى الإقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوباً وجداوله، ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان. وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة. ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي إلى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً، ويختلط بدجلة قبل خروجه إلى الإقليم الثالث. ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والأعاجم بلد جلولاء، وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة. وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الأعاجم مشرقاً إلى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين. وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان في الغرب والشمال عن أصبهان، وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس، وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غرباً عند ملتقى الجبلين، والدينور شرقاًعند آخر الجزء. وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المراغة، والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للأكراد، والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه. وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والبندقان. وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر.وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس، وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الإقليم الثالث وفيها هنالك أصبهان، ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالإقليم الثالث؛ ثم ينعطف من الجزء السادس إلى الإقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك، وانه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية. ويهبط

هذا الجبل المحيط بأصبهان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال، ويخرج إلى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحته هنالك قاشان ثم قم، وينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء؛ ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقاً ومنحرفاً إلى الشمال، حتى يخرج إلى الإقليم الخامس، ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه، ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً إلى آخر الجزء، ومن جنوبه من هنالك قزوين، ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً إلى الشرق والشمال إلى وسط الجزء، ثم إلى الإقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان. ويدخل من الإقليم الخامس في هذا الجزء، في نحو النصف من غربه إلى شرقه، ويعترض عند جبل الري. وعند انعطافه إلى الغرب

جبل متصل يمر على سمته مشرقاً وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه. ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدأهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين، ومنها بسطام. ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان، وفي آخرها عند الجبل بلد أستراباذ. وحافات هذا الجبل من شرقيه إلى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان. ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء. وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقاً. وكل هذه تحت الجبل. وفي الشمال عنها بلاد نسا؛ ويحيط بها عند زاوية الجزئين الشمالي والشرقي مفاوز معطلة.وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب إلى الشمال. في عدوته الغربية رمم وآمل من بلاد خراسان، والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم. ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل أستراباذ المعترض في الجزء السابع

قبله، ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية، وفيها بقية بلاد هراة، ويمر الجبل في الإقليم الثالث بين هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك. وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد أسروشنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقاً. وفي الشمال عن سمرقند وأشروسنة أرض إيلاق. ثم في الشمال عن إيلاق أرض الشاش إلى آخر الجزء شرقاً، ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب لك القطعة بقية أرض فرغانة، ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس. ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت؛ ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة. وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون، يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش، ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث. وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب. وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة. وفي زاوية هذا الجزء الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد إسبيجاب وطراز.وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض إلى لجنة في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال. وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية. ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقياً آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك، وهو جبل يأجوج ومأجوج. وهذه الأمم كلها من شعوب الترك، انتهى.

الإقليم الخامس

الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلاً من جنوبه

وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالإقليم. فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالأندلس وعليها بقيتها. ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الأندلس سعيور على البحر عند

أول الجزء من الجنوب والغرب، وسلمنكة شرقاً عنها، وفي جوفها سمورة. وفي الشرق عن سلمنكة آيلة آخر الجنوب، وأرض قشتالة شرقاً عنها، وفيها مدينة شقونية. وفي شمالها أرض ليون وبرغشت، ثم وراءها في الشمال أرض جليقية إلى زاوية القطعة. وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شنتياقو، ومعناه يعقوب. وفيها من شرق بلاد الأندلس مدينة شطلية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقاً عن قشتالة. وفي شمالها وشرقها وشقة وبنبلونة على سمتها شرقاً وشمالاً. وفي غرب بنبلونة قشتالة ثم ناجزة فيما بينها وبين برغشت. ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى ترب، ويتصل به وبطرف البحر عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الإقليم الرابع، ويصير حجراً على بلاد الأندلس من جهة الشرق وثناياه لها أبواب تفضي إلى بلاد غشكونية من أمم الفرنج. فمنها من الإقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي، وخريدة وقرقشونة وراءهما في الشمال. ومنها من الإقليم الخامس طلوشة شمالاً عن خريدة. وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقاً. وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد نيونة. وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج إلى آخر الجزء. وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية

منه أرض غشكونية، وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت، وقد ذكرناهما. وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة ارض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلةً إلى الشرق قليلاً، وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة في جون من البحر. وعلى رأس هذا؛ القطعة شمالاً بلاد جنوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون. وفي شماله وعلى سمته أرض برغونة. وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف اخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه نيس وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الإفرنجة ومسكن البابا بطركهم الأعظم. وفيها من المباني الضخمة والهياكل الهائلة والكنائس العادية ما هو معروف الأخبار. ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب مفروشا قاعه ببلاط النحاس، وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها. وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أقرنصيصة إلى آخر الجزء. وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قلورية من بلاد الفرنج. وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء، وانتهى إلى نحو الثلث منه، وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط. وفي شماله بلاد أنكلاية في الإقليم السادس.وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يوصل من برها في الإقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء. وفي شرقي بلاد قلورية بلاد أنكيردة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي، ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الإقليم الرابع وفي البحر الرومي. ويحيط به في شرقيه

خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهباً إلى سمت الشمال، ثم ينعطف إلى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشمالي. ويخرج على سمته من الإقليم الرابع جبل عظيم يؤازيه ويذهب معه في الشمال، ثم يغرب معه في الإقليم السادس إلى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد أنكلاية من أمم اللمانيين كما نذكر. وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين إلى الشمال بلاد البنادقة، فإذا ذهبا إلى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الألمانيين عند طرف الخليج.وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرومي خرجت إليه من الإقليم الرابع مضرسة كفها بقطع من البحر. ويخرج منها إلى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما، وفي آخر الجزء شرقاً قطع من البحر. ويخرج منها إلى الشمال خليج القسطنطينية، يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال إلى أن يدخل في الإقليم السادس، وينعطف من هنالك عن قرب مشرقاً إلى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله، والسادس بعده من الإقليم السادس كما نذكر. وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال. وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الأحاديث. والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء، وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم. وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس، وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان، وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها بورصة؛ وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركمان.وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس، وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية، وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات؛ يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الثاني إلى ممره في الإقليم الرابع. وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما. وفي شرقه هنالك مبدأ نهر الدجلة

الذاهب على سمته، وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد. وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين. ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين: إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً، ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه؛ والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ الدجلة والفرات، وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقب، وهي عريضة، وفي آخرها عند مبدإ الفرات بلد خرشنة. وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية.وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى ان يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق. وفيها بلد أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تفليس ودبيل. وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة، وفي جنوبها بانحراف إلى الشرق مدينة أرمينية. ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع. وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بأرمى، وقد مر ذكره في الجزء السادس منه. ويتاخم بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان، وآخرها في هذا الجزء شرقا

بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع، ويسمى بحر طبرستان. وعليه من شماله في الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان. ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس، فتمر منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين. ويخرج إلى الإقليم الرابع عند آمد، ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام، ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر. وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا كالأبواب تفضي من الجانبين. ففي جنوبيها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان، وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب. وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد أرمينية. وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان. وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير في الزاوية الغربية الشمالية منها. وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضا من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية، وقد مر ذكره ويحص بهذه القطعة من بحر نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد أطرابزيدة وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقاً إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر. وعند آخرها مدينة صول. ووراء هذا الجبل الحاجز قالعة أرض الخزر تنتهي إلى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآ خر الجزء شمالاً.والجزء السابع من هذا الإقليم غربية كله مغمور ببحر طبرستان، وخرج من جنوبه في الإقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان، وجبال الديلم قزوين. وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع. ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقيه أيضاً وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نمر أثل في البحر. ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات لا من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن، ويذهب الغرب إلى ما دون وسطه فينعطف إلى الشمال إلى أن يلاقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهباً معه إلى بقيته في الإقليم السادس، ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه، ويذهب مغرباً إلى الجزء السادس من الإقليم السادس، ثم يرجع جنوباً إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس. وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين

أرض السريروأرض الخزروا تصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافا ت هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي والجزء الثامن من هذا الإقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك؛ وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نمر جيحون؛ دورها ثلاثمائة ميل، ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات. وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون؛ دورها أربعمائة ميل؛ وماؤها حلو. وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار، ومعناه جبل الثلج لأنه لا يذوب فيه، وهو متصل بآخر الجزء. وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئاً يسمى عرعون وبه سميت البحيرة. وينحلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدمّا فتصب فيها من الجانبين.وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية. ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء

جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج، يعترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر، وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم الرابع قبله واحتف هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال، ثم انعطف مغرباً في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه، وأحاط من أوله إلى هنا ببلاد الكيماكية، ثم خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس؛ فذهب فيه مغرباً إلى آخره، وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية، ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً إلى الشمال وذهب على سمته إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس. وفيه السد هنالك كما نذكره. وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلةً إلى الجنوب، وهي من بلاد يأجوج ومأجوج.وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض يأجوج ومأجوج متصلةً فيه كله إلا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبه إلى شماله، وإلا القطعة التي يفصلها إلى جهة

الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه، وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإقليم السادس

فالجزء الأول منه غمر البحر اكثر من نصفه واستدار شرقاً مع الناحية الشمالية، ثم

ذهب مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وانتهى قريباً من الناحية الجنوبية، فانكشفت قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخلة بين الطرفين، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه، وينفسح طولاً وعرضاً، وهي كلها أرض بريطانية. وفي بابها بين الطرفين، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلةً ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس.والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله، فمن غربه قطعة مستطيلة اكبر من نصفه الشمالي من شرقأ أرض بريطانية في الجزء الأول، واتصلت بها القطعة أخرى في الشمال من غربه إلى شرقه، وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة إنكلترة، وهي جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الإقليم السابع. وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد أرمندية، وبلاد أفلادش متصفين بها، ثم بلاد إفرنسية جنوباً وغرباً من هذا الجزء، وبلاد برغونية شرقاً عنها، وكلها لأمم الإفرنجة، وبلاد اللمانيين في النصف الشرقي من الجزء. فجنوبه بلاد أنكلاية ثم بلاد برغونية شمالاً ثم أرض لهويكة وشطونية. وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقيةأ رض أفريرة وكلها لأمم اللمانيين.وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مراتية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال. وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال، يعترض بينهما جبل بلواط داخلاً من الجزء الرابع ويمر مغرباً بانحرافي إلى الشمال، أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي.وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جثولية. وتحتها في الشمال بلاد

الروسية. ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غرباً إلى ان يقف في النصف الشرقي. وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية ارض القسطنطينية، ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي، وعند مدفعه في بحر نيطش؛ فيقع قطيعة من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء، ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسيناه.وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس، ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع، ويخرج على سمته مشرقاً فيمر في هذا الجزء كله، وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدإه في عرض ستمائة ميل. ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش متصلة بأرض البيلقان من الإقليم الخامس. وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطش. وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غرباً أرض ترخان وشرقاً بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر. وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم.وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش، وينحرف قليلا إلى الشمال،ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد قمانية، وفي جنوبه منفسحاً إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر. وفي شرقها أرض برطاس، وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار. وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هناك قطعة من جبل سيا كوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده، ويذهب بعد مفارقته مغرباً فيجوز في هذه القطعة، ويدخل إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس، فيتصل هنالك بجبل الأبواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر.وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في الناحية الجنوبية ما جازة جبل سياه بعد مفارقته

بحر طبرستان. وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غرباً. وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها. ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس وفى الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب ويخناك وهم أمم الترك . وفى الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجولخ من الترك في الناحية الشمالية غرباً والأرض المنتنة وشرق الأرض التي يقال : إن يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء السد وفى هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الأتل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الإقليم الخامس في الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل في الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الإقليم ، فينعطف شمالاً إلى الجزء السابع من الإقليم السابع فيمر في طرفه ين الجنوب والغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع

ويذهب مغرباً غير بعيد ، ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ويرجع إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ، ويخرج منه جدول يذهب مغرباً ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ، ويمر هو في قطعة ين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الإقليم السادس ثم ينعطف ثالثة إلى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر ويخرج إلى الإقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت

من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفى الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربى منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجاق وبلاد الشركس منهم أيضا وفى الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره ، يبدأ من البحر المحيط في شرق الإقليم الرابع ويذهب معه إلى آخر الإقليم في الشمال ويفارقه مغرباً وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الإقليم الخامس فيرجع إلى سمته الأول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الإقليم من جنوبه إلى شماله بانحراف إلى المغرب وفى وسطه ههنا

السد الذي بناه الإسكندر ثم يخرج على سمته إلى الإقليم السابع وفى الجزء التاسع منه فيمر فيه إلى الجنوب إلى أن يلقى البحر المحيط في شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغرباً إلى الإقليم السابع إلى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه . وفى وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الإسكندر كما قلناه ، والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكر عبد الله بن خرداذبه في كتابه في الجغرافيا أن الواثق رأى في منامه كان السد انفتح فانتبه نزعا وبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا وفى الجزء العاشر من هذا الإقليم بلاد مأجوج متصلة فيه إلى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق .

الإقليم السابع

والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج .فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء إلا ما انكشف من جزيرةأ نكلتر التي معظمها في الثانى وفى الأول منها طرف انعطف بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثانى من الإقليم السادس وهى مذكورة هناك والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثنى عشر ميلاً . ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب إلى الشرق .والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أكثره بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس وأنها في شماله وفى القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربى منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضى إلى بلاد فلونية وفى شمالها جزيرة برقاعية مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق .والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله مغمور بالبحر

المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه منكشف وفى غربه أرض قيمازك من الترك وفى شرقها بلاد طست ثم أرض رسلان إلى آخر الجزء شرقاً وهى دائمة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفى الجزء الرابع والخامس منه .وفى الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهى في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا . كما ذكرناه من قبل .وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الإقليم السادس، وينتهي إلى بحيرة طرمى من هذا الجزء، وهي عذبة تنجلب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال. وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من التركمان إلى آخره.وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد

القمانية، وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية، وهي جامدة دائما لشدة البرد إلا قليلا في زمن الصيف. وفي شرق بلاد القمانية بلاد الروسية . التي كان مبدؤها في الإقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه، وفي الزاوية، الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغار التي كان مبدؤها في الإقليم السادس. وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه، وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغار منعطف نهر أثل، القطعة الأولى إلى الجنوب كما مر. وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصلا من غربه إلى شرقه.وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في غربه بقية أرض يخناك من أمم الترك.وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله، وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء. ويخرج إلى الإقليم السادس من فوقه. وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحرب ثم بقية الأرض المنتنة إلى آخر الجزء شرقاً. وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه إلى شرقه.وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في الجنوبية الغربية منه متصل

الأرض المنتنة. وفي شرقها أرض المحفورة، وهي من العجائب: خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيح الأقطار ممتنع الوصول إلى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفى. وربما رئي فيها نهر يشقها من الجنوب إلى الشمال. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد. وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق إلى الغرب وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه إلى الجنوب بانحراف إلى الشرق، فيخرج في الجزء التاسع من الإقليم السادس ويمر معترضاً فيه. وفي وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله.والجزء العاشر غمر البحر جميعه.هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة. {وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات للعالمين }.[سورة......الآية...]

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء

في ألوان البشر والكثير من أحوالهم

قد بينا أن المعمور في هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً. فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي حافاته من الثالث والخامس اقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال. والأول والسابع أبعد بكثير؛ فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات، وجمع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً واديااناً، حتى النبؤا ت فإنما توجد في

الأكثر فيها. و لم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية. وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقه وأخلاقهم. قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 112] وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله. وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم؛ فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة، المنمقة بالصناعة؛ ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين؛ ويذهبون في ذلك إلى الغاية. وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد

والنحاس والرصاص والقصدير. ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين. ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم. وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين، ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة. ولهذا كان العراق والشام أعد ل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات. وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال؛ مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلهاأ بعد من الاعتدال في جميع أحوالهم. فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف. ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات. وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خفق الحيوانات العجم. حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول انهم يسكنون الكهوف والغياض، ويأكلون العشب، وانهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً؛ وكذا الصقالبة. والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك. وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً؛ فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر؛ مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد؛ ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد، يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة؛ ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال. ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 8] ولا يعترض على هذا القول

بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما إليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني؛ فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا؛ فكان لرطوبتهاأ ثر في رطوبة هوائها؛ فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر. وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه؛ وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا

عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهوا وفيما يتكون فيه من الحيوانات. وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني في مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب؛ فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة، قريبة إحداهما من أخرى، فتطول المسامتة عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس. شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال؛ إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأ ىالعين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها، ويشتد البرد عامة الفصول، فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة. ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور. وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة: الخامس والرابع والثالث؛ فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر. والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في التوسط كما قدمناه. فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخفقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم. وتبعه عن جانبيه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية التوسط، لميل هذا

قليلا إلى الجنوب الحار، وهذا قليلا إلى الشمال البارد؛ إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف. وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم. فالأول والثاني للحر والسواد، والسابع والسادس للبرد والبياض. ويسمى سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان، أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد، وإن كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند. وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي اسود لا حام ولا غيره. وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام. وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب، تسود ألوان أعقابهم. وفي ذلك دليل على أن اللون تاج لمزاج الهواء. قال ابن سينا في أرجوزته في الطب:

بالزنج حر غير الأجسادا   حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتسبت البياضا   حتى غدت جلودها بضاضا

وأما أهل الشمال فلم يسفوا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لوناً لأهل تلك اللغة الواضعة للأسماء. فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده. ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان، والكثير من الإفرنجة ويأجوج ومأجوج، أسماء متفرقة وأجيالاً متعددة مسمين بأسماء متنوعة. وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة، أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم، وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك، فكانت فيهم النبؤات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة. وأهل هذه الأقاليم التي

وقفنا على أخبارهم؛ مثل العرب والروم وفارس وبني إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين. ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها

حسبوا ذلك لأجل الأنساب: فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في ألوانهم، فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية؛ وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث؛ وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام. وهذا الزعم وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد؛ إنما هو إخبار عن الواقع، لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود. وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط، وليس كذلك: فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس؛ ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان؛ ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب؛ ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم. فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهما من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات، وإن هذه كلها تتبدل في الأعقاب ولا يجب استمرارها: {سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا}[سورة....الآية..] والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكم؛ وهو المولى المنعم الرؤوف الرحيم.

المقدمة الرابعة

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك انه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس، وهو انقباضه وتكاثفه؛ وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته. ولهذا يجد المنتشي من الفرح ؛ السرور ما لا يعبر عنه؛ وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية إلي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه، فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح. وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك، حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور.

ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولي الحر على أمزجتهم، وفي اصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم؛ فتكون أرواحهم بالقياس إلي أرواح أهل الإقليم الرابع اشد حراً فتكون أكثر تفشياً، فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً، ويجيء الطيش على أثر هذه؛ وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية، لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته، كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة. وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي

هوائها،لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول.واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر، فإنها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب؛ حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة مآكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف افرطوا في نظر العواقب، حتى إن الرجل منهم ليذخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئاً من مدخره، وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء. والله الخلاق العليم.

وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من انه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم. وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع

وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

إعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش؛ بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش، من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران؛ وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة، فسكانها في شظف من العيش: مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان، فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة، وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم؛ ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحايين وتحت ربقة من حاميتها، وعلى الإقلال لقلة وجدهم، فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب، وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض. وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهلى القفار احسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى؛ وأبدانهم أنقى؛ وأشكالهم أتم وأحسن؛ وأخلاقهم أبعد من الانحراف؛ وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات. هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم. فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه؛ وبين الملثمين وأهل التلول. يعرف ذلك من خبره. والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة تنشأعنها بعد أقطارها في غير نسبة، ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه، وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة، فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة.

واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء أديمها؛ وحسن رونقها

وأشكالها؛ وتناسب أعضائها وحدة مداركها. فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر؛ والبون بينها ما رأيت. وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها

أثره؛ والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء. واعتبر ذلك فم الآدميين أيضاً: فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم. وهذا شان البربر المنغمسين في الأدم والحنطة، مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة، مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس؛ فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسومهم. وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدم والبر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة، وغالب عيشهم الذرة؛ فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم. وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار. فإن أهل الأمصار وإن كانوا مكثرين مثلهم من الأدم ومخصبين في العيش، إلا أن استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها؛ وعامة مآكلهم لحوم الضان والدجاج، ولا يغبطون السمن من بين الأدم لتفاهته؛ فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤذيه إلي أجسامهم من الفضلات الرديئة. فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار الطف من جسوم أهل البادية المخشنين في العيش. وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة.واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة؛فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً العبادة من أهل الترف والخصب. بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر. ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي. وكذلك نجذ حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفا باختلاف حالها في الترف والخصب. وكذلك نجذ هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية وأهل الحواضر

والأمصار، إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك اكثر من غيرهم، مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا، لا مثل العرب أهل القفر والصحراء، ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر، ولا مثل أهل أفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت، وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت؛ فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر. والسبب في ذلك والله اعلم أن المنغمسين في الخصب، المتعودين للأدم والسمن خصوصا، تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدها؛ فإذا خولف بها العادة بقلة قوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعا اليبس والانكماش، وهو عضو ضعيف في الغاية، فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لأنه من

المقاتل. فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق. وأما المتعودون للعيمة وترك الأدم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدها من غير زيادة، وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية، فلا يقع في معاهم بتبدل الأغذية يبس ولا انحراف، فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المآكل وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية وائتلافها أو تركها إنما هو بالعادة. فمن عود نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء، ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع وما أفرط في الانحراف. فأما ما وجد فيه التغذي والملاءمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة. فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك

غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك ، وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات؛ فإنا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها. والسبب في ذلك العادة؛ فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون؛ فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها. وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة، وقطع عنها الغذاء بالكلية، فإنه حينئذ ينحسم المعاء وينا له المرض الذي يخشى معه الهلاك. وأما إذا كان ذلك القدر تدريجا ورياضة بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً، كما يفعله المتصوفة، فهو بمعزل عن الهلاك. وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة. فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك، وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج. ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصالاً وأكثر. وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين، وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما، واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا. ورأينا كثيرا من أصحابنا أيضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار، ويكون ذلك غذاءه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير؛ ولا يستنكر ذلك.واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه، لمن قدر عليه أو إلى الإقلال منها، وأن له أثَّراً في الأجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه؛ واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم. فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك. وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة. وكذا المتغذون بألبان الإبل ولحومها أيضاً، مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل، وتنشأ أمعاؤهم أيضا على نسبة أمعاء الإبل

في الصحة والغلظ، فلا يطرقها الوهن ولا الضعف، ولا ينالها من مضار الأغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة، كالحنظل قبل طبخه والدرياس والقربيون، ولا ينال أمعاءهم منها ضرر. وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع إليهم

من .طرفة العين؛ لما فيها من السمية. ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون. وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجئ دجاجها في غاية العظم. وأمثال ذلك كثير؛ فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً في الأبدان؛ لان الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه؛ فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثراً في وجود ذلك الجسم. والله محيط بعلمه.

المقدمة السادسة

في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه، وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده، يعرفونهم بمصالحهم، ويحرضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدلونهم على طريق النجاة. وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم. قال صلى الله عليه و سلم : " ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله ". وأعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبؤة.وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشي أو إغماء في رأي العين وليست منهما في شيء؛ وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية. ثم يتنزل إلى المدارك البشرية: إما بسماع دوي من الكلام فيتفهمه؛ أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله. ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما القي إليه. قال صلى الله عليه و سلم ، وقد سئل عن الوحي: " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال؛ وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فاعي ما يقول ". ويدركه أثناء ذلك من

الشدة والغط ما لا يعبر عنه. ففي الحديث: " كان مما يعالج من التنزيل شدة ". وقالت عائشة: "كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا". وقال تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: 5]. ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون: له رئي أو تابع من الجن. وإنما ليس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال: {وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد: 33].ومن علاماتهم أيضاً انه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع. وهذا هو معنى العصمة. وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها؛ وكأنها منافية لجبلته. وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره، فانكشف،

فسقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره؛ ودعي إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس و لم يحضر شيئا من شأنهم؛ بل نزهه الله عن ذلك كله؛ حتى إنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة. فقد كان صلى الله عليه و سلم لا يقرب البصل والثوم، فقيل له في ذلك فقال: " إني أناجي من لا تناجون ".وانظر لما أخبر النبي صلى الله عليه و سلم خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما فجأته وأرادت اختباره، فقالت: " إجعلني بينك وبين ثوبك "؛ فلما فعل ذلك ذهب عنه؛ فقالت: " إنه ملك وليس بشيطان "؛ ومعناه انه لا يقرب النساء. وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها، فقال البياض والخضرة، فقالت إنه الملك؛ يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشر الشياطين وأمثال ذلك.ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف. وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه و سلم بذلك، وكذلك أبو بكر، و لم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه. وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي صلى الله عليه و سلم يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش، وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله، فكان

فيما سأل أن قال: بم يأمركم؟ فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه، فقال: "إن يكن ما تقول حقا فهو نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين ". والعفاف الذي أشار إليه هرقل هو العصمة. فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلا على صحة نبؤته، و لم يحتج إلى معجزة. فدل على أن ذلك من علامات النبؤة.ومن علاماتهم أيضاً أن يكونوا ذوي حسب في قومهم. وفي الصحيح: ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه ؛ وفي رواية أخرى "في ثروة من قومه "؛ استدركه الحاكم على الصحيحين وفي مساءلة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال: "كيف هو فيكم؛ "؛ قال أبو سفيان: "هو فينا ذو حسب "؛ فقال هرقل: "والرسل تبعث في أحساب قومها". ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته.ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم؛ وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل قدرتهم. وللناس في كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الأنبياء

خلاف.فالمتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي، وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم. وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدي بها بإذن الله؛ وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه و سلم قبل وقوعها على صدقه في مدعاه. فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق، وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية. فالمعجزة دالة بمجموع الخارق والتحدي؛ ولذلك كان التحدي جزءا منها. وعبارة المتكلمين "صفة نفسها" وهو واحد، لأنه معنى الذاتي عندهم.والتحدي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر، إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق،فلا وجود للتحدي إلا إن وجد اتفاقاً. وإن وقع التحدي في الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبؤة. ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحق وغيره وقوع

الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبؤة عند التحدي بالولاية. وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي، فلا لبس، على أن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحاً؛ وربما حمل على إنكار أن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه.وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد، وأفعالهم معتادة، فلا فرق.وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال. أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة، والهداية ضلالة، والتصديق كذباً، واستحالت الحقائق، وانقلبت صفات النفس؛ وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً. وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله.وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي، ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب؛ والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار؛ وإن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين. والنبي عندهم مجبول على التصريف في الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك. والخارق عندهم يقع للنبي سواء أكان للتحدي أو لم يكن؛ وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لا بأنه يتترل مترلة القول الصريح بالتصديق. فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين؛ ولا يكون التحدي جزءاً من المعجزة؛ ولم يصح فارقاً لها عن السحر والكرامة. وفارقها عندهم عن السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلم الشر بخوارقه؛ والساحر على الضد فأفعاله كفها شر، وفي مقاصد الشر. وفارقها عن الكرامة ان خوارق النبي مخصوصة

كالصعود إلى السماء، والنفوذ في الأجسام الكثيفة، وإحياء الموتى، وتكليم الملائكة والطيران في الهواء؛ وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء. ويأتي النبي بجميع خوارقه، ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء. وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عمن أخبرهم.وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المترل على نبينا محمد صلى الله عليه و سلم . فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه؛ والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز؛ فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي؛ فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه. وهذا معنى قوله صلى الله عليه و سلم : " ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحي إلي. فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "؛ يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التاج والأمة.

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة علي ما شرحه كثير من

المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم

شأن العرافين وغير ذلك من مدارك المغيب فنقول:

إعلم أرشدنا الله وإياك، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني. وأوّلاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدر صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض. وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً، ويستحيل بعض الأوقات . والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتّصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط؛ وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها. ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش، وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، و لم يوجد لهما إلا قوة اللّمس فقط. ومعني الاتصال. في هذه المكونات أن آخر أفق منها

مستعد بالاستعداد الغريب لان يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك،و لم ينته إلى الروية والفكر بالفعل؛ وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده. وهذا غاية شهودنا.ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة: ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر؛ وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام. فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها؛ وذلك هو النفس المدركة والمحركة. ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتصل بها أيضا، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً، وهو عالم الملائكة. فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لمحة من اللمحات؛ وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها، شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه. فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل: فهي متصلة بالبدن من أسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل؛ ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية، فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان. وهذا ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتّصال ذواته وقواه بعضها ببعض.ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن؛ فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة

ومفترقة آلات للنفس ولقواها، أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعاً. وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة

ومرتقية إلى القوة العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة؛ فقوى الحسّ الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرها يرتقي إلى الباطن، وأوله الحسّ المشترك؛ وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة؛ وبذلك فارقت قوة الحسّ الظاهر؛ لأن المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد. ثم يؤديه الحسّ المشترك إلى الخيال، وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرد عن المواد الخارجة فقط. وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الأول من الدماغ: مقدمة للأولى، ومؤخرة للثانية. ثم يرتقي الخيال إلى الواهمة والحافظة. فالواهمة لإدراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الأب وافتراس الذئب. والحافظة لإيداع المدركات كلّها متخيلة وغير متخيلة؛ وهي لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها. وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ: أوله للأولى، ومؤخره للأخرى. ثم ترتقي جميعها إلى قوة الفكر. وآلته البطن الأوسط من الدماغ، وهي القوة التي يقع بها حركة الرؤية والتوجه نحو التعقل؛ فتحرك النفس بها دائما لما ركب فيها من التروع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية، وتخرج إلى الفعل في تعقلها متشبهة بالملإ الأعلى الروحاني. وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية. فهي متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك. وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب، بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك.

أصناف النفوس البشرية:

والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف:صنفٌ عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية، وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن؛ وكلها خيالي منحصر نطاقه؛ إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأوليات ولا يتجاوزها، وإن فسد فسد ما بعدها. وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني. وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم. وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك؛ فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأوّل البشري، ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية، وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها. وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ.

الوحي

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلي، ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملإ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب

الإلهي في تلك اللمحة.وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، وهي حالة الوحي، فطرة **فطرهم الله عليها** وجبلة صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة، وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها. فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة.فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم، وتلقوا في ذلك الملإ الأعلى ما يتلقونه، وعاجوا به على المدارك البشرية متزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد. فتارة يسمع أحدهم دوياً كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي القي إليه، فلا ينقضي الدوي إلا وقد وعاه وفهمه. وتارة يتمثل له الملك- الذي يلقي إليه- رجلاً فيكلمه ويعي ما يقوله. والتلقي من الملك، والرجوع إلى المدارك البشرية، وفهمه

ما القي عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر، لأنه ليس في زمان، بل كفها تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة، ولذلك سميت وحياً؛ لأن الوحي في اللغة الإسراع.واعلم أن الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه؛والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين؛ ولذلك كانت أكمل من الأولى. وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه و سلم الوحي لما سأله الحارث بن هشام، وقال وكيف يأتيك الوحي؛ فقال: " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال؛ وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول ". وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتّصال من القوة إلى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه. وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال فعندما يعرج إلى المدارك البشرية، يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها وهو إدراك البصر. وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة؛ وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي، فمثل الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غب انقضائه، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي، المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم، والكلام يساوقه الوعي، فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد.واعلم أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة، وشدّة قد أشار إليها القرآن؛قال تعالى: {إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً} [سورة...الآية....] وقالت عائشة: "كان مما يعاني من التتريل شدة"؛ وقالت: كان يترل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً". ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط

ما هو معروف. وسبب ذلك أن الوحي كما قررناه مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقي كلام النفس، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر. وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبدأ الوحي في قوله: " فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا

بقارىء ، وكذا ثانية وثالثة " كما في الحديث. وقد يفضي الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله. ولذلك كان تترل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة. وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته؛ بعد أن كان بمكة يترل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت، ويترل الباقي في حين آخر. وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول؛ بعد أن كانت الآية تترل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها. واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكي والمدني من السور والآيات. والله المرشد للصواب. هذا محصل أمر النبوة.

الكهانة:

وأما الكهانة فهي أيضاً من خواص النفس الإنسانية. وذلك أنه وقد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا في التصورات، ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر.وإذا كان كذلك، وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشرية، فيعطي التقسيم العقلي، وأن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه، وشتان ما بينهما

فإذا أعطي تقسيم الوجود إلى هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها الترو ع لذلك وهي ناقصة عنه بالجبلة، فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة، كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيع له. وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة. ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات. ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة الجزئيات، فتنفذ فيها نفوذاً تاماً في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً. ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان. وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص، فيهجس في قلبه عن تلك الحركة، والذي يشيعها من ذلك الأجنبي، ما يقذفه على لسانه؛ فربما صدق ووافق الحق، وربما كذب، لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم، فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به. وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه، وتمويهاً على السائلين. وأصحاب هذا السجع هم المخصصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم. وقد قال صلى الله عليه و سلم في مثله: " هذا لمن سجع الكهان ". فجعل

السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة. وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالأخبار: كيف يأتيك الأمر؟ قال:" يأتيني صادقاً وكاذباً " فقال: " خلط عليك الأمر " يعني أن النبؤة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبي بالملإ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى

الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة في إدراكه، والتبست بالإدراك الذي توجه إليه، فصار مختلطاً بها، وطرقه الكذب من هذه الجهة، فامتنع أن تكون نبوة. وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات. وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتّصال والإدراك، والبعد فيه عن العجز بعض الشيء وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبؤة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة، وان ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن؛ والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين؛ فبطلت الكهانة من يومئذ.ولا يقوم من ذلك دليل؛ لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه. وأيضا فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة، ولم يمنعوا مما سوى ذلك. وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه، وهذا هو الظاهر؛ لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة، كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس؛ لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب.

وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة، ثم تنقطع؛ وهكذا مع كل نبؤة وقعت، لأن وجود النبؤة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه، وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبؤة التي دل عليها، ونقض ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة، وهو معنى الكاهن على ما قررناه. فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص، ويقتضي وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً. فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله، وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة، فلا يوجد منها شيء بعد. وهذا بناءً على أنّ بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره؛ وهو غير مسلم. فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقضي شيئاً، لا إنه يقتضي ذلك الأثر

ناقصاً كما قالوه.ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبؤة كما لكل إنسان من أمر اليوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم. ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبؤة لهم، فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ، وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم. فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأماني آمنوا أحسن إيمان؛ كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب؛ وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان.

ا لرؤيا:

وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات. فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها. وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية. وقد يقع لها ذلك لمحةً بسبب النوم كما نذكر، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلة وتعود به إلى مداركها. فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال. والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة، مستكملة بالبدن ومداركه؛ حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل؛ فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية. إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع

الملائكة أهل الأفق الأعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره. فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن: ومنه خاص كالذي للأولياء؛ ومنه عام للبشر على العموم؛ وهو أمر الرؤيا.وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات. ويخرج هذا

الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي؛ وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك يكون شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير. فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، وفي رواية ثلاثة وأربعين، وفي رواية سبعين. وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب؛ بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب. وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة، ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين، فكلام بعيد من التحقيق. لأنه إنما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه و سلم ، ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء؛ مع أن ذلك إنما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة، ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة. وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أوّلاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم؛ إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاما في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل. ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة. ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق، فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر

بالمطلوب. ولذلك جعلها الشارع من المبشرات، فقال:" لم يبق من النبؤة إلا المبشرات؛ قالوا وما المبشرات يا رسول الله؟ قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له "وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني، وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره. وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية. ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده، وتتم أفعال

القوى التي في بطونه. فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري، وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف؛ ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية، صار محلاً لآثار الذات المباينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة، وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته. وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين: إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس، وإدراك بالباطن بالقوى الدماغية. وان هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة. ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية، كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال، وتغشى الروح بكثرة التصرف. فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة. وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها، ورجوعه إلى الحمق الباطن. ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن، وتذهب من ظاهره إلى باطنه، فتكون مشيعة مركبها، وهو الروح الحيواني إلى الباطن. ولذلك كان النوم للبشر في الغالب أنما هو بالليل. فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة، تمثل منها

بالتركيب والتحليل صور خيالية، وأكثر ما تكون معتادة، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريبا. ثم يترلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة؛ فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة. وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية، فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه، وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ. ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة. والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير، وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام. وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم وسلم قال: " الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله؛ ورؤيا من الملك؛ ورؤيا من الشيطان ". وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه: فالجلي من الله؛ والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك؛ وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كفها باطل والشيطان ينبوع الباطل. هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواصر للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم، بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته مراراً غير واحدة، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم، ولا بد. وإذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الأحوال؛ لأن الذات المدركة واحدة، وخواصها عامة في كل حال. والله الهادي إلى الحق بمنه وفضله

الإخبار بالمغيبات:

ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالباً إنما هو من غير قصد ولا قدرة عليه؛ وإنما تكون النفس متشوفة لذلك الشيء فيقع لها بتلك اللمحة في النوم لا أنها تقصد إلى ذلك فتراه. وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف إليه، ويسمونها الحالومية. وذكر

منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سماها "حالومة الطباع التام "، وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية وهي

"تماغس بعد أن يسواد وغداس نوفنا غادس " ويذكر حاجته، فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم.وحكي أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليال في مأكله وذكره، فتمثل له شخص يقول له أنا طباعك التام، فسأله واخبره عما كان يتشوف إليه. وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء مراء عجيبة وأطلعت بها على أمور كنت أتشوف إليها من أحوالي. وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها؛ وإنما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا؛ فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب ولا يكون دليلا على إيقاع المستعد له. فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء؛ فاعلم ذلك وتديره فيما تجد من أمثاله. والله الخبير.

فصل:

ثم إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها، بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها؛ إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها؛ وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء، والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها.

وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها. وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب. وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة.ونحن الآن نتكلم على هذه الإدراكات كلها، ونبتدىء منها بالكهانة، ثم نأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها.

ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها.

وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل؛ وإنما تخرج من القوة إلى الفعل

بالبدن وأحواله. وهذا أمر مدرك لكل أحد. وكل ما بالقوة فله مادة وصورة. وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل. فهي توجد أوّلاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية. ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها، وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور، مرة بعد أخرى، حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل، فتتم ذاتها، وتبقى النفس كالهيولى، والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة. ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما. وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهو الإدراك والتعقل لم يتم بعد، بل لم يتم لها انتزاع الكليات. ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك: إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية، وإدراك بذاتها من غير

واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها، لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أوّلاً من الإدراك الجسماني. وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن، فيرتفع حجاب البدن لحظة: إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم، أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق، أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية. فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملإ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل. وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل، وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر. فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً. وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفها في القوالب المعتادة، ثم يراجع الحسّ بما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به. هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي. ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه: فأما الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها، وأهل الطرق بالحصى والنوى

فكلهم من قبيل الكهان، إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم، لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحسّ إلى كثير معاناة؛ وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها، وأشرفها البصر، فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه. وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك. بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم، فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات، فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه. وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال، وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك، وهو نفساني ليس من إدراك البصر، بل يتشكل به المدرك النفساني للحسّ كما هو معروف. ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها، وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك. وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد، ثم يخبر كما أدرك؛ ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة. وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين. والعالم أبو الغرائب.وأما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائراً، حيوان، والفكر فيه بعد مغيبه، وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئي أو مسموع. وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية؛ فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه؛ فيؤديه ذلك إلى إدراك ما، كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس إذ تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا.
وأما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن، لفساد أمزجتهم غالبا وضعف الروح الحيواني فيها، فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه؛ وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها، فيكون عنه التخبط. فإذ أصابه ذلك التخبط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه، غاب عن حسه جملة،

فأدرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال. وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق.وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل؛ لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحسّ إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه. ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك. وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال، فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه، ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك، ويدعون بذلك معرفة الغيب، وليس منه على الحقيقة.هذا تحصيل هذه الأمور. وقد تكلم عليها المسعودي في (مروج الذهب)، فما صادف تحقيقاً ولا إصابة. ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف، فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله.وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر. فقد كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم. وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك. واشتهر منهم في الجاهلية شق بن أنمار بن نزار، وسطيح بن مازن بن غسان، وكان يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلا الجمجمة. ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر، وما أخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم، وظهور النبوة المحمدية في قريش، ورؤيا الموبذان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس. وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم، قال:

فقلت لعراف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب

وقال الآخر:

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

فقالا شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة؛ وعراف نجد الأبلق الأسدي.ومن هذه المدارك الغبية، ما يصدر لبعض الناس، عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف إليه، بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع ذلك إلا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام؛ فيتكلم كأنه مجبور على النطق؛ وغايته أن يسمعه ويفهمه. وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك. ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع. وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك، أن آدميا إذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشؤون رأسه؛ فيخرج من ذلك الدهن؛ فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شي يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة. وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الإنساني ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة؛ فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية، ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس، ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها.

ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع. ومن المعلوم على القطع انه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلّعت النفس على ذاتها وعالمها. فيحاولون ذلك بالاكتساب، ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده، وتطلع النفس على المغيبات. ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم. وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند. ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة، والأخبار عنهم في ذلك غريبة وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن هذه المقاصد المذمومة

وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر، فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة. لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله؛ وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية. وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله؛ وإنما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب، وأخسر بها صفقة فإنها في الحقيقة شرك. قال بعضهم: "من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني ". فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشيء سواه. وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل فبالغرض وغير مقصود لهم. وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به؛ وإنما يريد الله لذاته لا لغيره. وحصول ذلك لهم معروف. ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفاً، وما يقع لهم من التصرف كرامة؛ وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم. وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها. والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " إن فيكم محدثين وإن منهم عمر ". وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه: "يا سارية الجبل ". وهو سارية بن زنيم، كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام، وكان بقربه جبل يتجهز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه: "يا سارية الجبل " وسمعه سارية وهو بمكانه، ورأى شخصه هنالك؛ والقصة معروفة. ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته

عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته، ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة. فقال في سياق كلامه: "وإنما هما أخواك وأختاك " فقالت: "إنما هي أسماء فمن الأخرى؛ " فقال: "إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية"، فكانت جارية. وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل. ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء. إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي؛ حتى إنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها. والله يرزقنا الهداية، ويرشدنا إلى الحق.

فصل

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق، مع أنهم غير مكلفين. ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب؛ لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب. وربما ينكر الفقهاء انهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم؛ والولاية لا تحصل إلا بالعبادة، وهو غلط؛ فإن فضل الله يؤتيه من يشاء؛ ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها. وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه. وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين؛ وإنما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف، وهي صفة خاصة للنفس، وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة مترله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة مترله

لم يبق له عذر في قبول التكاليف لإصلاح معاده. وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته؛ فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش؛ ولا استحالة في ذلك؛ ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف. وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم. ولك في تمييزهم علامات: منها أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما، لا يخلون عنها أصلاً من ذكر وعبادة، لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف؛ والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلاً. ومنها انهم يخلقون على البله من أول نشأتهم، والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية، فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة. ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم؛ والمجانين لا تصرف لهم.وهذا فصل انتهى بنا الكلام إليه؛ والله المرشد للصواب.

فصل

وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب، من دون غيبة عن الحسّ: فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك، وآثارها في العناصر، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء. وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شي؛ إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس. ونحن نبين بطلان ذلك في محله إن شاء الله. وهو لوثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء.ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم. ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما، فكانت ستة عشر

شكلاً؛ لأنها إن كانت أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلان؛ وإن كان الفرد فيهما في مرتبة واحد؛ فقط فأربعة أشكال؛ وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال؛ وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال. جاءت ستة عشر شكلاً ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس، شأن الكواكب، وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم، وكأنها البروج الاثنا عشر التي للفلك والأوتاد الأربعة، وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به، واستنبطوا من ذلك فناً حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه. إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما زعم بطليموس، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية، ولا دليل يقوم على شيء منها. ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم، وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما، شأن الصنائع كلها. وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله عليه و سلم : " كان نبي يخط، فمن وافق خطه فذاك ". وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه، لأن معنى الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط، ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء، فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك، أي فهو صحيح من ين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط. وأما إذا اخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحي فلا. وهذا معنى الحديث والله . فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع، ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطراً. ثم يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب، فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية؛ ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة

وما قابلها من الشكل الذي بإزائه؛ وما يجتمع منهما من زوج أو فرد، فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر؛ ثم يولدون من كل شكلين شكلاً تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها؛ ثم يولدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها؛ ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتهما؛ ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر الستة عشر. ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات، والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً. وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين، وهي كما رأيت تحكم وهوى. والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحسّ إلى عالم الروح. ولذلك يسمي المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب. فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحسّ لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما، فهو من باب الطرق بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما

ذكرناه. وإن لم يكن كذلك، وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل. والله يهدي من يشاء. والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي انهم عند توجههم إلى تعرف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمالك ومبادىء الغيبة عن الحسّ، ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم. فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء وإنما هو ساع في تنفيق كذبه.

فصل

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذي هو

من مدارك النفس الروحانية، ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس، ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون؛ وإنما هي مغالط يجعلونها كالمصائد لأهل العقول المستضعفة. ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص. فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو، يعرف به الغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك. وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد إلى

الألف آحادا وعشرات ومئين وألوفا. فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك. ثم اطرح من كل واحد منهما تسعة تسعة، واحفظ بقية هذا وبقية هذا. ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين: فإن كان العددان مختلفين في الكلية وكانا معا زوجين أو فردين معا فصاحب الأقل منهما هو الغالب؛ وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب؛ وإن كانا متساويين في الكمية وهما معا زوجان فالمطلوب هو الغالب؛ وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب. ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما:

أرى الزوج والأفراد يسمو أقلها وأكثرها عند التخالف غالب

ويغلب مطلوب إذا الزوج يستوي وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم في

طرح تسعة، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الأربع وهي: (ا) الدالة على الواحد و(ي) الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و(ق) الدالة على المائة لأنها واحد في مرتبة المئين و(ش) الدالة على الألف لأنها واحد في مرتبة الآلاف. وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف، لأن الشين هي آخر حروف أبجد. ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي (ايقش). ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد، فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف: وهي (ب) الدالة على اثنين

في الآحاد و(ك) الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و(ر) الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان؛ وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي (بكر). ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة (جلس). وكذلك إلى آخر حروف أبجد. وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد (وهي: إيقش، بكر، جلس، دمت، هنث، وصخ، زعد، حفظ، طضغ). مرتبة على توالي الأعداد، ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته، فالواحد لكلمة ايقش؛والاثنان لكلمة بكر؛ والثلاثة لكلمة جلس؛ وكذلك إلى التاسعة التي هي طضغ، فتكون لها التسعة. فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات؛ واخذوا عددها مكانه، ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها، وإلا أخذوه كما هو، ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه. والسر في هذا القانون بين. وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد بطرح تسعة إنما هو واحد؛ فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة؛ فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان؛ وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة. فوضعت الأعداد على التوالي دالة على أعداد العقود لا غير؛ وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف، وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء د ل على الآحاد أو العشرات أو المئين؛ فيوجد عدد كل كلمة عوضاً عن الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه. هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها، ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء؛ وهي هذه: ارب، يسقك، جزلط، مدوص، هف، تحذن، عش، خغ، ثضظ؛ تسع كلمات على توالي العدد، ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته؛ فيها الثلاثي والرباعى والثنائي. وليست جارية على أصل مطرد كما تراه. لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيمياء وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء، ويقولون عنه إن العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات أيقش. والله اعلم كيف ذلك.وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق. والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان؛ يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ اهـ ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة "بزايرجة العالم " المعزوة إلى أبي العباس سيدي أحمد السبتي من أعلام المتصوفة بالمغرب، كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين. وهي غريبة العمل صناعة. وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز؛ فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه. وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم. وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها: إما

البروج وإما العناصر أو غيرهما. وخطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسموها الأوتار. وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة، فمنها برشوم الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد، ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرجة. وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان. وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض، ومائة وواحد وثلاثين في الطول، جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد

وأخرى بالحروف، وجوانب خالية البيوت. ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية. وحافات الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روي اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة. إلا أنها من قبيل الألغاز في عدم الوضوح والجلاء. وفي بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب، وهو مالك بن وهيب من علماء أشبيلية كان في الدولة اللمتونية ونص البيت:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن   غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرجة وغيرها. فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً، ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها، وعمدوا إلى الزايرجة ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أولي ماراً إلى المركز، ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع. فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره، والأعداد المرسومة بينهما، ويصيرونها حروفاً بحساب الجمل. وقد ينقلون آحادها إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم. ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط. ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى. يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم، وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم، ويضعونها ناحية؛ ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج. واسه عند هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب؛ فإنه عندهم البعد عن أول المراتب. ثم

يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر والدور الأصلي. ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة، وأعمال مذكورة؛ وأدوار معدودة. ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى. ويقابلون معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال، وما معها؛ يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار؛ ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور، يعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندهم لذلك؛ فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرجة.وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافتون على

استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع. وليس ذلك بصحيح؛ لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة؛ و المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الأفهام والتوافق في الخطاب- يكون الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال. ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار. والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك الأدوار المعدودة، ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي، غير مستنكر. وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول.فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس، وطريق لحصوله، ولا سيما من أهل الرياضة، فإنها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر. وقد مر تعليل ذلك غير مرة.ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة في الغالب لأهل الرياضة؛ فهي منسوبة للسبتي. ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله. ولعمري إنها من الأعمال الغريبة

والمعاناة العجيبة، والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوماً يظهر لي إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت. ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه. ويدل عليه أنا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه. وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه إلى المطلوب، فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والإيهامات، وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار، ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون، ثم يجيء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة. وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور من فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات، والتفاوت بين المدارك والعقول. ولكن من شأن كل مدرك إنكار ما ليس في طوقه إدراكه. ويكفينا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي؛ فإنها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء وحدس. وإذا كان كثير من المعاياة في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم إدراكه لبعد النسبة فيه و خفائها ، فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها. فلنذكر مسئلة من المعاياة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا. مثاله: لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بإزاء كل درهم ثلاثة من الفلوس؛ ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً؛ ثم اشتر بالدراهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر؛ فكم الطيور المشتراة بالدراهم والفلوس؛ فجوابه أن تقول هي تسعة. لأنك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون؛ وأن الثلاثة ثمنها وأن عدة أثمان الواحد ثمانية، فإذا جمعت الثمن من الدراهم إلى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد، وتزيد على الثمانية طائراً آخر وهو المشترى بالفلوس المأخوذة أولاً، وعلى سعره اشتريت بالدراهم؛ فتكون تسعة فأنت ترى

كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين أعداد المسألة والوهم أول ما يلقي إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها. وهذا إنما فوق الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم. وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته. وإذا تبين لك ذلك فالأعمال الواقعة في الزايرجة كلها إنما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لأنها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك إنما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض. فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين. والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات وليس هذا من المقام الأول؛ بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج. ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه؛ وقد استأثره الله بعلمه {والله يعلم وأنتم لا تعلمون}.

الباب الثاني

في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل

وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الأول

في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

إعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش؛فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي. فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة؛ ومنهم من

ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بد، إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك. فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم؛ وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك.ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر. ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلقون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من

ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون، أهل الأمصار والبلدان. ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو؛ لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم. فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منهما كما قلناه.

الفصل الثاني

في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه؛ وقد يأوون إلى الغيران والكهوف. وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار. فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن؛ وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال، وهم عامة البربر والأعاجم. ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم؛ فالتقلب في الأرض أصلح بهم؛ ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر؛ ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة؛ وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة. وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله؛ إذ الإبل أصعب الحيوان فصالاً

ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفء فاضطروا إلى إبعاد النجعة. وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً، فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم؛ فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم؛ وهؤلاء هم العرب، وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق. إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط؛ وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها. فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لهما

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما

فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه؛ لان الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه. فالبدو أصل للمدن والحضر

وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها. ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة. وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم. والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته.ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر

ومتقدم عليه، أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وانهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وانها أصل لها، فتفهمه. ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه: فرب حي أعظم من حي، وقبيلة أعظم من قبيلة؛ ومصر أوسع من مصر، ومدينة أكثر عمراناً من مدينة. فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها؛ بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية، والله اعلم.

الفصل الرابع

في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر؛ قال صلى الله عليه و سلم : " كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ". وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه: فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه؛ وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده. وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصدهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً. وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في

الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم علي نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر اقل بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها؛ فيسهل علاجهم عن علاج الحضر، وهو ظاهر. وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير. فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر. والله يحب المتقين.ولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسلمة بن الأكوع وقد بلغه انه خرج إلى سكني البادية،

فقالى له: "ارتددت على عقبيك؛ تعربت؛ " فقال: "لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه و سلم أذن لي في البدو". فاعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه و سلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه، و لم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية؛ لأن أهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه و سلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب. وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة. وقال صلى الله عليه و سلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة: " اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم "؛ ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها، فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدؤوا بها، وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه. وقيل إن ذلك كان خاصاً بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين؛ وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ، لقوله صلى الله عليه و سلم " لا هجرة بعد الفتح " وقيل سقط إنشاؤها عمن يسلم بعد الفتح. وقيل سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح. والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة لأن الصحابة افترقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا و لم

يبق إلا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة. فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك؛ تعربت؛ نعى عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه، وهو قوله: " ولا تردهم على أعقابهم ". وقوله تعربت إشارة إلى انه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون. وأجاب سلمة بإنكار ما الزمه من الأمرين، وان النبي صلى الله عليه و سلم أذن له في البدو. ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمة وعناق أبي بردة. ويكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكني بالمدينة فقط، لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة، وأجابه سلمة بأن اغتنامه لإذن النبي أولى وافضل؛ فما آثره به واختصه إلا لمعنى علمه فيه. وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب؛ لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه و سلم وحراسته، لا لمذمة البدو. فليس في النعي عليه ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب. والله سبحانه أعلم وبه التوفيق.

الفصل الخامس

في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم، فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد؛ فهم غارون آمنون، قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزلوا منزلة

النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم؛ حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة. وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون

بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبآت والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء، مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم؛ قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ. وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من أكل أنفسهم. وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشار السبل. وسبب ذلك ما شرحناه. وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبية ومزاجه. فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة تترل مترلة الطبيعة والجبلة. واعتبر ذلك في الآدميين تجد كثيرا صحيحاً. والله يخلق ما يشاء.

الفصل السادس

في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه؛ إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم؛ فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره، ولا بد فإن كانت الملكة رفيقة وعادلة، لا يعاني منها حكم ولا منع وصد كان الناس من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع، حتى صار لهم الإدلال جبلة لا يعرفون سواها.أما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم، لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه. وقد نهى عمر سعدا رضي الله عنهما عن مثلها، لما أخذ زهرة بن جوبة سلب الجالنوس، وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب، وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه، فانتزعه منه سعد وقال له: "هلا انتظرت في اتباعه إذني؛ " وكتب إلى عمر يستأذنه؛ فكتب إليه عمر: "تعمد إلى مثل زهرة وقد صلي بما صلي به، وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه " وأمضى له عمر سلبه.وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للباس بالكلية؛ لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك. وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه علي المخافة والانقياد

فلا يكون مدلاً ببأسه. ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو اشد بأساً ممن تأخذه الأحكام. ونجد أيضاًالذين يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من باسهم كثيراً، ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه. وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة؛ فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس.ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة، ولم ينقص ذلك من بأسهم، بل كانوا أشد الناس بأساً،لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم، لما تلا عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب

تعليمي؛ إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق. فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة، كما كانت و لم تخدشها أظفار التأديب والحكم. قال عمر رضي الله عنه: "من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله "، حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحدٍ من نفسه ويقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد.ولما تناقص الدين في الناس واخذوا بالأحكام الوازعة، ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس إلى الحضارة وخلق الانقياد إلى الأحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم.فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للباس لأن الوازع فيها أجنبي؛وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي. ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم؛ والبدو بمعزل عن هذه المترلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب. ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين: "إنه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحداً من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواطٍ "؛ نقله عن شريح القاضي

واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط وأنه كان ثلاث مرات؛ وهو ضعيف، ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلاً على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف. والله الحكيم الخبير.

الفصل السابع

في أن سكني البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية

إعلم أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر، كما قال تعالى:

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: 10]، وقال: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: 8]. والشر أقرب الخلال إليه إذا أهمل في مرعى عوائده و لم يهذبه الاقتداء بالدين. وعلى ذلك الجم الغفير، إلا من وفقه الله. ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض. فمن امتدت عينة إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع كما قال:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد   ذا عفة فلعلة لا يظلم

فأما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض، أو يعدو عليه؛ فإنهما مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم، إلا إذا كان من الحاكم بنفسه. وأما العدوان من الذي خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة ليلاً أو العجز عن المقاومة نهاراً، أو يدفعه ازدياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة. وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وفر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة. وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم. ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسبٍ واحدٍ؛ لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم؛ إذ نعرة كل أحدٍ على نسبه وعصبيته أهم؛ وما جعل الله في قلوب

عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم، واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام، حين قالوا لأبيه: {لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ} [يوسف: 14]؛ والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحدٍ مع وجود العصبة له.وأما المتفردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحداً منهم نعرة على صاحبه، فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشاً من التخاذل. فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذٍ طعمة لمن يلتهمهم من الأمم سواهم.وإذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبؤة أو إقامة ملك أو دعوةٍ؛ إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه، لما في طبائع البشر من الاستعصاء، ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفاً؛ فاتخذه إماماً تقتدي به فيما نورده عليك بعد. والله الموفق للصواب.

الفصل الثامن

في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه

وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل. ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة. فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك: نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا. فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة؛ فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها. وإذا بعد النسب بعض الشيء فربما

تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه، فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه. ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل أحدٍ على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب؛ وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها. ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه و سلم : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم "؛ بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه، إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له؛ ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام. فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه. وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجاناً، ومن أعمال اللهو المنهي عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر؛ بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس، وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ. والله سبحانه وتعالى اعلم.

الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر

من العرب ومن في معناهم

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة؛ وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره

ونتاجها في رماله كما تقدم، والقفر مكان الشظف والسغب؛ فصار لهم إلفاً وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقاً وجبلة، فلا يترع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال. بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه؛ فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها، ولا تزال بينهم محفوظة. واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة؛ لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب. وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم. ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف. وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم. وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم؛ وإنما هذا للعرب فقط. قال عمر رضي الله تعالى عنه: "تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا". هذا إلى ما لحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصيبة؛ فكثر الاختلاط وتداخلت الأنساب. وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتماء إلى المواطن، فيقال جند قنسرين، جند دمشق، جند العواصم، وانتقل ذلك إلى الأندلس؛ و لم يكن لاطراح العرب أمر النسب، وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها، وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم. ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم

وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت. ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها؛ وبقي ذلك في البدو كما كان. والله وارث الأرض ومن عليها.

الفصل العاشر

في اختلاط الأنساب كيف يقع

إعلم أنه من البين أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجناية أصابها، فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال. وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد؛ لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان

أحكامهم وأحوالهم عليه، وكأنه التحم بهم. ثم إنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر. وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم. وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك. ومنه شأن بجيلة

في عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الإعفاء منه، وقالوا هو فينا لزيق، أي دخيل ولصيق، وطلبوا أن يولي عليهم جريراً. فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة: "صدقوا يا أمير المؤمنين، أنا رجل من الأزد أصبت دما في قومي ولحقت بهم ". وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدهم ودعي بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم، لولا علم بعضهم بوشائجه؛ ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسي بالجملة وعد منهم بكل وجه ومذهب. فافهمه واعتبر سر الله في خليقته. ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود. والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه.

الفصل الحادي عشر

في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

إعلم أن كل حى أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم

أيضاً عصبيات أخرى لانساب خاصة هى أشد التحاماً من النسب العائم لهم، مثل عشيرٍ واحدٍ أو أهل بيتٍ واحدٍ أو إخوة بني أبٍ واحدٍ لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين. فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العائم. والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة. والرئاسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل. ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها. فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم؛ إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرئاسة. فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه، لما قلناه من سر الغلب. لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية. ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه.

الفصل الثاني عشر

في أن الرئاسة علي أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه.فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدةً، أن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم اقروا بالإذعان والاتباع. والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنما هو ملصق لزيق، وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة، وإذا فرضنا انه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الأول من الالتصاق، ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم، فكيف له الرئاسة قبل هذا الالتحام أو لأحدٍ من سلفه. والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية. فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرئاسة حينئذ؛ فكيف

تنوقلت عنه، وهو على حال الإلصاق والرئاسة لا بد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية. وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنسابٍ يلهجون بها، أما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعةٍ أو كرم، أو ذكر كيف اتفق؛ فيترعون إلى ذلك النسب، ويتورطون بالدعوى في شعوبه؛ ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رئاستهم والطعن في شرفهم. وهذا كثير في الناس لهذا العهد.فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة أنهم من العرب. ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامرٍ أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد

منهم، لحق جدهم ببني عامرٍ نجاراً يصنع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم، ويسمونه الحجازي.ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توجين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة في هذا النسب الشريف وغلطاً باسم العباس بن عطية، أبي عبد القوي. ولم يعلم دخول أحدٍ من العباسيين إلى المغرب، لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الأدارسة والعبيديين؛ فكيف يكون من سبط العباس أحد من شيعة العلويين؟ وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن إدريس، ذهاباً إلي ما اشتهر في نسبهم أنهم من ولد القاسم، فيقولون بلسانهم الزناتي أنت القاسم أي بنو القاسم، ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن إدريس أو القاسم بن محمد بن إدريس. ولو كان ذلك صحيحاً فغاية القاسم هذا أنه فر من مكان سلطانه مستجيراً بهم، فكيف تتم له الرئاسة عليهم في باديتهم وإنما هو غلط من قبل اسم القاسم؛ فإنه كثير الوجود في الأدارسة، فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب؛ وهم غير محتاجين لذلك، فإن منالهم للملك والعزة إنما كان بعصبيتهم، ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الأنساب. وإنما يحمل على هذا المتقربون إلى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد. ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤثل سلطانهم، انه لما قيل له ذلك أنكره، وقال بلغته الزناتية ما معناه: أما الدنيا والملك فنلناهما بسيوفنا لا بهذا النسب، وأما نفعه في الآخرة فمردود إلى الله. وأعرض عن التقرب إليه بذلك.ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ وبنو سلامة شيوخ بني يدللتن من توجين أنهم من سليم والزواودة شيوخ رياح أنهم من أعقاب البرامكة؛ وكذا بنو مهنى أمراء طيىء بالمشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم، وأمثال ذلك كثير؛ ورئاستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الأنساب كما ذكرناه؛ بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك

النسب وأقوى عصبياته. فاعتبره واجتنب المغالط فيه. ولا تجعل من هذا الباب إلحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية، فإن المهدي لم يكن من منبت الرئاسة في هرثمة قومه، وإنما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين، ودخول قبائل المصامدة في دعوته؛ وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم. والله عالم الغيب والشهادة.

الفصل الثالث عشر

في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لأهل العصبية

ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال؛ ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافاً مذكورين، تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلةّ في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلالهم. والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن؛ قال صلى الله عليه و سلم : " الناسُ معادن: خيارهم في الجاهليَّة خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا ". فمعنى الحسب راجعٌ إلى الأنساب. وقد بيَّنا أن ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنعرة والتناصر؛ فحيث تكون العصبية مرهوبةً ومخشية والمنبت فيها زكيّ محميٌّ تكون فائدة النَّسب أوضح وثمرتها أقوى. وتعديد الأشراف من الآباء زائدٌ في فائدتها؛ فيكون الحسب والشرف أصليَّين في أهل العصبيّة لوجود ثمرة النسب. وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبيَّة؛ لأنه سرُّها. ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصار بيت إلاَّ بالمجاز؛ وإن توهموه فزخرف من الدَّعاوى. وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأمصار، وجدت معناه أن الرجل منهم يعدُّ سلفاً في خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون إلى العافيَّة ما استطاع؛ وهذا مغاير لسر العصبيَّة التي هي ثمرة النَّسب وتعديد الآباء؛ ولكنه يطلق عليه حسب وبيت

بالمجاز، لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه؛ وليس حسباً بالحقيقة وعلى الإطلاق؛ وإن ثبت أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغويِّ فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى.وقد يكون للبيت شرف أوَّلّ بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم، ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم . من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها في شيء، لذهاب العصبيَّة جملةً. وكثير من أهل الأمصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لأوَّل عهدهم موسوسون بذلك. وأكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل. فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت:أوَّلا لما تعدَّد في سلفهم من الأنبياءِ والرسل من لدُنْ إبراهيم عليه السلام، إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم؛ ثم بالعصبيَّة ثانياً وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به. ثم انسلخوا من ذلك أجمع، وضربت عليهم الذِّلة والمسكنة، وكتب عليهم الجلاءُ في الأرض، وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافاً من السنين. وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم فتجدهم يقولون: هذا هارونيٌّ؛ هذا من نسل يوشع؛ هذا من عقب كالب؛ هذا من سبط يهوذا؛ مع ذهاب العصبيَّة ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة. وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان. وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لَّما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلّم الأوَّل. "والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة" و لم يتعرض لما ذكرناه. وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عصابةٌ يرهب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكأنَّه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط. مع أن الخطابة إنَّما هي استمالة من تؤثَر استمالته وهم أهل الحلّ والعقد. وأما من لا قدرة له البتَّة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو. وأهل الأمصار من الحضر بهذه المثابة؛ إلاَّ أن ابن رشدٍ رَبَا في جبلٍ وبلدٍ لم يمارسوا العصبيَّة ولا أنسوا أحوالها؛ فبقي في

أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق، و لم يراجع فيه حقيقة العصبيّة وسرَّها في الخليقة. والله بكل شيء عليمٌ .

الفصل الرابع عشر

في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالأصالة، والحقيقة إنما هو لأهل العصبية. فإذا اصطنع

أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي، والتحموا بهم كما قلناه، ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبتهم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها؛ كما قال صلى الله عليه و سلم : " مولى القوم منهم "؛ وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف، وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية، إذ هي مباينة لذلك النسب، وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر، وفقدانه أهل عصبيتها، فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم. فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه إلى شرفهم، بل يكون أدون منهم على كل حال.وهذا شان الموالي في الدول والخدمة كلهم؛ فإنهم إنما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها، وتعدد الآباء في ولايتها. ألا ترى إلى موالي الأتراك في دولة بني العباس، وإلى بني برمك من قبلهم، وبني نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والأصالة بالرسوخ في ولاء الدولة. فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب في الفرس. وكذا موالي كل

دولة وخدمها إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والأصالة في اصطناعها. ويضمحل نسبه الأقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في أصالته ومجده. وإنما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه إذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف؛ فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه وبناؤه من بنائهم، فلم ينفعه نسب ولادته؛ وإنما بنى مجده نسب الولاء في الدولة، ولحمة الاصطناع فيها، والتربية. وقد يكون نسبه الأول في لحمة عصبيته ودولته، فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه الأولى لذهاب عصبيتها. وانتفع بالثانية لوجودها. وهذا حال بني برمك، إذ المنقول أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم، ولما صاروا إلى ولاء بني العباس لم يكن بالأول اعتبار، وإنما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم. وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له. والوجود شاهد بما قلناه. و{إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [سورة...الآية...]. والله ورسوله أعلم.

الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة اباء

إعلم أن العالم العنصريّ بما فيه كائن فاسد، لا من ذواته ولا من أحواله. فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات: الإنسان وغيره، كائنة فاسدة بالمعاينة. وكذلك ما يعرض لها من الأحوال، وخصوصاً الإنسانية.

فالعلوم تنشأ ثم تدرس، وكذا الصنائع وأمثالها. والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين؛ فهو كائن فاسد لا محالة. وليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه، إلا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه و سلم كرامة به وحياطة على السر فيه. وأول كل شرف خارجية كما قيل، وهي الخروج عن الرئاسة والشرف إلى الضعة

والابتذال وعدم الحسب، ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه، شأن كل محدث.ثم إن نهايته أربعة آباء، وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هم أسباب كونه وبقائه. وابنه من بعده مباشر لأبيه، قد سمع منه ذلك وأخذه عنه، إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاين له. ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد. ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم، وليس بعصابة ولا بخلال، لما يرى من التجلة بين الناس، ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها، ويتوهم أنه النسب فقط؛ فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته، ويرى الفضل له عليهم وثوقاً بما ربي فيه من استتباعهم، وجهلاً بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم، والأخذ بمجامع قلوبهم. فيحتقرهم بذلك؛ فينغصون عليه، ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت، ومن فروعه في غير ذلك العقب للإذعان لعصبيتهم كما قلناه، بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله. فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الأول، وينهدم بناء بيته. هذا في الملوك؛ وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل العصبية أجمع؛ ثم في بيوت أهل الأمصار إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [إبراهيم: 19، 20].واشتراط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب وإلا فقد يدثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم. وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس، إلا أنه في انحطاط وذهاب. واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بان؛ ومباشر له؛ ومقلد؛ وهادم. وهو اقل ما يمكن. وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء. قال صلى الله عليه و سلم : " إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن

يعقوب+ بن إسحق بن إبراهيم "، إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد. وفي التوراة ما معناه: أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع وهذا يدل على أن الأربعة الأعقاب غاية في الأنساب والحسب.ومن كتاب الأغاني في أخبار عزيف الغواني أن كسرى قال للنعمان: هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة. قال: نعم؛ قال: بأي شيء؛ قال: من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، فالبيت من قبيلته؛ وطلب ذلك فلم يجده إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري، وهم بيت قيس، وآل ذي الجدين بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وآل حاجب بن زرارة، وآل قيس بن عاصم المنقري من بني تميم، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول. فقام حذيفة بن بدر، ثم الاشعث بن قيس لقرابته من النعمان، ثم بسطام بن قيس بن شيبان، ثم حاجب بن زرارة، ثم قيس

بن عاصم، وخطبوا ونثروا. فقال كسرى: كلهم سيد يصلح لموضعه. وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم، ومعهم بيت بني الذبيان من بني الحارث بن كعب اليمني. وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية في الحسب. والله أعلم.

الفصل السادس عشر

في أن الأمم الوحشية أقدر علي التغلب ممن لما سواها

إعلم انه كانت البداوة سبباً في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة، لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر، فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم؛ بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك

باختلاف الأعصار. فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم. واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر إذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها، كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها؛ وكذلك الآدمي المتوحش إذا أنس وألف. وسببه أن تكون السجايا والطبائع إنما هو عن المألوفات والعوائد. وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصبية. وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين إلى الملك والنعيم، ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه، لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم، كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب، فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم. وهذا حال بني طيء وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم، لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مصر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم، كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلفها مذاهب الترف حتى صاروا أغلب على الأمر منهم. وكذا كل حي من العرب يلي نعيماً وعيشاً خصباً دون الحي الآخر. فإن الحي المتبدي يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافآ في القوة والعدد. سنة الله في خلقه.

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك

وذلك لأنا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع

عليه؛ وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية، وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة؛لأن الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر في أحكامه؛ وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية

التي يكون بها متبوعاً. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت. ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها، تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع: { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض }.[سورة البقرة الآية 251] ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافاتها أو مانعتها كانوا أقتالاً وأنظاراً، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها، شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً، وزادتها قوة في التغلب

إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائماً حتى تكافىء بقوتها قوة الدولة: فإن أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها؛ وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة، وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها. وذلك ملك آخر دون الملك المستبد، وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس، ولصنهاجة وزناتة مع كتامة، ولبني حمدان مه ملوك الشيعة من العلوية والعباسية.فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك، إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك. وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت في مقامها إلى أن يقضي الله بأمره.

الفصل الثامن عشر

في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهمٍ وحصةٍ بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها. فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه، أذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها؛ ولم تسم آمالهم إلى شيء في منازع الملك ولا أسبابه، إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني

والملابس، والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك. فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة، ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة. وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية، حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم يتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية، فيأذنون بالانقراض. وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن الفلك؛ فإن عوارض التعرف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب. وإذا انقرضت العصبية قصر

القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة، والتهمتهم الأمم سواهم. فقد تبين أن الترف من عوائق الملك. والله يؤتي ملكة من يشاء.

الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلي سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدها؛ فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدالها؛ فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة.

واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام؛ وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها، كيف عجزوا عن ذلك، وقالوا: {إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا} [المائدة: 22]، أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى. ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا} [المائدة: 24]. وما ذلك إلا لما أنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة

والمطالبة كما تقتضيه الآية، وما يؤثر في تفسيرها؛ وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقاباً، حتى ذهبت العصبية منهم جملة؛ مع الهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم، وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدره لهم؛ فاقصروا عن ذلك، وعجزوا تعويلاًعلى ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة، لما حصل لهم من خلق المذلة، وطعنوا فيما اخبرهم به نبيهم من ذلك، وما أمرهم به. فعاقبهم الله بالتيه، وهو أهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران، ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً، كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه. ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة، وتخلقوا به وافسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة؛ فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها علي المطالبة والتغلب. ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنةً أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر. سبحان الحكيم العليم.وفي هذا أوضح دليل علي شأن العصبية، وألها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله. ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب. فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه؛ لأن في المغارم والضرائب ضيماً ومذلةً لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونته عن القتل والتلف، وأن عصبيتها حينئذٍ ضعيفة عن المدافعة والحماية؛ ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل، والمذلة عائقة كما قدمناه. ومنه قوله صلى الله عليه و سلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث فيم بعض دور الأنصار: " ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل "

فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة. هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر. فإذا رأيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناتة بالمغرب كانوا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك. وهو غلط فاحش كما رأيت؛ إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا لمت لهم دولة. وانظر فيما قاله شهربراز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه، وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له، فقال، أنا اليوم منكم يدي في أيديكم، وصعري معكم فمرحباً بكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحثون، ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كافٍ.

الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لما كان الملك طبيعياً للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه، وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوَّته الناطقة العاقل، لأن الشر إنماجاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه، وأما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب، والملك والسياسة إنما كانا له من حيث هو إنسان، لأنها خاصة للإنسان لا للحيوان؛ فإذا خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والفلك، إذ الخير هو المناسب، للسياسة. وقد ذكرنا أن المجد له اصل يبني عليه، وتتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير، وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال. وإذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها، وهي الخلال؛ لأن وجوده دون

متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عرياناً بين الناس. وإذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والأحساب، فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق، وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم؛ وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع؛ وأحكام البشر إنما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره، فإنه فاعل للخير والشر معاً ومقدرهما إذ لا فاعل سواه. فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ إحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق، ووجدت فيه الصلاحية لذلك.وهذا البرهان أوثق من الأول وأصح مبنى. فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية. فإذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأمم، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات، والاحتمال من غير القادر، والقرى للضيوف، وحمل الكل وكسب المعدم، والصبر على المكاره والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها، والوقوف عندها يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم، ورغبة الدعاء منهم، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم، والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم، والتبدل

في أحوالهم، والانقياد للحق والتواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين، والتدين بالشرائع والعبادات، والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم، أو على العموم، وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب

لعصبيتهم وغلبهم، وليس ذلك سدى فيهم، ولا وجد عبثاً منهم؛ والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم؛ فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم. وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل، وسلوك طرقها؛ فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك، وجعل في أيديهم من الخير: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: 16]. واستقرىء ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه. والله يخلق ما يشاء ويختار.واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبية- وتكون شاهدة لهم بالملك- إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم. وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية، ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه. وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم، ويتمحض القصد فيهم انه للمجد، وانتحال الكمال في الخلال والإقبال على السياسة بالكلية. لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه؛ وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة. فالصالحون للدين، والعلماء للجاءي إليهم في إقامة مراسم الشريعة، والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم؛ والغرباء من مكارم الأخلاق؛ وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل. فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك، وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها. ولهذا كان أول ما يذهب

من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق. فإذا رأ يته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم، وارتقب زوال الملك منهم: {وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له }[سورة ....الآية ..] والله تعالى أعلم

الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه، واستعباد الطوائف، لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم، وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكراد والتركمان وأهل اللثام من صنهاجة. وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه، ولا بلد

يجنحون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء. فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يطفرون إلى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية. وانظر ما يحكى في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين القراء المهاجرون عن موعد الله، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: 9]. واعتبر ذلك أيضاً بحال العرب السالفة من قبل، مثل التبابعة وحمير، كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى. ولم يكن ذلك لغير

العرب من الأمم. وكذا حال الملثمين من المغرب لما نزعوا إلى الملك طفروا من الإقليم الأول، ومجالاتهم منه في جوار السودان، إلى الإقليم الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة. وهذا شأن هذه الأمم الوحشية. فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً، وأبعد من مراكزها نهايةً. {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [المزمل: 20] وهو الواحد القهار لا شريك له.

الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة

فلا بد من عوده إلي شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سورة الغلب والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم، فيتعين منهم المباشرون للأمر الحاملون سرير الملك. ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التي تجدع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة. فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم، وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيل، وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها. وبقي الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم، وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه. فإذا استولت على الأولين الأيام، وأباد غضراءهم الهرم فطبختهم الدولة، وأكل الدهر عليهم وشرب، بما أرهف النعيم من حدهم واستقت غريزة الترف من مائهم، وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الإنساني والتغلب السياسي(،شعر):

كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذٍ عصبية الآخرين موفورة، وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم في الغلب معلومة؛ فتسمو آمالهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم، وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم، فيستملون على الأمر ويصير إليهم. وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضاً منتبذاً عنه من عشائر أمتهم، فلا يزال الملك ملجئاً في الأمة إلا أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها. سنة الله في الحياة الدنيا، {والآخرة عند ربك للمتقين }[سورة الزخرف آخر الآية 35] واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود، ومن بعدهم إخوانهم العمالقة ومن بعدهم إخوانهم من حمير، ومن

بعدهم إخوانهم التبابعة من حمير أيضاً، ومن بعدهم الآذواء كذلك، ثم جاءت الدولة لمضر. وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية، ملك من بعدهم الساسانية، حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام. وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم. وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم، ثم المصامدة، ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا. سنة الله في عباده وخلقه.وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية، وهي متفاوتة في الأجيال؛ والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد. فإذا انقرضت دولة فإنما يتناول الآمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والانقياد وأونس منها الغلب لجميع العصبيات. وذلك إنما يوجد في النسب القريب منهم؛لأن تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد. حتى إذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته، فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل. كما وقع لمضر حين غلبوا على الأمم والدول وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم، بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقاباً.

الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه

ونحلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه؛ أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصلى لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء؛ أو لما تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً؛ وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم؛ حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير؛ كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء؛ والأمر لله. وتأمل في هذا سر قولهم: "العامة على دين الملك "

فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم. والله العليم الحكيم؛ وبه سبحانه وتعالى التوفيق.

الفصل الرابع والعشرون

في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك، والله أعلم، ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل؛ والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية. فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبةً بالغلب الحاصل عليهم، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، بما خضد الغلب من شوكتهم، فأصبحوا مغلبين لكل فتغلب وطعمة لكل آكل؛ وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا.وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له؛ والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده؛ وهذا موجود في أخلاق الأناسي. ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة، وإنها لا تسافد إذا كانت في ملكة الآدميين. فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقصٍ واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء. والبقاء لله وحده.واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأ ت العالم كثرةً، ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب، بقي منهم كثير وأكثر من الكثير. يقال إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً، منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت. ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً، ودثروا كأن لم يكونوا. ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم؛ فملكة الإسلام في العدل ما علمت؛ وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمره، وصار آلة لغيره. ولهذا إنما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم، وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه؛ أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع لممالك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والإفرنجة بالأندلس؛ فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم، فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب لا يتغلبون إلا علي البسائط

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبةٍ ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر؛ ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسفل عنه، ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم؛ لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلي أن يصبح أهلها مغلبين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم. والله قادر على خلقه، وهو الواحد القهار لا رب غيره.

الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا علم أوطان أسرع إليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقاً وجبلةً، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسه. وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه، ويعدونه لذلك. والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران. هذا في حالهم على العموم.وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه. فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران.وأيضاً فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم، لا يرون لها قيمةً ولا قسطاً من الأجر والثمن؛ والأعمال كما سنذكره هي أصل المكاسب وحقيقتها؛ وإذا فسدت الأعمال وصارت مجاناً، ضعفت الآمال في المكاسب، وانقبضت الأيدي عن العمل؛ وابذعر الساكن، وفسد العمران.وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم

عن بعض؛ إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو غرامةً' فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد. وربما فرضوا العقوبات في الأموال حرصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم؛ وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها؛ بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم. والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران، بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلا بها؛ وتقدم ذلك أول الفصل.وأيضاً فهم متنافسون في الرئاسة، وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء؛ فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض. قال الأعرابي الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران، فقال: "تركته يظلم وحده". وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه، وأقفر ساكنه، وبدلت الأرض فيه غير الأرض: فاليمن قرارهم خراب إلا قليلاً من الأمصار؛ وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع؛ والشام لهذا العهد كذلك؛ وأفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كفها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً، تشهد بذلك

آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر. والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة

أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة؛ فقلما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدين بالنبؤة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس. فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك. وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق؛ إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهييء لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات؛ فإن "كل مولود يولد على الفطرة" كما ورد في الحديث وقد تقدم.

الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالاً في القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش؛ فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش؛ ورئيسهم محتاج إليهم

غالباً للعصبية التي بها المدافعة، فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم، لئلا يختل عليه شأن عصبيته، فيكون فيها هلاكه وهلاكهم. وسياسة الملك والسلطان تقتضى أن يكون السائس وازعاً بالقهر وإلا لم تستقم سياسته.وأيضاً فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض. فإذا ملكوا أمةً من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد؛ فلا يكون ذلك وازعاً؛ وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة المفاسد، واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه. فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران؛ فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى كما قدمنا.فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك. وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم، وتبدلها بصبغة دينيه تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض

كما ذكرناه. واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم.كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكل عمر كبدي، يعلم الكلاب الآداب.ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين، فنسوا السياسة، ورجعوا إلى قفرهم، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة، فتوحشوا كما كانوا، ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم. ولما ذهب أمر الخلافة وامحى رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم، وغلب عليهم العجم دونهم، وأقاموا في بادية قفارهم، لا يعرفون الملك

ولا سياسته، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم، وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك؛ ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك، ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس. لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة. وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد، فلا يكون مآله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه. { والله يؤتي ملكه من يشاء}[سورة...الآية....]

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار؛ لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو؛ وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح، وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره. وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم؛ وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألباناً وأوباراً وأشعاراً وإهاباً مما يحتاج إليه أهل الأمصار، فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم. إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضروري وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي والكمالي. فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم. فما داموا في البادية ولم يحصل لهم فلك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك، وطالبوهم به. وإن كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك

وإن لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رئاسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقين وإلا انتقض عمرانه. وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه: إما طوعاً ببذل المال لهم، ثم يبذل لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم؛ وإما كرهاً إن تفت قدرته على ذلك ولو بالتفريق بينهم، حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر الباقون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم. وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات أخرى، لان كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا

عليها ومنعوها من غيرهم، فلا يجد هؤلاء ملجأ إلا طاعة المصر. فهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار. والله قاهر فوق عباده، وهو الواحد الأحد القهار .

الباب الثالث

من الكتاب الأول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية

وذلك أنا قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه. ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدني والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً؛ وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه؛ فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة؛ وشيء منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفاً. وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له، لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل؛ فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة؛ إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم، والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله، وما لقي أولهم من المتاعب دونه

وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب. والله قادر على ما يشاء، وهو بكل شيء عليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب، للغرابة، وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية؛ فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة؛ بل كان طاعتها كتاب من الله لا يبذل ولا يعلم خلافه. ولأمر ما يوضع الكلام في الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية، كأنه من جملة عقودها. ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة: إما بالموالي والمصطنعين الذين نشأوا في ظل العصبية وغيرها؛ وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها.ومثل هذا وقع لبني العباس. فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق، واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من

العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم. ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد، حتى زحف إليها الديلم وملكوها، وصار الخلائق في حكمهم. ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم. ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة.وكذا صنهاجة

بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها، واستمرت لهم الدولة مقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور أفريقية. وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها؛ والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم؛ حتى تأذن الله بانقراض الدولة، وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة، فمحوا آثارهم.وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه. وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية، فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته، وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره؛ لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره، واستمر لهم ذلك، كما قال ابن شرف:

مما يزهدني في أرض أندلس　　　أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها　　　كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم، اقتداءً بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم، حين ضعفت عصبية العرب، واستبد ابن أبي عامر على الدولة. فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها، ولم يزالوا في سلطانهم ذاك، حتى جاز إليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من لمتونة؛ فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم، ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم. فبهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها. وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول بإطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة، ذكر ذلك في كتابه الذي

سماه (سراج الملوك)؛ وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها، وإنما هو مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لأهله. فالرجل إنما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالي والصنائع، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة. فإنه إنما أدرك دول الطوائف، وذلك عند اختلال دولة بني أمية، وانقراض عصبيتها من العرب، واستبداد كل أمير بقطره. وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة، ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلاثمائة من السنين وهلاكهم، ولم ير إلا سلطاناً مستبداً بالملك عن عشائره، قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية؛ فهو لذلك لا ينازع فيه، ويستعين على أمره

بالأجراءٍ من المرتزقة؛ فأطلق الطرطوشي القول في ذلك، و لم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية. فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه. { والله يؤتي ملكه من يشاء}[سورة...الآية....]

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وذلك أنه إذا كان لعصبية غلب كثير على الأمم والأجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد، فإذا نزع إليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه، اشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهروه على شأنه، وعنوا بتمهيد دولته، يرجون استقراره في نصابه، وتناوله الأمر من يد أعياصه، وجزاءه لهم على مظاهرته باصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر، ولا

يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليماً لعصبيته، وانقياداً لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم، وعقيدة إيمانية استقرت في الإذعان لهم، فلو راموها معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها.وهذا كما وقع للأدارسة بالمغرب الأقصى والعبيديين بأفريقية ومصر، لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية، وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا إلى طلبها من أيدي بني العباس، بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف: لبني أمية أولاً؛ ثم لبني هاشم من بعدهم؛ فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى، فأوربة ومغيلة للأدارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين، فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم، واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم أفريقية، و لم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز، وقاسموهم في الممالك الإسلامية شق الابلمة. وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيديين أمرهم مذعنون لملكهم. وإنما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة تسليماً لما حصل من صبغة الفلك لبني هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الأمم. فلم يزل الملك في أعقابهم إلى أن انقرضت دولة العرب بأسرها. والله يحكم لا معقب لحكمه .

الفصل الرابع

في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك

أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة. وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه. قال تعالى: {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} [الأنفال: 63]، وسره أن

القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف؛ وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى، وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الخامس

في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها

قوة علي قوة العصبية التي كانت لها من عددها

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه.وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات. فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعاً وثلاثين ألفاً في كل معسكر؛ وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقادسية، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمائة ألف؛ فلم يقف للعرب أحد من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم.واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف عليهم، إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار

والاستماتة كما قلناه، فلم يقف لهم شيء.واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين، وفسدت، كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الذين لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة.واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشد توحشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولاً واستتبعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة،أشد منهم؛ فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم. والله غالب على أمره.

الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية. وفى الحديث الصحيح كما مر. " ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه " وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية.وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي، فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين، ولم تكن هناك عصائب ولا في يدعونه عن شأنه؛ فلم يلبث حين استولي الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم، وتابعهم من معقله

بحصن أركش، وأمكنهم من ثغره، وكان أول داعية لهم بالأندلس، وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين.ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء. فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق

الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله؛ فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء، ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه؛ قال صلى الله عليه و سلم : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه " وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه.وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء؛ لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة. والله حكيم عليم.فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقاً قصر به الانفراد عن العصبية، فطاح في هوة الهلاك. وأما إن كان من الملبسين بذلك في طلب الرئاسة، فاجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك؛ لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين؛ ولا يشك في ذلك مسلم، ولا يرتاب فيه ذو بصيرة.وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق، ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين، فكشف بنو العباس عن

وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه، وبويع إبراهيم بن المهدي، فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون، وقطعوا السبيل، وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق، واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم. فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم. وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجابه خلق وقاتل أهل الزعارة فغلبهم، وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل.ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري، ويكنى أبا حاتم، وعلق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم ، فاتبعه الناس كافة من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم، ونزل قصر طاهر، واتخذ الديوان وطاف ببغداد، ومنع كل من أخاف المارة، ومنع الخفارة لأولئك الشطار. وقال له خالد الدريوس: أنا لا أعيب على السلطان؛ فقال له سهل: لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان. وذلك سنة إحدى ومائتين. وجهز له إبراهيم بن المهدي العساكر فغلبه واشره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه.ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية، ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم. والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من أهل الجنون، وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً؛ وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاعين.وقد ينتسب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر إما بأنه هو أو بأنه داعٍ له، وليس ما ذلك على علم من أمر الفاطمي، ولا ما هو. وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه

الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك، ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة، فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة، وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبذري،عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك، وزعم أنة الفاطمي المنتظر، تلبيساً على العامة هنالك، بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك، وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته. فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش. ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة؛ فدس إليه كبير المصامدة يومئذٍ عمر السكسيوي من قتله في فراشه.وكذلك خرج في غمارة أيضاً لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس، وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم، وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لأربعين يوماً من ظهور دعوته، ومضى في الهالكين الأولين.وأمثال ذلك كثير، والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها. وأما إن كان التلبيس فأحرى ألا يتم له أمر وان يبوء بإثمه وذلك جزاء الظالمين. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه.

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد

من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم، ويستولون عليها لحمايتها من العدو، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك. فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها، وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة، وتخماً لوطنها، ونطاقاً لمركز ملكها. فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادةً على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور، ويعود وبال ذلك على الدولة، بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة.وما كانت العصابة موفورةً و لم ينفذ عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي، بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية، حتى ينفسح نطاقها إلى غايته. والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية؛ وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها. والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق. وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه؛ شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه. ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال المركز محفوظاً إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة، فحينئذ يكون انقراض المركز. وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها؛ فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح، فإذا غلب القلب وملك انهزم جميع الأطراف.وانظر هذا في الدولة الفارسية. كان مركزها المدائن؛ فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع، و لم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من أطراف ممالكه. وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية، وغلبهم المسلمون بالشام

تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية و لم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم، فلم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن الله بانقراضه.وانظر أيضاً شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورةً، كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق

ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة وأفريقية والمغرب، ثم إلى الأندلس. فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور، ونزلوها حامية، ونفد عددهم في تلك التوزيعات، أقصروا عن الفتوحات بعد، وانتهى أمر الإسلام، و لم يتجاوز تلك الحدود؛ ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها.وكذا كان حال الدول من بعد ذلك؛ كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة، وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء. سنة الله في خلقه.

الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها

علي نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية. وأهل العصبية هم الحامية الذين يترلون بممالك الدولة وأقطارها، وينقسمون عليها؛ فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر، كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً، وكان ملكها أوسع لذلك.واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك، آخر غزوات النبي صلى الله عليه و سلم ، مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان، ما بين فارس وراجل، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة. فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر، فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم، والترك بالمشرق والإفرنجة والبربر بالمغرب، والقوط بالأندلس، وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى، ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال، واستولوا على الأقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم

لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة، كانت دولتهم أعظم؛ فملكوا أفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز. ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بني مرين وبني عبد الواد ، كانت دولتهم اقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى. يقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف، وإن بني عبد الواد كانوا ألفاً، إلا أن الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم.وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع لدولة وقوتها.وأما طول أمدها أيضاً فعلى تلك النسبة؛ لان عمر الحادث من قوة مزاجه؛ ومزاج الدول إنما هو بالعصبية؛ فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً؛ والعصبية إنما هي بكثرة العدد ووفوره ؛ كما قلناه. والسبب الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدو في الدولة من الأطراف؛ فإذا كانت

ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة، وكل نقص يقع فلا بدّ له من زمان؛فيكون أمدها أطول الدول لابنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالأندلس و لم ينقص أمر جميعهم الإ بعد أربعمائة من الهجرة. ودولة العبيديين كان أمدها قريباً من مائتين وثمانين سنة. ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة أمر أفريقية لبلكين بن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، إلى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمائة.ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتي وسبعين سنة. وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة القائمين بها. سنة الله التي قد خلت في عباده.

الفصل التاسع

في ان الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب

قل أن تستحكم فيها دولة

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها؛ فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت، وإن كانت ذات عصبية؛ لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة.وانظر ما وقع من ذلك بأفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد.فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات؛ فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الإفرنجة شيئاً. وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة.قال بن أبي زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة. و لم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده. وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن أفريقية ففرقة لقلوب أهلها، إشارة إلى ما فيها كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد. و لم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام، إنما كانت حاميتها من فارس والروم؛ والكافة دهماء أهل مدن وأمصار. فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها فمانع ولا مشاق. والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى، وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة؛ فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن أفريقية والمغرب. وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل: كان فيه من

قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش،والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية. فصعب على بنى إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى . وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه، و لم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء. والله غالب على أمره.وبعكس هذا أيضا الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها، ويكون سلطانها وازعاً لقلة الهرج والانتقاض، ولا تحتاج فيها إلى كثير من العصبية، كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد، إذ هي خلو من القبائل والعصبيات، كأن لم يكن الشام معدناً لهم كما قلناه. فملك مصر في غاية

الدعة والرسوخ لقفة الخوارج وأهل العصائب، إنما هو سلطان ورعية، ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد، وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت، والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد.وكذا شأن الأندلس لهذا العهد. فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرات، إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا، من ذلك، القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم، وثقلت وطأتهم عليهم، فأشربت القلوب بغضاءهم؛ وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيراً من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم، من تملك الحضرة مراكش. فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب، تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيءً، ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم. فقام ابن هود بالأمر، ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق، وحمل الناس على الخروج

على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم، واستقل ابن هود بالأمر بالأندلس. ثم سما ابن الأحمر للأمر، وخالف ابن هود في دعوته، فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب أفريقية من الموحدين وقام بالأمر، وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسفون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصائب بالأندلس، وأنها سلطان ورعية. ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز إليه البحر من أعياص زناتة، فصاروا معه عصبة على المثاغرة والرباط. ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس، فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأثل أمره ورسخ، والفته النفوس، وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد. فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك؛ وقد كان مبدأه بعصابة إلا أنها قليلة، وعلى قدر الحاجة؛ فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم. والله غني عن العالمين.

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية، والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها، حتى تصيرها جميعاً ضمنها، وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول. وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون؛ والمزاج إنما يكون عن العناصر، وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلاً، بل لا بد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدةً شاملة لجميع العصائب، وهي موجودة في ضمنها

وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة فيهم؛ ولا بد أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم؛ فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها. وإذا تعين له ذلك فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة؛ فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم؛ ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم، لفساد الكل باختلاف الحكام: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ

لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: 22]. فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلج شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم، وتقرع عصبيتهم عن ذلك، وينفرد به ما استطاع، حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر لا ناقة ولا جملا. فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته. وقد يتم ذلك للأول من ملوك الدولة، وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها. إلا أنه أمر لا بد منه في الدول. {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} [غافر: 58]؛ والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي عشر

في أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته. ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها، وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره، ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة. وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك، وترفهم فيه؛ إلى أن يبلغوا من ذلك

الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها. سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني عشر

في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة، والمطالبة غايتها الغلب والملك، وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها. قال الشاعر:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس، فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم. ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره؛ وهو خير الحاكمين، والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث عشر

في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد

وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة علم الهرم

وبيانه من وجوه:الأول أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه. وما كان المجد مشتركاً

بين العصابة وكان سعيهم له واحداً، كانت هممهم في التغلب على

الغَيْرِ والذَّبِّ عَنِ الْحَوزَة أسْوَةً في طُمُوحها وَقُوَّة شَكَائِمِهَا، وَمَرْمَاهُمْ إلى الْعِزِّ جَميعاً، وهم يَسْتَطِيبُونَ الْمَوْتَ في بِنَاء مَجْدِهِمْ وَيُؤْثِرُونَ الْهَلَكَةَ عَلى فَسَادِه. وَإذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من أعنتهم، واستأثر بالأموال دونهم؛ فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم ورئموا المذلة والاستعباد. ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من السلطان لهم على الحماية والمعونة، لا يجري في عقولهم سواه، وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت، فيصير ذلك وهناً في الدولة وخضداً من الشوكة، وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها.والوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم؛ فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه؛ ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب؛ فلا يجدون وليجةً عنها، فيوقعون بهم العقوبات، وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم؛ فيضعفونهم لذلك عن إقامةأحوالهم ، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم. وأيضاً إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم. والجباية مقدارها معلوم، ولا تزيد؛ ولا تنقص وإن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً فإذا وزعت الجباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات. ثم يعظم

الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك، فينقص عدد الحامية، وثالثاً ورابعاً إلى أن يعود العسكر إلى اقل الأعداد؛ فتضعف الحماية لذلك، وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب، ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته. وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فتكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدولة مبادىء العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها.الوجه الثالث: أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه؛ وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقاً صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها، فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس، وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر. فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم. ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم، وينغمسون فيها، وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً، وينسون

خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة، حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى إن كانت لهم. واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً من غير ريبة.وربما يحدث في الدولة، إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة، أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب وأقدر على

معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره. وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق؛ فإن غالب جندها الموالي من الترك. فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرساناً وجنداً، فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء الملوك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله. وكذلك في دولة الموحدين بأفريقية؛ فان صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم. والله وارث الأرض ومن عليها.

الفصل الرابع عشر

في أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص

إعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة، وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين. ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات؛ فيزيد عن هذا وينقص منه، فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائةً تامةً وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث. ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوحٍ عليه السلام، وقليلٍ من قوم عاد وثمود. وأما أعمار الدول أيضاً وإن كانت تختلف بحسب القرانات، إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخصٍ واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [الأحقاف: 15]. ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل

ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي ذكرناه في بني إسرائيل، وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه؛ فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد.وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون.والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك، بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا

من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيهم.وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها. فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء، حتى يتأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت. فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها.ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع

كما مر في أن المجد والحسب إنما هو في أربعة آباء. وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كافٍ ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات؛ فتأمله فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف.وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مَرَّ. ولا تعدو الدول في الغالب هذا الغمر بتقريب قبله أو بعده، إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، فيكون الهرم حاصلاً مستولياً والطالب لم يحضرها، ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون }.[سورة....الآية...].فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف، ثم إلىذ سن الرجوع. ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنةٍ، وهذا معناه. فاعتبره واتخذ منه قانوناً يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت في عددهم، وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائةٍ من السنين ثلاثة من الآباء؛ فإن نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح، وإن نقصت عنه بجيل فقد غُلط عددهم بزيادة واحدٍ في عمود النسب، وإن زادت بمثله فقد سقط واحد. وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان محصلاً لديك، فتأمله تجده في الغالب صحيحاً.

{والله يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ }.[سورة...الآية...]

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

إعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول. فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس، ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة، فطور الدولة من أولها بداوة. ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساعُ الأحوالِ

والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله؛ فلكل واحدٍ منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو

بعضها بعضاً، وتتكثر باختلاف ما تترع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد. فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة، لضرورة تبعية الرفه للملك.وأهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم. فأحوالهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناقم وأبناءهم، و لم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة. فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً، ومثال ذلك.فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله، فبلغوا الغاية في ذلك، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي؛ وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس، فأتوا من ذلك وراء الغاية.وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في أعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره بفم الصلح، وركب إليها في السفين، وما أنفق في أملاكها، وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها، تقف من ذلك على العجب. فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الأملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون، فنثر على

الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملثوثةً على الرقاع بالضياع والعقار، مسوغةً لمن حصلت في يده، يقع لكل واحدٍ منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت؛ وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلافٍ؛ وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك؛ بعد أن أنفق في مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك. ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاةٍ من الياقوت، وأوقد شموع العنبر في كل واحدةٍ مائة من وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت. وقال المأمون حين رآه: "قاتل الله أبا نواسٍ، كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر:

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا   حصباء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائةٍ وأربعين بغلاً مدة عامٍ كاملٍ ثلاث مراتٍ كل يومٍ. وفني الحطب لليلتين، وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت. وأوعز إلى النواتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً، أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم. وكثير من هذا وأمثاله. وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة؛ نقله ابن سامٍ في كتاب الذخيرة وابن حيان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملةً، لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم.يذكر أن الحجاج أو لم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس؛ وقال: أخبرني بأعظم صنيع شهدته؛ فقال له: نعم أيها

الأمير شهدت بعض مرازبة كسرى، وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة

أربعاً على كل واحد، وتحمله أربع وصائف، ويجلس عليه أربعة من الناس، فإذا طعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها. فقال الحجاج:" يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس "و علم انه لا يستقل بهذه الأبهة. وكذلك كانت.ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم. فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم. ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت من أحمال المال وتخوت الثياب وإعداد الخيل بمراكبها.وهكذا كان شأن كتامة مع الأغالبة بأفريقية، وكذا بنو طفج بمصر، وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس، والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جراً؛ تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة: فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس؛ وانتقلت حضارة بني أُمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد؛ وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك، ثم إلى السلجوقية، ثم إلى الترك المماليك بمصر، والتتر بالعراقين. وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة؛ إذ أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع الملك، ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة. فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله. فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران. {والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين } [.سورة...الآية]

الفصل السادس عشر

في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية، فكثرت العصابة؛ واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع، وربيت أجيالهم

في جو ذلك النعيم والرفه، فازدادوا بهم عدداً إلى عددهم وقوةً إلى قوتهم بسب كثرة العصائب حينئذٍ بكثرة العدد. فإذا ذهب الجيل الأول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها، لأنهم ليس لهم من الأمر شيء، إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها؛ فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى، ولا تبقى الدولة على حالها من القوة. واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام. كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يقاربها من مضر وقحطان؛ ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة، واستكثر الخلفاء من الموالي والصنائع، بلغ ذلك العدد إلى أضعافه. يقال: إن المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف. ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحاً إذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقاً وغرباً إلى الجند الحاملين سرير الملك والموالي والمصطنعين. وقال المسعودي: أحصي بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للإنفاق عليهم، فكانوا ثلاثين ألفاً بين ذكران وإناث؛ فانظر مبالغ هذا العدد لأقل من مئتي سنة، واعلم

أن سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وربي فيه أجيالهم؛ وإلا فعدد العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه. والله الخلاق العليم.

الفصل السابع عشر

في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوال

إعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار: **الطور الأول:** طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها. فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية، لا ينفرد دونهم بشيء لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها. **الطورالثاني:** طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه. فهو يدافعهم عن الأمر ويصدهم عن موارده ويرد هم على أعقابهم، أن يخلصوا إليه، حتى الأمر في نصابه، ويفرد أهل بيته بما يبني من مجده؛ فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد، فيركب صعباً من الأمر. **الطور الثالث:** طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت؛ فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه، واعتراض جنوده وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة، فيباهي بهم الدول المسالمة، ويرهب الدول المحاربة. وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة. لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم، بانون لعزهم، موضحون الطرق لمن بعدهم. **الطور الرابع:** طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعاً بما بنى أولوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه، فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل، ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء، ويرى أن في الخروج تقليدهم فساد أمره وانهم أبصر بما بنوا من مجده. **الطور الخامس:** طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا متلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن، وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها، ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها، مستفسداً لكبار الأولياء من

قومه وصنائع سلفه، حتى يضطغنوا عليه، ويتخاذلوا عن نصرته، مضيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته، وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده؛ فيكون مخرباً لما كان سلفه يؤسسون، وهادماً لما كانوا يبنون، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برء، إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها. والله خير الوارثين.

الفصل الثامن عشر

في أن آثار الدولة كلها علي نسبة قوتها في أصلها

والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً وعلى قدرها يكون الأثر. فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة. فإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها، لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه. فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا، كان الفعلة كثيرين جداًوحشروا من آفاق الدولة وأقطارها، فتم العمل على أعظم هياكله. ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما.

وانظر بالمشاهدة إيوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاءد عنه، وشرع فيه ثم أدركه العجز، وقصة استشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة. فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين. وانظر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة التي على واديها، وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها، وآثار شرشال بالمغرب والأهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان، تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف.

واعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها؛ فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع. ولا تتوهم ما تتوهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها؛ فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما تجد بين الهياكل والآثار. ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه، وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك أخباراً عريقة في الكذب، من أغربها ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشام؛ زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه إلى الشمس. ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا أن للشمس حرارة وإنها شديدة فيما قرب منها؛ ولا يعلمون أن الحر هو الضوء؛ وأن الضوء فيما قرب من الأرض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الأضواء، فتتضاعف الحرارة هنا لأجل ذلك، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة

فلا حر هنالك، بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب، وأن الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وإنما هي جسم بسيط مضيء لا مزاج له. وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني إسرائيل عند فتحهم الشام، وأطوال بني إسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من

هياكلنا. يشهد لذلك أبواب بيت المقدس؛ فإنها وإن خربت وجددت لم تزل محافظة على أشكالها ومقادير أبوابها. وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار. وإنه مثار غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون، وما يحمل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة، فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدتها بعظم هياكلها، وليس الأمر كذلك.وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعماً لا مستند له إلا التحكم، وهو:الطبيعة التي هى جبلة للأجسام، لما برأ الله الخلق كانت في تمام المرة ونهاية القوة والكمال، وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة؛ فإن طروء الموت إنما هو بانحلال القوى الطبيعية؛ فإذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد. فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام، ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها؛ ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما تراه؛ وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني. ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن، كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر، بيوتاً صغاراً وأبوابها ضيقة. وقد أشار صلى الله عليه و سلم إلى أنها ديارهم، ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرق

وقال: " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم ".

وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً. والحق ما قررناه.ومن آثار الدول أيضاً حالها في الإعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون، وقد مر ذلك كله. ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها. ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم، فإن الهمم التي لأهل الدولة تتكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس، والهمم لا تزال مصاحبة لهم إلى انقراض الدولة. واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش، كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والأعبد والوصائف عشراً عشراً، ومن كرش العنبر واحدة، واضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب؛ وإنما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس؛ وإنما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقين والهند والمغرب. وكان الصنهاجيون بأفريقية أيضاً إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم، فإنما يعطونهم المال أحمالاً والكساء تخوتاً مملوءةً، والحملان جنائب عديدة.

وفي تأريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة. وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم، وكانوا إذا كسبوا معدماً فإنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بعض يوم. وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية. هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل إلى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال. ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا.

موارد بيت المال ببغداد أيام المأمون:

وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، نقلته من جراب

الدولة:(غلات السواد) سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين، وثمانمائة ألف درهم، ومن الحلل النجرانية مائتا حلةٍ ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلاً. (كنكر) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم (كور دجلة) عشرون ألف ألف درهم وثمانمائة درهم.(حلوان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين، وثمانمائة ألف درهم.(الأهواز) خمسة وعشرون ألف درهم مرة، ومن السكر ثلاثون ألف رطل.(فارس) سبعة وعشرون ألف ألف درهم، ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة، ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل.(كرمان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم، ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب، ومن التمر عشرون ألف رطل.(مكران) أربعمائة ألف درهم مرة.(السند وما يليه) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم، ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلاً. (سجستان) أربعة آلاف ألف درهمٍ مرتين، ومن الثياب المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفانيد عشرون رطلً. (خراسان) ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن نقر الفضة ألفا نقرة، و البراذين أربعة آلاف، ومن الرقيق ألف رأس، ومن المتاع عشرون ألف ثوب، و الإهليلج ثلاثون ألف رطل.(جرجان) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن الإبريسم ألف شقةٍ.(قومس) ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة.(طبرستان والروبان ونهاوند) ستة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة ألف، ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة، ومن الأكسية مائتان، ومن الثياب خمسمائة ثوب، ومن المناديل ثلاثمائة، ومن الجامات ثلاثمائة.(الري) اثنا عشر

ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل عشرون ألف رطل.(همذان) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف، ومن رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثناً عشر ألف رطل.(ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم. (ماسبذان والدينار) أربعة آلاف ألف درهم مرتين.(شهرزور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم.(الموصل وما إليها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطلٍ.(أذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين.(الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين، ومن الرقيق ألف راس، ومن العسل اثنا عشر ألف زقً، ومن البزاة عشرة، ومن الأكسية عشرون.(أرمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن القسط المحفور عشرون، ومن الزقم خمسمائة وثلاثون رطلاً، ومن المسايج السورماهي عشرة آلاف رطلٍ، ومن الصونج عشرة آلاف رطلٍ، ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون.(قنسرين) أربعمائة ألف دينار، ومن الزيت ألف حمل.(دمشق) أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار.(الأردن) سبعة وتسعون ألف دينار.(فلسطين) ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار، ومن الزيت ثلاثمائة ألف رطلٍ. (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار.(برقة) ألف ألف درهم مرتين.(أفريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن البسط مائة وعشرون.(اليمن) ثلاثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع.(الحجاز) ثلاثمائة ألف دينار. انتهى.
وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات، يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار.

ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة.فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض، ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله، فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات. فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار؛ وليس ذلك من الصواب؛ فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها. ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين، وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل با لنسبةإليها وجدنا بينها بوناً؛ وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها؛ فالآثار كفها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه؛ ولا يسعنا إنكار ذلك عنها؛ إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح، بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر، وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره. فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها، واعتبر ذلك بما نقضه عليك من هذه الحكاية المستظرفة.

وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه، وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض. وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من

أحواله بما يستغربه السامعون، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهرتدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس، إلى أن يدخل إيوانه؛ وأمثال هذه الحكايات؛ فتناجى الناس بتكذيبه. ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل، لما استفاض في الناس من تكذيبه. فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره، فتكون كابن الوزير الناشىء في السجن. وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان الذي كان يتغذى به، فقال أبوه هذا لحم الغنم، فقال وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها؛ فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه، ويقول أين الغنم من الفأر، وكذا في لحم الإبل والبقر؛ إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كفها أبناء جنس الفأر. وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عن قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب. فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمنا على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن

والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته. فما دخل في نطاق الإمكان قبله، وما خرج عنه رفضه. وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حداً بين الواقعات؛ وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء. فإنا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه؛ {وقل رب زدني علما، وأنت أرحم الراحمين }. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة علي قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين

إعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه، وبهم يقارع الخوارج على دولته، ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته، وجباية أمواله لأنهم أعوانه على الغلب، وشركاؤه في الأمر، ومساهموه في سائر مهماته. هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه. فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم، والانفراد بالمجد، ودافعهم عنه بالمراح، صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه، واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم، ويتولاهم دونهم، فيكونون أقرب إليه من سائرهم، وأخص به قرباً واصطناعاً، وأولى إيثاراً وجاهاً، لما أنهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم، والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم. فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذٍ، ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار، ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه، وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة؛ لأنهم حينئذٍ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون. وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها؛ لفساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها.

ومرض قلوب أهل الدولة حينئذٍ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه، ويتربصون به الدوائر، ويعود وبال ذلك على الدولة، ولا يطمع في برئها من

هذا الداء، لأن ما مضى يتأكد في الأعقاب إلى أن يذهب رسمها. واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان، والحجاج بن يوسف، والمهلب بن أبي صفرة، وخالد بن عبد الله القسري، وابن هبيرة، وموسى بن نصير، وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، ونصر بن سيار، وأمثالهم من رجالات العرب. وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً برجالات العرب؛ فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات، وصارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني طاهر، ثم بني بويه وموالي الترك مثل بغا ووصيف وأتامش وباكناك وابن طولون وأبنائهم، وغير هؤلاء من موالي العجم، فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه. سنة الله في عباده، والله تعالى أعلم.

الفصل العشرون

في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول

إعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها. والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب، لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى، والتخاذل في الأجانب والبعداء كما قدمناه. والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تتنزل منزلة ذلك؛ لأن أمر النسب وإن كان طبيعيا فإنما هو وهمي، والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة. وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر؛ وهذا مشاهد بين الناس. واعتبر مثله في الاصطناع؛ فإنه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تتنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة

وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة. فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم، كانت عروقها أوشج، وعقائدها أصح، ونسبها أصرح لوجهين: أحدهما أنهم قبل الملك أسوةً في حالهم، فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم فيتنزلون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم. وإذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى، ولأهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع، لما تقتضيه أحوال الرئاسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها، فتتميز حالتهم ويتنزلون منزلة الأجانب، ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد، وذلك انقص من الاصطناع، قبل الملك.

الوجه الثاني: أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهدة عن أهل الدولة بطول الزمان ويخفي شأن تلك اللحمة، ويظن بها في الأكثر النسب فيقوى حال العصبية. وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته الأكثر، فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب، فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل الدولة. واعتبر ذلك في الدول والرئاسات تجده. فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرئاسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاماً به، واقرب قرابة إليه، ويتنزل منه منزلة أبنائه وإخوانه وذوي رحمه. ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرئاسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للأولين. وهذا مشاهد بالعيان؛ حتى إن الدولة في آخر عمرها ترجع إلى استعمال الأجانب واصطناعهم، ولا يبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة، لقرب العهد حينئذٍ بأوليتهم ومشارفة الدولة على الانقراض، فيكونون منحطين في مهاوي الضعة.وإنما يحمل صاحب الدولة علي اصطناعهم والعدول إليهم عن أوليائها الأقدمين وصنائعها الأولين، ما يعتر يهمل في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة، وقلة الخضوع له، ونظره بما ينظره به قبيله وأهل نسبه، لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتصال بآبائه وسلف قومه، والانتظام مع كبراء أهل بيته

فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز، فينافرهم بسببها صاحب الدولة، ويعدل عنهم إلى استعمال سواهم؛ ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريباً، فلا يبلغون رتب المجد، ويبقون على حالهم من الخارجية، وهكذا شأن الدول في أواخرها. وأكثر ما يطلق اسم الصنائع والأولياء على الأولين. وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان. والله ولي المؤمنين، وهو على كل شيء وكيل.

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة، وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه، وتداوله بنوهم واحداً بعد واحدٍ بحسب الترشيح، فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم. وسببه في الأكثر ولاية صبي صغير أو مضعف من أهل المنبت، يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه وخوله، ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك، فيقوم به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله، ويوري عنه بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد، ويجعل ذلك ذريعة للملك. فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي يدعوه إليها ترف أحواله، ويسيمه في مراعيها متى أمكنه، وينسيه النظر في الأمور السلطانية، حتى يستبد عليه. وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصفقة وخطاب التهويل، والقعود مع النساء خلف الحجاب، وان الحل والربط والأمر والنهي، ومباشرة الأحوال الملوكية، وتفقدها من النظر في الجيش والمال والثغور إنما هو للوزير، ويسلم له في ذلك، إلى أن تستحكم له صبغة الرئاسة والاستبداد، ويتحول الملك إليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده. كما وقع لبني بويه والترك وكافور الإخشيدي وغيرهم بالمشرق، وللمنصور بن أبي عامر بالأندلس.

وقد يتفطن ذلك المحجورالمغلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد، ويرجع الملك إلى نصابه، ويضرب على أيدي المتغلبين عليه، إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط؛ إلا أن ذلك في النادر الأقل؛ لأن الدولة إذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك، وقل أن تخرج عنه؛لأ ن ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه، قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والاظآر، وربوا عليها، فلا يترعون إلى رئاسة ولا يعرفون استبداداً من تغلب، إنما همهم في القنوع بالأبهة والتنفس في اللذات وأنواع الترف. وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم. وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه. وهذان مرضان لا برء للدولة منهما إلا في الأقل النادر. {والله يؤتي ملكه من يشاء، وهو على كل شيء قدير}.

الفصل الثاني والعشرون

في أن المتغلبين علي السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوليه مذ أول الدولة بعصبية قومه، وعصبيته التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب؛ وهي لم تزل باقية، وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا المتغلب وإن كان صاحب عصبية من قبيل الملك أو الموالي والصنائع فعصبيته مندرجة في عصبية أهل الملك وتابعة لها، وليس له صبغة في الملك. وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهراً، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهي، والحل والعقد والإبرام والنقض، يوهم فيها أهل الدولة انه متصرف عن

سلطانه، منفذ في ذلك من وراء الحجاب لأحكامه. فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وإن حصل له الاستبداد لأنه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه على أنفسهم عن القبيل منذ أول الدولة، ومغالط عنه بالنيابة. ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصبية وقبيل الملك، وحاولوا الاستئثار به دونه؛ لأنه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد؛ فيهلك لأول وهلة. وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر، حين سما إلى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة، و لم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة. فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة، فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش؛ وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر، وخرجوا عليه. وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم، واستبدل منه سواه من أعياص الدولة إلى آخرها، واختلت مراسم ملكهم. والله خير الوارثين.

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصنافه

الملك منصب طبيعي للإنسان؛ لأنا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم. وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض

ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة، وهي تؤدي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس، المفضي ذلك إلى انقطاع النوع، وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة، فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم. ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه، من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم إلا بالعصبية. وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات؛ ولا يتم شيء من ذلك إلا بالعصبيات كما مر. والعصبيات متفاوتة، وكل عصبيةٍ فلها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها. وليس الملك لكل عصبيةٍ، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة. وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور. فمن قصرت به عصبيته عن بعضها، مثل حماية الثغور أو جباية الأموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته؛ كما وقع لكثير من ملوك البربر فيم دولة الأغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسية. ومن قصرت به عصبيته أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصبيات، والضرب على سائر الأيدي، وكان فوقه حكم غيره، فهو أيضاً فلك ناقص لم تتم حقيقته؛ وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة. وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق، أعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم؛ مثل صنهاجة مع العبيديين،

وزناتة مع الأمويين تارةً والعبيديين تارةً أخرى؛ ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس؛ ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الإسلام، ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الإسكندر وقومه اليونانيين، وكثير من هؤلاء. فاعتبره تجده. والله القاهر فوق عباده.

الفصل الرابع والعشرون

في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر

إعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحة وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع عمله أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه، وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم؛ فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية، وهي نسبة بين منتسبين. فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم، فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان؛ والصفة التي له من حيث إضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم فإذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه؛ فإنها إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم؛ وإن كانت سيئةً متعسفة كان ذلك ضرراً عليهم وإهلاكاً لهم.ويعود حسن الملكة إلى الرفق. فإن الملك إذا كان قاهراً، باطشاً بالعقوبات، منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم؛ وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما اجمعوا على لمحتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً، وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية. وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب.أما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك؛ وأما النعمة عليهم والإحسان لهم فمن جملة الرفق بهم، والنظر لهم في معاشهم، وهي أصل كبير في التحبب إلى الرعية. واعلم أنه

قلما تكون ملكه الرفق فيمن يكون يقظاً شديد الذكاء من الناس؛ وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل. وأقل ما يكون في اليقظ لأنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب أمور في مباديها بألمعيته فيهلكون. لذلك قال صلى الله عليه و سلم : " سيروا على سير أضعفكم ". ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء؛ ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر عن العراق، وقال: "لم عزلتني يا أمير المؤمنين؟ ألعجزٍ أم لخيانة؟ "؛ فقال عمر: "لم أعزلك لواحدة منهما؛ ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس ". فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة، وحمل الوجود على ما ليس في طبعه، كما يأتي في آخر هذا الكتاب. والله خير المالكين.وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة، لأنه إفراط في الفكر،كما أن البلادة إفراط في الجمود. والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية، والمحمود هو التوسط: كما في الكرم مع التبذير والبخل؛ وكما في الشجاعة مع الهوج والجبن؛ وغير

ذلك من الصفات الإنسانية. ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان، فيقال شيطان ومتشيطن وأمثال ذلك. والله يخلق ما يشاء، وهو العليم القدير.

الفصل الخامس والعشرون

في معني الخلافة والإمامة

لا كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق، مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم، لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته، ويختلف ذلك باختلاف

المقاصد من الخلف والسلف منهم؛ فتعسر طاعته لذلك، وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل. فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها، ولا يتم استيلاؤها: "سنة الله في الذين خلوا من قبل ".فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية؛ وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء؛ والله يقول: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا} [المؤمنون: 115]؛ فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم. {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [الشورى: 53]. فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة؛ حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع 0 فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية. وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً، لأنه نظر بغير نور الله: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: 40].لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، من ملك أو غيره؛ قال صلى الله عليه و سلم : " إنما هي أعمالكم ترد عليكم " وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط. {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الروم: 7]؛ ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم. وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة، وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضي

النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح

الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. فافهم ذلك واعتبر فيما نورده عليك، من بعد والله الحكيم العليم.

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب، وانه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به، تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماما. فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به؛ ولهذا يقال: الإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته، فيقال: خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله. واختلف في تسميته خليفة الله. فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأ رضْ خَلِيفَةً} البقرة: 30] وقوله: {جَعَلَكُمْ خلائِفَ الأ رْضِ} [الأنعام: 165]. ومنع الجمهور منها لأن معنى الآية ليس عليه؛ وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به، وقال: "لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم "؛ولأ ن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب، وأما الحاضر فلا.ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛لأ ن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم. وكذا في كل عصرٍ من بعد ذلك. ولم تترك الناس فوضى في عصرٍ من الأعصار. واستقر ذلك

إجماعا دالاً على وجوب نصب الإمام. وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل، وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه؛ قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض. فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم؛ مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية. وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظة الحكماء في وجوب النبؤات في البشر. وقد نبهنا على فساده، وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم؛ لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع، كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة؛ أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل. فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك، ونصب الإمام هنا غير صحيح؛ بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم؛ فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة. فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمنا.وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع؛ منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم؛ والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع؛ فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه. وهؤلاء محجوجون بالإجماع. والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا، لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك، والنعي على أهله، ومرغبة

في رفضه.واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به، وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهم والظلم والتمتع باللذات؛ ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة

وهي من توابعه؛ كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه، وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الفلك. فإذا إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى، و لم يذمه لذاته، ولا طلب تركه؛ كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين، وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليها، وأما المراد تصريفهما على مقتضى الحق.وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما، وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده. ثم نقول لهم إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئاً، لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة، وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكة، والعصبية مقتضية بطبعها للفلك، فيحصل الملك وإن لم ينصب إمام، وهو عين ما قررتم عنه وإذا تقرر أن هذا النصب واجب بإجماع، فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل، فيتعين عليهم نصبه، ويجب على الخلق جميعا طاعته، لقوله تعالى: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59].وأما شروط هذا المنصب فهي أربعه: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء؛ مما يؤثر في الرأي والعمل. واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشى.فأما اشتراط العلم فظاهر؛ لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها. ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً،لأ ن التقليد نقص؛ والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال.وأما العدالة فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه. ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها. وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف.

وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها، كفيلاً بحمل الناس عليها، عارفاً بالعصبية وأحوال الدهاء، قوياً على معاناة السياسة؛ ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين، وجهاد العدو، وإقامة الأحكام، وتدبير المصالح.وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس، وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل كفقد اليدين والرجلين والأنثيين فتشترط السلامة منها كلها، لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه. وإن كان إنما يشين في المنظر فقط؛ كفقد إحدى هذه الأعضاء، فشرط السلامة منه شرط كمال. ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف. وهو ضربان: ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه؛ وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقة، فينتقل النظر في حال هذا المستولي، فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز قراره، وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته، حتى ينفذ فعل الخليفة. وأما النسب القرشي فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك، واحتجت قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا: "منا أمير ومنكم أمير" بقوله صلى الله عليه و سلم : " الأئمة من قريش " وبأن النبي صلى الله عليه و سلم أوصانا بأن

نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم؛ فحجوا الأنصار، ورجعوا عن قولهم: "منا أمير ومنكم أمير"، وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك. وثبت أيضاً في الصحيح: "لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش " وأمثال هذه الأدلة كثيرة.

إلا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت

عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم، وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة، وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك، مثل قوله صلى الله عليه و سلم : " اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة "، وهذا لا تقوم به حجة في ذلك، فإنه خرج مخرج التمثيل والغرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة؛ ومثل قول عمر "لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته " أو"لما دخلتني فيه الظنة"، وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة، وأيضاً فمولى القوم منهم، وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش، وهي الفائدة في اشتراط النسب. ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه، عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه، حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر، و لم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه، إذ الفائدة في النسب إنما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء.

فكان ذلك حرصاً0 من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة.ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني، لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء، فأسقط شرط القرشية، وإن كان موافقاً لرأي الخوارج، لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده. وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشي، ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين. ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره؛ لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية؛ وإذا وقع الإخلال بشرط الكافاية تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين، وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع.ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب

فنقول: إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها، وتشرع لأجلها. ونحن إذا بحثناً عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه، لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه و سلم كما هو في المشهور، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا؛ لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت، فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها. وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها، وينتظم حبل الألفة فيها. وذلك أن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف. فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم. فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم، وعدم

انقيادهم؛ ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر ان يردهم عن الخلاف، ولا يحملهم على الكرة، فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة. والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم، ورفع التنازع والشتات بينهم، لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية. بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش، لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة؛ لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها.

فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب، وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة؛ وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر اجمع، فأذعن لهم سائر العرب، وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة، ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات، واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة.، وتلاشت عصبية العرب. ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر، من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحق في كتاب السير وغيره. فإذا ثبت أن اشتراط

القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة، علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها، وطردنا العفة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية، فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها، ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية. ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية، إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة. وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا؛ لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم، وهو مخاطب بذلك، ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه. ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس، وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن، اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه، فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس. ثم إن الوجود شاهد بذلك؛ فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم. وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً لأمر الوجودي. والله تعالى أعلم.

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة

إعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي وبنيه رضي الله عنهم. ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإن علياً رضي الله عنه هو

الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة.
وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي: فالجلي مثل قوله: "من كنت مولاه فعلي مولاه ". قالوا: ولم تطرد هذه الولاية إلا في علي، ولهذا قال له عمر: "أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة". ومنها قوله: "أقضاكم علي"، 0ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم بقوله: {أَطِيعُوا اللَّه وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59]، والمراد الحكم والقضاء. ولهذا كان حكماً
في قضية الإمامة يوم السقيفة دون غيره. ومنها قوله: "من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدي "، فلم يبايعه إلا علي.
ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه و سلم عليا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت؛ فإنه بعث بها أولاً أبا بكر ثم أوحي إليه ليبلغه رجل منك أو من قومك، فبعث علياً ليكون القارىء المبلغ. قالوا: وهذا يدل على تقديم علي. وأيضاً فلم يعرف أنه قدم أحداً علي علي. وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين، أسامة بن زيد مرة وعمرو بن العاص أخرى. وهذه كلها أدلة شاهدة بتعين علي للخلافة دون غيره. فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم.ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه، وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامية، ويتبرأون من الشيخين حيث لم يقدموا علياً ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص، ويغمصون في إمامتهما. ولا يلتفت إلى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم.ومنهم من يقول: إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه، وهؤلاء هم الزيدية، ولا يتبرأون من الشيخين ولا يغمصون في إمامتهما مع قولهم بأن علياً أفضل منهما، لكنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل.
ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي: فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحداً بعد واحد على ما يذكر بعد؛ وهؤلاء يسمون الإمامية نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان، وهي أصل عندهم؛ ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ؛ ويشترط أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداًشجاعاً داعياً إلى إمامته؛ وهؤلاء هم
الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب، وهو زيد بن علي بن الحسين السبط، وقد كان يناظر أخاه محمدا الباقر على اشتراط الخروج في الإمام، فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين إماما لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج. وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة وأخذه إياها عن واصل بن عطاء. ولما ناظر الإمامية زيداً في إمامة الشيخين ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سموا رافضة.
ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية، ثم إلى ولده، وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه. وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصاراً.ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة. إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات

الألوهية؛ أو أن الإله حل في ذاته البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه. ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم، وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه، فصرح بلعنته والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه. ومنهم من يقول: إن كمال الإمام لا يكون لغيره، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال؛ وهو قول بالتناسخ.ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم، وهؤلاء هم الواقفية. فبعضهم يقول هو حي لم يمت إلا انه غائب عن أعين الناس، ويستشهدون لذلك بقصة الخضر، قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وإنه في السحاب، والرعد صوته، والبرق في صوته. وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وإنه في جبل رضوى من أرض الحجاز، وقال شاعرهم:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كر بلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... بر ضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية، وخصوصا الاثني عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم في الحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً؛ يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي؛ وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك، ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب، وقد قوموا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج، حتى تشتبك النجوم، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية وهم علي ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول: إن الإمام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا. ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف، والذي مر على قرية، وقتيل بني إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها. ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة، ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها. وكان من هؤلاء السيد الحميري، ومن شعره في ذلك:

إذا ما المرء شاب له قذال ... وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى ... فقم يا صاح نبك على الشباب
إلى يوم تتوب الناس فيه ... إلى دنيا هم قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه ... إلى أحد إلى يوم الإياب
أدين بأن ذلك دين حق ... وما أنا في النشور بذي ارتياب
كذاك الله أخبر عن أناس ... حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة، فإنهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها.وأما الكيسانية فساقوا الإمامة من بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم، وهؤلاء هم الهاشمية. ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسن بن علي. وآخرون يزعمون أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفاً من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح،وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور، وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحدا بعد واحد إلى آخرهم. وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس. وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير، وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية. وربما يعضدون ذلك بان حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حياً وقت الوفاة، وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة.وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص. فقالوا بإمامة علي، ثم ابنه الحسن، ثم أخيه الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب. وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة. وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده، فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان، بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط، ويقال له النفس الزكية، فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل، وعهد إلى أخيه إبراهيم، فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي، فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم، وقتل إبراهيم وعيسى؛ وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله، وهي معدودة في كراماته.وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن علي، فخرج محمد بن القاسم بالطالقان، فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه. وقال آخرون من الزيدية: إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور، ونقلوا الإمامة في عقبه، وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم.وقال آخرون من الزيدية: إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه إدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك، وقام بأمره ابنه إدريس واختط مدينة فاس، وكان من بعده عقبه ملوكا بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم.وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم. وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان،وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط؛ وأخوه محمد بن زيد. ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم، وأسلموا على يده، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر، وعمر أخو زيد بن علي، فكانت لبنيه بطبرستان دولة، وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في أخبارهم.وأما الإمامية فساقوا الإمامة من علي الرضى إلى ابنه الحسن بالوصية، ثم إلى أخيه الحسين، ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق. ومن هنا افترقوا فرقتين: فرقة ساقوها إلى ولده إسماعيل ويعرفونه بينهم بالإمام وهم الإسماعيلية؛ وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان كما مر فأما الإسماعيلية فقالوا بإمامة إسماعيل الإمام بالنص من أبيه جعفر.

وفائدة النص عليه عندهم، وإن كان قد مات قبل أبيه إنما هو بقاء الإمامة في عقبه كقصة هارون مع موسى صلوات الله عليهما. قالوا: ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين؛ لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته. قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين؛ وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في كتامة، وتتابع الناس على دعوته، ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة، وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم.ويسمى هؤلاء الإسماعيلية، نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل، ويسمون أيضاً بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن أي المستور، ويسمون أيضاً الملحدة لما في ضمن مقالتهم من الإلحاد. ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة، وملك حصوناً بالشام والعراق، و لم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر، وملوك التتر بالعراق فانقرضت. ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب "الملل والنحل " للشهرستاني.وأما الاثنا عشرية خصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم، فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر إسماعيل الإمام في حياة أبيهما جعفر، فنص على إمامة موسى هذا، ثم ابنه عليٍّ الرضا الذي عهد إليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر، ثم ابنه محمد التقي، ثم ابنه علي الهادي، ثم ابنه محمد الحسن العسكري، ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل.وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير؛ إلا أن هذه أشهر مذاهبهم، ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب "الملل والنحل " لابن حزم والشهرستاني وغيرهما، ففيها بيان ذلك. والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وهو العلي الكبير.

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلي الملك

إعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية، ليس وقوعه عنها باختيار، إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل، وان الشرائع والديانات وكل أمر يحل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية، إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه؛ فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها. وفي الصحيح: " ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه ". ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب إلى اطراحها وتركها فقال: " إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، انتم بنو آدم وآدم من تراب "، وقال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13]. ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق، والإسراف في غير القصد والتنكب عن صراط الله. وإنما حض على الإلفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة.وأعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول. وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله، وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية؛ إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقا

وتتحد الوجهة؛ كما قال صلى الله عليه و سلم : " من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ". فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان، فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله؛ وإنما يذم الغضب

للشيطان ولأغراض الذميمة؛ فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً وإذا كان الغضب في الله ولله كان ممدوحاً؛ وهو من شمائله صلى الله عليه و سلم .وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالكلية؛ فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه؛ وإنما المراد تصريفها فيما أبيح له باشتماله على المصالح؛ ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوع الأوامر الإلهية، وكذا العصبية حيث ذمها الشارع، وقال: {لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ولا أَوَلادُكُمْ} [الممتحنة: 3] فإنما مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية، وأن يكون لأحد فخر بها أو حق على أحد، لان ذلك مجان من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار. فأما إذا كانت العصبية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب، ولو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل. وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح؛ وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه. فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس انه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً.وقد قال سليمان صلوات الله عليه: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} [صلى الله عليه وسلم: 35]؛ لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك.ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال: "أكسروية يا معاوية؟ "؛ فقال: "يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة"؛ فسكت ولم يخطئه في انقلاب الخلافة إلى الملك ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله؛ وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم، وإنما قصده بها وجه الله

فسكت. وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذراً من التباسها بالباطل.فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه و سلم استخلف أبا بكر على الصلاة، إذ هي أهم أمور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على أحكام الشريعة؛ ولم يجر للملك ذكر، لما انه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين. فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه، وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الإسلام.ثم عهد إلى عمر فاقتفى أثره، وقاتل الأمم فغلبهم، وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه، وانتزعوه منهم. ثم صارت إلى عثمان بن عفان؛ ثم إلى علي رضي الله عنهما؛ والكل متبرئون من الملك متنكبون على طرقه. وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الإسلام وبداوة العرب، فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفها، لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في النعيم، ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم، وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي ألفوه.فلم تكن أمة من

الأمم أشغب عيشاً من مضر لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع، وكانوا ممنوعين من الأرياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن؛ فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها. ولقد كانوا كثيرا ما يأكلون العقارب والخنافس، ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الإبل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه. وقريباً من هذا كانت حال قريش في مطاعمهم ومساكنهم.حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه و سلم ، زحفوا إلى أمم فارس والروم، وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق. فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم، فزخرت بحار الرفه لديهم، حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها. فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر. وهم مع ذلك على خشونة عيشهم، فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد، وكان علي يقول:

"يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ". وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقفتها يومئذ. وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة؛ وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها. ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم.قال المسعودي: في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلا وخيلا كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخفف ألف فرس وألف أمة. وكان غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة اكثر من ذلك.

وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار. وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج. وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات. وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم 1ه. كلام المسعودي.فكانت مكاسب القوم كما تراه، ولم يكن ذلك منعياً عليهم في دينهم، إذ هي أموال لأنها غنائم وفيوء، ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف، إنما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه؛ فلم يكن ذلك بقادح فيهم، وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموما فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القصد. وإذا كان حالهم قصداً ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثارعوناً لهم على طرق الحق واكتساب

الدار الآخرة. فلما تدرجت البداوة والغضاضة إلى نهايتها، وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه، وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الأموال؛ فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق.ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو

لإيثار باطل أو لاستشعار حقد، كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد. وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه. وإن كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل؛ إنما قصد الحق وأخطأ. والكل كانوا في مقاصدهم على حق.ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد، واستئثار الواحد به. ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها، واستشعرته بنو أمية، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من اتباعهم فاعصوصبوا عليه، واستماتوا دونه. ولم حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة. وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر: "لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة". ولو أراد أن يعهد إليه لفعل؛ ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه؛ فلا يقدران يحول الأمر عنهم، لئلا تقع الفرقة. وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية. فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه. ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به، وكانوا ما علمت من النبؤة والحق. وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم. فلو قد عهد إلى

غيره اختلفوا عليه؛ مع أن ظنهم كان به صالحاً، ولا يرتاب أحد في ذلك، ولا يظن بمعاوية غيره؛ فلم يكن ليعهد إليه، وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا لله لمعاوية من ذلك.وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هواهم لديهم من كل مقصد. يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم. فقد احتج مالك في الموطإ بعمل عبد الملك.وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين، وعدالتهم معروفة. ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه. وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده، ولم يهمل. ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها. فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم. وولي رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا؛ حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح. ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً، فتأذن الله بحربهم، وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة، وأمكن سواهم منه. والله لا يظلم مثقال ذرة.ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه. وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور، وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال: "أما عبد

الملك فكان جباراً لا يبالي بما صنع؛ وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه؛ وأما عمر فكان أعور بين عميان؛ وكان رجل القوم هشام ". قال: ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه، مع

تسنمهم معالي الأمور، ورفضهم دنياها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات، وركوب اللذات من معاصى الله جهلاً باستدراجه وأمناً لمكره، مع اطراحهم صيانة الخلافة، واستخفافهم بحق الرئاسة وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العز وألبسهم الذل، ونفى عنهم النعمة". ثم استحضر عبد الله بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فاراً أيام السفاح. قال: "أقمت مليا ثم أتاني ملكهم فاقعد على الأرض وقد بسطت له فرش ذات قيمة، فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا؛ فقال: إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله. ثم قال: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؛ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال: فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؛ قلت: فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال: فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا. فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا! ثم رفع رأسه إلي وقال: "ليس كما ذكرت! بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم،وأتيتم ما عنه نهيتم؛ وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم. ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم. وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وانتم ببلدي فينالني معكم. وإنما الضيافة ثلاث. فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن ارضي ". فتعجب المنصور وأطرق.فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك، وان الأمر كان في أوله خلافة،ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة. فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون

المدافعة عنه، فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للإلفة التي بها حفظ الكلمة، ولو أدى إلى هلاكه. وهذا علي أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته، وتتفق الكلمة، وله بعد ذلك ما شاء من أمره، وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فراراً من الغش الذي ينافيه الإسلام. وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال: لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة، وان الحق فيما رأيته أنت، فقال علي: لا والله، بل اعلم انك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم. ولكن منعني مما أشرت به زائد الحق. وهكذا كانت أحوالهم في اصطلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية

ومروان وابنه عبد الملك، والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده. ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الأمر ملكاً بحتاً، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها، واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ. وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك، ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس، واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب. والخلافة والملك في الطورين فلتبس بعضها ببعض. ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم، وبقي الأمر ملكاً بحتاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق، يدينون بطاعة الخليفة تبركاً، والملك جميع ألقابه ومناحيه لهم، وليس للخليفة منه شيء. وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين، ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني امية بالأندلس، والعبيديين بالقيروان. فقد تبين أن الخلافة قد

وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبست معانيهما واختلطت، ثم انفرد الملك، حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة. والله مقدر الليل والنهار، وهو الواحد القهار.

الفصل التاسع والعشرون

في معني البيعة

إعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة؛ كان المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد؛ فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري؛ فسمي بيعة؛ مصدر باع؛ وصارت البيعة مصافحة بالأيدي. هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع؛ وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه و سلم ليلة العقبة وعند الشجرة، وحيثما ورد هذا اللفظ، ومنه بيعة الخلفاء. ومنه أيمان البيعة. كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك، فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة؛ وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب. ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه، ورأوها قادحة في أيمان البيعة، ووقع ما وقع من محنة الإمام رضي الله عنه.وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل، أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية، والتزام الآداب، من لوازم الطاعة وتوابعها؛ وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل، لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة، وصون المنصب الملوكي؛ إلا في الأقل

ممن يقصد التواضع من الملوك، فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته. فافهم معنى البيعة في العرف؛ فإنه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه، ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً، واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك. والله القوي العزيز.

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة، وأن حقيقتها للنظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، وبقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها، ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة علم جوازه وانعقاده إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم.وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستة: بقية العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم إلى بعض، حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي، فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهاده، فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته. والملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية، و لم ينكره أحد منهم. فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته.

والإجماع حجة كما عرف.ولا يتهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته، فأولى أن لا يحتمل شيها تبعة بعد مماته

خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظنة في ذلك كله، لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه، من إيثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأساً، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد، وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب. والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية؛ إذ بنو أمية يومئذ، لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم. فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع.

وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك.وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه؛ فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق؛ فإنهم كلهم أجل من ذلك، وعدالتهم مانعة منه. وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً، كما هو معروف عنه. و لم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير، وندور المخالف معروف. ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس، وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين، والنظر لهم، ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم، وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك؛ فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينياً، فعند كل أحد وازع من نفسه،

فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره، ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه، وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك

والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني. فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعاً وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف. سأل رجل علياً رضي الله عنه: ما بال المسلمين اختلفوا عليك، و لم يختلفوا على أبي بكر وعمر، فقال: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا اليوم والٍ على مثلك، يشير إلى وازع الدين. أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك، ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي، وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد ورد أمرهم لمعاهده، فلا بد من اعتبار ذلك في العهد، فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من أمور والقبائل والعصبيات، وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخضه، لطفاً من الله بعباده.وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية؛إذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده، ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفاً من العبث بالمناصب الدينية. والملك لله يؤتيه من يشاء.وعرض هنا أمور تدعو الضرورة إلى بيان الحق فيها.

فالأول منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته. فإياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد؛ فإنه اعدل من ذلك وأفضل؛ بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه، وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة. ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه. فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من اجل ذلك، كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك؛ ومنهم من أباه لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به؛ لأن شوكة يزيد يومئذ هي

عصابة بني أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش،وتستتبع عصبية مضر أجمع، وهي أعظم من كل شوكة، ولا تطاق مقاومتهم؛ فأ قصروا عن يزيد بسبب ذلك، وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه؛ وهذا كان شأن جمهور المسلمين. والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين، فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم.

والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه و سلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه. وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل. والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على انه لم يقع، وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال: إن أعهد لقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه و سلم لم يعهد. وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول إلى النبي صلى الله عليه و سلم يسألانه عن شأنهما في العهد، فأبى علي من ذلك وقال: إنه إن منعنا منها فلا

نطمع فيها آخر الدهر؛ وهذا دليل على أن علياً علم انه لم يوص ولا عهد إلى أحدٍ. وشبهة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون، وليس كذلك؛ وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق. ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة.واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه و سلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا، دليل على أن الوصية لم تقع. ويدل ذلك أيضاًعلى أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم، وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار؛ لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه، واستماتة الناس دونه؛ وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم، وتردد خبر السماء بينهم، وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم. فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان، وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعة؛ والملائكة المترددة التي وجموا منها، ودهشوا من تتابعها. فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية، وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القبيل، كما وقع. فلما انحصر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات، ثم بفناء القرون الذين شاهدوها، فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان. فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهما من المهمات الأكيدة كما زعموا، ولم يكن ذلك من قبل.فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه و سلم غير مهمة، فلم يعهد فيها. ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات، فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه. ثم صارت اليوم من أهم الأمورللإ لفة على الحماية، والقيام بالمصالح؛ فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل، ومنشأ الاجتماع والتوافق، الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها.

والأمر الثالث شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين. فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة، والمجتهدون إذا اختلفوا: فإن قلنا إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين، ومن لم يصادفه فهو مخطئ، فإن جهته لا تتعين بإجماع، فيبقى الكل على احتمال الإصابة، ولا تتعين المخطئ منها، والتأثيم مدفوع عن الكل إجماعاً؛ وإن قلنا إن الكل على حق وإن كل مجتهد مصيب، فأحرى بنفي الخطإ والتأثيم. وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية. وهذا حكمة. والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة علي مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة، وواقعة الحسين مع يزيد، وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك:فأما واقعة علي فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في أمصار، فلم يشهدوا بيعة علي. والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعدٍ وسعيدٍ، وابن عمر،

وأسامة بن زيد، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن سلام، وقدامة بن مظعون، وأبي سعيدٍ الخدري، وكعب بن عجرة، وكعب بن مالك، والنعمان بن بشير، وحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة. والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضاً إلى الطلب بدم عثمان وتركوا الأمر فوضى، حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه. وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه، لا في الممالأة عليه، فحاش لله من ذلك.

ولقد كان معاوية إذا صرح بملامته إنما يوجهها عليه في سكوته فقط. ثم اختلفوا بعد ذلك، فرأى علي أن بيعته قد انعقدت، ولزمت من تأخر عنها، باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة: دار النبي صلى الله عليه و سلم وموطن الصحابة، وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة، فيتمكن حينئذ من ذلك. ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق، ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد، ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم، وأن المسلمين حينئذ فوضى، فيطالبون أولاً بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام. وذهب إلى هذا معاوية وعمرو بن العاص وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله، وطلحة وابنه محمد، وسعد وسعيد، والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج، ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخففوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا. إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين، وتصويب رأيه فيما ذهب إليه، وتعين الخطإ من جهة معاوية ومن كان على رأيه، وخصوصاً طلحة والزبير

لانتقاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل، مع دفع التأثيم عن كل من الفريقين، كالشأن في المجتهدين. وصار ذلك إجماعاً من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل العصر الأول، كما هو معروف.

ولقد سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين، فقال: "والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه نقي إلا دخل الجنة" يشير إلى الفريقين؛ نقله الطبري وغيره. فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك، فهم من علمت ؛ وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة، إلا قولا للمعتزلة فيمن قاتل علياً لم يلتفت إليه أحد من أهل الحق ولا عرج عليه. وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان، واختلاف الصحابة من بعد، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة، بينما المسلمون قد أذهب الله عدوهم وملكهم أرضهم وديارهم، ونزلوا الأمصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر. وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه و سلم ، ولا هذبتهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان. وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الأولين إلى الإيمان، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به، لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم، ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والأزد من اليمن وتميم، وقيس من مضر.

فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة عليهم، والتمريض في طاعتهم، والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم، والطعن فيهم بالعجز عن السوية، والعدل في القسم عن التسوية، وفشت المقالة بذلك، وانتهت إلى المدينة، وهم من علمت. فأعظموه وابلغوه عثمان، فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر.

بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمراء شيئاً ولا رأوا عليهم طعناً، وأدوا ذلك كما علموه. فلم ينقطع الطعن من أهل الأمصار. وما زالت الشناعات تنمو. ورمي الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر، وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزله. ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال، وشكوا إلى عائشة وعلي والزبير وطلحة، وعزل لهم عثمان بعض العمال. فلم تنقطع بذلك ألسنتهم؛ بل وفد سعيد بن العاص وهو على الكوفة، فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً. ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل، فأبى إلا أن يكون على جرحة. ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك بالاجتهاد، وهم أيضاً كذلك. ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاءوا إلى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله. وفيهم من البصرة والكوفة ومصر. وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم، يحاولون تسكين الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم. وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلاً. ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون انهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم، وحلف عثمان على ذلك؛ فقالوا: مكنا من مروان فإنه كاتبك، فحلف مروان؛ فقال عثمان ليس في الحكم أكثر من هذا. فحاصروه بداره ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه، وانفتح باب الفتنة.فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين باع مر الدين ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته.

ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا. والله مطلع على أحوالهم وعالم بهم. ونحن لا نظن بهم إلا خيراً لما شهدت به أحوالهم، ومقالات الصادق فيهم.

مقتل الحسين بن علي:

وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره، بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره. فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لا سيما من له القدرة على ذلك، وظنها من، نفسه بأهليته

وشوكته. فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة. وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها؛لأن عصبية مضر كانت في قريش عصبية قريش في عبد مناف، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس، ولا ينكرونه وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق، وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين. فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت، ولم يبق إلا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين، والدين فيها محكم والعادة معزولة. حتى إذا انقطع أمر النبؤة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد؛ فعادت العصبية كما

كانت ولمن كانت، وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل.فقد تبين لك غلط الحسين؛ إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه. وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك. ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة، وعلموا غلطه في ذلك و لم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله.

وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم، فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فاقصروا عن ذلك و لم يتابعوا الحسين، ولا أنكروا عليه، ولا أثموه، لأنه مجتهد وهو أسوةً المجتهدين.ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره؛فانهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد و لم يروا الخروج عليه، وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكربلاء على فضله وحقه، ويقول: سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك، وسهل بن سعيد، وزيد بن أرقم وأمثالهم. و لم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك، لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه. وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد، ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي والحنفي على شرب النبيذ. واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن

اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم؛ وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه. ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقاً و لم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة. واعلم انه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعاً. وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل، وهو مفقود في مسألتنا؛ فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد، بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه؛ والحسين فيها شهيد مثاب، وهو على حق واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد.وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه :

أن الحسين قتل بشرع جده؛ وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل؛ ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه ما رآه الحسين وظن كما ظن، وغلطه في أمر الشوكة أعظم؛ لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا إسلام. والقول بتعين الخطإ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل إليه، لان الإجماع هنالك قضى لنا به و لم نجده هاهنا. وأما يزيد فعين خطاه فسقه. وعبد الملك صاحب ابن الزبير اعظم الناس عدالة، وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز؛ مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد، لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان؛ وابن الزبير على خلاف ذلك؛ والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر؛ وإن لم يتعين في جهة منهما. والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه؛ مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق. هذا هو الذي

ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص

بالعدالة، والنبي صلى الله عليه و سلم يقول: " خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً ثم يفشو الكذب "، فجعل الخيرة، وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه. فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم؛ والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك؛ وما اختلفوا إلا عن بينة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق، واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة، ليقتدي كل واحدٍ بمن يختاره منهم، ويجعله إمامه وهاديه ودليله. فافهم ذلك؛ وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه، واعلم انه على كل شيء قدير وإليه الملجأ والمصير. والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا، فصاحب الشرع متصرف في الأمرين: أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها؛ وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري. وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك، لئلا يفسد إن أهملت؛ وقدمنا أن الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح.

نعم إنما تكون اكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه المصالح

فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ويكون من توابعها. وقد ينفرد إذا كان في غير الملة. وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططاً وتتوزع على رجال الدولة وظائف، فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم، فيتم بذلك أمره، ويحسن قيامه بسلطانه. وأما المنصب الخلافي وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين. فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة، ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية.

فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام المشرع فيها على العموم.

فأما (إمامة الصلاة) فهي ارفع هذه الخطط كلها وارفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة. ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في

السياسة في قولهم: ارتضاه رسول الله صلى الله عليه و سلم لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؛ فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس. وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان: مساجد عظيمة كثيرة الغاشية

معدة للصلوات المشهودة، وأخرى دونها مختصة بقوم أو محفة وليست للصلوات العامة. فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض، فينضب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء. وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى

والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة. وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة، فيكون نصب الإمام لها عنده واجباً. وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان. وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الأحكام السلطانية للماوردي وغيره، فلا نطول بذكرها. ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس. وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الآذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها، يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وانهم لم يكونوا يستخلفون فيها. وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدهم استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها.

يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه: قد جعلت لك حجابة بأبي إلا عن ثلاثة: صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير؛ والآذن بالصلاة فإنه داع إلى الله؛ والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية. فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم، استنابوا في الصلاة، فكانوا يستأثرون بها في الأحيان، وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة إشادة وتنويها. فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين، صدر دولتهم.

وأما "الفتيا" فللخليفة، تصفح أهل العلم والتدريس، ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانته على ذلك، ومنع من ليس أهلا لها وزجره؛ لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم، فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس. وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد. فإن كانت من المساجد العظام، التي للسلطان الولاية عليها أو النظر في أئمتها كما مر، فلا بد من استئذانه في ذلك، وإن كان من مساجد العامة، فلا يتوقف ذلك على إذن. على انه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن

التصدي لما ليس له بأهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد. وفي الأثر: "أجرأكم على الفتيا أجرأكم على جراثيم جهنم ". فللسطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من إجازة أو رد.

وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع؛ إلا انه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة؛ فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها. وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم. وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء منه بالمدينة، وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة. وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه.يقول: أما بعد:

" فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته أمس، فراجعت اليوم فيه عملك، وهديت فيه لرشدك؛ أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأمثال والأشباه؛ وقس الأمور بنظائرها. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدا ينتهي إليه، فإن احضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت القضية عليه، فإن ذلك انفى للشك واجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه

شهادة زور، أو ظنيناً في نسب أو ولاء؛ فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان، ودرأ بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم؛ فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام ".

انتهى كتاب عمر.وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم، لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها، من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة، ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية. فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس، واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم. وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك.وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه، وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية. إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط؛ ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى. واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم، بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته.وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم، وهي وظيفة ممتزجة، من سطوة السلطنة ونصفة القضاء. وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين، وتزجر المعتدي وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه. ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد الأمارات

والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستحلاف الشهود؛ وذلك أوسع من نظر القاضي.

وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهتدي من بني العباس،وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي إدريس الخولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثر، والمعتصم لأحمد بن أبي داود. وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف. وكان يحيى بن أكثر يخرج أيام المأمون

بالصائفة إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس. فكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب.وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس، والعبيديين بمصر والمغرب، راجعاً إلى صاحب الشرطة؛ وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً، فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة في محالها، ويحكم في القود والقصاص، ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة.

ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها أمر الخلافة؛ فصار أمر المظالم راجعاً إلى السلطان، كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن. وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين: منها وظيفة التهمة على الجرائم، وإقامة حدودها، ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين؛ ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية، ويسمى تارةً باسم الوالي، وتارةً باسم الشرطة. وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً، فجمع

ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته. واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك. وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة. لان الأمر لما كان خلافة دينية، وهذه الخطة من مراسم الذين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب مواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع إليه. ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كله ملكاً أو سلطاناً صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء، لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه، ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر، فازدادت هذه الخطط الخلافية بعداً عنهم بمنحاها وعصبيتها. وذلك أن العرب كانوا يرونه أن الشريعة دينهم، وان النبي صلى الله عليه و سلم منهم، وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الأمم وطريقهم، وغيرهم لا يرون ذلك، إنما يولونها جانباً من التعظيم لما دانوا بالملة فقط. فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة.

وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترث الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها، والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم، وقلة الممانعة عن أنفسهم، وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار، ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة، فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة، البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية، وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة، لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها. ولم يكن إيثارهم في الدولة حينئذ إكراماً لذواتهم، وإنما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء، وإن حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه، إذ حقيقة الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه

فمن لا قدرة له عليه فلا حلٍّ له ولا عقد لديه. اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم، وتلقي الفتاوى منهم فنعم. **والله الموفق.** وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك، وان فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح، وقد قال صلى الله عليه و سلم : " العلماء ورثة الأنبياء ". فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه. وحكم الملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران وإلا كان بعيداً عن السياسة. فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم شيئاً من ذلك، لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حلٍّ أو عقدٍ أو فعلٍ أو ترك، وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا من حمايتها، وإنما هو عيال على غيره فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها اللهم إلا شوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة. وأما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها. وإنما إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب إليه بأي جهة انتسب. وأما قوله صلى الله عليه و سلم : " العلماء ورثة الأنبياء "، فاعلم أن الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالاً في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات، ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها؛ هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالأقل منها، وفي بعض الأحوال. والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافاً بها وتحققاً بمذاهبها. فمن حملها اتصافاً وتحققاً دون نقل فهو من الوارثين، مثل أهل رسالة القشيري.ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة، مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم، وجاء على أثرهم. وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد؛ لأن العابد ورث بصفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث

شيئاً، إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفيات العمل؛ وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا، {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات}.[سورة...الآية...] وقليل ما هم .

العدالة:

وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه. وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن

إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم،تحملاً عند الإشهاد وأداءً عند التنازع، وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عبارتها وانتظام فصولها، ومن جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها؛ فيحتاج حينئذٍ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه. ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول، وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة، وليس كذلك، وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة.ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم، وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس، فالعهدة عليه في ذلك كله، وهو ضامن دركه. وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عفت الفائدة في تعيين من تخفى

عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال، واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة، فيعولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف. ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب.وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح. وقد يتواردان ويفترقان. والله تعالى اعلم.

الحسبة والسكة:

أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين؛ يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزز ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة: مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة؛ والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً؛ بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة، ولا إنفاذ حكم.وكأنها أحكام يتزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها. فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء. وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره. ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية.

وأما السكة فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس، وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك، ونقش فيه نقوش خاصة به، فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش، وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة، فإن السبك والتخليص

في النقود لا يقف عند غاية، وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد؛ فإذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها إماماً وعياراً يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمماثلته، فإن نقص عن ذلك كان زيفاً.والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة. وهي دينية بهذا الاعتبار، فتندرج تحت الخلافة. وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي، ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحسبة.

هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية، وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية: فوظيفة الإمارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية، نتكلم عليها في أماكنها بعد وظيفة الجهاد؛ ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه إلا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون أحكامه غالباً في السلطانيات.وكذا نقابة الأنساب التي يتوصل بها إلى الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها. وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد. والله مصرف الأمور كيف يشاء.

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمير المؤمنين وأنه من سمات الخلافة

وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه، كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمون خليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك. فلما بويع لعمر بعهده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم . وكأنهم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول إضافته وانه يتزايد فيما بعد دائماً إلى أن ينتهي إلى الهجنة، ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها، فلا يعرف. فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله

وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة. وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه و سلم أمير مكة وأمير الحجاز؛ وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية، وهم معظم المسلمين يومئذ.واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين، فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به.

يقال: إن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش؛ وقيل: عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة؛ وقيل: بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول أين أمير المؤمنين، وسمعها أصحابه فاستحسنوه، وقالوا أصبت والله اسمه، إنه والله أمير المؤمنين حقاً، فدعوه بذلك، وذهب لقباً له في الناس. وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية. ثم إن الشيعة خصوا عليا باسم الإمام نعتاً له بالإمامة التي هي أخت الخلافة، وتعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم، فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده؛ فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء، حتى إذا يستولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين، كما فعله شيعة بني العباس، فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاء له، وعقدوا الرايات للحرب على أمره، فلما هلك دعي أخوه السفاح بأمير المؤمنين.

وكذا الرافضة بأفريقيا فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام، حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي وكانوا أيضاً يدعونه بالإمام، ولابنه أبي القاسم من بعده. فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهما بأمير

المؤمنين. وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يلقبون إدريس بالإمام، وابنه إدريس الاصغر كذلك، وهكذا شأنهم.وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين، وجعلوه سمة لمن يملك

الحجاز والشام والعراق: المواطن التي هي ديار العرب، ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح. وازداد كذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز بعضهم عن بعض لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم، فاستحدث ذلك بنو العباس، حجاباً، لأسمائهم الأعلام، عن امتهانها في ألسنة السوقة وصوناً لها عن الابتذال، فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد إلى آخر الدولة. واقتفى أثرهم في ذلك العبيديون بأفريقية ومصر، وتجافى بنو أمية عن ذلك في المشرق قبلهم من الغضاضة والسذاجة، أن العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذٍ و لم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة. وأما بالأندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية، وانهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس. حتى إذا جاء عبد الرحمن (الداخل) الآخر منهم (وهو الناصر بن محمد ابن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط) لأول المائة الرابعة، واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعيثهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل، ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وأفريقية، وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله، وأخذت من بعده عادة ومذهبا لقن عنه، و لم يكن لآبائه وسلف قومه.واستمر الحال على ذلك إلى ان انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالى من العجم على بني العباس، والصنائع على العبيديين بالقاهرة، وصنهاجة على أمراء أفريقية، وزناتة على المغرب، وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية، واقتسموه، وافترق أمر الإسلام، فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان.

فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم، مثل شرف الدولة وعضد الدولة

وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه ، وكان العبيديون أيضاً يخصون بها أمراء صنهاجة. فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدباً معها، وعدولاً عن سمتها المختصة بها، شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل.ونزع المتأخرون أعاجم المشرق، حين قوي استبدادهم على الملك، وعلا كعبهم في الدولة والسلطان، وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة، إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك، مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط، فيقولون: صلاح الدين، أسد الدين، نور الدين.وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها، كما قال ابن أبي شرف ينعى عليهم:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقتصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه: مثل نصير الدولة، ومعز الدولة. واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين. ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها، فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان. وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئاً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة. ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها، وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين، وكان من أهل الخير والاقتداء، نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه

فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياه على المغرب وتقليده ذلك، فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته، وخاطبه فيه بأمير المؤمنين تشريفا له واختصاصاً فاتخذها لقباً. ويقال: إنه كان دعي له بأمير المؤمنين من قبل، أدباً مع رتبة الخلافة، لما كان عليه. هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة.وجاء المهدي على أثرهم داعياً إلى الحق آخذاً بمذاهب الأشعرية ناعياً على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة، وما يؤول إليه ذلك من التجسيم، كما هو معروف من مذهب الأشعرية. وسمى أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك النكير. وكان يرى رأي أهل البيت في الإمام المعصوم وانه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم؛ فسمي بالإمام لما قلناه أولاً من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم، وأردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام. وتنزه عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة، ولما فيها من مشاركة الأغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق.

ثم انتحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمير المؤمنين، وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم، استئثاراً به عفن سواهم، لما دعا إليه شيخهم المهدي من ذلك، وأنه صاحب الأمم وأولياؤه من بعده كذلك دون كل أحد، لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها. فكان ذلك دأبهم.ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة في انتحال اللقب بأمير المؤمنين أدباً مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني

عبد المؤمن أولاً ولبني أبي حفص من بعدهم. ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتتميماً لمذاهبه وسماته. والله غالب على أمره.

الفصل الثالث والثلاثون

في شرع اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية
واسم الكوهن عند اليهود

إعلم أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي يحملهم على أحكامها وشرائعها، ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكاليف. والنوع الإنساني أيضاً، بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري، لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر، وهو المسمى بالملك.

والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الإسلام طوعاً أو كرهاً اتخذت فيها الخلافة والملأ لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معاً.وأما ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامةً ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط؛ فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك؛ وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير ديني، وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه، لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم كما في الملة الإسلامية، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم.

ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنةٍ لا يعتنون بشيء من أمر الملك، إنما همهم إقامة دينهم فقط. وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر

الصلاة والقربان، ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه، لأن موسى لم يعقب. ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتولون أحكامهم العامة. والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين، وأبعد عن شغب الأحكام. واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك؛ فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورثهم الله - بيت المقدس وما جاورها - كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه، فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان ومأرب، ورئاستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم، وأقاموا على ذلك نحوا من أربعمائة سنةٍ، ولم تكن لهم صولة الملك. وضجر بنو إسرائيل من مطالبة الأمم، فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تمليك رجل عليهم فولي عليهم طالوت، وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطين. ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما. واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز، ثم أطراف اليمن، ثم إلى أطراف بلاد الروم. ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه، إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة، والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين.

ثم غلبهم بختنصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك، أولاً الأسباط العشرة، ثم ثانياً بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة، وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم، ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق، إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنةً من خروجهم، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس. ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم. ثم فشل أمر اليونانيين، فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن

الاستيلاء عليهم، وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمناي، وقاتلوا اليونان حتى انقرض أمرهم، وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم. ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيرودس أصهار بني حشمناي، وبقيت دولتهم، فحاصروهم مدة، ثم افتتحوها عنوة، وأفحشوا في القتل والهدم والتحريق، وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها، وهو الخراب الثاني للمسجد، ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى. فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم، يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن. ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة، وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به، وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر، وبعث منهم رسلاًإلى الآفاق داعين إلى ملته، وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة، وفي مدة هيرودس، ملك اليهود، الذي انتزع الملك من بني حشمناي أصهاره. فحسده اليهود وكذبوه، وكاتب هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه به، فأذن لهم في قتله، ووقع ما تلاه القرآن من أمره. وافترق الحواريون شيعاً ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية. وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة، دار ملك القياصرة. ثم كتبوا الإنجيل الذي انزل على عيسى صلوات الله عليه، في نسخٍ أربعٍ على اختلاف رواياتهم: فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية، ونقله يوحنا بن زبدى منهم إلى اللسان اللاطيني، وكتب لوقا منهم إنجيله باللطيني إلى بعض أكابر الروم؛ وكتب يوحنا بن زبدى منهم إنجيله برومة، وكتب بطرس إنجيله باللطيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه. واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل، مع أنها ليست كلها

وحياً صرفاً بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام، وبكلام الحواريين؛ وكلها مواعظ وقصص؛ والأحكام فيها قليلة جداً. واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد أرومة، ووضعوا قوانين الملة النصرانية، وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس، وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها.

فمن شريعة اليهود القديمة التوراة، وهي خمسة أسفار، وكتاب يوشع، وكتاب القضاة، وكتاب راعوث، وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة، وسفر بنيامين، وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزراً الإمام، وكتاب أوشير وقصة هامان، وكتاب أنوب الصديق، ومزامير داود عليه السلام، وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة، ونبوات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر، وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان.ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقاة من الحواريين نسخ الإنجيل الأربعة وكتب القتاليقون سبع رسائل، وثامنها الأبريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة، وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام، وكتاب أبو غالمسيس، وفيه رؤيا يوحنا بن زبدى واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها، ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغي؛ إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها. وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك، وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم، يبعث نوابه وخلفاءه

إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية، ويسفون الأسقف أي نائب البطرك، ويسمون الإمام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس. ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب.

واكثر خلواتهم في الصوامع. وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير

التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة، فيمن قتل من البطارق والأساقفة؛ ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس. وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين؛ فقام بعده حنانياً وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها. وجعل معه اثني عشر قساًعلى انه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر. فكان أمر البطاركة إلى القسوس. ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين، واتفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين، فكتبوه وسموه الإمام، وصيروه أصلاً يرجعون إليه. وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسة كما قرره حنانياً تلميذ مرقاس، وأبطلوا ذلك الرأي، وإنما يقدم عن بلاء واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم؛ فبقي الأمر كذلك.

ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فم تقريره. ولم يختلفوا في هذه القاعدة؛ فبقي الأمر فيها على ذلك. واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة. وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضا تعظيماً له. فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة، يقال آخرها بطركية هرقل بالإسكندرية؛ فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا، ومعناه أبو الآباء. وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه. ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي رومة لأنه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه، فلم يزل سمة عليه إلى الآن.ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك، وفيما يعتقدونه في المسيح

وصاروا طوائف وفرقاً، واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه؛ فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة، إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقهم ولا يلتفون إلى غيرها، وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية. ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك؛ فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية، ورومة للإفرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية. وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم؛ والحبشة يدينون بدينهم؛ ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك.

واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد. ولا تسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم. وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من اسفل، والنطق بها مفخمة والثانية مشددة. ومن مذاهب البابا عند الإفرنجة أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة، ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم، لتكون يده عالية على جميعهم، ويسمونه الإنبرذور وحرفه الوسط بين الذال والظاء

المعجمتين؛ ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج؛ ولعله معنى لفظة الإنبرذور. وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين الفذين هما البابا والكوهن؛ {والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء}.

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان وألقابها

إعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد له من الاستعانة

بأبناء جنسه. وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده. وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بإمضاء الأحكام الوازعة فيهم، وكف العدوان عليهم في أموالهم بإصلاح سابلتهم، وإلى حملهم على مصالحهم، وما تعفهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين، حذراً من التطفيف، وإلى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش، وإلى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم. فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب. قال بعض الأشراف من الحكماء: لمعاناة نقل الجبال من أماكنها أهون علي من معاناة قلوب الرجال ". ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل، لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه، فتتم المشاكلة في الاستعانة. قال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: 29-32]. وهو إما أن يستعين في ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه، فيشغلوه عن النظر في مهماتهم. أو يدفع النظر في الملك كله، ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه. فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفترق في أشخاص. وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة: كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات، وقلم الصكوك

والإقطاعات، وإلى قلم المحاسبات، وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش؛ وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب، وصاحب الشرطة

وصاحب البريد، وولاية الثغور.ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاحتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه. فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها، لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد. والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبداداً على الخلافة وهو معنى السلطان، أو تعويضاً منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو مقيداً، أو في موجبات العزل إن عرضت، وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية. لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك لما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان. إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته، إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخضها من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت، فلا نحتاج إلى

تفصيل أحكامها الشرعية؛ مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء؛ فإن أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك. وإنما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط، لا لتحقيق أحكامها الشرعية، فليس من غرض كتابنا، وإنما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني. والله الموفق.

ا لوزارة:

وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية، لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة، أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره، وأثقاله، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة. وقد كنا قدمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة: لأنها إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور

الحماية والمطالبة، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق، ولهذا العهد بالمغرب، وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب؛ وإما أن تكون في أمور جباية المال وإنفاقه، وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق؛ وإما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه. فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه. وكل خطبه أو رتبة من رتب الملك والسلطان فإليها ترجع. إلا أن الأربع منها ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف؛ إذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائما ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه. وأما ما كان خاصاً بعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جبايةٍ خاصةً أو النظر في أمر خاص، كحسبة الطعام أو النظر في السكة؛ فإن هذه كفها نظر في أحوال خاصة، فيكون صاحبها تبعا لأهل النظر العام، وتكون رتبته مرؤوسة أولئك.وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار أمر خلافة، فذهبت تلك الخطط كفها بذهاب رسم الملك إلا ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي، والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله، إذ هو أمر لا بد منه. فكان صلى الله عليه و سلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى؛ حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره. ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام. وكذا عمر مع أبي بكر، وعلي وعثمان مع عمر. وأما حال الجباية والإنفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة؛ لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يجيده، وكان قليلاً فيهم

وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه، لأن الأمية كانت صفتهم التي امتازوا بها. وكذا حال المخاطبات وتنفيذ اً الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للامية التي كانت فيهم، والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته، ولم تخرج

السياسة إلى اختياره، لان الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء. وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة أحسنها؛ لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات. ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته، متى عن له، من يحسنه. وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم، فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه. فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات. فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب. وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له: قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله؛ وصاحب البريد فأمر ما جاء به؛ وصاحب الطعام لئلا يفسد. ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم؛ وأطلق عليه اسم الوزير. وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين. واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه؛ ولم يكن بمثابة الوزير لأنة إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام؛ إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد. فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبهم يومئذ. هذا في سائر دولة بني أمية. فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك. فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد

وتعينت مرتبته في الدولة، وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه. ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة، لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور. وجعل الخاتم لسجلات السلطان لحفظها من الذياع والشياع ودفع إليه. فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم، وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة. ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له، لاستنكافه عن مثل ذلك.ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى. وصار الوزير إذا استبد محتاجاً إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدم. فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ، وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه. ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة. ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة، واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لأنهم خول لهم، فتسموا بالإمارة والسلطان. وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان، إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم، وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها

للخليفة في خاصته. و لم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم. وفسد اللسان خلال ذلك كله، وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس، فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك، ولأنهم عجم، وليس تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به، وصارت خادمة للوزير. واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها، ويده مع ذلك عالية

على أهل الرتب، وأمره نافذ في الكل أما نيابة أو استبداداً. واستمر الأمر على هذا.ثم جاءت دولة الترك آخراً بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور، ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير، فصارت مرؤوسة ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة. وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد، وبقي اسم الحاجب في مدلوله، وأختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية.وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً: فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له. وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، و لم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره.ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم.ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب. وكان اسم الوزير في مدلوله. ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه، ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه، ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاءوا و لم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد.وأما في دولة الترك بالمشرق فيصفون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار

ويضيفون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة. وحالهم على ذلك لهذا العهد. والله مولي الأمور لمن يشاء.

الحجابة:

قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته. وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤوسة لها، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه. وهكذا كانت، سائر أيام بني العباس، وإلى هذا العهد، فهي بمصر مرؤوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب.وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة

والعامة، ويكون واسطة بينه وين الوزراء، فمن دونهم. فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم، كابن حديد وغيره من حجابهم. ثم لما جاء الاستبداد على الدولة أختص المستبد باسم الحجابة لشرفها. فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك. ولما بدءوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونها شرفاً لهم، وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لابد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة، وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم.ثم لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم. وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل.ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخراً. فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير، فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره، كابن عطية وعبد السلام الكومي. وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية. ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب

الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره. ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ.وأما بنو أبي حفص بإفريقية فكانت الرياسة في دولتهم أولاً والتقديم لوزير الرأي والمشورة. وكان يخص باسم شيخ الموحدين. وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب، وأختص الحسبان والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال، ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج، ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط، وكان من شرطه أن يكون من الموحدين. وأختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الإسرار، لأن الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم، فلم يشترط فيه النسب. واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها، من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإسطبلات وغيرهما، وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية، فخصوه باسم الحاجب. وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة، وربما جعلوه لغيره. واستمر الأمر علي ذلك، وحجب السلطان نفسه عن الناس، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم. ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب، ثم الرأي والمشورة، فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط. ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم. ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة التي كانت سلماً إليه، وباشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد. والأمر على ذلك لهذا العهد.

وأما دولة زناتة بالمغرب: وأعظمها دولة بني مرين، فلا أثر لاسم الحاجب عندهم. وأما رياسة الحرب والعساكر فهي للوزير. ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها، وإن أختصت ببعض البيوت المصطنعين في

دولتهم. وقد تجمع عندهم وقد تفرق. وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم، يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإنزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجونه، والعريف عليهم في ذلك. فالباب له، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه، فكأنها وزارة صغرى.وأما دولة بني عبد الوادّ: فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها. وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره، كما كان في دولة بني أبي حفص ، وقد يجمعون له الحسبان والسجلات كما كان فيها، حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم.

وأما أهل الأندلس لهذا العهد فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ خاص السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل، وأما الوزير فكالوزير، إلا أنه قد جمع له الترسيل. والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها، فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول.وأما دولة الترك بمصر: فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك، ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة، وهم متعددون. وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق. وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الاحيان، ويقطع القليل من الأرزاق، ويثبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية. وكان له النيابة المطلقة عن السلطان. وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع إليهم، وإجبار من أبى الانقياد للحكم، وطورهم تحت طور النيابة. والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم في تصريفها في الإنفاقات السلطانية أو الجرايات المقدرة، وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه

الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم. ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة. وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك. والله مقدر الأمور ومصرفها بحكمته، لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين.

ديوان الأعمال والجبايات:

إعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها ، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال، وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب، لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، وشفي ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها. ويقال: أن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال: (ديوانه) أي (مجانين) بلغة الفرس، فسمي موضعهم بدلك، وحذفت الهاء لكثرة الإستعمال تخفيفا فقيل ديوان، ثم نقل هذا

الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات، وقيل : أنه اسم للشياطين بالفارسية، سمي الكتاب بدلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي والخفي منها، وجمعهم لما شد وتفرق. ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال. وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد. وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر وأحد ينظر في سائر هذه الأعمال، وقد يفرد كل صنف منها بناظر، كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر وإقطاعاتها وحسبان أعطياتهم ، أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما

قرره أولوها. واعلم أن هذه الوظيفة إنما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد.وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر رضي الله عنه يقال لسبب مال أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فاستكثروه وتعبوا في قسمه، فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان، وقال: رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر. وقيل: بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان، فقيل له: ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم، فأن من تخفف أخل بمكانه، وإنما يضبط ذلك الكتاب، فاثبت لهم ديواناً. وسأل، عمر عن اسم الديوان، فعبر له. ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من كتاب قريش، فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه و سلم و ما بعدها، الأقرب فالأقرب. هكذا كان أبتداء ديوان الجيش. وروى الزهري عن سعيد بن المسيب أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين.وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل: ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية. وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين. ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكاً، وأنتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان، فأمر عبد الملك سليمان بن سعيد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنة من يوم ابتدائه، ووقف عليه سرجون كاتب عبد الملك، فقال لكتاب الروم: اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد اقطعها الله عنكم.وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن، وكان يكتب بالعربية والفارسية ، ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله، ولما قتل زادان في حرب عبد الرحمن بن الأشعث استخلف الحجاج صالحاً هذا مكانه، وأمر أن ينقل الديوان من الفارسية

إلى العربية ففعل، ورغم لذلك كتاب الفرس. وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح، ما أعظم منّته على الكتاب.ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه، كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة.وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلح والعنوة ، وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون، وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات ، فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية، وهي

مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا، وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه. وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك، بل هي ثالثة أركانه، لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه، فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال، فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك. وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم.وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها، ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها. وكان يعرف بصاحب الأشغال، وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها.ولما استبد بنو أبي حفص بإفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس، مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن، فاستكفوا بهم في ذلك، وجعلوا لهم النظر في الأشغال، كما كان لهم بالأندلس، ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين. ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين. ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم، وصار صاحبه مرؤوساً للحاجب، واصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة.وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد، وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها، ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير، وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء.هذه أصول الرتب والخطط السلطانية، وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان.وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة. وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير، وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة، وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال، لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم، وعظمة سلطانهم، واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال، ولو بلغ في الكفاية مبالغه، فتعين للنظر العائم منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالي السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف في الدولة، يرجع نظر الوزير إلى نظره، ويجتهد جهده في متابعته، ويسمى عندهم أستاذ الدولة، وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف. ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبان، مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص، وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة. وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار.وإن كان الوزير من الجند فلا يكون أستاذ الدار نظر عليه. وناظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص.وهذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعدما قدمناه من أمرها بالمغرب. والله مصرف الأمور لا رب غيره.

ديوان الرسائل والكتابة:

هذه الوظيفة غير ضرورية بما في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما

في الدول العريقة في البداوة، التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع. وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد. فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر. وكان الكاتب لأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله ، كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق، لعظم أمانتهم وخلوص أشرارهم. فلما فسد اللسان وصار صناعة أختص بمن يحسنه.. وكانت عند بني العباس رفيعة. وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة، ويكتب في آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السلطان، وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يغمس في طيني احمر مذاب بالماء، ويسمى طين الختم، ويطبع به على طرفي السجل عند طيه، وإلصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان، ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً على حب الاختيار في محلها وفي لفظها. ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبه من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه، فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه، يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة، والحكم لعلامة ذلك الرئيس. كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة ، وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد، صارحكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة، اتباعا لما سلف من أمرها. فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه، ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء، فيأتمر الكاتب له، ويضع العلامة المعتادة. وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته.ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه: فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة. ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها

توقيعه، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصينها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل: أنها كانت تباع كل قصة منها بدينار. وهكذا كان شأن الدول واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من ارفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فأنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم، من أمثال ذلك مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها.وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف، لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه، فيقلد المال والسيف والكتابة منهم. فأما رتبة السيف فتستغني عن معاناة العلم، وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك للبلاغ في هذه والحسبان في أخرى، فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه، إلا أنه لا تكون يد أخرى من أهل العصبية غالبة على يده، ويكون نظره متصرفاً عن نظره. كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق، فأن الكتابة عندهم وأن

كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدويدار، وتعويل السلطان ووثوقه به واستنامته في غالب أحواله إليه، وتعويله على الأخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الإسرار وغير ذلك من توابعها.وأما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة، وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب، وهي:

رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب:

أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم. فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات، والعلم والرزانة. بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها. وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم. لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون. فأمتعكم الله بما خضكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أصفاه من النعمة عليكم. وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.أيها الكتاب. إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقداماً في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفياً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها، والطوارق في أماكنها، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به، يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته.فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين. وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج.وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها، وسفساف الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب. ونزهوا صناعتكم عن الدناءة، واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما

فيه أهل الجهالات. وإياكم والكبر والسخف والعظمة، فأنها عداوة مجتلبة من غير إحنة. وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم. وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه، وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره. وأن أقعد أحداً منكم الكبر عن

مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه. فأن عرضت في الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه. وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال. فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء، وهو لكم أفسد منه لهم. فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبدل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا ذلك. وفقكم الله من أنفسكم. في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمؤاساة والاحسان والسراء والضراء. فنعمت الشيمة هذه، من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة. وإذا ولي الرجل منكم أو ضير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته وليكن الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً، فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله.ثم ليكن بالعدل حاكماً، وللأشراف مكرماً، وللفيء موفراً، وللبلاد عامراً، وللرعية متألفاً ، وعن أذاهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً.وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة. وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها: فإن كانت رموحاً لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شبوباً اتقاها من ين يديها، وإن خاف

منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وأن كانت حرونا قمع برفق هواها في طرقها، فأن استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها. وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم. والكاتب، لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرفق لصاحبه، ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً، ولا تعرف صواباً، ولا تفهم خطاباً، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها. إلا فارفقوا رحمكم الله في النظر، واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والإستثقال والجفوة، ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة أن شاء الله.ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير، حفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير. واستعينوا على عفافكم بالقصد، في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم. واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف، فأنهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب . ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب.وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم. ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأصدقها حجة، واحمدها عاقبة. وأعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنقاذ علمه ورويته. فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه،

وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن إكثاره. وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر بدينه وعقله وآدابه. فإنه أن ظن منكم ظان أو قال قائل أن الذي برز من جميل صنعته، وقوة حركته إنما هو

بفضل حيلته وحسن تدبيره، فقد تعرض بحسن ظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف. ولا يقول أحد منكم أنه ابصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته، فأن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره، ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجمل في طريقته. وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه، ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره. وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته.وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: "من تلزمه النصيحة يلزمه العمل". وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل. فلذلك جعلته آخره وتممته به.تولانا الله وأياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشرطة:

ويسمى صاحبها لهذا العهد بإفريقية الحاكم ، وفي دولة أهل الأندلس صاحب المدينة، وفي دولة الترك الوالي. وهي وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة، وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان. وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدادها أولاً ثم الحدود بعد استيفائها. فأن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الإستبداد وباستيفاء الحدود بعده إذا تتره عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة، وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي. ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ في

طبقات الناس، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة.ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى. وجيل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء. وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة. ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبؤون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه. وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة.

وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة. وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم. ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية. ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن

رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين.وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها في بيوت من مواليهم وأهل اصطناعهم، وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الأكراد، يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الأحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة، وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه، مع إقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة. والله مقلب الليل والنهار، وهو العزيز الجبار، والله تعالى اعلم.

قيادة الأساطيل:

وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقية، ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال. ويسمى توجبه في عرفهم البلمند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الإفرنجة فأنه اسمها في اصطلاح لغتهم. وإنما أختصت هذه المرتبة بملك إفريقية والمغرب لأنهما جميعا على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب،وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم

من سبتة إلى الإسكندرية إلى الشام، وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والإفرنجة والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضاً ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة إلى أهل عدوته. والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار. فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله. ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية، مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب، أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها، وانتزعوا من أيديهم أمرها، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة. وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة. ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث. ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، أن صف لي البحر، فكتب إليه: "أن البحر خلق عظيم، يركبه خلق ضعيف، دود على عود". فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه. ولم يركبه أحد من العرب إلا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزدي سيد بجيلة لما أغزاه عمان، فبلغه غزوه في البحر، فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو. ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده. والسبب في ذلك أن العرب كانوا لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته.فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها، فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشئوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، وأختصوا بدلك من ممالكهم

وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس. وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد. ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا، وفتح قو صرة أيضاً في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج اغزي صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه، وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده اسد بن الفرات. وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنة، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب. انتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه. وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن دماحس، ومرفأها للحط وإلا قلاع بجاية والمرية. وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك، من كل بلد يتخذ فيه السفن أسطول، يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه. فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل أو غرضٍ سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه، وجعلهم لنظر أميرٍ واحدٍ من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كفهم إليه، ثم يسرحهم لوجههم وينتظر أيابهم بالفتح والغنيمة.وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج. وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدئة جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة. وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمائة، وارتجعها النصارى لوقتها. والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، انحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح.حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن، وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وإقريطش ومالطة، فملكوها. ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لإظهار دينهم وعبادتهم، وغلبوا بني خزرون على طرابلس، ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية، ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيري،

وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر. وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن أنقطع، ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد، بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم. فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك، وبقيت بأفريقية والمغرب فصارت مختصة بها. وكان الجانب الغربي من هذا

البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة، لم يتحيفه عدو، ولا كانت لهم به كرة. فكان قائد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس، ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم، انتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعاً.ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد. وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي، أصله من صد غيار الموطنين بجزيرة جربة من سرويكش، أسرة النصارى من سواحلها وربي عندهم، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه، ثم هلك وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات، وخشي على نفسه ولحق بتونس، ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن، وأجاز إلى مراكش، فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة، وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أمم النصرانية، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين. وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والإستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه. ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية، وتطهير بيت المقدس، تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه، فأمدوهم بالعدد والأقوات، ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر، وتعدد أساطيلهم فيه، وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل. فأوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر ، وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته، فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل لتجول في البحر بين أساطيل الأجانب وبين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام، واصحبه كتابه إليه في ذلك، من إنشاء الفاضل البيساني يقول في افتتاحه:

"فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن" حسبما نقله العماد الأصفهاني في كتاب الفتح القيسيِّ فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرها في نفسه، وحملهم على مناهج البر والكرامة، وردهم إلى مرسلهم ، ولم يجبه إلى حاجته من ذلك. وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وما حصل للنصرانيَةّفي الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة.ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموّحدين واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس، وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي، قويت ريحهم في بسيط هذا البحر، واشتدت شوكتهم وكثرت فيه

أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب، فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعد يدهم.ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر، بكثرة العوائد اليدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية. ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجته وعلى أعواده. وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأمصار والأعوان، أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكاً.
وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة، والرسم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً، لما عساه أن تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية. والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله. فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة، وأن ذلك يكون في الأساطيل. والله ولي المؤمنين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إعلم أن السيفَ والقلمَ كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره. إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلمَ في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني، والسيف شريك في المعونة. وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه، ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه، فتحتاج الدولة إلى الأستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجةُ إليهم في حماية الدولة، والمدافعة عنها، كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها. فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين. ويكون أربابُ السيف حينئذٍ أوسع جاها وأكثر نعمة وأسنى إقطاعاً. وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره، ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة إلى تصريفه، وتكون السيوف مهملة في مضاجع أغمادها، إلا إذا أنابت نائبة أو دعيت إلى سد فرجة، وما سوى ذلك فلا حاجة إليها. فيكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاها، وأعلى رتبة، وأعظم نعمة وثروة، وأقرب من السلطان مجلساً، وأكثر إليه تردداً وفي خلواته نجياً، لأنه حينئذٍ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه، والنظر في أعطافه، وتثقيف أطرافه، المباهاة بأحواله، ويكون الوزراء حينئذٍ وأهل السيوف مستغنى عنهم، مبعدين عن باطن السلطان، حذرين على أنفسهم من بوادره. وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم: "أما بعد فأنه مما حفظناه من وصايا الفرس، أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء". سنة الله في عباده، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهةُ والبذخ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته. فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة، {وفوق كل ذي علم عليم }.[سورة...الآية...]

الآلة: فمن شارات الملك اتخاذُ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون. وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة، أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة. ولعمري إنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحدٍ من نفسه. وهذا السبب الذي ذكره أرسطو -إن كان ذكره- فهو صحيح ببعض الاعتبارات. وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب، ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه. وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم، بانفعال الإبل بالحداء، والخيل بالصفير والصريحُ كما علمت. ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة كما في الغناء. وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى. ولأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية لا طبلاً ولا بوقاً، فيحدقُ المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم، ويغنون، فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة. ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب، فتجيش همم الأبطال بما فيها، ويسارعون إلى مجال الحرب، وينبعث كل قرنٍ إلى قرنه. وكذلك زناتةُ من أمم المغرب. يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف، ويتغنى فيحركُ بغنائه الجبال الرواسي، ويبعثُ على

الإستماتة منْ لا يظن بها، ويسمون ذلك الغناء تاصو كايت. وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح. والله أعلم.وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر، وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام، وأحوال النفوس وتلويناتها غريبة. والله الخلاق العليم. ثم أن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات، فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها. فأما الرايات فأنها شعار الحروب من عهد الخليقة، ولم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات، لعهد النبي صلى الله عليه و سلم ومن بعده من الخلفاء. وأما قرع الطبول والنفخ في الأبواق فكان المسلمون لأول الملة متجافين عنه، تنزهاً عن غلظة الملك ورفضا لأحواله، واحتقاراً لأبهته التي ليست من الحق في شيء. حتى إذا انقلبت الخلافة ملكاً وتبجحوا بزهرة الدنيا ونعيمها، ولابسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدول السالفة، واروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف، فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها، وأذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويهاً بالملك وأهله. فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه، ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات، فلا يميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوية وقلتها، أو بما أختص به الخليفة من الألوان لرايته كالسواد في رايات بني العباس، فأن راياتهم كانت سوداً حزناً على شهدائهم من بني هاشم، ونعياً على بني أمية في قتلهم، ولذلك سموا المسودة.ولما افترق أمر الهاشميين

وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر، ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضاً وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين، ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالمشرق، كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة.ولما نزع المأمونُ عن لبس السواد وشعاره في دولته، عدل إلى لون الخضرة، فجعل رأيته خضراء.وأما الاستكثار منها فلا ينتهي إلى حد، وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسائة من البنود وخمسمائة من الأبواق.وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلونٍ وأحدٍ، بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونةً، واستمروا على الإذن فيها لعمالهم. حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان، وحظروها على من سواه من عماله، وجعلوا لها موكباً خاصاً يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة. وهم فيه بين مكثر ومقلٍّ باختلاف مذاهب الدول في ذلك: فمنهم من يقتصر على سبعةٍ من العدد تبركاً بالسبعة كما هو في دولة الموحدين، وبني الأحمر بالأندلس، ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة. وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائةً من الطبول ومائةً من البنود ملونةً بالحرير منسوجة بالذهب، ما بين كبير وصغير. ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ رايةٍ واحدةٍ صغيرةٍ من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك.

وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولاً رايةً واحدةً عظيمةً وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر، وهي شعار السلطان عندهم، ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق، وأحدها سنجق وهي الراية بلسانهم. وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ، ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الجتر فأنه خاص بالسلطان.وأما الجلالقة لهذا العهد من أمم الإفرنجة بالأندلس، فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجو صعداً ومعها قرع الأوتار من الطنابير، ونفخ الغيطات ، يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم، وهكذا يبلغنا عنهم وعمن وراءهم من ملوك العجم. {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الروم: 22].

السرير: وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي فهي أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعاً عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد. ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام، وفي دول العجم. وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب. وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسي وسرير من عاج، مغشى بالذهب. إلا أنه لا تأخذُ به الدول إلا بعد الاستفحال والترف شأن الأبهة كلها كما قلناه. وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون إليه.وأول من اتخذه في الإسلام معاوية واستأذن الناس فيه، وقال لهم: أني قد بدنت فأذنوا له، فاتخذه واتبعه الملوك الإسلاميون فيه وصار من منازع الأبهة. ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب، ويأتيه المقوقس إلى قصره ومعه سرير من الذهب محمولاً على الأيدي لجلوسه شأن الملوك، فيجلس عليه وهو أمامه، ولا يغيرون عليه وفاءً له بما عقد معهم من الذمة

واطراحاً لأبهة الملك. ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الإسلام شرقاً وغرباً من الأسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الأكاسرة والقياصرة. والله مقلب الليل والنهار.

السكة: وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه، فيكون التعامل بها عدداً، وأن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً. ولفظ السكة كان اسماً للطابع، وهي الحديدة المتخذة لذلك، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك، والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه، وهي الوظيفة، فصار علماً

عليها في عرف الدول. وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات، ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة. وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها، مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصنٍ أو حيوانٍ أو مصنوعٍ أو غير ذلك، و لم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم.ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب. وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً، وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم، إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم، لغفلة الدولة عن ذلك، وأمر عبد الملك الحجاج، على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد، بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص، وذلك سنة أربعٍ وسبعين، وقال المدائني سنة خمس وسبعين، ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين، وكتب عليها: "الله أحد الله الصمد".ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك، فجود السكة، ثم بالغ خالد القسري في تجويدها، ثم يوسف بن عمر بعده. وقيل: أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز، وكتب عليها في أحد الوجهين: "بركة الله " وفي الأخر "اسم الله "، ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنةٍ، وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر. وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق، والمثقال وزنه درهم وثلاثة أرباع درهم، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل. وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً، ومنها اثنا عشر، ومنها عشرة، فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً، فكان المثقال درهماً وثلاثة أسباع درهمٍ. وقيل كان منها البغلي بثمانية دوانق، والطبري أربعة دوانق، والمغربي ثمانية دوانق، واليمني ستة دوانق، فأمر عمر أن ينظر الأغلبُ في التعامل، فكان البغلي والطبري وهما اثني عشر دانقاً. وكان الدرهم ستة دوانق، وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً، وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً. فلما رأى عبد الملك اتخاذ السّكة لصيانة النقدين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه، واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها، مع أن الشرع ينهى عن الصور. فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها. وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين، والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً، وصلاة على النبي وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة. وهكذا أيام العباسيين والعبيديين والأمويين.وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة إلا آخر الأمر، اتخذها منصور صاحب بجاية، ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه. ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل، وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، ومن الجانب الأخر كتباً في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون، وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد. ولقد كان المهدي، فيما ينقل، ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع، نعته بدلك المتكلمون بالحدثان من قبله، المخبرون في ملاحمهم عن

دولته.وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرةٍ، وإنما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزناً بالصنجات المقدرة بعدة منها، ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب. {ذلك تقدير العزيز العليم}.[سورة...الآية...]

ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما.

مقدار الدرهم والدينار الشرعيين:

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق

والأمصار وسائر الأعمال. والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها. فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدارٍ معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما. فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعين درهماً، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار، ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبةً من الشعير. فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبةً وخمسا حبةٍ. وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع. فأن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري، وهو أربعة دوانق، والبغلي وهو ثمانية دوانق، فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دوانق. فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ومائةٍ طبرية خمسة دراهم وسطاً.وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك، وإجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه، ذكر ذلك الخطام في كتاب معالم السنن والماوردي في الأحكام السلطانية، وأنكره المحققون من المتأخرين، لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم، مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه.والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق. وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج، وإنما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشرعي على المقدر في مقدارهما وزنتهما. حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة، ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير. وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما في الخارج، كما هو في الذهن، ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه أثر الشهادتين الإيمانيتين، وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشى وجودها. فهذا هو

الحق الذي لا محيد عنه.ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم، واختلفت في كل الأقطار والآفاق، ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهناً كما كان في الصدر الأول، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم، بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية.وأما وزن الدينار باثنين وسبعين حبةً من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم خالف ذلك، وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبةً، نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق، ورده المحققون، وعدوه وهماً وغلطاً وهو الصحيح. (والله يحق الحق بكلماته)

وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس، لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار، والشرعية متحدة ذهناً لا اختلاف فيها. (والله خلق كل شي فقدره تقديراً).

الخاتم:

وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية. والختم علي الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه و سلم أراد أن يكتب إلى قيصر، فقيل له: أن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: "محمد رسول الله ".

قال البخاري: "جعل ثلاث كلمات في ثلاثة اسطر وختم به، وقال: لا ينقش أحد مثله "، قال: "وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس، وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد، واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله ". وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه. وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي

تجعل في الإصبع ، ومنه تختم إذا لبسه. ويطلق على النهاية والتمام، ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره، وختمت القرآن كذلك، ومنه خاتم النبيين وخاتم الأمر. ويطلق على السداد الذي يسد به الأواني والدنان، ويقال فيه ختام، ومنه قوله تعالى: {خِتَامُهُ مِسْكٌ} [المطففين: 26]. وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام، قال لأن آخر ما يجدونه فم شرابهم ريح المسك، وليس المعنى عليه، وإنما هو من الختام، الذي هو السداد، لأن الخمر

يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها، فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك، وهو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا.فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها.وذلك أن الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مذاق من الطين أو مداد، ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات في ذلك الصفح. وكذلك إذا طبع به على جسم لين كالشمع، فأنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه. وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقش من الجهة اليسرى، لأن الختم يقلب جهة الخط في الصفح كما كان في النقش من يمين أو يسار. فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد أو الطين، ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه، ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه، كان الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام. وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح، أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائناً من كان، أو شيء من نعوته، يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه، وسمي ذلك في المتعارف علامة، وسمي ختماً تشبيهاً له بأثر الخاتم الآصفي في النقش، ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم، أي علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه، ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أي علامته. قال الرشيد ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفراً ويستبدل به من الفضل أخيه، فقال

لأبيهما يحيى: "يا أبت إني أردت أن أحول الخاتم من يميني إلى شمالي ". فكنى له بالخاتم عن الوزارة، لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم. ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبري أن معاوية أرسل إلى

الحسن عند مراودته إياه في الصلح صحيفة بيضاء ختم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك. ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخطه أو غيره. ويحتمل أن يختم به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه، ويجعل على موضع الحزم من الكتاب إذا حزم وعلى المودوعات وهو من السداد كما مر. وهو في الوجهين آثار الخاتم، فيطلق عليه خاتم.وأول من أطلق الختم على الكتاب، أي العلامة معاوية، لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف، ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه، فأنكرها معاوية، وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله. واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبري. وقال آخرون: وحزم الكتب و لم تكن تحزم أي جعل لها السداد. وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها أما بالعلامة أو بالحزم. وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال.والحزم للكتب يكون أما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب، وأما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق. وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والإطلاع على ما فيه. فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك، فيرتسم النقش في الشمع. وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضاً قد غمس في مذاق من الطين معد لذلك، صبغه احمر فيرتسم ذلك النقش عليه. وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم، وكان يجلب من سيراف، فيظهر أنه مخصوص بها.فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد، والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل. وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية. ثم اختلف العرف وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة. ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للإصبع، فيستجيدون صوغه من الذهب

ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروز والزمرد، ويلبسه السلطان شارة في عرفهم، كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية. والله مصرف الأمور بحكمه.

الطراز:

من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم، من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب ألحاماً وإسداء بخيط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب، على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته.وكان ملوك

العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم، أو أشكال وصور معينة لذلك. ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السجلات. وكان ذلك في الدولتين من أبهة الأمور وأفخم الأحوال. وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك. وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز، ينظر في أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها، وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم. وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم. وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس، والطوائف من بعدهم، وفي دولة العبيديين بمصر، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق. ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء، وتعددت الدول، تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة.ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة، لم يأخذوا بدلك أول دولتهم، لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجةالتي لقنوها عن إمامهم محمد ابن تومرت الامهدي وكانوايتورعون عن لباس

الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهما آخر الدوله طرفاً لم يكن بتلك النباهة وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسماً جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس، واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف، فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر.وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم، وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص، ويسمونه المزركش- لفظ أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعده الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها. والله مقدر الليل والنهار، والله خير الوارثين.

الفساطيط والسياج:

إعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية الفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن، فيباهى بها في الإسفار وتنوع منها الألوان ما ين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار، وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك. وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف. ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم. فكانت أسفارهم لغزواتهم، وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد. وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل، بعبدة ما بين المنازل، متفرقة الأحياء، يغيب كل واحدٍ منها عن نظر صاحبه مع الأخرى كشأن العرب. ولذلك كان عبد الملك يحتاج إلى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن.

ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباعٍ وقضتها في إحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة. ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب، فأنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بوادر السفهاء من أحيائهم، بما له من

العصبية الحائلة دون ذلك، ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته.فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور، ومن ظهر الخف إلى ظهر الحافر، اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتا مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة، ويدير الأمير القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر، الذي هو لسان أهله "أفراك" بالكاف التي بين الكاف والقاف، ويختص به السلطان بدلك القطر لا يكون لغيره.وأما في المشرق فيتخذه كل أمير وأن كان دون السلطان. ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم، فخص لذلك ظهرهم وتقاربت السياج بين منازل العسكر، واجتمع الجيش والسلطان في معسكر وأحد، يحصرة البصر في بسيطة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه. واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها.وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التي أظلتنا. كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطين، حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط، وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان. إلا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الأهل

والولد الذين تكون الاستماتة دونهم، فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر. والله القوي العزيز.

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة:

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي، ولم يعرف في غير دول الإسلام.فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب، فيحوز، وما يليه. فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي، والقصة معروفة، وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني. ثم اتخذها الخنفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة. وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها. وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها. وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق، وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف. وأما المغرب فكان بنو الأ غلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون، ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة، بنو باديس بفاس، وبنو حماد بالقلعة. ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس، ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم. ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف، وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة، وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس. وهكذا كان الشأن في سائر الدول. سنة الله في عباده.وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولأية الصلاة بأنفسهم. فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم والرضا عن أصحابه. وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر. وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس، دعا

لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها، فقال: اللهم أنصر علياً على الحق. واتصل العمل على ذلك فيما بعد. وبعد أخذ

عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك، فكتب إليه عمر بن الخطاب: "أما بعد، فقد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أوما يكفيك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك، فعزمت عليك إلا ما كسرته ". فلما حدثت الابهة، وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيهما. فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه، ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة، ولما ثبت عن السلف في قولهم: من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان. وكان الخليفة يفرد بذلك.فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغيبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك، ويشاد باسمهم عقب اسمه. وذهب ذلك بذهاب تلك الدول، وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه، وحظر أن يشاركه فيه ويسمو إليه.وكثيراً ما يغفل المعاهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة، ويقنعون بالدعاء على الإبهام والأجمال لمن ولي أمور المسلمين. ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية، يعنون بدلك أن الدعاء على الأجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر، ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه. يحكى أن يغمراسن بن زيان، عاهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان، ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها،

كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله، فقال يغمراسن: تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا. وكذلك يعقوب بن عبد الحق عاهد دولة بني مرين، حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم، وتخفف بعض أيامه عن شهود الجمعة، فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه، فأذن في الدعاء له، وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته. وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة. فإذا انتبهت عيون سياستهم

ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ وإلابهة، انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها، وتجاروا إلى غايتها، وأنفوا من المشاركة فيها، وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها. والعالم بستان. والله على كل شيء رقيب.

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها

إعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله. وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبيته. فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع، كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل.وسبب هذا الانتقام في الأكثر: أما غيرة ومنافسة، وأما عدوان، وأما غضب لله ولدينه، وأما غضب للملك وسعي في تمهيده. فالأول

أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والثاني، وهو العدوان، أكثر ما يكون من أمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم، لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب، ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم. والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد. والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها.فهذه أربعة أصنافٍ من الحروب: الصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة،والصنفان الأخيران حروب جهادٍ وعدلٍ، وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف

صفوفاً، ونوع بالكر والفر. أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كفهم على تعاقب أجيالهم.وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب.وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر. وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف، وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً. فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد، لا يطمع في إزالته.

وفي التنزيل: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: 4] أي يشد بعضهم بعضا بالثبات. وفي الحديث الكريم: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ". ومن هنا يظهر لك حكمة أيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف، فأن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه، فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف، وباء بإثم الهزيمة أن وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين، وأمكن منهم عدوهم، فعظم الذنب لعموم المفسدة، وتعديها إلى الدين بخرق سياجه، فعد من الكبائر. ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع.وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف. إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر، ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد.ثم أن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً، يسمونها كراديس، ويسوون في كل كردوس صفوفه. وسبب ذلك أنه لفا كثرت جنودهم الكثرة البالغة، وحشدوا من قاصية النواحي، استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض، فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض، ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع. ورئيس العساكر

كلها من سلطان أو قائده في القلب. ويسمون هذا الترتيب التعبئة، وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الإسلام. فيجعلون بين يدي الملك عسكراً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورأيته وشعاره، ويسمونه المقدمة، ثم عسكراً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمون الميمنة، ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسفون الميسرة، ثم عسكراً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة، ويقف الملك

وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع، ويسمون موقفه القلب. فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم، أما في مدى وأحد للبصر أو على مسافة بعبدة، أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها، أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة، فحينئذٍ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة.وأنظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق، وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلص عن رحيله لبعد المدى في التعبئة، فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا إليه، وكما هو معروف في أخباره. وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضاً كثير منه. وهو مجهول فيما لدينا، لأنا إنما أدركنا دولاً قليلة العساكر، لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر، بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة، ويعرف كل وأحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه، فاستغني عن تلك التعبئة.

ضرب المصاف وراء العسكر:

ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم، فيتخذوها ملجأً للخيالة في كرهم وفرهم، يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب. وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة.فقد كان الفرس وهم أهل الزحف، يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح، مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات، ويصفوها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون، فتقوى بذلك نفوسهم

ويزداد وثوقهم.وأنظر ما وقع من ذلك في القادسية، وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها، فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن، فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع.وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم، فكانوا يتخذون لذلك الأسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب، ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه، وترفع الرايات في أركان السرير، ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة، فيعظم هيكل السرير ويصير فئةً للمقاتلة وملجأ للكر والفر. وجعل ذلك الفرس أيام القادسية، وكان رستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه، حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك، فتحول عنه إلى الفرات وقتل.وأما أهل الكر والفر من العرب واكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم، ويسمونها المجبوذة، وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها، وتراه أوثق في الجولة، وآمن من الغرة والهزيمة. وهو أمر مشاهد.وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة، واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم، ولا تغني غناء الفيلة والإبل. فصارت العساكر بدلك عرضة للهزائم، ومستشعرة للفرار في المواقف.وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً. وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر. لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران: أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم، الثاني: أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر، ولما رسخ فيهم من الأيمان، والزحف إلى الإستماتة أقرب.

وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده. قال الطبري: لما ذكر قتال الجبيري: "فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري ويلقب أبا الذلفاء، وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس، وأبطل الصف من يومئذٍ، أنتهى. فتنوسي قتال الزحف بإبطال الصف، ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف. وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء. فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن، وصعب عليهم اتخاذها، فخلفوا النساء في الإسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية، فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية وكان ذلك صفتهم في الحرب. ولا يغني كل الغناء لأنه لا يدعو إلى الإستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال. فيخف الصبر من اجل ذلك وتصرفهم الهيعات وتخرم صفوفهم.

فصل:

ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكر والفر، صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم، وأختصوا بدلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر. والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردءاً للمقاتلة أمامه، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف، وإلا أجفلوا على طريقة أهل الكر والفر، فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم، فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الآفة المتعودة الثبات في الزحف وهم الإفرنج، ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها، هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر. وإنما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناكها من تخوف الإجفال على مصاف السلطان والإفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك، لأن عادتهم في القتال الزحف، فكانوا أقوم بذلك من غيرهم. مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر، وقتالهم على الطاعة، وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من ممالأتهم على المسلمين. هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد، وقد أبدينا سببه. والله بكل شيء عليم.

فصل:

وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف، يضربون صفا وراء صف، ويترجلون عن خيولهم، ويفرغون سهامهم بين أيديهم، ثم يتناضلون جلوساً، وكل صف ردء للذي أمامه أن يكبسهم العدو، إلى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى. وهي تعبئة محكمة غريبة.

فصل:

وكان من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف، حذراً من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل، لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف، فيلوذ الجيش بالفرار وتجد

النفوس في الظلمة ستراً من عاره، فإذا تساووا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة. فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم، ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم، حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات، فيتخاذلوا. وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال، وجمع الأيدي عليه في كل مترل من منازلهم، بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك. فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن. والله خير ا لقادرين.

وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين:

وأنظر وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه.قال في كلام له: "فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الخاسر. وعضوا على الأضراس، فأنه أنبى للسيوف عن الهام. والتووا على أطراف الرماح، فأنه أصون للأسنة. وغضوا الأبصار، فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب. وأخفتوا الأصوات، فأنه أطرد للفشل وأولى بالوقار. وأقيموا راياتكم، فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم. واستعينوا بالصدق والصبر، فأنه بقدر الصبر يترل النصر".وقال الأشتر يومئذٍ يحرض الازد: "عضوا على النواجذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامكم، وشدوا
شدة قوم موتورين يثأرون بآبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوهم، وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر، ولا يلحقهم في الدنيا عار.وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف، ويصف ثباته في حرب شهدها، ويذكره بأمور الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها:

يا أيها الملأ الذي يتقنع   من منكم الملك الهمام الأروع
ومن الذي غدر العدو به دجى   فأنفض كل وهو لا يتزعزع
تمضي الفوارس والطعان يصدها   عنه ويدمرها الوفاء فترجتع
والليل من وضح الترائك أنه   صبح على هام الجيوش يلمع
أنى فزعتم يا بني صنهاجة   وإليكم في الروع كان المفزع
إنسان عين لم يصبه منكم   حضن وقلب أسلمته الأضلع
وصددتم عن تاشفين وأنه   لعقابه لو شاء فيكم موضع
ما أنتم إلا أسود خفية   كل لكل كريهة مستطلع
يا تاشفين أقم لجيشك عذره   بالفيل والعذر الذي لا يدفع

(ومنها في سياسة الحرب):

كانت ملوك الفرس قبلك تولع
أهديك من أدب السياسة ما به   ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
لا إنني أدري بها لكنها   وصى بها صنع الصنائع تبع

والبس من الحلق المضاعفة التي سيان تتبع ظافراً أو تتبع
والهندواني الرقيق فأنه أمضى على حد الدلاص وأقطع
واركب من الخيل السوابق عدة حصناً حصيناً ليس فيه مدفع
خندق عليك إذا ضربت محلة بين العدو وبين جيشك يقطع
والواد لا تعبره وأنزل عنده ووراءك الصدق الذي هو أمنع
واجعل مناجزة الجيوش عشية ضنك فأطراف الرماح توسع
وإذا تضايقت الجيوش بمعرك شيئاً فإظهار النكول يضعضع
واصدمه أول وهلة لا تكترث للصدق فيهم شيمة لا تخدع
واجعل من الطلاع أهل شهامة لا رأي للكذاب فيما يصنع
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفاً

قوله: "واصدمه أول وهلة لا تكترث" البيت مخالف لما عليه الناس في أمر الحرب. فقد قال عمر لأبي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له: "اسمع وأطع من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم وأشركهم في ، ولا تجيبن مسرعاً حتى تتبين، فأنها الحرب ولا يصلح لها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف".وقال له في أخرى: "أنه لن يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته في الحرب. وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع. والله لولا ذلك لأمرته. لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث".هذا كلام عمر، وهو شاهد بأن التثاقل في الحرب أولى من الخوف، حتى يتبين حال تلك الحرب. وذلك عكس ما قاله الصيرفي، إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه. والله تعالى أعلم.ولا وثوق في الحرب بالظفر وأن حصلت أسبابه من العدة والعديد، وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق. وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف، ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك، ومن أمور خفية وهي أما من خدع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك، وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري بالكدى عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة، وقد تورطوا، فيتلفتون إلى النجاة، وأمثال ذلك. وأما أن تكون تلك الأسباب الخفية، أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب، فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة.
وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمل لكل وأحد من الفريقين فيها حرصاًعلى الغلب، فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة. ولذلك قال صلى الله عليه و سلم : " الحرب خدعة ". ومن أمثال العرب: "رب حيلة أنفع من قبيلة". فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة، ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه. فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه، معنى قوله صلى الله عليه و سلم : " نصرت بالرعب مسيرة

شهر "، وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات. فأن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم، فينهزموا، معجزة لرسوله صلى الله عليه و سلم ، فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها،إلا أنه خفي عن العيون.وقد ذكر الطرطوشي: أن من أسباب الغلب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الأخر، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الأخر ثمانية أو ستة عشر، فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب، وأعاد في ذلك وأبدى، وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا، وليس بصحيح. وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكفهم، وفي الجانب الأخر عصائب متعددة، لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية، إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد، ويكون الجانب الذي عصابته متعددةً لا يقاوم الجانب الذي عصبيته واحدة لأجل ذلك فتفهمه. واعلم أنه اصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي و لم

يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية في حفته وبلده، وأنهم إنما يردون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوحدان، والجماعة الناشئة عنهم، لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسباً. وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها، فكيف يجعل ذلك كفيلاً بالغلب، ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي. فافهمه وتفهم أحوال الكون. والله مقدر الليل والنهار.

فصل:

ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت. فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس، من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل علي العموم، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها. وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً على صاحبها. والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها التعصب والتشيع، ويدخلها الأوهام، ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال، لخفائها بالتلبيسة والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بدلك، والنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها، وأين مطابقة الحق مع هذه كلها، فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه، وتكون غير مطابقة. وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة. والسبب في ذلك أن الدولة: أن كانت على سنن الدين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية، وهي قليلة الوزائع، لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت، وكذا زكاة الحبوب والماشية، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية، وهي حدود لا تتعدى، وأن كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم، والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس، والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة، والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها. وإذا قفت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه، فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم، وإذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف الوزائع، فكثرت الجباية التي هي جملتها. فإذا استمرت الدولة واتصلت، وتعاقب ملوكها وأحدا بعد وأحد، واتصفوا بالكيس، وذهب شر البداوة والسذاجة وخلقها من الإغضاء والتجافي، وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس، وتخفق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق، وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف، فيكثرون الوظائف الوزائع حينئذ على الرعايا والإكرة والفلاحين وسائر أهل

المغارم، ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبايعات وفي الأبواب كما نذكر بعد، ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة، لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً و لم يشعر أحد بمن زادها على التعيين، ولا من هو واضعها، إنما تثبت على الرعايا كأنها عادة مفروضة. ثم تزيد إلى الخروج عن حد الاعتدال، فتذهب غبطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع، إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته، فتنقبض كثير من الأيدى عن الاعتمار جملة، فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها. وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لما نقص، حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة، لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به. فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها، إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار، ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار، عائدة إليها. وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن، فبدلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه. والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها، {وبيده ملكوت كل شيء}[سورة يس الآية الأخيرة] .

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس أواخر الدولة

إعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا، فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خرجها وأنفاقها قليلاً فيكون في الجباية حينئذٍ وفاء

بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم. ثم لا تلبث أن تأخذ يدين الحضارة في الترف وعوائدها، وتجري على نهج الدول السابقة قبلها، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة بنفقته في خاصته، وكثرة عطائه، ولا تفي بدلك الجباية. فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من النفقة، فيزيد في مقدار الوظائف الوزائع أولاً كما قلناه، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية، ويدرك الدولة الهرم،وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية، فتقل الجباية وتكثر العوائد، ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم. فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البيعات، ويفرض لها قدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السلع في أموال المدينة. وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية. وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة، فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعود على الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير، وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم، وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعاضها بآثار الخير. وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى محى رسمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين. وكذلك وقع بأمصار الجريد بأفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها. والله تعالى أعلم.

الفصل الأربعون

في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

إعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد

والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المال والجباية، فتارةً توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله، وتارةً بالزيادة في ألقاب المكوس أن كان قد استحدث من قبل، وتارةً بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم، لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية، لا يظهره الحسبان، وتارةً باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال. فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق، ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد. وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة.فأولاً مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع، وتيسير أسباب ذلك، فأن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته،

ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد.ثم أن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضاً أو بأيسر ثمن، إذ لا يجد من يناقشه في شرائه فيبخس ثمنه على بائعه.ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من زرعٍ أو حريرٍ أو عسلٍ أو سكرٍ أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع، فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات، لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاحٍ بشراء تلك البضائع، ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم، وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدةً، ويمكثون عطلاً من الإدارة

التي فيها كسبهم ومعاشهم. وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن. وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب راس ماله، فيقعد عن سوقه، ويتعدد ذلك وبتكرر، ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح، ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة، ويؤدي إلى فساد الجباية، فأن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار، لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها، فإذا أنقبض الفلاحون عن الفلاحة، وقعد التجار عن التجارة، ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش.

وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل. ثم أنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع، فأنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس. ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلاً من جهة الجباية. ثم فيه التعرض لأهل عمرانه، واختلال الدولة بفسادهم ونقصه، فأن الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات، وكان فيها تلاف أحوالهم، فافهم ذلك. وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل، وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه، ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع، وأن لا يستخدم العبيد فأنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.واعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية وإدرارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال، والنظر لهم بدلك، فبدلك تنبسط آمالهم، وتنشرح صدورهم للأخذ في تثمير الأموال وتنميتها، فتعظم منها جباية

السلطان. وأما غير ذلك من تجارةٍ أو فلحٍ فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة. وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان، أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاءون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن. وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم. وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الأصناف، أعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها، فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً،ولا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس، فأنها اجدر بنمو الأموال، وأسرع في تثميره، ولا يفهم

ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته. فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة بجبايته وسلطانه، والله يلهمنا رشد أنفسنا، وينفعنا بصالح الأعمال، والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي والأربعون

في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصبية بمقدار غنائهم وعصبيتهم، ولأن الحاجة إليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل. فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون إليه من الجباية، معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم، فله عليهم عزة وله إليهم حاجة. فلا يطير في سهمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي مملقين في الغالب، وجاههم متقلص لأنه من جاه مخدومهم، ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيته.

فإذا استفحلت طبيعة الملك، وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه، قبض أيديهم عن الجبايات، إلا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم، وتقل حظوظهم إذ ذاك لقفة غنائهم في الدولة، بما أنكبح من أعنتهم، وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الأمر، فينفرد صاحب الدولة حينئذٍ بالجباية أو معظمها، ويحتوي على الأموال ويحتجنها للنفقات في مهمات الأحوال، فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه، فيعظم حال حاشيته وذويه، من وزير وكاتبٍ وحاجبٍ ومولى وشرطي ويتسع جاههم، ويقتنون الأموال ويتأثلونها. ثم إذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية وفناء القبيل المعاهدين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذٍ إلى الأعوان والأنصار، ولكثرة الخوارج والمنازعين والثوار، وتوهم الانتقاض، فصار خراجه لظهرائه وأعوانه، وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات، وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة، وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال، فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم، وضيق نطاقه على صاحب الدولة. ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة. ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم، فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسهِ شيئاً فشيئاً وواحداً بعد وأحدٍ، على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها، ويتقوض بدلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه.وأنظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم، في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حديرة وبني برد وأمثالهم، وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا. سنة الله التي قد خلت في عباده.

فصل:

ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم يترعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان، بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر، ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته. وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة أحوالهم ودنياهم.واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع. فأن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه، فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين، ولا أهل العصبية المزاحمون له، بل في ظهور ذلك منه هدم لملكه وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بدلك، لأن ربقة الملك يعسر الخلاص منها،ولا سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر. وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته، فقل أن يخلى بينه وين ذلك أما أولاً فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم، بل وسائر رعاياهم مماليك لهم، مطلعون على ذات صدورهم، فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة ضنا بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد، وغيرة من خدمته لسواهم. ولقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم، وما أبيح الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف. وأما ثانياً فأنهم وأن سمحوا بحل ربقته هو فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال، لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم، إذ لم يكتسب إلا بها وفي ظل جاهها، فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به. ثم إذا توهمنا أنه خلص بدلك المال إلى قطر آخر، وهو في النادر الأقل، فتمتد إليه أعين الملوك بدلك القطر وينتزعونه بالإرهاب والتخويف تعريضاً أو

بالقهر ظاهراً، لما يرون أنه مال الجباية والدول، وأنه مستحق للأنفاق في المصالح. وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش، فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التي تجد السبيل إليه بالشرع والعادة. ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بأفريقية الخروج عن عهدة الملك واللحاق بمصر فراراً من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس، فاستعمل اللحياني الرحلة إلى ثغر طرابلس يوري بتمهيده، وركب السفين من هنالك؛ وخلص إلى الإسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصامت والذخيرة، وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجواهر، حتى الكتب، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاون، سنة سبع عشرة من المائة الثامنة؛ فأكرم نزله ورفع مجلسه، ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتعريض إلى أن حصل عليها، ولم يبق معاش ابن اللحياني إلا في جرايته التي فرضت له؛ إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبما نذكره في أخباره. فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب، وإنما يخلصون أن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم؛ وما يتوقعونه من الحاجة فغلط ووهم. والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاه في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة. والدول أنساب؛ لكن:

النفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

والله سبحانه هو الرزاق، وهو الموفق بمنه وفضله، والله أعلم.

الفصل الثاني والأربعون

في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم، ومنه مادة العمران. فإذا احتجن السلطان الأموال أو الجبايات ، أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها، قل حينئذٍ ما بأيدي الحاشية والحامية، وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم، وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم. فيقع الكساد حينئذٍ في الأسواق، وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك؛ لان الخراج والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح. ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذٍ بقفة الخراج. فإن الدولة كما قلناه هي السوق الأعظم، أم الأسواق كلها، وأصلها ومادها في الدخل والخرج، فإن كسدت وقفت مصارفها فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه. وأيضاً فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه، ومنه إليهم، فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية. سنة الله في عباده.

الفصل الثالث والأربعون

في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

إعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها

لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أشواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان؛ لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادها ضرورة.وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام، وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة، بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: أن بوما ذكراً يروم نكاح بوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها؛ وقال لها: أن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية، وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده، فقال له: أيها الملك أن الملك لا يتم عزه

إلا بالشريعة، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك؛ ولا عز للملك إلا بالرجال؛ ولا قوام للرجال إلا بالمال؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة؛ ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل. والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرث وجعل له قيماً، وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها

وعمارها؛ وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال، وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة، فتركوا العمارة، والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك. ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع؛ فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم، وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها، فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية، وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها.فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه، وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها، وحملوا على رسومهم السالفة، وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم، فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج، وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه، فحسنت أيامه وانتظم ملكه. فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران، وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض.ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها، ولم يقع فيها خراب. واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر. فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعةً بما لا ينحصر، كان وتوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً؛ لان النقص إنما يقع بالتدريج. فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين. وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى، فترفعه بجدتها، وتجبر النقص الذي كان خفيًا فيه، فلا يكاد يشعر به، إلا أن ذلك في الأقل النادر.والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه، ووباله عائد على الدول.ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غيم عوضٍ ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك. وكل من أخذ فلك أحد أو غضبه في عمله أو طالبه بغير حقً أو فرض عليه

حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله.واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهماً. وأدلته من القرآن والسنة كثير؛ أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر.ولو كان كل

واحد قادراً عليه لوضع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع، التي يقدر كل أحدٍ على اقترافها من الزنا والقتل والسكر. إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه، لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان، فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه، عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه. (وما ربك بظلام للعبيد).ولا تقولن أن العقوبة قد وضعت بإزاء الحرابة في الشرع، وهي من ظلم القادر؛ لان المحارب زمن حرابته قادر. فإن في الجواب عن ذلك طريقين. أحدهما أن تقول: العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أو مال على ما ذهب إليه كثير، وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته، وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة. الطريق الثاني أن تقول: المحارب لا يوصف بالقدرة لأنا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة؛ فهي المؤذنة بالخراب؛ وأما قدرة المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال؛ والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعاً وسياسة؛فليست من القدر المؤذن بالخراب. والله قادر على ما يشاء.

فصل:

ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق. وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق؛ لأان الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران.فإذا مساعيهم وأعمالهم كفها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها؛ فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك. فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخرًيا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة. وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى إلى انتقاض العمران وتخريبه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الاحتكار:

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع. وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على التواحي والتعجيل، فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء، إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس أموالهم. وقد يعم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع، وسائر السوقة، وأهل الدكاكين في المآكل والفواكه، وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين، فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات، وتتوالى على الساعات، وتجحف برؤوس الأموال، ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح، ويتثاقل الوارد ون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من اجل ذلك، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا، لأن عامته من البيع والشراء. وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم، وتنقصُ جبايةُ

السلطان أو تفسد، لأن معظمها من أوسط الدولة، وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه. ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة. ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به.هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال وأما أخذها مجاناً والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وإعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة، وتنتقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاض.ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء، وحظر أكل أموال الناس بالباطل سدّا لأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش. واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثرُ نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة، فيستحدثون ألقاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج. ثم لا يزال الترف يزيد، والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال الناس تشتد، ونطاق الدولة بذلك يزيد، إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها. والله أعلم.

الفصل الرابع والأربعون

في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

إعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه، لأنه لا بد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلاؤها، والبداوة هي شعار العصبية، والدولة أن كان قيامها بالدين فإنه بعيد عن منازع الملك؛ وإن كان قيامها بعز الغلب فقط، فالبداوة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه. فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الإذن.فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد

بالمجد، واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه، لما يكثر حينئذٍ من بحاشيته، فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع، ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته، ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة.ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت أ خلاق صاحب الدولة إلى أخلاق الملك، وهي أ خلاق غريبة مخصوصة، يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها. وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم، فسخطوه وصاروا إلى حالة الانتقام منه. فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم، وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت، حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم، وعلى الناس من التعرض لعقابهم.فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول، يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من العامة. والحجاب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من العامة. والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا، كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية، وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصحيح.ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت

الدولة من الترف والعز ما هو معروف، وكملت خلق الملك على ما يجب فيها، فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني، وصار اسم الحاجب أخص به، وصار بباب الخلفاء داران للعباسية: دار الخاصة؛ ودار العامة، كما هو مسطور في أخبارهم.ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الأولين، وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة. وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من

الأعقاب، وحاولوا الاستبداد عليهم، فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه وخواص أوليائه، يوهمه أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة، وفساد قانون ا أدب، ليقطع بذلك لقاء الغير، ويعوده ملابسة أخلاقه هو، حتى لا يتبدل به سواه، إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه. وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر. ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد تؤتها. وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم؛ لأن القائمين بالدولة يحاولون ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم، لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه.

الفصل الخامس والأربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها. وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها، ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به، يأنف حينئذٍ عن المشاركة، ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع، بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه. فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم، ونزعوا إلى القاصية واجتمع إليهم من يلحق بهم، مثل حالهم من الاغترار والاسترابة. ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية؛ فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها. ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة، حتى يقاسم الدولة أو يكاد.وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعاً، ونطاقها ممتداً في الاتساع، وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر، فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه؛ إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم، لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة، ولم يتم

أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية.ثم لما خرج الأمر من بني أمية، واستقل بنو العباس بالأمر، وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف، وآذنت بالتقلص عن القاصية، نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، قاصية دولة الإسلام، فاستحدث بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين. ثم نزع إدريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره، وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة، واستولى على ناحية المغربين. ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغالبة في الامتناع عليهم. ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة، واستولوا على أفريقية والمغرب، ثم مصر والشام والحجاز، وغلبوا على الأدارسة، وقسموا الدولة دولتين أخريين، وصارت الدولة العربية ثلاث دول: دولة بني العباس بمركز العرب، وأصلهم ومادتهم الإسلام؛

ودولة بني أمية المجددين بالأندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق؛ ودولة العبيديين بأفريقية ومصر والشام والحجاز. و لم تزل هذه الدول إلى أن أصبح انقراضها متقارباً أو جميعاً.وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى: وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان؛ والعلوية في الديلم وطبرستان؛ وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء. ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك. ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم.وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وأفريقية، لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه، ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية، واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة، ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري، واستحدث ملكاً آخر قسيماً لملك آل باديس، وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها، و لم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً.وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها، واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها. ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية، خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم رابع خلفائهم، واستحدث ملكاً بجباية وقسنطينة وما إليها، أورثه بنيه، وقسموا به الدولة قسمين، ثم استولواعلى كرسي الحضرة بتونس، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم، ثم عاد الاستيلاء فيهم.وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثٍ وفي غير أعياص الملك من قومه، كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس، وملوك العجم بالمشرق، وفي ملك صنهاجة بأفريقية؛ فقد كان لأخر دولتهم في كل حصن من حصون أفريقية ثائر مستقلٌ بأمره كما نقدم ذكره. وكذا حالُ الجريد والزاب من أفريقية ُقبيل هذا العهد كما نذكره.وهكذا شأن كل دولةٍإلا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة ولقلص ظل الغلب، فيقتسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر وتتعدد فيها الدول والله وارثُ الأرض ومن عليها.

الفصل السادس والأربعون

في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحدٍ، وبينا أنها تحدث للدولة بالطبع، وأنها كلها أمور طبيعية لها. وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية، كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني. والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها؛ لما أنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تتبذل. وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة فم السياسة، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم، ويظن انه ممكن الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهم م، ويحسبه انه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم؛ وليس كذلك، فإنها أمور طبيعية للدولة، والعوائد هي المانعة له من تلافيها. والعوائد منزلة طبيعية أخرى؛ فإن من أدرك مثلا أباه وأكثر

أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات، فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس؛ إذ العوائد حينئذٍ

تمنعه وتقبح عليه مرتكبه. ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه.وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها، لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي. وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس. فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبهة؛ فتتدرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر.وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود، كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال، وهي انطفاء. فاعتبر ذلك، ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه. (ولكل أجل كتاب).

الفصل السابع والأربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما. فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند؛ والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال. والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين. فلنذكر أولاً طروق الخلل في الشوكة والعصبية؛ ثم نرجع إلى طروقه في المال والجباية.

1- واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية، وانه لا بد من عصبية كبرى جامعةٍ للعصائب مستتبعةٍ لها، وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرةٍ وقبيلةٍ. فإذا جاءت الدولة طبيعةُ الملك من الترف وجدع أنوف أهل

العصبية كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك؛ فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم. لمكانهم من الملك والعز والغلب ، فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر. ثم يصير القهر آخراً إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر، فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه، فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه، فيهلكون ويقفون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم، وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها، فتنحل عروتها وتضعف شكيمتها، وتستبدل عنها بالبطالة من موالي النعمة وصنائع الإحسان ويتخذ منهم عصبية؛ إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية، لفقدان الرحم والقرابة منها. وقد كنا قدمنا أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم، لما جعل الله في ذلك. فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية، ويحس بذلك أهل العصائب أخرى، فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً فيهلكهم صاحب الدولة، ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحدٍ. ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول؛ مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا. فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل، حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية ويفشوا بعزتها ويصيروا إوجز على الحماية، ويقلون لذلك، فتقل الحامية التي تنزل بالأطراف والثغور؛ فيتجاسر الرعايا على نقض الدعوة في الأطراف، ويبادر الخوارج على الدولة من الأعياص وغيرهم إلى تلك الأطراف لما يرجون حينئذٍ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية إليهم. ولا يزال يتدرج ونطاق

الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة. وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاث، على قدر قوتها في الأصل كما قلناه، ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها، لكن إذعاناً لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود.واعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام؛ انتهت أولاً إلى الأندلس والهند والصين . وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف، حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد أمره. ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا.وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبيين وشردوهم، فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم، فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الأغلب بأفريقية وأهلى الأندلس وغيرهم، وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب، وقام البربر بأمرهم إذعاناً للعصبية التي لهم، وأمناً أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة.فإذا خرج الدعاة آخراً فيتغلبون على الأطراف والقاصية، وتحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة. وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصاً، إلى أن ينتهي إلى المركز، وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف، فتهلك وتضمحل، وتضعف الدولة المنقسمة كلها.

وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل إيالتها، وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها، فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة، فيستغني بذلك عن قوة العصائب، ويكفي صاحبها، بما حصل لها في تمهيد أمرها الأجراء على الحامية من جندي ومرتزق. ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد أن يتصور عصياناً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له؛ فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده. وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم. فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يختلج في ضميرها انحراف عن الطاعة؛ فيكون أسلم من الهرج والانتقاض الذي يحدث من العصائب والعشائر. ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها، شان الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء، إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور. (ولكل أجل كتاب)، ولكل دولة أمد. (والله يقدر الليل والنهار)، وهو

الواحد القهار.2- وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال، فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر، فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات، والتعفف عن الأموال، فتتجافى عن الإمعان في الجباية، والتحذلق والكيس في جمع الأموال وحسبان العمال، ولا داعية حينئذٍ إلى الإسراف في النفقة، فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال. ثم يحصل الاستيلاء ويعظم، ويستفحل الملك، فيدعو إلى الترف، ويكثر الإنفاق بسببه؛ فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم، بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر، ويدعو ذلك إلى الزيادة في أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة. ثم يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات، وينتشر ذلك في الرعية، لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها. ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البياعات في الأسواق لإدرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه، ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده. ثم تزيد عوائد

الترف فلا تفي بها المكوس، وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا، فتمتد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا، من مكس أو تجارةٍ أو نقدٍ في بعض الأحوال، بشبهة أو بغير شبهة. ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فتتوقع ذلك منهم، وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الإنفاق فيهم، ولا تجد عن ذلك وليجة. ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم، وبما اتسع لذلك من جاههم، فيتوجه إليهم باحتجان الأموال من الجباية، وتفشو السعاية فيهم بعضهم عن بعض للمنافسة والحقد، فتعمهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم، ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم. فإذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم. ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة، وضعفت عن الاستطالة والقهر، فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذٍ إلى مداراة الأمور ببذل المال، ويراه أرفع من

السيف لقلة غنائه. فتعظم حاجته إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند، ولا يغني فيما يريد. ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي؛ والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه، إلى أن تفضي إلى الهلاك وتتعرض لاستيلاء الطلاب. فإن قصدها طالما انتزعها من أيدي القائمين بها، وإلا بقيت وهي تتلاشى إلى أن تضمحل كالذبال في السراج إذا فني زيته وطفئ. والله مالك الأمور ومدبر الأكوان، لا إله إلا هو.

الفصل الثامن و الأربعون

فصل في اتساع نطاق الدولة

أولاً إلى نهايته ثم تضايقه طوراً بعد طور

إلى فناء الدولة واضمحلالها

قد كان تقدم لنا في فصل الخلافة والملك، وهو الثالث من هذه المقدمة، أن كل دولة لها حصة من الممالك والعمالات لا تزيد عليها. واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية أقطارها وجهاتها. فحيث نفد عددهم فالطرف الذي انتهى عنده هو الثغر؛ ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق. وقد تكون النهاية هي نطاق الدولة الأولى. وقد يكون أوسع منه إذا كان عدد العصابة أوفر من الدولة قبلها. وهذا كله عندما تكون الدولة في شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استفحل العز والغلب وتوفرت النعم والأرزاق بدرور الجبايات، وزخر بحر الترف والحضارة ونشأت الأجيال على اعتبار ذلك لطفت أخلاق الحامية ورقت

حواشيهم. وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات الجبن والكسل، بما يعانونه من ضنث الحضارة المؤدي إلى الانسلاخ من شعار البأس والرجولية، بمفارقة البداوة وخشونتها، وبأخذهم العز بالتطاول إلى الرياسة والتنازع عليها؛ فيفضي إلى قتل بعضهم ببعض، ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاك رؤسائهم؛ فتفقد الأمراء والكبراء، ويكثر التابع والمرؤوس، فيفل ذلك من حد الدولة، ويكسر من شوكتها. ويقع الخلل الأول في الدولة، وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم. ويساوق ذلك السرف في النفقات

بما يعتريهم من أبهة العز، وتجاوز الحدود بالبذخ؛ بالمناغاة في المطاعم والملابس وتشييد القصور واستجادة السلاح وارتباط الخيول، فيقصر دخل الدولة حينئذٍ عن خرجها ويطرق الخلل الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والجباية. ويحصل العجز والانتقاص بوجود الخللين. وربما تنافس رؤساؤهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم. وربما اعتز أهل الثغور والأطراف بما يحسون من ضعف الدولة وراءهم، فيصيرون إلى الاستغلال والاستبداد بما في أيديهم من العمالات، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادة، فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها، وترجع العناية في تدبيرها بنطاق دونه، إلى أن يحدث في النطاق الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في العصابة وقفة الأموال والجباية. فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة من قبل الجند والمال والولايات، ليجري حالها على استقامة بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الجباية على الأرزاق، ومقايسة ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال. والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة. فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الأول من قبل. ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الأول، ويقايس

بالوزان الأول أحوالها الثانية، يروم دفع مفاسد الخلل الذي يتجدد في كل طور ويأخذ من كل طرف حتى يضيق نطاقها الآخر إلى نطاق دونه كذلك، ويقع فيه ما وقع في الأول. فكل واحدٍ من هؤلاء المغيرين للقوانين قبلهم كأنهم منشئون دولة أخرى، ومجددون ملكاً. حتى تنقرض الدولة، وتتطاول الأمم حولها إلى التغلب عليها وإنشاء في دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قدر الله وقوعه.

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على أمم، ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تخولوه من النعم والأرزاق، إلى أن انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس. ثم تزايد الترف، ونشأت الحضارة، وطرق الخلل، فضاق النطاق من الأندلس والمغرب بحدوث الدولة الأموية المر وانية والعلوية، واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد، وظهر دعاة العلوية من كل جانب، وتمهدت لهم دول، ثم قتل المتوكل، واستبد الأمراء على الخلفاء وحجروهم، واستقل الولاة بالعمالات في الأطراف. وانقطع الخراج منها، وتزايد الترف. وجاء المعتضد فغير قوانين الدولة إلى قانون آخر من السياسة اقطع فيه ولاة الأطراف ما غلبوا عليه، مثل بني سامان وراء النهر وبني طاهر العراق وخراسان، وبني الصفار السند وفارس، وبني طولون مصر، وبني الأغلب أفريقية، إلى أن افترق أمر العرب وغلب العجم، واستبد بنو بويه والديلم بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، وبقي بنو سامان في استبدادهم وراء النهر، وتطاول الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه. ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام وأبقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم. واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر في نطاق أضيق من هالة القمر وهو عراق العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين. وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن

طولى بن دوشي خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان بأيديهم من ممالك الإسلام.
وهكذا يتضايق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولا يزال طوراً بعد طورٍ إلى أن تنقرض الدولة.
واعتبر ذلك في كل دولة عظمت أو صغرت. فهكذا سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه. و{كل شيء هالك إلا وجهه }[سورة القصص الآية 88].

الفصل التاسع والأربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

إعلم أن نشأة الدول وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين: إما بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم، فتكون لكل واحدٍ منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه، يرثه عنه أبناؤه أو مواليه، ويستفحل لهم الملك بالتدريج، وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به، ويغلب منهم من يكون له فضل قوةٍ على صاحبه، وينتزع ما في يده؛ كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم، وتقلص ظلها عن القاصية، واستبد بنو ساسان بما وراء النهر، وبنو حمدان بالموصل والشام، وبنو طولون بمصر؛ وكما وقع بالدولة الأموية بالأندلس وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا ولاتها في الأعمال، وانقسمت دولاً وملوكاً أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم. وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لأنهم مستقرون في رئاستهم، ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب؛ وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية، وعجزت عن الوصول إليها.

والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه، أو يكون صاحب شوكةٍ وعصبية كبيراً في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم إلى الملك، وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة، وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها، ويمارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويزنون أمرها كما يتبين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الخمسون

في أن الدولة المستجدة إنما تستولي علي الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان: نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص فيء الدولة عنهم وانحسر تيارها، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأكثر كما قدمناه، لان قصاراهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم؛ والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة، وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة، لان قوتهم وافية بها، فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك ووافٍ به؛ فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكور وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب. ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة. والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهمية،

وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما مر؛ ولذلك كان الخداع من انفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به؛ وفي الحديث: " الحرب خدعة ".والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع؛ فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكسر من همم أتباعه وأهل شوكته، وإن كان الأقربون

من بطانته على بصيرة في طاعته ومؤازرته، إلا أن الآخرين أكثر، وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة، فيحصل بعض الفتور منهم، ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة. فيرجع إلى الصبر والمطاولة، حتى يتضح هرم الدولة المستقرة، فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه، وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه، فيقع الظفر والاستيلاء.وأيضاً فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعيم واللذات، واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية، فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الأسلحة، وتعظم فيهم الأبهة الملكية، ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراراً فيرهبون بذلك كله عدوهم. وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك؛ لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق إلى قلوبهم أوهام الرعب، بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة، ويحجمون عن قتالهم من أجل ذلك؛ فيصير أمرهم إلى المطاولة، حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم، ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية، فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة. سنة الله في عباده. وأيضاً فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوا ئدهم وفي سائر مناحيهم، ثم هم مفاخرون لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليها، فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سراً وجهراً، ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة، يصيبون منه غرة باطناً وظاهراً، لانقطاع المداخلة بين الدولتين، فيقيمون على المطالبة وهم في إحجام، وينكلون عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها، ووفور الخلل في جميع جهاتها، ويتضح لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يخفى منها، من هرمها وتلاشيها، وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها، فتنبعث هممهم يداً واحدةً للمناجزة، ويذهب ما كان يفت في عزائمهم من التوهمات، وتنتهي المطاولة إلى حدها، ويقع الاستيلاء آخراً بالمعاجلة.واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها، حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد. وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية.وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم، كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية. ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقين، فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصبهان، ثم استولوا على الخليفة ببغداد.وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي ببني كتامة من قبائل البربر عشر سنين، وبزيد يطاول بني الأغلب بأفريقية حتى ظفر بهم، واستولوا على المغرب كله، وسموا إلى ملك مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت، ويجيء المدد لمدافعتهم براً وبحراً من بغداد والشام، وملكوا الإسكندرية

والفيوم والصعيد، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها، واقتلع دولة بني طغج من أصولها، واختط القاهرة، فجاء الخليفة بعد، المعز لدين الله، فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية.وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني ساسان، وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة، يطاولون بني سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته. ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر.وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبع عشرة وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة.وكذا أهل المغرب، خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة، فطاولوهم سنين، ثم استولوا عليه. ثم خرج الموحدون بدعوتهم

على لمتونة، فمكثوا نحوا من ثلاثين سنة يحاربونهم، حتى استولوا على كرسيهم بمراكش.وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم. ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى، حتى استولوا على كرسيهم بمراكش حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول. فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولة. سنة الله في عباده؛ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه و سلم . واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه و سلم ؛ سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبعاداً بالإيمان، وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل. فكان ذلك كله خارقاً للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة. وإذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه، المتعارف ظهورها في الملة الإسلامية. والمعجزات لا يقاس عليها ا أمور العادية، ولا يعترض بها. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الحادى الخمسون

في وفور العمران أخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إعلم انه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في إيالتها، إما من الدين أن كانت الدعوة دينية أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول. وإذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا، وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر، ويكثر التناسل. وإذا كان ذلك كله بالتدريج فإنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل. وفي

انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي، فيكون حينئذٍ العمران في غاية الوقور والنماء. ولا تقولن إنه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا، وسوء الملكة، فذلك صحيح، ولا يعارض ما قلناه؛ لان الإجحاف وإن حدث حينئذٍ، وقفت الجبايات فإنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين، من أجل التدريج في الأمور الطبيعية. ثم أن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول. والسبب فيه:أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في

الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالباً؛ وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود، ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار. فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع، وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا، وكان بعفى السنوات، والاحتكار مفقود، فشمل الناس الجوع.وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه، أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل، أو وقوع الوباء. وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه. فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة. وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة. وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحفيات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك. وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة، لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغرم، وهو ظاهر. ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري، ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات

ويأتي بالهواء الصحيح. ولهذا أيضاً فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير، كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب. والله يقدر ما يشاء.

الفصل الثاني والخمسون

في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره

إعلم انه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه؛ وحكمة فيهم: تارةً يكون مستنداً إلى شرع مترل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه؛ وتارةً إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة، ولمراعاته نجاة العباد في الأخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحدٍ من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأساً. ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك " بالمدينةالفاضلة"؛ والقوانين المراعاة في ذلك "بالسياسة المدنية". وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة؛ فإن هذه غير تلك. وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير.ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين: أحدهما يراعى

فيها المصالح على العموم، ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص. وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة، لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآداب، وأحكام الملك مندرجة فيها. الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة، وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً. وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر. إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم؛ فقوانينها إذا مجتمعة من أحكام شرعية، وآداب خلقية، وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية؛ والاقتداء فيها بالشرع أولاً، ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم.ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما. فكتب إليه أبوه طاهر كتابة المشهور عهد إليه فيه، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية، والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك، ولا سوقة. ونص الكتاب:

نص كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله:

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته، ومراقبته عز وجل، ومزايلة سخطه. واحفظ رعيتك في الليل والنهار. والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه واليم عذابه. فإن الله سبحانه قد احسن إليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل فيهم، والقيام بحقه وحدوده عليهم، والذم عنهم، والدفع عن حريمهم ومنصبهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسربهم، وإدخال الراحة عليهم. ومؤاخذك بما فرض عليك، وموقفك عليه، وسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت. ففرغ لذلك فهمك

وعقلك وبصرك، ولا يشغلك عنه شاغل، وإنه رأس أمرك وملاك شأنك، وأول ما يوقفك الله عليه. وليكن أول ما تلزم به نفسك، وتنسب إليه فعلك، المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك، وتوقعها على سننها، من إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها، ورتل في قراءتك؛ وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصرف فيه رأيك ونيتك، واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك، وادأب عليها، فإنها كما قال الله عز وجل: {تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45].

ثم اتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله عسي صلى الله عليه و سلم ، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده. وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه، وبلزوم ما أل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل. ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيدٍ.وآثر الفقه

وأهله والدين وحملته، وكتاب الله عز وجل والعاملين به؛ فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين، والطلب له، والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل فإنه الدليل على الخير كله والقائد إليه والأمر به، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها. ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالاً له، ودركاً للدرجات العلى في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنسة بك، والثقة بعدلك.وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها؛ فليس شيء أبين نفعاً، ولا أخص أمناً، ولا أجمع فضلاً منه. والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، فآثره في دنياك كلها.ولا تقصر في طلب

الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة، والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته، ومرافقة أولياء الله في دار كرامته.أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب، وأنك لن تحوط نفسك من قائل، ولا تنصلح أمورك بأفضل منه، فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك. وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك.ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره؛ فإن إيقاع التهم بالبرآء، والظنون السيئة بهم، آثم إثم. فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم، يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم. ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمداً، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك. وأعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة، وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك، والرأفة برعيتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك. والمباشرة لأمور الأولياء وحياطة الرعية والنظر في حوائجهم، وحمل مؤوناتهم، أيسر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة. وأخلص نيتك في جميع هذا، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع ومجزي بما أحسن، ومؤاخد بما أساء. فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً، ورفع من اتبعه وعززه.واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى. وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم، وما استحقوه، ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليه حسن ظنك. واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك، وتقم

لك مرؤتك.وإذا عاهدت عهداً فأوف به، وإذا وعدت الخير فأنجزه. واقبل الحسنة وادفع بها. واغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهل النميمة؛ فإن أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها، تقريب الكذوب،والجراءة على الكذب؛ لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها، أن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر. وأحبب أهل الصلاح والصدق، وأعز الأشراف بالحق، وآس الضعفاء، وصل الرحم؛ وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره،

والتمس فيه ثوابه والدار الأخرة. واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك. وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى. واملك نفسك عند الغضب، وآثر الحلم والوقار، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله.وإياك أن تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء؛ فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل. وأخلص لله وحده النية فية، واليقين به. واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء. ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان، والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه، واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله.ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تذخر وتكتز البر والتقوى، واستصلاح الرعية، وعمارة بلادهم والتفقد أمورهم والحفظ لدمائهم، والإغاثة لملهوفهم.واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم، نمت وزكت، وصلحت بها العامة، وترتبت بها الولاية، وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنفعة. فليكن كتز خزائنك تفريق

أموال في عمارة الإسلام وأهله. ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم؛ فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة لك، واستوجبت المزيد من الله تعالى، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك. وأطيب أنفساً بكل ما أردت، وأجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب، وليعظم حقك فيه، وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه. واعرف للشاكرين حقهم، وأثبهم عليه، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الأخرة فتتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يورث التفريط، والتفريط يورث البوار. وليكن عملك لله عز وجل ، وارج الثواب فيه، فإن الله سبحانه قد أسبغ فضله.

واعتصم بالشكر، وعليه فاعتمد، يزدك الله خيراً وإحساناً؛ فإن الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين. ولا تحقرن ذنباً، ولا تمالئن حاسداً، ولا ترحمن فاجراً، ولا تصلن كفوراً، ولا تداهنن عدواً، ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن غداراً، ولا توالين فاسقاً، ولا تتبعن غاوياً، ولا تحمدن مرائياً، ولا تحقرن إنساناً، ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تحسنن باطلاً، ولا تلاحظن مضحكاً، ولا تخلفن وعداً، ولا تزهون فخراً، ولا تظهرن غضباً، ولا تباينن رجاءً، ولا تمشين مرحاً، ولا تزكين سفيهاً، ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا ترفعن للنمام عيناً، ولا تغمضن عن ظالم رهبةً منه أو محاباةً، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا.وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة. ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل، ولا تسمعن لهم قولاً، فإن ضررهم أكثر من نفعهم.وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح. واعلم انك إذا كنت حريصاً كنت

كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلا، فإن رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم. ووال من صافاك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم.

واجتنب الشح، واعلم انه أول ما عصى الإنسان به ربه، وان العاصي بمترلة الخزي، وهو قول الله عز وجل: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]. فسهل طرق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كفهم في فيئك حظاً ونصيباً، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد، فأعده لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً. وتفقد الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معايشهم، يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم، فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً. وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة في عدله وعطيته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته. فزايل مكروه أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر، ولزوم العمل به تلق أن شاء الله تعالى به نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور؛ لأنه ميزان الله الذي تعذل عليه أحوال الناس في الأرض. وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتؤمن السبل، وينتصف المظلوم، وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقيم الدين، ويجري السنن والشرائع في مجاريها. واشتد في أمر الله عز

وجل. وتورع عن النطف، وامض لإقامة الحدود. وأقلل العجلة، وابعد عن الضجر والقلق، واقنع بالقسم، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صحتك واسدد في منطقك وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر، وتواضع لربك، وارفق بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم؛ فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم، فلا تبغ انتهاكاً لها بغير حقها.وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، وأهله توسعة ومنعة؛ ولعدوه كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاديهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم، ولا تدفعن شيئاً منه عن شريف لشرفه، ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا عن أحد من خاصتك ولا حاشيتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له. ولا تكفف أمراً فيه شطط. واحمل الناس كلهم على أمر الحق، فإن ذلك أجمع لإلفتهم والزم لرضاء العامة.واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً، وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم، وقيمهم. فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفذه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم. واستعمل عليهم أولي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف. ووسع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت واسند إليك، فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف. فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدوثة في عملك واجتررت به المحنة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرّت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك؛ وظهر الخصب في كورك، وكثر خراجك، وتوفرت

أموالك، وقويت بذلك على ارتياض جندك، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وآله وقوة وعدة. فتنافس فيها ولا

تقدم عليها شيئاً، تحمد عاقبة أمرك. أن شاء الله تعالى.واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل في عمله معايناً لأموره كلها. وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه، وإلا فتوقف عنه، وراجع أهل البصر والعلم به، ثم خذ فيه عدته؛ فإنه ربما نظر الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى، فأغواه ذلك وأعجبه، فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقض عليه أمره. فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة. وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك.وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت. واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه. وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك، وجمعت أمر سلطانك.وانظر أحرار الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم، وشهدت مودتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك، فأستخلصهم وأحسن إليهم. وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤونتهم، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخفتهم منافراً وافرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك

والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فسل عنه أحفى مسالة، وكل بأمثاله أهل الصلاح في رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم إليك لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم. وتعاهد ذوي البأساء ويتماهم وأراملهم، وأجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين اعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة. وأجر للأضراء من بيت المال، وقدم حملةالقرآن منهم، والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم. وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال.واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم، طمعاً في نيل الزيادة وفضل الرفق بهم. وربما تبرم المتصفح،لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به من مؤونة ومشقة. وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الأجل كالذي يستقل ما يقربه من الله تعالى، وتلتمس به رحمته.وأكثر الإذن للناس عليك وأرهم وجهك، وسكن لهم حواسك واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك. وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان؛ فإن العطية على ذلك تجارة مربحة أن شاء الله تعالى.واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم

البائدة.ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى، والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته، وبإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل.واعرف ما يجمع عضالك من

الأموال، وما ينفقون منها. ولا تجمع حراماً، ولا تنفق إسرافاً.أكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأخلاق ومعاليها. وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في ستر، وإعلامك بما فيه من النقص؛ فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك.وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك. ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك، وكرر النظر فيه والتدبر له، فما كان موافقاً للحق والحزم فأمضه، واستخر الله عز وجل فيه، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه، والتثبت منه. ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم. ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك. وتفهم كتابي إليك وأمعن النظر فيه والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره، فإن الله عز وجل مع الصلاح وأهله. وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضاً، ولدينه نظاماً، ولأهله عزاً وتمكيناً وللملة والذمة عدلاً وصلاحاً. وأنا أسال الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام.وحدث الأخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أُعجب به الناس، واتصل بالمأمون فلما قرىء عليه، قال: ما أبقى أبو الطيب، يعني طاهراً، شيئاً من أمور الدنيا والدين، والتدبير والرأي والسياسة، وصلاح الملك والرعية، وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة، إلا وقد احكمه وأوصى به. ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به، ويعملوا بما فيه. هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة. والله اعلم.

الفصل الثاني والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه

وكشف الغطاء عن ذلك

أعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، انه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، وبظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي؛ ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح، علم أثره؛ وان عيسى يترل من بعده فيقتل الدجال، أو يترل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته.ويحتجون في هذا الشأن بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون لذلك، وربما عارضوها ببعض الأخبار. وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى، ونوع من الاستدلال، وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم.ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارهم من المستند، ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم، ليتبين لك الصحيح من ذلك أن شاء الله تعالى. فنقول: أن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي، منهم الترمذي وأبو داود والبزاز وابن ماجة والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي، واسندوها إلى جماعة من الصحابة: مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن

مسعود وأبي هريرة وانس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرة بن إياس، وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث بن

جزء بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره. إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل. فإذا وجدنا طعناً في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي، تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها. ولا تقولن: مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين؟ فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول، والعمل بما فيهما؟ وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع. وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك؟ فقد نجد مجالاً للكلام في أسانيدها بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة، على ما نقل السهيلي عنه، في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال: ومن أغربها إسناداً ما ذكره أبو بكر الإسكاف، في فوائد الأخبار، مسنداً إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر، قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب

". وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك، فيما أحسب. وحسبك هذا غلوا. والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس. على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع.

وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس، من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة إلى زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم :" لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم، حتى يبعث الله فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي ". هذا لفظ أبي داود وسكت عليه. وقال في رسالته المشهورة: " أن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ". ولفظ الترمذي: " لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي " وفي لفظ آخر:" حتى يلي رجل من أهل بيتي " وكلاهما حديث حسن صحيح. ورواه أيضاً من طريق موقوفاً على أبي هريرة. وقال

الحاكم: رواه الثوري وشعبة وزائدة، وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم، قال: وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة، على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم، إذ هو إمام من أئمة المسلمين. انتهى.إلا أن عاصماً قال فيه أحمد بن حنبل: كان رجلاً صالحاً، قارئاً للقرآن خيراً ثقة، والأعمش أحفظ منه. وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث. وقال العجلي: كان يختلف عليه في زر وأبي وائل، يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما. وقال محمد بن سعد: كان ثقة، إلا أنه كثير الخطأ في حديثه. وقال يعقوب بن سفيان: في حديثه اضطراب. وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلت لأبي إن أبا زرعة يقول: عاصم ثقة؟ فقال: ليس محله هذا. وقد تكلم فيه ابن علية فقال: كل من اسمه عاصم سيئ الحفظ. وقال أبو حاتم: محله عندي محل الصدق صالح الحديث، ولم يكن بذلك الحافظ. واختلف فيه قول النسائي. وقال ابن حراش: في حديثه نكرة. وقال أبو جعفر العقيلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ، وقال الدارقطني: في حفظه شيء. وقال يحي القطان: ما

وجدت رجلاً اسمه عاصم إلا وجدته رديء الحفظ. وقال أيضاً سمعت شعبة يقول: حدثنا عاصم بن أبي النجود وفى الناس ما فيها، وقال الذهبي: ثبت في القراءة، وهو في الحديث دون التثبت، صدوق فهم، وهو حسن الحديث.وإن احتج أحد بأن الشيخين أخرجا له، فنقول أخرجا له مقروناً بغيره لا أصلاً. والله أعلم.

وخرج أبو داود في الباب عن علي رضي الله عنه، من رواية فطر بن خليفة عن القاسم بن أبي مرة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً ". وفطر بن خليفة وإن وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم، إلا أن العجلي قال: حسن الحديث وفيه تشيع قليل. وقال ابن معين مرة: ثقة شيعي. وقال أحمد بن عبد الله بن يونس: كنا نمر على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه. وقال مرة: كنت أمر به وأدعه مثل الكلب. وقال

الدارقطني: لا يحتج به. وقال أبو بكر بن عياش: ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه. وقال الجرجاني: زائغ غير ثقة. انتهى.وخرج أبو داود أيضاً بسنده إلى علي رضي الله عنه عن هارون بن المغيرة، عن عمر بن أبي قيس، عن شعيب بن أبي خالد، عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال علي ونظر إلى ابنه الحسين: "أن ابني هذا سيد كما سماه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق، يملأ الأرض عدلاً". وقال هارون: حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف عن أبي الحسن عن هلال بن عمر، سمعت علياً يقول، قال النبي- صلى الله عليه و سلم : " يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطيء أو يمكن لآل محمد كما مكنت قرش لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، وجب على كل مؤمن نصره أو قال إجابته " سكت أبو داود عليه. وقال في موضع آخر في هارون: هو من ولد الشيعة. وقال السليماني: فيه نظر. وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس: لا بأس به، في حديثه خطأ. وقال الذهبي: صدق له أوهام. وأما أبو إسحاق السبيعي وإن خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت انه اختلط آخر عمره، وروايته عن علي منقطعة، وكذلك رواية أبي داود عن هارون بن المغيرة. وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان؟ و لم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن طريف عنه. انتهى.وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة وكذا ابن ماجة والحاكم في المستدرك، من طريق علي بن نفيل، عن سعيد بن المسيب، عن أم سلمة قالت، سمعت رسول الله **صلى الله عليه و سلم** يقول: " المهدي من ولد فاطمة ". ولفظ الحاكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يذكر المهدي فقال: " نعم هو حق وهو من بني فاطمة ".

و لم يتكلم عليه بصحيح ولا غيره، وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال: لا يتابع علي بن نفيل عليه، ولا يعرف إلا به.وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة من رواية صالح

بن الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال: "يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه فاسق من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، فيبعث إليه بعث

من الشام، فتخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام، وعصائب أهل العراق فيبايعونه. ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب، فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب. والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال، ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه و سلم ، ويلقي الإسلام بجرانه على الأرض، فيلبث سبع سنين ". وقال بعضهم تسع سنين. ثم رواه أبو داود من رواية أبي خليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة، فتبين بذلك المبهم في الإسناد الأول. ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز.وقد يقال: إنه من رواية قتادة، عن أبي الخليل، وقتادة مدلس وقد عنعنه، والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع. مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي، نعم ذكره أبو داود في أبوابه.وخرج أبو داود أيضاً وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " المهدي مني أجلى الجبهة اقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يملك سبع سنين ". هذا لفظ أبي داود وسكت عليه. ولفظ الحاكم: " المهدي منا، أهل البيت، أشم الأنف أقنى أجلى يملأ أرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، يعيش هكذا، وبسط يساره وإصبعين من يمينه السبابة والإبهام وعقد ثلاثة " قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه 1ه.

وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به، إنما أخرج له البخاري استشهاداً" أصلاً. وكان يحيى القطان لا يحدث عنه. وقال يحيى بن معين: ليس بالقوي؟ وقال مرة: ليس بشيء. وقال أحمد بن حنبل

أرجو أن يكون صالح الحديث. وقال يزيد بن زريع: كان حرورياً وكان يرى السيف على أهل القبلة. وقال النسائي: ضعيف. وقال أبو عبيد الآجري: سالت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسن، وما سمعت إلا خيراً. وسمعته مرة أخرى ذكره فقال: ضعيف، أفتى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء.وخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن أبي صديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون بعضهم شيء حدث، فسألنا نبي الله صلى الله عليه و سلم ، فقال" أن في أمتي المهدي يخرج، يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً. زيد الشاك؟ قال قلنا: وما ذاك؟ قال: سنين! قال: "فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني ". قال: "فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمله ". لفظ الترمذي قال: هذا حديث حسن. وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه و سلم . ولفظ ابن ماجة والحاكم: " يكون في أمتي المهدي أن قصر فسبع وإلا فتسع، فتنعم أمتي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط، تؤتي الأرض أكلها ولا يدخر منه شيء. والمال يومئذ كدوس، فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي أعطني! فيقول خذ! ". انتهى.وزيد العميُّ وإن قال فيه الدارقطني أحمد بن حنبل ويحيى بن فعين إنه صالح، وزاد أحمد: إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى، إلا أنه قال فيه أبو حاتم: ضعيف، يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال يحيى بن معين في رواية أخرى: لا شيء. وقال مرة: يكتب حديثه، وهو ضعيف. وقال الجرجاني: متماسك، وقال أبو زرعة: ليس بقوي واهي الحديث ضعيف. وقال أبو حاتم: ليس بذاك، وقد حدث عنه

شعبة. وقال النسائي: ضعيف. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء، على أن شعبة قد روى عنه، ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه.

وقد يقال أن حديث الترمذي وقع تفسيرا لما رواه مسلم في صحيحه من

حديث جابر قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يكون في آخر أمتي خليفة يحثو المال حثواً. لا يعده عداً ". ومن حديث أبي سعيد قال: " من خلفائكم خليفة يحثو المال حثواً. " ومن طريق أخرى عنهما قال: " يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده ". انتهى. وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها. ورواه الحاكم أيضاً من طريي عوف الأعرابى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً، ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً " وقال فيه الحاكم: هذا صحيح على شرط الشيخين، و لم يخرجاه. ورواه الحاكم أيضاً من طريق سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحاً، وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعاً أو ثماني ". يعني حججاً. وقال فيه، حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة، لكن ذكره ابن حبان في الثقات، و لم يرد أن أحداً تكلم فيه. ثم رواه الحاكم أيضاً من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبى هارون العبدي عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " تملأ الأرض جوراً وظلماً، فيخرج رجل من عترتي، فيملأ سبعاً أو تسعاً؟ فيما الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً ".وقال الحاكم فيه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق. وأما شيخه الأخر وهو أبو هارون العبدي فلم يخرج له. وهو ضعيف جداً متهم بالكذب، ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه.وأما الراوي له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة، وإن قال البخارى مشهور الحديث، واستشهد به في صحيحه، واحتج به أبو داود والنسائي

إلا أنه قال مرة أخرى: ثقة لو لم يصنف كان خيراً له. وقال فيه محمد بن حزم: منكر الحديث.ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي، عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدري قال، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: " يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي يترل الله عز وجل له القطر من السماء، وتخرج الأرض بركتها، وتملأ الأرض منه قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعمل على هذه الأمة، سبع سنين ويترل على بيت المقدس ".وقال الطبراني فيه ورواه جماعة عن أبي الصديق، و لم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحداً إلا أبا الواصل، فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد. انتهى.وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم، و لم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد، ورواية أبي الصديق عنه. وقال الذهبي في الميزان إنه مجهول. لكن

ذكره ابن حبان في الثقات. وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة. وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية، وقال فيه: يروي عن أنس، وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر.وخرج ابن ماجة في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود، من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم عن علقمة، عن. عبد الله قال: " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه و سلم ، إذ اقبل فتية من بني هاشم، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ذرفت عيناه وتغير لونه؟ قال، فقلت ما نزال نرى في وجهك شيئا نكرهه فقال:إنا، أهل البيت، اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود، فيسألون الخير فلا يعطونه، فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملاؤها جوراً. فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج ". انتهى.

وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات. ويزيد بن أبي

زياد راوية، قال فيه شعبة: كان رفاعاً يعني يرفع الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة. وقال محمد بن الفضيل: كان من كبار أئمة الشيعة. وقال أحمد بن حنبل: لم يكن بالحافظ، وقال مرة: حديثه ليس بذلك. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال العجلي: جائز الحديث. وكان بآخره يلقن. وقال أبو زرعة: لين؟ يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي . وقال الجرجاني: سمعتهم يضعفون حديثه. وقال أبو داود: لا أعلم أحداً ترك حديثه، وغيره أحب إلى منه. وقال ابن عدي: هو من شيعة أهل الكوفة، ومع ضعفه يكتب حديثه. وروى له مسلم لكن مقروناً بغيره. وبالجملة فالأكثر ون على ضعفه. وقد صرخ الأئمة بتضعيف هذا الحديث، الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله، وهو حديث الرايات. وقال وكيع بن الجراح فيه: ليس بشيء. وكذلك قال أحمد بن حنبل. وقال أبو قدامة: سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات، لو حلف عندي خمسين يميناً قسامة ما صدقته، أهذا مذهب إبراهيم، أهذا مذهب علقمة، أهذا مذهب عبد الله؟! وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء. وقال الذهبي: ليس بصحيح.وخرج ابن ماجة عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي، عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن جده قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " المهدى منا، أهل البيت، يصلح الله به في ليلة ".

وياسين العجلي وإن قال فيه ابن معين ليس به بأس، فقد قال البخاري: فيه نظر. وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جداً. وأورد له ابن عدي في الكامل، والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له، وقالى هو معروف به.وخرج الطبراني في معجمه الأوسط، عن علي رضي الله عنه، انه قال للنبي صلى الله عليه و سلم : " أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله؟ فقال: "بل منا، بنا يختم الله كما بنا فتح، وبنا يستنقذون من الشرك، وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة، كما بنا ألف بين قلوبهم بعد

عداوة الشرك ". قال علي: أمؤمنون أم كافرون؟ قال: "مفتون وكافر ". انتهى.وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال. وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه. قال أحمد بن حنبل: روي عن جابر

مناكير، وبلغني انه كان يكذب، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال، كان ابن لهيعة شيخاً أحمق ضعيف العقل، وكان يقول: "عليٌّ في السحاب "، وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول: "هذا علي قد مر في السحاب ". وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن. فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم فإن فيهم الأبدال. يوشك أن يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم، حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم. فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات، المكثر يقول هم خمسة عشر ألفاً، والمقلل يقول هم اثنا عشر ألفاً، وأمارتهم "أمت أمت " يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك، فيقتلهم الله جميعاً، ويرد الله إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورايتهم "ه.

وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال. ورواه الحاكم في المستدرك، وقال، صحيح الإسناد، ولم يخرجاه في روايته. ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى ألفتهم... الخ وليس في طريقه ابن لهيعة وهو إسناد صحيح كما ذكر. وخرج الحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه، من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال: "كنا عند عليّ رضي الله عنه، فسأله رجل عن المهدي، فقال عليّ: هيهات. ثم عقد بيده سبعاً، فقال ذلك يخرج في آخر الزمان، إذا قال الرجل الله الله قتل، ويجمع الله له قوماً قزعاً، كقزع السحاب، يؤلف الله بين قلوبهم فلا

يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون بأحد دخل فيهم، عدتهم على عدة أهل بدر، لم يسبقهم الأولون، ولا يدركهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر. قال أبو الطفيل، قال ابن الحنفية: أتريده؟ قلت: نعم! قال : فإنه يخرج من بين هذين الاخشبين. قلت لا جرم والله، ولا أدعها حتى أموت، ومات بها يعني مكة، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ". انتهى.وإنما هو على شرط مسلم فقط، فإن فيه عمّاراً الذهبيّ ويونس بن أبي إسحاق، ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبقري، ولم يخرج له البخاري احتجاجاً بل استشهاداً، مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهبيّ، وهو وإن وثقة أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي وغيرهم، فقد قال عليّ بن المديني عن سفيان أن بشر بن مروان قطع عرقوبيه؟ قلت في أي شيء؟ قال: في التشيع. وخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر، عن عليّ بن زياد اليمامي، عن عكرمة بن عمّار عن إسحاق بن عبد الله عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: " نحن، ولد عبد المطلب، سادات أهل الجنة، أنا وحمزة وعليّ وجعفر والحسن والحسين والمهديّ ". انتهى.وعكرمة بن عمّار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له متابعة. وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون. وقال أبو حاتم الرازي: هو مدلس فلا يقبل، إلا أن يصرح بالسماع. وعلي بن زياد قال الذهبي في الميزان: لا ندري من هو؟ ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد. وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة، وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس، فقد تكلم فيه الثوري،

قالوا لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها. وقال ابن حبّان: كان ممّن فحش عطاؤه فلا يحتج به. وقال أحمد بن حنبل: سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض

كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك، وهو ههنا ببغداد لم يحج، فكيف سمعها؟ وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه. وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه، قال مجاهد قال لي ابن عباس: لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث؟ قال، فقال مجاهد: فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره! قال، فقال ابن عباس: "منا، أهل البيت، أربعة: منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي ". قال، فقال مجاهد: بين لي هؤلاء الأربعة. فقال ابن عباس: "أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه؟ وأما المنذر، أراه قال، فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه، ويمسك القليل من حقه؟ وأما المنصور فإنه يعطي النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين، والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر؟ وأما المهدي فإنه الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وتأمن البهائم السباع، وتلقي الأرض أفلاذ كبدها قال: "قلت وما أفلاذ كبدها؟ " قال: "أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة ". 1ه.

وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه. وإسماعيل ضعيف؟ وإبراهيم أبوه، وإن خرج له مسلم، فالأكثرون على تضعيفه. اه.

وخرج ابن ماجة عن ثوبان قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم ". ثم ذكر شيئا لا احفظه، قال: "فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي "1ه.ورجاله رجال الصحيحين؟ إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي، وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس؟ وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس؟ وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل؟ وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمي

في آخر وقته فخلط قال ابن عدي حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع. انتهى.وخرج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن لهيعة عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :" يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي ". يعني سلطانه. قال الطبراني تفرد به ابن لهيعة، وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرجه الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لهيعة ضعيف، وان شيخه عمر بن جابر أضعف منه. وخرج البزار في مسنده والطبراني في معجمه الأوسط، واللفظ للطبراني، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " يكون في أفتي المهدي أن قصر فسبع وإلا فثمان وإلا فتسع، تنعم فيها أمتي نعمة لم ينعموا بمثلها: ترسل السماء عليهم مدراراً؟ ولا تدخر الأرض شيئا من النبات؟ والمال كدوس، يقوم الرجل يقول يا مهدي اعطني، فيقول خذ " قال الطبراني والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلي. زاد البزار: ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد

وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات، وقال فيه يحيى بن فعين: صالح، وقال مرة ليس به بأس، فقد اختلفوا فيه. قال أبو زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن احمد بن حنبل: رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها، تركتها على عمد، وكتب بعض أصحابنا عنة كأنه ضعفه. وخرج أبو يعلى الموصليّ في مسنده عن أبي هريرة قال: " حدثني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه و سلم قال: لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق. قال: قلت وكم يملك؟ قال خمساً واثنتين. قال قلت: وما "خمساً واثنتين؟ " قال: "لا ادري ". 1ه.وهذا السند، وإن كان فيه بشير بن نهيك، وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به، فقدا احتج به الشيخان ووثقه الناس و لم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم لا يحتج به. إلا أن فيه رجاء بن أبي رجاء اليشكري، وهو مختلف فيه. قال

أبو زرعة: ثقة وقال يحيى بن معين: ضعيف وقال أبو داود: ضعيف، وقال مرة: صالح. وعلق له البخاري في صحيحه حديثاً واحداً. وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير، والأوسط عن قرة بن إياس قال، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " لتملان الأرض جوراً وظلماً، فإذا ملئت جوراً وظلماً، بعث الله رجلاً من أمتي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، فلا تمنع السماء من قطرها شيئاً، ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها. يلبث فيكم سبعاً أو ثماني أو تسعاً ". يعني سنين 1ه.وفيه داود بن المحبى بن المحرم، عن أبيه وهما ضعيفان جداً. وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر قال: "كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في نفر من المهاجرين والأنصار، وعلي بن أبي طالب عن يساره، والعباس عن يمينه، إذ تلاحى العباس ورجل من الأنصار، فاغلظ الأنصاري للعباس فأخذ النبي صلى الله عليه و سلم بيد العباس وبيد علي وقال: " سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جوراً وظلماً، وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً. فإذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمي، فإنه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي "1ه.وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان 1ه.

وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " ستكون فتنة لا يسكن منها إلا تشاجر جانب حتى ينادى مناد من السماء أن أميركم فلان " 1ه. وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جداً. وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي، وإنما ذكروه في أبوابه وترجمته استئناساً.فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه. وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك عن

النبي صلى الله عليه و سلم أنة قال: " لا مهدي إلا عيسى ابن مريم ". وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي: إنه ثقة. وقال البيهقي: تفرد به محمد بن خالد. وقال الحاكم فيه: إنه رجل مجهول. واختلف عليه في إسناده: فمرة يروي كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي ومرة يروي عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه و سلم مرسلا. قال البيهقي: فرجع إلى رواية محمد بن خالد

وهو مجهول، عن أبان بن أبي عياش وهو متروك، عن الحسن عن النبي صلى الله عليه و سلم وهو منقطع، وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب. وقد قيل في: "أن لا مهدي إلا عيسى" أي لا يتكلم في المهد إلا عيسى، يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به، أو الجمع بينه وبين الأحاديث، وهو مدفوع بحديث جريج ومثله من الخوارق .وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال، وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه، والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه و سلم ، والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم. ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وكثرت التآليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول؟ وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم؟ وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها.ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحسّ. وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لمولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم. وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والإبدال، وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في

الإمام والنقباء. واشربوا أقوال الشيعة، وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم، حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة، أن عليّاً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة. واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم. ولا يعلم هذا عن عليّ من وجه صحيح. ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعليّ كرم الله وجهه؟ بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى؟ وفي تخصيص هذا بعليّ دونهم رائحة من التشيع قوية، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيع، وانخراطهم في سلكه. وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة، وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر. وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض، وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين. وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات، وهو من نوع الكلام في الملاحم؟ ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا. وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي، ابن العربي الحاتمي في كتاب (عنقاء مغرب) وابن قسي في كتاب (خلع النعلين) وعبد الحق بن سبعين، وابن أبي واصل تلميذه في شرحه لكتاب (خلع النعلين). وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال، وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم. وحاصل مذهبهم فيه، على ما ذكر ابن أبي واصل، أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى؟ وأنها تعقبها الخلافة؟ ثم يعقب الخلافة الملك، ثم يعود تجبراً وتكثراً وباطلاً. قالوا: ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط؟ ثم يعود الكفر بحاله. يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة، والخلافة بعدها، والملك بعد الخلافة: هذه ثلاث مراتب.

وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي؟ والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره؟ والكفر من بعد ذلك. فهي ثلاث

مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى. قالوا: ولما كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعياً بالإجماع الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه و سلم ، إما ظاهراً كبني عبد المطلب، وإما باطناً ممن كان من حقيقة الآل، والآل من إذا حضر لم يغب من هو آله.

وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه "عنقاء مغرب " من تأليفه: خاتم الأولياء، وكنى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين، قال صلى الله عليه و سلم : " مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله، حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة ". فيفسرون خاتم النبيين باللبنة التي أكملت البنيان، ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة. ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة، ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية، كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة التي هي خاتمة النبوة. فكنى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور. وهما على نسبة واحدة فيها. فهي لبنة واحدة في التمثيل. ففي النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين، كما بين الذهب والفضة. فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه و سلم ؟ ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر، وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء. وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واصل عنه: وهذا الإمام المنتظر وهو من أهل البيت من ولد فاطمة، وظهوره يكون من بعد مضي (خ ف ج) من الهجرة ورسم حروفاً ثلاثة يرُيد عددها بحساب الجمل، وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة والفاء أخت القاف بثمانين، والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة، وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة، وهي في آخر القرن السابع. ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك

بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده، وعبر بظهوره عن مولده، وان خروجه يكون بعد العشر والسبعمائة فإنه الإمام الناجم من ناحية المغرب قال: "وإذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون عمره عند خروجه ستاً وعشرين سنة". قال: "وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي، وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه و سلم إلى تمام ألف سنة". قال ابن أبي واصل في شرحه كتاب (خلع النعلين): الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار إليه بمحمد المهدي وخاتم الأولياء، وليس هو بنبي وإنما هو ولي ابتعثه روحه وحبيبه. قال صلى الله عليه و سلم : " العالم في قومه كالنبي في أمته ". وقال: " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل. ولم تزل البشرى تتابع به من أول اليوم المحمدي إلى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته، وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جرا " قال: "وذكر الكندي أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر، ويجدد الإسلام، ويظهر العدل، ويفتح جزيرة الأندلس ويصل إلى رومية فيفتحها ويسير إلى المشرق فيفتحه، ويفتح القسطنطينية، ويصير له ملك الأرض، فيتقوى المسلمون ويعلو الإسلام، ويظهر دين الحنيفية، فإن من

صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة"؟ قال عليه الصلاة والسلام؟ " ما ين هذين وقت " وقال الكندي أيضاً: "الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتتح بها سور القرآن جملة عددها سبعمائة وثلاث وأربعون، وسبع دجالية، ثم يترل عيسى في وقت صلاة العصر، فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب. ثم يبقى ملك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مائة وستين عاماً، عدد حروف المعجم وهي (ق ي ن)، دولة العدل منها أربعون عاماً. قال ابن أبي واصل: "وما ورد من قوله لا مهدي إلا عيسى، فمعناه لا مهدي تساوي هدايته ولايته، وقيل لا يتكلم في المهد إلا عيسى. وهذا

مرفوع بحديث جريج وغيره. وقد جاء في الصحيح أنه قال: "لا يزال هذا الأمر قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني "قرشياً". وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام، ومنهم من سيكون في آخره. وقال: " الخلافة بعدي ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ستة وثلاثون، وانقضاؤها في خلافة الحسن، وأول أمر معاوية، فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء، وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز، والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي، يؤيده قوله: " إنك لذو قرنيها " يريد الأمة، أي إنك لخليفة في أولها، وذريتك في آخرها. وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة. فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها.وقد قال صلى الله عليه و سلم : " إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله " وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله، والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية: فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش.

كذا قال صلى الله عليه و سلم : " ومدة حكمه بضع "، والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر. وجاء ذكر أربعين، وفي بعض الروايات سبعين. فأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده، على جميعهم السلام قال: "وذكر أصحاب النجوم القرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً، فيكون الأمر على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين، ثم تختلف الأحوال فتكون ملكاً". انتهى كلائم ابن أبي واصل.وقال في موضع آخر: "نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه ". قال: "وذكر الكندي يعقوب بن إسحق في كتاب الجفر الذي

ذكر فيه القرانات انه إذا وصل القران إلى الثور على رأس ضح بحرفين الضاد المعجمة والحاء المهملة، يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة، يترل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى". قال: "وقد ورد في الحديث أن عيسى يترل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، يترل بين مهرودتين، يعني خلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين، له لمة، كأنما خرج من ديماس، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحذر منه جمان كاللؤلؤ، كثير خيلان الوجه. وفي حديث آخر: مربوع الخلق وإلى البياض والخمرة. وفي آخر: "إنه يتزوج في الغرب. والغرب دلو البادية، يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته. وذكر وفاته بعد أربعين عاماً. وجاء

أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب. وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران ين نبيين ". قال ابن أبي واصل: "والشيعة تقول إنه هو المسيح، مسيخ المسائح من آل محمد. قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدي إلا عيسى، أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ ". إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة، فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك، فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية. في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر.

وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا. فبعضهم يقول من ولد فاطمة، وبعضهم يطلق القول فيه. سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب، كان في أول هذه المائة الثامنة، واخبرني عنه حافده صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي

يعقوب المذكور.هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة، وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدى قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا. والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك انه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه.وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك. وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش، إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر، منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها، وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإمارتهم وآرائهم يبلغون آلافاً من الكثرة. فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم، ويؤلف الله ين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها. وأما على غير هذا الوجه، مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبة في أهل البيت، فلا يتم ذلك، ولا يمكن، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة.وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يقيد، فيتحينون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان، تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطمي، ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه. وأكثر ما يتحينون في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران، مثل الزاب بإفريقية والسوس من المغرب. ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطاً بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم انه منهم أو قائمون بدعوته، زعماً لا مستند لهم، إلا غرابه تلك الأمم وبعدهم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوة، ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها، فتقوى عندهم الأوهام في ظهوره هناك بخروجه عن ربقة

الدولة ومنال الأحكام والقهر؟ ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا. وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة يمييه تمامها وسواساً وحمقاً. وقتل كثير منهم. اخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي

قال: خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف، يعرف بالتويزري نسبة إلى توزر مصغراً، وادعى انه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره، وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم، فدس عليه السكسوي من قتله بياتاً وانحل أمره.وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس، وادعى أنه الفاطمي، واتبعه الدهماء من غمارة، ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره. وكثير من هذا النمط.وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا، وهو أنه صحب في حجه في رباط العباد، وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها، رجلاً من أهل البيت من سكان كر بلاء، كان متبوعاً معظماً كثير التلميذ والخادم. قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان. قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم، وانهم إنما جاؤوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب. فلما عاين دولة بني مرين، ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل لتلمسان، قال لأصحابه: ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط، وليس هذا الوقت وقتنا. ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية المكافئة لأهل الوقت، فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له، وأن عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان، ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت، لا سيما في المغرب. إلا أن التعصب لشأنه لم

يتركه لهذا القول. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره، وإنما يترع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر، ويعتني بذلك ويكثر تابعه. واكثر ما يعنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها، لما قدمناه من طبيعة معاشهم، فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا. إلا أن الصبغة الدينية فيهم لا تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك، لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة، ومنها توبتهم. فتجد تابع ذلك المنتحل للدعوة القائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع، إنما دينهم الإعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة، ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم. وشتان بين طلب هذا الأجر في صلاح الخلق وبين طلب الدنيا، فاتفاقهما ممتنع، لا تستحكم لهم صبغة في الدين، ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة، ولا يكثرون.ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه، وولايته في نفسه دون تابعه. فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم. وقد وقع ذلك بإفريقية، لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة، ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم، وكان يسمى سعادة، وكان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه، ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه، حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح. وبعد ذلك ظهر ناس

بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك، ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأ قل، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم. انتهى.

الفصل الرابع والخمسون

في ابتداء الدول والأمم وفيه الكلام علي الملاحم

والكشف عن مسمي الجفر

إعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها. والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها. ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام. والأخبار من الكفان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة. ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه. فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها، وكثير من ضعفاء العقول. يستكشفون عواقب أمرهم، في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك، ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار، لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من اطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية.وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم، ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه. وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم، ومدة بقاء الدولة، وعدد الملوك فيها، والتعرض لأسمائهم، ويسمى مثل ذلك الحدثان.وكان في العرب الكهان

والعرافون يرجعون إليهم في ذلك، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة، كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصبر من ملوك اليمن، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم، ثم رجوعها إليهم، ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك. وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح، وأخبرهم بظهور دولة العرب. وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن، ويقال من غمرة، وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير، ومعظمة فيما يكون لزناته من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجيل. وهم يزعمون تارة انه ولي، وتارة انه كاهن، وقد يزعم بعض مزاعمهم انه كان نبياً، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير. والله أعلم.وقد يستند الجيل في ذلك إلى خبر الأنبياء أن كان لعهدهم، كما وقع لبني إسرائيل؟ فإن أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم في السؤال عنه.وأما في الدولة الإسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم، وفيما يرجع إلى الدولة وأعمارها على الخصوص. وكان المعتمد في ذلك في صدر الإسلام آثار منقولة عن الصحابة، وخصوصاً مسلمة بني إسرائيل، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما. وربما

اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة. ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك، مستندهم فيه. والله أعلم، الكشف بما كانوا عليه من الولاية. وإذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الأولياء في ذويهم وأعقابهم، وقد قال صلى الله عليه و سلم : " أن فيكم محدثين " فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة. وأما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات، وترجمت كتب الحكماء إلى اللسان العربي، فأكثر فعتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرانات، وفي المواليد والمسائل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها، وهي شكل الفلك، عند حدوثها. فلنذكر الآن ما وقع لأهل

الأثر في ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين.أما أهل الأثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا، على ما وقع في كتاب السهيلي، فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة، ونقض ذلك بظهور كذبه. ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس، أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة، ولم يذكر لذلك دليلاً. وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السماوات والأرض وهي سبعة، ثم اليوم بألف سنة لقوله: "وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ". قال: وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " أجلكم في أجل من كان قبلكم، من صلاه العصر إلى غروب الشمس ". وقال: " بعثت أنا والساعة كهاتين "، وأشار بالسبابة والوسطى، وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه، يكون على التقريب نصف سبع، وكذلك وصل الوسطى على السبابة، فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها، هو خمسمائة سنة.ويؤيده قوله صلى الله عليه و سلم : " لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم "، فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة.وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي. وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة.قال السهيلي: (وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره، مع وقوع الوجود بخلافه.فأما قوله: "لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم "، فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف. وأما قوله: "بعثت أنا والساعة كهاتين "، فإنما فيه الإشارة إلى القرب، وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره، ولا شرع غير شرعه.ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر، لو ساعده التحقيق، وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر، قال: وهي أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (ألم، يسطع، نص، حق، كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة، أضافه إلى المنقضي من الألف الآخر قبل بعثه، فهذه هي مدة

الملة، قال: ولا يبعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها. قلت: وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه.والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السير لابن إسحاق في حديث ابني أخطب من أحبار اليهود، وهما أبو ياسر وأخوه حي، حين سمعا من الأحرف المقطعة (ألم) وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب، فبلغت إحدى وسبعين، فاستقلا المدة. وجاء حي إلى النبي صلى الله عليه و سلم يسأله: هل مع هذا غيره؟ قال: (المص)، ثم استزاد (الر)، ثم استزاد (المر)، فكانت إحدى

وسبعين ومائتين فاستطال المدة. وقال: قد لبس علينا أمرك يا محمد! حتى لا ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً، ثم ذهبوا عنه. وقال لهم أبو ياسر: ما يدريكم لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين، قالى ابن إسحق: فنزل قوله تعالى: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: 7] ا1ه.ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد، لأن دلالة هذه الحروف على الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية، وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل. نعم إنه قديم مشهور، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة. وليس أبو ياسر وأخوه حي ممّن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً، ولا من علماء اليهود، لأنهم كانوا بادية بالحجاز، غفلاً من الصنائع والعلوم، حتى عن علم شريعتهم، وفقه كتابهم وملتهم، وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة. فلا ينهض للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك.ووقع في الملة في حدثان دولتها على الخصوص مسند من الأثر إجمالي في حديث خرجه أبو داود عن حذيفة بن اليمان، من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد بن أبي مريم عن عبد الله بن فروخ عن أسامة بن زيد الليثي عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه، قاد: قال حذيفة بن اليمان: والله ما ادري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه و سلم من قائد فئة إلى أن تنقضي الدنيا، يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. وسكت عليه أبو

داود، وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه فهو صالح، وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مجمل، ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يجود أسانيدها. وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه. فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أيضاً قال: قام رسول الله صلى الله عليه و سلم فينا خطيباً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذاك إلى قيام الساعة إلا حدث عنه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابه هؤلاء ا1ه.ولفظ البخاري: ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره. وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه و سلم يوماً صلاة العصر بنهار، ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا اخبرنا به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ا1ه.وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط لا غير، لأنه المعهود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه، في أمثال هذه العمومات. وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكرة، مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله. فقال ابن أبي مريم في ابن فروخ أحاديثه مناكير وقال البخاري يعرف منه وينكر، وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة. وأسامة بن زيد وإن خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين، فإنما خرج له البخاري استشهاداً، وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل، وقال أبو حاتم: يكتب حديثة ولا يحتج به. وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول. فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر.وقد يستندون في حدثان الدول على الخصوص إلى كتاب الجفر، ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك، ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده. واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية-

كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص. وقع ذلك لجعفر ونظائره

من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء. وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلي وكتبه، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب عليه، لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق. وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات، وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم، فتصح كما يقول. وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه، فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف. وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً وديناً وآثاراً من النبوة، وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة. وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام، غير منسوب إلى أحد. وفي أخبار دولة العبيديين كثير منه. وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي، مع ابنه محمد الحبيب، وما حدثاه به، وكيف بعثناه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن، فأمره بالخروج إلى المغرب، وبث الدعوة فيه على علم لقنة أن دعوته تتم هناك، وأن عبيد الله لما بنى المهدئة بعد استفحال دولتهم بإفريقية قال: "بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار"، وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها، وبلغ هذا الخبر حافده إسماعيل المنصور؟ فلما حاصره صاحب الحمار أبو يزيد بالمهدية، كان يسائل عن منتهى موقفه، حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذي عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر، وبرز من البلد، فهزمه واتبعه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله. ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة.

التنجيم:

وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول إلى الأحكام النجومية. أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات، وخصوصاً بين العلويين، وذلك أن العلويين زحل والمشتري يقترنان في كل عشرين سنة مرة، ثم يعود القران إلى

برج آخر في تلك المثلثة من التثليث الأيمن، ثم بعده إلى آخر كذلك، إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة إثنتي عشرة مرة تستوي بروجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة، ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة بإثنتي عشرة مرة، وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة، ويكون انتقاله في كل برج على التثليث الأيمن، وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها، أعني البرج الذي يلي البرج الأخير من القران الذي قبله في المثلثة. وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط: فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك، إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة؟ والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة إثنتي عشرة مرة، وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى؟ والصغير هو اقتران العلويين في

درجة برج، وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجه أو دقائقه.مثال ذلك وقع القران أول دقيقة من الحمل، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد، وهذه كفها نارية، وهذا كله قران صغير. ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة وتسمى دور القران وعود القران، وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها، وهذا قران وسط. ثم ينتقل إلى الهوائيه ثم المائية، ثم يرجع إلى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير. والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة، وانتقال الملك من قوم إلى قوم، والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك، والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها. ويقع أثناء هذه القرانات قران النحسين، في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع. وبرج السرطان هو طالع العالم، وفيه وبال زحل وهبوط المريخ، فتعظم دلالة هذا القران في الفتن والحروب، وسفك الدماء، وظهور الخوارج، وحركة العساكر، وعصيان الجند، والوباء والقحط،ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه.قال جراس بن

أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك: "ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية لأنه كان دليلها، فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب، فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم، وربما انهدم بعض بيوت العبادة. وقد يقال: إنه كان عند قتل عليّ رضي الله عنه، ومروان من بني أمية، والمتوكل من بني العباس. فإذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرانات كانت في غاية الإحكام ".وذكر شاذان البلخي: "أن الملة تنتهي إلى ثلثمائة وعشرين. وقد ظهر كذب هذا القول. وقال أبو معشر: يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير، ولم يصح ذلك ".

وقال جراس: "رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم، وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها، فيبقى الملك فيهم أربعين سنة. وقال أبو معشر في كتاب القرانات: القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة. ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب: ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي وبكون قوة فلكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة، وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين. وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة، ووقوع القسمة أول الحمل، وصاحب الجد المشتري.وقال يعقوب بن إسحق

الكندي: أن مدة الملة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة، قال: لأن الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت. فالباقي إحدى عشرة درجة وثماني عشرة دقيقة، ودقائقها ستون، فيكون ستمائة وثلاثاً وتسعين سنة. قال: وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء، ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل. قلت: وهذا هو الذي ذكره السهيلي، والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه.قال خراش:

"سأل هرمز إفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده وملوك الساسانية فقال: دليل ملكه المشتري، وكان في شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها، أربعمائة وسبعاً وعشرين سنة، ثم تزيد الزهرة، وتكون في شرفها وهي دليل العرب، فيملكون لأن طالع القران الميزان، وصاحبه الزهرة، وكانت عند القران في شرفها، فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة. وسأل كسري أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب، فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته، ويملك المشرق والمغرب، والمشتري يغوص إلى الزهرة، وينتقل القران من الهوائية إلى العقرب، وهو مائي وهو دليل العرب، فهذه الأدلة تفضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة. وسأل كسرى أبرويز أليوس الحكيم عن ذلك، فقال مثل قول بزرجمهر. وقال توفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية: "أن ملة الإسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة، فإذا عاد القران إلى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة، وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة، فحينئذ إما أن يفتر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن ".قال جراس: "واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار، حتى تهلك سائر المكونات، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة، التي هي حد المريخ وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة".وذكر جراس: أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان، أتحفه به في هدية، وأنه تصرف للمأمون في الاختبارات بحروب أخيه، وبعقد اللواء لطاهر، وأن المأمون أعظم حكمته، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه، وأن العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين، ويكون ما يريده الله، ثم يسوء حالهم، ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم، ويكون ما يريده الله. فقال له المأمون: من أين لك هذا؟ فقال من كتب الحكماء ومن أحكام صصة بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج ". قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية، وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع.قال جراس: "وانتقال القران إلى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد، وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين. قال والذي في الحوت هو أول الانتقال. والذي في العقرب تستخرج مه دلائل الملة. قال: وتحويل السنة الأولى من القران الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة". ولم يستوف الكلام على ذلك.وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص، فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه، لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة، وجهاتها من العمران، القائمين بها من الأمم، وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ويحلهم وأديانهم وعوا ئدهم وحروبهم، كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات. وقد توجد هذه الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالاً عليه، فمن هذا يوجد الكلام في الدول. وقد كان يعقوب بن إسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتاباً سماه: الشيعة بالجفر، باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق، وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس، وأنها نهايته، وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد، أنها تقع في انتصاف المائة السابعة، وان بانقراضها يكون انقراض الملة. ولم نقف على شيء من خبر هذا

الكتاب ولا رأينا من وقف عليه،ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد، وقتل المستعصم آخر الخلفاء. وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير، والظّاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن، لذكر الأولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل، ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه، وكذب ما بعده.وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان. وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة، قال: بعث إلى الربيع والحسن في غزاهما مع

الرشيد أيام أبيه، فجئتهما جوف الليل، فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان، وإذا مدة المهدي في عشر سنين. فقلت هدا الكتاب لا يخفى على المهدي، وقد مضى من دولته ما مضى، فإذا وقف عليه كنتم قد نعيتم إليه نفسه. قالا: فما الحيلة، فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل، وقلت له انسخ هذه الورقة، واكتب مكان عشر أربعين ففعل، فوالله لولا أني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي. ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوماً ومنثوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه،وبأيدي الناس متفرقة كثير منها، وتسمى الملاحم. وبعضها في حدثان الملة على العموم، وبعضها في دولة على الخصوص. وكلها منسوبة إلى مشاهير من أهل الخليقة. وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه.الملاحم: فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء، وهي متداولة بين الناس. وتحسب العامة أنها من الحدثان العام، فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل. والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة، لأن الرجل كان قبيل دولتهم، وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من يد موالي بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس. ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تسمى التبعية أولها:

طربت وما ذاك مني طرب   وقد يطرب الطائر المغتصب

وما ذاك مني للهو أراه   ولكن لتذكار بعض السبب

قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال. ذكر فيها كثيراً من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره. والظاهر أنها مصنوعة. ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود، ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرهما، وذكر ميتته فتيلا بفاس. وكان كذلك فيما زعموا. وأوله:

في صبغ ذا الأزرق لشرفه خيارا   فافهموا يا قوم هذي الإشارا

نجم زحل أخبر بذي العلاما   وبدل الشكلا وهي سلاما

شاشية زرقا بدل العماما   وشاش أزرق بدل الغرارا

يقول في آخره:

قد تم ذا التجنيس لإنسان يهودي   يصلب ببلدة فاس في يوم عيد

حتى يجيه الناس من البوادي		وقتله يا قوم على الفراد

وأبياته نحو الخمسمائة، وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين. ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض المتقارب على روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين، منسوبة لابن الأبار. وقال لي قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو علي بن باديس، وكان بصيراً بما يقوله، وله قدم في التنجيم فقال لي: أن هذا ابن الأبّار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر، وإنما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ. وكان والدى رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها:

عذيري من زمن قلب		يغر ببارقه الأشنب

ومنها:

ويبعث من جيشه قائدا		ويبقى هناك على مرقب

فتأتي إلى الشيخ أخباره		فيقبل كالجمل الأجرب

ويظهر من عدله سيرة		وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم:

فإما رأيت الرسوم امّحت		ولم يرع حق لذي منصب

فخذ في الترحل عن تونس		وودع معالمها واذهب

فسوف تكون بها فتنة		تضيف البريء إلى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس، فيها بعد السلطان أبي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده. يقول فيها:

وبعد أبي عبد الإله شقيقه		ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل

إلا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه، وكان يمني بذلك نفسه إلى أن هلك.ومن الملاحم في المغرب أيضاً الملحمة المنسوبة إلى الهوثني على لغة العامة في عروض البلد التي أولها :

دعني بدمعي الهتان		فترت الأمطار ولم تفتر

واستقت كلها الويدان		وأنى تملي ولنغدر

البلاد كلها تروي		فأولى ما ميل ما تدري

ما بين الصيف والشتوي		والعام والربيع تجري

قال حين صحت الدعوى		دعني نبكي ومن عذر

أنادي من ذي الأزمان		ذا القرن اشتد وتمري

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى، والغالب عليها الوضع، لأنه لم يصح منها قولاً إلا على تأويل تحرفه العامة أو الحارث فيه من ينتحلها من الخاصة. ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحاتمي

في كلام طويل شبه ألغاز لا يعلم تأويله إلا الله. لتخلله أوفاق عددية ورموز ملغوزة، وأشكال حيوانات تامة، ورؤوس مقطعة، وتماثيل من حيوانات غريبة. وفي آخرها قصيدة على روي اللام، والغالب أنها كلها غير صحيحة،لأنها لم تنشأ عن أصل علمي

من نجامة ولا غيرها. وسمعت أيضاً أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب، وليس في شيء منها دليل على الصحة، لأن ذلك إنما يؤخذ فن القرانات. ووقفت بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجر يقيّ وكلها الغاز بالحروف أولها

إن شئت تكسف سر الجفر يا سائلي　　من علم جفر وصّي والد الحسن

فافهم وكن واعياً حرفاً وجملته　　والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن

أما الذي قبل عصري لست أذكره　　لكنني أذكرالآتي من الزمن

بشهر بيبرس يبقي بعد خمستها　　بحاء ميم بطيش نام في الكنن

شين له أثر من تحت سرته　　له القضاء قضي أي ذلك المنن

فمصر والشام مع أرض العراق له　　وأذربيجان في ملك إلى اليمن

ومنها:

وآل بوران لما نال طاهرهم　　الفاتك الباتك المعني بالسمن

لخلع سين ضعيف السن سين أتى　　لا لو فاق ونون ذي قرن

قوم شجاع له عقل ومشورة　　يبقى بحاء وأين بعد ذو سمن

ومنها:

مر بعد باء من الأعوام قتلته　　يلي المشورة ميم الملك ذو اللسن

ومنها:

هذا هو الأعرج الكلبي فاعن به　　في عصره فتن ناهيك من فتن

يأتي من الشرق في جيش يقدمهم　　عار عن القاف قاف جد بالفتن

بقتل دال ومثل الشام أجمعها　　أبدت بشجو على الأهلين والوطن

إذا أتى زلزلت يا ويح مصر من　　الزلزال ما زال حاء غير مقتطن

طاء وظاء وعين كفهم حبسوا　　هلكاً وينفق أموالاً بلا ثمن

يسير القاف قافاً عند جمعهم　　هون به إن ذاك الحصن في سكن

وينصبون أخاه وهو صالحهم　　لا سلم الألف سين لذاك بني

تمت ولايتهم بالحاء لا أحدٌ　　من السنين يداني الملك في الزمن

ويقال إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر:

يأتي إليه أبوه بعد هجرته　　وطول غيبته والشظف والزرن

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة، ومثل صنعتها كان في القديم كثير أو معروف الانتحال.

حكى المؤرخون لأخبار بغداد: أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكي يعرف بالدانالي، يبل الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة، ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم، ويحصل على ما يريد منهم من الدنيا، وأنه وضع في بعض دفاتره ميماً، مكررة ثلاث مرات، وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر - وكان عظيماً في الدولة - فقال له: هذا كناية عنك، وهو مفلح مولى المقتدر، ميم في كل واحدة. وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه مما يناله من الدولة، ونصب لذلك علامات يموه بها علمه، فبذل له ما أغناه به. ثم وضعه للوزير الحسن بن القاسم بن وهب على مفلح هذا، وكان معزولاً فجاءة بأوراق مثلها، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف، وبعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثامن عشر من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعداء، وتعمر الدنيا في أيامه، وأوقف مفلحاً هذا لحى الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى، وملاحم من هذا النوع، مما وقع ومما لم يقع، ونسب جميعه إلى دانيال، فأعجب به مفلح. ووقف عليه المقتدر، وأهتدى من لى الأمور والعلامات إلى ابن وهب، وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هده الحيلة العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز. والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى

الباجر بقي من هذا النوع.ولقد سالت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية، عن هذه الملحمة، وعن هذا الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية وهو الباجر بقي، وكان عارفاً بطرائقهم، فقال: كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية، وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومي إلى رجال معينين عنده، ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم. وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنو قلت عنه، وولع الناس بها، وجعلوها ملحمةً مرموزةً، وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر، وشغل العامة بفك رموزها، وهو أمر ممتنع، إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله، ويوضع له، وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه، فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل، شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة. (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله). والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

البابُ الرابع

مِن الكتاب الأَول

في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك

في الأحوال وفيه سوابق ولواحق

الفَصْل الأوَّل

في أن الدول أقدم في المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك وبيانُهُ أنَّ البناءَ اختطاط المنازِلِ إنَما هو من منازِعِ الحَضارَةِ التي يدعو إِليها التَّرَفُ والدَّعَةُ كما قدَّمناه . وذلك متأخِّرٌ عن البِداوَةِ ومنازِعِها . وأيضاً فالمدُنُ

والأمْصارُ ذاتُ هياكلَ وأجرامٍ عظيمةٍ وبناءٍ كبيرٍ. و هي موضوعةٌ للعمومِ لا للخُصوصِ ، فتحتاجُ إلى اجتماعِ الأيدي ، وكثرةِ التعاونِ. وليست من الأمورِ الضروريَّةِ للناسِ التي تَعُمُ ُبها البلوى، حتى يكون نزوعُهُم إليها اضطراراً ؛ بل لا بدَّ من إكراهِهِمْ على ذلك ، وسوْقِهم إليه مضطَهَدينَ بعصا المُلك ، أو مُرَغَبينَ في الثواب والأجْرِ الذي لا يفي بكثرته إلا المُلكُ والدولةُ . فلا بدَّ في تمصيرِ الأمصارِ واختطاطِ المدَن من الدولةِ والمُلْكِ .ثم إذا بُنِيَت المدينةُ وكَمُلَ تشييدُها بحسب نظرِ مَن شَيَّدها، وبما اقتضتهُ الأحوالُ السماوَيةُ والأرضيةُ فيها؛ فعمرُ الدولةِ حينئذ عما لها . فإنْ كانَ عمرُ الدولةِ قصيراً وقفَ الحالُ فيها عند انتهاءِ الدولةِ وتراجَعَ عمرانُها وخَربَتْ ، وإن كان أمدُ الدولةِ طويلاً ومدَّتُها منفسحَةً ، فلا تزالُ المصانعُ فيها تشادُ والمنازلُ الرحيبةُ تكثُرُ وتتعدَّدُ ، ونطاق الأسواقِ يتباعدُ وينفسحُ ، إلى أن تتَّسعَ الخُطَّةُ وتبعُدَ المسافَةُ وينفسحَ ذرعُ المساحةِ كما وقع ببغداد وأمثالها .ذكرَ الخطيبُ في تاريخه أن الحمَّامات بلغَ عدَدُها ببغدادَ لعهدِ المأمونِ خمسةً وستينَ ألفَ حمامٍ ، وكانت مُشْتَمِلَةً على مدُنٍ وأمصارٍ متلاصقة ومتقاربة تجاوزُ الأربعينَ ، ولم تكن مدينةٌ وحدَها يجمَعُها سورٌ واحدٌ لإفراطِ العُمرانِ . وكذا حالُ القَيْرَوانِ وقرْطُبَةَ والَمهديَّةِ في المِلَّةِ الإسلامية، وحاذ مصْرَ القاهرةِ بعدَها فيما يبلغُنا لهذا العهد .وأما بعدَ انقراضِ الدولة المشَيِّدَة للمدينة : فإمَّا أن يكونَ لضواحي تلك المدينة وما قارَبَها من الجبالِ والبسائطِ باديَةٌ يَمُدُّها العُمرانُ دائماً ؛ فيكونُ ذلك حافظاً لوجودها ، ويستمرُّ عُمرها بعد الدولةِ كما تراه بفاسَ وبجايَة من المغربِ ، وبعراقِ العَجَمِ من المشرقِ الموجودِ لها العُمرانُ من الجبالِ ؛ لأنَّ أهلَ البداوَةِ إذا انتهَتْ أحوالُهُم إلى غاياتها من الرفْهِ والكسب ، تدعو إلى الدَّعَةِ والسكونِ الذي في طبيعةِ البشَرِ؛ فيترلون المدُنَ والأمصارَ ويتأهلوَنَ . وأما إذا لم يكن لتلكَ المدينة المؤسَّسَة مادَّةٌ تفيدُها العُمرانَ بترادُفِ الساكن من بدوها ، فيكونُ انقراضُ الدولَةِ خَرْقاً لسياجِها ، فيزولُ حِفظُها ، ويتناقصُ عمرانها شيئاً فشيئاً، إلى أن يبذعرَّ

ساكنُها وتخرَبَ ؛ كما وقَعَ بمصرَ وبغدادَ والكوفةِ بالمشرقِ والقَيرَوانِ والمهديَّةِ وقلعةِ بني حمَّاد بالمغربِ ، وأمثالِها فتفهَّمْه . وربما يترِلُ المدينةَ بعد انقراضِ مختَطِّيها الأوَّلينَ مَلكٌ آخر ودولةٌ ثانيةٌ ، يتخذُها قراراً وكرسيّاً يستغني بها عن اختطاطِ مدينتن يترِلُها . فتحفظُ تلك الدولةُ سياجَها، وتتزايد مبانيها ومصانعُها ، بتزايُدِ أحوال الدولةِ الثانيةِ وتَرَفِها ، وتستجدُّ بعمرانها عمراً اخرَ، كما وقع بفاسَ والقاهرةِ لهذا العهد . واللّه سبحانه وتعالى أعلمُ ، وبه التوفيق .

الفَصْل الثَّاني

في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أنَّ القبائلَ والعَصائبَ إذا حصلَ لهم المُلْكُ اضطرّوا للاستيلاءِ على الأمصارِ لأمرينِ : أحدهما ما يدعو إليه الملكُ من الدَّعَةِ والراحَةِ وحطِّ الأثقالِ ، واستكمالِ ما كان ناقصاً من أمورِ العمرانِ في البدوِ؛ والثاني دفعُ ما يُتَوَقَّعُ على المُلْكِ من أمرِ المُنازعينَ والمُشاغبينَ . لأنَ المصْرَ الذي يكونُ في نواحيهم ربما يكون ملجأً لَمن يرومُ منازعتهم ، والخروجَ عليهم ، وانتزاعَ ذلك الملكِ الذي سموا إليه من أيديهم ؛ فيعتَصِمُ بذلك المصرِ

ويُغالِبُهُمْ . ومغالبةُ المِصْرِ على نهايةٍ من الصعوبةِ والمشقَةِ . والمصرُ يقومُ مقامَ العساكرِ المتعدِّدَةِ لما فيهِ من الامتناعِ ونكايَةِ الحربِ من وراءِ الجُدرانِ ،. من غيرِ حاجَةٍ إلى كثيرِ عددٍ ولا عظيمِ شوكةٍ . لأن الشوكةَ والعصَابَةَ إنما احتيجَ إليهما في الحربِ للثباتِ ، لما يقعُ من بعد كرةِ القومِ بعضهِمْ على بعضٍ عند الجولةِ، وثبات هؤلاءِ بالجدرانِ ؛ فلا يضطرُّونَ إلى كبيرِ عِصابَةٍ ولا عدد . فيكونُ حالُ هذا الحِصْنِ ، ومَن يعتصِمُ به من المُنازعينَ ، مما يَفُتُ في عَضُد الأَقَة التي ترومُ الاستيلاءَ، ويخضدُ شوكةَ استيلائها . فإذا كانت بين أجنابهم أمصارٌ انتظموها في استيلائهِمْ للأمن ، من مثل هذا الانخرام ؛ وإن لم يكن هناكَ مصرٌ استحدثوهُ ضرورةً لتكميلِ عمرانهم اوّلاً، وحطِّ أثقالِهم ، وليكَونَ شجّا في حَلقِ مَن يرومُ العزَّةَ والامتناعَ عليهم من طوائفهم وعصائبهم . فتعيَّنَ انَ المُلْكَ يدعو إلى نزولِ الأمصارِ والاستيلاءِ عليها . والله سبحانه وتعالى أعلمُ ، وبه التوفيقُ لا ربَّ سواه .

الفَصْلُ الثالث

في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قد قدَّمْنا ذلك في آثارِ الدولةِ من المباني وغيرِها، وأنها تكون على نسبَتِها . وذلك أنَّ تشييدَ المدُنِ إنما يحصُلُ باجتماعِ الفَعَلَةِ وكثرَتِهِم وتعاوُنهم . فإذا كانت الدولةُ عظيمةً متَّسعَةَ الممالك ، حُشِرَ الفعَلَةُ من أقطارِها، وجُمعت أيديهم على عملها . وربما استُعينَ في ذلك في أكثر الأمر بالهِنْدامِ الذي يُضاعفُ القُوى والقُدَرَ في حملِ أثقالِ البناءِ، لعجزِ القُوةِ البَشَرِيَّةِ وضُعفِها عن ذلك ، كالمخَّالِ وغيره . وربما يتوهَّمُ كثيرٌ من الناسِ إذا نظر إلى آثارِ الأقدمينَ ومصانعِهِم العظيمةِ، مثل إيوان كسرى، وأهرامِ مصْرَ وحنايا المعلَقَة وشَرْشَالَ بالمغربِ ، إنما كانت بقدرتِهِمْ متفرقينَ أو مجتمعين ؛ فيتخيَّلُ لهم أجساماً تناسبُ ذلك أعظمَ من هذه بكثيرٍ ، في طولها وقُدَرِها، لتُناسبِ بينها وبين القُدَرِ التي صدَرَت تلكَ المباني عنها . وَيغْفُلُ عن شأنِ الهندام والمخَالِ ، وما اقتضتهُ في ذلك الصناعةُ الهندسيَّةُ .وكثير من المتغلِّبينَ في البلادِ يعاينُ في شأنِ البناءِ، واستعمالِ الحيَلِ في نقلِ الأجْرامِ عند أهلِ الدولةِ المُعتنينَ بذلك منٍ العَجَمِ ، ما يشهدُ له بما قلناه عِياناً . وأكثرُ آثارِ الأقدمينَ لهذا العهدِ تُسَمِّيها

العامَةُ عادية، نسبة إلى قوم عاد ، لتوهُمهِم أنَّ مباني عادٍ . ومصانعهُمْ إنَما عظُمَتْ لعِظَمِ أجسامِهِم وتضاعُفِ قدَرِهِمْ وليس كذلك ، فقد نجدُ آثاراً كثيرةً من آثارِ الذين تُعرَفُ مقاديرُ أجسامِهِم من الأمَمِ ، وهي في مثل ذلك العِظَمِ أو أعظم ، كإيوانِ كسرى ومباني العُبَيْدِيِّين من الشيعة بأفريقيَّة ، والصَنْهاجيَّينَ ، وأثرُهُمْ بادٍ إلى اليومِ في صومعَةِ قَلعَةِ بني حمَّادٍ . وكذلك بناءُ الأغالبة في جامع القَيْرَوانِ ، وبناءُ الموحدين ، في رباطِ الفَتْحِ ورباطِ السلطانِ أبي سعيدٍ لعهدِ أربعينَ سنةً ، في المنصورةِ بإزاءِ تلمْسان . وكذلك الحنايا التي جَلَبَ إليها أهْلُ قرطا جنة الماءَ في القناةِ الراكبَةِ عليها ماثلَةً أيضاً لهذا العهدِ . وغيرُ ذلك من المباني والهياكلِ التي نُقلَتْ إلينا أخبارُ أهلِها قريباً وبعيداً ؛ تَيَقَّنا أنهم لم يكونوا بإفراطٍ في مقاديرِ أجسامِهِم . وإنما هذا رأيٌ وَيعَ به القُصَّاصُ عن قومِ عادٍ وثمودَ والعمالقةِ . ونجدُ بُيبرتَ ثمودَ في الحَجَرِ منحوتَةً إلى هذا العهدِ . وقد ثبَتَ في الحديثِ

الصحيحِ أنها بيوتُهم يمرُ بها الرَكبُ الحجازى أكثر السنينَ ، ويشاهدونها لا تزيدُ في جوَها ومساحَتِها وسَمْكِها على المُتَعاهَدِ . وإنهم ليبالغونَ فيما يعتَقِدونَ من ذلك . حتى إنهم ليزعمونَ أنَّ عُوجَ بنَ عناقَ من جيلِ العمالِقَة، كان يتناوَلُ السمَكَ من البحرِ طريئاً فيشويه في الشمسِ . يزعمُون بذلك أن الشَّمْسَ حارةً فيما قَرُبَ منها، ولا يعلَمونَ أن الحَرَّ فيما لدينا هو الضوءُ لانْعكاس الشعاعِ بمقابَلَةِ سطحِ الأرضِ والهواءِ . وأما الشمسُ في نَفْسِها فغيرُ حارةٍ ولا باردةٍ . وإنما هي كوكب مُضيءٌ لا مزاجَ له . وقد تقدمَ شيءٌ من هذا في الفصل الثاني ، حيث ذكرنا أن آثارَ الدولةِ على نسبةِ قوَّتها في أصلها. والله يخلقُ ما يشاءُ ويُحْكِمُ ما يريد.

الفَصْل الرَابع

في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسَببُ في ذلك ما ذكرناهُ من حاجَة البناءِ إلى التعاوُنِ ومُضاعَفَة القُدَرِ البشرية .

وقد تكونُ المباني في عِظَمِها أكثر من القُدَرِ مفردَةً أو مضاعَفَةً بالهندامِ كما قلناه فيُحتاج إلى مُعاودَة قُدَرٍ أخرى مثلها في أزمنَة متعاقِبَة إلى أن تَتم . فيبتدئ الأوَّلُ منهم بالبناءِ ويعقبُهُ الثاني والثالثُ ؛ وكلُّ واحدٍ منهم قد استكمَلَ شأنَهُ في حشرِ الفَعَلَة وجمع الأيدي ، حتى يتمَّ القصدُ من ذلك ويكمُلَ ويكون ماثلاً للعيانِ . يظنَهُ مَن يراهُ من الآخرينَ أنه بناءُ دولةٍ واحدة .وانظر في ذلكَ ما نقله المؤرِّخونَ "في بناءِ سَدِّ مَأرب ،. وأنَّ الذي بناهُ سبأ بنُ يشجُبَ ، وساق إليه سبعينَ وادياً . وعاقهُ الموتُ عن إتمامه ، فأتمّه ملوكُ حِمْيَرَ من بعده . ومثلُ هذا ما نُقِلَ في بناءِ قرطا جنة وقناتها الراكِبَة على الحنايا العاديَّة. وأكثرُ المباني العظيمَة في الغالِب هذا شأنُها . ويشهدُ لذلك أنَّ المبانيَ العظيمَةَ لعهدنا نجدُ المَلِكَ الواحدَ يشرعُ في اختطا طها وتأسيسها ؛ فإذا لم يتَّبعْ أثرَهُ من بعدَهُ من المُلوكِ في إتْمامِها بقيَتْ بحالِها و لم يكمُلِ القصدُ فيها. ويشهَدُ لذلك أيضاً أنَا نجدُ آثاراً كثيرةً من المباني العظيمةِ تَعجزُ الدولُ عن هدمِها وتخريبِها، مع أنَّ الهدمَ أيسرُ من البنَاءِ بكثير؛ لأنَّ الهدمَ رجوعٌ إلى الأصلِ الذي هو العَدَمُ ، والبناءُ على خلافِ الأصل . فإذا وجدنا بناءً تضْعُفُ قوَتُنا البشريةُ عن هدمه مع سُهولَةِ الهدمِ ، علمنا أن القدرَةَ التي أسستهُ مُفرطَةُ القُوَّة، وأنها ليست أثَرَ دولةٍ واحدةٍ . وهذا مثلُ ما وقعَ للعَرَب في إيوانِ كسرى، لما اعتزَمَ الرشيدُ على هدمه ، وبعثَ إلى يحيى بنِ خالدٍ وهو في مجلَسه يستشيرُهُ في ذلك ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ لا تفعل واترُكْهُ ماثلاً؛ يستَدلُّ به

على عِظَمِ مُلك آبائكَ الذينَ سلبوا المُلكَ لأهلِ ذلك الهيكلِ ، فاتَهمهُ في النصيحة، وقال : أخذته النُعرَة للعَجَم . واللَه لأصرَعَنَّهُ . وشرَعَ في هدمه وجَمعَ الأيدي عليه ، واتخذَ له الفؤوسَ وحماهُ بالنّارِ، وصبَّ عليه الخلَّ ، حتى إذا أدركَهُ العَجْزُ بعد ذلك كلِّه وخافَ الفضيحَة، بعثَ إلى يحيى يستشيرُهُ ثانياً في التجافي عن الهدمِ ، ففال : يا أميرَ المؤمنين لا تفعل ، واستمر على ذلك ، لئلا يقالَ : عَجزَ أميرُ المؤمنين ومَلكُ العربِ عن هدمِ مصنعٍ من مصانعِ العَجَمِ ، فعرَفها الرشيدُ وأقصرَ عن هدمه .وكذلك اتفقَ للمأمونِ في هدمِ الأهرامِ التي بمصْرَ وجمعَ الفَعَلَةَ لهدمِها؛ فلم يَحْلُ بطائل . وشرَعوا في نقبِه فانتَهَوا إلى جوٍّ بين الحائطِ الظاهرِ وما بعدَهُ من الحيطانِ ، وهنالِكَ كان منتهى هَدمِهم . وهو إلى اليوم فيما يقالُ منفذٌ ظاهرٌ . ويزعمُ الزاعمونَ أنه وجَد

ركازاً بين تلك الحيطان . والله أعلم.وكذلك حَنايا المُعَلقَة إلى هذا العَهْد تحتاجُ أهلُ مدينة تونسَ إلى انتخاب الحجارَة لبنائِهِمْ وتستجيدُ الصُنَّاعُ حِجارةَ تلك الحنايا؛ فيُحاولونَ على هدمها الأيَّامَ العدَيدَةَ . ولا يسقُطُ الصغيرُ من جُدْرانها إلا بعدَ عَصْبِ الريقِ ، وتجتَمِعُ له المحافِلُ المشهورَةُ . شهدتُ منها في أيامِ صِبايَ كثيراً. (واللَّهُ خَلَقكُمْ وما تَعْمَلون) .

الفَصْل الخامس

فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث

إذا غفل في تلك المراعاة

إعلم أنَّ المدُنَ قرار تَتَّخِذُهُ الأممُ عند حصولِ الغايَة المطلوبَة منَ التَّرَفِ ودواعيه ؛ فتؤثرُ الدَّعَةَ والسكونَ ، وتتوجَّهُ إلى اتخاذِ المنازِل للقرارِ. ولما كانَ ذلك للقرارِ والمأوى، وجَبَ أن يُراعى فيه دفع المضارِّ بالحمايَة من طوارِقها، وجَلبُ المنافعِ وتسهيلُ المرافقِ لها : فأما الحِمايةُ من المضارِّ فيُراعى لها أن يُدارَ على

منازلها جميعاً سِياجُ الأسوارِ، وأن يكونَ وضعُ ذلك في مُمْتَنِع من الأمكنَة إمَّا على هَضَبة متوعِّرة من الجَبَلِ ، وإمَا باستدارَة بحرٍ أو نهرٍ بها، حتى لا يوصَل إليها إلّا بعدَ العُبورِ على جسرٍ أو قنطَرَة فيصعُب منالُها على العَدُو ويتضاعَفُ امتناعُها وحصنُها . ومما يُراعى في ذلك للحمايَة نن الآفاتِ السماوية طيبُ الهواءِ للسلامة من الأمراضِ . فإنَّ الهواءَ إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياهِ الفاسدة أو لمناقعَ متعفِّنَة أو لمُروجٍ خبيثة ، أسرعَ إليها العَفَنُ من مُجاوَرَتها ؛ فأسرعَ المَرَضُ للحيوانِ الكائنِ فيه لا محالةَ، وهذا مشاهدٌ .والمدنُ التي لم يُراعَ فيها طيبُ الهواءِ كثيرةُ الأمراضِ في الغالبِ . وقد اشتهرَ بذلك في قُطرِ المغربِ بلدُ قابسَ من بلادِ الجَريد بأفريقيَّةَ؛ فلا يكادُ ساكنُها أو طارقُها يخلُصُ من حُمَّى العَفَنِ بوجه . ولقد يقالُ إن ذلك حادثٌ فيها، ولم تكن كذلك من قبلُ . ونقل البَكْرِيُّ في سببِ حدوثه ، أنه وقعَ فيها حَفْرٌ ظهرَ فيه إناءٌ من نُحاس مختومٌ بالرَّصاصِ . فلما فُضَّ ختامُهُ صَدَ منه دُخانٌ إلى الجوِّ وانقطَع . وكان ذلك مبدأ أمراضِ الحُمَّياتِ فيه . وأراد بذلك أنَّ الإناءَ كان مُشتَمِلاً على بعضِ أعمالِ الطِّلَّسْماتِ لوبَائه ، وأنه ذهبَ سرُّهُ بذَهابه ، فرجعَ إليها العَفَنُ والوَباءُ .وهذه الحكايةُ من مذاهبِ العامَة ومباحثِهم الركيكة . والبكريُّ لم يكنْ من نباهة العِلْمِ واستنارة البصيرة بحيثُ يَدْفَعُ مثلَ هذا أو يتبيَّنُ خَرقَهُ فتقله كما سمعه.والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهويَةَ العَفِنَةَ أكثرَ ما يُهيِّئُها لتعفينِ الأجسامِ وأمراضِ الحُمَّياتِ ركودها . فإذا تخلَّلَتْها الريحُ وتفَشتْ وذهبَتْ بها يميناً وشمالاً ، خفَّ شأنُ العَفَنِ والمرَضِ البادي ،منها للحيواناتِ .والبلدُ إذا كان كثيرَ الساكنِ وكثُرَتْ حركات أهله فيتموَّجُ الهواءُ ضَرورةً، وتحدثُ الريحُ المَتخَلِّلَةُ للهواءِ الراكد، ويكونُ ذلك معيناً له على الحرَكة والتموُّج . وإذا خفَّ الساكنُ لم يَجِدِ الهواءُ مُعيناً على حركتِهِ وتموُّجِهِ ، وبقي ساكناً راكداً، وعظمَ عَفَنهُ وكثُرَ ضررُهُ . وبلدُ قابسَ هذه ، كانت عندما كانت أفريقية

مستجدَّةَ العُمْرانِ ، كثيرة الساكن تموجُ بأهلها موجاً. فكان ذلك معيناً على تموُّج الهواءِ واضطرابه وتخفيف الأذى منه ؛ فلم يكن فيها كثيرُ عَفَن ولا مرض . وعندما خَف ساكنها ركد هواؤها المتعفِّنُ بفسادِ مياهها،

فكثرَ العفَنُ والمرض . فهذا وجهه لا غير.وقد رأينا عكسَ ذلك في بلادٍ وُضِعَتْ ، و لم يراعَ فيها طيب الهَواءِ. وكانت أوَّلاً قليلةَ الساكِنِ ؛ فكانت أمراضُها كثيرةً . فلما كَثُر ساكنها انتقل حالُها عن ذلك . وهذا مثلُ دارِ المُلكِ بفاسَ لهذا العهدِ المسمى بالبلَد الجَديد، وكثيرٌ من ذلك في العالمِ . فتفَهَّمْهُ تَجد ما قلتُه لكَ .وأما جلبُ المنافعِ والمرافقِ للبلدِ فيراعى فيه أمورٌ : منها الماءُ، بأن يكونَ البلَدُ على نهر، أو بإزائها عيونٌ عذبةٌ ثرَّةٌ . فإنَّ وجودَ الماءِ قريباً من البلدِ يسهِّلُ على الساكِنِ حاجة الماءِ وهي ضروريةٌ ، فيكونُ لهم في وجوده مرفقة عظيمةٌ عامَّةٌ . ومما يراعى من المرافقِ في المدنِ طيبُ المراعي لسائمتِهِمْ إذ صاحبُ كل قرارٍ لا بد له من دواجنِ الحَيَوانِ للنّتاجِ والضرْعِ والركوبِ ، ولا بدَ لها من المرعى . فإذا كانَ قريباً طيِّباً، كان ذلك أرفقَ بحالهم ، لما يُعانونَ من المشقةِ في هدمه . ومما يراعى أيضاً المزارع ، فإنَّ الزرُوعَ هي الأقواتُ . فإذا كانت مزارعُ البلدِ بالقُربِ منها، كان ذلك أسهَلَ في اتخاذه وأقربَ في تحصيله . ومن ذلك الشَّجرُ للحَطَبِ والبناءِ، فإنَّ الحَطَبَ مما تَعُتُم البلوى في اتخاذهِ لوقودِ النيرانِ للاصطلاءِ والطبخ . والخشَبُ أيضاً ضَروريّ لسُقُفِهِمْ وكثير مما يُستَعْمَلُ فيه الخشَبُ من ضروريا تهم . وقد يُراعى أيضاً قربُها من البحر لتسهيلِ الحاجاتِ القاصيَةِ من البلادِ النائيةِ . إلاَ أن ذلك ليس بمثابَةِ الأوَّل . وهذه كلُّها مُتَفاوتَةٌ بتفاوُتِ الحاجات ، وما تدعو إليه ضَرورَةُ الساكنِ . وقد يكونُ الواضعُ غافلاً عن حُسنِ الاختيارِ . الطبيعيِّ أو إنما يراعي ما هو أهمُّ على نفسِهِ وقومه ، ولا يذكُر حاجةَ غيرِهم ، كما فعلهُ العرَبُ لأوّلِ الإسلام في المُدُنِ التي اختطُّوها بالعراقِ وأفريقيةَ ؛ فإنُّهم لم يُراعوا فيها إلا الأهَم عندَهُم ، من مراعي الإبلِ وما يصلحُ لها من الشجر والماءِ المَلِح . ولم يُراعوا الماءَ ، ولا المزارعَ ، ولا الحَطَبَ ، ولا مَرَاعي السائمةِ من ذواتِ الظِلْفِ ، ولا غير ذلك ؛

كالقيروانِ والكوفةِ والبَصرَةِ وأمثالها . ولهذا كانَتْ أقرَبَ إلى الخَرابِ لما لم تراعَ فيها الأمورُ الطبيعيةُ .

ومما يراعى في البلادِ الساحِليةِ التي على البحرِ، أن تكونَ في جَبَلٍ ، أو تكونَ بين أمةٍ من الأمَمِ موفورَةَ العدد، تكونُ صريخاً للمدينة متى طرقَها طارقٌ من العدوِّ. والسبَبُ في ذلك أنَّ المدينَةَ إذا كانت حاضِرَةَ البحرِ، ولم يكن بساحتها عُمْرانٌ للقبائلِ أهلِ العصبياتِ ، ولا موضعُها متوعَرٌ من الجبل ، كانت في غرةٍ للبياتِ ، وسَهُلَ طروقُها في الأساطيلِ البَحْرِيَّةِ على عَدوِّها وتحيفُهُ لها، لما يأمَنُ من وجودِ الصريخِ لها. وأن الحضَرَ المتعوَدينَ للدَعَةِ قد صاروا عِيالاً وخرجوا عن حُكمِ المقاتلَة . وهذه كالإسْكَنْدَريَّةِ منَ المَشْرِقِ ، وطرابُلُسَ من المَغْرِبِ ، وبونَةَ وسَلا . ومتى كانَتِ القبائل والعصائب مُوَطَنينَ بقربها، بحيثُ يبلُغُهُم الصريخُ والنعيرُ ، وكانت متوعِّرَةَ المسالكِ على مَن يرومُها باختطاطِها في هضابِ الجبالِ وعلى أسنمَتها؛ كان لها بذلك مَنَعَةٌ من العدوِ ويئسوا من طروقها ، لما يكابدونَهُ من وَعَرِها، وما يتوقَّعونه من إجابة صريخها . كما في سبتةَ وبجايَةَ وبلدِ القلِ على صغرها . ففهم ذلك واعتبرْهُ في اختصاصِ الإسكندريَّة باسم الثغرِ من لَدُنِ الدولَة العبَّاسيَّةِ ، مع أن الدعوةَ من ورائها ببرْقَةَ وأفريقيَّةَ ؛ وإنما اعتُبرَ في ذلك المخافةُ المتوقَعَةُ فيها من البحرِ لسهولة وضعها . ولذلك - واللَّهُ أعلم - كان طُروقُ العدُوِّ للإسكندَرِية وطرابُلُسَ في المِلَةِ مرَّاتٍ متعدِّدَةً . واللَّهُ تَعالى أعْلَمُ

الفَصْل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إعلم أنَ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى فضلَ من الأرضِ بِقاعاً اختَصَّها بتشريفِه ، وجعلَها مواطِنَ لعبادتهِ ، يُضاعِفُ فيها الثوابَ ، وينمّي بها الأجورَ. وأخْبَرَنا بذلك على ألسُن

رُسُلِه وأنبيائه ، لطفاً بعبادِهِ وتسهيلاً لطرقِ السعادَة لهم. وكانت المساجدُ الثلاثَةُ هي أفضَلَ بِقاعِ الأرْضِ حسبما ثَبَتَ في الصحيحَيْنِ ،وهي مكّةُ والمدينةُ وبيتُ المقدسِ . أما البيتُ الحرامُ الذي بمكةَ، فهوِ بيتُ إبراهيمَ صلوات الله وسلامه عليه . أمرهُ اللَّهُ ببنائه ، وأن يؤَذّنَ في الناسِ بالحجِّ إليه ؛ فبناهُ هو وابنهُ إسماعيلُ كما نصَّهُ القرآنُ ، وقام بما أمرهُ الله فيه . وسكنَ إسماعيل به مع هاجرَ، ومَن نزل معهم من جُرْهُمَ إلى أن قبضَهُما اللَّهُ ، ودُفنا بالحِجْرِ منه. وبيتُ المقدسِ بناهُ داودُ وسليمانُ عليهما السلامُ . أمرهما اللَهُ ببناءِ مسجدِه ونَصبِ هياكلِه . ودُفِنَ كثيرٌ من الأنبياءِ من وُلد إسحاق عليه السلام حوالَيه . والمدينةُ مهاجَرُ نبيّنا محمد ، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه ، أَمره الله تعالى بالهُجرَة إليها وإقَامَةِ دينِ الإسلامِ بها ؛ فبنى مسجدَهُ الحرامَ بها، وكان ملحَدُه الشريفُ في تُربَتِها. فهذه المساجدُ الثلاثةُ قُرَّةُ عينِ المسلمينَ ومهوى أفئدتهم ، وعظمةُ دينهم . وفي الآثارِ من فضلِها ومضاعَفَة الثوابِ في مجاورَتها والصلاة فيها كثيرٌ معروفٌ . فلنُشِرْ إلى شئ من الخَبرِ عن أوليَّة هذه المساجدِ الثلاثةِ وكيف تدرَجت أحوالُها إلى أن كمُلَ ظهورُها في العالم.فأمَّا مكةُ فأوليَّتُها — فيما يُقالُ — أنَ آدمَ صلواتُ اللّه عليه بناها قُبالةَ البيتِ المعمورِ، ثم هدَمَها الطوفانُ بعد ذلك . وليس فيه خبرٌ صحيحٌ يُعوَّلُ عليه . وإنما اقتبسوه من مُجْمَلِ الآيةِ في قوله : {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} [البقرة: 127] . ثم بعثَ اللَّهُ إبراهيمَ ، وكان من شأنه وشأنِ زوجته سارةَ وغيرتها من هاجَرَ ما هو معروفٌ . وأوحى اللَّهُ إليه أن يترُكَ ابنَهُ إسماعيلَ وأمَهُ هاجرَ بالفلاة؛ فوضعهُما في مكانِ البيتِ وسارَ عنهما . وكيف جعلَ اللَهُ لهما من اللُّطْفِ في نبعِ ماءِ زمزمَ ، ومرورِ الرفْقَة من جُرْهُمَ بهما، حتى احتملوهُما وسكنوا إليهما، ونزلوا معهما حوالَي زمزمَ كما عُرِفَ في موضعه . فاتخذَ إسماعيلُ بموضعِ الكعبة بيتاً يأوي إليه ، وأدارَ عليه سياجاً من الردْمِ وجعلهُ زرْباً لغَنَمِه . وجاءَ إبراهيمُ صلواتُ الله عليه مراراً لزيارته من الشامِ

أمرَ في آخرِها ببناءِ الكعبةِ مكانَ ذلك الزرْب ؛ فبناهُ واستعانَ فيه بابنه إسماعيلَ ، ودعا الناسَ إلى حَجَه ، وبقي إسماعيلُ ساكناً به . وَلما قُبِضَتْ أمُهُ هاجَرُ وقامَ بنوهُ من بعده بأمرِ البيتِ مع أخوالهم من جُرْهُمَ ، ثم العماليقُ من بعدِهم . واستمرَّ الحالُ على ذلك ، والناسُ يهرعونَ إليها من كل أفق من جميعِ أهلِ الخليقة، لا من بني إسماعيلَ ولا من غيرهم ممّن دنا أو نأى. ففد نُقلَ أن التبابعَةَ كانت تَحُجُّ البيتَ وتعظِّمُهُ ، وأنَّ تُبَّعاً كساها،الُملاءَ والوصائل، وأمرَ بتطهيرِها وجَعَلَ لها مفتاحاً . ونُقلَ أيضاً أن الفُرْسَ كانت تَحجهُ وتُقربُ إليه ، وأنَّ غَزالي الذهبِ اللذينَ وجدهُما عبدُ المطّلبِ حين احتفرَ زَمْزَمَ كانا من قرابينِهم . ولم يزل لِجُرْهُمَ الولايَة عليه من بعدِ وُلْدِ إسماعيل من قِبَلِ خُؤُولَتِهمِ حتى إذا خرجَتْ خُزاعَةُ وأقاموا بها بعدهم ما شاءَ الله . ثم كثُرَ ولدُ إِسماعيلَ وانتشروا وتشعَبوا إلى كِنانَة، ثم كِنانَةُ إلى قُرَيْشٍ وغيرِهم . وساءَتْ وِلايةُ خُزاعَةَ فغلبتهُمْ قُريش

على أمرهِ . وأخرَجوهم من البيتِ وملَكوا عليهم يومئذٍ ، قُصَيَّ بنَ كِلابٍ ، فبنى البيتَ وسقفَهُ بخشبِ الدومِ وجريدِ النخلِ . وقال ا لأعشى : -

خَلَفْتُ بثَوْبي راهِبَ الدورِ والتي بناها قُصَى والَمضَاض بنُ جُرْهُمِ

ثم أصابَ البيتَ سيل ، ويقالُ حريقٌ وتهدَّمَ ، وأعادوا بناءَه وجمعوا النفَقَةَ لذلكَ من أموالهم . وانكسرت سفينةٌ بساحلِ جُدَّةَ فاشتروا خَشبَها للسَّقْفِ . وكانتْ جُدرانُهُ فوق القامة ؛ فجعلوها ثمانيَ عشرَ ذراعاً . وكانَ البابُ لاصِقاً بالأرضِ فجعلوه فوقَ القامةِ لئلا تدخلَهُ السُيولُ . وقَصَّرَتْ بهم النفَقَةُ عن إتمامِه فقصروا عن قواعدِه وتركوا منه ستَ أذرع وشبراً أداروها بجدارٍ قصيرٍ ، يُطاف من ورائه ، وهو الحِجْرُ. وبقي البيتُ على هذا البناءً إلى أن تحصَّنَ ابنُ الزُّبير بمكةَ حين دعا لنفسِه ، وزحفت إليه جيوشُ يزيدَ بنِ مُعاوِيَةَ مع الحُصَيْنِ بنِ نُمَيرٍ السُكونِيِّ . ورمى البيتَ سنةَ أربعِ وستينَ فأصابهُ حريقٌ . يقالُ من النَّفطِ الذي رَمَوا به على ابن الزُّبَيرِ فَتَصَدَّعَتْ حيطانُهُ ؛ فهدمَهُ ابنُ الزُّبَيْرِ؛ وأعاد بناءَه أحسنَ ما كان ، بعد أن اختلفت عليه

الصحابَةُ في بنائه واحتجَّ عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه و سلم لعائشةَ رضي الله عنها " لولا قومُكِ حديثو عهدٍ بكفر لرددتُ البيتَ على قواعدِ إبراهيمَ ، ولجعلتُ له بابين : شرقيّاً وغربيّاً "، فهدمَهُ وكشفَ عن اساسِ إبراهيمَ عليه السلام . وجمعَ الوجوهَ والأكابرَ حتى عاينوه . وأشارَ عليه ابنُ عباسٍ بالتحَري في حِفْظِ القِبْلَةِ على الناسِ ؛ فأدارَ على الأساسِ الخشبَ ، ونصبَ من فوقِها الأسْتارَ حِفظاً للقبلَة . وبعثَ إلى صنعاءَ في الفِضةِ والكلس ، فحملها وسأل عن قِطَعِ الحجارةِ الأوَلِ ؛ فجمعَ منها ما احتاجَ إليه . ثم شرعَ في البناءِ على أساس إبراهيمَ عليه السلام . ورفَعَ جُدرانَها سبعاً وعشرينَ ذراعاً، وجعلِ لها بابَيْنِ لاصِقَيْنِ بالأرضِ كما روى في حديثه . وجعل فَرْشَها وأزُرَها بالرخامِ ، وصاغ لها المفاتيحَ وصفائحَ الأبوابِ من الذهَبِ. . ثم جاءَ الحجَاجُ لحِصارِهِ أيامَ عبدِ الملك ورمى على المسجدِ بالمنجنيقات إلى أن تصدَّعَتْ حيطانُهُ . ثم لما ظَفرَ بابن الزُبَيْرِ شاورَ عبد الملكِ فيما بناهُ وزادهُ في البيت ؛فأمرَه بهدمهِ وردِّ البيت على قواعدِ قُرَيشٍ كما هي اليومَ . ويقالُ : إنهُ ندمَ علي ذلك حين عالم صِحَةَ رواية ابن الزبيرِ لحديث عائشةَ، وقال : وددتُ أني كنتُ حمَّلْتُ أبا حَبيب من أمر البيتِ وبنائه ما تحمّل ؛ فهدَم الحجَاجُ منها ستَةَ أذرعٍ وشِبْراً مكانَ الحِجْرِ، وبَناها على أساسِ قُرَيْشٍ ، وسدَ البابَ الغَرْبي وما تحت عَتَبَة بابها اليومَ من البابِ الشرقيِّ. وترك سائرَها لم يُغيِّرْ منه شيئاً . فكلُ البناءِ الذي فيه اليومَ ، بناءُ ابنِ الزبيرِ. وبين بنائِه وبناءِ الحَجَّاجِ في الحائط ، صِلَةٌ ظاهِرَةَ للعيانِ ؛ لُحمةٌ ظاهِرَةٌ بين البناءين . والبناءُ مُتَمَيِّزٌ عن البناءِ بمقدارِ إصْبعٍ ، شِبْهُ الصَّدْعِ وقد لُحم .ويَعرِضُ ههنا إشْكالٌ قويٌّ لمنافاته لما يقولُهُ الفقهاءُ في أمرِ الطواف . ويُحَذَّرُ الطائف أن يميلَ على الشاذروأن الدائرِ على أساسِ الجُدُرِ من أسفَلِها ، فيقَعُ طوافهُ داخلَ البيت بناءً على أنَّ الجدَارَ إنما قامَ على بعضِ الأساسِ وترك بعضه ، وهو مكان الشاذروان . وكذا قالوا في تقبيلِ الحَجَرِ الأسود، لا بدَ من رجوعِ الطائفِ من

التقبيلِ حتى يستوي قائماً ؛ لئلاَ يقعَ بعضُ طوافِهِ داخلَ البيت . وإذا كانَت الجُدرانُ كلُّها من بناءِ ابن الزُّبَيرِ ، وهو إنما بُنيَ على أساسِ إبراهيمَ ، فكيفَ يبعُ هذا الذي قالوهُ ؛ ولا مخلّص من هذا إلاّ بأحَدِ أمرين : إمَا أن

يكونَ الحَجاجُ هدمَه جميعَه وأعاده ، وقد نقلَ ذلك جماعة، إلا أن العيانَ في شواهد البناءِ بالتحام ما بين البناءَين وتميزِ أحد الشّقَّين من أعلاهُ عن الأخرِ في الصناعَةِ يردُّ ذلك ؛ وإمَا أن يكَونَ ابنُ الزبيرِ لم يَرُدَ البيتَ على أساسِ إبراهيمَ من جميعِ جهاته ، وإنما فعلَ ذلك في الحِجْرِ فقط ليدخُلَهُ . فهي الآنَ مع كونها من بناءِ ابن الزُّبَيْرِ ليست على قواعدِ إبراهيمَ . وهذا بعيدٌ ، ولا محيص من هذين . واللّه تعالى أعلم .ثم إنَ ساحَةَ البيتِ ، وهو المسجدُ، كان فضاءً للطائفينَ ؛ و لم يكن عليه جدَار أيّامَ النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكرٍ من بعده . ثم كثُرَ الناسُ ، فاشترى عُمَرُ رضي الله عنه ، دوراً هدمَها وزادَها في المسجدِ ، وأدار عليها جداراً دون القامَةِ . وفعلَ مثلَ ذلك عثمانُ ، ثم ابنُ الزُبيرِ، ثم الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ . وبناه بعُمُدِ الرخامِ . ثم زادَ فيه المنصورُ وابنهُ المهديّ من بعده ووقفت الزيادَةُ واستقرَّت على ذلك لعهدنا .وتشريفُ اللَّه لهذا البيتِ وعنايَتُهُ به أكثرُ من أن يُحاطَ به . وكفى من ذلك أن جعله مهبِطاً للوحيِ والملائكَةِ ومكاناً للعِبادَةِ، وفرضَ شعائرَ الحجَ ومناسكِهِ . وأوجَبَ لِحَرَمِهِ من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره، فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم. وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره. وحمى العائذ به والراتع في مسارحه من مواقع الآفات، فلا يراع فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر. وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميالٍ إلى التنعيم، ومن طريق العراق سبعُة أميالٍ إلى الثنية من جبل المنقطع، ومن طريق الجعرانة تسعة أميالٍ إلى الشعب، ومن طريق الطائف سبعة أميالٍ إلى بطن نمرة، ومن طريق جدة سبعة أميالٍ إلى منقطع العشائر.هذا شأن مكة

وخبرها وتسمي أم القرى، وتسفي الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها أيضاً بكة. قال الأصمعي: لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أي يدفع. وقال مجاهد: إنما هي باء بكة أبدلوها ميما، كما قالوا لازب ولازم لقرب المخرجين. وقال النخعي: بالباء للبيت وبالميم للبلد. وقال الزهري: بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم. وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه، والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسري وغيره.وقصة الأسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة. وقد وجد رسول الله صلى الله عليه و سلم ، حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها، سبعين ألف أوقيةٍ من الذهب، مما كان الملوك يهدون للبيت، قيمتها ألف ألف دينارٍ مكررة مرتين بمائتي قنطارٍ وزناً. وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك، فلم يفعل. ثم ذكر لأبي بكر، فلم يحركه. هكذا قال إلازرقي. وفي البخاري بسنده إلى أبي وائل قال: جلست إلى شيبة بن عثمان، وقال جلس إلى عمر بن الخطاب فقال: هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين. قلت ما أنت بفاعل، قال: و لم، قلت: فلم يفعله صاحباك. فقال: هما اللذان يقتدي بهما. وخرجه أبو داود وابن ماجة، وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس، وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسعٍ وتسعين ومائةٍ، حين غلب على مكة عمد إلى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به، نحن أحق به نستعين به على حربنا، وأخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذٍ.وأما بيت

المقدس وهو المسجد الأقصى فكان، أول أمره أيام الصابئة، موضعاً لهيكل الزهرة، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، ويصبونه على الصخرة التي هناك. ثم دثر ذلك الهيكل، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم. وذلك أن موسى صلوات الله عليه، لما خرج

ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس، كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه إسحق، ويعقوب من قبله، وأقاموا بأرض التيه، أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحي مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها، وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها، وأن يصنع مذبحاً للقربان، وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد، وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المترلة بالكلمات العشر، لما تكسرت ووضع المذبح عندها.وعهد الله إلى موسى بأن يكون هرون صاحب القربان، ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصفون إليها ويقربون في المذبح أمامها، ويتعرضون للوحي عندها.

ولما ملكوا أرض الشام أنزلوها (بكلكال) من بلاد الأرض المقدسة ما بين قسم بني يامين وبني أفرايم. وبقيت هنالك أربع عشرة سنة: سبعاً مدة الحرب، وسبعاً بعد الفتح أيام قسمة البلاد ولما توفي يوشع عليه السلام نقلوها إلى بلد شيلو قريباً من كلكال، أداروا عليها الحيطان. وأقامت على ذلك ثلثمائة سنة، حتى ملكها بنو فلسطين من أيديهم كما مر، وتغلبوا عليهم. ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالي الكوهن إلى نوف. ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعان في بلاد بني يامين. ولما ملك داود عليه السلام نقل القبة والتابوت إلى بيت المقدس وجعل عليها خباء خاصاً ووضعها على الصخرة.

وبقيت تلك القبة قبلتهم، ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس، وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها، فلم يتم له ذلك، وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه، ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام. واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب

وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب، وجعل في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد، وهو التابوت الذي فيه الألواح. وجاء به من صهيون بلد أبيه داود نقله إليها أيام عمارة المسجد، فجيء به تحمله الأسباط والكهنوتية حتى وضعه في القبر، ووضعت القبة والأوعية والمذبح، كل واحدٍ حيث أعد له من المسجد. وأقام كذلك ما شاء الله. ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه، وأحرق التوراة والعصا، وصاغ الهياكل ونثر الأحجار.ثم لما أعادهم ملوك الفرس، بناه عزيز نبي إسرائيل لعهده، بإعانة بهمن ملك الفرس، الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصر. وحد لهم في بنيانه حدودا دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام، فلم يتجاوزوهما.

وأما الأواوين التي تحت المسجد، يركب بعضها بعضاً، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل في طبقتين.

ويتوهم كثير من الناس أنها إصطبلات سليمان عليه السلام، وليس كذلك. وإنما بناها تتريها للبيت المقدس عما يتوهم من النجاسة، لأن النجاسات في شريعتهم، وأن كانت في باطن الأرض، وكان ما بينها وبين ظاهر

الأرض محشواً بالتراب، بحيث يصل ما بينها وين الظاهر خط مستقيم ينجس ذلك الظاهر بالتوهم، والمتوهم عندهم كالمحقق، فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة بعمي الأواوين السفلية تنتهي إلى أقواسها وينقطع خطه، فلا تتصل النجاسة بالأعلى على خط مستقيم. وتتزه البيت عن هذه النخاسة المتوهمة ليكون ذلك ابلغ في الطهارة والتقديس.

ثم تداو نتهم ملوك يونان والفرس والروم. واستفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة: لبني حشمناي من كهنتهم، ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعده. وبنى هيرودس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام، وتأنق فيه حتى

أكمله في ست سنين. فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها، وأمر أن يزرع مكانه. ثم أخذ الروم يدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه. ثم اختلف حال ملوك الروم في أخذ يدين النصرانية تارةً تركه أخرى، إلى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانة، وارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم، فأخبرها القمامصة بأنه رمي بخشبته على الأرض، والقي عليها القمامات والقاذورات. فاستخرجت الخشبة، وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم، وخربت ما وجدت من عمارة البيت، وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة، حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها عفا فعلوه بقبر المسيح.ثم بنوا بإزاء القمامة بيت لحم، وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام.وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام والفتح، وحضر عمر لفتح بيت المقدس، وسال عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب، فكشف عنها وبنى عليها مسجداً على طريق البداوة. وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه، وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت.ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده، على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال، كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه و سلم بالمدينة وفي مسجد دمشق، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد. والزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد، وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه.ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها، وكانت في ملكة العبيديين خلفاء القاهرة من الشيعة وأختل أمرهم، زحف الفرنجة إلى بيت المقدس، فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام. وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها، حتى إذا أستقل صلاح الدين ابن أيوب الكردي بملك مصر والشام، ومحا أثر العبيديين وبدعهم زحف إلىالشام

وجاهد من كان به من الفرنجة، حتى غلبهم على بيت المقدس، وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام. وذلك لنحو ثمانين وخمسمائةٍ من الهجرة. وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد.ولا يعرض لك الأشكال المعروف في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم " سئل عن أول بيت وضع، فقال: مكة. قيل: ثم أي، قال: بيت المقدس، قيل: فكم بينهما، قال: أربعون سنةً ". فإن المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس، بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان. أن سليمان بانيه، وهو ينيف على

الألف بكثيرٍ.واعلم أن المراد بالوضع، في الحديث، ليس البناء، وإنما المراد أول بيت عين للعبادة. ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة. وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة، فلعل ذلك لأنها كانت مكانا للعبادة، كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالي الكعبة وفي جوفها. والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام، فلا تبعد مدة الأربعين سنةً بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس، وأن لم يكن هناك بناء كما هو المعروف. وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام، فتفهمه ففيه حل هذا الإشكال. وأما المدينة المنورة- وهي المسماة بيثرب- فهي من بناء يثرب بن مهلائيل من العمالقة وبه سميت. وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز. ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها. ثم أمر النبي صلى الله عليه و سلم بالهجرة إليها، لما سبق من عناية الله بها، فهاجر إليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعده لذلك وشرفه في سابق أزله. وأواه أبناء قيلة ونصروه، فلذلك سموا الأنصار. وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها. وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك، فخطبهم رسول الله صلى الله عليه و سلم وأخبرهم أنه غير متحول. حتى إذا قبض صلى الله عليه و سلم كان ملحده الشريف

بها. وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا خفاء به. ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة، وبه قال مالك رحمه الله، لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " المدينة خير من مكة ". نقل ذلك عبد الوهاب في المعونة، إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك. وخالف أبو حنيفة والشافعي.وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام. وجنح إليها الأمم بأفئدتهم من كل أوبٍ. فإنظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة، لما سبق من عناية الله لها، وتفهم سر الله في الكون وتدريجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا. وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الأرض، إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند. لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه.وقد كانت للأمم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم. منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز، التي أمر النبي صلى الله عليه و سلم بهدمها في غزواته. وقد ذكر المسعودي منها بيوتاً لسنا من ذكرها في شيء، إذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني، ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها. ويكفي في ذلك ما وقع في التواريخ. فمن أراد معرفة الأخبار. فعليه بها. والله يهدي من يشاء سبحانه.

الفصل السابع

في أن المدن والأمصار بافريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر، منذ آلاف من السنين قبل الإسلام،

وكان عمرانها كله بدوياً، و لم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها. والدول التي ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم، حتى ترسخ الحضارة منها، فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها، فكانوا إليها أقرب، فلم تكثر مبانيهم. وأيضاً فالصنائع بعبدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو. والصنائع من توابع الحضارة، وإنما تتم المباني بها، فلا بد من الحذق في تعلمها. فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن. وأيضاً فهم أهل عصبيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية اجنح إلى البدو وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون، ويصير ساكنها عيالا على حاميتها، فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها. ولا يدعوهم إلى ذلك إلا الترف والغنى، وقليل ما هو في الناس. فلذلك كان عمران أفريقية والمغرب كله أو أكثره بدوياً، أهل خيام وظواعن وقيا طن وكنن في الجبال. وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق، من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها، لأن العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون في صراحتها والتحامها إلا في الأقل. وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب، أن لحمة النسب أقرب وأشد. فتكون عصبيته كذلك، وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيره عيالاً على غيره، فافهمه وقس عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه، إذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع. وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام. ولما تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفي رسوم الحضارة، مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم. وأيضاً فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير القصد، كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل، فقال: افعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات. ولا تطاولوا في البنيان، ألزموا السنة تلزمكم الدولة. وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر. قالوا: وما القدر، قال: ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد. فلما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد، وغلبت طبيعة الملك والترف، واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف، فحينئذٍ شيدوا المباني والمصانع، وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة، و لم ينفسح الأمد لكثرة البناء اختطاط المدن والأمصار إلا قليلاً، وليس كذلك غيرهم من الأمم. فالفرس طالت مدتهم آلافاً من السنين وكذلك القبط والنبط والروم، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة، طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم، فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عدداً وأبقى على الأيام أثراً. واستبصر في هذا تجده كما قلت لك. والله و ارثُ الأرض ومن عليها.

الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تختطها العرب

يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه، فلا تكون المباني

وثيقة في تشييدها. وله، والله أعلم، وجه آخر وهو أمس به، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه: من المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي، فأنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعي. والعرب بمعزل عن هذا، وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصةً، لا يبالون بالماء طاب أو خبث، ولا قل أو كثر، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم في الأرض، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد.وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها. والظعن كفيل لهم بطيبها لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات. وأنظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان، كيف لم يراعوا في اختطا طها إلى مراعي إبلهم. وما يقرب من القفر ومسالك الظعن، فكانت بعبدة عن الوضع الطبيعيّ للمدن، و لم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم، كما قدمنا بأنه يحتاج إليه في حفظ العمران. فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار، و لم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس. فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها، أتى عليها الخراب والانحلال كان لم تكن. (والله يحكم لا معقب لحكمه).

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الأمصار

إعلم أن الأمصار إذا اختطت أولاً تكون قليلة المساكن، وقليلة آلات البناء، من الحجر والجير وغيرهما مما يعالي على الحيطان عند التأنق: كالزلج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف، فيكون بناؤها يومئذٍ بدوِّيا وآلاتها فاسدةً. فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذٍ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها. فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع أجل ذلك ففقدت الإجادة في البناء والأحكام والمعالاة عليه بالتنميق. ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما، فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم، فينقلونها من مصنع إلى مصنع، لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل لقلة العمران، وقصوره عما كان أولا. ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصم ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة، فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة، والقصور عن التنميق بالكلية. فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدر، ويظهر عليها سيما البداوة. ثم تمر في التناقص إلى غايتها من الخراب أن قدر لها به. سنةُ الله في خلقه.

الفصل الحادي عشر

في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها

ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقلٍّ بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك. والحاجة التي تحصل بتعاون طائفةٍ منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً. فالقوُت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه. وإذا أنتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حدادٍ ونجارٍ للآلات، وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فأنه حينئذٍ قوت لأضعافهم مرات.
فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورا تهم.فأهل مدينةٍ أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم حاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال، وبقيت الأعمال كلها زائدةً على الضرورات، فتصرف في حالات الترف وعوائده. وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى. وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق، أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال. فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة.
ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب. وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها، فتنفق أسواق الأعمال والصنائع، ويكثر دخل المصر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم. ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانيةً. ثم زاد الترف تابعاً للكسب
وزادت عوائده وحاجاته. واستنبطت الصنائع لتحصيلها، فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانيةً، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول.وكذا في الزيادة الثانية والثالثة. لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى، بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش. فالمصر إذا فضل بعمران واحدٍ ففضله بزيادة كسبٍ ورفهٍ وبعوائد من الترف لا توجد في الآخر. فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر، كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرةٍ واحدةٍ في الأصناف: القاضي مع القاضي، والتاجر مع التاجر، والصانع مع الصانع، والسوقي مع السوقي، والأمير مع الأمير، والشرطي مع الشرطي.واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى، مثل بجاية وتلمسان وسبتة ، تجد بينهما بوناً كثيراً على الجملة. ثم على الخصوصيات، لحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان، وكذا كل صنف مع أهل صنفه. وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما، إلى أن تنتهي إلى المدر الذين اعتمالهم في ضروريات معاشهم فقط، أو يقصرون عنها. وما ذاك إلا لتفاوت الأعمال فيها، فكأنها كلها أسواق للأعمال. والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه، وكذا القاضي بتلمسان. وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم. وما بفاس أكثر لنفاق سوف الأعمال بما يدعو إليه الترف، فالأحوال أضخم. ثم هكذا حال وهران وقسنطينية والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى أمصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها، ولا تعد في الأمصار إذ هي

من قبيل القرى والمدر. فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة، لما أن أعمالهم لا تفي

بضروراهم. ولا يفضل ما يتأثلونه كسباً، فلا تنمو مكاسبهم. وهم لذلك مساكين محاويج، إلا في الأقل النادر. واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال. فأن السائل بفاس أحسن حالاً السائل بتلمسان أو أن. ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون في كثيراً من أحوال الترف واقتراح المآكل، مثل سؤال اللحم والسمن علاج الطبخ والملابس والماعون، كالغربال والآنية. ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر.ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال أهل القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما نقضي منه العجب. حتى أن كثيراًمن الفقراء بالمغرب يترعون إلى النقلة إلى مصر لذلك، ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها. وتعتقد العامة من الناس أن ذلك [لزيادة أيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم]. وأهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار، وليس كذلك. وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك، فعظمت لذلك أحوالهم.وأما حال الدخل والخرج فمتكافيء في جميع الأمصار. ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس. ومتى عظم الدخل والخرج، اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر.وكل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره، واعتبره بكثرة العمران، وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البدل والإيثار على مبتغيه. ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة، وكيف تختلف أحوالها في هجراها أو غشياها. فأن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها، تكثر بساحتها وأقنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات، فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش. ويكثر في سربها الجرذان وتأوي إليه السنانير ويلحق فوقها عصائب الطيور، حتى تروح بطاناً وتمتلئ شبعاً ورياً. وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكاسدة أرزاقهم

لا يسري بساحتها دبيب ولا يحلق بجوها طائر، ولا[تأوي إلى زوايا بيوقم فأرة ولا هرة] كما قال الشاعر:
يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء
فتأمل سر الله تعالى في ذلك، واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبدلها، لاستغنائهم عنها في الأكثر بوجود أمثالها لديهم. واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرته. والله سبحانه وتعالى أعلم، وهو غني عن العالمين.

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

إعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس: فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة والشعير وما في معناهما كالباقلاء والحمص والجلبان وسائر حبوب الأقوات ومصفحاتها كالبصل والثوم وأشباهه، ومنها الحاجي والكمالي مثل ا أدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني. فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه، رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه، وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها، وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانة، كان الأمر بالعكس من ذلك. والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت، فتتوفر الدواعي على اتخاذها، إذ كل وأحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت مترله، لشهره أو سنته، فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع، أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه، لا بد من ذلك. وكل متخذ لقوته، تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كثيرة، تسد خفة كثيرين من أهل ذلك المصر، فتفضل الأقوات عن أهل

المصر من غير شك، فترخص أسعارها في الغالب، إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية. ولولا احتكار الناس لها، لما يتوقع من تلك الآفات لبدلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران.وأما سائر المرافق من الأدم والفواكه وما إليها، فأنها لا تعم فيها البلوى، ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين، ولا الكثير منهم. ثم أن المصر إذا كان مستبحراً، موفور العمران، كثير حاجات الترف، توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله، فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصوراً بالغاً. ويكثر المستامون لها، وهي قليلة في نفسها، فتزدحم أهل الأغراض، ويبدل أهل الرفه والترف أثمانها بإسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم، فيقع فيها الغلاة كما تراه.وأما الصنائع والأعمال أيضاً في الأمصار الموفورة العمران، فسبب الغلاء فيه أمور ثلاثة: الأول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه، والثاني اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وامتهان أنفسهم، لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها، والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم، وإلى استعمال الصناع في مهنهم، فيبدلون في ذلك أهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف، وتغلو أعمالهم، وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك.وأما الأمصار الصغيرة، القليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها، وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه، فيعز وجوده لديهم،

ويغلو ثمنه على مستامه. وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضاً حاجة لقلة الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره.وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات، قيمة ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان، في الأسواق وأبواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها

على البياعات لأنفسهم. وبدلك كانت الأسعار في الأمصار أغلى من الأسعار في البادية، إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة. وبالعكس كثيرة في الأمصار لا سيما في آخر الدولة. وقد تدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح، ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد. وذلك أنهم، لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر، وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات، وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب، فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر، فاعتبروها في سعرهم. واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك.ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقفة الأقوات والحبوب في أرضهم، وليس كذلك، فهم أكثر أهل المعمور فلحاً فيما علمناه وأقومهم عليه، وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعةٍ أو فلحٍ، إلا قليلاً من أهل الصناعات والمهن أو الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين. ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة، وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع. وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه.ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملةً في الفلح مع كثرته وعمومه، فصار ذلك سبباً لرخص الأقوات ببلدهم. والله مقدر الليل والنهار، وهو الواحد القهار، لا رب سواه.

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران، يكثر ترفه كما قدمناه، وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف. وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها، فتنقلب ضروراتٍ وتصير الأعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف، وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق، والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات، ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأوقات والأعمال، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرةً بالغةً على نسبة عمرانه. ولعظم خرجه، فيحتاج حينئذٍ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم.والبدوي لم يكن دخله كثيراً، إذ كان ساكناً بمكان كاسد الأسواق في الأعمال

التي هي سبب الكسب، فلم يتأثل كسباً ولا مالاً فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير، لغلاء مرافقه وعزة حاجاته. وهو في بدوه يسد خلته بأقل الأعمال، لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه، فلا يضطر إلى المال. وكل من يتشوف إلى المصر وسكناه من أهل البادية، فسريعاً ما يظهر عجزه ويفتضح في

استيطانه، إلا من تقدم منهم تأثل المال، ويحصل له منه فوق الحاجة، ويجري إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من الدعة والترف. فحينئذٍ ينتقل إلى المصر، وينتظم حاله مع أحوال أهله في عوائدهم وترفهم. وهكذا شأن بداية عمران الأمصار. والله بكل شيء محيط.

الفصل الرابع عشر

في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار

إعلم أن ما توفر عمرانه من الأقطار، وتعددت الأمم في جهاته، وكثر ساكنة، اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم. والسبب كي ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال، وما يأتي ذكره من أنها سبب للثروة، بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته، فيعود على الناس كسباً يتأثلونه، حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب. فيزيد الرفه لذلك، وتتسع الأحوال، ويجيء الترف والغنى، وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأسواق، فيكثر مالها ويشمخ سلطانها، ويتفنن في اتخاذ المعاقل والحصون، اختطاط المدن، وتشييد الأمصار.واعتبر ذلك بأقطار المشرق، مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين، وناحية الشمال كلها، وأقطارها وراء البحر الرومي، لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم، وعظمت دولهم، وتعددت مدنهم وحوا ضرهم، وعظمت متاجرهم وأحوالهم. فالذي نشاهده لهذا العهد، من أحوال تجار الأمم النصرانية، الواردين على المسلمين بالمغرب، في رفههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف. وكذا تجار أهل المشرق، وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين، فأنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها، وربما تتلقى بالإنكار في غالب الأمر. ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزياد في أموالهم، أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم، أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم، وليس كذلك. فمعدن الذهب

الذي نعرفه في هذه الأقطار، إنما هو ببلاد السودان، وهي إلى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم، لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال، ولاستغنوا عن أموال الناس بالجملة. ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك، واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب. وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه. وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجومي، وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي، وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره. وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه، فلذلك أختص المشرق بالرفه من بين الآفاق، لا أن ذلك لمجرد ا أثر النجومي. فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بدلك، فأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه.واعتبر حال هذا الرفه من العمران، في قطر أفريقية وبرقة، لما خف ساكنها وتناقص عمرانها، كيف

تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة. وضعفت جباياتها، فقلت أموال دولها، بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها، على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم. حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته في غالب الأوقات. وكانت أموال الدولة ت بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال، يستعدها لأرزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الغزاة.وقطر المغرب وأن كان في القديم دون أفريقية فلم يكن بالقليل في ذلك. وكانت أحواله في دول الموحدين متسعةً وجباياته موفورةً. وهو لهذا العهد

قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه، وتناقصه، فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره، ونقص عن معهوده نقصاً ظاهراً محسوساً، وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال أفريقية، بعد أن كان عمرانه متصلاً من البحر الرومي إلى بلاد السودان، في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة. وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى، إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الفصل الخامس عشر

في تأثل العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إعلم أن تأثل العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والفدن، لا يكون دفعة واحدة، ولا في عصر واحدٍ، إذ ليس يكون لأحدٍ منهم من الثروة، ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمها عن الحد، ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ. وإنما يكون ملكهم وتأثلهم لها تدريجاً، أما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه، حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر كذلك، أو أن يكون بحوالة الأسواق. فأن العقار في أواخر الدولة وأول الأخرى، عند فناء الحامية، وخرج السياج، وتداعي المصر إلى الخراب، تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها، بتلاشي الأحوال، فترخص قيمها وتتملك بالأثمان اليسيرة، وتتخطى بالميراث إلى ملك الآخر، وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية، وانتظمت له أحوال رائقة حسنة، تحصل معها الغبطة في العقار والضياع، لكثر الغبطة في العقار والضياع، لكثرة منافعها حينئذٍ، فتعظم قيمها، ويكون لها خطر لم يكن في الأول. وهذا معنى الحوالة فيها. ويصبح مالكها من اغنى أهل المصر، وليس ذلك بسعيه واكتسابه، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.وأما فوائد

العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه، إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه، وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش. والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع، إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء، ليكون مرباهم به ورزقهم فيه، ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب. فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم. وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي، فيكون ذلك العقار قواماً لحاله. هذا قصد المترفين في اقتنائه. وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا. وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر

بحوالة الأسواق، وحصول الكثرة البالغة منه، والعالي في جنسه وقيمته في المصر. إلا أن ذلك إذا حصل فربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة، واغتصبوه في الغالب، أو أرادوه على بيعه منهم، ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب. والله غالب على أمره، وهو رب العرش العظيم.

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة

وذلك أن الحضري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأثله، وأصبح أغنى أهل المصر ورمقته العيون بذلك، وانفسحت أحواله في الترف والعوائد، زاحم عليها الأمراء والملوك وغضوا به. ولما في طباع البشر من العدوان، تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده، وينافسونه فيه، ويتحيلون على ذلك بكل ممكن، حتى يحصلون في ربقة حكم سلطاني، وسبب من المؤاخذة ظاهرٍ، ينتزع به ماله. وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب، إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث. قال صلى الله عليه و سلم: " الخلافة بعدي ثلاثون سنةً، ثم تعود ملكاً عضوضاً ". فلا حينئذٍ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران، من حامية تذود عنه، وجاه ينسحب عليه من ذى قرابةٍ للملك، أو خالصةٍ له أو عصبيةٍ يتحاماها السلطان، فيستظل هو بظلها، ويرتع في أمنها من طوارق التعدى. وأن لم يكن له ذلك، أصبح نهباً بوجوه التخيلات وأسباب الحكام. والله يحكم لا معقب لحكمه.

الفصل السابع عشر

في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول

و أنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصرٍ. ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع، ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه، المهرة فيه. وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها، ويتلون ذلك الجيل بها. ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات، حذق أولئك الصناع في صناعتهم، ومهروا في معرفتها. والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرر أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً. وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها. وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة، لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها. وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال، فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة، ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر، وهم الأكثر، فتعظم لذلك ثروتهم، ويكثر غناهم، وتتزيد عوائد الترف ومذاهبه، وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه، وهذه هي الحضارة. ولهذا نجد الأمصار التي في القاصية، ولو كانت موفورة العمران، تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها، بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها. وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم،

كالماء يخضر ما قرب منه، مما قرب، من الأرض، إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد. وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم. فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة. ثم أنه إذا اتصلت تلك الدولة، وتعاقب ملوكها في ذلك المصر، واحداً بعد واحدٍ، استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً.واعتبر ذلك في اليهود، لما طال ملكهم بالشام نحوا من ألفٍ وأربعمائة سنةٍ، رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده، والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائم أحوال المترل. حتى أنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم. ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في الشام منهم، ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنةٍ، فكانوا في غاية الحضارة.وكذلك أيضا القبط دام ملكهم في الخليقة ثلاثة آلاف من السنين، فرسخت عوائد الحضارة في بلدهم مصر، وأعقبهم بها ملك اليونان والروم، ثم ملك الإسلام الناسخ للكل. فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلةً. وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن، لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة آلافاً من السنين. وأعقبهم ملك مصر.

وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها، من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين فلم يكن على

وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر.وكذا أيضاً رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس،- لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط، ثم ما أعقبها من ملك بني أمية- آلافاً من السنين. وكلتا الدولتين عظيمة. فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت.وأما أفريقية والمغرب، فلم يكن بها قبل الإسلام فلك ضخم. إنما قطع الروم والإفرنجة إلى أفريقية البحر، وملكوا الساحل، وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعةً غير مستحكمة. فكانوا على قلعةٍ أو فازٍ. وأهل المغرب لم تجاورهم دولة، وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر. ولما جاء الله بالإسلام وملك العرب أفريقية والمغرب، ولم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً أول الإسلام، وكانوا لذلك العهد في طور البداوة، ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه، إذ كانوا برابر منغمسين في البداوة. ثم أنتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود، على يد ميسرة المظفري أيام هشام بن عبد الملك، ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم، وأن بايعوا لإدريس فلا تعد دولته فيهم عربية، لأن البرابر هم الذين تولوها، ولم يكن من العرب فيها كثير عددٍ. وبقيت أفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب، فكان لهم من الحضارة بعض الشيء، بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه، وكثرة عمران القيروان. وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم. وذلك كله قليل، لم يبلغ أربعمائة سنةٍ. وانصرمت دولتهم، واستحالت صبغة الحضارة، بما كانت غير مستحكمةٍ. وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها، وبقى أثر خفي من حضارة العمران فيها. وإلى هذا العهد يونس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدئة سلف، فتجد له من أحوال الحضارة في شؤن مترله وعوائد أحواله، آثاراً ملتبسة بغيرها، يميزها الحضري البصير بها، وكذا في أكثر أمصار أفريقية. وليس كذلك في

المغرب وأمصاره، لرسوخ الدولة بأفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة.وأما المغرب فأنتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس، حظ كبير من الحضارة. واستحكمت به عوائدها، بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس. وأنتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً. وكانت من اتساع النطاق ما علمت، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها، ومعظمها من أهل الأندلس. ثم أنتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى أفريقية، فابقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً، معظمها بتونس، امتزجت بحضارة مصر، وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بدلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الخلاء، ورجع على أعقابه. وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة. وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره، لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب، ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم. فتفطن لهذا السر فأنه خفي عن الناس.واعلم أنها أمور متناسبة، وهي حال الدولة في القوة والضعف، وكثرة الأمة أو الجيل، وعظم المدينة أو المصر، وكثرة النعمة واليسار. وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران، وكلها مادة لها، من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال. وأحوال الجباية عائدة عليهم، ويسارهم في الغالب من أسواقهم، ومتاجرهم. وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها، انبثت فيهم، ورجعت إليه، ثم إليهم منه. فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج، عائدة عليهم في العطاء. فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا أيضاً وكثرتهم، يكون مال الدولة. واصله كله العمران وكثرته. فاعتبره وتأمله في الدول تجده. والله سبحانه وتعالى يحكم لا معقب لحكمه.

الفصل الثامن عشر

في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف، أن الملك والدول غاية للعصبية، وأن الحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس. كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً. وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط. فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك، لأنه غاية لا مزيد وراءها. وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران، دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها. والحضارة، كما علمت، هي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية، ولسائر أحوال المترل. وللتأنق في كل وأحد من هذه، صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها. وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المترلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة، لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها: أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد، ويعجز الكسب عن الوفاء بها. وبيانه أن المصر

بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله، والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل. وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته. ثم تزيدها المكوس غلاءً لأن كمال الحضارة إنما تكون عند نهاية الدولة في استفحالها، وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة

خرجها حينئذٍ كما تقدم. والمكوس تعود على البياعات بالغلاء، لأن السوقة والتجار كلهم، يحتسبون على سلعهم وبضائعهم، جميع ما ينفقونه، حتى في مؤنة أنفسهم، فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها. فتعظم نفقات أهل الحاضرة وتخرج عن القصد إلى الإسراف. ولا يجدون وليجةً عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات، ويتتابعون في الإملاق والخصاصة، ويغلب عليهم الفقر. ويقل المستامون للبضائع، فتكسد الأسواق وتفسد حال المدينة.وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف. وهذه مفسدتها في المدينة على العموم في الأسواق والعمران.وأما فساد أهلها في ذاتهم، واحداً واحداً على الخصوص، فمن الكد والتعب في حاجات العوائد، والتلون بألوان الشر في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها، بحصول لون آخر من ألوانها. فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه. وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والرباء في البياعات. ثم تجدهم للكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف أبصر بطرق الفسق ومذاهبه، والمجاهرة به وبدواعيه، واطراح الحشمة في الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوي الأرحام والمحارم، الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بدلك. وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم، إلا من عصمه الله. ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة. ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب، وأهملته الدولة من عدادها، وغلب عليه خلق

الجوار والصحابة، وأن كانوا أصحابه أهل أنساب وبيوتاتٍ. وذلك أن الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل. فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته. ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول، منطرحين في الغمار، منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة. وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: 16].ووجهه أن مكاسبهم حينئذٍ لا تفي بحاجاتهم، لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم. وإذا فسدت أحوال الأشخاص، واحداً واحداً، أختل نظام المدينة وخربت. وهذا معنى ما يقوله بعفي أهل الخواصي: أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب، حتى أن كثيراً من

العامة يتحامى غرس النارنج بالدور، تطيراً به، وليس المراد ذلك ولا أنه خاصة في النارنج، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة. ثم أن النارنج والليه والسرو وأمثال ذلك، مما لا طعم فيه ولا منفعة، هو من غايات الحضارة، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط، ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف. وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه. ولقد قيل مثل ذلك في الدفلي، وهو من هذا الباب، إذ الدفلي لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها، ما بين أحمر وأبيض، وهو من مذاهب الترف.ومن مفاسد الحضارة أيضاً الانهماك في الشهوات والاسترسال

فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ والمشارب وطيبها. ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح ، من الزنا واللواط، فيفضي ذلك إلى فساد النوع: أما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا، فيجهل كل وأحد ابنه إذ هو لغير رشدة، لأن المياه مختلطة في الأرحام، فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع، أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط إلى انقطاع النوع، أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأساً وهو أشد في فساد النوع إذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع. والزنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه. ولذلك كان مذهب مالك، رحمه الله، في اللواط أظهر من مذهب غيره، ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح.

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته أنقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم، كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول أن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته، أما عجزا لما حصل له من الدعة، أو ترفعا لما حصل له من المربى في النعيم والترف. وكلا الأمرين ذميم. وكذلك لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري بما قد فقد من خلق البأس بالترف والمربى في قهر التأديب والتعليم، فهو لذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعتها، وما تلونت به النفس من ملكاتها كما قررناه، إلا في الأقل النادر. وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الذين يتقربون، من جند السلطان، إلى البداوة والخشونة، أنفع من الذين

يتربون على الحضارة وخلقها. وهذا موجود في كل دولة. فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم من العمران والدول. والله سبحانه وتعالى، كل يوم، هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن.

الفصل التاسع عشر

في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

قد استقرينا في العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت، فإن المصر الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه، وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب، ولا يكاد ذلك يتخفف. والسبب فيه أمور:

الأول- أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس

والبعد عن التحذلق. ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة، فتقل النفقات ويقصر الترف. فإذا صار المصر الذي كان كرسياً للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة، ونقصت أحوال الترف فيها، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر، لأن الرعايا تبع للدولة، فيرجعون إلى خلق الدولة: أما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم ، أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال، وقفة الفوائد التي هي مادة العوائد، فتقصر لذلك حضارة المصر، ويذهب منه كثير من عوائد الترف. وهي معنى ما نقول في خراب المصر.

الأمر الثاني- أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب، وإنما يكون بعد العداوة والحروب. والعداوة تقتضي منافاةً بين أهل الدولتين، وتكثر إحداهما علي الأخرى في العوائد والأحوال. وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر، فتكون أحوال الدولة

السابقة منكرة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعةً وقبيحةً. وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها، حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف، فتكون عنها حضارة مستأنفة. وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقضها، وهو معنى اختلال العمران في المصر.

الأمر الثالث- أن كل أمة لا يد لهم من وطن هو منشأهم ومنه أولية ملكهم. وإذا

ملكوا وطناً آخر تبعاً للأول، وأمصاره تابعة لأمصار الأول. واتسع نطاق الملك عليهم. ولا بد من توسط الكرسي بين تخوم الممالك التي للدولة، لأنه شبه المركز للنطاق، فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوي أفئدة الناس إليه من اجل الدولة والسلطان، فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول. والحضارة إنما هي بوفور العمران كما قدمنا، فتنتقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله. وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى اصبهان، وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة، ولبني العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد، ولبني مرين بالمغرب في العدول عن مراكش إلى فاس. وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الأول.

الأمر الرابع- أن الدولة المتجددة إذا غلبت على الدولة السابقة لا بد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياعها، بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة. وأكثر أهل المصر الكرسي أشياع الدولة. أما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو من أعيان المصر، لأن لهم في الغالب مخالطةً للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم. بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها. وأن لم يكونوا بالشوكة والعصبية، فهم بالميل والمحبة والعقيدة. وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة، فتنقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها. فبعضهم على نوع التغريب والحبس، وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف، بحيث لا يؤدي إلى النفرة، حتى لا يبقى في مصر الكرسي إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة

وسواد العامة. ويترل مكانهم في حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر. وإذا ذهب من مصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه، وهو معنى اختلال عمرانه. ثم لا بد أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة، وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة. وإنما ذلك بمثابة من يملك بيتاً داخله البلى، والكثير من أوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه، وله قدرة - على أوصافٍ مخصوصةٍ - على تغيير تلك الأوضاع، وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت، ثم يعبد بناءه ثانيا.وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي لذلك وشاهدناه وعلمناه.(والله يقدر الليل والنهار).والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة، أن الدولة والملك للعمران، بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها. وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر. فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والملك متعذر، بما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع، فتتعين السياسة لذلك. أما الشريعة أو الملكية وهو معنى الدولة، وإذا كانا لا ينفكان، فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر، كما كان عدمه مؤثرً في عدمه. والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية، مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم، أو بني أمية أو بني العباس كذلك. وأما الدول الشخصية، مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد، فأشخاصها متعاقبة على العمران، حافظة لوجوده وبقائه، وقريبة الشبه بعضها من بعض، فلا تؤثر كثير اختلال. لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة، وهي مستمرة مع أشخاص الدول. فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران، فأذهبت أهل الشوكة بأجمعهم، عظم الخلل كما قررناه أولاً. والله قادر على ما يشاء. أن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز.

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً، لما في طبيعة العمران من التعاون. وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه، ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه. وما لا يستدعي في المصر يكون غفلاً، إذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به. وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش، فيوجد في كل مصر، كالخياط والحداد والنجار وأمثالها. وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله، فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة، الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والسفاج والفراش والذباح وأمثال هذه، وهي متفاوتة. وبقدر ما تريد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع، فتوجد بدلك المصر دون غيره. ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران، لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم. ولذلك لا يكون في المدن المتوسطة. وأن نزع بعض الملوك

والرؤساء إليها، فيختطها ويجري أحوالها. إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس، فسرعان ما تهجر وتخرب، وتفر عنها القومة، لقفة فائدتهم ومعاشهم منها. والله يقبض ويبسط.

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر، وأن لم يكونوا أهل نسبٍ واحدٍ، إلا أنه كما قدمناه اضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به العصبية

بعضاً مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر، يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحماً لحماً، وقرابةً قرابةً، تجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله، فيفترقون شيعاً وعصائب. فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم، والنظر في حماية بلدهم، ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة. والنفوس بطباعها متطاولة على الغلب والرئاسة، فتطمح المشيخة - لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة - إلى الاستبداد، وينازع كل صاحبه، ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيع والأحلاف. ويبدلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب، فيعصوصب كل لصاحبه، ويتعين الغلب لبعضهم، فيعطف على أكفائه، ليقص من أعنتهم. ويتتبعهم بالقتل أو التغريب، حتى يخضد منهم الشوكات النافذة، ويقلم الأظفار الخادشة. ويستبد بمصره اجمع. ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه، فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الفلك الأعظم، من عوارض الجدة والهرم.وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم، أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك، فيتحلون بها، من الجلوس على السرير، واتخاذ الآلة، وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد، والتختم والتحية، والخطاب بالتهويل، وما يسخر منه من يشاهد أحوالهم، لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل. إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات، حتى صارت عصبيةً. وقد يتتره بعضهم عن ذلك ويجري على مذاهب السذاجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث. وقد وقع هذا بأفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد، من طرابلس وقابس وتؤزر ونفطة وقفصه وبسكرة والزاب، وما إلى ذلك. سموا إلى مثلها عند

تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين، فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجباية وأعطوا طاعةً معروفةً وصفقةً ممرضةً، واقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والانقياد، وهم بمعزل عنه. وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد. وحدث في خلقهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم. ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين، على قرب عهدهم بالسوقة، حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس، وأنتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة. وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية، واستقل بأمصار الجريد أهلها، واستبدوا على الدولة، حتى أنتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي، ونقلهم كفهم من إمارتهم بها إلى المغرب، ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر

في أخباره. وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المؤمن. وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السر وات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرئاسة في المصر، وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء. وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد، لأسباب يجرها له المقدار، فيتغلب على المشيخة والعلية، إذا كانوا فاقدين للعصابة. والله سبحانه وتعالى غالب على أمره.

الفصل الثاني والعشرون

في لغات أهل الأمصار

إعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة، أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربيةً، وأن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه. والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم، والدين والملة صورة للوجود وللملك. وكلها مواد له، والصورة مقدمة على المادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة، وهي بلسان العرب، لما أن النبي صلى الله عليه و سلم عربي، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها. واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن رطانة الأعاجم، وقال: أنها خب، أي مكر وخديعة. فلما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً، هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب. وهجر الأمم لغاتهم، وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك. وصار اللسان العربي لسانهم، حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبةً. ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أو آخره، وأن كان بقي في الدلالات على اصله، وسمي لساناً حضرياً في جميع أمصار الإسلام وأيضاً فأكثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد، من أعقاب العرب، المالكين لها، الهالكين في ترفها، بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم. واللغات متوارثة، فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء، وأن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئاً فشيئاً. وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار، بخلاف لغة البدو من العرب، فأنها كانت أعرق في العروبية. ولما تملك العجم من الديلم و السلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية، فسد اللسان العربي لذلك، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين، وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام، إلا قليلاً بالأمصار، عربية. فلما ملك التتر والمغول بالمشرق، و لم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق، و لم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية، بالعراق وخراسان

وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر، وبلاد الشمال، وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام، إلا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدارسة من علوم العرب، وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس والمغرب، لبقاء الدين طالباً لها،

فانحفظت بعض الشيء. وأما في ممالك العراق وما وراءه، فلم يبق له أثر ولا عين، حتى أن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي، وكذا تدريسه في المجالس. والله أعلم بالصواب. والله مقدر الليل والنهار. صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ودائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس

من الكتاب الأولى

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل

الفصل الأول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما

وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

إعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه، في حالاته وأطواره، من لدن نشوءه إلى أشده إلى كبره. "والله الغني وأنتم الفقراء ". والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان، وامتن به عليه في غير ما أية من كتابه فقال تعالى: {وِّخلق

لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية: 13] وسخر لكم الشمس والقمر وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الأنعام. وكثير من شواهده. ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه، بما جعل الله له من الاستخلاف. وأيدي البشر منتشرة، فهي مشتركة في ذلك. وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض. فالإنسان متى اقتدر غلى نفسه وتجاوز طور الضعف، سعى في اقتناء المكاسب، لينفق ما آتاه الله منها، في تحصيل حاجاته وضروراته يدفع الأعواض عنها. قال الله تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} [العنكبوت: 17] وقد يحصل له ذلك بغير سعي، كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله. إلا أنها إنما تكون معينة، ولا بد من سعيه معها كما يأتي، فتكون له تلك المكاسب معاشاً أن كانت بمقدار الضرورة والحاجة، ورياشاً ومتمولاًإ ن زادت على ذلك. ثم أن ذلك الحاصل أو المقتنى، أن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته، من أنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقاً. قال صلى الله عليه و سلم : " إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت ". وأن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقاً، والمتملك منه حينئذٍ بسعي العبد وقدرته يسمى كسباً. وهذا مثل التراث، فأنه يسمى بالنسبة إلى الهالك كسباً ولا يسمى رزقاً، إذ لم يحصل له به منتفع، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقاً. هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة. وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصح تملكه، وما لا يتملك عندهم لا يسمى رزقاً. وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقاً. والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر، ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها.ثم إعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الرزق من سعيٍ وعمل ولو في

تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} [العنكبوت: 17]. والسعي إليه إنما يكون بأقدار الله تعالى وإلهامه، فالكل من عند الله. فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول. لأنه أن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وأن كان مقتنى من الحيوان أو النبات أو المعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم أن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول،وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب. وأن اقتنى سواهما في بعض الأحيان، فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الأسواق، التي هما عنها بمعزل، فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة. وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتمولات، إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه هو قيمة عمله، وهو القصد بالقنية، إذ ليس هنالك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية. وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها. مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزلى، إلا أن العمل فيهما أكثر، فقيمته أكثر. وأن كان من غير الصنائع، فلا بد من قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به، إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها. وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرةً في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفي ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس، فأن اعتبار اً أعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه، لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤ نته يسيرة، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح. فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية، وتبين مسمي الرزق، وأنه المنتفع به. فقد بأن معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما.واعلم أنه إذا فقدت الأعمال، أو قلت بانتقاص العمران، تأذن الله برفع الكسب.إلا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن، كيف يقل الرزق والكسب فيها، أو يفقد، لقلة الأعمال الإنسانية. وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر، يكون أهلها أوسع أحوالاً

وأشد رفاهيةً كما قدمناه قبل. ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد، إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها، حتى أن الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر، لما أن فور العيون إنما يكون بالإنبات والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني، كالحال في ضروع الأنعام، فما لم يكن أنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة، كما يجف الضرع إذا ترك امتراؤه. وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون لأيام عمرانها، ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن. {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [المزمل: 20].

الفصل الثاني

في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

إعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله، وهو مفعل من العيش. كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه، جعلت موضعاً له على طريق المبالغة. ثم أن تحصيل الرزق وكسبه: أما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه، علي قانونٍ متعارفٍ، ويسمى مغرماً وجبايةً، وإما أن يكون من الحيوان الوحشي باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر، ويسمى اصطياداً، وأما أن يكون من الحيوان

الداجن باستخراج فضوله المتصرفة بين الناس في منافعهم، كاللبن من الأنعام، والحرير من دوده، والعسل من نحله، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته. ويسمى هذا كله فلحاً.

وأما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية: أما في مواد بعينها، وتسمى الصنائع من كتابةٍ وتجارةٍ وخياطةٍ وحياكةٍ وفروسيةٍ وأمثال ذلك، أو في مواد غير معينةٍ، وهي جميع الامتهانات والتصرفات، وإما أن يكون الكسب من البضائع

وإعدادها للأعواض، أما بالتقلب بها في البلاد أو احتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها. وشمى هذا تجارة.فهذه وجوه المعاش وأصنافه، وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الأ دب والحكمة كالحريري وغيره، فأنهم قالوا: " المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة": فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش، فلا حاجة بنا إلى ذكرها، وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني، وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش. أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات، إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية، لا تحتاج إلى نظر ولا علم، ولهذا تنسب في الخليقة إلى آدم أبي البشر، وأنه معلمها والقائم عليها، إشارة إلى أنها اقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة. وأما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها، لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار، ولهذا لا توجد غالباً إلا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو وثانٍ عنه. ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثاني للخليقة، فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى. وأما التجارة وأن كانت طبيعية في الكسب، فالأكثر من طرقها ومذاهبها، إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع، لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكاسبة، لما أنه من باب المقامرة، إلا أنه ليس أخذا لمال الغير مجاناً، فلهذا اختص بالمشروعية. والله أعلم.

الفصل الثالث

في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

إعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والملك الذي هو بسبيله، من الجندي والشرطي والكاتب. ويستكفي في كل باب بمن

يعلم غناءه فيه، ويتكفل بأرزاقهم من.بيت مالة وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم. وأما ما دون ذلك من الخدمة،فسببها أنّ أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته، أو يكون عاجزاً عنها، لما ربي عليه من خلق التنعم والترف، فيتخذ من يتولى ذلك له، ويقطعه عليه أجراً من ماله. وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان، إذ الثقة بكل أحد عجز، ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث اللذين ينبغي في مذاهب الرجولية التتره عنهما. إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه. ومع ذلك فالخديم الذي يستكفي به ويوثق بغنائه كالمفقود، إذ الخديم القائم بدلك لا يعدو أربع حالات: أما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده، وأما بالعكس فيهما، وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده،

وأما بالعكس في إحداهما فقط، مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقاً غير مضطلعٍ. فأما الأول، وهو المضطلع الموثوق، فلا يمكن أحداً استعماله بوجه، إذ هو باضطلاعه وثقته غني عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة، لاقتداره على أكثر من ذلك، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض، لعموم الحاجة إلى الجاه. وأما الصنف الثاني وهو من ليس بمضطلع ولا موثوقٍ، فلا ينبغي لعاقل استعماله، لأنه يجحف بمخدومه في الأمرين معاً، فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارةً، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو على كل حال كل على مولاه. فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما. ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين: موثوق غير مضطلع، ومضطلع غير موثوقٍ. وللناس في الترجيح بينهما مذهبان، ولكل من الترجيحين وجه. إلا أن المضطلع، ولو كان غير موثوقٍ، أرجح لأنه يؤمن من تضييعه، ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة. وأما المضيع ولو كان مأموناً، فضرره بالتضييع أكثر من نفعه. فاعلم ذلك واتخذه قانوناً في الاستكفاء بالخدمة. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

الفصل الرابع

في أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار، يحرصون على استخراج الأموال

من تحت الأرض، ويبتغون الكسب من ذلك. ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض، مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية، لا يفض ختامها ذلك

إلا من عثر علي علمه، واستحضر ما يحفه من البخور والدعاء والقربان. فأهل الأمصار بأفريقية يرون أن الإفرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك، وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها. وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس. ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة، من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال، ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره، فيجدونه خالياً أو معموراً بالديدان. أو يشارف الأموال والجواهر موضوعة، والحرس دونها منتضين سيوفهم. أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفاً أو مثل ذلك من الهذر. ونجد كثيراً من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه، يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشي، أما بخطوطٍ عجمية، أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن، بإعطاء الإمارات عليها في أماكنها، يبتغون بذلك الرزق منهم، بما يبعثونهم على الحفر والطلب، ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا، من منال الحكام والعقوبات. وربما تكون عند

بعضهم نادرةً أو غريبةً من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه، وهو بمعزل عن السحر وطرقه، فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار، والتستر فيه بظلمات الليل، مخافة الرقباء وعيون أهل الدول. فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال، يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم. والذي يحمل على ذلك في الغالب، زيادة على ضعف العقل، إنما

هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة، وعلى غير المجرى الطبيعي، من هذا وأمثاله، عجزاً عن السعي في المكاسب، وركوناً إلى تناول الرزق من غير تعبٍ ولا نصبٍ في تحصيله واكتسابه. ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك، من غير وجهه، في نصبٍ ومتاعبٍ وجهدٍ شديدٍ أشد من الأول، ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات.وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الترف وعوائده، وخروجها عن حد النهاية، حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه، ولا تفي بمطالبها. فإذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعي، لم يجد وليجةً في نفسه، إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة، ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في اشرها، فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده. ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة، ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، مثل مصر وما في معناها. فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله، ومساءلة الركبان عن شواذه، كما يحرصون على الكيمياء. هكذا يبلغنا عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة، لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز، ويزيدون على ذلك البحث عن تغو ير المياه، لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يستر دفيناً أو مختزناً في تلك الآفاق. ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة

في الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل، تستراً بدلك من الكذب، حتى يحصل على معاشه، فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه، كلفاً بشأن السحر متوارثاً في ذلك القطر عن أوليه. فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها. وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بدلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدةً ينسبونها إلى حكماء المشرق، تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعةٍ سحريةٍ حسبما تراه فيها وهي هذه:

يا طالباً للسر في التغوير   إسمع كلام الصدق من خبير

دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم   من قول بهتان ولفظ غرور

واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي   أن كنت ممن لا يرى بالزور

فإذا أردت تغور البئر التي   حارت لها الأوهام في التدبير

صور كصورتك التي أوقفتها   والرأس رأس الشبل في التقوير

ويداه ماسكتان للحبل الذي   في الدلو ينشل من قرار البير

وبصدره هاء كما عاينتها   عدد الطلاق أحذر من التكرير

ويطا على الطاءات غير ملامس   مشي اللبيب الكيس النحرير

يكون حول الكل خط دائر   تربيعه أولى من التكوير

واذبح عليه الطير الطخه به   واقصده عقب الذبح بالتبخير

بالسندروس وباللبان وميعة   والقسط والبسه بثوب حرير

من أحمرٍ أو أصفرٍ لا أزرقٍ لا أخضرٍ فيه ولا تكدير ويشده خيطان صوفٍ أبيضٍ

أو أحمرٍ من خالص التحمير

والطالع الأسد الذي قد بينوا ويكون بدء الشهر غير منير

والبدر متصل بسعد عطاردٍ في يوم سبتٍ ساعة التدبير

يعني أن تكون الطاءات بين قدميه كأنه يمشي عليها وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين، فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة، وتنتهي التخرفة والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذه، ويحفرون بها الحفر ويضعون فيها المطابق والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم، ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف، (ويعثون على كبراء) ذلك المترل وسكناه ويوهمونه أن يه دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته، ويطالبونه بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم، ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر، وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم، يلبسون به عليهم، ليخفي عند محاورتهم فيما يتناولونه، من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك.وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علمٍ ولا خبرٍ.

واعلم أن الكنوز، وأن كانت توجد، لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق، لا على وجه القصد إليها. وليس ذلك بأمر تعم به البلوى، حتى يدخر الناس غالباً أموالهم تحت الأرض، ويختمون عليها بالطلاسم، لا في القديم ولا في الحديث. والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء، وهو دفين الجاهلية، إنما يوجد بالعثور والاتفاق، لا بالقصد والطلب. وأيضاً فمن أختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ في إخفائه، فكيف ينصب عليه الأدلة والإمارات لمن يبتغيه. ويكتب ذلك في الصحائف، حتى يطلع علي ذخيرته أهل الأمصار

والآفاق ؟ هذا يناقض قصد الإخفاء. وأيضاً فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع. ومن أختزن المال فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحدٍ، وإنما هو للبلاء والهلاك، أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه.وأما قولهم: أين أموال الأمم من قبلنا، وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب، مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن. والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها. وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث. وربما أنتقل من قطرٍ إلى قطرٍ ومن دولةٍ إلى أخرى بحسب أغراضه، والعمران الذي يستدعيه. فأن نقص المال في المغرب وأفريقية، فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج، وأن نقص في مصر والشام، فلم ينقص في الهند والصين. وإنما هي الآلات والمكاسب، والعمران يوفرها أو ينقصها، مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات، ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره. وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير، ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت.وأما ما وقع في مصر من أمر

المطالب والكنوز، فسببه أن مصر كانت في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجود هم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ، على مذهب من تقدم من أهل الدول. فلما انقضت دولة القبط، وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه، فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف: كالأهرام من قبور الملوك وغيرها. وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنةً لذلك لهذا العهد. ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات. أما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعيةٍ وتوابيت من

الذهب والفضة معدةٍ لذلك، فصارت قبور القبط منذ آلافٍ من السنين مظنةً لوجود ذلك فيها. فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها، واستخراجها. حتى إنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة، ضربت على أهل المطالب. وصارت ضريبة على من يشتغل بدلك من الحمقى والمهوسين، فوجد بدلك المتعاطون من أهل ا أطماع الذريعة إلى الكشف عنه والذرع باستخراجه. وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم، نعوذ بالله من الخسران، فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس، أو ابتلي به، أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه، كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه و سلم من ذلك، وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه، ولا يشغل نفسه بالمحالات والكاذب من الحكايات. (والله يرزق من يشاء بغير حساب).

الفصل الخامس

في أن الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروةً من فاقد الجاه. والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه. فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته، من ضروري أو حاجيً أو كماليً، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه، وجميع ما شأنه أن تبدل فيه الأعواض من العمل، يستعمل فيها الناس من غير عوضٍ فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه. فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها، فتتوفر عليه. والأعمال لصاحب الجاه كثيرة، فتفيد الغنى لأقرب وقتٍ، ويزداد مع الأيام يساراً وثروةً. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه. وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مالٍ، فلا

يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه، وهؤلاء هم أكثر التجار. ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثيرٍ. ومما يشهد لذلك، أنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة، إذا اشتهروا حسن الظن بهم، واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم، فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم. أسرعت إليهم الثروة واصبحوا مياسير من غير مال مقتنى، إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم. رأينا من ذلك أعداداً في الأمصار والمدن. وفي البدو، يسعى لهم الناس في الفلح

والتجر، وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه، فينمو ماله ويعظم كسبه، ويتأثل الغنى من غير سعي. ويعجب من لا يفطن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره. والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب.

الفصل السادس

في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق

وإن هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سبق لنا فيما سلف أن الكسب الذي يستفيده البشر إنما هو قيم أعمالهم. ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية. وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته. وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه. وقد بيناً أنفاً أن الجاه يفيد المال، لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم، في دفع المضار وجلب المنافع. وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالح. وتصير تلك الأعمال في كسبه، وقيمها أموال وثروة له، فيستفيد الغنى واليسار لأقربٍ وقتٍ. ثم أن الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقةً بعد طبقةٍ

ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفل إلى من لا يملك ضراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه. وبين ذلك طبقات متعددة. حكمة الله في خلقه. بما ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم،لأن النوع الإنساني لما كان لا يتم وجود وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم، لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده. وأنه وأن ندر ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه. ثم أن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع، ولما جعل الله لهم من الاختيار، وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع. وقد يمتنع من المعاونة فيتعين حمله عليها، فلا يد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم، لتتم الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع. وهذا معنى قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 32]. فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم، بالإذن والمنع، والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة، وعلى أغراضه فيما سوى ذلك، ولكن الأول مقصود في العناية الربانية بالذات، والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي. لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير، إلا بوجود شر يسيرٍ من أجل المواد، فلا يفوت الخير بدلك، بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير. وهذا معنى وقوع الظلم في الخليفة فتفهم تم أن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على دونها من الطباق وكل واحدةٍ من الطبقة السفلى يستمد هذا الجاه من أهل الطبقة التي فوقه، ويزداد كسبة تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه. والجاه على ذلك داخل أعلى الناس في جميع أبواب المعاش، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور

الذي فيه صاحبه. فإن كان الجاه متسعاً كأن الكسب الناشئ عنه كذلك، وأن كان ضيقاً وقليلاً فمثله. وفاقد الجاه وأن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله وعلى نسبة سعيه ذاهباً وآيباً في تنميته كأكثر التجار. وأهل الفلاحة في الغالب، وأهل الصنائع كذلك، إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم، فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر، ولا تسرع إليهم ثروة. وإنما يرمقون العيش ترميقاً ويدفعون ضرورة الفقر مدافعة. وإذا تقرر ذلك، وأن الجاه متفرع، وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله، علمت أن بدله وأفادته من أعظم النعم واجلها، وأن باذله من اجل المنعمين. وإنما يبدله لمن تحت يديه، فيكون بدله بيد عالية وعن عزة، فيحتاج طالبة ومبتغيه إلى خضوع وتملق، كما يسأل أهل العز والملوك، وإلا فيتعذر حصوله. فلذلك قلنا أن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب، وأن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا الخفق. ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم، لا يحصل لهم غرض من الجاه، فيقتصرون في التكسب على أعمالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة، إنما يحصل من توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر في علمه، أو الكاتب المجيد في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره. وكل محسنٍ في صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده، فيحدث له ترفع عليهم بدلك، وكذا يتوهم أهل الأنساب، ممن كان في آبائه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور يعبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم. فهم متمسكون في الحاضر بالأمر المعدوم إذ الكمال لا يورث وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور، قد يتوهم بعضهم كمالاً في نفسه بدلك واحتياجاً إليه وتجد هؤلاء

الأصناف كفهم مترفعين، لا يخضعون لصاحب الجاه، ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم. ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس، فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك، ويعده مذلةً وهواناً وسفهاً. ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه، ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهم من ذلك. وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه، ويستمر في عناء عظيم من أيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من ذلك. ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله. وقل أن يسلم أحدٍ منهم لأحد في الكمال والترفع عليه، إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة. وهذا كله في ضمن الجاه. فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه، وهو مفقود له كما تبين لك، مقته الناس بهذا الترفع و لم يحصل له حظ من إحسانهم. وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه، لأجل المقت وما يحصل له بدلك من القعود من تعاهدهم وغشيان منازلهم، ففسد معاشه، وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل. وأما الثروة فلا تحصل له أصلاً. ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ، وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ، وهذا معناه. ومن خلق لشيء يسر له. والله المقدر، لا رب سواه.ولقد يقع في الدول أضراب في المراتب من أهل هذا الخلق، ويرتفع فيها كثير من السفلة، ويتزل كثير من العلية بسبب ذلك. وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء أنفرد منها منبت الملك بملكهم

وسلطانهم، ويئس من سواهم من ذلك. وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان، وكأنهم خول له. فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك، تساوى حينئذٍ في المترلة عند السلطان كل من انتمي إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحته، واصطنعه السلطان لغنائه في كثير من مهماته.

فتجد كثيراً من السوقة يسعى في التقرب من السلطان بجده ونصحه، ويتزلف إليه بوجوه خدمته، ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه. حتى يرسخ قدمه معهم، وينظمه السلطان في جملته، فيحصل له بدلك حظ عظيم من السعادة، وينتظم في عدد أهل الدولة. وناشئة الدولة حينئذٍ من أبناء قومها الذين ذللوا صعاها ومهدوا أكنافها مغترين بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار، وتشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره، ويجرون في مضمار الدالة بسببه، فيمقتهم السلطان لذلك ويباعد هم. ويميل إلى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم، ولا يذهبون إلى دائه ولا ترفع. إنما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتمال في غرضه، متى ذهب إليه، فيتسع جاههم وتعلو منازلهم، وتنصرف إليهم الوجوه. والخواص بما يحصل لهم من ميل السلطان والمكانة عنده. ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم، لا يزيدهم ذلك إلا بعداً من السلطان ومقتاً وإيثاراً لهؤلاء المصطنعين عليهم، إلى أن تنقرض الدولة. وهذا أمر طبيعي في الدول. ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق، لا رب سواه.

الفصل السابع

في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

والسبب في ذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الأعمال، وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها. فإذا كانت الأعمال ضروريةً في العمران عامة البلوى فيه، كانت قيمتها أعظم

وكانت الحاجة إليها أشد. وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص مضن أقبل على دينه. وأن احتيج إلى الفتيا والقضاء فم الخصومات، فليس على وجه الاضطرار والعموم، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر. وإنما يهتم بهم وبإقامة مراسمهم صاحب الدولة، بما له من النظر في المصالح فيقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قررناه. لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع الضرورية، وأن كانت بضاعتهم أشرف من حيث الدين والمراسم الشرعية، لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران، فلا يصح في قسمتهم إلا القليل. وهم أيضاً لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه، حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والتدبر. بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم، فهم بمعزل عن ذلك. فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب. ولقد باحثت بعض الفضلاء فأنكر ذلك علي، فوقع بيدي أوراق مخرقة من حسابات الدواوين يدار المأمون، تشتمل على كثير من الدخل والخرج يومئذٍ. وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين

فوقفته عليه. وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه. وقضينا العجب من أسرار الله في خليقته، وحكمته في عوالمه. والله الخالق القادر، لا رب سواه.

الفصل الثامن

في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه. ولذلك لا تجده ينتحله أحد

من أهل الحضر في الغالب، ولا من المترفين. ويختص منتحله بالمذلة. قال صلى الله عليه و سلم ، وقد رأى السكة ببعض دور الأنصار: " ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل ". وحمله البخاري على الاستكثار منه. وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو تجاوز الحد الذي أمر به. والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية، فيكون الغارم ذليلاً بائساً، بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة. قال صلى الله عليه و سلم : " لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً " إشارة إلى الملك العضوض، القاهر للناس، الذي معه التسلط والجوز، ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات، واعتبار الحقوق كلها مغرما للملوك والدول. والله قادر على ما يشاء. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

الفصل التاسع

في مثني التجارة ومذاهبها وأصنافها

إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال، بشراء السلع بالرخص، وبيعها بالغلاء، أيا ما كانت السلعة، من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش. وذلك القدر النامي يسمى ربحاً. فالمحاول لذلك الربح: أما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء، فيعظم ربحه، وأما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه، فيعظم ربحه. ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار، لطالب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا اعلمها لك في كلمتين، اشتراء الرخيص وبيع الغالي. فقد حصلت التجارة إشارة منه بدلك إلى المعنى الذي قررناه. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق، لا رب سواه.

الفصل العاشر

في أي أصناف الناس ينتفع بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها

قد تقدم لنا أن معنى التجارة تنمية المال، بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء. أما بانتظار حوالة الأسواق، أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى؛ أو بيعها بالغلاء على الآجال. وهذا الربح بالنسبة إلى اصل المال نزر يسير، لأن المال أن كان كثيراً عظم الربح، لأن القليل في الكثير كثير. ثم لا بد في محاولة هذه التنمية الذي هو الربح من حصول هذا المال بأيدي الباعة، في شراء البضائع وبيعها، ومعاملتهم في تقاضي أثمانها. وأهل النصفة قليل، فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع، ومن المطل في الأثمان المجحف بالربح. كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نماؤه. ومن الجحود والإنكار المسحت لرأس المال، أن لم يتقيد بالكتاب والشهادة. وغناء الحكام في ذلك قليل، لأن الحكم إنما هو على الظاهر، فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة.

ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة، أو لا يحصل، أو يتلاشى راس ماله. فأن كان جريئاً على الخصومة، بصيراً بالحسبان، شديد المماحكة، مقداماً على الحكام، كان ذلك أقرب له إلى النصفة منهم بجراءته، ومماحكته، وإلا فلا بد له من جاه يدرع به، فيوقع له الهيبة عند الباعة، ويحمل الحكام على أنصافه من معاملية، فيحصل له بدلك النصفة واستخلاص ماله منهم، طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني.

وأما من كان فاقدا للجراءة والإقدام من نفسه، وفاقد الجاه من الحكام، فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة، لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب، ويصيره مأكله للباعة، ولا يكاد ينتصف منهم، [لأن الغالب في الناس

وخصوصاً الرعاع والباعة، شرهون إلى ما في أيدي الناس سواهم، متوثبون عليه. ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهباً]. {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: 251].

الفصل الحادي عشر

في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء، ولا يد فيه من المكايسة ضرورة. فأن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها، وهي أعني خلق المكايسة، بعيدة عن المروءة، التي تتخلق بها الملوك والأشراف. وأما أن استرذل خلقة بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم، من المماحكة والغش والخلابة وتعاهد الإيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولاً، فأجدر بدلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف. ولذلك تجد أهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة، لأجل ما يكسب من هذا الخلق. وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه، لشرف نفسه وكرم جلاله، إلا أنه في النادر بين الوجود. والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه، وهو رب الأولين والآخرين.

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة، لا ينقل من السلع، إلا ما تعم الحاجة إليه، من الغني والفقير والسلطان والسوقة، إذ في ذلك نفاق سلعته. وأما إذا أخص نقله بما يحتاج

إليه البعض فقط، فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذٍ، بإعواز الشراء من ذلك البعض، لعارض من العوارض، فتكسد سوقه وتفسد أرباحه. وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فإنما ينقل الوسط من صنفها، فأن الغالي من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة، وهم الأقل. وإنما يكون الناس أسوةً في الحاجة إلى الوسط من كل صنف، فليتحر ذلك جهده، ففيه نفاق سلعته أو كسادها. وكذلك نقل السلع في البلد البعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات، يكون أكثر فائدةً للتجار وأعظم أرباحاً وأكفل بحوالة الأسواق. لأن السلع المنقولة حينئذٍ تكون قليلة معوزة، لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها، فيقل حاملوها ويعز وجودها.

وإذا قلت وعزت غلت أثمانها. وأما إذا كان البلد قريب المسافة، والطريق سابل بالأمن، فإنه حينئذٍ يكثر ناقلوها، فتكثر وترخص أثمانها. ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالاً، لبعد طريقهم ومشقته، واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش. لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة، يهتدي إليها أدلاء الركبان، فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس. فتجد سلع بلاد السودان قلية لدينا، فتختص بالغلاء، وكذلك سلعنا لديهم. فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق، لبعد الشقة أيضاً. وأما المترددون في أفقٍ واحدٍ، ما بين أمصاره وبلدانه، ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة، لكثرة السلع وكثرة ناقليها. و(الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأمصار، أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤم. وأنه يعود على فائدته، بالتلف والخسران. وسببه، والله أعلم

أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبدلون فيها من المال اضطراراً، فتبقى النفوس متعلقة به. وفي تعلق النفوس بمالها سر كبير في وباله على من يأخذه مجاناً. ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل. وهذا وأن لم يكن مجاناً فالنفوس متعلقة به، لإعطائه ضرورة من غير سعةٍ في العذر فهو كالمكره. وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس إليها، وإنما يبعثهم عليها التفنن في الشهوات، فلا يبدلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص. ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه. فلهذا يكون من عرف بالاحتكار، تجتمع القوى النفسانية على متابعته، لما يأخذه من أموالهم، فيفسد ربحه. والله تعالى أعلم.وسمعت فيما يناسب هذا، حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب. أخبرني شيخنا أبو عبد الله الآبلي قال: حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد، وهو الفقيه أبو الحسن المليلي ، وقد غرض عليه أن يختار بعض الألقاب المخزنية لجرايته قال، فاطرق ملياً، ثم قال لهم: من مكس الخمر. فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا، وسألوه عن حكمة ذلك. فقال: إذا كانت الجبايات كلها حراماً،،فأختار منها ما لا تتابعه نفس معطيه. والخمر قل أن يبدل فيها أحد ماله، إلا وهو طرب مسرور بوجدانه، غير أسف عليه، ولا متعلقةٍ به نفسه. وهذه ملاحظة غريبة. والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور.

الفصل الرابع عشر

في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص

وذلك أن الكسب والمعاش، كما قدمناه، إنما هو بالصنائع أو التجارة. والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها. يتحين بها حوالة الأسواق بالزيادة

في أثمانها، ويسمي ربحاً. ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً. فإذا استديم الرخص في سلعة، أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة، و لم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فيه فسد الربح والنماء بطول تلك المدة، وكسدت سوق ذلك الصنف، و لم يحصل التاجر إلا على العناد، فقعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤوس أموا لهم.واعتبر ذلك أولا بالزرع، فأنه إذا استديم رخصه كيف تفسد أحوال المحترفين به،بسائر أطواره، من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه، وندارته أو فقده. فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قفة، ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم، وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.
ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز، وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرف من لدن زراعته إلى صيرورته مأكولاً.وكذا يفسد حال الجند، إذا كانت أرزاقهم من السلطان عند أهل الفلح زرعاً،فإنها تقل جبايتهم من ذلك، ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها ويرتزقون من السلطان عليها، ويقطع عنهم الرزق، فتفسد أحوالهم. وكذا إذا استديم الرخص في العسل والسكر، فسد جميع ما يتعلق به، وقعد المحترفون به عن التجارة فيه. وكذا حال الملبوسات إذا استديم فيها الرخص أيضاً. فإذا الرخص المفرط مجحف بمعاش المحترفين بدلك الصنف الرخيص، وكذا الغلاء المفرط أيضاً. وربما يكون في النادر سبباً لنماء المال بسبب احتكاره وعظم فائدته. وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق، وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران. وإنما يحمد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه، واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير. والعالة من الخلق هم الأكثر في العمران، فيعم الرفق بدلك، ويرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص. و (الله هو الرزاق ذو القوة المتين). والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم.

الفصل الخامس عشر

في أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولا بد في ذلك من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج ، وهم عوارض هذه الحرفة. وهذه الأوصاف تعلق من الذكاء والمروءة وتجرح فيها، لأن الأفعال لا يد من عود آثارها على النفس. فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك، فتتمكن وترسخ أن سبقت وتكررت. وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها، بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس، شأن الملكات الناشئة عن الأفعال. وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم. فمن كان منهم سافل الطور، مخالفاً لشرار الباعة، أهل الغش والخلابة والخديعة والفجور في الأيمان على البياعات والأثمان إقراراً وإنكاراً ، كانت رداءة تلك الخلق عنده أشد، وغلبت عليه السفسفة ، وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة. وإلا فلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة في مروءته. وفقدان ذلك فيهم في الجملة. ووجود الصنف الثاني منهم، الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم يدرعون بالجاه، ويعوض لهم من مباشرة ذلك، فيهم نادر وأقل من النادر. وذلك أن يكون المال قد توفر عنده

دفعة بنوع غريب، أو ورثه عن أحدٍ من أهل بيته، فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة، وتكسبه ظهوراً وشهرةً بين أهل عصره، فيترفع عن مباشرة ذلك بنفسه، ويدفعه إلى من يقوم له به من ولائه وحشمه. ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره

وإتحافه، فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر. فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن المحرجات، إلا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب، فإنهم يضطرون إلى مشارفة أحوال أولئك الوكلاء ووفاقهم، أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك، إلا أنه قليل، ولا يكاد يظهر أثرة. (والله خلقكم وما تعملون).

الفصل السادس عشر

في أن الصنائع لا بد لها من العلم

إعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة، نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعلى وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته. وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم. فالملكة الحاصلة عنه اكمل وارسخ من الملكة الحاصلة على الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته. ثم أن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكماليات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط، لبساطته أولا، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله، فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصاً. ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل، بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج، حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال، إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة، لا سيما في الأمور الصناعية. فلا بد له إذن من زمان. ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصةً، ولا يوجد منها

إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع، خرجت من القوة إلى الفعل.وتنقسم الصنائع أيضاً: إلى ما يختص بأمر المعاش، ضرورياً كان أو غير ضروري، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان، من العلوم والصنائع والسياسة. ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها. ومن الثاني الوراقة، وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك. ومن الثالث الجندية وأمثالها. والله أعلم.

الفصل السابع عشر

في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك أن الناس، وما لم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش، وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها. فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري

وزادت عليه، صرف الزائد حينئذٍ إلى الكمالات من المعاش. ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية، فهو مقدم لضرورته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري. وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذٍ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة. وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط، خاصة المستعمل في الضروريات من نجارٍ أو حدادٍ أو خياطٍ أو حائكٍ أو جزارٍ. وإذا وجدت هذه بعد، فلا توجد فيه كاملةً ولا مستجادةً. وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة، إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودةً لذاتها. وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع

أخرى معها، مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله، من جزارٍ ودباغٍ و خرازٍ وصائغٍ وأمثال ذلك. وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد فيها كثير من الكمالات، ويتأنق فيها في الغاية، وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها. بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال، لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسفاج والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع، ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها، فأن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك. وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد، كما بلغنا عن أهل مصر، أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الإنسية، ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة، وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب. لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة. أدام الله عمرانها بالمسلمين. والله الحكيم العليم.

الفصل الثامن عشر

في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمده

والسبب في ذلك ظاهر، وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والأوان. والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال. وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها. ولهذا فأنا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة، لما تراجع عمرانها وتناقص، بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في

غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة. وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها، وهذه لم تبلغ بعد. وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمةً وأحوالها مستحكمةً راسخةً في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين، وإقامة

الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده. فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها. وتجد صنائعها مستحكمة لديهم، فهم على حصة موفورةٍ من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار. وإن كان عمرانها قد تناقص، والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدوة. وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط، وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جراً. فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر، إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً، لطول أمال الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق. وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران، لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية، حال الصبغ إذا رسخ في الثوب. وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال، وإن كان ذلك دون الأندلس. إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما، وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنةٍ. وربما سكن أهلها هنالك عصوراً، فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه، ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة. ورسخ فيها من ذلك أحوال، وإن

كان عمرانها ليس بمناسبٍ لذلك لهذا العهد. إلا أن الصبغة إذا استحكمت، فقليلاً ما تحول إلا بزوال محلها. وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك، وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب. ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس، فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها، كأثر الخط الممحو في الكتاب. (والله الخلاق العليم).

الفصل التاسع عشر

في أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها

والسبب في ذلك ظاهر، وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجاناً، لأنه كسبه

ومنه معاشه. إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه، فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع. وأن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها النفاق كانت حينئذٍ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع، فيجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها، ولا يوجه قصد إلى تعلمها، فاختصت بالترك وفقدت للإهمال. ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه: "قيمة كل امرئ ما يحسن ". بمعنى أن صناعته هي قيمته، أي قيمة عمله الذي هو معاشه. وأيضاٍ فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة، فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها. وما لم تطلبه الدولة، وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر، فليس على نسبتها، لأن الدولة هي السوق الأعظم، وفيها نفاق كل شيء، والقليل والكثير فيها على نسبةٍ واحدةٍ. فما نفق فيها كان أكثرياً ضرورةً. والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعائم ولا سوقهم بنافقةٍ. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

الفصل العشرون

في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بيناه من أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طالبها. فإذا ضعفت أحوال المصر، وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقفة ساكنه تناقص فيه الترف، ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف. لأن صاحبها حينئذٍ لا يصح له بها معاشه، فيفر إلى غيرها، أو يموت، ولا يكون خلص منه، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة، كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصناع لحاجات الترف. ولا تزال الصناعات في التناقص ما زال المصر في التناقص، إلى أن تضمحل. والله الخلاق العليم، سبحانه وتعالى.

الفصل الحادي والعشرون

في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري، وما يدعو إليه

من الصنائع وغيرها. والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها، لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه. حتى أن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر، والأعراق في البدو، مفقودة لديهم بالجملة، ومفقودة مراعيها، والرمال المهيئة لنتاجها. ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة، حتى تجلب إليه من قطرٍ آخر. وأنظر بلاد العجم، من الصين والهند وأرض الترك وأمم

النصرانية، كيف استكثرت فيهم الصنائع، واستجلبها الأمم من عندهم.وعجم المغرب من البربر، مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين. ويشهد لك بدلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه. فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة، إلا ما كان من صناعة الصوف في نسجه، والجلد في خرزه ودبغه. فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ، لعموم البلوى بها، وكون هذين أغلب السلع في قطرهم، لما هم عليه من حال البداوة. وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني إسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولةً، فرسخت فيهم أحوال الحضارة، ومن جملتها الصنائع كما قدمناه، فلم يمح رسمها. وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة، وأن ملكه العرب، إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين في أمم كثيرة منهم، واختطوا أمصاره ومدنه، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف. مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت، فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه. فبقيت مستجدةً حتى الآن. واختصت بدلك للوطن، كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير ا لوارثين.

الفصل الثاني والعشرون

في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها في ملكة أخري

ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها، ورسخت في نفسه، فلا يجيد

من بعدها ملكة النجارة أو البناء، إلا أن تكون الأولي لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها. والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان، فلا تزدحم

دفعةً. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن أستعدادا لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى اضعف. وهذا بين يشهد له الوجود. فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها، ثم يحكم من بعدها أخرى، ويكون فيهما معاً على رتبةٍ واحدةٍ من الإجادة. حتى أن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علمٍ من العلوم وأجادها في الغاية، فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته، بل يكون مقصراً فيه أن طلبه، إلا في الأقل النادر من الأحوال. ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة في النفس. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق، لا رب سواه.

الفصل الثالث والعشرون

في الإشارة إلى أمهات الصنائع

إعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة، لكثرة الأعمال المتداولة في العمران. فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد. إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع، فنخصها بالذكر ونترك ما سواها: فأما الضروري فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب. فأما التوليد فإنها ضرورية في العمران وعامة البلوى، إذ بها تحصل حياة المولود ويتم غالباً وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهاتهم. وأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه، ويتفرع عن علم الطبيعة، وموضوعه مع ذلك يدن الإنسان. وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة، فهي حافظة علي الإنسان حاجته ومقيدة لها

عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني. وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع. وكل هذه الصنائع الثلاث داع إلى مخالطة الملوك الأعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم، فلها بذلك شرف ليس لغيرها. وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب. وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي. والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب، بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه في غلافه وأحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه، ودواعيه. وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً، إذ يمكن وجوده من

دون جميع الأشياء إلا من دون القوت. ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو. إذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه، فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية، لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها، لأن أحوالهم كلها ثانية عن البداوة، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها. والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد.

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في

اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للأبدان في المدن. وذلك أن الإنسان لما

جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله، لا بد له أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها . والبشر مختلفون في هذه الجبلة الفكرية التي هي معنى الإنسانية، فالمقيدون فيها، ولو على التفاوت، يتخذون ذلك باعتدال، كأهل الإقليم الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس [وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك، لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية، فيبادرون للغير أن والكهوف المعدة من غير علاج]. ثم المعتدلون والمتخذون البيوت للمأوى قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم في البسيط الواحد، بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشى من طروق بعضهم بعضاً بياتاً، فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة سياج الأسوار التي تحوطهم. ويصير جميعاً مدينةً واحدةً ومصراً واحداً يحوطهم فيها الحكام بدفاع بعضهم عن بعض. وقد يحتاجون إلى الاعتصام من العدو ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم. وهؤلاء مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبار القبائل. ثم يختلف أحوال البناء في المدن، كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه، ويناسب مزاج أهوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر. وكذا حال أهل المدينة الواحدة. فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور

والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه، ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس، ويعالي عليها بالأصبغة والجص، ويبالغ في كل ذلك بالتنجيد والتنميق، إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن

المأوى. ويهيئُ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان أقواته، والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التاج والحاشية، كالأمراء ومن في معناهم. ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك، لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر. وبين ذلك مراتب غير

منحصر،وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة، ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الأحكام لتبلغ الصناعة مبالغها. وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك كله. وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه، إذ الأقاليم

المنحرفة لا بناء فيها. وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين أو يأوون إلى الكهوف والغير أن. وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون: فمنهم البصير الماهر، ومنهم القاصر. ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة: فمنها البناء بالحجارة المنجدة أو بالأجر، يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها

فيلتحم كأنها جسم وأحد، ومنها البناء بالتراب خاصة تقام منه حيطان بأن يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير. وأوسطه أربع أذرع، في ذراعين فينصبان على أساس، وقد بوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، وبوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدل. ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين، ثم يوضع فيه التراب مخلطاً بالكلس، ويركز بالمراكز المعدة لذلك، حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه بالكلس

. ثم يزاد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً. ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الأولى، ويركز كذلك إلى أن يتم وتنتظم الألواح كلها سطراً فوق سطر، إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحماً، كأنه قطعة واحدة، ويسمى الطابية وصانعه الطواب. ومن صنائع البناء أيضاً أن تجلل الحيطان بالكلس، بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين، على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للألحام. فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط، وذلك إلى أن يلتحم.ومن صنائع البناء عمل السقف بأن تمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت، ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالدسائر، ويصب عليها التراب والكلس، ويبلط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما عولي على الحائط. ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين، كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء، ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل، فيشكل على التناسب تخريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورؤاء وربما عولي على الحيطان أيضاً بقطع الرخام أو الأجر أو الخزف أو بالصدف أو السبج، يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة، وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم، يبدو به الحائط للعيان، كأنه قطع الرياض المنمنمة. إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسفح الماء، بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخرط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري إلى الصهريج، يجلب إليها من خارج في القنوات المفضية به إلى البيوت. وأمثال ذلك من أنواع البناء.وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر، ويعظم عمران

المدينة ويتسع فيكثرون. وربما يرجع الحكام إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء. وذلك أن الناس في المدن الكثيرة الازدحام والعمران، يتشاحون حتى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل، في الانتفاع بظاهر البناء، مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان. فيمنع جارة من ذلك، إلا ما كان له فيه حق. ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ، للمياه الجارية، والفضلات المسربة في القنوات. وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجوار، أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه وخشية سقوطه، ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره، عند من يراه، أو يحتاج إلى قسمة دار أو عرضة بين شريكين، بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال لمنفعتها. وأمثال ذلك. ويخفي جميع ذلك إلا على أهل البصر بالبناء العارفين بأحواله، المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها، وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت

والحيطان وغير ذلك. فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم. وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول وقوتها.فإنا قدمنا إن الصنائع، وكمالها إنما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها. فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها. كما وقع للوليد بن عبد الملك، حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام، فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء، فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد.وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة، مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع

وأمثال ذلك، فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله. وكذلك في جر الأثقال بالهندام، فأن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة تعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط، فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل، بإدخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب هندسية، تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفاً وتسمى آلة لذلك بالمخال، فيتم المراد من ذلك بغير كلفةٍ. وهذا إنما يتم بأصول هندسيةٍ معروفةٍ، متداولةٍ بين البشر. وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد، التي يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية. وأن أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني، وليس كذلك، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه. فتفهم ذلك. والله يخلق ما يشاء سبحانه.

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب. وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي بني كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته، أو حاجاته، وكان منها الشجر، فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحدٍ. ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا يبست. وأول منافع الخشب أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم، وعصياً للاتكاء والذود، وغيرهما من ضروريا تهم، ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم. ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر. فأما أهل البدو، فيتخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم، والحدوج لظعائنهم، والرماح والقسي والسهام لسلاحهم. وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم. وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة.والصناعة المتكفلة بذلك، المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة علي اختلاف رتبها. فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً: أما بخشب أصغر منه، أو ألواح.

ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة. فهو في كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالانتظام، إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص. والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران. ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف، من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون، حدث التأنق في صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية، ليست من الضروري في شيء. مثل التخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم

بريها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدرة، وتلحم بالدسائر فتبدو لمرأى العين ملتحمة، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب. يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجيء أنق ما يكون. وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب، من أي نوع كان.وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسر، وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله، ليكون ذلك الشكل أعون لها على مصادمة الماء، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح. وربما أعينت بحركة المجاديف كما في الأساطيل. وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع أصنافها، لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الأحكام، محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير، أما عموماً أو خصوصاً. وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس.ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة، فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف. وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم. وفيما يقال: أن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام، وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان. وهذا الخبر وأن كان

ممكناً أعني كونه نجاراً، إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد. وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة لأنه لم تصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام، فجعل كأنه أول من تعلمها. فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

إعلم أن المعتدلين من بشر في معنى الإنسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء كالفكر في الكن. ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد. ولا بد لذلك من إلحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً، وهو النسج والحياكة. فإن كانوا بادية اقتصروا عليه وأن مالوا إلى الحضارة فصلوا تلك المنسوجة قطعاً يقدرون منها ثوباً على البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيها. ثم يلائمون ين تلك القطع بالوصائل حتى تصير ثوباً واحداً على البدن ويلبسونها. والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة هي الخياطة.

وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران، لما يحتاج إليه البشر من الرفه. فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداءً في الطول وإلحاماً في العرض وأحكاماً لذلك النسج بالالتحام الشديد، فيتم منها قطع مقدرة: فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس. والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد، تفضل أولا بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاًو حبكاً أو تنبيتاً أو تفتيحاً على حسب نوع الصناعة.وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً. وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها. وتفهم هذا في سر تحريم المخيط في الحج، لما

أن مشروعية الحج مشتملة على نبد العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى. (كما خلقنا أول مرةٍ). حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه، لا طيباً ولا نساءً ولا مخيطاً ولا خفاً، ولا يتعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تكونت بها نفسه وخلقه، مع أنه يفقدها بالموت ضرورة. وإنما يجيء كأنه وارد على المحشر ضارعاً بقلبه مخلصاً لربه، وكان جزاؤه أن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك. وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل. وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء. ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب. ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام، وهو أقدم الأنبياء. وربما ينسبونها إلى هرمس، وقد يقال: أن هرمس هو إدريس. والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم.

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه، من الرفق في إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك. ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر. وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر، لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض. وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة. استعير فيها معنى الإعطاء

والقبول، كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله. وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته، والمدة التي قدر الله لمكثه، وهي تسعة أشهر في الغالب، فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك، ويضيق عليه المنفذ فيعسر. وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط، وربما أنقطع بعض ما كان في الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم. وهذه كلها إلام يشتد لها الوجع، وهو معنى الطلق، فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الأسافل، تساوق بدلك فعل الدافعة في إخراج الجنين، وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها، وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسرهٍ. ثم إذا خرج الجنين بقيت بينة وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه. وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة، فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضيلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه، ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجوه الاندمال. ثم أن الجنين عند خروجه من ذلك المنفذ الضيق، وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء، فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد، فتتناوله القابلة بالغمز والإصلاح، حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له، ويرتد خلقه سوياً. ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين، لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلاً. ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية، وهي فضلات، فتتعفن ويسري عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك، فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن تخرج

تلك الأغشية أن كانت قد تأخرت، ثم ترجع إلى المولود فتمرخ أعضاءه بالأدهان والذرورات القابضة، لتشده، وتجفف رطوبات الرحم، وتحنكه لرفع لهاته، وتسعطه لاستفراغ نطوف دماغه، وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن

الالتصاق. ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق، وما لحق رحمها من ألم الانفصال، إذ المولود وأن لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل، فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع. وتداوي مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم، من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج. وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها. وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر. وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن أنسأني بالقوة فقط. فإذا جاوز الفصال صار بدناً إنسانياً بالفعل، فكانت حاجته حينئذٍ إلى الطبيب أشد. فهذه الصناعة- كما تراه- ضرورية في العمران للنوع الإنساني، لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها.وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة: أما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقاً للعادة، كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أو بإلهام وهداية، يلهم لها المولود ويفطر عليها، فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة. فأما شأن المعجزة من ذلك، فقد وقع كثيراً. ومنه ما روي أن النبي صلى الله عليه و سلم ولد مسروراً مختوناً، واضعاً يديه على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء. وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك. وأما شأن الإلهام فلا ينكر. وإذا كانت الحيوانات العجم تختص بغرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها، فما ظنك بالإنسان المفضل عليها. وخصوصاً من اختص بكرامة الله.ثم الإلهام العام للمولودين في الإقبال على الثدي أوضح شاهد على وجود الإلهام العائم لهم. فشأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به. ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحكماء الأندلس، فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع، واستحالة انقطاع المكونات. وخصوصاً في النوع الإنساني. وقالوا: لو انقطعت أشخاص لاستحال وجودها بعد ذلك، لتوقفه على وجود هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها. إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين

الفصال لم يتم بقاؤه أصلاً. ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته وتابعة له. وتكفف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه، وذهابه إلى إمكان انقطاع الأنواع، وخراب عالم التكوين، ثم عوده ثانياً

لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبةً تندر في الأحقاب بزعمه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة، فيتم كونه أنساناً. ثم يقيض له حيوان يخلق فيه إلهاماً لتربيته والحنو عليه، إلى أن يتم وجوده وفصاله. وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان. وهذا الاستدلال غير صحيح، وأن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع، لكن من غير ما استدل به. فأن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العفة الموجبة. ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه، ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة، ولا حاجة إلى هذا التكلف ثم لو سلمناه جدلاً، فغاية ما ينبني عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان

الأ عجم. وما الضرورة الداعية لذلك، وإذا كان الإلهام يخلق في الحيوان الأعجم، فما المانع من خلقه للمولود نفسه، كما قررناه أولاً. وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره، فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررته لك. والله تعالى أعلم.

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها، فأن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة، حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم. واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية، كما قال صلى الله عليه و سلم في الحديث الجامع للطب كما ينقل بين أهل الصناعة، وأن طعن فيه العلماء، وهو قوله: " المعدة بيت الداء والحمية

رأس الدواء، واصل كل داء البردة ". فأما قوله: المعدة بيت الداء، فهو ظاهر، وأما قوله الحمية رأس الدواء، فالحمية الجوع وهو الاحتماء عن الطعام. والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية، وأما قوله: أصل كل داء البردة، فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة، قبل أن يتم هضم الأول. وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل، وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم. ثم تأخذه النامية فينقلب لحماً وعظماً. ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من البدن. وتفسيره أن الغذاء، إذا حصل في الفم ولاكته الأشداق، أثرت فيه حرارة الفم طبخاً يسيراً، وقلبت مزاجه بعض الشيء، كما تراه في اللقمة إذا تناولتها طعاماً، ثم أجدتها مضغاً، فترى مزاجها غير مزاج الطعام. ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوخ، وترسله إلى الكيد وترسل ما رسب منه في المعى ثفلاً، ثم ينفذ إلى المخرجين. ثم تطبخ حرارة الكيد ذلك الكيموس إلى أن يصير دما عبيطاً وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء. وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء، ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم. ثم ترسلها الكيد كلها في العروق والجداول، ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك، فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني. وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لحماً، ثم غليظه عظاماً. ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحماً.ثم أن اصل الأمراض ومعظمها هي الحميات. وسببها أن الحار الغريزي قد يضعف عن إتمام النضج في طبخه في كل طور من

هذه، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج. وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة، حتى يكون أغلب على الحار الغريزي، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول، فيشتغل به الحار الغريزي ويترك الأول بحاله. أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج. وترسله المعدة كذلك إلى الكبد، فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه. وربما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة. وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير

ناضج كما هو. فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب أن اقتدر على ذلك. وربما يعجز عن الكثير منه، فيبقى في العروق والكبد والمجدة، وتتزايد مع الأيام. وكل ذي رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط. وكل متعفن ففيه حرارة غريبة، وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحمى.اعتبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل إذا تعفن أيضاً، كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض، وأصلها كما وقع في الحديث. ولهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم تناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه. وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره، وأصله كما وقع في الحديث. وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص، فيتولد عنه مرض في ذلك العضو، أو تحدث جراحات في البدن: أما في الأعضاء الرئيسة، أو في غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له. هذه كلها جماع الأمراض، وأصلها في الغالب من الأغذية، وهذا كله مرفوع إلى الطبيب.ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر، لخصب عيشهم، وكثرة مآكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحدٍ من الأغذية، وعدم توقيتهم

لتناولها. وكثيراً ما يخلطونَ بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه، رطباً ويابساً، في سبيل العلاج بالطبخ، ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع. فربما عددنا في اللون الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من النبات والحيوان، فيصير للغذاء مزاج غريب. وربما يكون بعيداً عن ملاءمة البدن وأجزائه. ثم أن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات. والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها لأثر الحار الغريزي فم الهضم. ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار، إذ هم في الغالب وادعون ساكنون، لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً، ولا تؤثر فيهم أثراً، فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.وأما أهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عليهم لقفة الحبوب،حتى صار لهم ذلك عادة. وربما يظن أنها جبلة لاستمرارها. ثم الأدم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعبدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن. وأما أهويتهم فقليلة العفن، لقلة الرطوبات والعفونات ، أن كانوا آهلين، أو لاختلاف الأهوية أن كانوا ظواعن.ثم أن الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات أو مهنة أنفسهم في حاجاتهم، فيحسن بدلك كله الهضم ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام. فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد عن الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه. وما ذاك إلا للاستغناء عنه، إذ لو احتيج إليه لوجد. لأنه يكون له بدلك في البدو معاش يدعوه إلى سكناه. (سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً).

الفصل الثلاثون

في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس.فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية، وهو صناعة شريفة، إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان. وأيضاً فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقضى الحاجات، وقد دفعت مؤنة المباشرة لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه في علومهم وأخبارهم، فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع. وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم، وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك، تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع. وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران، ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون ، ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً وقراءته غير نافذة. ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً، لاستحكام الصنعة فيها. كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم، وتأتي ملكته على أتم الوجوه.وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال.وليس الشأن في تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده، على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم، وإنما يتعلم بمحاكاة الخط من كتابة الكلمات جملة. ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له، إلى أن يحصل له الإجادة ويتمكن في بنانه الملكة، فيسمى مجيداً. وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الأحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحميري. وأنتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية، والمجددين لفلك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط

عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة، لقصور ما بين الدولتين. فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهلى الطائف وقريش فيما ذكر. ويقال: أن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية وبقال حرب بن أمية، وأخذها من أسلم بن سدرة. وهو قول ممكن، وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من أياد أهل العراق لقول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق، إذا ساروا جميعاً، والخط والقلم

وهو قول بعيد، لأن إياداً ، وأن نزلوا ساحة العراق، فلم يزالوا على شأنهم من البداوة. والخط من الصنائع الحضرية. وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب، لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها، فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة، ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال. ورأيت في كتاب التكملة لابن الأبار ، عند التعريف بابن فروخ القيرواني الفاسي الأندلسي، من أصحاب مالك رضي الله عنه، وأسمه عبد الله بن فروخ بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن أبيه قال: قلت لعبد الله بن عباس: يا معشر قريش خبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه و سلم ، تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق، مثل الألف واللام، والميم والنون،

قال:نعم، قلت: وممن أخذتموه، قال: من حرب بن أمية. قلت: وممن أخذه حرب، قال: من عبد الله بن جدعان. قلت: وممن أخذه عبد الله بن جدعان، قال من أهل الأنبار. قلت: وممن أخذه أهل الأنبار، قال: من طارئ طرأ عليه من أهل اليمن. قلت: وممن أخذه ذلك الطارئ ؟ قال: من الخلجان بن القسم كاتب الوحي لهود النبي عليه السلام. وهو الذي يقول:

أفي كل عام سنة تحدثونها ورأي على غير الطريق يعبر

وللموت خير من حياة تسبناً بها جرهم فيمن يسب وحمير

إنتهى ما نقله ابن الأبار في كتاب التكملة. وزاد في آخره: حدثني بذلك أبو بكر بن أبي حميرة في كتابه عن أبي بحر بن العاص عن أبي الوليد الو قشي عن أبي عمر الطلمنكي ابن أبي عبد الله بن مفرح. ومن خطه نقلته عن أبي سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن محمد بن حشيش بن عمر بن أيوب المعافري التونسي عن بهلول بن عبيدة الحمي عن عبد الله بن فروخ. أنتهى.

وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم. ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية، إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر، فكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم لهذا العهد، أو نقول أن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة، لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول. وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر، فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع.وأنظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسه رسوم صناعة الخط عند أهلها. ثم اقتفي التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يقتفي لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً، ويتبع رسمه خطأً أو صواباً. وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتبع ذلك واثبت رسما، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه.ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيل

من مخالفة خطوطهم أصول الرسم ليس كما يتخيل، بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في لا اذبحنه: أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في "بأييد" أنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تتريها للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط. وحسبوا أن الخط كمال، فتزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه، وذلك ليس بصحيح. واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر. والكمال في الصنائع إضافي، وليس

بكمال مطلق، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس. وقد كان النبي صلى الله عليه و سلم أمياً، وكان ذلك كمالا في حقه، وبالنسبة إلى مقامه، لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية، التي هي أسباب المعاش والعمران كلها. وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن، إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، شأن الصنائع كلها، حتى العلوم الاصطلاحية. فأن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا.

ثم لما جاء الملك للعرب، وفتحوا الأمصار، وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة، واحتاجت الدولة إلى الكتابة، استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه، فترقت الإجادة فيه، واستحكم، وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان، إلا أنها كانت دون الغاية. والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد.ثم انتشرت العرب في الأقطار والممالك، وافتتحوا أفريقية والأندلس، وأختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية، لما استبحرت في العمران، وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية، وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه بالكوفة، في الميل إلى إجادة وجمال الرونق وحسن الرواء. واستحكمت هذه المخالفة في الأمصار إلى أن رفع رأيتها ببغداد علي بن مقلة الوزير ثم تلاه في ذلك علي بن هلال، الكاتب

الشهير بابن البواب، ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها. وبعدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة، حتى أنتهى إلى المباينة. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في أحكام رسومه وأوضاعه، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولي علي العجمي. ووقف سند تعليم الخط عليهم، وأنتقل ذلك إلى مصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء، ولقنها العجم هنالك، فظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مباينة.

وكان الخط الأفريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد يقرب من أوضاع الخط المشرقي. وتميز ملك الأندلس بالأمويين ، فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط، فتميز صنف خطهم الأندلسي، كما هو معروف الرسم لهذا العهد. وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر. وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.ثم لما أنحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة، فأنتقل شأنها من الخط والكتابة، بل والعلم إلى مصر والقاهرة، فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد. وللخط بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها. وأشكالها متعارفة بينهم. فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع. وقد لقنها حسناً وحذق فيها دربة وكتاباً، وأخذها قوانين عملية، فتجيء أحسن ما يكون.وأما أهل الأندلس، فافترقوا في الأقطار، عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية، فانتشروا في عدوة المغرب

وأفريقية، من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد. وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفي عليه. ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما

وصنائعهما. وصارت خطوط أهل أفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس.وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم. إنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس، فصار خط أهل أفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس، حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء، وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران، نقص حينئذٍ حال الخط وفسدت رسومه، وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران. وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي، تشهد بما كان لهم من ذلك، لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها. وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي، لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً، واستعمالهم إياهم سائر الدولة. ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف. فصارت الخطوط بأفريقية والمغربيين مائلة إلى الرداءة بعبدة عن الجودة، وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها، إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر. ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع، بنقص الحضارة وفساد الدول. والله يحكم لا معقب لحكمه.

ولأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط على روي الراء يذكر فيها صناعة الخط وموادها من أحسن ما كتب في ذلك. رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة. وأولها:

يا من يريد إجادة التحرير ... ويروم حسن الخط والتصوير
أن كان عزمك في الكتابة صادقا ... فارغب إلى مولاك في التيسير
أعدد من الأقلام كل مثقف ... صلب يصوغ صناعة التحبير
وإذا عمدت لبريه فتوخه ... عند القياس بأوسط التقدير
أنظر إلى طرفيه فاجعل برية ... من جانب التدقيق والتخضير
واجعل لجلفته قواما عادلا ... خلوا عن التطويل والتقصير
والشق وسطه ليبقى بريه ... من جانبيه مشاكل التقدير
حتى إذا اتقنت ذلك كله ... فالقط فيه جملة التدبير
لا تطمعن في أن أبوح بسره ... أني اضن بسره المستور
لكن جملة ما أقول بأنه ... ما بين تحريف إلى تدوير
وألق دواتك بالدخان مدبرا ... بالخل أو بالحصرم المعصور
وأضف إليه مغرة قد صولت ... مع أصفر الزرنيخ والكافور
حتى إذا ما خمرت فاعمد إلى ... الورق النقي الناعم المخبور
فاكبسه بعد القطع بالمعصاركي ... ينأى عن التشعيث والتغيير

ثم اجعل التمثيل دأبك صابرا ما أدرك المأمول مثل صبور
أبدأ به في اللوح منتفحا له عزما تجرده عن التشمير
لا تخجلن من الردى تختطه في أول التمثيل والتسطير
فالأمر يصعب ثم يرجع هينا ولرب سهل جاء بعد عسير
حتى إذا أدركت ما أملته أضحيت رب مسرة وحبور
فاشكر إلهك واتبع رضوانه أن الإله يحِب كل شكور
وارغب لكفك أن تخط بنانها خيرا تخلفه بدار غرور
فجميع فعل المرء يلقاه غدا عند الشقاء كتابة المنشور

واعلم بأن الخط بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني، فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة. قال الله تعالى: { خلق الإنسان، علمه البيان}[الرحمن آية 3،4] وهو يشتمل بيان الأدلة كلها. فالخط المجرد كماله أن تكون دلالته واضحة، بإبانة حروفه المتواضعة وإجادة وضعها ورسمها كل وأحد على حدة متميز عن الآخر، إلا ما اصطلح عليه الكتاب من إيصال حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض، سوى حروف اصطلحوا على قطعها، مثل الألف المتقدمة في الكلمة، وكذا الراء والزاى والدال والذال وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة، وهكذا إلى آخرها. ثم أن المتأخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات، بعضها ببعض، وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم أعلى غيرهم. وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم، لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم وإحاطة كثير من،دونهم بمصطلحهم. فأن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوه، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي، لأنهما بمنزلة واحدة من عدم التواضع عليه. وليس بعذر في هذا القدر، إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال والجيوش، لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس، فأنه من الأسرار السلطانية التي يجب إخفاؤها، فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم، ويصير بمثابة المعمى. وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب والفواكه والطيور أو الأزاهر، ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكتابة. وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك، وأن لم يضعوه أولاً، قوانين بمقاييس استخرجوها لذلك بمداركهم يسمونها فك المعمّى. وللناس في ذلك دواوين مشهورة. والله العليم الحكيم.

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات، في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط. وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص

العمران، بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس، إذ هو كله من توابع العمران واتسع نطاق الدولة ونفاق أشواق ذلك لديهما. فكثرت التآليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والإعصار فانتسخت وجلدت. وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران. وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم، وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات، والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرفه وقفة التآليف صدر الملة كما نذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والإتقان.ثم طما بحر التآليف والتدوين، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه. واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية. وبلغت الإجادة في صناعته ما شاء ت. ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول، على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها، لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط، فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها، والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها. وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها، فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا. وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق.

حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط، إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها، قد ذهبت وتمخضت زبدة في تلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل. و لم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها، إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثية، وسواها من كتب الفقه الفتيا، وغير ذلك من الدواوين والتأليف العلمية، واتصال سندها بمؤلفيها، ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم. وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك. ولهذا نجد الدواوين المنسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة. ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك. وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضنانة. ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله، لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله. وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية، ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف، فتستغلق على متصفحها، ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر.وأيضا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا ؛ فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذاهب، وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه. وتبع ذلك أيضا ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته، وعدم الصنائع الوافية بمقاصده. و لم يبق من هذا الرسم بالأندلس، إلا إثارة خفية بالإنحاء، وهي على الاضمحلال. فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب.، الله غالب على أمره. ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق، وتصحيح الدواوين لمن

يرومه بدلك سهل على مبتغيه، لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد. إلا أن الخط الذي بقي من الإجادة

في الانتساخ هنالك إنما هو للعجم، وفي خطوطهم. وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع على كل صوب منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة. ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات. وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب، فيكون: صوت، نصف صوت، وربع آخر، وخمس آخر، وجزء من أحد عشر من آخر. واختلاف هذه النسب، عند تأديتها إلى السمع، يخرجها من البساطة إلى التركيب. وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع، بل للملذوذ تراكيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى، وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه. وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات، أما بالقرع أو بالنفخ في آلات تتخذ لذلك، فتزيدها لذة عند السماع. فمنها لهذا العهد بالمغرب أصناف: منها المزمار ويسمونه الشبابة، وهي قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة، ينفخ فيها فتصوت. ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأبخاش. ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعاً متعارفاً، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه، وتتصل كذلك متناسبة، فيلتذ السمع بإدراكها للتناسب الذي

ذكرناه. ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي، وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب، جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلافها من قطعتين منفوذتين كذلك بأبخاش معدودة، ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل، فينفذ النفخ بواسطتها إليها، وتصوت بنغمة حادة. ويجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع مثل ما يجري في الشبابة.ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق، وهو بوق من نحاس، أجوف في مقدار الذراع، يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دور الكف في شكل بري القلم. وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدّي الريح من الفم إليه، فيخرج الصوت ثخيناً دوياً، وفيه أبخاش أيضاً معدودة. وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب، فيكون ملذوذاً. ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها: أما على شكل قطعة من الكرة، مثل المربط والرباب، أو على شكل مربع كالقانون، توضع الأوتار على بسائطها مشدودة في رأسها إلى دسر جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها. ثم تقرع الأوتار أما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر. ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر. واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف

الأوتار، فيما يقرع أو يحك بالوتر، فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة. وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض، على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع. ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء. وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم، والمحسوس إنما تدرك منه كيفية. فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة، وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة. فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها، وكذا الملائم من الملموسات، وفي الروائح، ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه

المدرك، وإليه تؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح، لغلبة الحرارة فيها، التي هي مزاج الروح القلبي.وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها، فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها. فإذا كان المرئي متناسباً في أشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته، بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك، كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة فتلتذ بإدراك ملائمها. ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب. وفي هذا سر تفهمه أن كنت من أهله، وهو اتحاد المبدأ، وأن كل ما سواك إذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحاداً في البداية، يشهد لك به اتحادكما في الكون. ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء. فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به، بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والكون. ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى مدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إدراكه للجمال والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته، فيلهم كل أنسأن بالحسن في المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة. والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن.فأولاً. أن لا يخرج من الصوت إلى مده دفعة بل بتدريج، ثم يرجع كذلك وهكذا إلى المثل، بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين. وتأمل هذا من

افتتاح أهل، اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج، فأنه من بابه.وثانياً: تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب، فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حصره أهل صناعة الموسيقى. فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة. ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً، ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه، لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمي العامة هذه القابلية بالمضمار. وكثير من القراء بهذه المثابة، يقرأون القرآن، فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم. ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب، وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطبائع توافق صاحبها في العمل به إذا علم.وهذا هو

التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى، كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم. وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين، وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه. وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي، فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه، لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث إتباع الحركات في مواضعها، ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره، وأمثال ذلك. والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من اجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين. فاعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا. وتقديم التلاوة متعين فراراً من تغيير الرواية المنقولة في القرآن، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن

بوجه. وإنما المراد من اختلافهم التلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه، فيردد أصواته ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره، ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك. هذا هو محل الخلاف. والظاهر تتريه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى، لأن القرآن هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده، وليس مقام التذاذ بإدراك الحسن من الأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في أخبارهم.وأما قوله صلى الله عليه و سلم : " لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود " فليس المراد به الترديد والتلحين، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها. وإذ قد ذكرنا معنى الغناء، فاعلم أنه يحدث في العمران، إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي، ثم إلى الكمالي، وتفننوا فيه، فتحدث هذه الصناعة. أنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمترل وغيره، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملذوذات. وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم. وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به، حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة، ولهم مكان في دولتهم، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها. وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم، ومملكة من ممالكهم.وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر، يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها، في عدة حروفها المتحركة والساكنة. ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة، لا ينعطف على الآخر. ويسمونه البيت. فيلائم الطبع بالتجزئة أولاً، ثم بتناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها. فلهجوا

به، فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره، لأجل اختصاصه بهذا التناسب. وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكاً لقرائحهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب. واستمروا على ذلك.وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف، قطرة من بحر من تناسب الأصوات، كما هو معروف في كتب الموسيقى. إلا أنهم لم يشعروا بما سواه، لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعةً. وكانت البداوة أغلب نحلهم. ثم تغنى الحداة منهم في حداء إبلهم، والفتيان في قضاء خلواتهم، فرجعوا الأصوات وترنموا. وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيراً بالغين

المعجمة والباء الموحدة. وعللها أبو إسحق الزجاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقي، أي بأحوال الآخرة. وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة، كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره. وكانوا يسمونه السناد، وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار، فيطرب ويستخف الحلوم. وكانوا يسفون هذا الهزج، وهذا البسيط، كله من التلاحين هو من أوائلها، ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع.ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم. فلما جاء الإسلام، واستولوا على ممالك الدنيا، وحازوا سلطان العجم، وغلبوهم عليه، وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ. وما ليس بنافع في دين ولا معاش، فهجروا ذلك شيئاً ما. ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي كان ديدنهم ومذهبهم. فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب، وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير

والمعازف المزامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات ولحنوا عليها أشعارهم.وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب وحائر مولى عبد الله بن جعفر، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن شريج وأنظاره. وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي، وإبراهيم الموصلي وابنه إسحق وابنه حماد. وكان من ذلك في دولتهم ببغداد، ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد، وأمعنوا في اللهو واللعب، واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والأشعار التي يترنم بها عليه. وجعل صنفاً وحده، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج، وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويتثاقفون، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو.وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وأنتشر منها إلى غيرها. وكان للموصليين غلام اسمه زرياب، أخذ عنهم الغناء فأجاد، فصرفوه إلى المغرب غيرة منه، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس. فبالغ في تكرمته، وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات، وأحله من دولته وندمائه بمكان. فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف. وطما منها بإشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب. وأنقسم على أمصارها، وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها. وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف، إلا وظيفة الفراغ والفرح. وهي أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه. والله اعلم.

الفصل الثالث والثلاثون

في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان، إنما توجد فيه بالقوة. وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولاً، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً محضاً، فتكون ذاتاً روحانية وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلاً فريداً، والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً، والملكات الصناعية تفيد عقلاً،والحضارة الكاملة تفيد عقلاً، لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المترل، ومعاشرة أبناء الجنس، وتحصيل الآداب في مخالطتهم، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً، فيحصل منها زيادة عقل.والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك، لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع. وبيانه أن في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، فهو ينتقل أبداً من دليل إلى دليل، ما دام ملتبساً بالكتابة وتتعود النفس ذلك دائماً. فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكتسب به العلوم المجهولة، فتكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل. ويحصل به مزيد فطنة وكيس في الأمور، لما تعودوه من ذلك الانتقال. ولذلك قال كسرى في كتابه، لما رآهم بتلك الفطنة والكيس، فقال: "ديوانه، أي شياطين أو جنون ". قالوا: وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة.

ويلحق بذلك الحساب فأن في صناعة الحساب نوع تصرفي في العدد بالضم والتفريق، يحتاج فيه إلى استدلال كثير، فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر، وهو معنى العقل. والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون.

الباب السادس

من الكتاب الأول

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق فالمقدمة في الفكر الإنساني، الذي تميز به البشر عن الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والنظر في معبوده، وما جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته وملك قدرته وفضله به على كثير خلقه.

الفصل الأول

في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات، في حيوانيته من الحسّ والحركة والغذاء والكن وغير ذلك. وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به، لتحصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيء لذلك التعاون

وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى، والعمل به واتباع صلاح أخراه. فهو مفكر في ذلك كله دائماً، لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين، بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع. ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع، فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم، أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه، فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه. ثم أن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق، وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً. وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك، فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا. فقد تبين بدلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر. والله اعلم.

الفصل الثاني

في أن تعليم العلم من جملة الصنائع

وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنما هم بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً. وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي. لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها، مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن، وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً، وبين العالم النحرير. والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما، فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي. والملكات

كلها جسمانية، سواء كانت في البدن أو في الدماغ، من الفكر وغيره، كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة، فتفتقر إلى التعليم. ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل. ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه. فلكل أمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به، شأن الصنائع كلها، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، إذ لو كان من العلم لكان وحداً عند جميعهم. إلا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وكذا أصول الفقه وكذا العربية، وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته، تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة، فدل على أنها صناعات في التعليم. والعلم واحد في نفسه. وإذا تقرر ذلك، فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب، باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه. وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر. وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس، استبحر عمرانها، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة. ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما، وما كان فيهما من الحضارة. فلما خربتا أنقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً، كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها. و لم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية في أولها، وقرب عهد انقراضها بمبدئها، فلم

تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل.وبعد انقراض الدولة بمراكش، ارتحل إلى المشرق من أفريقية، القاضي أبو القاسم بن زيتون، لعهد أواسط المائة السابعة، فأدرك تلميذ الإمام ابن الخطيب، فأخذ عنهم، ولقن تعليمهم. وحذق في العقليات والنقليات ، ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن. وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله ابن شعيب الدكالي. كان ارتحل إليه من المغرب، فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها. وكان تعليمه مفيداً، فأخذ عنهما

أهل تونس. واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلاً بعد جيل، حتى أنتهى إلى الماضي محمد بن عبد السلام، شارح ابن الحاجب، وتلميذه، وأنتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه. فأنه قرأ مع ابن عبد السلام، على مشيخة واحدة، وفي مجالس بأعيانها، وتلميذ ابن عبد السلام بتونس، وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد، إلا أنهم من القفة بحيث يخشى انقطاع سندهم.ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشد إلى المشرق وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب، وأخذ عنهم ولقن تعليمهم. وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة، وحذق في العقليات والنقليات. ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد، ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها. وربما أنتقل إلى تلمسان عمران المشد إلى تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها. وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل.وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم. وأيسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها. فتجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة. فلا يحصلون على طائل. من ملكة التصرف في العلم والتعليم. ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل، تجد ملكته قاصرة في علمه أن فاوض أو ناظر أو علم، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده. وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ من سواهم، لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك. ومما يشهد بذلك في المغرب، أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين. وهذه المدة بالمدارس، على المتعارف

هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها، فطال أمدها في المغرب لهذه العصور لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة، لا مما سوى ذلك. وأما أهل الأندلس، فذهب رسم التعليم من بينهم، وذهبت عنايتهم بالعلوم، لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين. ولم يبق من رسم العلم عندهم إلا فن العربية والأدب، اقتصروا عليه، وانحفظ سند تعليمه بينهم، فانحفظ بحفظه. وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين. وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران، وتغلب العدو على عامتها ، إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها. والله غالب على أمره.وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه، بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة، لاتصال

العمران الموفور واتصال السند فيه. وأن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت، مثل بغداد والبصرة والكوفة، إلا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك. وأنتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان، وما وراء النهر من المشرق، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب، فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً. فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع. حتى أنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى. وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب. ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك، ويولعون به، لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك.وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة، اللهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع، فإن الأمزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر. وإنما الذي فضل به أهل

المشرق أهل المغرب، هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة، من العقل، المزيد، كما تقدم في الصنائع، ونزيده الآن شرحاً وتحقيقاً. وذلك أن الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم، وجميع تصرفاتهم. فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك، حتى كأنها حدود لا تتعدى. وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم. ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً، تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل بسرعة الإدراك للمعارف.ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك، مثل أنهم يعلمون الحمر الإنسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها، ويعجز أهل المغرب عن فهمها فضلاً عن تعليمها. وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية، تزيد الإنسان ذكاء في عقله وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس، إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بدلك كيساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية، فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك. إلا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو، كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس، حتى أن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله، وليس كذلك. وما ذاك إلا لإجادته من ملكات الصنائع والآداب، في العوائد والأحوال الحضرية، ما لا يعرفه البدوي. فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته، وليس كذلك. فأنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته، وإنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك فهو رونق

الصنائع والتعليم، فأن لهما آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه. وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدماً، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة، لما قدمناه في الفصل قبل هذا، ظن المغفلون في

بادئ الرأي أنه لكمال في حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب، وليس ذلك بصحيح فتفهمه. والله يزيد في الخلق ما يشاء، وهو إله السماوات والأ رض.

الفصل الثالث

في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

والسبب في ذلك أن تعليم العلم، كما قدمناه، من جملة الصنائع. وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع. ومن تشوف بفطرته إلى العلم، ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي، لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة، شأن الصنائع في أهل البدو.واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لما كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها، أنطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وأنتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة، من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها

تعليم العلم. وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها، منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا. وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته. فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً لولدهم، ينظر عليها أو يصيب منها، مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير والصلاح والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها. والله يخلق ما يشاء.

الفصل الرابع

في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار، تحصيلاً وتعليماً،

هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، من

حيث هو إنسان ذو فكر. والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي. ولا مجال فيها للعقل

إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بأصول، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة، لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي. إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر، بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقلي، فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه. وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات، من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بدلك من العلوم التي تهيئوها للإفادة. ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي، الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق، فلا بد من النظر في الكتاب: ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه و سلم الذي جاء به من عند الله ، واختلاف روايات القراءة في قراءته وهذا هو علم القراءات ، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك ، وهذه هى علوم الحديث . ثم لابد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه . ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هى العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهى أصناف : فمنها : علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها ، كلها . وهذه العلوم النقلية كلهما مختصة بالملة الإسلامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لابد

فيها من مثل ذلك فهى مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها ، وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجور والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " {وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ} [البقرة: 46] ورأى النبى صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضى الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ؛ ثم قال :" ألم آتكم بها بيضاء نقية ، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى "
.ثم إن هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواقه العلم بالمغرب لتناقص العمران

فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله ، وما أدرى ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفى سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التى اتسعت بها أرزاقهم . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد وبيده التوفيق والإعانة .

الفصل الخامس

فصل في علوم القرآن من التفسير والقراءات

القرآن هو كلام الله المترل على نبيه المكتوب بين دفتى المصحف وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في

بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن ، وأباه الأكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح .ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلماً مفرد ، وتناقله الناس بالمشرق والأندلس في جيل بعد جيل إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين وكان معتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان سهمه في ذلك وافراً واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً وبالقراءات خصوصاً فظهر لعهده أبو عمرو الدانى وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت إلى روايته أسانيدها وتعددت تآليفه فيها .وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له .ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار ، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس .وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضاً وهى أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية ؛ لأن فيه حروفاً كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في بابيد وزيادة الألف في لا أذبحنه ولا أوضعوا والواو في جزاؤ الظالمين ، وحذف الألفات في مواضع دون أخرى وما رسم فيه من التاءات ممدوداً ، والأصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك . وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفى عند الكلام في الخط فلما جاءت

هذه مخالفة لأوضاع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها فكتب الناس فيها أيضاً عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتباً من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روى الراء وولع الناس بحفظها ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمر الداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر ؛ فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافاً كثيراً ، وعزاه لناقليه واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو الشاطبي في الرسم .

التفسير

وأما التفسير فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملاً جملاً وآيات آياتٍ لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ومنها ما هو

في العقائد الإيمانية ومنها ما هو في أحكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتض الحال منها منقولاً عنه كما علم من قوله تعالى {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1] ، أنها نعي النبي صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك ونُقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وتداول ذلك التابعون من بعدهم، ونقل ذلك عنهم. و لم يزل ذلك متناقلاً بين الصدر الأول والسلف، حتى صارت المعارف علوماً، ودونت الكتب، فكتب الكثير من ذلك، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين. وأنتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثالهم من المفسرين، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار.ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب، فوضعت الدواوين في ذلك، بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب، فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان. فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن، لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم. وصار التفسير على صنفين: تفسير نقلي مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاً تهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. فإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيد ونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم

من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم، مما لا

تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم، في أمثال هذه الأغراض، أخباراً موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهده المنقولات. وأصلها كما قلناه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى. وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق.

والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول، إذ الأول هو المقصود بالذات. وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعات. نعم قد يكون في بعض التفاسير غالباً. ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير، كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على

مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة. فصار بدلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة. وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فليغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان.ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبي، من أهل توريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها. ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا علي ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة. وفوق كل ذي علم عليم.

الفصل السادس

علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة، لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه،وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم، باعتبار مصالحهم التي تكفل الله لهم بها. قال تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: 106].[ومعرفة الناسخ والمنسوخ وأن كان عاماً للقرآن والحديث، إلا أن الذي في القرآن منه أندرج في تفاسيره، وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه، فإذا تعارض الخبر أن بالنفي والإثبات، وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل، وعلم تقدم أحدهما، تعين أن المتأخر ناسخ]. وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهري: "أعيا

الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم من منسوخه ". وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة. أومن علوم الحديث النظر في الأسانيد ، ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط، لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن، وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط. وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة، ويكون لنا ذلك دليلاً على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين، وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحداً واحداً. وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها، بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه، وبسلامتها من العلل الموهنة لها، وتنتهي بالتفاوت إلى طرفين فحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل. ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن. ولهم في ذلك ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة، مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم. وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لائمة اللسان أو الوفاق. ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة، وتفاوت رتبها، وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد.ثم اتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف، وما يناسب ذلك. هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه. وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده، فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق، ومنهم بالشام ومصر. والجميع معروفون مشهورون في

أعصارهم. وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة، لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط، وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك،. وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه، ثم أصحابه مثل الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وابن وهب وابن بكير والقصبني ومحمد بن الحسن ومن بعدهم الإمام احمد بن حنبل في آخرين من أمثالهم.وكان علم الشريعة في مبدأ هذا الأمر نقلاً صرفاً، شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها. وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ، أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه، ورتبه على أبواب الفقه، ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث

وأسانيدها المختلفة. وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين، وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها. وجاء محمد بن إسماعيل البخاري أمام المحدثين في عصره، فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين. واعتمد منها ما اجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه، وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب، بمعنى ذلك الباب الذي تضفنه الحديث، فتكررت لذلك أحاديثه، حتى يقال: أنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين، منها ثلاثة آلاف متكررة، وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب.ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج

القشيري رحمه الله تعالى، فألف مسنده الصحيح، حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه، وحذف المتكرر منها. وجمع الطرق والأسانيد، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله. وقد استدرك الناس عليهما في ذلك. ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي، في السنن بأوسع من الصحيح، وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل، أما من الرتبة العالية في الأسانيد، وهو الصحيح، كما هو معروف، وأما من الذي دونه من الحسن وغيره، ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل. وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة، وهي أمهات كتب الحديث في السنة، فألها وأن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب. ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث، وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ، فيجعل فنا برأسه وكذا الغريب. وللناس فيه تآليف مشهورة، ثم المؤتلف والمختلف. وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا. ومن فحول علمائه وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم، وتآليفه فيه مشهورة، وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه. وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح، كان لعهد أوائل المائة السابعة، وتلاه

محيي الدين النووي بمثل ذلك. والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما تحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة. وقد أنقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة، على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم، لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر، هذا بعيد عنهم. وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة، وضبطها بالرواية عن مصنفيها، والنظر في أسانيدها إلى مؤلفها، وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام، لتتصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها. ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمس إلا في القليل.فأما البخاري، وهو أعلاها رتبة، فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه، من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق، ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم. ولذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في تراجمه، لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق، ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب. وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث، في أبواب كثيرة، بحسب معانيه واخلافها. ومن شرحه، ولم يستوف هذا فيه، فلم يوف حق الشرح: كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم. ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون: شرح كتاب البخاري دين على الأمة، يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار.وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به، واكبوا عليه واجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري، من غير الصحيح، مما لم يكن على شرطه، وأكثر ما وقع له في التراجم. وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً، وسماه (المعلم بفوائد مسلم). اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه. ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه ، وسماه إكمال المعلم. وتلاهما محيي الدين النووي، بشرح استوفي ما في الكتابين، وزاد عليهما، فجاء شرحاً وافياً.

وأما كتب السنن الأخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء، فأكثر شرحها في كتب الفقه،

إلا ما يختص بعلم الحديث، فكتب الناس عليها، واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علم الحديث وموضوعاتها، والأسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها في السنة.واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد، بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها، تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها. و لم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل، ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها، بحيث لوروي حديث بغير سنده وطريقه يفطنون إلى أنه قد قلب عن وضعه. ولقد وقع مثل ذلك للأمام محمد بن إسماعيل البخاري، حين ورد على بغداد، وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قبلوا أسانيدها فقال: "لا اعرف هذه، ولكن حدثني فلان ". ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح، ورد كل متن إلى سنده، وأقروا له بالإمامة.واعلم أيضا أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة والإقلال،فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها، ومالك رحمه الله إنما صح عنده ما في كتاب الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها، وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون ألف حديث، ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك. وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين، إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث، فلهذا قلت روايته. ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة. ومن كان قليل البضاعة من الحديث، فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة، ويتلقىالأحكام عن صاحبها المبلغ لها. وإنما قلل منهم من قلل

الرواية، لأجل المطاعن التي نعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها، سيما والجرح مقدم عند الأكثر، فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد. ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف في الطرق.هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن أنتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر. والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي. وقلت من أجلها روايته فقل حديثة. لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً، فحاشاه من ذلك. ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً. وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور، فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم، والكل عن اجتهاد. وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم.وروى الطحطاوي فأكثر وكتب مسنده، وهو جليل القدر، إلا أنه لا يعدل الصحيحين، لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الأمة كما قالوه. وشروط الطحطاوي غير متفق عليها، كالرواية عن المستور الحال وغيره، فلهذا قدم الصحيحان، بل وكتب السنن المعروفة قدمت عليه لتأخر شروطه عن شروطهم. ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها. فلا تأخذك ريبة في ذلك، فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم، والتماس المخارج الصحيحة لهم. والله سبحانه وتعالى اعلم بما في حقائق الأمور.

الفصل السابع

علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه. وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم. ولا بد من وقوعه ضرورة. فأن الأدلة من النصوص وهي بلغة العرب، وفي اقتضاءات ألفاظها بكثير من معانيها وخصوصاً الأحكام الشرعية اختلاف بينهم معروف. وأيضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها، فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً. فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها، وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص. وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما، وهذه كلها مثارات للخلاف ضرورية الوقوع. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم.ثم أن الصحابة لم يكونوا كفهم أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه و سلم أو ممن سمعه منهم مع عليتهم ، وكانوا يسمون لذلك القراء، أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية، فأختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ. وبقي الأمر كذلك صدر الملة. ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط

وكمل الفقه واصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء. وأنقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس، وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث، وهم أهل الحجاز. وكان الحديث قليلاً في أهل العراق كما قدمناه، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه، فلذلك قيل أهل الرأي. ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة، وأمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده.ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به. وهم الظاهرية. وجعلوا مدارك الشرع كلها منحصرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص، لأن النص على العفة نص على الحكم في جميع محالها. وكان أمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما. وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة. وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به، وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية. وشذ بمثل ذلك الخوارج. ولم يحفل الجمهور بمذاهبهم بلى أوسعوها جانب الإنكار والقدح. فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ولا نروي كتبهم، ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم. فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك. ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة. ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله، ولم يبق إلا في الكتب المجلدة. وربما

يعكف كثير من الطالبين، ممن تكفف بانتحال مذهبهم، على تلك الكتب، يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم، فلا يخلو بطائل، ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه. وربما عد بهذه النحلة من أهل

الباع بتلقيه العلم من الكتب، من غير مفتاح المعلمين.وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس، على علو رتبته في حفظ الحديث، وصار إلى مذهب أهل الظاهر، ومهر فيه، باجتهاد زعمه في أقوالهم. وخالف أمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين، فنقم الناس ذلك عليه، وأوسعوا مذهبه استهجاناً وإنكاراً، وتلقوا كتبه بالإغفال والترك، حتى أنها يحظر بيعها بالأسواق، وربما تمزق في بعض الأحيان. ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز.فأما أهل العراق فأمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت،ومقامة في الفقه لا يلحق، شهد له بدلك أهل جلدته وخصوصاً مالك والشافعي.وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي أمام دار الهجرة رحمه الله تعالى. واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره، وهو عمل أهل المدينة. لأنه رأى أنهم، فيما يتفقون عليه، من فعل أو ترك، متابعون لمن قبلهم، ضرورة لدينهم واقتدائهم ، وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه و سلم الآخذين ذلك عنه. وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية. وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره، لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم، بل هو شامل للأمة.واعلم أن الإجماع إنما هو الإنفاق على الأمر الديني عن اجتهاد. ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى، وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله وسلامه عليه. وضرورة اقتدائهم [بعين ذلك يعم الملة] . ذكرت في باب الإجماع لأنها أليق الأبواب بها، من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع. إلا أن اتفاق أهل

الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة، واتفاق هؤلاء في فعل أو ترفي مستندين إلى مشاهدة من قبلهم. ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي صلى الله عليه و سلم وتقريره، أو مع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق بها.ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المطلبي الشافعي رحمهما الله تعالى. رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق، واختص بمذهب. وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه. وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله. وكان من علية المحدثين. وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث، فاختصوا بمذهب آخر. ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم. وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم. ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله، ومن لا يوثق برأيه ولا يدينه، فصرحوا بالعجز والإعواز ، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء، كل من اختص به من المقلدين. وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب. ولم يبق إلا نقل مذاهبهم. وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية، لا محصول اليوم للفقه غير هذا.ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود

منكوص على عقبه مهجور تقليده. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة. فأما أحمد بن حنبل، فمقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن، وكان لهم ببغداد صولة وكثرة، حتى كانوا يتواقعون مع الشيعة في نواحيها. وعظمت الفتنة من أجل ذلك، ثم أنقطع ذلك عند استيلاء التتر عليها. و لم يراجع وصارت كثرتهم بالشام. وأما أبو حنيفة فقلده

اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين، وما وراء النهر وبلاد العجم كلها. ولما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام، وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس، فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات، وجاءوا منها بعلم مستظرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس. وبالمغرب منها شئ قليل نقله إليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما.وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها، وقد كان أنتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر، وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار. وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بأنواع استدلالاتهم. ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره. وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر، أخذ عنه جماعة منهم. وكان من تلميذه بها: البويطي والمزني وغيرهم، وكان بها من المالكية جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم. ثم الحارث بن مسكين وبنوه، ثم القاضي أبو إسحق بن شعبان وأصحابه.ثم أنقرض فقه أهل السنة والجماعة من مصر بظهور دولة الرافضة، وتداول بها فقه أهل البيت وكان من سواهم يتلاشوا ويذهبوا. وارتحل إليها القاضي عبد الوهاب من بغداد، آخر المائة الرابعة، على ما أعلم، من الحاجة والتقليب في المعاش. فتأذن خلفاء العبيديين بإكرامه، وإظهار فضله نعياً على بني العباس في إطراح مثل هذا الإمام، والاغتباط به. فنفقت سوق المالكية بمصر قليلاً، إلى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب، فذهب منها فقه أهل البيت وعاد فقه الجماعة إلى الظهور بينهم ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام، فعاد إلى أحسن ما كان ونفقت سوقه. واشتهر فيهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الأيوبية بالشام وعز الدين بن عبد السلام أيضا، ثم ابن الرقعة بمصر وتقي الدين بن دقيق العبد، ثم تقي الدين السبكي بعدهما. إلى أن أنتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد، وهو سراج الدين البلقيني ، فهو اليوم كبير الشافعية بمصر، لا بل كبير العلماء من أهل العصر.وأما مالك رحمة الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس. وأن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، و لم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وأمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده. فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته. وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، و لم يكونوا يعانون

الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة. ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم، و لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب. ولما صار مذهب كل أمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه، و لم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس، فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه، بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب أمامهم. وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة، يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة، واتباع مذهب أمامهم فيهما ما استطاعوا.وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد. وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله. وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق، فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته مثل ابن خويزمنداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الأبهري، والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم. وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم

والحارث بن مسكين وطبقتهم. ورحل من الأندلس يحيى بن يحيى الليثي، ولقي مالكا. وروى عنه كتاب الموطأ، وكان من جملة أصحابه. ورحل بعده عبد الملك بن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة. ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية. ورحل من إفريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً، ثم أنتقل إلى مذهب مالك. وكتب علي بن القاسم في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان بكتابه وسمي الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرأ بها سحنون على أسد ثم ارتحل إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأسدية، فرجع عن كثير منها. وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه منها، وكتب معه ابن القاسم إلى أسد أن يمحو من أسديته ما رجع عنه، وأن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون، على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمي المدونة والمختلطة. وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية. ثم أختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به، وتركوا ما سواه. وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها. و لم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه ا أمهات بالشرح والإيضاح والجمع، فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز والتونسي وابن بشير وأمثالهم. وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا، مثل ابن رشد وأمثاله. وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر،. فاشتمل عين جميع أقوال المذاهب، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب. ونقل ابن يونس فعظمه في كتابه على المدونة، وزخرت بحار المذهب المالكي في الأ فقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان. ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك، [إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب، لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب، وتعديد أقوالهم في كل مسألة ، فجاء كالبرنامج للمذهب. وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين، وابن المبشر وابن اللهيث وابن

رشيق وابن شاش. وكانت بالإسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله. ولم أدر عمن أخذها أبو عمرو بن الحاجب، لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين، وذهاب فقه أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية. ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة] عكف عليه الكثير من طلبة المغرب، وخصوصاً أهل بجاية، لما كان

كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب. فأنه كان قرا على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك، فجاء به وأنتشر بقطر بجاية في تلميذه، ومنهم أنتقل إلى سائر الأمصار المغربية. وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه، لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه. وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هارون، وكلهم من مشيخة أهل تونس، وسابق حلبتهم في الإجادة في ذلك ابن عبد السلام، وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثامن

علم الفرائض

وأما علم الفرائض، وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة، من كم تصخ، باعتبار فروضها الأصول أو مناسختها. وذلك إذا هلك أحد الورثة وأنكرت سهامه على فروض ورثته، فأنه حينئذ يحتاج إلى حسبان يصحح الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة. وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحدٍ واثنين، وتتعدد كذلك بعدد أكثر. وبقدر ما تتعدد تحتاج إلى الحسبان، وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين، مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ. وينظر مبلغ السهام، ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة. وكل ذلك يحتاج إلى الحسبان

فأفردوا هذا الباب من أبواب الفقه، لما اجتمع فيه إلى الفقه من الحسبان. وكان غالباً فيه، وجعلوه فناً مفرداً. وللناس فيه تآليف كثيرة، أشهرها عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت، ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ، ومن متأخري إفريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم.وأما الشافعية والحنفية والحنابلة، فلهم فيه تآليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة، شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب، وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذهب. وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول، والوصول به إلى الحقوق في الوراثات، بوجوه صحيحة يقينية، عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين. وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية. ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب، وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب: كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك، فيملأون بها تآليفهم. وهو وأن لم يكن متداولاً بين الناس، ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه، فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه.وقد يحتج الأكثر من أهل هذا الفن على فضله،

بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى، وفي رواية: نصف العلم، خرجه أبو نعيم الحافظ. واحتج به أهل الفرائض، بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة. والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد، وأن المراد بالفرائض إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والمواريث وغيرها. وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية.وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علوم الشريعة كلها. ويعني هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص، أو تخصيصه بفروض الوراثة، إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء

عند حدوث الفنون والاصطلاحات. و لم يكن، صدر الإسلام، يطلق هذا اللفظ إلا على عمومه مشتقاً من الفرض الذي هو، لغة، التقدير أو القطع. وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع الفروض كما قلناه، وهي حقيقته الشرعية، فلا ينبغي أن يحمل إلا على ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

الفصل التاسع

أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدةً، وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف. وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن، ثم السنة المبينة له. فعلى عهد النبي صلي الله عليه وسلم كانت الأحكام تتلقى منه، بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله، بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس. ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر. وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها، قولاً أو فعلاً، بالنقل الصحيح، الذي يغلب على الظن صدقه. وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار، ثم تنزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم. ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت، مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة، فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات.ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة، فإذا هم يقيسون الأشباه منها بالأشباه. ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم،

وتسليم بعضهم لبعض في ذلك. فأن كثيراً من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه، لم تندرج في النصوص الثابتة، فقاسموها بما ثبت، وألحقوها بما نص عليه، بشروط في ذلك الإلحاق، تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين. حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه، وهو القياس، وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة، وأن خالف بعضهم في الإجماع والقياس، إلا أنه شذوذ.وألحق بعضهم بهذه الأدلة الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها، لضعف مداركها وشذوذ القول فيها. فكان من أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة. فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه، والتواتر في نقله، فلم يبق فيه مجال للاحتمال. وأما السنة وما نقل

إلينا منها، فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه، معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه، من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحي بالأحكام والشرائع أمراً وناهياً. وأما الإجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة. وأما القياس فبإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه. هذه أصول الأدلة. ثم أن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر، بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين، لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه، الذي هو مناط وجوب العمل بالخبر. وهذه أيضاً من قواعد الفن.ويلحق بذلك، عند التعارض بين الخبرين، وطلب المتقدم منهما، معرفة الناسخ والمنسوخ، وهي من فصوله أيضاً وأبوابه. ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالات الألفاظ، وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق، من تراكيب الكلام على الإطلاق، يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان. وحين

كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها، لأنها جبلة وملكة. فلما فسدت الملكة في لسان العرب، قيدها الجهابذة المتجردون لذلك، بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى. ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام، وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة بين تراكيب الكلام وهو الفقه.ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق، بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة، وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة. مثل أن اللغة لا تثبت قياساً، والمشترك لا يراد به معنياه معاً، والواو لا تقتضي الترتيب، والعام إذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها، والأمر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي، والنهي يقتضي الفساد أو الصحة، والمطلق هل يحمل على المقيد؟ والنص على العلة كاف في التعدد أم لا ؟ وأمثال هذه. فكانت كلها من قواعد هذا الفن. ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية. ثم أن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن، لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الأحكام وتنقيح الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علق به في الأصل، من تبين أوصاف ذلك المحل، أو وجود ذلك الوصف في الفرع، من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه إلى مسائل أخرى من توابع ذلك، كلها قواعد لهذا الفن.واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غنية عنه، بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية. وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً، فعنهم أخذ معظمها. وأما الأسانيد فلم يكونوا

يحتاجون إلى النظر فيها، لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم. فلما أنقرض السلف، وذهب الصدر الأولى وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل، احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيلى هذه القوانين والقواعد، لاستفادة الأحكام من الأدلة، فكتبوها فناً قائماً برأسه سموه أصول الفقه. وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه. أملى فيه رسالته المشهورة، تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ

وحكم العفة المنصوصة من القياس. ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها. وكتب المتكلمون أيضاً كذلك، إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع، لكثرة الأمثلة منها والشواهد، وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية. والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه، ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن، لأنه غالب فنوهم ومقتضى طريقتهم، فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية، والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن.وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم، فكتب في القياس بأوسع من جميعهم، وتمم الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه، وكملت صناعة أصول الفقه بكماله، وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده، وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه. وكان من احسن ما كتب فيه المتكلمون، كتاب البرهان لإمام الحرمين، والمستصفي للغزالي، وهما من الأشعرية. وكتاب العهد لعبد الجبار، وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري، وهما من المعتزلة. وكانت الأربعة، قواعد هذا الفن وأركانه. ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين، المتأخرين، وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول، وسيف الدين الآمدي في كتاب الأحكام. واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج. فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل. وأما كتاب

المحصول، فأختصره تلميذ الإمام مثل سراج الدين الأموي في كتاب التحصيل، وتاج الدين الأرموي في كتاب الحاصل. واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات. وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج. وعني المبتدئون بهذين الكتابين، وشرحهما كثير من الناس. وأما كتاب الأحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقاً في المسائل، فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير. ثم أختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم، وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه. وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات.وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيراً، وكان من أحسن كتابة المتقدمين فيها تأليف أبي زيد الدبوسي، وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوي من أئمتهم، وهو مستوعب. وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الأحكام وكتاب البزدوي في الطريقتين، وسمى كتابه بالبدائع، فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها، وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءةً وبحثاً. وأولع كثير من علماء العجم بشرحه. والحال على ذلك لهذا العهد.هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديد التآليف المشهورة لهذا العهد فيه.والله ينفعنا بالعلم، ويجعلنا من أهله، بمنه وكرمه، أنه على كل شيء قدير.

ا لخلافات:

وأما الخلافيات فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين، باختلاف مداركهم وأنظارهم، خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه. واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤوا منهم. ثم لما أنتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن

الظن بهم، اقتصر الناس على تقليدهم، ومنعوا من تقليد سواهم، لذهاب الاجتهاد، لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده، باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة. فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة

وأجري الخلاف بين المتمسكين بها، والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية.وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب أمامه، تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة، يحتج بها كل على صحة مذهبه الذي قلده وتمسك به.و أجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه: فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك، وأبو حنيفة يوافق أحدهما، وتارة يكون مالك وأبي حنيفة، والشافعي يوافق أحدهما، وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة، ومالك يوافق أحدهما. وكان في هذه المناظرات بيان مأخذ هؤلاء الأئمة، ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم. كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات. ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد، إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافيات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته.وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأدلتهم، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه. وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية، لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت، فهم لذلك أهل النظر والبحث. وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر. وأيضاً فأكثرهم أهل المغرب، وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل. وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذ، ولأبي بكر العربي من المالكية كتاب التلخيص جلبه من المشرق، ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليقة، ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة، وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبني عليها من الفقه الخلافي، مدرجاً في كل مسألة منه ما ينبني عليها من الخلافيات.

الجدل:

وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب

الفقهية وغيرهم، فأنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج. ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأً، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظر أن عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال. ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد، من الحدود والآداب، في الاستدلال، التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره. وهي طريقتان: طريقة البزدوي، وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال، وطريقة العميدي ، وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان، وأكثره استدلالاً. وهو من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس الأمر

كثيرة. وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي. إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة يتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي. وهذا العميدي هو أول من كتب فيها وبسبت الطريقة إليه. وضع الكتاب المسمي بالإرشاد مختصراً، وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره، جاؤوا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التآليف. وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية. وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل العاشر

علم الكلام

وهو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة. وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمأخذ، ثم نرجع إلى تحقيق علم الكلام وفيما ينظر ونشير إلى حدوثه في الملة، وما دعا إلى وضعه فنقول: إعلم أن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة، وعنها يتم كونه. وكل واحد من تلك الأسباب حادث أيضاً، فلا بد له من أسباب أخرى. ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها، لا إله إلا هو سبحانه.وتلك الأسباب في ارتقائها تتضاعف فتنفسح طولاً وعرضاً، ويحار العقل في إدراكها وتعديدها. فإذا لا يحصرها إلا العلم المحيط، سيما الأفعال البشرية والحيوانية، فأن من جملة أسبابها في الشاهد القصود والادارات، إذ لا يتم كون الفعل إلا بإرادته والقصد إليه.

والقصودات والإرادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة، يتلو بعضها بعضاً. وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل. وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى، وكل ما يقع في النفس من التصورات فمجهول سببه، إذ لا يطلع أحد على مبادئ الأمور النفسانية، ولا على ترتيبها. إنما هي أشياء يلقيها الله في الفكر، يتبع بعضها بعضاً، والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها. وإنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة

وتقع في مداركها على نظام وترتيب، لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها. وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس، لأنها للعقل الذي هو فوق طور النفس، فلا تكاد النفس تدرك الكثير منها فضلاً عن الإحاطة. وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها، فأنة واد يهيم فيه الفكر ولا يخلو منه بطائل، ولا يظفر بحقيقة. {قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: 91]. وربما أنقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه، وأصبح من الضالين الهالكين. نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين.ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه فم قدرتك أو اختيارك، بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها. إذ لو علمناها لتحرزنا منها، فلنتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة. وأيضاً فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول، لأنها إنما يوقف عليها

بالعادة، وقضية الاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر. وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً} [الإسراء: 85]، فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة، والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها، لترسخ صبغة التوحيد في النفس، على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا، وطرق سعادتنا، لاطلاعه على ما وراء الحس.قال صلى الله عليه و سلم: " من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة ". فأن وقف عند تلك الأسباب، فقد أنقطع وحقت عليه كلمة الكفر، وأن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحداً بعد واحد، فأنا الضامن له أن لا يعود إلا بالخيبة فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق. {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1-4]. ولا تثقن بما يزعم لك الفكر مع أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله

وسفه رأيه في ذلك. واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه أنه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه. إلا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات. وكذلك الأعمى أيضاً يسقط من الوجود عنده صنف المرعيات، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة، لما اقروا به. لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف، لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق، لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية. فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلق الله أكبر من خلق الناس. والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك، والله من ورائهم محيط. فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع به في اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك. وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فأن ذلك طمع في محال.ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك. على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فأنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه. وتفطن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد تبين لك الحق من ذلك. وإذا تبين ذلك، فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا، خرجت عن أن تكون مدركة، فيضل العقل في بيداء الأوهام، ويحار وينقطع. فإذا: التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيراتها، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها

إذ لا فاعل غيره. وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته، وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنة لا غير.وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين: "العجز عن الإدراك إدراك ". ثم أن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو

الإيمان فقط، الذي هو تصديق حكمي، فأن ذلك من حديث النفس. وإنما الكمال فيه حصول صفة منه، تتكيف بها النفس. كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد، وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود، حتى ينقلب المريد السالك ربانياً. والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف. وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين، قربة إلى الله تعالى، مندوب إليها، ويقول بدلك ويعترف به وبذكر مأخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين، لفر عنه، واستنكف أن يباشره، فضلاً عن التمسيح عليه للرحمة، وما بعد ذاك من مقامات العطف والحنو والصدقة. فهذا إنما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم، ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف. ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول، وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها. فمتى رأى يتيماً أو مسكيناً بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه، لا يكاد يصبر عن ذلك، ولو دفع عنه. ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده. وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به، والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة، هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف. وليس الاتصاف بحاصل عبئ مجرد العلم، حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة، فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق، ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة. فأن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع، وهذا علم أكثر النظار، والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة. واعلم أن الكمال عند الشارع في كلى ما كلف به إنما هو في هذا: فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف، وما طلب عمله من

العبادات، فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقيق بها. ثم أن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة. قال صلى الله عليه و سلم : " في رأس العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة "، فأن الصلاة صارت له صفة وحالاً يجد فيها منتهى لذته وقرة عينه، وأين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها، { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون: 4، 5]. اللهم وفقنا، و {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 6، 7].فقد تبين لك من جميع ما قررناه، أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس، ينشأ عنها علم اضطرارى للنفس، هو التوحيد، وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة، وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية. ويتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكاليف كلها وينبوعها، هو بهذه المثابة وأنه ذو مراتب: أولها التصديق القلبي الموافق للسان، وأعلاها حصول كيفية، من ذلك الاعتقاد القلبي، وما يتبعه من العمل، مستولية على القلب، فيستتبع الجوارح. وتندرج في طاعتها جميع التصرفات، حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني. وهذا أرفع مراتب الإيمان، وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة. إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين. قال صلى الله عليه وسلم:" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ". وفي حديث هرقل، لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه و

سلم وأحواله، فقال في أصحابه، هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، قال: لا! قال وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها، شأن الملكات إذا استقرت، فأنها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة. وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان، وهي في المرتبة الثانية من العصمة.

لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوباً سابقاً، وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تابعاً لأعمالهم وتصديقهم. فبهذه الملكة ورسوخها، يقع التفاوت في الإيمان، كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف.وفي تراجم البخاري رضي الله عنه، في باب الإيمان، كثير منه، مثل: أن الإيمان قول وعمل وأنه يزيد وينقص، وأن الصلاة والصيام من الإيمان، وأن تطوع رمضان من الإيمان، والحياء من الإيمان. والمراد بهذا كله الإيمان الكامل، الذي أشرنا إليه وإلى ملكته، وهو فعلي. وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه. فمن اعتبر أوائل الأسماء، وحمله على التصديق منع من التفاوت، كما قال أئمة المتكلمين، ومن اعتبر أو آخر الأسماء، وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت. وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق، إذ التصديق موجود في جميع رتبه، لأنه أول ما يطلق عليه اسم الإيمان، وهو المخلص من عهدة الكفر، والفيصل بين الكافر والمؤمن، فلا يجزي أقل منه. وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت، وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه، فافهم وإعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان، الذي في المرتبة الأولى، الذي هو تصديق، وعين أموراً مخصوصة، كلفنا التصديق بها بقلوبنا، واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بألسنتنا، وهي العقائد التي تقررت في الدين. قال صلى الله عليه و سلم ، حين سئل عن الإيمان فقال: " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر: خيره وشره ".وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام. ولنشر إليها مجملة لتتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه، فنقول: إعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق، الذي رد الأفعال كلها إليه، وأفرده بها كما قدمناه، وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا، لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود، إذ ذلك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا. فكلفنا: أولاً، اعتقاد تتريهه في ذاته عن مشابهة

المخلوقين، وإلا لما صح أنه خالق لهم، لعدم الفارق على هذا التقدير، ثم تتريهه عن صفات النقص، وإلا لشابه المخلوقين، ثم توحيده بالاتحاد، وإلا لم يتم الخلق للتمانع، ثم اعتقاد أنه عالم، قادر، فبدلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق، ومريد وإلا لم يخصص شئ من المخلوقات، ومقدر لكل كائن، وإلا فالإرادة حادثة. وأنه يعبدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالإيجاد، ولو كان للغناء الصرف كان عبثاً، فهو للبقاء السرمدي بعد الموت. ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد، لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة، وعدم معرفتنا بذلك، وتمام لطفه بنا في الأنباء بدلك، وبيان الطريقين. وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب. هذه أمهات العقائد الإيمانية، معللة بادلتها العقلية، وأدلتها من الكتاب وألسنة كثيرة. وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد، أكثر مثارها من

الآي المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل. فحدث بدلك علم الكلام.ولنبين لك تفصيل هذا المجمل. وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود، بالتتريه المطلق، الظاهر الدلالة من غير تأويل في أي كثيرة، وهي سلوب كلها وصريحة في بابها، فوجب الإيمان بها. ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها. ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه، مرة في الذات وأخرى في الصفات. فأما السلف فغلبوا أدلة التتريه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه. وقضوا بأن الآيات من كلام الله، فآمنوا بها و لم يتعرضوا لمعناها، ببحث ولا تأويل. وهذا معنى قول

الكثير منهم: إقرأوها كما جاءت، أي آمنوا بأنها من عند الله. ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها، لجواز أن يكون ابتلاء، فيجب الوقف والإذعان له. وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات، وتوغلوا في التشبيه: ففريق شبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه، عملاً بظواهر وردت بدلك، فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة أي التتريه المطلق، لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار. وتغليب آيات السلوب في التتريه المطلق، التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة، أولى من التعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية، وجمع بين الدليلين بتأويلها. ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام. وليس ذلك يدافع عنهم، لأنه قول متناقض، وجمع بين نفي وإثبات: أن كانا لمعقولية واحدة من الجسم، وأن خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة، فقد وافقونا في التتريه، و لم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه. ويتوقف مثله على الإذن. وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات، كإثبات الجهة والاستواء والتزول والصوت والحرف وأمثال ذلك. وآل قولهم إلى التجسيم، فترعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات، جهة لا كالجهات، نزول لا كالتزول، يعنون من الأجسام.وأندفع ذلك بما أندفع به الأول، و لم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي، لئلا يكّر النفي على معانيها بنفيها، مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن. ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له، وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم، فأنهم يحومون على هذا المعنى. ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم. ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الإنحاء، وألف المتكلمون في التتريه، حدثت بدعة المعتزلة، في

تعميم هذا التتريه في أي السلوب، فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة، زائدة على أحكامها، لما يلزم ذلك من تعدد القديم بزعمهم، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها، وقضوا بنفي صفة الإرادة فلزمهم نفي القدر لأن معناه سبق الإرادة للكائنات وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام. وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ، وإنما هو إدراك للمسموع أو المبصر. وقضوا بنفي الكلام لشبه ما فيّ السمع والبصر، و لم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق، وذلك بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة، ولقنها بعض

الخلفاء عن أئمتهم، فحمل الناس عليها. وخالفهم أئمة السلف، فاستحل لخلافهم أيسار كثير منهم ودماؤهم.وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد، دفعاً في صدور هذه البدع. وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق ونفي التشبيه. وأثبت الصفات المعنوية وقصر التتريه على ما قصره عليه السلف. وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق العقل والنقل. ورد على المبتدعة في ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح، وكمل العقائد في البعثة وأحوال المعاد والجنة والنار والثواب والعقاب. والحق بدلك الكلام في الإمامة، لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامة، في قولهم أنها من عقائد الإيمان. وأنها يجب على النبي تعيينها والخروج

عن العهدة فيها لمن هي له، وكذلك على الأمة. وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية، ولا تلحق بالعقائد، فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعة علم الكلام: أما لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلام صرف، وليست براجعة إلى عمل، وأما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو ننازعهم في إثبات الكلام النفسي. وكثر اتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري، واقتفي طريقته من بعده تلميذه، كابن مجاهد وغيره. وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم، وهذبها ووضع المقدمات العقلية، التي تتوقف عليها الأدلة، والأنظار، وذلك مثل: إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين. وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم. وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها، لتوقف تلك الأدلة عليها، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول. فكملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية. إلا أن صور الأدلة فيها بعض الأحيان، على غير الوجه الصناعي لسذاجة القوم، ولأن صناعة المنطق التي تسير بها الأدلة وتعتبر بها الأقيسة، لم تكن حينئذ ظاهرة في الملة، ولو ظهر منها بعض الشيء، فلم يأخذ به المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة، فكانت مهجورة عندهم لذلك.ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني من أئمة الأشعرية أمام الحرمين أبو المعالي، فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه. ثم لخصه في كتاب الإرشاد واتخذه الناس إماماً لعقائدهم. ثم انتشر من بعد ذلك

علم المنطق في الملة. وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية، بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط، يسبر به الأدلة منها كما يسبر من سواها. ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للأقدمين، فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدلت إلى ذلك. وربما أن كثيراً منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات. فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها، ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله، كما صار إليه القاضي، فصارت هذه الطريقة في مصطلحهم مباينة للطريقة الأولى، وتسمى طريقة المتأخرين. وربما ادخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية، وجعلوهم من خصوم العقائد، لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم. وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله، وتبعه الإمام

ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم. ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة، والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحداً، من اشتباه المسائل فيهما.واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته، وهو نوع استدلالهم غالباً. فالجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات، هو بعض من هذه الكائنات. إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم، وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد. وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية، فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد. وإذا تأملت

حال الفن في حدوثه، وكيف تدرج كلام الناس فيه صدراً بعد صدر، وكفهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة، علمت حينئذ ما قررناه لك في موضوع الفن، وأنه لا يعدوه.ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين، والتبست مسائل الكلام، بمسائل الفلسفة، بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر. ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع، ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تآليفهم. إلا أن هذه الطريقة، قد يعنى بها بعض طلبة العلم، للاطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج، لوفور ذلك فيها. وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام، فإنما هو في الطريقة القديمة للمتكلمين، وأصلها كتاب الإرشاد، وما حذا حذوه.ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده، فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب، فأنها وأن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم، فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع، ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم. وعلى الجملة، فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا. وأما الآن، فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباريء عن الكثير من إيهاماته وإطلاقاته. ولقد سئل الجنيد رحمه الله، عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه، فقال: ما هؤلاء، فقيل: قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص، فقال: "نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب". لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها. والله ولي المؤمنين.

الفصل الحادي عشر

في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر

إعلم أن عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة، كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها، التي هي المعدن والنبات والحيوان. وهذه كلها متعلقات القدرة الإلهية وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات، واقعة بمقصودها، متعلقة بالقدرة التي جعل الله لها عليها: فمنها منتظم مرتب، وهي الأفعال البشرية، ومنها غير منتظم ولا

مرتب، وهي أفعال الحيوانات غير البشر. وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع، فإذا قصد أيجاد شيء من الأشياء، فلأجل الترتيب بين الحوادث لا بد من التفطن بسببه أو عفته أو شرطه، وهي جملى الجملة مبادئه، إذ لا يوجد إلا ثانياً عنها ولا يمكن ايقاع المتقدم متأخراً ولا المتأخر متقدماً. وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخراً عنه، وقد يرتقي ذلك أو ينتهي. فإذا أنتهى إلى آخر المبادئ في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد، وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء بدأ بالمبدأ الأخير الذي أنتهى إليه الفكر، فكان أول عمله. ثم تابع ما بعده إلى آخر المسببات التي كانت أول فكرته مثلا، لو فكر في أيجاد سقف يكنه انتقل بدهنه إلى الحائط الذي يدعمه، ثم إلى الأساس الذي يقف عليه الحائط فهو آخر الفكر ثم يبدأ في العمل بالأساس، ثم بالحائط، ثم بالسقف، وهو آخر العمل.

وهذا معنى قولهم: أول العمل آخر الفكرة، وأول الفكرة آخر العمل، فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المرتبات لتوقف بعضها على

بعض. ثم يشرع في فعلها. وأول هذا الفكر هو المسبب الأخير، وهو آخرها في العمل. وأولها في العمل هو المسبب الأول وهو آخرها في الفكر. ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الإنتظام في الأفعال البشرية.

وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل، إذ الحيوانات إنما تدرك بالحواس ومدركاتها متفرقة خلية من الربط لأنه لا يكون إلا بالفكر. ولما كانت الحواس المعتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة، وغير المنتظمة إنما هي تبع لها، اندرجت حينئذ أفعال الحيوانات فيها، فكانت مسخرة للبشر. واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث، بما فيه، فكان كله في طاعته وتسخره.

وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه في قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30] فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان. وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته. فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى. واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج: فإن في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتيبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق، لأن لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع، لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه من القواعد. والله خلق الإنسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

الفصل الثاني عشر

في العقل التجريبي وكيفية حدوثه

إنك تسمع في كتب الحكماء قولهم أن الإنسان هو مدني الطبع، يذكرونه في إثبات النبوات وغيرها. والنسبة فيه إلى المدينة، وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري. ومعنى هذا القول، انه لا تمكن حياة المنفرد من البشر، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه. وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه. وتلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة أولاً، ثم المشاركة وما

بعدها. وربما تفضي المعاملة عند اتحاد الأعراض إلى المنازعة والمشاجرة فتنشأ المنافرة والمؤالفة، والصداقة والعداوة. ويؤول إلى الحرب والسلم بين الأمم والقبائل. وليس ذلك على أي وجه اتفق، كما بين الهمل من الحيوانات؛ بل للبشر بما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر، كما تقدم. جعل منتظماً فيهم، ويسرهم لإيقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكمية، ينكبون فيها عن المفاسد إلى المصالح، وعن الحسن إلى القبيح، بعد أن يميزوا القبائح والمفسدة، بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة؛ وعوائد معروفة بينهم؛ فيفارقون الهمل من الحيوان، وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الأفعال وبعدها عن المفاسد.

هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحسّ كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر؛ بل كلها تدرك بالتجربة وبها يستفاد، لإنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها، يظهر قريباً في الواقع؛ فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك. ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها مقتنصاً له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه، حتى يتعين له ما يجب

وينبغي، فعلاً وتركاً. وتحصل في ملابسة الملكة في معاملة أبناء جنسه. ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية. ولا بد بما تسعه التجربة من الزمن. وقد يسفل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك في أقرب زمن التجربة، إذ قلد فيها الآباء والمشيخة والأكابر، ولقن عنهم ووعى تعليمهم؛ فيستغني عن طول المعاناة في تتبع الوقائع واقتناص هدا المعنى من بينها. ومن فقد العلم في ذلك والتقليد فيه أو أعرض عن حسن استماعه واتباعه، طال غناؤه في التأديب بذلك؛ فيجري في غير مألوف ويدركها على غير نسبة؛ فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة الأوضاع بادية الخلل، ويفسد حاله في معاشه بين أبناء جنسه. وهذا معنى القول المشهور: "من لم يؤدبه والده أدبه الزمان". أي من لم يلقن الآداب في معاملة البشر من والديه- وفي معناهما المشيخة والأكابر- ويتعلم ذلك منهم، رجع إلى تعلمه بالطبع من الواقعات على توالي الايام؛ فيكون الزمان معلمه ومؤدبه لضرورة ذلك بضرورة المعاونة التي في طبعه.

وهذا هو العقل التجريبي، وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الأفعال

كما بيناه. وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره أهل العلوم، فلا يحتاج إلى تفسيره في هذا الكتاب. والله جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً- ما تشكرون.

الفصل الثالث عشر

في علوم البشر وعلوم الملائكة

إنا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم: أولها: عالم الحسّ، ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك، ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم منه وجود النفس الإنسانية علماً ضرورياً بما بين جنبينا من مدارك العلمية التي هي فوق مدارك الحسّ؛ فتراه عالماً آخر فوق

عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات، نحو الحركات الفعلية، فنعلم أن هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم الأرواح والملائكة. وفيه

ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا وبينها من المغايرة. وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته بالرؤيا وما نجد في النوم، ويلقى إلينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحيحة منها؛ فنعلم أنها حق ومن عالم الحق. وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحسّ. ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهاناً أوضح من هذا؛ فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلاً.

وما يزعمه الحكماء الإلهيون في تفصيل ذواته وترتبها، المسماة عندهم بالعقول، فليس شيء من ذلك بيقيني لاختلال شرط البرهان النظري فيه، كما هو مقرر في كلامهم في المنطق. لأن من شرطه أن تكون قضاياه أولية ذاتية. وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات، فلا سبيل للبرهان فيها. ولا يبقى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم إلا ما نقتبسه من الشرعيات التي يوضحها الإيمان ويحكمها. واعقد هذه العوالم في مدركنا عالم البشر؛ لأنه وجداني مشهود في مداركنا الجسمانية والروحانية. ويشترك في عالم الحسّ مع الحيوانات وفي عالم العقل والأرواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته، وهي ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعاقل والمعقول، وكأنه ذات حقيقتها الإدراك والعقل، فعلومهم حاصلة دائما مطابقة بالطبع لمعلوماتهم لا يقع فيها خلل البتة.

وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد أن لا تكون حاصلة. فهو

كله مكتسب، والذات التي يحصل فيها صور المعلومات وهي النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئاً شيئاً، حتى

تستكمل، ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها. فالمطلوبات فيها مترددة بين النفي والإثبات دائماً، بطلب أحدهما بالوسط الرابط بين الطرفين. فإذا حصل وصار معلوماً افتقر إلى بيان المطابقة، وربما أوضحها البرهان الصناعي، لكنه من وراء الحجاب. وليس كالمعاينة التي في علوم الملائكة. وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير إلى المطابقة بالعيان الإدراكي. فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع للتردد الذي في علمه، وعالم بالكسب والصناعة لتحصيله المطلوب بفكرة الشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذي أشرنا إليه إنما هو بالرياضة بالأذكار التي أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالتنزه عن المتناولات المهمة ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه. والله علم الإنسان ما لم يعلم.

الفصل الرابع عشر

في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنا نجد هذا الصنف من البشر تعتريهم حالة إلهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والنزوعية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدنية، فتجدهم

متنزهين عن الأحوال الربانية، من العبادة والذكر لله بما يقتضي معرفتهم به، مخبرين عنه بما يوحى إليهم في تلك الحالة، من هداية الأمة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدل فيهم كأنه جبلة فطرهم الله عليها. وقد

تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المدركين للغيب. وبينا هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على تركيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا ينخرم. وان الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى، استعداداً طبيعياً، كما في العناصر

الجسمانية البسيطة، وكما في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية. وهذا الاستعداد الذي في جانبي كل أفق من العوالم هو معنى الاتصال

وفوق العالم البشري عالم روحاني، شهدت لنا به الاثار التي فينا منه، بما يعطينا

من قوى الإدراك والإرادة فذوات العلم العالم إدراك صرف وتعقل محض، وهو عالم الملائكة؛ فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية استعداد للإنسلاخ من البشرية إلى الملكية، لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات، وفي لمحة من اللمحات. ثم تراجع بشريتها وقد تلقت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر. وهذا هو معنى الوحي وخطاب الملائكة. والأنبياء كلهم مفطورون عليه، كأنه جبلة لهم ويعالجون في ذلك الانسلاخ من الشدة والغطيط ما هو معروف عنهم. وعلومهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان، لا يلحقه الخطأ والزلل، ولا يقع فيه الغلط والوهم، بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب

وحصول الشهادة الواضحة، عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية، لا يفارق علمهم الوضوح، استصحاباً له من تلك الحالة الأولى، ولما هم عليه من الذكاء المفضي بهم إليها، يتردد ذلك فيهم دائما إلى أن تكمل هداية الأمة التي بعثوا لها، كما في قوله تعالى: {إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد، فاستقيموا إليه واستغفروه}[سورة000الآية000]. فافهم ذلك وراجع ما قدمناه لك أول الكتاب، في أصناف المدركين للغيب، يتضح لك شرحه وبيانه، فقد بسطناه هنالك بسطاً شافياً. والله الموفق.

الفصل الخامس عشر

في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قد بينا أول هذه الفصول أن الإنسان من جنس الحيوانات، وأن الله تعالى ميزه

عنها بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام وهو العقل التمييزي أو يقتنص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه، وهو العقل التجريبي؛ أو يحصل به في تصور الموجودات غائباً وشاهداً، على ما هي عليه، وهو العقل النظري. وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه، ويبدأ من التمييز فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدئه في التكوين، من النطفة والعلقة والمضغة. وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتنان علينا: {وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة}[السجدة :32] فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولا فقط، لجهله بجميع المعارف. ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته، فكمل ذاته الإنسانية في وجودها. وانظر إلى

قوله تعالى مبدأ الوحي على نبيه: {اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك اكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم }[العلق الآية5:1] أي أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلاً له بعد أن كان علقة ومضغة فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم الكسبي وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده، وهي الإنسانية. وحالتاه الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدأ الوحي. وكان الله عليماً حكيماً.

الفصل السادس عشر

في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة

وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات

إعلم أن الله سبحانه بعث إلينا نبينا محمداً صلى الله عليه و سلم يدعونا إلى النجاة والفوز بالنعيم، وأنزل عليه الكتاب الكريم باللسان العربي المبين، يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا إلى ذلك. وكان في خلال هذا الخطاب، ومن ضروراته، ذكر صفاته سبحانه وأسمائه، ليعرفنا بذاته؛ وذكر الروح المتعلقة بنا؛ وذكر الوحي والملائكة، الوسائط بينه وبين رسله إلينا. وذكر لنا يوم البعث وإنذاراته ولم يعين لنا الوقت في شيء منه. وثبت في هذا القرآن الكريم حروفاً من الهجاء مقطعة في أوائل بعض سوره، لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها. وسمى هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابهاً. وذم على اتباعها فقال تعالى: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله،، والراسخون في العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب}[آل عمران الآية00] وحمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على أن المحكمات هي المبينات الثابتة الأحكام. ولذا قال الفقهاء في اصطلاحهم: المحكم المتضح المعنى. وأنا المتشابهات فلهم فيها عبارات. فقيل هي التي تفتقر إلى نظر وتفسير يصحح معناها، لتعارضها مع آية أخرى أو مع العقل، فتخفى دلالتها وتشتبه. وعلى هذا قال ابن عباس: "المتشابه يؤمن به ولا يعمل به " وقال مجاهد وعكرمة: "كلما سوى آيات الأحكام والقصص متشابه "

وعليه القاضي أبو بكر وأمام الحرمين. وقال الثوري والشعبي وجماعة من علماء السلف: "المتشابه، ما لم يكن سبيل إلى علمه، كشروط الساعة وأوقات الإنذارات وحروف الهجاء في أوائل السور؛ وقوله في الآية: (هذه أم الكتاب) أي معظمه وغالبه والمتشابه اقله، وقد يرد إلى المحكم. ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتأويل أو بحملها على معان لا تفهم منها في لسان العرب الذي خوطبنا به. وسماهم أهل زيغ، أي ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة أهل البدع. وأن فعلهم ذلك قصد الفتنة التي هي الشرك أو اللبس على المؤمنين أو قصداً لتأويلها بما يشتهونه فيقتدون به في بدعتهم.

ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر بتأويلها ولا يعلمه إلا هو فقال: وما يعلم تأويله إلا

الله. ثم اثنى على العلماء بالإيمان بها فقط. فقال: والراسخون في العلم يقولون آمنا به. ولهذا جعل السلف والراسخون مستأنفاً، ورجحوه على العطف لأن الإيمان بالغيب ابلغ في الثناء ومع عطفه إنما يكون إيماناً بالشاهد، لأنهم يعلمون التأويل حينئذ فلا يكون غيباً. ويعضد ذلك قوله: {كل من عند ربنا} [سورة: آية] ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر. أن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعاني التي وضعها العرب لها، فإذا استحال إسناد الخبر إلى مخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حينئذ؛ وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتمسه؛ فلا سبيل لنا إلى ذلك. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: "إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن، فهم الذين عنى الله"، فأحذروهم. هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة. وجاء في السنة ألفاظ مثل ذلك محملها عندهم محمل الآيات لأن المنبع واحد.

وإذا تقررت أصناف المتشابهات على ما قلناه، فلنرجع إلى اختلاف الناس فيها. فأما ما يرجع منها على ما ذكروه إلى الساعة وأشراطها وأوقات الإنذارات وعدد الزبانية وأمثال ذلك، فليس هذا والله أعلم من المتشابه؛ لأنه لم يرد فيه

لفظ مجمل ولا غيره وإنما هي أزمنة لحادثات أستأثر الله بعلمها بنصه في كتابه وعلى لسان نبيه. وقال: " إنما علمها عند الله ". والعجب ممن عدها من المتشابه. وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فحقيقتها حروف الهجاء وليس ببعيد أن تكون مرادة. وقد قال الزمخشري: فيها إشارة إلى بعد الغاية في الإعجاز، لأن القرآن المنزل مؤلف منها، والبشر فيها سواء، والتفاوت موجود في دلالتها بعد التأليف. وإن عدل عن هذا الوجه الذي يتضمن الدلالة على الحقيقة فإنما يكون بنقل صحيح، كقولهم في طه، إنه نداء من طاهر وهادي وأمثال ذلك. والنقل الصحيح متعذر، فيجيء المتشابه فيها من هذا الوجه. وأما الوحي والملائكة والروح والجن، فاشتباهها من خفاء دلالتها الحقيقية لأنها غير متعارفة؛ فجاء التشابه فيها من أجل ذلك. وقد الحق بعض الناس بها كل ما في معناها من أحوال القيامة والجنة والدجال والفتن والشروط، وما هو بخلاف العوائد المألوفة، وهو غير بعيد؛ إلا أن الجمهور لا يوافقونهم عليه. وسيما المتكلمون فقد عينوا محاملها على ما تراه في كتبهم، ولم يبق من المتشابه إلا الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه، مما يوهم ظاهره نقصاً أو تعجيزاً. وقد اختلف الناس في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قررنا مذهبهم. وتنازعوا وتطرقت البدع إلى العقائد. فلنشر إلى بيان مذاهبهم وإيثار الصحيح منه على الفاسد فنقول، "وما توفيقي إلا بالله ": إعلم أن الله سبحانه وصف نفسه في كتابه بأنه عالم، قادر، مريد، حي، سميع، بصير متكلم، جليل، كريم، جواد، منعم، عزيز، عظيم. وكذا أثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه والقدم واللسان، إلى غير ذلك من الصفات: فمنها ما يقتضي صحة ألوهية، مثل العلم والقدرة والإرادة، ثم الحياة التي هي شرط جميعها، ومنها ما هي صفة كمال، كالسمع والبصر والكلام؛ ومنها ما يوهم النقص كالاستواء والنزول والمجيء،

وكالوجه واليدين والعينين التي هي صفات المحدثات. ثم اخبر الشارع أنا نرى ربنا يوم القيامة كالقمر ليلة البدر، لا نضام في رؤيته كما ثبت في الصحيح.

فأما السلف من الصحابة والتابعين فاثبتوا له صفات الألوهية والكمال وفوضوا إليه
ما يوهم النقض ساكتين عن مدلوله. ثم اختلف الناس من بعدهم، وجاء المعتزلة فاثبتوا هذه الصفات أحكاماً ذهنية مجردة؛ ولم يثبتوا صفة تقوم بذاته، وسموا ذلك توحيداً، وجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله، ولا تتعلق بها قدرة الله تعالى، سيما الشرور والمعاصي منها؛ إذ يمتنع على الحكيم فعلها. وجعلوا مراعاة الأصلح للعباد واجبة عليه. وسموا ذلك عدلاً، بعد أن كانوا أولاً يقولون بنفي القدر، وان الأمر كله مستأنف بعلم حادث وقدرة وإرادة كذلك، كما ورد في الصحيح. وإن عبد الله بن عمر تبرأ من معبد الجهني وأصحابه القائلين بذلك. وانتهى نفي القدر إلى واصل بن عطاء الغزالي، منهم، تلميذ الحسن البصري، لعهد عبد الملك بن مروان. ثم آخراً إلى معمر السلمي، ورجعوا عن القول به. وكان منهم أبو الهذيل العلاف، وهو شيخ المعتزلة. اخذ الطريقة عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل. وكان من نفاة القدر، واتبع رأي الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية لظهور مذاهبهم يومئذ.

ثم جاء إبراهيم النظام، وقال بالقدر، واتبعوه. وطالع كتب الفلاسفة وشدد في نفي الصفات وقرر قواعد الاعتزال. ثم جاء الجاحظ والكعبي والجبائي، وكانت طريقتهم تسمى علم الكلام: أما لما فيها من الحجاج والجدال، وهو الذي يسمى كلاماً؛ وأما أن اصل طريقتهم نفي صلة الكلام. فلهذا كان الشافعي يقول: حقهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم. وقرر هؤلاء طريقتهم وأثبتوا منها وردوا، إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعرى وناظر بعض مشيختهم في مسائل الصلاح والأصلح؛ فرفض طريقتهم، وكان على رأي عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحرث بن أسد المحاسبي من أتباع
السلف وعلى طريقة السنة. فأيد مقالاتهم بالحجج الكلامية وأثبت الصفات القائمة بذات الله تعالى، من العلم والقدرة والإرادة التي يتم بها دليل التمانع وتصح المعجزات للأنبياء. وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر لإنها وإن اوهم ظاهراً النقص بالصوت والحرف الجسمانيين؛ فقد وجد للكلام عند العرب مدلول آخر غير الحروف والصوت، وهو ما يدور في الخلد. والكلام حقيقة فيه دون الأول؛ فأثبتوها لله تعالى وانتفى إيهام النقص. وأثبتوا هذه الصفة قديمة عامة التعلق بشأن الصفات الأخرى. وصار القرآن اسماً مشتركاً بين القديم بذات الله تعالى، وهو الكلام النفسي والمحدث الذي هو الحروف المؤلفة المقروءة بالأصوات. فإذا قيل
قديم،فالمراد الأول؛ وإذا قيل مقروء، مسموع، فلدلالة القراءة والكتابة عليه. وتورع الإمام أحمد بن حنبل من إطلاق لفظ الحدوث عليه، لأنه لم يسمع من السلف قبله: لا إنه يقول أن المصاحف المكتوبة قديمة؛ ولا أن القراءة الجارية على ألسنة قديمة، وهو شاهدها محدثة. وإنما منعه من ذلك الورع الذي كان عليه. وأما غير ذلك فإنكار للضروريات، وحاشاه منه. وأما السمع والبصر، وإن كان يوهم إدراك الجارحة، فهو يدل أيضاً لغة على إدراك المسموع والمبصر، وينتفي إيهام النقص حينئذ لأنه حقيقة لغوية فيهما. وأما لفظ الاستواء والمجيء والنزول والوجه واليدين والعينين- وأمثال ذلك؛ فعدلوا عن حقائقها اللغوية فما فيها من إيهام النقص بالتشبيه إلى مجازاتها، على طريقة العرب، حيث تتعذر حقائق الألفاظ؛ فيرجعون إلى المجاز. كما في قوله تعالى:

(يريد أن ينقض) وأمثاله، طريقة معروفة لهم غير منكرة ولا مبتدعة. وحملهم على هذا التأويل، وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التفويض أن جماعة من اتباع السلف وهم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ارتكبوا في محمل هذه الصفات فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى، مجهولة الكيفية. فيقولون في

(استوى على العرش) تثبت له استواء، بحيث مدلول اللفظة، فراراً من تعطيله. ولا نقول بكيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب، من قوله: (ليس كمثله شيء) ، (سبحان الله عما يصفون)، (تعالى الله عما يقول الظالمون)، (لم يلد ولم يولد) ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء، والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن، وهو جسماني. وأما التعديل الذي يشنعون بإلزامه، وهو تعطيل اللفظ، فلا محذور فيه. وإنما المحذور في تعطيل الآلة. وكذلك يشنعون بإلزام التكليف بما لا يطاق، وهو تمويه. لأن التشابه لم يقع في التكاليف. ثم يدعون أن هذا مذهب السلف، وحاشا لله من ذلك. وإنما مذهب السلف ما قررناه أولاً من تفويض المراد بها إلى الله، والسكوت عن فهمها. وقد يحتجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك: "أن الاستواء معلوم الثبوت لله " وحاشاه من ذلك، لأنه يعلم مدلول الاستواء. وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة، وهو الجسماني، وكيفيتة أي حقيقته. لأن حقائق الصفات كلها كيفيات، وهي مجهولة الثبوت لله. وكذلك يحتجون على إثبات المكان بحديث السوداء، " وأنها لما قال لها النبي صلى الله عليه و سلم : أين الله؛ وقالت: في السماء، فقال: أعتقها فإنها مؤمنة ". والنبي صلى الله عليه و سلم لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله؛ بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر، أن الله في السماء، فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه. والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للافتقار. ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتنزيه مثل (ليس كمثله شيء) وأشباهه. ومن قوله: (وهو الله في السموات وفي الأرض)، إذ الموجود لا يكون في مكانين، فليست في هذا للمكان قطعاً، والمراد غيره. ثم طردوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين، والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات أعم من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني

منها. وهذا شيء لا يعرف في اللغة. وقد درج على ذلك الأول والآخر منهم. ونافرهم أهل السنة من المتكلمين الأشعرية والحنفية. ورفضوا عقائدهم في ذلك، ووقع بين متكلمي الحنفية ببخارى وبين الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ما هو معروف. وأما المجسمة ففعلوا مثل ذلك في إثبات الجسمية، وأنها لا كالأجسام. ولفظ الجسم له يثبت في منقول الشرعيات. وإنما جرّأهم عليه إثبات هذه الظواهر؛ فلم يقتصروا عليه، بل توغلوا واثبتوا الجسمية، يزعمون فيها مثل ذلك وينزهونه بقول متناقض سفساف، وهو قولهم: "جسم لا كالأجسام ". والجسم في لغة العرب هو العميق المحدود وغير هذا التفسير من أنه القائم بالذات أو المركب من الجواهر وغير ذلك، فاصطلاحات للمتكلمين يريدون بها غير المدلول اللغوي. فلهذا كان المجسمة أوغل في البدعة بل والكفر. حيث أثبتوا لله وصفاً موهماً يوهم النقص لم يرد في كلامه، ولا كلام نبيه. فقد تبين لك الفرق بين مذاهب السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمبتدعة من المعتزلة والمجسمة بما أطلعناك عليه. وفي

المحدثين غلاة يسمون المشبه لتصريحهم بالتشبيه، حتى إنه يحكى عن بعضهم أنه قال: اعفوني من اللحية والفرج وسلوا عما بدا لكم من سواهما. وإن لم يتأول ذلك لهم، بأنهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة، وحملها على ذلك المحمل الذي لأئمتهم؛ وإلا فهو كفر صريح والعياذ بالله. وكتب أهل السنة مشحونة بالحجاج على هذه البدع، وبسط الرد عليهم بالأدلة الصحيحة. وإنما أومأنا إلى ذلك إيماء يتميز به فصول المقالات وجملها. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأما الظواهر الخفية الأدلة والدلالة، كالوحي والملائكة والروح والجن والبرزخ وأحوال القيامة والدجال والفتن والشروط، وسائر ما هر متعذر على الفهم أو مخالف للعادات؛ فإن حملناه على ما يذهب إليه الأشعرية في تفاصيله، وهم

أهل السنة، فلا تشابه؛ وإن قلنا فيه بالتشابه، فلنوضح القول فيه بكشف الحجاب عنه فنقول: إعلم أن العالم البشرى أشرف العوالم من الموجودات، وارفعها، وهو وإن اتحدت حقيقة الإنسانية فيه فله أطوار يخالف كل واحد منها الأخر بأحوال تختص به حتى كان الحقائق فيها مختلفة.

فالطور الأول: عالمه الجسماني بحسه الظاهر وفكره المعاشي وسائر تصرفاته التي

أعطاه إياها وجوده الحاضر.

الطور الثاني: عالم النوم، وهو تصور الخيال بإنفاذ تصوراته جائلة في باطنه فيدرك منها بحواسه الظاهرة مجردة عن الأزمنة والأمكنة وسائر الأحوال الجسمانية، ويشاهدها في إمكان ليس هو فيه. ويحدث للصالح منها البشرى بما يترقب من مسراته الدنيوية والأخروية، كما وعد به الصادق صلوات الله عليه. وهذان الطوران عامان في جميع أشخاص البشر، وهما مختلفان في المدارك كما تراه.

الطور الثالث: طور النبوة، وهو خاص بإشراف صنف البشر بما خضهم الله به من

معرفته وتوحيده، وتنزل ملائكته عليهم بوحيه، وتكليفهم بإصلاح البشر في أحوال كلها مغايرة للأحوال البشرية الظاهرة.

الطور الرابع: طور الموت الذي تفارق أشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة إلى

وجود قبل القيامة يسمى البرزخ يتنعمون فيه ويعذبون على حسب أعمالهم ثم يفضون إلى يوم القيامة الكبرى، وهي دار الجزاء الأكبر نعيماً وعذاباً في الجنة أو في النار.

والطوران الأولان شاهدهما وجداني، والطور الثالث النبوي شاهده المعجزة والأحوال المختصة بالأنبياء؛ والطور الرابع شاهده ما تنزل على الأنبياء من وحي الله تعالى في المعاد وأحوال البرزخ والقيامة، مع أن العقل يقتضي به،

كما نبهنا الله عليه، في كثير من آيات البعثة. ومن أوضح الدلالة على صحتها أن أشخاص الإنسان لو لم يكن لهم وجود آخر بعد الموت غير هذه المشاهد يتلقى فيه أحوالاً تليق به. لكان إيجاده الأول عبثاً. إذ الموت إذا كان عدماً كان مآل الشخص إلى العدم، فلا يكون لوجوده الأول حكمة. والعبث على الحكيم محال. وإذا

تقررت هذه الأحوال الأربعة، فلنأخذ في بيان مدارك الإنسان فيها كيف تختلف اختلافاً بيناً يكشف لك غور المتشابه. فأما مداركه في الطور الأول فواضحة جلية. قال الله تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة}[النحل الآية 78]. فبهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف ويستكمل حقيقة إنسانية ويوفي حق العبادة المفضية به إلى النجاة.

وأما مداركه فني الطور الثاني، وهو طور النوم، فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها. لكن ليست في الجوارح كما هي في اليقظة. لكن الرأي يتيقن كل شيء أدركه في نومه لا يشك فيه ولا يرتاب، مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادي لها. والناس في حقيقة هذه الحال فريقان: الحكماء، ويزعمون أن الصور الخيالية يدفعها الخيال بحركة الفكر إلى الحسّ المشترك الذي هو الفصل المشترك بين الحش الظاهر والحس الباطن، فتصور محسوسة بالظاهر في الحواس كلها. ويشكل عليهم هذا بأن المرائي الصادقة التي هي من الله تعالى أو من الملك أثبت وأرسخ في الإدراك من المرائي الخيالية الشيطانية، مع أن الخيال فيها على ما قرروه واحد.

الفريق الثاني: المتكلمون، أجملوا فيها القول، وقالوا: هو إدراك يخلقه الله في الحاسة فيقع كما يقع في اليقظة، وهذا أليق، وإن كنا لا نتصور كيفيته.

وهذا الإدراك النومي أوضح شاهدٍ على ما يقع بعده من المدارك الحسية في الأطوار.

وأما الطور الثالث، وهو طور الأنبياء، فالمدارك الحسية فيها مجهولة الكيفية عند وجدانيته عندهم بأوضح من اليقين. فيرى النبي الله والملائكة، ويسمع كلام الله منه أو من الملائكة، ويرى الجنة والنار، والعرش والكرسي، ويخترق السموات السبع في إسرائه ويركب البراق فيها، ويلقى النبيين هنالك، ويصلي بهم، ويدرك أنواع المدارك في الحسية، كما يدرك في طوره الجسماني والنومي، بعلم ضروري يخلقه الله له، لا بالإدراك العادي للبشر في الجوارح، ولا يلتفت في ذلك إلى ما يقوله ابن سينا من تتزيله أمر النبوة على أمر النوم في دفع الخيال صورة إلى الحسّ المشترك. فإن الكلام عليهم هنا أشد من الكلام في النوم، لأن هذا التتزيل طبيعة واحدة كما قررناه، فيكون على هذا حقيقة الوحي والرؤيا من النبي واحدة في يقينها وحقيقتها، وليست كذلك على ما علمت بن رؤيا النبي صلى الله عليه و سلم قبل الوحي ستة أشهر وأنها كانت بمدة الوحي ومقدمته، ويشعر ذلك بأنه رؤية في الحقيقة. وكذلك حال الوحي في نفسه فقد كان يصعب عليه ويقاسي منه شدة كما هي في الصحيح، حتى كان القرآن يتترل عليه آياتٍ مقطعات. وبعد ذلك نزل عليه (براءة) في غزوة (تبوك) جملةً واحدةً، وهو يسير على ناقته. فلو كان ذلك من تترل الفكر إلى الخيال فقط، ومن الخيال إلى الحس المشترك، لم يكن بين هذه الحالات فرق. وأما الطور الرابع، وهو طور الأموات في برزخهم الذي أوله القبر، وهم مجردون عن البدن، أو في بعثتهم عندما يرجعون إلى الأجسام، فمداركهم الحسية موجودة، فيرى الميت في قبره الملكان يسائلانه، ويرى مقعده من الجنة أو النار بعيني رأسه،

ويرى شهود الجنازة ويسمع كلامهم وخفق نعالهم في الانصراف عنه، ويسمع ما يذكرونه به من التوحيد أو من تقرير الشهادتين، وغير ذلك. وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم وقف على قليب بدر، وفيه قتلى المشركين من قريش، وناداهم بأسمائهم، فقال عمر: يا رسول الله ! أتكلم هؤلاء الجيف؛ فقال صلى الله عليه و سلم : " والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع منهم لما أقول ". ثم في البعثة يوم القيامة يعاينون بأسمائهم وأبصارهم- كما كانوا يعاينون في الحياة- من نعيم الجنة على مراتبه وعذاب النار على مراتبه، ويرون الملائكة ويرون ربهم، كما ورد في الصحيح: إنكم ترون ربكم يوم القيامة، كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته. وهذه المدارك لم تكن لهم في الحياة الدنيا وهي حسية مثلها، وتقع في الجوارح بالعلم الضروري الذي يخلقه الله كما قلناه. وسر هذا أن تعلم أن النفس الإنسانية هي تنشأ بالبدن وبمداركه؛ فإذا فارقت البدن بنومٍ أو بموتٍ أو صار النبي حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدارك الملكية، فقد استصحبت ما كان معها من المدارك البشرية مجردةً عن الجوارح، فيدرك بها في ذلك الطور أي إدراكٍ شاءت منها، أرفع من إدراكها، وهي في الجسد. قاله الغزالي رحمه الله، وزاد على ذلك أن النفس الإنسانية صورة تبقى لها، بعد المفارقة فيها العينان والأذنان وسائر الجوارح المدركة أمثالاً لها، كان في البدن وصوراً.

وأنا أقول: إنما يشير بذلك إلى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في بدنها زيادة على الإدراك. فإذا تفطنت لهذا كله علمت أن هذه المدارك موجودة في الأطوار الأربعة، لكن ليس على ما كانت في الحياة الدنيا؛ وإنما هي تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الأحوال. ويشير المتكلمون إلى ذلك إشارة مجملة بأن الله يخلق فيها علماً ضرورياً بتلك المدارك، أي

مدرك كان، ويعنون به هذا القدر الذي أوضحناه. وهذه نبذة أومأنا بها إلى ما يوضح القول في المتشابه. ولو أوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه. فلنفزع إلى الله سبحانه في الهداية والفهم عن أنبيائه وكتابه، بما يحصل به الحق في توحيدنا، والظفر بنجاتنا والله يهدي من يشاء.

الفصل السابع عشر

في علم التصوف

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم،

لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذةٍ ومالٍ وجاهٍ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. وقال القشيري رحمة الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس.

والظاهر أنه لقب. ومن قال: اشتقاقه من الصفاء، أو من الصفة؛ فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه.قلت: والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون

بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة، اختصوا بمآخذ مدركة لهم؛ وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك،وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم؛ وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض

والبسط والرضى والغضب والصبر والشكر، وأمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكاتٍ وإراداتٍ وأحوالٍ، وهي التي يتميز بها الإنسان. وبعضها ينشأ من بعض، كما ينشا العلم عن الأدلة، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به، والنشاط عن الحمام، والكسل عن الإعياء. وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته، لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدةً حال نتيجة تلك المجاهدة. وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادةٍ، فترسخ وتصير مقامٍ للمريد؛ وإما أن لا تكون عبادةً، وإنما تكون صفةً حاصلةً للنفس. من حزنٍ أو سرورٍ أو نشاطٍ أو كسلٍ أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المريد يترقى من مقامٍ إلى مقامٍ، إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال صلى الله عليه و سلم : " من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة ". فالمريد لا بد له من الترقي في هذه الأطوار، وأصلها كلها الطاعة والإخلاص، ويتقدمها الإيمان ويصاحبها، وتنشأ عنها الأحوال والصفات نتائجٍ وثمراتٍ. ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان. وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله.

وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية. فلذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله، وينظر في حقائقها؛ لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس، لأن الغفلة عن هذا كأنها

شاملة.وغاية أهل العبادات، إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع، انهم يأتون بالطاعات مخلصةً من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال. وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد، ليطلعوا على أنها خالصةً من التقصير أولاً؛ فظهر أن أصل طريقتهم كفها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات؛ ثم تستقر للمريد مقاماً، وبترقى منها

إلى غيرها. ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظٍ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف، اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظٍ يتيسر فهمه منه. فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحدٍ غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين: صنفٍ مخصوصٍ بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات؛ وصنفٍ مخصوصٍ بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي منها من ذوقٍ إلى ذوقٍ، وشرحٍ الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقتهم. فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك،

كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له؛ ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم. وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء، فدون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم. وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً، بعد أن كانت الطريقة عبادةً فقط وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.ثم أن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الروح، وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه وتجدد نشؤه، وأعان على ذلك الذكر؛ فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزيد، إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً. ويكشف حجاب الحس، ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك. فيتعرض حينئذٍ للمواهب

الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى، أفق الملائكة. وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم. وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية، وتصيرطوع إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون، ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه؛ بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة، ويتعوذون منه إذا هاجمهم. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة، وكان حطهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ؛ لكنهم لم يقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها. وتبعهم في ذلك أهل الطريقة، ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم، ومن تبع طريقتهم من بعدهم.ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في المدارك التي وراءه، واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك، باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر، حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوئها وتغذيتها. فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذٍ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش إلى الطش. هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة.ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم، إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة، وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين. وليس مرادنا إلا الكشف الناشيء عن الاستقامة. ومثاله أن المرآة الصقيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة، وحوذي بها جهة المرئي؛ فإنه يتشكل فيه معوجا على غير صورته. وإن كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحاً. فالاستقامة للنفس، كالانبساط للمرآة، فيما ينطبع فيها من الأحوال. ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف، تكلموا في حقائق

الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك، وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم. وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق، رداً وقبولاً؛ إذ هي من قبيل الوجدا نيات.

تفصيل وتحقيق: يقع كثيراً في كلام أهل العقائد، من علماء الحديث والفقه أن

الله تعالى مباين لمخلوقاته. ويقع للمتكلمين أنه لا مباين ولا متصل. ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات: أما بمعنى الحلول فيها؛ أو بمعنى أنه هو عينها، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً. فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحدٍ منها، حتى تتضح معانيها فنقول، أن المباينة تقال لمعنيين:

أحدهما المباينة في الحيز والجهة، ويقابله الاتصال. وتشعر هذه المقابلة على

هذه التقيد بالمكان: أما صريحاً، وهو تجسيم؛ أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة. وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباينة، فيحتمل غير هذا المعنى. من أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة وقالوا: لا يقال في البارئ أنه مباين مخلوقاته، ولا متصل بها، لأن ذلك إنما يكون للمتحيزات. وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده، فهو مشروط بصحة الاتصاف أولاً، وأما مع امتناعه فلا؛ بل يجوز الخلو عن المعنى وضده، كما يقال في الجماد، لا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب ولا أمي. وصحة الإتصاف بهذه المباينة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها. والبارئ سبحانه منزه عن ذلك. ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين وقال: "ولا يقال في البارئ مباين للعالم ولا متصل به، ولا داخل فيه ولا خارج عنه. وهو معنى ما يقوله الفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه، بناءً على وجود الجواهر غير المتحيزة. أنكرها

المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارئ في أخص الصفات، وهو مبسوط في علم الكلام.

وأما المعنى الأخر للمباينة، فهو المغايرة والمخالفة؛ فيقال: البارئ مباين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته. ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط. وهذه المباينة هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدمين كاهل الرسالة ومن نحا منحاهم. وذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية، إلى أن البارئ تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وربما زعموا انه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو، مثل أفلاطون وسقراط؛ وهو الذي يعينه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة ويحاولون الرد عليه لأنه ذاتان، تنتفي إحداهما، أو تندرج اندراج الجزء؛ فإن تلك مغايرة صريحة، ولا يقولون بذلك. وهذا الاتحاد هو الحلول الذي تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام، وهو أغرب لأنه حلول قديم في محدثٍ أو اتحاده به. وهو أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة. وتقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين:

الأولى: أن ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومعقولها، متحدة بها في المتصورين، وهي كلها مظاهر له، وهو القائم عليها، اي المقوم لوجودها، بمعنى لولاه كانت عدما وهو رأي أهل الحلول.

الثانية: طريق أهل الوحدة المطلقة وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد؛ فنفوها بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات. وغالطوا في غيرية المظاهر المدركة بالحس والعقل بأن ذلك من المدارك البشرية، وهي أوهام. ولا يريدون الوهم الذي هو قسيم العلم والظن والشك؛ وإنما يريدون أنها كلها عديم في الحقيقة، وجود في المدرك

البشري فقط. ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم، لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقرره بعد، بحسب الإمكان. والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال، كما في المدارك البشرية، غير مفيدٍ؛ لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية؛ وإنما هي حاصلة للأنبياء بالفطرة ومن بعدهم للأولياء بهدايتهم. وقصد من يتصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال. وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض.

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه؛ فأتى بالأغمض فالأغمض، بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم. كما فعل الفرغاني، شارح قصيدة ابن الفارض، في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح؛ فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه، أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية، التي هي مظهر الأحدية، وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير. ويسمون هذا الصدور بالتجلي. وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه، وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور، لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: "كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق ليعرفوني". وهذا الكمال في الإيجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقائق، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين، والكمل من أهل الملة المحمدية. وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية، وهي مرتبة المثال؛ ثم عنها العرش، ثم الكرسي، ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرتق، فإذا تجلت، فهي

في عالم الفتق. انتهى.ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات، وهو كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه، وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب فإنه لا يعرف في شيء من مناحيه. وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة، وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه، يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله، بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها.والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى، وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها. ثم أن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب. كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها، وزيادة القوة المعدنية؛ ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة

المعدنية وزيادة قوتها في نفسها؛ وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية؛ ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة. وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل، هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئيةً، وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه، لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة، ولا من جهة المادة؛ فالكل واحدٍ وهو نفس الذات الإلهية، وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتبار هو المفضل لها؛ كالإنسانية مع الحيوانية. إلا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها. فتارةً يمثلونها بالجنس مع النوع، في كل موجود كما ذكرناه؛ وتارةً بالكل مع الجزء، على طريقة المثال. وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه، وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال. والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب، أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما يقوله الحكماء في الألوان، من أن وجودها مشروط بالضوء؛ فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه.وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كفها مشروطة بوجود المدرك الحسي؛ بل والموجودات

المعقولة والمتوهمة أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلي؛ فإذا، الوجود المفضل كله مشروط بوجود المدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل في الوجود، بل هو بسيط واحد. فالحر والبرد، والصلابة واللين، بل والأرض والماء، والنار والسماء والكواكب، إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها؛ لما جعل في المدرك من التفصيل، الذي ليس في الموجود، وإنما هو في المدارك فقط. فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل، إنما هو إدراك واحذ، وهو أنا لا غيره. ويعتبرون ذلك بحال النائم؛ فانه إذا نام وفقد الحس الظاهر، فقد كل محسوسٍ، وهو في ذلك الحالة؛ إلا ما يفضله له الخيال. قالوا: فكذلك اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كفها على التفصيل بنوع مدركه البشري، ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل؛ وهذا هو معنى قولهم: الوهم، لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية.هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان، وهو في غاية السقوط؛ لأنا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون إليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا، وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا. والإنسان قاطع بذلك، ولا يكابر أحد نفسه في اليقين، مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون: أن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة، ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات، ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق، وهو مقام العارف المحقق. ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع، وهي عقبة صعبة؛ لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها، فتخسر صفقته. فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة.ثم أن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك؛ فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه، وملأوا الصحف منه، مثل الهروي، في كتاب المقامات له، وغيره. وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ثم ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم. وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية

المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة، مذهباً لم يعرف لأولهم؛ فأشرب كل واحدٍ من الفريقين مذهب الأخر. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم. وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب، ومعناه

راس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة، حتى يقبضه الله. ثم يورث مقامة الأخر من أهل العرفان. وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات، في فصول التصوف منها، فقال: "جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد". وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي؛ وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم. فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به. ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قاله الشيعة في النقباء. حتى إنهم لما اسندوا لباس خرقة التصوف، ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونحلتهم، رفعوه إلى علي رضي الله عنه، وهو من هذا المعنى أيضاً. وإلا فعلي، رضي الله عنه، لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لباس ولا حال. بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم وأكثرهم عبادة. ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه على الخصوص، بل كان الصحابة كفهم أسوةً في الدين والزهد والمجاهدة.

تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم. نعم أن الشيعة يخيلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علي بالفضائل دون من سواه من الصحابة ذهاباً مع عقائد التشيع المعروفة لهم. والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها ما هو معروف؛ فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع. ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه راس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيهاً بالإمام في الظاهر، وأن يكون على وزانه في الباطن وسموه قطباً لمدار المعرفة

عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغةً في التشبيه. فتأفل ذلك.

يشهد بذلك كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي، وما شحنوا به كتبهم في ذلك، مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات؛ وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

تذييل: وقد رأيت أن أجلب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف، كبير الأولياء بالأندلس، أبي مهدي عيسى بن الزيات، كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي التي وقعت له في كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة أو يكاد يصرح بها وهي قوله:

ما وحد الواحد من واحدٍ   إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته   تثنية أبطلها الواحد

#توحيده إياه توحيده   ونعت من ينعته لأحد

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه: "استشكل الناس إطلاق لفظ الجحود على كل من وخد الواحد ولفظ الإلحاد على من نعته ووصفه. واستبشعوا هذه الأبيات وحملوا قائلها على الكفر واستخفوه. ونحن نقول على رأي هذه الطائفة أن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت عين القدم وأن الوجود كله حقيقة

واحدة وآنية واحدة. وقد قال أبو سعيد الجزار من كبار القوم: الحق عين ما ظهر وعين ما بطن. ويرون أن وقوع التعدد في تلك الحقيقة وجود الاثنينية. وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الضلال والصدا والمرأى. وأن كل ما سوى عين القدم، إذا استتبع فهو عدم. وهذا معنى: كان الله؛ ولا شيء معه؛ وهو الآن على ما هو عليه، كان عندهم. ومعنى قول لبيد الذي صدقه رسول صلى الله عليه و سلم في قوله: " إلا كل شيء، ما خلا الله، باطل ". قالوا فمن وحد ونعت، فقد قال بموجد محدثٍ، هو نفسه؛ وتوحيد محدثٍ هو فعله، موجدٍ قديمٍ، هو معبود.

وقد تقدم معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث، وعين الحدوث الآن ثابتة بل متعددة، والتوحيد مجحود، والدعوى كاذبة. كمن يقول لغيره، وهما معاً في بيت واحد: ليس في البيت غيرك! فيقول الأخر بلسان حاله: لا يصح هذا إلا لو عدمت أنت!وقد قال بعض المحققين في قولهم: "خلق الله الزمان "، هذه ألفاظ تناقض أصولها، لأن خلق الزمان متقدم على الزمان، وهو فعل لا بد من وقوعه في الزمان؛ وإنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق وعجز اللغات عن تأدية الحق فيها وبها. فإذا تحقق أن الموحد هو الموحد، وعدم ما سواه جملة، صح التوحيد حقيقة. وهذا معنى قولهم: "لا يعرف الله إلا الله ". ولا حرج على من وحد الحق مع بقاء الرسوم والآثار؛ وإنما هو من باب: "حسنات الأبرار سيئات المقربين ". لأن ذلك لازم التقييد والعبودية والشفعية. ومن ترقى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصاً، مع علمه بمرتبته، وأنه تلبيس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود، ويطهر من دنس حدوثه عين الجمع. وأعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة. ومدار المعرفة بكل اعتبارٍ على الانتهاء إلى الواحد؛ وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض والتنبيه والتفطين، لمقام أعلى، ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق، عيناً لا خطاباً. وعبارة فمن سلم استراح، ومن نازعته حقيقة أنس بقوله: كنت سمعه وبصره. وإذا عرفت المعاني لا مشاحة في الألفاظ. والذي يفيده هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور، لا نطق فيه ولا خبر عنه. وهذا المقدار من الإشارة كافٍ. والتعمق في مثل هذا حجاب، وهو الذي أوقع في المقالات المعروفة". انتهى كلام الشيخ أبي مهدي الزيات، ونقلته من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي الله في المحبة، وسماه التعريف بالحب الشريف. وقد سمعته من شيخنا أبي مهدي مراراً، إلا إني رأيت رسوم الكتاب أوعى له، لطول عهدي به. والله الموفق.

ثم أن كثيراً من الفقهاء أهل الفتيا، انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه

المقالات وأمثالها، وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة. والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل، فإن كلامهم في أربعة مواضع: أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال، لتحصل تلك الأذواق، التي تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره كما قلناه؛ وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب، مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد، وتركيب الأكوان في صدورها عن موجدها ومكونها كما مر؛ وثالثها التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات؛ ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة

القوم، يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات، تستشكل ظواهرها، فمنكر ومحسن ومتأول. فأما الكلام في المجاهدات والمقامات، وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها، ومحاسبة النفس على المصير في أسبابها، فأمر لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة؛ وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصريحهم في الكائنات، فأمر صحيح غير منكر. وان مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق. وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني من أئمة الأشعرية على إنكارها، ، لالتباسها بالمعجزة، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم أن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية؛ فإن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات، وإنكارها نوع مكابرة.وقد وقع للصحابة أكابر السلف كثير من ذلك، وهو معلوم مشهور. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات؛ فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه، لما أنه وجداني عندهم؛ وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطي دلالةً على مرادهم

منه؛ لأنها لم توضع إلا للمتعارف، وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه، ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات، على الوجه الموافق لظاهر الشريعة؛ فاكرم بها سعادة. وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصات في شان القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور.فمن علم منهم فضلة واقتداؤه، حمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله. وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد البسطامى وأمثاله. ومن لم يعلم فضلة ولا اشتهر، فمؤآخذ بما صدر عنه من ذلك، إذا لم يتبين لنا ما يحملنا وأما من تكلم بمثلها، وهو حاضر في حسه، ولم يملكه الحال، فمؤاخذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء أكابر المتصوفة بقتل الحلاج، لأنه تكلم في حضور، وهو مالك لحاله. والله أعلم.وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك؛ إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا. ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. وعلم الله أوسع وخلقه أكبر، وشريعته بالهداية أملك؛ فلم ينطقوا بشيء مما يدركون. بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل ويلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء، ويأمرون أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد. والله الموفق للصواب.

الفصل الثامن عشر

علم تعبير الرؤيا

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع، وكتب الناس فيها. وأما الرؤيا والتعبير لها، فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف. وربما كان في الملوك والأمم من قبل؛ إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام. وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا بد من تعبيرها. فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا، كما وقع في القرآن. وكذلك ثبت في الصحيح، عن النبي صلى الله عليه و سلم ، وعن أبي بكر رضي الله عنه. والرؤيا مدرك من مدارك الغيب. وقال صلى الله عليه و سلم : " الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ". وقال: " لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح، أو ترى له ".وأول ما بدأ به النبي صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وكان النبي صلى الله عليه و سلم ، إذا انفتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه: "هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟ " يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك، مما فيه ظهور الدين وإعزازه.وأما السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح القلبي، وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي، ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها. فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الإحساس بالحواس الخمس، وتصريف القوى الظاهرة، وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل، انخنس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبي؛ فيستجم بذلك لمعاودة فعله، فتعطلت الحواس الظاهرة كلها

وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب. ثم أن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الإنسان، والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته، إذ حقيقته وذاته عين الإدراك. وإنما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية، ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه. فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه، لرجع إلى حقيقته وهو عين الإدراك، فيعقل كل مدرك. فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله؛ فلا بد له من إدراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له، وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كفها، وهي الشاغل الأعظم؛ فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة به من عالمه. وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع به إلى بدنه. إذ هو ما دام في بدنه جسماني، لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية. والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية، والمتصرف منها هو الخيال. فإنه ينتزع من الصور المحسوسة صوراً خيالية، ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال. وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية؛ فيترقى التجريد من المحسوس إلى المعقول، والخيال واسطة بينهما. وكذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه، ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له، ويدفعه إلى الحس المشترك، فيراه النائم كأنه محسوس؛ فيتنزل المدرك من الروح العقلي إلى الحسي. والخيال أيضاً واسطة. هذه حقيقة الرؤيا.ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام الكاذبة؛ فإنها كلها صور في الخيال حالة النوم. لكن أن كانت

تلك الصور متنزلة من الروح العقلي المدرك فهي رؤيا؛ وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها، منذ اليقظة، فهي أضغاث أحلام.

واعلم أن للرؤيا الصادقة علامات تؤذن بصدقها وتشهد بصحتها؛ فيستشعر

الرائي البشارة من الله بما القى إليه في نومه: فمنها سرعة انتباه الرائي عندما يدرك الرؤيا، كأنه يعاجل الرجوع إلى الحس باليقظة، ولو كان مستغرقاً في نومه، لحقل ما القي عليه من ذلك الإدراك فيفر من تلك الحالة إلى حالة الحس التي تبقى النفس فيها منغمسة بالبدن وعوارضه؛ ومنها ثبوت ذلك الإدراك ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه، فلا يتخللها سهو ولا نسيان. ولا يحتاج إلى إحضارها بالفكر والتذكر، بل تبقى متصورة في ذهنه إذا انتبه. ولا يغرب عنه شيء منها، لان الإدراك النفساني ليس بزماني ولا يلحقه ترتيب، بل يدركه دفعة في زمن فرد. وأضغاث الأحلام زمانية، لأنها في القوى الدماغية يستخرجها الخيال من الحافظة إلى الحس المشترك كما قلناه. وأفعال البدن كلها زمانية فيلحقها الترتيب في الإدراك والمتقدم والمتأخر. ويعرض النسيان العارض للقوى الدماغية. وليس كذلك مدارك النفس الناطقة إذ ليست بزمانية، ولا ترتيب فيها. وما ينطبع فيها من الإدراكات فينطبع دفعة واحدة في أقرب من لمح البصر. وقد تبقى الرؤيا بعد الانتباه حاضرةً في الحفظ أياماً من العمر، لاتشذ بالغفلة عن الفكر بوجه، إذا كان الإدراك الأول قوياً، وإذا كان إنما يتذكر الرؤيا بعد الانتباه من النوم بإعمال الفكر والوجهة إليها، وينسى الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا بصادقةٍ وإنما هي من أضغاث الأحلام. وهذه العلامات من خواص الوحي. قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و سلم : {لا تحرك به لسانك لتعجل به، أن علينا جمعة وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم أن علينا بيانهْ}[سورة000الآية000] والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في الصحيح. قال صلى الله عليه و سلم : " الرؤيا جزء من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة " فلخواصها أيضاً نسبة إلى خواص النبوة، وبذلك القدر؛ فلا تستبعد ذلك، فهذا وجه الحق. والله الخالق لما يشاء.

وأما معنى التعبير، فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال،

فصوره؛ فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء، كما يدرك معنى السلطان الأعظم، فيصوره الخيال بصورة البحر؛ أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية. فإذا استيقظ، وهو لم يعلم من أمره، إلا أنه رأى البحر أو الحية؛ فينظر المعبر بقوة التشبيه، بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة، وأن المدرك وراءها، وهو يهتدي بقرائن أخرى تعين له المدرك؛ فيقول مثلا هو السلطان: لان البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان؛ وكذلك الحية، يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها؛ وكذا الأواني تشبه بالنساء لأنهن أوعية؛ وأمثال ذلك. ومن المرئي ما يكون صريحاً، لا يفتقر إلى تعبير، لجلالها ووضوحها أو لقرب النسبة فيها بين المدرك وشبهه. ولهذا وقع في الصحيح، الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان. فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل؛ والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير، والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث.واعلم أيضاً أن الخيال إذا ألقى إليه الروح مدركه، فإنما يصوره في

القوالب المعتادة للحس، وما لم يكن الحس أدركه قط من القوالب فلا يصور فيه شيئاً. فلا يمكن من ولد أعمى أكمه أن يصور له السلطان بالبحر، ولا العدو بالحية، ولا النساء بالأواني؛ لأنه لم يدرك شيئاً من هذه. وإنما يصور له الخيال أمثال هذه، في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات. وليتحفظ المعبر من مثل هذا، فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه.ثم أن علم التعبير، عليم بقوانين كلية ، يبني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه. وتأويله كما يقولون: البحر يدل على السلطان، وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الغيظ، وفي موضع آخر على الهم والأمر الفادح. ومثل ما يقولون: الحية تدل على العدو؛ وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وفي موضع آخر

هي كاتم سر؛ وأمثال ذلك. فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية. ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا. وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم، ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه، وكل ميسر لما خلق له. و لم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف. وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء، وكتبت عنه في ذلك قوانين، وتناقلها الناس لهذا العهد. وألف الكرماني فيه من بعده. ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا. والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني، من علماء القيروان، مثل الممتع وغيره، وكتاب الإشارة للسالمي من أنفع الكتب فيه أحضرها. وكذلك كتاب المرقبة العليا لابن راشد من مشيختنا بتونس. وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة التي بينهما ولكونها كانت من مدارك الوحي، كما وقع في الصحيح. والله علام الغيوب.

الفصل التاسع عشر

العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان، من حيث أنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة؛ بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كفهم ويستوون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني، منذ كان عمران الخليقة. وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة، وهي مشتملة على أربعة علوم:الأول علم المنطق، وهو علم يعصم الذهن عن الخطإ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة، وفائدته تمييز الخطإ من الصواب، فيما يلتمسه الناظر في

الموجودات وعوارضها،، ليقف على تحقيق الحق في الكائنات نفياً وثبوتاً بمنتهى فكره. ثم النظر بعد ذلك عندهم أما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية. أو النفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو العلم الثاني منها. وأما أن يكون النظر في ا أمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات، ويسمونه العلم الإلهي وهو العلم الثالث منها. والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير، ويشتمل على أربعة علوم، وهى تسمى التعاليم.أولها: علم الهندسة، وهو النظر في المقادير على الإطلاق. أما المنفصلة من حيث كونها معدودة؛ أو المتصله، وهي أما ذو بعد واحد وهو الخط، أو ذو بعدين وهو السطح، أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي. ينظر في هذين

المقادير وما يعرض لها، أما من حيث ذاتها، أومن حيث نسبة بعضها إلى بعض.وثانيها: علم الأرتماطيقي، وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد،ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة.وثالثها: علم الموسيقى، وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء.ورابعها: علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة والثابتة، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها، ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها.فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة: المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم، فالارتماطيقي أولاً ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات، ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه. فمن فروع الطبيعيات الطب، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الأزياج، وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها، للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك: ومن فروع النظر في

النجوم علم الأحكام النجومية. ونحن نتكلم عليها واحداً بعد واحدٍ إلى آخرها.

واعلم أن أكثر من عني بها في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان في الدولة قبل الإسلام، وهما فارس والروم؛ فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم، والدولة والسلطان قبل الإسلام وعصره لهم؛ فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم. وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم. وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان؛ فاختص بها القبط، وطمى بحرها فيهم، كما وقع في المتلو من خبر هاروت وماروت، وشأن السحرة، وما نقلة أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر. ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه؛ فدرست علومه وبطلت كان لم تكن، إلا بقايا يتناقلها منتحلو هذه الصنائع. الله أعلم بصحتها. مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها، مانعة من اختبارها.وأما الفرس، فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيماً، ونطاقها متسعاً، لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك. ولقد يقال: أن هذه العلوم، إنما وصلت إلى يونان منهم، حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية؛ فاستولى

على كتبهم وعلومهم. إلا أن المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم، مما لا يأخذه الحصر؛ ولماقتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرةً كتب سعد بن ابي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء. فإن يكن ما فيها هذى، فقد هدانا الله بأهدى منه؛ وان يكن ضلالاً فقد كفاناه الله. فطرحوها في الماء أو في النار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا.وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً، وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب، وحملها مشاهير من رجالهم مثل

أساطين الحكمة وغيرهم. واختص فيها المشاؤون منهم، أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم. كانوا يقرأون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا. واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون، من

لدن لقمان الحكيم في تلميذه إلى سقراط الدن، ثم إلى تلميذه أفلاطون، ثم إلى تلميذه ارسطو، ثم إلى تلميذه الإسكندر الافروسي وتامسطيوس وغيرهم. وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم، الذي غلب الفرس علي ملكهم، وانتزع الملك من أيديهم. وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيها صيتاً وشهرةً. وكان يسمى المعلم الأول، فطار له في العالم ذكر.ولما انقرض أمر اليونان، وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية، هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها. وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدةً باقيةً في خزائنهم. ثم ملكوا الشام، وكتب هذه العلوم باقية فيهم.ثم جاء الله بالإسلام، وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له، وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم. وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع؛ حتى إذا تبحبح السلطان والدولة، وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم، وتفننوا في الصنائع والعلوم.
ثشوفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية، بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها، وبما تسموا إليه أفكار الإنسان فيها. فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم ، أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمةً؛ فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات. فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها،وازدادوا حريصاً على الظفر بما بقي منها. وجاء المأمون بعد ذلك، وكانت له في العلم رغبة لما كان ينتحله، فانبعث لهذه العلوم حرصاً، وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي. وبعث المترجمين لذلك، فأوعى منه واستوعب. وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا في فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها. وخالفوا كثيراً من آراء المعلم
الأول، واختصوه بالرد والقبول، لوقوف الشهرة عنده. ودونوا في ذلك الدواوين، وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم. وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي، وأبو علي بن سينا بالمشرق، والقاضي أبو الوليد ابن رشد، والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس، إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم. واختص هؤلاء بالشهرة والذكر، واقتصر كثيرون على انتحال التعاليم، وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات.
ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على جابر بن حيان من أهل المشرق وعلى مسلمة بن احمد المجريطي، من أهل الأندلس وتلميذه. ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة، واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها، والذنب في ذلك لمن ارتكبه. ولو شاء ربك ما فعلوه.ثم أن المغرب والأندلس، لما ركدت ريح العمران بهما، وتناقصت العلوم بتناقصه، اضمحل ذلك منهما، إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس، وتحت رقبة من علماء السنة. ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورةً، وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر، وأنهم على بح من العلوم العقلية والنقلية، لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم. ولقد وقفت بمصر على تآليف في المعقول متعددةٍ، لرجلٍ من عظماء هراة، من بلاد خراسان، يشتهر بسعد الدين التفتازاني، منها في علم الكلام أصول الفقه والبيان، تشهد بأن له ملكةً راسخةً في هذه العلوم. وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعاً على العلوم الحكمية وتضلعاً بها وقدماً عاليةً في سائر الفنون العقلية. والله يؤيد بنصره من يشاء.وكذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفة ببلاد الإفرنجة، من

أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة، ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون، وطلبتها متكثرون. والله أعلم بما هنالك، وهو يخلق ما يشاء ويختار.

الفصل العشرون

العلوم العددية

وأولها الأرتماطيقي، وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف، أما على التوالي أو بالتضعيف. مثل أن الأعداد إذا توالت متفاضلة بعددٍ واحد: فإن جمح الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد، ومثل ضعف الواسطة، أن كانت عدة تلك الأعداد فرداً مثل الأفراد على تواليها والأزواج على تواليها والأفراد على تواليها. ومثل أن الأعداد إذا توالت على نسبةٍ واحدةٍ بان يكون أولها نصف ثانيها، وثانيها نصف ثالثها الخ، أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ. فإن ضرب الطرفين أحدهما في الأخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الأخر. ومثل مربع الواسطة أن كانت العدة فرداً، وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر. ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات إذا وضعت متتاليةً في سطورها بان تجمع من الواحد إلى العدد الأخير، فتكون مثلثةً. وتتوالى المثلثات هكذا بني سطرٍ تحت الأضلاع، ثم تزيد على كل مثلثٍ ثلث الضلع الذي قبله، فتكون مربعة. وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جرا. وتتوالى الاشكال على توالي الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض. ففي عرضه الأعداد على تواليها، ثم المثلثات على تواليها، ثم المربعات، ثم المخمسات الخ، وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغاً ما بلغ. ويحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعفى طولا وعرضاً خواص غريبة، استقريت منها، وتقررت في دواوينهم مسائلها. وكذلك ما يحدث للزوج والفرد، وزوج الزوج وزوج الفرد، وزوج الزوج والفرد؛ فإن لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره.وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها، ويدخل في براهين الحساب. وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف، وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف.فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين. وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول، ومنفعته في البراهين لا في الحساب، فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية، كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب وغيره والله سبحانه وتعالى أعلم.

علم الحساب:

ومن فروع علم العدد صناعة الحساب، وهي صناعة عملية في حسبان الأعداد بالضم والتفريق. فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع. وبالتضعيف، تضاعف عدداً بآحاد عددٍ آخر، وهذا هو الضرب، والتفريق أيضاً يكون في الأعداد، أما بالأفراد، مثل إزالة عددٍ من عددٍ ومعرفة الباقي وهو الطرح، أو تفصيل عدد

بأجزاء متساوية، تكون عدتها محصلة وهو القسمة. وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر. ومعنى الكسر نسبة عددٍ إلى عددٍ، وتلك النسبة تسمى كسراً. وكذلك يكون الضم والتفريق في الجذور، ومعناها العدد الذي يضرب في مثله، فيكون منه العدد المربع. والعدد الذي يكون مصرحاً به يسمى المنطق، ومربعه كذلك، ولا يحتاج فيه إلى تكلف عمل بالحسبان. والذي لا يكون مصرحاً به يسمى الأصم ومربعه: أما منطق مثل جذر ثلاثة الذي مربعه ثلاثة، وأما أصم، مثل جذر ثلاثة الذي مربعه جذر ثلاثة، وهو أصم، ويحتاج إلى عمل من الحسبان. فإن تلك الجذور أيضاً يدخلها الضم والتفريق. وهذه الصناعة الحسابية حادثة احتيج إليها للحسبان في المعاملات، وألف الناس فيها كثيراً وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان.

ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لإنها معارف متضحة وبراهينها منتظمة؛ فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب. وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره، أنة يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس؛ فيصير ذلك له خلقاً ويتعوذ الصدق ويلازمه مذهباً. ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير. ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد، ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على

المبتدئ، بما فيه من البراهين الوثيقة المباني، وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه، وهو كتاب جدير بذلك. وساوق فيه المؤلف رحمه الله كتاب فقه الحساب، لابن منعم، والكامل للأحدب، ولخص براهينها وغيرها عن اصطلاح الحروف فيها، إلى علل معنويةٍ ظاهرةٍ، هي سر الإشارة بالحروف وزبدتها. وهي كلها مستغلقة؛ وإنما جاءها الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم، لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها. وإذا قصد شرحها، فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال. وفي ذلك من العسر على الفهم، ما لا يوجد في أعمال المسائل، فتأمله. والله يهدي بنوره؛ من يشاء، وهو القو ي المتين.

علم الجبر:

ومن فروعه الجبر والمقابلة، وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض، إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك. فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب: أولها العدد لأنه به يتعين المطلوب المجهود باستخراجه من نسبة المجهول إليه؛ وثانيها الشيء، لأن كل مجهولٍ فهو من جهة إبهامه شيء، وهو أيضاً جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية؛ وثالثها المال وهو أمر مبهم، وما بعد ذلك فعلى نسبة الأس من المضروبين. ثم يقع العمل المفروض في المسالة فيخرج إلى معادلةٍ بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس؛ فيقابلون بعضها ببعضٍ. ويجبرون ما فيها الكسر. حتى يصير صحيحاً. ويحطون المراتب إلى أقل الأسوس أن أمكن، حتى يصير إلى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم، وهي العدد والشيء والمال. فإن كانت المعادلة بين واحدٍ وواحدٍ، تعين؛ فالمال والجذر يزول إبهامه بمعادلة العدد ويتعين. والمال إن عادل الجذور فيتعين بعدتها. وإن كانت المعادلة بين واحدٍ واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين، وهي مبهمة؛ فيعينها ذلك الضرب المفصل. ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين. وأكثر ما انتهت

المعادلة عندهم إلى ست مسائل، لأن المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تجيء ستة. وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس علي أثره فيه. وكتابة في مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه، وشرحه كثير من أهل الاندلس فأجادوا. ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي. وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعادلات إلى أكثر من هذه الستة الأجناس، وبلغها إلى فوق العشرين، واستخرج لها كلها أعمالاً وثيقةً وأتبعها ببراهين هندسيةٍ. والله يزيد في الخلق ما يشاء، سبحانه وتعالى.

المعاملان والفرائض:

ومن فروعه أيضاً المعاملات، وهو تصريف الحساب، في معاملات المدن، في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض في العدد من المعاملات، تصرف في ذلك صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها. والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المران والدربة بتكرار العمل، حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب. ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الاندلس تآليف فيها متعددة، من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمح وأبي مسلمٍ بن خلدون من تلميذ مسلمة المجريطي وأمثالهم.ومن فروعه أيضاً الفرائض: وهي صناعة حسابية، في تصحيح السهام لذوي الفروض، في الوراثات إذا تعددت، وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته؛ أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كله؛ أو كان في الفريضة إقرار أو إنكار من بعض الورثة دون بعض، فيحتاج في ذلك كله إلى عمل يعين به سهام الفريضة إلى كم تصح، وسهام الورثة من كل بطن مصححاً، حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة. فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحة وكسوره وجذوره ومعلومة ومجهوله، ويترتب على ترتيب

أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها. لتشتمل حينئذٍ هذه الصناعة على جزء من الفقه، وهو أحكام الوراثات في الفروض، والعول والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها، وعلى جزء من الحساب في تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي، وهي من أجل العلوم. وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها، مثل: الفرائض ثلث العلم، وإنها أول ما يرفع من العلوم، وغير ذلك. وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات، فإنها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم. وأما الفرائض العينية فكثيرة، وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا. ومن أحسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله تعالى كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي، وكتاب ابن المذمر والجعدي والصردى وغيرهم. لكن الفضل للحوفي، فكتابه مقدم على جميعها. وقد شرحه من شيوخنا أبوعبد الله محمد بن سليمان الشطي كبير مشيخة فاس؛ فأوضح وأوعب. ولإمام الحرمين فيها تآليف على مذهب الشافعي، تشهد باتساع باعه في العلوم، ورسوخ قدمه، وكذا للحنفية والحنابلة. ومقامات الناس في العلوم مختلفة. والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه، لا رب سواه.

الفصل الحادي والعشرون

العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير: أما المتصلة كالخط والسطح والجسم؛ وأما المنفصلة، كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية. مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين. ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجهٍ لو خرجا إلى غير نهايةٍ. ومثل أن كل خطين متقاطعين، فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان. ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة، ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع، وأمثال ذلك. والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب اوقليدس، ويسمى كتاب الأصول الأركان، وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين، أول ما ترجم من كتب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور، ونسخه مختلفة باختلافي المترجمين. فمنها لحنين بن إسحاق، ولثابت بن قرة، ويوسف بن الحجاج، ويشتمل على خمس عشرة مقالةً. أربعٍ في السطوح، وواحدةٍ في الأقدار المتناسبة، وأخرىفي نسب السطوح بعضها إلى بعضٍ؛ وثلاثٍ في العدد و العاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور وخمسٍ في المجسمات. وقد اختصره الناس اختصاراتٍ كثيرةً، كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء. افرد له جزءاً منها اختصه به. وكذلك ابن أبي الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم. وشرحه آخرون شروحاً كثيرةً وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق.واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءةً في عقله واستقامةً في فكره؛ لأن براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها؛ فيبعد الفكر بممارستها عن الخطإ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع. وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون: "من لم يكن مهندساً

فلا يدخلن منزلنا". وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: "ممارسة علم الهندسة للفكر، بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقيه من الأوضار والأدران ". وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه. ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية والمخروطات. أما الاشكال الكروية، ففيها كتابان من كتب اليونانيين لثاوذوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها. وكتاب ثاوذوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش، لتوقف كثير من براهينه عليه. ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة؛ لأن براهينها متوقفة عليهما. فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية، وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما نذكره؛ فقد يتوقف على معرفة أحكام الأشكال الكروية سطوحها وقطوعها. وأما المخروطات، فهو من فروع الهندسة أيضاً. وهو علم ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطة من الأشكال والقطوع، ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض، ببراهين هندسية، متوقفة على التعليم الأول. وفائدها تظهر في الصنائع العلمية التي موادها الأجسام، مثل النجارة والبناء، وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة؛ وكيف يتحيل على جر الأثقال ونقل الهياكل بالهندام والمخال وأمثال ذلك. وقد أفرد بعض المؤلفين مي هذا الفن كتاباً في الحيل العملية؛ يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة. وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية، وهو موجود بأيدي الناس، ينسبونه إلى بني شاكر. والله تعالى أعلم.

المساحة:

ومن فروع الهندسة المساحة، وهو فن يحتاج إليه في مسح الأرض؛ ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما، أو نسبي أرض من أرض إذا قويست بمثل ذلك. ويحتاج إلى ذلك ة:في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة؛ وفى قسمة الحوائط والاراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك. وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة. والله الموفق للصواب بمنه وكرمه.المناظرة من فروع الهندسة: وهو

عليم يتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري، بمعرفة كيفية وقوعها، بناءً على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي، رأسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي. ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً. وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء وراء الأجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقط النازلة من المطر خطاً مستقيماً، والسلقة دائرة وأمثال ذلك. فيبتين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية، ويتبين به أيضاً اختلاف المنظر في القمم، باختلاف العروض الذي ينبني عليه معرفة رؤية الأهلة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا. وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين. وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم. ولغيره فيه أيضاً تآليف وهو من هذه العلوم الرياضية وتفاريعها.

الفصل الثاني والعشرون

علم الهيئة

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة. ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك، لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية. كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس، بوجود حركة الإقبال والإدبار؛ وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب، على وجود أفلاك صغيرة، حاملة لها، متحركة داخل فلكها الأعظم؛ وكمما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة؛ وكما يبرهن على تعاد الأفلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له، وأمثال ذلك. وإدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد، فإنا إنما علمنا حركات الإقبال

والإدبار به. وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك.وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيراً، ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين. وكانت تسمى عدهم ذات الحلق. وصناعة عميها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس. وأما في الإسلام فلم تقع به عناية إلا في القليل. وكان في أيام المأمون شيء منه، وصنع لهذه الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق. وشرع في ذلك فلم يتم. ولما مات ذهب رسمه وأغفل، واعتمد من بعده على الأرصاد القديمة، وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الأحقاب. وإن مطابقة حركة الآلة في الرصد لحركة الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق؛ فإذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك التقريب. وهذه الهيئة صناعة شريفة؛

وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة؛ بل إنما تعطي أن هذه الصور والهيآت للأفلاك لزمت عن هذه الحركات. وأنت تعلم انه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازماً لمختلفين، وإن قلنا أن الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم، ولا يعطي الحقيقة بوجه، على أنه علم جليل، وهو أحد أركان التعاليم. ومن أحسن التآليف فيه كتاب المجسطي، منسوباً لبطليموس. وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا، وأدرجه في تعاليم الشفاء. ولخصه ابن رشد أيضاً من حكماء الأندلس، وابن السفح. وابن أبي الصلت في كتاب الاقتصار. ولابن الفرغاني هيئة ملخصة قربها وحذف براهينها الهندسية. والله علم الإنسان ما لم يعلم. سبحانه لا إله إلا هو رب العالمين.

علم ا لأزياج:

ومن فروعه علم الأزياج، وهو صناعة حسابية على قوانين عددية، فيما يخص كل كوكبٍ من طريق حركته، وما أدى إليه برهان الهيئة فم وضعه من سرعةٍ وبطءٍ واستقامةٍ ورجوعٍ وغير ذلك؛ يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها، على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة.ولهذه الصناعة قوانين؛ كالمقدمات والأصول، لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية؛ وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصاف الحركات، واستخراجٍ بعضها من بعضٍ يضعونها في جداول مرتبةٍ تسهيلاً على المتعلمين، وتسمى الأزياج. ويسمى في استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً. وللناس فيه تآليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين، مثل البتاني وابن الكماد. وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن إسحاق من منجمي تونس في أول المائة السابعة. ويزعمون أن ابن إسحاق عول فيه على الرصد. وأن يهودياً كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعاليم، وكان قد عني بالرصد وكان يبعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها؛ فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه على ما يزعمون. ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج، فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه؛ وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتبنى عليها الأحكام النجومية، وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدول والمواليد البشرية والكوائن الحادثة كما نبينه بعد، ونوضح فيه أدلتهم أن شاء الله تعالى. والله الموفق لما يحبه ويرضاه، لا معبود سواه.

الفصل الثالث العشرون

علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات؛ وذلك لأن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس. وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره؛ وإنما يحس الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات. وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقه صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة، وهي الكلي. ثم ينظر الذهن

بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى، توافقها في بعض؛ فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه. ولا يزال يرتقي في التجريد إلى الكلي الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه؛ فيكون لأجل ذلك بسيطاً. وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها، ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما، ثم ينظر بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالي، وهو الجوهر؛ فلا يجد كلياً يوافقه في شيء؛ فيقف العقل هنالك عن التجريد. ثم أن الإنسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع، وكان العلم: أما تصوراً للماهيات، ويعني به إدراك ساذج من غير حكمٍ معه؛ وأما تصديقاً، أي حكماً بثبوت أمر لأمر؛ فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات أما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعضٍ على جهة التآليف، فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج، فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص؛ وأما بأن تحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقاً. وغايته في الحقيقة راجعة إلى التصور، لأن فائدة ذلك إذا حصل، فإنما هي معرفة حقائق

الأشياء التي هي مقتضى العلم الحكمي. وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريقٍ صحيحٍ وقد يكون بطريقٍ فاسد؛ فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية، ليتميز فيها الصحيح الفاسد، فكان ذلك قانون المنطق. وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملاً جملاً ومتفرقاً متفرقاً. ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله، حتى ظهر في يونان ارسطو؛ فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله، وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها. ولذلك يسمى بالمعلم الأول، وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص، وهو يشتمل على ثمانية كتب. أربعة منها في صورة القياس، وأربعة في مادته. وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء:فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه، ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن، وهو على مراتب. فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيده، وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار، ومن أي جنسٍ يكون من العلم أو من الظن. وقد ينظر في القياس، لا باعتبار مطلوب مخصوصٍ؛ بل من جهة إنتاجه خاصةً. ويقال للنظم الأول إنه من حيث المادة، ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن؛ ويقال لنظر الثاني إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق، فكانت لذلك كتب المنطق ثمانيةً:الأول: في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات في الذهن، وهي التي ليس فوقها جنسٍ، ويسمى كتاب المقولات.والثاني: في القضايا التصديقية وأصنافها، ويسمى كتاب العبارة.والثالث: في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق، وسمى كتاب القياس، وهذا آخر النظر من حيث الصورة.ثم الرابع : كتاب البرهان، وهو النظر في القياس المنتج لليقين، وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية. ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورةٍ فيه، مثل كونها ذاتيةً وأوليةً وغير ذلك. وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود، إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا يحتمل غيرها، فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب.والخامس: كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم، وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات، ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى، ومن مذكورة هناك. وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي

يستنبط منهما صاحب القياس قياسه، بتمييز الجامع بين طرفي المطلوب المسمى بالوسط وفيه عكوس القضايا.والسادس : كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق، ويغالط به المناظر صاحبة وهو فاسد، وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه. السابع: كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم، وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات.والثامن : كتاب الشعر، وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصةً للإقبال على الشيء أو النفرة عنه، وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية.هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين. ثم أن حكماء اليونانيين، بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت، رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور المطابق للماهيات في الخارج، أو لأجزائها أو عوارضها وهي الجنس والفصل والنوع والخاص والعرض العام؛ فاستدركوا فيها مقالة، تختص بها مقدمة بين يدي الفن؛ فصارت مقالاته تسعاً، وترجمت كفها في الملة الإسلامية. وكتبها وتناولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص، كما فعله الفارابي وابن سينا، ثم ابن رشدٍ من فلاسفة الأندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء، استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها. ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق، وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته، وهي الكلام في الحدود والرسوم، نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات، لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات. والحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس، وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين لكنه من

توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه. ثم تكلموا في القياس، من حيث إنتاجه للمطالب على العموم، لا بحسب مادة. وحدقوا النظر فيه بحسب المادة، وهي الكتب الخمسة: البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة. وربما يلم بعضهم باليسير منها إلماماً وأغفلوها كأن لم تكن، وهي المهم المعتمد في الفن. ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم، فطال الكلام فيه واتسع. وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين ابن الخطيب، رمن بعده افضل الدين الخونجي، وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد. وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأسوار وهو طويل، ومختصر الموجز وهو حسن في التعليم، ثم مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق، أخذ بمجامع الفن وأصوله، يتداوله المتعلمون. لهذا العهد فينتفعون به. وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كان لم تكن، وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه. والله الهادي للصواب.

إعلم أن هذا الفن قد اشتد النكير على انتحاله من متقدمي السلف والمتكلمين. وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه وحظروا تعلمه وتعليمه. وجاء المتأخرون من بعدهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب؛ فسامحوا في ذلك بعض الشيء. وأكب الناس على انتحاله من يومئذٍ إلا قليلاً، يجنحون فيه إلى رأي المتقدمين؛ فينفرون عنه ويبالغون في إنكاره. فلنبين لك نكتة القبول والرد في ذلك، لتعلم مقاصد العلماء في مذاهبهم، وذلك أن المتكلمين لما وضعوا علم الكلام، لنص،ا لعقائد الإيمانية بالحجج العقلية، كانت طريقتهم في ذلك بأدلةٍ خاصةٍ وذكروها في كتبهم كالدليل على حدث العالم بإثبات الأعراض وحدوثها، وامتناع خلو الأجسام

عنها، وما لا يخلو عن الحوادث حادث. وكإثبات التوحيد بدليل التمانع وإثبات الصفات القديمة بالجوامع الأربعة إلحاقاً للغائب بالشاهد، وغير ذلك من أدلتهم المذكورة في كتبهم. ثم مرروا تلك

الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها مثل إثبات الجوهر الفرد والزمن الفرد والخلاء بين الأجسام ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات. وأن العرض لا يبقى زمنين وإثبات الحال، وير صفة لموجود، لا موجودة ولا معدومة وغير ذلك من تواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة. ثم ذهب الشيخ أبن الحسن، والقاضي أبو بكر والأستاذ أبو إسحق إلى أن أدلة العقائد منعكسة بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها. ولهذا رأى القاضي أبو بكر أبي بمثابة العقائد، والقدح فيها قدح في العقائد لابتنائها عليها. وإذا تأملت المنطق وجدته كله يدور على التركيب العقلي وإثبات الكلي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه الكلي الذهني المنقسم إلى الكليات الخمس، التي هي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام، وهذا باطل عند المتكلمين. والكلي والذاتي عندهم إنما هو اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه، أو حمال عند من يقول بها فتبطل الكليات الخمس والتعريف المبني عليها والمقولات العشر، ويبطل العرض الذاتي؛ فتبطل ببطلانه القضايا الضرورية الذاتية المشروطة في البرهان وتبطل المواضع التي هي لباب كتاب الجدل. وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين الطرفين في القياس، ولا يبقى إلا القياس الصوري. ومن التعريفات المساوئ في الصادقية على إفراد المحمود، لا يكون أعم منها، فيدخل غيرها، ولا أخص فيخرج بعضها، وهو الذي يعبر عنه النحاة بالجمع والمنع، والمتكلمون بالطرد والعكس، وتنهدم أركان المنطق جملة. وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين فيؤذي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما مر، فلهذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق، وعدوه بدعة أو كفراً على نسبة الدليل الذي يبطل. والمتأخرون من لدن الغزالي لما أنكروا انعكاس الأدلة، و لم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله، وصح عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية وكلياتها

في الخارج، قضوا بان المنطق غير مناف للعقائد الإيمانية، وإن كان منافياً لبعض أدلتها، بل قد يستدلون على إبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية، كنفي الجوهر الفرد والخلاء وبقاء الأعراض وغيرها، ويستبدلون من أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها بالنظر والقياس العقلي. و لم يقدح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه، وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعهما لهذا العهد، فتأمل ذلك وأعرف مدارك العلماء ومآخذهم فيما يذهبون إليه. والله الهادي والموفق للصواب.

الفصل الرابع والعشرون

الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون؛ فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك. وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفش على تنوعها

في الإنسان والحيوان والنبات. وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة، أيام المأمون، وألف الناس على حذوها مستتبعين لها بالبيان والشرح.وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء، جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا؛ ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الإشارات، وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها. وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف. وألف الناس بعده في ذلك كثيراً، لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة. ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا، وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن، وكذا الآمدى. وشرحه

أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه، من أهل المشرق، وبحث مع الإمام في كثير من مسائله؛ فأوفى على أنظاره وبحوثه. وفوق كل ذي علم عليم؛ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الخامس والعشرون

علم الطب

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب، وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح؛ فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية ، بعد أن يبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية؛ مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله للدواء، أولاً: في السجية والفضلات والنبض، محاذين لذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض. وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء، بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن، ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب. وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه علماً خاصاً، كالعين وعالمها وأكحالها. وكذلك الحقوا بالفن منافع الأعضاء ومعناه المنفعة التي خلق لأجلها كل عضو من أعضاء البدن الحيواني. وإن لم يعن ذلك من موضوع علم الطب، إلا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه.ولجالينوس في هذا الفن كتاب جليل، عظيم المنفعة، وهو إمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين، يقال إنه كان معاصراً لعيسى عليه السلام، ويقال إنه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطاوعة اغتراب. وتآليفه فيها هي الأمهات التي

اقتدى بها جميع الأطباء من بعده. وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جاءوا من وراء الغاية،مثل الرازي والمجوسي وابن سينا، ومن أهل الأندلس أيضاً كثير. وأشهرهم ابن زهر. وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه، وهي من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف كما نبينه بعد.وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه؛ وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا عن موافقة المزاجٍ. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون: كالحرث بن كلدة وغيره. والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وليس من الوحي في شي وإنما. هو أمر كان عادياً للعرب. ووقع في

ذكر أحوال النبي صلى الله عليه و سلم ، من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة، لا من جهة ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل. فإنه صلى الله عليه و سلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع، و لم يبعث لتعريف الطمث ولا غيره من العاديات. وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: " أنتم أعلم بأمور دنياكم ". فلا ينبغي أن يحمل شيء من الذي وقع من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه؛ اللهم إلا أن استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني؛ فيكون له أثر عظيم في النفع. وليس ذلك من الطب المزاجي وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية، كما سوقع في مداواة المبطون بالعسل ونحوه. والله الهادي إلى الصواب لا رب سواه.

الفصل السادس والعشرون

الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات، وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشؤه بالسقي والعلاج وتعهده بمثل ذلك واستجادة المنبت وصلاحية الفصل وتعاقده بما يصلحه ويتمه من ذلك كله. وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة، وكان النظر فيها عندهم عاماً في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر؛ فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك. وترجم من كتب اليونانيين، كتاب الفلاحة النبطية، منسوبة لعلماء النبط، مشتملة من ذلك على علم كبير. ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب، وكان باب السحر مسدوداً،والنظر فيه محظوراً؛ فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك، وحذفوا الكلام في الفن الأخر منه جملة. واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج، وبقي الفن الأخر منه مغفلاً نقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهاتٍ من مسائله كما نذكره عند الكلام على السحر أن شاء الله تعالى. وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة، ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه، وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة.

الفصل السابع والعشرون

علم الإلهيات

وهو علم ينظر في الوجود المطلق. فأولاً في الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات، من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان وغير ذلك؛ ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات، ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها، ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدإ. وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه، وأن ذلك عين السعادة في زعمهم. وسيأتي الرد عليهم بعد. وهو تالٍ للطبيعيات في ترتيبهم، ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعية. وكتب المعلم الأول فيه موجودة بين أيدي الناس. ولخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة، وكذلك لخصها ابن رشدٍ من حكماء الأندلس. ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها، ورد عليهم الغزالي ما رده منها، ثم خلط

المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لاشتراكهما في المباحث؛ وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها، فصارت كأنها فناً واحداً. ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوهما فناً واحداً، قدموا فيه الكلام في الأمور العامة؛ ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها، إلى آخر العلم، كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث المشرقية، وجميع من بعده من علماء الكلام. وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة، وكتبه محشوة بها، كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد. والتبس ذلك على الناس، وهو صواب؛ لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة، كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا

تعويل عليه، بمعنى أنها لا تثبت إلا به. فإن العقل معزول عن الشرع وأنظاره. وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج، فليس بحثاً عن الحق فيها ليعلم بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة؛ بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها، وتدفع شبة أهل البدع عنها، الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية. وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها؛ وكثير ما بين المقامين. وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية، فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية؛ فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها. فإذا هدانا الشارع إلى مدرك، فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها، ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه؛ بل نعتقد ما أمرنا به اعتقاداً وعلماً، ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه. والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية؛ فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم، واستدعى ذلك الحجج النظرية، ومحاذاة العقائد السلفية بها. وأما النظر في مسائل الطبيعيات والإلهيات بالتصحيح والبطلان، فليس من موضوع علم الكلام، ولا من جنس أنظار المتكلمين. فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين فإنهما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف. والحق، مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل. وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال، وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتقاد بالدليل، وليس كذلك. بل إنما هو رد على الملحدين، والمطلوب مفروض الصدق معلومة. وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضاً، فخلطوا مسائل الفنين يفنهم وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها. مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك. والمدارك في هذه

الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة، وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة، لأنهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل. والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيمٍ. والله أعلم بالصواب.

الفصل الثامن والعشرون

علوم السحر والطلسمات

هي علوم بكيفية استعدادات، تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر: أما بغير معين، أو بمعين من الأمور السماوية؛ والأول هو السحر، والثاني هو الطلسمات. ولما كانت هذه العلوم مهجورةً عند الشرائع، لما فيها من الضرر، ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره، كانت كتبها كالمفقودة بين الناس. إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام، مثل النبط والكلدانيين؛ فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاءوا بالأحكام؛ إنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والنار. وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين، وفي أهل مصر من القبط وغيرهم. وكان لهم فيها التآليف والآثار. ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل، مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من أوضاع أهل بابل؛ فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه. ووضعت بعد ذلك الأوضاع، مثل مصاحف الكواكب السبعة، وكتاب طمطم الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرها. ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة؛ فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة، وغاص في زبدتها واستخرجها ووضع فيها عدة من التآليف. وأكثر الكلام فيها وفي صناعة

السيمياء، لأنها من توابعها، ولأن إحالة الأجسام النوعية من صور؛ إلى أخرى إنما تكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية؛ فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه.ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات؛ فلخص جميع تلك الكتب وهذبها، وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم، ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده.ولنقدم هنا مقدمة يتبين لك منها حقيقة السحر، وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع، فهي مختلفة بالخواص. وهي أصناف، كل صنف مختص بخاصيةٍ واحدةٍ بالنوع لا توجد في الصنف الأخر. وصارت تلك الخواص فطرةً وجبلةً لصنفها. فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لها خاصية تستعد بها للإنسلاخ من الروحانية البشرية إلى الروحانية الملكية، حتى يصير ملكاً في تلك اللمحة التي انسلخت فيها.وهذا هو معنى الوحي كما مر في موضعه، وهي في تلك الحالة محلة للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر. وما يتبع ذلك من التأثير في الأكوان. ونفوس السحرة لها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب، للتصرف فيها، والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية. فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصية ربانية. ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية. وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الأخر.والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثٍ يأتي شرحها: فأوله المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا هو الذي تسفيه الفلاسفة السحر، والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد، ويسمونه الطلسمات، وهو أضعف رتبةً من الأول، والثالث تأثير في القوى المتخيلة. يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة، فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعاً من الخيالات

والمحاكاة وضوراً مما يقصده من ذلك " ثم يترلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظرها الراؤن كأنها في الخارج، وليس هناك شيء من ذلك، كما يحكى عن بعضهم أنه يري البساتين والأنهار والقصور

وليس هناك شيء من ذلك. ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة.هذا تفصيل مراتبه. ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها. وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة. ورياضة السحر كفها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له. والوجهة إلى غير الله كفر. فلهذا كان السحر كفراً والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت. ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر، هل هو لكفره السابق على فعله، أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكوان، والكل حاصل منه. ولما كانت المرتبتان ا أوليان من السحر لها حقيقة في الخارج، والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر: هل هو حقيقة أو إنما هو تخيل؛ فالقائلون بان له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين؛ والقائلون بان لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة. فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب. والله أعلم.واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه، وقد نطق به القرآن. قال الله تعالى: {ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل، هاروت وماروت، وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله}[البقرة:102]. وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سحر، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وجعل سحره في مشطٍ ومشاقةٍ وجف طلعة ودفن في بئر ذروان؛ فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين: {ومن شر النفاثات في العقدٍ}[الفلق:4]. قالت عائشة رضي الله عنها: كان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت.وأما وجود السحر في أهل بابل، وهم الكلدانيون من النبط والسريانين فكثير، ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار. وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه الصلاة أسواق نافقة. ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي فيه آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك. ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور، وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق. ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى. ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء، ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام، وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك، استشعاراً للعزيمة بالعزم. ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة، تخرج منه مع النفخ، متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث، فتنزل عنها أرواح خبيثة، ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر. وشاهدنا أيضاً من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد، ويتكلم عليه في سره، فإذا هو مقطوع متخرق. ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج، فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض. وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتاً وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه؛ ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء. وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة.

وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة، وهي: ر ك رف د، أحد العددين مائتان وعشرون، والأخر مائتان وأربعة وثمانون، ومعنى المتحابة أن

أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث وربع وسلس وخمس وأمثالها، إذا جمع كان مساوياً للعدد الأخر صاحبه، فتسمى لأجل ذلك المتحابة.ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الإلفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما تمثالان. أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها، ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول، ويجعل طالع الثاني سابع الأول، ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الأخر. ويقصد بالأكثر الذي يراد ائتلافه، أعني المحبوب، ما أدري، الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء؛ فيكون لذلك من التألف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الأخر. قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن، وشهدت له التجربة.وكذا طابع الأسد، ويسمى أيضاً طابع الحصى، وهوأن يرسم في قالب (هند إصبع) صورة أسد شائلاً ذنبه، عاضاً على حصاة قد قسمها بنصفين؛ وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه إلى قبالة وجهه فاغرةً فاهاً إلى فيه؛ وعلى ظهره صورة عقرب تدب. ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد، بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس. فإذا وجد ذلك وعثر عليه، طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب، وغمس بعد في الزعفران محلولاً بماء الورد، ورفع في خرقة حرير صفراء؛ فإنهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه. وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها، وشهدت له التجربة. وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس، ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس، وسلامة القمر، بطالع فلوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول، ويصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك من الأدلة الشريفة، ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب. فزعموا أن

له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم، ومعاشرتهم. وأمثال ذلك كثير.وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة، وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها. وذكر لنا: أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتاباً في ذلك وسماه بالسر المكتوم، وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه، والإمام لم يكن من أئمة الشأن فيما نظن، ولعل الأمر بخلاف ذلك. وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين، وهم الذين ذكرت أولاً أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فينبعج. ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج، لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام، يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متسترون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام. لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك، وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية وإشراك لروحانية الجن والكواكب، سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها؛ وان بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأوعال لهم؛ وان التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق،

ويعبرون عن ذلك بقولهم إنما نفعل فيما يمشي فيه الدرهم أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات، هذا ما زعموه. وسالت بعضهم فأخبرني به. وأما أفعالهم فظاهرة موجودة، وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة في ذلك.هذا شان السحر والطلسمات وآثارهما في العالم، فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلمسات بعد أن أثبتوا أنهما جميعاً اثر للنفس الإنسانية، واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية، بأن لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية، بل آثار عارضة من كيفيات الأرواحٍ؛ تارةً كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور؛ ومن

جهة التصورات النفسانية أخرى، كالذي يقع من قبل التوهم. فإن الماشي على حرف حائط أو على جبل منتصب، إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك. ولهذا تجد كثيراً من الناس يعودون أنفسهم ذلك بالدربة عليه حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط. فثبت أن ذلك من آثار النفس الإنسانية، وتصورها للسقوط من أجل الوهم. وإذا كان ذلك أثراً للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية، فجائز أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بدنها؛ إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة، لأنها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه، فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام.وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلمسات، فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر، كما يقوله المنجمون، ويقولون: السحر اتحاد روح بروح، والطلسم، اتحاد روح بجسم، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية.. والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب، ولذلك يستعين صاحبه، في غالب الأمر بالنجامة. والساحر عندهم غير مكتسب لسحره، بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير. والفرق عندهم بين المعجزة والسحر، أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير، فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك. والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية، وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال؛ فبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس الأمر، وإنما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير، وفي مقاصد الخير، وللنفوس المتمحصة للخير والتحدي بها على دعوى النبؤة. والسحر إنما يوجد لصاحب الشر، وفي أفعال الشر في الغالب، من التفريق ين الزوجين وضرر الأعداء

وأمثال ذلك، وللنفوس المتمحصة للشر. هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الإلهيين.وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم وليس معدوداً من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبؤة وتوابعها. ولهم في المدد الإلهي حظ عظيم علي قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله. وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها لأنه متقيد فيما يأتيه ويذره للأمر الإلهي. فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله. ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية، فلذلك لا يعارضها شي من السحر.وانظر شأن سحرة فرعون مع

موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون، وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن. وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه و سلم في المعوذتين، ومن شر النفاثات في العقد. قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت. فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره بالهمة الإيمانية. وقد نقل المؤرخون أن زركش كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق. ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم.وهو فيما يزعم أهل الطلسمات والأوفاق مخصوص بالغلب في الحروب، وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً. إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وتمسكهم بكلمة الله، فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت، وبطل ما كانوا يعملون. وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات والشعبذة وجعلته كله باباً واحداً محظوراً. لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا

الذي فيه صلاح آخرتنا، أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا؛ وما لا يهمنا في شيء منهما. فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر؛ كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع، ويلحق به الطلسمات، لأن أثرهما واحد، كالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير، فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله، فيكون حينئذٍ ذلك الفعل محظوراً على نسبته في الضرر. وإن لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر، فلا أقل من تركه قربة إلى الله، فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر، وخصته بالحظر والتحريم.وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر، فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي، وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه. قالوا: والساحر مصروف عن مثل هذا التحدي، فلا يقع منه. ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية، لأن صفة نفسها التصديق؛ فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذباً وهو محال، فإذا لا تقع المعجزة مع الكاذب بإطلاق. وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه، فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين. فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر، وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما. والله يهدي من يشاء، وهو القوي العزيز، لا رب سواه.ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان، عندما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال، ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حسد يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به، فيؤثر فساده. وهو جبلة فطرية، اعني هذه الإصابة بالعين. والفرق بينها وبين التأثيرات النفسانية أن صدوره فطري جبلي لا يتخلف ولا يرجع اختيار صاحبه ولا يكتسبه، وسائر التأثيرات، وإن كان منها ما لا يكتسب، فصدورها راجع إلى اختيار فاعلها، والفطري منها قوة صدورها لا نفس صدورها، ولهذا قالوا: القاتل بالسحر أو بالكرامة

يقتل، والقاتل بالعين لا يقتل. وما ذلك إلا لأنه ليس مما يريده ويقصده أو يتركه، وإنما هو مجبور في صدوره عنه. والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر.

الفصل التاسع والعشرون

علم أسرار الحروف

وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا. نقل وضعه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة؛ فاستعمل استعمال العام في الخاص. وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها، وعند ظهور الغلاة من التصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه. وزعموا أن الكمال الأسمائي مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، فهي سارية في الأكوان على هذا النظام. والأكوان من لدن الإبداع الأول تتنقل في أطواره وتعرب عن أسراره، فحدث لذلك علم أسرار الحروف، وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله. تعددت فيه تآليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما. وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان.

ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو: فمنهم من جعله

للمزاج الذي فيه، وقسم الحروف بقسمة الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر. واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلاً وانفعا لاً بذلك الصنف؛ فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكسير إلى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر، فالألف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب. ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تنفد. فتعين لعنصر النار حروف سبعة: الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال؛ وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضاً: الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء؛ وتعين لعنصر الماء أيضاً سبعة: الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين؛ وتعين لعنصر التراب أيضاً سبعة: الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والشين.

والحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها، أما حساً أو حكماً، كما في تضعيف قوى المريخ في الحروب والقتل والفتك. والمائية أيضاً لدفع الأمراض الحارة من حفيات وغيرها، ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حساً أو حكماً، كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك. ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية: فإن حروف أبجد دالة على أعدادها المتعارفة وضعاً وطبعاً فبينها من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضاً؛ كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كل في مرتبته؛ فالباء على اثنين في مرتبة الآحاد، والكاف على إثنين في مرتبة العشرات، والراء على اثنين في مرتبة المئين. وكالذي بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الأربعة، وبين الأربعة والإ

ثنين نسبة الضعف. وخرج للأسماء أوفاق كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوفاق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف، وامتزج التصرف من السر الحرفي

والسر العددي لأجل التناسب الذي بينهما. فأما سر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع، أو بين الحروف والأعداد؛ فأمر عسير على الفهم، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات، وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف. قال البوني: ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي، وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي. وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها وتأثر الأكوان عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً. وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد، وليس كذلك، فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهلة أنه قوى روحانية من جوهر القهر، تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر، بأسرار فلكية وبسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم، مشدودة فيه بالهمة؛ فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية، وهو عندهم كالخميرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها، تخيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبه إلى صورتها. وكذلك الإكسير للأجسام المعدنية، كالخميرة تقلب المعدن الذي تسري فيه إلى نفسها بالإحالة. ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد لأن الإكسير أجزاؤه كلها جسدانية. ويقولون: موضوع الطلسم روح في جسد لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية. والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية. وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله إنما هو للنفس الإنسانية والهمم البشرية أن النفس الإنسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بلذات؛ إلا أن تصرف أهل الطلسمات أنما هو في استنزال روحانية الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية، حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته، فعل الخميرة فيما حصلت فيه. وتصرف؛ أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والإمداد الرباني؛ فيسخر

الطبيعة لذلك طائعة غير مستعصية، ولا يحتاج إلى مدد من القوى، الفلكية ولا غيرها، لأن مدده أعلى منها. ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك. وأهون بها وجهة ورياضة. بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب. وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض، كرامة من كرامات الله لهم. فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت، الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات، وتصرف بها من. هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور- كان إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات؛ بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع ألى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة. وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة، وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة. وقد يمزج صاحب ا"سماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب، فيعين لذكر الأسماء الحسنى، أو ما يرسم من

أوفاقها، بل ولسائر الأسماء، أوقاتا تكون من حظوظ الكوكب الذي يناسب ذلك الاسم؛ كما فعله البوني في كتابه الذي سفاه الانماط. وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية، وهي برزخية الكمال الأسمائي، وإنما تتزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة. وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة. فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة، وتلقى تلك المناسبة تقليداً، كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم؛ بل هو أوثق منه كما قلناه. وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب، إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب

الأسماء من الاطلاع في حال المشاهدة، وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية، من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات، من جواهر وأعراض وذوات ومعان؛ والحروف والأسماء من جملة ما فيه.

فلكل واحدٍ من الكواكب قسم منها يخصه، ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو، كما فعله مسلمة المجريطي في الغاية. والطاهر من حال البوني في أنماطه أنه اعتبر طريقتهم. فإن تلك الأنماط إذا تصفحتها، وتصفحت الدعوات التي تضمنتها، وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة؛ ثم وقفت على الغاية، وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها، وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب، ويسمونها قيامات الكواكب، أي الدعوة التي يقام له بها، شهد له ذلك: أما بأنه من مادتها؛ أو بأن التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله. (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)،. وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت، فقد ثبت أن السحر حق مع حظره. لكن حسبنا من العلم ما علمنا.

ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة، بارتباطات بين الكلمات حرفية، يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية؛ وإنما هي شبه المعاياة والمسائل السيالة. ولهم في ذلك كلام كثير من أدعية وأوراد. وأعجبه زايرجه العالم للسبتي، وقد تقدم. ذكرها. ونبين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزايرجة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها؛ ثم نكشف عن الحق فيها وأنها ليست من الغيب، وإنما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الإفادة فقط، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة إلا أننا تحرينا اصح النسخ منها في ظاهر الأمر. والله الموفق بمنه. وهي هذه:

يقول سبيتي ويحمد ربه	مصل على هادٍ إلى الناس أرسلا
محمد المبعوث خاتم الأنبيا	ويرضى عن الصحب ومن لهم
إلا هذه زايرجة العالم الذي	تراه بحيكم وبالعقل قد حلا
فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه	ويدرك أحكاماً تدبرها العلا
ومن أحكم الربط فيدرك قوة	ويدرك للتقوى وللكل حصلا
ومن أحكم التصريف يحكم سره	ويعقل نفسه وصح له الولا

وفي عالم الأمر تراه محققاً وهذا مقام من بالأذكار كملا
فهذي سرائر عليكم بكتمها أقمها دوائر وللحاء عدلا
فطاء لها عرش وفيه نقوشنا بنظمٍ ونثرٍ قد تراه مجدولا
ونسب دوائرٍ كنسبة فلكها وارسم كواكباً لأدراجها العلا
وأخرج لأوتار وارسم حروفها وكور بمثله على حد من خلا
أقم شكل زيرهم وسو بيوته وحقق بمامهم ونورهم جلا
وحصل علوماً للطباع مهندساً وعلماً لموسيقى والأرباع مثلا
وسو لموسيقى وعلم حروفهم وعلم بآلاتٍ فحقق وحصلا
وسو دوائرها ونسب حروفها وعالمها أطلق والإقليم جدولا
أمير لنا فهو نهاية دولةٍ زناتيةٍ آبت وحكم لها خلا
وقطرٍ لأندلس فابنٍ لهودهم وجاء بنو نصرٍ وظفرهم تلا
ملوك وفرسان وأهل لحكمةٍ فإن شئت نصبهم وقطرهم حلا
ومهدي توحيدٍ بتونس حكمهم ملوك وبالشرق بالأوفاق نزلا
واقسم على القطر وكن متفقداً فإن شئت للروم فبالحر شكلا
ففنش وبرشنون الراء حرفهم وإفرنسهم دال وبالطاء كملا
ملوك كناوةٍ دلواً لقافهم وإعراب قومنا بترقيق أعملا
فهند حباشي وسند فهرمس وفرس ططاري وما بعدهم طلا
وقيصرهم جاء ويزد جردهم لكاف وقبطيهم بلامه طولا
وعباس كلهم شريف معظم ولكن تركي بذا الفعل عطلا
فإن شئت تدقيق الملوك وكلهم فختم بيوتاً ثم نسب وجولا
على حكم قانون الحروف وعلمها وعلم طبائعها وكله مثلا
فمن علم العلوم تعلم علمنا ويعلم أسرار الوجود وأكملا
فيرسخ علمه ويعرف ربه وعلم ملاحيم بحاميم فصلا
وحيث أتى اسم والعروض يشقه فحكم الحكيم فيه قطعا ليقتلا
وتأتيك أحرف فسو لضربها وأحرف سيبويه تأتيك فيصلا
فمكن بتنكيرٍ وقابل وعوضن بترنيمك الغالي للأجزاء خلخلا
وفي العقد والمجزور يعرف غالباً وزد لمح وصفيه في العقل فعلا
واختر لمطلع وسويه رتبةٍ واعكس بجذريه وبالدور علا؟
ويدركها المرء فيبلغ قصه وتعطي حروفها وفي نظمها انجلا

إذا كان سعد والكواكب أسعدت فحسبك في الملك ونيل اسمه العلا
وإيقاع دالهم بمرموز ثمةٍ فنسب دنادينا تجد فيه منهلا
وأوتار زيرهم فللحاء بمهم ومثناهم المثلث بجيمه قد جلا
وأدخل بأفلاكٍ وعدل بجدولٍ وأرسم أبا جاد وباقيه جملا
وجوز شذوذ النو تجري ومثله أتى في عروض الشعر عن جملة ملا
فأصل لديننا وأصل لفقهنا وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا
فادخل لفسطاطٍ على الوفق جذره وسبح باسمه وكبر وهللا
فتخرج أبياتاً وفي كل مطلب بنظم طبيعي وسر من العلا
وتفنى بحصرها كذا حكم عدهم فعلم الفواتيح ترى فيه منهلا
فتخرج أبياتا وعشرون ضعفت من الألف طبعياً فيا صاح جدولا
تريك صنائعاً من الضرب أكملت فصح لك المنى وصح لك العلا
وسجع بزيرهم وأثني بنقرة أقمها دوائر الزير وحصلا
أقمها بأوفاق وأصل لعدها من أسرار أحرفهم فعذبه سلسلا

الكلام علي استخراج نسبة الأوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة إلى موضع المعلق من امتزاج طبائع وعلم طب أو صناعة الكيميا:

أيا طالباً للطب مع علم جابر وعالم مقدار المقادير بالولا
#إذا شئت علم الطب لا بد نسبة لأحكام ميزان تصادف منهلا
فيشفى عليلكم والأكسير محكم وأمزاج وضعكم بتصحيح انجلا

الطب الروحاني:

وشئت إيلاوش 565 ودهنه بحلا لبهرام برجيس وسبعة أكملا
لتحليل أوجاع البوارد صححوا كذلك والتركيب حيث تنقلا

مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنيهم:

وعلم مطاريح الشعاعات مشكل وضلع قسيها بمنطقة جلا
ولكن في حج مقام إمامنا ويبدو إذا عرض الكواكب عدلا
بدال مراكز بين طول وعرضها فمن أدرك المعنى علا ثم فوضلا
مواقع تربيع وسه مسقط لتسديسهم تثليث بيت التي تلا
يزاد لتربيع وهذا قياسه يقينا وجذره وبالعين أعملا
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك بصاد وضعفه وتربيعه أنجلا

اختص صح صح ع8 سع وى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله لم ير أعجب منه .

مقامات الملوك المقام الأول 5 المقام الثاني

ع ع و المقام الرابع للح المقام الخامس لاى المقام السادس بير المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال

خط الاتصال

خط الانفصال

الوتر للجميع وتابع الجرر التام

الاتصال والانفصال

الواجب التام في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجزر المجيب في العمل

إقامة السوال عن الملوك

مقام الأولا نورعه ي مقام بها حج لا

الانفعال الروحاني والانقياد الرباني:

#أيا طالب السر لتهليل ربه لدى أسمائه الحسنى تصادف منهلا

تطيعك أخيار الأنام بقلبهم كذلك ريسهم وفي الشمس أعملا

ترى عامة الناس إليك تقيدوا وما قلته حقا وفي الغير أهملا طريقك هذا السيل والسبل الذي

أقوله غيركم ونصركموا اجتلى

إذا شئت تحيا في الوجود مع التقى ودينا متينا أو تكن متوصلا

كذي النون والجنيد مع سر صنعة وفي سر بسطام أراك مسربلا

وفي العالم العلوي تكون محدثا كذا قالت الهند وصوفية الملا

طريق رسول الله بالحق ساطع وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا

فبطشك تمليل وقوسك مطلع ويوم الخميس البدء والأحد انجلى

وفي جمعة أيضا بالأسماء مثله وفي اثنين للحسنى تكون مكملا

وفي طائه سر في هائه إذا أراك بها مع نسبة الكل أعطلا

وساعة سعد شرطهم في نقوشها وعود ومصطكى بخور تحصلا

وتتلو عليها آخر الحشر دعوة والإخلاص والسبع المثاني مرتلا

(اتصال أنوار الكواكب) بلعاني لا هي ى لا ظ غ لدسع ق صح ه ف و ى

وفي يدك اليمنى حديد وخاتم وكل برأسك وفي دعوة فلا

وآية حشر فاجعل القلب وجهها وأتلو إذا نام الأنام ورتلا

هي السر في الأكوان لاشيء غيرها هي الآية العظمى فحقق وحصلا
تكون بها قطباً إذ جدت خدمة وتدرك أسراراً من العالم العلا
سري بها ناجى ومعروف قبله وباح بها الحلاج جهراً فأعقلا؟
وكان بها الشبلي يدأب دائماً إلى أن رقى فوق المريدين واعتلى
فصف من الأدناس قلبك جاهدا ولازم لأذكار وصم وتنقلا
فما نال سر القوم إلا محقق عليم بأسرار العلوم محصلا

مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة وأئمة:

الانفعال الطبيعي:

لبرجيس في المحبة الوفق صرفوا بقزديرأو نحاس الخلط أكملا
وقيل بفضة صحيحاً رأيته فجعلك طالعاً خطوطه ماعلا
توخ به زيادة النور للقمر وجعلك للقبول شمسه أصلا
ويومه والبخور عود لهندهم ووقت لساعة ودعوته ألا
ودعوته بغاية فهي أعملت وعن طسيمان دعوة ولها جلا
وقيل بدعوة حروف لوضعها بحر هواء أو مطالب أهلا
فتنقش أحرفا بدال ولامها وذلك وفق للمربع حصلا
إذا لم يكن يهوى هواك دلالها فدال ليبدو واو زينب معطلا
فحسن لبائه وبائهم إذا هواك وباقيهم قليلة جملا
ونقش مشاكل بشرط لوضعهم وما زدت أنسبه لفعلك عدلا
ومفتاح مريم ففعلهما سوا فبوري وبسطامي بسورتها تلا
وجعلك بالقصد وكن متفقداً أدلة وحشي لقبضة ميلا
فاعكس بيوتها بألف ونيفٍ فباطنها سر وفي سرها انجلا

فصل في المقامات للنهاية:

لك الغيب صورة من العالم العلا وتوجدها دار أو ملبسها الحلا
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه بنثر وترتيلٍ حقيقة أنزلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق فيحكى إلى عود يجاوب بلبلا
وقد جن بهلول بعشق جمالها وعند تجليها لبسطام أخذلا
ومات أجليه وأشرب حبها جنيد وبصرى والجسم أهملا
فتطلب في التهليل غايته ومن بأسمائه الحسنى بلا نسبة خلا
ومن صاحب الحسنى له الفوز بالمنى ويسهم بالزلفى لدى جيرة العلا

وتخبر بالغيب إذا جدت خدمةً تريك عجائباً بمن كان موئلا

فهذا هو الفوز وحسن تناله ومنها زيادات لتفسيرها تلا

الوصية والتختم والإيمان والإسلام والتحريم والأهلية:

فهذا قصيدنا وتسعون عده وما زاد خطبة وختما وجدولا

عجبت لأبيات وتسعون عدها تولد أبياتاً وما حصرها انجلا

فمن فهم السر فيفهم نفسه ويفهم تفسيراً تشابه أشكلا

حرام وشرعي لإظهار سرنا لناس وإن خصوا وكان التأهلا

فإن شئت أهليه فغلظ يمينهم وتفهم برحلة ودين تطوّلا

لعلك أن تنجو وسامع سرهم من القطع والافشا فترأس بالعلا

فنجل لعباس لسره كاتم فنال سعادات وتابعه علا

وقام رسول الله في الناس خاطباً فمن يرأس عرشاً فذلك أكملا

وقد ركب الأرواح أجساد مظهر فآلت لقتلهم بدق تطوّلا

إلى العالم العلوي يفنى فناؤنا ويلبس أثواب الوجود على الولا

فقد تم نظماً وصلى إلهنا على خاتم الرسل صلاة بها العلا

وصلى إله العرش ذو المجد والعلا على سيد ساد الأنام وكملا

محمد الهادي الشفيع إمامنا وأصحابه أهل المكارم والعلا

كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرجة العالم بحول الله منقولا عمن لقيناه من القائمين عليها:

السؤال له ثلثمائة وستون جواباً عدة الدرج، وتختلف الأجوبة عن سؤالٍ واحدٍ في

طالعٍ مخصوصٍ باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار، وتناسب العمل من استخراج الأحرف من بيت القصيد.

(تنبيه)- تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول: حروف عربية تنقل

على هيآتها، وحروف برسم الغبار. وهذه تتبدل: فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأدوار عن أربعةٍ، فإن زادت عن أربعةٍ نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات، وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه؛ ومنها حروف برسم الزمام كذلك، غير أن رسم الزمام يعطي نسبة ثانية، فهي بمنزلة واحد ألفٍ وبمنزلة عشرةٍ، ولها نسبة من خمسةٍ بالعربي، فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروفٍ في هذا الرسم وحرفان في الرسم، فاختصروا من الجدول بيوتاً خاليةً. فمتى كانت أصول الأدوار زائدة على أربعةٍ حسبت في العدد في طول الجدول، وإن لم تزد على أربعةٍ لم يحسب إلا العامر منها.

والعمل في السؤال يفتقر إلى سبعة أصولٍ: عدة حروف الأول وحساب أدوارها

بعد طرحها، إثني عشر إثني عشر؛ وهي ثمانية أحرفٍ في الكامل وستة في الناقص أبداً-. ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج، والدور الأكبر الأصلي، وهو واحد أبداً. وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي، وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج. وإضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوارٍ مضروبةٍ في أربعة، تكون إثني عشر دوراً. ونسبة هذه الثلاثة

الأدوار التي هي كل دور من أربعةٍ نشأة ثلاثية، كل نشأة لها ابتداء. ثم إنها تضرب أدواراً رباعية أيضاً ثلاثية. ثم إنها من ضرب ستة في إثنين، فكان لها نشأة، يظهر ذلك في العمل. ويتبع هذه الأدوار الإثني عشر نتائج، وهي في الأدوار، إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة.

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايرجة؛ هل هي علم قديم، أو محدث بطالع أول

درجةٍ من القوس أثناء حروف الأوتار؟ ثم حر وف السؤال. فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء. وثالثه وتر رأس الدلو إلى حد المركز، وأضفنا إليه حروف السؤال، ونظرنا عددها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين، وأكثر ما تكون ستة وتسعين، وهي جملة الدور الصحيح؛ فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين. ويختصر السؤال إن زاد عن ستة وتسعين، بأن يسقط جميع أدواره الإثني عشرية، ويحفظ ما خرج منها وما بقي، فكانت في سؤالنا سبعة أدوار، الباقي تسعة، أثبتها في الحروف ما لم يبلغ الطالع إثنتي عشرة درجة، فإن بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور.

ثم تثبت أعدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث، ثم

تثبت الطالع وهو واحد؛ وسلطان الطالع وهو أربعة، والدور الأكبر وهو واحد؛ واجمع ما بين الطالع والدور وهو إثنان في هذا السؤال، واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية، وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة، فهذه سبعة أصول. فما خرج من ضرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس، مما لم يبلغ إثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً؛ وإن زاد على إثني عشر طرح أدواراً، وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية، وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع، يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول؛ وتعد متوالياً خمساتٍ أدواراً، وتحفظها إلى أن يقف العدد على حرفٍ من أربعةٍ، وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي. فوقع العدد في عملنا

على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوارٍ، فضربنا ثلاثةً في ثلاثةٍ كانت تسعة، وهو عدد الدور الأول. فأثبته واجمع ما بين الضلعين: القائم والمبسوط يسكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول؛ وإن وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها، فلا يعتبر وتستمر على أدوارك. وأدخل بعدد ما في الدور الأول، وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمعا فيه، وهي ثمانية، ماراً إلى جهة اليسار؛ فوقع على حرف لام ألفٍ ولا يخرج منها أبداً حرف مركب.وإنما هو إذن حرف تاء أربعمائة برسم الزمام، فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد، واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر، أدخل بها في حروف الأوتار، وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد. ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في

النظم الطبيعي، وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر، أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين، أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون.

فعلى ذلك يكون نظم الحروف الأول، ثم ثلاثة وعشرون مرتين، ثم إثنان وعشرون مرتين، على حسب هذا الطرح إلى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً. ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول إلى ثمانية، الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة. فاصعد في ضلع ثمانيةٍ بخمسةٍ من حيث انتهيت في الدور الأول وعلم عليه، وأدخل في صدر الجدول بسبعة عشر، ثم بخمسة. ولا تعد الخالي، والدور عشرون، فوجدنا حرف ثاء خمسمائةٍ؛ وإنما هو نون لأنّ دورنا في مرتبة العشرات، فكانت الخمسمائة بخمسين لأنّ دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مئين. فأثبت نوناً ثم أدخل بخمسةٍ أيضاً من أوله. وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحداً، فقهقر العدد واحداً يقع على

خمسةٍ، أضف لها واحداً لسطح تكن ستة. أثبت واواً وعلّم عليها من بيت القصيد أربعة؛ وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ إثني عشر؛ أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر، وهو ما للدور الثاني. فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار، فوقع العدد على واحد. أثبت الألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروفٍ عدة الخارج من الدور الثاني، وضع الدور الثالث وأضف خمسةً إلى ثمانية تكن ثلاثة عشر، الباقي واحد. انقل الدور في ضلع ثمانية بواحدٍ وأدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر، وخذ ما وقع عليه العدد وهو (ق) وعلّم عليه. وأدخل بثلاثة عشر في حروف الأوتار وأثبت ما خرج، وهو سين، وعلّم عليه من بيت القصيد، ثم أدخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد، فخذ مما يلي حرف سين من الأوتار فكان (ب) أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد. وهذا يقال له: الدور المعطوف، وميزانه صحيح، وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها، وتضيف إليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين، وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد. وأدخل في صدر الجدول بثلاثة عشر، وانظر ما قابله من السطح وأضعفه بمثله، وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر؛ فكان حرف جيم، وكانت للجملة سبعة، فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد. وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر، وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر أدوار الثلاثيات، وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة بإضافة الباقي من الدور السابق، فاضرب الطالع مع الدور في السلطان، وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات.

فاضرب على حرفين من الأوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانيةٍ وأدخل بتسعةٍ من دور الحرف الذي أخذته آخراً من بيت القصيد، فالتاسع حرف راء، فأثبته

وعلّم عليه. وأدخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابلها من السطح يكون (ج)، فهقر العدد واحداً يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبته وعلّم عليه. وعدّ مما يلي الثاني تسعة يكون ألف أيضاً أثبته وعلّم عليه وأضرب على حرفٍ من الأوتار، وأضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر، أدخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء، أثبتها وعلّم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين. وأدخل بثمانية عشر في حروف الأوتار تقف على (س) أثبتها وعلّم عليها إثنين، وأضف إثنين إلى تسعة تكون أحد عشر. أدخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح ألف أثبتها وعلّم عليها ستة، وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة. إصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الأوتار وأضعف خمسة بمثلها،

وأضفها إلى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون؛ أدخل بها في حروف الأوتار تقع على (ب) أثبتها وعلّم عليها إثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر إثنين التي هي في رأس إثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر. أدخل في حروف الأوتار تقف على (ق) أثبتها وعلّم عليها ستة وعشرين، وأدخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على إثنين بالغبار، وذلك حرف (ب) أثبته وعلّم عليه أربعة وخمسين، وأضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السادس، وعدته ثلاثة عشر، الباقي منه واحد، فتبين إذ ذاك أن دور النظم من خمسة وعشرين، فإن الأدوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد؛ فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين، وهو الدور في نظم البيت، فانقل الدور في ضلع ثمانية بواحد. ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه، لأنه دور ثان من نشأة تركيبية ثانية؛ بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حروف (ب) من بيت القصيد إلى الواحد تكون خمسة، تضيف خمسة إلى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر، أدخل بها في صدر الجدول وخذ ما قابلها من السطح وهو ألف، أثبته وعلم عليه من

بيت القصيد إثني عشر واضرب على حرفين من الأوتار. ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال؛ فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلّم عليه من حروف السؤال ليكون داخلاً في العدد في بيت القصيد، وكذلك تفعل بكل حرف بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال؛ فما خرج منها زده على بيت القصيد من آخره وعلّم عليه، ثم أضف إلى ثمانية عشر ما علمته على حرف الألف من الآحاد، فكان إثنين تبلغ الجملة عشرين. أدخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء، أثبته وعلّم عليه من بيت القصيد، ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوتري. فاضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السابع، وهو إبتداء لمخترع ثان ينشأ من الإختراعين. ولهذا الدور من العدد تسعة، تضيف لها واحداً تكون عشرة للنشأة الثانية، وهذا الواحد تزيده بعد إلى إثني عشر دوراً، إذا كان من هذه النسبة، أو تنقصه من الأصل تبلغ الجملة خمسة عشر. فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وأدخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة، وإنما هي خمسون، نون مضاعفة بمثلها؛ وتلك (ق) أثبتها وعلّم عليها من بيت القصيد إثنين وخمسين، وأسقط من إثنين وخمسين إثنين، وأسقط تسعة التي للدور؛ الباقي واحد وأربعون؛ فأدخل بها في حروف الأوتار تقف على واحد أثبته. وكذلك أدخل بها في بيت القصيد تجد واحداً، فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين. علامة على

الألف الأخير الميزاني؛ وأخرى على الألف الأولى فقط، والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة، أدخل في ضلع ثمانية وخمسين وأدخل في بيت القصيد بخمسة تقع على عين بسبعين، أثبتها وعلّم عليها. وأدخل في الجدول بخمسة، وخذ ما قابلها من السطح، وذلك واحد، أثبته وعلّم عليه من البيت ثمانية وأربعين، وأسقط واحداً من ثمانية وأربعين للأس الثاني وأضف إليها خمسة، الدور. الجملة إثنان وخمسون. أدخل بها في صدر الجدول تقف

على حرف (ب) غبارية وهي مرتبة مئينية لتزايد العدد، فتكون مائتين وهي حرف راء، أثبتها وعلّم عليها من القصيد أربعة وعشرين، فانتقل الأمر إلى ستة وتسعين إلى الابتداء وهو أربعة وعشرون، فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة، الدور، وأسقط واحداً تكون الجملة ثمانية وعشرين. أدخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية، أثبت (2) وعلّم عليها وضع الدور التاسع، وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد، إصعد في ضلع ثمانية بواحد. وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد، ولأنه من النشأة الثانية، ولأنه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات. فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة، الجملة إثنان وخمسون، أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف إثنين غبارية، وإنما هي مئينية لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الآحاد والعشرات، فأثبته مائتين راء، وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين، وأضف إلى ثلاثة عشر، الدور، واحد الأس، وأدخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية، فعلم عليها ثمانية وعشرين، واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة إضرب على حرفين من الأوتار، وأدخل بسبعة تقف على حرف لام، أثبته وعلم عليه من البيت. وضع الدور العاشر وعدده لسعة، وهذا ابتداء المثلثة الرابعة، واصعد في ضلع ثمانية بتسعة، تكون خلاء، فاصعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء. اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعتين، وإنما كانت تضرب في إثنين، وأدخل في الجدول بستة وثلاثين تقف على أربعة زمامية وهي عشرية؛ فأخذناها أحادية لقلة الأدوار، فأثبت حرف دال؛ وإن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان حدها من بيت القصيد، فعلم عليها؛ ولو دخلت بالتسعة لا غير من ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية، فاطرح من ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود. ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في إثنين لوقف على واحدٍ زمامي وهو عشري، فاطرح

منه إثنين تكرار التسعة، الباقي ثمانية نصفها المطلوب. ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضربها في ثلاثة لوقعت على عشرة زمامية، والعمل واحد. ثم أدخل بتسعة في بيت القصيد وأثبت ما خرج وهو ألف، ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط واحداً وأدخل في صدر الجدول بستة وعشرين، وأثبت ما خرج وهو مائتان بحرف راء وعلّم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين. واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة، إصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الأول، وأدخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال؛ فخذ ما قابله من السطح وهو واحد، فأدخل بواحد في بيت القصيد تكن سين، أثبته وعلم عليه أربعة. ولو يكون الوقف في الجدول على

بيت عامر لأثبتنا الواحد ثلاثة. وأضعف سبعة عشر بمثلها وأسقط واحداً وأضعفها بمثلها وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين، أدخل بها في الأوتار تقف على سنة أثبتها وعلّم عليها، وأضعف خمسة بمثلها. وأدخل في البيت تقف على لام أثبتها وعلّم عليها عشرين، واضرب على حرفين من الأوتار. وضع الدور الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحد، إصعد في ضلع ثمانية بواحد، وهذا الدور آخر الأدوار وآخر الإختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية. والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية، وإنما هي آحاد ثمانية، وليس معنا من الأدوار إلا واحد، فلو زاد عن أربعة من مربعات إثني عشر أو ثلاثة من مثلثات إثني عشر لكانت (ح)، وإنما هي (د)؛ فأثبتها وعلّم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين؛ ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة، أضعفها بمثلها للأس تبلغ عشرة، أثبت (ى) وعلم عليها، وانظر في أي المراتب وقعت: وجدناها في الرابعة، دخلنا بسبعة في حروف الأوتار، وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت (ف)، أثبتها وأضف إلى سبعة واحد الدور، الجملة ثمانية. أدخل بها في الأوتار تبلغ (س)

أثبتها وعلّم عليها ثمانية، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور؛ فإنها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين، أدخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون، وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية، واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الأولى ولها تسعة. وهذا العدد يناسب أبدا الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أدواراً وذلك تسعة، فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار، وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين، فادخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألفاً، أثبته وعلّم عليه ستة وتسعين. وإن ضربت سبعة التي هي أدوار الحروف التسعينية في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين، والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك، واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وأدخل في الجدول بتسعة تبلغ إثنين زمامية. واضرب تسعة فيما ناسب من السطح، وذلك ثلاثة، وأضف لذلك سبعة، عدد الأوتار الحرفية، واطرح واحداً الباقي من دور إثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين؛ أدخل بها في البيت تبلغ خمسة، فأثبتها وأضف تسعة بمثلها وأدخل في صدر الجدول بثمانية عشر، وخذ ما في السطح وهو واحد، أدخل به في حروف الأوتار تبلغ (م) أثبته وعلّم عليه، واضرب على حرفين من الأوتار. وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة، فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر، أضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة، وأدخل بستة عشر في بيت القصيد تبلغ (ت) أثبته وعلّم عليه أربعة وستين، وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين، وزد واحداً الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة، أدخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية، وانظر ما في السطح تجد واحداً أثبته وعلّم عليه من بيت القصيد وهو التاسع أيضاً من البيت، وأدخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات، فأثبت(لام) وعلّم

عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد. فانقل في ضلع ثمانية. بواحد وأضف إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين، وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة عشر، وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر، أدخل بها في حروف الأوتار تكن لاماً أثبتها فهذا آخر العمل.

والمثال في هذا السؤال السابق: أردنا أن نعلم أن هذه الزايرجة علم محدث أو قديم، بطالع أول درجة من القوس، أثبتنا حروف الأوتار، ثم حروف السؤال، ثم الأصول، وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون أدوارها سبعة الباقي منها تسعة، الطالع واحد، سلطان القوس أربعة، الدور الأكبر واحد، درج الطالع مع الدور إثنان، ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية، إضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد.

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن   غرائب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الأوتار: ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص ع ف و ر س ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث ح ذ ط غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ى .

(حروف السؤال) : ا ل ز ا ى ر ج ع ل م م ح د ث ا م ق ى م الدور الأول 9 الدور الثانى 17 الباقى 5 الدور الثالث 13 الباقى 1 الدور الرابع 9 الدور الخامس 17 الباقى 5 الدور السادس 13 الباقى 1 الدور السابع 9 الدور الثامن 17 الباقى 5 الدور التاسع 13 الباقى 1 الدور العاشر 13 الدور الحادي عشر 17 الباقى 5 الدور الثانى عشر 13 الباقى 1 النتيجة الأولى 9 النتيجة الثانية 17 الباقى 5 النتيجة الثالثة 13 الباقى 1 .

ه ع حج و66 في ا ى 6	ذ 210000
س 10000	ن220000
و 20000	غ230000
ا30000	ر240000
ل 40000	ا250000
ع 50000	ي260000
ظ 60000	ب270000
ي70000	ش280000
م 80000	ك290000
ا90000	ض300000
ل100000	ب 310000
خ 110000	ط320000

ل 120000	330000ه
ق 130000	340000ا
ح140000	350000ل
ز150000	360000ج
ت160000	370000د
ف 170000	380000م
ص180000	390000ث
ن 190000	400000ل
ا 200000	4100001

ف و ز ا س رر ا ا س ا ب ا ر ق ا ع ا ر ص ح ر ح ل د ا ر س ا ل د ى و س ر ا د م ن ا ل ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين

مرتين إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعاً والله أعلم ن ف رو ح ر و ح ا ل ود س ا د ر ر س ر ه ا ل د رى س وان س د رواب لا ا م رب وا ا ل ع ل ل.

هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من زايرجة العالم منظومة. وللقوم طرائق أخرى من غير الزايرجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة. وعندهم أن السر في استخراج الجواب منظوماً من الزايرجة، إنما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب وهو: سؤال عظيم الخلق البيت، ولذلك يخرج الجواب على رويه. وأما الطرق الأخرى فيخرج الجواب غير منظوم. فمن طرائقهم في استخراج الأجوبة ما ننقله عن بعض المحققين منهم.

2-فصل في الاطلاع علي الأسرار الخفية من جهة الارتباطان الحرفية:

إعلم أرشدنا الله وإياك أن هذه الحروف أصل الأسئلة في كل قضية، وإنما تستنتج الأجوبة على تجزئته بالكلية، وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى والله علام الغيوب ا ول ا ع ظ س ال م خ ى دل زق ت ارذص ف ن غ ش اك ك ى ب م ض ب ح ط ل ج ه دن ل ث ا.

وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين وسماه القطب فقال:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

فإذا أردت استنتاج المسألة فاحذف ما تكرر من حروفها واثبت ما فضل منه. ثم احذف من الأصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسألة حرفاً يماثله، وإثبت ما فضل منه. ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالأول من

فضله، والثاني من فضل المسألة. وهكذا إلى أن يتم الفضلان أو ينفد أحدهما قبل الآخر؛ فتضع البقية على ترتيبها. فإذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقاُ لعدد حروف الأصل قبل الحذف فالعمل صحيح، فحينئذ تضيف إليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً، فتعمر بها جدولاً مربعا يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني، وتنقل البقية على حالها، وهكذا إلى أن تتم عمارة الجدول. ويعود السطر الأول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة، ثم تخرج وتركل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له، وتضع الوتر مقابلا لحرفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك، وهذه صورته:

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة، واحذر ما يلي الأوتاد وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة. وهذا الخارج هو أول رتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات، يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية، فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الإمداد، يخرج أفق النفس الأوسط؛ وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط.وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رتب السريان، ثم تطرح من الرابع. أول عناصر الإمداد الأصلي يبقى ثالث ركبة السريان؛ فتضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع مرتبة السريان، يخرج أول عالم التفصيل؛ والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، والثالث في الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل، والرابع في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل. فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل، تبقى العوالم المجردة، فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول، ويقسم المنكسر على الأفق الأوسط يخرج الجزء الثاني، وما انكسر فهو الثالث، ويتعين الرابع هذا في الرباعي. وإن شئت أكثر من الرباعي فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الأوفاق بعد الحروف. والله يرشدنا وإياك. وكذلك إذا قسم عالم التجريد على أول رتب السريان خرج الجزء الأول من عالم التركيب، وكذلك إلى نهاية الرتبة الأخيرة من عالم الكون. فافهم وتدبر والله المرشد المعين.

ومن طريقهم أيضاً في استخراج الجواب، قال بعض المحققين منهم: إعلم أيدنا الله وإياك بروح منه، أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم، وللعمل به شرائط تلتزم. وقد يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة؛ فيطلع بذلك على نتيجتي

الفلسفة، أعني السيميا وأختها، ويرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب. وقد شهدت جماعة بأرض المغرب، ممن اتصل بذلك، فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله. واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر، مفتاح كل خير؛

كما أن الخرق والعجلة راس الحرمان، فأقول: إذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفا بيطوس أعني أبجد إلى آخر العدد، وهذا أول مدخل هن علم الحروف، فانظر ما لذلك الحرف من الأعداد، فتلك الدرجة

التي هي مناسبة للحرف هي قوته في الجسمانيات. ثم اضرب العدد في مثله تخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره.وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة، لان المنقوطة منها مراتب لمعان يأتي عليها البيان فيما بعد.

واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلاً في العالم العلوي أعني الكرسي، ومنها المتحرك والساكن والعلوي والسفلي كما هو مرقوم في أماكنه من الجداول الموضوعة في الزيارج.

واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام: الأول وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها؛ فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم؛ فمتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم الأجسام. الثاني تؤثها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها، فهي قوة في الروحانيات العلويات، وقوة شكلية في عالم الجسمانيات. الثالث وهو يجمع الباطن، أعني القوة النفسانية على تكوينه؛ فتكون قبل النطق به صورة في النفس، بعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق.

وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات في الحروف وهي الحرارة

واليبوسة، والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والبرودة والرطوبة؛ فهذا سر العدد اليماني، والحرارة جامعة للهواء والنار وهما: (أ ه ط م ف ش ذ ج زك س ق ث ظ)، والبرودة جامعة للهواء والماء (ب و ى ن ص ت ض د ح ل ع رخ غ) واليبوسة جامعة للنار والأرض (أ ه ط م ف ش ذب و ى ن ص ت ض) فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض. وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب

الأمهات الأول، أعني الطبائع الأربع المنفردة؛ فمتى أردت استخراج مجهول من مسئلة ما، فحقق طالع السائل أو طالع مسئلته واستنطق حروف أوتارها الأربعة: الأول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة، واستخرج أعداد القوى والأوتار كما سنبين، واحمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب، إما بصريح اللفظ أو بالمعنى. وكذلك في كل مسئلة تقع لك. بيانه: إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع، مع إسم السائل والحاجة، فاجمع أعدادها بالجمل الكبير؛ فكان الطالع الحمل رابعه السرطان سابعه الميزان عاشره الجدي، وهو أقوى هذه الأوتاد، فأسقط من كل برج حرفي التعريف، وانظر ما يخص كل برج من الأعداد المنطقة

الموضوعة في دائرتها، واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كلها وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك، ثم أعداد حروف العناصر الأربعة وما يخصها كالأول. وارسم ذلك كله أحرفاً ورتب الأوتاد والقوى والقرائن سطراً ممتزجاً. وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين، واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه. مثاله إفرض أن الطالع الحمل كما تقدم، ترسم (ح م ل): فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع والثمن (د ب أ) الميم لها من العدد أربعون، لها النصف والربع والثمن والعشر ونصف العشر إذا أردت التدقيق (م ك ى ه د ب) اللام لها من العدد ثلاثون، لها النصف والثلثان والثلث والخمس والسدس والعشر (ك ى وه ج). وهكذا تفعل بسائر حروف المسألة والإسم من كل لفظ يقع لك. وأما استخراج الأوتار فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له. مثاله: حرف (د) له من الأعداد أربعة مربعها ستة عشر،

إقسمها على أعظم جزء يوجد لها وهو إثنان يخرج وتراً لدال ثمانية. ثم تضع كل وترٍ مقابلاً لحرفه. ثم تستخرج النسب العنصرية، كما تقدم في شرح الاستنطاق، ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح. والله أعلم.

فصل في الاستدلال علي ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية:

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علته، وما الموافق لبرئه منه؛ فَمُر

السائل أن يسمي ما شاء من الأشياء على إسم العلة المجهولة، لتجعل ذلك الإسم قاعدة لك. ثم استنطق الإسم مع إسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة إن أردت التدقيق في المسئلة، وإلا اقتصرت على الإسم الذي سماه السائل، وفعلت به كما نبين. فأقول مثلا: سمى السائل فرساً فاثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة. بيانه: أن للفاء من العدد ثمانين ولها (م ك ي ح ب) ثم الراء لها من العدد مائتان (ق ن ك ى) ثم السين لها من العدد ستون ولها (م ل ك) فالواو عدد تام له (د ي ب) والسين مثله ولها (م ل ك). فإذا بسطت حروف الأسماء وجدت عنصرين متساويين، فاحكم لأكثركما حروفاً بالغلبة على الآخر، ثم احمل عدد حروف عناصر إسم المطلوب وحروفه دون بسط، وكذلك إسم الطالب واحكم للأكثر والأقوى بالغلبة.

وصفة قوى استخراج العناصر.

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة، واليبوسة طبع السوداء، فتحكم

على المريض بالسوداء. فإذا ألفت من حروف الإستنطاق كلاماً على نسبة تقريبية خرج موضع الوجع في الحلق، ويوافقه من الأدوية حقنة، ومن الأشربة شراب الليمون. هذا ما خرج من قوى أعداد حروف إسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر. وأما استخراج قوى العناصر من الأسماء العلمية فهو أن تسمي مثلاً محمداً، فترسم أحرفه مقطعة، ثم تضع أسماء العناصر الأربعة على ترتيب الفلك، يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد. ومثاله:

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الإسم المذكور عنصر الماء، لان عدد حروفه عشرون حرفاً، فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الإسم المذكور، وهكذا يفعل بجميع الأسماء. حينئذ تضاف إلى أوتارها، أو للوتر المنسوب للطالع في الزايرجة، أو لوتر البيت المنسوب لمالك بن وهيب، الذي جعله قاعدة لمزج الأسئلة وهو هذا:

سُؤَال عظيمُ الخلق حزت فصن إذن   غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات، وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه.وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية. وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعاً ممتزجاً بألفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير.

وعدة حروف هذا الوتر أعني البيت ثلاثة وأربعون حرفاً، لأن كل حرف مشدد من حرفين.

ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الأصل، لكل حرف فضل من المسئلة حرف يماثله، وتثبت الفضلين سطراً ممتزجاً بعضه ببعض الحروف. الأول من فضلة القطب والثاني من فضلة السؤال، حتى يتم الفضلتان جميعاً، فتكون ثلاثة وأربعين، فتضيف إليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين، لتعدل بها الموازين الموسيقية. ثم تضع الفضلة على ترتيبها فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الأصلي قبل الحذف فالعمل صحيح، ثم عمر بما مزجت جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني.

وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الأول بعينه، وتتوالى الحروف في القطر على نسبه الحركة. ثم تخرج وتركل حرف كما تقدم تضعه مقابلاً لحرفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك. وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الأول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه؛ فإن اتفقت فحسن، وإلا فاستخرج بين الحرفين نسبة. ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية. وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسيقية. ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة كما تقدم. واحذر ما يلي الأوتاد. وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة. وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية، فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الإمداد، يخرج أفق النفس الأوسط. وتطرح أول رتب السريان من

مجموع العناصر يبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رتب السريان، ثم تطرح من الرابع أول عناصر الإمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان. ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، وكذلك الثالث والرابع، فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل، تبقى العوالم المجردة؛ فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول. ومن هنا يطرد العمل في التامة. وله مقامات في كتب ابن وحشية والبوني وغيرهما. وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الإلهية، وعليه مدار وضع الزيارج الحرفية والصنعة الإلهية والنيرجات الفلسفية. والله الملهم وبه المستعان وعليه التكلان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الثلاثون

في علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك، فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك، حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلا عن المعادن. ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها

تلك المادة من القوة إلى الفعل، مثل حلّ الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس، وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك. وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير، وأنه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل، مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهباً إبريزاً.
ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء.وما زال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً. وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها. وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسمونها: علم جابر؛ وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألغاز. وزعموا أنه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها. والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء. وكتب فيها مسسلمة المجريطي من حكماء الأندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم، وجعله قريناً لكتابه الأخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم. وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع.وكلامه في ذلك الكتاب، وكلامهم أجمع في تآليفهم، هي ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والألغاز. ولابن المغيربي من أئمة هذا الشان كلمات شعرية، على حروف المعجم، من أبدع ما يجيء في الشعر، ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة، فلا تكاد تفهم. وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها، وليس بصحيح، لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطإ ما يذهبون إليه، حتى ينتحله. وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم. ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي، والبداوة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة؛ فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد و لم تترجم، اللهم إلا أن
يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن.وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون، لأبي السمح في هذه الصناعة، وكلاهما من تلاميذ مسلمة، فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل. قال ابن بشرون بعد صدرٍ من الرسالة خارج عن الغرض: والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة، قد ذكرها الأولون واقتص جميعها أهل الفلسفة، من معرفة تكوين المعادن وتخفق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن؛ فمنعنا اشتهارها من ذكرها. ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه فنبدأ بمعرفته. فقد قالوا: ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال: أولها هل تكون؟ والثانية من أي تكون؟ والثالثة من أي كيف تكون؟ فإذا عرف هذه الثلاثة واحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم. فأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به إليك من الإكسير. وأما من أي شيء تكون؛ فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل، وإن كان العمل

موجوداً من كل شيء بالقوة لأنها من الطبائع الأربع، منها تركبت ابتداء وإليها ترجع انتهاء. ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل، وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها. فالتي يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة إلى الفعل؛ والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لأنها فيها بالقوة فقط، وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض، وفضل قوة الكبير منها على الصغير. فينبغي لك - وفقك الله - أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب، فإن من لم يعرف هذه الأصول التي هي عماد هذه الصنعة، لم ينجح ولم يظفر بخير أبداً.وينبغي لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفي به وحده، وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار في التدبير واحداً فسمي حجراً. وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية

أوزانه وأزمانه وكيف تركيب الروع فيه وإدخال النفس عليه؟ وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها؟ فإن لم تقدر فلأي علةٍ وما السبب الموجب لذلك؟ فإن هذا هو المطلوب فافهم.واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت أنها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه. وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبرد؛ فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره، لأنه لا حياة فيه ولا نور. وإنما ذكرت الجسد والنفس، لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه على الغذاء والعشاء، وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورانية، التي بها يفعل العظائم والأشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها. وإنما انفعل الإنسان لاختلاف تركيب طبائعه، ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الأعراض والتضاد، ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه، ولكان خالداً باقياً. فسبحان مدبر الأشياء تعالى.واعلم أن الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء، فيضية، محتاجة إلى الانتهاء. وليس لها إذا صارت في هذا الحد أن تستحيل إلى ما منه تركبت كما قلناه آنفا في الإنسان؛ لأن طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً، وصارت شيئاً واحداً، شبيها بالنفس في قوتها وفعلها، وبالجسد في تركيبه ومجسته؛ بعد أن كانت طبائع مفردة بأعيانها. فيا عجباً من أفاعيل الطبائع، أن القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتمامها، فلذلك قلت: قوي وضعيف. وإنما وقع التغيير والفناء في التركيب الأول للاختلاف، وعدم ذلك في الثاني للاتفاق. وقد قال بعض الأولين: التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء، والتركيب موت وفناء. وهذا الكلام دقيق المعنى لان الحكيم أراد بقوله: حياة وبقاء خروجه من العدم إلى الوجود، لأنه ما دام على تركيبه الأول، فهو فان لا محالة؛ فإذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء. والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد التفصيل والتقطيع. فإذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة. فإذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة، لأنه قد صار

في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها، وذلك أنه لا وزن له فيه. وسترى ذلك إن شاء الله تعالى.وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ، وإنما أريد بذلك التشاكل في الأرواح

والأجساد، لأن الأشياء تتصل بأشكالها. وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجسمانية. وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح؛ كما ترى أن الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح. فأقول إن الأجساد قد كانت أرواحاً في بدئها، فلما أصابها حر الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة؛ فلم تقدر النار على أكلها لإفراط غلظها وتلزجها. فإذا أفرطت النار عليها، صيرتها أرواحاً، كما كانت أول خلقها. وإن تلك الأرواح اللطيفة، إذا أصابتها النار أبقت و لم تقدر على البقاء عليها، فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة، وصير الأرواح في هذا الحال، فهو أجل ما تعرفه.أقول إنما أبقت تلك الأرواح لاشتعالها ولطافتها. وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها،ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار، ولا تزال تغتذي بها إلى أن تفنى. وكذلك الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها لقفة تلزجها وغلظها. وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار، فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للأشياء. وذلك أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه، ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة؛ فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة، فسهل بذلك افتراقهما، كالماء والدهن وما أشبههما. وإنما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها. فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك منها.وينبغي لك أن تعلم أن الأخلاط، التي هي طبائع هذه الصناعة، موافقة بعضها لبعض، مفضلة من جوهر واحد، يجمعها نظام واحد بتدبير واحد، لا يدخل عليه غريب في الجزء منه، ولا في الكل، كما قال الفيلسوف: إنك إذا

أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها و لم تدخل عليها غريباً، فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه؛ إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاغ عنها ووقع في الخطأ.واعلم أن هذه الطبيعة، إذا حل بها جسد من قرائنها، على ما ينبغي في الحل،حتى يشاكلها في الرقة واللطافة، انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى؛ لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج، وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح. فافهم هداك الله هذا القول.واعلم هداك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينتقض، وهو الذي يقلب الطبائع ويمسكها، ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة. وليس كل جسد يحل خلاف هذا، هو الحل التام لأنه مخالف للحياة؛ وإنما حفه بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار، حتى يزول عن الغلظ، وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن تنقلب من اللطافة والغلظ. فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف، ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ. وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله، فلا خير واعلم أن البارد من الطبائع هو ييبس الأشياء ويعقد رطوبتها، والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها؛ وإنما أفردت الحر والبرد لأنهما فاعلان، والرطوبة واليبس منفعلان، وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون، وإن كان الحر أكثر فعلا في ذلك من البرد، لأن البرد ليس له نقل الأشياء ولا تحركها، والحر هو علة الحركة. ومتى ضعفت عفة الكون، وهو الحرارة، لم يتم منها شيء أبداً؛ كما أنه إذا

أفرطت الحرارة على شيء و لم يكن ثم برد أحرقته وأهلكته. فمن أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال، ليقوى به كل ضد علي ضده ويدفع عنه حر النار. و لم يحذر الفلاسفة أكثر شيء إلا من النيران المحرقة. وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها ونفي آفاتها وأوساخها عنها، وعلى ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم، فإنما عملهم إنما هو مع النار أولاً، وإليها يصير آخراً، فلذلك قالوا: إياكم والنيران المحرقات، وإنما

أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها، فتجمع على الجسد آفتين، فتكون

أسرع لهلاكه. وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه، فيتوسط بين شيئين، فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته. واعلم أن الحكماء كلها ذكرت ترداد الأرواح على الأجساد مراراً ليكون ألزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الإلفة، أعني بذلك النار العنصرية؛

فاعلمه.ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة، فقد اختلفوا فيه. فمنهم من زعم أنه في الحيوان؛ ومنهم من زعم أنه في النبات؛ ومنهم من زعم أنه في المعادن، ومنهم من زعم أنه في الجميع. وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها، لأن الكلام يطول جداً. وقد قلت فيما تقدم: إن العمل يكون في كل شيء بالقوة لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك، فنريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل، فنقصد إلى ما قاله الحراني، إن الصبغ كله أحد صبغين: إما صبغ جسد، كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه، وهو مضمحل منتقض التركيب؛ والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه، كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه، وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً؛ ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل، الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان. فإذا كان هذا هكذا، فنقول: إن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات، وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما. فأما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة، ولذلك قل خوض الحكماء فيه. وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها، وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو الطف منه؛ إلا أن ينعكس راجعاً إلى الغلظ، وأنه أيضاً لا يوجد في العالم شيء تتعلق به الروح الحية غيره، والروح ألطف ما في العالم، و لم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها. فأما الروح التي في النبات فإنها

يسيرة فيها غلظ وكثافة، وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات، فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه. والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيراً، وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس، وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده. ولا تجري إذا قيست بالروح، الحية إلا كالأرض عند الماء. كذلك النبات عند الحيوان، فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر. فينبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلاً ويترك ما يخشى فيه عسراً.واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساماً من الأمهات التي هي الطبائع، والحديثة التي هي المواليد، وهذا معروف متيسر الفهم. فلذلك قسمت

الحكماء العناصر والمواليد أقساماً حية وأقساماً ميتة، فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً، وكل ساكن مفعولاً ميتاً. وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية، فسفوا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتعل حياً، وما كان على خلاف ذلك سموه ميتاً. فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعاً حياً، وما لم ينفصل سموه ميتاً، ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية.فلم يجدوا لوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان، و لم يجدوا غير الحجر الذي في الحيوان؛ فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه، فتكيف لهم منه الذي أرادوا. وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها، ثم تفصل بعد ذلك. فأما النبات، فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الأشنان؛ وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس، إذا فزجت ودبرت، كان منها ما له تأثير. وقد دبرنا كل ذلك، فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتدبيره أسهل وأيسر. فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان، وطريق وجوده. إنا بينا أن الحيوان أرفع المواليد، وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه

كالنبات من الأرض. وإنما كان النبات ألطف من الأرض، لأنه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف، فوجب له بذلك اللطافة والرقة. وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب. وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعاً غيره. فافهم هذا القول فإنه لا يكاد يخفى، إلا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له. فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك وأنا أبين لك وجوه تدابيره، حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الإنصاف، إن شاء الله سبحانه.

(التدبير على بركة الله) خذ الحجر الكريم، فأودعه القرعة والإنبيق، وفصل طبائعة الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء، وهي الجسد والروح والنفس والصبغ. فإذا عزلت الماء عن التراب، والهواء عن النار؛ فارفع كل واحدٍ في إنائه على حدة، وخذ الهابط أسفل الإناء، وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة، حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفاؤه، وبيضه تبييضاً محكماً وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه، فإنه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد. ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه؛ فطهرها أيضا من السواد والتضاد، وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف وترق وتصفو. فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك، فابدأ بالتركيب الذي عليه مدار العمل. وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين: فأما التزويج، فهو اختلاط اللطيف بالغليظ؛ وأما التعفين فهو التمشية والسحق، حتى يختلط بعضه ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء. فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساك اللطيف، وتقوى الروح على مقابلة النار وتصبر عليها، وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والدبيب فيها. وإنما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجمع أجزائه، ودخل بعضها في بحض لتشاكلها فصار شيئاً واحداً

ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت، ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج.وكذلك النفس إذا امتزجت بهما، ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء

الآخرين، أعني الروح والجسد، وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه، بمترلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه. فإذا لقي هذا المركب الجسد المحلول، وألح عليه النار، وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه، ذاب في الجسد المحلول. ومن شان الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها، فإذا أرادت النار التعلق بها، منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها. فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً. وكذلك الماء من شأنه النفور من النار. فإذا ألحت عليه النار وأرادت تطييره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه، فمنعه من الطيران؛ فكان الجسد علة لإمساك الماء، والماء علة لبقاء الدهن؛ والدهن علة لثبات الصبغ، والصبغ علة لظهور الدهن، وإظهار الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها. فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل.

وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضةً، وإياها يعنون لا بيضة الدجاج. واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الإسم لغير معنى بل أشبهتها. ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيري، فقلت له: أيها الحكيم الفاضل، أخبرني لأي شيء سمَّت الحكماء مركب الحيوان بيضة؟ اختياراً منهم لذلك، أم لمعنى دعاهم إليه؟ فقال: بل لمعنى غامض! فقلت: أيها الحكيم، وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة، حتى شبهوها وسموها بيضة؛ فقال لشبهها وقرابتها من المركب، ففكر فيه، فإنه سيظهر لك معناه. فبقيت بين يديه مفكراً لا اقدر على الوصول إلى معناه. فلما رأى ما بي من الفكر، وأن نفسي قد مضت فيها، أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة، وقال لي: يا أبا بكر، ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الألوان، عند امتزاج الطبائع وتأليفها. فلما قال ذلك انجلت عني الظلمة، وأضاء لي نور قلبي

وقوي عقلي على فهمه. فنهضت شاكراً لله عليه إلى مترلي، وأقمت على ذلك شكلاً هندسياً يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة. وأنا واضعه لك في هذا الكتاب.مثال ذلك، أن المركب إذا تم وكمل، كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء، إلى ما في البيضة من طبيعة الهواء، كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة من طبيعة النار، وكذلك الطبيعتان الأخريان: الأرض والماء، فأقول: إن كل شيئين متناسبين على هذه الضفة فهما متشابهان. ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح، فإذا أردنا ذلك فإنا نأخذ أقل طبائع المركب، وهي طبيعة اليبوسة، ونضيف إليها مثلها من طبيعة الرطوبة وندبرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة، وتقبل قوتها. وكأن في هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك. ثم تحمل عليهما جميعاً مثليهما من الروح وهو الماء، فيكون الجميع ستة أمثال- ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس، وذلك ثلاثة أجزاء؛ فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة بالقوة. وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين؛ فتجعل أولاً الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبعة الهواء، وهما ضلعا [أ ح د] وسطح (ابجد) وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعاً (هزوح)، فأقول: إن سطح (ابجد) يشبه سطح (هزوح) طبيعة الهواء التي تسمى نفساً، وكذلك (بج) من سطح المركب.

والحكماء لم تسم شيئاً باسم شيء إلا لشبهه به. والكلمات التي سألت عن شرحها الأرض المقدسة، وهي المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية. والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء، ثم حمر بالزاج

حتى صار نحاسياً، والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الأرواح. وتخرجه الطبيعة العلوية التي تستجن فيها الأرواح لتقابل عليها النار، والفرفرة لون أحمر فإن يحدثه الكيان. والرصاص حجر، ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة. فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة؛ والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة، غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى، والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها، وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعاً والمحيطة بهما. وأما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة، إلباساً على الجاهل، ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها. فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به إليك مفسراً ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام.انتهى كلام ابن بشرون، وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث وما بعده.وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف، وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية. والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء، وهو الحق الذي يعضده الواقع، أنها من جنس آثار النفوس الروحانية، وتصرفها في عالم الطبيعة: إما من نوع الكرامة، إن كانت النفوس خيرة؛ أو من نوع السحر، إن كانت النفوس شريرة فاجرة. فأما الكرامة فظاهرة؛ وأما السحر، فلان الساحر، كما ثبت في مكان تحقيقه، يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية. ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها، كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات، وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها، كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي، وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب، والترك في قاصية الشمال، أنهم يسحرون الجو للأمطار وغير ذلك.ولما كانت هذه تخليقا للذهب في غير مادته الخاصة به، كان من قبيل السحر، والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء، مثل جابر ومسلمة. ومن كان قبلهم من حكماء الأمم، إنما نحواً هذا المنحى، ولهذا كان كلامهم فيه ألغازاً، حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه، لا أن ذلك يرجع إلى الصنانة بها، كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك. وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم، وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم، إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه

لأن الغاية أعلى من الرتبة، فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات. ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه، ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية. والله العليم الخبير.

الفصل الحادي والثلاثون

في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده مهم، لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن. وضررها في الدين كثير، فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها. وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسي، تدرك أدواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة

العقلية؛ وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع، فإلها بعض من مدارك العقل. وهؤلاء يسمون فلاسفة، جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة. فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه، ووضعوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل، وسموه بالمنطق.

ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل، إنما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة علي جميع الأشخاص، كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع. وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الأوائل. ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معان أخرى، وقد تميزت عنها في الذهن، فتجرد منها معان أخرى وهي التي اشتركت بها، ثم تجرد ثانياً، إن شاركها غيرها، وثالثاً، إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية، المنطبقة على جميع المعاني والأشخاص، ولا يكون منها تجريد بعد هذا، وهي الأجناس العالية.وهذه

المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني. فإذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة، وطلب تصور الوجود كما هو، فلا بد للذهن من إضافة بعضها إلى بعض، ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني، ليحصل تصور الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر. وصنف التصديق الذي هو تلك الإضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية، والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم، لأن التصور التام عندهم هو غاية الطلب الإدراكي، وإنما التصديق وسيلة له، وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه، فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام، وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو. ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها ما في الحسّ وما وراء الحسّ بهذا النظر وتلك البراهين. وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه، وهو الذي فرعوا عليه قضايا أنظارهم، أنهم عثروا أولاً: على الجسم السفلي بحكم الشهود والحسّ؛ ثم ترقى إدراكهم قليلاً فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحسّ بالحيوانات؛ ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل. ووقف إدراكهم فقضوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية. ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان، ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر، تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر. ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس، وتخفقها بالفضائل، وان ذلك ممكن للإنسان، ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره، وميله إلى المحمود منها، واجتنابه للمذموم بفطرته، وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة، وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي، وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة إلى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم.وإمام هذه المذاهب

الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها، فيما بلغنا في هذه الأحقاب، هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون، وهو معلم الإسكندر ويسمونه: المعلم الأول على الإطلاق،

يعنون معلم صناعة المنطق، إذ لم تكن قبله مهذبة. وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسّ بسطها. ولقد احسن في ذلك القانون ما شاء، لو تكفل له بقصدهم في الإلهيات. ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل وذلك أن كتب أولئك المتقدمين، لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة، وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها، وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة، وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما.واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه. فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم به في الترقي إلى الواجب، فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله، فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك (ويخلق ما لا تعلمون)، وكأنهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين، المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل، المعتقدين انه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء. وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات، ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه؛ فهي قاصرة وغير وافية بالغرض. أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي، فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة كما في زعمهم، وبين ما في الخارج غير يقيني، لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة، والموجودات الخارجية متشخصة بموادها. ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي، اللهم إلا ما يشهد له الحسّ

من ذلك، فدليله شهوده لا تلك البراهين، فأين اليقين الذي يجدونه فيها؛ وربما يكون تصرف الذهن أيضاً في المعقولات الأول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدها في الرتبة الثانية، فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة المحسوسات. إذ المعقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج، لكمال الانطباق فيها، فنسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك. إلا انه ينبغي لنا الإعراض عن النظر فيها، إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه، فإن مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها.وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحسم وهي الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وعلم ما بعد الطبيعة، فإن ذواتها مجهولة رأساً، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا. ونحن لا ندرك الذوات الروحانية، حتى نجرد منها ماهيات أخرى بحجاب الحسّ بيننا وبينها، فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في إثبات وجودها على الجملة؛ إلا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها، وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد، وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه.وقد صرح بذلك محققوهم، حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه، لأن مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية. وقال كبيرهم أفلاطون: إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين، وإنما يقال فيها بالأحق والأولى، يعني الظن. وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط، فيكفينا الظن الذي كان أولاً، فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها، ونحن إنما عنايتنا

بتحصيل اليقين فيما وراء الحسّ من الموجودات؛ وهذه هي غاية الأفكار الإنسانية عندهم.وأما قولهم إن السعادة في إدراك

الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين،فقول مزيف مردود، وتفسيره أن الإنسان مركب من جزأين: أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به؛ ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به، والمدرك فيهما واحد، وهو الجزء الروحاني؛ يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية، إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة، والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس. وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه. واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة، كيف يبتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الأصوات، فلا شك أن الابتهاج بالإدراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ. فالنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة، حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها، وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم، وإنما يحصل بكشف حجاب الحسّ ونسيان المدارك الجسمانية

بالجملة.والمتصوفة كثيراً ما يعنون بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها، حتى الفكر من الدماغ، ليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية، فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها. وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم، وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم.فأما قولهم: إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه، فباطل كما رأيته، إذ البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية، لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر. ونحن نقول إن أول شيء نعنى به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها، لأنها منازعة له قادحة فيه. وتجد الماهر منهم عاكفاً على كتاب الشفاء والإشادات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للقص من تأليف أرسطو وغيره، يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها، ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها، ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها. ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو

والفارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة.والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحسّ من رتب الروحانيات، ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك العلمي، وقد رأيت فساده. وإنما يعني أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك، إدراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة، وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الدس.وأما قولهم: إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضاً، لأنا إنما تبين لنا بما قرروه أن وراء الحسّ مدركاً آخر للنفس من غير واسطة، وأنها تبتهج بإدراكها ذلك ابتهاجاً شديداً؛ وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الأخروية، ولا بد؛ بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة.وأما قولهم: إن السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه، فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الأوهام

والأغلاط، في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه، وبينا فساد ذلك، وان الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملته روحانياً أو جسمانياً. والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن

الجزء الروحاني إذا فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكاً ذاتياً له مختصاً بصنف من المدارك، وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا، وليس بعام الإدراك في الموجودات كلها؛ إذ لم تنحصر، وانه يبتهج بذلك النحو من الإدراك ابتهاجاً شديداً، كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في أول نشوئه. ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها، هيهات هيهات لما توعدون. وأما قولهم: إن الإنسان مستقل بتهذيب نفسه وإصلاحها بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم، فأمر مبني على أن ابتهاج النفس بإدراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها، لان الرذائل عائقة للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها.وقد بينا أن اثر السعادة والشقاوة من وراء الإدراكات

الجسمانية والروحانية. فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط، الذي هو على مقاييس وقوانين. وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع، على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق؛ فأمر لا يحيط به مدارك المدركين. وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي ابن سينا فقال في كتاب المبدإ والمعاد ما معناه: إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس، لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة، فلنا في البراهين عليه سعة. وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان، لأنه ليس على نسبة واحدة، وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية، فلينظر فيها، ولنرجع في أحواله إليها.فهذا العلم، كما رأيته، غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها، مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة، والحجاج لتحصيل ملكة الجودة، والصواب في البراهين. وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية، وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية، وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها؛ فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات؛ لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار. هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت. فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها. والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الفصل الثاني والثلاثون

في إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات قي عالم العناصر قبل حدوثها، من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة. فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية. فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب

وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن. وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن، فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم. وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل، وقد كفونا مؤونة إبطاله.ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أبعد الناس عن الصنائع، وانهم لا يتعرضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله؛ فكيف يدعون استنباطه بالصناعة، ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق. وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية، قال لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحداً جحده، مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القناء وسائر أفعاله.ثم قال: ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقتان: الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة، إلا انه غير مقنع للنفس. والثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير

الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة، فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه، فتعرف موافقته له في الطبيعة، أو ينقص عنها فتعرف مضادته. ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة، وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما، ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى النير الأعظم.وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء، وذلك ظاهر. والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات، وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالاً للبدن المتكون عنها، وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه، ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال، لأن كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما. قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي يعني القدر، إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن، والقضاء الإلهي سابق على كل شيء. هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه، وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره. ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة. وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية، على ما تبين في موضعه. والقوى النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل. ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملتها، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة، وقوى الخاصة التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك.فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها، إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن. ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين، وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن. والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة، فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت إدراجها عن الظن إلى الشك. هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة، وهذا معوز

لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها، ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه.ومدرك بطليموس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف، لأن قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب؛ ومستولية عليها؛ فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال، وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة. ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله، بطريق استدلالى كما رأيته.

واحتج له أهل علم الكلام، بما هو غني عن البيان، من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادىء الرأي من التأثير، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف.

والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً، سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك.والنبوات أيضاً منكرة لشان النجوم وتأثيراتها. واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله: إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، وفي قوله: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي. فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال فطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب، الحديث الصحيح.فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع، وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني، بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق؛ فيلهج بذلك من لا معرفة له، ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك. فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها. ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء المتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة. وقد شاهدنا من ذلك كثيراً فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران، لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول، ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم. فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار.هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره. وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة في نفسها، فلا يمكن أحداً من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها، بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر. فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها، وصار المولع بها من الناس، وهم الأقل وأقل من الأقل، إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متستراً عن الناس وتحت ربقة الجمهور، مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم، فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنياً وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه، ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعادها، إنما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال. فكيف يعلم مهجور للشريعة، مضروب دونه سد الحظر والتحريم، مكتوم عن الجمهور، صعب المأخذ، محتاج بعد الممارسة والتحصيل أصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر، فأين

التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها. ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته، فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه. والله اعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء، وقال في ذلك أبو القاسم الروحي من شعراء أهل تونس:

أستغفر الله كل حين	قد ذهب العيش والهناء
اصبح في تونس وأمسي	والصبح لفه والمساء
الخوف والجوع والمنايا	يحدثها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب	وما عسى ينفع المراء
فأحمدي يرى عليا	حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي	به إليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا	يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصد الخنس الجواري	ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم	أنكم اليوم أملياء
مر خميس على خميس	وجاء سبت وأربعاء
ويصف شهر وعشر ثان	وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول	أذاك جهل أم ازدراء
إنا إلى الله قد علمنا	أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي إلها	حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الأنجم السواري	إلا عباديد أو إماء
يقضى عليها وليس تقضي	ومالها في الورى اقتضاء
ضلت عقود ترى قديما	ما شانه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعاً	يحدثه الماء والهواء
لم تر حلوا إزاء مر	تغذوهمو تربة وماء
الله ربي ولست	أدري ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهيولى التي تنادي	ما لي عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام	ولا ثبوت ولا انتفاء
ولست أدري ما الكسب	إلا ما جلب البيع والشراء

وإنما مذهبي وديني ما كان والناس أولياء
إذ لا فصول ولا أصول ولا جدال ولا ارتياء
ما تبع الصدر واقتفينا يا حبذا كان الاقتفاء
كانوا كما يعلمون منهم ولم يكن ذلك الهذاء
يا أشعر في الزمان إني أشعرني الصيف والشتاء
أنا أجزي بالشمر شرا والخير عن مثله جزاء
وإنني إن اكن مطيعا فلست أعصي ولي رجاء
وإنني تحت حكم بار أطاعه العرش والثراء
ليس انتصار لكم ولكن أتاحه الحكم والقضاء
لو حدث الأشعري عمن له إلى رأيه انتماء
لقال أخبرهم بأني مما يقولونه براء

الفصل الثالث والثلاثون

في إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها

وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

إعلم أن كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع، ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه وان اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه؛ فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الأموال في النفقات، زيادة على النيل من غرضه والعطب آخراً إذا ظهر على خيبة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وإنما أطعمهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة؛ فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة، ويحسبون أنها من ممكنات عالم

الطبيعة، ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج، المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك.وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة أن تمهى بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء إمهائها بالماء، بعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها، ويؤثر في انقلابها إلى المعدن المطلوب. ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها. فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته، حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسقون الإكسير، ويزعمون انه إذا القي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهباً؛ أو النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به في عمله.ويزعم المحققون منهم أن ذلك الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة، حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها، وتقلبه إلى صورتها ومزاجها، وتبث

فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى، كالخميرة للخبز، تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة، ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء. وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعان، يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتهما.هذا محصل زعمهم على الجملة، فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه، ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لائمة الصناعة من قبلهم

يتداولونها بينهم، ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها، إذ هي في الأكثر تشبه المعمى. كتأليف جابر بن حيان في رسائله السبعين، ومسلمة المجريطي في كتابه رتبة الحكيم، والطغرائي والمغيربي في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها، ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها.

فاوضت يوما شيخنا أبا البركات التلفيفي، كبير مشيخة

الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها؛ فتصفحه طويلاً، ثم رده إلى وقال لي، وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخيبة. ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط. إما الظاهرة، كتمويه الفضة بالذهب، أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جز أو جزأين أو ثلاثة؛ أو الخفية كإلقاء الشبه بين المعادن لصناعة، مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق المصعد، فيجيء جسماً معدنياً شبيهاً بالفضة، ويخفى إلا على النقاد المهرة؛ فيقدر أصحاب هذه الدلس، مع دلستهم هذه، سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويها على الجمهور بالخلاص وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس؛ فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب، ليستخلصها لنفسه؛ فهو سارق وأشر من السارق.ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار، يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم، بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة، والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما، فيحصلون من ذلك على معاش. ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة، إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة، فيفرون إلى موضع آخر، ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم. ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم. وهذا الصنف لا كلام معهم، لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة؛ ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكام عليهم، وتناولهم من حيث كانوا، وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم، لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى، وهي متمول الناس كافة. والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها. وأما من انتحل هذه الصناعة، ولم يرض بحال الدلسة؛ بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم، وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب، والرصاص والنحاس والقصدير الى

الفضة بذلك النحو مع العلاج، وبالإكسير الحاصل عنده؛ فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك. مع أنا لا نعلم أن أحداً من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية. إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها. ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم، ممن تم له الغرض منها أو وقف الى الوصول، يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها؛ ولا

يستريبون في تصديقها، شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه، وقالوا إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل.واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم، وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين. فلننقل مذاهبهم في ذلك، ثم نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه، فنقول: إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة، وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين: هل هي مختلفات بالفصول، وكلها أنواع قائمة بأنفسها؛ أو أنها مختلفة بخواص من الكيفيات، وهي كلها أصناف لنوع واحد؛ فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي، وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد، وان اختلافها إنما هو بالكيفيات، من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان، من الصفرة والبياض والسواد، وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد. والذي ذهب إليه ابن سينا، وتابعه عليه حكماء المشرق، أنها مختلفة بالفصول، وأنها أنواع متباينة، كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته، له فصل وجنس شأن سائر الأنواع. وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض، لإمكان تبدل الأغراض حينئذ وعلاجها بالصنعة.فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء

عنده ممكنة سهلة المأخذ. وبنى أبو علي ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها، بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل. والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور، فكيف يحاول انقلابها بالصنعة. وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول. ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه، إنما هو إعداد المادة لقبوله خاصة. والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه، كما يفيض النور على الأجسام بالصقل

والإمهاء.ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته، قال: "وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات، مع الجهل بفصولها، مثل العقرب من التراب والنتن، ومثل الحيات المتكونة من الشعر، ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجاجيل البقر. وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكراً بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون؛ فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة؛ فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة. ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها". انتهى كلام الطغرائي بمعناه. وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح. لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة، مأخذا آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين، لا الطغرائي ولا ابن سينا. وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى إحالته ذهباً أو فضة، ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر. لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله، وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين، دورة الشمس الكبرى. فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على

ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة نصيرها كالخميرة، فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته، وذلك هو الإكسير على ما تقدم.واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية، فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة، إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها؛ فلا بدّ من الجزء الغالب على الكل. ولا بدّ في كل ممتزج من المولدات من حرار؛ غريزية، هي الفاعلة لكونه، الحافظة لصورته. ثم كل متكون في زمان، فلا بدّ من اختلاف أطوار؛ وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور، حتى ينتهي إلى غايته. وانظر شأن الإنسان في طور النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم التصوير، ثم الجنين، ثم المولود، ثم الرضيع، ثُم ثم إلى نهايته. ويسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها، وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر، وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر. فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال؛ فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن، ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم.ومن شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد إليه بالصنعة. فمن الأمثال السائرة للحكماء: أول العمل آخر الفكرة، وآخر الفكرة أول العمل. فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة وبسبها المتفاوتة في كل طور، واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة، ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز، وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك. وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من المني. ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه، وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله، حتى لا يشذ منه شيء عن علمه، سألنا له تخليق هذا الإنسان، وأنى له ذلك.ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول: حاصل صناعة الكيمياء، وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي، ومحاذاتها به، إلى أن يتم كون الجسم المعدني، أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها. والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية، التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها، أو فعل المادة ذات القوى فيها، تصوراً مفضلاً واحدة بعد أخرى. وتلك الأحوال لا نهاية لها، والعلم البشرى عاجز عن الإحاطة بما دونها، وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات.هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته، وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة، إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها. وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك، وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته. وذلك أن حكمة الله في الحجرين، وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم. فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك، وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء. وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً، وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد. فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح، وأنه أقرب من

طريق الطبيعة في معدنها وأقل زماناً، لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته، في كون الفضة والذهب وتخفقهما. وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها، فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم. وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها، وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا، ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة. ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه، وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه

صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا. وأما قولهم إن الإكسير بمثابة الخميرة وأنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك، فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد، والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الافعال والطبائع. والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى، فهو تكوين وصلاح، والتكوين أصعب من الفساد، فلا يقاس الإكسير بالخميرة. وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها، مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم؛ فليست من باب الصنائع الطبيعية، ولا تتم بأمر صناعي. وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات، إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق ، وما كان من ذلك للحلاج وغيره، وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك. وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى. وهذا كلام جابر. في رسائله. ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه. وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع. فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه؛ كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته إلا بإرفاد مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع، فكذلك من طلب الكيمياء طلبا صناعيا ضيع ماله وعمله. ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم، لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع، فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد، ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة؛ أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء. قال تعالى: {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني}[المائدة:110] . فتنفخ فيها، فتكون طيراً بإذني،. وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها. فربما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره، فتكون عنده

معارة. وربما أوتيها الصالح ولا يملك إيتاءها، فلا تتم في يد غيره.ومن هذا الباب يكون عملها سحرياً، فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو كرامة أو سحراً. ولهذا كان كلام الحكماء كفهم فيها ألغازاً، لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عائم الطبيعة. وأمور خرق العادة غير منحصر؛ ولا يقصد أحد إلى تحصيلها. والله بما يعملون محيط.وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش، وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية، كالفلاحة والتجارة والصناعة، فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه، ويروم الحصول على الكثير من

المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها. وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران. وللناس أقوال كثيرة- حتى في الحكماء المتكلمين- في إنكارها واستحالتها. فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان علية الوزراء، فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه. وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها. والله الرزاق، ذو القوة المتين، لا رب سواه.

الفصل الرابع والثلاثون

في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها. ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل. ويمثل ذلك من شأن الفقه في

المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية، مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد. والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها. ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً؛ ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها. ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه، وجميع ما كتب عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك. وكيف يطالب به المتعلم، وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد، من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما، لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه. ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين، سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء. وهذا نادر من نوادر الوجود، وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله، فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؛ ولكن الله يهدي من يشاء.

الفصل الخامس والثلاثون

في المقاصل التي ينبغي اعتمادها بالتآليف وإلغاء ما سواها

أعلم أن العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك بالتصور للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً؛ إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعني بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلا بد من بيانها لآخر: إما على وجه التعليم؛ أو على وجه المفاوضة، تصقل الأفكار في تصحيحها. وذلك البيان إنما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف، وهي كيفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر أو إنشاء على العموم. وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدى بها ما في الضمير، لمن توارى أو غاب شخصه وبعد؛ أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه. وهذا البيان منحصر في الكتابة، وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفاً بحروف وكلمات بكلمات؛ فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي، فلهذا كانت في الرتبة الثانية واحداً؛ فسمي هذا البيان. يدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف، فهو أشرفها. وأهل الفنون معتنون بإيداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة، لتعلم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر، وهؤلاء هم المؤلفون. والتآليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثير، ومنتقلة في الأجيال والأعصار وتختلف باختلاف الشرائع والملل والأخبار عن الأمم والدول.

وأما العلوم الفلسفية، فلا اختلاف فيها، لأنها إنما تأتي على نهج واحد، فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية، في تصور الموجودات على ما هي عليه؛ جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعنصريها ومجردها ومادتها. فإن هذه العلوم لا تختلف، وإنما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية لاختلاف الملل، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر. ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسومها وأشكالها، ويسمى ذلك قلماً وخطاً. فمنها الخط الحميري، ويسمى المسند، وهو كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين، وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مضر، كما يخالف لغتهم. وإن الكل عربياً. إلا أن ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك. ولكل منهما قوانين كلية مستقرأة من عبارتهم غير قوانين الآخرين. وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة. ومنها الخط السرياني، وهو كتابة النبط والكلدانيين. وربما يزعم بعض أهل الجهل أنه الخط الطبيعي لقدمه فإنهم كانوا أقدم الأمم، وهذا وهم، ومذهب عامي. لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع، وإنما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة، فيظنها المشاهد طبيعية كما هو رأي كثير من البلداء في اللغة العربية؛ فيقولون: العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع، وهذا وهم. ومنها الخط العبراني الذي هو كتابة بني عابر بن شالح من بني إسرائيل وغيرهم. ومنها الخط اللطيني ، خط اللطينيين من الروم، ولهم أيضاً لسان مختص بهم. ولكل أمة من الأمم اصطلاح في الكتاب يعزى إليها ويختص بها. مثل الترك والفرنج والهنود وغيرهم. وإنما وقعت العناية بالأقلام الثلاثة الأولى. أما السرياني فلقدمه كما ذكرنا، وأما العربي والعبري فلتنزل القرآن

والتوراة بهما بلسانهما. وكان هذان الخطان بياناً لمتلوهما، فوقعت العناية بمنظومهما أولاً وانبسطت قوانين لاطراد العبارة في تلك اللغة على أسلوبها لتفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الرباني. وأما اللطيني فكان الروم، وهم أهل ذلك

اللسان، لما اخذوا بدين النصرانية، وهو كله من التوراة، كما سبق في أول الكتاب، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم، ليقتنصوا منها الأحكام على أسهل الطرق. وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم آكد من سواها. وأما الخطوط الأخرى فلم تقع بها عناية، وإنما هي لكل أمة بحسب اصطلاحها. ثم إن الناس حصروا مقاصد التآليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

أولها :استنباط العلم بموضوعه وتقسيم أبوابه وفصوله وتتبع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق ويحرص على إيصاله بغيره، لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب في المصحف، لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة، كما وقع في الأصول في الفقه. تكلم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الآن.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتآليفهم فيجدها مستغلقة على الأفهام ويفتح

الله له في لهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه، لتصل الفائدة لمستحقها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التآليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه، فيودع ذلك الكتاب ليقف على بيان ذلك.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب

انقسام موضوعه فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وخامسها: أن يكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة؛ فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها، ويجعل كل مسألة في بابها، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم؛ وفي العتبية من رواية العتبي عن أصحاب مالك؛ فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها فهذب ابن أبي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة. فنجد في كل باب مسائل من غيره. واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده.

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتنبه بعض الفضلاء الى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم، كما وقع في علم البيان. فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع

منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة، تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم؛ فكتبت في ذلك تآليفهم المشهورة، وصارت أصولاً لفن البيان، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم.

وسابعها: أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسهباً فيقصد بالتآليف تلخيص ذلك، بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر، إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول. فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتآليف ومراعاتها. وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء

مثل انتحال ما تقدم لغيره من التآليف أن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس، من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفن أو يأتي بما لا يحتاج إليه؛ أو يبدل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه. فهذا شأن الجهل والقحة. ولذا قال أرسطو، لما عدد هذه المقاصد، وانتهى إلى آخرها فقال: وما سوى ذلك ففصل أو شره، يعني بذلك الجهل والقحة. نعوذ بالله من العمل في ما لا ينبغي للعاقل سلوكه. والله يهدي للتي هي أقوم.

الفصل السادس والثلاثون

في أن كثرة الاختصارات الموضوعة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. فصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة فم الفنون للتفسير والبيان؛ فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم. وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها. لان ألفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات، إذا تم على سداده، ولم تعقبه آفة؛ فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع

في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة. وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقفته كشأن هذه الموضوعات المختصرة؛ فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها. (ومن يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له). والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل السابع والثلاثون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته
إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدريج، شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً، يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم؛ إلا أنها جزئية وضعيفة. وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به إلى الفن ثانية؛ فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته. ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا منغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله؛ فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه. وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار

ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها؛ فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً. ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً، بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد؛ ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم. ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم. والله يهدي من يشاء.وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها، لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان، كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة؛ لان الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل توسيت الملكة الناشئة عنه. والله علمكم ما لم تكونوا

تعلمون.ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم

علمان معاً؛ فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الاخر؛ فيستغلقان معا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرع الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

الفكر الإنساني:

واعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك، فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة، ظفرت بكتز عظيم وذخيرة شريفة. وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها، وذلك ان الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة، فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته، وهو [وجدان حركة للنفس]، في البطن الأوسط من الدماغ. تارة يكون مبدءا للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب؛ وتارة يكون مبدءاً لعلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوخه إلى المطلوب. وقد يصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته، فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما، أسرع من لمح البصر إن كان واحداً. وينتقل إلى تحصيل وسط آخر إن كان متعدداً، ويصير إلى الظفر بمطلوبه. هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات.ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية، تصفه ليعلم سداده من خطئه. لأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً، إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتهما ومن اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتائج، فتعين المنطق على التخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض. فالمنطق، إذا، أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها، ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر. ولذلك تجد كثيراً من فحول النظار في الخليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة علم المنطق، ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله تعالى، فإن

ذلك أعظم معن. ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها؛ فتفضي بهم بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه.ثم من دون هذا الأمر الصناعي، الذي هو المنطق، مقدمة أخرى من التعليم وهي معرفة الألفاظ؛ ودلالتها علي المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب. فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك.فأولاً: دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها؛ ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة؛ ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق؛ ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشتراكاً يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه. وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة بما، ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة؛ بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات، فقعد عن تحصيل المطلوب. و لم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليلاً ممن هداه الله.فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشغيب بالشبهات في ذهنك، فاطرح ذلك وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات، واترك الامر الصناعي جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه. وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه، واضعاً قدمك حيث وضعها أكابر النظار قبلك، متعرضا للفتح من الله، كما فتح عليهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فإذا فعلت

ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك ، وحصل الإمام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطرك عليه كما قلناه. وحينئذ فارجع

به إلى قوالب الأدلة وصورها، فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي؛ ثم اكسه صور الألفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان.وأما إن وقفت عند المناقشة في الألفاظ والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها، وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة وتتشابه لأجل الوضع والاصطلاح، فلا تتميز جهة الحق منها؛ إذ جهة الحق إنما تستبين إذا كانت بالطبع، فيستمر ما حصل من الشك والارتياب، وتسدل الحجب على المطلوب وتقعد بالناظر عن تحصيله. وهذا شأن الأكثر من النظار والمتأخرين، سيما من سبقت له عجمة في لسانه، فربطت على ذهنه، أو من حصل له شغف بالقانون المنطقي وتعصب له، فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع، فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها، ولا يكاد يخلص منها. والذريعة إلى درك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه، إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى. وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر، فيساوقه لذلك في الأكثر. فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى، متى أعوزك فهم المسائل، تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب. والله الهادي إلى رحمته، وما العلم إلا من عند الله.

الفصل الثامن والثلاثون

في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل

إعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة؛ وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم، كالعربية والحساب

وغيرهما للشرعيات، وكالمنطق للفلسفة. وربما كان آلة لعلم الكلام وأصول الفقه على طريقة المتأخرين. فأما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار؛ فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة. وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط. ولا يوسّع فيها الكلام ولا تفرع المسائل، لأن ذلك يخرج بها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير. فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها. وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها، مع أن شأنها أهم، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة؛ فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلاً بما لا يغني.وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق، لا بل وأصول الفقه، لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً وأكثروا من التفاريع والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة بذاتها. وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو،

وهي أيضاً مضرة بالمتعلمين على الإطلاق، لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل. فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل، فمتى يظفرون بالمقاصد، فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها ولا يستكثروا من مسائلها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده. فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل؛ ورأى من نفسه قياماً بذلك وكفاية به فليختر لنفسه ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً. وكل ميسر لما خلق له.

الفصل التاسع والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه.

إعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات. وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه. واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان، باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات. فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه؛ لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب؛ إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة.وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب،في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم. وأما أهل الأندلسي فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم. إلا انه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط؛ بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين

العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب.ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة، لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول. وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم. وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها؛ إلا ان عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، وووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته اكثر مما سواه؛ وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس

الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك.وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا، ولا أدري بم عنايتهم منها. والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة، ولا يخلطونه بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده، كما تعلم سائر الصنائع، ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه، ويبتغيه من أهل صنعته.فأما أهل إفريقية والمغرب؛ فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة؛ وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها. وليس لهم ملكة في غير

أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب، لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل؛ إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله.وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي. وقصروا في سائر العلوم، لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها. فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر، على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا.ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: "لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورة، فساداً للغة؛ ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين؛ ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة". ثم قال: "ويا غفلة أهل بلادنا في إن يؤخذ الصبي بكتاب الله فج أول عمره، يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر، غيره أهم عليه منه ". قال: "ثم ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ". ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان، إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط. هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله، وهو لعمري مذهب حسن؛ إلا ان العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد، من تقديم دراسة القرآن، إيثاراً للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع

عن العلم؛ فيفوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم. فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر؛ فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة؛ فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن له لئلا يذهب خلواً منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم، وقبوله التعليم، لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ولكن الله يحكم ما يشاء، لا معقب لحكمه سبحانه.

الفصل الأربعون

في أن الشدة علي المتعلمين مضرة بهم

وذلك أن إرهاق الحد في التعليم مضر بالمتعلم، سيما في أصاغر الولد؛ لأنه من سوء الملكة. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادةً وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو مترله وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل؛ فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس وعاد في أسفل السافلين. وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف، واعتبره في كل من يملك أمره عليه. ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به. وتجد ذلك فيهم استقراء. وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج، ومعناه في الاصطلاح

المشهور التخابث والكيد، وسببه ما قلناه. فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب. وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه، الذي أئمة في حكم المعلمين والمتعلمين: "لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً". ومن كلام عمر رضي الله عنه: "من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله ". حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له، فإنه أعلم بمصلحته.ومن أحسن مذاهب التعليم، ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده. قال خلف الأحمر: بعث إلى الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: "يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه؛ فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن وعلمه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم، إذا دخلوا عليه؛ ورفع مجالس القواد، إذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه. وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة. انتهى".

الفصل الحادي والأربعون

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وإلقاءً؛ وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً. فعلى

قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين. فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ، يفيده تمييز الاصطلاحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها؛

فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل. وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات. ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم. وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والأربعون

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظم الفكر في والغوص على المعاني، وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن، أموراً كليةً عامةً؛ ليحكم عليها بأمر على العموم، لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس. ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات. وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها، بما اعتادوه من القياس الفقهي. فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن، ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر. أو لا تصير بالجملة إلى مطابقة، وإنما يتفرغ ما في الخارج عما في الذهن من ذلك؛ كالأحكام الشرعية، فإنها فروع

عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة، فتطلب مطابقة ما في الخارج لها، عكس الأنظار في العلوم العقلية، التي يطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج. فهم متعودون في سائر أنظارهم أمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها. والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها، فإنها خفية. ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال، وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها.ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الامور، بعضها على بعض، إذا نظروا في السياسة، أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم؛ فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم. ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران، لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم، إلى مثل شأن الفقهاء، من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعون في الغلط. والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس، لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به، ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه، كالسابح لا يفارق البر عند الموج. قال الشاعر:

فلا توغلن إذا ما سبحت   فإن السلامة في الساحل

فيكون مأموناً من النظر في سياسته، مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه؛ فيحسن معاشه وتندفع آفاقه ومضاره، باستقامة نظره. وفوق كل ذي علم عليم. ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط، لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس؛ فإنها نظر في المعقولات الثواني. ولعل المواد فيها

ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني. وأما النظر في المعقولات الأول، وهى التي تجريدها قريب، فليس كذلك؛ لأنها خيالية، وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثالث والأربعون

في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وأن كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة؛ لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة؛ وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه، كان الرجال ينقلونها في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتآليف والتدوين، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة.وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسفون المختصين بحمل ذلك. ونقله القراء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين؛ لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً؛ فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء، إشارة الى هذا. فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه. ومن الحديث، الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح. قال صلى الله عليه و سلم : " تركت فيكم أمرين لن تضفوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي ". فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية، وتقييد الحديث مخافة ضياعه؛ ثم

احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه؛ ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس، واحتاجت الى علوم أخرى هي وسائل لها: من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد؛ فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم، فاندرجت في جملة الصنائع.وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنها؛ فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد العرب عنها وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر، الذين هم يومئذ تبغ للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس؛ فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما ربوا في اللسان العربي، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم.وكذا حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر

المفكرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. وظهر مصداق قوله صلى الله عليه و سلم : " لو تعلق العلم بأكناف السماء، لناله قوم من أهل فارس ".وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه مع القيام بالملك عن القيام بالعلم، والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها، مع ما يلحقهم من

الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن، وما يجر إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين. وما زالوا يرون لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك، بما هم عليه من البعد عن نسبتها، وامتهن حملتها بما يرون انهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا يجدي عليهم، في الملك والسياسة كما ذكرناه في فصل المراتب الدينية. فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عافتهم من العجم.أما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه. واستقر العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم وتركها العرب، وانصرفوا عن انتحالها؛ فلم يحملها إلا المعربون من العجم، شأن الصنائع كما قلناه أولاً. فلم يزل ذلك في الأمصار الإسلامية ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر. فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة، التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع، ذهب العلم في العجم جملة لما شملهم من البداوة. واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع. وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر، لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر. وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تآليف، وصلت إلينا إلى هذه البلاد، وهو سعد الدين التفتازاني. وأما غيره من العجم، فلم نر لهم، من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة. فاعتبر ذلك وتأمله تر عجباً في أحوال الخليقة. والله يخلق ما يشاء لا إله إلا هو وحده لا شريك له

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله.

الفصل الرابع والأربعون

في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان

قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسر في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية، من بين العلوم الشرعية، التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها، وهي كلها في الخيال؛ وبين العلوم العقلية، وهي في الذهن. واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران لحى ذلك. والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام عن المعاني. ولا بد في اقتناص تلك المعاني من

الفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عبيها، وجودة الملكة لناظر فيها؛ وإلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص. وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة، بحيث يتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهي والجبلي، زال ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم، أو خف؛ و لم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط. هذا كله إذا كان التعليم تلقينا وبالخطاب والعبارة. وأما إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين بمسائل العلوم، كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب؛ وبين الألفاظ المقولة في الخيال. لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على

الألفاظ المقولة. وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة، وإن عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها أيضاً قاصرة، ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبة، من تحصيل ملكات العلوم أعوص من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وصار إنما يعاني فهم مباحثها فقط. هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة. والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاماً لملكاتهم. ثم إن الملة الإسلامية لما اتسع ملكها واندرجت الأمم في طيها ودرست علوم الأولين بنبوتها وكتابها، وكانت أمية النزعة والشعار؛ فأخذ الملك والعزة وسخرية الأمم لهم بالحضارة والتهذيب، وصيروا علومهم الشرعية صناعة، بعد أن كانت نقلاً؛ فحدثت فيهم الملكات، وكثرت الدواوين والتآليف؛ وتشوفوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم وأفرغوها في قالب أنظارهم، وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم واربوا فيها على مداركهم، وبقيت تلك الدفاتر التي بلغتهم الأعجمية نسياً منسياً وطللاً مهجوراً وهباءً منثوراً. وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب، ودواوينها المسطرة بخطهم، واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها. وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد؛ فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل، فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، وهو ظاهر. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية أعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية. وكذا

أيضا شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي. ولهذا نجد الكثير من علماء الاعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني. وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك؛ بتمام ملكته، وإنه صار له فهم الأقوال من الخط، والمعاني من الأقوال، كالجبلة الراسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وربما يكون الدؤوب على التعليم والمران على اللغة، وممارسة الخط يفضيان بصاحبهما إلى تمكن الملكة، كما

نجده في الكثير من علماء الاعاجم؛ إلا أنه في النادر. وإذا قرن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقته منهم، كان باع العربي أطول وملكته أقوى، لما عند المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التي يؤثر القصور بالضرورة ولا يعترض ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك، وهي المرادة هنا. ولا يعترض ذلك أيضاً مما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم. والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه. وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي. وفي ذلك آيات للمتوسمين.

الفصل الخامس والأربعون

في علوم اللسان العربي

أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً. والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها، لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه؛ فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

علم النحو:

إعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني. مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال.أي الحركات الى الذوات من غير تكفف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخضه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه و سلم : " أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً ". فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيآت، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها. إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر

عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك، الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم؛ فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه. مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو. وأول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بني كنانة، ويقال بإشارة عليّ رضي الله عنه، لأنه رأى تغير الملكة، فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة؛ ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، أحوج ما كان الناس إليها، لذهاب تلك الملكة من العرب. فهذب الصناعة وكمل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه، فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع

فيها كتابه المشهور، الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده. ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين، يحذون فيها حذو الإمام في كتابه.ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها، في الكوفة والبصرة: المصرين القديمين للعرب. وكثرت الأدلة والحجاج بينهم، وتباينت الطرق في التعليم، وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القران، باختلافهم في تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل، كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين، كما فعله الزمخشري في المفضل وابن الحاجب في المقدمة له. وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى، وابن معطي في الأرجوزة الألفية. وبالجملة فالتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، وطرق التعليم فيها مختلفة؛ فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين. والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك.وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران، ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر، منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة. وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب. وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها؛ فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحى نحاة أهل الموصل، الذين اقتفوا

أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه. والله يزيد في الخلق ما يشاء.

علم اللغة:

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية. وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي، في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه. ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم، ميلاً مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين؛ خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين. وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي. ألف فيها كتاب العين، فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها، من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي.وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة؛ وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين، وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد. لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين؛ فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية. ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك. ثم الثالث والرابع. ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين، فيكون واحداً، فتكون كلها أعداداً على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين، فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب وهو أن تجمع الأول مع الأخير وتضرب المجموع في نصف العدة. ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي، لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب، فيكون الخارج جملة الثنائيات.وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجتمع من واحد إلى ستة وعشرين على

توالي العدد؛ لأن كل ثنائية تزيد عليها حرفاً، فتكون ثلاثية. فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية، وهي ستة وعشرون حرفاً، بعد الثنائية؛ فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد، ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة، جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية، فيخرج مجموع تركيبها من حروف المعجم. وكذلك في الرباعي والخماسي. فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه، ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف. واعتمد فيه ترتيب المخارج، فبدأ بحروف الحلق، ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس، ثم الشفة؛ وجعل حروف العلة آخراً، وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين، لأنه الأقصى منها. فلذلك سمي كتابه بالعين، لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ. ثم بين المهمل منها من المستعمل، وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله، ولحق به الثنائي لقلة دورانه، وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب، فكانت أوضاعه اكثر لدورانه. وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوفاه.وجاء أبو بكر الزبيدى وكتب لهشام المؤيد بالأندلس، في المائة الرابعة؛ فاختصره مع

المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله، وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص.وألف الجوهري من المشارقة، كتاب الصحاح، على الترتيب المتعارف لحروف المعجم؛ فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة، لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، فيجعل.ذلك باباً.. ثم يأتي بالحروف أول الكلمة، على ترتيب حروف المعجم أيضاً، ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها. وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل.ثم ألف

فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية، في دولة علي بن مجاهد،كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين. وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها؛ فجاء من أحسن الدواوين. ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس. وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها، فكانا توأمى رحم وسليلي أبوة.ولكراع من أئمة اللغة كتاب المنجد، ولابن دريد كتاب الجمهرة ولابن الأنباري كتاب الزاهر.هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكنها؛ إلا أن وجه الحصر فيها خفي، ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت. ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز، وسماه أساس البلاغة، بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ، فيما تجوزت به من المدلولات، وهو كتاب شريف الإفادة.ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم، ثم تستعمل في الامور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، فرق ذلك عندنا، بين الوضع والاستعمال، واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ؛ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب. واختص بالتأليف في هذا المنحي الثعالبي، وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة، وهو من آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه، أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه. فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب، حتى يشهد له استعمال العرب لذلك. وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره، حذرا من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها، وهو أشر من اللحن في الإعراب وأفحش. وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ

المشتركة وتكفل بحصرها، وإن لم يبلغ إلى النهاية في ذلك، فهو مستوعب للأكثر. وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن، المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال، تسهيلاً لحفظها على الطالب، فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما. وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ. والله الخلاق العليم، لا رب سواه.

فصل: واعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة، إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد، و لم يعرف لأحد منهم. وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعلم استعماله، على ما عرف استعماله في ماء العنب، باعتبار الإسكار الجامع. لأن شهادة الاعتبار في باب القياس

إنما يدركها الشرع الدال على صحة القياس من أصله. وليس لنا مثله في اللغة إلا بالعقل، وهو محكم، وعلى هذا جمهور الأئمة. وإن مال إلى القياس فيها القاضي وابن سريج وغيرهم. لكن القول بنفيه أرجح. ولا تتوهمن أن إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية، لان الحد راجع إلى المعاني، ببيان أن مدلول اللفظ المجهول الخفي هو مدلول الواضح المشهور، واللغة إثبات أن اللفظ كذا، لمعنى كذا، والفرق في غاية الظهور.

علم البيان:

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية،لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده. ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني. وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند وبسند إليها وبفضي بعضها الى بعض، والدلالة على هذه هي المفرادت من الأسماء والأفعال والحروف؛ وأما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات. وهذه كلها هي صناعة

النحو. ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات، المحتاجة للدلالة، أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل؛ وهو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه. وإذا لم يشتمل على شيء منها، فليس من جنس كلام العرب؛ فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة.إلا ترى أن قولهم: (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم. فمن قال: جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء، قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني، أفاد أن اهتمامه بالشخص، قبل المجيء المسند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة، بما يناسب المقام، من موصول أو مبهم أو معرفة. وكذا تأكيد الإسناد على الجملة، كقولهم: زيد قائم، وإن زيداً قائم، وإن زيداً لقائم؛ متغايرة كلها في الدلالة، وإن استوت من طريق الإعراب؛ فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكد ب (إن) يفيد المتردد، والثالث يفيد المنكر، فهي مختلفة. وكذلك تقول: جاءني الرجل، ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه، وانه رجل لا يعادله أحد من الرجال. ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية، وهي التي لها خارج تطابقه أولاً، وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه. ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذ كان للثانية محل من الإعراب: فيترل بذلك مترلة التابع المفرد نعتاً أو توكيداً أو بدلاً بلا عطف، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب. ثم يقتضي المحل الإطناب أو الإيجاز فيورد الكلام عليهما. ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه ويراد لازمه إن كان مفرداً، كما تقول: زيد أسد، فلا تريد حقيقة الاسد لمنطوقه، وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد، وتسمى هذه استعارة.وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه، كما تقول: زيد كثير رماد القدور،وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف، أن كثرة الرماد ناشئة عنهما، فهي دالة عليهما. وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئات وأحوال للواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه، فاشتمل هذا العلم المسمى

بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال، التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة؛ والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه وسمى علم البيان. وألحقوا بهما صنفاً آخر، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله؛ أو تجنيس يشابه بين ألفاظه؛ أو ترصيع يقطع أوزانه؛ أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد، وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع.وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وهو اسم الصنف الثاني؛لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه. ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها. ثم لم!تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه، على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب، وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه. وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد، كما فعله السكاكي في كتاب التبيان، وابن مالك في كتاب المصباح، وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص، وهو اصغر حجماً

من الإيضاح، والعناية به لهذا العهد، عند أهل المشرق، في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره. وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة، وسببه والله أعلم إنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران. والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه. أو نقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق، كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله. وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً. وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب،وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ. وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما. وممن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق، وكتاب العمدة له مشهور. وجرى كثير من اهل إفريقية والأندلس على منحاه. واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة؛ وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر فوقه.فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه. وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون، وأكثر تفاسير المتقدمين غفل منه، حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من

أعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل

السنة، مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة، حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنها بدعة فيعرض عنها ولا تضره في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب، للظفر بشيء من الإعجاز، مع السلامة من البدع والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل.

علم الأدب:

هذا العلم لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند

أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة، من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو، مبثوثة أثناء ذلك، متفرقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية؛ مع ذكر بعض من أيام العرب،يفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث. إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية؛ فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم، ليكون قائماً على فهمها. وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي

القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها. وكتب المحدثين في ذلك كثيرة.وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن، لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به، حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه، فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة. وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو، كتابه في الأغاني، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صولت التي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم، في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها. ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان. والله الهادي للصواب.

الفصل السادس والأربعون

في أن اللغة ملكة صناعية

إعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر الى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة.

والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً. ومعنى الحال

أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة.فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم.هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال.وهذا هو معني ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم، و لم يأخذوها عن غيرهم. ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم. وسبب فسادها أن الناشيء من الجيل، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضاً؛ فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي.ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين أمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية. والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق.

الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري،و لم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول؛ فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد. إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرق، لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال- ويسمى بساط الحال- محتاجاً إلى ما يدل عليه. وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب

أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات، في تراكيب الألفاظ وتأليفها، من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب. وقد يدل عليها بالحروف، غير المستقلة. ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلد الكيفيات كما قدمناه، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن.وهذا معنى قوله صلى الله عليه و سلم : " أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً ". واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة: "أني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم: زيد قائم، وإن زيداً قائم، وإن زيداً لقائم والمعنى واحد". فقال له: إن معانيها مختلفة، فالأول: لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد، والثاني: لمن سمعه فتردد فيه، والثالث: لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال.وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد. ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن

اللسان العربي فسد، اعتباراً بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم، وألقاها القصور في أفئدتهم؛ وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى، والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم، وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم. والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك. ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعاً معروفاً وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان. وإنما وقعت العناية بلسان مضر، لما فسد بمخالطتهم الاعاجم، حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولاً، فانقلب لغة أخرى.وكان القرآن متزلاً به والحديث النبوي منقولاً بلغته وهما أصلا الدين والملة، فخشي تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به؛ فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه. وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل، سماه أهله بعلم النحو، وصناعة العربية؛ فاصبح فناً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسلماً إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم راقياً. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه؛ فتكون لها قوانين تخصها. ولعلها تكون في أواخره غلى غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مجاناً.ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على

مقاييس اللغة المضرية وقوانينها، كما يزعم بعضهم في اشتقاق (القيل) في اللسان الحميري انه من القول وكثير من أشباه هذا، وليس ذلك بصحيح. ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها، كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر؛ إلا أن العناية بلسان مضر، من أجل الشريعة كما قلناه، حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد، حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف؛ فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار، كما هو مذكور في كتب العربية، أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى. وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف، وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف، وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق؛ حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم وأجيال ومختصاً بهم لا يشاركهم فيها غيرهم. حتى إن من يريد التعرف والانتساب إلى الجيل والدخول فيها يحاكيهم في النطق بها. وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القافي. ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها، فإن هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن حصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور، ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور. وهم لهذا العهد اكثر الأمم في المعمور وأغلبهم، وهم من أعقاب مضر، وسائر الجيل معهم من بني كهلان، في النطق بهذه القاف، أسوة. وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة، ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين، ولعلها لغة النبي صلى الله عليه و سلم بعينها. وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن (اهدنا الصراط

المستقيم) بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته، و لم أدر من أين جاء هذا؛ فإن أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها، وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح. وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها، إلا انهم أبعد من مخالطة الاعاجم من أهل الامصار. فهذا يرجح، فيما يوجد من اللغة لديهم، أنه من لغة سلفهم. هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في النطق بها، وأنها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري. والظاهر أن هذه القاف التي ينطق بها أهل الجيل العربي البدوي هو من مخرج القاف عند أولهم من أهل اللغة، وأن مخرج القاف متسع، فأوله من أعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف. فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الامصار؛ والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي. وبهذا يندفع ما قاله أهل البيت من فساد الصلاة بتركها في أم القرآن؛ فأن فقهاء الأمصار كلهم على خلاف ذلك. وبعيد أن يكونوا أهملوا ذلك، فوجهه ما قلناه. نعم نقول إن الأرجح والأولى ما ينطق به أهل الجيل البدوي لأن تواترها فيهم كما قدمناه، شاهد بأنها لغة الجيل الأول من سلفهم، وأنها لغة النبي صلى الله عليه و سلم . ويرجح ذلك أيضاً إدغامهم لها في الكاف لتقارب المخرجين. ولو كانت كما ينطق بها أهل الأمصار من أصل الحنك، لما كانت قريبة المخرج من الكاف، و لم تدغم. ثم إن أهل العربية قد ذكروا هذه القاف

القريبة من الكاف، وجهي التي ينطق بها أهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد، وجعلوها متوسطة بين مخرجي القاف والكاف. على أنها حرف مستقل، وهو بعيد. والظاهر أنها من آخر مخرج القاف لاتساعه كما قلناه. ثم إنهم يصرحون باستهجانه واستقباحه كأنهم لم يصح عندهم أنها لغة الجيل الأول. وفيما ذكرناه من اتصال نطقهم بها، لأنهم إنما ورثوها من سلفهم جيلاً بعد جيل، وأنها شعارهم الخاص بهم، دليل على أنها لغة ذلك الجيل الأول، ولغة النبي صلى الله عليه و سلم كما تقدم ذلك كله. وقد يزعم زاعم أن

هذه القاف التي ينطق بها أهل الأمصار ليست من هذا الحرف، وأنها إنما جاءت من مخالطتهم للعجم، وإنهم ينطقون بها كذلك؛ فليست من لغة العرب. ولكن الأقيس كما قدمناه من أنهما حرف واحد متسع المخرج. فتفهم ذلك. والله الهادي المبين.

الفصل الثامن والأربعون

في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

إعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل؛ بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد.فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عن صناعة أهل النحو لحناً. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم؛ فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الاندلس معهما، وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد.وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل؛ فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة. فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه. وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى. واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق. اما إفريقية والمغرب، فخالطت العرب فيها البرابرة

العجم بوفور عمرانها بهم، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل؛ فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد. وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم، وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولاً ودايات وأظآراً ومراضع؛ ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم، تخالف لغة مضر ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره، وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم. والله يخلق ما يشاء ويقدر.

الفصل التاسع والأربعون

في تعلم اللسان المضري

إعلم أن ملكة اللسان المضري، لهذا العهد، قد ذهبت وفسدت. ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه. إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكناً، شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم؛ حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم؛ ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من

أساليبهم وترتيب ألفاظهم؛ فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة. ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال. والذوق يشهد بذلك، وهو ينشا ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما يذكر بعد. وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً. ومن حصل على هذه الملكات، فقد حصل على لغة مضر، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها، وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها. والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه.

الفصل الخمسون

في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً. مثل أن يقول بصير بالخياطة، غير محكم لملكتها، في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن تدخل الخيط، في خرت الإبرة، ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم تردها إلى حيث ابتدأت، وتخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين؛ ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل، ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها. وهو إذا طولب ان يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً. وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول: هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه، وآخر

قبالتك ممسك بطرفه الاخر وتتعاقبانه بينكما، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية، إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة. وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه. وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل. وكذلك تجد كثيراً من جهابذة النحاة، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده ، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن، و لم يجد

تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية.فمن هنا يعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها مستغنية عنها بالجملة. وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة، وهو قليل واتفاقي، وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه. فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم؛ فكان فيه " جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والمحصل له، قد حصل على خط من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته. وتنبه به لشأن الملكة، فاستوفى تعليمها، فكان أبلغ في الإفادة.ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا، فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة. وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك، إلا من القوانين النحوية، مجردة عن أشعار العرب وكلامهم؛ فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون انهم قد

حصلوا على رتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنه. وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها اقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها ممن سواهم، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم؛ فيسبق إلى المبتدىء كثير من الملكة أثناء التعليم، فتنطبع النفس بها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها.وأما من سواهم من اهل المغرب وإفريقية وغيرهم؛ فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً، وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب؛ إلا إن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً، من جهة الاقتضاء الذهني، لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وأفاد ذلك حملتها في هذه الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة بالكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب. وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان. وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم؛ لكنهم اجروها على غير ما قصد بها، وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها. وتعلم ما قررناه في هذا الباب، أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه. ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم. والله مقدر الامور كلها، والله أعلم بالغيب.

الفصل الحادي والخمسون

في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه

وبيان أنها لا تحصل غالباً للمستعربين من العجم

إعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان. وقد مر تفسير البلاغة، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه، بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك. فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك، على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده؛ فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة كلام العرب، حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب؛ وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى، مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة. فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات، أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي. وبقول: كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة وطبع.وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في صفها، وقد مر ذلك. وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم

وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة، لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه، لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام، حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم. وإنما يعجز عن الاحتجاج بذلك، كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية؛ فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب، حتى يصير كواحد ومثاله: لو فرضنا صبياً من صبيانهم، نشأ وربي في جيلهم، فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها، حتى يستولي على غايتها. وليس من العلم القانوني في شيء، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل، بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك، بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين أحيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا. واستعير لهذه الملكة، عندما ترسخ وتستقر، اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان والذوق إنما هو موضوع لإدراك الطعوم. لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان، من حيث النطق بالكلام، كما هو محل لإدراك الطعوم، استعير لها اسمه. وأيضا فهو وجداني اللسان، كما أن الطعوم محسوسة له؛ فقيل له ذوق. وإذا تبين لك ذلك، علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله، كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها؛ لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق

ملكة أخرى إلى اللسان، وهي لغاتهم، أن يعتنوا بما يتداوله أهل المصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب، لما يضطرون إليه من ذلك. وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الامصار، وبعدوا عنها كما"تقدم. وإنما لهم في

ذلك ملكة أخرى وليست هذه ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف أحكام تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب، فليس من تحصيل الملكة في شيء، إنما حصل أحكامها كما عرفت. وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب. فإن عرض لك ما تسمعه، من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك القوم الذين نسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط. أما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها؛ وكأنهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشأوا في أجيالهم، حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها. فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعاجم في اللغة والكلام، لأنهم أدركوا الملة في عنفوانها واللغة في شبابها، ولم تذهب آثار الملكة منها ولا من أهل الأمصار. ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته.واليوم الواحد من العجم، إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار، فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار. ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي. ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ ليستفيد تحصيلها، فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة. وإن فرضنا عجمياً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية، وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالحفظ والمدارسة، فربما يحصل له ذلك، لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر. وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها، وهو غلط أو مغالطة؛ وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية، وليست من ملكة العبارة في شيء. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار علي الإطلاق قاصرون فم تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي

كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلم، من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة، بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة، حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضر لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان. وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم، وليس كذلك، وإنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب. نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك. وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المصرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ. واعتبر ذلك في أهل الأمصار.فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا

أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول، كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم. ولقد نقل ابن الرقيق أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له: يا أخي ومن لا عدمت فقده، أعلمني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي، وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج. وأما أهل المترل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً، ليس من هذا حرفاً واحداً. وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله. وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري، وسببه ما ذكرنا. وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة، و لم تزل كذلك، لهذا العهد. ولهذا ما كان بإفريقية من

مشاهير الشعراء، إلا ابن رشيق وابن شرفي. وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها، و لم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور. وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة، بكثرة معاناتها وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً. وكان فيهم ابن حيان المؤرخ إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها، وابن عبد ربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف؛ لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين، حتى كان الانفضاض والجلاء أيام تغلب النصرانية. وشغلوا عن تعلم ذلك، وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها، فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض.وكان من آخرهم صالح بن شريف، ومالك بن المرحل من تلاميذ الطبقة الإشبيليين بسبتة وكانت دولة بني الاحمر في أولها. وألقت الأندلس أفلاذ كبدها، من أهل تلك الملكة بالجلاء إلى العدوة، من عدوة إشبيلية إلى سبتة، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية. و لم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة، لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم، بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية، وهي منافية لما قلناه.ثم عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت، ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم؛ ثم إبراهيم الساحلي الطويجن وطبقته، وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه. وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه من بعده. وبالجملة فشأن هذه الملكة بالاندلس أكثر، وتعليمها أيسر وأسهل، بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها. ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طارئون عليهم. وليست عجمتهم أصلاً للغة

أهل الأندلس والبربر في هذه العدوة، وهم أهلها ولسانهم لسانها إلا في الأمصار فقط. وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية؛ فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الاندلس. واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية؛ فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها، لبعدهم لذلك العهد عن الاعاجم ومخالطتهم إلا في القليل. فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم، وكان فحول الشعراء والكتاب لعهدهم أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق.وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم، فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم، وملتهم العربية وسير نبيهم لجز وآثار خلفائهم وملوكهم، وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم له، فلا كتاب

أوعب منه لأحوال العرب. وبقي أمر هذه الملكة مستحكماً في المشرق في الدولتين، وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد. حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم، وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم. وذلك في دولة الديلم والسلجوقية. وخالطوا أهل الأمصار وكثروهم فامتلأت الارض بلغاتهم، واستولت العجمة على أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته، وصار متعلمها منهم مقصراً عن تحصيلها. وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور، وإن كانوا مكثرين منه. والله يخلق ما يشاء ويختار، والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث والخمسون

في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

إعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحدٍ من وهو القافية. وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكل واحدٍ من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام. فأما الشعر، فمنه المدح والهجاء والرثاء. وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافيةٌ واحدةٌ يسمى سجعاً؛ ومنه المرسل، وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاءً، بل يرسل إرسالاً من غير تقييدٍ بقافية ولا غيرها. ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم.وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً. بل تفصيل آياتٍ ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها. ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافيةً، وهو معنى قوله تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم }[سورة000الآية000] وقال: {قد فضلنا الآيات }[سورة000الآية000]. وتسمى آخر الآيات فيه فواصل، إذ ليست أسجاعاً، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع، ولا هي أيضاً قواف. وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه، واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا، ولهذا سميت السبع المثاني.وانظر هذا ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني، يشهد لك الحق برحجان ما قلناه.واعلم أن لكل واحدٍ من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر، ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك. وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع، والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض. وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في هذا المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جاريةً على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صوابٍ من جهة البلاغة، لما يلاحظ في تطبيق الكلام

على مقتضى الحال، من أحوال المخاطب والمخاطب.وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر، فوجب أن تتزه المخاطبات السلطانية عنه؛ إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل، والإطناب في الأوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات، حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة في الخطاب. والتزام التقفية أيضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه. والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل، وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر. وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له، ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثباتٍ أو تصريحٍ أو إشارةٍ وكنايةٍ واستعارةٍ.وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة علي ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال؛ فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوته. وولعوا بهذا المسجع، يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود، ومقتضى الحال فيه. ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالإسجاع

والألقاب البديعية، ويغفلون عفا سوى ذلك. واكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر انحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف، إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة، لا يجتمعان معها؛ فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس. ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس. فتأفل ذلك وانتقد بما قدمناه لك، تقف على صحة ما ذكرناه. والله الموفق للصواب، بمنه وكرمه، والله تعالى أعلم.

الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكةٌ في اللسان؛ فإذا سبقت إلى محله ملكة أخرى، قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة. لأن قبول الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر. وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعةً لها في المدة القابلة وعائقةً عن سرعة القبول، فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكة. وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق. وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان. فاعتبر مثله في اللغات، فإنها ملكات اللسان، وهي بمترلة الصناعة. وانظر من تقدم له شيء من العجمة، كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً. فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي علي ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه. وكذا البربري والرومي الإفرنجي قل أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان

العربي. وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر، حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه ين أهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل، وما أتى إلا من قبل

اللسان. وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع. وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم. وإن من سبقت له إجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية. والله خلقكم وما تعلمون.

الفصل الخامس والخمسون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم، ويوجد في سائر اللغات؛ إلا أنا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب. فإن أمكن أن يجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم، وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه. وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى، إذ هو كلام مفضل قطعاً قطعاً، متساويةً في الوزن، متحدةً في الحرف الأخير من كل قطعة. وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً؛ ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياً وقافيةً؛ ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدةً وكلمةً. وينفرد كل بيتٍ منه بإفادته في تراكيبه، حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبلة وما بعده. وإذا أفرد كان تاما في بابه في مدحٍ تشبيبٍ أو رثاءٍ؛ فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك، ويسترد للخروج من فنٍ إلى فنٍ ومن مقصودٍ إلى مقصودٍ، بأن يوطيّء المقصود الأول ومعانيه، إلى أن يناسب المقصود الثاني، ويبعد الكلام عن التنافر. كما يستطرد من التسشبيت إلى المدح؛ ومن وصف البيداء والطلول، إلى وصف الركاب أو الخيل أو

الطيف؛ ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره؛ ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التأبين وأمثال ذلك.ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد، حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزنٍ الى وزنٍ يقاربه. فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس. ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض. وليس كل وزنٍ يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن، وإنما هي أوزان مخصوصة يسميها أهل تلك الصناعة البحور. وقد حصروها في خمسة عشر بحراً، بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظماً.واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب؛ ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها. والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم، حتى يحصل شبه في تلك الملكة.والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين، لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده، ويصلح أن ينفرد دون ما سواه؛ فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة، حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب، ويبرزه مستقلاً بنفسه. ثم يأتي ببيت آخر كذلك، ثم ببيت آخر، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده. ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعضٍ بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة. ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محّكا للقرائح في استجادة أساليبه، وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام

في قوالبه. ولا تكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق، بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها وباستعمالها فيه.ولنذكر هنا مدلول لفظة

الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه. ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب؛ ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان؛ ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية؛ وإنما ترجع إلى صورة ذهنيا للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان؛ فيرضها فيه رصاً، كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، كان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله:"يا دار مية بالعليا فالسند".ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله:"قفا نسأل الدار التي خف أهلها".أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله:"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ".أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله:"ألم تسأل فتخبرك الرسوم ".ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله:"حي الديار بجانب الغزل ".أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله:

أسقي طلولهم أجش هزيم　　　　وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو بسؤال السقيا لها من البرق كقوله:

يا برق طالع منزلاً بالأبرق　　　　واحد السحاب لها حداء الأينق

أو مثل التفجع في الرثاء باستدعاء البكاء كقوله:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر　　　　فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله:"أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي "أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العشب لا حامٍ ولا راعٍ　　　　مضى الردى بطويل الرمحِ والباعِ

أو بالإنكارِ على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً　　　　كأنك لم تجزع على ابن طريفِ

أو بتهنئة فريقهِ بالراحة من ثقل وطأتهِ كقوله:

ألقى الرماح ربيعةُ بن نزارِ　　　　أودى الردى بقريعك المغوارِ

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه. وتنتظم التراكيب فيه بالجمل

وغير الجمل، إنشائيةً وخبريةً، إسميةً أو فعليةً، متفقةً وغير متفقة، مفصولةً وموصولةً؛ على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي، في مكان كل كلمةٍ من الأخرى. يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب، من القالب الكلي المجرد في الذهن، من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها. فإن مؤلف الكلام هو كالبناءِ أو النساجِ، والصورة الذهنية المنطبقة، كالقالبِ الذي يبني فيه أو المنوالِ الذي ينسج عليهِ. فإن خرج عن القالب في بنائه أو على

المنوالِ في نسجهِ كان فاسداً. ولا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك، لأنا نقول: قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية وقياسية، تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس. وهو قياس علمي صحيح مطرد، كما هو قياس القوانين الإعرابية. وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شئ إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان، حتى تستحكم صورتها؛ فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق. وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه بوجه. وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه. وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم، تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية. فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو، وبهذه الأساليب الذهنية، التي تصير كالقوالب، كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم، لا فيما يقتضيه القياس. ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب في الذهن، إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم. وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور، فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين، وجاءوا به مفصلاً في النوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة، واستقلال الكلام في كل قطعة، وفي المنثور، يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً، وقد يقيدونه بالأسجاع. وقد يرسلونه، وكل واحد من هذه معروفة في لسان العرب. والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلق الكلام عليه تأليفه، ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم، حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية، قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف، كما يحذو البناءُ على القالب، والنساج على المنوال. فلهذا كان من تأليف الكلام منفرداً عن نظر النحوي والبياني والعروضي. نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر، لطيفٍ في هذه

القوالب، التي يسفونها أساليب. ولا يفيده إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً. وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو، فلنذكر بعده حداً أو رسماً للشعر يفهمنا حقيقته على صعوبة هذا الغرض. فإنا لم نقف عليه لأحدٍ من المتقدمين فيما رأيناه.وقول العروضيين في حده إنه الكلام الموزون المقفى، ليس بحدٍ لهذا الشعر الذي نحن بصدده، ولا رسمٍ له. وصناعتهم إنما تنظر في الشعر من حيث اتفاق أبياته في عدد المتحركات والسواكن على التوالي، ومماثلة عروض أبيات الشعر لضربها. وذلك نظر في وزنٍ مجرد عن الألفاظ ودلالتها؛ فناسب أن يكون حّدا عندهم ونحن هنا ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة. فلا جرم إن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا، فلا بد من تعريفٍ يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام

البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. فقولنا الكلام البليغ جنس، وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل له عما يخلو من هذه، فإنه في الغالب ليس بشعر، وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل؛ وقولنا مستقل كل جزءٍ منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة، لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك، و لم يفصل به شيء. وقولنا الجاري على الأساليب المخصوصة به، فصل له عما لم يجرمنه على أساليب الشعر المعروفة؛ فإنه حينئذٍ لا يكون شعراً إنما هو كلائم منظوم، لان الشعر له أساليب تخصه، لا تكون للمنثور. وكذا أساليب المنثورٍ لا تكون للشعر، فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب، فلا يسمى شعراً. وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية

يرون أن نظم المتنبي والمعرفي ليس هو من الشعر في شيء، لأنهما لم يجريا على أساليب العرب فيه، وقولنا في الحد الجاري على أساليب العرب فصل له عن شعر غير العرب من الأمم، عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب ولغيرهم. ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم، فلا يحتاج إلى ذلك، ويقول مكانه الجاري على الأساليب المخصوصة. وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر، فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله فنقول: إعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً، أولها: الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها؛ ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين، مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس. وأكثره شعر كتاب الأغاني، لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله، والمختار من شعر الجاهلية. ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر ردئ ، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ. فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط. واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ. وربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ، لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادة عن استعمالها بعينها. فإذا نسيها، وقد تكيفت النفس بها، انتقشت أسلوب فيها، كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورةً. ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار، وكذا من المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور. ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط، فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه.قالوا: وخير الأوقات لذلك أوقات البكر عند

الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر، وفي هواء الجمام. وربما قالوا إن من بواعثه العشق والانتشاء، ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة، وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها، و لم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله. قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر، ولا يكره نفسه عليه.

وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه يضعها، ويبني الكلام عليها إلى آخره، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها. فربما تجيء نافرةً قلقةً، وإذا سمح الخاطر بالبيت، ولم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به؛ فإن كل بيت مستقل بنفسه، ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها ما يشاء، وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد، ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة. فإن الإنسان مفتون بشعره، إذ هو نبات فكره واختراع قريحته، ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب. والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة.وقد حظر أئمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة، إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة. ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده. وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم. وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم. وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى منها. فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً، واستعمل الذهن بالغوص عليها، فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة. ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن. ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة، شاعر شرق الأندلس، لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، كما كانوا يعيبون شعر المتنبيء والمعري

بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر، والحاكم بذلك هو الذوق. وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقعر، وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة. وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً، فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم: النار حارة والسماء فوقنا. وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة، إذ هما طرفان. ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب، ولا يحذق فيه إلا الفحول. وفي القليل، على العسر، لأن معانيها متداولة بين الجمهور، فتصير مبتذلة لذلك. وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده؛ فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف ويغرر بالترك والإهمال. وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق، وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد. ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك. وهذه نبذةٌ كافيةٌ والله المعين. وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها. ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق:

لعن الله صنعة الشعر ماذا ... من صنوف الجهال فيها لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما ... كان سهلاً للسامعين مبينا
ويرون المحال معنى صحيحاً ... وخسيس الكلام شيئاً ثميناً
يجهلون الصواب منه ولا يد ... رون للجهل أنهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامو ... ن وفي الحق عندنا يعذرونا

إنما الشعر ما يناسب في النظم وإن كان في الصفات فنونا
فأتى بعضهُ يشاكلُ بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما تتمنى لو لم يكن أو يكونا
فتناهى من البيان إلى أن كاد حسنا يبين للناظرينا
فكان الألفاظ منه وجوه والمعاني ركبن فيه عيونا
قائماً في المرام حسب الأماني يتحلى بحسنه المنشدونا
فإذا ما مدحت بالشعر حرا رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مبينا
وتنكبت ما تهجن في السمع وإن كان لفظه موزونا
وإذا ما قرضته بهجاء عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفينا
وإذا ما بكيت فيه على الغا دين يوماً للبين والظاعنينا
حلت دون الأسى وذللت ما كان من الدمع في العيون مصونا
ثم إن كنت عاتباً جئت بالوعد وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه حذراً، آمناً، عزيزاً، مهينا
وأصح القريض ما فات في النظم وإن كان واضحاً مستبينا
فإذا قيل أطمع الناس طرا وإذا ريم اعجز المعجزينا
ومن ذلك أيضاً قول بعضهم وهو الناشي:
الشعر ما قومت ربع صدوره وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأيت بالإطناب شعب صدوعه وفتحت بالإيجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده وجمعت بين مجمه ومعينه
وعمدت منه سحد أمر يقتضى شبها به فقرينه بقرينه
وإذا مدحت به جواداً ماجداً وقضيته بالشكر حق ديونه
أصفيته بنفيسه ورصينه وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلاً في مساق صنوفه ويكون سهلاً في اتفاق فنونه
وإذا بكيت به الديار وأهلها أجريت للمحزون ماء شئونه
وإذا أردت كناية عن ريبة باينت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعه يشوب شكوكه بثنائه وظنونه بيقينه
وإذا عتبت علم أخٍ في زلةٍ أدمجت شدته له في لينه

فتركته مستأنساً بدماثة مستأمناً لوعوته وحزونه

وإذا نبذت إلى الذي علقتها إذ صارمتك بفاتنات شؤونه

تيمتها بلطيفه ورقيقه وشغفتها بخبيه وكمينه

وإذا اعتذرت لسقطة أسقطتها وأشكت بين مخيله ومبينه

فيحول ذنبك عند من يعتده عتباً عليه مطالباً بيمينه

الفصل السادس والخمسون

في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

إعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر

إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه، حتى تستقر له الملكة في لسان مضر، ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله، ويفرض نفسه، مثل وليدٍ نشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي، حتى يصير كأنه واحدً منهم في لسانهم. وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شأن الملكات، والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ، وأما المعاني فهي في الضمائر. وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحدٍ وفي طوع كل فكرمنها ما يشاء ويرضى؛ فلا تحتاج إلى تكلف صناعةٍ في تأليفها. وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحدُ في نفسه. وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء. كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه، باعتبار تطبيقه على المقاصد. والمعاني واحدة في نفسها؛ وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه، على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده، ولم يحسن، بمثابة المقعد، الذي يروم النهوض ولا يستطيعه، لفقدان القدرة عليه. والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ، لمن يروم تعلم اللسان العربي؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانىء أو الشريف الرضي؛ أو رسائلى ابن المقفع أو سهل ابن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابىء؛ تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة، ممن يحفظ أشعار المتأخرين مثل شعر ابن سهل أو ابن النبيه أو ترسل البيساني أو العماد الأصبهاني، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك. يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق. وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع، تكون جودة

الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام، ترتقي الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس، وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات.واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج. فبهذه يتم وجودها، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها. والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدريج كما قدمناه. فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلمنة بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع، حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه، وينقلب ربانيا وكذا سائرها. وللنفس في كل واحدٍ منها لون تتكيف به

وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جود؛ أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها، فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام، ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كفهم قاصرين في البلاغة، وما ذلك إلا ما يسبق إلى محفوظهم، ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقي الحر من كلام العرب.أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال:ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم انسبها له وهو هذا:

لم أدر حين وقفت بالأطلال   ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه، فقلت له ومن أين لك ذلك؟ قال من قوله:

ما الفرق؛ إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب، فقلت له: لله أبوك، إنه ابن النحوي.وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك، لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل، وانتقائهم له الجيد من الكلام.ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له: أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام، من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلاً. وإنما أتيت، والله أعلم بحقيقة الحال، من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية. فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في

القراءات والرسم واستظهرتهما، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس؛ فامتلأ محفوظي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي

استدعيت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلى ساعة متعجباً ثم قال: لله أنت، وهل يقول هذا إلا مثلك ؟.ويظهر لك من هذا الفصل، وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، في منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان في الرمة والأحوص وبشابي، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدراً من الدولة العباسية، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم؛ فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة.ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا، وكان شيخ هذا الصناعة، أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من

تلاميذ الشلوبين، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه؛ فسألته يوماً: ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين؛ ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه، فسكت طويلاً ثم قال لي: والله ما أدري ! فقلت له: أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك، ولعله السبب فيه. وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت معجباً، ثم قال لي: يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب. وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيخ في مجالس التعليم إلى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم. والله خلق الإنسان وعلمه البيان.

الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع

وكيف جودة المصنوع أو قصوله

إعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى.

وأما إذا كان مهملا فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان لأنهم يقولون هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال، هو فن البلاغة. وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقريت من لغة العرب وصارت كالقوانين. فالتراكيب بوضعها تفيد بالإسناد بين المسندين، بشروط وأحكام جل قوانين العربية. وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإضمارٍ وإظهارٍ، وتقييدٍ وإطلاقٍ وغيرها، يفيد

الأحكام المكتنفة من خارج بالإسناد، وبالمتخاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن، يسمونه علم المعاني من فنون

البلاغة. فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها للأحوال المكتنفة بالإسناد. وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإعراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات.

ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات، لأن التركيب يدل بالوضع على معنى، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه؛ فيكون فيها مجازاً: إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة وأشد. لأن في جميعها ظفر بالمدلول من دليله. والظفر من أسباب اللذة كما علمت. ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيروها صناعة، وسموها بالبيان. وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها. وقوانين علم المعاني راجعة إلى احوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت. فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة، فهو مقصر عن البلاغة ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم وأجدر به أن لا يكون عربياً، لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال. فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

ثم إعلم أنهم إذا قالوا: "الكلام المطبوع " فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب، ليس المقصود منه النطق فقط. بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادةً تامةً، ويدل به عليه دلالةً وثيقةً. ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين، بعد كمال الإفادة وكأنها تعطيها رونق الفصاحة من تنميق الأسجاع، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه

بالأقسام المختلفة الأحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه، والمطابقة بين المتضادات، ليقع "التجانس بين الألفاظ والمعاني، فيحصل للكلام رونق ولذة في الأسماع وحلاوةٌ وجمالٌ كلها زائدةٌ على الإفادة.وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة مثل: {والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى}[سورة000الآية000]، ومثل: {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى}[سورة000الآية000]، إلى آخر التقسيم في الآية. وكذا: {فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا}[سورة000الآية000] إلى آخر الآية. وكذا: (هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً). وأمثاله كثير. وذلك بعد كمال الإفادة في أصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها. وكذا وقع في كلام الجاهلية منه، لكن عفواً من غير قصدٍ ولا تعمدٍ. ويقال إنه وقع في شعر زهير.

وأما الإسلاميون فوقع لهم عفواً وقصداً، وأتوا منه بالعجائب. وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحتري ومسلم بن الوليد، فقد كانوا مولعين بالصنعة، ويأتون منها بالعجب. وقيل إن أول من ذهب إلى

معاناتها بشار بن برد وابن هرمة، وكانا آخر من يستشهد بشعره في اللسان العربي. ثم اتبعهما عمرو بن كلثوم والعتابي ومنصور النميري ومسلم بن الوليد وأبو نواس. وجاء على آثارهم حبيب والبحتري. ثم ظهر ابن المعتز فختم على البديع والصناعة أجمع. ولنذكر مثالاً من المطبوع الخالي من الصناعة، مثل قول قيس بن ذريح:

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا

وقول كثير:

وإني وتهيامي بعزة بعدما تخليت عما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلها تبوأ منها للمقيل اضمحلت

فتأمل هذا المطبوع، الفقيد الصنعة، في إحكام تأليفه وثقافة تركيبه. فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسناً.

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار، ثم حبيب وطبقتهما، ثم ابن المعتز خاتم الصنعة الذي جرى المتأخرون بعدهم في ميدانهم، ونسجوا على منوالهم. وقد تعددت أصناف هذه الصنعة عند أهلها، واختلفت اصطلاحاتهم في ألقابها. وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة على أنها غير داخلة في الإفادة، وأنها هي تعطي التحسين والرونق. وأما المتقدمون من أهل البديع، فهي عندهم خارجة عن البلاغة. ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبية التي لا موضوع لها. وهو رأي ابن رشيق في كتاب العمدة له، وأدباء الأندلس. وذكروا في استعمال هذه الصنعة شروطاً، منها أن تقع من غير تكلفٍ ولا اكتراثٍ في ما يقصد منها. وأما العفو فلا كلام فيه لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من غيب الاستهجان، لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخل بالإفادة من أصلها، وتذهب بالبلاغة رأساً ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات، وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من القصور عن سواه. وسمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلفيقي، وكان من أهل البصر في اللسان والقريحة في ذوقه يقول:إن من أشهى ما تقترحه علي نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه أو نثره، وقد عوقب بأشد العقوبة، ونودي عليه، يحذر بذلك تلميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلفون بها، ويتناسون البلاغة. ثم من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها وأن تكون في بيتين ثم ثلاثةٍ من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه. والإكثار منها عيب، قاله ابن رشيق وغيره. وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي منفق اللسان العربي بالأندلس لوقته يقول: هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو للكاتب فيقبح أن يستكثر منها، لأنها من

محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها، ويقبح بتعدادها. وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور في الجاهلية والإسلام. وكان أولاً مرسلاً معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه، شاهدة موازنته بفواصله، من غير التزام سجع ولا اكتراث بصنعة. حتى نبغ إبراهيم بن هلالٍ الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى بذلك بالعجب. وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات

السلطانية. وإنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منثور المتأخرين ونسي عهد الترسيل وتشابهت السلطانيات والأخوانيات والعربيات بالسوقيات. واختلط المرعي بالهمل. وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكليف، قاصر عن الكلام المطبوع، لقلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة، والحاكم في ذلك الذوق. الله خلقكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

الفصل التاسع والخمسون

في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

إعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم. وكان رؤساء العرب متنافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحدٍ منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر، لتمييز حوكه. حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، موضع حجهم، وبيت أبيهم إبراهيم؛ كما فعل امرؤ القيس بن حجر، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة، والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع. فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها، من كان له قدرة

على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر، على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات. ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام، بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً. ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة. ولم يترل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي صلى الله عليه و سلم وأثاب عليه، فرجعوا حينئذٍ إلى ديدنهم منه. وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيما عاليةٌ وطبقةٌ مرتفعةٌ، وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به. ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة، وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها. ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم، ويحرصون على استهداء أشعارهم، يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان. والعرب يطالبون ولدهم بحفظها. ولم يزل الشأن هذا أيام بني أمية وصدراً من دولة بني العباس. وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي، في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك، والرسوخ فيه والعناية بانتحاله، والتبصر بجيد الكلام ورديئه وكثرة محفوظه منه. ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم، من اجل العجمة وتقصيرها باللسان، وأنما تعلموه صناعة، ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط، لا سوى ذلك من الأغراض، كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هانىء ومن بعدهم إلى هلم جرًّا فصار غرض الشعر في الغالب إنما هو للكدية والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأولين، كما ذكرناه آنفاً. وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من

المتأخرين، وتغير الحال فيه وأ صبح تعاطيه هجنةً في الرئاسة ومذمةً؛ لأهل المناصب الكبيرة. والله مقلب الليل والنهار.

الفصل الستون

في أشعار العرب وأهل الأمصال لهذا العهد

إعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغةٍ، سواء

كانت عربيةً أو عجميةً. وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق: أوميروس الشاعر وأثنى عليه. وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون. ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين إعرابها، وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة؛ فكان لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة، وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات. وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف، وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد. واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره، وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره.ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان، لأن الموازين على نسبةٍ واحدةٍ في إعداد المتحركات والسواكن وتقابلها، موجودة في طباع البشر؛ فلم يهجر الشعر بفقدان لغةٍ واحدةٍ؛ وهي لغة مضر؛ الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه، حسبما اشتهر بين أهل الخليقة. بل كل جيلٍ وأهل كل لغةٍ من العرب المستعجمين والحضر اهل الامصار، يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مهيع كلامهم. فأما العرب، أهل هذا الجيل، المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض، على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة

على مذاهب الشعر وأعراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام. وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم. وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر، ثم بعد ذلك ينسبون. فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات، نسبةً إلى الأصمعي، راوية العرب في أشعارهم. وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والحوراني والقيسى، وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطةً، لا على طريقة الصناعة الموسيقية. ثم يغنون به، ويسمون الغناء به باسم الحوراني ، نسبةً إلى حوران من أطراف العراق والشام، وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد.ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أجزاءٍ، يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة؛ شبيهاً بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين. ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة؛ وفيهم الفحول والمتأخرون عن ذلك، والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد، وخصوصاً علم اللسان؛ يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم. فلو حصلت له

ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره؛ وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس. وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة: فإذا عرف اصطلاح في ملكةٍ واشتهر صحة الدلالة؛ وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة. ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم؛ فإن غالب كلماتهم موقوفة الاخر. ويتميز

عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب. فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحانٍ، ويذكر ظعنها مع قومها الى المغرب:

قال الشريف ابن هاشم علي ترى كبدي حرى شكت من زفيرها
يغز للأعلام أين ما رأت خاطري يرد غلام البدو يلوي عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طرا لها عداة وزائع تلف الله خبيرها
يحس إن قطاع عامر ضميرها طوى وهند جافي ذكيرها
وعادت كما خوارة في يد غاسل #تجابذوها على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها على شوك
اثنين والترع بينهم لعه والبقايا جريرها
وباتت دموع العين ذارفات لشانها #تدارك شبيه دوار السواني يديرها
منها النجم حذراً وزادها مرون يجي متراكباً من صبيرها
#يصب من القيعان من جانب الصفا عيون ولجاز البرق في غزيرها
#هاذا الغنى حتى تسابيت غزوة ناضت من بغداد حتى فقيرها
ونادى المنادي بالرحيل وشدوا وعرج عاريها على مستعيرها
وشد لها الأدهم دياب بن غانم على أيدين ماضي وليد مقرب ميرها

وقال لهم حسن بن سرحان غربوا وسوقوا النجوع إن كان أنا هو غفيرها
ويركض وبيده شهامه بالتسامح وباليمين لا يجدوا في مغيرها
غدرني زيان السيح من عابس وما كان يرضى زين حمير وميرها
غدرني وهو زعماً صديقي وصاحبي وأناليه ما من درقتي ما يديرها
ورجع يقول لهم بلال بن هاشم بحر البلاد العطشى ما بخيرها
حرام علي باب بغداد وأرضها داخل ولا عائد ركيزه من نعيرها
تصدف روحي عن بلاد ابن هاشم على الشمس أو حول الغظا من هجيرها

وباتت نيران العذارى قوادح يلوذ وبجرجان يشدوا أسيرها

ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعدى اليفرني مقارعهم بافريقية وأرض الزاب ورثاؤهم له على جهة التهكم:

تقول فتاة الحي سعدى وهاضها لها في ظعون الباكرين عويلُ
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفة خذ النعت مني لا تكون هبيلُ
تراه يعالي وادي ران وفوقه من الربط عيساوي بناه طويلُ
أراه يميل النور من شارع النقا به الواد شرقاً واليراع دليلُ
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفه قد كان لأعقاب الجياد سليلُ
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم جراحه كأفواه المزاد تسيلُ
أيا جائزاً مات الزناتي خليفه لا ترحل إلا أن يريد رحيلُ
ألا واش رحلنا ثلاثين مرةً وعشراً وستا في النهار قليلُ

ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتاباً وقع بينه وبين ماضي بن مقرب:

تبدى ماضي الجبار وقال لي أشكر ما نحنا عليك رضاشِ
أشكر أعد ما بقي ود بيننا ورانا عريب عربا لابسين نماشِ
نحن غدينا نصدفو ما قضى لنا كما صادفت طعم الزباد طشاشِ
أشكر أعد إلى يزيد ملامه ليحدو ومن عمر بلاده عاشِ
إن كان نبت الشوك يلقح بأرضكم هنا العرب ما زدنا لهن صياشِ

ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلبهم زناتة عليه:

وأي جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم وأي رجال ضاع قبلي جميلها
لقد كنت أنا وباه في زهو بيتنا عناني بحجة وغباني دليلها
وعدت كأني شارب من مدامةٍ من الخمر فهو ما قدر من يميلها
أو مثل شمطامات مظنون كبدها غريباً وهي مدوخه عن قبيلها
أتاها زمان السوء حتى تدوحت وهي بين عرباً غافلا عن نزيلها
كذلك أنا مما لحاني من الوجى شاكي بكبد باديتها زعيلها
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا وقووا وشداد الحوايا حميلها
قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا والبدو ما ترفع عمود يقيلها
نظل على حداب الثنايا نوازي يظل الجري فوق النضا ونصيلها

ومن شعر سلطان بن مطفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رياح وأهل الرياسة فيهم، يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك أفريقية من الموحدين:

يقول وفي بوح الدجا بعد وهنة حرام على أجفان عيني منامها
يا من لقلب حالف الوجد والأسى وروح هيامي طال ما في سقامها
حجازية بدوية عربية عداوية ولها بعيد مرامها
مولعة بالبدو لا تالف القرى سوى عانك الوعسا يؤتي خيامها
غيات ومشتاها بها كل شتوة ممحونة بيها وبيها صحيح غرامها
ومرباها عشب الأراضي من الحيا يواتي من الخور الخلايا جسامها
تشوق شوق العين مما تداركت عليها من السحب السواري عمامها
وماذا بكت بالما وماذا تناحطت عيون غزار المزن عذبا حمامها
كان عروس البكر لاحت تيابها عليها ومن نور الأقاحي خزامها
فلاة ودهنا واتساع ومنة ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
ومشروبها من مخض ألبان شولها غنيم ومن لحم الجوازي طعامها

تفانت عن الأبواب والموقف الذي يشيب الفتى مما يقاسي زحامها
سقى الله ذا الوادي المشجر بالحيا وبلا ويحيى ما بلي من رمامها
فكافأها بالود مني وليتني ظفرت بأيام مضت في ركامها
ليالي أقواس الصبا في سواعدي إذا قمت لم تخظ من أيدي سهامها
وفرسي عديد تحت سرجي مشاقة زمان الصبا سرجاً وبيدي لجامها
وكم من رداح أسهرتني ولم أرى من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كاعب مرجحنة مطرزة الأجفان باهي وشامها
وصفقت من وجدي عليها طريحة بكفي ولم ينسى جداها ذمامها
ونار بخطب الوجد توهج في الحشا وتوهج لا يطفا من الماء ضرامها
أيا من وعدتى الوعد هذا إلى متى فني العمر في دار عماني ظلامها
ولكن رأيت الشمس تكسف ساعةً ويغمى عليها ثم يبدأ غيامهما
بنود ورايات من السعد أقبلت إلينا بعون الله يهفو علامها
أرى في الفلا بالعين أظعان عزوتي ورمحي على كتفي وسيري أمامها
بجرعا عتاق النوق من فوق شامس أحب بلاد الله عندي حشامها
إلى متزل بالجعفرية لّلوى مقيم بها ما لذ عند ى مقامها

#ونلقى سراة من هلال بن عامر 	يزيل الصدا والغل عني سلامها
بهم تضرب الأمثال شرقاً ومغرباً 	إذا قاتلوا قوماً سريع انهزامها
عليهم ومن هو في حماهم تحية 	مدى الدهر ما غنى يفينا حمامها
فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى 	فذي الدنيا ما دامت لأحد دوامها

ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر، شيخ الكعوب، ومن أولاد أبي الليل، يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل ويجيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل، عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه:

يقول وذا قول المصاب الذي نشا 	قوارع قيعان يعاني صعابها
يريح بها حادي المصاب إذا سعى 	فنونا من إنشاد القوافي عذابها
محيرة مختارة من نشادها 	تحدى بها تام الوشا ملتهابها
مغربلة عن ناقد في غضونها 	محكمة القيعان دابي ودابها
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى 	قوارع من شبل وهذي جوابها
أشبل جنينا من حباك طرائفا 	فراح يريح الموجعين الغنا بها

فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم 	سوى قلص في جمهورها ما أعابها وحامى حماها
لقولك في أم المتين بني حمزةٍ 	عاديا في حرابها
أما تعلم أنه قد قامها بعدما لقي 	رصاص بني يحيى وغلاق دابها
شهاباً من أهل الأمر يا شبل خارق سواها طفاها 	وهل ريت من جا للوغى واصطلى بها واثنى
أضرمت بعد طفيه #وأضرمت بعد الطفيتين ألن 	طفاها جاسراً لا يهابها
صحت 	لفاس إلى بيت المنى يقتدى بها
وبان لوالي الأمر في ذا انشحابها 	فصار وهي عن كبر الأسنة تمابها رجال بثي
كما كان هو يطلب على ذا تجنبت 	كعب الذي يتقي بها

ومنا في العتاب:

وليدا تعاتبتوا أنا أغنى لأنني 	غنيت بمعلاق الثنا واغتصابها
علي ونا ندفع بها كل مبضع 	بأسياف ننتاش العدا من رقابها
فإن كانت الأملاك بغت عرايس 	علينا بأطراف القنا اختضابها
ولا بعدها الإرهاف وذبل ورزق 	كالسنة الحناش انسلابها

بني عمنا ما نرتضي الذل غلمه تسير السبايا والمطايا ركابها
وهي عالماً بان المنايا تنيلها بلا شك والدنيا سريع انقلابها
ومنها في وصف الظعائن:
قطعنا قطوع البيد لا نختشي العدا فتوق بجوبات مخوف جنابها
ترى العين فيها قل لشبل عرائف وكل مهاةٍ محتظيها ربابها
ترى أهلها غب الصباح أن يفلها بكل حلوب الجوف ما سدَّ بابها
لها كل يوم في الأرامي قتائل ورا الفاجر الممزوج عفو رضابها
ومن قولهم في الأمثال الحكمية:
وطلبك في الممنوع منك سفاهة وصدك عمن صد عنك صواب
إذا رأيت أناساً يغلقوا عنك بابهم ظهور المطايا يفتح الله باب
ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب إلى برجم:
الشيب وشبان من أولاد برجم جميع البرايا تشتكي من ضهادها
ومن قول خالدٍ يعاتب إخوانه في موالاة شيخ الموحدين أبي محمدٍ بن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها مكفولة أبي إسحق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا:
يقول بلا جهل لتى الجود خالدُ مقالة قوال وقال صوابُ
مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن هريجاً ولا فيما يقول ذهابُ
تهجست معنا نابها لا لحاجةٍ ولا هرج ينقاد منه معابُ
وكنت بها كبدي وهي نعم صابة حزينة فكبر والحزين يصابُ
تفوهت بادي شرحها عن مآرب جرت من رجال في القبيل قرابُ
بنى كعب أدنى الأقربين لدمنتا بني عم منهم شايب وشبابُ
جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم وبعضهم ملنا مصافاة ود واتساع جنابُ
له عن خصيمه كما يعلموا قولي يقينه صوابُ
وبعضهمو مرهوب من بعض ملكنا وبعضهمو جزاعاً وفي جو الضمير كتابُ
جانا جريحاً تسمحت #وبعضهمو نظار فينا خواطر منها للتزيل وهابُ
بسوةٍ نقهناه حتى ما عنا به ساب
رجع ينتهي مما سفهنا قبيحه مراراً وفي بعض المرار يهاب
وبعضهمو شاكي من أوغاد قادر غلق عنه في أحكام السقائف باب
فصمناه عنه وأقتضي منه مورد على كره مولى البالقي ودياب
ونحن على دافى المدى نطلب العلا وحزنا حمى لهم ما حططنا للفجور نقاب

وطن بترشيش بعدما نفقنا عليها سبقاً ورقاب
ومهد من الأملاك ما كانا خارجاً على أحكام والي أمرها له ناب
بردع قروم من قروم قبيلنا بني كعب لاواها الغريم وطاب
جرينا بهم عن كل تأليف في العدا وقمنا لهم عن كل قيد مناب
إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمة ربيها وخيراته عليه نصاب
وركبوا السبايا المثمنات من أهلها #وساقوا ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
المطايا بالشرا لا نسوا له جماهير ما يغلو بها بحلاب

وكسبوا من أصناف السعايا ذخائر وعادوا ضخام لحزات الزمان تصاب
نظير البر مكيين قبل ذا وإلا هلالا في زمان دياب
وكانوا لا درعاً لكل مهمة إلى أن بان من نار العدو شهاب
وخلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا ملامه ولا دار الكرام عتاب
كسوا الحي جلباب البهيم لستره وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
كذلك منهم حانس ما دار النبا ذهل حلمي أن كان عقله غاب
يظن ظنوناً ليس نحن بأهلها تمنى يكن له في السماح شعاب
خطا هو ومن واتاهُ في سوّظنه #فواعزوتى إن بالإثبات من ظن القبائح عاب
الفتى بو محمد وهوب لآلاف بغير حساب
ويرحت الأوغاد منه ويحسبوا بروحه ما يحيى بروح سحاب
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع وهو لو لقوا كل ما يستاملوه سراب
عطى ما كان للرأى عارف ولا كان في قلة عطاه صواب
وإن نحن ما نستأملوا عنه راحة وأنه بإسهام التلاف مصاب
وإن ما وطا ترشيش يضياق وسعها وأنه منها عليه ويمشي بالفزوع لزاب
عن قريب مفاصل خنوج عناز هوالها وقباب
وعن فاتنات الطرف بيض كوانج ربوا خلف أستار وخلف حجاب
يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبوا #يضلوه عن عدم بحسن قوانين وصوت رباب
اليمين وربما يطارح حتى ما كأنه شاب
بهم حازله زمه وطوع أوامر ولذة مأكول وطيب شراب
حرام على ابن تافركين ما مضى من الود إلا ما بدل بحراب

وإن كان له عقل رجيح وفطنة ... يلجج في اليم الغريق غراب
وأما البدالا بّدها من فياعل ... كبار إلى أن تبقى الرجال كباب
ويحمى بها سوق علينا سلاعه ... ويحمار موصوف القنا وجعاب
ويمسي كلام طالب ريح ملكنا ... ندوما ولا يمسي صحيح بناب
أيا واكلين الخبز تبغوا أدامه ... غلطتوا أدمتوا في السموم لباب

ومن شعر علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بني عمه المتطاولين إلى رياسته:

محبرة كالدر في يد صانع ... إذا كان في سلك الحرير نظام
أباحها منها فيه أسباب ما مضى ... وشاء تبارك والضعون تسام
غدا منه لأم الحي حيين وأنشطت ... عصاها ولا صبنا عليه حكام
ولكن ضميري يوم بأن بهم إلينا ... تبرم على شوك القتاد برام
وإلا كأبراص التهامي قوادح ... وبين عواج الكانفات ضرام
وإلا لكان القلب في يد قابض ... أتاهم بمنشار القطيع غشام
لما قلت سما من شقا البين زاربي ... إذا كان ينادي بالفراق وخام
إلا يا ربوع كان بالأمس عامر ... بيحيى وحله والقطين لمام
وغيد تداني للخطا في ملاعبٍ ... دجى الليل فيهم ساهرٌ ونيام
ونعم يشوف الناظرين التحامها ... لنا ما بدا من مهرق وكظام
وعرود باسمها ليدعو لسربها ... وإطلاق من شرب المها ونعام
واليوم ما فيها سوى البوم حولها ... ينوح على أطلال لها وخيام
وقفنا بها طورا طويلا نسألها ... بعين سخينا والدموع سجام
ولا صح لي منها سوى وحش خاطري ... وسقمي من أسباب أن عرفت أوهام
ومن بعد ذا تدى لمنصور بوعلي ... سلام ومن بعد السلام سلام
وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكم ... دخلتم بحور غامقات دهام
زواخر ما تنقاس بالعود إنما ... لها سيلات على الفضا وأكام
ولا قستمو فيها قياسا يدلكم ... وليس البحور الطاميات تعام
وعانوا على هلكاتكم في ورودها ... من الناس عدمان العقول لئام
أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم ... قرار ولا دنيا لهن دوام
إلا عناهمو لوترى كيف زايهم ... مثل سراب فلاه ما لهن تمام

خلو القنا يبغون في مرقب العلا		مواضع ما هيا لهم بمقام
وحق النبي والبيت وأركانه العلى		ومن زارها في كل دهر وعام
لبر الليالي فيه أن طالت الحيا		يذوقون من خمط الكساع مدام
ولا برها تبقى البوادي عواكف		بكل رديني مطرب وحسام
وكل مسافة كالسد إياه عابر		عليها من أولاد الكرام غلام
وكل كميث يكتعص عض نابه		يظل يصارع في العنان لجام
وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة		وتولدنا من كل ضيق كظام
بالأبطال والقود الهجان وبالقنا		لها وقت وجنات البدور زحام
أتجحدني وأنا عقيد نقودها		وفي سن رمحي للحروب علام
ولحن كأضراس الموافي بنجعكم		حتى يقاضوا من ديون غرام
متى كان يوم القحط يا مير أبو علي		يلقى سعايا صايرين قدام
كذلك بوحمو إلى اليسر أبعمه		وخفى الجياد العاليات تسام
وخل رجالاً لا يرى الضيم جارهم		ولا يجمعوا بدهى العدو زفام
ألا يقيموها وعقد بؤسهم		وهم عذر عنه دائما ودوام
وكم ثار طعنها على البدو سابق		ما بين صحاصيح وما بين حسام
فتى ثار قطار الصوى يومنا على		لنا أرض ترك الظاعنين زمام
وكما ذا يجيبوا أثرها من غنيمة		حليف الثنا قشاع كل غيام
وإن جاء خافوه الملوك ووسعوا		غدا طبعه يجدي عليه قيام
عليكم سلام الله من لسن فاهم		ما غنت الورقا وناح حمام

ومن شعر عرب نمر بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى أحلافه من قيس تغريهم بطلب ثأره لقول:

تقول فتاة الحي أم سلامة		بعين أراع الله من لا رثى لها
تبيت بطول الفيل ما تألف الكرى		موجعة كان الشقافي مجالهما
على ما جرى في دارها وبو عيالها		بلحظة عين البين غير حالها
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلكم		ونمتوا عن أخذ الثأر ماذا مقالها
أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرني		ويبرد من نيران قلبي ذبالها
أيا حين تسريح الذوائب واللحى		وبيض العذارى ما حميتو جمالها

الموشحات والأزجال للأندلس

وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح، وينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها، ومن أعاريضها

المختلفة. ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيتٍ على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملة، الخاصة والكافة، لسهولة تناوله، وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم ابن معافر القبريري من شعراء الأمير عبد الله بى محمد المرواني. وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه، صاحب كتاب العقد، و لم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاهما. فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية. وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بدر تم. شمس ضحا. غصن نقا.مسكٌ شم

ما أتم. ما أوضحا. ما أورقا. ما أنم

لا جرم. من لحا. قد عشقا. قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف.

وذكرغير واحدٍ من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أنَّ

هذاالشلأنجاء مصلياً خلفه منهم ابن رافع، راس شعراء المأمون ابن ذي النون، صاحب طليطلة.

قالوا وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول؛

العود قد ترنم بأبدع تلحين وسقت المذانب رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يعول:

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيي بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين فظهرت لهم البدائع، وسابق فرسان حلبتهم الأعمى الطليطلي، ثم يحيى بن بقي، وللطليطلى من الموشحات المهذبة قوله:

كيف السبيل إلى صبري وفي المعالم أشجان

والراكب وسط الفلا بالخرد النواعم قد بان

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشان بالأندلس يذكرون أن

جماعةً من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بأشبيلية، وكان كل واحدٍ منهم اصطنع موشحةً وتأنق فيها فتقدم الأعمى الطليطلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان سافر عن دُر ضاق عنه الزمان وحواه صدري

صرف ابن بقي موشحته وتبعه الباقون. وذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قط وشاحاً على قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الموشحين المطبوعين أبو بكر الأبيض. وكان في عصرهما أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة؛ فالقى على بعض قيناته موشحته التي أولها:

جرر الذيل أيما جر وصلِ الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك، فلما ختمها بقوله:

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت، صاح: واطرباه :وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت، وحلف بالأيمان المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب. فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه. وذكر أبو الخطاب بن زهر أنه جرى في مجلس أبي بكر بين زهر. ذكر أبي بكر الأبيض الوشاح المتقدم الذكر؛ فغص منه بعض الحاضرين فقال كيف تغص ممن يقول:

ما لذ لي شرب راح،على رياض الأقاحِ لولا هضيم الوشاح،إذا أسا في الصباح

أو في الأصيل،أضحى يقول: ما للشمول،لطمت خدى؟

وللشمال هبت فمال غصن اعتدال ضمه بردي

#مما أباد القلوبا،يمشي لنا مستريبا يا لحظه رد ذنوباً ويا لماه الشنيبا

برد غليل،صب عليل لا يستحيل،فيه عن العهد

ولا يزالُ،في كل حال يرجو الوصال،وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف. قال الحسن بن دويريدة: رأيت حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح:

شمس قاربت بدراً راح ونديم

وابن هردوس الذي له:

يا ليلة الوصل والسعود بالله عودي

وابن مؤهل الذي له:

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب وإنما العيد في التلاقي مع الحبيب

وأبو إسحق الرديني، قال ابن سعيد: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول إنه دخل على ابن زهر، وقد أسن، وعليه زي البادية، إذ كان يسكن بحصن أستبه، فلم يعرفه، فجلس حيث انتهى به المجلس. وجرت المحاضرة فانشد لنفسه موشحةً وقع فيها:

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح

ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

فتحرك ابن زفر وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر! قال: ومن تكون؟ فعرفه،فقال: ارتفع فوالله ما عرفتك.

قال ابن سعيدٍ: وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهر، وقد شرقت موشحاته وغربت. قال:

وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابنِ زهيرٍ، لو قيل لك ما أباع وأرفع ما وقع لك في التوشيح ما كنت تقول؛ قال، كنت أقول:

ما للموله؛من سكره لا يفيق. يا له سكران من غير خمر. ما للكئيب المشوق.

يندب الأوطان؟.

هل تستعاد. أيامنا بالخليج. ولياليينا؟

أو يستفاد. من النسيم الأريج. مسك دارينا

أو هل يكاد. حسن المكان البهيج. أن يحيينا؟

روض أظله. دوح عليه أنيق. مورق الأفنان. والماء يجرى .وعائم وغريق.

من جنى الريحان.

واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله:

يفوق سهمه كل حينٍ .بما شئت من يدٍ وعين

وينشد في القصيد:

خلقت مليح علمت رامي فليس تخل ساعٍ من قتال

وتعمل بذي العينين متاعي ما تعمل يديَّ بالنبال

واشتهر معهما يومئذٍ بغرناطة المهر بن الفرس، قال ابن سعيدٍ، ولما سمع ابن زهٍير قوله:

لله ما كان من يوم بهيجٍ بنهر حمص على تلك المروج ثم انعطفنا وعلى فم الخليج

نفض في حانه مسك الختام

عن عسجدٍ زانهُ صافي المدامِ ورداء الأصيل ضمه كف الظلام

قال ابن زهرٍ: أين كنا نحن عن هذا الرداء وكان معه في بلده مطرفٌ. أخبر ابن سعيدٍ عن والده أن مطرفاً هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه، فقال لا تفعل! فقال ابن الفرس: كيف لا أقوم لمن يقول:

قلوب تصاب بألحاظ تصيب فقل كيف تبقى بلا وجد

وبعد هذا ابن حزمون بمرسية. ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه، فقال له ابن حزمون: لا يكون الموشح بموشح حتى يكون عارياً عن التكلف، قال على مثل ماذا؟ قال على مثل قولي:

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيلُ

أو هل ترى عن هواك سالي   قلب العليلُ

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة. قال ابن سعيدٍ كان والدي يعجب بقوله:

إن سيل الصباح في الشرق   عاد بحراً في أجمع الأفق

فتداعت نوادب الورق

أتراها خافت من الغرق   فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل، قال ابن سعيدٍ عن والده، سمعت سهل ابن مالك يقول له:

يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك: واحسرتا لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضى

أعانق بالفكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير ما مرة، فما سمعته يقول له لله درك، إلا في قوله:

قسماً بالهوى لذي حجر   ما لليل المشوق من فجر

جمد الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غد اصح ياليل إنك الأبد

أو قفصت قوادم النسر   فنجوم السماء لا تسري

ومن محاسن موشحات ابن الصابوني قوله:

ما حال صب ذي ضنى واكتئاب   أمرضه يا ويلتاه الطبيب

عامله محبوبه باجتناب   ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جفا جفوني النوم لكنني   لم أبكه إلا لفقد الخيال

وذا الوصال اليوم قد غرني   منه كما شاء وشاء الوصال

فلست باللائم من صدني   بصورة الحق ولا بالمحال

واشتهر بير أهل العدوة ابن خلف الجزايري صاحب الموشحة المشهورة:

يد الأصباح قدحت زناد   الأنوار في مجامر الزهر

وابن خرز البجائي وله من موشحة:

ثغر الزمان موافق   حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل، شاعر أشبيلية وسبتة من بعدها؛ فمنها قوله:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنسِ

فهو في نار وخفق مثل ما   لعبت ريح الصبا بالقبسِ

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب، شاعر الأندلس والمغرب لعصره، وقد مر ذكره فقال:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلا حًلما في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنا مثل ما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سني فثغور الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس؟
فكساه الحسن ثوباً معلما يزدهي منه بأبهى ملبس
في ليالٍ كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم شيئاً أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس
أي شيء لا مرىء قد خلصا فيكون الروض قد كنن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصى وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً برما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما يسرق السمع بأذني فرس
يا أهيل الحي من وادي الغضا وبقلبي مسكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنسٍ قد مضى تعتقوا عبدكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرماً يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرما أفترضون خراب الحبس
وبقلبي منكم مقترب بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المضنى به، وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب في هواه، بين وعدٍ ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى ففؤادي نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب لمحبوب ذنوب

أمره معتمل ممتثل في ضلوع، قد براها، وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب في ضعاف الأنفس
ينصف المظلوم ممن ظلما ويجازي البر منها والمسي
ما لقلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا قوله إن عذابي لشديد
جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان في جهدٍ جهيد
لا عج من أضلعي قد أضرما فهي نار في هشيم اليبس
لم تدع في مهجتي إلا ذما كبقاء الصبح بعد الغلس
سلمي يا نفس في حكم القضا واعبري الوقت برجعي ومتاب
وفى عي ذكر زمانٍ قد مضى بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضى ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المنتهى والمنتمى أسد السرح وبدر المجلس
يترل النصر علنه مثلما يترل الوحي بروح القدس

وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات. ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك التي اشتهرت شرقاً وغرباً وأولها:

حبيبي ارفع حجاب النور عن العذار
تنظر المسك على كافور في جلنار
كفلي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي
سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور، لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً.

واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة.

وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس؛ لكن لم يظهر حلاها، ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه. وكان لعهد الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق. قال ابن سعيدٍ: ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الأشبيلي، إمام الزجالين في عصرنا يقول:

ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه، فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر متدرجة فقال:

وعريش قد قام على دكان　　بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان　　من غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان　　بيه الفراق
وانطلق من ثم على الصفاح　　وألقى الصياح

وكان ابن قزمان، مع أنه قرطبي الدار، كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية وينتاب نهرها، فاتفق أن اجتمع ذات يوم جماعة من أعلام هذا الشأن. وقد ركبوا في النهر للنزهة ومعهم غلام جميل الصورة من سروات أهل البلد وبيوتهم. وكانوا مجتمعين في زورق للصيد؛ فنظموا في وصف الحال، وبدأ منهم عيسى البليدي فقال:

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو　　وقد ضمني عشقو لشهماتو
تراه قد حصل مسكين محلاتو　　يغلق وكذاك أمر عظيم صاباتو
توحش الجفون الكحل إن غابو　　وذيك الجفون الكحل أبلاتو

ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي:

نشب والهوى من لج فيه ينشب　　ترى ايش دعاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في بالوان يلعب　　وخلق كثير من ذا اللعب ماتوا

ثم قال أبو الحسن المقري الداني:

نهار مليح يعجبن أوصافو　　شراب وملاح من حولي قد طافوا
والمقلين يقول من فوق صفصافو　　والبوري أخرى فقلاتو

ثم قال أبو بكر بن مرتين:

الحق تريد حديث بقالي عاد　　في الواد النزيه والبوري والصياد
لسنا حيتان ذيك الذي يصطاد　　قلوب الورى هي في شبيكاتو

ثم قال أبو بكر بن قزمان:

إذا شفر كمامو يرميها　　ترى البوري يرشق لذاك الجيها
وليس مرادو أن يقع فيها　　إلا أن يقبل بدياتو

وكان في عصرهم بشرق الأندلس فحلف الأسود، وله محاسن من الزجل منها قوله:

قد كنت منشوب واختشيت النشب　　وردني ذا العشق لأمر صعب

حتى تنظر الخد الشريق البهي   تنتهي في الخمر إلما تنتهي

يا طالب الكيميا في عيني هي   تنظر بها الفضة وترجع ذهب

وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس، وقعت له العجائب في هذه الطريقة، فمن قوله في زجله المشهور:

ورذاذ دق يترل   وشعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضض   وترى الآخر يذهب

والنبات يشرب ويسكر   والغصون ترقص وتطرب

وبريد تجي إلينا   ثم تستحي وتهرب

ومن محاسن أزجاله قوله:

لاح الضيا والنجوم حيارى   فقم بنا نترع الكسل

شربت ممزوج من قراعا   أحلى هي عندي من العسل

يا من يلمني كما تقلد   قلدك الله بما تقول

يقول بان الذنوب تولد   وأنه يفسد العقول

لأرض الحجازموريكن لك أرشد   إيش ما ساقك معي في ذا الفضول

مر أنت للحج والزيارا   ودعني في الشرب منهمل

من ليس لو قدره ولا استطاع   النية أبلغ من العمل

وظهر بعد هؤلاء بإشبيلية ابن جحدرالدي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل الذي أوله هذا:

من عاند التوحيد بالسيف يمحق   أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المعمع صاحب الزجل المشهور الذي أوله:

يا ليتني إن رأيت حبيبي   أفتل أذنو بالرسيلا

ليش أخذ عنق الغزيل   وسرق فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل ابن مالك إمام الأدب، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع، فمن محاسنه في هذه الطريقة:

امزج الأكواس واملالي تجدد   ما خلق المال إلا أن يبدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم:

بين طلوع وبين نزول   اختلطت الغزول

ومضى من لم يكن   وبقي من لم يزول

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى:

البعد عنك يا بني أعظم مصايبي   وحين حصل لي قربك سببت قاربي

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وكان إماماً في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغليس في قوله:

لاح الضياء والنجوم حيارى بقوله:

حل المجون يا أهل الشطارا مذ حلت الشمس في الحمل

تجددوا كل يوم خلاعا لا تجعلوا بينها ثمل

إليها يتخلعوا في شنبل على خضورة ذاك النبات

وحل بغداد واجتاز النيل أحسن عندي من ذيك الجهات

وطاقتها أصلح من أربعين مل إن مرت الريح عليه وجاءت

لم تلتق الغبار أمارا ولا بمقدار ما يكتحل

وكيف ولاش فيه موضع رقاعا إلا ونسرح فيه النحل

وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالأندلس من الشعر، وفيها نظمهم حتى أنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر، لكن بلغتهم العامية ويسفون الشعر الزجلي مثل قول شاعرهم:

دهر لي نعشق جفونك وسنين وأنت لا شفقة ولا قلب يلين

حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجع صنعة السكة بين الحدادين

الدموع ترشرش والنار تلتهب والمطارق من شمال ومن يمين

خلق الله النصارى للغزو وأنت تغزو قلوب العاشقين

وكان من المجيدين لهذه الطريقة لأول هذه المائة الأديب أبو عبد الله اللوشي وله فيها قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر:

طل الصباح قم يا نديمي نشربو ونضحكو من بعد ما نطربو

سبيكة الفجر أحكت شفق في ميلق الليل فقم قلبو

ترى عيارها خالص أبيض نقي فضة هو لكن الشفق ذهبو

فتنتفق سكتوا عند البشر نور الجفون من نورها يكسبو
فهو النهار يا صاحبي للمعاش عيش الغني فيه بالله ما أطيبو
والليل أيضاً للقبل والعناق على سرير الوصل يتقلبو
جاد الزمان من بعد ما كان بخيل ولش ليفلت من يديه عقربو
كما جرع مرو فما قد مضى يشرب بيننو ويأكل طيبو
قال الرقيب يا أدباً إيش ذا في الشرب والعشق ترى ننجبو
وتعجبوا عذالي من ذا الخبر فقلت يا قوم من ذا تتعجبوا
نعشق مليح إلا رقيق الطباع علاش تكفروا بالله أو تكتبوا
ليش يربح الحسن إلا شاعر أديب يفض بكرو ويدع ثيبو
أما الكاس فحرام نعم هو حرام على الذي ما يدري كيف يشربو
ويد الذي يحسن حسابه ولم يقدر يحسن ألفاظ أن يجلبوا
وأهل العقل والفكر والمجون يغفر ذنوبهم لهذا إن أذنبوا
ظبي بهي فيها يطفي الجمر وقلبي في جمر الغضى يلهبو
غزال بهي ينظر قلوب الأسود وبالوهم قبل النظر يذهبوا
ثم يحييهم إذا ابتسم يضحكوا ويفرحوا من بعد ما يندبوا
فميم كالخاتم وثغر نقي خطيب الأمة للقبل يخطبو
جوهر ومرجان أي عقد يا فلان #وشارب قد صففه الناظم ولم يثقبو
أخضر يريد لاش يريد من شبهه بالمسك قد عيبو
يسبل دلال مثل جناح الغراب ليالي هجري منه يستغربوا
على بدن أبيض بلون الحليب ما قط راعي للغنم يحلبوا
وزوج هندات ما علمت قبلها ديك الصلا يا ريت ما أصلبو
تحت العكاكن منها خصر رقيق من رقتو يخفي إذا تطلبوا
أرق هو من ديني فيما تقول جديد عتبك حق ما أكذبو
أي دين بقا لي معاك وأي عقل من يتبعك من ذا وذا تسلبوا
تحمل أرداف ثقال كالرقيب حين ينظر العاشق وحين يرقبو

إن لم ينفس غدر أو ينقشع في طرف ديسا والبشر تطلبو
يصير إليك المكان حين تجي وحين تغيب ترجع في عيني تبو
محاسنك مثل خصال الأمير أو الرمل من هو الذي يحسبو

عماد الأمصار وفصيح العرب   من فصاحة لفظه يتقربو
بحمل العلم انفرد والعمل   ومع بديع الشعر ما أكتبو
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه   وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
من السماء يحسد في أربع صفات   فمن يعد قلبي أو يحسبو
الشمس نورو والقمر همتو   الغيث جودو والنجوم منصبو
يركب جواد الجود ويطلق عنان   الأغنيا والجند حين يركبوا
من خلعتو يلبس كل يوم بطيب   منه بنات المعالي تطيبوا
نعمتو تظهر على كل من يجيه   قاصد ووارد قط ما خيبوا
قد أظهر الحق وكان في حجاب   لاش يقدر الباطل بعدما يحجبو
وقد بنى بالسر ركن التقى   من بعد ما كان الزمان خربو
تخاف حين تلقاه كما ترجيه   فمع سماحة وجهو ما أسيبو
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة   غلاب هولا شيء في الدنيا يغلبو
إذا حبد سيفه ما بين الردود   فليس شيء يغني من يضربو
وهو سمي المصطفى والإله   للسلطنة اختار واستنخبو
تراه خليفة أمير المؤمنين   يقود جيوشو ويزين موكبو
لذي الإمارة تخضع الرؤوس   نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا
بيته بقي بدور الزمان   يطلعوا في المجد ولا يغربوا
وفي المعالي والشرف يبعدوا   وفي التواضع والحيا يقربوا
والله يبقيهم ما دار الفلك   وأشرقت شمسه ولاح كوكبو
وما يغني ذا القصيد في عروض   يا شمس خدر مالها مغربو

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر، في أعاريض مزدوجة كالموشح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسفوه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب إلا قليلاً مطلعها:

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام   على الغصن في البستان قريب الصباح
وكف السحر يمحو مداد الظلام   وماء الندى يجري بثغر الأقاح
باكرت الرياض والطل فيها افتراق   كثير الجواهر في نحور الجوار
ودمع النواعير ينهرق انهراق   يحاكي ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق   ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدي الندى تخرق جيوب الكمام   ويحمل نسيم المسك عنها رياح

وعاج الصبا يطلى بمسك الغمام   وجر النسيم ذيلو عليها وفاح
رأيت الحمام بين الورق في القضيب   قد ابتلت أرياشو بقطر الندى
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب   قد التف من تربو الجديد في ردا
ولكن بما أحمر وساقو خضيب   ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جلس بين الأغصان جلسة المستهام   جناحا توسد والتوى في جناح
وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام   منها ضم منقاره لصدره وصاح
قلت يا حمام أحرمت عيني الهجوع   أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع   بلا دمع نبقى طول حياتي ننوح
على فرخ طار لي لم يكن لو رجوع   ألفت البكا والحزن من عهد نوح
كذا الوفا وكذا هو الزمام   انظر جفون صارت بحال الجراح
وأنتم من بكى منكم إذا تم عام يقول   عناني ذا البكا والنواح
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى   كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا   ما كان يصير تحتك فروع الغصون
اليوم نقاسي الهجر كم من سناً   حتى لا سبيل جملة تراني العيون
ومما كسا جسمي النحول والسقام   أخفاني نحولي عن عيون اللواح
لو جتني المنايا كان يموت في المقام   ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
قال لي لو رقدت لأوراق الرياض   من خوفي عليه وذا النفوس للفؤاد
وتخضبت من دمعي وذاك البياض   طوق العهد في عنقي ليوم التناد
أما طرف منقاري حديثو استفاض   بأطراف البلد والجسم صار في الرماد

فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته، وتركوا الإعراب الذي ليس من شانهم، وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً إلى المزدوج والكازي والملعبة والغزل. واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها. فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فصولهم وهو من أهل تازا:

المال زينة الدنيا وعز النفوس   يبهي وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس   ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير   ويصغر عزيز القوم إذ يفتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا تغير   وكان ينفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجي من هو في قومو كبير   لمن لا اصل عندو ولا لو خطر
لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس   ويصبغ عليه ثوب فراش صافيا

اللي صارت الأذناب أمام الرؤوس وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان ما يدروا على من يكثروا ذا العتاب
#اللي صار فلان يصبح بو فلان ولو رأيت كيف يرد الجواب

عشنا والسلام حتى رأينا عيان أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
كبحار النفوس جذا ضعاف الأسوس هم ناحيا والمجد في ناحيا
يرو أنهم والناس يروهم تيوس وجوه البلد والعمدة الراسيا
ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته:
تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلا وخان قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وإن واصلوا من حينهم يقطعوا وإن عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هويتو وشت قلبي معو وصيرت من خدي لقد مونعال
ومهدت لو من وسط قلبي مكان وقلت لقلبي أكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان فلا بد من هول الهوى يعتريك
حكمتوا علي وارتضيت بو أمير فلو كان يرى حالي إذا يبصرو
يرجع مثل در حولي بوجه الغدير ترديه ويتعطس بحال انحرو
وتعلمت من ساعاً بسبق الضمير ويفهم مرادو قبل أن يذكرو
ويحتل في مطلو لو أن كان عصر في الربيع أو في الليالي يريك
ويمشي بسوق كان ولو بأصبهان وإيش ما يقل يحتاج لو يجيك
حتى أتى على آخرها.
وكان منهم علي بن المؤذن بتلمسان، وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف، أبدع في مذاهب هذا الفن. ومن أحسن ما علق له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم إلى إفريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة
يقول في مفتتحها، وهو من أبدع مذاهب البلاغة في الأشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الاستهلال:
سبحان مالك خواطر الأمرا ونواصيها في كل حين وزمان
إن طعناه اعظم لنا نصرا وان عصيناه عاقب بكل هوان

إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص:

كن مرعى قل ولاتكن راعي فالراعي عن رعيته مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعي للإسلام والرضا السني المكمول
على الخلفاء الراشدين والأتباع واذكر بعدهم إذا تحب وقول
أحجاجا تخللوا الصحرا ودوا سرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الغرا وين سارت بو عزايم السلطان
أحجاج بالنبي الذي زرتم وقطعتم لو كلاكل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألكم المتلوف في افريقيا السودا
#ومن كان بالعطايا يزودكم ويدع برية الحجاز رغدا
#قام قل للسد صادف الجزرا ويعجز شوط بعدما يخفان
#ويزف كر دوم تهب في الغبرا أى ما زاد غزالهم سبحان
#لو كان ما بين تونس الغربا وبلاد الغرب سدّ السكندر
#مبني من شرقها إلى غربا طبقا بحديد أو ثنايا بصفر
#لا بد للطير أن تجيب نبا أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
#ما أعوصها من أمور وماشرا لو تقرا كل يوم علي الديوان
#لجرت الدم وانصدع الحجرا وهوت الخراب وخافت الغزلان
#أدرلي بعقلك الفحاص وتفكر لي بخاطرك جمعا
#ان كان تعلم حمام ولا رقاص عن السلطان شه وقبله سبعا
#تظهر عند المهيمن القصاص وعلامات تنشر علي الصمعا

ثم أخذ في ترحيل السلطان وجيوشه، إلى آخر رحلته ومنتهى أمره، مع أعراب إفريقية، وأتى فيها بكل غريبة من الإبداع. وأما أهل تونس فاستحدثوا فن الملعبة أيضاً على لغتهم الحضرية، إلا أن أكثره رديء و لم يعلق بمحفوظي منه شيء لرداءته.

الموشحان والأزجال في المشرق:

وكان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه المواليا، وتحته فنون كثيرة يسمون منها القُوما، وكان وكان، ومنه مفرد ومنه في بيتين، ويسمون دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحدٍ منها، وغالبها مزدوجة من أربعة أغضانٍ. وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب، وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية، فجاؤوا بالعجائب، ورأيت فم ديوان الصفي الحلي من كلامه (أن المواليا من بحر البسيط، وهو ذو أربعة أغصان وأربع قوافي، ويسمى صوتاً وبيتين. وأنه من مخترعات أهل واسط، وأن كان وكان فهو قافية واحدة وأوزان مختلفة في أشطاره: الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني ولا تكون قافيته إلا مردفة بحرف العلة وأنه من مخترعات البغداديين. وأنشد فيه لنا:

بغمز الحواجب حديث تفسير ومنو أوبو، وأم الأخرس تعرف بلغة الخرسان إنتهى كلام الصفي. ومن أعجب ما علق بحفظي منه قول شاعرهم:

هذي جراحي طريا والدما تنضح

وقاتلي يا أخيا في الفلا يمرح

قالوا ونأخذ بثأرك قلت ذا أقبح

إلى جرحتي يداويني يكون أصلح

ولغيره:

طرقت باب الخبا قالت من الطارق فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لي من ثغرها بارق رجعت حيران في بحر أدمعي غارق

ولغيره:

عهدي بها وهي لا تأمن علي البين وإن شكوت الهوى قالت فدتك العين

لمن يعاين لها غيري غلام الزين ذكرتها العهد قالت لك علي دين

ولغيره في وصف الحشيش:

دي خمر صرف التي عهدي بها باقي تغني عن الخمر والخمار والساقي

قحبا ومن قحبها تعمل على إحراقي خبيتها في الحشى طلت من أحداقي

ولغيره:

يا من وصالو لأطفال المحبة بح كم توجع القلب بالهجران أوه أح

أودعت قلبي حوحو والتصبر بح كل الورى كخ في عيني وشخصك دح

ولغيره:

ناديتها ومشيي قد طواني طي جودي علي بقبلة في الهوى يا مي

قالت وقد كوت داخل فؤادي كي ما ظن ذا القطن يغشى فم من هو حي

ولغيره:

راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقه ماط اللثام تبدي بدر في شرف
أسبل دجى الشعرتاه القلب في طرقه رجع هدانا بخيط الصبح من فرقه

ولغيره:

يا حادي العيش ازجر بالمطايا زجر وقف على مترل أحبابي قبيل الفجر
زجر وصي في حيهم يا من يريد الأجر ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

ولغيره:

عيني التي كنت أرعاكم بها باتت ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت
وأسهم البين صابتني ولا فاتت وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

ولغيره:

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر غزال يبلى الأسود الضاريا بالفكر
غصن إذا ما انثنى يسبي البنات البكر وإن تهلل فما للبدر عندو ذكر

ومن الذي يسفونه دوبيت:

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الأسحار
يا نار أشواقي به فاقتدي ليلاً فعساه يهتدي بالنار

واعلم أن الأذواق كفها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها، حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية. فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب؛ ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق؛ ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمغرب. لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكل واحدٍ منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشجر من أهل جلدته. {وفي خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات للعالمين} .

خاتمة

وقد كدنا أن نخرج عن الغرض، ولذلك عزمنا ان نقبض العنان عن القول في
هذا الكتاب الأول، الذي هو طبيعة العمران، وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاء له. ولعل من يأتي بعدنا، ممن يؤيده الله بفكر صحيحٍ وعلمٍ مبينٍ، يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا؛ فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله، وما يتكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول، المشتمل على المقدمة بالوضع والتأليف، قبل التنقيح والتهذيب، في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة. ثم نقحته بعد ذلك وهذبته، وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته. وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم.

تم طبع المجلد الأول المعروف بمقدمة ابن خلدون،

ويليه المجلد الثاني. أوله الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم،منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد.

المجلد الثاني

المقدمة الأولى

في أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام علي الجملة في أنسابهم

اعلم أنّ الله سبحانه وتعالى اعتمر هذا العالم بخلقه، وكّرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثهم في نواحيها لتمام حكمته، وخالف بين أممهم وأجيالهم إظهارا لآياته، فيتعارفون بالأنساب، ويختلفون باللغات والألوان، ويتمايزون بالسير والمذاهب والأخلاق، ويفترقون بالنِحَلِ والأديان والأقاليم والجهات. فمنهم العرب والفرس والروم وبنو إسرائيل والبربر، ومنهم الصقالبة والحبش والزنج، ومنهم أهل الهند وأهل بابل وأهل الصين وأهل اليمن وأهل مصر وأهل المغرب. ومنهم المسلمون والنصارى

واليهود والصابئة والمجوس، ومنهم أهل الوبرَ وهم أصحاب الخيام والحلل وأهل المَدَرِ وهم أصحاب المحاشر والقرى والأطم، ومنهم البدو الظواهر والحضر الأهلون. ومنهم العرب أهل البيان والفصاحة والعجم أهل الرطانة بالعبرانية والفارسية والإغريقية والطينية والبربرية. خالف أجناسهم وأحوالهم وألسنتهم وألوانهم ليتم أمر الله في اعتمار خصوصياتهم ونحلهم فتظهر آثار القدرة وعجائب الصنعة وآيات الوحدانية أنّ في ذلك لآيات للعالمين.

واعلم أنّ الامتياز بالنسب أضعف المميزات لهذه الأجيال والأمم لخفائه واندراسه بدروس الزمان وذَهابه. ولهذا كان الاختلاف كثيراً ما يقع في نَسَبِ الجيل الواحِد أوّ الأمَّة الواحدة، إذا اتصلت مع الأيام وتشعَّبت بطونُها على الأحقاب كما وقع في نسب كثير من أهل العالم مثل اليونانيين والفرس والبربر وقحطان من العرب. فإذا اختلفت الأنساب واختلفت فيها المذاهب وتباينت الدعاوى استظهر كل ناسب على صحَّة ما ادَّعاه بشواهد الأحوال والمتعارف من المقارنات في الزمان والمكان وما يرجع إلى ذلك من خصائص القبائل وسِمات الشعوب والفِرَق التي تكون فيهم منتقلة، متعاقبة في بنيهم.

وسُئلَ مالك رحمه الله تعالى عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم، فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك؟ فقيل له فإلى إسماعيل فأنكر ذلك، وكره أيضاً أنّ يُرْفَعَ في أنساب الأنبياء، مثل أنّ يقال: إبراهيم بن فلان بن فلان، وقال من يخبره به. وكان بعضهم إذا تلا قوله تعالى: **{والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله }**[سورة:..] قال: كَذَبَ النسابون. واحتجوا أيضاً بحديث ابن عباس أَنَّه صلى الله عليه وسلم لما بلغ نسبه الكريم إلى عدنان قال من ههنا كذب النسابون. واحتجوا أيضاً بما ثبت في أنه علم لا ينفع، وجهالة لا تضرّ، إلى غير ذلك من الاستدلالات.

وذهب كثير من أئمة المحدِّثين والفقهاء مِثْلُ ابن إسحق والطبري والبخاري إلى جواز الرفع في الأنساب، ولم يكرهوه ،محتجين بعمل السلف، فقد كان أبو بكر رضي الله عنه أنسبَ قرش لقريش ومضر، بل ولسائر

العرب، وكذا ابن عباس، وجُبَير بن مطعم وعَقيل بن أبي طالب، وكان من بعدهم ابن شهاب والزهري وابن سيرين، وكثير من

التابعين. قالوا وتدعو الحاجة إليه في كثير من المسائل الشرعية، مثل تعصيب الوراثة وولاية النكاح، والعاقلة في الديات، والعلم بنسب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنه القُرَشيّ الهاشمي الذي كان بمكة، وهاجر إلى المدينة، فإنّ هذا من فروض الإيمان ولا يعذر الجاهل به. وكذا الخلافة عند من يشترط النَسَبَ فيها. فهذا كله يدعو إلى معرفة الأنساب ويؤكد فضل هذا العلم وشرفه، فلا ينبغي أنّ يكون ممنوعا.

وأما حديث ابن عباس أنه - صلى الله عليه وسلم- لما بلغ نسبه إلى عدنان قال من ههنا كذب النسَّابون، يعني من عدنان. فقد أنكر السُهيليّ روايته من طريق ابن عبّاس مرفوعاً، وقال الأَصح أنه موقوف على ابن مسعود. وخرّج السُهَيليّ عن أُمِّ سلمة أنّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم- قال: مُعَدُّ بن عَدنان بن أدَدٍ بن زَيدٍ البِّري بن أَعْراق الثرى. قال وفسرت أم سلمة زيداً بأنه الهُمَيسَع والبرِّي بأنه نَبْتٌ أَوْ نابتٌ واعراق الثري بأَنه إسماعيل، وإسماعيل هو ابن إبراهيم، وإبراهيم لم تأْكله النار كما لا تأْكل الثرى. وردّ السُهَيلي تفسير أمّ سَلَمَةَ وهو الصحيح، وقال إنما معناه معنى قول-iصلى الله عليه وسلم- كلكم بنو آدم وآدم من تراب. لا يريد أنّ الهُمَيسَع ومن دونه ابن لإسماعيل لِصُلبِه، وعضد ذلك باتفاق الأخبار على بعد المدّة بين عدنان وإسماعيل، التي تستحيل في العادة أنّ يكون فيها بينهما أَربعة آباء، أو سبعة أو عشرة أو عشرون، لأن المدَّة أطولُ من هذا كله كما نذكره في نَسَبِ عدنان فلم يبق في الحديث مُتَمَسَّكٌ لأحدٍ من الفريقين. وأما ما رووه من أنّ النَسب عِلْمٌ لا ينفع، وجَهالة لا تَضُرُّ فقد ضَعَّفَ الأئمةُ رَفعَهُ إلى النبِيّ - صلى الله عليه وسلم- مثل الجرِجاني وأبي محمد بن حَزْم وأبي عُمَرَ بنِ عَبْدِ البر.

وأَلحقَ في الباب أنّ كل واحد من المذهبين ليس على اطلاقه، فإنّ الأنسابَ القَريبةَ التي يمكن التوصُّلُ إلى معرفتها لا يَضُرُّ الاشتغال بها لدعوى الحاجة إليها في الأُمور الشرعية من التعصيب والولاية والعاقلة وفرض الإيمان بمعرفة النبي صلى الله عليه وسلم-، ونسب الخلافة والتفرقة بين العرب والعجم في الحرية والاسترقاق، عند من يشترط ذلك كما مرَّ كله، وفي الأمور العادية أيضاً تثبت به اللُّحْمة الطبيعية التي تكون بها المدافعة والمطالبة. ومنفعةُ ذلك في إقامة المُلْكِ والدين ظاهرةً. وقد كان —صلى

الله عليه وسلم- وأصحابه ينسبون إلى مضر ويتساءلون عن ذلك. وروي عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم. وهذا كله ظاهر في النسب القريب، وأمَّا الأنساب البعيدة العَسَرَةُ المَدْرِكِ التي لا يوقف عليها إلا بالشواهد والمقارنات، لبعد الزمان وطول الأحقاب، أو لا يوقف عليها رأسا لدروس الأجيال، فهذا قد ينبغي أنّ يكون له وجه في الكراهة، كما ذهب إليه من ذهب من أهل العلم، مثل مالك وغيره، لأنه شغل الإنسان بما لا يعنيه. وهذا وجهٌ قوله-صلى الله عليه وسلم-فيما بعد عدنان من ههنا كذَبَ النسابون. لأنها أحْقاب متطاولة ومَعالم دارِسَة لا تُثْلِجُ الصُدُورَ باليقين في شيء منها، مع أنّ علمها لا ينفع وجهلها لا يضركما نقل والله الهادي إلى الصواب.

ولنأخذ الآن في الكلام في أنساب العالم على الجملة، ونترك تفصيل كل واحد منها إلى مكانه فنقول: أنّ النسابين كلّهم اتفقوا على أنّ الأب الأوّل للخليقة هو آدم عليه السلام، كما وقع في التتريل إلا ما يذكره ضُعفاء الإخْبَاريين من أنّ الجنّ والطَمَّ أُمَّتان كانتا فيما زعموا من قبل آدم، وهو ضعيف متروك وليس لدينا من أخبار آدم وذريته إلاَّ ما وقع في المصحف الكريم، وهو معروفٌ بين الأئمَّة. واتفقوا على أنّ الأرض عَمُرَتْ بنسله أحقاباً وأجيالاً بعد أجيالٍ إلى عصر نوح عليه السلام، وأنه كان فيهم أنبياءٌ مثل شيثَ وإدريَس، وملوك في تلك الأجيال معدودون، وطوائف مشهورون بالنِحَلِ مثل الكلدانيين، ومعناه الموحَدون، ومِثْلُ السريانيين وهم المشركون. وزعموا أنّ أُمَمَ الصابئة منهم، وأنهم من وُلْدِ صابئ بن لَمك بن أَخنُوخ. وكان نِحْلَتُهُم في الكواكب والقيام لها كلها، واستترال روحانيتّها، وأَنَّ من حزبهم الكلدانيين أي المُوَحَدِينَ. وقد ألف أبو إسحق الصابي الكاتب مقالة في أنسابهم ونحلتهم. وذكر أخبارَهم أيضاً دَاهِرُ مؤرِّخُ السريانيين، والبابا الصابي الحرَّاني، وذكروا استيلاءَهم على العالم، وجُمَلاً من نواميسهم. وقد اندرسوا وانقطع أثرهم. وقد يقال أنّ السريانيين من أهل تلك الأجيال، وكذلك النُمْرُوذُ والازدِهاق وهو المسمى بالضَحَّاك من ملوك الفُرس، وليس ذلك بصحيح عند المحقَقين.

واتفقوا على أنّ الطَوَفَاَنَ الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعُمْرَانِ الأرض أجمع، بما كان من خراب المعمور ومَهْلَك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبو افصار

أهل الأرض كَلُّهم من نسله، وعاد أَباً ثانياً للخليقة وهو نوحُ بْنِ لامِكْ، ويُقَالُ لَمَكَ بن مَتوشَلَخ بفتح اللام وسكونها ابن خنوخ، ويقال أخنوخ ويقال أَشْنَخ ويقال أَخْنَخ، وهو إدريس النبيُّ فيما قاله ابن إسحق بن بيرد، ويقال بيرد بن مَهْلائيل، ويقال ماهلايلَ بن قاين، ويقال قينن بن أنوش، ويقال يا نش بن شيث بن آدم، ومعنى شيث عطِّية الله هكذا نَسَبَهُ ابنُ إسحق وغيُرُه من الأئمة، وكذا وقع في التوارة نسبه، وليس فيه اختلاف بين الأئمة. ونقل ابن إسحق أنّ خنوخ الواقعُ إسمَهُ في هذا النسب هو إدريس النبيُّ صلوات الله عليه، وهو خلاف ما عليه الأكثر من النسَّابين، فإن إدريس عندهم ليس بجدٍّ لنوح، ولا في عمود نسبه وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاً أنّ إدريس هو هرمس المشهور بالإمامة في الحكمة عندهم. وكذلك يقال: أنّ الصابئة من ولد صابىء بن لامك وهو أخو نوح عليه السلام. وقيل أنّ صابىء متوشلخ جدّه.

واعلم أنّ الخلاف الذي في ضبط هذه الأسماء إنَّما عرض في مخارج الحروف، فإن هذه الأسماء إنما أخذها العرب من أهل التوراة ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب، فإذا وقع الحرف متواسطاً بين حرفين من لغة العرب، فتردّه العرب تارة إلى هذا وتارة إلى هذا. وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب إذا نقلت كلامَ العجم، فمن ههنا اختلف الضبط في هذه الأسماء.

واعلم أنّ الفرس والهند لا يعرفون الطوفان، وبعضُ الفرس يقولون كان ببابلَ فقط.

واعلم أنّ آدم هو كيومرث وهو نهاية نسبهم فيما يزعمون، وأنَّ أفريدون الملك في آبائهم هو نوح، وأنه بعث لازدهاق وهو الضحَّاك فلبسه الملك وقبله كما يذكر بعد في أخبارهم. وقد تترجَّحُ صحة هذه الأنساب من

التوراة، وكذلك قصص الأنبياء الأقدمين إذ أخذت عن مسلمي يهودا، ومن نسخ صحيحة من التوراة، يغلب على الظن صحتها. وقد وقعت العناية في التوراة بنسب موسى عليه السلام وإسرائيل وشعوب الأسباط، ونسب ما بينهم وبين آدم صلوات الله عليه. والنسب والقصص أمرٌ لا يدخله النَسْخُ، فلم يبق إلا تحرّي النُسخ الصحيحة والنقل المعتبر. وأمَّا ما يقال من أنّ علماءَهم بدَّلوا مواضع من التوراة، بحسب أغْراضهم في ديانتهم. فقد قال ابن عباس، على ما نقل عنه البخاري في صحيحه: أنّ ذلك بعيد، وقال معاذ الله أنّ تَعْمد أُمَّة من الأمَم إلى كتابها المُنْزَل على نبَيها فتبدله أو ما في معناه، قال وإنما بدَّلوه

وحرفوه بالتأويل. ويشهد لذلك قوله تعالى: **{وعندهم التوراة فيها حكم الله}**[سورة...] ولو بدّلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراةُ التي فيها حكم الله.وما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها إليهم، فإنما المعني به التأويل، اللهم إلا أنّ يطرقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط. وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها فذلك يمكن في العادة، لا سيما وملكهم قد ذهب، وجماعتهم انتشرت في الآفاق، واستوى الضابط منهم وغيرُ الضابط، والعالمُ والجاهل، ولم يكن وازع يحفظ لهم ذلك لذهاب القدرة بذَهاب الملك، فتطرَّق من أجل ذلك إلى صحف التوراة في الغالب تبديل وتحريف، غير متعمد من علمائهم وأحبارهم. ويمكن مع ذلك الوقوف على الصحيح منها إذا تحرى القاصد لذلك بالبحث عنه.

ثم اتفق النسابون ونَقَلَتَ المفسرين على أنّ ولد نوح الذين تفرّعت الأُممُ منهم ثلاثة: سام وحام ويافث، وقد وقع ذكرهم في التوراة، وأنّ يافث أكبرهم، وحام الأصغر، وسام الأوسط. وخرَّج الطبري في الباب أحاديث مرفوعة بمثل ذلك، وأنَّ سامَ أبو العرب، ويافثُ أبو الروم، وحام أبو الحبش والزنج، وفي بعضها السودان. وفي بعضها: سام أبو العرب وفارس الروم، ويافث أبو الترك الصقالبة ويأجوج ومأجوج، وحام أبو القبط والسودان والبربر، ومثله عن ابن المسيَّب وَوَهْبِ بْن مُنَبَّه. وهذه الأحاديث وإن صحَّت فإنَّما الأنساب فيها مجملة، ولابدّ من نقل ما ذكره المحققون في تفريعِ أنساب أمم من هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً. وكذلك نقل الطبريُّ أنه كان لنوح ولد إسمه كنعان، وهو الذي هلك في الطوفان. قال: وتسميه العرب يام، وآخر مات قبل الطوفان إِسمه عابر. وقال هشام: كان له ولدٌ إِسمه بوناطر، والعقب إنَّما هو من الثلاثة، على ما أجمع عليه الناس وصحت به الأخبار، فأمّا سام فمن ولده العرب على اختلافهم، وإبراهيم وبنوه صلوات الله عليهمّ باتفاق النسابين. والخلاف بينهم إنَّما هو في تفا ريع ذلك أوْ في نَسَب غير العرب إلى سام.

فالذي نقله ابن إسحق: أنّ سام بن نوح كان له من الولد خمسة، وهم أَرفخشَذ، ولاوَذ، وإِرم، وأَشوذ، وغليم. وكذا وقع ذكر هذه الخمسة في التوراة وأَنَّ بني أشوذ هُمْ أهْلُ الموصل، وبني غليم أهل خوزستان، ومنها الأهواز. ولم يذكر في التوراة وُلد لاوذ. وقال ابن إسحق: وكان للاوذ أربعة من الولد: وهم طسم وعمليق وجرجان وفارس. قال: ومن العماليق أُمَّة جاسِم. فمنهم بنولَفَّ، وبنو هَزَّان، وبنو مَطَر

وبنو الأزْرَق. ومنهم بُدَيْل وراحِلِ وظَفَّار. ومنهم الكنعانُّيون وبرابَرةُ الشام، وفراعِنَة مِصْرَ. وعن غير ابن إسحق أنّ عبد بن ضخم وأميم من وُلد لاوَذ. قال ابن إسحق: وكان طسم والعماليق وأمَيْم وجاسم يتكلمون بالعربية، وفارس يجاورونهم إلى المشرق، ويتكلمون بالفارسية.

قال ووُلْدُ إرم: عُوصُ وكاثر وعُبَيْل، ومن وُلْد عِوُص عَادٌ، ومترلهم بالرمال والأحقاف إلى حضرموت. ومن ولد كاثر ثمود وجديس، ومترل ثمود بالحجر بين الشام والحجاز.

وقال هشام بن الكلبي: عبيل بن عوص أخو عاد. وقال ابن حَزْمَ عن قدماء النَسَّابين: أنّ لاوذ هوابن إِرَمَ بن سام أخو عوص وكاثَر. قال: فعلى هذا يكون جديس وثمود أخوين، وطسم وعِملاق أخوين أبناءَ عمٍّ لحام، وكلهم بنو عم عاد. قال: ويذكرون أنّ عبد بن ضَخَم بن إِرَم، وأنَّ أُمَيْم بن لاوَذ بن إِرَم. قال الطبري: وفهَّم الله لسان العربية عاداً وثمودَ وعبيل وطَسْم وجديس وأميم وعمليق، وهم العرب العاربة. وربما يقال: أنّ من العرب العاربة يَقْطِنَ أيْضاً، ويسمون أيضاً العرب البائدة، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم أحد. قال: وكان يقال عاد إرم، فلما هلكوا قيل ثمود إرم، ثم هلكوا فقيل لسائر ولد إرم أرمان، وهم النبط، وقال هشام بن محمد الكلبي: أنّ النبط بنو نبيط بن ماش بن إرم، والسريان بنو سريان بن نبط.

وذكر أيضاً أنّ فارس من ولد أشوذ بن سام، وقال فيه فارس بن طبراش بن أشو، وقيل أنهم من أميم بن لاوذ وقيل ابن غليم.

وفي التوراة: ذكر ملك الأهواز واسمه كردلا عمرو من بني غليم والأهواز متصلة ببلاد فارس. فلعل هذا القائل ظنَّ أنّ أهل أهواز هم فارس، والصحيح أنهم من وُلد يافث كما يُذكر. وقال أيضاً أنّ البربر من ولد عِمليق بن لاوَذ وأنهم بنو تميلة من مأرب بن قاران بن عمر بن عمليق، والصحيح أنهم من كنعان بن حام كما يذكر.

وذكر في التوراة ولد إرَم أربعة: عوص وكاثر وماش ويقال مَشَحْ والرابع حول. ولم يقع عند بني إسرائيل في تفسير هذا شيءٌ إلاَّ أنّ الجرامقة من ولد كاثر. وقد قيل أنّ الكرد والدَّيلم من العرب. وهو قول مرغوبٌ عنه.

وقال ابن سعيد كان لأشوذَ أربعة من الولد: إيران ونَبيط وجرموق وباسل. فمن إيران الفرس والكرد والخزر، ومن نبيط النبط والسريان، ومن جرموق الجرامقة وأهل الموصل، ومن باسل الديلم وأهل الجبل. قال الطبري:

ومن وُلْدِ أرفخشذ العبرانيون

خريطة

وبنو عابر بن شالخ بن أرفخشذ، وهكذا نسبه في التوراة. وفي غيره أنّ شالخ بن قينن بن أرفخشذ، وإنما لم يذكر قينن في التوراة لأنه كان ساحراً وادّعى الألوهية.

وعند بعضهم أنّ النمروذ من ولد أرفخشذ وهو ضعيف. وفي التوراة أنّ عابر ولد إثنين من الولد هما فالغ ويقطن، وعند المحققين من النسَّابة أنّ يقطن هو قحطان عربته العرب هكذا. ومن فالغ إبراهيم عليه السلام وشعوبه، ويأتي ذكرهم. ومن يقطن شعوبٌ كثيرةٌ. ففي التوراة ذكر ثلاثة من الولد له، وهم: المِرذاذ ومعربه ومضاض وهم جرهم وإرم وهم حضور، وسالف وهم أهل السلفات، وسبا وهم أهل اليمن من حِمْيَر،

والتبابعة وكهلان وهدرماوت وهم حضرموت. هؤلاء خمسة، وثمانية أخرى ننقل أسماءَهم وهي عبرانية، ولم نقف على تفسير شيءٍ منها، ولا يُعلم من أي البطون هم، وهم: بباراح وأو زال ودفلا وعوثال وأفيمايَل وأيوفير وحويلا ويوفاف، وعند النسابين أنّ جرهم من ولد يقطن فلا أدري من أيهم. وقال هشام ابن الكلبي أنّ الهند والسند من نوفير بن يقطن والله أعلم.

وأما يافث فمن ولده الترك والصين الصقالبة ويأجوج ومأجوج باتفاق من النسابين. وفي آخرين خلاف كما يذكر. وكان له من الولد على ما وقع في التوراة سبعة: وهم كومَر وياوان وماذاي وماغوغ وقَطوبال وماشَخ وطيراش، وعدّهم ابن إسحق هكذا، وحذف ماذاي ولم يذكر كومر وتوغرما وأشبان وريغاث، هكذا في نص التوراة. ووقع في الإسرائيليات أنّ توغرما هم الخزر، وأن أشبان هم الصقالبة، وأن ريغاث هم الإفرنج ويقال لهم برنسوس، والخزرهم التركمان وشعوب الترك كلهم من بني كومر، ولم يذكروا من أي الثلاثة هم.

والظاهر أنهم من توغرما. ونسبهم ابن سعيد إلى الترك ابن عامور بن سويل بن يافث. والظاهر أنه غلط، وأن عامور هو كومر، صحف عليه. وهم أجناس كثيرة منهم الطغرغر وهم التتر والخطا وكانوا بأرض طغماج، والخزلقية والغز الذين كان منهم السلجوقية والهياطلة الذين كان منهم الخلج، ويقال للهياطلة الصغد أيضاً.

ومن أجناس الترك الغور والخزر والقفجاق، ويقال الخفشاخ ومنهم يمك والعلأن، ويقال الأز،و منهم الشركس وأزكش. ومن ماغوغ عند الإسرائيليين يأجوج ومأجوج، وقال ابن إسحاق: إنهم من كومر ومن مازاي الديلم ويسمون في اللسان العبراني ماهان. ومنهم أيضاً همذان، وجعلهم بعض الإسرائيليين من بني همذان بن يافث وعد همذان ثامناً للسبعة المذكورين من ولده.

وأمَّا ياوان واسمه يونان فعند الإسرائيليين أنَّه كان له من الولد أربعةٌ وهم داود بن واليشا وكيتم وترشيش، وأن كيتم من هؤلاء الأربعة هو أبو الروم، والباقي يونان، وأن تر شيش أهل طر سوس.

وأما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق، والليمان من المغرب. ويقال أنّ أهل إفريقية قبل البربر منهم وأن الإفرنج أيضاً منهم. ويقال أيضاً أنّ أهل الأندلس قديماً منهم .وأما ماشخ فكان ولده عند الإسرائيليين بخراسان، وقد انقرضوا لهذا العهد فيما يظهر، وعند بعض النسابين أنّ الأشبان منهم.

وأما طيراش فهم الفرس عند الإسرائيليين، وربما قال غيرهم إنهم من كومر وأن الخزر والترك من طيراش، وأن الصقالبة وبرجان والأشبان من ياوان وأن يأجوج ومأجوج من كومر، وهي كلها مزاعم بعيدة عن الصواب. وقال أهروشيوش مؤرِّخ الروم أنّ القوط واللطين من ماغوغ. وهذا آخر الكلام في أنساب يافث.

وأما حام فمن ولده :السودان والهند والسند والقبط وكنعان باتفاق. وفي آخرين خلاف نذكره، وكان له على ما وقع في التوراة أربعة من الولد وهم: مصر ويقول بعضهم مصرايم، وكنعان وكوش وقوط. فمن وُلد مصر عند الإسرائيليين فتروسيم وكسلوحيم. ووقع في التوراة فلشنين منهما معاً. ولم يتعيَّن من أحدهما، وبنو فلشنين الذين كان منهم جالوت. ومن ولد مصر عندهم كفتورع، ويقولون هم أهل دمياط. ووقع الأنقلوس ابن أخت قيطش الذي خرب القدس في الجلوة الكبرى على اليهود. قال أنّ كفتورع هو قبطقاي. ويظهر من

هذه الصيغة أنهم القبط لما بين الإسمين من الشبه. ومن ولد مصر عناميم وكان لهم نواحي إسكندرية، وهم أيضاً بفتوحيم ولوديم ولها بيم. ولم يقع إلينا تفسير هذه الأسماء. وأما كنعان بن حام فذكر من ولده في التوراة أحد عشر منهم صيدون، ولهم ناحية صيدا، وإيموري وكرساش، وكانوا بالشام، وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع إلى أفريقية فأقاموا بها. ومن كنعان أيضاً يبوسا وكانوا ببيت المقدس وهربوا أمام داود عليه السلام حين غلبهم عليه إلى أفريقية والمغرب، وأقاموا بها. والظاهر أنّ البربر من هؤلاء المنتقلين أوّلاً وآخراً. إلا أنّ المحققين من نسابتهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان، فلعل مازيغ ينتسب إلى هؤلاء. ومن كنعان أيضاً حيث الذين كان ملكهم عوج بن عناق. ومنهم عرفان وأروادي وخوي، ولهم نابلس وسبا، ولهم طرابلس وضمارى، ولهم حمص وحما، ولهم أنْطاكِية. وكانت تسمى حما باسمهم. وأما كوش بن حام

خريطة

فذكر له في التوراة خمسة من الولد وهم سفنا وسبا وجويلا ورعما وسفخا، ومن ولد رعماشاو وهم السند، ودادان وهم الهند. وفيها أنّ النمروذ من ولد كوش ولم يعينه. وفي تفاسيرها أنّ جويلا زويلة وهم أهل برقة. وأما أهل اليمن فمن ولد سبا .وأما قوط فعند أكثر الإسرائيليين أنّ القبط منهم. ونقل الطبري عن ابن إسحق أنّ الهند والسند والحبشة من بني السودان من ولد كوش. وأن النوبة وفزان وزغاوة والزنج منهم من كنعان. وقال ابن سعيد: أجناس السودان كلهم من ولد حام ونسب ثلاثة منهم إلى ثلاثة سماهم من ولده غير هؤلاء: الحبشة إلى حبش، والنوبة إلى نوابة أو نوى،والزنج إلى زنج، ولم يسم أحداً من آباء الأجناس الباقية، وهؤلاء الثلاثة الذين ذكروا لم يعرفوا من ولد حام فلعلَّهم من أعقابهم، أو لعلها أسماء أجناس. وقال هشام بن محمد الكلبي: أنّ النمروذ هو ابن كوش بن كنعان. وقال أهروشيوش مؤرخ الروم: أنّ سبا وأهل أفريقية يعني البربر من جويلا بن كوش ويسمى يضول. وهذا والله أعلم غلط لأنه مرّ أنّ يضول في التوراة من ولد يافث، ولذلك ذكر أنّ حبشة المغرب من دادان ابن رعما من ولد مصر بن حام بنو قبط بن لاب بن مصر. انتهى الكلام في بني حام. وهذا آخر الكلام في أنساب أمم العالم على الجملة، والخلاف الذي في تفاصيلها يذكر في أماكنه والله ولي العون والتوفيق.

صورة

المقدّمة الثانية

في كيفية وضع الأنساب في كتابنا لأهل الدول وغيرهم .

أعلم أنّ الأنساب تتشعب دائماً، وذلك أنّ الرجل قد يكون له من الولد ثلاثة أو أربعة أو أكثر، ويكون لكل واحد منهم كذلك، وكل واحد منهم فرعٌ ناشئ عن أصلٍ، أو فرع، أو عن فرع فرع، فصارت بمثابة الأغصان للشجرة تكون قائمة على ساق واحدة هي أصلها والفروع عن جانبها، ولكل واحدٍ من الفروع فروعٌ أخري إلى أنّ تنتهي إلى الغاية. فلذلك اخترنا بعد الكلام على الأنساب للأمّة وشعوبها أنّ نضع ذلك على شكل شجرة نجعل أصلها وعمود نسبها باسم الأعظم من أولئك الشعوب ومن له التقدم عليهم، فيجعل

عمود نسبه أصلا لها وتفرع الشعوب الأخرى عن جانبه من كل جهة، كأنها فروع لتلك الشجرة، حتى تتصل تلك الأنساب عموداً وفروعاً بأصلها الجامع لها ظاهرة للعيان في صفحة واحدة، فترسم في الخيال دفعة، ويكون ذلك أعون على تصور الأنساب وتشعبها. فإن الصور الحسيّة أقرب إلى الإرتسام في الخيال من المعاني المتعلقة. ثم لما كانت هذه الأمم كلها لها دول وسلطان، اعتمدنا بالقصد الأوّل ذكر الملوك منهم في تلك الشجرات، متصلة أنسابهم إلى الجد الذي يجمعهم ،بعد أنّ نرسم على كل واحد منهم رتبته في تعاقبهم واحداً بعد واحد، بحروف أب ج د ه . فالألف للأول، والباء للثاني، والجيم للثالث، والدال للرابع، والهاء للخامس، وهلم جرّاً. ونهاية الأجداد لأهل تلك الدولة في الآخر منهم ،ويكون للأول غصون وفروع في كل جهة عنه، فإذا نظرت في الشجرة علمت أنساب الملوك في كل دولةٍ وترتبهم بتلك الحروف واحداً بعد واحد، والله أعلم بالصواب.

أجيال العرب

القول في أجيال العرب و أوّليتها واختلاف طبقاهم وتعاقبها

وأنساب كل طبقة منها

اعلم أنّ العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة، أهل الخيام لسكناهم، والخيل لركوبهم، والأنعام لكسبهم، يقومون عليها، ويقتاتون من ألبانها، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها، ويحملون أثقالهم على ظهورها. يتنازلون حِلَلاً متفرقة،

ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص، ويختطف الناس من السبل، ويتقلبون دائماً في المجالات فراراً من حمارّة القيظ تارة، وصبارة البرد أخرى، وانتجاعاً لمراعي غنمهم، وارتياداً لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم، وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم، فاختصوا لذلك بسكنى الإقليم الثالث، ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق. فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وما وراء ذلك مما دخلوا إليه في المائة الخامسة، كما ذكروه من مصر وصحاري برقة وتلولها وقسنطينة وأفريقية وزاغا والمغرب الأقصى والسوس، لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف والتلول، والأرياف الآهلة بمن سواهم من الأمم في فصل الربيع وزخرف الأرض، لرعي الكلأ والعشب في منابتها، والتنقل في نواحيها إلى فصل الصيف لمدّة الأقوات في سنتهم من حبوبها. وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من أضرارهم، بإفساد السابلة ،ورعي الزرع مخضرًّا، وانتهابه قائماً وحصيداً إلا ما حاطته الدولة، وذادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها. ثم ينحدرون في فصل الخريف إلى القفار لرعي شجرها ،ونتاج إبلهم في رمالها، وما أحاط به عملهم من مصالحها، وفراراً بأنفسهم وظعائنهم من أذى البرد إلى دفء مشاتيها. فلا يزالون في كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الإقليم الثالث والرابع، صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام، شعارهم لبس المخيط في الغالب، ولبس العمائم تيجاناً على رؤسهم، يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها وهم عرب المشرق، وقومٌ يلفون منها الليث والأخدع قبل لبسها، ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من

فضلها وهم عرب المغرب، حاكوا بها عمائم زناته من أمم البربرقبلهم. وكذلك لقنوا منهم في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية، وهجروا تنكب القسي. وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين.

ثم أنّ العرب لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان، ولذلك سموا بهذا الاسم فإنه مشتق من الإبانة لقولهم: أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :" الثيب تعرب عن نفسها ". والبيان سمتهم بين الأمم منذ كانوا. وانظر قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر أنّ يوفد عليه من كبرائهم وخطبائهم من رضي لذلك، فاختار منهم وفدا أوفده عليه، وكان من خبره واستغراب ما جاؤا به من البيان ما هو معروف.

فهذه كلها شعائرهم وسماتهم وأغلبها عليهم اتخاذ الإبل والقيام على نتاجها وطلب الانتجاع بها الارتياد مراعيها، ومفاحص توليدها بما كان معاشهم منها. فالعرب أهل هذه الشعار من أجيال الآدميين. كما أنّ الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر لما كان معاشهم فيها، فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه إلا بالعرض. ولذلك كان النسب في بعضهم مجهولاً عند الأكثر، وفي بعضهم خفيا على الجمهور. وربما تكون هذه السمات والشعائر في أهل نسب آخر فيدعون باسم العرب إلا أنهم في الغالب يكونون أقرب إلى الأولين من غيرهم. وهذا الانتقال لا يكون إلاّ في أزمنة متطاولة وأحقاب متداولة. ولذلك يعرض في الأنساب ما يعرض من الجهل والخفاء.

واعلم أنّ جيل العرب بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام كان في عادٍ الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت، ومن ينتمي إليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح. لما انقرضت تلك العصور، وذهب أولئك الأمم وأبادهم الله بما شاء من قدرته، وصار هذا الجيل في آخرين ممن قرب من نسبهم من حِمْيَر وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومن إليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن أزفخشذ بن سام. ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت وكان بنو فالغ بن عابر أعالم من بين ولده واختص الله بالنبوة منهم إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناحور بن ساروخ بن أرغو بن فالغ، وكان من شأنه مع نمروذ ما قصّه القرآن. ثم كان من هجرته إلى الحجاز ما هو مذكور، وتخلف ابنه إسماعيل مع أمه هاجر بالحجر قرباناً لله، ومرَّت بها رفقة من جرهم في تلك المفازة فخالطوها، ونشأ إسماعيل بينهم ،وربّي في أحيائهم، وتعلم لغتهم العربية بعد أنّ كان أبوه أعجميا. ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن، ثم بعثه الله إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بالحجاز، فآمن كثير منهم واتبعوه. ثم عظم نسله وكثر، وصار بالجيل آخر من ربيعة ومضر ومن إليهم من إياد وعك وشعوب نزار وعدنان وسائر ولد إسماعيل، وهم العرب التابعة للعرب. ثم انقرض أولئك الشعوب في أحقاب طويلة وانقرض ما كان لهم من الدولة في الإسلام. وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلب عليهم، ففسدت لغة أعقابهم في آماد متطاولة، وبقي خلفهم أحياء بادين في القفار والرمال والخلاء من

الأرض تارة والعمران تارة. وقبائل بالمشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنوبة والحبشة، وبلاد الشام والعراق

والبحرين وبلاد فارس والسند وكرمان وخراسان، أمم لا يأخذها الحصر والضبط، قد كاثروا أمم الأرض لهذا العهد شرقاً وغرباً، واعتزوا عليهم، فهم اليوم أكثر أهل العالم، وأملك لأمرهم من جميع الأمم. ولما كانت لغتهم مستعجمة على اللسان المضري الذي نزل به القرآن، وهو لسان سلفهم ،سميناهم لذلك العرب المستعجمة. فهذه أجيال العرب منذ مبدإ الخليقة ولهذا العهد في أربع طبقات متعاقبة، كان لكل طبقة منها عصور وأجيال ودول وأحياء وقعت العناية بها دون من سواهم من الأمم، لكثرة أجيالهم واتساع النطاق من ملكهم. فلنذكر لكل طبقة أحوال جيلها وبعض أيامهم ودولهم، ومن كان على عهدهم من ملوك الأمم ودولهم ليتبين لك بذلك مراتب الأجيال في الخليقة كيف تعاقبت، والله سبحانه وتعالى وليٌّ العون.

برنامج بما تضمنه الكتاب من الدول في هذه الطبقات الأربع

علي ترتيبها والدول المعاصرين من العجم في كل طبقة منها

فنبدأ أوّلاً بذكر الطبقة الأولي، وهم العرب العاربة، ونذكر أنسابهم ومواطنهم وما كان لهم من الملك والدولة. ثم الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة من بني حِمْيَر بن سبا، ونذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك باليمن في التبابعة وأعقابهم. ثم نرجع إلى ذكر معاصرهم من العجم وهم ملوك بابل من السريانيّين، ثم ملوك الموصل ونينوى من الجرامقة، ثم القبط وملوكهم بمصر، ثم بني إسرائيل ودولهم ببيت المقدس قبل تخريب بختنصر وبعده، وبالصابئة، ثم الفرس ودولهم الأولى والثانية، ثم يونان ودولهم الإسْكندر وقومه، ثم الروم ودولهم في القياصرة وغيرهم. ثم نرجع إلى ذكر الطبقة الثالثة وهم العرب التابعة للعرب من قضاعة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر. فنبدأ بقضاعة وأنسابهم، وما كان لهم من الملك البدوي في آل النعمان بالحيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة بني حجر آكل المرار. ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوي بالشام في بني جفنة بالبلقاء والأوس والخزرج بالمدينة النبوية. ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة في قريش، ثم ما شرفهم الله به وجيل الآدميين أجمع من النبوة، وذكر الهجرة والسير النبوية، ثم نذكر ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك، فنترجم للخلفاء الأربعة وما كان على عصرهم من الردَّة والفتوحات والفتن. ثم نذكر خلفاء الإسلام من بني أمية

وما كان لعهدهم من أمر الخوارج. ثم نذكر خلفاء الشيعة وما كان لهم من الدول في الإسلام. والأولى الدولة العظيمة لبني العبَّاس التي انتشرت في أكثر ممالك الإسلام، ثم دولة العلوية المزاحمين لها بعد صدر منها وهي دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، ثم دولة العبيدية من الإسماعيلية بالقيروان ومصر، ثم القرامطة بالبحرين، ثم دعاة طبرستان والديلم، ثم ما كان من هؤلاء العلوية بالحجاز. ثم نذكر بني أمية المنازعين لبني العباس بالأندلس، وما كان لهم من الدولة هنالك، والطوائف من بعدهم، ثم نرجع إلى ذكر المستبدين بالدعوة

العباسية بالمغرب والنواحي، وهم بنو الأغلب بأفريقية وبنو حمدان بالشام وبنو المقلد بالموصل، وبنو صالح بن كلاب بحلب، وبنو مروان بديار بكر، وبنو أسد بالحلة، وبنو زياد باليمن، وبنو هود بالأندلس.

ثم نرجع إلى القائمين بالدعوة العبيدية بالنواحي وهم الصليحيون باليمن، وبنو أبي الحسن الكلبي بصقلية وصنهاجة بالمغرب. ثم نرجع إلى المستبدين بالدعوة العباسية من العجم في النواحي، وهم بنو طولون بمصر، ومن بعدهم بنو طغج، وبنو الصفار بفارس وسجستان، وبنو سامان فيما وراء النهر، وبنو سبكتكين في غزنة وخراسان، وغورية في غزنة والهند، وبنو حسنويه من الكرد في خراسان. ثم نرجع إلى ذكر المستبدين على الخلفاء ببغداد من العجم، وهم أهل الدولتين العظيمتين القائمتين بملك الإسلام من بعد العرب، وهم بنو بويه من الديلم والسلجوقية من الترك. ثم نرجع إلى ملوك السلجوقية المستبدين بالنواحي، وهم بنو طغتكين بالشام ،وبنو قطلمش ببلاد الروم، وبنو خوارزم شاه ببلاد العجم وما وراء النهر، وبنو سقمان بخلاط وأرمينية، وبنو أرتق بماردين، وبنو زنكي بالشام، وبنو أيوب بمصر والشام. ثم الترك الذين ورثوا ملكهم هنالك، وبنو رسول باليمن. ثم نرجع إلى ذكر التتر من الترك القائمين على دولة الإسلام والماحين للخلافة العبَّاسية، ثم ما كان من دخولهم في دين الإسلام وقيامهم بالملك بالنواحي، وهم بنو هولاكو بالعراق، وبنو ذو شيخان بالشمال، وبنو أرتنا ببلاد الروم، ومن بعد بني هولاكو بنو الشيخ حسن ببغداد، وتوريز،و بنو المظفر بأصبهان وشيراز وكرمان،وبعد بني أرتنا ملوك بني عثمان من التركمان ببلاد الروم وما وراءها.

ثم نرجع إلى الطبقة الرابعة من المغرب وهم المستعجمة ومن له ملك بدوي منهم بالمغرب والمشرق. ثم نخرج بعد ذكر ذلك إلى ذكر البربر ودولهم بالمغرب والمشرق. ثم نخرج بعد ذلك إلى ذكر البربر ودولهم بالمغرب لأنهم كانوا من شرط كتابنا. وهنالك نذكر برنامج دولهم والله سبحانه أعلم.

الطبقة الأولى من العرب

وهم العرب العاربة وذكر نسبهم والإلمام بملكهم ودولهم علي الجملة

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح ،وأعظمم قدرة ،وأشدّهم قوة وآثاراً في الأرض، وأول أجيال العرب من الخليقة فيما سمعناه. لأن أخبار القرون الماضية من قبلهم يمتنع اطلاعنا عليها التطاول الأحقاب ودروسها، إلا ما يقصه علينا الكتاب ويؤثر عن الأنبياء بوحي الله إليهم، وما سوى ذلك من الأخبار الأزلية فمنقطع الإسناد. ولذلك كان المعتمد عند الإثبات في أخبارهم، ما تنطق به آية القرآن في قصص الأنبياء الأقدمين، أو ما ينقله زعماء المفسرين في تفسيرها من أخبارهم وذكر دولهم وحروبهم، ينقلون ذلك عن السلف من التابعين الذين أخذوا عن الصحابة، أو سمعوه ممن هاجر إلى الإسلام من أحبار اليهود وعلمائهم أهل التوراة أقدم الصحف المنزلة فيما علمنا، وما سوى ذلك من حطام المفسرين وأساطير القصص وكتب بدء الخليقة فلا نعوّل على شي منه. وإن وجد لمشاهير العلماء تأليف مثل كتاب الياقوتية للطبريّ ،والبدء للكسائي ، فإنما نحوا فيها منحى القصاص ، وجروا على أساليبهم، ولم يلتزموا فيها الصحة، ولا ضمنوا لنا الوثوق بها، فلا ينبغي التعويل عليها، وتترك وشأنها. وأخبار هذا الجيل من العرب وإن لم يقع لها ذكر في التوراة إلا أنّ بني إسرائيل

من بين أهل الكتاب أقرب إليهم عصراً ، وأوعى لأخبارهم، فلذلك يعتمد نقل المهاجرة منهم لأخبار هذا الجيل، ثم أنّ هذه الأمم على ما نقل كان لهم ملوك ودول.

فملوك جزيرة العرب، وهي الأرض التي أحاط بها بحر الهند من جنوبها، وخليج الحبشة من غربها ،وخليج فارس من شرقها، وفيها اليمن والحجاز والشحر وحضرموت، وامتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر في شعوب منهم على ما يذكر. ويقال: إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وآطام وقصور حسبما نذكره، إلى أنّ

غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان. وهؤلاء العرب العاربة شعوب كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت وحضورا والسلفات. وسمي أهل هذا الجيل العرب العاربة، إما بمعنى الرساخة في العروبية كما يقال: ليل أليل وصوم صائم. أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها. وقد تسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم. فأما عاد وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام، فكانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر. وكان أبوهم عاد فيما يقال أول من ملك من العرب ،وطال عمره وكثر ولده، وفي التواريخ أنه ولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه، وتزوج ألف امرأة، وعاش ألف سنة ومائتي سنة. وقال البيهقي: أنه عاش ثلثمائة سنة، وملك بعده بنوه الثلاثة شديدٌ وبعده شداد وبعده إرم. وذكر المسعودى: أنّ الذي ملك من بعد عاد وشداد منهم، هو الذي سار في الممالك، واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق. وقال الزمخشري: أنّ شدّاد هو الذي بنى مدينة إرم في صحارى عدن، وشيدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد، يحاكي بها الجنة، لما سمع وصفها طغياناً منه وعتّواً .ويقال: أنّ باني إرم هذه هو إرم بن عاد. وذكر ابن سعيد عن البيهقيّ: أنّ باني ارم هو ارم بن شداد بن عاد الأكبر، والصحيح أنه ليس هناك مدينة إسمها إرم، وإنما هذا من خرافات القصاص. وإنما ينقله ضعفاء المفسرين. وإرم المذكورة في قوله تعالى:{ إرم ذات العماد}[سورة.....] القبيلة لا البلد.

وذكر المسعودى: أنّ ملك عوص كان ثلثمائة وأن الذي ملك من بعده ابنه عاد بن عوص، وان جيرون بن سعد بن عاد كان من ملوكهم ،وأنه الذي اختط مدينة دمشق ومصرها، وجمع عُمُدَ الرخام والمرمر إليها وسماها إرم. ومن أبواب مدينة دمشق إلى هذا العهد باب جيرون، وذكره الشعراء في معاهدها. قال الشاعر:

النخل فالقصر فالحماء بينهما   أشهى   إلى القلب من أبواب جيرون

وهذا البيت في الصوت الأوّل من كتاب الأغاني. وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق: جيرون ويزيد أخوان هما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وبهما عرف باب جيرون ونهر يزيد. والصحيح أنّ باب جيرون إنما سمي باسم مولى من موالي سليمان عليه السلام في دولة بني إسرائيل، جيرون كان ظاهراً في دولتهم.

وذكر ابن سعيد في أخبار القبط: أنّ شدّاد بن بداد بن هداد بن شدّاد بن عاد

حارب بعضاً من القبط، وغلب على أسافل مصر، ونزل الإسكندرية وبنى فيها حينئذ مدينة مذكورة في التوراة يقال لها أون، ثم هلك في حروبهم ،وجمع القبط إخوتهم من البربر والسودان، وأخرجوا العرب من ملك مصر.

ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوّهم انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب، ويقال: أنّ ذلك لانتحالهم دين الصابئة، فبعث الله إليهم أخاهم هوداً، وهو فيما ذكر المسعودى والطبريّ هود بن عبد الله بن رَبَاح بن الخَلود بن عاد، وفي كتاب البدء لابن حبيب: رباح بن حرب بن عاد، وبعضهم يقول هود بن عابر بن شالِخ بن أرْفخشذ. فوعظهم وكان ملوكهم لعهده :الخلجان ،ولقمان بن عاد بن عاديا بن صدا بن عادفا،آمن به لُقمان وقومه، وكفر الخلْجان، وامتنع هود بعشيرته من عاد. وحبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، وبعثوا الوفود من قومهم إلى مكة يستسقون لهم، وكان في الوفد على ما قاله الطبري نعيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن صدا بن عاد. وقيل ابن عتر منهم، وحلقمة بن الخسري، ومرثد بن سعد بن عتر. وكان ممن آمن بهود واتبعه، وكان بمكة من عاد هؤلاء :معاوية بن بكر وقومه، وكانت هزيلة أخت معاوية عند نعيم بن هزال، وولدت له عبيداً وعمراً وعامراً، فلما وصل الوفد إلى مكة مرُّوا بمعاوية بن بكر وابنه بكر، ونزل الوفد عليه. ثم تبعهم لقمان بن عاد، وأقاموا عند معاوية وقومه شهراً لما بينهم من الخؤلة، ومكثوا يشربون وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية بن بكر وابنه بكر. ثم غنتاهم شعراً تذكرهم بأمرهم، فانبعثوا ومضوا إلى الإستسقاء، وتخلف عنهم لقمان بن عاد ومرثد بن سعد، فدعوا في استسقائهم وتضرعوا، وأنشأ الله السحب، ونودي بهم أنّ اختاروا فاختاروا سوداءَ من السحب، وأنذروا بعذابها فمضت إلى قومهم وهلكوا كما قصَّه القرآن.

وفي خبر الطبري أنّ الوفد لما رجعوا إلى معاوية بن بكر، لقيهم خبر مهلك قومهم هنالك، وأن هوداً بساحل البحر، وأن الخلجان ملكهم قد هلك بالريح فيمن هلك، وأن الريح كانت تدخل تحت الرجل فتحمله، حتى تقطعوا في الجبال، وتقلع الشجر وترفع البيوت ،حتى هلكوا أجمعون. انتهى كلام الطبري.

ثم ملك لقمان ورهطه من قوم عاد، واتصل لهم الملك فيما يقال ألف سنة أو يزيد، وانتقل ملكه إلى ولده لقمان، وذكر البخاري في تاريخه: أنّ الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً هو هدد بن بدَد بن الخلجان بن عاد بن رقيم بن عابر بن عاد الأكبر، وأن المدينة

بساحل برقة ا ه . ولم يزل ملكهم متصلاً إلى أنّ غلبهم عليه يعرب بن قحطان، واعتصموا بجبال حضرموت إلى أنّ انقرضوا. وقال صاحب زجار أنّ ملكهم عاد بن رقيم بن عابر بن عاد الأكبر هو الذي حارب يعرب بن قحطان، وكان كافراً يعبد القمر، وأنه كان على عهد نوح، وهذا بعيد، لأن بعثة هود كانت عند استفحال دولتهم، أو عند مبتدئها، وغلب يعرب كان عند انقراضها. وكذلك هدد الذي ذكر البخاري أنه ملك برقة إنما هو حافد الخلجان الذي اعتصم آخرهم بجبل حضرموت. وخبر البخاري مقدم.

وقال علي بن عبد العزيز الجر جاني: وكان من ملوك عاد يعمر بن شداد، وعبد أبهر بن معد يكرب بن شمد بن شداد بن عاد، وحناد بن مياد بن شمد بن شداد، وملوك آخرون أبادهم الله والبقاء لله وحده. فأما عبيل

وهم إخوان عاد بن عوص فيما قاله الكلبي، وإخوان عوص بن إرم فيما قاله الطبريّ، وكانت ديارهم بالجحفة بين مكة والمدينة، وأهلكهم السيل. وكان الذي اختط يثرب منهم، هكذا قال المسعودى، وقال هو يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل. وقال السهيلي: أنّ الذي اختط يثرب من العماليق، وهو يثرب بن مهلايل بن عوص بن عمليق. وأما عبد ضخم بن إرم فقال الطبري: كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك من ذلك الجيل. وقال غيره: إنهم أوّل من كتب بالخط العربى.

وأمَّا ثمود وهم بنو ثَمود بن كاثر بن إرم فكانت ديارهم بالحِجرْ ووادي القُرى، فيما بين الحجاز والشام، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، ويُقال: لأنّ أعمارهم كانت تطول، فيأتي البلاءُ والخرابُ على بيوتهم، فنحتوها لذلك في الصخر، وهي لهذا العهد، وقد مرَّ بها النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، ونهى عن دخولها كما في الصحيح، وفيه إشارة إلى أنَّها بيوتَ ثمود أهلُ ذلك الجيل. ويشهد ذلك ببطلان ما يذهب إليه القُصَّاصُ، ووقع مثله للمسعودي من أنّ أهل تلك الأجيال كانت أجسامهم مفرطةً في الطول والعِظَم، وهذه البيوت المشاهدة المنسوبة إليهم بكلام الصادق صلوات الله عليه، يشهد بأنَّهم في طولهم وعظم حُجُرَاتِهم مثلنا سواء، فلا أقدم من عاد وأهل أجيالهم فيما بلغنا.

ويقال: أنّ أَوَّل ملوكهم كان عابر بن إرم بن ثمود، ملك عليهم مائتي سنة. ثم كان من بعده جُنْدُعُ بن عمرو بن الدُبَيْل بن إرَم بن ثمود. ويقال: مَلَكَ نحواً من ثلثمائة سنة.

خريطة

وفي أيامه كانت بَعْثَةُ صالح عليه السلام، وهو صالح بن عَبِيل بن أسف بن شالِخ بن عبيل بن كاثَر بن ثمود، وكانوا أَهل كُفْرٍ وبَغْيٍ وعبادة أوثان، فدعاهم صالح إلى الدين والتوحيد. قال الطبريُّ: فلما جاءهم بذلك كفروا وطلبوا الآيات، فخرج بهم إلى هَضَبَةٍ من الأرض ، فتمخَّضت عن الناقة، ونهاهم أنّ يتعرضوا لها بعقْرٍ أوْ هلكة، وأخبرهم مع ذلك أنهم عاقروها ولا بدَّ، ورأس عليهم قَدَار بن سالف، وكان صالح وصف لهم عاقِرَ الناقة بصفة قَدَار هذا، ولما طال النذير عليهم من صالح سئموه وهمُّوا بقتله، وكان يأوي إلى مسجدٍ خارج ملائهم، فكمن له رهْطٌ منهم تحت صخرة في طريقه ليقتلوه، فانطبقت عليهم وهلكوا وحنِقوا ومضوا إلى الناقة، ورماها قَدَارٌ بسهم في ضرعها وقتلها، ولجأ فصيلها إلى الجبل فلم يدركوه. وأقبل صالح وقد تخوف عليهم العذاب، فلمَّا رآه الفصيل أقبل إليه ورغا ثلاث رغاآت، فأنذرهم صالح ثلاثاً. وفي صبح الرابعة صُعقوا بصيحة من السماء تقطَّعت بها قلوبهم فأصبحوا جاثمين، وهلك جميعهم حيث كانوا من الأرض، إلاَّ رجلاً كان في الحرم منعه الله من العذاب. قيل من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رغال. ويقال: أنّ صالحاً أقام عشرين سنة ينذرهم، وتوفي ابن ثمان وخمسين سنة. وفي الصحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ في غزوة تبوك بقُرى ثَمُود، فنهى عن استعمال مياههم وقال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون أنّ يصيبكم ما أصابهم،آهـ، كلام الطبري.

وقال الجرجاني: كان من ملوكهم دوبان بن يَمْنَع ملك الإسكندرية، ومَوْهب بن

مُرَّة بن رحيب، وكان عظيم المُلك. وأخوه هُوبيل بن مرَّة كذلك. وفيما ذكره المفسرون أنَّهم أوَّل من نحت الجبال والصخور، وأنَّهم بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة، وفي هذا ما فيه. ثم ذهبوا بما كسبوا،ودرجوا في الغابرين وهلكوا. ويقال: أنّ من بقاياهم أهلُ الرس الذين كان نبيهُّم حَنْظَلَةُ بن صَفْوان، وليس ذلك بصحيح. وأَهلُ الرَسّ هم حضور ويأْتي ذكرهم في بني فالغَ بن عَابر، وكذلك يزعم بعض النسَّابة أنّ ثقيفاً من بقايا ثَمود هؤُلاء وهو مردود. وكان الحجَّاج بن يوسف إذا سَمِع ذلك يقول: كذبوا. وقال والله جلَّ من قائل يقول: وثمود فما أبقى، أي أهلكهم فما أبقى أحداً منهم. وأهلُ التوراة لا يعرفون شيأ من أخبار عاد ولا ثَّمود، لأنهم لم يقع لهم ذِكْر في التوراة، ولا لهود ولا لصالح عليهما السلام، بل ولا لأحد من العرب العاربة لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم صلوات الله عليهم، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب فلم يُذْكَرُوا فيها.

وأما جديس وطسم فعند ابن الكلبي أنّ جديساً لإرم بن سام، وديارهم اليمامة وهم أخوان لثمود بن كاثر، ولذلك ذكرهم بعدهم، وأن طسماً للاوذ بن سام وديارهم بالبحرين. وعند الطبريّ أهما معاً للاوذ وديارهم باليمامة. ولهذين الإثنين خبرٌ مشهورٌ ينبغي سياقُهُ عند ذكرهم، قال الطبريُّ عن هشام بن محمد الكلبي بسنده إلى ابن إسحق وغيره من علماء العرب: أنّ طسماً وجديسا كانوا من ساكني اليمامة ،وهي إذْ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً وثمارا وحدائق وقصورا. وكان ملك طسم غشوماً لا ينهاه شيءٌ عن هواه، ويقال له: عملوق وكان مُضِرّاً لجديس مُسْتَذِلاً لَهُم ، حتى كانت البكر من جديس لا تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها. وكان السبب في ذلك أنّ امرأة منهم كان اسمها هُزَيْلَةَ طلقها زوجها وأخذ ولده منها، فأمر عَمْلوق ببيعها، وأخذ زوجها الخُمس من ثمنها فقالت شعراً تتظلَّم منه، فأمر أنّ لا تزوَّج منهم امرأَة حتى يفترعها. فقاموا كذلك حتى تزوجت الشموس، وهي عفيرة ابنة غفار ابن جديس أخت الأسود ،فافتضها عملوق ، فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس: قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذي ينبغي للكلاب أنّ تعافه، فأطيعوني أدعكم إلى عز الدهر، فقالوا: وما ذاك؟ قال: أصنع للملك وقومه دعوةً فإذا جاؤوا، يعني طَسْماً، نهضنا إليهم بأسيافنا فنقتلهم. فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم في الرمل ودعوا عَمْلوقاً وقومَه. فلما حضروا قتلوهم ، فأَفنوهم ،وقتل الأسْود عملوقاً وأفلت رَباح بن مُرَّة بن طَسْم، فأتى حسان بن تُبّع مستغيثاً، فنهض حسّان في حِمْيَر لإغاثته، حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل. قال لهم رباح: أنّ لي أُختاً مُزوّجة في جديس إسمُها اليمامة، ليس على وجه الأرض أبصر منها، وأنها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل، وأخاف أنّ تنظر القوم. فأمر كل رجل أنّ يقلع شجرة فيجعلها في يده، ويسير كأنه خلفها ففعلوا، وبصرت بهم اليمامة فقالت لجديس: لقد سارت إليكم حِمْيَر، وإني أرى رجلاً من وراء شجرة بيده كتف يتعرقها، أو نعل يخصفها، فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به. وصبحهم حَسَّانُ وجنوده من حِمْيَر فأبادهم وخَرَّب حصونهم وبلادهم

وهرب الأَسودُ بن غفَّار إلى جَبَلَيْ طيء ، فأقام بهما، ودعا تُبَّع باليمامة أخت رباح التي أبصرهم فقلع عينها. ويقال: إنه وجد بها عروقا سوداً زعمت أنّ ذلك من اكتحالها بالإثْمِد، وكانت تلك البلد تسمى جُو فسُميَّت باليمامة اسم تلك المرأة.

قال أبو الفرج الأصبهاني: وكانت طيء تسكن الجُرُف من أرض اليمن، وهي اليوم

محلةٍ مراد وهمدان ، وسيدهم يومئذ سامة بن لؤي بن الغوث بن طيء، وكان الوادي مسبعةً، وهم قليل عددهم، وكان يجتاز بهم بعير في زمن الخريف ويذهب ثم يجيء من قابل ولا يعرفون ،مقرَّهُ وكانت الأزْد قد خرجت أيام سَيْل العرِم واستوحشت طيء فظعنوا على أثرهم، وقالوا لسامَةَ: هذا البعيرُ إنما يأتي من الريف والخِصْب، لأن في بعره النوى، فلما جاءهم زمن الخريف أتّبعُوه يسيرون لسيره حتى هبط عن الجبلين، وهجموا على النخل في الشعاب وعلى المواشي، وإذا هم بالأسود بن غفار، في تلك الشعاب، فهالهم خلقه وتخوفوه، ونزلوا ناحية ونفضوا الطريق فلم يروا أحداً، فأمر سامة ابنه الغوث بقتل الأسود ، فجاء إليه فعجب من صغر خلقه، وقال: من أين أقبلتم؟ قال: من اليمن، وأخبره خبر البعير ثم رماه فقتله، وأقامت طيء بالجبلين بعده.

وذكر الطبري عن غير ابن إسحق أنّ تُبَّع الذي أوقع بجديس هو والد حَسَّان هذا، وهو ثبان أسعد أبو كرب بن ملكي كرب، ويأتي ذكره في ملوك اليمن أنّ شاء الله تعالى، انتهى كلام الطبري.

وقال غيره أنّ حسان بن تُبَّع لما سار بحمير إلى طسم بعث على مقدمته إليهم عبد كلال بن منوب بن حجر بن ذي رعين من أقيال حِميَر، فسلك بهم رباح بن مرة الرمل، وكانت الزرقاء أخت رباح ناكحاً في طسم، وتُسمَّى عترة واليمامة، وكانت تبصر على البعد فأنذرتهم فلم يقبلوا. وصبح عبد بن كلال جديساً إلى آخر القِصَّة، وبقيت اليمامة بعد طسم يباباً لأ يا كل ثمرها إلا عوافي الطير والسباع، حتى نزلها بنو حنيفة، وكانوا بعثوا رائدهم عبيد بن ثعلبة الحنفي يرتاد لهم في البلاد، فلما أكل من ذلك الثمر، قال: أنّ هذا الطعام! وحجر بعصاه على موضع قصبة اليمامة، فسميت حجرا، واستوطنها بنو حنيفة وبها صبحهم الإسلام كما يأتي في أخبارهم أنّ شاء الله تعالى.

وأما العمالقة فهم بنو عمليق بن لاوذ، وبهم يضرب المثل في الطول والجثمان. قال

الطبريُّ: عمليق أبو العمالقة كلهم أمم تفرَّقت في البلاد، فكان أهل المشرق وأهل عمان والبحرين وأهل الحجاز منهم، وكانت الفراعنة بمصر منهم، وكانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون منهم. وكان الذين بالبحرين وعمان والمدينة يسمون جاسم، وكان بالمدينة من جاسم هؤلاء بنو لفٍ وبنو سعدٍ بن هزال وبنو مطر وبنو الأزرق، وكان بنجد منهم بديل وراحل وغفار، وبالحجاز منهم إلى تيما بنو الأرقم ويسكنون مع ذلك نجداً. وكان ملكهم يُسمَّى الأرقم، قال: وكان بالطائف بنو عبد ضخم بن عاد الأول. انتهى .

وقال ابن سعيد فيما نقله عن كتب التواريخ التي اطلع عليها في خزانة الكتب،

بدار الخلافة من بغداد قال: كانت مواطن العمالقة تهامة من أرض الحجاز فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بني حام، ولم يزالوا كذلك إلى أنّ جاء إسماعيل صلوات الله عليه، وآمن به من آمن منهم.

وتَطَرَّد لهم المُلك إلى أنّ كان منهم السميدع بن لاوذ بن عمليق، وفي أيامه خرجت العمالقة من الحرم، أخرجتهم جرهم من قبائل قحطان، فتفرقوا ونزل بمكان المدينة منهم بنو عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق فعرفت به، ونزل أرض أيلة ابن هومر بن عمليق، واتصل ملكها في ولده. وكان السميد سمةً لمن ملك منهم إلى أنّ كان آخرهم السميدع بن هومر، الذي قتله يوشع لما زحف بنو إسرائيل إلى الشام بعد موسى صلوات الله عليه، فكان معظم حروبهم مع هؤلاء العمالقة هنالك، فغلبه يوشع وأسره وملك أريحا قاعدة الشام، وهي قرب بيت المقدس، ومكانها معروف لهذا العهد. ثم بعث من بني إسرائيل بعثا إلى الحجاز فملكوه وانتزعوه من أيدي العمالقة ملوكه ونزعوا يثرب وبلادها وخيبر. ومن بقاياهم يهود قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وسائر يهود الحجاز على ما نذكره. ثم كان لهم ملك بعد ذلك في دولة الروم، وملكوا أذينة بن السميدع على مشارف الشام والجزيرة من ثغورهم، وأنزلوهم في التخوم ما بينهم وبين فارس. وهذا الملك أذينة بن السميدع هو الذي ذكره الشاعر في قوله:

#أزال أذينة عن ملكه وأخرج عن أهله ذا يزن

وكان من بعده حسان بن أذينة، ومن بعده طرف بن حسان بن يدياه نسبة إلى أمه، وبعده عمرو بن طرف، وكان بينه وبين جذيمة الأبرش حروب، وقتله جذيمة واستولى على ملكهم. وكان آخراً من العمالقة كما نذكر ذلك في موضعه.

ومن هؤلاء العمالقة فيما يزعمون عمالقة مصر. وأن بعض ملوك القبط استنصر بملك العمالقة بالشام لعهده، واسمه الوليد بن دومغ، ويقال ثوران بن أراشة بن فادان بن عمرو بن عملاق، فجاء معه ملك مصر واستعبد القبط. قال الجرجاني: ومن ثم ملك العماليق مصر ويقال: أنّ منهم فرعون إبراهيم وهو سنان بن الأشل بن عبيد بن عولج بن عمليق، وفرعون يوسف أيضاً منهم هو الريّان بن الوليد بن فوران، وفرعون موسى كذلك وهو الوليد بن مصعب بن أبي أهون بن الهلوان، ويقال إنه قابوس بن مُصْعَب بن مُعَاوية بن نمير بن السلواس بن فاران، وكان الذي ملك مصر بعد الريان بن الوليد طاشم بن معدان ا ه .كلام الجرجاني. وقال غيره: الريان فرعون يوسف، وهو الذي تسميه القبط نقراوش، وأنّ وزيره كان أطفير وهو العزيز، وأنه آمن بيوسف، وأنَّ أَرضَ الفَيُّوم، كانت مغايض للماء فدبَّرها يوسف بالوحي والحكمة حتى صارت أعزّ الديار المصرية، وملك بعده ابنه دارم بن الريان، وبعده ابنه معدانوس فاستعبد بني إسرائيل. قال الكلبي: ويذكر القبط أنَّه فرعون موسى، وذكر أهل الأثر أنَّه الوليد بن مُصْعَب وأنه كان نجاراً من غير بيت الملك، فاستولى إلى أنّ وَلِيَ حرسُ السلطان، ثم غلب عليه، ثم استبدّ بعده، وعليه انقرض أمر العمالقة. ولما غرق في اتباع موسى صلوات الله عليه، رجع الملك إلى القبط فولوا من بيت ملكهم دلوكة العجوز كما نذكره في أخبارهم أنّ شاء الله تعالى. وأما بنو إسرائيل فليس عندهم ذكر لعمالقة الحجاز، وعندهم أنّ عمالقة الشام من ولد عملاق بن

اليفاذ--- بتفخيم الفاء--- ابن عيصو أو عيصاب أو العيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام. وفراعنة مصر منهم على الرأيين.

وأما الكنعانيون الذين ذكر الطبري أنهم من العمالقة، فهم عند الإسرائيليين من كنعان بن حام، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها، وكان معهم فيها بنو عيصو المذكورون، ويقال لهم بنو يدوم، ومن أيديهم جميعا ابتزها بنو إسرائيل عند المجيء أيام يوشع بن نون، ولذلك تزعم زناتة المغرب أنهم من هؤلاء العمالقة وليس بصحيح.

وأما أميم فهم إخوان عملاق بن لاوذ. قال السهيلي: يقال بفتح الهمزة وكسر الميم وبضم الهمزة وفتح الميم وهو أكثر. ووجدت بخط بعض المشاهير أميم بتشديد الميم. ويذكر أنهم أول من بنى البنيان، واتخذ البيوت والآطام من الحجارة، وسقفوا بالخشب. وكانت ديارهم فيما يقال: أرض فارس، ولذلك زعم بعض نسابة الفرس أنهم من أميم، وأن كيومرث الذين ينسبون إليه هو ابن أميم بن

لاوذ وليس بصحيح. وكان من شعوبهم وبار بن أميم، نزلوا رمل عالج بين اليمامة والشحر وسالت عليهم الريح فهلكوا.

وأما العرب البايدة من بني أرفخشذ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ، فهم جرهم وحضورا وحضرموت والسلف. فأما حضورا فكانت ديارهم بالرس، وكانوا أهل كفر وعبادة أوثان، وبعث إليهم نبي منهم اسمه شعيب بن ذي مهرع فكذبوه وهلكوا كما هلك غيرهم من الأمم. وأما جرهم فكانت ديارهم باليمن، وكانوا يتكلمون بالعبرانية، وقال البيهقي: أنّ يعرب بن قحطان لما غلب عاداً على اليمن، وملكه من أيديهم ولى إخوته على الأقاليم، وولي جرهم على الحجاز، وولي بلاد عادٍ الأولى، وهي الشحر، عاد بن قحطان فعرفت به، وولي عمان يقطن بن قحطان. انتهى كلام البيهقي، وقيل إنما نزلت جرهم الحجاز، ثم بني قطور بن كركر بن عملاق لقحط أصاب اليمن، فلم يزالوا بمكة إلى أنّ كان شان إسماعيل عليه السلام ونبوته، فآمنوا به وقاموا بأمره، وورثوا ولاية البيت عنه، حتى غلبتهم عليه خزاعة وكنانة فخرجت جرهم من مكة، ورجعوا إلى ديارهم باليمن إلى أنّ هلكوا.

وأما حضرموت فمعدودون في العرب العاربة لقرب أزمانهم وليسوا من العرب البايدة لأنهم باقون في الأجيال المتأخرة، إلا أنّ يقال: أنّ جمهورهم قد ذهب من بعد عصورهم الأولى واندرجوا في كندة ،وصاروا من عدادهم، فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا والله أعلم. وقال علي بن عبد العزيز: أنه كانه فيهم ملوك التبابعة في علو الصيت ونهاية الذكر. قال وذكر جماعة من العلماء أنّ أول من انبسط ملكه منهم، وارتفع ذكره عمرو الأشنب بن ربيعة بن يرام بن حضرموت. ثم خلفه ابنه نمر الأزج، فملك مائة سنة وقاتل العمالقة، ثم ملك كريب ذو كراب، ثم نمر الأزج مائة وثلاثا وثلاثين سنة، وهلك إخوته في ملكه. ثم ملك مرثد ذو مروان بن كريب مائة وأربعين سنة، وكان يسكن مأرب ثم تحول إلى حضرموت،

ثم ملك علقمة ذو قيعان بن مرثد ذي مروان بحضرموت ثلاثين سنة، ثم ملك ذوعيل بن ذي قيعان عشر سنين، وسكن صنعاء وغزا الصين، فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا النور، ثم ملك ذوعيل بن ذي عيل بحضرموت عشر سنين، ولما شخص سنان ذو ألم لغزو الصين تحول ذوعيل إلى صنعاء واشتدت وطأته، وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن، وأول من أدخل الحرير والديباج إلى اليمن. ثم ملك بدعات بن ذي عيل بحضرموت أربع

خريطة

سنين. ثم ملك بدعيل بن بدعات وبنى حصونا وخلف آثارا، ثم ملك بديع ذو عيل، ثم ملك حماد بن بدعيل بحضرموت، فأنشأ حصنه المعقرب، وغزا فارس في عهد سابور ذي الأكتاف، وخرب وسبى، ودام ملكه ثمانين سنة. وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم. ثم ملك يشرح ذو الملك بن ودب بن ذي حماد بن عاد من بلاد حضرموت مائة سنة، وكان أول من رتب الرواتب، وأقام الحرس والروابط. ثم ملك منعم بن ذي الملك دثار بن خذيمة بن منعم، ثم يشرح بن جذيمة بن منعم، ثم نمر بن بشرح ،ثم ساجن المسمى ابن نمر وفي أيامه تغلبت الحبشة على اليمن.

هذه قبائل هذا الجيل من العرب العاربة وما كانوا عليه من الكثرة والملك، إلى أنّ انقرضوا وأزال الله من أمرهم بالقحطانية كما نحن ذاكروه. ولم نغفل منهم إلا من لم يصلنا ذكره من خيره، والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما جرهم فقال ابن سعيد: إنهم

أمتان أمة على عهد عاد وأمة من ولد جرهم بن قحطان، ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ملك أخوه جرهم الحجاز. ثم ملك من بعده ابنه عبد يا ليل، ثم بعده ابنه عبد المدان بن جرهم، ثم ابنه نفيلة بن عبد المدان، ثم ابنه عبد المسيح بن نفيلة، ثم ابنه مضاض بن عبد المسيح، ثم ابنه الحرس. ثم ملك من بعده جرهم بن عبد ياليل، ثم بعده ابنه عمرو بن الحرث، ثم أخوه بشير بن الحرث، ثم مضاض بن عمرو بن مضاض. قال وهذه الأمة الثانية هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوج فيهم، انتهى.

خريطة

وأما بنو سبا بن يقطن فلم يبيدوا، وكان لهم بعد تلك الأجيال البائدة أجيال باليمن منهم حِمْيَر وكهلان وملوك التابعة وهم أهل الطبقة الثانية. وفي مسند الإمام أحمد: أنّ رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قيل هو فروة بن مسيك المرادي عن سبا أرجل هو أو امرأة أم أرض؟ فقال بل رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة. فأمّا اليمانيون فمذ حج وكندة والأزد والأشعر وأنمار وحمير. وأما الشاميون فلخم وجذام وعاملة وغسان. وثبت أنّ أباهم قحطان كان يتكلم بالعربية، ولقنها عن الأجيال قبله، فكانت لغة بنيه. ولذلك سموا العرب المستعربة، ولم يكن في آباء قحطان من لدن نوح عليه السلام إليه من يتكلم بالعربية، وكذلك كان أخوه فالغ ،وبنوه إنما يتكلمون بالعجمية، إلى أنّ جاء إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما،

فتعلم العربية من جرهم فكانت لغة بنيه، وهم أهل الطبقة الثالثة المسمون بالعرب التابعة للعرب. فلنذكر هذا النسب لينتظم أجياله مع الأجيال السابقة واللاحقة، ونستوفي أنساب الأمم منها.

الخبر عن إبراهيم

أبي الأنبياء عليهم السلام ونسبه إلي فالغ بن عابر

وذكر أولاده صلوات ا لله عليهم وأحوالهم

ولنذكر الآن أهل هذا النسب ما بين إسماعيل ونوح عليهما السلام، ومن كان منهم، أو من إخوالهم أو أبنائهم من الأنبياء والشعوب والملوك، وما كان لإسماعيل صلوات الله عليه من الولد. ونختم هذه الطبقة الأولى بذكرهم ،وإن كانوا عجما في لغاهم، إلا أنهم أصون الخليقة في أنساهم، وكل البشر على بعض الآراء من أعقاهم، وهم مع ذلك معاصرون لهذه الطبقة، فيتسق الكلام فيهم على شرط كتابنا، ويتميز بذكر أخبارأحوال الطبقات التي بعدهم على الوفاء والكمال. فنبدأ أولا بذكر عمود هذا النسب على التوالي، ثم نرجع إلى أخبارهم. وإسماعيل صلوات الله عليه هو ابن إبراهيم بن آزر، وهو تارح وآزر اسم لصنمه لقب به ابن ناحور بن ساروخ بالخاء أو بالغين ابن عابر أو عنبر بن شالح أو شليخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وهذه الأسماء الأعجمية كلها منقولة من التوراة ولغتها عبرانية، ومخارج حروفها في الغالب مغايرة لمخارج الحروف العربية. وقد يجيء الحرف منها بين

حرفين من العربية فترده العرب إلى أحد ذينك الحرفين، وفي مخرجه فيتغير عن أصله، ولذلك تكون فيها إمالة متسوطة أو محضة فيصير إلى حرف العلة التي بعده من ياء أو واو، فلذلك تنقل الكلمة منها على اختلاف. وإلا فشأن الأعلام أنّ لا تختلف. وقال الطبري: أنّ بين شالخ وأرفخشد أبا آخر اسمه قينن، وسقط ذكره من التوراة لأنه كان ساحرا وادعى الألوهية.وقال ابن حزم: في كتب النصارى أنّ بين فالغ وعابر أبا آخر اسمه ملكيصدق وهو أبو فالغ.

واعلم أنّ نوحا صلوات الله عليه بلغ عمره يوم الطوفان ستمائة سنة، عاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة، فكانت جملة ذلك تسعمائة وخمسين سنة. ألف سنة إلا خمسين. وهذا نص المصحف الكريم، وكذا وقع في التوراة بعينه. ومن الغريب الواقع في التوراة أنّ عمر إبراهيم كان يوم وفاة نوح ثلاثا وخمسون سنة، لأنه قال أنّ أرفخشد ولد لسام بعد سنتين من الطوفان، ولما بلغ خمسا وثلاثين سنة ولد له ابنه شالخ، وبعد ثلاثين سنة ولد ابنه عابر؛ وبلغ عابر أربعا وثلاثين سنة، فولد ابنه فالغ، وبلغ فالغ ثلاثين سنة، فولد له أرغو، وبلغ أرغو اثنتين وثلاثين سنة فولد شاروغ، وبلغ شاروغ ثلاثين سنة فولد ناحور، وبلغ ناحور تسعا وعشرين سنة فولد تارح، وبلغ تارح خمسا وسبعين سنة فولد إبراهيم. وجملة هذه السنين من الطوفان إلى ولادة إبراهيم مائتان وسبع وتسعون سنة. وعمر نوح بعد الطوفان ثلثمائة وخمسون سنة، فيكون إبراهيم بعد وفاة نوح ابن ثلاث وخمسين سنة، فيكون لقي نوحا صلوات الله عليهما، وخالطه وأخذ عنه، وهو على رأي بعضهم أب لجميع الشعوب من بعده، فلذلك كان الأب الثالث للخليقة من بعد آدم ونوح صلوات الله عليهم أجمعين أ ه .

وفي كتاب البدء ونقله ابن سعيد: أنّ أول من ملك الأرض من ولد نوح كنعان بن كوش بن حام، فسار من أرض كنعان بالشام إلى أرض بابل، فبنى مدينة بابل إثني عشر فرسخا في مثلها، وورث ملكه ابنه النمرود بن كنعان، وعظم سلطانه في الأرض، وطال عمره وغلب على أكثر المعمور، وأخذ بدين الصابئة وخالفه الكلدانيون منهم في التوحيد وأسمائه، ومال معهم بنو سام، وكان سام قد نزل بشرقي الدجلة، وكان وصيُّ أبيه في الدين والتوحيد، وورث ذلك ابنه أرفخشذ، ومعنى أرفخشذ مصباح مضيء ، فاشتغل بالعبادة ودعاه الكلدانيون إلى القيام بالتوحيد

فامتنع. ثم قام من بعده ابنه شالخ وعاش طويلا، وقام من بعده بأمره ابنه عابر كذلك، وخرج مع الكلدانيين على النمرود منكراً لعبادة الهياكل، فغلبه نمروذ وأخرجه من كوثا، فلحق هو ومن معه من الحلفاء بالجزيرة، وهي مدينة المجدل بين الفرات ودجلة. وعابر هذا هو أبو العبرانيين الذين تكلموا بالعبرانية، واستفحل ملكه بالمجدل. قال ابن سعيد وورث من بعده ابنه فالغ، وهو الذي قسم الأرض بين ولد نوح. وفي زمانه بنى النمروذ الصرح ببابل، وكان من أمره ما نصه القرآن، وقام بأمر فالغ من بعد ابنه ملكان فيما زعموا وغلبه الجرامقة والنبط على ملكه، وقام بالمجدل في ملكهم إلى أنّ هلك وخلف ابنه أتيا ويقال له الخضر وأما ارغو بن فالغ فعبر إلى كلواذا، ودخل في دين النبط، وهي بدعة الصابئة. وولد له منهم ابنه شاروخ. ثم بعده ناحور بن شاروخ، ثم بعده تارح بن ناحور الذي سمي آزر، واستخلص النمروذ آزر وقدمه على بيت الأصنام، والنمروذ من ملوك الجرامقة واسمه هاصد بن كوش. انتهى كلام ابن سعيد.

وولد لتارح وهو آزر على ما وقع في التوراة ثلاثة من الولد إبراهيم وناحور وهاران، ومات هاران في حياة أبيه تارح وترك ابنه لوطا فهو ابن أخي إبراهيم. قال الطبري: ولد إبراهيم الخليل قيل بناحية كوثا من السواد وهو قول ابن إسحق، وقيل بحران وقيل ببابل، وعامة السلف أنه ولد على عهد نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام. وكان الكهان يتحدثون بولادة رجل يخالف الدين ويكسر الأصنام والأوثان، فأمر بذبح الولدان فولدته أمه وتركته بمغارة في فلاة من الأرض حتى كبر وشب، ورأى في الكواكب ما رآه وكملت نبوته، فأحضرته إلى أبيه ودعاه إلى التوحيد، فامتنع وكسر إبراهيم الأصنام واحضر عند نمروذ وقذفه في النار فصارت بردا وسلاما، وخرج منها ولم تعد عليه كما نص ذلك القرآن.ثم تدبر النمروذ في أمره وطلب من إبراهيم أنّ يقرب قربانا يفتدي مما دعاه إليه، فقال له إبراهيم: لن يقبل منك إلا الإيمان، فقال: لا استطيع. وترك إبراهيم وشانه. ثم أمر الله إبراهيم بالخروج من أرض الكلدانيين ببابل، فخرج به أبوه تارح ومعهما على ما في التوراة ابنه ناحور بن تارح وزوجته ملكا بنت أخيه هاران، وحافده لوط بن

هاران، قال في التوراة وكنته سارة يعني زوج إبراهيم، فقيل إنها أخت ملكا بنت هاران بن تارح، وقيل بنت ملك حران، طعنت على قومها في الدين فتزوجها إبراهيم على أنّ لا يضرها، ويرد هذا ما في التوراة أنها خرجت معهم من أرض الكلدانيين إلى حران فتزوجها. وقيل: إنها بنت هاران بن ناحور. وهاران عم إبراهيم قاله السهيلي، فأقاموا بحران ومات بها أبوه تارح وعمره مائتا سنة وخمس سنين. ثم أمر بالخروج إلى أرض

الكنعانيين ووعده الله بأن تكون أثرا لبنيه، وأنهم يكثرون مثل حصى الأرض.فنزل بمكان بيت المقدس وهو ابن خمس وسبعين سنة، ثم أصاب بلد الكنعانيين مجاعة، فخرج إبراهيم في أهل بيته وقدم مصر، ووصف لفرعون ملك القبط جمال امرأته سارة فأحضرها عنده، ولما هم بها يبست يده على صدره، فطلب منها الإقالة فدعت له الله فانطلقت يده. ويقال عاود ذلك ثلاثا يصاب في كلها وتدعو له فردها إلى إبراهيم واستخدمها هاجر.قال الطبري والملك الذي أراد سارة هو سنان بن علوان، وهو أخو الضحاك. والظاهر أنه من ملوك القبط.

ثم ساروا إلى أرض كنعان بالشام. ويقال: أنّ هاجر أهدها ملك الأردن لسارة وكان إسمه فيما قال الضبي صلاوق، وأنه انتزع سارة من إبراهيم، ولما هم بها صُرع مكانه، وسألها في الدعاء فدعت له، فأفاق فردها إلى إبراهيم وأخدمها هاجر أمة كانت لبعض ملوك القبط. ولما عاد إبراهيم إلى أرض كنعان نزل جيرون وهو مدفنه المسمى بالخليل؛ وكانت معظمة تعظمها الصابئة وتسكب عليها الزيت للقربان، وتزعم أنها هيكل المشتري والزهرة، فسماها العبرانيون إيليا ومعناه بيت الله.

ثم أنّ لوطا فارق إبراهيم عليه السلام لكثرة مواشيهما وتابعهما وضيق المرعى. فنزل المؤتفكة بناحية فلسطين وهي بلاد العدور المعروف بعدور صقر؛ وكانت هناك على ما

نقله المحققون خمس قرى سدوم. ووجدهم على ارتكاب الفواحش فدعاهم إلى الدين، ونهاهم عن المخالفة، فكذبوه وعتوا وأقام فيهم داعيا إلى الله إلى أنّ هلكوا كما قصه القرآن.وخرج لوط مع عساكر كنعان وفلسطين للقاء ملوك الشرق حين زحفوا إلى أرض الشام، وكانوا أربعة ملوك ملك الأهواز من بني غليم بن سام واسمه كرزلا عامر، وملك بابل واسمه في التوراة شنعا واسمه أمراقيل، ويقال هو نمروذ، وملك الأستار وما أدري معنى هذه اللفظة واسمه أريوح ، وملك كوتم ومعناه ملك أمم أو جماعة واسمه تزعال. وكان ملوك كنعان الذين خرجوا إليهم خمسة على عدد القرى الخمسة. وذلك أنّ ملك الأهواز كان استعبدهم اثنتي عشرة سنة ثم عصوا، فزحف إليهم واستجاش بالملوك المذكورين معه، فأصابوا من أهل جبال يسعين إلى فاران التي في البرية، وكان بها يومئذ الجويون من شعوب كنعان أيضا.وخرج ملك سدوم وأصحابه لمدافعتهم، فانهزم هو والملوك الذين معه من أهل سدوم، وسباهم ملك الأهواز ومن معه من الملوك، وأسروا لوطا وسبوا أهله، وغنموا ماشيته. وبلغ الخبر إبراهيم عليه السلام فاّتبعهم في ولده ومواليه نحواً من ثلثمائة وثمانية عشر، ولحقهم بظاهر دمشق فدهمهم فانفضوا وخلص لوطا في تلك الوقعة، وجاء بأهله ومواشيه، وتلقاهم ملك سدوم، واستعظم فعلتهم.

ثم أوحى الله إلى إبراهيم أنّ هذه الأرض: أرض الكنعانيين التي أنت بها، ملكتها لك ولذريتك وأكثرهم مثل حصى الأرض وأن ذريتك يسكنون في أرض ليست لهم أربعمائة سنة، ويرجع الحقب الرابع إلى هنا. ثم أنّ سارة وهبت مملوكتها هاجر القبطية لإبراهيم عليه السلام لعشر سنين من مجيئهم من مصر. وقالت لعل الله يرزقك منها ولداً، وكان إبراهيم قد سأل الله أنّ يهب له ولدا، فوعده به. وكانت سارة قد كبرت وعقمت

عن الولد، فولدت هاجر لإبراهيم إسماعيل عليهما السلام لست وثمانين من عمره. وأوحى الله إليه أني قد باركت عليه وكثرته، ويولد له اثنا عشر ولدا ويكون رئيساً لشعب عظيم. وأدركت سارة الغيرة من هاجر وطلبت منه إخراجها، وأمره الله أنّ يطيع سارة في أمرها، فهاجر بها إلى مكة ووضعها وابنها بمكان زمزم عند دوحة هنالك وانطلق. فقالت له هاجر: ٱلله أمرك؟ قال: نعم، فقالت: إذا لا يضيعنا. وانطلق إبراهيم، وعطش إسماعيل بعد ذلك عطشا شديداً وأقامت هاجر تتردّد بين الصفا والمروة إلى أنّ صعدت عليها

سبع مرات لعلها تجد شيئاً ؛ ثم أتته وهو يفحص برجليه فنبعت زمزم.

وعن السدي: أنه تركه في مكان الحجر، واتخذ فيه عريشاً وأن جبريل هو الذي همز له الماء بعقبه، وأخبر هاجر أنها عين يشرب بها ضيفان الله، وأن أبا هذا الغلام سيجيء ويبنيان بيتا لله هذا مكانه. ثم مرت رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم أقبلوا من كداء، ونزلوا أسفل مكة، فرأوا الطير حائمة فقالوا: لا نعلم بهذا الوادي ماء، ثم أشرفوا فرأوا المرأة ونزلوا معها هنالك.

وعن ابن عباس: كانت احياؤها قريبا من ذلك المكان، فلما رأوا الطير تحوم عليه، أقبلوا إليه فوجدوهما فترلوا معهما، حتى كان بها أهل أبيات منهم، وشب إسماعيل بينهم وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم وزوجوه امرأة منهم. وماتت أمه هاجر فدفنها في الحجر. ولما رجع إبراهيم وأقام في أهله بالشام، وبالغ أهل المؤتفكة في العصيان والفاحشة، ودعاهم لوط فكذبوه، وأقام على ذلك. قال الطبري: فأرسل الله رسولا من الملائكة لإهلاكهم، ومروا بإبراهيم فأضافهم وخدمهم، وكان من ضحك سارة وبشارة الملائكة لها باسحق وابنه يعقوب ما قصه القرآن. وكانت البشارة بإسحق وإبراهيم ابن مائة سنة، وسارة بنت تسعين. وفي التوراة أنه أمر أنّ يحرر ولده إسماعيل لثلاث عشرة سنة من عمره. ولكل من في بيته من الأحرار، فكان ذلك لتسع وتسعين من عمر إبراهيم. وقال له ذلك عهد بيني وبينك وذريتك .ثم أهلك الله المؤتفكة ونجى لوطاً إلى أرض الشام، فكان بها مع عمه إبراهيم صلوات الله عليهما. وولدت سارة إسحق وأمر الله إبراهيم بعد ولادة إسماعيل وإسحق ببناء بيت يعبد فيه ويذكر، ولم يعرف مكانه، فجعل له علامة تسير معه حتى وقفت به على الوضع، يقال إنها ريح لينة لها رأسان تسير معه حتى تكون بالموضع، ويقال بل بعث معه جبريل لذلك حتى أراه الموضع. وكان إبراهيم يعتاد إسماعيل لزيارته، ويقال أنه كان يستأذن سارة في ذلك وأنها شرطت عليه أنّ لا يقيم عندهم، وأنّ إبراهيم وجد امرأة لإسماعيل في غيبة منه. وكانت من العماليق، وهى عمارة بنت سعيد بن أسامة بن أكيل. فرآها فظة غليظة، فأوصاها لإسماعيل بأن يحوّل عتبة بابه، فلما قصت عليه الخبر والوصيّة، قال: ذاك أبي يأمرني أنّ اطلقك، فطلقها وتزوّج بعدها السيدة بنت مضّاض بن عمرو الجُرهمي، وخالفه إبراهيم إلى بيته، فتسهلت له بالإذن وأحسنت التحية، وقرّبت الوضوء والطعام. فأوصاها لإسماعيل نجاني قد رضيت

عتبة بابك. ولما قصت عليه الوصية، قال: ذلك أبي يأمرني بإمساكك، فأمسكها. ثم جاء إبراهيم مرة ثالثة وقد أمره الله ببناء البيت، وأمر إسماعيل باعانته، فرفعوها من القواعد، وتمّ بناؤها وأذن في الناس بالحج.

ثم زوج لوط ابنته من مدين بن إبراهيم عليهما السلام، وجعل الله في نسلها البركة. فكان منهم أهل مدين الأمة المعروفة.

ثم ابتلى الله إبراهيم بذبح ابنه في رؤيا رآها وهي وَحْي، وكانت الفدية ونجّى الله ذلك الولد، كما قُصَّ في القرآن. واختلف في ذلك الذبيح من ولديه فقيل إسماعيل وقيل إسحق. وذهب إلى كلا القولين جماعة من الصحابة والتابعين. فالقول بإسماعيل لابن عباس وابن عمر والشعبي ومجاهد والحسن ومحمد بن كعب القرظي . وقد يحتجون له بقوله صلى الله عليه وسلم : "أنا ابن الذبيحين"، ولا تقوى الحجة به لأنّ عمّ الرجل قد يُجعل أباه بضرب من التجوز، لا سيما في مثل هذا الفخر. ويحتجون أيضاً بقوله تعالى: **{ فبشرناها بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب}[سورة.......]** ، ولو كان ذبيحا في زمن الصبا لم تصح البشارة بابن يكون له، لأنّ الذبح في الصبا ينافي وجود الولد، ولا تقوم من ذلك حجة، لأن البشارة انما وقعت على وفق العلم بأنه لا يذبح ؛ وإنما كان ابتلاءلا براهيم. والقول بإسحق للعباس وعمرو وعلي وابن مسعود وكعب الأحبار وزيد بن أسلم ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير وعطا والزهري ومكحول والسدي وقتادة.

وقال الطبري: والراجح أنه إسحق، لأن نص القرآن يقتضي أنّ الذبيح هو المبشر به، ولم يبشر إبراهيم بولد إلا من زوجته سارة، مع أنّ البشارة وقعت إجابة لدعائه عند مهاجره من أرض بابل. وقوله: إني ذاهب إلى ربي سيهدين. ثم قال عقبة: رب هب لي من الصالحين. ثم قال عقبة: فبشرناه بغلام حليم. وذلك كله كان قبل هاجر، لأن هاجر إنما ملكتها سارة بمصر، وملكتها لإبراهيم بعد ذلك بعشر سنين. فالمبشر به قبل ذلك كله إنما هو ابن سارة، فهو الذبيح بهذه الدلالة القاطعة. وبشارة الملائكة لسارة بعد ذلك، حين كانوا ضيوفا عند إبراهيم في مسيرهم لإهلاك سدوم ،إنما كان تجديداً للبشارة المتقدمة ا ه .

ثم توفيت لمائة وسبع وعشرين من عمرها، وذلك في قرية جيرون من بلاد بني حبيب الكنعانيين. فطلب إبراهيم منهم مقبرة لها، فوهبه عفرون بن صخر مغارة كانت في مزرعته، فامتنع من قبولها إلا بالثمن، فأجاب إلى ذلك، وأعطاه إبراهيم أربعمائة مثقال فضة، ودفن فيها سارة. وتزوج إبراهيم من بعدها قطورا بنت يقطان من الكنعانيين. وقال السهيلي قنطورا بزيادة نون بين القاف والطاء، وهذا الاسم أعجمي وطاوة قريبة من التاء. فولدت له كما هو مذكور في التوراة ستة من الولد وهم: زمران، يقشان، مدان، مدين، أشبق، شوخ.ثم وقع في التوراة ذكر أولادهم. فولد يقشان سبا ودذان، وولد دذّان أشور ثم ولطوسيح ولاميم. وولد مدين عيفا وعيفين وحنوخ وأفيداع وألزاعا. هذا آخر ولده من قنطورا في التوراة. وقال السهيلي: كان لإبراهيم عليه السلام أولاد آخرون: خمسة من امرأة اسمها حجين أو حجون بنت أهيب وهم كبسان وفروخ وأميم ولوطان ونافس. ولما ذكر الطبري بني قنطورا الستة، وسمّى منهم يقشان، قال بعده: وسائرهم من الأ خرى وهي رعوة. ثم قال: ومن يقشان جيل البربر ا ه .فوُلدُ إبراهيم على هذا ثلاثة عشر: فإسماعيل من هاجر، وإسحق من سارة، وستة من قنطورا كما ذكر في التوراة، والخمسة بنو حجين عند السهيلي أو رعوة عند الطبري.

وكان إبراهيم عليه السلام قد عهد لإبنه إسحق أنّ لا يتزوّج في الكنعانيين، وأكد العهد والوصية بذلك لمولاه القائم على أموره، ثم بعثه إلى حران مهاجرهم الأول، فخطب من ابن أخيه بتويل بن ناحور بن آزر بنته رفقا فزوجها أبوها واحتملها ومن معها من الجواري، وجاء بها إلى إسحق في حياة أبيه، وعمره يومئذ أربعون سنة. فتزوجها وولدت له يعقوب وعيصو توأمين، وسنذكر خبرهما. ثم قبض الله نبئه إبراهيم صلوات الله عليه بمكان هجرته من أرض كنعان، وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، ودفن مع سارة في مغارة عفرون الحبيبي وعرف بالخليل لهذا العهد. ثم جعل الله في ذريته النبوة والكتاب آخر الدهر.

فإسماعيل سكن مع جرهم بمكة وتزوج فيهم، وتعلم لغتهم وتكلم بها، وصار أبا لمن بعده من أجيال العرب، وبعثه الله إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بمكة وإلى أهل اليمن فآمن بعض وكفر بعض. ثم قبضه الله إليه وخلّف ولده بين جرهم، وكانوا على ما ذكر في التوراة اثني عشر أكبرهم بنايوت، وهو الذي تقوله العرب نابت ونبت، ثم قيذار وأدبيل وبسام ومشمع وذوما ومسا وحرّاه وقيما وبطور ونافس وقدما. قال ابن إسحق: وعاش فيما ذكر مائة وثلاثين سنة، ودفن في الحجر مع أمه هاجر، ويقال آجر. وفي التوراة أنه قبض ابن مائة وسبع وثلاثين سنة، وأن شيعته سكنوا من حويلا إلى شور قبالة مصر من مدخل أثور، وسكنوا على حذر شيع اخوته. وحويلا عند أهل التوراة هي جنوب برقة، والواو منها قريبة من الياء. وشور هي أرض الحجاز وأثور بلاد الموصل والجزيرة. ثم ولي البيت من بعد إسماعيل ابنه نابت، وأقام ولده بمكة مع أخوالهم جرهم حتى تشعبوا وكثر نسلهم، وتعددت بطونهم من عدنان في عداد معدّ، ثم بطون معدّ في ربيعة ومضر وإياد وأنمار بني نزار بن معد. فضاقت بهم مكة على ما نذكره عند ذكر قريش وأخبار ملكهم بمكة. فكانت بطون عدنان هذه كلها من ولد إسماعيل لإبنه نابت وقيل لقيذار. ولم يذكر النسابون نسلا من ولده الآخرين. وتشعبت من إسماعيل أيضاً عند جماعة من أهل العلم بالنسب بطون قحطان كلها فيكون على هذا أبا لجميع العرب بعده.

وأمّا إسحق فأقام بمكانه من فلسطين، وعمر وعمي بعد الكثير من عمره، وبارك على ولده يعقوب، فغضب بذلك أخوه عيصو وهمَّ بقتله، فأشارت عليه رفقا بنت بَتْويل بالسير إلى حرَّان عند خاله لابان بن بتوبل، فأقام عنده وزوّجه بنتيه. فزوجه أولا الكبرى واسمها ليَّا، وأخدمها جاريتها زُلْفة، ثم من بعدها أختها الصغرى واسمها راحيل، وأخدمها جاريتها بلها. وأوّل من ولد منهنّ ليَّا ولدت له رُوبيل ثم شمعون ثم لاوي، ثم يهوذا. وكانت راحيل لا تحبل فوهبت جاريتها بَلْها ليعقوب لتلد منه، فولدت له دان ثم نفتالي، ولما فعلت ذلك راحيل وهبت أختها ليا ليعقوب عليه السلام جاريتها زلفة، فولدت له كاد وآشر، ثم ولدت ليَّا من بعد ذلك يساخر ثم زبولون، فكمل له بذلك عشرة من الولد. ثم دعت راحيل الله عزّ وجل أنّ يهب لها ولدا من يعقوب فولدت يوسف، وقد كملت له بحرَّان عشرون سنة، ثم أمر بالرحيل إلى أرض كنعان التي وعدوا بملكها. فارتحل وخرج لابان في اتباعه وعزم له في المقام

عنده فأبى، فودَّعه وانصرف إلى حران. وسار يعقوب لوجهه، حتى إذا قرب من بلد عيصو وهو جبل يسعين بأرض الكرك والشوبك لهذا العهد، اعترضه عيصو لتلقّيه وكرامته، فأهدى إليه يعقوب من ماشيته هديّة

احتفل فيها، وتودّد إليه بالخضوع والتضرُّع، فذهب ما كان عند عيصو. وأوحى الله إليه بأن يكون إسمه إسرائيل، ومر على أرشاليم وهي بيت المقدس، فاشترى هنالك مزرعة ضرب فيها فسطاطه وأمر ببناء مرجح، سماه إيل في مكان الصخرة. ثم حملت راحيل هنالك فولدت له بنيامين وماتت من نفاسه، ودفنها في بيت لحم. ثم جاء إلى أبيه إسحق بقرية جيرون من أرض كنعان، فأقام عنده.

ومات إسحق عليه السلام لمائة وثمانين سنة من عمره، ودفن مع أبيه في المغارة، وأقام يعقوب بمكانه، وولده عنده. وشب يوسف عليه السلام على غير حالهم من كرامة الله به، وقصَّ عليهم رؤياه التي بَشَّر فيها بأمره، فغصوا به وخرجوا معه إلى الصيد، فالقوه في الجبِّ. واستخرجه السيَّارة الذين مرُّوا به بعد ذلك، وباعوه للعرب بعشرين مثقالاً. ويقال: أنّ الذي تولّى بيعه هو مالك بن دَعَر بن واين بن عيفا بن مدين. واشتراه من العرب عزيز مصر، وهو وزيرها أو صاحب شرطتها. قال ابن إسحق واسمه أطفير بن رجيب، وقيل قوطفير. وكان ملكها يومئذ من العماليق الريَّان بن الوليد بن دُومغ. وربي يوسف عليه السلام في بيت العزيز، فكان من شأنه مع أمراته زليخا، ومكثه في السجن، وتعبيره الرؤيا للمحبوسين من أصحاب الملك، ما هو مذكور في الكتاب الكريم. ثم استعمله ملك مصر عندما خشي السُّنة والغلاء على خزائن الزرع في سائر مملكته، يقدر جمعها وتصريف الأرزاق منها، وأطلق يده بذلك في جميع أعماله، وألبسه خاتمه وحمله على مركبه. ويوسف لذلك العهد ابن ثلاثين سنة، فقيل عزل أطفير العزيز وولاه. وقيل بل مات أطفير فتزوّج زليخا وتولّى عمله ، وكان ذلك سبباً لانتظام شمله بأبيه وإخوته لما أصابتهم السنة بأرض كنعان، وجاء بعضهم للميرة، وكال لهم يوسف عليه السلام، وردّ عليهم بضاعتهم وطالبهم بحضور أخيهم، فكان ذلك كله سببا لاجتماعه بأبيه يعقوب بعد أنّ كبر وعمي.

قال ابن إسحق: كان ذلك لعشرين سنة من مغيبه، ولما وصل يعقوب إلى بلبيس قريباً من مصر خرج يوسف ليلقاه. ويقال خرج فرعون معه، وأطلق لهم أرض

بلبيس يسكنون بها وينتفعون. وكان وصول يعقوب صلوات الله عليه في سبعين راكباً من بنيه، ومعه أيوب النبي من بنيّ عيصو وهو أيوب بن برحما بن زبرح بن رعويل بن عيصو، واستقّروا جميعا بمصر، ثم قُبض يعقوب صلوات الله عليه لسبع عشرة من مقدمه ولمائة وأربعين من عمره، وحمله يوسف صلوات الله عليه إلى أرض فلسطين، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها بإذن من فرعون. واعترضهم بعض الكنعانّيين في طريقهم فأوقعوا بهم، وانتهوا إلى مدفن إبراهيم وإسحق عليهما السلام، فدفنوه في المغارة عندهما، وانتقلوا إلى مصر. وأقام يوسف صلوات الله عليه بعد موت أبيه، ومعه إخوته إلى أنّ أدركته الوفاة، فقُبِضَ لمائة وعشرين سنة من عمره، وادرج في تابوت وختم عليه، ودفن في بعض مجاري النيل. وكان يوسف أوصى أنّ يحمل عند خروج بني إسرائيل إلى أرض اليفاع فيدفن هنالك، ولم تزل وصيته محفوظة عندهم، إلى أنّ حمله موسى صلوات الله عليه عند خروجه ببني إسرائيل من مصر.

ولما قُبَضَ يوسف صلوات الله عليه وبقي من بقي من الأسْباط، إخوته وبنيه تحت سلطان الفراعنة بمصر، تشعَّب نسلهم وتعدَّدوا إلى أنّ كاثروا أهل الدولة وارتابوا بهم فاستعبدوهم. قال المسعودي: دخل يعقوب إلى مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف في سبعين راكبا، وكان مُقَامُهُم بمصر إلى أنّ خرجوا مع موسى صلوات الله عليه نحواً من مائتين وعشر سنين، فتداولهم ملوك القِبْط والعمالقة بمصر، ثم أحصاهم موسى في التَيْه، وعدّ من يطيق حمل السلاح من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف ويزيدون. وقد ذكرنا ما في هذا العدد من الوَهْم والغلوِّ في مقدّمة الكتاب، فلا نطوِّلَ به. ووقوعه، في نص التوراة لا يقضي بتحقيق هذا العدد، لأن المقام للمبالغة فلا تكون إعداده نصوصاً. وكان ليوسف صلوات عليه من الولد كثير إلا أنّ المعروف منهم اثنان: أفراثيم ومنشى، وهما معدودان في الأسباط، لأن يعقوب صلوات الله عليه أدركهما وبارك عليهما، وجعلهما من جملة ولده. وقد يزعم بعض من لا تحقيق عنده أنّ يوسف صلوات الله عليه إستقل آخرا بملك مصر، وينسب لبعض ضعفة المفسرَين، ومعتمدهم في ذلك قول

يوسف عليه السلام في دعائه: رب قد آتيتني من الملك، ولا دليل لهم في ذلك، لأن كل من ملك شيئاً ولو في خاصة نفسه فاستيلاؤه يسمى مُلْكاً حتى البيت والفَرَس والخادم، فكيف من مَلَكَ التصرُّف، ولو كان في شعب واحد منها فهو ملك. وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكا، مثل هجر ومعان ودومة الجندل، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد، وفي تلك الدولة. وقد كان في الخلافة العباسيّة تسمى ولاة الأطراف وعمالها ملوكا، فلا استدلال لهم في هذه الصيغة، وأخرى أيضاً فيما يستدلون به من قوله تعالى: {**وكذلك مكنا ليوسف في الأرض** }[سورة...] ، أنّ لا يكون لهم فيه مستند، لأنَّ التمكين يكون بغير الملك. ونص القرآن إنَّما هو بولايته على أمور الزرع في جمعه وتفريقه، كما قال تعالى: { **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** }[سورة....]. ومساق القصة كلها أنه مرؤس في تلك الدولة بقرائن الحال كلها، لا ما يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه، فلا نعدل من النص المحفوف بالقرائن إلى هذا المتوهم الضعيف. وأيضا فالقصّة في التوراة قد وقعت صريحة في أنه لم يكن ملكا، ولا صار إليه مُلْك. وأيضا فالأمر الطبيعي من الشوكة والقطامة له يدفع أنّ يكون حصل له ملك، لأنه إنما كان في تلك الدولة قبل أنّ يا تي إليه إخوته منفرداً لا يملك إلا نفسه، ولا يا تي الملك في هذا الحال، وقد تقدَّم ذلك في مقدمة الكتاب والله أعلم.

عيصو: وأما عيصو بن إسحق فسكن جبال بني يسعين من بني جوى إحدى شعوب كنعان، وهي جبال الشراة بين تبوك وفلسطين، وتعرف اليوم ببلاد كرك والشوبك. وكان من شعوبهم هنالك على ما في التوراة بنو لوطان وبنو شوبال وبنو صمقون وبنو عنا وبنو ديشوق وبنو يصد وبنو ديسان سبعة شعوب. ومن بني ديشون الأشبان، فسكن عيصو بينهم بتلك البلاد، وتزوّج منهم من بنات عنا بن يسعين من جوى ، وهي أهليقاما، وتزوّج أيضاً من بنات حي من الكنعانيين عاذا بنت أيلول وباسمت بنت إسماعيل عليه السلام. وكان له من الولد خمسة مذكورون في التوراة أكبرهم أليفاز، بالفاء المفخّمة وإشباع حركتها وزاي معجمة من بعدها من عاذا بنت أيلول. ثم رعويل من باسمت بنت إسماعيل، ثم يعوش ويعلام وقورح من أهليقاما بنت عنا.

وولد أليفاز ستة من الولد: ثيمال وأومار وصفو وكعتام وقتال وعمالق السادس، لسرّيّة اسمها تمناع وهي شقيقة لوطان بن يسعين. وولد رعويل بن عيصو أربعة من الولد: ناحة وزيدم وشتما ومرّا. هكذا وقع ذكر وُلْد العيص وولدهم في التوراة.وفيها أنّ

العيص إسمه أدوم، فلذلك قيل لهم بنو أدوم، ولبعض الإسرائيليين أنّ أدوم اسم لذلك الجبل، ومعناه بالعبرانية الجبل الأحمر الذّي لا نبات به. وقد يقع لبعض المؤرّخين أنّ القياصرة ملوك الروم من ولد عيصو، وقال الطبريُّ: أنّ الروم وفارس من ولد رعويل بن باسمت وليس ذلك كله بصحيح. ورأيته في كتاب يوسف بن كرمون: مؤرخ العمارة الثانية ببيت المقدس قبيل الجلوة الكبرى وكان من كهنوتينا اليهود، وهو قريب من الغلط.

قال ابن حزم في كتاب الجمهرة: وكان لإسحق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب اسمه عيصاب أو عيصو، كان بنوه يسكنون جبال الشراة بين الشام والحجاز، وقد بادوا جملة، إلا أنّ قوما يذكرون أنّ الروم من وُلْده وهذا خطأ. وإنّما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يقال له أدوم فظنوا أنّ الروم من ذلك الموضع وليس كذلك، لأن الروم إنما نسبوا إلى رمس باني رومة، فإن ظنّ ظان أنّ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم للحُرّ بن قيس: هل لك في بلاد بني الأصفر العام، وذلك في غزوة تبوك، يدل على أنّ الروم من بني الأصفر وهو عيصاب المذكور وليس كما ظُنّ وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حق ؛ وإنما عنى عليه السلام بني عيصاب على الحقيقة لا الروم، لأن مغزاه عليه الصلاة والسلام في تلك الغزوة كان إلى ناحية الشراة مسكن القوم المذكورين ا ه . كلام ابن حزم.

وزعم أهروشيوش مؤرّخ الروم أنّ أم الفينان وهاؤا وعالوم وقدوح الأربعة من بنات كاتيم بن ياوان ابن يافث، والأوّل أصح لأنه نص التوراة. ثم كثر نسل بني عيصو بأرض يسعين وغلبوا الجويّين على تلك البلاد، وغلبوا بني مدين أيضاً على بلادهم إلى أيلة. وتداول فيهم ملوك وعظماء، كان منهم فالغ بن ساعور، وبعده يودب بن زيدح. ثم كان منهم هداد بن مدّاد الذي أخرج بني مدين عن مواطنهم. ثم كان فيهم بعده ملوك إلى أنّ زحف يوشع إلى الشام، وفتح أريحاء وما بعدها، وانتزع الملك من جميع الأمم الذين كانوا هنالك، ثم استلحمهم بختنصر عندما ملك أرض القدس، ولحق بعضهم بأرض يونان وبعضهم بأفريقية. وأما عمالق بن أليفاز فمن عقبه عند الإسرائيليين عمالقة الشام. وفي قول فراعنة مصر من القِبْط. ونُسّاب العرب يأبون من ذلك، ونسبوهم إلى عملاق بن لاوذ كما مرّ. ثم بنو يروم وكنعان، ولم يبق منهم عين تطرف والله الباقي بعد فناء خلقه.

مدين: وأمّا مدين بن إبراهيم فتزوّج بابنة لوط، وجعل الله في نسلها البركة، وكان له من الولد خمسة: عيفا وعيفين وحنوخ وأنيداغ وألزاعا. وقد تقدم ذكرهم في ولد إبراهيم من قنطورا، فكان منهم مدين أمّة كبيرة ذات بطون وشعوب، وكانوا من أكبر قبائل الشام وأكثرهم عددا. وكانت مواطنهم تجاور أرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط. وكان لهم تغلبٌ بتلك الأرض فعتوا وبغوا وعبدوا

الآلهة، وكانوا يقطعون السُبُل ويبخسون في المكيال. وبعث الله فيهم شعيبا نبيا منهم وهو ابن نويل بن رعويل بن عيا بن مدين. قال المسعوديّ: مدين هؤلاء من ولد المحضر بن جندل بن يعصب بن مدين، وأن شُعيبا أخوهم في النسب، وكانوا ملوكا عدة يسمون بكلمات أبجد إلى آخرها وفيه نظر. وقال ابن حبيب في كتاب البدء: هو شُعَيْب بن نويب بن أحزم بن مَدْيَن وقال السهيلي: شعيب بن عيفا ويقال ابن صيفون. وشعيب هذا هو شعيب موسى الذي هاجر إليه من مصر أيام القبط، واستأجره على إنكاح ابنته إياه على أنّ يخدمه ثماني سنين، وأخذ عنه آداب الكتاب والنبوّة حسبما يا تي عند ذكر موسى صلوات الله عليهما، وأخبار بني إسرائيل. وقال الصيمري: الذي استأجر موسى وزوّجه: هو يَثْر بن رعويل. ووقع في التوراة أنّ اسمه يَبْثُر وأن رعويل أباه أو عمّه هو الذي تولى عقد النكاح. وكان لمدين هؤلاء مع بني إسرائيل حروب بالشام، ثم تغلب عليهم بنو إسرائيل وانقرضوا جميعا.

لوط: وأما لوط بن هاران أخي إبراهيم عليهما السلام فقد تقدّم من خبره مع قومه ما ذكرناه هنالك. ولما نجا بعد هلاكهم لحق بأرض فلسطين، فكان بها مع إبراهيم إلى أنّ قبضه الله، وكان له من الولد على ما ذكر في التوراة عمُّون، بتشديد الميم وإشباع حركتها بالضمّ ونون بعدها، وموآبي بإشباع ضمة الميم وإشباع فتحة الهمزة بعدها وياء تحتية وبعدها ياء ساكنة هوائية، وجعل الله في نسلهما البركة حتى كانوا من أكثر قبائل الشام، وكانت مساكنهم بأرض البلقاء ومدائنها في بلد موآبي ومعان وما والاهما. وكانت لهم مع بني إسرائيل حروب نذكرها في أخبارهم، وكان منهم بلعام بن باعورا بن رسيوم بن برسيم بن موآبي، وقصته مع ملك كنعان حين طلبه في الدعاء على بني إسرائيل أيام موسى صلوات الله عليه، وأنّ دعاءه صرف إلى الكنعانيين مذكورة في التوراة ونوردها في موضعها.

وأمّا ناحور أخو إبراهيم عليه السلام فقد تقدّم ذكره أنه هاجر مع إبراهيم عليه السلام من بابل إلى حرّان، ثم إلى الأرض المقدّسة، فكان معه هنالك، وكانت زوجته مَلْكا بنت أخيه هاران، ومَلْكا هذه هي أخت سارة زوج إبراهيم عليه السلام، وأم إسحق. وكان لناحور من مَلْكا على ما وقع في نص التوراة ثمانية من الوُلْد: عوص وبوص، وقمويل وهو أبو الأرمن، وكاس ومنه الكلدانيّون الذين كان منهم بختنصّر وملوك بابل، وحذو وبلداس وبلداف ويثويل. وكان له من سرية إسمها أدوما أربعة من الوُلْد وهم: طالج وكاحم وتاخش وماعخا. هؤلاء ولد ناحور أخي إبراهيم كلهم مذكورون في التوراة وهم إثنا عشر ولدا، وهؤلاء كلهم بادوا وانقرضوا، ولم يبق منهم إلاّ الأرمن من قمويل بن ناحور أخي إبراهيم عليه السلام ابن آزر، وهم لهذا العهد على دين النصرانية ومواطنهم في أرمينية شرقي القسطنطينية. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من العرب ومن عاصرهم من الأمم، ولنرجع إلى أهل الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة، والله سبحانه وتعالى الكفيل بالإعانة.

شجرة نسب إبراهيم

صورة

الطبقة الثانية من العرب

وهم العرب المستعربة وذكر أنسابهم

وأيامهم وملوكهم والإلمام ببعض الدول التي كانت على عهدهم

وإنّما سمّي أهل هذه الطبقة بهذا الاسم، لأنّ السمات والشعائر العربية لما انتقلت إليهم ممن قبلهم إعتبرت فيها الصيرورة بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم، وهي اللغة العربية التي تكلموا بها. فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم: استنوق الجمل واستحجر الطين. وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم- فيما يعلم- جيلا كانت اللغة العربية لهم بالأصالة ،وقيل العاربة.

واعلم أنّ أهل هذا الجيل من العرب يعرفون باليمنيَّة والسبائيّة، وقد تقدم أنّ نسَّابة بني إسرائيل يزعمون أنّ أباهم سَبَا من وُلْد كوش بن كنعان، ونسَّابة العرب يأبون ذلك ويدفعونه، والصحيح الذي عليه كافتهم أنهم من قحطان، وأنّ سبا هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقال ابن إسحق: يعرب بن يشْجُب فقدم وأخر. وقال ابن ماكولا على ما نقل عنه السهيليّ: اسم قحطان مَهْزَم. وبين النسَّابة خلاف في نسب قحطان: فقيل هو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام أخو فالغ ويقطُن، ولم يقع له ذكر في التوراة، وإنّما ذكر فالغ ويقطن. وقيل هو معرَّب يَقْطُن لأنّه إسمٌ أعجمي، والعرب تتصرّف في الأسماء الأعجمية بتبديل حروفها وتغييرها، وتقديم بعضها على بعض. وقيل: أنّ قحطان بن يمن بن قيدار، وقيل: أنّ قحطان من ولد إسماعيل. وأصح ما قيل في هذا أنّه قحطان بن يمن بن قيدر ويقال الهُمَيْسع بن يَمَن بن قيدار، وأنّ يمن هذا سميت به اليمن. وقال ابن هشام: أنّ يعرب بن قحطان كان يسمى يمنا وبه سميت اليمن. فعلى القول بأن قحطان من ولد إسماعيل تكون العرب كلهم من ولده، لأن عدنان وقحطان يستوعبان شعوب العرب كلها.

وقد احتج لذلك من ذهب إليه بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لرماة الأنصار:" ارموا يا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا". والأنصار من ولد سبا وهو ابن قحطان، وقيل: إنّما قال ذلك لقوم من أسلم من أقصى إخوة خزاعة بن حارثة بناء على أنّ نسبهم في سَبَا. وقال السهيلي: ولا حجة في شيء منهما، لأنه إذا كانت العرب كلها من ولد

إسماعيل فهذا من السهيليّ جنوح إلى القول بمفهوم اللقب وهو ضعيف. ثم قال: والصحيح أنّ هذا القول إنما كان منه صلى الله عليه وسلم لأسلم كما قدّمناه، وإنما أراد أنّ خزاعة من معد بن إلياس بن مضر، وليسوا من سبا ولا من قحطان، كما هو الصحيح في نسبهم على ما يأتى. واحتجوا أيضاً لذلك بأنّ قحطان لم يقع له ذكر في التوراة كما تقدم، فدل على إنه ليس من ولد عابر فترجح القول بأنّه من إسماعيل، وهذا مردود بما تقدم أنّ قحطان معرب يقطن وهو الصحيح. وليس بين الناس خلاف في أنّ قحطان أبو اليمن كلهم.ويقال: إنه أوّل من تكلم بالعربية، ومعناه من أهل هذا الجيل.الذين هم العرب المستعربة من اليمنية، وإلاّ فقد كان للعرب جيل آخر وهم العرب العاربة، ومنهم تعلم قحطان تلك اللغة العربية ضرورة، ولا يمكن أنّ يتكلم بها من ذات نفسه. وكان بنو قحطان هؤلاء معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة، ومظاهرين لهم على أمورهم،

و لم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية، مبعدين عن رتبة الملك وترفه الذي كان أولئك، فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذي يسوق إليه الترف والنضارة، فتشعبت في أرض الفضاء فصائلهم، وتعدّد في جوّ القفر أفخاذهم وعشائرهم، ونما عددهم وكثرت إخوانهم من العمالقة في آخر ذلك الجيل، وزاحموهم بمناكبهم واستجدوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم.

وكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم، وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب. يقال: انه أول من حيّاه قومه بتحية الملك. قال ابن سعيد: وهو الذي ملك بلاد اليمن وغلب عليها قوم عاد، وغلب العمالقة على الحجاز وولى إخوته على جميع أعمالهم فولّى جرهما على الحجاز، وعاد بن قحطان على الشحر، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر وعمان بن قحطان على بلاد عمان. هكذا ذكر البيهقي.وقال ابن حزم: وعدّ لقحطان عشرة من الولد، وأنه لم يعقب منهم أحد. ثم ذكر ابنين منهم دخلوا في حِمْيَر، ثم ذكر الحرث بن قحطان وقال: فولد فيما يقال له لاسور، وهم رهط حنظلة بن صفوان نبي الرس، والرس ما بين نجران إلى اليمن، ومن حضرموت إلى اليمامة. ثم ذكر يعرب بن قحطان وقال فيهم الحميريّة والعدّاد انتهى. قال ابن سعيد وملك بعد يعرب إبنه يشجب، وقيل إسمه يمن، واستبدّ أعمامه بما في أيديهم من الممالك. وملك بعده إبنه عبد شمس، وقيل عابر ويسمى سبا، لأنه قيل إنه أوّل من سنّ السبي، وبنى مدينة سبا وسد مأرب. وقال صاحب التيجان إنه غزا

الأقطار، وبنى مدينة عين شمس بإقليم مصر، وولّى عليها إبنه بابليون، وكان لسبا من الولد كثير، وأشهرهم حِمْيَر وكهلان اللذان منهما الأمتان العظيمتان من اليمنية أهل الكثرة والملك والعزّ وملك حِمْيَر منهم أعظمه. وكان منهم التبابعة كما يذكر في أخبارهم. وعدّ ابن حزم في ولده زيدان وابنه نجران بن زيدان، وبه سميت البلد.

ولما هلك سبا قام بالملك بعده ابنه حِمْيَر ويعرف بالعرنجج، وقيل هو أول من تتوج بالذهب. ويقال انه ملك خمسين سنة. وكان له من الولد ستة فيما قال السهيلي: واثل ومالك وزيد وعامر وعوف وسعد. وقال أبو محمد بن حزم: الهميسع ومالك وزيد وواثل ومشروح ومعديكرب وأوس ومرّة. وعاش فيما قال السهيلى ثلثمائة سنة، وملك بعده ابنه واثل وتغلب أخوه مالك بن حِمْيَر على عمان، فكانت بينهما حروب. وقال ابن سعيد: أنّ الذي ملك بعد حِمْيَر أخوه كهلان، ومن بعد واثل بن حِمْيَر، ثم من بعد واثل السكسك بن واثل. وكان مالك بن حِمْيَر قد هلك وغلب على عمان بعده ابنه قضاعة، فحاربه السكسك وأخرجه عنها، وملك بعده ابنه يعفر بن السكسك، وخرجت عليه الخوارج، وحاربه مالك بن الحاف بن قضاعة، وطالت الفتنة بينهما وهلك يعفر وخلف ابنه النعمان حملا ويعرف بالمعافر، واستبد عليه من بني حِمْيَر ماران بن عوف بن حِمْيَر ويعرف بذي رياش، وكان صاحب البحرين، فترل نجران واشتغل بحرب مالك بن الحاف بن قضاعة.ولما كبر النعمان حبس ذا رياش واستبدّ بأمره، وطال عمره وملك بعده ابنه أسجم بن المعافر، فاضطربت أحوال حِمْيَر وصار ملكهم طوائف، إلى أنّ استقر في الرايش وبنيه التبابعة كما نذكره. ويقال انّ

بني كهلان تداولوا الملك مع حِمْيَر هؤلاء وملك منهم جبّار بن غالب بن كهلان، وملك أيضا من شعوب قحطان نجران بن زيد بن يعرب بن قحطان، وملك من حِمْيَر هؤلاء، ثم من بني الهميسع بن حِمْيَر أبين بن زهير بن الغوث بن أبين بن الهميسع، وإليه نسب عرب أبين من بلاد اليمن. وملك منهم أيضاً عبد شمس بن واثل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبين بن الهميسع بن حِمْيَر. ثم ملك من أعقابه شداد بن المطاط بن عمرو بن ذي هرم بن الصوّان بن عبد شمس، وبعده أخوه لقمان ثم أخوهما ذو شدد، وهدّاد ومداثر، وبعده ابنه الصعب، ويقال انه ذو القرنين. وبعده أخوه الحرث بن ذي شدد، وهو الرائش جدّ الملوك التبابعة. وملك في حِمْيَر أيضا من بني الهميسع من بني عبد شمس هؤلاء، حسان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس. قال أبو المنذر هشام بن الكلبي في كتاب الأنساب، ونقلته من أصل عتيق بخط القاضي المحدّث أبي القاسم بن عبد الرحمن بن حبيش قال: ذكر الكلبى عن رجل من حِمْيَر من ذي الكلاع قال: أقبل قيس يحرق موضعا باليمن، فأبدى عن أزج فدخل فيه، فوجد سريرا عليه رجل ميت وعليه جباب وشي مذهّبة في رأسه تاج، وبين يديه مجحن من ذهب، وفي رأسه ياقوتة حمراء، وإذا لوح مكتوب فيه: بسم الله رب حِمْيَر، أنا حسان بن عمرو والقيل، مات في زمان هيد وماهيد، هلك فيها اثنا عشر ألف قبيل، فكنت آخرهم قبيلا، فابتنيت ذا شعبين ليجيرني من الموت فاخفرني ا ه . كلامه. وقال الطبريّ: وقيل أنّ أوّل من ملك اليمن من حِمْيَر شمر بن الأملوك، كان لعهد موسى عليه السلام وبني طفّار، وأخرج منها العمالقة، ويقال كان من عمال الفرس على اليمن. انتهى الكلام في أخبار حِمْيَر الأولى والله سبحانه تعالى ولي العون.

خريطة

الخبر عن ملوك التبابعة من حِمْيَر

و أوليتهم باليمن ومصاير أمورهم

هؤلاء الملوك من ولد عبد شمس بن واثل بن الغوث باتفاق من النسّابين، وقد مرّ نسبه إلى حِمْيَر، وكانت مدائن ملكهم صنعاء ومأرب على ثلاث مراحل منها. وكان بها السدّ، ضربته بلقيس ملكة من ملوكهم سدّا ما بين جبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيه خروقا على قدر ما يحتاجون إليه في سقيهم، وهو الذي يسمى العرم والسكر وهو جمع لا واحد له من لفظه قال الجعدي:

من سبأ الحاضرين مأرب اذ　　　　يبنون من دون سيله العرما

أي السدّ ويقال أنّ الذي بنى السدّ هو حِمْيَر أبو القبائل اليمنية كلها قال الأعشى:

ففي ذلك للمؤتسي أسوة　　　　مأرب غطى عليه العرم

رخام بناه لهم حِميَر　　　　إذا جاءه من رامه لم يرم

وقيل بناه لقمان الأكبر ابن عاد كما قاله المسعودي، وقال: جعله فرسخاً في فرسخ، وجعل له ثلاثين شعباً، وقيل وهو الأليق والأصوب أنه من بناء سبا بن يشجب، وأنه ساق إليه سبعين وادياً، ومات قبل إتمامه، فأتمّه حِمْيَر من بعده، وإنّما رجحّناه لأن المباني العظيمة والهياكل الشامخة لا يستقل بها الواحد كما قدّمنا في الكتاب

الأوّل. فأقاموا في جناته عن اليمين والشمال كما وصف القرآن. ودولتهم يومئذ في جناته عن اليمين والشمال كما وصف القرآن. ودولتهم يومئذ أوفر ما كانت، وأترف وأبذخ وأعلى يداً وأظهر، فلما طغوا وأعرضوا سلط الله عليهم الخلد وهو الجرذ، فنقبه من أسفله فأجحفهم السيل، وأغرق جناقم، وخربت أرضهم، وتمزق فلكهم وصاروا أحاديث.

وكان هؤلاء التبابعة ملوكاً عدّة في عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة، و لم يضبطهم الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد. وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب تارة، ويقتصرون على يمنهم أخرى، فاختلفت أحوالهم واتفقت أسماء كثيرة من ملوكهم،ووقع اللبس في نقل أيامهم ودولهم، فلنأت .بما صحّ منها متحرّياً جهد الإستطاعة عن طموس من الفكر واقتفاء التقاييد المرجوع

إليها، والأصول المعتمد على نقلها وعدم الوقوف على أخبارهم مدونة في كتاب واحد والله المستعان.

قال السهيليّ: معنى تبّع الملك المتبع، وقال صاحب المحكم: التبابعة ملوك اليمن، وأحدهم تبّع لأنهم يتبع بعضهم بعضاً، كلما هلك واحد قام آخر تابعا له في سيرته، وزادوا الباء في التبابعة لارادة النسب. قال الزمخشري: قيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل الأقيال، لأنهم يتقيلون. قال المسعودى: و لم يكونوا يسمون الملك منهم تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ، وقيل حتى يتبعه بنو جشم بن عبد شمس، ومن لم يكن له شيء من الأمرين فيسمى ملكاً ولا يقال له تبّع.

وأول ملوك التبابعة باتفاق من المؤرخين الحرث الرائش، وإنما سميّ للرائش لأنه راش الناس بالعطاء، واختلف الناس في نسبه بعد اتفاقهم على أنه من ولد واثل بن الغوث بن حيران بن قطن بن غريب بن زهير بن ايبن بن الهميسع بن حِمْيَر. فقال ابن إسحق: وأبو المنذر بن الكلبي انّ قيسا بن معاوية بن جشم. فابن اسحق يقول في نسبه إلى سبا الحرث بن عديّ بن صيفي: وابن الكلبيّ يقول الحرث بن قيس بن صيفي. وقال السهيلي هو الحرث بن همال بن ذي سدد بن الملطاط بن عمرو بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن واثل. وجشم جدّ سبا هو ابن عبد شمس. هذا عند المسعودي، وعند بعضهم أنه أخوه، وأنهما معا إبنا واثل. وذكر المسعودي عن عبيد بن شرية الجرهميّ، وقد سأله معاوية عن ملوك اليمن في خبر طويل، ونسب الحرث منهم فقال: هوالحرث بن شدد بن الملطاط بن عمرو. وأمّا عند الطبري فاختلف نسبه في نسب الحرث، فمرّة قال: وبيت ملك التبابعة في سبا الأصغر، ونسبه كما مرّ. وقال في موضع آخر: والحرث بن ذي شدد هو الرائش جدّ الملوك التبابعة، فجعله إلى شدد و لم ينسبه إلى قيس ولا عديّ من ولد سبا. وكذلك اضطرب أبو محمد بن حزم في نسبه في الجمهرة مرّة إلى الملطاط ومرّة إلى سبا الأصغر، والظاهر أنه تبع في ذلك الطبري والله أعلم. وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمسا وعشرين سنة، وكان يسمّى تبعاً وكان مؤمنا فيما قال السهيليّ. ثم ملك بعده ابنه أبرهة ذو المنار مائة وثمانين سنة. قال المسعوديّ، وقال ابن هشام: أبرهة ذو المنار هو ابن الصعب بن ذي مدا ثر بن الملطاط، وسميّ ذا المنار لأنه رفع المنار ليهتدي به. ثم ملك من بعده أفريقش بن

أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو أفريقش بن قيس بن صيفي أخو الحرث الرائش، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وبه سميت، وساق البربر إليها من أرض كنعان مرّ بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل الفل منهم، وساقهم إلى أفريقية فأنزلهم بها، وقتل ملكها جرجير، ويقال إنه الذي سمي البرابرة بهذا الإسم، لأنه لما افتتح المغرب، وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة، والبربرة في لغة العرب هي اختلاط أصوات غير مفهومة، ومنه بربرة الأسد.ولما رجع من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حِمْيَر صنهاجة وكتامة فهم إلى الآن بها، وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري والجرجاني والمسعوديّ وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين.

ثم ملك من بعد أفريقش أخوه العبد بن أبرهة وهو ذو الأذعار عند المسعودي قال: سميّ بذلك لكثرة ذعر الناس من جوره، وملك خمسا وعشرين سنة، وكان على عهد سليمان بن داود وقبله بقليل، وغزا ديار المغرب وسار إليه كيقاوس بن كنعان ملك فارس، فبارزه وانهزم كيقاوس وأسره ذو الأذعار، حتى استنقذه بعد حين من يديه وزيره رستم، زحف إليه بجموع فارس إلى اليمن، وحارب ذا الأذعار فغلبه واستخلص كيقاوس من أسره، كما نذكره في أخبار ملوك فارس. وقال الطبري إنّ ذا الأذعار اسمه عمرو بن ابرهة ذي المنار بن الحرث الرائش بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر انتهى. وكان مهلك ذي الأذعار فيما ذكر ابن هشام مسموماً على يد الملكة بلقيس.

وملك من بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن ذي الأذعار، وهو ذو الصرح، وملك ستا أو عشرا فيما قال المسعودي. وملكت بعده ابنته بلقيس سبع سنين. وقال الطبري: إنّ إسم بلقيس يلقمة بنت اليشرح بن الحرث بن قيس انتهى.ثم غلبهم سليمان عليه السلام على اليمن كما وقع في القرآن، فيقال تزوجها ويقال بل عزلها في التأيم، فتزوجت سدد بن زرعة بن سبا، وأقاموا في ملك سليمان وابنه أربعا وعشرين سنة. ثم قام بملكهم ناشر بن عمرو ذي الأذعار، ويعرف بناشر النعم، لفظين مركبين جعلا اسما واحدا، كذا ضبطه الجر جاني. وقال السهيلي ناشر بن عمرو، ثم قال ويقال ناشر النعم. وفي كتاب السعودى نافس بن عمرو، ولعله تصحيف، ونسبه إلى عمرو ذي الأذعار وليس يتحقق في هذه الأنساب كلها أنها للصلب فإنّ الآماد، طويلة والأحقاق بعيدة، وقد يكون بين إثنين منهما عدد من الآباء، وقد يكون ملصقاً به. وقال هشام بن الكلبي انّ ملك اليمن صار بعد بلقيس إلى ناشر بن عمرو بن يعفر الذي يقال له ياسرأنعم، لانعامه عليهم بما جمع من أمرهم وقوي من ملكهم. وزعم أهل اليمن أنه سار غازياً إلى المغرب، فبلغ وادي الرمل ولم يبلغه أحد، ولم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل، وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا، فأمر بصنم من نحاس نصب على شفيرالوادي، وكتب في صدره بالخط المسند هذا الصنم لياسر أنعم الحمير في ليس وراءه مذهب* فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب انتهى.

ثم ملك بعد ياسر هذا ابنه شمر مرعش، سمي بذلك لارتعاش كان به، ويقال انه وطىء أرض العراق وفارس وخراسان، وافتتح مدائنها، وخرب مدينة الصغد وراء جيحون ، فقالت العجم: "شمر كنداي " شمر خرّب.

وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا. وعربته العرب فصار سمرقند. ويقال انه الذي قاتل قباذ ملك الفرس وأسره، وأنه الذي حير الحيرة، وكان ملكه مائة وستين سنة. وذكر بعض الإخباريّين أنه ملك بلاد الروم، وأنه الذي استعمل عليهم ماهان قيصر فهلك، وملك بعده ابنه دقيوس. وقال السهيلي في شمر مرعش الذي سميت به سمرقند انه شمر بن مالك، ومالك هو الأملوك الذي قيل فيه:

فنقب عن الأملوك واهتف بذكره وعش دار عزٍ لا يغالبه الدهر

وهذا غلط من السهيلي فإنهم مجمعون على أنّ الأملوك كان لعهد موسى صلوات الله عليه، وشمر، من أعقاب ذي الأذعار الذي كان على عهد سليمان، فلا يصح ذلك إلا أنّ يكون شمر أبرهة، ويكون أول دولة التبابعة.

ثم ملك على التبابعة بعد شمر مرعش تبّع الأقرن واسمه زيد.(قال السهيلي) وهو ابن شمر مرعش، وقال الطبريّ انه ابن عمرو ذي الأذعار. وقال السهيلي إنما الأقرن لشامة كانت في قرنه، وملك ثلاثاً وخمسين سنة. وقال المسعودي ثلاثا وستين. ثم ملك من بعده ابنه ملكيكرب، وكان مضعّفاً ولم يغز قط إلى أنّ مات، وملك بعده ابنه تبان أسعد أبو كرب، ويقال هو تبّع الآخر، وهو المشهور من ملوك التبابعة. وعند الطبرى أنّ الذي بعد ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار تبع الأقرن أخوه. ثم بعد تبع الأقرن شمر مرعش بن ياسر ينعم، ثم من بعده تبع الأصغر، وهو تبان أسعد أبو كرب، هذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة. وقال الطبريّ: ويقال له الرائد،

وكان على عهد يستاسب وحافده أردشير يمن ابن ابنه أسفنديار من ملوك الفرس.

وأنه شخص من اليمن غازيا ومرّ بالحيرة فتحيّر عسكره هنالك فسميت الحيرة،وخلف قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة، فأقاموا هنالك وبنوا الإطام. واجتمع إليهم ناس من طيرة وكلب والسكون وأياد والحرث بن كعب. ثم توجه الانبار ثم الموصل ثم أذربيجان، ولقي الترك فهزمهم وقتل وسبى، ثم رجع إلى اليمن وهابته الملوك، وهادنه ملوك الهند، ثم رجع لغزو الترك، وبعث إبنه حسّان إلى الصغد وإبنه يعفر إلى الروم، وابن أخيه شمر ذي الجناح إلى الفرس، وان شمر لقي كيقباذ ملك الفرس فهزمه، وملك سمرقند وقتله، وجاز إلى الصين فوجد أخاه حسّان قد سبقه إليها، فأثخنا في القتل والسبي، وانصرفا بما معهما من الغنائم إلى أبيهما.وبعث ابنه يعفر إلى القسطنطينيّة فتلقوه بالجزية والأتاوة، فسار إلى رومة، وحصرها، ووقع الطاعون في عسكره فاستضعفهم الروم ووثبوا عليهم فقتلوهم، ولم يفلت منهم أحد. ثم رجع إلى اليمن، ويقال أنه ترك ببلاد الصين قوما من حِمْيَر وأنهم بها لهذا العهد، وأنه ترك ضعفاء الناس بظاهر الكوفة، فتحيروا هنالك وأقاموا معهم من كل قبائل العرب.وقال ابن إسحق: إنّ الذي سار إلى المشرق من التبابعة تّبع الآخر، وهو تبان أسعد أبو كرب بن ملكيكرب بن زيد الأقرن بن عمرو ذي الأذعار، وتبان أسعد هو حسان تبع، وهو- فيما يقال- أول من كسا الكعبة. وذكر ابن إسحق الملاء والوصائل، وأوصى ولاته من جرهم بتطهيرها، وجعل لها باباً ومفتاحاً. وذكر ابن إسحق أنه أخذ بدين اليهودية. وذكر في سبب تهوده أنه لما غزا إلى المشرق مرّ بالمدينة يثرب، فملكها وخلف ابنه فيهم فعدوا عليه وقتلوه غيلة. ورئيسهم يومئذ عمرو بن الطلة من بني النجار. فلما

أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة مجمعا على خرابها، فجمع هذا الحي من أبناء قيلة لقتاله، فقاتلهم. وبينما هم على ذلك جاءه حبران من أحبار يهود من بني قريظة وقالا له: لا تفعل ! فإنك لن تقدر، وأنّها مهاجر نبي قرشي يخرج آخر الزمان، فتكون قراراً له. وانه أعجب بهما واتبعهما على دينهما ثم مضى لوجهه. ولقبه دون مكة نفر من هُذيل وأغروه بمال الكعبة وما فيها من الجواهر والكنوز، فنهاه الحبران عن ذلك وقالا له: إنما أراد هؤلاء هلاكك، فقتل النفر من الهذليين وقدم مكة، فأمره الحبران بالطواف بهما والخضوع، ثم كساها كما تقدّم. وأمر ولاتها من

جرهم بتطهيرها من الدماء والحيض وسائر النجاسات، وجعل لها باباً ومفتاحاً. ثم سارإلى اليمن، وقد ذكر قومه ما أخذ به من دين اليهودية، وكانوا يعبدون الأوثان، فتعرضوا لمنعه ثم حاكموه إلى النار التي كانوا يحاكمون إليها فتأكل الظالم وتدع المظلوم. وجاؤا بأوثانهم، وخرج الحبران متقلدين المصاحف، ودخل الحميريون فأكلتهم وأوثانهم. وخرجا منها ترشح وجوههم وجباههم عرقاً. فآمنت حِمْيَر عند ذلك وأجمعوا على اتباع اليهودية.ونقل السهيليّ عن ابن قتيبة في هذه الحكاية: أنّ غزاة تبع هذه إنما هي استصراخة أبناء قيلة على اليهود، فإنهم كانوا نزلوا مع اليهود حين أخرجوهم من اليمن على شروط، فنقضت عليهم اليهود، فاستغاثوا بتبّع، فعند ذلك قدمها. وقد قيل: انّ الذي استصرخه أبناء قيلة على اليهود إنما هو أبو جبلة من ملوك غسان بالشام، جاء به مالك بن عجلان فقتل اليهود بالمدينة. وكان من الخزرج كما نذكر بعد. ويعضد هذا أنّ مالك بن عجلان بعيد عن عهد تبع بكثير. يقال أنه كان قبل الإسلام بسبعمائة سنة ذكره ابن قتيبة. وحكى المسعودي في أخبار تبع هذا أنّ أسعد أبا كرب سار في الأرض ووطأ الممالك وذلّلها، ووطىء أرض العراق في ملك الطوائف، وعميد الطوائف، يومئذ خرداد بن سابور، فلقي ملكاً من ملوك الطوائف اسمه قبّاذ، وليس قباذ بن فيروز، فانهزم قباذ وملك أبو كرب العراق والشام والحجاز وفي ذلك يقول تبع أبو كرب:

إذا حسينا جيادنا من دماء ثم سرنا بها مسيرا بعيدا

واستبحنا بالخيل خيل قبَّاذ وابن إقليد جاءنا مصفودا

وكسونا البيت الذي حرم الله ملا منضداً وبرودا

وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا

(وقال أيضاً)

لست بالتبع اليماني أنّ لم تركض الخيل في سواد العراق

أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً لم يعقها عوائق العوّاق

وقد كانت لكندة معه وقائع وحروب حتى غلبهم حجر بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة من ملوك كهلان، فدانوا له ورجع أبو كرب إلى اليمن فقتله حِمْيَر، وكان ملكه ثلثمائة وعشرين سنة. ثم ملك من بعد أبي كرب هذا فيما قال ابن إسحق، ربيعة بن نصر بن الحرث بن نمارة بن لخم، ولخم أخو جذام. وقال ابن هشام: ويقال ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر. كان أبو حارثة تخلف باليمن

بعد خروج أبيه، وأقام ربيعة بن نصر ملكا على اليمن بعد هؤلاء التبابعة الذين تقدم ذكرهم، ووقع له شان الرؤيا المشهورة. قال الطبريُّ عن ابن إسحق، عن بعض أهل العلم، أنّ ربيعة بن نصر رأى رؤيا هالته، وفظع بها وبعث في أهل مملكته في الكهنة والسحرة والمنجمين وأهل العيافة، فأشاروا عليه باستحضار الكاهنين المشهورين لذلك العهد في إياد وغسان وهما شق وسطيح.

قال الطبري: شق هو أبو صعب شكر بن وهب بن أمول بن يزيد بن قيس عبقر بن أنمار. وسطيح هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذيب بن عدي بن مازن بن غسان ولوقوع اسم ذيب في نسبه كان يعرف بالذيبيّ. فأحضرهما وقص عليهما رؤياه، وأخبراه بتأويلها أنّ الحبشة يملكون بلاد اليمن من بعد ربيعة وقحطان بسبعين سنة، ثم يخرج عليهما ابن ذي يزن من عدن، فيخرجهم ويملك عليهم اليمن ثم تكون النبوة في قريش في بني غالب بن فهر. ووقع في نفس ربيعة أنّ الذي حدثه الكاهنان من أ مر الحبشة كائن، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلح، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرّداذ، فأسكنهم الحيرة.

ومن بيت ربيعة بن نصر كان النعمان ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر. قال ابن إسحق: ولما هلك ربيعة بن نصر اجتمع ملك اليمن لحسان بن تبان أسعد أبي كرب. قال السهيلي: وهو الذي استباح طسماً كما ذكرناه، وبعث على المقدمة عبد كهلان بن يثرب بن ذي حرب بن حارث بن ملك بن عبدان بن حجر بن ذي رعين. واسم ذي رعين يريم، وهو ابن زيد الجمهور، وقد مر نسبه إلى سبا الأصغر. وقال السهيلي: في أيام حسان تبع كان خروج عمرو بن مزيقيا من اليمن بالأزد، وهو غلط من السهيلي لأن أبا كرب أباه إنما غزا المدينة فيما هو صريخاً لأُوس على اليهود، وهو من غسان ونسبه إلى مزيقيا. فعلي هذا يكون الذي استصرخه الأوس والخزرج على اليهود إنما هو من ملوك غسان كما يأتي في أخبارهم. قال ابن إسحق: ولما ملك حسّان بن تبع بن تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أنّ يطأ بهم أرض العرب والعجم كما كانت التبابعة تفعل، فكرهت حِمْيَر

وقبائل اليمن السير معه، وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، فكلموا أخاً له كان معهم في العسكر يقال له عمرو، وقالوا له اقتلْ أخاك نملكك وترجع إلينا إلى بلادنا، فتابعهم على ذلك وخالفه ذورُعْين في ذلك، ونهى عمراً عن ذلك فلم يقبل، وكتب في صفيحة وأودعها عنده:

ألا من يشتري سهرا بنوم — سعيد من يبيت قرير عين

فإما حميرغدرت وخانت — فمعذرة الإله لذي رعين

ثم قتل عمرو أخاه بعرصة لخم وهي رحبة مالك بن طوق، ورجع حِمْيَر إلى اليمن فمنع النوم عليه السهر، وأجهده ذلك فشكى إلى الأطباء عدم نومه والكهان والعرّافين، فقالوا ما قتل رجل أخاه إلا سُلّط عليه السهر، فجعل يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه، ولم يغنه ذلك شيئاً وهمّ بذي رعين فذكره شعره فكانت فيه معذرته ونجاته. وكان عمرو هذا يسمَّى موثبان. قال الطبريُّ: لوثوبه على أخيه. وقال ابن قتيبة: لقلَّة غزوه ولزومه الوثب على الفراش. وهلك عمرو هذا لثلاث وستين سنة من ملكه.

قال الجرجاني والطبريّ: ثم مَرجَ أمر حِمْيَر من بعده وتفرقوا. وكان ولد حسّان تبع صغاراً لا يصلحون للملك، وكان أكبرهم قد استهوته الجنُّ، فوثب على ملك التبابعة عند كلال موثبا فملك عليهم أربعاً وتسعين سنة، وكان يدين بالنصرانية، ثم رجع ابن حسَّان تبَّع من استهواء الجن، فملك على التبابعة. قال الجرجاني: ملك ثلاثا وسبعين سنة، وهو تبع الأصغر ذو المغازي والآثار البعيدة.

قال الطبريُّ: وكان أبوه حسان تبع قد زوج بنته من عمرو بن حجر آكل المرارا ابن عمرو بن معاوية من ملوك كندة، فولدت له ابنه الحرث بن عمرو، فكان ابن تبع بن حسَّان هذا فبعثه على بلاد معدّ، وملك على العرب بالحيرة مكان آل نصر بن ربيعة. قال وانعقد الصلح بينه وبين كيقباد ملك فارس، على أنّ يكون الفرات حدّا بينهم. ثم أغارت العرب بشرقي الفرات، فعاتبه على ذلك، فقال لا أقدر على ضبط العرب إلا بالمال والجند، فأقطعه بلاداً من السواد، وكتب الحرث إلى تبع يغريه بملك الفرس، وتضعيف أمر كيقباد، فغزاهم. وقيل أنَّ الذي فعل ذلك هو عمرو بن حجر أبوه الذي ولاه تبع أبو كرب، وأنه أغراه بالفرس واستقدمه إلى الحيرة، فبعث عساكره مع ولده الثلاثة إلى الصغد والصين والروم، وقد تقدّم ذكر ذلك.

قال الجرجاني: ثم ملك بعد تبع بن حسَّان تبَّع أخوه لأمه وهو مُدَّثر بن عبد كلال، فملك إحدى وأربعين سنة، ثم ملك من بعده ابنه وليعة بن مُدَّثر سبعاً وثلاثين سنة، ثم ملك من بعده أبرهة بن الصبّاح بن لهيعة بن شيبة بن مدّثر قيلف بن يعلق بن معد يكرب بن عبد الله بن عمرو بن ذي أصبح الحرث بن مالك، أخوذي رعين، وكعب أبو سبا الأصغر. قال الجرجاني: وبعض الناس يزعم أنّ أبرهة بن الصباح إنما ملك تهامة فقط. قال: ثم ملك من بعده حسان بن عمرو بن تبع بن ملكيكرب سبعاً وخمسين سنة. ثم ملك لَخْيَتَعة ولم يكن من أهل بيت المملكة. قال ابن إسحق: ولما ملك لخيتعة غلب عليهم، وقتل خيارهم، وعبث برجالات بيوت المملكة منهم، قيل انه كان ينكح ولدان حِمْيَر، يريد بذلك أنّ لا يملكوا عليهم، وكانوا لا يملكون عليهم من نكح، نقله ابن إسحق. وقال أقام عليهم مملكا سبعا وعشرين سنة، ثم وثب عليه ذو نواس زرعة تبع بن تبان أسعد أبي كرب، وهو حسّان أبي ذي معاهر فيما قال ابن إسحق، وكان صبياً حين قتل حسان. ثم شب غلاما جميلا ذا هيئة وفضل ووضاءة، ففتك بلخيتعة في خلوة أراده فيها على مثل فعلاته القبيحة، وعلمت به حِمْيَر وقبائل اليمن فملكوه واجتمعوا عليه، وجدّد ملك التبابعة. وتسمىّ يوسف وتعصب لدين اليهودية، فكانت مدّته- فيما قال ابن إسحق- ثمانية وستين سنة.

إلى هنا ا ه . ترتيب أبي الحسن الجرجاني. ثم قال: وقال آخرون ملك بعد أفريقش بن أبرهة قيس بن صيفي، وبعده الحرث بن قيس بن مياس، ثم ماء السمّاء بن ممروه، ثم شرحبيل وهو يصحب بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد بن عوف، بن علي بن الهمّال بن المنثلم بن جهيم، ثم الصعب بن قرين بن الهمال بن المنثلم ثم زيد بن الهمّال، ثم ياسر بن الحرث بن عمرو بن يعفر، ثم زهير بن عبد شمس أحد بني صيفي بن سبا الأصغر، وكان فاسقا مجرما يفتض أبكار حِمْيَر، حتى نشأت بلقيس بنت اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث

بن قيس بن صيفي، فقتلته غيلة، ثم ملكت. ولما أخذها سليمان ملك لمك بن شرحبيل، ثم ملك ذو وداع فقتله ملكيكرب بن تبع بن الأقرن وهو أبو ملك، ثم هلك. فملك أسعد بن

قيس بن زيد بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرايش بن قيس بن صيفي بن سبا وهو أبو كرب، ثم ملك حسّان ابنه فقتله عمرو أخوه، ووقع الاختلاف في حِمْيَر. ووثب على عمر لخيتعة دليل دراسة الحالة ذو الشناتر وملك، ثم قتله ذو نواس بن تبع وملك . ا . ه كلام الجرجاني.

وزعم ابن سعيد ونقله من كتب مؤرخي المشرق: أنّ الحرث الرايش هو ابن ذي شدد ويعرف بذي مداثر، وأنّ الذي ملك بعده ابنه الصعب وهو ذو القرنين، ثم ابنه أبرهة بن الصعب وهو ذو المنار، ثم العبد ذو الأشفارا بن أبرهة بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة، ثم قتلته بلقيس. قال في التيجان: أنّ حِمْيَر خلعوه وملكوا شرحبيل ابن غالب بن المنتاب بن زيد بن يعفر بن السكسك بن واثل وكان بمأرب، فجاز به ذو الأذعار وحارب ابنه الهدْهاد بن شرحبيل من بعده، وابنته بلقيس بنت الهدْهاد الملكة من بعده، فصالحته على التزويج وقتلته، وغلبها سليمان عليه السلام على اليمن إلى أنّ هلك وابنه رَحَبْعَم من بعده. واجتمعت حِمْيَر من بعده على مالك بن عمرو ابن يعفر بن عمرو بن حِمْيَر بن المنتاب بن عمرو بن يزيد بن يعفر بن السكسك بن واثل بن حِمْيَر. وملك بعده على مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو بن حِمْيَر بن المنتاب بن عمرو بن يزيد بن يعفر بن السكسك بن واثل بن حِمْيَر. وملك بعده ابنه شَمِر يَرْعَش، وهو الذي خرّب سَمَرْقَنْد، وملك بعده ابنه صيفي بن شمر على اليمن، وسار أخوه أفريقش بن شمر إلى أفريقية بالبربر وكنعان فملكها. ثم انتقل الملك إلى كَهْلان وقام به عمران بن عامر ماء السماء بن حارثة أمرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد وكان كاهنا. ولما احتضر عهد إلى أخيه عمرو بن عامر المعروف بمزيقيا وأعلمه بخراب سدْ مأرب وهلاك اليمن بالسيل، فخرج من اليمن بقومه. وأصاب اليمن سيل العرم فلم ينتظم لبني قحطان بيعته، واستولى على قصر مأرب من بعده ربيعة بن نصر. ثم رأى رويا ونذر بملك الحبشة، وبعث ولده إلى العراق، وكتب إلى سابور الأشعاني فأسكنهم الحيرة، وكثرت الخوارج باليمن. فاجتمعت حِمْيَر على أنّ تكون لأبي كرب أسعد بن عدي بن صيفي، فخرج من ظفار، وغلب ملوك الطوائف باليمن ودوخ جزيرة العرب، وحاصر الأوس والخزرج بالمدينة، وحمل حِمْيَر على اليهودية، وطالت مدته وقتلته حِمْيَر. وملك بعده ابنه حسَّان الذي أباد طسماً ثم قتله أخوه عمرو بمداخلة حِمْيَر، وهلك عمرو فملك بعده أخوه لأبيه عبد كلال بن منوب، وفي أيامه خلع سابور أكتاف العرب، وملك بعده تبع بن حسان، وهو الذي بعث ابن أخيه الحرث بن عمرو

الكندي إلى أرض بني مَعَدّ بن عدنان بالحجاز فملك عليهم. وملك بعده مرثد بن عبد كلال ثم ابنه وليعة، وكثرت الخوارج عليه، وغلب أبرهة الصبَّاح على تهامة اليمن. وكان في ظفَّار ذو شناتر، وقتله ذو نواس كما مر. هذا ترتيب ابن سعيد في ملوكهم.

وعند المسعودي أنه لما هلك كليكرب بن تبع المعروف بالأقرن، وقال هو الذي سار قومه نحو خراسان والصغد والصين. وولي بعده حسان بن تبَّع فاستقام له الأمر خمسا وعشرين سنة، ثم قتله أخوه عمرو بن تبع

وملك أربعا وستين سنة، ثم تبع أبو كرب وهو الذي غزا يثرب وكسا الكعبة بعد أنّ أراد هدمها، ومنعه الحبران من اليهود وتهوّد وملك مائة سنة. ثم بعده عمرو بن تبعّ أبي كرب وخلع، وملكوا مرثد بن عبد كلال. واتصلت الفتن باليمن أربعين سنة، ومن بعده وليعة بن مَرْثِد تسعا وثلاثين سنة. ومن بعده أبرهة بن الصبَّاح بن وليعة بن مرثد، ويدعى شيبة الحمد ثلاثا وتسعين سنة. وكانت له سير وقصص، ومن بعده عمرو بن قيفان تسع عشرة سنة، ومن بعده لخيتعة ذو شناتر ومن بعده ذو نواس.

وأمّا ابن الكَلْبيّ والطبريّ وابن حَزْم، فعندهم أنّ تبَّع أسْعَد أبي كَرب هو ابن كليكرب ابن زَيْد الأَقْرَن ابن عمرو بن ذي الأذْعَار بن أبْرهَة ذي المَنَار الرَايش بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر. وقال السُهَيْلي: انه أسقط أسماء كثيرة وملوكا. وقال ابن الكلبيّ وابن حزم: ومن ملوك التبابعة أفريقش بن صيفي، ومنهم شمر يرعش ابن ياسر يَنْعُم بن عمرو ذي الأذعار، ومنهم بَلْقِيس ابنة اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث الرايش بن قيس بن صيفي. ثم قال ابن حزم بعد ذكر هؤلاء من التبابعة: وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة. ولا يصح من كتب أخبار التبابعة وأنسابهم إلاَّ طرف يسير لاختلاف رواهم وبعد العهد ا.ه.

وقال الطبريُّ: لم يكن لملوك اليمن نظام، وإنما كان الرئيس منهم يكون ملكا على مخلافه لا يتجاوزه، وإن تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة من غير أنّ يرث ذلك الملك عن آبائه ولا يرثه أبناؤه عنه، إنما هو شأن شداد المتلصّصة، يغيرون على النواحي باستغفال أهلها، فإذا قصدهم الطلب لم يكن لهم ثبات، وكذلك كان أمر ملوك اليمن، يخرج أحدهم من مخلافه بعض الأحيان ويبعد في الغزو والإغارة فيصيب ما يمر به، ثم يتشمّر عند خوف الطلب زاحفا إلى مكانه من غير أنّ يدين له أحد من غير مخلافه

بالطاعة أو يؤدي إليه خراجا ا.ه.

وأما الخبر عن ذي نواس وما بعده فاتفق أهل الأخبار كلهم أنّ ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة، وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة تسمى يوسف وتعصب لدين اليهودية، وحمل عليه قبائل اليمن، وأراد أهل نَجرْان عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية، ولهم فضل في الدين واستقامة. وكان رئيسهم في ذلك يسمَّى عبد الله بن الثَامِر، وكان هذا الدين وقع إليهم قديما من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبعيّة يقال له ميمون، نزل فيهم وكان مجتهداً في العبادة مجاب الدعوة، وظهرت على يده الكرامات في شفاء المرضى، وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده. وتبعه على دينه رجل من أهل الشام إسمه صالح، وخرجا فارَّين بأنفسهما، فلما وطئا بلاد العرب اختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران، وهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم، ويعلقون عليها في الأعياد من حليهم وثيابهم، ويعكفون عليها أياماً. وافترقا في الدير على رجلين من أهل نجران، وأعجب سيد ميمون صلاته ودينه، وسأله عن شانه، فدعاه إلى الدين وعبادة الله، وأنّ عبادة النخلة باطل، وأنه لو دعا معبوده عليها هلكت. فقال له سيده أنّ فعلت دخلنا في دينك: فدعا ميمون فأرسل الله ريحاً فجعفت النخلة من أصلها، وأطبق أهل نجران على أتباع دين عيسى صلوات الله عليه. ومن رواية ابن

إسحق أنّ ميمون نزل بقرية من قرى نجران، وكان يمرّ به غلمان أهل نجران، يتعلمون من ساحر كان بتلك القرية، وفي أولئك الغلمان عبد الله بن الثامر، فكان يجلس إلى ميمون ويسمع منه فآمَنَ به واتبعه وحصل على معرفة اسم الله الأعظم، فكان مجاب الدعوة لذلك، واتبعه الناس على دينه، وأنكر عليه ملك نجران وهمّ بقتله. فقال له: لن تطيق حمى تؤمن وتوحد فآمَنَ، ثم قتله فهلك ذلك الملك مكانه. واجتمع أهل نجران

على دين عبد الله بن الثامر، وأقام أهل نجران على دين عيسى صلوات الله عليه حتى دخلت عليهم في دينهم الأحداث. ودعاهم ذو نواس إلى دين اليهودية فأبوا. فسار إليهم في أهل اليمن وعرض عليهم القتل، فلم يزدهم إلاّ جماحاً، فحدّد لهم الأخاديد، وقتل وحرق، حتى أهلك منهم- فيما قال ابن إسحق- عشرين ألفا أو يزيدون. وأفلت منهم رجل من سبا يقال له دَوْس ذو ثُعْلَبَان، فسلك الرمل على فرسه وأعجزهم.

مَلَكُ الحبشةُ اليَمَنَ

قال هشام بن محمد الكلبيّ، في سبب غزو ذي نواس أهل نجْران: أنّ يهودياً كان بنجران، فعدا أهلها على إبنين له، فقتلوهما ظلماً فرفع أمره إلى ذي نواس. وتوسل له باليهودية واستنصره على أهل نجران وهم نصارى، فحمى له ولدينه وغزاهم. ولما أفلت دَوْس ذو ثُعْلَبَان، فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذي نُواس، وأعلمه بما ركب منهم وأراه الإنجيل قد احترق بعضه بالنار، فكتب له إلى النجاشي يأمره بنصره ويطلب بثاره، وبعث معه النجاشي سبعين ألفاً من الحبشة. وقيل: أنّ صريخ دوس كان أولا للنجاشي، وأنه اعتذر إليه بقلة السفن لركوب البحر. وكتب إلى قيصر وبعث إليه بالإنجيل المحرق، فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة، وأمر عليهم أرباطاً رجلاً منهم وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم، فخرج أرباط لذلك ومعه أبرهة الأشرم، فركبوا البحر ونزلوا ساحل اليمن. وجمع ذو نواس حِمْيَر ومن أطاعه من أهل اليمن على افتراق واختلاف في الأهواء. فلم يكن كبير حرب، وانهزموا. فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه بفرسه إلى البحر ثم ضربه، فدخل فيه وخاض ضحضاح البحر، ثم أفضى به إلى غمرة فأقحمه فيه فكان آخر العهد به. ووطيء أرباط اليمن بالحبشة وبعث إلى النجاشي بثلث السبي كما عهد له، ثم أقام بها فضبطها وأذل رجالات حِمْيَر، وهدم حصون الملك بها مثل سلجيق وسون وغمدان. وقال ذو يزن يرثي حِمْيَر وقصور الملك باليمن:

هونك ليس يرد الدمع ما فاتا لا تهلكن أسفاً إثر من ماتا أبعد سون فلا عين ولا أثر وبعد سلجيق يبني الناس أبياتا

وفي رواية هشام بن محمد الكلبي أنّ السفن قدمت على النجاشي من قيصر، فحمل فيها الحبش ونزلوا بساحل اليمن، واستجاش ذو نواس بأقيال حِمْيَر فامتنعوا من صريخه وقالوا: كل أحد يقاتل عن ناحيته. فالقى ذو نواس باليد ولم يكن قتال. وأنه سار بهم إلى صنعاء وبعث عماله في النواحي لقبض الأموال، وعهد بقتلهم في كل ناحية فقتلوا، وبلغ ذلك النجاشي فجهز إلى اليمن سبعين ألفاً وعليهم أبرهة فغلبوا صنعاء، وهرب ذو

نواس واعترض البحر، فكان آخر العهد به. وملك أبرهة اليمن و لم يبعث إلى النجاشي بشيء، وذكر له أنه خلع طاعته. فوجه جيشاً من أصحابه عليهم أرباط. ولما حل بساحته دعاه إلى النصفة والتزال، فتبارزا وخدعه أبرهة وأكمن عبداً له في موضع المبارزة، فلما التقيا ضربه أرباط فشرم أنفه وسمي الأشرم. وخالفه العبد من الكمين فضرب أرباطاً فأنفذه، وبلغ النجاشي خبر أرباط فحلف ليريقن دمه. ثم كتب إليه أبرهة واسترضاه فرضي عليه وأقره على عمله.

وقال ابن إسحق إنّ أرباط هو الذي قدم اليمن أولاً وملكه، وانتقض عليه أبرهة من بعد ذلك فكان ما ذكرنا من الحرب بينهما، وقتل أرباط. وغضب النجاشي لذلك، ثم أرضاه واستبد أبرهة بملك اليمن. ويقال أنّ الحبشة لما ملكوا اليمن أمر أبرهة بن الصباح وأقاموا في خدمته قاله ابن سلام. وقيل: أنّ ملك حِمْيَر، لما انقرض أمرا التبابعة، صار متفرقا في الأذواء من ولد زيد الجمهور، وقام بملك اليمن منهم ذو يزن من ولد مالك بن زيد. قال ابن حزم: واسمه علس بن زيد بن الحرث بن زيد الجمهور. وقال ابن الكلبي وأبو الفرج الأصبهاني: هو علس بن الحرث بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور.

قالوا كلهم: ولما ملك ذو يزن بعد مهلك ذي نواس واستبد أمر الحبشة على أهل اليمن، طالبوهم بدم النصارى الذين في أهل نجران، فساروا إليه وعليهم أرباط، ولقيهم فيمن معه فانهزم واعترض البحر، فأقحم فرسه وغرق فهلك بعد ذي نواس، وولى ابنه مرثد بن ذي يزن مكانه، وهو الذي استجاشه امرؤ القيس على بني أسد، وكان من عقب ذي يزن أيضاً من هؤلاء الأذواء علقمة ذو قيفال بن شراحيل بن ذي يزن، وملك مدينة الهون فقتله أهلها من همدان ا.ه .

ولما استقر أبرهة في ملك اليمن أساء السير في حِمْيَر وروسائهم، وبعث في ريحانة بنت علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان، فانتزعها من زوجها أبي مرة بن ذي يزن، وقد كانت ولدت منه ابنه معديكرب. وهرب أبو مرة ولحق بأطراف اليمن، واصطفى أبرهة ريحانة فولدت له مسروق بن أبرهة وأخته بسباسة.

وكان لأبرهة غلام يسمى عمددة وكان قد ولاه الكثير من أمره، فكان يفعل الأفاعيل حتى عدا عليه رجل لمن حِمْيَر أو خثعم فقتله وكان حليماً فأهدر دمه.

غزو الحبشة الكعبة

ثم إنّ أبرهة بنى كنيسة بصنعاء تسمى القليس لم يرمثلها، وكتب إلى النجاشي بذلك وإلى قيصر في الصناع والرخام والفسيفساء، وقال: لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. وتحدث العرب بذلك، فغضب رجل من السادة أحد بني فقيم ثم أحد بني مالك، وخرج حتى أتى القليس، فقعد فيها ولحق بأرضه. وبلغ أبرهة، وقيل له: الرجل من البيت الذي يحج إليه العرب، فحلف ليسيرن إليه يهدمه. ثم بعث في الناس يدعوهم إلى حج القليس فضرب الداعي في بلاد كنانة بسهم فقتل. وأجمع أبرهة على غزو البيت وهدمه، فخرج سائرا بالحبشة ومعه الفيل، فلقيه ذو نفر الحميري وقاتله، فهزمه وأسره واستبقاه دليلا في أرض العرب. قال ابن

إسحق: ولما مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف، فأتوه بالطاعة وبعثوا معه أبا رغال دليلا فأنزله المغمس بين الطائف ومكة، فهلك هنالك ورجمت العرب قبره من بعد ذلك قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال

ثم بعث أبرهة خيلا من الحبشة فانتهوا إلى مكة واستاقوا أموال أهلها، وفيها مائتا بعير لعبد المطلب، وهو يومئذ سيد قريش، فهموا بقتاله ثم علموا أنّ لا طاقة لهم به فاقصروا. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة يعلمهم بمقصده من هدم البيت، ويؤذنهم بالحرب أنّ اعترضوا دون ذلك. وأخبر عبد المطلب بذلك عن أبرهة فقال له: والله ما نريد حربه. وهذا بيت الله، فإن يمنعه فهوبيته، وأن يخلي عنه فما لنا نحن من دافع. ثم انطلق به إلي أبرهة ومر بذي نفر وهو أسير فبعث معه إلى سائس الفيل، وكان صديقا لذي نفر فاستأذن له على أبرهة، فلما رآه أجله ونزل عن سريره فجلس معه على بساطه، وسأله عبد المطلب في الإبل. فقال له أبرهة: هلا

سألت في البيت الذي هو دينك ودين آبائك وتركت البعير؟ فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت رب سيمنعه، فرد عليه إبله. قال الطبري: وكان فيما زعموا قد ذهب مع عبد المطلب عمرو بن لعابة بن عدي بن الرمل سيد كنانة، وخويلد بن واثلة سيد هذيل، وعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة، ويرجع عن هدم البيت، فأبى عليهم فانصرفوا. وجاء عبد المطلب وأمر قريشا بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها. ثم قام عند الكعبة ممسكاً بحلقة الباب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه، وعبد المطلب ينشد ويقول:

لا هُمَّ أنّ العبد يمنع رحلة فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

في أبيات معروفة.

ثم أرسل الله عليهم الطير الأبابيل من البحر، ترميهم بالحجارة فلا تصيب أحداً منهم إلا هلك مكانه، وأصابه في موضع الحجر من جسده كالجدري والحصبة فهلك. وأصيب أبرهة في جسده بمثل ذلك، وسقطت أعضاؤه عضواً عضواً وبعثوا بالفيل ليقدم على مكة فربض و لم يتحرك فنجا، وأقدم فيل آخر فحصب وبعث الله سيلا مجحفا فذهب بهم وألقاهم في البحر. ورجع أبرهة إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فانصدع صدره عن قلبه ومات. ولما هلك أبرهة ملك مكانه ابنه يكسوم وبه كان يكنى، واستفحل ملكه وأذل حِمْيَر وقبائل اليمن، ووطئتهم الحبشة فقتلوا رجالهم، ونكحوا نساءهم، واستخدموا أبناءهم. ثم هلك يكسوم بن أبرهة فملك مكانه أخوه مسروق وساءت سيرته، وكثر عسف الحبشة باليمن، فخرج ابن ذي يزن واستجاش عليهم بكسرى، وقدم اليمن بعساكر الفرس، وقتل مسروقا وذهب أمر الحبشة، بعد أنّ توارث

ملك اليمن منهم أربعة في اثنتين وسبعين سنة، أولهم أرباط، ثم أبرهة، ثم ابنه يكسوم ثم أخوه مسروق بن أبرهة.

قصة سيف بن ذي يزن

وملك الفرس علي اليمن

ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري من الأذواء بقية ذلك السلف، وعقب أولئك الملوك وديال الدولة المفوض للخمود. وقد ثان أبرهة انتزع منه زوجته ريحانة وبعد أنّ ولدت منه ابنه معد يكرب كما مر. نسبه فيما قال الكلبي: سيف بن ذي يزن بن عافر بن أسلم بن زيد بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور. هكذا نسبه ابن الكلبي، ومالك بن زيد هو أبو الأذواء. فخرج سيف وقدم على قيصر ملك الروم وشكى إليه أمر الحبشة، وطلب أنّ يخرجهم ويبعث على اليمن من شاء من الروم، فلم يسعفه عن الحبشة وقال: الحبشة على دين النصارى. فرجع إلى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب، فشكى إليه واستمهله النعمان إلى حين وفادته على كسرى، وأوفد معه وسأله النصر على الحبشة، وأن يكون ملك اليمن له. فقال: بعدت أرضك عن أرضنا أو هي قليلة الخير، إنما هي شاء وبعير، ولا حاجة لنا بذلك، ثم كساه وأجازه، فنثر دنانير الإجازة ونهبها الناس يوهم الغنى. عنها بما في أرضه فأنكر عليه كسرى ذلك، فقال: جبال أرضي ذهب وفضة، وإنما جئت لتمنعني من الظلم، فرغب كسرى في ذلك وأمهله للنظر في أمره، وشاور أهل دولته. فقالوا في سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معه، فإن هلكوا كان الذي أردت بهم، وإن ملكوا كان ملكاً ازددته إلى ملكك، وأحصوا ثمانمائة، وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسباً وكان وهزر الديلمي.

وعند المسعودي وهشام بن محمد السهيلي: أنّ كسرى وعده بالنصر و لم ينصره، وشغل بحرب الروم، وهلك سيف بن ذي يزن عنده وكبر ابنه ابن ريحانة وهو معديكرب وعرفته أمه بأبيه، فخرج ووفد على كسرى يستنجزه في النصرة التي وعد بها أباه. وقال له: أنا ابن الشيخ اليمني الذي وعدته، فوهبه الدنانير ونثرها إلى آخر القصة. وقيل أنّ الذي وفد على كسرى وأباد الحبشة هو النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف بن ذي يزن. قالوا: ولما كتبت الفرس مع وهزر وكانوا ثمانمائة، وقال ابن قتيبة كانوا سبعة آلاف وخمسمائة.وقال ابن حزم: كان وهزر من عقب جاماسب عم أنو شروانّ فأمّره على أصحابه، وركبوا البحر ثمان سفائن، فغرقت منها سفينتان، وخلصت ست إلى

ساحل عدن. فلما نزلوا بأرض اليمن قال وهزر لسيف: ما عندك؟ قال: ما شئت من قوس عربي، ورجلي مع رجلك حتى نظفر أو نموت. قال أنصفت: وجمع ابن ذي يزن من استطاع من قومه، وسار إليه مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة وأوباش اليمن، فتوافقوا للحرب وأمر وهزر ابنه أنّ يناوشهم للقتال، فقتلوه وأحفظه ذلك. وقال أروني ملكهم فأروه إياه على الفيل عليه تاج، وبين عينيه ياقوتة حمراء. ثم نزل عن الفيل

إلى الفرس ثم إلى البغلة. فقال وهزر ركب بنت الحمار ذل وذل ملكه. ثم رماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل في دماغه، وتنكس عن دابته وداروا به، فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة في كل وجه،وأقبل وهزر إلى صنعاء، ولما أتى بابها قال: لا تدخل رايتي منكوسة، فهدم الباب ودخل ناصبا رايته، فملك اليمن ونفى عنها الحبشة. وكتب بذلك إلى كسرى، وبعث إليه بالأموال. فكتب إليه أنّ يملك سيف بن ذي يزن على اليمن، على فريضة يؤديها كل عام ففعل. وانصرف وهزر إلى كسرى.

وملك سيف اليمن، وكان أبوه من ملوكها. وخلف وهزر نائباً على اليمن في جماعة من الفرس ضمهم إليه، وجعله لنظر ابن ذي يزن وأنزله بصنعاء. وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه، ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان، يقال أنّ الضحاك بناه على اسم الزهرة، وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها خرب في خلافة عثمان. قاله المسعودي.

وقال السهيلي: كانت صنعاء تسمى أوال، وصنعاء اسم بانيها، صنعاء بن أوال بن عمير بن عابر بن شالخ. ولما استقل ابن ذي يزن بملك اليمن، وفدت العرب عليه يهنوه بالملك، لما رجع من سلطان قومه وأباد من عدوهم، وكان فيمن وفد عليه مشيخة قريش، وعظماء العرب لعهدهم من أبناء إسماعيل وأهل بيتهم المنصوب لحجهم، فوفدوا في عشرة من رؤسائهم، فيهم عبد المطلب، فأعظمهم سيف وأجلهم وأوجب لهم حقهم، ووفر من ذلك قسم عبد المطلب من بينهم. وسأله عن بنيه حتى ذكر له شأن النبي صلى الله عليه وسلم، وكفالته إياه بعد موت عبد الله أبيه، عاشر ولد عبد المطلب، فأوصاه به وحضه على الإبلاغ في القيام عليه، والتحفظ به

من اليهود وغيرهم. وأسر إليه البشرى بنبوته وظهور قريش، قومهم على جميع العرب. وأسنى جوائز هذا الوفد بما يدل على شرف الدولة وعظمها لبعد غايتها في الهمة، وعلو نظرها في كرامة الوفد وبقاء آثار الترف في الصبابة شاهد لشرافة الحال في الأول. ذكر صاحب الأعلام وغيره أنه أجاز سائر الوفد بمائة من الإبل وعشرة أعبد وعشرة وصائف وعشرة أرطال من الورق والذهب وكرش ملىء من العنبر، وأضعاف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب.

قال ابن إسحق: ولما انصرف وهزر إلى كسرى غزا سيف على الحبشة، وجعل بقتل ويبقر بطون النساء، حتى إذا لم يبق إلا القليل جعلهم خولا، واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب، وعظم خوفهم منه. فخرج يوما وهم يسعون بين يديه، فلما توسطهم وقد انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه، ووثب رجل منهم على الملك. وقيل ركب خليفة وهزر فيمن معه من المسلحة، واستلحم الحبشة وبلغ ذلك كسرى، فبعث وهزر في أربعة آلاف من الفرس، وأمره بقتل كل أسود أو منتسب إلى أسود ولو جعداً قططاً ففعل. وقتل الحبشة حيث كانوا. وكتب بذلك إلى كسرى فأمّره على اليمن، فكان يجبيه له حتى هلك. واستضافت حشابة ملك الحميريين بعد مهلك ابن ذي يزن وأهل بيته إلى الفرس، وورثوا ملك العرب وسلطان حِمّيَر باليمن، بعد أنّ كانوا يزاحمونهم بالمناكب في عراقهم، ويجوسونهم بالغزو خلال ديارهم. و لم يبق للعرب في

الملك رسم ولا طلل إلا أقيالا من حِمْيَر وقحطان رؤساء في أحيائهم بالبدو، لا تعرف لهم طاعة، ولا ينفذ لهم في غير ذاتهم أمر، إلا ما كان لكهلان إخوتهم بأرض العرب من ملك آل المنذر من لخم على الحيرة والعراق بتولية فارس، وملك آل جفنة من غسان على الشام بتولية آل قيصر كما يأتي في أخبارهم.

وقال الطبري: لما كانت اليمن لكسرى بعث إلى سرنديب من الهند قائداً من قواده ركب إليهاالبحر في جند كثيف، فقتل ملكها واستولى عليها، وحمل إلى كسرى منها أموالا عظيمة، وجواهر. وكان وهزر يبعث العير إلى كسرى بالأموال والطيوب، فتمر على طريق البحرين تارة وعلى أرض الحجاز أخرى. وعدا بنو تميم في بعض الأيام على عيره بطريق البحرين، فكتب إلى عامله بالإنتقام منهم، فقتل منهم خلقا كما يأتي في أخبار كسرى. وعدا بنو كنانة على عيره بطريق الحجاز حين مرت بهم، وكانت في جوار رجل من أشراف العرب من قيس، فكانت حرب الفجار بين قيس وكنانة

بسبب ذلك. وشهدها النبي- صلى الله عليه وسلم، وكان ينبل فيها على أعمامه أي يجمع لهم النبل.

قال الطبري: ولما هلك وهزر أمر كسرى من بعده على اليمن ابنه المرزبان، ثم هلك فأمر حافده خرخسرو بن التيجان بن المرزبان. ثم سخط عليه وحمل إليه مقيدا، ثم أجاره ابن كسرى وخلى سبيله، فعزله كسرى وولى باذان، فلم يزل إلى أنّ كانت البعثة وأسلم باذان وفشا الإسلام باليمن، كما نذكره عند ذكر الهجرة وأخبار الإسلام باليمن. هذا آخر الخبر عن ملوك التبابعة من اليمن، ومن ملك بعدهم من الفرس. وكان عدد ملوكهم فيما قال المسعودي سبعة وثلاثين ملكا، في مدة ثلاث آلاف ومائتي سنة إلا عشراً. وقيل أقل من ذلك. فكانوا يترلون مدينة ظفار قال السهيلي: زمار وظفار اسمان لمدينة واحدة، يقال بناها مالك بن أبرهة وهو الأ ملوك، ويسمى مالك وهو ابن ذي المنار وكان على بابها مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود:

يوم شيدت ظفار فقيل لمن **أنت فقالت لخير الأخيار**

ثم سيلت من بعد ذلك قالت **أنّ ملكي احابش الأشرار**

ثم سيلت من بعد ذلك قالت أنّ ملكي لفارس الأحرار **ثم سيلت من بعد ذلك**

قالت **أنّ ملكى لقريش التجار**

#ثم سيلت من بعد ذلك قالت **أنّ ملكي لخير سنجار**

#وقليلا ما يلبث القوم فيها **غير تشييدها لحامي البوار**

#من أسود يلقيهم البحر فيها **تشعل النار في أعالي الجدار**

و لم تزل مدينة ظفار هذه مترلا للملوك، وكذلك في الإسلام صدر الدولتين، وكانت اليمن من أرفع الولايات عندهم بما كانت منازل العرب العاربة، ودار الملوك العظماء من التبابعة والاقيال والعباهلة. ولما انقضى الكلام في أخبار حِمْيَر وملوكهم باليمن من العرب، استدعى الكلام ذكر معاصريهم من العجم على شرط كتابنا لنستوعب أخبار الخليقة، ونميز حال هذا الجيل العربي من جميع جهاته، والأمم المشاهير من العجم الذين كانت لهم الدول العظيمة لعهد الطبقة الأولى والثانية من العرب، وهم النبط والسريانيون أهل بابل، ثم الجرامقة أهل

الموصل ثم القبط، ثم بنو إسرائيل والفرس ويونان والروم، فلنأت الآن بما كان لهم من الملك والدولة، وبعض أخبارهم على اختصار. والله ولى العون والتوفيق، لا رب غيره، ولا مأمول إلا خيره.

خريطة

ملوك بابل

الخبر عن ملوك بابل من القبط والسريانيين وملوك الموصل ونينوى من الجرامقة

قد تقدم لنا أنّ ملك الأرض بعد نوح عليه السلام كان لكنعان بن كوش بن حام. ثم لابنه النمروذ من بعده. وأنه كان على بدعة الصابئة، وان بني سام كانوا حنفاء ينتحلون التوحيد الذي عليه الكلدانيون من قبلهم. قال ابن سعيد: ومعنى الكلدانيين الموحدين. ووقع ذكر النمروذ في التوراة منسوبا إلى كوش بن حام، ولم يقع فيها ذكر لكنعان بن كوش، فالله اعلم بذلك. وقال ابن سعيد أيضاً: وخرج عابر بن شالخ ابن أرفخشذ، فغلبه وسار من كوثا إلى ارض الجزيرة والموصل، فبنى مدينة مجدل هناك، وأقام بها إلى أنّ هلك. وورث أمره ابنه فالغ من بعده، وأصاب النمروذ وقومه على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام ما أصابهم في الصرح، وكانت البلبلة وهي المشهورة، وقد وقع ذكرها في التوراة ولا أدري معناها. والقول بأن الناس أجمعين كانوا على لغة واحدة، فباتوا عليها ثم أصبحوا وقد افترقت لغاتهم قول بعيد في العادة، إلا أنّ يكون من خوارق الأنبياء فهو معجزة حينئذ، ولم ينقلوه كذلك. والذي يظهر أنه إشارة إلى التقدير الإلهي في خرق العادة وافتراقها، وكونها من آياته كما وقع في القرآن الكريم. ولا يعقل في أمر البلبلة غير ذلك.

وقال ابن سعيد: سوريان بن نبيط ولأه فالغ على بابل، فانتقض عليه وحاربه، ولما هلك فالغ قام بأمره بعده ابنه ملكان، فغلبه سوريان على الجزيرة، وملكها هؤلاء الجرامقة إخوانه في النسب بنو جرموق بن أشوذ بن سام، وكانت مواطنهم بالجزيرة. وكان ابن أخت سوريان منهم الموصل بن جرموق، فولاه سوريان على الجزيرة واخرج بني عابر منها. ولحق ملكان منها بالجبال فأقام هنالك. ويقال: أنّ الخضر من عقبه. واستبد الموصل على خاله سوريان بن نبيط، ملك بابل، وامتازت مملكة الجرامقة من مملكة النبط. وملك بعد الموصل ابنه راتق، وكانت له حروب مع النبط، وملك من بعده ابنه أثور وبقي ملكها في عقبه، وهو مذكور في التوراة. وملك بعده ابنه نينوى، وبنى المدينة المقابلة للموصل من عدوة دجلة المعروفة باسمه. ثم كان من عقبه سنجاريف بن أثور بن نينوى بن أثور، وهو الذي بنى مدينة سنجار وغزا بني إسرائيل فصلبوه على بيت المقدس.

وقال البيهقي: أنّ الجزيرة ملكها بعد مقتل سنجاريف أخوه ساطرون وهو الذي بنى مدينة الحضر في برية سنجار على نهر الترتار لتولعه بصيد الأسود في غيضاتها. وملك من بعده ابنه زان وكان يدين بالصابئة، ويمال: أنّ يونس بن متى بعث إليه، ويونس من الجرامقة من سبط بنيامين بن إسرائيل من ابنه، فآمن به زان بن ساطرون بعد الذي قصه القرآن من شأنه معهم. ثم أنّ بختنصر لما غلب على بابل، زحف إليه ودعاه إلى دين الصابئة، وشرط له أنّ يبقيه في ملكه، فأجاب. ولم يزل على الجزيرة حتى زحف إليه جيوش من الفرس مع

ارتاق، فضمن القيام بالمجوسية على أنّ يقوه في ملكه، وكتب بذلك أرتاق إلى بهمن ليضمن له، فأجابه بأن هذا رجل متلاعب بالأديان فاقتله، فقتله أرتاق وانقرض ملكه بعد ألف وثلاثمائة سنة فيما قال البيهقي. وفي أربعين ملكا منهم، وصارت الجزيرة لملوك الفرس، والذي عند الإسرائيليين سنجاريف من ملوك نينوى وهم أولاد موصل بن أشوذ بن سام. وأنه كان قبله بالموصل ملوك منهم، وهم فول وتلفات وبلناص، وأنهم ملكوا بلد الأسباط العشرة، وهي شمورون المعروفة بالسامرة، وأنه غرب الأسباط الذين كانوا فيها إلى نواحي أصبهان وخراسان، وأسكن أهل كومة وهي الكوفة في شمورون هذه، فسلط الله عليهم السباع يفترسونهم في كل ناحية. فشكوا ذلك إلى سنجاريف وسألوه أنّ يخبرهم عن بلد شمورون في قسمة أي كوكب هي، كي يتوجهوا إليه، ويستترلوا روحانيته على طريق الصابئة، فأعرض عن ذلك. وبعث كاهنان إليهم من اليهود فعلموهم دين اليهودية وأخذوا به، وهؤلاء عند اليهود هم الشمرة نسبة إلى شمر وهي شمورون. وليس الشمرة عندهم من بني إسرائيل، ولا دينهم صحيح في اليهودية.

وزحف سنجاريف عندهم إلى بيت المقدس بعد استيلائه على شمورون، فحاصرها وداخله العجب بكثرة عساكره. فقال لبني إسرائيل: من الذي خلصه إلهه من يدي حتى يخلصكم إلهكم، وفزع ملك بني إسرائيل إلى نبيهم مدليلا، وسأله الدعاء فدعا له، وأمنه من شرّ سنجاريف، ونزلت بعسكره في بعض لياليهم آفة سماوية، فأصبحوا كلهم قتلى. يقال أحصى قتلاهم فكانوا مائة وخمسة وثمانين ألفاً، ورجع سنجاريف إلى نينوى ثم قتله أولاده في سجوده لمعبوده من الكواكب، وولى ابنه أُيْسَرْحَدُّون، ثم استولى عليهم بعد ذلك بَخْتَنَصَّر كما سنذكره في خبره.

وأما ملوك بابل فهم النبط بنو نبيط بن اشوذ بن سام. وقال المسعودي: نبيط بن ماش بن إرم وكانوا موطنين بأرض بابل وملك منهم سوريان بن نبيط. وقال المسعودي: هو أحد نبيط بن ماش، ملك أرض بابل بولاية من فالغ، فلما مات فالغ أظهر بدعة الصابئة، وانتحلها بعده ابنه كنعان ويلقب بالنمروذ. وملك بعده ابنه كوش وهو نمروذ إبراهيم عليه السلام، وهو الذي قدم أباه آزر، فاصطفاه هاجر على بيت الأصنام لأن أرعو بن فالغ، لما هلك أبوه فالغ وكان على دين التوحيد الذي دعاه إليه أبوه عابر، رجع حينئذ أرغو إلى كوثا، ودخل مع النماردة في دين الصابئة، وتوارثها بنوه إلى آزر بن ناحور، فاصطفاه هاجر بن كوش وقدمة على بيت الأصنام، وولد له إبراهيم عليه السلام. وكان من أمره ما ذكرناه فيما نصه التتريل ونقله الثقات. ثم توالت ملوك النماردة ببابل، وكان منهم بختنصر على ما ذهب إليه بعضهم. ويقال أنّ الجرامقة وهم أهل نينوى غلبوا على بابل، وملكها سنجاريف منهم. واستعمل فيها بختنصر من ملوكها. ثم انتقض عليه بالجزا والطاعة، وغزا بني إسرائيل ببيت المقدس، فاقتحمها عليهم بعد الحصار وأثخن فيهم بالقتل والأسر، وقتل ملكهم وخرب مسجدهم وتجاوزهم إلى مصر، فملكها. ولما هلك بختنصر ملك من بعده فيما ذكروه ابنه نشبت نصّر. ثم من بعده بنيصر وغزاه أرتاق مرزبان كسرى من ملوك الكينية فقتله،وملك بابل وأعماله، وصار النبط والجرامقة رعية للفرس، وانقرضت دوله النماردة ببابل. هكذا ذكر ابن سعيد، ونقله عن داهر

مؤرخ دولة الفرس، وجعل السريانيين والنبط أمة واحدة، وهما دولة واحدة، وأما المسعودي فجعلهما دولتين.

وأما السريانيون فقال هم أول ملوك بعد الأرض الطوفان، وسمى من ملوكهم تسعة متعاقبين في مائة سنة أو فوقها، بأسماء أعجمية لا فائدة في نقلها لقلة الوثوق بالأصول التي بأيدينا من كتبه، وكثرة التغيير في الأسماء الأعجمية. نعم ذكر أنّ شوشان بشينين معجمتين، وأنه أول من وضع التاج على رأسه. والرابع منهم أنه الذي كور الكور، ومدن المدن، وان ملك الهند لعهده كان اسمه رتبيل، وأنه استولى على ملكه واستولى على السريانيين. وأن بعض ملوك المغرب ظاهرهم عليه، وانتزع لهم ملكهم من ورده عليهم. وسمى الثامن منهم ماروت. وأشار في آخر كلامه إلى أنهم كانوا مستولين على بابل وعلى الموصل، وأن ملوك اليمن ربما غلبوهم على أمرهم بعض الأحيان. وذكر في التاسع أنه كان غير مستقل بأمره، وأن أخاه كان مقاسمة في سلطانه، وأن أول من

اتخذ الخمر فلان، وأول من ملك فلان، وأول من لعب بالصقور والشطرنج فلان: مزاعم كلها بعيدة من الصحة. إنما وجهه أنّ السريانيين لما كانوا أقدم في الخليقة نسب إليهم كل قديم من الأشياء أو طبيعي كالخط واللغة والسحر والله أعلم.

وأما النبط فعند المسعودي أنهم من أهل بابل، لقوله في ترجمتهم ذكر ملوك بابل والنبط وغيرهم المعروفين بالكلدانيين. وذكر أنّ أولهم نمروذ الجبار ونسبه إلى ماش بن إرم بن سام. وذكر أنه الذي بنى الصرح ببابل، واحتفر نهر الكوفة، ونسب النمروذ في موضع آخر إلى كوش بن حام، لا أدري هو أو غيره. ثم عد ملوكهم بعد النمروذ ستاً وأربعين أو نحوها في ألف وأربعمائة من السنين، بأسماء أعجمية متعذر ضبطها فتركت نقلها. إلا أنه ذكر في الموفى منهم عدد العشرين وبعد التسعمائة من سنيهم، أنه الذي غزت فارس لعهده مدينة بابل. وذكر في الموفى عدد ثلاثة وثلاثين منهم، عند الألف والأربعمائة من سنيهم أنه سنحاريف الذي حارب بني إسرائيل وحاصرهم ببيت المقدس حتى أخذ الجزية منهم. وأن آخر ملوكهم دارينوش، وهو دارا الذي قتله الإسكندر لما ملك بابل. هذا ما ذكره المسعودي. ولم يذكر منهم نمروذ الخليل عليه السلام. وذكر أنّ مدينتهم بابل وأن الذي اختطها اسمه نير، واسم إمرأته شمر أم ملوك السريانيين اسمان أعجميان لا وثوق لنا بضبطها.

وقال الطبري: نمروذ بن كوش بن كنعان بن حام صاحب إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان يقال عاد إرم، فلما هلكوا قيل ثمود إرم، فلما هلكوا قيل نمروذ إرم، فلما هلك قيل لسائر ولد إرم إرمان، فهم النبط. وكانوا على الإسلام ببابل حتى ملكهم نمروذ، فدعاهم إلى عبادة الأوثان فعبدوها. انتهى كلام الطبري.

وقال هروشيوش مؤرخ الروم: انه نمروذ الجسيم، وإنّ بابل كانت مربعة الشكل، وكان سورها في دور ثمانين ميلا، وارتفاعه مائتا ذراع، وعرضه خمسون ذراعا، وهو كله مبني بالآجرّ والرصاص، وفيه مائة باب من النحاس، وفي أعلاه مساكن الحراس والمقاتلة تبيت على الجانبين في سائر دورة الطريق بينهما. وحول هذا السور خندق بعيد المهوى أجري فيه الماء، وأن الفرس هدموه، ولما تغلبوا علي ملك بابل تولى ذلك منهم كلام جيرش وهو كسرى الأول. انتهى كلام هروشيوش.

ويظهر من كلام هؤلاء أنّ اسم النمروذ سمة من ملك بابل، لوقوعه في أهل أنساب مختلفة، مرة إلى سام ومرة إلى حام. وزعم بعض المؤرخين أنّ نمروذ الخليل

عليه السلام هو النمروذ بن كنعان بن سنجاريف بن النمروذ الأكبر. وان بختنصر من عقبه وهو ابن برزاد بن سنجاريف بن النمروذ وأن الفرس الكينية غلبوا بختنصر على بابل ثم أبقوه واستعملوه عليها، وأن كسرى الأول من بني ساسان خرب مدينة بابل. وعند الإسرائيليين وينقلونه عن كتاب دانيال وأرميا من أنبيائهم، وضبط هذا الاسم يرميا: أنّ بختنصر من عقب كاسد بن حاور وهو أخو إبراهيم الخليل. وبنو كاسد هؤلاء من ملوك بابل ويعرفون بالكسدانيين نسبة إليه. وأن بختنصر منهم ملك أكثر المعمور وغلب على بني إسرائيل وأزال دولتهم، وخرب بيت المقدس، وانتهى ملكه إلى مصر وما وراءها، وكان ملكه خمسا وأربعين.

وملك بعده ابنه أويل مرود ثلاثا وعشرين سنة و بعده بلينصر ثلاث سنين. ثم زحف إليه دارا من ملوك الفرس وصهره كورش فحاصروه بمدينة بابل. وقال بعض الإسرائيليين: أنّ بختنصر وملوك بابل من كسديم، وكسديم من عيلام بن سام وهو أخو أشوذ، ومن أشوذ ملوك الموصل، انتهى الكلام في ملوك الموصل وملوك بابل.

وهذا غاية ما أدى إليه البحث من أخبارهم وأنسابهم. وكان من هؤلاء والكلدانيين دين الصابئة وهو عبادة الكواكب واستجلاب روحانيتها. يذكر أنهم كانوا لذلك أهل عناية بأرصاد الكواكب ومعرفة طبائعها، وخلاص المولدات وما يشابه ذلك من علوم النجوم والطلسمات والسحر. وأنهم نهجوا ذلك لأهل الربع الغربي من الأرض. وقد يشهد لذلك قراءة من قرأ: وما انزل على الملكين، بكسر اللام، مشيراً إلى أنّ هاروت وماروت من ملوك السريانيين وهم أول ملوك بابل، وعلى القراءة المشهورة وأنهما من الملائكة، فيكون اختصاص هذه الفتنة والابتلاء ببابل من بين أقطار الأرض دليلا على وفور قسطهما من صناعة السحر الذي وقع الابتلاء به، ومما يشهد لانتحالهم السحر وفنونه من النجوم وغيرها، أنّ هذه العلوم وجدناها من منتحل أهل مصر المجاورين لهم، وكان لملوكها عناية شديدة بذلك، حتى كان من مباهاتهم موسى بذلك وحشر السحرة له ما كان. وبقايا الآثار السحرية في برابي أخميم من صعيد مصر ما يشهد لذلك أيضاً والله أعلم.

خريطة

القبط

الخبر عن القبط وأوّلية ملكهم ودولهم وتصاريف أحوالهم والإلمام بنسبهم

هذه الأمة أقدم أمم العالم وأطولهم أمداً في الملك، واختصوا بملك مصر وما إليها، ملوكها من لدن الخليقة إلى أنّ صبحهم الإسلام بها، فانتزعها المسلمون من أيديهم. ولعدهم كان الفتح، وربما غلب عليهم جميع ما عاصرهم من ا لأمم حين يستفحل أمرهم، مثل العمالقة والفرس والروم واليونان، فيستولون على مصر من أيديهم. ثم يتقلص ظلهم فراجع القبط ملكهم هكذا إلى أنّ انقرضوا في مملكة الإسلام. وكانوا يسمون الفراعنة سمة لملوك مصر في اللغة القديمة. ثم تغيرت اللغة وبقي هذا الإسم مجهول المعنى، كما تغيرت الحميرية إلى المضرية والسريانية إلى الرومية. ونسبهم في المشهور إلى حام بن نوح. وعند المسعودي إلى بنصر بن حام.

وليس في التوراة ذكر لبنصر بن حام، وإنما ذكر مصرايم وكوش وكنعان وقوط. وقال السهيلي: إنهم من ولد كنعان بن حام لأنه لما نسب مصر قال فيه: مصر بن النبيط أو ابن قبط بن النبيط من ولد كوش بن كنعان. وقال أهروشيوش: إنّ القبط من ولد قبط بن لايق بن مصر. وعند الإسرائيليين أنهم من قوط ابن حام، وعند بعضهم أنهم من كفتوريم قبطقايين ومعناه القبط.

وقال المسعودي: اختص بنصر بن حام أيام النمروذ، ابن أخيه كنعان بولاية أرض مصر واستبد بها، وأوصى بالملك لابنه مصر، فاستفحل ملكه ما بين اسوان واليمن والعريش وأيلية وفرسية فسميت كلها أرض مصر نسبة إليه، وفي قبليها النوبة وفي شرقيها الشام، وفي شمالها بحر الزقاق، وفي غربها برقة، والنيل من دونها. وطال عمر مصر وكبر ولده، وأوصى بالملك لأكبرهم وهو قبط بن مصر أبو الأقباط، فطال أمد ملكه، وكان له بنون أربع: قبط بن مصر، وأن مصر هو الذي قسم الأرض، وعهد إلى أكبرهم بالملك وهو قبط، فغلب عليهم فأضيفوا إليه لمكان الملك والسن. وملك بعد قبط بن مصر أشمون بن مصر، ثم من بعده صاثم أخوهما أتريب. ثم عد ملوكا بأسماء

أعجمية بعيدة عن الضبط لعجمتها، وفساد ألاصول التي بين أيدينا من كتبته. ثم لما ذكر ستة منهم بعد أتريب قال: فكثر ولد بنصر بن حام، وتشاغبوا وملك عليهم النساء، فسار إليهم ملك الشام من العمالقة الوليد بن دومع فملكهم وانقادوا إليه، وأما ابن سعيد فيما نقل من كتب المشارقة فقال: ملك مصر ابنه قبط، ثم من بعده أخوه أتريب. قال: وفي أيام قبط زحف شداد بن مداد بن شداد بن عاد إلى مصر، وغلب على أسافلها، ومات قبط في حروبه. ثم جمع أتريب قومه واستظهر بالبربر والسودان على العرب حتى أخرجهم إلى الشام، واستبد أتريب بملك مصر وبنى المدينة المنسوبة إليه، ومدينة عين شمس، وملك بعده ابن أخيه البودشير بن قبط، وهو الذي بعث هرمساً المصري إلى جبل القمر حتى ركب جرية النيل من هنالك. وعدل البطيحة الكبرى التي تنصب إليها عيون النيل. وعمر بلاد الواحات، وحول إليها جمعا من أهل بيته. ثم ملك من بعده عديم بن البودشير ثم ابنه شدات بن عديم، ثم ابنه منذوش بن شدات، وجدد مدينة عين شمس، وكان لهم في السحر آثار عجيبة. ثم ملك بعده ابنه مقلاوش بن مقناوش، وعبد البقر وصورها من الذهب. ثم هلك وخلف ابنه مرقيش فغلب عليه عمه أشمون بن قبط وبنى مدينة الأشمون. وملك بعد ابنه أشاد بن أشمون، ثم من بعده عمه صا بن قبط وبنى مدينة باسمه. وملك بعده ابنه ندراس وكان حكيماً، وهو الذي بنى هيكل الزهرة الذي هدمه بختنصر. وملك بعده ابنه ماليق بن ندراس فرفض الصابئة ودان بالتوحيد، ودوخ بلاد البربر والأندلس، وحارب الإفرنج، وملك بعده ابنه حربيا بن ماليق فرجع عن التوحيد إلى الصابئة، وغزا بلاد الهند والسودان والشام. وملك بعده ابنه كلكي بن حربيا وهو الذي تسميه القبط حكيم الملوك ، واتخذ هيكل زحل وعهد إلى أخيه ماليا بن حربيا، واشتغل باللهو فقتله ابنه خرطيش، وكان سفاكا للدماء. والقبط تزعم أنه فرعون الخليل عليه السلام، وأنه أول الفراعنة. ولما تعدى بالقتل إلى أقاربه سمته ابنته حوريا وملكت القبط من بعده، فنازعها أبراحس من ولد عمها أتريب، وحاربته فكان لها الغلب. وانهزم أبراحس إلى الشام، فاستظهر

بالكنعانيين وبعث ملكهم قائده جيرون، فلما قرب مصر استقبلته حوريا وأطمعته في زواجها على أنّ يقتل أبراحس ويبني مدينة الإسكندرية ففعل، ثم قتلته آخراً مسموماً. واستقام لها الأمر وبنت منارة الإسكندرية وعهده بأمرها لدليقية ابنة عمها باقوم، فخرج عليها

أيمين من نسل أتريب طالباً بثأر قريبه أبراحس، ولحق بملك العمالقة يومئذ، وهو الوليد بن دومع الذي ذكرناه عند ذكر العمالقة فاستنصر به وجا ء معه وملك ديار مصر. واستبد بالقبط نقراوس، فاشتغل باللذات واستكفى من بنيه أطفير وهو العزيز فكفاه وقام بأمره، ودبر له يوسف الفيوم با لوحي والهندسة، وكانت أرضها مغايض للماء فأخرجه، وعمر القرى مكانه على عدد أيام السنة.. فجعله على خزائنه. وملك بعده دارم بن الريان، وسمته القبط ويموص. وكان يوسف مدبر أمره بوصية أبيه. ومات لعهده فأساء السيرة وهلك غريقاً في النيل. وملك بعده ابنه معدانوس بن دارم فترهب واستخلف ابنه كاشم فاستعبد بني إسرائيل للقبط، وقتله حاجبه ونصب بعده ابنه لاطش، فاشتغل باللهو فخلعه ونصب آخر من نسل ندراس اسمه لهوب، فتجبر وتذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام. وأهل الأثر يقولون: إنه الوليد بن مصعب وأنه كان نجاراً تقلب حاله إلى عرافة الحرس، ثم تطور إلى الوزارة ثم إلى الاستبداد. وهذا بعيد لما قدمناه في الكتاب الأول. وقال المسعودي: بل كان فرعون موسى من الأقباط. ثم هلك فرعون موسى، وخشي القبط من ملوك الشام، فملكوا عليهم دلوكة من بيت الملك وهي التي بنت الحائط على أرض مصر، ويعرف بحائط العجوز، لأنها طال عمرها حتى كبرت واتخذت البرابي ومقاييس النيل. ثم سمى المسعودي من بعد دلوكة ثمانية من ملوكهم على ذلك النحو من عجمة الأسماء. وقال في الثامن إنه فرعون الأعرج الذي اعتصم به بنو إسرائيل من بختنصر، فدخل عليه مصر وقتله، وهدم هياكل الصابئة، ووضع بيوت النيران له ولولده. وذكر في تواريخهم قال: قال ابن عبد الحكيم: وهذه العجوز دلوكة هي التي جددت البرابي بمصر، أرسلت إلى امرأة ساحرة كانت لعهدها اسمها ترورة، وكانت السحرة تعظمها، فعملت بربى من حجارة وسط مدينة منف، وصورت فيها صور الحيوانات من ناطق وأعجم، فلا يقع شيء بتلك الصورة إلا وقع بمثالها في الخارج. وكان لهم بذلك امتناع ممن يقصدهم من الأمم، لأنهم كانوا أعلم الناس بالسحر، وأقامت عليهم عشرين سنة حتى بلغ صبي من أبنائهم إسمه دركون بطلوس فملكوه، وأقامت معه على ذلك أربعمائة سنة ثم مات، فولوا ابنه برديس بن دركون، ومن بعده أخاه نقاس بن نقراس، ومن بعده

مرينا بن مرينوس، ثم ابنه استمارس بن مرينا، فطغى عليهم وخلعوه وقتلوه. وولوا عليهم صن أشرافهم بلوطيس بن مناكيل أربعين سنة، ثم استخلف مالوس بن بلوطيس ومات، فاستخلف أخاه مناكيل بن بلوطيس، ثم توفي فاستخلف ابنه بركة بن مناكيل فملكهم مائة وعشرين سنة. وهو فرعون الأعرج الذي سبى أهل بيت المقدس. ويقال أنه خُلع.

وقال ابن عبد الحكم: وولي من بعده ابنه مرينوس بن بركة، فاستخلف ابنه فرقون بن مرينوس، فملكهم ستين سنة، ثم هلك، واستخلف أخاه نقاس بن مرينوس. وكانت البرابي كلها إذا فسد منها شيء لا يصلحه إلاّ

رجل من ذرية تلك العجوز الساحرة التي وضعتها. ثم انقطعت ذريتها ففسدت البرابي أيام نقاس هذا، وتجاسر الناس على طلب الملك الذي في أيديهم، وهلك نقاس، واستخلف ابنه قومس بن نقاس، فملكهم دهراً، ثم ملك بختنضر بيت المقدس، واستلحم بني إسرائيل وفرقهم وقتل وخرّب ولحقوا بمصر، فأجارهم قومس ملكها، وبعث فيهم بختنصر فمنعهم وزحف إليه وغلب عليه فقتله، وخرب مدينة منف. وبقيت مصر أربعين سنة خرابا. وسكنها أرمياء مدة، ثم بعث إليه بختنصر فلحق به، ثم ردّ أهل مصر إلى موضعهم، وأقاموا كذلك ما شاء الله إلى أنّ غلب الفرس والروم على سائر الأمم،وقاتل الروم أهل مصر إلى أنّ وضعوا عليهم الجزى، ثم تقاسمها فارس والروم، ثم تداولوا ملكها فتوالت عليها نواب الفرس، ثم ملكها الإسكندر اليوناني وجدّد الإسكندرية والآثار التي خارجها، مثل عمود السواري ورواق الحكمة.

ثم غلب الروم على مصر والشام ، وأبقوا القبط في ملكها وصرفوهم في الولاية بمصر، إلى أنّ جاء الله بالإسلام، وصاحب القبط بمصر والإسكندرين المقوقس، واسمه جريج بن مينا فيما نقله السهيلي، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب ابن أبي بلتعة وجبرا مولى أبي رهم الغفاريّ، فقارب الإسلام وأهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته المعروفة، ذكرها أهل السير، كان فيها البغلة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركبها وتسمى دلدل، والحمار الذي يسمّى يعفور، ومارية القبطية أم ولده إبراهيم، وأمّها وأختها سيرين، وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسّان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن، وقدح من قوارير كان رسو ل الله صلى الله عليه وسلم يشرب فيه، وعسل استظرفه له من بنها إحدى قرى مصر معروفة بالعسل الطيب.

ويقال: أنّ هرقل لما بلغه شأن هذه الهدية اتهمه بالميل إلى الإسلام فعزله عن رياسة القبط.

وخرج مسلم في صحيحه من رواية أبي ذر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا افتتحتم مصر أو إنكم مستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً أو صهراً ". ورواه ابن إسحق عن الزهريّ وقال: قلت للزهري ما الرحم التي ذكر؟ قال كانت هاجر ام إسماعيل منهم. ولبعض رواة الحديث في تفسير الصهر أنّ مارية أم إبراهيم منهم، أهداها له المقوقس، وكانت من كورة حفن من عمل أنصناء. وقال الطبري: أنّ عمرو بن العاص لما ملك مصر أخبرهم بوصية النبيّ صلى الله عليه وسلم بهم، فقال: هذا نسب لا يحفظ حقه إلاّ نبي، لأنه نسب بعيد. وذكروا له أنّ هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم في بعضها دولة، فقتلوا الملك وسبوها. ومن هنالك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم.

ولما كمل فتح مصر والإسكندرية، وارتحل الروم إلى القسطنطينية، أقام المقوقس والقبط على الصلح الذي عقده لهم عمرو بن العاص وعلى الجزى، وأبقوه على رياسة قومه، وكانوا يشاورونه فيما يترل من المهمات إلى أنّ هلك، وكان يترل الإسكندرية، وفي بعض الأوقات يترل منف من أعمال مصر. واختط عمرو بن العاص الفسطاط بموضع خيامة التي كان يحاصر منها مصر. فترل بها المسلمون وهجروا المدينة التي كان بها المقوقس، إلى أنّ خَرَبت. وكان في خرابها ومهلك المقوقس انقراض أمرهم. وبقي أعقابهم إلى هذا الزمان

يستعملهم أهل الدول الإسلامية في حسابات الخراج، وجبايات الأموال لقيامهم عليها، وغنائهم فيها، وكفايتهم في ضبطها وتنميتها. وقد يهاجر بعضهم إلى الإسلام فترتفع رتبتهم عند السلطان في الوظائف المالية التي أعلاها في الديار المصرية رتبة الوزارة، فيقلدونهم إياها ليحصل لهم بذلك قرب من السلطان، وحظ عظيم في الدولة وبسطة يد في الجاه، تعدّدت منهم في ذلك رجال، وتعينت لهم بيوت ، قصر السلطان نظره على الاختيار منها لهذا العهد. وعامتهم يقيم على دين النصرانية الذين كانوا عليها لهذا العهد، وأكثرهم بنواحي الصعيد وسائر الأعمال، متحرفون بالفلح والله غالب على أمره.

وأمَّا إقليم مصر فكان في أيام القبط والفراعنة جسوراً كله بتقدير وتدبير، يحبسونه

ويرسلونه كيف شاؤا، والجنات حفاف النيل من أعلاه إلى أسفله، ما بين أسوان ورشيد. وكانت مدينة منف وعين شمس، يجري الماء تحت منازلها وأفنيتها بتقدير معلوم، ذكر ذلك كله عبد الرحمن بن شَمَاسَة، وهو من خيار التابعين، يرويه عن أشياخ مصر. قالوا: ومدينة عين شمس كانت هيكل الشمس، وكان فيها من الأبنية والأعمدة والملاعب ما ليس في بلد. قلت: وفي مكانها لهذا العهد ضيعة متصلة بالقاهرة يسكنها نصارى من القبط وتسمى المَطريّة. قالوا: ومدينة مَنَفَ مدينة الملوك قبل الفراعنة وبعدهم إلى أنّ خرّبها بختنصر كما تقدّم في دولة قومس بن نقاس. وكان فرعون يترل مدينة منف، وكان لها سبعون باباً، وبنى حيطانها بالحديد والصفر. وكانت أربعة أنهار تجري تحت سريره. ذكره أبو القاسم بن خرداذبه في كتاب المسالك والممالك. قال: وكان طولها إثني عشر ميلاً، وكانت جباية مصر تسعين ألف ألف دينار مكّرره مرتين، بالدينار الفرعوني وهو ثلاثة مثاقيل. وإنما سميت مصر بمصر بن بيصر بن حام، وبقال انه كان مع نوح في السفينة، فدعا له فأسكنه الله هذه الأرض الطيبة، وجعل البركة في ولده. وحدّها طولاً من برقة إلى أيلة، وعرضاً من أسوان إلى رشيد وكان أهلها صابئة، ثم حملهم الروم لما ملكوها بعد قسطنطين على النصرانية، عندما حملوا على الأمم المجاورة لهم من الجلالقة والصقالبة وبرجان والروس والقبط والحبشة والنوبة. فدانوا كلهم بذلك ورجعوا عن دين الصابئة في تعظيم الهياكل وعبادة الأوثان، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

خريطة

خريطة

بنو إسرائيل

الخبر عن بني إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك وتغلبهم علي الأرض المقدّسة بالشام وكيف تجدّدت دولتهم بعد الانقراض وما اكتنف ذلك من الأحوال

قد ذكرنا عند ذكر إبراهيم وبنيه صلوات الله وسلامه عليهم ما كان من شأن يعقوب بن إسحق واستقراره بمصر مع بنيه الأسباط، وفي التوراة أنّ الله سماه إسرائيل. وإيل عندهم كلمة مرادفة لعبد، وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته، والمضاف أبدا متأخر في لسان العجم، فلذلك كان إيل هو آخر الكلمة وهو المضاف. ثم قبض الله نبيه يعقوب بمصر لمائة وسبع وثمانين سنة من عمره وأوصى أنّ يدفن عند أبيه، فطلب يوسف من

فرعون أنّ يطلقه لذلك فأذن له، وأمر أهل دولته بالانطلاق معه فانطلقوا وحملوه إلى فلسطين فدفنوه بمقبرة آبائه، وهي التي اشتراها إبراهيم من الكنعانيين. ورجع يوسف إلى مصر وأقام بها إلى أنّ توفي لمائة وعشرين سنة من عمره، ودفن بمصر وأوصى أنّ يحملوا شِلْوه معهم إذا خرجوا إلى أرض الميعاد وهي الأرض المقدّسة. وأقام الأسباط بمصر وتناسلوا وكثروا، حتى ارتاب القِبط بكثرتهم واستعبدوهم، وفي التوراة أنّ ملكا من الفراعنة جاء بعد يوسف لم يعرف شأنه ولا مقامه في دولة آبائه، فاسترقّ بني إسرائيل واستعبدهم. ثم تحدّث الكُهّان من أهل دولتهم بأنّ نبوة تظهر في بني إسرائيل، وأنّ ملكك كائن لهم مع ما كان معلوما من بشارة آبائهم لهم بالملك، فعمد الفراعنة إلى قطع نسلهم بذبح الذكور من ذريتهم. فلم يزالوا على ذلك مدّة من الزمان، حتى ولد موسى. وهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب. وأمّه يوحانذ بنت لاوى عمة عمران. وكان قاهث بن لاوى من القادمين إلى مصر مع يعقوب عليه السلام وولد عمران بمصر، وولد هارون لثلاث وسبعين من عمره وموسى لثمانين، فجعلته أمّه في تابوت وألقته في ضحضاح اليم، وأرصدت أخته على بعد لتنظر من يلتقطه فتعرفه. فجاءت ابنة فرعون إلى البحر مع جواريها فرأته

واستخرجته من التابوت فرحمته. وقالت: هذا من العبرانيين فمن لنا بظئر ترضعه. فقالت لها أخته أنا آتيكم بها . وجاءت بأمّه فاسترضعتها له ابنة فرعون، إلى أنّ فصل، فأتت به إلى ابنة فرعون وسمته موسى، وأسلمته لها. ونشأ عندها ثم شب، وخرج يوما يمشي في الناس وله صولة بما كان له في بيت فرعون من المربى والرضاع، فهم لذلك أخواله. فرأى عبرانياً يضربه مصريّ، فقتل المصري الذي ضربه ودفنه. وخرج يوما آخر فإذا هو برجلين من بني إسرائيل وقد سطا أحدهما على الآخر فزجره، فقال له: ومن جعل لك هذا؟ أتريد أنّ تقتلني كما قتلت الآخر بالأمس. ونمي الخبر إلى فرعون فطلبه، وهرب موسى إلى أرض مدين عند عقبة أيلة، وبنو مدين أمة عظيمة من بني إبراهيم عليه السلام، كانوا ساكنين هناك. وكان ذلك لأربعين سنة من عمره، فلقي عند مائهم بنتين لعظيم من عظمائهم، فسقى لهما وجاءتا به إلى أبيهما فزوّجه باحداهما، كما وقع القرآن الكريم. وأكثر المفسّرين على أنه شعيب بن نوفل بن عيقا بن مدين، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقال الطبريّ: الذي استأجر موسى وزوّجه بنته رَعْويل وهو بيتر حبر مَدْيَن، أي عالمهم، وأن رعويل هو الذي زوّجه البنت، وأنّ اسمه يبتر. وعن الحسن البصريّ أنه شعيب رئيس بني مدين. وقيل إنه ابن أخي شعيب، وقيل ابن عمه. فأقام عند شعيب صهره مقبلا على عبادة ربّه، إلى أنّ جاءه الوحي وهو ابن ثمانين سنة. وأوحى إلى أخيه هارون وهو ابن ثلاث وثمانين سنة. فأوحى الله إليهما بأن يأتيا فرعون ليبعث معهما بني إسرائيل، فيستنقذاهم من مملكة القبط، وجور الفراعنة، ويخرجون إلى الأرض المقدّسة التي وعدهم الله بملكها على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فخرجا إليه وبلَّغا بني إسرائيل الرسالة، فآمنوا به واتبعوه، ثم حضرا إلى فرعون وبلّغاه أمر الله له بأن يبعث معهما بني إسرائيل، وأراه موسى عليه السلام معجزة العصا، فكان من تكذيبه وامتناعه وإحضار السَحَرَة لما رأى من موسى في معجزته، ثم إسلامهم ما نصّه القرآن العظيم.

ثم تمادى فرعون في تكذيبه ومناصبته، واشتدّ جوره على بني إسرائيل واستعبادهم

واتخاذهم سخريا في مهنة الأعمال، فأصابت فرعون وقومه الجوائح العشرة، واحدة بعد اخرى، يسالمهم عند وقوعها ويتضرع إلى موسى في الدعاء بانجلائها، إلى أنّ أوحى الله إلى موسى بخروج بني إسرائيل من مصر. ففي التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أنّ يذبح أهل كل بيت حملا من الغنم أنّ كان كفايتهم، أو يشتركون مع جيرانهم أنّ كان أكثر، وأن ينضحوا دمه على أبوابهم لتكون علامة، وأن يأكلوه سواء برأسه وأطرافه، ومعناه لا يكسرون له عظما ولا يدعون شيئا خارج البيوت، وليكن خبزهم فطيرا ذلك اليوم وسبعة أيام بعده. وذلك في اليوم الرابع عشر من فصل الربيع، وليأكلوا بسرعة وأوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم، ويخرجوا ليلا، وما فضل من عشائهم ذلك يحرقوه بالنار. وشرع هذا عيداً لهم ولأعقابهم، ويسمى عيد الفصح.

وفي التوراة أيضاً أنه قتل في تلك الليلة أبكار النساء من القبط ودوابهم ومواشيهم ليكون لهم بذلك ثقل عن بني إسرائيل. وأنّهم أمروا أنّ يستعير منهم حليا كثيرا يخرجون به، فاستعاروه وخرجوا في تلك الليلة بما معهم من الدواب والأنعام، وكانوا ستمائة ألف أو يزيدون، وشغل القِبْط عنهم بالمآتم التي كانوا فيها على موتاهم.

وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، استخرجه موسى صلوات الله عليه من المدفن الذي كان به بإلهام من الله تعالى، وساروا لوجههم حتى انتهوا إلى ساحل البحر بجانب الطور. وأدركهم فرعون وجنوده، وأمر موسى بأن يضرب البحر بعصاه ويقتحمه، فضربه فانفلق طرقا. وسار فيه بنو إسرائيل وفرعون وجنوده في اتباعه، ونزل بنو إسرائيل بجانب الطور وسبّحوا مع موسى بالتسبيح المنقول عندهم وهو: نسّبح الرب البهي، الذي قهر الجود، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود إلى آخره. وقالوا: وكانت مريم أخت موسى وهارون صلوات الله عليهما تأخذ الدف بيدها ونساء بني إسرائيل في أثرها بالدفوف والطبول، وهي تُرتّل لهنّ التسبيح، سبحان الرب القهّار، الذي قهر الخيول وركبانها ألقاها في البحر وهو المعنى الأول. ثم كانت المناجاة على جبل الطور، وكلام الله لموسى والمعجزات المتتالية، ونزول الألواح. ويزعم بنو إسرائيل أنها كانت لوحين فيها الكلمات العشرة وهي: كلمة التوحيد، والمحافظة على السبت بترك الأعمال فيه، وبرّ الوالدين ليطول العمر، والنهي

عن القتل، والزنا، والسرقة، وشهادة الزور، ولا تمتدّ عين إلى بيت صاحبه، أو امرأته أو لشيء من متاعه. هذه الكلمات العشرة التي تضمنتها الألواح.

وكان سبب نزول الألواح أنّ بني إسرائيل لما نجوا ونزلوا حول طور سيناء، صعد موسى إلى الجبل، فكلمه ربه، وأمره أنّ يُذكّر بني إسرائيل بالنعمة عليهم في نجاتهم من فرعون، وأن يتطهروا ويغسلوا ثيابهم ثلاثة أيام، ويجتمعوا في اليوم الثالث حول الجبل من بعد، ففعلوا وظلت الجبل غمامة عظيمة ذات بروق ورعود، ففزعوا وقاموا في سفح الجبل دهشين. ثم غشى الجبل دخان في وسطه عمود نور، وتزلزل له الجبل زلزلة عظيمة شديدة، واشتدّ صوت الرعد الذي كانوا يسمعونه، وأمر موسى صلوات الله عليه بأن يقّرب بني إسرائيل

لسماع الوصايا والتكاليف، قال فلم يطيقوا فأمر بحضور هارون وتكون العلماء غير بعيدة ففعل، وجاءهم بالألواح.

ثم سار بعد ذلك إلى ميعاد الله بعد أربعين ليلة. فكلمه ربه وسأله الرؤية فمنعها، فكان الصعق، وساخ الجبل ، وتلقى كثيرا من أحكام التوراة في المواعظ والتحليل والتحريم. وكان حين سار إلى الميعاد استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، واستبطؤا موسى، وكان هارون قد أخبرهم بأنّ الحلي الذي أخذوه للقبط محرّم عليهم، فأرادوا حرقه، وأوقدوا عليه النار. وجاء السامريّ في شيعة له من بني إسرائيل، وألقى عليه شيئا كان عنده من أثر الرسول فصار عجلاً وقيل عجلا حيوانا. وعبده بنو إسرائيل، وسكت عنهم هارون خوفا من افتراقهم. وجاء موسى صلوات الله عليه من المناجاة وقد أخبر بذلك في مناجاته. فلما رآهم على ذلك ألقى الألواح، ويقال كسرها، وأبدل غيرها من الحجارة، وعند بني إسرائيل انهما اثنان. وظاهر القرآن أنها أكثر، مع أنه لا يبعد استعمال الجمع في الاثنين. ثم أخذ برأس أخيه ووبّخه واعتذر له بما اعتذر، ثم حرق العجل، وقيل برده بالمبرد وألقاه في البحر.

وكان موسى صلوات الله عليه لما نجا ببني إسرائيل إلى الطور بلغ خبره إلى بيثر صهره من بني مَدْيَن، فجاء ومعه بنته صفورا زوجة موسى عليه السلام التي زوجها بها أبوها رعويل كما تقدّم. ومعها ابناها من موسى وهما جَرْشُون وعَازَر، فتلقاها موسى صلوات الله عليه بالبرّ والكرامة، وعظمه بنو إسرائيل، ورأى كثرة الخصومات

على موسى، فأشار عليه بأن يتخذ النقباء على كلّ مائة أو خمسين أو عشرة، فيفصلوا بين الناس، وتفصل أنت فيما أهم وأشكل ففعل ذلك.

ثم أمر الله موسى ببناء قبة للعبادة والوحي من خشب الشَمْشَاد، ويقال هو السنْط، وجلود الأنعام وشعر الأغنام. وأمر بتزيينها بالحرير والمصبغ والذهب والفضّة على أركانها. صوّر منها صور الملائكة الكروبيّين على كيفيات مفصلة في التوراة في ذلك كله، ولها عشر سرادقات مقدّرة الطول والعرض، وأربعة أبواب وأطناب من حرير منقوش مصبغ، وفيها دفوف وصفائح من ذهب وفضة، وفي كلّ زاوية بابان، وأبواب وستور من حرير، وغير ذلك مما هو مشروح في التوراة. وبعمل تابوت من خشب الشَمْشَاد طول ذراعين ونصف في عرض ذراعين في ارتفاع ذراع ونصف، مصفّحاً بالذهب الخالص من داخل وخارج، وله أربع حلق في أربع زوايا، وعلى حافته كروبيّان من ذهب يعنون مثالي ملكين بأجنحة، ويكونان متقابلين، وأن يصنع ذلك كله فلان شخص معروف في بني إسرائيل. وأن يعمل مائدة من خشب الشمشاد طول ذراعين في عرض ذراع ونصف بطناب ذهب واكليل ذهب، بحافة مرتفعة باكليل ذهب، وأربع حلق ذهب في أربع نواحيها، مغروزة في مثل الرمانة من خشب ملّبس ذهباً، وصحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة كلها من ذهب. وأن يعمل منارة من ذهب، بست قصبات من كلّ جانب ثلاث. وعلى كل قصبة ثلاث سُرُج، وليكن في المنارة أربعة

قناديل، ولتكن هي وجميع آلاتها من قنطار من ذهب. وأن يعمل مذبحاً للقربان، ووصف ذلك كله في التوراة بأتم وصف.

ونصبت هذه القبّة أول يوم من فصل الربيع ونصب فيها تابوت الشهادة وتضمن هذا الفصل في التوراة من الأحكام والشرائع قي القربان والنحور وأحوال هذه القبّة كثيرا. وفيها أنّ قبة القربان كانت موجود ة قبل عبادة أهل العجل، وأنها كانت كالكعبة يصلّون إليها وفيها، ويتقرّبون عندها، وأنّ أحوال القربان كانت كلها راجعة إلى هارون عليه السلام بعهد الله إلى موسى بذلك، وأنّ موسى صلوات الله عليه كان إذا دخلها يقفون حولها، ويترل عمود الغمام على باها، فيخرون عند ذلك سُجّداً لله عز وجل، ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه وينهاه، وهو واقف عند التابوت صامد لما بين ذينك الكَرُوبَيَّيْن. فإذا فصل

الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه بشيء يجيء إلى قُبّة القربان، ويقف عند التابوت، ويصمد لما بين ذينك الكروبيين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الخصومة.

ولما نجا بنو إسرائيل ودخلوا البرية عند سينا أول المصيف لثلاثة أشهر من خروجهم من مصر، وواجهوا جبال الشام وبلاد بيت المقدس التي وعدوا بها أنّ تكون مُلْكا لهم على لسان إبراهيم وإسحق ويعقوب صلوات الله عليهم بمسيرهم إليها، وأتوه بإحصاء بني إسرائيل من يطيق حمل السلاح منهم من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون، وضرب عليهم الغزو ورتب المصاف والميمنة والميسرة، وعين مكان كل سبط في التعبية، وجعل فيه التابوت والمذبح في القلب، وعين لخدمتها بني لاوى من أسباطهم، وأسقط عنهم القتال لخدمة القُبّة، وسار على التعبية سالكا على برية فاران، وبعثوا منهم إثني عشر نقيبا من جميع الأسباط فأتوهم بالخبر عن الجبارين. كان منهم كَالِب بن يوفنَّا بن حصرون بن بَارص بن يهوذا بن يعقوب، ويوشع بن نون بن أليشامع بن عميهون بن بارص بن لعدان بن تاحن بن تالح بن أراشف بن رافح بن بريعا بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، فاستطابوا البلاد واستعظموا العدوّ من الكنعانيين والعمالقة، ورجعوا إلى قومهم يخبرونهم الخبر، وخذلوهم إلا يُوشَع وكالب، فقالا لهم ما قالا: وهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما. وخامر بنو إسرائيل عن اللقا، وأبوا من السير إلى عدوّهم والأرض التي ملكهم الله، إلى أنّ يهلك الله عدوهم على غير أيديهم.

فسخط الله ذلك منهم وعاقبهم بأن لا يدخل الأرض المقدّسة أحد من ذلك الجيل إلا كالبا ويوشع. وإنما يدخلها أبناؤهم والجيل الذي بعدهم، فأقاموا كذلك أربعين سنة في برية سينا وفاران، يتردّدون حوالي جبال السراة، وأرض ساعير،وأرض بلاد الكرك والشوبك، وموسى صلوات الله عليه بين ظهرانيهم يسأل الله لطفه بهم ومغفرته، ويدفع عنهم مهالك سخطه، وشكوا الجوع.، فبعث الله لهم المنّ حبات بيض منتشرة على الأرض مثل ذرير الكزبرة، فكانوا يطحنونه ويتخذون منه الخبز لأكلهم. ثم قرموا إلى اللحم فبعث لهم السلوى

طيراً يخرج من البحر، وهو طير السماني، فيأكلون منه، ويدّخرون ثم طلبوا الماء، فأمر أنّ يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه إثنتا عشرة عيناً. وأقاموا على ذلك، ثم ارتاب واحد منهم اسمه فودح بن
إيصهر بن قاهث، وهو ابن عم موسى بن عمران بن قاهث. فارتاب هو وجماعة منهم من بني إسرائيل بشأن موسى، واعتمدوا مناصبته فأصابتهم قارعة وخسفت بهم وبه الأرض، وأصبحوا عبرة للمعتبرين. واعتزم بنو إسرائيل على الاستقالة مما فعلوه والزحف إلى العدو، ونهاهم موسى عن ذلك فلم ينتهوا، وصعدوا جبل العمالقة، فحاربهم أهل ذلك الجبل فهزموهم وقاتلوهم في كل وجه. فأمسكوا وأقام موسى على الاستغفار لهم، فأرسل إلى ملك أدوم يطلب الجواز عليه إلى الأرض المقدسة فمنعهم وحال دون ذلك. ثم قبض هارون صلوات الله عليه لمائة وثلاثة وعشرين سنة من عمره، ولأربعين سنة من يوم خروجهم من مصر، وحزن له بنو إسرائيل لأنه كان شديد الشفقة عليهم، وقام بأمره الذي كان يقوم به ابنه العيزار. ثم زحف بنو إسرائيل إلى بعض ملوك كنعان فهزموهم وقتلوهم وغنموا ما أصابوا معهم، وبعثوا إلى سيحون ملك العموريين من كنعان في الجواز في أرضه إلى الأرض المقدسة فمنعهم وجمع قومه وغزا بني إسرائيل في البرية، فحاربوه وهزموه وملكوا بلاده إلى حد بني عمّون، ونزلوا مدينته وكانت لبني مؤاب. وتغلب عليها سيحون. ثم قاتلوا عوجا وقومه من كنعان، وهو المشهور بعوج بن عوق، وكان شديد البأس فهزموه وقاتلوه وبنيه وأثخنوا في أرضه. وورثوا أرضهم إلى الأردن بناحية أريحا وخشي ملك بني مؤاب من بني إسرائيل، واستجاش بمن يجاوره من بني مدين، وجمعهم ثم أرسل إلى بلعام بن باعورا، وكان يترل في التخم بين بلاد بني عمون وبني مؤاب. وكان مجاب الدعوة معبراً للأحلام. واستدعاه ليستعين بدعائه، وأتاه الوحي بالنهي عن الدعاء، وألح عليه ذلك الملك وأصعده إلى الأماكن الشاهقة، وأراه معسكر بني إسرائيل منها، فدعا لهم وأنطقه الله بظهورهم وأنهم يملكون إلى الموصل. ثم تخرج أمة من أرض الروم فيغلبون عليهم، فغضب الملك وانصرف بلعام إلى بلاده.
وفشا في بني إسرائيل الزنا ببنات مؤاب ومدين، فأصابهم الموتان، فهلك منهم أربعة وعشرون ألفا. ودخل فنحاص بن لعزرا على رجل من بني إسرائيل في خيمته، ومعه امرأة من بني مدين قد أدخلها للزنا بمرأى من بني إسرائيل، فطعنها برمحه وانتظمها، وارتفع الموتان عن بني إسرائيل. ثم أمر الله موسى وألعازر بن هارون باحصاء بني
إسرائيل، بعد فناء الجيل الذي أحصاهم موسى وهارون ببرية سينا، وانقضاء الأربعين سنة التي حرم الله عليهم فيها دخول تلك الأرض. وأن يبعث بعثا من بني إسرائيل إلى مدين الذي أعانوا بنهي مؤاب. فبعث اثني عشر ألفا من بني إسرائيل، وعليهم فنحاص بن العيزر بن العزر بن هارون. فحاربوا بني مدين وقتلوا ملوكهم وسبوا نساءهم وملكوا أموالهم، وقسم ذلك في بني إسرائيل بعد أنّ أخذ منه لله، وكان فيمن قتل بلعام بن باعورا. ثم قسم الأرض التي ملك من بني مدين والعموريين وبني عمون وبني مؤاب. ثم ارتحل بنو إسرائيل ونزلوا شاطىء الأردن. وقال الله قد ملكتكم ما بين الأردن والفرات كما وعدت أباءكم، ونهوا عن قتال عيصو الساكنين ساعير وبني عمّون وعن أرضهم. وأكمل الله الشريعة والأحكام والوصايا لموسى عليه السلام وقبضه إليه لمائة

وعشرين سنة من عمره، بعد أنّ عهد إلى فتاه يوشع أنّ يدخل ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة ليسكنوها ويعملوا بالشريعة التي فرضت عليهم فيها، ودفن بالوادي في أرض مؤاب، ولم يعرف قبره لهذا العهد.

وقال الطبري: مدّة عمر موسى صلوات الله عليه مائة وعشرون سنة، منها في أيام أفريدون عشرون، ومنها في أيام منوجهر مائة. قال: ثم سار يوشع من بعد موسى إلى أريحا فهزم الجبارين ودخلها عليهم. وقال السدّي: أنّ يوشع تنبأ بعد موسى وسار إلى أريحا، فهزم الجبارين ودخلها عليهم، وأن بلعام بن باعورا كان مع الجبارين يدعو على يوشع، فلم يستجب له. وصرف دعاؤه على الجبارين. وكان بلعام من قرى البلقاء، وكان عنده الاسم الأعظم. فطلبه الكنعانيون في الدعاء على بني إسرائيل، فامتنع وألحوا عليه فأجاب ودعا فصرف دعاؤه، وكان قيامه للدعاء على جبل حسان مطلا على عسكر بني إسرائيل. هذا خبر السدي في أنّ دعاء بلعام كان لعهد يوشع، والذي في التوراة أنه كان لعهد موسى، وأن بلعام قتل لعهد موسى كما مر في خبر الطبري.

وقال السدي: أنّ يوشع بعد وفاة موسى صلوات الله عليه أمر أنّ يعبر، فسار ومعه التابوت، تابوت الميثاق، حتى عبر الأردن وقاتل الكنعانيين فهزمهم، وأن الشمس جنحت للغروب يوم قتالهم، ودعا الله يوشع فوقفت الشمس حتى تمت عليهم

الهزيمة. ثم نازل أريحا ستة أشهر وفي السابع نفخوا في القرون، وضج الشعب ضجة واحدة، فسقط سور المدينة فاستباحوها وأحرقوها، وكمل الفتح واقتسموا بلاد الكنعانيين كما أمرهم الله. هذا مساق الخبر عن سيرة موسى صلوات الله عليه، وبني إسرائيل أيام حياته وبعد مماته حتى ملكوا أريحا.

وفي كتب الإخباريين: أنّ العمالقة الذين كانوا بالشام قاتلهم يوشع فهزمهم، وقتل آخر ملوكهم، وهو السميدع بن هوبر بن مالك، وكان لقاؤهم إياه مع بني مدين في أرضهم، وفي ذلك يقول عوف بن سعد الجرهمي:

#ألم تر أنّ العلقمي بن هوبر بأيلة أمسى لحمه قد تمزعا

#ترامت عليه من يهود جحافل ثمانون ألفا حاسرين ودرعا

ذكره المسعودي وقد تقدم لنا خلاف النسابة في هؤلاء العمالقة، وأنهم لعمليق بن لاوذ أو لعمالق بن أليفاز بن عيصو الثاني، لنسابة بني إسرائيل سار إليه علماء العرب. وأما الأمم الذين كانوا بالشام لذلك العهد فأكثرهم لبني كنعان، وقد تقدمت شعوبهم وبنو أدوم أبناء عمون، وبنو مؤاب أبناء لوط، وثلاثتهم أهل يستعير وجبال الشراة وهي بلاد الكرك والشوبك والبلقا، ثم بنو فلسطين من بني حام. ويسمى ملكهم جالوت وهو من الكنعانيين منهم. ثم بنو مدين، ثم العمالقة. ولم يؤذن لبني إسرائيل في غير بلاد الكنعانيين، فهي التي اقتسموها وملكوها وصارت لهم تراثا. وأما غيرهم فلم يكن لهم فيها إلا الطاعة والمغارم الشرعية من صدقة وغيرها.

وفي كتب الإخباريين أنّ بني إسرائيل بعد ملكهم الشام بعثوا بعوثهم إلى الحجاز، وهنالك يومئذ أمة من العمالقة يسمون جاسم، وكان اسم ملكهم الإرم بن الأرقم، وكان أوصاهم أنّ لا يستبقوا منهم من بلغ الحلم. فلما ظهروا على العمالقة وقتلوا

الأرقم استبقوا ابنه وضنوا به عن القتل لوضاءته. ولما رجعوا من بعد الفتح وبخهم إخوانهم ومنعوهم دخول الشام وأرجعوهم إلى الحجاز وما تملكوا من أرض يثرب، فتزلوها واستتم لهم فتح في نواحيها. ومن بقاياهم يهود خيبر وقريظة والنضير. قال ابن إسحق: قريظة والنضير والتحام وعمرو هو هزل من الخزرج. وقال ابن الصريح بن التومان بن السبط بن إليسع بن سعد بن لاوى بن النمام بن يتحوم بن عازر بن عزر بن هارون عليه السلام. واليهود لا يعرفون هذه القصة، وبعضهم يقول كان ذلك لعهد طالوت والله أعلم.

الخبر عن حكام بني إسرائيل بعد يوشع

إلي أنّ صار أمرهم إلي الملك وملك عليهم طالوت

ولما قبض يوشع صلوات الله عليه بعد استكمال الفتح وتمهيد الأمر ضيع بنو إسرائيل الشريعة وما أوصاهم به وحذرهم من خلافه، فاستطالت عليهم الأمم الذين كانوا بالشام وطمعوا فيهم من كل ناحية. وكان أمرهم شورى فيختارون للحكم في عامتهم من شاؤا، ويدفعون للحرب من يقوم بها من أسباطهم، ولهم الخيار مع ذلك على من يلي شيئا من أمرهم. وتارة يكون نبيا يدبرهم بالوحي. وأقاموا على ذلك نحوا من ثلثمائة سنة لم يكن لهم فيها ملك مستفحل، والملوك تناوشهم من كل جهة إلى أنّ طلبوا من نبيهم شمويل أنّ يبعث عليهم ملكا، فكان طالوت، ومن بعده داود، فاستفحل ملكهم يومئذ وقهروا أعداءهم على ما يأتي ذكره بعد.

وتسمى هذه المدة بين يوشع وطالوت مدة الحكام ومدة الشيوخ.

وأنا الآن أذكر من كان فيها من الحكام على التتابع معتمدا على الصحيح منه، على ما وقع في كتاب الطبري والمسعودي ومقابلا به ما نقله صاحب حماة من بني أيوب في تاريخه عن سفر الحكام والملوك من الإسرائيليات، وما نقله أيضاً هروشيوش مؤرخ الروم في كتابه الذي ترجمه للحكم المستنصر من بني أمية قاضي النصارى وترجمانهم بقرطبة، وقاسم بن اصبغ. قالوا كلهم: لما فتح يوشع مدينة أريحاء سار إلى نابلس فملكها ودفن هنالك شلو يوسف عليه السلام، وكانوا حملوه معهم

عند خروجهم من مصر. وقد ذكرنا أنه كان أوصى بذلك عند موته.

وقال الطبري: أنه بعد فتح أريحا نهض إلى بلد عاي من ملوك كنعان، فقتل الملك وأحرق المدينة، وتلقاه خيقون ملك عمان وبارق ملك أورشليم بالجزى، واستذموا بأمانه فأمنهم وزحف إلى خيقون ملك الأرمانيين من نواحي دمشق، فاستنجد بيوشع، فهزم يوشع ملك الأرمن إلى حوران واستلحمهم وصلب ملوكهم، وتتبع سائر الملوك بالشام، فاستباح منهم واحدا وثلاثين ملكا، وملك قيسارية، وقسم الأرض التي ملكها بين بني إسرائيل. وأعطى جبل المقدس لكالب بن يوفنا فسكن مدينة أورشليم وأقام مع بني يهودا ووضع القبة التي فيها تابوت العهد والمذبح والمائدة والمنارة على الصخرة التي في بيت المقدس.

وأما بنو أفرايم فكانوا يأخذون الجزية من الكنعانيين. ثم قبض يوشع، في سفر الحكام أنه قبض لثمان وعشرين سنة من ملكه وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقال الطبري: ابن مائة وستة وعشرين سنة والأول أصح. قال: وكان تدبير يوشع لبني إسرائيل في زمن منوشهر عشرين سنة وفي زمن أفراسياب سبع سنين. وقال أيضاً أنّ

ملك اليمن شمر بن الأملوك من حِمْيَر كان لعهد موسى، وبني ظفار، وأخرج منها العمالقة. ويقال أيضاً كان من عمال الفرس على اليمن. وزعم هشام بن محمد الكلبي أنّ الفل من الكنعانيين بعد يوشع احتملهم أفريقش بن قيس بن صيفي من سواحل الشام في غزاته إلى المغرب التي قتل فيها جرجيس الملك، وأنه أنزلهم بأفريقية، فمنهم البربر، وترك معهم صهاجة وكتامة من قبائل حِمْيَر انتهى.

وقام بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا بن حصرون بن بارص بن يهودا، وقد مر نسبة وكان فنحاص بن العيزر بن هارون كوهنا يتولى أمر صلاتهم وقربانهم. ثم تنبأ وتنبأ أبوه ألعيزر، وكان كالب مضعفا فأقاما كذلك سبع عشرة سنة. وقال الطبري كان مع كالب في تدبيرهم حزقيل بن يودي ويقال له ولد العجوز لأنه ولد بعد أنّ كبرت أمه وعقمت. وحدث عن وهب بن منبه: أنّ حزقيل هذا دبرهم بعد كالب، و لم يقع لهذا ذكر في سفر الحكام، ثم بعد يوشع اجتمع بنو يهودا وبنو شمعون لحرب الكنعانيين فغلبوهم وقتلوهم، وفتحوا أورشليم وقتلوا ملكها، ثم فتحوا غزة وعسقلان، وملكوا الجبل كله و لم يقتلوا الغور. وأما سبط بنيامين فكان في قسمهم

بلد اليونانيين في أرضهم، وأخذوا منهم الخراج واختلطوا بهم، وعبدوا آلهتهم. فسلط الله عليهم ملك الجزيرة واسمه كوشان شقنائم، ومعناه أظلم الظالمين. ويقال إنه ملك الأرمن في الجزيرة ودمشق، وملك حوران وصيدا وحران، ويقال والبحرين ويقال أنه من أدوم.

وقال الطبري: من نسل لوط، فاستعبد بني إسرائيل ثمان سنين بعد وفاة كالب بن يوفنا، ثم ولي الحكم فيهم عثينئال ابن أخيه قناز بن يوفنا، فحاربهم كوشان هذا وأزال ملكته عن بني إسرائيل، ثم حاربه فقتله. وكان له بعد ذلك حروب سائر أيامه مع بني مؤاب، وبني عفون أسباط لوط، ومع العماليق، إلى أنّ هلك لأربعين سنة من دولته. ثم عبد بنو إسرائيل الأوثان من بعده، فسلط الله عليهم ملك بني مؤاب، واسمه عفلون، بعين مهملة ومعجمة ساكنة ولام مضمومة تجلب واوا ساكنة ونون بعدها، فاستعبدهم ثماني عشرة سنة. ثم قام بتدبيرهم أيهوذ بن كارا من سبط أفرايم. وقال ابن حزم: من بنيامين. وضبطه بهمزة ممالة تجلب ياء، ثم هاء مضمومة تجلب واوا، ثم ذال معجمة، فأنقذهم من يد بني مؤاب، وقتل ملكهم عفلون بحيلة تمت لهم في ذلك. وهو أنه جاء رسولا عن بني إسرائيل متنكرا بهدايا وتحف منهم، حتى إذا خلا به طعنه فأنفذه، ولحق بمكانه من جبل أفرايم. ثم اجتمعوا ونزلوا، فقتلوا من الحرس نحوا من عشرة آلاف، وغلب ببني إسرائيل بني مؤاب، واستلحمهم وهلك لثمانين سنة من دولته.

وقام بتدبيرهم بعده شمكار بن عناث من سبط كاد، وضبطه بفتح الشين المثلثة بعدها ميم ساكنة وكاف تقرب من مخرج الجيم ويجلب فتحها الفا وبعدها راء مهملة. ومات لسنة من ولايته. وبنو إسرائيل على حيالهم من المخالفة، فسلّط الله عليهم ملك كنعان واسمه يافين، بفاء شفوية تقرب من الباء، فسرح إليهم قائده سميرا، فملك عليهم أمرهم واستعبدهم عشرين سنة. وكانت فيهم كوهنة امرأة متنبئة اسمها دافورا، بفاء هوائية تقرب من الباء، وهي من سبط نفطالي، وقيل من سبط أفرايم، وقيل كان زوجها بارق ابن أبي نوعم من سبط نفطالي

واسمه البيدوق. فدعته إلى حرب سميرا فأبى إلاّ أنّ تكون معه، فخرجت ببني إسرائيل، وهزموا الكنعانيين، وقتل قائدهم سميرا، وقامت بتدبيرهم أربعين سنة يرادفها زوجها بارق ابن أبي نوعم. قال هروشيوش: وعلى عهدها كان أول ملوك الروم اللطينيين بأنْطاكِية بنقش بن شطونش،

وهو أبو القياصرة ثم توفيت دافورا وبقي بنو إسرائيل فوضى، وعادوا إلى كفرهم، فسلط الله عليهم أهل مدين والعمالقة. قال الطبري: وبنو لوط الذين بتخوم الحجاز قهروهم سبع سنين، ثم تنبأ فيهم من

سبط منشى بن يوسف كدعون بن يواش، وضبطه بفتح الكاف القريبة من الجيم وسكون الدال المهملة بعدها وعين مهملة مضمومة تجلب واوا وبعدها نون، فقام بتدبيرهم. وقد كان لمدين ملكان أحدهما اسمه رابح، والآخر صلمناع. فبعس إلى بني إسرائيل عساكره مع قائدين عوديب وزديف وأهم بني إسرائيل شأنهم، فخرج بهم كدعون فهزموا بني مدين، وغنموا منهم أموالا جمة، ومكثوا أيام كدعون هذا على استقامة في دينهم، وغلب لأعدائهم أربعين سنة. وكان له من الولد سبعون ولدا، وعلى عهده بنيت مدينة طرسوس. وقال جرجيس بن العميد: وملطية أيضاً. ولما هلك قام بتدبيرهم ولده أبو مليخ وكانت أمه من بني شخام بن منشى بن يوسف من أهل نابلس، فأنجدوه بالمال، وقتل بني أبيب كلهم، ثم نازعوه بنو شخام أخواله الأمر، وطالت حروبه معهم، وهلك محاصرا لبعض حصونهم بحجر طرحته عليه امرأة من السور فشدخه. فقال لصاحب سلاحه أجهز علي لئلا يقال قتلته امرأة. وذلك لثلاث سنين من ولايته.

ثم دبر أمرهم بعده طولاع بن فوا بن داود، من سبط يساحر، وضبطه بطاء قريبة من التاء تجلب ضمتها واوا ثم لام ألف ثم عين. وقال الطبري: هو ابن خال أبي مليخ وابن عمه.(قلت): والظاهر أنه ابن خاله لأن سبط هذا غير سبط ذاك. وقال ابن العميد هو من سبط يساحر إلا أنه كان نازلا في سائر من جبل أفراييم، فمن هنا والله أعلم وقع اللبس في نسبه ودبرهم ثلاثا وعشرين سنة. قال هروشيوش: وعلى عهده كان بمدينة طرونية من ملوك الروم اللطينيين برمامش بن بنقش. وملك ثلاثين سنة، وقد مضى ذكره. ولما هلك طولاع قام بتدبيرهم بعده يائير بن كلعاد من سبط منشى بن يوسف، وضبطه بياء مثناة تحتية مفتوحة، وألف ثم همزة مكسورة بعدها ياء أخرى، ثم راء مهملة، وقام في تدبيرهم اثنتين وعشرين سنة. ونصب أولاده كلهم حكاما في بني إسرائيل. وكانوا نحوا من ثلاثين. فلما هلك طغوا وعبدوا الأصنام،

فسلط الله عليهم بني فلسطين وبني عمون فقهرهم ثماني عشرة سنة.

وقام بتدبيرهم يفتاح من سبط منشى، وضبطه بياء مثناة تحتانية وفاء ساكنة وتاء مثناة من فوق بفتحة تجلب الفاء ثم حاء مهملة. فلما قام بأمرهم طلب ضريبة النحل من بني عمون فامتنعوا من إعطائها، وكانوا ملوكا منذ ثلثمائة سنة، فقاتلهم وغلبهم عليها وعلى اثنتين وعشرين قرية معها. ثم حارب سبط أفراييم، وكانوا مستبدين وحدهم عن بني إسرائيل. فأرادهم على اتفاق الكلمة والدخول في الجماعة، حتى استقاموا على ذلك، وأقام في تدبيرهم ست سنين. وعلى عهده أصابت بلاد اليونان المجاعة العظيمة التي هلك فيها أكثرهم.

ولما هلك قام بتدبيرهم أبصان من سبط يهودا من بيت لحم، وضبطه بهمزة مفتوحة وباء موحدة ساكنة وصاد مهملة بفتحة تجلب ألفا بعدها نون. ويقال أنه جد داود عليه السلام، بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينا ذاب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهودا. وحصرون هذا هو جد كالب بن يوفنا الذي دبرهم بعد يوشع. ونحشون كان سيد بني يهودا لعهد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام، وهلك في التيه. ودخل ابنه سلمون أريحا مع يوشع، ونزل بيت لحم على أربعة أميال من بيت المقدس. قال هروشيوش في أيام أبصان هذا كان انقراض ملك السريانيين، وخروج القوط وحروبهم مع النبط.

وأقام أبصان في تدبير بني إسرائيل سبع سنين، ثم هلك فقام بتدبيرهم إيلون من سبط زبولون، وضبطه بهمزة مكسورة تجلب ياء ثم لام مضمومة تجلب واوا ثم نون. فدبرهم عشر سنين ثم هلك، فدبرهم عبدون بن هلال من سبط أفراييم ثمان سنين. وقال ابن العميد اسمه عكرون بن هليان وكان له أربعون ابنا وثلاثون حافدا. قال هروشيوش: وفي أيامه خربت مدينة طرونة قاعدة الروم اللطينيين، خربها الروم الغريقيون في فتنة بينهم. ولما هلك عبدون دفن بأرض أفراييم في جبال العمالقة. واختلف بنو إسرائيل بعده وعبدوا الأصنام وسلط الله عليهم بني فلسطين فقهروهم أربعين سنة. ثم تخلصهم من أيديهم شمشون بن مانوح من سبط دان ويعرف بشمشون القوي، لفضل قوة كانت في يده، ويعرف أيضاً بالجبار

وكان عظيم سبطه. ودبّر بني إسرائيل عشر سنين بل عشرين سنة، وكثرت حروبه مع بني فلسطين واثخن فيهم، واتيح لهم عليه في بعض الأيام فأسروه ثم حملوه وحبسوه، واستدعاه ملكهم في بعض الأيام إلى بيت آلهتهم ليكلمه، فأمسك عمود البيت وهزه بيده فسقط البيت على من فيه وماتوا جميعا. ولما هلك اضطربت بنو إسرائيل وافترقت كلمتهم، وانفرد كل سبط بحاكم يولونه منهم، والكهنونية فيهم جميعا في عقب العيزار بن هارون من لدن وفاة هارون عليه السلام، بتوليته موسى صلوات الله عليه بالوحي ومعنى الكهنونية اقامة القرابين من الذبح والبخور على شروطها وأحكامها ايشرعئة عندهم. وقال ابن العميد: إنه ولي تدبيرهم بعد شمشون حاكم آخر اسمه ميخائيل بن راعيل، دبرهم ثمان سنين ولم تكن طاعته فيهم مستحكمة، وأن الفتنة وقعت بين بني إسرائيل ففني فيها سبط بنيامين عن آخرهم.

ثم سكنت الفتنة، وكان الكوهن فيهم لذلك العهد عالي بن بيطات بن حاصاب بن إليان بن فنحاص بن العيزار بن هارون. وقيل من ولد إيتامار بن هارون، وضبطه بعين مهملة مفتوحة تجلب ألفا ثم لام مكسورة تجلب ياء تحتانية. فلما سكنت الفتنة كانوا يرجعون إليه في أحكامهم وحروبهم. وكان له ابنان عاصيان فدفعهما إلى ذلك، وكثر لعهده قتال بني فلسطين، وفشا المنكر من ولديه وأمر بدفعهم عن ذلك، فلم يزدادوا إلا عتوا وطغيانا، وأنذر الأنبياء بذهاب الأمر عنه وعن ولده، ثم هزمهم بنو فلسطين في بعض أيامهم، وأصابوا منهم فتذامر بنو إسرائيل واحتشدوا وحملوا معهم تابوت العهد، ولقيهم بنو فلسطين. فانهزم بنو إسرائيل أمامهم وقتلوا أبنا عالي كوهن كما أنذر به أبوهما وشمويل. وبلغ أباهما الكوهن خبر مقتلهما فمات أسفا لأربعين سنة من دولته. وغنم بنو فلسطين التابوت فيما غنموه، واحتملوه إلى بلادهم بعسقلان وغزة، وضربوا

الجزية على بني إسرائيل. ولما مضى القوم بالتابوت فيما حكى الطبري، وضعوه عند آلهتهم فقلاها مرارا فأخرجوه إلى ناحية من القرية، فاصيبوا فتبادروا بإخراجه وحملوه على بقرتين لهما تبيعان، ووضعتاه عند أرض بني إسرائيل ورجعتا إلى ولديهما. وأقبل إليه بنو إسرائيل، فكان لا يدنو منه أحد إلا مات، حتى أذن شمويل لرجلين منهم حملاه إلى بيت أمهما وهي أرملة، فكان هنالك حتى ملك طالوت ا ه . وكان ردهم التابوت لسبعة أشهر من يوم حملوه، وكان عالي الكوهن

قد كفل ابن عمه شمويل بن الكنا بن يوام بن إلياهد بن ياو بن سوف، وسوف هو أخو حاصاب بن البلى بن يحاص.

وقيل أنّ شمويل من عقب فورح وهو قارون بن يصهار بن قاهاث بن لاوي. ونسبه إليه شمويل بن الفنا بن يروحام بن اليهوذ بن يوحا بن صوب بن إلقانا بن يويل بن عزير بن صنعينا بن ثاحت بن أسر بن ألقانا بن النشاسات بن قارون. وكانت أمه نذرت أنّ تجعله خادما في المسجد، وألقته هنالك فكفله عالي وأوصى له بالكهنونية. ثم أكرمه الله بالنبوة وولاه بنو إسرائيل أحكامهم، فدبرهم عشر سنين. وقال جرجيس بن العميد عشرين سنة، ونهاهم عن عبادة الأوثان فانتهوا، وحاربوا أهل فلسطين واستردوا ما كانوا أخذوا لهم من القرى والبلاد، واستقام أمرهم ثم دفع الأمر إلى ابنيه يؤال وأبيا. وكانت سيرتهما سيئة. فاجتمع بنو إسرائيل إلى شمويل وطلبوه أنّ يسأل الله في ولاية ملك عليهم، فجاء الوحي بولاية طالوت، فولاه وصار أمر بني إسرائيل ملكا بعد أنّ كان مشيخة والله معقب الأمر بحكمته لا رب غيره.

خريطة

الخبر عن ملوك بني إسرائيل بعد الحكام ثم افتراق أمرهم والخبر عن دولة بني سليمان بن داود علي السبطين يهوغا وبنيامين بالقدس إلى انقراضها

لما نقم بنو إسرائيل على يؤال وأبيا ابني شمويل مما نقموا من أمورهم، واجتمعوا إلى شمويل وسألوه من الله أنّ يبعث لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم، ويجمع نشرهم ويدفع الذل عنهم، فجاء الوحي بأن يولي الله طالوت ويدهنه بدهن القدس، فأبوا بعد أنّ أمر شمويل بأن يستهموا عليه فاستهموا على بني آبائهم، فخرج السهم على طالوت وكان أعظمهم جسما فولوه. واسمه عند بني إسرائيل شاول بن قيس بن أفيل، بالفاء الهوائية القريبة من الباء، ابن صار وابن نحورت بن أفياح. فقام بملكهم واستوزر افنين ابن عمه نير بن أفيل. وكان لطالوت من الولد يهوناتان وملكيشوع وتشبهات وأنبياداف. وقام طالوت بملك بني إسرائيل، وحارب أعداءهم من بني فلسطين وعمون ومؤاب والعمالقة ومدين، فغلب جميعهم. ونصر بنو إسرائيل نصراً لا كفاء له. وأول من زحف إليهم ملك بني عفون، ونازل قرية بلقاء، فهجم عليهم طالوت وهو في ثلثمائة ألف من بني إسرائيل فهزمهم واستلحمهم. ثم أغزى ابنه في عساكر بني إسرائيل إلى فلسطين فنال منهم واجتمعوا لحرب بني إسرائيل، فزحف إليهم طالوت وشمويل فانهزموا، واستلحمهم بنو إسرائيل، وأمر شمويل أنّ يسير إلى

العمالقة، وأن يقتلهم ودوابهم ففعل، واستبقى ملكهم أعاع مع بعض الأنام، فجاء الوحي إلى شمويل بأن الله قد سخطه وسلبه الملك، فخبره بذلك، وهجره شمويل فلم يره بعد.

وأمر شمويل أنّ يقدس داود وبعث له بعلامته، فسار إلى بني يهوذا في بيت لحم وجاء به أبوه إيشا، فمسحه شمويل وسلب طالوت روح الجسد وحزن لذلك ثم قبض شمويل وزحف جالوت وبنو فلسطين إلى بني إسرائيل فبرز إليهم طالوت في العساكر وفيهم داود بن إيشا من سبط يهوذا وكان صغيرا يرعى الغنم لأبيه. وكان يقذف بالحجارة في مخلاته فلا تكاد تخطيء. قال الطبري: وكان شمويل قد أخبر طالوت بقتل جالوت وأعطاه علامة قاتله فاعترض بني إسرائيل حتى رأى

العلامة فيه فسلحه وأقام في المصاف، وقد احتمل الحجارة في مخلاته، فلما عاين جالوت قذفه بحجارة فصكه في رأسه ومات. وانهزم بنو فلسطين، وحصل النصر، فاستخلص طالوت حينئذ داود وزوجه ابنته وجعله صاحب سلاحه. ثم ولاه على الحروب فاستكفى به، وكان عمره حينئذ فيما قال الطبري ثلاثين سنة. وأحبه بنو إسرائيل واشتملوا عليه. وابتلي طالوت وبنوه بالغيرة منه، وهم بقتله ونفذ لذلك مراراً، ثم حمل ابنه يهونتان على قتله فلم يفعل لخلة ومصافاة كانت بينهما، ودس إلى داود بدخيلة أبيه فيه. فلحق بفلسطين وأقام فيها أياما، ثم إلى بني مؤاب كذلك، ثم رجع إلى سبطه يهوذا بنواحي بيت المقدس، فأقام فيهم يقاتل معهم بني فلسطين في سائر حروبهم، حتى إذا شعر به طالوت طلب بني يهوذا بإسلامه إليه، فأبوا فزحف إليهم فأخرجوه عنهم، ولحق ببني فلسطين وقاتلهم طالوت في بعض الأيام فهزموه واتبعوه وأولاده يقاتلون دونه، حتى قتل يهونتان ومشوى وملكيشوع، وبنو فلسطين في اتباعه حتى إذا أيقن بالهلكة قتل نفسه بنفسه. وذلك فيما قال الطبري لأربعين سنة من ملكه.

ثم جاء داود إلى بني يهوذا فملكوه عليهم وهو داود بن إيشا بن عَوْفَذ. بالفاء الهوائية، بن بوغر واسمه افصان بالفاء الهوائية والصاد المشمة. وقد قدمنا ذكره في حكام بني إسرائيل بن سَلَمُون، الذي نزل بيت لحم لأول الفتح، ابن نَحْشُون، سيد بني يهوذا عند الخروج من مصر، ابن عمِّيناذاب بن إرم بن حصرون بن بارص بن يهوذا. هكذا نسبه في كتاب اليهود والنصارى، وأنكره ابن حزم قال: لأن نحشون مات بالتيه، وإنما دخل القدس ابنه سلمون. وبين خروج بني إسرائيل من مصر وملك داود ستمائه سنة باتفاق منهم. والذي بين داود ونحشون أربعة آباء، فإذا قسمت الستمائة عليهم يكون كل واحد منهم إنما ولد له بعد المائة والثلاثين سنة وهو بعيد.

ولما ملك داود على بني يهوذا نزل مدينتهم حفرون بالفاء الهوائية، وهي قرية الخليل عليه السلام لهذا العهد، واجتمع الأسباق كلهم إلى يشوشات بن طالوت فملكه في أورشليم، وقام بأمره وزير أبيه أفنيد وقد مر نسبه. وفي كتاب أسفار الملوك من الإسرائيليات: أنّ رجلا جاء لداود بعد وفاة طالوت، فأخبره بمهلكه ومهلك أولاده في هزيمتهم أمام بني فلسطين، وأمر هذا الرجل أنّ يقتله لما أدركوه، فقتله وجاء بتاجه ودملجه إلى داود، وانتسب إلى العمالقة فقتله

داود بقتله. وبكى على طالوت وذهب إلى سبط يهوذا بأرض حفرون، بالفاء القريبة من الباء، وهي قرية الخليل لهذا العهد. وأقام شيوشيات بن طالوت في أورشليم الأسباط كلهم مجتمعون عليه، وأقامت الحرب بينهم وبين داود أكثر من سنتين. ثم وقع الصلح بينهم والمهادنة، وأذعن الأسباط إلى داود وتركوه. ثم اغتاله بعض قواده وجاء براسه إلى داود فقتله به، وأظهر عليه الحزن والأسف، وكفل اخواته وبنيه أحسن كفالة.

واستبد داود بملك بني إسرائيل لثلاثين سنة من عمره وقاتل بني كنعان فغلبهم ثم طالت حروبه مع بني فلسطين واستولى على كثير من بلادهم، ورتب عليهم الخراج.ثم حارب أهل مؤاب وعمون، وأهل أدوم وظفر بهم، وضرب عليهم الجزية. ثم خرب بلادهم بعد ذلك، وضرب الجزية على الأرمن بدمشق وحلب، وبعث العمال لقبضها. وصانعه ملك أنْطاكِية بالهدايا والتحف، واختط مدينة صهيون وسكنها واعتزم على بناء مسجد في مكان القبة التي كانوا يضعون بها تابوت العهد ويصلون إليها. فأوحى الله إلى دانيال، نبي على عهده، أنّ داود لا يبني وإنما يبنيه ابنه، ويدوم ملكه، فسر داود بذلك.

ثم انتقض عليه ابنه أبشلوم وقتل أخاه أمون غيرة منه على شقيقه باماان وهرب. ثم استماله داود ورده وأهدر دم أخيه وصير له الحكم بين الناس. ثم رجع ثانيا لأربع سنين بعدها وخرج معه سائر الأسباط ولحق داود بأطراف الشام، وقيل لحق بخيبر وما إليها من بلاد الحجاز، ثم تراجع للحرب فهزمه داود وأدركه يؤاب وزير داود، وقد تعلق بشجرة فقتله. وقتل في الهزيمة عشرون ألفا من بني إسرائيل. وسيق راس قشلوط لولي أبيه داود فبكى عليه، وحزن طويلا واستألف الأسباط ورضي عنهم ورضوا عنه. ثم أحصى بني إسرائيل فكانوا ألف ألف ومائة ألف، وسبط يهوذا أزيد من أربعمائة ألف. وعوتب في الوحي لأنه أحصاهم بغير إذن، وأخبره بذلك بعض الأنبياء لعهده.

وأقام داود صلوات الله عليه في ملكه، والوحي يتتابع عليه، وسور الزبور تنزل. وكان يسبح بالأوتار والمزامير. وأكثر المزامير المنسوبة إليه في ذكر التسبيح وشأنه. وفرض على الكهنونية من سبط لاوى التسبح بالمزامير قدّام تابوت العهد اثني عشر كوهناً لكلّ

ساعة. ثم عهد تمام أربعين سنة من دولته لابنه سليمان صلوات الله عليهما، ومسحه مابان النبي، وصادوق الخبر، مسحة التقديس، وأوصى ببناء بيت المقدس. ثم قبض صلوات الله عليه ودفن في بيت لحم وكان لعهده من الأنبياء نامان وكاد وآصاف. وكان الكهنون الأعظم افيثار بن أحيلج من عقب عالي الكوهن الذي ذكرناه في الحكام. وكان من بعده صادوق.

ثم قام بالملك من بعده من بني إسرائيل ابنه سليمان صلوات الله عليه، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. فاستفحل ملكه، وغالب الأمم وضرب الجزية على جميع ملوك الشام. مثل فلسطين وعمون وكنعان ومواب وأدوم والأرمن. وأصهر إليه الملوك من كل ناحية ببناهم، وكان ممن تزوج بنت فرعون مصر، وكان وزيره يؤاب بن نيثرا وهو ابن أخت داود اسمها صوريا. وكان وزيراً لداود. فلما ولي سليمان استوزره فقام بدولته، ثم قتله بعد ذلك واستوزر يشوع بن شيداح. ولأربع سنين من ملكه شرع في بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، فلم

يزل إلى آخر دولته، بعد أنّ هدم مدينة أنْطاكِية، وبنى مدينة تدمر في البرية، وبعث إلى ملك صور ليعينه في قطع الخشب من لبنان. وأجرى على الفعلة فيه كل عام عشرين ألف كرّ من الطعام، ومثلها من الزيت، ومثلها من الخمر. وكان الفعلة في لبنان سبعين ألفاً، ولنحت الحجارة ثمانين ألفاً، وخدمة المناولة سبعون ألفاً. وكان الوكلاء والعرفاء على ذلك العمل ثلاثة آلاف وثلثمائة رجل.

ثم بنى الهيكل وجعل ارتفاعه مائة ذراع في طول ستين وعرض عشرين. وجعل بدائره كله أروقة وفوقها مناظر، وجعل بدائر البيت ابريداً من خارج، ونمقه وجعل الظهر مقوراً ليودع فيه تابوت العهد. وصفّح البيت من داخله وسقفه بالذهب، وصنع في البيت كروبيين من الخشب مصفحتين بالذهب، وهما تمثالان للملائكة الكروبيين. وجعل للبيت أبواباً من خشب الصنوبر، ونقش عليها تماثيل من الكروبيين والنرجس والنخل والسوسن، وغشاها كلها بالذهب. وأتم بناء الهيكل في سبع سنين، وجعل لها باباً من ذهب، ثم بنى بيتاً لسلاحه أقامه على أربعة صفوف من العمد من خشب الصنوبر، في كل صف خمسة عشر عموداً، ووضع فيه مائتي

ترس من الذهب، في كل ترس ستمائة من حجر الجوهر والزمرد، وثلثمائة درقة من الذهب، في كل درقة ثلثمائة من حجر الياقوت. وسمى هذا البيت غيضة لبنان. وصنع منبراً لجلوسه تحت رواق وكراسي كثيرة كلها من العاج ملبسة من الذهب. ثم بنى من فوق هذا البناء بيتاً لابنة فرعون التي تزوج بها، وصنع بها أوعية النحاس لسائر ما يحتاج إليه في البيت، واسترضى الصناع لذلك من مدينة صور. وعمل مذبح القربان بالبيت من الذهب، ومائدة الخبز الوجوه من الذهب، وخمس منابر عن يمين الهيكل وخمسا عن يساره بجميع آلاتها من الذهب، ومجامر من الذهب. وأحضر موروث أبيه من الذهب والفضة والأوعية الحسنة فأدخلها إلى البيت، وبعث إلى تابوت العهد من صهيون قرية داود إلى البيت الذي بناه له، فحمله رؤساء الأسباط والكهنونية على كواهلهم حتى وضعوه تحت أجنحة التمثالين للكروبيين بالمسجد وكان في التابوت اللوحان من الحجارة اللذان صنعهما موسى عليه السلام بدل الألواح المنكسرة، وحملوا مع تابوت العهد قبة القربان وأوعيتها إلى المسجد. وأقام سليمان أمام المذبح يدعو في يوم مشهود، اتخذ فيه وليمة لذلك ذبح فيها اثنين وعشرين ألفا من البقر، ثم كان يقرّب ثلاث مرات في قرابين وذبائح كاملة، ويبخر البخور، وجميع الأوعية لذلك كلها ذهب. وكانت جبايته في كل سنة ستمائة قنطار وستة وستين قنطارا من الذهب، غير الهدايا والقربان إلى بيت المقدس.

وكانت له سفن بحر الهند تجلب الذهب والفضة والبضائع والفيلة والقرود والطواويس، وكانت له خيل كثيرة مرتبة تجلب من مصر وغيرها، تبلغ ألفاً وستمائة فرس، معدة كلها للحرب. وكانت له ألف امرأة لفراشه ما بين حرة وسرية، منها ثلثمائة سرية. وفي الأخبار للمؤرخين أنه تجهز للحج، فوافى الحرم وأقام فيه ما شاء الله. وكان يقرب كل يوم خمسة آلاف بدنة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاة. ثم سما إلى ملك اليمن وسار إليه، فوافى صنعاء من يومه. وطلب الهدهد لالتماس الوضوء، وكان قناقه أي ملتمس الوضوء له في الأرض، فافتقده ورجع إليه بخبر بلقيس كما قصه القرآن. ودافعته بالهدية فلم يقبلها، فلاذت بطاعته ودخلت في دينه

وطاعته. وملكته أمرها ووافته بملك اليمن. وأمرها بأن تتزوج فنكرت ذلك لمكان الملك، فقال لا بدّ في الدين من ذلك. فقالت زوجني ذا تّبع ملك همدان فزّوجها إياه، وملكه على اليمن واستعملها فيه ورجع إلى الشام. وقيل تزوجها وأمر الجنّ فبنوا لها سليمين

وغمدان. وكان يزورها في الشهر مرة يقيم عندها ثلاثاً. وعلماء بني إسرائيل ينكرون وصوله إلى الحجاز واليمن. وإنما ملك اليمن عندهم بمراسلة ملكة سبأ، وانها وفدت عليه في اورشليم، وأهدت إليه مائة وعشرين قنطارا من الذهب ولؤلؤاً وجوهراً وأصنافاً من الطيب والمسك والعنبر، فأجازها وأحسن إليها، وانصرفت. هكذا في كتاب الأنساب من كتبهم.

ثم انتقض على سليمان آخر أيامه هدرور ملك الأرمن بدمشق وهداد ملك أدوم، وكان قد ولى على ضواحي بيت المقدس، وجميع أعماله يربعان بن نباط من سبط أفرايم واستكفى به في ذلك، وكان جباراً، فعوتب بالوحي على لسان أخيا النبي في توليته، فأراد قتله، وشعر بذلك يربعان فهرب إلى مصر فأنكحه فرعون ابنته، وولدت له ابنه ناباط، وأقام بمصر.

وقبض سليمان صلوات الله عليه لأربعين سنة من ملكه، وقيل لاثنتين وخمسين، ودفن عند أبيه داود صلوات الله عليهما. وافترق ملك بني إسرائيل من بعده كما نذكره إن شاء الله تعالى.

خريطة

الخبر عن افتراق بني إسرائيل منهم ببيت المقدس

علي سبط يهوذا وبنيامين إلي انقراضه

لما قبض سليمان صلوات الله عليه وسلامه ولي ابنه رحبعم، وضبطه براء مهملة وحاء مهملة مضمومتين وباء موحدة ساكنة وعين مهملة مضمومة وميم، فقام بأمره وزاد في عمارة بيت لحم وغزة وصور وأيلة واشتدّ علي بني إسرائيل، وطلبوا منه تخفيف الضرائب فامتنع، وطالبهم بالوظائف وأخذ فيهم برأى الغواة من بطانته، فنقموا عليه ذلك وانتقضوا. وجاءهم يربعم بن نباط من مصر فبايعوه، وولّوه عليهم، واجتمع عليه سائر الأسباط العشرة من بني إسرائيل ما عدا سبط يهوذا وبنيامين، وتزاحفوا للحرب. ثم دعاهم بعض أنبيائهم للصلح فتواضعوا واصطلحوا.

وفي السنة الخامسة من ملك رحبعم زحف شيشاق ملك مصر إلى بيت المقدس، فهرب رحبعم واستباحها شيشاق، ورجع وضرب عليهم الجزية، ثم دفعوه ومنعوه.

فأقام بنو داود في سلطانهم على بني يهوذا وبنيامين ببيت المقدس وعسقلان وغزة ودمشق وحلب وحمص وحماة وما إلى ذلك من أرض الحجاز، وملك الأسباط العشرة بنواحي نابلس وفلسطين. ثم نزلوا مدينة شومرون وهي شمرة وسامرة في الناحية الشرقية الشمالية من الشام مما يلي الفرات والجزيرة، واتخذوها كرسيا لملكهم ذلك. وأقاموا على هذا الافتراق إلى حين انقراض أمرهم، ووقعوا في الجلاء الذي كتب الله عليهم كما نذكره.

ثم هلك رحبعم لسبع عشرة سنة من دولته وولي بعده على سبط يهوذا وبنيامين بأرض القدس ابنه أفيا، وضبطه بهمزة مفتوحة ومتوسطة بين الفاء والذال من لغتهم وياء مثناة من تحت مشددة وألف، وكان على مثل سيرة أبيه. وكان عابداً صواماً، وكانت أيامه كلها حربا مع يربعم بن نباط، وبني إسرائيل. وهلك لثلاث سنين، وولي بعده ابنه أسا، بضم الهمزة وفتح السين المهملة وألف

بعدها، ابن أفيا. وطال أمد ملكه، وكان رجلا صالحا، وكان على مثل سيرة جده داود صلوات الله عليه، وتعدت الأنبياء في بني إسرائيل على عهده، ومات يربعم بن نباط لسنتين من ملكه. وملك بعده ابنه ناداب، وقتله يعشا بن أحيا كما نذكر في أخبارهم.

ثم وقعت بينه وبين أسا حروب، واستبد أسا بملك دمشق فزحف معه، وكان يعشا

ملك السامرة في ناحية يثرب لبنائها، فهرب وترك آلات البناء، فنقلها أسا ملك القدس، وبنى بها الحصون.. ثم خرج عليهم زادح ملك الكوش في ألف ألف مقاتل، ولقيهم أسا فهزمهم وأثخن فيهم. و لم تزل الحرب قائمة بين أسا وبين الأسباط بالسامرة سائر أيامه. وعلى عهده اختطت السامرة كما نذكره بعد. ثم هلك أسا بن أفيا لإحدى وأربعين سنة من ملكه. وولي بعده ابنه يهوشافاط، بياء مفتوحة مثناة تحتانية وهاء مضمومة وواو ساكنة وشين معجمة بعدها ألف ثم فاء بعدها ألف وطاء، فكان على مثل سيرة أبيه. وكانت أيامه مع أهل السامرة وملوكهم سلماً. واجتمع ملوك العمالقة، ويقال أدوم، وخرج لحربهم فهزمهم وغنم أموالهم. وكان لعهده من الأنبياء إلياس بن شوياق وإليسع بن شوبوات. وقال ابن العميد: إيليا ومنحيا وعبوديا، وكانت له سفن في البحر يجلب له فيها بضائع الهند، فأصابها قاصف الريح فتكسرت وغرقت. ثم هلك لخمسة وعشرين سنة من ملكه، وولي ابنه يهورام، بفتح المثناة التحتانية ثم هاء مضمومة تجلب واوا ثم راء مفتوحة تجلب ألفا وبعدها ميم، وانتقض عليه أدوم، وولوا عليهم ملكا : ألنهم. فزحف فيهم ووقع بهم في سفيرا أوسط بلادهم، وأثخن فيهم بالسبي والقتل. ثم رجع عنهم وأقاموا في عصيانهم، وعلى عهده زحف ملك الموصل إلى الأسباط بالسامرة، فكانت بينه وبينهم حروب كما نذكر. وقال ابن العميد: كانت على بني مؤاب جزية مضروبة لبني يهوذا: مائتان من الغنم كل سنة، فمنعوها واجتمع ملوك القدس والسامرة لحربهم، وحاصروهم سبعة أيام، وفقدوا الماء فاستسقى لهم إليسع، وجرى الوادي. فخرج أهل مؤاب فظنوه ماء،

فقتلهم بنو إسرائيل وأثخنوا فيهم. وفي أيام يهورام رفع إيليا النبي وانتقل سره إلى إليسع، وكان على عهده من الأنبياء أيضاً عبوديا، ثم هلك يورام لثمان سنين من ملكه، ودفن عند جده داود وولي بعده ابنه أحزياهو بهمزة مفتوحة وحاء مهملة مضمومة وزاي معجمة ساكنة ثم ياء مثناة تحتية تجلب ألفا ثم هاء مضمومة تجلب واوا، وأمة عثليا بنت عمري أخت أخاب، وسار سيرة خاله، وملك سنة واحدة وقيل سنتين، وخرج لقتال ملك الجزيرة والموصل، واستنفر معه صاحب السامرة يورام ابن خاله أخاب، فاقتتلوا معه ثم انصرفوا، وابن خاله جريح. وجاءه أحزياهو في بعض الأيام يعوده. وكان ابن يهوشافاض ابن منشي من سبط منشا بن يوسف يترصد قتل يورام بن أخاب ملك السامرة، فأصاب فرصة في ذلك الوقت فقتلهما جميعا.

وقال ابن العميد: أنّ يورام بن أحاب ملك السامرة خرج لحرب أدوم في رواية كلعاد، وخرج معه أحزياهو فقتلا في تلك الحرب. قال: وقيل أنّ ياهوعشا رمى بسهم فأصاب يورام بن أحاب وكان لعصره من الأنبياء إليسع وعامور وفنحاء. ثم ملك بعد أحزيا أمه عثليا بنت عمري، كذا وقع اسمها في كتاب الطبري. وفي كتاب الإسرائيليات اسمها أضالية. ويقال كانت من جواري سليمان، ثم استفحل ملكها بالقدح وقتلت بني داود كلهم وأغفلت ابنا رضيعا من ولد أبيها أحزياهو اسمه يؤاش، بضم الياء المثناة التحتية ثم همزة مفتوحة تجلب ألفا ثم شين معجمة، أخفته عمته يهوشيع بنت يهورام في بعض زوايا القدس، وعلم بمكانه زوجها يهودياع وهو يومئذ الكوهن الأعظم. حتى إذا كملت له سبع سنين ونقم بنو يهوذا سيرة عثليا اجتمعوا إلى يهودياد ع الكوهن فأخرج لهم يؤاش بن أحزياهو من مكانه، واستحلفهم فبايعوا له وقتلوا جدّته عثليا ومن معها لسبع سنين من ملكها.

وقام يؤاش بملكه في تدبير يهودياد ع الكوهن، ثم أراد عبادة الأصنام فمنعه زكريا النبي فقتله. وكان لعهده من الأنبياء إليسع وعوفريا وزكريا بن يهودياد ع. وهلك يهودياد ع لثلاث وعشرين سنة من ملك يؤاش بعد أنّ جدد يؤاش بيت المقدس، ولثمان وثلاثين من ملكه قبض إليسع النبي صلوات الله عليه. وعلى عهده زحف شريال ملك الكسدانيين ببابل إلى بيت المقدس ويقال ملك نينوى والموصل وقال ابن العميد: ملك الشام فأعطاهم جميع ما في خزائن الملك وبيت المقدس من الأموال، ودخل في طاعتهم إلى أنّ قتله وزراؤه وأهل دولته لأربعين سنة من ملكه، وولوا مكانه ابنه أمصياهو، بفتح الهمزة والميم وسكون الصاد المشمة بالزاي بعدها ياء مثناة تحتانية بفتحة تجلب ألفا ثم هاء مضمومة تجلب واوا، واستبدوا عليه، ثم ثار عليهم بأمه وقتلهم أجمعين. وسار إلى أدوم فظفر بهم وقتل منهم نحوا من عشرين ألفا. ثم زحف إليه ملك الأسباط بالسامرة ولقيه فهزمه وحصل في أسره.

وسار إلى بيت المقدس، فحاصرها وهدم من سورها نحوا من أربعمائة ذراع، واقتحمها فغنم ما في خزائن بيت السلطان وبيت الهيكل من الأموال والأواني والذخائر، ورجع إلى السامرة فأطلق أمصياهو ملك القدس، فرجع إلى قومه ورم ما تثلم من سورها. ولم يزل مملكا حتى نقموا عليه أفعاله فقتلوه لسبع وعشرين سنة من ملكه. وكان لعهده من الأنبياء يونان وناحوم وتنبأ لعصره عاموص. ولما قتلوا أمصياهو ولوا ابنه عزياهو، بعين مهملة مضمومة وزاي معجمة مكسورة مشددة وياء مثناة تحتانية تجلب ألفا وهاء تجلب واوا، وطالت مدته ثلاثا وعشرين سنة واختلفت فيها أحواله.

قال ابن العميد: ولخمس من ملكه كان ابتداء وضع سني الكبس، التي هي سنة بعد أربع تزيد يوما على الماضية، بحساب ربع يوم في كل سنة الذي اقتضاه حساب مسير الشمس عندهم. قال: ولست من ملكه انقرض ملك الأرمانيين من الموصل، وصارت إلى بابل. ولاثنتين وعشرين من ملكه غزا ملك بابل واسمه فول مدينة السامرة، فاقتحمها وأعطاه ملكها بدرة من المال فرجع عنه. قال: ولعهده ملك علم بابل رينوس وبلقب قطب الملك ولعهده ملك على

اليونانيين ملكهم الأول من مدينة أنقياس لثلاث وعشرين سنة من تملك عزياهو. قال: ولإحدى وخمسين من ملكه ملك ببابل بختنصر الأول. قال: ولعهده أيضاً كان الملك الأول من الروم المقدويس ويسمى فروس. ولعهده كان من الأنبياء يوشع وغوزيا وأمُّوص وأشعيا ويونس بن متى.

قال ابن العميد: وانتهت عساكر عزياهو إلى ثلثمائة ألف، وأصابه البرص بدعاء الكوهن، لما أراد أنّ يخالف التوراة في استعمال البخور وهو محرم على سبط لاوي، فبرص ولزم بيته سنة. وصار ابنه يُؤام ينظر في أمر الملك إلى أنّ تغلب على أبيه. قال هروشيوش: وعلى عهده أيضاً قُتِلَ شرديال آخر ملوك بابل من الكلدانيين على يد قائده أرباط بن ألمادس. واستبد بملك بابل وأصارَهُ إلى قومه بعد حروب طويلة. ثم زحف إلى القوط والعرب من قضاعة فحاربهم طويلا وانصرف عنهم. ثم هلك عزياهو لثلاث وخمسين سنة ملأ ملكه، وملك بعده ابنه يُؤاب، وكان صالحا تقيا. وكان لعهده من الأنبياء هُوَسيع وأشعيا ويوئيل وعوفد. وفي أيامه استبد أغلب ملوك الجزيرة على اليهود، وكانوا يعرفون بالسوريانيين. ثم هلك يوآب لست عشرة سنة من ملكه وملك ابنه أحاز، بهمزة مفتوحة ممالة وحاء مهملة تجلب ألفا وزاي معجمة، فخالف سنة آبائه. وعبد بنو إسرائيل الأوثان في أيامه، وحارب الأرمن واستجاش عليهم بملك الموصل، فزحف معه وحاصر دمشق وملكها منهم واستباحها، ورجع إلى بلاده. ثم خرج أحآز لحربهم فهزموه وقتلوا من اليهود مائة وعشرين ألفاً ونحوها وأرجعوا أحآز إلى دمشق أسيرا.

قال هروشيوش: وعلى عهد أحآز كان انقراض ملك ألماريس على يد كيرش ملك الفرس ورجعت أعمالهم إليه، ويقال: أنّ آخر ملوكهم هو أشتانيش وكان جد كيرش لأمه، وكفله صغيرا فلما شب وملك حارب جذه فقتله وانتزع ملكه. وقال ابن العميد عن المسبحي: ولذلك العهد ملك على الروم الفرنجة غير اليونان الأخوان روملس وررومانس واختط مدينة رومة. وقال هروشيوش: ولعهده ملك على الروم اللطينيين بأرض أنْطاكِيةرُومَلُمس ثم مَرْكَةَ وبنى مدينة رومة.

ثم هلك أحآز لست عشرة من ملكه وولى ابنه حزقياً هو بحاء مهملة مكسورة وزاي معجمة ساكنة وقاف مكسورة وياء مثناة تحتانية مشددة تجلب ألفاً وهاء مضمومة تجلب واوا، فقطع عبادة الأوثان وسار سيرة جده داود، ولم يكن في ملوك بني يهوذا مثله. وعصى على ملك الموصل وبابل وتوريش، وهزم فلسطين وخرَّب قراهم. وفي أيامه وأيام أبيه سار شليشار ملك الجزيرة والموصل إلى الأسباط بالسامرة فضرب عليهم الجزية، ثم سار في أيامه فأزال ملكهم. ولأربع من ملكه زحف إليه رضين ملك دمشق ورجع عنه من غير قتال. ولأربع عشرة من ملكه زحف إليه سنجاريف ملك الموصل بعد فتح السامرة، فافتتح أكثر مدائن يهوذا وحاصرهم ببيت المقدس. وصانعه حزقياهُو بثلثمائة قنطار من الفضة وثلاثين من الذهب، أخرج فيها ما كان في الهيكل وبيت الملك من المال، ونثر الذهب من أبواب المسجد، دفع ذلك له، ورجع عنه. ثم فسد ما بينهما وزحف إليه سنجاريف ثانيا وحاصره وامتنع من قبول مصانعته. وقال من ذا الذي خلصه إلهه من يدي حتى يخلصكم أنتم إلهكم؟ فخافوا منه وفزعوا إلى النبي شعياء في الدعاء، فأمنهم منه ودعا عليه، فوقع الطاعون في عسكره. ثم

تواقعوا في بعض الليالي فبلغ قتلاهم مائة وعشرين ألفاً، ورجع سنجاريف إلى نينوى والموصل فقتله أبناؤه وهربوا إلى بيت المقدس وملك ابنه السرمعون.

وقال الطبري: أنّ ملك بني إسرائيل اشر سنجاريف وأوحى الله إلى شعياء أنّ يطلقه فأطلقه قال: وقيل أنّ الذي سار إليه سنجاريف من ملوك بني إسرائيل كان أعرج، وأن سنجاريف لعهد ملك اذربيجان، وكان يدعى سليمان الأعسر. فلما نزل بيت المقدس صار بينهما أحقاد كامنة فتواقعوا وهلك عامة عسكرهما وصار ما معهما غنيمة لبني إسرائيل. وبعث ملك بابل إلى حزقيا ملك الفرس بالهدايا والتحف، فأعظم موصلها وبالغ في كرامة الوفد، وفخر عليهم بخزانته وطوفهم عليها، فنكر ذلك عليه شعياء النبي وأنذره بأن ملوك بابل يغنمون جميع هذه الخزائن، ويكون من أبنائك خصيان في قصرهم. ثم هلك حزقياهو لتسع وعشرين سنة من ملكه وولى ابنه منشا بميم مكسورة ونون

مفتوحة وشين معجمة مشددة وألف، وكان عاصيا قبيح السيمة وكانت آثاره في الدين شنيعة. وأنكر عليه شعيا النبي أفعاله فقتله نشرا بالمناشير من رأسه إلى مفرق ساقيه، وقتل جماعة من الصالحين معه. وفي تاسعة وثلاثين من ملكه ملك سنجاريف الصغير مملكته الموصل. قاله ابن العميد: وفي الثانية والخمسين بنيت بوزنطية بناها ئورس الملك وهي التي جددها قسطنطين وسماها باسمه. وفي أيامه ملك برومة قنوقرسوس الملك. وفي الحادية والخمسين من ملكه زحف سنجاريف ملك الموصل إلى القدس فحاصرها ثلاث سنين وافتتحها في الرابعة والخمسين من ملكه، وولى بعده ابنه أمون، بهمزة قريبة من العين والميم مضمومة تجلب واوا ثم نون، وكانت حاله مثل حال أبيه، فملك سنتين وقيل اثنتي عشرة، ثم اغتاله عبيده فقتلوه.

واجتمع بنو يهوذا فقتلوا أولئك العبيد وأقاموا ابنه يوشيا مكانه، وضبطه بياء مثناة تحتية مضمومة تجلب واوا بعدها شين معجمة مكسورة ثم ياء مثناة تحتية بفتحة تجلب ألفا. فلما ملك أحسن السيرة وهدم الأوثان، وكان صالح الطريقة مستقيم الدين. وقتل كهنة الأصنام، وهدم البيوت والمذابح التي بناها يربعام بن نباط بالبرابرة. وكان في أيامه من الأنبياء صفونا وكلدي امرأة شالوم وناحوم. وتنبأ لعهده إرميا بن الحيا من نسل هارون وأخبرهم بالجلاء إلى بابل سبعين سنة. فأخذ يوشيا قبة القربان وتابوت العهد، وأطبق عليهما في مغارة فلم يعرف مكانهما من بعد ذلك.

وفي أيامه ملك المجوس بابل، ولإحدى وثلاثين من دولته ملك فرعون الأعرج مصر، وزحف لقتال مسبح بالفرات، فخرج يوشيا لحربه، وانهزم يوشيا فهلك بسهم أصابه لاثنتين وثلاثين من دولته، وولي بعده ابنه يوآش وبقال اسمه يهوياحاز، فعطل أحكام التوراة وأساء السيرة فزحف إليه فرعون الأعرج، وأخذه ورجع به إلى مصر، فمات هنالك. وضرب على أرضهم الخراج مائة قنطار فضة وعشرة ذهبا. وكانت ولايته ثلاثة أشهر، وولوا مكانه أخاه ألياقيم بن يوشيا، بهمزة مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتانية يجلب فتحها ألفا وقاف مكسورة تجلب ياء ثم ميم، وكان عاصيا كافرا وكان يأخذ الخراج لفرعون من بني يهوذا على قدر أحوالهم.

ثم زحف إليه بختنصر ملك بابل لسبع من ولاية ألياقيم،

فملك الجزيرة وسار إلى بيت المقدس، فضرب عليهم الجزية أولا، ودخل ألياقيم في طاعته ثلاث سنين.

وسلط الله عليه أدوم- وعمون- وموآب والكلدانيين. ثم انتقض عليه فسرح الجيوش إليه فقبضوا عليه واحتملوه إلى بابل، فهلك في طريقه لاحدى عشرة سنة من ملكه. وولى بختنصر مكانه ابنه يخنيو، بفتح الياء المثناء التحتانية بعدها خاء معجمة مضمومة ثم نون ساكنة وبعدها ياء تحتانية تجلب ضمتها واواً، فأقام ثلاثة أشهر، ثم زحف إليه وحاصره وأخرج إليه أمه وأشراف مملكته فأشخصهم إلى بلده، وجمع أهله ورجال دولته وسائر بني إسرائيل نحوا من عشرة آلاف واحتملهم أسارى إلى بابل. وغنم جميع ما كان في الهيكل والخزائن من الأموال، وجميع الأواني التي صنعها سليمان للمسجد. ولم يترك بمدينة القدس إلا الفقراء والضعفاء، وبقي يخنيو ملك بني إسرائيل محبوسا سبعا وثلاثين سنة. وقال ابن العميد: أنّ بختنصر سار إلى القدس في الثالثة من مملكة ألياقيم، وسبى طائفة منها وانتهب جميع ما في بيت الهيكل. وكان في سنة دانيا وخانيا وعزاريا وميصائل. وإن في السنة الخامسة من ملكه قاتل بختنصر فرعون الأعرج ملك مصر. وفي الثانية من ملك ألياقيم غزا بختنصر القدس ووضع عليهم الخراج، وأبقى ألياقيم في ملكه، وهلك لثلاث سنين بعد ذلك. وملك ابنه يخنيو. وكان لعهده من الأنبياء إرميا وأوريا بن شعيا ومُوري والد حزقيا. وفي أيامه تنبأ دانيال. ثم سار بختنصر ليخنيو فأشخصه إلى بابل كما مر.

وقال الطبري ووافقه نقل هروشيوش: أنّ بختنصر ولّى مكان يخنيو بن ألياقيم عمه متنيا، بميم مفتوحة وتاء مثناة فوقانية مفتوحة مشددة ونون ساكنة وياء مثناة تحتانية تجلب ألفاً ويسمى صدقياهو، وكان عاصياً قبيح السيرة. ولتسع سنين من ولايته انتقض على بختنصر فزحف إليه في العساكر، وحاصر بيت المقدس وبنى عليها المدر للحصار، وأقام ثلاث سنين واشتدّ الحصار بهم، فخرجوا هاربين منها إلى الصحراء. واتبعتهم العساكر من الكلدانيين وأدركوهم في أريحا، فقبض على ملكهم صدقياهو وأتى به أسيراً فسمل عينيه. وقال الطبري: وذبح ولده بمرأى منه، ثم اعتقله ببابل إلى أنّ مات، ولحق بعض من بني إسرائيل بالحجاز، فأقاموا مع العرب. وكان لعهده من الأنبياء إرميا وحبقون وباروح. وبعث بختنصر قائده نبوزراذون، بنون مفتوحة وباء موحدة مضمومة تجلب واوا بعدها زاي وراء مفتوحة تجلب ألفاً

وذال مضمومة تجلب واواً بعدها نون، بعثه إلى مدينة القدس، وكانوا يدعونها مدينة أورشليم، فخربها وخرب الهيكل، وكسر عمد الصفر التي نصبها سليمان في المسجد طول كل عمود منها ثمانية عشر ذراعا، وطول رؤوسها ثلاثة أذرع. وكسر صرح الزجاج وسائر ما كان بها من آثار الدين والفلك، واحتمل بقية الأواني وما كان وجده من المتاع، وسبى الكوهن سارية والجبر منشا وخدمة الهيكل إلى بابل.

قال هروشيوش: وأبقى صدقياهو محبوساً ببابل إلى أنّ أطلقه بزداق قائد بهمن ملك الفرس حين غلبوا على بابل فأطلقه ووصله وأقطعه. وقال مؤرخ حماة ووافقه المسعودي: أنّ بختنصر بعد تخريب القدس هرب منه بعض ملوك بني إسرائيل إلى مصر، وبها فرعون الأعرج، وطلبه بختنصر فأجاره فرعون، وسار إليه بختنصر فقتله

وملك مصر. وافتتح من المغرب مدائن، وبث فيها دعاته، وكان إرميا نبي بني إسرائيل من سبط لاوي، ويقال اسمه إرمياء بن خلقيا. وكان على عهده صدقياهو. ووجده بختنصر في محبسهم فأطلقه، واحتمله معه في السبي إلى بابل. وقيل: إنه مات في محبسه ولم يدركه بختنصر. وكذلك احتمل معهم دانيال بن حزقيل من أنبيائهم.
وقال ابن العميد: وولي جدليا بن أحان على من بقي من ضعفاء اليهود بالقدس، ولسبعة أشهر من ولايته قام إسماعيل بن متنيا بن إسماعيل من بيت الملك فقتل جدليا واليهود والكلدانيين الذي معهم. ثم هرب إلى مصر وهرب معه إرميا وهرب حبقون إلى الحجاز فمات، وكان قيما ولحقهم بمصر. وتنبأ إرميا في مصر وبابل وأورشليم وصور وصيدا وعمون ثمانية وثلاثين سنة، ورجمه أهل الحجاز فمات. وكان فيما أخبرهم به مسير بختنضر إلى مصر وتخريبه هياكلها وقتله أهلها. ولما دخل بختنصر مصر نقل جسده إلى اسكندرية ودفنه بها، وقيل دفن بالقدس لوصيته. وأما حزقياهو فقتله اليهود في السبي.
قال الطبري: وافترقت جالية بني إسرائيل في نواحي العراق إلى أنّ ردهم ملوك الفرس إلى القدس، فعمروه وبنو مسجده. وكان لهم فيه ملك في دولتين متصلتين، إلى أنّ وقع بهم الخراب الثاني والجلوة الكبرى على يد طيطش من ملوك القياصرة كما نذكر بعد.
ولنذكر هنا ما وقع من الخلاف في نسب بختنصر هذا وإلى من يرجع من ا أمم، فقد ذهب قوم إلى أنه من عقب سنجاريف ملك الموصل الذي كان يقاتل بني إسرائيل والسامرة بالقدس.
قال هشام بن محمد الكلبي فيما نقل الطبري: هو بختنصر بن نبوزراذون بن سنجاريف. ثم نسب سنجاريف إلى نمروذ بن كوش بن حام الذي وقع ذكره في التوراة في ولد كوش وعذ بين سنجاريف والنمروذ ستة عشر أبا أو نحوها، أولهم داريوش بن فالغ وعصا بن نمروذ، أسماء غير مضبوطة يغلب علي الظن تصحيفها لعدم دراية ا أصول وقلة الوثوق بضبطها. وقيل أنّ بختنضر من نسل أشوذ بن سام، ولم يقع إلينا رفع هذا النسب، ولعله أصخ من الأول، لأنه قد تقدم نسب سنجاريف في الجرامقة ثم في الموصل منهم، وهم من ولد أشوذ باتفاق من أهل فارس. نقله أيضاً الطبري عن ابن الكلبي، وأن اسمه بختمرسه فسمي بختنصر، وكان يملك ما بين الأهواز والروم من غربي دجلة أيام هراسب ويستاسب وبهمن من ملوك الفرس.
وأنه افتتح ما يليه من بلاد بابل الشام، ثم سار إلى القدس فافتتحها كما تقدم. وقيل أنّ بهمن بعث رسله إلى القدس في من طلب الطاعة منهم فقتلوه، فبعث بهمن أصبهبذا للناحية القريبة في مملكته، وبعث معه داريوس من ملوك مارى بن نابت وكيرش بن كيكوس من ملوك بني غليم بن سام، وأحشوارش بن كيرش بن جاماهن من قرابته. وسار معهم بختنصر بن نبوزراذون بن سنجاريف صاحب الموصل الذي لقومه البراآت في أهل المقدس، فكان ما وقع من الفتح. وقيل كان بختنصر صاحب الموصل في مقدمتهم، وكان الفتح على يده. وأما بنو إسرائيل فيزعمون أنّ بختنصر من الكلدانيين وهم ولد ناحور بن آزر أبي إبراهيم عليه السلام. وكان لهم الملك ببابل، وكان بختنضر هذا من أعقابهم، وكان مدة دولته خمسا وأربعين سنة. وكان فتحه المقدس لثمانية عشر من دولته. وملك بعده أويل مروماخ ثلاثا وعشرين سنة. ثم بعده ابنه فيلسنصر بن أويل ثلاث سنين. ثم

غلب عليهم كوروش وأزال ملكهم. وهو الذي رد بني إسرائيل إلى بيت المقدس فعمروه وجدّدوا به ملكاً كما نذكره.

وقد اختلف في كيرش الذي رد بني إسرائيل إلى المقدس من هو بعد اتفاقهم على أنه من الفرس: فقيل هو يستاسب و لم يكن ملكا وإنما كان مملكا على خوزستان وأعمالها من قبل كيقوس وبنجسون بن سياوش ولهراسب من بعدهما، وكان عظيم الشأن و لم يكن ملكا. وقيل: أنّ كيرش هو ابن احشوارش بن جاماسب بن لهراسب، وأبوه احشوارش هذا الذي بعثه بهمن. ولما رجع من ذلك الفتح بعثه إلى ناحية الهند والسند، وانصرف إلى حصن الأبر، فولاه بابل وتزوج من سبي بني إسرائيل ابنة أبي حاويل الرحا وأخت مردخاي من الرضاع وهو من أنبياء بني إسرائيل. فتزعم النصارى أنها ولدت عند حيراحوارس إلى بابل ابنه كيرش هذا. فحضنه مردخاي ولقنه دين اليهودية، ولزم سائر أنبيائهم مثل متنيا وعازريا وميثائل وعزيز. وولى دانيال أحكام دولته. وجعل إليه أمره، وأذن له أنّ يخرج ما في الخزائن من السبي والذخائر والآنية ويرده إلى مكانه، ويقوم في بناء القدس، فعمره. وراجعه بنو إسرائيل، وسأله هؤلاء الأنبياء أنّ يرجعوا إلى بيت المقدس فمنعهم اغتباطا بمكانهم. وقيل: أنّ كيرش هو كيرش بن كيكو بن غليم بن سام، وهو الذي كنا قدمنا أنّ بهمن بعثه مع قائده بختنصر إلى فتح بيت المقدس، وأن بختمرس ملكه بهمن على بابل وكان يسمى بختمرسى كما ذكرنا، فملكها وملك ابنه من بعده ثلاثا وعشرين سنة، ثم ابنه بلتنصر سنة واحدة، ثم بلغ بهمن من سوء سيرته فعزله وولى على بابل داريوش ألماذة بن ماداي، ثم عزله وولى كيرش بن كيكو، وكتب إليه بهمن بأن يرفق ببني إسرائيل ويحسن ملكتهم، وأن يردهم إلى أرضهم ويولي عليهم من يختارونه ففعل. فاختاروا دانيال من أنبيائهم فولاه، وقيل: وهو لعلماء بني إسرائيل أنّ بلتنصر حافد بختنضر وهو ملك بابل والكلدانيين، وأن دارا ويسمى داريوش ملك مازي، وكوزش وهو كيرش ملك فارس كان في طاعته، فانتقضا عليه وخرج إليهم في العساكر، فانهزم أولا ثم بعث عساكره وقواده إليهم فهزمهم. ثم قتله خادمه على فراشه ولحق بداريوش وكورش وزحفا إلى بابل فغلبا الكلدانيين عليها، واختص دارا وقومه مادي، وأظنهم الديلم، ببابل ونواحيها. واختص كورش وقومه فارس بسائر الأعمال والكور. وكان كورش نذر ببناء بيت المقدس واطلاق الجالية ورد الآنية. ثم هلك دارا وانفرد كورش بالملك على فارس ومادي، ووفى بنذره. هذا محصل الخلاف في بختنصر وكيرش والله أعلم.

خريطة

الخبر عن دولة الأسباط العشرة وملوكهم إلى حين انقراض أمرهم

قد تقدم لنا في دولة سليمان عليه السلام أنّ يربعام بن نباط من سبط أفرايم كان والياً لسليمان على جميع نواحي يورشليم وهي بيت المقدس، وقيل إنما كان والياً على عمل بني يوسف بنابلس وما إليها وكان جباراً، وأن سليمان عوتب على ولايته من الله، وانتقض ولحق بمصر. فلما قبض سليمان وولي ابنه رحبعم واختلف عليه بنو إسرائيل، بما بلوا من سوء ملكته. والزيادة في الضرائب عليهم، واجتمع الأسباط

العشرة ما عدا يهوذا وبنيامين، فاستقدموا يربعام بن نباط من مصر فبايعوا له وولوه الملك عليهم، وحاربوا رحبعم ومن في طاعته، وهم سبط يهوذا وبنيامين، فامتنعوا عليهم بمدينة يروشليم، ثم انحازوا إلى جهة فلسطين في عمل بني يوسف. ونزل يربعم مدينة نابلس بملك الأسباط العشرة ومنعهم من الدخول إلى بيت المقدس والقربان فيه، وكان عاصيا مسخوط السيرة.

ولم يزل بينه وبين رحبعم بن سليمان وابنه أبيا من بعده واثنين من فلك أسا بن

أبيا، وكان أبيا ظاهرا عليه في حروبه. ثم هلك يربعام برت نباط لسنتين من ملك أبياً ولثلاث وعشرين من ملكه، فولي مكانه على الأسباط يوناداب وكان على مثل سيرة أبيه من الجور وعبدة الأصنام، فسلط الله عليه بعشا بن احيا فقتله وجميع أهل بيته لسنتين من ملكه. وقام بملك الأسباط، فلم يزل يحارب أسا بن ابئا وأهل القدس سائر أيامه. وكان أسا يستمد عليه بملك دمشق من الارمن. وسار معه إليه مرة وكان اعشا بن احيا نبي يثرب، فأجفل أمامهم وترك الآلات فأخذها أسا وبنى بها الحصون. وهلك اعشا بن احيا لأربع وعشرين سنة من ملكه، ودفن في برصا مدينة ملكهم، بعد أنّ أنذره بالهلاك نبيهم فاهو. ولما هلك ولي بعده ابنه إيليا ويقال إيلهوا في السادسة والعشرين من ملك اشا، فأقام سنين ثم بعث عساكر بني إسرائيل إلى محاصرة بعض المدن بفلسطين، فوثب عليه سبط من الأسباط من عقب كان يعرف زمري صاحب المراكب، ويقال ابن إليافا فقتله وجميع أهل بيته وقام

بالملك. ومكث أياما يسيرة خلال ما بلغ الخبر لبني إسرائيل بمكانهم من حصار فلسطين، فلم يرضوه وملكوا عليهم صبي بن كسات من سبطه، ورجعوا إلى زمري المتوثب على الملك فحاصروه، فلما أحيط به دخل مجلس الملك وأوقد نارا لتحرقه، فاحترق فيه لسبعة أيام من فورتهم.

وكان عمري بن ناداب من سبط أفرايم ويلقب صاحب الحربة يرادف صبي في الملك فقتله واستبد. وذلك في الحادية والثلاثين من ملك أسا. ثم اختلف عليه بنو إسرائيل ونصب بعضهم بنيامين فنال من سبط يساخر وحاربهم عمري فغلبهم. وكان يتزل مدينة برصا ولست سنين من ملكه اختط مدينة السامرية، ابتاع لها جبل شمران من رجك اسمه سامر بقنطار قضة، وبنى فيه قصوره وسميت سبسطية. ثم غلبت عليها النسبة إلى البائع. ويقال أنّ الاسم كان شومرون فعرب سامرة وأهملت شينها المثلثة. وكانت هذه المدينة مدينة ملكهم إلى انقراض أمرهم. ثم هلك عمري لاثنتي عشرة سنة من ولايته، ودفن في نابلس وقام بملك الأسباط من بعده ابنه أحاب وكان على مذهبه ومذهب سلفه منهم من الكفر والعصيان، وتزوج بنت ملك صيدا، وبنى هيكلا بسامرة وجعل فيه صنما يسجد له، وأفحش في قتل الأنبياء، وبنى قرية أريحاء، ودعا عليه إيليا النبي، فقحطوا ثلاث سنين، خرج فيها إيليا إلى البرية فسكنها. ثم رجع فدعا وأنزل الله المطر، وذبح الذين حملوا أحاب على عبادة الأصنام، هكذا قال ابن العميد. والذي قاله الطبري: أنّ هذا النبي الذي دعا عليهم هو الياس بن سين وقيل ابن ياسين من نسل فنحاص بن العازار. وكان بعث إلى أهل بعلبك وإلى أحاب وقومه.

وقال الطبري: فكذبوه فأصابهم القحط ثلاثا، ففزعوا إليه في الدعاء، وباهلهم في أصنامهم فلم تغن شيئا، فدعا لهم فمطروا. ثم أنهم أقاموا على ما كانوا عليه من الكفر والعصيان. وكان أحاب شديدا عليه، ودعا عليه إلياس ثم طلب من الله أنّ يتوفاه بعد أنّ أنذر الناس بهلاكه وهلاك قومه بل عقبه. وتنبأ بعده إليسع بن أخطوب من سبط أفرايم، وقيل ابن عم الياس. ابن عساكر: اسمه أسباط بن عدي بن شوليم

بن افرائيم. قال الطبري: كان مستخفياً مع الياس بجبل قاسيون من ملك بعلبك. ثم خلفه في قريته، انتهى كلام الطبري. وقال ابن العميد: في أيام أحاب أوحى الله إلى إيليا أنّ يارك على الياس بن بعسا ففعل ذلك، وأن يارك على أدوم بدمشق وعلى ياهو ملكا على بني إسرائيل ففعل ذلك، وهو أيضاً على عهد أحاب.

فجاء سنداب ملك سورية فحاصر أحاب بن عمري والأسباط العشرة في السامرة وخرجوا إليه فهزموه، واستلحموا عامة عسكره. ثم رجع إليهم من العام القابل فخرجوا إليه وهزموه ثانيا، وقتلوا من عسكره نحوا من مائة ألف، ومروا في أتباعهم، وامتنع سنداب في بعض حصونه واحاطوا به، فخرج إليهم ملقيا بنفسه على ملكهم أحاب فعفا عنه ورده إلى ملكه، وسخط ذلك النبي من فعله وأنذره بعذاب يصيب ولده عقوبة من الله تعالى على إبقائه عليهم.

ثم خرج أحاب من ملك الأسباط مع يهوشافاط ملك يهوذا المقدس لمحاربة ملك سورية فأصابه سهم هلك فيه، ودفن بسامرة لاثنتين وعشرين سنة من ملكه. قال ابن العميد: وقيل لثمان عشرة، وقال إنما خرج لحرب كلعاد ملك أدوم، فانهزم وقتل. ولما هلك ملك من بعده ابنه أحزيا ويقال أمشيا وكان عاصيا سيء السيرة، قتل عاموص النبي وعبد بعلا الصنم وهلك لسنتين، فملك أخوه يوآم. وقيل أنه لتسع عشرة من ملك يهوشافاط ملك الفرس فملك يوآم على الأسباط اثنتي عشرة سنة، زحف فيها أولاً إلى موآب لما منعوه الجزية التي كانت عليهم للأسباط مائتين من الغنم في كل سنة. واستنجد ملك يهوذا لحربهم فحاصرهم سبعة أيام وفقدوا الماء، فاستسقى لهم اليسع، وجرى الوادي، وخرج أهل مؤاب يظنونه دمأ فقتلهم بنو إسرائيل. وجمع هداد ملك أدوم لحصار سامرة، ونازلها ثلاث سنين، ثم دعا عليهم إليسع فأجفلوا ورجعوا إلى بلادهم.

وفي الثانية عشرة من ملك يؤام ملك الأسباط، ثار عليه ياهوشافاط بن يشا من سبط منشا بن يوسف، وذلك عند منصرفه من محاربة ملوك الجزيرة وأدوم مع احزنا بن يهورام ملك القدس وكان جريحا فعاده أحزيا. وكان هذا الفتى ياهو يترصد قتل يوآم، فأمكنه الفرصة فيه تلك الساعة فقتله، وقتل معه أحزيا ملك القدس وبني يهوذا، وملك على الأسباط.

وقال ابن العميد: خرج يؤام بن أحآب ملك الأسباط لحرب أدوم ومعه أحزيا ملك القدس فقتلا جميعاً في تلك الحرب.

وقيل: أنّ ياهو بن منشا رمى بسهم فأصاب يؤام بن أحاب فمات. ولما ملك ياهو على الأسباط قتل بني أحآب كلهم كما أمره إليسع، وهلك لخمس وثلاثين من ملكه. وولى ابنه يوآص وقيل يهوذا، ولثمان وعشرين من دولة يوآص بن أحزيا ملك يهوذا القدس، وكان قبيح السيرة عبادا للأصنام، وعمل مذبحا

بسامرة، وهلك لسبع عشرة من ملكه، وولي بعده ابنه يوآش لسبع وثلاثين من دولة يوآص بالقدس. وزحف إلى القدس فملكها من يد أمصيا ملك يهوذا وهدم من سورها أربعمائة ذراع، وسبى أهل المقدس، وسبى أهل عزريا الكوهن وأخذ جميع ما في المسجد ورجع إلى سامرة. ومرض إليسع فعاده يوآش، فوعده بأنه يهلك أدوم ويظفر بهم ثلاث مرات فكان كذلك. وهلك لثلاث عشرة سنة من ملكه، وولي من بعده ابنه يربعام وكان سيء السيرة، وزحف إلى أمصيا ملك يهوذا.

وقيل: أنّ الذي زحف إلى أمصيا إنما هو يؤاش أبوه فهزمه، وأخذه أسيرا وسار به إلى القدس فاقتحمها عنوة وغنم جميع ما في خزانتها، وسبى بني عزريا الكوهن ورجع إلى السامرة فأطلق أمصيا. ثم لإحدى وأربعين سنة من ملكه، ولسبع وعشرين من ملك عزياهو بن أمصيا ملك القدس. قال ابن العميد: وبقي بنو إسرائيل بالسامرة فوضى إحدى عشرة سنة ، ثم ملكوا ابنه زكريا في الثامنة والثلاثين من ملك عزياهو فملك ستة أشهر. وقال ابن العميك: شهرا ثم وثب به مناخيم بن كاد من سبط زبفون من أهل برصا فقتله، وملك مكانه اثنتي عشرة سنة، وقال ابن العميد عشر سنين. قال: وفي التاسعة والثلاثين من ملك عزياهو خرج إلى مدينة برصا ففتحها عنوة واستباحها، وزحف إليه فول ملك الموصل فصانعه بألف قنطار من الفضة ورجع عنه وكانت سيرته رديئة، ولما هلك مناخيم ملك ابنه بقحيا لأربعين من دولة عزيا ملك القدس، فأقام فيهم اثنتي عشرة سنة، وقال ابن العميد سنتين.

ثم ثار عليه من عماله باقح بن رسليا وكان على طريقة من تقدمه في الضلال، فأقام ملكا على الأسباط بالسامرة عشر سنين، وهلك لدولته عزيا بن أمصيا ملك يهوذا بالقدس، وأقام باقح بن رصلياً على سوء السيرة

وعبادة الأصنام، إلى أنّ قتله هويشيع بن إيليا من سبط جاد في الثالثة من ملك يؤاب ملك القدس. وبقي الأسباط بعده فوضى عشر سنين، ثم ملكوا قاتله هويشيع بن إيليا المذكور، فأقام مملكا عليهم سبع سنين. وفي أيامه زحف إليه ملك أثور والموصل فصير الأسباط في دولته وأدوا إليه الخراج. ثم أنّ هويشيع راسل ملك مصر في الاستعانة به والرجوع إلى طاعته، فلما بلغ ذلك إلى ملك الموصل زحف إليه وحاصره في مدينة السامرة ثلاث سنين واقتحمها في الرابعة.

وتقبض على هو يشيع لتسع سنين من ملكه ونقله مع الأسباط كلهم إلى الموصل. ثم بعثهم إلى قرى أصبهان وأنزلهم بها. وقطع ملك بني إسرائيل من السامرة، وبقي ملك يهوذا وبنيامين بالقدس، وكان ذلك لعهد أحزيا بن احآز من ملوكهم لسنة من دولته. وتعاقبت ملوكهم بعد ذلك بالقدس إلى أنّ انقرضوا، وجمع ملك الموصل من كوره غارا وحماة وصفرارام، ويقال ومركتا وأسكنهم بالسامرة. قال ابن العميد: وتفسيرها حفيظة ويوآطر. قالوا وسلط الله عليهم السباع يفترسونهم فبعثوا إلى ملك الموصل أنّ يعرفهم بصاحب قسمة السامرية من الكواكب ليتوجهوا إليه بما يناسبه على طريقة الصابئة، فقيل

أنّ العشرية التي رسخت فيها وهي دين اليهودية تمنع من ذلك ومن ظهور أثره، فبعث إليهم كوهنين من عامة اليهود يعلمانهم اليهودية فتلقوها عنهما. فهذا أصل السامرة في فرق اليهود وليسوا منهم عند أهل ملتهم لا في نسبهم ولا في دينهم، والله مالك أمور لا رب غيره ولا معبود سواه سبحانه وتعالى.

خريطة

الخبر عن عمارة بيت المقدس بعد الخراب الأول

وما كان لبني إسرائيل فيها من الملك في الدولتين لبني حشمناي وبني هيرودوس إلى حين الخراب الثاني والجلوة الكبرى

هذه الأخبار التي كانت لليهود ببيت المقدس والملك الذي لهم في العمارة بعد جلاء بختنصر، وأمر الدولتين اللتين كانتا لهم في تلك المدة لم يكتب فيها أحد من الأئمة، ولا وقفت في كتب التواريخ مع كثرتها واتساعها على ما يلم بشيء من ذلك. ووقع بيدي وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بني إسرائيل من أهل ذلك العصر، في أخبار البيت والدولتين اللتين كانتا بها ما بين خراب بختنصر الأول وخراب طيطس الثاني الذي كانت عنده الجلوة الكبرى، استوفى فيه أخبار تلك المدة بزعمه. ومؤلف الكتاب يسمى يوسف بن كريون، وزعم أنه كان من عظماء اليهود وقوادهم عند زحف الروم إليهم، وأنه على صولة فحاصره اسبيانوس أبو طيطش واقتحمها عليه عنوة، وفريوسف إلى بعض الشعاب، وكمن فيها ثم حصل في قبضته بعد ذلك، واستبقاه ومن عليه وبقي في جملته. وكانت له تلك وسيلة إلى ابنه طيطش عندما أجلى بني إسرائيل على البيت، فتركه بها للعبادة كما يأتي في أخباره. هذا هو التعريف بالمؤلف.

وأما الكتاب فاستوعب فيه أخبار البيت واليهود بتلك المدة، وأخبار الدولتين اللتين كانتا بها لبني حشمناي وبني هيردوس من اليهود، وما حدث في ذلك من الأحداث، فلخصتها هنا كما وجدتها فيه لأني لم أقف على شيء فيها لسواه. والقوم أعلم بأخبارهم إذا لم يعارضها ما يقدم عليها. وكما قال صلى الله عليه و سلم: لا تصدقوا أهل الكتاب. فمد قال ولا تكذبوهم، مع أنّ ذلك إنما هو راجع إلى أخبار اليهود وقصص الأنبياء التي كان فيها التنزيل من عند الله. لقوله بعد ذلك: {وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وانزل إليكم} وأمّاد الخبر عن الواقعات المستندة إلى الحسن فخبر الواحد كاف في إذا غلب على الظن صحته، فينبغي أنّ نلحق هذه الأخبار بما تقدّم

من أخبارهم لتكمل لنا أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره. والله أعلم. و لم التزم صدقه من كذبه والله المستعان. قال الطبري وغيره من الأئمة: كان يرميا ويقال إرميا بن خلقياً من أنبياء بني إسرائيل ومن سبط لاوي، وكان لعهد صدقّيا هو أخر ملوك بني يهوذا ببيت المقدس. ولما توغلوا في الكفر والعصيان أنذرهم بالهلاك على يد بختنصر وسأله عنه وأطلقه واحتمله معه في السبي، وكان فيما يقوله إرميا أنهم يرجعون إلى بيت المقدس بعد سبعين سنة. يملك فيها بختنصر وابنه وابن ابنه ويهلكون، وإذا فرغت مملكة الكلدانيين بعد السبعين يفتقدكم. يخاطب بذلك بني إسرائيل في نص أخر له عند كمال سبعين لخراب المقدس. وكان شعيا بن أمصيا من أنبيائهم

أخبرهم بأنهم يرجعون إلى بيت المقدس على يد كورش من ملوك الفرس، و لم يكن وجد لذلك العهد. فلما استولى كورش على بابل وأزال مملكة الكلدانيين أذن لبني إسرائيل في الرجوع إلى بيت المقدس وعمارة مسجدها. ونادى في الناس أنّ الله أوصاني أنّ ابني بيتا فمن كان لله وسعيه لته فليمض إلى بنائه. فمضى بنو إسرائيل في اثنين وأربعين ألفاً وعليهم زيريافيل، بالفاء الهوائية، بن شالتهيل بن يوخنيا أخر ملوكهم بالقدس الذي حبسه بختنصر، وقد مر ذكره. وقد مضى مهم عزير النبي من عقب اشيوع بن فنحاص بن العازر بن هارون، وبينه وبين اشيوع ستة آباء. لم أثق بنقلها لغلبة الظن بأنها مصحفة. ورد عليهم كورش الأواني وكانت لا يعبر عنها من الكثرة.

قال ابن العميد: كانت خمسة آلاف وأربعمائة قصعة ذهبا وفضة فمضوا إلى بيت المقدس وشرعوا في العمارة، وشرع كورش وسعى عليهم في أبطال ذلك بعض أعدائهم من السامرة، و لم يكن أمد السبعين التي وعدهم بها انقضى، لأن الخراب كان لثمان عشرة من ملك بختنصر، وكانت دولته خمسة وأربعين، ومدة ابنه وابن ابنه خمس وعشرون، فبقيت من السبعين ثمانية عشر التي نفذت من ملك بختنصر قبل الخراب، فمنعوا من العمارة بسعاية السامرية إلى أنّ انقضت الثمان عشرة. وجاءت دولة دارا من ملوك الفرس، فأذن لهم في العمارة، وعاد السامرة لسعايتهم في إبطال ذلك عند دارا، فأخبره أهل دولته أنّ كورش أذن لهم في ذلك فخلى سبيلهم وعمروا بيت المقدس في الثانية من ملك دارا الأول، وهو أرفخشد، والكوهن يومئذ عزير. وجدد لهم التوراة بعد سنتين من رجوعهم إلى البيت. ثم هلك زيريافيل

وخلفه فيهم بهشمياس. وقبض العزير وخلفه شمعون الصفا من بني هارون أيضاً. وقال يوسف بن كريون أنّ بختنصر لما رجع إلى بابل أقام ملكا سبعا وعشرين سنة. وملك بعده ابنه بلتنصر ثلاث سنين وانتقض عليه داريوش ملك ماذي، وأظنهم الديلم، وكيرش ملك فارس. وهزمتهم عساكره كما مر، فعمل في بعض أيامه صنيعا لقواده سرورا بالواقع، وسقاهم في أواني بيت المقدس التي احتملها جده من الهيكل. فسخط الله لذلك ورأى تلك الساعة كأن يدا خرجت من الحائط تومي بكتابة كلمات بالخط الكلداني، والكلمات عبرانية. وهي أحصى، وزن، نفذ. فارتع لذلك هو والحاضرون وفزع إلى دانيال النبي في تفسيرها.

قال وهب بن منبه: هو من أعقاب حزقيل الأصغر، وكان خلفا من دانيال الأكبر. فقال له دانيال: هذه الكلمات تنذر بزوال ملكك، ومعناها أنّ الله أحصى مدة ملكك، ووزن أعمالك، ونفذ قضاؤه بزوال ملكك، عنك وعن قومك. وقتل تلك الليلة بلتنصر. وكان ما قدمناه من استقلال كورش وقومه فارس بالملك، ورد الجالية إلى بيت المقدس، وأطلق لهم المال لعمارتها شكرا على الظفر بالكلدانيين. ومضى بنو إسرائيل ومعهم عزرا الكاهن ونحميا ومردخاي وجميع رؤساء الجالية يبنون البيت والمذبح على حدودها، وقربوا القرابين. وكان كورش بعد ذلك يطلق لهم في كل سنة من الحنطة والزيت والبقر والغنم والخمر ما يحتاجون إليه في خدمة البيت، ويطلق لهم جراية واسعة.

وجرى ملوك الفرس بعده على سنته في ذلك إلا قليلا في أيام أخشويروش منهم، كان وزيره هامان وكان من العمالقه. وكان طالوت قد استخلفهم بأمر الله. فكان هامان يعاديهم لذلك وعظمت سعايته فيهم، وحمله على قتلهم. وكان مردخاي من رؤسائهم قد زوج أخته من الرضاع لاخشويروش، فدس إليها مردخاي أنّ تشفع إلى الملك في قومها فقبلها وعطف عليهم وأعادهم، إلى أنّ انقرضت دولة الفرس. بمهلك دارا، واستولى بنو يونان بمهلك دارا على فلك فارس، وملك الإسكندر بن فيفلوس، ودوخ الأرض، وفتح سواحل الشام، وسار إلى بيت المقدس لأنها من طاعة دارا، وخاف الكهنة من وصوله إليهم. ورأى في بعض

تمثال رجلا فقال: أنا رجل أرسلت لمعونتك ونهاه عن أذية المقدس، وأوصاه بامتثال إشارتهم. فلما وصل إلى البيت لقيه الكوهن فبالغ في تعظيمه، ودخل معه إلى الهيكل وبارك عليه، ورغب إليه الاسكندر أنّ يضع هنالك تمثاله من الذهب ليذكر به، فقال هذا حرام لكن تصرف همتك في مصالح الكهنة والمصلين، ويجعل لك من الذكر دعاؤهم له، وأن يسمى كل مولود لبني إسرائيل في هذه السنة بالاسكندر. فرضي الاسكندر وحمل لهم المال وأجزل عطية الكوهن، وسأله أنّ يستخير الله في حرب دارا، فقال له: امض والله مظفرك. وحض دانيال، وقص عليه الاسكندر رؤيا رآها، فأولها له بأنه يظفر بدارا.

ثم انصرف الاسكندر وسار في نواحي بيت المقدس، ومرّ بنابلس ولقيه سْنَبلاط السامري، وكان أهل المقدس أخرجوه عنهم فأضافه، وأهدى له أموالا وأمتعة، واستأذنه في بناء هيكل في طول بريد، فأذن له فبناه وألام صهره منشا كوهنا فيه، وزعم أنه المراد بقوله في التوراة: اجعل البركة على جبل كريدم، فقصده اليهود في الأعياد، وحملوا إليه القرابين وعظم أمره، وغص بشأنه أهل بيت إلى، قدس، إلى أنّ خربه هرمايوس بن شمعون أول ملوك بني حشمناي كما يأتي ذكره.

ثم هلك الاسكندر ببابل بعد استيفاء مدته لاثنتين وثلاثين من ملكه، وكان قد قسم ملكه بين عظماء دولته فكان سلياقوس بعد الإسكندر، وكان عظيم أصحابه. فأكرم اليهود وحمل المال إلى فقراء البيت ؛ ثم سعى عنده بأن في الهيكل أموالا وذخائر نفيسة، ورغبوه في ذلك، فبعث عظيما من قواده اسمه أردوس ليقبض ذلك المال، فحضر بالبيت وأنكر الكاهن حنينان أنّ يكون بالبيت إلا بقية الصدقات من فارس ويونان، وما أعطاهم سلياقوس آنفا فلم يقبل، ووكل بهم في الهيكل فتوجهوا بالدعاء، وجاء أردوس ليقبض المال فصدع في طريقه وجاء أصحابه إلى الكوهن حنينا وجماعة الكهنة يسألون الإقالة والدعاء لأردوس، فدعوا له وعوفي وارتحل، وازداد الملك سلياقوس إعظاماً للبيت، وحمل ما كان يحمل إليهم مضاعفاً.

قال ابن كريّون: ثم ترجمت التوراة لليونانيين، وكان من خبرها أنّ تلماي ملك مصر من اليونانيين بعد الإسكندر وكان من أهل مقدونية، وكان محبا للعلوم ومشغوفا بالحكمة والكتب الإلهية. وذكرت له كتب اليهود الأربعة والعشرون سفراً، فتاقت نفسه للوقوف عليها. وكتب إلى كهنون القدس في ذلك، وأهدى له، فاختار سبعين من أحبار اليهود وعلمائهم، وفيهم كوهن عظيم اسمه ألعازر وبعثهم إليهم ومعهم الأسفار، فتلقاهم بالكرامة وأوسع لهم النزول، ورتب مع كل واحد كاتبا يملى عليه ما يترجم له، حتى ترجم الأسفار

من العبرانية إلى اليونانية وصححها، وأجاز الأحبار وأطلق لهم من كان بمصر من سبي اليهود نحوا من مائة ألف، وصنع مائدة من الذهب نقشت عليها صورة أرض مصر والنيل، ورضها بالجواهر والفصوص، وبعث بها إلى القدس فأودعت في الهيكل.

ثم هلك تلماي صاحب مصر، واستولى بعده أنطيوخوس صاحب مقدونية على أنطاكية ثم على مصر، وأطاعه ملوك الطوائف بأرض العراق، واستفحل ملكه وعظم طغيانه، وأمر ا أمم بعبادة الأصنام. وعمل أصناما على صورته، فامتنع اليهود من قبولها، وسعى بهم عند بعض شرارهم وكانوا أهل نجدة وشوكة، فسار أنطيخوس إليهم وأثخن فيهم بالقتل والسبي، وفروا إلى الجبال والبراري، فرجع واستخلف على بيت المقدس قائده فليلقوس، وأمره أنْ يحملهم على بيت المقدس قائده فليلقوس، وأمره أنّ يحملهم على السجود لأصنامه، وعلى أكل الخترير، وترك السبت والختان. ويقتل من يخالفه، ففعل ذلك أشد ما يكون، وبسط على اليهود أيدي أولئك الأشرار الساعين. وقتل ألعازر والكوهن الذي ترجم لهم التوراة لما امتنع من السجود لصنمه وأكل قربانه. وكان فيمن هرب إلى الجبال والبراري متيتيا بن يوحنا بن شمعون الكوهن الأعظم ويعرف بحشمناي بن حونيا من بني نوذاب من نسل هارون عليه السلام، وكان رجلا صالحاً خيّرا شجاعاً. وأقام بالبرية وحزن لما نزل بقومه. فلما أبعد أنطيخوس الرحلة عن القدس بعث متيّتيا إلى اليهود يعرفهم بمكانه، وينمعض لهم ويحرضهم على الثورة على اليونانيين فأجابوه وتراسلوا في ذلك. وبلغ الخبر فليلقوس قائد أنطيخوس، فسار في عسكره إلى البرية طالبا متيتيا وأصحابه. فلما وصل إليهم حاربهم فغلبوه وانهزم في عساكره

وقوي اليهود على الخلاف، وهلك متيّتيا خلال ذلك، وقام بأمره ابنه يهوذا فهزم عساكر فليلقوس ثانية، وشغل أنطيخوس بحروب الفرس، فزحف إليهم من مقدونية واستخلف عليهم ابنه افظر، وضم إليه عظيما من قومه اسمه لشاوش، وأمرهم أنّ يبعثوا العساكر إلى اليهود، فبعثوا ثلاثة من قوادهم وهم نيقانور وتلمياس وصردوس، وعهد إليهم بإبادة اليهود حيث كانوا. فسارت عساكر واستنفروا سائر الأرمن من نواحي دمشق وحلب، وأعداء اليهود من فلسطين وغيرهم. وزحف يهوذا بن متيتيا مقدم اليهود للقائهم بعد أنّ تضرعوا إلى الله وطافوا بالبيت وتمسحوا به، ولقيهم عسكر نيقانور فهزموه، وأثخنوا فيه بالقتل، وغنموا ما معهم. ثم لقيهم عسكر القائد ابن تلميهاس وهيرودوس ثانيا فهزموهما كذلك وقبضوا على فليلقوس القائد الأول لأنطيخوس فأحرقوه بالنار، ورجع نيقانور إلى مقدونية فدخلها، وخبر ليشاوش وافظر ابن الملك بالهزيمة، فجزعوا لها. ثم جاءهم الخبر بهزيمة أنطيخوس أمام الفرس، ثم وصل إلى مقدونية واشتد غيظه على اليهود، وجمع لغزوهم فهلك دون ذلك بطاعون في جسده، ودفن في طريقه. وملك افظر وسموه أنطيخوس باسم أبيه. ورجع يهوذا بن متيتيا إلى القدس، فهدم جميع ما بناه أنطيخوس من المذابح، وأزال ما نصبه من الأصنام، وطهر المسجد وبنى مذبحا جديدا للقربان، فوضع فيه الحطب ودعا الله أنّ يريهم آية في اشتعاله من غير نار، فاشتغل كذلك و لم ينطف إلى الخراب الثاني أيام الجلوة، واتخذوا ذلك اليوم عيدا سفوه عيد العساكر. ونازل ليشاوش فزحف إليه يهوذا بن متيتيا في عسكر اليهود، وثبت عسكر ليشاوش فانهزموا ولجأ إلى بعض الحصون، وطلب الترول على

الأمان على أنّ لا يعود إلى حربهم. فأجابه يهوذا على أنّ يدخل افظر معه في العقد وكان ذلك. وتم الصلح، وعاهد افظر اليهود على أنّ لا يسير إليهم، وشغل يهوذا بالنظر في مصالح قومه.

قال ابن كريون ة وكان لذلك العهد ابتداء أمر الكيتم وهم الروم، وكانوا برومية وكان أمرهم شورى بين ثلثمائة وعشرين رئيسا، ورئيس واحد عليهم يسمونه الشيخ يدبر أمرهم، ويدفعون للحروب من يثقون بغنائه وكفايته منهم أو من سواهم. هكذا كان شانهم لذلك العهد، وكانوا قد غلبوا اليونانيين واستولوا على ملكهم وجازوا البحر إلى إفريقية فملكوها كما يأتي في أخبارهم. فأجمعوا السير إلى أنطيخوس، أفظر وابن

عمه ليشاوش بقية ملوك يونان بأنطاكية، وكاتبوا يهوذا ملك بني إسرائيل بالقدس يستميلونهم عن طاعة أنطيخوس واليونانيين، فأجابوهم إلى ذلك. وبلغ ذلك أنطيخوس فنبذ إلى اليهود عهدهم وسار إلى حربهم فهزموه ونالوا منه. ثم راسلهم في الصلح وأن يقيموا على عهدهم معه، ويحمل لبيت المقدس بما كان يحمله من المال، وأن يقتل من عنده من شرا اليهود الساعين عليهم، فتم العهد بينهم على ذلك. وقتل شملاوش من الساعين على اليهود، ثم جهز أهل رومة قائد حروبهم دمترياس بن سلياقوس إلى أنطاكية ولقيه أنطيخوس افظر، فانهزم أنطيخوس وقتل هو وابن عمه ليشاوش، وملك الروم أنطاكية ونزلها قائدهم دمترياس. وكان ألقيموس الكوهن من شرار اليهود عند أنطيخوس. فلما ملك دمترياس قائد الروم فسعى عنده في اليهود ورغبه في ملك القدس والاستيلاء على أمواله، فبعث قائده نيقانور لذلك، وخرج يهوذا ملك القدس لتلقيه وطاعته، وقدم بين يديه الهدايا والتحف، فمال نيقانور إلى مسالمة اليهود، وحسن رأيه وأكد بينه وبينهم العهد ورجع. وبادر ألقيموس الكوهن إلى دمترياس وأخبره بميل قائده نيقانور إلى اليهود، وزاد في اغرائه. فبعث إلى قائده ينكر عليه ويستحثه لانفاذ أمره، أنّ يحمل يهوذا مقيدا. وبلغ ذلك يهوذا فلحق بمدينة السامرة صبصطية، واتبعه نيقانور في العساكر، فكر عليه يهوذا وهزمه، وقتل أكثر عساكر الروم الذي معه، ثم ظفر به فصلبه على الهيكل ببيت المقدس. واتخذ اليهود ذلك اليوم عيدا وهو ثالث عشر آذار. ثم بعث قائد الروم دمترياس من قابل الآخر يعتروس في ثلاثين ألفاً من الروم لمحاربة اليهود، وخرجت عساكرهم من المقدس، وفروا عن ملكهم يهوذا وافترقوا في الشعاب، وأقام معه منهم فل قليل واتبعهم يعتروس فلقيه يهوذا وأكمن له، فانهزم اليهود. وخرج عليهم كمين الروم فقتل يهوذا في كثير من ولايته ودفن إلى جانب أبيه متيتيا. ولحق أخوه يوناثال فيمن بقي من اليهود بنواحي ا أردن، وتحصنوا ببئر سبع فحاصرهم يعتروس هنالك أياما، ثم بيتوه فهزموه.

وخرج يوناثال واليهود في اتباعه، فقبضوا عليه، ثم أطلقوه على مسالمة اليهود، وأن لا يسير إلى حربهم. فهلك يوناثال إثر ذلك، وقام بأمر اليهود أخوهما الثالث شمعون فاجتمع إليه اليهود من كل ناحية وعظمت عساكره وغزا جميع أعدائهم ومن ظاهر عليهم من سائر الأمم، وزحف

إليه دمترياس قائد الروم بانطاكية فهزمه شمعون وقتل غالب عسكره، ولم تعاودهم الروم بعدها بالحرب إلى أنّ هلك شمعون. وثب عليه صهره تلماي زوج اخته فقتله، وتقبض على بنيه وامرأته، وهرب ابنه الأكبر قانوس بن شمعون إلى غزة فامتنع بها. وكان اسمه يوحان وكان شجاعا، قتل في بعض الحروب شجاعا اسمه

هرقانوس فسماه أبوه باسمه. ثم اجتمع عليه اليهود وملكوه وسار إلى بيت المقدس، وفر تلماي المتوثب على أبيه إلى حصن داخون فامتنع به، وسار هرقانوس إلى محاربته وضيق عليه. وأشرف تلماي في بعض الأيام من فوق السور بأم هرقانوس وأخته يتهددهما بقتلهما، فكف عن الحرب وانصرف لحضور عبد المظال ببيت المقدس، فقتل تلماي اخته وأمه وفر من الحصن. قال ابن كريون: ثم زحف دمترياس ابن سلياقوس قائد الروم إلى القدس، وحاصر اليهود فامتنعوا وثلم السور، وراسلوه في تأخير الحرب إلى انقضاء عيدهم ففعل، على أنّ يكون له نصيب في القربان ووقعت في نفسه صاغية لهم، وأهدى تماثيل للبيت فحسن موقعها عندهم، وراسلوه في الصلح على المسالمة والمظاهرة لبعض، فأجاب وخرج إليه هرقانوس ملك اليهود وأعطاه ثلثمائة بدرة من الذهب استخرجها من بعض قبور داود.

ورحل عنهم الروم، وشغل هرقانوس في رم ما ثلم من السور، وحدثت خلال ذلك فتنة بين الفرس والروم، فسار إليهما دمترياس في جموع الروم، وبينما أبطأ هرقانوس ملك اليهود لحضور عيدهم إذ جاءه الخبر بأن الفرس هزموا دمترياس، فنهز الفرصة وزحف إلى أعدائه من أهل الشام، وفتح نابلس وحصون أدوم التي بجبل الشراة، وقتل منهم خلقا، ووضع عليهم الجزية وأخذهم بالختان والتزام أحكام التوراة، وخرب الهيكل الذي بناه سنبلاط السامري في طول بريد بإذن الاسكندر، وقهر جميع الأمم المجاورين لهم. ثم بعث وجوه اليهود وأعيانهم إلى الأشياخ والمدبرين برومة يسأل تجديد العهد، وأن يردوا على اليهود ما أخذ أنطيخوس ويونان من بلادهم التي صارت في مملكة الروم، فأجابوا وكتبوا له العهد بذلك، وخاطبوه بملك اليهود.

وإنما كان يسمى من سلف قبله من آبائه بالكوهن، فسمى نفسه من يومئذ بالملك، وجميع بين منزلة الكهنونة ومنزلة الملك. وكان أول ملوك بني حشمناي. ثم سار إلى مدينة السامرة صبصطية ففتحها وخربها وقتل أهلها قال ابن كريون: وكان اليهود في دينهم ثلاث فرق: فرقة الفقهاء وأهل القياس ويسمونهم الفروشيم، وهم الربانيون، وفرقة الظاهرية المتعلقين بظواهر الألفاظ من كتابهم ويسمونهم الصدوقية وهم القراؤن، وفرقة العباد المنقطعين إلى العبادة والتسبيح، والزهاد فيما سوى ذلك ويسمونهم الحيسيد. وكان هرقانوس وآباؤه من اليونانيين ففارق مذهبهم إلى القرائين لأنه جمع اليهود يوما عندما تمهد أمره وأخذ بمذاهب الملك، ولقي به في صنيع احتفل به، وألان لهم جانبه وخضع في قوله، وقال أريد منكم النصيحة. فطمع بعض الربانيين فيه وقال: أنّ النصيحة أنّ تنزل عن الكهنونة وتقتصر على الفلك، وقد فاتك شرطها لأن أمك كانت سبية من أيا أ أنطيخوس، فغضب لذلك وقال للربانيين: قد حكمتكم في صاحبكم، فأخذوا في تأديبه بالضرب، فتنمر لهم من أجل ذلك وفارق مذهبهم إلى مذهب القرائين، وقتل من الربانيين خلقاً كثيراً، ونشأت الفتنه بين هاتين الطائفتين من اليهود، واتصلت بينهم الحرب إلى هذا العهد.

وهلك هرقانوس لاحدى وثلاثين سنة من دولته، وملك بعهده ابنه أرستبلوس وكاد كبيرهم، وكان له ولدان آخران وهما انطيوخس ويحب الملك له، ويبغض الإسكندر فأبعده إلى جبل الخليل، فلما ملك أرستبلوس أخذ من إخوته بمذهب أبيهم وقبض على الاسكندر وأمه، واستخلص انطيوخس وقدمه على العساكر، واكتفى به

في الحروب، وترفع عن تاج الكهنونة ولبس تاج الملك. وخرج انطقنوس إلى الأمم المجاورين الخارجين عن طاعتهم، فرذهم إلى الطاعة، وكثرت السعاية فيه عند أخيه من البطانة وأغروه به، فلما قدم انطقنوس من مغيبه وافق عيد المظال، وكان أخوه ملتزما بيته لمرض طرقه، فعدل انطقنوس عن بيته إلى الهيكل للتبرك، فأوهموا الملك أنه إنما فعل ذلك لاستمالة الكهنونية والعامة، وأنه يروم قتل أخيه، وعلامة ذلك أنه جاء بسلاحه. فعهد أرستبلوس إلى حشمانه وغلمان قصره أنّ جاء متسلحا أنّ يقتلوه وكان ذلك، وتمت حيلة البطانة وسعايتهم عليه. وعلم أرستبلوس أنّ قد خدع في أخيه، فندم واغتم ولطم صدره، حتى قذف الدم من فيه، وأقام عليلا بعده حولا كاملا ثم هلك. فأفرجوا عن أخيه الإسكندر من محبسه وبايعوا له بالملك، واستقام له الأمر. ثم انتقض عليه أهل عكا وأهل صيدا وأهل غزة بعثوا إلى قبرص. وسار

الإسكندر إلي عكّا فحاصرها، وكانت كلوبطرة ملكة من بقية اليونان قد انتقض عليها ابنها واسمه ألظيرو، وأجاز البحر إلى جزيرة قبرص فملكها، فبعث أهل عكا أنهم يملكونه، وجاز إليهم في ثلاثين ألف مقاتل، حتى إذا افرج الاسكندر عن حصارهم راجعوا أمرهم، ومنعوا الظيرو من الدخول إليهم، فسار في بلاد الاسكندر ونزل على جبل الخليل، فقتل منه خلقا ونزل على الاردن.

وفي خلال ذلك زحف الاسكندر إلى صيدا ففتحها عنوة واستباحها، وعاد إلى القدس وأطاعته البلاد وحسم داء المنتقضين عليه. ثم تجددت الفتنة بين اليهود بالقدس، وذلك أنهم اجتمعوا في عيد المظال بالمسجد، وحضر الاسكندر معهم، فتلاعبوا بين يديه مراماة بما عندهم من مشموم وماكول، وأصاب الاسكندر رمية من الربانيين فغضب لها، وشاتمهم القراؤون بما كانوا من شيعته، فشتموا الاسكندر وقتلوا الشاتم وأصحابه فلم يغن عنهم، وعظم فيهم الفتك وانفض الجمع.وعهد الاسكندر أنّ يستد المذبح والكهنة بحائط عن الناس، ونفذ أمره بذلك. واتصلت الفتنة بين اليهود ست سنين، قتل من الربانيين نحو من خمسين ألفاً، والاسكندر يعين القرائين عليهم. وبعثوا إلى دمتريوس المسمى أنطيخوس وبذلوا له المال، فسار معهم إلى نابلس ولقي الاسكندر فهزمه وقتل عامة أصحابه ورجع. فخرج الاسكندر إلى الربانيين وأثخن فيهم، وظفر منهم بجماعة تزيد على ثلثمائة فقتلهم صبرا، وقهر سائر اليهود. وسار إلى دمتريوس ففتح الكثير من بلاده وخرج، فظفر به الاسكندر وقتله وعاد إلى بيت المقدس لثلاث سنين في محاربة الربانيين ودمتريوسرس. فاستقام أمره وعظم سلطانه ثم طرقه المرض فقام عليلا ثلاثا آخرين، وخرج بعدها لحصار بعض الحصون، وانتقضوا عليه فمات هنالك، وأوصى امرأته الاسكندرة بكتمان موته حتى يفتح الحصن وتسير بشلوه إلى القدس فتدفنه فيه، وتصانع الربانيين على ولدها فتملكه، لأن العامة إليهم أميل. ففعلت ذلك واستدعت من كان نافرا الربانيين، وجمعتهم وقدمتهم للشورى واستبدت بالملك.

وكان لها ابنان من الاسكندر بن هرقانوس اسم الأكبر منهما هرقانوس والآخر أرستبلوس وكانا صغيرين عند موت أبيهما، فلما كبرا عينت هرقانوس للكهنونة وقدّمت أرستبلوس على

العساكر والحروب، وضمّت إليه الربّانيين، وأخذت الرهن من جميع الأمم، وسألها الربانيون في الأخذ بثأرهم من القرائين خلقاً كثيراً، وجاء القراؤون إلى ابنها الكهنون ينكرون ذلك، وأنّه إذا فعل بهم ذلك، وقد كانوا شيعا لأبيه الاسكندر، فقد تحدث النفرة من الناس، وسألوه أنّ يلتمس لهم اذنها في الخروج عن القدس والبعد عن الربانيين، فأذنت لهم رغبة في انقطاع الفتنة.

وخرج معهم وجوه العسكر، ثم ماتت خلال ذلك لتسمع سنين من دولتها. ويقال أنّ ظهور عيسى صلوات الله عليه كان في أيامها. وكان ابنها أرستبلوس قائد العسكر، لما شعر بموتها خرج إلى القرائين يستدعيهم إلى نصرته فأجازوه، وتقبضت هي على ابنيه وامرأته، واجتمعت عليه العساكر من النواحي، وضرب البوق وزحف لحرب أخيه هرقانوس والربانيين، وحاصرهم أرستبلوس ببيت المقدس، وعزم على هدم الحصن، فخرج إليه أعيان اليهود والكهنونية ساعين في الصلح بينهما، وأجاب على أنّ يكون ملكا ويبقى هرقانوس على الكهنونية، فتم ذلك واستقر عليه أمره.

القسم الثاني

ابتداء أمر انظفتر أبو هيردوس

ثم سعى في الفتنة بينهما انظفترأبوهيردوس، وكان من عظماء بني إسرائيل من الذين جمعوا مع العزير من بابل، وكان ذا شجاعة وبأس، وله يسار وقنية من الضياع والمواشي. وكان الاسكندر قد ولأه على بلاد اذوم، وهي جبال الشراة. فاقام في ولايتها سنين وكثر ماله، وأنكحوه منهم فكان له منها أربعة من الأبناء وهم: فسيلو وهيردوس وفرودا ويوسف، وبنت اسمها سلومث. وقيل أنّ أنظفتر لم يكن من بني إسرائيل وإنما كان من أدوم وربي في جملة بني حشمناي وبيوتهم. فلما مات الإسكندر وملكت زوجته الإسكندرة عزلته عن جبال الشراة، فأقام بالقدس. حتى إذا استبد بالأمر أرستبلوس، وكان بين هرقانوس وانظفتر مودة وصحبة. فغص أرستبلوس بمكانه من أخيه لما يعلم من مكر انظفتر، وهم بقتله فانفض عنه، وأخذ في التدبير على أرستبلوس.

وفشا في الناس تبغضه إليهم، وينكر تغلبه، ويذكر لهم أنّ هرقانوس أحق بالملك منه، ثم حذر هرقانوس من أخيه، وخيل إليه أنه يريد قتله

وبعث لشيعة هرقانوس المال على تخويفه من ذلك، حتى تمكن منه الخوف. ثم أشار عليه بالخروج إلى ملك العرب هرثمة، وكان يحب هرقانوس فعقد معه عهدا على ذلك. ولحق هرقانوس بهرثمة ومعه انظفتر، ثم دعوا هرثمة إلى حرب أرستبلوس فأجابهم بعد مراوغة. وتزاحفوا ونزع الكثير من عسكر أرستبلوس إلى هرقانوس، فرجع هاربا إلى القدس. ونازلهم هرقانوس وهرثمة، واتصلت الحرب وطال الحصار. وحضر عيد الفطير، وافتقد اليهود القرابين، فبعثوا إلى أصحاب هرقانوس فيها فاشتطوا في الثمن، ثم أخذوه ولم يعطوهم شيئا. وقتلوا بعض النساك طلبوه في الدعاء على أرستبلوس وأصحابه، وامتنع فقتلوه، ووقع فيهم الوباء فمات منهم أمم. قال ابن كريون: وكان الأرمن ببلاد دمشق وحمص وحلب، وكانوا في طاعة الروم فانتقضوا عليهم في هذه المدة، وحدثت عندهم صاغية إلى الفرس. فبعث الروم قائدهم فمقيوس، فخرج لذلك من رومية. وقدم بين

يديه قائده سكانوس فطوع الأرمن ولحق دمشق ثم لحقه فمقيوس ونزل بها. وتوجهت إليه وجوه اليهود في أثرهم، وبعث إليه أرستبلوس من القدس، وهرقانوس من مكان حصاره كل واحد منهما يستنجده على أخيه. وبعثوا إليه بالأموال والهدايا فأعرض عنها، وبعث إلى هرثمة ينهاه عن الدخول بينهما، فرحل عن القدس ورحل معه هوقانوس وانظفتر وأعاد أرستبلوس رسله وهداياه من بيت المقدس، وألح في الطلب وجاء انظفتر إلى فمقيوس بغيرمال ولا هدية، فنكث عنه فمقيوس فرجع إلى رغبته ومسح أعطافه، وضمن له طاعة هرقانوس الذي هو الكهنوت الأعظم. ويحصل بعد ذلك إضعاف أرستبلوس فأجابه فمقيوس على أنّ يتحيل له في الباطن ويكون ظاهره مع أرستبلوس حتى يتم الأمر. وعلي أنّ يحملوا الخراج عند حصول أمرهم، فضمن انظفتر ذلك، وحضر هرقانوس وأرستبلوس عند فمقيوس القائد يتظلم كل واحد من صاحبه، فوعدهم بالنظر بينهم إذا حل بالقدس. وبعث أنظفتر في جميع الرعايا فجاؤوا شاكين من أرستبلوس، فأمره فمقيوس من إنصافهم، فغضب لذلك واستوحش وهرب من معسكر فمقيوس وتحصن في القدس. وسار فمقيوس في أثره، فنزل أريحا ثم القدس وخرج أرستبلوس واستقال فأقاله، وبذل له الأموال على أنّ يعينه على أخيه، ويحمل له ما في الهيكل من الأموال والجواهر،

وبعث معه قائده لذاك، فمنعهم الكهنونية، وثارت بهم العامّة، وقتلوا بعض أصحاب القائد وأخرجوه، فغضب فمقيوس، وتقبض لحيته على أرستبلوس. وركب ليقتحم البلد، فامتنعت عليه وقتل جماعة من أصحابه، فرجع وأقام عليهم، ووقعت الحرب بالمدينة ين شيع أرستبلوس وهرقانوس . وفتح بعض اليهود الباب لفمقيوس فدخل البلد وملك القصر، وامتنع الهيكل عليه، فأقام يحاصره أياما وصنع آلة الحصار، فهدم بعض أبراجه واقتحمه عنوة. ووجد الكهنونية على عبادتهم وقرباتهم مع تلك الحرب، ووقف على الهيكل فاستعظمه، ولم يمد يده إلى شيء من ذخائره. وملك عليهم هرقانوس وضرب عليهم الخراج يحمله كل سنة، ورفع يد اليهود عن جميع ا أمم الذين كانوا في طاعتهم، ورد عليهم البلدان التي ملكها بنو حشمناي ورجع إلى رومة. واستخلف هرقانوس وانظفتر على المقدس، وأنزل معهما قائده سكانوس الذي قدمه لفتح دمشق وبلاد الأرمن عندما خرج من رومية، وحمل أرستبلوس وابنيه مقيدين معه، وهرب الثالث من بنيه وكان يسمى الاسكندر ولحقه فلم يظفر به.

ولما بعد فمقيوس عن الشام ذاهباً إلى مكانه، خرج هرقانوس وانظفتر إلى العرب ليحملوهم على طاعة الروم، فخالفهم الاسكندر بن أرستبلوس إلى المقدس، وكان متغيبا بتلك النواحي منذ مغيب أبيه لم يبرح، فدخل إلى المقدس وملكه اليهود عليهم وبنى ما هدمة فمقيوس من سور الهيكل، واجتمع إليه خلق كثير ورجع هرقابوس وانظفتر. فسار إليهم الاسكندر وهزمهم، وأثخن في عساكرهم. وكان قائد الروم كينانوس قد جاء إلى بلاد الأرمن من بعد فمقيوس، فلحق به واستنصره على الاسكندر، فسار معه إلى القدس، وخرج إليهم الاسكندر فهزموه، ومضى إلى حصن له يسمى الإسكندرونة واعتصم به. وسار هرقانوس إلى القدس فاستولى على ملكه وسار كينانوس قائد الروم إلى الاسكندر فحاصره بحصنه، واستأمن إليه وعفا عنه وأحسن إليه.

وفي أثناء ذلك هرب أرستبلوس أخو هرقانوس من محبسه برومية وابنه انطقنوس، واجتمع إليه فحاربه كينانوس وهزمه، وحصل في أسره فرده إلى محبسه برومية، و لم يزل هنالك إلى أنّ تغلب قيصر على رومية واستحدث الملك في الروم وخرج فمقيوس من رومية إلى نواحي عمله، وجمع العساكر لمحاربة قيصر، فأطلق
أرستبلوس من محبسه، وأطلق معه قائدين في إثني عشر ألف مقاتل، وسرّحهم إلى الأرمن واليهود ليردوهم عن طاعة فمقيوس. وكتب فمقيوس إلى انظفتر ببيت المقدس أنّ يكفيه أمر أرستبلوس، فبعث قوما من اليهود لقوه في بلاد الأرمن ودسوا له سما في بعض شرابه، كان فيه حتفه. وقد كان كينانوس كاتب الشيخ صاحب رومية في إطلاق من بقي من ولد أرستبلوس فأطلقهم.
قال ابن كريون: وكان أهل مصر لذلك العهد انتقضوا على ملكهم تلماي وطردوه، وامتنعوا من حمل الخراج إلى الروم، فسار إليهم واستنفر معه انظفتر فغلبهم وقتلهم. ورد تلماي إلي ملكه واستقام أمر مصر ورجع كينانوس إلى بيت المقدس فجدد الملك لهرقانوس وقدم انظفتر مدبر المملكة وسار إلى رومية.
قال ابن كريون: ثم غضبت الفرس على الروم فندبوا إلى ذلك قائدا منهم يسمى عرنبوس وبعثوه لحربهم، فمر بالقدس ودخل إلى الهيكل، وطالب الكهنون بما فيه من المال، وكان يسمى ألعازر من صلحاء اليهود وفضلائهم. فقال له أنّ كينانوس وفمقيوس لم يفعلوا ذلك بتلك، فاشتد عليه فقال: أعطيك ثلثمائة من الذهب وتتجافى عن الهيكل. ودفع إليه سبيكة ذهب على صورة خشبة كانت تلقى عليها الصور التي تنزل من الهيكل الذي تجدد. وكان وزنها ثلثمائة، فأخذها ونقض القول وتعدى على الهيكاس. وأخذ جميع ما فيه منذ عمارتها من الهدايا والغنائم وقربانات الملوك والأمم، وجميع آلات القدس. وسار إلى لقاء الفرس فحاربوه وهزموه، وأخذوا جميع ما كان معه، وقتل واستولت الفرس على بلاد الأرمن: دمشق وحمص وحلب وما إليها.
وبلغ الخبر إلى الروم فجهزوا قائدا عظيما في عساكر جمة اسمه كسناو، فدخل بلاد الأرمن الذين كانوا غلبوا عليها، وساروا إلى القدس. فوجد اليهود يحاربون هرقانوس وانظفتر فأعانهما حتى استقام ملك هرقانوس. ثم سار إلى الفرس في عساكره فغلبهم وحملهم على طاعة الروم، ورد الملوك الذين كانوا عصوا عليهم إلى الطاعة، وكانوا اثنين وعشرين ملكا من الفرس كان فمقيوس قائد الروم هزمهم، فلما سار عنهم انتقضوا.
قال ابن كريون: ثم ابتدأ أمر القياصرة، وملك على الروم يولياس ولقبه قيصر لأّن أمّه ماتت حاملا به عند مخاضها فشق بطنها عنه، فلذلك سُميّ قيصر ومعناه بلغتهم القاطع. ويسمّى أيضاً يولياس باسم الشهر الذي ولد فيه وهو يوليه خامس
شهورهم، ومعنى هذه اللفظة عندهم الخامس. وكان الثلثمائة والعشرون المدبرون أمر الروم والشيخ الذي عليهم قد أحكموا أمرهم مع جماعة الروم، على أنّ لا يقدموا عليهم ملكا، وأنهم يعينون للحروب في الجهات قائدا بعد أخر. هذا ما اتفقوا عليه النقلة في الحكاية عن أمر الروم، وابتداء ملك القياصرة.

قالوا: ولما رأى قيصر هذا الشيخ الذي كان لذلك العهد كبر وشب على غاية من الشجاعة والإقدام، فكانوا يبعثونه قائداً على العساكر إلى النواحي، فأخرجوه مرة إلى المغرب فدوخ البلاد ،ورجع، فسمت نفسه إلى الملك فامتنعوا له وأخبروه أنّ هذا سنة آبائهم منذ أحقاب، وحدثوه بالسبب الذي فعلوا ذلك لأجله، وهو أمر كيوس، وأنه عهد لأولهم لا ينقض، وقد دوخ فمقيوس الشرق وطوع اليهود ولم يطمع في هذا. فوثب عليهم قيصر وقتلهم، واستولى على ملك الروم منفرداً به وسمي قيصر، وسار إلى فمقيوس بمصر فظفر به وقتله، ورجع فوجد بتلك الجهات قواد فمقيوس، فسار إليهم يولياس قيصر ومر ببلاد الأرمن فأطاعوه، وكان عليهم ملك اسمه مترداث، فبعثه قيصر إلى حربهم.

فسار في الأرمن ولقيه هرقانوس ملك اليهود بعسقلان، ونفر معه إلى مصر هو وانظفتر ليمحوا بعض ما عرف منهم من موالاة فمقيوس، وساروا جميعاً إلي مصر ولقيتهم عساكرها، واشتدّ الحرب فحصر بلادهم، وكادت الأرمن أنّ ينهزموا، فثبت أنظفتر وعساكر اليهود وكاد لهم الظفر واستولوا على مصر، وبلغ الخبر إلى قيصر فشكر أنظفتر حسن بلائه، واستدعاه فسار إليه مع ملك الأرمن مترداث فقبله وأحسن وعده. وكان أنطقنوس بن إلي أرستبلوس قد اتصل بقيصر، وشكى بأن هرقانوس قتل أباه حين بعثه أهل رومة لحرب فمقيوس، فتحيل عليه هرقانوس وأنظفتر وقتلاه مسموماً، فأحسن أنظفتر العذر لقيصر بأنه إنما فعل ذلك في خدمة من ملك علينا من الروم، وإنما كنت ناصحاً لقائدهم فمقيوس بالأمس، وأنا اليوم أيها الملك لك أنصح وأحب، فحسن موقع كلامه من قيصر، ورفع مترلته وقدمه على عساكره لحرب الفرس، فسار إليه أنظفتر وأبلى في تلك الحروب ومناصحة قيصر، فلما انقلبوا من بلاد الفرس أعادهم قيصر إلى ملك بيت المقدس على ما كانوا عليه.

واستقام الملك لهرقانوس، وكان خيراً إلا أنه كان ضعيفاً عن لقاء الحروب، فتغلّب

عليه أنظفتر، واستبد على الدولة، وقدّم ابنه فسيلو ناظراً في بيت المقدس، وابنه هيردوس عاملاً على جبل الخليل. وكان كما بلغ الحلم واحتازوا الملك من أطرافه، وامتلأ أهل الدولة منهم حسدآ، وكثرت السعاية فيهم، وكان في أطراف عملهم ثائر من اليهود يسمى حزقيا، وكان شجاعاً صعلوكاً واجتمع إليه أمثاله، فكانوا يغيرون على الأرمن وينالون منهم. وعظمت نكايتهم فيهم، فشكا عامل بلاد الأرمن وهو سفيوس ابن عم قيصر إلى هيردوس وهو بجبل الخليل ما لعله حزقيا وأصحابه في بلادهم، فبعث هيردوس إليهم سرية فكبسوهم ، وقتل حزقيا وغيره منهم، وكتب بدلك إلى سفيوس فشكره وأهدى إليه.

ونكر اليهود ذلك من فعل هيردوس وتظلموا عند هرقانوس وطلبوه في القصاص

منه، فأحضروه في مجلس الأحكام، وأحضر السبعين شيخاً من اليهود، وجاء هيردوس متسلحاً ودافع عن نفسه، وعلم هرقانوس بغرض الأشياخ، ففصلوا المجلس، فنكروا ذلك على هرقانوس ، ولحق هيردوس ببلاد الأرمن، فقدمه سفيوس على عمله. ثم أرسل هرقانوس إلى قيصر يسأل تجديد عهود الروم لهم، فكتب له بذلك، وأمر بأن يحمل أهل الساحل خراجهم إلى بيت المقدس ما بين صيدا وغرة، ويحمل أهل صيدا إليها في كل سنة عشرين ألف وسق من القمح، وأن يرد على اليهود سائر ما كان بأيديهم إلى الفرات واللآذقية

وأعمالها، وما كان بنو حشمناي فتحوه عنوة من عدوات الفرات ، لأن فمقيوس كان يتعدى عليهم في ذلك، وكتب العهد بذلك في ألواح من نحاس بلسان الروم ويونان، وغلقت في أسوار صور وصيد ا، واستقام أمر هرقانوس.

قال ابن كربون: ثم قتل قيصر ملك الروم. وانظفتر وزير هرقانوس المستبد عليه.

أما قيصر فوثب عليه كيساوس من قواد فمقيوس فقتله ، وملك وجمع العساكر وعبر البحر إلى بلاد أشيت ففتحها، ثم سار إلى القدس وطالبهم بسبعين بدرة من الذهب، فجمع له أنظفتر وبنوه من اليهود، ثم رجع كيساوس إلى مقدونية فأقام بها. وأما أنظفتر فإن اليهود داخلوا القائد ملكيا الذي كان بين أظهرهم من قبل كيساوس في قتل أنظفتر وزير هرقانوس، فأجابهم إلى ذلك، فدسوا إلى ساقيه سما فقتله، وجاء ابنه هيردوس إلى القدس مجمعاً قتل هرقانوس، فكفه فسيلوا عن ذلك، وجاء كيساوس من مقدونية إلى صور، ولقي هرقانوس وهيردوس وشكوا إليه ما فعله قائده ملكيا من

مداخلة اليهود في قتل أنظفتر، فأذن لهم في قتله فقتلوه. تم زحف كينانوس ابن أخي قيصر وقائده انطونيوس في العساكر لحرب كيساوس المتوثب على عمه قيصر، فلقيهم قريباً من مقدونية، فظفرا به وقتلاه، وملك كينانوس مكان عمه وسمى أغسطس قيصر باسم عمه. فأرسل إليه هرقانوس ملك اليهود بهدية، وفيها تاج من الذهب مرصع بالجواهر، وسأل تجديد العهد لهم، وأن يطلق السبي الذي سبي منهم أيام كيساوس ، وأن يرد اليهود إلى بلاد يونان وأثينة وأن يجري لهم ما كان رسم به عمه قيصر، فأجابه إلى ذلك كله.

وسارانطيانوس

واغسطس قيصر إلى بلاد الارمن بدمشق وحمص، فلقته هنالك كلبطرة ملكة مصر، وكانت ساحرة ، فاستأمنته وتزوجها، وحضر عند هرقانوس ملك اليهود. وجاء جماعة من اليهود فشكوا من هيردوس وأخيه فسيلو وتظلموا منهما، وأكذبهم ملكهم هرقانوس وأبى عليها، وأمر أنطيانوس بالقبض على أولئك الشاكين، وقتل منهم، ورجع هيردوس وأخوه فسارا إلى مكانهما ومكان أبيهما من تدبير مملكة هرقانوس، وسار انطيانوس إلى بلاد الفرس فدوخها وعاث في نواحيها، وقهر ملوكها وقفل إلى رومة.

قال ابن كريون: وفي خلال ذلك لحق انطقنوس وجماعة من اليهود بالفرس، وضمنوا لملكهم أنّ يحملوا إليه بدرة من الذهب، وثمانمائة جارية من بنات اليهود ورؤسائهم، يسبيهن له، على أنّ يملكه مكان عمه هرقانوس ويسلمه إليه، ويقتل هيردوس وأخاه فسيلو ، فأجابهم ملك الفرس إلى ذلك، وسار في العساكر وفتح بلاد الارمن وقتل من وجد بها من قواد الروم ومقاتلتهم، وبعث قائده بعسكر من القدس مع أنطقنوس فولي مورياً بالصلاة في بيت المقدس، والتبرك بالهيكل، حتى إذا توسط المدينة ثار بها وأفحش في القتل، وبادر هيردوس إلى قصر هرقانوس ليحفظه، ومضى فسيلو إلى الحصن يضبطه. وتورط من كان بالمدينة من الفرس قتلهم اليهود عن آخرهم، وامتنعوا على القائد، وفسد ما كان دبره في أمر انطقنوس.

فرجع إلى استمالة هرقانوس وهيردوس، وطلب الطاعة منهم للفرس، وأنه يتلطف لهم عند الملك

في إصلاح حالهم، فصغى هرقانوس، وفسيلو إلى قوله، وخرجوا إليه. وارتاب هيردوس وامتنع، فارتحل بهما قائد الفرس حتى إذا بلغ الملك ببلاد الأرمن تقبض عليهما، فمات فسيلو من ليلته، وقيد هرقانوس واحتمله إلى بلاده، وأشار أنطقنوس بقطع أذنه ليمنعه من الكهونة. ولما وصل ملك الفرس إلى بلاده أطلق هرقانوس من الاعتقال وأحسن إليه، إلى أنّ استدعاه هيردوس كما يأتي بعد، وبعث ملك الفرس قائده إلى اليهود مع انطقنوس ليملك، فخرج هيردوس عن القدس إلى جبل الشراة، فترك عياله بالحصن عند أخيه يوسف، وسار إلى مصر يريد قيصر. فأكرمته كلبطرة ملكة مصر، وأركبته السفن إلى رومية، فدخل بها انطيانوس إلى أوغسطس قيصر، وخبره الخبر عن الفرس والقدس، فملكه اوغسطس وألبسه التاج، وأركبه في رومية في زى الملك، والهاتف بين يديه بأن اوغسطس ملكه. واحتفل أنطيانوس في صنيع له حضره الملك أوغسطس قيصر وشيوخ رومية، وكتبوا له العهد في ألواح من نحاس، ووضعوا ذلك اليوم التاريخ، وهو أول ملك هيردوس. وسار أنطيانوس بالعسكر إلى الفرس ومعه هيردوس، وفارقه من أنطاكية، وركب البحر إلى القدس لحرب أنطقنوس، فخرج انطقنوس إلى جبال الشراة للاستيلاء على عيال هيردوس، وأقام على حصار الحصن، وجاء هيردوس فحاربه، وخرج يوسف من الحصن من ورائه، فانهزم أنطقنوس إلى القدس، وهلك أكثر عسكره. وحاصره هيردوس، وبعث أنطقنوس بالأموال إلى قواد العسكر من الروم فلم يجيبوه، وأقام هيردوس على حصاره حتى جاءه الخبر عن انطيانوس قائد قيصر أنه ظفر بملك الفرس وقتله، ودوخ بلادهم، وإنه عاد ونزل الفرات. فترك هيردوس أخاه يوسف على حصار القدس مع قائد الروم سيساو، ومن تبعهم من الأرمن، وسار للقاء انطيانوس وبلغه وهو بدمشق أنّ أخاه يوسف قتل في حصار القدس على يد قائده أنطقنوس، وأن العساكر انفضت ورجعوا إلي دمشق، وجاء سيساو منهزماً قائد انطيانوس بالعساكر. وتقدم هيردوس وقد خرج أنطقنوس للقائه، فهزمه وقتل عامة عسكره، واتبعه إلى القدس. ووافاه سيساو قائد الروم فحاصروا القدس أياماً، ثم اقتحموا البلد وتسللوا صاعدين إلى السور، وقتلوا الحرس وملكوا المدينة، وأفحش سياسو في قتل اليهود، فرغب إليه هيردوس في الإبقاء. وقال له: إذا قتلت قومي

فعلى من تملكني؟ فرفع القتل عنهم ورد ما نهب، وقرب إلى البيت تاجاً من الذهب وضعت فيه، وحمل إليه هيردوس أموالا. ثم عثروا على أنطقنوس، وقد كان سار من الشام إلى مصر، فجاءه بانطقنوس هنالك، ولحق بهم هيردوس وسأل من انطيانوس قتل أنطقنوس فقتله، واستبد هيردوس بملك اليهود وانقرض ملك بني حشمناى والبقاء لله وحده.

انقراض ملك بني حشمناي وابتداء ملك هيردوس وبنيه

وكان أوّل ما افتتح به ملكه أنّ بعث إلى هرقانوس الذي احتمله الفرس، وقطعوا أذنه يستقدمه ليأمن على ملكه من ناحيته، ورغّبه في الكهنونية التي كان عليها، فرغب وحذره ملك الفرس من هيردوس، وعزله اليهود الذين معه، وأراه أنها خديعة وأنه العيب الذي به يمنع الكهنونية فلم يقبل شيئاً من ذلك. وصغى إلى هيردوس وحسن ظنه به، وسار إليه وتلقاه بالكرامة والاعطاء، وكان يخاطبه بأبي في الجمع والخلوة. وكانت الإسكندرة

بنت هرقانوس تحت الإسكندر، وابن أخيه أرستبلوس. وكانت بنتها منه مريم تحت هيردوس فاطلعتا ،على ضمير هيردوس من محاولة قتله فخبرتاه بذلك، وأشارتا عليه باللحاق بملك العرب ليكون في جواره، فخاطبه هرقانوس في ذلك، وأن يبعث إليه من رجالاتهم من يخرج به إلى أحيائهم، وكان حامل الكتاب من اليهود مضطغناً على هرقانوس لأنه قتل أخاه وسلب ماله، فوضع الكتاب في يد هيردوس، فلما قرأه رده إليه، وقال: أبلغه إلى ملك العرب وأرجع الجواب إلي. فجاءه بالجواب من ملك العرب إلى هرقانوس، وأنه أسعف وبعث الرجال، فألقاهم بوصلك إلي. فبعث هيردوس من يقبض على الرجال بالمكان الذي عينه، وأحضرهم وأحضر حكام البلاد اليهود والسبعين شيخاً. وأحضر هرقانوس وقرأ عليه الكتاب بخطه فلم يخير جواباً، وقامت عليه الحجة،

وقتله هيردوس لوقته لثمانين سنة من عمره، وأربعين من ملكه، وهو آخر ملوك بني حشمناي. وكان للاسكندر بن أرستبلوس، ابن يسمى أرستبلوس، وكان من أجمل الناس صورة، وكان في كفالة أمه الاسكندرة، وأخته يومئذ تحت هيردوس كما قلناه. وكان هيردوس يغص به، وكانت اخته وأمهما يؤملاه أنّ يكون كوهناً بالبيت مكان جده هرقانوس، وهيردوس يريد نقل الكهنونة عن بني حشمناى، وقدّم لها رجلاً من

عوام الكهنونية، وجعله كبير الكهنونية. فشق ذلك على الإسكندرة بنت هرقانوس وبنتها مريم زوج هيردوس. وكان بين الإسكندرة وكلوبطرة ملكة مصر مواصلة ومهاداة، وطلبت منها أنّ تشفع زوجها أنطيانوس في ذلك إلى هيردوس، فاعتذر له هيردوس بان الكواهن لا تعزل، ولو أردنا ذلك فلا يملكنا أهل الدين من عزله، فبعثت بذلك الاسكندرة ودست الاسكندرة إلى الرسول الذي جاء من عند انطيانوس، وأتحفته بمال، فضمن لهم أنّ انطيانوس يعزم على هيردوس في بعث أرستبلوس إليه، ورجع إلى انطيانوس فرغبة في ذلك. ووصف له من جماله وأغراه باستقدامه، فبعث فيه انطيانوس إلى هيردوس وهدده بالوحشة أنّ منعه، فعلم أنه يريد منه القبيح فقدمه كهنوناً وعزل الأول، واعتذر لانطيانوس بأن الكوهن لا يمكن سفره، واليهود تنكر ذلك. فأغفل انطيانوس الأمر و لم يعاود فيه.

ووكل هيردوس بالإسكندرة بنت هرقانوس عهدته من يراعي أفعالها، فاطلع على كتبها إلى كلوبطرة أنّ تبعث إليها السفن والرجال يوصلنها إليها، وأن السفن وصلت إلى ساحل يافا، وأن الاسكندرة صنعت تابوتين لتخرج فيهما هي وابنتها على هيئة الموتى. فأرصد هيردوس من جاء بهما من المقابر في تابوتيهما، فوبخهما ثم عفا عنهما. ثم بلغه أنّ ارستبلوس حضر في عيد المظال، فصعد على المذبح وقد لبس ثياب القدس، وازدحم الناس عليه، وظهر من ميلهم إليه ومحبتهم ما لا يعبر عنه، فغص بذلك وأعمل التدبير في قتله. فخرج في متزه له باريحاء في نيسان، استدعى أصحابه وأحضر أرستبلوس، فطعموا ولعبوا وانغمسوا في البرك يسبحون. وعمد غلمان هيردوس إلى أرستبلوس فغمسوه في الماء حتى شرق وفاض، فاغتم الناس لموته وبكى عليه هيردوس ودفنه. وكان موته لسبع عشرة سنة من عمره.

وتأكدت البغضاء بين الإسكندرة وابنتها مريم زوج هيردوس أخت هذا الغريق،
وبين أم هيردوس واخته، وكثرت شكواهما إليه، فلم يشكهما لمكان زوجته مريم وأمها منه. قال ابن كريون: ثم انتقض انطيانوس على اوغسطس قيصر وذلك أنه تزوج كلوبطرة وملك مصر، وكانت ساحرة فسحرته واستمالته، وحملته على قتل ملوك كانوا في طاعة الروم، وأخذ بلادهم وأموالهم ،وسبي نسائهم وأموالهم وأولادهم. وكان من جملتهم هيردوس وتوقف فيه خشية من اوغسطس قيصر، لأنه كان يكرمه بسبب ما صنع الاخرين ، فحمله على الانتقاض والعصيان ففعل وجمع
العسكر، واستدعى هيردوس فجاءه وبعثه إلى قتال العرب، وكانوا خالفوا عليه، فمضى هيردوس لذلك ومعه انيثاون قائد كلوبطرة ،وقد دست له أنّ يجر الهزيمة على هيردوس ليقتل ففعل. وثبت هيردوس وتخلص من المعترك بعد حروب صعبة هلك فيها بين الفريقين خلق كثير.
ورجع هيردوس إلى بيت المقدس، فصالح جميع الملوك والأمم المجاورين له، وامتنع العرب من ذلك، فسار إليهم وحاربهم، ثم استباحهم بعد أيام ومواقف بذلوا وجمعوا له الأموال، وفرض عليهم الخراج في كل سنة ورجع. وكان انطيانوس لما بعثه إلى العرب سار هو إلى رومة، وكالت بينه وبين اوغسطس قيصر حروب هزمه قيصر في آخرها وقتله وسار إلى مصر، فخافه هيردوس على نفسه لما كان منه في طاعة أنطيانوس وموالاته، ولم يمكنه التخلف عن لقائه. فأخرج خدمه من القدس، فبعث بأمه واخته إلى قلعة الشراة لنظر أخيه فرودا، وبعث بزوجه مريم وأمه الاسكندرة إلى حصن الإسكندرونة لنظر زوج اخته يوسف، ورجل آخر من خالصته من أهل صور اسمه سوما، وعهد إليها بقتل زوجته وامها أنّ قتله قيصر.
ثم حمل معه الهدايا وسار إلى قيصر اوغسطس وكانت تحقد له صحبة انطيانوس،فلما حضر بين يديه عنّفه وأزاح التاج عن رأسه وهمّ بعقابه، فتلطف هيردوس في الاعتذار، وأنّ موالاته لأنطيانوس إنما كان لما أولى من الجميل في السعاية عند الملك وهي أعظم أياديه عندي، ولم تكن موالاتي له في عداوتك ولا في حربك. ولو كان ذلك وأهلكت نفسي دونه كنت غير ملوم، فإن الوفاء شأن الكرام. فإن أزلت عني التاج فما أزلت عقلى ولا نظري، وإن أبقيتنى فأنا محل الصنيعة والشكر، لانبسط أوغسطس لكلامه وتوجه كما كان، وبعثه على مقدمته إلى مصر، فلما ملك مصر وقتل كلوبطرة وهب لهيردوس جميع ما كان أنطيانوس أعطاها إياه ونقل. فأعاد هيردوس إلى ملكه ببيت المقدس وسار إلى رومية.
قال ابن كريّون: ولما عاد هيردوس إلى بيت المقدس أعاد حرمه من أماكنهنّ فعادت زوجته مريم وأمها من حصن الاسكندرونة وفي خدمتها يوسف زوج أخته وسوما الصوري، وقد كانا حدّثا المرأة وأمها بما أسر إليهما هيرودس، وقد كان سلف منه قتل هرقانوس وأرستبلوس فشكرتا له. وبينما هو آخذ في استمالة زوجته إذ رمتها أخته بالفاحشة مع سَوْمَا الصورى في ملاحاة جرت بينهما ولم يصدّق ذلك هيردوس
للعداوة والثقة بعفة الزوجة. ثم جرى منها في بعض الأيام وهو في سبيل استمالتها عتاب فيما أسرّ إلى سَوْما وزوج أخته، فقويت عنده الظّنّة بهم جميعا وأن مثل هذا السر لم يكن إلا لأمر مريب، وأخذ في إخفائها

وإقصائها، ودست عليه اخته بعض النساء تحدثه بأن زوجته داخلته في أنّ تستحضر السم، وأحضره فجرب وصح، وقتل للحين صهره يوسف وصاحبه سوما، واعتقل زوجته ثم قتلها وندم على ذلك، ثم بلغه عن أمها الإسكندرة مثل ذلك، فقتلها. وولى على اروم مكان صهره رجلا منهم اسمه كرسوس وزوجه اخته، فسار إلى عمله وانحرف عن دين التوراة والإحسان الذي حملهم عليه هرقانوس، وأباح لهم عبادة صنمهم، وأجمع الخلاف، وطلق أخت هيردوس، فسعت به إلى أخيها وخبرته بأحواله، وأنه آوى جماعة من بني حشمناي المرشحين للملك منذ اثني عشرة سنة.

فقام هيردوس في ركائبه، وبحث عنه، فحضر وطالبه ببني حشمناي الذي عنده، فأحضرهم فقتله وقتلهم، وأرهف حده وقتل جماعة من كبار اليهود ومقدميهم، اتهمهم بالإنكار عليه. فأذعن له الناس واستفحل ملكه، وأهمل المراعاة لوصاية التوراة، وعمل في بيت المقدس سورا، واتخذ متنزه لعب، وأطلق فيه السباع. ويحمل بعض الجهلة على مقابلتها لتفترسهم. فنكر الناس ذلك، وأعمل أهل الدولة الحيلة في قتله فلم لتم لهم. وكان يمشي متنكرا للتجسس على أحوال الناس، فعظمت هيبهته في النفوس.

وكان أعظم طوائف اليهود عنده الربانيون بما تقدم لهم في ولايته، وكان لطائفة

العباد من اليهود المسمى بالحيسيد مكانة عنده أيضاً، كان شيخهم مناحيم لذلك العهد محدثا، وكان حدثه وهو غلام بمصير الملك له، وأخبره وهو ملك بطول مدته في الملك، فدعا له ولقومه. وكان كلفا ببناء المدن والحصون، ومدينة قيسارية من بنائه. ولما حدثت في أيامه المجاعة شمر لها، وأخرج الزرع للناس وبثه فيهم بيعا وهبة وصدقة. وأرسل في الميرة من سائر النواحي، وأمر قيصر في سائر تخومه وفي مصر وورومة أنّ يحملوا الميرة إلى بيت المقدس، فوصلت السفن بالزرع إلى ساحلها من كل جهة، وأجرى على الشيوخ والأيتام والأرامل والمنقطعين كفايتهم من الخبز، وعلى الفقراء والمساكين كفايتهم من الحنطة، وفرق على خمسين ألفا قصدوه من غير ملته، فرفعت المجاعة وارتفع له الذكر والثناء الجميل.

قال ابن كريون: ولما استفحل مسسسلكة وعظم سلطانه أراد بناء البيت على ما بناه سليمان

بن داود، لأنهم لما رجعوا إلى القدس بإذن كورش عين لهم مقدار البيت لا يتجاوزونه، فلم يتم على حدود سليمان. ولما اعتزم على ذلك ابتدأ أولاً باحضار الآلات مستوفيات، خشية أنّ يحصل الهدم وتطول المدة وتعرض القواطع والموانع، فاعد الآلات وأكمل جمعها في ست سنين، ثم جمع الصناع للبناء وما يتعلق به، فكانوا عشرة آلاف. وعين ألفا من الكهنة يتولون القدس الأقدس الذي لا يدخله غيرهم. ولما تم له ذلك شرع في الهدم، فحصل لأقرب وقت، ثم بنى البيت على حدوده وهيئته أيام سليمان، وزاد في بعض المواضع على ما اختاره، ووقف عليه نظره فكمل في ثمان سنين، ثم شرع في الشكر لله تعالى على ما قيأ له من ذلك فقرب القربان، واحتفل في الولائم وإطعام الطعام. وتبعه الناس في ذلك أياما، فكانت من محاسن دولته.

قال ابن كريون: ثم ابتلاه الله بقتل أولاده، وكان له ولدان من مريم بنت الاسكندرة قتيلة السم، أحدهما الاسكندر والآخر ارستبلوس، وكانا عند قتل أمهما غائبين برومة يتعلمان خط الروم، للما وصلا وقد قتل

افهما حصلت بينه وبينهما الوحشة، وكان له ولد آخر اسمه أنظفتر على اسم جده، وكان قد أبعد أمه راسيس لمكان مريم، فلما هلكت واستوحش من ولدها لطلب محل راسيس منه، قدم ابنها انظفتر وجعله ولي عهده، وأخذ في السعاية على إخوته، خشية منهما بأنهما يرومان قتل أبيهما فالحرف عنهما. واتفق أنّ سار إلى اوغسطس قيصر، ومعه ابنه إسكندر فشكاه عنده وتبرأ الإسكندر وحلف على براءته، فأصلح بينهما قيصر ورجع إلى القدس، وقسم القدس بين ولده الثلاثة، ووصاهم ووصى الناس بهم. وعهد أنّ لا يخالطوهم خشية مما يحدث عن ذلك. وانظفتر مع ذلك متماد على سعايته بهما، وقد داخل في ذلك عمه قدودا وعمته سلومنت، فأغروا أباه بأخويه المذكورين حتى اعتقلهما.

وبلغ الخبر أرسلاوش ملك كفتور، وكانت بنته تحت الإسكندر منهما، فجاء إلى هيردوس مظهرا السخط على الإسكندر والانحراف عنه. وتحيل في إظهار جراءتهما، وأطلعه على جلية الحال، وسعاية أخيه واخته، فانكشف له الأمر وصدقه وغضب على أخيه قدودا فجاء إلى ارسلاوش وأحضره عند هيردوس، حتى أخبره بمصدوقية الحال، ثم شفعه فيه. وأطلق ولديه ورضي عنهما، وشكر لارسلاوش من تلطفه في تلافي هذا الأمر، وانصرف إلى بلده. ولم ينف ذلك انظفتر عن تدبيره عليهما. وما زال يغري أباه ويدس له من يغريه حتى

أسخطه عليهما ثانية، واعتقلهما، وأمضى بهما في بعض أسفاره مقيدين. ونكر ذلك بعض أهل الدولة، فدس انظفتر إلى أبيه: المنكر علي من المدبرين عليك، وقد ضمن لحجامك الإسكندر مالاً على قتلك، فأنزل هيرودس بهما العقاب ليتكشف الخبر، ونما بأن ذلك الرجل معه ولذغه العقاب، وأقر على نفسه، وقتل هو وأبوه والحجام. ثم قتل هيردوس ولديه وصلبهما على مصطبة. وكان لابنه الإسكندر ولدان من بنت أرسلاوش ملك كفتور وهما كوبان والإسكندر، ولابنه ارستبلوس ثلاثة من الولد: اعراباس وهيردوس واشتروبلوس.

ثم ندم هيردوس على قتل ولديه وعطف على أولادهما فزوج كوبان بن الإسكندر بابنة أخيه قدودا وزوج ابنة ابنه ارستبلوس من ابن ابنه أنظفتر، وأمر أخاه قدودا وابنه انظفتر بكفالتهما والإحسان إليهما، فكرها ذلك واتفقا على فسخه وقتل هيردوس متى أمكن. وبعث هيردوس ابنه أنظفتر إلى اوغسطس قيصر، ونما الخبر إليه بأن أخاه قدودا يريد قتله، فسخطه وأبعده وألزمه بيته. ثم مرض قدودا واستعد أخاه هيردوس ليعوده فعاد ثم مات. فحزن عليه ثم حزن باستكشاف ما نما إليه، فعاقب جواريه. فأقرت إحداهما بأن انظفتر وقدودا كانا يجتمعان عند رسيس أم أنظفتر يدبران على قتل هيردوس على يد خازن أنظفتر، فأقر بمثل ذلك. وإنه بعث على السم من مصر وهو عند امرأة لدودا، فأحضرت فأقرت بأن قدودا أمرها عند موته باراقته، وأنها أبقت منه قليلا يشهد لها أنّ سئلت. فكتب هيردوس إلى ابنه أنظفتر بالقدوم فقدم مستريباً بعد أنّ أجمع على الهروب فمنعه خدم أبيه. ولما حضر جمع له الناس في مشهد وحضر رسول اوغسطس وقدم كاتبه نيقالوس.

وكان يحب أولاد هيردوس المقتولين ويميل إليهما عن أنظفتر، فدفع يخاصمه حتى

قامت عليه الحجة، وأحضر بقية السم وجرب في بعض الحيوانات فصدق فعله. فحبس هيردوس ابنه أنظفتر حتى مرض وأشرف على الموت، وأسف على ما كان منه لأولاده، فهم بقتل نفسه فمنعه جلساوه وأهله، وسمع من القصر البكاء والصراخ لذلك، فهم أنظفتر بالخروج من محبسه ومنع، وأخبر هيردوس بذلك وأمر بقتله في الوقت فقتل.

ثم هلك بعده لخمسة أيام ولسبعين سنة من عمره وخمس وثلاثين من ملكه. وعهد

بالملك لابن اركلاوش، وخرج كاتبه نيقالوس، فجمع الناس وقرأ عليهم العهد وأراهم خاتم هيردوس عليه فبايعوا له، وحمل أباه إلى قبره على سرير من الذهب

مرصع بالجواهر والياقوت، وعليه ستور الديباج منسوجة بالذهب، وأجلس مسندا ظهره إلى الأرائك والناس أمامه من الأشراف والرؤساء، ومن خلفه الخدم والغلمان، وحواليه الجواري بأنواع الطيب، إلى أنّ اندرج في قبره.

وقام اركلاوش بملكه وتقرب إلى الناس باطلاق المسجونين، فاستقام أمره وانطلقت الألسنة بذم هيردوس والطعن عليه. ثم انتقضوا على أركلاوش بملكه بما وقع منه من القتل فيهم، فساروا إلى قيصر شاكين بذلك، وعابوه عنده بأنه ولى من غير أمره. وحضر اركلاوش وكاتبه نيقالوس بخصمهم ودفع دعاويهم، وأشار عظماء الروم بابقائه، فملكه قيصر وأعاده إلى القدس. وأساء السيرة في اليهود، وتزوج امرأة أخيه الإسكندر وكان له أولاد منها فماتت لوقتها. ووصلت شكاية اليهود بذلك كله إلى قيصر، فبعث قائدا من الروم إلى المقدس فقيد اركلاوش وحمله إلى رومة لسبع سنين من دولته، وولى على اليهود بالقدس أخاه أنطيفوس وكان شرا منه، واغتصب امرأة أخيه فيلقوس وله منها ولدان، ونكر ذلك عليه علماء اليهود والكهنونية. وكان لذلك العهد يوحنا بن زكريا فقتله في جماعة منهم. وهذا هو المعروف عند النصارى بالمعمدان الذي عمد عيسى أي طهره بماء المعمودية بزعمهم.

وفي دولة أنطيفوس هذا مات قيصر اوغسطس فملك بعده طبريانوس، وكان قبيح السيرة. وبعث قائده بعيلاس بصنم من ذهب على صورته ليسجد له اليهود فامتنعوا، فقتل منهم جماعة فأذنوا بحربه وقاتلوه وهزموه. وبعث طبريانوس العساكر مع قائده إلى المدس، فقبض على انطيفس وحمله مقيدا. ثم عزله طبريانوس إلى الأندلس فمات بها وملك بعده على اليهود اغرباس ابن أخيه ارستبلوس المقتول. وهلك في أيامه طبريانوس قيصر وملك نيرون، وكان أشر من جميع من تقدمه. وأمر أنّ يسمى إلا هو، وبنى المذبح للقربان وقرب، وأطاعته الناس إلا اليهود، وبعثوا إليه في ذلك افيلو الحكيم في جماعة فشتمهم وحبسهم وسخط اليهود. ثم قبحت أحواله وساءت أفعاله وثارت عليه دولته، فقتلوه ورموا شلوه في الطريق فأكلته الكلاب. ثم ملك بعده قلديوش قيصر وأطلق أفيلو والذين معه إلى بيت المقلس، وهدم المذابح التي كان نيروش بناها.

وكان أغرباس حسن السيرة معظماً عند القياصرة، وهلك لثلاث وعشرين سنة من دولته. وملك بعده ابنه اغرباس بأمر اليهود، وملك عشرين سنة، وكثرت الحروب والفتن في أيامه في بلاد اليهود والأرمن، وظهرت

الخوارج والمتغلبون وانقطعت السبل، وكثر الهرج داخل المدينة في القدس، وكان الناس يقتل بعضهم بعضا في الطرقات، يحملون سكاكين صغارا محدين لها، فإذا ازدحم مع صاحبه في الطريق طعنه فأهواه، حتى صاروا يلبسون الدروع لذلك وخرج كثير من الناس عن المدينة فراراً من القتل. وهلك ولد طبريوس قيصر ونيرون من بعده، وملك على الروم فيلقوس قيصر، فسعى بعض الشرار عنده بأن هؤلاء الذين خرجوا من القدس يذمون على الروم. فبعث إليهم من قتلهم وأسرهم.

واشتد البلاء على اليهود، وطالت الفتن فيهم. وكان الكهنون الكبير فيهم لذلك العهد عناني - وكان له ابن اسمه ألعازار، وكان ممن خرج من القدس، وكان فاتكا مصعلكاً. وانضم إليه جماعة من الأشرار وأقاموا يغيرون على بلاد اليهود والارمن وينهبون ويقتلون، وشكتهم الارمن إلى فيلقوس قيصر، فبعث من قيده وحمله وأصحابه إلى رومة. فلم يرجع إلى القدس إلا بعد حين.

واشتد قائد الروم ببيت المقدس على اليهود، وكثر ظلمه فيهم فأخرجوه عنهم بعد

أنّ قتلوا جماعة من أصحابه، ولحق بمصر فلقي هنالك أغرباس ملك اليهود راجعا من رومية ومعه قائدان من الروم فشكى إليه فيلقوس بما وقع من اليهود، ومضى إلى بيت المقدس، فشكى إليه اليهود بما فعل فيلقوس، وأنهم عازمون على الخلاف. وتلطف لهم - في الإمساك عن ذلك حتى تبلغ شكيتهم إلى قيصر ويعتذر منه، فامتنع ألعازار بن عناني وأبى إلا المخالفة، وأخرج القربان الذي كان بعثه معه نيرون قيصر من البيت. ثم عمد إلى الروم الذين جاووا مع اغرباس فقتلهم حيث وجدوا، وقتل القائدين، ونكر ذلك أشياخ اليهود واجتمعوا لحرب العازار، وبعثوا إلى اغرباس. وكان خارج القدس. فبعث إليهم بثلاثة آلاف مقاتل، فكانت الحرب بينهم وبين العازار سجالا، ثم هزمهم وأخرجهم من المدينة، وعاث في البلد وخرب قصور الملك ونهبها وأموالها وذخائرها. وبقي اغرباس والكهنونة والعلماء والشيوخ خارج المقدس، وبلغهم أنّ الارمن

قتلوا من وجدوه من اليهود بدمشق ونواحيها وبقيسارية، لساروا إلى بلادهم وقتلوا من وجدوه بنواحي دمشق من الأرمن. ثم

سار أغرباس إلى قيرش قيصر وخبّره الخبر، فامتعض لذلك وبعث إلى كسنينا وقائده على الأرمن، وقد كان مضى إلى حرب الفرس فدوخها، وقهرهم وعاد إلى بلاد الارمن، فنزل دمشق، فجاءه عهد قيصر بالمسير مع اغرباس ملك اليهود إلى القدس، فجمع العساكر وسار وخرب كل ما مر عليه. ولقيه ألعازار الثائر بالقدس، فانهزم ورجع ونزل كسنيناو قائد الروم فأثخن فيهم. وارتحل كسنيناو إلى قيسارية، وخرج اليهود في أتباعهم فهزموهم، ولحق كسنيناو أغرباس بقيصر قيرش فوافقوا وصول قائده الأعظم أسبسيانوس عن بلاد المغرب. وقد فتح الأندلس ودوخ أقطارها، فعهد إليه قيرش قيصر بالمسير إلى بلاد اليهود،

وأمره أنّ يستأصلهم ويهدم حصونهم، فسار ومعه ابنه طيطوش واغرباس ملك اليهود. وانتهوا إلى أنطاكية، وتأهب اليهود لحربهم وانقسموا ثلاث فرق في ثلاث نواحي، مع كل فرقة كهنون، فكان عناني الكهنون الأعظم في دمشق ونواحيها، وكان ابنه ألعازر كهنون في بلاد أدوم وما يليها إلى أيلة. وكان يوسف بن

كريون كهنون طبرية وجبل الخليل وما يتصل به. وجعلوا فيما بقي من البلاد من الأغوار إلى حدود مصر من يحفظها من بقية الكهنونية. وعمر كل منهم أسوار حصونه، ورتب مقاتلته وسار اسبسيانوس بالعساكر من أنطاكية، فتوسط في بلاد الأرمن وأقام. وخرج يوسف بن كريون من طبرية فحاصر بعض الحصون بناحية الأغرباس ففتحه واستولى عليه. وبعث أهل طبرية من ورائه إلى الروم فاستأمنوا إليهم، لزحف يوسف مبادراً وقتل من وجد فيها من الروم، وقبل معذرة أهل طبرية، وبلغه مثل ذلك عن جبل الخليل، فسار إليهم وفعل فيهم فعله في طبرية فزحف إلية اسبسيانوس مر عكا في أربعين ألف مقاتل من الروم، ومعه اغرباس ملك اليهود. وسارت معهم ا أمم من الأرمن وغيرهم إلا أدوم فإنهم كانوا حلفاء لليهود منذ أيام هرقانوس.

ونزل اسبسيانوس بعساكره على يوسف بن كريون ومن معه بطبرية فدعاهم إلى الصلح، فسألوا الإمهال إلى مشاورة الجماعة بالقدس. ثم امتنعوا وقاتلهم أسبنانوس بظاهر الحصن فاستلحمهم حتى قل عددهم، وأغلقوا الحصن. فقطع عنهم الماء خمسين ليلة، ثم بيتهم الروم فاقتحموا عليهم الحصن فاستلحموهم، وأفلت يوسف بن كريون ومر معه من الغل فامتنعوا ببطن الأعراب، وأعطاهم اسبسيانوس الأمان، فمال إليه يوسف وأبى القوم إلا أن

يقتلوا أنفسهم وهموا بقتله. فوافقهم على رأيهم إلى أنّ قتل بعضهم بعضا، ولم يبق من يخشاه، فخرج إلى اسبسيانوس مطارحا عليه. وحرضه اليهود على قتله فأبى واعتقله، وخرب أعمال طبرية وقتل أهلها ورجع إلى قيسارية.

قال ابن كريون: وفي خلال ذلك حدثت الفتنة في القدس بين اليهود داخل المدينة. وذلك أنه كان في جبل الخليل بمدينة كوشالة يهودي اسمه يوحنان وكان مرتكبا للعظائم، واجتمع إليه أشرار منهم فقوي بهم على قطع السابلة والنهب والقتل. فلما استولى الروم على كوشالة لحق بالقدس، وتألف عليه أشرار اليهود من فل البلاد التي أخذها الروم. فتحكم على أهل المقدس وأخذ الأموال وزاحم عناني الكهنون الأعظم، ثم عزله واستبدل به رجلا من غواتهم، وحمل الشيوخ على طاعته، فامتنعوا فتغلب عليهم فقتلهم. فاجتمع اليهود إلى عناني الكهنون و-ط ربهم يوحنان وتحصنوا في المقدس، وراسله عناني في الصلح فأبى، وبعث إلى ادوم يستجيشهم، فبعثوا إليه بعشرين ألفا منهم، فأغلق عناني أبواب المدينة دونهم وحاط بهم من الأسوار، ثم اسسغفلوه وكبسوا المدينة واجتمع معهم يوحنان فقتلوا من وجوه اليهود نحوا من خمسة آلاف، وصادروا أهل النعم على أموالهم، وبعثوا يوحنان إلى المدن الذين استأمنوا إلى الروم، فغنم أموالهم وقتل من وجد منهم. وبعث أهل القدس في استدعاء اسبسيانوس وعساكره فزحف من قيسارية حتى إذا

توسط الطريق خرج يوحنان من القدس وامتنع ببعض الشعاب، فمال إليه اسبسيانوس بالعسكر وظفر بالكثير منهم فضلوهم. ثم سار إلى بلاد ادوم ففتحها وسبسطية بلاد السامرة ففتحها أيضاً وعمر جميع ما فتح من البلاد، ورجع إلى قيسارية ليزيح علله ويسير إلى القدس. ورجع يوحنان أثناء ذلك من الشعاب فغلب على المدينة وعاث فيهم بالقتل، وتحكم في أموالهم وأفسد حريمهم.

قال ابن كريون: وقد كان ثار بالمدينة في مغيب يوحنان ثائر آخر اسمه شمعون، واجتمع إليه اللصوص والشرار حتى كثر جمعه وبلغوا نحوا من عشرين ألفا، وبعث إليه أهل ادوم عسكراً فهزمهم واستولى على الضياع ونهب الغلال، وبعث إلى امرأته من المدينة فردها يوحنان من طريقها وقطع من وجد معها. ثم أسعفوه بامرأته وسار إلى ادوم فحاربهم وهزمهم، وعاد إلى القدس فحاصرها وعظم الضرر على أهلها من شمعون خارج المدينة ويوحنان داخلها ولجأوا إلى الهيكل، وحاربوا يوحنّان فغلبهم

وقتل منهم خلقا فاستدعوا شمعون لينصرهم من يوحنان، فدخل ونقض العهد وفعل أشر من يوحنان. قال ابن كريون: ثم ورد الخبر إلى اسبسيانوس وهو بمكانه من قيسارية بموت قيروش قيصر، وأن الروم ملكوا عليهم مضعفا اسمه نطاوس، فغضب البطارقة الذي مع اسبسيانوس وملكوه، وسار إلى رومة وخلف نصف العسكر مع ابنه طيطش، وقدم بين يديه قائدين إلى رومة لمحاربة نطاوس الذي ملكه الروم فهزم وقتل. وسار أسبسيانوس إلى اسكندرية وركب البحر منها.

ورجع طيطش إلى قيسارية إلى أنّ ينسلخ فصل الشتاء ويزيح العلل، وعظمت الفتن والحروب بين اليهود داخل القدس، وكثر القتل حتى سالت الدماء في الطرقات، ولتل الكهنونية على المذبح، وهم لا يقربون الصلاة في المسجد لكثرة الدماء، وتعذر المشي في الطرقات من سقوط حجارة الرمي ومواقد النيران بالليل. وكان يوحنان أخبث القوم وأشرهم. ولما انسلخ الشتاء زحف طيطش في عساكر الروم إلى أنّ نزل على القدس، وركب إلى باب البلد يتخير المكان لمعسكره ويدعوهم إلى السلم، فصموا عنه وأكمنوا له لعض الخوارج في الطريق فقاتلوه وخلص منهم بشدته، فعبى عسكره من الغد ونزل بجبل الزيتون شرقي المدينة، ورتب العساكر والآلات للحصار.

واتفق اليهود داخل المدينة ورفعوا الحرب بينهم، وبرزوا إلى الروم فانهزموا ثم

عاودوا فظهروا ثم انتقضوا بينهم وتحاربوا داخل يوحنان إلى القدس يوم افطر فقتل جماعة من الكهنونة وقتل جماعة أخرى خارج المسجد. وزحف طيطش وبرزوا إليه فردوه إلى قرب معسكره، وبعث إليهم قائده نيقانور في الصلح فأصابه سهم فقتله، فغضب طيطش وصنع كبشا وأبراجا من الحديد توازى السور، وشحنها بالمقاتلة، فأحرق اليهود تلك الآلات ودفنوها وعادوا إلى الحرب بينهم. وكان يوحنان قد ملك القدس ومعه ستة آلاف أو يزيدون من المقاتلة، ومع شمعون عشرة آلاف من اليهود وخمسة آلاف من ادوم وبقية اليهود بالمدينة مع العازر، وأعاد طيطش الزحف بالآلات، وثلم السور الأول وملكه إلى الثاني فاصطلم اليهود بينهم وتذامروا، واشتد الحرب وباشرها طيطش بنفسه. ثم زحف بالآلات إلى

السور الثاني فثلمه، وتذامر اليهود فمنعوهم عنه، ومكثوا كذلك أربعة أيام.

وجاء المدد من الجهات إلى طيطش، ولاذ اليهود بالأسوار وأغلقوا الأبواب، ورفع طيطش الحرب ودعاهم إلى المسالمة فامتنعوا، فجاء بنفسه في اليوم الخامس وخاطبهم ودعاهم، وجاء معه يوسف بن كريون فوعظهم ورغبهم في أمنة الروم ووعدهم، وأطلق طيطش أسراهم، فجنح الكثير من اليهود إلى المسالمة، ومنعهم هؤلاء

الرؤساء الخوارج وقتلوا من يروم الخروج إلى الروم، ولم يبق من المدينة ما يعصمهم إلا السور الثالث. وطال الحصار واشتد الجوع عليهم والقتل، ومن وجد خارج المدينة لرعي العشب قتله الروم وصلبوه، حتى رحمهم طيطش ورفع القتل عمن يخرج في ابتغاء العشب.

ثم زحف طيطش إلى السور الثالث من أربعة جهاته، ونصب الآلات، وصبر اليهود على الحرب وتذامر اليهود، وصعب الحرب وبلغ الجوع في الشدة غايته، واستأمن متاي الكوهن إىل الروم، وهو الذي خرج في استدعاء شمعون، فقتله شمعون وقتل بنيه وقتل جماعة من الكهنونية والعلماء والائمة ممن حذر منه أنّ يستأمن، ونكر ذلك العازر بن عناني؛ ولم يقدر على أكثر من الخروج صت بيت المقدس، وعظمت المجاعة فمات أكثر اليهود وأكلوا الجلود والحشاش والميتة ثم أكل بعضهم بعضاً. وعثر على امرأة تأكل ابنها، فأصابت رؤساءهم لذلك رحمة وأذنوا في الناس بالخروج، فخرجت منهم امم وهلك أكثرهم حين أكلوا الطعام.

وابتلع بعضهم في خروجه ما كان له من ذهب أو جوهر ضنة به، وشعر بهم الروم

فكانوا يقتلونهم ويشقون عنهم بطونهم وشاع ذلك في توابع العسكر من العرب والأرمن، فطردهم طيطش وطمع الروم في فتح المدينة، وزحفوا إلى سورها الثالث بالآلات ولم يكن لليهود طاقة بدفعها وإحراقها فثلموا السور. وبنى اليهود خلف الثلمة فأصبحت منسدة، وصدمها الروم بالكبش فسقطت من الحدة، واستماتوا في تلك الحال إلى الليل. ثم بجما الروم المدينة، وملكوا الأسوار عليهم وقاتلوهم من الغد فانهزموا إلى المسجد، وقاتلوا في الحصن، وهدم طيطش البناء ما بين الأسوار إلوار مسى المسجد ليتسع المجال. ووقف ابن كريون يدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا،

وخرج جماعة من الكنونية فأمنهم ومنع

الرؤساء بقيتهم، ثم طيطش بالقتال من الغد فانهزموا الأقداس، وملك الروم المسجد وصحنه، واتصلت الحرب أياما، وهدمت الأسوار كلها وثلم سور الهيكل، وأحاط العساكر بالمدينة حتى مات أكثرهم، وفر كثير. ثم اقتحم عليهم الحصن فملكه ونصب الأصنام في الهيكل، ومنع من تخريبه. ونكر رؤساء الروم ذلك ودسوا من أضرم النار في أبوابه وسقفه. وألقى الكهنونة أنفسهم جزعا على دينهم، وحزنوا واختفى شمعون ويوحنان في جبل صهيون وبعث إليهم طيطش بالأمان فامتنعوا، وطرقوا القدس في بعض الليالي فقتلوا قائدا من قواد العسكر، ورجعوا إلى مكان اختفائهم.

ثم هرب عنهم أتباعهم وجاء يوحنان ملقيا بيده إلى طيطش فقيده وخرج إليه يوشع الكوهن بآلات من الذهب الخالص مى آلات المسجد فيها منارتان ومائدتان. ثم قبض على فنحاس خازن الهيكل فأطلعه على خزائن كثيرة مملوءة دنانير ودرهم وطيباً فامتلأت يده منها، ورحل عن بيت المقدس بالغنائم والأموال والأسرى. وأحصى الموتى في هذه الوقعة.

قال ابن كريون فكان عدد الموتى الذين خرجوا على الباب للدفن بأخبار مناحيم الموكل به مائة ألف وخمسة وعشرين ألفا وثمانمائة، وقال غير مناحيم كانت عدتهم ستمائة ألف دون من ألقي في الآبار أو طرح إلى خارج

الحصن، وقتل في الطرقات و لم يدفن. وقال غيره كان الذي أحصي من الموتى والقتلى ألف ألف، ومائة ألف، والسبي والأسارى مائة ألف. كان طيطش في كل مترلة يلقي منهم إلى السباع، إلى أنّ فرغوا. وكان فيمن هلك شمعون أحد الخوارج الثلاثة. وأما الفرار بن عفان فقد كان خرج من القدس عندما قتل شمعون أمتاي الكوهن كما ذكرنا. فلما رحل طيطش عن القدس نزل في بعض القرى وحصنها، واجتمع إليه فل اليهود واتصل الخبر بطيطش وهو في أنطاكية فبعث إليه عسكرا من الروم مع قائده سلياس فحاصرهم أياماً. ثم نهض الكهنونية وأولادهم وخرجوا إلى الروم مستميتين، فقاتلوا إلى أنّ قتلوا عن آخرهم. وأما يوسف بن كريون فافتقد أهله وولده في هذه الوقائع و لم يقف لهم بعدها على خبر، وأراده طيطش على السكنى عنده برومة فتضرع إليه في البقاء بأرض القدس، فأجابه إلى ذلك وتركه، وانقرضت دولة اليهود أجمع. والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى لا انقضاء لملكه.

خريطة

خريطة

عيسى ابن مريم

الخبر عن شأن عيسي ابن مريم صلوات الله عليه في ولادته وبعثه ورفعه من الأرض والإلمام بشأن الحواريين بعده وكتبهم الأناجيل الأربعة وديانة النصارى بملته واجتماع الأقسة علي تدوين شريعته

كان بنو ماثان من ولد داود صلوات الله عليه كهنونية بيت المقدس. وهو ماثان بن

ألعازر بن أليهود بن أخس بن رادوق بن عازور بن ألياقيم بن ايود بن زروقابل بن شالات بن يوحنانيا بن يوشيا، السادس عشر من ملوك بني إسرائيل بن امون بن عمون بن منشا بن حزقيا بن أحآز بن يوآش بن احزيا بن يورام بن يفوشافاط بن اسا بن رحبعم بن سليمان بن داود صلوات الله عليهما. ويوحنانيا بن يوشيا، السادس عشر من ملوك بني سليمان، ولد في جلاب بابل. وهذا النسب نقلته من انجيل متى.

وكانت الكهنونية العظمى من بعد بني حشمناي لهم، وكان كبيرهم قبل عصر هيردوس عمران أبو مريم ونسبه ابن إسحاق إلى أمون بن منشا، الخامس عشر من ملوك بيت المقدس من لدن سليمان أبيهم. وقال فيه عمران بن ياشم بن أمون، وهذا بعيد لأن الزمان بين عفون وعمران أبعد من أنّ يكون بينهما أب واحد، فإن أمون كان قبيل الخراب الأول، وعمران كان في دولة هيردوس قبيل الخراب الثاني وبينهما قريب من أربعمائة سنة.

ونقل ابن عساكر، والظن أنه ينقل عن مسند، أنه من ولد زريافيل الذي ولي على

بني إسرائيل عند رجوعهم إلى بيت المقدس، وهو ابن يخنيا آخر ملوكهم الذي حبسه بختنضر وولى عمه صدقيا هو بعده كما مر. وقال فيه عمران بن ماثان بن فلان بن فلان إلى زريافيل. وعد نحواً من ثمانية آباء بأسماء عبرانية لا وثوق بضبطها، وهو أقرب من الأول، وفيه ذكر ماثان الذي هو شهرتهم و لم يذكره ابن إسحاق. وكان عمران أبو مريم كهنونا في عصره. وكانت تحته حنة بنت فاقود بن فيل، وكانت من العابدات، وكانت

أختها إيشاع، ويقال خالتها تحت زكريا بن يوحنا. ونسبه ابن عساكر إلى يهوشافاط، خامس ملوك المقدس من عهد سليمان أبيهم وعد ما بينه وبين يهوشافاط اثني عشر أبا أولهم يوحنا بأسماء عبرانية كما فعل في نسب عمران. ثم قال وهو أبو يحيى صلوات الله عليهما. ويقال بالمد والقصر من غير ألف، وكان نبيا من بني إسرائيل صلوات الله عليه اه.

ونملت من كتاب يعقوب بن يوسف النجار مثان يعني ماثان من سبط داود، وكان له ولدان يعقوب ويواقيم، ومات فتزوج أمهما بعده مطنان، ومطنان بن لاوي من سبط سليمان بن داود وسمي ماثان، فولدت هالي من مطنان. ثم تزوج ومات ولم يعقب فتزوج امرأته أخوه أمه يعقوب بن ماثان، فولدت منه يوسف خطيب مريم، ونسب إلى هالي. لان من أحكام التوراة أنّ مات من كير عقب فامرأته لأخيه وأول ولد منهما ينسب إلى الأول. فلهذا قيل فيه يوسف بن هالي بن مطنان. وإنما هو يوسف بر يعقوب بن ماثان، وهو ابن عم مريم لحا. وكان ليوسف من البنين البنين خمسة بنين وبنت وهم: يعقوب ويوشا وبيلوت وشمعون ويهوذا وأختهم مريم، كانوا يسكنون بيت لحم. فارتحل بأهله ونزل ناصرة وسكن بها، وتعلم النجارة حتى صار يلقب بالنجار.

وتزوج يؤاقيم حنة أخت إيشاع العاقر امرأة زكريا بن يوحنا المعمدان، وأقامت ثلاثين سنة لا يولد لها، فدعوا الله وولد لها مريم. فهي بنت يؤاقيم موثان وهو مثان. وولدت إيشاع العاقر من زكريا ابنه يحيى. قلت: في التتريل مريم ابنة عمران. فليعلم أنّ معنى عمران بالعبرانية يؤاقيم، وكان له اسمان ا ه . وعن الطبري: وكانت حنة أم مريم لا تحبل، فذرت لله أنّ حملت لتجعلن ولدها حبسياً ببيت المقدس على خدمته على عاداقم في نذر مثله، فلما حملت ووضعتها لفتها في خرقتها، وجاءت بها إلى المسجد فدفعتها إلى عباده وهي ابنة إمامهم وكهنوهم، فتنازعوا في كفالتها وأراد زكريا أنّ يد بها لأن زوجة إيشاع خالتها. ونازعوه في ذلك لمكان أبيها من إمامهم، فاقترعوا فخرجت قرعة زكريا عليها فكفلها ووضعها في

مكان شريف من المسجد لا يدخله سواها، وهو المحراب فيما قيل. والظاهر أنها دفعتها إليهم بعد مدة إرضاعها.

فأقامت في المسجد تعبد الله وتقوم بسدانة البيت في نوبتها، حتى كان يضرب بها المثل في عبادمّا. وظهرت عليها الأحوال الشريفة والكرامات كما قصه القرآن. وكانت خالتها إيشاع زوج زكريا أيضاً عاقرا، وطلب زكريا من الله ولدا فبشره بيحيى نبئا كما طلب، لأنه قال يرثني ويرث ن أل يعقوب، وهم أنبياء فكان كذلك. وكان حاله في نشوئه وصباه عجبا، وولد في دولة هيردوس ملك بني إسرائيل، وكان يسكن القفار ويقتات الجراد، ويلبس الصوف من وبر الإبل، وولاه اليهود الكهنونية ببيت المقدس. ثم أكرمه لله بالنبوة كما قصه القرآن.

وكان لعهده على اليهود بالقدس انطيقس بن هيردوس وكان يسمى هيردوس باسم أبيه، وكان شريراً فاسقاً، واغتصب امرأة أخيه وتزوجها ولها ولدان منه، ولم يكن ذلك في شرعهم مباحاً، فنكر ذلك عليه العلماء والكهنونية وفيهم يحمى بن زكريا المعروف بيوحنا، ويعرفه النصارى بالمعمدان، فقتل جميع من نكر عليه ذلئا،

وقتل فيهم يحيى صلوات الله عليه. وقد ذكر في قتله أسباب كثيرة وهذا أقربها إلى الصحة. وقد اختلف الناس هل كان أبوه حنا عند قتله فقيل: إنه لما قتل يحمى طلبه بنو إسرائيل ليقتلوه، ففر أمامهم ودخل في بطن شجرة كرامة له، فدلهم علبه طرف ردائه خارجا منها، فشقوها بالمنشار وشق زكريا فيها نصفين، وقيل بل مات زكريا قبل هذا والمشقوق في الشجرة إنما هو شعيا النبي وقد مر ذكره. وكذلك اختلف في دفنه، فقيل دفن ببيت المقدس وهو الصحيح.

وقال أبو عبيد بسنده إلى سعيد بن المسيب أنّ بختنصر لما قدم دمشق وجد دم

يحمى بن زكريا يغلي، فقتل على دمه سبعين ألفا فسكن دمه. ويشكل أنّ يحى كان مع المسيح في عصر واحد باتفاق، وان ذلك كان بعد بختنصر بأحقاب متطاولة وفي هذا ما فيه. وفي الإسرائيليات من تأليف يعقوب بن يوسف النجار: أنّ هيردوس قتل زكريا عندما جاء المجوس للبحث عن إيشوع والانذار به، وأنه طلب ابنه يوحنا ليقتله مع من قتل من صبيان بيت لحم، فهربت به أمه إلى الشقراء واختفت. فطالب به أباه زكريا وهو كهنون في الهيكل، فقال لا

علم لي، هو مع أمّه، فتهدّده وقتله. ثم قال: بعد قتل زكريا بسنة تولى كهنونية الهيكل يعقوب بن يوسف إلى أنّ مات هيردوس.

وأما مريم سلام الله عليها فكانت بالمسجد على حالها من العبادة إلى أنّ أكرمها الله بالولاية، وبين الناس في نبوتها خلاف من أجل خطاب الملائكة لها. وعند أهل السنة أنّ النبوة مختصة بالرجل، قاله أبو الحسن الأشعري وغيره، وأدلة الفريقين في أماكنها. وبشرت الملائكة مريم باصطفاء الله لها، وأنها تلد ولداً من غير أب يكون نبيا، فعجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أنّ الله قادر على ما يشاء، فاستكانت وعلمت أنها محنة بما تلقاه من كلام الناس فاحتسبت.

وفي كتاب يعقوب بن يوسف النجار: أنّ أمها حنة توفيت لثمان سنين من عمر

مريم، وكان من سنتهم أنها أنّ لم تقبل التزويج يفرض لها من أرزاق الهيكل،. فأوحى الله إليه أنّ يجمع أولاد هارون ويردها إليهم؟ فمن ظهرت في عصاه آية تدفعها إليه تكون له شبه زوجة ولا يقربها. وحضر الجمع يوسف النجار؟ فخرج من عصاه حمامة بيضاء ووقفت على رأسه، لقال له زكريا؟ هذه عذراء الرب تكون لك شبه زوجة ولا تردها، فاحتملها متكرها بنت اثنتي عشرة سنة إلى ناصرة، فأقامت معه إلى أنّ خرجت يوما تستسقي من العين، فعرض لها الملاك أولا وكلمها. ثم عاودها وبشرها بولادة عيسى كما نص القرآن، فحملت وذهبت إلى زكريا ببيت المقدس، فوجدته على الموت وهو يجود بنفسه، فرجعت إلى ناصرة. ورأى يوسف الحمل فلطم وجهه وخشي الفضيحه مع الكهنونية فيما شرطوا عليه، فأخبرته بقول الملاك فلم يصدق. وعرض له الملاك في نومه وأخبره أنّ الذي بها من روح القدس، فاستيقظ وجاء إلى مريم فسجد لها وردها إلى بيتها. ويقال: أنّ زكريا حضر لذلك، وأقام فيهما سنة اللعان الذي أوصى به موسى، فلم يصبهما شيء وبرأهما الله. ووقع في انجيل متى أنّ يوسف خطب مريم ووجدها حاملا قبل أنّ يجتمعا، فعزم على فراقها خوفا

من الفضيحة، فأمر في نومه أنّ يقبلها. وأخبره الملاك بأن المولود منها من روح القدس. وكان يوسف صديقا وولد على فراشه إيشوع انتهى.

وقال الطبري: كانت مريم ويوسف بن يعقوب ابن عمها، وفي رواية عنه أنه ابن خالها، وكانوا سدنة في بيت المقدس لا يخرجان منه إلا لحاجه الإنسان، وإذا نفد

مأوهما فيملآن من أقرب المياه. فمضت مريم يوما وتخلف عنها يوسف، ودخلت المغارة التي كانت تعهد أنها للورد، فتمثل لها جبريل بشرا. فذهبت لتجزع فقال لها: {إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا}[الأية] فاستسقاها. وعن وهب بن منبه أنه نفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت على عيسى، فكان معها ذو قرابة يسمى يوسف النجار، وكان في مسجد بجبل صهيون، وكان لخدمته عندهم فضل، وكانا يجمرانه ويقمانه وكانا صالحين مجتهدين في العبادة. ولما رأى ما بها من الحمل استعظمه وعجب منه، لما يعلم من صلاحها وأنها لم تغب قط عنه. ثم سألها فردت الأمر إلى قدرة الله، فسكت وقام بما ينوبها من الخدمة. فلما بان حملها أفضت بذلك إلى خالتها إيشاع، وكانت أيضاً حبلى بيحيى فقالت لها: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك.

ثم أمرت بالخروج من بلدها خشية أنّ يعيرها قومها ويقتلوا ما في بطنها. فاحتملها يوسف إلى مصر، وأخذها المخاض في طريقها فوضعته كما قصه القرآن، واحتملته على الحمار، وأقامت تكتم أمرها من الناس وتتحفظ به، حتى بلغ اثنتي عشرة سنة. وظهرت عليه الكرامات وشاع خبره، فأمرت أنّ ترجع له إلى إيلياء فرجعت، وتتابعت عنه المعجزات، وانثال الناس عليه يستشفون ويسألون عن الغيوب.

قال الطبري: وفي خبر السدي أنها إنما خرجت من المسجد لحيض أصابها، فكان نفخ الملاك، وأن إيشاع خالتها التي سألتها عن الحمل وناظرتها فيه فحجتها بالقدرة، وأن الوضع كان في شرقي بيت لحم قريبا من بيت المقدس وهو الذي بنى عليه بعض ملوك الروم البناء الهائل لهذا العهد. قال ابن العميد مؤرخ النصارى. ولد لثلاثة أشهر من ولادة يحمى لن زكريا، ولإحدى وثلاثين من دولة هيردوس الأكبر ولاثنتين وأربعين من ملك اوغسطس قيصر. وفي الإنجيل أنّ يوسف تزوجها ومضى بها ليكتم أمرها في بيت لحم، فوضعته هنالك ووضعته في مذود لأنها لم يكن لها موضع نزل. وأن جماعة من المجوس بعثهم ملك الفرس يسألون أين ولد الملك العظيم.؟ وجاووا إلى هيردوس يسألونه، وقالوا جئنا لنسجد له. وحدثوه بما أخبر الكهان وعلماء النجوم من شان ظهوره، وأنه يولد ببيت لحم.

وسمع اوغسطس قيصر بخبر المجوس، فكتب إلى هيردوس يسأله،

فكتب له بمصدوقية خبره، وأنه قتل فيمن قتل من الصبيان من ابن سنتين فما دونها وكان يوسف النجار قد أمر أنّ يخرج به إلى مصر، فأقام هنالك اثنتي عشرة سنة، وظهر عليه الكرامات. وهلك هيردوس الذي كان يطلبه، وامر بالرجوع إلى إيليا فرجعوا، وظهر صدق شعيا النبي في قوله عنه: من مصر دعوتك.

وفي كتاب يعقوب بن يوسف النجار حذرا من أنّ يكتب كما أمر اوغسطس في بعض أيامه فأجاءها المخاض وهي في طريقها على حمار، فصابرته إلى قرية بيت لحم، وولدت في غار وسماه إيشوع. وأنه لما بلغ سنتين، وكان من أمر المجوس ما قدمناه، حذر هيردوس من شانه، وأمر أنّ يقتل الصبيان ببيت لحم. فخرج يوسف به وبأمه إلى مصر أمر بذلك في نومه، وأقام بمصر سنتين حتى مات هيردوس، ثم أمر بالرجوع فرجع إلى ناصرة، وظهرت عليه الخوارق من إحياء الموتى وإبراء المعتوهين وخلق الطير، وغير ذلك من خوارقه. حتى إذا بلغ ثماني سنين كف عن ذلك. ثم جاء يوحنان المعمدان من البريه، وهو يحيى بن زكريا ونادى بالتوبة والدعاء إلى الدين، وقد كان شعيا أخبر أنه يخرج أيام المسيح.

وجاء المسيح من الناصرة ولقيه بالأردن فعمده يوحنان وهو ابن ثلاثين سنة. ثم خرج إلى البرية واجتهد في العبادة والصلاة والرهبانية. واختار تلامذته الاثني عشر: سمعان بطرس وأخوه اندراوس ويعقوب بن زبدي وأخوه يوحنا وفيلبس وبرتولوماوس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفا وتداوس وسمعان القناني ويهوذا الإسخريوطي. وشرع في إظهار المعجزات، ثم قبض هيردوس الصغير على يوحنان وهو يحيى بن زكريا لنكيره عليه في زوجة أخيه، فقتله ودفن بنابلس.

ثم شرع المسيح الشرائع من الصلاة والصوم وسائر القربات وحلل وحرم، وانزل

عليه الإنجيل وظهرت على يديه الخوارق والعجائب. وشاع ذكره في النواحي، واتبعه الكثير من بمي إسرائيل، وخافه روساء اليهود على دينهم وتآمروا في قتله، وجمع عيسى الحواريين فباتوا عنده ليتين، نطعمهم ويبالغ في خدمتهم بما استعظموه. قال: وإنما فعلته لتتأسوا به. وقال يعظهم: ليكفرن بي بعضكم قبل أنّ يصيح الديك ثلاثا، ويبيعني أحدكم بثمن بخس وتأكلوا ثمني. ثم افترقوا. وكان اليهود قد بعثوا العيون

عليهم فأخذوا شمعون من الحواريين فتبرأ منهم وتركوه، وجاء يهوذا الإسخريوطي وبايعهم على الدلالة عليه بثلاثين درهماً. وأراهم مكانه الذي كان يبيت فيه، وأصبحوا به إلى فلاطش النبطي قائد قيصر على اليهود، وحضر جماعة الكهنونية وقالوا: هذا يفسد ديننا ويحل نواميسنا ويدعي الملك، فاقتله! وتوقف فصاحوا له وتوعدوه بإبلاغ الأمر إلى قيصر، فأمر لقتله. وكان عيسى قد أبلغ الحواريين بأنه يشبه على اليهود في شأنه، فقتل ذلك الشبه وصُلب وأقام سبعا، وجاءت أمه تبكي عند الخشبة. فجاءها عيسى وقال: ما لك تبكي؟ قالت عليك! قال أنّ الله رفعني ولم يصبني إلا خير، وهذا شيء شبه لهم، وقولي للحواريين يلقوني بمكان كذا. فانطلقوا إليه، وأمرهم بتبليغ رسالته في النواحي، كما عين لهم من قبل. وعند علماء النصارى أنّ الذي بعث من الحواريين إلى رومة بطرس ومعه بولس من الأتباع ولم يكن حواريا، وإلى أرض السودان والحبشة - ويعبرون عن هذه الناحية بالأرض التي تأكل أهلها والناس- متى العشار واندراوس، إلى أرض بابل والمشرق توماس، وإلى أرض افريقية فيلبس، وإلى افسوس قرية أصحاب الكهف يوحنا، وإلى اورشليم وهي بيت المقدس يوحنا، وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القناني.

قال ابن إسحاق: ثم وثب اليهود على بقية الحواريين يعذبونهم ويفتنونهم. وسمع القيصر بذلك وكتب إليه فلاطش النبطي قائده بأخباره ومعجزاته، وبغي اليهود عليه وعلى يوحنان قبله، فأمرهم بالكف عن ذلك. ويقال قتل بعضهم. وانطلق الحواريون إلى الجهات التي بعثهم إليها عيسى، فآمن به بعض وكذب بعض. ودخل يعقوب أخو يوحنان إلى رومة، فقتله غاليوس قيصر وحبس شمعون، ثم خلص وسار إلى أنطاكية، ثم رجع إلى رومة أيام قلوديش قيصر بعد غاليوس واتبعه كثير من الناس، وآمن به بعض نساء القياصرة، وأخبرها بخبر الصليب، فدخلت إلى القدس وأخرجته من تحت الزبل والقمامات بمكان الصلب، وغشته بالحرير والذهب وجاءت به إلى رومة.

وأما بطرس كبير الحواريين وبولص اللذان بعثهما عيسى صلوات الله عليه إلى رومة، فإنهما مكثا هنالك يقيمان دين النصرانية، ثم كتب بطرس الإنجيل بالرومية ونسبه إلى مرقص تلميذه، وكتب متّى إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس، ونقله من بعد ذلك

يوحنان بن زبدي إلى رومة. وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعثه إلى بعض أكابر الروم، وكتب يوحنا بن زبدي إنجيله برومة، ثم اجتمع الرسل الحواريون برومة ووضعوا القوانين الشرعية لدينهم، وصيروها بيد إقليمنطس تلميذ بطرس، وكتبوا فيها عد الكتب التي يجب قبولها. فمن القديمة التوراة خمسة أسفار، وكتاب يوشع بن نون، وكتاب القضاة، وكتاب راعوث، وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة كتب، وسفر بنيامين وسفر المقباسين ثلاثة كتب، وكتاب عزرا الإمام، وكتاب أشير، وكتاب قصة هامان، وكتاب أيوب الصديق، ومزامير داود النبي، وكتب ولده سليمان خمسة، ونبوات الأنبياء الصغار والكبار ستة عشر كتاباً، وكتاب يشوع بن شارخ. ومن الحديثة كتب الإنجيل الأربعة وكتب القتاليقون سبع رسائل، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة، والإيركسيس وهو قصص الرسل ويسمى افليمد ثمانية كتب، تشتمل على كلام الرسل وما أمروا به ونهوا عنه. وكتاب النصارى الكبار إلى أساقفهم الذين يسمون البطارقة ببلاد معينة، يعلمون بها دين النصرانية فكان برومة بطرس الرسول الذي بعثه عيسى صلوات الله عليه، وكان ببيت المقدس يعقوب النجار، وكان بالإسكندرية مرقص تلميذ بطرس وكان ببيزنطية وهي قسطنطينية اندرواس الشيخ، وكان بانطاكية. وكان صاحب هذا الدين عندهم والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك. وهو رئيس

الملة وخليفة المسيح فيهم، ويبعث نوابه وخلفاءه إلى من بعد عنهم من امم النصرانية ويسمونه الاسقف أي نائب البطرك، ويسمون القرا بالقسيس، وصاحب الصلاة بالجاثليق، وقومة المسجد بالشمامسة، والمنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، والقاضي بالمطران ولم يكن بمصر لذلك العهد اسقف إلى أنّ جاء دهدس الحادي عشر من أساقفة إسكندرية وكان بطرك أساقفة بمصر، وكان الأساقفة يسمون البطرك أبا، والقسوس يسمون الأساقفة أبا، فوقع الاشتراك في اسم الاب، فاخترع اسم

البابا لبطرك الإسكندرية ليتميز عن الأسقف في اصطلاح القسوس، ومعناه أبو الاباء، ق شتهر هذا الاسم، ثم انتقل إلى بطرك رومة لأنه صاحب كرسي بطرس كبير الحواريين ورسول المسيح، وأقام على ذلك لهذا العهد يسمى البابا.

ثم جاء بعد قلوديش قيصر نيرون قيصر، فقتل بطرس كبير الحواريين، وبولص اللذين بعثهما عيسى صلوات الله عليه إلى رومة، وجعل مكان بطرس أرنوس برومة، وقتل مرقص الإنجيلي تلميذ بطرس، وكان بالإسكندرية يدعو إلى الدين سبع سنين، وببعثه في نواحي مصر وبرقة والمغرب. وقتله نيرون وولى بعده حنينيا وهو أول البطاركة عليها بعد الحواريين، وثار اليهود في دولته على أسقف بيت المقدس، وهو يعقوب النجار، وهدموا البيعة ودفنوا الصليب، إلى أنّ أظهرته هيلانة أم قسطنطين كما نذكره بعد. وجعل نيرون مكان يعقوب النجار ابق عمه شمعون بن كيافا. ثم اختلفت حمال القياصرة من بعد ذلك في الأخذ بهذا الدين وتركه كما يأتي في أخبارهم، إلى أنّ جاء قسطنطين بن قسطنطين باني المدينة المشهورة، وكانت في مكانها قبله مدينة صغيرة تسمى بيزنطية.

وكانت أم هيلانة صالحة فأخذت بدين المسيح لاثنتين وعرين سنة من ملك قسطنطين ابنها. وجاءت إلى مكان الصليب فوقفت عليه وترحمث، وسألت عن الخشبة التي صلب عليها بزعمهم، فأخبرت بما فعل اليهود فيها وأنهم دفنوها وجعلوا مكانها مطرحا للقمامة والنجاسة والجيف والقاذورات. فاستعظمت ذلك
واستخرجت تلك الخشبة التي صلب عليها بزعمهم. وقيل من علامتها أنّ يمسها ذو العاهة فيعافى لوقته، فطهرتها وطيبتها وغشتها بالذهب والحرير، ورفعتها عندها للتبرك بها، وأمرت ببناء كنمسة هائلة بمكان الخشبة تزعم أنها قبره، وهي التي تسمى لهذا العهد قمامة. وخربت مسجد بني إسرائيل، وأمرت بأن تلقى القاذورات والكناسات على الصخرة التي كانت عليها القبة التي هي قبلة اليهود، إلى أنّ أزال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، عند فتح بيت المقدس كما نذكره هنالك.

وكان من ميلاد المسيح إلى وجود الصليب ثلثمائة وثمان وعشرون سنة. وأقام
هؤلاء النصرانية بطاركتهم وأساقفتهم على إقامة دين المسيح على ما وضعه الحواريون من القوانين والعقائد والأحكام. ثم حدث بينهم اختلاف في العقائد وسائر ما ذهبوا إليه
من الإيمان بالله وصفاته، وحاش لله وللمسيح وللحواريين أنّ يذهبوا إليه، وهو معتقدهم التثليث. وإنما حملهم عليه ظواهر من كلام المسيح في الإنجيل لم يهتدوا إلى تأويلها، ولا وقفوا على فهم معانيها، مثل قول المسيح حين صلب بزعمهم أذهب إلى أبي وأبيكم. وقال افعلوا كذا وكذا من البر لتكونوا أبناء أبيكم في السماء وتكونوا تامين. كما أنّ أباكم الذي في السماء تام. وقال له في الإنجيل: إنك أنت الابن الوحيد. وقال شمعون الصفا أنك ابن الله حقا، فلما أثبتوا هذه ا أبوة من ظاهر هذا اللفظ، زعموا أن عيسى ابن مريم من أب قديم. وكان اتصاله بمريم تجسد كلمة منه مازجت جسد المسيح، وتدرعت به، فكان مجموع الكلمة والجسد ابنا

وهو ناسوق كلي قديم أزلي. وولدت مريم إلها ازليا، والقتل والصلب وقع على الجسد، والكلمة ويعبرون عنهما بالناسوت واللاهوت.
وأقاموا على هذه العقيدة، ووقع بينهم فيها اختلاف، وظهرت مبتدعة من النصرانية اختلفت أقوالهم الكفرية، كان من أشدهم ابن دنصان ودافعهم هؤلاء الأساقفة والبطاركة عن معتقدهم الذين كانوا يزعمونه حقا، وظهر يونس الشميصاتي بطرك أنطاكية بعد حين أيام افلوديس قيصر، فقال بالواحدانية ونفى الكلمة والروح، وتبعه جماعة على ذلك. ثم مات فرد الأساقفة مقالته وهجروها، ولم يزالوا علم ذلك إلى أيام قسطنطين بن قسطنطين، فتنصر ودخل في دينهم، وكان باسكندرية اسكندروس البطرك وكان لعهده اريوس من الأساقفة، وكان يذهب إلى حدوث الابن، وأنه إنما خلق الخلق بتفويض الأب إليه في ذلك، فمنعه إسكندروس الدخول إلى الكنيسة، وأعلم أنّ إيمانه فاسد، وكتب بذلك إلى سائر الأساقفة والبطاركة في النواحي. وفعل ذلك بأسقفين آخرين على مثل رأي اريوس، فدفعوا أمرهم إلى قسطنطين، وأحضرهم جميعا لتسع عشرة من دولته، وتناظروا.
ولما قال أريوس أنّ الابن حادث، وأن الأب فوض إليه بالخلق. وقال الإسكندروس بالخلق استحق ا ألوهئة، فاستحسن قسطنطين قوله وأذن له أنّ يشيد بكفر اريوس. وطلب الاسكندروس باجتماع النصرانية لتحرير المعتقد الإيماني، فجمعهم قسطنطين وكانوا ألفين وثلثمائة وأربعين اسقفا، وذلك في مدينة نيقية فسمي المجتمع مجتمع نيقية، وكان رئيسهم الاسكندروس بطرك إسكندرية وأسطانس بطرك أنطاكية
ومقاريوس أسقف بيت المقدس. وبعت سلطوس بطرك رومة بقسيس حضر معهم لذلك نيابة عنه، فتفاوضوا وتناظروا واتفقوا عنهم بعد الاختلاف الكثير على ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً على رأي واحد، فصار قسطنطين إلي قولهم، وأعطى سيفه وخاتمه، وباركوا عليه، ووضعوا له قوانين الدين والملك ونفي اريوس وأشيد بكفره وكتبوا العقيدة التي اتفق عليها أهل ذلك المجمع، ونصها عندهم على ما نقله ابن العميد من مؤرخيهم، والشهرستاني في كتاب الملل والنحل وهو: نؤمن بالله الواحد الأحد، الأب مالك كل شيء، وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن الوحيد إيشوع المسيح ابن الله، ذكر الخلائق كلها وليس بمصنوع إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وكل شيء، الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا بعث العوالم وكل شيء، الذي نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وولد من مريم البتول، وصلب أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بالقضاء بين الاحياء والاموات، ونؤمن بروح الواحد روح الحق الذي يخرج من ابيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة قدسية مسيحية جاثليقية، وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة ابد الآبدين انتهى.
هذا هو اتفاق المجمع الأول الذي هو مجمع نيقية وفيه إشارة إلى حشر الأبدان، ولا يتفق النصارى عليه، وإنما يتفقون على حشر الأرواح، ويسمون هذه العقيدة الأمانة.

ووضعوا معها قوانين الشرائع، ويسمونها الهيمايون. وتوفي الاسكندروس البطرك بعد هذا المجمع بخمسة أشهر، ولما عمرت هلانة أم قسطنطين الكنائس، وأحب الملك أنّ تقدسها ويجمع الأساقفة لذلك، وبعث أوسانيوس بطرك الفسطنطينية، وحضر معهم اثناس بطرك الإسكندرية واجتمعوا في صور، وكان أوسانيوس الذي أخرجه إسكندروس مع اريوس من كنيسة إسكندرية. وكان بسبب ذلك مجمع نيقية وكتاب الأمانة. ونفي أريوس حينئذ واوسانيوس وصاحبهما ولعنوا.

جاء أوسانيوس من بعد ذلك وأظهر البراءة من اريوس ومن مقالته، فقبله قسطنطين وجعله بطركا بالقسطنطينية، فلما اجتمعوا في صور وكان فيهم اومانيوس على رأي أريوس، فأشار اوسانيوس بطرك القسطنطينية بأن يظاهر اثناس بطرك الإسكندرية عن مقالة اريوس فقال ارمانيوس: أنّ اريوس لم يقل أنّ المسيح

خلق العالم: وإنما قال هو كلمة الله التي بها خلق كما وقع في الإنجيل. فقال أثناس بطرك الإسكندرية: وهذا الكلام أيضاً يقتضي أنّ الابن مخلوق، وأنه خلق المخلوقات دون الأب. لأنه إذا كان يخلق به فالأب لم يخلق شيئا لأنه مستعين بغيره، والفاعل بغيره محتاج إلى ذلك المتمم فهو في ذاته خالق، والله سبحانه منزه عن ذلك. وإن زعم اريوس أنّ الأب يريد الشيء والابن يكونه فقد جعل فعل الابن أتم لأن الأب إنما له الإرادة فقط، وللابن الاختراع فهو أتم. فلما ظهر بطلان مقالة اريوس، وثبوا على أرمانيوس المناظر عن مقالة أريوس، وضربوه ضربا وجيعاً وخلصه ابن أخت الملك، ثم قدسوا الكنائس وانفض الجمع وبلغ الخبر إلى قسطنطين فندم على بطركية أرمانيوس بالقسطنطينية وغضب عليه، ومات لسنتين من رياسته. واجتمع بعد ذلك أصحاب أريوس إلى قسطنطين فحسنوا له تلك المقالة، وأن جماعة نيقية ظلموا أريوس وبغوا عليه، وصدوا عن الحق في قولهم أنّ الأب مساو للابن في الجوهرية، وكاد الملك أنّ يقبل منهم.

فكتب إليه كيراش اسقف بيت المقدس يحذره من مقالة أريوس، فقبل ورجع. واختلف حال ملوك القياصرة بعد قسطنطين في الأخذ بالأمانة أو بمقالة اريوس، وظهور إحدى الطائفتين متى كان الملك على دينهم.

وأفحش بعض ملوك القياصرة في الحق على مخالفه، فقال له بعض العلماء والحكماء: لا تنكر المخالفة فالحنفاء يختلفون أيضاً، وإنما هم الخلق يحمدون الله ويصفونه بالصفات الكثيرة، والله يحب ذلك، فسكن بعض الشيء وكان بعضهم يعرض على الطائفتين ويخلي كل أحد ودينه. ثم كان المجمع الثاني بقسطنطينية بعد مجمع نيقية بمائتين وخمسين سنة. اجتمعوا للنظر في مقالة مقدونيوس وسليوس بان جسد المسيح بغير ناسوت وان اللاهوت أغناه عنها، مستدلين بما وقع في الإنجيل، أنّ الكلمة صار لحما ولم يقل صار إنسانا، وجعلا من الإله عظيما وأعظم منه، والأب أفضل عظما. وقال: أنّ الأب غير محدود في القوة وفي الجوهر، فأبطلوا هذه المقالة، ولعنوهما وأشادوا بكفرهما، وزادوا في الأمانة التي قررها جماعة نيقية ما نصه: ونؤمن بروح القدس المنتقى من الأب. ولعنوا من يزيد بعد ذلك على كلمة الأمانة أو ينقص منها.

ثم كان لهم بعد ذلك بأربعين سنة المجمع الثالث على نسطوريوس البطرك بالقسطنطينية لأنه كان يقول: أنّ مريم لم تلد إلها وإنما ولدت إنسانا، وإنما اتحد به في المشيئة لا في الذات، وليس هو إلها حقيقة بل بالموهبة والكرامة. ويقول بجوهرين

وأقنومين: وهذا الرأي الذي أظهره نسطوريوس كان رأي تاودوس وديودس ، سقفين، وكان من مقالتهما أنّ المولود من مريم هو المسيح، والمولود من الآب هو الابن الازلي، والابن الأزلي حل في المسيح المحدث، فسمي المسيح ابن الله بالموهبة والكرامة. وإنما الاتحاد بالمشيئة والارادة، فأثبتوا لله ولدين أحدهما بالجوهر والثاني بالنعمة. وبلغت مقالة نسطوريوس إلى كرلس بطرك إسكندرية، فكتب إلى بطرك رومة وهو اكليمس، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكية، وإلى يونالوس اسقف بيت المقدس، فكتبوا إلى نسطوريوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرجع، ولا التفت إلى قولهم.

فاجتمعوا في مدينة افسيس في مائتين أسقفا للنظر في مقالته فقرروا إبطالها ولعنوه وأشادوا بكفره. ووجد عليهم يوحنا بطرك أنطاكية حيث لم ينتظروا حضوره، فخالفهم ووافق نسطوريوس ثم أصلح بينهم باوداشوس من بعد مدة، واتفقوا على نسطوريوس. وكتب أساقفة المشارقة أمانتهم وبعثوا بها إلى كرلس فقبلها. ونفى نسطوريوس إلى صعيد مصر، فنزل أخميم ومات بها لسبع سنين من نزولها، وظهرت مقالته في نصارى المشرق، وبفارس والعراق والجزيرة والموصل إلى الفرات.

وكان بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة المجمع الرابع بمدينة خلقدويية اجتمع فيه ستمائة وأربعة وثلاثون اسقفا من فتيان قيصر للنظر في مقالة ديسقورس بطرك الإسكندرية لأنه كان يقول: المسيح جوهر من تجوهرين وأقنوم من اقنومين وطبيعة من طبيعتين ومشيئة ملأ مشيئتين. وكانت الأساقفة والبطاركة لذلك العهد يقولون بجوهرين وطبيعتين ومشيئتين واقنوم واحد، فخالفهم ديسقورس في بعض الأساقفة، وكتب خطه بذلك ولعن من يخالفه. فأراد مرقيان قيصر قتله، فأشارت البطارقة بإحضاره، وجمع الأساقفة لمناظرته، فحضر بمجلس مرقيان قيصر وافتضح في مخاطبتهم ومناظرتهم.

وخاطبته زوج الملك فأساء الرد، فلطمسه بيدها وتناوله الحاضرون بالضرب. وكتب مرقيان قيصر إلى أهل مملكته في جميع النواحي بأن مجمع خلقدونية هو الحق، ومن لا يقبله يقتل. ومر ديسقوروس بالقدس وأرض فلسطين وهو مضروب منفي فاتبعوا رايه، وكذلك اتبعه أهل مصر والإسكندرية وولى وهو في النفي أساقفة كثيرة كلهم يعقوبية. قال ابن العميد: وإنما سمي أهل مذهب ديسقورس يعقوبية لأنّ إسمه كان في الغلمانية يعقوب، وكان يكتب إلى المؤمنين من المسكين المنفي يعقوب. وقيل بل كان له تلميذ ا اسمه يعقوب، فنسبوا إليه. وفيل بل كان شاويرش بطرك أنطاكية على رأي ديسقورس، وكان له تلميذ اسمه يعقوب، فكان شاويرش يبعث يعقوب إلى المؤمنين ليثبتوا على أمانة ديسقورس، فنسبوا إليه. قال: ومن جمع خلقدونية اقرقت الكنائس والأساقفة إلى يعقوبية وملكية ونسطورية. فاليعقوبية أهل مذهب ديسقورس الذي قررناه آنفا.

والملكية أهل الأمانة التي قررها جماعة نيقية وجماعة خلقدويية بعدهم، وعليها جمهور النصرانية. والنسطورية أهل المجمع الثالث وأكثرهم بالمشرق. وبقي الملكية واليعقوبية يتعاقبون في الرياسة على الكراسي بحسب من يريدهم من القياصرة، وما يختارونه من المذهبين. ثم كان بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة أو ثلاث وستين سنة المجمع الخامس بقسطنطينية في أيام يوسطانوس قيصر للنظر في مقالة أققسح لأنه نقل عنه أنه يقول بالتناسخ وينكر البعث. ونقل عن أساقفة أنقرا والمصيصة والرها أنهم يقولون: أنّ جسد المسيح فنطايسا: فأحضر قيصر جمعهم بالقسطنطينية ليناظرهم البطرك بها. فقال البطرك: أنّ كان جسد المسيح فني فقوله وفعله كذلك. وقال الاسقف اقفسح: إنما قام المسيح من بين الأموات ليحقق البعث والقيامة، فكيف تنكر ذلك أنت؟ وجمع لهم مائة وعشرين اسقفا فأشادوا بكفره، وأوجبوا لعنتهم ولعنة من يقول بقولهم. واستقرت فرق النصارى على هذه الثلاثة.

الفرس

الخبر عن الفرس وذكر أيامهم ودولهم وتسمية ملوكهم

وكيف كان مصير أمرهم إلي تمامه وانقراضه

هذه الأمة من أقدم امم العالم، وأشدهم قوة وآثاراً في الأرض، وكانت لهم في العالم دولتان عظيمتان طويلتان الاولى منهما الكينية، ويظهر أنّ مبتدأها ومبتدأ دولة التبابعة وبني إسرائيل واحد، وان الثلاثة متعاصرة. ودولة الكينية هذه هي التي غلب عليها الإسكندر والساسانية الكسروية، ولظهر أنها معاصرة لدولة الروم بالشام، وهي التي غلب عليها المسلمون. وأما ما قبل هاتين الدولتين فبعيد، وأخباره متعارضة.

ونحن ذاكرون ما اشتهر من ذلك. وأما أنسابهم فلا خلاف بين المحققين أنهم من ولد سام بن نوح، وان جدهم الأعلى الذي ينتمون إليه هو فرس. والمشهور أنهم من ولد إيران بن اشوذ بن سام بن نوح، وأرض إيران هي بلاد الفرس. ولما عربت قيل لها إعراق. هذا عند المحققين. وقيل: إنهم منسوبون إلى إيران بن إيران بن أشوذ. وقيل إلى غليم بن سام. ووقع

في التوراة ذكر ملك الاهواز كردامر من بني غليم. فهذا أصل هذا القول والله أعلم. لان الأهواز من ممالك بلاد فارس. وقيل: إلى لاوذ بن إرم بن سام، وقيل إلى اميم بن لاوذ، وقيل إلى يوسف بن يعقوب بن إسحاق.

ويقال أنّ الساسانية فقط من ولد إسحاق، وأنه يسمى عندهم وترك، وأن جدهم منوشهر بن منشحر بن فرهس بن وترك. هكذا نمل المسعودي هذه الأسماء، وهي كما تراه غير مضبوطة. وفيما قيل: أنّ الفرس كلهم من ولد إيران بن افريدون الآتي ذكره، وأن من قبله لا يسمون بالفرس والله أعلم. وكان أول ما ملك إيران أرض فارس. فتوارث أعقابه الملك، ثم صارت لهم خراسان ومملكة النبط والجرامقة. ثم اتسعت مملكتهم إلى الإسكندرية غرباً، وباب الأبواب شمالا. وفي الكتب أنّ أرض إيران هي أرض الترك، وعند الإسرائيليين أنهم من ولد طيراس بن يافث وإخوتهم بنو مادي بن يافث، وكانوا مملكة واحدة.

فأما علماء الفرس ونسابتهم فيأبون من هذا كله، وينسبون الفرس إلى كيومرث،

ولا يرفعون نسبه إلى ما فوقه. ومعنى هذا الاسم عندهم ابن الطين وهو عندهم اول ابن الطين وهو عندهم اول النسب. هذا رأيهم وأما مواطن الفرس فكانت اول أمرهم بأرض فارس، وبهم سميت. ويجاورهم إخوانهم في نسب أشوذ بن سام، وهم فيما قال البيهقي الكرد والديلم والخزر والنبط والجرامقة. ثم صارت لهم خراسان ومملكة النبط والجرامقة وسائر هؤلاء الأمم.

ثم اتسعت ممالكهم إلى الإسكندرية. وفي هذا الجيل على ما اتفق عليه المؤرخون أربع طبقات: الطبقة ا أولى تسمى البيشدانية، والطبقة الثانية تسمى الكينية، والطبقة الثالثة تسمى الاشكانية، والطبقة الرابعة تسمى الساسانية، ومدة ملكهم في العالم على ما نقل ابن سعيد عن كتاب تاريخ ا أمم لعلي بن حمزة الاصبهاني، وذلك من زمن كيومرث أبيهم إلى مهلك يزدجرد أيام عثمان أربعة آلاف سنة ومائتا سنة ونحو احدى وثمانين سنة. وكيومرث عندهم هو اول ملك نصب في الأرض ويزعمون فيما قال المسعودي: أنه

عاش ألف سنة، وضبطه بكاف أوّل الإسم قبل الياء المثناة من أسفل، والسهيلي ضبطه بجيم مكان الكاف، والظاهر أنّ الحرف بين الجيم والكاف كما قدّمناه.

الطبقة الأولى من الفرس وذكر ملوكهم وما صار إليه في الخليقة أحوالهم

الفرس كلهم متفقون على أنّ كيومرث هو آدم الذي هو اول الخليقة، وكان له ابن

اسمه منشا، ولمنشا سيامك ولسيامك أفروال ومعه أربعة بنين وأربع بنات، ومن أفروال كان نسل كيومرث، والباقون انقرضوا فلا يعرف لهم عقب. قالوا وولد لافروال اوشهنك بيشداد. فاللفظة الأولى حرفها الأخير بين الكاف والقاف والجيم، واللفظة الأخرى معناها بلغتهم النور. قاله السهيلى وقال الطبرى. أول حاكم بالعدل. وكان افروال وارث ملك كيومرث وملك الأقاليم السبعة. قال الطبري عن ابن الكلبي إنه أوشهنك ابن عابر بن شالخ. قال والفرس تدعيه وتزعم أنه بعد آدم بمائتي سنة. قال وإنما كان نوح بعد آدم بمائتي سنة فصيره بعد آدم. وأنكره الطبري لان شهرة اوشهنك تمنع من مثل هذا الغلط فيه. ويزعم بعض الفرس أنّ أوشهنك بيشداد هو مهلايل وأن أباه افروال هو قينن وان سيامك هو انوش، وان منشا هو شيت، وأن كيومرث هو آدم. قال وزعمت الفرس أنّ ملك اوشهنك كان أربعين سنة، فلا يبعد أنّ يكون بعد آدم

بمائتي سنة. وقال بعض علماء الفرس: أنّ كيومرث هو كومر بن يافث بن نوح، وأنه كان معمرا، ونزل جبل دنباوند من جبال طبرستان وملكها، ثم ملك فارس وعظم أمره، وأمر بنيه حتى ملكوا بابل. وأن كيومرث هو الذي بنى المدن والحصون، واتخذ الخيل، وتسمى بآدم، وحمل الناس على دعائه بذلك. وأن الفرس من عقب ولده ماداي، ولم يزل الملك في عقبهم في الكينية والكسروية إلى آخر أيامهم.

وتقول الفرس أنّ أوشهنك وهو مهلايل ملك الهند. قالوا وملك بعد اوشهنك طهمورث بن انوجهان بن انكهد بن أسكهد بن اوشهنك، وقيل مكان اشكهد فيشداد. وكلها أسماء أعجمية لا عهدة علينا في نقلها لعجمتها وانقطاع الرواية في الاصول التي نقلت منها:

قال ابن الكلبي أنّ طهمورث أول ملوك بابل، وأنه ملك الأقاليم كلها وكان محمودا في ملكه، وفي أول سنة من ملكه ظهر بيوراسب ودعا إلى ملة الصابئة. وقال علماء الفرس: ملك بعد طهمورث جمشيد، ومعناه الشجاع لجماعة، وهوجم بن نونجفان، أخو طهمورث، وملك الأرض واستقام أمره. ثم بطر النعمة وساءت أحواله، فخرج عليه قبل موته بسنة بيوراسب وظفر به فنشره بمنشار وأكله، وشرط أمعاءه. وقيل إنه ادعى الربوبية فخرج عليه أولا أخوه استوير فاختفى. ثم خرج بيوراسب فانتزع الأمر من

يده، وملك سبعماية سنة. وقال ابن الكلبي مثل ذلك قالى الطبري بيوراسب هو الأزدهاك، والعرب تسميه الضحاك، وهو بصاد بين السين والزاي، وحاء قريب من الهاء، وكاف قريبة من القاف. وهو الذي عنى أبو نواس بقوله:

وكان منا الضحاك تعبده الجامل والجن في محاربها لان اليمن تدعيه. قال: وتقول العجم: أنّ جمشيد زوج أخته من بعض أهل بيته، وملك على اليمن، فولدت الضحاك. وتقول أهل اليمن في نسبه: الضحاك بن علوان بن عبيدة بن عويج وأنه بعث على مصر أخاه سنان بن علوان ملكا، وهو فرعون إبراهيم. قاله ابن الكلبي. وأما الفرس فينسبونه هكذا: بيوراسب بن رتيكان بن ويدوشتك بن فارس بن أفروال، ومنهم من خالف في هذا. ويزعمون أنه ملك الأقاليم كلها، وكان ساحرا كافرا، وقتل أباه، وكان أكثر إقامته ببابل. وقال هشام: ملك الضحاك وهو نمرود الخليل بعد جمشيد، وأنه التاسع منهم، وكان مولده بدنباوند، وأن الضحاك سار إلى الهند فخالفه افريدون إلى بلاده فملكها. ورجع الضحاك فظفر به افريدون، وحبسه بجبال دنباوند واتخذ يوم ظفر به عيداً.

وعند الفرس أنّ الملك إنما كان للبيت الذي وطنه اوشهنك وجمشيد، وأن الضحاك هو بيوراسب خرج عليهم وبنى بابل، وجعل النبط جنده، وغلب أهل الأرض بسحره، وخرج عليه رجل من عامة أصبهان اسمه عالي، وبيده عصا علق شيها جرابا واتخذها راية ودعا الناس إلى حربه فأجابوا، وغلبه فلم يدع الملك، وأشار بتولية بني جمشيد لأنه من عقب أوشهنك ملكهم الأول بن أفروال، فاستخرجوا أفريدون من مكان اختفائه فملكوه، واتبع الضحاك فقتله. وقيل أسره بدنباوند. ويقال كان على

عهد نوح، وإليه بعث. ولهذا يقال: أنّ أفريدون هو نوح. والتحقيق عند نسابة الفرس على ما نقل هشام بن الكلبي أنّ أفريدون من ولد جمشيد بينهما تسعة آباء. وملك مائتي سنة. ورد غصوب الضحاك ومظالمه. وكان له ثلاثة بنين الأكبر لسرم والثاني طوج والثالث إيرج. وإنه قسم الأرض بينهم: فكانت الروم وناحية المغرب لسرم، والترك والصين والعراق لايرج، وآثره بالتاج والسرير، ولما مات قتله أخواه واقتسما الأرض بينهما ثلثمائة سنة. ويزعمون أنّ أفريدون وآباءه العشرة يلقبون كلهم أشكيان، وقيل في قسمته الأرض بين ولده غير هذا. وإن بابل كانت لإيرج

الاصغر، وكان يسمى خيارث، ويقال كان لإيرج ابنان: وندان واسطوبة وبنت اسمها خورك. وقتل الابنان مع أبيهما بعد مهلك افريدون، وأن أفريدون ملك خمسمائة سنة، وأنه هو الذي محا آثار ثمود من النبط

بالسواد، وأنه اول من تسمى بكي فقيل كي افريدون ومعناه التتريه أي مخلص متصل بالروحانيات. وقيل معناه البهاء لأنه يغشاه نور من يوم قتل الضحاك، وقيل معناه مدرك الثار.

وكان منوشهر الملك ابن منشحر بن إيرج من نسل افريدون، وكانت أمه من ولد اسحاق عليه السلام، فكفلته حتى كبر فملك وثأر بأبيه إيرج من عمه بعد حروب كانت له معهما. ثم استبد ونزل بابل، وحمل الفرس على دين إبراهيم عليه السلام وثار عليه أفراسياب ملك الترك فغلبه على بابا وملكها، ثم اتبعه إلى غياض طبرستان فجهز العساكر لحصاره، وسار إلى العراق فملكه. ويقال أفراسياب هذا من عقب طوج بن أفريدون ولحق ببلاد الترك عندما قتل منوشهر جد طوج، فنشأ عندهم وظهر من بلادهم فلهذا نسب إليهم.

وقال الطبري: لما هلك منوشهر بن منشحور، غلب افراسياب بن اشك بن

رستم بن ترك على خيارات وهي بابل، وأفسد مملكة فارس وحيرها. فثار عليه زومر بن طهمارست ويقال راسب بن طهمارست. وينسب إلى منوشهر في تسعة آباء، وأن منوشهر غضب على طهمارست، وكانوا يحاربون افراسيات فهم بقتله، وشفع فيه أهل الدولة فنفاه إلى بلاد الترك، وتزوج منهم، ثم عاد إلى أبيه وأعمل الحيلة في إخراج امرأته من بلاد الترك، وكانت ابنة وامن ملك الترك، فولدت له زومر ابنه، وقام بالملك بعد منوشهر وطرد افراسيات عن مملكة فارس، وقتل جدّه وامن في حروبه

مع الترك. ولحق أفراسيات بتركستان واتخذ يوم ذلك الغلب عيدا ومهرجانا، وكان ثالث أعيادهم. وكان غلبه على بلاد فارس لاثنتي عشرة سنة من وفاة منوشهر جده، وكان زومر بن طهمارست هذا محموداً في سيرته، وأصلح ما أفسد افراسيات بن خيارت من مملكة بابل، وهو الذي حفر نهر الزاب بالسواد، وبنى على حافته المدينة العتيقة، وسماها الزواهي، وعمل فيها البساتين، وحمل إليها بزور الأشجار والرياحين. وكان معه الملك كرشاسب من ولد طوج بن افريدون، وقيل من ولد منوشهر. ويقال إنما كان رديفا له وكان عظيم الشأن في أهل فارس ولم يملك، وإنما كان الملك لزومر بن طهمارلست، وهلك لثلاث سنين من دولته. وفي أيامه خرج بنو إسرائيل من التيه، وفتح يوشع مدينة أريحاء، ودال الملك من بعده للكينية حسبما يذكر، وأولهم كيقباذ. ويقال أنّ مدة الملك لهذه الطبقة كانت ألفين وأربعمائة وسبعين سنة فيما قال البيهقي والاصبهاني ولم يذكر من ملوكهم إلا هؤلاء التسعة الذين ذكرهم الطبري والله وارث الأرض ومن عليها.

خريطة

الطبقة الثانية من الفرس وهم الكينية وذكر ملوكهم وأيامهم إلي حين إنقراضهم

هذه الطبقة الثانية من الفرس وملوكهم يعرفون بالكينية، لان اسم كل واحد مضاف

إلى كي، وقد تقدم معناه. والمضاف عند العجم متأخر عن المضاف إليه، وأولهم فيما قالوا كيقباذ بن عقب منوشهر بينهما أربعة آباء، وكان متزوجا بامرأة من رووس الترك ولدت له خمسة من البنين: كي وافيا وكيكاوس وكي ارش وكي نية فاسمن، وهؤلاء هم؟ الجبابرة وآباء الجبابرة.

قال الطبري: وقيل أنّ الملوك الكينية وأولادهم من نسله، جرت بينه وبين الترك حروب، وكان مقيما بنهر بلخ يمانع الترك من طروق بلاده، وملك مائة سنة انتهى. وملك بعده ابنه كيكاوس ابن كينية وطالت حروبه مع افراسيات ملك الترك. وهلك فيها ابنه سياوخس، ويقال كان على عهد داود، عمرا ذا الاذعار من ملوك التبابعة غزاه في بلاده، فظفر به وحبسه عنده باليمن، وسار وزيره رستم بن دستان بجنود فارس إلى غزو ذي الأذعار فقتله، وتخلص كيكاوس إلى ملكه.

وقال الطبري: كان كيكاوس عظيم السلطان والحماية، وولد له ابنه سياوخش، فدفعه إلى رستم الشديد بن دستان. وكان اصهر بسجستان، حتى إذا كملت تربيته وفصاله رده إلى أبيه فرضيه، وكفلت به امرأة أبيه فسخطه وبعثه لحرب افراسيات، وأمره بالمناهضة، فراوده أفراسيات في الصلح، وامتنع أبوه كيكاوس، فخشي منه على نفسه، ولحق بأفراسيات فزوجه ابنته أم كي خسرو، ثم خشيه أفراسيات على نفسه، وأشار على ابنته بقتله فقتلته. وترك ابنة أفراسيات حاملا بخسرو وولدته هنالك.

وأعمل كيكاوس الحيلة في إخراجه فلحق به. ويقال: إنه لما بلغه قتل ابنه بعث عساكره مع قواده فوطئوا بلاد الترك وأثخنوا فيها، وقتلوا بني أفراسيات فيمن قتلوه. قال

الطبري: وإنه غزا بلاد اليمن ولقيه ذو الأذعار في حمير وقحطان فظفر به وأسره وحبسه في بئر وأطبق عليها. وإن رستم سار من سجستان فحارب ذا الأذعار ثم اصطلحا على أنّ يسلم إليه كيكاوس، فأخذه ورجع إلى بابل، وكافأه كيكاوس على ذلك بالعتق من عبودية الملك، ونصب لجلوسه سريرا من فضة بقوائم من ذهب، وتوجه بالذهب وأقطعه سجستان واباستان، وهلك لمائة وخمسين من دولته. وملك بعده فيما قال الطبري والمسعودي والبيهقي وجماعة من المؤرخين حافده كي خسرو ابن ابنه سياوخش.

وقال السهيلي: إنه ملك كي خسرو بعد ثلاثة آخرين بينه وبين كيكاوس. فأولهم بعده كي كينة، ثم من بعده ابنه أخو ابن كي كينة ثم عمه سباوخش بن كيكاوس. ثم بعد الثلاثة كي خسرو بن سباوخش اه. وهو غريب، فإنهم متفقون على أنّ سباوخش مات في حياة أبيه في حروب الترك. قال الطبري: وقد كان كيكاوس بن كي كينية بن كيقباذ ملك كي خسرو حين جاءه من بلاد الترك مع أمه، واسفاقدين بنت افراسيات. قالوا ولما ملك بعث العساكر مع اجو إلى اصبهان لحرب افراسيات ملك الترك للطلب بثار أبيه سباوخش، فزحفوا إلى الترك وكانت بينهم حروب شديدة انهزمت فيها عساكر الفرس، فنهض كي خسرو بنفسه إلى نجلخ وقدم عساكره وقواده فقصدوا بلاد الترك من سائر النواحي، وهزموا عساكرهم وقتلوا قوادهم.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم. وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحرا إلى كيخسرو يستميله، فعمد إلى القواد بمنعه، وقتاله، وقاتل فقتل. وزحف أفراسيات فلقيه كي خسرو، وكانت بينهما حروب شديدة انجلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في اذربيجان فذبحه وانصرف ظافرا.

وكان فيمن حضر معه لهذا الفتح ملك فارس وهو كى أوجن بن حينوش بن كيكاوس ابن كينية بن كيقباذ. وهو عند الطبري أبو كيهراسف الذي ملك بعد كيخسرو على ما نذكر. وملك على الترك بعد أفراسيات جوراسف ابن أخيه شراشف. ثم أنّ كي خسرو ترهب وتزهد في الملك واستخلف مكانه كيهراسف بن كي اوجن الذي تدمناه أنه أبوه عند الطبري ولد كيخسرو، فقيل غاب في البرية، وقيل مات، وذلك لستين سنة من ملكه. ولما ملك كيهراسف اشتدت شوكة الترك، فسكن لقتالهم مدينة بلخ على نهر جيحون، وأقام في حروبهم عامة أيامه.

وكان اصبهبذ ما بين الأهواز والروم من غربي دجلة في أيامه بختنرسي المشتهر ببختنصر، وأضاف إليه كهراسف ملكا عندما سار إليه، وأذن له

في فتح ما يليه. وسار إلى الشام معه ملوك الفرس وبختنصر ملك الموصل وله سنجاريف، ففتح بيت المقدس وكان له الظهور على اليهود واستأصلهم كما مر في أخبارهم. وبختنصر هذا الذي غزا العرب وقاتلهم واستباحهم، ويقال أنّ ذلك كان في أيام كي بهمن حافد كيستاسب ابن كيهراسف.

قال هشام بن محمد: أوحى الله إلى أرميا النبي عليه السلام وكان حافد زريافيل

الذي رجع بني إسرائيل إلى بيت المقدس بأمر بختنصر أنّ يفرق العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم، ويستبيحهم بالقتل، ويعلمهم بكفرهم، بالرسل واتخاذهم الآلهة. وفي كتاب الإسرائيليين: والوحي بذلك كان إلى يرميا بن خلقيا وقد مر ذكره. وإنه أمر أنّ يستخرج معد بن عدنان من بينهم ويكفله إلى انقضاء أمر الله فيهم، انتهى. قال فوثب بختنضر على من وجده ببلاده من العرب للميرة فحبسهم ونادى بالغزو، وجاءت منهم طوائف مستسلمين فقبلهم وأنزلهم بالأنبار والحيرة. وقال غير هشام: أنّ بختنصر غزا العرب بالجزيرة وما بين ايلة والأبلة، وملأها عليهم خيلا ورجالا، ولقيه بنو عدنان فهزمهم إلى حضورا واستلحمهم أجمعين. وإن الله أوحى إلى ارميا ويوحنا أنّ يستخرجا معد بن عدنان الذي من ولده محمد أختم به النبيين آخر الزمان، وهو ابن اثنتي عشرة سنة. وردفه يوحنا على البراق وجاء به إلى حران وربي ين أنبياء بني إسرائيل.

ورجع بختنصر إلى بابل وأنزل السبي بالانبار فقيل انبار العرب وسميت بهم. وخالطهم النبط بعد ذلك. ولما هلك بختنصر خرج معد بن عدنان مع أنبياء بني إسرائيل إلى الحج فحخوا، وبقي هنالك مع قومه، وتزوج بعانة بنت الحارث بن مضاض الجرهمي فولدت له نزار بن معد. وأما كيهراسف فكان يحارب الترك عامة أيامه، وهلك في حروبهم لمائة وعشرين سنة من ملكه، وكان محمي السيرة، وكانت الملوك شرقا وغرباً يحملون إليه الأتاوة ويعظمونه. وقيل: إنه ولى ابنه كيستاسب على الملك وانقطع للعبادة. ولما ملك ابنه كيستاسب شغل بقتال الترك عامة أيامه، ودفع لحروبهم ابنه اسفنديار فعظم عناوه فيهم.

وظهر في أيامه زرادشت الذي يزعم المجوس نبوته، وكان فيما زعم أهل الكتاب

من. أهل فلسطين خادماً لبعض تلامذة إرميا النبي خالصة عنده، فخانه في

بعض أموره فدعا الله عليه فبرص ولحق باذربيجان، وشرع بها دين المجوسية. وتوجه إلى كيستاسف فعرض عليه دينه فأعجبه، وحمل الناس على الدخول فيه، وقتل من امتنع. وعند علماء الفرس أنّ زرادشت من نسل منوشهر الملك، وأن نبيا من بني إسرائيل بعث إلى كيستاسف وهو يبلخ، فكان زرادشت وجاماسب العالم، وهو من نسل منوشهر أيضاً يكتبان بالفارسية ما يقول ذلك النبي بالعبرانية، وكان جاماسب يعرف اللسان العربي ويترجمه لزرادشت، وأن ذلك كان لثلاثين سنة من دولة كيهراسف.

وقال علماء الفرس: أنّ زرادشت جاء بكتاب ادعاه وحيا كتب في اثني عشر ألف

بعده نقشاً بالذهب، وأن كيستاسف وضع ذلك في هيكل باصطخر ووكل به الهرابذة ومنع من تعليمه العامة. قال المسعودي: وسمى ذلك الكتاب نسناه، وهو كتاب الزمزمة، ويدور على ستين حرفا من حروف المعجم. وفسره زرادشت وسمى تفسيره زند، ثم فسر التفسير ثانيا وسماه زنديهء. وهذه اللفظة هي التي عربتها العرب زنديق. وأقسام هذا الكتاب عندهم ثلاثة: قسم في أخبار الأمم الماضية، وقسم في حدثان المستقبل، وقسم في نواميسهم وشرائعهم. مثل أنّ المشرق قبلة، وأن الصلوات في الطلوع والزوال والغروب، وأنها ذات سجدات ودعوات. وجدد لهم زرادشت بيوت النيران التي كان منوشهر أخمدها، ورتب لهم عيدين: النيروز في الاعتدال الربيعي، والمهرجان في الاعتدال الخريفي، وأمثال ذلك من نواميسهم. ولما انقرض ملك الفرس الأول أحرق الاسكندر هذه الكتب. ولما جاء أردشير جمع الفرس على قراءة سورة منها تسمى أسبا. قال المسعودي؟ وأخذ كيستاسف بدين المجوسية من زرادشت لخمس وثلاثين سنة من نبؤته فيما زعموا، ونصب كيستاسف مكانه جاماسب العالم من أهل اذربيجان، وهو اول موبذان كان في الفرس انتهى.

قال الطبري: وكان كيستاسب مهادنا ارجاماسب ملك الترك، وقد اشترط عليه أنّ

تكون دابة كيستاسف موقفة على بابه بمنزلة دواب الرؤساء عند أبواب الملوك، فمنعه من ذلك زرادشت وأشار عليه بفتنة الترك، فبعث إلى الدابة والموكل بها وصرفهما إليه. وبلغ الشبر إلى ملك الترك فبعث إليه بالعتاب والتهديد، وأن يبعث بزرادشت إليه، وإلا فيعزره وأغلظ كيستاسف في الجواب وآذنه بالحرب، وسار بعضهما إلى بعض

واقتتلوا، وقتل رزين بن كيستاسف وانهزم الترك، وأثخن فيهم الفرس. وقتل ساحر الترك قيدوشق، ورجح كيستاسف إلى بلخ. ثم سعى عنده بابنه أسفنديار فحبسه وقيده، وسار إلى جبل بناحية كرمان وسجستان، فانقطع به للعبادة ودراسة الدين.

وخلف أباه كهراسف في بلخ شيخا قد أبطله الكبر، وترك خزائنه وأمواله فيها مع امرأته، فغزاهم بها خدراسف وقدم أخاه جورا في جموع الترك، وكان مرشحاَ للملك، فأثخن واستباح واستولى على بلخ، وقتل كهراسف أباهم وغنموا الأموال وهدموا بيوت النيران وسبوا حمايي بنت كستاسف وأختها. وكان فيما غنموه العلم الأكبر الذي كانوا يسمونه زركش كاويان، وهي راية الحداد الذي خرج على الضحاك وقتله. وولى افريدون فسفوا بخلك الراية ورضعوها بالجواهر، ووضعوها في ذخائرهم يبسطوها في الحروب العظام.

وكان لها ذكر في دولتهم، وغنمها المسلمون يوم القادسية.

ثم مضى خدراسف ملك الترك في جموعه إلى كستاسف وهو بجبال سجستان متعبدا فتحضن منه، وبعث إلى ابنه أسفنديار مع جاماسب العالم، وهو في الجبل فقلده الملك ومحاربة الترك، فسار إليهم وأبلى في حروبهم فانهزموا وغنم ما معهم، واسترد ما كانوا غنموه والراية زركش كاويان في جملته. ثم دخل اسفنديار إلى بلادهم في اتباعهم، وفتح مدينتهم عنوة، وقتل مهلكهم خدراسف وإخوته واستلحم مقاتلته واستباح أمواله ونساءه، ودخل مدينة افراسيات ودوخ البلاد، وانتهى إلى بلاد صول والتبت، وولى على كل ناحية من الترك، وفرض الخراج وانصرف إلى بلخ ولد غص به أبوه.

قال هشام بن محمد: فبعثه إلى رستم ملك سجستان الذي كان يستنفره كيقباذ جدهم من ملوك اليمن، وأقطعه تلك الممالك جزاء لفعله. فسار إليه اسفنديار وقاتله رستم وهلك كستاسف لمائة وعشرين سنة.

ويقال أنه الذي رد بني إسرائيل إلى بلادهم، وأن أمه كانت من بني طالوت. ويقال أنّ ذلك هو حافد بهمن. وقيل أنّ الذي ردهم هو كورش من ملوك بابل أيام بهمن بأمره. ثم ملك بعد كستاسف حافده كي بهمن ويقال اردشير بهمن.

قال الطبري: ويعرف بالطويل الباع لاستيلائه على الممالك والأقاليم. قال

هشام بن محمد: ولما ملك سار إلى سجستان طالبا بثار أبيه فكانت بينهما حروب، فقتل فيها رستم بن دستان وأبوه

وإخوته وأبنأوه. ثم غزا الروم وفرض عليهم الأتاوة، وكان من أعظم ملوك الفرس، وبنى مدنا بالسواد، وكانت أمه من نسل طالوت لأربعة آباء من لدنه، وكانت له أم ولد من سبي بني إسرائيل اسمها راسف وهي أخت زريافيل الذي ملكه على اليهود ببيت المقدس وجعل له رياسة الجالوت، وملك الشام وملك ثمانين سنة. فملكت حماي ملكها الفرس لجمالها ولحسن أدبها وكمال معرفتها وفروسيتها وكانت بلغت شهرأزاد. وقيل إنما ملكوها لأنها لما حملت من أبيها بدار الأكبر سألته أنّ يحقد له التاج في بطنها، ففعل ذلك. وكان ابنه ساسان مرشحا للملك فغضب ولحق بجبال إصطخر زاهداً يتولى ماشيته بنفسه، فلما مات أبوه فقدوا ذكرا من أولاده فولوا حماي هذه، وكانت مظفرة على الأعداء. ولما بلغ ابنها دارا الاشد سلمت إليه الملك وسارت إلى فارس، واختطت مدينة دارا بجرد. وردت الغزو إلى بلاد الروم، وأعطيت الظفر فكثر سبيهم عندها، وملكت ثلاثين سنة. ولما ملك ابنها دارا نزل بابل، وضبط ملكه وغزا الملوك وأذوا الخراج إليه. ولقال: إنه الذي رتب دواب البرد.

وكان معجبا بابنه دارا حتى سماه باسمه، وولاه عهده، وهلك لاثنتي عشرة سنة

وملك بعده ابنه دارا بهمن. وكان له مرب اسمه بيدلي قتله أبوه دارا بسعاية وزيره أرشيس محمي، وندم على قتله. فلمما ولي دارا جعل على كتابته أخا بيدلي ثم استوزره رعب لمرباه مع أخيه. فاستفسده على ارشيش وزيره ووزير أبيه، وعلى سائر أهل الدولة استوحشوا منه. وقال هشام بن محمد: وملك دارا بن دارا أربع

عشرة سنة، فأساء السيرة وقتل الرؤساء، وأهلك الرعية. وغزاه الاسكندر بن فيلبس ملك بني يونان. وقد كانوا يسمونه.... فوثب عليه بعضهم وقتله، ولحق بالإسكندر وتقرب بذلك إليه، فقتله الاسكندر، وقال: هذا جزاء من اجرأ على سلطانه، وتزوج بنته روشنك كما نذكره في أخبار الاسكندر.

وقال الطبري: قال بعض أهل العلم بأخبار الماضين، كان لدارا من الولد يوم قتل

أربع بنين: أسسك وبنودار وارداشير وبنت اسمها روشنك. وهي التي تزوجها الاسكندر.قال وملك أربع عشرة سنة. هذه هي الأخبار المشهورة للفرس الأولى إلى ملكهم الأخير دارا.

قال هروشيوش مؤرخ الروم في مبدأ دولة الفرس هؤلاء إنما كانت بعد دخول بني إسرائيل إلى الشام، وعلى عهد عثنيئال بن قناز بن يوفنا، وهو ابن أخي كالب بن يوفنا

الذي دبر أمر بني إسرائيل بعد يوشع. قال: وفي ذلك الزمان خرج أبو الفرس من أرض الروم الغريقيين من بلاد آسيا، واسمه بالعربية فارس، وباليونانية يرشور وبالفارسية يرشيرش. فترل بأهل بيته في ناحية وتغلب على أهل ذلك الموضع، فنسبت إليه تلك الأمة واشتق اسمها من اسمه، وما زال أمرهم ينمو إلى دولة كيرش الذي يقال فيه إنه كسرى الأول، فغلب على القضاعيين ثم زحف إلى مدينة بابل، وعرض له دونها النهر الثاني بعد الفرات، وهو نهر دجلة، فاحتفر له الجداول وقسمه فيها ثم زحف إلى المدينة وتغلب عليها وهدمها.

ثم حارب السريانيين فهلك في حروبهم بيلادشيت وولي ابنه قنبيشاش بن كيرش، فثأر منهم بأبيه وتخطاهم إلى أرض مصر، فهدم أوثانهم ونقض شرائعهم، فقتله السحرة وذلك لألف سنة من ابتداء دولتهم، فولي أمر الفرس دارا وقتل السحرة بمصر ورد عمالة السريانيين إليهم، ورجع بني إسرائيل إلى الشام في الثانية من أيامه، وزحف إلى بلاد الروم الغريقيين طالبا ثار كيرش، ولم يزل في حروبهم إلى أنّ هلك لثلاث وعشرين من دولته، ثار عليه أحد قواده فقتله، وولى بعده ابنه أرتشخار أربعين سنة، وولي بعده ابنه دارا انوطو سبع عشرة سنة. ثم ولي بعده ابنه ارتشخار بعد أنّ نازعه كيرش بن نوطو، فقتله أرتشخار واستولى على الأمر، وسالم الروم الغريقيين. ثم انتقضوا عليه واستعانوا بأهل مصر فطالت الحرب ثم اصطلحوا ووقعت الهدنة. وهلك ارتشخار وذلك على عهد الاسكندر ملك اليونانيين، وهو خال الاسكندر الأعظم وهلك لعهده فولي أبو الاسكندر الأعظم ببلد مقدونية وهو ملك فيلبس.

وهلك ارتشخار أوقش لست وعشرين من دولته، وولي من بعده ابنه شخشار أربع سنين. وفي أيامه ولي على مقدونية واليونانيين وسائر الروم الغريقيين الاسكندر بن فيلمس. ثم ولي بعده شخاردارا، وعلى عهده تغلب الاسكندر على يهود بيت المقدس، وعلى جميع الروم الغريقيين. ثم حدثت الفتنة بينه وبين دارا وتزاحفوا مرات انهزم في كلها. وكان للاسكندر الظهور عليه، ومضى إلى الشام ومصر فملكهما وبنى

الإسكندرية وانصرف، فلقيه دارا أنطوس فهزمه، وغلب على ممالك الفرس واستولى على مديتهم، وخرج في اتباع دارا فوجده في بعض طريقه جريحا، ولم يلبث أنّ هلك من تلك الجراحة، فأظهر الاسكندر الحزن عليه وأمر بدفنه في مقابر الملوك، وذلك لألف سنة ونحو من ثمانين سنة منذ ابتداء دولتهم كما قلناه، انتهى كلام

هروشيوش. وقال السهيلي: وجده مثخناً في المعركة فوضع رأسه على فخذه وقال: يا سيد الناس لم أرد قتلك ولا رضيته، فهل من حاجة؟ فقال تتزوج ابنتي وتقتل قاتلي، ففعل الاسكندر ذلك، وانقرض أمر هذه الطبقة الثانية، والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى.

خريطة

قال ابن العميد: في ترتيب هؤلاء الملوك الفرس من بعد كيرش إلى دارا آخرهم يقال: إنه ملك من بعد كورش ابنه قمبوسيوس ثمانيا وقيل تسعا وقيل اثنتين وعشرين سنة. وقيل أنه غزا مصر واستولى عليها، وتسمى بختنصر الثاني، وملك بعده اريوش بن كستاسب خمسا وعشرين سنة، وهو اول الملوك الأربعة الذين عناهم دانيال بقوله ثلاث ملوك يقومون بفارس، والرابع يكثر ماله ويعظم على من قبله. فأولهم دارا بن كستاسف وهو مذكور في المجسطي، والثاني دارا ابن الامة، والثالث الذي قتله الاسكندر، وميل بل هو الرابع الذي عناه دانيال. لأنه جعل أول الأربعة داريوش واخشورش العادي. وسركورش ورديفه في الملك، ثم عد الثلاثة بعده. وفي الثانية من ملكه داريوش بن كيستاسف لبابل تمت سبعون سنه لخراب القدس، ولي الثالثة كمل بناء البيت. ثم ملك بعد داريوش بن كيستاسف هذا أسمرديوس المجوسي سنة واحدة، وقيل ثلاث عشرة سنة وسمي مجوسياً لظهور زرادشت بدين المجوسية في أيامه.

ثم ملك أخشويرش بن داريوش عشرين سنة، وكان وزيره هامان العمليقي، وقد مرت قصته مع الجارية من بني إسرائيلى. ثم ملك من بعده ابنه ارطحشاشت بن أخشويرش ويلقب بطويل اليدين، وكانت أمه من اليهود بنت أخت فردخاي، وكانت حظية عند أبيه وعلى يدها تخلص اليهود من سعاية وزيره فيهم عنده، وكان العزير في خدمته. ولعشرين من دولته أمر بهدم أسوار القدس، ثم رغب إليه العزير في تجديدها فبناها في اثنتي عشرة سنة.

قال ابن العميد عن المجسطي: أنّ العزير هذا وشمى عزرا هو الرابع عشر من الكهنونية من لدن هارون عليه السلام، وأنه كتب لبني إسرائيل التوراة، وكتب الأنبياء من حفظه بعد عودهم من الجلاء الأول، لأن بختنصر كان أحرقها. وقيل أنّ الذي كتب لهم ذلك هو يشوع بن أبو صادوق. ثم ملك من بعده ارطحشاشت الثاني خمس سنين، وقيل إحدى وثلاثين وقيل ست عشرة وقيل شهرين. ورجح ابن العميد الخمس لموافقتها سياقة التواريخ. وكان لعهده ابقراط وسقراط، في مدينة أشياش، ولعهده كتب النواميس الاثني عشر. ثم ملك بعده صغريتوس ثلاث سنين، وقيل سنة واحدة وقيل سبعة أشهر، ولم يزل محنقاً لمرض كان به إلى أنّ هلك.

ثم ملك من بعده دارا بن الأمة ويلقب الناكيش وقيل داريوس الياريوس ملك سبع عشرة سنة، وكان على عهده من حكماء يونان سقراط وفيثاغورس واقليوس. وفي الخامسة من دولته انتقض أهل مصر على يونان واستبدوا

.بملكهم بعد مائة وأربع وعشرين سنة. كانوا فيها في ملكتهم. ثم ملك من بعده أرطحشاشت ابن أخي كورش داريوش إحدى عشرة سنة، وقيل اثنتين وعشرين سنة وقيل أربعين وقيل إحدى وعشرين. وكان

لعهده ألياقيم الكوهن الذي داهن الكهنونية ستا وأربعين سنة. ثم ملك من بعده ارطحشاشت وتسمى أحوش، ويقال أوغش، عشرين سنة، وقيل خمسا وعشرين، وقيل تسعا وعشرين. وزحف إلى مصر فملكها وهرب منها فرعون ساناق إلى مقدونية واسمه قصطرا.

وبنى أرطحشاشت قصر الشمع وجعل فيه هيكلا، وهو الذي حاصره عمرو بن العاص وملكه. ثم ملك من بعده ابنه ارشيش بن ارطحشاشت، وقيل اسمه فارس، أربع سنين، وقيل إحدى عشرة. وكان لعهده ص حكماء يونان بقراط وأفلاطون ودمقراطس، ولعهده قتل بقراط على القول بالتناسخ، وقيل لم يكن مذهبه، وإنما ألزمه به بعض تلامذته ثم شهدوا عليه. وقتل مسموما قتله القضاة بمدينة أثينا. ثم ملك من بعده ابنه دارا بن أرشيش عشرين سنة، وقيل ست عشرة. وقال ابن العميد عن أبي الراهب: إنه دارا الرابع الذي أشار إليه دانيال كما مر. وكان هذا الملك عظيما فحهم، وتغلب على يونان وألزمهم الوظائف التي كانت عليهم لأبائه، وملكهم يومئذ الاسكندر بن فيلبس وكان عمره ست عشرة سنة، فطمع فيه دارا وطلب الضريبة فمنع وأجاب بالاغلاظ، وزحف إليه فقاتله وقتله، واستولى الإسكندر على ملك فارس وما وراءه. انتهى كلام ابن العميد.

الطبقة الثالثة من الفرس وهم الأشكانية ملوك الطوائف وذكر دولهم ومصاير أمولهم إلى نهايتها

هذه الطبقة من ملوك الفرس يعرفون بالاشكانية، وكافها أقرب إلى الغين، من ولد أشكان بن دارا الأكبر وقد مر ذكره، وكانوا من أعظم ملوك الطوائف عند افتراق أمر الفرس. وذلك أنّ الإسكندر لما قتل دارا الأصغر استشار معلمه ارسطو في أمر الفرس، فأشار عليه أنّ يفرق رياستهم في أهل البيوت منهم، فتفترق كلمتهم ويخلص لك أمرهم. فولّى الاسكندر عظماء النواحي هن الفرس والعرب والنبط والجرامقة كلا على عمله، واستبد كل بناحية. واستقام له ملك فارس والمشرق. ولما مات الاسكندر قسم ملكه بين أربعة من أمرائه: فكان ملك مقدونية وأنطاكيه وما إليها من ممالك

الروم لفيلبس من قواده. وكانت الاسكندرية ومصر والمغرب لفيلادفس، ولقبه بطليموس. وكان الشام وبيت المقدس وما إلى ذلك لدمطوس. وكان السواد إلى الجبال والأهواز وفارس ليلاقش سيلقس، ولقبه انطيخس، وأقام السواد في ملكته أربعا وخمسين سنة.

قال الطبري: وكان أشك بن دارا الأكبر خلفه أبوه بالري، فنشأ بها، فلما كبر

وهلك الاسكندر، جمع العساكر وسار يريد أنطيخس، والتقيا بالموصل، فانهزم أنطيخس وقتل. وغلب أشك على السواد من الموصل إلى الري وأصبهان. وعظمه سائر ملوك الطوائف لشرفه ونسبه، وأهدوا إليه من غير أنّ يكون له عليهم إيالة في عزل ولا تولية، بل إنما كانوا يعظمونه ويبدأون باسمه في المخاطبات، وهم مع ذلك متعادون تختلف حالاتهم بعضهم مع بعض في الحرب والمهادنة. وقال بعضهم: كان رجل من نسل الملوك من فارس مملكا على الجبال وأصبهان والسواد لفوات الاسكندر. ثم غلب بعد ذلك ولده على السواد، وجمعه إلى الجبال وأصبهان، وصار كالرئيس على سائر ملوك الطوائف. ولذلك قصر ذكر هؤلاء الملوك دون غيرهم من

الطوائف. فمنهم من قال أنه أشك بن دارا كما قدمناه، وهو قول الفرس، وقيل هو أشك عقب اسفنديار بن كستالسب، بينهما ستة آباء، وقيل هو أشك بن أشكان الأكبر من ولد كينية بن كيقباذ. ويقال: إنه كان أعظم الاشكانية، وقهر ملوك الطوائف واستولى على إصطخر لاتصالها بأصبهان وتخطاها إلى ما يتاخمها من بلاد فارس، فغلب عليه واتصل ملكه عشرين سنة. وملك بعده جورا بن أشك وغزا بني إسرائيل بسبب قتلهم يحيى بن زكريا.

وقال المسعودي: ملك أشك بن أشك بن دارا بن اشكان الأول منهم عشر سنين،

ثم سابور ابنه ستين سنة، وغزا بني إسرائيل بالشام، ونهب أموالهم ولإحدى وأربعين من ملكه ظهر عيسى صلوات الله عليه بأرض فلسطين. ثم ملك عمه جور عشر سنين، ثم

نيرو بن سابور إحدى وعشرين سنة. وفي أيامه غلب طيطش قيصر على بيت المقدس وخربها وأجلى منها اليهود كما مر، ثم جور بن نيرو تسع عشرة سنة، ثم جرسي أخوه أربعين سنة، ثم هرمز أخوهما أربعين سنة، ثم ابنه أردوان بن هرمز خمس عشرة سنة، ثم ابنه كسرى بن أردوان أربعين سنة، ثم ابنه يلاش ابن كسرى أربعا وعشرين سنة.

وفي أيامه غزت الروم السواد مع قيصر، يطلبون بثأر أنطيخش ملك

أنطاكية من اليونان الذي قتله اشك جد يلاوش هذا. فجمع يلاوش العساكر، واستنفر ملوك الطوائف بفارس والعراق، فوجهوا له بالمدد، واجتمع له أربعمائة ألف من المقاتلة، وولى عليهم صاحب الحصر وكان من ملوك الطوائف، على السواد فزحف إلى قيصر فقتله، واستباح عسكر الروم، وقتل وفتح أنطاكية، وانتهى إلى الخليج. وولي من بعد يلاوش ابنه اردران بن يلاوش ثلاث عشرة سنة. ثم خرج عليه أردشير بن بابك بن ساسان، وجمع ملك فارس من أيدي ملوك الطوائف، وجدد الدولة الساسانية كما نذكر في أخبارهم. قال الطبري: وفي أيام الطوائف كانت ولادة عيسى صلوات الله عليه لخمس وستين من غلب الاسكندر على بابل، ولإحدى وخمسين من ملك الاشكانية، والنصارى يزعمون أنّ ذلك كان لمضي ثلثمائة وثلاث وستين من غلب الإسكندر على بابل. قال الطبري: وجميع سني الطوائف من لدن الإسكندر إلى ظهور أردشير بن بابك واستوائه على الأمر مائتان وستون سنة، وبعضهم يقول خمسمائة وثلاث وعشرون سنة. وقال بعضهم: ملك في هذه المدة منهم تسعون ملكاً على تسعين طائفة كلهم يعظم ملوك المدائن منهم وهم الأشكانيون.

الطبقة الرابعة من الفرس وهم الساسانية والخبر عن ملوكهم الأكاسرة إلى حين الفتح الإسلامي

هذه الدولة كانت من أعظم الدول في الخليقة وأشدها قوة، وهي إحدى الدولتين اللتين صبحهما الإسلام في العالم وهما دولة فارس والروم. وكان مبدأ أمرها من توثب اردشير بن بابك شاه ملك مرو وهو ساسان الأصغر ابن بابك بن سامان بن بابك بن هرمز بن ساسان الأكبر ابن كي بهمن، وقد تقدم لنا ذكر كي بهمن، وأن ابنه ساسان غضب لما لوج للملك أخوه دارا وهو لي بطن أمه، ولحق بجبال إصطخر، فأقام هنالك وتناسل ولده بها إلى أنّ كان ساسان الأصغر منهم، فكان قيما على بيت النار

لا صطخر وكان شجاعا. وكانت امرأته من بيت ملك فولدت له ابنه بابك، وولد لبابك اردشير، وضبطه الدارقطني: بالراء المهملة.

وكان على إصطخر يومئذ فلك من ملوك الطوائف، وله عامل على دارا بجرد

خصي اسمه سري، فلما أتت لأردشير سبع سنين، جاء به جده ساسان إلى ملك إصطخر وشاله أنّ يضمه إلى عامل دارا بجرد الخصي يكفله، إلى أنّ تتم تربيته. ولما هلك عامل دارا بجرد فأقام بأمره فيها أردشير هذا وملكها. وكان له علم من المنجمين بأن الملك سيصير إليه فوثب على كثير من ملوك الطوائف بأرض فارس فاستولى عليهم، وكتب إلى أبيه بذلك، ثم وثب على عامل إصطخر فغلبه على ما بيده، وملك إصطخر وكثيرا من أعمال فارس.

وكان زعيم الطوائف يومئذ اردران ملك الأشكانيين، فكتب إليه يسأله أنّ يتوجه،

فعنفه وكتب إليه بالشخوص، فامتنع وخرج بالعساكر من اصطخر، وقدم موبذان روريرت، فتوجه ثم فتح كرمان، وبها ملك من ملوك الطوائف، وولى عليها ابنه. وكتب إليه اردوان يتهدده، وأمر ملك الأهواز من الطوائف أنّ يسير إليه، فرجع مغلوباً. ثم سار اردشير إلى أصبهان فقتل ملكها واستولى عليها، ثم إلى الأهواز فقتل ملكها كذلك، ثم زحف إليه اردوان عميد الطوائف فهزمه أردشير وقتله. وملك همذان والجبل وأذربيجان وأرمينية والموصل ثم السواد. وبنى مدينة على شاطىء دجلة شرقي المدائن.

ثم رجع إلى اصطخر ففتح سجستان ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوارزم إلى تخوم خراسان وبعث بكثير من الرووس إلى بيت النيران. ثم رجع إلى فارس ونزل صول وأطاعه ملك كوشان ومكران، ثم ملك البحرين، بعد أنّ حاصرها مدة، وألقى ملكها بنفسه في البحر. ثم رجع فترل المدائن، وتوجه ابنه سابور ولم يزل مظفرا، وقهر الملوك حوله، وأثخن في الأرضي، ومدن المدن، واستكثر العمارة، وهلك لأربع عشرة سنة من ملكه بأصطخر بعد مقتل اردوان.

وقال هشام بن الكلبي: قام أردشير في أهل فارس يريد الملك الذي كان لآبائه قبل الطوائف، وأن يجمعه لملك واحد. وكان أردوان ملكا على الأردوانيين وهم أنباط السواد، وكان بابا ملكا على الأرمانيين وهم أنباط الشام، وبينهما حرب وفتنة، فاجتمعا

على قتال أردشير فحارباه مناوبة. ثم بعث اردشير إلى بابا في الصلح على أنّ يدعه في الفلك ويخلي بابا بينه وبين اردوان، فلم يلبث أنّ قتل اردوان واستولى على السواد. لأعطاه بابا الطاعة بالشام، ودانت له سائر الملوك وقهرهم. ثم رجع إلى أمر

العرب، وكانت بيوتهم على ريف العراق يترلون الحيرة، وكانوا ثلاث فرق: الاولى تنوخ، ومنهم قضاعة الذين كنا قدمنا أنهم كانوا اقتتلوا مع منك من التبابعة وأتى بهم. وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر، ويضعونها غربي الفرات بين الانبار والحيرة وما فوقها. فأنفوا من الاقامة في مملكة اردشير، وخرجوا إلى البرية. والثانية العباد الذين كانوا يسكنون الحيرة أو وطنوها. والثالثة الأحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم، و لم

يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا بهم فملك هؤلاء الأحلاف الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عدي وقومه فعمروا الحيرة والأنبار ونزلوا وخربوها، وكانتا من بناء العرب أيام بختنصر ثم عمرها بنو عمرو بن عدي لما أصاروها حزلا لملكهم إلى أنّ صبحهم الإسلام. واختط العرب الإسلاميون مدينة الكوفة فدثرت الحيرة وكان اردشير لما ملك أسرف في قمل الأشكانية حتى أفناهم لوصية جده، ووجد بقصر اردوان جارية استملحها، ودفعت عن نفسها القتل بانكار نسبها فيهم، فقالت: أنا مولاة وبكر، فواقعها وحملت، وظنت الأمن على نفسها فأخبرته بنسبها، فتنكر ودفعها إلى بعض مرازبته ليقتلها، فاسبقاها ذلك المرزبان، إلى أنّ شكا إليه أردشير قلة الولد والخوف على ملكه من الانقطاع، وندم على ما سلف منه من قتل الجارية وإتلاف الحمل. فأخبره بحياتها وأنها ولدت ولداً ذكراً وأنه سماه سابور، وأنه قد كملت خصاله وآدابه، فاستحضره أردشير واختبره فرضيه وعقد له التاج. ثم هلك أردشير فملك سابور من بعده، فأفاض العطاء في أهل الدولة، وتخير العمال، ثم شخص إلى خراسان فمهد أمورها، ثم رجع فشخص إلى نصيبين فملكها عنوة، فقتل وسبى وافتتح من الشام مدنا، وحاصر أنطاكية، وبها من الملوك اريانوس، فاقتحمها عليه وأسره وحمله إلى جنديسابور فحبسه بها إلى أنّ فاداه على أموال عظيمة، ويقال على بناء شاذروان تستر، ويقال جدع أنفه وأطلقه، ويقال: بل قتله. وكان بحبال تكريت لين دجلة والفرات، مدينة يقال لها الحضر، وبها ملك ص الجرامقة يقال له الساطرون من ملوك الطوائف وهو الذي يقول فيه الشاعر

وأرى الموت قد تدلى من الحضر — على رب أهله الساطرون
ولقد كان آمنا للدواهي — ذا ثراءٍ وجوهر مكنون

وقال المسعودي وهو الساطرون بن إسطرون من ملوك السريانيين. قال الطبري: وتسميه العرب الضيزن وقال هشام بن محمد الكلبي: من قضاعة وهو الضيزن بن معاوية بن العميد بن الأجذم بن عمرو بن النخع بن سليم، وسنذكر نسب سليم في قضاعة. وكاد بأرض الجزيرة وكان معه من قبائل قضاعة ما لا يحصى وكان ملكه قد بلغ الشام فخلف سابور في غزاته إلى خراسان، وعاث في أرض السواد، فشخص إليه سابور عند انقضاء غزاته حتى أناخ على حصنه وحاصره أربع سنين قال الأحمشى:

ألم تر للحضر إذ أهله — بنعمة وهل خالد من نعم
أقام به سابور الجنود — حولين يضرب فيه القمم

ثم أنّ ابنة ساطرون واسمها النضيرة خرجت إلى ربض المدينة، وكانت من أجملى النساء، وسابور كان جميلا، فأشرفت عليه، فشغفت به وشغف بها وداخلته في أمر الحصن ودلته على عورته فدخله عنوة، وقتل الضيزن وأباد قضاعة الذين كانوا معه، وأكثرهم بنو حلوان، فانقرضوا وخرب حصن الحضر. وتال عدي ابن زيد في رثائه:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة — تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلساً — فللطير في ذراه وكور

لم يهبه ريح الفنون فبا د الملك عنه فبابه مهجور

ثم أعرس بالنضيرة بعين النمر وباتت ليلها تتضور في فراشها، وكان من الحرير محشوا بالقز والقسي، فإذا ورقة آس بينها وبين الفراش تؤذيها. فقال: ويحك! ما كان أبوك يغذيك؟ قالت الزبد والمح والشهد وصفو الخمر. فقال: وأبيك لأنا أحدث عهدا ويبعد ودا من أبيك الذي غذاك بمثل هدا. وأمر رجلاً ركب فرسا جموحاً وعصب غدائرها بذنبه، ولم يزل يركضه حتى تقطعت أوصالها.

وعند ابن إسحق: أنّ الذي فتح حصن الحضر وخربه وقتل الساطرون هو سابور ذو الأكتاف. وقال السهيلي لا يمح: لأن الساطرون من ملوك الطوائف، والذي أزال ملكهم هو أردشير وابنه سابور، وسابور ذو الأكتاف بعدهم بكثير، وهو التاسع من ملوك اردشير. قال السهيلي. وأول من ملك الجرة من ملوك الساسانية سابور بن

أردشير. والحيرة وسط بلاد السواد وحاضرة العرب، ولم يكن لأحد قبله من آل ساسان حتى استقام العرب على طاعته. وولى عليهم عمرو بن عدي جد آل المنذر بعده، وأنزله الحيرة فجبى خراجهم وإتاوهم

واستبعدهم لسلطانه، وقبض أيديهم عن الفساد بأقطار ملكه، وما كانوا يرومونه بسواد العراق من نواحي مملكته، وولى بعده ابنه امرأ القيس بن عمرو بن عدي، وصار ذلك ملكا لآل المنذر بالحيرة توارثوه حسبما نذكر بعد.

وهلك سابور لثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه هرمز ويعرف بالبطل، فملك

سنة واحدة، وولي بعده ابنه بهرام بن هرمز، وكان عامله على مذحج من ربيعة ومضر وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز امرو القيس بن عمرو بن عدي، وهو أول من تنضر من ملوك الحيرة وطال أمد ملكه.

قال هشام بن الكلبي: ملك مائة وأربع عشرة سنة من لدن أيام سابور اه. وكان

بهرام بن هرمز حليما وقورا، وأحسن السيرة واقتدى بآبائه. وكان ماني الثنوي الزنديق صاحب القول بالنور والظلمة قد ظهر في أيام جده سابور، فاتبعه قليلا ثم رجع إلى المجوسية دين آبائه. ولما ولي بهرام بن هرمز جمع الناس لامتحانه، فأشادوا بكفره وقتله وقالوا زنديق. قال المسعودي: ومعناه أنّ من عدل عن ظاهر إلى تأويله ينسبونه إلى تفسير كتاب زرادشت الذي قدمنا أنّ اسمه زنده فيقولون زنديهء، فعربته العرب فقالوا زنديق، ودخل فيه كل من خالف الظاهر إلى الباطن المنكر ثم اختص في عرف الشرع بمن يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

ثم هلك بهرام بن هرمز لثلاث سنين وثلاثة أشهر من دولته، وولي ابنه بهرام ثماني

عشرة سنة، عكف أولها على اللذات، وامتدت أيدي بطانته إلى الرعايا بالجور والظلم فخربت الضياع والقرى، حتى نبهه الموبذان لذلك بمثل ضربه له، وذلك أنه سامره في ليلة قمر راجعا من الصيد، فسمعا بومين يتحدثان في خراب. فقال بهرام: ليت شعري هل أحد فهم لغات الطير؟ فقال له الموبذان: نعم إنا نعرف ذلك أيها الملك! وإنهما يتحاوران في عقد نكاح، وإن الانثى اشترطت عليه إقطاع عشرين ضيعة من الخراب، فقبل الذكر وقال: إذا دامت أيام بهرام أقطعتك ألفا. فتفطن بهرام لذلك وأفاق من غفلته، وأشرف على أحوال ملكه

مباشرا بنفسه وقابضا أيدي البطانة عن الرعية وحسنت أيامه إلى أنّ هلك. وولي بعده بهرام بن بهرام بن بهرام، ثلاثة أسماء

متشابهة، وتقلب شاه وكان مملكا على سجستان، وهلك لأربع سنين من دولته، وملك بعده أخوه قرسين بن بهرام تسع سنين أخرى. وكان عادلا حسن السيرة، وملك بعده ابنه هرمز بن قرسين فوجل منه الناس لفظاظته. ثم أبدل من خلقه الشر بالخير، وسار فيهم بالعدل والرفق والعمارة، وهلك لسبع سنين من ولايته. وكان هؤلاء كلهم يترلون جنديسابور من خراسان. ولما هلك ولم يترك ولدا شق ذلك على أهل مملكته لميلهم إليه، ووجدوا ببعض نسائه حملا فتوجوه وانتظروا إتمامه. وقيل بل كان هرمز أبوه أوصى بالملك لذلك الحمل فقام أهل الدولة بتدبير الملك ينتظرون تمام الولد.

وشاع في أطراف المملكة أنهم يتلومون صبيا في المهد، فطمع فيهم الترك والروم. وكانت بلاد العرب أدنى إلى بلادهم، وهم أحوج إلى تناول الحبوب من البلاد لحاجاتهم إليها، بما هم فيه من الشظف وسوء العيش. فسار منهم جمع من ناحية البحرين وبلاد القيس ووحاظة فأناخوا على بلاد فارس من ناحيتهم، وغلبوا أهلها على الماشية والحرث والمعايش، وأكثروا الفساد، ومكثوا في ذلك حينا ولم يغزهم أحد من فارس ولا دافعوهم لصغر الملك. حتى إذا كبر وعرضوا عليه ا أمور فأحسن فيها الفصل، وبلغ ستة عشر سنة من عمره، ثم أطاق حمل السلاح، نهض حينئذ للاستبداد بملكه.

وكان أول شيء ابتدأ به شان العرب، فجهز إليهم العساكر وعهد إليهم أنّ لا يبقوا على أحد ممن لقوا منهم. ثم شخص بنفسه إليهم وغزاهم وهم غازون ببلاد فارس فقتلهم أبرح القتل، وهربوا أيامه وأجاز البحر في طلبهم إلى الخط، وتعدى إلى بلاد البحرين قتلا وتخريبا. ثم غزا بعدها رووس العرب من تميم وبكر وعبد القيس فأثخن فيهم، وأباد عبد القيس ولحق ففهم بالرمال. ثم أتى اليمامة فقتل وأسر وخرب، ثم عطف إلى بلاد بكر ولغلب ما بين مملكه فارس ومناظر الروم بالشام، فقتل من وجد هنالك من العرب وطم مياههم، وأسكن من رجع إليه من بني تغلب دارين من البحرين والخط، ومن بني تميم هجروا من بكر بن وائل كرمان ويدعون بكر إياد، ومن بني حنظلة الاهواز. وبنى مدينة الانبار والكرخ والسوس.

وفيما قاله غيره أنّ إيادا كانت تشتو بالجزيرة وتصيف بالعراق وتشن الغارة. وكانت

تسمى طمّا لانطباقها على البلاد وسابور يومئذ صغير، حتى إذا بلغ القيام على ملكه شرع في غزوهم، ورئيسهم يومئذ الحرث بن الاغر الأيادي، وكتب إليهم بالنذر بذلك رجل من إياد كان بين ظهراني الفرس فلم يقبلوا، حتى واقعتهم العساكر فاستلحمهم، وخرجوا إلى أرض الجزيرة والموصل إجلاء ولم يعاودوا العراق. ولما كان الفتح طلبهم المسلمون بالجزية مع تغلب وغيرهم، فأنفوا ولحقوا بأرض الروم.

وقال السهيلي عند ذكر سابور بن هرمز: إنه كان يخلع أكتاف العرب، ولذلك لقبه العرب ذو الأكتاف، وإنه أخذ عمرو بن تميم بأرضهم بالبحرين وله يومئذ ثلثمائة سنة، وإنه قال إنما أقتلكم معاشر العرب لأنكم تزعمون أنّ لكم دولة. فقال له عمرو بن تميم: ليس هذا من الحزم أيها الملك! فإن يكن حقا فليس قتلك إياهم

بدافعه وقد تكون قد اتخذت يدا عندهم ينتفع بها ولدك وأعقاب قومك، فيقال إنه استبقاه ورحم كبره. ثم غزا سابور بلاد الروم وتوغل فيها ونازل حصونهم.

وكان ملوك الروم على عصره: قسطنطين وهو أول من تنصر من ملوكهم، وهلك قسطنطين وملك بعده إليانوس من أهل بيته وانحرف عن دين النصرانية وقتل الأساقفة وهدم البيع، وجمع الروم وانحدر لقتال سابور. واجتمعت العرب معهم لثأرهم عند سابور بمن قتل منهم، وسار قائد إليانوس واسمه يوسانوس في مائة وسبعين ألفا من المقاتلة حتى دخل أرض فارس، وبلغ خبره وكثرة جموعه إلى سابور فأحجم عن اللقاء، وأجفل وصبحه العرب ففضوا جموعه وهرب في فل من عسكره، واحتوى إليانوس على خزائنه وأمواله، واستولى على مدينة طبسون من مدائن ملكه. ثم استنفر أهل النواحي، واجتمعت إليه فارس وارتجع مدينة طبسون وأقاما متظاهرين.

وهلك إليانوس بسهم أصابه، فبقي الروم فوضى وفزعوا إلى يوسانوس القائد أنّ تملكوه، فشرط عليهم الرجوع إلى دين النصرانية كما كان قسطنطين فقبلوا. وبعث إليه سابور في القدوم عليه، فسار إليه في ثمانين من أشراف الروم، وتلقاه سابور وعانقه وبالغ في إكرامه، وعقد معه الصلح على

أنّ يعطي الروم قيمة ما أفسدوه من بلاد فارس، وأعطوا بدلا عن ذلك نصيبين. فرضي بها أهل فارس. وكانت مما أخذه الروم من أيديهم فملكها سابور وشرد عنها أهلها خوفا من سطوته. فنقل إليها من أهل إصطخر وأصبهان وغيرهما.

وانصرف يوسانوس بالروم وهلك عن قريب، ورجع سابور إلى بلاده. وفيما نقله بعض الإخباريين أنّ سابور دخل بلاد الروم مكرا وعثر عليه. فاخذ وحبس في جلد ثور. وزحف ملك الروم بعساكره إلى جنديسابور، فحاصرها، وإن سابور هرب من حبسه ودخل جنديسابور المدينة، ثم خرج إلى الروم فهزمهم وأسر ملكهم قيصر، وأخذه بعمارة ما خرب من بلاده، ونقل التراب والغروس إليها، ثم قطع أنفه وبعث به على حمار إلى قومه. وهي قصة واهيه تشهد العادة بكذبها.

ثم هلك سابور لاثنتين وسبعين سنة من ملكه وهو الذي بنى مدينة نيسابور وسجستان، وبنى الإيوان المشهور لمقعد ملوكهم. وملك لعهده امرو القيس بن غدي، وأوصى بالملك لأخيه أردشير بن هرمز، وفتك في أشراف فارس وعظمائهم، فخلعوه لأر بعين سنة من دولته وملكوا سابور بن ذي الأكتاف، فاستبشر الناس برجوع ملك أبيه إليه. وأحسن السيرة ورفق بالرعية، وحمل على ذلك العمال والوزراء والحاشية، ولم يزل عادلا، وخضع له عمه اردشير المخلوع، وكانت له حروب مع إياد وفي ذلك يقول شاعرهم:

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب إياد حولها الخيل والنعم

وقيل أنّ هذا الشعر إنما قيل في طبور ذي الأكتاف. ثم هلك سابور لخمس سنين من دولته، وملك أخوه بهرام ويلقب كرمان شاه، وكان حسن السياسة، وهلك لإحدى عشرة سنة من دولته، رماه بعض الرماة بسهم في القتال فقتله، وملك بعده ابنه يزدجرد الأثيم. وبعض نسابة الفرس يقول إنه أخوه وليس ابنه، وإنما هو ابن ذي

الأكتاف. وقال هشام بن محمد: كان فظا غليظا كثير المكر والخديعة، يفرغ في ذلك عقله وقوة معرفته، وكان معجبا برأيه سيء الخلق كثير الحدة يستعظم الزلة الصغيرة، ويرد الشفاعة من أهل بطانته متهما للناس قليل المكافأة. وبالجملة فهو سيئ الأحوال مذمومها. واستوزر لأول ولايته برسي الحكيم ويسمى فهربرشي ومهرمرسة، وكان ممقدما في الحكمة والفضائل. وأمل أهل المملكة ألط تمرب من يزدجرد الأثيم فلم يكن ذلك. واشتد أمره على الأشراف بالاهانة، وعلى من دونهم بالقتل. وبينما هو جالس في

مجلسه يوما إذا بفرس عابو لم يطق أحد إمساكه قد وقف ببابه، فقام إليه ليتولى إمساكه بنفسه، فرمحه فمات لوقته لإحدى وعشرين سنة من ملكه. وملك بعده ابنه بهرام بن يزدجرد ويلقب ببهرام جور، وكان نشووه ببلاد الجيرة مع العرب، أسلمه أبوه إليهم فربي بينهم وتكلم بلغمهم ولما

مات أبوه قدم أهل فارس رجلا من نسل أردشير، ثم زحف بهرام جوز بالعرب فاستولى على ملكه كما نذكر في أخبار آل المنذر.

وفي أيام بهرام جور سار خاقان ملك الترك إلى بلاد الصغد من ممالكه فهزمه بهرام وقتله، ثم غزا الهند وتزوج ابنة ملكهم، فهابته ملوك الأرض، وحمل إليه الروم الأموال على سبيل المهادنة. وهلك لتسع وعشرين من دولته، وملك ابنه يزدجرد بن بهرام جور واستوزر مهربرسي الحكيم الذي كان أبوه اسوزره، وجرى في ملكه بأحسن سيرة من العدل والإحسان. وهو الذي شرع في بناء الحائط بناحيه الباب الأبواب، وجعل جبل الفتح سدا بين بلاده وما وراءها من امم الأعاجم، وهلك لعشرين سنة من دولته. وملك من بعده ابنه هرمز، وكان ملكا على سجستان، فغلب على الدولة ولحق أخوه فيروز بملك الصغد بمرو الروذ.

وهذه ا أمم هم المعروفون قديما بالهياطلة وكانوا بين خوارزم وفرغانة، فأمر فيروز

بالعساكر وقاتل أخاه هرمز فغلبه وحبسه. وكانت الروم قد امتنعت عن حمل الخراج، فحمل إليهم العساكر مع وزيره مهربرسي، فأثخن في بلادهم حتى حملوا ما كانوا يحملونه، واستقام أمره وأظهر العدل. وأصابهم القحط في دولته سبع سنين، فأحسن تدبير الناس فيها، وكف عن الجباية وقسم الأموال، ولم يهلك في تلك السنين أحد اتلافاً. وقيل إنه استسقى لرعيته من ذلك القحط فسقوا، وعادت البلاد الى أحسن ما كانت عليه. وكان لأول ما ملك أحسن إلى الهياطلة جزاء بما أعانوه على أمره. فقوى ملكهم أمره. وزحفوا إلى أطراف ملكه وملكوا طخارستان وكثيراً من بلاد خراسان، وزحف هو إلى قتالهم فهزموه وقتلوه وأربعة بنين له وأربعة إخوة، واستولوا على خراسان بأسرها. وسار إليهم رجل من عظماء الفرس من أهل شيراز، فغلب على خراسان وأخرجهم منها حتى ألقوا بجميع ما أخذوه من عسكر فيروز من الأسرى والسبي. وكان مهلكه لسبع وعشرين من دولته. وبنى المدن بالري

وجرجان وأذربيجان.

وقال بعضهم: أنّ ملك الهياطلة الذي سار إلى فيروز اسمه خشتوا والرجل الذي استرجع خراسان من يده هو خرسوس من شمل منوشهر، وأن فيروز استخلفه لما سار إلى خشتوا والهياطلة على مدينتي الملك، وهما طبسون

ونهرشير، فكان من أمره مع الهياطلة بعد فيروز ما تقدم. وملك بعد فيروز بن يزدجرد ابنه يلاوش ابن فيروز، ونازعه أخوه قباذ الملك، فغلبه يلاوش ولحق قباذ بخاقان ملك الترك يستنجده، وأحسن يلاوش الولاية والعدل، وحمل أهل المدن على عمارة ما خرب من مدنهم، وبنى مدينة ساباط بقرب المدائن. وهلك لأربع سنين من دولته، وملك من بعده أخوه قباذ بن فيروز وكان قله سار بعساكر الترك أمده بها خاقان، فبلغه الخبر بمهلك أخيه وهو بنيسابور من طريقه، وقد لقي بها ابنا كان له هنالك حملت به أمه منه عند مروره ذلك إلى خاقان. فلما أحل بنيسابور ومعه العساكر، وسأل عن المرأة فأحضرت ومعها الخبر، وجاء الخبر هالك بمهلك أخيه يلأوش، فتيفن بالمولود وسار إلى سرحد الذي كان أبوه فيروز استخلفه على المدائن، ومال الناس إليه دون قباذ، واستبد عليه. فلما كبر وبلغ سن الاستبداد بأمره انف من استبداد سرحد عليه، فبعث إلى اصبهبذ البلاد وهو سابور مهران، فقدم عليه وقبض على سرحد وحبسه ثم قتله. ولعشرين من دولته حر وخلع، ثم عاد إلى الملك.

وصورة الخبر عن ذلك أنّ مزدك الزنديق كان إباحيا، وكان يقول باستباحة أموال الناس وأنها فيء، وأنه ليس لأحد ملك شيء ولا حجره، والأشياء كلها ملك لله مشاع بين الناس، لا يختص به أحد دون أحد وهو لمن احتاره. فعثر الناس منه على متابعة مزدك في هذا الاعتقاد، واجتمع أهل الدولة فخلعوه وحبسوه، وملكوا جاماسات أخاه. وخرج رزمهر شاكيا داعيا لقباذ، ويقرب إلى الناس بقتل المزدكية وأعاد قباذ إلى ملكه، ثم سعت المزدكية عنده في رزمهر بانكار ما أتى قبلهم، فقبله واتهمه الناس برأي مزدك فانتقضت الأطراف وفسد الملك، وخلعوه وحبسوه وأعادوا جاماسات.

وفر قباذ من محبسه، ولحق قباذ بالهياطله وهم الصغد مستجيشا لهم، ومر في طريقه بأبوشهر فتزوج بنت ملكها وولدت له انوشروان. ثم أمده ملك الهياطلة، فزحف إلى

المدائن لست ممنين من مغيبه، وغلب أخاه جاماسات واستولى على الملك. ثم غزا بلاد الروم وفتح آمد وسبى أهلها وطالت مدته، وابتنى المدن العظيمة، منها مدينة اراجان بين الأهواز وفارس. ثم هلك لثلاث وأربعين سنة من ملكه في الكرة ا أولى. وملك ابنه انوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد، وكان يلي الاصبهبذ، وهي الرياسة على الجنود. ولما ملك فى ق اصبهبذ البلاد على أربعة: فجعل أصبهبذ المشرق بخراسان والمغرب بأذربيجان وبلاد الخزر، واسترد البلاد التي تغلب عليها جيران الأطراف من الملوك، مثل السند وبست الرخج وزابلستان وطخارستان ودهستان. وأثخن في امة البازر وأجلى بقيتهم. ثم أدهنوا واستعان بهم في حروبه. وأثخن في امة صول واستلحمهم، وكذلك الجرامقة وبلنجر واللان. وكانوا يجاورون ارمينية ويتما أون على كزوها، فبعث إليهم العساكر واستلحموهم، وأنزل بقيتهم أذربيجان.

وأحكم بناء الحصون التي كان بناها قباذ وفيروز بناحية صول واللان لتحصين البلاد، وأكمل بناء الأبواب والسور الذي بناه جذه بجبل الفتح، بنوه على الأزماق المنفوخة تغوص في الماء كلما ارتفع البناء، إلى أنّ

استقرت بقعر البحر وشقت بالخناجر، فتمكن الحائط من الأرض ثم وصل السور في البر ما بين جبل الفتح والبحر. وفتحت فيه الأبواب، ثم وصلوه في شعاب الجبل، وبقي فيه إلى أنّ كمل.

قال المسعودي: إنه كان باقيا لعصره، والظن أنّ التتر خربوه بعد، لما استولوا على ممالك الإسلام في المائة السابعة، ومكانه اليوم في مملكة بني ذو شيخان ملوك الشمال منهم. وكان لكسرى انوشروان في بنائه خبر مع ملوك الخزر. ثم استفحل ملك الترك وزحف خاقان سيحور وقتل ملك الهياطلة واستولى على بلادهم، وأطاعه أهل بلنجر وزحف إلى بلاد صول في عشرة آلاف مقاتل. وبعث إلى أنو شروان يطلب منه ما أعطاه أهل بلنجر فى الفداء، وضبط انو شروان أرمينية بالعساكر، وامتنعت صول بملكها أنو شروان، والناحية الأخرى بسور الأبواب، فرجع خاقان خائبا. وأخذ انو شروان في اصلاح السابلة والأخذ بالعدل، وتفقد أهل المملكة، وتخير الولاة والعمال، مقتدياً بسيره اردشير بن بابك جده.

ثم سار إلى بلاد الروم، وافتتح حلب وقبرص وحمص وأنطاكية ومدينة هرقل ثم الإسكندرية، وضرب الجزية على ملوك القبط، وحمل إليه ملك الروم الفدية، وملك الصين والتبت الهدايا. ثم غزا بلاد

الخزر وأدرك فسهم بثأره وما فعلوه ببلاده. ثم وفد عليه ابن ذي يزن من نسل الملوك التابعة يستجيشه على الحبشة، فبعث معه قائداً من قواده في جند من الديلم، فقتلوا مسروقا املك الحبشة باليمن وملكوها. وملك عليهم سيف بن ذي يزن وأمره أنّ يبعث عساكره إلى الهند فبعث إلى سرنديب قائدا من قواده، فقتل ملكها واستولى عليها، وحمل إلى كسرى أموالا جمة. وملك على

العرب في مدينة الحيرة، ثم سار نحو الهياطلة مطالبا بثار جده فيروز، فقتل ملكهم واستأصل أهل بيته.

وتجاوز بلخ وما وراءها، وأنزل عساكره فرغانة وأثخن في بلاد الروم، وضرب عليهم الجزى وكان مكرما للعلماء محبا للعلم، وفي أيامه ترجم كتاب كليلة، وترجمه من لسان اليهود وحله بضرب الأمثال، ويحتاج إلى فهم دقيق. وعلى عهده ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتين وأربعين سنة من ملكه، وذلك عام الفيل. وكذلك ولد أبوه عبد الله ابن عبد المطلب لأربع وعشرين سنة من ملكه.

قال الطبري: وفي أيامه رأى الموبذان الإبل الصعاب تقود الخيل العراب، وقد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فأفزعه ذلك وقص الرؤيا على من يعبرها، فقال: حادث يكون من العرب. فكتب كسرى إلى النعمان أنّ يبعث إليه بمن يسأله عما يريده، فبعث إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حسان بن نفيلة الغساني وقص عليه الرؤيا، فدله على سطيح وقال له ائته أنت. فسار إليه وقص عليه الرؤيا، فأخبره بتأويلها، وأن ملك العرب سيظهر والقصة معروفة.

وكان فيما قاله سطيح إنه يملك من آل كسرى أربعة عشر ملكا. فاستطال كسرى المدة، وملكوا كلهم في عشرين سنة أو نحوها.

وبعث عامل اليمن وهرز بهدية وأموال وطرت من اليمن إلى كسرى، فأغار عليها بنو يربوع من تميم وأخذوها. وجاء أصحاب العير إلى هوذة بن علي ملك اليمامة من بني حنيفة، فسار معهم إلى كسرى

فأكرمه، وتوجه بعقد من لؤلؤ، ومن ثم قيل له ذو التاج. وكتب إلى عامله بالبحرين في شانهم، وكان كثيرا ما يوقع ببني تميم ويقطعهم حتى سموه المكفر، فتحيل عليهم بالميرة ونادى مناديه في أحيائهم: أنّ الأمير يقسم فيكم بحصن المشعر ميرة، فتسايلوا إليه ودخلوا الحصن. فقتل الرجال وخصى

الصبيان. وجاءت هدية أخرى من اليمن على أرض الحجاز أجازها رجل من بني كنانة، فعدت عليه قيس وقتلوه وأخذوا الهدية، فنشأت الفتنة بين كنانة وقيس لأجل ذلك، وكانت بينهم حرب الفجار عشرين سنة، وشهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيرا، كان ينبل على أعمامه. ثم هلك أنو شروان لثمان وأربعين من دولته وملك ابنه هرمز.

قال هشام: وكان عادلا حتى لقد أنصف من نفسه خصيا كان له وكانت له خؤولة في الترك، وكان مع ذلك يقتل الأشراف والعلماء. وزحف إليه ملك الترك شبابة في ثلثمائة ألف مقاتل، فسار هرمز إلى هراة وباذغيس لحربهم، وخالفه ملك الروم إلى ضواحي العراق، وملك الخزر إلى الباب الأبواب، وجموع العرب إلى شاطىء الفرات. فعاثوا في البلاد ونهبوا، واكتنفه الأعداء من كل جانب. وبعث قائده بهرام صاحب الري إلى لقاء الترك، وأقام هو بمكانه من خراسان بيت هراة وباذغيس. وقاتل بهرام الترك وقتل ملكهم شبابة بسهم أصابه، واستباح معسكره وأقام بمكانه.

فزحف إليفه برمومة بن شبابة بالترك، فهزمه بهرام وحاصره في بعض الحصون

حتى استسلم. وبعث به إلى هرمز أسيراً ، وبعث معه بالأموال والجواهر والأنية والسلاح وسائر الأمتعة. يقال في مائتين وخمسين ألفاً من الأحمال. فوقع ذلك من هرمز أحسن المواقف. وغص أهل الدولة ببهرام وفعله، فأكثروا فيه السعاية. وبلغ الخبو إلى بهرام فخشيه على نفسه. فداخل من كان معه من المرازبة وخلعوا هرمز ودعوا لابنه ابرويز، وداخلهم في ذلك أهل الدولة، فلحق أبرويز باذربيجان خائفا على نفسه، واجتمع إليه المرازبة والاصبهبذيون فملكوه.

ووثب بالمدائن الأشراف والعظماء وتفدويه وبسطام خال ابرويز فخلعوا هرمز

وحبسوه وتحرزوا من قتله. وأقبل أبرويز بمن معه إلى المدائن فاستولى على الملك، ثم نظر في أمر بهرام وتحرز منه وسار إليه، وتوافقا بشط النهروان ودعا أبرويز إلى الدخول فى أمره، ويشترط ما أحب فلم يقبل ذلك، وناجزه الحرب فهزمه. ثم عاود الحرب مرارا وأحس ابرويز بالقتل من أصحابه، فرجع إلى المدائن منهزما، وعرض على النعمان أنّ يركبه فرسه فنجا عليها. وكان أبوه محبوساً بطبسون فاخبر الشبر وشاوره، فأشار عليه بقصد مريق ملك الروم يستجيشه، فمضى لذلك ونزل المدائن لاثنتي عشرة سنة من ملكه.

وفي بعض طرق هذا الخبر أنّ أبرويز لما استوحش من أبيه هرمز لحق باذربيجان واجتمع عليه مع من اجتمع و لم يحدث شيئا. وبعث هرمز لمحاربة بهرام قائدا من مرازبته فانهزم وقتل، ورجع فلهم إلى المدائن وبهرام في اتباعهم. واضطرب هرمز وكتبت إليه أخت المرزبان المهزوم من بهرام تستحثه للفلك. فسار إلى المدائن وملك،

وأتاه أبوه فتواضع له أبرويز وتبرأ له من فعل الناس، وأنه إنما حمله على ذلك الخوف. وسأله أنّ ينتقم له ممن فعل به ذلك، وأن يؤنسه بثلاثة من أهل النسب والحكمة يحادثهم في كل يوم، فأجابه واستأذنه في قتل بهرام جوبين، فأشار به. وأقبل بهرام حثيثا وبعث خاليه نفدويه وبسطام يستدعيانه للطاعة، فرد أسوأ رد وقاتل أبرويز واشتدت الحرب

لما رأى ابرويز فشل أصحابه شاور أباه ولحق بملك الروم، وقال له خالاه عند فصولهم من المدائن: نخشى أنّ يدخل بهرام المدائن ويملك أباك ويبعث فينا إلى ملك الروم. وانطلقوا إلى المدائن فقتلوا فرمز، ثم ساروا مع ابرويز وقطعوا الفرات، واتبعتهم عساكر بهرام وقد وصلوا إلى تخوم الروم وقاتلوهم، وأسروا نفدويه خال أبرويز ورجعوا عنهم. ولحق ابرويز ومن معه بانطاكية وبعث إلى قيصر موريق يستنجده، فأجابه وأكرمه وزوجه ابنته مريم، وبعث إليه أخاه بناطوس بستين ألف مقاتل وقائدهم، واشترط عليه الأتاوة إلي كان الروم يحملونها. فقبل وسار بالعساكر إلى اذربيجان ووافاه هنالك خاله نفدويه هاربا من الأسر الذي كانوا أسروه، ثم بعث العساكر من أذربيجان مع أصبهبذ الناحية، فانهزم بهرام جوبين ولحق بالترك، وسار أبرويز إلى المدائن فدخلها وفرق في الروم عشرين ألف ألف دينار، وأطلقهم إلى قيصر. وأقام بهرام عند ملك الترك وصانع ابرويز عليه ملك الترك وزوجته، حتى دست عليه من قتله. واغتم لذلك ملك الترك وطلقها من أجله. وبعث إلى أخت بهرام أنّ يتزوجها فامتنعت، ثم أخذ أبرويز في مهاداة قيصر موريق والطافه، وخلعه الروم وقتلوه وملكوا عليهم ملكا اسمه قوفا قيصر، ولحق ابنه بأبرويز فبعث العساكر على ثلاثة من القواد، وسار أحدهم ودوخوا الشام إلى فلسطين. ووصلوا إلى بيت المقدس فأخذوا اساقفتها ومن كان بها من الاقسة وطالبوهم بخشبة الصليمب، فاستخرجوها من الدفن وبعثوا بها إلى كسرى.

وسار منهم قائد اخر إلى مصر وإسكندرية وبلاد النوبة فملكوا ذلك كله. وقصد الثالث قسطنطينية وخيم على الخليج، وعاث في ممالك الروم،

ولم يجب أحد إلى طاعة ابن موريق. وقتل الروم قوفا الذي كانوا ملكوه لما ظهر من فجوره، وملكوا عليهم هرقل. فافتتح أمره بغزو بلاد كسرى، وبلغ نصيبين، فبعث كسرى قائدا من أساورته فبلغ صل وأقام عليها يمنع الروم المجاوزه. وجاز هرقل من مكان آخر إلى جند فارس، فأمر كسرى قائده بقتاله، فانهزم وقتل وظفر هرقل بحصن كسرى وبالمدائن. ووصل هرقل قريبا منها، ثم رجع. وأولع كسرى العقوبة بالجند المنهزمين، وكتب إلى سخراب بالقدوم من خراسان وبعثه بالعساكر، وبعث هرقل عساكره والتقيا بأذرعات وبصرى فغلبتهم عساكر فارس. وسار سخراب في أرض الروم يخرب ويقتل ويسبي حتى بلغ القسطنطينية ورجع، وعزله ابرويز عن خراسان وولى أخاه. وفي مناوبة هذا الغلب بين وارس والروم نزلت الآيات من أول سورة الروم.

قال الطبري: وأدنى الأرض التي أشارت إليها الآية هي أذرعات وبصرى التي

كانت بها هذه الحروب. ثم غلبت الروم لسبع سنين من ذلك العهد، واخبر المسلمون بذلك الوعد الكريم لما أهمهم من غلب فارس الروم لأن قريشا كانوا يتشيعون لفارس لأنهم غير دائنين بكتاب، والمسلمون يودون غلب الروم لأنهم أهل كتاب. وفي كتب التفسير بسط ما وقع في ذلك بينهم وابرويز هذا هو الذي قتل النعمان بن المنذر ملك العرب، وعامله على الحيرة سخطه بسعاية عدي بن زيد العبادي وزير النعمان، وكان قد قتل أباه وبعثه إلى كسرى ليكون عنده ترجمانا للعرب، كما كان أبوه قد فعل بسعايته في النعمان وحمله على أنّ يخطب إليه ابنته. وبعث إليه رسوله بذلك عدي بن زيد فترجم له عنه في ذلك مقابلة قبيحة أحفظت كسرى ابرويز مع ما كان تقدم له في منعه الفرس يوم بهرام كما تقدم. فاستدعاه ابرويز وحسبه بساباط، ثم أمر به فطرح للفيلة وولى على العرب بعده أياس بن قبيصة الطائي جزاء بولاء ابن عمه حسان يوم بهرام كما تقدّم.

ثم كان على عهده وقعة ذي قار لبكر بن وائل ومن معهم من عبس وتميم على الباهوت مسلحة كسرى بالحيرة ومن معه من طيء. وكان سببها أنّ النعمان بن المنذر أودع سلاحه عند هانيء بن مسعود الشيباني، وكانت شكة ألف فارس، وطلبها كسرى منه فأبى إلا أنّ يردها إلى بيته، فآذنه كسرى بالحرب وآذنوه بها. وبعث كسرى إلى أياس أنّ يزحف إليه بالمسالح التي كانت ببلاد العرب بأن يوافوا أياسا واقتتلوا بذي قار، وانهزمت الفرس ومن معهم. وفيها قال النبيصلى الله عليه وسلم: اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا، أوحى إليه بذلك أو نفث في روعه. قيل أنّ ذلك كان بمكة وقيل بالمدينة بعد وقعة بدر بأشهر. وفي أيام أبرويز كانت البعثة لعشرين من ملكه وقل لاثنتين وثلاثين حكاه الطبري. وبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه يدعوه إلى الإسلام كما تقدم في أخبار اليمن، وكما يأتي في أخبار الهجرة. ولما طال ملك ابرويز بطر واشر وخسر الناس في أموالهم، وولى عليهم الظلمة وضيق عليهم المعاش وبغض عليهم فلكه.

وقال هشام: جمع أبرويز من المال ما لم يجمعه أحد، وبلغت عساكره القسطنطينية وافريقية وكان يشتو بالمدائن ويصيف بهمدان، وكان له اثنتا عشرة ألف امرأة، وألف فيل، وخمسون ألف دابة. وبنى بيوت النيران، وأقام فيها اثني عشر ألف هربذ، وأحصى جبايته لثمان عشر سنة من ملكه، فكان أربعمائة ألف ألف مكررة مرتين وعشرون ألف ألف مثلها، فحمل إلى بيت المال بمدينة طبسون، وكانت هنالك أموال أخرى من ضرب فيروز بن يزدجرد، منها اثنا عشر ألف بدرة، في كل بدرة من الورق مصارفة أربعة آلاف مثقال، فتكون جملتها ثمانية وأربعين ألف ألف مثقال مكررة مرتين، في صنوف من الجواهر والطيوب والأمتعة والآنية لا يحصيها إلا الله تعالى.

ثم بلغ من عتوه واستخفافه بالناس أنه أمر بقتل المقيدين في سجونه، وكانوا ستة وثلاثين ألفا فنقم ذلك عليه أهل الدولة، وأطلقوا ابنه شيرويه واسمه قباذ، وكان محبوسا مع أولاده كلهم، لإنذار بعض المنجمين له بأن بعض ولده يغتاله، فحبسهم. وأطلق أهل الدولة شيرويه وجمعوا إليه المقيدين الذين أمر بقتلهم، ونهض إلى

قصور الملك بمدينة نهشير فملكها، وحبس أبرويز وبعث إلى ابنه شيرويه يعنفه. فمل يرض ذلك أهل الدولة وحملوه على قتله.

وقتل لثمان وثلاثين سنة من ملكه وجاءته أختاه بوران وازرميدخت فأسمعتاه وأغلظتا له فيما فعل، فبكى ورمى التاج عن رأسه، وهلك لثمانية أشهر من مقتل أبيه في طاعون هلك فيه نصف الناس أو ثلثهم. وكان مهلكه لسبع من الهجرة فيما قال السهيلي. ثم ولي ملك الفرس من بعده ابنه اردشير طفلا ابن سبع سنين لم يجدوا من بيت الملك سواه، لأن أبرويز كان قتل المرشحين كلهم من بنيه وبني أبيه، فملك عظماء فارس هذا الطفل أردشير، وكفله بهادرخشنش صاحب المائدة في الدولة، فأحسن سياسة ملكه وكان شهريران بتخوم الروم في جند ضمهم إليه ابرويز وحموهم هنالك، وصاحب الشورى في دولتهم، ولما لم يشاوروه في ذلك غضب وبسط يده في القتل، وطمع في الملك وأطاعه من كان معه من العساكر وأقبل إلى المدائن.

وتحضن بهادرخشنش بمدينة طبسون دار الملك، ونقل إليها الأموال والذخائر
وأبناء الملوك، وحاصرها شهريران فامتنعت، ثم داخل بعض العسس ففتحوا له الباب، فاقتحمها وقتل العظماء، واستصفى الأموال وفضح النساء. وبعث إلى اردشير الطفل الملك من قتله لسنة ونصف مر ملكه. وملك شهريران على التخت، ولم يكن من بيت الملك، وامتعض لقحل اردشير جماعة من عظماء الدولة وفيهم زادان فروخ وشهريران ووهب مؤدب الاساورة، وأجمعوا على قتل شهريران.

وداخلوا في ذلك بعض حرس الملك، فتعاقدوا على قتله. وكانوا يعملون قدام
الملك في الأيام والمشاهد سماطيين، ومر بهم شهريران بعض أيام بين السماطين وهم مسلحون، فلما حاذاهم طعنوه فقتلوه. وقتلوا العظماء بعد قتل اردشير الطفل، ثم ملكوا بوران بنت ابرويز، ودفعت أمر الدولة إلى قبائل شهريران من حرس الملك وهو فروخ بن ماخدرشيراز من أهل إصطخر، ورفعت رتبتة، وأسقطت الخراج عن الناس، وأمرت برم القناطر والجسور وضرب الورق، وردت خشبة الصليب على الجاثيليق ملك الروم، وهلكت لسنة وأربعة أشهر.

وملكوا بعدها خشنشده من عمومة ابرويز عشرين يوما، فملك أقل من شهر. ثم
مك. ازرميدخت بنت ابرويز، وكانت من اجل نسائهم. وكان عظيم فارس يومئذ فروخ هرمز اصبهبذ خراسان، فأرسل إليها في التزويج، فقالت هو حرام على الملكة، ودعته ليلة كذا فجاء، وقد عهدت إلى صاحب حرسها أنّ يقتله ففعل، فأصبح بدار الملك قتيلا واخفي أثره.

وكان لما سار إلى ازرميدخت استخلف خراسان ابنه رستم. فلما سمع بخبر أبيه
أقبل في جند عظيم حتى نزل المدائن وملكها، وسمل أزرميدخت وقتلها، وقيل سمها فماتت، وذلك لستة أشهر من ملكها. وملكوا بعدها رجلا من نسل أردشير بن بابك، وقتل لأيام قلائل. وقيل بل هو من ولد ابرويز اسمه فروخ زاذ بن خسرو، وجدوه بحصن الحجارة قريب نصيبين فجاووا به إلى المدائن وملكوه، ثم عصوا عليه فقتلوه.

وقيل لما قتل كسرى ابن مهرخشنش طلب عظماء فارس من يولونه الملك ولو من قبل النساء، فأتي برجل وجد بميسان اسمه فيروز بن مهرخشنش وتسمى أيضا خشنشدة، أمه صهار بخت بنت يرادقرار بن انو شروان فملكوه كرها، ثم قتلوه بعد أيام قلائل. ثم شخص رجل من عظماء الموالي وهو رئيس الخول إلى ناحية الغرب، فاستخرج من حصن الحجارة قرب نصيين ابنا لكرى كان لجأ إلى طبسون فملكوه، ثم خلعوه وقتلوه لستة أشهر من ملكه.

وقال بعضهم: كان أهل إصطخر قد ظفروا بيزدجرد بن شهريار بن أبرويز، فلما بلغهم أنّ أهل المدائن عصوا على خسرو فروخ زاذ، أتوا بيزدجرد من بيت النار الذي عندهم ويدعى اردشير فملكوه باصطخر وأقبلوا به إلى المدائن، وقتلوا فروخ زاذ خسرو لسنة من ملكه. واستقل يزدجرد بالملك. وكان أعظم وزرائه رئيس الموالي الذي جاء بفرخزاد خسرو من حصن الحجارة، وضعفت مملكة فارس وتغلب الأعداء على الأطراف من كل جانب. فزحف إليهم العرب المسلمون بعد سنتين من ملكه، وقيل بعد أربع. فكانت أخبار دولته كلها هي أخبار الفتح نذكرها هنالك، إلى أنّ قتل بمرو بعد نيف وعشرين سنة من ملكه.

هذه هي سياقة الخبر عن دولة هؤلاء الأكاسرة الساسانية عند الطبري. ثم قال اخرها: فجميع سني العالم من آدم إلى الهجرة على ما يزعمه اليهود أربعة آلاف سنة وستمائة واثنان وأربعون سنة، وعلى ما يدعيه النصارى في توراة اليونانيين ستة آلاف سنة غير ثمان سنين، وعلى ما يقوله الفرس إلى مقتل يزدجرد أربعة آلاف ومائة وثمانون سنة، ومقتل يزدجرد عندهم لثلاثين من الهجرة. وأما عند أهل الإسلام فبين آدم ونوح عشرة ترون، والقرن مائة سنة، وبين نوح وإبراهيم كذلك، وبين إبراهيم وموسى كذلك. ونقله الطبري عن ابن عباس وعن محمد بن عمرو بن واقد الإسلامي عن جماعة من أهل العلم. وقال أنّ الفترة بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة، ورواه عن سلمان الفارسي وكعب الأحبار والله أعلم بالحق في ذلك والبقاء لله الواحد القهار.

خريطة

دولة اليونان والروم

الخبر عن دولة يونان والروم و أنسابهم ومصايرهم

كان هؤلاء الأمم من أعظم امم العالم وأوسعهم فلكا وسلطانا، وكانت لهم الدولتان العظيمتان للإسكندر والقياصرة من بعده، الذين صبحهم الإسلام وهم ملوك

بالشام. ونسبهم جميعا إلى يافث باتفاق من المحققين، إلا ما ينقل عن الكندي في نسب يونان إلى عابر بن فالغ، وأنه خرج من اليمن بأهله وولده مغاضباً لأخيه قحطان، فترل ما بين الأفرنجة والروم، فاختلط نسبه بهم، وقد رد عليه أبو العباس الناشيء في ذلك بقول:

تخلط يونان بقحطان ضلة   لعمري لقد باعدت بينهما جداً

ولذلك يقال أنّ الإسكندر من تبعٍ وليس شيء من ذلك بصحيح، وإنما الصحيح نسبهم إلى يافث. ثم أنّ المحققين ينسبون الروم جميعا إلى يونان، الاغريقيون منهم واللطينيون. ويونان معدود في التوراة من ولد يافث لصلبه، واسمه فيها يافان، بفاء تقرب من الواو فعربته العرب إلى يونان. وأما هروشيوش فجعل الغريقيين خمس طوائف منتسبين إلى خمسة من أبناء يونان ، وهم: كيتم وحجيلة وترشوش وددانم وإيشاي. وجعل من شعوب إيشاي سجينية وأثناش وشمالا وطشال ولجدمون. ونسب الروم اللطينيين فيهم ولم يعين نسبهم في أحد من الخمسة، ونسب الافرنج إلى غطرما بن عومر بن يافث. وقال: أنّ الصقالية إخوانهم في نسبه. وقال: أنّ الملك كان في هذه الطوائف لبني أشكال بن غومر والملوك منهم، هؤلاء الغريقيون قبل يونان وغيرهم.

ونسب القوط إلى ماداي بن يافث وجعل من إخوانهم الأرمن. ثم نسب القوط مرة أخرى إلى ماغوغ بن يافث وجعل اللطينيين من إخوانهم في ذلك النسب. ونسب القاللين منهم إلى رفنا بن غومار. ونسب إلى طوبال بن يافث الاندلس والإيطاليين والاركاديين. ونسب إلى طبراش بن يافث أجناس الترك واسم الغريقيين عنده يشمل أبناء يونان كلهم كما ذكره. وينوع الروم إلى الغريقيين واللطينيين. وقال ابن سعيد فيما نقله من تواريخ المشرق عن البيهقي وغيره: أنّ يونان هو ابن علجان بن يافث قال: ولذلك يقال لهم العلوج، ويشركهم في هذا النسب سائر

أهل الشمال من غير الترك. وإن الشعوب الثلاثة من ولد يونان: فالاغريقيون من ولد أغريقش بن يونان، والروم من ولد رومي بن يومان، واللطينيون من ولد لطين بن يونان وإن الإسكندر من الروم منهم، والله أعلم. ونحن الآن نذكر أخبار الدولتين الشهيرتين منهم مبلغ علمنا، والله الموفق للصواب سبحانه وتعالى.

خريطة

الخبر عن دولة يونان والاسكندر منهم وما كان لهم

من الملك والسلطان إلي انقراض أمرهم

هؤلاء اليونانيون المتشعبون إلى الغريقيين واللطينيين كما قلناه، اختصوا بسكنى

الناحية الشمالية من المعمور مع إخوانهم من سائر بني يافث كلهم كالصقالبة والترك والافرنجة من ورائهم، وغيرهم من شعوب يافث. ولهم منها الوسط ما بين جزيرة الأندلس إلى بلاد الترك بالمشرق طولا، وما بين البحر المحيط والبحر الرومي عرضا فمواطن اللطينيين منهم في الجانب الغربي، ومواطن الغريقيين منهم في الجانب الشرقي والبحر بينهما خليج القسطنطينية. وكان لكل واحد من شعبي الغريقيين واللطينيين منهم دولة عظيمة مشهورة في العالم، واختص الغريقيون باسم اليونانيين، وكان منهم الاسكندر المشهور الذكر أحد ملوك العالم، وكانت ديارهم كما قلناه بالناحية الشرقية من خليج القسطنطينية بين بلاد الترك ودروب الشام. ثم استولى على ما وراء ذلك من بلاد الترك والعراق والهند، ثم جال أرمينية وما

وراءها من بلاد الشام وبلاد مقدونية ومصر والإسكندرية، وكان ملوكهم يعرفون بملوك مقدونية. وذكر هروشيوش مؤرخ الروم من شعوب هؤلاء الغريقيين نحو لجدمون. وبنو أنتناش. قال: وإليهم ينسب الحكماء الانتاشيون وهم ينسبون لمدينتهم اجدة انتاش. قال: ومن شعوبهم أيضا بنو طمان ولجدمون كلهم بنو شمالا بن إيشاي وقال في موضع آخر: لجدمون أخو شمالا. وكانت شعوب هذه الأمة قبل الفرس والقبط وبني إسرائيل متفرقة بافتراق شعوبها، وكان بينهم وبين إخوانهم اللطينيين فتن وحروب. ولما استفحل ملك فارس لعهد الكينية أرادوهم على الطاعة لهم، فامتنعوا وغزتهم فارس، فاستصرخوا عليهم بالقبط فسالموهم إلى محاربة الغريقيين، حتى أذلوهم وأخذوا الجزى منهم، وولوا عليهم، ويقال أنّ أفريدون ولى عليهم ابنه. وأن جده الاسكندر لأبيه من أعقابه. ويقال: أنّ بختنصر لما ملك مصر والمغرب أنفوه بالطاعة، وكانوا يحملون خراجهم إلى ملك فارس عددا من كرات الذهب أمثال البيض ضريبة معلومة عليهم في كل سنة. ولما فرغوا

من شان أهل فارس وأنفوا ملكهم بالجزى والطاعة صرفوا وجوههم إلى حرب اللطينيين، ثم استفحل أمر الإيشائيين من الغريقيين ولم يكن قوامهم إلا الجرمونيون فغلبوهم وغلبوا بعدهم اللطينيين والفرناسيين والأركاديين. واجتمع إليهم سائر شعوب

الغريقيين واعتز سلطانهم وصار لهم الملك والدولة.

وقال ابن سعيد: أنّ الملك استقر بعد يونان في ابنه أغريقش في الجانب الشرقي

من خليج قسطنطينية وتوالى الملك في ولده وقهروا اللطينيين والروم ودال ملكهم في ارمينية، وكان من أعظمهم هرقل الجبار بن ملكان بن سلقوس بن اغريقش. يقال: إنه ضرب الأتاوة على الأقاليم السبعة، وملك بعده ابنه يلاق، وإليه تنسب ا أمة اليلاقية، وهي الان باقية على بحر سودان. واتصل الملك في عقب يلاق إلى أنّ ظهر إخوانهم الروم واستبدوا بالملك. وكان أولهم هردوس بن منطرون بن رومي ابن يونان. فملك ا أمم الثلاثة، وصار اسمه لقبا لكل من ملك بعده. وسمت به يهود الشام كل من قام بأمرها منهم.

ثم ملك بعده ابنه هرمس. فكانت له حروب مع الفرس إلى أنّ قهروه وضربوا عليه

الأتاوة، فاضطرب حينئذ أمر اليونانيين وصاروا دولا وممالك. وانفرد الاغريقيون برئيس لهم، وصنع مثل ذلك اللطينيون، إلا أنّ اللقب بملك الملوك كان لملك الروم. ثم ملك بعده ابنه مطريوش فحمل الأتاوة لملك الفرس، لاشتغاله بحرب اللطينيين والاغريقيين. وملك بعده ابنه فيلفوش، وكانت أمه من ولد افريدون الذي ملكه أبوه على اليونان فظهر، وهدم مدينة اغريقية، وبنى مدينة مقدونية في وسط الممالك بالجانب الغربي من الخليج. وكان محبا للحكمة، فلذلك كثر الحكماء في دولته.

ثم ملك من بعده ابنه الإسكندر وكان معلمه من الحكماء ارسطو. وقال هروشيوش: أنّ أباه فيلفوش إنما ملك بعد الاسكندر ابن تراوش، أحد ملوكهم العظماء. وكان فيلفوش صهرا له على اخته لينبادة بنت تراوش، وكان له منها الاسكندر الأعظم.

قال وكان ملك الاسكندر بن تراوش لعهد أربعة آلاف وثمانمائة من عهد الخليقة، ولعهد أربعمائة أو نحوها من بحاء رومة- وهلك وهو محاصر لرومة، قتله اللطينيون عليها لسجع شين من دولته.

فولي أمر الغريقيين والروم من بعده صهره على اخته لينبادة فيلفوش بن آمنتة بن

هركلش. واختلفوا عليه فافترق أمرهم

وحاربهم إلى أنّ انقادوا وغلبهم على سائر أوطانهم، وأراد بناء القسطنطينية فمنعه الجرمانيون بما كانت لهم فقاتلهم حتى استلحمهم، واجتمع إليه سائر الروم والغريقيين من بني يونان. وملك ما بين المانية وجبال أرمينية. وكان الفرس لذلك العهد قد استولوا على الشام ومصر، فاعتزم فيلفوش على غزو الشام، فاغتاله في طريقه بعض اللطينيين وقتله بثار كان له عنده.

وولي من بعده ابنه الاسكندر، فاستمر على مطالبة بلاد الشام، وبعث إليه ملوك

فارس في الخراج على الرسم الذي كان لعهد أبيه فيلفوش فبعث إليه الاسكندر إني قد. ذبحت تلك الدجاجة التي. كانت تبيض الذهب وأكلتها. ثم زحف إلى بلاد الشام واستولى عليها، وفتح بيت المقدس وقرب فيه القربان، وذلك لعهد مائتين وخمسين من فتح بختنصر إياها. وامتعض أهل فارس لانتزاعه إياها من ملكتهم، فزحف إليه دارا في ستين ألفا من الفرس، ولقيه الاسكندر في ستمائة ألف من قومه، فغلبهم وفتح كثيرا من مدن الشام، ورجع إلى طرسوس فزحف إليه دارا ولقيه عليها، فهزمه الاسكندر وافتتح طرسوس ومضى، وبنى الإسكندرية. ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله، وتخطى إلى فارس فملك بلادها، وهدم مدينة الملك بها وسبى أهلها، وأشار عليه معلمه ارسطو بأن يجعل الملك في أسافلهم لتتفرق كلمتهم، ويخلص إليه أمرهم. فكاتب الاسكندر ملوك كل ناحية من الفرس والنبط والعرب، ومفك على كل ناحية وتوجه، فصاروا طوائف في ملكهم. واستبد كل واحد منهم بجهة كان ملكها لعقبه. ومعلمه أرسطو هذا من اليونانيين، وكان مسكنه أثينا، وكان كبير حكماء الخليقة غير منازع. أخذ الحكمة عن أفلاطون اليوناني. كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس، فسمى تلاميذه بالمشائين، وأخذ أفلاطون عن سقراط، ويعرف بسقراط الدن بسكناه في دن من الخزف اتخذه لرهبانيته وقتله قومه أهل يونان مسموماً لما نهاهم عن عبادة الأوثان. وكان هو أخذ الحكمة عن فيثاغورس منهم. ويقال: أنّ فيثاغورس أخذ عن تاليس حكيم ملطية، وأخذ تاليس عن لقمان. ومن حكماء اليونانيين دميقراطيس وانكسيثاغورس، كان مع حكمته مبرزا في علم الطب، وبعث فيه بهمن ملك الفرس إلى ملك يونان، فامتنع من إيفاده عليه ضنانة به.وكان من تلامذته جالينوس لعهد عيسى عليه السلام، ومات بصقلية ودفن بها.

ولما استولى الإسكندر على بلاد فارس تخطاها إلى بلاد السند فملكها وبنى بها مدينة سماها الاسكندرية. ثم زحف إلى بلاد الهند فغلب على أكثرها وحاربه فور ملك الهند فانهزم، وأخذه الاسكندر أسيرا بعد حروب طويلة، وغلب على جميع طوائف الهنود،

وملك بلاد الصين والسند، وذللت إليه الملوك، وحملت إليه الهدايا والخراج من كل ناحية، وراسله ملوك الأرض من افريقية والمغرب، والإفرنجة والصقالبة والسودان. ثم ملك بلاد خراسان والترك، واختط مدينة الإسكندرية عند مصب النيل في البحر الرومي، واستولى على الملوك. يقال على خمسة وثلاثين ملكا، وعاد إلى بابل فمات بها. يقال مسموما سمه عامله على مقدونية لأن أمه شكته إلى الاسكندر، فتوعده فأهدى له سما وتناوله، فمات لاثنتين وأربعين سنة من عمره، بعد أنّ ملك اثنتي عشرة سنة: سبعا منها قبل مقتل دارا وخمسا بعده. قال الطبري: ولما مات عرض الملك على ابنه اسكندروس فاختار الرهبانية، فملك يونان عليهم لوغوس من بيت الملك ولقبه بطليموس.

قال المسعودي: ثم صارت هذه التسمية لكل من يملك منهم، ومدينتهم مقدونية ويترلون الإسكندرية. وهلك منهم أربعة عشر ملكا في ثلثمائة سنة. وقال ابن العميد: كان قسم الملك في حياته بين أربعة من أمرائه:

بطليموس فلدلفوس كان على الاسكندرية ومصر والمغرب، وفيلفوس بمقدونية وما إليها من ممالك الروم، وهو الذي سم الاسكندر، ودمطرس بالشام، وسلقوس بفارس والمشرق. فلما مات استبد كل واحد بناحيته.

وكتب ارسطو شرح كتاب هرمس وترجمه من اللسان المصري إلى اليوناني، وشرح ما فيه من العلوم والحكمة والطلسمات. وكتاب الاسطفاخيس يحتوي على عبادة الأول، وذكر فيه أنّ أهل الأقاليم السبعة كانوا يعبدون الكواكب السيارة، كل إقليم لكوكب، ويسجدون له ويبخرون ويقربون ويذبحون. وروحانية ذلك الكوكب تدبرهم بزعمهم. وكتاب الإستماطيس يحتوي على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم، ومنها طلسمات لإنزال المطر وجلب المياه وكتب الأشطرطاش في الاختبارات على سرى القمر في المنازل والاتصالات. وكتب أخرى في منافع

وخواص الأعضاء الحيوانيات والأحجار والأشجار والحشائش. وقال هروشيوش: أنّ الذي ملك بعد الإسكندر صاحب عسكره بطليموس بن

لاوي فقام بأمرهم ونزل الاسكندرية واتخذها دارا لملكهم. ونهض كلمنس بن الاسكندر، وأمه بنت دارا، ولينبادة أم الاسكندر، وساروا إلى صاحب أنطاكية واسمه فمشاندر فقتلهم. واختلف الغريقيون على

بطليموس، وافترق أمره وحارب كل واحد منهم ناحيته إلى أنّ غلبهم جميعا واستقام أمره. ثم زحف إلى فلسطين وتغلب على اليهود وأثخن فيهم بالقتل والسبي والأسر. ونقل رؤساءهم إلى مصر. ثم هلك لأربعين سنة من ملكه وولي بعده ابنه فلديغيش، وأطلق أسرى اليهود من مصر، ورد الأواني إلى البيت وحباهم بآنية من الذهب، وأمرهم بتعليقها في مسجد القدس، وجمع سبعين من أحبار اليهود ترجموا له التوراة من اللسان العبراني إلى اللسان الرومي واللطيني. ثم هلك فلديغيش لثمان وثلاثين سنة من ملكه، وولي بعده ابنه انطريس، ويلقب أيضا بطليموس لقبهم المخصوص بهم إلى آخر دولتهم. فانعقدت السلم بينه وبين أهل أفريقية على مدعيون ملك قرطاجنة ووفد عليه وعقد معه الصلح عن قومه. وزحف قواد رومة إلى الغريقيين ونالوا منهم. ثم هلك أنطريس لست وعشرين سنة من ملكه، وولي بعده أخوه فلوباذي، فزحف

إليه قواد رومة فهزمهم وجال في ممالكهم. ثم كانت حروبه معهم بعدها سجالا. وزحف إلى اليهود فملك الشام عليهم، وولى الولاة من قبله فيهم، وأثخن بالقتل والسبي فيهم. يقال إنه قتل منهم نحوا من ستين ألفا. وهلك لسبع عشرة سنة من ملكه وولي بعده ابنه إيفانش، وعلى عهده كانت فتنة أهل رومة وأهل أفريقية التي اتصلت نحوا من عشرين سنة. وافتتح أهل رومة صقلية وأجاز قوادهم إلى أفريقية وافتتحوا قرطاجنة كما نذكر في أخبارهم. وهلك إيفانش لأربع وعشرين سنة من دولته.

وولي بعده بالاسكندرية ابنه فلوماطر فزحف الغريقيون إلى رومة، وكان فيهم صاحب مقدونية وأهل أرمينية والعراق، وظاهرهم مهلك النوبة واجتمعوا لذلك، فغلبهم الرومانيون وأسروا صاحب مقدونية وهلك فلوماطر لخمس وثلاثين سنة من ملكه. وولي بعده ابنه إيرياطس، وعلى عهده استفحل ملك أهل رومة، واستولوا على الأندلس وجازوا البحر إلى قرطاجية بافريقية، فملكوها وقتلوا ملكها اشدريال وخربوا مدينتها بعد أنّ عمرت تسعمائة سنة من بنائها كما نذكره في أخبارها. وزحف أيضا أهل

رومة إلى الغريقيين فغلبوهم وملكوا عليهم مدينتهم قرنطة من أعظم مدنهم. يقال إنها كانت ثانية قرطاجنة. ثم هلك إيرياطس لسبع وعشرين سنة من ملكه وولي بعده ابنه شوطار سبع عشرة سنة. وعلى عهده استفحل ملك أهل رومة، ومهدوا الأندلس. وملك بعده أخوه الاسكندر عشر سنين، ثم ابنه ديونشيس مائة وثلاثين سنة. وعلى عهده استولى الرومانيون على بيت المقدس، ووضعوا الجزية على اليهود، وزحف قيصر يوليوس من قوادهم إلى الا فرنجة ولمياش أيضا من قوادهم إلى الفرس فغلبوهم جميعا وما حولهم إلى أنطاكية، واستولوا على ما كان لهم من ذلك، وخرج الترك من بلادهم فأغاروا على مقدونية فردهم هامس قائد الرومانيين بالمشرق على أعقابهم.

وهلك ديونشيس فوليت بعده ابنته كلابطرة، سنتين فيما قال هروشيوش لخمسة

آلاف ونيف من مبدأ الخليقة، ولسبعمائة سنة من بناء رومة. وعلى عهدها استبد قيصر يوليوس بملك رومة، وغلب عليها القواد أجمع، ومحا دولتهم منها، وذلك بعد مرجعه من حرب الافرنج. ثم سار إلى المشرق فملك إلى أرمينية ونازعه مبانش هنالك، فهزمه قيصر وفر مبانش إلى مصر مستنجدا بملكتها - وهي يومئذ كلابطرة - فبعثت برأسه إلى قيصر خوفا منه، فلم يغنهما ذلك، وزحف قيصر إليها فملك مصر والاسكندرية من كلابطرة هذه، وانقرض ملك اليونانيين وولي قيصر على مصر والاسكندرية وبيت المقدس من قبله وذلك لسبعمائة أو نحوها من بناء رومة ولخمسة آلاف من مبدأ الخليقة.

وذكر البيهقي أنّ كلابطرة زحفت إلى أرض اللطينيين وقهرتهم، وأرادت العبور الى الأندلس فحال دونها الجبل الحاجز بين الأندلس والإفرنج، فاستعملت في فتحه الحيل والنار حتى نفذت إلى الأندلس وإن مهلكها كان على يد اوغسطوس يوليوس ثاني القياصرة. وكذا ذكر المسعودي وأنها ملكت اثنتين وعشرين سنة، وكان زوجها انطونيوس مشاركا لها في ملك مقدونية ومصر، وأن قيصر اوغسطس زحف إليهم، فهلك زوجها أنطونيوس في حروبه. ثم أراد التحكم في كلابطرة ليستولي

على حكمتها إذ كانت بقية الحكماء من آل يونان، فخطبها وتحيلت في إهلاكه وإهلاك نفسها، بعد أنّ اتخذت بعض الحظ ت القاتلة التي بين الشام والحجاز، وأطلقتها بمجلسها بين رياحين نصبتها هنالك، ولمست الحيات فهلكت لحينها، وأقامت بمكانها كأنها جالسة ودخل اوغسطس

لا يشعر بذلك حتى تناول من تلك الرياحين ليشمها، فأصابته الحية وهلك لحيق، وتمت حيلتها عليه.

وانقرض ملك اليونانيين بهلاكها وذهبت علومهم إلا ما بقي بأيدي حكمائهم في

كتب خزائنهم، حتى بعث عنها المأمون وأمر باستخراجها، فترجمت له من هروشيوش. وأما ابن العميد فعد ملوك مصر والاسكندرية بعد الاسكندر أربعة عشر آخرهم كلابطرة، كلهم يسفون بطليموس كما قال المسعودي. ولم يذكر ملوك المشرق منهم بعد الاسكندر، ولا ملوك الشام، ولا ملوك مقدونية الذين قسم الملك فيهم كما ذكرناه إلا بذكر ملك أنطاكية من اليونانيين ويسميه انطيوخس كما ذكرناه الآن.

وذكر في أسماء ملوك مصر هؤلاء وفي عددهم خلافا كثيرا، إلا أنه سمى كل واحد

منهم بطليموس. فقال في بطليموس الأول إنه أخو الاسكندر أو مولاه اسمه: فلافاذافسد أو ارنداوس أو لوغس أو فيلبس، ملك سبعا وقيل أربعين. قال وفي عصره بنى سلقيوس، وأظنه ملك المشرق منهم، قمامة وحلب وقنسرين وسلوقية واللاذقية. قال ومنها كان الكوهن الأعظم بالقدس سمعان بن خوننا، وبعده أخوه ألعازر، قال وفي التاسعة من لوغش جاء أنطيوخس المعظم إلى بلاد اليهود واستعبدهم.

وفي الحادية عشر حارب الروم فغلبوه وأسروه وأخذوا منه ابنه اقفاقس رهينة. وفي

الثالثة عشر تزوج أنطيوخس كلابطرة بنت لوغس زوجها له أبوها وأخذ سورية بلاد المقدس في مهرها. وفي التاسعة عشر وثب أهل فارس والمشرق على ملكهم فخلعوه وولوا ابنه، ثم هلك لوغس.

قال ابن العميد: بعد مائة وإحدى وثلاثين سنة لليونان ملك بطليموس بن الاسكندروس ويلقب غالب أثور، وملك مصر والاسكندرية والبلاد الغربية إحدى وعشرين سنة، وقيل ثمانيا وثلاثين سنة، وسمى أيضا فيلادلفوس أي ة محب أخيه، وهو الذي استدعى أحبار اليهود وعلماءهم الاثنين وسبعين يترجموا له التوراة وكتب

الأنبياء من العبرانية إلى اليونانية وقابلوها بنسخهم فصحت. وكان من هؤلاء الأحبار سمعان المذكور أولا وعاش إلى أنّ حمل على ذراعيه في الهيكل ومات ابن ثلثمائة وخمسين.

وكان منهم ألعازار الذي قتله أنطيوخس على امتناعه من السجود لصنمه، وقتله ابن سبعين سنة. ويظهر من هذا أنّ بطليموس هو تلماي وإنه من ملوك مقدونية وملك مصر، لان ابن كريون قال: وفي ذلك الزمان كان تلماي من أهل مقدونية ملك مصر، وكان يحب العلوم. فاستدعى من اليهود سعبين من أحبارهم وترجموا له التوراة وكتب الأنبياء. وكان في عصره صادوق الكوهن انتهى. وملك خمسا وأربعين سنة، وملك بعده بطليموس الارنبا وقيل اسمه رغادي وقيل راكب الانبر، ملك أربعا وعشرين وقيل سبعا وعشرين، وهو الذي بنى ملعب الخيل باسكندرية الذي احرق في عصر زينون قيصر. وملك بعده بطليموس محب أخيه، ويقال

اوغسطس ويقال فيلادلفس، ملك ست عشرة سنة، وكان في عصره أخميم الكوهن. وملك بعده بطليموس الصائغ، ويقال أخيه ملك خمس سنين وقيل خمسا وعشرين. وعلى عهده كان أليهود الكوهن، وكان ضالا غشوما، وقتله بعض خدمه خنقا.

وملك بعده بطليموس محب أبيه وقيل اسمه فيلوباطر ملك سبع عشرة سنة، وأخذ الجزية من اليهود. وملك بعده بطليموس المظفر وقيل الغالب وقيل محب أمه، ملك عشرين وقيل أربعا وعشرين. وفي التاسع عشر من ملكه خرج متيتيا بن يوحنا بن شمعون الكوهن الأعظم ويعرف بحشمناي من بني يوناداب من نسل هارون.

وبعث انطيوخس ملك أنطاكية، ابنه ألغايش بالعساكر إلى القدس، فأعمل الحيلة في ملكها وقتل العازر الكوهن وحمل بني إسرائيل على السجود لآلهته. فهرب متيتيا في جماعة من اليهود إلى الجبال. حتى إذا خرجت عساكر يونان رجع إلى القدس، ومر بالمذبح فوجد يهوديا يذبح خنزيرا عليه. وثار باليونانيين فقتل قائدهم وأخرجهم، واستبد بملك القدس كما ذكرناه في أخباره.

ثم ملك بطليموس فيلوباطر أي: محب أبيه خمسا وعشرين سنة وقيل عشرين.

وكان في أيامه بالقدس يهوذا بن متيتيا، وبعده أخوه يوناداب، وبعده أخوه شمعون، وبعده

أخوه هرقانوس واسمه يوحنان وهو أول من تسمى بالملك من بني حشمناي. وبعث ابنه يوحنا بالعساكر لقتال قيدونوس قائد أنطيوخس فغلبه. وارتفع عن اليهود الخراج الذى كانوا يعطونه لملوك سورية من أيام فيلبوس ملك المشرق. وملك بعده بطليموس ارغادي أي الفاضل، وقيل بطليموس الصايغ، وقيل سانيطر ملك عشرين وقيل ثلاثا وعشرين وقيل ثلاثة عشر.

ولعهده جدد انطيوخس بناء أنطاكية وسماها باسمه. ولعهده كان ملك هرقانوس

على القدس وبنيه الثلاثة، وخرب مدينة السامرة سبسطية، ولعهده أيضا زحف أنطيوخس إلى القدس وحاصرها، فصانعه هرقانوس بثلثمائة كرة من الذهب استخرجها من قبر داود عليه السلام. ثم ملك على مصر والاسكندرية بطليموس المخلص وقيل مقروطون وقيل

شعري، ملك ثماني عشرة وقيل عشرين وقيل سبعا وعشرين ولعهده كان الإسكندروس تلماي بن هرقانوس سابع بني حشمناي بالقدس. وكانت فرق اليهود عندهم ثلاثة: الربانيون ثم القراوون وهم في الانجيل زنادقة، وهم في الإنجيل الكتبة. ثم على مصر بطليموس محب أمه، وقيل الاسكندروس وقيل قيقتس وقيل الاسكندر وقيل ابن المخلص، ملك عشر سنين لا غير. ولعهده كانت الإسكندرة ملكة على بيت المقدس. ولعهده بطلت مملكة سورية لمائتين وسبع عشرة سنة من ملك يونان.

وقتل بطليموس هذا، قتله أهل إهراقية وأحرقوه. ثم ملك على مصر بطليموس

فيناس وقيل إيزيس وقيل المنفي لأن كلابطرة الملكة نفته عى الفلك، وملك ثمان سنين وقيل ثلاثا وعشرين يوما وقيل ثمانية عشر يوما. وبعضهم أسقطه من البطالسة ولم يذكره. ثم ملك على مصر بطليموس يوناشيش

إحدى وعشرين سنة، وقيل إحدى وثلاثين وقيل ثلاثين. ولعهده كان ارستبلوس وأخوه هرقانوس على القدس.

ثم ملك على مصر كلابطرة بنت ديوناشيش؛ ومعنى هذا الاسم الساكنة على الصخرة. وملكت ثلاثين وقيل اثنتين وعشرين، وكانت حاذقة. وفي الثالثة من ملكها حمرت خليج الإسكندرية وجرى فيه الماء. وبنت باسكندرية هيكل زحل، والعاروص، وبنت

مقياساً بأحميم وآخر بمدينة أنصناء. وفي الرابعة من ملكها ملك برومة اغانيوس أول القياصرة، ملك أربعا، ثم يوليوس بعده ثلاثا، ثم اغسطس بن مونوحس، فاستولى على الممالك والنواحي وبلغ خبره إليها فحصنت بلادها وبنت حائطا من الفرماء إلى النوبة شرقي النيل وحائطاً آخر من إسكندرية إلى النوبة غربي النيل، وهو حائط العجوز لهذا العهد.

وبعث اوغسطس العساكر إلى مصر مع قائده أنطرلوس ومعه متردات ملك الارمنن، فخادعت كلابطرة انطريوس وأوعدته بتزويجها، فقتل رفيقه متردات وتزوجها، وعصى اوغسطس. فسار اوغسطس إليها وملك لمحصر، وقتل كلابطرة وولديها وقائده بطريوس الذي تزوجها. ويقال إنها وضعت له سما في مجلسها، وإن اوغسطس تناوله ومات، والله أعلم. وانقرضت مملكة يونان من مصر والاسكندرية والمغرب بملكها، وصارت هذه الممالك للروم إلى حين الفتح الإسلامي. انتهى كلام ابن العميد. والخلاف الذي ينقله عن جماعة مؤرخيهم يذكر منهم سعيد بن بطريق ويوحنا فم الذهب والمنجي وابن الراهب وابيفانيوس. والظاهر أنهم من مؤرخي النصارى، والبقاء لله الواحد القهار، سبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

خريطة

خريطة

الخبر عن اللطينيين

وهو الكيتم المعروفون بالروم من أمم يونان وأشياعهم وشعوبهم وما كان لهم من الملك والغلب وذكر الدولة التي فيهم للقياصرة وأولية ذلك ومصايره

هذه الأمة من أشهر امم العالم، وهي ثانية الغريقيين عد هروشيوش ويجتمعان في نسب يونان. وثالثتهم عند البيهقي ويجتمعون في نسب يونان بن علجان بن يافث. واسم الروم يشملهم ثلاثهم، لما كان الروم أهل المملكة العظمى منهم. ومواطن هؤلاء الليطينيين بالناحية الغربية من خليج القسطنطينية إلى بلاد الافرنجة، فيما بين البحر المحيط والبحر الرومي من شماليه. وملك هذه الأمة قديما. كانت لهم مدينة اسمها طروبة، وذكر هروشيوش أنّ أول من ملك من الليطينيين ألفنس بن شطرنش بن أيوب، وذلك لعهد دائرة بني إسرائيل، وقد مر ذكرها. وفي آخر الألف الرابع من مبدأ الخليقة. وملك من بعده ابنه بريامش، واتصل الملك في عقب ألفنس هذا وإخوته، وكان منهم كرمنس بن مرسية بن شيين بن مزكة الذي ألف حروف اللسان اللطيني

وأثبتها و لم تكن قبله. وذلك على عهد يؤاثير بن كلعاد من حكام بني إسرائيل بعد أربعة آلاف وخمسين من مبدأ الخليقة.

وكان بين هؤلاء اللطينيين وبين الغريقيين إخوانهم، فتن طويلة، وعلى يدهم خربت طروبة مدينة اللطينيين لعهد أربعة آلاف ومائة وعشرين من مبدأ الخليقة أيام عبدون ملك بني إسرائيل وقد مر ذكره. وكان ملكهم يومئذ أناش من عقب بريامش بن ألفنس بن شطرنش. وولي بعده ابنه اشكانيش بن أناس وهو الذي بنى مدينة ألبا. ثم اتصل الملك فيهم إلى أنّ افترق أمرهم.

ثم كان من أعقابهم برقاش أيام انقراض ملك الكلدانيين. وصار للمازنيين والقضاعيين على عهد عزيا بن أمصيا من ملوك بني إسرائيل، ولعهد أربعة آلاف ومائة وعشرين سنة من مبدأ الخليقة، فصار الأمر في اللطينيين لبرقاش هذا بتولية ملك المازنيين ما كان لهم وللسريانيين قبلهم من الصيت في العالم، والتفوق على الملوك بنسبهم وعصبتهم. ثم اتصل الملك لابنه ولحافديه روملوس وداموس، وهما اللذان اختطا مدينة رومة، وذلك لعهد أربعة آلاف وخمسمائة

سنة من مبدأ الخليقة، وعلى عهد حزقيّا بن آحآز ملك بني إسرائيل، ولأربعمائة ونيف من خراب مدينة طروبة. وكان طول مدينة رومة من الشمال إلى الجنوب عشرين ميلا في عرض إثني عشر ميلا، وارتفاع سورها ثمانية وأربعون ذراعا في عرض عشرة أذرع، وكانت من أحفل مدن العالم. ولم تزل دارا مملكة اللطينيين، والقياصرة منهم حتى صبحهم الإسلام وهي في ملكهم.

وكان اللطينيون بعد رملس وداموس وانقراض عقبهم قد سئموا ولاية الملوك عليهم فعزلوهم، وصار أمرهم شورى بين الوزراء، وكانوا يسمونهم القنشلش ومعناه الوزراء بلغتهم. وكان عددهم سبعين على ما ذكر هروشيوش. ولم يزل أمرهم على ذلك مدة سبعمائة سنة، إلى أنّ استبد عليهم قيصر يوليوس بن غايش أول ملوك القياصرة كما نذكره بعد. وكانت لهم حروب مع الأمم المجاورة لهم من كل جهة، فحاربوا اليونانيين ثم حاربوا الفرس من بعدهم واستولوا على الشام ومصر. ثم ملكوا جزيرة الأندلس ثم جزيرة صقلية، ثم أجازوا إلى افريقية فملكوها وخربوا قرطاجنة. وأجاز أهل أفريقية إليهم وحاصروا رومة، واتصلت الفتن بينهم عشرين سنة أو نحوها على ما نذكر. وذهب جماعة من الإخباريين إلى أنّ الروم من ولد عيصو بن إسحاق عليه السلام.

قال ابن كريون: كان لليفاز ابن عيصو ولد اسمه صفوا، ولما خرج يوسف من مصر ليدفن أباه يعقوب في مدينة الخليل عليه السلام، اعترضه بنو عيصو وقاتلوه، فهزمهم وأسر منهم صفوا بن أليفاز وبعثه إلى افريقية، فصار عند ملكها واشتهر بالشجاعة، وحدثت الفتنة بين أغنياس وبين الكيتم وراء البحر، فأجاز إليهم أغنياس في أهل أفريقية وأثخن فيهم، وظهرت شجاعة صفوا بن اليفاز. ثم هرب صفوا إلى الكيتم وعظم بينهم، وحسن أثره في أهل أفريقية وفي الأمم المجاورة لكيتم من أموال وغيرها، فزوجوه وملكوه عليهم. قال: وهو أول من ملك في بلاد أسبانيا وأقام ملكا خمسا وخمسين سنة.

ثم عد ابن كريون بعده ستة عشر ملكا من أعقابه آخرهم روملس باني رومة، وكان لعهد داود عليه السلام، وخاف منه فوضع مدينة رومة، وبنى على جميعها هياكله، ونسبت المدينة إليه وسميت باسمه، وسمى أهلها الروم نسبة إليها.

ثم عد بعد روملس خمسة من الملوك اغتصب خامسهم رجلا في زوجه فقتلت نفسها وقتله زوجها في الهيكل. وأجمع أهل رومة أنّ لا يولوا عليهم ملكا. وقدموا شيوخاً ثلثمائة وعشرين يدبرون ملكهم، فاستقام أمرهم كما يجب إلى أنّ تغلب قيصر رسمى نفسه ملكا، فصاروا من بعده يسمون ملوكا. انتهى كلام ابن كريون وهو مناقض لما قاله هروشيوش. فإنه زعم أنّ بناء رومه كان لعهد داود عليه السلام، وهروشيوش قال إنه كان لعهد حزقيا رابع عشر ملوك بني يهوذا من لدن داود عليه السلام، وبين المدتين تفاوت. وخبر هروشيوش مقدم لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الإسلام بقرطبة وهما معروفان ووضعا الكتاب. فالله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك.

الخبر عن فتنة الكيتم مع أهل أفريقية وتخريب قرطاجنة

ثم بناؤها علي الكيتم وهم اللطينيون

كان بناء قرطاجنة هذه قبل بناء رومة باثنتين وسبعين سنة. قال هروشيوش على يدي ديدن بن أليثا من نسل عيصو بن إسحاق، وكان بها أمير يسمى ملكون، وهو الذي بعث إلى الإسكندر بطاعته عند استيلائه على طرسوس. ثم صار ملك افريقية إلى املقا من ملوكهم، ففتتح صقلية وهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين وأهل الإسكندرية بسبب أهل سردانية وذلك لخمسين سنة في بناء رومة. ثم وقعت السلم بينهم وهي السلم التي وفد فيها عتون من ملوك افريقية على انطريطش ملك مقدونية وإسكندرية، وهو ملك الروم الأعظم.

ثم ولى بقرطاجنة املقا ابنه انبيل فأجاز إلى بلاد الإفرنج وغلبهم على بلادهم، وزحف إليه قواد رومة فوالى عليهم الهزائم، وبعث أخاه أشدريال إلى الأندلس فملكها، وخالفه قواد الرومانيين إلى افريقية بعد أنّ ملكوا من حصون صقلية أربعين أو نحوها. ثم أجازوا إلى أفريقية فملكوها، وقتلوا غشول خليفة انبيل فيها، وافتتحوا مدينة جردا. وخرج آخرون من قواد رومة إلى الأندلس فهزموا اشدريال واتبعوه إلى أنّ قتلوه، وفر أخوه الهبيل عن بلادهم بعد ثلاث عشرة

سنة من إجازته إليهم. وبعد أنّ حاصر رومة وأثخن في نواحيها فلحق بافريقية، ولقيه قواد أهل رومة الذين أجازوا إلى أفريقية، فهزموه وحاصروه بقرطاجنة حتى سأل الصلح على أنّ يغرم لهم ثلاثة آلاف قنطار من الفضة فأجابوه إليه، وسكت الحرب بينهم ثم ظاهر بعد ذلك انبيل صاحب افريقية ملوك السريانيين على حرب أهل رومة، فهلك في حربهم مسموما. وبعد أنّ تخلص أهل رومة من تلك الحروب رجعوا إلى الأندلس فملكوها، ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة ففتحوها وقتلوا ملكها يومئذ انبيل وخربوها لتسعمائة سنة من بنائها، وسبعمائة لبناء رومة. ثم دارت الحرب بين أهل رومة وملك النوبة، واستظهر ملك

النوبة بالبربر بعد أنّ هزموا أهل رومة واتبعوه إلى قفصة، فملكوها واستولوا على ذخيرتها وهي من بناء أركلش الجبار ملك الروم، وهزمهم أهل رومة فخافهم ملك البربر من ملوك النوبة إلى أنّ هلك في أسرهم، وكانت هذه الحروب لعهد بطليموس الاسكندر بعد أنّ كان قواد رومة اجتمعوا على بناء قرطاجنة وتجديدها لاثنتين وعشرين سنة من خرابها، فعمرت واتصل بها لأهل رومة ملك على ما نذكره بعد أنّ شاء الله تعالى.

ملوك القياصرة

الخبر عن ملوك القياصرة من الكيتم وهم اللطينيون ومبد أ أمورهم ومصاير أحوالهم

لم يزل أمر هؤلاء الكيتم وهم اللطينيون راجعا إلى الوزراء منذ سبعمائة سنة كما قلناه، من عهد بناء رومة أو قبلها بقليل كما قال هروشيوش. تقترع الوزراء في كل سنة فيخرج قائد منهم إلى كل ناحية كما توجبه القرعة، فيحاربون امم الطوائف ويفتحون الممالك. وكانوا أولا يعطون إخوانهم من الروم اليونانيين طاعة معروفة بعد الفتن والمحاربة، حتى إذا هلك الإسكندر وافترق أمر اليونانيين والروم وفشلت ريحهم، وقعت فتنة هؤلاء اللطينيين وهم الكيتم مع أهل افريقية، واستولوا عليها مرارا وخربوا قرطاجنة ثم بنوها كما ذكرناه. وملكوا الاندلس وملكوا الشام وارض الحجاز، وقهروا العرب بالحجاز وافتتحوا بيت المقدس وأسروا ملكها يومئذ من اليهود، وهو ارستبلوس بن الإسكندر ثامن ملوك بني حشمناي، وغربوه إلى رومة وولوا قائدهم على الشام. ثم

حاربوا ألغماس فكانت حروبهم معهم سجالاً، إلى أنّ خرج يوليوس بن غايش ومعه ابن عمه لوجيار بن مدكه إلى جهة الأندلس، وحارب من كان بها من الإفرنج والجلالقة إلى أنّ ملك بريطنية واشبونة ورجع إلى رومة، واستخلف على الأندلس اكتبيان ابن أخيه يونان. فلما وصل إلى رومة وشعر الوزراء أنه يروم الاستبداد عليهم قتلوه، فزحف اكتبيان ابن أخيه من الأندلس فأخذ بثاره، وملك رومة واستولى على أرض قسطنطينية وفارس وافريقية والأندلس. وعمه بولس هو الذي تسمى قيصر فصار سمة لملوكهم من بعده. وأصل هذا الاسم جاشر فعربته العرب إلى قيصر. ولفظ جاشر مشترك عندهم، فيقال جاشر للشعر. وزعموا أنّ بولس ولد شعره نام يبلغ عينيه. ويقال أيضا للمشقوق جاشر. وزعموا أنّ قيصر ماتت أمه وهي مقرب، فبقر بطنها واستخرج بولس، والأول أصح وأقرب إلى الصواب. وكانت مدة بولس قيصر خمس سنين. ولما ولى قيصر اكتبيان ابن اخته بملك الناحية الشمالية من الأرض، ووفد عليه رسل الملوك بالمشرق يرغبون في ولايته ويضرعون إليه في السلم، فأسعفهم ودانت له أقطار الأرض. وضرب الأتاوة على أهل الآفاق من الصغر، وكان العامل على اليهود بالشام من قبله هيرودس بن انظفتر وعلى مصر ابنة غايش. وولد المسيح لاثنتين وأربعين سنة خلت من ملكه. وهلك قيصر اكتبيان لست وخمسين من ملكه، بعد سبعمائة وخمسين سنة لبناء رومة، وخمسة آلاف ومائتين لمبدأ الخليفة. انتهى كلام هروشيوش.

وأما ابن العميد مورخ النصارى فذكر عن مبدأ هؤلاء القياصرة، أنّ أمر رومة كان راجعا إلى الشيوخ الذين يدبرون أمرهم وكانوا ثلثمائة وعشرين رجلا، لأنهم كانوا حلفوا أنّ لا يولوا عليهم ملكا فكان تدبيرهم يرجع

إلى هؤلاء، وكانوا يقدمون واحدا منهم ويسمونه الشيخ، وانتهي تدبيرهم في ذلك الزمان إلى أغانيوس فدبرهم أربع

سنين وهو الذي سمي قيصر لأن أمه ماتت وهو جنين في بطنها، فبقروا بطنها وأخرجوه. ولما كبر انتهت إليه رياسة هؤلاء الشيوخ برومة أربع سنين.

ثم ولي من بعده يوليوس قيصر ثلاث سنين، ثم ولي من بعده اغسطس قيصر بن مرنوخس. قال: ويقال أنّ اوغسطس قيصر كان أحد قواد الشيخ مدبر رومة، وتوجه بالعساكر لفتح المغرب والأندلس ففتحهما وعاد إلى رومة، فملك عليهم وطرد الشيخ من رياسته بها وتدبيره، ووافقته الناس على ذلك. وكان للشيخ نائب بناحية المشرق يقال له فمقيوس، فلما بلغه ذلك زحف بعساكره إلى رومة، فخرج إليه اوغسطس فهزمه وقتله واستولى على ناحية المشرق، وسير عساكره إلى فتح مصر مع قائدين من قواده، وهما انطونيوس ومتردات ملك الارمن بدمشق، فتوخها إلى مصر وبها يومئذ كلابطرة الملكة من بقية البطالسة ملوك يونان بالإسكندرية ومضر، فحضنت بلادها وبنت بعدوتي النيل حائطين مبدوهما من النوبة إلى الإسكندرية غربا، وإلى الفرما شرقا وهو حائط العجوز لهذا العهد.

ثم داخلت القائد أنطونيوس وخادعته بالتزويج فتزوجها وقتل رفيقه متردات وعصى

على اوغسطس، فزحف إليه وقتله، وملك مصر وقتل كلابطرة وولديها، وكانا يسميان الشمس والقمر.

وملك مصر والإسكندرية وذلك لاثنتي عشرة سنة من ملكه. قال ولاثنتين وأربعين سنة من ملك اوغسطس ولد المسيح بعد مولد يحمى بثلاثة أشهر. وذلك لتمام خمسة آلاف وخمسمائة سنة من سني العالم، ولاثنتين وثلاثين من ملك هيردوس بالقدس، وقيل لخمس وثلاثين من مملكته. والكل متفقون على أنها لاثنتين وأربعين من ملك اوغسطس.

قال: وسياقة التاريخ تقتضي أنها خمسة آلاف وخمسمائة شمسية من مبدأ العالم،

لان من آدم إلى نوح ألفا وستمائة، ومن نوح إلى الطوفان ستمائة، ومن الطوفان إلى إبراهيم ألفا واثنتين وسبعين سنة، ومن إبراهيم إلى موسى أربعمائة وخمسا وعشرين، رمن موسى إلى داود محليهما السلام سبعمائة وستين، ومن داود إلى الإسكندر سبعمائة وستين سنة، ومن الإسكندر إلى مولد المسيح ثلثمائة وتسع عشرة سنة:

هكذا ذكر ابن العميد وأنها تواريخ النصارى وفيها نظر، ويظهر من كلامه أنّ قيصر

الذي سماه اوغسطس. وذكر أنّ المسيح ولد لاثنتين وأربعين من ملكه هو الذي سماه هيردوس قيصر أكتبيان، وجعل مهلكه لخمسة آلاف ومائتين من مبدأ الخليقة. وعند ابن العميد أنّ ملكه لخمسة آلاف وخمسمائة وخمس عشرة،

والله أعلم بالحق من ذلك.

ثم ولي من بعده طباريش قيصر، وكان وادعا واستولى على النواحي، وعلى عهده كان شان المسيح، وبغى اليهود عليه، ورفعه الله من الأرض. وأقام الحواريون من بعده واليهود يضطهدرنهم ويحبسونهم على إظهار أمرهم. وكان بلاطس النبطي الذي كان قائدا على اليهود يسعى إلى طباريش بأخبار المسيح وبغي اليهود عليه وعلى يوحنا المعمدان، وتبعتهم الحواريون من بعده بالاذية، وأراه أنهم على حق فأمر بتخلية سبيلهم، وهم بالأخذ بدينهم، فمنعه من ذلك قومه.

ثم قبض على هيردوس وأحضره إلى رومة، ثم نفاه إلى الاندلس فمات بها. ثم ولى مكانه اغرياس ابن أخيه. وافترق الحواريون في الآفاق لإقامة الدين، وحمل أمم على عبادة الله. ثم قتل طباريش قيصر أغرياس ملك اليهود إلى أشر من حالهم، وقتلوا أتباع الحواريين من الروم، ومات طباريش لثلاث وعشرين من ملكه بعد أنّ جدد مدينة طبرية فيما قال ابن العميد، واشتق اسمها من اسمه. وملك من بعده غاينس قيصر. وقال هروشيوش هو أخو طباريش وسماه غاينس فليفة بن أكتييان. وقال: هو رابع القياصرة وأشدهم، وأراد اليهود على نصب وثنه ببيت المقدس فمنعوه.

وقال ابن العميد: ووقعت في أيامه شدة على النصارى، وقتل يعقوب أخا يوحنا من الحواريين، وحبس بطرس رئيسهم ثم هرب إلى أنطاكية فأقام بها. وقدم هراديوس بطركا عليها. وهو أول البطاركة فيها. ثم توجه إلى رومة لسنتين من ملك غانيس فدبرها خمساً وعشرين سنة، ونصب فيها الأساقفة، وتنصرت امرأة من بيت الملك، فعضدت النصارى، ولقي النصارى الذين بالقدس شدائد من اليهود، وكان الاسقف عليهم يومئذ يعقوب بن يوسف الخطب.

وقال ابن العميد عن المسبحي: أنّ فيلبس ملك مصر غزا اليهود لأول سنة من ملك غانيس، واستعبدهم سبع سنين. قال وفي الرابعة من ملكه أمر عامله على اليهود بسورية وهي اورشماليم وير بيت المقدس، أنّ ينصب الأصنام في محاريب اليهود. ووثب عليه بعفى قواده فقتله. وملك من بعده قلوديش قيصر.

قال هروشيوش: هو ابن طباريش، وعلى عهده

كتب متّى الحواريّ إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية. قال ابن العميد، ونقله يوحنا بن زبدي إلى الرومية، قال: وفي أيامه كتب بطرس راس الحواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى مرقص تلميذه. وكتب لوقا من الحواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض الأكابر من الروم، وكان لوقا طبيبا. ثم عظم الفساد بين اليهود ولحق ملكهم اغرباش برومة، فبعث معه اقلوديش عساكر الروم، فقتلوا من اليهود خلقاً، وحملوا إلى أنطاكية ورومة منهم سبيا عظيما وخربت القدس وانجلى أهلها. فلم يول عليهم القياصرة أحدا لخرابها. وافترقت اليهود على فرق كثيرة أعظمها سبعة.

قال ولسبع من ملك اقلوديش دخلت بطريقة من الروم في دين النصارى على يد شمعون الصفا، وسمعت منه بالصليب، فجاءت إلى القدس لإظهاره، ورجعت إلى رومة. وهلك اقلوديش قيصر لأربع عشرة سنة من ملكه، وملك من بعده ابنه نيرون. قال هروشيوش: هو سادس القياصرة، وكان غشوما فاسقا، وبلغه أنّ كثيرا

من أهل رومة أخذوا بدين المسيح، فنكر ذلك وقتلهم حيث وجدوا. وقتل بطرس راس الحواريين وأقام اريوس بطركا برومة مكان بطرس، من بعد خمس وعشرين سنة مضت لبطرس في كرسيها، وهو راس الحواريين ورسول المسيح إلى رومة. وقتل مرقص الإنجيلي بالإسكندرية اثنتي عشرة من ملكه، وكان هنالك من منذ سبع سنين بها مساعدا إلى النصرانية والإسكندرية ومصر وبرقة والمغرب، وولى مكانه حنانيا ويسمى بالقبطية جنبار وهو أول البطارقة بها واتخذ معه الأقسة الاثني عشر.

قال ابن العميد عن المسبحي: وفي الثانية من ملك نيرون عزل بلخس القاضي،

كان على اليهود من جهة الروم، وولى مكانه قسطس القاضي، وقتل بوثار رئيس الكهنونية بالمقدس، ومات القاضي قسطس، فصار اليهود على من كان بالمقدس من النصارى وقتلوا اسقفهم هنالك، وهو يعقوب بن يوسف النجار وهدموا الجعة وأخذوا الصليب والخشبتين ودفنوها، إلى أنّ استخرجتها هلانة أم قسطنطين كما نذكر بعد. وولي مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون بن كنابا، ثم ثار بهم المهود وأخرجوهم من المقلس لعشر من ملك نيرون، فأجازوا الاردن وأقاموا هنالك. وبعث نيرون قائده اسباشيانس، وأمر بقتل اليهود وخراب القدس وتحضن اليهود منه وبنوا عليهم ثلاثة حصون، وحاصرهم أسباشيانس وخرب جميع حصونهم وأحرقها، وأقام عليهم سنة

كاملة. وقال هروشيوش: أنّ يخرون يصر انتقض عليه أهل مملكته، فخرج عن طاعة أهل برطاية من أرض الجوف ورجع أهل ارمينية والشام إلى طاعة الفرس. فبعث صهره على اخته وهو يشبشيان ابن لوجيه، فسار إليهم في العساكر وغلبهم على أمرهم.

ثم زحف إلى اليهود بالشام وكانوا قد انتقضوا فحاصرهم بالقدس، وبينما هو في حصاره إذ بلغه موت نيرون لأربع عشرة سنة من ملكه، ثار به جماعة من قواده فقتلوه. وكان قد بعث قائدا إلى جهة الجوف والأندلس فافتتح برطانية ورجع إلى رومة بعد مهلك نيرون قيصر، فملكه الروم عليهم وأنه قتل أخاه يشبشيان، فأشار عليه أصحابه بالانصراف إلى رومة. وبشره رئيس اليهود وكان أسيرا عنده بالملك. ويظهر أنه يوسف بن كريون الذي مر ذكره، فانطلق إلى رومة وخلف ابنه طيطش على حصار القدس، فافتتحها وخرب مسجدها وعمرانها كما مر ذكره.

قال: وقتل منهم نحوا من ستمائة ألف ألف مرتين، وهلك في حصارها جوعا نحو

هذا العدد، وبيع من سراريهم في الافاق نحوا من تسعين ألفط، وحمل منهم إلى رومة نحواً من مائة ألف استبقاهم لفتيان الروم يتعلمون المقاتلة فيهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح. وهي الجلوة الكبرى كانت لليهود بعد ألف ومائة وستين سنة من بناء بيت المقدس، ولخمسة آلاف ومائتين وثلاثين من مبدأ الخليقة، ولثمانمائة وعشرين من بناء رومة. فكان معه إلى أنّ افتتحها وكان المستبد بها بعد مهلك نيرون قيصر، وانقطع ملك آل بولس قيصر لمائة وست عشرة سنة من مبدأ دولتهم. واستقام ملك يشبشيان في جميع ممالك الروم، وتسمى قيصر كما كان من قبل، اه. كلام هروشيوش.

وقال ابن العميد: أنّ اشباشيانس لما بلغه وهو محاصر للقدس أنّ نيرون هلك،

ذهب بالعساكر الذين معه وبشره يوسف بن كريون كهنون طبرية من اليهود بأن مصير ملك القياصرة إليه. ثم بلغه أنّ الروم بعد مهلك نيرون ملكوا غلبان بن قيصر فأقام عليهم تسعة أشهر، وكان رديء السيرة وقتله بعض خدمه غيلة وقدموا عوضه انون ثلاثة أشهر، ثم خلعوه وملكوا ابطالس ثمانية أشهر فبعث أسباشيانس وهو

الذي سماه هروشيوش يشبشيان قائدين إلى رومة فحاربوا ابطانشى وقتلوه، وسار اسباشيانس إلى رومة، وبعث إليه طيطش المحاصر للقدس بالأموال والغنائم والسبي. قال: وكانت عدة القتلى ألف ألف، والسبي تسعمائة ألف، واحتمل الخوارج الذين كانوا في نواحي القدس مع الأسرى. وكان يلقى منهم كل يوم للسباع فرائس إلى أنّ فنوا.

قال ولما ملك طيطش بيت المقدس رجع النصارى الذين كانوا عبروا إلى ا أردن،

فبنوا كنيسة بالمقدس وسكنوا. وكان الأسقف فيهم سمعان بن كلوبا ابن عم يوسف النجار، وهو الثاني من أساقفة المقدس. ثم هلك أسباشيانس وهو يشبشيان لتسع سنين من ملكه، وملك بعده ابنه طيطش قيصر سنتين وقيل ثلاثا.

قال ابن العميد: لاربعمائة من ملك الاسكندر، وقال هيروشيوش: كان متفننا في

العلوم ملتزماً للخير عارفا باللسان الغم يقييئ واللطيني، وولي بعده أخوه دومريان خمس عشرة سنة، قال هيروشيوش: وهو ابن أخت نيرون قيصر. قال: وكان غشوما كافرا، وأمر بقل النصارى فعل خاله نيرون، وحبس يوحنا الحواري، وأمر بقتل اليهود من نسل داود حذرا أنّ يملكوا، وهلك في حروب الافرنج، وسماه ابن العميد دانسطيانوس.

وقال: ملك ست عشرة سنة وقيل تسعا، وكان شديدا، على اليهود. وقتل أبناء ملوكهم. وقيل له أنّ النصارى يزعمون أنّ المسيح يأتي ويملك، فأمر بقتلهم وبعث عن أولاد يهوذا بن يوسف من الحواريين، وحملهم إلى رومة مقمدين، وسألهم عن شان المسيح فقالوا: إنما يأتي عند انقضاء العالم فخفى سبيلهم. وفي الثالثة من دولته طرد بطرك اسكندرية لسبع وثمانين سنة للمسيح، وقدم مكانه ملموا فأقام ثلاث عشرة سنة ومات، فولى مكانه كرماهو.

قال ابن العميد عن المسبحي: ولعهده كان أمر ليونيوس صاحب الطلسمات برومة، فنفى ذوسطيالوس جميع الفلاسفة والمنجمين من رومة، وأمر أنّ لا يغرس بها كرم. ثم هلك ذوسطيالوس وهو الذي سماه هروشيوش دومريان وقال: هلك في حروب الافرنج، وملك بعده برما ابن أخيه طيطش نحوا من سنتين، وسماه ابن العميد تاوداس وقال أنّ المسبحي سماه قارون. قال: وشمى أيضاً برسطوس، وقال ملك على الروم سنة أو سنة ونصفا، وأحسن السيرة وأمر برد من كان منفيا من النصارى وخلاهم ودينهم، ورجع يوحنّا الإنجيلي إلى أفسس بعد ست سنين. وقال هروشيوش:

أطلقه من السجن. قال: و لم يكن له ولد فعهد بالملك إلى طريانس من عظماء قواده، وكان من أهل مالقة فولي بعده وتسمى قيصر. قال ابن العميد: واسمه أنديانوس، وسماه المسبحي طرينوس، وملك على الروم باتفاق المؤرخين سبع عشرة سنة، وقتل سمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس، وأغناطيوس بطرك أنطاكية. ولقي النصارى في أيامه شدة، وتتبع أئمتهم بالقتل واستعبد عامتهم. وهو ثالث القياصرة بعد نيرون في هذه الدولة. ولعهده كتب يوحنا إنجيله برومة في بعض الجزائر لسادسة من ملكه، وكان قد رجع اليهود الى بيت المقدس فكثروا بها وعزموا على الانتقاض، فبعث عساكره وقتل منهم خلقاً كثيراً. وقال هروشيوش: أنّ الحرب طالت بينه وبين اليهود، فخربوا كثيراً من المدن إلى عسقلان ثم إلى مصر والإسكندرية فانهزموا هنالك وقتلوا، وزحفوا بعدها إلى الكوفة فأثخن فيهم بالقتل وخضد من شوكتهم.

قال ابن العميد: وفي تاسعة من ملكة مات كوثبانو بطرك الإسكندرية لإحدى عشرة سنة من ولاية، وولي مكانه أمرغو عشر سنوات أخرى. وقال بطليموس صاحب كتاب المجسطي: أنّ شيلوش الحكيم رصد برومة في السنة الأولى من ملك طرينوس وهو أندريانوس، لأربعمائة وإحدى وعشرين للاسكندر ولثمانمائة وخمس وأربعين لبختنصر. وقال ابن العميد: خرج عليه خارجي ببابل فهلك في حروبه لتسع عشرة سنة من ولايته كما قلناه، فولي من بعده أندريانوس إحدى وعشرين سنة. وقال ابن العميد عن ابن بطريق عشرين سنة. وقال هروشيوش: إنه أثخن في اليهود ثم بنى مدينة المقدس وسماها إيلياء.

وقال ابن العميد: كان شديداً على النصارى وقتل منهم خلقا وأخذ الناس بعبادة

الأوثان، وفي ثامنة ملكه خرب بيت المقدس وقتل عامة أهلها، وبنى على باب المدينة عمودا وعليه لوح نقش فيه مدينة ايلياء. ثم زحف إلى الخارجي الذي خرج على طرنيوس قبله فهزمه إلى مصر، وألزم أهل مصر حفر خليج من جرى النيل إلى بحر القلزم، وأجرى فيه الحلو، ثم ارتدم بعد ذلك. وجاء الفتح والدولة الإسلامية، فألزمهم عمرو بن العاص حفره حتى جرى فيه الماء، ثم انسد لهذا العهد.

وكان أندريانوس هذا قد بنى مدينة القدس ورجع إليها اليهود، وبلغه أنهم يرومون الانتقاض، وأنهم ملكوا عليهم زكريا من أبناء الملوك. فبعث إليهم العساكر وتتبعهم بالقتل، وخرب المدينة حتى عادت صحراء، وأمر أنّ لا يسكنها يهودي، وأسكن اليونان بيت المقدس. وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطش الذي هو الجلوة الكبرى. وامتلأ القدس من اليونان، وكانت النصارى يترددون إلى موضع القبر والصليب يصلون فيه. وكانت اليهود يرمون عليه الزبل والكناسات، فمنعهم اليونان من الصلاة فيه، وبنوا هنالك هيكلا على اسم الزهرة.

وقال ابن العميد عن المسبحي: وفي الرابعة في ملك اندريانوس بطل الملك من

الرها وتداولتها القضاة من قبل الروم، وبنى أندريانوس بمدينة أثنوس بيتاً ورتب فيه جماعة من الحكماء لمدارسة العلوم. قال: وفي خامسة ملكه قدم نسطس بطركا على اسكندرية وكان حكيما فاضلاً، فلبث إحدى عشرة

سنة ثم مات، وقدم مكانه أمانيق في سادسة عشر من ملك أندريانوس فلبث إحدى عشرة سنة وهو سابع البطارقة. ثم مات أندريانوس لإحدى وعشرين من ملكه كما مر وولي ابنه أنطونيش.

قال هروشيوش: ويسمى قيصر الرحيم. وقال ابن العميد. ملك اثنتين وعشرين.

وقال الصعيديون إحدى وعشرين. قال: وفي خامسة ملكه قدم مرتيانو بطركا باسكندرية، وهو الثامن منهم، فلبث تسع سنين ومات، وكان فاضل السيرة. وقدم بعده كلوتيانو فلبث أربع عشرة سنة ومات في سابعة ملكه أوراليانوس بعده وكان محبوبا. وقال بطليموس صاحب المجسطي: إنه رصد الاعتدال الخريفي في ثالثة ملك أنطونيوس. فكان لاربعمائة وثلاث وستين بعد الاسكندر. ثم هلك انطونيوس لاثنتين وعشرين كما مر. فملك من بعده اوراليانوس. قال هروشيوش: وهو أخو انطونيوس وسماه اورالش وانطونيوس الأصغر. وقال كانت له حروب مع أهل فارس. وبعد أنّ غلبوا على أرمينية وسورية من ممالكه فدفعهم عنهما وغلبهم في حروب طويلة.. وأصاب الأرض على عهده وباء عظيم وقحط الناس سنتين، واستسقى لهم النصارى فأمطروا وارتفع الوباء والقحط بعد أنّ كان اشتد على النصارى وقتل منهم خلقا، وهي الشدة الرابعة من بعد نيرون.

قال ابن العمد: وفي السابعة من ملكه قدم على الإسكندرية البطرك اغريبوس،

فلبث اثني عشر سنة ومات في تاسعة عشر من ملك انطونيوس الأصغر. قال: وفي أيامه ظهرت مبتدعة من النصارى واختلفت أقوالهم، وكان منهم ابن ديصان وغيره، فجاهدهم أهل الحق من الأساقفة وأبطلوا بدعتهبم. وهلك انطونيوس هذا لتسع عشرة من ملكه، وفي عاشرة ملكه ظهر أردشير بن بابك اول ملوك الساسانية، واستولى علي ملك الفرس، وكان صاحب الحضر متملكاً على السواد، فغلبه وملك السواد وقتله، وقصته معروفة. وكان لعهده جالينوس المشهور بالطب وكان ربي معه، فلما بلغه أنه ملك على الروم، قدم عليه من بلاد اليونان وأقام عنده، وكان لعهده أيضاً ديمقراطس الحكيم، ولأول سنة من ملكه قدم بليالوس بطركا على إسكندرية وهو الحادي عشر من بطاركتها، فلبث فيهم عشر سنين ومات. وولي مكانه ديمتريوس فلبث فيهم ثلاثا وثلاثين سنة. ومات كمودة قيصر لثلاثة عشر كما قلناه، فولي من بعده ورمتيلوش ثلاثة أشهر. قال ابن العميد: وسماه ابن بطريق فرطنوش، وقال. وملك ثلاثة أشهر. وسماه غيره فرطيخوس، وسماه الصعيديون برطانوس، ومدة ملكه باتفاقهم شهران. وقال هروشيوش: اسمه اللبيس بن طيجليس وهو عم كمودة قيصر. قال. وولي سنة واحدة وقتله بعضى قواده وأقام في الملك ستة أشهر وقتل.

قال ابن العميد: وملك بعده يوليانس قيصر شهرين ومات. ثم ولي سوريانوس

قيصر، وسماه بعضهم سويرس، وسماه هروشيوش: طباريش بن أرنت بن أنطونيش. واختلفوا في مدته، فقال ابن العميد عن ابن بطريق: سبع عشرة سنة وقال المسبحي ثمان عشرة. وعن أبي فانيوس ست عشرة، وعن ابن الراهب ثلاث عشرة، وعن الصعيديين سنتين. قال وملك في رابعة من ملك أردشير، واشتد على النصارى وفتك فيهم، وسار إلى مصر والإسكندرية فقتلهم وهدم كنائسهم وشردهم كل مشرب، وبنى بالإسكندرية

هيكلا سماه هيكل الإله قال هروشيوش: هي الشدة الخامسة من بعد شدة نيرون. قال: ثم انتفض عليه اللطينيون و لم يزل محصوراً إلى أنّ هلك.

وملك من بعده أقطونيش. قال ابن العميد عن ابن بطريق: ست سيئ. وعن المسبحي: سبع سنين. وسماه انطونيش قسطس. قال: وكان ابتداء ملكه عندهم لخمس وعشرين وخمسمائة من ملك

الإسكندر، ولعهده سار اردشير ملك الفرس إلى نصيبين فحاصرها وبنى عليها حصناً. ثم بغله أنّ خارجا خرج عليه بخراسان فأجفل عنهم بعد المصالحة، على أنّ لا يتعرضوا لحصنه. فلما رحل بنوا من وراء الحصن وأدخلوه في مدينتهم. ورجع أردشير فنازلهم وامتنعوا عليه، فأشار بعضى الحكماء بأن يجمع أهل العلم فيدعون الله دعوة رجل واحد ففعلوا، فملك الحصن لوقته.

وقال هروشيوش لما ولي انطونيش ضعف عن مقاومة الفرس فغلبوا على أكثر مدن الشام ونواحي ارمينية، وهلك في حروبهم. وولي بعده مفريق بن مركة وقتله قواد رومة لسنة من ملكه، وكذا قال ابن العميد. وسماه ابن بطريق بقرونشوش والمسبحي هرقليانوس. قالوا جميعا: وملك من بعده أنطونيش. قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب: ثلاث سنين، وعن المسبحي والصعيديين؟ أربع سنيي. قال: وفي أول سنة من ملكه بنيت مدينة عمان بأرض فلسطين. وملك سابور بن بن اردشير مدناً كثيرة من الشام. ومات انطونيش فملك من بعده إسكندروس لثلاث وعشرين من ملك سابور بن أردشير، فملك على الروم ثلاث عشرة سنة. وكانت أمه محبة في النصارى. وقال هروشيوش: ملك عشرين سنة وكانت أمه نصرانية وكانت النصارى معه في سعة من أمرهم.

قال ابن العميد: وفي سابعة ملكه قدم تاوكلاً بطركا بالإسكندرية وهو الثالث عشر

من البطاركة، فلبث فيهم ست عشرة سنة ومات. قال هروشيوش: ولعشر من ملكه غزا فارس، فقتل سابور بن أردشير وانصرف ظافراً، فثار عليه أهل رومة وقتلوه. وملك من بعده مخشميان بن لوجية ثلاث سنين. و لم يكن من بيت الملك وإنما ولوه لأجل حرب الافرنج، واشتد على النصارى الشدة السادسة من بعد نيرون.

وأما ابن العميد فسماه فقيموس ووافق على الثلاث سنين في مدته، وعلى ما لقي النصارى منه، وأنه قتل منهم سرحبوس في سلمية وواجوس في بالس على الفرات. وقتل بطرك أنطاكية، فسمع اسقف بيت المقدس بقتله، فهرب وترك الكرسي. قال وفي ثالثة ملكه ملك سابور بن أردشير، خلاف ما زعم هروشيوش من أنه قتله، ثم هلك فقيموس ارمشميان، وولي من بعده يونيوس ثلاثة أشهر وقمل فيما قال ابن العميد. وقال: سماه أبو فانيوس لوكس قيصر، وابن بطريق بلينايوس، و لم يذكره

هروشيوش. ثم ملك عرديانوس قيصر. قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب: أربع سنين، وعن المسبحي والصعيديين: سنين، وسماه أبو فانيوس فودينوس والصعيديون قرطانوس. قال: وكان ملكه لإحدى وخمسين وخمسمائة من ملك الاسكندر. وقال هروشيوش ة غرديار بن بليسان. قال. وملك سبع سنين وطالت حروبه مع الفرس وكان ظافراً عليهم، وقتله أصحابه على نهر الفرات. قال وولي بعده فيلبس بن

اولياق بن انطونيش سبع سنين، وهو ابن عم الاسكندر الملك قبله، وأول من تنصر من ملوك الروم. وقال ابن العميد عن الصعيديين: ملك ست سنين وقيل تسع سنين، وكان ملكه لخمس وخمسين وخمسمائة من ملك الاسكندر وآمن بالمسيح.

وفي أول من ملكه قدم دنوشيوش بطركا بالإسكندرية وهو رابع عشر البطاركة بها،

فلبث تسع عشرة سنة. ولعهد فيلبس هذا قدم غرديانوس أسقفا على بيت المقدس بعد هروب مركيوس، ثم عاد من هروبه فأقام شريكاً معه سنة واحدة. ومات غرديانوس فانفرد مركيوش أسقفا ببيت المقدس عشر سنين. قال: وقتل فيلبس قيصر قائد من قواده يقال له دافيس، وملك مكانه خمس سنين. وقال عن المسبحي وابن الراهب سنة، وعن ابن بطريق سنتين. قال: وكان يعبد الأصنام ولقي النصارى منه شدة، وكان من أولاد الملوك، وقتل بطرك رومة، وأجاز من مدينة قرطاجنة إلى مدينة افسس، وبنى بها هيكلا وحمل النصارى على السجود له.

قال: وفي أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف، وظهروا بعده في أيام تاودسيوس.

وأما هروشيوش فسماه داجية بن مخشيميان وقال: ملك سنة واحدة، وكانت على النصارى في أيامه الشدة السابعة، وقتل بطرك رومة منهم. وولي من بعده غالش قيصر سنتين، واستباح في قتل النصارى وباء عظيم أقفلت له المدن. وقال هروشيوش: هو غالش بن يولياش. وقال ابن بطريق: أنّ يولياش كان شريكاً له في ملكه ومات قبله. قال ابن العميد: إحدى عشرة سنة لسبعين وخمسمائة من ملك الاسكندر. وقال هروشيوش وابن بطريق ملك خمس عشرة سنة واسمه غاليوش. وقال المسبحي خمس عشرة سنة وسماه داقيوس وغاليوش ابنه. وقال آخرون اسمه اورليوش وملك خمس سنين. وقال أبو فانيوس اسمه غليوس وملك أربع عشرة سنة. وقال الصعيديون ملك كذلك وإسمه أوراليونوس.

قال ابن العميد: وكان يعبد الأصنام، ولقي النصارى منه شدة. وفي أول سنة من ملكه قدم مكسيموس بطركا بالإسكندرية، وهو الخامس عشر من بطاركتها، فلبث اثنتي عشرة سنة ومات. وهو خامسة ملكه قدم اسكندروس اسقفا ببيت المقدس، ثم قتله بعد سبع سنين، وبعث إبنه في عساكر الروم لغزو الفرس فانهزم وحمل أسيرا إلى كسرى بهرام فقتله. وقال هروشيوش: ولي غلينوس خمس عشرة سنة فاشتد على النصارى الأمر وقتلهم، وقتل معهم بطرك بيت المقدس، وكانت له حروب مع الفرس أسره في بعضها ملكهم سابور، ثم من عليه وأطلقه. ووقع في أيامه برومة وباث عظيم، فرفع طلبه عن النصارى بسببه. وفي أيامه خرج القوط من بلادهم وتغلبوا على بلاد الغريقيين ومقدونية وبلاد النبط.

وكان هؤلاء القوط يعرفون بالسنسبين، وكانت مواطنهم في ناحية بلاد السريانيين، فخرجوا لعهد غلينوس هذا، وغلبوا كما قلناه على بلاد الغريقيين ومقدونية وعلى مرية، وهلك غلينوس قتيلاً على يد قواد رومة. ثم ملك اقاويدوش قيصر سنة واحدة. وقال ابن العميد عن المسبحي سنة وتسعة أشهر لثمانين وخمسمائة للاسكندر، وفي أول سنة من ملكه قدم يونس السميصاني بطركا بانطاكية فلبث ثمان سنين، وكان يقول

بالوحدانية ويجحد الكلمة بالروح. ولما مات اجتمع الأساقفة بانطاكية وردوا مقالته. وقال هروشيوش: ولي بعد غلينوش فلوديش ابن يلاريان بن موكله، فنسبه هكذا. وقال فيه من عظماء القواد ولم يكن من بيت الملك، ودفع القوط المتغلبين عن مقدونية من منذ خمس عشرة سنة عليها، ومات لسنتين من ملكه وهذا كما قال المسبحي. وقال هروشيوش: ولي بعده أخوه نطيل سبع عشرة يوما وقتله بعض القواد ولم يذكر ذلك ابن العميد.

ثم ملك بعده اوريليانس ست سنين،، سماه ابن بطريق اوراليوس، والمسبحي أرينوس، وأبو فانيوس اوليوش، وهروشيوش اوراليان بن بلنسيان، وقال: ملك خمس سنين. قال ابن العميد: وفي الرابعة من ملكه قدم تاونا بطركاً بالإسكندرية سادس عشر البطاركة، فلبث عشر سنين. وكان النصارى يقيمون الدين خفية. فلما صار بطركا قابل الروم ولاطفهم بالهدايا فأذنوا له في بناء كنيسة مريم، وأعلنوا فيها بالصلاة. قال: وفي سادسة ملكه ولد قسطنطين وقال هروشيوش ة إنّ

أورليان بن بلنسيان هذا حارب القوط فظفر بهم، وجدد بناء رومة، واشتد على النصارى تاسعة بعد نيرون، ثم قتل. فولي بعده طانيش بن إلياس وملك قريبا من سنة. وقال ابن العميد اسمه طافسوس وملك ستة أشهر. وقال ابن بطريق اسمه طافساس وملك تسعة أشهر. ثم ملك فروفش قيصر خمس سنين. وقال أبو فانيوس: اسمه فروش، وقال ابن بطريق وابن الراهب والصعيديون ست سنين. وقال المسبحي سبع سنين وسماه ألاكيوس وارفيون. وسماه ابن بطريق بروش، وسماه هروشيوش فاروش بن أنطويش. قال: وتغلب على كثير من بلاد الفرس. وقال ابن العميد كان ملكه لسابعة من ملك سابور ذي الأكتاف، ولخمسمائة واثنتين وتسعين من ملك الاسكندر، وكان شديدا على النصارى وقتل منهم خلقا كثيرا، وهلك هو وابناه في الحرب. وقال هروشيوش: ولما هلك فاررش ولي من بعده ابنه منابي بان وقتل لحينه، ولم يذكره ابن العميد.

ثم ملك بقلاديانوش إحدى وعشرين سنة. وقال المسبحي عشرين سنة. وقال غيره ثماني عشرة سنة. وملك لخمسمائة وخمس وتسعين للاسكندر. وقال غيرهم: كان اسمه عربيطا، وارتقى في أطوار الخدمة عند القياصرة إلى أنّ استخلصه فاريوش وجعله على خيله، وكان حسن اليزمار. ويقال أنّ الخيل كانت ترقمى طرباً لمزاميره، وعشقته بنت فاريوش الملك. ولما مات أبوها وإخوتها ملكها الروم عيهم فتزوجته وست له في الملك، فاستولى على جميع ممالك الروم وما والاها، وقسطنطش ابن عمه على بلاد أشيا وبيزنطية، وأقام هو بأنطاكية، وله الشام ومصر إلى أقصى المغرب، وفي تاسعة عشر من ملكه انتقض أهل مصر الإسكندرية، فقتل منهم خلقا ورجع إلى عبادة الأصنام، وأمر بغلق الكنائس ولقي النصارى منه شدة وقتل القسيس مار جرس، وكان من أكابر أبناء البطارقة، وقتل ملقوس منهم أيضاً. وفي عاشرة ملكه قدم مار بطرس بطركا بالإسكندرية، فلبث عشر سنين وقتله، وجعل مكانه تلميذه، إسكندروس وكان كبير تلامذته أريوش كثيرا لمخالفة له فسخطه وطرده، ولما مات ممار بطرس رجح أريوش عن المخالفة فادخله إسكندروس إلى الكنيسة وصيره قسًّا.

قال ابن العميد: وفي أيام ديقلاديانوس خرج قسطنطش ابن عمه ونائبه على بيزنطيا وأشيا، ورأى هلانة وكانت تنصرت على يد اسقف الرها فأعجبتة وتزوجها، وولدت له قسطنطين، وحضر المنجمون لولادته، فأخبروا بملكه فأجمع ديقلاديانوس على قتله فهرب إلى الرها. ثم جاء بعد موت ديقلاديانوس فوجد أباه قسطنطس قد ملك على الروم، فتسلم الملك من يده على ما نذكر. وهلك ديقلاديانوس لعشرين سنة من ملكه ولستمائة وست عشرة سنة من ملك الاسكندر، وملك من بعده ابنه مقسيمانوس.

قال ابن بطريق: سبع سنين، وقال المسبحي وابن الراهب: سنة واحدة. قالوا

وكان شريكه في الملك مقطوس وكان أشد كفرا من ديقلاديانوس ولقي النصارى منهما شدة وقتلا منهم خلقاً كثيرا. وفي أول سنة من ملكه قدم الاسكندروس تلميذ مار بطرس الشهير بطركا بالإسكندرية، فلبث فيهم ثلاثاً وعشرين سنة. وعلى عهد مقسيمانوس تذكر تلك الخرافة بين المؤرخين من أنّ سابور ملك الفرس دخل أرض الروم متنكراً، وحضر مكان مقسيمانوس وسجنه في جلد بقرة، وسار إلى مملكة فارس وسابور في ذلك الجلد، وهرب منه ولحق بفارس، وهزم الروم في حكاية مستحيلة وكلها أحاديث خرافة. والصحيح منه أنّ سابور سار إلى مملكة الروم، فخرج إليه مقسيمانوس واستولى على ملكه كما نذكر بعد.

وأما هروشيوش فلما ذكر مناربان قيصر بن قاريوس وأنه ملك بعد أبيه وقتل لحينه.

ثم قال: وقام بملكهم ديوقاريان وثأر من قاتله. ثم خرج عليه اقرير بن قاريوس فقتله ديوقاريان بعد حروب طويلة. ثم انتقض عليه أهل ممالكه، وثار الثوار ببلاد الافرنجة والأندلس وأفريقية ومصر، وسار إليه سابور ذو الأكتاف، فدفع ديوقاريان إلى هذه الحروب كلها مخشميان هركوريش، وصيره قيصرا فبدأ أولا ببلاد الافرنجة، فغلب الثوار بها،أصلحها. وكان الثائر الذي بالأندلس قد ملك بيرطانية سبع سنين، فقتله بعض أصحابه ورجعت برطانية إلى ملك ديوقاريان. ثم استعمل خشميان خليفة ديوقاريان صهره قسطنطش وأخاه مخشمس ابني وليتنوس، فمضى إلى أفريقية وقهر الثوار بها، وردها إلى طاعة الرومانيين.

وزحف ديوقاريان قيصر الأعظم إلى مصر والإسكندرية، فحصر الثائر بها إلى أنّ ظفر به وقتله. ومضى قسطنطش إلى اللمانيين في ناحية بلاد الافرنج فظفر بهم بعد حروب طويلة، وزحف مخشميان خليفة ديوقاريان إلى سابور ملك الفرس،

فكانت حروبه معه سجالا حتى غلبه وأصاب منه، واستاصل مدينة غورة والكوفة من بلاده سبيا وقتلا ورجع إلى رومة. ثم سرحه ديولاريان قيصر إلى حروب أهل غالش من الافرنجة، فأثخن فيهم قتلا وسبيا. ثم اشتد ديوقاريان على النصارى الشدة العاشرة بعد نيرون، وأثخن فيهم بالقتل، ودام ذلك عليهم عشر سنين.

ثم اعتزل ديوقاريان وخليفته مخشميان الملك ورفضاه ودفعاه إلى قسنطش ابن وليتنوش وأخيه مخشمس ويسمى غلاريس، فاقتسما ملك الرومانيين. فكان لمخشمس غلاريش ناحية الشرق، وكان لقسنطش ناحية المغرب. وكانت افريقية وبلاد الأندلس وبلاد الافرنج في ملكته. وهلك ديوقاريان ومخشميان معتزلين عن الملك بناحية الشام، وأقام قسنطش في الملك. ثم هلك ببرطانية، وأقام بملك اللطينيين من بعده ابنه قسطنطين. انتهى كلام

هروشيوش. ويظهر أنّ هذا الملك الذي سماه ابن. العميد ديتلاديانوس هو الذي سماه هروشيوش ديوقاريان، والخبر من بعد ذلك متشابه، والاسماء مختلفة ولا يخفى عليك وضع كل اسم في مكانه من الآخر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخبر عن القياصرة المتنصرة من اللطينيين وهم الكيتم واستفحال ملكهم بقسطنطينية ثم بالشام بعدها إلي حين الفتح الإسلامي ثم بعده إلي انقراض أمرهم

هؤلاء الملوك القياصرة المتنصرة من أعظم ملوك العالم وأشهرهم، وكان لهم الاستيلاء على جانب البحر الرومى من الأندلس إلى رومة إلى القسطنطينية إلى الشام إلى مصر والإسكندرية، إلى أفريقية والمغرب.

وحاربوا الترك والفرس بالمشرق والسودان المغرب من النوبة فمن وراءهم. وكانوا اولا على دين المجوسية، ثم بعد ظهور الحواريين ونشر دين النصرانية لأرضهم وتسلطهم عليهم بأرضهم مرة بعد أخرى، أخذوا بدينهم.

وكان أول من أخذ به قسطنطين بن قسنطش بن وليتنوه وأمه هلانة بنت مخشميان قيصر خليفة ديوقاريان قيصر الثالث والثلاثون من القياصرة، وقد

مر ذكره آنفا. وإنما سمي هذا الدين دين النصرانية نسبة إلى ناصرة: القرية التي كان فيها مسكن عيسى عليه السلام عندما رجع من مصر مع أمه. وأما نسبه إلى نصران فهو من أبنية المبالغة، ومعناه أنّ هذا الدين في غير أهل عصابة، فهو دين من ينصره من أتباعه. ويعرف هؤلاء القياصرة ببني الأصفر، ولعض الناس ينسبهم إلى عيصو بن إسحاق وقد أنكر ذلك المحققون وأبوه.

وقال أبو محمد بن حزم عند ذكر إسرائيل عليه السلام: كان لإسحاق عليه السلام

ابن آخر غير يعقوب واسمه عيصاب، وكان بنوه يسكنون جبال السراة من الشام إلى الحجاز وقد بادوا جملة. إلا أنّ قوما يذكرون أنّ الروم من ولده وهو خطأ، وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضوعهم كان يقال له أروم، فظنوا أنّ الروم من ذلك الموضوع وليس كذلك، لأن الروم إنما نسبوا إلى رومتس باني رومة. وربما يحتجون بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة تبوك للحرث بن قيس: هل لك في جلاد بني الأصفر؟ ولا حجة فيه لاحتمال أنّ يريد بني عيصاب على الحقيقة، لأن قصده كان إلى ناحية السراة وهو مسكن بني عيصو.

قلت: مسكن عيصو هؤلاء كما يقال له ايذوم بالذال المعجمة إلى الظاء أقرب، فعربتها العرب راء ومن هنا جاء الغلط والله تعالى أعلم. وهذا الموضع يقال له يسعون أيضاً والاسمان له في التوراة. قال ابن العميد؟ خرج قسطنطين المؤمن على مقسيمانوس فهزمه ورجع إلى رومة، وازدحم العسكر على الجسر فوقع بهم في البحر، وغرق مقسيمانوس مع من غرق، ودخل قسطنطين رومة وملكها بعد أنّ أقام ملكاً على بيزنطية من بعد أبيه ستاً وعشرين سنة؛ فبسط الدل ورفع الجور، وخرج قائده يسكن ناحية قسطنطينية، وولاه على رومة وأعمالها وألزمه باكرام النصارى. ثم انتقض عليه وقتل النصارى وعبد الأصنام. وكان فيمن قتل ماريادس بطرك بطارقة، فبعث قسطنطين العساكر إلى رومة لحربه فساقوه أسيرا وقتله. ثم تنصر قسطنطين في مدينة نيقية لاثني

عشر مر ملكه، وهدم بيوت الأصنام وبنى الكنائس، وللتاسعة عشرة من ملكه كان مجمع الأساقفة بمدينة نيقية، ونفى أريوس كما ذكرنا ذلك كله عن قبل. وأن رئيس هذا المجمع كان اسكندروس بطرك الإسكندرية. وفي الخامسة عشرة من رياسته توفي بعد المجمع بخمسة أشهر. وقال ابن بطريق: كانت ولاية اسكندروس في الخامسة من ملك قسطنطين، وبقي ست عشرة

سنة، وقتل في السادسة والعشرين من ملك ديقلاديانوس، وأنه كان على عهده أرسيانوس اسقف قيسارية. تال المسبحي: مكث بطركا ثلاثا وعشرين، وكسر صنم النحاس الذي هو هيكل زحل باسكندرية. وجعل مكانه كنيسة فهدمها العبيديون عند ملكهم اسكندرية.

وقال ابن الراهب: أنّ اسكندروسى البطرك ولي أول سنة من ملك قسطنطين، فمكث اثنتين وعشرين سنة، وعلى عهده جاءت هلانة أم قسطنطين لزيارة بيت المقدس، وبنت الكنائس وسألت عن موضع الصليب، فأخبرها مقاريوس الأسقف أنّ اليهود أهالوا عليه الحراب والزبل. فأحضرت الكهنونية وسألتهم عن موضع الصليب، وسألتهم رفع ما هنالك من الزبل. ثم استخرجت ثلاثة من الخشب، وسألت أيتها خشبة المسيح؛ فقال لها الأسقف: علامتها أنّ الميت لحيا بمسيسها، فصدقت ذلك بتجربتها، واتخذوا ذلك اليوم عيداً لوجود الصليب. وبنت على الموضع كنيسة القمامة وأمرت مقاريوس ا أسقف ببناء الكنائس، وكان ذلك لثلثمائة وثمان وعشرين من مولد المسيح عليه السلام.

وفي حادية وعشرين من ملك قسطنطين كان مهلك اسكندروس البطرك، وولي

مكانه تلميذه اثناييوس، كانت أمه تنصرت على يده فربي ابنها عنده وعلمه، وولى بطركا مكانه، وسعى به أصحاب أريوش إلى الملك بعده مرتين بقي فيهما على كرسيه ثم رجع. وحمل قسطنطين اليهود بالقدس على النصرانية فأظهروها، وافتتحوا في الامتناع من أكل الختزير، فقتل منهم خلقا. وتنصر بعضهم فزعموا أنّ أحبار اليهود نقصوا من سني موايد الآباء نحواً من ألف وخمسمائة سنة، ليبطلوا مجيء المسيح في السوابيع التي ذكر دانيال أنّ المسيح يظهر عندها، وأنها لم يحن وقتها، وأن التوراة الصحيحة هي التي فسرها السبعون من أحبار اليهود ملك مصر. وزعم ابن العميد أنّ قسطنطين أحضرها واطلع منها على النقص الذي قاله. قال وهي التوراة التي بيد النصارى الآن.

قال: ثم أمر قسطنطين بتجديد مدينة بيزنطية وسماها قسطنطينية باسمه، وقسم

ممالكه بين أولاده فجعل لقسطنطين قسطنطينية وما والاها، ولقسطنطين الآخر بلاد الشام إلى أقصى المشرق، ولقسطوس الثالث رومة وما والاها. قال وملك خمسين سنة منها

ست وعشرون ببزنطية قبل غلبة هقسميانوس، ومنها أربع وعشرون بعد استيلائه على الروم. وتنصر في اثنتي عشرة من آخر ملكه، وهلك لستمائة وخمسين للاسكندر.

قال هروشيوش: كان قسطنطين بن قسنطش على دين المجوسية، وكان شديدا

على النصارى، ونفى بطرك رومة فدعا عليه وابتلي بالجذام، ووصف له في مداواته أنّ ينغمس في دماء الأطفال، فجمع منهم لذلك عددا ثم أدركته الرقة عليهم فأطلقهم، فرأى في منامه من يحضه على الاقتداء بالبطرك، فرده إلى رومة وبرىء من الجذام. وجنح من حينئذ إلى دين النصرانية، ثم خشي خلاف قومه في ذلك، فارتحل إلى القسطنطينية ونزلها وشيد بناءها وأظهر ديانة المسيح، وحالف أهل رومة، فرجع إليهم وغلبهم على أمرهم وأظهر دين النصرانية. ثم جاهد الفرس حتى غلبهم على كثير من ممالكهم. ولعشرين سنة من ملكه خرجت طائفة من القوط إلى بلاده، فأغاروا وسبوا فزحف إليهم وأخرجهم من بلاده. ثم رأكما فى منامه عربا وبنودا على تمثال الصلب ن، وقائلا يقول: هذا علامة الظفر لك. فخرجت أمه هلانة إلى بيت المقدس لطلب آثار المسيح، وبنت الكنائس في البلدان ورجعت ثم هلك قسطنطين لإحدى وثلاثين سنة من ملكه اه. كلام هروشيوش.

ثم ولي قسطنطين الصغير بن قسطنطين وسماه هروشيوش قسنطش. قال ابن العميد: ملك أربعا وعشرين سنة وكان أخوه قسطوس برومة بولاية أبيهما، ففي خامسة من ملك قسطنطين بعث العساكر، فقتل مقنيطوس وأتباعه وولى على رومة من جهته، فكانت له صاغية إلى اريوس فأخذ بمذهبه، وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينية وانطاكية ومصر والإسكندرية، وغلب أتباع أريوس على الكنائس، ووثبوا على بطرك اسكندرية ليقتلوه فهرب كما مر. ثم هلك لأربع وعشرين سنة من ملكه.

وولي ابن عمه يولياش وقال هروشيوش بن منخشمطش، قال: وملك سنة واحدة.

وقال ابن العميد ملك سنتين باتفاق لثلاثة من ملك سابور، وكان كافرا وقتلى النصارى وعزلهم عن الكنائس واطرحهم من الديوان، وسار لقتل الفرس، فمات من سهم أصابه. وقال هروشيوش: تورط في طريقه في مفازة ضل فيها عن سبيله، فتقبض عليه أعداوة وقتلوه. قال هروشيوش: وولي بعده بليان ابن قسطنطي سنة أخرى وزحف إلى الفرس، وملكهم يومئذ سابور فحجم عن لقائهم فصالحهم ورجع وهلك في طريقه. و لم يذكر ابن العميد بليان هذا وإنما ما قال: ملك من بعد يوليانوس الملك يوشانوش سنة واحدة باتفاق في السادسة عشرة من ملك سابور، وكان مقدم عساكر يوليانوس، فلما قتل اجتمعوا إليه وبايعوه، واشترط عليهم الدخول في النصرانية فغلبوه.

وأشار سابور بتوليته ونصب له صليبا في العسكر. ولما ولي نزل على نصيبين للفرس، ونقل الروم الذي بها إلى آمد ورجع إلى كرسي مملكتهم، فرد الأساقفة إلى الكنائس، ورجع فيمن رجع أثناسيوس بطرك اسكندرية، وطلب منه أنّ يكتب له أمانة أهل مجمع نيقية فجمع الأسالفة وكتبوها، وأشار عليه بلزومها و لم يذكر هروشيوش يوشانوش هذا، وذكر مكانه آخر قال وسماه بلنسيان بن قسنالس. قال: وقاتل امما من القوط والافرنجة وغيرهم. قال: وافترق القوط في أيامه فرقتين على مذهبي أريوس وأمانه نيقية. قال: وفي أيامه ولى داماش بطركاً برومة ثم هلك بالفالج، وملك بعده أخوه واليس أربع سنين، وعمل على مذهب أريوس، واشتد

على أهل الأمانة وقتلهم، وثار عليه بأهل أفريقية بعض النصارى مع البربر، فأجاز إليهم البحر وحاربهم فظفر بالثائر وقتله بقرطاجنة، ورجع إلى قسطنطينية فحارب القوط وا أمم من ورائهم وهلك في حروبهم.

وقال ابن العميد في قيصر الذي قتل واليس وسماه واليطنوس أنه ملك اثنتي عشرة

سنة فيما حكاه ابن بطريق وابن الراهب. وحكى عن المسبحي خمسة عشرة شنه، وأن أخاه والياس كان شريكه في الملك، وأنه كان مباينا وأنه ملك لستمائة وست وسبعين للاسكندر وسبع عشرة لسابور كسرى. قال وفي أيامه وثب أهل إسكندرية على اثناسيوس البطرك ليقتلوه، فهرب وقدموا مكانه لوقيوس، وكان على راي أريوس. ثم اجتمع أهل الأمانة بعد خمسة أشهر ورجعوه إلى كوسه، وطردوا لوقيوس وأقام أثناسيوس بطركا إلى أنّ مات، فولوا بعده تلميذه بطرس سنتين، ووثب به أصحاب لوقيوس فهرب، ورجع لوقيوس الى الكرسي فأقام ثلاث سنين. ثم وثب به أهل الأمانة ورجعوا بطرس ومات لسنة من رجعته. ولقي من داريانوس قيصر ومن أصحاب أريوس شدائد ومحنا.

قال المسبحي: كان وايطينوس يدين بالأمانة، وأخوه واليس يدين بمذهب أريوس أخذه عن ثاودكسيس اسقف القسطنطينية وعاهده على إظهاره، فلما ملك نفى جميع

أساقفة الأمانة وسار أريوس اسقف أنطاكية بإذنه إلى الإسكندرية، فحبس بطرس البطرك وأقام مكانه أريوس من أهل سميساط

وهرب بطرس من السجن وأقام برومة.

وكانت بين واليطينوس قيصر وبين سابور كسرى فتنة وحروب ، وهلك في بعض حروبه معهم وولى بعده أخوه واليس. قال ابن العميد: عن ابن الراهب سنتين وعن أبي فانيوس ثلاث سنين، وسماه والاس. وقال هو أبو الملكين اللذين تركا الملك وترهبا وسمي مكسينموس ودوقاديوس.

قال: وفي الثانية من ملكه بعث طيماناوس أخا بطرس بطركاً على إسكندرية، فلبث فيهم سبع سنين ومات، وفي سادسة ملكه كان المجمع الثاني بقسطنطينية وقد مر ذكره. وفي أيام واليس قيصر هذا مات بطرك قسطنطينية، فبعث اغريوس اسقف يزناروا وولاه مكانه، فوليه أبع سنين ومات. ثم خرج على واليس خارج من العرب، فخرج إليه فقتل في حروبه. ثم ولى أغراديانوس قيصر. قال ابن العميد: وهو أخو واليس وكان والنطوس بن واليس شريكا له في الملك وملك سنة واحدة. وقال عن أبي فانيوس سنتين، وعن ابن بطريق ثلاث سنين.

وذكر عن ابن المسبحي وابن الراهب أنّ تاوداسيوس الكبير كان شريكا لهما، وأن

ابتداء ملكهم لستمائة وتسعين من ملك الاسكندر، وأنه رد جميع ما نفاه واليس قبله من الأساقفة إلى كرسيه وخلى كل واحد مكانه. ومات اغراديانوس وابن أخيه في سنة واحدة. قال ابن العميد: وملك بعدهما ثاوداسيوس سبع عشرة سنة باتفاق لستمائة وتسعين من ملك الاسكندر، ولإحدى وثلاثين من ملك سابور

كسرى. وفي سادسة ملكه مات اثناسيوس بطرك اسكندرية، فولي مكانه كاتبه تاوفيلا، وكان بطرك القسطنطينية يوحنا فم الذهب واسقف قبرس أبو فانيوس، كان يهوديا وتنصر.

قال: وكان لتاوداسيوس ولدان ارقاديوس وبرباريوس. قال: وفي خامسة عشر من
ملكه ظهر الفتية السبعة أهل الكهف، الذين قاموا أيام دقيانوس ولبثوا في نومهم ثلثمائة سنة وتسع سنين كما قصه القرآن، ووجد معهم صندوق النحاس والصحيفة التي أودع البطريق فيها خبرهم. وبلغ الأمر إلى قيصر تاوداسيوس، فبعث في طلبهم فوجدهم قد ماتوا، فأمر أنّ يبنى عليهم كنيسة ويتخذ يوم ظهورهم عيدا. قال المسبحي: وكان أصحاب اريوس قد استولوا على الكنائس منذ أربعين سنة، فأزالهم عنها ونفاهم، وأسقط من عساكره كل من يدين بتلك المقالة. وعقد المجمع الثاني بقسطنطينية لمائتين وخمسين سنة من مجمع نيقية، وقرر فيه الأمانة الأولى بنيقية، وعهدوا أنّ لا يزاد فيها ولا ينقص. وفي خامسة
عشرة من ملكه مات سابور بن سابور، وملك بعده بهرام. ثم هلك تاوداسيوس لسبع عشرة سنة من ملكه.

وأما هروشيوش فقال بعد ذكر واليس: وملك بعده وليطانش ابن أخيه فلنسسان ست
سنين وهو الموفى أربعين عددا من ملوك القياصرة قال. واستعمل طودوشيش بن انطيونش بن لوخيان على ناحية المشرق. فملك الكثير منها. ثم هجم أهل رومة على قائدهم فقتلوه، وخلعوا وليطيانش الملك فلحق بطودوشيش بالمشرق فسلم إليه في الملك فأقبل طودوشيش إلى رومة وقتل الثائر بها، واستقل بملك القياصرة. وهلك لأربع عشرة سنة من ولايته. فولي ابنه كاديكش ويظهر من كلام هروشيوش أنّ طودوشيش هو تاوداسيوس الذي ذكره ابن العميد، لأنهما متفقان في أنّ ابنه اركاديس، ومتقاربان في المدة. فلعل وليطانش الذي ذكره هروشيوش هو اغراديانوس الذي ذكره ابن العميد اه.

قال ابن العميد: وملك اركاديش ولد تاوداسيوس الأكبر ثلاث عشرة سنة باتفاق في
ثالثة ملك بهرام بن ابور، وكان مقيما بالقسطنطينية، وولى أخاه انوريش على رومة. قال وولد أركاديش ابن سماه طودوشيش باسم أبيه. ولما كبر طلب معلمه أريانوس ليعلم ولده، فهرب إلى مصر وترهب ورغبه بالمال فأبى، وأقام في مغارة بالجبل المقطم على قرية طرا ثلاث سنين. ومات فبنى الملك على قبره كنيسة وديرا يسمى دير القصير ويقال: دير البغل. وفي أيامه غرق أبو فانيوس بمرجعه إلى ترصى. ومات يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية، وكان نفاه أركاديش بموافقة أبي فانيوس، ودعا كل منهما على صاحبه فهلكا. وفي التاسعة من ملك أركاديش مات بهرام بن سابور، وملك ابنه يزدجرد.

ثم هلك أركاديش وملك من بعده طودوشيش الأصغر ابن أركاديش ثلاث عشرة
سنة، وولى أخاه انوريش على رومة فاقتسما ملك اللطينيين، وانتقض لعهديهما قومس أفريقية وخالفه إلى طاعة القياصرة، فحدثت بأفريقية فتنة لذلك. ثم غلب القومس أخاه نلحق بقبرص وترهب بها. تزحف القوط إلى رومة، وفر عنها أنوريش فحاربوها ودخلوها عنوة، واستباحوها ثلاثا وتجافوا عن أموال الكنائس. قال:

ولما هلك اركاديش قيصر استبد أخوه انوريش بالملك خمس عشرة سنة، وأحسن في دفاع القوط عن رومة، وهلك

فولي من بعده طودشيش ابن أخيه اركاديش، ولم يذكر ابن

العميد أنوريش، وإنما ذكر بعد أركاديش ابنه طودشيش وسماه الأصغر.

قال وملك اثنتين وأربعين سنة باتفاق في خامسة ملك يزدجرد، وكانت بينه وبين الفرس حروب كثيرة. قالى: وفي أول سنة من ملكه مات تاوفيلا بطرك إسكندرية فولي مكانه كيرلوس ابن اخته. في السابعة عشرة من ملكه قدم نسطوريش بطركا بالقسطنطينية، فأقام أربع سنين وظهرت عنه العقيدة التي دان بها، وقد تقدمت وبلغت مقالته إلى كيرلس بطرك الإسكندرية. فخاطب في ذلك بطرك رومة. وانطاكية وبيت المقدس. ثم اجتمعوا بمدينة أفسيس في مائتي اسقف وأجمعوا على كفر نسطوريس ونفوه، فنزل اخميم من صعيد مصر أقام بها سبع سنين، وأخذ بمقالته نصارى الجزيرة والموصل إلى الفرات، ثم العراق وفارس إلى المشرق. وولى طودوشيش بالقسطنطينية مقسيموس عوضا عن نسطورس، فأقام بها ثلاث سنين. وفي ثامنة وثلاثين من ملك طودوشيش الأصغر مات كيرلس بطرك الإسكندرية، وولي مكانه ديسقرس ولقي شدائد من مرقيان الملك بعده. وفي السادسة عشرة من ملك طودوشيش الأصغر مات يزدجرد كسرى وولي ابنه بهرام جور، وكانت بينه وبيني خاقان فلك الترك وقائع. ثم عدل عن حروبهم ودخل إلى أرض الروم فهزمه طودوشيش وملك ابنه يزدجرد. قال هروشيوش: وفي أيام طودوشيش الأصغر تغلب القوط على رومة وملكوها، وهلك ملكهم أبطريك كما نذكر في أخبارهم. ثم صالحوا الروم على أنّ يكون لهم الأندلس، فانقلبوا إليها وتركوا رومة انتهى. قال ابن العميد: ثم ملك مرقيان بعده ست سنين باتفاق وتزوج أخت طودوشيش وسفاه هروشيوش مركيان بن مليكة. قالوا وكان في أيامه المجمع الرابع بمقدونية وقد تقدم ذكره، وإنه كان بسبب ديسقوس بطرك

اسكندريه، وما أحدث من الدغة في الأمانه فأجمعوا على نفيه، وجعلوا مكانه برطارس. وافترقت النصارى إلى ملكية، وهم أهل الأمانة، فنسبوا إلى مركيان قيصر الملك الذي جمعهم، وعهد بأن لا يقبل ما اتفق عليه أهل المجمع الخلقدوني. وإلى يعقوبية وهم أهل مذهب ديسقوس وتقدم الكلام في تسميتهم يعقوبية. وإلى نسطورية وهم نصارى المشرق. وفي أيام مركيان سكن شمعون الحبيس الصومعة بأنطاكية وترفب، وهو أول من فعل ذلك من النصارى. وعلى عهده مات يزدجرد كسرى. ومات مركيان قيصر لست سنيين من ملكه، وملك بعده لاون الكبير.

قال ابن العميد:

لسبعمائة وسبعين من ملك الاسكندر، ولثانية من ملك نيرون ملك ست عشرة سنة. ووافقه هروشيوش على مدته، وقال فيه ليون بن شمخلية. قال ابن العميد: وكان على مذهب الملكية ولما سمع أهل إسكندرية بموت مركيان وثبوا على برطارس البطرك فقتلوه بعد ست سنين من ولايته، وأقاموا مكانه طيمناوس. وكان يعقوبيا ، فجاء قائد من قسطنطينية بعد ثلاث سنين من ولايته فنفاه، وأبدل عنه سورس من الملكية وأقام تسع سنين.

ثم عاد طيماناوس بالأمر لاون قيصر ويقال أنه بقي بطركا اثنتين وعشرين سنة، ولثانية عشر من ملك لاون زحف الفرس إلى مدينة آمد وحاصروها وامتنعت عليهم. وفي أيامه مات شمعون الحبيس صاحب العمود. ثم هلك لاون قيصر لست عشرة سنة من ملكه. قال ابن العميد: وولي من بعده لاون الصغير وهو أبو زينون الملك بعده. وقال ابن بطريق هو ابن سينون، وكان يعقوبيا وملك سنة واحدة.

ولم يذكره هروشيوش، وإنما ذكر زينون الملك بعده، وسماه سينون بالسين المهملة، وقال: ملك سبع عشرة سنة، وقال ابن العميد مثله. ولثمانية عشر من ملك نيرون ولسبعمائة وسبع وثمانين للاسكندر قال وكان يعقوبيا وخرج عليه ولده ورجل من قرابته، وحاربهما عشرين شهراً. ثم قتلهما وأتباعهما، ودخل قسطنطينية ووجد بطركها وكان رديء العقيدة قد غير كتب الكنيسة وزاد ونقَّص. فكتب زينون قيصر إلى بطرك رومة وجمع الأساقفة فناظروه ونفوه. وفي سابعة ملك زينون مات طيماناوس بطرك إسكندرية فولي مكانه بطرس، وهلك بعد ثمان سنين فولي مكانه أثناسيوس، وهلك لسبع سنين وكان قيما ببعض البيع في بطركيته. قال المسبحي: وفي أيام زينون احترق ملعب الخيل الذي بناه بطليموس الأرنبا بالإسكندرية.

وقال ابن بطريق: وفي أيام زينون هاجت الحرب بين نيرون والهياطلة وهزموه في بعض حروبهم، ورد الكرة عليه بعض قواده كما في أخبارهم، ومات نيرون، وتنازع الملك ابناه قياد ويلاش وفي عاشرة من ملك زينون غلب يلاش أخاه واستقل بالملك. ولحق أخره قياد بخاقان ملك الترك. ثم هلك يلاش لأربع سنين، ورجع قياد واستولى على مملكة فارس، وذلك في أربعة عشر من ملك زينون، فأقام ثلاثاً وأربعين سنة.

وهلك زينون لسبع عشر من ولايته، فملك بعده نسطاس سبعاً وعشرين سنة في

أربعة من ملك قياد، ولثمانمائة وثلاث للاسكندر، وكان يعقوبيا وسكن حماة، ولذلك أمر أن تشيد وتحضن فبنيت في شتين. وعهد لأول ملكه أن يقتل كل امرأة كاتبة. وفي ثالثة ملكه أمر ببناء مدينة في المكان الذي قتل فيه دارا فوق نصيبين. ثم وقعت الحرب بينه وين الأكاسرة وخرب قياد مدينة آمد، ونازلت عساكر الفرس إسكندرية وأحرقوا ما حولها من البساتين والحصون. وقتل بين الامتين خلق كثير. وفي سادسة ملكه مات اثناسيوس بطرك الإسكندرية فصير مكانه يوحنا وكان يعقوبيا، ومات لتسع سنين، فصير بعده يوحنا الحسن، ومات بعد إحدى عشرة. وفي أيام نسطاس قدم ساريوس بطركاً بانطاكية، وكان كلاهما على امة ديسقوس. وفي سابعة وعشرين من ملك نسطاس قدم ساريوس بطركاً بانطاكية. ومات يوحنا بطرك إسكندرية فولى مكانه ديسقوس الجديد ومات لسنتين ونصف.

وقال سعيد بن بطريق: إن إيليا بطرك المقدس كتب إلى نسطاس قيصر يسأله الرجوع إلى الملكية ويوضح له الحق في مذهبهم، وصبا إليه في ذلك جماعة من الرهبان، فأحضرهم وسمع كلامهم، وبعث إليهم بالأموال للصدقات وعمارة الكنائس، وكان بقسطنطينية رجل على رأي ديسقوس فمضى إلى نشطانش قيصر ومضى وأشار عليه باتباع مذهب ديسقوس وأن يرفض المجمع الخلقدوني فقبل ذلك منه، وبعث إلى جميع أهل مملكته. وبلغ ذلك بطرك أنطاكية فكتب إلى نشطانش قيصر بالملامة على ذلك، فغضب ونفاه. وجعل مكانه بإنطاكية

سويوس وبلغ ذلك إلى إيليا بطرك القدس. فجمع الرهبان ورؤساء الديور في نحو عشرة آلاف، ولعنوا سويوس، وأجرموه والملك نشطانش معه. فنفاه نشطانش إلى ايليا، وذلك في ثالثة وعشرين من ملكه. فاجتمع جميع البطاركة والأساقفة من الملكية وأجرموا نشطانش الملك وسويوس وديسقوس إمام اليعقوبية ونسطورس. قال ابن بطريق: وكان لسيوس تلميذ اسمه يعقوب البرادعي يطوف البلاد داعيا إلى

مقالة سويروس ودسفوس فنسب اليعاقبة إليه. وقال ابن العميد: وليس كذلك لأن اليعاقبة سموا بذلك من عهد ديسقوس كما مر. ثم هلك نشطانش لسبع وعشرين من ملكه، وملك بعده يشطيانش قيصر لثمانية وثلاثين من ملك قياد بن نيرون، ولثمانية وثلاثين للاسكندر. وملك تسع سنين باتفاق. وقال هروشيوش سبعا. وقال المسبحي كان معه شريك في ملكه إسمه

يشطيان. وفي ثالثة ملكة غزت الفرس بلاد الروم، فوقعت بين الفرس والروم حروب كثيرة.

وزحف كسرى في آخرها لثمانية من ملك يشطيانش ومعه المنذر ملك العرب، فبلغ الرها وغلب الروم، وغرق من الفريقين في الفرات خلق كثير وحمل الفرس أسارى الروم وسباياهم. ثم وقع الصلح بينهما بعد موت قيصر. وفي تاسعة ملكه أجاز البربر من المغرب إلى رومة وغلبوا عليها. قال ابن بطريق وكان يشطيانش على دين الملكية فرد كل من نفاه نشطانش قبله منهم. وصير طيماناوس بطركاً بالإسكندرية وكان يعقوبيا فلبث فيهم ثلاث سنين وقيل سبع عشرة سنة.

" وقال ابن الراهب: كان يشطيانش خلقدونيا، ونفى طيماناوس البطرك عن إسكندرية وجعل مكانه أيوليناريوس وكان ملكيا وعقد مجمعا بالقسطنطينية يريد جمع الناس على رأي الخلقدونية مذهبه. وأحضر شاويرش بطرك إنطاكية وأساقفة المشرق فلم يوافقوه، فاعتقل بطرك أنطاكية سنين ثم أطلقه، فسار إلى مصر وبقي مختفياً في الديور. ثم وصل أيوليناريوس بطرك إسكندرية ومعه كتاب الأمانة الخلقدونية، فقبل الناس منه وتبعوا مذهبه فيها وصاروا إليه. وهلك يشطيانش لتسع سنين من ملكه. ثم ملك يشطيانش قيصر لإحدى وأربعين من ملك قياد، ولثمانمائة وأربعين للاسكندر، وكان ملكيا، وهو ابن عم يشطيانش الملك قبله. وقال المسبحي: بل كان شريكه كما مر، وملك أربعين سنة باتفاق. وقال أبو فانيوس: ثلاثاً وثلاثين، وفي سابعة ملكه غزا كسرى بلاد الروم وأحرق ايليا وأخذ الصليب الذي كان فيها، وفي حادية عشر من ملكه عصت السامرية عليه فغزاهم وخرب بلادهم، وفي سادسة عشر من ملكه غزا الحارث بن جبلة أمير غسان والعرب ببرية الشام، وغزا بلاد الأكاسرة وهزم عساكرهم وخرب بلادهم. ولقيه بعض مرازبه كسرى فهزمهم ورد السبي منهم.

ثم وقع الصلح بين فارس والروم وتوادعوا. وفي خمس وثلاثين من ملك يشطيانش عهد لان يتخذ عيد الميلاد في رابع وعشرين من كانوا الأول، وعيد الغطاس في ست منه، وكانا من قبل ذلك جميعاً في سادس كانون. وقال المسبحي: أراد يشطيانش حمل الناس على رأي الملكية طيماناوس بطرك إسكندرية وكان يعقوبيا وأراده

على ذلك، فامتنع فهم بقتله ثم أطلقه، فرجع إلى مصر مختفيا، ثم نفاه بعد ذلك وجعل مكانه بولس وكان ملكيًّا فلم

يقبله اليعاقبة وأقام على ذلك سنين.

قال سعيد بن بطريق ة ثم بعث قيصر قائدا من قواده اسمه يوليناريوس وجعله بطرك إسكندرية فدخل الكنيسة بزي الجند، ثم لبس زي البطاركة وقدس، فهموا به فصار إلى سياستها فأقصدوا، ثم حملهم على رأي اليعقوبية وقتل من امتنع وكانوا مائتين. وفي أيام يشطيانش هذا ثار السامرة بأرض فلسطين، وقتلوا النصارى وهدموا كنائسهم، فبعث العساكر وأثخنوا فيهم، وأمر ببناء الكنائس كما كانت. وكانت كنيسة بيت لحم صغيرة فأمر بأن يوسع فيها فبنيت كما هي لهذا العهد. وفي عهده كان المجمع الخامس بقسطنطينية بعد مائة وثلاث وستين من المجمع الخلقدوني، ولتاسعة وعشرين من ملك يشطيانش، وقد مر ذكر ذلك.

وفي عهد قيصر هذا مات أيوليناريوس القائد الذي جعل بطركاً بإسكندرية لسبع عشرة سنة مر ولايته، وهو كان رئيس هذا المجمع وجعل مكانه يوحنا وكان امانيا، وهلك لثلاث سنين وانفرد اليعاقبة بالإسكندرية، وكان أكثرهم القبط وقدموا عليهم طودوشيوش بطركاً لبث فيهم اثنتين وثلاثين سنة. وجعل الملكية بطركهم داقيانوس وطردوا طودوشيوش من كرسيه ستة أشهر. ثم أمر يشطيانش قيصر بأن يعاد فأعيد وطلب منه المغامسة أن يقدم دقيانوس بطرك الملكية على الشمامسة فأجابهم.

ثم كتب يشطيانش إلى طودوشيوش البطرك باجتماع المجمع الخلقدوني أو يترك البطركية فتركها ونفاه، وجعل مكانه بولس التنسي، فلم يقبله أهل إسكندرية ولا ما جاء به. ثم مات وغلقت كنائس القبط اليعقوبية ولقوا شدائد من الملكية ومات طودوشيوش البطرك في سابعة وثلاثين من ملكة يشطيانش وجعل مكانه باسكندرية بطرس ومات لعد سنتين.

قال ابن العميد: وسار كسرى أنو شروان في مملكة يشطيانش قيصر إلى بلاد الروم، وحاصر أنطاكية وفتحها، وبنى قبالتها مدينة سماها رومة، ونقل إليها انطاكية. ثم هلك يشطيانش وملك بعده يوشطونش قيصر لت وثلاثين من ملك أنو شروان؛ ولثمانمائة وثمانين للاسكندر، فملك ثلاث عشرة سنة. وقال هروشيوش: إحدى عشرة سنة ولثانية من ملكه مات بطرس ملك إسكندرية فجعل مكانه داميانو، فمكث ستاً وثلاثين سنة- وخربت الديور على عهده، وفي الثانية عشرة من ملكه مات كسرى أنو شروان بعد أن كان بعث العساكر من الديلم مع سيف بن ذي يزن من التبابعة، ففتحوا اليمن وصارت للاكاسرة. ثم هلك يوشطونش قيصر لإحدى عشرة أو ثلاث

عشرة من ملكه. وملك بعده طيباريوس قيصر لثالثة من ملك هرمز ابن أنو شروان. ولثمانمائة واثنتين وتسعين للاسكندر. فملك ثلاث سنين عند ابن بطريق وابن الراهب، وأربعا عند المسبحي، ولعهده انتقض الصلح بين الروم وفارس، واتصلت الحرب وانتهت عساكر الفرس إلى راس عين الخابور، فثار إليهم موريق من بطاركة

الروم فهزمهم. ثم جاء طباريش قيصر على أثره فعظمت الهزيمة، واستمر القتل في الفرس، وأسر الروم منهم نحوا من أربعة آلاف غربهم إلى جزيرة قبرص.

ثم انتقض بهرام مرزبان هرمز كسرى وطرده عن الملك بمنجع من تخوم بلاد

الروم، وبعث بالصريخ إلى طباريش قيصر فبعث إليه المدد من الفرسان والأموال. يقال كان عسكر المدد أربعين ألفا فسار هرمز ولقيه بهرام بين المدائين. وواسط فانهزم واستبيح، وعاد هرمز إلى ملكه وبعث إلى طباريش بالأموال والهدايا أضعاف ما أعطاه، ورد إليه ما كانت الفرس أخذله من بلادهم وسألهم.... وغيرها، وقل من كان فيها من الفرس إلى بلاده. وسأله طباريش بأن يبني هيكلين للنصارى بالمدائن وواسط، فأجابه إلى ذلك.

ثم هلك طباريش قيصر وملك من بعده موريكش قيصر في السادسة لهرمز، ولثمانمائة وخمس وتسعين للاسكندر، وملك عشرين سنة باتفاق المؤرخين، فأحسن السيرة. وفي حادية عشر من ملكه بلغه عن بعض اليهود بانطاكية أنهم بالوا على صورة المسيح ، فأمر بقتلهم ونفيهم. ولعهده انتقض على هرمز كسرى قريبه بهرام وخلعه واستولى على ملكه وقتله، وسار ابنه ابرويز إلى موريكش قيصر صريخاً فبعث معه العساكر، ورد أبرويز إلى ملكه. وقتل بهرام الخارج عليه وبعث إليه بالهدايا والتحف كما فعل أبوه من قبله مع القياصرة، وخطب أبرويز من موريكش قيصر ابنته مريم، فزوجه إياها

وبعث معها من الجهاز والأمتعة والأقمشة ما يضيق عنه الحصر، ثم وثب على موريكش بعض مماليكه بمداخلة قريبه البطريق قوقا، فدسه عليه فقتله، وملك على الروم وتسمى قيصر، وذلك لتسعمائة وأربع عشرة للاسكندر، وخمس عشرة لأبرويز. فملك ثماني سنين وقتل أولاد موريكش، وأفلت صغير منهم فلحق بطورسينا وترهب ومات هنالك، وبلغ أبروبز كسرى ما جرى على موريكش وأولاده، فجمع عساكره وقصد بلاد الروم يأخذ ثأر صهره، وبعت عساكره مع مرزبانه خزرويه إلى القدس وعهد إليه بقتل اليهود وخراب البلد. وبعث بمرزبان آخر إلى مصر والإسكندرية. وجاء بنفسه في عساكر الفرس إلى القسطنطينية وحاصرها وضيق عليها. وأما خزرويه المرزبان فسار إلى الشام وخرب البلاد. واجتمع يهود طبرية والخليل وناصرة وصور وأعانوا الفرس على قتل النصارى وخراب الكنائس؛ فنهبوا الأموال وأخذوا قطعة من الصليب وعادوا إلى كسرى بالسبي وليهم زخريا بطرك القدس، فاستوهبته مريم بنت موريكش من زوجها ابرويز فوهبه إياها مع قطعة الصليب. ولما خلت الشام من الروم واجتمع الفرس على القسطنطينية تراسل اليهود من القدس والخليل وطبرية ودمشق وقبرص واجتمعوا في عشرين ألفا، وجاءوا إلى صور ليملكوها، وكان فيها من اليهود نحو من أربعة آلاف، فتقبض بطركها عليهم وقيدهم. وحاصرهم عساكر اليهود وهدموا الكنائس خارج صور. والبطرك يقتل المقيدين ويرمي برووسهم إلى أن فنوا. وارتحل كسرى عن القسطنطينية جاثياً فأجمل اليهود عن صور وانهزموا.

وقال ابن العميد: وفي رابعة من قوقاص قيصر قدم يوحنا الرحوم بطركاً على الملكية بإسكندرية ومصر. وإنما سمي الرحوم لكثرة رحمته وصدقته. وهو الذى عمل البيمارستان للمرضى بإسكندرية. ولما سمع بمسير الفرس هرب مع البطريق الوالي بإسكندرية إلى قبرص، فمات بها لعشر سنين من ولايته. وخلا يرسي الملكية بإسكندرية سبع سنين. وكان اليعاقبة بإسكندرية قدموا عليهم فى أيام قوقاص قيصر بطركاً اسمه أنسطانيوش مكث فيهم اثنتي عشرة سنة، واسترد ما كانت الملكية استولت عليه من الكنائس اليعقوبية. وجاءه اثناسيوس بطرك انطاكية بالهدايا سرورا بولايته، فتلقاه هو بالأساقفة والرهبان. واتخذت الكنيسة بمصر والشام، وأقام عنده

أربعين يوما ورجع إلى مكانه. ومات انسطانيوش بعد اثنتي عشرة من ولايته لثلثمائة وثلاثين من ملك ديقلاديانوس. ولما انتهى أبرويز في حصار القسطنطينية نهايته وضيق عليها وعدموا الأقوات واجتمع البطاركة بعلوقيا وبعثوا السمن مشحونة بالأقوات مع هرقل أحد بطاركة الروم. ففرحوا به ومالوا إله، وداخلهم في الملك، وأن قوقاص سبب هذه الفتنة، فثاروا عليه وقتلوه وملكوا هرقل. ودلك لتسعمائة واثنتين وعشرين للاسكندر، فارتحل أبرويز عن القسطنطينية راجعاً إلى بلاده. وملك هرقل بعد ذلك إحدى وثلاثين سنة ونصف عند المسبحي وابن الراهب، واثنتين وثلاثين عند ابن بطريق. وكانت ملكته اول سنة من الهجرة. وقال هروشيوش لتسع وسماه هرقل بن هرقل بن أنطونيش.

ولما تملك هرقل بعث أبرويز بالصلح بوسيلة هم موريكش، فأجابهم على تقرير الضريبة عليهم فامتنعوا، فحاصرهم ست سنين أخرى إلى الثمان التي تقدمت، وجهدهم الجوع، فخادعهم هرقل بتقرير الضريبة على أن يفرج عنهم حتى يجمعوا له الأموال. وضربوا الموعد معه ستة أشهر ونقض هرقل، فخالف كسرى إلى بلاده واستخلف أخاه قسطنطين على قسطنطينية وسار في خمسة آلاف من عساكر الروم إلى بلاد فارس فخرب وقتل وسبى، وأخذ بني أبرويز كسرى من مريم بنت موريكش وهما قباذ وشيرويه. ومر بحلوان وشهرازور إلى المدائن ودجلة ورجع إلى أرمينية، ولما قرب من القسطنطينية وارتحل أبرويز كسرى إلى بلاده فوجدها خراباً، وكان ذلك مما أضعف من مملكة الفرس وأوهنها.

وخرج هرقل لتاسعة من ملكه لجمع الأموال، وطلب عامل دمشق منصور بن سرحون فاعتذر بأنه كان يحمل الأموال إلى كسرى، فعاقبه واستخلص منه مائة ألف دينار وأبقاه على عمله. ثم سار إلى بيت المقدس، وأهدى إليه فأمنهم أولا، ثم عرفه الأساقفة والرهبان بما فعلوه في الكنائس، ورآها خراباً وأخبروه بمن قتلوه من النصارى، فأمر هرقل بقتلهم فلم ينج منهم إلا من اختفى أو أبعد المفر إلى الجبال والبرارى، وأمر بالكنائس فبنيت. وفي العاشرة من ملكه قدم أندرسكون بطركاً لليعاقبة بإسكندرية، فأقام ست سنين

خربت فيها الديور. ثم مات فجعل مكانه بنيامين. فمكث سبعاً وثلاثين سنة ومات. والفرس يومئذ قد ملكوا مصر والإسكندرية.

وأمّا هرقل فسار من بيت المقدس إلى مصر وملكهما وقتل الفرس وولى على الإسكندرية فوس وكان أمانيا وجمع له بين البطركة والولاية. ورأى بنيامين البطرك في نومه شخصاً يقول قم فاختف إلى أن يجوز غضب الرب. فاختفى وتقبض هرقل على أخيه مينا وأراده على الأخذ بالأمانة الخلقدونية فامتنع فأحرقه بالنار، ورمى بجثته في البحر. ثم عاد هرقل إلى قسطنطينية بعد أن جمع الأموال من دمشق وحمص وحماة وحلب، وعمر البلاد إلى أن ملك مصر عمرو بن العاص، وفتحها لثلثمائة وسبع وخمسين لديقلاديانوس، وكتب لبنيامين البطرك بالأمان، فرجع إلى إسكندرية بعد أن غاب عن كرسيه ثلاث عشرة سنة.

قال ابن العميد: وانتقل التاريخ إلى الهجرة لإحدى عشرة من ملك هرقل، وذلك لتسعمائة وثلاث وثلاثين للاسكندر، وستمائة وأربع عشرة للمسيح.

قال المسعودى: وقيل إن مولده عليه السلام كان لعهد نيشطيانش الثاني الذي ذكر

أنه نوسطيونس الذي بنى كنيسة الرها، وأن ملكه كان عشرين سنة. ثم هرقل بن نوسطيونس خمس عشرة سنة، وهو الذي ضرب الحكة الهرقلية، وبعده مورق بن هرقل. قال: والمشهور بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان مفك الروم لهرقل. قال: وفي كتب السير أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مورق، ثم كان بعده ابنه قيصر بن قيصر أيام أبي بكر، ثم هرقل بن قيصر أيام عمر، وعليه كان الفتح وهو المخرج من الشام. قال: ومدة ملكهم إلى الهجرة مائة وخمى وسبعون سنة.

قال الطبري: مدة. ما بين عمارة المقدس بعد تخريب بختنصر إلى الهجرة على

قول النصارى ألف سنة وتزيد، ومن ملك الاسكندر إليها تسعمائة ونيف وعشرين سنة، ومنه إلى مولد عيسى ثلثمائة وثلاث سنين، وعمره إلى رفعه اثنان وثلاثون سنة، ومن رفعه إلى الهجرة خمسمائة وخمس وثمانون سنة.

وقال هروشيرش أن ملك هرقل كانت الهجرة في تاسعته، وسماه هرقل بن هرقل ابن انطونيوس لستمائة وإحدى عشرة من تاريخ الصسيح، ولألف ومائة من بناء رومة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن ملوك القياصرة من لدن هرقل والدولة الإسلامية

إلى حين انقراض أمرهم وتلاشي أحوالهم

قال ابن العميد: وفي الثانية من الهجرة بعث أبرويز عساكره إلى الشام والجزيرة فملكها، وأثخن في بلاد الروم وهدم كنائس النصارى، واحتمل ما فيها من الذهب والعضة والآنية، حتى نقل الرخام الذي كان بالمباني.

وحمل أهل الرها على رأي اليعقوبية باغراء طبيب منهم كان عنده، فعرجوا إليه وكانوا فلكية. وفي سابعة الهجرة بعث عساكر الفرس ومقدمهم مرزبانه شهريار، فدوخ بلاد الروم وحاصر القسطنطينية، ثم تغير له فكتب إلى المرازبة معه بالقبض عليه. واتفق وقوع الكتاب بيد هرقل فبعث به إلى شهريار، فانتقض ومن معه وطلبوا هرقل في المدد، فخرج معهم بنفسه في ثلثمائة ألف من الروم، وأربعين ألفا من الخزر الذين هم التركمان.

وسار إلى بلاد الشام والجزيرة وافتتح مدائنهم التي كان ملكها كسرى من قبل،

وفيما افتتح أرمينية. ثم سار إلى الموصل فلقيه جموع الفرس، وقائدهم المرزبان، فالهزموا وقتل. وأجفل أبرويز عن المدائن واستولى هرقل على ذخائر ملكهم. وكان شيرويه بن كسرى محبوسا فأخرجه شهريار وأصحابه وملكوه، وعقدوا مع هرقل الصلح، ورجع هرقل إلى آمد بعد أن ولى أخاه تداوس على الجزيرة والشام. ثم سار إلى الرها ورد النصارى اليعاقبة إلى مذهبهم الذي اكرهوا على تركه، وأقام بها سنة كاملة.

وعن يخر ابن العميد: وفي آخر سنة ست من الهجرة كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل كتابه من المدينة مع دحية الكلبي يدعوه إلى الإسلام. ونصه على ما وقع في صحيح البخاري.

بسم اله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدي، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يوتك

الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.

فلما بلغه الكتاب جمع من كان بأرضه من قريش وسألهم عن أقربهم نسبا منه، فأشاروا

إلى ابن سفيان بن حرب. فقال لهم: إني سائله عن شان هذا الرجل، فاستمعوا ما يقوله. ثم سأل أبا سفيان عن أحوال تجب أن تكون للنبيصلى الله عليه وسلم أو يتره عنها. وكان هرقل عارفا بذلك، فأجابه أبو سفيان عن جميع ما سأله عن ذلك. فرأى هرقل أنه نبي لا محالة، مع أنه كان حزاء ينظر في علم النجوم، وكان عنده علم من القرآن الكائن قبل الملة، بظهور الملة والعرب، فاستيقن بنبوته وصحة ما يدعو إليه، حسبما ذكر البخاري في صحيحه.

وكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحرث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام، وعامل قيصر على العرب، مع شجاع بن وهب الاسدي يدعوه إلى الإسلام. قال شجاع: فأتيته وهو بغوطة دمشق يهيئ الترل لقيصر حين جاء من حمص إلى إيليا. فشغل عني إلى أن دعاني ذات يوم وقرأ كتابي وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن. ثم أمر بالخيول تنعل، وكتب بالخبر إلى قيصر، فنهاه عن المسير. ثم أمرني بالانصراف وزودني بمائة دبنار.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثامنة من الهجرة جيشه إلى الشام وهي غزوة مؤتة، كان المسلمون فيها ثلاثة آلاف، وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أصيب فجعفر، فعبد الله بن رواحة، فانتهرا إلى معان من أرض الشام، ونزل هرقل صاب من أرض البلقا في مائة ألف من الروم. وانضمت إليهم جموع جذام والغيد وبهرام وبلى، وعلى بلى ممالك بن زافلة. ثم زحف المسلمون إلى البلقا، ولقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب على مؤتة فكان التمحيص والشهادة. واستشهد زيد، ثم جعفر ثم عبد الله. وانصرف خالد بن الوليد

بالناس فقدموا المدينة، ووجد النبي صلى الله عليه وسلم على من قتل من المسلمين، ولا كوجده على جعفر بن أبي طالب، لأنه كان تلاده.

ثم أمر بالناس في السنة التاسعة بعد الفتح وحنين والطائف أن يتهيأوا لغزو الروم، فكانت غزوة تبوك. فبلغ تبوك وأتاه صاحب ايلة وجرباء وأذرح وأعطوا الجزية، وصاحب ايلة يومئذ يوحنا بن روبه بن نفاثة أحد بطون جذام وأهدى له بغلة بيضاء. وبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وكان بها اكيدر بن عبد الملك، فأصابوه بضواحيها في ليلة مقمرة فأسروه، وقتلوا أخاه وجاءوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فحقن دمه وصالحه على الجزية ورده إلى قريته. وأقام بتبوك بضع عشرة ليلة، وقفل إلى المدينة. وبلغ خبر يوحنا إلى هرقل، فأمر بقتله وصلبه عند قريته اه. عن غير ابن العميد.

ورجعنا إلى كلامه قال: وفي الثالثة عشر من الهجرة جهز أبو بكر العساكر من المسلمين من العرب لفتح الشام: عمرو بن العاص لفلسطين، ويزيد بن أبي سفيان لحمص، وشرحبيل بن حسنة للبلقاء، وقائدهم أبو عبيدة بن الجراح. وبعث خالد بن سعيد بن العاص إلى سماوة فلقيه ماهاب البطريق في جموع الروم، فهزمهم خالد إلى دمشق ونزك موضع الصفراء. ثم أخذوا عليه الطريق ونازلوه ثانية، فتجهز إلى جهة المسلمين. وقتل ابنه،. وبعث أبو بكر خالد بن الوليد بالعراق يسير إلى الشام أميرا على المسلمين. فسار ونزل معهم دمشق وفتحوها كما نذكر في الفتوحات. وزحف عمرو بن العاصي إلى غيره ولقيته الروم هنالك، فهزمهم وتحصنوا ببيت المقدس وقيسارية. ثم زحف عساكر الروم من كل جانب في مائتين وأربعين ألفا، والمسلمون في بضع وثلاثين ألفاً والتقوا باليرموك، فانهزم الروم وقتل منهم من لا يحصى، وذلك في الخامسة عشر من الهجرة، ثم تتابعت عليهم الهزائم، ونازل أبو عبيدة وخالد بن الوليد حمص، فصالحوهم على الجزية.

ثم سار خالد إلى قنسرين فلقيه منباس البطريق في جموع الروم، فهزمهم وقتل
منهم خلق كثير. وفتح قنسيرين ودوخ البلاد. ثم سار عمرو بن العاصي وشرحبيل بن حسنة فحاصروا مدينة الرملة، وجاء عمر بن الخطاب إلى الشام، فعقد لأهل الرملة الصلح على الجزية، وبعث عمراً وشرحبيل لحصار بيت المقدس فحاصروها، ولما أجهدهم البلاء طلبوا الصلح على أن يكون أمانهم من عمر نفسه، فحضر عندهم وكتب أمانهم ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عمر بن الخطاب لأهل إيلياء، أنهم آمنون على دمائهم وأولادهم ونسائهم، جميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم اه.

ودخل عمر بن الخطاب بيت المقدس، وجاء كنيسة القمامة فجلس فبم صحنها،

وحان وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة، فقال له صل موضعك، فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردا. فلما قضى صلاته قال للبترك: لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي وقالوا

هنا صلى عمر. وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها. ثم قال للبترك أرني موضعا أبني فيه

مسجداً فقال: على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب، ووجد عليها ردماً كثيراً فشرع في ازالته، وتناوله بيده يرفعه في ثوبه، واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه. وأمر ببناء المسجد. ثم بعث عمرو بن العاصي إلى مصر فحاصرها، وأمده بالزبير بن العوام في أربعة آلاف من المسلمين فصالحهم المقوقس على الجزية، ثم سار إلى الإسكندرية فحاصرها وافتتحها.

وفى السابعة عشر من الهجرة جاء ملك الروم إلى حمص في جموع النصرانية وبها ابو عبيدة فهزمهم

واستلحمهم. ورجع هرقل إلى انطاكية وقد استكمل المسلمون فتح فلسطين وطبرية والساحل كله. واستنفر العرب المتنمرة من غسان ولخم وجذام وقدم عليهم ما هاب البطريق، وبعثه للقاء العرب. وكتب إلى عامله على دمشق منصور بن سرحون أن يمده بالأموال. وكان يحقد عليه نكبته من قبل، واستصفى ماله حين أفرج الفرج عن حصاره بالقسطنطينية لأول ولايته. فاعتذر العامل للبطريق عن المال، وهون عليه أمر العرب.

فسار من دمشق للقائهم ونازلهم بجابية الخولان ثم أتبعه العامل ببعض مال جهزه العساكر. وجاء العسكر ليلا وأوقد المشاعل وضرب الطبول، ونفخ البوقات فظنهم الروم عسكر العرب جاءوا من خلفهم، وأنهم احيط بهم، فأجفلوا وتساقطوا في الوادي وذهبوا طوائف إلى دمشق وغيرها من ممالك الروم. ولحق ماهاب بطور سيناء، وترهب إلى أن هلك وأتبع المسلمون الفل مع منصور إلى دمشق، وحاصروها ستة أشهر فرقوا على أبوابها. ثم طلب منصور العامل الأمان للروم من خالد فأمنة ودخل المدينة من الباب الشرقي، وتسامع الروم الذين بسائر الأبواب فهربوا وتركوها. ودخل منها الامراء الاخرون عنوة ومنصور ينادي بأمان خالد،

فاختلف المسلمون قليلاً ثم اتفقوا على أمان الروم الذين كانوا بالإسكندرية بعد أن افتتحها عمرو بن العاصي ركبوا إليه البحر ووافوه بها.

ثم هلك هرقل لإحدى وعشرين من الهجرة، ولإحدى وثلاثين من ملكه. فملك

على الروم بقسطينطنية قسطنطين، وقتله بعض نساء أبيه لستة أشهر من ملكه. وملك أخوه هرقل بن هرقل. ثم تشاءم به الروم فخلعوه وقتلوه، وملكوا عليهم قسنطينوس بن قسطنطين، لملك لست عشرة سنة، ومات لسابعة وثلاثين من الهجرة. وفي أيامه غزا

معاوية بلاد الروم سنة أربع وعشرين، وهو يومئذ أمير على الشام في خلافة عمر بن الخطاب؛ فدوخ البلاد، وفتح منها مدناً كثيرة وقفل، ثم أغزى عساكر المسلمين إلى قبرص في البحر، ففتح منها حصوناً وضرب الجزية على أهلها، وذلك سنة سبع وعشرين.

وكان عمرو بن العاصي لما فتح الإسكندرية كتب لبنيامين بطرك اليعاقبة بالأمان،

فرجع بعد ثلاث عشرة من مغيبه، وكان ولاه هرقل في أول الهجرة كما قدمنا. وملك الفرس مصر والإسكندرية عشر سنين عند حصار قسطنطينية أيام هرقل، ثم غاب عن الكرسي عندما ملك الفرس وقدموا

الملكية وبقي غائبا ثلاث عشرة سنة أيام الفرس عشرة وثلاث من ملكة المسلمين. ثم أقه عمرو بن العاصي فعاد ثم مات في تاسعة وثلاثين من الهجرة، وخلفه في مكانه أغاثوا فملك سبع عشرة سنة.

ولما هلك قسنطينوس بن قسطنطين فى سابعة وثلاثين من الهجرة كما قلناه، ملك

على الروم في القسطنطينية ابنه يوطيانوس، فمكث اثنتي عشرة سنة وتوفى سنة خمسين، فملك بعده طيباريوس ومكث سبع سنين. وفي أيامه غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في عساكر المسلمين، وحاصرها مدة ثم أفرج عنها، واستشهد أبو أيوب الانصاري في حصارها ودفن في ساحتها. ولما قفل عنها توعدهم بتعطيل كنائسهم بالشام إن تعرضوا لقبره.

ثم قتل طيباريوس قيصر سنة ثمان وخمسين، وملك اوغسطس قيصر. وفي أيام

ولايته مات أغاثوا بطرك اليعاقبة القبط بإسكندرية، وقدم مكانه يوحنا. ثم قتل اوغسطس قيصر، ذبحه بعض عبيده سنة(....) وملك ابنه اصطفانيوس، وكان لعهد عبد الملك بن مروان، وفي سنة خمس وسين من الهجرة زاد عبد الملك في المسجد الأقصى، وأدخل الصخرة في الحرم. ثم خلع اصطفانيوس، ثم ملك بعده لاون ومات سنة ثمان وسبعين، وملك طيباريوس سبع سنين وممات سنة ست وثمانين، فملك سطيانوس وذلك في أيام الوليد بى عبد الملك، وهو الذي بش مسجد بني امة بدمشق. ولقال إنه أنفق فيه أربعمائة صندوق، فى كل صندوق أربعمائة عشر ألف دينار. وكان فيه من جملة الفعلة اثنا عشر ألف مرخم. ويقال كانت في ستمائة سلسلة من الذهب لتعليق القناديل. فكانت تغشى عيون الناظرين وتفتن الملمين، فأزالها عمر بن عبد العزيز وردها إلى بيت المال.

وكان الوليد لما اعتزم على الزيادة في المسجد أمر بهدم كنيسة النصارى، وكانت ملاصقة للمسجد فأدخلها فيه وهي معروفة عندهم بكنيسة مار يوحنا. ويقال إن عبد الملك طلبهم في ذلك فامتنعوا، وأن الوليد بذل لهم فيها أربعين ألف دينار فلم يقبلوا فهدمها ولم يعطهم شيئا. وشكوا أمرها إلى عمر بن عبد العزيز وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد وعهده أن لا تخرس كنائسهم ولا تسكن، فراودهم على أخد الأربعين ألفا التي بذل لهم الوليد فأبوا فأمر أن ترد علهم، فعظم ذلك على الناس. وكان قاضيه أبو ادريس الخولانى فقال لهم: تتركون هذه الكنيسة في الكنائس التي في العنوة في المدينة وإلا هدمناها فأذعنوا، وكتب لهم عمر الأمان على ما بقي من كنائسهم.

وفي سنة ست وسبعين بعث كاتب الخراج إلى سليمان بن عبد الملك بأن مقياس حلوان بطل، فأمر ببناء مقياس في الجزيرة بين الفسطاط والجزيرة فهو لهذا العهد. وفي سنة إحدى ومائة من الهجرة ملك تداوس على الروم سنة ونصفا، ثم ملك بعده لاون أربعا وعشرين سنة، وبعده ابنه قسطنطين وفي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا هشام بن عبد الملك الصائفة اليسرى، وأخوه سليمان الصائفة اليمنى، ولقيهم قسطنطين في جموع الروم، فانهزموا وأخذ أسيرا ثم أطلقوه بعد.

وفي أيام مروان بن محمد وولاية موسى بن نصير لقي النصارى بالإسكندرية ومصر شدة، واخذوا بغرامة المال، واعتقل بطرك الإسكندرية أبي ميخايل. وطلب بجملة من المال، فبذلوا موجودهم وانطلقوا يستسعون ما يحصل لهم من الصدقة. وبيم ملك النوبة ما حل بهم، فزحف في مائة ألف من العساكر إلى مصر، فخرج إليه عامل مصر فرجع من غير قتال. وفي أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدي اليعاقبة، وولي عليهم بطرك قريباً من مائة سنة كانت رياسة البطرك فيها لليعاقبة، وكانوا يبعثون الأساقفة للنواحي، ثم صارت النوبة من ورائهم للحبشة يعاقبة.

ثم ملك بالقسطنطينية رجل من غير بيت الملك اسمه جرجس، فبقي أيام السفاح والمنصور وأمره مضطرب. ثم مات وملك بعده قسطنطين بن لاولط، وبنى المدن وأسكنها أهل أرمينية وغيرها. ثم مات قسطنطين بن لاون وملك ابنه لاون. ثم هلك لاون وملك بعده نقفور. وفي سنة سبع وثمانين ومائة غزا الرشيد هرقلة ودوخ جهاتها، وصالحه نقفور ملك الروم على الجزية، فرجع إلى الرقة وأقام شاتيا وقد كلب البرد. وأمن نقفور من رجوعهم فانتقض، فعاد إليه الرشيد وأناخ عليه حتى قرر الموادعة والجزية عليه ورجع.

ودخلتعساكرالصائفةبعدهامندربالصفصاق،فدوخواأرضالروم.وجمعنقفورولقيهمفكانتعليههزيمةشنعاءقتلىفيهاأربعونألفا،ونجانقفورجريحاً.

وفيسنةتسعينومائةدخلالرشيدبالصائفةإلىبلادالرومفيمائةوخمسةوثلاثينألفاسوىالمطوعة،وبثالسرايافيالجهات،وأناخعلىهرقلةففتحهاوبلغسبيهاستةعشرألفاً.وبعثنقفوربالجزيةفقبلوشرطعليهمأنلايعمرهرقلة.وهلكنقفورفيخلافةالأمين،وولىابنهأستبرانقيصر.وغزاالمأمونسنةخمسعشرةومائتينإلىبلادالروم،ففتححصوناعدةورجعإلىدمشق.ثمبلغهأنملكالرومغزاطرسوسوالمصيصة،وقتلمنهانحوامنألفوستمائةرجلفرجعوأناخعلىانطواغواحقففتحهاصلحاً،وبعثالمعتصمففتححثلاثينعنحصونالروم،وبعثيحيىبنأكثمبالعساكرفدوخأرضهم.ورجعالمأمونإلىدمشق.ثمدخلبلادالروموأناخعلىمدينةلؤلؤةمائةيوم،وجهزإليهاالعساكرمعجيفمولاه.ورجعملكالرمفنازلعجيفاًفأمدهالمأمونبالعسكر،فرحلعهملكالروموافتتحلؤلؤةصلحا.

ثمسارالمأمونإلىبلادالرومففتحسلعوسوالبروة،وبعثابنهالعباسبالعساكرفدوخأرضهم،وبنىمدينةالطوليةميلافيميل،وجعللهاأربعةأبواب.ثمدخلغازياًبلادالروم،وماتفيغزاتهسنةثمانعشرةومائتين.وفيأيامهغلبقسطنطينعلىمملكةالروم،وطردابننقفورعنها.وفيسنةثلاثوعشرينومائتينفتحالمعتصمعموريةوقصتهامعروفةفيأخباره.اهكلامابنالعميد.وأغفلنامنكلامهأخبارالبطاركةمنلدنفتحالاسكندر،لانارأيناهمستغنىعنه،وقدصارتبطركيتهمالكبرىالتيكانتبالإسكندريةبمدينةرومة،وهيهنالكللملكية،ويسمونالباباومعناهأبوالأباء.وبقيببلادمصربطركاليعاقبةعلىالمعاهدينمنالنصارىبتلكالجهات،وعلىملوكالنوبةوالحبشة.

وأماالمسعوديفذكرترتيبهؤلاءالقياصرةمنبعدالهجرةوالفتحكماذكرهابنالعميد.قال:والمشهوربينالناسأنالهجرةوأيامالشيخينكانملكالرومفيهاهرقل،قال:وفيكتبأهلالسيرأنالهجرةكانتعلىعهدقيصربنمورق،ثمكانبعدهابنهقيصربنقيصرأيامأبيبكر،ثمهرقلبنقيصرأيامعمروعليهكانالفتح،وهوالمخرجمنالشامأيامأبيعبيدةوخالدبنالوليدويزيدبنأبيسفيان،فاستقر

بالقسطنطينية. وبعدهمورقبنهرقلأيامعثمان، وبعدهمورقبنمورقأيامعليومعاوية، وبعدهقلفطبنمورقآخرأيامعاويةوأياميز يدومروانبنالحكموكانمعاويةيراسلهولراسلأباهمورق، وكانتتختلفإليهعلامةنياق، وبشرهمورقبالملكوأخبرهأنعثمانيقتل ،وأنالأمريرجعإلىمعاوية، وهادىابنهقلفطحينسارإلىحربعلىرضياللهعنه. ثمترلتجيوشمعاويةمعابنهاليزيدقسطنطينيةوهلكعليهافيحصارهاأبوأيوبالأنصاري.

ثمملكبعدقلفطبنمورقلاونبنقلفطأيامعبدالملكبنمروان، وبعدهجيرونبنلاونأيامالوليدوسليمانوعمربنعبدالعزيز. ثمغشيهم المسلمونفيديارهموغزوهمفيالبروالبحر، ونازلمسلمةالقسطنطينية، واضطربملكالروموملكعليهمجرجيسبنمرعشوملكتسععشرةسنة، ولميكنملأبيتالملك. ولميزلأمرهممضطرباإلىأنملكعليهمقسطنطينبنالبون، وكانتأمهمستبدةعليهلمكانصغره، ومنبعدهنقفوربناستيراقأيامالرشيد، وكانتلهمعهحروب، وغزاهالرشيدفأعطاهالانقيادودفعإليهالجزية. ثمنقضالعهد فتجهزالرشيدالىغزوهونزلهرقلةوافتتحهاسنةتسعينومائة، وكانتمنأعظممدائنالروم. وانقادنقفوربعدذلكوحملالروم.

وملكبعدهاستيراقبننقفورأيامالأمين، وغلبعليهقسطنطينبنقلفطوملكأيامالمأمون، ولعدهنوفيلأيامالمعتصمواستردزبطرة ونازلعموريةوافتتحها، وقتلمنكانبهامنامماالنصرانية. ثمملكميخائيلبننوفيلأيامالواثقوالمتوكلوالمنتصروالمستعين. ثمتنازعال روموملكواعليهمنوفيلبنميخاييل، ثمغلبعلىالملكبسيلالصقلبيولميكنمنبيتالملك. وكانملكهأيامالمعتزوالمهتديوبعضاًمنأيامالمعتمد، ومربعدهإليونبنبسيلبقيةأيامالمعتمدوصدرامنأيامالمعتضد. ومنبعدهالاسكندروس، ونقمواسيرتهفخلعوه، وملك وااخاهلاوينإليونبقيةأيامالمعتضدوالمكتفيوصدرامنأيامالمقتدر.

ثمهلكوملكابنهقسطنطينصغيرا، وقامبأمرهارمنوسبطريقالبحر، وزوجهابنته؛ويسمىالدمستق، وهوالذيكانيحاربسيفالدولةملكالشاممنبنيحمدان. واتصلذلكأيامالمصدروالقاهروالراضيوالمتقى -وافترقأمرالروموأقام بعضبطارقتهمويعرفاستفانوسفيبعضالنواحي، وخوطببالملكارمنوسبطركابكرسيالقسطنطينية. إلىهناانتهى كلامالمسعودي. وقالعقبهفجميعسنيالروماالمتنصرةمنأيامقسطظينبنهلانةإلىعصرناوهوحدودالثلثمائةوالثلاثينللهجرةخمسمائةسنةوسبعسنين، وعددملوكهمإحدىوأربعونملكاً، قال: فيكونملكهمإلىالهجرةمائهوخمساوسبعينسنة. اهكلامالمسعودي.

وفيتاريخابنالأثير: إنأرمانوسلماماتتركولدينصغيرين، وكانالدمستق علىعهدهقوقاش، وملكملطيةمنيدالمسلمينبالأمانسنةاثنتينوعشرينوثلثمائة، وكانأمرالثغورلسيفالدولةبنحمدان. وملكقوقاشمرعشوعرزربةوحصونهما، وأوقعبجابيةطرسوسمرارا، وسارسيفالدولةفيبلادهمفبلغخرشنةوصارخةودوخالبلادوفتححصوناًعدة. ثمرجعثمولىارمانوسنقفوردمستقا. واسمالدمستقعندهمعلى منيليشرقياالخليج، حيثملكابنعثمانلهذاالعهد. فأقامنقفوردمستقا.

وهلكارمانوسوتركولدينصغيرين، وكاننقفورغائباًفيبلادالمسلمين، فلما رجعاجتمعإليهزعماءالروموقدموهلتدبيرأمرالولدين، وألبسوهالتاج. وسارإلىبلادالمسلمينسمةإحدىوخمسينوثلثمائةإلىحلب، فهزمسيفالدولةوملكالبلدوحاصرالقلعة، فامتنعتعليه. وقتلابنأختالملكفيحصارها، فقتلجميعالأسرىالذينعنده

. ثمبنى سنةستو خمسينمدينةبقيساريةليجلبمنهاعلى بلادالإ سلام،فخافهأهلطرسوسوا ستأمنوا إليه،فسارإليهمو ملكهابالأ مان. وملكالمصيصةعنوة.

ثمبعثأخاهفيالعساكرسنةتسعوخمسينإلى حلب،فملكهاوهربأبو المعاليبرسيفالدولةإلى البرية،وصالحهمرعويهبعدأنامتنعبا لقلعةورجع.

ثمإنأماالملكينابنيارمانوساللذينكانامكفولينلهاستوحشتمنه،وداخلت

فيقتلهابنالشميشقفقتلهسنةستين،وقامابنأرمانوسالأكبروهوبسيلبتدبيرملكه،وجعلابنالشميشقدمستقا،وقامعلى الأو رقأخينمفور،وعلى ابنهوورديسابنلاون،واعتقلهماوساإلى الرهاوميافارقين. وعاثفينواحيهماوصانعهأبوتغلببنحمدانص احبالموصلبالمال،فرجعثمخرجسنةاثنتينوستين. فبعثأبوتغلبابنعمهأباعبداللهبنحمدان،فهزمهوأسرهوأطلقه. وكانأمبسي لأخقامبوزارتها،فتحيلفيقتلابنالشميشقبالسم. ثمولىبسيلبنأرمانوسسقلاروسدمستقا،

فعصى عليهسنةخمسوستينوطلبالملكلنفسه،وغلبهبسيل.

ثمخرجعلى بسيلوردبنمنيرمنعظماءالبطاركة،واستجاشبأبيتغلببن

حمدانوملكواالأطراف،وهزمعساكربسيلمرةبعدمرة .فأطلقوورديسلاونوهوابنأخينقفورمنمعقلهوبعثهفيالعساكرلقت اله،فهزمهورديس. ولحقوردبنمنيربميافارقينصريخابعضدالدولة،وأرسلهبسيلفي شانه،فجنحعضدالدولةإلى بسيل،وقبض على ورديسواعتقلهببغداد،ثمأطلقهابنةصمصامالدولةلخمسسنينمناعتقاله،وشرطعليهاطلاقأسرىالمسلمين،والتزولعن حصونعدةمنمعاقلالروم،وأنلايغيرعلى بلادالإسلام. وسارفاستولى على ملطية،ومضى إلى القسطنطينيةفحاصرها،وقتلو رديسبنلاون. واستنجدبسيلبملكالروموزوجهاخته،ثمصالحوورداعلى مابيده.

ثمهلكوردبعدذلكبقليلواستولى بسيلعلى أمرهوسارإلى قتالالبلغار

فهزمهمو ملكبلادهم،وعاثفمهاأربعينسنة. واستمدصاحبحلبأبوالفضائلبنسيفالدولة .فلممازحفإليهمنجوتكينصاحبد مشقمنقبلالخليفةبمصرسنةإحدى وثمانين،فجاءبسيللمدده،وهزمهمنجوتكينورجعمهزوما. ورجعمنجوتكينإلى دمشق ثمعاودواالحصار،فجاءبسيلصريخالأبيالفضل،فأجفلمنجوتكينمنمكانهعلى حلب،وسارإلى حمصوشيزرفملكها،وحاص رطرابلس،وماالحهابنمروانعلى ديار بكر،ثمبعثالدوقسالدمستقإلى أمامه،فبعثإليهصاحبمصرأباعبداللهبنناصرالدولةبنح مدانفيالعساكرفهزمهوقتله.

ثمهلكبسيلسنةعشروأربعمائةلنيفوسبعينمنملكه،وملكبعدهأخوه

قسطنطين،وأقامتسعاًثمهلكعنثلاثبنات .فملكالروممعليهمالكبرىمنهن،وأقامبأمرهاابنخالهاارمانوسوتزوجتبه؛فاستولى على مملكةالروم. وكانخالهاميخاييلمتحكمافيدولتهومداخلالأهله،فمالتإليهالملكةوحملتهعلى قتلأرمانوس،فقتلهواستو لى على الأمر. ثمأصابهالصرعواذاه،فعمدلابناختهواسمهميخاييلأيضا،وكانأرمانوسقدحرجسنةإحدىوعشرينإلى حلبفي ثلاثةآلافمقاتل،ثمخارعنااللقاءفاضطربورجع،واتبعهالعربفنهبوا عساكره. وكانمعهابنالدوقسمنعظماءالبطارقة،فارتابو قبضعليه. وخرجسنةاثنتينوعشرينوأربعمائةفيجموعالروم،

فملكالرهاوسروجوهزمعساكرابنمروان.

ولماملكميخاييلسارإلى بلادالإسلامفلقيهالدربريصاحبالشامنقبل

العلويةفهزمه،واقتصر الرومبعدهاعنالخروجإلى بلادالإسلام.وملكميخاييلابناختهكماقلناه،وقبضعلى أخوالهوقرابتهم، وأحسنالسيرةفيالمملكة.ثمطلبزوجتهفيالخلعفأبت،فنفاهاإلى بعضالجزائرواستولى على المملكةسنةثلاثوثلاثينوأربعمائة. ونكرعليهالبتركماوقعفيهفهمبقتله،ودخلبعضحاشيتهفيذلك.ونمى الخبرإلى البتركفنادىفيالنصرانيةبخلعهوحاصرهفيقصره،واستدعى الملكةالتيخلعهاميخاييلمنمكانهاوأعادوهاإلى الملكفنفتميخاييلكمانفاهاأولا.

ثماتفقالبتركوالرومعلى خلعالملكةبنتقسطنطينوملكواأختهاالأخرى

تودورةوسلمواميخاييللها.ثموقعتالفتنةبينشيعةتودورةوشيعةميخاييلواتصلت.وطلبالرومأنيملكواعليهممنيمحوهذه الفتنة،وأقرعواعلى المرشحينفخرجتالقرعةعلى قسطنطينمنهمفملكوهأمرهم،وتزوجبالملكةالصغيرةتودورة،وجعلتأختهاالكبرىعلى مابذلهلهاوذلكسنةأربعوثلاثينوأربعمائة.

ثمتوفيقسطنطينسنةستوأربعين،وملكعلى الرومأرمانوسوقارنذلك

بظهورالدولةالسلجوقيةواستيلاءطغرلبكعلى بغداد،فرددالغزوإليهممنناحيةأذربيجان.ثمساربنهالملكألبأرسلانوملكمدنامنبلادالكرجمنهامدينةآي،وأثخنفيبلادهم.ثمسارملكالروموإلى منبجوهزمابنمرداسوابنحسانوجموعالعرب،فسارألبأرسلانإليهسنةثلاثوستين،وخرجأرمانوسفيمائتيألفمنالروموالعربوالدوسوالكرجونزلعلى نواحيأرمينية؛فزحفإليهألبأرسلانمنأذربيجانفهزمهوحصلفيأسره،ثمفاداهعلى مالىيعطيه،وأجروهعليهوعقدمعهصلحا.وكانأرمانوسلماانهزموثبميخاييلبعدهعلى مملكةالروم،فلماانطلقمنالأسرورجعدفعهميخاييلعنالملك،والتزمأحكامالصلحالذيعقدهمعهألبأرسلان، وترهبأرمانوس.إلى هناانتهى كلامابنالأثير.

القسمالثالث

المجلدالثاني

منتاريخالعلامةابنخلدون

ثماستفحلملكالافرنجبعدذلك،واستبدوابملكرومةوماوراءها،وكانالروم

لماأخذوابدينالنصرانيةحملواعليهاالأممالمجاورينلهمطوعاركرها،فدخلفيهطوائفمنالأممنهمالأرمن،وقدتقدمنسبهمإلى ناحورأخيإبراهيمعلمهالسلاموبلدهمأرمينيةوقاعدتهاخلاط،ومنهمالكرجوهممنشعوبالروم،وبلادهمالخزرمابينأرمينية والقسطنطينيةشمالافيجبالممتنعة،ومنهمالجركسفيجبالبالعدوةالشرقيةمنبحرنيطشوهممنشعوبالترك،ومنهمالروسفيجزائرببحرنيطشوفيعدوتهالشمالية،ومنهمالبلغارنسبةإلى مدينةلهمفيالعدوةالشماليةأيضامنبحرنيطش،ومنهمالبرجانأمةكبيرةمتوغلونفيالشماللاتعرفأخبارهملبعدها.

وهؤلاءكلهممحنشعوبالترك،وأعظممنأخذبهمنالأممالأفرنج،وقاعدة

بلادهمفرنجة،ويقولونفرنسةبالسينوملكهمالفرنسيس،وهمفيبسائطعلى عدوةالجرالروميمنشماليه،وجزيرةالأندلسمنورائهمفيالمغربتفصلبينهموبينهاجبالمتوعرةذاتمسالكضيقةيسمونهاألبون،وساكنهاالجلالقةمنشعوبالافرنج.وهؤلاءفرنسةأعظمملوكالافرنجةبالعدوةالشماليةمنهذاالبحر،واستولوامنالجزيرةالبحريةمنهعلى صقليةوقبرصوأقريطشوجنوةوا

ستولوا أيضاً على قطعة منبلاد الأندلس إلى برشلونة، واستفحلملكهمبعد القياصرة الاول. ومنأمم الافرنجة البنادقة وبلادهمحفا فيخليجيخرجمنبحر الرومتضايقاً إلى ناحية الشمال، ومغربا بعضالشيء على سبعمائة ميلمنالبحر. هذا الخليجمقابللخليجال قسطنطينية.

وفيالقربمنهو على ثمانمراحلمنبلادجنوة ومنوراءهامدينةرومة حاضرة الافرنجة ومدينة ملكهم، وبها كرسيالبطركالأكبر الذيي سمونهالبابا -

ومنأمم الافرنجة الجلالقة وبلادهم الأندلس، وهؤلاء كلهمدخلوا فيدينالنصرانية تبعاللروم إلى مندخلفيهممنهم، منأمم السوداز والحبشة والنوبة، ومنكانعلى ملكة الروممنبرابرة العدوة بالمغربمثلنغزاوة وهوارة بأفريقية، والمصامدة بالمغرب الأقصى. واستفحل لملكالروم ودينالنصرانية.

ولما جاء اللهبالإسلام وغلبدينهعلى الأديان، وكانتمملكة الرومقدانتشرتفيحافافيالبحر الروميمنعدوتيه، فانتزعوا منهمملأو لأمرهمعدوتها الجنوبية كلهامنالشام ومصر وأفريقية والمغرب، وأجازوا منخليجطنجةفملكوا الأندلسكلهامنيد القوط والجلا لقة، وضعفأمر الروم وملكهمبعد الانتهاء إلى غايتهشأنكلامة. ثمشغلالافرنجةبمادهمهممنالعربفيالأندلسوالجزائر، بماكانوا ي تخيمونهموير ددونالصوائفإلى بسائطهمأيامعبدالرحمنالداخلوبنيهبالأندلس، وعبداللهالشيعيوبنيهبالأفريقية. وملكوا علي همجزائر البحر الروميالتيكانتلهمصقلية وميورقة ودانية وإخوانها إلى أنفشلريحالدولتين، وضعفملكالعربفاستفحلالافرنجة ورجعتلهم، واسترجعوا ماملكها المسلمونإلا قليلاً بسيفالبحر الروميمضائقالعرضفيطولأربعغرةمرحلة، واستولوا على جزا ئر البحر كلها.

ثمسموا إلى ملكالشام وبيتالمقدسمسجدأنبيائهمومطلعدينهم، فسربوا إليه

آخر المائة الخامسة، وتواثبوا على الأمصار والحصونوسواحله. ويقال: إنالمستنصر العبيديهو الذيدعاهملذلكوحرضهمعليه، لمارجافيهمناشتغالملوكالسلجوقية بأمرهم واقامتهمسدابينهوبينهمعندماسموا إلى ملكالشام ومصر. وكانملكالافرنجةيومئذ اسمهبردويلوصهرهروجيهملكصقلية منأهلطاعتهفتظاهر وا على ذلكوساروا إلى القسطنطينية سنة إحدى وتسعينليجعلوه اطريقا إلى الشام، فمنعهمملكالروميومئذ ثمأجازهمعلى أنيعطوهملطية إذا ملكوها فقبلوا شمطهثمساروا إلى بلادابنقلطمش، و قداستولى يومئذعلى مرية وأعمالها وأرزنالروم واقصرو سيواس.

افتتحتلكالأعمالكلها عندهبوبريحقومهعلى السلجوقية. ثمحدثتالفتنة

بينهموبينالرومبالقسطنطينية، واستنجد كلمنهمبملوكالمسلمينفيثغور الشام

والجزيرة، وعظمتالفتنفيتلكالآفاقودامتالحالعلى ذلكنحواًمنمائة سنة، وملكالرومبالقسطنطينيةفيتناقصواضمحلال. وكا نروجيهصاحبصقلية يغزو القسطنطينية منالبحر ويأخذ مايجدفيمرساها منسفنالتجار وشوانيالمدينة. ولقددخلجرجيبنميخ ايلصاحبأسطولهإلى ميناء القسطنطينية سنة أربعوأربعينوخمسمائة، ورمى قصر الملكبالسهام. فكانتتلكأنكى على الروممنكل ناحية.

ثمكاناستيلاء الافرنجعلى القسطنطينية آخر المائة السادسة، وكانمنخبرهاأن

ملكالر و مبالقسطنطينيةأصهر إلى الفر نسيسعظيمملو كالافر نجفيأخته ،فز و جهالهالفر نسيسو كا نلهمنهاابنذ كر . ثمو ثبملك الر و مأخو هفسملهو ملكالقسطنطينيةمكانه ،و لحقالابنبخالهالفر نسيسصر يخابهعلى عمه ،فو جدهقدجهز الأ ساطيللار تجا عبيتالمقدس ،و اجتمعفيهاثلاثةمنملو كالافر نجةبعساكر هم : دو قسالبنادقةصاحبالمراكبالبحر ية ،و فيمر اكبهكانر كو بهم ، و كانشيخاً . أعمى نقادادار كب ،و المر كسمقدمالفر نسيس ،و كيدفليدو هو أكبر هم ،فأمر الفر نسيسبالجو از على القسطنطينية ،ليصلحو ابينابنأختهو بينعمهملكالر و م . فلماو صلو إلى مر سى القسطنطينيةخر جعمهو حار بهمفهز موهو دخلو االبلد ،و هر بإلى أطر افالبلدو قتلحاصر و هو أضر مو االنار فيالبلد ،فاشتعلالناسبهاو أدخلالصبيبشيعتهفدخلالافر نجمعهو ملكو االبلد ، و أجلسو االصبيفيملكه ،و ساءأثر همفيالبلد ،و صادر و اأهلالنعمو أخذو اأمو الالكنائس ،و ثقلتو طأتهمعلى الر و م ،فعقلو االصبي و أخر جو همو استدعو املكهمعمالصبيمنمكانمقر هو ملكو هعليهم .

و حاصر هماالافر نجفاستنجدبسليمانبنقليجأر سلانصاحبقو نيةو بلادالر و م

شر قيالخليج ،و كانفيالبلدخلقمنالافر نج ،فقبلأنيصلسليمانثار و افيهاو أضر مو االنير انحتى شغلبهاالناس ،و فتحو االأبو ابفدخ لالافر نجو استباحو ها ثمانيةأيامحتى أقفر ت . و اعتصمالر و مبالكنيسةالعظمى منهاو هيصو فيا . ثمخر جتجماعةالقسيسينو الأساقفةو الر هبانفيأيديهمالإ نجيلو الصلبانفقتلو همأجمعين ،و لميراعو االهمذمةو لاعهداً . ثمخلعو االصبيو اقتر عو اثلاثتهمعلى الملك ، فخر جتالقر عةعلى كيدفليدكبير همفملكو هعلى القسطنطينيةو مايجاو ر ها ،و جعلو الدر قسالبنادقةالجز ائر البحر يةمثلاقر يطشو ر و دسو غير هما ،و للمر كيسمقدمالفر نسيسالبلادالتيفي

شر فيالخليج . ثمتغلبعليهمبطر يقمنبطار قةالر و ماسمهلسكر يو دفععمهاالافر نجو بقيتبيده ،و استو لى بعدهاعلى القسطنطينية ،و كا ناسمهميخاييل .

و فيكتابالمؤ يدصاحبحماةأنهأقامببعضالحصو نثمبنيتالقسطنطينيةو ملكها ،و فر الافر نجفيمر اكبهمو ملكهالر و م ،و قتلالذي كانملكاقبله . و تو فيسنةإحدى و ثمانينو ستمائة ،و عقدمعهالصلحالمنصو ر قلاو نصاحبمصر و الشاملذلكالعهد . قال : و ملكبعدهابنهماندو يلقبالدو قسو شهر تهمجميعاًاللسكر ي . ثمانقر ضتدو لى بنيقليجار سلانو ملكأعماالهمالتتر كمانذ كر فيأخبار هم ،و بقيبنياللسكر يملو كاًعلى القسطنطينيةإلى هذاالعهد . و ملكشر قيالخليجبعدانقضاءدو لةالتتر منبلادالر و مابنعثمانجقأمير التر كمانو هو الا نمتحكمعلى صاحبالقسطنطينية ،و متغلبعلى نو احيهمنسائر جهاته . هذامابلغنامنأخبارالر و ممنأو لدو لتهممنذيو نانو القياصر ةلهذاالعهد . و اللهو ار ثالأر ضو منعليهاو هو خير الو ار ثين .

القو ط

الخبر عنالقو طو ما كما نلهممنا لملكبالأ ندلس

إليحينالفتحالإ سلاميو أو ليةذلكو مصاير ه

مدهالأمةمنأممأهلالدو لةالعظيمةالمعاصر ةلدو لالطبقةالثانيةمنالعر ب ،

و قدذكر ناهمعقباللطينينلأنا لملكصار إليهممنبينهمكماذكر ناه . و سياقةالخبر عنهمأنهمكانو ايعر فو نفيالز منالقديمبالسيسيننسبةإلى الأر ضالتيكانو ايعمر و نها بالمشر قفيمابينالفر سو اليو نان ،و همفينسبهمإخو ةالصينو لدماغو غبنيافثو كانتلهممعالمل

وكالسريانيينحرو بموصوفةزحفإليهمفيهاموممنماليملكسريان،فدافعوهلعهدإبراهيمالخليلعلمهالسلام. ثمكانتلهمحرو بمعالفرسعندتخريببيتالمقدسوبناءرومة.

ثمغلبهمالاسكندروصاروافيملكتهواندرجوافيقبائلالروموميونان. ثملماضعفأمرالرومبعدالاسكندروتغلبواعلىبلادالغريقيينومقدونيةونبطةأيامغلينوشبنباراياثمنملوكالقياصرة،وكانتبينهوبينهحروبسجال. ثمغلبهمالقياصرةمنبعدهوظفروابهم،حتىإذاانتقلالقياصرةإلىالقسطنطينيةوفشلأمرهم

برومة،زحفإليهاهؤلاءالقوطواقتحموهاعنوفاستباحوها،ثمخرجواعنهاأيامطودوسيوسابنأركاديوسبعدحروبكثيرة. وكانأميرهملذلكالعهدأنطركماذكرناه. وماتلعهدهطودوسيوس،وأرادأنيجعلاسمهسمةالملوكبرومةمنهمكانسمةقيصر،فاختلفعليهأصحابهفيذلكفرجعنه.

فمصالحالرومانيينعلىأنيكونلهمايفتحمنبلادالأندلس،لماكانأمرالرومانيينمدضعفعنالأندلس،ولحقبهاثلاثطوائفمنالغريقيينفاقتسمواملكها،وهمالأبيونوالشوانيونوالفندلس،وباسمفندلسسميتالأندلس. وكانبالأندلسمنقبلهمالأرباريونمنولدطوالبنيافثوهمأخوةالأنطاليسسكنوهامنبعدالطوفانوصاروا إلىطاعةأهلرومة،حتىدخلإليهمهؤلاءالطوالعمنالغريقيينعندمااقتحمالقوطمدينةرومة،وغلبواالأممالذينكانوابهامنولدطوال.

رقديقال: إنهؤلاءالطوالعكلهممنولدطوالبنيافثوليسوامنالغريقيين.

واقتسمهؤلاءالطوالعملكها،وكانتجلقيةلفندلسولشبونةوماردةوطليطلةومرسيةلشوانشوكانواأشرافهم. وكانتإشبيليةوقرطبةوجيانوطالعةللأنبيقوأميرهمعندريقشأخولشيقشأربعينسنةحيتزحفإليهمالقوطمنرومة. وكانقدوليعليهمبعداطفانشملكآخرمنهماسمهطشريك،وتلهالرومانيونووليمكانهمنهمماستةثلاثسنين،وزوجأختهمنطودوسيوسملكالرومانيين،وصالحهعلىأنيكونلهمايفتحهمنالأندلس.

ثماتووليمكانهلزريقثلاثعشرةسنةوهوالذيزحفإلىالأندلسوقتلملوكها،وطردالطوائفالذينكانوابها،فأجازواإلىطنجةوتغلبواعلىبلادالبربر،وصرفواالبربرالذينكانوابالعدوةعنطاعةالقسطنطينيإلىطاعتهم،فلميزالواعلىذلكإلىدولةيستنيانوسنحوامنثمانينسنة. ثمهلكطوريقملكالقوطبالأندلسووليمكانه(......)سبععشرةسنةوانتقضعليهالبسكتسإحدىطوائفالقوط،فزحفإليهمورددهمإلىطاعته. ثمهلكووليبعدهالديكثلاثاوعشرينسنة. وكانتالافرنجلعهدهقدطمعوافيملكالأندلسوأنيغلبواعليهاالقوط،لجمعوالهمملكواعلىأنفسهممنهم،فزحفإليهمالديكفيأممالقوطإلىأنتوغلفيبلادالافرنج،فغلبهوقتلهوعامةأصحابه.

وكانتالقوطقبلدخولهمإلىالأندلسفرقتينكماذكرنافيدولةبلنسيانبن

قسطنطينمنالقياصرةالمتنصرة،وكانتإحدىالفرقتينقدأقامتبمكانهامننواحيرومة،فلمابلغهمخبرالديكصاحبالأندلسمنهمامتعضواالذلكوكانأميرهمطودريكمنهم،فزحفإلىالافرنجوغلبهمعلىماكانوااحوهمنالأندلس. ودخلالقوطالذينكانوابالأندلسفيطاعته،فوليعليهمابنهأشتريكورجعإلىمكانهمننواحيرومة،فزحفالافرنجإلىمحاربةاشتريكحتىغلبوهعلىطلوسةمننواحيتهم.

وهلكاشتريكبعدخمسسنينمنملكهووليعليهمبعدهبشليقشأربعسنين،

ثمبعدهطو دريقإحدىو ستينسنة ،وقتلهبعضأصحابهباشبيلية ،وو ليبعدهابر ليقخمسسنين،وبعدهطو دسثلاثعثرة سنة ،و
بعدهطو دشكلسنتين ،وبعدهايلةخمسسنين.وانتقضعليهأهلقرطبةفحاربهمو تغلبعليهم.وبعدهطنجادخمسعشرة سنة،وب
عدهليولةسنةواحدة،وبعدهلوبليدةثمانيعشرة سنة.وانتقضتعليهالأطرافقحاربهمو سكنهم،ونكرعليهالنصارىتثليثأري
ش،ووراو دوهعلىالأخذبتوحيدهمالذينيزعموهمفأبىو حاربهم،فقتلووليابنهزدريقستعشرة سنة،ورجعإلىتوحيدالنصارى
بزعمهم،وهوالذيبنىالبلادالمنسوبةإليهبقرطبة.
ولماهلكوليبعدهعلىالقوطليوبةسنتين،وبعدهتبديقاعندمارسنتين،وبعده
شيشوطثمانيسنين،وعلىعهدهكانهرقلملكقسطنطينيةوالشام.ولعهدهكانتالهجرة.وهلكشيشوطملكالقوطووليبعد
هزدريقآخرمنهمثلاثةأشهر،وبعدهشتلهثلاثسنين.وبعدهسنشادشخمسسنين،وبعدهخنشوندسبعسنين،وبعدهوجن
شوندثلاثاًوعرينسنة.ولهذاالعصورابتدأضعفالأحكامللقوط.وبعدهمانيهثمانسنين،وبعدهلوريثمانسنين،وبعدهايقه
ستعشرة سنة،وبعدهغطسةأربععشرة سنة،وهوالذيوقحمنقصتهمعابنهليانعاملطنجةماوقع.ثمبعدهزدريقسنتينوهوالذي
دخلعليهالمسلمونوغلبوهعلىملكالقوط،وملكواالأندلس.ولذلكالعهدكانالوليدبنعبدالملكحسبمانذكرهعندفتحالأند
لسإنشاءاللهتعالى.هذهلسياقةالخبرعنهؤلاءالقوطنقلتهمنكلامهروشيوش،وهوأصحمارأيناهفيذلكواللهسبحانهوتعا
لىالموفقالمعينبفضلهوكرمهلاربغيرهولامأمولإلاخيره.
الطبقةالثالثةمنالعرب
وهمالعربالتابعةللعربوذكرأفاريقهموأنسابهمومما لكهم
وماكانلهممنالدولعلياختلافهاوالباديةوالرحالةمنهمو ملكها
هذهالأمةمنالعربالباديةأهلالخيامالذينلااغلاقلهملميزالوامنأعظمأمم
العالموأكرأجيالالخليقة؛يكرونالأممتارةوينتهيإليهمالعزوالغلبةبالكثرةفيظفرونبالملكويغلبونعلىالأقاليموالمدنوالأمصار.
ثميهلكهمالترفهوالتنعمويغلبونعليهمويقلونويرجعونإلىباديتهم،وقدهلكالمتصدرونمنهمللرياسةبماباشروهمنالترفونضار
ةالعيش،وتصييرالأمرلغيرهممنأولئكالمبعدينعنهمبعدعصورأخرى.هكذاسنةاللهفيخلقه.وللباديةمنهممعمنيجاورهممن
الأممحروبووقائعفيكلعصروجيل،بماتركوامنطلبالمعاشوجعلواطلبالمعاشرزقهمفيمعاشهمبترصدالسبيلوانتهابمتاعالناس
.ولمااستفحلالملكللعربفيالطبقةالأولىللعمالقة،وفيالثانيةللتبابعةوكانذلكعنكثرتهم.فكانوامنتشرينلذلكالعهدباليمنوا
لحجازثمبالعراقوالشام.فلماتقلصملكهموكانوابالعراقمنهمبقيةأقاموا اضاحينمنظلالملك.
يقالفيمبداكونهمهنالكأنبختنصرلماسلطهاللهعلىالعربوعلىبنيإسرائيلبماكانوامنبغيهموقتلهمالأنبياء،قتلأهلالوبربناح
يةعدلنااليمنبنبيهمشعيببنذيمهدمعلىمارقعفيتفسيرقولهتعالى: (فلماأحسوابأسناإذاهممنهايركضون) .فأوحىاللهإلىإرميا
ءبنحزقياوبزخياأنيسيرابختنصرإلىالعربالذينلااغلاقلبيوتهمأنيقتلولايستحي،ويستلحمهمأجمعينولايبقىمنهمأثرا.وقالب
ختنصر:وأنارأيتمثلذلك.وسارإلىالعربوقدنظممابينأيلةوالأبلةخيلاورجلا.وتسامعالعرببإقطارجزيرتهمواجتمعواللقا
ئه،فهزمعدنانأولاًثماستلحمالباقين،ورجعإلىبابلوجمعالسباياأنزلهمبالانبارثمخالطهمبعدذلكالنبطة.

وقالابنالكلبي: إنبختنصر لمانادىبغزوالعربافتتحأمرهبالقبضعلى منكانفيبلادهمنتجارهمللميرةوأنزلهمالحيرة، ثمخرجإليهم فيالعساكر،فرجعتقبائلمنهمإليهآثروا الإذعانوالمسالمة،وأنزلتهمبالسوادعلى شاطىءالفرات،وابتنوا موضععسكرهموسموهالأنبار. ثمأنزلتهمالحيرةفسكنوهاسائرأيامه،ورجعواإلىالأنبار: جدمهلكه.

وقالالطبري. إنتبعاًباكر بلماغزاالعراقأيامأردشير بهمنكانتطريقهعلى جبلطيءومنهإلىالأنبار،وانتهىإلىموضعالحيرةليلاً فتحيروأقام،فسميالمكانالحيرة. ثمسارلوجههوخلفهنالكقومامنالأزدولخموجذاموعاملةوقضاعةوطنواوبنوا،ولحقبهمنا سمنطيءوكلبوالسكونوإيادوالحرثبنكعبفكانوامعهم. وقيلوهوقريبمنالأول: خرجتبعليالعربحتىتحمروابظاهرالكوفة،فتر لبهاضعفاءالناسفسميتالحيره. ولمارجعووجدهمقداستوطنواتركهمهنالك،وفيهممنكلقبائلالعرب بمنهذيلولخموجعفىو طيءوكلبوبنيلحيانمنجرهم.

قالهشامبنمحمد: ماتبختنصرانتقلالذينسكنهمبالحيثرةإلىالانبار ومعهممنانضمإليهممنبنيإسماعيلوبنيمعد،وانقطعتطوالعالعرب بمناليمنعنهم. ثمكثرأولادمعدوفرقتهمالعرب،وخرجوايطلب وناالمنسعوالريففيمايلمهممنبلاداليمنومشارفالشام. ونزلتقبائلمنهمالبحرينوبهايومئذقوممنالأزدنزلوهاأيامخروجمزيقياءم ناليمن. وكانالذيناقبلوامنتهامةمنالعرب بمالكوعمروابنافهمبنتيماللهبناسدبنوبرةبنقضاعةوابنأخيهمامالكبترهيروابنعمرو بنفهمفيجماعةمنقومهم،والختفاربنالحيقبنعمروبنمعدبنعدنانفيقفصكلها. ولحقبهمغطفانبنعمروبنلطمانبنعبدمنافبنبعد مبندعمىبنايادبنارقصبنصغبنالحارثبنأفصىبندعمى،وزهيربنالحرثكلنأليلبترهيربنأياد.

واجتمعواابالبحرينوتحالفواعلىالمقاموالتناصر،وأنهميدواحدة. وكانهذاالاجتماعوالحلفأزمانالطوائفوكانملكهمقليلاًوم فترقا،وكانكلواحدمنهميغيرعلىصاحبهويرجععلىأكثرمنذلك. تطلعتنفوسالعرببالبحرينإلىريفالعراق،وطمعوافيلخ بالأعاجمعليه،أومشاركتهمفيه،واهتبلواالخلافالذيكانبينالطوائف،وأجمعرؤساؤهماالمسيرإلىالعراق -

فسارمنهمالأولالحنفاربنالحيقفياشلاءقفصبنمعدومنمعهممنأخلاطالناس،فوجدواأرضبابلإلىالموصلبنيإرمبنساماالذين كانواملوكاًبدمشقوقيللهامنأجلهمدمشقإرم،وهممنبقايا العربالأولى. فوجدوهميقاتلونملوكالطوائففدفعوهمعنسوادالعراق،فارتفعواعنهاإلىأشلاءقفص،هؤلاءينسبونإلىعمروبن عديبنربيعةجذبنيالمنذرعندنسابةمضر. وفيقولحمادالراويةكمايأتيذكره.

ثمطلعمالكوعمروابنافهم،وابنمالكبترهيرمنقضاعة،وغطفانبن عمرو،وصبحبنصبيحوزهيربنالحرثمنإيادفيمنمعهممنغسانوحلفائهمبالأنبار،وكلهمتنوخكماقدمنا،فغلبوابنيإرمودفعو همعنجهاتالسواد. وجاءعلىأثرهمنمارةبنقيس،ونمارةبنلخمنجدةمنقبائلكندةفترلواالحيرةوأوطنوها،وأقامتطالعةالأنبار وطالعهاالحيرةلايدينوناللأعاجمولاتدينلهم،حتىمربهمتبعوتركفيهمضعفةعساكرهكماتقدم،وأوطنوافيهممنكلالقبائل كماذكرناجعفوطيءوتيموبنيلحيانمنجرهم.

ولزلكثيرمنتنوخمابينالحيرةوالانباربادينفيالخياملايأوونإلىالمدن، ولايخالطونأهلها. وكانوايسمونعربالضاحية،وأولعنملكمنهمأزمانالطوائفمالكبنفهم،وبعدهأخوهعمرو،وبعدهابنأخ يهجذيمةالأبرشكمايأتيذكرذلككله. وكانأيضاولدعمرومزيقياءبعدخروجهمناليمنبالازدقومهعندخروجهأنذرهمبسي

لالعرمفيالقصةالمشهورة.وقدانتشروابالشاموالعراق،وخطفمنتخلفمنهمبالحجازوهمخزاعة،فنزلوامرالظهرانوقاتلواجرهماًبمكةفغلبوهمعليها،ونزلنصربنالأزدعمان،ونزلتغسانجبالالشراة.وكانتلهمحروبمعبنيمعدإلىأناستقروا هنالكفيالتخوم بينالحجاز والشام.

هذاشأنمنأوطنالعراقوالشاممنقائلسبا.تشاءممنهمأربعةوبقيباليمن

ستةوهممذحجوكندةوالاشعريونوحميروانماروهوأبوخثعموبجيلةفكانالملكلهؤلاءباليمنفيحمير،ثمالتبابعةمنهمويظهرمن هذاأنخروجمزيقياءوالأزدكانلأولملكالتبابعةأوقبلهبيسير.وأمابنومعدبنعدنانفكانإرمياوبرخياالماأوحيإليهمابغزوبختنصرالعرب،أمرهمااللهأنيستخرجامعدبنعدنانلانمنولدهمحمداصلىاللهعليهوسلمأخرجهآخرالزمانأختمبهالنبيين،وأرفعبهمنالضعة،فأخرجاهعلىالبراقوهوابناثنتيعشرةسنة،وذهبابهإلىحران،فربيعندهما.وغزابختنصرالعربواستلحمهم،وهلكعدنانوبقتبلادالعربخرابا.ثمهلكبختنصرفخرجمعدبن

عدنانمعأنبياءبنيإسرائيلفحجواجميعاً،وطفقيسألعمنبقيمنولدالحرثبنمضاضالجرهمي.وكانتقبائلدوس(0000)أكثرجرهمعلىيده،فقيللهبقيجرهمبنجلهة.فتزوجابنتهمعانةوولدتلهنزاربنفغذ.

قالالسهيلي:وكانرجوعمعدإلىالحجازبعدمارفعاللهبأسهعنالعرب،ورجعتبقاياهمالتيكانتبالشواهقإلىمحالاتهمبعدأندوخبختنصربلادهموخربمعمورهمواستأصلحضوراوأهلالرسالتيكانتسطوةاللهبالعربمنأجلهماهكلامالسهيلي.ثمكثرنسلمعدفيربيعةومضروإياد،وتدافعواإلىالعراقوالشام،ونقدمنهمأشلاءقفصكماذكرنا،وجاءواعلىأثرهمفنزلوامعأحياءاليمنيةالذينذكرناهمقبل،وكانتلهممعتبعحروبوهوالذيقول:

لستبالتبعاليمانيإنلمتركضالخبلفيسوادالعراق

أوتوديربيعةالخرجقسراالمتعقهاموانعالعواق

ثمكانبالعراقوالشاموالحجازأيامالطوائفومنبعدهمفيأعقابملكالتبابعةاليمنيةوالعدنانيةملكودول،وبعدأندرستالأجيالقبلهم،وتبدلتالأحوالالسابقةلعصرهم،فاستحقبذلكأنيكونجيلامنفرداعنالأول،وطبقةمايةللطباقالسالفة.ولمالميكنلهمأثرفيانشاءالعروبيةكماللعربالعاربةولافيلغتهاعنهمكمافيالمستعربة،وكانواتبعالمنتبعهمفيسائرأحوالهماستحقواالتسميةبالعربالتابعةللعرب.واستمرتالرياسةوالملكفيهذهالطبقةاليمانيةأزمنةوآمادابماكانتصبغتهالهممنقبل،وإحياءمضروربيعةتبعالهم.

فكانالملكبالحيرةللخمفيبنيالمنذروبالشاملغسانفيبنيجفنةويثربكذلكفيالاوسوالخزرجابنيقيلة،وماسوىهؤلاءمنالعرب،فكانواظواعنباديةواحياءناجحة،وكانتفيبعضهمرياسةبدويةوراجعةفيالغالبإلىأحدهؤلاء.ثمنبضتعروقالملكفيمضروظهرتقريشعلىمكةونواحيالحجازأزمةعرففيهامنهم،ودانتالدولبتعظيمهم.ثمصبحالإسلامأهلهذاالجيلوأمرهمعلىماذكرناه،فاستحالتصبغةالملكإليهم،وعادتالدولللمضرمنبينهم،واختصتكرامةاللهبالنبوةبهم،فكانتفيهمالدولالإسلاميةكلهاإلابعضامندولهاقامبهاالعجم

اقتداءبالملة،وتمهيداللدعوةحسبمانذكرذلككله.

فلنأتالآنبذكرقبائلهذهالطبقةمنقحطانوعدنانوقضاعةوماكانلكلواحدة

منهامنالملكقبلالإسلامو بعده: و منكتابالأغانيلأبيالفرجالأصبهانيفيأخبارخزيمةبننهدبنليثبنسودبناسلمبنالحافبنقضاعةق ال: كانبدءتفرقبنيإسماعيلمنتهامةونزوعهمعنهاإلىالآفاق،وخروجمنخرجمنهمعننسبهأنقضاعةكانوامجاورينلنزار،وكانخ زيمةبننهدفاسقامتعرضاللنساء،فشببيفاطمةبنتيذكر،وهوعامربنعنزةوذكرهافيشعرهحيثيقول:

إذاالجوزاءاردفتالثرياظننتبآلىفاطمةالظنونا

وحالتدونذلكمنهمومهمومتخرجالشجرالربينا

أرىابنةيذكرظعنتفحلتجنوبالحزنياشحطامبينا

وسخطذلكيذكرخشيةخزيمةعلىنفسه،فاغتالهوقتلهوانطفتناريذكر،ولم

يصحعلىخزيمةشيءحتيتوجهبهالمطالبةعلىقضاعةحتيقالفيشعره:

فاهكانعندرضابالعصيرففيهايعلبهالزنجبيل

قتلتأباهاعلىحبهافتبخلإنبخلتأوتقيل

فلماسمعتنزارشعرخزيمةبننهدوقتلهيذكربنعنزةثاروامعقضاعة،وتساندوامعاحياءالعربالذينكانوامعهم،وكانتهذهمعنزار ولبهايومئذكندةبنجنادةبنمعد،وجيرانهميومئذأجاًينعمروبنأدبنأددابنأخيعدنانبنأدد.وكانتقضاعةتنتسبإلىمعد.ومعدإ لىعدنان،والأشعريونإلىالأشعربنأددأخيعدنان،وكانوايظنونمنتهامةإلىالشام،ومنازلهمبالصفاع.وكانتعسقلانمنولدربي عة،وكانتقضاعةمابينمكةوالطائفوكندةمنلعمدإلىذاتعرق،ومنازلأجاًوالأشعرومعدمابينجدةوالبحر.فلمااقتتلواهزم تنزار.قضاعة،وقتلخزيمةوخرجوامتفرقين،فسارتتيماللاتمنقضاعةوبعضبنيرفيدةمنهم،وفرقةمنالأشعريينإلىنحوالبحرين،و نزلواهجروأجلوامنكانبهامنالنبطوملكوها.وكانتالزرقاءبنتزهيركاهنةمنهمفتكهنتلهمبتروإلذلكالمكانوالخروجعنتهامة وقالتفيشعرها:

وذعتهامةلاوداعمخالفبذمامهلكنقليوملام

لاتنكريهجرامقامغريبةلنتعدميمنظاعنيتهام

ثمتكهنتلهمفيسجعبأنهميقيمونبهجر،حتينعقغرابأبقععليهخلخال

ذهباً،ويقععلىنخلةوصفتها،فيسيرونإلىالحيرة،وكانفيسجعهامقاموتنوخ،فسميتتلكالقبائلتنوخمنأجلهذهاللفظة.ولحقبهمقوممنالأزد،فدخلوافيتنوخ،وأصابقيةقضاعةالموتان،وسارتفرقةمنبنيحلوانفنزلواعبقرةمنأرضالجزيرة،ونسجنساؤهم البرودالعبقريةمنالصوفوالبرودالتزيديةإليهملأنهمبنوتزيد،وأغارتعليهمالشركففأصابوامنهم.وأقبلالحرثبنقرادالبهرانيلي ستجيشبنيحلوانلهأبانبنسليحصاحبالعينفقتلهالحرث،ولحقتبهرابالتركفاستنقذوامأأخذوهمنبنيتزيدوهزموهموقالالحر ث:

كأنالدهرجمعفيلياليالثلاثبينهنبشهرزور

صففناللأعاجممنمعدصفوفابالجزيرةكالسعير

وسارتسليحبنعمروبنالحافوعليهمالهدرجانبنمسلمة،حتينزلوافلسطينعلىبنيأدينةبنالسميدعبنعاملة.وسارتاسلمبنالحاف وهيعذرةونهدوحويكةوجهينةحتينزلوابينالحجرووادىالقرى،وأقامتتنوخبالبحرينسنين.ثمأقبلالغرابحلقتيالذهب،ووق

عطى النخلة ونعقكما قالتالزرقاء،فذكروا فولهاوارتحلوا إلى الحيرة فتزلوها،وهمأولعناختطها.وكانرئيسهممالكبتزهير،وا
جتمعإليهناسكثيرة منبسائطالقرى وبنوابهاالمنازلو أقاموا زمانا،ثمأغارعليهمسابورالأكبروقاتلوه،وكانشعارهميالعبادالله،
فسمواالعباد.وهزمهمسابورفافترقوا،وسارأهلالمهبطمنهممعالضيزنبنمعاويةالتوخيفتزلباحضرالذيبناهالساطرونالجر
مقاني،فأقامواعليهوأغارتحميرعلىقضاعةفأجلوهم،وهمكلب.وخرجبنوزبانبنتغلببنحلوانفلحقوابالشام.ثمأغارتعليهم
كنانةبعدذلكبحينواستباحوهم،فلحقوابالسماوةوهيإلىاليوممنازلهم.اهكلامصاحبالأغانيقلت:وأحياءجدهملهذاالعهد
مابينعترةوقلتةوفلسطينإلىمعانمنأرضالحجاز.

أنسابالعرب

الخبرعنأنسابالعربمنهذهالطبقةالثالثةواحدة

وذكرمواطنهمومراكانلهاالملكمنهم

أعلمأنجميعالعربيرجعونإلىثلاثةأنساب:وهيعدنانوقحطانوقضاعة.

فأماعدنانفهومنولدإسماعيلبالاتفاق،إلاذكرالآباءالذيبينهوليناإسماعيلفليسفيشئيرجعإلىيقينه،وغيرعدنانمنولدإسماعيلفدا
نقرضوافليسعلىوجهالأرضمنهمأحد.وأماقحطانفقيلمنولدإسماعيلوهوظاهركلامالبخاريفيقوله:بابنسبةاليمنإلىإسما
عيل،وساقفيالبابقولهصلىاللهعليهوسلملقوممنأسلميناضلون:ارمواابنيإسماعيلفإنأباكمكانراميا.ثمقال:واسلمبنأفصىبن
حارثةبنعمروبنعامرمنخزاعة،يعنيوخزاعةمنسبأ،والأوسوالخزرجمنهم،وأصحابهذاالمذهبعلىأنقحطانابنالهميسعبنأبينبن
قيذاربننبتلنإسماعيل.والجمهورعلىأنقحطانهويقطنالمذكورفيالتوراةفيولدعابر،وأنخضرموتمنشعوبقحطان.وأماقضاعةف
قيلأنهاحميرقالهابنإسحقوالكلبيوطائفة،وقديحتجلذلكبمارواهابنلهيعةعنعقبةبنعامرالجهنيقال:يارسولاللهممننحن؟قالأ
نتممنقضاعةبنمالك.وقالعمروبنمرةوهومنالصحابة.

نحنبنوالشيخالعجازالازهريقضاعةبنمالكبنحمير

النسبالمعروفغيرالمنكر

وقالزهير:قضاعيةوأختهامضرية.فجعلهماأخوين،وقالأنهمامنحميربن

فغذبنعدنانوفالبنعبدالبروعليهالأكثرون:ويرويعنابنعباسوابنعمرووخيربنمطعموهواختيارالزبيربنبكاروابنمصعبالزبيرو
ابنهشام.

قالالسهيلي:والصحيحأنأمقضاعةوهيعبكرةماتعنهامالكبنحميروهي

حاملبقضاعةفتزوجهامعدوولدتقضاعة،فتكنيهونسبإليه،وهوقولالزبيراهكلامالسهيلي.

وفيكتبالحكماءالأقدمينمنيونانمثلبطليموسوهروشيوشذكرالقضاعيين

والخبرعنحروبهم،فلايعلمأهمأوائلقضاعةهؤلاءوأسلافهمأوغيرهم.وربمايشهد

للقولبأنهممنعدنان،وأنبلادهملاتتصلببلاداليمن،وإنماهيببلادالشاموبلادبنيعدنان،والنسبالبعيديحيلالظنونولايرجحفيهاإ
لى يقين.

ولنبدأبقحطانو بطونها: لماأنالملكالأقدمللعر بكانفينسبسبأبنيشجببنيعر ببنقحطان، و منهتشعببطو نحمير بنسبأو كهلانبنسبأ .و ينفر دبنو حمير بالملك، و كانمنهمالتبابعةأهلالدولةالمشهو رةو غير همكمانذ كر .فلنبدأبذ كر حمير أو لاًمنالقحطانية، ونذ كر بعدهمقضاعةلانتسابهمفيالمشهو رإلى حمير ، ثمنتبعهمبذ كر كهلانإخو انحمير منالقضاعية، ثمنر جعإلى ذ كر عدنان.

الخبر عنحمير منالقحطانيةو بطونهاو تفر عشعو بها

قدتقدملناذ كر الشعو بمنحمير الذينكانلهمالملكقبلالتبابعة، فلاحاجة

لناإلى إعادةذ كر هم. و تقدملأنحمير بنسبأ كانلهمنالو لدتسعةو هم: الهميسعو مالكو زيدو عر يبوو ائلو مشر و حو معديكر بو أ و سو مرة. فبنو مرةدخلو اإلى حضر موت. و كانمنحمير أيبنبتر فير بنالغو ثبنأبيبنالهميسعبنحمير . و إليهمتنسبعدنأنينو منهمبنو ا لأملو كو بنو عبدشمس، و هماابناو ائلبنالغو ثبنقطنبنعر يببتر هير ، وعر يبو أبينأخو انو منبنيعبدشمسبنو شر عببنقيسبنمعاو يةبنجش مبنعبدشمس، و قدتقدمقو لمنذهبإلى أنجشمو عبدشمسأخو انو هماابناو ائلو الصحيحماذ كر ناههنافلتر جع.

و بنو خير انو شعبانو هماابناعمر و أخيشر عببنقيس، و زيدالجمهو ر بنسهلأخيخير انو شعبان. و ر ابعهمحسانالقيلبنعمر و وقد مر ذ كر ه. و متر يدالجمهو ر ذو ر عينو اسمهير يمبتر يدبنسهل، و إليهينسبعبدكلالالذيتقدمذ كر هفيملو كالتبابعة. و الحار ثو عر يب ابناعبدكلالبنعر يببنيشر حبنمدانبنذير عين، و هماللذانكتبلهماالنبي

صلى اللهعليهو سلم. و منهمكعببتر يدالجمهو ر و يلقبكعبالظلمو أبناءسباالأصغر بنكعب، و إليهينتهينسبملو كالتبابعة. و متر يدالجمهو ر بنو حضو ر بيغدبينمالكبتر يد، و قدمر ذ كر هم.

و تقو لاليمنأنمنهمكانشعيببنذيمهدمالنبيالذيقتلهقو مه، فغز اهمبختنصر فقتلهم. و قيلبلهو منحضو ر بنقحطانالذ ياسمهفيالتو ر اةيقطن، و منهم

أيضابنو ميثمو بنو حالةابنيسعدبنعو فبنعديبنمالكأخيذير عين. و عو فهذاأخو حضو ر و أخو هأحاظةو ميثمبنو حر از بنسعد، فمنميثمكصبالأحبار و قدمر ذ كر ه. و هو كببنماتعبنهلسو عبر ذيفجير يبنميثم. و منأحاظةر هطذيالكلاع، و هو السميقعبنناكو ر بنعمر و بنيعفر بنيزيدو هو ذو الكلاعالأكبر بنالنعمانبنأحاظة.

و منعمر و بنسعدالخبائر و السحولبنو سو ادةبنعمر و بنالغو ثبنسعديحصب، و ذو أصبحأبر هةبنالصباح، و كانمنملو كاليمنلعهدالإسلام، وقدمر ذ كر هو نسبه. و منهممالكبنأنسقإمامدار الهجر ةو كبير فقهاءالسلفو هو مالكبنانسقبنمالكبنأبيعامر ، و هو نافعبنعمر و بنالحر ثبنعثمانبنخثيلبنعمر و بنالحار ثو هو ذو أصبح، و أبناءيحمى و محمدو أعمامهأو يسو أبو سهلو الر بيع، و كانو ا حلفاءلبنيتيممنقر يش، و متر يدالجمهو ر مر ثدبنعلسبنذيجدنبنالحر ثبتر يد، و هو الذياستجاشهامر ؤ القيسعلى بنيأسدقاتليأبيه.

و منبنيسباالأصغر الأو زاع، و همبنو مر ثدبتر يدبنشددبتر رعةبنسبأالأصغر . و منإخو انهؤلاءالأو زاعبنو يعفر الذينانشدو ابملكاليمن، كمايأتيعندذ كر ملو كاليمنفيالدولةالعباسية. و هو يعفر بنعدالر حمنبنكر يببنعثمانبنالو ضاحبنإبر اهيمبنمانعبنعو نبنتدرصبنعامر بنذيمغار البطينبنذيمر ايشلنمالكبتر يدبنغو ثبنسعدبنعو فبنعديبنمالكبنشددبتر رغه.

و كانآخر ملو كبنييعفر هؤلاءباليمنأبو حسانأسعدبنأبي يعفر إبر اهيمبنمحمدبنيعفر ملكأبو إبر اهيمصنعاءو بني قلعةكحلانب اليمن. و و ر ثملكهبنو همنبعدهاإلى أنغلبعليهمالصليحيو نمنهمدانبدعو ةالعبيديينمنالشيعةكمانذ كر فيأخبار هم، و متر يدالجمهو ر ملو كالتبابعةو ملو كحمير منو لدصيفيبنسباالأصغر بنكعببتر يد.

قالابنحزم:فمنوللهضيفيهذاتبعوهوتبان،وهوأيضاأسعدأبوكربنكليكرب،وهوتبعبتريدوهوتبعبنعمرو،وهوتبعذوالأ ذعاربنأبرهةوهوتبعذوالمناربنالرايشبنقيسبنصيفي.قال:فولدتبعأسعدأبوكربحسانذومعاهر

وتبعزرعة،وهوذونواسالذيتهودوهودأهلاليمن،ويسمىيوسف،وقتلأهلنجرانمنالنصارى.وعمروبنسعدوهوموثبان.

قال:ومنهؤلاءالتبابعةشمريرعشبنياسرينعمبنعمروذيالأذعار،وافريقشبنقيسبنصيفي،وبلقيسبنتإيليأشرحبنذيجدنبنإيلياش رحبنالحرثبنقيسبنصيفي.قال:وفيأنسابالتبابعةتخليطواختلاف،ولايصحمنهاومنأخبارهمإلاالقليلاه.

ومتريدالجمهورذويزنبنعامربناسلمبتريد.وقالابنحزم:إنعامرهوذويزنقالومنولدهسيفبنالنعمانبنعفيربتررعةبنعفيربنالحرث بنالنعمانبنقيسبنعبيدبنسيفبنذييزنالذياستجاشكسرىعلىالحبشةوأدخلالفرسإلىاليمن.هذهبطونحميروأنسابهاوديارهم باليمنمنصنعاءإلىظفارإلىعذن.وأخباردولهمقدتقدمت.واللهوارثالأرضومنعليهاوهوخيرالوارثين.

ونلحقبالكلامفيأنسابحميربنسبأأنسابحضرموتوجرهموماذكرهالنسابونمنشعوبهما:فإنهميذكرونهمامعحميرلأنحضرموت وجرهمإخوةسبأكماوقعفيالتوراة،وقدذكرناهوليميقمنولدقحطانبعدسبأمعروفالعقبغيرهذين.

فأماحضرموتفقدتقدمذكرهمفيالعربالبائدةومنكانمنهممنالملوكيومئذ،ونبهناهنالكأنمنهمبقيةفيالأجيالالمتأخرةاندرجو افيغيرهم،فلذلكذكرناهمفيهذهالطبقةالثالثة.قالابنحرمةويقالإنحضرموتهوابنيقطنأخيقحطانواللهأعلم.وكانفيهمرياس ةإلىالإسلام.منهموائلبنحجرلهصحبة،وهووائلبنحجربنسعيدبنمسروقبنوائلبنالنعمانبنربيعةبنالحارثبنعوفبنسعدبنعوفبن عدينشرحبيلبنالحرثبنمالكبنمرةبنحميربتريدبنلابيبنمالكلنقدامةبناعجببنمالكابنلابيبنقحطان.وابنهعلقمةبنوائل.وس قطعندهبينحجرأبيوائلوسعيدبنمسروقأباسمهسعدوهوابنسعيد.

ثمقالابنحزم:ويذكربنوخلدونالأشبيليونفيقال:إنهممنولدالجباربنعلقمةبنوائل،منهمعليالمنذربنمحمد،وابنهبقرمونةوأ شبيليهاللذينقتلهماإبراهيمبنحجاجاللخميغيلة،وهماابناعثمانأبيبكربنخالدبنعثمانأبيبكربن

خريطة

مخلوفالمعروفبخلدونالداخلالمشرق.وقالغيرهفيخلدونالأول:إنهابنعمروبنخلدون.وقالابنحزمفيخلدونأنهابنعثمانبنهانئ بنالخطابنكريبنمعديكربنالحرثبنوائلبنحجر.وقالغيرهخلدونبنمسلمبنعفربنالخطاببنهانيءبنكريببنمعديكرببنالحرثبيوا ئل.قالابنحزم:والصدفمنبنيحضرموتوهوالصدفبناسلمبتريدبنمالكبتريدبنحضرموتالأكبر.قالومنحضرموتالعلاءبنالح ضرميالذيولاهرسولالله

صلىاللهعليهوسلمالبحرين،وأبوبكروعهرمنبعدهاإلىأنتوفيسنةإحدىوعشرين،وهوالعلاءبنعبداللهبنعبدةبنحمادبنمال كحلفبنيأميةبنعبدشمس،وأخوهميمونبنالحضرميبنالصدف.فيقالعبداللهبنحمادبنأكبربنربيعةبنمالكبنأكبربنعريببرمالكب نالخزرجبنالصدف.قالوأختالعلاءالصعبةبنتالحضرميأمطلحةبنعبداللهاه.

وأماجرهمفقالابنسعيد.إنهمأمتانأمةعلىعهدعاد،وأمةمنولدجرهمبنقحطان.ولماملكيعربيبنقحطاناليمنملكأخوهجرهما لحجاز،ثمملكمنبعدهابنهعبدياليلبنجرهم،ثمابنهجرشمبنعبدياليل.ثمملكمنبعدهابنهعبدالمدانبنجرشم،ثمابنهنفيلةبنعبدالم

دان. ثمابنهعبدالمسيحبننفيلة ثمابنهمضاضبنعبدالمسيح، ثمابنهعمرو بنمضاض، ثمأخوهالحرثبنمضاض، ثمابنهعمرو بنالحرث ،ثمأخوهبشر بنالحرثممضاضبنعمرو بنمضاض. قالوهذهالأمةالثانيةهمالذينبعثإليهمإسماعيلوتزوجفيهماه.

الخبرعنقضاعةوبطونهاوالإلمامببعضالملكالذيكانفيها

فدتقدمآنفاذكرالخلافالذيفيقضاعةهلهملحميرأولعدنان، ونقلناالحجاجلكلاالمذهبينوأتينابذكرأنسابهمتاليةحميرترجيحاللقولبأنهممنهم، وعلىهذافقيلهوقضاعةبنمالكبنحمير. وقالابنالكلبي: قضاعةبنمالكبنعمرو بنمرةبتريدبنمالكبنحمير. وكادقضاعةفيماقالابنسعيدملكاعلىبلادالشحر، وصارتبعدهلاشهالحافيثملابنهمالك. ولميذكرابنحزمفيولدالحافمالكا. قالابنسعيد. وكانتبينقضاعةوبينوائلبنحميرحروب. ثماستقلببلادالشحرمهرةبنحيدانبنالحافبنقضاعةوعرفتبه. قالوملكبنوقضاعةأيضاًنجران، ثمغلبهمعليهابنوالحرثبنكعببنالازد، وساروإلىالحجازفدخلوافيقبائلمعد، ومنهناغلطمننسبهمإلىمعداه.

ولنذكرالآنتشعبالبطونمنقضاعة: اتفقالنسابونعلىأنقضاعةليكنلهمنالولدإلاالحافومنهسائربطونهم، وللحافثلاثةمنالولدعمروعمرانوأسلمبضمااللامقالهابنحزم. فمنعمرو بنالحافحيدانوبليوبهرا. فمنحيدانمهرة، ومنبليجماعةمنمشاهيرالصحابة: منهمكعببنعجرةوخديجيسلامةوسهلبنرافعوأبوبردةابننيار. ومنبهراجماعةمنالصحابةأيضاً، منهمالمقدادبنعمرو، وينسبإلىالأسودابرعبديغوثبنوهبخالرسولالله صلىاللهعليهوسلمأخيأمه، وتبناهفنسبإليه. ويقالإنخالدبنبرمكموليبنيبهرا.

ومناسلمسعدهذيموجهينةونهدبنوزيدبنليثبنسودبنأسلم. فجهينةمابيناالينبعويثربإلىالآنفيمتسعمنبريةالحجاز، وفيشماليهمإلىعقبةايلةمواطنبلي، وكلاهماعلىالعدوةالشرقيةمنبحرالقلزموأجازمنهمأممإلىالعدوةالغربية، وانتشروامابينصعيدمصروبلادالحبشة، وكثرواهنالكسائرالأمموغلبواعلىبلادالنوبة، وفرقواكلمتهموأزالواملكهم. وحاربواالحبشةفارهقوهمإلىهذاالعهد. ومنسعدهذيمبنوعذرةالمشهورونبينالعربفيالمحبة. كانمنهمجميلبنعبداللهبنمعمروصاحبتهبثينةبنتحبابا. قالابنحزم: كانلأبيهاصحبة. ومنهمعروةبنحزاموصاحبتهعفرا. ومنبنيعذرةكانرزاحبنربيعةأخولحصيينكلابلأمه، وهوالذياستظهرقصييهوبقومهعلىبنيسعدبتريدبنمناةابنعمتميم، فغلبهمعلىالاجازةبالناسمنعرفة، وكانتمفتاحرياستهفيقريش.

ومنعمرانبنالحافبنوسليح، وهوعمروبنحلوانلنعمران. ومنبنيسليحالضجاعمبنوضجعمبنسعدبنسليح، كانواملوكابالشامللرومقبلغسان. ومنبنيعمرانبنالحافبنوجرمبتربانبنحلوانبنعمرانبطنكبير، وفيهمكثيرمنالصحابة، ومواطنهممابينغزةوجبالالشراةمنالشام. وجبالالشراةمرجبالالكرك. ومنتغلببنحلوانبنوأسدوبنوالنمروبنوكلب، قبائلضخمةكلهمبنووبرةبنتغلب. فمنالنمرخشينبنالخمر، ومنبنياسدبنوبرةتنوخوهمفهمبنتيماللاتبنأسد، منهممالكبترهيربنعمروبنعمروبنفهموعليهتنختتنوخ. وعلىعهدأبيهمالكبنفهمكمامر، وكانوااحلفاءلبنيحزمفتنوخعلىثلاثةأبطن: بطناسمهفهموهمهؤلاء، وبطناسمهبزاروهمليستزارلهمبوالد، ليهنهممنبطونقضاعةكلها. ومنبنيتيماللاتومنغيرهمبطونثلاثيقالللهمالأحلافمنجميعقبائلالعربمنكندهولخموجذاموعبدالقيساهكلامابنحزم.

ومنبنيأسدبنوبرةبنوالقينواسمهالنعمانبنجسربنشيعاللاتبنأسد.

ومنبنيكلببنوبرةبنتغلببنحلوانبنوكنانةبنبكربنعوفبنعذرةبتريداللاتبنرفيدةبنثوربنكلب.قبيلةضخمةفيهاثلاثةبطون: بنوع
ديوبنوزهيروبنوعليم.وبنوجنابينفبلبنعبداللهبنكنانةبطونضخمة،ومنهمعبيدةبنهبيلشاعرقديم،ويقولليهبعضالناسابنحر
ام.وهوالذيعنىامرؤالقيسبقوله:

نبكيالديار كمابكىابنحرام.

وقدقيل:إنهمنبكربنوائل.وقالهشامبنالسائبالكلبي:إذاسئلواعمبكى
ابنحرامالديار.انشدواخمسةأبياتمنكلماتامرؤالقيسالمشهورة:

ققانبكمنذكرىحبيبومنزل.

ويقولونإنبقيتهالامرىءالقيسبنحجر.وهذاامرؤالقيسبنحرامشاعرقديم

دثرشعرهلأنهلميكنللعربكتابلبدأتها،وإنمابقيمنأشعارهمماذكرهرواهالإسلاموقيدوهمنروايةالكتابمنمحفوظالرجال.ومن
نبيعديبنوحصينبنضمضمبنعدي،كانتمنهمنائلةبنتالفرافصةبنالأحوصبنعمروبنثعلبةبنالحرثبنحضنامرأةعثمانبنعفانومن
همأبوالخطارالحسامبنضراربنسلامانبنجشمبنربيعةبنحصنأميرالأندلس،ومنسبةبنشحيمبنمنجاشبنمزغوربنمنجاشبنه
ذيمبنعديبنزهير،وابنحسانبنمالكبنبحدلالذيقامبمروانيومرجراهط.وكانترياسةالإسلامفيكلبلبنيبحدلهؤلاء،ومنعقبهمب
نومنقذملوكشيزر.ومنبنيزهيربنجنابحنظلةبنصفوانبنتوبلبنبشرلنحنظلةبنعلقمةبنشراحيلبنهريربنأبيجابربنزهيرولىأفريقي
ةلهشام.

ومنعليمبنجنابينومعقل،وربمايقالإنعربالمعقلالذينبالمغرب

الأقصىلهذاالعهدوفيزمانهمينتسبونفيهم.ومنبطونكلببنعوفبنبكربنعوفبنكعببنعوتبنعامربنعوفدحيةبنخليفةبنفروةبنفضالة
بتريدبنامرىءالقيسبنالخزرجبنعامربنبكربنعامربنعوفصاحبرسولالله

صلىاللهعليهوسلمالذيأتاهجبريلعليهالسلامفيصورته.ومنصوربنجهوربنحفربنعمروبنخالدبنحارثةبنالعبيدبنعامربنع
وفالقائممعيزيدبنالوليدوولاهالكوفة.وحبرسولالله

صلىاللهعليهوسلماسامةبتريدبنحارثةبنشراحيلبنعبدالعزىبنعامربنالنعمانبنعامربنعبدودبنعوف،سبيأبوهزيدفيالجاهلي
ةوصارإلىخديجةفوهبتهإلىالنبي صلىاللهعليهوسلموجاءهأبوهوخيرهالنبي

صلىاللهعليهوسلمفاختارهعلىأبيهوأهله،وأقامفيكفالةالنبي صلى الله عليه
وسلم،ثمأعتقه.وربيابنهاسامةفيبيتهومعمواله،وأخبارهمشهورة.

ومنبنيكلبثممنبنيكنانةبنبكربنعوفيالنسابةبنالكلبي،وهوأبوالمنذرهشامبنفحمدبنالسائببنبشربنعمروبنالحرثبنعبدالعزىبن
امرىءالقبس.قالابنحزم:هكذاذكرهابنالكلبيفينسبه.وأرىامرأالقيسهذاهوعامربنالنعمانبنعامرابنعبدودبنعوفبنكنانةبن
عزرة،وقدمنبقيةنسبه.وكانلقضاعةهؤلاءملكمابينالشاموالحجازإلىالعراقفيأيلةوجبالالكركإلىمشارفالشام،واستعمل
همالروعلىباديةالعربهنالك،

وكانأولالملكفيهمفيتنوخ،وتتابعتفيهمفيماذكرالمسعوديثلاثةملوك

النعمانبنعمر وثمابنهعمر وبنالنعمان،ثمابنهالحو اريبنعمر و.ثمغلبهمعلى أمر همسليحمنبطو نقضاعة،و كانتر ياستهمفيضجع مبنمعدمنهم.و قار نذلكاستيلاءطيطشمنالقياصر ةعلى الشام،فو لاهمملو كاعلى العر بمنقبلهيجيبو نلهمنساحتهم،إلى أنو لي منهمز يادةبنهبولةبر عمر و بنعر فبنضجعم.و خر جتغسانمناليمنفغلبو همعلى أمر هم،و صار ملكالعر ببالشاملبنيجفنةو انقر ض ملكالضجاعمحسبمانذكر .

وقالابنسعيد:سار ز يادةبنهبو لةبنأبقى السيفمنهمبعدغسانإلى الحجاز فقتلهحجر آكلالمر ار الكندي،كانعلى الحجاز منقب لالتبابعةو أفنى بقيتهمفلمينجمنهمإلا القليلقال:وفنالناسمنيطلقتنو خعلى الضجاعمةو دو سالذينتنخو ابالبحر ينأيأقامو اقال :و كانلبني العبيدبنالابر صبنعمر بناشجعبنسليحملك

خريطة

يتوارثونهبالحضر آثار هباقيةفيبرية سنجار ،و كانآخر همالضيز نبنمعاوية بنالعبيدالمعر وفعندالجر امقةبالساطر ون.وقصتهمع سابور ذيالجنو دمنالأكاسرةمعروفة.

قال:و كانلقضاعةملكآخر فيكلببنوبر ةيتداولونهمعالسكو نمنكندة،فكانتلكلبدو مةالجندلو تبوك،و دخلو افيدينالنصر انية، و جاءالإسلامو الدو لةفيدو مةالجندللاكيدر بنعبدالملكبنالسكونيقالأنهكنديمنذريةالملو كالذينو لاهمالتبابعةعلى كلب،فأ سر هخالدبنالوليدو جاءبهإلى النبي

صلى اللهعليهو سلم،فصالحعلى دو مةو كانفيأو لمنملكهادجانةبنقنافةبنعديبتز هير بنجناب.قال:و بقيتبنو كلبالآنفيخلقعظي معلى خليجالقسطنطينيةمنهممسلمونو منهممتنصرون.اهالكلامفيأنسابقضاعة.

قالابنحزم:و جميعقبائلالعر بر اجعةإلى أبو احدحاشثلاثقبائل:و هي

تنوخو العتقيوغسان.فأماتنوخفقدذكر ناهم،و أماالعتقيفهممنحجر حمير و منحجر منذير عينومنسعدالعشير ةو منكنانةبن خزيمةومنهمز بيدبنالحر ثالعتقيمنحجر حمير وهو مو لى عبدالر حمنبنالقاسم،و خالدبنجنادةالمصر فيصاحبمالكبنأنس،و هو م و لى ز بيدلاحظالشكلالمذكور منأسفل.و أماغسانفإنهممنبنيأبلايدخلبعضهمفيهذاالنسب،و يدخلفيهممنغير هم،و سموا ا لعتقالأنهماجتمعو اليفتكو ابر سو لالله

صلى اللهعليهو سلم،فظفر بهمفأعتقهم،و كانو اجماعةمنبطو نشتىو سمو اتنو خ،لأنالتنوخالاقامة،فتحالفو اعلى الاقامةبمو ضعهمبالشام،و همنبطو نشتى.و أماغسانفإنهمأيضاًطو ائفنز لو اماءيقاللهغسانفنسبو اإليهاهكلامابنحزم.

الخبرعنبطو نكهلانمنالقحطانيةو شعوبهمو اتصالبعضهامعبعضو انقضائها

هؤلاءبنو كهلانبنسبابنيشجببنيعر ببنقحطانإخو ةبنيحمير بنسبا.وتداولو امعهمالملكأو لأمر هم،ثمانفر دبنوحمير به،وبقيتبط و نبنيكهلانتحتملكتهمباليمن.ثملماتقلصملكحمير بقيتالر ياسةعلى العر بالباديةلبنيكهلان،لماكانو ابادينلميأخذتر فالحض ار ةمنهم،و لاأدر كهماالهر مالذيأو دى بحمير.إنماكانو اأحياءناجعةفيالبادية،و الر ؤساءو الأمر اءفيالعر بإنماكانو امنهم.و كانل كندةمنبطونهمملكباليمنو الحجاز .ثمخر جتالأز دمنشعو بهمأيضامناليمنمع

مز يقياو افتر قو ابالشام.و كانلهمملكبالشامفيبنيجفنة،و ملكبشر بفيالاو سو الخز ر ج،و ملكبالعر اقفيبنيفهم.ثمخر جتلخمو طيءمنشعو بهمأيضامناليمن.و كانلهمملكبالحير ةفيآلالمنذر حسبمانذكر ذلككله.

وأماشعوبهمفهيكلهاتسعةمرزيدبنكهلانفيممالكبتريدوعريببتريد.
فمنمالكبطونهمدانوديارهملمتزلباليمنفيشرقيه،وهمبنوأوسلةوهوهمدانبنمالكبتريدبنأوسلةبنربيعةهبنالجباربنمالكبتريدبنوفبنهمدان.ومنشعوبحاشدبنويامبنأصغىبنمانعبنمالكبنجشمبنحاشد،ومنهمطلحةبنمصرف.ولماجاءاللهبالإسلامافترقكثيرمنهمدانفيممالكه،وبقيمنهممنبقيباليمن،وكانواشيعةلعليكرماللهوجههورضيعنهعندماشجربينالصحابةوهوالمنشدفيهممتمثلا.
فلوكنتبواباعلىبابجنةلقلتلهمدانادخلوبسلام
ولميزلالتشيعدينهمألامالإسلامكلها،ومنهمكانعليبنمحمدالصليحيمن
بنييامالقائمبدعوةالعبيديينباليمنفيحصنحرابىمنبنييام،وهومنبطونهم،وهومنبنييامممنبطونحاشد.فاستولىعليهوورثملكهلبنيهحسبمانذكرهفيأخبارهم،وكانتلعدذلكوقبلهدولةبنيالرسىأيامالزيديةبصعدة،فكانتعلىيدهموبمظاهرتهم،ولميزلالتشيعدينهملهذاالعهد.
وقالالبيهقي:وتفرقوافيالإسلامفلمتبقلهمقبيلة،وبريةإلاباليمنوهمأعظمقبائله،وهمعصبةالمعطيمنالزيديةالقائمينبدعوتهباليمن،وملكواجملةمنحصوناليمنباليمن،ولهمبهااقليمبكيلواقليمحاشدمنبطونهم.أ،محالابنسعيد:ومنهمدانبنوالزريعوهمأصحابالدعوة،والملكفيعدنوالحيرة،وهمزيديةوإخوةهمداناهانبنمالكبتريدبنأوسلة،ومنمالكبتريدأيضاًالازدوهوأزدبنالغوثبننبتبنمالك،وخثعموبجيلةابناأنماربنأراشأخيالأزدبنالغوث.
وفديقالأنمارهوابنيزاربنمعدوليسبصحيح.فأماالأزدفبطنعظيممتسخوشعوبكثيرة.فمنهمبنودوسمنبنينصربنالأزد،وهودوسلنعدنان،"بالثاءالمثلثة"ابنعبداللهبترهرانبنكعببنالحرثبنكعببنمالكبننصربنالأزد،
بطنكبير.ومنهمكانجذيمةبنمالكبنفهمبنغنمبندوسديارهمبنواحيعمان.وكانبعددوسجديمةملكبعمانفيإخوانهمبنينصربترهرانبنكعب.كانمنهمقبيلالإسلامالمستكبربنمسعودبنالجراربنعبداللهبنمعولةبنشمسبنعمروبنعمملنغالببنعثمانبرنصربترهران.والديأدركالإسلاممنهمجيفربنالجلنديبنكركربنالمستكبر،وأخوهعبداللهملكعمان.كتبإليهماالنبي
صلىاللهعليهوسلمفأسلموا.واستعملعلىنواحيهماعمروبنالعاص.
ومنالأزدثممنبنيمازنلنالأزدبنوعمرومزيقيابنعامرويلقبماءالسماءبنحارثةالغطريفبنامرىءالقيسالبهلولبنثعلبةبنمازنبنالأزد.وعمروهذاوآباؤهكانواملوكاعلىباديةكهلانباليمنمعحمير،واستفحللهماالملكمنبعدهم،وكانتأرضسبأباليمنلذلكالعهدمنأرفهالبلادوأخصبها،وكانتمدافعللسيوللمنحدرةبينجبلينهنالك،فضرببينهماسدبالصخروالقاريحبسسيوللاعيونالأمطار،حتىيصرفوهمنخروقفيذلكالسدعلىمقدارمايحتاجونإليهفيسقيهم،ومكثكذلكماشاءاللهأيامحمير.فلماتقلصملكهموانحلنظامدولتهم،وتغلبباديةكهلانعلىأرضسبا،وانطلقتعليهاالأيديبالعيثوالفساد،وذهبالحفظةالقائمونبأمرالسدنذرواخرابه.وكانالذينذربهعمرومزيقياملكهملمارأىمناختلالأحواله.ويقالأنأخاهعمرانالكاهنأخبرهويقالطريفةالكاهنة.وقالالسهيلي:طريفةالكاهنةامرأةعمروبنعامر،وهيطريفةبنتالخيرالحميريةلعهده.
وقالابنهشام:عنأبيزيدالأنصاريأنهرأىجرذاًتحفرالسد،فعلمأنهلابقاء

للسدمعذلك،فأجمعالنقلةمناليمن.وكادقومهبأنأمرأصغربنيهأنيلطمهإذاأغلظلهففعل.فقاللاأقيمفيبلديلطمنيفيهاأصغر ولديوعرضأموالهفقالأشرافاليمناغتنمواغضبةعمرو،فاشترواأموالهوانتقلفيولدهوولدولده.فقالالأزدلانتخلفعنعمرو،ف تجشمواللرحلةوباعواأموالهموخرجوامعه.وكانرؤساؤهمفيرحلتهمبنوعمرومزيقياوعنإليهممنبنيمازن،ففصلالأزدمنب لادهمباليمنإلىالحجاز.

قالالسهيلي:كانفصولهمعلىعهدحسانبنتبانأسعدمنملوكالتبابعة،

ولعهدهكانخراباالسد.ولمافصلالأزدمناليمنكانأولترولهمببلادعكمابينزبيدوزمع.وقتلواملكعكمنالأزد،ثمافترقواإلىالب لاد،ونزلبنونصربنالأزد

بالشراةوعمان.ونزلبنوثعلبةبنعمرومزيقيابيثرب.وأقامبنوحارثةبنعمروبمرالظهرانبمكة.وهمفيمايقالخزاعة.ومرواعلى ماءيقالالهغسانبينزبيدوزمع.فكلمنشربمنهمن،بنيمزيقيالسميه.والذينشربوامنهبنومالكوبنوالحرثوبنوجفنةوبنوكعب، فكلهميسمونغسان.وبنوثعلبةالعتقاءلميشربوامنهفلميسموابه.فمنولدجفنةملوكالشامالذينيأتيذكرهم،ودولتهمبالشا م.ومنولدثعلبةالعتقاءالاوسوالخزرجملوكيثربفيالجاهليةوسنذكرهم.ومنبطنعمرومزيقيابنوأفصىبنحارثةبنعمرو.ويقا لأنهأفصىبنعامربنقمعة"بلاشك"بناليابنمضر.قالابنحزم:فإنكانأسلمبنأفصى منهمفمنبنيأسلمبلاشك،وبنوأبانوهو سعدبنعدينحارثةبنعمرو.وبنوالعتيكمنالأزدعمرانبنعمرو.

وأمابجيلةفبلادهمفيسرواتالبحرينوالحجازإلىتبالةوقدافترقواعلىالافاق

أيامالفتح،فلميبقمنهمبمواطنهمإلاالقليل.ويقدمالحاجمنهمعلىمكةفيكلعامعليهمأثرالشظف،ويعرفونمنأهلالموسمبالسر ووأماحالهملأولالفتحالإسلاميفمعروف،ورجالاتهممذكورة.فمنبطونبجيلةقسر،وهومالكبنعبقربنأنمار،وهوأحمسب نالغوثلنأنمار.

وأمابوعريببتريدبنكهلانفمنهمطيءوالأشعريونومذحجوبنومرةوأربعتهمبنوأددبتريدبنيشجببنعريب.فأماالأشعريونف همبنوأشعروهونبتبنأدد،وبلادهمفيناحيةالشمالمتربيد.وكانلهمظهورأولالإسلام،ثمافترقوافيالفتوحات،وكانلمنبقيمنه مباليمنحروبمعابتريادلأولإمارتهعليهاأيامالمأمون،ثمضعفوااعنذلكوصاروافيعددالرعايا.

وأمانبوطيءبنأددفكانواباليمنوخرجوامنهعلىأثرالأزدإلىالحجاز،ونزلواسميراوفيدفيجواربميأسد،ثمكلموهمعلىأجاوس لمىوهماجبلانمنبلادهم،فاستقروابهماوافترقواأولالإسلامفيالفتوحات.قالابنسعيد:ومنهمفيبلادهماآنأممكثيرةملأواال سهلوالجبلحجازاوشاماًوعراقاً،يعنيقبائلطيءهؤلاءوهمأصحابالدولةفيالعربلهذاالعهدفيالعراقوالشاموبمصرمنهمسنبس والثعالببطنانمشهوران.فسنبسبنفغاويةبنشبلبنعمروبنالغوثبنطيءومعهمبحتربنثعل.

قالابنسعيد:ومنهمزبيدبنمعنبنعمرووبنعسبنسلامانبنثغل.وهم

فيبرثةسنجار.والثعالببوثعلبةبنرومانبنجندببنخارجةبنسعدبنقطرةبنطيء،وثعلبةبنجذعابنذهلبنرومان.فالابنسعيد:ومن همبنولامبنثعلبةمنازلهممنالمدينةإلىالجبلين،ويترلونفيأكثرأوقاتهممدينةيثرب.والثعالبالذينبصعيدمصرمنثعلببنعمروبنالغ وثبنطيء.

قالابنحزم،لامبنطريفبنعمروبنثمامةبنمالكبنجدعا،ومنالثعالب

بنو ثعلبةبنذهلبنر و مان . و لجهة بنيامينو الشامبنو صخر ، و منبطونهمغزيةالمر هو بمولتهمبالشامو العر اق . و همبنو غزية بنأفلثبنمع بدبنعمر و بنعسبنسلامانبنثعل . و بنو غزية كثير و نو همفيطر يقالحاجينالعر اقو نجد . و كانتالر ياسةعلى طي ءفيالجاهليةلبنيهنيبنع مر و بنالغوثابنطي ءو همر مليو ن ،و إخو تهمجبليو ن . و منو لدهإياسبنقبيصةالذيأدالبهكسر ى ابر و يز النعمانالمنذر حمنقتلهو أنز لطيابالحيرةمكانلخمقومالنعمان ،و و لى على العر بمنهمإياساًهذا . و هو إياسبنقبيصةبنأبيلمجر بنالنعمانبنحيبينالحر ثبنالحو ي رثبنر بيعة بنمالكبنسعدبنفني ،فكانتلهمالر ياسةإلى حينانقر اضملكالفرس .

و منعقبإياسهذابو ر بيعة بنعلييبنمفر خبنبدر بنسالمبنقصةبن

بدر بنسميع . و منر بيعة شعبآلمر ادو شعبآلفضل . و الفضلشعبانآلعليو آلمهنا .فعليو مهناابنافضل ،و فضلو مر ادابنار بيعة و سميعال ذينينسبو نإليهمنعقباقبيصة بنأبييعفر . و يز عمكثير منجهلةالباديةأنهاالذيجاءتبهالعباسةأختالر شيدمنجعفر بنيحمى ز عماكاذ بالاأصلله . و كانتالر ياسةعلى طي ءأيامالعبيديينلبنيالمفر خ، ثمصار تلبنيمر ادبنر بيعة ، و كلهمو ر ثو اأر ضغسانبالشامو ملكهم على العر ب . ثمصار تالر ياسةلبنيعليو بنيمهناابنيفضلبنر بيعة ،اقتسمو هامدة ،ثمانفر دبهالهذاالعهدبنو مهنا ،الملو كعلى العر بإلى هذاالعهدبمشار فالشامو العر افو بر يةنجد . و كانظهور همالأمر الدولةالأيو بيةو منبعدهممنملو كالتر كبمصر و الشام ،و يأتيذكر هم،واللهو ار ثالأر ضو منعليها .

وأمامذحجو اسمهمالكبتر يدبنأددبتر يدبنكهلان ،و منهممر ادو اسمه

يخابر بنمذحج،و منهمسعدالعشير ةبنمذحجبطنعظيم ،لهمشعو بكحيرة . منهم

جعفر بنسعدالعشير ةوز بيدبنصعببنسعدالعشيرة . و منبطو نمذحجالنخع،و رهاوفسيلةو بنو الحر ثبنكعب .فأماالنخعفهو ج سر بنعمر و بنعلة بنجلدبنمذحج،و مسيلةبنعامر بنعمر و بنعلة، وأمار هافهو ابنمنبهبنحر ببنعلة . و بقيمنمذحجو بر يةينجعو ن عأحياءطي ءفيجملةأيامبنيمهنامعالعر ببالشامز منأحلافهم،و أكثر هممتز بيد .

و أمابنو الحر ثفالحر ثأبو همابنكعببنعلة،و ديار همبنو احينجر انيجاور و نبهاذهلبنمز يقيامنالأز دو بنيحار ثبنكعببنعبداللهبنمالك بننصر بنالأز د، و كاننجر انقبلهملجر هم،و منهمكانملكهاالأفعى الكاهنالذيحكمبينو لدنز ار بنمعدلماتنافر و اإليهبعدموتنز ار ،و اسمهالغلسبنغمر ماءبنهمدانبنمالكبنمنتابيتر يدبنو اثلبنحمير . و كانداعيةلسليمانعليهالسلامبعدأنكانو اليالبلقيسعلى نجر ان ،و بعثتهإلى سليمانفصدقو امن ،و أقامعلى دينهبعدمو ته . ثمتزلنجر انبنو الحر ثبنكعبعلة بنجلدبنمذحجفغلبو اعليهابنيالأفع ى . ثمخر جتالأز دمنالمنفمر و اهمو كانتبينهمحر و ب . و أقامنأقامفيجو ار همصبنينصر بنالأز د،و بنيذهلبنمز يقيا ،و اقتسمو اال رياسة ،فنجر انمعهم. و كانمنبنيالحر ثبنكعبهؤ لا ءالمذحجيينبنو الز يادو اسمهيز يدبنقطنبنز يادبنالحر ثبنمالكبنكعببنالحر ث ،و هم بيتمذحجو ملو كنجر ان . و كانتر ياستهمفيعبدالمدانبنالديان . و انتهتقبيلالبعثةإلى يز يدبنعبدالمدان . و و فدأخو هعبدالحجر بنع بدالمدانعلى النبي

صلى اللهعليهو سلمعلى يدخالدبنالو ليد ، و كانبنأخيهمز يادبنعبداللهبنعبدالمدانخالالسفاحو لاهنجر انو اليمامة .

وقالابنسعيد : و لميز لالملكبنجر انفيبنيعبدالمدان ،ثمفيبنيأبي

الجو ادمنهم، و كانمنهمفيالمائةالسادسةعبدالقيسبنأبيالجو ادثمصار الأمر لهذاالعهدإلى الأعاجم، شأنالنو احيكلهابالمشر ق . ثم منبطو نالحر ثبنكعببنو معقل، وهو ر بيعةبنالحر ثبنكعب . وقديقالإ نالمعقلالذ ينهمبالمغر بالأقصى لهذاالعهدإنماهممنهذاالبطن،

وليسوا منمعقلبنكعبالقضاعيين،ويؤيدهذاأنهؤلاءالمعقلجميعاًينتسبونإلى ربيعة،وربيعةاسممعقلهذاكمارأيتواللهتعالىأعلم.

وأمابنومرةبنأددإخوةطيءومذحجوالأشعريينفهمأبطنكثيرة،وتنتهيكلها

إليالحرثبنمرة،مثلخولانومعافرولخموجذاموعاملةوكندة.فأمامعافرفهمبنويعفربنمالكبنالحرثبنمرة،وافترقوافيالفتوحات،وكانمنهمالمنصوربنأبيعامر صاحبهشامبالأندلس.وأماخولانواسمهأفكلبنعمروبنمالك،وعمروأخويعفر،وبلادهمفيجبالاليمنمنشرقيهوافترقوافيالفتوحات،وليسمعهماليوموبريةإلاباليمن،وهملهذاالعهد.وهمداناأعظمقبائلالعرباليمنولهمالغلبعلىأهلهوالكثيرمنحصونه.وأمالخمواسمهمالكبنعديبنالحرثبنمرةفبطنكبيرمتسعذوشعوبوقبائل،منهمالداربنهانيءبنحبيبنمارةبنلخم،ومنأكبرهمبنونصربنربيعةبنعمروبنالحرثبنمسعودبنمالكبنعممبنانمارةبنلخم،ويقالنمارةوهمرهطآلالمنذر،وحافدهعمروبنعدييننصرهوابنأختجذيمةالوضاحالذيأخذبثأرهمنالزباقاتلته.ووليالملكعلىالعرببلأكاسرةبعدخالهجذيمةوأنزلوهبالحيرةحسبمايأتيالخبرعنملكهوملكبنيه.

ومنشعوببنيلخمهؤلاءثانبنوعبادملوكأشبيليةويأتيذكرهم.وأماجذامواسمهعمروبنعديأخولخمبنعديفبطنمتسعلهشعوبكثيرة،مثلغطفانوأمصىوبنوحرامبنجذاموبنوضبيبوبنومخرمةوبنوبعجةوبنونفاثةوديارهمحواليايلةمنأولأعمالالحجازإلىالينبعمنأطرافيثرب.وكانتلهمرياسةفيمعانوماحولهامنأرضالشاملبنيالنافرةمننفاثة،ثملفروةبنعمروبنالنافرةمنهم،وكانعاملاللرومعلىقومهوعلىمنكانحواليمعانمنالعرب،وهوالذيبعثإلىرسولصلىاللهعليهوسلمبإسلامه،وأهدىلهبغلةبيضاء،وسمعلذلكقيصرفأغرىبهالحارثبنأبيشمرالغسانيملكغسانفأخذهوصلبهبفلسطين.وبقيتهماليومفيمواطنهماالأولىفيشعبينمنشعوبهم،يعرفأحدهمابنوعائد،وهمابينبلبيسمنأعمالمصرإلىعقبةأيلةإلىالكركمنناحيةفلسطين،وتعرفالثانيةبنوعقبةوهممنالكركإلىالأزلمنبريةالحجاز.وضمانالسابلةمابينمصروالمدينةالنبويةإلىحدودغزةمنالشامعليهم.وغزةمنموا طنجرمإحدىبطونقضاعةكمامر.ولأفريقيةلهذاالعهدمنهموبريةكبيرةينتجعونمعذيابينسليمبنواحيطرابلس.

وأماعاملةواسمهالحرثبنعدي،وهمإخوةلخموجذام،وإنماسميالحرث

عاملةبأمهالقضاعية،وهمبطنمتسعومواطنهمبريةالشام.

وأماكندةواسمهثوربنعفيربنعدي،وعفيرأخولخموجذام.وتعرفبكندة

الملوكلأنالملككانلهمعلىباديةالحجازمنبنيعدنانكمانذكر.وبلادهمبجبالاليمنمعايليحضرموتومنهادمونالتيذكرهاامرؤالقيسفيشعره.وبطونهمالعظيمةثلاثة:معاويةبنكندة،ومنهاالملوكبنوالحرثبنمعاويةالأصغربنثوربنمرتعبنمعاويةوالسكونوسكسكوابنهماأشرشبنكندة.ومنالسكونبطنتجيب،وهمبنوعديوبنوسعدبنأشرشبنشبيببنالسكون،وتجيباسمأمهما.

وكانللسكونملكبدومةالجندلوكانعليهاعبدالمغيثبناكيدربنعبد

الملكبنعبدالحيبنأعمىبنمعاويةبةحلاوةبنأمامةبنشكامةبنشبيببنالسكون،بعثإليهرسولالله

صلىاللهعليهوسلمفيغزوةتبوكخالدبنالوليدفجاءبهأسيرا.وحقنصلىاللهعليهوسلمدمهوصالحهعلىالجزيةوردهإلىموضعه.ومنمعاويةبنكندةبنحجربنالحرثالأصغربنمعاويةبنكندة،منهمحجرآكلالمراربنعمروبنمعاوية،وهوحجرأبوالملوكابنكندةالذينيأتيذكرهم.والحرثالولادةأخوحجر،وكانمنعقبهالخارجينباليمنالمسلمينطالباالحق،وكانأباضياوسيأتيذك

ر ه . و منهمالأ شعثبنقيسبنمعديكر ببنماوية ، و جبلة بنعدينر بيعة بنمعاوية بنالحر ثالأ كبر جاهليإ سلامي ، و ابنهمحمدبنالأ شع ثو ابنهعبدالر حمنلنالأ شعثالقائمعلى عبدالملكو الحجاجو هو مشهو ر . و ابنعمهمأيضاابنعديو هو الأذمر بنعدينجبلة لهصحبة يمايقال ، وهو الذيقتلهمعاوية على الثورة بأخيهزياد و خبر همعروف .

هذهقبائلا ليمنمنقحطاناستوفيناذكربطونهموأنسابهم، ونرجعالآنإلى ذكرمنكانالملكمنهمبالشامو الحجاز و العراقحسبم انقصه . و اللهتعالى المعينبكر مهو منلار بغيرهو لا خيرإلا خيره .

خريطة

الخبرعنملوكالحيرة منآلالمنذرمنهذهالطبقة وك -خانساقالملكإليهممنقبلهمو -يفصارإليطيءمنبعدهم

أماأخبار العرببالعراقفياجيلالأولوهمالعربالعاربة فلميصلإليناتفاصيلهاوشرحالها، إلاأنقومعادو العمالقة ملكواالعراق ، و المسندفيبعضالأقوالأنالضحاكبنسنانمنهمكمامر . وأمافيالجيلالثانيو همالعربالمستعربة فلميكنلهمبهمستبد ، و إنماكانملكهمبهبدوياو رياستهمفيأهلالظواعن . وكانملكالعربكمامرفيالتبابعة منأهلاليمن ، وكانتبينهمو بينفارسحروب ، و ربماغلبو همعلى العراقو ملكواأو بعضهكمامر . لكناليمنلميغلبواثانياعلى ماملكوامنه ، وقدمر ايقاعبختنصرو اثخانهفيهمماتقدم .

و كانفيسوادالعراقو أطرافالشامو الجزيرة الأرمانيو نمنبنيإرمبنسام ، و منكانمنبقية عساكرابنتبع ، منجعفرطيءو كلبو تميموغ يرهم ، منجر -و منتز لمڭهمبعدذلكمنتنوخو نمارة بنلخموقنصبنمعدو منإليهم ، `كما `قدمناذكرذلك . وكانمابينالحيرة و الفراتإلى ناحية الأنبارمو طنله -، وكانو ايسمونعرب ٧لضاحية وكاناو لمنملكمنهمفيزمنالطوائف -الكبنفهمبنتيما -لهبنأسدب -و برة لنثعلبة بنحلوانبنقضاعة . وكانمتز لهمماياليالأنباآ .

و -لكمنبعدهأخوهعمر -بنفهم ، ثمملكمنبعدهماجذيمة الأ ٨رشاثنتي

عشرة سنة . وقدتقدمأنهصهر -ما ، وأنمالكبتز هيربنعمر -بنفهمزوجهأخته ، وصارواح -خاءمعالأزدمنقومجذيمة . و نسب جذيمة فيالأزدإلى بنيزهران ، ثمإلى دوسبنعدثانبنعبداللهبتزهران ، وهو جذيمة بنملكبنفهمبرغنمبندوس ، هكذاقالابنالكلبي . و يقال . إنهمنو باربناميمبنلاوذبنسام . وكانبنوزهرانمنالأزدخرجواقبلخروجمزيقيامناليمنو نزلو ابالعراق ، وقيلساروامناليمن معأولادجفنة بنمزيقيا .

فلماتفرقالأزدعلى المواطنتزلبنوزهرانهؤلاءبالشراة وعمان ، وصارلهممعالطوائفملك . وكانمالكبنفهمهذامنملوكهم ، وك انبشاطىءالفراتمنالجانب

الشرقيعمرو بنالظر ببنحسانبنأدينة منولدالسميدعبنهو ثر منبقاياالعمالقة . فكانعمرو بنالظربعلى مشارفالشامو الجزيرة وكا نمتز لهبالمضيقبينالخابورو قرقيسافكانتبينهو بينمالكبنفهمحروبهلكعمرو فيبعضها ، وقامتبملكهمنبعدهابنتهالزباءبنتعمر و و اسمهمانائلة عندالطبريو ميسو نعندابندريد .

قالالسهيلي : ويقالإنالزباءالملكة كانتمنذرية السميدعبنهوثرمنبني

قطورابنأهلمكة ، وهو السميدعبنمرثدبالثاءالمثلثة ، ابنلايبنقطوربنكركيبنعملاقوهيبنتعمرو بنأدينة بنالظربنحسان . و بينح سانهذاو السميدعآباءكثيرة ليستبصحيحة ، لبعدزمنالزباءمتزمنالسميدع ، انتهى كلامالسهيليو لمتزلالحربيينمالكبنفهمو بينالزباءبنتعمرو إلى أنألجأهاإلى أطرافمملكتها . وكانيغيرعلى ملوكالطوائفحتىغلبهمعلى كثيرممافيأيديهم .

قالأبوعبيدة:وهوأولملككانبالعراقمنالعرب،وأولمننصبالمجانيق

وأوقدالشموع،وملكستينسنة.ولماهلكقامبأمرهمنبعدهجذيمةالوضاحويقاللهالأبرش،وكانيكنيبأبيمالكوهومنادمالفرقدين.

قالأبوعبيدة:كانجذيمةبعدعيسى بثلاثينسنة،فملكأزمانالطوائفخمسا

وسبعينسنة،وأيامأردشيركلهاخمسعشرةسنة،وثمانيسنينمنأيامسابور.وكانبينهوبينالزباءسلموحرب.ولمتزلتحاوللاثأرمنهبأبيهاحتىتخيلتعليهوأطمعتهفينفحمها،فخطبهاوأجابته.وأجمعالمسيرإليها،وأبى عليهوزيرهقصيربنسعدفعصاهودخلإليها،ولقيتهباجنود،وأحسبالشر،فنجاقصيرودخلجذيمةإلىقصرهافقطعترواهشهوأجرتدمهإلىأنهلكفيحكايةمقولةفيكتبالإخباريين.

قالالطبري:وكانجذيمةمنأفضلملوكالعربرأياوأبعدهممغاراوأشدهمحزما،وأولمناستجمعلهالملكبأرضالعراق،وسرىبالجيوش.وكانبهبرصفكنواعنهبالوضاحإجلالاله.وكانتمنازلهبينالحيرةوالأنباروهيتونواحيهاوعينالتمروأطرافالبرإلىالعمقوالقطقطانيةوجفنة.وكانتجبىإليهالأموالوتفدإليهالوفود،وغزافيلعضالأيامطسماوجديسافيمنازلهمباليمامة.ووجدحسانبنتبعقدأغارعليهمفانكفأهوراجعابمنمعه،وأتتخيولحسانعلىسراياهفأجاحوها،وكان

أكثرغزوجذيمةللعربالعاربة،وكانقدتكهنوادعىالنبوة.

وكانتمنازلإيادبعينأباغ،سميتباسمرجلمنالعمالقةنزلبها.وكان

جذيمةكثيرامايغزوهمحتىطلبوامسالمته.وكانبينهمغلاممنلخممنبنيأختهموكانوأخوالًالهوهوعديبننصربنربيعةبنعمروبنالحرثبنمسعودبنمالكبنعمروبننمارةبنلخم.وكانلهجمالوضرب،وطلبهمنهمجذيمةفامتنعوامنتسليمهإليه،فألحعليهمالغزو،وبعثإيادمنسرقلهمصنمينكاناعندجذيمةيدعوبهماويستسقيبهما،وعرفوهأنالصنمينعندهم،وأنهميردونهمابشريطةرفعالغزوعنهم،فأجابهمإلىذلكبشريطةأنيبعثوامعالصنمينعديبننصرفكانذلك.

ولماجاءعديبننصراستخلصهلنفسهوولاهشرابه،وهويتهرقاشأخته

فياسلته،فدافعهابالخشيةمنجذيمة،فقالتلهاخطبنيمنهإذاأخذتالخمرمنهواشهدعليهالقومففعل،وأعرسبهامنليلته.وأصبحمضرجأبالخلوق،ورابجذيمةشأنه،ثمأعلمبماكانمنه،فعفىعلى يديهآسفا.وهربعديفلميظهرلهأثر،ثمسألهافيأبياتشعرمعروفة،فأخوتهبماكانمنه،فعرفعذرهاوكف.وأقامعديفيأخوالهإيادإلىأنهلك.وولدترقاشمنهغلاماًوسمتهعمرا،وربيعندخالهجذيمةوكانيستظرفه.ثماستهوتهالجنفغاب،وضربلهجذيمةفيالآفاقإلىأنردهعليهوافدانمنالعتقاثمنقضاعةوهمامالكوعقيلابنافارجبنمالكبنالعنس،أهديالهطرفاومتاعاً،ولقياعمرابطريقهماوقدساءتحاله،وسألاهفأخبرهماباسمهونسبه،فأصلحامنشأنهوجاآبهإلى جذيمةبالحيرة،فربهوسرتأمه.وحكمالرجلينفطلبامنادمتهفأسعفهما،وكانانادمانهحتىضربالمثلبهماوقيلندمانيجذيمة.والقصةمبسوطةفيكتبالإخباريينبأكثرمنهذا.

قالالطبري:وكانملكالعربيأرضالجرةومشارفالشامعمروبنظربين

حسانبنأدينةبنالسميدعبنهوثرالعملاقي،فكانتبينهوبينجذيمةحربقتلفيهاعمروبنالظربوفضت.جموعه.وملكتبعدهبنتهال
زباواسمهانائلة،وجنودهابقاياالعمالقةمنعادالأولى،ومننهدوسليحابنيحلوانومنكانمعهممنقبائلقضاعة،وكانتتسكنعلى
شاطىءالفراتوقدبنتهنالكقصرا،وتربععندبطنالمجازوتصيفبتدمر.
ولمااستحكملهاالملكأجمعتأخذالثأرمنجذيمةبأبيها،لبعثتإليهتوهمه
الخطبةوأنهاامرأةلايطيقبهاالملك،فيجمعملكها،إلىملكهفطمعفيذلكووافقهقومه،وأبىعليهمنهمقصيربنسعدبنعمروبن
جذيمةبنقيسبنأربيبننمارةبنلخم،وكانحازماًناصحاً،وحذرهعاقبةذلك،فعصاهواستشارابنأختهعمروبنعديفوافقه،فاستـ
خلفهعلىقومهوجعلعلىخيولهعمروبنعبدالجن.وسارهوعلىغربيالفراتإلىأنتزلرحبةمالكابنطوق.وأتتهالرسلمنهابالأ
طافوالهدايا،ثماستقبلتهالخيول.فقاللهقصيرإنأحاطتبكالخيولفهوالغدر،فاركبفرسكالعصاوكانتلاتجارى.فأحاطتبهالخيـ
ول.ودخلجذيمةعلىالزبا،فقطعترواهشهفسالدمهحتىنزلومات.
وقدمقصيرعلىعمروبنعديوقداختلفعليهقومه،ومالجماعةمنهمإلى
عمروبنعبدالجنفأصلحأمرهم،حتىانقادواجميعاًلعمروبنعدي.وأشارعليهبطلبالثأرمنالزباءبخالهجذيمة،وكانتالكاهنةقدعـ
رفتهابملكهاوأعطتهاعلاماتعمروفحذرته،وبعثترجالاًمصوراًلصورلهاعمرافيجميعحالاته،فسارإليهمتنكراًواختلطجشـ
مه،وجاءإليهابصورته،فاستثبتتهوتيقنتأنهملكهامنه.واتخذتنفقافيالأرضمنجلهاإلىحصنداخلمدينتها.وعمدعمروإلىقـ
صيرفجدعأنفهبمواطأةمنهعلىذلك،فلحقبالزبايشكوماأصابهمنعمرووأنهاتهمهبمداخلةالزباءفيأمرخالهجذيمة،ومارأيتبـ
عدمافعلبيأنكىلهمنأنأكونمعك،فأكرمتهوقربتهحتىإذارضيمنهامنالوثوقبهأشارعليهابالتجارةفيطرقالعراق،وأمتعتهفأ
عطتهمالاوعيراً.وذهبإلىالعراقولقيعمروبنعديبالحيرة،فجهزهبالطرفوالأمتعةكيمايرضيها.وأتاهابذلكفازدادتبهوثوقاًو
جهزتهبأكثرمنالأولى.
ثمعادالثالثةوحملبغاةالجندمنأصحابعمروفيالغرائرعلىالجمالوعمرو
فيهم،وتقدمفبشرهابالعيروبكثرةماحملإليهامنالطرف،فخرجتتنظرفانكرتمارأتهفيالجمالمنالتكارد.ثمدخلتالعيرالمدينة،فلـ
ماتوسطتانيختوخرجالرجال،وبادرعمروإلىالنفقفوقفعنده،ووضعالرجالسيوفهمفيأهلالبلد،وبادرتالزباإلىالنفقفوجـ
دتعمراقائماًعنده،فلحمها بالسيفوماتت،وأصابماأصابمنالمدينةوانكفأراجعاً.
قالالطبري:وعمروبنعديأولمناتخذالحيرةمنزلامنملوكالعرب،وأول
منتجدهأهلالحيرةفيكتبهممنملوكالعرببالعراقوإليهينسبون،وهمملوكآلنصر.ولميزلعمروبنعديملكاحتىماتوهوابنمائةوعـ
شرينسنة،مستبدامنفرداًيغزوهمويغنم.وتفدعليهالوفود،ولايدينلملوكالطوائفولايدينونله،حتىقدمأردشيربنبابكفيأهلفـ
ارس.
قالالطبري:وإنماذكرنافيهذاالموضعأمرجذيمةوابنأختهعمروبنعدي
لماقدمناهعندذكرملوكاليمن،وأنهملميكنلهمملكمستفحل،وإنماكانواطوائفعلىالمخاليفيغيركلواحدعلىصاحبهإذااسـ
تغفله،ويرجعخوفالطلب.حتىكانعمروبنعدي،فاتصللهولعقبهالملكعلىمنكانبنواحيالعراقوباديةالحجازبالعرب،فاسـ

تعملهملوكفارسعلى ذلكإلى آخرأمرهم. وكانأمرآلنصرهؤلاءومنكانمنولاةالفرسوعمالهمعلى العربمعروفاماعندهمفيكنا ئسهموأشعارهم.

وقالهشامبنالكلبي: كنتاستخرجأخبارالعربوأنسابهموأنساباًآلنصربن

ربيعة، ومبالغأعمارمنوليمنهملآلكسرى، وتاريخنسبهممنكتبهمبالحيرة. وأماابنإسحقفذكرفيآلنصرومصيرهمإلى العراق ،أنذلككانبسببالرؤياالتيرآهاربيعهبننصروعبرهاالكاهنانشقوسطيح. وفيهاأنالحبشةيغلبونعلى ملكهمباليمن. قالفجهز بنيهوأهلبيتهإلى العراقبمايصلحهم، وكتبلهمإلى ملكمنملوكفارس؛يقاللهسابوربنخراذ،فأسكنهمالحيرة. ومنبقيةربيع ةبننصركانالنعمانبنالمنذربنعمروبنعدينربيعةبننصر. رقديقالأنالمنذرمنأعقابساطرونملكالحضرمنتنوخقضاعة. رواهابنإ سحقمنعلماءالكوفة، ورواهعنجبيربنمطعم. قال: لماأتى عمررضياللهعنهبسيفالنعماندعابجبيربنمطعم، وكانأنبقريشلقري شوالعرب، تعلمهمنأبيبكررضياللهعنه، لخمهإياه. ثمقال: ممنكانالنعمانياجبير؟ قال: كانمنأسلافقنصبنمعد.

قالالسهيلي: كانولدقنصبنمعدانتشروابالحجاز،فوقعتبينهموبينبني

أبيهمحرب، وتضايقبالبلاد، وأجدبتالأرضفساروانحوسوادالعراق، وذلكفيأياممملوكالطوائف؛فقاتلهمالأردوانيونوبعض ملوكالطوائف، وأجلوهمعنالسوادوقتلوهم، إلاأشلاءلحقتبقبائلالعربودخلوافيهمفانتسبواإليهم.

قالالطبري: حينسألهعمرعنالنعمانقال: كانتالعربتقولأنأشلاء

قنصبنمعد، وهممنولدعجمبنقنص، إلاأنالناسصحفواعجموجعلوامكانهلخم. قالابنإسحق: وأماسائرالعربفيقولونالنعما نبنالمنذررجلمنلخم، ربيبينولدربيعةبننصراه. ولماهلكعمروبنعديوليبعدهعلى العربوسائرمنبباديةالعراقوالحجازوالجزيرةا مرؤالقيسبنعمروبنعديويقاللهالبدء، وهوأولمنتنصرمنملوكآللصروعمالالفرس، وعاشفيماذكرهشامبنالكلبيمائةوأربعع شرةسنة-

منهاأيامسابورثلاثاوعشرينسنة، وأيامهرمزبنسابورسنةواحدة، وأيامبهرامبنهرمزثلاثسنين، وأيامبهرامبنبهرامثمانيعشر ةسنة. ومنأيامسابورسبعوننسنة.

وهلكلعهدهفوليمكانهابنهعمروبنامرىءالقيسالبدء، فأقامفيملكهثلاثين

سنةبقيةأيامسابوربنسابور. ثموليمكانهأوسبنقلامالعمليقيفيماقالهشامبنمحمد، وهومنبنيعمروبنعملاق. فأقامفيولايته خمسسنين، ثمسارعليهجحجبابنعتيكبنلخمفقتلهووليمكانه. ثمهلكفيعهدبهرامبنسابور، ووليمنبعدهامرؤالقيسبنعمروخم ساوعشرينسنة، وهلكأيامبزدجردالأثيم. فوليمكانهابنهالنعمانبنامرىءالقيس، وأمهشقيقةبنتربيعةبنذهلبنشيبان، وهو صاحبالخورنق.

ويقالإنسببنبنائهإياهأنيزدجردالأثيمدفعإليهابنهبهرامجورليربيه، وأمره

ببناءهذاالخورنقمسكنالهوأسكنهإياه. ويقال: إنالصانعالذيبناهكاناسمهسنمار، وأنهلمافرغمنبنائهألقاهمنأعلاهفمات منأجل محاورةوقعتاختلفالناسفينقلها، واللهأعلمبصحتها. وذهبذلكمثلابينالعربفيقبححالجزاء، ووقعفيأشعارهممنهكثير. وكانالنع مانهذامنأفحلملوكآلنصر، وكانتلهسنانانإحداهماللعربوالأخرى للفرس. وكانيغزوبهمابلادالعرببالشامويدوخها. وأقام فيملكهثلاثينسنة، ثمزهدوتركالملكولبسالمسوح، وذهبفلميوجدلهأثر.

قالالطبري:وأماالعلماءبأخبارالفرسسيقولون:إنالذيتولىتربيةبهرامهوالمنذربنالنعمانبنامرىءالقيس،دفعهإليهيزدجردا
لأثيملاشارةكانتعندهفيهمنالمنجمين،فأحسنتربيتهوتأديبهوجاءهبمنيلقنهالخلالمنالعلوموالآدابوالفروسية
والنقابةحتىاشتملعلىذلككلهبمارضيه.ثمردهإلىأبيهفأقامعندهقليلاولميرضبحاله.ووفدعلىأبيهوافدقيصروهوأخوهقيو
ادسفقصدهبهرامأنيسأللهمنأبيهالرجوعإلىبلادالعرب،فرجعونزلعلىالمنذر،ثمهلكيزدجردفاجتمعأهلفارسوولواعليه
مشخصامنولدأردشير،وعدلواعنبهراملمرباهبينالعربوخلوهعنآدابالعجم.وجهزالمنذرالعساكرلبهراملطلبملكه،وقدما
بنهالنعمانفحاصرمدينةالملك،ثمجاءعلىأثرهبعساكرالعربوبهراممعه،فأذعنلهفارسوأطاعوه،واستوهبالمنذرذنوبهممنبهر
امفعفاعنهمواجتمعأمره.

ورجعالمنذرإلىبلادهوشغلباللهووطمعفيهالملوكحوله،وغزاهخاقانملك
التركفيخمسينألفامنالعساكر.وسارإليهبهرامفانتهىإلىاذربيجانثمإلىأرمينية،ثمذهبيتصيدوخلفأخوهنرسيعلىالعساك
ر،فرماهأهلفارسبالجبنوأهخارعنلقاءالترك،فراسلواخاقانفيالصلحعلىمايرضاهفرجععنهم.وانتهىالخبربذلكإلىبهرامف
سارفياتباعهوليتهفانفضبعسكرهوقتلهبيده.واستولىبهرامعلىمافيالعساكرمنالأثقالوالذراري،وظفربتاجخاقانوأكليله
وسيفهبماكانفيهمنالجواهرواليواقيت،وأسرزوجتهوغلبعلىناحيةمنبلاده،فوليعليهابعضمرازبتهوأذنلهفيالجلوسعلى
سريرالفضة،وأغزىماوراءالنهرفدانواالجزية،والصرفإلىأذربيجانفجعلصيفخاقانوأكليلهمعلقاببيتالنار،وأخدمهخاتو
نامرأةخاقان.ورفعالخراجعنالناسثلاثسنينشكراللهتعالىعلىالنصر،وتصدقبعشرينألفألفدرهممكررةمرتين.وكتبالخبرإ
لىالنواحي.وولىأخاهنرسيعلىخراسان،واستوزرلهبهرنرسيبنبدارةبنفرخزادووصلالطبرينسبهمنهنابعدأربعة،فكانراب
عهمأشكبندارا،وأغرىبهرامأرضالرومفيأربعينألفافانتهىإلىالقسطنطينيةورجع.

قالهشامبنالكلبي:ثمجاءالحرثابنعمروبنحجرالكنديفيجيشعظيم
إلىبلادمعدوالحيرة،وقدولاهتبعبنحسانبنتبع،فسارإليهالنعمانبنامرىءالقيسبنالشقيقةوقاتله،فقتلالنعمانوعدةمنأهلبيته
،وانهزمأصحابه،وأفلتالمنذربنالنعمانالأكبروأمهماءالسماءامرأةمناليمن.وتشتتملكآلالنعمان،وملكالحرثبنعمروماكان
وايملكونه.وقالغيرهشامبنالكلبيإنالنعمان الذي
قتله الحرث هو ابن المنذر بن النعمان، وأمه هند بنت زيد مناة بن زيد الله بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، وهو الذي أسرته فارس.

ملك عشرين سنة منها في أيام فيروز بن يزدجرد عشر سنين، وأيام يلاوش بن يزدجرد أربع سنين، وفي أيام قباذ بن فيروز ست سنين.

قال هشام بن حمد الكلبي: ولما ملك الحرث بن عمرو ملك آل النعمان بعث إليه قباذ
يطلب لقاءه، وكان ضعفا، فجاءه الحرث وصالحه على أن لا يتجاوز بالعرب الفرات.
ثم استضعفه فأطلق العرب للغارة في نواحي السواد وراء الفرات، فسأله اللقاء بابنه، واعتذر إليه أشظاظ العرب وأنه لا يضبطهم إلا المال، فاقطعه جانبا من السواد. فبعث الحرث إلى ملك اليمن تبع يستنهضه بغزو فارس في بلادهم، ويخبره بضعف ملكهم فجمع وسار حتى نزل الحيرة، وبعث ابن أخيه شمرا ذا الجناح إلى قباذ

فقاتله واتبعه إلى الري فقتله. ثم سار شمر إلى خراسان، وبعث تبع ابنه حسان إلى الصغد وأمرهما معا أن يدوخا أرض الصين. وبعث ابن أخيه يعفر إلى الروم فحاصر القسطنطينية حتى أعطوا الطاعة والأتاوة. وتقدم إلى رومه فحاصرها. ثم أصابهم الطاعون ووهنوا له، فوثب عليهم الروم فقتلوهم جميعا.

وتقدم شمر إلى سمرقند فحاصرها واستعمل الحيلة فيها فملكها، ثم سار إلى

الصين وهزم الترك، ووجد أخاه غسان قد سبقه إلى الصين منذ ثلاث سنين، فأقاما هنالك إحدى وضرين سنه إلى أن هلك. قال: والصحيح المتفق عليه أنهما رجعا إلى بلادهما بما غنماه من الأموال والذخائر، وصنوف الجواهر والطيوب. وسار تبع حتى قدم مكة ونزل شعب حجاز، وكانت وفاته باليمن بعد أن ملك مائة وعشرين سنة. ولم يخرج أحد بعده من ملوك المن غازيا. ويقال: إنه دخل في دين اليهود للأحبار الذين خرجوا معه من يثرب.

وأما ابن إسحق فعنده أن الذي سار إلى المشرق من التبابعة تبع الأخير وهو تباد

أسعد أبو كرب. قال هشام بن محمد: وولي أنوشروان بعد الحرث بن عمرو المط ر بن النعمان الذي أفلتت يوم قتل أبوه ونزل الحيرة. وأبوه هو النعمان الأكبر. فلما قوي سلطان أنوشروان واشتد أمره، بعث إلى المنذر فملكه الحيرة وما كان يليه الحرث بن عمرو آكل المرار، فلم يزل كذلك حتى هلك. قال: وملك الرب من قبل الفرس لمجد الأسود بن

المنذر أخوه المنذر بن المنذر، وأمه ماوية بنت النعمان سبع سنين.

ثم ملك بعده النعمان بن الأسود بن المنذر وأمه أم الملك أخت الحرث بن عمرو أربع سنين. ثم استخلف أبو يعفر بر علقمة بر مالك بن عدي بن الذميل بن ثور بن أسد بن أربى بن نماره بن لخم ثلاث سنين. ثم ملك المنذر بن امرىء القيس وهو ذو القرنين، لضفيرتين كانتا له من شعره، وأمه ماء السماء بنت عوف بن جشم بن هلال بن ت بيعة بن زيد مناة بن عامر بن الضبيب بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بى قاسط. فملك تسعا وأربعين سنة. ثم ملك ابنه عمرو بن المنذر وأمه ضد بنت الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار ست عشرة سنة، ولثمان سنين من ملكه كان عام الفيل الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم ولى عمرو بن هند شقيقه قابوس أربع سنين سنة منها أيام أنوشروان وثلاثة أيام ابنه هرمز. ثم ولى بعده أخوهما المنذر أربع سنين. ثم ولى بعده النعمان بن المنذر وهو أبو قابوس اثنين وعشرين سنة، منها ثمان سنين أيام هرمز وأربع عشرة أيام أبرويز. ولي أيام النعمان هذا اضمحل ملك آل نصر بالجزيرة. وبجلى انقرض. وهو الذي قتله كسرى أبوويز وابدل منه في الولاية على الحيرة والعرب باياس بن قبيصة الطائي. ثم رد رياسة الحيرة لمرازبة فارس، إلى أن جاء الإسلام وذهب ملك فارس. وكان الذي دعا أبرويز إلى قتله سعاية زيد بن عدي العبادي فيه عند أبرويز، بسبب أن النعمان قتل أباه عدي بن زيد.

وسياقة الخبر عن ذلك أن عدي لن زيد كان من تراجمة أبرويز وكان سبب قتل النعمان أن أباه وهو زيد بن حماد بن أيوب ابن محروب بن عامر بن قبيصة بن امرىء القيس بن ريد مناة والد عدي هذا كان جميلا شاعراً

خطيباً، وقارئا كتاب العرب والفرس، وكانوا أهل بيت يكونون مع الأكاسرة ويقطعونهم القطائع على أن يترجموا عندهم عن العرب. وكان المنذر بن المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان في حجر عدي فأرضعه أهل بيته، ورباه قوم من أشراف الحيرة ينسبون إلى لخم ويقال لهم بنو مرسي، وكان للمنذر بن المنذر عشرة سوى النعمان يقال لهم الأشاهب لجمالهم، وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيرا، أمه سلمى بنت وائل بن عطية من أهل فدك، كانت أمة للحرث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب بن كلب. وكان قابوس بن المنذر الأكبر عم النعمان بعث إلى أنوشروان بعدي بن زيد وإخوته فكانوا في كتابه يترجمون له.

فلما مات المنذر أوصى على ولده إياس بن قبيصة الطائي وجعل أمره كله بيده،

فأقام على ذلك شهراً. ونظر أنوشروان فيمن يملكه على العرب، وشاور عدي بن زيد واستنصحه في بني المنذر، فقال بقيتهم في بني المنذر بن المنذر، فاستقدمهم كسرى وأنزلهم على عدي. وكان هواه مع النعمان، فجعل يرعى إخوته تفضيلهم عليه، ويقول لهم: إن أشار عليكم كسرى بالملك وبمن يكفوه أمر العرب تكفلوا بشأن ابن أخيكم النعمان، وير للنعمان إن سأله كسرى عن شأن إخوته أن يتكفله ويقول: إن عجزت عنهم فأنا عن سواهم أعجز. وكان مع أخيه الأسود بن المنذر رجل من بني مرسي الذين رثوهم اسمه عدي بن أوس بن مرسي، فنصحه في عدي واعلمه أنه يغشه فلم يقبل. ووقف كسرى على مقالاتهم فمال إلى النعمان وملكه وتوجه بقيمة ستين ألف دينار، ورجع إلى الحيرة ملكاً على العرب وعدي بن أوس في خدمته. وقد أضمر السعاية بعدي بن زيد، فكان يظهر الثناء عليه ويتواصى به مع أصحابه وأن يقولوا مثل قوله، إلا أنه يستصغر النعمان ويزعم أنه ملكه وأنه عامله حتى آسفوه بذلك، وبعث إليه في الزيارة فأتاه وحبسه. ثم فدم وخشي عاقبة إطلاقه، فجعلى يمنيه.

ثم خرج النعمان إلى البحرين وخالفه جفنة ملك غسان إلى الحيرة، وغار عليها

ونال منها. وكان عدي بى زيد كتب إلى أخيه عند كسرى يشعره بطلب الشفاعة من كسرى إلى النعمان، وجاء الشفيع إلى الحيرة وبها خليفة النعمان، وجاء إلى عدي فقال له أعطني الكتاب ابعثه أنا ولازمني أنث ضما لئلا اقتل. وبعث اعداؤه من بني بقيلة إلى النعمان بأن رسول كسرى دخل عنده، فبعث من قتله، فلما وفد وافد كسرى في الشفاعة أظهر له الإجابة وأحسن له بأربعة آلاف دينار وجارية، وأذن له أن يخرجه من محبسه، فوجده قد مات منذ ليال. فجاء إلى النعمان مثرباً. فقال: والله لقد تركته حياً. فقال؛ وكيف تدخل إليه وأنت رسول إلي فطرده فرجع إلى كسرى وأخبره بموته، وطوى عنه ما كان من دخوله إليه.

ثم ندم النعمان على قتله ولقي يوما وهو يتصيد ابنه زيدا فاعتذر إليه من أمر أبيه،

وجهزه إلى كسرى ليكون خليفة أبيه على ترجمة العرب، فاعجب به كسرى وقربه، وكان أسيراً عنده. ثم أن كسرى أراد خطبة بنات العرب، فأشار عليه عدي بالخطبة في بني

منذر فقال له كسرى: اذهب إليهم في ذلك، فقال: إنهم لا ينكحون العجم، ويستريبون في ذلك، فابعث معي من يفقه العربية فلعلي آتيك بغرضك. فلما جاء إلى النعمان قال لزيد: إما في عير السواد وفارس ما يغنيكم عن بناتنا؟ وسأل الرسول عن العير فقال له زيد: هي البقر. ثم رجعا إلى كسرى بالخيبة.

وأغراه زيد فغضب كسرى وحقدها على النعمان. ثم استقدمه بعد حين لبعض حاجاته، وقال له: لا بد من المشافهة لأن الكتاب لا يسعها، ففطن فذهب إلى طيء وغيرهم من قبائل الحرب ليمنعوه، فأبوا وفرقوا من معاداة كسرى إلا بني رواحة بن سعد من بني عبس، فإنهم أجابوه لو كانوا يغنون عنه، فعذرهم وانصرف عنهم إلى بني شيبان بذي قار، والرياسة فيهم لهانىء بن مسعود بن عامر بن الخطيب بن عمرو المزدلف ابن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، ولقيس بن خالد بن ذي الخدين وعلم أن هانئا يمنعه وكان كسرى قد أقطعه. لرجع إليه النعمان ماله وتعمه وحلقته وهي سلاح ألف فارس شاكه.

وسار إلى كسرى فلقيه زيد بن عدي بساباط، وتبين الغدر فلما بلغ إلى كسرى قيده وأودعه السجن إلى أن هلك فيه بالطاعون، ودعا ذلك إلى واقعة ذي قار بين العرب وفارس. وذلك أن كسرى لما قتل النعمان استعمل اياس بن قبيصة الطائي على الحيرة مكان النعمان، ليده التي أسلفها طيء عند كسرى يوم واقعة بهرام على ابرويز، وطلب من النعمان فرسه ينجو عليها فأبى. واعترضه حسان بن حنظلة بن جنة الطائي وهو ابن عم اياس بن قبيصة، فأركبه فرسه ونجا عليه. ومر في طريقه بإياس فأهدى له فرساً وجزوراً. فرعى له أبرويز هذه الوسائل وقدم إياساً مكان النعمان، وهو إياس بن قبيصة بن أبي عفر بن النعمان بن جنة.

فلما هلك النعمان بعث إياس إلى هانىء بن مسعود في حلقة النعمان، ويقال

كانت أربعمائة درع، وقيل ثمانمائة، فمنعها هانىء وغضب كسرى وأراد استئصال بكر بن وائل، وأشار عليه النعمان بن زرعة من بني تغلب أن يمهل إلى فصل القيظ، عند ورودهم هم مياه ذي قار. فلما قاظوا ونزلوا تلك المياه، جاءهم النعمان بن زرعه يخيريهم في الحرب أو إعطاء اليد، فاختاروا الحرب. اختاره حنظلة بن سنان العجلي، وكانوا قد ولوه أمرهم، وقال لهم إنما هو الموت قتلاً إن أعطيتم باليد، أو عطشاً إن هربتم. وربما لقيكم بنو تميم فقتلوكم.

ثم بعث كسرى إلى إياس بن قبيصة أن يسير إلى حربهم ويأخذ معه مسالح فارس،

وهم الجند الذين كانوا معه بالقطقطانية وبارق وتغلب، وبعث إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الخدين، وكان على طف شقران أن يوافي اياساً، فجاءت الفرس معها الجنود والأفيال عليها الأساورة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة، فقال اليوم انتصف العرب من العجم ونصروا. وحفظ ذلك اليوم فإذا هو يوم الوقعة. ولما تواقف الفريقان جاء قيس بن مسعود إلى هانىء وأشار عليه أن يفرق سلاح النعمان على أصحابه ففعل. واختلف هانىء بن مسعود وحنظلة بن ثعلبة بن سنان، فأشارهانىء بركوب الفلاة، وقطع حنظلة حزم الرجال وضرب على نفسه وآلى أن لا يفر، ثم استقوا الماء لنصف شهر واقتتلوا، وهرب العجم من العطش واتبعهم بكر بن وعجل، فاصطف العجم وقاتلوا وصبروا، وراسلت إياد بكر بن

وائل: إنا نفر عند اللقاء، فصحبوهم واشتد القتال وقطعوا الامال حتى سقطت الرجال إلى الأرض، ثم حملوا عليهم. واعترضهم يزيد بن حماد السكوني في قومه كان كمينا أمامهم، فشدوا على إياس بن قبيصة ومن معه من العرب، فوك إياد منهزمة. وانهزمت الفرس وجاوزوا الماء في حر الظهيرة في يوم قائظ، فهلكوا أجمعين قتلا وعطشا.

وأقام إياس في ولاية الحيرة مكان النعمان ومعه الهمرجان من مرازبة فارس تسع

سنين- وفي الثامنة منها كانت البعثة. وولي بعده على الحيرة أخر من المرازبة اسمه زاذويه بن ماهان الهمداني سبع عشرة سنة إلى أيام بوران بنت كسرى. ثم ولي المنذر بن النعمان بن المنذر، وتسميه العرب الغرور، الذي قتل بالبحرين يوم أجداث. ولما زحف المسلمون إلى العراق ونزل خالد بن الوليد الحيرة، حاصرهم بقصورها، فلما أشرفوا على الهلكة خرج إليهم إياس بن قبيصة في أشراف أهل الحيرة، واتقى من خالد والمسلمين بالجزية فقبلوا منه، وصالحهم على مائة وستبن ألف درهم. وكتب لهم خالد بالعهد والأمان، وكانت أول جزية بالعراق.

وكان فيهم هانىء بن قبيصة أخوإياس بن قبيصة بالقصر الأبيض، وعدي بن عدي العبادي بن عبد القيس، وزيد بن عدي بقصر العدسيين وأهل نصر بني عدس من تصور الحيرة، وهو بنو عوان بن عبد المسيح بن كلب بن وبرة، وأهل قصر بني بقيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين فقالوا: يا حارث ما أنت إلا بقيلة خضراء، وعبد

المسيح هذا هو المعمر وهو الذي بعثه كسرى أبرويز إلى سطيح في شأن رؤيا المرزبان. ولما صالح إياس بن قبيصة المسلمين وعقد لهم الحزية سخطت عليه الأكاسرة وعزلوه. فكان ملكه تسع سنين ولسنة منها وثمانية أشهر كانت البعوث، وولي حينئذ الخلافة عمر بن الخطاب. وعقد لسعد بن أبي وقاص على حرب فارس. فكان أول عمل يزدجرد أن أمص مرزبان الحيرة أن يبعث قابوس بن قابوس بن المنذر، وأغراه بالعرب ووعده بملك آبائه. وقال له ادع العرب وأنت على من أجابك كما كان آباؤك. فنهض قابوس إلى القادسية ونزلها، وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان للنعمان، فكاتبهم مقاربة ووعدا. وانتهى الخبر إلى المثنى بر حارثة الشيباني عقب مهلك أخيه المثنى وقبل وصول سعد، فأسرى من ذي قار، وبيت قابوس بالقادسية، ففض جمعه وقتله. وكان اخر من بقي من ملوك آل نصر بن ربيعة وانقرض أمرهم مع زوال ملك فارس اه كلام الطبري وما نقله عن هشام بن الكلبي.

وقد كان المغيرة بن شعبة تزوج هندا بنت النعمان، وسعد بن أبي وقاص تزوج

صدقة بنت النعمان، ونجرهما معروف ذكره المسعودي وغيره. وعدة ملوك آل نصر عند هشام بن الكلبي عشرون ملكاً، ومدتهم خمسمائة وعشرون سنة. وعند المسعودي ثلاث وعشرون ملكا ومدتهم ستمائة وعشرون سنة. قال: وقد قيل أن مدة عمران الحيرة إلى أن خربت عد بناء الكوفة خمسمائة سنة. قال: ولم يزل عمرانها يتناقص إلى أيام المعتضد، ثم أقفرت. وفيما نقله بعض الإخباريين أن خالداً بن الوليد قال لعبد

المسيح: أخبرني بما رأيت من الأيام؟ قال نعم ! قال: رأيت المرأة من الحيرة تضع محتلها على رأسها، ثم تخرج حتى تأتي الشام في قرى متصلة وبساتين ملتفة، وقد أصبحت اليوم خرابا والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

هذا ترتيب الملك من ولد نصر بن ربيعة بن كعب بن عمرو بن عدي الأول منهم،

وهو الترتيب الذي ذكره الطبري عن ابن الكلبي وغيره، وبين الناس فيه خلاف في ترتيب ملوكهم، بعد اتفاقهم على أن الذي ملك بعد عمرو بن عدي ابنه امرؤ القيس، ثم ابنه عمرو بن امرىء القيس وهو الثالث منهم. قال علي بن عبد العزيز الجرجاني في أنسابه بعد ذكر عمرو هذا: ثم ثار أوس بن قلام العملقي وملك، فثار به جحجب بن عتيك اللخمي فقتله وملك. ثم ملك من بعده امرؤ القيس البدء بن عمرو الثالث، ثم ملك من

بعده ابنه النعمان الأكبر ابن امرىء القيس بن الشقيقة، وهو الذي ترك الملك وساح، ثم ملك من بعده ابنه المنذر، ثم ابنه الأسود بى المنذر، ثم أخوه المنذر بن المنذر، ثم النعمان بن الأسود بن المنذر، ثم أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن الذميل بن ثور بن أسنش بن زبى بن نمارة بن لخم.

ثم ملك من بعده امرؤ القيس بن النعمان الأكبر، ثم ابنه امرؤ القيس. ثم كان أمر

الحرث بن عدي الكندي حتى تصالحا وتزوج المنذر بنته هندا، فولدت له عمرا. ثم ملك بعد المنذر عمرو بن هند، ثم قابوس بن المنذر أخوه، ثم المنذر بن المنذر أخوه الآخر، ثم ابنه النعمان بن المنذر. وهكذا نسبه الجرجاني وهو موافق لترتيب الطبري إلا في الحرث بن عمرو الكندي، فإن الطبري جعله بعد النعمان الأكبر بن امرىء القيس وابنه المنذر، والجرجاني جعله بعد المنذر بن امرىء القيس بن النعمان. وبين هذا المنذر والمنذر بن النعمان الأكبر خمسة من ملوكهم فيهم أبو يعفر بن الذميل. فالله أعلم بالصحيح من ذلك.

وأما المسعودي فخالف ترتيبهم فقال: بعد النعمان الأكبر بن امرىء القيس، وسماه

قائد الفرس ملك خمسا وستين سنة. ثم ملك ابنه المنذر خمسا وعشرين سنة، وهذا مثل ترتيب الطبري والجرجاني. ثم خالفهما وقال: وملك النعمان بن المنذر الحيرة وهو الذي بنى الخورنق خمسا وثلاثين سنة، وملك الأسود بن النعمان عشرين سنة، وملك ابنه المنذر أربعين سنة، وأمه ماء السماء من النمر بن قاسط من ربيعة وبها عرف، وملك ابنه عمرو بن المنذر أربعا وعشرين سنة. ثم ملك بعده أخوه النعمان، وأمه مامة، وقتله كسرى وهو آخرهم. هكذا ساق المسعودي لق ملوكهم ونسبهم، وهو مخالف لما ذكره الطبري والجرجاني.

وقال السهيلي: كان للمنذر بن ما السماء من الولد المملكين عمرو والنعمان،

وكان عمرو لهند بنت الحرث آكل المرار. قال: وكان عمرو هذا من أعاظم ملوك الحيرة، ويعرف بمحرق لأنه حرق مدينة الملهم عند اليمامة. وكان يملك من قبل كسرى أنوشران. ومن بعده ملك أخوه النعمان بن المنذر،

وأمه مامة، وقتله كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان، لموجدة وجدها بسعاية زيد بن عدي بن زيد العبادي. وساق قصه مقتله وولاية اياس بن قبيصة الطائي من بعده، وما وقع بعد ذلك من حرب ذي قار، وغلب العرب فيها على العجم إلى آخرها. فالله أعلم بالصحيح في ترتيب ملوكهم.

وقال ابن سعيد: أول حديثهم في الملك أن بني نمارة كانوا جنداً للعمالقة بأطراف الشام والجزيرة، وكانوا مع الزباء. ولما قتلت جذيمة قام عمرو بن عدي منهم بثأره، وكان ابن أخته حتى أدركه وقتلها وبنى الحيره على فرع من الفرات في أرض العراق.

وقال صاحب تواريخ الأمم: ملك مائة وثمانية وعشرين سنة أيام ملوك الطوائف، وبعده امرؤ القيس بن عمرو، ولما مات ولى أردشير بن سابور على الحيرة أوس بن قلام من العمالقة ثم كان ملك الحيرة فوليها امرؤ القيس بن عمرو بن امرىء القيس المعروف بمحرقي. قال: وهو المذكور في قصيدة الأسود بن يعفر التي على روي الدال. وبعده ابنه النعمان بن شقيقة وهي من بني شيبان، وجعل معه كسرى واليا للفرس وهو باني الخورنق والسدير على مياه الفرات. وملك إلى أن ساح، ونزهد ثلاثين سنة. وذكره عدي بن زيد في شعره.

وملك بعده ابنه المنذر، وهو الذي سعى لبهرام جور في الملك حتى لم له. وملك أربعاً وأربعين سنة، وملك بعده ابنه الأسود، ثم أخوه المنذر بن المنذر، ثم النعمان بن الأسود. وكضب عليه كسرى وولى مكانه الذميل بن لخم من غير بيت الملك. ثم عاد الملك إليهم فولي امرؤ القيس بن النعمان الأكبر وهو ابن الشقيقة، وهو الذي غزا بكر بن وائل. وملك بعده ابنه المنذر بن ماء السماء، وهي أمه أخت كليب سيد وائل. وطالبه قباذ باتباع مزدك على الزندقة فأبى، وولى مكانه الحرث بن عمرو بن حجر الكندي، ثم رده أنوشروان إلى ملك الحيرة. وقتله الحرث الأعرج الغساني يوم حليمة كما يأتي .

وملك بعده ابنه عمرو بن هند، وهي مامة عمة امرىء القيس بن حجر المعروف بمضرط الحجارة لشدة بأسه. وهو محرق الثاني. حرق بني دارم من تميم لأنهم قتلوا أخاه، وحلف ليحرقن منهم مائة، فحرقهم وملك ستة عشر سنة أيام أنوشروان. فتك به في رواق بين الحيرة والفرات عمرو بن كلثوم سيد تغلب ونهبوا حياءه. وملك بعده أخوه قابوس بن هند وكان أعرج، وقتله بعض بني يشكر، فولى أنوشروان على الحيرة بعض مرازبة الفرس، فلم تستقم له طاعة العرب. فولى عليهم المنذر بن المنذر بن ماء

خريطة

السماء، فخرج إلى جهة الشام طالبا ثار أبيه من الحرث الأعرج الغساني، فقتله الحرث أيضا يوم أباغ.

وملك بعده ابنه النعمان بن المنذر، وكان ذميما أشقر أبرش، وهو أشهر ملوك الحيرة، وعليه كثرت وفود العرب، وطلبه بثأر أبيه. وحرد من بني جفنة حتى أسر خلقا كثيرا من أشرافهم، وحمله عدي بن زيد على أن تنصر وترك دين آبائه. وحبس عديا فشفع كسرى فيه بسعاية اخ له كان عنده، فقتله العمان في محبسه. ثم نشأ ابنه زيد بن عدي وصار ترجماناً لكسرى، فأغراه بالنعمان وحضر مع كسرى أبرويز في وقعة بين الفرس

والروم، وانهزمت الفرس ونجا النعمان على فرسه التخوم بعد أن طلبه منه كرى ينجو عليه فاعرض عنه. ونزل له إياس بن قبيصة الطائي عن فرسه فنجا عليه، ووفد عليه النعمان بعد ذلك فقتله، وولى على الحيرة إياس بن قبيصة، فلم تستقم له طاعة العرب وغضبوا لقتل النعمان، وكان لهم على الفرس يوم ذي قار سنة ثلاث من البعثة. ومات إياس وصارت الفرس يولون على الحجرة منهم إلى أن ملكها المسلمون.

وذكر البيهقي أن دين بني نصر كان عبادة الأوثان، وأول من تنصر منهم النعمان بن الشقيقة وقيل بل النعمان الأخير. وملكت العرب بتلك الجهات ابنه المنذر، فقتله جيش أبي بكر رضي الله عنه، وفي تواريخ الأمم أن جميع ملوك الحيرة من بني نصر وغيرهم خمسة وعشرون ملكاً في نحو ستمائة سنة والله أعلم. وهذا الترتيب مساو لترتيب الطبري والجرجاني، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ملوك كندة

الخبر عن ملوك كندة من هذه الطبقة ومبد أ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قال الطبري عن هشام بن محمد الكلبي: كان يخدم ملوك حمير أبناء الأشراف من

حمير وغيرهم. وكان ممن يخدم حسان بن تبع عمرو بن حجر سيد كندة لوقته. وأبو حجر هو الذي تسميه العرب آكل المرار، وهو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحرث الأصغر ابن معاوية بن الحرث الأكبر ابن معاوية بن كندة. وكان أخا حسان بن تبع أمه. فلما دوخ حسان بلاد العرب، وسار في الحجاز وهم بالانصراف، ولى على معد بن عدنان كلها أخاه حجر بن عمرو هذا، وهو آكل المرار. فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة. ثم هلك وملك من بحده ابنه عمرو المقصور.

قال الطبري عن هام: ولما سار حسان إلى جديس خلفه على بعض أمور ملكه

في حمير، فلما قتل حسان وولي بعده أخوه عمرو بن تجع، وكان ذا رأي ونبل، فأراد أن بكرم عمرو بن حجر بما نقصه من ابن أخيه حسان، فزوجه بنت أخيه حسان لن تبع. وتكلمت حمير في ذلك، وكان عندهم من الأحداث التي ابتلوا بها أن لا يتزوج في ذلك البيت أحد من العرب سواهم. فولدت بنت حان لعمرو بن حجر، الحرث بن عمرو. وملك بعد عمرو بن تبع عبد بن متون أصغر أولاد حسان. واستهوت الجن منهم تبع بن حسان، فولوا عبد كلال مخافة أن يطمع في ملكهم أحد من بيت الملك. فولي عبد كلال لسرو رحمه، وكان على دين النصرانية الأولى، وكان ذلك يسوء قومه. ودعا إليه رجل من كسان قدم عليه من الشام. ووثب حمير بالغساني فقتلوه.

ثم رجع تبع بن حان من استهواء الجن، وهو أعلم الناس بنجم، وأعقل من يعلم

في زمانه، وأكثرهم حديثا عما كان ويكون. فملك على حمير، وهابته حمير والعرب، وبعث بابن اخته الحرث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم، إلى بلاد معد والحيرة وما والاها، فسار إلى النعمان بن امرىء القيس بن الشقيقة فقاتله، فقتل النعمان وعدة من أهل بيته وهزم أصحابه. وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر،

وأمه ماء السماء امرأة من النمر بن قاسط، وذهب ملك آل النعمان، وملك الحرث بن عمرو وما كانوا يملكون.

وفي كتاب الأغاني قال: لما ملك قباذ وكان ضعيف الملك توثبت العرب على

المنذر الأكبر ابن ماء السماء، وهو ذو القرنين بن النعمان بن الشقيقة فأخرجوه. وإنما سمي ذا القرنين لذؤابتين كانتا له، فخرج هاربا منهم حتى مات في إياد. وترك ابنه المنذر الأصغر فيهم، وكان أنكى ولده وجاءوا بالحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار فملكوه على بكر، وحشدوا له وقاتلوا معه، وظهر على من قاتله من العرب. وأبى قباذ أن لمد المنذر بجيش. فلما رأى ذلك كتب إلى الحرث بن عمرو: إلي في غير قومى وأنت أحق من ضمني وأنا متحول إليك فحوله وزوجه ابنته هندا.

وقال غير هشام بن محمد: إن الحرث بن عمرو لما ولي على العرب بعد أبيه

اشتدت وطأته وعظم باسه، ونازع ملوك الحيرة، وعليهم يومئذ المنذر بن امرىء القيس، وبىن لهم إذ ولي كسرى قباذ بعد أبيه فيروز بن يزدجرد، وكان زنديقا على رأي مانى.

فدعا المنذر إلى رأيه فأبى عليه، وأجابه الحرث بن عمرو فملكه على العرب وأنزله بالحيرة. ثم هلك قباذ وولي ابنه أنوشروان، فرد ملك الحيرة إلى المنذر، وصالحه الحرث على أن له ما وراء نهر السواد، فاقتسما ملك العرب. وفرق الحرث ولده في معا فملك حجرا على بني أسد، وشرحبيل على بني سعد، والرباب وسلمة على بكر وتغلب، ومعديكرب على قيس وكنانة. ويقال بل كان سلمة على حنظلة ولغلب، وشرحبيل على سعد والرباب وبكر. وكان قيس بن الحرث سيارة، أي قوم نزل بهم فهو ملكهم.

وفي كتاب الأغاني ة إنه ملك ابنه شرحبيل على بكر وائل، وحنظلة على بني أسد وطوائف من بني عمرو بن تميم، والرباب وغلفا وهو معديكرب على قيس، وسلمة بن الحرث على بني تغلب، والنمر بن قاسط والنمر بن زيد مناة اه كلام الأغاني.

فأما شرحبيل فإنه فسد ما بينه وين أخيه سلمة، واقتتلوا بالكلاب ما ين البصرة

والكوفة على سبح من اليمامة، وعلى تغلب السفاح وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير ابن تميم بن اسامة بن مالك بن بكر بن حبب. وسبق إلى الكلاب سفيان بن مجاشع بن دارم من أصحاب سلمة فى تغلب مع إخوته لأمه. ثم ورد سلمة وأصحابه فاقتتلوا عامة يومهم، وخذلت بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب بكر بن وائل، وانصرفت بنو سعد واتباعها عن تغلب، وصبر بنو بكر وتغلب ليس معهم غيرهم إلى الليل. ونادى منادي سلمة في ذلك اليوم من يقتل شرحبيل ولقاتله مائة من الإبل، فقتلى شرحبيل في ذلك اليوم قتله عصيم بن النعمان بن مالك بن غياث بن سعد بن زهير بن بكر بن حبيب التغلبي. وبلغ الخبر إلى أخيه معديكرب، فاشتد جزعه وحزنه على أخيه، وزاد ذلك حتى اعتراه منه وسواس هلك به. وكان معتزلاً عن الحرث، ومنع بنو سعد بن زيد مناة عيال شرحبيل وبعثوا بهم إلى قومهم، فعل ذلك عوف بن شحنة بن الحرث بن عطارد بن عوف بن سعد بن كعب.

وأما سلمه فإنه فلج فمات. وأما حجر بن الحرب فلم يزل أميرا على بني أسد إلى
أن بعث رسله في بعض الأيام لطلب الأتاوة من بني أسد فمنعوها وضربوا الرسل. وكان حجر بتهامة فبلغه الخبر، فسار إليهم في ربيعة وقيس وكنانة فاستباحهم وقتل أشرافهم وسرواقم، وحبس عبيدا بن الأبرص في جمع منهم، فاستعطفه بشعر بعث به إليه
فسرحه وأصحابه وأوفدهم، فلا بلغوا إليه هجموا عليه ببيته فقتلوه. وتولى قتله علباء بن الحرث الكاهلي، كان حجر قتل أباه. وبلع الخبر امرأ القيس، فحلف أن لا يقرب لذة حتى يدرك بثأره من بني أسد. وسار صريخا إلى بني بكر وتغلب فنصروه، وأقبل بهم فأجفل بنو أسد. وسار إلى المنذر لن امرىء القيس ملك الحيرة، وأوقع امرؤ القيس في كنانة فاثخن ليهم. ثم سار في اتباع بني أسد إلى أن أعيا و لم يظفر منهم بشيء، ورجعت عنه بكر وتغلب. فثار إلى مؤثر الخير بن ذي جدن من ملوك حمير صريخاً بنصره بخمسمائة رجل من حمير بجمع من العرب سواهم. وجمع المنذرلامرىء القيس ومن معه، وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة والتقوا، فانهزم امرؤ القيس، وفرت حمير ومن كان معه ونجا بدمه. وما زال يتنقل في القبائل والمنذر في طلبه. وسار إلى قيصر صريخاً فأمده، ثم سعى به الطماح عند قيصر أنه يشبب ببنته، فبعث إليه بحلة مسمومة كان فيها هلاكه ودفن بأنقرة.
قال الجرجاني: ولا يعلم لكندة بعد هؤلاء ملوك اجتمع لهم أمرها وأطيع فيها،
سوى أنهم قد كان لهم رياسة ونباهة، وفمهم سؤدد، حتى كانت العرب تعميهم كندة الملوك. وكانت الرياسة يوم جبلة على العساكر لهم. فكان حسان بن عمرو بن الجور على تميم، ومعاوية بن شرحبيل بن حصن على بني عامر. والجور هو معاوية بن حجر آكل المرار أخو الملك المقصور عمرو بن حجر. والله وارث الأرض ومن عليها.
وفي كتاب الأغاني: أن امرأ القيس لما سار إلى الشام نزل على السموأل بن عاديا
بالابلق بعد ايقاعه ببني كنانة على أنهم بنو أسد، وتفرق عنه أصحابه كراهة لفعله، واحتاج إلى الهرب، فطلبه المنذر بن ماء السماء وبعث في طلبه جموعا من إياد وبهرا وتنوخ، وجيوشا من الأساورة أمده بهم أنوشروان، وخذلته حمير وتفرقوا عنه. فالتجأ إلى السموأل ومعه أدراع خمسة مسماة كانت لشي آكل المرار يتوارثونها، ومعه بنته هند وابن عمه يزيد بن الحرث بن معاوية بن الحرث ومال وسلاح كان بقي معه، والربيع بن ضبع بن نزارة. وأشار عليه الربيع بمدح السموأل فمدحه ونزل به، فضرب لابنته قبة وأنزل القوم في مجلس له براح فمكثوا ما شاء الله. ولسأله امرؤ القيس أن يكتب له إلى الحرث بن أبي شمر يوصله إلى قيصر، ففعل
واستصحب رجلاً يدله على الطريق، وأودع ابنته وماله وادراعه السموأل. وخلف ابن عمه يزيد بن الحرث مع ابنته هند، ونزل
الحرث بن ظالم غازيا على الأبلق. ويقال الحرث بن أبي شمر، ويقال ابن المنذر. وبعث الحرث بن ظالم ابنه يتصيد ويهدده بقتله، فأبى من اخفار ذمته وقتل ابنه فضرب به المثل في الوفاء بذلك.

وأما نسب السموأل فقال ابن خليفة عن محمد بن سالم البيكندي عن الطوسي عن
ابن حبيب: إنه السموأل بن عريض بن عاديا بن حيا، ويقال إن الناس يدرجون عريضاً في النسب، ونسبه عمرو بن شبة ولم يذكر عريضاً. وقال عبد الله بن سعد عن دارم بن عقال: من ولد السموأل بن عاديا بن رفاعة بن ثعلبة بن كعب بن عمرو بن عامر مزيقيا، وهذا عند محال. لأن الأعشى أدرك سريح بن السموأل وأدرك الإسلام، وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة. وقد قيل إن أمه من غسان، وكلهم قالوا هو صاحب الحصن المعروف بالأبلق يتيما المشهور بالزباء، وقيل من ولد الكوهن بن هارون. وكان هذا الحصن لجده عاديا، واحتفر فيه ارويه عذبة، وتنزل به العرب فتصيبها وتمتار من حصنه وتقيم هنالك سوقا اه كلام الأغاني.
وقال ابن سعيد: كندة لقب لثور بن عفير بن الحرث بن مرة بن أدد بن يشجب بن
عبيد الله بن زيد بن كهلان، وبلادهم في شرقي اليمن. ومدينة ملكهم دمون. وتوالى الملك منهم في بني معاوية بن عترة. وكان التبابعة يصاهرونهم ويولونهم على بني معد بن عدنان بالحجاز. فأولا من ولي منهم حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية الأكبر، ولاه تبع بن كرب الذي كسا الكعبة. وولى بعده ابنه عمرو بن حجر، ثم ابنه الحرث المقصور، وهو الذي أبى أن يتزندق مع قباذ ملك الفرس، فقتل في بني كلب ونهب ماله، وكان قد ولى أولاده على بني معد فقتل أكثرهم، وكان على بني أسد منهم حجر بن الحرث، فجار عليهم فقتلوه، وتجرد للطلب بثأره ابنه امرؤ القيس. وسار إلي قيصر فأغراه به الطماح الاسدي. وقال: إنه يتغزل ببنات الملوك، فألبسه حلة مسمومة تقطع بها.
وقال صاحب التواريخ: إن الملك انتقل بعدهم إلى بني جبلة بن عدي بن
ربيعة بن معاوية الأكرمين، واشتهر منهم قيس بن معديكرب بن جبلة، ومنهم الأعشى وابنته العمردة من مردة الإنس، ولها في قتال الملمين أخبار في الردة. وأسلم أخوها الاشعث ثم ارتد بعد الوفاة، واعتصم بالحبر ففتحه جيش أبي بكر رضي الله عنه وجيء به
خريطة
إليه أسيرا، فمن عليه وزوجه أخته، وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون في الدولة الأموية.
ومن بطون كندة السكون والسكاسك. وللسكاسك مجالات شرقي اليمن متميزة
وهم معروفون بالسحر والكهانة. ومنهم تجب بطن كبير كان منهم بالأندلس بنو صمادح، وبنو ذي النون وبنو الأفطس من ملوك الطوائف. والله تعالى وارث الأرض، ومن عليها وهو خير الوارثين لا رب غيره.
ملوك غسان
الخبر عن أبناء جفنة ملوك غسان بالشام من هذه الطبقة وأوليتهم ودولهم وكيف انساق الملك إليه ممن قبلهم أول ملك كان للعرب بالشام فيما علمناه للعمالقة ثم لبني إرم بن سام، ويعرفون بالأرمانيين. وقد ذكرنا خلاف الناس في العمالقة الذين كانوا بالشام، هل هم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام، أو من ولد عماليق بن

أليفاز بن عيصو. وأن المشهور المتعارف أنهم من عمليق بن لاوذ. كان بنو إرم يومئذ بادية في نواحي الشام والعراق، وقد ذكروا في التوراة، وكان لهم مع ملوك الطوائف حروب كما تقدمت الاشارة إلى ذلك كله من قبل. وكان آخر هؤلاء العمالقة ملك السميدع بن هوثر وهو الذي قتله يوشع بن نون، حين تغلب بنو إسرائيل على الشام وبقي في عقبه ملك في بني الظرب بن حسان من بني عاملة العماليق. وكان آخرهم ملكا الزبا بنت عمرو بن السميدع. وكانت قضاعة مجاورين لهم في ديارهم بالجزيرة، وغلبوا العمالقة لما فشل ريحهم.

فلما هلكت الزبا وانقرض أمر بني الظرب بن حسان، ملك أمر العرب تنوخ من

بطون قضاعة. وهم تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم الله بن الأسود بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وقد تقدم ذكر نزولهم بالحيرة والأنبار، ومجاورتهم للارمانيين. فملك من تنوخ ثلاثة ملوك فيما ذكر المسعودي: النعمان بن عمرو، ثم ابنه عمرو بن النعمان، ثم أخوه الحوار بن عمرو. وكانوا مملكين من قبل الروم. ثم تلاشى أمر تنوخ واضمحل، وغلبت سليح من بطون قضاعة، ثم الضجاعم منهم من ولد ضجعم بن سعد بن سليح، واسمه عمرو بن حلوان بن عمران بن الحاف،

فتنصروا وملكتهم الروم على العرب وأقاموا على ذلك مدة. وكان نزولهم ببلاد مؤاب من أرض البلقاء.

ويقال: إن الذي ولى سليح على نواحي الشام هو قيصر طيطش ابن قيصر ماهان.

قال ابن سعيد: كان لبني سليح دولتان في بني ضجعم وبني العبيد، فأما بنو ضجعم فملكوا إلى أن جاءهم كسان فسلبوهم ملكهم، وكان آخرهم زياد بن الهبولة سار بمن أبقى السيف منهم إلى الحجاز، فقتله والي الحجاز للتبابعة حجر آكل المرار. قال ومن النسابين من يطلق تنوخ على بني ضجعم ودوس الذين تنخوا بالبحرين أي أقاموا. ثم سار الضجاعم إلى برثة الشام، ودوس إلى برية العراق. قال وأما بنو العبيد بن الأبرص بن عمرو بن أشجع بن سليح فتوارثوا الملك بالحضر الذي آثاره باقية في برية شجار. والمشهور منهم الضيزن بن معاوية بن العبيد المعروف عند الجرامقة بالساطرون وقصته مع سابور معروفة اه. كلام ابن سعيد. ثم استحالت صبغة الرياسة عن العرب لحمير، وصارت إلى كهلان إلى بلاد الحجاز. ولما فصلت الأزد من اليمن كان نزولهم لبلاد عك ما بين زبيد وزمع فحاربوهم وقلوا ملك عك. قتله ثعلبة بن عمرو مزيقيا.

قال بعض أهل اليمن: عك بن عدنان بن عبد الله بن أدد. قال الدارقطني:

عك بن عبد الله بن عدثان، بالثاء المثلثة وضم العين، ولا خلاف أنه بنونين كما لم يختلف في دوس بن عدثان قبيلة من الأزد أنه بالثاء المثلثة. ثم نزلوا بالظهران، وقاتلوا جرهم بمكة، ثم افترقوا في البلاد. فنزل بنو نصر بن الأزد الشراة وعمان، ونزل بنو ثعلبة بن عمرو مزيقيا بيثرب، وأقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة، وهم يقال لهم خزاعة.

وقال المسعودى: سار عمرو مزيقيا حتى إذا كان بالشراة بمكة أقام هنالك بنو

نصر بن الأزد، وعمران الكاهن، وعدي بن حارثة بن عمرو بالأزد، حتى نزلوا بين بلاد الأشعريين وعك على ماء يقال له غسان، بين واديين يقال لهما زبيد وزمح، فشربوا من ذلك الماء فسموا غسان. وكانت بينهم وبين معد حروب إلى أن ظفرت بهم معد، فأخرجوهم الى الشراة وهو جبل الأزد الذين هم به، وهم على تخوم الشام ما بينه وبين الجبال مما يلي أعمال دمشق والأردن.

قال ابن الكلبي: ولد عمرو بن عامر مزيقيا جفنة ومنه الملوك، والحرث وهو محرق

أول من عاقب بالنار، وثعلبة وهو العنقا وحارثة وأبا حارثة ومالكا وكعباً ووداعة، وهو في همدان. وعوفا وذهل وائل ودفع ذهل إلى نجران ومنه أسقف وعبيدة وذهلاً وقيسا. درج هؤلاء الثلاثة وعمران بن عمرو، فلم يشرب أبو حارثة ولا عمران ولا وائل ماء غسان، فليس يقال لهم غسان. وبقي من أولاد مزيقيا ستة شربوا منه، فهم غسان، وهم: جفنة وحارثة وثعلبة ومالك وكعب وعوف. ويقال: إن ثعلبة وعوفا لم يشربا منه. ولما نزلت غسان الشام جاوروا الضجاعم وقومهم من سليح، ورئيس غسان يومئذ ثعلبة بن عمرو بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد. ورئيس الضجاعم يومئذ داود اللثق بن هبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم. وكانت الضجاعة هؤلاء ملوكا على العرب عمالاً للروم كما قلناه، يجمعون ممن نزل بساحتهم لقيصر. فغلبتهم غسان على ما بأيديهم من رياسة العرب لما كانت صبغة رياستهم الحميرية قد استحالت، وعادت إلى كهلان وبطونها، وعرفت الرياسة منها باليمن قبل فصولهم. وربما كانوا أولى عدة وقوة وإنما العزة للكاثر.

وكانت غسان لأول نزولها بالشام طالبها ملوك الضجاعة بالأتاوة، فمانعتهم غسان

فاقتتلوا، فكانت الدائرة على غسان وأقرت بالصغار وأدت الأتاوة، حتى نشأ جذع بن عمرو بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد. ورجال سليح من ولد رئيسهم داود اللثق، وهو سبطة بن المنذر بن داود، ويقال بل قتلة. فالتقوا فغلبهم غسان وأقاد بهم، وتفردوا بملك الشام، وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس، فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه فارساً. فكتب إليهم واستدناهم. ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو أخو جذع بن عمرو، وكتبوا بينهم الكتاب على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدهم بأربعين ألفا من الروم، وإن دهمه أمر أمدته غسان بعشرين ألفاً. وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه. أول من ملك منهم ثعلبة بن عمرو، فلم يزل ملكها إلى أن هلك، وولي مكانه منهم ثعلبة بن عمرو مزيقيا.

قال الجرجاني: وبعد ثعلبة بن عمرو، ابنه الحرث بن ثعلبة، يقال أنه ابن مارية.

ثم لعده ابنه المنذر بن الحرث، ثم ابنه النعمان بن المنذر بن الحرث، ثم أبو بشر بن الحرث بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة. هكذا نسبه بعض النساب والصحيح أنه ابن عوف بن الحرث بن عوف بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن، ثم

الحرث الأعرج بن أبي شمر، ثم عمرو بن الحرث الأعرج، ثم المنذر بن الحرث الأعرج، ثم الأيهم بن جبلة بن الحرث بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ثم ابنه جبلة.

وقال المسعودي،: أول من ملك منهم الحرث بن عمرو مزيقيا، ثم بعده الحرث بن ثعلبة بن جفنة وهو ابن مارية ذات القرطين، وبعده النعمان بن الحرث بن جفنة بن الحرث، ثم أبو شمر بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن الحارث. ثم ملك بعده أخوه المنذر بن الحارث، ثم أخوه جبلة بن الحارث، ثم بعده عوف بن أبي شمر، ثم بعده الحارث بن أبي شمر. وعلى عهده كانت البعثة وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم فيمن كتب إليه من ملوك تهامة والحجاز واليمن. وبعث إليه شجاع بن وهب الاسدي يدعوه الى الإسلام ويرغبه في الدين، كذا عند ابن إسحق. وكان النعمان بن المنذر على عهد الحارث بن أبي شمر هذا وكانا يتنازعان في الرياسة ومذاهب المدح، وكانت شعراء العرب تفد عليهما مثل الأعشى وحسان بن ثابت وغيرهما.

ومن شعر حسان رضي الله تعالى عنه في مدح أبناء جفنة:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

ثم ملك بعد الحارث بن أبي شمر ابنه النعمان، ثم ملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة. وجبلة جده هو الذي ملك بعد أخويه شمر والمنذر.

وقال ابن سعيد: أول من ملك من غسان بالشام وأذهب ملك الضجاعم جفنة بن مزيقيا. ونقل عن صاحب تواريخ الأمم: لما ملك جفنة بنى جلق وهي دمشق، وملك خمسا وأربعين سنة. واتصل الملك في بنيه إلى أن كان منهم الحارث الأعرج ابن أبي شمر، وأمه مارية ذات القرطين من بني جفنة بنت الهانيء، المذكورة في شعر حسان بأرض البلقاء ومعان. قال ابن قتيبة: وهو الذي سار إليه المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة في مائة ألف، فبعث إليه الحارث مائة من قبائل العرب، فيهم لبيد الشاعر، وهو غلام. فأظهروا أنهم رسل في الصلح حتى إذا أحاطوا برواق المنذر فتكوا به وقتلوا جميع

من كان معه في الرواق، وركبوا خيولهم. فمنهم من نجا ومنهم من قتل. وحملت غسان على عسكر المنذر، وقد اختبطوا فهزموهم. وكانت حليمة بخت الحارث تحرض الناس وهم منهزمون على القتال، فسمي يوم حليمة. ويقال إن النجوم ظهرت فيه بالنهار من كثرة العجاج.

ثم توالى الملك في ولد الحارث الأعرج إلى أن ملك منهم جفنة بن المنذر بن الحارث الأعرج، وهو محرق، لأنه حرق الحيرة دار ملك آل النعمان، وكان جوالا في الآفاق، وملك ثلاثين سنة. ثم كان ثالثه في الملك النعمان بن عمرو بن المنذر الذي بنى قصر السويدا، وقصر حارث عند صيدا، وهو مذكور في شعر النابغة. ولم يكن أبوه ملكا، وإنما كان يغزو بالجيش. ثم ملك جبلة بن النعمان وكان منزله بصفين وهو صاحب عين أباغ، يوم كانت له الهزيمة فيه على المنذر بن المنذر ابن ماء السماء، وقتل المنذر في ذلك اليوم. ثم اتصل الملك في تسعة

منهم بعده، وكان العاشر أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة. وكان مترله بالجولان من جهة دمشق. ثم ملك الأيهم بن جبلة بن الحارث، وكان له رأي في الإفساد بين القبائل، حتى أفنى بعضهم بعضاً. فعل ذلك ببني جسر وعاملة وغيرهم. وكان مترله بتدمر. وملك بعده منهم خمسة فكان السادس منهم ابنه جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوكهم اه. كلام ابن سعيد.

واستفحل ملك جبلة هذا، وجاء الله بالإسلام وهو على ملكه. ولما افتتح المسلمون الشام أسلم جبلة وهاجر إلى المدينة. واستشرف أهل المدينة لمقدمه، حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته لكرم وفادته. وأحسن عمر رضي الله نزوله وأكرم وفادته، وأجفه بأرفع رتب المهاجرين. ثم غلب عليه الشقاء، ولطم رجلا من المسلمين من فزارة، وطيء فضل أزاره وهو يسحبه في الأرض، ونابذه إلى عمر رضي الله عنه في القصاص، فأخذته العزة بالإثم، فقال له عمر رضي الله عنه لا بد أن أقيده منك. فقال له: إذن أرجع عن دينكم هذا الذي يقاد فيه للسوقة من الملوك. ففال له عمر رضي الله عنه إذن أضرب عنقك! فقال أمهلني الليلة حتى أرى رأيي واحتمل رواحله وأسرى. فتجاوز الدروب إلى قيصر، ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة عشرين من الهجرة. وفيما تذكره الثقات أنه ندم ولم يزل باكياً على فعلته تلك. وكان يما يقال يبعث بالجوائز إلى حسان بن ثابت لما كان منه في مدح قومه ومدحه في الجاهلية.

خريطة

خريطة

خريطة

وعند ابن هشام: أن شجاع بن وهب إنما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبلة. قال المسعودي: جميع ملوك غسان بالشام أحد عشر ملكا. وقال أن النعمان والمنذر أخوة جبلة وأبي شمر، وكلهم بنو الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة ملكوا كلهم. قال: وقد ملك الروم على الشام من غير آل جفنة مثل الحارث الأعرج، وهو أبو شمر بن عمرو بن الحارث بن عوف، وعوف هذا جذ ثعلبه بن عامر قاتل داود اللثق.

وملكوا عليهم أيضاً أبا جبيلة بن عبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الحزرج بن ثعلبة بن مزيقيا، وهو أبو جبيلة الذي استصرخه مالك بن العجلان على يهود يثرب حسبما نذكر بعد.

وقال ابن سعيد: عن صاحب تواريخ الأمم. إن جميع ملوك بني جفنة اثنان وثلاثون، ومدقم ستمائه سنة، ولم يبق لغسان بالشام قائمة. وورث أرضهم بها قبيلة طيء. قال ابن سعيد: وأمراؤهم بنو مرا. وأما الآن فأمراؤهم بنو مهنا وهما معا لربيعة بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن علي بن سالم بن قصة بن بدر بن سميع. وقامت غسان بعد منصرفها من الشام بأرض القسطنطينية حتى انقرض ملك القياصرة، فتجهزوا إلى جبل شركس، وهو ما بين بحر طبرستان وبحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية. وفي هذا الجبل باب الأبواب، وفيه من شعوب الترك المتنصرة الشركس واركس، واللاص وكسا، ومعهم اخلاط من الفرس ويونان. والشركس كالبون على جميعهم. فانحازت قبائل غسان إلى هذا الجبل عند انقراض القياصرة والروم، وتحالفوا معهم

واختلطوا بهم، ودخلت أنساب بعضهم في بعض، حتى ليزعم كثير من الشركس أنهم من نسب غسان. ولله حكمة بالغة في خلقه. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، لا انقضاء لملكه ولا رب غيره.

الأوس والخزرج

الخبر عن الأوس والخزرج أبناء قيلة من هذه الطبقة ملوك يثرب دار الهجرة وذكر أوليتهم والإلمام بشان نصرتهم وكيف انقرض أمرهم

قد ذكرنا فيما تقدم شأن يثرب وأنها من بناء يثرب بن فانية بن مهلهل بن إرم بن

عبيل بن عوض، وعبيل أخو عاد. وفيما ذكر السهيلي أن يثرب ابن قائد بن عبيد بن

مهلاييل بن عوص بن عمليق بن لاوذ بن إرم، وهذا أصح وأوجه. وقد ذكرنا كيف صار أمر هؤلاء لإخوانهم جاسم من الأمم العمالقة، وأن ملكهم كان يسمى الأرقم، وكيف ضلت بنو إسرائيل عليه وقتلوه وملكوا الحجاز دونه كله من أيدي العمالقة. ويظهر من ذلك أن الحجاز لعهدهم كان آهلا بالعمران، وجميع مياهه. يشهد بذلك أن داود عليه السلام لما خلع بنو إسرائيل طاعته، وخرجوا عليه بابنه أشبوشت، فر مع سبط يهوذا إلى خيبر، وملك ابنه الشام وأقام هو وسبط يهوذا بخيبر سبع سنين في ملكه، حتى قتل ابنه وعاد إلى الشام. فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلاً بيثرب، ويجاوزها إلى خيبر. وقد ذكرنا هنالك كيف أقام من بني إسرائيل من أقام بالحجاز، وكيف تبعتهم يهود خيبر وبنو قريظة.

قال المسعودي: وكانت الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله وأكثرها ماء، فنزلوا بلاد

يثرب واتخذوا بها الأموال، وبنوا الآطام والمنازل في كل موطن، وملكوا أمر أنفسهم. وانضافت إليهم قبائل من العرب نزلوا معهم واتخذوا الأطم والبيوت، وأمرهم راجع إلى ملوك المقدس من عقب سليمان عليه السلام.

قال شاعر بني نعيف:

ولو نطقت يوما قباء لخبرت بانا نزلنا قبل عاد وتبع

وآطامنا عادية مشمخرة تلوح فتنعى من يغادي ويمنع

فلما خرج مزيقيا من اليمن، وملك شان بالشام، ثم هلك وملك ابنه ثعلبة العنقاء، ثم هلك ثعلبة العنقاء. وولي أمرهم بعد ثعلبة عمرو ابن أخيه جفنة، سخط مكانه ابنه حارثة فأجمع الرحلة إلى يثرب، وأقام بنو جفنة بن عمرو ومن انضاف إليهم بالشام. ونزل حارثة يثرب على يهود خيبر، وسألهم الحلف والجوار على الأمان والمنعة فأعطوه من ذلك ما سأل. قال ابن سعيد: وملك اليمن يومئذ شريب بن كعب فكانوا بادية لهم إلى أن انعكس الأمر بالكثرة والغلبة.

ومن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قال: بنو قريظة وبنو النضير الكاهنان من ولد الكوهن بن هارون عليه السلام، كانوا بنواحي يثرب بعد موسى عليه السلام، وقبل تفرق الأود من اليمن بسيل العرم، ونزول الأوس والخزرج يثرب، وذلك بعد الفخار. ونقل ذلك عن علي بن سليمان الأخفش إلى العماري قال: ساكنو المدينة العماليق، وكانوا أهل عدوان وبغي، وتفرقوا في البلاد. وكان بالمدينة منهم بنو نعيف وبنو

سعيد وبنو الازرق وبنو نظرون. وملك الحجاز منهم الأرقم ما بين تيما إلى فدك، وكان ملوك المدينة ولهم بها نخل وزرع. وكان موسى عليه السلام قد بعث الجنود إلى الجبابرة يغزوهم، وبعث إلى العماليقة جيشا من بني إسرائيل، وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً فأبقوا ابناً للأرقم ضنوا به على القتل.

فلما رجعوا بعد وفاة موسى عليه السلام وأخبروا بني إسرائيل بشأنه، فقالوا هذه

معصية لا تدخلوا علينا الشام، فرجعوا إلى بلاد العمالقة ونزلوا المدينة، وكان هذا أولية سكنى اليهود بيثرب. وانتشروا في نواحيها واتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع، ولبثوا زمانا. وظهر الروم على بني إسرائيل بالشام وقتلوهم وسبوا. فخرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل هاربين إلى الحجاز، وتبعهم الروم فهلكوا عطشاً في المفازة بين الشام والحجاز. وشفى الموضح ثمر الروم. ولما قدم هؤلاء الثلاثة المدينة نزلوا العالية فوجدوها وابية وارتادوا.

ونزل بنو النضير مما يلي البهجان وبنو قريظة وبنو يهدل على نهر وز. وكان ممن

سكن المدينة من اليهود حين نزلها الاوس والخزرج بنو الشقمة وبنو ثعلبة وبنو زرعة وبنو قينقاع وبنو يزيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل وبنو عوف وبنو عصص. وكان بنو يزيد من بلي وبنو نعيف من بلى وبنو الشقمة من غسان. وكان يقال لبني قريظة وبني النضير الكاهنان كما مر. فلما كان سيل العرم وخرجت الأزد، نزلت أزد شنوءة الشام بالسراة، وخزاعة بطوى. ونزلت غسان بصرى وأرض الشام، ونزلت أزد عمان الطائف، ونزلت الأوس والخزرج يثرب. نزلوا في ضرار. بعضهم بالضاحية وبعضهم بالقرى مع أهلها، ولم يكونوا أهل نعم وشاء، لأن المدينة كانت ليست بلاد مرعى، ولا نخل لهم ولا زرع إلا الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من الموات، والأموال لليهود، فلبثوا حينا.

ثم وفد مالك بن عجلان إلى أبي جبيلة الغساني وهو يومئذ ملك غسان، فسأله

فأخبره عن ضيق معاشهم فقال: ما بالكم لم تغلبوهم حين غلباً أهل بلدنا؟ ووعده أنه يسير إليهم فينصرهم. فرجع مالك وأخبرهم أن الملك آبا جبيلة يزورهم، فأعدوا له نزلاً، فأقبل ونزل بذي حرض، وبعث إلى الاوس والخزرج بقدومه، وخشي أن يتحصن منه اليهود في الآطام، فاتخذ حائراً وبعث إليهم فجاءوه في خواصهم وحشمهم، وأذن لهم في دخول الحائر، وأمر جنوده فقتلوهم رجلاً رجلاً إلى أن أتوا عليهم. وقال للأوس والخزرج إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم ورجع إلى الشام، فأقاموا في عداوة مع اليهود.

ثم أجمع مالك بن العجلان وصنع لهم طعاما ودعاهم، فامتعوا لغدرة أبي جبيلة،

فاعتذر لهم مالك عنها وأنه لا يقصد نحو ذلك، فأجابوه وجاءوا إليه فغدرهم وقتل منهم سبعة وثمانين من رؤسائهم. وفطن الباقون فرجعوا وصورت اليهود بالحجاز مالك بن العجلان في كنائسهم وبيعهم، وكانوا يلعنونه كلما دخلوا. ولما قتلهم مالك ذلوا وخافوا، وتركوا مشى بعضهم إلى بعض في الفتنة كما كانوا

يفعلون من قبل. وكان كل قوم من اليهود قد لجأوا إلى بطن من الاوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم أحلافا اه كلام الأغاني.

وكان لحارثة بن ثعلبة ولدان أحدهما أوس والآخر خزرج، وأمهما قيلة بنت

الأرقم بن عمرو بن جفنة، وقيل لنت كاهن بن عذرة من قضاعة. فأقاموا كذلك زمانا حتى أثروا وامتنعوا في جانبهم، وكثر نسلهم وشعوبهم. فكان بنو الاوس كلهم لمالك بن الأوس، منهم خطمة بن جشم بن مالك. وثعلبة ولوذان وعوف كلهم بنو عمرو بن عوف بن مالك. ومن بني عوف بن عمرو حنش ومالك وكلفة كلهم بنو عوف. ومن مالك بن عوف معاوية وزيد. فمن زيد عبيد وضبيعة وأمية. ومن كلفة بن عوف جحجبا بن كلفة. ومن مالك بن الأوس أيضاً الحارث وكعب ابنا الخزرج بن عمرو بن مالك. فمن كعب بنو ظفر، ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم. ومن جشم بنو عبد الاشهل. ومن مالك بن الأوس أيضا بنو سعد وبنو عامر ابنا مرة بن مالك، فبنو سعد الجعادرة. ومن بني عامر عطية وأمية ووائل كلهم بنو زيد بن قيس بن عامر. ومن مالك بن الأوس أيضاً أسلم وواقف بنو امرىء القيس بن مالك. فهذه بطون الأوس.

وأما الخزرج فخمسة بطون من كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث. فمن

كعب بن الخزرج بنو ساعدة بن كعب ومن عمرو بن الخزرج بنو النجار وهم تيم الله بن ثعلبة بن عمرو، وهم شعوب كثيرة: بنو مالك وبنو عدي وبنو مازن وبنو دينار كلهم بنو النجار. ومن مالك بن النجار مبدول واسمه عامر وغانم وعمرو. ومن عمرو عدي ومعاوية، ومن عوف بن الخزرج بنو سالم والقواقل وهما عوف بن عمرو بن عوف، والقواقل ثعلبة ومرضخة بنو قوقل بن عوف. ومن سالم بن عوف بنو العجلان بن زيد بن

عصم بن سالم، وبنو سالم بن عوف. ومن جشم بن الخزرج بنو غضب بن جشم وتزيد بن جشم. فمن غضب بن جشم بنو بياضة وبنو زريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب. ومن تزيد بن جشم بنو سلمة بن سعد بن علي بن راشد بن ساردة بن تزيد. ومن الحارث بن الخزرج بنو خدرة وبنو حرام ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج. فهذه بطون الخزرج فلما انتشر بيثرب هذان الحيان من الأوس والخزرج وكثروا يهود، خافوهم على أنفسهم فنقضوا الحلف الذي عقدوه لهم، وكانت العزة يومئذ بيثرب لليهود. قال قيس بن الحطيم:

كنا إذا رابنا قوم بمظلمة شدت لنا الكاهنان الخيل واعتزموا

بنوا الرهون وواسونا بأنفسهم بنوا الصريخ فقد عفوا وقد كرموا

ثم نتج فيهم بعد حين مالك بن العجلان، وقد ذكر نسب العجلان. فعظم شأن

مالك وسودة الحيان. فلما نقض يهود الحلف واقعهم وأصاب منهم ولحق بأبي جبيلة ملك غسان بالشام، وقيل بعث إليه الرنق بن زيد بن امرىء القيس فقدم عليه فأنشده:

أقسمت أطعم من رزق قطرة حتى تكثر للنجاة رحيل

حتى ألاقي معشراً أني لهم خل وما لهم لنا مبذول

أرض لنا تدعى قبائل سالم ويجيب فيها مالك وسلول

قوم أولو عز، وعزة غيرهم إن الغريب ولو يعز ذليل

فأعجبه وخرج في نصرتهم. وأبو جبيلة هو ابن لجد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج. كان حبيب بن عبد حارثة وأخوه غانم ابنا الجشمي ساروا مع غسان إلى الشام وفارقوا الخزرج. ولما خرج أبو جبيلة إلى يثرب لنصرة الأوس والخزرج لقيه أبناء قيلة وأخبروه أن يهود علموا بقصده، فتحصنوا في آطامهم فوري عن قصده باليمن وخرجوا إليه. فدعاهم إلى صنيع أعده لرؤساثهم، ثم استلحمهم. فعزت الأوس والخزرج من يومئذ وتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها، يتبوأون منها حيث شاءوا وملكت أمرها على يهود فذلت اليهود وقل عددهم، وعلت قدم أبناء قيلة عليهم. فلم يكن لهم امتناع إلا بحصونهم، وتفرقهم أحزابا على الحيين إذا اشتجرا.

وفي كتاب ابن إسحق: إن تبعاً أبا كرب غزا المشرق فمر بالمدينة، وخلف بين

أظهرهم ابناً له، فقتل غيلة. فلما رجع أجمع على تخريبها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار رئيسهم عمرو بن ظلة، وظلة أمه، وأبوه معاوية بن عمرو.

قال ابن إسحق: وقد كان رجل من بني عدى بن النجار يقال له أحمر نزل بهم

تبع. وقال إنما التمر لمن ابره، فزاد ذلك تبعا حنقا عليهم فاقتتلوا. وقال ابن قتيبة في هذه الحكاية إن الذي عدا على التبعي هو مالك بن العجلان. وأنكره السهيلي وفرق بين القصتين، بأن عمرو بن ظلة كان لعهد تبع، ومالك بن العجلان لعهد أبي جبيلة، واستبعد ما بين الزمانين، ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا اليهود على يثرب. وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك. ويدخل في حلفهم من جاورهم من قبائل مضر، وكانت بينهم في الحيين فتن وحروب، ويستصرخ كل بمن دخل في حلفه من العرب ولهود.

قال ابن سعيد: ورحل عمرو بن الإطنابة من الخزرج إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فملكه على الحيرة واتصلت الرياسة في الخزرج والحرب بينهم وبين الأوس. ومن أشهر الوقائع التي كانت بينهم يوم بعاث قبل المبعث. كان على الخزرج فيه عمرو بن النعمان بن صلاة بن عمرو بن امية بن عامر بن بياضة. وكان على الأوس يومئذ خضير الكتائب ابن سماك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل. وكان حلفاء الخزرج يومئذ أشج من غطفان وجهينة من قضاعة. وحلفاء الأوس مزينة من أحياء طلحة بن إياس وقريظة والنضير من يهود، وكان الغلب صدر النهار للخزرج. ثم نزل خضير وحلف لا أركب أو أقتل. فتراجعت الأوس وحلفاؤها، وانهزم الخزرج. وقتل عمرو بن النعمان رئيسهم. وكان آخر الأيام بينهم وصبحهم الإسلام، وقد سئموا الحرب وكرهوا الفتنة؛ فأجمعوا على أن يتوجوا عبد الله بن أبي بن سلول. ثم اجتمع أهل العقبة منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بمكة، ودعاهم إلى نصرة الإسلام، فجاءوا إلى لومهم بالخبر كما نذكر، وأجابوا واجتمعوا على نصرته. ورئيس الخزرج سعد بن عبادة والأوس سعد بن معاذ.

فالت عائشة: كان يوم بعاث يوما قدمه 'لله Dالله لرسوله، ولما بلغهمبعث
النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وما جاء به من الدين، وكيف أعرض لومه عنه وكذبوه وآذوه، وكان بينهم
وبين قريش إخاء قديم وصهر، فبعث أبو قيس بن الأسلت من نجي مرة بن مالك بن
الأوس، ثم من بني وائل منهم واسمه صيفي بن عامر بن شحم بن وائل، وكان يحبهم لمكان صهره فيهم. فكتب إليهم قصيدة يعظم لهم فيها الحرمة، ويذكر فضلهم وحلمهم وينهاهم عن الحرب، ويأمرهم بالكف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذكرهم بما رفع الله عنهم
من أمر الفيل وأولها:

أيا راكباً إما عرضت فبلغن مقالة أوسي لوي بن غالب

تناهز خمساً وثلاثين بيتاً ذكرها ابن إسحق في كخاب السير فكان ذلك أول ما ألقح
بينهم من الخير والإيمان. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يئس من إسلام قومه، يعرض نفسه على وفود العرب وحجاجهم أيام الموسم أن يقوموا بدين الإسلام وبنصره، حتى يبلغ ما جاء به من عند الله، وقريش يصدونهم عنه ويرمونه بالجنون والشعر والسحر كما نطق به القرآن. وبينما هو في بعض المواسم عند العقبة لقي رهطا من الخزرج ست نفر، اثنان من بني غانم بن مالك، وهما أسعد بن زرارة بن عدي بن عبيد الله بن ثعلبة بن غانم، وعوف بن الحرث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غانم, وهو ابن عفراء. ومن بني زريق بن سواد بن مالك بن غانم، وهو ابن عفراء. ومن بني زريق بن عامر رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق. ومن بنى غانم بن كعب بن سلمة بن سعد بن عبد الله بن عمرو بن الحرث بر ثعلبة بن الحرث بن حرام بن كعب بن غانم، كعب بن رئاب بن غانم، وقطه بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غانم بن سواد بن غانم، وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام بن كعب بن غانم.
فلما لقيهم قال لهم: من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج ! قال: أمن موالي يهود؟ قالوا
نعم! فقال ألا تجلسون أكلمكم؟ فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام
وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: عوا والله أنه النبي الذي تعدكم يهود به فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم وصدقوه وآمنوا به، وأرجأوا الأمر في نصرته إلى لقاء قومهم. وقدموا المدينة فذكروا لقومهم شأن النبي صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام. ففشا فيهم.
فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ثم وافى الموسم في العام المقبل اثنا عشر منهم فوافوه بالعقبة، وهي العقبة
الأولى. وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحرث وأخوه معاذ ابنا عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان وعقبة بن عامر من الستة الأولى، وستة آخرون منهم من بني غانم بن
عوف بن القواقل. منهم عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهربن ثعلبة بن غانم. ومن بني زريق ذكوان بن عبد القيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق، والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان. هؤلاء

التسعة من الخزرج. وأبو عبد الرحمن بن زيد بن ثعلبة بن خزيمة بن أصرم بن عمرو بن عمارة من بني عصية من بلى إحدى بطون قضاعة حليف لهم. ومن الأوس رجلان الهيثم بن التيهان واسمه مالك بن التيهان بن مالك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف. فبايعوه على الإسلام بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب. ومعناه أنه حينئذ لم يؤمر بالجهاد، وكانت البيعة على الإسلام فقط، كما وقع في بيعة النساء على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن: الآية.

وقال لهم فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له. وإن سترتم عليه في الدنيا إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر. وبعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي يقريهم المرآن، ويعلمهم الإسلام ولفقههم في الدين. فكان يصلي بهم وكان مترله على أسعد بن زرارة وغلب الإسلام فى الخزرج وفشا فيهم، وبلغ المسلمون من أهل يثرب أربعين رجلا فجمعوا. ثم أسلم من الاوس سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وابن عمه أسيد بن حضير الكتائب، وهما سيدا بني عبد الأشهل.

وأوعب الإسلام بني عبد الأشهل، وأخذ من كل بطن من الأوس ما عدا بني

امية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف وهي أوس، أمه من الأوس من بني حارثة. ووقف بهم عن الإسلام أبو قيس بن الأسلت يرى رأيه، حتى مضى صدر من الإسلام، ولم يبق دار من دور أبناء قيلة إلا وفيها رجال ونساء مسلمون. ثم رجع مصعب إلى مكة. وقدم المسلمون من أهل المدينة معه، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق، فبايعوه وكانوا ثلثمائة وسبعين رجلاً وامرأتين، بايعوه على الإسلام وأن يمنعوه ممن أراده لسوء ولو كان دون ذلك القتل .

وأخذ عليهم النقباء اثني عشر، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وأسلم ليلتئذ

عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر بن عبد الله، وكان أول من بايع البراء بن معرور من

بني تزيد بن جشم من الخزرج، وصرخ الشيطان بمكانهم مح رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتنطست قريش الخبر فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم، وأدركوا سعد بن عبادة وأخذوه وربطوه، حتى أطلقه جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل، والحرث بن حرب بن أمية بن عبد شمس لجوار كان له عليهما ببلده. فلما قدم المسلمون المدينة أظهروا الإسلام، ثم كانت بيعة الحرب، حتى أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال، فبايعوه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأثرته عليهم وأن لا ينازعوا الأمر أهله، وأن يقوموا بالحق أينما كانوا، ولا يخافوا في الله لومة لائم.

ولما تمت بيعة العقبة وأذن الله لنبيه في الحرب، أمر المهاجرين الذين كانوا يؤذون

بمكة أن يلحقوا بإخوانهم من الأنصار بالمدينة، فخرجوا أرسالاً وأقام هو بمكة ينتظر الإذن في الهجرة. فهاجر من المسلمين كثير سماهم ابن إسحق وغيره. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في من هاجر هو وأخوه

زيد، وطلحة بن عبيد الله، وحمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة وأنيسة وأبو كبشة موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان رضي الله عنهم.

ثم أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فهاجر، وصحبه أبو بكر رضي الله عنه، فقدم

المدينة ونزل في الاوس على كلثوم بن مطعم بن امرىء القيس بن الحرث بن زيد بن عبيد بن مالك بن عوف. وسيد الخزرج يومئذ عبد الله بن أبي بن سلول. وأبي هو ابن مالك بن الحرث بن عبيد، واسم أم عبيد سلول. وعبيد هو ابن مالك بن سالم بن غانم بن عوف بن غانم بن مالك بن النجار. وقد نظموا له الخرز ليملكوه على الحيين فغلب على أمره، واجتمعت أبناء قيلة كلهم على الإسلام فضغن لذلك، لكنه أظهر أن يكون له اسم منه. فأعطى الصفقة وطوى على النفاق كما يذكر بعد.

وسيد الاوس يومئذ أبو عامر بن عبد عمرو بن صيفي بن النغقمان، أحد بني

ضبيعة بن زيد. فخرج إلى مكة هاربا من الإسلام حين رأى اجتماع قومه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بغضاً في الدين. ولما فتحت مكة فر إلى الطائف، ولما فتح الطائف فر إلى الشام فمات هنالك.

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب الأنصاري حتى ابتنى مساكنه ومسجده، ثم

انتقل إلى بيته. وتلاحق به المهاجرون، واستوعب الإسلام سائر الأوس والخزرج،

وسموا الأنصار يومئذ بما نصروا من دينه. وخطبهم النبي صلى الله عليه وسلم وذكرهم وكتب بين المهاجرين والأنصار كتاباً وادع فيه يهود، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم كما يفيده كتاب ابن إسحق فلينظر هنالك. ثم كانت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قومه، فغزاهم وغزوه وكانت حروبهم سجالا، ثم كان الظهور والظفر لرسول الله صلى الله عليه وسلم آخرا كما نذكر في سيرتهصلى الله عليه وسلم، وصبر الأنصار في المواطن كلها، واستشهد من أشرافهم ورجالاتهم كثير هلكوا في سبيل الله وجهاد عدوه. ونقض أثناء ذلك اليهود الذين بيثرب على المهاجرين والأنصار ما كتب رسولصلى الله عليه وسلم ، وظاهروا عليه. فأذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فيهم وحاصرهم طائفة بعد أخرى.

وأما بنو قينقاع فإنهم تثاوروا مع المسلمين بسيوفهم وقتلوا مسلما. وأما بنو النضير وقريظة فمنهم من قتله الله وأجلاه. فأما بنو النضير فكان من شأنهم بعد أحد وبعد بئر معونة، جاءهم رسولى الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن امية من القرى- ولم يكن علم بعقدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما نذكره، فهموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءهم لذلك خديعة منهم ومكرا، فحاصرهم حتى نزلوا على الجلاء، وأن يحملوا ما استقلت به الإبل من أموالهم إلا الحلقة. وافترقوا في خيبر وبني قريظة. وأما بنو قريظة فظاهروا قريشاً في غزوة الخندق، فلما فرج الله كما نذكره حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة، حتى نزلوا على حكمه وكلمته، وشفع الأوس فيهم وقالوا هبهم لا كما وهبت بني قينقاع للخزرج، فرد حكمهم إلى سعد بن معاذ وكان جريحا في المسجد، وأثبت في غزوة الخندق. فجاء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بم تحكم في هؤلاء بعد أن استحلف الأوس أنهم راضون

بحكمه؟ فقال يا رسول الله تضرب الأعناق ونسبي الأموال والذرية. فقال: حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتلوا عن آخرهم وهم ما بين الستمائة والتسعمائة.

ثم خرج إلى خيبر بعد الحديبية سنة ست فحاصرهم وافتتحها عنوة، وضرب رقاب اليهود وسبى نساءهم وكان في السبي صفية بنت حيي بن أخطب، وكان أبوها قتل مع بني قريظة، وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وقتله محمد بن مسلمة، غزاه من المدينة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستة نفر فبيته. فلما افتتحت خيبر اصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه، وقسم الغنائم في الناس من القمح والتمر، وكان عدد السهام التي قسمت

عليها أموال خيبر ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم، الرجال ألف وأربعمائة والخيل مائتان. وكانت أرضهم الشق ونطاة والكتيبة. فحصلت الكتيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والخمس ففرقها على قرابته ونسائه ومن وصلهم من المسلمين. وأعمل أهل خيبر على المساقاة، ولم يوالوا كذلك حى أجلاهم عمر رضي الله عنه.

ولما كان فتح مكة سنة ثمان، وغزوة حشن على أثوها، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم فيمن كان يستألفه على الإسلام من فريش وسواهم، وجد الأنصار في أنفسهم وقالوا: سيوفنا تقطر من دمائهم وغنائمنا تقسم فيهم؟ مع أنهم كانوا ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فتح بلاده وجمع على الدين قومه أنه سيقيم بأرضه وله غنية عنهم. وسمعوا ذلك من بعض المنافقين، وبلغ ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجمعهم وقال يا معشر الأنصار: ما الذي بلغكم عني؟ فصدقوه الحديث. فقال ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله، ومتفرقين فجمعكم الله؟ فقالوا الله ورسوله أمن. فقال! لو شئتم لقلتم جئتنا طريداً فآويناك، ومكذباً فصدقناك. ولكن والله إني لأعطي رجالاً استألفهم على الدين، وغيرهم أحب الي. ألا ترضون أن ينقلب الناس بالشاء والبعير، وتنقلبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ أما والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار. الناس دثار وأنتم شعار. ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار! فمرحوا بذلك ورجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، فلم يزل بين أظهرهم إلى أن قبضه الله إليه.

ولما كان يوم وفاته صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بن كعب، ودعت الخزرج إلى بيعة سعد بن عبادة، وقالوا لقريش: منا أمير ومنكم أمير ضنا بالأمر أو بعضه فيهم، لما كان من قيامهم بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وامتنع المهاجرون واحتجوا عليهم بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالأنصار في الخطبة ولم يخطب بعدها. قال: أوصيكم بالأنصار أنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فأوصيكم بأن تحسنوا إلى محسنهم وتتجاوزوا عن مسيئهم. فلو كانت الإمارة لكم لكانت ولم تكن الوصية بكم. فحجوهم فقام بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد بن مالك بن الاغر بن

ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحرث بن الخزرج فبايع لأبي بكر واتبعه الناس. فقال خباب بن المنذر بن الجموح بن حرام بن كعب بن غانم بن سلمة بن سعد: يا بشير

أنفست بها ابن عمك؟ يفي الإمارة. قال لا والله ولكني كرهت أن أنازع الحق قوماً جعله الله لهم. فلما رأى الأوس ما صنع بشير بن سعد وكانوا لا يريدون الأمر للخزرج قاموا فبايعوا أبا بكر. ووجد سعد فتخلف عن البيعة ولحق بالشام إلى أن هلك، وقتله الجن فيما يزعمون وينشدون من شعر الجن:

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده ضربناه بسهم فلم تخط فؤاده وكان لابنه

قيس من بعده غناء في الأيام، وأثر في فتوحات الإسلام.

وكان له انحياش إلى علي في حروبه مع معاوية، وهو القائل لمعاوية بعد مهلك

علي رضي الله عنه وقد عرض به معاوية في تشيعه فقال. والآن ماذا يا معاوية؟ والله إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وأن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا. وكان أجود العرب وأعظمهم جثمانا. يقال: إنه كان إذا ركب تخط رجلاه الأرض. ولما ولي يزيد بن معاوية، وظهر من عسفه وجوره، وادالته الباطل من الحق ما هو معروف، امتعضوا للدين، وبايعوا لعبد الله بن الزبير حين حرجوا بمكة. واجتمعوا على حنظلة بن عد الله الغسيل ابن أبي عامر بن عبد عمرو بن صيفي بن النعمان بن مالك بن صيفي بن امية بن ضيعة بن زيد. وعمد ابن الزبير لعبد الله بن مطيع بن إياس على المهاجرين معهم.

وسرح يزيد إليهم مسلم بن عقبة المري، وهو عقبة بن رباح بن أسعد بن ربيعة بن

عامر بن مرة بن عوف بن سعد بن ديار بن بغيض بن ريث بن غطفان، فيمن فرض عليه من بعوث الشام والمهاجرين، فالتقوا بالحرة، حرة بني زهرة وكانت الدبرة على الأنصار، واستلحمهم جنود يزيد. ويقال: إنه قتل في ذلك اليوم من المهاجرين والأنصار سبعون بدر يا. وهلك عبد الله بن حنظلة يومئذ فيمن هلك.

وكانت إحدى الكبر التي أتاها يزيد. واستفحل ملك الإسلام من بعد ذلك، واتسعت دولة العرب، وافترقت قبائل المهاجرين والأنصار في قاصية الثغور بالعراق والشام والأندلس وأفريقية والمغرب حامية ومرابطين.

فافترق الحي أجمع من أبناء قيلة، وافترقت وأقفرت منهم يثرب، ودرسوا فيمن درس من الأمم. وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. والله وارث الأرض ومن عليها وهر خير الوارثين لا خالق سواه، ولا معبود إلا إياه، ولا خير إلا خيره، ولا رب غيره، وهو

خريطة

نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالته العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بنو عدنان

الخبر عن بني عدنان وانسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول

والملك في الإسلام واولية ذلك ومصايره

قد تقدم لنا أن نسب عدنان إلى إسماعيل عليه السلام باتفاق من النسايين، وأن
الآباء بينه وبين إسماعيل غير معروفة. وتنقلب في غالب الأمر مخلطة مختلفة بالقلة والكثرة في العدد حسبما ذكرناه. فأما نسبته إليه فصحيحة في الغالب، ونسب النبي صلى الله عليه وسلم منها إلى عدنان صحيح باتفاق من النسايين. وأما بين عدنان وإسماعيل فبين الناس فيه اختلاف كثير. فقيل من ولد نابت بن إسماعيل وهو عدنان بن أدد المقدم ابن ناحور بن تنوخ بن يعرب بن يشجب بن نابت قاله البيهقي. وقيل من ولد قيذار بن إسماعيل وهو عدنان بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار. قاله الجرجاني علي بن عبد العزيز النسابة. وقيل عدنان بن يشجب بن أيوب بن قيذار. ويقال ان قصي بن كلاب كان يومي شعره بالإنتساب إلى قيذار.

ونقل القرطبي عن هشام بن محمد: فيما بين عدنان وقيذار نحوا من أربعين أباً.

وفال سمعت رجلاً من أهل تدمر من مسلحة يهود، وممن قرأ كتبهم يذكر نسب معد بن عدنان إلى إسماعيل من كتاب إرمياء النبي عليه السلام، وهو يقرب من هذا النسب في العدد والأسماء إلا قليلاً. ولعل الخلاف أنما جاء من قبل اللغة، لأن الأسماء ترجمت من العبرانية- ونقل القرطي عن الزبير بن بكار بسنده إلى ابن شهاب: فيما بين عدنان وقيذار قريباً من ذلك العدد. ونقل عن بعض النسابين أنه حفظ لمعد بن عدنان أربعين أباً إلى إسماعيل. وأنه قابل ذلك بما عند أهل الكتاب في نفسه، فوجده موافقاً. وأنما خالف في بعض الأسماء. قال: واستمليته فأملاه علي ونقله الطبري إلى آخره.

ومن النسابين من بعد بين عدنان وإسماعيل عشرين أو خمسة عشر ونحو ذلك.

وفي الصحيح عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: معد بن عدنان بن أدد بن زيد بن برا بن أعراق الثرا. قالت أم سلمة: وزيد هو الهميسع، وبرا هو نبت أو نابت، وأعراق
الثرى هو إسماعيل، وقد تقدم هذا أول الكتاب. وأن السهيلي رد تفسير أم سلمة وقال: ليس المراد بالحديث عد الآباء بين معد وإسماعيل، وإنما معناه معنى قوله في الحديث الآخر: أنتم بنو آدم، وآدم من التراب. وعضد ذلك باتفاق النسابين على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل، بحيث يستحيل في العادة أن يكون بينهما أربعة آباء أو خمسة أو عشرة، إذ المدة أطول من هذا كله بكثير. وكان لعدنان من الولد على ما قال الطبري ستة: الربب وهو عك وعرق، ويه سميت عرق اليمن وأد، وأبي الضحاك، وعبق وأمهم مهدد. قال هشام بن محمد: هي من جلإيس، وقيل من طسم وقيل من الطواسيم من نسل لفشان بن إبراهيم.

قال الطبرى: ولما قتل أهل حضورا شعيب بن مهدم نبيهم أوحى الله إلى إرميا وأبرخيا من أنبياء شى إسرائيل، بأن يأمرا بختنصر يغزو العرب، ويعلماه أن الله سلطه عليهم، وأن يحتملا معد بن عدنان إلى أرضهم ويستنقذاه من الهلكه لما أراده من شأن النبوة المحمدية في عقبه كما مر ذلك من قبل. فحملاه على البراق ابن اثنتي عشرة سنة وخلصا به إلى حران. فأقام عندما وعلماه علم كتابهما. وسار بختنصر إلى العرب فلقيه عدنان فيمن اجتمع إليه من حضور أو غيرهم بذات عرق، فهزمهم بختنصر وقتلهم أجمعين، ورجع إلى بابل بالغنائم والسبى

وألقاها بالأنبار. ومات عدنان عقب ذلك، وبقيت بلاد العرب خرابا حقبا من الدهر. حتى إذا هلك بختنصر خرج معد في أنبياء بني إسرائيل الى مكة، فحجوا وحج معهم، ووجد أخويه وعمومته من بني عدنان قد لحقوا بطوائف اليمن وتزوجوا فيهم، وتعطف عليهم أهل اليمن بولادة جرهم فرجعهم إلى بلادهم. وسأل عمن بقي من أولاد الحرث بن مضاض الجرهمي، فقيل له جرهم بن جلهة فتزوج ابنته فعانة وولدت له نزار بن معد.

وأما مواطن بني عدنان هؤلاء فهي مختصة بنجد، وكلها بادية رحالة إلا قريشا بمكة ولجد، هو مرتع من جانبي الحجاز، وطوله مسيرة شهر من أول السروات التي تلي اليمن إلى آخرها المطلة على أرض الشام، مع طول تهامة. وأوله في أرض الحجاز من جهة العراق العذيب مما يلي الكوفة، وهو ماء لبني تميم. وإذا دخلت في أرض الحجاز فقد أنجدت. وأوله من جهة تهامة الحجاز حضن، ولذلك يقال انجد من رأى حضنا. قال السهيلي: وهو جبل متصل بجبل الطائف الذي أعلى نجد، تبيض فيه النسور.

قال: وسكانه بنو جشم بن بكر، وهو أول حدود نجد. وأرض تهامة من الحجاز

في قرب نجد مما يلي بحر القلزم في سمت مكة والمدينة وتيما وأيلة، وفي شرقها بينها وبين جبل نجد غير بعيد. منها العوالي وهي ما ارتفع عن هذه الأرض، ثم تعلو عن السروات ثم ترتفع إلى نجد وهى أعلاها. والعوالي والسروات بلاد تفصل بين تهامة ونجد، متصلة من اليمن إلى الشام كسروات الخيل تخرج من نجد منفصلة من تهامة داخلة في بلاد أهل الوبر. وفي شرقي هذا الجبل برية نجد ما بينة وبين العراق، متصلة باليمامة وعمان والبحرين إلى البصرة. وفي هذه البرية مشاتي للعرب تشتو بها، منهم خلق احياء لا يحصيهم إلا خالقهم.

قال السهيلي: واختص نجد من العرب بنو عدنان لم تزاحمهم فيه قحطان إلا

طيء من كهلان فيما بين الجبلين سلمى وأجاً، وافترق أيضا من عدنان في تهامة والحجاز، ثم في العراق والجزيرة، ثم افترقوا بعد الإسلام على الأوطان. وأما شعوبهم فمن عدنان عك ومعد، فمواطن عك في نواحي زبيد، ويقال عك بن الديث، بالدال غير منقوطة والثاء مثلثة، ابن عدنان. يقال إن عكا هذا هو ابن عدثان، بالثاء المثلثة، ابن عبد الله، من بطون الأزد، ومن عك بن عدنان بنو عايق بن الشاهد بن علقمة بن عك، بطن متسع كان منهم في الإسلام رؤساء وأمراء.

وأما معد فهو البطن العظيم، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم، وهو الذي تقدم الخبر

عنه بأن إرمياء النبي من بني إسرائيل أوحى الله إليه أن يأمر بختنصر بالإنتقام من العرب، وأن يحمل معدا على البراق أن تصيبه النقمة، لأنه مستخرج من صلبه نبيا كريماً خاتماً للرسل فكان كذلك. ومن ولده إياد ويزار، ويقال وقنص وانمار. فأما قنص فكانت له الإمارة بعد أبيه على العرب، وأراد إخراج أخيه نزار من الحرم فأخرجوه أهل مكة، وقدموا عليه نزاراً. ولما احتضر قسم ماله بين ولديه فجعل لربيعة الفرس، ولضر القبة الحمراء، ولأنمار الحمار، ولإياد عند من جعله من ولده الحلمة والعصا. ثم تحاكموا في هذا الميراث إلى أفعى نجران في قصة معروفة ليست من غرض الكتاب.

وأما إياد فتشعبوا بطونا كثيرة، وتكاثر بنو إسماعيل، وانفرد بنو مضر بن يزار برياسة الحرم، وخرج بنو إياد إلى العراق، ومضى أنمار إلى السروات بعد بنيه في اليمانية وهم خثعم وبجيلة. ونزلوا آبار يافه وكان لهم في بلاد الأكاسره آثار مشهورة، إلى أن تابع لهم الأكاسرة الغزو وأبادوهم. وأعظم ما باد منهم سابور ذو الأكتاف هو الذي استلحمهم

وافنا هم.

وأما نزار فمنه البطنان العظيمان ربيعة ومضر، وبقال: إي إياداً يرجعون إلى نزار، وكذلك أنمار، فأما ربيعة فديارهم ما بين الجزيرة والعراق، وهم ضبيعة وأسد ابنا ربيعة. ومن أسد عنزة وجديلة ابنا أسد، فعنزة بلادهم في عين التمر في برية العراق على ثلاثة مراحل من الأنبار. ثم انتقلوا عنها إلى جهات خيبر فهم هنالك.

وورثتت بلادهم غزية من طيء الذين لهم الكثرة والامارة بالعراق لهذا العهد. ومن عنزة هؤلاء بأفريقية حي قليل مع رياح من بني هلال بن عامر. ومنهم أحياء مع طيء ينتجعون ويشتون في بوية نجد.

وأما جديلة فمنهم عبد القيس وهنب ابنا أفصى بن دعمي بن جديلة. فأما عبد القيس وكانت مواطنهم بتهامة، ثم خرجوا إلى البحرين وهي بلاد واسعة على بحر فارس من غربيه، وتحصل باليمامة من شرقيها، والبصرة من شماليها، وبعمان من جنوبها، وتعرف ببلاد هجر. ومنها القطيف وهجر والعسير وجزيرة أوال والاحسا. وهجر هي باب اليمن من العراق. وكانت أيام الأكاسرة من أعمال الفرس وممالكهم. وكان بها بشر كثير من بكر بن وائل، وتميم في باديتها. فلما نزل معهم بنو عبد القيس زاحموهم في ديارهم تلك، وقاسموهم في الموطن، ووفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأسلموا. ووفد منهم المنذر بن عائد بن المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد بن نصر بن عمرو بن عوف بن جذيمة بن عوف بن انمار بن عمرو بن وديعة بن بكر. وذكروا أنه سيدهم وقائدهم إلى الإسلام، فكانت له صحبة ومكانة من النبي صلى الله عليه وسلم.

ووفد أيضاً الجارود بن عمرو بن حنش بن المعلى بن زيد بن حارثة بن معاوية بن

نعلبه بن جذيمة. وثعلبة أخو عوف بن جذيمة، وفد في عبد القيس سنة تسع مع المنذر بن ساوى من بني تميم، وسيأتي ذكره. وكان نصرانياً فأسلم، وكانت له أيضا صحبة ومكانة. وكان عبد القيس هؤلاء من أهل الردة بعد الوفاة. وأمروا عليهم المنذر بن النعمان الذي قتل كسرى أباه، فبعث إليهم أبو بكر بن العلا بن الحضرمي في فتح البحرين وقتل المنذر. ولم تزل رياسة عبد القيس في بني الجارود أولا ثم في ابنه المنذر، وولاه عمر على البحرين، ثم ولاه على إصطخر، ثم عبد الله بن زياد ولاه على الهند. ثم ابنه حكيم بن المنذر. ولردد على ولاية البحرين قبل ولاية العراق.

وأما هنب بن أفصى فمنهم النمر ووائل ابنا قاسط بن هنب. فأما بنو النمر بن قاسط

فبلادهم رأس العين، ومنهم صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن عقيل بن عامر بن جندلة بن جذيمة بن كعب بن سعد بن اسلم بن أوس مناة بن النمر بن قاسط، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

المشهور، وبنسب إلى الروم. وكان سنان أبوه استعمله كسرى على الأبلة، وكان لبني النمر بن قاسط شأن في الردة مذكور. ومنهم ابن القرية المشهور بالفصاحة أيام الحجاج، ومنصور بن النمر الشاعر مادح الرشيد.

وأما بنو وائل فبطن عظيم متسع، أشهرهم بنو تغلب وبنو بكر بن وائل، وهما

اللذان كانت بينهما الحروب المشهورة التي طالت فيما يقال أربعين سنة. فلبني تغلب شهرة وكثرة، وكانت بلادهم بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة. وكانت النصرانية غالبة عليهم لمجاورة الروم. ومن بني تغيب عمرو بن كلثوم الشاعر. وهو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غانم بن تغلب، وأمه هند بنت مهلهل. ومن ولده مالك بن طوق بن مالك بن عتاب بن زافر بن شريح لن عبد الله بن عمرو بن كلثوم، وإليه تنسب رحبة مالك بن طوق على الفرات. وعاصم بن النعمان عم عمرو بن كلثوم هو الذي قتل شرحبيل بن الحرث الملك آكل المرار يوم الكلاب. ومن بني تغلب كليب ومهلهل ابنا ربيعة بن الحرث بن زهير بن جشم. وكان كليب سيد بني تغلب، وهو الذي قتله جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكان متزوجاً بأخته، فرعت ناقة البسوس في حمى كليب، فرماها بسهم فأثبتها. وقتله جساس لأن البسوس كانت جارته، فقام أخو كليب وهو مهلهل بن الحرث كمن برياسة تغلب، وطلب بكر بن وائل ثأر كليب، فاتصلت الحرب بينهم أربعين سنة، وأخبارها معروفة. وطال عمر مهلهل، وتغرب إلى اليمن، فقتله عبدان له في طريقه. وبنو شعبة الذين بالطائف لهذا العهد من ولد شبة بن مهلهل. ومن نغلب الوليد بن طريف بن عامر الخارجي، وهو من بني صيفي بن حي بن عمرو بن بكر بن حبيب، وهو الذي رثته أخته ليلى بقولها:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يريد العز إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

خفيف على ظهر الجواد إلى الوغى وليس على أعدائه بخفيف

فلو كان هذا الموت يقبل فدية فديناه من ساداتنا بألوف

ومنهم بنو حمدان ملوك الموصل والجزيرة أيام المتقي ومن لعده من خلفاء العباسيين، وسيأتي ذكرهم في أخبار بني العباس، وهم بنو حمدان من بنى عدي بن اسامة بن غانم بن تغلب، كان منهم سيف الدولة الملك المشهور.

وأما بكر بن وائل ففيهم الشهرة والعدد، فمنهم يشكر بن بكر بن وائل. وبنو عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، ومنهم بنو حنيفة وبنو عجل ابني لجيم بن صعب. ففي بني حنيفة بطون متعددة أكثرهم بنو الدول بن حنيفة، فيهم البيت والعدد، ومواطنهم باليمامة وهي من أوطان الحجاز، كما هي نجران من اليمن. والشرقي منها يوالي البحري وبني تميم، والغرب يوالي أطراف اليمن والحجاز والجنوب نجران، والشمالي أرض نجد وطول اليمامة عشرون مرحلة، وهي على أربعة أيام من مكة، بلاد نخل وزرع وقاعدتها حجر بالفتح، وبها بلد اسمه اليمامة وتسمى أيضا جو باسم الزرقا. وكانت مقراً للملوك قبل بني حنيفة. واتخذ بنو حنيفة بعدها بلد حجر، وبقي كذلك في الإسلام.

وكانت مواطن اليمامة لبني همدان بن يعفر بن السكسك بى وائل بن حمير، غلبوا على من كان بها من طسم وجديس. وكان آخر ملوكهم بها فيما ذكره الطبري قرط بن يعفر. ثم هلك فغلب عليها بعده طسم وجديس. وكانت منهم الزرقا أخت رياح بن مرة بن طسم كما تقدم في أخبارهم. ثم استولى على اليمامة آخراً بنو حنيفة، وغلبوا عليها طسماً وجديسا. وكان ملكها منهم هوذة بن علي بن ثمامة بن عمرو بن عبد العزى بن سحيم بن مرة ابن الدولى بن حنيفة وتوجه كسرى، وابن عمه عمرو بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن عبد العزى، قاتل المنذر ابن ماء السماء يوم عين أباغ. وكان منهم ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة ملك اليمامة عند المبعث، وثبت عند الردة. ومنهم الخارجي نافع بن الازرق بن قيس بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة، وإليه تنسب الأزارقة، ومنهم محلم بن سبيع بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة، صاحب مسيلمة الكذاب، وهو من بني عدي بن حنيفة. وهو مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب بن الحرث بن عبد الحرث بن عدي. وأخبار مسيلمة في الردة معروفة وسيأتي الخبر عنها.

وأما بنو عجل بن لجيم بن صعب، وهم الذين هزموا الفرس بمؤتة يوم ذي قار كما

خريطة

مر، فمنازلهم من اليمامة إلى البصرة، وقد دثروا وخلفهم اليوم في تلك البلاد بنو عامر المنتفق بن عقيل بن عامر، وكان منهم بنو أبي دلف العجلي. كانت لهم دولة بعراق العجم يأتي ذكرها.

وأما عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل فمنهم تيم الله وقيس ابنا ثعلبة بن

عكابة وشيبان بن ذهل بن ثعلبة، بطون ثلاثة عظيمة، وأوسعها وأكثرها شعوبا بنو شيبان. وكانت لهم كثرة في صدر الإسلام شرقي دجلة في جهات الموصل. وأكثر أئمة الخوارج في ربيعة منهم، وسيدهم في الجاهلية مرة بن ذهل بن شيبان، كان له أولاد عشرة نسلوا عشرة قبائل أشهرهم همام وجساس وسادهما بعد أبيه.

وقال ابن حزم: تفرع من همام ثمانية وعشرون بطنا. وأما جساس فقتل كليبا زوج

أخته، وهو سيد تغلب، حين قتل ناقة البسوس جارته. وأقام ابن كليب عند بني شيبان إلى أن كبر وعقل أن جاساً خاله هو الذي قتل أباه قتله، ورجع إلى تغلب. فمن ولد جساس بنو الشيخ، كانت لهم رياسة بآمد، وانتقطعت على يد المعتضد. ومن بني شيبان هانىء بن مسعود الذي منع حلقة النعمان من أبرويز لما كانت وديعة عنده. وكان سبب ذلك يوم ذي قار. وهو هانىء بن مسعود بن عامر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان.

ومنهم الضحاك بن قيس الخارجي الذي بويع أيام مروان بن محمد على مذهب الصفرية، وملك الكوفة وغيرها، وبايعه بالخلافة جماعة من بني أمية. منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز. وقتله آخرا مروان بن محمد، وهو الضحاك بن قيس بن الحصين بن عبد الله بن ثعلبة بن زيد مناة بن أبي عمرو بن عوف بن ربيعة بن محلم بن ذهل بن شيبان، وسيأتي الإلمام بخبره. ومنهم المثنى بن حارثة الذي

فتح سواد العراق أيام أبي بكر، وعمر وأخوه المعنى بن حارثة. منهم عمران بن حطان من أعلام الخوارج وهذا انقضاء الكلام في ربيعة بن نزار والله المعين.

مضر بن نزار

وأما مضر بن نزار وكانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز من سائر بني عدنان، وكانت لهم رياسة بمكة فيجمعهم فخذان عظيمان وهما خندق وقيس، لأنه كان له من الولد اثنان الياس وقيس، عيلان عبد حضنة قيس فنسب إليه، وقيل هو فرس. وقد قيل أن

عيلان هو ابن مضر واسمه الياس، وأن له ابنين قيس ودهم وليس ذلك بصحيح. وكان لالياس ثلاثة من الولد مدركة وطابخة وقمعة لأمرأة من قضاعة تسمى خندف فانتسب بنو الياس كلهم إليها. وانقسمت مضر إلى خندف وقيس عيلان. فأما قيس فتشعبت إلى ثلاث بطون من كعب وعمرو وسعد بنيه الثلاثة. فمن عمرو بنو فهم وبنو عدوان ابني عمرو بن قيس، وعدوان بطن متسع وكانت منازلهم الطائف من أرض نجد، نزلها بعد إياد العمالقة، ثم غلبتهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة. وكان منهم عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان، حكم العرب في الجاهلية. وكان منهم أيضا أبو سيارة الذي يدفع بالناس في الموسم، وعميلة بن الاعزل بن خالد بن سعد بن الحرث بن رايش بن زيد بن عدوان. وبأفريقية لهذا العهد منهم أحياء بادية بالقفر يظعنون مع نجي سليم تارة ومع رياح بن هلال بن عامر أخرى.

ومن بني فهم بن عمرو فجما ذكر البيهقي بنو طرود بن فهم، بطن متسع كانوا بأرض نجد، وكان منهم الأعشى، وليس منهم الآن بها أحد. وبأفريقية لهذا العهد حي يظعنون مع سليم ورياح. وانقضى الكلام في بني عمرو بن قيس.

وأما سعد بن قيس فمنهم كنيئ وباهلة وغطفان ومرة. فأما كني فهم بنو عمرو بن

أعصر بن سعد، وأما باهلة فمنهم بنو مالك اعصر بن سعد صاحب خراسان المشهور. ومنهم أيضا الأصمعي راوية العرب المشهور، وهو عبد الملك بن علي بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع بن مطر بن رياح بن عمرو بن عبد شمس بن أعيا بن سعد بن عبد غانم بن قتيبة بن معن بن مالك.

وأما بنو غطفان بن سعد: فبطن عظيم متسع كثير الشعوب والبطون، ومنازلهم بنجد

مما يلي وادي القرى وجبلي طيء. ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية واستولت عليها قبائل طيء، وليس منهم اليوم عمودة رجالة في قطر من الأقطار، إلا ما كان لفزارة ورواحة في جوار هيب ببلاد برقة وبنو غطفان بطون ثلاثة. منهم أشجع بن ريث بن غطفان، وعبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، وذبيان. فأما اشجع فكانوا عرب المدينة - يثرب -، وكان سيدهم معقل بن سنان من الصحابة، وكان منهم نعيم بن مسعود بن أنيف بن ثعلبة بن قند بن خلاوة بن سبيع بن أشجع الذي شتت جموع الأحزاب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى آخرين مذكورين منهم وليس لهذا العهد منهم بنجد أحد إلا بقايا حوالي

المدينة البوية وبالمغرب الأقصى. مهم حى عظيم الآن يظعنون مع عرب المعقل جهات سجلماسة ووادي ملوية ولهم عدد وذكر.

وأما بنو عبس فبيتهم في بني عدة بن لطيعة كان منهم الربيع بن زياد وزير النعمان،

ثم إخوتهم بو الحرث بن لطيعة، كان منهم زهير بن جذيمة بى رواحة بن ربيعة بن آزر بن الحرث سيدهم، وكانت له ا على غطفان أجمع. وله بله (.

ثن أربعة منهم قيس ساد بعده على عبس، وابنه زهير هو صاحب حرب داحس والغبرا: فرسين كانت إحداها وهى داحس لقيس، والأخرى وهي الغبرا لحذيفة بن بدر سيد فزارة، فأجرياهما وتشاخا في الحكم بالسبق، فتشاجرا وتحاربا، وقتل قيس حذيفة، ودامت الحرب ين عبس وفزارة واخوة قيس بن زهر الحرث وشاس ومالك، وقتل مالك في تلك الحرب. وكان منهم الصحابي المشهور حذيفة بن اليماني بن خل بن جابر بن ربيعة بن جروة بن الحرث. بن قطيعة. ومن عبس بن جابر بنو غالب بن قطيعة. ثم عنترة بن معاوية بن شداد بن مراد بن مخزوم بن مالك بن غالب الفارس المشهور، وأحد الشعراء الستة في الجاهلية. وكان بعده هن أهل نسبه وقرابته الحطيئة الشاعر المشهور، واسمه جرول بن أوس بن جؤية بن مخزوم. وليس بنجد لهذا العهد أحد من بني عبس. وفي احياء زكبة من بني هلال لهذا العهد احياء ينتسبون إلى عبس، فما أدري من. عبس هؤلاء أم هو عبس آخر من زغبة نسبوا إليه.

وأما ذبيان بن بغيض: فلهم بطون ثلاثة: مرة وثعلبة وفزارة. فأما فزارة فهم خمسة شعوب: عدى وسعد وشمخ ومازن وظالم. وفي بدر بن عدي كانت رياسستهم في الجاهلية، وكانوا يرأسون جميع غطفان. ومن قيس وإخوتهم بنو ثعلبة بن عدي، كان منهم حذيفة بن بدر بن جؤية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة الذي راهن قيس بن زهير العبسي على جري داحس والغبرا، وكانت بسبب ذلك الحرب المعروفة. ومن ولده عيينة بن حصن بن حذيفة الذي قاد الأحزاب إلى المدينة، وأغار على المدينة لأول بيعة أبي بكر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه الأحمق المطاع.

ومهم أيضاً الصحابي المشهور سمرة بن جندب بن هلال بن خديج بن مرة بن

خرق بن عمرو بن جابر بن خشين ذي الرأسين بن لاي بن عصيم بن شمخ بن فزارة. ومن بنى سعد بن فزارة يزيد بن عمرو بن هبيرة بن معية بن سكين بن خديج بن بغيض بن

مالك بن سعد بن عدي بن فزارة، ولي العراقين هو وأبوه أيام يزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد، وهو الذي قتله المنصور بعد أن عاهده. ومن بني مازن بن فزارة هرم بن قطبة ، أدرك الإسلام وأسلم، إلى آخرين يطول ذكرهم و لم يبق بنجد منهم أحد. وقال ابن سعيد: إن ابرق الحنان وأبانا من وادي القرى من معالم بلادهم، وأن جيرانهم من طيء مولدها لهذا العهد، وأن بأرض برقة منهم إلى طرابلس قبائل رواحة وهيب وفزان.

قلت: وبأفريقية والمغرب، لهذا العهد أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله، فمنهم مع المعقل بالمغرب الأقصى أحياء كثيرة لهم عدد وذكر بالمعقل إلى الإستظهار بهم حاجة. ومنهم مع بني سليم بن منصور لأفريقية طائفة أخرى

أحلاف لأولاد أبي الليل، من شعوب بني سليم يستظهرون. بهم في مواقف حروبهم، ويولونهم، على ما يتولونه للسلطان من أمور باديتهم نيابة عنهم، شأن الوزراء في الدول. وكان من أشهرهم معن بن معاطن وزير حمزة بن عمر بن أبي الليل أمير الكعوب بعده حسبما نذكره في أخبارهم، وربط يزعم بنو مرين أمراء الزاب لهذا العهد أنهم منهم، وينتسبون إلى مازن بن فزارة، ولشى ذلك بصحيح. وهو نسب مصون يتقرب به إليهم بعض البدو من فزارة هؤلاء طمعاً فيما بأيديهم، لمكانهم من ولاية الزاب والإنفراد بجبايته، ومصانعة الناس بوفرها، فيلهجونهم بذلك ترفعاً على أهل نسبهم بالحقيقة من الأثابج كما يذكر لكونه تحت أيديهم ومن رعاياهم،

وأما بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان فمنهم هرم بن سنان بن غيظ بن مرة وهو سيدهم في الجاهلية، الذي مدحه زهير بن أبي سلمى. ومنهم أيضاً الفاتك، وهو الحرث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ. فتك بخالد بن جعفر بن كلاب، وشرحبيل بن الأسود بن المنذر، وحصل ابن الحرث في يد النعمان بن المنذر فقتله.

وشاعره في الجاهلية النابغة زياد بن عمرو الذبياني أحذ الشعراء الستة. ومنهم أيضا مسلم بن عقبة بن رياح بن سعد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن يربوع، قائد يزيد بن معاوية، صاحب يوم الحرة على أهل المدينة، إلى آخرين يطول ذكرهم. وهذا آخر الكلام في بني غطفان، وبلادهم بنجد مما يلي وادي القرى. وبها من المعالم ابنى والحاجر والهباءة وأبرق الحنان. وتفرقوا على بلاد الإسلام في الفتوحات، ولم يبق لهم في تلك البلاد ذكر، ونزلت بها قبائل طيء. وبانقضاء ذكرهم انقض بنو سعد بن قيس.

وأما خصفة بن قيس: فتفرع منهم بطنان ظيمان، وهما بنو سليم بن منصور

وهوازن بن منصور. ولهوازن بطون كثيرة يأتي ذكرها. ويلحق بهذين البطنين بنو مازن بن منصور، وعددهم قليل، وكان منهم عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نشيب بن وهب بن زيد بن مالك بن عبد عوف بن الحرث بن مازن الصحابي المشهور الذي بنى البصرة لعمر بن الخطاب، وإليه ينسب العتبيون الذين سادوا بخراسان. ويلحق أيضا بنو محارب بن خصفة. فأما بنو سليم فشعوبهم كثيرة، منهم بنو ذكوان بن رفاعة بن الحرث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم، وإخوتهم بنو عبس بن رفاعة الذين منهم عباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد عبس الصحابي المشهور الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في المؤلفة قلوبهم. ثم زاده حين غضب استقلالا لعطائه، وأنشد الأبيات المعروفة في السير. وكان أبوه مرداس تزوج الخنساء وولدت منه.

ومن بني سليم أيضا بنو ثعلبة بن بهثة بن سليم. كان منهم عبيد بن عبد الرحمن بن

عبد الله بن أبي الأعور والي أفريقية، وجده أبو الأعور من قواد ماوية واسمه عمرو بن سفيان بن عبد شمس بن سعد بن قائف بن الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة، والرود بن خالد بن حذيفة بن عمرو بن خلف بن مازن بن مالك بن ثعلبة، وكان على بني سليم يوم الفتح. وعمرو بن عتبة بن منقذ بن عامر بن خالد، كان صديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية. وأسلم ثلاث أبو بكر وبلال فكان يقول

كنت يومئذ ربع الإسلام. ومن بنى سليم أيضاً بنو علي بن مالك بن امرىء القيس بن بهثة، وبنو عصية بن خفاف بن امرىء القيس، وهما اللذان لعنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بئر معونة وقتلهم إياهم.

ومن شعوب عصية الشريد واسمه عمرو بن يقظة بن عصية.

وقال ابن سعيد. الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عصية الذين كانت منهم الخنساء، وأخواها صخر ومعاوية ابنا عمرو بن الحرث بن الشريد، والشريد بيت سليم في الجاهلية. قال ابن سعيد: كان عمرو بن الشريد يمسك بيده ابنيه صخراً ومعاوية في الموسم فيقول أنا أبو خيري مضر، ومن أنكر فليعتبر، فلا ينكر أحد. وابنته الخنساء الشاعرة، وقد تقدم ذكرها، وحضرت بأولادها حروب القادسية. وبنو الشريد لهذا العصر في جملة بني سليم في أفريقية ولهم شوكة وصولة، ومنهم إخوة عصية بن خفاف، الذين كانا منهم الخفاف كبير أهل الردة الذي أحرقه أبو بكر بالنار، واسمه إياس بن عبد الله بن

أليل بن سلمة بن عميرة.

ومن بني سليم أيضا. بنو بهز بن امرىء القيس بن بهثة، كان منهم الحجاج بن

علاط بن خالد بى نديرة بن حبتر بن هلال بن عبد ظفر بن سعد بن عمرو بن تميم بن بهز الصحابي المشهور، وابنه نصر بن حجاج الذي نفاه عمر عن المدينة إلى آخرين من سليم يطول ذكرهم. قال ابن سعيد: ومن بني سليم بنو زغبة بن مالك بن بهثة كانوا بين الحرمين ثم انتقلوا إلى المغرب، فسكنوا بأفريقية في جوار إخوتهم بني ذياب بن مالك ثم صاروا في جوار بني كعب. ومن بني سليم بنو ذياب بن مالك، ومنازلهم ما ين قابس وبرقة، يجاورون مواطن يعهب. وبجهة المدينة خلق منهم يؤذون الحاج ويقطعون الطريق. وبنو سليمان بن ذياب في جهة فزان وودان، ورؤساء ذياب لهذا العهد الجواري ما بين طرابلس وقابس، وبيتهم بنو صابر والمحامد بنواحي فاس، وبيتهم في بني رصاب بن محمود وسيأتي ذكرهم.

ومن بني سليم بنو عوف بن بهثة: ما بين قابس وبلد العناب من أفريقية وجرما، هم مرداس وعلاق فأما مرداس فرياستهم في بني جامع لهذا العهد، وأما علاق فكان رئيسهم الأول في دخولهم أفريقية رافع بن حماد، ومن أعقابه بنو كعب رؤساء سليم لهذا العهد بأفريقية. ومن بني سليم بنو يعهب بن بهثة إخوة بني عوف بن بهثة، وهم ما بين السدرة من برقة إلى العدوة الكبيرة. ثم الصغيرة من حدود الإسكندرية. فأول ما يلي الغرب منهم بنو أحمد، لهم أجدابية وجهاتها، وهم عدد يرهبهم الحاج ويرجعون إلى شماخ. وقبائل شماخ لها عدد وأسماء متمايزة، ولها العز في بيت لكونها جازت المحصب من بلاد برقة، مثل المرج وطلميثا ودرنا. وفي المشرق عن بنى أحمد إلى العقبة الكبيرة، وأما الصغيرة فسال ومحارب والرياسة في هذين القبيلتين لبني عزاز وهبيب بخلاف سائر سليم، لأنها استولت على إقليم طويل خربت مدنه، ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخها، وتحت أيديهم خلق من البرابرة واليهود زراعاً وتجارا. وأما رواحة وفزارة اللذين في بلاد هبيب فهم من غطفان، وهذا آخر الكلام في بني سليم بن منصور وكانت بلادهم في عالية نجد بالغرب وخيبر، ومنها حرة

بني سليم، وحرة النار بين وادي القرى وتيما، وليس لهم الآن عدد ولا بقية في بلادهم، وبأفريقية منهم خلق عظيم كما يأتي ذكره في أخبارهم عند ذكر الطبقة الرابعة من العرب.

وأما هوازن بن منصور: ففيهم بطون كثيرة جمعهم ثلاثة أجرام كلهم لبكر بن هوازن، وهم بنو سعد بن بكر، وبنو معاوية بن بكر، وبنو منبه بن بكر. فأما بنو سعد بن بكر وهم أظآر النبي صلى الله عليه وسلم، أرضعته منهم حليمة بنت أبي ذؤيب بن عبد الله بن الحرث بن سحنة بن ناصرة بن عصية بن نصر بن أسعد، وبنوها عبد الله وأنيسة والشيما بنو الحرث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملاذ بن ناصرة. وحصلت الشيما في سبي هوزإن فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وردها إلى قومها، وكان فيها أثر عضة عضها إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تحمله.

فأما بنو منبه بن بكر فمنهم ثقيف، وهم بنو قسي بن منبه بطن عظيم متع، منهم بنو جهم بن ثقيف، كان منهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن حبيب بن الحرث بن مالك بن حطيط صاحب لوائهم يوم حنين، وتل يومئذ كافرا. وكان من ولده أمير الأندلس لسليمان بن عبد الملك وهو الحر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان. ومنهم بنو عوف بن ثقيف، ويعرفون بالأحلاف. فمنهم بنو سعد بن عوف، كان منهم عتبان بن مالك بن كعب بن عمرون بن سعد بن عوف الذي وضعته ثقيف رهينة عند أبي مكسورة، وأخوه معتب.

كان من بنيه عروة بن مسعود بن معتب الذي بحثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه داعياً إلى الإسلام فقتلوه، وهو أحد عظيمي القريتين ومن بنيه أيضاً الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب، صاحب العراقين لعبد الملك وابنه الوليد.

ومنهم يوسف بن عمر بن محمد بن عبد الحكم والي العراقين لهشام بن

عبد الملك، والوليد بن يزيد، وكثير من قومه كانوا ولاة بالعراق والشام واليمن ومكة. ومن بني معتب أيضاً غيلان بن مسلمة بن معتب، كانت له وفاة ة على كسرى. ومنهم بنو غبرة بن عوف، الذين منهم الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف. والحرث بن كلدة بن عمرو بن علاج طبب العرب، وأبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن غيرة الصحابي المقتول لوم الجسر، من أيام القادسية، وابنه المختار بن أبي عبيد الذي ادعى النبوة بالكوفة، وكان عاملا عليها لعبد الله بن الزببر، فانتقض عليه ودعا لمحمد بن الحنفية، ثم ادعى النبوة.

ومنهم أبو محجن بن حبيب بى عمرو بن عمير في آخرين يطول ذكرهم. ومواطن

ثقيف كانت بالطائف، وهي مدينة من أرض نجد قريبا من مكة. ثم جلس في شرقيها وشمالها وهي على قبة الجبل، كانت تسمى واج وبوج. وكانت في الجاهلية للعمالقة، ثم نزلتها ثمود قبل وادي القرى. ومى ثم يقال أن ثقيفا كانت من بقايا ثمود، ويقال: أن الذي سكنها بعد العمالقة عدوان، وغلبهم عليها ثقيف، وهي الآن دارهم، كذا ذكره السهيلي. وبقال: أنهم موال لهوازن ، ويقال ألهم من إياد. ومن أعمال الطائف سوق

عكاظ والعرج. وعكاظ حجر بين اليمن والحجاز، وكانت سوقها في الجاهلية يوما في السنة يقصدها العرس من الأقطار فكانت لهم موسما.

وأما بنو معاوية بن بكر بن هوازن ففيها بطون كثيرة: منهم بنو نصر بن معاوية

الذين منهم مالك بن سعد بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن وأثلة بن دهمان بن نصر، قائد المشركين يوم حنين، وأسلم وحسن إسلامه. ومنهم بنو جشم بن معاوية، ومن جشم غزية رهط بن دريد الصفة، ومواطنهم بالسروات وهي بلاد تفصل بين تهامة ونجد متصلة من اليمن إلى الشام، كسروات الجبل، وسروات جشم، متصلة بسروات هذيل. وانتقل معظمهم إلى الغرب، وهم الآن به كما يأتي ذكره في الطبقة الرابعة هن العرب، و لم يبق بالسروات منهم إلا من ليس له صولة. ومنهم بنو سلول، ومنهم بنو مرة لن صعصعة بن معاوية. وإنما عرفوا بأمهم سلول. وكانوا في الغرب كثيرا، وفي الغرب منهم كثير لهذا العهد. ومنهم فيما يزعم العرب بنو يزيد أهل وطن حمزة غربي بجاية وبعض أحياء بجبل عياض. كما نذكر منهم بنو عامر بن صعصعة بن معاوية جرم كبير من أجرام العرب، لهم بطون أربعة: نمير وربيعة وهلال وسوأة. فأما نمير بن عامر فهم إحدى جمرات العرب، وكانت لهم كثرة وعزة في الجاهلية والإسلام، ودخلوا إلى الجزيرة الفراتية وملكوا حرار وغيرها، واستلحمهم بنو العباس أيام المعتز فهلكوا ودثروا. وأما سوأة بن عامر فشعوبهم في رباب من سمرة بن سوأة، فمنهم جابر بن ثمرة بن جنادة بن جندب بن رباب الصحابي المشهور. ومن بطون رباب هؤلاء بأفريقية حي ينجعون مع رياح بن هلال ويعرفون بهذا النسب كما يأتي في أخبار هلال من الطبقة الرابعة.

وأما هلال بن عامر فبطون كثيرة كانوا في الجاهلية بنجد، ثم ساروا إلى ديار المصرية في حروب القرامطة. ثم ساروا إلى أفريقية أجازهم الوزير البالي في خلافة المستنصر العبيدي لحرب المعز بن باديس. فملك عليه ضواحى أفريقية، ثم زاحمهم بنو سليم فساروا إلى الغرب ما بين بونة وقسنطينة إلي البحر المحيط. وكان لهلال خمسة من الولد: شعبة وناشرة ونهيك وعبد مناف وعبد الله، وبطونهم كلها ترجع إلى هؤلاء الخمسة. فكان من بني عبد مناف زينب أم المؤمنين بنت خزيمة بن الحرث بن عبد الله بن عمرو بن عبد الله بن عبد مناف، وكان من بني عبد الله ميمونة أم المؤمنين بنت الحرث بن خزن بن بجير بن هرم بن روبية بن عبد الله. قال ابن حزم: ومن بطون بني هلال بنو قرة وبنو نعجة الذين بين مصر وأفريقية، وبنو حرب الذين بالحجاز، وبنو رياح الذين أفسدوا أفريقية.

وقال ابن سعيد: وجيل بني هلال مشهور بالشام، وقد صار عربه حرائر، وفيه قلعة صرخد مشهورة. قال: وقبائلهم في العرب ترجع لهذا العهد إلى أثبج ورياح وزغبة وقارع. فأما الأثبج فمنهم سراح بجهة برقة وعياض بجبل القلعة المسمى لهم ولغيرهم. وأما رياح فبلادهم بنواحى قسنطينة والسلم والزاب. ومنهم عتبة بنواحي بجاية، ومنهم بالغرب الأقصى خلق كثير كما يأتي في أخبارهم. وأما زغبة فإنهم في بلاد زناتة خلق كثير. وأما قارع فإنهم في الغرب الأقصى مع المعقل وقرة وجشم.

وبنو قرة كانت منازلهم ببرقة، وكانت رياستهم أيام الحاكم العبيدي لما مضى ابن مقرب، ولما بايعوا لأبي ركوة من بني أمية بالأندلس، وقتله الحاكم، سلط عليهم العرب، والجيوش فأفنوهم. وانتقل جلهم إلى المغرب الأقصى، فهم مع جشم هنالك كما يأتي ذكره، ويأتي الكلام في نسب هلال وشعوبهم ومواطنهم بالمغرب الأوسط وأفريقية عند الكلام عليهم في الطبقة الرابعة. وأما بنو ربيعة بن عامر فبطون كثيرة وعامتها ترجع إلى ثلاثة من بنيه، وهم عامر وكلاب وكعب، وبلادهم بأرض نجد الموالية لتهامة بالمدينة وأرض الشام. ثم دخلوا إلى الشام وافترق منهم على ممالك الإسلام، فلم يبق منهم بنجد أحد.

فمن عامر بن ربيعة بنو التكما وهو ربيعة بن عامر بن ربيعة الذي اشترك ابنه حندج مع خالد بن جعفر بن كلاب في قتل زهير بن جذيمة العبسي، وبنو ذي السهمين معاوية بن عامر بن ربيعة، وهو ذو الحجر عوف بن عامر بن ربيعة، وبنو فارس الضحيا عمرو لمن عامر بن ربيعة، منهم خداش بن زهير بن عمرو هن فرسان الجاهلية وشعرائها، وأما بنو كلاب بن ربيعة فمنهم بنو الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، وبنو ربيعة المجنون بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب وبنو عمرو بن كلاب.

قال ابن حزم: يقال إن منهم بني صالح بن مرداس أمراء حلب. ومن بني كلاب بنو رواس واسمه الحرث بن كلاب، وبنو الضباب واسمه معاوية بن كلاب الذين منهم شهر بن ذي الجوش بن الأعور بن معاوية قاتل الحسين بن علي. ومن عقبه كان الصهيل بى حاتم بن شمر، وزير عد الرحمن بن يوسف الفهري بالأندلس. وبنو جعفر بن كلاب الذين منهم عامر، بن الطفيل بن مالك بن جعفر، وعمه أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة وربيعة بن مالك وتبع المعتبرين، وأبوه لبيد بن ربيعة شاعر معروف مشهور.

وكانت بلاد بني كلاب حمى ضرية والربذة في جهات المدينة وفدك والعوالي.

وحمى ضرية هي حمى كليب وائل نباته النضر تسمن عليه الخيل والإبل. وحمى الربذة هو الذي أخرج عليه عثمان أبا ذر رضي الله عنهما. ثم انتقل بنو كلاب إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيت وملك، وملكوا حلب وكثيرا من مدن الشام. تولى ذلك منهم بنو صالح بن مرادس، ثم ضعفوا فهم الآن تحت خفارة العرب المشهورين بالشام، وهنالك بالإمارة من طيء.

قال ابن سعيد: وجمان لهم في الإسلام دولة باليمامة. ومن بني كعب بن ربيعة

بطون كثيرة منهم الحريش بن كعب، بطن كان منهم مطرف بن عبد الله بن الشخير بن عوف بن وقدان بن الحريش الصحابي المشهور. ويقال: إن منهم ليلى التي شبب بها قيس بن عبد الله بن عمرو بن عدس بن ربيعة بن جعدة الشاعر، مادح النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن الحشرج بن الأشهب بن ورد بن عمرو لن ربيعة بن جعدة، الذي كلب على ناب فارس أيام الزبير، وعم أمه زياد بن الأشهب الذي وفد على علي ليصلح بينه وبين معاوية، ومالك بن عبد الله بن جعدة الذي أجار قيس بن زهير العبسي. وبنو قشير بن كعب منهم مرة بن هبيرة بن عامر بن مسلمة الخير بن قشير، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فولاه صدقات قومه. وكلثوم بن عياض بن رصوح بن الأعور بن قشير الذي ولي أفريقية. وابن أخيه بلخ بن بشر. ومن بني

قشير بخراسان أعيان. منهم أبو القاسم القشيري. صاحب الرسالة، ومنهم عريسة الأندلس بنو رشيق ملكها منهم عبد الرحمن بن رشيق، وأخرج منها ابن عمارة. ومنهم الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة، وشو العجلان بن

خريطة

عبد الله بن كعب، وشاعرهم تميم بن مقبل. وبنو عقيل بن كعب وهم بطون كثيرة منهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل. ومن أعقاب بني المنتفق هؤلاء العرب المعروفون في الغرب بالخلط. قال علي بن عبد العزيز الجرجاني: الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابنا المنتفق بن عامر بن عقيل انتهى.

قال ابن سعيد ة ومنازل المنتفق الآجام التي بين البصرة والكوفة، والإمارة منهم في

بني معروف. قلت والخلط لهذا العهد في أعداد جشم بالمغرب ومن بني عقيل بن كعب بنو عبادة بن عقيل منهم الأخيل واسمه كعب بن الرحال بن معاوية بن عبادة، ومن عقبه ليلى الأخيلة بنت حذيفة بن سداد بن الأخيل.

وذكر ابن قتيبة أن قيس بن الملوح المجنون منهم، وبنو عبادة هؤلاء لهذا العهد

فيما قال ابن سعيد بالجزيرة الفراتية فيما يلي العراق. ولهم عدد وذكر وغلب منهم على الموصل وحلب في أواسط المائة الخامسة قريش بن بدران بن مقيد فملكها هو وابنه مسلم بن قريش من بعده، وشمى شرف الدولة. وتوالى الملك في عقب مسلم بن قريش منهم إلى أن انقرضوا.

قال ابن صعيد: ومنهم لهذا العهد بقية بين الحازر والزاب، يقال لهم عرب شرف

الدولة . ولهم إحسان من صاحب الموصل، وهم في تجمل وعز إلا ان عددهم قليل نحو مائة فارس. ومن بني عقيل بن كعب خفاجة بن عمرو بن عقيل، وانتقلوا في قرب من هذه العصور إلى العراق والجزيرة، ولهم ببادية العراق دولة. ومن بني عامر بن عقيل بن عامر بن عوف بن مالك بن عوف، وهم إخوة بني المنتفق وهم ساكنون بجهات البصرة، وقد ملكوا البحرين بعد بني أبي الحسن ملكوها من تغلب.

قال ابن سعيد: وملكوا أرض اليمامة من بني كلاب، وكان ملكهم لعهد الخمسين

من المائة السابعة عصفور وبنوه، وقد انقضى الكلام في بطون قيس عيلان. والله المعين لا رب غيره ولا خير إلا خيره، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل، واسأله الستر الجميل آمين.

بطون خندف

وأما بطون خندف بن الياس بن نصر: ولد الياس مدركة وطابخة وقمعة، وأمهم امرأة من

قضاعة اسمها خندف، فانتسب ولد الياس كلهم إليها. فمن بطون قمعة اسلم وخزاعة. فأسلم بنو أفصى بن عامر بن قمعة، وخزاعة بن عمرو بن عامر بن لحي، وهو ربيعة بن عامر بن قمعة، واسمه حارثة. وعمرو بن لحي هو أول من غير دين إسماعيل وعبد الأوثان، وأمر العرب بعبادتها. وفيه قالصلى الله عليه وسلم: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار يعني أحشاءه. ومواطنهم بأنحاء مكة في مر الظهران وما يليه، وكانوا حلفاء

لقريش. ودخلوا عام الحديبية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، فغزا قريشاً وغلبهم على أمرهم وافتتح مكة، وكان عام الفتح.

وقد يقال: إن خزاعة هؤلاء من غسان، وأنهم بنو حارثة بن عمرو مزيقيا، وأنهم

أقاموا بمر الظهران حين سارت غسان إلى الشام، وتخزعوا عنهم فسموا خزاعة، وليس ذلك بصحيح كما ذكر. وكانت لخزاعة ولاية البيت قبل قريش في بني كعب بن عمرو بن لحي، وانتهت إلى حليل بن حبشية بن سلول، وهو الذي أوصى بها لقصي بن كلاب حين زوجه ابنته حبى بنت حليل. ويقال: إن أبا غبشان بن حليل، واسمه المحترش، باع الكعبة من قصي بزق خمر، وفيه جرى المثل المعروف. يقال: أحسر صفقة من أبي غبشان.

ومن ولد حليل بن حبشية كان كرز بن علقمة بن هلال بن حريية بن عبد فهم بن

حليل الذى قفا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى الغار، ورأى عليه نسج العنكبوت، وعش اليمامة ببيضها فرخوا عنه. ولخزاعة هؤلاء بطون كثيرة: منهم بنو المصطلق بن سعد بن عمرو بن لحي، وبموكب بن عمرو. ومنهم عمران بن الحصين صحابى، وسليمان بن صرد ، أمير التوابين القائمين بثار الحسين، ومالك بن الهيثم كلت نقباء بني العباس، وبنو عدي بن عمرو. ومنهم جويرية بنت الحارث أم المؤمن، وبنو مليح بن عمرو. ومنهم طلحة الطلحات وكثير الشاعر صاحب عزه، وهو ابن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عويمر بن مخلد بن سبيع بن خثعمة بن سعد بن مليح. وبنو عوف بن عمرو، ومنهم العباد أهل الحيرة، وهم بنو جهينة بن عوف. ومن إخوة خزاعة بنو أسلم بن أفصى بن عامر بن قمعة، وبنو مالك بن أفصى، وماثان بن أفصى. فمن أسلم لطمة بن الأكوع الصحابي ودعبل وبنو الشيص الشاعران، ومحمد بن الأشعث قائد شي العباس. ومنهم مالك بن سليمان بن كثير من دعاة بني العباس قتله أبو مسلم.

وأما طابخة فلهم بطون كثيرة أشهرها ضبة والرباب ومزينة وتميم وبطون صغار إخوة لتميم، منهم صوفة ومحارب. قاما بنو تميم بن مر فهم بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة. وكانت منازلهم بأرض نجد، دائرة من هنالك على البصرة واليمامة، وانتشرت إلى العذيب من أرض الكوفة، وقد تفرقوا لهذا العهد في الحواضر، ولم تبق منهم باقية. وورث منازلهم الحيان العظيمان بالمشرق لهذا العهد غزية من طيء وخفاجة من بني عقيل بن كعب.

ولميم بطون كثيرة منهم الحارث بن تميم، وفيهم ينسب المسيب بن شريك الفقيه

وهم قليل. وبنو العنبر الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقات، وزفر الفقيه بن ذهيل بن قيس بن مسلم بن قيس بن مكمل بن ذهل بن ذويا بن جذيمة بن عمرو بن جيجور بن جندب بن العنبر صاحب أبي حنيفه، والناسك الفاضل عامر بن عبد قيس بن ثابت بن بشامة بن حذيفة بن معاوية بن الجون بن كعب بن جندب، وربيعة بن رفيع بن سلمة بن محلم بن صلاة بن عبدة بن عدي بن جندب. وبنو الهجيج بن عمرو بن تميم، وبنو أسيد بن عمير.

وكان منهم أبو هالة هند بن زرارة بن النباش بن عدي بن نمير بن أسيد الصحابي المشهور. وحنضلة بن الربيع بن صيفي بن رياح بن الحرث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد، كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحليم المشهور أكثم بن صيفي بن رياح، ويحيى بن أكثم قاضي المأمون من ولد صيفي بن رياح.
وبنو مالك بن عمرو بن تميم منهم النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم بن عبدة بن زهير بن عروة بن جميل بن حجر بن خزاعي بن مازن بن مالك النحوي المحدث. وسلم بن أحوز بن اربد بن مخزر بن لاي بن مهل بن ضباب بن حجبة بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك صاحب الشرطة لنصر بن سيار، وقاتل يحيى بن زيد بن زين العابدين، وإخوة هلال بن أحوز قاتل آل المهلب، وقطري بن الفجاءة. واسم الفجاءة جعونة بن يزيد بن زياد بن جتر بن كابية بن حرقوص الخارجي الأزرقي سلم عليه بالخلافة عشرين سنة.
ومالك بن الريب بي جوط بن قرط بن حسيل بن ربيعة بن كنانة بن حرقوص، صاحب القصيدة المشهورة نعى بها نفسه، وبعث بها إلى قومه وهو في خراسان في بعث عثمان بن عفان وأولها:

دعاني الهوى من أهل وذي ورفقتي   بذي الشيطين فالتفت ورائيا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني   وأين مكان البعد إلا مكانيا

وبنو عمرو بن العلاء بن عمار بن عدنان بن عبيد الله بن الحصى بن الحرث بن جلهم بن خزاعي بن مازن بن مالك. وبنو الحرث بن عمرو بن تميم، وهم الحبطات. منهم عباد بن الحصين بن يزيد بن أوس بن سيف بن عدم بن جبلدة بن قيار بن سعد بن الحرث، وهو الملقب بالحبط لعظم بطنه. وبنو امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم وكان منهم زيد بن عدي بن زيد بن أيوب بن مخوف بن عامر بن عطية بن امرىء القيس صاحب النعمان بن المنذر بالحيرة، الذي سعى له إلى كسرى حتى قتله. ومقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس بن إبراهيم بن أيوب بن مخوف صاحب فصر بني مقاتل بن منصور بالحيرة. ولاهز بن قريط بن سري بن الكاهن بن زيد بن عصية من دعاة بني العباس الذي قتله أبو مسلم لنذارته لنصر بن سيار.
وبنو سعد بن زيد مناة بن تميم منهم الأبناء، كان منهم رؤبة بن العجاج بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كنيف بن عمير بن حي بن ربيعة بن سعد بن مالك بن سعد. وعبدة بن الطيب الشاعر، وبنو منقر بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة. كان منهم قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر، ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقات قومه وكان من ولده مية صاحبة ذي الرمة بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم. ومن بني منقر عمرو بن الأهتم صحابي، وبنو مرة بن عبيد بن مقاعس. منهم الأحنف بن قيس بن معاوية بر حصين بن حفص بن عاده بن التزال بن مرة وأبو بكر الأبهري المالكي، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح بن عمرو بن حفص بن عمرو بن مصعب بن الزبير بن سعد بن كعب بن عبادة بن التزال.
وبنو صريم بن مقاعس، منهم عبد الله بن أباض رئيس الأباضية من الخوارج.

وعبد الله بن صفار رئيس الصفرية. والبرك بن عبد الله الذي اشترط بقحل معاوية وضربه فجرحه. وبنو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة منهم ثم من بني بهدلة بن عوف الزبرقان ، واسمه الحصين بن بدر بن امرىء القيس بن خلف بن بهدلة وأوشى ابن أخيه حنظلة الذى أسر هوذة بن علي الحنفي. ومن بني عطارد بن عوف كرب بن صفوان بن شحمة بن عطارد الذي كان يجيز بأهل الموسم في الجاهلية. ومن بني قريع بن عوف بن كعب جعفر الملقب أنف الناقة، وكان ولده يغضبون منها إلى أن مدحهم الحطيئة بقوله:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

وبنو الحرث الأعرج لن كعب بن سعد بن زيد مناة، كان منهم زهرة بن جؤية بن

عبد الله بن قتادة بن مرثد بن معاوية بن قطن بن مالك بن أرتم بن جشم بن الحرث الذي أبلى في القادسية، وقتله الجالنوس أمير الفرس، وقتله هو بعد ذلك أصحاب. شبيب الخارجي مع عتاب بن ورقاء. وبنو مالك بن سعد بن زيد مناة، كان منهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفافة بن عبادة بن عبد الله بن محرث بن سعد بن حرام بن سعد بن مالك أبو الولاة بأفريقية لبني العباس. وبنو ربيعة بن مالك بن زيد مناة كان منهم عروة بن جرير بن عامر بن عبد بن كعب بن ربيعة أول خارجي قال: لا حكم إلا لله يوم صفين.. ويعرف بأن أباه نسبه إلى أمه. ومن بني حنظلة بن مالك البراجم ، وهم بنو عمرو. والظلم وغالب وكلبة وقيس كلهم بنو حنظلة. كان منهم ضابىء بن الحرث بن أرطأة بن شهاب بن عبيد بن جندال بن قيس. وابن عمير بن ضابىء الذي قتله الحجاج.

وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة، وبنو الحرث بن يربوع منهم الزبير بن الماحور أمير الخوارج، وأخوه عثمان وعلي، وهم بنو بشير بن يزيد. الملقب بالماحور بن الحارث بن ساحق بن الحرث بن سليط بن يربوع، وكلهم أمراء الأزارقة.

وبنو كليب بن يربوع كان منهم جرير الشاعر ابن عطية بن الخطفي، وهو حذيفة بن بدر بن مسلم بن عوف بن كليب. وبنو العنبر بن يربوع منهم كانت سجاح المتنبئة بنت أويس بن جوين بن سامة بن عنبر. وبنو رياح كان منهم شبث بن ربعي بن حصين بن عميم بن ربيعة بن زيد بن رياح. كان منهم رياح أسلم ثم سار مع الخوارج، ثم رجع عنهم تائباً. ومعقل بن قيس، أوفده عمار بن ياسر على أيام عمر بفتح تستر. وعتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو بن همام بن رياح أمير أصبهان، وقتله شبيب الخارجي.

وبنو طهية بن حالك وهم بنو أبي سود وعوف ابني مالك. وبنو دارم بن مالك بن حنظلة، كان منهم ثم من بني نهشل بن دارم بن حازم بن خزيمة بن عبد الله بن حنظلة نضلة بن حدثان بن مطلق بن أصحر بن نهشل صاحب الشرطة لبني العباس. ومن بني مجاشع بن دارم الاقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع، والفرزدق بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال، والحتات بن يزيد بن علقمة الذي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان. ومن بني عبد الله بن دارم المنذر بن

ساوى بن عبد الله بن زيد بن عبد مناة بن دارم صاحب هجر. ومن بني غرس بن زيد بن دارم حاجب بن زرارة غرس وابنه عطارد وبنوهم. كان فيهم رؤساء وأمراء وانقضى الكلام في تميم.

وأما بنو مزينة وهم بنو مر بن أد بن طابخة بن الياس، واسم ولده عثمان وأوس

وأمهما مزينة فسمي جميع ولدهما بها. فكان منهم زهير بن أبي سلمى وهو ربيعة ابن أبي رياح بن قرة بن الحرث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن لاظم بن عثمان، أحد الشعراء الستة. وابناه بجبر وكعب الذي مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم. والنعمان بن مقرن بن عامر بن صبح بن هجيم بن نصر بن حبشية بن كعب بن عفراء بن ثور بن هرمة. وأخوه سويد الذي قمل يوم نهاوند. ومعقل بن يسار بن عبد الله بن معير بن حراق بن لأبي بن كعب بن عبد ثور الصحابي المشهور.

وأما الرباب وهم بنو عبد مناة بن أد بن طابخة، فمن بنيه تميم وعدي وعوف وثور،

وسموا الرباب لأنه غمسوا في الرب أيديهم في حلف على بني ضبة. وبلادهم جوار بني تميم بالدهنا ، وفي أشعارهم ذكر حزوى وعالج من معالهما ، وتفرقوا لهذا العهد و لم يبق منهم أحد هنالك. وكان من بي تميم بن عد مناة المستورد بن علقمة بن الفريس بن صبارى بن نشبة بن ربيع بن عمرو بن عبد الله بن لؤي بن عمرو بن الحرث بن تميم الخارجي، قتله معقل بن قيس الرياحي في إمارة المغيرة بن شعبة. وابن باخمة ورد بن مجالد بن علقمة، حضر مع عبد الرحمن بن ملجم في قتل علي وقتل قطام بنت بجنة بن عدي بن عامر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن تميم التي تزوجها عبد الرحمن بن ملجم ومهرها قتل علي فيما قيل حيث يقول:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم

وكانت خارجية وقتل أبوها شحمة وعمها الأخضر يوم النهروان. ومن بغي عدي بن عبد مناة ذي الرمة الشاعر. وهو غيلان بن عقبة بن بهس بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ثعلبة بن ربيعة بن ملكان بن عدي. ومن بني ثور بن عبد مناة ويسمى أطمل سفيان الثوري، وهو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن منقر بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور، وأخواه عمرو والمبارك والربيع بن خثيم الفقيه.

وأما ضبة فهم بنو ضبة بن أد، وكانت ديارهم جوار بني تميم اخوتهم بالناحية الشمالية التهامية من نجد ثم انتقلوا في الإسلام إلى العراق بجهة النعمانية وبها قتلوا المثنى الشاعر. فمنهم ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن أسعد بن ضبة سيد بني ضبة في الجاهلية. وبقيت سيادتهم في بنيه. وكان له ثمانية عشر ولداً ذكراً شهدوا معه يوم القويتين، وابنه حصين كان مع عائشة يوم الحمل. ومن ولده القاضي أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن حسان بن المنذر بن ضرار بن عنبسة بن إسحق بن شمر بن عبس بن عنبسة بن شعبة بن المختبر بن عامر بن العباب بن حسل بن بجالة المذكور في قواد بني العباس، ولي مصر أيام المتوكل. ويقال إن الديلم من بني باسل بن ضبة بن أد والله أعلم.

وأما صوفة: فهم بو الغوث بن مر بن أد، كانوا يجيزون بالحاج في الموسم، لا يجوز أحد حتى يجوزوا، ثم انقرم ا عنضوا عن آخرهم في الجاهلية. وورث ذلك آل صفوان بن شحمه من بني سعد بن زيد مناة بن تميم، وقدر ذلك وانقضى بنو طابخة بن الياس.

وأما مدركة بن الياس: فهم بطون كثيرة أعظمها هذيل والقارة وأسد وكنانة وقريش. فأما هذيل فهم بنو هذيل بن مدركة، وديارهم بالسروات، وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف . ولهم أماكن ومياه في أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة، ومنها الرجيع وبئر معونة، وهم بطنان سعد بن هذيل ولحيان بن هذيل. فمن بني سعد بر هذيل أبو بكر الشاعر، والحطيئة فيما يقال، وعبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ فار بن مخزوم بن صاهلة بن الحارث بن تميم بن سعد الصحابي المشهور، وأخواه عتبة وعميس، وبنوه عبد الرحمن وعتبة والمسعودي المؤرخ ابن عتبة، وهو علي بن الحسين بن علي بن عبد الله بن زيد بن عتبة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود. ومن عتبة أخوه عتبة بن عبد الله بن زيد بن عتبة فقيه المدينة، وقد افترقوا في الإسلام على الممالك، و لم يبق لهم حي يطرف. وبأفريقية منهم قبيلة بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان ويؤذون المغرم.

وأما بنو أسد فمنهم بنو أسد بن خزيمة بن مدركة بطن كبير متسع ذو بطون، وبلادهم فيما يلي الكرخ من أرض نجد وفي مجاورة طيء. ويقال ة إن بلاد طيء كانت

لبني أسد. فلما خرجوا من اليمن غلبوهم على أجا وسلمى، وجاءوا واصطلحوا وتجاوروا لبني أسد والتغلبية وواقصة وغاضرة. ولهم من المنازل المسماة في الأشعار غاضرة والنعف. وقد تفرقوا من بلاد الحجاز على الأقطار، و لم يبق لهم حي، وبلادهم الآن فيما ذكر ابن سعيد لطيء وبني عقيل الأمراء كانوا بأرض العراق والجزيرة، وكانوا في الدولة السلجوقية تجد عظم أمرهم، وملكوا الحلة وجهاتها، وكان بها منهم الملوك بنو مرين الذين ألف الهباري بهم أرجوزته المعروفة به في السياسة. ثم اضمحل ملكهم بعد ذلك، وورث بلادهم بالعراق خفاجة.

وكانت بنو أسد بطوناً كثيرة، كان منها بنو كاهل قاتل حجر بن عمرو الملك والد

امرىء القيس، وبنو غنم بن دودان بن أسد: منهم عبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم الذي أسلم ثم تنصر ومات نصرانياً ، وأخته زينب أم المؤمنين رضي الله عنها. وعكاشة بن محصن بن حدثان بن قيس بن مرة بن كثير الصحابي المشهور. وبنو ثعلبة بن دودان بن أسد، منهم الكميت الشاعر ابن زيد بن الأخنس بن ربيعة بن امرىء القيس بن الحرث بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة، وضرار بن الأزور ، وهو مالك بن أويس بن خزيمة بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة الصحابي، قاتل مالك بن نويرة

والحضرمي بن عامر بن مجمع بن موالة بن همام بن صحب بن القيس بن مالك، وأفدهم على النبيصلى الله عليه وسلم.

وبنو عمرو بن قعيد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان: منهم الطماح بن قيس بن

طريف بن عمرو بن قعيد، الذي سعى عند قيصر في هلاك امرىء القيس، وطليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس بن طريف بن عمرو، الذي كان كاهناً وادعى النبوة ثم أسلم. وفي بني أسد بطون يطول ذكرها. وأما القارة وعكل دفهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة بن الياس إخوة بني أسد، وكانوا حلفاء لبني زهرة من قريش. وأما كنانة فهم

كنانة بن خزيمة بن مدركة إخوة بني أسد، وديارهم بجهات مكة،

وفيهم بطون كثيرة وأشرفها قريش، وهم بنو النضر بن كنانة، وسيأتي ذكرهم. ثم بنو عبد مناة بن كنانة، وبنو مالك بن كنانة. فمن بني عبد مناة بنو بكر، وبنو مرة وبنو الحارث وبنو عامر. فمن شي بكر بنو ليث بن بكر، منهم بنو الملوح بن يعمر وهو الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث. ومنهم الصعب بن جثامة بن كيس بن الشداخ الصحابي

المشهور، والشاعر عروة بن أدينة بن يحى بن مالك بن الحرث بن عبد الله بن الشداخ. ومنهم بنو شجع بن عامر بن ليث بن بكر، ومنهم أبو واقد الليثي الصحابي، وهو الحرث بن عوف بن أسيد بن جابر بن عديدة بن عبد مناة بن شجع وبنو سعد بن ليث بن بكر، منهم أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو بن جابر بن حميس بن عدي بن سعد، آخر من بقي ممن رأى النبي صلى الله عليه وسلم. مات سنة سبع ومائة. وواثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد يا ليل بن ناشب بن عبدة بن سعد الصحابي المشهور. وبنو جذع بن بكر بن ليث بن بكر: منهم أمير خراسان نصر بن سيار بن رافع بن عدي بن ربيعة بن عامر بن عوف بن جندع. ورافع بن الليث بن نصر القائم بسمرقند أيام الرشيد بدعوة بني أمية. ثم استأمن إلى المأمون. ومن بني عبد مناف بنو عريج بن بكر بن عبد مناف، وبنو الديل بن بكرة منهم الأسود بن رزق بن يعمر بن نافثة بن عدي بن الديل الذي كان بسببه فتح مكة. وسارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر بن محية بن عبد بن عدي بن الديل الذي ناداه عفر فيما اشتهر من المدينة وهو بالعراق يقاتل. وأبو الأسود واضع النحو، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن جندب بن يعمر بن حليس بن نافثة بن عدي. وبنو ضمرة بن بكر منهم عامرة بن مخشى بن خويلد بن عبد بن لهم بن يعمر بن عوف بن جرى بن ضمرة الذي وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه. وعمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن إياس بن عتيد بن ناثرة بن كعب بن جري الصحابي، والبراض بن قيس بن رافع بن قيس بن جري الفاتك قاتل عروة الرحال بىن عتبة بن جعفر بن كلاب وكان بسببها حرب الفجار.

ومن ضمرة غفار بن مليل بن ضمرة، بطن كان منهم أبو ذز الغفاري الصحابي، وهو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار وصاحبه كثير الشاعر الذي تشبب بعزة، بت جيل بنت بن إياس بن عبد العزى بن حاجب، كافر بن غفار. ومنهم كلثوم بن الحصين بن خالد بن معيسير بن بدر بن حميس بن كفار. واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في غزوة الفتح. وبنو مدلج بن مرة بن عبد مناة: منهم سراقة بن مالك بن جعشم بن عالك بن عمرو بن مالك بن تيم بن مدلج الذي اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم

بجعالة قريش ليرده، فظهرت فيه الآية وصرفه الله تعالى عنه. ومجزز المدلجي الذي سر النبي صلى الله عليه وسلم يقيافته في أسامة وزيد وهو مجزز بن الأعور بن جعد بن معاذ بن عتوارة بن
خريطة

عمرو بن مدلج.
وبنو عامر بن عبد مناة منهم بنو مساحق بن الأفرم بن جذيمة بن عامر الذين قتلهم
خالد بن الوليد بالغميصا ووداهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأنكر فعل خالد. وبنو الحارث بن عبد مناة منهم الحليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقح بن عامر بن جذيمة بن عوف بن الحرث الذي عقد عف الأحابيش مح قريش، وأخوه تيم الذي عقد حلف القارة معهم. وبنو فراس بن مالك بن كنانة: منهم فارس العرب ربيعة بن المكدم بن عامر بن خويلد بن جذيمة بن علقمة بن جذل الطعان بن فارس.
وبنو عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة: منهم نسأة المشهور في الجاهلية. قام الإسلام فيهم على جنادة بن أمية بن عوف بن قلع بن جذيمة بن فقيم بن علي بن عامر. وكل من صارت إليه هذه المرتبة كان يسمى القلمس وأول من نسأ الشهور سمير بن ثعلبة بن الحارث وكان منهم الرماحس بن عبد العزيز بن الرماحس بن الرسارس بن واقد بن وهب بن هاجر بن عز بن وائلة بن الفاكه بن عمرو بن الحرث، ولاه عبد الرحمن الداخل حين جاء إلى الأندلس على الجزيرة وشذونة، وامتنع بها ثم زحف إليه، ففر إلى العدوة وبها مات. وكان له بالأندلس عقب، ولهم في الدولة الأموية ذكر وولايات. كان منها على الأساطيل فكان لهم فيها غناء. وكانوا يغزون سواحل العبيديين بأفريقية فتعظم نكايتهم فيها. وهو وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا رب غيره ولا خير إلا خيره، ولا يرجى إلا إياه ولا معبود سواه، وهو نعم المولى ونم النصير، وأسأله الستر الجميل، ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً والله ولي التوفيق.
قريش
وأما قريش وهم ولد النضر بن كنانة بن فهر بن مالك بن النضر، والنضر هو الذي يسهى قريشاً. قل للتقرش وهو التجارة، وقيل تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس دواب البحر. وأنما انتسبوا إلى فهر لأن عقب النضر منحصر فيه لم يعقب من بني النفر غيره. فهذا وجه القول بأن قريشاً من بني فهر بن مالك، أعني انحصار
نسبهم
فيه. وأما الذي اسمه قريش فهو التضر، فولد فهر غالب والحارث ومحارب، فبنو محارب بن فهر من قريش الظواهر، منهم الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن واثلة بن عمرو بن شيبان بن محارب صاحب مرج واهط ، قاتل فيه مروان بن الحكم حين بويع له بالخلافة وقتل.

وضرار بن الخطاب بن مرداس بن كير بن عمرو آكل السقف بن حجب بن عمرو بن شيبان الفارس المشهور في الصحابة، وأبوه الخطاب بن مرداس سيد الظواهر في الجاهلية، وكان يأخذ المرباع منهم، وحضر حروب الفجار، وابنه من فرسان الإسلام وشعرائه. وعبد الملك بن قيم بن نهشل بن عمرو بن عبد الله بن وهب بن سعد بن عمرو آكل السقف. شهد يوم الحرة وعاش حتى ولى الأندلس وصلبه أصحاب بلخ بن بشر القشيري.

وكرز بن جابر بن حسل بن لاحب بن حبيب بن عمرو بن شيبان، قتل يوم الفتح وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسار بنو الحرث بن فهر من الظواهر. منهم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهب بن ضبة بن الحرث، من العشيرة وأمير المسلمين بالشام عند الفتح. وعقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ضرب بن الحرث فاتح أفريقية ومؤسس القيروان بها. ومن عقبه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة والي أفريقية، أبوه حبيب بن عقبة هو قاتل عبد العزيز بن موسى بن نصير.

ويوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبيدة صاحب الأندلس، وعليه دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فقتله، ووليها هو وبنوه من بعده.

وأما غالب بن فهر: وهو في عمود النسب الكريم، فولد تيم الأدرم وولدين، فبنو تميم الأدرم من الظواهر وهم بادية كان منهم ابن خطل الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح، فقتل وهو متعلق باستار الكعبة. وهو هلال بن عبد الله بن عبد مناة بن أسعد بن جابر بن كبير بن تيم الأدرم.

وأما لؤي بن غالب: في عمود النسب الكريم فولد كعباً وعامراً وبطونا أخرى يختلف في نسبها إلى لؤي خزيمة وسامة وسعد وجشم، وهو الحارث وعوف وهم من قريش الظواهر على أقل، فمنهم خزيمة بن لؤي، وبنو سامة بن لؤي. ويقال ليس بنو

سامة من قريش وهم بعمان. ويقال : إن منهم بني سامان ملوك ما وراء النهر. فأما بنو عامر بن لؤي فهم شقير حسل بن عامر ومعيص بن عامر، فمن بني معيص بشر بن أرطأة وهو عويمر عمران بن الحليس بن يسار بن نزار بن معيص بن عامر، وهو أحد قواد معاوية ومكرز بن حفص بي الأحنف بن علقمة بن عبد الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص، من سادات قريش الذي أجار أبا جندل بن سهيل، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عمرو بن تيس بن زايدة بن جندب الأصم ابن هرم بن رواحة بن حجر بن عد معيص، وهو ابن خال خديجة، وأمه أم كلثوم عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم.

ومن بني حسل: عامر بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن

خزيمة بن مالك بن حسل بن عامر أمير المسلمين في فتح إفريقية أيام عثمان، وولي مصر وكان كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى مكة، ثم جاء تائباً وحسنت حاله وقصته معروفة. وحويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل، له صحبة. وعبد عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك صاحب الحديبية ، وأخوه السكران، وابنه أبو نجدل سهيل واسمه العاصي، وهو الذي جاء

في قيوده يوم صلح الحديبية إلى النبيصلى الله عليه وسلم فرده وقصته معروفة. وزمعة بن قيس بن عبد شمس، وابنه عبد بن زمعة، ابنته سودة بنت زمعة أم المؤمنين، وكانت زوجة السكران ابن عمها، ثم تزوجها بعده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما كعب بن لؤي وهو في عمود النسب الكريم فولده مرة وهصيص وعدي، وهم

فريش البطاح أي بطائح مكة. فمن ابن كعب هصيص بن كعب بن لؤي بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، منهم العاصي بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم، وابناه عمرو وهشام ابنا العاصي. وعبد الرحمن بن معيص بن أبي وداعة وهو الحارث بن سعيد بن سعد بن سهم قارىء أهل مكة، واسماعيل بن جامع بن عبد المطلب بن أبي وداعة مفتي مكة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، قتلا يوم بدر كافرين والقيا في القليب. وقتل يومئذ العاصي بن منبه. وكان له ذو الفقار سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعبد الله بن الزبعرى بن قيس بن غدي بن سعد بن سهم كان يؤذي بشعره، ثم أسلم وحسن إسلامه. وحذافة بن قيس أبو الأخنس وخنيس. وكان خنيس على حفصة قبل رسول

الله صلى الله عليه وسلم. وعبد الله بن حذافة من مهاجرة الحبشة وهو الذى مضى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى. وبنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب. كان منهم أمية بن خلف بن وهب بن حذافة، قتل يوم بدر وأخوه أبي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بيده، وابنه صفوان بن أمية أسلم يوم الفتح، وابنه عبد الله بن صفوان قتل مع الزبير، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة، وإخوته قدامة والسائب وعبد الله مهاجرون بدريون وإخوتهم زينب بنت مظعون أم حفصة.

وبنو عدي بن كعب: منهم زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن

عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي. رفض الأوثان في الجاهلية، والتزم الحنيفية ملة إبراهيم إلى أن قتل بقرية من قرى البلقاء، قتله لخم أو جذام، وابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

وعمر بن الخطاب أصر المؤمنين، وابنه عبد الله وعاصم وعبيد الله وغيرهم، وخارجة بن حذافة بن غانم بن عامر بن عبيد الله بن عويج بن عدي بن كعب الذي قتله الحروري بمصر يظنه عمرو بن العاصي. وقال أردت عمراً وأراد الله خارجة فطارت مثلا. وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم صاحب النفل يوم خنين، ومطيع بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج صحابي. وابنه عبد الله بن مطيع كان على المهاجرين يوم الحرة، قمل مع ابن الزبير مكة.

وأما مرة بن كعب: وهو من عمود النسب الكريم فكان له من الولد كلاب وتيم ويقظة. فأما ليم بن مرة فمنهم عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم سيد قريش في الجاهلية، وتنسب إليه الدار المشهورة يومئذ بمكة. ومنهم أبو بكر الصديق اسمه عبد الله بن أبي قحافة، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب، وابناه عبد الرحمن ومحمد. وطلحة بن عد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب قتل يوم الجمل، وابنه محمد السجاد وأعقابهم كثيرة.

وبنو يقظة بن مرة منهم بن مخزوم بن يقظة بن مرة. فمنهم صيفي بن أبي رفاعة وهو أمية عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قتل هو وأخوه ببدر كافراً، والأرقم بن أبي الأرقم، واسمه عبد مناف بن أبي جندب، واسمه أسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم صحابي بدري، كان يجتمع بداره النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون سرا قبل أن يفشو

الإسلام، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم من قدماء المهاجرين، كان زوج أم سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم.

والفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، واسمه أبو قيس، قتل يوم بدر كافرأ، وأبو جهل بن هام بن المغيرة واسمه عمرو قتل يومئذ كافرا، وابنه عكرمة صحابى. والحارث بن هشام بن المغيرة أسلم وحسن إسلامه، وله عقب كثير مشهورون. وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة قتل يوم بدر كافراً وبنته أم سلمة أم المؤمنين، وهشام بن أبي خذيفة من مهاجرة الحبشة، وعبد الله ابن أبي ربيعة، وهو عمرو بن المغيرة من الصحابة، من ولده الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المعروف بالقباع، والوليد بن المغيرة مات بمكة كافراً وابنه خالد بن الوليد سيف الله صاحب الفتوحات الإسلامية. وسعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم تابعي، وأبوه المسيب من أهل بيعة الرضوان.

وأما كلاب بن مرة: من عمود النسب الكريم فولد له فضي وزهرة فبنو زهرة بن كلاب منهم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم النبي صلى الله عليه وسلم، وابن أخيها عبد الله بن الأرقم ابن عد يغوث بن وهب. وسعد بن أبي وقاص، واسمه مالك بن وهب بن عبد مناف أمير المسلمين في فتح العراق. وهاشم ابن أخيه عتبة من الأمراء يومئذ وابنه عمر بن سعد الذي بعثه عبيد الله بن زياد لقتال الحسين، وقتله المختار بن أبي عبيد، وأخوه محمد بن سعد قتله الحجاج بن أبي الأشعث والمسور بن مخرمة بن نوفل بن وهب صحابي، وأبوه من المؤلفة قلوبهم وعبد الله بن عوف بن عبد عوف بن الحرث بن زهرة، وابنه سلمة وله عقب في.

وأما قصي بن كلاب من عمود النسب الكريم وهو الذي جمع أمر قريش وأثل مجدهم، فولد له عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى. فبنو عبد الدار كان منهم النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار، أسر يوم بدر مع المشركين. ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومر بالصفراء أمر به فضرب عنقه هنالك. ومصعب بن عمرو بن هاشم بن عبد مناف، صحابي بدري استشهد يوم أحد، وكان صاحب اللواء. ومن عقبه كان عامر بن وهب القائم بسرقسطة من الأندلس بدعوة أبي جعفر المنصور، وقتله يوسف بن عبد الرحمن الفهرفي أمير الأندلس قبل عبد الرحمن الداخل.

ومنهم أبو السنابل بن بعكك بن السباق بن عبد الدار، الذي دفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح مفتاح الكعبة، وقيل إنما دفعه إلى أخيه شيبة. وصارت حجابة البيت إلى بني شيبة بن طلحة من يومئذ.

وبنو عبد العزى بن قصي منهم أبو البختري العاصي بن هاشم بن الحارث بن

أسعد بن عبد العزى، أراد التملك على قريش من قبل قيصر فمنعوه، فرجع عنهم إلى الشام، وسجن من وجد بها من قريش. وكان في جملتهم أبو أحيحة سعيد بن العاصي، فدست قريش إلى عمرو بن جفنة الغساني. فسم عثمان بن الحويرث ومات بالشام. وهبار بن الأسود بن المطيب بى أسد بن عد العزى، كان من عقبه عمر بن عبد العزيز بن المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن بن هبار ، صاحب السند، وليها في ابتداء الفتنة إثر قتل المتوكل، وتداول أولاده ملكها إلى أن انقطع أمرهم على يد محمود بن سكتكين صاحب كزنة رما دون النهر من خراسان، وكانت قاعدتهم المنصورة. وكان جده المنذر بن الربيع قد قام بقرفيسيا أيام السفاح، فاسر وصلب. واسماعيل بن هبار قتله مصعب بن عبد الرحمى غيلة، وهبار كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ابنه عوف أسلم فمدحه وحسن إسلامه. وعبد الله بن زمعة بن الأسود، له صحبة. وتزوج زينب بت أبي سلمة من أم سلمة أم المؤمنين، وخديجة أم المؤمنين بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، والزبير بن العوام بن خويلد أحد العشرة، وابناه عبد الله ومصعب وحكيم بن حزام بن خويلد، عاش ستين سنة في الإسلام، وباع داره الندوة من معاوية بمائة ألف وابنه هشام بن حكيم.

وأما عبد مناف وهو صاحب الشوكة في قريش وسنام الشرف، وهو في عمود النسب الكريم، فولد له عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. وكان بنو هاشم وبنو عبد شمس متقاسمين رياسة بني عبد مناف، والبقية أحلاف لهم. فبنو المطلب أحلاف لبني هاشم، وبنو نوفل أحلاف لبني عبد شمس. فأما بنو عبد شمس فمنهم العبلات وهم بنو أمية الاصغر وبنته الثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة، وهي سيدة القريض المغني، وبنو ربيعة بن عبد شمس: منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة. ومن عتبة ابنه الوليد وقتل يوم بدر كافرا، وأبو حذيفة صحابي وهو مولى سالم، قتل يوم اليمامة. وهند بنت عتبة أم معاوية رضي الله عنها. وبنو عبد العزى صهر النبي، وكانت له منها أمامة تزوجها علي بعد فاطمة رضي الله عنهما.

وبنو أمية الأكبر بن عبد شمس: منهم سعيد بن أبي أحيحة العاصي بن أمية مات كافرا، وابنه خالد بن سعيد قتل يوم اليرموك ، وسعيد بن العاصي بن سعيد قديم الإسلام ولي صنعاء واستشهد في فتح الشام، وابنه سعيد قتل يوم اليرموك وسعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن امية ولي الكوفة لعثمان. وابنه عمرو الأشدق القائم على عبد الملك وقتله. وأمير المؤمنين عثمان بن عفان بن العاصي بن أمية. ومروان بن الحكم بن أبي العاصي وأعقابه الخلفاء الأولون في الإسلام ، والملوك بالأندلس معروفون يأتي ذكرهم عند أخبار دولهم.

وأبو سفيان بن حرب بن أميه: وابناؤه معاوية أمير المؤمنين، ويزيد وحنظلة وعتبة وأم حبيبة أم المؤمنين. وعقب معاوية بين الخلفاء والإسلام بين معروف يذكر عند ذكرهم، وعتاب بن أسيد بن أبي العاص بن امية، ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة، اذ فتحها فلم يزل عليها إلى أن مات يوم ورود الخبر بموت أبي بكر الصديق. ومنهم بنو أبي الشوارب القضاة ببغداد، من عهد المتوكل إلى المقتدر.

وهم بنص أبي عثمان بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط واسمه أبان بن عمرو بن أمية، قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر صبراً. وابنه الوليد صحابي ولي الكوفة، وهو الذي حد على الخمر بين يدي عثمان وابنه أبو قطيفة الشاعر. ومن عقبة بن أبي معيط المعيطي الذي بويع بدانية من شرق الأندلس. بايع له ملكها مجاهد زمن الفتنة، بعد المائة الرابعة في آخر الدولة الاموية. وهو عبد الله بن عبد الله بن عبيد الله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عثمان بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عقبة بن أبي معيط.

وبنو نوفل بن عبد مناف: منهم جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل الصحابي المشهور. وأبو مطعم هو الذي نوه به النبي صلى الله عليه وسلم يوم الطائف، ومات في بدر. وطعيمة بن عدي قتل يوم بدر كافرا، ومولاه وحشي هو الذي قتل يوم أحد حمزة بن عبد المطلب. وبنو المطلب بن عبد مناف: منهم قيس بن مخرمة بن المطلب صحابي، وابنه عبد الله بن قيس، مولى يسار جد محمد بن اسحق بن يسار صاحب المغازي. ومسطح وهو عوف بن أثاثة بن عباد بن المطلب أحد من تكلم بالإفك، وهو ابن خالة أبي بكر الصديق .

خريطة

وركانة بر عبد يزيد بنن هاشم بن عبد المطلب، كان م أشد الرجال. وصارعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرعه، وكانت آية من آياته، والسائب بن عبد يزيد، كان يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسر يوم بدر: ومن عقبه الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثما بن شافع بن السائب.

وأما بنو هاشم بن عبد مناف فسيدهم عبد المطلب بن هاشم ، ولم يذكر من عقبه إلا

عقب عبد المطلب هذا. وكان بنوه عشرة: عبدالله أبو النبي صلى الله عليه وسلم وهو أصغرهم، وحمزة والعباس وأبو طالب والزبير والمقوم، ويقال اسمه الغيداق وضرار وحجل وأبو لهب وقثم والزبير لا عقب لهما، وعقب حمزة انقرض فيما قال ابن حزم. ومن عقب أبي لهب ابنه عتبة صحابي.

وأما عقب العباس وأبي طالب فأكثر من أن يحصر، والبيت والشرف من بني العباس في عبد الله بن العباس. ومن بني أبي طالب في علي أمير المؤمنين وبعده أخوه جعفر رضي الله عنهم أجمعين. وسنذكر من مشاهيرهم عند ذكر أخبارهم ودولهم ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى.

هذا اخر الكلام في أنساب قريش، وانقضى بتمامها الكلام في أنساب مضر وعدنان. فلنرجح الآن إلى أخبار قريش وسائر مضر، وما كان لهم من الدول الإسلامية. والله المستعان لا رب غيره، ولا خير إلا خيره ولا معبود سواه ولا يرجى إلا إياه. وهو حصبي ولعم الوكيل، وأسأله الستر الجميل.

قريش

الخبر عن قريش من هذه الطبقة وملكهم بمكة وأولية أموهم

وكيف صال الملك إليهم فيها ممن قبلهم من الأمم السابقة

قد ذكروا عند الطبقة الأولى أن الحجاز وأكناف العرب كانت ديار العمالقة، من ولد عمليق بن لاوذ، وأنهم كان لهم ملك هنالك. وكانت جرهم أيضا من تلك الطبقة من ولد يقطن بن شالخ بن أرفخشذ. وكانت ديارهم اليمن مع إخوانهم حضرموت. وأصاب اليمن يومئذ قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى، وعثروا في طريقهم بإسماعيل مع أمه هاجر عند زمزم. وكان من شأنه وشأنهم معه ما ذكرناه عد ذكر إبراهيم عليه السلام.

ونزلوا على قطورا من بقية العمالقة وعليهم يومئذ السميدع بن هوثر بثاء مثلثة- ابن لورى بن ذكر بن عملاق أو عمليق. واتصل خبر جرهم من ورائهم من قومهم باليمن، وما أصابوا من النجعة بالحجاز فلحقوا بهم وعليهم مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن هنء بن نبت بن جرهم. فنزلوا على مكة بقعيقعان. وكانت قطورا أسفل مكة. وكان . مضاض يعشر من دخل مكة من أعلاها، والسميدع من أسفلها. هكذا عند ابن إسحق والمسعودي أن قطورا من العمالقه، وعند غيرهما أن قطورا من بطون جرهم وليسوا من العمالقة. ثم افترق أمر قطورا وجرهم وتنافسوا الملك واقتتلوا وغلبهم المضاض وقتل السميدع وانقضت العرب العاربة قال الشاعر:

مضى آل عملاق فلم يبق منهمو حقير ولاذ وعزة متشاوس
عتوا فأدال الدهر منهم وحكمه على الناس هذا واغذ ومبايس

ونشأ إسماعيل صلوات الله عليه بين جرهم، وتكلم بلغتهم، وتزوج منهم حرا بنت
سعد بن عوف بن هنء نبت بن جرهم. وهي المرأة التي أمره أبوه بتطليقها لما زاره ووجده غائباً. فقال لها: قولي لزوجك فليغير كتبته، فطلقها وتزوج بنت أخيها مامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف. ذكر هاتين المرأتين الواقدي في كتاب انتقال النور. وتزوج بعدهما السيدة بنت الحرث بن مضاض بن عمرو بن جرهم. ولثلاثين سنة من عمر إسماعيل قدم أبوه الحجاز، فأمر ببناء الكعبة البيت الحرام، وكان الحجر زربا لغنم إسماعيل، فرفع قواعدها مع ابنه إسماعيل وصيرها خلوة لعبادته، وجعلها حجا للناس كما أمره الله، وانصرف إلى الشام فقبض هنالك كما مر.

وبعث الله إسماعيل الى العمالقة وجرهم وأهل اليمن، فآمن بعض وكفر بعض،
إلى أن قبضه الله ودفن بالحجر مع أفه هاجر، ويقال أجر. وكان عمره فيما يقال مائة وثلاثين سنة، وعهد بأمره لابنه قيذار. ومعنى قيذار صاحب الإبل، وذلك لأنه كان صاحب إبل أبيه إسماعيل، كذا قال السهيلي. وقال غيره معناه الملك. ويقال إنما عهد لابنه نابت، فقام ابنه بأمر البيت ووليها. وكان ولده فيما ينقل أهل التوراة كما نقل اثني عشر: قيذار قيايوت أدبئيل مبسام مشمع دوما مسا حدار ديما يطور ياقيس قدما. أمهم السيدة بنت مضاض قاله السهيلي، وهكذا وقعت أسماؤهم في الإسرائيليات. والحروف مخالفة للحروف العربية بعض الشيء باختلاف المخارج، فلهذا يقع الخلاف بين

العلماء في ضبط هذه الألفاظ. وقد ضبط ابن إسحاق تيماً منهم بالطاء والياء، وضبطه الدارقطني بالضاد المعجمة والميم قبل الياء كأنها تأنيث آضم ، وذكر ابن إسحاق ديما. وقال البكري: به سميت دومة الجندل لأنه كان نزلها. وذكر أن الطور بيطون ابن إسماعيل. ثم هلك نابت بن إسماعيل وولي أمر البيت جده الحرث بن مضاض، وقيل وليها مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هنء بن نبت بن جرهم، ثم ابنه الحرث بن عمرو. ثم قسمت الولاية بين ولد إسماعيل بمكة وأخوالهم من جرهم، ولاة البيت لا ينازعهم ولد إسماعيل إعظاماً للحرم أن يكون به بغي أو قتال. ثم بغت جرهم قي البيت، ووافق بغيهم تفرق سبأ ونزول بني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر أرض مكة. فأرادوا المقام مع جرهم فمنعوهم واقتتلوا، فغلبهم بنو حارثة وهم فيما قيل خزاعة وملكوا البيت عليهم، ورئيسهم يومئذ عمرو بن لحي، وشرد بقية جرهم. ولحي هذا هو ربيعة بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر، وقيل إنما ثعلبة بن حارثة بن عامر. وفي الحديث رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار يعني أحشاءه. لأنه الذي بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي، وغير دين إسماعيل، ودعا إلى عبادة الأوثان. وفي طريق آخر رأيت عمرا بن عامر. قال عياض المعروف في نسب أبي خزاعة. هذا هو عمرو بن لحي بن قمعة بن الياس. وأنما عامر اسم أبيه أخو قمعة، وهو مدركة بن الياس وقال السهيلي: كان حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر خلف على أم لحي بعد أبيه قمعة. ولحي تصغير. واسمه ربيعة تناه حارثة وانتسب إليه، فالنسب صحيح بالوجهين. وأسلم بن أفصى بن حارثة أخو خزاعة. وعن ابن أسحق أن الذي أخرج جرهم من البيت ليست خزاعة وحدها، وأنما تصدى للنكير عليهم خزاعة وكنانة. وتولى كبره بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو غبشان بن عبد عمرو بن بوي بن ملكان بن أفصى بن حارثة، فاجتمعوا لحربهم واقتتلوا وغالبهم بنو بكر وبنو غبشان بن كنانة وخزاعة على البيت ونفوهم من مكة. فخرج عمرو وقيل عامر بن الحرث بن مضاض الأصغر بمن معه من جرهم إلي اليمن ، بعد أن دفن حجر الركن وجميع أموال الكعبة بزمزم. ثم اسفوا على ما فارقوا من أمر مكة وحزنوا حزناً شديداً. وقال عمرو بن الحرث وقيل عامر:

كان لم يكن بين الجحون إلى الصف أنيس و لم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف فما تحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعززنا فاعظم ملكنا فليس لحي عندنا ثم فاخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته فأبناؤنا منا ونحن الأصاهر
فإن تنثني الدنيا علينا بحالها فإن لها حالا وفيها التشاجر
فأخرجنا منها المليك بقدرة كذلك يا للناس تجري المقادر
أقول إذا نام الخلي و لم أنم إذا العرش لا يبعد ليهل وعامر
وبدلت منها أوجها لا احبها قبائل منها حمير وبخائر

وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة بذلك عضتنا السنون الغوابر
فساحت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم أم وفيها المشاعر
ونبكي لبيت ليس يؤذى حمامه يظل بها أمنا وفيها العصافر
وفيه وحوش لا ترام أنيسة إذا خرجت منه فليست تغادر

ثم غلبت بنو حبشية على أمر البيت بقومهم من خزاعة واستقلوا بولايتها دون بني بكر عبد مناة، وكان الذي يليها لآخر عهدهم عمرو بن الحرث وهو غبشان. وذكر الزبير أن الذين أخرجوا جرهم من البيت من ولد إسماعيل هم إياد بن نزار. ومن بعد ذلك وتعت الحرب بين ضر وإياد فأخرجتهم مضر. ولما خرجت إياد قلعوا الحجر الأسود ودفنوه في بعض المواضع، ورأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها، فاشترطوا على مضر إن دلوهم عليه أن لهم ولاية البيت دونهم، فوفوا لهم بذلك. وصارت ولاية البيت لخزاعة، إلى أن باعها أبو غبشان لقصي. ويذكر أن من وليها منهم عمرو بن لحي، ونصب الأصنام وخاطبه رجل من جرهم:

يا عمرو لا تظلم بمكة إنها بلد حرام
سائل بغاد أين هم وكذاك تخترم الأنام
وهي العماليق الذين لهم بها كان السوام

وكانت ولاية آل البيت لخزاعة، وكان لمضر ثلاث خصال: الإجازة بالناس يوم عرفة لبني الغوث بن مرة إخوتهم وهو صوفه. والإضافة بالناس غداة النحر من جمع إلى منى لبني زيد بن عدي، وانتهى ذلك منهم إلى أبي سيارة عميرة بن الأعزل بن خالد بن سعد بن الحرث بن كانس بن زيد، فدفع من مزدلفة أربعين سنة على حمار، ونسء

الشهور الحرم، كان لبني مالك بن كنانة. وانتهى إلى القلمس كما مر. وكان إذا أراد الناس الصدور من مكة قال: اللهم إني أحللت أحد الصفريين ونسأت الأخر للعام المقبل. قال عمرو بن قيس من بني فراس:

ونحن الناسئون على معد شهور الحل نجعلها حراماً

قال ابن اسحق. فأقام بنو حزاعة وبنو كنانة على ذلك مدة الولاية لخزاعة دونهم

كما قلناه. وفي أثناء ذلك تشعبت بطون كنانة، ومن مضر كلها وصاروا جرما وبيوتات متفرقين في بطن قومهم من بني كنانة، وكلهم إذ ذاك أحياء حلول بظواهرها. وصارت قريش على فرقتين: تريق البطاح ولريش الظواهر. فقريش البطاح ولد قصي بن كلاب وسائر بني كعب بن لؤي. وقريش الظواهر من سواهم. وكانت خزاعة بادية لكنانة ثم صار بنو كنانة لقريش. ثم صارت قريش الظواهر بادية لقريش البطاح، وقريش الظواهر من كان على أقل من مرحلة ومن الضواحي من كان على أكثر من ذلك. وصار من سوى قريش وكنانة من قبائل مضر في الضواحي أحياء بادية وظعونا ناجعة، من بطون قيس وخندف من أشجع وعبس وفرازة ومرة وسليم وسعد بن بكر، وعامر بن صعصعة وثقيف.

ومن تميم والرباب وضبعي بني أسد وهذيل والقارة وغير هؤلاء من البطون الصغار، وكان التقدم في مضر كلها لكنانة ثم لقريش، والتقدم في قريش لبني لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر. وكان سيدهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. كان له فيهم شرف وقرابة وثروة وولد، وكان له في قضاعة ثم في بني عروة بن سعد بى زيد من بطونهم نسب ظئر ورحم كلالة، كانوا من أجلها فيه شيعة. وذلك بما كان ربيعة بن حرام بن عذرة قدم مكة في مهلك كلاب بن مرة، وكان كلاب خلف قصيا فى حجر أمه فاطمة بنت سعد بن باسل بن خثعمة الأسدي من اليمن، فتزوجها ربيعة وقصي يومئذ فطيم، فاحتملته إلى بلاد بني عذرة، وتركت ابنها زهرة بن كلاب لأنه كان رجلا بالغا، وولدت لربيعة بن حزام رزاح بن ربيعة، ولما شب قصي وعرف نسبه رجع إلى قومه، وكان الذي يلى أمر البيت لعهده من خزاعة، حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو، فأصهر إلى قصي في ابنته حبى فأنكحه إياها، فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي.

ولما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل، فرأى فصي أنه أحق
بالكعبة وبأمر مكة وخزاعة وبني بكر لشرفه في قريش. ولما كثرت قريش سائر الناس واعتزت عليهم، وقيل أوصي له بذلك حليل. ولما بدا له ذلك مشى فى رجالات قريش ودعاهم إلى ذلك فأجابوه، وكتب إلى أخيه رزاح في قومه عذرة مستجيشا بهم، فقدم مكة في إخوته من ولد ربيعة ومن تبعهم من قضاعة في جملة الحاج مجمعا نصر قصي.

قال السهيلي: وذكر غير ابن إسحق إن حليلاً كان يعطي مفاتيح البيت بنته حبى
حين كبر وضعف، فكانت بيدها وكان قصي ربما أخذها يفتح البيت للناس ويغلقه، فلما هلك حليل أوصى بولاية البيت إلى قصي، وأبت خزاعة أن يمضي ذلك لقصي، فعند ذلك هاجت الحرب بينه وبين خزاعة وأرسل إلى رزاح أخيه يستنجده عليهم.

وقال: الطبري لما أعطى حليل مفاتيح الكعبة لابنته حبى لما كبر وثقل، قالت إجعل لرجل يقوم لك به، فجعله إلى أبي غبشان سليمان بن عمرو بن لؤي بن ملكان بن قصي، وكانت له ولاية الكعبة. ويقال: إن أبا غبشان هو ابن حليل باعه من قصي بزق خمر، قيل فيه أخسر من صفقة أبي كبشان. فكان من أول ما بدأوا به نقض ما كان لصوفة من إجارة الحاج، وذلك أن بني سعد بن زيد مناة بن تميم كانوا يلون الإجازة للناس بالحج من عرفة، ينفر الحاج لنفرهم ويرمون الجمار لرميهم، ورثوا ذلك من بني الغوث بن مرة. كانت أمه من جرهم وكانت لا تلد، فنذرت إن ولدت أن تتصدق به على الكعبة عبدا يخدمها، فولدت الغوث، وخلى أخواله من جرهم بينه وبين من نافسه بذلك. فكان له ولولده وكان يقال لهم صوفة.

وقال السهيلي عن بعض الإخباريين: إن ولاية الغوث بن مرة كانت من قبل ملوك كندة، ولما انقرضوا ورث بالتعدد بنو سعد بن زيد مناة. ولما جاء الإسلام كانت تلك الإجازة منهم لكرب بن صفوان بن حتات بن سحنة وفد مر ذكره في بطون تميم. فلما كان العام الذي أجمع فيه قصى الإنفراد بولاية البيت، وحضر إخوته

من عذرة تعرض لبني سعد أصحاب صوفة في قومهم من قريش، وكنانة وقضاعة عند الكعبة. فلما وقفوا للإجازة قال لا نحن أولى بهذا منكم، فتناجزا وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم، وعرفت خزاعة وبنو بكر عند ذلك أنه سيمنعهم من ولاية البيت كما منع الآخرين، فانحازوا عنه واجمعوا لحربه، وتناجزوا وكثر القتل، ثم صالحوه على أن يحكموا من أشراف العرب، وتنافروا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن عامر بن ليث بن

بكر بن عبد مناة لن كنانة، فقضى لقصي عليهم فولي قصي البت وقر بمكة، وجمع قريشا من منازلهم بين كنانة إليها وقطعها أرباعا بينهم. فأنزل كل بطن منهم بمنزله الذي صبحهم به الإسلام وسمي بذلك مجمعا قال الشاعر:

قصي لعمرى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر فكان أول من أصاب من بني لؤي بن غالب ملكا أطاع له به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت، وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم إليه في قليل أمورهم و كثيرها، فاتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة في مشاوراتهم، وجعل بابها إلى المسجد فكانت مجتمع الملاء من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم، ثم تصدى لإطعام الحاج وسقايته لما رأى أنهم ضيف الله وزوار بيته.

وفرض على قريش خراجاً يؤدونه إليه زيادة على ذلك كانوا يردفونه به، فحاز شرفهم كله. وكانت الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء له. ولما أسن قصي وكان بكره عبد الدار وكان ضعيفا، وكان أخوه عبد مناف شرف عليه في حياة ابيه، فأوصى قصي لعبد الدار بما كان له من الحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية يجبر له بذلك ما نقصه من شرف عبد مناف. وكان أمره في قومه كالدين المتبع، ولا يعدل عنه.

ثم هلك وقام بأمره في قومه بنوه من بعده، وأقاموا على ذلك مدة وسلطان مكة

لهم، وأمر قريش جميعاً. ثم نفس بنو عبد مناف على بني عبد الدار ما بأيديهم ونازعوهم 4 فافترق أمر قريش، وصاروا في مظاهرة بني قصي بعضهم على بعض فرقتين. وكان بطون قريش قد إجتمعت لعهدها ذلك إثني عشر بطنا: بنو الحرث بن فهر، وبنو محارب بن لؤي، وبنو عدي بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص، وبنو تيم بن مرة، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو أدد لن عبد العزى بن قصي، وبنو عبد الدار، وبنو عبد مناف بن قصي.

فأجمع بنو عبد مناف إنتزاع ما بأيدي عبد الدار مما جعل لهم قصي، وقام بأمرهم

عبد شمس أسن ولده، واجتمع له من قريش بنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحرث. واعتزل بنو عامر وبنو المحارب الفريقين، وصار الباقي من بطون قريش مع بني عبد الدار، وهم بنو سهم وبنو جمح وبنو عدي وبنو مخزوم. ثم عقد كل من

الفريقين على أحلافه عقداً مؤكدا، وأحضر بنو عبد مناف، وحلف قومهم عند الكعبة جفنة مملوءة طيبا غمسوا فيها أيديهم تأكيداً للحلف. فسمي حلف المطيبين. وأجمعوا للحرب وسووا بين القبائل، وأن تبعث بعضها إلى بعض. فبعث بنو عبد الدار لبني أسد، وبنو جمح لبني زهرة، وبنو مخزوم لبني تيم، وبنو عدي لبني

الحرث. ثم تداعوا للصلح على أن يسلموا لبني عبد مناف السقاية والرفادة، ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء، فرضي الفريقان وتحاجز الناس.

وقال الطبرى: قيل ورثها من أبيه، ثم بقام بأمر بني عبد مناف هاشم ليساره وقراره

بمكة، وتقلب أخيه عبد شمس في التجارة إلى الشام. فأحسن هاشم ما شاء في إطعام الحاج وإكرام وفدهم. ويقال: إنه أول من أطعم الثريد الذي كان يطعم فهو ثريد قريش، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. والثريد لهذا العهد ثريد الخبز بعد أن يطبخ في المقلاوة، والتنور. وليس من طعام العرب إلا أن عندهم طعاما يسمونه البازين يتناوله الثريد لغة، وهو ثريد الخبز بعد أن يطبخ في الماء عجينا رطباً إلى أن يتم نضجه، ثم يدلكونه بالمغرفة حتى تتلاحم أجزاؤه وتتلازج. وما أدري هل كان ذلك الطعام كذلك أولا، إلا أن لفظ الثريد يتناوله لغة.

ويقال: إن هاشم بن عبد المطلب أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب، ذكره بن إسحق وهو غير صحيح، لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جيل لمراعي إبلهم ومصالحها، لأن معاشهم فيها. وهذا معنى العرب وحقيقتهم أنه الجيل الذي معاشهم في كسب الإبل والقيام عليها في ارتياد المرعى، وانتجاع المياه والنتاج والتوليد وغير ذلك من مصالحها، والفرار بها من أذى البرد عند التوليد إلى القفار ودفئها، وطلب التلول في المصيف للحبوب وبرد الهواء. وتكونت على ذلك طباعهم فلا بد لهم منها. ظعنوا أو أقاموا وهو معنى العروبية. وشعارها أن هاشماً لما هلك وكان مهلكه بغزة من أرض الشام، تخلف عمد المطلب صغيرا بيثرب فأقام بأمره من بعده ابنه المطلب، وكان ذا شرف وفضل، وكانت قريش تسميه الفضل لسماحته، وكان هاشم قدم يثرب فتزوج في شي عدي. وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك سيد الاوس لعهده، فولدت عمرو بن أحيحة وكانت لشرفها تشترط أمرها بيدها في عقد النكاح، فولدت عبد المطلب فسمته شيبة،

وتركه هاشم عندها حتى كان كلاماً. وهلك هاشم فخرج إليه أخوه المطلب، فأسلمته إليه بعد تعسف واغتباط به، فاحتمله ودخل مكة فردفه على بعيره، فقالت قريش هذا عبد ابتاعه المطلب فسمي شيبة عبد المطلب من يومئذ. ثم إن المطب هلك بردمان من اليمن، فقام بأمر بني هاشم بعده عبد المطلب بن هاشم، وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحش ما كان قومه يقيمونه بمكة من قبله، وكانت له وفادة على ملوك اليمن من حمير والحبشة، وقد قدمنا خبره مع ابن ذي يزن ومع ابرهة.

ولما أراد حفر زمزم: للرؤيا التي رآها اعترضته قريش دون ذلك، ثم حالوا بينه

وبين مما أراد منها، فنذر لئن ولد له عشرة من الولد ثم يبلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم قرباناً لله عند الكعبة، فلما كملوا عشرة ضرب عليهم القداح عند هبل الصنم العظيم الذي كان في جوف الكعبة على البئر التي كانوا ينحرون فيها هدايا الكعبة، فخرجت القداح على ابنه عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم، وتحير في شأنه، ومنعه قومه من ذلك. وأشار بعضهم وهو المحيرة بن عبد الله بن مخزوم، بسؤال العرافة التي كانت لهم

بالمدينة على ذلك. فألفوها بخيبر وسألوها، فقالت قربوه وعشرا من الإبل، وأجيلوا القداح فإن خرجت على الإبل فذلك، وإلا فزيدوا في الإبل حتى تخرج عليها القداح، وانحروها حينئذ فهي الفدية عنه. وقد رضي إلهكم ففعلوا، وبلغت الإبل مائة. فنحرها عمد المطلب، وكانت من كرامات الله به.

وعليه قولهصلى الله عليه وسلم: أنا ابن الذبيحين يعني عبد الله أباه، وإسماعيل بن إبراهيم جده، اللذين قربا للذبح ثم فديا بذبح الأنعام. ثم أن عبد المطلب زوج ابنه عبد الله بآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فدخل بها وحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعثه عبد المطلب يمتار لهم تمرا فمات هنالك فلما أبطأ عليهم خبره بعث في أثره.

وقال الطبري عن الواقدي: الصحيح إنه أقبل من الشام في حي لقريش، فنزل بالمدية ومرض بها ومات. ثم أقام عبد المطلب في رياسة قريش بمكة، والكون يصغي لملك العرب، والعالم يتمحض بفصال النبوة، إلى أن وضح نور الله من أفقهم، وسرى خبر السماء إلى بيوهم، واختلفت الملائكة إلى أحيائهم، وخرجت الخلافة في انصبائهم، وصارت العزة لمضر ولسائر العرب بهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وعاش عبد المطلب مائة وأربعين سنة وهو الذي احتفر زمزم.

قالى السهيلي: ولما حفر عبد المطلب زمزم استخرج منه تمثالي غزالين من ذهب، وأسيافاً. كذلك كان ساسان ملك الفرس أهداها إلى الكعبة، وقيل سابور. ودفنها الحرث بن مضاض في زمزم، لما خرج بجرهم من مكة. فاستخرجها عبد المطلب وضرب الغزالين حلية للكعبة، فهو أول من ذهب حلية الكعبة بها، وضرب من تلك الأسياف باب حديد وجعله للكعبة. ويقال: إن أول من كسى الكعبة واتخذ لها غلقا تبع إلى أن جعل لها عبد المطلب هذا الباب. ثم اتخذ عبد المطلب حوضاً لزمزم يسقي منه، وحسده قومه على ذلك وكانوا يخربونه بالليل، فلما غمه ذلك رأى في النوم قائلا يقول: قل لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل، فإذا قلتها فقد كفيتهم، فكان بعد إذا أرادها أحد بمكروه رمى بداء في جده، ولما عملوا بذلك تناهوا عنه.

وقال السهيلي: أول من كسا البيت المسوح والخصف والأنطاع تبع الحميري.

ويروى أنه لما كساها انتقض البيت فزال ذلك عنه، وفعل ذلك حين كساه الخصف، فلما كساه الملاء والوصائل قبله وسكن. وممن ذكر هذا الخبر قاسم بن ثابت في كتاب الدلائل. وقال ابن إسحق أول من كسا الديباج الحجاج.

وقال الزبير بى بكار بن عبد الله بن الزبير أول من كساها ذلك. وذكر جماعة منهم الدارقطني إن نتيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب كانت أضلت العباس صغيراً، فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبه، وكانت من بيت مملكة فوفت بنذرها.

هذه أخبار قريش وملكهم بمكة. وكانت ثقيف جيرانهم بالطائف يساجلونهم في مذاهب العروبية وينازعونهم في الشرف، وكانوا من أوفر قبائل هوازن، لأن ثقيفا هو قسي بن منيه بن بكر بن هوازن. وكانت الطائف قبلهم لعدوان الذين كان فيهم حكيم العرب عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن بكر بن عدوان.

وكثر عددهم حتى قاربوا سبعين ألفا. ثم بغى بعضهم على بعض فهلكوا وقل عددهم. وكان قسي بن منبه صهرا لعامر بن الظرب، وكان بنوه بينهم. فلما قل عدد عدوان تغب عليهم ثقيف وأخرجوهم من الطائف وملكوه إلى أن صبحهم الإسلام به على ما نذكره، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، والبقاء لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الجزء الثاني من تاريخ ابن خلدون حسب ترتيب المؤلف

ظهور الإسلام

ملحق الجزء الثانى

من تاريخ العلامة ابت خلدون

حسب ترتيب المؤلف

صفحة فراغ

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر النبوة والهجرة

أمر النبوة والهجرة في هذه الطبقة الثالثة

وما كان من اجتماع العرب علي الإسلام بعد الإباية والحرب

لما استقر أمر قريش بمكة على ما استقر، وافترقت قبائل مضر في أدنى مدن الشام والعراق وما دونهما من الحجاز، فكانوا ظعوناً وأحياء. وكان جميعهم بمسغبة وفي جهد من العيش بحرب بلادهم، وحرب فارس والروم على تلول العراق والشام وأربابهما، يترلون حاميتهم بثغورهما، ويجهزون كتائبهم بتخومهما ويولون على العرب من رجالاتهم، وبيوت العصائب منهم من يسومهم القهر ويحملهم على الإنقياد، حتى يؤتوا جباية السلطان الأعظم، وإتاوة ملك العرب، ويؤدوا ما عليهم من الدماء والطوائل، ويسترهموا ابناءهم على السلم وكف العادية. ومن انتجاع الأرباب وميرة الأقوات والعساكر من وراء ذلك، توقع بمن منع الخراج، وتستأصل من يروم الفساد.

وكان أمر مضر راجعا في ذلك إلى ملوك كندة بني حجر آكل المرار، منذ ولاه عليهم تبع حسان كما ذكرناه. ولم يكن في العرب ملك إلا في آل المنذر بالحيرة للفرس، وفي آل جهينة بالشام للروم، وفي بني حجر هؤلاء على مضر والحجاز. وكانت قبائل مضر مع ذلك، بل وسائر العرب أهل بغي وإلحاد، وقطع للأرحام، وتنافس في الردى، وإعراض عن ذكر الله. فكانت عبادتهم الأوثان والحجرة، وأكلهم العقارب والخنافس والحيات والجعلان، وأشرف طعامهم أوبار الإبل إذا أمروها في الحرارة في الدم.

وأعظم عزهم وفادة على آل المنذر وآل جهينة وبني جعفر ونجعة من ملوكهم.

وإنما كان تنافسهم الموءودة والسائبة والوصيلة والحامى. فلما تأذن الله بظهورهم، وآشرأبت إلى الشرف هوادي أيامهم، وتم أمر الله في إعلاء أمرهم، وهبت ريح دولتهم وملة الله فيهم، تبدت تباشير الصباح من

أمرهم، وأونس الخير والرشد في خلالهم، ويبدل الله بالطيب الخبيث من أحوالهم وشرهم. واستبدلوا بالذل عزا، وبالمآثم متابا، وبالشر خيرا. ثم بالضلالة هدى وبالمسغبة شبعاً وريا وإيالة وملكا.
وإذا أراد الله أمرا يسر أسبابه: فكان لهم من العز والظهور قبل المبعث ما كان.
وأوقع بنو شيبان وسائر بكر بن وائل وعبى بن غطفان بطيء وهم يومئذ ولاة العرب بالحيرة، وأميرها منهم قبيصة بن إياس، ومعه الباهوت صاحب مسلحة كسرى. فأوقعوا بهم الوقعة المشهورة بذي قار، والتحمت عساكر الفرس، وأخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالمدينة بيومها وقال: "اليوم انتصفت العرب من العجم وبي نصروا".
ووفد حاجب بن زرارة من بني تميم على كسرى، في طلب الإنتجاع والميرة
بقومه في أباب العراق. فطلب الأساورة منه الرهن على عادتهم، فأعطاهم قوسه واستكبر عن استرهان ولده، توقعوا منه عجزاً عما سواها، وانتقلت خلال الخير من العجم ورجالات فارس، فصارت أغلب في العرب حتى كان الواحد منهم همه بخلاله وشرفه، وغلب الشر والسفسفة على أهل دول الحجم، وانظر فيما كتب عمر إلى أبي عبيدة بن المثنى حين وجهه إلى حرب فارس:
إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والحيرة، تقدم على أقوام قد
جرأوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون اه.
وتنافست العرب في الخلال، وتنازعوا في المجد والشرف حسبما هو مذكور في أيامهم وأخبارهم. وكان حظ قريش من ذلك أوفر على نسبة حظهم من مبعثه، وعلى ما كانوا ينتحلونه من هدى آبائهم. وينظر ما وقع في حلف الفضول، حيث اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تميم،، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا من ظلمهم حتى ترد عليه مظلمته،، وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول. وفي الصحيح، عن طلحة. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقد شهدت في دار عبد الله بن
جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت. ثم ألقى الله في قلوبهم التماس الدين وإنكار ما عليهم قومهم من عبادة الأوثان، حتى لقد اجتمع منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وزيد بن عمرو بن نفيل من بني عدي بن كعب عم عمر بن الخطاب، وعبيد الله بن جحش من بني أسد بن خزيمة، وتلاوموا في عبادة الأحجار والأوثان، وتواصوا بالنفر في البلدان بالتماس الحنيفية: دين إبراهيم نبيهم.
فأما ورقة فاستحكم في النصرانية وابتغى من أهلها الكتب، حتى علم من أهل الكتاب. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه، حتى جاء الإسلام، فأسلم وهاجر إلى الحبشة، فتنصر وهلك نصرانيا. وكان يمر بالمهاجرين بأرض الحبشة، فيقول. فقحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر. مثلما يقال في الجرو إذا فتح عينيه فقح، وإذا أراد و لم يقدر صأصأ.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم قيصر، فتنضر وحسنت مترلته عنده. وأما زيد بن عمر فما هم أن يدخل في دين ولا اتبع كتابا. واعتزل الأوثان والذبائح والميتة والدم، وهمى عن قتل الموءودة وقال: أعبد رب إبراهيم. وصرح بعيب آلهتهم وكان يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك ولكن لا أعلم، ثم يسجد على راحته. وفال ابنه سعيد وابن عمه عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر الله لزيد بن عمرو قال: نعم! إنه يبعث أمة واحدة. ثم تحدث الكهان والحزاة قبل النبوة لى وإنها كائنة في العرب، وأن ملكهم سيظهر. وتحدث أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما في التوراة والإنجيل من بث محمد وأمته، وظهرت كرامة الله بقريش ومكة في أصحاب الغيل أرهاصاً بين يدي مبعثه.

ثم ذهب ملك الحبشة من اليمن على يطه ابن ذي يزن من بقية التبابعة. ووفد عليه عبد المطلب يهنيه عند استرجاعه ملك قومه من أيدي الحبشة، فبشره ابن ذي يزن بظهور نبي من العرب، وأنه من ولده في قصة معروفة. وتحين الأمر لنفسه كثير من رؤساء العرب يظنه فيه، ونفروا إلى الرهبان والأحبار من أهل الكتاب يسألونهم ببلدهم عن ذلك، مثل أمية بن أبي الصلت الشقي، وما وقع له في سفره إلى الشام مع أبي سفيان بن حرب، وسؤاله الرهبان ومفاوضته أبا سفيان فيما وقف عليه من ذلك، بظن أن الأمر له أولا شرف قريش من بنى عبد مماف، حتى تبين لهما خلاف ذلك في قصة معروفة. ثم رجمت الشياطين عن استماع خبر السماء في أمره، وأصغى الكون لاستماع أنبائه.

المولد الكريم

وبدء التوحيد

ثم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول لأربعين سنه من ملك كسرى أنوشروان، وقيل لثماني وأربعين وثمانماية واثنين وثمانين لذي القرنين. وكان عبد الله أبوه غائباً بالشام، وانصرف فهلك بالمدينة، وولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جد مهلكه بأشهر فلائل، وقيل غير ذلك. فكفله جده عبد المطلب بن هاشم، وكفالة الله من ورائه. والتمس له الرضعاء، واسترضع في بني سعد أبي عد من هوازن، ثم في بني نصر بن سعد، أرضعته منهم حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحرث بن شحنة بن رزاح بن ناظرة بن خصفة بن قيس، وكان ظئره منهم الحارث بن عبد العزى، وقد مر ذكرهما في بني عامر بن صعصعة.

وكان أهله يتوسمون فيه علامات الخير والكرامات من الله، ولما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شق الملكين بطنه، واستخراج العلقة السوداء من قلبه، وغسلهم حشاه وقلبه بالثلج ما كان. وذلك لرابعة من مولده، وهو خلف البيوت يرعى الغنم، فرجع إلى البيت ممتقع اللون. وظهرت حليمة على شأنه فخافت أن يكون أصابه شيء من اللمم فرجعته إلى أمه. واسترابت آمنة برجعها إياه بعد حرصها على كفالته، فأخبرتها الخبر فقالت: كلا والله لست أخشى عليه. وذكرت من دلائل كرامة

الله له وبه كثيراً، وأزارته أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أخوال جده عبد المطلب، من بني عدي بن النجار بالمدينة، وكانوا أخوالا لها أيضا.

وهلك عبد المطلب لثمان سنين من ولادته، وعهد به إلى ابنه أبي طالب فأحسن

ولايته وكفالته، وكان شأنه في رضاعه وشابه ومرباه وأحواله عجباً. وتولى حفظه وكلاءته من مفارقة أحوال الجاهلية، وعصمته من التلبس بشيء منها حتى لقد ثبت أنه مر بعرس مع شباب قريش، فلما دخل على القوم أصابه غشي النوم فما أفاق حتى طلعت الشمس

وافترقوا. ووقع له ذلك أكثر من مرة. وحمل الحجارة مع عمه العباس لبنيان الكعبة وهما صبيان، فأشار عليه العباس بحملها في إزاره، فوضعه على عاتقه، وحمل الحجارة فيه وانكشف، فلما حملها على عاتقه سقط مغشياً عليه، ثم عاد فسقط، فاشتمل إزاره وحمل الحجارة كما كان يحملها.

وكانت بركاته تظهر بقومه، وأهل بيته ورضعائه، في شؤونهم كلها. وحمله عمه أبو طالب إلى الشام وهو إبن ثلاث عشرة سنة، وقيل ابن سبع عشرة سنة فمروا ببحيرا الراهب عند بصرى، فعاين الغمامة تظلله والشجر تسجد له، فدعا القوم وأخبرهم بنبوته، وبكثير من شأنه في قصة مشهورة.

ثم خرج ثانية إلى الشام تاجرا بمال خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى مع غلامها ميسرة، ومروا بنسطور الراهب، فرأى مفكين يظلانه من الشمس، فأخبر ميسرة بشأنه؛ فأخبر بذلك خديجة، فعرضت نفسها عليه. وجاء أبو طالب فخطبها إلى أبيها، فزوجه، وحضر الملاء من قريش، وقام أبو طالب خطيباً فقال: الحمد لته الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضيء معد وعنصر مضر، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمنا، وجعلنا أمناء بيته وسواس حرمه، وجعلنا الحكام على الناس. وإن ابن أخي محمد بن عبد لله من قد علمتم قرابته، وهولا يوزن بأحد إلا رجح به. فإن كان في المال تل فإن المال ظل زائل. وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة.

وشهد بنيان الكعبة لخمس وثلاثين سنة من مولده، حين أجمع كل قريش على

هدمها وبنائها. ولما انتهوا إلى الحجر تنازعوا أيهم يضعه، وتداعوا للقتال. وتحالف بنو عبد الدار على الموت ثم اجتمعوا وتشاوروا. وقال أبو أمية حكموا أول من دخل من باب المسجد، فتراضوا على ذلك. ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذا الأمين- وبذلك كانوا يسمونه- فتراضوا به وحكموه. فبسط ثوباً ووضع فمه الحجر، وأعطى قريشا طرف الثوب فرفعوه حتى أدنوه من مكانه، ووضعه عليه السلام بيده وكانوا أربعة: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمر بن مخزوم، وقيس بن عدي السهمي. ثم استمروا على أكمل الزكاء والطهارة في

أخلاقه. وكان يعرف بالأمين. وظهرت كرامة الله فيه، وكان إذا أبعد في الخلاء لا يمر بحجر ولا شجر إلا وسلم عليه.

بدء الوحي

ثم بدأ بالرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم تحدث

الناس بشأن ظهوره ونبوته، ثم حببت إليه العبادة والخلوة بها، فكان يتزود للانفراد حتى جاء الوحي بحراء لأربعين سنة من مولده، وقيل لثلاث وأربعين. وهي حالة يغيب فيها عن جلسائه وهو كائن معهم، فأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه ويعي قوله، وأحيانا يلقى عليه القول ويصيبه أحوال الغيبة عن الحاضرين من الغط والعرق، وتصيبه كما ورد في الصحيح من أخباره قال: وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال.

وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. فأصابته تلك الحالة بغار حراء وألقى عليه:

(إقرأ باسم ربك الذى خلق* خلق الإنسان من علق* إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم *علم الإنسان ما لم يعلم).

وأخبر بذلك كما وقع في الصحيح، وآمنت به خديجة وصدقته، وحفظت عليه

الشأن. ثم خوطب في الصلاة وأراه جبريل طهرها. ثم صلى به وأراه سائر أفعالها. ثم كان شأن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، من الأرض إلى السماء السابعة، وإلى سدرة المنتهى، وأوحى إليه ما أوحى.

ثم آمن به علي ابن عمه أبي الطالب، وكان في كفالته من أزمة أصابت قريشا وكفل

العباس جعفرا أخاه. فجعفر أسن عيال أبي طالب، فأدركه الإسلام وهو في كفالته، فآمن وكان يصلى معه فى الشعاب مختفيا من أبيه، حتى إذا ظهر عليهما أبو طالب دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا أستطيع فراق ديني ودين آبائي! ولكن لا يخلص إليك شيء تكره ما بقيت. وقال لعلي: الزمه! فإنه لا يدعو الا الخير. فكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى، ثم أبو بكر وعلي بن أبي طالب كما ذكرنا، وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال بن حمامة مولى أبي بكر، ثم عمر بن عنبسة السلمي وخالد بن سعيد بن العاص بن امية.

ثم أسلم بعد ذلك قوم من قريش، اختارهم الله لصحابته من سائر قومهم، وشهد

لكثير منهم بالجنة. وكان أبو بكر محببا سهلاً، وكانت رجالات قريش تألفه، فأسلم على يده من بني أمية عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ومن عشيرة بني عمرو بن كعب بن سعد بن تيم طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو، ومن بني زهرة بن قصي سعد بن أبي وقاص، واسمه مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحرث بن زهرة.

ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد وهو ابن صفية عمة

النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أسلم من بني الحرث بن فهر أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحرث. ومن بني مخزوم ابن يقظة بن مرة بن كب أبو سلمة عبد الأسد بن هلال بن عبد

الله بن عمر بن مخزوم. ومن بني جمح ابن عمر هصيص بن كعب، عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذاقة بن جمح وأخوه قدامة. ومن بني عدي سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد الله بن قرط بن رياح بن عدي وزوجته فاطمة أخت عمر بن الخطاب بن نفيل. وأخوه زيد هو الذي رفض الأوثان في الجاهلية، ودان بالتوحيد، وأخبرصلى الله عليه وسلم أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

ثم أسلم عمير أخو سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود (رض) بن غافل بن

حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل. بن الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة حليف بني زهرة، كان يرعى غنم عقبة بن أبي معيط، وكان سبب إسلامه ألن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلب من غنمه شاة حائلا فعدت.

ثم أسلم جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب وامرأته أسماء بنت عميس بنت النعمان بن كعب بن مفك بن قحافة الخثعمي، والسائب بن عثمان بن مظعون، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، واسمه مهشم، وعامر بن فهيرة أزدي، وفهيرة أمه مولاه أبي بكر. وأفد بن عبد الله بن عبد مناف، تميمي من حلفاء بني عدي. وعمار بن ياسر عنسي من مذجح مولى لبني مخزوم، وصهيب بن سنان من بني الضمر بن قاسط حليف لبني جدعان. ودخل الناس في الدين أرسالاَ، وفشا الإسلام وهم ينتجعون به، ويذهبون إلى الشعاب فيصلون.

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بأمره ويدعو إلى دينه بعد ثلاث سنين من مبدأ الوحي، فصعد على الصفا ونادى: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش.

فقال: لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتها تصدقونني؟ قالوا: بلى!... قال: فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد. ثم نزل قوله " (وأنذر عشيرتك الأقربين). وتردد إليه الوحي النذارة فجمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون على طعام صنعه لهم علي بن أبي طالب بأمره ودعاهم إلى الإسلام ورغبهم وحذرهم وسمعوا كلامه وا فترقوا.

ثم إن قريشا حين صدع، وسب الآلهة وعابها نكروا ذلك منه، ونابذوه واجمعوا على عداوته، فقام أبو طالب دونه محامياً ومانعاً، ومشت إليه رجال قريش يدعونه إلى النصفة: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأبو البختري بن هشام بن الحرب بن أسد بن عبد العزى، والاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ابن أخي الوليد، والعاص بن وائل بن هشام بن سعد بن سهم، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد فناف بن زهرة. فكلموا أبا طالب وعادوه فردهم ردا جميلا. ثم عادوا إليه وسألوه النصفة، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته بمحضرهم وعرضوا عليه قولهم فتلا عليهم القرآن، وأيأسهم من نفسه وقال لأبي طالب:

يا عماه لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه.

واستعبر وظن أن أبا طالب بدا له فيه مجاف، فرق له أبو طالب وقال: يا ابن أخى ! قل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدا.

هجرة الحبشة

ثم افترق أمر قريش، وتعاهد بنو هاشم وبنو المطلب مع أبي طالب على القيام

دون النبي صلى الله عليه وسلم، ووثب كل قبيلة على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم، واشتد عليهم العذاب، فأمرهم النبىصلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم، وكان قريش يتعاهدونها بالتجارة فيحمدونها. فخرج عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مراغما لأبيه، وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو بن عامر بن لؤي، والزبير بن العوام ومصعب بن عمير بن عبد شمس وأبوسبرة بن أبي هاشم بن عبد

العزى العامري من بني عامر بن لؤي، وسهيل بن بيضاء من بني الحرث بن فهر، وعبد الله بن مسعود، وعامر بن ربيعة العتري حليف بني عدي وهو من عتر بن وائل ليس من عترة، وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة.

فهؤلاء الأحد عشر رجلا كانوا أول من هاجر إلى أرض الحبشة، وتتابع المسلمون

من بعد ذلك. ولحق بهم جعفر بن أبي طالب وغيره مر المسلمين. وخرجت قريش لي آثار الأولين إلى البحر، فلم يدركوهم وقدموا إلى أرض الحبشة فكانوا بها، وتتابع المسلمون في اللحاق بهم. يقال: إن المهاجرين إلى أرض الحبشة بلغوا ثلاثة وثمانين رجلا. فلما رأت قريش النبي صلى الله عليه وسلم قد امتنع بعمه وعشيرته وأنهم لا يسلمونه طفقوا يرمونه عند الناس ممن يفد على مكة بالسحر والكهونة والجنون والشعر، يرومون بذلك صدهم عن الدخول في دينه. ثم انتدب جماعة منهم لمجاهرتهصلى الله عليه وسلم

باالعداوة والأذى، منهم عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، أحد المستهزئين، وابن عمه أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعقبة بن أبي معيط أحد المستهزئين، وأبو سفيان من المستهزئين والحكم بن أبي العاص بن أمية من المستهزئين أيضاً. والنضر بن الحرث من بني عبد الدار والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى من المستهزئين، وابنه زمعة وأبو البختري العاص بن هشمام، والأسود بن عبد يغوث وأبو جهل بن هشام وأخوهما العاص وعمهما الوليد وابن عمهم قيس بن الفاكه بن المغيرة، وزهير بن أبي امية بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي وابنا عمه نبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية وانجى ابنا خلف بن جمح.

صفحة فراغ

القسم الرابع

وأقاموا يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتعرضون له بالاستهزاء ؤالإذاية، حتى لقد كان بعضهم ينال منه بيده. وبلغ عمه حمزة يوما أن أبا جهل بن هشام تعرض له يوما بمثل ذلك، وكان قوي الشكيمة. فلم يلبث أن جاء إلى المسجد وأبو جهل في نادي قريش، حتى وقف على رأسه وضربه وشجه وقال له: تشتم محمدا وأنا على دينه؟ وثار رجال بني مخزوم إليه فصدهم أبو جهل وقال: دعوه فإني سببت ابن أخيه سبا قبيحا. ومضى حمزة على إسلامه وعلمت قريش أن جانب المسلمين قد اعتز بحمزة، فكفوا بعض الشر بمكانه فيهم. ثم اجتمعوا وبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي ليسلم إليهم من هاجر إلى أرضه من المسلمين، فنكر النجاشي رسالتهما وردهما مقبوحين.

إسلام عمر بن الخطاب

ثم أسلم عمر بن الخطاب، وكان سببه إسلامه أنه بلغه أن أخته فاطمة أسلمت مع زوجها سعيد ابن عمه زيد، وان خباب بن الأرت عندهما يعلمهما القرآن فجاء إليهما منكراً وضرب أخته فشجها، فلما رأت الدم قالت. قد أسلمنا وتابعنا محمدا فافعل ما بدا لك! وخرج إليه خباب من بعض زوايا البيت، فذكره ووعظه، وحضرته الانابة فقال له: اقرأ على من هذا القرآن! فقرأ من سورة طه، وأدركته الخشية فقال له. كيف تصنعون إذا أردتم الإسلام؟ فقالوا له : وأروه الطهور ثم سأل عن مكان النبي صلى الله عليه وسلم فدل عليه،

فطرقهم في مكانهم، وخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مالك يا ابن الخطاب؟ فقال: يا رسول الله! جئت مسلماً ! ثم تشهد شهادة الحق ودعاهم إلى الصلاة عند الكعبة، فخرجوا وصلوا هنالك واعتز المسلمون بإسلامه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: اللهم اعز الإسلام بأحد العمرين يعنيه أو أبا جهل. فلما رأت قريش فشو الإسلام وظهوره أهمهم ذلك، فاجتمعوا وتعاهدوا على بني هاشم وبني المطلب، الا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في الكعبة. وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب كلهم كافرهم ومؤمنهم، فصاروا في شعب أبي طالب محصورين متجنبين، حاشا أبي لهب، فإنه كان مع قريش على قومهم. فبقوا كذلك ثلاث سنين لا يصل إليهم شيء ممن أرادوا صلتهم إلا سرا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل على شأنه من الدعاء إلى الله، والوحي عليه متتابع إلى أن قام في نقض الصحيفة رجال من قريش، كان أحسنهم في ذلك أثرا هشام لن عمرو بن الحرث من بني حسن بن عامر بن ئؤي، لقي زهر بن أبي امة بن المغيرة، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فعيره بإسلامه أخواله إلى ما هم فمه، فأجاب إلى نقض الصحيفة. ثم مضى إلى مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وذكر رحم هاشم والمطلب ثم الى أبي البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود فأجابوا كلهم وقاموا في نقض الصحيفة. وقد بلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الصحيفة أكلت الأرضة كتابتها كلها، حاشا أسماء الله. فقاموا بأجمعهم فوجدوها كما قال، فخروا ونقض حكمها. ثم أجمع أبو بكر الهجرة وخرج لدلك، فلقيه ابن الدغينة فرده. ثم اتصل بالمهاجرين في أرض الحبشة خبر كاذب بأن فريشاً قد أسلموا، لرجع قوم منهم إلى مكة: منهم عثمان بن عفان وزوجته

وأبو حذيفة وامرأته، وعبد الله بن عتبة بن غزوان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وأخوه والمقداد بن عمر وعبد الله بن مسعود، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم المؤمنين، وسلمة بن هشام بن المغيرة وعمار بن ياسر، وبنو مظعون: عبد الله وقدامة وعثمان وابنه السائب، وخنيس بن حذافة وهشام بن العاص وعامر بن ربيعة وامرأته، وعبد الله بن مخرمة من بني عامر بن لؤي، وعبد الله بن سهل بن السكران بن عمرو، وسعد بن خولة، وأبو عبيدة بن الجراح وسهيل بن بيضاء وعمرو بن أبي سرح، فوجدوا المسلمين بمكة على ما كانوا عليه مع قريش من الصبر

على أذاهم، ودخلوا إلى مكة بعضهم مختفيا وبعضهم بالجوار، وأقاموا إلى ان كانت الهجرة إلى المدينة بعد أن مات بعضهم بمكة.

الأذى والاستهزاء

ثم هلك أبو طالب وخديجة، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، فعظمت المصيبة

وأقدم عليه سفهاء قريش بالإذاية والاستهزاء وإلقاء القاذورات في مصلاه، فخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام والنصرة والمعونة. وجلس إلى عبد ياليل بن عمر بن عمير وأخويه مسعود وحبيب، وهم يومئذ سادات ثقيف وأنتمرافهم، وكلمهم فأساءوا الرد، ويئس منهم فأوصاهم بالكتمان فلم يقبلوا، وأغروا به سفهاءهم فاتبعوه حتى ألجأوه إلى حائط عتبة وشيمة ابني ربيعة، فأوى إلى ظله حتى اطمأن، ثم رفع طرفه إلى السماء يدعو:

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، أنت ربي إلى من تكلني! إلى بغيض يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بها علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يترل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

ولما انصرف من الطائف إلى مكة، بات بنخلة وقام يصلي من جوف الليل، فمر به نفر من الجن سمعوا القرآن، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة في جوار المطعم بن عدي بن نوفل، بعد أن عرض ذلك على غيره من رؤساء قريش، فاعتذروا بما قبله منهم. ثم قدم عليه الطفيل بن عمرو الدوسي فأسلم، ودعا قومه فأسلم بعضهم، ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له علامة للهداية، فجعل لوجهه نوراً، ثم دعا له فنقله إلى سوطه وكان يعرف بذي النور.

الإسراء

قال ابن حزم: ثم كان الاسراء إلى بيت المقدس، ثم إلى السماوات، ولقي من لقي من الأنبياء، ورأى جنة المأوى وسدرة المنتهى في السماء السادسة، وفرضت الصلاة في تلك الليلة. وعند الطبري: الاسراء وفرض الصلاة كان أول الوحي. ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على وفود العرب في الموسم، يأتيهم في منازلهم ليعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إلى

نصره، ويتلو عيهم القرآن. وقريش مع ذلك يتعرضون لهم بالمقابح إن يقبلوا منهم، وأكثرهم في ذلك أبو لهب. وكان من الذين عرض عليهم في الموسم بنو عامر بن صعصعة بن مضر وبنو شيبان وبنو حنيفة من ربيعة وكندة من قحطان وكلب من قضاعة وغيرهم من قبائل العرب.

فكان منهم من يحسن الاستماع والعذر، ومنهم من يعرض ويصرح بالاذاية،

ومنهم من يشترط الملك الذي ليس هو من سبيله. فيردصلى الله عليه وسلم الأمر إلى الله، ولم يكن فيهم أقبح رداً من بني حنيفة، ولد ذخر الله الخير في ذلك كله للأنصار. فقدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف بن الاوس، فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الإسلام فلم يبعد ولم يجب، وانصرف إلى المدينة فقتل في بعض حروبهم وذلك قبل بعاث. ثم قدم بمكة أبو الحيسر أنس بن رافع في فتية من قومه من بني عبد الأشهل يطلبون الحلف، لدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقال إياس بن معاذ منهم- وكان شابا حدثاً-: هذا والله خير مما جئنا له! فانتهره أبو الحيسر فسكت. ثم انصرفوا إلى بلادهم ولم يتم لهم الحلف ومات إياس فيقال انه مات مسلما.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي عند العقبة في الموسم ستة نفر من الخزرج وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد لن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وعوف بن الحرث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم، وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زيد بن مالك بن غضبة بن جشم بن الخزرج، وطبقة بن عامر بن حيدرة بن عمر بن سواد بر غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن اشد بن مراد بن يزيد بن جشم، وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن خزام بن كعب بن غنم بن سلمة، وجابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سلمة بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة،

فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وكان من صنع الله لهم أن اليهود جيرانهم كانوا يقولون: إن نبيا يبعث ولد أظل زمانه، فقال بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي تحدثكم به اليهود، فلا يسبقونا إليه. فآمنوا وأسلموا وقالوا إنا قد قدمنا بينهم حروبا فننصرف وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه! فعسى الله أن يجمع كلمتهم بك، فلا يكون

أحد أعز منك، فانصرفوا إلى المدينة ودعوا إلى الإسلام حتى فشا فيهم.

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم.

العقبة الأولى

حتى إذا كان من العام القابل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلا: منهم خمسة من السنة الذي ذكرنا وهم من عدي، وجابر بن عبد الله، فإنه لم يحضرها. وسبعة من غيرهم وهم: معاذ بن الحرث أخو عوف بن الحرث المذكور، وقيل: إنه ابن عفراء، وذكوان ابن عبد قيس بن خالدة، وخالد بن مخلد بن عامر بن زريق، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهد بن ثعلبة بن صرمة بن أصرم بن عمرو

بن عبادة بن عصيبة من بني حبيب، والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف، هؤلاء عشرة من الخزرج.

ومن الأوس: أبو الهيثم مالك بن التيهان، وهو من بني عبد الأشهل بن جشم بن الحرث بن الخزرج بن عمر بن ملك بن أوس، وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الاوس بن حارثة؛ فبايع هؤلاء، رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة على بيعة النساء، - وذلك قبل أن يفرض الحرب - على الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أن لا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يفتروا الكذب.

فلما حان انصرافهم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ابن مكتوم، ومصعب بن عمير يدعوهم إلى الإسلام، ويعلم من أسلم منهم القرآن والشرائع. فنزل بالمدينة على أسعد بن زرارة، وكان مصعب يؤمهم، وأسلم على يديه خلق كثير من الأنصار. وكان سعد بن معاذ وأسعد بن زرارة ابنا الخاله، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن الحصين إلى سعد بن زرارة، - وكان جارا لبني عبد الأشهل - فأنكرا عليه فهداهما الله إلى الإسلام، وأسلم لإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد الرجال - والنساء. ولم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها المسلمون رجال ونساء، حاشا بني أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف: بطون من الأوس وكانوا في عوالي المدينة، فأسلم منهم وكان قوم، شدهم أبو قيس صيفي بن الأسلت الشاعر، فوقف بهم عن الإسلام حتى كانت الخندق فأسلموا كلهم.

العقبة الثانية

ثم رجع مصعب المذكور بن عمير إلى مكة، وخرج معه إلى الموسم جماعة ممن

أسلم من الأنصار للقاء النبي صلى الله عليه وسلم في جملة قوم مهم لم يلموا بعد. فوافوا مكة وواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق، ووافوا ليلة ميعادهم إلى العقبة متسللين من رحالهم سرا عمن حضر من كفار قومهم، وحضر معهم عبد الله بن حزام بن عمرو أبو جابر، وأسلم تلك الليلة.

فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم( ) على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وإزرهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه.

وحضر العباس بن عبد المطلب، وكان على دين قومه بعد. وإنما توثق للنبيصلى الله عليه وسلم

وكان للبراء بن معرور في تلك الأيام المقام المحمود في الإخلاص والتوثق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أول من بايع. وكانت عدة الذين بايعوا تلك الليلة ثلاثا وسبعين رجلاً وامرأتين. واختار منهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وقال لهم: انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي. فمن الخزرج من أهل العقبة الأولى أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت. ومن غيرهم سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك، وثعلبة بن كعب بن الخزرج، وعبد الله بن رواحة بن امرىء

القيس، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، وعبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر، وسعد بن عبادة بن ديلم بن حارثة بن لودان بن عبد ود بن يزيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة، وثلاثة من الأوس وهم أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وسعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن الأوس ورفاعة بن عبد المنذر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. فدعا قوم أبو الهيثم بن التيهان مكان رفاعة هذا والله أعلم.

ولما تمت هذه البيعة، أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجوع إلى رحالهم فرجعوا،

ونمي الخبر إلى قريش فغدت الخلة منهم على الأنصار في رحالهم، فعاتبوهم فأنكروا ذلك، وحلفوا لهم. وفال عبد الله بن أبي بن سلول: ما كان قومي ليتفقوا على مثل هذا وأنا لا أعلمه ! فانصرفوا عنه، وتفرق الناس من منى، وعلمت قريش الخبر، فخرجوا في

طلبهم. فأدركوا سعد بن عبادة فجاءوا به إلى مكة يضربونه ويجرونه بشعره حتى نادى بجبير بن مطعم والحرث بن أمية، وكان يجيرهما ببلده فخلصاه مما كان فيه. وقد كانت قريش قبل ذلك سمعوا صائحاً يصيح ليلاً على جبل أبي قبيس:

فإن يسلم السعدان يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاف مخالف

فقال أبو سفيان : السعدان سعد بكر وسعد هذيم.

فلما كان في الليلة القابلة سمعوه يقول:

أيا سعد: سعد الأوس كن أنت ناصراً ويا سعد سعد الخزرجي الغضارف

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا على الله في الفردوس منية عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى جنان من الفردوس ذات رفارف

فقال والله هذان: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ.

ولما فشا الإسلام بالمدينة، وطفق أهلها يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، تعاقدت

على أن يفتنوا الملمين عن دينهم، فأصابهم من ذلك جهد شديد. ثم نزل قوله تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فلما تمت بيعة الأنصار على ما وصفناه، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ممن هو بمكة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالا، وأول من خرج أبو سلمة بن عبد الأسد، ونزل في قبا، ثم هاجر عامر بن ربيعة حليف بني عدي بامرأته ليلى بنت أبي خيثمة بن غانم. ثم هاجر جميع بني جحش من بني أسد بن خزيمة ونزلوا بقبا، على عكاشة بن محصن وجماعة من بني أسد، حلفاء بني أمية كانت فيهم زينب بنت جحش أم المؤمنين وأختاها حمنة وأم حبية.

ثم هاجر عمر بن الخطاب وعباس بن أبي ربيعة في عشرين راكباً، فنزلوا في العوالي في بني أمية بن زيد. وكان يصلي لهم سالم مولى أبي حذيفة. وجاء أبو جهل بن هشام، فخادع عياش بن أبي ربيعة ورده إلى مكة، فحبسوه حتى تخلص بعد حين. ورجع وهاجر مع عمر أخوه زيد، وسعيد ابن عمه زيد وصهره على بنته حفصة أم المؤمنين، جحش بن حذافة السهمى وجماعة من حلفاء بني عدي نزلوا بقبا على رفاعة بن عبد المنذر من بني عوف بن عمرو.

ثم هاجر طلحة بن عبيد الله، فنزل هو وصهيب بن سنان على حبيب بن أساف في

بني الحرث بن الخزرج بالسلم وقيل بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة. ثم هاجر حمزة بن عبد المطلب ومعه زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحليفه أبو مرثد كناز بن حصن الغنوي بم فزلوا في بني عمرو بن عوف بقبا على كلثوم بن الهدم، ونزل جماعة من بني المطلب بن عبد مناف فيهم مسطح بن أثاثة ومعه خباب بن الأرت مولى عتبة بن غزوان فى بنى المسجلان بقبا. ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع في بني الحرث بن الخزرج. ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى على المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح في دار بنى جحجبا ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ في بني عبد الاشهل. ونزل أبو حذيفة بن عتبة ومولاه سالم، وعتبة بن غزوان المازني على عباد بن بشر من بني عبد الأشهل. ولم يكن سالم عتيق أبي حذيفة وإنما اعتقته امرأة من الأوس كانت زوجاً لأبي حذيفة، اسمها بثينة بنت معاذ، فتبناه ونسب إليه. ونزل عثمان بن عفان في بني النجار على أوس أخي حسان بن ثابت. ولم يبق أحد من المسلمين بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فإنهما أقاما بأمره وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يؤذن له في الهجرة.

الهجرة

ولما علمت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار له شيعة وأنصار من غيرهم، وأنه مجمع على اللحاق بهم، وأن أصحابه من المهاجرين سبقوه إليهم، لشاوروا ما يصنعون فى أمره. واجتمعت لذلك مشيختهم في دار الندوة: عتبة وشيبة وأبو سفيان من بني امية، وطعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحارث بن عامر من بني نوفل، والنضر بن الحارث من بني عبد الدار، وأبو جهل من بني مخزوم، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج من بني سهم، وأمية بن خلف من بني جمح، ومعهم من لا يعد من قريش، فتشاوروا في حبسه وإخراجه عنهم. ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شاباً جلداً فيقتلونه جميعاً، فيتفرق دمه في القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم. واستعدوا لذلك من ليلتهم، وجاء الوحي بذلك إلى النبيصلى الله عليه وسلم. فلما رأى أرصدهم على باب منزله، أمر

علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ويتوشح ببرده. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، فطمس الله تعالى على أبصارهم، ووضع على رؤوسهم ترابا، وأقاموا طول ليلهم. فلما أصبحوا خرج إليهم علي، فعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نجا، وتواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر

الصديق، واستأجر عبد الله بن أريقط الدولي من بني بكر بن عبد مناف ليدل بهما إلى المدينة، وينكب عن طريق العظمى، وكان كافرا وحليفاً للعاص بن وائل، لمحنهما وثقا بأمانته، وكان دليلاً بالطريق.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خوخة في ظهر دار أبي بكر ليلا وأتيا الغار الذي في جبل ثور بأسفل مكة، فدخلا فيه. وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بالأخبار، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وراعي غنمه، يريح غنمه عليهما ليلاً فيأخذا حاجتهما من لمنها، واسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام.

ونقض عامر بالغنم إثر عبد الله، ولما فقدته قريش اتبعوه ومعهم القائف، فقاف الأثر حتى وقف عند الغار، وقال: هنا انقطع الأثر وإذا بنسج العنكبوت على فم الغار، فاطمأنوا إلى ذلك ورجعوا، وجعلوا مائة ناقة لمن ردهما عليهم. ثم أتاهما عبد الله بن أريقط بعد ثلاث براحلتيهما، فركبا.

وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة، واتتهما أسماء بسفرة لهما، وشقت نطاقها وربطت السفرة، فسميت ذات النطاقين. وحمل أبو بكر جميع ماله نحو ستة آلاف درهم، ومروا بسراقه بن مالك بن جعشم فاتبعهم ليردهم. ولما رأوه دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فساخت قوائم فرسه في الأرض، فنادى بالأمان وأن يقفوا له. فطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتابا، فكتبه أبو بكر بأمره، وسلك الدليل من أسفل مكة على الساحل أسفل من عسفان وأمج، وأجاز قديدا إلى العرج ثم إلى قبا من عوالي المدينة. ووردوها قريباً من الزوال يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، وخرج الأنصار يخلقونه، وقد كانوا ينتظرونه إلى أن قلصت الظلال ورجعوا إلى بيوتهم، فتلقوه مع أبي بكر في ظل نخلة.

ونزل عليه السلام بقبا على سعد بن خيثمه، وقيل على كلثوم الهدم. ونزل أبو بكر بالسخ في بني الحرث بن خزرج على حبيب بن أسد، وقيل على خارجة بن زيد. ،لحق بهم علي رضى الله عنه من مكة بعد أن رد الودائع للناس التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم فنزل معه بقبا.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك أياماً، ثم نهض لما أمر الله، وأدركته الجمعة في بني سالم بن غؤف، فصلاها في المسجد هنالك. ورغب إليه رجال شي سليم أن يقيم عندهم، وتبادروا إلى خطام ناقته اغتناما لبركته. فقال عليه السلام: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. ثم مشى والأنصار حواليه إلى أن مر بدار بني بياضة، فتبادر إليه رجالهم يبتدرون خطام الناقة. فقال: دعوها فإنها مأمورة. ثم مر بدار بني ساعدة، فتلقاه رجال وفيهم سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو ودعوه كذلك، وقال لهم مثل ما قال للآخرين. ثم إلى دار بني حارثة بن الخزرج فتلفاه سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة. ثم مر ببني عدي بن النجار أخوال عبد المطلب ففعلوا وقال لهم مثل ذلك. إلى أن أتى دار بني مالك بن النجار، فبركت ناقته على باب مسجده اليوم، وهو يومئذ لغلامين منهم في حجر معاذ بن عفراء اسمهما سهل وسهيل، وفيه خرب ونخل وقبور للمشركين، ومربد.

ولما بركت الناقة، بقي على ظهرها ولم ينزل، فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها.

ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مكانها الأول، فبركت واستقرت، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها. وحمل أبو أيوب رحله إلى داره، فترل عليه، وسأل عن المربد وأراد أن يتخذه مسجدا، فاشتراه من بني النجار بعد أن وهبوه له فأبى من قبوله. ثم أمر بالقبور فنبشت، وبالنخل فقطعت، وبنى المسجد باللبن، وجعل عضادتيه الحجارة، وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد، وعمل فيه المسلمون حسبة لله عز وجل.

ثم وادع اليهود وكتب بينه وبينهم كتاب صلح وموادعة، شرط فيه لهم وعليهم. ثم

مات أسعد بن زرارة وكان نقيبا لبني النجار، فطلبوا إقامة نقيب مكانه. فقال أنا نقيبكم ولم يخص بها مفهم أحد دولن أحد، فكانت من مناقبهم.

ولما رجع عبد الله بن أريقط إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكانه، فخرج

ومعه عائشة أخته وأمهما أم رومان، ومعهم طلحة بن عبيد الله، فقدموا المدينة، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة بنت أبي بكر، وبنى بها في مترل أبي بكر بالسنح. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا رافع إلى نباتة وزوجته سودة بنت زمعة، فحملهما إليه من مكة. وبلغ الخبر بموت أبي أحيحة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل من مشيخة قريش.

المؤاخاة

ثم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، فآخى بين جعفر بن أبي طالب

وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك من بني سهم، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس لن ثابت أخي حسان، وبين سعيد بن زيد وأبي بن كعب، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، ربين أبي حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر بن وقش من بني عبد الأشهل. وبين غمار بن ياسر وخذيفة بن اليمان العنسي حليف بني عبد الأشهل، وقيل بل ثابت بن قشر بن الشماس، وبين أبي ذز الغفارى والمنذر بن عمرو من بني ساعدة، وبين حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العرى وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء وعفير بن بلتعة من بني الحرث بن الخزرج و... وبين بلال بن حمامة وأبي رويحة الخثعمي.

ثم فرضت الزكاة، ويقال وزيد في صلاة الحاضر ركعتين، فصارت أربعا بعد أن

كانت ركعتين سفرا وحضراً.

ثم أسم عبد الله بن سلام، وكفر جمهور اليهود، وظهر قوم من الأوس والخزرج

منافقون يظهرون الإسلام مراعاة لقومهم من الأنصار، ويصرون الكفر. وكان رئيسهم: من الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس، ومن الأوس الحرث بن سهيل بن الصامت وعباد بن حنيف ومربع بن قيظي

وأخوه أوس من أهل مسجد الضرار. وكان قوم من اليهود أيضا تعوذوا بالإسلام وهم يبطنون الكفر منهم: سعد بن حنيس وزيد بن اللطيت، ورافع بن حزيمة ورفاعة بن زيد بن التابوت وكنانة ن حيورتا.

العزوات

غزوة الابواء

ولما كان شهر صفر بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، خرج في مائتين من أصحابه

يريد قريشاً وبني ضمرة، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة، فبلغ ودان والأبواء ولم يلقهم. واعترضه مخشي بن عمرو سيد بني ضمرة بن عبد مناة بن كنانة، وسأله موادعة قومه، فعقد له ورجع إلى المدينة، ولم يلى حربا. وهي أول غزاة غزاها بنفسه، وتسمى بالايواء وبودان، المكانان اللذان انتهى إليهما، وهما متقاربان بنحو ستة أميال. وكان صاحب اللواء فمها حمزة بن عبد المطلب.

غزوة بواط : ثم بلغه أن عيراً لقريش نحو ألفين وخمسمائة فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش ذاهبة إلى مكة، فخرج في ربيع الاخر لاعتراضها، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون. وقال الطبري: سعد بن معاذ، فانتهى إلى بواط، ولم يلقهم، ورجع إلى المدينة.

غزوة العشيرة

ثم خرج في جمادى الأولى غازياً قريشا، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن

عبد الأسد، فسلك عن جانب من الطريق إلى أن لقي الطريق بصخيرات اليمام إلى العشيرة من بطن ينبع، فأقام هنالك بقية جمادى الأولى وليلة من جمادى الثانية، ووادع بني مدلج. ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حرباً.

غزوة بدر الأولى

وأقام بعد العشيرة نحو عشر ليال، ثم أغار كرز بن جابر الفهرفي على سرح المدينة، فخرج في طلبه حتى بلغ ناحية بدر، وفاته كرز فرجع إلى المدينة.

البعوث

وفي هذه الغزوات كلها، غزا بنفسه، وبعث فيما بينها بعوثاً نذكرها وفيها: بعث حمزة بن عبد المطلب بعد الابواء، بعثه في ثلاثين راكباً من المهاجرين إلى سيف

البحر، فلقي أبا جهل في ثلثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم عدي بن حجر الجهني ولم يكن قتال.

ومنها بعث عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب في ستين راكبا وضانين من المهاجرين، فبلغ ثنية المرار، ولقي بها جمعاً عظيما من قريش، كان عليهم عكرمة بن أبي جهل، وقيل مكرز بن حفص بن الأحنف، ولم يكن بينهم قتال. وكان مع الكفار يومئذ من المسلمين المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان، خرجا مع الكفار ليجدا السبيل إلى اللحاق بالنبي صلى الله عليه وسلم، فهربا إلى المسلمين وجاءا معهم. وكان بعث حمزة وعبيدة متقاربين، واختلف ايهما كان قبل، إلا أنهما أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الطبري: ان بعث حمزة كان قبل ودان في شوال لسبعة أشهر من الهجرة، ومنها بعث سعد بن أبي رقاص في ثمانية رهط من المهاجرين، لطلب كرز بن جابر حين أغار على سرح المدينة فبلغ المرار ورجع.

ومنها بعث عبد الله بن جحش إثر مرجعه من يبدر الأولى في شهر رجب، بعثه بثمانية من المهاجرين وهم: أبو حذيفة بن عتبة، وعكاشة بن محصن بن أسد بن خزيمة، وعتبة بن غزوان بن مازن بن منصور، وسعد بن أسى وقاص، وعامر بن ربيعة العتري حليف بني عدي ووافد بن عبد الله بن زيد مناة بن تميم، وخالد بن البكير بن سعد بن ليث وسهيل بن مضاض بن مهر بن مالك. وكتب له كتابا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ولا يكره أحداً من أصحابه. فلما قرأ الكتاب بعد يومين، وجد فيه أن تمضي حتى تترل نخلة بين مكة

والطائف، وترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم. فأخبر أصحابه وقال: حتى نترل نخلة بين مكة والطائف، ومن أحب الشهادة فلينهض، ولا أستكره أحداً. فمضوا كلهم وأضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان في بعض الطريق بعيراً لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا في طلبه، ونفر الباقون إلى نخلة. فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان مولاهم، وذلك آخر يوم من رحب. فتشاور المسلمون وتجرح بعضهم الشهر الحرام، ثم اتفقوا واغتنموا الفرصة فيهم. فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل، وقدموا بالعير والأسيرين، وقد أحرجوا الخمس فعزلوه. فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم فعلهم ذلك في الشهر

الحرام، فسقط في أيديهم ثم أنزل الله تعالى: {يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه... } الآية إلى قوله {حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا}. فسري عنهم وقبض النبي صلى الله عليه وسلم الخمس، وقسم الغنيمة، وحكي: وقبل الفداء في الأسيرين، وردهم الحكم بن كيسان منهما. ورجع سعد وعتبة سالمين إلى المدينة. وهذه أول غنيمة غنمت في الاسلام، وأول غنيمة خمست في الاسلام. وقتل عمرو بن الحضرمي هو الذي هاج وقعة بدر الثانية.

صرف القبلة

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس، إلى الكعبة، على رأس سبعة عشر شهراً من

مقدمه المدية. خطب بذلك على المنبر، وسمعه بعض الأنصار، فقام فصفى ركعتين إلى الكعبة، قاله ابن حزم. وقيل على رأس ثمانية عشر شهرا، وقيل ستة عشر، ولم يقل غير ذلك.

غزوة بدر الثانية (العظمى والكبرى)

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إلى رمضان في السنة الثانية، ثم بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة، مقبلة من الشام الى مكة، معها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش، عيدهم أبرسميان، ومعه عمرو بن العاص، ومخرمة بن نوفل فندب عليه السلام المسلمين إلى هذه العير، وأمر من كان ظهره حاضرا بالخروج. ولم يحتفل في الحشد لأنه لم يظن قتالأ، واتصل خروجه بأبي سفيان، فاستأجر ضمضم بن عمار الغفاري، وبعثه إلى

أهل مكة يستنصرهم لعيرهم، فنفروا وأرعبوا إلا يسيرا منهم: أبو لهب. وخرجصلى الله عليه وسلم لثمان خلون من رمضان، واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم، ورد أبا لبابة من الروحاء، واستعمله على المدينة. ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، ودفع إلى علي راية، وإلى رجل من الأنصار أخرى- يقال كانتا سوداوين. وكان مع أصحابهصلى الله عليه وسلم يومئذ سبعون بعيرا يعتقبونها فقط.

وجعل على الساقة بقيس بن أبي صعصعة من بني النجار. وراية الأنصار يومئذ مع

سعد بن معاذ، فسلكوا نقب المدينة مع سعد بن معاذ إلى ذي الخليفة، ثم انتهوا إلى صخيرات تمام، ثم إلى بئر الروحاء. ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء. وبعث عليه السلام قبلها بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة، وعدي بن أبي

الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتجسسون أخبار أبي سفيان وغيره. ثم تنكب عن الصفراء يمينا، وخرج على وادي دقران، فبلغة خروج قريش ونفيرهم، فاستشار أصحابه. فتكلم المهاجرون وأحسنوا، وهو يريد ما يقوله الأنصار وفهموا ذلك. فتكلم سعد بن معاذ، وكان يخما قال: لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، فسر بنا يا رسول الله على بركة الله، فسر بذلك وقال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين.

ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر، وبعث عليا والزبير وسعدا في نفر يلتمسون الخبر، فأصابوا غلامين لقريش فأتوا بهما، وهو عليه الصلاة والسلام قائم يصلي وقالوا: نحن سقاة قريش ! فكذبوهما كراهية في الخبر، ورجاء أن يكونا من العير للعمة، وقلة المؤنة، فجعلوا يضربونهما فيقولان: نحن من العير. فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكر عليهم وقال للغلامين: أخبراني أين قريش؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب وإنهم ينحرون يوماً عشرا من الإبل ويوما تسعا. فقال عليه السلام: القوم بين التسعمائة والألف. وقد كان بسبس وعدي الجهنيان مضيا يتجسسان الأخبار، حتى نزلا بدرا وأناخا قرب الماء، واستقيا في شن لهما ومجدي بن عمرو سيد جهينة بقربهما. فسمع عدي جارية من جواري الحي تقول لصاحبتها: العير نأتي كدا أو بعد غد، فاعمل لهم واقضيك الذي لك. وجاءت إلى مجدي بن عمرو فصدقها. فرجع بسبس وعدي بالخبر، وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر. فقال لمجدي هل أحسست أحداً؟ فقال: راكبين أناخا فيما يلي هذا التل، فاستقيا الماء ونهضا. فأتى أبو سفيان مناخهما وفتت من أبعار رواحلهما فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجح سريعا وقد حذر وتنكب بالعير إلى طريق الساحل، فنجا وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا!

فقال أبو جهل:،والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثا، وتهابنا العرب أبداً.

ورجع الاخنس بن شريق بجميع بنى زهرة، وكان حليفهم ومطاعا فيهم وقال: إنما خرجتم تمنعون أموالكم، وقد نجت فرجعوا. وكان بنو عدي لم ينفروا مع القوم فلم يشهد بدراً من قريش عدوي ولا زهري.

وسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا إلى ماء بدر، وثبطهم عنه مطر نزل، وبله مما يليهم، وأصاب المسلمين دهس الوادى، وأعانهم على السير. فنزل عليه السلام على أدنى ماء

من مياه بدر الى المدينة، فقال له الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح: آلله أنزلك بهذا المترل فلا نتحول عنك أم قصدت الحرب والمكيدة؟

فقال عليه السلام: لا بل هو الرأي والحرب! فقال يا رسول الله: ليس هذا بمترل،

وإنما تأتي أدنى ماء من القوم فنترله ونبني عليه حوضاً فنملؤه، ونغور القلب كلها فنكون قد منعناهم الماء. فاستحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بنوا له عريشاً يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتيه من ربه النصر يريهم مصارع القوم واحداً واحداً. ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحي يجذر لهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا، فيهم فارسان: الزير والمقداد. فجذرهم وانصرف وخبرهم الخبر. ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ولا يكون الحرب، فأبى أبو جهل وساعده المشركون، وتواقفت الفئتان. وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده، ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده، وطفق يدعو ويلح، وأبو بكر يقاوله ويقول في دعائه:

اللهم إن تملك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، اللهم أنجز لي ما وعدتني.

وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه، وأخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر فقد أتى نصر الله- ثم خرج يحرض الناس، ورمى في وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول: شاهت الوجوه. ثم تزاحفوا، فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد بصلبون البراز، فخرج إليهم عبيدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب. فقتل حمزة وعلي شيبة والوليد، وضرب عتبة عبيدة، فقطع رجله فمات. وجاء حمزة وعلي إلى عتبة فقتلاه. وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ إبنا عفراء، وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم.

وجال القوم جوله، فهزم المشركون، وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا. فمن مشاهيرهم: عتبة وشيبة إبنا ربيعة، والوليد بن عتبة وحنظلة بن سفيان بن حرب، وإبنا سعيد بن العاص عبيدة والعاص، والحرث بن عامر بن نوفل، وابن عمه طعيمة بن عدي وزمعة بن الأسود وإبنه الحرث، واخوه عقيل بن الأسود، وابن عمه أبو البحتري بن هشام، أ ونوفل بن خويلد بن أسد، وأبو جهل بن هشام. اشترك فيه معاذ ومعوذ إبنا عفراء، وجده عبدالله بن مسعود وبه رمق فحز رأسه، وأخوة العاص بن هشام، وابن عمهما مسعود بن أمية وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وابن عمه أبو قيس بن الفاكه، ونبيه ومنبه ابنا

الحجاج، والعاص والحراث ابنا منبه، وأمية لن خلف وابنه علي، وعمير بن عثمان عم طلحة.

وأبو العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب، والسائب بن عبد العزيز من بني المطب، وعمرو بن أبي سفيان بن حرب، وأبو العاص بن الربيع، وخالد بن أسيد بن أبي العيص، وعدي بن الخيار من بني نوفل. وعثمان بن عبد شمس ابن عم عتبة بن عزوان، وأبو عزيز أخو مصعب بن عمير، وخالد بن هشام بن المغيرة وابن عمه رفاعة بن أبي رفاعة، وأمية بن أبي حذيفة بن التغيرة، والوليد بن الوليد أخو خالد، وعبد الله وعمرو ابنا أبي بن خلف، وسهيل بن عمرو في آخرين مذكورين في كتب السير.

واستشهد من المسلمين:

من المهاجرين: عبيدة بن الحارث بن المطلب، عمير بن أبي وقاص، وذو الشمالين عبد عمرو بن نضلة الخزاعى حليف بني زفرة، وصفوان بن بيضاء من بني الحرث بن فهر، ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أصابه سهم فقتله. وعاقل بن البكير الليثي حليف بني عدي من الأنصار. ثم من الأوس سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر. ومن الخزرج يزيد بن الحارث بن الخزرج، وعمير بن الحمام، من بني سلمة، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض على الجهاد، ويرغب في الجنة، وفي يده تمرات يأكلهن. فقال: بخ بخ أما بيني وبين الجنة الا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم رمى بهن وقاتل حتى قتل. ورافع بن المعفى من بني حبيب بن عبد حارثة، وحارثة بن سراقة من بني النجار، وعوف ومعوذ ابنا عفراء.

ثم انجلت قريش الحرب، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلى المشركين فسحبوا إلى القليب، وطم عليهم التراب. وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن مقدول بن عمر ابن غنم بن مازن بن النجار. ثم انصرف إلى المدينة، فلما نزل الصفراء قسم الغنائم كما أمر الله، وضرب عنق النضر بن كلدة من بني عبد الدار. ثم نزل عرق الظبية، فضرب عنق عقبة ابن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية، وكان في الاسارى، ومر إلى المدينة فدخلها لثمان بقين من رمضان.

غزوة الكرز

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه إلى المدينة إجتماع غطفان، فخرج يريد بني سليم بعد سبع ليال من منصرفه، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري أو ابن أم مكتوم. فبلغ ماء يقال له الكرز، وأقام عليه ثلاثة أيام، ثم انصرف و لم يلق حرباً. وقيل أنه أصاب من نعمهم ورجع بالغنيمة، وإنه بعث غالب بن عبد الله الليثي في سرية، فنالوا منهم وانصرفوا بالغنيمة. وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذي الحجة، وفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر- أسارى بدر.

غزوة السويق

ثم إن أبا سفيان لما انصرف من بدر نذر أن يغزو المدينة، فخرج في مائتي راكب حتى أتى بني النضير ليلا، فتوارى عنه حمي بن أخطب، ولقيه سلام بن مشكم وقراه، وأعلمه بخبر الناس. ثم رجح ومر باطراف المدينة، فحرق نخلاً، وقتل رجلين في حرث لهما. فنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، واستعمل على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وبلغ الكرز، وفاته أبو سفيان والمشركون، وقد طرحوا سويقا من أزوادهم ليتحففوا فأخذها المسلمون. فسميت لذلك غزوة السويق وكانت في ذي الحجة بعد بدر بشهرين.

ذي أمر: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر المحرم غازيا غطفان، واستعمل

على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأقام بنجد صفر وانصرف و لم يلق حرباً. نجران: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ربيع الأول يريد قريشاً، واستخلف ابن أم مكتوم، فبلغ نجران معدناً في الحجاز و لم يلق حرباً. وأقام هناك إلى جمادى الثانية من السنة الثالثة وانصرف إلى المدينة.

قتل كعب بن الأشرف

وكان كعب بن الاشرف رجلا من طيء، وأمه من يهود بني النضير. ولما أصيب أصحاب بدر، وبحث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة مبشرين إلى المدينة جعل يقول: ويلكم أحق هذا؟ وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، وإن كان محمد أصاب هؤلاء، فبطن الأرض خير من ظهرها. ثم قدم مكة ونزل على المطلب بن

أبي وداعة السهمى، وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية. فجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وينشد الأشعار، ويبكي على أصحاب القليب. ثم رجع إلى المدينة، فشبب بعاتكة، ثم شبب بنساء المسلمين. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم من يقتل كعب بن الأشرف؟ فانتدب لذلك محمد بن مسلمة وملكان بن سلامة بن وقش، وأبو نائلة من بني عبد الأشهل، أخو كعب من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش بن بشر بن معاذ، وأبو عبس بن جبر من بمي حارثة.

وتقدم إليه ملكان بن سلامة، وأظهر له انحرافا عن النبي صلى الله عليه و سلم عن أذن منه، وشكا إليه ضيق الحال. ورام أن يبيعه وأصحابه طعاما، ويرهنون سلاحهم. فأجاب إلى ذلك، ورجع إلى أصحابه. فحرجوا وشيعهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى بقيع الفرقد في ليله قمراء، وأتوا كعبا، فخرج إليهم من حصنه ومشوا غير بعيد، ثم وضعوا عليه سيوفهم. ووضع محمد بن مسلمة معولا كان معه في ثنته فقتله. وصاح عدو الله صيحة شديدة انذعر لها أهل الحصون التي حواليه، وأوقدوا النيران، ونجا القوم، وقد جرح منهم الحرث بن أوس ببعض سيوفهم، فترفه الدم وتأخر. ثم وافاهم بجرة العريض آخر الليل، وأتوا النبى صلى الله عليه و سلم وهو يصلي وأخبروه، وتفل على جرح الحرث فبريء. وأذن للمسلمين في قتل اليهود لما بلغه انهم خافوا من هذه الفعلة، واسلم حينئذ حويصة بن مسعود، وقد كان أسلم قبله أخوه محيصة بسبب قتل بعضهم.

غزوة بني قينقاع

وكان بنو قينقاع لما انصرف رسول الله صلى الله عليه و سلم من بدر، وقف بسوق بني قينقاع في بعض الأيام، فوعظهم وذكرهم ما يعرفون من أمره في كتابهم، وحذرهم ما أصاب قريشا من البطشة فأساءوا الرد وقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا يعرفون الحرب فأصبحت منهم! والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس. فانزل الله تعالى (فإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء). وقيل بل قتل مسلم يهوديا بسوقهم في حق، فثاروا على المسلمين ونقضوا العهد ونزلت الآية. فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم ،

واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، وقيل أبا لبابة، وكانوا في طرف المدينة في سبعمائة مقاتل، منهم ثلاثمائة دارع. ولم يكن لهم زرع ولا نخل، إنما كانوا تجارا وصاغة يعملون بأموالهم، وهم قوم عبد الله بن سلام. فحصرهم علمه السلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحدا منهم

حتى نزلوا على حكمة فكتفهم ليقتلوا، فشفع فيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وألح في الرغنة حمى حقن له رسول الله صلى الله عليه و سلم دماءهم. ثم أمر بإجلائهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع. وأمر عبادة بن الصامت فمضى بهم إلى ظاهر ديارهم، ولحقوا بخيبر. وأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم الخمس من الغنائم، وهو أول. خمس أخذه، ثم انصرف إلى المدينة وحضر الأضحى، فصلى بالناس في الصحراء، وذبح بيده شاتين، ويقال أنهما أول أضحيته صلى الله عليه و سلم .

سرية زيد بن حارثة إلي قرده

وكانت قريش من بعد بدر قد تخوفوا من اعتراض المسلمين عيرهم في طريق الشام، فصاروا يسلكون طريق العراق. وخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، واستجاروا بفرات بن حيان بن بكر بن وائل، فخرج بهم في الشتاء وسلك بهم على طريق العراق. وانتهى خبر العير إلى النبي صلى الله عليه و سلم وما فيها من المال وآنية المحضة، فبعث زيد بن حيان العجلي أسيرا، فتعوذ بالإسلام وأسلم. وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفاً.

قتل ابي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق هذا مر يهود خيبر وكنيته أبو رافع. وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه و سلم وأصحابه، ويحزب عليهم الأحزاب مثلاً وتقريباً من كعب بن الأشرف. وكان الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين في طاعة رسول الله صلى الله عليه و سلم والذب عنه، والنيل من أعدائه لا يفعل أحد القبيلتين شيئا إلا فعل الاخرون مثله. وكان الأوس قد قتلوا كعب بن الأشرف، كما ذكرناه، فاستأذن الخزرج رسول الله صلى الله عليه و سلم في قتل ابن أبي الحقيق، نظير ابن الأشرف في الكفر والعداوة. فأذن لهم، فخرج إليهم من الخزرج، ثم من بني سلمة ثمانية نفر منهم. عبدالله بن عقيل ومسعر بن سنان وأبو قتادة والحرث بن ربعى الخزاعى من حلفائهم فى آخرين. وأمر عليهم عبد الله بن عقيل ونهاهم أن يقتلوا وليدا؛ أو إمرأة، وخرجوا قي منتصف جمادي الآخرة من سنة ثلاث، فقدموا خيبر وأتوا دار ابن أبي الحقيق في علية له بعد أن انصرف عنه عميرة ونام وقد أغلقوا الأبواب بعد أن أنموا كلما عليهم، ونادوه ليعرفوا مكانه بصوته. ثم تعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه، وخرجوا من

القصر وأقاموا ظاهرة، حتى قام الناعي على سور القصر فاستيقنوا موته ، وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر. وكان أحدهم قد سقط من درج العليه فأصابه كسر في ساقه ، فمسح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرئت .

غزوة أحد

وكانت قريش بعد واقعة بدر قد توامروا، وطلبوا من أصحاب العير أن يعينوهم بالمال ليتجهزوا به لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعانوهم وخرجت قريش باحابيشها وحلفائها . وذلك في شوال من سنة ثلاث ، واحتملوا الظعن إلتماساً للحفيظة وأن لا يفزوا، وأقبلوا حتى نزلوا ذا الحليفة قرب أحد ببطن السبخة، مقابل المدينة على شفير وادٍ هناك . وذلك في رابع شوال ، وكانوا في ثلاثة آلاف : منهم سبعمائة دارع ومائتا فرس ، وقائدهم أبو سفيان ، ومعهم خمس عشرة إمرأة بالدفوف يبكين قتلى بدر. وأشار صلى الله عليه وسلم على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا، وإن جاءوا قاتلوهم على أفواه الأزقة وافق ذلك على رأي عبد الله بن أبي بن سلول ، وألح قوم من فضلاء المسلفين ممن أكرمه الله بالشهادة فلبس لامته وخرج . وقدم أولئك الذين ألحوا عليه وقالوا : يا رسول الله ! إن شئت فاقعد فقال : ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل . وخرج في ألف من أصحابه ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين بالمدينة . فلما صار بين المدينة وأُحُدٍ انخذل عنه عبد الله بن أبي في ثلث الناس مغاضبا لمخالفة رأيه في المقام . وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حرة بني حارثة، ومر بين الحوائط ، وأبو خيثمة من بني حارثة يدل به حتى نزل الشعب من أحد، مستندا إلى الجبل . وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع المسلمين ، وتهيأ للقتال في سبعمائة فيهم خمسون فارسا وخمسون راميا . وأفر على الرماة عبد الله بن جبير من بني عمرو بن عوف ، والأوس أخو خوات ، ورتبهم خلف الجيش ينضحون بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من خلفهم . ودفع اللواء إلى مصعب بن عُمير من بني عبد الدار، وأجاز يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ، ورافع بن خديج من بني حارثة في الرماة، وكسناهما خمسة عشر عاماً. ورد أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب . ومن بني مالك بن النجار زيد بن ثابت وعمرو بن حرام ، ومن بني حارثة البراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير. ورد عرابة بن أوس وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري، وسن جميعهم يومئذ أربعة عشر عاما. وجعلت قريش على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أس جهل.

وأعطى عليه السلام شفه الى أبي دجانة سماك بن خرشة من بني ساعدة، وكان شجاعاً بطلاً يختال عند الحرب. وكان مع قريش ذلك اليوم والد حنظلة غسيل الملائكة أبو عامر عبد الله عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان من ضبيعة، وكان في الجاهلية قد ترهب وتنسك. فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء، وفر إلى مكة في رجال من الأوس، وشهد أحد مع الكفار. وكان يعد قريش في انحراف الأوس إليه لما أنه سيدهم، فلم يصدق ظنه. ولما ناداهم وعرفوه قالوا: لا أنعم اذ لك علينا يا فاسق! فقاتل المسلمين قتالا شديدا، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديدا. وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين واشتد القتال، وانهزم قريش أولاً فخلت الرماة عن مراكزهم. وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشف المسلمون، واستشهد منهم من أكرمه الله، ووصل العدو إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم .وقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل، وجرح رسول الله صلى الله عليه و سلم في وجهه، وكسرت رباعيتة اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة في رأسه. يقال إن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي

وقاص، وعمرو بن قميئة الليثي. وشد حنظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله، فاعترضه شداد بن الأسود الليثي من شعوب فقتله وكان جنباً. فاخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن الملائكة غسلته. وأكبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى سقط من بعض حفر هنالك، فأخذ علي بيده، واحتضنه طلحة، حتى قام- ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه صلى الله عليه و سلم ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما فندرت ثنايتاه فصار أهتم. ولحق المشركون رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وكر دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم. وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن. ثم قاتل طلحة حمى أجهض المشركين وأبو دجانة يقى النبي صلى الله عليه و سلم بظهرة ، وتقع فيه النبل فلا يترك. واصيبت عين قتاده بن النعمان من بني ظفر، فرجع وهو على وجنته، فردها عليه السلام بيده فصحت وكانت أحسن عينيه.

وانتهى الضر بن أنس الى جماعة من الصحابة وقد دهشوا وقالوا: قتل

رسول الله صلى الله عليه و سلم . فقال: فما تصنعون في الحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس، وقاتل حتى قتل، ووجد به سبعون ضربة. وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة، بعضها في رجله فعرج منها، وقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه و سلم ، قتله وحشي مولى جبير بن مطعم بن عدي، وكان قد جاء له على ذلك بعنقه، فرآه يبارز سباع بن عبد العزى، فرماه بحربته من حيث لا يشعر فقتله. ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبي صلى الله عليه و سلم ، وضربته أم عمارة نسيبة بنت كعب من بني مازن ضربات فتوفي منها بدرعيه، وخشع المسلمون لما أصابه، ووهنوا لصريخ الشيطان. ثم ان كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة عرف رسول الله صلى الله عليه و سلم فنادى بأعلى صوته يبشر الناس، ورسول الله صلى الله عليه و سلم يقول له انصت: فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير والحرث بن الصمة الأنصاري وغيرهم. وأدركه أبي بن خلف في الشعب، فتناول صلى الله عليه و سلم الحربة من الحرث بى الصمة، وطعنه بها في عنقه. فكر أبي منهزماً وقال له المشركون: ما بك من بأس ! فقال: والله لو بصق علي لقتلني، وكان صلى الله عليه و سلم قد توعده بالقتل، فمات عدو الله بسرف مرجعهم إلى مكة. ثم جاء علي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم بالماء، فغسل وجهه ونهض، فاستوى على صخرة من الجبل وحانت الصلاة فصلى بهم قعوداً. وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ونزل: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم) الآية. وكان منهم عثمان بن عفان وعثمان بن أبي عقبة الأنصاري. واستشهد في ذلك اليوم حمزة كما ذكرنا، وعبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير في خمسة وستين معظمهم من الأنصار. وأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يدفنوا بدماهم وثيابهم في مضاجعهم، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم. وقتل من المشركين إثنان وعشرون منهم الوليد بن العاص بن هشام، وألو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن جمح. وكان أسر يوم بدر فمن عليه وأطلقه

بلا فداء، على ان لا يعين عليه، فنقض العهد وأسر يوم أحد، وامر رسول الله صلى الله عليه و سلم بضرب عنقه صبراً. وأبي بن خلف قتله رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده. وصعد أبو سفيان الجبل حتى أطل على رسول الله صلى الله عليه و سلم واصحابه ، ونادى بأعلى صوته: الحرب سجال! يوم أحد بيوم بدر، أعل هبل. وانصرف وهو يقول: موعدكم العام القابل.

فقال عليه السلام: قولوا له هو بيننا وبينكم. ثم صار المشركون إلى مكة، ووقف

رسول الله صلى الله عليه و سلم على حمزة وكانت هند وصواحبتها قد جدعنه وبقرن عن كبده، فلاكتها و لم تسغها. وبقال أنه لما رأى ذلك في حمزة قال ة لئن أظفرني الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم. ورجع رسول الله صلى الله عليه و سلم وأصحابه إلى المدينة. ويقال : أنه قال لعلي: لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا.

غزوة حمراء الاسد

ولما كان يوم أحد سادس عشر شوال، وهو صبيحة يوم أحد، أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه و سلم بالخروج لطلب العدو، وان لا يخرج إلا من حضر معه بالأمس. وفسح لجابر بن عبد الله ممن سواهم، فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح. وصار عليه السلام متجلدا مرهباً للعدو، وانتهى إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة، وقام بها ثلاثا، ومر به هناك معبد بن أبي معبد الخزاعي سائرا إلى مكة. ولقي أبا سفيان وكفار قريش بالروحاء، فاخبرهم بخروج رسول الله صلى الله عليه و سلم في طلبهم، وكانوا يرومون الرجوع إلى المدينة، ففت ذلك في أعضادهم وعادوا إلى مكة.

بعث الرجيع

ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم في صفر متم الثلاثة من الهجرة، نفر من عضل والقارة بنم الهون بن خزيمة إخوة بني أسد. فذكروا ان فيهم إسلاماً، ورغبوا ان يبعث فيهم من يفقههم في الدين. فبعث معهم ستة رجال من أصحابه: مرثد بن أبي مرثد الغنمي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من بني عمرو بن عوف، وحبيب بن عدي من بني جحجبا بن كلفة وزيد بن الدثنة بن بياضة بن عامر، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر. وامر عليهم مرثدا منهم. ونهضوا مع القوم حتى إذا كانوا بالرجيع ، وهو ماء لهذيل قريباً من عسفان ، غدروا بهم واستصرخوا هذيلا ، فغشوهم في رحالهم، ففزعوا إلى القتال، فأفنوهم وقالوا: إنا نريد نصيب بكم فداء من اهل مكة. فامتنع مرثد وخالد وعاصم من أمنهم، وقاتلوا حتى قتلوا، ورموا رأس عاصم بسيوفهم ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت نذرت ان تشرب فيه الخمر، لما قتل ابنيها من بني عبد الدار يوم أحد، فأرسل الله الدبر فحمت عاصما منهم فتركوه إلى الليل فجاء إليه السيل فاحتمله. وأما الآخرون فأسروهم وخرجوا بهم إلى مكة ولما كانوا

بمر الظهران انتزع ابن طارق يده من القرآن واخذ سيفه فرموه بالحجارة فمات وجاءوا بخبيب وزيد إلى مكة فباعوهما إلى قريش فقتلوهما صبرا.

غزوة بئر معونة

وقدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم في صفر هذا ملاعب الأسنة، أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم و لم يبعد وقال: يا محمد! لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد يدعوهم إلى أمرك، ورجوت أن يستجيبوا لك! فقال: أني أخاف عليهم. فقال أبو براء: أنا لهم جار! فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم المنذر بن عمرو من بني ساعدة في أربعين من المسلمين، وقيل في سبعين. منهم الحرث بن الصمة وحرام بن طحان خال أنس وعامر بن فهيره ونافع بن بديل بن ورقاء، فترلوا بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي صلى الله عليه و سلم إلى عامر بن الطفيل، فقتله و لم ينظر في كتابه. واستعدى عليهم بني عامر فأبوا لجوار أبي براء إياهم، فاستعدى بني سليم، فنهضت منهم عصية ورعل وذكوان وقتلوهم عن آخرهم. وكان سرحهم إلى جاب منهم ومعهم المنذر بن أحيحة من بني الجلاح وعمرو بن أمية الضمري فنظرا إلى الطير تحوم على العسكر، فأسرعا إلى أصحابهما فوجداهم في مضاجعهم. فأما المنذر بن أحيحة فقاتل حق قتل، وأما عمرو بن أمية فجز عامر بن الطفيل ناصيته حين علم أنه من مضر لرقبة كانت عن أمه، وذلك لعشرة بقين من صفر، وكانت مع الرجيع في شهر واحد. ولما رجع عمرو بن أية، لقي في طريقه رجلين من بني كلاب أو بني سليم، فترلا معه في ظل كان فيه، معهما عهد من النبي صلى الله عليه و سلم لم يعلم به عمرو، فانتسبا له في بني عامر أو سليم، فعدا عليهما لما ناما وقتلهما. وقدم على النبي صلى الله عليه و سلم فأخبره بذلك فقال لقد قتلت قتيلين لأدينهما.

غزوة بني النضير

وفمض رسول الله صلى الله عليه و سلم الى بني النضير، مستعينا بهم في دية هذين القتيلين،

فأجابوا وقعد عليه السلام مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه من جدرانهم، وأراد بني النضير رجلاً منهم على الصعود إلى ظهر البيت، ليلقي على النبي صلى الله عليه و سلم صخرة، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب منهم، وأوحى الله بذلك إلى نبيه فقام، و لم

يشعر أحداً من أصحابه. فاستبطأوه واتبعوه إلى المدينة، فأخبرهم عن وحى الله بما أراد به يهود، وأمر من أصحابه بالتهيؤ لحربه. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وفمض في لشهر ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة، فتحصنوا منه بالحصون، فحاصرهم ست ليال، وأمر بقطع النخل وإحراقها. ودس إليهم عبد الله بن أبي والمنافقون إنا معكم قتلتم أو أخرجتم ففر وهم بذلك ثم خذلوهم كرها وأسلموهم.

وسأل عبد الله من النبي صلى الله عليه و سلم أن يكف عن دمائهم ويجليهم بما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، " واحتمل إلى خيبر من أكابرهم حيي بن أخطب، وابن أبي الحقيق، فدانت لهم خيبر، ومنهم من سمار إلى الشام وقسم رسول الله صلى الله عليه و سلم أموالهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى منها أبا

دجانة وسهل بن حنيف كانا فقيرين. وأسلم من بني النضير يامين بن عمير بن جحاش وسعيد بن وهب فأحرزا أموالهما بأسلامهما. وفي هذه الغزاة. نزلت سورة الحشر.

غزوة ذات الرقاع

وأقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد بني النضير إلى جمادى من السنة الرابعة، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان. واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، وقيل عثمان بن عفان،. ونهض حتى نزل نجدا فلقي بها جمعا من غطفان، فتقارب الناس و لم يكن بينهم حرب، إلا أنهم خاف بعضهم بعضأ، حتى صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمسلمين صلاة الخوف، فسميت ذات الرقاع لأن أقدامهم نقبت وكانوا يلقون عليها الخرق. وقال الواقدي: لأن الجبل الذي نزلوا به، كان به سواد وبياض وحمرة رقاعاً فسمي بذلك، وزعم أنها كانت في المحرن.

غزوة بدر الصغري- الموعد

كان أبو سفيان نادى يوم أحد كما قدمناه بموعد بدر من قابل، وأجابوه بأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما كان في شعبان من هذه السنة الرابعة خرج لميعاده، واستعمل على المدينة عبد الله بن أبي بن سلول، ونزل في بدر. فأقام هناك ثمان ليال، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل الظهران وعسفان. ثم بدا له في الرجوع، واعتذر بأن العام عام جدب.

غزوة دومة الجند ل

خرج إليها رسول الله صلى الله عليه و سلم في ربيع الأول من السنة الخامسة وخفف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري . وقد كان بلغه أن جمعاً تجمعوا بها، فغزاهم ثم انصرفوا من طريقه قبل أن يبلغ فى دومة الجندل و لم يلق حربا. رفيها وادع رسول الله صلى الله عليه و سلم عيينة بن حصن يرعى بأراضي المدينة، لأن بلاده كانت أجدبت، وكانت هذه قد أخصبت بسحابة وقعت فأذن له في رعيها.

غزوة الخندق

كانت في شوال في السنة الخامسة، والصحيح أنها في الرابعة. كان ابن عمر يقول: ردني رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح، فهي قبل دومة الجندل بلا شك. وكان سببها أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم وحيى بن أخطب من بني النصير وهو ابن قيس، وأبو عمارة من بني وائل لما انجلى بنو النضير إلى خيبر خرجوا إلى مكة؛ يحزبون الأحزاب، ويحرضون على حرب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ويرغبون من اشرأب إلى ذلك بالمال. فأجابهم أهل مكة الى ذلك، قم مضوا إلى غطفان، وخرج بهم عيينة بن حصن على أشجع، وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم- ولما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه و سلم أمر بحفر الخندق على المدينة، وعمل فيه بيده والمسلمون معه، ويقال: إن سلمان أشار به. ثم أقبلت الأحزاب

حتى نزلوا بظاهر المدينة بجانب أحد. وخرج عليه السلام في ثلاثة آلاف من المسلمين، وقيل في تسعمائة فقط، وهو راجل بلا شك، وخلف على المدينة ابن أم مكتوم، فترل بسطح سلع، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الأطآم. وكان بنو قريظة موادعين لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأتاهم حيي وأغراهم فنقضوا العهد ومالوا مع الأحزاب، وبلغ أمرهم إلى النبي صلى الله عليه و سلم . فبعث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وخوان بن جبير وعبدالله بن رواحة يستخبرون الأمر، فوجدوهم مكاشفين بالغدر والنيل من رسول الله صلى الله عليه و سلم فشاتمهم سعد بن معاذ، وكانوا أحلافه وانصرفوا. وكان صلى الله عليه و سلم قد امرهم إن

وجدوا الغدر حقا، أن يخبروه تعريضاً لئلا يفتوا في أعضاد الناس. فلما جاءوا إليه قالوا يا رسول الله عضل والغارة يريدون غدرهم بأصحاب الرجيع، فعظم الأمر وأحيط بالمسلمين من كل جهة. وهم بالفشل بنو حارثة وبنو سلمة، معتذرين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة، ثم ثبتهم الله. ودام الحصار على المسلمين قريبا من شهر، ولم تكن حرب. ثم رجع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى عيينة بن حصين، والحرث بن عوف، أن يرجعا ولهما ثلثا ثمار المدينة. وشاور في ذلك سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة فأبيا وقالا: يا رسول الله! أشيء أمرك الله به فلا بد منه؟ أم شيء تحبه فنصنعه لك أم شيء تصنعه لنا؟ فقال: بل أصنعه لكم! إني رأيت أن العرب رمتكم عن قوس واحدة. فقال سعد بن معاذ؟ قد كنا معهم على الشرك والأوثان، ولا يطمعون منا بثمرة إلا شراء وبيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام واعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف.

فطاب رسول الله صلى الله عليه و سلم وتمادى الأمر، وظهر فوارس من قريش إلى الخندق، فيهم عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن عبد ود من بحي عمرو بن لؤي، وضرار بن الخطاب من بني محارب. فلما رأوا الخندق قالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها. ثم اقتحموا من مكان ضيق حتى جالت خيلهم بين الخندق وسلع ودعوا إلى البراز. وقتل على بن أبي طالب عمرو بن عبد ود، ورجعوا إلى قومهم من حيث دخلوا. ورمي في بعض تلك الأيام سد بن معاذ بسهم فقطع عنه الأكحل، يقال رماه جان بن شى بن العرقة ، وقيل أبو أسامة الجشمي حليف بني مخزوم. ويروى أنه لما أصيب جعل يدعو: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فابقني لها، فلا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك، وأخرجوه. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة لى، ولا تمتني حتى تقرعيني من بني قريظة.

ثم اشتدت الحال، وأتى نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن

هلال بر خلاوة بن أشجع بن ريف بن غطفان فقال: يا رسول الله! إني أسلمت و لم يعلم قومى، فمرني بما تشاء. فقال: إنما أنت رجل واحد، فتنخدل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة. فخرج نعيم فأتى بني قريظة وكان صديقهم في الجاهلية، فنقم لهم في قريش وغطفان، وإنهم إن لم يكن الظفر لحقوا ببلادهم وتركوكم، ولا تقدرون على التحول عن بلدكم، ولا طالة لكم بمحمد وأصحابه، فاستوثقوا منهم برهن أبنائهم حتى

يصابروا معكم. ثم أتى أبا سفيان وقريشا فقال لهم: إن اليهود قد ندموا وراسلوا محمدا في المواعدة، على أن يسترهنوا أبناءكم ويدفعوهم إليه. ثم أتى غطفان وقال لهم مثلما قال لقريش، فأرسل أبو سفيان وغطفان إلى بني قريظة في ليلة سبت، إنا لسنا بدار مقام فأعدوا للقتال. فاعتذر اليهود بالسبت وقالوا: مع ذلك لا نقاتل حتى تعطونا رهناً، فصدق القوم خبر نعيم وردوا إليهم بالإباية من الرهن والحث على الخروج، فصدق أيضا بنو قريظة خبر نعيم وأبوا من القتال. وأرسل الله على قريش وغطفان ريحا عظيمة أكفأت قدورهم وآنيتهم، وقلعت أبنيتهم وخيامهم. وبعث عليه السلام حذيفة بن اليمان عينا، فأتاه بخبر رحيلهم، واصبح- وقد ذهب الأحزاب- ورجع إلى المدينة.

غزوة بني قريظة

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة، أتاه جبريل بالنهوض إلى بني قريظة، وذلك بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم، فأمر المسلمين أن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة. وخرج وأعطى الراية على بن أبي طالب. واستخلف ابن أم مكتوم، وحاصرهم صلى الله عليه و سلم خمسا وعشرين ليلة. وعرض عليهم شدهم كعب بن أسد إحدى ثلاث: إما الإسلام وإما تبييت النبي صلى الله عليه و سلم ليلة السبت، ليكون الناس آمنين منهم، وإما قتل الذراري والنساء، ثم الإستمانة. فأبوا كل ذلك، وأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه و سلم أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر بن عمرو بن عوف، بما كانوا حلفاء الاوس، فأرسله واجتمع إليه الرجال والنساء والصبيان فقالوا: يا أبا لبابة ترى لنا أن نترل على حكم محمد؟ قال نعم! وأشار بيده في حلقه إنه الذبح. ثم رجع فندم وعلم أنه أذنب، فانطلق على وجهه ولم يرجع إلى النبي صلى الله عليه و سلم ، وربط نفسه إلى عمود في المسجد ينتظر توبة الله عليه، عاهد الله أن لا يدخل أرض بني قريظة مكانا خان فيه ربه ونبيه. وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و سلم فقال: لو أتاني لا ستغفرن له، فأما بعد ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه، فترلت توبته. فتولى عليه السلام إطلاقه بيده بعد أن قام مرتبطا بالجذع ست ليال لا يحل إلا للصلاة. ثم نزل بنو قريظة علي حكم النبي صلى الله عليه و سلم ، فأسلم بعضهم ليلة نزولهم وهم نفر أربعة من هذيل إخوة قريظة والنضير. وفر منهم عمرو بن سعد القرظي، ولم يكن دخل معهم خرب نقضى العهد، فلم يعلم أين وقع. ولما نزل بنو قريظة على حكمه صلى الله عليه و سلم طلب الاوس أن يفعل فيهم ما فعل بالخزرج في بني النضير. فقال لهم: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا بلى! تال فذلك إلى سعد بن معاذ، وكان جريحا منذ يوم الخندق. وقد أنزله رسول الله صلى الله عليه و سلم في خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فأتى به على حمار، فلما أقبل على المجلس مال رسول الله صلى الله عليه و سلم لهم: قوموا إلى سيدكم! ثم قالوا: يا سعد! إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد ولاك حكم مواليك. فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه. قالوا نعم... قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذراري النساء وتقسم الأموال. فقالا رسول الله صلى الله عليه و سلم لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة

أرقعة. ثم أنه أمر بهم فأخرجوا إلى سوق المدينة وخندق لهم بها خنادق وضربت أعناقهم فيها وهم بين الستمائة والسبعمائة رجل. وقتلت فيهم امرأة واحدة بنانة امرأة الحكم القرظي، وكانت طرحت على خلال بن سويد بن الصامت رحى من فوق الحائط فقتله. وأمر عليه السلام بقتل من أثبت منهم. ووهب لثابت بن قيس بن الشماس ولد الزبير بن ياطا، فاستحيا منهم عبد الرحمن بن الزبير، كانت له صحبة. وبعد أن كان ثابت استوهب من النبي صلى الله عليه و سلم الزبير وأهله وماله، فوهبه ذلك، فمر الزبير عليه يده وأبى الا القتل مع قومه اغتباطا بهم قبحه الله.

ووهب عليه السلام لأم المنذر بنت ليس من بني النجار رفاعة بن سموأل القرظي، فأسلم رفاعة وله صحبة. وقسم صلى الله عليه و سلم أموال بني قريظة، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهماً. وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارسا. ووقع في سهم النبي صلى الله عليه و سلم من سبيهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة من بني عمرو بن قريظة، فلم تزل في ملكه حتى مات رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وكان فتح بني قريظة آخر ذي القعدة من السنة الرابعة. ولما تم أمرهم أجيبت دعوة سعد بن معاذ، فانفجر عرقه ومات فكان ممن استشهد يوم الخندق فى سبعه آخرين من الأنصار، وأصيبت من المشركين يوم الخندق أربعة من قريش فيهم عمرو بن عبد ود وابنه حسل، ونوفل بن عبد الله بن مريرة. ولم تغز كفار قريش المسلمين منذ يوم الخندق. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم في جمادى الأولى من السنة الخامسة لستة أشهر من فتح بني قريظة، فقصد بني لحيان يطالب بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وأهل الرجيع، وذلك إثر رجوعه من دومة الجندل، فسلك على طريق الشام أولا، ثم أخذ ذات اليسار إلى صخيرات اليمام، ثم رجع إلى طريق مكة وأجذ

السير، حتى نزل منازل لبنى بين أمج وعسفان، فوجدهم قد حذروا وامتنعوا بالجبال، وفاتتهم الغرة فيهم فخرج في مائتي راكب إلى المدينة.

غزوة الغابة وذي قرد

وبعد قفوله والمسلمين إلى المدينة بليال أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني

عبد الله بن غطفان فاستلحموا لقاح النبي صلى الله عليه و سلم بالغابة، وكان فيها رجل من بني غفار وامرأته، لقتلوا الرجل وحملوا المرأة ونزل بخن سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي، وكان ناهضا فعلا ثنية الوداع وصاح بأعلى صوته نذيرا بهم. ثم أتبعهم واستنقذ ما كان بأيديهم، ولما وقعت الصيحة بالمدينة ركب رسول الله صلى الله عليه و سلم في أثرهم، ولحق به المقداد بن الأسود، وعباد بر بشر، وسعد بن زيد من بني عبد الأشهل، وعكاشة بن محصن ومحرز بن نضلة الأسدي وأبو قتادة من بني سلمة في جماعة من المهاجرين والأنصار. وأمر عليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم سعد بن زيد، وانطلقوا في اتباعهم حتى أدركوهم، فكانت بينهم جولة قتل فيها محرز بن نضلة، قتله عبد الرحمن بن عيينة، وكان أول من لحق بهم. ثم ولى

المشركون منهزمين، وبلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم ما يقال له ذو قرد، فأقام عليه ليلة ويومين، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة، ثم قفل إلى المدينة.

غزوة بني المصطلق

وأقام رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى شعبان من هذه السنة السادسة، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة لما بلغه أنهم يجتمعون له، وقائدهم الحرث بن أبي ضرار أبو جويرية أم المؤمنين ، فخرج إليهم واستخلف أبا ذر الغفاري، وقيل نميلة بن عبد الله الليثي ولقيهم بالمريسع من مياههم ما بين قديد والساحل، فتزاحفوا وهزمهم الله، وقتل من قتل منهم وشبي النساء والذرية، وكانت منهم جويرية بنت الحرث سيدهم، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس، فكاتبها وأذى عليه السلام عنها وأعتقها وتزوجها. وأصيب في هذه الغزاة هشام بن صبابة الليثى من بني ليث بن بكر، قتله رجل من رهط عبادة بن الصامت غلطا يظنه من العدو. وفي مرجع النبي صلى الله عليه و سلم من هذه الغزاة وفيها قال عبد الله بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. لمشاجرة وقعت بين جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب وين سنان بن واقد الجهني حليف بني عوف بن الخزرج فتشاوروا وتباهوا، فقال ما قال، وسمع زيد بن أرقم مقالته وبلغها إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم .

ونزلت سورة المنافقين، وتبرأ منه إنه عبد الله وقال: يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل، وإن شئت والله أخرجته. ثم اعترض أباه عند المدينة وقال: والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه و سلم فأذن له وحينئذ دخل وقال: يا رسول الله ! بلغني أنك تريد قتل أبي وإني أخشى أن تأمر غيري فلا تدعني نفسي أن أقاتله، وإن قتلته قتلت مؤمنا بكافر، ولكن مرنى بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه. فجزاه رسول الله صلى الله عليه و سلم خيرا، وأخبره أنه لا يصل إلى أبيه سوء. وفيها قال أهل الإفك ما قالوا في شأن عائشة مما لا حاجة بنا إلى ذكره، وهو معروف في كتب السير. وقد أنزل الله القرآن الحكيم ببراءتهما وتشريفهما وقد وقع في الصحيح أن مراجعته وقعت في ذلك بين معد بن عبادة وصعد بن معاذ، وهووهم ينبغي التنبيه عليه لأن سعد بر معاذ مات بعد فتح بني قريظة بلا شك، داخل السنة الرابعة، وغزوة بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة بعد عشرين شهرا من موت سعد. والملاحاة بين الرجلين كانت بعد غزوة بني المصطلق بأزيد من خمسين ليلة. والذي ذكر ابن اسحق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله وغيره: إن المقاول لسعد بن عبادة إنما هو أسيد بن الحصين والله أعلم.

ولما علم المسلمون أن النبي صلى الله عليه و سلم تزوج جويرية اعتقوا كل من كان في أيديهم من بني المصطلق أصهار رسول الله صلى الله عليه و سلم فأطلق بسببها مائة من أهل بيتها. ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث إلى بني المصطلق بعد إسلامهم بعامين الوليد بن عقبة بن أبي معيط لقبض صدقاتهم، فخرجوا يتلقونه فخافهم على نفسه، ورجع وأخبر أنهم هموا بقتله. فتشاور المسلمون في غزوهم، ثم

جاء وفدهم منكرين ما كان من رجوع الوليد قبل النبي صلى الله عليه و سلم ذلك منهم ونزل قوله تعالى ة (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق) الآية.

عمرة الحديبية

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم في السادسة من ذي القعدة منها معتمرا بعد بني المصطلق بشهرين، واستنفر الأعراب حوالي المدينة، فأبطأ أكثرهم فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن اتبعه من العرب فيما بين الثلاثمائة بعد الألف إلى الخمسمائة، وساق الهدي وأحرم من المدينة ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً.

وبلغ ذلك قريشا فأجمعوا على صده عن البيت وقتاله دونه، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كراع الغميم. وورد خبرهم إلى النبي صلى الله عليه و سلم بعسفان فسلك على ثنية المرار، حتى نزل الحديبية من أسفل مكة. وجاء من ورائهم، فكر خالد في خيله إلى مكة، فلما جاء بمجز إلى مكة بركت ناقته. فقال الناس خلأت فقال: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الغيل ثم قال: والذي نفسي بيده، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. ثم نزل واشتكى الناس فقد الماء، فأعطاهم سهماً من كنانته غرزوه في بعض القلوب من الوادي، فجاش الماء حتى كفى جميع الجيش.

يقال نزل به البراء بن عازب، ثم جرت السفراء بين رسول الله صلى الله عليه و سلم وبين كفار قريش، وبعث عثمان بن عفان بينهما رسولا. وشاع الخبر ان المشركين قتلوه، فدعا رسول الله صلى الله عليه و سلم المسلمين، وجلس تحت شجرة، فبايعوه على الموت وأن لا يفروا، وهي بيعة الرضوان. وضرب عليه السلام بيسراه على يمينه وقال: هذه عن عثمان. ثم كان سهيل بن عمرو اخر من جاء من قريش، فقاضى رسول الله صلى الله عليه و سلم قريشاً على ان ينصرف عامه ذلك، ويأتي من قابل معتمراً، وبدخل مكة وأصحابه بلا سلاح، حاشا السيوف في القرب، فيقيم بها ثلاثا ولا يزيد، وعلى ان يتصل الصلح عشرة أعوام، يتداخل فيه الناس ويؤمن بعضهم بعضا. وعلى ان من هاجر من الكفار إلى المسلمين من رجل أو إمرأة يرد الى قومه، ومن ارتد من المسلمين إليهم لم يردوه. وعظم ذلك على المسلمين حتى تكلم فيه بعضهم، وقد كان النبي صلى الله عليه و سلم علم أن هذا الصلح سبب لأمن الناس وظهور الإسلام، وأن الله يجعل فيه مزجا للمسلمين، وهو أعلم بما علمه ربه. وكتب الصحيفة علي وكتب في صدرها: هدا ما قاضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم . فأبى سهيل من ذلك وقال: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم عليا أن يمحوها فأبى، وتناول هو الصحيفة بيده ومحا ذلك وكتب محمد بن عبد الله.

ولا يقع في ذهنك من أمر هذه الكتابة ريب، فإنها قد ثبتت في الصحيح، وما

يعترض في الوهم من أن كتابته قادحة في المعجزة فهو باطل. لأن هذه الكتابة إذا وقعت من غير معرفة بأوضاع الحروف ولا قوانين الخط وأشكالها، بقيت الأمية على ما كانت عليه، وكانت هذه الكتابة الخاصة من إحدى المعجزات انتهى.

ثم أتى أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، وكان قد اسلم فقال سهيل: هذا أول ما نقاضي عليه. فرده رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أبيه، وعظم ذلك على المسلمين. وأخبر النبي صلى الله عليه و سلم أبا جدل أن الله سيجعل له فرجا. وبينما هم يكتبون الكتاب إذ جاءت سرية من
جهة قريش، قيل ما ين الثلاثين والأربعين يريدون الإيقاع بالمسلمين، فأخذهم خيول المسلمين، وجاءوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأعتقهم، واليهم ينسب العتيقيون، ولما تم الصلح وكتابه أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن ينحروا ويحلقوا، فتوقفوا فغضب حتى شكى إلى زوجته أم سلمة فقالت: يا رسول الله أخرج وانحر واحلق فإنهم متابعوك، فخرج ونحر وحلق رأسه حينئذ خراش بن أمية الخزاعي، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة وما فتح من قبله فتح كان أعظم من هذا الفتح. قال الزهري: لما كان القتال حيث لا يلتقي الحاس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا، فالتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام أحدا يفعل شيئاً إلا دخل فيه. فلقد دخل في ذينك السنتين في الإسلام مثلما كان قبل ذلك أو أكثر.
ولما رجع صلى الله عليه و سلم إلى المدينة لحقه أبو بصير عتبة بن أسيد بن حارثة هارباً، وكان قد أسلم وحبسه قومه بمكة وهو ثقفي من حلفاء بني زهرة. فبعث إليه الأزهر بن عبد عوف عم عبد الرحمن بن عوت، والأخنس بن شريف سيد بني زهرة رجلاً من بني عامر بن لؤى مع مولى لهم. فأسلمه النبي صلى الله عليه و سلم فاحتملاه. فلما نزلوا بذي الحليفة أخذ أبو بصير السيف من أحد الرجلين، ثم ضرب به العامري فقتله، وفر الآخرون. وأتى أبو بصير إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله ! قد وفت ذمتك وأطلقني الله. فقال عليه السلام: ويلمه. مسعر حرب، لو كان له رجال فبكى. ففطن أبو بصير من لحن هذا القول أنه سيرده. وخرج إلى سيف البحر عليه طريق قريش إلى الشام، وانضاف إليه جمهور من يفر عن قريش ممن أراد الإسلام. فآذوا قريشا وقطعوا على رفاقهم وسابلتهم. فكتبوا إلى النبي صلى الله عليه و سلم أن يضمهم بالمدينة. ثم هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. وجاء فيها أخواها عمارة والوليد، فمنع الله من رد النساء وفسخ ذلك الشرط المكتتب. ثم نسخت براءة ذلك كفه وحرم الله حينئذ على المسلمين إمساك الكوافر في عصمتهم فانفسخ نكاحهن.

ارسال الرسل إلي الملوك

قالى ابن اسحاق: بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما بين الحديبية ووفاته، رجالا من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم، دعاة إلى الله عز وجل. فبعث سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود أخا بني عامر بن لؤي إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة. وبعث العلاء
ابن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخي بني عبد القيس صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جيفر بن جلندى بن عامر بن جلندى صاحب عماد. وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فأذى إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وأهدى المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم

أربع جوار منهى مارية أم إبراهيم ابنه. وبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم، فوصل إلى بصرى وبعثه صاحب بصرى إلى هرقل. وكان يرى في ملاحمهم أن ملك الختان قد ظهر وقرأ الكتاب وإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ! السلام على من اتبع الهدى. أما بعد

أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، وفي رواية: إثم الأكارين عليك تعيا بحمله. فطلب من في مملكته من قوم النبي صلى الله عليه و سلم فأحضروا له من غزة، وكان فيهم أبو سفيان فسأله كما وقع في الصحيح، فأجابه وعلم أحواله، وتفرس صحة أمره، وعرض على الروم أتباعه فأبوا ونفروا فلاطفهم بالقول وأقصر.

ويروى عن ابن اسحق أنه عرض عليهم الجزية فأبوا فعرض عليهم أن يصالحوا بأرض سورية.

قالوا: وهي أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب. وما كان وراء الدرب فهو الشام،..

فأبوا قال ابن اسحاق: وبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم شجاع بن وهب الأسدي أخا بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحرث بن شمر الغساني صاحب دمشق، وكتب معه: السلام على من اتبع الهدى وآمن به، أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما قرأ الكتاب قال: من يترع ملكي؟ أنا سائر إليه! فقال النبي صلى الله عليه و سلم : باد ملكه.

قال: وبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتاباً:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسولا الله إلى النجاشي الأصحم الحبشة، سلام عليك! فإني

أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطيبة البتول الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجري وإني أدعوك وجنودك إلى الله فلقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى. فكتب إليه النجاشي: إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن الحر... سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. أحمد الله الذي لا إله إلا هو الذي هدانا للإسلام، اما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله. فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد بالرأي على ما ذكرت أنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك واصحابه، فأشهد إنك رسول الله صادقاً مصدقا، فقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين.

وقد بعثت إليك بابني أرخا الأصحم، فإني لا أملك إلا نفسي. وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن الذي تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله.

فذكر أنه بحث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة فغرقت بهم، وقد جاء أنه أرسل

إلى النجاشي ليزوجه أم حبيبة، وبعث إليه بالخطبة جاريته فأعطته أوضاحاً وفتحا، ووكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها، ودفع النجاشي إلى خالد بن سعيد أربعمائة دينار لصداقها، وجاءت إليها بها الجارية فأعطتها منها خمسين مثقالا، فردت الجارية ذلك بأمر النجاشي. وكانت الجارية صاحبة ذهنه وثيابه. وبعث إليها نساء النجاشي بما عندهن من عود وعنبر، وأركبها في سفينتين مع بقية المهاجرين، فلقوا النبي صلى الله عليه و سلم بخيبر، وبلغ أبا سفيان تزويج أم حبيبة منه فقال: ذلك الفحل الذي لا يقدع أنفه.

وكتب رسول الله صلى الله عليه و سلم في هذه السنة إلى كسرى وبعث بالكتاب عبد الله بن حذافة السهمي وفيه.

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس! سلام على من اتبع الهدى وآمن

بالله ورسل!. أما بعد فإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا. أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس.

فمزق كسرى كتاب النبي صلى الله عليه و سلم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم مزق الله ملكه.

وفي رواية ابن

اسحق بعد قوله وآمن بالله ورسله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة أنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. فإن ابيت فإثم الأريسيين عليك قال: ثم كتب كسرى إلى باذان وهو عامله على اليمن أن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. فبعث باذان قهرمانه بانويه، وكان حاسباً كاتبا بكتاب فارس ومعه خرخسرة من الفرس، وكتب إليه معهما أن ينصرف إلى كسرى، وقال لقهرمانه: إختبر الرجل وعرفني بأمره، وأول ما قدما الطائف وسألا عنه فقيل هو بالمدينة. وفرح من سمع بذلك من قريش وكانوا بالطائف فقالوا: قطب له كسرى وقد كفيتموه، وقدما على رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة فكلمه بانويه وقال: إن شاهنشاه قد كتب إلى الملك باذان أن يبعث إليه من يأتيه بك، وبعثني لتنطلق معي ويكتب معه إليك فينفعك، وإن أبيت فهو من علمت، ويهلك قومك ولخرب بلادك. وكانا قد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما، فنهاهما رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ذلك فقالا: أمرنا به ربنا يعنون به كسرى فقال لهما: لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي، لم أؤخرهما إلى غد.

وجاءه الوحي بأن الله يسلط على كسرى ابنه شيرويه، فيقتله ليلة كذا من شهر كذا

لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع فدعاهما وأخبرهما فقالا: هل تدري ما تقول؟ يحزنانه عاقبة هذا القول فقال: اذهبا وأخبراه بذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وإن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء، وأعطى خرخسره قطعة فيها ذهب وفضة، كان بعض الملوك أهداها له. ففدما على باذان وأخبراه فقال: ما هدا كلام ملك! ما أرى الرجل إلا نبيا كما يقول، ونحن ننتظر مقالته، فلم ينشب باذان أن لدم عليه كتاب شيرويه؟

أما بعد فإني قد قتلت كسرى؟ و لم أتته إلا غضبا لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم، وتسخيرهم فى ثغورهم. فإذا جاءك كتابي هذا، فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وأنظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه كثيرا إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه،

فلما بلغ باذان الكتاب وأسلمت الأبناء تسعة من فارس، ممن كان منهم باليمن. وكانت حمير تسمي خرخسرة ذا المفخرة، للمنطقة التي أعطاه إياها النبي صلى الله عليه و سلم . والمنطقة بلسانهم المفخرة، وقد كان بانويه قال لباذان ما كلمت رجلاً قط أهيهب عندي منه فقال: هل معك شرط؟ قال لا! قال الواقدي: وكتب إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم.

غزوة خيبر

ثم حرج رسول الله صلى الله عليه و سلم من المدينة غازياً إلى خيبر في بقية المحرم آخر السنة السادسة وهو فى ألف وأربعمائة راجل ومائتي فارس. واستخلف نميلة بن عبد الله الفيثى، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وسلك عن الصهباء حتى نزل بواديها إلى الرجيع، فحيل بينهم وبين عطفان. وقد كانوا أرادوا إمداد يهود خيبر، فلما خرجوا لذلك قذف الله فى قلوبهم الرعب لحس سمعوه من ورائهم، فانصرفوا وأقاموا في أماكنهم. وجعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يفتح حصون خيبر حصناً حصنا، فافتتح أولا منها حصن ناعم، وألقيت على محمود بن سلمة من أعلاه رحى فقتله. ثم افتتح القموص حصن ابن أبي الخقيق، وأصيبت منهم سبايات كانت منهن صفية بنت حيي بن اخطب، وكانت عروسا عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فوهبها عليه السلام لدحية الكلبي ثم ابتاعها منه بسبعة أرؤس، ووضعها عند أم سلمة حتى اعتدت وأسلمت، ثم اعتقها وتزوجها. ثم فتح حصن الصعب بن معاذ، و لم يكن بخيبر أكثر طعاما وودكا منه. وآخر ما افتتح من حصونهم الوطيح والسلالم، حصرهما بضع عشرة ليلة، ودفع إلى على الراية في حصار بعض حصونه فافتتحه، وكان أرمد، فتفل في عينيه صلى الله عليه و سلم فبرأ. وكان فتح بعض خيبر عنوة، وبعضها وهو الأكثر صلحا على الجلاء. فقسمها صلى الله عليه و سلم وأقر اليهود على أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم، ولهم النصف من كل ما تخرج من زرع أو تمر، يقرهم على ذلك ما بدا له. فبقوا على ذلك إلى آخر خلافه عمر، فبلغه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال في مرضه الذي مات فيه: لا يبقى دينان بأرض العرب، فأمر بإجلائهم عن خيبر وغيرها مى بلاد العرب. وأخذ المسلمون ضياعهم من مغانم خيبر، فتصرفوا فيها. وكان متولي قسمتها بين أصحابها جابر بن صخر من بني سلمة، وزيد بن سلمة من نجي النجار. واستشهد من المسلمين

جماعة تنيف على العشرين من المهاجرين والأنصار، منهم عامر بن الأكوع وغيره. وفي الغزاة حرمت لحوم الحمر الأهلية، فأكفئت القدور وهي تفور بلحمها. وفيها أهدت اليهود زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم الى النبي صلى الله عليه و سلم شاة مصلية، وجعلت السم في الذراع منها، وكان أحب اللحم إليه، فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها وقال: إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم، وأكل معه بشير بن البراء بن معرور، وازدرد لقمته فمات منها. ثم دعا باليهودية فاعترفت و لم يقتلها لإسلامها حينئذ على ما قيل، ويقال إنه دفعها إلى أولياء بشر فقتلوها.

قدوم مهاجرة الحبشة

وكان مهاجرة الحبشة قد جاء جماعة منهم إلى مكة قبل الهجرة حين سمعوا بإسلام قريش، ثم هاجروا إلى المدينة، وجاء آخرون منهم قبل خيبر بسنتين، ثم جاء بقيتهم إثر فتح خيبر. بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم عمرو بن أمية الضميري إلى النجاشي في شأنهم ليقدمهم عليه، فقدم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس وبنوهما عبد الله ومحمد وعود، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وامرأته أمينة بنت خلف وابنهما سعيد، وأم خالد وعمرو بن سعيد بن العاص ومعيقب بن أبي فاطمة حليف أبي سعيد بن العاص وولي بيت المال لعمر، وأبو موسى الأشعري حليف آل عتبة بن ربيعة، والأسود بن نوفل بن خويلد ابن أخي خديجة، وجهم بن قيس بن شرحبيل بن عبد الدار وابناه عمرو وخزيفة، والحرث بن خالد بن صخر من بني تميم، وعثمان بن ربيعة بن أهبان من بني جمع ومحنية بن خون الزبيدي حليف بني سهم، ولي لرسول الله صلى الله عليه و سلم الأخماس، ومعمر بن عبد الله بن نضلة من بني عدي، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عامر بن لؤي، وأبي عمرو مالك بن ربيعة بن قيس بن عبد شمس. فكان هؤلاء آخر من بقي بأرض الحبشة، ولما قدم جعفر على النبي صلى الله عليه و سلم يوم فتح خيبر قبل ما بين عينيه والتزمه وقال: ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟..

فتح فدك ووادي القري

ولما اتصل بأهل فدك شأن أهل خيبر، بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يسألونه الأمان على أن يتركوا الأموال فأجابهم إلى ذلك، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه و سلم مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله. ثم انصرف عن خيبر إلى وادي القرى، فافتتحهما عنوة وقسمهما وقتل بها غلامه مدغم، قال فيه لما شهد له الناس بالجنة: كلالة الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم قبل القسم لتشتعل عليه نارا، ثم رجع إلى المدينة في شهر صفر.

عمرة القضاء

وأقام صلى الله عليه و سلم بعد خيبر إلى انقضاء شوال من السنة السابعة، ثم خرج في ذي القعدة لقضاء العمرة التي عاهده عليها قريش يوم الحديبية، وعقد لها الصلح، وخرج ملأ قريش من مكة عداوة لله ولرسوله وكرها في لقائه. فقضى عمرته وتزوج بعد إحلاله بميمونة بنت الحرث من بني هلال بن علي ابن خالة ابن

عباس وخالد بن الوليد، وأراد أن يبني بها وقد تمت الثلاثة التي عاهده قريش على المقام بها، وأوصوا إليه بالخروج واعجلوه على ذلك فبنى بها بسرف.

غزوة جيش الامراء أوغزوة مؤته

وأقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد منصرفه من عمرة القضاء إلى جمادى الأول من السنة الثانية، ثم بعث الأمراء إلى الشام. ولد كان أسلم قبل ذلك عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وهم من كبراء قريش وقد كان عمرو بن العاص مضى عن قريش إلى النجاشي يطلبه في المهاجرن الذين عنده، ولقي هنالك عمرو بن أمية الضمري وافد النبي صلى الله عليه و سلم . فغضب النجاشي لما كلمه في ذلك، فوفقه الله ورأى الحق، فأسلم وكتم إسلامه. ورجع إلى قرلش ولقي خالد بن الوليد فأخبره فتفاوضا، ثم هاجر إلى النبي صلى الله عليه و سلم فأسلما. وبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم خالدا مع بعث الشام، وامر على الجيش مولاه زيد بن حارثة وكانوا نحوا من ثلاثة آلاف. وقال إن أصابه قدر فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصابه قدر فالأمير عبدالله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلوه أميرا عليهم. وشيعهم صلى الله عليه و سلم وودعهم، ونهضوا حتى انتهوا إلى معان من أرض الشام، فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل مؤاب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة الف من نصارى العرب البادين هنالك من لحم وجذام وقبائل قضاعة من بهرا وبلي والقيس، وعليهم مالك بن زاحلة من بني

اراشة، فأقام المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في الكتب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وانتظار أمره ومدده. ثم قال لهم عبد الله بن رواحة: انتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوه إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فهي إحدى الحسنيين، إما ظهوره وإيما شهادتنا فوافقوه ونهضوا إلى تخوم البلقاء فلقوا جموع هرقل عند قرية مؤتة ورتبوا الميمنة والميسرة واقتتلوا، فقتل زيد بن حارثة ملاقيا بصدره الرماح والراية في يده. فأخذها جعفر بن أبي طالب وعقر فرسه، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذها بيساره فقطعت فقتل كذلك، وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة. فأخذها عبد الله بن رواحة، وتردد عن النزول بعض الشيء، ثم صمم إلى العدو، فقاتل حتى قتل. فأخذ الراية ثابت بن أقرن من بنى العجلان وناولها لخالد بن الوليد، فانحاز بالمسلمين، وأنذر النبي صلى الله عليه و سلم بقتل هؤلاء الأمراء قبل ورود الخبر، وفي يوم قتلهم . واستشهد مع الأمراء جماعة من المسلمين يزيدون على العشرة، أكرمهم الله بالشهادة. ورجعوا إلى النبى صلى الله عليه و سلم فأحزنه موت جعفر، ولقيهم خارج المدينة، وحمل عبد الله بن جعفر ين يديه على دابته وهو صبي وبكى عليه، واستغفر له وقال: أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة فسمى ذا الجناحين.

فتح مكة

كان رسول الله صلى الله عليه و سلم حين عقد الصلح بينه وين قريش في الحديبية، أدخل خزاعة

في عقده المؤمن منهم والكافر، وأدخلت قريش بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقدها، وكانت بينهم تراث في الجاهلية ودخول، كان فيها الأول للأسود بن رزق من بني الدئل بن بكر بن عبد مناة ولأرهم عند خزاعة لما قتلت حليفهم مالك بن عباد الحضرمي، وكانوا قد عقدوا على رجل من خزاعة فقتلوه في مالك بن عباد حليفهم. وعدت خزاعة على سلمى وكلثوم وذؤيب بني الأسود بن رزق فقتلوهم وهم أشراف بني كنانة. وجاء الإسلام فاستغل الناس به، ونسوا أمر هذه الدماء. فلما انعقد هذا الصلح يوم الحديبية، وأمن الناس بعضهم بعضا، فاغتنم بنو الدئل هذه الفرصة في إدراك الثأر فى خزاعة لقتلهم بني الأسود بن رزق. وخرج نوفل بن معاوية الدؤلي ليمن أطاعه من تن بكر بن عبد مناة وليس كلهم تابعه. وخرج معه بعضهم وخرجوا منهم وانحجزوا في دور مكة، ودخلوا دار بديل بن ورقاء الخزاعي، ورجع بنو بكر وقد انتقض العهد، فركب بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم في وفد من قومهم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم مستغيثين مما أصابهم به بنو الدئل بن عبد مناة وقريش، فأجاب صلى الله عليه و سلم صريخهم، وأخبرهم أن أبا سفيان يأتي يشذ العقد ويزيد في المدة، وإنه يرجع بغير حاجة. وكان ذلك سببا للفتح وندم قريش على ما فعلوا، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العقد ويزيد في المدة، ولقي بديل بن ورقاء بعسفان، فكتمه الخبر وورى له عن وجهه. وأتى أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فطوت دونه فراش النبي صلى الله عليه و سلم وقالت: لا يجلس عليه مشرك! فقال لها: قد أصابك بعدي شريا بنتي. ثم أتى المسجد وكلم النبي صلى الله عليه و سلم فلم يجبه. فذهب إلى أبي بكر وكلمه أن يتكلم في ذلك فأبى فلقي عمر فقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وابنه الحسن صبياً فكلمه فيما أتى له فقال علي: ما نستطيع. أن نكلمه في أمر عزم عليه فقال لفاطمة: يا بنت محمد! أما تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس؟ فقالت: لا يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه و سلم ... فقال له علي: يا أبا سفيان! أنت سيد بني كنانة فقم فأجر وارجع إلى أرضك. فقال: ترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ فقال: ما أظنه! ولكن لا أجد لك سواه.

فقام أبو سفيان في المسجد فنادى ة ألا إني قد أجريت بين الناس ثم ذهب إلى

مكة وأخبر قريشاً فقالوا: ما جئت بشيء، وما زاد ابن أبي طالب على أن لعب بك.. ثم أعلم رسول الله صلى الله عليه و سلم إنه سائر إلى مكة، وأمر الناس بأن يتجهزوا، ودعا الله أن يطمس الأخبار عن قريش. فكتب إليهم حاطب بن أبي بلتعة بالخبر مع ظعينة قاصدة الى مكة، فأوحى الله إليه بذلك، فبعث عليا والزبير والمقداد إلى الظعينة، فأدركوها بروضة خاخ وفتشوا رحلها فلم يجدوا شيئا وقالوا: رسول الله أصدق فقال علي: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الحوائج، فأخرجته من قرون رأسها. فلما قرىء على النبي صلى الله عليه و سلم قال: ما هذا يا حاطب؟ فقال: يا رسول الله! والله ما شككت في الإسلام! ولكنى ملصق في قريش، فأردت عندهم يداً يحفظون بها في مخلف أهلي وولدي، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال: وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال. اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم.

وخرج صلى الله عليه و سلم لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة في عشرة آلاف فيهم من سليم ألف رجل، وقيل سبعمائة. ومن مزينة ألف، ومن غفار اربعمائة، ومن أسلم أربعمائة،
وطوائف من قريش وأسد وتميم وغيرهم. ومن سائر القبائل جموع وكتائب الله من المهاجرين والأنصار.
واستخلف أبا رهم الغفاري على المدينة، ولقيه العباس بذي الحليفة، وقيل بالجحفة مهاجرا. فبعث رحله إلى المدينة وانصرف معه كازيا، ولقيه بشق العقاب، أبو سفيان بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية مهاجرين،
واستأذنا فلم يؤذن لهما، وكلمته أم سلمة فأدن لهما وأسلما فسار حتى نزل مر الظهران، ولد طوى الله أخباره عن قريش، إلا أنهم يتوجسون الخيفة. وخشي العباس تلافي قريش إن فاجأهم الجيش قبل أن يستأمنوا، فركب بغلة النبى صلى الله عليه و سلم وذهب يتجسس، وقد خرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسون الخبر. وبينما العباس قد أتى الأراك ليلقي من السابلة من ينذر أهل مكة، إذ سمع صوت أبي سفيان وبديل وقد أبصرا نيران العساكر، فيقول بديل: نيران بني خزاعة، فيقول أبو سفيان خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. فقال العباس: هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم بالناس، والله إن ظفر بك ليقتلنك وأصباح قريش فارتدف خلفي. ونهض به إلى المعسكر، ومر بعمر فخرج يشتد إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقلى ولا عهد. فسبقه العباس على البغلة ودخل على أثره فقال: يا رسول الله ! هذا عدو الله أبو سفيان أمكنني الله منه بلا عهد فدعني أضرب عنقه. ففال العباس: قد أجرته! فزأره عمر فقال العباس: لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنه من عبد مناف. فقال عمر: والله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لأني أعرف أنه عند رسول الله صلى الله عليه و سلم كذلك.
فأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم العباس أن يحمله إلى رحله ويأتيه به صباحا. فلما أتى به قال له صلى الله عليه و سلم ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى
عنا ففال: ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا.
فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك فأسلم. فقال العباس: يا
رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا. قال نعم! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادي ليرى جنود الله، ففعل ذلك، ومرت به القبائل قبيلة قبيلة، إلى أن جاء موكب رسول الله صلى الله عليه و سلم في المهاجرين والأنصار عليهم الدروع البيض.
فقال من هؤلاء؟ فقال له العباس: هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم في المهاجرين والأنصار، فقال لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال يا أبا سفيان إنها النبوة. فقال: فهي إذا. فقال! له العباس: النجاء إلى

قومك، فأتى بهم مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وتأمان رسول الله وبقول النبي صلى الله عليه و سلم من أتى المسجد أو دار أبي سفيان أو أغلق بابه.

ورتب الجيش وأعطى سعد بن عبادة الراية فذهب يقول:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة

وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و سلم فأمر عليا أن يأخذ الراية منه، ويقال أمر الزبير وكان على الميمنة خالد بن الوليد، ومنها أسلم وغفار ومزينة وجهينة، وعلى الميسرة الزبير، وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح.

وسرب رسول الله صلى الله عليه و سلم الجيوش من ذي طوى، وأمرهم بالدخول إلى مكة. الزبير من أعلاها، وخالد من أسفلها، وأن يقاتلوا من تعرض لهم. وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا للقتال. فناوشهم أصحاب خالد القتال، واستشهد من المسلمين كرز بن جابر من بني محارب، وخنيس بن خالد من خزاعة، وسلمة بن جهينة، وانهزم المشركون وقتل منهم ثلاثة عشر، وأمن النبي صلى الله عليه و سلم سائر الناس. وكان الفتح لعشر بقين من رمضان وأهدر دم جماعة من المشركين سماهم يومئذ: منهم عبد العزى بن خطل من بني تميم، والأدرم بن غالب كان قد أسلم وبعثه رسول الله صلى الله عليه و سلم مصدقا ومعه رجل من المشركين، فقتله وارتد ولحق بمكة. وتعلق يوم الفتح بأستار الكعبة، فقتله سعد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي.

ومنهم عبدالله بن سعيد بن أبي سرح، كان يكتب للنبي صلى الله عليه و سلم ، ثم ارتد ولحق بمكة. ونميت عنه أقوال، فاختفى يوم الفتح، وأتى به عثمان بن عفان، وهو أخوه من الرضاعة فاستأمن له، فسكت عليه السلام ساعة ثم أمنه. فلما خرج قال لأصحابه: هلا ضربتم عنقه! فقال له بعض الأنصار هلا أومأت إلي ؟ فقال: ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين، و لم يظهر بعد إسلامة إلا خير وصلاح واستعمله عمر وعثمان.

ومنهم الحويرث بن نصل من بني عبد بن قصي كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة، فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح. ومنهم مقيس بن صبابة كان هاجر في غزوة الخندق،

ثم عدا على رجل من الأنصار كان قتل أخاه قبل ذلك غلطاً، ووداه فقتله وفر إلى مكة مرتدا. فقتله يوم الفتح نميلة بن عبدالله الليثي وهو ابن عمه.

ومنهم قينتا ابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي صلى الله عليه و سلم فقتلت إحداهما واستؤمن للأخرى فأمنها .

ومنهم مولاة لبني عبد المطلب اسمها سارة، واستؤمن لها فأمنها رسول الله صلى الله عليه و سلم . واستجار رجلان من بني مخزوم بأم هاني بنت أبي طالب. يقال إنهما الحرث بن هشام وزهير بن أبي أمية أخو أم سلمة، فأمنتهما. وأمضى رسول الله صلى الله عليه و سلم أمانهما فأسلما. ثم دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم المسجد، وطاف بالكعبة، وأخذ المفتاح من عثمان بن

طلحة، بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته. فدخل الكعبة ومعه أسامه بن زيد، وبلال وعثمان بن طلحة، وأبقى له حجابة البيت، فهي في ولد شيبة إلى اليوم. وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها، وبكسر الأصنام حواليها. ومر عليها وهي مسدودة بالرصاص يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. فما بقي منهم صنم إلا خر على وجهه، وأمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة.

ووقف رسول الله صلى الله عليه و سلم بباب الكعبة ثاني يوم الفتح، وخطب خطبته المعروفة ووضع مآثر الجاهلية، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. وأخبر ان مكة لم تحل لأحد قبله ولا بعده، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس ثم قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له. صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثورة أو دم أو مال يدعى في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج. الا وإن قتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها، أربعون في بطونها أولادها. يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب.

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه و سلم : (أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير). يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أنا فاعل فيكم؟ قالوا خيراً أخ كريم ثم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء، وأعتقهم على الإسلام، وحبس لهم فيما قبل على الصفا، فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أن يبايعهن، واستغفر لهن رسول الله صلى الله عليه و سلم لأنه كان لا يمس امرأة حلالاً ولا حراماً. وهرب صفوان بن أمية إلى اليمن، واتبعه عمير بن وهب من قومه بأمان النبي صلى الله عليه و سلم له، فرجع وانذره أربعة أشهر. وهرب ابن الزبير الشاعر إلى نجران، ورجع فأسلم، وهرب هبيرة بن أبي وهب المخزومى زوج أم هاني إلى اليمن فمات هنالك كافرا.

ثم بعث النبي صلى الله عليه و سلم السرايا حول مكة، ولم يأمرهم بقتال، وفي جملتهم خالد بن

الوليد إلى بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة ابن كنابن، فانة، فقتل منهم وأخذ ذلك عليه، وبعث إليهم عليا بمال فودىDDف - قتلاهم، ورد عليهم ما أخذ لهم. ثم بعث رسول??الله (خالدا الى، بيت بنخلة كانت قصر تعظمه من قريش وكنانة وغيرهم. وسدنة بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم فهزمهم. ثم أن الأنصار توقفوا إلى أن يقيم صلى الله عليه و سلم بمكة داره بعد أن فتحها، فأهمهم ذلك وخرجوا له فخطبهم صلى الله عليه و سلم ، وأخبرهم أن المحيا محياهم والممات مماتهم فسكتوا لذلك واطمأنوا.

غزوة حنين

وأقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة خصمي عشرة ليلة، وهو يقصر الصلاه، فبلغه أن هوازن، وثقيف جمعوا له وهم عامدون إلى مكة، وقد نزلوا حنيناً، وكانوا حين سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه

و سلم من المدينة يظنون انه إنما يريدهم. فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بني النضير وقد أوعب معه بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، وبني جشم بن معاوية وبني سعد بن بكر، وناسا من بني هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية، والأحلاف من بنهي مالك بن ثقيف بن بكر، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا من كلاب، وفي جشم دريد بن الضفة بن بكر بن علقمة بن خزاعة بن أزية بن جشم، رئيسهم وسيدهم شيخ كبير ليس فيه إلا ليؤتم برأيه ومعرفته.

لي ثقيف سيدان ليس لهم في الأحلاف إلا قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحرث بن مالك وأخوه احمر، وجمع أمر الناس إلى مالك بن عوف. فلما أتاهم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد فتح مكة، أقبلوا عامدين إليه. وساق مالك مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، يرى أنه أثبت لموقفهم، فنزلوا بأوطاس. فقال دريد بن الصمة لمالك: ما لي السمع رغاء البعير ونهاق الحمار وبعار الشاء وبكاء

الصغير. فقال: أموال الناس وأبناؤهم ، سقنا معهم ليقاتلوا عنها ، فقال : راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسلاحه، وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ثم سأل عن كعب وكلاب وأسف لغيابهم، وأنكر على مالك رأيه ذلك وقال: لم تصنع بتقديم نقيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئا أرفعهم إلى ممتنع بلادهم. ثم الق الصبيان على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من ورائك، وإن كانت لغيرك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. وأبي عليه مالك، واتبعه هوازن. ثم بعث النبي صلى الله عليه و سلم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي يستعلم بخبر القوم، فجاءه وأطلعه على جلية الخبر، وانهم قاصدون إليه، فاستعار رسول الله صلى الله عليه و سلم من صفوان بن أمية مائة درع، وقيل أربعمائة، وخرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف الذين صحبوه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح. واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، ومضى لوجهه، وفي جملة من اتبعه عباس بن مرداس، والضحاك بن سفيان الكلابي ، وجموع عن عبس وذبيان ومزينة وبني أسد.

ومر في طريقه بشجرة سدر خضراء وكان لهم في الجاهلية مثلها يطوف بها الأعراب ويعظمونها ويسمونها ذات أنواط. فقال له جفاة الأعراب يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال لهم: قلتم كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. والذي نفسى بيده لتركبن سن من كان قبلكم وزجرهم عن بذلك. ثم نهض حتى أتى وادي حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة، وهو وادي الحزن فتوسطه في غبش الصبح، وقد كمنت هوازن جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لا يلوى أحد على أحد وناداهم صلى الله عليه و سلم فلم يرجعوا. وثبت معلى أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر والفضل وقثم ابنا العباس وجماعة سواهم، والنبي صلى الله عليه و سلم على بغلته البيضاء دلدل، والعباس آخذ بشكائمها، وكان جهير الصوت، فأمره رسول الله صلى الله عليه و سلم أن ينادي بالأنصار وأصحاب الشجرة وقيل وبالمهاجرين. فلما سمعوا الصوت وذهبوا ليرجعوا فصدهم

ازدحام المنهزمين أن يثنوا رواحلهم، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبي صلى الله عليه و سلم . وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا هوازن والناس متلاحقون. واشتدت الحرب وحمي الوطيس وقذف الله في قلوبهم هوازن الرعب حين وصلوا إلى
رسول الله فلم يملكوا أنفسهم، فولوا منهزمين، ولحق آخر الناس، وأسرى هوازن مغلولة بين يديه، وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحر القتل في بني مالك من ثقيف، فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً، في جملتهم ذو الخمار وأخوه عثمان ابنا عبد الله بن ربيعة بن حبيب سيداهم. وأما قارب بن الأسود سيد الأحلاف من ثقيف ففر بقومه منذ أول الأمر، وترك رأيته فلم يقتل منهم أحد، ولحق بعضهم بنخلة، وهرب مالك بن عوف النصري مع جماعة من قومه، فدخلوا الطائف مع ثقيف، واتجهت طوائف من هوازن إلى أوطاس
واتبعتهم طائفة من خيل المسلمين الذين توجهوا من نخلة فادركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه. يقال قتله ربيعة بن رافع بن أهبان بن ثعلبة بن يربوع بن سماك بن عوف بن امرىء القيس. وبعث صلى الله عليه و سلم إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن أبا عامر الأشعري عم أبي موسى، فقاتلهم وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصفة، فأخذ أبو موسى الراية وشد على قاتل عمه فقتله، وانهزم المشركون واستحر القتل في بني رباب من بني نصر بن معاوية، وانفضت جموع هوازن كلها. واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة منهم: أيمن ابن أم أيمن أخو أسامة لأمه ويزيد بن زمعة بن الأسود وسراقة بن الحرث من بني العجلان وأبو عامر الأشعري.
حصار الطائف
ثم أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بالسبايا والأموال فحبست بالجعرانة بنظر مسعود بن عمرو الغفاري، وسار من فوره إلى الطائف، فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة، وقاتلوا من وراء الحصون، وأسلم من كان حولهم من الناس، وجاءت وفودهم إليه. وقد كان مر في طريقه بحصن مالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ونزل على أطم لبعض ثقيف، فتمنع فيه صاحبه قامر بهدمه فأمر بهدمه فاخرب، وتحصنت ثقيف. وقد كان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة من ساداتهم ذهبا إلى جرش يتعلمان صنعة المجانيق والدبابات للحمار، لما أحسوا من قصد رسول الله صلى الله عليه و سلم إياهم، فلم يشهدا الحصار ولا حنينا قبله. وحاصرهم المسلمون بضع عشرة أو نصف شهر أو بضع وعشرين ليلة. واستشهد بعضهم بالنبل، ورماهم صلى الله عليه و سلم بالمنجيق. ودخل نفر من المسلمين تحت دبابة ودنوا إلى سور الطائف، فصبوا عليهم سكك الحديد المحماة، ورموهم بالنبل فأصابوا منهم قوما. وأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بقطع أعناقهم. ورغب إليه ابن الأسود بن مسعود في ماله وكان بعيدا من الطائف، وكف عنه. بثم رحل عن الطائف وتركهم، ونزل أبو بكرة فاسلم، واستشهد من
المسلمين في حصاره سعيد بن سعيد بن العاص وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة، وعبد الله بن عامر بن ربيعة العتزي حليف بني عدي في آخرين قريبا من إثني عشر فيهم أربعة من الأنصار.

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه و سلم من الجعرانة وأفاه هنالك وفد هوازن مسلمين راغبين فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال، فاختاروا العيال والأبناء. وكلموا المسلمين في ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقال صلى الله عليه و سلم ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، وامتنع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن أن يردا عليهم ما وقع لهما من الفيء، وساعدهما قومهما. وامتنع العباس بن مرادس كذلك، وخالفهم بنو سليم وقالوا: ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه و سلم . فعرض رسول صلى الله عليه و سلم من لم تطب نفسه عن نصيبه، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم. وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى فيهن الشيما أخت النبي صلى الله عليه و سلم من الرضاعة، وهي بنت الحرث بن عبد العزى من بني ساعدة بن بكر من هوازن وأكرمها رسول الله صلى الله عليه و سلم وأحسن إليها، وخيرها فاختارت قومها، فردها إليهم، وقسم الأموال بين المسلمين. ثم أعطى من نصيبه من خمس الخمس قوما يستألفهم على الإسلام من قريش وغيرهم. فمنهم من أعطاه مائة مائة، ومنهم خمسين خمسين، ومنهم ما بين ذلك، ويسمون المؤلفة، وهم مذكورون في كتب السير يقاربون الأربعين: منهم أبو سفيان وابنه معاوية وحكيم بن خزام وصفوان بن أمية ومالك بن عوف وفي هم. ومنهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، والأقرع بن الحابس وهما من أصحاب المائة. وأعطى ابن عباس بن مرادس دونهما فأنشده أبياته المعروفة يتسخط فيها فقال: اقطعوا عني لسانه، فأتموا إليه المائة، ولما أعطى المؤلفة قلوبهم وجد الأنصار في أنفسهم إذا لم يعطهم مثل ذلك، وتكلم شبانهم مع ما كانوا يظنون أنه إذا فتح الله عليه بلده يرجع إلى قومه ويتركهم، فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال: إنما أعطي قوما حديثي عهد بالإسلام أتألفهم عليه، أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير، وتنصرفوا برسول الله صلى الله عليه و سلم إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. ولو سلك الأنصار شعباً وسلك بالناس شعبا لسلكت شعب الأنصار فرضوا وافترقوا.

ثم اعتمر رسول الله صلى الله عليه و سلم من الجعرانة الى مكة ثم رجح إلى المدينة فدخلها لست بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة لشهرين ونصف من خروجه، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شابا ينيف عمره على عشرين سنة، وكان غلبه الورع والزهد، فأقام الحج بالمسلمين فى سنته، وهو اول أمير أقام حج الإسلام، وحج المشركون على مشاعرهم. وخلف بمكة معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وبعث عمرو بن العاص إلى أهل حنين وعمرو بن الجلندي من الأزد بعماد مصدقاً، فأطاعوا له بذلك، واستعمل صلى الله عليه و سلم مالك بن عوف على من أسلم من قومه ومن سلم منهم، وما له حوالي الطائف من ثقيف. وأمره بمغادرة الطائف من التضييق عليهم ففعل حتى جاؤوا مسلمين كما يذكر بعد.

وحسن إسلام المؤلفة قلوبهم ممن اسلم يوم الفتح أو بعده، وإن كانوا متفاوتين في ذلك.

ووفد على النبي صلى الله عليه و سلم كعب بن زهير فأهدر دمه وضاقت به الأرض وجاء فأسلم، وانشد النبي صلى الله عليه و سلم قصيدته المعروفة بمدحه التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول الخ.

وأعطاه بردة في ثواب مدحه فاشتراها معاوية من ورثته بعد موته وصار الخلفاء يتوارثونها شعاراً.

غزوة تبوك

ووفد في السنة تسع على رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة بنو أسد فأسلموا وكان منهم ضرار بن الأزور وقالوا: قدمنا يا رسول الله قبل أن يرسل إلينا فنزلت: (يمنون عليك أن أسلموا) الآية. ووفد فيها وفدتين في شهر ربيع الأول، ونزلوا على رويفع بن ثابت البلوي، وأقام رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمدينة بعد منصرفه من الطائف في ذي الحجة إلى شهر رجب من السنة التاسعة.

ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وكان في غزواته كثيرا ما يوري بغير الجهة التي يقصدها على طريقه الحرب، إلا ما كان من هذه الغزاة لعسرها بشدة الحرب، وبعد البلاد وفصل الفواكه، وقلة الظلال وكثرة العدو الدين يصدون. ونجهز الناس على ما في أنفسهم من استثقال ذلك، وطفق المنافقون يثبطونهم عن الغزو، وكان نفر منهم يجتمعون في بيت بعض اليهود، فأمر طلحة بن عبيد الله أن يخرب عليهم البيت خربها واستأذن ابن قيس من بني سلمة في العقود فأذن له، وأعرض عنه. وانتدب كثير من

المسلمين للإنفاق والحملان وكان من أعظمهم في ذلك عثمان بن عفان، يقال إنه أنفق فها ألف دينار وحمل على تسعمائة بعير، ومائة فرس وجهز ركاباً.

وجاء بعض المسلمين يستحمل رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا باكين لذلك. وحمل بعضهم يامين بن عمير النضير وهما أبو ليلى بن كعب من بني مازن ابن النجار وعبد الله بن مغفل المزني. واعتذر المخلفون من الأعراب، فعذرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم . ثم نهض وخلف على المدينة محمد بن مسلمة، وقيل بل سباع بن غرفطة، وقيل بل علي بن أبي طالب. وخرج معه عبد الله بن أبي بن سلول في عدد وعدة، فلما سار صلى الله عليه و سلم تخلف هو فيمن تخلف من المنافقين. ومر صلى الله عليه و سلم بالحجر على ديار ثمود، فأمر أن لا يستعمل ماؤها، ويعلف ما عجن منه للإبل، وأذن لهم في بئر الناقة، وأمر أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا باكين، ونهى أن يخرج أحد منفردا عن صاحبه.

خرج رجلان هن بني ساعدة جن أحدهما فمسح عليه فشفي، والآخر رمته الريح

في جبل طيء، فردوه بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه و سلم . وضل صلى الله عليه و سلم عن ناقته في بعض الطريق، فقال أحد المنافقين: محمد يدعي علم خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و سلم فقال: والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وأن الناقة بموضع كذا، وكان قد أوحي إليه بها فوجدوها ثم. وكان قائل هذا القول زيد بن اللصيت من بني قينقاع، وقيل إنه تاب بعد ذلك. وفضح الوحي قوماً من المنافقين كانوا يخذلون بالناس ويهولون عليهم أمر الروم، تاب منهم مخشي بن جهير ودعا أن يكفر عنه بهادة يخفي مكانه، فقتل يوم اليمامة.

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى تسوك أتاه يحينة بن رؤية صاحب ايلة وأهل جرياء

وأذرح فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتابا.
وبعث صلى الله عليه و سلم خالد بن الوليد إلى تبوك بن عبد الملك صاحب دومة الجندل من كندة كان ملكا عليها وكان نصرانيا، وأخبر أنه يجده يصيد البقر. واتفق أن بقر الوحش باتت تهذ القصر بقرونها فنشط أكيدر لصيدها، وخرج ليلا فوافى وصوله خالداً، فأخذه وبعث به إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فعفا عنه وصالحه على الجزية ورده، وأقام بتبوك عشرين ليلة. ثم انصرف وكان في طريقه ماء قليل نهى أن يسبق إليه أحد، فسبق رجلان واستنفدا ما فيه،
فنكر عليهما ذلك. ثم وضع يده تحت وشلة، فصب ما شاء الله أن يصب، ونضح بالوشل ودعا فجاش الماء حتى كفى العسكر.
وأخبر صلى الله عليه و سلم كيد أن ذلك الموضع سمي جنابا، ولما قرب من المدينة بساعة من نهار أنفذ مالك بن الدخشم من بني سليم ومعن بن عدي من بني العجلان إلى مسجد الضرار فأحرقاه وهدماه، ولد كان جماعة من المنافقين بنوه وأتوا إلى النبي صلى الله عليه و سلم وهو يتجهز إلى تبوك، فسألوه الصلاة فيه، فقال أنا على سفر، ولو قدمنا أتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما رجع أمر بهدمه.
وفي هذه الغزاة تخلف كعب بن مالك من بني سلمة، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية بن واقف وكانوا صالحين. فنهى صلى الله عليه و سلم عن كلامهم خمسين يوما، ثم نزلت توبتهم.
وكان المتخلفون من كير عذر نيفا وثلاثين رجلا. وكان وصوله صلى الله عليه و سلم من تبوك في رمضان سنة تسع وفيه كانت وفادة ثقيف وإسلامهم. ونزل الكثير من سورة براءة في شأن المنافقين، وما قالوه في غزوة تبوك، آخر غزوة غزاها صلى الله عليه و سلم .
إسلام عروة بن مسعود ثم وفد ثقيف وهدم اللات
كان صلى الله عليه و سلم لما أفرج عن الطائف، وارتحل إلى المدينة اتبعه عروة بن مسعود سيدهم، فأدركه في طريقه وأسلم ورجع يدعو قومه، فرمي بسهم في سطح بيته وهو يؤذن للصلاة، فمات ومنع قومه من الطلب بدمه وقال: هي شهادة ساقها الله إلي، وأوصى ان يدفن مع شهداء المسلمين. ثم قدم ابنه أبو المليح وقارب بن مسعود فأسلما، وضيق مالك بن عوف على ثقيف، واستباح سرحهم، وقطع سابلتهم. وبلغهم رجوع النبي صلى الله عليه و سلم من تبوك واتمروا في الوفادة، وعلموا أن لا طاقة لهم بحرب العرب المسلمين. وفزعوا إلى عبد ياليل بن عمرو بن عمير، فشرط عليهم ان يبعثوا معه رجالاً منهم ليحضروا مشهده خشية على نفسه مما نزل بعروة، فبعثوا معه رجلين من احلاف قومه وثلاثا من بني مالك، فخرج بهم عبد ياليل، وقدموا على رسول الله صلى الله عليه و سلم فى رمضان من السنة التاسعة يريدون البيعة والإسلام، فضرب لهم قبة في المسجد. وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي في أمرهم، وهو الذي كتب كتابهم بخطه، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم حتى يأكل منه خالد، وسألوه أن يدع لهم اللات ثلاث سنين، رعيا لنسائهم وأبنائهم حتى

يأنسوا، فأبى وسألوه أن يعفيهم من الصلاة. فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه، فسألوه ان لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقال: اما هذه فأنا سنكفيكم منها، فأسلموا وكتب لهم وافر عليهم عثمان بن أبي العاص أصغرهم سنا لأنه كان حريصا على الفقه وتعلم القرآن. ثم رجعوا إلى بلادهم، وخرج معهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات، وتأخر أبو سفيان حتى دخل المغيرة، فتناولها بيده ليهدمها، وقام بنو معتب دونه خشية عليه. ثم جاء أبو سفيان، وجمع ما كان لها من الحلي وقضى منه دين عروة والأسود ابني مسعود، كما أمر النبى صلى الله عليه و سلم وقسم الباقي.

الوفود

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه و سلم من تبوك، وأسلمت ثقيف ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، حتى لقد سميت سنة الوفود. قال ابن اسحق: وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر النبي صلى الله عليه و سلم . وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل وقادتهم لا ينكرون دلك. وكانت قريش هي التى نصبت لحربه وخلافه. فلما افتتحت مكة، ودانت قريش ودخلها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحربه وعداوته، فدخلوا في دية أفواجاً يضربون إليه من كل وجه انتهى.

فأول من قدم إليه بعد تبوك وفد بني تميم، وفيه من رؤوسهم عطارد بن حاجب بن

زرارة بن عدس من بني دارم بن مالك، والحباب بن يزيد والاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر من بني سعد، وقيس بن عاصم وعمرو بن الاهتم وهما من بني منقبر، ونعيم بن زيد ومعهم عيينة بن حصن الفزاري. وقد كان الأقرع وعيينة شهدا فتح مكة وخيبر وحصار الطائف، ثم جاءا مع وفد بني تميم. فلما دخلوا المسجد نادوا من وراء الحجرات، فترلت الآيات في إنكار ذلك عليهم. ولما خرج قالوا: جئنا نفاخرك بخطيبنا وشاعرنا فأذن لهم، فخطب عطارد وفاخر، ويقال والأقرع بن حابس. ثم انشد الزبرقان بن بدر شعرا بالمفاخرة، ودعا رسول الله صلى الله عليه و سلم ثابت بن قيس بن الشماس من بني الحرث بن الخزرج فخطب، وحسان بن ثابت فانشد، مساجلين لهم. فاذعنوا للخطبة والشعر والسؤدد والحلم وقالوا: هذا الرجل هو مؤيد من الله، خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره اشعر من شاعرنا، وأصواتهم اعلى من أصواتنا ثم اسلموا. واحسن رسول الله صلى الله عليه و سلم جوازهم. وهذا كان شأنه مع الوفود يترلهم إذا قدموا ويجهزهم إذا رحلوا.

ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم في آخر رمضان مقدمه من تبولى كتاب ملوك حمير مع رسولهم، ومع الحرث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان، قيل ذي رعين وهمدان ومعافر. وبعث زرعة بن ذي يزن رسوله مالك بن مرة الرهاوي باسلامهم ومفارقة الشرك وأهله، وكتب إليهم النبي صلى الله عليه و سلم كتابه.

وبعث إلى ذي يزن معاذ بن جبل مع رسوله مالك بن مرة لجمع الصدقات، وأوصاهم برسله معاذ وأصحابه. ثم مات عبد الله بن أبي بن سلول في ذي القعدة، ونعى رسول الله صلى الله عليه و سلم النجاشي وإنه مات في رجب قبل تبوك.

وقدم وفد بهرا في ثلاثة عشر رجلاً، ونزلوا على المقداد بن عمرو وجاء بهم فأسلموا وأجازهم وانصرفوا.

وقدم وفد بني البكاء ثلاثة نفر منهم، وقدم وفد بني فرازة بضعة عشر رجلا، فيهم خارجة بن حصن وابن أخيه الحر بن قيس فأسلموا. ووفد عدي بن حاتم بن طيء فأسلم. وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد بعث قبل تبوك إلى بلاد طيء عفي بن أبي طالب في سرية فأغار عليهم، وأصيب حاتم وسبيت ابنته، وغنم سيفين في بيت أصنامه كانتا من قربان الحرث بن أبي شمر. وكان عدي قد هرب قبل ذلك ولحق ببلاد قضاعة بالشام فراراً من جيوش المسلمين، وجوارا لأهل دينه من النصارى، وأقام بينهم، ولما سيقت ابنة حاتم جعلت في الحظيرة بباب المسجد التي كانت السبايا تحبس بها. ومر بها رسول الله صلى الله عليه و سلم فكلمته أن يمن عليها فقال: قد فعلت ولا تعجلي حتى تجدي ذا ثقة من قومك يبلغك إلى بلادك. ثم آذنيني قالت: فأقامت حتى قدم ركب من بني قضاعه وأنا أريد أن آتى أخي بالشام، فعرفت رسول الله صلى الله عليه و سلم فكساني وحملني وزودني وخرجت معه، فقدمت الشام. فلما لقيها عدي تلاوم ساعة ثم قال لها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فأشارت عليه باللحاق به، فوفد وأكرمه رسول الله صلى الله عليه و سلم وأدخله إلى بيته، وأجلسه على وسادته بعد أن استوقفته في طريقه امراة فوقف لها. فعلم عدي أنه ليس بملك، وإنما هو نبي. ثم أخبره عن أخذه المرباع من قومه ولا يحل له، فازداد استبعادا فيه ثم قال: لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة

عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف، أو لعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان لغيرهم، فيوشك أن تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت. فأسلم عدي وانصرف إلى قومه. ثم أنزل الله على نبيه الأربعين آية من سورة براءة في نبذ العهد الذي بينه وبين المشركين، لا يصدوا عن البيت ونهوا أن يقرب المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، وأن لا يطوف بالبيت عرياناً، وان كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه و سلم عهد يتم له إلى مدته، وأجلهم أربعة اشهر من يوم النحر، فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم بهذه الآيات أبا بكر وأمره على إقامة الحج بالموسم من هذه السنة، فبلغ ذي الحليفة، فاتبعه بعلي فأخذها منه، فرجع أبو بكر مشفقاً أن يكون نزل فيه قرآن. فقال له النبي الله صلى الله عليه و سلم : لم يترل شيء ولكن: لا يبلغ عني غيرى أو رجل مني. فسار أبو بكر على الحج وعلي على الأذن ببراءة. فحج أبو بكر بالناس وهم على حج الجاهلية. وقام علي عند العقبة يوم الأضحى فأذن بالاية التي جاء بها. قال الطبرى: وفي هذه السنة فرضت الصداقات لقوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) الآية.

وفيها قدم وفد ثعلبة بن منقذ ووفد هذيم من قضاعة قال الطبري: وفيها بعث بنو

سعد بن بكر ضمضام بن ثعلبة وافدا، فاستحلف رسول الله صلى الله عليه و سلم على ما جاء به من الإسلام، وذكر التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج واحدة واحدة، حتى إذا فرغ تشهد وأسلم وقال: لأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيت عنه ثم لا أزيد عليها ولا انقص فلما انصرف قال صلى الله عليه و سلم : إن صدق دخل الجنة. ثم قدم على قومه فأسلموا كلهم يوم قدومه، والذي عليه الجمهور أن قدوم ضمضام وقصته كانت سنة خمس.

ثم دخلت سنه عشر فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم خالد بن الوليد في ربيع أو جمادى في سرية أربعمائة إلى نجران وما حولها يدعو بني الحرث بن كعب إلى الإسلام، ويقاتلهم ان لم يفعلوا، فأسلموا وأجابوا داعيته. وبعث الرسل في كل وجه فأسلم الناس فكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فكتب إليه بأن يقدم مع وفدهم، فأقبل خالد ومعه وفد بني الحرث بن كعب، منهم قيس بن الحصين ذو القصة، ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قريض الزيادي وشداد بن عبد الله الضبابي وعمرو بن عبدالله الضبابي، فأكرمهم النبي صلى الله عليه و سلم وقال لهم: بم كنتم تغلبون من يقاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم، قال صدقتم فأسلموا وأمر

عليهم قيس بن الحصين، ورجعوا صدر ذي القعدة من سنة عشر، ثم اتبعهم عمرو بن حزام من بني النجار ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة، وكتب إليه كتاباً عهد إليه في عهده وأمره بأمره. وأقام عاملاً على نجران. وهذا الكتاب وقع في السير مرويا واعتمده الفقهاء في الإستدلالات وفيه مآخذ كثيرة للأحكام الفقهية ونصه.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، عهدا من محمد النبي

رسول الله صلى الله عليه و سلم لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وآمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه. وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للناس في الحق، ويشتد عليهم في الظلم، فإن الله حرم الظلم ونهى عنه فقال: الا لعنة الله على الظالمين. وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس بالنار وعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه، وما أمر الله به، والحج الأكبر والحج الأصغر وهو العمرة. وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوب صغير إلا أن بكون ثوباً يثني طرفيه على عاتقه، وينهى أن يحتبيء أحد في ثوب واحد ويفضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يقص أحد شعر رأسه إذا عفا في قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤه إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا القبائل والعشائر فليعطفوه بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له. ويأمر الناس بأسباغ الوضوء في وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحوا برؤوسهم كما أمرهم الله. وأمرهم بالصلاة بوقتها وإتمام الركوع والسجود؛ يغلس بالصبح، ويهجر بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر

والشمس في الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل لا تؤخر حتى تبدو نجوم السماء، والعشاء أول الليل. وآمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرواح إليها، وآمره أن يأخذ من الغنائم خمس الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين أو سقت السماء، وعلى ما سقى الغرب نصف العشر. وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل عرين أربع شياة، وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من

البقر تبيع أو تبيعة جذع أو حذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة. فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين فى الصدقة، فمن زاد خيرا فهو خير له. وإنه من اسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية. وعلى كل محتلم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثيابا. فمن أدى ذلك فإن له ذمة الإسلام ذمة الله وذمة رسوله. ومن منع ذلك فإنه عدو لذ ولرسوله وللمؤمنين جميعا. صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمته وبركاته.

وقدم وفد غسان في رمضان من هذه السنة العاشرة في ثلاثة نفر فأسلموا وانصرفوا

إلى قومهم، فلم يجيبوا إلى الإسلام فكتموا أمرهم وهلك اثنان منهم، ولقي الثالث أبو عبيدة عام اليرموك فأخبره بإسلامه، وقدم فيه وفد عامر عشرة نفر فأسلموا وتعلموا شرائع الإسلام وأقرأهم النبى القرآن وانصرفوا.

وقدم في شوال وفد سلامان بسبعة نفر، رئيسهم حبيب فأسلموا عن قومهم وتعلموا

القرآن وانصرفوا. وفيها قدم أزد جرس، وفد فيهم صرد بن عبد الله الأزدي في عشرة من قومه، ونزلوا على فروة بن عمرو. وأمر النبي صلى الله عليه و سلم بعد أن أسلموا صردا على من أسلم منهم، وأن يجاهد المشركين حوله. فحاصر جرش ومن بها من خثعم وقبائل اليمن، وكانت مدينة حصينة اجتمع إليها أهل اليمن حين سمعوا بزحف المسلمين، فحاصرهم شهرا. ثم قفل عنهم فظنوا أنه انهزم، فاتبعوه إلى جبل شكر، فصف وحمل عليهم ونال منهم، وكانوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم رائدين وأخبرهما ذلك اليوم بواقعة شكر. وقال: إن بدن الله لتنحر عنده الآن، فرجعا إلى قومهما فأخبراهم بذلك وأسلموا وحمى لهم حمى حول قريتهم.

ومنها كان إسلام همدان ووفادتهم على يد علي رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فمكث ستة أشهر لا يجيبونه، فبعث عليه السلام علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالدأ، فلما بلغ علي أوائل اليمن جمعوا له، فلما لقوه صفوا فقدم علي الإنذار وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأسلمت همدان كلها في ذلك اليوم وكاتب بذلك إلى النبي صلى الله عليه و سلم فسجد لله شكرا ثم قال: السلام على همدان ثلاث مرات. ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام،

وقدمت وفودهم، وكان عمرو بن معد يكرب الزبيدي قد قال لقيس بن مكثوم المرادي: إذهب بنا إلى هذا الرجل فلن يخفى علينا أمره، فأبى قيس من ذلك. فقدم عمرو على النبي صلى الله عليه و سلم فأسلم. وكان فروة بن مسيك المرادي على زبيد لأنه وفد قبل عمرو مفارقاً لملوك كندة، فأسلم ونزل على سعد بن عبادة وتعلم القرآن وفرائض الإسلام، واستعمله رسول الله صلى الله عليه و سلم على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معهم في بلاده حتى كانت الوفاة. وفي هذه السنة قدم وفد عبد القيس يقدمهم الجارود بن عمرو، وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم. ولما كانت الوفاة إرتد عبد القيس ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر الذي يسمى الغرور وثبت الجارود على الإسلام وكان له المقام المحمود، وهلك قبل أن يرجعوا. وقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوي العبدي فأسلم وحسن إسلامه وهلك بعد الوفاة، وقبل ردة أهل البحرين والعلاء أمير عنده لرسول الله صلى الله عليه و سلم على البحرين.

وفي هذه السنة قدم وفد بني حنيفة في سنة عشر فيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب،

ورجال بن عنفوة، وطلق بن علي بن قيس، وعليهم سلمان بن حنظلة، فأسلموا وأقاموا أياما يتعلمون القرآن من أبي بن كعب ورجال يتعلم وطلق يؤذن لهم ومسيلمة في الرحال، وذكروا للنبي صلى الله عليه و سلم مكانه في رحالهم فأجازه. وقال: ليس بشركم مكان لحفظه رحالكم. فقال مسيلمة: عرف أن الأمر لي من بعده. ثم ادعى مسيلمة بعد ذلك النبوة، وشهد له طلق إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أشركه في الأمر فافتتن الناس به كما سنذكره.

وفيها قدم وفد كندة يقدمهم الأشعث بن قيس في بضعة عشر وقيل في ستين وقيل

في ثمانين، وعليهم الديباج والحرير وأسلموا، ونهاهم النبي صلى الله عليه و سلم عنه فتركوه. وقال له اشعث: نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار فضحك وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث وكانا تاجرين فإذا ساحا في أرض العرب قال: نحن بنو آكل المرار فيعتز بذلك، كأن لهم عليه ولادة من الأمهات. ثم قال: نحن بنو النضر بن كنانة فانتفوا منا ولا ينتفي من إلينا.

وقدم مع وفد كندة وفد حضرموت وهم بنو وليعة، وملوكهم صمرة ومخوش ومسرح والضعة فأسلموا ودعا لمخوش بإزالة الرتة من لسانه.

وقدم وائل بن جر راكبا في الإسلام، فدعا له ومسح رأسه ونودي الصلاة جامعة

سرورا لقدومه، وأمر معاوية أن ينزل بالحرة فمشى معه وكان راكبا فقال له معاوية: أعطني نعلك اتوقى بها الرمضاء، فقال: ما كنت لألبسها وقد لبستها، وفي رواية لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك ففال: اردفني فقال: لست من ارداف الملوك. ثم قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي قال: امشى في ظل ناقتي كفاك به شرفا. ويقال أنه وفد على معاوية في خلافته فأكرمه. وكتب له رسول الله صلى الله عليه و سلم كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب محمد النبي لوائل بن حجر قيل حضر موت، إنك إن أسلمت جعلت
ك ما في يديك من الأرض والحصون، ويؤخذ منك من كل عشرة واحدة، ينظر في ذلك ذوو عدل منكم، وجعلت لك الا تظلم فيها معلم الدين. والنبي صلى الله عليه و سلم والمؤمنون عليه أنصار قال عياض: وفيه إلى الأقيال العباهلة والاوراع المشابيب وفيه في العبية شاة مقورة، لا لياط ولا ضناك، وفي السيوب الخمس ومن زنى من بكر فاصفعوه مائة، واستوفضوه عاماً، ومن زنى من ثيب ففرجوه بالأصاحيم، ولا توصيم في الدين، ولا غمة في فرائض الله، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال.

وفيها قدم وفد محارب في عشرة نفر فأسلموا، وفيها قدم وفد الرها من مذحج في
خمسة عشر نفرا وأهدوا فرساً فأسلموا وتعلموا القرآن وانصرفوا. ثم قدم نفر منهم وحجوا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وتوفي فأوصى لهم بمائة وسق من خيبر جارية عليهم من الكتيبة، وباعوها من معاوية.. وفيها قدم وفد نجران النصارى في سبعين راكباً يقدمهم أميرهم العاقب عبد المسيح من كندة، وأسقفهم أبو حارثة من بكر بن وائل والسيد الأيهم، وجادلوا عن دينهم. فترل صدر سورة آل عمران وآية المباهلة فأبوا منها وفرقوا وسألوا الصلح، وكتب لهم به على ألف حلة في صفر وألف في رجب، وعلى دروع ورماح وخيل وحمل ثلاثين من كل صنف. وطلبوا أن يبعث معهم والياً يحكم بينهم، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ثم جاء العاقب والسيد وأسلما.

وفيها قدم وفد الصدف من حضرموت في بضعة عشر نفرا فأسلموا وعلمهم أوقات
الصلاة، وذلك في حجة الوداع وفي هذه السنة قدم وفد عبس قال ابن الكلبي: وفد منهم رجل واحد فاسلم ورجح ومات في طريقه وقال الطبري. وفيها وفد عدي بن حاتم في شعبان انتهى.

وفيها قدم وفد خولان عشرة نفر فأسلموا وهدموا صنمهم، وكان وفد على
رسول الله صلى الله عليه و سلم في هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الضبيبى من جذام وأهدى غلاما فأسلم. وكتب رسول الله صلى الله عليه و سلم كتابا يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، ولم يلبث أن قفل دحية بن حليفة الكلبي منصرفاً من عند هرقل حين بعثه النبي صلى الله عليه و سلم ومعه تجارة، فأغار عليه الهنيد بن عوص وقومه بنو الضليع من بطون جذام، فأصابوا كل شيء معه وبلغ ذلك مسلمين من بني الضبيب فاستنفذوا ما أخذه الهنيد وابنه وردوه على دحية. وقدم دحية على النبي صلى الله عليه و سلم فأخبره الخبر فبعث النبي صلى الله عليه و سلم زيد بن حارثة في جيش من المسلمين فأغار عليهم بالقضقاض من حرة الرمل، وقتلوا الهنيد وابنه في جماعة وكان معهم ناس من بني الضبيب فاستباحوهم معهم وقتلوهم. فركب رفاعة بن زيد ومعه أبو زيد بن عمرو من قومه في جماعة منهم، فقدموا على النبي صلى الله عليه و سلم وأخبروه الخبر فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقالوا: يا رسول الله أطلق لنا من كان حيا فبعث معهم علي بن أبي طالب وحمله على جمل وأعطاه سيفه، فلحقه بفيفاء الفحلتين، وأمره برد أموالهم فردها. وفي هذه السنة قدم وفد عامر بن صعصعة فيهم عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن ربيعة بن مالك فقال له عامرة يا محمد اجعل

لي الأمر بعدك فقال: ليس ذلك لك ولا لقومك قال: اجعل لي الوبر ولك المدر، قال لا ولكن أجعل لك أعنة الخيل فإنك أمرؤ فارس. فقال لاملأنها عليك خيلاً ورجلا ثم ولوا فقال: اللهم أكفنيهم، اللهم اهد عامرا وأغن الإسلام عن عامر.

وذكر ابن اسحاق والطبري أنهما أرادا الغدر برسول الله صلى الله عليه و سلم فلم يقدروا عليه في قصة ذكرها أهل الصحيح، ثم رجعوا إلى بلادهم فأخذه الطاعون في عنقه فمات في طريقه في أحياء بني سلول، وأصابت أخاه أربد صاعقة بعد ذلك. ثم قدم علقمة بن علاثة بن عوف، وعوف بن خالد بن ربيعة وابنه فاسلموا.

وفيها قدم وفد طيء في خمسة عشر نفراً يقدمهم سيدهم زيد الخيل، وقبيصة بن الأسود من بني نبهان فأسلموا. وسماه رسول الله صلى الله عليه و سلم زيد الخير، وأقطع له بئراً وأرضين معها وكتب له بذلك ومات في مرجعه.

وفي هذه السنة ادعى مسيلمة النبوة وأنه أشرك مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في الأمر، وكتب إليه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك فإني قد اشركت في الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريش قوم لا يعدلون، وكتب إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم .

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى مسيلمة الكذاب! سلام على من اتبع الهدى؟ أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

قال الطبري: وقد قيل: إن ذلك كان بعد منصرف النبي صلى الله عليه و سلم من حجة الوداع كما نذكر.

حجة الوداع

ثم خرج النبي صلى الله عليه و سلم إلى حجة الوداع في خمس ليال بقين من ذي القعدة، ومعه من أشراف الناس ومائة من الإبل هدايا ودخل مكة يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة ولقيه علي بن أبي طالب بصدقات نجران، فحج معه وعلم صلى الله عليه و سلم الناس مناسكهم واسترحمهم وخطب الناس بعرفة خطبته التي بين فيها ما بين حمد الله والثناء عليه ثم قال: أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت. فمن كان عنده أمانه فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وان كان ربا فهو موضوع: فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.

قضى الله أنه لا ربا، إن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع كله، وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب وكان مسترضعا في بني ليث، فقتله بنو هذيل، فهو أول ما أبدىء من دم الجاهلية. أيها الناس! إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس! إنما النسيء زيادة في الكفر

يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه إلى فيحلوا ما حرم الله ولحرموا ما أحلى الله، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله

السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الفرد الذي بين جمادي وشعبان. أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا. لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكوهونه،

وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فانهن عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن من الخير شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس! اسمعوا قولي، واعلموا ان كل مسلم أخو المسلم، وإن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم. اللهم قد بلغت فذكر أنهم قالوا اللهم نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم اللهم اشهد.

وكانت هذه الحجة تسمى حجة البلاغ وحجة الوداع، لأنه لم يحج بعدها وقد كان

حج قبل ذلك حجتين، واعتمر مع حجة الوداع عمرة فتلك ثلاث. ثم انصرف إلى المدينة في بقية ذي الحجة من العاشرة.

العمال على النواحي

كان رسول الله صلى الله عليه و سلم حين أسلم باذان: عامل كسرى على اليمن، وأسلمت اليمن

أفره على جميع محاليفها و لم يشرك معه فيها أحد حتى مات. وبلغه موته وهو منصرف من حجة الوداع فقسم عمله على جماعة من الصحابة. فولى على صنعاء ابنه شمر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى همدان عامر بن شمر الهمداني، وعلى عك والاشعريين الطاهر بن أبي هالة وعلى ما بين نجران وزمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزام، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور بن اصغر الغوثي، وعلى معاوية بن كندة عبد الله المهاجر بن أبي أمية، واشتكي المهاجر فلم يذهب، فكان زياد بن لبيد يقوم على عمله. وبعث بن جبل معلما لأهل اليمن وحضرموت وكان قبل ذلك قد بعث على الصدقات عدي بن حاتم على صدقة طيء، وأسد ومالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وقسم صدقة بني سعد بين رجلين منهم، وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين، وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويقدم عليه بها، فوافاه من حجة الوداع كما مر

خبر العنسي

كان الأسود العنسي واسمه عبهلة بن كعب، ولقبه ذو الخمار، وكان كاهناً مشعوذاً

يفعل الأعاجيب، ويخلب بحلاوة منطقه، وكانت داره كهف خيار، بها ولد ونشأ وادعى النبوة، وكانت مذحجا عامة، فأجابوه وأوعدوا نجران فوثبوا بها، وأخرجوا عمرو بن حزام وخالد بن سعيد بن العاص وأقاموه في عملها. ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلوه. وسار الأسود في سبعمائة فارس إلى شهر بن باذان بجنعاء، فلقيه شهر بن باذان، فهزمه الأسد فقتله، وغلب على ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال الطائف إلى البحرين من قبل عدد، وجعل يطير استطارة الحريق، وعامله المسلمون بالتقية، وارتد كثير من أهل اليمن. وكان عمرو بن معد يكرب مع خالد بن سعيد بن العاص، فخالفه واستجاب للأسود، فسار إليه خالد ولقيه، فاختلفا ضربتين، فقطع خالد سيفه الصمصامة، وأخذها ونزل عمرو عن فرسه وفتك في الخيل، ولحق عمرو بن الأسود فولاه على مذحج، وكان أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث المرادي، وأمر الأبناء إلى فروزودادويه، وتزوج امرأة شهر بن باذان، واستفحل أمره. وخرج معاذ بن جبل هارباً ومر بأبي موسى الأشعري في مأرب فخرج معه، ولحقا بحضرموت. ونزل معاذ فى السكون، وأبو موسى في السكاسك، ولحق عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بالمدينة. وأقام الطاهر بن أبى هالة ببلاد عك: جبال صنعاء. فلما ملك الأسود اليمن واستفحل استخف بقيم بن عبد يغوث، وبفيروز ودادويه، وكانت ابنة عم فيروز هي زوجة شهر بن باذان التي تزوجها الأسود بعد مقتله، واسمها أزاد. وبلغ إلى النبي صلى الله عليه و سلم فكتب مع وبر بن عنيس إلى الأبناء، وأبي موسى ومعاذ والطاهر يأمرهم فيه أن يعملوا في أمر الأسود بالغيلة أو المصادقة. ويبلغ عنه ما يروم عنده دينا أو نجده، وأقام معاذ والأبناء فى ذلك فدخلوا قيس بن عبد يغوث في أمره فأجاب، ثم داخل فيروز بنت عمه زوجة الاسود فواعدته قتله. وكتب النبي صلى الله عليه و سلم إلى عامر بن شمر الهمداني وبعث جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع وذي أمران وذي ظليم من أهل ناحيته، وإلى أهل نجران من

عربهم ونصاراهم واعترضوا الأسود ومشوا وتنحوا إلى مكان واحد، وأخبر الأسود شيطانه بغدر قيس وفيروز ودادويه، فعاتبهم وهم بهم ففروا إلى امرأته، وواعدتهم أن ينقبوا البيت من ظهره، ويدخلوا فيبيتوه ففعلوا ذلك، ودخل فيروز ومعه قيس ففتل عنقه ثم ذبحه، فنادى بالأذان عند طلوع الفجر، ونادى دادويه بشعار الإسلام. وأقام وبر بن حنيس الصلاة، واهتاج الناس مسلمهم وكافرهم، وماج بعضهم في بعض، واختطف الكثير من أصحابه صبيانا من أبناء المسلمين، وبرزوا وتركوا كثيرا من أبنائهم. ثم تراسلوا في رد كل ما بيده، وأقاموا يترددون فيما بين صنعاء ونجران، وخلصت صنعاء والجنود. وتراجع أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم إلى أعمالهم، وتنافسوا الإمارة في صنعاء. ثم اتفقوا على معاذ يصلي بهم، وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم بالخبر، وكان قد أتاه خبر الواقعة من السماء فقال فى غداتها: قتل العنسي البارحة، قتله رجل مبارك وهو فيروز. ثم قدمت الرسل وقد توفي النبي صلى الله عليه و سلم .

بعث اسامة

ولما رجع النبي صلى الله عليه و سلم من حجة الوداع آخر ذي الحجة، ضرب على الناس في شهر المحرم بعثا إلى الشام، وأمر عليهم مولاه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم إلى الأردن من أرض فلسطين ومشارف الشام. فتجهز الناس، وأوعب معه المهاجرون الأولون، فبينا الناس على ذلك ابتدأ النبي صلى الله عليه و سلم بشكواه التي قبضه الله فيها إلى كرامته ورحمته، وتكلم المنافقون في شأن أسامة.

وبلغ الخبر بارتداد الأسود ومسيلمة، وخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم عاصبا رأسه من الصداع

وقال: إني رأيت البارحة في نومي أن في عضدي سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولتهما هذين الكذابين : صاحب اليمامة، وصاحب اليمن.

وقد بلغني أن أقواما تكلموا في أمارة أسامة، طعنوا في أمارته، لقد طعنوا في أمارة أبيه من قبله، وإن كان أبوه لحقيقاً بالامارة، وإنه لحقيق بها انفروا. فبعث أسامة، فضرب أسامة بالحرق وتمهل، ونقل رسول الله صلى الله عليه و سلم وتوفاه الله قبل توجه أسامة.

أخبار الأسود ومسيلمة وطليحة

كان النبى صلى الله عليه و سلم بعد ما قضى حجة الوداع تحلل به السير، فاستكى وطارت الأخبار بذلك، فوثب الأسود باليمن كما مر، ووثب مسيلمة باليمامة، ثم وثب طليحة بن خويلد

في بني أسد يدعي كلهم النبوة. وحاربهم رسول الله صلى الله عليه و سلم بالرسل والكتب إلى عماله ومن ثبت على إسلامه من قومهم أن يجدوا في جهادهم. فأصيب الأسود قبل وفاته بيوم، و لم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذب عن دينه، فبعث إلى المسلمين من العرب في كل ناحية من نواحي هؤلاء الكذابين يأمرهم بجهادهم. وجاء كتاب مسيلمة إليه فأجابه كما مر. وجاء ابن أخي طليحة يطلب الموادعة، فدعا عليه صلى الله عليه و سلم حتى كان من حكم الله فيهم بعد وفاته ما كان.

مرضه صلى الله عليه و سلم

أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه و سلم من ذلك أن الله نعى إليه نفسه بقوله: (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخر السورة. ثم بدأه الوجع لليلتين بقيتا من صفر، وتمادى به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استقر به في بيت ميمونة، فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له، وخرج على الناس فخطبهم، وتحلل منهم، وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم ثم قال لهم: إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده. وفهمها أبو بكر فبكى فقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال : على رسلك يا أبا بكر. ثم جمع رسول الله صلى الله عليه و سلم أصحابه فرحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيرا وقال: أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، وأودعكم إليه، إني لكم نذير وبشير ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده، فإنه قال لي ولكم: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) وقال: (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين)؟

ثم سألوه عن مغسله فقال : الأدنون من أهلي، وسألوه عن الكفن فقال: في ثيابي

هذه أو بياض مصر أو حلة يمانية. وسألوه عن الصلاه عليه فقال: دعوني على سريري في بيتي على شفير قبري، ثم أخرجوا عني ساعة حتى تصلى علي الملائكة، ثم ادخلوا فوجاً بعد فوج فصلوا وليبدأ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم.

وسألوه عمن يدخله القبر فقال: أهلي. ثم قال: ائتوني بدواه وقرطاس، اكتب

لكم كتابا لا تضلون بعده فتنازعوا وقال بعضهم انه يهجر، وقال بعضهم أهجر؟ يستفهم. ثم ذهبوا يعيدون عليه، ثم قال: دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه. وأوصى بثلاث: أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأن يجيزوا الوفد كما

كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة أو نسيها الراوي. وأوصى بالأنصار فقال: إنهم كرشي وعيلتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئتهم فقد أصحبتم يا معشر المهاجرين تزيدون، والأنصار لا يزيدون ثم قال: سدوا هذه الأبواب في المسجد إلا باب أبي بكر، فإني لا أعلم امرءا أفضل يداً عندي في الصحبة من أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكرخليلا، ولكن صحبته إخاء وإيمان حتى يجمعنا الله عنده.

ثم ثقل به الوجع وأغمي عليه، فاجتمع إليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي.

ثم حضر وقت الصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقالت عائشة: إنه رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك فمر عمر، فامتنع عمر وصلى أبو بكر. ووجد رسول الله صلى الله عليه و سلم خفة فخرج فلما أحس به أبو بكر تأخر فجذبه رسول الله صلى الله عليه و سلم وأقامه مكانه، وقرأ من حيث انتهى أبو بكر. ثم كان أبو بكر يصلي بصلاته والناس بصلاة أبي بكر. قيل صلوا كذلك سبع عشرة صلاة، وكان يدخل يده في القدح وهو في النزع فيمسح وجهه في الماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت. فلما كان يوم الإثنين. وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصباً رأسه، وأبو بكر يصلي فنكص عن صلاته ورده رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده، وصلى قاعدا على يمينه. ثم أقبل على الناس بعد الصلاه فوعظهم وذكرهم، ولما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب، وخرج إلى أهله في السنح. ودخل رسول الله صلى الله عليه و سلم في بيته فاضطجع في حجرة عائشة، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليه وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه وعرفت عائشة أنه يريده قالت: فمضغته حتى لان وأعطيته إياه فاستن به ثم وضعه. ثم ثقل في حجري فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص وهويقول؟ الرفيق الأعلى من الجنة فعلمت أنه خير فاختار.

وفاته صلى الله عليه و سلم

وكانت تقول: قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم بين سحري ونحري، وذلك نصف نهار يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الأول ودفن من الغد نصف النهار من يوم الثلثاء، ونادى النبي في الناس بموته، وأبو بكر غائب في أهله بالسنح، وعمر حاضر فقام في الناس فقال: إن رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله صلى

الله عليه و سلم مات، وأنه لم يمت وأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وليرجعن فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم، وأقبل أبو بكر وقد بلغه

الخبر، فدخل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فكشف عن وجهه وقبله وقال: بأبي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك، ولن يصيبك بعدها موتة أبدا. وخرج إلى عمر وهو يتكلم فقال: أنصت! فأبى وأقبل على الناس يتكلم فجاءوا إليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى علبه وقال: أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية. فكان الناس لم يعلموا ان هذه الآية في المترل قال عمر: فما هو الا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أنه قد مات. وقيل تلا معها (إنك ميت وإنهم ميتون) الآية. وبينما هم كذلك إذ جاء رجل يسعى بخبر الأنصار انهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبايعوا سعد بن عبادة ويقولون: منا أمير، ومن قريش أمير، فانطلق أبو بكر وعمر وجماعة المهاجرين إليهم، وأقام علي والعباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد يتولون تجهيز رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فغسله علي مسنده إلى ظهره والعباس وابناه يقلبونه معه، وأسامة وشقران يصبان الماء وعلي يدلك من وراء القميص لا لفضي إلى بشرته بعد أن كانوا اختلفوا في تجهيزه. ثم أصابتهم سنة فخففونا وسمعوا من وراء البيت أن اغسلوه وعليه ثيابه ففعلوا؟ ثم كفنوه في ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج فيهن إدراجا، واستدعوا حفارين أحدهما يلحد والآخر يشق. ثم بعث إليهما العباس رجلين وقال: اللهم اغفر لرسولك، فجاء الذي يلحد، وهو أبو طلحة زيد بن سهل، كان يحفر لأهل المدينة، فلحد لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، ولما فرغوا من جهازه يوم الثلثاء وضع على سريره في بيته. واختلفوا أيدفن في مسجده أو بيته. فقال أبو بكر: سمعته صلى الله عليه و سلم يقول. ما قبض نبي إلا يدفن حيث قبض، فرفع فراشه الذي قبض عليه وحفر له تحته. ودخل الناس يصلون عليه أفواجا الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد لا يؤم أحدهم أحداً، ثم دفن من وسط الليل ليلة الأربعاء. وعن عائشة توفي لاثنتي عشره ليلة هن ربيع الأول فكملت سنو الهجرة عشر سنين كوامل، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وقيل خمس وستين سنة وقيل ستين.

خبرالسقيفة

ولما قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم إرتاع الحاضرون لفقده، حتى ظن بعضهم أنه لم يمت واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، يبايعون سعد بن عبادة وهم يرون أن الأمر لهم

بما أووا ونصروا، وبلغ الخبر إلى أبي بكر وعمر فجاءوا إليهم، ومعهم أبو عبيدة، ولقيهم عاصم بن عدى وعويم بن ساعدة فأرادوهم على الرجوع وخفضوا عليهم الشأن فأبوا إلا أن يأتوهم، فأتوهم في مكانهم ذلك، فأعجلوهم عن شأنهم وغلبوهم عليه جماعاً وموعظة. وقال أبو بكر: نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره، ولا ننازع في ذلك وانتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأمراء وانتم الوزراء. وقال الحباب بن المنذر بن الجموح: منا أمير ومنكم أمير، وإن أبوا فاجلوهم يا معشر الأنصار عن البلاد، فبأسيافكيم دان الناس لهذا

الدين. وإن شئتم اعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب. وقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أوصانا بكم كما تعلمون، ولو كنتم الأمراء لأوصاكم بنا. ثم وقعت ملاحاة بن عمر والمنذر بن الحباب، وأبو عبيدة يخفضهما ويقول: اتقوا الله يا معشر الأنصار،أنتم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير. فقام بشير بن سعد بن النعمان بن كعب بن الخزرج فقال: ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق وأولى، ونحن وإن كنا أولى فضل في الجهاد، وسابقة في الدين، فما أردنا بذلك إلا رضى الله وطاعة نبيه، فلا نبتغي به من الدنيا عوضاً، ولا نستطيل به على الناس. وقال الحباب بن المنذر: نفست والله عن ابن عمك يا بشير فقال: لا والله! ولكن كرهت أن أنازع قوماً حقهم، فأشار أبو بكر إلى عمر وأبو عبيدة فامتنعا، وبايعا أبا بكر وسبقهما إليه بشير بن سعد. ثم تناجى الأوس فيما بينهم، وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء، وكرهوا إمارة الخزرج عليهم، وذهبوا إلى بيعة أبي بكر فبايعوه. وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر. وكادوا يطأون سعد بن عبادة. فقال ناس من اصحابه: اتقوا سعداً ولا تقتلوه فقال عمر: اقتلوه قتله الله وتماسكا، فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الرفق هنا ابلغ، فأعرض عمر، ثم طلب سعدا في البيعة فأبى وأشار بشير بن سعد بتركه وقال: إنما هو رجل واحد، فأقام سعد لا يجتمع معهم في الصلاة ولا يفيض معهم في الحديث حتى هلك أبو بكر. ونقل الطبري أن سعدا بايع يومئذ، وفي أخبارهم أنه لحق بالشام، فلم يزل هنالك حتى مات، وأن الجن قتله. وينشدون البيتين الشهيرين وهما:

نحن قتلنا سيد الخز رج سعد بن عباده

فرميناه بسه مين حين فلم نخط فؤاده

الخلافة الإسلامية

الخبر عن الخلافة الإسلامية في هذه الطبقة وما كان منها من الردة والفتوحات

وما حدث بعد ذلك من الفتن والحروب في الاسلام

ثم الاتفاق والجماعة

لما قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم وكان أمر السقيفة كما قدمناه، أجمع المهاجرون والأنصار على بيعة أبي بكر، ولم يخالف إلا سعد إن صح خلافه، فلم يلتفت إليه لشذوذه. وكان من أول ما اعتمده أنفاذ بعث أسامة، وقد أرادت العرب إما القبيلة مستوعبة وإما بعض منها. ونجم النفاق، والمسلمون كالغنم في الليلة الممطرة لقلتهم وكثرة عدوهم، وإظلام الجو بفقد نبيهم. ووقف أسامة بالناس، ورغب من عمر التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبي بكر شفقة من أن يدهمه أمر. وقالت له الأنصار فإن أبى إلا المضي فليول علينا أسن من أسامة، فأبلغ عمر ذلك كله أبا بكر فقام وقعد وقال: لا أترك أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى أخرج أو أنفذه. ثم خرج حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وأذن لعمر في الشخوص وقال: أوصيكم بعشر فاحفظوها علي: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تعدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة، ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل. وإذا مررتم بقوم

فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وإذا لقيتم أقواما فحصوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصايب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه، فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله عليه وكلوا. ترفعوا باسم الله.

يا أسامه! اصنع ما أمرك به نبي الله، ابدأ ببلاد قضاعة ثم أنت آفل ولا تقصر بشيء

من أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم ودعه من الجرف ورجع، وقد كان بعث معه من القبائل حولى المدينة الذين لهم الهجرة في ديارهم، وحبس من بقي منهم، فصار مسالح حول قبائلهم ومضى أسامة مغذا وانتهى لما أمره به النبي صلى الله عليه و سلم ، وبعث الجنود في بلاد قضاعة وأغار على أبنى فسبى وغنم، ورجع لأربعين يوما وقيل لسبعين ولم يحدث أبو بكر في مغيبه شيئاً، وقد جاء الخبر بارتداد العرب عامة وخاصة، إلا قريشا وثقيفا، واستغلظ أمر مسيلمة واجتمع على طليحة عوام طيء واشد، وارتدت غطفان وتوقفت هوازن فأمسكوا الصدقة، وارتد خواص من بني سليم وكذا سائر الناس بكل مكان. وقدمت رسل النبى صلى الله عليه و سلم من

اليمن واليمامة وبني أسد من الأمراء من كل مكان بانتقاض العرب عامة أو خاصة. وحاربهم بالكتب والرسل، وانتظر بمصادمتهم لدوم أسامة، فعاجلته عبس وذبيان ونزلوا في الابرق، ونزل آخرون بذي القصة ومعهم خبال من بني اشد ومن انتسب إليهم من بنى كنانة.

وبعثوا وفداً إلى ألي بكر نزلوا على وجوه الناس يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة، فأبى أبو بكر من ذلك وجعل على أنقاب المدية عليا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود، وأخذ اهل المدينة، بحضور المسجد، ورجع وفد المرتدين واخبروا قومهم بقفة أهل المدينة، فأغاروا على من كان بأنقاب المدينة، فبعثوا إلى أبي بكر فخرج في أهل المسجد على النواضح فهربوا والمسلمون في اتباعهم إلى ذي خشب. ثم نفروا إبلى المسلمين بلعبات اتخذوها فنفرت ورجعت بهم وهم لا يملكوها إلى المدينة، ولم يصبهم شيء. وظن القوم بالمسلمين الوهن فبعثوا إلى أهل ذي القصة يستقدموهم. ثم خرج أبو بكر في التعبية وعلى ميمنته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن وطلع عليهم مع الفجر واقتتلوا، فما ذر قرن الشمس إلا وقد هزموهم وغنموا ما معهم من الظهر، وقتل خبال واتبعهم: أبو بكر الى ذي القصة، فجهز بها النعمان بن مقرن فقي عدد ورجع إلى المدينة ووثب بنو ذبيان وعبس على من كان فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعل ذلك غيرهم من المرتدين، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين مثل من قتلوهم من المسلمين وزيادة.

واعتز المسلمون بوقعة أبي بكر، وطرقت المدينة، صدقات. وقدم أسامة فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وخرج في نفر إلى ذي خشب وإلى ذي قصة. ثم سار حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق، وبها عبس ولم بيان وبنو بكر من كنانة وثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة، فاقتتلوا وانهزم القوم وأقام أبو بكر على الأبرق وحرم تلك البلاد على بني ذبيان، ثم رجع إلى المدينة.

ردة اليمن

توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم وعلى مكة وبني كنانة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف وأرضها عثمان بن أبي العاص علي المدر، ومالك بن عوف على الوبر، وعلى عجز هوازن

عكرمة بن أبي جهل، وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزام على الصلاة، وأبو سفيان بن حرب على الصدقات، وعلى ما بين زمع وزبيد إلى نجران خالد بن سعيد بن العاص، وعلى همدان كلها عامر بن شمر الهمداني، وعلى صنعاء فيروز الديلمي ومسانده دادويه وقيس بن مكشوح المرادي. ورجعوا إليها بعد مقتل الأسود، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى مأرب أبو موسى الأشعري، وعلى الأشعريين وعك الطاهر بن أبي هالة، وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياض وعكاشة بن ثور بن أصفر العوثي، وعلى كندة المهاجر بن أبي أمية. وقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم غضب عليه في غزوة تبوك فاسترضته له أم سلمة وولاه علي كندة، ومرض فلم يصل إليها. وأقام زياد بن لبيد ينوب عنه، وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن يتنقل على هؤلاء في أعمالهم.

وثار الأسود في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وحاربه بالرسل وبالكتب فقتله الله، وعاد الإسلام في اليمن كما كان، فلمما بلغه الموت انتقضت اليمن وارتد أهلها في جميع النواحي، وكانت الغالة من جند العنسي بين نجران وصنعاء لا يأوون إلى أحد، ورجع عمرو بن حزام إلى المدينة واتبعه خالد بن سعيد. وكان عمرو بن معد يكرب بالجبال حيال فروة بن مسيك وابن مكشوح، وتحيل في قتل الأبناء فيروز ودادويه وخشنش، والاستبداد بصنعاء. وبعث إلى الغالة من جيش الأسود يغريهم بالأبناء ويعدهم بالمظاهرة عليهم فجاءوا إليه، وخشي الأبناء غائلتهم وفزعوا إليه، فأظهر لهم المناصحة وهيأ طعاماً فجمعهم له ليغدر بهم، فظهر منهم بدادويه، وهرب فيروز وخشنش، وخرج قيس في أثرهما، فامتنعا بخولان أخوال فيروز، وثار قيس بصنعاء وجبى ما حولهما وجمع الغالة من نجرد الأسود إليه. وكتب فيروز إلى أبي بكر بالخبر فكتب له بولاية صنعاء، وكتب إلى الطاهر بن أبي هالة بإعانته، والى عكاشة بن ثور بأن يجمع أهل تهامة ويقيم بمكانه، وكتب إلى ذي الكلاع سميقح وذي ظليم حوشب وذي تبان شهر بإعانة الأبناء وطاعة فيروز، وإن الجلى يأتيهم. وأرسل إليهم قيس بن مكشوح يغريهم بالأبناء، فاعتزل الفريقان، واتبعت عوامهم قيس بن مكشوح في شأنه، وعمد قيس إلى عيلات الأبناء الذين مع فيروز فغر بهم وأخرجهم من اليمن في البر والبحر وعرضهم للنهب.

فأرسل فيروز إلى بني عقيل بن ربيعة وإلى عك يستصرخهم فاعترضوا عيال فيروز والأبناء الذين معه فاستنقذوهم، وقتلوا من كان معه، وجاؤوا إلى فيروز فقاتلوا معه

قيس بن مكشوح دون صنعاء فهزموه، ورجع إلى المكان الذي كان به مع فالة الأسود العنسي. وانضاف قيس إلى عمرو بن معد يكرس وهو مرتد منذ تنبأ الأسود العنسي، وقام حيال فروة بن مسيك، وقد كان فروة وفد وأسلم وكذلك قيس، واستعمل رسول الله صلى الله عليه و سلم قيسا على صدقات مراد، وكان عمرو قد فارق لومه سعد العشيرة مع بني زبيد وأحلافها وانحاز إليهم فأسلم معهم، وكان فيهم. فلما انتقض الأسود

واتبعه عوام مذحج كان عمرو فيمن اتبعه، وأقام فروة فيمن معه على الإسلام فولى الأسود عمرا وجعله بحياله.

وكانت كندة قد ارتدوا وتابعوا الأسود العنسي بسبب ما وقع بينهم وبن زياد الكندفي، في امر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية بعد أن وقع علمها مبسم الصدقة غلطا، فقاتلهم زياد وهزمهم، فاتفق بنو معاوية على منع الصدقة والردة إلا شراحيل بن السمط وابنه. وأشير على زياد بمعاجلتهم قبل أن ينضم إليهم بعض السكاسك وحضرموت وأبضحة وجمد ومشرح ومخوس وأختهم العمردة. وهرب الباقون، ورجع زياد بالسبي والغنائم، ومر بالأشعث بن قيس وبني الحرث بن معاوية، واستغاث نساء السبي فسار الأشعث وتنقذهم. ثم جمع بني معاوية كلهم ومن أطاعه من السكاسك وحضرموت وأقام على ردته، وكان أبو بكر قد حارب أهل الردة أولا بالكتب والرسل، كما حاربهم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أن رجع أسامة بن زيد، ثم كان أول مصادم فخرج إلي الأبرق واستنفر من لم يرتد إلى من ارتد. وابتدأ بالمهاجرين والأنصار، ثم استنفر كلا على من يليه، حتى فرغ من آخر أمور الناس لا يستعين بمرتد. وكتب إلى عتاب بن أسيد بمكة، وعثمان بن أبي العاص بالطائف بركوب من ارتد بمن لم يرتد، وثبت على الإسلام من أهل عملها. وقد كان اجتمع بتهامة وشباب من مدلج وخزاعة فبعث عتاب إليهم ففرقهم وقتلهم، واجتمع بشنوءة جمع من الأزد وخثعم وبجيلة، فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص من فرفهم وقتلهم. واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من عك والأشعريين، فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق العكي فهزموهم وقتلوهم، وأقام بالأجناد ينتظر أمر أبي بكر ومعه مسروق العكي، وبعث أهل نجران من بني الأفعى الدين كانوا بها قبل بني الحرث، وهم في أربعين ألف مقاتل، وجاء وفدهم يطلبون إمضاء العهد الذي بأيديهم من النبي صلى الله عليه و سلم ، فأمضاه أبو بكر إلا ما نسخه الوحي بأن لا يترك دينان بأرض العرب. ورجعت رسل النبي صلى الله عليه و سلم الذين كان بعثهم عند انتقاض

الاسود العنسي، وهم جرير بن عبد الله والأقرع ووبر بن مخنس، فرد أبو بكر جريرا ليستنفر من ثبت على الإسلام على من ارتد، ويقاتلوا خثعم الذين غضبوا لهدم ذي الخليفة فيقتلهم ويقيم بنجران، فنفذ ما أمره به و لم يمر به أحد إلا رجال قليل تتبعهم بالقتل، وسار إلى نجران.

وكتب أبو بكر إلى عثمان بن أبي العاص أن صرب البعوث على مخاليف أهل الطائف، فضرب على كل مخلاف عشرين، وأمر عليهم أخاه، وكتب إلى عتاب بن أبي أسيد أن يضرب على مكة وعملها خمسمائة بعث، وأمر عليهم أخاه خالدا وأقاموا ينتظرون. ثم أمر المهاجر بن أبي أمية بأن يسير إلى اليمن ليصلح من أمره ثم ينفذ إلى عمله وامره بقتال من بين نجران وأقصى اليمن ففعل ذلك. ومر بمكة والطائف فسار معهم خالداً بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاصى بمن معهما، ومر بجرير بن عبد الله وعكاشة بن ثور فضمهما إليه. ثم مر بنجران وانضم إليه فروة بن مسيك وجاءه عمرو بن معد يكرب وقيس بن مكشوح فأوثقهما وبعث بهما إلى أبي بكر وسار إلى لقائه. فتبعهم بالقتل و لم يؤمنهم، فقتلوا بكل سبيل. وحضر قيس عند أبي بكر فحظر قتل

دادويه، و لم يجد أمراً جليا في امره، وتاب عمرو بن معد يكرب واستقالا فأقالهما وردهما. وسار المهاجر حتى نزل صنعاء وتتبع ارتداد القبائل، فقتل من قدر عليه، وقبل توبة من رجع إليه. وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء. فجاءه الجواب بأن بسير إلى كندة مع عكرمة بن أبي جهل، وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من مهرة والازد وناجية وعبد القيس، وقوم من مالك بن كنانة وبني العبتر. وقدم أبين وأقام بها لاجتماع النخع وحمير. ثم سار مع المهاجر إلى كندة. وكتب زياد إلى المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمفازة ين مأرب وحضرموت. فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل إلى زياد ونهدوا إلى كندة، وعليهم الأشعث بن قيس فهزموهم وقتلوهم، وفروا إلى النجير حصن له فتحصنوا فيه مع من استغووه من السكاسك وشذاد السكون وحضرموت. وسدوا عليهم الطرق إلا واحدة جاء عكرمة بعدهم فسدها، وقطعوا عنهم المدد وخرجوا مستميتين في بعض الأيام فغلبوهم وأخرجوهم. واستأمن الاشعث إلى عكرمة بما كانت أسماء بنت النعمان بن الجون تحته، فخرج إليه وجاء به إلى المهاجر وأمنه في أهله وماله وتسعة من قومه، على أن يفتح لهم الباب، فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية، فكان في السبي ألف امرأة. فلما فرغ من النجير دعا بكتاب الأمان من

الاشعث، وإذا هو قد كتب غرض نفسه في التسعة رجال من أصحابه فأوثقه كتافاً، وبعث به إلى أبي بكر ينظر في أمره. فقدم السبايا والأسرى فقال له أبو بكر: أقتلك؟ قال: أني راودت القوم على عشرة وأتيناهم بالكتاب مختومة فقال أبو بكر: إنما الصلح على من كان في الصحيفة، وأما غير ذلك فهو مردود. فقال يا أبا بكرة احتسب في وأقلني وأقبل إسلامي ورد علي زوجتي، وقد كان تزوج أم فروة أخت أبي بكر حين قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم وأخرها إلى أن يرجع فأطلقه أبو بكر وقبل إسلامه ورد عليه زوجته وقال: ليبلغني عنك خير. ثم خفى على القوم فذهبوا وقسم الأنفال.

بعث الجيوش للمرتدة

لما قدم أسامة ببعث الشام على أبي بكر، استخلفه على المدينة ومضى إلى الربذة، فهزم بني عبس وذبيان وكنانة بالأبرق، ورجع إلى المدينة كما قدمناه، حتى إذا استجم جند أسامة، وتاب من حوالي المدينة، خرج إلى ذي القصة على بريد من تلقاء نجد عقد فيها أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً لقتال أهل الردة، وأمر كل واحد باستنفار من يليه من المسلمين من كل قبيلة، وترك بعضها لحماية البلاد، فعقد لخالد بن الوليد وأمره لطليحة، وبعده لمالك بن نويرة بالبطاح، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة واليمامة. ثم أردفه بشرحبيل بن حسنة وقال له: إذا فرغت من اليمامة فسر إلى قال قضاعة، والمهاجرين إلى أمية وأمره بالغالة من جنود العنسي باليمن، وبإعانة الأبناء على قيس بن مكشوح ومن معه. ثم تمضي إلى كندة بحضرموت. ولخالد بن سعيد بن العاص وقد كان فدم بعد الوفاة إلى المدينة من اليمن، وترك عماله فبعثه إلى مشارف الشام، ولعمرو بن العاص إلى قتال المرتدة من قضاعة، ولحذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة. فحذيفة لأهل دبا، وعرفجة لمهرة، وكل واحد منهما أمير في عمله على صاحبه.

ولطريفة بن حاحز وبعثه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن، ولسويد بن مقرن وبعثه إلى تهامة اليمن، وللعلاء بن الحضرمي وبعثه إلى البحرين، وكتب إلى الأمراء عهودهم بنص واحد:

بسم الله الرحمن االرحيم

هذا عهد من أبي بكر: خليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره، وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن الغارة عليهم حتى يقروا له. ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل واقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالته على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن علبه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمة، لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام. فمن أجابه واقر قبل منه وأعانه، ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليه عز وجل قتلهم فيهم كل قتلة بالسلاح والنيران. ثم قسم ما افاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه، ويمنع اصحابه العجلة والفساد، وان يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيونا، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم. وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمترل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول انتهى.

وكتب إلى كل من بعث إليه الجنود من المرتدة كتاباً واحداً في نسخ كثيرة على يد

رسل تقدموا يين أيديهم نصه بعد البسملة: هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة، أقام على الإسلام أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى و لم يرجع إلى الضلالة والهوى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأومن بما جاء به وأكفر من أبي وأجاهده، أما بعد: ثم قرر أمر النبوة ووفاة الرسول صلى الله عليه و سلم وأطنب في الموعظة ثم قال: وانى بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له واقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقي على أحد منهم هدر عليه، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي فى كل مجمع لكم، والداعية للأذان، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فاسألوهم بما عليهم فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم

انتهى. فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم العهود وكان أول ما بدأ به خالد طليحة وبني أسد.

خبر طليحة

كان طليحة قد ارتد في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وكان كاهنا فادعى النبوة، واتبعه أفاريق من بني إسرائيل ونزل سميراء. وبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم ضرار بن الأزور إلى قتاله مع جماعة، فاجتمع عليهم المسلمون، وهم ضرار بمناجزته فأتى الخبر بموت النبي صلى الله عليه و سلم ، فاستطار أمر طليحة، واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطيء، وفر ضرار ومن معه من العمال إلى المدينة وقدمت وفودهم على أبي بكر في الموادعة على ترك الزكاة، فأبى من ذلك وخرج كما قدمناه إلى غطفان، وأوقع بهم بذي القصة، فانضموا بعد الهزيمة الى طليحة وبني أسد بالبزاخة وكذلك فعلت طيء، وأقامت بنو عامر وهوازن ينتظرون، صمد خالد إلى طليحة، ومعه عيينة بن حصن على بزاخة من مياه بني اشد، وأظهر أنه يقصد خيبر ثم يترل إلى سلمى وأجأ فيبدأ بطيء. وكان عدى بن حاتم قد خرج معه في الجيش فقال له: أنا اجمع لك قبائل طيء يصحبونك إلى عدوك وسار إليهم فجاء بهم، وبعث خالد بن عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم من الانصار طليعة ولقيهما طليحة وأخوه فقتلاهما، ومر بهما المسلمون. فعظم عليهم قتلهما. ثم عبى خالد كتائبه، وثابت بن قيس علي الأنصار، وعدي بن حاتم على طيء، بقي القوم فقاتلهم، وعيينة بن حصن مع طليحة ليه سبعمائة من غطفان، واشتد المجال بينهم وطليحة في عباءة يتكذب لهم في انتظار الوحى، فجاء عيينة بعدما ضجر من القتال وقال: هل جاءك أحد بعد؟ قال لا! ثم راجعه ثانية ثم ثالثة فقال: جاء. وقال إن لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه. فقال عيينة: يا بني فزارة الرجل كذاب وانصرف. فانهزموا وقتل من قتل، واسلم الناس طليحة فوثب على فرسه واحتقب امرأته فنجا بها إلى الشام، ونزل في كلب من قضاعة على النقع حتى أسلمت أسد وغطفان، فأسلم ثم خرج معتمرا أيام عمر ولقيه بالمدينة فبايعه، وبعثه في عساكر الشام فأبلى في الفتح و لم يصب من عيالات بني أسد في واقعة بزاخة شيء، لأنهم كانوا أخرجوهم في الحصون عند واسط وأسلموا خشية على ذراريهم.

خبر هوازن وسليم وبني عامر

كان بنو عامر ينتظرون أمر طليحة وما تصنع أسد وغطفان حتى أحيط بهم، وكان

قرة بن هبيهرة في كعب وعلقمة بن علافة في كلاب، وكان علقمة قد ارتد بعد فتح الطائف. ولما قبض النبي صلى الله عليه و سلم رجع إلى قومه بلغ أبا بكر خبره فبعث إليه سرية مع القعقاع بر عمرو من بني تميم، فأعار عليهم فأفلت وجاء بأهله وولده وقومه فأسلموا. وكان قرة بن فبيرة قد لقي عمرو بن العاص منصرفه من عمان بعد الوفاة وأضافه وقال له: اتركوا الزكاة فان العرب لا تدين لكم بالاتاوة، فغضب لها عمرو وأسمعه وأبلغها أبا بكر، فلما أوقع خالد ببني أسد وغطفان وكالا هوازن وسليم وعامر ينتظرون أموهم فجاءوا إلى خالد وأسلموا، وقبل منهم الإسلام، إلا من عدا على أحد من المسلمين أيام الردة فإنه تتبعهم، فأحرق وقحط ورضخ بالحجارة، ورمى من رؤوس الجبال. ولما فرغ من أمر بني عامر أوثق عيينة بن حصين وقرة بن هبيرة، وبث بهما إلى أبي بكر فتجاوز لهما وحقن دماءهما.

ثم اجتمعت قبائل غطفان إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر بن ظفر في الحوأب فترلوا إليها وتذمروا، وكانت سلمى هذه قد سبيت قبل واعتقتها عائشة، وقال لها النبي صلى الله عليه و سلم يوماً وقد دخل عليها وهي في نسوة ببيت عائشة فقال: إن إحداكن تستنبح كلاب الحواب، وفعلت ذلك سلمى حين ارتدت. واجتمعت إليها الفلال من غطفان وهوازن وسليم وطيء وأسد، وبلغ ذلك خالدا وهو يتبع الثأر ويأخذ الصدقات، فسار إليهم وقاتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقد وقتلت وقتل حول هودجاها مائة رجل فالهزموا، وبعث خالد بالفتح على أثره بعده بعشرين ليلة. وأما بنو سليم فكان الفجاءة بن عبد ياليل قدم على أبي بكر ليستعينه بسلاح مدعيا إسلامه ويضمن له قتال أهل الردة، فأعطاه وأمره وخرج إلى الجون وارتد وبعث نجية بن أبي المثنى من بني الشريد، وأمره بشن الغارة على المسلمين في سليم وهوازن، فبعث أبو بكر إلى طريفة بن حاجز قائده على جرهم، وأعانه بعبد الله بن قيس الحاسبي، فنهضا إليه ولقياه، ففتل تحته، وهرب الفجاءة فلحقه طريفة فأسره، وجاء به إلى أبي بكر فأوقد له في مصفى المدينة حطباً، ثم رمى به في النار مقموطا، وفاءت بنو سليم كلهم، وفاء معهم أبو شجرة بن عبد العزى أبو الخنساء وكان فيمن ارتد.

خبر بني تميم وسجاح

قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم وعماله في بني تميم الزبرقان بن بدر على الرباب وعوف والأبناء، وقيس بن عاصم على المقاعس والبطون، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو، ووكيع بن مالك على بني مالك، ومالك بن نويرة على بني حنظلة. فجاء صفوان إلى أبي بكر حين بلغته الوفاة بصدقات بني عمرو، وجاء الزبرقان بصدقات أصحابه، وخالفه قيس بن عاصم في المقاعس والبطون لأنه كان ينتظره. وبقي من أسلم منهم متشاغلا بمن تربص أو ارتاب. وبينما هم على ذلك فجأهم سجاح بنت الحارث بن سويد من بني عقفان أحد بطون تغلب، وكانت تنبأت بعد الوفاة، واتبعها الهذيل بن عمران من بنى تغلب، وعقبة بن هلال في النمر، والسليل بن قيس في شيبان، وزياد بن بلال. وكان الهذيل نصرانيا فترك دينه إلى دينها، وأقبلت من الجزيرة في هذه الجموع قاصدة المدية لتغزو أبا بكر والمسلمين، وانتهت إلى الحرف، فدهم بني تميم أمر عظيم لما كانوا عليه من اختلاف الكلمة، فوادعها مالك بن نويرة وثناها عن الغزو، وحرضها على بني تميم ففروا أمامها، ورجع إليها وكيع بن مالك، واجتمعت الرباب وضبة فهزموا أصحاب سجاح وأسروا منهم. ثم اصطلحوا وسارت سجاج فيمن معها تريد المدينة، فبلغت الحجاج فاعترضهم بنو النجيم فيمن تأشب إليهم من بني عمرو وأغارو عليهم، فأسروا الهذيل وعقبة، ثم تحاجزوا على أن تطلق أسراهم، ويرجعوا ولا يجتازوا عليهم، ورجع عن سجاح مالك بن نويرة، ووكيع بن مالك إلى قومهم ويئست سجاح وأصحابها من الجواز عليهم، ونهدت إلى بني حنيفة. وسار معها من تميم الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن حريث وشبت بن زبعي ونظراؤهم. وصانعها مسيلمة بما كان فيه من مزاحمة ثمامة بن إثال له في اليمامة. وزحف شرحبيل بن حسنة والمسلمون إليه فأهدى لها واستأمنها، وكانت نصرانية أخذت الدين من نصارى تغلب. فقال لها مسيلمة: نصف الأرض لنا ونصف الأرض لقريش، لكنهم لم يعدلوا

فقد جعلت نصمهم لك، ويقال إنها جاءت إليه واستأمنته وخرج إليها من الحصن إلى قبة ضربت لها بعد أن جمرها فدخل إليها، وتحرك الحرث حوالي القبة، وسجع لها وسجعت له من أسجاع الفرية. فشهدت له بالنبوة وخطبها لنفسه فتزوجته، وأقامت عنده ثلاثا ورجعت إلى قومها، فعذلوها في التزويج على غير صداق، فرجعت إليه فقال لها: نادي في أصحابك إني وضعت عنهم صلاة الفجر والعتمة مما فرض عليهم محمد، وصالحته على أن يحمل لها النصف من غلات اليمامة، فأخذته وسألت أن

يسلفها النصف للعام القابل، ودفعت الهذيل وعقة لقبضه، فهم على ذلك، واذا بخالد بن الوليد وعساكره قد أقبلوا، لانفضت جموعهم وافترقوا ولحقت سجاح بالجزيرة، فلم نزل في بني تغلب حتى نقل معاوية عام الجماعة بني عقفان عشيرتها إلى الكوفة، وأسلمت حينئذ سجاح وحسن إسلامها.

ولما افترق وفد الزبرقان والأقرع على أبي بكر وقالا: اجعل لنا خراج البحرين ونحن نضمن لك أمرها، ففعل وكتب لهم بذلك. وكان طلحة بن عبيد الله يتردد بينهم في ذلك، فجاء إلى عمر ليشهد في الكتاب فمزقه ومحاه، وغضب طلحة وقال لأبي بكر رصي الله عنه: أنت الأمير أم عمر رضي الله عنه؟ فقالى عمر: غير أن الطاعة لي! وشهد الأقرع والزبرقان مع خالد اليمامة والمشاهد كلها. ثم مضى الأقرع مع شرحبيل إلى

خبر البطاح ومالك بن نويرة

لما انصرفت سجاح إلى الجزيرة وراجع بنو تميم الإسلام أقام مالك بن نويرة متحيرا في أمره، واجتمع إليه من تميم بنو حنظلة واجتمعوا بالبطاح، فسار إليهم خالد بعد أن تقاعد عنه الأنصار يسألونه انتظار كتاب أبي بكر، فأبى إلا انتهاز الفرصة من هؤلاء، فرجعوا إلى اتباعه ولحموا به. وكان مالك بن نويرة لما تردد في أمره فرق بني حنظلة في أموالهم ونهاهم عن القتال ورجع إلى منزله. ولما قدم خالد بعث السرايا يدعون إلى الإسلام ويأتون بمن لم يجب وأن يقتلوه، فجاءوا بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع، واختلفت السرية فيهم فشهد أبو قتادة أنهم أذنوا وصلوا. فحبسهم عد ضرار بن الأزور وكانت ليلة ممطرة، فنادى مناديه أن ادفئوا أسراكم، وكانت في لغته كناية عن القتل، فبادر ضرار بقتلهم وكان كنانيا. وسمع خالد الداعية، فخرج متأسفا وقد فرغوا منهم. وأنكر عليه أبو قتادة، فزجره خالد فغضب ولحق بأبي بكر، ويقال إنهم لما جاءوا بهم إلى خالد خاطبه مالك بقوله : فعل صاحبكم شأن صاحبكم، فقال له خالد: أوليس لك بصاحب؟ ثم قتله وأصحابه كلهم. ثم قدم خالد على أبي بكر، وأشار عمر أن يقيد منه بمالك بن نويرة أو يعزله فأبى وقال: ما كنت أشيم سيفا سله الله على الكافرين وودى مالكاً وأصحابه، ورد خالداً إلى عمله.

خبر مسيلمة واليمامة

لما بعث أبو بكر رضي الله عنه عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب واتبعه شرحبيل استعجل عكرمة، فانهزم وكتب إلى أبي بكر بالخبر، فكتب إليه لا ترجع فتوهن الناس، وامض الى حذيفة وعرفجة فقاتلوا مهرة وأهل عمان، فإذا فرغتم فامض أنت وجنودك واستنفروا من مررتم عليه حتى تلقوا المهاجر بن أمية باليمن وحضرموت. وكتب إلى شرحبيل أن يمضي إلى خالد، فإذا فرغتم فامض أنت إلى قضاعة فكن مع عمرو بن

العاص على من ارتد منهم. ولما فرغ خالد من البطاح ورضي عنه أبو بكر بعثه نحو مسيلمة وأوعب معه الناس، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن عازب. وتعجل خالد إلى البطاح، وانتظر البعوث حتى قدمت عليه، فنهض إلى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثير، يقال أربعون ألف مقاتل متفرقين في قراها وحجرها. وتعجل شرحبيل كما فعل عكرمة بقتال ميلمة، فنكب وجاء خالد فلامه على ذلك.

ثم جاء خليط من عد أبي بكر مددا لخالد ليكون ردءا له من خلفه، ففرت جموع كانت تجمعت هنالك من فلال سجاح، وكان مسيلمة قد جعل لهم جعلا. وكان الرجال بن عنفوة من أشراف بني حنيفة شهد لمسيلمة بأن رسول الله صلى الله عليه و سلم أشركه معه في الأمر، لأن الرجال كان قد هاجر وأقام مع رسول الله صلى الله عليه و سلم وقرأ القرآن وتفقه في الدين. فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي صلى الله عليه و سلم معلماً لأهل اليمامة، ومشغباً على مسيلمة، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة منه واتبع مسيلمة على شأنه وشهد له وكان يؤذن لمسيلمة، ويشهد له بالرسالة بعد النبي صلى الله عليه و سلم ، فعظم لشأنه فيهم. وكان مسيلمة ينتهي إلى أمره، وكان مسيلمة يسجع لهم بأسجاع كحيرة يزعم أنها قرآنا يأتيه، ويأتي بمخارق يزعم أنها معجزات، فيقع منها ضد المقصود. ولما بلغ مسيلمة وبني حنيفة دنو خالد خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمن، واستنفروا الناس فنفروا إليهم، وأقبل خالد ولقيه شرحبيل بن حسنة فجعله على مقدمته، حتى إذا كان على ليلة من القوم هجموا على مجاعة في سرية أربعين أو ستين راجعين من بلاد بني عامر، وبغي تميم يثأرون فيهم، فوجدوهم دون ثنية اليمامة فقتلوهم أجمعين. وقيل له استبق مجاعة بن مرارة إن كنت تريد اليمامة، فاستبقى.

ثم سار خالد ونازل بني حنيفة ومسيلمة، والرجال على مقدمة مسيلمة، واشتدت
الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد، ومجاعة بها اسير مع أم متمم زوجة خالد، فدافعهم عنها مجاعة وقالت: نعمت الحرة. صم تراجع المسلمون وكروا على بني حنيفة. فقال المحكم بن الطفيل: ادخلوا الحديقة يا بني حنيفة فإني أمنع أدباركم، فقاتل ساعة ثم قتله عبد الرحمن بن أبى بكر، ثم تذامر المسلمون، وقاتل ثابت بن قيس فقتل، ثم زيد بن الخطاب، ثم أبو حذيفة ثم سالم مولاه، ثم البراء أخو انس بن مالك. وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى ينتفض ويقعد عليه الرجال حتى يبول. ثم يثور كالأسد فقاتل وفعل الأفاعيل.

ثم هزم الله العدو وألجأهم المسلمون إلى الحديقة وفيها مسيلمة. فقال البراء:
القوني عليهم من أعلى الجدار، فاقتحم وقاتلهم من أعلى الحديقة، ودخل المسلمون عليهم. وقتل مسيلمة، وهو مزبد متساند لا يعقل من الغيظ. وكان زيد بن الخطاب قتل الرجال بن عنفوة. وكان خالد لما نزل بني حنيفة ومسيلمة ودارت الرحى عليه طلب البراز فقتل جماعة، ثم دعا مسيلمة للبراز والكلام، فحادثه فحاول فيه غرة وشيطانه يوسوس إليه. ثم ركبه خالد فأرهقه وأدبروا وزالوا عن مراكزهم. وركبهم المسلمون،

فانهزموا. وتطاير الناس عن مسيلمة بعد أن قالوا: أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا على أحسابكم. وأتاه وخشي فرماه بحربة فقتل. واقتحم الناس عليه حديقة الموت من حيطانها وأبوابها، فقتل فيها سبعة عشر ألف مقاتل من بني حنيفة. وجاء خالد بمجاعة ووقفه على القتلى ليريه مسلمة فمر بمحكم فقال: هوذا ! فقال مجاعة: هذا والله خير منه. ثم أراهه مسيلمة وهو رجل ذميم أخينس ، فقال خالد: هذا الذي فعل فيكم ما فعل، فقال مجاعة: قد كان ذلك وانه والله ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن جماهيرهم في الحصون، فهلم أصالحك على قومي.

وقد كان خالد التقط من دون الحصون ما وجد من مال ونساء وصبيان، ونادى

بالنزول عليها. فلما قال له مجاعة ذلك قال له أصالحك على ما دون النفوس وانطلق يشاوره، فأفرغ السلاح على النساء ووقفن بالسور، لم رجع إليه وقال: أبوا أن يجيزوا ذلك. ونظر خالد إلى رؤوس الحصون وقد اسودت، والمسلمون قد نهكتهم الحرب، وقد قتل من الأنصار ما ينيف على الثلاثمائة والستين، ومن المهاجرين مثلها، ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون، وقد فشت الجراحات فيمن بقي، فجنح إلى السلم،

فصالحه على الصفراء والبيضاء، ونصف السبي والحلقة وحائط ومزرعة من كل قرية فأبوا فصالحهم على الربع فصالحوه، وفتحت الحصون فلم يجد فيها إلا النساء والصبيان.

فقال خالد: خدعتني يا مجاعة ففال: قومي! ولم استطع إلا ما صنعت فعقد لهم وخيرهم ثلاثاً. فقال له سلمة بن عمير لا نقبل صلحاً! ونعتصم بالحصون، ونبعث إلى أهل القرى، فالطعام كثير والشتاء قد حضر، فتشاءم مجاعة برأيه وقال لهم: لولا أني خدعت القوم ما أجابوا إلى هذا فخرج معه سبعة من وجوه القوم وصالحوا خالدا وكتب لهم، وخرجوا الى خالد للبيعة والبراءة مما كانوا عليه.

وقد أضمر سلمة بن عمير الفتك بخالد فطرده حين وقعت عينه عليه، واطلع أصحابه على عذره فأوثقوه وحبسوه، ثم أفلت فأتبعوه وقتلوه. وكان أبو بكر بعث إلى خالد مع سلمة بن وقش ان اظفره الله أن يقتل من جرت عليه الموسى من بني حنيفة، فوجده قد صالحهم، فأتم عقده معهم، ووفى لهم وبعث وفدا منهم إلى أبي بكر بإسلامهم فقبلهم وسألهم عن أسجاع مسيلمة فقضوها عليه، فقال: سبحان الله هذا الكلام ما خرج إلا من إل أو بر، فأين يذهب بكم عن أحلامكم وردهم الله إلى قومهم.

ردة الحطم وأهل البحرين

لما فرغ خالد من اليمامة ارتحل إلى واد من أوديتها، وكانت عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد الوفاة، وكذلك المنذر بن ساوى من بعدها بقليل. فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلى، وكان قد وفد وأسلم ودعا قومه فأسلموا فلما بلغهم خبر الوفاة ارتدوا وقالوا: لو كان نبيا ما مات، فقال لهم الجارود: تعلمون أن لله أنبياء من قبله لم تروهم، وتعلمون انهم ماتوا، ومحمد صلى الله عليه و سلم قد مات. ثم تشهد فتشهدوا معه وثبتوا على إسلامهم وخلوا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوه والمسلمين.

وقال ابن اسحاق: كان أبو بكر بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر، وقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ولاه، فلما كانت الوفاة وارتدت ربيعة ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر،- وكان يسمى المغرور- فأقاموه ملكا كما كان قومه بالحيرة، وثبت الجارود وعبد
القيس على الإسلام. واستمر بكر بن وائل على الردة، وخرج الحطم بن ربيعة أخو بني قيس بن ثعلبة حتى نزل ين القطيف وفخر، وبعث إلى دارين فأقاموا فجعل عبد القيس بينه وبينهم، وأرسل إلى المغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر، وبعثه إلى جواثى وقال: أثبت فإن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة، فحاصره المسلمون بجواثى.
وجاء العلاء بن الحضرمى لقتال أهل الردة بالبحرين ومر باليمامة، فاستنفر
ثمامة بن أثال في مسلمة بني حنيفة وكان متردداً، وألحق عكرمة بعمان ومهرة وأمر شرحبيل بالمقام حيث هو يغاور مع عمرو بن العاص أهل الردة من قضاعة، عمرو يغاور سعداً وبلق، وشرحبيل يغاور كلبا ولفها.
ثم مر ببلاد بني تميم فاستقبله بنو الرباب وبنو عمر ومالك بن نويرة بالبطاح
يقاتلهم، ووكيع بن مالك يواقف عمرو بن العاص وقيس بن عاصم من المقاعس، والبطون يواقفون الزبرقان بن بدر والأبناء وعوف، وقد أطاعوه على الإسلام، وحنظلة متوقفون. فلما رأى قيس بن عاصم يلقى الرباب وعمرو العلاء وقدم وجاء بالصدقات الى العلاء، وخرج معه لقتال البحرين، فسار مع العلاء من بني تميم مثل عسكره، ونزل هجر وبعث إلى الجارود أن ينازل بعبد القيس الحطم وقومه مما يليه.
فاجتمع المشركون إلى الحطم إلا أهل دارين، والمسلمون إلى العلاء، وخندقوا
واقتتلوا، وسمعوا في بعض الليالي ضوضاء شديدة- أي جلبة و صياحا- وبعثوا من يأتيهم بخبرها، فجاءهم بأن القوم سكارى كلا، فبيوهم ووضعوا السيوف فيهم، وأقتحموا الخندق وفر القوم هراباً فمتمرد وناج ومقتول ومأسور. وقتل قيس بن عاصم الحطم بن ربيعة ولحق جابر بن بجير وضربه فقطع عصبه ومات، وأسر عفيف بن المنذر المغرور بن سويد وقال للعلاء : أجرني فقال له العلاء. أنت غررت بالناس ! ففال: لكني أنا مغرور! ثم أرسل وأقام بهجر.
ويقال إن المغرور اسمه وليس هو بلقب. وقتل المغرور بن سويد بن المنذر،
وقسم الأنفال بين الناس، وأعطى عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمامة بن أثال من أسلاب القوم وثيابهم، وقصد الفلال إلى دارين وركبوا السفين إليها، ورجع الاخرون إلى قومهم. فكتب العلاء إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل بالقعود لأهل الردة في
السبل، وإلى خصفة التميمي والمثنى بن حارثة بمثل ذلك، فرجعوا إلى دارين وجمعهم الله بها. ثم لما جاءته كتب بكر بن وائل وعلم حسن إسلامهم أمر أن يؤتى من خلفه على أهل البحرين.
ثم ندب الناس إلى دارين أن يستعرضوا البحر، فارتحلوا واقتحموا البحر على الظهر، وكلهم يدعوا: يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا. ثم أجازوا الخليج

يمشون على مثل رمل مشيا فوقها ما يغمر أخفاف الإبل في مسيرة يوم وليلة، فلقوا العدو واقتتلوا، وما تركوا بدارين مخبراً، وسبوا الذراري واستاقوا الأموال، وبلغ نفل الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين. ورجع العلاء إلى البحرين وضرب الإسلام بجرانه.

ثم أرجف المرجفون بأن أبا شيبان وثعلبة والحر قد جمعهم مفروق الشيباني على الردة. فوثق العلاء بأن اللهازم تفارقهم وكانوا مجمعين على نصره، وأبجل العلاء بالناس فرجعوا إلى من أحب المقام، وقفل ثمامة بن أثال فيهم ومروا بقيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل، فرأوا خميصة الحطم عليه فقالوا: هو قتله فقال: لم أقتله ولكن الأمير نفلنيها فلم يقبلوا وقتلوه. وكتب العلاء إلى أبي بكر بهزيمة أهل الخندق وقتل الحطم قتله زيد ومسمع. فكتب إليه أبو بكر أن بلغك عن بني ثعلبة ما خاض فيه المرجفون فأبعث إليهم جنداً وأوصهم وشرد بهم من خلفهم.

ردة اهل عمان ومهرة واليمن (1)

نبغ بعمان بعد الوفاة رجل من الأزد يقال له لقيط بن مالك الأزدي يسامى في الجاهلية الجلندي ، فدفع عنها الملكين اللذين كانا بها وهما جيفر وعباد ابنا الجلندي، فارتد وادعى النبوة وتغلب على عمان ودفع عنها الملكين، وبعث جيفر إلى أبي بكر بالخبر، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن من حمير وعرفجة البارقي. حذيفة إلى عمان وعرفجة إلى مهرة، وإن اجتمعا فالأمير صاحب العمل؛ وأمرهما أن يكاتبا جيفر أو يأخذا برأ يه. وقد كان بعث عكرمة إلى اليمامة ومسيلمة ووقعت عليه النكبة كما مر، فأمره بالمسير إلى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان ومهرة، ويتوجه إذا فرغ من ذلك الى اليمن.

فمضى عكرمة فلحق بهما قبل أن يصلا إلى عمان وقد عهد إليهم أبو بكر أن ينقوا

إلى رأي عكرمة فراسلوا جيفر وعباداً وبلغ لقيطا مجيء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيفر وعباد بصحار. واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة وكاتبوا رؤساء الدين مع لقيط، فقدموا بجيوشهم ثم صمدوا إلى لقيط وأصحابه فقاتلوهم، وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفه، وهم المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان، فانهزم العدو وظفر المسلمون، وقتلوا نحوا من عشرة آلاف وسبوا الذراري والنساء وتم الفتح، وقسموا الأنفال وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة، وكان الخمس ثمانمائة رأس.

وأقام حذيفة بعمان وسار عكرمة إلى مهرة، وقد استنفر أهل عمان ومن حولها من

ناحية الأزد وعبد القيس وبني سعيد من تميم، فاقتحم على مهرة بلادهم وهم على فرقتين يتنازعان الرياسة، فأجابه أحد الفريقين، وسار الى الآخرين فهزمهم وقتل رئيسهم. ثم أصابوا منهم ألفي نجيبة. وأفاد المسلمون قوة بغنيمتهم، وأجاب اهل تلك النواحي إلى الإسلام، وهم أهل نجد والروضة والشاطىء والجزائر والمر واللبان، وأهل جيرة وظهور الشمر والفرات وذات الخيم، فاجتمعوا كلهم على الإسلام. وبعث إلى أبي بكر بذلك مع البشير، وسار هو إلى اليمن للقاء المهاجر بن أبي أمية كما عهد إليه أبو بكر.

بعوث العراق وصلح الحيرة

ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر في المحرم من سنة اثنتي عشرة،
فأمره بالمسير إلى العراق ومرج الهند وهي الأيلة منتهى بحر فارس في جهة الشمال قرب البصرة، فيتألف أهل فارس ومن في مملكتهم من الأمم. فسار من اليمامة وقيل قدم على أبي بكر، ثم سار من المدينة وانتهى إلى قرية بالسواد وهي بانقيا وباروسما والليس وكالمت لابن صلوبا ، فصالحهم على عشرة آلاف دينار، فقبضها خالد ثم سار إلى الحيرة، وخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر، فدعاعم إلى الإسلام أو الجزية أو المناجزة. فصالحوه على تسعين ألف درهم، وقيل إنما أمره أبو بكر أن يبدأ بالأبلة ويدخل من أسفل العراق.
وكتب إلى عياض بن غنم أن يبدأ بالمضيخ وبدخل من أعلى العراق، وأمر خالدا
بالقعقاع بن عمرو التيمي، وعياضا بن عوف الحميري. وقد كان المثنى بن حارثة الشيباني استأذن أبا بكر في غزو العراق فأذن له، فكان يغزوهم قبل قدوم خالد. فكتب أبو بكر إليه وإلى حرملة ومدعور وسلمان أن يلحقوا بخالد بالأبلة ، وكانوا في ثمانية آلاف فارس، ومع خالد عشرة آلاف. فسار خالد في أول مقدمته المثنى وبعده عدي ين حاتم. وجاء هو بعدهما على مسيرة يوم بين كل عسكر، وواعدهما الحفير ليجتمعوا به ويصادموا عدوهم، وكان صاحب ذلك المرج من أساورة الفرس اسمه هرمز، وكان يحارب العرب في البر والهند في البحر.
فكتب إلى اردشير كسرى بالخبر وتعجل هو إلى الكواظم في سرعان أصحابه حتى
نزل الحفير، وجعل على مجنبتيه قباذ وانو شجان يناسبانه في اردشير الأكبر، واقترنوا بالسلاسل لئلا يفروا. وأروا خالداً أنهم سبقوا إلى الحفير، فمال إلى كاظمة، فسبقه هرمز إلها أيضاً. وكان للعرب على هرمز حنق لسوء مجاورته. وقدم خالد فنزل قبالتهم على غير ماء وقال: ليعيدن الماء فإن الله جاعله لأصبر الفريقين. ثم أرسل الله سحابة فاغدرت من ورائهم. ولما حطوا أثقالهم قدم خالد ودعا إلى النزال، فبرز إليه هرمز وترجل ثم اختلفا ضربتين، فاحتضنه خالد، وحمل اصحاب هرمز للغدر به، فلم يشغله ذلك عن قتله. وحمل القعقاع بن عمرو فقتلهم، وانهزم أهل فارس وركبهم المسلمون،
وسميت الواقعة ذات السلاسل. وأخذ خالد سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمائة
ألف، وبعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر. وسار فنزل بمكان البصرة وبعث الثني بن حارثة في آثار العدو، فحاصر حصن المرأة وفتحه وأسلمت فتزوجها، وبعث معقل بن مقرن إلى الأبلة ففتحها وقيل إنما عقبة بن غزوان أيام عمر سنة أربع عشرة. ولم يتعرض خالد وأصحابه إلى الفلاحين، وتركهم وعمارة البلاد كما أمر أبو بكر به.
وكان كسرى أردشير لما جاءه كتاب هرمز بمسير خالد، أمره بقارن بن فريانس فسار من المدائن، ولما انتهى إلى الدار لقيه المنهزمون عن هرمز ومعهم قباذ وانو شجان، فتذامروا ورجعوا ونزلوا النهر، وسار إليهم خالد واقتتلوا وبرزقان ، فقتله معقل بن الأعشى بن النباش وقتل عاصم أبو شجان وقتل عدي قباذ. وانهزمت الفرس

وقتل منهم نحو ثلاثين ألفا سوى من غرق، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم. وكانت الغنيمة عظيمة وأخذ الجزية في الفلاحين، وصاروا في ذمة. و لم يقاتل المسلمين من الفرس بعد

قارن أعظم منه، وتسمى هذه الوقعة بالثني وهو النهر.

ولما جاء الخبر إلى اردشير بالهزيمة بعد الأندرزغر وكان فارساً من مولد الواد. فأرسل في أثره مع بهمن حط ذويه وحشد الأندرزغر ما بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ، وعسكر بالولجة، وسار إليهم خالد فقاتلهم وصبروا. ثم جاءهم كمين من خلفهم فانهزموا ومات الأندرزغر عطشا. وبذل خالد الأمان للفلاحين فصاروا ذمة، وسبى ذراري المقاتلة ة ومن أعانهم، وأصاب اثنين من نصارى بكر بن وائل. أحدهما جابر بن بجير والآخر ابن عبد الأسود من عجل، فأسرهما وغضب بكر بن وائل لذلك.

فاجتمعوا على الليث وعليهم عبد الأسود العجلي، فكتب أردشير إلى بهمن حاذويه ، وقد أقام بعد الهزيمة بقسيناثا يأمره بالمسير إلى نصارى العرب بالليس فيكون معهم إلى أن يقدم عليهم جابان من المرازبة، فقدم بهمن على أردشير ليشاوره، وخالفه جابان إلى نصارى العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من الحيرة، وهم مجتمعون على الليث. وسار إليهم خالد حين بلغه خبرهم ولا يشعر بجابان.

فلما حط الأثقال سار إليهم وطلب المبارزة، فبرز إليه مالك بن قيس فقتله خالد

واشتد القتال بينهم، وسائر المشركين ينتظرون قدوم بهمن. ثم انهزموا واستأسر الكثير منهم، وقتلهم خالد حتى سال النهر بالدم وسمي نهر الدم، ووقف على طعام الأعاجم وكانوا قعودا للأكل، فنفله المسلمون. وجعل العرب يتساءلون عن الرقاق يحسبونه رقاعا، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا. ولما فرغ من الليس سار إلى أمعيشيا فغزا أهلها وأعجلهم أن ينقلوا أموالهم فغنم جميع ما فجها وخربها.

فتح الحيرة

ثم سار خالد إلى الحيرة، وحمل الرجال والأنفال في السفن. وخرج مرزبان الحيرة وهو الأزادية فعسكر عند الغريين ، وأرسل ابنه ليقاطع الماء على السفن فوقفت على الأرض، وسار إليه خالد فلقيه على فرات بازقلة فقلته وجميع من معه وسار نحو أبيه على الحيرة، فهرب بغير فتال لما كان بلغة من موت أردشير كسرى وقتل ابنه. ونزل خالد مترله بالغريين ، وحاصر قصور الحيرة وافتتح الديور، وصاح القسيسون والرهبان بأهل القصور، فرجعوا على الإباية وخرج إياس بن قبيصة من القصر الأبيض وعمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن بقيلة - وكان معفراً - وسأله خالد عن عجيبة قد رآها، فقال رأيت القرى ما بين دمشق والحيرة تسافر بينهما المرأة فلا تتزود إلا رغيفا واحدا.

ثم جاءه واستقرب منه، ورأى مع خادمه كيساً فيه سم، فأخذه خالد ونثره في يده

وقال ما هذا؟ قال خشيت أن تكونوا على غير ما وجدت، فيكون الموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي. فقال له خالد لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها. ثم قال: باسم الله الذي لا نصير مع اسمه شيء وابتلع السم، فوعك ساعة ثم قام كأنما نشط من عقال. فقال عبد المسيح لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم

هكذا. ثم صالحهم على مئة أو مئتين وتسعين ألفاً وعلى كرامة بنت عبد المسيح لشريك كان النبي صلى الله عليه و سلم وعده بها إذا فتحت الحيرة، فأخذها شريك وافتدت منه بألف درهم وكتب لهم بالصلح، وذلك في أول سنة اثنتي عشرة.

فتح ما وراء الحيرة.

كان الدهاقين يتربصون بخالد ما يصنع بأهل الحيرة ة فلما صالحهم واستقاموا له

جاءته الدهاقين من كل ناحية، فصالحوه عما يلي الحيرة من الفلاليج وغيرها على ألف ألف، وقيل على ألفي ألف سوى جباية كسرى. وبعث خالد ضرار بن الأزور، وضرار ابن الخطاب والقعقاع بن عمرو والمثنى بن حارثة وعيينة بن الشماس فكانوا في الثغور وأ مرهم بالغارة فمخروا السواد كله إلى شاطىء دجلة. وكتب إلى ملوك فارس:

أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو نفعل

ذلك كان شراً لكم. فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وانتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وكتب إلى المرازبة: أما بعد فالحمد لله الذي فض حذقكم، وفرق كلمتكم، وفل حذكم، وكسر شوكتكم تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر انتهى.

وكان العجم مختلفين بموت أردشير، وقد أزالوا بهمن حاذويه فيمن سيره في العساكر، فجبى خالد خراج السواد في خمسين ليلة، وغلب العجم عليه وأقام بالحيرة سنة يصعد ويصوب، والفرس يخلعون ويملكون، ولم يجدوا من يجتمعون عليه لأن

سيرين كان قتل جيع من تناسب إلى بهرام جور.

فلما وصلهم كتاب خالد تكلم نساء آل كسرى وولوا الفرخ زاد ابن البندوان إلى أن

يجدوا من يجتمعون عليه، ووصل جرير بن عبد الله البجلي إلى خالد بعد فتح الحيرة. وكان مع خالد بن سعيد بن العاص بالشام. ثم قدم على أبي بكر فكلمه أن يجمع له قومه كما وعد النبي صلى الله عليه و سلم وكانوا أوزاعاً متفرقين في العرب. فسخط ذلك منه أبو بكر فقال تكلمني بما لا يعني وأنت ترى ما نحن فيه من فارس والروم، وأمره بالمسير إلى خالد فقدم عليه بعد فتح الحيرة.

فتح الانبار وعين التمر

وتسمي هذه الغزوة ذات العيون

ثم سار خالد على تعبيته إلى الأنبار وعلى مقدمته الأقر بن حابس، وكان بالأنبار شيرزاد صاحب ساباط فحاصرهم ورشقوهم بالنبال حتى فقأوا منهم ألف عين. ثم نحر ضعاف الإبل وألقاها في الخندق حتى ردمه بها،

وجاز هو وأصحابه فوقها. فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق، وصالح شيرزاد على أن يلحقوه بمأمنه، ويخلي لهم عن البلد وما فيها، فلحق بهمن جادويه.

ثم استخلف خالد على الأنبار الزبرقان بن بدر، وسار إلى عين التمر، وبها

مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب، وحولهم طوائف من النمر وتغلب وإياد وغيرهم من العرب. وقال عقبة لبهرام دعنا وخالدا، فالعرب أعرف لقتال العرب. فدفعه لذلك واتقى به، وسار عقة إلى خالد، وحمل خالد عليه وهو يقيم صفوفه فاحتضنه وأخذه أسيراً. وانهزم العسكر عن غير قتال وأسر أكثرهم، وبلغ الخبر إلى مهران فهرب وترك الحصن، وتحصن به المنهزمون واستأمنوا لخالد فأبى، فنزلوا على حكمه فقتلهم أجمعين وعقة معهم. وغنم ما في الحصن وسبى أهليهم وأولادهم وأخذ من البيعة وهي الكنيسة غلماناً كانوا يتعلمون الإنجيل فقسمهم في الناس، منهم سيرين أبو صمد ونصير أبو موسى وحمران مولى عثمان، وبعث إلى أبي بكر بالفتح والخمس، وقتل من المسلمين عمير بن رباب السهمي من مهاجرة الحبشة وبشير بن سعد والد النعمان.

مطلب وقعة دومة الجندل

ولما فرغ خالد من عن التمر وافق وصول كتاب عياض بن غنم وهو على من بازائه من نصارى الحرب بناحية دومة الجندل وهم بهرا وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم. وكانت رياسة دومة لأكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعه يقتسمانها، وأشار أكيدر بصلح خالد فلم يقبلوا منه فخرج عنه، وبلغ خالد مسيره فأرسل من اعترضه فقتله وأخذ ما معه. وسار خالد فنزل دومة وعياض عليها من الجهة الأخرى، وخرج الجودي لقتال عياض، فانهزموا من الجهتين إلى الحصن فأغلق دونهم، وقتل الجودي وافتتح الحصن عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية.

الوقائع بالعراق

وأقام خط لد بدومة الجندل وطمع الأعاجم فى الحيرة، وملأهم عرب الجزيرة غضبا لعقة، فخرج اسواران إلى الأنبار وانتهيا إلى حصيد والخنافس، فبعث القعقاع من الحيرة عسكرين حالا بينهما وبين الريف. ثم جاء خالد إلى الحيرة، فعجل القعقاع بن عمرو وأبو ليلى بن فدكى إلى لقائهما بالحصيد، فقتل من العجم مقتلة عظيمة، وقتل الاسواران، وغنم المسلمون ما في الحصيد، وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس وبها البهبوذان من الأساورة. وسار أبو ليلى في اتباعهم فهزم البهبوذان إلى المصيخ، وكان بهما الهذيل بن عمران وربيعة بن بجير من عرب الجزيرة، غضباً لعقة وجاءا مدداً لأهل الحصيد، فكتب خالد إلى القعقاع وأبي ليلى وأودعهما المصيخ. وسار إليهم فتوافوا هنالك وأغاروا على الهذيل ومن معه ثلاثة أوجه، فأكثروا فيهم القتل، ففر الهذيل في قليل، وكان مع الهذيل عبد العزيز بن أبي رهم من أوس مناة ولبيد بن جرير، وكانا أسلما، وكتب لهما أبو بكر بإسلامهما، فقتلا في المعركة فوداهما أبو بكر وأوص بأولاد هما.

وكان عمر يعتمد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة على خالد، ولما فرغ خالد من الهذيل بالمصيخ واعد القعقاع وأبا ليلى إلى الثني شرقي الرصافة ليغير على ربيعة بن بجير التغلبي صاحب الهذيل الذي جاء معه لمدد الفرس ولبييتهم، فلم يفلت منهم أحداً. ثم اتبع الهذيل بعد مفره من المصيخ إلى اليسير وقد لحق هنالك بعتاب بن أشيد فبيتهم خالد قبل أن يصل إليهم خبرربيعة، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وسار إلى الرصافة

وبها هلال بن عقة فتفرق عنه أصحابه، وهرب فلم يلق بها خالد من الرضاب إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة، فحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من مسالح فارس، واجتمعت معهم تغلب و إياد والنمر، وصاروا إلى خالد وطلبوا منه العبور فقال اعبروا اسفل منا فعبروا، وامتاز الروم من العرب. لانهزمت الروم ذلك اليوم، وقتل لهم نحوا من مئة ألف.

وأقام خالد على الفراض إلى ذي القعدة. ثم أذن للناس بالرجوع إلى الحيرة،

وجعل شجرة بن الاغر على الساقة، وخرج من الفراض حاجا مكتتماً بحجه وذهب ليتعسف البلاد حق أتى مكة فحج ورجع، فوافى الحيرة مع جنده، وشجرة بن الأغر معهم، ولم يعلم بحجه إلا من أعلمه به وعتب به أبو بكر في ذلك لما سمعه، وكانت عقوبته إياه أن صرفه من غزو العراق الى الشام. ثم شن خالد بن الوليد الغارات على نواحي السواد، فأغار هو على شرق بغداد وعلى قطربل وعقرقوف ومسكن وبادروبا. وحج أبو بكر في هذه السنة، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

بعوث الشام

وكان من أول عمل أبي بكر بعد عوده من الحج أن بعث خالد بن سعيد بن

العاص في الجنود إلى الشام أول سنة ثلاث عشرة، وقيل إنما بعثه إلى الشام لما بعث خالد بن الولد إلى العراق أول السنة التي قبلها، ثم عزله قبل ألن يسير لأنه كان لما قدم من اليمن عند الوفاة تخفف عن بيعة أبي بكر أياماً، وغدا على علي وعثمان على الإستكانة لتيم، وهما رؤوس بني عبد مناف، فنهاه علي وبلغت الشيخين. فلما ولأه أبو بكر عقد له عمر فعزله وأمره أن يقيم بتيماء، ويدعو من حوله من العرب إلى الجهاد حق يأتيه أمره. فاجتمعت إليه جموع كثيرة وبلغ الروم خبره، فضربوا البعث على عرب الضاحية بالشام من بهرا وسليح وكلب وغسان ولخم وجذام، وسار إليهم خالد فغلبهم على منازلهم وافترقوا. وكتب له أبو بكر بالإقدام فسار متقدما ولقيه البطريك ماهان من بطاركة الروم، فهزمه خالد واستلحم الكثير من جنوده.

وكتب إلى أبي بكر يستمده، ووافق كتابه المستنفرين وفيهم ذو الكلاع ومعه حمير

وعكرمة بن أبي جهل ومن معه من تهامة والسرو وعمان والبحرين فبعثهم إليه. وحينئذ اهتم أبو بكر بالشام، وكان عمرو بن العاص لما بعثه رسول الله صلى الله عليه و سلم تسليما إلى عمان

وعده أن يعيده إلى عمله عند فراغه من أمر عمان، فلما جاء بعد الوفاة أعاده إليها أبو بكر إنجازاً لوعده صلى الله عليه و سلم وهى صدقات سعد هذيم وبني عدرة. فبعث إليه لأن يأمره باللحاق بخالد بن سعيد لجهاد الروم وأن يقصد فقسطين، وبعث أيضا إلى الوليد بن عقبة وكان على صدقات قضاغة وولاه الأردن، وأمر

يزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب إليه منهم: سهيل بن عمرو وأشباهه، وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حمص وأوصى كل واحد منهم. ولما وصل المدد الى خالد بن سعيد وبلغه توجه الأمراء تعجل للقاء الروم قبلهم، فاستطرد له ماهان ودخل دمشق.

واقتحم خالد الشام ومعه ذي الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر عند

دمشق فانطوت مسالح ماهان عليه، وسدوا الطريق دونه، وزحف إليه ماهان ولقي ابنه سعيداً في طريقه فقتلوه. وبلغ الخبر أباه خالدا فهرب فيمن معه وانتهى إلى ذي المروة قرب المدينة. وأقام عكرمة ردءا من خلفهم، فرد عنهم الروم، فأقام قريباً من الشام. وجاء شرحبيل بن حسنة إلى أبي بكر وافدا من العراق من عند خالد، فندب إليه الناس وبعثه مكان الوليد إلى أردن. ومر بخالد ففصل ببعض أصحابه.

ثم بعث أبو بكر معاوية وأمره باللحاق بأخيه يزيد، وأذن لخالد بن سعيد بدخول المدينة. وزحف الأمراء في العساكر نحو المام، فعبى هرقل عساكر الروم، ونزل حمص بعد أن أشار على الروم بعدم قتال العرب، ومصالحتهم على ما يريدون فأبوا ولجوا ثم فرقهم على أمراء المسلمين، فبعث شقيقه تذارق في تسعين ألف نحو عمرو بن العاص بفلسطين. وبعث جرجة بن توذر نحو يزيد بن أبي سفيان، وبعث الدراقص نحو شرحبيل بن حسنة بالأردن وبعث القيقار بن نسطورس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة بالجابية. فهابهم المسلمون ثم رأوا أن الاجتماع أليق بهم، وبلغهم كتاب أبي بكر بذلك، فاجتمعوا باليرموك في بضعة وعشرين ألفا. وأمر هرقل أيضا باجتماع جنوده ووعدهم بوصول ملحان إليهم ردءاً فاجتمعوا بحيال المسلمين والوادي خندق بينهم. فأقاموا بإزائه ثلاثة أشهر واستمدوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد أن يستخلف على العراق المثنى بن حارثة ويلحق بهم وأمره على جند الشام.

ولما استمد المسلمون أبا بكر بعث إليهم خالد بن الوليد من العراق واستحثه في

السير إليهم، فنفذ خالد لذلك ووافى المسلمين مكانهم عندما وافى ماهان الروم أيضا. وولى خالد قباله، وولى الأمراء قبل الاخرين إزاءهم، فهزم ماهان وتتابع الروم على

الهزيمة، وكانوا مائتين وأربعين ألفاً وتقسموا بين القتل والطرق في الواقوصة، والهوي في الخندق، وقتل صناديد الروم وفرسانهم، وقتل تدارق أخو هرقل وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل وأجاز إلى ما وراءها لتكون بينه وين المسلمين، وأمر عليها وعلى دمشق.

ويقال: إن المسلمين كانوا يومئذ ستة وأربعين ألفا، سبعة وعشرين منها مع الأمراء وثلاثة آلاف من بلال مع خالد بن سعيد قد أمر عليهم أبو بكر معاوية بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعشرة آلاف من أمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، وستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردءا بعد خالد بن سعيد. وأن خالد بن سعيد عبأهم كراديس ستة وثلاثين كردوسا لما رأى الروم تعبوا كراديس، وكان كل كردوس ألفا، وكان ذلك في شهر جمادى وأن أبا سفيان بن حرب أبلى يومئذ بلاء حسنا بسعيه وتحريضه.

قالوا: وبينما الناس في القتال قدم البريد من المدينة بموت أبي بكر وولاية عمر فأسره إلى خالد وكتمه عن الناس. ثم خرج جرجه من أمراء الروم فطلب خالدا وسأله عن أمره وأمر الإسلام، فوعظه خالد فاستبصر وأسلم، وكانت وهنأ على الروم. ثم زحف خالد بجماعة من المسلمين فيهم جرجه فقتل من يومه، واستشهد عكرمة بن أبي جهل وابنه عمر، وأصيبت عين أبي سفيان، واستشهد سلمة بن هشام وعمرو وأبان إبنا سعيد وهشام بن العاص وسيار بن سفيان والطفيل بن عمرو، وأثبت خالد بن سعيد فلا يعلم أين مات بعد. ويقال استشهد في مرج الصفر في الوقعة الأولى، ويقال إن خالداً لما جاءه من العراق مدداً للمسلمين بالشام طلب من الأدلاء أن يغوروا به حتى يخرج من وراء الروم، فسلك به رافع بن عمرو الطائي من فزارة في بلاد كلب حتى خرج إلى الشام ونحر فيها الإبل وأغار على مصيخ فوجد به رفقة فقتلهم وأسلبهم.

وقعة مرج راهط

وكان الحرث بن الأيهم وغسان قد اجتمعوا بمرج راهط، فسلك إليهم واستباحهم، هم نزل بصرى فافتتحها. ثم سار منها إلى المسلمين بالواقوصة فشهد معهم اليرموك، ويقال: إن خالداً لما جاء من العراق إلى الشام لقي أمراء المسلمين ببصرى فحاصروها جميعاً حتى فتحوها على الجزية. ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص، وعمرو بالغور والروم بجلق مع تدارق أخى هرقل، وانكشفوا عن جلق إلى أجنادين وراء الرملة شرقاً.

ثم تزاحف الناس فاقتتلوا، وانهزم الروم، وذلك في منتصف جمادى الأولى من السنة وقتل فيها تدارق، ثم رجع هرقل ولقي المسلمين بالفاقوصة عند اليرموك فكانت واقعة اليرموك كما مدمنا في رجب بعد أجنادين، وبلغت المسلمين وفاة أبي بكر وإنها كانت لثمان بقين من جمادى الآخرة.

خلافة عمر رضي الله عنه

ولما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما بالأمر من بعده، بعد أن شاور عليا وطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه، فأثنوا على رأيه فأشرف على الناس وقال: إني قد استخلفت عمر لم آل كم نصحا فاسمعوا له وأطيعوا. ودعا عثمان فأمره فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالأخرة، في الحالة التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب و لم آل لكم خيرا، فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأي منه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فكان أول ما انفذه من الأمور عزل خالد عن إمارة الجيوش بالشام وتوليه أبي عبيدة، وجاء الخبر بذلك والمسلحون مواقفون عدوهم في اليرموك، فكتم أبو عبيدة الأمر كله فلما انقضى أمر اليرموك كما مر سار المسلمون إلى فحل من أرض الأردن وبها واقعة الروم، وخالد على مقدمة الناس فقاتلوا الروم.

فتح دمشق

واقتحموها عنوة ودلك في ذي القعدة ولحقت فواقعت الروم بدمشق، وعليها ماهان

من البطارقة، فحاصرهم المسلمون حتى فتحوا دمشق وأظهر أبو عبيدة أمارته وعزل خالد. وقال سببه إن أبا بكر كان يسخط خالد بن سعيد والوليد بن عقبة من أجل فرارهما

كما مر، فلما ولي عمر رضي الله عنه أباح لهما دخول المدينة، ثم بعثهما مع الناس إلى الشام، ولما فرغ أمر اليرموك وساروا إلى فحل، وبلغ عمر خبر اليرموك، فكتب بعزل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص حتى يصير الحرب إلى فلسطين، فتولاها عمر. وإن خالدا قدم على عمر بعد العزل وذلك بعد فتح دمشق، وإنهم ساروا إلى فحل فاقتحموها ثم ساروا إلى دمشق، وعليها نسطاس بن نسطورس فحاصروها سبعين ليلة، وقيل ستة أشهر من نواحيها الأربع؛ خالد وأبو عبيدة ويزيد وعمرو كل واحد على ناحية، وقد جعلوا بينهم وين هرقل مدينة حمص، ومن دونها ذو الكلاع في جيش من المسلمين.

وبعث هرقل المدد إلى دمشق، وكان فيهم ذو الكلاع، فسقط في أيديهم وقدموا

على دخول دمشق، وطمع المسلمون فيهم. واستغفلهم خالد في بعض الليالي فتسور سورهم من ناحيته وقتل الوليد وفتح الباب واقتحم البلد وكبر وكبروا فقتلوا جميع من لقوه. وفزع أهل النواحي إلى الأمراء الذين يلونهم فنادوا لهم بالصلح والدخول، فدخلوا من نواحيهم صلحا، فأجريت ناحية خالد على الصلح مثلهم.

قال سيف: وبعثوا إلى عمر بالفتح، فوصل كتابه بأن يصرف جند العراق إلى

العراق، فخرجوا وعليهم هاشم بن عتبة وعلى مقدمتة القعقاع، وخرج الأمراء إلى فحل وأقام يزيد بن أبي سفيان بدمشق. وكان الفتح في رجب سنة أربع عشرة. وبعث بزيد دحية الكلبي إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى حوران والبثينة فصالحوهما وولي عليهما. ووصل الأمراء إلى بحل فبيتهم الروم، فظفر المسلمون بهم وهزموهم، فقتل منهم ثمانون ألفاً. وكان على الناس في وقعة فحل شرحبيل بن حسنة، فسار بهم إلى بيسان وحاصرها فقتل مقاتلتها، وصالحه الباقون، فقبل منهم.

وكان أبو الأعور السلمي على طبرية محاصرا لها، فلما بلغهم شأن بيسان صالحوه،

فكمل فتح الأردن صلحاً. ونزلت القواد في مدائنها وقراها، وكتبوا إلى عمر بالفتح.

وزعم الواقدى: أن اليرموك كانت سنة خمسة عشرة، وأن هرقل انتقل فيها من

إنطاكية إلى قسطنطينية، وأن اليرموك كانت آخر الوقائع. والذي تقدم لنا من رواية سيف أن اليرموك كانت سنة ثلاث عشرة، وإن البريد بوفاة أبي بكر قدم يوم هربت الروم فيه، وأن الأمراء بعد اليرموك ساروا إلى دمشق ففتحوها، ثم كانت بعدها وقعة فحل ثم وقائع أخرى قبل شخوص هرقل والله أعلم.

خبر المثني بالعراق بعد مسير خالد إلي الشام

لما وصل كتاب أبي بكر إلى خالد بعد رجوعه من حجه بأن ينصرف إلى الشام

أميرا على المسلمين بها، ويخرج في شطر الناس ويرجع بهم إذا فتح الله عليه إلى العراق، ويترك الشطر الثانى بالعراق مع المثنى بن حارثة. وفعل ذلك خالد ومضى لوجهه، وأقام المثنى بالحيرة، ورتب المصالح، واستقام أهل فارس بعد خروج خالد بقليل على شهريار بن شيرين بن شهريار ممن يناسبه إلى كسرى أبي سابور وذلك سنة ثلاث عشرة. فبعث إلى الحيرة هرمز فاقتتلوا هنالك قتالاً شديدا بعدوة الضراء. وغار الفيل بين الصفوف فقتله المثنى وناس معه،وانهزم أهل فارس واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى انتهوا إلى المدائن ومات شهريار إثر ذلك، وبقي ما دون دجلة من السواد في أيدي المسلمين. ثم اجتمع أهل فارس من بعد شهريار على آزرميدخت و لم ينفذ لها أمر فخلعت، وملك سابور بن شهريار، وقام بأمره الفرخزاذ بن البندوان وزوجة أزرميدخت،

لغضبت وبعثت إلى سياوخش الوازن، وكان من كبار الأساورة وشكت إليه، فأشار عليها بالقبول. وجاء ليلة العرس فقتل الفرخزاذ ومن معه، ونهض إلى سابور فحاصره، ثم اقتحم عليه فقتله، وملكت آزرميدخت وتشاغلوا بذلك عن ملكها.

انكهى شأن أبي بكر، وشق السواد في سلطانه، وتشاغل أهل فارس عن دفاع المسلمين عنه، ولما أبطأ خبر أبى بكر على المثنى، استخلف المثنى على الناس بشر بن الخصاصية، وخرج نحو المدينة. يستعلم ويستأذن، فقدم وأبو بكر يجود بنفسه. وقد عهد إلى عمر وأخبره الخبر، فأحضر عمر وأوصاه أن يندب الناس مع المثنى، وأن يصرف أصحاب خالد من الشام إلى العراق. فقال عمر: يرحم الله أبا بكر علم إنه تستر في إمارة خالد، فأمرني بصرف أصحابه و لم يذكره.

ولاية أبي عبيد بن مسعود علي العراق ومقتله

ولما ولي عمر ندب الناس مع المثنى بن حارثة أياماً وكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود. فقال عمر للناس: ان الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين المهاجرون عن موعد الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال: ليظهره على الدين كله، فالله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي

أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون؟ فانتدب أبو عبيدة الثقفي ثم سعد بن عبيد الأنصاري ثم سليط بن قيس، فولى أبا عبيد على البعث لسبقه وقال: إسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعا بل اتئد فإنها الحرب، والحرب لا يصبحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. و لم يمنعني أن اؤمر سليطا إلا سرعته إلى الحرب، وفي السرعة إلى الحرب- إلا عن بيان- ضياع، والله لولا سرعته لأمرته. فكان بعث أبي عبيد هذا أول بعث بعثه عمر، ثم بعث بعده بعلي بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران، لوصية رسول الله صلى الله عليه و سلم بذلك في مرضه. وقال: أخبرهم بأنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك فى دينان بأرض العرب، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم وفاء بذمتهم كما أمر الله.

قالوا: فخرج أبو عبيد مع المثنى بن حارثة وسعد وسليط إلى العراق. وقد كانت

بوران بنت كسرى كلما اختلفت الناس بالمدائن عدلت بينهم حتى يصطلحوا. فلما قتل الفرخزاذ بن البندوان وملكت آزرميدخت، اختلف أهل فارس واشتغلوا عن المسلمين غيبة المثنى كلها، فبعثت بوران الى رستم تستحثه للقدوم، وكان على فرج خرسان. فأقبل في الناس إلى المدائن، وعزل الفرخزاذ وفقأ عين آزرميدخت، ونصب بوران فملكته وأحضرت مرازبة فارس فأسلموا له ورضوا به وتوجته، وسبق المثنى إلى الحيرة ولحقه أبو عبيد ومن معه.

وكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين، وبعث في كل رستاق رجلا

لذلك- فكان في فرات باذقلا جابان، وفي كسكر نرسي. وبعث جند المصادمة المثنى فساروا وتألفوا واجتمعوا أسفل الفرات. وخرج المنثى من الحيرة خوفاً أن يؤتى من خلفه فقدم عليه أبو عبيد ونزل جابان النمارق ومعه جع عظيم، فلقيه أبو عبيد هنالك، وهزم الله أهل فارس. وأسر جابان ثم أطلق، وروا في المنهزمين حتى دخلوا كسكر وكان بها نرسي ابن خالد كسرى، فجع الفالة الى عسكره وسار إليهم أبو عبيد من النمارق في تعبيته، وكان على مجنبتي نرسي نفدويه وشيرويه ابنا بسطام خال كسرى، واتصلت هزيمة جابان ببوران ورستم، فبعثوا الجالينوس مددا لنرسي وعاجلهم أبو عبيد فالتقوا أسفل من كسكر، فاشتد القتال وانهزمت الفرس وهرب نرسي، وغنم المسلمون ما في عسكره.

وبعث أبو عبيد المثنى وعاصما فهزموا من كان تجمع من أهل الرساتيق، وخربوا

وسبوا وأخذوا الجزية من أهل السواد، وهم يتربصون قدوم الجالينوس. ولما سمع به أبو عد سار إليه على تعبيته، فانهزم الجالينوس وهرب ورجع أبو عبيد فنزل الحيرة. وقد كان عمر قال له: إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والخزي ، تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون. وأحرز لسانك ولا تفش سرك فإن صاحب السر- ما ضبط- متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة.

ولما رجع الجالينوس إلى رستم بعث بهمن حادويه ذا الحاجب إلى الحيرة، فأقبل

ومعه درفش كابيان راية كسرى عرض ثمانية أذرع في طول اثني عشر من جلود النمر، فنزل في قسي الناطف على الفرات. وأقبل أبو عد فنزل عدوته وقعد إلى أن نصبوا للفريقين جسرا على الفرات، وخيرهم بهمن حادويه في عوره أو عبورهم، فاختار أبو عبيد العبور، وأجاز إليهم وماجت الأرض بالفقاتلة، ونفر جنود المسلمين وكراديسهم من الفيلة. وأمر بالتخفيف عن الخيل، فترجل أبو عبيد والناس وصافحوا العدو بالسيوف، ودافعتهم الفيلة، فقطعوا وضنها فسقطت رحالها، وقتل من كان عليهم. وقابل أبو عبيد فيلا منهم فوطئه بيده، وقام عليه فأهلكه.

وقاتلهم الناس ثم انهزموا عن المثنى، وسبقه بعض المسلمين إلى الجسر فقطعه وقال: موتوا أو تظفروا. وتواثب بعضهم الفرات فغرقوا وأقام المثنى وناس معه مثل عروة بن زيد الخيل وأبي محجن الثقفي وأنظارهم، وقاتل أبو زيد الطائي، كان نصرانيا وقدم الحيرة لبعض أمره، فحضر مع المثنى وقاتل حينئذ حمية، ونادى المثنى الذين

عبروا من المسلمين فعقدوا الجسر وأجاز بالناس، وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس فانفض أصحابه إلى المدينة، وبقي المثنى في فله جريحاً، وبلغ الخبر إلى عمر فشق عليه وعذر المنهزمين. وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف قتلى وغرقى وهرب ألفان وبقي الثلاثة آلاف وقتل من الفرس ستة آلاف. وبينما بهمن حادويه يروم العبور خلف المسلمين أتاه الخبر بأن الفرس ثاروا برستم مع الفيرزان، فرجع إلى المدائن، وكانت الوقعه في مدائن سنة ثلاث عشرة. ولما رجع بهمن حادويه اتبعه جابان ومعه مردان شاه. وخرج المنثى في أثرهما، فلما أشرف عليهما أتياه يظنان أنه هارب فأخذهما أسيرين ، وحرج أهل الليس على أصحابهما فأتوه بهم أسرى، وعقدوا معه

مهادنة وقتل جميع الأسرى.

ولما بلغ عمر رضي الله عنه عن وقعة ابن عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى

وكان فيمن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله الذي جمعهم من القبائل بعد أن كانوا مفترقين، ووعده النبي صلى الله عليه و سلم بذلك وشغل عن ذلك أبو بكر بأمر الردة ووفى له عمر به، وسيره مددا للمثنى بالعراق. وبعث عصمة بن عبد لله الضبي، وكتب إلى أهل الردة بأن يوافوا المثنى. وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فوافوا في جموع عظيمة، حتى نصارى النمر جاءوه وعليهم أنى بن هلال، وقالوا نقاتل مع قومنا. وبلغ الخبر إلى رستم والفيرزان فبعثا مهران الهمداني إلى الحيرة والمثنى بين القادسية وخفان.

فلما بلغه الخبر استبقى فرات باذقلا وكتب بالخبر إلى جرير وعصمة أن يقصدوا

العذيب مما يلى الكوفة، فاجتمعوا هنالك ومهران قبالتهم عدوة الفرات، وتركوا له العبور فأجاز إليهم. وسار إليه المثنى في التبعية، وعلى مجنبتيه مهران مرزبان الحيرة ابن الأزاذبة ومردارشاه ، ووقف المثنى على الرايات يحرض الناس فأعجلتهم فارس وخالطوهم وركدت حربهم واشتدت.

ثم حصل المثنى على مهران فأزاله عن مركزه، أصيب مسعود أخو المثنى، وخالط

المثنى القلب ووثب المجنبات على المجنبات قبالتهم، فانهزمت الفرس وسبقهم المثنى إلى الجسر فهربوا مصعدين ومنحدرين، واستلحمهم خيول المسلمين، وقتل فيها مئة ألف أو يزيدون. وأحصي مئة رجل من المسلمين قتل كل واحد منهم عشرة، وتبعهم المسلمون الى الليل. وأرسل المثنى في آثار الفرس فبلغوا ساباط فغنموا وسبوا ساباط واستباحوا القرى، وسخروا السواد بينهم وبين دجلة لا يلقون مانعا.

ورجع المنهزمون إلى رستم فاستهانوا ورضوا أن يتركوا ما وراء دجلة. ثم خرج

المثنى من الحيرة واستخرج بشير بن الخصاصية، وسار نحو السواد، ونزل الليث من قرى الأنبار فسميت الغزاة غزاة الأنبار الآخرة وغزاة الليس الآخرة.

وجاءت إلى المثنى عيون فدلوه على سوق الخنافس وسوق بغداد، وأن سوق الخنافس أقرب ويجتمع بها تجار المدائن والسواد وخفراؤهم من ربيعة وقضاعة، فركب إليها وأغار عليها يوم سوق، فاشتف السوق وما فيها، وسلب الخفراء ورجع إلى الأنبار

فأتوه بالعلوفة والزاد، وأخذ منهم أدلاء تظهر له المدائن وسار بهم إلى بغداد ليلا، وصبح السوق فوضع فيهم السيف، وأخذ ما شاء من الذهب والفضة والجيد من كل شيء.

ثم رجع إلى الأنبار، وبعث المضارب العجلي إلى الكباث وبه جماعة من تغلب

فهربوا عنه ولحقهم المضارب، فقتل في أخرياتهم وأكثر. ثم سرح فرات بن حيان التغلبي وعتيبة بن النفاس للإغارة على أحياء من تغلب بصفين. ثم اتبعهم المثنى بنفسه فوجدوا أحياء صفين قد هربوا عنها، فعبر المثنى إلى الجزيرة. وفني زادهم وأكلوا رواحلهم وأدركوا عيراً من أهل خفان فحضر نفر من تغلب فأخذوا المجر ودلهم أحد الخفراء على حي من تغلب، ساروا إليه يومهم وهجموا عليهم فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال، وكان هذا الحي بوادي الرويحلة. فاشترى أسراهم من كان هنالك من ربيعة بنصيبهم من الفيء وأعتقوهم، وكانت ربيعة لا تسبى في الجاهلية.

ولما سمع المثنى أن جميع من يملك البلاد قد انتجع شاطىء دجلة خرج في

اتباعهم فأدركهم بتكريت ، فغنم ما شاء وعاد إلى الأنبار، ومضى عتيبة وفرات حتى أغارا على النمر وتغلب بصمين، ولمكن رعب المسلمين من قلوب أهل فارس، وملكوا ما بين الفرات ودجله.

أخبار القادسية

ولما دهم أهل فارس من المسلمين بالسواد ما دهمهم وهم مختلفون بين رستم والفيرزان واجتمع عظماؤهم وقالوا لهما: إما أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب فقد عرضتمونا للهلكة ، وما بعد بغداد وتكريت إلى المدائن فأطاعا لذلك. وفزعوا إلى بوران إلي بوارن يسألونها في ولد من آل كسرى يولونه عليهم، فأحضرت لهم النساء والسراري وبسطوا علبهن العذاب، فذكروا لهم غلاماً من ولد شهريار بن كسرى اسمه يزدجرد، أخذته أمه عندما قتل شيرويه أبناء أبيه. فسألوا أمه عنه فدلتهم عليه عند أخواله كانت أودعته عندهم حينئذ، فجاءوا به ابن إحدى وعشرين سنة فملكوه واجتمعوا عليه.

وتبارى المرازبة في طاعته وعين المسالح والجنود لكل ثغر، ومنها الحيرة والأبلة والأنبار، وخرجوا إليها من المدائن. وكتب المثنى بذلك الى عمر، وبينما هو ينتظر الجواب انتقض أهل السواد وكفروا، وخرج المثنى إلى ذي قار ونزل الناس فى عسكر

واحد. ولما وصل كتابه إلى عمر قال والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيسا ولا ذا رأي وشرف وبسطه ولا خطيبا ولا شاعراً إلا رماهم به. فرماهم بوجوه الناس بل وغررهم، وكتب إلى المثنى يأمره بخروج المسلمين من بين العجم والتفرق في المياه بحيالهم، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدان من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعا وكرها، فنزل المسلمون بالجل وسروا إلى عصي وهو جبل البصرة متناظرين.

وكتب إلى عماله على العرب أن يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو

رأي، وخرج الى الحج؛ فحج سنة ثلاث عشرة ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة، ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المثنى، فلما اجتمعت عنده أمراء العرب خرج من المدينة واستخلف عليها علياً، وعسكر على صرار

من ضواحيها، وبعث على المقدمة طلحة، وجعل على المجنبتين عبد الرحمن والزبير وانبهم أمره على الناس و لم يطق أحذ سؤاله، فسأله عثمان فأحضر الناس واستشارهم في المسير إلى العراق فقال العامة: سر نحن معك، فوافقهم ثم رجح إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم وأحضر علما وطلحة والزبير وعبد الرحمن واستشارهم فأشاروا بمقامه وأن يبعث رجلا بعده آخر من الصحابة بالجنود، حتى يفتح الله على المسلمين ويهلك عدوهم، فقبل ذلك ورأى فيه الصواب.

وعين لذلك سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن، فأحضره وولاه حرب

العراق وأوصاه، وقال: يا سعد ابن أم سعد! لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا لطاعته، فالناس في دين الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون مما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يلزمه فالزمه، وعليك بالصبر.

ثم سرحه في أربعة آلاف مفن اجتمع إليه، فيهم حميضة بن النعمان بن حميضة

على بارق، وعمرو بن معد يكرب وأبو سبره بن أبى رهم على مذحج، ويزيد بن الحرث الصدائي على عذرة وخبب، ومسلية وبشير بن عبد الله الهلالي على قيس عيلان، والحصين بن نمير ومعاوية بن خديج على السكون وكندة. ثم أمره بعد خروجه بألفي يماني وألفي فخري.

وسار سعد وبلغه في طريقه بزرورد أن المثنى مات من جراحة انتقضت، وإنه استخلف على الناس بشير بن الخصاصية. وكانت جموع المثنى ثلاثة آلاف وكذلك أربعة آلاف من تميم والرباب، وأقاموا. وعمر ضرب على بني أسد أن يترلوا على حد أرضهم، فترلوا في ثلاثة آلاف وأقاموا بين سعد والمثنى، وسار سعد إلى سيراف فترلها. واجتمعت إليه العساكر، ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفا، و لم يكن أحد أجرأ على الفرس من ربيعة.

ثم عبأ سعد كتائب من سيراف وأمر الأمراء، وعرت على كل ضرة عريفا، وجعل

الرايات لأهل السابقة، ورتب المقدمة والساقة والمجنبات والطلائع، وكل ذلك بأمر عمر ورأيه. وبعث في المقدمة زهرة بن عبد الله بن قتادة الحيوي من بني تميم، فانتهى إلى العذيب، وعلى الميمنة عبد الله بن المعتمر وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط، وخليفة بن خالد بن عرفطة حليف بني عد شمس، وعاصم بن عمر التميمي على الساقة وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلى على المجردة. ثم سار على التعبية ولقيه المعنى بن حارثة الشيباني بسيراف. وقد كان بعد موت أخيه المثنى سار بذي قار إلى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادسية. وقد بعثه الفرس إليها يستنفرون العرب، فبيته المعنى واستلحمه ومن معه، ورجع إلى ذي قار.

وجاء إلى سعد بالخبر ليعلمه بوصية المثنى إليه أن لا تدخلوا بلاد فارس وقاتلوهم

على حدود أرضهم بادىء حجر من أرض العرب. فأن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وإلا رجعتم إلى فئة، ثم تكونوا أعلم بسبيهم، وأجرأ على أرضهم، إلى أن يرد الله الكرب. فترحم سعد ومن معه على المثنى،

وولى أخاه المعنى على عمله، وتزوج سلمى زوجته، ووصله كتاب عمر بمثل رأي المثنى يسأله عن سيراف ونزل العرب، ثم أتى القادسية فترلها بحيال القنطرة بين العتيق والخندق.
ووصله كتاب عمر يؤكد عليهم في الوفاء بالأنبار ولو كان اشارة أو ملاعبة. وكان
زهرة في المقدمة، فبعث سرية للإغارة على الحيرة؛ عليها بكر بن عبد الله الليثي، وإذا أخت مرزبان الحيرة تزف إلى زوجها، فحمل بكير على ابن الأزادية فقتله وحملوا الأثقال والعروس في ثلاثين امرأة ومئة من التوابع، ومعهم ما لا يعرف قيمته. ورجعوا بالغنائم، فصبح سعد بالعذيب فقسمه في المسلمين.
ولما رجع سعد إلى القادسية أقام بها شهرا يشن الغارات بين كسكر والأنبار، ولم
يأته خبر عن الفرس، وقد بلغت أخبارهم إلى يزدجرد. وإن ما بين الحيرة والفرات نهب وخرب، فاحضر رستم ودفعه لهدا الوجه فتقاعد عنه وفال. ليسر هذا من الرأي، وبعث الجيوش يعقب بعضها بعضا أولى من مصادمة مرة، فأبى يزدجرد إلا مسيرة لذلك.
فعسكر رستم بساباط، وكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إليه لا يكترثنك ما
يأتيك عنهم، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث رجالا من أهل الرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل ذلك وهنا لهم. فأرسل سعد نفرا منهم النعمان بن مقرن وبشر بن أبي أدهم وجملة من حيوة وحنظلة بن الربيع وعدي بن سهيل وعطارد أبن حاجب والحرث بن حسان والمغيرة بن زرارة والأشعث بن قيس وفرات بن حبان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة فقدموا على يزدجرد وتركوا رستم، واجتمعوا بل واجتمع الناس ينظرون إليهم وإلى خيولهم وبرودهم.
فاحضرهم يزدجرد وقال لترجمانة: سلهم ما جاءكم وما أولعكم بغزونا وبلادنا؟ ست
أجل إنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا! فتكلم النعمان بن مقرن بعد أن استأذن أصحابه وقال ما معناه: إن الله رحمنا وأرسل إلينا رسولا صفته كذا يدعونا إلى كذا ووعدنا بكذا، فأجابه منا قوم وتباعد قوم. ثم أمر أن نجاهد من خالفه من العرب، فدخلوا معه على وجهين: مكره اغتبط وطائع ازداد حتى اجتمعنا عليه وعرفنا فضل ما جاء به. ثم أمرنا بجهاد من يلينا من الأمم ودعائهم إلى الإنصاف، فإن أبيتم فالمناجزة.
فقال يزدجرد لا أعلم ي الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين
منكم، وقد كان أهل الضواحي يكفوننا أمركم، ولا تطمعوا أن تقوموا للفرس، فإن كان بكم جهد أعطيناكم قوتاً وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم. فقال المغيرة بن زرارة: هؤلاء أشراف العرب ويستحيون من الاشراف، وأنا أكلمك وهم يشهدون. فأما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد، ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي صلى الله عليه و سلم مثلما قال النعمان الخ.
ثم قال له: إختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف وإلا فنج نفسك بالإسلام. فقال يزدجرد: لو قتل أحد الرسل قبلي لقتلتكم ثم استدعى بوقر من تراب وحمل على أعظمهم وقال: ارجعوا الى صاحبكم واعلموه أني مرسل رستم حتى يدفنكم

أجمعين في خندق القادسية، ثم يدوخ بلادكم أعظم من تدويخ سابور. فقام عاصم بن عمرو فحمل التراب على عنقه وقال: إنا أشرف هؤلاء: ولما رجع إلى سعد فقال: أبشر فقد أعطانا الله تراب أرضهم. وعجب رستم من محاورتهم، وأخبر يزدجرد بما قاله عاصم بن عمر، فبعث في أثرهم إلى الحيرة فأعجزوهم.
ثم أغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على الفراض، فاستاق ثلاثمائة دابة بين بغل وحمار وثور وآخرها سمكة. وصبح بها العسكر، فقسمه سعد في الناس، وواصلوا السرايا والبعوث لطلب اللحم، وأما الطعام فكان عندهم كثيرا. وسار رستم إلى ساباط في ستين ألفاً، وعلى مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وساقته عشرون ألفاً، وفي الميمنة الهرمزان، وفي المسيرة مهران بن بهرام الرازي. وحمل معه ثلاثة وثلاثين فيلا، ثمانية عشر في القلب وخمسة عشر في الجنبين. ثم سار حتى نزل كوثى، فأتى برجل من العرب فقال له رستم: ما جاء بكم وما تطلبون؟ فقال نطلب وعد الله بأرضكم وبلادكم وأبنائكم إن لم تسلموا. قال رستم: فإن قتلتم دون ذلك؟ قال: من قتل دخل الجنة، ومن بقي انجزه الله وعده.
قال رستم: فنحن إذا وضعنا في أيديكم. فقال أعمالكم وضعتكم وأسلمكم الله
بها، فلا يغرنك من ترى حولك، فلست تحاول الناس إنما تحاول القضاء والقدر. فغضب وأمر به فضربت عقه، وسار فترل الفرس، وفشا في عسكره المنكر وغصبوا الرعايا أموالهم وأبناءهم حتى نادى رستم منهم بالويل.
فقال: صدق والله العربي، وأتى ببعضهم فضرب عنقه، ثم سار حتى نزل الحيرة، ودعا أهلها فعزرهم وهم بهم فقال له ابن بقيلة: لا تجمع علينا ان تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا. وأرسل سعد السرايا إلى السواد، وسمع بهم رستم فبعث لاعتراضهم الفرس، وبلغ ذلك سعداً لأمدهم بعاصم بن عمر فجاءهم، وخيل فارس تحتوشهم. فلما رأوا عاصما هربوا.
وجاء عاصم بالغنائم، ثم أرسل سعد عمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدي
طليعة، فلما ساروا فرسخا وبعضه لقوا المسالح، فرجع عمرو ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه، وهتك أطناب خيمة أو خيمتين، واقتاد بعض الخيل وخرج يعدو له فرسه. ونذر به الفرس فركبوا في طلبه إلى أن أصبح وهم في أثره، فكر على فارس فقتله ثم آخر، ثم آخر، وأسر الرابع، وشارف عسكر المسلمين فرجعوا عنه. ودخل
طليحة على سعد الفارسي و لم يخلف بعده فيهم مثلهم بل مثله فأسلم ولزم طليحة.
ثم سار رستم فترل القادسية بعد ستة أشهر من المدائن، وكان يطاول خوفا وتقية والملك يستحثه. وكان رأى في منامه كأن ملكا نزل من السماء ومعه النبي صلى الله عليه و سلم وعمر، وأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبي صلى الله عليه و سلم ودفعه النبي إلى عمر فحزن لذلك أهل فارس في سيره. ولما وصل القادسية وقف على العتيق حيال عسكر المسلمين، والناس يتلاحقون حتى اغتموا من كثرتهم، وركب رستم غداة تلك الليلة وصعد مع النهر وصوت حتى وقف على القنطرة. وأرسل إلى زهرة فوافقه وعرض له

بالصلح. وقال: كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم، ويقرر صنيعهم مع العرب، وبقول زهرة ليس أمرنا من أولئك وإنما طلبنا وهمنا الاخرة.

وقد كنا كما ذكرت، إلى أن بعث الله فينا رسولا دعانا إلى دين الحق فأجبناه.

وقال: قد سلطتكم على من لم يدن به وأنا منتقم بكم منهم، وأجعل لكم الغلبة! فقال رستم. وما هو دين الحق؟ فقال الشهادتان، واخراج الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الله وإنهم إخوان في ذلك. فقال رستم: فإن أجحنا إلى هذا ترجعون؟ فقال أي والله! فانصرف عنه رستم، ودعا رجال فارس. وذكر ذلك لهم فأنفوا. وأرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلا نكلمه وبكلمنا. فبث إليه ربعي بن عامر، وحبسوه على القنطرة حتى أعلموا رستم، لجلس على سرير من ذهب- وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب وأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقة- ورمحه مشدود بعصب- وقدم حتى انتهى إلى البساط ووطئه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما، فلم يحفلوا بذلك وأظهروا التهاون. ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها.

وأشاروا إليه بوضع سلاحه، فقال: لو أتيتكم فعلت كذا بأموكم، وإنما دعوتموني.

ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه، حتى أفسد ما مر عليه من البسط. ثم دنا من رستم وجلس على الأرض، وركز رمحه على البساط وقال: إنا لا نقعد على زينتكم! فقال له الترجمان: ما جاء بكم؟ ففال الله بعثنا لنخرج عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأرسلنا بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى الجنة والظفر. فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال نعم! كم أحب إليك يوما أو يومين! تال لا! بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. لقال أن مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر إما الإسلام وندعك وأرضك وإما الجزية فتقبل ونكف عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك، والمنابذه في الرابع إلا أن تبذلوا كفيلا بهذا عن أصحابي.

قال: أسيدهم أنت؟ قال لا! ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجيز بعضهم عن بعض، يجيز أدناهم على أعلاهم فخلا رستم بروساء قومه وقال: رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟ فأروه الإستخفاف بشأنه وثيابه. فقال ويحكم إنما انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب. ثم أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن ففعل كما فعل الأول، ولم يترل عن فرسه وتكلم وأحاب مثل الأول. فقال له ما قعد بالأول عنا؟ فقال أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نوبتي. فقال رستم: والمواعدة إلى متى؟ فقال إلى ثلاث من أمس وانصرف وخلا رستم بأصحابه يعجبهم من شأن القوم، وبعث من الغد عن آخر، فجاءه المغيرة بن شعبة.

فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطهم على غلو؟ من مجلس رستم، فجاء المغبرة حتى جلس معه على سريره فأنزلوه فقال: لا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً فظننتكم كذلك. وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض مع إني لم آتكم وإنما دعوتموني. فقد علمت أنكم مغلوبون،

و لم يقم ملك على هذه السيرة. فقالت السفلة: صدق والله العربي. وقالت الأساطين والله لقد رمانا بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله من يصغر أمر هذه الأمة. ثم تكلم رستم فعظم من أمر فارس بل من شأن فارس وسلطانهم، وصغر أمر العرب وقال: كانت عيشتكم سيئة وكنتم تقصدوننا في الجدب لنردكم بشيء من التمر والشعر، و لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من الجهد، ونحن نعطي أميركم كسوة وبغلا وألف درهم، وكل رجل منكم حمل تمر وتنصرفون، فلست اشتهي قتلكم.

فتكلم المغيرة وخطب فقال: أما الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والإختلاف فنعرفه ولا ننكره، والدنيا دول والشدة بعدها الرخاء، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً على مما أوتيتم، وقد أسلمكم الله بضعف الشكر إلى تغير الحال،

وأن الله بعث فينا رسولا،ثم ذكر مثلما تقدم إلى التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال

ثم قال: وإن عيالنا ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه. فقال رستم: إذا تموتون دونها. فقال المغيرة: يدخل من قل منا الجنة ويظفر من بقي منا بكم، فاستشاط غضبا وحلف أن لا يقع الصلح أبدأ حتى أقتلكم أجمعين.

وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس، وعرض عليهم مصالحة القوم وحذرهم

عاقبة حربهم فلجوا، وبعث إليه سعد يعرض عليه الإسلام ويرغب، فأجابه بمثل ما كان يقول لأولئك من الإمتنان على العرب والتعريض بالمطامع، فلم يتفق شيء من رأيهم. فقال رستم: تعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا ! وأرسل إليهم سعد بذلك وأرادوا القنطرة، فقال سعد: لا ولا

كرامة، لا نرد عليكم شيئا غلبناكم علبيه فأبى، فباتوا يسكرون العتيق بالتراب والقصب والرادع حتى جعلوا جسراً. ثم عبر رستم ونصب له سريره وجلس عليه وضرب طيارة عليه وعبر عسكره، وجعل المثلة في القلب والمجنبتين عليها الصناديق والرجال والرايات أمثال الحصون. وجعل الجالينوس بعنه وبين الميمنة والفيرزان بينه وبين الميسرة.

ورتب يزدجرد الرجال بين المدائن والقادسية، وما بينه وبين رستم رجلا على كل

دعوه تنتقل إليه ينبئهم أخبار رستم في أسرع وقت. ثم أخذ المسلمون مصافهم، واختلط سعد قصره، وكان به عرق النساء، وأصابته معه دماميل لا يستطيع معها الجلوس، فصعد على سطح القصر راكباً على وسادة في صدره وأشرف على الناس. وعاب ذلك عليه بعض الناس، فنزل واعتذر إليهم وأراهم القروح في جسده فعذروه.

واستخلف خالد بن عرفطة طى الناس، وحبس من شغب عليه في القصر

وقيدهم، وكان فيهم أبو محجن الثقفي، وقيل إنما حبسه بسبب الخمر. ثم خطب الناس وحثهم على الجهاد وذكرهم بوعد الله، وذلك في المحرم سنة أربع عشرة، وأخبرهم أنه استخلف خالد بن عرفطة. وأرسل جماعة

من اهل الرأي لتحريض الناس على القتال مثل المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس وغالب وعمرو - وصن الشعراء الشماخ والحطيئة والعبدي بل وعبدة بن الطيب وغيرهم ففعلوا.

ثم أمر بقراءة سورة الجهاد وهي الأنفال فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا

السكينة مع قراءتها، فلما فرغت القراءة قال سعد: الزموا مواقفكم. فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعذوا، فإذا سمعتم الثانية فكبروا وأتموا عدتكم، فإذا

سمعتم الثالثة فكبروا ونشطوا الناس، فإذا سمعتم الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فلما كبر الثالثة برز أهل النجدان فانشبوا القتال، وخرج أمثالهم من الفرس فاعتوروا الطعن والضرب وارتجزوا الشعر وأول من أسر في ذلك اليوم فرمز من ملوك اللباب، وكان متوجا أسره غالب بن عبد الله الازدي، فدفعه إلى سعد ورجع إلى الحرب، وطلب البراز أسوار منهم فبرز إليه عمرو بن معد يكرب، فأخذه وجلد به الأرض، فذبحه وسلب سوارية ومنطقته. ثم حملوا الفيلة، على المسلمين، وأمالوها على بجيلة فثقلت عليهم، فأرسل سعد إلى بني أسد أن يدافعوا عنهم، فجاءه طليحة بن خويلد وحمل ابن مالك فردوا الفيلة، وخرج إلى طليحة عظيم منهم فقتله طليحة.

وعير الأشعث بن قيس كندة بما يفعله بنو أسد، فاستشاطوا ونهدوا معه، فأزالوا الذين بازائهم. وحين رأى الفرس ما لقي الناس والفيلة من بني أسد حملوا عليهم جميعاً، وفيهم ذو الحاجب والجالينوس ، وكبر سعد الرابعة، فزحف المسلمون وثبت بنو أسد. ودارت رحى الحرب عليهم، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة ونفرت خيول المسلمين منها، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو هل من حيلة لهذه الفيلة؟ فبعث الرماة يرشقونها بالنبل واشتد بردها آخرون يقطعون الوضن.

وخرج عاصم بجميعهم ورحى الحرب على أسد، واشتد عواء الفيلة ووقعت الصناديق فهلك أصحابها، ونفس عن أسد، واشتد عواء الفيلة ووقعت الصناديق فهلك أصحابها، وعس عن أسد أن أصيب منهم خمسمئة ، وردوا فارس إلى مواقفهم. ثم اقتتلوا إلى هدء من الليل، وكان هذا اليوم الأول وهو يوم الرماة. ولما أصبح سعد دفن القتلى وأسلم الجرحى إلى نساء يقمن عليهم، وإذا بنواحي الخيل طالعة من الشام، كان عمر بعد فتح دمشق عزل خالد بن الوليد عن جند العراق، وأمر أبا عبيدة أن يؤمر عليهم هاشم بن عتبة يردهم إلى العراق. فخرج بهم هاشم وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فقدم القعقاع على الناس صبيحة ذلك اليوم وهو يوم أغواث. وقد عهد إلى أصحابه أن يقطعوا أعشاراً بين كل عشرين مد البصر وكانوا ألفا. فسلم على الناس وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال.

وطلب البراز فخرج إليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع ونادى بالثأر لأصحاب الجسر،

وتضاربا فقتله القعقاع وسر الناس بقتله، ووهنت الأعاجم لذلك. تم طلب البراز، فخرج إليه الفيرزان والبندوان. وأكثر المسلمون القتل في الفرس وأخذوا الفيلة عن القتال لأن نوابتها تكسرت بالأمس، فاستأنفوا

عملها. وجلل القعقاع إبلاً وجعل عليها البراقع، وأركبها عشرة عشرة، وأطاف عليها الخيول تحميها، وحملها على خيل الفرس فنفرت منها، وركبتهم خيول المسلمين. ولقي الفرس من الإبل أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة. وبرز القعقاع يومئذ في ثلاثين فارسا في ثلاثين حملة فقتلهم، كان آخرهم بزرجمهر الهمداني. وبارز الأعور بن قطنة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه.

ولما انتصف النهار تزاحف الناس فاقتتلوا إلى انتصاف الليل، وقتلوا عامة أعلام فارس. ثم أصبحوا في اليوم الثالث على مواقفهم بين الصفين من المسلمين ألف جريح وقتيل، ومن المشركين عمرة آلاف. فدفن المسلمون موتاهم وأسلموا الجرحى إلى النساء، ووكلوا النساء والصبيان بحفر القبور، وبقي قتلى المشركين بين الصفين. وبات القعقاع يسرب أصحابه إلى جث فارقهم بالأمس، وأوصاهم إذا طلعت الشمس أن يقبلوا مئة مئة، يجدد بذلك الناس، وجاء بينهما يلحق هاشم بن عتبة.

فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع، فتقدموا والمسلمون يكبرون.

فتزاحفت الكتائب طعناً وهربا. وما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى لحق هاشم فعبى أصحابه سبعين سبعين، وكان فيهم قيس بن المكشوح، فلما خالط القلب كبر وكبر المسلمون، ثم كبر فخرق الصفوف إلى العتيق. ثم عاد وقد أصبح الفرس على مواقفهم، وأعادوا الصناديق على الفيلة، وأحدقوا الرجال بما يحمونها أن تقطع وضنها، وأقام الفرسان يحمون الرجالة، فلم تنفر خيل المسلمين منها. وكان هذا اليوم يوم عماس، وكان شديدا إلا أن الطائفتين فيه سواء. وأبلى فيه قيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب. ثم زحفت الفيلة وفرقت بين الكتائب، وأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم أن أكفياني الأبيض وكان بازائهما. وإلى محمل والدميل أن أكفياني الأجرب وكان بازائهما. فحملوا على الفيلين فقتل الأبيض ومن كان عليه، وقطع مشفر الأجرب، وفقئت عينه، وضرب سائسة الدميل بالطير زين، فأفلت جريحا. وتحير الأجرب بين الصفين وألقى نفسه في العتيق، واتبعته الفيلة وفرقت صفوف الأعاجم في أثره، وقصدت المدائن بوثوبها، وهلك جميع من فجها.

وخلص المسلمون والفرس فاختلفوا على سواء إلى المساء، واقتتلوا بقية ليلتهم

وتسمى ليلة الهرير. فأرسل سعد طليحة وعمر إلى مخاضة أسفل العسكر يقومون عليها خشية أن يؤتى المسلمون منها، فتشاوروا أن يأتوا الأعاجم من خلفهم، فجاء طليحة وراء العسكر وكبر. فارتاع أهل فارس فأغار عمر أسفل المخاضة ورجع، وزاحفهم الناس دون إذن سعد. وأول من زاحفهم من الناس دون إذن لد زاحفهم القعقاع وقومه فحمل عليهم ثم حمل بنو أسد النخع من بجيلة ثم كندة، وسعد يقول في كل واحدة اللهم اغفر لهم وانصرهم. وقد كان قال لهم إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا، فلما هر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضا بعد صلاة العشاء، واختلطوا وصليل الحديد كصوت القرن إلى الصباح.

وركدت الحرب وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم. وأقبل سعد على

الدعاء وسمع نصف الليل صوت القعقاع في جماعة من الرؤساء إلى رستم، حتى خالطوا صفه مع الصبح، فحمل الناس من كل جهة على من يليهم، واقتتلوا إلى قائم الظهيرة. فناجز الفيرزان والهرمزان بعض الشيء، وانفرج القلب وهبت ريح عاصف فقلبت طيارة رستم عن سريره فهوت فى العتيق. وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير وقد قام رستم عنه فاستظل في ظل بغل فحمله، وضرب هلال بن علقمة الحمل، فوقع أحد العدلين على رستم فكسر ظهره، وضربه هلال ضربة نفحت مسكا، وهرب نحو العتيق ورمى بنفسه فيه. فاقتحم هلال عليه وجزه برجله فقتله وصعد السريروقال؟ قتلت رستم ورب الكعبة- إلي! إلي! فأطافوا به وكبروا.

وقيل: إن هلالا لما قصد رستم رماه بسهم فأثبت لدمه بالركاب، ثم حمل عليه

فقتله واحتز رأسه ونادى في الناس قتلت رستم! فانهزم قلب المشركين. وقام الجالينوس على الردم، ونادى الفرس إلى العبور وتهافت المقترنون بالسلاسل في العتيق وكانوا ثلاثين ألفا هلكوا. وأخذ ضرار بن الخطاب راية الفرس العظيمة وهي درفش كابيان فعوض منها ثلاثين ألفاً، وكانت قيمتها ألف ألف ومئة ألف. وقتل ذلك اليوم من الأعاجم عشرة آلاف في المعركة، وقتل من المشركين في ذلك اليوم ستة آلاف دفنوا في الخندق حيال مسرق سوى ألفين وخمسمائة قتلوا ليلة الهرير، وجمع من الأسلاب والأموال ما لم يجمع قبله ولا بعده مثله.

ونفل سعد هلال بن علقمة سلب رستم، وامر القعقاع وشرحبيل باتباع العدو، وقد

كان حرج زهرة بن حيوة قبلها في أثره فلحق الجالينوس بجمع المنهزمين فقتله وأخذ سلبه. فتوقفا سعد من عطائه وكتب إلى عمر فكتب إليه: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بمثل ما صفى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي نفسد قلبه. امض له سلبه وفضله على أصحابه في العطاء بخمس مئة. ولحق سليمان بن ربيعة الباهلي وأخوه عبد الرحمن بطائفة من الفرس قد استماتوا فقتلوهم، واستمات بعد الهزيمة بضعة وثلاثون رئيسا من المسلمين فقتلوهم أجمعين.

وكان ممن هرب من أمراء الفرس الهرمزان والفرزاد بن بيهس وقارن. وممن استمات فقتل شهريار بن كبار. وأسر المدمرون والفردان الأهوازي وخشرشوم الهمداني. وكتب سعد إلى عمر بالفتح وبمن أصيب من المسلمين. وكان عمر يسأل الركبان حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله.

فلما لقي البشير قال من اين؟ فأخبره فقال حدثني ففال: هزم الله المشركين. ففرح

بذلك وأقام المسلمون بالقادسية ينتظرون كتاب عمر، إلى أن وصلهم بالإقامة وكانت وقعة القادسية سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة وقيل ست عشرة.

فتح المدائن وجلولاء بعدها

ولما انهزم أهل فارس بالقادسية انتهوا إلى بابل وهديل وفيهم بقايا الرؤساء النخيزجان ومهران الأهوازي والهرموان وأشباههم، واستعملوا عليهم الفيرزان. وأقام سعد بعد الفتح شهرين، وسار بأمر عمر إلى المدائن، وخفف العيال بالعتيق في جند كثيف حامية لهم، وقدم بين يديه زهرة بن حياة وشرحبيل بن الصمت وعبد

الله بن المعتمر ولقبهم بعض عساكر الفرس فهزموهم حتى لحقوا ببابل. ثم جاء سعد وسار في التبيعة ونزلوا على الفيرزان ومن معه ببابل، فخرجوا وقاتلوا المسلمين فانهزموا وافترقوا فرقتين. ولحق الهرمزان بالاهواز والفيرزان بنهاوند، وبها كنوز كسرى.

وسار النخيزجان ومهران إلى المدائن لتحصنوا وقطعوا الجسر. ثم سار سعد من

بابل على التعبية وزهرة في المقدمة. وقدم بين يديه بكير بن عبد الله الليثى وكثير بن شهاب السبيعي حتى عبرا ولحقا بأخريات القوم فقتلا في طريقهما أسوارين من أساورتهم ثم تقدموا إلى كوثي وعليها شهريار، خرج لقتالهم فقتل وانهزم أصحابه فافترقوا في

البلاد، وجاء سعد فنفل قاتله سلبه.

وتقدم زهرة إلى ساباط فصالحه أهلها على الجزية وهزم كتيبة كسرى ثم نزلوا جميعا على بهرشير من المدائن، ولما عاينوا الإيوان كبروا وقالوا: هذا أبيض كسرى، هذا ما وعد الله. وكان نزولهم عليها ذا الحجة سنة خمس عشرة، فحاصروها ثلاثة أشهر ثم اقتحموها، وكانت خيولهم تغير على النواحي، وعهد إليهم عمر أن من أجاب من الفلاحين ولم يعن عليهم فذلك أمانه، ومن هرب فأدرك فشأنكم به، ودخل الدهاقين من غربي دجلة وأهل السواد كلهم في أمان المسلمين، واغتبطوا بملكهم واشتد الحصار على بهرشير ونصبوا عليها المجانيق، واستلحموهم في المواطن، وخرج بعض المرازبة يطلب البراز، فقاتله زهرة بن حيوة فقتلا معا. ويقال: إن زهرة قتله شبيب الخارجى أيام الحجاج.

ولما ضاق بهم الحصار وركب إليهم الناس بعض الأيام، فلم يروا على الأسوار

أحدا إلا رجلا يشير إليهم فقال: ما بقي بالمدينة أحد، وقد صاروا إلى المدينة القصوى التي فيها الإيوان. فدخل سعد والمسلمون وأرادوا العبور إليهم فوجدوهم جمعوا المعابر عندهم، فأقام أياما من صبر، ودله بعض العلوج على مخاضة في دجلة فتردد فقال له: أقدم فلا تأتي عليك ثلاثة إلا ويزدجرد قد ذهب بكل شيء فيها. فعزم سعد على العبور وخطب الناس وندبهم إلى العبور ورغبهم، وندب من يجيز أن لا يجيء الفراض حتى يجيز إليه الناس. فانتدب عاصم بن عمرو في ستمائة، واقتحموا دجلة فلقيهم أمثالهم من الفرس عند الفراض، وشدوا عليهم فانهزموا وفتل أكثرهم وعوروا من الطعن في العيون. وعاينهم المسلمون على الفراض، فاقتحموا في أثرهم يصيحون: نستعين بالته ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وساروا في دجلة وقد طبقوا ما بين عدوتيها وخيلهم سابحة بهم، وهم يهيمنون تارة ويتحادثون أخرى، حتى أجازوا البحر ولم يفقدوا شيئا إلا قدحا لبعضهم غلبت صاحبه جرية الماء، وألفته الريح إلى الشاطىء. ورأى الفرس عساكر المسلمين قد أجازوا البحر فخرجوا هاربين إلى حلوان. وكان يزدجرد قدم إليها قبل ذلك عياله، ورفعوا ما قدروا عليه من عرض المتاع وخفيفه، ومن بيت المال والنساء والذراري، وتركوا بالمدائن من الثياب والأمتعة والآنية والألطاف ما لا تحصى قيمته. وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف

ألف محررة ثلاث مرات، تكون جملتها ثلاثمائة ألف قنطار من الدنانير. وكان رستم عند مسيره إلى القادسية حمل نصفها لنفقات العساكر وألقى النصف، واقتحمت العساكر المدينة يجولون في سككها لا يلقون بها أحدا. وأرز سائر الناس القصر الأبيض حتى توثقوا لأنفسهم على الجزية.

ونزل سعد القصر الأبيض، واتخذ الإيوان به هصلى، ولم يغير ما فيه من التماثيل.

ولما دخله قرأ: (كم تركوا من جنات وعيون) الآية. وصفى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصلن بينهن، وأتم الصلاة بنية الإقامة. وسرح زهرة بن حيوة في آثار الأعاجم إلى النهروان وقراها من كل جهة. وجعل على الاخماس عمرو بن عمرو بن مقرن، وعلى القسم سلمان بن ربيعة الباهلي، وجمع ما كان في القصر والإيوان والدور، وما نهبه أهل المدائن عند الهزيمة. ووجدوا حلية كسرى: ثيابه وخرزاته وتاجه ودرعه التي كان يجلس فيها للمباهاة، أخذ ذلك من أيدي الهاربين على بغلين، وأخذ منهم أيضا وقر بغل من السيوف وآخر من الدروع والمغافر منسوبة كلها درع هرقل، وخاقان ملك الترك، وداهر ملك الهند، وبهرام جور وسياوخش والنعمان بن المنذر، وسيف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز وهرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان أحضرها القعقاع.

وخيره في الأسياف، فاختار سيف هرقل، وأعطاه درع بهرام، وبعث إلى عمر

سيف كسرى والنعمان وتاج كسرى وحليته وثيابه ليراها الناس. وقسم سعد الفيء بين المسلمين بعدما خمسه وكانوا ستين ألفا، فأصاب للفارس إثنا عشر ألفاً، وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل. ونمل من الأخماس في أهل البلاد وقسم المنازل بين الناس واستدعى العيلات من العتيق فأنزلهم الدور، ولم يزالوا بالمدائن حتى نم فتح جلولاء وحلوان وتكريت والموصل. واختطت الكوفة فتحولوا إليها. وأرسل سعد في الخمس كل شيء يعجب العرب منهم أن يصنع إليهم، وحضر إليهم نهار كسرى وهو الغطف ، وهو بساط طوله ستون ذراعا في مثلها مقدار مزرعة جريب في أرضه، وهي منسوجة بالذهب طرقا كالأنهار، وتماثيل خلالها بصدف الدر والياقوت، وهي حافاتها كالأرض المزدرعة والمقبلة بالنبات، ورقها من الحرير على فضبان الذهب، وزهره حبات الذهب والفضة، وثمره الجوهر، كانت الأكاسرة يبسطونه في الإيوان في فصل الشتاء عند فقدان الرياحين يشربون عليه، فلما قدمت الأخماس على عمر قسمها في الناس ثم قال: اشيروا على في

هذا الغطف، فاختلفوا وأشاروا على نفسه فقطعه بينهم، فأصاب علي قطعة منه باعها بعشرين ألفا، ولم تكن بأجودها.

وولى عمر سعد بن أبي وقاص على الصلاة والحرب فيما غلب عليه، وولى حذيفة بن اليمان على سقي الفرات، وعثمان بن حنيف على سقي دجلة، ولما انتهى الفرس بالهرب إلى جلولاء، وافترقت الطرق من هنالك بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس وقضوا هنالك خشية الافتراق، واجتمعوا على مهران الرازي، وخندقوا على أنفسهم وأحاطوا الخندق بجسره الحديد، وتقدم يزدجرد إلى حلوان وبلغ ذلك سعدا،

فكاتب عمر بدلك يأمره أن يسرح إلى الفرس بجلولاء هاشما ابن أخيه عتبة في اثني عشر ألفاً، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وأن يولى القعقاع بعد الفتح ما بين السواد والجبل.
فسار هاشم من المدائن لذلك في وجوه المسلمين وأعلام العرب حتى قدم
جلولاء، فأحاط بهم وحاصرهم في خنادقهم، وزاحفوهم ثمانين يوما ينصرون عليهم في كلها، والمدد متصل من هاهنا وهاهنا. ثم قاتلوهم آخر الأيام فقتلوا منهم أكثر من ليلة الهرير، وأرسل الله عليهم ريحا وظلمة فسقط فرسانهم في الخندق وجعلوه طرقاً مما يليهم، ففسد حصنهم، وشعر المسلمون بذلك، فجاءه القعقاع إلى الخندق فوقف على بابه.
وشاع في الناس أنه أخذ في الخندق، فحمل الناس حملة واحدة انهزم المشركون لها، وافترقوا ومروا بالجسرة التي تحضوا بها، فعقرت دوابهم فترجلوا ولم يفلت منهم إلا القليل. يقال: إنه قتل منهم يومئذ مئة ألف، واتبعهم القعقاع بالطلب إلى خانقين، وأجفل يزدجرد من حلوان الى الري، واستخلف عليها خشرشوم وجاء القعقاع الى حلوان فبرز إليه خشرشوم وعلى مقدمته الرمي فقتله القعقاع وهرب خشرشوم من ورائه، وملك القعقاع حلوان وكتب إلى عمر بالفتح واستأذنه في اتباعهم فأبى وقال: وددت أن بين السواد والجبل سدا حصيناً من ريف السواد، فقد آثرت سلامة المسلمين على الأنفال، وأحصيت الغنيمة فكانت ثلاثين ألف ألف، فقسمها سلمان بن ربيعة. يقال إنه أصاب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب، وبعثوا بالأخماس إلى عمر مع زياد ابن أبيه.
فلما قدم الخمس قال عمرة والله لا يجنه سقف حتى أقسمه فجعله في المسجد،
وبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانه، ولما أصبح جاء في الناس
ونظر إلى ياقوتة وجوهرة فبكى. فقال عد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، وهذا موطن شكر؟ قال: والله ما أعطى الله هذا قوما إلا تحاسدوا وتباغضوا فيلقي الله بأسهم بينهم، ومنع عمر من قسمة السواد ما بين حلوان والقادسية فأقره حبسا، واشترى جرير بعضه بشاطىء الفرات فرد عمر الشراء.
ولما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن بلغهم أن أدين بن الهرامون جمع جمعاً
وجاء بهم إلى السهل، فبعث إليه ضرار بن الخطاب في جيش فلقيهم بماسبدان فهزمهم، وأسر أدين فقتله، وانتهى في طلبه إلى النهروان وفتح ماسبدان عنوة، ورد إليها أهلها ونزلى بها، فكانت أحد فروج الكوفة، وليل كان فتحها بعد نهاوند والله سبحانه أعلم.
ولاية عتبة بن غزوان علي البصرة
كان عمر عندما بعث المثنى إلى الحيرة بعث قتبة بن قتادة السلوسي إلى البصرة،
فكان يغير بتلك الناحية. ثم استمد عمر فبعث إليه شريح بن عامر بن سعد بن بكر، فأقبل إلى البصرة ومضى إلى الأهواز ولقيه مسلحة الأعاجم فقتلوه. فبعث عمر عتبة بن كزوان والياً على تلك الناحية، وكتب إلى العلاء بن الحضرمى أن يمده بعرفجة بن هرثمة، وأمره أن يقيم بالتخم بين أرض العرب وأرض العجم. فانتهى

إلى حيال الجسر وبلغ صاحب الفرات خبرهم، فأقبل في أربعة آلاف وعتبة في خمسمائة، والتقوا فقتلوا الأعاجم أجمعين، وأسروا صاحب الفرات.

ثم نزل البصرة في ربيع سنة أربعة عشرة، وقيل: إن البصرة بصرت سنة ست عشرة بعد جلولاء وتكريت. أرسل سعد إليها عتبة فأقام بها شهرا وخرج إليه أهل الأبلة، وكانت مرفأ للسفن من الصين فهزمهم عتبة واحجرهم في المدينة، ورجع إلى عسكره ورعب الفرس فخرجوا عن الأبلة وحملوا ما خف وخلوا المدينة وعبروا النهر ودخلها المسلمون، فغنموا ما فيها واقتسموه. ثم اختط البصرة وبدأ بالمسجد فبناه بالقصب وجمع له أهل دست ميان، فلقيهم عتبة فهزم وأخذ مرزبالها أسيراً، وأخذ قتادة منطقته فبعث بها إلى عمر. وسأل عنهم فقيل له انثالث عليهم الدنيا، فهم يهيلون الذهب والفضة، فرغب الناس في البصرة وأتوها.

ثم سار عتبة إلى عمر بعد أن بعث مجاشع بن مسعود في جيش إلى الفرات

واستخلف المغيرة بن شعبة على الصلاة إلى قدوم مجاشع وجاء ألف بيكان من عظماء الفرس إلى المسلمين، ولقيهم المغيرة بن شعبة بالمرغاب ، وبينما هم في القتال إذ لحق بهم النساء وقد اتخذن خمرهن رايات، فالهزم الأعاجم وكتبوا بالفتح إلى عمر، فرد عتبة إلى عمله فمات في طريقه. وقيل: إن إمارة عتبة كانت سنة خمس عشرة وقيل ست عشرة، فوليها ستة أشهر، واستعمل عمر بعده المغيرة بن شعبة سنتين. فلما رمي بما رمي به عزله، واستعمل أبا موسى وقيل استعمل بعده عتبة أبا سبرة وبعده المغيرة.

وقعة مرج الروم وفتوح مدائن الشام بعدها

لما الهزم الروم بفحل سار أبو عبيده وخالد إلى حمص واجتمعوا بذي الكلاع في طريقهم، وبعث هرقل توذر البطريق للقائهم فترلوا جميعا بمرج الروم وكان توذر بازاء خالد وشمر بطريق آخر بازاء أبي عبيدة وأمسوا مستترين. ثم أصبح فلم يجدوا توذر وسار إلى دمشق واتبعه خالد، واستقبله يزيد من دمشق فقاتله، وجاءه خالد هن خلفه فلم يفلت منهم إلا القليل وغنموا ما معهم. وقاتل شنس أبو عبيدة بعد مسيرة خالد، فالهزم الروم وقتلوا واتبعهم أبو عبيدة إلى حمص ومعه خالد، فبلغ ذلك هرقل، فبعث بطريق حمص إليها، وسار هو في الرها، فحاصر أبو عبيدة حمص حتى طلبوا الأمان فصالحهم.

وكان هرقل يعدهم في حصارهم المدد، وأمر أهل الجزيرة بإمدادهم فساروا

لذلك. وبعث سعد بن أبي وقاص العساكر من العراف فحاصروا هيت وقرقيسيا فرجع أهل الجزيرة إلى بلادهم، ويئس أهل حمص من المدد فصالحوا على صلح أهل دمشق، وأنزل أبو عبيدة فيها السمط بن الأسود في بني معاوية من كندة، والأشعث بن قيس في السكون، والمقداد في بلي وغيرهم. وولى عليهم أبو عبيدة بن الصامت وصار إلى حماة فصالحوه على الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أرضهم. ثم سار نحو شيزر فصالحوا كذلك، ثم إلى المعرة كذلك. ويقال معرة النعمان وهو النعمان بن بشير الأنصاري.

ثم سار إلى اللاذقية ففتحها عنوة ثم سلمية ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين فاعترضه ميناس عظيم الروم بعد هرقل فهزمهم خالد وأثخن فيهم ونازل قنسرين حتى افتتحها عنوة وخربها. وأدرب إلى هرقل من ناحيته، وأدرب عياض بن غنم

كذلك، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة إلى قرقيسيا، وأدرب عبد الله بن المعتمر من الموصل. فارتحل هرقل إلى القسطنطينية من أمدها، وأحذ أهل الحصون بين الإسكندرية وطرسوس وشعبها أن ينتفع المسلمون بعمارتها. ولما بلغ عمر صنيع خالد قال أمر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم منهي بالرجال. وقد كان عزل خالداً والمثنى بن حارثة خشية أن يداخلهما كبر من تعظيم فوكلوا إليه. ثم رجع عن رأيه في المثنى عند قيامه بعد أبي عبيد، وفي خالد بعد قنسرين، فرجع خالد إلى إمارته.

ولما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب، وبلغه أن أهل قنسرين غدروا فبعث

إليهم السمط الكندي فحاصرهم وفتح وغنم. ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو موضع قريب منها، يجمع أصنافا من العرب.، فصالحوا على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك.

ثم أتى حلب وكان على مقدمته عياض بن غنم الفهري، فحاصرهم حتى صالحوه

على الأمان وأجاز ذلك أبو عبيدة، وقيل صولحوا على مقاسمة الدور والكنائس، وقيل انتقلوا إلى أنطاكية حتى صالحوا ورجعوا إلى حلب- ثم سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وبها جمع كبسر من فل قنسرين وغيرهم ولقوه قريبا منها فهزمهم وأحجرهم بالمدينة وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء أو الجزية، ورحل عنهم. ثم نقضوا فبعث أبو عبيدة إليهم عياض بن عنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول، وكانت عظيمة الذكر. فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب فيها حامية مرابطة، ولا يؤخر عنهم العطاء.

ثم بلغ أبا عبيدة أن جمعا بالروم بين معرة مصرين وحلب، فسار إليهم فهزمهم،

وقمل بطارقتهم وأمعن بل وأثخن فيهم، وفتح معرة مصرين على صلح حلب. وجالت خيوله فبلغت سرمين وتيرى وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية. ثم فتح حلب ثانية وسار يريد قورس، وعلى مقدمته عياض فصالحوه على صلح أنطاكية. وبث حيله ففتح تل نزار وما يليه. ثم فتح منبج على يد سلمان بن ربيعة الباهلي. ثم بعث عياضاً إلى دلوك وعينتاب فصالحهم على مثل منبج، واشترط عليهم أن يكونوا عوناً للمسلمين. وولى أبو عبيدة على كل ما فتح من الكور عاملا وضم إليه جماعة، وشحن الثغور المخوفة بالحامية. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات.

وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين، وبعث أبو عبيدة جيشا مع ميسرة بن مسروق العبْسيّ ، فسَلكوا درب تفليس إلى بلاد الروم، فلقي جمعا للروم ومعهم عرب من غسان وتنوج وأياد يريدون اللحاق بهرقل، فأوقع بهم واثخن فيهم .ولحق به على أنطاكية مالك بن الأشتر النخعي مدداً، فرجعوا جميعا إلى أبي عبيدة .وبعث أبو

عبيدة جيشا آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وخربها .وبعث جيشا آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحرث كذلك.

وفي خلل دلك فتحت قيثارية بعث إليها يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية بأمر عمر فسار إليها وحاصرهم بعد أن هزمهم .وبلغت قتلاهم في الهزائم ثمانين ألفا وفتحها آخر وكان علقمة بن مجزر على غزة وفيها الق بغار من بطاركة الروم.

وقعة أجنادين وفتح بيسان والاردن وبيت المقدس

لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص بعد واقعة مرج الروم نزل عمرو وشرحبيلُ على أهل بيسان، فافتتحها وصالح أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بأجناد ين وغزة وبيسان وعليهم أرطبون من بطارقة الروم .فسار عمرو وشرحبيل إليهم، واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمي وكان الأرطبون قد أنزل بالرملة جندا عظيما من الروم وبيت المقدس كذلك .وبعث عمرو علقمة بن حكيم الفراسى، ومسروق بن العكي لقتال أهل بجت المقدس .وبعث أبا أيوب المالكى إلى قتال أهل الرملة .وكان معاوية محاصرا لأهل قيسارية فشغل جميعهم عنه .ثم زحف عمرو إلى الأرطبون واقتتلوا كيوم اليرموك أو أشد.

وانهزم أرطبون إلى بيت المقدس، وأفرج له المسلمون الذين كانوا يحاصرونها حتى دخل .ورجعوا إلى عفر وقد نزل أجناد ين .وقد تقدم لنا ذكر هذه الواقعة قبل اليرموك على رأي من جعلها قبلها، وهذا على قول من جعلها بعدها .ولما دخل أرطبون بيت المقدس فتح عمر غزة .وقيل كان فتحها في خلافة أبي بكر ثم فتح سبسطية وفيها قبر يحمى بن زكريا، وفتح نابلس على الجزية .ثم فتح مدينة لد ثم عمواس وبيت حبرين ويافا ورفح وسائر مدائن الأردن .وبعث إلى الأرطبون فطلب أن يصالح كأهل الشام، ويتولى العقد عمر، وكتبوا إليه بذلك.

فسار عن المدينة واستخلف عليها علي بن أبي طالب بعد أن عذله في مسيره فأبى .وقد كان واعد أمراء الأجناد هنالك، فلقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فترل ورماهم بالحجارة وقال :استقبلوني في هذا الزي؟ وإنما شبعتم مذ سنتين، والله لو كان على رأس المائتين لاستبدلت بكم .قالوا : إنها بلا ثمن، وإن عينا السلاح فسكت ودخل الجابية.

وجاءه أهل بيت المقدس وضم عمرا وشرحبيل إليه، وقد هرب أرطبون عنهم إلى مصر فصالحوه على الجزية وفشوها له، وكذلك أهل الرملة.

وولى علقمة بن حكيم عليه نصف فلسطين وأسكنه الرملة، وعلقمة بن مجزر على النصف الآخر وأسكنه بيت المقدس، وضم عمرا وشرحبيل إليه فلقياه بالجابية .وركب عمر إلى بيت المقدس فدخلها وكشف عن الصخرة، وأمر ببناء المسجد عليها .وذلك سنة خمس عشرة وقيل سنة ست عشرة .ولحق أرطبون بمصر مع من أبى الصلح من الروم حتى هلك في فتح مصر .وقيل :إنما لحق بالروم وهلك في بعض الطوائف .ثم فرق عمر العطاء ودون الدواوين سنة خمس عشرة ورتب ذلك على السابقة.

ولما أعطى صفوان بن أمية والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو أقل من غيرهم قالوا :لا والله لا يكون أحد أكرم منا .فقال :إنما أعطيت على سابقة الإسلام لا على الأحساب .فقالوا :فنعم إذن، وخرجوا إلى الشام فلم يزالوا مجاهدين حتى أصيبوا.

ولما وضع عمر الدواوين قال له علي وعبد الرحمن ابدأ بنفسك .قال لا ! بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الأقرب فالأقرب، ورتب ذلك على مراتب .ففرض خمسة آلاف ثم أربعة ثم ثلاثة ثم ألفين وخمسمائة ثم ألفين ثم ألفا واحدا ثم خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين.

وأعطى نساء النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف لكل واحدة وفضل عائشة بألفين، وجعل النساء على مراتب، فلأهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين، والصبيان مائة مائة والمساكين جرايتين في الشهر و لم يترك في بيت المال شيئا .وسئل في ذلك فأبى وقال :هي فتنة لمن بعدي.

وسأل الصحابة في قوته من بيت المال فأذنوا له فيه وسألوه في الزيادة على لسان

حفصة ابتنه فتكتمين عنه .فغضب وامتنع .وسألها عن حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيشه وملبسه وفراشه، فأخبرته بالكفاف من ذلك .فقال :والله لأضعن الفضول موضعها، ولأتبلغن بالترجية، وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سكوا طريقا، وتزود الأول فبلغ المترل، واتبعه الآخر مقتديا به كذلك، ثم جاءه الثالث بعدهما، فإن اقتفى طريقهما وزادهما لحق بهما وإلا لم يلغهما.

وفتحت في جمادى من هذه السنة بكريت، لان أهل الجزيرة كانوا قد اجتمعوا إلى المرزبان الذي كان لها، وهم من الروم وأياد وتغلب والنمر ومعهم المشهارجة ليحموا أرض الجزيرة من ورائهم .فسرح إليهم سعد بن أبي وقاص بأمر عمر كاتبه عبد الرحمن بن المعتمر، وعلى مقدمته ربعي بن الأفكل .وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة؟ فحاصروهم أربعين يوما ودخلوا العرب الذين معهم، فكانوا يطلعونهم على أحوال الروم .ثم يئس الروم من أمرهم واعتزموا على ركوب السفن في دجلة للنجاة .فبعث العرب بذلك إلى المسلمين وسألوهم الأمان، لأجابوهم على أن يسلموا فأسلموا، وواعدوهم الثبات والتكبير،وأن يأخذوا على الروم أبواب البحر مما يلي دجلة ففعلوا .ولما سمع الروم التكبير من جهة البحر ظنوا أن المسلمين استداروا من هنالك، فخرجوا إلى الناحية التي فيها المسلمون، فأخذتهم السيوف من الجهتين .و لم يفلت إلا من أسلم هن قبائل ربيعة من تغلب والنمر وإياد، وقسمت الغنائم فكان للفارس ثلاثة آلاف درهم وللراجل ألف .ويقال أن عبد الله بن المعتمر بعث ربعي بن الأفكل بعهد عمر إلى الموصل ونينوى، وهما حصنان على دجلة من شم قيها وغربيها .فسار في تغلب وإياد والنمر، وسقوه إلى الحضين، فأجابوا إلى الصلح وصاروا ذمة .وقيل بل الذي فتح الموصل عتبة بن فرقد سنة عشرين، وإنه ملك نينوى وهو الشرقي عنوة.

وصالحه أهل الموصل وهو الغربي على الجزية، وفتح معها جبل الأكراد وجميع أعمال الموصل، وقيل إلا بعث عتبة بن فرقد عياض بن غنم عندما فتح الجزيرة على ما نذكره والله أعلم.

مسير هرقل إلي حمص وفتح الجزيرة وأرمينية

كان أهل الجزيرة قد راسلوا هرقل وأغووه بالشام، وأن يبعث الجنود إلى حمص وواعدوه المدد .وبعثوا الجنود إلى أهل هيت مما يلى العراق .فأرسل سعد عمر بن
مالك بن خيبر بن مطعم لى جند، وعلى مقدمته الحرث بن يزيد العامري .فسار إلى هيت وحاصرهم، فلما رأى اعتصامهم بخندقهم حجر عليهم الحرث بن يزيد، وخرج في نصف العسكر، وجاء قرقيسيا على غرة فأجابوه إلى الجزية .وكتب إلى الحرث أن يخندق على عكر الجزيرة، فبيت حتى سألوا المسالمة والعود إلى بلادهم، فتركهم ولحق بعمر بن مالك.
ولما اعتزم هرقل على قصد حمص، وبلغ الخبر أبا عبيدة، ضم إليه مسالحة، وعسكر بفنائها .وأقبل إليه خالد من قنسرين، وكتبوا إلى عمر نخبر هرقل، فكتب إلى سعد أن يذهب الناس بل أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو ويسرحهم من يومهم، فإن أبا عبيدة قد أحيط به .وأن يسرح سهيل بن عدي إلى الرقة، فإن أهل الجزيرة هم الذين استدعوا الروم إلى حمص .وأن يسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين، ثم يقصد حران والرها . وأن يسرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأن يكون عياض بن غنم على أمراء الجزيرة هؤلاء أن كانت حرب -فمضى القعقاع من يومه في أربعة آلاف إلى حمص، وسار عياض بن غنم وأمراء الجزيرة كل أمير إلى كورته .وخرج عمر من المدينة فأتى الجابية يريد حمص مغيثا لأبى عبيده، ولما سمع أهل الجزيرة خبر الجنود فارقوا هرقل ورجعوا إلى بلادهم .وزحف أبو عبيدة إلى الروم فانهزموا، وقدم القعقاع من العراق بعد الوقعة بثلاث .وكتبوا إلى عمر بالفتح فكتب إليهم أن أشركوا أهل العراق في الغنيمة.
وسار عياض بن غنم إلى الجزيرة، وبعث سهيل بن عدي إلى الرقة عندما انقبضوا عن هرقل، فنهضوا معه إلا إياد بن نزار، فإنهم دخلوا أرض الروم .ثم بعث عياض بن سهيل وعبد الله يضمهما إليه، وسار بالناس إلى حران فأجابوه إلى الجزية .ثم سرح سهيلا وعبد الله إلى الرها، فأجابوا إلى الجزية وكمل فتح الجزيرة .وكتب أبو عبيدة إلى عمر لما رجع من الجابية وانصرف معه خالد، أن يضم إليه عياض بن غنم مكانه ففعل، وولى حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عربها.
ولما بلغ عمر دخول إياد إلى بلاد الروم، كتب إلى هرقل :بلغني أن حيا من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فوالله لتخرجنهم أو لنخرجن النصارى إليك .فأخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما يلي الشام والجزيرة، وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من نغلب إلا الإسلام .فكتب إليه عمر :إنما ذلك في جزيرة العرب التي فيها مكة والمدينة
واليمن، فدعهم على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الإسلام.
ثم وفدوا إلى عمر في أن يضع عنهم اسم الجزية، فجعلها الصدقة مضاعفة .ثم عزل الوليد عنهم لسطوته وعزهم، وأمر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمرو الجملي .وقال ابن إسحاق :أن فتح الجزيرة كان سنة تسع عشرة، وأن سعدا بعث إليها الجند مع عياض بن غنم وفيهم ابنه عمر وعياض بن غنم، ففتح عمر الرها

بل ففتح عياض الرها .وصالحت حران وافتتح أبو موسى نصيبين، وبعث عثمان بن أبي العاص إلى أرمينيا فصالحوه على الجزية .ثم كان فتح قيسارية من فلسطين.

فتكون الجزيرة على هذا من فتوح أهل العراق، والأكثر إنها من فتوح أهل الشام، وأن أبا عبيدة سير عياض بن غنم إليها .ويل بل استخلفه لما توفي .فولاه عمر على حمص وقنسرين والجزيرة، فسار إليها سنة ثماني عشرة في خمسة آلاف، فانتهت طائفة إلى الرقة فحاصروها، حتى صالحوه على الجزية والخراج على الفلاحين .ثم سار إلى حران فجهز عليها صفوان بن المعطل، وحبيب بن مسلمة، وسار هو إلى الرها فحاصرها حتى صالحوه، ثم رجع إلى حران وصالحهم كذلك ثم فتح شميساط وشروج ورأس كيفا، فصالحوه على منبج كذلك ثم آمد ثم ميافارقين ثم كفر توثا ثم نصيبين ثم ماردين ثم الموصل، وفتح أحد حصنيها، ثم سار إلى أرزن الروم ففتحها، ودخل الدرب إلى بدليس ثم خلاط، فصالحوه وانتهى إلى أطراف أرمينية، ثم عاد إلى الرقة ومضى إلى حمص فمات.

واستعمل عمر عمير بن سعد الأنصاري ففتح رأس عين، وقيل :أن عياضاً هو الذي أرسله، وقيل أن أبا موسى الأشعري هو الذي افتتح رأس عين بعد وفاة عياض بولاية عمر .وفيل أن خالدا حضر فتح الجزيرة مع عياض ودخل الحمام بآمد، فأطلى بشيء فيه خمر، وميل لم يسر خالد تحت لواء أحط بعد أبي عبيدة .ولما فتح عياض سميساط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة ثم انتقض أهلها، فلما ولي معاوية الشام والجزيرة وجه إليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة أيضاً ورتب فيها الجند وولى عليها لما أدرب عياض بن غنم من الجابية.

فرجع عمر إلى المدينة سنة سبع عشرة وعلى حمص أبو عبيدة، وعلى قنسرين خالد بن الوليد من تحته، وعلى دمشق يزيد، وعلى الأردن معاوية، وعلى فلسطين

علقمة بن مجزز، وعلى السواحل عبد الله بن قيس .وشاع في الناس ما أصاب خالد مع عياض بن غنم من الأموال فانتجعه رجال منهم الأشعث، فإن كان من ماله فقد أسرف فاعزله واضمم إليك عمله.

فاستدعاه أبو عبيدة وجمع الناس وجلس على المنبر، وسأل اليزيد خالدا فلم يجبه، فقام بلال وأنفذ فيه أمر عمر وسأله فقال :من مالي، فأطلقه وأعاد قلنسوته وعمامته .ثم استدعاه عمر فقال له من أين هذا الثراء؟ قال من الأنفال والسهمان وما زاد على ستين ألفاً فهو لك، فجمع ماله فزاد عشرين نجعلها في بيت المال، ثم استصلحها .وفي سنة سبع عشره هذه اعتمر عمر ووسع في المسجد، وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على من أبي البيع دورهم لذلك .وكانت العمارة في رجب وتولاها مخرمة بن نوفل والأزهر بن عبد عوف، وحويطب بن عبد العزى وسعيد بن يربوع .واستأذنه أهل المياه

أن يبنوا المنازل بين مكة والمدينة فأذن لهم على شرط أن ابن السبيل أحق بالظل والماء.

غزو فارس من البحرين وعزل العلاء عن البصرة

ثم المغيرة وولاية أبي موسى

كان العلاءِ بن الحضرمي على البحرين أيام أبي بكر، ثم عزله عمر بقدامة بن مظعون ثم أعاده .وكان العلاء يناوىء سعد بن أبي وقاص ووقع له في قتال أهل الردة ما وقع .فلما ظفر سد بالقادسية كان أعظم من فعل العلاء، فأراد أن يؤثر في الفرس شيئاً، فندب الناس إلى فارس وأجابوه وفرقهم أجنادا بين الجارود بن المعلى والسوار بن همام وخليد بن المنذر، وأفره على جميعهم، وحمله في الجر إلى فارس بغير إذن من عمر.

لأنه كان بنهى عن ذلك وأبو بكر قبله خوف الغرق .فخرجت الجنود إلى اصطخر وبازائهم الهربذ في أهل فارس، وحالوا بينهم وبين سفنهم، فخاطبهم خليد وقال :إنما جئتم لمحاربتهم، والسفن والأرض لمن غلب .ثم ناهدوهم واقتتلوا بطاوس وقتل الجارود والسوار .وأمر خالد أصحابه أن يقاتلوا رجالة .وقتل من الفرس مقتله عظيمة.

ثم خرج المسلمون نحو البصرة، وأخذ الفرس عليهم الطرق، فعسكروا وامتنعوا، وبلغ ذلك عمر فأرسل إلى عتبة بالصرة يأمره بإنفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا .وأمر العلاء بالانصراف عن البحرين إلى سعد بمن معه، فأرسل عتبة

الجنود اثني عشر ألف مقاتل، فيهم عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس وأمثالهم، وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم من عامر بن لؤي، فساحل بالناس حتى لقي خليدا والعسكر .وقد تداعى إليهم بعد وقعة طاوس أهل فارس من كل ناحية، فاقتتلوا وانهزم المشركون وقالوا .ثم انكفأوا بما أصابوا من الغنائم،

واستحثهم عتبة بالرجوع، فرجعوا إلى البصرة .ثم استأذن عتبة في الحج فأذن له عمر فحج، ثم استعفاه فأبى وعزم عليه ليرجعن إليه عمله .فانصرف ومات ببطن نخلة على رأس ثلاث سنين من مفارقة سعد .واستخلف على عمله أبا سبرة بن أبي رهم فأقره عمر بقيه السنة.

ثم استعمل المغيرة بن شعبة عليها، وكان بينه وبين أبي بكر منافرة، وكانا متجاورين في مشربتين ينفذ البصر من إحداهما إلى الأخرى من كوتين، فزعموا أن أبا بكرة وزياد بن أبيه وهو أخوه لأمه وآخرين معهما عاينوا المغيرة على حالة قذفوه بها، ادعوا الشهادة، ومنعه أبو بكرة من الصلاة .وبعثوا إلى عمر فبعث أبا موسى أميرا في تسعة وعشرين من الصحابة فيهم أنس بن مالك وعمران بن حصين وهشام بن عامر، ومعهم كتاب عمر إلى المغيرة :أما بعد فقد بلغني عنك نبأ عظيم، وبعثت أبا موسى أميرا فسلم إليه ما في يدك والعجل .ولما استحضرهم عمر اختلفوا في الشهادة ولم يستكملها زياد، فجلد الثلاثة .ثم عزل أبا موسى عن البصرة بعمر بن سراقة، ثم صرفه إلى الكوفة ورد أبا موسى فأقام عليه.

بناء البصرة والكوفة

وفي هذه السنة وهي أربع عشرة بلغ عمر أن العرب تقر بل تغيرت ألوانهم ورأى ذلك في وجوه وفودهم، فسألهم فقالوا وخومة البلاد غيرتنا، وقيل أن حذيفة وكان مع سعد كتب بذلك إلى عمر .فسأل عمر سعداً فمال غيرتهم وخومة البلاد، والعرب لا يوافقها من البلاد إلا ما وافق إبلها .فكتب إليه أن يبعث سلمان

وحذيفة شرقيه فلم يرضيا إلا بقعة الكوفة فصليا فيها ودعيا أن تكون مترل ثبات .ورجع إلى سعد فكتب إلى القعقاع وعبد الله بن المعتمر أن يستخلفا على جندهما ويحضرا.

وارتحل من المدائن فترل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة لسنتين وشهرين من وقعة القادسية، ولثلاث شين وثمانية أشهر من ولاية عمر .وكتب إلى عمر إني قد نزلت

الكوفة بين الحيرة والفرات بريا بحريا بين الجلاء والنصر، وخيرت الناس بينهما وبين المدائن، ومن أعجبته تلك جعلته فيها مسلحة .فلما استقروا بالكوفة ثاب إليهم ما فقدوه من حالهم .ونزل أهل البصرة أيضاً منازلهم في وقت واحد مع أهل الكوفة بعد ثلاث مرات نزلوها من قبل، واستأذنوا جميعاً في بنيان القصب، فكتب عمر أن العسكرة أشد لحربهم وأذكر لكم :وما أحب أن أخالفكم فابتنوا بالقصب .ثم وقع الحريق في القصرين، فاستأذنوا في البناء باللبن فقال :افعلوا ولا يزيد أحد على ثلاثة بيوت، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة .وكان على تتزيل الكوفة أبو هياج بن مالك، وعلى تتزيل البصرة أبو المحرب عاصم بن الدلف .وكانت ثغور الكوفة أربعة : حلوان وعليها القعقاع، وماسبدان وعليها ضرار بن الخطاب، وقرقيسيا وعليها عمر بن مالك، والموصل وعليها عبد الله بن المعتمر .ويكون بها خلفاؤهم إذا غابوا.

صفحة فراغ

القسم الخامس

فتح الاهواز والسوس بعدها

لما انهزم الهرمزان يوم القادسية قصد خوزستان وهي قاعدة الأهواز، فملكها وملك سائر الأهواز .وكان أصله منهم من البيوتات السبعة في فارس وأقام يغير على أهل ميثان ودست ميثان من ثغور البصرة، يأتي إليها من منادر ونهر تيري من ثغور الأهواز .واستمد عتبة بن كزوان سعدا فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود . فترل بين ثغور البصرة وثغور الأهواز .وبعث عتبة بن غزوان سلمي بن القين وحرملة بن قريضة من بني العدوية من حنظلة، فترل على ثغور البصرة بميسان ودعوا بني العم بن مالك، وكانوا يترلون خراسان .فأهل البلاد يأمنونهم، فاستجابوا وجاء منهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي، فلقي سلمي وحرملة وواعداهما الثورة بمنادر ونهر تيري .ونهض سلمي وحرملة يوم الموعد في التعبية، وأنهض نعيماً والتقو هم والهرمزان وسلمي على أهل البصرة، ونعيم على أهل الكوفة .وأقبل إليهما المدد من قبل غالب وكليب، وقد ملك منادر ونهر تيري، فانهزم الهرمزان وقتل المسلمون من أهل فارس مقتلة وانتهوا في اتباعهم إلى شاطىء دجيل وملكوا ما دونها .وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وصل دجيل بينه وبين المسلمين .ثم طلب الهرمزان الصلح فصالحوه على الأهواز كلها، ما خلا نهر تيري ومنادر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يرد، وبقية المسالح على نهر تيري ومنادر، وفيهما غالب وكليب -ثم وقع بينهما وين الهرمزان اختلاف في التخم ووافقهما سلمى وحرملة فنقض الهرمزان ومنع ما قبله وكثف جنوده بالأكراد .وبعث عتبة بن غزوان حرقوص بن زهير السعدي لقتاله، فانهزم وسار إلى رام هرمز، وفتح حرقوص سوق الأهواز ونزل بها

واتسعت له البلاد إلى تستر .ووضع الجزية وكتب بالفتح، وبعث في أثر الهرمزان جزء بن معاوية، فانتهى إلى قرية الشغر .ثم إلى دورق فملكها .وأقام بالبلاد وعفرها وطلب الهرمزان الصلح على ما بقي من البلاد.

ونزل حرقوص جبل الأهواز، وكان يزدجرد في خلال ذلك يمد ويحرض أهل فارس، حتى اجتمعوا وتعاهدوا مع أهل الأهواز على النصرة .وبلغت الأخبار حرقوصا وجزءا وسلمى وحرملة فكتبوا إلى عمر؟ فكتب إلى سعد أن يبعث جندا كثيفا مع النعمان بن مقرن يترلون منازل الهرمزان .وكتب إلى أبي موسى أن يبعث كذلك جند كثيفا مع سعد بن عدي أخي سهيل، ويكون فيهم البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم .وعلى الجندين أبو سبرة بن أبي رهم .فخرج النعمان مقرن في أهل الكوفة فخلف حرقوصا وسلمي وحرملة إلى الهرمزان وهو برام هرمز .فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ولقيه فانهزم ولحق بتستر، وجاء النعمان إلى رام هرمز فترلها، وجاء أهل البصرة من بعده فلحقهم خبر الواقعة بسوق الأهواز فساروا حتى أتوا تستر.

ولحقهم النعمان فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان، وأمدهم عمر بأبي موسى

جعله على أهل البصرة، فحاصروهم أشهرا وأكثروا فيهم القتل .وزاحفهم المشركون ثمانين زحفا سجالا، ثم انهزموا في .آخرها .واقتحم المسلمون خنادقهم وأحاطوا بها وضاق عليهم الحصار، فاستأمن بعضهم من داخل البلد بمكتوب في سهم على أن يدلهم على مدخل يدخلون منه، فانتدب لهم طائفة، ودخلوا المدينة من مدخل الماء وملكوها وقتلوا المقاتلة .وتحصن الهرمزان بالقلعة فأطافوا بها واستترلوهم على حكم عمر وأوثقوه، واقتسموا الفيء فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف، والراجل ألف .وقتل المسلمين في تلك الليلة البراء بن مالك ومجزاة بن ثور قتلهما الهرمزان.

ثم خرج أبو سبرة في أثر المنهزمين ومعه النعمان وأبو موسى، فترلوا على السوس وسار زر بن عبد الله الفقيمي إلى جنديسابور فترل عليها .وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بالرجوع إلى البصرة وأمر مكانه الأسود بن ربيعة من بني ربيعة بن مالك صحابي يسمى المقترب .وأرسل أبو سبرة بالهرمزان إلى عمر في وفد منهم أنس مالك والاحنف بن قيس، فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج المذهب، وتاجه مرصعا بالياقوت وحليته ليراه المسلمون.

فلما رآه عمر أمر بترع ما عليه، وقال يا هرمزان :كيف رأيت أمر الله وعاقبة الغدر؟ فقال يا عمر :إنا وإياكم في الجاهلية، كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغبناكم .فلما صار الآن معكم غلبتمونا .قال فما حجتك وما عذرك في الانتقاض مرة بعد أخرى؟ قال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك ! قال لا تخف ذلك .ثم استقى فأتي بالماء فقال :أخاف أن أقتل وأنا أشرب، قال لا بأس عليك حتى تشربه، فألقاه من يده وقال :لا حاجة لي في الماء وقد أمنتني .قال كذبت !.قال انس :صدق يا أمير المؤمنين فقد قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وحتى تشربه وصدق الناس .فأقبل عمر على الهرمزان وقال خدعتني؟ لا والله إلا أن تسلم ! فأسلم .فغرض له في

ألفين وأنزله المدينة، واستأذنه الأحنف بن قيس في الانسياح في بلاد فارس وقال :لا يزالون في الانتقاض حتى يهلك ملكهم فأذن له.

ولما لحق أبو سبرة بالسوس ونزل عليها وبها شهريار أخو الهرمزان، فأحاط بها

ومعه المقترب بن ربيعة في جند البصرة، فسأل أهل السوس الصلح فأجابوهم .وسار النعمان بن مقرن بأهل الكوفة إلى نهاوند وقد اجتمع بها الأعاجم .وسار المقترب إلى زر بن عبد الله على جنديسابور فحاصروها مدة، ثم رمى السهم بالأمان من خارج على الجزية فخرجوا لذلك .فناكرهم المسلمون فإذا عبد فعل ذلك أصله منهم، فأمضى عمر أمانه .وقيل في فتح السوس :أن يزدجرد سار بعد وقعة جلولاء فنزل اصطخر ومنعه سياه في سبعين إلفاً من فارس، فبعثه إلى السوس ونزل الكلبانية، وبعث الهرمزان إلى تستر ثم كانت واقعة أبي موسى، فحاصرهم فصالحوه على الجزية وسار إلى هرمز ثم إلى تستر ونزل سياه بين رامهرمز وتستر.

وحمل أصحابه على صلح أبي موسى، تم على الإسلام على أن يقاتلوا الأعاجم

ولا يقتلوا العرب، وبمنعهم هو من العرب ويلحق بأشرف العطاء، فأعطاهم ذلك عمر وأعوا وشهدوا فتح تسمر ومضى سياه إلى بعض الحصون في زفي العجم فغدرهم وفتحه للمسلمين وكان فتح تستر وما بعدها سنة سبع عشرة وقيل ست عشرة.

سير المسلمين إلى الجهات للفتح

لما جاء الأحنف بن قيس بالهرمزان إلى عمر قال له :يا أمير المؤمنين !لا يزال أهل ارس يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم، فلو أذنت بالإنسياح في بلادهم فأزلنا ملكهم، انقطع

رجاؤهم .فأمر أبا موسى أن يسير من البصرة غير بعيد حتى بل ويقيم حتى يأتي أمره .ثم بعث إليه مع سهيل بن عدي بألوية الأمراء الذين يسيرون في بلاد العجم، لواء خراسان للأحنف بن قيس، ولواء أردشيرخرت وسابور لمجاشع بن مسعود السلمي، ولواء اصطخر لعثمان بن أبي العاص الثقفي، ولوء فسا ودار ابجرد لسارية بن زنيم الكناني، ولواء كرمان لسهيل بن عدي، ولواء سجستان لعاصم بن عمرو، ولواء مكران للحكم بن عمير الثعلبي .ولم يتهيأ مسيرهم إلى سنة بثماني عشرة .ويقال سنة إحدى وعشرين أو اثنين وعشرين .ثم ساروا في بلاد العجم وفتحوا كما يذكر بعد.

مجاعة عام الرمادة وطاعون عمواس

وأصاب الناس سنة ثماني عشرة قحط شديد وجدب أعقب جوعا بعد العهد.بمثله

مع طاعون أتى على جميع الناس، وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيا الناس، وكتب إلى الأمراء بالأمصار يستمدهم لأهل المدينة .فجاء أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من الطعام، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام من مصر فرخمى السعر، واستقى عمر بالناس فخطب الناس وصلى .ثم قام وأخذ بيد العباس وتوسل به ثم بكى وجثا على ركبتيه يدعو إلى أن مطر الناس .وهلك بالطاعون أبو عبيدة ومعاد ويزيد بن أبي سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة في آخرين أمثالهم وتفانى الناس بالشام .وكتب

عمر إلى أبي عبيدة أن يرتفع بالمسلمين من الأرض التي هو بها، فدعا أبو موسى يرتاد له مترلا ومات قبل رحيله.

وسار عمر بالناس إلى الشام وانتهى إلى سرغ، ولقيه أمراء الأجناد وأخبروه بشد الوباء .واختلفت الناس عليه في قدد معه، فقيل إشارة العود .ورجع وأخبر عبد الرحمن بن عوف بما سمع من رسول الله صلى الله عليه و سلم في أمر الوباء فقال :إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه .أخرجاه فى الصحيحين.

ولما هلك يزيد وولى عمر على دمشق مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان، وعلى

الأرض شرحبيل بن حسنة .ولما فحش أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الثغور، ففعل ذلك ورجع واستقضى في سنة ثماني.

عشرة على الكوفة شريح بن الحرث الكندي وعلى البصرة كعب بن سوار الأزدي.

وحج في هذه السنة، ويقال ا أن فتح جلولاء والمدائن والجزيرة كان فى هذه السنة وقد تقدم ذكر ذلك .

وكذلك فتح قيسارية على يد معاوية وقيل سنة عشرين.

فتح مصر

لما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغزاه، ثم أتبعه الزبير بن العوام فساروا سنة عشرين أو إحدى أو اثنين أو خمس .فاقتحموا باب إليون ثم ساروا في قرى الريف إلى مصر، ولقيهم الجاثليق أبو مريم والأسقف قد بعثه المقوقس .وجاء أبو مريم إلى عمرو فعرض الجزية والمنع، وأخبره بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه و سلم في شأهم .وأخلهم ثلاثاً، ورجعوا إلى المقوقس وأرطبون أمير الروم، فأبى من ذلك أرطبون وعزم الحرب وبئت المسلمين فهزموه وجنده .ونازلوا عين شمس وهي المطرية، وبعثوا لحصار الفورفا أبرهة بن الصباح، ولحصار الاسكندرية عوف بن مالك، فراسلهم أهل البلاد وانتظروا عين شمس .

فحاصرهم عمرو والزبير مدة حتى صالحوهما على الجزية وأجروا ما أخذوا قبل ذلك عنوة، فجرى الصلح وشرطوا رد السبايا، فامضاه لهم عمر بن الخطاب على أن يجيز السبايا في الإسلام و كتب العهد بينهم ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعدهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقضي .ولا يساكنهم النوب .وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا

اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليه ما جنى نصرتهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من المجزية بعددهم، وذمتنا ممن أبى برئة .وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا، وعليهم ما عليهم أثلاثا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا

الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين .وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا

بكذا وكذا رأسا وكذا فرسا، طى أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .شهد الزبير وعبد الله وصمد ابناه .وكتب وردان وحضر .هذا نص الكتاب منقولا من الطبري.

قال :فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح، ونزل المسلمون الفسطاط.

وجاء أبو مريم الجاثليق يطلب السبايا التي بعد المعركة في أيام الأجل، فأبى عمرو من ردها وقال :أغاروا وقاتلوا وقسمتهم في الناس، وبلغ الخبر إلى عمر فقال :من يقاتل في أيام الأجل فله الأمان .وبعث فيهم إلى الدقاق فردهم عليهم .ثم سار عمرو إلى الإسكندرية، فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط، فهزمهم واثخن فيهم .ونازل الإسكندرية، وبها المقوقس، وسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه، وحاصرهم ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة .وقيل أن المقوقس صالح عمرا على إثني عشر ألف دينار على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم وجعل عمرو فيها جنداً .ولما تم فتح مصر والإسكندرية أغزى عمرو العساكر إلى النوبة فلم يظفروا، فلما كان أيام عثمان وعبد الله بن أبي سرح على مصر صالحهم على عدة رؤوس في كل سنة ويهدي إليهم المسلمون طعاما وكسوة فاستمر ذلك فيما بعد.

وقعة نهاوند وما كان بعدها من الفتوحات

لما فتحت الأهواز ويزدجرد بمرو كاتبوه واستنجدوه، فبعث إلى الملوك ما بين الباب والسند وخراسان وحلوان يستمدهم، فأجابوه واجتمعوا إلى نهاوند وعلى الفرس الفيرزان في مئة وخمسين ألف مقاتل .وكان سعد بن أبي وقاص قد ألب أقوام عليه ص سكره وشكوه إلى عمر، فبعث محمد بن مسلمة في الكشف عن أمره فلم يسمع إلا خيراً ، سوى مقالة من بني عبس .فاستقدمه محمد إلى عمرو وخبره الخبر فقال :كيف تصلي يا سعد؟ قال أطيل الأولتين وأحذف الأخيرتين .قال هكذا الظن بك .ثم قال :مى خليفتك على الكوفة؟ قال عبد الله بن عبد الله بن عتبان، فأمره وشافهه بخبر الأعاجم وأشار بالإنسياح ليكون أهيب على العدو.

فجمع عمر الناس واستشارهم بالمسير بنفسه .فمن موافق ومخالف إلى أن اتفق

رأيهم على أن يبعث الجنود ويقيم ردءا لهم .وكان ذلك رأي علي وعثمان وطلحه

وغيرهم .فولى على حربهم النعمان بن مقرن المزني وكان على جند الكوفة بعد انصرافهم من حصار السوس، وأمره أن يصير إلى ماء لتجتمع الجيوش عليه، ويسير بهم إلى الفيرزان ومن معه .وكتب إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان أن يستنفر الناس من النعمان، فبعثهم مع حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن، وكتب إلى المقترب وحرملة وزر الذين كانوا بالأهواز وفتحوا السوس وجنديسابور أن يقيموا بتخوم أصبهان وفارس ويقطعوا المدد على أهل نهاوند.

واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة وجرير والمغيرة وابن عمر وأمثالهم.

وأرسل النعمان طليحة وعمرو بن معد يكرب طليعة، ورجع عمرو من طريقه .وانتهى طليحة إلى نهاوند ونقض الطرق فلم يلق بها أحدا وأخبر الناس، فرحل النعمان وعبى المسلمين ثلاثين ألفا .وجعل على مقدمته نعيم بن مقرن، وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود .وعبى الفيرزان كتائبه وعلى مجنبتيه زردق وبهمن جادوية مكان ذي الحاجب، وقد توافى إليهم بنهاوند كل من غاب من القادسية من أبطالهم .فلما تراءى الجمعان كبر المسلمون، وحطت العرب الأثقال وتبادر أشراف الكوفة إلى فسطاط النعمان فبنوه.

حذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبه وعقبة بن عمرو وجرير بن عبد الله وحنظلة الكاتب وبشير بن الخصاصية والأشعث بن قيس ووائل بن حجر وسعيد بن قيس الهمداني .ثم تزاحفوا للقتال يوم الأربعاء والخميس والحرب سجال .ثم أحجروهم في خنادقهم يوم الجمعة وحاصروهم أياما، وسئم المسلمون اعتصامهم بالخنادق وتشاوروا وأشار طليحة باستخراجهم للمناجزة بالاستطراد، بفناشبهم القعقاع فبرزوا إليه كأنهم حبال حديد، قد تواثقوا أن لا يفروا، وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا.

فلما برزوا استطرد لهم حتى فارقوا الخنادق وقد ثبت لهم المسلمون ونزل الصبر، ثم وقف النعمان على الكتائب وحرض المسلمين ودعا لنفسه بالشهادة .وقال إذا كبرت الثالثة فاحملوا، ثم كبر وحمل عند الزوال وتجاول الناس ساعة، وركدت الحرب ثم انفض الأعاجم وانهزموا .وقتلوا ما بين الظهر والعتمة حتى سالت أرض المعركة دما تزلق فيه المشاة، حتى زلق فيه النعمان وصرع .وقيل بل أصابه سهم فسجاه أخوه نعيم بثوب، وتناول الراية حذيفة بعهده، وتواصلوا بكتمان موته .وذهب الأعاجم ليلا، وعميت عليهم المذاهب، وعقرهم حسك الحديد، ووقعوا في اللهيب الذي أعدوه في عسكرهم .فمات منهم أكثر من مئة ألف، منها نحو ثلاثين ألفا في المعركة، وهرب الفيرزان بعد أن صرع إلى همذان، واتبعه نعيم بن مقرن فأدركه بالثنية دونها وتد سدتها الأحمال، وترحل وصعد في الجبل .وكان نعيم قد قدم القعقاع أمامه، فاعترضه وقتله المسلمون على الثنية، ودخل الفل همذان وبها خسر شنوم فترل المسلمون عليها مع نعيم والقعقاع.

ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة وغنموا ما فيها، وجمعوه إلى صاحب الأقباض السائب بن الأقرع .وولى على الجط حذيفة بعهد النعمان إليه .ثم جاء الهربذ صاحب بيت النار إلى حذيفة فأمنه وأخرج له صفتين مملوءتين جوهرا نفيسا كانا من دخائل كسرى أودعهما عنده البجرجان، فنقلهما المسلمون.

وبعث الخمس من السائب إلى عمر، وأخبره بالواقعة وبالفتح ومن استشهد فبكى.

وبالصفتين فقال ضعهما في بيت المال والحق بجندك .قال السائب :ثم لحقني رسوله بالكوفة فردني إليه فلما رآني قال :ما لي وللسائب ما هو إلا أن نمت الليلة التي خرجت فيها، فباتت الملائكة تسحبني إلى السفطين يشتعلان نارا يتواعداني بالكي أن لم اقسمهما، فخذهما عني وبعهما في أرزاق المسلمين .فبعثمهما بالكوفة من عمرو بن حريث المخزومى بألفي ألف درهم وباعهما عمرو بأرض الأعاجم بضعفهما .فكان له بالكوفة مال.

وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف والراجل ألفين، و لم يكن للفرس بعدها
اجتماع، وكان أبو لؤلؤة قاتل عمر من أهل نهاوند، حصل في أسر الروم وأسره الفرس منهم، فكان إذا لقي سبي نهاوند بالمدينة يبكي ويقول :أكل عمر كبدي .وكان أبو موسى الأشعري قد حضر نهاوند على أهل البصرة، فلما انصرف مر بالدينور، فحاصروها خمسة أيام ثم صالحوه على الجزية .وصار إلى أهل شيروان فصالحوه كذلك .وبعث السائب بن الأقرع إلى العيمرة ففتحها صلحا.

ولما اشتد الحصار بأهل همذان بعث خسر شنوم إلى نعيم والقعقاع في الصلح
على قبول الجزية فأجابوه إلى ذلك .ثم اقتدى أهل الماهين، وهم الملوك الذين جاءوا لنصرة يزدجرد بأهل همذان، وبعثوا إلى حذيفة فصالحوه .وأمر عمر بالإنسياح في بلاد الأعاجم، وعزل عد الله بن عبد الله بن عتبان عن الكوفة، وبعثه في وجه آخر .وولى
مكانه زياد بن حنظلة حليف لبني عبد قصي، واستعفى فاعفاه .وولى عمار بن ياسر واستدعى بن مسعود من حمص فبعثه معه معلماً لأهل الكوفة، وأمدهم بأبي موسى، وأمد أهل البصرة مكانه بعبد الله بن عبد الله .ثم بعثه إلى أصبهان مكان حذيفة وولى على البصرة عمرو بن سراقة.

ثم انتقض أهل همذان، فبعث إلى نعيم بن مقرن يحاصرهم وصار بعد فتحها إلى خراسان .وبعث عتبة بن فرقد وبكر بن عبد الله إلى أذربيجان فدخل أحدهما من حلوان، والآخر من الموصل ولما فضل عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى أصبهان، وكان من الصحابة من وجوه الأنصار حليف بني الحبلي فأمده بأبي موسى .وجعل على مجنبتيه عبد الله بن ورقاء الرياحي وعصمة بن عبد الله، فسار إلى نهاوند .ورجع حذيفة إلى عمله على ما سقت دجلة .فسار عبد الله بمن معه ومن تبعه من عند النعمان نحو أصبهان، وعلى جندها الأسبيدان وعلى مقدمته شهريار بن جادويه في جمع عظيم برستاق أصبهان فاقتتلوا، وبارز عبد الله بن ورقاء شهريار فقتله . وانهزم أهل أصبهان وصالحهم الأسبيدان على ذلك الرستاق.

ثم ساروا إلى أصبهان -وتسمى جي -وملكها الفادوسفان فصالحهم على الجزية والخيار بين المقام والذهاب وقال :ولكم أرض من ذهب .وقدم أبو موسى على عبد الله من ناحية الأهواز، فدخل معه أصبهان، وكتبوا إلى عمر بالفتح .فكتب إلى عبد الله أن يسيروا إلى سهيل بن عدي لقتال كرمان فاستخلف على أصبهان السائب بن الاقرع، ولحق بسهيل قبل أن يصل كرمان .وقد قيل :أن النعمان بن مقرن حضر فتح أصبهان أرسله إليها عمر من المدينة واستجاش له أهل الكوفة، فقتل في حرب أصبهان .والصحيح أن النعمان قتل بنهاوند وافتتح أبو موسى قم وقاشان .ثم ولى عمر على الكوفة سنة إحدى وعشرين المغيرة بن شعبة وعزل عمارا.

فتح همذان

كان أهل همذان قد صالح عليهم خشرشنوم القعقاع ونعيما وضنهما، ثم انتقض فكتب عمر إلى نعيم أن يقصدها، فودع حذيفة ورجع إليها من الطريق على تعبيته .فاستولى على بلادها أجمع حتى صالحوه على الجزية .وقيل أن فتحها كان سنة أربع

وعشرين .فبينما نعيم يجول في نواحي همذان إذ جاءه الخبر بخروج الديلم وأهل الري واسفنديار أخو رستم بأهل أذربيجان .فاستخلف نعيم على همذان يزيد بن قيس الهمذاني، وسار إليهم فاقتتلوا، وانهزم الفرس وكانت واقعتها مثل نهاوند وأعظم .وكتبوا إلى عمر بالفتح فأمر نعيما بقصد الري والمقام بها بعد فتحها.

وقيل أن المغيرة بن شعبة أرسل من الكوفة جرير بن عبد الله إلى همذان ففتحها

صلحا وغلب على أرضها، وقيل تولاها بنفسه وجرير على مقدمته .ولما فتح جرير همذان بعث البراء بن عازب إلى قزوين ففتح ما قبلها وسار إليها، فاستنجدوا بالديلم فوعدوهم .ثم جاء البراء في المسلمين فخرجوا لقتالهم والديلم وقوف بأعلى الجبل ينظرون، فيئس أهل قزوين منهم وصالحوا البراء على صلح أبهر قبلها .ثم غزا البراء الديلم وجيلان.

فتح الري

ولما انصرف نعيم من واقعته سار إلى الري، وخرج إليه أبو الفرخان من أهلها في الصلح، وأبى ذلك ملكها سياوخش بن مهران بن بهرام جوبين واستمد أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فأمروه والتقوا مع نعيم فشغلوا به عن المدينة .وقد كان خلفهم أبو فرخان .ودخل المدينة من الليل ومعه المنذر بن عمرو وأخو نعيم، فلم يشعروا وهم مواقفون لنعيم إلا بالتكبير من ورائهم فانهزموا وقتلوا وأفاء الله على المسلمين بالري مثلما كان بالمدائن .وصالحه أبو الفرخان الزبيني على البلاد يزل شرفهم في عقبه .وأخرب نعيماً مدينتهم العتيقة وأمر ببناء أخرى .وكتب إلى عمر بالفتح، وصالحه أهل دنباوند على الجزية فقبل منهم.

ولما بعث بالأخماس إلى عمر كتب إليه بإرسال أخيه سويد إلى قومس ومعه هند بن عمرو الجملي، فسار فلم يقم له أحد، وأخذها سلما وعسكر بها .وكاتبه الفل الذين بطبرستان وبالمفاوز فصالحوه على الجزية، ثم سار إلى جرجان وعسكر منها ببسطام، وصالحه ملكها على الجزية، وتلقاه مرزبان صول قبل جرجان فكان معه حتى جبل خراج .وأراه مروجها وسدها، وقيل كان فتحها سنة ثلاثين أيام عثمان .ثم أرسل سويد إلى الاصبهبذ صاحب طبرستان على الموادعة فقبل وعقد له بذلك.

فتح اذربيجان

ولما افتتح نعيم الري أمره عمر أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري إلى أذربيجان

مما ا لبكر بن عبد الله .وكان بكر بن عبد الله عند ما سار إلى أذربيجان لقي بالجبال اسفنديار بن قرخزاد مهزوما من واقعة نعيم معهم أبو حرود دون همذان وهو أخو رستم فهزمه بكير وأسره .فقال له اسكني عندك، فاصالح لك على البلاد وإلا فروا إلى الجبال وتركوها .وتحضن من تحصن إلى يوم ما، فأمسكه وسارت البلاد صلحا إلا الحصون .وقدم عليه سماك وهو في مثل ذلك، وقد افتتح ما يليه وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه.

وكتب بكير إلى عمر يستأذنه في التقدم فأذن له أن يتقدم نحو الباب، وأن يستخلف على ما افتتح، فاستخلف عتبة بن فرقد وجمع له عمر أذربيجان كلها .فولى عتبة سماك بن خرشة على ما افتتحه بكير .وكان بهرام بن الفرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره مقتصدا بل معترضا له .فلقيه عتبة وهزمه، وبلغ خبره إلى الإسفنديار وهو أسير عند بكير، فصالحه واتبعه أهل أذربيجان كلهم .وكتب بكير وعتبة بذلك إلى عمر، وبعثوا بالأخماس، فكتب عمر لأهل أذربيجان كتاب الصلح .ثم غزا عتبة بن فرقد شهرزور والصامغان ففتحهما بعد قتال على الجزية والخراج، وقتل خلقا من الأكراد، وكتب إلى عمر أن فتوحي بلغت أذربيجان فولاه إياها، وولى هرثمة بن عرفجة الموصل.

فتح الموصل -الباب

ولما افتتح أمر عمر بكير بن عبد الله بغزو الباب والتقدم إليها، بعث سراقة بن

عمرو على حربها، فار من البصرة، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة وعلى احدى مجنبتيه ابن أسيد الغفاري، وعلى الأخرى بكير بن عبد الله المتقدم .وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي، ورد أبا موسى الأشعري إلى البصرة مكان سراقة .ثم أمد سراقة بحبيب بن مسلمة من الجزيرة وجعل مكانه زياد بن حنظلة، وسار سراقة من اذربيجان .فلما وصل عبد الرحمن بن ربيعة في مقدمته على الباب، والملك بها يومئذ من ولد شهريار الذي أفسد بني إسرائيل وأغزى الشام منهم .فكاتبه منهم شهريار واستأمنه على أن يأتي، فحضر وطلب الصلح والموادعة على أن تكون جزيته النصر والطاعة للمسلمين .قال :ولا تسومون الجزية فتوهنونا لعدوكم فسيره عبد الرحمن إلى

سراقة فقبل منه وقال :لا بد من الجزية على من يقيم ولا يحارب العدو، فأجابوا وكتبوا إلى عمر فأجاز ذلك.

فتح موقان وجبال ارمينية

ولما فرغ سراقة من الباب بعث أمراء إلى ما يليه من الجبال المحيطة بأرمينية، فأرسل بكير بن عبد الله إلى موقان، وحبيب بن مسلمة إلى تفليس، وحذيفة بن اليمان إلى جبال اللات، وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر .وكتب بالخبر إلى عمر فلم يرج تمام ذلك لأنه فرج عظيم .ثم بلغه موت سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، فأقره عمر على فرج الباب، وأمره بغزو الترك و لم يفتح أحد من أولئك الامراء؟ إلا بكير بن عبد الله فإنه فتح موقان، ثم تراجعوا على الجزية دينارا عن كل حا لم.

غزو الترك

ولما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك سار حتى جاء الباب، وسار معه شهريار فغزا بلنجر، وهم قوم من الترك ففروا منه وتحصنوا وبلغت خيله على مائتي فرسخ من بلنجر .وعاد بالظفر والغنائم، و لم يزل يردد الغزو فيهم إلى أيام عثمان، فتذامر الترك وكانوا يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لأن الملائكة معهم تمنعهم، فأصابوا في هذه الغزاة رجلا من المسلمين على غر؟ فقتلوه وتجاسروا، وقاتل عبد الرحمن فقتل وانكشف أصحابه، وأخذ الراية أخوة سلمان .فخرج بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي، فسلكوا على جيلان إلى جرجان.

فتح خراسان

ولما عقدت الألوية للأمراء للإنسياح في بلاد فارس، كان الأحنف بن قيس منهم بخراسان .وقد تقدم أن يزدجر سار بعد جلولاء إلى الري وبها أبان جادويه من مرازبته فأكرهه على خاتمة .وكتب الضحاك بما اقترح من ذخائر يزدجرد وختم عليها وبعثها إلى سعد فردها عليه على حكم الصلح الذي عقد له .ثم سار يزدجرد والناس معه إلى أصبهان ثم إلى كرمان، ثم رجع إلى مرو من خراسان فنزلها، وأمن من العرب .وكاتب الهرمزان وأهل فارس بالأهواز والفيرزان وأهل الجبال فنكثوا جميعا وهزمهم الله

وخذلهم، وأذن عمر للمسلمين بالإنسياح في بلادهم.

وأمر الأمراء كما قدمناه وعقد لهم الأولوية، فسار الأحنف إلى خراسان سنة ثماني

عشرة، وقيل اثنين وعشرين .فدخلها من الطبسين وافتتح هراة عنوة، واستخلف عليها صحار بن فلال العبدي .ثم سار إلى مرو الشاهجان، وأرسل إلى نيسابور مطرف بن عبد الله بن الشخير، وإلى سرخس الحرث بن حسان .ودرج يزدجرد من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ، فملكها الأحنف ولحقه مدد أهل الكوفة هنالك .فسار إلى مرو الروذ واستخلف على الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلي .وجعل مدد الكوفة في مقدمته، فالتقوا هم ويزدجرد على بلخ فهزموه وعبر النهر فلحقهم الأحنف، وقد فتح الله عليهم ودخل أهل خراسان في الصلح ما بين نيسابور وطخارستان .وولى على طخارستان ربعي بن عامر وعاد إلى مرو الروذ فنزلها، وكتب إلى عمر بالفتح فكتب إليه أن يقتصر على ما ودون النهر.

وكان يزدجرد وهو بمرو الروذ قد استنجد ملوك الأمم، وكتب إلى ملك الصين وإلى خاقان ملك الترك، وإلى ملك الصغد .فلما عبر يزدجرد النهر منهزما أنجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصغد .فرجع يزدجرد وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ، واجتمع المسلمون إلى الأحنف بمرو الروذ، ونزل المشركون عليه .ثم رحل ونزل سفح الجبل في عشرين ألفا من أهل البصرة وأهل الكوفة وتحصن العسكران بالخنادق وأقاموا يقاتلون أياما.

وصحبهم الأحنف ليلة، وقد خرج فارس من الترك يضرب بطبلة، ويتلوه اثنان كذلك .ثم يخرج العسكر بعدهم عادة لهم، فقتل الأحنف الأول ثم الثاني ثم الثالث .فلما مر بهم خاقان تشاءم وتطير ورجع أدراجه، فارتحل وعاد إلى بلخ .وبلغ الخبر إلى يزدجرد وكان على مرو الشاهجان محاصرا لحارثة بن النعمان ومن معه . فجمع خزائنه وأجمع اللحاق بخاقان على بلخ، فمنعه أهل فارس وحملوه على صلح المسلمين والركون إليهم، وإنهم أوفى ذمة من الترك فأبى من ذلك وقاتلهم فهزموه، واستولوا على الخزائن.

ولحق بخاقان وعبروا النهر إلى فرغانة وأقام يزدجرد ببلد الترك أيام عمر كلها إلى

أن كفر أهل خراسان أيام عثمان .ثم جاء أهل فارس إلى الأحنف ودفعوا إليه الخزائن والأموال وصالحوه واغتبطوا بملكة المسلمين، وقسم الأحنف الغنائم فأصاب الفارس ما أصابه يوم القادسية .ثم نزل الأحنف بلخ وأنزل أهل الكوفة في كورها الأربع، ورجع إلى مرو الروذ فنزلها وكتب بالفتح إلى عمر.

وكان يزدجرد لما عبر النهر لقي رسوله الذي بعثه إلى ملك الصين رده إليه يسأله أن يعيف له المسلمين الذين فعلوا به هذه الافاعيل، مع قلة عددهم -ويسأل عن وفائهم ودعوتهم وطاعة أمرائهم ووقوفهم عند الحدود، ومآكلهم وشرابهم وملابسهم ومراكبهم فكتب إليه بذلك كله .وكتب إليه ملك الصين أن يسالمهم فإنهم لا يقوم لهم شيء بما قام نردبل فأقام يزدجرد بفرغانة بعهد من خاقان.

ولما وصل الخبر إلى عمر خطب الناس وقال :ألا وإن ملك المجوسية قد ذهب،

فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وابناءهم لينظر كيف تعملون، فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم .فإني لا أخاف على هذه الأمة إلا أن تؤتى من قبلكم.

فتوح فارس

ولما خرج الأمراء الذين توجهوا إلى فارس من البصرة افترقوا وسار كل أمير إلى جهته، وبلغ ذلك أهل فارس فافترقوا إلى بلدانهم، وكانت تلك هزيمتهم وشتاتهم .وقصد مجاشع بن مسعود من الأمراء سابور

وأردشيرخرت، فاعترضه الفرس دونهما بتوج فقتلهم وأثخن فيهم .وافتتح توج واستباحها وصالحهم على الجزية وأرسل بالفتح والأخماس إلى عمر، سفكانت واقعة توج هذه ثانية لواقعة العلاء بن الحضرمي عليهم أيام طاوس .ثم دعوا إلى الجزية فرجعوا فأقروا بها.

اصطخر :وقصد عثمان بن أبي العاص اصطخر، فزحفوا إليه بجور فهزمهم وأثخن فيهم وفتح جور واصطخر، ووضع عليهم الجزية وأجابه الهربذ إليها .وكان ناس منهم فروا فتراجعوا إليها وبعث بالفتح والخمس إلى عمر . ثم فتح كازرون والنوبندجان وغلب على أرضها ولحق به أبو موسى، فافتتح مدينة شيراز وأرجان على الجزية والخراج وقصد عثمان جينا ففتحها ولقي الفرس هنالك بناحية جهرم فهزمهم وفتحها .ثم نقض شهرك في أول خلافة عثمان، فبعث عثمان بن أبي العاص ابنه وأخاه الحكم، وأتته الأمداد من البصرة وعليهم عبيد الله بن معمر وشبل بن معبد، والتقوا بأرض فارس فانهزم شهرك، وقتله الحكم بن أبي العاص وقيل سوار بن همام العبدي.

وقيل أن ابن شهرك حمل على سوار فقتله .ويقال أن اصطخر كانت سنة ثماني وعشرين وقيل تسع وعشرين ...وقيل أن عثمان بن أبي العاص أرسل أخاه الحكم من البحرن إلى فارس في ألفين، فسار إلى توج وعلى مجنبتيه الجارود وأبو صفرة والد المهلب، وكان كسرى أرسل شهرك في الجنود للقائهم، فالتقوا بتوج وهزمهم إلى سابور وقتل شهرك، وحاصروا مدينة سابور حتى صالح عليها ملكها واستعانوا به على قتال اصطخر .ثم مات عمر رضي الله عنه، وبعث عثمان بن عفان عبيد الله بن فغفر مكان عثمان بن أبي العاص، وأقام محاصرا اصطخر، وأراد ملك سابور الغدر به .ثم أحضر وأصابت عبيد الله حجارة منجنيق فمات بها .ثم فتحوا المدينة فقتلوا بها بشرا كثيرا منهم.

بساودارابجرد :وقصد سارية بن زنيم الكناني من أمراء الانسياح مدينة بسا ودارا بجرد فحاصرهم .ثم استجاشوا بأكراد فارس واقتتلوا بصحراء .وقام عمر على المنبر ونادى :يا سارية الجبل ! يشير إلى جبل كان

إزاءه أن يستند إليه .فسمع ذلك سارية ولجأ إليه .ثم انهزم المشركون، وأصاب المسلمون مغانمهم، وكان فيها صفت جوهر، فاستوهبه سارية من الناس، وبعث به مع الفتح إلى عمر .ولما قدم به الرسول سأله عمر فأخبره عن كل شيء، ودفع إليه السفط فأبى إلا أن يقسم على الجند، فرجع به وقسمه سارية.

كرمان :وقصد سهيل بن عدي من أمراء الانسياح كرمان ولحق به عبد الله بن

عبد الله بن عتبان وحشد أهل كرمان، واستعانوا بالقفص، وقاتلوا المسلمين في أدنى أرضهم فهزموهم بإذن الله .وأخذ المسلمون عليهم الطريق بل الطرق .ودخل البشير بن عمرو العجلي إلى جيرفت وقتل في طريقه مرزبان كرمان، وعبد الله بن عبد الله من مفازة شير وأصابوا ما أرادوا من إبل وشاء .وقيل :أن الذي فتح كرمان عبد الله بن بديل بل ورقاء الخزاعي ثم أتى الطبسين من كرمان .ثم قدم على عمر وقال اقطعني الطبسين، فأراد أن يفعل فقال إنهما رستاقان فامتنع.

سجستان :وقصد عاصم بن عمرو من الأمراء سجستان، ولحق به عبد الله بن

عمير، وقاتلوا أهل سجستان في أدنى أرضهم فهزموهم، وحصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان .ثم طلبوا الصلح لحى مدينتهم وأرضها .على أن الفرات حمى ويسقي أهل سجستان على الخراج .وكان أعظم من خراسان وأبعد فروجاً، يقاتلون القندهار والترك وأمما أخرى .فلما كان زمن معاوية هرب الشاه من أخيه زنبيل ملك الترك إلى بلد من سجستان يدعى آمل وكان على سجستان سلم بن زياد بن أبي سفيان، فعقد له وأنزله آمل، وكتب إلى معاوية بذلك فأقرة بغير نكير .وقال :أن هؤلاء قوم كدر وأهون ما يجيء منهم إذا وقع اضطرب أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها فكان كذلك .وكفر الشاه بعد معاوية وغلب على بلاد آمل واعتصم منه زنبيل بمكانه .وطمع هو في زربخ، فحاصرها حتى جاءت الأمداد من البصرة فاجلفوا عنها.

مكران :وقصد الحكم بن عمرو التغلبي من أمراء الانسياح بلد فكران، ولحق بها شهاب بن المخارق، وجاءه سهيل بن عدي وعبد الله بن عبد الله بن عتبان وانتهوا جميعا إلى دوين وأهل مكران على شاطئيه، وقد أمدهم أهل السند بجيش كثيف، ولقيهم المسلمون فهزموهم واثخنوا فيهم بالقتل، واتبعوهم أياما حتى انتهوا إلى النهر، ورجعوا إلى مكران فأقاموا بها وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس مع صحار العبدي، وسأله عمر عن البلاد فأثنى عليها شرا فقال :والله لا يغزوها جيش لي أبدا .وكتب إلى سهيل والحكم أن لا يجوز مكران أحد من جنودكما.

خبر الاكراد

كان أمر أمراء الانسياح لما فصلوا إلى النواحي حتى اجتمع ببيروذ بين نهر تيري ومنادر من أهل الأهواز جموع من الأعاجم أعظمهم الأكراد، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى أقصى تخوم البصرة ردءا للأمراء المنساحين .فجاء إلى بيروذ وقاتل تلك الجموع قتالاً شديدا، وقتل المهاجر بن زياد .ثم وهن الله المشركين فتحصنوا منه في قلة وذلة .فاستخلف أبو موسى عليهم أخاه الربيع بن زياد وسار إلى أصبهان مع

المسلمين الذين يحاصرونها، حتى إذا فتحت رجع إلى البصرة .وفتح الربيع بن زياد بيروذ وغنم ما فيها، ولحق به بالبصرة وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس.

وأراد ضبة بن محصن العنزي أن يكون في الوفد فلم يجبه أبو موسى، فغضب

وانطلق شاكيا إلى عمر بانتقائه ستين غلاما من أبناء الدهاقين لنفسه وأنه أجاز الحطيئة بألف .وولى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة، واعتذر أبو موسى وقبله عمر .وكان عمر قد اجتمع إليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الاشجعي ودفعهم إلى الجهاد على عادته وأوصاهم .فلقوا عدوا من الأكراد المشركين فدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فأبوا، وقاتلوهم وهزموهم وقتلوا وسبوا، وقسموا الغنائم، ورأى سلمة جوهرا في سفط فاسترضى المسلمين وبعث به إلى عمر، فسأل الرسول عن أمور الناس حتى أخبره بالسفط فغضب وأمر به فوجىء في عنقه وقال :أسرع قبل أن تفترق الناس ليقسمه سلمة فيهم، فباعه سلمة وقسمه في الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفا.

مقتل عمر وامر الشول ى وبيعة عثمان رضي الله عنه

كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه أبو لؤلؤة، وكان يشدد عليه في الخراج .فلقي يوما عمر في السوق فشكا إليه وقال :أعدني على المغيرة فإنه يثقل علي في الخراج درهمين في كل يوم .قال وما صناعتك؟ قال :نجار، حداد، نقاش .فقال ليس ذلك بكثير على هذه الصنائع .وقد بلغني أنك تقول أصنع رحى تطحن بالريح، فاصنع لي رحى .قال أصنع لك رحى يتحدث الناس بها أهل المشرق والمغرب .وانصرف فقال عمر :توعدني العلج؟

فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة واستوت الصفوف، ودخل أبو لؤلؤة في الناس

وبيده خنجر برأسين نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهما تحت سرته .وقتل كليبا بن أبي البكير الليثي، وسقط عمر، فاستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة .واحتمل إلى بيته.

ثم دعا عبد الرحمن وقال أريد أن أعهد إليك! قال فتثير علي بها؟ قال لا قال

والله لا أفعل .قال فهبني صمتا حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول صلى الله عليه و سلم وهو عنهم راض .ثم دعا عليا وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن معهم وقال انتظروا طلحة ثلاثاً، فإن جاء، وإلا فاقضوا أمركم .وناشد الله من يفضي إليه الأمر منهم أن يحمل أقاربه على رقاب الناس، وأوصاهم بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم

ويعفوا عن مسيئهم، وأوصى بالعرب فإنهم مادة الإسلام أن تؤخذ صدقاتهم فتوضع في فقرائهم .وأوصى بذمة رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يوفي لهم بعهدهم ثم قال :اللهم قد بلغت لقد تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة.

ثم دعا أبا طليحة الأنصاري فقال :قم على باب هؤلاء ولا تدع أحدا يدخل إليهم

حتى يقضوا أمرهم .ثم قال يا عبد الله بن عمر أخرج فانظر من قتلني؟ قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة .قال الحمد لله الذي يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة .ثم بعث إلى عائشة يستأذنها في دفنه مع رسول الله صلى الله عليه و سلم وأبي بكر فأذنت له .ثم قال يا عبد الله أن اختلف القوم فكن مع الأكثر، فإن تساووا فكن مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

ثم أذن للناس فدخل المهاجرون والأنصار فقال لهم :أهذا عن ملأ منكم؟ فقالوا

معاذ الله ! وجاء علي وابن عباس فقعدا عند رأسه .وجاء الطبيب فسقاه نبيذا فخرج متغيرا، ثم لبنا فخرج كذلك .فقال له أعهد !قال قد فعلت !و لم يزل يذكر الله إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين .وصفى عليه صهيب وذلك لعشر سنين وستة أشهر من خلافته.

وجاء أبو طلحة الأنصاري ومعه المقداد بن الأسود .وقد كان أمرهما عمر أن يجمعا هؤلاء الرهط الستة في مكان ويلزماهم أن يقدموا للناس من يختاروه منهم، وان اختلفوا كان الاتباع للأكثر، وإن تساووا حكموا عبد الله بن عمر، أو اتبعوا عبد الرحمن بن عوف .ويؤجلهم في ذلك ثلاثا يصلي فيها بالناس صهيب، ويحضر عبد لله بن عمر معهم مشيرا ليس له شيء من الأمر وطلحة شريكهم أن قدم في الثلاث ليال .فجمعهم أبو طلحة والمقداد في بيت المسور بن مخرمة، وقيل في بيت عائشة.

وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحصبهما، سعد وأقامهما، وقال تريدان أن تقولا حضرنا وكنا في أهل الشورى .ثم دار بينهم الكلام وتنافسوا في الأمر، فقال عبد الرحمن أنكم يخرج منها نفسه ويجتهد فيوليها أفضلكم وأنا أفعل ذلك؟ فرضي القوم وسكت علي .فقال :ما تقول على شريطة أن تؤثر الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة نصحا، وتعطينا العهد بذلك .قال وتعطوني أنتم مواثيقكم على أن تكونوا معي على من خالف وترضوا من اخترت؟ وتواثقوا، ثم قال لعلي :أنت تقول إنك أحق مفن حضر بقرابتك وسوابقك وحسن أثرك في الدين و لم تبعد في نفسك؟ فمن ترى أحن فيه بعدك من هؤلاء؟ قال عثمان ا وخلا بعثمان فقال له مثل ذلك، فقال علي.

ودار عبد الرحمن لياليه كلها يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ومن يوافي المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ويشيرهم إلى صبيحة الرابع .فأتى مترل المسرور بن مخرمة، وخلا فيه بالزبير وسعد أن يتركا الأمر لعلي أو عثمان .فاتفقا على علي .ثم قال له سعد :بايع لنفسك وأرحنا فقال :قد خلعت لهم نفسي على أن أختار و لم أفعل ما أردتما.

ثم استدعى عبد الرحمن عليا وعثمان فناجى كلا منهما إلى أن رضوا، بل إلى أن صلوا الصبح ولا يعلم أحد ما قالوا .ثم جمع المهاجرين وأهل السابقة من الأنصار وأمراء الأجناد حتى غص المسجد بهم فقال :أشيروا علي ! فأشار عمار بعلي ووافقه المقداد .فقال ابن سرح :أن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان، ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة فتفاوضا وتشاتما ونادى سعد :يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس .فقال نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا.

ثم قال لعلي :عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده قال :أرجو أن اجتهد بل أن أفعل بمبلغ علمي وطاقتي .وقال لعثمان؟ مثل ذلك فقال نعم !فرفع رأسه إلى المسجد ويده في يد عثمان وقال :اللهم اشهد أني قد جعلت ما في عنقي من ذلك في عنق عثمان فبايعه الناس.

ثم قدم طلحة في ذلك اليوم، فأتى عثمان، فقال له عثمان :أنت على الخيار في

الأمر، وإن أبيت رددتها فقال :أكل الناس بايعوك؟ قال نعم !قال :رضيت ولا أرغب عما أجمع عليه.

وكانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، ومر أبو لؤلؤة بالهرمزان وبيده الخنجر الذي طعن به عمر، فتناوله من يده وأطال النظر فيه ثم رده إليه .ومعهم جفينة نصراني من أهل الحيرة .فلما طعن عمر من الغداة قال عبد الرحمن بن أبي بكرة

لعبيد الله بن عمر :إني رأيت هؤلاء الثلاثة يتناجون، فلما رأوني افترقوا وسقط منهم هذا الخنجر .فعدا عبيد الله عليهم فقتلهم ثلاثتهم .وأمسكهم سعد بن أبي وقاص، وجاء به إلى عثمان بعد البيعة وهو في المسجد فأشار علي بقتله .وقال عمرو بن العاص لا يقتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم .فجعلها عثمان دية واحتملها وقال :أنا وليه .ثم قام عثمان وصعد المنبر وبايعه الناس كافة .وولى لوقته سعد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة وذلك بوصية عمر، لأنه أوصى بتوليه سعد وقال لم أعزله عن سوء ولا خيانة منه، وقيل إنما ولأه وعزل المغيرة بعد سنة وإنما أقر لأول أمره عمال عمر كلهم.

نقض اهل الاسكندرية وفتحها

لما سار هرقل إلى القسطنطينية وفارق الشام واستولى المسلمون على الإسكندرية،وبقي الروم بها تحت أيديهم، فاتبعوا هرقل فاستنجدوه، فبعث إليهم عسكرا مع منويل الخصي، ونزلوا بساحل الاسكندرية لمنعهم المقوقس من الدخول إليه فساروا إلى مصر ولقيهم عمرو بن العاص والمسلمون فهزموهم واتبعوهم إلى الإسكندرية . وأثخنوا فيهم بالقتل وقتل قائدهم منويل الخصي، وكانوا قد أخذوا في مسيرهم إلى مصر أموال أهل القرى، فردها عمرو عليهم بالبينة، ثم هدم سرر الإسكندرية ورجع إلى مصر.

ولاية الوليد بن عقبة الكوفة وصلح ارمينيا واذربيجان

وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعدا عن الكوفة لأنه كان اقترض من

عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضاً، وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد، فتلاحيا وتناجيا بالقبيح وافترقا يتلاومان، وتداخلت بينهما العصبية وبلغ الخبر عثمان فعزل سعدا، واستدعى الوليد بن عقبة من الجزيرة، وكان على غربها منذ ولاه عمر، فولاه عثمان على الكوفة فكان مكان سعد .ثم عزل عتبة بن فرقد عن اذربيجان، فنقضوا فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبد الله بن شبيل الاحمسي، فأغار على أهل موقان والبرزند والطيلسان، ففتح وغنم وسبى .وطلب اهل كور اذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة ثمانمائة درهم، وقبض المال.

ثم بث سراياه، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى اهل ارمينية في إثني عشر

ألفاً .فسار فيها واثخن، ثم انصرف إلى الوليد، وعاد الوليد إلى الكوفة، وجعل طريقه علي الموصل .فلقيه كتاب عثمان بأن الروم أجلبوا على معاوية بالشام، فابعث إليه رجلا من اهل النجدة والبأس في عشرة آلاف عند قراءة الكتاب.

فبعث الوليد الناس مع سلمان بن ربيعة ثمانية آلاف، ومضوا إلى الشام ودخلوا

أرض الروم مع حبيب بن مسلمة، فشنوا عليه الغارات وافتتحوا الحصون .وقيل :أن الذي أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة هو سعيد بن العاص .وذلك أن عثمان كتب إلى معاوية أن يغزي حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية، فبعثه وحاصر قاليقلا حتى نزلوا على الجلاء أو الجزية، فجلا كثيرا إلى بلاد الروم، وأقام فيها فيمن معه أشهرا.

ثم بلغه أن بطريك أرميناقس وهي بلاد ملطية وسيواس وقونية إلى خليج قسطنطينية قد زحف إليه في ثمانين ألفاً، فاستنجد معاوية فكتب إلى عثمان فأمر سعيد بن العاص بإمداد حبيب فأمده بسلمان في ستة آلاف، وبيّت الروم فهزمهم وعاد إلى قاليقلا .ثم سار في البلاد فجاء بطريك خلاط وبيده أمان عياض بن غنم وحمل ما عليهم من المال .فترل حبيب خلاط، ثم سار منها فصالحه صاحب السيرجان ثم صاحب أردستان ثم صالح أهل دبيل بعد الحصار، ثم أهل بلاد السيرجان كلهم .ثم أتى أهل شميشاط فحاربوه فهزمهم وغلب على حصوهم .ثم صالحه بطريك خرزان على بلاده وسار إلى تفليس فصالحوه وفتح عدة حصون ومدن تجاورها. وسار ابن ربيعة الباهلي إلى أران، فصالح أهل البيلقان على الجزية والخراج .ثم

أهل بردعة كذلك وقراها .وقاتل أكراد البوشنجان وظفر بهم، وصالح بعضهم على الجزية، وفتح مدينة شمكور وهي التي سميت بعد ذلك المتوكلية، وسار سلمان حتى فتح فلية وصالحه صاحب كسكر على الجزية، وملكوا شروان وسائر ملوك الجبال إلى مدينة الباب وانصرفوا .ثم غزا معاوية الروم وبلغ عمورية ووجد ما بين إنطاكية وطرسوس من الحصون خاليا فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها.

ولاية عبد الله بن أبي سرح علي مصر وفتح افريقية

وفي سنة ست وعشرين عزل عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل مكانه عبد الله بن أبي سرح أخاه من الرضاعة، فكتب إلى عثمان يشكو عمرا، فاستقدمه

واستقل عبد الله بالخراج والحرب، وأمره بغزو أفريقية .وقد كان عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين سار من مصر إلى برقة فصالح أهلها على الجزية، ثم سار إلى طرابلس فحاصرها شهرا وكانت مكشوفة السور من جانب البحر، وسفن الروم في مرساها .فحصر القوم في بعض الأيام، وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين، فاقتحموا البلد بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم.

وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكره فدخل البلد، و لم تفلت الروم إلا بما خص في المراكب .ورجع إلى مدينة صبرة وقد كانوا قد آمنوا بمنعة طرابلس، فصبحهم المسلمون ودخلوها عنوة .وكمل الفتح ورجع عمرو إلى برقة، فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية وكان أكثر أهل برقة لواتة، وكان يقال أن البربر ساروا

بعد قتل ملكهم جالوت إلى المغرب، وانتهوا إلى لوبيا ومراقية، كورتان من كور مصر .فصارت زناتة ومغيلة من البربر إلى المغرب، فسكنوا الجبال وسكنت لوتة برقة وتعرف قديما إنطابلس .وانتشروا إلى السوس ونزلت هوارة مدينة لبدة، ونزلت نفوسة مدينة صبرة وجلوا من كان هنالك من الروم .وأقام الأفارق وهم خدم الروم وبقيتهم على صلح يؤدونه إلى من غلب عليهم، إلى أن كان صلح عمرو بن العاص .ثم أن عبد الله بن أبي سرح كان أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين .وقال له :أن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم، وأمر عقبة بن نافع عبد القيس على جند، وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر، وسرحهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف، وصالحهم أهلها على مال يؤدونه، ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها.

ثم لما ولي عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به، فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة، منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير، وساروا مع عبد الله بن أبي سرح سنة ست وعشرين .ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها .ثم ساروا إلى إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية، وكان ملكهم جرير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل، ويحمل إليه الخراج .فلما بلغه الخبر جمع مئة وعشرين ألفا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة، دار ملكهم وأقاموا يقتتلون، ودعوه إلى الإسلام أو الجزية .فاستكبر ولحقهم عبد الرحمن بن الزبير مددا بعثه عثمان لما أبطأت

أخبارهم .وسمع جرجير بوصول المدد ففت في عضده، وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح وسأل عنه فقيل :إنه سمع منادي جرجير يقول :من قتل ابن أبي سرح فله مئة ألف دينار وأزوجه ابنتي، فخاف وتأخر عن شهود القتال .فقال له ابن الزبير تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مئة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشد منه.

ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاتلوا الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا، فركب عليهم في الاخرين على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم .ووافق على ذلك أعيان أصحابه ففعلوا ذلك روكبوا من الغد إلى الزوال وألحوا عليهم حتى أتبعوهم ثم افترقوا .وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين، فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حش غشوا الروم في خيامهم، فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وأخذت ابنته سيئة فنفلها ابن الزبير وحاصر ابن أبي شرح سبيطلة ففتحها .وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف .وبث جيوشه في البلاد إلى قفصة، فسبوا وغنموا.

وبعث عسكر إلى حصن الأجم، وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على

الأمان .ثم صالحه أهل إفريفية على ألفى ألف وخمسمئة ألف دينار .وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمئة ألف دينار وبعض الناس يقول أعطاه إياه ولا يصح، وإنما أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى .ثم رجع عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بعد مقامه سنة وثلاثة أشهر.

ولما بلغ هرقل أن أهل أفريقية صالحوه بذلك المال الذي أعطوه غضب عليهم،
وبعث بطريقا يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا :قد كان ينبغي أن يساعدنا مما نزل بنا .فقاتلهم البطريك وهزمهم وطرد الملك الذي ولوه بعد جرجير، فلحق بالشمام .وقد اجتمع الناس على معاوية بعد علي رضي الله عنه، فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكوني في عسكر، فلما وصل الإسكندرية وهلك الرومي ومضى ابن حديج في العساكر، فنزل قونية، وتسرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل وقاتلهم معاوية، فهزمهم معاوية وحاصر حصن جلولاء فامتنع معه حتى سقط ذات سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه.
ثم بث السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا، وعاد إلى مصر .ولما أصاب ابن أبي سرح
من إفريقية ما أصاب ورجع إلى مصر، خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية في ستمائة مركب، وركب المسلمون البحر مع ابن أبي سرح ومعه معاوية في أهل الشام .فلما تراءى الجمعان أرسوا جميعا وباتوا على أمان والمسلمون يقرأون ويصلون .ثم قرنوا سفنهم عند الصباح واقتتلوا ونزل الصبر، واستحر القتل .ثم انهزم قسطنطين جريحا في فل قليل من الروم، وأقام ابن أبي سرح بالموضع أياما، ثم قفل وسمى المكان ذات الصواري والغزوة كذلك لكثرة ما كان بها من الصواري .وكانت هذه الغزاة سنة إحدى وثلاثين وقيل أربعة وثلاثين .وسار قسطنطين إلى صقلية وعرفهم خبر الهزيمة فنكروه وقتلوه في الحمام.
فتح قبرص
كان أبو عبيدة لما احتضر استخلف على عمله عياض بن غنم وكان ابن عمه وخاله، وقيل استخلف معاذ بن جبل .واستخلف عياض بعده سعد بن حذيم الجمحي، ومات شد فولى عمر مكانه عمير بن سعيد الانصاري، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه على دمشق أخاه معاوية، فاجتمعت له دمشق والأردن ومات عمر وهو كذلك وعمير على حمص وقنسرين .ثم استعفى عمير عثمان في مرضه فأعفاه، وضم حمص وقنسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن أبي علقمة وكان على فلسطين فضم عثمان عمله إلى معاوية.
فاجتمع الشام كفه لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان .وكان يلح على عمر في غزو البحر، وكان وهو بحمص كتب إليه في شأن قبرص أن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص وصياح دجاجهم، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص :صف لي البحر وراكبه !فكتب إليه :هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء .أن ركد فلق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قله والشك كثرة .وراكبه دود على عود أن مال غرق وإن نجا برق.
فكتب عمر إلى معاوية :والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً .وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر .وبالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم، فإياك أن

تعرض لي في ذلك .فقد علمت ما لقي العلاء مني .ثم كاتب ملك الروم عمر وقاربه وأقصر عن الغزو .ثم ألح معاوية على عثمان بعده في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم .فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وأبو الدرداء وشداد بن أوص وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان، واستعمل عليهم عبد الله بن قشى حليف بق فزارة، وساروا إلى قبرص، وجاء عبد الله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار بكل سنة .ويؤدون مثلها للروم ولامنعة لهم عن المسلمين ممن أرادهم من سواهم، وعلى أن يكونوا عيناً للمسلمين على عدوهم، ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم وكانت هذه الغزاة سنة ثماني وعشرين وقيل تسعة وعشرين وقيل ثلاثة وثلاثين، وماتت فيها أم حرام سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر.

وكان النبي صلى الله عليه و سلم أخبرها بذلك وأقام عبد الله بن قيس المحاسبي على البحر فغزا خمسين غزاة لم ينكب فيها أحد إلى أن نزل في بعض أيام في ساحل المرقى من أرض الروم، فثاروا إليه فقتلوه ونجا الملاح، وكان قد استخلف سفيان بن عوف الأزدي على السفن، فجاء إلى أهل المرقى وقاتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة.

ولاية ابن عامر علي البصرة وفتوح فارس وخراسان

وفي السنة الثالثة من خلافة عثمان خرج أبو موسى من البصرة غازيا إلى أهل آمد والأكراد لما كفروا، وحمل ثقله على أربعين بغلة من القصر بعد أن كان حض على الجهاد مشيا .فألب الناس عليه ومضوا إلى عثمان فاستعفوه منه .وتولى كبر ذلك غيلان بن جرشة، فعزله عثمان وولى عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وهو ابن خال عثمان، وكان ابن خمس وعشرين سنة.

وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن ابي العاص من عمان والبحرين .فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس، وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد، فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة . ولم يدع كورة إلا أصلحها .ثم ولى عليها سنة أربع أمير بن أحمر اليشكري، وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس .واستعمل على سجستان في سنة أربع عمران بن الفضيل البرجمي، وعلى كرمان عاصم بن عمرو فجاشت فارس وانتقضت بعبيد الله بن عمرو، وجمعوا له فلقيهم بباب اصطخر، فقتل عبيد الله وانهزم جنده، وبلغ الخبر عبد الله بن عامر، فاستنفر أهل البصرة.

وسار بالناس وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص، وفي المجنبتين أبو برزة الأسلمي ومعقل بن يسار، وعلى الخيل عمران بن حصين ولقيهم باصطخر .فقتل منهم مقتلة عظيمة، وانهزموا وفتح اصطخر عنوة، وبعدها دارا بجرد .وسار إلى مدينة جور وهي أردشيرخرت، وكان هرم بن حيان محاصرا لها فلما جاء ابن عامر فتحها، ثم عاد إلى اصطخر وقد نقضت، فحاصرها طويلاً ورماها بالمجانيق واقتحمها عنوة ففني فيها أكثر أهل البيوتات والأساورة لأنهم كانوا لجأوا إليها، ووطيء أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل .وكتب إلى عثمان بالفتح، فكتب إليه أن يستعمل على كور فارس هرم بن حيان اليشكري وهرم بن حيان العبسي والخريت بن

راشد وأخاه المنجاب من بني سلمة، والبرجمان الهجيمي .وأن يفرق كرر خراسان بين ستة نفر :الأحنف بن قيس على المرو، وحبيب بن قرط اليربوعي على بلخ، وخالد بن عبد الله بن زهيرعلى هراة، وأمير بن أحمر اليشكري على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور.

ثم جمع عثمان خراسان كفها لقيس، واستعمل أمير بن أحمر اليشكري على سجستان، ثم بعده عبد الرحمن بن سمرة من قرابة ابن عامر بن كريز .فلم يزل عليها حتى مات عثمان، وعمران على كرمان، وعمير بن عثمان بن مسعود على فارس، وابن كريز القشيري على مكران .وخرج على قيس بن هبيرة بعد موت عثمان ابن عمه عبد الله بن حازم كما نذكره.

ولما افتتح ابن عامر فارس أشار عليه الناس بقصد خراسان وكانوا قد انتقضوا،

فسار إليها وقيل عاد إلى البصرة، واستخلف على فارس شريك بن الأعور الحارثي فبنى مسجدها .فلما دخل البصرة أشار عليه الأحنف بن قيس وحبيب بن أوس بالمسير إلى خراسان، فتجهز واستخلف على البصرة زياد بن أبيه، وسار إلى كرمان وقد نكثوا، فبعث لحربهم مجاشع بن مسعود السلمي، ولحرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي .وسار هو إلى حوالي نيسابور .وتقدمهم الأحنف بن قيس إلى الطبسين حصنان هما بابا خراسان، فصالحه أهلها وسار إلى قوهستان فقاتل أهلها حتى أحجرهم في حصنهم، ولحقه ابن عامر فصالحوه على ستمائة ألف درهم .وقيل كان المتولي حرب قوهستان أمير بن أحمر اليشكري.

ثم بعث ابن عامر السرايا إلى أعمال نيسابور ففتح رستاق رام عنوة وباخرز وجيرفت

عنوة .وبعث الأسود بن كلثوم بن عدى الرباب، -وكان ناسكا -إلى بيهق من أعمالها .فدخل البلد من ثلمة كانت في سورها، وقاتل حتى قتل، وظفر أخوه أدهم بالبلد .وفتح ابن عامر بشت -بالشين المحجمة -من أعمال نيسابور، ثم اسفارين ثم قصد نيسابور .وبعدها استولى على أعمالها فحاصرها شهرا، وكان بها أربع مرازبة من فارس فسأل واحد منهم الأمان على أن يدخلهم ليلا، وفتح لهم الباب وتحضن الأكبر منهم في حصنها حتى صالح على ألف ألف درهم.

وولى ابن عامر على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي .وبعت جيشاً إلى نساوابورد. فصالحهم أهلها، وآخر إلى سرخس فصالحوا مرزبانها على أمان مئة رجل لم يدخل فيها نفسه، فقتله واقتحمها عنوة .وجاء مرزبان طوس فصالحه على ستمائة ألف درهم، وبعث جيشا إلى هراة مع عبد لله بن حازم فصالح مرزبانها على ألف ألف درهم .ثم بعث مرزبان مرو فصالح على ألف ألف ومائتي ألف .وأرسل إليه ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي، ثم بعث الأحنف بن قيس إلى طخارستان فصالح في طريقه رستاقا على ثلاثمائة ألف وعلى أن يدخل رجل يؤذن فيه ويقيم حتى ينصرف .ومر إلى مرو الروذ، وزحف إليه أهلها فهزمهم وحاصرهم، وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن، فكتب إلى الأحنف متوسلا بذلك في الصلح، فصالحه على ستمائة ألف .ثم اجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب في جمع عظيم، وقيهم الأحنف فقاتلهم قتالا شديدا، ثم انهزموا فقتلوا قتلا ذريعا.

ورجع الاحنف إلى مرو الروذ، وبعث الأقرع بن حابس إلى ففهم بالجوزجان
فهزمهم وفتحها عنوة .ثم فتح الأحنف الطالقان صلحا والفارياب صلحاً .وقيل بل فتحها أمير بن أصر .ثم سار الأحنف إلى بلخ، وهي مدينة طخارستان، فصالحوه على أربعمائة ألف، وقيل سبعمائة، واستعمل عليها أسيد بن المنشمر .ثم سار إلى خوارزم على نهر جيحون فامتنعت عليه، فرجع إلى بلخ وقد استوفى أسيد قبض المال، وكتبوا إلى ابن عامر .ولما سار مجاشع بن مسعود إلى كرمان كما ذكرناه وكانوا قد انتقضوا ففتح هميد عنوة وبنى بها قصراً ينسب إليه .ثم سار إلى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها وفتحها عنوة وجلى كثيراً من أهلها .ثم فتح جيرفت عنوة، ودوخ نواحي كرمان وأتى القفص، وقد تجمع له من العجم من أهل الجلاء .وقاتلهم فظفر وركب كثير منهم البحر إلى كرمان وسجستان.
ثم نزل العرب إلى منازلهم وأراضيهم، وسار الربيع بن زياد الحارثي بولاية ابن
عامر كما قدمناه إلى سجستان، فقطع المفازة من كرمان حتى أتى حصن زالق، فأغار عليهم يوم المهرجان وأسر دهقانهم فافتدى بما غمر عترة قاعة من الذهب والفضة، وصالحوه على صلح فارس وصار إلى زريخ، ولقبه المشركون دونها فهزمهم وقتلهم وفتح حصونا عدة بينها وبينه .ثم انتهى إليها وقاتله أهلها فاحجرهم وحاصرهم، وبعث مرزبانها في الأمان ليعضد فأمنه، وجلس له على شلو من أشلاء القتلى وارتفق بآخر وفعل أصحابه مثله.
فرعب المرزبان من ذلك، وصالح على ألف جام من الذهب يحملها ألف وصيف .ودخل المسلمون المدينة ثم سار منها إلى وادي سنارود فعبره إلى القرية التي كان رستم الشديد يربط بها فرسه فقاتلهم وظفر بهم، وعاد إلى زريخ فأقام بها سنة، ثم سار بها إلى ابن عامر، واستخلف عليها عاملا فأخرجوه وامتنعوا .فكانت ولاية الربيع سنة ونصف سنة، سبى فيها أربعين ألف رأس وكان الحسن البصري يكتب له .ثم استعمل ابن عامر على سجستان عبد الرحمن بن سمرة فسار إليها وحاصر زريخ حتى صالحوه على ألفي ألف درهم، وألفي وصيف وغلب على ما بينهما وبين الكش من ناحية الهند، وعلى ما بينها وبين الدادين من ناحية المرجح.
ولما انتهى إلى بلد الدادين حاصرهم في بلد الزور حتى صالحوه، ودخل على الزور، وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان .فأخذهما وقطع يده وقال للمرزبان :دونك الذهب والجوهر وإنما قصدت أنه لا يضر ولا ينفع .ثم فتح كامل وزابلستان وهي بلاد غزنة فتحها صلحاً.
ثم عاد إلى زريخ إلى أن اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أمير بن أحمر، وانصرف فأخرجه أهلها وانتقضوا .ولما كمل الفتح لابن عامر في فارس وخراسان وكرمان وسجستان قال له الناس : لم يفتح لأحط ما فتح عليك فقال :لا جرم لأجعلن شكري لله
على ذلك أن أخرج محرما من موقفي هذا .فاحرم بعمرة من نيسابور .وقدم على ضمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم فسار قيس في أرض طخارستان ودوخها، وامتنع عليه أهل سنجار وافتتحها عنوة.
ولاية سعيد بن العاص الكوفة

كان عثمان لأول ولايته قد ولى على الكوفة الوليد بن عقبة، استقدمه إليها من عمله بالجزيرة، وعلى بني تغلب وغيرهم من العرب .فبقي على ولاية الكوفة خمس سنين وكان أبو زبيد الشاعر قد انقطع إليه من أخواله بني تغلب ليد اسداها إليه، وكان نصرانيا فأسلم على يده، وكان يغشاه بالمدينة والكوفة .وكان أبو زبيد يشرب الخمر، وكان بعض السفهاء يتحدث بذلك في الوليد لملازمته إياه .ثم عدا الشباب من الأزد بالكوفة على رجل من خزاعة فقتلوه ليلا في بيته، وشهد عليهم أبو شريح الخزاعي، فقتلهم الوليد فيه بالقسامة .وأقام آباءهم للوليد على حقه، وكانوا ممن يتحدثون فيه وجاءوا إلى ابن مسعود بمثل ذلك .فقال :لا نتبع عورة من استترعنا.

وتغيض الوليد من هذه المقالة، وعاتب ابن مسعود عليها .ثم عمد أحد أولئك

المرهط إلى ساحر قد أتى به الوليد فاستفتى ابن مسعود فيه وافتى بقتله .وحبسه الوليد ثم أطلقه فغضبوا وخرجوا إلى عثمان شاكين من الوليد، وإنه يشرب الخمر .فاستقدمه عثمان وأحضره وقال رأيتموه يشرب؟ قالوا لا وإنما رأيناه يقيء الخمر .فأمر سعيد بن العاص فجلده وكان علي حاضرا فقال :انزعوا خميصته للجلد . وقيل أن عليا أمر ابنه الحسن أن يجلده فأبى، فجلده عبد الله بن جعفر .فلما بلغ أربعين قال أمسك جلد رسول الله صلى الله عليه و سلم وأبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين، وكل سنة.

ولما وقعت هذه الوقعة عزل عثمان الوليد عن الكوفة، وولى مكانه سعيد بن

العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، مات سعيد الأول كافرا، وكان يكنى أحيحة وخالد ابنه عم سعيد الثاني، ولاه رسول الله صلى الله عليه و سلم صنعاء، وكان يكتب له، واستشهد يوم مرج الصفر .وربي سعيد الثاني في حجر عثمان، فلما فتح الشام أقام مع معاوية ثم استقدمه عثمان وزوجه، وأقام عنده حتى كان من رجال قريش .فلما استعمله عثمان وذلك سنة ثلاثين سار إلى الكوفة ومعه الأشتر وأبو خيفة الغفاري

وجندب بن عبد الله والصب بن

جثامة، وكانوا شخصوا مع الوليد ليعينوه فصاروا عليه.

فلما وصل خطب الناس وحذرهم وتعرف الأحوال وكتب إلى عثمان أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب الروادف والتابعة على أهل الشرف والسابقة .فكتب إليه عثمان أن يفضل أهل السابقة، ويجعل من جاء يعدهم تبعا ويعرف لكل مترلته ويعطيه حقه .فجمع الناس وقرأ عليهم كتاب عثمان وقال :أبلغوني حاجة ذي الحاجة .وجعل القراء في سمرة، فلم ترض أهل الكوفة ذلك، وفشت المقالة وكتب سعيد إلى عثمان، فجمع الناس واستشارهم فقالوا أصبت لا تطمع في الأمور من ليس لها بأهل فتفسد فقال :يا أهل المدينة !إني أرى الفتن دبت إليكم .وإني أرى أن أتخلص الذي لكم وانقله إليكم، من العراق، فقالوا وكيف ذلك؟ قال تبيعونه ممن شئتم بمالكم في الحجاز واليمن، ففعلوا ذلك واستخلصوا ما كان لهم بالعراق، منهم طلحة ومروان والأشعث بن قيس ورجال من القبائل اشتروا ذلك بأموال كانت لهم بخيبر ومكة

والطائف.

غزو طبرستان

وفي هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان، و لم يغزها أحد قبله .وقد تقدم أن الأصبهبذ صالح سويد بن مقرن عنها أيام عمر على مال، فغزاها سعيد في هذه السنة ومعه ناس من أصحاب رسول الله- صلى الله عليه و سلم ، منهم الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وحذيفة بن اليمان في غيرهم . ووافق خروج ابن عامر من البصرة إلى خراسان، فترل نيسابور، ونزل سعيد قومس وهي صلح كان حذيفة صالحهم عليه بعد نهاوند، فأتى سعيد جرجان فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى متاخما جرجان على البحر فقاتله أهلها.

ثم سألوا الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلا واحدا .وفتحوا، فقتلهم أجمعين إلا رجلاً، وقتل معهم محمد بن الحكم بن أبي عقيل جد يوسف بن عمرو، وكان أهل جرجان يعطون الخراج تارة مئة ألف وأخرى مائتين وثلاثمائة، وربما منعوه .ثم امتنعوا وكفروا، فانقطع طريق خراسان من ناحية قومس إلا على خوف شديد .وصار الطريق إلى خراسان من فارس كما كان من قبل، حتى ولي قتيبة بن مسلم خراسان، وقدمها يزيد بن المهلب، فصالح المرزبان وفتح البحيرة ودهستان وصالح أهل جرجان على صلح سعيد.

غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف

وفي سنة ثلاثين هذه صرف حذيفة من غزو الري إلى غزو الباب مددا لعبد الرحمن بن ربيعة، وأقام له سعيد بن العاص باذربيجان ردءا حتى عاد بعد مقتل عبد الرحمن كما مر، فأخبره بما رأى من اختلاف أهل البلدان في القرآن، وأن أهل حمص يقولون :قراءتنا خير من قراءة غيرنا، وأخذناها عن المقداد، وأهل دمشق يقولون كذلك، وأهل البصرة عن أبي موسى، وأهل الكوفة عن ابن مسعود .وأنكر ذلك واستعظمه وحذر من الاختلاف في القرآن، ووافقه من حضر من الصحابة والتابعين، وأنكر عليه أصحاب ابن مسعود فأغلظ عليهم وخطأهم، فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وافترق المجلس.

وسار حذيفة إلى عثمان فأخبره وقال :أنا النذير العريان، فأدرك الأمة .فجمع

عثمان الصحابة فرأوا ما رآه حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة أن ابعثي إلينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هي التي كتبت أيام أبي بكر، فإن القتل لما استحر في القراء يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر :أرى أن تأمر بجمع القرآن، لئلا يذهب الكثير منه لفناء القراء فأبى أولاً وقال :أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم لفعله .ثم استبصر ورجع إلى رأي عمر، وأمر زيد بن ثابت بجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال . وكتب في الصحف فكانت عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة .وأرسل عثمان فأخذها .وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف وقال :إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ففعلوا، ونسخوا المصاحف فبعث إلى كل أفق بمصحف يعتمد عليه وحرق ما سوى ذلك فقبل ذلك الصحابة في سائر الأمصار، ونكره عبد لله بن مسعود في الكوفة حتى نهاهم عن ذلك وحملهم عليه.

مقتل يزدجرد

لما خرج ابن عامر من البصرة إلى فارس وافتتحها هرب يزدجرد من جور وهي أردشير خره في سنة ثلاثين، فبعث ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود، وقيل هرم بن

حيان اليشكري، وقيل العنسي فاتبعه إلى كرمان، فهرب إلى خراسان .وهلك الجند في طريقهم بالثلج، فلم يسلم إلا مجاشع ورجل معه، وكان مهلكهم على خمسة فراسخ من السيرجان .ولحق يزدجرد بمرو ومعه خرزاذ أخو رستم، فرجع عنه إلى العراق ووصى به ما هو به مرزبان مرو، فسأله في المال فمنعه وخافه علي نفسه وعلى مرو .واستجاش بالترك فبيتوه وقتل أصحابه، وهرب يزدجرد ماشيا إلى شط المرغاب، وآوى إلى بيت رجل ينقل الأرحاء، فلما نام قتله ورماه في النهر، وقيل إنما بيته أهل مرو .ولما جاءوا إلى بيت الرجل أخذوه وضربوه فأقر بقتله فقتلوه وأهله، واستخرجوا يزدجرد من النهر، وحملوه في تابوت إلى اصطخر، فدفن في ناوس هنالك.

وقيل أن يزدجرد هرب من وقعة نهاوند إلى أرض أصبهان، واستأذن عليه بعض رؤسائها وحجب فضرب البواب وشجه، فرحل عن أصبهان إلى الري .وجاء صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده فلم يجبه، ومضى من فوره ذلك إلى سجستان ثم إلى مرو في ألف فارس .وقيل بل أقام بفارس أربع سنين ثم بكرمان سنتين، وطلبه دهقانها في شيء فمنعه فطرده عن بلاده .وأقام بسجستان خمس لسنين، ثم نزل خراسان ونزل مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين وفرخزاذ، وكاتب ملوك الصين اوفرغانة والخزار وكابل.

وكان دهقان مرو قد منعه الدخول خوفا من مكره، ووكل ابنه بحفظ الأبواب، فعمد يزدجرد يوما إلى مرو ليدخلها، فمنعه ابن الدهقان وأظهر عصيان أبيه في ذلك .وقيل بل أراد يزدجرد أن يجعل ابن أخيه دهقانا لجها فعمل في هلاكه وكتب إلى نيزك طرخان يستقدمه لقتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه، وأن يعطيه في اقتناعه كل يوم ألف درهم كتب نيزك إلى يزدجرد يعده المساعدة على العرب، وإنه يقدم عليه فيلقاه منفردا عن العسكر وعن فرخزاذ، فأجابه إلى ذلك بعد أن امتنع فرخزاذ واتهمه يزدجرد في امتناعه، فتركه لشانه بعد أن أخذ خطه برضاه بذلك.

وسار إلى نيزك فاستقبله بأشياء وجاء به إلى معسكره، ثم سأله أن يزوجه ابنته،

فأنف يزدجرد من ذلك وسبه .فعلا رأسه بالمقرعة، فركض منهزماً وقتل أصحابه، وانتهى إلى بيت طحان فمكث فيه ثلاثا لم يطعم، ثم عرض عليه الطعام فقال لا أطعم إلا بالزمزمة فسأل من زمزم له حتى أكل، ووشى المزمزم بأمره، إلى بعض الأساورة فبعث إلى الطحان بخنقه وإلقائه في النهر، فأبى من ذلك وجحده، فدل عليه ملبسه وعرف

المسك فيه لأخذوا ما عليه وخنقوه والقوه في الماء، فجعله اسقف مرو في تابوت ودفنه .وقيل بل سار يزدجرد من كرمان قبل وصول العرب إليها إلى مرو في أربعة آلاف على الطبسين وقهستان، ولقيه قبل مرو قائدان من الفرس متعادين، فسعى أحدهما في الآخر ووافقه يزدجرد في قتله، ونمى الخبر إليه فبيت يزدجرد وعدوه،

فهرب إلى رحى على فرسخين من مرو، وطلب منه الطحان شيئاً فأعطاه منطقته .فقال إنما أحتاج إلى أربعة دراهم، فقال :ليست معي ثم نام، فقتله الطحان وألقى شلوه في الماء .وبلغ خبر قتله إلى المطران بمرو، فجمع النصارى وعظم عليهم من حقوق سلفه، فدفنوه وبنوا له ناووساً، وأقاموا له مأتما بعد عشرين سنة من ملكه، ستة عشر منها في محاربة العرب .وانقرض ملك الساسانية بموته.

ويقال :أن قتيبة حين فتح الصغد وجد جاريتين من ولد المخدج ابنه قد وطئا أفه

بمرو، فولدت هذا الغلام بعد موته ذاهب الشق، فسفي المخدج وولد له أولاد بخراسان .وجد قتيبة هاتين الجاريتين من ولده، فبعث بهما إلى الحجاج وبعث بهما إلى الوليد أو بأحدهما فولدت له يزيد الناقص.

ظهور الترك بالثغور

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما رأوا من شدتهم وظهورهم في غزواتهم، حتى أكمنوا لهم في بعض الغياض فقتلوا بعضهم، فتجاسروا على حربهم .وكان عبد الرحمن بن ربيعة على ثغور أرمينيا إلى الباب استخلفه عليها سراقة بن عمر، وأقره عمر وكان كثير الغزو في بلاد الخزر، وكثيرا ما كان يغزو بلنجر، وكان عثمان قد نهاه عن ذلك فلم يرجع .فغزاهم سنة اثنين وثلاثين، وجاء الترك لمظاهرتهم وتذامروا، فاشتدت الحرب بينهم .وقتل عبد الرحمن كما مر، وافترقوا فرقتين :فرقة سارت نحو الباب لقوا سلمان بن ربيعة، قد بعثه سعيد بن العاص من الكوفة مدداً للمسلمين بأمر عثمان فساروا معه، وفرقة سلكوا على جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة.

ثم استعمل سعيد بن العاص على الباب سلمان بن ربيعة مكان أخيه، وبعث معه

جندا من أهل الكوفة حذيفة بن اليمان، وأمدهم عثمان بحبيب بن مسلمة في جند الشام، وسلمان أمير على الجميع .ونازعه حبيب الأمارة فوقع الخلاف .ثم غزا حذيفة

بعد ذلك ثلاث غزوات عند آخرها مقتل عثمان.

وخرجت جموع الترك سنة اثنين وثلاثين من ناحية خراسان في أربعين ألفا عليهم قارن من ملوكهم فانتهوا إلى الطبسين .واجتمع له أهل بادغيس وهراة وقهستان، وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمي، استخلفه عند عامر ابن عليها

خ
ر
و
ج

مكة إلى ه

:لابن عامر فقال ،عفه عبد الله بن حازم ابن جهتها، وكان معه فدوخ محرماً

فلما ،فعلف خرج منها قيس إذا اكتب لي على خراسان عهداأقبلت جموع الترك

قال قيس لابن حازم: ما ترى؟ قال أرى أن تخرج عن البلاد فإن عهد ابن عامر عندي بولايتها، فترك منازعته

وذهب إلى ابن عامر .وبي أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستحده، فلما خرج أظهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس.

وسار ابن حازم للقاء الترك في أربعة آلاف، ولما التقى الناس أمر جيشه بإيقاد النار في أطراف رحالهم، فهاج العدو على دهش وغشيهم ابن حازم بالناس متتابعين، فانهزموا وأثخن إ المسلمون فيهم بالقتل والسبي .وكتب ابن حازم بالفتح إلى ابن عامر فأقرة على خراسان، فلم يزل واليا عليها إلى حرب الجمل .فأقبل إلى البصرة .

وبقي أهل البصرة بعد غزوة ابن حازم هذه حتى غزوا المنتقضين من أهلها، وعادوا جفزوا كتيبة من أربعة آلاف فارس هنالك.

بدء الانتقاض علي عثمان رضي الله عنه

لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم

وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه و سلم والإقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم .وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلا منهم، وكان لهم في الفتوحات قدم.

فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل

الملائكة، فلما انحسر ذلك العباب، وتنوسي الحال بعض الشيء، وذل العدو واستفحل الملك.

كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من

قريش وسواهم فأنفت نفوسهم منه، ووافق أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والإستبطاء عليهم في الطاعات، والتجني بسؤال الإستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان.

وفشت المقالة في ذلك من اتباعهم، وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها، وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه .وبعث إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر :محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، وغيرهم إلى سوى هذه.

فرجعوا إليه فقالوا ة ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم إلا عمارا فانه استماله قوم من الأشرار انقطعوا إليه، منهم عبد الله بن سبأ ويعرف بإبن السواد، كان يهوديا وهاجر أيام عثمان فلم يحسن إسلامه، وأخرج من البصرة فلحق بالكوفة ثم بالشام، وأخرجوه فلحق بمصر، وكان يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر لأهل البيت، ويقول :أن محمدا يرجع كما يرجع عيسى.

وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة وإن عليا رضي الله عنه وصي رسول الله صلى الله عليه و سلم حيث لم يجز وصيته، وإن عثمان أخذ الأمر بغير حق، ويحرض الناس على القيام في ذلك والطعن على الأمراء .فاستمال الناس بذلك في الأمصار، وكاتب به بعضهم بعضا .وكان معه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر، فثبطوا عماراً عن المسير إلى المدينة.

وكان مما انكروه على عثمان إخراج أبي ذر من الشام ومن المدينة إلى الربذة.

وكان الذي دعا إلى ذلك شدة الورع من أبي ذر، وحمله الناس على شدائد الأمور والزهد في الدنيا، وإنه لا ينبغي لأحد أن يكون ضده أكثر من قوت يومه، ويأخذ بالظاهر في ذم الإدخار بكتر الذهب والفضة .وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية، ويعيب قوله :المال

مال الله .ويوهم أن في ذلك احتجانه للمال وصرفه على المسلمين، حتى عتب أبو ذر في ذلك معاوية فاستعتب له وقال :سأقول ما للمسلمين .وأتى ابن سبأ إلى أبي الدرداء وعبادة بن الصامت بمثل ذلك فدفعوه، وجاء به عبادة إلى معاوية وقال :هذا الذي بعث عليك أبا ذر.

ولما كثر ذلك على معاوية شكاه إلى عثمان فاستقدمه وقال له :ما لأهل الشام يشكون منك؟ فأخبره فقال :يا أبا ذر لا يمكن حمل الناس على الزهد وإنما علي أن أقضي بينهم بحكم الله وأرغبهم في الإقتصاد فقال أبو ذر : لا نرضى من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا للجيران والإخوان ويصلوا القرابة .فقال له كعب الأحبار : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه، فضربه أبو ذر فشجه وقال :يا ابن اليهودية ما أنت وهذا؟ فاستوهب عثمان من كب شجته فرهبه.

ثم استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال :أن رسول الله- صلى الله عليه و سلم أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا فأذن له .ونزل الربذة وبنى بها مسجدا، واقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقا، وكان يتعاهد المدينة .فعد أولئك الرهط خروج أبي ذر فيما ينقمونه على عثمان مع ما كانوا يعدون عليه من إعطاء مروان خمس مغانم إفريقية، والصحيح أنه اشتراه بخمسمائة ألف فوضعها عنه.

ومما عدوا عليه أيضاً زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة، وإتمامه الصلاة في منى وعرفة، مع أن الأمر في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم والشيخين بعده كان على القصر.

ولما سأله عبد الرحمن واحتج عليه بذلك قال له :بلغني أن بعض حاج اليمن والجفاة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتي، وقد اتخذت بمكة أهلاً، ولي بالطائف مال .فلم يقبل ذلك عبد الرحمن فقال :زوجتك بمكة إنما تسكن بسكناك ولو خرجت خرجت، ومالك بالطائف على أكثر من مسافة القصر.

وأما حاج اليمن فقد شهدوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه و سلم والشيخين بعده، وقد كان الإسلام ضرب بجرانه .فقال عثمان :هذا رأي رأيته .فمن الصحابة من تبعه على ذلك، ومنهم من خالفه.

ومما عدوا عليه سقوط خاتم النبي صلى الله عليه و سلم من يده في بئر أريس على ميلين من المدينة فلم يوجد.

وأما الحوادث التي وقعت في الأمصار فمنها قصة الوليد بن عقبة وقد تقدم ذكرها، وإنه عزله على شرب الخمر، واستبدله بسعيد بن العاص منه .وكان وجوه الناس وأهل القادسية يسمرون عنده، مثل مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس من النخع، وثابت بن قيس الهمداني وجندب بن زهير العامري وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي وصعصعة بن صوحان وأخوه زيد وابن الكواء، وكميل بن زياد وعمير بن ضابىء وطليحة بن خويلد.

وكانوا يفيضون في أيام الوقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم، وربما ينتهون إلى الملاحاة، ويخرجون منها إلى المشاتمة والمقاتلة، ويعذلهم في ذلك حجاب سعيد بن العاص فيهزمونهم ويضربونهم .وقد قيل :أن سعيدا قال يوما إنما هذا السواد بستان قريش، فقال له الأشتر :السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا تزعم أنه بستان لك ولقومك؟ وخاض القوم في ذلك فأغلظ لهم عبد الرحمن الأزدي صاحب شرطته فوثبوا عليه وضربوه حتى عشي عليه . فمنع سعيد بعدما السمر عنده، فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيدا وعثمان، والسفهاء يغشونهم.

فكتب سعيد وأهل الكوفة إلى عثمان في اخراجهم فكتب أن يلحقوهم بمعاوية،

وكتب إلى معاوية أن نفرا خلقوا الفتنة فقم عليهم وانههم، وإن أنست منهم رشدا فأقبل منهم، وإن أعيوك فارددهم علي .فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق وأقاموا عنده يحضرون مائدته، ثم قال لهم يوما :أنتم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفا، وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشا، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة .إذ ائمتكم لكم جنة فلا تفترقوا على جنتكم، وإن ائمتكم يصبرون لكم على الجور ويحملون عنكم المؤنة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ولا يحمدكم على الصبر، ثم تكونوا شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم.

فقال له صعصعة منهم :أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر الناس ولا أمنعها

في الجاهلية فتخوفنا، وإما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا .فقال معاوية :الآن عرفتكم وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قفة العقول وأنت خطيبهم، ولا .أرى لك عقلا أعظم عليك أمر الإسلام . وتذكرني في الجاهلية، أخزى الله قوماً عظموا أمركم، افقهوا عني ولا أظنكم تفقهون.

ثم ذكر شأن قريش وإن عزها إنما كان بالله في الجاهلية والإسلام و لم يكن بكثرة

ولا شدة، وكانوا على أكرم أحساب وأكمل مروءة وبوأهم الله حرمه فآمنوا فيه مما أصاب العرب والعجم والأسود والأحمر في بلادهم .ثم ذكر بعثة النبي صلى الله عليه و سلم وان الله ارتضى له أصحابا كان خيارهم قريشا .فبنى الملك عليهم، وجعل الخلافة فيهم، فلا يصلح ذلك إلا بهم .ثم قرعهم ووبخهم وهددهم،

ثم أحضرهم بعد أيام وقال :إذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحدا ولا يضره، وإن أردتم النجاة فالزموا الجماعة ولا تبطرنكم النعمة وسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

وكتب إلى عثمان إنه قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أبطرهم العدل،

إنما همهم الفتنة وأموال اهل الذمة والله مبتليهم ثم فاضحهم وليسوا بالذين يأتون الأمر إلا مع غيرهم، فإنه سعيدا ومن عنده عنهم .فخرجوا من عنده قاصدين الجزيرة، ومروا .بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص فأحضرهم وقال :يا الة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا، قد رجع الشيطان محسورا وانتم بعد في نشاط .

خسر الله عبد الرحمن أن لم يؤدبكم، يا معشر من لا ادري أعرب هم أم عجم .ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوه وما قالوه لسعيد ومعاوية .فهابوا سطوته وطفقوا يقولون نتوب إلى الله، أقلنا أقالك الله .حتى قال :تاب الله عليكم، وسرح الأشتر إلى عثمان تائباً .فقال له عثمان :أحلك حيث تشاء .فقال :مع عبد الرحمن بن خالد .قال ذاك إليك !فرجع إليه وقيل :إنهم عادوا إلى معاوية من القابلة، ودار بينهم وبينه القول واغلظوا له، وأغلظ عليهم وكتب إلى عثمان فأمر أن يردهم إلى سعيد، فردهم فأطلقوا ألسنتهم وضج سعيد منهم، وكتبوا إلى عثمان فكتب إليه أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد، فدار بينهم وبينه ما قدمناه.

وحدث بالبصرة مثل ذلك من الطعن، وكان بدؤه فيما يقال شأن عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، هاجر إلى الإسلام من اليهودية ونزل على حكيم بن جبلة العبدي، وكان يتشيع لأهل البيت ففشت مقالته بالطعن، وبلغ ذلك حكيم بن جبلة،

فأخرجه وأتى الكوفة، فأخرج أيضاً واستقر بمصر .وأقام يكاتب أصحابه بالبصرة ويكاتبونه، والمقالات تفشو بالطعن والنكير على الأمراء .وكان حمران بن أبان أيضاً يحقد لعثمان أنه ضربه على زواجه امرأة في العدة وسيره إلى البصرة فلزم ابن عامر .وكان بالبصرة عامر بن عبد القيس وكان زاهدا متقشفا، فأغرى به حمران صاحبه ابن عامر، فلم يقبل سعايته .ثم أذن له عثمان فقدم المدينة ومعه قوم فسعوا بعامر بن عبد القيس إنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة، فألحقه عثمان بمعاوية وأقام عنده حتى تبينت براءته وعرف فضله وحقه، وقال :إرجع إلى صاحبك !فقال لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا !وأقام بالشام كثير العبادة والإنفراد بالسواحل إلى أن هلك.

ولما فشت المقالات بالطعن والإرجاف على الأمراء اعتزم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة أربع وثلاثين، وكان قبلها قد ولى على الأعمال أمراء من قبله فولى الأشعث بن قيس على أذربيجان، وسعيد بن قيس على الري، والنسير العجلي على همدان والسائب بن الأقرع على أصبهان، ومالك بن حبيب على ماه، وحكيم بن سلامة على الموصل، وجرير بن عبد الله على قرقيسيا، وسلمان بن ربيعة على الباب .وجعل على حلوان عتيبة بن النفاس، وعلى الحرب القعقاع بن عمرو .فخرجوا لأعمالهم وخرج هو وافدا على عثمان، واستخلف عمرو بن حريث، وخلت الكوفة من الرؤساء .وأظهر الطاعنون أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان، فبادره القعقاع بن عمرو فقال له :إنما تستعفي من سعيد .وكتب يزيد إلى الرهط الذين عند

عبد الرحمن بن خالد بحمص في القدوم، فساروا إليه وسبقهم الأشتر، ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول :جئتكم من عند عثمان، وتركت سعيدا يريده على نقصان نسائكم على مئة درهم ورد أولى البلاء منكم إلى ألفين، ويزعم أن فيئكم بستان قريش .ثم استخلف الناس، ونادى يزيد في الناس :من شاء أن يلحق بيزيد لرد سعيد فليفعل .فخرجوا وذوو الرأي يعذلونهم فلا يسمعون .وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث، ونزل يزيد وأصحابه الجرعة قريبا من القادسية لاعتراض سعيد ورده .فلما وصل قالوا : ارجع فلا حاجة لنا بك .قال :إنما كان يكفيكم أن تبعثوا واحداً إلي أو إلى عثمان .وقال مولى له :ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع، فقتله الأشتر، ورجع سعيد إلى

عثمان فأخبره بخبر القوم، وإنهم يختارون أبا موسى الأشعري فولاه الكوفة، وكتب إليهم :أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد، ووالله لأقرضنكم عرضي، ولأبذلنكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي. وخطب أبو موسى الناس وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان فرضوا، ورجع الأمراء من قرب الكوفة، واستمر أبو موسى على عمله.

وقيل أن أهل الكوفة أجمع رأيهم أن يبعثوا إلى عثمان ويعذلوه فيما نقم عليه، فأجمع رأيهم على عامر بن عبد القيس الزاهد، وهو عامر بن عبد الله من بني تميم ثم من بني العنيس فأتاه .وقالوا له :أن ناسا اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك ركبت أمورا عظاما، فاتق الله وتب إليه .فقال عثمان :ألا تسمعون إلى هذا الذي يزعم الناس أنه . قارىء، ثم يجيء يكلمني في المحقرات؟ ووالله لا يدري أين الله .فقال عامر :بل والله إني لأدري أن الله لبالمرصاد .فأرسل عثمان إلى معاوية وعبد الله بن أبي سرح وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وعمرو بن العاص -وكانوا بطانته دون الناس -فجمعهم وشاورهم وقال :إنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما رأيتم .فطلبوا أن أعزل عمالي وأرجع إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم .فقال ابن عامر :أرى أن تشغلهم بالجهاد، وقال سعيد :متى تهلك قادتهم تفرقوا .وقال معاوية :إجعل كفالتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام .وقال عبد الله :استصلحهم بالمال .فردهم عثمان إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ليكون لهم فيها شغل، ورد سعيدا إلى الكوفة، فلقيه الناس بالجزعة وردوه كما ذكرناه، وولى أبا موسى .وأمر عثمان حذيفة بغزو الباب فسار نحوه.

ولما كثر هذا الطعن في الأمصار، وتواتر بالمدينة، وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه، وكان له منهم شيعة يذبون عنه :مثل زيد بن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، فلم يغنوا عنه .

واجتمع الناس إلى علي بن أبي طالب وكلموه وعددوا عليه ما نقموه .فدخل على عثمان وذكر له شأن الناس وما نقموا عليه، وذكره بأفعال عمر وشدته ولينه هو لعماله، وعرضي عليه ما يخاف من عواقب ذلك في الدنيا والآخرة .فقال له :أن المغيرة بن شعبة وليناه وعمر ولاه ومعاوية كذلك .وابن عامر تعرفون رحمه وقرابته .فقال له علي :أن عمر كان يطأ على صماخ من ولأه، وأنت ترفق

بهم، وكان أخوف لعمر من غلامه يرفأ .ومعاوية يتبد عليك ويقول هذا أمر عثمان فلا تغير عليه .ثم تكالما طويلا وافترقا، وخرج عثمان على أثر ذلك وخطب، وعرض بما هو فيه من الناس وطعنهم، وما يريدون منه، وإنهم تجرأوا عليه لرفقه بما لم يتجرأوا بمثله على ابن الخطاب، ووافقهم برجوعه في شأنه إلى ما يقدمهم.

حصار عثمان ومقتله رضي الله عنه وأثابه ورفع درجته

ولما كثرت الإشاعة في الأمصار بالطعن على عثمان وعماله، وكتب بعضهم إلى بعض في ذلك، وتوالت الأخبار بذلك على أهل المدينة، جاءوا إلى عثمان وأخبروه فلم يجدوا عنده علما منه .وقال :أشيروا علي وانتم شهود المؤمنين .قالوا :تبعث من تثق به إلى الأنصار يأتوك بالأخبار .فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد لله بن عمر إلى الشام وغيرهم إلى سواها .فرجعوا وقالوا :ما أنكرنا شيئا ولا أنكره علماء المسلمين ولا عوامهم، وتأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر .وكتب عثمان إلى أهل الأمصار إني قد رفع إلي أهل المدينة أن عمالي وقع منهم أضرار بالناس، وقد أخذتهم بأن يوافوني في كل موسم، فمن كان له حق فليحضر يأخذ حقه مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين .فبكى الناس عند قراءة كتابه عليهم، ودعوا له .

وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه في الموسم :عبد الله بن عامر وابن أبي سرح ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرا وقال :ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ وإني لأخشى والله أن يكونوا صادقين !فقالوا له :ألم يخبرك رسلك بأن أحداً لم يشافههم بشيء، وإنما هذه إشاعة لا يحل الأخذ بها، واختلفوا في وجه الرأي في ذلك .فقال عثمان :أن الأمر كائن وبابه سيفتح، ولا أحب أن تكون لأحد علي حجة في فتحه .وقد علم الله أني لم آل الناس خيرا، فسكنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم.

ثم قدم المدينة فدعا عليا وطلحة، الزبير -ومعاوية حاضر-، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :أنتم ولاة هذا الأمر واخترتم صاحبكم يعني عثمان، وقد كبر وأشرف وفشت مقالة خفتها عليكم فما عنيتم به من شيء فأنالكم به، ولا تطمعوا الناس في أمركم .فانتهره علي، ثم ذهب عثمان يتكلم، وقال :اللذان كانا قبلي منعا قرابتهما احتسابا، وإن

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي قرابته، وإن قرابتي أهل عيلة وقلة معاش فأعطيتهم، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه. فقالوا: أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفا، ومروان خمسة عشر ألفا. قال : آخذ ذلك منهما. فانصرفوا راضين.

وقال له معاوية: اخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا تطيقه. قال: لا ابتغي بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلاً قال: فابعث إليك جندا يقيمون معك. قال: لا أضيق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال معاوية: لتغتالن ولتعيرن، قال: حسبي الله ونعم الوكيل. ثم سار معاوية ومر على عليّ وطلحة والزبير فوصاهم بعثمان وودعهم ومضى.

وكان المنحرفون عن عثمان بالأمصار قد تواعدوا عند مسير الأمراء إلى عثمان أن يثبوا عليه في مغيبهم. فرجع الأمراء و لم يتهيأ لهم ذلك. وجاءهم كتب من المدينة ممن صار إلى مذهبهم في الإنحراف عن عثمان إن اقدموا علينا فإن الجهاد عندنا، فتكاتبوا من أمصارهم في القدوم إلى المدينة، فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف، وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسوادن بن حمران السكوني وميسرة أو قيترة بن فلان السكوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي.

وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والأشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم العامري. وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي وزريح عباد وبشر بن شريح القيسي، وابن المحرش، وعليهم حرقوص بن زهير السعدي، وكفهم في مثل عدد أهل مصر.

وخرجوا جميعا في شوال مظهرين للحج، ولما كانوا من المدينة على ثلاثة مراحل تقدم ناس من أهل البصرة، وكان هواهم في طلحة فترلوا ذا خشب، وتقدم ناس من أهل الكوفة: وكان هواهم في الزبير فترلوا الأعوص، ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في عليّ، وتركوا عامتهم بذي المروة. وقال أبو زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم في أهل الكوفة لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا الهم عسكروا لنا، فوالله إن كان حقا لا يقوم لنا أمر.

ثم دخلوا المدينة ولقوا عليا وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين وأخبروهم أهم إنما أتوا للحج، وأن يستعفوا من بعض العمال، واستأذنوا في الدخول فمنعوهم ورجعوا إلى أصحابهم وتشاوروا في أن يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريؤ، إلى أصحابهم كياداً

وطلباً في الفرقة. فأتى المصريون عليا وهو في عسكره عند أحجار الزيت، وقد بعث إليه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عليه فعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم وقال: إن جيش في المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد علم ذلك الصالحون. وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير فقالا مثل ذلك، فانصرفوا وافترقوا عن هذه الأماكن إلى عسكرهم على بعد. فتفرق أهل المدينة فلم يشعروا إلا والتكبير في نواحيها وقد هجموا وأحاطوا بعثمان، ونادوا بأمان من كف يده.

وصلى عثمان بالناس أياما، ولزم الناس بيوتهم و لم يمنعوا الناس من كلامه. وغدا عليهم عليّ فقال: ما ردكم بعد ذهابكم؟ قالوا: أخذنا كتابا مع يزيد بقتلنا. وقال المصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل مقالة أهل مصر وإنهم جاءوا لينصروهم. فقال لهم عليّ: كيف علمتم بما لقي أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم علينا جميعا؟ هذا أمر أبرم بليل: فقالوا: اجعلوه كيف شئتم، لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا وهم يصلون خلفه، ومنعوا الناس من الإجتماع معه.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار شحثهم، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهرفي، وبعث عبد الله بن أبي سرح معاوية بن جريح، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو، وتسابقوا إلى المدينة على الصعب والذلول. وقام بالكوفة نفر يحضون على إعانة أهل المحدينة، فمن الصحابة عقبة بن عامر وعبد الله بن أبي أوفى وحنظلة

الكاتب، ومن التابعين مسروق الأسود وشريح وعبد الله،؟ بن حكيم. وقام بالبصرة في ذلك عمران بن حصين وأنر بن مالك وهشام بن عامر، ومن التابعين كعب بن سوار وهرم بن حبان. وقام بالشام وبمصر جماعة أخرى من الصحابة والتابعين. ثم خطب عثمان في الجمعة القابلة وقال: يا هؤلاء! الله، الله! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب. فقال محمد بن مسلمة أنا أشهد بذلك، فأقعده حكيم ابن جبلة. وقام ريد بن ثابت فأقعده آخر، وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وأصيب عثمان بالحصباء فصرخ، وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص والحسين وزيد بن ثابت

وأبو هريرة. ودخل عثمان بيته وعزم عليهم في الإنصراف فانصرفوا. ودخل عليّ وطلحة والزبير على ضمان يعودونه وعنده ففر من بني أمية فيهم مروان فقالوا لعلي: أهلكتنا

وصنعت هذا الصنع، والله لئن بلغت الذي تريد لتحزن عليك الدنيا، فقام مغضبا، وعادوا إلى منازلهم.

وصفى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً. ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي بن حرب العكي. وتفرق أهل المدينة في بيوتهم وحيطانهم ملازمين للسلاح، وبقي الحصار أربعين يوما. وقيل بل أفر عثمان أبا أيوب الأنصاري فصلى أياما. ثم صفى عليّ بعده بالناس وقيل أمر عليا سهل بن حنيف فصلى عشر ذي الحجة، ثم صفى العيد والصلوات حتى قتل عثمان. وقد قيل في حصار عثمان: إن محمد بن أبي بكر ومحمد بن حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان. فلما خرج المصريون في رجب مظهرين للحج ومضمرين قتل عثمان أو خلعه، وعليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، كان فيمن خرج مع المصريين محمد بن ابي بكر. وبعث عبد الله بن سعيد في آثارهم وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر. فلما كان ابن أبي سرح بأيلة بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحصروه، وأن محمد بن أبي حذيفة غلب على مصر، فرجع سريعاً إليهما فمنع منهما فأتى فلسطين وأقام بها حتى قتل عثمان.

وأما المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان إلى بيت عليّ ومت إليه بالقرابة في أن يركب إليهم ويردهم لئلا تظهر الجرأة منهم فقال له عليّ: قد كلمتك في ذلك فأطعت أصحابك وعصيتني! - يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد - فعلى أي شيء أردهم؟ فقال على أن أصير إلى ما تراه وتشيره، وأن أعصي أصحابي وأطيعك. فركب عليّ في ثلاثين من المهاجرين والأنصار فيهم سعد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن فطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب، ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي وابو حميد وزيد بن ثابت وحسان وكعب بن مالك، ومن العرب دينار بن مكرز. فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم عليّ ومحمد بن مسلمة. فرجعوا إلى مصر وقال ابن عديس لمحمد: أتوصينا بحاجة؟ قال تتفي الله وترد من قبلك عن أمانه، فقد وعدنا أن يرجع ويترع.

ورجع القوم إلى المدينة ودخل عليّ على عثمان وأخبره برجوع المصريين. ثم جاءه مروان من الغد فقال له: أخبر الناس بأن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عنك كان باطلا قبل أن تجيء الناس من الأمصار ويأتيك

ما لا نطيقه ففعل. فلما خطب ناداه الناس كل ناحية: إتق الله يا عثمان وتب إلى الله، وكان أولهم عمرو بن العاص. فرفع

يده وقال لهم: إني تائب. وخرج عمرو بن العاص إلى مترله بفلسطين، ثم جاء الخبر بحصاره وقتله. وقيل: إن عليا لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس ما اعتزم عليه من الترو ع قبل أن يجيء غيرهم ففعل وخطب بذلك، وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من أتعظ، استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه، فليأت أشرافكم يروني رأيهم، فوالله إن ردني الحق عبداً لأستن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد، وما عن الله مذهب الا إليه. فوالله لأعطينكم الرضى ولا أحتجب عنكم. ثم بكى وبكى الناس ودخل مترله.

فجاءه نفر من بني أمية يعذلونه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفرافصة، فلم يرجعوا إليها وعابوه فيما فعل واستذلوه في اقراره بالخطيئة والتوبة عند الخوف، واجتمع الناس في الباب وقد ركب بعضهم بعضا. فقال لمروان كلمهم! فأغلظ لهم في القول وقال: جئتم لترع ملكنا من أيدينا. والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبون على ما في أيدينا.

وبلغ الخبر عليا فنكر ذلك وقال لعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث: أسمعت خطبته بالأمس، ومقالة مروان للناس اليوم، يا لله ويا للناس! إن قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحقي، وإن تكلمت فجاء ما يزيد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول. وقام مغضبا إلى عثمان واستقبح مقالة مروان وانبه عليها وقال: ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، فقد أذهبت شرفك وغلبت على رأيك. ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول عليّ، فعذلته فى طاعة مروان وأشارت عليه باستصلاح عليّ، فبعث إليه فلم يأته. فأتاه عثمان إلى مترله ليلاً يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه، فقال: بعد أن أقام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم؟ فخرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرأت عليّ الناس! فقال عليّ: والله إني أكثر الناس ذبا عنك، ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولي.

ثم منع عثمان الماء فغضب عليّ غضبا شديدا حتى دخلت الروايا على عثمان، وقيل إن عليا كان عند حصار عثمان بخيبر فقدم والناس يجتمعون عند طلحة فجاءه عثمان وقال يا عليّ! إن لي حق الإخاء والقرابة والصهر، ولو كان أمر الجاهلية فقط لكان عارا

على بني عبد مناف أن تترع تيم أمرهم فجاء عليّ إلى طلحة وقال ما هذا؟ فقال طلحة: ابعد ما مس الحزام الطبيين يا أبا حسن! فانصرف عليّ إلى بيت المال وأعطى الناس فبقي طلحة وحده. وسر بذلك عثمان وجاء إليه طلحة فقال له: والله ما جئت تائبا ولكن مغلوبا، فالله حسيبك يا طلحة.

وقيل إن المصريين لما رجعوا خرج إليهم محمد بن مسلمة فأعطوه صحيفة قالوا وجدناها عند غلام عثمان بالبويب، وهو على بعير من ابل الصدقة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع، وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم. وقيل وجدت الصحيفة بيد أبي الأعور السلمي. فعاد المصريون وعاد معهم الكوفيون والمصريون، وقالوا لمحمد بن مسلمة حين سألهم: قد كلمنا عليا وسعد بن

أبي وقاص وسعيد بن زيد فوعدونا أن يكفموه، فليحضر عليّ معنا عند عثمان. ثم دخل عليّ ومحمد على عثمان وأخبروه بقول أهل مصر فحلف ما كتب ولا علم.

ففال محمد: صدق! هذا من عمل مروان. ودخل المصريون، فشكا ابن عديس بابن أبي سرح وما أحدثه بمصر، وأنه ينسب ذلك إلى كتاب عثمان، وإنا جئنا من مصر لقتلك فردنا عليّ ومحمد وضمنا لنا التزوع عن هذا كله، فرجعنا ولقينا هذا الكتاب وفيه أمرك لابن أبي سرح بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس، وهو بيد غلامك وغليه خاتمك. فحلف عثمان ما كتب ولا أمر ولا علم. قالوا فكيف يجترىء عليك بمثل هذا؟ فقد استحقيت الخلع على التقديرين، ولا يحل أن يولى الأمور من ينتهي إلى هذا الضعف فاخلع نفسك. فقال: لا أنزع ما ألبسني الله، ولكن أتوب وأرجع.

قال: رأيناك تتوب وتعود فلا بد من خلعك أو قتلك، وقتال أصحابك دون ذلك إلى أن يخلص إليك أو تموت. فقال: لا ينالكم أحد بأخرى ولو أردت ذلك لاستجشت بأهل الأمصار. ثم كثر اللغط وأخرجوا ومضى عليّ إلى مترله، وحصر المصريون عثمان وكتب إلى معاوية وابن عامر يستحثهم. وقام يزيد بن أسد القسري فاستنفر أهل الشام وسار إلى عثمان وبلغهم تله برادي القرى فرجعوا وقيل سار من الشام حبيب بن مسلمة، ومن البصرة مجاشع بن مسعود فبلغهم قتله بالربذة فرجعوا.

وكان بطانة عثمان أشاروا عليه أن يبعث إلى عليّ في كفهم عنه على الوفاء لهم،

فبعث إليه في ذلك فأجاب بعد توقف. ثم بعث إليهم فقالوا: لا بد أن تتوثق منه، وجاءه فأعلمه وتوثق منه، على أجل ثلاثة أيام. وكتب بينهم كتاباً على رد المظالم وعزل من كرهوه من العمال. ثم مضى الأجل وهو مستعد ولم يغير شيئا، فجاءه المصريون من ذي خشب بستنجزون عهدهم فأبى فحصروه.

وأرسل إلى عليّ وطلحة والزبير وأشرف عليهم فحياهم ودعا لهم ثم قال: أنشدكم الله تعالى هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إنه لم يستجب لكم، أو تقولون إن الله لم يبال بمن ولى هذا الدين، أم تقولون ان الأمة ولو مكابرة وعن غير مشورة فوكلهم إلى أمرهم. أو لم يعلم عاقبة أمري! ثم أنشدكم الله هل تعلمون لي من السوابق ما يجب حقه! فمهلا فلا يحل إلا قتل ثلاثة: زان بعد إحصان، وكافر بعد إيمان، وقاتل بغير حق. ثم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف.

فقالوا له: أما ذكرت من الاستخارة بعد عمر فكل ما صنع الله تعالى فيه الخيرة، ولكن الله ابتلى بك عباده. وأما حقك وسابقتك فصحيح، لكن أحدثت ما علمت، ولا تترك إقامة الحق مخافة الفتنة عاما قابلا. وأما حصر القتل في الثلاثة ففي كتاب الله: قتل من سعى في الأرض فسادا، ومن قاتل على البغي وعلى منع الحق والمكابرة عليه، وأنت إنما تمسكت بالأمارة علينا، وإنما قاتل دونك هؤلاء بهذه التسمية، فلو نزعتها انصرفوا. فسكت عثمان ولزم الدار، وأقسم على الناس بالانصراف فانصرفوا إلا الحسن بن

عليّ ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير، وكانت مدة الحصار أربعين يوما. ولثمان عشرة منها وصل الخبر بمسير الجنود من الأمصار فاشتد الحصار ومنعوه من لقاء الناس ومن الماء. وأرسل إلى عليّ وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين يطلب الماء. فركب عليّ إليهم مغلساً وقال: يا أيها الناس إن هذا لا يشبه أمر المؤمنين ولا الكافرين! وإن الأسير عند فارس والروم يطعم ويسقى. فقالوا لا والله ونعمة عين، فرجع وجاءت أم حبيبة على بغلتها مشتملة على أداوة وقالت: أردت أن أسأل هذا الرجل عن وصايا عنده لبني أمية أو تهلك أموال أيتامهم وأراملهم فقالوا: لا والله وضربوا وجه البغلة فنفرت وكادت تسقط عنها، وذهب بها الناس إلى بيتها. وأشرف عليهم عثمان وقرر حقوقه وسوابقه. فقال بعضهم: مهلا عن أمير

المؤمنين. فجاء الأشتر وفرق الناس وقال؟ لا يمكر بكم. ثم خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها فأبى فقال له حنظلة الكاتب: تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحل؟ ولو قد صار الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف. ثم ذهب حنظلة إلى الكوفة، وبلغ طلحة والزبير ما لقي عليّ وأم حجة فلزموا بيوتهم. وكان آل حزم يدسون الماء إلى بيت عثمان في الغفلات، وكان ابن عباس مفن لزم باب عثمان للمدافعة، فأشرف عليه عثمان وأمره أن يحج بالناس فقال: جهاد هؤلاء أحب إلي! فأقسم عليه وانطلق.

ولما رأى أهل مصر أن أهل الموسم يريدون قصدهم، وأن أهل الأمصار يسيرون إليهم اعتزموا على قتل عثمان رضي الله عنه وتقبل لهادتهم يرجون في ذلك خلاصهم، واشتغال الناس عنهم، فقاموا إلى الباب ليفتحوه فمنعهم الحسن بن عليّ ابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة، وقاتلوهم وغلبوهم دون الباب. ثم صدهم عثمان في القتال وحلف ليدخلن فدخلوا وأغلق الباب فجاءوا بالنار وأحرقوه، ودخلوا وعثمان يصلي وقد افتتح سورة طه. وقد سار أهل الدار فما شغله شيء من أمرهم حتى فرغ وجلس إلى المصحف يقرأ فقرأ: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل }. ثم قال لمن عنده: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلي عهدا فأنا صابر عليه ومنعهم من القتال، وأذن للحسن في اللحاق بأبيه وأقسم عليه، فأبى وقاتل دونه. وكان المغيرة بن الأخنس بن شريق قد تعجل من الحج في عصابة لنصره فقاتل حتى قتل. وجاء أبو هريرة ينادي: يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، وقاتل.

ثم اقتحمت الدار من ظهرها من جهة دار عمرو بن حزم فامتلأت قوماً ولا يشعر الذين بالباب، وانتدب رجل فدخل على عثمان في البيت فحاوره في الخلع فأبى، فخرج ودخل آخر ثم آخر كلهم يعظه فيخرج ويفارق القوم. وجاء ابن سلام فوعظهم فهفوا بقتله. ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلا بما لا حاجة إلى ذكره، ثم استحيا وخرج. ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم وأكبت عليه نائلة إمرأته تتقي الضرب بيدها، فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها. ثم قتلوه وسال دمه على المصحف. وجاء غلمانه فقتلوا بعض أولئك القاتلين وقتلاء أخر وانتهبوا ما في البيت وما على النساء حتى ملاءة نائلة، وقتل الغلمان منهم، وقتلوا من الغلمان. ثم خرجوا إلى بيت المال فانتهبوه وأرادوا قطع رأسه فمنعهم النساء. فقال ابن عديس: اتركوه. ويقال

إن الذي تولى قتله كنانة بن بشر التجيبي. وطعنه عمرو بن الحمق طعنات. وجاء عمير بن ضابىء وكان أبوه مات في سجنه فوثب عليه حتى كسر ضلعا من أضلاعه. وكان قتله لثمان عشرة خلت من ذي الحجة، وبقي في بيته ثلاثة أيام.

ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم إلى عليّ فأذن لهم في دفنه، فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب وصفى عليه جبير وقيل مروان وقيل حكيم. ويقال: إن ناسا تعرضوا لهم

ليمنعوا من الصلاة عليه فأرسل إليهم عليّ وزجرهم. وقيل إن عليا وطلحة حضرا جنازته، وزيد بن ثابت وكعب بن مالك.

وكان عماله عند موته على ما نذكره: فعلى مكة عبد الله بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن منية، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة، وعلى البصرة والبحرين عد الله بن عامر، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى حمص عبد الرحمن بن خالد من قبله، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة كذلك، وعلى الأردن أبو الأعور السلمي كذلك، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكندي كذلك، وعلى البحرين عبد الله بن قيس الفزاري، وعلى القضاء أبو الدرداء، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة، والقعقاع بن عمرو على الحرب، وعلى خراج السواد جابر المزييئ، وسفالى الأنصاري على الخراج، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد اللة، وعلى أذربيجان الاشعث بن قيس، وعلى حلوان عتيبة بن نهاس وعلى أصبهان السائب بن الأقرع، وعلى ماسبدان حنيس، وعلى بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى القضاء زيد بن ثابت

بيعة عليّ رضي الله عنه

لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال: أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا، ومن اخترتم رضيته، فألحوا عليه وقالوا له: لا نعلم أحق منك ولا نختارغيرك حتى غلبوه في ذلك، فخرج إلى المسجد وبايعوه. وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما - ويقال إنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وخرجا إلى مكة - ثم بايعه الناس وجاءوا بابن عمر فقال كذلك. فقال ائتني بكفيل قال لا أجده، فقال الأشتر دعني أقتله، فقال عليّ دعوه أنا كفيله.

وبايعت الأنصار، وتأخرّ منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو

سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفصالة بن عبيد وكعب بن عجرة وسلمة بن سلامة بن وخش. وتأخر من المهاجرين عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة. وأما النعمان بن بشير فأخذ أصابع نائلة امرأة عثمان وقميصه الذي قتل فيه ولحق بالشام صريخاً.

وقيل إن عثمان لما قتل بقي الغافقى بن حرب أميرا على المدينة خمسة أيام والتمس من يقوم بالأمر فلم يجبه أحد، وأتوا إلى عليّ فامتنع، وأتى الكوفيون الزبير والبصريون طلحة فامتنعا. ثم بعثوا إلى سعد وابن عمر فامتنعا فبقوا حيارى ورأوا أن رجوعهم إلى الأمصار بغير إمام يوقع في الخلاف والفساد، فجمعوا أهل المدينة وقالوا: انتم أهل الشورى وحكمكم جائز على الأمة فاعقدوا الإمام ونحن لكم تبع، وقد أجلناكم يومين وإن لم تفعلوا قتلنا فلانا وفلانا وغيرهم يشيرون إلى الأكابر. فجاء الناس إلى عليّ فاعتذر وامتنع، فخوفوه الله في مراقبة الإسلام، فوعدهم إلى الغد.

ثم جاءوه من الغد. وجاء حكيم بن جبلة في البصريين فأحضر الزبير كرها، وجاء الأشتر في الكوفيين فأحضر طلحة كذلك، وبايعوا لعلي وخرج إلى المسجد وقال: هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أردتم، وقد افترقنا أمس وأنا كاره فأبيتم إلا أن أكون عليكم، فقالوا نحن على ما افترقنا لك عليه بالأمس فقال لهم: اللهم اشهد! ثم جاءوا بقوم ممن تخلف قالوا نبايع على إقامة كتاب الله. ثم بايع الحامة، وخطب عليّ وذكر الناس، وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، ورجع إلى بيته فجاءه طلحة والزبير وقالا: قد اشترطنا إقامة الحدود فلتقمها على قتلة هذا الرجل فقال: لا قدرة لي على شيء مما تريدوه حتى يهدأ الناس وتستقر ا أمور فتؤخذ الحقوق. فافترقوا عنه، وأكثر بعضهم المقالة في قتلة عثمان وباستناده إلى أربعة في رأيه. وبلغه ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم. ثم هرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام، فاشتد على عليّ منع قريش من الخروج. ثم نادى في اليوم الثالث برجوع

الأعراب إلى بلادهم فأبوا وتذامرت معهم السبئية، وجاءه طلحة والزبير فقالا: دعنا نأت البصرة والكوفة فنستنفر الناس فأمهلهما. وجاء المغيرة فأشار عليه باستبقاء العمال حتى يستقر الأمر ويستبدلوا بمن شاء، فأمهله. ورجع من الغد، فأشار بمعاجلة الاستبدال. وجاءه ابن عباس فأخبره بخبر المغيرة فقال: نصحك أمس وغشك اليوم. قال: فما الرأي؟ قال: كان الرأي أن تخرج عند قتل الرجل أو قبل ذلك إلى مكة، وأما اليوم فإن بني أمية يشبهون على الناس بأن يلحموك طرفا من هذا الأمر ويطلبون ما طلب أهل المدينة في قتلة عثمان فلا يقدرون عليهم، والرأي أن تقر معاوية. فقال عليّ رضي الله عنه والله لا أعطيه إلا السيف.

فقال له ابن عباس: أنت رجل شجاع، لست صاحب رأي في الحرب. أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحرب خدعة: قال بلى! فقال ابن عباس: أما والله إن أطعتني لأتركنهم ينظرون في دبر الامور ولا يعرفون ما كان وجهها من غير نقصان عليك ولا إثم لك. فقال يا ابن عباس: لست من هنياتك ولا هنيات معاوية في شيء. فقال ابن عباس ة أطعني والحق بمالك بينبع، وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك. وإن نهضت مع هؤلاء اليوم يحملك الناس دم عثمان غدا. فأبى عليّ وقال: أشر عليّ وإذا خالفتك أطعني. قال: أيسر ما لك عندي الطاعة. قال: فسر إلى الشام فقد وليتكها. قال إذا يقتلني معاوية بعثمان أو يحبسني فيتحكم عليّ لقرابتي منك، ولكن أكتب إليه وعده فأبى. وكان المغيرة يقول: نصحته فلم يقبل، فغضب ولحق بمكة. ثم فرق عليّ العمال على الأمصار فبعث على البصرة عثمان بن حنيف،

وعلى الكوفة عمارة بن شهاب من المحهاجرين، وعلى اليمن عبد الله بن عثاس، وعلى مصر قيس بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف. فمضى عثمان إلى البصرة فدخلها واختلفوا عليه فأطاعته فرقة، وقال آخرون: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنقتدي بهم. ومضى عمارة إلى الكوفة، فلما بلغ زبالة لقي طليحة بن خويلد فقال له: إرجع فإن القوم لا يستبدلون بأبي موسى وإلا ضربت عنقك. ومضى ابن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن منية مال الجباية

وخرج به الى مكة ودخل عبد الله إلى اليمن، ومضى قيس بن سعد إلى مصر ولقيه بايلة خيالة من أهل مصر فقالوا: من أنت؟ قال قيس بن سعد من فل عثمان أطلب من آوي إليه وانتصر به. ومضى حتى دخل مصر وأظهر أمره فافترقوا طيه، فرقة كانت معه، وأخرى تربصوا حتى يروا فعله في قتلة عثمان.

ومضى سهل بن حنيف إلى الشام حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل فقال لهم: أنا أمير على الشام قالوا إن كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع. فلما رجع وجاءت أخبار الآخرين دعا على طلحة والزبير وقال: قد وقع ما كنت أحذركم، فسألوه الإذن في الخروج من المدينة وكتب عليّ إلى أبي موسى مع معبد الأسلمي فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، ومن الكاره منهم والراضي حتى كأنه يشاهد. وكتب إلى معاوية مع سبرة الجهني فلم يجبه إلى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان. ثم دعا قبيصة من عبس وأعطاه كتابا مختوماً عنوانه: من معاوية إلى عليّ وأوصاه بما يقول وأعاده مع رسول عليّ. فقدم في ربيع الأول، ودخل العبسي وقد رفع الطومار كما أمره حتى دفعه إلى عليّ ففضه فلم يجد فيه كتابا. فقال للرسول: ما وراءك؟ قال آمن أنا؟ قال نعم! قال تركت قوما لا يرضون إلا بالقود، قال ومفن؟ قال منك. وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوبا على منبر دمشق.

فقال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! قد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. ثم رده إلى صاحبه وصاحت السبئية: اقتلوا هذا الكلب وافد الكلاب. فنادى يا لمضر يا لقيس أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي، فانظروا كم الفحول والركاب وتقاووا عليه فمنعته مضر، ودس أهل المدينة على عليّ من يأتيهم برأيه في القتال، وهو زياد بن حنظلة التميمي وكان منقطعا إليه، فجالسه ساعة، فقال له عليّ: سيروالغزو الشام. فقال لعلي الأناة والرفق أمثل فتمثل يقول:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حميا تجتنبك المظالم

فعلم أن رأيه القتال، ثم جاء إلى القوم الذين دسوه فأخبرهم ثم استأذنه طلحة والزبير في العمرة ولحقا بمكة. ثم اعتزم على الخروج إلى الشام ودعا أهل المدينة إلى قتالهم.

وقال: انطلقوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم. وأمر الناس بالتجهز إلى الشام، ورفع اللواء لمحمد بن الحنفية، وولى عبد الله بن عباس ميمنته وعمرو بن أبي سلمة ميسرته، ويقال بل عمرو بن سفيان بن عبد الاسد وولى أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخي عبيدة مقدمته، ولم يول أحداً مفن خرج على عثمان. واستخلف على المدينة تمام بن العبّاس،

وعلى مكة قثم بن العبّاس. وكتب إلى قيس بن سعد بمصر وعثمان بن حنيف بالبصرة وأبي موسى بالكوفة أن يندبوا الناس إلى الشام، وبينما هو على التجهيز للشام إذ أتاه الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وانهم على الخلاف فانتقض عن الشام.

أمر الجمل

ولما جاء خبر مكة إلى عليّ قام في الناس وقال: ألا إنّ طلحة والزبير وعائشة قد تمالأوا على نقض إمارتي ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم واكف إن كفوا واقتصد نحوهم. وندب أهل المدينة فتثاقلوا وبعث كميلا النخعي فجاءه بعبد الله بن عمر فقال: إنهض معي، فقال أنا من أهل المدينة افعل ما يفعلون. قال: فاعطني كفيلا بأنك لا تخرج قال ولا هذه، فتركه ورجع إلى المدينة. وخرج إلى مكة وقد أخبر أخته أم كلثوم بما سمع من اهل المدينة في تثاقلهم وأنه على طاعة على ويخرج معتمرا، وجاء الخبر من الغداة إلى على بأنه خرج إلى الشام فبعث في أثره على كل طريق، وماج اهل المدينة وركبت أم كلثوم إلى أبيها وهو في السوق يبعث الرجال ويظاهر في طلبه، فحدثته فانصرف عن ذلك. ووثق فيما قاله ورجع إلى اهل المدينة فخاطبهم وحرّضهم فرجعوا إلى إجابته. وأول من أجابه أبو الهيثم بن التيهان البدري، وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين. ولما رأى زياد بن حنظلة تثاقل الناس عن عليّ انتدب إليه وقال: من تثاقل عنك فإنا نخفّ معك ونقاتل دونك.

وكان سبب إجتماعهم بمكّة أن عائشة كانت خرجت إلى مكّة وعثمان محصور كما قدمناه، فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة، فلقيت في طريقها رجلا من بني ليث أخوالها فأخبرها بقتل عثمان وبيعة عليّ فقالت: قتل عثمان والله ظلما ولأطلبن بدمه فقال لها الرجل ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟ فقالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وانصرفت إلى مكة.

وجاءها الناس فقالت: إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أمثالهم من كان قبله ومواضع من الحمى حماها لهم، فتابعهم ونزع لهم عنها. فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام. والله لأصبع من عثمان خير من طباق الارض أمثالهم، ولو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه. فقال عبد لله بن عامر الحضرمي وكان عامل مكة لعثمان: أنا أول طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أميه وكانوا هربوا إلى مكة بعد قتل عثمان: منهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن منية من اليمن بستمائة بعير وستمائة ألف فأناخ بالابطح.

ثم قدم طلحة والزبير من المدينة فقالت لهما عائشة: ما وراءكما؟ قالا تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب غلبون على خيارهم فلم يمنعوا انفسهم ولا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلا. فقالت: انهضوا بنا إليهم وقال آخرون: نأتي الشام. فقال ابن عامر: إن معاوية كفاكم الشام فأتوا البصرة فلي بها صنائع ولهم في طلحة

هوى، فنكروا عليه مجيئه من البصرة واستقام رأيهم على رأيه وقالوا: إن الذين معنا لا يطيقون من بالمدينة، ويحتجون ببيعة على، وإذا أتينا البصرة انهضناهم كما انهضنا اهل مكة وجاهدنا، فاتفقوا ودعوا عبد الرحمن بن عمر إلى النهوض فأبى وقال: أنا من اهل المدينة أفعل ما يفعلون.

وكانت أمهات المؤمنين معها على قصد المدينة. فلما نهضت إلى البصرة قعدوا عنها، وأجابتها حفصة فمنعها أخوها عبد الله. وجهزهم ابن عامر بما معه من المال، ويعلى بن منية بما معه من المال والظهر. ونادوا في الناس بالحملان، فحملوا على ستمائة بعير وساروا في ألف من اهل مكة ومن اهل المدينة. وتلاحق بهم الناس فكانوا ثلاثة آلاف، وبعثت أمّ الفضل أم عبد الله بن عباس بالخبر استأجرت على كتابها من أبلغه عليّا، ونهضت عائشة ومن معها، وجاء مروان بن الحكم إلى طلحة والزبير فقال على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة فقال ابن الزبير: على أبي، وقال ابن طلحة: على أبي، فأرسلت عائشة إلى مروان تقول له: أتريد أن تفرق أمرنا ليصل بالناس ابن أختي تعني عبد الله بن الزبير. وودع أمهات المؤمنين عائشة من ذات عرق باكيات، وأشار سعيد بن العاص على مروان بن الحكم وأصحابه بإدراك ثأرهم من عائشة وطلحة والزبير. فقالوا: نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا.

ثم جاء إلى طلحة والزبير فقال لمن تجعلان الأمر إن ظفرتما؟ قالا: لأحدنا الذي تختاره الناس. فقال: بل اجعلوه لولد عثمان لأنكم خرجتم تطلبون بدمه فقالا: وكيف ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم؟ قال: فلا أراني أسعى الا لإخراجها من بني عبد مناف. فرجع ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد، ووافقه المغيرة بن شعبة ومن معه من ثقيف. فرجعوا ومضى القوم ومعهم أبان والوليد إبنا عثمان. واركب يعلى بن منية عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بمئة دينار، وقيل بثمانين، وقيل بل كان لرجل من عرينة عرض لهم بالطريق على جمل فاستبدلوا به جمل عائشة على أن حمله بألف، فزادوه أربعمائة درهم وسألوه عن دلالة الطريق، فدلهم ومر بهم على ماء الحوأب فنبحتهم كلابه. وسألوه عن الماء فعرفهم باسمه.

فقالت عائشة: ردوني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه: ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب؟ ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وأقامت بهم يوما وليلة إلى أن قيل النجاء! النجاء! قد أدرككم عليّ فارتحلوا نحو البصرة. فلما كانوا بفنائها لقيهم عمير بن عبد الله التميمي، وأشار بأن يتقدم عبد الله بن عامر إليهم، فأرسلته عالة وكتبت معه إلى رجال من البصرة: إلى الاحنف بن قيس وسمرة وأمثالهم وأقامت بالحفيين تنتظر الجواب.

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين وكان رجلا عامّة، وأبا الأسود الدؤليّ وكان

رجلا خاصّة وقال: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها، فجاءاها بالحفير وقالا: إن أميرنا بعثنا نسألك عن مسيرك فقالت: إن الغوغاء ونزاع القبائل فعلوا ما فعلوا. فخرجت في المسلمين أعلمهم بذلك

وبالذي فيه الناس وراءنا، وما ينبغي من إصلاح هذا الأمر. ثم قرأت: { لا خير في كثير من نجواهم } [الآية....]

ثم عدلا عنها إلى طلحة فقالا ما أقدمك؟ قال الطلب بدم عثمان! فقالا: ألم تبايع عليا؟ قال بلى والسيف على رأسي، وما استقبل على البيعة إن هو لم يخل بيننا ربين قتله عثمان. وقال لهما الزبير مثل ذلك، ورجعا إلى عمان بن حنيف فاسترجع وقال. دارت رحى الإسلام ورث الكعبة. ثم قال: أشيروا عليّ! فقال عمران اعتزل قال بل امنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين. فجاءه هشام بن عامر فأشار عليه بالمسالمة والمسامحة حتى يأتي أمر عليّ، لأبى ونادى لي الناس بلبس السلاح. ثم دس من يتكلم في الجمع ليرى ما عندهم. فقال رجل: إن هؤلاء القوم إن كانوا جاءوا خائفين فبلدهم يأمن فيه الطير، وإن جاءوا لدم عثمان فما نحن بقتلته. فأطيعوني وردهم من حيث جاءوا.

فقال الأسود بن سريع السعدي إنما جاءوا يستعينون بنا على قتلته منا ومن غيرنا، فحصبه الناس. فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصرا وكسر ذلك كله. وانتهت عائشة ومن معها إلى المربد، وخرج إليها عثمان فيمن معه. وحضر أهل البصرة فتكلم طلحة من الميمنة، فحمد الله وذكر عثمان وفضله ودعا إلى الطلب بدمه وحث عليه، وكذلك الزبير. فصدقهما أهل الميمنة، وقال أصحاب عثمان من الميسرة: بايعتم عليا ثم جئتم تقولون. ثم تكلمت عائشة وقالة: كالت: كان الماس يتجنب عثمان ويأتوننا بالمدينة فنجدهم فجرة ونجده برا تقيا، وهم يحاولون يخر ما يظهرون. ثم كثروا واقتحموا عليه داره، وقتلوه واستحلوا المحرمات بلا ترة ولا عذر. ألا وإن مما ينبغي لكم ولا ينبغي غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله. ثم قرأت: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم } الآية.

فاختلف أصحاب عثمان عليه وقال بعضهم إلى عائشة. ثم افترق الناس وتحاصبوا وانحدرت عائشة إلى المربد وجاءها جارية بن قدامة السعدي فقال يا أم المؤمنين: والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح. إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكت سترك وأبحت حرمتك، وأنّه من رأى قتالك يرى قتلك. فإن كنت أتيتينا طائعة فارجعي إلى منزلك، وإن كنت مكرهة فاستعيني بالله وبالناس على الرجوع. وأقبل حكيم لن جبلة وهو على ظهر الخيل فانشب القتال. وأشرع أصحاب عائشة رماحهم فأقتتلوا على فم السكة وحجز الليل بينهم وباتوا يتأهبون وعاداهم حكيم بن جبلة فاعترضه رجل من عبد القيس فقتله حكيم ثم قتل إمرأة أخرى، واقتتلوا إلى ان زال النهار. وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف ولما عفتهم الحرب تنادوا إلى الصلح وتواعدوا على أن يبعثوا إلى المدينة، فإن كان طلحة والزبير اكرها سلم لهم عثمان الأمر، وإلا رجعا عنه.

وسار كعب بن سوار القاضي إلى أهل المدينة يسألهم عن ذلك فجاءهم يوم جمعة وسألهم فلم يجبه إلا أسامة بن زيد فإنه قال: بايعا مكرهين. فضربه الناس حتى كاد يقتل. ثم خلصه صهيب وأبو أيوب ومحمد بن مسلمة إلى منزله. ورجع كعب وبلغ الخبر بذلك إلى على، فكتب إلى عثمان بن حنيف يعجزه ويقول: والله ما أكره

على فرقة ولقد أكره على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظروا.

ولما جاء كعب بقول أهل المدينة بعث طلحة والزبير إلى عثمان ليجتمع بهما فامتنعا واحتج بالكتاب وقال: هذا غير ما كنا فيه. فجمع طلحة والزبير الناس وجاءا إلى المسجد بعد صلاة العشاء في ليلة ظلماء شاتية، وتقدم عبد الرحمن بن عتاب في الوحل فوضع السلاح في الجابية من الزط والسابجة وهو أربعون رجلا فقاتلوهم وقتلوا عن آخرهم. واقتحموا على عثمان فأخرجوه إلى طلحة والزبير وقد نتفوا شعر وجهه كله وبعثا إلى عائشة بالخبر فقالت: خلوا سبيله. وقيل أمرت بإخراجه وضربه، وكان الذي تولى إخراجه وضربه مجاشع بن مسعود. وقيل أن الإتفاق إنما وقع بينهم على أن يكتبوا إلى على فكتبوا إليه. وأقام عثمان يصلي فاستقبلوه ووثبوا عليه فظفروا به وأرادوا قتله، ثم استبقوه من أجل الأنصار وضربوه وحبسوه.

ثم خطب طلحة والزبير وقالا: يا أهل البصرة! توبة بحوبة إنما أردنا أن نستعتب عثمان

فغلب السفهاء فقتلوه. فقالوا لطلحة: قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا! قال الزبير: أما أنا فلم أكاتبهم وأخذ يرمي عليا بقتل عثمان. فقال رجل من عبد القيس: يا معشر المهاجرين انتم أول من أجاب داعي الإسلام، وكان لكم بذلك الفضل ثم استخلفتم مرارا و لم تشاورونا وقتلتم كذلك، ثم بايعتم عليا، وجئتم تستعدوننا عليه فماذا الذي نقمتم عليه؟ فهموا بقتله ومنعته عشيرته. ثم وثبوا من الغد كلى عثمان ومن معه فقتلوا منهم سبعين.

وبلغ حكيم بن جبلة ما فعل بعثمان بن حنيف فجاءه لنصره في جماعة من عبد القيس، فوجد عبد الله بن الزبير فقال له: ما شأنك؟ قال تخلوا عن عثمان وتقيمون على ما كنتم حتى يقدم عليّ. وقد استحللتم الدم الحرام تزعمون الطلب بثأر عثمان وهم لم يقتلوه، ثم ناجزهم الحرب في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين. وأقام حكيم أربعة قواد فكان هو بحيال طلحة، وذريح بحيال الزبير، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحرث بن هشام. وتزاحفوا واستحر القتل فيهم حتى قتل كثير منهم وقتل حكيم وذريح وأفلت حرقوص في فل من أصحابه إلى قومهم بني سعد، وتتبعوهم بالقتل وطالبوا بني سعد بحرقوص وكانوا عثمانية فاعتزلوا، وغضبت عبد القيس كلهم والكثير من بكر بن وائل، وأمر طلحة والزبير بالعطاء في أهل الطاعة لهما. وقصدت عبد القيس وبكر بيت المال فقاتلوهم ومنعوهم، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة بالخبر وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن عليّ وأن يقوموا بدم عثمان، وكتبت بمثل ذلك إلى اليمامة والمدينة.

ولنرجع إلى خبر عليّ: وقد كان لما بلغه خبر طلحة والزبير وعائشة ومسيرهم إلى البصرة دعا أهل المدينة للنصرة وخطبهم فتثاقلوا أولا، وأجابه زياد بن حنظلة وأبو الهيثم وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين وأبو قتادة في آخرين، وبعثت أم سلمة معه ابن عمها وخرج يسابق طلحة والزبير إلى البصرة ليردهما.

واستخلف على المدينة تمام بن عباس وقيل سهل بن حنيف وعلى مكة قثم بن العبّاس. وسار في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وسار معه من نشط من الكوفيين والمصريين متخففين في تسعمائة، ولقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال يا أمير المؤمنين: لا تخرج منها فوالله إن

خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا. فبدر الناس إليه. فقال دعوه فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وسار فانتهى إلى الربذة، وجاء خبر سبقهم إلى البصرة فأقام يأمر بما يفعل، ولحقه ابنه الحسن وعذله في خروجه وما كان من عصيانه إياه. فقال: ما الذي عصيتك فيه حين أمرتني؟ قال أمرتك أن تخرج عند حصار عثمان من المدينة ولا تحضر لقتله، ثم عند قتله ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب، وبيعة الأمصار، ثم عند خروج هؤلاء أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا.

فقال: أما الخروج من المدينة فلم يكن إليه سبيل، وقد كان أحيط بنا كما أحيط بعثمان، وأما البيعة فخفنا ضياع الامر والحل والعقد لأهل المدينة لا للعرب ولا للامصار، ولقد مات رسول الله-صلى الله عليه وسلم وأنا أحق بالأمر بعده. فبايع الناس غيري واتبعتهم في أبي بكر وعمر وعثمان، فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين. فأنا أقاتل من خالف بمن أطاع إلى أن يحكم الله فهو خير الحاكمين. وأما القعود عن طلحة والزبير فإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر فمن ينظر فيه؟ ثم أرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يستنفران الناس، وأقام بالربذة يحرض الناس وأرسل إلى المدينة في أداته وسلاحه وقال له بعض أصحابه: عرفنا بقصدك من القوم !قال: الإصلاح إن تبلوا لان بادرونا امتنعنا.

ثم جاءه جماعة من طيء نافرين معه فقبلهم وأثنى عليهم. ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح. ولما انتهى إلى فيد أتته أسد وطيء وعرضوا عليه النفير معه فقال: إلزموا قراركم قي المهاجرين كفاية. ولقيه هنالك رجل من أهل الكوفة من بني شيبان فسأله عن أبي موسى فقال: إن أردت الصلح فهو صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه فقال: والله ما أريد إلا الصلح حتى يرد علينا. ثم انتهى إلى الثعلبية والأساد فبلغه ما لقي عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة. ثم جاءه بذي قار عثمان بن حنيف وأراه ما بوجهه فقال: أصبت أجرأ وخيرا. إن الناس وليهم قبلي، رجلان فعملا بالكتاب، ثم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني ومنهم طلحة والزبير ثم نكثا وألبا على. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما عليّ! والله إنهما ليعلمان أني لست دونهم. ثم أخذ في الدعاء عليهما وابن وائل هنالك يعرضون عليه النفير، فأجابهم مثل طيء وأسد.

وبلغه خروج عبد القيس على طلحة والزبير فأثنى عليهم. وأما محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فبلغا إلى الكوفة

ودفعا إلى أبي موسى كتاب على، وقاما في الناس بأمره فلم يجبهما أحد- وشاوروا أبا موسى في الخروج إلى على فقال: الخروج سبيل الدنيا والقعود سبيل الآخرة فقعدوا كلهم. وغضب محمد ومحمد وأغلظا لأبي موسى فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق على وإن كان لا بد من القتال فحتى نفرغ من قتلة عثمان

حيث كانوا، فرجعا إلى عليّ بالخبر وهو بذي قار. فرجع عليّ باللائمة على الأشتر وقال: أنت صاحبنا في أبي موسى فاذهب أنت وابن العبّاس واصلح ما أفسدت. فقدما على أبي موسى وكلماه واستعانا عليه بالناس، فلم يجب إلى شيء ولم ير

إلا القعود حتى تنجلي الفتنة ويلتئم الناس. فرجع ابن عباس والأشتر إلى عليّ فأرسل عليّ ابنه الحسن وعمار بن ياسر وقال لعمار: إنطلق فأصلح ما أفسدت، فانطلقا حتى دخلا المسجد، وخرج أبو موسى فلقي الحسن بن عليّ فضمه إليه وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا وأحللت نفسك مع الفخار؟ فقال لم أفعل! فأقبل الحسن على أبي موسى فقال: لم تثبط الناس عنا وما أردنا إلا الإصلاح؟ ومثل أمير المؤمنين لا يخاف على شيء! قال: صدقت! بأبي أنت وأمي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب والمسلمون إخوان ودماؤهم وأموالهم حرام. فغضب عمار وسبه فسبه آخر وتثاور الناس، ثم كفهم أبو موسى وجاء زيد بن صوحان بكتاب عائشة إليه وكتابها إلى أهل الكوفة، فقرأهما على الناس في سبيل الإنكار عليها. فسبه شبث بن ربعي وتهاوى الناس وأبو موسى يكفهم ويأمرهم بلزوم البيوت حتى تنجلي الفتنة ويقول: أطيعوني وخفوا قريشاً إذ أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم حتى ينجلي الأمر. وناداه زيد بن صوحان بإجابة عليّ والقيام بنصرته، وتابعه القعقاع بن عمرو فقام بعده فقال لا سبيل إلى الفوضى. وهذا أمير المؤمنين مليء بما ولي، وقد دعاكم فانفروا وقال عبد خير مثل ذلك وزاد: يا أبا موسى هل تعلم أن طلحة والزبير بايعا؟ قال نعم! قال فهل أحدث عليّ ما ينقض البيعة؟ قال لا أدري. قالا: دريت ونحن نتركك حتى تدري.

ثم قال سيحاد بن صوحان مثلما قال القعقاع وحرض على طاعة عليّ وقال: فإنه

دعاكم تنظرون ما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين فقال عمار: هو دعاكم إلى ذلك لتنظروا في الحق وتقاتلوا معه لا عليه. فقال الحسن أجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتلجخم، وإن امير المؤمنين يقول إن كنت مظلوماً أطيعوني أو ظالما فخذوا مني بالحق والله إن طلحة والزبير أول من بايعني وأول من غدر. فأجاب الناس وحرض عدي بن حاتم قومه وحجر بن عدي كذلك، فنفر مع الحسن من الكوفة تسعة آلاف سارت منها ستة في البر وباقيهم في الماء.

وأرسل عليّ بعد مسير الحسن وعمار الأشتر إلى الكوفة، فدخلها والناس في المسجد وأبو موسى والحسن وعمار في منازعة معه ومع الناس فجعل الأشتر يمر بالقبائل ويدعوهم إلى القصر حتى انتهى إليه في جماعة الناس فدخله وأبو موسى بالمسجد يخطبهم ويثبطهم والحسن يقول له: اعتزل عملنا واترك منبرنا، فدخل الأشتر إلى القصر وأمر بإخراج غلمان أبي موسى من القصر. وجاءه أبو موسى فصاح به الأشتر: اخرج لا أم لك وأجاه تلك العشية. ودخل الناس لينهبوا متاعه فمنعهم الأشتر، ونفر الناس مع الحسن كما قلنا وكان الأمراء على أهل النفير: على كنانة واشد وتميم والرباب ومزينة معقل بن يسار الرياحى، وعلى قبائل قيس بن

مسعود الثقفى عم المختار، وعلى بكروتغلب وعلة بن مجدوح الذهلي، وعلى مذجح والأشعر ين حجر بن عدي، ولحى بجيلة وأنمار وخثعم والازد مخنف بن سليم الأزدي.

ورؤساء الجماعة من الكوفيين القعقاع بن عمرو وسعد بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب، ورؤساء النفار زيد بن صوحان والأشتر وعدي بن حاتم والمسيب بن نجبة ويزيد بن قشى وأمثالهم. فقدموا على عليّ بذي قار، فركب إليهم ورحب بهم. وقال: يا أهل الكوفة دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فهو الذي نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم، ولا ندع أمرا فيه الصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

فاجتمع الناس عنده بذي قار وعبد القيس بأسرها وهم ألوف ينتظرونه ما بينه وبين البصرة. ثم دعا القعقاع وكان من الصحابة فأرسله إلى أهل البصرة وقال: إلق هذين الرجلين فادعهما للإلفة

والجماعة وعظم عليهما الفرقة فقال له: كيف تصنع إذا قالوا ما لا وصاة مني فيه عندك قال: نلقاهم بالذي أمرت به، فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك رأي فيه اجتهدنا رأينا وكلمناهم كما نسمع ونرى إنه ينبغي، قال: أنت لها.

فخرج القعقاع فقدم البصرة وبدأ بعائشة. فقال أي أمة ما أشخصك؟ قالت أريد الإصلاح بين الناس. قال فابعثى إلى طلحة والزبير تسمعي مني ومنهما. فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح وكذلك قالا. قال ! فأخبرني ما هو؟ قال قتلة عثمان! فإن تركهم ترك للقران. قال: فقد قتلت منهم ستمائة من أهل البصرة وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعته ستة آلاف فإن قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمعت مضر وربيعة على حربكم فأين الإصلاح؟ قالت عائشة فماذا تقول أنت؟ قال هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن إختلجوا، فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح خير ولا تعرضونا للبلاء فنتعرض له ويصرعنا وإياكم. فقالوا قد أصبت وأحسنت فارجع، فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر. فرجع وأخبر عليا فأعجبه وأشرف القوم على الصلح. وقد كانت وفود أهل البصرة أقبلوا إلى عليّ قبل رجوع القعقاع، ولفاوضوا مع أهل الكوفة واتفقوا جميعا على الإصلاح. ثم خطب عليّ الناس وأمرهم بالرحيل من الغد وأن لا يرجع معه أحد ممن أعان على عثمان.

فاجتمع من أهل مصر ابن السوداء وخالد بن ملجم والأشتر والذين رضوا بمن سار إليه، مثل علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسي وشريح بن أوفى. وتشاوروا فيما قال على وقالوا: هو أبصر بكتاب الله وأقرب إلى العمل به من أولئك وهو يقول ما يقول، وإنما معه الذين أعانوا على عثمان، فكيف إذا اصطلحوا واجتمعوا ورأوا قلتنا في كثرتهم فقال الأشتر رأيهم والله فينا واحد وإن يصطلحوا فعلى دمائنا، فهلموا نثب على طلحة نلحقه بعثمان ثم يرضى منا بالسكوت. فقال ابن السوداء: طلحة :أصحابه نحو من خمسة آلاف وانتم ألفان وخمسمائة فلا تجدون إلى ذلك سبيلا.

وقال علباء بن الهيثم اعتزلوا الفريقين حتى يأتيكم من تقومون به. فقال ابن السوداء: ود والله الناس لو انفردتم فيتخطفونكم فقال عدي: والله ما رضيت ولا كرهت، فأما إذا وقع ما وقع ونزل الناس بهذه المنزلة فإن لنا خيلاً وسلاحا، فإن أقدمتم أقدمنا وإن أحجمتم أحجمنا. ثم قال سالم بن ثعلبة وسويد بن أوفى أبرموا أمركم. ثم تكلم ابن السوداء فقال: يا قوم إن عزّكم

في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال فلا يجدون بدا منه ويشغلهم الله عما تكرهون. وافترقوا على ذلك وأصبح عليّ راحلا حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وساروا معه. فنزل الزاوية وسار من الزاوية إلى البصرة، وسار طلحة والزبير وعائشة من الفرضة والتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد منتصف جمادى الآخرة. وتراسلت بكر بن وائل وعبد القيس وجاءوا إلى على رضي الله تعالى عنه فكانوا معه. وأشار على الزبير بعض أصحابه أن يناجز القتال، فاعتذر بما وقع بينه وبين القعقاع.

وطلب من عليّ رضي الله عنه أصحابه مثل ذلك فأبى، وسئل ما حالنا وحالهم في القتلى فقال: أرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الجنة. ونهى عن قتالهم، وبعث إليهم حكيم بن سلام ومالك بن حبيب إن كنتم على ما جاء به القعقاع فكفوا حتى ننزل وننظر في الأمر. وجاءه الأحنف بن قيس وكان معتزلا عن القوم، وقدا كان بايع عليا بالمدينة بعد قتل عثمان مرجعه من الحج. قال الأحنف: ولم أبايعه حتى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة وعثمان محصور وعلمت أنه مقتول فقلت لهم: من أبايع بعده؟ قالوا عليا! فلما رجعت وقد قتل عثمان بايعت عليا. فلما جاءوا إلى البصرة دعوني إلى قتال عليّ، فحرت فى أمري ما بين خذلانهم أو خلع طاعتي. فقلت: ألم تأمروني بمبايعته؟ قالوا نعم لكنه بدل وغير فقلت: لا انقض بيعتي ولا أقاتل أم المؤمنين ولكن اعتزل. ونزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة في زهاء سته آلاف.

فلما قدم عليّ جاءه وخيره بين القتال معه أو كف عشرة آلاف سيف عنه فاختار الكف، ونادى في تميم وبني سعد فأجابوه، فاعتزل بهم حتى ظفر عليّ فرجع إليه واتبعه. ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم عليّ حتى اختلفت أعناق دوابهم. فقال على: لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا، إن كنتما أعددتما عند الله عذرا ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكما دمي؟ قال طلحة: ألبت على عثمان! قال على يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق. فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة: أما بايعتني؟ قال والسيف على عنقي. ثم قال للزبير أتذكر يوم قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقاتلنه وأنت له ظالم؟ قال اللهم نعم ولو ذكرته قبل مسيري ما سرت. ووالله لا أقاتلك أبدا وافترقوا.

فقال عليّ لأصحابه أن الزبير قد عهد أن لا يقاتلكم ورجع الزبير إلى عائشة وقال: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف أمري غير موطني هذا. قالت فما تريد أن تصنع؟ قال أدعهم وأذهب. فقال له ابنه عبد لله: خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت إن حامليها فتية أنجاد وإن تحتها الموت الأحمر فجنبت، فاحفظه ذلك. وقال: حلفت: قال: كفر عن يمينك، فاعتق غلامه مكحولا، وقيل إنما أراد الرجوع عن القتال حين سمع أن عمار بن ياسر مع على لما ورد: ويح عمار تقتله الفئة الباغية. وكان أهل البصرة على ثلاث فرق مفترقين

مع هؤلاء وهؤلاء، وثالثة اعتزلت كالأحنف بن قيس وعمران بن حصين. ونزلت عائشة في الأزد ورأسهم صبرة بن شيمان. وأشار عليه كعب بن سور بالاعتزال فأبى وكان معها قبائل كثيرة من مضر الرباب، وعليهم المنجاب بن راشد وبنو عمرو بن تميم وعليهم ابو الجربا، وبنو حنظلة وعليهم هلال بن وكيع، وسليم وعليهم مجاشع بن مسعود وبنو عامر وغطفان وعليهم زفر بن الحرث، والأزد وعليهم صبرة بن شيمان، وبكر وعليهم مالك بن مسمع وبنو ناجية وعليهم الخريت بن راشد وهم في نحو ثلاثين ألفاً. وعلي في عشرين ألفاً والناس جميعا متنازلون: مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة ولا يشكون في الصلح وقد ردوا حكيما ومالكا إلى على إنا على ما فارقنا عليه القعقاع. وجاء ابن عباس إلى طلحة والزبير، ومحمد بن طلحة إلى على، وتقارب أمر الصلح وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة يتشاورون، واتفقوا على إنشاب الحرب بين الناس فغسلوا وما يشعر بهم أحد. وقصد مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة ويمن إلى يمن فوضعوا السلاح. وثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم. وبعث طلحة والزبير عبد الرحمن بن الحرث بن هشام إلى الميمنة وهم ربيعة. وعبد الرحمن بن عتاب إلى الميسرة وركبا في القلب وتساءل الناس ما هذا؟ فقالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلاً ، فقال طلحة والزبير: إن عليا لا ينتهي حتى يسفك الدماء ثم دفعوا أولئك المقاتلين فسمع على وأهل عسكره الصيحة فقال ما هذا؟ فقيل له أظنه سقط من هنا طرقنا أو نحوه السبئية بيتونا ليلا فرددناهم، فوجدنا القوم على أهبة فركبونا وثار الناس وركب عليّ. وبعث إلى الميمنة والميسرة صاحبها وقال: إنّ طلحة والزبير لا ينتهيان حتى تسفك الدماء، ونادى في الناس كفوا وكان رأيهم جميعا في تلك الفتنة أن لا يقتتلوا حتى يقيموا الحجة، ولا يقتلوا مدبرا، ولا يجهزوا على جريح، ولا يستحلوا سلبا. وأقبل كعب بن سور إلى عائشة وقال: قد أبى القوم إلا القتال فلعل الله يصلح بك. فأركبها وألبسوا هودجها الأدراع وأوقفوها بحيث تسمع الغوغاء، واقتتل الناس حتى انهزم أصحاب الجمل وذهب وأصيب طلحة بسهم في رجله. فدخل البصرة ودمه يسيل إلى أن مات.

وذهب الزبير إلى وادي السباع لما ذكره عليّ، فمر بعسكر الأحنف واتبعه عمرو بن جرموز، وكان يسائله حتى قام إلى الصلاة قبله ورجع بفرسه وسلاحه وخاتمه إلى الأحنف فقال: والله ما تدري أحسنت أم أسأت! فجاء إبن جرموز إلى عليّ وقال للحاجب: إستأذن لقاتل الزبير فقال لحاجبه ائذن له وبشره. بالنار. ولما بلغت الهزيمة البصرة ورأوا الخيل أطافت بالجمل، رجعوا وشبت الحرب كما كانت.

وقالت عائشة لكعب بن سور وناولته مصحفا: تقدم فادعهم إليه واستقبل القوم، فقتله السبئية رشقاً بالسهم، ورموا عائشة في هودجها حتى جأرت بالاستغاثة ثم بالدعاء على قتلة عثمان، وضج الناس بالدعاء فقال عليّ ما هذا؟ قالوا عائشة تدعو على قتلة عثمان! فقال: اللهم إلعن قتلة عثمان. ثم أرسلت عائشة إلى الميمنة والميسرة وحرضتهم! وتقدم مضر الكوفة ومضر البصرة فاجتلدوا أمام الجمل حتى ضرسوا، وقتل زيد بن صوحان من أهل الكوفة وأخوه سيحان وارتث أخوهما صعصعة.

وتزاحف الناس وتأخرت يمن الكوفة وربيعتها. ثم عادوا فقتل على رايتهم عشرة ثم أخذها يزيد بن قيس فثبت. ولتل تحت راية ابن ربيعة زيد وعبد لله بن رقية وأبو عبيدة بن راشد بن سلمة. واشتد الأمر ولزقت ميمنة الكوفة بقلبهم وميسرة أهل البصرة بقلبهم، ومنعت ميمنة هؤلاء ميسرة هؤلاء وميسرة هؤلاء ميمنة هؤلاء، وتنادى شجعان مضر من الجانبين بالصبر وقصدوا الأطراف يقطعونها. وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب قبل قتله. وقاتل عند الجمل الازد ثم بنو ضبة وبنو عدي بن عبد مناف، وكثر القتل والقطع وصارت المجنبات إلى القلب، ومحمد بن طلحة أمامهم، وحمل عدي بن زيد ففقئت عينه، وحمل الاشتر واستمر القتل إلى الجمل حتى قتل على الخطام أربعون رجلا أو سبعون كلهم من قريش.

فجرح عبد الله بن الزبير، وقتل عبد الرحمن بن عتاب وجندب بن زهير العامري وعبد الله بن حكيم بن حزام ومعه راية قريش، فقتله الأشتر وأعانه فيه عدي بن حاتم، وقتل الاسود

بن أبي البختري وهو آخذ بالخطام، وبعده عمر بن الاشرف الازدي في ثلاثة عشر من أهل بيته، وجرح مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير سبعا وثلاثين جراحة ما بين طعنة ورمية. ونادى عليّ اعقروا الجمل يتفرقوا، وضربه رجل فسقط فما كان صوت أشد عجيجا منه. وكانت راية الأزد من أهل الكوفة مع مخنف بن سليم فقتل فأخذها الصقعب أخوه فقتل ثم أخوهما عبد الله كذلك فأخذها العلاء بن عروة فكان الفتح وهى بيده.

وكانت راية عبد القيس من اهل الكوفة مع القاسم بن سليم، فقتل ومعه زيد وسيحان ابنا صوحان. وأخذها عده فقتلوا منهم عبد الله بن رقية، ثم منقذ بن النعمان ودفعها إلى ابنه مرة فكان الفتح وهي بيده. وكانت راية بكر بن وائل في بني ذهل مع الحرث بن حسان فقتل من بني أهله ورجال من بني مخزوم وخمسة وثلاثين من بني ذهل.

وقيل في عقر الجمل إن القعقاع دعا الاشتر وقد جاء من القتال عند الجمل إلى العود فلم يجبه، وحمل القعقاع والخطام بيد زفر بن الحرث، فأصيب شيوخ من بني عامر. وقال القعقاع لبجير بن دلجة من بني ضبة وهو من اصحاب عليّ يا بجير! صح بقومك يعقروا الجمل قبل ان يصابوا وتصاب أم المؤمنين. فضرب ساق البعير فوقع على شقه وأمر القعقاع من يليه، واجتمع هو وزفر على قطع بطان البعير، وحملا الهودج فوضعاه وهو كالقنفذ بالسهام ومر من ورائه. وأمر على فنودي لا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور. وأمر بحمل الهودج من بين القتلى. وأمر محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة وأن ينظر هل بها جراحة، وجاء يسألها.

وقيل لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عمار فاحتملا الهودج إلى ناحية ليس قربه أحد وأتاها على فقال: كيف أنت يا أمة! قالت بخير! قال يغفر الله لك! قالت ولك، وجاء وجوه الناس إليها فيهم القعقاع بن عمرو، فسلم عليها وقالت له: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة وجاء إلى عليّ فقال له مثل قولها. ولما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر الصديق البصرة،

فأقرها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية زوجته بنت الحرث بن أبي طلحة من بني عبد الدارأم طلحة الطلحات بن عبد الله. وتسلل الجرحى من ين القتلى فدخلوا ليلا إلى البصرة، وأذن على في دفن القتلى فدفنوا بعد أن طاف عليهم.

ورأى كعب بن سور وعبد الرحمن بن عتاب وطلحة بن عبيد الله وهو يقول: زعموا أنه يخرج إلينا إلا الغوغاء وأمثال هؤلاء فيهم. ثم صلى على القتلى من الجانبين وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من كل شيء وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئا فليأخذه إلا سلاحا عليه سمة السلطان. وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف منهم من ضبة ألف رجل. ولما فرغ عليّ من الوقعة جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد فقال له: تربصت! فقال: ما أراني ألا قد أحسنت وبأمرك كان، فارفق فإن طريقك بعيد وأنت إلي غدا أحوج منك أمس، فلا تقل لي مثل هذا، فإني لم أزل لك ناصحا. ثم دخل البصرة يوم الإثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة.

وأتاه عبد الرحمن بن أبي بكرة فبايعه وعرض له في عفه زياد بأنه متربص. فقال: والله إنه لمريض وعلى مسرتك لحريص فقال: إمض أمامي فمضى، فلما دخل عليه على فتبعه فقبل عذره واعتذر بالمرض قبل عذره. وأراده على البصرة فامتنع وقال: ولها رجلا من أهلك تسكن إليه الناس وسأشير عليه، وأشار بإبن عباس فولاه. وجعل زيادا على الخراج وبيت المال وأمر ابن عباس بموافقته فيما يراه. ثم راح على إلى عائشة في دار ابن خلف، وكان عبد الله بن خلف قتل في الوقعة فاستاءت أمه وبعض النسوة عليه فأعرض عنهن وحرضه بعض أصحابه عليهن فقال: إن النساء ضعيفات وكنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات فكيف بهن مسلمات؟

ثم بلغه أن بعض الغوغاء عرض لعائشة بالقول والإساءة فأمر من أحضر له بعضهم وأوجعهم ضربا. ثم جهزها على إلى المدينة بما احتاجت إليه وبعثها مع أخيها محمد مع أربعين من نسوة البصرة اختارهن لمرافقتها، وأذن للفل مفن خرج معها أن يرجعوا معها ثم جاء يوم ارتحالها، فودعها واستعتبت له واستعتب لها ومشى معها أميالا وشيعها بنوه مسافة يوم، وذلك غرة رجب، فذهبت إلى مكة فقضت الحج ورجعت إلى المدينة وخرج بنو أمية من الفل ناجين إلى الشام. فعتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن ويحيى أخو مروان خلصوا إلى عصمة بن أبير التيمي إلى أن اندملت جراحهم ثم بعثهم إلى الشام، وأما عبد الله بن عامر فخلص إلى بني حرقوص ومضى من هنالك، وأما مروان بن الحكم فأجاره أيضاً مالك بن مسمع وبعثه، وقيل كان مع عائشة فلما ذهبت إلى مكة فارقها إلى المدينة. وأما الزبير فاختفى بدار بعض الأزد وبعث إلى عائشة يعلمها بمكانه فأرسلت أخاها محمدا، وجاء إليها به. ثم قسم على جميع ما في بيت المال على من شهد معه، وكان يزيد على ستمائة ألف فأصاب كل رجل خمسمائة وقال: إن أظفركم الله بالشام فلكم مثلما إلى إعطياتكم، فخاض السبئية بالطعن عليه بذلك وبتحريم أموالهم مع إراقة دمائهم، ورحلوا عنه فأعجلوه عن المقام بالبصرة، وارتحل في آثارهم ليقطع عليهم امرأ إن أرادوه.

وقد قيل في سياق أمر الجمل غير هذا. وهو أن عليا لما أرسل محمد بن أبي بكر إلى أبي موسى ليستنفر له اهل الكوفة وامتنع، سار هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى علي بالربذة فأخبره فأعاده إليه يقول له: إني لم أولك إلا لتكون من أعواني على الحق، فامتنع أبو موسى وكتب إليه هاشم مع المحل بن خليفة الطائي، فبعث عليّ ابنه الحسن وعمار بن ياسر يستنفران كما مر.

وبعث قرظة بن كعب الأنصاري أميرا وبعث إليه: إني قد بعثت الحسن وعمارا يستنفران الناس، وبعثت قرظة بن كعب والياً على الكوفة، فاعتزل عملنا مذموماً مدحورا، وإن لم تفعل فقد أمرته أن ينابذك وإن ظفر بك أن يقطعك إربا إربا. وإن الناس تواقفوا للقتال وأمر علي من يتقدم بالمصحف يدعوهم إلى ما فيه وإن قطع وقتل. وحمله بعض الناس وفعل ذلك فقتل وحملت ميمنة عليّ على ميسرتهم، فاقتتلوا ولاذ الناس بجمل عائشة أكثرهم من ضبة والأزد ثم انهزموا آخر النهار. واستحر في الأزد القتل وحمل عمار على الزبير يحوزه بالرمح، ثم استلان له وتركه.

وألقى عبد الله بن الزبير نفسه في الجرحى وعقر الجمل، واحتمل عائشة أخوها محمد فأنزلها وضرب عليها قبة ووقف عليها عليّ يعاتبها. فقالت

له: ملكت فاسجح نعم ما أبكيت قومك اليوم، فسرّحها في جماعة رجال ونساء إلى المدينة وجهزها بما تحتاج إليه. هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين. وقتل يوم الجمل عبد الرحمن أخو طلحة من الصحابة والمحرز بن حارثة العبشمي، وكان عمر ولأه على مكة، ومجاشع ومجالد ابنا مسعود مع عائشة. وعبد الله بن حكيم بن حزام وهند بن أبي هالة وهو ابن خديجة قتل مع علي وقيل بالبصرة وغيرهم. انتهى أمر الجمل.

ولما فرغ الناس من هذه الوقعة اجتمع صعاليك من العرب، وعليهم جبلة بن عتاب الحنظلي، وعمران بن الفضل البرجمي وقصدوا سجستان، وقد نكث أهلها وبعث عليّ إليهم عبد الرحمن بن جرو الطائي فقتلوه، فكتب إلى عبد الله بن عباس أن يبعث إلى سجستان والياً. فبعث ربعي بن كاس العنبري في أربعة آلاف ومعه الحصين بن أبي الحرّ، فقتل جبلة وانهزموا وضبط ربعي البلاد واستقامت.

انتفاض محمد بن أبي حذيفة بمصر ومقتله

لما قتل حذيفة بن عتبة يوم اليمامة ترك ابنه محمدا في كفالة عثمان وأحسن تربيته، وسكر في بعض الأيام فجلده عثمان ثم تنسك وأقبل على العبادة، وطلب الولاية من عثمان فقال: لست لها بأهل فاستأذنه على اللحاق بمصر لغزو البحر، فأذن له وجهزه ولزمه الناس وعظموه لما رأوا من عبادته. ثم غزا مع ابن أبي سرح غزوة الصواري كما مر، فكان يتعرض له بالقدح فيه وفي عثمان وبتوليته، ويجتمع في ذلك مع محمد بن أبي بكر، وشكاهما ابن أبي سرح إلى عثمان فكتب إليه بالتجافي عنهما لوسيلة ذاك بعائشة وهذا لتربيته. وبعث إلى ابن أبي حذيفة ثلاثين ألف درهم وحمل من الكسوة فوضعهما ابن أبي حذيفة في المسجد وقال: يا معشر المسلمين كيف أخادع عن ديني وآخذ الرشوة عليه، فازداد أهل مصر تعظيما له وطعنا على عثمان وبايعوه

على رياستهم، وكتب إليه عثمان يذكره بحقوقه عليه فلم يرده ذلك. وما زال يحرض الناس عليه حتى خرجوا لحصاره، وأقام هو بمصر وخرج ابن أبي سرح إلى عثمان

فاستولى هو على مصر وضبطها إلى أن قتل عثمان، وبويع عليّ، وبايع عمرو بن العاص لمعاوية وسار إلى مصر قيل قدوم قيس بن سعد فمنعهما فخدع محمد حتى خرج إلى العريش فتحفن بها في ألف رجل فحاصره حتى نزل على حكمهم فقتلوه. وفي هذا الخبر بعض الوهن لأن الصحيح أن عمرا ملك مصر بعد صفين، وقيس ولاه عليّ لأول بيعته، وقد قيل: إن ابن أبي حذيفة لما حوصر عثمان بالمدينة، أخرج هو ابن أبي سرح عن مصر وضبطها، وأقام ابن أبي سرح بفلسطين حتى جاء الخبر بقتل عثمان وبيعة على، وتوليته قيس بن سعد على مصر. فأقام بمعاوية. وقيل أن عمرا سار إلى مصر بعد صفين، فبرز إليه ابن أبي حذيفة

في العساكر وخادعه في الرجوع إلى بيعة عليّ، وإن يجتمعا لذلك بالعريش في غير جيش من الجنود. ورجع إلى معاوية عمرو فأخبره ثم جاء إلى ميعاده بالعريش، وقد استعد بالجنود وأكمنهم خلفه، حتى إذا التقيا طلعوا على أثره، فتبين ابن أبي حذيفة الغدر فتحضن بقصر العريش إلى أن نزل على حكم عمرو. وبعث به إلى معاوية فحبسه إلى أن فر من محبسه فقتل. وقيل إنما بعثه عمرو إلى معاوية عند مقتل محمد بن أبي بكر وإنه أمنه ثم حمله إلى معاوية فحبسه بفلسطين.

ولاية قيس بن سعد عليّ مصر

كان عليّ قد بعث غ لى مصر لأول بيعته قيس بن سعد أميرا في صفر من سنة ست وثلاثين، وأذن له في الاكثار مر الجنود وأوصاه وقال له: لو كنت لا أدخلها إلا بجند آتي بهم من المدينة، فلا أدخلها أبدا، فأنا أدعو لك الجند تبعثهم في وجوهك. وخرج في سبعة من أصحابه حتى أتى مصر، وقرأ عليهم كتاب عليّ بمبايعته وطاعته وإنه أميرهم. ثم خطب فقال بعد حمد الله: أيها الناس قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا، فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله، فبايعه الناس واستقامت مصر وبعث عليها عماله إلا بعض القرى كان فيها قوم يدعون إلى الطلب بدم عثمان: مثل يزيد بن الحرث ومسلمة بن مخلد فهادنهم وجبى الخراج وانقضى أمر الجمل، وهو بمصر.

وخشي معاوية أن يسير إليه عليّ في أهل العراق، وقيس من ورائه في أهل مصر، فكتب إليه يعظم قتل عثمان ويطوقه علما ويحضه على البراءة من ذلك ومتابعته على أمره على أن يوليه العراقين إذا ظفر ولا يعزله. يوليّ من أراد من أهله الحجاز

كذلك ويعطيه ما شاء من الأموال. فنظر في أهله بين موافقته أو معاجلته بالحرب فآثر الموافقة فكتب إليه: أما بعد فإني لم أقارف شيئا مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شيء منه. وأما متابعتك فانظر فيها وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه حتى نرى وترى.

فكتب إليه معاوية: إني لم أرك تدنو فأعدك سلما، ولا تتباعد فأعدك حربا وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعي عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام.

فعلم قيس أن المدافعة لا تنفع معه، فأظهر له ما في نفسه وكتب إليه بالرد القبيح والشتم، والتصريح بفضل علي والوعيد. فحينئذ أيس معاوية منه وكاده من قبل عليّ، فأشاع في الناس أن قيسا شيعة له تأتينا كتبه ورسله ونصائحه، وقد ترون ما فعل بإخوانكم القائمين بثأر عثمان وهو يجري عليهم من الأعطية والأرزاق.

فأبلغ ذلك إلى على محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعيونه بالشام، فأعظم ذلك وفاوض فيه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر. فقال له عبد الله: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك واعزله عن مصر. ثم جاء كتابه بالكف عن قتال المعتزلين فقال ابن جعفر: مره بقتالهم خشية أن تكون هذه ممالأة، فكتب إليه يأمره بذلك فلم ير قيس ذلك رأيا وقال: متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون، والرأي تركهم. فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين ! ابعث محمد بن أبي بكر على مصر وكان أخاه لأمه واعزل قيسا، فبعثه وقيل بعث قبله الأشتر النخعي ومات بالطريق فبعث محمدا. ولما قدم محمد على قيس خرج عنها مغضباً إلى المدينة، وكان عليها مروان بن الحكم فأخافه فخرج هو وسهل بن حنيف إلى عليّ. وكتب معاوية إلى مروان يعاتبه لو أمددت عليا بمئة ألف مقاتل كان ايسر على من قيس بن سعد.

ولما قدم قيس على عليّ وكشف له عن وجه الخبر قبل عذره وأطاعه في أمره كله. وقدم محمد مصر فقرأ كتاب عليّ على الناس وخطبهم. ثم بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم ادخلوا في طاعتنا أو اخرجوا عن بلادنا! فقالوا: دعنا حتى ننظر! وأخذوا حذرهم، ولما انقضت صفين وصار الأمر إلى التحكيم بارزوه، وبعث العساكر الى يزيد بن الحرث الكناني بخربتا وعليهم الحرث بن جمهان فقتلوه، ثم بعث آخر فقتلوه.

مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية

لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص إلى فلسطين ومعه ابناه عبد الله ومحمد، فسكن بها هاربا مما توقعه من قتل عثمان إلى أن بلغه الخبر بقتله، فارتحل يبكي ويقول كما تقول النساء حتى أتى دمشق، فبلغه بيعة على فاشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يصنعه الناس. ثم بلغه مسير عائشة وطلحة والزبير فأمل فرجا من أمره، ثم جاءه الخبر بوقعة الجمل فارتاب فى أمره، وسمع أن معاوية بالشام لا يبايع عليا وأنه يعظم قتل عثمان، فاستشار بنيه في المسير إليه. فقال له ابنه عبد لله: توفي النبي صلى الله عليه وسلم والشيخان بعده وهم راضون عنك، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس، وقال له محمد: أنت ناب من أنياب العرب، وكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صيت؟ فقال يا عبد الله ! أمرتني بما هو خير لي في ديني، ويا محمد! أمرتني بما هو خير لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم خرج ومعه ابناه حش تدم على معاوية، فوجدوهم يطلبون دم عثمان فقال: انتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم، فأعرض معاوية قليلا ثم رجع إليه وشركه في سلطانه.

أمر صفين

لما رجع في بعد وقعة الجمل إلى الكوفة مجمعا على قصد الشام بعث إلى جرير بن عبد الله البجلي بهمدان، وإلى الأشعث بن قيس بأذربيجان- وهما من عمال عثمان- لأن يأخذا له البيعة ويحضرا عنده، فلما حضرا بعث

جرير إلى معاوية يعلمه ببيعته، ونكث طلحة والزبير وحزبهما، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس. فلما قدم علبه طاوله في الجواب وحمل أهل الشام ليرى جرير قيامهم في دم عثمان، واتهامهم علما به. وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان ملوثا بالدم كما قدمناه، وبأصابع زوجته نائلة، وضع معاوية القميص على المنبر والأصابع من فوقه. فمكث الناس يبكون مدة، واقسموا ان لا يمسهم ماء الجنابة ولا يناموا على فراش حتى يثأروا من عثمان ومن حال دون ذلك قتلوه. فرجع جرير بذلك إلى عليّ، وعذله الأشتر فبعث

جرير، وأنّه طال مقامه حتى تمكن أهل الشام من رأيهم. فغضب لذلك جرير ولحق بقرقيسيا، واستقدمه معاوية فقدم عليه. وقيل إن شرحبيل بن الصمت الكندي أشار على معاوية برد جرير لمنافسة كانت بينهما منذ أيام عمر. وذلك أن شرحبيل كان عمر بن الخطاب بعثه إلى سعد بالعراق ليكون معه، فقربه سعد وقدمه ونافسه له أشعث بن قيس. فأوصى جريرا عند وفادته على عمر أن ينال من شرحبيل عنده ففعل، فبعث عمر شرحبيل إلى الشام فكان يحقد ذلك على جرير. فلما جاء إلى معاوية أغراه شرحبيل به وحمله على الطلب بدم عثمان. ثم خرج على وعسكر بالنخيلة واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري، وقدم عليه عبد الله بن عباس في أهل البصرة. وتجهز معاوية وأغراه عمرو بقلة عسكر عليّ واضطغان أهل البصرة له بمن قتل منهم. وعبى معاوية أهل الشام، وعقد لعمرو ولابنيه وغلامه وردان الأولوية. وبعث عليّ في مقدمته زياد بن النضر الحارثي في ثمانية آلاف، وشريح بن هانيء في أربعة آلاف. وسار من النخيلة إلى المدائن، واستنفر من كان بها من المقاتلة، وبعث منها معقل بن قيس في ثلاثة آلاف يسير من الموصل ويوافيه بالرقة. وولى عليّ على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد وسار، فلما وصل إلى الرقة نصب له جسر فعبر، وجاء زياد وشريح من ورائه وكانا سمعا بمسير معاولة، وخشيا أن يلقاهما معاوية وبينهما وين عليّ البحر، ورجعا إلى هيت وعبرا الفرات ولحقا بعلي فقدمهما أمامه.

فلما أتيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جند من اهل الشام فطاولاه، وبعثا إلى عليّ فسرح الأشتر وأمره أن يجعلهما على مجنبتيه وقال: لا تقاتلهم حتى آتيك! وكتب إلى شريح وزياد بطاعته فقدم عليهما، وكف عن القتال سائر يومه حتى حمل عليهم أبو الأعور بالعشي فاقتتلوا ساعة وافترقوا، ثم خرج من الغداة. وخرج إليه من أصحاب الأشتر هاشم بن عتبة المرقال، واقتتلوا عامة يومهم. وبعث الأشتر سنان بن مالك النخعي إلى أبي الأعور السلمي يدعوه إلى البراز، فأبى وحجز بينهم الليل ووافاهم من الغد على وعساكره. فتقدم الأشتر وانتهى إلى معاوية ولحق به عليّ، وكان معاوية قد ملك شريعة الفرات، فشكا الناس إلى عليّ العطش، فبعث صعصعة بن صوحان إلى معاوية بأنا سرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نعذر إليكم فسابقنا جندكم بالقتال. ونحن رأينا

الكفّ حتى ندعوكم ونحتج عليك، وقد منعتم الماء والناس غير منتهين فابعث إلى أصحابك يخلون عن الماء للورد حتى ننظر بيننا وبينكم، وإذا أردت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا. فأشار عمرو بن العاص بتخلية الماء

لهم، وأشار ابن أبي سرح والوليد بن عقبة بمنعهم الماء وعرضا بشتم فتشماتم معهم صعصعة ورجع وأوعز إلى أبي الأعور بمنعهم الماء. وجاء الأشعث بن قيس إلى الماء فقاتلهم عليه.

ثم أمر معاوية أبا الأعور يزيد بن أبي أسد القسري جد خالد بن عبد الله، ثم بعمرو بن العاص بعده. وأمر عليّ الاشعث بشبث بن ربعي ثم بالأشتر وعليهم أصحاب عليّ وملكوا الماء عليهم، وأرادوا منعهم منه فنهاهم عليّ عن ذلك، وأقام يومين.

ثم بعث إلى معاوية أبا عمرو بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي يدعونه إلى الطاعة، وذلك أول ذي الحجة سنة ست وثلاثين، فدخلوا عليه. وتكلم بشير بن عمرو بعد حمد الله والثناء عليه والموعظة الحسنة، وناشده الله أن لا يفرق الجماعة ولا يسفك الدماء فقال: هلاَ أوصيت بذلك صاحبك. فقال بشير: ليس مثلك هو أحق بالأمر بالسابقة والقرابة. قال فما رأيك؟ قالى تجيبه إلى ما دعا إليه من الحق. قال معاوية: ونترك دم عثمان لا والله لا أفعله أبدا! ثم قال ، شبث بن ربعي: يا معاوية! إنما طلبت دم عثمان تستميل به هؤلاء السفهاء الطغام إلى طاعتك، ولقد علمنا أنك أبطأت على عثمان بالنصر لطلب هذه المترلة، فاتق الله ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. لأجابه معاوية وأبدع في سبه وقال: إنصرفوا فليس بيني وبينكم إلا السيف. فقال له شبث: أقسم بالله لنجعلنها لك.

ورجعوا إلى عليّ بالخبر وأقاموا يقتتلون أيام ذي الحجة كلها، عسكر من هؤلاء وعسكر من هؤلاء، وكرهوا أن يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام حذراً من الاستئصال والهلاك. ثم جاء المحرم فذهبوا إلى الموادعة حتى ينقضي طمعاً في الصلح، وبعث إلى معاوية عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن حفصة. فتكلم عدي بعد الحمد والثناء ودعا إلى الدخول في طاعة عليّ ليجمع الله به الكلمة، فلم يبق غيرك ومن معك، واحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال معاوية:

كأنك جئت مهدداً لا مصلحاً، هيهات يا عدي أنا ابن حرب والله ما يقعقع لي بالشنان، وأنك من قتلة عثمان وأرجو أن يقتلك الله به. فقال له يزيد بن قيس: إنما أتيناك رسلاً ولا ندع مع ذلك النصح والسعي في الإلفة والجماعة، وذكر من فضل عليّ واستحقاقه للأمر بتقواه وزهده.

فقال معاوية: بعد الحمد والثناء أما الجماعة التي تدعون إليها فهي معنا، وأما طاعة صاحبكم فلا نراها لأنه قتل خليفتنا، وآوى أهل ثأرنا. ونحن مع ذلك نجيبكم إلى الطاعة والجماعة إذا دفع إلينا قتلة عثمان. فقل شبث بن ربعي: أيسرك يا معاوية أن تقتل عمارا؟ قال نعم بمولاه. قال شبث حتى تضيق والله الأرض الفضاء عليك. فقال معاوية لو كان ذلك لكانت عليك أضيق. وافترقوا عن معاوية ثم خلا بزياد بن حفصة وشكا إليه من علي وسأله النصر فيه بعشيرته وأن يوليه أحد المصرين فأبى وقال: إني على بينة من ربي فلن أكون ظهيرا للمجرمين. وقام عنه فقال معاوية لعمرو كأن قلوبهم قلب رجل واحد.

ثم بعث معاوية إلى عليّ حبيب بن مسلمة وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه. فتكلم حبيب بعد الحمد لله والثناء فقال: إن عثمان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمره

فاستثقلتم حياته واستبطأتم موته فقتلتموه، فادفع إلينا قتلته إن كنت لم تقتله، ثم اعتزل أمر الناس فيولوا من أجمعوا عليه. فقال عليّ: ما أنت وهذا الأمر فاسكت فلست بأهل له. فقال والله لتراني بحيث تكره فقال: وما أنت لا أبقى الله عليك إن أبقيت وأذهب فصوب وصعد.

ثم تكلم بعد الحمد لله والثناء وهداية الناس لمحمدصلى الله عليه وسلم وخلافة الشيخين وحسن سيرتهما، وقد وجدنا عليهما أن تولينا ونحن أقرب منهما إلى رسول الله ! لكن سامحناهما بذلك. وولي عثمان فعاب الناس عليه وقتلوه، ثم بايعوني مخافة الفرقة فأجبتهم. ونكث عليّ رجلان وخالف صاحبكم الذي ليس له مثل سابقتي، والعجب من انقيادكم له دون بيت نبيكم، ولا ينبغي لكم ذلك. وأنا أدعوكم إلى الكتاب والسنة ومعالم الدين وإماتة الباطل وإحياء الحق فقالوا: نشهد أن عثمان قتل مظلوما. فقال: لا أتول مظلوماً ولا ظالما. قالوا: فمن لم يقل ذلك فنحن منه براء وانصرفوا. فقرأ عليّ: {إنك لاتسمع الموتى}[الآية] ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء في ضلالهم أجدّ منكم في حقّكم.

ثم تنازع عدي بن حاتم في راية طيء عامر بن قيس الجرموزي وكان رهطه اكثر من رهط عدي، فقال عبد لله بن خليفة اليولاني: ليس فينا أفضل من عدي ولا من أبيه حاتم، و لم يكن في الإسلام أفضل من عدي ولا من أبيه حاتم، و لم يكن في الإسلام أفضل من عدي وهو الوافد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأس طيء في النخيلة والقادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وتستر. وسأل عليّ قومهم فوافقوه على ذلك فقضى بها لعدي.

ولما انسلخ المحرم نادى عليّ في الناس بالقتال وعبى الكتائب وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا ولا تأخذوا مالا ولا تهيجوا امرأة وإن شتمتكم، فانهن ضعاف الأنفس والقوى. ثم حرضهم ودعا لهم وجعل الأشترعلى خيل الكوفة، وسهل بن حنيف على خيل الصرة، وقيس بن سعد على رجالة البصرة، وعمار بن ياسر على رجالة الكوفة، وهاشم بن عتبة معه الراية، ومسعر بن فدكي على القراء. وعبى معاوية كتائبه: فجعل على الميمنة ذا الكلاع الحميري، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة، وعلى المقدمة أبا الأعور، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص، وعلى رجالتها مسلم بن عقبة المري. وعلى الناس كلهم الضحاك بن قيس. وتبابع رجال من أهل الشام على الموت فعقلوا انفسهم بالعمائم في خمسة صفوف، وخرجوا في اليوم الأول من صفر، خرج الأشتر من أهل الكوفة وحبيب من أهل الشام فاقتتلوا عامة يومهم، وفي اليوم الثاني هاشم بن عتبة وأبو الأعور السلمي. وفي اليوم الثالث عمار بن ياسر وعمرو بن العاص فاقتتلوا أشد قتال، وحمل عمار فأزال عمرا عن موضعه.

وفي اليوم الرابع محمد بن الحنفية وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وتداعيا إلى البراز، فرد عليّ ابنه وتراجعوا. وفي اليوم الخامس عبد الله بن عباس والوليد بن عقبة فاقتتلا كذلك. ثم عاد في اليوم السادس الأشتر وحبيب فاقتتلا قتالا شديدا وانصرفا. وخطب عليّ الناس عشية يومهم وأمرهم بمناهضة القوم بأجمعهم، وأن يطيلوا ليلتهم القيام ويكثروا التلاوة، ويدعوا لله بالنصر والصبر ويرموا غدا في لقائهم بالجد والحزم.

فبات الناس يصلحون ليلتهم سلاحهم، وعبى على الناس ليلته إلى الصباح،
وزحف وسأل عن القبائل من أهل الشام وعرف مواقفهم، وأمر كل قبيلة أن تحفيه أختها من أهل الشام. ومن ليس منهم أحد بالشام يصرفهم إلى من ليس منهم أحد
بالعراق، مثل بجيلة صرفهم إلى لخم. وخرج معاوية من أهل الشام فاقتتلوا يوم الأربعاء قتالا شديداً عامة يومهم ثم انصرفوا، وغلس عليّ يوم الخميس بالزحف، وعلى ميمنته عبد الله بن بديل بن ورقاء وعلى ميسرته عبد الله بن عباس والقراء مع عمار وقيس بن سعد وعبد الله ابن زيد، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي في القلب بين أهل الكوفة والبصرة ومعه أهل البصرة والكوفة، ومعه اهل المدينة من الأنصار وخزاعة وكنانة. ورفع معاوية قبة عظيمة وألقى عليها الثياب وبايعه أكثر اهل الشام على الموت، وأحاط بقبته خيل دمشق، وزحف ابن بديل في الميمنة فقاتلهم إلى الظهر وهو يحرض اصحابه. ثم كشف خيلهم واضطرهم إلى قبة معاوية. وجاء الذين تبايعوا على الموت إلى معاوية فبعثهم إلى حبيب فحمل بهم على ميمنة أهل العراق، فانجفل الناس عن اهل بديل إلا ثلاثمائة أو مائتين من القراء، وانتهت الهزيمة إلى عليّ. وأمده عليّ بسهل بن حنيف في اهل المدينة فاستقبلهم جموع عظيمة لأهل الشام فمنعتهم.
ثم انكشفت مضر من الميسرة وثبتت ربيعة، وجاء عليّ يمشي نحوهم، فاعترضه أحمر مولى أبي سفيان فحال دونه كيسان مولاه فقتله أحمر. فتناول عليّ أحمر من درعه فجذبه وضرب به الأرض وكسر منكبيه وعضديه، ثم دنا من ربيعة فصبرهم وثبت أقدامهم وتنادوا بينهم: إن أصيب بينكم أمير المؤمنين افتضحتم في العرب.
وكان الأشتر مر به راكضا نحو الميمنة، واستقبل الناس منهزمين فأبلغهم مقالة عليّ: أين فراركم من الموت الذي لا تعجزوه إلي الحياة التي لا تبقى لكم. ثم نادى: أنا الأشتر! فرجع إليه بعضهم فنادى مدحجا وحرضهم فأجابوه، وقصد القوم واستقبله شباب من همذان ثمانمائة أو نحوها، وكان قد هلك منهم في ذلك اليوم أحد عشر رئيسا وأصيب منهم ثمانون ومائة، وزحف الأشتر نحو الميمنة.
وتراجع الناس واشتد القتال حتى كشف أهل الشام، وألحقهم بمعاوية عند الاصفرار، وانتهى إلى ابن بديل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء قد لصقوا بالأرض. فانكشف عنهم أهل الشام وأبصروا إخوانهم، وسألوا عن عليّ فقيل لهم هو بالميسرة يقاتل. فقال ابن بديل استقدموا بنا، ونهاه الأشتر فأبى ومضى نحو معاوية وحوله أمثال الجبال تقتل كل من دنا منه حتى وصل
إلى معاوية، فنهض إليه الناس من كل جانب وأحيط به فقتل، وقتل من أصحابه ناس ورجع آخرون مجروحون وأهل الشام في اتباعهم. فبعث الأشتر من نفس عنهم حتى وصلوا إليه، وزحف الأشتر في همدان وطوائف من الناس فأزال أهل الشام عن مواقفهم حتى ألحقهم بالصفوف المعقلة بالعمائم حول معاوية. ثم حمل أخرى فصرع منهم أربعة صفوف حتى دعا معاوية بفرسه فركب. وخرج عبد الله بن أبي الحصين الأزدي في القراء الذين مع عمار فقاتلوا، وتقدم عقبة بن حبيب النميري مستميتا ومعه إخوته فقاتلوا حتى قتلوا. وتقدم

شمر بن ذي الجوشن مبارزا فضرب أدهم بن محرز الباهلي وجهه بالسيف وحمل على أدهم فقتله. وحمل قيس بن المكشوح ومعه راية بجيلة فقاتل حتى أخذها آخر كذلك.

ولما رأى على أهل ميمنة أصحبه قد عادوا إلى مواقفهم وكشفوا العدو قبالتهم أقبل إليهم وعذلهم بعض الشيء عن مفرهم، وأثنى على رجوعهم. وقاتل الناس قتالاً شديداً، وتبارز الشجعان من كل جانب. وأقبلت طيء والنخع وخرجت حمير من ميمنة أهل الشام وتقدم ذو الكلاع ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فقصد ربيعة في ميسرة أهل العراق وعليهم ابن عباس وحملوا عليهم حملة شديدة، فثبتت ربيعة وأهل الحفاظ منهم وانهزم الضعفاء والفشلة. ثم رجعوا ولحقت بهم عبد القيس وحملوا على حمير فقتل ذي الكلاع وعبد الله بن عمر، وأخذ سيف ذي الكلاع وكان لعمر. فلما ملك معاوية العراق أخذه من قاتله. ثم خرج عمار بن ياسر وقال اللهم إني لا أعمل اليوم عملا أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين. ثم نادى من سعى في رضوان ربه فلا يرجع إلى مال ولا ولد فأتاه عصابة فقال: إقصدوا بنا هؤلاء الذين يطلبون بدم عثمان، يخادعون بذلك عما في نفوسهم من الباطل. ثم مضى فلا يمر بواد من صفين إلا اتبعه من هناك من الصحابة. ثم جاء إلى هاشم بن عتبة، وكان صاحب الراية فانهضه حتى دنا من عمرو بن العاص فقال يا عمرو: بعت دينك بمصر؟ تبا لك! فقال: إنما أطلب دم عثمان فقال: أشهد أنك لا تطلب وجه الله في كلام كثير من أمثال ذلك، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في عمار تقتله الفئة الباغية.

ولما قتل عمار حمل على وحمل معه ربيعة ومضر وهمدان حملة منكرة فلم يبق لأهلى الشام صف إلا انتقض حتى بلغوا معاوية، فناداه ير على م يقتل الناس بيننا هلم نحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه استقام له الأمر. فقال له عمرو: انصفك. فقال له معاوية: لكنك ما انصفت. وأسر يومئذ جماعة من أصحاب عليّ فترك سبيلهم وكذلك فحل عليّ. ومر عليّ بكتيبة من الشام قد ثبتوا، نجث إليهم محمد بن الحنفية فأزالهم عن مواقفهم وصرع عبد الله بن كعب المرادي، فمر به الأسود بن قيس فأوصاه بتقوى الله والقتال مع عليّ وقال أبلغه عني السلام. وقال له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنه من أصبح غدا والمعركة خلف ظهره فإنه العالي.

ثم اقتتل الناس تلك الليلة إلى الصباح، وهي ليلة الجمعة وتسمى ليلة الهرير وعلى يسير بين الصفوف، ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهرة، والأشتر في الميمنة وابن عباس في الميسرة والناس يقتتلون من كل جانب، وذلك يوم الجمعة. ثم ركب الأشتر ودعا الناس إلى الحملة على أهل الشام، فحمل حتى أنتهى إلى عسكرهم وقتل صاحب رايتهم، وأمده على بالرجال.

فلما رأى عمرو شدة أهل العراق وخاف على أصحابه الهلاك لمعاوية: مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون كتاب الله بيننا وبينكم فإن فعلوا ذلك ارتفع عنا القتال، وإن أبى بعضهم وجدنا في افتراقهم راحة ففعلوا ذلك فقال الناس: نجيب إلى كتاب الله. فقال لهم على يا عباد الله! امضوا على حقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم،

صحبتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال. ويحكم والله ما رفعوها إلا مكيدة وخديعة فقالوا: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فلا نقبل. فقال: إنما قاتلناهم ليدينوا بكتاب الله فإنهم نبذوه.

فقال له مسعر بن فدك التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك يا على: أجب إلى كتاب الله وإلا دفعنا برمتك إلى القوم أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان. فقال: إن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فافعلوا ما بدا لكم قالوا: فابعث إلى الأشتر وكفه عن القتال، فبعث إليه يزيد بن هاني بذلك فأبى وقال: قد رجوت أن يفتح

الله لي فلما جاء يزيد بذلك ارتج الموقف باللغط وقالوا لعلى: ما نراك إلا أمرته بقتال ما بعث إليه فليأتك وإلا اعتزلناك فقال عليّ: ويحك يا يزيد قل له أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت فقال: ألرفع المصاحف؟ فقال نعم! قال لقد ظننت إن ذلك يوقع فرقة، كيف ندع هؤلاء وننصرف والفتح قد وقع فقال يزيد: تحب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه أو يقتل؟ ثم أقبل إليهم الأشتر وأطال عتبهم وقال: امهلوني فوالا فقد أحسست بالفتح فأبوا فعذلهم وأطال في عذلهم فقالوا: دعنا يا أشتر قاتلناهم لله فقال: بل خدعتم فانخدعتم.

ثم كثرت الملاحاة بينهم وتشاتموا فصاح بهم عليّ فكفوا. فقال له الاشعث بن قيس أن الناس قد رضوا بما دعوا إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية وسألته ما يريد قال أفعل فأتاه وسأله لأي شيء رفعتم المصاحف؟ قال لنرجع نحن وانتم إلى ما أمر الله به من كتابه. تبعثون رجلا ترضونه ونحن آخر ونأخذ عليهما عهد الله أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه. ثم نتبع ما اتفقا عليه. فقال الأشعث: هذا الحق ورجع إلى عليّ والناس وأخبرهم فقال الناس رضينا وقبلنا، ورضي أهل الشام عمرا وقال الأشعث: وأولئك القراء الذين صاروا خوارج: رضينا بأبي موسى فقال عليّ لا أرضاه! ففال الأشعث ويزيد بن الحصين ومسعر بن فدك لا نرضى إلا به. قال: فإنه ليس بثقة قد فارقني وخذل الناس عني وهرب مني حتى أمنته بعد أشهر قالوا: لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء قال فالأشتر؟ قالوا: وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ قال فاصنعوا ما بدا لكم! فبعثوا إلى أبي موسى وقد اعتزل القتال، فقيل إن الناس قد اصطلحوا فحمد الله. قيل وقد جعلوك حكما فاسترجع. وجاء أبو موسى إلى العسكر وطلب الأحنف بن قيس من عليّ أن يجعله مع أبي موسى فأبى الناس من ذلك، وحضر عمرو بن العاص عند عليّ ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا بعد البسملة:

هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين، فقال عمرو: ليس هو بأميرنا! فقال له الأحنف: لا تمحها فإني اتطير بمحوها. فمكث مليا ثم قال الأشعث: إمحها فقال عليّ الله أكبر! وذكر قصة الحديبية وفيها إنك ستدعى إلا مثلها فتجيب. فقال عمرو: سبحان الله نشئه بالكفار ونحن مؤمنون. فقال على: يا ابن النابغة ومتى لم تكن للفاسقين وليا وللمؤمنين عدواً. فقال عمرو: والله لا يجمع بيني وبينك

مجلس بعد اليوم. فقال عليّ: أرجو أن يطهر الله مجلسي منك ومن أشباهك، وكتب الكتاب. هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم، ومعاوية على أهل الشام ومن معهم، أنا نتزل عند حكم الله وكتابه، وأن لا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى

خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات مما وجد الحكمان في كتاب الله. وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يورداها في حرب ولا فرقة حتى يقضيا. وأحلا القضاء إلى رمضان فإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه، وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام وضعوا خطوطهم في الصحيفة، وأبى الاشتر أن يكتب اسمه فيها، وحاوره الأشعث في ذلك فأساء الرد عليه وتهدده.

وكتب الكتاب لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، واتفقوا على أن يوافي عليّ موضع الحكمين بدومة الجندل وبأذرح في شهر رمضان. ثم جاء بعض الناس إلى عليّ يحضه على قتال القوم فقال: لا يصلح الرجوع بعد الرضى ولا التبديل بعد الإقرار. ثم رجع الناس عن صفين ورجع عليّ وخالفت الحرورية وأنكروا تحكيم الرجال ورجعوا على غير الطريق الذي جاءوا فيه حتى جازوا النخيلة ورأوا بيوت الكوفة. ومر عليّ بقبر خباب بن الأرت، توفي بعد خروجه، فوقف واسترحم له ثم دخل الكوفة، فسمع رجة البكاء في الدور فقيل يبكين على القتلى فترحم لهم ولم يزل يذكر الله حتى دخل القصر، فلم تدخل الخوارج معه، وأتوا حرورا فنزلوا بها في اثني عشر ألفا، فقدموا شبث بن عمر التميمي أمير القتال، وعبيد الله بن الكوى اليشكري أمير الصلاة.

قالوا البيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر شورى بعد الفتح فقالوا للناس: بايعتم عليا إنكم أولياء من والى وأعداء من عادى، وبايع أهل الشام معاوية على ما أحب وكرهوا فلستم جميعاً من الحق في شيء. فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بايعناه إلا على الكتاب والسنة ولكن لما خالفتموه تعينتم للضلال وتعين للحق. ثم بعث عليّ عبد الله بن عباس إليهم وقال: لا تراجعهم حتى آتيك، فلم يصبر

عن مكالمتهم وقال: ما نقمتم من أمر الحكمين وقد أمر الله بهما بين الزوجين فكيف بالأمة؟ فقالوا لا يكون هذا بالرأي والقياس فإنّ ذلك جعله الله حكما للعباد وهذا أمضاه كما أمضى حكم الزاني والسارق. قال ابن عباس، قال الله تعالى: {يحكم به ذوا عدل منكم }، قالوا: والأخرى كذلك، وليس أمر الصيد والزوجين كدماء المسلمين. ثم قالوا له: قد كنا بالأمس نقاتل عمرو بن العاص، فإن كان عدلاً فعلى ما قاتلناه؟ وإن لم يكن عدلا فكيف يسوغ تحكيمه؟ وانتم قد حكمتم الرجال في أمر معاوية وأصحابه، والله تعالى قد أمضى حكمه فيهم أن يقتلوا أو يرجعوا، وجعلتم بينكم الموادعة في الكتب وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة. ثم جاء عليّ إلى فسطاط يزيد بن قيس منهم بعد أن علم أنهم يرجعون إليه في رأيهم، فصلى عنده ركعتين وولاه على أصبهان والري.

ثم خرج إليهم وهم في مجلس ابن عباس فقال: من زعيمكم قالوا ابن الكوى! قال فما هذا الخروج؟ قالوا لحكومتكم يوم صفين. قال أنشدكم الله أتعلمون إنه لم يكن رأي، وإنما كان رأيكم مع أني اشترطت على

الحكمين أن يحكما بحكم القرآن، فإن فعلا فلا ضير وإن خالفا فلا ضير ونحن براء من حكمهم. فقالوا فتحكيم الرجال في الدماء عدل؟ قال إنما حكمنا القرآن إلا أنه لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال قالوا: فلم جعلتم الأجل بينكم؟ قال لعل الله يأتي فيه بالهدنة بعد افتراق الأمة فرجعوا إلى رأيه وقال: ادخلوا مصركم فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا من عند آخرهم.

أمر الحكمين

ولما انقضى الاجل وحان وقت الحكمين بعث عليّ أبا موسى الأشعري في أربعمائة رجل، عليهم شريح بن هاني الحارثي ومعهم عبد الله بن عباس يصلي بهم، وأوصى شريحا بموعظة عمرو. فلما سمعها قال متى كنت أقبل مشورة عليّ واعتد برأيه؟ قال: وما يمنعك أن تقبل من سيد المسلمين وأساء الرد عليه فسكت عنه.

وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائه من أهل الشام والتقوا بأذرح من دومة الجندل، فكان أصحاب عمرو أطوع من أصحاب ابن عباس لابن عباس حتى لم يكونوا يسألونه عن كتاب معاوية إذا جاءه. ويسأل أهل العراق ابن عباس ويتهمونه. وحضر مع الحكمين:

عبد الله بن عمرو عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام وعبد الرحمن بن يغوث الزهري وأبو جهم بن حذيفة العدوي والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص على خلاف فيه، وقيل ندم على حضوره فأحرم بعمرة من بيت المقدس.

ولفا اجتمع الحكمان قال عمرو لأبي موسى أما تعلم أن عثمان قتل مظلوما وأن معاوية وقومه أولياؤه؟ قال بلى! قال فما يمنعك منه وهو في قريش كما علمت؟ لان قصرت به السابقة قدمه حسن السياسة وإنه صهر رسول الله -صلى الله عليه وسلم وكاتبه وصاحبه والطالب بدم عثمان، وعرض بالولاية. فقال له أبو موسى يا عمرو اتق الله واعلم إن هذا الامر ليس بالشرف وإلا لكان لآل أبرهة بن الصباح، وإنما هو بالدين والفضل، مع أنه لو كان بشرف قريش لكان لعلي بن أبي طالب، وما كنت لأرى لمعاوية طلبه دم عثمان وأوليه وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك بالولاية، فلو خرج لي عثمان عن سلطانه ما وليته وما أرتشي في حكم الله. ثم دعاه إلى تولية عبد الله بن عمر. قال له عمرو: فما يمنعك من ابني وهو من علمت؟ فقال له رجل صدق ولكنك غمسته في الفتنة. فقال عمرو: إن هذا الامر لا يصلح إلا لرجل له ضرس يأكل ولطعم- وكانت في ابن عمر غفلة-. وكان ابن الزبير بإزائه فنبهه لما قال. فقال ابن عمر لا أرشو عليها أبدا! ثم قال أبو موسى با ابن العاص إن العرب اسندت أمرها إليك بعد المقارعة بالسيوف، فلا تردهم في فتنة. قال له فخبرني ما رأيك؟ قال أرى أن نخم الرجلين ونجعل الامر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم. فقال عمرو الرأي ما رأيت.ثم أقبلوا على الناس وهم ينتظرونهم وكان عمر وقد عود أبا موسى ان يقدمه لي الكلام لما له من الصحبة والسن. فقال يا أبا موسى أعلمهم أن رأينا قد اتفق فقال: إنا رأينا أمراً نرجو الله أن يصلح به الأمة فقال له ابن عباس: ويحك أظنه خدعك، فاجعل له الكلام قبلك، فأبى وقال: أيها الناس إنا نظرنا في أمر الأمة فلم نر اصلح لهم مما

اتفقنا عليه، وهو أن نخع عليا ومعاوية ويولي الناس أمرهم من احثوا، وإني قد خلعتهما فولوا من أردتم ورأيتموه أهلا.

فقال عمرو: إن هذا قد خلع صاحبه وقد خلعته كما خلعه، وأثبت معاوية فهو ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه. ثم عدا ابن عباس وسعد على أبي موسى باللائمة وقال: ما أصنع غدرني ورجع باللائمة على عمرو، وقال لا وفقك الله غدرت وفجرت. وحمل شريح على عمرو فضربه بالسيف وضربه ابن عمر كذلك. وحجز الناس بينهم فلحق أبو موسى بمكة وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة. ورجع ابن عباس وشريح إلى على بالخبر فكان يقنت إذا صلى الغداة ويقول: اللهم العن معاوية وعمراً وحبيبا وعبد الرحمن بن مخلد والضحاك بن قيس والوليد وأبا الأعور. وبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت يلعن عليا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر.

أمر الخوارج وقتالهم

ولما اعتزم عليّ أن يبعث أبا موسى للحكومة، أتاه زرعة بن البرح الطائي وحرقوص بن زهير السعديّ من الخوارج وقالا له: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم. وقال: عليّ: قد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وعاهدناهم. فقال حرقوص: ذلك ذنب تبتغي التوبة منه. فقال عليّ: ليس بذنب ولكن عجز من الرأي. فقال زرعة: لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله فقال على: بؤسا لك كأني بك قتيلا تسفى عليك الرياح قال: وددت لو كان ذلك، وخرجا من عنده يناديان لا حكم إلا لله.

وخطب عليّ يوما فتنادوا من جوانب المسجد بهذه الكلمة فقال على: الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل. وخطب ثانيا فقالوا كذلك فقال: أما آن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا الفيء ما دمتم معنا، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا وننتظر فيكم أمر الله. ثم اجتمع الخوارج في مترل عبد الله بن وهب الراسبي فوعظهم وحرضهم على الخروج إلى بعض النواحي لإنكار هذه البدع، وتبعه حرقوص بن زهير في المقال. فقال حمزة بن سنان الازدي: الرأي ما رأيتم لكن لا بد لكم من أمير وراية، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي ثم حرقوص ثم زهير ثم حمزة بن سنان ثم
شريح بن أبي أوفى العنسي فأبوا كلّهم ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فأجاب فبايعوه لعشر خلون من شوّال. وكان يقال له ذو الثفنات.

ثم اجتمعوا في مترل شريح وتشاوروا وكتب ابن وهب إلى أهل البصرة منهم يستحث بهم على اللحاق بهم. ولما اعترفوا على المسير تعبدوا ليلة الجمعة ويومها وساروا، فخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي، واتبعه أبوه إلى المدائن فلم يقدروا عليه فرجع ولقيه عبد الله بن وهب في عشرين فارسا وأراد قتله فمنعه من كان معه من طيء.

وأرسل عليّ إلى عامل المدائن سعد بن مسعود يخبرهم فاستخلف ابن أخيه المختار بن أبي عبيد وسار في طلبهم في خمسمائة فارس، فتركوا طريقهم وساروا على بغداد، ولحقهم سعد بالكرخ مساء وجاءه عبد الله في

ثلاثين فارسا وقاتلهم وامتنعوا. وأشار أصحابه بتركهم إلى أن يأتي فيهم أمر عليّ فأبى، ولفا جن عليهم الليل عبر عبد الله إليهم دجلة وسار إلى أصحابه بالنهروان، واجتمعت خوارج البصرة في خمسمائة رجل عليهم مسعر بن فدكي التميمي واتبعهم أبو الأسود الدؤلي بأمر ابن عباس، ولحقه ياقتتلوا حتى حجز بينهم الليل. فأدلج مسعر بأصحابه فلحق بعبد الله بن وهب بالنهروان، ولما خرجت الخوارج بايع عليا أصحابه على قتالهم. ثم أنكر شأن الحكمين فخطب الناس وقال: بعد الحمد لله والموعظة إلا أن هذين الحكمين نبذا حكم القرآن، واتبع كل واحد هواه، واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد، فاستعدوا للسير إلى الشام.

وكتب إلى الخوارج بالنهروان بذلك، واستحثهم للمسير إلى العدو وقال: نحن على الأمر الأول الذي كنا عليه. فكتبوا إليه إنك غضبت لنفسك و لم تغضب لربك، فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت نظرنا بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، فيئس عليّ منهم ورأى أن يمضي إلى الشام ويدعهم. وقام في الناس يحرضهم لذلك. وكتب إلى ابن عباس من معسكره بالنخيلة يأمره بالشخوص في العساكر والمقام إلى أن يأتي أمره. فأشخص ابن عباس الاحنف بن قيس في ألف وخمسمائة. ثم خطب ثانية وندب الناس وقال: كيف ينفر هذا العدد القليل وأنتم

ستون ألف مقاتل ثم تمددهم وأمرهم بالنفير مع جارية بن قدامة السعدي، فخرج معه ألف وستمائة ووافوا عليا في ثلاثة آلاف أو يزيدون.

ثم خطب أهل الكوفة ولاطفهم بالقول وحرضهم وأخبرهم بما فعل أهل البصرة مع كثرتم وقال: ليكتب إلي كل رئيس منكم ما في عشيرته من المقاتلين من أبنائهم ومواليهم، فأجابه سعيد بن قيس الهمداني، ومعقل بن قيس وعدي بن حاتم وزياد بن خصفة وحجر بن عدي وأشراف الناس بالسمع والطاعة، وأمروا ذويهم الا يتخلف منهم أحد، فكانوا أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا ممن بلغ الحلم. وانتهت عساكره إلى ثمانية وستين ألفاً. وبلغه أن الناس يرون تقديم الخوارج فقال لهم ة إن قتال أهل الشام أهم علينا لأنهم يقاتلونكم ليكونوا ملوكا جئارين، وليتخذوا عباد الله خولا فرجعوا إلى رأيه وقالوا: سر بنا إلى حيث شئت، وبينما هو على اعتزام السير إلى أهل الشام بلغه أن خوارج أهل البصرة لقوا عبد الله بن خباب من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من النهروان، فعرفهم بنفسه فسألوه عن أبي بكر وعمر فأثنى خيرا، ثم عن عثمان في أول خلافته وآخرها، فقال كان محقا في الأول والاخر، فسألوه عن عليّ قبل التحكيم وبعده فقال هو أعلم بالله وأشد توقيا على دينه. فقالوا إنك توالي الرجال على أسمائها ثم ذبحوه، وبقروا بطن امرأنه، ثم قتلوا ثلاث نسوة من طيء. فآسف عليا قتلهم عبد الله بن ضباب واعتراضهم الناس. فبعث الحرث بن مرة العبدي لينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه، فقال له أصحابه: كيف ندع هؤلاء ونأمن غائلتهم في أموالنا وعيالنا، إنما نقدم أمرهم على الشام. وقام الأشعث بن قيس بمثل ذلك. فوافقهم عليّ وسار إليهم وبعث من يقول لهم إدفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم فنكف عنكم حتى نرجع من قتال العرب لعل الله يردكم إلى خير. فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا مستحل دماءكم ودماءهم.

ثم جاءهم قيس بن سعد ووعظهم، وأبو أيوب الأنصاري كذلك. ثم جاءهم عليّ فتهددهم وسفه رأيهم، وبين لهم شأن الحكمين، وأنهما لما خالفا حكم

الكتاب والسنّة نبذنا أمرهما ونحن على الامر الأول فقالوا: إنا كفرنا بالتحكيم وقد تبنا، فإن تبت أنت فنحن معك وإن أبيت فقد نابذناك. فقال: كيف أحكم على نفسي بالكفر بعد إيماني وهجرتي وجهادي ثم انصرف عنهم. وقيل إن عليا خطبهم وأغلظ عليهم فيما فعلوه من الاستعراض والقتل، فتنادوا لا تكلموهم وتأهبوا للقاء الله. ثم قصدوا جسر الخوارج ولحقهم عليّ دونه.، وقد عبى أصحابه وعلى ميمنته حجر بن عدي وعلى ميسرته شبث بن ربعي أو معقل بن قيس، وعلى الخيل أبو أنوب وعلى الرجالة أبو قتادة، وعلى أهل المدينة، سبعمائة أو ثمانمائة، قيس بن سعد.

وعبأت نحوه الخوارج على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى العنسي وعلى الخيل حمزة بن سنان الأسدي، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير. ودفع عليّ إلى أبي أيوب راية أمان لهم لمن جاءها ممن لم يقتل و لم يستعرض فناداهم إليها وقال: من انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن. فاعتزل عنهم فروة بن نوفل الاشجعي في خمسمائة وقال أعتزل حتى يتضح لي أمر في قتال عليّ، فنزل الدسكرة. وخرج آخرون إلى الكوفة، ورجع آخرون إلى عليّ وكانوا أربعة آلاف. وبقي منهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم عليّ والناس حتى فزقهم على الميمنة والميسرة..

ثم استقبلتهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من المجنبتين، ونهض إليهم الرجال بالسلاح فهلكوا كفهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا، وقتل عبد الله بن وهب وزيد بن حصن وحرقوص بن زهير وعبد الله بن شجرة وشريح بن أوفى. وأمر عليّ أن يلتمس المخدج في قتلاهم وهو الذي ذكره رسول الله- صلى الله عليه وسلم في علاماتهم، فوجد في القتلى. فاعتبر على وكبر واستبصر الناس وأخذ ما في عسكرهم من السلاح والدواب فقسمه بين المسلمين ورد عليهم المتاع والإماء والعبيد.

ودفن عدي بن حاتم ابنه طرفة ورجالاً من المسلمين فنهى على عن ذلك وارتحل و لم يفقد من أصحابه إلا سبعة أو نحوهم. وشكى إليه الناس الكلال ونفود السهام والرماح وطلبوا الرجوع إلى الكوفة ليستعدوا

فإنه أقوى على القتال. وكان الذي تولى كلامه الأشعث بن قيس فلم يجبه وأقبل فترل النخيلة ومنعهم من دخول منازلهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فتسللوا أيام المقامة إلى البيوت وتركوا المعسكر خاليا. فلما رأى عليّ ذلك دخل في ندبهم ثانيا فلم ينفروا فأقام أياما ثم كلم رؤساءهم عن رأيهم والذي يبطىء بهم فلم ينشط لذلك إلا القليل. فخطبهم وأغلظ في عتابهم وأعلمهم بما له عليهم من الطاعة في الحق والنصح فتثاقلوا وسكتوا.

ولاية عمرو بن العاص عليّ مصر

قد تقدم لنا ما كان من اجتماع العثمانية بنواحي مصر مع معاوية بن حديج الئكوني، وإن محمد بن أبي بكر بعث إليهم العساكر من الفسطاط مع ابن مضاهم فهزموه وقتلوه، واضطرمت الفتنة بمصر على محمد بن أبي بكر وبلغ ذلك عليا، فبعث إلى الأشتر من مكان عمله بالجزيرة وهو نصيبين فبعثه على مصر والشام: ليس لها

غيرك. وبلغ الخبر إلى معاوية وكان قد طمع في مصر فعلم إنها ستمتنع بالأشتر. وجاء الأشتر فنزل على صاحب الخراج بالقلزم فمات هنالك، وقيل إن معاوية بعث إلى صاحب القلزم فسفه على أن يسقط عنه الخراج وهذا بعيد.

وبلغ خبر موته عليا فاسترجع واسترحم، وكان محمد بن أبي بكر لما بلغته ولاية الأشترشق عليه فكتب عليّ يعتذر إليه، وإنه لم يوله لسوء رأيه في محمد وإنما هو لما كان يظن فيه من الشدة. فقد صار إلى الله ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب، فاصبر لعدوك وشمر للحرب، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والإستعانة به والخوف منه يكفيك ما أهمك ويعينك على ما ولاك فأجابه محمد بالرضا برأيه والطاعة لأمره. وأنه مزمع على حرابة من خالفه.

ثم لما كان من أمر الحكمين ما كان، واختلف أهل العراق على عليّ وبايع اهل الشام معاوية بالخلافة. فأراد معاوية صرف عمله إلى مصر لما كان يرجو من الاستعانة على حروبه بخراجها. ودعا بطانته أبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة وبسر بن

أرطاة والضحّاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وشرحبيل بن السمط وشاورهم في شأنها، فأشار عليه عمرو بافتتاحها. وأشار ببعث الجيش مع حازم صارم يوثق ويجتمع إليه من كان على رأيه من العثمانية. فقال معاوية: بل الرأي أن نكاتب العثمانية بالوعد ونكاتب العدو بالصلح والتخويف، ونأتي الحرب بعد ذلك. ثم قال معاوية: إنك يا ابن العاص بورك لك في العجلة وأنا في التؤدة فقال: إفعل ما تراه وأظن الأمر لا يصير إلا للحرب. فكتب معاوية إلى معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد يشكرهما على الخلاف ويحثهما على الحرب والقيام في دم عثمان، وفرحا بجوابهما فطلب المدد فجمع أصحابه وأشاروا بذلك.

فأمر عمرو بن العاص أن يتجهز إلى مصر في ستة آلاف رجل ووصاه بالتؤدة وترك العجلة فنزل أدنى أرض مصر، واجتمعت إليه العثمانية. وبعث كتابه وكتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر بالتهديد، وإن الناس اجتمعوا عليك وهم مسلموك فأخرج فبعث بالكتابين الى على فوعده بإنفاذ الجيوش وأمره بقتال العدو والصبر. فقدم محمد بن أبي بكر كنانة بن بشر في ألفين ، فبعث معاوية عمرو بن حديج وسرحه في أهل الشام، فأحاطوا بكنانة فترجل عن فرسه وقاتل حتى استشهد. وجاء الخبر إلى محمد بن أبي بكر فافترق عنه أصحابه وفروا وآوى في مفره إلى خربة واستتر في تلك الخربة فقبض عليه، فأخذه ابن حديج وجاء به إلى الفسطاط وطلب أخوه عبد الرحمن من عمرو أن يبعث إلىابن حديج في البقاء عليما فأبى. وطلب محمد الماء فمنعه ابن حديج جزاء بما فعل بعثمان. ثم أحرقه في جوف حمار بعد أن لعف ودعا عليه وعلى معاوية وعمرو. وكانت عائشة تقنت في الصلاة بالدعاء على قتله ويقال إنه لما انهزم اختفى عند جبلة بن مسروق حتى أحاط به معاوية بن حديج وأصحابه فخرج إليهم فقاتل حتى قتل. ولما بلغ الخبر عليا خطب الناس وندبهم إلى أعدائهم وقال: اخرجوا بنا إلى الجزعة بين الحيرة والكوفة. وخرج من الغد إلى منتصف النهار يمشي إليها حتى نزلها، فلم يلحق

به أحد، فرجع من العشي وجع أشراف الناس ووبخهم فأجاب مالك بن كعب الأرحبي في ألفين. فقال سر وما أراك تدركهم، فسار خمسا. ولحق حجاج بن عرفة الأنصاري قادما من مصر فأخبر بقتل محمد. وجاء إلى عليّ عبد الرحمن بن شبث الفزاري وكان عينا له بالشام. فأخبره بقتلى محمد واستيلاء عمرو على مصر فحزن بذلك وبعث إلى مالك بن كعب أن يرجع بالجيش. وخطب الناس فأخبرهم بالشبر وعذلهم على ما كان منهم من التثاقل حتى فات هذا الأمر ووبخهم طويلا ثم نزل.

دعاء ابن الحضرمي بالبصرة لمعاوية ومقتله

ولما افتتح معاوية مصر بعث عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة داعيا لهم، وقد آنس منهم الطاعة بما كان من قتل عليّ إياهم يوم الجمل، وانهم على رأيه في دم عثمان وأوصاه بالنزول في مصر وأن يتودّد إلى الازد وحذره من ربيعة وقال: إنهم ترائبه ! يعني شيعة لعلي. فسار ابن الحضرمي حتى قدم البصرة.

وكان ابن عباس قد خرج إلى عليّ واستخلف عليها زياداً، ونزل في بني تميم واجتمع إليه العثمانية فحضهم على الطلب بدم عثمان من عليّ. فقال الضحاك بن قيس الهلالي: قبح الله ما جئت به وما تدعو إليه، تحملنا على الفرقة بعد الاجتماع وعلى الموت ليكون معاوية أميرا؟ فقال له عبد الله بن حازم السلمي اسكت! فلست لها بأهل. ثم قال لأبن الحضرمي نحن أنصارك ويدك والقول قولك، فقرأ كتاب معاوية يدعوهم إلى رأيه من الطلب بدم عثمان على أن يعمل فيهم بالسنة ويضاعف لهم الأعطية. فلما فرغ من قراءته قام الاحنف بن قيس معتزلاً وحض عمر بن مرحوم على لزوم البيعة والجماعة. وقام العبّاس بن حجر في مناصرة ابن الحضرمي فقال له المثنى بن مخرمة: لا يغرنك ابن صحار وارجع من حيث جئت. فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمان الازدي ألا تنصرني؟ قال لو نزلت عندي فعلت! ودعا زياد أمير البصرة حصين بن المنذر ومالك بن مسمع ورؤوس بكر بن وائل إلى المنعة من ابن الحضرمي إلى أن يأتي أفر عليّ، فأجاب حصين وتثاقل مالك وكان هواه في بني أمية. فأرسل زياد إلى صبرة بن شيمان يدعوه

إلى الجوار بما معه من بيت المال فقال: إن حملته إلى داري أجرتك فتحول إليه ببيت المال والمنبر، وكان يصلي الجمعة في مسجد قومه وأراد زياد اختبارهم فبعث إليهم من ينذرهم بمسيره إليهم، وأخذ زياد جندا منهم بعد صبره لذلك وقال: إن جاءوا جئناهم. وكتب زياد إلى علم بالخبر فأرسل أعين بن ضبيعة لنفرق تميما عن ابن الحضرمي، ويقاتل من عصاه بمن أطاعه. فجاء لذلك وقاتلهم يوما أو بعض يوم. ثم اغتاله قوم فقتلوه يقال من الخوارج.

ولاية زياد عليّ فارس

ولما قتل ابن الحضرمي بالبصرة والناس مختلفون على عليّ طمع أهل النواحي من بلاد العجم في كسر الخراج وأخرج أهل فارس عاملهم سهل بن حنيف فأشار عليّ الناس فأشار عليه جارية بن قدامة بزياد فأمر ابن عباس أن يوليه عليه فبعثه إليها في جيش كثيف فطوى بهم أهل فارس، وضرب ببعضهم بعضا وهرب قوم وأقام

آخرون، وصفت له فارس بغير حرب. ثم تقدم إلى كرمان فدوخها مثل ذلك فاستقامت وسكن الناس ونزل اصطخر وسكن قلعة بها تسمى قلعة زيار.

فراق ابن عباس لعلي رضي الله عنه

وفي سنة أربعين فارق عبد الله بن عباس عليا ولحق بمكة وذلك أنه مر يوما بأبي الأسود ووبخه على أمر فكتب أبو الأسود إلى عليّ بأن ابن عباس استتر بأموال الله، فأجابه عليّ يشكره على ذلك. وكتب لابن عبّاس و لم يخبره بالكاتب، فكتب إليه

بكذب ما بلغه من ذلك وإنه ضابط للمال حافظ له. فكتب إليه عليّ: أعلمني ما أخذت ومن أين أخذت وفيما وضعت؟ فكتب إليه ابن عباس فهمت استعظامك لما رفع إليك إني رزأته من هذا المال فابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعن عنه، واستدعى أخواله من بني هلال فجاءته قيس كلها، فحمل المال وقال: هذه أرزاقنا واتبعه أهل البصرة ووقفت دونه قيس، فرجع صبرة بن شيمان الهمداني بالازد وقال قيس: إخواننا وهم خير من المال فأطيعوني.

وانصرف معهم بكر وعبد القيس، ثم انصرف الاحنف بقومه من بني تميم وحجز بقية بني تميم عنه ولحق ابن عباس بمكة.

مقتل عليّ رضي الله عنه

قتل عليّ رضي الله عنه سنة أربعين لسبع عشرة من رمضان، وقيل لأحدى عشرة، وقيل في ربيع الآخر والأول أصح. وكان سبب قتله أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصريمي واسمه الحجاج، وعمرو بن بكر التميمي السعدي: ثلاثتهم من الخوارج لحقوا من ففهم بالحجاز واجتمعوا فتذاكروا ما فيه الناس وعابوا الولاة وترحموا على قتلى النهروان وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم الناس.

فقال ابن ملجم:- وكان من مصر- أنا أكفيكم عليا وقال البرك أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر التميمي: أنا أكفيكم عمرو بن العاص وتعاهدوا أن لا يرجع أحد عن صاحبه حتى يقتله أو يموت. واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وانطلقوا. ولقي ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم. ثم جاء إلى شبيب بن شجرة من أشجع ودعاه إلى الموافقة في شأنه. فقال شبيب: ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله؟ قال أكمن له في المسجد في صلاة الغداة، فإن قتلناه وإلا فهي الشهادة. قال ويحك لا

أجدني انشرح لقتله مع سابقته وفضله، قال ألم يقتل العباد الصالحين أهل النهروان؟ قال بلى. قال فنقتله بمن قتله منهم فأجابه. ثم لقي امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال قتل أبوها وأخوها يوم النهروان فأخذت قلبه فخطبها فشرطت عليه عبدا وقينة وقتل على. فقال كيف يمكن ما أنت تريدين؟ قالت التمس غرته فإن قتلته شفيت النفوس وإلا فهي الشهادة قال: والله ما جئت إلا لذلك ولك ما سألت. قالت: سأبعث معك من يشد ظهرك ويساعدك، فبعثت معه رجلا من قومها إسمه وردان.

فلما كانت الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه على قتل على، وكانت ليلة الجمعة جاء إلى المسجد ومعه شبيب ووردان، وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها عليّ للصلاة. فلما خرج ونادى للصلاة علاه شبيب بالسيف فوقع بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه وقال: الحكم لله لا لك يا عليّ ولا لأصحابك، وهرب وردان إلى مترله وأخبر بعفى أصحابه بالأمر فقتله وهرب شبيب مغلساً. وصاح الناس به فلحقه رجل من حضرموت، فأخذه وجلس عليه والسيف في يد شبيب والناص قد أقبلوا في طلبه. وخشي الحضرمي على نفسه لاختلاط الغلس فتركه وذهب في غمار الناس.

وشد الناس على ابن ملجم، واستخلف على على الصلاة جعدة بن هبيرة وهو ابن أخته أم هانىء فصفى الغداة بالناس، وأدخل ابن ملجم مكتوفاً على عليّ فقال: ايه عدو الله ما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال أراك مقتولا به! ثم قال إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. يا بني عبد المطلب لا تحرضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين، لا تقتلوا الا قاتلي.

يا حسن! أنا إن مت من ضربتي هذه فاضربه بسيفه ولا تمثلن بالرجل فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إياكم والمثلة. وقالت أم كلثوم لابن ملجم وهو مكتوف وهي تبكي: أي عدو الله لا بأس على أبي والله مخزيك، قال فعلام تبكين؟ والله لقد شريته بألف وصقلته أربعين، ولو كانت هذه الضربة بأهل بلد ما بقي منهم أحد.

وقال جندب بن عبد الله لعلى أنبايع الحسن إن فقدناك؟ قال ما آمركم به ولا أنهاكم انتم أبصر. ثم دعا الحسن والحسين ووصاهما قال: أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن

بغتكما، ولا تأسفا على شيء زوى منها عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضائع وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا، واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم. ثم قال لمحمد بن الحنفية إني أوصيك بمثل ذلك وبتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، ولا تقطع أمراً دونهما. ثم وصاهما بابن الحنفية، ثم أعاد على الحسن وصيته. ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ولم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض.

وأحضر الحسن ابن ملجم فقال له هل لك البقاء عليّ! وأني قد عاهدت الله أن اقتل عليا ومعاوية، وإني عاهدت الله على الوفاء بالعهد فخل بيني وبين ذلك، فإن قتلته وبقيت فلك عهد الله أن آتيك فقال: لا والله حتى تعاين النار، ثم قدمه فقتله. وأما البرك فإنه قصد لمعاوية تلك الليلة، فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف في إليته وأخذ فقال: عندي بشرى أتنفعني إن أخبرتك بها؟ قال نعم! قال إن أخا لي قتل عليا هذه الليلة. قال فلعله لم يقدر عليه؟ قال بلى إن عليا ليس معه حرس. فأمر به معاوية فقتل وأحضر الطبيب فقال: ليس إلا الكي أو شربة تقطع منك الولد فقال: في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني، والنار لا صبر لي عليها.وقد قيل انه أمر بقطع البرك فقطع وأقام إلى أيام زياد فقتله بالبصرة. وعند ذلكاتخذ معاوية المقصورة، وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد. ويقال إن أول من اتخذ المقصورة مروان بن الحكم سنة أربع وأربعين حين طعنه اليمانيّ.

وأمّا عمرو ابن بكر فإنّه جلس إلى عمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى فأمر صاحب شرطته خارجة بن أبي حبيبة بن عامر بن لؤي يصلي بالناس فشد عليه فضربه فقتله، وهو يرى أنه عمرو بن العاص. فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال: فمن قتلت إذا؟ قالوا خارجة فقال لعمرو بن العاص والله ما ظننته غيرك! فقال عمرو: وأردت عمرا وأراد الله خارجة. وأمر بقتله

وتوفي عليّ رضي الله عنه، وعلى البصرة عبد الله بن عبّاس، وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي، وعلى فارس زياد بن سمّية، وعلى اليمن عبيد الله بن العبّاس، حتى وقع أمر بسر بن

أبي أرطاة، وعلى مكة والطائف قثم بن عبّاس، وعلى المدينة أبو أيوب الأنصاري وقيل سهل بن حنيف.

بيعة الحسن وتسليمه الأمر لمعاوية

ولما قتل عليّ رضي الله عنه اجتمع أصحابه فبايعوا ابنه الحسن، وأول من بايعه قيس بن سعد وقال: أبسط يدك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال الملحدين، فقال الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله. ويأتيان على كل شرط ثم بايعه الناس، فكان يشترط عليهم إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت. فارتابوا وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد القتال. وبلغ الخبر بمقتل عليّ إلى معاوية فبويع بالخلافة ودعي بأمير المؤمنين، وكان قد بويع بها بعد اجتماع الحكمين. ولأربعين ليلة بعد مقتل عليّ مات الأشعث بن قيس الكندي من أصحابه. ثم مات من أصحاب معاوية شرحبيل بن السمط الكندي وكان عليّ قبل قتله قد تجهز بالمسلمين إلى الشام، وبايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت. فلما بويع الحسن زحف معاوية في أهل الشام إلى الكوفة فسار الحسن في ذلك الجيش للقائه، وعلى مقدمته قيس بن سعد في إثني عشر ألفا وقيل بل كان عبد الله بن عباس على المقدمة، وقيس في طلائعه.. فلما نزل الحسن في المدائن شاع في العسكر ان قيس بن سعد قتل، واهتاج الناس وماج بعضهم في بعفى، وجاءوا إلى سرادق الحسن ونهبوا ما حوله حتى نزعوه بساطه الذي كان عليه، واستلبوه رداءه، وطعنه بعضهم في فخذه. وقامت ربيعة وهمدان دونه واحتملوه على سرير إلى المدائن. ودخل إلى القصر وكاد أمره أن ينحل، فكتب إلى معاوية يذكر له النزول عن الأمر على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف، ويعطيه خراج دارابجرد من فارس وأن لا يشتم عليا وهو يسمع.

وأخبر بذلك أخاه الحسين وعبد الله بن جعفر، وعذلاه فلم يرجع إليهما. وبلغت صحيفته إلى معاوية فأمسكها، وكان قد بعث عبد الله بن عامر وعبد الله بن سمرة إلى الحسن ومعهما صحيفة بيضاء ختم في أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك، فاشترط فيها اضعاف ما كان في الصحيفة. فلما سلم له وطالبه في الشروط أعطاه ما في الصحيفة الأولى وقال: هو الذي

طلبت. ثم نزعه أهل البصرة خراج دارا بجرد وقالوا: هو فيئنا لا نعطيه. وخطب الحسن أهل العراق وقال سخى نفسي عنكم ثلاث: قتل أبي وطعني وانتهاب بيتي، ثم قال الا وقد أصبحتم بين قبيلتين، قبيل بصفين يبكون له، وقبيل بالنهروان يطلبون بثأره. وأما الباقي فخاذل وأما الباكي فثائر. وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس

فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله بظبى السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه الناس من كل جانب البقية البقية فأمضي الصلح. ثم بايع لمعاوية لستة أشهر من بيعته، ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس. وكتب الحسن إلى قيس بن سعد يأمره بطاعة معاوية فقام قيس في أصحابه فقال: نحن بين القتال مع غير إمام أو طاعة إمام ضلالة فقال له الناس: طاعة الإمام أولى. وانصرفوا إلى معاوية فبايعوه وامتنع قيس وانصرف. فلما دخل معاوية الكوفة أشار عليه عمرو بن العاص ان يقيم الحسن للناس خطيبا ليبدو للناس عيه، فلما قدم حمد الله وقال: أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الأمر مدة، وإن الدنيا دول والله عز وجل يقول لنبيه: {وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين }[الأية....] فقال له معاوية: إجلس. وعرف أنه خدع في رأيه. ثم ارتحل الحسن في أهل بيته وحشمهم إلى المدينة، وخرج أهل الكوفة لوداعه باكين فلم يزل مقيما بالمدينة إلى أن هلك سنة تسع وأربعين. وقال أبو الفرج الأصبهاني سنة إحدى وخمسين، على فراشه بالمدينة. وما ينقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة، وحاشا لمعاوية من ذلك.

وأقام قيس بن سعد على امتناعه من البيعة، وكان معاوية قد بعث عبد الله بن عامر في جيش إلى عبيد الله بن عباس لما كتب إليه في الأمان بنفسه فلقيه ليلا وأمنه وسار معه إلى معاوية فقام بأمر العسكر بعده قيس بن سعد، وتعاقدوا على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة على على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة. وبلغ الخبر إلى معاوية وأشار عليه عمرو في قتاله، فقال معاوية: يقتل في ذلك أمثالهم من أهل الشام ولا خير فيه، ثم بعث إليه بصحيفة ختم في أسفلها وقال: اكتب في هذا ما شئت فهو لك: فكتب قيس له ولشيعته الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال،

ولم يسأل مالا، فأعطاه معاوية ذلك وبايعه قيس والشيعة الدين معه، ثم جاء سعد بن أبي وقّاص فبايعه واستقرّ الأمر لمعاوية واتفق الجماعة على بيعته وذلك في منتصف سنة إحدى وأربعين، وسمّى ذلك العام عام الجماعة من أجل ذلك. ثم خرج عليه الخوارج من كل جهة من بقية أهل النهروان وغيرهم، فقاتلهم واستلحمهم كما يأتي في أخبارهم على ما اشترطناه في تأليفنا من افراد الأخبار عن الدول وأهل النحل دولة دولة وطائفة طائفة. وهذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردة والفتوحات والحروب ثم الاتفاق والجماعة، اوردتها ملخصة عيونها ومجامعها من كتاب محمد بن جرير الطبري وهو تاريخه الكبير فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك وأبعد من المطاعن عن الشبه في كبار الأمة وخيارهم وعدولهم من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين. فكثيراً ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم أكثرها من أهل الأهواء، فلا ينبغي أن تسود بها العيون. وابعتها بمفردات من غير كتاب الطبري بعد أن تخيرت الصحيح جهد الطاقة، وإذا ذكرت شيئا في الأغلب نسبته إلى قائله. وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية واخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تأليهم فى الفضل والعدالة والصحبة، ولا ينظر في ذلك إلى حديث: الخلافة بعدي ثلاثون، فإنه لم يصح. والحق إن معاوية في عداد الخلفاء وإنما أخره المؤرخون في التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختيارا واجتماعاً، فميزوا بين الحالتين. فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبهون بعضهم ببعض، وحاشى لله أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده. فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانية ممن تلاه في المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العبّاس. ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكا.

واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية والمعبر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها. وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة ولا النبوة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات

الله عليهما نبيين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل. ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للإستكثار من الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطبعها لفا استولى المسلمون على الدولة كلها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستعمل العصبية وتدعو لطبيعة الملك.

وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استعمال أحكامه ودواعيه. والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهي. فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي-صلى الله عليه وسلم في المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا. وإن سمي خليفة في المجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة انهم كانوا أهل نسب واحد، عظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه والخلفاء الأوّلون مختلفو الأنساب، فجعلوا في نمط واحد، وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريبا في الفضل، والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم.

ما ورد في نسخة باريس زيادة عن نسخة طبع بولاق

كمل بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه على يد كاتبه العبد الفقير، المقر بالعجز والتقصير، الراجي عفو ربه العليم الخبير، المسرف على نفسه بالتقصير، عبد الله بن محمد بن الصايم التلمساني. اسكنه الله بفضله دار الأماني ويغفر له ولوالديه ولمشايخه ولمن كان السبب في نسخه، ولمن دعا لهم بالمغفرة، ولجميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات. والصلاة الدائمة على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين والرضا عن آله وصحبه أجمعين، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد لعشرين مضت من ربيع الاخر سنة 1192ه اثنين وتسعين وماية وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم انتهى.

المجلد الثالث

القِسْم الأول

دَولة بني أُمَيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

(كان) لبني عَبْد ُمنَافَ في قُرَيْش جُمَلٌ من العدد والشرف. لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قُرَيْش. وكان فخذاهم بنو أمَيَّة وبنو هاشم حياً جميعاً ينتمون لعبد مناف وينسبون إليه. وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً، والعِزةُ إنما هي بالكثرة، قال الشاعر:

وإنما العِزةُ للكَاثر

وكان لهم قبيل الإِسلام شرف معروف، انتهى إلى حرب بن أُمَيَّة، وكان رئيسهم في حرب الفُجَّار. وحدث الإخباريون أن قريشاً تواقعوا ذات يوم، وحرس هذا مسند ظهره إلى الكعبة، فتبادر إليه غلمة منهم ينادون ياعم أدرك قومك، فقام يجرَ إزاره حتى أشرف عليهم من بعض الربا، ولَوح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا فبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حمي وطيسهم.(ولما) جاء الإِسلام ودُهِشَ الناس لّما وقع من أمر النبوَّة والوحي وتنزل الملائكة، وما وقع من خوارق الأمور ونسي الناس أمر العَصَبِيَّة مسلمهم وكافرهم. أمَّا المسلمون فنهاهم الإِسلام عن أُمور الجاهلية كما في الحديث أنَّ الله أذهب عنكم غُبِيَّةّ الجاهلية وفخرها لأننا وأنتم بنو آدم، وآدم من تراب. وأمَّا المشركون فشغلهم ذلك الأمر

العظيم عن شأن العصائب، وذهلوا عنه حيناً من الدهر. ولذلك لّما افترق أمر بني أُمَيَّة وبني هاشم بالإِسلام. إنما كان ذلك الافتراق بحصار بني هاشم في الشعب لا غير. ولم يقع كبير فتنة لأجل نسيان العصبيات

والذهول عنها بالإِسلام، حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد. ولم يبق إلا العَصَبِيَّة الطبيعية التي لا تفارق وهي بعزّة الرجل على أخيه وجاره في القتل والعدوان عليه، فهذه لا يُذهبها شيءٌ ولا هي محظورة، بل هي مطلوبة ونافعة في الجهاد والدعاءِ إلى الدين.ألا ترى إلى صَفْوان بن أُمَيَّة وقوله عندما انكشف المسلمون يوم حُنَيْن، وهو يومئذ مشرك في المدَّة التي جعل له رسول الله صلى الله عليه و سلم حتي يسلم، فقال له أخوه: ألا بطل السحر اليوم؟ فقال له صَفْوان اسكت فض الله فاك. لأن يُرِبْني رجل من قُرَيْش أحب إليَّ من أن يُرِبْني رجل من هُوَازِن.

ثم أن شرف بني عَبد مناف لم يزل في بني عَبْد شمس وبني هاشم. فلما هلك أبو طالب وهاجر بنوه مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وحمزة كذلك. ثم من بعده العباس0، والكثير من بني عَبْد المطلب، وسائر بني هاشم، خلا الجوّ حينئذ من مكان بني هاشم بمكّة، واستغلظت رياسة بني أُمَيَّة في قُرَيْش. ثم استحكمتها مشيخة قُرَيْش من سائر البطون في بَدْر وهلك فيها عظماء بني عَبْد شمس: عُتْبَةُ ورَبيعَةُ والوليد وعقبة بن أبي

معيط وغيرهم. فاستقلّ أبو سُفْيان بشرف بني أُمَيَّة والتقَدَّم في قُرَيْش، وكان رئيسهم في أُحُدٍ وقائدهم في الأحزاب وما بعدها.(ولما كان الفتح) قال العباس للنبي صلى الله عليه و سلم لّما أسلم أبو سفيان ليلتئذ، كما هو معروف، وكان صديقاً له يا رسول الله صلى الله عليه و سلم إنّ أبا سُفْيان رجل يحب الفخر، فاجعل له ذكراً، فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ثم منّ على قُرَيْش بعد أن ملكهم يومئذ، وقال: إذهبوا فأنتم الطُلَقَاء وأسلموا. وشكت مشيخة قُرَيْش بعد ذلك لأبي بكر ما وجدوه في أنفسهم من التخلّف عن رتب المهاجرين الأوّلين، وما بلغهم من كلام عمر في تركه شوارهم، فاعتذر لهم أبو بكر وقال: أدركوا إخوانكم بالجهاد، وأنفذهم لحروب الرِدَّة، فأحسنوا الغَنَاءَ عن الإسلام وقوّموا الأعْرَاب عن الحيف والميل. ثم جاء عمر فرمى بهم الروم، وأرغب قريشاً في النفير إلى الشام، فكان معظمهم هنالك. واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام. وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عَمْوَاس سنة ثماني عشرة فولّى مكانه أخاه معاوية وأقّره عثمان من بعد عمر فاتصلت رياستهم على قُرَيْش في الإسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا ينسى عهدها أيام شغل بني هاشم بأمر النبوَّة، ونبذوا الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الَوحْي وشرف القرب من الله برسوله وما زال الناس يعرفون ذلك لبني أُمَيَّة. وانظر

مقالة حنظلة بن زياد الكاتب لمحمد بن أبي بكر: إنّ هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عَبْد مناف. (ولما هلك عثمان) واختلف الناس على عليّ كانت عساكر عليّ أكثر عدداً لمكان الخلافة والفضل، إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة ويمن وغيرهم، وجموع معاوية إنما هي جند الشام من قُرَيْش شوكة مضرو بأسهم، نزلوا بثغور الشام منذ الفتح، فكانت عصبيته أشدّ وأمضى شوكة، ثم كسر من جناح عليّ، ما كان من أمر الخوارج وشغله بهم إلى أن ملك معاوية وخلع الحسن نفسه، واتفقت الجماعة على بيعة معاوية في منتصف سنة إحدى وأربعين عندما نسي الناس شأن النبوَّة والخوارق، ورجعوا إلى أمر العَصَبِيَّة والتغالب، وتعين بنو أمَيَّة للغلب على مُضَر وسائر العرب، ومعاوية يومئذ كبيرهم. فلم تتعدّه الخلافة ولا ساهمه فيها غيره، فاستوت قدمه واستفحل شأنه، واستحكمت في أرض مْصَر رياسته وتوثق عقده. وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة، ينفق من بضاعة السياسة التي لم يكن أحد من قومه أوفر فيها منه يداً من أهل الترشيح من ولد فاطمة وبني هاشم وآل الزبير وأمثالهم، ويصانع رؤوس العرب وقروم مُضَر بالإغضاءِ والاحتمال والصبر على الأَذى والمكروه. وكانت غايته في الحلم لا تدرك، وعصابته فيها لا تنزع، ومرقاته فيها تزلُّ عنها

الأقدام.(ذكر) أنه مازح عديّ بن حاتم يوماً يؤنبه بصحبة عليّ، فقال له عديّ: والله إنّ القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وأنّ السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن أدنيت إلينا من الغدر شبراً لندنينَّ إليك من الشرّ باعاً، وأنَّ حَز الحلقوم وحَشْرَجَة الحيزوم ، لأهون علينا من أن نسمع المساءة في عليّ، فشم السيف يا معاوية يبعث السيف. فقال معاوية هذه كلمات حق فاكتبوها، وأقبل عليه ولاطفه وتحادثا، وأخباره في الحلم كثيرة.

(بعث معاوية العمال إلى الأمصار)

لّما استقل معاوية بالخلافة عام عدم الجماعة بعث العمّال إلى الأمصار، فبعث على الكوفة الُمغيرة بن شُعْبَة.
ويقال إنه ولّى عليها أوّلا عَبْدَ الله بن عَمْرو بن العَاص، فأتاه المغيرة منتصحاً، وقال: عمرو بمِصْرَ وابنه بالكوفة فأنت بين نابي أسد، فعزله وولّى المغيرة. وبلغ
ذلك عمراً فقال لمعاوية: يختان المال فلا تقدر على ردّه، فعد فاستعمل من يخافك. فنصب الُمغيرَة على الصلاة، وولّى على الخراج غيره، وكان على القضاء شُرَيح. (ولما وَلِيَ) المغيرة على الكوفة استعمل كُثَيِّر بن شهاب على الريّ، وأقرّه زياد بعده. وكان يغزو الدَيْلُم. ثم بعث على البصرة بسر بن أرْطَأَة، وكان قد تغلّب عليها حمران بن زيد عند صلح الحسن مع معاوية، فبعث بسراً عليها فخطب الناس وتعرض لعليّ. ثم قال: نشدت الله رجلاً يعلم أني صادق أو كاذب، ولا صدقني أو كَذَّبَني. فقال أبو بكرة: اللهم لا نعلمك إلاّ كاذباً، فأمر به فخنق. فقام أبو لُؤْلُؤَة الضَبِيّ فدفع عنه. وكان على فارس من أعمال البصرة زياد ابن أبيه. وبعث إليه معاوية يطلبه في المال فقال: صرفت بعضه في وجهه، واستودعت بعضه للحاجة إليه، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمه الله. فكتب إليه معاوية بالقدوم لينظر في ذلك، فامتنع. فلما ولي بِسْرٌ على البصرة جمع عنده أولاد زياد والأكابر عَبْد الرحمن وعبد الله وعبّاد وكتب إليه لتقدمنَّ أو لأقتلن بنيك فامتنع واعتزم بِسْر على قتلهم، فأتاه أبو بكرة وكان أخا زياد لأمّه فقال: أخذتهم بلا ذنب.وصالح الحسن على أصحاب عليّ حيث كانوا، فأمهله بِسْر إلى أن يأتي بكتاب معاوية. ثم قدم أبو بكرة على معاوية وقال: إنّ الناس لم يبايعوكَ على قتل الأطفال، وإن بِسراً يريد قتل بني زياد! فكتب إليه بتخليتهم وجاء إلى البصرة يوم المهاد، ولم يبق منه إلاَّ ساعة وهم موثقون للقتل فأدركهم وأطلقهم انتهى.(ثم عزل) معاوية بِسراً عن البصرة، وأراد أن يولي عُتْبَة بن أبي سفيان، فقال له ابن عامر: إن لي بالبصرة أموالاً وودائع، وإن لم تولني عليها ذهبت. فوّلاه وجعل إليه معها خراسان وسجستان. وقدمها سنة إحدى وأربعين فولي على خراسان قيس بن الهيثم السلمي، وكان أهل بلخ وباذغيس وهراة وبوشلج قد نضوا، فسار إلى بلخ وحاصرها حتى سألوا الصلح وراجعوا الطاعة. وقيل إنما صالحهم الربيع بن زياد سنة إحدى وخمسين على ما سيأتي. (ثم قدم) قيس على ابن عامر فضربه وحبسه وولى مكانه عَبْد الله بن حازم، وقدم خراسان فأرسل إليه أهل هراة وباذغيس وبوشلج في الأمان والصلح فأجابهم وحمل لابن عامر مالا انتهى. ثم ولى معاوية سنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام. واستقضى مروان عَبْد الله بن الحارث بن نوفل، وعزل مروان عن المدينة سنة تسع وأربعين، وولى مكانه سعيد بن العاص، وذلك لثمان سنين من
ولايته. وجعل سعيد على القضاء ابن عَبْد الرحمن مكان عَبْد الله بن الحرث ثم عزل معاوية سعيداً سنة أربع وخمسين وردّ إليها مروان.

(قدوم زياد): وكان زياد قد امتنع بفارس بعد مقتل علي كما قدّمناه، وكان عَبْد الرحمن ابن أخيه أبي بكرة يلي أمواله بالبصرة، ورفع إلى معاوية أن زياداً استودع أمواله عَبْد الرحمن، فبعث إلى المغيرة بالكوفة أن ينظر في ذلك، فأحضر عَبْد الرحمن وقال له: إن يكن أبوك أساء إليّ فقد أحسن عمك، وأحسن العذر عند معاوية.

(ثم قدم المغيرة) على معاوية فذكر له ما عنده من الوجل باعتصام زياد بفارس فقال داهية العرب معه أموال فارس يدبر الحيل، فما آمن أن يبايع لرجل من أهل البيت، ويعيد الحرب خدعة، فاستأذنه المغيرة أن يأتيه ويتلطف له ثم أتاه وقال: إنّ معاوية بعثني إليك وقد بايعه الحسن و لم يكن هناك غيره، فخذ لنفسك قبل أن يستغني معاوية عنك. قال أشر عليّ والمستشار مؤتمن. فقال: أرى أن تشخص إليه، وتصل حبلك بحبله، وترجع عنه. فكتب إليه معاوية بأمانه. وخرج زياد من فارس نحو معاوية، ومعه المنجاب بن رابد الضبي وحارثة بن بدر الغداني، واعترضه عَبْد الله بن حازم في جماعة وقد بعثه ابن عامر ليأتيه به فلما رأى كتاب الأمان تركه، وقدم على معاوية، فسأله عن أموال فارس، فأخبره بما أنفق وبما حمل إلى علي وبما بقي عنده مودعا للمسلمين، فصدقه معاوية وقبضه منه. ويقال: إنه قال له أخاف أن تكون مكروباً بي فصالحني فصالحه على ألفي ألف درهم بعث بها إليه، واستأذنه في نزول الكوفة فأذن له. وكان المغيرة يكرمه ويعظمه، وكتب إليه معاوية أن يلزم زياداً وحجر بن عدي وسليمان بن صرد وسيف بن ربعي وابن الكوا وابن الحميق بالصلاة في الجماعة فكانوا يحضرون معه الصلوات.

(عمّال ابن عامر على الثغور): لمّا وُلّي ابن عامر على البصرة استعمل عَبْد الرحمن بن سمرَة على سجستان، فأتاها وعلى شرطتها عباد بن الحصين، ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر وغيره. وكان أهل البلاد قد كفروا. ففتح أكثرها حتى بلغ كابُل، وحاصرها أشهراً، ونصب عليها المجانيق حتى ثلم سورها، و لم يقدر المشركون على سد الثلمة. وبات عباد بن الحسين عليها يطاعنهم إلى الصبح، ثم خرجوا من الغد للقتال فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة اه . (ثم سار) إلى نسف فملكها عنوة، ثم إلى حسك فصالحه أهلها ثم إلى الرجح فقاتلوه وظفر بهم وفتحها اه. ثم إلى زابلستان (وهي غزنة) وأعمالها، ففتحها ثم عاد إلى كابل وقد نكث أهلها ففتحها اه. (واستعمل) على ثغر الهند عَبْد الله بن سوار العبديّ، ويقال بل ولاّه معاوية من قبله فغزا التيعان فأصاب مغنماً ووفد على معاوية وأهدى له من خيولها، ثم عاد إلى غزوهم فاستنجدوا بالترك وقتلوه، وكان كريماً في الغاية. يقال: لم يكن أحد يوقد النار في عسكره، وسأل ذات ليلة عن نار رآها فقيل له خبيص يصنع لنفساء، فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام.(واستعمل) على خراسان قيس بن الهيثم، فتغافل بالخراج والهدنة فولى مكانه عَبْد الله بن حاتم. فخاف قيسا وأقبل، فزاد ابن عامر غضباً لتضييعه الثغر وبعث مكانه رجلاً من يشكر وقيل أسلم بن زرعة الكِلابي اه. ثم بعث عَبْد القه بن حازم، وقيل إنّ ابن حازم قال لابن عامر إنّ قيساً لا ينهض بخراسان، وأخاف إن لقي قيس حرباً أن ينهزم ويفسد خراسان، فاكتب لي عهداً إن عجز عن عدوّ قمت مقامه. فكتب وخرجت خارجة من طخارستان فأشار ابن حازم عليه أن يتأخر حتى يجتمع عليه الناس، فلما سار غير بعيد أخرج ابن حازم عهده، وقام بأمر الناس وهزم العدوّ. وبلغ الخبر إلى الأمصار فغضبت أصحاب قيس، وقالوا خدع صاحبنا، وشكوا إلى معاوية فاستقدمه، فاعتذر فقبل منه، وقال له أقم في الناس بعذرك ففعله اه. (وفي سنة) ثلاث وأربعين توفي عمرو بن العاص بمصر فاستعمل معاوية عَبْد الله ابنه.

(عزل ابن عامر): وكان ابن عامر حليماً ليّناً للسفهاء، فطرق البصرة الفساد من ذلك. وقال له زياد جرّد السيف، فقال: لا أصلح الناس بفساد نفسي. ثم بعث وفدا من البصرة إلى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة، ومنهم ابن الكوا، وهو عَبْد الله بن أبي أوفى اليشكري. فلما سألهم معاوية عن الأمصار أجابه ابن الكوا بعجز ابن عامر وضعفه، فقال معاوية: تكلم على أهل البصرة وهم حضور، وبلغ ذلك ابن عامر فغضب وولى على خراسان من أعداء ابن الكوا عَبْد الله بن أبي شيخ اليشكري، أو طفيل بن عوف، فسخر منه ابن الكوا لذلك وقال: وددت أنه ولى كل يشكري من أجل عداوتي. ثم إن معاوية استقدم ابن عامر، فقدم

وأقام أياماً فلما ودعّه قال: إني سائلك ثلاثا، قال هن لك، قال ترد علي عملي ولا تغضب، وهب لي مالك بعرفة ودورك بمكة، قال: قد فعلت. قال وصلتك رحم، فقال ابن عامر وإني سائلك ثلاثاً: ترد علي عملي بعرفة ولا تحاسب لي عاملاً، ولا تتبع لي أثرا وتنكحني ابنتك هندا. قال قد فعلت! ويقال إن معاوية خيره بين أن يرده على اتباع أثره وحسابه بما سار إليه، أو يعزله ويسوغه ما أصاب. فاختار الثالثة فعزله وولى مكانه الحارث بن عَبْد الله الأزدي.

(استخلاف زياد): كانت سُمَيَّةُ أم زياد مولاة للحرث بن كندة الطبيب، وولدت عنده أبا بكرة، ثم زوجها بمولى له، وولدت زياداً. وكان أبو سفيان قد ذهب إلى الطائف في بعض حاجاته فأصابها بنوع من أنكحة الجاهلية. وولدت زياداً هذا ونسبه إلى أبي سفيان وأقر لها به، إلا أنه كان بخفية، ولما شبّ زياد سمت به النجابة. واستكتبه أبو موسى الأشعري وهو على البصرة، واستكفاه عمر في أمر فحسن منار دينه وحضر عنده يعلمه بما صنع، فأبلغ ما شاء في الكلام. فقال عمرو بن العاص -وكان حاضرا- لله هذا الغلام، لو كان أبوه من قُرَيْش لساق العرب بعصاه. قال أبو سفيان وعلي يسمع: والله إني لأعرف أباه ومن وضعه في رحم امه، فقال له علي: اسكت فلو سمع عمر هذا منك كان إليك سريعا. ثم استعمل علي زياداً على فارس فضبطها وكتب إليه معاوية يتهدده، ويعرض له بولادة أبي سفيان إياه فقام في الناس فقال: عجبا لمعاوية يخوفني دين ابن عم الرسول في المهاجرين والأنصار. وكتب إليه علي إني وليتك وأنا أراك أهلا وقد كان من أبي سفيان فلتة من آمال الباطل وكذب النفس، لا توجب ميراثا ولا نسباً. ومعاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام اه. ولما قتل علي وصالح زياد معاوية، وضع مصقلة بن هبيرة الشيباني على معاوية ليعرض له بنسب أبي سفيان ففعل، ورأى معاوية أن يستميله باستلحاقه، فالتمس الشهادة بذلك ممن علم لحوق نسبه بأبي سفيان، فشهد له رجال من أهل البصرة وألحقه، وكان أكثر شيعة علي ينكرون ذلك وينقمونه على معاوية حتى أخوه أبو بكرة. وكتب زياد إلى عائشة في بعض الأحيان من زياد بن أبي سفيان يستدعي جوابها بهذا النسب ليكون له حجة، فكتبت

إليه: من عائشة ام المؤمنين إلى ابنها زياد. وكان عَبْد الله بن عامر يبغض زياداً، وقال يوماً لبعض أصحابه من عَبْد القيس: ابن سمية يقبح آثاري ويعترض عمالي لقد هممت بقسامة من قُرَيْش أن أبا سفيان لم ير سمية. فأخبر زياد. بذلك، فأخبر به معاوية. فأمر حاجبه أن يرده من أقصى الأبواب وشكا ذلك إلى يزيد، فركب

معه فأدخله على معاوية، فلما رآه قام من مجلسه ودخل إلى بيته. فقال يزيد نقعد في انتظاره، فلم يزالا حتى عدا ابن عامر فيما كان منه من القول، وقال إني لا أتكثر بزياد من قلة، ولا أتعزز به من ذلة، ولكن عرفت حق الله فوضعته موضعه فخرج ابن عامر وترضى زياداً ورضى له معاوية.

(ولاية زياد البصرة): كان زياد بعد صلح معاوية واستلحاقه نزل الكوفة، وكان يتشوف الإمارة عليها. فاستثقل المغيرة ذلك منه فاستعفى معاوية من ولاية الكوفة فلم يعفه. فيقال إنه خرج زياد إلى الشام، ثم إن معاوية عزل الحارث بن عَبْد الله الأزدي عن البصرة وولى عليها زياداً سنة خمس وأربعين. وجمع له خراسان وسجستان. ثم جمع له السند والبحرين وعمان، وقدم البصرة فخطب خطبته البتراء وهي معروفة. وإنما سميت البتراء لأنه لم يفتتحها بالحمد والثناء، فحذرهم في خطبته ما كانوا عليه من الانهماك في الشهوات والاسترسال فى الفسق والضلال، وانطلاق أيدي السفهاء على الجنايات، وانتهاك الحرم وهم يدنون منهم، فأطال في ذلك. عنفهم ووبخهم وعرفهم ما يجب عليهم من الطاعة، من المناصحة والانقياد للأمة. وقال لكم عندي ثلاث: لا أحتجب عن طالب حاجة، ولو طرقني ليلا. ولا أحبس العطاء عن إبابة ولا أحمر البعوث. فلما فرغ من خطبته قال له عَبْد الله بن الأيهم أشهد أنك اوتيت الحكمة وفصل الخطاب. قال كذبت ذاك نبي الله داود. ثم استعمل على شرطته عَبْد الله بن حصين، وأمره أن يمنع الناس من الولوج بالليل. وكان قد قال في خطبته لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه. وكان يأمر بقراءة سورة البقرة بعد صلاة العشاء مؤخرة. ثم يمهل بقدر ما يبلغ الرجل أقصى البصرة. ثم يخرج صاحب الشرطة فلا يجد أحدا إلا قتله، وكان أول من شدد أمر السلطان وشيد الملك، فجرد السيف وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه السفهاء والذّعار، وأمن الناس على أنفسهم ومتاعهم، حتى كان الشيء يسقط من يد الإنسان فلا يتعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه، وأدر العطاء واستكثر من الشرط فبلغوا أربعة آلاف. وسئل في

إصلاح السابلة فقال: حتى أصلح المصر. فلما ضبطه أصلح ما وراءه، وكان يستعين بعدة من الصحابة منهم عمران بن حصين ولاه قضاء البصرة فاستعفى، فولى مكانه عَبْد الله بن فضالة الليثي، ثم أخاه عاصماً، ثم زرارة بن أوفى وكانت أخته عند زياد، وكان يستعين بأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سمرة، وسمرة بن جندب.

ويقال إن زياداً أول من سير بين يديه بالحراب والعمد، واتخذ الحرس رابطة، فكان خمسمائة منهم لا يفارقون المسجد. ثم قسم ولاية خراسان على أربعة فولّى على مرو أمين بن أحمد اليشكري، وعلى نيسابور خليد بن عَبْد الله الحنفي وعلى مرو الروذ والعاربات والطالقات قيس بن الهيثم. وعلى هراة وباذغيس وبوشنج نافع بن خالد الطائي. ثم إن نافعا بعث إليه بجواد باهر غنمه في بعض وجوهه، وكانت قوائمه منه، فأخذ منها قائمة وجعل مكانها أخرى ذهبا، وبعث الجواد مع غلامه زيد وكان يتولى اموره، فسعى فيه عند زياد بأمر تلك القائمة، فعزله وحبسه، وأغرمه مائة ألف كتب عليه بها كتاباً، وقيل ثمانمائة ألف. وشفع فيه رجال من الأزد، فأطلقه. واستعمل مكانه الحكم بن عمرو الغفاري، وجعل معه رجالاً على الجباية منهم أسلم بن زرعة الكلابي. وغزا الحكم طخارستان، فغنم غنائم كثيرة. ثم سار سنة سبع وأربعين إلى جبال الغور، وكانوا قد

ارتدوا، ففتح وغنم وسبى وعبر النهر في ولايته إلى ما وراءه. فملأه غارة. ولما رجع من غزاة الغور مات بمرو، واستخلف على عمله أنس بن أبي إياس بن ربين، فلم يرضه زياد. وكتب إلى خليد بن عَبْد الله الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد المحاربي في خمسين ألفاً من البصرة والكوفة.

(صوائف الشام) ودخل المسلمون سنة اثنتين وأربعين إلى بلاد الروم، فهزموهم وقتلوا جماعة من البطارقة، وأثخنوا فيها. ثم دخل بسر بن أرطاة أرضهم سنة ثلاث وأربعين، ومشى بها وبلغ القسطنطينية. ثم دخل عَبْد الرحمن بن خالد وكان على حمص، فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة في البحر. ثم دخل عَبْد الرحمن إليها سنة ست وأربعين فشتى بها، وشتى أبو عَبْد الرحمن السبيعي على أنْطاكِية. ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين، فشتى عَبْد الرحمن بأنْطاكِية أيضاً، ودخل عَبْد الله بن قيس الفزاري في تلك السنة بالصائفة. وغزاهم مالك بن هبيرة اليشكري في البحر وعقبة بن عامر الجهني في البحر أيضاً بأهل مصر وأهل المدينة. ثم دخل مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم، ودخل عَبْد الله بن كرز الجيلي بالصائفة، وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوي في بلاد الروم بأهل الشام في البحر

وعقبة بن نافع بأهل مصر كذلك. ثم بعث معاوية سنة خمسين جيشا كثيفاً إلى بلاد الروم مع سفيان بن عوف، وندب يزيد ابنه معهم فتثاقل فتركه. ثم بلغ الناس أن الغزاة أصابهم جوع ومرض، وبلغ معاوية أن يزيد أنشد في ذلك

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم بالفدفد البيد من حمى ومن شوم

إذا اتطأت على الأنماط مرتفقاً بدير مران عندي أم كلثوم

وهي امرأته بنت عَبْد الله بن عامر، فحلف ليلحقن بهم فسار في جمع كثير، جمعهم إليه معاوية. فيهم ابن عباس وابن عامر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري، فأوغلوا في بلاد الروم وبلغوا القسطنطينية وقاتلوا الروم عليها. فاستشهد أبو أيوب الأنصاري ودفن قريبا من سورها. ورجع يزيد والعساكر إلى الشام ثم شتى فضالة بن عبيد بأرض الروم سنة إحدى وخمسين وغزا بسر بن أرطأة بالصائفة.

(وفاة المغيرة): توفي المغيرة وهو عامل على الكوفة سنة خمسين بالطاعون، وقيل سنة تسع وأربعين، وقيل سنة إحدى وخمسين، فولى مكانه معاوية زياداً وجمع له المصرين. فسار زياد إليها واستخلف على البصرة سمرة بن جندب. فلما وصل الكوفة خطبهم، فحصبوه على المنبر. فلما نزل جلس على كرسي وأحاط أصحابه بأبواب المسجد يأتونه بالناس يستحلفهم على ذلك. ومن لم يحلف حبسه. فبلغوا ثمانين واتخذ المقصورة من يوم حبس. ثم بلغه عن أوفى بن حسين شيء فطلبه، فهرب ثم أخذه فقتله. وقال له عمارة بن عتبة بن أبي معيط إن عمرو بن الحمق يجتمع إليه شيعة علي، فأرسل إليه زياد ونهاه عن الاجتماع عنده. وقال لا ابيح أحدا حتى يخرج علي، وأكثر سمرة بن جندب اليتامى بالبصرة. يقال قتل ثمانية آلاف فأنكر ذلك عليه زياد اه.

(كان عمرو بن العاص) قبل وفاته استعمل عقبة بن عامر بن عَبْد قيس على أفريقية، وهو ابن خالته، انتهى إلى لواتة ومرانة، فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى. ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غذامس. وفي السنة التي

بعدها ودّان وكورا من كور السودان، وأثخن في تلك النواحي، وكان له فيها جهاد وفتوح. ثم ولاه معاوية على أفريقية سنة خمسين، وبعث إليه عشرة آلاف فارس، فدخل أفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد، لأنهم كانوا إذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا، فإذا رجعوا عنهم ارتدوا. فرأى أن يتخذ مدينة يعتصم بها

العساكر من البربر، فاختط القيروان وبنى بها المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وكملت في خمس سنين وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب، ودخل أكثر البربر في الإسلام. واتسعت خطة المسلمين، ورسخ الدين. ثم ولى معاوية على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاري، واستعمل على أفريقية مولاه أبا المهاجر، فأساء عزل عقبة واستخف به، فسير ابن مخلد الأنصاري عقبة إلى معاوية، وشكا إليه، فاعتذر له ووعده برده إلى عمله، ثم ولاه يزيد سنة اثنتين وستين.

(وذكر) الواقدي أن عقبة ولي أفريقية سنة ست وأربعين، فاختط القيروان، ثم عزله يزيد سنة اثنتين وستين بأبي المهاجر. فحينئذ قبض على عقبة وضيق عليه، فكتب إليه يزيد يبعثه إليه وأعاده والياً على أفريقية، فحبس أبا المهاجر إلى أن قتلهم جميعاً كسلة ملك البرانس من البربر كما نذكر بعد.(كان المغيرة بن شعبة أيام إمارته على الكوفة) كثيرا ماً يتعرض لعلي في مجالسه وخطبه، ويترحم على عثمان ويدعو له. فكان حجر بن عدي إذا سمعه يقول: بلاياكم قد أضل الله ولعن. ثم يقول أنا أشهد أن من تذمون أحق بالفضل، ومن تزكون أحق بالذم. فبعث له المغيرة يقول: يا حجر اتق غضب السلطان وسطوته، فإنها تهلك أمثالك لا يزيده على ذلك.

(ولما كان) آخر أمارة المغيرة قال في بعض أيامه مثل ما كان يقول، فصاح به حجر ثم قال له: مر لنا بأرزاقنا فقد حبستها منا وأصبحت مولعا بذم المؤمنين، وصاح الناس من جوانب المسجد صدق حجر فمر لنا بأرزاقنا، فالذي أنت فيه لا يجدي علينا نفعا. فدخل المغيرة إلى بيته وعذله قومه في جراءة حجر عليه يوهن سلطانه، ويسخط عليه معاوية. فقال لا احب أن آتي بقتل أحد من أهل المصر. وسيأتي بعدي من يصنع معه مثل ذلك فيقتله. ثم توفي المغيرة وولي زياد. فلما قدم خطب الناس وترحم على عثمان ولعن قاتليه. وقال حجر ما كان يقول، فسكت عنه ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وبلغه أن حجرا يجتمع إليه شيعة علي ويعلنون بلعن معاوية والبراءة منهم، وأنهم حصبوا عمرو بن حريث، فشخص إلى الكوفة حتى دخلها، ثم خطب الناس وحجر جالس يسمع، فتهدده وقال: لست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر، وأودعه نكالاً لمن بعده. ثم بعث إليه فامتنع من الإجابة، فبعث صاحب الشرطة شداد بن الهيثم الهلالي إليه جماعة، فسبهم

أصحابه. فجمع زياد أهل الكوفة وتهددهم فتبرؤوا فقال: ليدع كل رجل منكم عشيرته الذين عند حجر ففعلوا، حتى إذا لم يبق معه إلا قومه، قال زياد لصاحب الشرطة: انطلق إليه فأت به طوعاً أو كرهاً. فلما جاء يدعوه امتنع عن الإجابة، فحمل عليهم وأشار إليه أبو العمرطة الكندي بأن يلحق بكندة فمنعوه، هذا وزياد على المنبر ينتظر. ثم غشيهم أصحاب زياد وضرب عمرو بن الحمق، فسقط ودخل في دور الأزد، فاختفى

وخرج حجر من أبواب كندة، فركب ومعه أبو العمرطة إلى دور قومه، واجتمع إليه الناس ولم يأته من كندة إلا قليل. ثم أرسل زياد وهو على المنبر مذحج وهمدان ليأتوه بحجر، فلما علم أنهم قصدوه تسرب من داره إلى النخع، ونزل على أخي الأشتر. وبلغه أن الشرطة تسأل عنه في النخع. فأتى الأزد واختفى عند ربيعة بن ناجد، وأعياهم طلبه. فدعا حجر محمد بن الأشعث أن يأخذ له أمانا من زياد حتى يبعث به إلى معاوية، فجاء محمد ومعه جرير بن عَبْد الله، وحجر بن يزيد وعبد الله بن الحرث أخو الأشتر، فاستأمنوا له زياداً فأجابهم. ثم أحضروا حجرا فحبسه وطلب أصحابه، فخرج عمرو بن الحمق إلى الموصل ومعه زواعة بن شداد، فاختفى في جبل هناك. ورفع أمرهما إلى عامل الموصل وهو عَبْد الرحمن بن عثمان الثقفي ابن أخت معاوية، ويعرف بابن أم الحكم. فسار إليهما وهرب زواعة، وقبض على عمرو، وكتب إلى معاوية بذلك. فكتب إليه أنه طعن عثمان سبعا بمشاقص كانت معه فأطعنه كذلك فمات في الأولى والثانية. ثم جدّ زياد في طلب أصحاب حجر واتي بقبيصة بن ضبيعة العبسي بأمان فحبسه. وجاء قيس بن عباد الشبلي برجل من قومه من أصحاب حجر، فأحضره زياد وسأله عن علي فأثنى عليه، فضربه وحبسه. وعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث. ثم دخل بيته في الكوفة وسعى به إلى الحجاج فقتله. ثم أرسل زياداً إلي عَبْد الله بن خليفة الطائي من أصحاب حجر فتوارى، وجاء الشرط فأخذوه. ونادت أخته الفرار بقومه فخلصوه، فأخذ زياد عدي بن حاتم وهو في المسجد وقال: ائتني بعبد الله وخبره جهرة فقال آتيك بابن عمي تقتله؟ والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه فحبسه، فنكر ذلك الناس وكلموه وقالوا تفعل هذا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبير طيىء قال: أخرجه على أن يخرج ابن عمه عني فأطلقه وأمر عدي عَبْد الله أن يلحق بجبل طيىء فلم يزل هنالك حتى مات.وأتي زياد بكريم بن عفيف الخثعمي من أصحاب حجر وغيره

ولما جمع منهم اثني عشر في السجن دعا رؤوس الأرباع. يومئذ وهم عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة، وكندة وأبو بردة بن أبي موسى على ربع مذحج وأسد. فشهدوا كلهم أن حجراً جمع الجموع، وأظهر شتم معاوية، ودعا إلى حربه. وزعم أن الأمر لا يصلح إلا في الطالبيين. ووثب بالمصر، وأخرج العامل، وأظهر غدر أبي تراب والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن النفر الذين معه وهم رؤوس أصحابه على مقدم رأيه. ثم استكثر زياد من الشهود، فشهد إسحق وموسى إبنا طلحة والمنذر بن الزبير وعمارة بن عقبة بن أبي معيط، وعمر بن سعد بن أبي وقاص وغيرهم. وفي الشهود شريح بن الحارث وشريح بن هانىء. ثم استدعى زياد وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب ودفع إليهما حجر بن عدي وأصحابه وهم: الأرقم بن عَبْد الله الكندي، وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن فضيل الشيباني، وقبيضة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي وورقاء بن سمي البجلي، وكرام بن حبان العتري، وعبد الرحمن بن حسّان العتري، ومحرز بن شهاب التميمي، وعبد الله بن حوية السعدي. ثم أتبع هؤلاء الإحدى عشر بعتبة بن الأخنس من سعد بن بكر، وسعد بن غوات الهمداني، وأمرهما أن يسيرا إلى معاوية. ثم لحقهما شريح بن هانىء ودفع كتابه إلى

معاوية بن وائل ولما انتهوا إلى مرج غدراء قريب دمشق تقدم ابن وائل وكثير إلى معاوية، فقرأ كتاب شريح وفيه: بلغني أن زياداً كتب شهادتي، وأني أشهد على حجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويديم الحج والعمرة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حرام الدم والمال، فإن شئت فاقبله أو فدعه. فقال معاوية: ما أرى هذا إلا أخرج نفسه من شهادتكم وحبس القوم بمرج غدراء حتى لحقهم عتبة بن الأخنس، وسعد بن غوات اللذين ألحقهما زياد بهما. وجاء عامر بن الأسود العجيلي إلى معاوية فأخبره بوصولهما، فاستوهب يزيد بن أسد البجلي عاصماً وورقاء إبني عمه. وقد كتب يزيد يزكيهما ويشهد ببراءتهما، فأطلقهما معاوية. وشفع وائل بن حجر في الأرقم، وأبو الأعور السلمي في ابن الأخنس، وحبيب بن سلمة في أخويه فتركهم. وسأله مالك بن هبيرة السكوني

في حجرفرده. فغضب وحبس في بيته. وبعث معاوية هدبة بن فياض القضافي، والحسين بن عَبْد الله الكلابي، وأبا شريف البدري إلى حجر وأصحابه ليقتلوا منهم من أمرهم بقتله، فأتوهم وعرض عليهم البراءة من عليّ، فأبوا وصلوا عامة ليلتهم. ثم قدموا من الغد للقتل. وتوضأ حجر وصلى وقال: لولا أن يظنوا بي الجزع من الموت لاستكثرت منها. اللهم إنا نستعديك على أمشاء أهل الكوفة، يشهدون علينا، وأهل الشام يقتلوننا. ثم مشى إليه هدبة بن فياض بالسيف، فارتعد. فقالوا كيف وأنت زعمت أنك لا تجزع من الموت؟ فابرأ من صاحبك وندعك. فقال وما لي لا أجزع وأنا بين القبر والكفن، والسيف. وإن جزعت من الموت لا أقول ما يسخط الرب فقتلوه وقتلوا ستة معه وهم: شيريك بن شداد، وصيفي بن فضيل، وقبيصة بن حنيفة، ومحرز بن شهاب، وكرام بن حبان ودفنوهم وصلوا عليهم بعبد الرحمن بن حسان العتري وجيء بكريم بن الخثعمي إلى معاوية فطلب منه البراءة من عليّ فسكت، واستوهبه سمرة بن عَبْد الله الخثعمي من معاوية فوهبه له، على أن لا يدخل الكوفة، فترل إلى الموصل. ثم سأل عَبْد الرحمن بن حسان عن عليّ فأثنى خيراً. ثم عن عثمان فقال: أول من فتح باب الظلم، وأغلق باب الحق. فرده إلى زياد ليقتله شر قتلة فدفنه حياً وهو سابع القوم. وأمَّا مالك بن هبيرة السكوني فلما لم يشفعه معاوية في حجر، جمع قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقي القتلة وسألهم، فقالوا: مات القوم. وسار إلى عدي فتيقن قتلهم فأرسل في أثر القتلة فلم يدركوهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها في نفسه وكأني بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه. ولما بلغ عائشة خبر حجر وأصحابه، أرسلت عَبْد الرحمن بن الحارث إلى معاوية يشفع فيهم فجاء وقد قتلوا. فقال لمعاوية أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ فقال حيث غاب علي مثلك من حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتملت. وأسفت عائشة لقتل حجر وكانت تثني عليه. وقيل في سياقة الحديث غير ذلك. وهو أن زياداً أطال الخطبة في يوم جمعة، فتأخرت الصلاة، فأنكر حجر ونادى بالصلاة فلم يلتفت إليه. وخشي فوت الصلاة فحصبه بكف من الحصباء، وقام إلى

الصلاة فقام الناس معه، فخافهم زياد ونزل فصلى. وكتب إلى معاوية وعظم عليه الأمر، فكتب إليه أن يبعث به موثقاً في الحديد. وبعث من يقبض عليه، فكان ما مر. ثم قبض عليه وحمله إلى معاوية، فلما رآه معاوية أمر

بقتله، فصلى ركعتين وأوصى من حضره من قومه لا تفكوا عني قيداً ولا تغسلوا دماً فإني لاق معاوية غداً على الجادة وقتل اه.

وقالت عائشة لمعاوية أين حلمك عن حجر؟ قال: لم يحضرني رشيد اه. وكان زياد قد ولى الربيع بين زياد الحارثي على خراسان سنة إحدى وخمسين، بعد أن هلك حسن بن عمر الغفاري وبعث معه من جند الكوفة والبصرة خمسين ألفاً، فيهم بريدة بن الحصيب، وأبو برزة الأسلمي من الصحابة، وغزا بلخ ففتحها صلحاً، وكانوا انتقضوا بعد صلح الأحمق بن قيس. ثم فتح قهستان عنوة واستلحم من كان بناحيتها من الترك، ولم يفلت منهم إلا قيزل طرخان. وقتله قتيبة بن مسلم في ولايته. فلما بلغ الربيح بن زياد بخراسان قتل حجر سخط لذلك وقال: لا تزال العرب تقتل بعده صبراً. ولو نكروا قتله منعوا أنفسهم من ذلك، لكنهم أقروا فذلوا. ثم دعا بعد صلاة جمعة لأيام من خبره، وقال للناس إني قد مللت الحياة، وإنى داع فأمنوا ثم رفع يديه وقال: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك عاجلا وأمّن الناس . ثم خرج فما تواترت ثيابه حتى سقط، فحمل إلى بيته، واستخلف ابنه عَبْد الله ومات من يومه. ثم مات ابنه بعد شهرين، واستخلف خليذ بن عَبْد الله الحنفي وأقره زياد.

(وفاة زياد): ثم مات زياد في رمضان سنة ثلاث وخمسين بطاعون أصابه في يمينه، يقال بدعوة ابن عمر، وذلك أن زياداً كتب إلى معاوية أني ضبطت العراق بشمالي ويميني فارغة فأشغلها بالحجاز، فكتب له عهده بذلك، وخاف أهل الحجاز وأتوا عَبْد الله بن عمريدعو لهم الله أن يكفيهم ذلك. فاستقبل القبلة ودعا معهم وكان من دعائه اللهم اكفناه، ثم كان الطاعون فأصيب فى يمينه، فأشير عليه بقطعها، فاستدعى شريحاً القاضي فاستشاره، فقال إن يكن الأجل فرغ فتلقى الله أجذم

كراهية في لقائه، وإلا لتعيش أقطع، ويعير ولدك. فقال لا أبيت والطاعون في لحاف واحد، واعتزم على قطعها- فلما نظر إلى النار والمكاوي جزع وتركه، وقيل تركه لإشارة شريح. وعذل الناس شريحاً في ذلك فقال المستشار مؤتمن. ولما حضرته الوفاة قال له ابنه قد هيأت لكفنك ستين ثوباً. فقال يا بني قد دنا لأبيك لباس خيرمن لباسه. ثم مات ودفن بالتوسة قرب الكوفه، وكان يلبس القميص ويرقعه. ولما مات استخلف على الكوفة عَبْد الله بن خالد بن أُسيد، وكان خليفته على البصرة عَبْد الله بن عمر بن غيلان، وعزل بعد ذلك عَبْد الله بن خالد عن الكوفة وولى عليها الضحاك بن قيس.

ولاية عبيد الله بن زياد علي خراسان ثم علي البصرة:

ولما قدم إبنه عبيد الله على معاوية، وهو ابن خمس وعشرين سنة قال : من استعمل أبوك على المصرين؟ فأخبره فقال: لو استعملك لاستعملتك. فقال عبيد الله:

أنشدك الله أن يقول لي أحد بعدك، لو استعملك أبوك وعمك استعملتك. فولاه خراسان ووصاه فكان من وصيته: اتق الله ولا تؤثرن على تقواه شيئاً، فإن في تقواه عوضاً وقِ عرضك من أن تدنسه، وإن أعطيت عهداً فأوف به، ولا تتبعن كثيراً بقليل، ولا يخرجن منك أمر حتى تبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك. وإذا لقيت

عدوك فكبّر أكبر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطعمن أحداً في غير حقه، ولا تؤيسن أحداً من حق هو له. ثم ودعه فسار إلى خراسان أول سنة أربع وخمسين، وقدم إليها أسلم بن زرعة الكلابي، ثم قدم فقطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل، ففتح رامين، ونسف وسكند. ولقيه الترك فهزمهم، وكان مع ملكهم امرأته خاتون، فأعجلوها عن لبس خفيها، فأصاب المسلمون أحدهما وقوّم بمائتي ألف درهم. وكان عبيد الله ذلك اليوم يحمل عليهم، وهو يطعن حتى يغيب عن أصحابه، ثم يرفع رايته تقطر دماً. وكان هذ الزحف من زحوف خراسان المعدودة، وكانت أربعة منها للأحنف بن قيس بقهستان والمرعات. وزحف لعبد الله بن حازم، قضى فيه جموع فاران. وأقام عبيد الله والياً على خراسان سنتين، وولاه معاوية سنة خمس وخمسين على البصرة. وذلك أن ابن غيلان خطب وهو أمير على البصرة. فحصبه رجل من بني ضبّة فقطع يده فأتاه بنو ضبّة يسألونه الكتاب إلى معاوية بالاعتذار

عنه، وأنه قطع على أمر لم يصح، مخافة أن يعاقبهم معاوية جميعاً. فكتب لهم وسار ابن غيلان إلى معاوية رأس السنة، وأوفاه الضبّيّون بالكتاب، فادعوا أن ابن غيلان قطع صاحبهم ظلماً. فلما قرأ معاوية الكتاب قال: أمَّا القود من عمّالي فلا سبيل إليه، ولكن أدي صاحبكم من بيت المال. وعزل عَبْد الله بن غيلان عن البصرة، واستعمل عليها عبيد الله بن زياد، فسار إليها عبيد الله، وولى على خراسان أسلم بن زرعة الكلابى فلم يغز و لم يفتح.

العهد ليزيد:

ذكر الطبري بسنده قال: قدم المغيرة على معاوية فشكا إليه الضعف، فاستعفاه فأعفاه وأراد أن يولي سعيد بن العاص. وقال أصحاب المغيرة للمغيرة: إن معاوية قلاك، ففال لهم رويداً، ونهض إلى يزيد وعرض له بالبيعة. وقال ذهب أعيان الصحابة وكبراء قُرَيْش ورادوا أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وسياسةً، وما أدري ما يمنع أمير المؤمنين من العهد لك. فأدى ذلك يزيد إلى أبيه واستدعاه وفاوضه في ذلك. فقال قد رأيت ما كان من الاختلاف وسفك الدماء بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعهد له يكون كهفاً للناس بعدك، فلا تكون فتنة ولا يسفك دم. وأنا أكفيك الكوفة، ويكفيك ابن زياد البصرة. فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل في بيعة يزيد. فقدم الكوفة وذاكر من يرجع إليه من شيعة بني أُمَيَّة فأجابوه، وأوفد منهم جماعة مع ابنه موسى فدعاه إلى عقد البيعة ليزيد. فقال: أو قد رضيتموه؟ قالوا: نعم ! نحن ومن وراءنا. فقال ننظر ما قدمتم له ويقضي الله أمره، والأناة خير من العجلة ثم كتب إلى زياد يستنيره بفكر. وكف عن هدم دار سعيد. وكتب سعيد إلى معاوية يعذله في إدخال الضغينة بين قرابته، ويقول لو لم نكن بني أب واحد لكانت قرابتنا ما جمعنا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم، يجب عليك أن تدعي ذلك، فاعتذر له معاوية وتنصل. وقدم سعيد عليه وسأله عن مروان فأثنى خيراً، فلما كان سنة سبع وخمسين عزل مروان وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وقيل سنة ثمان وخمسين.

عزل الضحاك عن الكوفة وولاية ابن أم الحكم ثم النعمان بن بشير:

عزل معاوية الضحاك عن الكوفة سنة ثمان وخمسين، وولى مكانه عَبْد الرحمن بن عَبْد الله بن عثمان الثقفي، وهو ابن ام الحكم اخت معاوية، فخرجت عليه الخوارج الذين كان المفيرة حبسهم في بيعة المستورد بن علقمة، وخرجوا من سجنه بعد موته. فاجتمعوا على حيان بن ظبيان السلميئ، ومعاذ بن جرير الطائي، فسير إليهم عَبْد الرحمن الجيش من الكوفة فقتلوا أجمعين كما يذكر في أخبار الخوارج. ثم إن أهل الكوفة نقلوا عن عَبْد الرحمن سؤ سيرته، فعزله معاوية عنهم. وولّى مكانه النعمان بن بشير. وقال: اوليك خيرا من الكوفة، فولاه مصر، وكان عليها معاوية بن خديج السكوني وسار إلى مصرفاستقبله معاوية على مرحلتين منها، وقال ارجع إلى حالك لا تسر فينا سيرتك في إخواننا أهل الكوفة، فرجع إلى معاوية وأقام معاوية بن خديج فى عمله.

(ولايةعبدالرحمن بن زياد خراسان): وفي سنة تسع وخمسين قدم عَبْد الرحمن بن زياد وافدا على معاوية، فقال يا أمير المؤمنين أمَّا لنا حق؟ قال: بلى، فماذا قال توليني؟ قال بالكوفة النعمان بن بشير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، بالبصرة وخراسان عبيد الله أخوك، وبسجستان عبّاد أخوك. ولا أرى ما بشبهك إلا أن اشركك في عمل عبيد الله، فإن عمله واسع يحتمل الشركة. فولاه خراسان، فسار إليها وقدم بين يديه قيس بن الهيثم السلمى، فأخذ أسلم بن زرعة وحبسه. ثم قدم عَبْد الرحمن فأغرمه ثلاثمائه ألف درهم. وأقام بخراسان وكان متضعفا لم يقرقط. وقدم على يزيد بين يدي قتل الحسين، فاستخلف على خراسان قيس بن الهيثم. فقال له يزيد: كم معك من مالى خراسان؟ قال عشرون ألف ألف درهم. فخيره بين أخذها بالحساب ورده إلى عمله، أو تسويغه إياها وعزله، على أن يعطي عَبْد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم، فاختار تسويغها والعزل. وبعث إلى ابن جعفر بألف ألف وقال نصفها من يزيد ونصفها مني. ثم إن أهل البصرة وفدوا مع عبيد الله بن زياد على معاوية فأذن له على منازلهم، ودخل الأحنف آخرهم وكان هيأ المترلة من عبيد الله، فرحب به معاوية وأجلسه معه على سريره. ثم تكلم القوم وأثنوا على عبيد الله وسكت الأحنف، فقال معاوية: تكلم يا أبا بحر فقال أخشى خلاف القوم، فقال الهضوا فقد عزلت عنكم عبيد الله، واطلبوا واليا ترضونه، فطفق القوم يختلفون إلى رجال بني أُمَيَّة وأشراف الشام، وقعد الأحنف في مترله ثم أحضرهم معاوية، وقال من اخترتم فسمى كل فريق رجلاً والأحنف ساكت. فقال معاوية تكلم يا أبا بحر فقال: إن وليت علينا من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحدا، وإن وليت من غيرهم ينظر في ذلك. قال فإني قد أعدته عليكم، ثم أوصاه بالأحنف وقبح رأيه في مباعدته. ولما هاجت الفتنة لم بعزله غير الأحنف، ثم أخذ على وفد البصرة البيعة لابنه يزيد معهم.

(بقية الصوائف): دخل بسر بن أرطاة سنة اثنتين وخمسين أرض الروم وشتى بها، وقيل رجع ونزل هناك سفيان بن عوف الأزدي فشتى بها وتوفي هنالك اه. وغزا بالصائفة محمد بن عَبْد الله الثقفي، ثم دخل عَبْد

الرحمن بن ام الحكم سنة ثلاث وخمسين إلى أرض الروم وشتى بها، وافتتحت في هذه السنة رودس، فتحها جنادة بن أبي أُمَيَّة الأزدي ونزلها المسلمون على حذر من الروم، ثم كانوا يعترضونه في البحر

ويأخذون سفنه، وكان معاوية يدركهم بالعطاء حتى خافهم الروم، ثم نقلهم يزيد في ولايته. ثم دخل سنة أربع وخمسين إلى بلاد الروم محمد بن مالك وشتى بها وغزا بالصائفة ، ابن يزيد السلمي، وفتح المسلمون جزيرة اروى القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أبي أُمَيَّة، فملكوها سبع سنين، ونقلهم يزيد في ولايته. وفي سنة خمس وخمسين كان شتى سفيان بن عوف بأرض الروم، وقيل عمر بن محرز، وقيل عَبْد الله بن قيس. وفي سنة ست وخمسين كان شتى جنادة بن أبي أُمَيَّة، وقيل عَبْد الرحمن بن مسعود، وقيل غزا في البحر يزيد بن سمرة. وفي البرعياض بن الحارث. وفي سنة سبع وخمسين كان شتى عَبْد الله بن قيس بأرض الروم. وغزا مالك بن عَبْد الله الخثعمي في البر، وعمر بن يزيد الجهني في البحر. وفي سنة ثمان وخمسين كان شتي عمر بن مرة الجهني بأرض الروم، وغزا في البحر جنادة بن أُمَيَّة. وفتح المسلمون في هذه السنة حصن كفخ من بلاد الروم، وعليهم عمير بن الحباب السلمي صعد سورها وقاتل عليه وحده، حتى انكشف الروم وفتحه. وفي سنة ستين غزا مالك بن عَبْد الله سورية، وملك جنادة بن أبي أُمَيَّة رودس وهدم مدينتها.

(وفاة معاوية): وتوفي معاوية سنة ستين، وكان خطب الناس قبل موته وقال: إني كزرع مستحصد، وقد طالت إمارتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من كان قبلي خير مني. وقد قيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. اللهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي وبارك لي. فلم يمض إلا قليل حتى ازداد به مرضه، فدعا ابنه يزيد وقال: يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأُمور، وأخضعت لك رقاب العرب. وجمعت لك ما لم يجمعه أحد. وإني لا أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذي انتسب لك إلا أربعة نفر من قُرَيْش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما ابن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق غيره بايعك. وأمَّا الحسين فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحما ما مثله وحقاَ

عظيما. وأمَّا ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، ولير له همة إلا في النساء. وأمَّا الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك روغان الثعلب، وإذا أمكنته فرصة وشب، فذاك ابن الزبير. فإن هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إربا إربا. هذا حديث الطبري عن هاشم وله عن هاشم من طريق آخر قال: لمّا حضرت وفاة معاوية سنة ستين كان يزيد غائبا، فدعا بالضحاك بن قيس الفهري، وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عتبة المزني فقال: أبلغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أهلك فأكرم من قدم إليك منهم وتعاهد من غاب. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل، فإن عزل عامل أخف من أن يشهر عليك مائة ألف سيف. وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، وإن رابك شئ من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن قاموا بغمر بلادهم تغيرت أخلاقهم. ولست أخاف عليك

من قُرَيْش إلا ثلاثا، ولم يذكر في هذا الطريق عَبْد الرحمن بن أبي بكر. وقال في ابن عمر قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك. وقال في الحسين ولو أني صاحبه عفوت عنه، وأنا أرجو أن يكفيك الله بمن قتل أباه وخذل أخاه. وقال في ابن الزبير إذا شخص إليك فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحا فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت. (وتوفي في منتصف رجب) ويقال في جمادى لتسع عشرة سنة وأشهر من ولايته وكان على خاتمه عَبْد الله بن محصن الحميري وهو أول من اتخذ ديوان الخاتم، وكان سببه أنه أمر لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم، وكتب له بذلك إلى زياد بالعراق، ففضى عمر الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، وأخذ عمر بردها وحبسه فاداها عنه أخوه عبد الله. فأحدث عند ذلك ديوان الخاتم، وحزم الكتب ولم تكن تحزم. وكان على شرطته قيس بن همزة الهمداني، فعزله ابن بيد بن عمر العدوي، وكان على حرسه المختار من مواليه. وقيل أبو المحاري مالك مولى حميرة، وهو أول من اتخذ المحرس. وعلى حجابه مولاه سعد، وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي، وعلى القضاء فضالة بن عَبْد الله الأنصاري، وبعده أبو دويس عائد بن عَبْد الله الخولاني.

(بيعة يزيد)

بويع يزيد بعد موت أبيه، وعلى المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى مكة عمر

ابن سعيد بن العاص، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى الكوفة النعمان بن بشير. ولم يكن همه إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد بموت معاوية، وأن يأخذ حسيناً وابن عمر وابن الزبير بالبيعة من غير رخصة. فلما قرأ مروان الكتاب بنعي معاوية، استرجع وترحم، واستشاره الوليد في أمر اولئك النفر، فأشار عليه أن يحضرهم لوقته فإن بايعوا وإلا قتلتهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فيثب كل رجل منهم في ناحية، إلا ابن عمر فإنه لا يحب القتال، ولا يحب الولاية، إلا أن يرفع إليه الأمر. فبعث الوليد لوقته عَبْد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث، فجاء إلى الحسين وابن الزبير في المسجد، في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس. وقال أجيبا الأمير. فقالا: لا تنصرف إلا أن نأتيه، ثم حدثا فيما بعث إليهما، فلم يعلموا ما وقع. وجمع الحسين فتيانه وأهل بيته وسار إليهم فأجلسهم بالباب، وقال إن دعوتكم أو سمعتم صوتي عالياً فادخلوا بأجمعكم. ثم دخل فسلم ومروان عنده فشكرهما على الصلة بعد القطيعه، ودعا لهما بإصلاح ذات البين. فأقرأه الوليد الكتاب بنعي معاوية، ودعاه إلى البيعة، فاسترجع وترحم وقال: مثلي لا يبايع سرا ولا يكتفي بثا مني، فإذا ظهرت إلى الناس ودعوتهم كان أمرنا واحدا وكنت أول مجيب. فاقال الوليد: وكان يحب المسالمة، انصرف. فقال مروان: لا يقدر منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينك وبينهم،أ لزمه البيعة وإلا اضرب عنقه. فوثب الحسين وقال: أنت تقتلني أو هو كذبت والله وانصرف إلى مترله. وأخذ مروان في عذل الوليد. فقال يا مروان والله ما احب أن لي ما طلعت الشمس من مال الدنيا وملكها، وأني قتلت الحسين أن قال لا أبايع. وأمَّا ابن الزبير فاختفى في داره وجمع أصحابه، وألح الوليد في طلبه، وبعث مواليه فشتموه وهددوه، وأقاموا ببابه في طلبه فبعث ابن الزبير أخاه جعفرا يلاطف الوليد ويشكو ما أصابه من الذعر، ويعده بالحضور

من الغداة، وأن يصرف رسله من بابه فبعث إليهم وانصرفوا، وخرج ابن الزبير من ليلته مع أخيه جعفر وحدهما، وأخذا طريق الفرع إلى مكة، فسرح الرحالة في طلبه فلم يدركوه، ورجعوا وتشاغلوا بذلك عن الحسين سائر يومه. ثم أرسل إلى الحسين يدعوه فقال : أصبحوا وترون وفري. وسار في الليلة الثانية ببنيه وإخوته وبني أخيه إلا محمد بن الحنفية، وكان قد نصحه وقال تنحّ عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث دعاتك إلى الناس، فإن أجابوك فاحمد الله، وإن

اجتمعوا على غيرك فلم يضر بذلك دينك ولا عقلك ولم تذهب به مروءتك ولا فضلك. وأنا أخاف أن تأتي مصراً أو قوماً فيختلفون عليك، فتكون الأول إساءة، فإذا خير الأمة نفساً وأباً أضيعها ذماراً وأذلها. قال له الحسين: فإني ذاهب. قال انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن فاتت بك لحقت بالرمال وشعب الجبال، ومن بلد إلى آخر حتى ننظر مصير أمر الناس، وتعرف الرأي. فقال يا أخي نصحت وأشفقت ولحق بمكة. وبعث الوليد إلى ابن عمر ليبايع فقال: أنا أبايع أمام الناس، وقيل ابن عمر وابن عباس كانا بمكة، ورجعا إلى المدينة فلقيا الحسين وابن الزبير وأخبراهما بموت معاوية وبيعة يزيد. فقال ابن عمر: لا تفرقا جماعة المسلمين، وقدم هو وابن عباس المدينة وبايعا عنه بيعة الناس. ولما دخل ابن الزبير مكة وعليها عمرو بن سعيد قال: أنا عائذ بالبيت، ولم يكن يصلي ولا يقف معهم ويقف هو وأصحابه ناحية.

عزل الوليد عن المدينة وولاية عمرو بن سعيد:

ولما بلغ الخبر إلى يزيد بصنيع الوليد بن عتبة في أمر هؤلاء النفر، عزله عن المدينة واستعمل عليها عمرو بن سعيد الأشدق، فقدمها في رمضان، واستعمل على شرطته عمر بن الزبير بالمدينة، لّما كان بينه وبين أخيه من البغضاء، وأحضر نفرا من شيعة الزبير بالمدينة فضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين، منهم المنذر بن الزبير وابنه محمد، وعبد الرحمن بن الأسود بن عَبْد يغوث، وعثمان بن عَبْد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر وغيرهم. ثم جهز البعوث إلى مكة سبعمائة أو نحوها. وقال لعمر بن الزبير: من نبعث إلى أخيك؟ ة فقال لا تجد رجلاً أنكى له مني. فجهز معه سبعمائة مقاتل فيهم انس بن عمير الأسلمي. وعذله مروان بن الحكم في غزو مكة، وقال له: اتق الله ولا تحل حرمة البيت. فقال: والله لنغزونه في جوف الكعبة. وجاء أبو شريح الخزاعي إلى عمروبن سعيد فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: "إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس ". فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ. وقيل: إن يزيد كتب إلى عمروبن سعيد أن يبعث عمربن الزبير بالجيش إلى أخيه، فبعثه في ألفي مقاتل وعلى مقدمته أنيس. فنزل أنيس بذي طوى ونزل عمر بالأبطح، وبعث إلى أخيه أن بر يمين

يزيد، فإنه حلف أن لا يقبل بيعة إلا أن يؤتى بك في جامعه، فلا يضرب الناس بعضهم بعضا، فإنك في بلد حرام. فأرسل عَبْد الله بن الزبير من اجتمع له من أهل مكة مع عَبْد الله بن صَفْوان، فهزموا أنيساً بذي طوى، وقتل أنيس في الهزيمة وتخفف عن عمر بن الزبير أصحابه، فدخل دار ابن علقمة وأجاره عبدة بن الزبير. وقال لأخيه قد أجرته، فأنكر ذلك عليه. وقيل: إن صَفْوان قال لعبد الله بن الزبير اكفني أخاك، وأنا أكفيك أنيس

بن عمر، وسار إلى أنيس فهزمه وقتله. وسار مصعب بن عَبْد الرحمن إلى عمر فتفرق عنه أصحابه، وأجاره أخوه عبدة، فلم يجز أخوه عَبْد الله جواره وضربه بكل من ضربه بالمدينة، وحبسه بسجن عارم ومات تحت السياط.

مسير الحسين إلى الكوفة ومقتله:

ولما خرج الحسين إلى مكة لقيه عَبْد الله بن مطيع وسأله أين تريد؟ فقال مكة ! وأستخير الله فيما بعد، فنصحه أن لا يقرب الكوفة، وذكره قتلهم أباه وخذلانهم أخاه، وأن يقيم بمكة لا يفارق الحرم حتى يتداعى إليه الناس. ورجع عنه وترك الحسين بمكة فأقام والناس يختلفون إليه، وابن الزبير في جانب الكعبة يصلي ويطوف عامة النهار، ويأتي الحسين فيمن يأتي، ويعلم أن أهل الحجاز لا يلقون إليه مع الحسين. ولما بلغ أهل الكوفة بيعة يزيد ولحاق الحسين بمكة، اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد، وكتبوا إليه عن نفر منهم سليمان والمسيب بن محمد، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر وغيرهم يستدعونه وأنهم لم يبايعوا للنعمان، ولا يجتمعون معه في جمعة ولا عيد، ولو جئتنا أخرجناه. وبعثوا بالكتاب مع عَبْد الله بن سبع الهمداني، وعبد الله بن وال. ثم كتبوا إليه ثانياً بعد ليلتين نحو مائة وخمسين صحيفة، ثم ثالثأ يستحثونه للحاق بهم. كتب له بذلك شيث بن ربعي وحجاز بن أبجر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم وعروة بن قيس وعمر بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي. فأجابهم الحسين: فهمت ما قصصتم وقد بعثت إليكم ابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، يكتب إليّ بأمركم ورأيكم فإن اجتمع ملؤكم على مثل ما قدمت به رسلكم أقدم عليكم قريباً. ولعمري ما الإمام إلى العامل بالكتاب، القائم بالقسط، يدين بدين الحق. وسار مسلم فدخل المدينة وصلى في المسجد، وودع أهله واستأجر دليلين من قيس فضلا الطريق، وعطش القوم فمات الدليلان بعد أن أشارا

إليهم بموضع الماء، فانتهوا إليه وشربوا ونجوا. فتطير مسلم من ذلك، وكتب إلى الحسين يستعفيه. فكتب إليه: خشيت أن لا يكون حملك على ذلك إلا الجبن، فامض لوجهك والسلام. وسار مسلم فدخل الكوفة أول ذي الحجة من سنة ستين، واختلف إليه الشيعة وقرأ عليهم كتاب الحسين، فبكوا ووعدوه النصر. وعلم مكانه النعمان بن بشير أمير الكوفة، وكان حليما يجنح إلى المسالمة، فخطب وحذر الناس الفتنة. وقال: لا أقاتل من لا يقاتلني، ولا آخذ بالظنة والتهمة، ولكن إن نكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله لأضربنكم بسيفي ما دام قائمته بيدي، ولو لم يكن لي ناصر. فقال له بعض حلفاء بني أُمَيَّة: لا يصلح ما ترى إلا الغشم، وهذا الذي أنت عليه مع عدوك رأي المستضعفين. فقال: أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعزين في معصية الله، ثم تركه. فكتب عَبْد الله بن مسلم وعمارة بن الوليد وعمارة بن سعد بن أبي وقاص إلى يزيد بالخبر، وتضعف النعمان وضعفه فابعث إلى الكوفة رجلا قوياً ينفذ أمرك ويعمل عملك في عدوك فأشار عليه سرجون

.

مسيرة المختار إلى الكوفة وأخذها من ابن المطيع بعد وقعة كربلاء:

مضى إبراهيم إلى المختار وأخبره الخبر، وبعثوا في الشيعة ونادوا بثأر الحسين، ومضى إبراهيم إلى النخع فاستركبهم وسار بهم في المدينة ليلاً، وهويتجنب المواضع التي فيها الأمراء. ثم لقي بعضهم فهزمهم، ثم آخرين كذلك، ثم رجع إلى المختار فوجد شبث بن ربعي وحجاز بن أبجر العجلي يقاتلانه فهزمهما، وحاشب بن المطيع فأشار إليه بجمع الناس والنهوض إلى القوم قبل. فولى أمرهم فركب واجتمع الناس وتوافى إلى المختار نحو أربعة آلاف من الشيعة، وبعث ابن مطيع شبث بن ربعي في ثلاثة آلاف، وربع بن إياس في أربعة آلاف. فسرح إليهم المختار إبراهيم بن الأشتر لراشد في ستمائة فارس وستمائه راجل، ونعيم بن هبيرة لشبث في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل، واقتتلوا من بعد صلاة الصبح. وقتل نعيم فوهن المختار لقتله، وظهر شبث وأصحابه عليهم. وقاتل إبراهيم بن الأشتر راشد بن إياس فقتله، وانهزم أصحابه وركبهم الفشل. وبعث ابن المطيع جيشاً كثيفاً فهزمهم، ثم حمل على شبث فهزمه، وبعث المختار فمنعه الرماة من دخول الكوفة. ورجع المنهزمون إلى ابن مطيع فدهش، فشجعه عمر بن الحجاج الزبيدي، وقال له اخرج واندب الناص ففعل. وقام في الناس ووبخهم على هزيمتهم، وندبهم. ثم بعث عمر بن الحجاج في ألفين وشمر بن ذي الجوشن في ألفين، ونوفل بن مساحق في خمسة آلاف. ووقف هو بكتائبه. واختلف على القصر شبث بن ربعي، فحمل ابن الأشتر على ابن مساحق فهزمه وأسره، ثم من عليه. ودخل ابن مطيع القصر وحاصره إبراهيم بن الأشتر ثلاثاً ومعه يزيد بن أنس وأحمد بن شميط، ولما اشتد الحصار على ابن مطيع، أشار عليه شيث بن ربعي بأن يستأمن للمختار، ويلحق بابن الزبير وله ما يعده. فخرج عنهم مساء ونزل دار أبي موسى. واستأمن القوم للمختار، فدخل القصر وغدا على الناس في المسجد فخطبهم، ودعاهم إلى بيعة ابن الحنفية، فبايعه أشراف الكوفة على الكتاب والسنة، واللطف بأهل البيت، ووعدهم بحسن السيرة. وبلغه أن ابن مطيع في دار أبي موسى، فبعث إليه بمائة ألف درهم وقال يجهز بهذه. وكان ابن مطيع قد فرق بيوت الأموال على الناس، وسار ابن مطيع إلى وجهه وملك الكوفة، وجعل على شرطته عَبْد الله بن كامل، وعلى حرسه يهسان أبا عمرة، وجعل الأشراف جلساءه، وعقد لعبد الله بن الحارث بن الأشتر على أرمينية، ولمحمد بن عمير بن عطارد على أذربيجان، ولعبد الرحمن بن سعيد بن قيس على الموصل، ولإسحق بن مسعود على المدائن، ولسعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان. وأمره بقتال الأكراد وإصلاح السابلة. وولى شريحا على القضاء. ثم طعنت فيه الشيعة، بأنه شهد على حجر بن عدي، ولم يبلغ عن هانىء بن عروة رسالته إلى قومه، وأن علياًّ غرمه، وأنه عثماني. وسمع ذلك هو فتمارض، فجعل مكانه عَبْد الله بن عتبة بن مسعود، ثم مرض فولى مكانه عَبْد الله بن مالك الطائي.

مسيرة ابن زياد إلى المختار وخلافة أهل الكوفة عليه:

كان مروان بن الحكم لّما استوثق له الشام، بعث جيشين أحدهما إلى الحجاز مع جيش بن دلجة القينيئ وقد شاتة ومقتلة، والاخر إلى العراق مع عبيد الله بن زياد، فكان من أمره وأمر التوابين من الشيعة ما تقدم. وأقام محاصراً لزفر بن الحارث بقرقيسيا، وهو مع قومه قيس على طاعة ابن الزبير، فاشتغل بهم عن العراق سنة أو نحوها. ثم توفي مروان وولى بعده عَبْد الملك، فأقره على ولايته وأمره بالجد. ويئس من أمر زفر وقيس، فنهض إلى الموصل، فخرج عنها عَبْد الرحمن بن سعيد عامل المختار إلى تكريت. وكتب إلى المختار بالخبر، فبعث يزيد بن أنس الأسدي في ثلاثة آلاف إلى الموصل، فسار إليها على المدائن، وسرح ابن زياد للقائه ربيعة بن المختار الغنوي في ثلاثة آلاف، فالتقيا ببابل. وعبى يزيد أصحابه وهو راكب على حمار وحرضهم. وقال إن مت فأميركم ورقاء بن عازب الأسدي، وإن هلك فعبد الله بن ضمرة الفزاري، وإن هلك فسعد الخثعمي. ثم اقتتلوا يوم عرفة وانهزم أهل الشام وقتل ربيعة، وسار الفل غير بعيد، فلقيهم عَبْد الله بن حملة الخثعمي قد سرحه ابن زياد في ثلاثة آلاف، فرد المنهزمين وعاد القتال يوم الأضحى، فانهزم أهل الشام، وأثخن فيهم أهل الكوفة بالقتل والنهب، وأسروا منهم ثلاثمائة فقتلوهم. وهلك يزيد بن أنس من آخر يومه، وقام بأمرهم ورقاء بن عازب خليفته، وهاب لقاء ابن زياد بعد يزيد وقال: نرجع بموت أميرنا قبل أن يتجرأ علينا أهل الشام بذلك. وانصرف الناس وتقدم الخبر إلى الكوفة، فأرجف الناس بالمختار، واشيع أن يزيد قتل. وسر المختار رجوع العسكر، فسرح إبراهيم بن الأشتر في سبعة آلاف، وضم إليه جيش يزيد، ثم تأخر ابن زياد فسار لذلك. ثم اجتمع أشراف الكوفة عند شيث بن ربعي وكان شيخهم جاهليا إسلاميا، وشكوا من سيرة المختار وإيثاره الموالي عليهم، ودعوه إلى الوثوب به. فقال حتى ألقاه وأعذر إليه، ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما نكروه، فوعده

الرجوع إلى مرادهم، وذكر له شأن الموالي وشركتهم في الفيء. فقال: إن أعطيتموني عهدكم على قتال بني أُمَيَّة وابن الزبير تركتهم. فقال اخرج إليهم بذلك، وخرج فلم يرجع. واجتمع رأيهم على قتاله، وهم شبث بن ربعي، ومحمد بن الأشعث، وعبد الرحمن بن سعد بن قيس، وشمر بن ذي الجوشن، وكعب بن أبي كعب النخعي، وعبد الرحمن بن مخنف الأزدي. وقد كان ابن مخنف أشار عليهم بأن يمهلوه لقدوم أهل الشام وأهل البصرة، فيكفونكم أمره قبل أن يقاتلكم بمواليكم وشجعانكم وهم عليكم أشد، فأبوا من رأيه وقالوا لا تفسد جماعاً.

ثم خرجوا وشهروا السلاح، وقالوا للمختار- اعتزلنا فإن ابن الحنفية لم يبعثك. قال نبعث إليه الرسل مني ومنكم، وأخذ يعللهم بأمثال هذه المراجعات، وكف أصحابه عن قتالهم ينتظر وصول إبراهيم بن الأشتر، وقد بعث إليه بالرجوع. فجاء فرأى القوم مجتمعين، ورفاعة بن شذاد البجلي يصلي بهم. فلما وصل إبراهيم عبأ المختار أصحابه، وسرح بين يديه أحمد بن شميط البجيلي، وعبد الله بن كامل الشادي، فانهزم أصحابهما وصبراً، ومدهما المختار بالفرسان والرجال فوجاً بعد فوج، وسار ابن الأشتر إلى مصر وفيهم شيث بن ربعي فقاتلوه فهزمهم، فاشتد ابن كامل على اليمن، ورجع رفاعة بن شداد أمامهم إلى المختار، فقاتل معه حتى قتل

من أهل اليمن عَبْد الله بن سعيد بن قيس، والفرات بن زحر بن قيس، وعمر بن مخنف. وخرج أخوه عَبْد الرحمن فمات، وانهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة، وأسر من الوادعيين خمسمائة أسير، فقتل المختار كل من شهد قتل الحسين منهم، فكانوا نصفهم وأطلق الباقين.

ونادى المختار الأمان، إلا من شهد في دماء أهل البيت وفر عمر بن الحجاج الزبيدي، وكان أشد من حضر قتل الحسين، فلم يوقف له على خبر. وقيل أدركه أصحاب المختار فأخذوا رأسه، وبعث في طلب شمر بن ذي الجوشن، فقتل طالبه وانتهى إلى قرية الكلبانية، فارتاح يظن أنه نجا... وإذا في قرية أخرى بإزائه أبو عمرة صاحب المختار، بعثه مسلحة بينه وبين أهل البصرة، فنمي إليه خبره فركب إليه فقتله وألقى شلوه للكلاب. وانجلت الوقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلاً أكثرهم من اليمن، وكان آخر سنة ست وستين، وخرج أشراف الناس إلى البصرة، وتتبع المختا ر قتلة الحسين ودل على عبيد الله بن أسد الجهني، ومالك بن نسير الكندي. وحمل ابن مالك المحاربي بالقادسية فأحضرهم وقتلهم. ثم أحضر زياد بن مالك

الضبعي، وعمران بن خالد العثري وعبد الرحمن بن أبي حشكارة البجلي، وعبد الله بن قيس الخولاني، وكانوا نهبوا من الورث الذي كان مع الحسين فقتلهم. وأحضر عَبْد الله أو عَبْد الرحمن بن طلحة وعبدالله بن وهيب الهمداني ابن عم الأعشى فقتلهم. وأحضرعثمان بن خالد الجهنيئ وأ با أسماء بشربن سميط القابسي، وكانا مشتركين في قتل عَبْد الرحمن ابن عقيل وفي سلبه، فقتلهما وحرقهما بالنار.

وبحث عن خولي بن يزيد الأصبحي صاحب رأس الحسين، فجيء برأسه وحرق بالنار. ثم قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص بعد أن كان أخذ له الأمان منه عَبْد الله بن أبي جعدة بن هبيرة، فبعث أبا عمرة فجاءه برأسه وابنه حفص عنده. فقال تعرف هذا؟ قال: نعم! ولا خير في العيش بعده فقتله. ولقال: إن الذي بعث المختار على قتلة الحسين، أن يزيد بن شراحيل الأنصاري قدم على محمد بن الحنفية، فقال له ابن الحنفية: يزعم المختار أن لنا شيعة، وقتلة الحسين عنده على الكراسي يحدثونه، فلما سمع المختار ذلك تتبعهم بالقتل، وبعث برأس عمرو ابنه إلى ابن الحنفية، وكتب إليه أنه قتل من قدر عليه وهو في طلب الباقين. ثم أحضر حكيم بن طفيل الطائي، وكان رمى الحسين بسهم، وأصاب سلب العباس ابنه. وجاء عدي بن حاتم يشفع فيه، فقتله ابن كامل والشيعة قبل أن يصل حذراً من قبول المختار شفاعته. وبحث عن مرة بن منقذ بن عَبْد القيس قاتل علي بن الحسين، فدافع عن نفسه ونجا إلى مصعب بن الزبير، وقد شقت يده بضربة. وبحث عن زيد وفاد الحسين قاتل عَبْد الله بن مسلم بن عقيل، رماه بسهمين وقد وضع كفه على جبهته يتقي النبل، فأثبت كفه في جبهته وقتله بالأخرى، فخرج بالسيف يدافع. فقال ابن كامل ارموه بالحجارة، فرموه حتى سقط وأحرقوه حيا.

وطلب سنان بن أنس الذي كان يدعي قتل الحسين فلحى بالبصرة. وطلب عمر بن صبح الصدائي فقتله طعنا بالرماح، وأرسل في طلب محمد بن الأشعث وهو في قريته عند القادسية فهرب إلى مصعب وهدم المختار داره. وطلب آخرين كذلك من المتهمين بأمر الحسين، فلحقوا بمصعب وهدم دورهم.

شأن المختار مع ابن الزبير:

كان على البصرة الحارث بن أبي ربيعة وهو القباع عاملاً لابن الزبير. وعلى شرطته عباد بن حسين، وعلى المقاتلة قيس بن الهيثم. وجاء المثنى بن مخرمة العبدي، وكان ممن شهد مع سليمان بن صرد، ورجع فبايع للمختار، وبعثه إلى البصرة يدعو له بها، فأجابه كثير من الناس، وعسكر لحرب القباع، فسرح إليه عباد بن حسين وقيس بن الهيثم في العساكر، فانهزم المثنى إلى قومه عَبْد القيس، وأرسل القباع مسعكرا يأتونه به. فجاءه زياد بن عمر العنكبي، فقال له: لتردن خيلك عن إخواننا أو لنقاتلنهم. فأرسل الأحنف بن قيس وأصلح الأمر، على أن يخرج المثنى عنهم، فسار إلى الكوفة. وقد كان المختار لّما أخرج ابن مطيع من البصرة كتب إلى ابن الزبير يخادعه ليتم أمره في الدعاء لأهل البيت، وطلب المختار في الوفاء بما وعده به الولاية، فأراد ابن الزبيرأن يتبين الصحيح من أمره، فولى عمر بن عَبْد الرحمن بن الحارث بن هشام على الكوفة، وأعلمه بطاعة المختار وبعثه إليها. وجاء الخبر إلى المختار، فبعث زائدة بن قدامة في خمسمائة فارس، وأعطاه سبعين ألف درهم، وقال ادفعها إلى عمر فهي ضعف ما أنفق، وأمره بالانصراف بعد تمكث، فإن أبى فأره الخيل، فكان كذلك. ولما رأى عمر الخيل أخذ المال وسار نحو البصرة، واجتمع هو وابن مطيع في إمارة القباع قبل وثوب ابن مخرمة. وقيل إن المختار كتب إلى ابن الزبير إني اتخذت الكوفة داراً، فإن سوغتني ذلك وأعطيتني مائة ألف درهم سرت إلى الشام وكفيتك مروان، فمنعه من ذلك. فأقام المختار بطاعته ويوادعه ليتفرغ لأهل الشام. ثم بعث عَبْد الملك بن مروان عَبْد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى، فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض عليه المدد، فأجابه أن يعجل بإنفاذ الجيش إلى جند عَبْد الملك بوادي القرى، فسرح شرحبيل بن دوس الهمداني في ثلاثة آلاف أكريم من الموالي، وأمره أن يأتي المدينة ويكاتبه بذلك، واتهمه ابن الزبير فبعث من مكة عباس بن سهل بن سعد في ألفين، وأمره أن يستنفر العرب، وإن رأى من جيش المختار خلافاً ناجزهم وأهلكهم. فلقيهم عبّاس

بالرقيم وهم على تعبية، فقال سيروا بنا إلى العدو الذي بوادي القرى. فقال ابن دوس إنما أمرني المختار أن آتي المدينة، ففطن عباس لّما يريد. فأتاهم بالعلوفة والزاد، وتخير ألفاً من أصحابه وحمل عليهم، فقتل ابن دوس وسبعين معه من شجعان قومه، وأمن الباقين فرجعوا للكوفة، ومات أكثرهم في الطريق. وكتب المختار إلى ابن الحنفية يشكو ابن الزبير ويوهمه أنه بعث الجيش في طاعته، ففعل بهم ابن الزبير ما فعل. ويستأذنه في بعث الجيوش إلى المدينة، ويبعث ابن الحنفية عليهم رجلاً من قبله فيفهم الناس أني في طاعتك، فكتب إليه ابن الحنفية قد عرفت قصدك ووفاءك بحقي، وأحب الأمر إليئ الطاعة، فأطع الله وتجنب دماء المسلمين. فلو أردت القتال لوجدت الناس إليّ سراعاً والأعوان كثيراً لكني أعتزلهم وأصبرحتى0 يحكم الله وهو خير الحاكمين. ثم دعا ابن الزبير محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وشيعته إلى البيعة، فامتنع وبعث إليه ابن الزبير وأغلظ عليه وعليهم، فاستكانوا وصبروا فتركهم. فلما استولى المختار على الكوفة، وأظهر الشيعة دعوة ابن الحنفية خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فاعتزم عليهم في البيعة، وتوعدهم بالقتل، وحبسهم بزمزم، وضرب لهم أجلاً. وكتب ابن الحنفية إلى المختار بذلك، فأخبر الشيعة وندبهم وبعث . امراء منهم في نحو ثلاثمائة،

عليهم أبوعبد الله الجدلي. وبعث لابن الحنفية أربعمائة ألف درهم، وساروا إلى مكة، فدخلوا المسجد الحرام وبأيديهم الخشب، كراهة إشهار السيوف في الحرم، وطفقوا ينادون بثأر الحسين حتى انتهوا إلى زمزم. وأخرج ابن الحنفية وكان قد بقي من أجله يومان، واستأذنوه في قتال ابن الزبير، فقال لا أستحل القتال في الحرم. ثم جاء باقي الجند، وخافهم ابن الزبير، وخرج ابن الحنفية إلى شعب علي واجتمع له أربعة آلاف رجل فقسم بينهم المال. ولما قتل المختار واستوثق أمر ابن الزبير، بعث إليهم في البيعة، فخافه على نفسه وكتب لعبد الملك فأذن له أن يقدم الشام، حتى يستقيم أمر الناس، ووعده بالإحسان. وخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام.

ولما وصل مدّين لقيه خبر مهلك عمرو بن سعيد، فندم وأقام بايلة وظهر في الناس فضله وعبادته وزهده. وكتب له عبد الملك أن يبايعه فرجع إلى مكة ونزل شعب أبي طالب، فأخرجه ابن الزبير فسار إلى الطائف، وعذل ابن عباس بن الزبير على شأنه ثم خرج عنه ولحق بالطائف ومات هنالك. وصلى عليه ابن الحنفية، وعاش إلى أن أدرك حصار الحجّاج لابن الزبير.(ولما قتل

ابن الزبير) بايع لعبد الملك، وكتب عَبْد الملك إلى الحجاج بتعظيم حقه وبسط أمله، ثم قدم إلى الشام وطلب من عَبْد الملك أن يرفع حكم الحجّاج عنه ففعل، وقيل إن ابن الزبير بعث إلى ابن عباس وابن الحنفية في البيعة حتى يجتمع الناس على إمام، فإن في هذه فتنة. فحبس ابن الحنفية في زمزم، وضيق على ابن عباس في مترله، وأراد إحراقهما، فأرسل المختار جيشه كما تقدم ونفس عنهما. ولما قتل المختار قوي ابن الزبير عليهما فخرجا إلى الطائف.

مقتل ابن زياد:

ولما فرغ المختار من قتال أهل الكوفة آخر سنة ست وستين، بعث إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد، وبعث معه وجوه أصحابه وفرسانهم وشيعته وأوصاه. وبعث معه بالكرسي الذي كان يستنصر به وهو كرسي قد غشاه بالذهب. وقال للشيعة هذا فيكم مثل التابوت في بني إسرائيل، فكبر شأنه وعظم. وقاتل ابن زياد فكان له الظهور وافتتن به الشيعة، ويقال: إنه كرسي علي بن أبي طالب، وأن المختار أخذه من والد جعدة بن هبيرة، وكانت امه ام هانىء بنت أبي طالب، فهو ابن اخت علي. ثم أسرع إبراهيم بن الأشتر في السير وأوغل في أرض الموصل، وكان ابن زياد قد ملكها كما مر. فلما دخل إبراهيم أرض الموصل عبى أصحابه، ولما بلغ نهر الحارم بعث على مقدمته الطفيل بن لقيط النخعي، ونزل ابن زياد قريباً من النهر، وكانت قيس مطبقة على بني مروان عند المرج، وجند عَبْد الملك يومئذ ، فلقي عمير بن الحباب السلمي إبراهيم بن الأشتر، وأوعده أن ينهزم بالمسيرة، وأشار عليه بالمشاجرة. ورأى عند ابن الأشتر ميلاً إلى المطاولة فثناه عن ذلك. وقال: إنهم ميلوا منكم رعباً وإن طاولتهم اجترؤوا عليكم. قال وبذاك أوصاني صاحبي. ثم عبى أصحابه في السحر الأول، ونزل يمشي ويحرض الناس، حتى أشرف على القوم. وجاءه عَبْد الله بن زهير السلولي بأنهم خرجوا على دهش وفشل، وابن الأشتر يحرض أصحابه ويذكرهم أفعال ابن زياد وأبيه. ثم التقى الجمعان وحمل الحصين بن نميرمن ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم، فقتل علي بن مالك الخثعمي، ثم أخذ الراية فرذ ابن

علي، فقتل وانهزمت الميسرة، فأخذ الراية عَبْد الله بن ورقاء بن جنادة السلولي، ورجع بالمنهزمين إلى الميسرة كما كانوا. وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما وعدهم، فمنعته الأنفة من ذلك وقاتل قتالاً شديداً. وقصد ابن الأشتر قلب العسكر وسواده الأعظم، فاقتتلوا أشد قتال، حتى كانت أصوات الضرب بالحديد كأصوات القصارين وإبراهيم يقول لصاحب رايته انغمس برايتك فيهم. ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهزم أصحاب ابن زياد. وقال ابن الأشتر إني قتلت رجلاً تحت راية منفردة شممت منه رائحة المسك، وضربته بسيفي فقصمته نصفين، فالتمسوه، فإذا هو ابن زياد فأخذت رأسه وأحرقت جثته. وحمل شريك بن جدير الثعلبي على الحصين بن نمير، فاعتقله وجاء أصحابه فقتلوا الحصين. ويقال: إن الذي قتل ابن زياد هو ابن جدير هذا، وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع وادعى قتله سفيان بن يزيد الأزدي، وورقاء بن عازب الأزدي، وعبيد الله بن زهير السلمي واتبع أصحاب ابن الأشتر المنهزمين فغرق في النهر أكثر ممن قتل، وغنموا جميع ما في العسكر. وطرأ ابن الأشتر بالبشارة إلى المختار فأتته بالمدائن، وأنفذ ابن الأشتر عماله إلى البلاد فبعث أخاه عَبْد الرحمن على نصيبين، وغلب على سنجار ودارا وما والاهما من أرض الجزيرة. وولى زفر بن الحارث قيس وحاتم بن النعمان الباهلي حرّان والرها وشمشاط، وعمير بن الحباب السلمي كفرنوبي وطور عبدين، وأقام بالموصل وأنفذ رؤوس عبيد الله وقواده إلى المختار.

مسير مصعب إلى المختار وقتله إياه:

كان ابن الزبير في أول سنة سبع وستين أو آخر ست عزل الحارث بن ربيعة وهو القباع وولى مكانه أخاه مصعباً، فقدم البصرة وصعد المنبر، وجاء الحارث فأجلسه مصعب تحته بدرجة، ثم خطب وقرأ الآيات من أول القصص، ونزل ولحق به أشراف الكوفة حتى قربوا من المختار، ودخل عليه شيث بن ربعي وهو ينادي واغوثاه، ثم قدم محمد بن الأشعث بعده واستوثقوه إلى المسير، وبعث إلى المهلب بن أبي صفرة وهو عامله على فارس ليحضر معه قتال المختار، فأبطأ وأغفل. وأرسل إليه محمد بن الأشعث بكتابه، فقال المهلب: ما وجد مصعب بريداً غيرك؟ فقال: ما أنا ببريد، ولكن غلبنا عبيدنا على أبنائنا وحرمنا، فأقبل معه المهلب بالجموع والأموال، وعسكر مصعب عند الجسر، فأرسل عَبْد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة سراً ليثبط الناس عن المختار، ويدعو إلى ابن الزبير. وسار على التعبية وبعث في مقدمته عبّاد بن الحصين الحبطي التميمي، وعلى ميمنته عمربن عبيد الله بن معمر، وعلى ميسرته المهلب. وبلغ الخبر المختار فقام في أصحابه، وقرهم إلى الخروج مع ابن شميط، وعسكر مع محمد في أعفر. وبعث رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر مع ابن شميط وأصحابه فثبتوا وحمل المهلب من الميسرة، على ابن كامل فثبت، ثم كرّ المهلب وحمل حملة منكرة، وصبر ابن كامل قتيلاً وانهزموا وحمل الناس جميعاً على ابن شميط فانهزم وقتل. واستمر القتل في الرجالة، وبعث مصعب عبادا فقتل كل أسير أخذه. وتقدم محمد بن الأشعث في خيل من أهل الكوفة، فلم يدركوا منهزما إلا قتلوه. ولما فرغ مصعب منهم أقبل فقطع الفرات من موضع واسط، وحملوا الضعفاء وأثقالهم في السفن، ثم خرجوا إلى نهر الفرات وسار إلى الكوفة. ولما بلغ المختار خبر الهزيمة ومن قتل من أصحابه، وأن مصعباً أقبل إليه في البر

والبحر سار إلى مجتمع الأنهار، نهر الجزيرة والمسلحين والقادسية، ونهر يسر. فسكر الفرات فذهب ماؤه في الأنهار. وبقيت سفن أهل البصرة في الطين فخرجوا إلى السكر وأزالوه، وقصدوا الكوفة. وسار المختار ونزل حر وراء بعد أن حصن القصر وأدخل عدة الحصار، وأقبل مصعب وعلى ميمنته المهلب، وعلى ميسرته عمربن عبيد الله، وعلى الخيل عباد بن الحصين، وجعل المختارعلى ميمنته سليم بن يزيد الكندي، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ

الهمدانى، وعلى الخيل عمر بن عبيد الله النهدي. ونزل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفة بين العسكرين. ولما التقى الجمعان اقتتلوا ساعة، وحمل عَبْد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي على من بإزائه، فحطّم أصحاب المختار حطمة منكرة وكشفوهم، وحمل مالك بن عمر النهدي في الرجالة عند المساء على ابن الأشعث حملة منكرة، فقتل ابن الأشعث وعامة أصحابه، وقتل عبيد الله بن علي بن أبي طالب وقاتل المختار. ثم افترق الناس ودخل القصر وسار مصعب من الغد فترل السبخة وقطع عنهم الميرة. وكان الناس يأتونهم بالقليل من الطعام والشراب خفية، ففطن مصعب لذلك فمنعه، وأصابهم العطش فكانوا يصبون العسل في الابار ويشربون. ثم إن المختار أشار على أصحابه بالاستماتة فتحنط وتصلب، وخرج في عشرين رجلا: منهم السائب بن مسلك الأشعري فعذله. فقال: ويحك يا أحمق، وثب ابن الزبير بالحجاز، ووثب بجدة باليمامة، وابن مروان بالشام فكنت كأحدهم إلا أني طلبت بثار أهل البيت إذ نامت عقد العرب، فقاتل على حسبك إن لم يكن لك نية. ثم تقدم فقاتل حتى قتل على يد رجلين من بني حنيفة أخوين طرفة وطراف ابني عَبْد الله بن دجاجة. وكان عَبْد الله بن جعدة بن هبيرة لّما رأى عزم المختار على الاستماتة تدلى من القصر، واختفى عند بعض إخوانه، ثم بعث الذين بقوا بالقصر إلى مصعب، ونزلوا على حكمه فقتلهم أجمعين. وأشار عليه المهلب باستبقائهم، فاعترضه أشراف أهل الكوفة، ورجع إلى رأيهم. ثم أمر بكف المختار بن أبي عبيد فقطعت وسمرت إلى جانب المسجد فلم يترعها من هنالك إلا الحجاج. وقتل زوجة عمرة بنت النعمان بن بشير زعمت أن المختار ، فاستأذن أخاه عَبْد الله وقتلها ثم كتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته. ووعده بولاية أعنة الخيل وما غلب عليه من المغربة. وكتب إليه عَبْد الملك بولاية العراق، واختلف عليه أصحابه فجنح إلى مصعب خشية مما أصاب ابن زياد وإشراف أهل الشام. وكتب إلى مصعب بالإجابة وسار إليه، فبعث على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان المهلب بن أبي صفرة، وقيل إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وأنه بعث على مقدمته أحمد بن

شُمَيط، وبعث مصعب عبّاد الحبطي ومعه عبيد الله بن علي بن أبي طالب، وتراضوا ليلاً، فناجزهم المختار من ليلته. وانكشف أصحاب مصعب إلى عسكرهم واشتد القتال، وقتل من أصحاب مصعب جماعة، منهم محمد بن الأشعث. فلما أصبح المختار وجد أصحابه قد توغلوا في أصحاب مصعب وليس عنده أحد، فانصرف ودخل قصر الكوفة وفقد أصحابه فلحقوا به، ودخل القصر معه ثمانية آلاف منهم. وأقبل مصعب فحاصرهم أربعة أشهر يقاتلهم بالسيوف كل يوم حتى قتل، وطلب الذين في القصر الأمان من مصعب ونزلوا على

حكمه فقتلهم جميعاً، وكانوا ستة آلاف رجل. ولما ملك مصعب الكوفة بعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة على البصرة مكان مصعب، فأساء السيرة وقصر بالأشراف ففزعوا إلى مالك بن مسمع، فخرج إلى الجسر وبعث إلى حمزة أن ألحق بأبيك. وكتب الأحنف إلى أبيه أن يعزله عنهم ويعيد لهم مصعباً ففعل. وخرج حمزة بالأموال فعرض له مالك بن مسمع وقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا، فضمن له عمر بن عبيد الله العطاء فكف عنه. وقيل: إن عبيد الله بن الزبير إنما رد مصعباً إلى البصرة عند وفادته عليه بعد سنة من قتل المختار. ولما رده إلى البصرة استعمل عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس، وولاه حرب الأزارقة. وكان المهلب على حربهم أيام مصعب وحمزة، فلما رد مصعبا أراد أن يولي المهلب الموصل والجزيرة وأرمينية ليكون بينه وبين عَبْد الملك، فاستقدمه واستخلف على عمله المغيرة. فلما قدم البصرة عزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس، واستعمل عليها عمر بن عبيد الله بن معمر فكان له في حروبهم ما نذكره في أخبار الخوارج.

خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله:

كان عَبْد الملك بعد رجوعه من قنسرين أقام بدمشق زمانا، ثم! سار لقتال زحر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا، واستخلف على دمشق عَبْد الرحمن بن ام الحكم الثقفي ابن أخته وسار معه عمرو بن سعيد. فلما بلغ بطنان انتقض عمرو وأسرى ليلاً إلى دمشق، وهرب ابن ام الحكم عنها فدخلها عمرو وهدم داره، واجتمع إليه الناس

فخطبهم ووعدهم. وجاء عَبْد الملك على أثره فحاصره بدمشق، ووقع بينهما القتال أياماً. ثم اصطلحا وكتب بينهما كتاباً، وأفنه عَبْد الملك فخرج إليه عمرو ودخل عَبْد الملك دمشق، فأقام أربعة أيام. ثم بعث إلى عمرو ليأتيه، فقال له عَبْد الله بن يزيد بن معاوية وهو صهره وكان عنده: لا تأتيه فإني أخشى عليك منه. فقال: والله لوكنت نائماً ما أيقظني. ووعد الرسول بالرواح إليه ثم أتى بالعشي ولبس درعه تحت القباء، ومضى في مائة من مواليه، وقد جمع عَبْد الملك عنده بني مروان، وحسان بن نجد الكلبي، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي وأذن لعمرو فدخل. ولم يزل أصحابه يجلسون عند كل باب حتى بلغوا قاعة الدار وما معه إلا غلام واحد، ونظر إلى عَبْد الملك والجماعة حوله فأحس بالشر، وقال للغلام انطلق إلى أخي يحيى وقل له يأتيني، فلم يفهم عنه وأعاد عليه فيجيبه الغلام لبيك، وهولا يفهم. فقال له اغرب عني. ثم أذن عَبْد الملك لحسان وقبيصة فلقيا عمرا، ودخل فأجلسه معه على السرير، وحادثه زمنا. ثم أمر بترع السيف عنه. فأنكر ذلك عمرو وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين! فقال له عَبْد الملك: أتطمع أن تجلس معي متقلدا سيفك؟ فأخذ عنه السيف،ثم قال له عَبْد الملك ياأبا أُمَيَّة إنك حين خلعتني حلفت يمين إن أنا رأيتك بحيث أقدر عليك أن أجعلك في جامعة، فقال بنو مروان ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم وما عسيت أن أصنع بأبي أُمَيَّة؟ فقال بنو مروان أبر قسم أمير المؤمنين يا أبا أُمَيَّة، فقال عمرو قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج من تحت فراشه جامعة وأمر غلاما فجمعه فيها، وسأله أن لا يخرجه على رؤوس الناس. فقال أمكرا عند الموت؟ ثم جذبه جذبة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته ثم سأل الإبقاء. فقال عَبْد الملك: والله لو علمت أنك تبقى أن أبقيت عليك وتصلح قُرَيْش

لأبقيتك، ولكن لا يجتمع رجلان مثلنا في بلد. فشتمه عمرو، وخرج عَبْد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عَبْد العزيز بقتله. فلما قام إليه بالسيف ذكره الرحم، فأمسك عنه وجلس. ورجع عَبْد الملك من الصلاة وغلقت الأبواب، فغلظ لعبد العزيز ثم تناول عمرا فذبحه بيده، وقيل أمر غلامه ابن الزغير فقتله. وافتقد الناس عمر مع عَبْد الملك حين خرج إلى الصلاة، فأقبل أخوه يحيى في أصحابه وعبيده وكانوا ألفاً، ومعه حميد بن الحارث وحريث وزهير

بن الأبرد فهتفوا باسمه، ثم كسروا باب المقصورة وضربوا الناس بالسيوف، وخرج الوليد بن عَبْد الملك واقتتلوا ساعة. ثم خرج عَبْد الرحمن بن ام الحكم الثقفي بالرأس فألقاه إلى الناس، وألقى إليهم عَبْد العزيز بغن مروان بدر الأموال فانتهبوها وافترقوا. ثم خرج عَبْد الملك إلى الناس وسأل عن الوليد فاخبر بجراحته، وأتى بيحيى بن سعيد وأخيه عنبسة فحبسهما وحبس بني عمر بن سعيد، ثم أخرجهم جميعا وألحقهم بمصعب، حتى حضروا عنده بعد قتل مصعب فأمنهم ووصلهم. وكان بنوعمرو أربعة: أُمَيَّة وسعد وإسماعيل ومحمد. ولما حضروا عنده قال أنتم أهل بيت ترون لكم على جميع قومكم فضلاً لن يجعله الله لكم، والذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً بل كان قديماً في أنفس أوليكم على أولينا في الجاهلية. فقال سعيد: يا أمير المؤمنين! تعد علينا أمراً كان في الجاهلية، والإسلام قد هدم ذلك، ووعد جنة وحذر ناراً. وأمَّا عمرو فهو ابن عمك وقد وصل إلى الله وأنت أعلم بما صنعت، وإن أحدثنا به فبطن الأرض خير لنا من ظهرها. فرق لهم عَبْد الملك وقال أبوكم خيرني بين أن يقتلني أو أقتله واخترت قتله على قتلي، وأمَّا أنتم فما أرغبني فيكم وأوصلني لقرابتكم وأحسن حالتهم. وقيل إن عمراً إنما كان خلفه وقتله حين سار عَبْد الملك لقتال مصعب، طلبه أن يجعل له العهد بعده كما فعل أبوه، فلم يجبه إلى ذلك، فرجع إلى دمشق فعصى وامتنع بها، وكان قتله سنة تسع وستين.

مسير عَبْد الملك إلي العراق ومقتل مصعب:

ولما صفا الشام لعبد الملك اعتزم على غزو العراق، وأتته الكتب من أشرافهم يدعونه، فاستمهله أصحابه فأبى. وسار نحو العراق وبلغ مصعباً سيره، فأرسل إلى المهلب بن أبي صفرة وهو بفارس في قتال الخوارج يستشيره. وقد كان عزل عمر بن عبيد الله بن معمر عن فارس وحرب الخوارج، وولى مكانه المهلب، وذلك حين استخلف على الكوفه. وجاء خالد بن عبيد الله بن خالد بن اسيد على البصرة مختفياً، واعيد لعبد الملك عند مالك بن مسمع في بكر بن وائل والأزد، وأمد عَبْد الملك بعبيد الله بن زياد بن ظبيان وحاربهم عمربن عبيد الله بن معمر، ثم صالحهم على أن يخرجوا خالدا فأخرجوه.

وجاء مصعب وقد طمع أن يدرك خالداً فوجده قد خرج

، فسخط على ابن معمر وسب أصحابه وضربهم وهدم دورهم وحلقهم، وهدم دار مالك بن مسمع واستباحها. وعزل بن معمرعن فارس وولى المهلب وخرج إلى الكوفة. فلم يزل بها حتى سار للقاء عَبْد الملك، وكان معه الأحنف فتوفي بالكوفة. ولما بعث عن المهلب ليسير معه أهل البصرة إلا أن يكون المهلب على قتال

الخوارج رده وقال له المهلب: إن أهل العراق قد كاتبوا عَبْد الملك، وكاتبهم فلا يتعدى. ثم بعث مصعب عن إبراهيم بن الأشتر وكان على الموصل والجزيرة فجعله في مقدمته وسار حتى عسكر في معسكره، وسار عَبْد الملك وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، وخالد بن عبيد الله بن خالد بن أسيد، فنزلوا قريباً من قرقيسيا. وحضر زفر بن الحارث الكلابي، ثم صالحه. وبعث زفر معه الهذيل ابنه في عسكر وسار معه فنزل بمسكن قريباً من مسكن مصعب، وفر الهذيل بن زفر فلحق بمصعب. وكتب عَبْد الملك إلى أهل العراق وكتبوا إليه وكلهم بشرط أصفهان، وأتى ابن الأشتر بكتاب مختوماً إلى مصعب فقرأه فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فأخبره مصعب بما فيه، وقال مثل هذا لا يرغب عنه. فقال إبراهيم: ما كنت لأتقلد الغدر والخيانة. ولقد كتب عَبْد الملك لأصحابك كلهم مثل هذا فأطعني واقتلهم أو احبسهم في أضيق محبس، فأبى عليه مصعب وأضمر أهل العراق الغدر بمصعب. وعذلهم قيس بن الهيثم منهم في طاعة أهل الشام فأعرضوا عنه. ولّما تدانى العسكران بعث عَبْد الملك إلى مصعب يقول، فقال: تجعل الأمر شورى. فقال فصعب ليس بيننا إلا السيف. فقدم عَبْد الملك أخاه محمداً، وقدم مصعب إبراهيم بن الأشتر وأمده بالجيش فأزال محمداً عن موقفه، وأمده عَبْد الملك بعبيد الله بن يزيد، فاشتد القتال، وقتل من أصحاب مصعب بن عمر الباهلي والد قتيبة، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء، فساء ذلك إبراهيم ونكره. وقال: أوصيته لا يمدني بعتاب وأمثاله. وكان قد بايع لعبد الملك، فجر الهزيمة على إبراهيم وقتله، وحمل رأسه إلى عَبْد الملك. وتقدم أهل الشام، فقاتل مصعب ودعا رؤوس العراق إلى القتال فاعتذروا وتثاقلوا. فدنا محمد بن مروان من مصعب وناداه بالأمان وأشعره بأهل العراق فأعرض عنه، فنادى ابنه عيسى بن مصعب فأذن له أبوه في لقائه. فجاءه وبذل له الأمان وأخبر أباه فقال: أتظنهم يعرفون لك ذلك؟ فإن أحببت فافعل. قال لا يتحدث نساء قُرَيْش

إني رغبت بنفسي عنك. قال: فاذهب إلى عمك بمكة فأخبره بصنيع أهل العراق ودعني، فأني مقتول فقال لا أخبر قريشاً عنك أبداً، ولكن الحق أنت بالبصرة فإنهم على الطاعة، أو بأمير المؤمنين بمكة. فقال لا يتحدث قُرَيْش إني فررت. ثم قال لعيسى تقدم يا بني أحتسبك، فتقدم في ناس فقتل وقتلوا. وألح عَبْد الملك في قبول أمانه فأبى ودخل سرادقه، فتحفظ ورمى السرادق، وخرج فقاتل، ودعاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فشتمه وحمل عليه، وضربه فجرحه. وخذل أهل العراق مصعباً حتى بقي في سبعة أنفس وأثخنته الجراحة، فرجع إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقتله، وجاء برأسه إلى عَبْد الملك فأمر له بألف دينار فلم يأخذها. وقال: إنما قتلته بثأر أخي، وكان قطع الطريق فقتله صاحب شرطته، وقيل: إن الذي قتله زائدة بن قدامة الثقفي من أصحاب المختار. وأخذ عبيد الله رأسه، وأمر عَبْد الملك به وبابنه عيسى فدفنا بدار الجاثليق عند نهر رحبيل. وكان ذلك سنة إحدى وسبعين. ثم دعا عَبْد الملك جند العراق إلى البيعة فبايعوه، وسار إلى الكوفة فأقام بالنخيلة أربعين يوماً، وخطب الناس فوعد المحسن، وطلب يحيى بن سعيد عن جعفة وكانوا أخواله، فأحضروه فأمنه. وولى أخاه بشر بن مروان على الكوفة، ومحمد بن نمير على همدان، ويزيد بن ورقاء بن رويم على الري ولم يفى لهم بأصبهان كما شرطوا عليه، وكان عَبْد الله بن يزيد بن أسد والد خالد القسري، ويحيى بن معتوق الهمداني قد

لجآ إلى علي بن عَبْد الله بن عباس، ولجأ فذيل بن زفر بن الحارث، وعمر بن يزيد الحكمي إلى خالد بن يزيد، فأمنهم عَبْد الملك. وصنع عمر بن حريث لعبد الملك طعاماً فأخبره بالخورنق، وأذن للناس عامة فدخلوا، وجاء عمر بن حريث فأجلسه معه على سريره وطعم الناس. ثم طاف مع عمر بن حريث على القصر يسأله عن مساكنه ومعالمه، ولما بلغ عَبْد الله بن حازم مسير مصعب لقتال عَبْد الملك قال : أمعه عمربن معمر قيل: هو على فارس. قال فالمهلب؟ قيل في قتال الخوارج. قال فعباد بن الحسين؟ قيل على البصرة. قال: وأنا بخراسان.

خذيني فجريني جهاراً وأنشدي بلحم امرىء لم يشهد اليوم ناصره

ثم بعث عَبْد الملك برأس مصعب إلى الكوفة ثم إلى الشام. فنصب بدمشق وأرادوا التطاوف به فمنعت من ذلك زوجة عَبْد الملك عاتكة بنت يزيد بن

معاوية، فغسلته ودفنته. انتهى قتل مصعب إلى المهلب وهو يحارب الأزارقة، فبايع الناس لعبد الملك بن مروان. ولما جاء خبرمصعب لعبد الله بن الزبيرخطب الناس فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعزمن يشاء ويذل من يشاء. ألا وأنه لم يذلّ الله من كان الحق معه، وإن كان الناس عليه طرّاً. وقد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا أتانا قتل مصعب. فالذي أفرحنا منه أن قتله شهادة، وأمَّا الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة. ثم عَبْد من عبيد الله وعون من أعواني ألا وإن أهل العراق، أهل الغدر والنفاق، سلموه وباعوه بأقل الثمن فإن فو الله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص، والله ما قتل رجل منهم في الجاهلية ولا في الإسلام. ولا نموت إلا طعنا بالرماح وتحت ظلال السيوف، ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ البطور، وإن تدبر لم أبك عليها بكاء الضرع المهين. أقول قولي هذا وأستغفرالله لي ولكم. ولما بلغ الخبر إلى البصرة تنازع ولايتها حمدان بن ابان، وعبد الله بن أبي بكرة، واستعان حمدان بعبد الله بن الأهتم عليها، وكانت له منزلة عند بني أُميَّة، فلما تمهد الأمر بالعراق لعبد الملك بعد مصعب ولى على البصرة خالد بن عَبْد الله بن اشيد، فاستخلف عليها عبيد الله بن أبي بكرة، فقدم على حمدان وعزله حتى جاء خالد ثم عزل خالدا سنة ثلاث وسبعين، وولى مكانه على البصرة أخاه بشراً وجمع له المصرين، وسار بشر إلى البصرة، واستخلف على الكوفه عمر بن حريث. وولى عَبْد الملك على الجزيرة وأرمينية بعد قتل مصعب أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وستين، فغزا الروم ومزقهم بعد أن كان هادن ملك الروم أيام الفتنة على ألف دينار يدفعها إليه في كل يوم.

أمر زفر بن الحارث بقرقيسيا:

قد ذكرنا في وقعة راهط مسير ابن زفر إلى قرقيسيا، واجتماع قيس عليه. وأقام بها يدعولابن الزبير. ولما ولي عَبْد الملك كتب إلى أبان بن عقبة بن أبي معيط، وهو على

حمص بالمسير إلى زفر، فسار وعلى مقدمته عَبْد الله بن رميت العلائي، فعاجله عَبْد الله بالحرب، وقتل من أصحابه نحو ثلثمائة. ثم أقبل إبان فوابزفر، وقيل ابنه وكيع بن زفر، وأوهنه. ثم سار إليه عَبْد الملك إلى قرقيسيا

قبل مسيره إلى مصعب، فحاصره ونصب عليه المجانيق وقال: كلب لعبد الملك، لا تخلط معنا القيسية، فإنهم ينهزمون إذا التقينا مع زفر ففعل. واشتد حصارهم، وكان زفر يقاتلهم في كل غداة، وأمر ابنه الهذيل يوماً أن يحمل زفر حتى يضرب فسطاط عَبْد الملك، ففعل وقطع بعض أطنابه. ثم بعث عَبْد الملك أخاه بالأمان لزفر وابنه الهذيل على أنفسهما ومن معهما، وأن لهم ما أحبوا. فأجاب الهذيل وأدخل أباه في ذلك. وقال عَبْد الملك لنا خير من ابن الزبير، فأجاب أن له الخيار في بيعته سنة. وأن يترل حيث شاء، ولا يعين على ابن الزبير. وبينما الرسل تختلف بينهم إذ قيل لعبد الملك قد قدم من المدينة أربعة أبراج، فترك الصلح وزحف إليهم، فكشفوا أصحابه إلى عسكرهم، ورجع إلى الصلح واستقر بينهم على الأمان ووضع الدماء والأموال. وأن لا يبايع لعبد الملك حتى يموت ابن الزبير للبيعة التي له في عنقه، وأن يدفع إليه مال نفسه في أصحابه. وتأخر زفر عن لقاء عَبْد الرحمن خوفاً من فعلته بعمربن سعد. فأرسل إليه بقضيب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجاء إليه وأجلسه عَبْد الملك معه على سريره. وزوج ابنه مسلمة الرباب بنت زفر. وسار عَبْد الملك إلى قتال مصعب، فبث زفر ابنه الهذيل معه بعسكر، ولما قارب مصعباً هرب إليه، وقاتل مع ابن الأشتر، حتى إذا اقتتلوا اختفى الهذيل في الكوفة حتى أمنه عَبْد الملك كما مر.

مقتل ابن حازم بخراسان وولاية بكير بن وشاح عليها:

قد تقدّم لنا خلاف بني تميم على ابن حازم بخراسان وأنهم كانوا على ثلاث فرق، وكف فرقتين منهم. وبقي يقاتل الفرقة الثالثة من نيسابور، وعليهم بجير بن ورقاء الصريمي. فلما قتل مصعب بعث عَبْد الملك إلى حازم يدعوه إلى البيعة ويطعمه خراسان سبع سنين، وبعث الكتاب مع رجل من بني عامر بن صعصعة. فقال ابن حازم: لولا الفتنة بين سليم وعامر، ولكن كل كتابك فأكله. وكان بكيربن وشاح التميمي خليفة ابن حازم على مرو، فكتب إليه عَبْد الملك، بعهده على

خراسان ورغبة بالمطامع أن انتهى، فخلع ابن الزبير ودعا إلى عَبْد الملك، وأجابه أهل مرو. وبلإبن حازم فخاف أن يأتيه بكير ويجتمع عليه أهل مرو وأهل نيسابور، فترك بجيرا وارتحل عنه إلى مرو، ويزيد ابنه يترمد. فاتبعه بجير ولحقه قريبأ من مرو، واقتتلوا فقتل ابن حازم. طعنه بجير وآخران معه فصرعوه، وقعد أحدهم على صدره فقطع رأسه. وبعث بجير البشير بذلك إلى عَبْد الملك، وترك الرأس، وجاء بكير بن وشاح في أهل مرو، وأراد إنفاذ الرأس إلى عَبْد الملك، وأنه الذي قتل ابن حازم، وأقام في ولاية خراسان. وقيل إن ذلك إنما كان بعد قتل ابن الزبير، وأن عَبْد الملك أنفذ رأسه إلى ابن حازم ودعاه إلى البيعة، فغسل الرأس وكفنه وبعثه إلى ابن الزبير بالمدينة. وكان من شأنه مع الرسول ومع بجير وبكير ما ذكرناه .

(كان) عَبْد الملك لمّا بويع بالشام بعث إلى المدينة عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام وأمره أن يسكن بالعرصة ولا يدخل المدينة، وعامل ابن الزبير يومئذ على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمعي، فهرب الحارث وأقام ابن أنيف شهراً يصلي بالناس الجمعة بالمدينة ويعود إلى معسكره. ثم رجع ابن أنيف إلى الشام ورجع الحارث إلى المدينة. وبعث ابن الزبير سليمان بن خالد الدورقي على خيبر وفدك. ثم

بعث عَبْد الملك إلى الحجاز عَبْد الملك بن الحارث بن الحكم في أربعة آلاف، فنزل وادي القرى، وبعث سرية إلى سليمان بخيبر، وهرب وأدركوه فقتلوه ومن معه. وأقاموا بخيبر وعليهم ابن القمقام. وذكر لعبد الملك ذلك فاغتم وقال: قتلوا رجلاً صالحاً بغيرذنب . ثم عزل ابن الزبير الحارث بن حاطب عن المدينة، وولّى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري، فبعث جابر إلى خيبر أبا بكر بن أبي قيس في ستمائة، فانهزم ابن القمقام وأصحابه أمامه وقتلوا صبرا. ثم بعث عَبْد الملك طارق بن عمر مولى عثمان، وأمره أن ينزل بين أيلة ووادي القرى، ويعمل كما يعمل عمال ابن الزبير من الانتشار، وليسدّ خللأ، إن ظهر له بالحجاز، فبعث طارق خيلا إلى أبي بكير بخيبر واقتتلوا، فاصيب أبو بكير في مائتين من أصحابه، وكتب ابن الزبير إلى القباع وهو عامله على البصرة يستمده ألفي فارس إلى المدينة. فبعثهم القباع وأمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسيرهم إلى قتال طارق ففعل، ولقيهم طارق فهزمهم وقتل مقدمهم. وقتل من أصحابه خلقا وأجهز على جريحهم ولم يستبق أسيرهم، ورجع إلى وادي القرى. ثم عزل ابن الزبير جابرا عن المدينة، واستعمل طلحة بن عَبْد الله بن عوف، وهو طلحة النداء وذلك سنة سبعين. فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق. ولما قتل عَبْد الملك مصعباً ودخل الكوفة، وبعث منها الحجاج بن يوسف الثقفي في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير، وكتب معه بالأمان لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا. فسار في جمادى سنة اثنتين وسبعين، فلم يتعرض للمدينة، ونزل الطائف. وكان يبعث الخيل إلى عرفة، ويلقاهم هناك خيل ابن الزبير فينهزمون دائماً، وتعود خيل الحجاج بالظفر. ثم كتب الحجاج إلى عَبْد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه، ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده، فكتب عَبْد الملك إلى طارق يأمره باللحاق بالحجاج، فقدم المدينة في ذي القعدة سنة إثنتين وسبعين، وأخرج عنها طلحة النداء عامل بن الزبير، وولى مكانه رجلاً من أهل الشام، وسار إلى الحجاج بمكة في خمسة آلاف. ولما قدم الحجّاج مكة أحرم بحجه ونزل بئر ميمون، وحج بالناس ولم يطف ولا سعى، وحصر ابن الزبير عن عرفة فنحر بدنة بمكة ولم يمنع الحاج من الطواف والسعي. ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس، ورمى به الكعبة وكان ابن عمرقد حج تلك السنة، فبعث إلى الحجاج بالكف عن المنجنيق لأجل الطائفين ففعل، ونادى منادي الحجّاج عند الإفاضة انصرفوا فإنّا نعود بالحجارة على ابن الزبير، ورمى بالمنجنيق على الكعبة، وألحت الصواعق عليهم في يومين، وقتلت من أصحاب الشام رجالاً فذعروا. فقال لهم الحجاج لا شك فهذه صواعق تهامة وأنّ الفتح قد حضر فأبشروا.

ثم أصابت الصواعق من أصحاب ابن الزبير فسري عن أهل الشام، فكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلي، فلا ينصرف ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسم لحمها في أصحابه. وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم، والمدُّ من الذرة بعشرين وبيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً، ولا ينفق منها إلا ما يمسك الرمق، يقوي بها نفوس أصحابه. ثم أجهدهم الحصار، وبعث الحجاج إلى أصحاب ابن الزبير بالأمان، فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف، وافترق الناس عنه.

وكان ممن فارقه ابناه حمزة وحبيب، وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه. وحرّض الناس الحجاج وقال: قد ترون قلّة أصحاب ابن الزبير وما هم فيه من الجهد والضيق، فتقدّموا واملؤوا ما بين الحجون والأبواء. فدخل ابن الزبير على امه أسماء وقال يا امَّه: قد خذلني الناس حتى ولدي والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت أنت أعلم بنفسك، إن كنت على حق وتدعو إليه فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك وقد بلغت بها علمين بين بني أُمَيَّة. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين فقال يا امّه أخاف أن يمثلوا بي ويصلبوني. فقالت يا بني الشاة إذا ذبحت لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك واستعن بالله. فقبل رأسها وقال هذا رأي، والذي خرجت به، داعياً إلى يومي هذا، وما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة وما أخرجني إلا الغضب لله، وأن تستحلَّ حرماته، ولكن أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتيني بصيرة. وإني يا امه في يومي هذا مقتول، فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمد بفاحشة ولم يجر ولم يغدر ولم يظلم ولم يقر على الظلم، ولم يكن آثر عندي من رضا الله تعالى. اللهم لا اقر هذا تزكية لنفسي، لكن تعزية لأمي حتى تسلو عني. فقالت إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك. ثم قالت: اخرج حتى أنظر ما يصير أمرك جزاك الله خيراً. قال فلا تدعي الدعاء لي، فدعت له وودّعها وودّعته، ولما عانقته للوداع وقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد ! فقال ما لبستها إلا لأشد منك. فقالت إنه لا يشد مني فنزعها وقالت له البس ثيابك مشمرة. ثم خرج فحمل على أهل الشام حملة منكرة، فقتل منهم ثم انكشف هو وأصحابه، وأشار عليه بعضهم بالفرار فقال: بئس الشيخ إذن أنا في الإسلام إذا واقعت قوما فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم. وامتلأت أبواب المسجد بأهل الشام، والحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة، وابن الزبير يحمل على هؤلاء وعلى هؤلاء وينادي أبا صَفْوان لعبد الله بن صَفْوان بن أُمَيَّة بن خلف، فيجيبه من جانب المعترك. ولما رأى الحجاج إحجام الناس عن ابن الزبير، غضب وترجل وحمل إلى صاحب الراية بين يديه، فتقدم ابن الزبير إليهم وكشفهم عنه، ورجع فصلى ركعتين عند المقام، وحملوا على صاحب الراية فقلتوه عند باب بني شيبة وأخذوا الراية.ثم قاتلهم وابن مطيع معه حتى قتل، ويقال أصابته جراحة فمات منها بعد أيام، ويقال إنه قال لأصحابه يوم قتل: يا آل الزبيرأوطبتم لي نفساً عن أنفسكم كأهل بيتٍ من العرب اصطلمنا في الله، فلا يرعكم وقع السيوف فإن ألم الدواء في الجرح أشد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم بما تصونون وجوهكم، وغضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرىء قرنه ولا تسألوا عني. ومن كان سائلاً فإني في الرعيل الأول. ثم حمل حتى بلغ الحجون، فأصابته حجارة في وجهه فأرغش لها ودمي وجهه. ثم قاتل قتالاً شديداً وقتل في جمادى الاخرة سنة ثلاث وسبعين. وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد، وكبر أهل الشام، وثار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه، وبعث الحجاج برأسه ورأس عَبْد الله بن صَفْوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى عَبْد الملك. وصلب جثته منكّسةً على ثنية الحجون اليمنى. وبعثت إليه أسماء في دفنه فأبى، وكتب إليه عَبْد الملك

يلومه على ذلك، فخلّى بينها وبينه. ولما قتل عَبْد الله ركب أخوه عروة وسبق الحجاج إلى عَبْد الملك، فرحب به وأجلسه على سريره، وجرى ذكرعبد الله فقال عروة: إنه كان، فقال عَبْد الملك وما فعل؟ قال قتل فخرّ ساجداً. ثم أخبره عروة أنّ الحجاج صلبه فاستوهب جثته لأمّه. فقال نعم: وكتب إلى الحجاج ينكر عليه صلبه، فبعث بجثته إلى امّه وصلى عليه عروة ودفنه وماتت امه بعده قريباً. ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير دخل إلى مكة فبايعه أهلها لعبد الملك، وأمر بكنس المسجد من الحجارة والدم، وسار إلى المدينة وكانت من عمله فأقام بها شهرين، وأساء إلى أهلها وقال: أنتم قتلة عثمان. وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم كما يفعل بأهل الذمة. منهم جابر بن عَبْد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد. ثم عاد إلى مكة ونقلت عنه في ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها إلى الله، وقيل إن ولاية الحجاج المدينة وما دخل منها كانت سنة أربع وسبعين، وأن عَبْد الملك عزل عنها طارقاً واستعمله، ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير، وأخرج الحجر منه وأعاده إلى البناء الذي أقره عليه النبي صلى الله عليه و سلم ، و لم يصدق ابن الزبير في الحديث الذي رواه عن عائشة. فلما صح عنده بعد ذلك قال وددت أني تركته وما تحمل.

ولاية المهلب حرب الأزارقة:

ولما عزل عَبْد الملك خالد بن عَبْد الله عن البصرة، واستعمل مكانه أخاه بشر بن مروان وجمع له المصرين، أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة فيمن ينتخبه من أهل البصرة ويتركه وراءه في الحرب، وأن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً بالبأس والنجدة والتجربة في جيش كثيف إلى المهلب، فيتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم. فأرسل المهلب جذيع بن سعيد بن قبيصة ينتخب الناس من الديوان. وشق على بشر أن امرأة المهلب جاءت من عند عَبْد الملك، فغص به ودعا عَبْد الرحمن بن مخنف، فأعلمه مترلته عنده وقال: إني اوليك جيش الكوفة، بحرب الأزارقة، فكن عند حسن ظني بك. ثم أخذ يغريه بالمهلّب، وأن لا يقبل رأيه ولا مشورته، فأظهر له الوفاق. وسار إلى المهلب فترلوا رامهرمز، ولقي بها الخوارج فحدق عليه على ميل من المهلب حيث يتراءى العسكران. ثم أتاهم نعي بشر بن مروان لعشر ليال من مقدمهم، وأنه استخلف على البصرة خالد بن عَبْد الله بن خالد، فافترق الناس من أهل المصرين إلى بلادهم ونزلوا الأهواز وكتب إليهم خالد بن عَبْد الله يتهددهم ويحذرهم عقوبة عَبْد الملك، إن لم يرجعوا إلى المهلب، فلم يلتفتوا إليه ومضوا إلى الكوفة واستأذنوا عمر بن حريث، في الدخول و لم يأذن لهم فدخلوا وأضربوا عن إذنه.

ولاية أسد بن عَبْد الله علي خراسان:

ولما ولي بكير بن وشّاح على خراسان اختلف عليه بطون تميم وأقاموا في العَصَبِيَّة له وعليه سنتين، وخاف أهل خراسان أن تفسد البلاد ويقهرهم العدو، لكتبوا إلى عَبْد الملك بذلك، وأنها لا تصلح إلا على رجل من قُرَيْش. واستشار أصحابه فقال له أُمَيَّة بن عبيد الله ان خالد بن أسيد نزكيهم لرجل منك. فقال لولا انهزامك عن أبي فديك كنت لها. فاعتذر وحلف أن الناس خذلوه و لم يجد مقاتلاً، فانحزت بالعصبة التي بقيت من المسلمين عن الهلكة، وقد كتب إليك خالد بن عَبْد الله بعذري، وقد علمه الناس فولاه خراسان. ولما سمع بكير

بن وشاح بمسيره بعث إلى بجير بن ورقاء وهو في حبسه كما مر، فأبى وأشار عليه بعض أصحابه أن يقبل مخافة القتل فقبل.

وصالح بكير أو بعث إليه بكير بأربعين ألفاً على أن لا يقاتله. فلما قارب أُمَيَّة نيسابور سار إليه بجير وعرّفه عن أمور خراسان وما يحسن به طاعة أهله. وحذره غدر بكير. وجاء معه إلى مرو فلم يعرض أُمَيَّة لبكير ولا لعماله وعرض عليه شرطته فأبى. وقال لا أحمل الجزية اليوم، وقد كانت تحمل إليّ بالأمس وأراد أن يوليه بعض النواحي من خراسان، فحذره بجير منه. ثم ولى أُمَيَّة ابنه عَبْد الله على سجستان فنزل بسْتا وغزا رتبيل الذي ملك على الترك بعد المقتول الأوّل، وكان هائباً للمسلمين فراسلهم في الصلح وبعث ألف ألف، وبعث بهدايا ورقيق. فأبى عَبْد الله من قبولها وطلب الزيادة فجلا رتبيل عن البلاد حتى أوغل فيها عَبْد الله. ثم أخذ عليه الشعاب والمضايق حتى سأل منه الصلح وأن يخلي عينه عن المسلمين، فشرط رتبيل عليه ثلثمائة ألف درهم، والعهد بأن لا يغزو بلادهم. فأعطاه ذلك وبلغ الخبر بذلك عَبْد الملك فعزله.

ولاية الحجاج العراق:

ثم ولى عَبْد الملك الحجاج بن يوسف على الكوفة والبصرة سنة خمسة وسبعين، وأرسل إليه وهو بالمدينة يأمره بالمسير إلى العراق، فسار على النجب في اثني عشر راكباً حتى قدم الكوفة في شهر رمضان. وقد كان بشر بعث المهلب إلى الخوارج، فدخل المسجد وصعد المنبر وقال: عليّ بالناس فظنوه من بعض الخوارج فهموا به، حتى تناول عمير بن ضابي البرجمي الحصباء وأراد أن يحصبه، فلما تكلم جعل الحصباء يسقط من يديه وهولا يشعر به. ثم حضر الناس فكشف الحجّاج عن وجهه وخطب خطبته المعروفة. ذكرها الناس وأحسن من أوردها المبرَّد في الكامل، يتهدد فيها أهل الكوفة ويتوعدهم عن التخلف عن المهلب. ثم نزل وحضر الناس عنده للعطاء واللحاق بالمهلب، فقام إليه عمير بن ضابي وقال: أنا شيخ كبير عليل وابني هذا أشد مني. فقال هذا خير لنا منك. قال ومن أنت؟ قال: عمير بن ضابي. قال الذي غزا عثمان في داره؟ قال: نعم. فقال يا عدو الله إلى عثمان بدلاً قال ! إنه حبس أبي وكان شيخاً كبيراً. فقال: إني لا احب حياتك، إن في قتلك صلاح المصرين، وأمر به فقتل ونهب ماله. وقيل إن عنبسة بن سعيد بن العاص هو الذي أغرى به الحجّاج حين دخل عليه. ثم أمر الحجاج مناديه فنادى ألا

إن ابن ضابي تخلّف بعد ثالثة من النداء فأمرنا بقتله، وذمة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب. فتساءل الناس إلى المهلب وهو بدار هُرمْز وجاءه العرفاء فأخذوا كتبه بموافاة العسكر. ثم بعث الحجّاج على البصرة الحكم بن أيوب الثقفي وأمره أن يشتد على خالد بن عَبْد الله، وبلغه الخبر فقسم في أهل البصرة ألف ألف، وخرج عنها. ويقال إن الحجّاج أول من عاقب على التخلف عن البعوث بالقتل، قال الشعبي كان الرجل إذا أخل بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلي تنزع عمامته ويقام بين الناس، فلما ولي مصعب أضاف إليه حلق الرؤوس واللحى، فلما ولي بشر أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين في يده في حائط فيخرق المسماران يده وربما مات. فلما جاء الحجّاج ترك ذلك كله وجعل عقوبة من تخلى بمكانه من الثغر أو البعث

القتل. ثم ولّى الحجاج على السند سعيد بن أسلم بن زرعة، فخرج عليه معاوية بن الحارث الكلابي العلاقي وأخوه، فغلباه على البلاد وقتلاه. فأرسل الحجّاج مجاعة بن سعيد التميمي مكانه فغلب على الثغر وغزا وفتح فتوحات بمكران لسنة من ولايته.

وقوع أهل البصرة بالحجّاج:

ثم خرج الحجّاج من الكوفة، واستخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة، وسار إلى البصرة وقدمها وخطب كما خطب بالكوفة، وتوعد على القعود عن المهلب كما توعد، فأتاه شريك بن عمرو اليشيكري وكان به فتق، فاعتذر به وبأنّ بشر بن مروان قبل عذره بذلك، وأحضر عطاءه ليُرْد لبيت المال، فضرب الحجّاج عنقه وتتابع الناس مزدحمين إلى المهلب، ثم سار حتى كان بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً. وأقام يشدّ ظهره وقال يا أهل المصرين ! هذا والله مكانكم حتى يهلك اللهُ الخوارجَ. ثم قطع لهم الزيادة التي زادها مصعب في الأعطية، وكانت مائة مائة. وقال: لسنا نجيزها. فقال عَبْد الله بن الجارود إنما هي زيادة عَبْد الملك، وقد أجازها أخوه بشر بأمره، فانتهره الحجّاج فقال : إني لك ناصح وإنه قول من ورائي فمكث الحجّاج أشهراً لا يذكر الزيادة، ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل الرد الأول. فقال له مضفلة بن كرب العبدي سمعاً وطاعة للأمير فيما أحببنا وكرهنا وليس لنا أن نرد عليه. فانتهره ابن الجارود وشتمه، وأتى الوجوه إلى عَبْد الله بن حكيم بن زياد المجاشعي وقالوا: إنّ هذا الرجل مجمع على نقص هذه الزيادة، وإنا نبايعك على إخراجه من العراق

ونكتب إلى عَبْد الملك أن يولي علينا غيره وإلاّ خلعناه، وهو يخافنا ما دامت الخوارج في العراق، فبايعوه سراً وتعاهدوا وبلغ الحجّاج أمرهم فاحتاط وجدّ. ثم خرجوا في ربيع سنة ست وسبعين، وركب عَبْد الله بن الجارود في عَبْد قيس على راياتهم، ولم يبق مع الحجّاج إلا خاصته وأهل بيته، وبعث الحجّاج يستدعيه فأفحش في القول لرسوله، وصرح بخلع الحجاج فقال له الرسول: تهلك قومك وعشيرتك. وأبلغه تهديد الحجاج إياه فضرب وأخرج وقال لولا أنك رسول لقتلتك. ثم زحف ابن الجارود في الناس حتى غشي فسطاطه، فنهبوا ما فيه من المتاع وأخذوا زجاجته وانصرفوا عنها. فكان رأيهم أن يخرجوه ولا يقتلوه. وقال الغضبان بن أبي القبعثري الشيباني لابن الجارود: لا ترجع عنه وحرضه على معالجته. فقال إلى الغداة، وكان مع الحجاج عثمان بن قطن وزياد بن عمر العتكي صاحب الشرطة بالبصرة، فاستشارهما، فأشار زياد بأن يستأمن القوم ويلحق بأمير المؤمنين. وأشار عثمان بالثبات ولو كان دونه الموت. وقال لا تخرج إلى أمير المؤمنين من العراق بعد أن رقاك إلى ما رقاك، وفعلت ما فعلت بابن الزبير في الحجاز. فقبل رأي عثمان وحقد على زياد في إشارته، وجاءه عامر بن مسمع يقول: قد أخذ لك الأمان من الناس، فجعل الحجّاج يغالطه رافعاً صوته عليه ليسمع الناس ويقول : والله لا آمنهم حتى تؤتوني بالهذيل بن عمران وعبد الله بن حكيم ثم أرسل إلى عبيد بن كعب الفهري أن ائتني فامنعني . فقال له إن أتيتني منعتك فابى، وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد وعبد الله بن حكيم بمثل ذلك ، وأجابوه مثله . ثم إن عباد بن الحصين. ثم جاءه سبرة بن الجفطي مر بابن الجارود

والهذيل وعبد الله بن حكيم تناجون ، فطلب الدخول معهم فأبوا وغضب وسار إلى الحجاج ، وجاءه قتيبة بن مسلم في بني أعصر للحمية القتيبية عليّ الكلابي وسعيد بن أسلم الكلابي وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ، فثابت إليه نفسه وعلم أنه قد امتنع . وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع إن شئت أتيتك وإن شئت أقمت وثبطت عنك ، فأجابه أن أقم ، فلما أصبح إذا حوله ستة آلاف . وقال ابن الجارود لعبد الله بن زياد بن ضبيان ما الرأي ؟ قال تركته أمس و لم يبق إلا الصبر. ثم تراجعوا وعبى ابن الجارود وأصحابه على ميمنة الهذيل وعلى ميسرته سعيد بن أسلم ، وحمل ابن الجارود حتى حاصر أصحاب

الحجّاج ، وعطف الحجّاج عليه فقارب ابن الجارود أن يظفر. ثم أصابه سهم غَرِبُ فوقع ميتاً . ونادى منادي الحجاج بأمان الناس إلا الهذيل وابن الحكيم ، وأمر أن لا يتبع المنهزمين ، ولحق ابن ضبيان بعمارة فهلك هنالك . وبعث الحجاج برأس ابن الجارود ورأس ثمانية عشر من أصحابه إلى الملك ، ونصبت ليراها الخوارج ليتاسوا من الاختلاف ، وحبس الحجاج عبيد بن كعب ، ومحمد بن عمير لامتناعهما من الإتيان إليه ، وحبس ابن القبعثرى لتحريضه عليه ، فأطلقه عبد الملك وكان فيمن قتل مع ابن الجارود عبد الله بن أنس بن مالك . فقال الحجاج لا أرى أنساً يعين علي . ودخل البصرة وأخذ ماله . وجاءه أنس فأساء عليه وأفحش في شتمه ، وكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه . فكتب عبد الملك إلى الحجاج يشتمه ويغلظ عليه في التهديد على ما فعل بأنس ، وأن تجيء إلى مترله وتتنصل إليه ، وإلا نبعث من يضرب ظهرك ويهتك سترك . قالوا : وجعل الحجاج في قراءته يتغير ويرتعد وجبينه يرشح عرقاً . ثم جاء إلى أنس بن مالك واعتذر إليه ، وفي عقب هذه الواقعة خرج الزنج بفرات البصرة، وقد كانوا خرجوا قبل ذلك أيام مصعب و لم يكونوا بالكثير، وأفسدوا الثمار والزروع ، ثم جمع لهم خالد بن عبد الله فافترقوا قبل أن ينال منهم ، وقتل بعضهم وصلبه . فلما كانت هذه الواقعة قدّموا عليهم رجلاً منهم اسمه رياح ويلقب بشير زنجي أي أسد الزنج وأفسدوا . فلما فرغ الحجّاج من ابن الجارود أمر زياد ابن عمر صاحب الشرطة أن يبعث إليهم مَن يقاتلهم ، وبعث ابنه حفصاً في جيش فقتلوه وانهزم أصحابه فبعث جيشاً فهزم الزنج وأبادهم .

مقتل ابن مخنف وحرب الخوارج :

كان المُهَلبُ وعبد الرحمن بن مُخْنِفَ واقفين للخوارج بِرَامَهُرْمُز فلما أمدّهم الحجّاج بالعساكر من الكوفة والبصرة ، تاجر الخوارج من رامهرمز إلى كازِرُونَ وأتبعهم العساكر حتى نزلوا بهم ، وخندق المهلب على نفسه ، وقال ابن مخنف وأصحابه خدمنا سيوفنا، فبيتهم الخوارج وأصابوا الغِرةَ في ابن مخنف ، فقاتل هو وأصحابه حتى قتلوا، هكذا حديث أهل البصرة . وأما أهل الكوفة فذكروا أنهم لما ناهضوا

الخوارج اشتدّ القتال بينهم ، ومال الخوارج على المهلب فاضطروه إلى معسكره ، وأمدّه عبد الرحمن بالخيل والرجال . ولما رأى الخوارج مدده تركوا مَنْ يشغل المهلب ، وقصدوا عبد الرحمن فقاتلوه وانكشفوا عنه ، وصبر في سبعين من قومه فثابوا إلى عتاب بن ورقاء، وقد أمره الحجّاج أن يسمع للمهلّب فثقل ذلك عليه ، فلم يحسن بينهما العِشْرة، وكان يتراءف في الكلام ، وربما أغلظ له المهلب . فأرسل عتاب إلى الحجّاج يسأله

القعود، وكان حرب الخوارج وشبيب قد اتسع عليه ، فصادفا منه ذلك مرقعا، واستقدمه وأمره أن يترك العسكر مع المهلب ، فولّى المهلب عليهم ابنه حبيباً وأقام يقاتلهم بنيسابور نحواً من سنة، وتحرّكت الخوارج على الحجّاج من لدن سنة ست وسبعين إلى سنة ثمان وشغل بحربهم ، وأول مَن خرج منهم صالح بن سَرْحٍ من بني تميم . بعث إليه العساكر فقتل ، فولّوا عليهم شبيباً واتّبعه كُثَيِّرُ من بني شيبان ، وبعث إليهم الحجّاج العساكر مع الحابى بن عُمَيْرَة، ثم مع سفيان الخَثْعَمِيّ ، ثم انحدر ابن سعيد فهزموها، وأقبل شبيب إلى الكوفة، فحاربهم الحجّاج وامتنع ، ثم سرح عليه العساكر وبعث في أثرهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فهزموهم . ثم بعث عتاب بن ورقاء ، وزهرة بن حَوْبَةَ مَدَدا لهم ، فانهزموا وقتل عتاب وزهرة، ثم قتل شبيب واختلف الخوارج بينهم ، وقتل منهم جماعة كما يذكر ذلك كله في أخبارهم .

ضرب السكّة الإسلامية

كان عبد الملك كتب في صدر كتابه إلى الروم : قل هو الله أحد، وذكر النبي مع التاريخ ، فنكر ذلك ملك الروم وقال : اتركوه وإلا ذكرنا نبيّكم في دنانيرنا بما تكرهونه . فعظم ذلك عليه واستشار الناس ، فأشار عليه خالد بن يزيد بضرب السكّة وترك دنانيرهم ففعل : ثم نقش الحجاج فيها قل هو الله أحد. فكره الناس ذلك لأنه قد يمسّها غير الطاهر، ثم بالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش . وزاد ابن هُبَيْرَةَ أيام يزيد بن عبد الملك عليه . ثم زاد خالد القسْرِيّ عليهم في ذلك أيام هشام . ثم أفرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة وامتحان العيار، وضرب عليه فكانت الهُبَيْرِيَّةُ والخالِديةُ واليوسفيَّةُ أجود نقود بني أميّة . ثم أمر المنصور أن لا يقبل في الخراج غيرها وسمِّيت النقود الأولى مكروهة إما لعدم جودتها أو لما نقش عليها الحجّاج وكرهه . وكانت دراهم العجم مختلفة بالصغر والكبر، فكان منها مثقال وزن عشرين قيراطاً ، واثني عشر، وعشرة قراريط وهي أنصاف المثاقيل . فجمعوا قراريط الأنصاف الثلاثة فكانت اثنين وأربعين ، فجعلوا ثلثها وهو اثنا عشر قيراطاً وزن الدرهم العربي ، فكانت كل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل . وقيل إن مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة أيام أخيه عبد الله ، والأصح أن عبد الملك أول مَن ضرب السكّة في الإسلام.

مقتل بكير بن وشاح بخراسان :

قد تقدّم لنا عزل بكير عن خُراسان ، وولاية أميّة بن عُبَيْدِ الله بن خالد بن أسَيد سنة أربع وسبعين ، وأن بكيراً أقام في سلطان أميّة بخراسان ، وكان يكرمه ويدعوه لولاية ما شاء من أعمال خراسان فلا يجيب ، وأنه ولاه طَخَارَسْتان ، وتجهّز لها فيه بُجَيْرُ بن ورقاء فمنعه ، ثم أمره بالتجهّز لغزو ما وراء النهر، فحذّره منه بجير، فردّه فغضب بكير. ثم تجهّز أميّة لغزو غارا وموسى بن عبد الله بن حازم لِتَرْمُذ، واستخلف ابنه على خراسان . فلما أراد قطع النهر قال لبكير ارجع إلى مرو اكفنيها فقد وليتكها، وقم بأمر ابن حازم فإني أخشى أن لا يضبطها . فانتخب مَن وثق به من أصحابه ورجع ، وأشار عليه صاحبه عَتَّابُ بان يحرق السفن ويرجع إلى مرو فيخلع أميّة، ووافقه الأحنف بن عبد الله العَنْبَرِي على ذلك . فقال لهم بكير: أخشى على مَن معي . قالوا نأتيك من أهل مرو بمَن تشاء، قال يهلك المسلمون . قال نادِ في الناس برفع الخراج فيكونون معك . قال

فيهلك أمية وأصحابه . قال لهم عِدَدٌ وعَددٌ يقاتلون عن أنفسهم حتى يبلغوا الصين ، فاحرق بكير السفن ورجع إلى مرو، فخلع أميّة وحبس ابنه . وبلغ الخبر أميّة فصالح أهل الشام بُخَارى، ورجع وأمر باتخاذ السفن وعبر، وجاءه موسى بن عبد الله بن حازم من مدداً له ، وبعث شماس بن ورقاء في ثمانمائة في مقدمته فبيّته بكير هزمه ، فبعث مكانه ثابت بن عطية فهزمه . ثم التقى أميّة وبكير فاقتتلوا أياماً، ثم انهزم بكير إلى مرو، وحاصره أميّة أياماً حتى سأل الصلح على ولاية ما شاء من خراسان ، وأن يقضي عنه أربعمائة ألف دينه ، ويصل أصحابه

ولا يقبل فيه سعاية بَحِيْر، فتمَ الصلح ودخل أمية مدينة مرو، وأعاد بكيراً إلى ما كان عليه من الكرامة وأعطى عتاب العدابي عشرين ألفاً، وعزل بُحَيْر عن شرطته بعطا بن أبي السائب . وقيل إن بكيراً لم يصحب أميّة إلى النهر، وإنما استخلفه على مرو، فلما عبر أميّة النهر خلع وفعل ما فعل . ثم إن بكيراً سعى بأميّة بان بكيراً دعاه إلى الخلاف ، وشهد عليه جماعة من أصحابه ، وأن معه ابني أخيه . فقبض عليه أميّة وقتله ، وقتل معه ابني أخيه ، وذلك سنة سبع وسبعين . ثم عبر النهر لغزو بلخ ، فحصره الترك حتى جهد هو وعسكره وأشرفوا على الهلاك ثم نجوا ورجعوا إلى مرو.

قتل بحير بن زياد:

ولما قُتِلَ بَكير ُبسعاية بُحَيْرُ بن وَرْقَاءَ تعاقد بنو سَعْد بن عَوْفٍ من تميم وهم عشيرته على الطلب بدمه ، وخرج فتى منهم من البادية اسمه شَمَرْدَل ، وقَدِمَ خراسان ووقف يوماً على بُحَيْرٍ فطعنه فصرعه ولم يمت ، وقتل شمردل وجاء مكانه صَعْصَعَةُ بن حَرْب العوفي ، ومض إلى سِجسْتان وجاور قرابة بجير مدّة . وانتسب إلى حنَفيَّةَ ثم قال لهم إن لي بخراسان ميراثاً فاكتبوا إلى بجير يعينني ، فكتبوا له وجاء إليه وأخبره بنسبه وميراثه ، وأقام عنده شهرا يحضر باب المُهَلَّب وقد أنس به وأمن غائلته ، وجاء صعصعة يوماً وهو عند المهلب في قميص ورداء، ودنا ليكلّمه فطعنه ومات من الغد . وقال صعصعة فمنعته مُقاعِسُ وقالوا أخذا بثأره ، فحمل المهلب دم صعصعة وجعل دم بجير ببكير. وقيل إن المهلب بعثه إلى بجير فقتله والله أعلم وكان ذلك سنة إحدى وثمانين

ولاية الحجّاج على خراسان وسجستان :

وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أميّة بن عبد الله عن خراسان وسجستان ، وضمهما إلى الحجّاج بن يوسف. فبعث المهلب بن أبي صُفْرَةَ على خراسان ، وقد كان . فرغ من حرب الأزارقة، فاستدعاه وأجلسه معه على السرير، وأحسن إلى أهل البلاد من أصحابه وزادهم ، وبعث عُبَيْدَ الله بن أبي بكرة على سِجسْتان . فأما المهلب فقدم ابنه حبيباً إلى خراسان فلم يعرض لأميّة ولا لعماله حتى قَدمَ أبوه المهلب بعد سنة من ولايته ، وسار في خمسة آلاف وقطع النهر الغربي وما وراء النهر، وعلى مقدمته أبو الأدهم الرُقَانيّ في ثلاثة آلاف فنزل على كَشٍّ وجَاءَه ابن عمر الخَتْن يستنجده على ابن عمّه ، فبعث معه ابنه يزيد. فبيّت ابن العمّ عساكر الختن وقتل الملك ، وجاءه صَر يريد قلعتهم حتى صالحوا بما رضي ، ورجع ، وبعث المهلب ابنه حبيباً

في أربعة آلاف ، ووافى صاحب بُخارى في أربعين ألفاً . وكبس بعضهم جنده في قرية فقتلهم وأحرقها ورجع إلى أبيه . وأقام المهلب يحاصر كشّ سنتين حتى صالحوه على فِدْيَة . وأما عبد الله بن أبي بكرة فأقام بسجستان ورَتْبيل على صلحه يؤدّي الخراج . ثم امتنع فأمر الحجّاج ابن أبي بكرة فغزوه واستباحوا بلاده ، فسار في أهل المصرين وعلى أهل الكوفة شُرَيْحُ بن هانىء من أصحاب علي ، فدخل بلاد رتبيل وتوغل فيها حتى كانوا على ثمانية عشر فرسخاً من مدينتهم ، وأثخن واستباح وخرّب القرى والحصون . ثم أخذ الترك عليهم القرى والشِعاب حتى ظنوا الهَلَكَةَ، فصالحهم عبيد الله على الخروج من أرضهم ، على أن يعطيهم سبعمائة ألف درهم. ونكر ذلك عليه شريح وأبى إلا القتال ، وحرّض الناس ورجع . وقتل حين قتل بناس من أصحابه ونجا الباقون ، وخرجوا من بلاد رتبيل ، ولقيهم الناس بالأطعمة فكانوا يموتون إذا شبعوا . فجعلوا يطعمونهم السمن قليلا قليلاً حتى استمروا وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في غزو بلاد رتبيل فأذن له ، فجهز عشرين ألف فارس من الكوفة وعشرين ألفاً من البصرة، واختار أهل الغنى والشجاعة ، وأزاح عِلَلهم وأنفق فيهم ألفي ألف سوي أعْطِيَاتِهم ، وأخذهم بالخيل الرائعة والسلاح الكامل . وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشْعَثِ ، وكان يبغضه ويقول أريد قتله . ويخبر الشعبي بذلك عبد الرحمن فيقول أنا ازيله عن سلطانه ، فلما بعثه على ذلك الجيش تنصح أخوه إسماعيل للحجّاج وقال : لا تبعثه فإني أخشى خلافه . فقال هو أهيب لي من أن يخالف أمري . وسار عبد الرحمن في الجيش وقَدِمَ سجستان واستنفرهم ، وحذر العقوبة لمن يتعدّى . وساروا جميعاً إلى بلاد رتبيل ، وبذل الخراج فلم يقبل منه ودخل بلاده فحواها شيئا فشيئاً . وبعث عمّاله عليها ورجع المصالح بالنواحي والأرصاد على العقاب والشعاب ، وامتلأت أيدي الناس من الغنائم ، ومنع من التوغل في البلاد إلى قابل ، وقد قيل في بعث عبد الرحمن بن الأشعث غير هذا . وهو أن الحجّاج كان قد أنزل هَمْيَانَ بن عَديَ السِذَي مسلحة بكرمان أن احتاج إليه عامل السند وسِجِسْتَان فمضى هِمْيَانُ فبعث الحجّاج عبد الرحمن بن الأشعث فهزمه ، وقام بموضعه . ثم مات عبد الله بن أبي بكرة فولاّه الحجاج مكانه ، وجهّزإليه هذا الجيش ، وكان يسمى جيش الطواويس لحُسْن زيّهم.

أخبار ابن الأشعث ومقتله :

ولما وصل كتاب ابن الأشعث إلى الحجّاج كتب إليه يوبخه على القعود عن التوغل ويامره بالمضيّ لما أمره به من هدم حصونهم وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم . وأعاد عليه الكتاب بذلك ثانياً وثالثاً وقال له إن مضيت وإلا فأخوك إسحق أمير الناس . فجمع عبد الرحمن الناس وردّ الرأي عليهم وقال : قد كنا عزمنا جميعا على ترك التوغل في بلد العدوّ، ورأينا رأيا وكتبت بذلك إلى الحجاج ، وهذا كتابه يستعجزني ويستضعفني ويأمرني بالتوغّل بكم وأنا رجل منكم ، فثار الناس وقالوا لا نسمع ولا نطيع الحجّاج . وقال أبو الطفَيْل عامر بن واثِلَةَ الكِنَانيّ : اخلعوا عدو الله الحجّاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن ، فتنادى الناس من كل جانب : فعلنا فعلنا . وقال عبد المؤمن بن شيث بن رَبْعي : انصرفوا إلى عدوّ الله الحجّاج فانفوه عن بلادكم ، ووثب الناس إلى عبد الرحمن على خلع الحجّاج ونفيه من العراق وعلى النصرة له ولم يذكر عبد الملك . وصالح عبد الرحمن رتبيل

على أنه إن ظهر فلا خراج على رتبيلٍ ما بقي من الدهر، وإن هزم منعه ، بمَن يريده . وجعل عبد الرحمن على سَبْتٍ عِيَاض بن هَمْيَانَ الشيْبَانِيّ ، وعلى رومجَ عبد الله بن عامر التميمي ، وعلى كَرْمانَ حَرْثَةَ بن عمر التميمي . ثم سار إلى العراق في جموعه وأعشى هَمْدَانَ بين يديه يجري بمدحه وذمَ الحجّاج ، وعلى مقدمته عَطِيةُ بن عُمَيْر العَيْرَني . ولما بلغ فارس بدا للناس في أمر عبد الملك وقالوا إذا خلعنا الحجّاج فقد خلعناه ، فخلعه الناس وبايعوا عبد الرحمن على السنة وعلى جهاد أهل الضلالة والمخلّين وخلعهم .

وكتب الحجّاج إلى عبد الملك يخبره ويستمدّه ، وكتب المهلب إلى الحجّاج بان لا يعترض أهل العراق حتى يسقطوا إلى أهليهم ، فنكر كتابه واتهمه ، وجند عبد الملك الجند إلى الحجَاج فساروا إليه متتابعين ، وسار الحجاج من البصرة فنزل تَسْتُر، وبعث مقدمة خيلٍ فهزمهم أصحاب عبد الرحمن بعد قتال شديد، وقتل منهم جمعاً كثيراً وذلك في أضحى إحدى وثمانين ، وأجفل الحجّاج إلى البصرة، ثم تأخر عنها إلى الغاوية

وراجع كتاب المهلب فعلم نصيحته ، ودخل عبد الرحمن البصرة فبايعه أهلها وسائر نواحيها، لأن الحجاج كان اشتد على الناس في الخراج ، وأمر مَن دخل الأمصار أن يرجع إلى القرى، يستوفي الجزية، فنكر ذلك الناس ، وجعل أهل القرى يبكون منه ، فلما قَدِمَ عبد الرحمن بايعوه على حرب الحجّاج وخلع عبد الملك .

ثم اشتد القتال بينهم في المحرّم سنة اثنتين وثمانين ، وتزاحفوا على حرب الحجاج وخلع عبد الملك . وانهزم أهل العراق وقصدوا الكوفة، وانهزم منهم خلق كثير. وفشا القتل في القرى، فقتل منهم عُقْبَةَ بن الغافر الأزدي في جماعة استلحموا معه ، وقتل الحجّاج بعد الهزيمة منهم عشرة آلاف ، وكان هذا اليوم يسمى يوم الراوِيِة .

واجتمع مَن بقي بالبصرة على عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وبايعوه ، فقاتل بهم الحجّاج خمس ليالٍ ثم لحق بابن الأشعث بالكوفة ربيعة، طائفة من أهل البصرة . ولما جاء عبد الرحمن الكوفة وخليفة الحجّاج عليها عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله الحَضْرَمي ، وثب به مَطَرَ بن ناجيَة من ابني تميم مع أهل الكوفة، فاستولى على القصر وأخرجه . فلما وصل ابن الأشعث لقيه أهل الكوفة احتف به هَمْدان . وجاء إلى القصر فمنعه مطر فصد الناس القصر وأخذوه ، فحبسه عبد الرحمن وملك الكوفة . ثم إن الحجّاج استعمل على البصرة الحَكَم بن أيوب الثَقَفِيّ ، ورجع إلى الكوفة فنزل دوير فِيِرَةَ ، ونزل عبد الرحمن دير الجَماجمِ ، واجتمعٍ إلى كل واحد أمداده ، وخندق على نفسه . وبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمداً في جند كثيف ، وأمرهماا ن يعرضا على أهل العراق عزل الحجّاج ويجري عليهم أعطياتهم كاهل الشام ، وينزل عبد الرحمن إلى أيّ بلد شاء عاملا لعبد الملك . فوجم الحجّاج لذلك وكتب إلى عبد الملك أن هذا مما يزيدهم جراءة، وذكره بقضية عثمان وسعيد بن العاص ، فأبى عبد الملك من رأيه ، وعرض عبد الله ومحمد بن مروان ما جاء به عبد الملك ، وتشاور أهل العراق بينهم ، وأشار عليهم عبد الرحمن بقبول ذلك ، وأن العزّة لهم على عبد الملك لا تزول ، فتواثبوا من كل جانب منكرين لذلك ومجددين الخلع

وتقدّمهم في ذلك عبد الله بن دُوَابٍ السَلَميّ وعُمَيْرُ بن تِيحانَ ، ثم برزوا للقتال . وجعل الحجّاج على ميمنته عبد الرحمن بن سليم الكلبي ، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخْمِي ، وعلى الخيل سفيان بن الأبْرَدِ الكلبي ، وعلى الرجالة عبد الله بن حبيب الحَكَمي . وجعل عبد الرحمن على ميمنته الحجّاج بن حارثة الخَثْعَميّ ، وعلى ميسرته الأبْرَدَ بن قُرّةَ التميمي ، وعلى خيله عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وعلى رجالته محمد بن سعد بن أبي وقَّاص ، وعلى مجنبته عبد الله بن رَزْم الحُرْشي ، وعلى القرى جَبَلَةُ بن زَحْر بن قَيْسٍ الجُعْفِيّ وفيهم سعيد بن جُبَيْرٍ وعامر الشعبي وأبو البُخْتُري الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليلى . ثم أقاموا يتزاحفون كل يوم ويقتتلون بقية سنتهم ، وكتيبة القرى معروفة بالصبر يحملون عليها فلا تنتقص . فعبّى الحجّاج ثلاث كتائب مع الجرَّاحِ بن عبد الله الحَكَمِي ، وحملوا على القرى ثلاث حملات ، وجبلة يحرض القرى ويبيّتهم ، والشعبي وسعيد بن جبير كذلك . ثم حملوا على الكتائب ففرَّقوها وأزالوها عن مكانها، وتأخر جبلة عنهم ليكون لهم فئة يرجعون إليه ، وأبصره الوليد بن نجيب الكلبيّ ، فقصده في جماعة من أهل الشام وقتله وجيءَ برأسه إلى الحجّاج ، وقدموا عليهم مكانه وظهر القتل في القرى . ثم اقتتلوا بعد ذلك ما يزيد على مائة يوم كثر فيها القتلى والمبارزة . ثم اقتتلوا يوماً في منتصف جمادى الآخرة، وحمل سفيان بن الأبرد في ميمنة الحجّاج على ميسرة عبد الرحمن فانهزم الأبرد بن قرّة من غير قتال ، فتقوَّضت صفوف الميمنة وركبهم أصحاب الحجّاج ، ثم انهزم عبد الرحمن وأصحابه . ومض الحجّاج إلى الكوفة ومحمد بن مروان إلى الموصل ، وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام . وأخذ الحجاج الناس على أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر، وقتل مَن أبى ذلك . ودعا بِكُمَيْلِ بن زياد صاحب عليّ فقتله لاقتصاصه ثم أقام بالكوفة شهراً وأنزل أهل الشام في بيوت أهل الكوفة، ولحق ابن الأشعث بالبصرة فاجتمع إليه جموع المنهزمين ، ومعه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سُمْرَةَ، ولحق به محمد بن سعد بن أبي وقاص بالمدائن ، وسار نحو الحجاج ومعه بَسْطَام بن مَصْقَلَةَ بن هُبَيْرَةَ الشيْبَاني ، كان قَدِمَ عليه قبل الهزيمة من الرقي ، وكان انتقض بها ثم غلب عليها، ولحق بعبد الرحمن فكان معه . وبايع عبد الرحمن خلق كثير على الموت ، ونزل مسكن وخندق عليه وعلى أصحابه ، والحجّاج قبالتهم ، وقاتلهم خالد بن جرير بن عبد الله . وكان قَدِمَ من خراسان في بعث الكوفة، فقاتلهم خمسة عشر يوماً من شعبان أشد قتال ، وقتل زياد بن غنيم القيني . وكان عليٌ صالَحَ الحجّاج فهدّ منهم ثم أبى بكر القتال . وحمل بَسْطَامُ بن مَصْقَلَةَ هُبَيْرَةَ في أربعة آلاف من فرسان الكوفة والبصرة، كسروا جفون

سيوفهم وحملوا على أهل الشام فكشفوهم مرارا وأحاط بهم الرّماة ولحقوا فقتلوا . وحمل عبد الملك بن المهلب على أصحاب عبد الرحمن فكشفوهم. ثم حمل أصحاب الحجاج من كل جانب ، فأنهزم عبد الرحمن وأصحابه وقتل عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه ، وأبو البُخْتُري الطافي وسلَّى بن الأشعث نحو سجستان . ويقال إن بعض الأعراب جاء إلى الحجّاج فدلّه على طريق من وراء معسكر ابن الأشعث ، فبعث معه أربعة آلاف جاؤُوا من ورائه ، وأصبح الحجّاج فقاتله واستطرد له حتى نهب معسكره . وأقبلت السريّة من الليل إلى

معسكر ابن الأشعث ، وكان الغرقى منهم أكثر من القتلى ، وجاء الحجاج إلى المعسكر فقتل مَن وجد فيه ، وكان عدّة القتلى أربعة آلاف : منهم عبد الله بن شداد بن الهادي ، وبسطام بن مَصْقَلَةَ وعمر بن ربيعة الرقاشي ، وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم . ولما سار ابن الأشعث إلى سجستان أتبعه الحجّاج بالعساكر، وعليهم عمارة بن تميم اللخمي ، ومعهم محمد بن الحجّاج فأدركوه بالسوس فقاتلوه ، وانهزم إلى سابور واجتمع إليه الأكراد وقاتلوا العساكر قتالاً شديداً فهزم ، وخرج عمارة ولحق ابن الأشعث بكرمان ، فلقيه عامله بها وهيا له النزول فنزل . ثم رحل إلى زَرَنْج فمنعه عامله من الدخول ، فحاصرها أياما ثم سار إلى بَسْتَ وعليها من قبله عَيَّاضُ بن هَمْيَان بن هشام السلوبيّ الشيْبَاني ، ثم استغفله فأوثقه . وكان رَتْبيلُ ملك الترك قد سار ليستقبله ، ونزل على بَسْت وتهدّد عِياضاً فأطلقه ، وحمل رتبيل إلى بلاده وأنزله عنده . واجتمع المنهزمون فاتفقوا على قصد خراسان لينموا بعشائرهم ، وقصدوا للصلاة عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث ، وكتبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث يستقدمونه ، فقَدِمَ عليهم وثناهم عن قصد خراسان مخافة من سطوة يزيد بن المهلب ، وأن يجتمع أهل الشام وأهل خراسان ، فأبوا وقالوا بل يكثر بها تابعنا . فسار معهم إلى هَرَاةَ، فهرب عنهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن سُمْرَةَ فخشي الانتقاض وقال : إنما أتيتكم وأمركم جميعاً . وأنا لآن منصرف إلى صاحبي الذي جئت من عنده يعني رتبيل . ورجع عنهم في قليل . وبقي معظم العسكر مع عبد الرحمن بن العباس بسجستان فجمع بابن الأشعث وسار إلى خراسان في عشرين ألفاً، ونزل هراة ولقوا الرقاد فقتلوه .

وبعث إليه يزيد بن المهلب بالرحلة من البلاد، فقال إنما نزلنا لنستريح ونرتحل . ثم أخذ في الجباية، وسار نحوه يزيد بن المهلب والتقوا فافترق أصحاب عبد الرحمن عنه ، وصبرت معه طائفة

ثم انهزموا، وأمر يزيد بالكف عنهم وغنم ما في عسكرهم ، وأسر جماعة منهم ، فيهم محمد بن سعد بن أبي وقّاص وعمر بن موسى بن عبد الله بن معمر، وعباس بن الأسود بن عوف والهَلْقَام بن نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وفيروز وأبو لبلج سولى عبيد الله بن معمر،وسوار بن مروان وعبد الله بن طلحة الطلحات وعبد الله بن فُضَالَةَ الزهراني الأزدي . ولحق عبد الرحمن بن العباس بالسِّنْدِ وأتى ابن سمرَةَ إلى مرو، وانصرف يزيد إلى مرو. وبعث بالأسرى إلى الحجّاج مع سَبْدَةَ بن نَجْدَةَ، وقال له أخوه حبيب : ألا تبعث عبد الرحمن بن طلحة؟ فإن له عندنا يَدَيْن ، وقد ودى عن المهلب أبو طلحة مائة ألف ، فتركه وترك عبد الله بن فضالة لأنه من الأزد. وبعث الباقين وقَدِموا عليه بمكان واسط قبل بنائها، فدعا بفيروز وقال : ما أخرجك مع هؤلاء وليس بينك وبينهم نسب . قال فتنة عمّت الناس ! قال اكتب أموالك ، فكتب ألفي ألف وأكثر. فقال للحجّاج وأنا آمن على دمي ، قال لا والله لتؤدِّينّها ثم أقتلك . قال لا تجمع مالي ودمي وأمر به فنُحِّي . ثم أحضر محمد بن سعد بن أبي وقَاص فوبّخه طويلاً ثم أمر به فقتل ، ثم دعا بعمر بن موسى فوبخه ولاطفه في العذر فلم يقبل ثم أمر به فقتل . ثم أحضر الهَلْقَامَ بن نعيم فوبخه. وقال : ابن الأشعث طلب الممالك فما الذي طلبتَ أنت ؟ قال أن توليني العراق مكانك فأمر به فقتل . ثم أحضر عبد الله بن عامر فعذله في عبد الله بن

زيد بن المهلب لأنه أطلق قومه من الأسر وقاد نحوه مطرا، فاطرق الحجّاج ثم قال : ما أنت وذاك ؟ ثم أمر به فقتل ، فلم يزل في نفسه من يزيد حتى عزله . ثم أمر بفيروز فعذب ، ولما أحسّ بالموت قال أظهروني للناس ليردّوا عليَ ودائعي ، فلما ظهر نادى مَن كان لي عنده شي فهو في حل فأمر به فقتل ، وأمر بقتل عمر بن فهر الكندي وكان شريفاً، وأحضر أعشى همدان واستنشده قصيدته بين الأثلج وبين قيس ، وفيها تحريض ابن الأشعث وأصحابه فقال : ليست هذه وإنما التي بين الأثلج وبين قيس بارق على رويّ الدال ، فأنشده فلما بلغ قوله بخٍ بخٍ للوالدة وللمولود. قال والله لا تبخبخ بعدها أبداً وقتل .

وسأل الحجّاج عن الشَعْبي فقال له يزيد بن أبي مسلم أنه لحق بالريّ ، فكتب إلى قُتَيْبَةَ بن مسلم وهو عامله على الريّ بإرسال الشعبي . فَقَدِمَ على الحجّاج سنة ثلاث وثمانين ، وكان ابن أبي مسلم له صديقاً فأشار عليه بحُسْن الاعتذارِ. فلما دخل على الحجّاج سلّم عليه بالإمرة وقال : وايم الله لا أقول إلا الحق

قد والله حرَّضنا وجهدنا فما كنا أقوياء فَجَرَة، ولا أتقياء برَرَة، وقد نصرك الله وظفرت فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت فبحلمك والحجة لك علينا . فقال الحجّاج هذا والله أحبّ إليّ ممن يقول ما شهدت ولا فعلت وسيفه يقطر من دمائنا . ثم أمنه وانصرف . ولما ظفر الحجّاج بابن الأشعث وهزمه ، لحق كثير من المنهزمين بعمر بن الصلت ، وقد كان غلب على الري في تلك الفتنة . فلما اجتمعوا أرادوا أن يحظوا عند الحجّاج ويمحوا عن أنفسهم ذنب الجماجم ، فأشاروا على عمر بخلع الحجّاج فامتنع ، فدشوا عليه أباه فأجاب . ولما سار قتيبة إلى الريّ خرجوا مع عمر لقتاله ثم غدروا به فانهزم ، ولحق بطبرستان وأقره الأصْبَهْبَد وأحسن إليه ، وأرادوا الوثوب على الأصبهبد فشاور أباه وقال : قد علمت الأعاجم أني أشرف منه ، فمنعه أبوه ودخل قتيبة الري ، وكتب الحجّاج إلى الأصبهبد أن يبعث بهم أو برؤُوسهم ففعل ذلك . ولما انصرف عبد الرحمن بن الأشعث من هراةَ إلى رتْبيل قال له علقمة بن عمر الأزدي لا أدخل معك دار الحرب لأن رتبيل إن دخل إليه الحجاج فيك وفي أصحابك

قتلكم أو أسلمكم إليه ، ونحن خمسمائة وقد تبايعنا على أن نتحصن بمدينة حتى نأمن أو نموت كراماً، وقدِمَ عليهم مودود البصريِ ، وزحف إليهم عمارة بن تميم اللخمي وحاصرهم حتى استأمنوا فخرجوا إليه وقلاهم ، وتتابعت كتب الحجاج إلى رتبيل في عبد الرحمن يرهبه ويرغبه . وكان عبيد بن سميع التميمي من أصحاب ابن الأشعث ، وكان رسوله إلى رتبيل أوّلاً، فانس به رتبيل وزحف عليه وأغرى القاسم بن الأشعث أخاه عبد الرحمن بقتله ، فخافه وزيّن لرتبيل أخذ العهد من الحجّاج ، وإسلام عبد الرحمن إليه على أن يكف عن أرضه سبع سنين ، فأجابه رتبيل وخرج إلى عمارة سراً . وكتب عمارة إلى الحجّاج بذلك ، فأجاب وكتب له بالكفّ عنه عشر سنين ، وبعث إليه رتبيل برأس عبد الرحمن ، وقيل مات بالسلّ فقطع رأسه وبعث به ، وقيل أرسله مقيدا مع ثلاثين من أهل بيته إلى عمارة، فالقى عبد الرحمن نفسه من سطح القصر فمات ، فبعث عمارة برأسه وذلك سنة أربع أو خمس وثمانين .

قد كنّا قدِمنا حصار المهلب مَدِينَةَ كش من وراء النهر فأقام عليها سنتين ، وكان استخلف على خراسان ابنه المغيرة.فمات سنة اثنتين وثمانين ، فجزع عليه وبعث ابنه يزيد إلى مرو ومكنه في سبعين فارساً، ولقيهم في مفازة نَسِي جمع من الترك يقاربون الخمسمائة، فقاتلوهم قتالاً شديداً يطلبون ما في أيديهم والمغيرة يمتنع حتى أعطى بعض

أصحابه لبعضهم شيئاً من المتاع والسلاح ، ولحقوا بهم ولحق يزيد بمرو. ثم سال أهل كش من المهلب الصلح على مال يعطونه ، فاسترهن منهم رهناً من أبنائهم في ذلك ، وانفتل المهلّب وخلف حريث بن قطنة مولى خُزَاعة ليأخذ الفدية ويرد الرهن ، فلما صار ببلّخ كتب إليه لا تخل الرهن وإن قبضت الفدية حتى تقدم أرض بلخ لئلا يغيروا عليك. فاقرأ صاحب كشَ كتابه وقال : إن عجّلت أعطيتك الرهن ، وأقول له جاء الكتاب بعد إعطائه . فعجّل صاحب كش بالفدية وأخذ الرهن ، وعرض له الترك كما عرضوا ليزيد وقاتلهم فقتلهم وأسر منهم أسرى، ففدوهم فرداً فرداً وأطلقهم . ولما وصل إلى المهلب ضربه ثلاثين سوطاً عقوبة على مخالفة كتابه في الرهن. فحلف حريث أن ابن قطنة ليقتلن المهلب ، وخاف ثابتاً إن كان ذلك المسير إليه . فبعث إليه المهلب أخاه ثابت بن قطنة يلاطفه فأبي وحلف ليقتلنَ المهلب ، وخاف ثابت إن كان ذلك أن يقتلوا جميعاً فأشار عليه باللحاق بموسى بن عبد الله بن حازم ، فلحق به في ثلاثمائة من صحابهما . ثم هلك المهلب واستخلف ابنه يزيد، وأوصى ابنه حبيباً بالصلاة وأوصى ولده جميعا بالاجتماع والإلفة، ثم قال : أوصيكم بتقوى الله وصِلة الرحم فإنها تنسيءُ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإنها تعقب النار والذلّة والقلّة ، وعليكم بالطاعة والجماعة، ولتكن فِعالكم أفضل من مقالكم . واتقوا الجواب وزلة اللسان ، فإن الرجل تزل قدمه فينعش ويزلّ لسانه فيهلك ، واعرفوا لَمن يغشاكم حقه فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له . وآثروا الجود على البخل وأحبّوا العرف واصنعوا المعروف ، فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت فكيف بالصنيعة عنده . وعليكم في الحرب بالتؤدة والمكيدة فإنها أنفع من الشجاعة، وإذا كان اللقاءُ نزل القضاءُ، وإن أخذ الرجل بالحزم فظفر قيل أتى الأمر من وجهه فظفر، لان لم يظفر قيل ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب . وعليكم بقراءة القرآن وتعلّم السُنن وآداب الصالحين ، وإياكم وكثرة الكلام في مجالسكم . ثم مات وذلك سنة اثنتين وثمانين .

ويقال إنه لما حثّهم على الإلفة والاجتماع أحضر سهاما محزومة فقال أتكسرون هذه مجتمعة قالوا لا . قال فتكسرونها متفرقة؟ قالوا نعم . قال فهكذا الجماعة . واستولى يزيد على خراسان بعد أبيه ، وكتب له الحجّاج بالعهد عليها . ثم وضع العيون على بَيْزَكَ حتى بلغه خروجه عن قلعته ، فسار إليها وحاصرها ففتحها وغنم ما كان فيها من الأموال والذخائر، وكانت

من أحصن القلاع . وكان بيزك إذا أشرف عليها يسجد لها . ولما فتحها كتب إلى الحجّاج بالفتح ، وكان كاتبه يَعْمُرُ العَدْواني حليف هُذَيْل فكتب : إنّا لقينا العدو فمنحنا الله أكنافهم ، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤُوس الجبال ومهامه الأودية وأهضام الغيطان وأفناءِ الأنهار. فقال الحجّاج : مَن يكتب ليزيد؟

قيل يحيى بن يعمر: فكتب بحمله على البريد . فلما جاءه قال أين ولدت ؟ قال بالأهواز. قال فمن أين هذه الفصاحة؟ قال حفظت من أولاد أبي وكان فصيحاً . قال يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال نعم كثيراً ! قال ففلان ؟ قال نعم ! قال فإنا ؟ قال تلحن خفيفا، تجعل أن موضع إنَّ وإنَّ موضع أن . قال أجلتك ثلاثاً وإن وجدتك ، بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان .

بناء الحجاج مدينة واسط :

كان الحجاج يُنْزِل أهل الشام على أهل الكوفة، فضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان سنة ثلاث وثمانين ، وعسكروا قريباً من الكوفة حتى يستتمّوا ، ورجع منهم ، ذات ليلة فتى حديث عهد بعرس بابنة عمّه ، فطرق بيته ودق الباب فلم يفتح له إلا بعد هنيهة، وإذا سكران من أهل الشام فشكت إليه ابنة عمّه مراودته إياها، فقال لها ائذني له فأذنت له ، وجاء فقتله الفتى وخرج إلى العسكر. وقال ابعثي إلى الشاميين وارفعي إليهم صاحبهم ، فأحضروها عند الحجاج فأخبر لَه . فقال صدقت ! وقال للشاميين لا قود له ولا عقل فإنه قتيل الله إلى النار. ثم نادى مناديه لا يتزل أحد على أحد، وبعث الروّاد فارتادوا له مكان واسط ، ووجد هناك راهباً ينظّف بقبعته من النجاسات فقال : ما هذه ؟ قال نجد في كتبنا أنه ينشأ ههنا مسجد للعبادة . فاختطَّ الحجّاج مدينة واسط هنالك وبنى المسجد في تلك البقعة .

عزل يزيد عن خراسان :

يقال إن الحجّاج وفد إلى عبد الملك ومرّ في طريقه براهب قيل له إن عنده علماً من الحدثان فقال : هل تجدون في كتابكم ما أنتم فيه ؟ قال نعم : فقال مُسَمى أو موصوفا؟ قال موصوفا. قال : فما تجدون صفة ملكنا؟ قال صفته كذا . قال ثم مَن ؟ قال آخر اسمه الوليد . قال ثم مَن ؟ قال آخر اسمه ثَقَفِي . قال فمَن تجد بعدي ؟ قال رجل يدعى يزيد . قال أتعرف صفته ؟ قال لا أعرف صفته إلا أن يغدر غدرة . فوقع في نفس الحجّاج أنه يزيد بن المهلب ، ووجل منه ، وقَدِمَ على عبد الملك . ثم عاد إلى خراسان وكتب إلى عبد الملك يدعى يزيدَ وآل المهلب وأنهم زُبَيْرِية، فكتب إليه أن وفاءهم لآل الزبير يدعوهم إلى الوفاء لي . فكتب إليه الحجّاج يخوّفه غدرهم وما يقول الراهب . فكتب إليه عبد الملك أنك أكثرت في يزيد فانظر مَن تولي مكانه . فسمّى له قتيبة بن مسلم ، فكتب له أن يولّيه . وكره الحجّاج أن يكاتبه بالعزل ، فاستقدمه وأمره أن يستخلف أخاه المفضل ، واستشار يزيد حُصَيْن بن المُنْذِر الرَقَاشِي فقال له : أقم واعتل ، وكاتِبْ عبد الملك فإنه حسن الرأي فيك . نحن أهل بيت بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره الخلاف ، وأخذ يتجهّز وأبطأ . فكتب الحجّاج إلى المفضل بولاية خراسان واستلحاق يزيد . فقال إنه لا يضرّك بعدي ، وإنما ولاّك مخافة أن أمتنع . وخرج يزيد في ربيع سنة خمس وثمانين . ثم عزل المفضل لتسعة أشهر من ولايته ، وولّى قتيبة بن مسلم . وقيل سبب عزل اليزيد أن الحجّاج أذلّ العراق كلهم إلاّ آل المهلب ، وكان يستقدم يزيد فيعتل عليه بالعدا والحروب . وقيل كتب إليه أن يغزو خوارزم فاعتذر إليه بانها قليلة السلَبَ شديدة الكَلَف . ثم استقدمه بعد ذلك فقال إلى أن أغزو خوارزم . فكتب الحجّاج لا تغزها، فغزاها وأصاب سُبيا وصالحه أهلها،

وانفتل في الشتاء . وأصاب الناس البرد فتدثّروا بلباس الأسرى فبقوا عرايا ، وقتلهم المفضل . ولما ولّي المفضل خراسان غزا باذغِيس ففتحها وأصاب مغنما فقسمه ، ثم غزا شومان فغنم وقسم ما أصابه .

مقتل موسى بن حازم :

كان عبد الله بن حازم لما قتل بني تميم بخراسان ، وافترقوا عليه فخرج إلى نيسابور، وخاف بنو تميم على ثقله بمرو، فقال لابنه موسى : اقطع نهر بلخ حتى نلتجىء إلى بعض الملوك أو إلى حِصْنٍ نقيم فيه . فسار موسى عن مرو في مائتين وعشرين فارساً، واجتمع إليه شبه الأربعمائة، وقوم من بني سليم ، وأتى قُمْ فقاتله أهلها فظفر بهم ، وأصاب منهم مالاً، وقطع النهر. وسأل صاحب بخارى أن يأوي إليه فأبى وخافه ، وبعث إليه بصلة فسار عنه ، وعرض نفسه على ملوك الترك فأبوا خشية منه ، وأتى سمرقند فأذن

له ملكها طرخونُ ملك الصغْدِ في المقام فأقام ، وبلغه قتل أبيه عبد الله بن حازم و لم يزل مقيما بسَمَرْقَنْدَ . وبارز بعض أصحابه يوماً بعض الصغْدِ فقتله ، فأخرجه طرخون عنه فأتى كِشُّ فترلها، و لم يطق صاحبها مدافعته ، واستجاش عليه بطرخون . فخرج موسى للقائه وقد اجتمع معه سبعمائة فارس ، فاقتتلوا إلى الليل ، ودسّ موسى بعض أصحابه إلى طرخون يخوَفه عاقبة أمره ، وأن كل مَن يأتي خراسان يطالبه بدمه . فقال يرتحل عن كش ؟ قال له نعم ! وكف حتى ارتحل وأتى ترمذ، فترل إلى جانب حصن بها مشرف على النهر، وأبى ملك ترِمْذَ من تمليكه الحصن ، فأقام هنالك ولاطف الملك ، وتودَّد له وصار يتصيد معه . وصنع له الملك يوماً طعاما وأحضره في مائة من أصحابه ليأكلوا، فلما طعموا امتنعوا من

الذهاب . وقال موسى : هذا الحصن إمّا بيتي أو قبري ، وقاتلهم فقتل منهم عدّة، واستولى على الحصن وأخرج ملك ترِمْذَ و لم يتعرّض له ولا لأصحابه . ولحق به جمع من أصحاب أبيه فقوي بهم ، وكان يغير على ما حوله .

ولما وَليَ أميّة خراسان سار لغزوه ، وخالفه بكير كما تقدّم . ثم بعث إليه بعد صلحه مع بكير الجيوش مع رجل من خُزَاعَةَ وحاصروه . وعاود ملك ترمذ استنصاره بالترك في جمع كثير، ونزلوا عليه من جانب آخر. وكان يقاتل العرب أوّل النهار والترك آخره ثلاثة أشهر. ثم بيّت الترك ليلة فهزمهم وحوى عسكرهم بما فيه من المال والسلاح ، و لم يهلك من أصحابه إلا ستة عشر رجلاً . وأصبح الخزاعي والعرب وقد خافوا مثلها . وغدا عمر بن خالد بن حصين الكلابي على موسى بن حازم وكان صاحبه فقال إنا لا نظفر إلا بمكيدة فاضربني وخلني ، فضربه خمسين سوطا، فلحق بالخزاعي وقال : إن ابن حازم اتهمني بعصبيتكم ، وإني عين لكم فأمنه الخزاعي وأقام عنده . ودخل عليه يوماً وهو خالٍ فقال له لا ينبغي أن تكون بغير سلاح . فرفع طرف فراشه وأراه سيفا منتضى تحته فضربه عمر حتى قتله ولحق بموسى . وتفرق الجيش واستأمن بعضهم موسى .

ولما وليَ المُهَلَّب على خراسان قال لبنيه إياكم وموسى! فإنه إن مات جاء على خراسان أمير من قَيْسٍ . ثم لحق به حُرَيْث وثابت ابنا قَطْنَةَ الخُزاعي فكانا معه . ولما ولي يزيد أخذ أموالهما وحرمهما ، وقتل أخاهما للأم

الحَارث بن مُعَقَّد ، فسار ثابت إلى طرخون صريخاً، وكان محببا إلى الترك فغضب له طرخون . وجمع له نيزك وملك الصعد وأهل بخارى والصاغان ، فقَدِموا مع ثابت إلى موسى وقد اجتمع عليه فَلٌّ عبد الرحمن بن عباس من هَرَاةَ وفلٌّ ابن

الأشعث من العراق ومن كابل . فكان معه نحو ثمانية آلاف ، فقال له ثابتَ وحريث : سر بنا في هذا العسكر مع الترك ، فنخرج يزيد من خراسان ونوليك ، فحذّر موسى أن يغلباه على خراسان ، ونصحه بعض أصحابه في ذلك فقال لهما إن أخرجنا يزيد قَدِمَ عامل المدينة عبد الملك ، ولكنّا نخرج عمّال يزيد من وراء النهر ويكون لنا ، فأخرجوهم وانصرف طرخون والترك. وقوي أمر العرب بترمذ وجبوا الأموال ، واستبد ثابت وحريث على موسى وأغراه أصحابه بهما فهمَّ بقتلهما، واذا بجموع العجم قد خرجت إليهم من الهَيَاطِلة والتّبتِ والتُّرْكِ ، فخرج موسى فيمن معه للقتال . ووقف ملك الترك على ما قيل في عشرة آلاف ،

فحمل عليهم حريث بن قسطْنَةَ حتى أزالهم عن موضعهم ، وأصيب بسهم في وجهه وتحاجزوا . ثم بيّتهم موسى فانهزموا، وقتل من الترك خلق كثير، ومات منهم قليل . ومات حريث بعد يومين ، ورجع موسى بالظفر والغنيمة . وقال له أصحابه قد كفينا أمر حريث فاكفنا أمر ثابت فأبى . وبلغ ثابت بعض ما كانوا يخوضون فيه ، ودسّ محمد بن عبد الله الخزاعي عليهم على أنه من سبي الباسيان ولا يحسن العربية، فاتصل بموسى وكان ينقل إلى ثابت خبر أصحابه فقال لهم ليلة قد أكثرتم عليَ فعلى أيّ وجه تقتلونه ولا أغدر به ؟ فقال له أخوه نوح إذا أتاك غداً عدلنا به إلى بعض الدور فقتلناه قبل أن يصل إليك . فقال والله إنه لهلاككم ! وجاء الغلام إلى ثابت بالخبر فخرج من ليلته في عشرين فارساً ، وأصبحوا ففقدوه وفقدوا الغلام فعلموا أنه كان عيناً .

ونزل ثابت بحشور واجتمع إليه خلق كثير من العرب والعجمِ . وسار إليه موسى وقاتله ، فحصر ثابتاً بالمدينة . وأتاه طرخون مدد فرجع موسى إلى تِرْمُذ . ثم اجتمع ثابت وطرخون وأهل بخارى ونسف وأهل كش في ثمانين ألفاً . فحاصروا موسى بترمذ حتى جهد أصحابه . وقال يزيد بن هُذَيْل والله لأقتلنّ ثابتاً أو أموت ، فاستأمن إليه وحذّره بعض أصحابه منه ، فاخذ ابنيه قُدَامَةَ والضحّاك رهنا وأقام يزيد يتلّمس غِرَّةَ ثابت . ومات ابن الزياد والقصير الخزاعي ، فخرج إليه ثابت يعزّيه وهو بغير سلاح ، فضربه يزيد على رأسه وهرب . وأخذ طرخون قدامة والضحّاك ابني يزيد فقتلهما . وهلك ثابت لسبعة أيام وقام مكانه من أصحابه ظهير وضعف أمرهم ، وبيتهم موسى ليلاً في

ثلثمائة، فبعث إليه طرخون كفّ أصحابك فإنّا نرحل الغداة . فرجع وارتحل طرخون والعجم جميعاً. ولما وَلِيَ المفضل خراسان بعث عثمان بن مسعود في جيش إلى موسى بن حازم ، وكتب إلى مُدْرِكَ بن المُهَلَّب في بلخ بالمسير معه ، فعبر النهر في خمسة عشر ألفاً، وكتب إلى رتبيل وإلى طرخون أن يكونوا مع عثمان ، فحاصروا موسى بن حازم فضيّقوا عليه شهرين ، وقد خندق عثمان على معسكره حذر البيات . فقال موسى

لأصحابه اخرجوا بنا مستميتين واقصدوا الترك ، فخرجوا وخلف النضْرُ ابن أخيه سليمان في المدينة . وقال له

: إن أنا قتلت فملك المدينة لمدرك بن المُهلَب دون عثمان ، وجعل ثلث أصحابه بإزاء عثمان وقال لا تقاتلوه إلا إن قاتلكم . وقصد طرخون وأصحابه وصدقوهم القتال ؟ فانهزم طرخون وأخذوا وحجزت الترك والصغد بينهم وبين الحصن ، فقاتلهم فعقروا فرسه وأردفه

مولى له ، فبصر به عثمان حين وثب فعرفه فقصده ، وعقروا به الفرس وقتلوه ، وقتل خلق كثير من العرب . وتولى قتل موسى واصِل العَنْبَرِيّ ونادى منادي عثمان بكف القتل وبالأسر، وبعث ، النضر بن سليمان إلى مدرك بن المهلب فسلّم إليه مدينة ترْمُذ ، وسلمها مدرك إلى عثمان . وكتب المفضل إلى الحجّاج بقتل موسى فلم يسرّه لأنه من قيس ، وكان قتل موسى سنة خمس وثمانين لخمس عشرة سنة من تغلبه على تِرْمذ.

البيعة للوليد بالعهد :

وكان عبد الملك يروم خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد والبيعة لابنه الوليد وكان قبيصة ينهاه عن ذلك ويقول : لعلّ الموت يأتيه وتدفع العَار عن نفسك ، وجاءه رَوْحُ بن زنباغ ليلة وكان عنده عظيماً ففاوضه في ذلك فقال : لو فَعلته ما انتطح فيه عتزان . فقال نصلح إن شاء الله ! وأقام روح عنده ، ودخل عليهما قُبَيْصَة بن ذؤَيب من جنح

الليل وهما نائمان وكان لا يحجب عنه وإليه الخاتم والسكّة ، فأخبره بموت عبد العزيز أخيه. فقال روح كفانا الله ما نريد. ثم ضمّ مصر إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك ، وولاّه عليها . ويقال : إن الحجّاج كتب إلى عبد الملك يزيّن له بيعة الوليد، فكتب إلى عبد العزيز إني رأيت أن يصير الأمر إلى ابن أخيك فكتب له أن تجعَل الأمر له من بيعَة، فكتب له إني أرى في أبي بكر ما ترى في الوليد. فكتب له عبد الملك أن يحمل خراج مصر، فكتب إليه عبد العزيز إني وإياك يا أمير المؤمنين قد أشرفنا على عمر أهل بيتنا، ولا ندري أيّنا يأتيه الموت فلا تفسد عليَّ بقية عمري ، فرق له عبد الملك وتركه . ولما بلغ الخبر بموت عبد العَزيز عبد الملك أمر الناس بالبَيعة لابنه الوليد وسليمان ، وكتب بالبيعَة لهما إلى البلدان . وكان على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي ، فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا، وأبى سعِيد بن المُسَيب فضربه ضرباً مبرحاً، وطاف به وحبسه . وكتب عبد الملك إلى هشام يلومه ويقول : إن سعيدا ليس عنده شقاق ولا نفاق ولا خلاف ، وقد كان ابن المسيب امتنع من بيعَة ابن الزبير، فضربه جابر بن الأسود عامل المدينة لابن الزبير ستين سوطاً، وكتب إليه ابن الزبير يلومه . وقيل : إن بيعَة الوليد وسليمان كانت سنة أربع وثمانين ، والأول أصحّ. وقيل قَدِمَ عبد العزيز على أخيه عبد الملك من مصر، فلما فارقه وصّاه عبد الملك فقال ابسط بشرك ، وألِنْ كنفك ، وآثر الرفق في الأمور فهو أبلغ لك ، وانظر حاجبك ، وليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك . ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو تردّه ، فإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ جلساءك بالكلام يأنسوا بك ، وتثبت ، في قلوبهم محبتك . وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة . واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه ، ولن يهلك امرؤٌ من مشورة . وإذا سخطت على أحد فأخِّر عقوبته ، فإنك على العُقوبة بعد التوقف عنها أقدر منك على ردّها بعد إصابتها .

وفاة عبد الملك وبيعة الوليد

ثم توفي عبد الملك منتصف شوّال سنة ست وثمانين ، وأوصى إلى بنيه فقال : أوصيكم بتقوى الله ، فإنها أزين حلية وأحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فإنه نابكم الذي عنه تفترّون ، ولحيكم الذي عنه ترمون . وأكرموا الحجّاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر، ودوّخ لكم البلاد، وأذلّ لكم مغنى الأعداء . وكونوا بني أم بررة، لا تدب بينكم العقارب . وكونوا في الحرب أحرارا، فإن القتال لا يقرِّب منية . وكونوا

للمعروف مناراً ، فإن المعروف يبقى أجره وذخره وذكره وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب فإنه لصون له ، واشكر لما يؤتى إليهم منه ، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقيلوا ، وإن عادوا فانتقموا . ولما دفن عبد الملك قال الوليد : إنّا لله وإنا إليه راجعون والله المُستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة . فكان أوّل مَن عزّى نفسه وهنأها . ثم قام عبد الله بن همّام السامولي وهو يقول :

الله أعْطَاكَ التي لا فَوْقَها وقد أراد المُلْحِدُونَ عَوْقَهَا

عَنْكَ ويأبى الله إلا سَوْقَهَا إلَيْكَ حتى قَلدُوكَ طَوْقَهَا

وبايعه ثم بايعه الناس بعده ، وقيل إن الوليد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس لا مقدِّم لما أخّره الله ، ولا مؤخّر لما قدمه الله ، وقد كان من قضاءِ الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه وحَمَلَة عرشه الموتُ ، وقد صار إلى منازل الأبرار ووبيَ هذه الأمة بالذي يحقّ عليه في الشدّة على المذنب واللين لأهل الحق والفضل ، لإقامة ما أقام الله من منازل الإسلام وإعلائه ، من حج البيت وغزو الثغور وشنّ الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزاً ولا مُفَرطاً . أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع المنفرد. أيها الناس مَن أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومَن سكت مات بدائه ثم نزل .

ولاية قتيبة في مسلم خراسان وأخباره :

قَدِمَ قُتَيْبَةُ خراسان أميراً عن الحجّاج سنة ست وثمانين ، فعرض الجند وحثّ على الجهاد، وسار غازياً وجعل على الحرب بمرو إياس بن عبد الله بن عمرو، سوعلى الخراج عثمان بن السعد وتلقاه دهاقين البلخ والطالقان وساروا معه . ولما عبر النهر تلقّاه ملك الصُغانيان بهداياه . وكان ملك أخْرُونَ وسومان يسيءُ جواره فدعاه إلى بلاده وسلّمها إليه . وسار قتيبة إلى أخرون وسومان وهو من طخارستان ، فصالحه ملكهما على فدية أدّاها إليه ، وقبضها ثم انصرف إلى مرو، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ، ففتح بعد

رجوع قتيبة كاشان وأورَشْتَ من فَرْغَانَةَ ، ثم أخْسيكَتَ مدينة فرغانة القديمة . وكان معه ابن يسار، وأبلى في هذه الغزاة . وقيل إن قتيبة قَدِمَ خراسان سنة خمس وثمانين ، وكان من ذلك السُبِيّ امرأة برمك . وكان بَرْقكُ على النُوبَهار، فصارت لعبد الله بن مسلم أخي قتيبة، فوقع عليها وعلقت منه بخالد، ثم صالح أهل بلخ وأمر قتيبة بردّ السُبي فالحق عبد الله به حملهما. ثم ردُت إلى برمك . وذكر أن ولد عبد الله بن مسلم ادّعوه

ورفعوا أمرهم إلى المهدي وهو بالريّ ، فقال لهم بعض قرابتهم إنكم إن استلحقتموه لا بدّ لكم أن تزوّجوه ، فتركوه . ولما صالح قتيبة ملك سومرن كتب إلى بترك طرخان صاحب باذغيس فيمن عنده من أسرى المسلمين ، وهدّدهم فبعث بهم إليه . ثم كتب إليه يستقدمه على الأمان ، فخشي وتثاقل ، ثم قَدِمَ وصالح لأهل باذغيس على أن لا يدخلها قتيبة، ثم غزا بيكَنْدَاد في مدائن بُخَارى إلى النهر سنة سبع وثمانين . فلما نزل بهم استجاشوا بالصُغْدِ وبمَن حولهم من الترك ، وساروا إليه في جموع عظيمة، وأخذوا عليه الطرق . فانقطعت الأخبار والرسل ما بينه وبين المسلمين شهرين ، ثم هزمهم بعض الأيام وأثخن فيهم بالقتل والأسْر وجاء إلى السور ليهدمه ، فسألوا الصلح فصالحهم ، واستعمل عليهم ، وسار عنهم غير بعيد . فقتلوا العامل ومَن معه ، فرجع إليهم وهدم سورهم ، وقتل المُقَاتِلَةَ وسبى الذُّرّيةَ، وغنم من السلاح وآنية الذهب والفضة ما لم يصيبوا مثله . ثم غزا سنة ثمان وثمانين بلد نُومَكَثْتَ ، فصالحوه وسار إلى رامِسَةَ فصالحوه أيضاً، فانصرف وزحف أيضاً إليه التُرْك والصُّغْد وأهل فرغانة في مائتي ألف ، ومَلِكُهُم كُورْبَغابُور ابن أخت ملك الصين ، واعترضوا مقدمته وعليها أخوه عبد الرحمن ، فقاتلهم حتى جاء قتيبة وكان يترل معه ، فأبلى مع المسلمين . ثم انهزم الترك وجموعهم ، ورجع قتيبة إلى مرو، ثم أمره الحجّاج سنة تسع وثمانين بغزو بخارى وملكها ورْدانُ خُذَاه ، فعبر النهر من زمّ ، ولقيه الصغد وأهل كش ونسف بالمفازة وقاتلوه فهزمهم ومض إلى بخارى، فترل عن يمين وردان ولم يظفر منه بشيءٍ ورجع إلى مرو.

عمارة المسجد :

كان الوليد عزل هشام بن إسماعيل المخزومي عن المدينة سنة سبع وثمانين ، لأربع سنين من ولايته ، وولّى عليها عمر بن عبد العزيز، فقَدِمها ونزل دار مروان ، ودعا عشرة من فقهاء المدينة

فيهم الفقهاءُ السبعة المعروفون ، فجعلهم أهل مشورته لا يقطع أمراً دونهم ، وأمرهم أن يبلّغوه الحاجات والظلامات فشكروه وجزوه خيراً ، ودعا له الناس . ثم كتب إليه سنة ثمان أن يدخل حجْرَ أمهات المؤمنين في المسجد ويشتري ما في نواحيه ، حتى يجعله مائتي ذراع في مثلها، وقدم القبلة. ومَن أبى أن يعطيك ملكه فقومه قيمة عدل ، وادفع إليه الثمن ، واهدم عليه الملك ، ولك في عمر وعثمان أسوة . فأعطاه أهل الأملاك ما أحب منها بأثمانها وبعث الوليد إلى ملك الروم أنه يريد بناء المسجد، فبعثَ إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائة من الفعلة، وأربعين حملاً من الفُسَيْفِساء، وبعث بذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز، واستكثر معهم من فعَلَة الشام ، وشرع عمر في عمارته اه . ووَلَّى الوليد في سنة تسع وثمانين على مكة خالد بن عبد الله القسْرِي.

فتح السند:

كان الحجّاج قد ولّى على ثغر السند ابن عمّه محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل ، وجهّز معه ستة آلاف مقاتل ، ونزل مكران ، فأقام بها أياماً . ثم أتى فيريوز ففتحها، ثم أرْمايِل . ثم سار إلى الدَبيل وكان به بد عظيم في وسط المدينة على رأسه دقْل عظيم وعليه راية . فإذا هبّت الريح دارت فأطافت بالمدينة . والبدّ

صنم مركوز في بناءٍ ، والدقل منارة عليه . وكل ما يعبد فهو عندهم بدّ . فحاصر الدبيل ورماهم بالمنجنيق ، فكسر الدقل فتطيّروا بذلك . ثم خرجوا إليه فهزمهم ، وتسنم الناس الأسوار ففتحت عنوة، وأنزل فيها م أربعة آلاف من المسلمين ، وبنى جامعها وسار عنها إلى النَّيْروز . وقد كانوا بعثوا إلى الحجّاج وصالحوه ، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم ، وسار عنها . وجعل لا يمرّ بمدينة من مدائن السند إلا فتحها حتى بلغ نهر مهران ، واستعد ملك السند لمحاربته واسمه داهر بن صَصة . ثم عقد الجسر على النهر وعبر، فقاتله داهر وهو على الفيل وحوله الفيلة . ثم اشتد القتال وترجل داهر، فقاتل حتى قتل ، وانهزم الكفّار واستلحمهم المسلمون . ولحقت امرأة داهر بمدينة رارو فساروا إليها وخافته فاحرقت نفسها وجواريها . وملك المدينة ولحق الفلّ بمدينة بدهَمْتَابَادَ العتيقة على فرسخين من مكان المنصورة، وهي يومئذ غَيْضَة، ففتحها عنوة واستلحم مَن وجد بها

وخرّبها . ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة، وقطع نهر ساسِل إلى الملقاد، فحاصرها وقطع الماء عنها، فنزلوا على حكمه . فقتل المقاتلة وسبى الذريّة، وقتل سَدَنَةَ البلد وهم ستة آلاف . وأصابوا في البلد ذهباً كثيراً في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية ، كانت الأموال تُهدى إليه من البلدان ، ويحجّون إليه ويحلقون شعرهم عنده ، ويزعمون أنه هو أيوب . فاستكمل فتح السند، وبعث من الخمس بمائة وعشرين ألف ألفٍ وكانت النفقة نصفها .

فتح الطالقان وسمرقند وغرو كشّ ونسف والشاش وفرغانة وصلح خوارزم :

قد تقدّم أن قتيبة غزا بخارى سنة تسع وثمانين ، وانصرف عنها ولم يظفر. وبعث إليه الحجّاج سنة تسعين يوبّخه على الانصراف عنها ويأمره بالعَوْد . فسار إليها ومعه نيْزَكُ طُرْخَان صاحب باذغيس ، وحاصرها . واستجاش ملكها وردان ، أخذاه بمَن حوله من الصُغْدِ والترْكِ . فلما جاء مددهم خرجوا إلى المسلمين ، وكانت الأزد في المقدّمة، فانهزموا حتى جازوا عسكر المسلمين ثم رجعوا ، وزحفت العساكر حتى ردوا الترك إلى موقفهم . ثم زحف بنو تميم وقاتلوا الترك حتى خالطوهم في مواقفهم وأزالوهم عنها . وكان بين المسلمين وبينهم نهر لم يتجاسر أحد على عبوره إلا بنو تميم ، فلما زالوا عن مواقفهم عبر الناس واتبعوهم وأثخنوا فيهم بالقتل ، وخرج خاقان وابنه وفتح الله على المسلمين ، وكتب بذلك إلى الحجّاج .

ولما استوت الهزيمة جاء طرخون ملك الصغد ومعه فارسان ، ودنا من عسكر قتيبة يطلب الصلح على فدية يؤدّيها فأجابه قتيبة وعقد له ، ورجع قتيبة ومعه نيزك ، وقد خافه لما رأى من الفتوح ، فاستأذنه في الرجوع وهو بآمُدَ، فرجع يريد طَخارِسْتَانَ ، وأسرع السير. وبعث قتيبة إلى المغيرة بن عبد الله يامره بحبسه ، وتبعه المغيرة فلم يدركه ، وأظهر نيزك الخلع ودعا لذلك الأصْبَهْبَذَ ملك بَلْخَ وباذان ملك مَرْو الروذ وملك الطالِقان وملك ألقاَرباب وملك الجَوْزَجَانِ فأجابوه ، وتوعدوا لغزو قتيبة . وكتب إلى كاتب شاه يستظهر به وبعث إليه بأثقاله وأمواله ، واستأذنه في الإتيان إن اضطر إلى ذلك . وكان جَيْفُونَةُ ملك

طخارستان نيزك عنده ، فاستضعفه وقبض عليه وقيّده خشية من خلافه ، وأخرج عامل قتيبة من بلده . وبلغ قتيبة خبرهم قبل الشتاء وقد تفرّق الجند، فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثني عشر ألف إلى البروقان ، وقال أقم بها ولا تُحْدِث شيئاً، فإذا انقضى الشتاءُ تقدّم إلى طخارستان وأنا قريب منك . ولما انصرم الشتاء استقدم قتيبة الجنود من نيسابور وغيرها فقدموا ، فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد دخل معهم في الخلع ، ففتحها وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ في مثلها، واستخلف عليها أخاه محمد بن مسلم ،وسار إلى القارِباتِ فخرج إليه ملكها مطيعاً . واستعمل عليها وسار إلى الجوزجان فلَقيَه أهلها بالطاعة، وهرب ملكها إلى الجبال واستعمل عليها عامر بن ملك الحماس . ثم أتى بلخ وتلقّاه أهلها بالطاعة، وسار يتبع أخاه عبد الرحمن إلى شعب حمله ، ومض نيزك إلى بغلان وخلف المقاتلة على فم الشعب ولا يهتدي إلى مدخل ، ومضايقوه يمنعونه . ووضع أثقاله في قلعة من وراء الشعب . وأقام قتيبة أياماً يقاتلهم على فم الشعب ولا يهتدي إلى مدخل ، حتى دلّه عليه بعض العجم هنالك على طريق سرب منه الرجال إلى القلعة فقاتلوهم ، وهرب مَن بقي منهم ومضى إلى سمنجان ثم إلى نيزك ، وقدّم ، أخاه عبد الرحمن . وارتحل نيزك إلى وادي فرغانة ، وبعث أثقاله وأمواله إلى كابل شاه ، ومضرَ إلى السكون فتحضن به ولم يكن له إلا مَسْلَكٌ واحد صب على الدواب ، فحاصره قتيبة شهرين حتى جهدوا وأصابهم جهد الجُدَري . وقَرُبَ فصل الشتاء فدعا قتيبة بعض خواصّه ممّن كان يصادق نيزك فقال : انطلق إليه وأثنِ عليه بغير أمان ، وإن أعياك فأمّنه . وإن جئت دونه صلبتك . فمض الرجل وأشار عليه بلقائه وأنه عازم على أن يشقّ هنالك ، فقال أخشاه ! فقال له لا يخلّصك إلا إتيانك ، وتنّصح له بذلك وبأنه يخشى عليه من غدر أصحابه الذين معه . ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب ، وهو يمتنع حتى قال له إنه قد أمنك . فأشار عليه أصحابه بالقبول لعلمهم بصدقه ، وخرج معه نيزك ومعهم جيفونة ملك طخارستان الذي كان قيده ، حتى انتهوا إلى الشعب وهناك خيل أكمنه الرجل ما كان فيه ، وكتب إلى الحجّاج يستأذنه في قتل نيزك ، فوافاه كتابه لأربعين يوماً بقتله فقتله ، وقتل معه صول طرخان خليفة جيفونة وابن أخي نيزك ومن أصحابه

سبعمائة وصلبهم ، وبعث برأسه إلى الحجاج . وأطلق جيفونة وبعث إلى الوليد . ثم رجع إلى مرو. وأرسل إليه ملك الجوزجان يستأمنه ، فأمنّه على أن يأتيه ، فطلب الرهن فأعطاه وقَدِم . ثم رجع فمات بالطالقان وذلك سنة إحدى وتسعين . ثم سار إلى شومان فحاصرها، وقد كان ملكها طرد عامل قتيبة من عنده ، فبعث إليه بعد مرجعه من هذه الغزاة أن يؤدّي ما كان صالح عليه ، فقتل الرسول ، فسار إليه قتيبة وبعث له صالح أخو قتيبة وكان صديقه ينصحه في مراجعة الطاعة فأبى ، فحاصره قتيبة ونصب عليه المجانيق ، فهدم الحصن وجمع الملك ما في الحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر لا يدرك قعره ، ثم استمات وخرج فقاتل حتى قتل . وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذريّة، ثم بعث أخاه عبد الرحمن إلى الصُغْد وملكهم طرخون ، فأعطى ما كان صالح عليه قتيبة . وسار قتيبة إلى كشّ ونسف فصالحوه ، ورجع ولقي أخاه ببخارى وساروا إلى مرو . . ولما رجع عن الصغْدِ حبس الصغد ملكهم طرخون لإعطائه الجزية، وولوا عليهم غورك ، فقتل

طرخون نفسه . ثم غزا في سنة اثنتين وتسعين إلى سِجِسْتان يريد رَتْبِيل ، فصالحه وانصرف . وكان ملك خوارزم قد غلبه أخوه خرَاد علي أمره وكان أصغر منه ، وعاثَ في الرعيّة وأخذ أموالهم وأهليهم ، فكتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلمها إليه على أن يمكّنه من أخيه ومن عصاه من دونهم . فأجابه قتيبة ولم يُطلِع الملك أحداً من مرازِبَتِهِ على ذلك . وتجهّز قتيبة سنة ثلاث وتسعين وأظهر غزو الصغد، فأقبل أهل خوارزم على شأنهم ولم يحتفلوا بغزوه وإذا به قد نزل هزار سبّ قريباً منهم . وجاء أصحاب خوارزم شاه إليه يدعوه للقتال. فقال ليس لنا به طاقة! ولكن نصالحه على شيءٍ نعطيه كما فعل غيرنا . فوافقوه وسار إلى مدينة الفِيد من وراء النهر، وهذا حصن بلاده . وصالحه بعشرة آلاف رأس وعين ومتاع ، وأن يعينه على خامِ جُرد، وقيل على مائة ألف رأس .

وبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد وهو عدو لخوارزم شاه ، فقاتله وقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه ، وأسر منهم أربعة آلاف فقتلهم . وسلم قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومَن كان يخالفه من أمرائه فقتلهم ، ودفع أموالهم إلى قتيبة. ولما قبض قتيبة أموالهم أشار عليه المُحشرُ بن مُخَازِمِ السلَميّ بغزو الصغْد وهم آمنون على مسافة عشرة أيام . فقال اكتم ذلك ، فقدّم أخاه الفرسان والرّماة ، وبعثوا بالأثقال إلى مرو، وخطب قتيبة الناس وحثّهم على الصغد وذكرهم الضغائن فيهم . ثم سار فأتى الصغد بعد ثلاث من وصول أخيه ، فحاصرهم بسمرقند شهرا واستجاشوا ملك الشاش وأخشاد خاقان وفرغانة ، فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والأساورة ، وولّوا عليهم ابن خاقان وجاؤُوا إلى المسلمين ، فانتخب قتيبةُ من عسكره ستمائة فارس ، وبعث بهم أخاه صالحاً لاعتراضهم في طريقهم ، فلقوهم بالليل وقاتلوهم أشدّ قتال ، فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم إلا القليل وغنموا ما معهم ، ونصب قتيبة المجانيق فرماهم بها وثلم السور واشتد في قتالهم ، وحمل الناس عليهم إلى أن بلغوا الثلمة . ثم صالحوه على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام ، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس ، وأن يمكّنوه من بناءِ مسجد بالمدينة ويخلوها حتى يدخل فيصلّي فيه . فلما فعل ذلك ودخل المدينة أكرههم على إقامة جند فيها . وقيل إنه شرط عليهم الأصنام وما في بيوت النار، فأعطوه فاخذ الحلية وأحرق الأصنام وجمع من بقايا مساميرها، وكانت ذهباً، خمسين ألف مثقال . وبعث بجارية من سبيها من ولد يزدجرد إلى الحجّاج ، فأرسلها الحجّاج إلى الوليد وولدت له يزيد . ثم قال فورك لقتيبة انتقل عنّا، فانتقل وبعث إلى الحجّاج بالفتح . ثم رجع إلى مرو، واستعمل على سمرقند إياس بن عبد الله على حربها، وعبيد الله بن أبي عبيد الله مولى مسلم على خراجها، فاستضعف أهل خوارزم إياساً وجمعوا له ، فبعث قتيبة عبد الله عاملاً علىِ سمرقند، وأمره أن يضرب إياساً وحبايا السطي مائة مائة ويخلعهما. فلما قرب عبد الله من خوارزم مع المغيرة بن عبد الله فبلغهم ذلك ، وخشي ملكهم من أبناء الذين كان قتلهم ففر إلى بلاد الترك . وجاء المغيرة فقتل وسبى وصالحه الباقون على الجزية، ورجع إلى قتيبة فولاّه على نيسابور. ثم غزا قتيبة سنة أربع وتسعين . إلى ما وراء النهر، وفرض البعث على أهل بُخارى وكَشّ ونسَفَ وخوارزم ، فسار منهمٍ عشرون ألف مقاتل فبعثهم إلى الشاش . وسار هو

إلى خَجَنْدَةَ فجمعوا له واقتتلوا مرارا كان الظفر فيها للمسلمين ، وفتح الجند الذين ساروا إلى مدينة الشاش وأحرقوها،. ورجعوا إلى قتيبة وهو على كشان

مدينة فَرْغَانَةَ وانصرف إلى مرو. ثم بعث الحجّاج إليه جيشاً من العراق وأمره بغزو الشاش فسار لذلك وبلغه موت الحجّاج فرجعوا إلى مرو.

خبر يزيد بن المهلب وإخوته :

كان الحجّاج قد حبس يزيد وإخوته سنة ست وثمانين ، وعزل حبيب بن المُهَلب عن كرمان فأقاموا في محبسهم إلى سنة تسعين ، وبلغه أن الأكراد غلبوا على فارس ، فعسكر قريباً من البصرة للبعث ، وأخرج معه بني المهلب وجعلهم في فسطاط قريباً منه ، ورتّب عليهم الحرس من أهل الشام . ثم طلب منهم ستة آلاف ألف ، وأمر بعذابهم وبكت أختهم هند بنت المهلّب زوجة الحجّاج فطلّقهَا . ثم كفَّ عنهم وجعل يستأدبهم ، وبعثوا إلى أخيهم مروان وكان على البصرة أن يعد لهم خيلا، وكان حبيب منهم يعذب بالبصرة . فصنع يزيد للحرس طعاماً كثيراً وأمر لهم بشراب ، فأقاموا يتعاقرون ، واستغفلهم يزيد والُمفضلُ وعبد الملك وخرجوا و لم يفطنوا لهم . ورفع الحرس خبرهم إلى الحجّاج فخشيهم على خراسان ، وبعث البريد إلى قُتيْبَةَ بخبرهم ليحذّرهم ، وكان يزيد قد ركب السفن إلى البطائح ، واستقبلته الخيل المُعدّة له هناك ، وساروا إلى الشام على السماوة ومعهم دليل من كلب . ونمي خبرهم ، فبعث إلى الوليد بذلك ، وقَدِموا إلى فلسطين فترلوا على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي ، وكان كريماً على سليمان فاخبره بحالهم .، وأنهم استجاروا به من الحجّاج ، فقال ائتني بهم فقد أجرتهم . وكتب الحجّاج إلى الوليد أن بني المهلب خانوا مال الله وهربوا مني فلحقوا بسليمان ، فسكن ما به لأنه كان خشيهم على خراسان كما خشيهم الحجّاج ، وكان غاضِباً للمال الذي ذهبوا به . فكتب سليمان إلى الوليد أنَ يزيدا عندي وقد أمَّنته ، وكان الحجّاج أغرمه ستة آلاف ألف فأدّ نصفها وأنا أودّي النصف . فكتب الوليد لا أؤَمّنه حتى تبعث به ، فكتب سليمان لأجيئن معه ، فكتب الوليد إذن لا أؤَمّنه . فقال يزيد لسليمان لا يتشاءَم الناس بي لكما، فاكتب معي وتلطف ما أطقت ، فأرسله وأرسل معه ابنه أيوب ، وكان الوليد أمر أن يبعث مقيدا . فقال سليمان لابنه ادخل على عمّك أنت ويزيد في سلسلة . فقال الوليد لما رأى ذلك لقد بلغنا من سليمان . ثم دفع أيوب كتاب أبيه بالشفاعة وضمان المال عن يزيد، فقرأه الوليد واستعطفه أيوب في ذمّة أبيه وجواره ، وتكلم يزيد واعتذر، فأمنه الوليد ورجع إلى سليمان ، وكتب الوليد إلى الحجّاج

بالكفّ عنهم فكفّ عن حبيب ، وأبي عبسة وكانا عنده ، وأقام يزيد عند سليمان يهدي إليه الهدايا ويصنع له الأطعمة .

ولاية خالد القسري على مكة وإخراج سعيد بن جبير عنها ومتله :

ولما كان في سنة ثلاث وتسعين كتب عُمَر بن عبد العزيز إلى الوليد يقصّ عليه أفعال الحجّاج بالعراق ، وما هم فيه من ظلمه وعدوانه ، فبلغ بذلك الحجّاج فكتب إلى الوليد : إنّ كثيرا من الُمرَّاق وأهل الشقاق قد انجلوا

عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة ومنعهم عمر وأصابه من ذلك وهن . فولّى الوليد على مكّة خالد بن عبد الله القِسْرِيّ وعُثْمَانَ بن حَيَّانَ بإشارة الحجّاج ، وعزل عمر عن الحجاز وذلك في شعبان من السنة . ولما قَدِمَ خالد مكة أخرج مَن كان بها من أهل العراق كرها، وتهدّد مَن أنزل عراقيا أو أجره دارا، وكانوا أيام عمر بن عبد العزيز يلجا إلى مكة والمدينة كل مَن خاف الحجّاج فيأمن . وكان منهم سعيد بن جبير هاربا من الحجّاج ، وكان قد جعله على عطاء الجند الذين وجّههم مع عبد الرحمن بن الأشعث إلى قتال رتبيل . فلما خرج عبد الرحمن كان سعيد فيمن خلع ، فكان معه إلى أن هزم وسار إلى بلاد رتبيل ، فلحق سعيد بأصبهان وكتب الحجّاج فيه إلى عاملها فتحرّج من ذلك ، ودس إلى سعيد فسار إلى أذربيجان . ثم طال عليه المقام فخرج إلى مكة فكان بها مع ناس أمثاله من طلبة الحجّاج يستخفّون بأسمائهم. فلما قَدِمَ خالد بن عبد الله مكة أمره الوليد بحمل أهل العراق إلى الحجّاج ، فاخذ سعيد بن جبير ومجاهدا وطلق بن حبيب ، وبعث بهم إلى الحجّاج فمات طلق في الطريق وجيء بالآخرين إلى الكوفة، وأدخلا على الحجّاج . فلما رأى سعيدا شتم خالدا القسري على إرساله وقال : لقد كنت أعرف أنه بمكة، وأعرف البيت الذي كان فيه ، ثم أقبل على سعيد وقال : ألم أشرِكْكَ في أمانتي ؟ ألم أستعملك ؟ ثم تفعلا ! يعدد أياديه عنده . فقال : بلى! قال : فما أخرجك على قتالي ؟ أنا امرؤٌ من المسلمين اخطىء مرّة وأصيب أخرى . ثم استمر في محاورته فقال : إنما كانت بيعة في عنقي فغضب الحجّاج وقال : ألم آخذ بيعتك لعبد الملك بمكة بعد مقتل ابن الزبير؟ ثم جددت له البيعة بالكوفة فأخذت بيعتك

ثانيا؟ قال : بلى! قال : فنكثت بيعتين لأمير المؤمنين ، وتوفي بواحدة للفاعل ابن ألفاًعل ، والله لأقتلنّك . فقال : إني لسعيد كما سمّتني أمي ، فضربت عنقه ، فهلّل رأسه ثلاثا أفصح منها بمرّة. ويقال إن عقل الحجّاج التبس يومئذ وجعل يقول قيودنا قيودنا فظنوها قيود سعيد بن جبير، فأخذوها من رجليه وقطعوا عليها ساقيه ، وكان إذا نام يرى سعيد بن جبير في منامه آخذا بمجامع ثوبه يقول : يا عدوّ الله فيمَ قتلتني فينتبه مرعوبا يقول ما لي ولسعيد بن جبير.

وفاة الحجاج :

وتوفي الحجّاج في شوّال سنة خمس وتسعين لعشرين سنة من ولايته العراق ، ولما حضرته الوفاة استخلف على ولايته ابنه عبد الله ، وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كَبْشَةَ، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم ، فاقرّهم الوليد بعد وفاته . وكتب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان : قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهدك وجهادك أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي تحب ، فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأني .أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه ، ولم يغير الوليد أحدا من عمّال الحجّاج .

أخبار محمد بن القاسم بالسند :

كان محمد بن القاسم بالمُلْتان وأتاه خبر وفاة الحجّاج هنالك فرجع إلى الدور

والثغور وكان قد فتحه ثم جهّزه الناس إلى السلْمَاس مع حبيب فأعطوا الطاعة، وسالمه أهل شرست وهي مغزى أهل البصرة ، وأهلها يقطعون في البحر. ثم سار في العسكر إلى [*] فخرج إليه دوهر فقاتله محمد وهزمه وقتله ، ونزل أهل المدينة على حكمه فقتل وسبا. ولم يزل عاملاً على السند إلى أن ولي سليمان بن عبد الملك ، فعزله وولى يزيد بن أبي كَبْشَةَ السكْسَكِي على السند مكانه . فقيده يزيد وبعث به إلي العراق ، فحبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط ، وعذبه في رجال من قرابة الحجّاج على

قتلهم . وكان الحجّاج قتل أخاه آدم على رأي الخوارج. ومات يزيد بن أبي كبشة لثمان عشرة ليلة من مقدمه . فولّى سليمان على السند حبيب بن المُهَلبِ ، فقَدِمَها وقد رجع ملوك السند إلى ممالكهم ، ورجع حبشة بن داهر إلي برهما باذ، فنزل حبيب علِى شاطىء مهران ، وأعطاه أهل الروم الطاعة، وحارب فظفر، ثم أسلم الملوك لما كتب عمر بن عبد العزيز إلى الإسلام على أن يملكهم وهم أسوة المسلمين فيما لهم وعليهم ، فاسلم حبشة والملوك وتسمّوا بأسماء العرب وكان عُمَرُ بن مسْلِم الباهلِي عامل عمر على ذلك الثغر، فغزا بعض الهند وظفر. ثم ولَّى الجُنَيْدَ بن عبد الرحمن على السند أيام هشام بن عبد الملك ، فأتى شطّ مهران . ومنعه حبشة بن داهر العبور وقال : إني قد أعملت وولّاني الرجل الصالح ، ولست آمنك فأعطاه الرهن ثم ردّها حبشة وكفر وحارب ، فحاربه الجنيد في السفن وأسره ثم قتله . وهرب صَصَةُ بن داهر إلى العراق شاكياً لغدر الجنيد، فلم يزل يؤنسه حتى جاءه فقتله . ثم غزا الجنيد المكيرج من آخر الهند وكانوا انقضّوا، فاتخذ كباشاً زاحفة ثم صكّ بها سور المدينة فثلمها، ودخل فقتل وسبى وغنم وبعث العمَال إلى المرمد والمعدل ودهج ، وبعث جيشاً إلى أرين فأغاروا عليها وأحرقوا ربضها ، وحصل عنده سوى ما حمل أربعون ألف ألف ، وحمل مثلها وولّى تميم بن زيد الضبيّ فضعف ووهن ومات قريباً من الهديبلِ . وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند وتركوا مراكزهم . ثم ولي الحكم ابن سَوّام الكلبيّ ، وقد كفر أهل الهند إلا أهل قَصَّةَ، فبنى مدينة سماها المحفوظة وجعلها ماوى المسلمين . وكان معه عمر بن محمد بن القاسم ، وكان يفوّض إليه عظائم الأمور وأغزاه عن المحفوظة . فلما قَدِمَ وقد ظهر أمره فبنى مدينة وسمّاها المنصورة وهي التي كان أمراءُ السند يترلونها، واستخلص ما كان غلب عليه العدوّ ورضي الناس بولايته . ثم قتل الحكم وضعفت الدولة الأموية عن الهند . وتأتي أخبار السند في دولة المأمون .

فتح مدينة كاشغر:

أجمع قتيبة لغزو مدينة كاشغر سنة ست وتسعين وهي أدنى مدائن الصين ، فسار لذلك وحمل مع الناس عيالاً تَهم ليضعها بسمرقند وعبر النهر، وجعل على المجاز مسلحة يمنعون الراجع من العساكر إلا بإذنه . وبعث مقدمة إلى كاشَغْرَ فغنموا وسبوا وختم أعناق السُبي ، وأوغل حتى قارب الصين . فكتب إليه ملك الصين يستدعي من أشراف العرب مَن يخبره عنهم وعن دينهم . فانتخب قتَيْبَةُ عشرة من العرب كان منهم هُبَيْرَةُ بن شَمَرْجَ الكتابيّ ، وأمر لهم بعدة حسنة ومتاع من الخَزَ والوَشي وخيول أربعة وقال لهم أعلموه أني حالف إني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . ولما قَدِموا على ملك الصين دعاهم في اليوم

الأول فدخلوا ، وعليهم الغلائل والأردية ، وقد تطيبوا ولبسوا النعال ، فلم -يكلمهم الملك ولا أحد ممّن حضره ، وقالوا بعد انصرافهم هؤلاء نسوان . فلبسوا الوشي والمطارف وعمائم الخز وغدوا عليه ، فلم يكلّموهم وقالوا هذه أقرب إلى هيئة الرجال . ثم دعاهم الثالثة فلبسوا سلاحهم وعلى رؤوسهم البيضات والمغافر، وتوشحوا السيوف واعتقلوا الرماح ، ونكبوا .القِسِي فهالهم منظرهم . ثم انصرفوا وركبوا فتطاردوا، فعجب القوم منهم . ثم دعا زعيمهم هُبَيْرَةَ بن شَمَرْجَ فسأله لِمَ خالفوا في زيِّهم ؟ فقال : أما الأول فإنا نساءُ في أهلنا، وأما الثاني فزيّنا عند أمرائنا، وأما الثالث فزيّنا لعدوّنا. فاستحسن ذلك ثم قال له : قد رأيتم عِظَم مُلكي ، وأنه ليس أحد يمنعكم منّي ، وقد عرفت قلتكم فقولوا لصاحبكم ينصرف وإلا بعثت مَن يهلككم . فقال هبيرة كيف نكون في قلّة وأول خيلنا في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وأمّا القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه ، ولنا آجال إذا حضرت فلن نتعداها، وقد حلف صاحبنا أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ جزيتكم . قال الملك: فإنّا نُخرِجه من يمينه ، نبعث له بتراب من أرضنا فيطؤه ، ويقبض أبناءنا فيختمهم وبهدية ترضيه ، ثم أجازهم فأحسن . وقَدِموا على قتيبة فقبل الجزية ووطئ التراب وختم الغلمان وردّهم ثم انصرف من غداته . وأوفد هبيرة إلى الوليد، وبلغه وهو في الفرات موت الوليد.

وفاة الوليد وبيعة سليمان :

ثم توفي الوليد في منتصف جمادى الأخيرة من سنة ست وتسعين ، وصلّى عليه عمر بن عبد العزيز وكان من أفضل خلفاء بني أمية وبنى المساجد الثلاثة: مسجد المدينة، ومسجد القدس ومسجد دمشق . ولما أراد بناء مسجد دمشق كانت في موضعه كنيسة فهدمها وبناها مسجدا وشكوا ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : نردّ عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما فإنها خارج المدينة ممّا فتح عنوة ونبنيها مسجدا فتركوا ذلك. وفتح في ولايته الأندلس وكاشغر والهند، وكان يتخذ الضياع وكان متواضعاً يمّر بالبقَّال فيسأله بِكَم حزمة البَقْل ؟.ويسعّر عليه وكان يختم القرآن في ثلاث وفي رمضان في يومين وكان أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز، فأبى سليمان فكتب إلى عمّاله ودعا الناس إلى ذلك فلم يُجُبْه إلا الحجّاج وقتيبة وبعض خواصّه . واستقدم سليمان ثم استبطأه فأجمع السير إليه ليخلعه فمات دون ذلك . ولما مات بويع سليمان من يومه وهو بالرمْلَةِ فعزل عثمان بن حيّان من المدينة آخر رمضان ، وولّى عليها أبا بكر بن محمد بن عمر بن حزم ، وعزل ولاة الحجّاج عن العراق فولّى يزيد بن المهلّب على المِصْرَيْن وعزل عنهما يزيد بن أبي مسلم . فبعث يزيد أخاه زياداً على عمّان وأمر سليمان يزيد بن المهلّب بنكبة آل أبي العُقَيْل قوم الحجّاج وبني أبيه وبسط أصناف العذاب عليهم ، فولّى على ذلك عبد الملك بن المهلب .

مقتل قتيبة بن مسلم :

ولما وَلِيَ سُلَيْمَانُ خافه قُتَيْبَةُ لما قدّمناه من موافقته الوليد على خلعه ، فخشي أن يولي يزيد بن المُهلَّب خراسان ، فاجمعِ خلعه وكتب إليه لئن لم تقرّني على ما كنت عليه وتؤمنّي لأخلعنّك وَلأملأنّها عليك خيلاً ورجلاً فأمّنه وكتب له العهد على خراسان وبعث إليه رسوله بذلك ، فبعث الرسول وهو بِحُلْوَانَ أنه قد خلع

وكان هو بعد بعثة الكتاب إلى سليمان قد اشتدّ وجله وأشار عليه أخوه عبد الله بالمعاجلة، فدعا الناس !لى الخلع وذكرهم بوائقه وسوء ولاية مَن تقدّمه فلم يجِبْه أحد، فنضب وشتمهم وعدّد وقالبهم قبيلة قبيلة فأثنى على نفسه بالأب والبلد والمعشر. فغضب الناس وكرهوا خلع سليمان وأجمعوا على خلع قتيبة وخلافه وعذل قتيبة أصحابه فيما كان منه فقال : لما **لم تجيبوني**

غضبت فلم أدرِ ما قلت .وجاء الأزد إلى حُضَيْنِ بن المنذر "بالضاد المعجمة" فقالوا : كيف ترى هذا يدعو إلى فساد الدين ويشتمنا ، فعرف مغزاهم فقال : إن مضر بخراسان كثير وتميم أكثرهمِ وهم شوكتها ولا يرضون بغيرهم فيصيبوا قتيبة ولا أرى لها إلا وكيعا . وكان وكيع موثقا من قتيبة بعزله وولاية ضِرار بن حُصَيْن الضَبِّي مكانه . وقال حَيَّان النبَطِيّ مولى بني شَيْبَان ليس لها غير وكيع ، ومشى الناس بعضهم إلى بعض سرّا، وتولّى كِبَر ذلك حيّان ونُميَ خبره إلى قتيبة فأمر بقتله إذا دخل عليه ، وتنصح بعض خدم قتيبة بذلك إلى حيّان فلما دعاه تمارض ، واجتمع الناس إلى وكيع وبايعوه . فمن أهل البصرة والعالِيَةِ من المقاتلة تسعة آلاف ، ومن بكر سبعة آلاف رئيسهم حضين بن المنذر، ومن تميم عشرة آلاف عليهم ابن زَحْر، ومن الموالي سبعة آلاف عليهم حيّان النبطي وقيل من الديلم ، وسُمَّيَ نَبَطِيّا للكنته . وشرط على وكيع أن يحوّل له الجانب الشرقي من نهر بلخ فقبل ، وفشا الخبر وبلغ قتيبة فدسّ ضرّار بن سيان الضبّي إلى وكيع فبايعه ، وجاء إلى قتيبة بالخبر فأرسل قتيبة !لى وكيع فاعتذر بالمرض .فقال لصاحب شرطته :ائتني به وإن أبى ائتني برأسه فلما جاء إلى وكيع ركب ونادى في الناس فأتوه أرسالا . واجتمع إلى قتيبة أهل بيته وخواصّه وثقاته وبنو عمّه ، وأمر فنودي في الناسي قبيلة قبيلة، وأجابوه بالجفوة . يقول :أين بنو فلان ؟ فيقولون :كحيث وضعتهم فنادى بأذكّركم الله والرحم ، فقالوا: أنت قطعتها! فنادى لكم العتبى ، فقالوا: إنّا لنا الله إذا فدعا ببرْذَوْنٍ ليركبه فمنعه ورَمَحَهُ فعاد إلى سريره وجاء حيّان النبطي في العجم ، فأمره عبد الله أخوقتيبة أن يحمل على القوم ، فاعتذر وقال لابنه :إذا لقيتني حوّلت قلنسوتي فَمِلْ بالأعاجم إلى وكيع ، ثم حوّلها وسار بهم ورمى صالح أخوقتيبة بسهم فحمل إلِى أخيه. ثم تهايج الناس وجاء إلى عبد الرحمن أخي قتيبة الغوغاءُ ونحوهم فاحرقوا آرِيّا فيه إبل قتيبة ودوابّه . ثم زحفوا به حتى بلغوا فِسْطاطه فقطعوا أطنابه وجرح جراحات كثيرة . ثم قطعوا رأسه وقتل معه إخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحُصَيْن وعبد الكريم ومسلم وابنه كُثَيِّرٍ ، وقيل قتل عبد الكريم بقَزْوين، فكان عدَّة مَن قتل من أهله أحد عشر رجلاً ، ونجا أخوه عمر مع أخواله من تميم . ثم صعد وكيع المنبر وأنشد الشعر في الثناء على نفسه وفعله والذمّ من قتيبة ووعده بحُسْن السيرة وطلب رأس قتيبة وخاتمه من الأزد

وهدّدهم عليه فجاؤُوا به فبعثه إلى سليمان ووفى وكيع لحيّان النبَطِيّ بما ضمن له .

ولاية يزيد بن المهلب خراسان :

كان يزيد بن المهلّب لما ولأه سليمان العراق على الحرب والصلاة والخراج استكره أن يحيف على الناس في الخراج فتلحقه المذمة كما لحقت الحجّاج ، ويخرّب العراق، وإن قصّر عن ذلك لم يقبل منه . فرغب من

سليمان أن يعفيه من الخراج ، وأشار عليه بصالح ابن عبد الرحمن مولى تميم . فولاه سليمان الخراج وبعثه قِبَلَ يزيد فلما جاء صالح إلى يزيد ضيق عليه صالح، وكان يزيد يُطعمُ على ألف خوان فاستكثرها صالح فقال: اكتب ثمنها عليّ وغير ذلك وضجر يزيد وجاء خبر خراسان ومقتل قتيبة فطمع يزيد في ولايتها ودسّ عبد الله بن الأهتم على سليمان أن يولّيه خراسان ولا يشعر بطلبته بذلك . وسيّره على البريد فقال له سليمان: إن يزيد كتب إليَّ يذكر عملك بالعراق ! فقال نعم بها وُلِدْت وبها نشأت ثم استشاره فيمن يوليه خراسان ولم يزل سليمان بذكر الناس وهو يردُهم ، ثم حذّره من وكيع وغدره قال : فَسَمِّ أنت ! قال شريطة الكمال الإجازة ممّن أشير به ، وإذا علم يكره ذلك . ثم قال :هو يزيد بن المهلب فقال سليمان: العراق أحب إليه ، فقال ابن الأهْتَم : قد علمت ولكن نكرهه فيستخلف على العراق ويسير إلى خراسان ، فكتب عهد يزيد على خراسان وبعثه مع ابن الأهتم فلما جاءه بعث إبنه مخاداً على خراسان وبعثه مع ابن الأهتم . ثم سار بعده واستخلف على واسط الجراح بن عبد الله الحَكَمِيّ ، وعلى البصرة ابن عبد الله بن هلال الكلاَبِي، وعلى الكوفة حَرْمَلَة بن عيد اللمغْمِيّ . ثم عزله لأشهر بشير بن حيّان النهدي ، فكانت قيس تطلب بثأر قتيبة وتزعم أنه لم يخلع . فأوصى سليمان يزيد إن أقامت قيس بيّنة أنه لم يخلع أن يقيّد به من وكيع .

أخبارالصوائف الصوائف وحصار قسطنطينية

كانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية وحدوث الفتن واشتدت الفتن أيام عبد الملك اجتمعت الروم واستجاشوا على أهل الشام فصالح عبد الملك صاحب قُسْطَنْطِينيةَ على أن يؤدّي إليه كل يوم جمعة ألف دينار خشية منه على المسلمين ونظراً

لهم ، وذلك سنة سبعين لعشر سنين من وفاة معاوية . ثم لما قتل مُصْعَبُ وسكنت الفتنة بعث الجيوش سنة إحدى وسبعين في الصائِفَةِ . فدخل فافتتح قِيسارِيَّةَ، ثم ولّى على الجزيرة وأرمينية أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وسبعين فدخل في الصائفة إلى بلاد الروم فهزمهم ، ودخل عثمان بن الوليد من ناحية أرمينية في أربعة آلاف ولقيَه الروم في ستين ألفاً فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر. ثم غزا محمد بن مروان سنة أربع وسبعين فبلغ أنبولِيَةَ وغزا في السنة بعدها في الصائفة من طريق مرعش فدوّخ بلادهم وخرج الروم في السنة بعدها إلى العتيق فغزاهم من ناحية مرعش ثانية، ثم غزاهم سنة ست وسبعين من ناحية مَلْطِيَةَ ودخل في الصائفة سنة سبع وسبعين الوليد بن عبد الملك فاثخن فيهم ورجع وجاء الروم سنة تسع وسبعين فأصابوا من أهل أنطاكية وظفروا بهم فبعث عبد الملك سنة إحدى وثمانين ابنه عبيد الله بالعسكر ففتح قاليلا. ثم غزا محمد بن مروان سنة اثنتين وثمانين أرمينية وهزمهم ، فسألوه الصلح فصالحهم وولّى عليهم أبا شيخ بن عبد الله فغدروه وقتلوه فغزاهم سنة خمس وثمانين وصافَ فيها وشتّى ثم غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ودوخها، ورجع وعاد إليها سنة سبع وثمانين . فأثخن فيهم بناحية المُصَيْصَةِ وفتح حصونا كثيرة منها حصن بُولَقَ والأخْرَمِ وبُولُسَ وقَمْقيم . وقتل من المُسْتَقْرِبَةِ ألف مقاتل وسبى أهاليهم . ثم غزا بلاد الروم سنة تسع وثمانين مُسْلِمَةُ بن عبد الملك والعَباسُ بن الوليد، فافتتح مسلمة حِصْنَ سورية وافتتح العباس أردولية ،ولقي جمعا من

الروم فهزمهم . وقيل إن مسلمة قصد عَمُورِيَّةَ فلقي بها جمعا من الروم فهزمهم وافتتح هِرَقْلَةَ وقُمولِيَة وغزا العباس الصائفة من ناحية البَلْدَنْدُونِ . وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك سنة تسع وثمانين من ناحية أذَرْبيجَانَ ففتح حصونا ومدائن هناك ثم غزا سنة تسعين ففتح الحصون الخمس التي بسورية . وغزا العباس حتى بلغ أرْدُن وسورية . وفي سنة إحدى وتسعين غزا عبد العزيز بن الوليد في الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك وكان الوليد قد ولّى مسلمة على الجزيرة وأرمينية وعزل عمه محمد بن مروان عنها، فغزا الترك من ناحية أذربيجان حتى الباب وفتح مدائن وحصونا ثم غزا سنة اثنتين وتسعين بعدها، ففتح ثلاثة حصون وجلا أهل سَرْسَنَةَ إلى بلاد الروم ثم غزا العباس بن الوليد سنة ثلاث بعدها بلاد الروم ففتح سُبَيْطلَةَ، وغزا مروان بن الوليد فبلغ خَنْجَرَةَ. وغزا مسلمة ففتح ماشِيَةَ وحصن الحديد وغزالة من ناحية مَلْطِيَةَ . وغزا

العباس بن الوليد سنة أربع وتسعين ، ففتح أنطاكية . وغزا عبد العزيز بن الوليد ففتح غزالة، وبلغ الوليد بن هشام الْمُعَيْطِيّ مروج الحمام ويزيد بن أبي كَبْشَةَ أرض سورية . وفي سنة خمس وتسعين غزا العباس الروم ففتح هِرَقْلَةَ . وفي سنة سبع وتسعين غزا مسلمة أرض الرضاخيَّة وفتح الحصن الذي فتحه الرَّصاع ، وغزا عُمَرُ بن هُبَيْرَةَ أرض الروم في البحر فشتى بها، وبعث سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القُسْطَنْطِينِيَّةَ، وبعث ابنه داود على الصائفة ففتّح حصن المِراة، وفي سنة ثمان وتسعين مات ملك الروم ، فجاء أَلْقُونُ إلى سليمان فاخبره وضمن له فتح الروم ، وسار سليمان إلى وَابِقَ وبعث الجيوش مع أخيه مسلمة، ولما دنا من القُسْطَنْطِينِيَّة أمر أهل المعسكر أن يحمل كل واحد مدّينِ مذين من الطعام ويلقوه في معسكرهم ، فصار أمثال الجبال ، واتخذ البيوت من الخشب . وأمر الناس بالزراعة، وصافَ وشتى وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مُدَخَرا .

ثم جهد أهل القسطنطينية الحصار وسألوا الصلح على الجزية دينارا على الرأس ، فلم يقبل مسلمة، وبعث الروم إلى ألقون إن صرفتَ عنّا المسلمين ملّكناك ، فقال لمسلمة لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدهم بالقتال فنأخذهم باليد، وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم ، فاحرق الزرع فقوي الروم ، وغدر ألقون وأصبح محاربا ، وأصاب الناس الجوع فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق ، وسليمان مقيم بوابق وحالَ الشتاء بينهم وبينه ، فلم يقدر أن يمدهم حتى مات . وأغارت بِرْجانُ على مسلمة وهو في قلّة فهزمهم وفتح مدينتهم . وغزا في هذه السنة الوليد بن هشام ، فاثخن في بلاد الروم . وغزا داود بن سليمان سنة ثمان وتسعين ، ففتح حِصْنَ المِراةِ مما يلي مَلْطِيَةَ . وفي سنة تسع وتسعين بعث عمر بن عبد العزيز مسلمة وهو بأرض الروم ، وأمدّه بالنفول بالمسلمين ، وبعث إليه بالخيل والدواب وحث الناس على معونتهم . ثم أمر عمر بن عبد العزيز أهل طريدة بالجلاء عنها إلى ملطية وخَرّبها. وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين ، وفرض على أهل الجزيرة مَسْلَحَة تكون عندهم إلى فصل الشتاء، وكانت متوغلة في أرض الروم فخرّبها عمر، وولى على ملطية جَعُونَةَ بن الحارث من بني عامر بن صَعْصَعَةَ . وأغزى عمر سنة مائة من الهجرة بالصائفة الوليد بن هشام المعيطي وعمر بن قيس الكِنْديّ .

فتح جرجان وطبرستان :

كان يزيد بن المهلب يريد فتحهما لما أنهما كانتا للكفّار، وتوسطتا بين فارس وخراسان و لم يصبهما الفتح. وكان يقول وهو في جوار سليمان بالشام إذا قُصَّتْ عليه أخبار قتيبة وما يفعله بخراسان وما وراء النهر، ما فعلت جَرْجانُ التي قطعت الطريق وأفسدت يوُسس ونيسابور، وليست هذه الفتوح بشيءٍ والشأن في جرجان . فلما ولاّه سليمان خراسان سار إليها في مائة ألف من أهل العراق والشام وخراسان سوى الموالي والمُتَطَوِّعَةَ، و لم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال ومَخَارِمُ ، يقوم الرجل على باب منها فيمنعه . فابتدأ بقَهِسْتَانَ فحاصرها وبها طائفة من الترك ، فكانوا يخرجون فيقاتلون وينهزمون في كل يوم ويدخلون حصنهم . و لم يزل على ذلك حتى بعث إليه دهقان يَتَسْتَاذِنَ يسأل في الصلح وُيسَلم المدينة وما فيها، فصالحه وأخذ ما فيها من الأموال والكنوز والسُبيِّ ما لا يحصى ، وقتل أربعة عشر ألفاً من الترك ، وكتب إلى سليمان بذلك . ثم سار إلى جرجان ، وكان سعيد بن العاصي قد صالحهم على الجزية مائة ألف في السنة ، فكانوا أحياناً يجبون مائة وأحياناً مائتين وأحياناً ثلثمائة ، وربما أعطوا ذلك وربما منعوا، ثم كفروا و لم يعطوا خراجاً، و لم يأتِ جرجان بعد سعيد أحدٌ ومنعوا الطريق إلى خراسان على فكان الناس يسلكون على فارس وسَلْماس . ثم فتح قتيبة طريق قومِسَ ، وبقي أمر جرجان حتى جاء يزيد فصالحوه . ولما فتح يزيد قَهَسْتَانَ وجَرْجَانَ طمع في طبرستان ، فاستعمل عبد الله بن معمر اليَشْكُرِيّ على ساسان وقهستان ، وخلف معه أربعة آلاف فارس ، وسار إلى أدنى جرجان من جهة طبرستان ، ونزل بآمد . ونسا راشد بن عمر في أربعة آلاف ، ودخل بلاد طبرستان فسأل صاحبها الأصبَهْبَذ في الصلح ، وأن يخرج من طبرستان. فأبى يزيد ورجا أن يفتحها، ووجّه أخاه عُيَيْنَةَ من وجه ، وابنه خالد بن زيد من وجه ، وإذا اجتمعا فعُيينة على الناس . واستجاش الأصبهبذ أهل جيلان والديْلَم والتقوا ، فانهزم

المشركون ، واتبعهم المسلمون إلى الشّعْبِ ، وصعد المشركون في الجبل ، فامتنعوا على المسلمين وصعد أبو عيينة بمَن معه خلفهم ، فهزمهم المشركون في الوعر، فكفّوا. وكاتب الأصبهبذ أهل جرجان ومقدَّمهم المرزبان أن يبيتوا للمسلمين عندهم ليقطعوا المادة عن يزيد والطرق بينه وبين جرجان ، ووعدهم بالمكافأة على ذلك . فساروا بالمسلمين وهم غارّون ، وقتل عبد الله بن مَعْمَرَ وجميع مَن معه و لم يَنْجُ أحد . وكتبوا إلى الأصبهَبَذ بأخذ المضايق والطرق ، وبلغ ذلك يزيد وأصحابه فعَظُمَ عليهم وهالَهم ، وفزعٍ يزيد إلى حيّان النَبَطِي وكان قد غرمه مائتي ألف درهم بسبب أنه كتب إلى ابنه مخلد كتاباً فبدأ بنفسه ، فقال له لا يمنعك ما كان منّي إليك من نصيحة المسلمين ، وقد علمت ما جاء من جرجان فاعمل في الصلح . فأتى حيّان الأصبهبذ ومت إليه بنسب العجم وتنصّل له ، وفتل له في الذروة والغارب حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة وِقْر زعفران أو قيمته من العين ، وأربعمائة رجل على يد كل رجل منهم ترس وَطَيْلَسان وجام من فضة وخرقة حرير وكسوة، فأرسل يزيد لقبض ذلك ورجع ا ه .(وقيل) في سبب مسير يزيد إلى جَرْجان أنّ صولا

التركي كان على قهستان والبحيرة، جزيرة في البحر على خمسة فراسخ من قهستان ، وهما من جرجان مما يلي خوارزم ، وكان يُغير على فيروز بن فولفول مرزبان جرجان . وأشار فيروز بنصيب من بلاده ، فسار فيروز إلى يزيد هارباً منه ، وأخذ صول جرجان ، وأشار فيروز على يزيد أن يكتب إلى الأصبهبَذ ويرغّبه في العطاء إن هو حبس صولاً بجرجان حتى يحاصر بها، ليكون ذلك وسيلة إلى معاكسته وخروجه عن جرجان ، فيتمكّن يزيد منه . فكتب إلى الأصبهبذ وبعث بالكتاب إلى صول ، فخرج من حينه إلى البحيرة . وبلغ يزيد الخبر فسار إلى جرجان ومعه فيروز، واستخلف على خراسان إبنه مُخْلِداً، وعلى سَمَرْقَنْدَ وكَشَّ ونَسْفَ وبُخارَى إبنه معاوية، وعلى طَخَارِسْتَانَ ابن قُبَيْصَةَ بن المُهَلبِ ، وأتى جرجان فلم يمنعه دونها أحد ودخلها. ثم سار منها إلى البحيرة وحصر صولا بها شهراً حتى سأل الصلح على نفسه وماله وثلثمائة، ويسلّم إليه البحيرة، فأجابه

يزيد وخرج صول عن البحيرة، وقتل يزيد من الأتراك أربعة عشر ألفاً وأمر إدريس بن حَنْظَلَةَ العمي أن يحصي ما في البحرية، ليعطي الجند فلم يقدر، وكان فيها من الحنطة والشعير والأرُز والسمسم والعسل شيءٌ كثير، ومن الذهب والفِضَّةِ كذلك ولما صالح يزيد أصبهبَذ طبرستان كما قدّمناه سار إلى جرجان وعاهد الله إن ظفر بهم ليطحننّ القمح على سائل دمائهم ويأكل منه . فحاصرهم سبعة أشهر وهم يخرجون إليه فيقاتلونه ويرجعون ، وكانوا متمنّعين في الجبل والأوعار. وقصد رجل من عجم خراسان فأتبع بخلا في الجبل ، وانتهى إلى معسكرهم وعرف الطريق إليه ودلّ الأدلّة على معالمه ، وأتى يزيد فاخبره . فانتخب ثلثمائة رجل مع ابنه خالد، وضم إليه جَهْمَ بن ذَخْرٍ وبعثه ، وذلك الرجل يدل به ، وواعده أن يناهضهم العصر من الغداة . ولما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد ير حطب عنده حتى اضطرمت النيران ، ونظر العدوّ إلى النار فهالهم وحاملوا للقتال آمنين خلفهم ، فناشبهم يزيد إلى العصر، وإذا بالتكبير من ورائهم فهربوا إلى حصنهم ، واتبعهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد . فقتل المقاتلة وسبى الذّرية وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى وادي جرجان ، ومكّن أهل الثأر منهم حتى استلحموهم . وجرى الماء على الدم وعليه الأرحاء فطحن وخبز وأكل ، وقتل منهم أربعين ألفاً . وبنى مدينة جرجان و لم تكن بُنيت قبل ، ورجع إلى خراسان وولّى على جرجان جهم بن ذخر الجعفي ، ولما قتل مقاتلهم صلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره .

وفاة سليمان وبيعة عمر بن عبد العزيز:

ثم توفي سليمان بدابق من أرض قِّنسرين من سنة تسع وتسعين في صفر منها، وقد كان في مرضه أراد أن يعهد إلى ولده داود، ثم استصغره وقال له كاتبه رجاء بن حيوة ابنك غائب عنك بقُسْطَنْطِينية ولا يعرف حياتَه من موته ، فعدل إلى عُمَرَ بن عبد العزيز وقال له : !بي والله لأعلم أنها تكون فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده ، وكان عبد الملك قد جعل ذلك له ، وكتب بعد البسملة : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: إني قد ولّيتك الخلافة بعدي

ومن بعدك يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم وختم الكتاب . ثم أمر كعب بن جابر العبسي صاحب الشرطة أن يجمع أهل بيته ، وأمر رجاء بن حيوة أن يدفع لهم كتابه وقال : أخبرهم أنه كتابي فليبايعوا مَن ولّيت فيه ، فبايعوه رجلاً رجلاً وتفرقوا . وأتى عمر إلى رجاء يستعمله ويناشده الله والمودّة، يستعفي من ذلك ، فأبى وجاءه هشام أيضاً يستعمله ليطلب حقه في الأمر فأبى، فانصرف أسفاً أن يخرج منْ بني عبد الملك . ثم مات سليمان وجمع رجاء أهل بيته فقرأ عليهم الكتاب . فلما ذكر عمر قال هشام : والله لا نبايعه أبداً فقال له رجاء: والله نضرب عنقك . فقام أسفاً يجرّ رجليه ، حتى جاء إلى عمر بن عبد العزيز، وقد أجلسه رجاء على المنبر وهو يسترجع لما أخطأه ، فبايعه واتبعه الباقون . ودفن سليمان وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، والوليد كان غائباً عن موت سليمان ، ولم يعلم بيعة عمر، فعقد لواء ودعا لنفسه وجاء إلى دمشق . ثم بلغه عهد سليمان فجاء إلى عمر واعتذر إليه وقال : بلغني أنّ سليمان لم يعهد، فخفت على الأموال أن تنهَب فقال عمر: لو قمت بالأمر لقعدت في بيتي ولم أُنازعك ، فقال عبد العزيز: والله لا أحب لهذا الأمر غيرك ! وأول ما بدأ به عمر لما استقرّت البيعة أنه رد ما كان لفاطمة بنت عبد الملك زوجته من المال والحليّ والجوهر إلى بيت المال . وقال : لا أجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد، فردته جميعه . ولما وُلّي أخوها يزيد من بعد ردّه عليها فأبت وقالت : ما كنت أعطيه حياً أعطيه ميتاً، ففرّقه يزيد على أهله . وكان بنو أمية يسبون عليّاً، فكتب عمر إلى الأفاق بترك ذلك ، وكتب إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول بالمسلمين .

عزل يزيد بن المهلب وحبسه والولاية على عمّاله :

ولما استقرت البيعة لعمر كتب في سنة مائة إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عماله ويقدم ، فاستخلف مخلداً ابنه وقَدِمَ من خراسان ، وقد كان عمر ولى على البصرة عَدِيّ بن أرطاة الفَزَارِيّ ، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخَطَّاب ، وضم إليه أبا الزِناد، فكتب إلى عديّ بن أرطاة موسى أن يقبض على يزيد بن المهلب ويبعثه مقيداً، فلما نزل يزيد واسط ، وركب السفن يريد البصرة بعث علي بن أرطاة موسى بن الرحَيْبَةِ الحِمْيَري فلقيه في نهر معقل عند الجسر، فقيّده وبعث به إلى عمر، وكان عمر يبغضه ويقول إنه مراءٍ وأهل بيته جبابرة .

فلما طالبه بالأموال التي كتب بها إلى سليمان من خمس جرجان قال : إنما كتبت لأسمع الناس ، وعلمت أنّ سليمان لم يكن ليأخذني بذلك . فقال له عمر: اتق الله ، وهذه حقوق المسلمين لا يسعني تركها. ثم حبسه بحصن حلب ، وبعث الجراح بن عبد الله الحَكَمِيّ والياً على خُراسان مكانه . وانصرف يزيد بن يزيد فَقَدِمَ على عمر واستعطفه لأبيه ، وقال له يا أمير المؤمنين إن كانت له بيّنة فخذ بها وإلا فاستحلفه ،وإلا فصالحه أو فصالحني على ما تسأل ، فأبى عمر من ذلك وشكر من مخلد ما فعل ثم ألبس يزيد جبة صوف ، وحمله على جمل وسيّره إلى دَهْلَك . ومر يزيد على الناس وهو ينادي بعشيره وبالنكير لما فعل به ، فدخل سلامة بن نعيم

الخَولاني على عمر، وقال اردد يزيد إلى محبسه لئلا ينزعه قومه ، فإنهم قد غضبوا فردّه إلى أن كان من أمر فزارة ما يذكر.

ولاية عبد الرحمن بن نعيم القشيري على خراسان :

ولما عزل يزيد عن خراسان وكان عامل جَرجَانَ جَهْمُ بن ذُخْر الجَعْفِي ، فأرسل عامل العراق على جرجان عاملاً مكانه ، فحبسه جهم وقيده . فلما جاء الجراح إلى خراسان أطلق جرجان عاملهم ، ونكر الجَّراح على جهم ما فعل . وقال لولا قرابتك منّي ما سَوَّغْتُكَ هذا! يعني أن جهماً وجعفاً معاً ابنا سعد العشيرة . ثم بعث في الغزو وأوفد على عمر وفداً فكلّم فيه بعضهم عمر بأنه يعرِّي الموالي بلا عطاءٍ ولا رزق ، ويؤاخذ مَن أسلم من أهل الذمة بالخراج . ثم عرض بأنه سيف من سيوف الجراح قد علم بالظلم والعدوان ، فكتب عمر إلى الجّراح انظر مَن صلّى قِبَلك فخل عنه الجزية، فسارع الناس إلى الإسلام فِراراً من الجزية فامتحنهم بالختان وكتب إلى عمربذلك . فكتب إليه عمر أن : الله بعث محمدا داعياً، و لم يبعثه خاتناً، واستقدم الجرّاح وقال : احمل معك أبا مُخْلد واستخلف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم القُشَيْرِي . ولما قَدِمَ على عمر قال : متى خرجت ؟ قال في شهر رمضان . قال صدقك مَن وصفك بالجفاء، ألا أقمت حتى تفطر ثم تسافر. ثم سأل عمر أبا مخلد عن عبد الرحمن بن عبد الله فقال : يكافىء الأكفاء، وُيعادي الأعداء ويقدم إن وجد ما يساعده . قال فعبد الرحمن بن نعيم ؟ قال يحب العافية وتأتيه ! قال

هو أحب إليّ ، فولاّه الصلاة والحرب ، وولّى عبد الرحمن القشيري الخراج . فلم يزل عبد الرحمن بن نعيم على خراسان حتى قتل يزيد بن المهلّب ، وولي مسلمة . فكانت ولايته أكثر من سنة ونصف. . وظهر من أيام الجرّاح بخراسان دعاة بني العباس فيمن بعثه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إلى الأفاق حسبما يذكر في أخبار الدولة العباسية

وفاة عمر بن عَبْد العزيز وبيعة يزيد:

ثم توفي عمر بن عَبْد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة بدير سمعان، ودفن بها السنتين وخمسة أشهر من ولايته، ولأربعين من عمره، وكان يدعى أشجّ بني أُمَيَّة، رمحته دابة وهو غلام فشجّته. ولما مات ولي بعده يزيد بن عَبْد الملك بعهد سليمان كما تقدم، وقيل لعمر حين احتضر: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة، فقال بماذا اوصيه؟ إنه من بني عَبْد الملك ! ثم كتب: أمَّا بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، إنك تترلى ما أترك لمن لا يحمدك وتصير إلى من لا يعذرك والسلام. ولما ولي يزيد عزل أبا بكربن محمد بن عمر بن حزم عن المدينة، وولى عليها عَبْد الرحمن بن الضحّاك بن قيس الفهري، وغير كل ما صنعه عمر بن عَبْد العزيز، وكان من ذلك شأن خراج اليمن. فإن محمدا أخا الحجاج جعل عليهم خراجاً مجدداً، وأزال ذلك عمر إلى العشر أو نصف العشر. وقال: لئن يأتيني من اليمن حبة ذرة أحب إلي من تقرير هذه الوظيفة. فلما ولي يزيد أعادها وقال لعامله خذها منهم ولو صاروا حرضاً. وهلك عمه محمد بن مروان فولى مكانه على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية عمه الاخر مسملمة بن عبد الملك.

احتيال يزيد بن المهلب ومقتله:

قد تقدّم لنا حبس يزيد بن المهلب، فلم يزل محبوساً حتى اشتدّ مرض عمر بن عَبْد العزيز فعمل في الهرب مخافة يزيد بن عَبْد الملك لأن زوجته بنت أخي الحجّاج. وكان سليمان أمر ابن المهلب بتعذيب قرابة الحجاج كلهم، فنقلهم من البلقاء وفيهم زوجة يزيد وعذبها. وجاءه يزيد بن عَبْد الملك إلى مترله شافعاً فلم يشفعه، فضمن حمل ما قرر عليها فلم يقبل، فتهدده فقال له ابن المهلب: لئن وليت أنت لأرمينك بمائة ألف سيف، فحمل يزيد بن عَبْد الملك عنها مائة ألف دينار، ولما اشتدّ مرض عمر خاف من ذلك وأرسل إلى مواليه أن يغدوا إليه بالإبل والخيل في مكان عينه لهم. وبعث إلى عامل حلب بإشفاقه من يزيد، وبذل له المال وإلى الحرس الذين يحفظونه فخلى سبيله، وأتى إلى دوابه فركبها ولحق بالبصرة. وكتب إلى عمر إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك. ولكن خفت أن يقتلني يزيد شرّقتلة. فقرأ عمر الكتاب وبه رمق، فقال اللهم إن كان ابن المهلب يريد بالمسلمين سوءا فألحقه به وهضه فقد هاض. انتهى. ولما بويع ليد بن عبد الملك، كتب إلى عَبْد الحميد بن عَبْد الرحمن بالكوفة، وإلى عدىّ بن أرطاة بالبصرة بهربه والتحرّ منه،. وأبى عدي أن يأخذ المهلب بالبصرة، فحبس المفضّل حبيباً ومروان ابني المهلب، وبعث عَبْد الحميد من الكوفة جنداً عليهم هشام بن ساحق بن عامر فأتوا العذيب ومرّ بيزيد عليهم فوق القطقطانة فلم يقدموا عليه. ومضى نحو البصرة وقد جمع عدي بن أرطاة أهل البصرة وخندق عليها، وبعث على خيلها المغيرة بن عَبْد الله بن أبي عقيل. وجاء يزيد على أصحابه الذين معه، وانضم إليه أخوه محمد فيمن اجتمع إليه من قومهم. وبعث عدي بن أرطاة على كل خمس من أخماس البصرة رجالاً: فعلى الأزد الفغيرة بن زياد بن عمر العتكيّ، وعلى تميم مخرز بن حمدان السعدي، وعلى بكرة نوح بن شيبان بن مالك بن مسمع، وعلى عَبْد القيس مالك بن المنذر بن الجارود، وعلى أهل العالية عَبْد الأعلى بن عَبْد الله بن عامر، وهم قُرَيْش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة، فلم يعرضوا ليزيد وأقبل فانزل. انتهى.

واختلف الناس إليه، وأرسل إلى عدي أن يطلق له إخوته فيترل به البصرة، ويخرج حتى يأخذ لنفسه من يزيد، وبعث حميد ابن أخيه عَبْد الملك بن المهلب يستأمن له من يزيد بن عَبْد الملك، فأجاره خالد القسري وعمر بن يزيد الحكمي بأمان يزيد له ولأهله. وقد كان بعد منصرف حميد فرق في الناس قطع الذهب والفضة فانثالوا طيه، وعدي يعطي درهمين درهمين. ثم تناجزوا الحرب وحمل أصحاب يزيد على أصحاب عدي فالهزموا ودنا يزيد من القصر، وخرج عدي بنفسه، فالهزم أصحابه وخاف أخوة يزيد وهم في الحبس أن يقتلوا قبل وصوله، فأغلقوا الباب وامتنعوا، فجاءهم الحرس يعالجون فأجفلهم الناس عنه، فخلوا عنهم وانطلقوا إلى أخيهم. ونزل يزيد دار مسلم بن زياد إلى جنب القصر، وتسؤر القصر بالسلالم وفتحه، واتى بعدي بن أرطاة فحبسه. وهرب رؤس البصرة من تميم وقيس ومالك بن المنذر إلى الكوفة والشام. وخرج المغيرة بن زياد بن عمر العتكي إلى الشام، فلقي خالدا القسري وعمر بن يزيد، وقد جاؤوا بأمان يزيد بن المهلب مع حميد ابن أخيه فأخبرهما بظهور

يزيد على البصرة، وحبسه عدياً، فرجعا إلى وعد لهما فلم يقبلا، فقبض عَبْد الحميد بن عَبْد الرحمن بالكوفة على خالد بن يزيد بن المهلب وحماد بن ذخر وحملهما وسيرهما الى الشام، فحبسهما يزيد حتى هلكا بالسجن. وبعث يزيد بن عَبْد الملك إلى أهل الكوفة يثني عليهم ويمنيهم الزيادة، وجهز أخاه مسلمة وابن أخيه العبّاس بن الوليد إلى العراق في سبعين ألف مقاتل أو ثمانين من أهل الشام والجزيرة، فقدموا الكوفة ونزلوا النخيلة. وتكلم العباس يوماً ببعض الكلام فأساء عليه حيان النبطي بالكشة الأعجمية. ولما سمع ابن المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام فخطب الناس وشجعهم للقائهم وهون عليهم أمرهم، وأخبرهم أن أكثرهم له. واستوثق له أهل البصرة وبعث عماله على الأهواز وفارس وكرمان. وبعث إلى خراسان مدرك بن المهلب وعليها عَبْد الرحمن بن نعيم، وبعث بنو تميم ليمنعوه. ولقيه الأزد على رأس المغارة فقالوا ارجع عنا حتى نرى مآل أمركم. ثم خطب يزيد الناس يدعوهم إلى الكتاب والسنة ويحثهم على الجهاد، وأن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم، ونكر ذلك الحسن البصري والنضر بن أنس بن مالك، وتابعهما الناس في النكير.

وسار يزيد من البصرة إلى واسط واستخلف عليها أخاه مروان بن المهلب. وأقام بواسط أياماً، ثم خرج منها سنة اثنتين ومائة، واستخلف عليها أمان معونة. وقدم أخاه عَبْد الملك بن المهلب نحو الكوفة، فاستقبله ابن الوليد بسور له، فاقتتلوا وانهزم عَبْد الملك، وعاد إلى يزيد. وأقبل مسلمة على شاطىء الفرات إلى الأنهار فعقد الجسر وعبر وسار، حتى نزل على يزيد بن المهلب، وفزع إليه ناس من أهل الكوفة، وكان عساكره مائة وعشرين. وكان عَبْد الحميد بن عَبْد الرحمن قد عسكر بالنخيلة، وشق المياه وجعل الأرصاد على أهل الكوفة أن يغزعوا إلى يزيد بن المهلب، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع صبرة بن عَبْد الرحمن بن مختف، فعزل مسلمة بن عَبْد الحميد عن الكوفة، واستعمل عليها محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة. ثم أراد يزيد بن المهلب أن يبعث أخاه محمدا بالعساكر يبيتون مسلمة، فأبى عليه أصحابه وقالوا قد وعدناهم بالكتاب والسنة ووعدوا بالإجابة فلا نغدرهم. فقال يزبد: ويحكم تصدقونهم، إنهم

يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم إليه، والله ما في بني مروان أمكر ولا أبعد غوراً من هذه الجرادة الصغرى يعني مسلمة. وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحث الناس على اللحاق بيزيد أخيه والحسن البصري يثبطهم ويتهدده فلم يكف. ثم طلب الذين يجتمعون إليه فافترقوا، فأقام مسلمة بن عَبْد الملك يطاول يزبد بن المهلب ثمانية أيام. ثم خرج يوم الجمعة منتصف صفر فعبى أصحابه، وعبى العباس بن الوليد كذلك، والتقوا واشتد القتال، وأمر مسلمة فأحرق الجسر فسطع دخانه. فلما رآه أصحاب يزيد انهزموا، واعترضهم يزيد يضرب في وجوههم حتى كثروا عليه، فرجع وترجّل في أصحابه. وقيل له قتل أخوك حبيب، فقال لا خير في العيش بعده ولا بعد الهزيمة. ثم استمات ودلف إلى مسلمة لا يريد غيره، فعطف عليه أهل الشام فقتلوه هو وأصحابه، وفيهم أخوه محمد. وبعث مسلمة برأسه إلى يزيد بن عَبْد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة. وقيل: إن الذي قتله الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابئ، وأنف أن يترل فيأخذ رأسه فأخذه غيره. وكان المفضل لن المهلب يقاتل في ناحية المعترك، وما علم اه. بقتل يزيد، فبقي ساعة كذلك يكر ويفرحتى اخبربقتل إخوته،

فافترق الناس عنه ومضى إلى واسط. وجاء أهل الشام إلى عسكر يزيد فقاتلهم أبو رؤبة رأس الطائفة المرجئة ومعه جماعة من صدق، فقاتلوا ساعة من النهار ثم انصرفوا. وأسر مسلمة ثلثمائة أسير حبسهم في الكوفة.

وجاء كتاب يزيد إلى محمد بن عمر بن الوليد بقتلهم، فأمر العريان بن الهيثم صاحب الشرطة بذلك، وبدأ بثمانين من بني تميم فقتلهم. ثم جاء كتاب يزيد بإعفائهم فتركهم. وأقبل مسلمة فترل الحيرة، وجاء الخبر بقتل يزيد إلى واسط، فقتل ابنه معاوية عديّ بن أرطاة ومحمدا ابنه ومالكاً وعبد الملك ابنا مسمع في ثلاثين، ورجع إلى البصرة بالمال والخزائن. واجتمع بعمه المفضل وأهل بيتهم، وتجهزوا للركوب في البحر، وركبوا إلى قندابيل وبها وداع بن حميد الأسدي، ولاه عليها يزيد بن المهلب ملجأ لأهل بيته إن وقع بهم ذلك، فركبوا البحر بعيالهم وأموالهم إلى جبال كرمان فترلوا بها، واجتمع إليه الفل من كل جانب. وبعث مسلمة مدرك بن ضب الكلبى في طلبهم فقاتلهم، وقتل من أصحاب المفضل النعمان بن إبراهيم، ومحمد بن إسحق بن محمد بن الأشعث وأسر ابن صول قهستان. وهرب عثمان بن إسحق بن محمد الأشعث، فقتل وحمل رأسه إلى مسلمه بالحيرة. ورجع ناس من أصحاب بني المهلب فاستأمنوا، وأمنهم مسلمة منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر والورد

بن عَبْد الله بن حبيب السعدي التميمي. ومضى إلى آل المهلب ومن معهم بقندابيل، فمنعهم وداع بن حميد من دخولها، وخرج معهم لقتال عدوهم. وكان مسلمة قد رد مدرك بن ضبّ بعد هزيمتهم في جبال كرمان، وبعث في أثرهم هلال بن أحور التميمي فلحقهم بقندابيل، فتبعوا لقتاله. !وبعث هلال راية أمان، فمال إليه وداع بن حميد، وعبد الله بن هلال، وافترق الناس عن آل المهلب. ثم استقدموا فاستأمنوا فقتلهم عن اخرهم: المفضل وعبد الملك وزياد ومروان بنو المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب، والمنهال بن أبي عيينة بن المهلب، وعمر بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضل بن المهلب برتبيل ملك الترك. وبعث هلال بن أحوز برؤوسهم وسبيهم وأسراهم إلى مسلمة بالحيرة، فبعث بهم مسلمة إلى يزيد بن عَبْد الملك، فسيرهم يزيد إلى العباس بن الوليد في حلب، فنصب الرؤوس. وأراد مسلمة أن يبتاع الذرية فاشتراهم الجراح بن عَبْد الله الحكيمي بمائة ألف وخلى سبيلهم. ولم يأخذ مسلمة من الجراح شيئاً. ولما قدم بالأسرى على يزيد بن عَبْد الملك وكانوا ثلاثة عشرأمريزيد فقتلوا وكلهم من ولد المهلب، واستأمنت هند بنت المهلب لأخيها عيينة إلى يزيد بن عَبْد الملك فأمنه، وأقام عمرو وعثمان عند رتبيل حتى أمنهما أسد بن عَبْد الله القسري وقدما عليه بخرا سان.

ولاية مسلمة علي العراق وخراسان:

ولما فرغ مسلمة بن عَبْد الملك من حرب بني المهلب ولأه يزيد بن عَبْد الملك على العراق وجمع له ولاية البصرة والكوفة وخراسان، فأقر على الكوفة محمد بن عمر بن الوليد، وكان قد قام بأمر البصرة بعد بني المهلب شبيب بن الحارث التميمي، فبعث عليها مسلمة عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وعلى شرطتها عمر بن يزيد التميمي. وأراد عَبْد الرحمن أن يقتل شيعة ابن المهلب بالبصرة، فعزله وولى على البصرة عَبْد الملك بن

بشر بن مروان. وأقر عمر بن يزيد على الشرطة. واستعمل مسلمة على خراسان صهره على سعيد بن عَبْد العزيزبن الحارث بن الحكم بن أبي العباس

ويلقب سعيد خدينة. دخل عليه بعض العرب بخراسان وعليه ثياب مصبغة، وحوله مرافق مصبغة. وسئل عنه لّما خرج فقال: خدينة، وهي الدهقانة ربة البيت. ولما ولاه على خراسان، سار إليها فاستعمل شعبة بن ظهير النهشلي على سمرقند. فسار إليها وقدم الصغد، وكان أهلها كفروا أيام عَبْد الرحمن بن نعيم، ثم عادوا إلى الصلح. فوبخ ساكنها من العرب وغيرهم بالجبن، فاعتذروا بأمر أميرهم علي بن حبيب العبدي. ثم حبس سعيد عمال عَبْد الرحمن بن عَبْد الله وأطلقهم، ثم حبس عمال يزيد بن المهلب، رفع لهم أنهم اختانوا الأموال فعذبهم، فمات بعضهم في العذاب، وبقي بعضهم في السجن حتى غزاهم الترك والصغد فأطلقهم.

العهد لهشام بن عَبْد الملك والوليد بن يزيد:

لّما بعث يزيد بن عَبْد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب مع مسلمة أخيه والعباس بن أخيه الوليد قال له العباس: إنا نخاف أن يرجف أهل العراق بموتك، ويبث ذلك في أعضادنا، وأشار عليه بالعهد لعبد العزيز أخيه ابن الوليد، وبلغ ذلك مسلمة فجاءه وقال: أخوك أحق فإن ابنك لم يبلغ، وأشار عليه بأخيه هشام وابنه الوليد من بعده، والوليد ابن إحدى عشرة سنة فبايع لهما كذلك. ثم بلغ ابنه الوليد فكان إذا رآه يقول: الله بيني وبين من قدم هشاماً عليك.

غزوة الترك:

لّما ولي سعيد خراسان استضعفه الناس وسموه خدينة، واستعمل شعبة على شمرقند ثم عزله كما مر، وولّى مكانه عثمان بن عَبْد الله بن مطرف بن الشخير فطمعت الترك، وبعثهم خاقان إلى الصغد، وعلى الترك كورصول وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي وفيه مائة أهل بيت بذراريهم، وكتبوا إلى عثمان بسمرقند وخافوا أن يبطىء المدد، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً، وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة. وندب عثمان الناس فانتدب المسيب بن بشر الرياحي ومعه أربعة آلاف من سائر القبائل. فقال لهم المسيب من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم! فرجع عنه ألف، وقالها بعد فرسخ فرجع ألف ألف آخر، ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف. وسار حتى كان

على فرسخين من العدو، فأخبره بعض الدهاقين بقتل الرهائن وميعادهم غداً. وقال أصحابي ثلثمائة مقاتل وهم معكم، فبعث المسيب إلى القصر رجلين عجمياً وعربياً يأتيانه بالخبر، فجاؤوا في ليلة مظلمة، وقد أجرت الترك الماء بدائر القصر لئلا يصل إليه أحد، فصاح بهما فقالا له اسكت وادع لنا فلاناً. فأعلماه قرب العسكر وسألا هل عندكم امتناع غداً؟ فقال لهما نحن مستميتون. فرجعا إلى المسيب فأخبراه، فعزم على تبييت الترك، وبايعه أصحابه على الموت، وساروا يومهم إلى الليل. ولما أمسى حثهم على الصبر وقال: ليكن شعاركم يا محمد، ولا تتبعوا مولياً، واعقروا الدواب فإنه أشد عليهم، وليست بكم قفة فإن سبعمائة سيف لا يضرب بها في عسكر إلا أوهنته، وإن كثر أهله. ثم دنوا من العسكر في السحر، وثار الترك وخالطهم المسلمون، وعقروا

الدواب وترجل المسيب في أصحاب له فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل عظيم من عظماء الترك فانهزموا. ونادى منادي المسيب لا تتبعوهم، واقصدوا القصر واحملوا من فيه، ولا تحملوا من متاعهم إلا المال. ومن حمل امرأة أو صبئا أو ضعيفاً حسبة فأجره على الله، وإلا فله أربعون درهماً. وحملوا من في القصر إلى سمرقند، ورجع الترك من الغد فلم يروا في القصر أحداً. ورأوا قتلاهم فقالوا لم يكن الذين جاؤونا بالأمس.

غزو الصغد:

ولما كان من انتقاض الصغد وإعانتهم الترك على المسلمين ما ذكرنا، تجهزسعيد لغزوهم وعبر النهر، فلقيه الترك وطائفة من الصغد، فهزمهم المسلمون. ونهاهم سعيد عن أتباعهم، وقال: هم جباية أمير المؤمنين فانكفوا عنهم. ثم سار المسلمون إلى واد بينهم وبين المرج، فقطعه بعض العسكر وقد أكمن لهم الترك، فخرجوا عليهم. وانهزم المسلمون إلى الوادي، وقيل بل كان المنهزمون مسلحة للمسلمين. وكان فيمن قتل شعبة ان ظهر في خمسين رجلاً. وجاء الأمير والناس فانهزم العدو. وكان سعيد إذا بعث سرية فأصابوا وغنموا وسبوا رد السبي وعاقب السرية، فثقل سعيد على الناس وضعفوه. ولما رجع من هذه الغزاة وكان سورة بن الأبجر قد قال لحّيان النبطيّ يوم أمر سعيد بالكف عن الصُغْد وأنهم جباية أمير المؤمنين. فقال: سورة إرجع عنهم يا حيّان، فقال: عقيرة

الله لا أدعها، فقال: انصرف يا نبطيّ قال أنبط الله وجهك. فحقدها عليه سورة وأغرى به سعيد خدينة وقال: إنه أفسد خراسان على قتيبة، ويثب عليك ويتحصن ببعض القلاع. فقال له سعيد: لا يسمع هذا منك أحد، ثم حاول عليه وسقاه لبناَ قد ألقى فيه ذهباً مسحوقا. ثم ركض والناس معه أربعة فراسخ، فعاش حيّان من بعدها ليالى قلائل ومات.

ولاية ابن هبيرة علي العراق وخراسان:

كان مسلمة لّما ولي على هذه الأعمال لم يدفع من الخراج شيئاً، واستحيا يزيدة من عزله، فكتب إليه بالقدوم وأن يستخلف على عمله. وسار لذلك سنة ثلاث وأربعمائة، فلقيه عمر بن هبيرة بالطريق على دواب البريد وقال: وجهني أمير المؤمنين لحيازة أموال بني المهلب، فارتاب لذلك، وقال له بعض أصحابه: كيف يبعث ابن هبيره من عند الجزيرة لمثل هذا الغرض؟ ثم أتاه أن ابن هبيرة عزل عماله. وكان عمر بن هبيرة من النجابة بمكان، وكان الحجّاج يبعثه في البعوث، وهو ممن سار لقتال مطرف بن المغيرة حين خلع، ويقال إنه الذي قتله وجاء برأسه. فسيره الحجّاج إلى عَبْد الملك فأقطعه قرية قريبة من دمشق، ثم بعثه إلى كروم ابن مرثد الفزاري ليخلص منه مالاً، فارتاب وأخذ المال ولحق بعبد الملك عائدا به من الحجّاج. وقال قتلت ابن عمه ولست آمنه على نفسي، فأجاره عَبْد الملك، وكتب الحجّاج إليه فيه. فقال أمسك عنه، وعظّم شأنه عَبْد الملك وبنوه واستعمله عمر بن عَبْد العزيز على الروم من ناحية أرمينية، وأثخن فيهم وأسر سبعمائة منهم وقتلهم.

واستخدم أيام يزيد لمحبوبته حبابة، فسعت له في ولاية العراق، فولاه يزيد مكان أخيه مسلمه. ولّما ولي قدم عليه المجشر بن مزاحم السلمي وعبد الله بن عمر الليثي في وفد، فشكوا من سعيد وحذيفة عاملهم، وهو صهر

مسلمة، فعزله وولى مكانه على خراسان سعيد بن عمر الخريشي من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، فسار حذيفة عن خراسان، وقدم سعيد فلم يعرض لعماله. ولما قدم على خراسان كان الناس بإزاء العدو، وقد نكثوا فحثهم على الجهاد، وخاف الصغد منه بما كانوا أعانوا الترك أيام حذيفة، فقال لهم ملكهم: احملوا له خراج ما مضى، واضمنوا خراج ما يأتي

والعمارة والغزو معه، وأعطوه الرهن بذلك. فأبوا إلاّ أن يستجيروا بملك فرغانة وخرجوا من بلادهم إلى خجندة وسألوا الجوار وأن يترلوا شعب عصام. فقال: أمهلونا عشرين يوماً أو أربعين لنخليه لكم، وليس لكم علي جوار قبل دخولكم إياه. ثم غزاهم الحريش سنة أربع ومائة، فقطع النهر وترك قصر الريح على فرسخين من الدنوسية، وأتاه ابن عم ملك فرغانة يغريه بأهل الصغد وأنهم بخجندة، ولم يدخلوا جواره بعد، فبعث معه عَبْد الرحمن القسري في عسكر، وجاء في أثره حتى نزلوا على خجندة، وخرج أهل صغد لقتالهم فانهزموا، وقد كانوا حفروا خندقاً وغطوه بالتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال، فلما انهزموا ذلك اليوم أخطأهم الطريق وأسقطهم الله في ذلك الخندق. ثم حاصرهم الحريشي ونصب عليهم المجانيق، وأرسلوا إلى ملك فرغانة ليجيرهم. فقال قد شرت عليكم أن لا جوار قبل الأجل الذي بيني وبينكم. فسألوا الصلح من الحريشي على أن يردوا ما في أيديهم من سبي العرب، ويعطوا ما كسرمن الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة وإن أحدثوا حدثاً استبيحت دماؤهم. فقبل منهم وخرجوا من بخجندة، ونزلوا في العسكر على كل من يعرفه. وبلغ الحريشي أنهم قتلوا امرأة فقتل قاتلها، فخرج قبيل منهم فاعترض الناس وقتل جماعة. وقتل الصغد من أسرى المسلمين مائة وخمسين، ولقي الناس منهم عنفاً، ثم أحاطوا بهم وهم يقاتلون بالخشب ليس لهم سلاح، فقاتلوا عن آخرهم ثلاثة آلاف أو سبعة آلاف. وكتب الحريشي إلى يزيد بن عَبْد الملك ولم يكتب لعمر بن هبيرة، فأحفظه ذلك ثم سرح الحريشي سليمان بن أبي السرى إلى حصن يطيف به وراء الصغد ومعه خوارزم شاه وملك أجرون وسومان، فسار سليمان وعلى مقدمته المسيب بن بشر الرياحي، ولقيه أهل الحصن فهزمهم ثم حاصرهم، فسألوا الصلح على أن لا يعرض لسبيهم ويسلموا القلعة بما فيها فقبل، وبعث إلى الحريشي فقبضه، وبعث من قبضه. وسار الحريشي إلى كش فصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر بن سيار على قبضها. واستعمل على كش ونسف حرباً وخراجاً سليمان بن السرى واستترل مكانه آخر اسمه قشقري من حصنه على الأمان وجاء به إلى مرو فشنقه وصلبه.

ولاية الجراح علي أرمينية وفتح بلنجر:

ولما سار ابن هبيرة على الجزيرة وأرمينية تشبب البهراني، فحفل لهم الخزر وهم التركمان، واستجاشوا بالقفجاق وغيرهم من أنواع الترك ولقوا المسلمين بمرج الحجارة، فهزموهم، واحتوى التركمان على عسكرهم وغنموا ما فيه. وقدم المنهزمون على يزيد بن عَبْد الملك، فولى على أرمينية الجراح بن عَبْد الله الحكمي وأمده بجيش كثيف، وسار لغزو الخزر فعادوا للباب والأبواب. ونزل الجراح بردعة فأراح بها قليلاً. ثم سار نحوهم وعبر نهر الكر، وأشاع الإقامة ليرجع بذلك عيونهم إليهم. ثم أسرى من ليلته وأجد السير إلى

مدينة الباب، فدخلها وبث السرايا للنهب والغارة. وزحف إليه التركمان وعليهم ابن ملكهم، فلقيهم عند نهر الزمان واشتد القتال بينهم، ثم انهزم التركمان وكثر القتل فيهم، وغنم المسلمون ما معهم، وساروا حتى نزلوا على الحصن، ونزل أهلها على الأمان فقتلهم. ثم سار إلى مدينة برغوا فحاصرها ستة أيام، ثم نزلوا على الأمان فقتلهم، ثم ساروا إلى بلنجر، وقاتلهم التركمان دونها فانهزموا وافتتح الحصن عنوة. وغنم المسلمون جميع ما فيه. فأصاب ألفارس ثلاثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً. ثم إن الجراح رجع حصن بلنجر إلى صاحبه، ورد عليه أهله وماله، على أن يكون عيناً للمسلمين على الكفار. ثم نزل على حصن الوبيد وكان به أربعون ألف بيت من الترك، فصالحوا الجراح على مال أعطوه إياه. ثم تجمع الترك والتركمان وأخذوا الطرق على المسلمين، فأقام في رستاق سبى وكتب إلى يزيد بالفتح وطلب المدد، وكان ذلك آخر عمر يزيد. وبعث هشام بعد ذلك إليه بالمدد وأقره على العمل.

ولاية عَبْد الواحد القسري علم المدينة ومكة:

كان عَبْد الرحمن بن الضحّاك عاملاً على الحجاز منذ أيام عمر بن عَبْد العزيز، وأقام عليها ثلاث سنين ثم حدثته نفسه خطبة فاطمة بنت الحسين فامتنعت، فهددها بأن يجلد ابنها في الخمر، وهو عَبْد الله بن الحسين المثنى، وكان على ديوان المدينة عامل من أهل الشام يسمى ابن هرمز. ولما رفع حسابه وأراد السير إلى يزيد، جاء ليودع فاطمة، فقالت اخبر أمير المؤمنين بما ألقى من ابن الضحاك وما يتعرض لي. ثم بعث

رسولها بكتابها إلى يزيد يخبره. وقدم ابن هرمز على يزيد، فبينما هو يحدثه عن المدينة قال الحاجب: بالباب رسول فاطمة بنت الحسين، فذكر ابن هرمز ما حملته. فنزل عن فراشه وقال: عندك مثل هذا وما تخبرني به؟ فاعتذر بالنسيان. فأدخل يزيد الرسول وقرأ الكتاب، وجعل ينكث الأرض بخيزرانة ويقول: لقد اجترأ ابن الضحاك، هل من رجل يسمعني صوته في العذاب؟ قيل له عَبْد الواحد بن عَبْد الله القسري. فكتب إليه بيده: قد وليتك المدينة، فانهض إليها واعزل ابن الضحّاك

وغرمه أربعين ألف دينار، وعذبه حتى أسمع وأنا على فراشي. وجاء البريد بالكتاب إليه، ولم يدخل على ابن الضحّاك، فأحضر البريد ودس إليه بألف دينار لأخبره الخبر، فسار ابن الضحّاك إلى مسلمة بن عَبْد الملك واستجار به، وسأل مسلمة في يزيد. فقال والله لا أعفيه أبداً. فرده مسلمة إلى عَبْد الواحد بالمدينة فعذبه ولقي شراً، ولبس جبة صوف يسأل الناس، وكان قد آذى الأنصار فذموه، وكان قدوم القسري في شوال سنة أربع ومائة، وأحسن السيرة فأحبه الناس، وكان يستشير القاسم بن محمد وسالم بن عَبْد الله.

عزل الحريشي وولاية مسلم الكلبي علي خراسان:

كان سعيد الحريشي عاملاً على خراسان لابن هبيرة كما ذكرنا، وكان يستخف به ويكاتب الخليفة دونه، ويكنيه أبا المثنى. وبعث من عيونه من يأتيه بخبره، فبلغه أعظم مما سمع، فعزله وعذبه حتى أدى الأموال، وعزم على قتله ثم كف عنه. وولّى ابن هبيرة على خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، ولما جاء إلى خراسان حبسه وقيده وعذبه كما قلنا. فلما هرب ابن هبيرة بعد ذلك عن العراق أرسل خالد القسري في

طلبه الخريشي فأدركه على الفرات. وقال لابن هبيرة ما ظنك بي؟ قال إنك لا تدفع رجلاً من قومك إلى رجل من قسر. قال هو ذاك ثم انصرف وتركه.

وفاة يزيد وبيعة هشام:

ثم توفي يزيد بن عَبْد الملك في شعبان سنة خمس ومائة لأربع سنين من خلافتة، وولّى بعده أخوه هشام بعهده إليه بذلك كما مر، وكان بحمص فجاءه الخبر بذلك، فعزل عمر بن هبيرة عن العراق وولّى مكانه خالد بن عَبْد الله القسري فسار إلى العراق من يومه.

غزو مسلم الترك:

غزا مسلم بن سعيد الترك سنة خمسة ومائة، فعبر النهر وعاث في بلادهم ولم يفتح شيئاً، وقفل فأتبعه الترك ولحقوه على النهر، فعبر بالناس ولم ينالوا منه. ثم غزا بقية السنة وحاصرأفشين حتى صالحوه على ستة آلاف رأس، ثم دفعوا إليه القلعة. ثم غزا سنة ست ومائة، وتباطأ عنه الناس، وكان ممن تباطأ البختري بن درهم فرد مسلم نصر بن سيار إلى بلخ وأمره أن يخرج الناس إليه، وعلى بلخ عمر بن قتيبة أخو مسلم، فجاء نصر وأحرق باب البختري وزياد بن طريف الباهلي. ثم منعهم عمر من دخول بلخ، وقد قطع سعيد النهر، ونزل نصر بن سيار البروقان، وأتى جند الضلاضيان، وتجمعت ربيعة والأزد بالبروقان على نصف فرسخ من نصر، وخرجت مضر إلى نصر، وخرج عمر بن مسلم إلى ربيعة والأزد وتوافقوا، وسفر الناس بينهما في الصلح، وانصرف نصر. ثم حمل البختري وعمر بن مسلم على نصر، فكرعليهم فقتل منهم ثمانية عشر وهزمهم، وأتى بعمر بن مسلم والبختري وزياد بن طريف فضربهم مائة مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم وألبسهم المسوح. وقيل إن سبب تعزير عمر بن مسلم انهزام تميم عنه، وقيل انهزام ربيعة والأزد، ثم أمنهم نصر بعد ذلك وأمرهم أن يلحقوا بمسلم بن سعيد. ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحق من أصحابه، سار إلى بخارى فلحقه بها كتاب خالد بن عَبْد الله القسري بولايته ويأمره بإتمام غزاته، فسار إلى فرغانة وبلغه أن خاقان قد أقبل إليه، فارتحل. ولحقه خاقان بعد ثلاثة مراحل لقي فيها طائفة من المسلمين فأصابهم. ثم أطاف بالعسكر وقاتل المسلمين، وقتل المسيب بن بشر الرياحي والبراء من فرسان المهلب وأخو غورك. وثار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر. ورحل مسلم بالناس ثمانية أيام، والترك مطيفون بهم بعد أن أمر بإحراق ما ثقل من الأمتعة، فأحرقوا ما قيمته ألف ألف. وأصبحوا في التاسع قريب النهر دونه أهل فرغانة والشاش. فأمر مسلم الناس أن يخرطوا سيوفهم ويحملوا. فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر، ونزل مسلم بعسكره ثم عبر من الغد وأتبعهم ابن خاقان. فكان حميد بن عَبْد الله على الساقة من وراء النهر وهو مثخن بالجراحة. فبعث إلى مسلم بالانتظار، وعطف على الترك فقاتلهم، وأسر قائدهم وقائد الصغد ثم أصابه سهم فمات، وأتوا خجندة وقد أصابتهم مجاعة وجهد، ولقيهم هنالك كتاب

أسد بن عَبْد الله القسري أخي خالد بولايته على خراسان واستخلافه عَبْد الرحمن بن نعيم، فقرأ مسلم الكتاب وقال سمعاً وطاعة.

ولاية أسد القسري علي خراسان:

ولما كزا خالد بن عَبْد الله خراسان واستخلف عليها أخاه أسد بن عَبْد الله، فقدم ومسلم بن سعيد بفرغانة، فلما رجع وأتى النهر ليقطعه منعه الأشهب بن عَبْد الله التميمي، وكان على السفن بآمد، حتى عرفه أنه الأمير، فأذن له. ثم عبر أسد النهر ونزل بالمرج وعلى سمرقند هانئ، بن هانئ، فخرج بالناس وتلقى أسداً وأدخله سمرقند. وبعث أسد إلى عَبْد الرحمن بن نعيم بالولاية على العسكر، فقفل بالناس إلى سمرقند، ثم عزل أسداً عنها وولى مكانه الحسن بن أبي العمرطة الكندي. ثم قدم مسلم بن سعيد بن عَبْد الله بخراسان، فكان يكرمه. ومر بابن هبيرة وهو يروم الهرب وأسلم على يديه. ثم غزا الغور وهي جبال هراة. فوضع أهلها أثقالهم في الكهوف ولم يكن إليهم طريق. فاتخذ التوابيت ووضع فيها الرجال ودلآها بالسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه. ثم قطع كماق النهر، وجاءه خاقان ولم يكن بينهما قتال. وقيل عاد مهزوماً من الجسر ثم سار إلى عوبرين وقاتلها، وأبلى نصر بن سيار ومسلم بن أحوز، وانهزم المشركون، وحوى المسلمون عساكرهم بما فيه.

ولاية أشرس علي العراق:

كان أسد بن عَبْد الله في ولايته على خراسان يتعصب، حتى أفسد الناس. وضرب نصر بن سّيار بالسياط، وعبد الرحمن بن نعيم، وسورة بن أبجر والبختري بن أبي درهم، وعامر بن مالك الحماني وحلقهم وسّيرهم إلى أخيه، وكتب إليه أنهم أرادوا الوثوب بي. فلامه خالد وعنّفه وقال: هلا بعثت برؤوسهم؟ وخطب أسد يوماً فلعن أهل خراسان. فكتب هشام بن عَبْد الملك إلى خالد اعزل أخاك، فعزله في رمضان سنة تسع، وولّى مكانه الحكم بن عوانة الكلبي، فقعد عن الصائفة تلك السنة. فاستعمل هشام على خراسان أشرس بن عَبْد الله السلمي، وأمره أن يراجع خالداً فكان خيرا ففرح به أهل خراسان.

عزل أشرس:

أرسل أشرس إلى سمرقند سنة عشر ومائة أبا الصيدا صالح بن ظريف مولى بني ضبة، والربيع بن عمران التميمي إلى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، على أن توضع عنهم الجزية، وعليها الحسن بن العمرطة الكندي، على حربها وخراجها فدعاهم إلى ذلك وأسلموا. وكتب غورك إلى الأشرس أن الجراح قد انكسر، فكتب أشرس إلى ابن العمرطة بلغني أنذ أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة، وإنما أسلموا نفوراً من الجزية، فانظر من اختتن وأقام الفرائض، وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه. ثم عزل ابن العمرطة عن الخراج وولى عليها ابن هانئ، ومنعهم أبو الصيد أخذ الجزية ممن أسلم، وكتب هانئ إلى أشرس بأنهم أسلموا وبنوا المساجد. فكتب إليه والى العمال أن يعيدوا الجزية على من كانت عليه ولو أسلم، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند. وخرج معهم أبو الصيد وربيع بن عمران والهيثم الشيباني وأبو فاطمة الأزدي وعامر بن قشير وبشير الجحدري وبيان العنبري وإسماعيل بن عقبة لينصروهم. وبلغ الخبر إلى أشرس فعزل ابن العمرطة عن الحرب وولى مكانه المجشر بن مزاحم السلمي وعميرة بن سعد الشيباني، فكتب المجشر إلى أبي

الصيدا يستقدمه هو وأصحابه فقدم ومعه ثابت قطنة فحبسهما وسيرهما إلى أشرس، واجتمع الباتون وولّوا عليهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئاً فكتب أشرس ووضع عنهم الخراج فرجعوا وضعف أمرهم وتتبعوا فحبسوا كلهم. وألح هانىء في الخراج، واستخف بفعل العجم والدهاقين. واقيموا في العقوبات وحرقت ثيابهم، والقيت مناطقهم في أعناقهم، واخذت الجزية ممن أسلم. فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا بالترك، وخرج أشرس غازياً فنزل آمد وأقام أشهرا. وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم في عشرة آلاف فعبر النهر ولقي الترك وأهل الصغد وبخارى ومعهم خاقان، فحصروا قطناً في خندقه. وأغار الترك على سرح المسلمين، وأطلق أشرس ثابت قطنة بكفالة عَبْد الله بن بسطام بن مسعود بن عمر، وبعثه معه في خيل، فاستقدمه من أيدي الترك ما أخدوه. ثم عبر أشرس بالناس ولحق بقطن ولقيهم العدو فانهزموا أمامهم. وسار أشرس بالناس حتى جاء بيكند فحاصرها المسلمون، وقطع أهل البلد عنهم الماء، وأصابهم العطش فرحلوا إلى المدينة.

واعترضهم دونها العدو فقاتلوهم قتالاً شديداً، وأبلى الحارث بن شريح، وقطن بن قتيبة بلاء شديداً وأزالوا الترك عن الماء. فقتل يومئذ ثابت قطنة وصخربن مسلم بن النعمان العبدي، وعبد الملك بن دثار الباهلي وغيرهم وحمل قطن بن قتيبة في جماعة تعاقدوا على الموت، فانهزم العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم إلى الليل. ثم رجع أشرس إلى بخارى وجهز عليهم عسكراً، يحاصرونها، وعليهم الحارث بن شريح الأزدي. ثم حاصر خاقان مدينة كمرجة من خراسان وبها جمع من المسلمين، وقطعوا القنطرة وأتاهم ابن جسر وابن يزدجرد وقال: إن خاقان جاء يرد علي منكبي وأنا آخذ لكم الأمان، فشتموه وأتاهم يزغري في مائتين، وكان داهية، وكان خاقان لا يخالفه. فطلب رجلاً يكلمه، فجاء يزيد بن سعد الباهلي فرغبه بإضعاف. العطاء والإحسان على النزول، وشميرون معهم، فلاطفه ورجع إلى أصحابه، وقال هؤلاء يدعونكم لقتال المسلمين، فأبوا وأمر خاقان فألقى الحطب الرطب في الخندق ليقطعه. وألقى المسلمون البهائم ليأكلوها ويحشوا جلودها تراباً ويملؤا بها الخندق. وأرسل الله سبحانه فاحتمل السيل ما في الخندق إلى النهر الأعظم، ورمى المسلمون بالسهام فاصيب يزغري بسهم ومات من ليلته، فقتلوا جميع ما عندهم من الأسرى والرهن. ولم يزالوا كذلك حتى نزلت جيوش المسلمين فرغانة، فجردوا عليهم واشتد قتالهم، وصالحهم المسلمون على أن يسلموا لهم كمرجة ويرحلوا عليها إلى سمرقند والدنوسية، وتراهنوا على ذلك. وتأخر خاقان حتى يخرجوا، وخلف معهم كورصول ليبلغهم إلى مأمنهم، فارتحلوا حتى بلغوا الدنوسية. وأطلقوا الرهن وكانت مدة الحصار ستين يوماً.

عزل أشرس عن خراسان وولاية الجنيد:

وفي سنة إحدى عشرة ومائة عزل هشام أشرس بن عَبْد الله عن خراسان، وولى مكانه الجنيد بن عَبْد الرحمن بن عمر بن الحارث بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري، أهدى إلى ام حكيم بنت يحيى بن الحكم امرأة هشام قلادة فيها جواهر، فأعجبت هشاماً فأهدى له أخرى مثلها، فولاه خراسان وحمله على البريد. فقدم خراسان في خمسمائة، ووجد الخطاب بن محرز السلمي خليفة أشرس على خراسان. فسار الجنيد إلى ما وراء النهر ومعه الخطاب، واستخلف على مرو المجشر بن فزاحم

السلمي وعلى بلخ سورة بن أبجر التميمي، وبعث إلى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد أن يبعث إليه بسرية مخافة أن يعترضه العدو. فبعث إليه أشرس عامر بن مالك الجابي، فعرض له الترك والصغد فقاتلوهم ثم استداروا وراء معسكر الترك وحمل المسلمون عليهم من أمامهم، فانهزم الترك ولحق عامر بالجنيد، فأقبل معه وعلى مقدمته عمارة بن حزيم، واعترضه الترك فهزمهم. وزحف إليه خاقان بنواحي سمرقند وقطن بن قتيبة على ساقته، فهزم خاقان وأسر ابن أخيه وبعث به إلى هشام، ورجع إلى مرو ظافراً، واستعمل قطن بن قتيبة على بخارى، والوليد بن القعقاع العبسي على هراة، وحبيب بن مرة العبسي على شرطته، ومسلم بن عَبْد الرحمن الباهلي على بلخ وعليها نصربن سيار. فبعث مسلم إلى نصر وجيء به في قميص دون سراويل، فقال شيخ مضر جئتم به على هذه الحالة؟ فعزل الجنيد مسلماً عن بلخ وأوفد وفداً إلى هشام بخبر غزاته.

مقتل الجرّاح الحكمي:

قد كان تقدّم لنا دخوله إلى بلاد الخزر سنة أربع ومائة، وانهزامهم أمامه، وأنه أثخن فيهم وملك بلنجر وردها على صاحبها، وأدركه الشتاء فأقام هنالك. وأن هشاماً أقره على عمله ثم ولأه أرمينية، فدخل بلاد التركمان من ناحية تفليس سنة إحدى عشرة ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف ظافراً، فاجتمع الخزر والترك من ناحية اللاف، وزحف إليهم الجراح سنة اثنتي عشرة، ولقيهم بمرج أردبيل، فاقتلوا أشد قتال. وتكاثر العدو عليه فاستشهد ومن معه، وقد كان استخلف أخاه الحجّاج على أرمينية. ولما قتل طمع الخزر وهم التركمان، وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل، وقيل كان قتله ببلنجر. ولما بلغ الخبر هشاماً دعا سعيداً الحريشي فقال: بلغني أن الجراح انهزم. قال الجراح أعرف بالله من أن ينهزم، لكن قتل، فابعثني على أربعين من دواب البريد، وابعث إلي كل يوم أربعين رجلاً مدداً، واكتب إلى الأمراء الأجناد يواسوني. ففعل وسار الحريشي، فلا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من أراد الجهاد. ووصل مدينة أزور، فلقيه جماعة من أصحاب الجراح فردهم معه. ووصل إلى خلاط فحاصرها وفتحها، وقسم غنائمها. ثم سار عنها يفتح القلاع والحصون إلى بروعة فنزلها وابن خاقان يومئذ باذربيجان يحاصر مدينة ورثان منها ويبعث في نواحيها وبعث الحريشي إلى أهل ورثان يخبرهم بوصوله، فأخرج العدو عنهم ووصل إليهم الحريشي. ثم اتبع العدو إلى أردبيل، وجاءه بعض عيونه بأن عشرة آلاف من عسكرهم على أربعة فراسخ منه، ومعهم خمسة آلاف بيت من المسلمين أسارى وسبايا، فبيتهم وقتلهم أجمعين، ولم ينج منهم أحد. واستنقذ المسلمين منهم. وسار إلى باجروان فجاءه عين آخر ودله على جمع منهم، فسار إليهم واستلحمهم أجمعين، واستنقذ من معهم من المسلمين، وكان فيهم أهل الجراح وولده، فحملهم إلى باجروان. ثم زحف إليهم جموع الخزر مع ابن ملكهم، والتقوا بأرض زرند واشتد القتال والسبي من معسكر الكفار، فبكى المسلمون رحمة لهم، وصدقوا الحملة. فانهزم الكفار وأتبعهم المسلمون إلى نهر أرس، وغنموا ما كان معهم من الأموال واستنقذوا الأسرى والسبايا وحملوهم إلى باجروان ثم تناصر الخزر في ملكهم ورجعوا فنزلوا نهر البيلقان واقتتلوا قتالاً شديداً. ثم انهزموا فكان من غرق أكثر ممن

قتل وجمع الحريشي الغنائم وعاد إلى باجروان فقسمها، وكتب إلى هشام بالفتح. واستقدمه وولّى أخاه مسلمة على أرمينية وأذربيجان.

وقعة الشعب بين الجنيد وخاقان:

وخرج الجنيذ سنة اثنتي عشرة ومائة من خراسان غازياً إلى طخارستان، وبعث إليها عمارة بن خزيم في ثمانية عشرألفاً، وبعث إبراهيم بن سام الليثي في عشرة آلاف إلى وجه آخر، وحاشتك التركي. وزحف بهم خاقان إلى سمرقند وعليها سورة بن أبجر، فكتب إلى الهند مستغيثا، فأمر الجنيد بعبور النهر. فقال له المجشر بن مزاحم السلمي وابن بسطام الأزدي إن الترك ليسوا كغيرهم، وقد مزقت جندك. فسلم ابن عَبْد الرحمن بالنبراود والبختري بهراة، وعمارة بن حزيم بطخارستان. ولا تعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً. فاستقدم عمارة وأمهل، فقال أخي على سورة وعبر الجنيد، فترل كش وتأهب للسير. وغؤر الترك الآبار في طريق كش وسار الجنيد على التعبية، واعترضه خاقان ومعه أهل الصغد وفرغانة والشاش، وحملوا على مقدمته، وعليها عثمان بن عَبْد الله بن الشخيرفرجعوا والترك في اتباعهم. ثم حملوا على المدينة، وأمدهم الجنيد

بنصر بن سيار، وشدوا على العدو وقتل أعياناً منهم. وأقبل الجنيد على الميمنة، وأقبل تحت راية الأزد، فقال له صاحب الراية: ما قصدت كرامتنا لكن علمت أنا لا نصل إليك ومنا عين تطرف! فصبروا وقاتلوا حتى كفت سيوفهم. وقطع عبيدهم الخشب فقاتلوا بها حتى أدركهم الملل، وتعانقوا تحاجزوا، وهلك من الأزد في ذلك المعترك نحو من ثمانين. فيهم عَبْد الله بن بسطام، ومحمد بن عَبْد الله بن جودان، والحسين بن شيخ، وبزيد بن المفضل الحراني. وبين الناس كذلك إذ طلعت أوائل عسكر خاقان، فنادى منادي الجنيد بالترول فترجلوا، وخندق كل كائن على رجاله. وقصد خاقان جهة بكر بن وائل وعليهم زياد بن الحارث فحملت بكر عليهم فأفرجوا واشتد القتال. وأشار أصحاب الجنيد عليه بأن يبعث إلى سورة بن أبجر من سمرقند ليتقدم الترك إليه ليكون لهم شغل به عن الجنيد وأصحابه. فكتب يستقدمه فاعتذر، فأعاد عليه وتهدده وقال: اخرج وسر مع النهر لا تفارقه، فلما خرج هو استبعد طريق النهر، واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحنظلي. وسار محمد في اثني عشرألفاً حتى إذا بقي بينه وبين الجنيد وعساكره فرسخ لقيه خاقان عند الصباح، وحال بينهم وبين الماء وأضرم النار في اليبس حواليهم فاستماتوا وحملوا، وانكشف الترك وأظلم الجو بالعجاج. وكان من وراء الترك لهب سقط فيه جميع العدؤوالمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه. ثم عطف الترك فقتلوا المسلمين ولم يبق منهم إلا القليل، وانحاش بالناس المهلب بن زياد والعجمي في ستمائة أو ألف، ومعه قُرَيْش بن عَبْد الله العبدي إلى رستاق البرغاب، وقاتلوا بعض قصوره، فأصيب المهلب وولوا عليهم الرحب بن خالد. وجاءهم الأسكيد صاحب نسف وغورك ملك الصغد فترلوا معه إلى خاقان، فلم يجزأمان غورك وقتلهم ولم ينج منهم أحد. ئم خرج الجنيد من الشعب قاصدا سمرقند، وأشار عليه مجشر بن مزاحم بالترول فترل، ووافقته جموع الترك. فجال الناس جولة، وصبر المسلمون، وقاتل العبيد وانهزم العدو. ومضى الجنيد إلى سمرقند فحمل العيالات إلى مرو، وأقام بالصغد أربعة أشهر. وكان صاحب الرأي بخراسان في الحرب المجشر بن مزاحم

السلمي، وعبد الرحمن بن أصبح المخزومي، وعبيد الله بن حبيب الهجري. ولما انصرفت الترك بعث الجنيد نهار بن توسعة بن تيم الله، وزميل بن سوذيد بن شيم بالخبر. وتحامل فيه على سورة بن أبجر بما عصاه من مفارقة النهر حتى نال العدو منه. فكتب إليه هشام قد بعث إليك من المدد عشرة آلاف من البصرة، ومثلها من الكوفة، وثلاثون ألف رمح ومثلها سيفاً. اقام

الجنيد بسمرقند، وسار خاقان إلى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم، فخاف عليه من الترك. واستشار عَبْد الله بن أبي عَبْد الله مولى بن سليم بعد أن اختلف عليه أصحابه، فاشترط عليه أن لا يخالفه. فأشار بحمل العيالات من سمرقند، فقدمهم واستخلف بسمرقند عثمان بن عَبْد الله بن الشخير في أربعمائه فارس وأربعمائه راجل، ووفرأعطياتهم. وسار العيالات في مقدمته حتى من الضيق ودنا من الطواويس، فأقبل إليه خاقان بكير ميمنة أول رمضان سنة اثنتي عشرة واقتتلوا قليلاً. ثم رجع الترك وارتحل من الغد، فاعترضه الترك ثانياً وقتل مسلم بن أحوز بعض عظمائهم، فرجعوا من الطواوشى. ثم دخل الجنيد بالمسلمين بخارى، وقدمت الجنود من البصرة والكوفة، فسرّح الجنيد معهم حورثة بن زيد العنبري فيمن انتدب معه.

ولاية عاصم علي خراسان وعزل الجنيد:

بلغ هشاماً سنة ست عشرة أن الجنيد بن عَبْد الرحمن عامل خراسان تزوج بنت يزيد بن المهلب، فغضب لذلك وعزله، وولى مكانه عاصم بن عَبْد الله بن يزيد الهلالي، وكان الجنيد قد مرض بالاستسقاء. فقال هشام لعاصم إن أدركته وبه رمق فأزهق نفسه، فلما قدم عاصم وجده قد مات، وكانت بينهما عداوة، فحبس عمارة بن حزيم، وكان الجنيد استخلفه وهو ابن عذبة، فعذبه عاصم وعذب عمال الجنيد.

ولاية مروان بن محمد علي أرمينية وأذربيجان:

لّما عاد مسلمة من غزو الخزر وهم التركمان إلى بلاد المسلمين، وكان في عسكره مروان بن محمد بن مروان، فخرج مختفياً عنه إلى هشام، وشكا له من مسلمة وتخاذله عن الغزو، وما أدخل بذلك على المسلمين من الوهم. وبعث إلى العدو بالحرب، وأقام شهراً حتى استعدوا وحشدوا، ودخل بلادهم فلم يكن له فيهم نكاية وقصد، أراد السلامة ورغب إليه بالغزو إليهم لينتقم منهم، وأن يمده بمائة وعشرين ألف مقاتل ويكتم عليه. فأجابه لذلك وولاه على أرمينية، فسار إليها وجاءه المدد من الشام والعراق والجزيرة. فأظهر أنه يريد غزو اللان، وبعث إلى ملك الخزر في المهادنة، فأجاب وأرسل رسله لتقرير الصلح فأمسكهم مروان إلى أن تجهز، وودعهم وسار إلى أقرب الطرق. فوافاهم ورأى ملك الخزر أن اللقاء على تلك الحال غرر، فتأخر إلى أقصى بلاده. ودخل مروان فأوغل فيها وخرب وغنم وسبى إلى آخرها. ودخل بلاد ملك السرير وفتح قلاعها، وصالحوه على ألف رأس نصفها غلمان ونصفها جواري، ومائة ألف مد تحمل إلى الباب. وصالحه أهل تومان على مائة رأس نصفين وعشرين ألف مد. ثم دخل أرض وردكران فصالحوه. ثم أتى حمرين وافتتح حصنهم، ثم أتى سبدان فافتتحها صلحاً، ثم نزل صاحب اللكز في قلعته وقد امتنع من أداء الوظيفة، فخرج يزيد ملك

الخزر، فاصيب بسهم ومات وصالح أهل اللكز مروان، وأدخل عامله، وسار مروان إلى قلعة سروان فأطاعوا، وسار إلى الرودانية فأوقع بهم ورجع.

خلع الحرث بن شريح بخراسان:

كان الحارث هذا عظيم الأزد بخراسان، فخلع سنة ست عشرة ولبس السواد، ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه، والبيعة للرضا على ما كان عليه دعاة بني العباس هناك. وأقبل إلى الغاربات، وجاءته رسل عاصم مقاتل بن حيان النبطي والخطاب بن محرز السلمي فحبسهما وفروا من السجن إلى عاصم بدم الحارث وغدره. وسار الحارث من الغاربات إلى بلخ وعليها نصر بن سيار والنجيبي، فلقياه في عشرة آلاف وهو في أربعة، فهزمهم وملك بلخ، واستعمل عليها سليمان بن عَبْد الله بن حازم. وسارإلى الجوزجان عليها ثم سار إلى مرو، ونمي إلى عاصم أن أهل مرو يكاتبونه، فاستوثق منهم بالقسامة وخرج وعسكر قريباً من مرو، وقطع الجسور. وأقبل الحارث في ستين ألفاً ومعه فرسان الأزد وتميم، ودهاقين الجوزجان والغاربات، وملك الطالقان، وأصلحوا القناطر، ثم نزع محمد بن المثنى في ألفين من الأزد، وحماد بن عامر

الجابي في مثلها من بني تميم إلى عاصم، ولحقوا به ثم اقتتلوا. فانهزم الحارث وغرق كثير من أصحابه في نهر مرو، وقتلوا قتلاً ذريعاً. وكان ممن غرق حازم. ولما قطع الحارث نهر مرو ضرب رواقه واجتمع إليه بها ثلاثة آلاف فارس وكف عاصم عنهم.

ولاية أسد القسري الثانية بخراسان:

كتب عاصم إلى هشام سنة سبع عشرة أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق ليكون مددها قريب الغوث، فضم هشام خراسان إلى خالد بن عَبْد الله القسري وكتب إليه ابعث أخاك يصلح ما أفسد فبعث خالد أخاه أسدا، فسار على مقدمته محمد بن مالك الهمداني. ولما بلغ عاصم الخبر راود الحارث بن شريح على الصلح، وأن يكتبا جميعاً إلى هشام يسألانه الكتاب والسنة، فإن أبى اجتمعا. وأبى بعض أهل خراسان ذلك فانتقض بينهما واقتتلا، فانهزم الحارث وأسر من أصحابه كثير قتلهم عاصم. وبعث بالفتح إلى هشام مع محمد بن مسلم العنبري، فلقيه أسد بالري. وجاء إلى خراسان فبعث عاصماً وطلبه بمائة ألف درهم، وأطلق عمارة بن حزيم وعمال الجنيد، ولم يكن لعاصم بخراسان إلا مرو ونيسابور. وكانت مرو الروذ للحارث، وواصل لخالد بن عبيد الله الهجري على مثل رأي الحارث. فبعث أسد عَبْد الرحمن بن نعيم في أهل الكوفة والشام إلى الحارث، وسار هو بالناس إلى امد. فخرج إليه زياد القرشي مولى حيان النبطي في العسكر، فهزمهم أسد وحاصرهم حتى سألوا الأمان، واستعمل عليهم يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني وسار إلى بلخ. وقد بايعوا سليمان بن عَبْد الله بن حازم، فسار حتى قدمها. ثم سار منها إلى ترمذ، والحارث محاصر لهما. وأعجزه وصول المدد إليها فخرج إلى بلخ، وخرج أهل ترمذ فهزموا الحارث وقتلوا أكثر أصحابه. ثم سار أسد إلى سمرقند ومر بحصن زم وبه أصحاب، الحارث، فبعث إليهم وقال إنما نكرتم منا سوء السيرة، ولم يبلغ ذلك النساء واستحلال الفروج، ولا مظاهر المشركين على مثل سمرقند، وأعطاه الأمان على تسليم سمرقند. وهدده إن

قاتل بأنه لا يؤمنه أبدا. فخرج إلى الأمان وسار معه إلى سمرقند فترلهم على الأمان. ثم رجع أسد إلى بلخ وسرح جديعاً الكرماني إلى القلعة التي فيها ثقل الحارث وأصحابه في طخارستان، فحاصرها وفتحها وقتل مقاتلهم ومنهم بنو بزري من ثعلب أصحاب الحارث. وباع سبيهم في سوق بلخ، وانتقض على الحرث أربعمائة وخمسون من أصحابه بالقلعة، ورئيسهم جرير بن ميمون القاضي. فقال لهم الحارث إن كنتم مفارقي ولا بد فاطلبوا الأمان، وإن طلبتموه بعد رحيلي لا يعطونه لكم، فأبوا إلا إن ارتحل، فبعثوا بالأمان فلم يجبهم إليه. وسرح جديعة الكرماني في ستة آلاف، فحصرهم حتى نزلوا على حكمه. وحمل خمسين منهم إلى أسد فيهم ابن ميمون القاضي. فقتلهم وكتب إلى الكرماني بإهلاك الباقين، واتخذ أسد مدينة بلخ داراً، ونقل إليها الدواوين. ثم عزا طخارستان وأرض حبونة فغنم وسبى.

مقتل خاقان:

ولما كانت سنة تسع عشرة غزا أسد بن عَبْد الله بلاد الختل، فافتتح منها قلاعاً وامتلأت أيدي العسكر من السبي والشاء، وكخب ابن السائحي صاحب البلاد يستجيش خاقان على العرب ويضعفهم له، فتجهز وخفف من الأزودة استعجالا للعرب. فلما أحس به ابن السائحي بعث بالنذير إلى أسد فلم يصدقه، فأعاد عليه أني الذي استمددت خاقان لأنك مغرت البلاد. ولا أريد أن يظفر بك خشية من معاداة العرب، واستطالة خاقان علي، فصدقه حينئذ أسد وبعث الأثقال مع إبراهيم بن عاصم العقيلي، الذي كان ولي سجستان، وبعث معه المشيخة كثير بن أُمَيَّة، وأبا سفيان بن كثير الخزاعي، وفضيل بن حيان المهري وغيرهم، وأمدهما بجند آخر. وجاء في أثرهم فانتهى إلى نهر بلخ، وقد قطعه إبراهيم بن عاصم بالسبي والأثقال، فخاض النهر من ثلاثة وعشرين موضعاً، وحمل الناس شياههم حتى حمل هو شاة، فما استكمل العبور حتى طلعت عليهم الترك وعلى المسلحة الأزد وتميم. فحمل خاقان عليهم فانكشفوا، فرجع أسد إلى عسكره وخندق. وظنوا أن خاقان لا يقطع النهر، فقطع النهر إليهم، وقاتله المسلمون في معسكرهم، وباتوا والترك محيطون بهم. فلما أصبحوا لم يروا منهم أحدا فعلموا أنهم اتبعوا الأثقال والسبي، واستعلموا علمها من الطلائع، فشاور أسد الناس فأشاروا بالمقام، وأشار نصر بن سيار باتباعهم يخلص الأثقال ويقطع شقة لا بد من قطعها، فوافقه أسد وطير النذير إلى إبراهيم بن عاصم، وصبح خاقان للأثقال وقد خندقوا عليهم. فأمر أهل الصغد بقتلهم، فهزمتهم مسلحة المسلمين فصعد

على تل حتى رأى المسلمين من خلفهم. وأمر الترك أن يأتوهم من هنالك، ففعلوا وخالطوهم في معسكرهم، وقتلوا صاغان خذاه وأصحابه، وأحسوا بالهلاك. وإذا بالغبار قد رهج والترك يتنحون قليلاً قليلاً. وجاء أسد ووقف على التل الذي كان. عليه خاقان. وخرج إليه بقية الناس، وجاءته امرأة صاغان خذاه معولة، فأعول معها، ومضى خاقان يقود أسرى المسلمين في الافاق ويسوق الإبل الموقورة والجواري. وأراد أهل العسكر قتالهم، فمنعهم أسد. ونادى رجل من عسكر خاقان وهو من أصحاب الحارث بن شريح يعير أسداً ويحرضه ويقول: قد كان لك عن الختل مندوحة، وهي أرض أبائي وأجدادي، قد كان ما رأيت، ولعل الله ينتقم منك.

ومضى أسد إلى بلخ فعسكرفي مرجها حتى جاء الشتاء، فدخل البلد وشتى فيها. وكان الحارث بن شريح بناحية طخارستان، فانضم إلى خاقان وأغراه بغزو خراسان، وزحفوا إلى بلخ. وخرج أسد يوم الأضحى، فخطب الناس وعرفهم بأن الحارث بن شريح استجلب الطاغية ليطفيء نور الله ويبدل دينهم، وحرضهم على الاستنصار بالله. وقال أقرب ما يكون العبد لله ساجداً. ثم سجد وسجد الناس وأخلصوا الدعاء، وخرج للقائهم وقد استمد خاقان من وراء النهر، وأهل طخارستان وجبونة في ثلاثين ألفاً، وجاء الخبر إلى أسد وأشار بعض الناس بالتحصن منهم بمدينة بلخ واستمد خالد وهشام وأبي الأسد إلا اللقاء، فخرج واستخلف على بلخ الكرماني ابن علي. وعهد إليه أنه لا يدع أحدا يخرج من المدينة. واعتزم نصر بن سيار والقاسم ان نجيب وغيرهم على الخروج، فأذن لهم وصلى بالناس ركعتين وطول. ثم دعا وأمر الناس بالدعاء، ونزل من وراء المنطره ينتظر من تخلف. ثم بدا له وارتحل، فلقى طليعة خاقان وأسر قائدهم. وسار حتى نزل على فرسخين من الجوزجان. ثم أصبحوا وقد تراءى الجمعان، وأنزل أسد الناس ثم تهيأ للحرب ومعه الجوزجان اه. وحملت الترك على الميسرة فانهزموا إلى رواق أسد، فشدت عليهم الأسد وبنو تميم والجوزجان من الميمنة، فانكشفوا إلى خاقان وقد انهزم والحارث معه. وأتبعهم الناس ثلاثة فراسخ يقتلونهم، واستاقوا مائة وخمسين ألفاً من الشاء ودواب كثيرة. وسلك خاقان غير الجادة والحارث بن شريح ولقيهم أسد عند الطريق، وسلك الجوزجان بعثمان بن عَبْد الله بن الشخيرطريقاً

يعرفها، حتى نزلوا على خاقان وهو آمن، فتركوا الأبنية والقدور تغلي، وبناء العرب والموالي والعسكر مشحون من آنية الفضة، وركب خاقان والحارث يمانع عنه. وأعجلوا امرأة خاقان عن الركوب فقتلها الخصي الموكل بها. وبعث أسد بجوار الترك دهاقين خراسان يفادون بها أسراهم، وأقام خمسة أيام وانصرف إلى بلخ لتاسعة من خروجه. ونزل الجوزجان وخاقان هارب أمامه. وانتهى خاقان إلى جونة الطخاري فنزل عليه، وانصرف أسد إلى بلخ، وأقام خاقان عند جونة حتى أصلح الله وسار وسبية بها، فأخذه جدكاوش أبو فشين فأهدى إليه وأتحفه وحمل أصحابه، يتخذ بذلك عنده يداً. ثم وصل خاقان بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ومحاصرة سمرقند، وحمل الحرث وابن شريح وأصحابه على خمسة آلاف برذون، ولاعب خاقان بالنرد كورصول يوماً، فغمزه كورصول فأنف وتشاجر، فصك كورصول يد خاقان، فحلف خاقان ليكسرن يده فتنحى وجمع. ثم بيّت خاقان فقتله، وافترق الترك وحملوه وتركوه بالعراء، فحمله بعض عظمائهم ودفنه. وكان أسد بعث بالفتح من بلخ إلى خالد بن عَبْد الله، فأخبره وبعث به إلى هشام فلم يصدقه، ثم بعده القاسم بن نجيب بقتل خاقان، فبعث قيس أسداً وخالداً وقالوا لهشام: استقدم مقاتل بن حيان. فكتب بذلك إلى خالد، فأرسل إلى أسد أن يبعث به فقدم على هشام والأبرش وزيره جالس عنده، فقص عليه الخبر فسر بذلك وقال لمقاتل: ما حاجتك؟ قال يزيد بن المهلب أخذ من حيان أبي مائة ألف درهم بغير حق، فأمر بردها علي. فاستخلفه وكتب له بردها وقسمها مقاتل بين ورثة حيان. ثم غزا أسد الختل بعد مقتل خاقان، وقدم مصعب بن عمرالخزاعى إليها فسار إلى حصن بدر طرخان، فاستأمن له أن يلقى أسداً فأمنه، وبعث إلى أسد فسأل أن

يقبل منه ألف درهم، وراوده على ذلك، فأبى أسد ورده إلى مصعب ليرده إلى حصنه فقال له مسلمة بن أبي عَبْد الله:- وهو من الموالي- إن أمير المؤمنين سيندم على حبسه. ثم أقبل أسد بالناس ووعد له المجشر بن مزاحم بدرطرخان أو قبول ما عرض، فندم أسد وأرسل إلى مصعب يسأل عنه، فوجده مقيماً عند مسلمة، فجيء به وقطعت يده. ثم أمر رجلاً من الأزد كان بدرطرخان قتل أباه، فضرب عنقه وغلب على القلعة، وبعث العساكر في بلاد الختل، فامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وامتنع ولد بدر طرخان

وأمواله في قلعة فوق بلدهم صغيرة فلم يوصل إليهم.

وفاة أسد:

وفي ربيع الأول سنة عشرين توفي ابن عَبْد الله القسري بمدينة بلخ، واستخلف جعفربن حنظلة النهروانيّ، فعمل أربعة أشهر ثم جاء عهد نصر بن سيّار بالعمل في رجب.

ولاية يوسف بن عمر الثقفي علي العراق وعزل خالد:

وفي هذه السنة عزل هشام خالداً عن أعماله جميعها بسعاية أبي المثنى وحسان النبطي، وكانا يتوليان ضياع هشام بالعراق، فثقلا على خالد، وأمر الأشدق بالنهوض على الضياع. وأنهى ذلك حسان بعد أبي المثنى، وأن غلته في السنة ثلاثة عشر ألف ألف، فوقرت في نفس هشام. وأشار عليه بلال بن أبي بردة والعريان بن الهيثم أن يعرض أملاكه على هشام، ويضمنون له الرضا فلم يجبهم. ثم شكا من خالد بعض آل عمر والأشدق بأنه أغلظ له في القول بمجلسه، فكتب إليه هشام يوبّخه ويأمره بأن يمشي ساعياً على قدميه إلى بابه ويترضاه.

ونميت عنه من هذا أقوال كثيرة، وأنه يستقل ولاية العراق فكتب إليه هشام يا ابن ام خالد بلغني أنك تقول ما ولاية العراق لي بشرف، يا ابن اللخناء كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفاً وأنت من بجيلة القليلة الذليلة؟ أمَّا والله إني لأظن أن أول من يأتيك صقر من قُرَيْش يشد يديك إلى عنقك. ثم كتب إلى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن، يأمره أن يقدم في ثلاثين من أصحابه إلى العراق فقد ولاه ذلك. فسار إلى الكوفة ونزل قريباً منها، وقد ختن طارق، خليفة خالد بالكوفة، ولده، وأهدى إليه وصيفاً ووصيفة سوى الأموال والثياب.ومرّ يوسف وأصحابه ببعض أهل العراق فسألوهم فعرضوا وظنوهم خوارج، وركب يوسف إلى دورثقيف فكتموا، ثم جمع يوسف بالمسجد من كان هنالك من مضر، ودخل مع الفجر فصلى، وأرسل إلى خالد وطارق فأخذهما. وقيل إن خالداً كان بواسط، وكتب إليه بالخبر بعض أصحابه من دمشق، فركب إلى خالد وأخبره بالخبر وقال: اركب إلى أمير المؤمنين واعتذرإليه، قالى لا أفعل بغير إذن، قال فترسلني أستأذنه؟ قال لا، قال فاضمن له جميع ما انكسر في هذه السنين وآتيك بعهده

وهي مائة ألف ألف. قال: والله ما أجد عشرة آلاف ألف. قال أتحملها أنا وفلان وفلان، قال لا أعطي شيئاً وأعود فيه. فقال طارق: إنما نقيك ونقي أنفسنا بأموالنا، ونستبقي الدنيا وتبقى الدنيا عليك وعلينا خيرمن أن يجيء من يطالبنا بالأموال وهي عند الكوفة، فنقتل ويأكلوا الأموال. فأبى خالد من ذلك كله، فودعه طارق ومضى وبكى ورجع إلى الكوفة. وخرج خالد إلى الحمَّة، وجاء كتاب هشام بخطه إلى يوسف بولاية العراق،

وأن يأخذ ابن النصرانية يعني خالداً وعماله فيعذبهم فأخذ الأولاد وسار من يومه، واستخلف على اليمن ابنه الصلت. وقدم في جمادى الأخيرة سنة عشرين ومائة، فترل النجف وأرسل مولى كيسان فجاء بطارق ولقيه بالحيرة، فضربه ضرباً مبرحاً ودخل الكوفة. وبعث عثمان عطاء بن مقدم إلى خالد بالحُمّة، فقدم عليه وحبسه، وصالحه عنه ابان بن الوليد وأصحابه على سبعة آلاف ألف. وقيل أخذ منه مائة ألف وكانت ولايته العراق خمس عشرة سنة. ولما ولي يوسف نزلت الذلة بالعراق في العرب، وصار الحكم فيه إلى أهل الذمة.

ولاية نصر بن سيار خراسان وغزوه وصلح الصغد:

ولما مات أسد بن عَبْد الله ولّى هشام على خراسان نصر بن سيار، وبعث إليه على عهده عَبْد الكريم بن سليط الحنفي، وقد كان جعفر بن حنظلة لّما استخلفه أسد عند موته، عرض على نصرأن يوليه بخارى. فقال له البحتريّ بن مجاهد مولى بني شيبان لا تقبل فإنك شيخ مضر بخراسان، وكان عهدك قد جاء على خراسان كلها فكان كذلك. ولما ولي نصر استعمل على بلخ مسلم بن عَبْد الرحمن، وعلى مرو الروذ وشاح بن بكير بن وشاح، وعلى هراة الحرث بن عَبْد الله بن الحشرج، وعلى نيسابور زياد بن عَبْد الرحمن القسري وعلى خوارزم أبا حفص علي بن حقنة، وعلى الصغد قطن بن قتيبة. وبقي أربع سنين لا يستعمل في خراسان إلا مضريّاً، فعمرت عمارة لم تعمر مثلها، وأحسن الولاية والجباية. وكان وصول العهد إليه بالولاية في رجب سنة عشرين فغزا غزوات أولها إلى ما وراء النهر من نحو باب الحديد. وسار إليها من بلخ، ورجع إلى مرو، فوضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة، وجعلها على من كان يخفف عنه منهم. وانتهى عددهم ثلاثين ألفاً من الصنفين، وضعت عن هؤلاء وجعلت على هؤلاء ثم غزا الثانية إلى سمرقند، ثم الثالثة إلى الشاش سار إليها من

مرو، ومعه ملك بخارى وأهل سمرقند وكش ونسف في عشرين ألفاً. وجاء إلى نهر الشاش فحال بينه وبين عبوره كورصول، عسكر نصر في ليلة ظلماء، ونادى نصر لا يخرج أحد. وخرج عاصم بن عمير في جند سمرقند، فجاولته خيل الترك ليلاً وفيهم كورصول، فأسره عاصم وجاء به إلى نصر فقتله وصلبه على شاطىء النهر، فحزنت الترك لقتله وأحرقوا أبنيته وقطعوا آذانهم وشعورهم وأذناب خيولهم. وأمر نصر بإحراق عظامه لئلا يحملوها بعد رجوعه. ثم سار إلى فرغانة فسبى منها ألف رأس، وكتب إليه يوسف بن عمران ليسير إلى الحارث بن شريح في الشاش ويخرب بلادهم ويسبيهم. فسار لذلك وجعل على مقدمته يحيى بن حصين، وجاء بهم إلى الحارث وقاتلهم، وقتل عظيماً من عظماء الترك، وانهزموا.

وجاء ملك الشاش في الصلح والهدنة والرهن. واشترط نصر عليه إخراج الحارث بن شريح من بلده فأخرجه إلى فاراب. واستعمل على الشاش بترل بن صالح مولى عمرو بن العاص. ثم سار إلى أرض فرغانة وبعث أمه في إتمام الصلح، فجاءت لذلك وأكرمها نصر وعقد لها ورجعت. وكان الصغد لّما قتل خاقان طمعوا في الرجعة إلى بلادهم، فلما ولي نصر بعث إليهم في ذلك وأعطوه ما سألوه من الشروط، وكان أهل خراسان قد نكروا شروطهم، وكان منها أن لا يعاقب من ارتد عن الإِسلام إليهم، ولا يؤخذ منهم أسرى إلا ببينة وحكم،

وعاب الناس ذلك على نصر لّما أمضاه لهم. فقال: لو عاينتم شكوهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم. وأرسل إلى هشام في ذلك فأمضاه وذلك سنة ثلاث وعشرين.

ظهور زيل بن علي ومقتله:

ظهر زيد بن علي بالكوفة خارجاً على هشام داعياً للكتاب والسنة، وإلى جهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء وردّ المظالم وأفعال الخير ونصر أهل البيت. واختلف في سبب خروجه فقيل: إن يوسف بن عمر لّما كتب في خالد القسري كتب إلى هشام أنه شيعة لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار، ورد عليه الأمن. وأنه أودع زيداً وأصحابه الوافدين عليه مالاً، فكان زيد قد قدم على خالد بالعراق هو ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن علي بن عد الله بن عبّاس، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة.

فبعث هشام عنهم وسألهم فأقرّوا بالجائزة، وحلفوا على ما سوى ذلك، وأن خالدا لم يودعهم شيئاً. فصدقهم هشام وبعثهم إلى يوسف، فقاتلوا خالداً وصدقهم الآخر، وعادوا إلى المدينة ونزلوا القادسية. وراسل أهل الكوفة زيداً فعاد إليهم، وقيل في سبب ذلك: إن زيداً اختصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن المثنى في وقف علي، وكانا يحضران عند عامل خالد بن عَبْد الملك بن الحارث. فوقعت بينهما في مجلسه مشاتمة، وأنكر زيد من خالد إطالته للخصومة وأن يستمع لمثل هذا فأغلظ له زيد وسار إلى هشام فحجبه، ثم أذن له بعد حين. فحاوره طويلا ثم عرض له بأنه ينكر الخلاف وتنقصه. ثم قال له أخرج؟ قال نعم ثم لا أكون إلا بحيث تكره، فسار إلى الكوفة. وقال له محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ناشدتك الله إلحق بأهلك ولا تأت الكوفة، وذكّرهُ بفعلهم مع جدّه، وجده يستعظم ما وقع به. وأقبل الكوفة فأقام بها مستخفياً ينتقل في المنازل. واختلف إليه الشيعة وبايعه جماعة: منهم مسلمة بن كهيل ونصر بن خزيمة العبسي ومعاوية بن إسحق بن زيد بن حارثة الأنصاري، وناس من وجوه أهل الكوفة يذكر لهم دعوته، ثم يقول أتبايعون على ذلك؟ فيقولون نعم فيضع يده على أيديهم ويقول عهد الله عليك وميثاقه وذمته وذمة نبيه بيقين تتبعني ولا تقاتلني مع عدوي ولتنصحن لي في السر والعلانية. فإذا قال نعم وضع يده في يده ثم قال: اللهم اشهد فبايعه خمسة عشر ألفاً، وقيل أربعون. وأمرهم بالاستعداد وشاع أمره في الناس، وقيل: إنه أقام في الكوفة ظاهراً ومعه داود بن عليّ بن عَبْد الله بن عبّاس لّما جاؤا لمقاتلة خالد، فاختلف إليه الشيعة، وكانت البيعة. وبلغ الخبر إلى يوسف بن عمر فأخرجه من الكوفة، ولحق الشيعة بالقادسية أو الغلبية وعذله داود بن عليّ في الرجوع معه، وذكره حال جدّه الحسين. فقالت الشيعة لزيد: هذا إنما ريد الأمر لنفسه ولأهل بيته، فرجع معهم، ومضى داود إلى المدينة. ولما أتى الكوفة جاءه مسلمة بن كهيل فصده عن ذلك، وقال أهل الكوفة لا يعولون ذلك. وقد كان مع جدك منهم أضعاف مما معك ولم تعادله، وكان أعز عليهم منك على هؤلاء. فقال له قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم. قال فتأذن لي أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث وأنا لا أهلك نفسي، فخرج لليمامة.

وكتب عَبْد الله بن الحسن المثنى إلى زيد يعذله ويصده، فلم يصغ إليه. وتزوج نساء بالكوفة وكان يختلف إليهن، والناس يبايعونه، ثم أمر

أصحابه يتجهّزون. ونمي الخبر إلى يوسف بن عمر فطلبه، وخاف فتعجّل الخروج وكان يوسف بالحيرة، وعلى الكوفة الحكم بن الصلت وعلى شرطته عمر بن عَبْد الرحمن من القاهرة، ومعه عبيد الله بن عبّاس الكندي في ناس من أهل الشام. ولما علم الشيعة أنّ يوسف يبحث عن زيد جاء إليه جماعة منهم فقالوا: ما تقول في الشيخين؟ فقال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، وما سمعت أهل بيتي يذكرونهما إلا بخير. وغاية ما أقول إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه و سلم من الناس فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك الكفر، وقد عدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة. قال: فإذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم؟ فقال إن هؤلاء ظلموا المسلمين أجمعين، فإنا ندعوهم إلى الكتاب والسنة، وأن نحيي السنن ونطفيء البدع، فإن أجبتم سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام الحق يعنون محمداً الباقر، وأن جعفراً ابنه إمامنا بعده، فسماهم زيد الرافضة، ويقال إنما سماهم الرافضة حيث فارقوه. ثم بعث يوسف بن عمر إلى الحكم بأن يجمع أهل الكوفة في المسجد، فجمعوا وطلبوا زيداً في دار معاوية بن إسحق بن زيد بن حارثة، فخرج منها ليلاً واجتمع إليه ناس من الشيعة، وأشعلوا النيران ونادوا يا منصور حتى طلع الفجر، وأصبح جعفر بن أبي العباس الكِندي فلقي اثنين من أصحاب زيد يناديان بشعاره، فقتل واحدا وأتى بالآخر إلى الحكم فقتله، وأغلق أبواب المسجد على الناس. وبعث إلى يوسف بالخبر، فسار من الحيرة وقدم الرَيَّاف بن سلمة الأراثيني في ألفين خيالة وثلثمائة ماشية. وافتقد زيد الناس فقيل إنهم في الجامع محصورون، ولم يجد معه إلا مائتين وعشرين. وخرج صاحب الشرطة في خيله، فلقي نصر بن خزيمة العبسي من أصحاب زيد ذاهبا إليه، فحمل عليه نصر وأصحابه فقتلوه، وحمل زيد على أهل الشام فهزمهم. وانتهى إلى دار أنس بن عمر الأسدي ممن بايعه وناداه فلم يخرج إليه. ثم سار زيد إلى الكناسة فحمل على أهل الشام فهزمهم، ثم دخل الكوفة والرايات في أتباعه. فلما رأى زيد خذلان الناس قال لنصر بن خزيمة أفعلتموها حسينية؟ قال: أمَّا أنا فوالله لأموتن معك وإن الناس بالمسجد، فامض بنا إليهم. فجاء إلى المسجد ينادي بالناس بالخروج إليه. فرماه أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد، فانصرفوا عند المساء. وأرسل يوسف بن عمر من الغد العّباس بن سعد المزني في أهل الشام، فجاءه في دار الزرق، وقد كان أوى إليها عند المساء. فلقيه زيد بن ثابت فاقتتلوا فقتل نصر.

ثم حملوا على أصحاب العبّاس، فهزمهم زيد وأصحابه، وعأهم يوسف بن عمر من العشّي ثم سرّحهم، فكشفهم أصحاب زيد ولم تثبت خيلهم لخيله. وبعث إليهم يوسف بن عمر بالقادسية، واشتد القتال وقتل معاوية بن زيد. ثم رمي زيد عند المساء بسهم أثبته، فرجع أصحابه وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا، ولما نزع النصل من جبهته مات فدفنوه وأجروا عليه الماء. وأصبح الحكم يوم الجمعة يتبع الجرحى من الدور، ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه وقطع رأسه وبعث بها إلى يوسف بالحيرة، فبعثه إلى هشام فنصبه على

باب دمشق. وأمر يوسف الحكم أن يصلب زيداً بالكناسة، ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحق ويحرسهم. فلما ولي الوليد أمر باحراقهم، واستجار يحيى بن زيد بعبد الملك بن شبر بن مروان فأجاره حتى سكن المطلب، ثم سار إلى خراسان في نفر من الزيدية.

ظهور أبي مسلم بالدعوة العباسية:

كان أهل الدعوة العباسية بخراسان يكتمون أمرهم منذ بعث محمد بن علي بن عَبْد الله بن عباس دعاته إلى الآفاق سنة مائة من الهجرة، أيام عمر بن عَبْد العزيز، لّما مر أبو هاشم عَبْد الله بن محمد بن الحنفيّة ذاهباً وجائياً من الشام من عند سليمان بن عَبْد الملك، فمرض عنده بالحميمة من أعمال البلقاء، وهلك هنالك وأوصى له بالأمر. وكان أبو هاشم قد علّم شيعته بالعراق وخراسان وأن الأمر صائر في ولد محمد بن علي بن عَبْد الله بن عباس. فلما مات أبو هاشم قصدت الشيعة محمداً وبايعوه سرا، وبعث دعاته منهم إلى الآفاق. وكان الذي بعث إلى العراق مسيرة ابن والي خراسان محمد بن حبيش، وأمَّا عكرمة السرّاج، وهو أبو محمد الصادق وحيان العطّار خال إبراهيم بن سلمة فجاؤوا إلى خراسان ودعوا إليه سرا وأجابهم الناس، وجاؤوا بكتب من أجاب إلى مسيرة ا ه. فبعث بها إلى محمد، واختار أبو محمد الصادق اثني عشر رجلاً من أهل الدعوة فجعلهم نقباء عليهم وهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريط التميمي، وأبوالنجم عمران بن إسماعيل مولى أبي معيط، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة بن زريق الخزاعي، وأبو حمزة بن عمر بن أعين مولى خزاعة وأخوه عيسى، وأبو علي شبلة بن طهمان الهروي مولّى بني حنيفة. واختار بعده سبعين رجلاً، وكتب إليه محمد بن علي كتاباً يكون لهم مثالاً

يقتدون به في الدعوة، وأقاموا على ذلك. ثم بعث مسيرة رُسُله من العراق سنة اثنتين ومائة في ولاية سعيد خدينة، وخلافة يزيد بن عَبْد الملك. وسعى بهم إلى سعيد فقالوا نحن تجار، فضمنهم قوم من ربيعة واليمن فأطلقهم. وولد محمد ابنه عَبْد الله السفاح سنة أربع ومائة، وجاء إليه أبو محمد الصادق في جماعة من دعاة خراسان، فأخرجه لهم ابن خمسة عشر يوماً وقال هذا صاحبكم الذي يتم الأمر على يده، فقبلوا أطرافه وانصرفوا. ثم دخل معهم في الدعوة بكير بن هامان جاء من السند مع الجنيد بن عَبْد الرحمن. فلما عزل قدم الكوفة ولقي أبا عكرمة وأبا محمد الصادق ومحمد بن حبيش وعمار العبادي خال الوليد الأزرق، دعاه إلى خراسان في ولاية أسد القسري أيام هشام ووشى بهم إليه، فقطع أيدي من ظفر به منهم وصلبه. وأقبل عمار إلى بكير بن هامان فأخبره، فكتب إلى محمد بن علي بذلك فأجابه: الحمد لله الذي صدق دعوتكم ومقالتكم، وقد بقيت فيكم قتلى ستعد. ثم كان أول من قدم محمد بن علي إلى خراسان أبو محمد زياد مولى همذان، بعثه محمد بن علي سنة تسعة في ولاية أسد أيام هشام وقال له: انزل في اليمن وتلطّف لمضر ونهاه عن غالب النيسابوري شيعة بني فاطمة. فشتى زياد بمرو، ثم سعى به إلى أسد فاعتذر بالتجارة، ثم عاد إلى أمره. فأحضره أسد وقتله في عشرة من أهل الكوفة. ثم جاء بعدهم إلى خراسان رجل من أهل الكوفة اسمه كثِّير، ونزل على أبي الشحم وأقام يدعو سنتين أو ثلاثة، ثم أخذ أسد بن عَبْد الله في ولايته الثانية سنة سبع عشرة. أخذ سليمان

بن كثيّر، ومالك بن الهيثم، وموسى بن كعب، ولاهز بن قريط بثلاثمائة سوط، وشهد حسن بن زيد الأسدي ببراءهم فأطلقهم. ثم بعث بكير بن هامان سنة ثماني عشر عمّار بن زيد على شيعتهم بخراسان، فترل مرو وتسمى بخراش، وأطاعه الناس. ثم نزل دعوهم بدعوة الخرمية، فأباح النساء وقال: إن الصوم إنما هو عن ذكر الإمام، وأشار إلى إخفاء اسمه. والصلاة الدعاء له، والحج القصد إليه. وكان خراش هذا نصرانياً بالكوفة، وأتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم. وظهر أسد على خبره، وبلغ الخبر بذلك إلى محمد بن علي فنكر عليهم قبولهم من خراش، وقطع مراسلتهم. فقدم عليه ابن كثير منهم يستعلم خبره ويستعطفه على ما وقع منهم، وكتب معه إليهم كتاباً مختوماً لم يجدوا فيه غير البسملة، فعلموا مخالفة خراش لأمره وعظم عليهم. ثم بعث محمد بن بكير بن أبان، وكتب معه بكذب خراش فلم يصدقوه، فجاء إلى محمد وبعث مع عصيا مضبيةً بعضها بالحديد وبعضها بالنحاس. ودفع إلى كل رجل عصا فعلموا أنهم قد خالفوا السيرة فتابوا ورجعوا. وتوفي محمد بن علي سنة أربع وعشرين، وعهد إلى ابنه إبراهيم بالأمر وأوصى الدعاة بذلك، وكانوا يسمونه الإمام. وجاء بكير بن هامان إلى خراسان بنعيه، والدعاء لإبراهيم الإمام سنة ست وعشرين ومائة. ونزل مرو ودفع إلى الشيعة والنقباء كتابه بالوصية والسيرة فقبلوه، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقاهم، فقدم بها بكير على إبراهيم. ثم بعث إليهم أبا مسلم سنة أربع وعشرين وقد إختلف في أوليته اختلافاً كثيراً.

وفي سبب اتصاله بإبراهيم الإمام أو أبيه محمد، فقيل كان من ولد بزر جمهر، ولد بأصبهان وأوصى به أبوه إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة ابن سبع سنين. ونشأ بها واتصل بإبرهيم الإمام. وكان اسم أبي مسلم إبراهيم بن عثمان بن بشار، فسفاه إبراهيم الإمام عَبْد الرحمن وزوجة أبيه أبي النجم عمران بن إسماعيل من الشيعة. فبنى بها بخراسان، وزوج ابنته من محرز بن إبراهيم فلم يعقب. وابنته أسماء من فهم بن محرز، فأعقبت فاطمة، وهي التي يذكرها الخرمية. وقيل في اتصاله بإبراهيم الإمام: إنّ أبا مسلم كان موسى السراج، وتعلم منه صناعة السروج، وكان يتجهز فيها بأصبهان والجبال والجزيرة والموصل. واتصل بعاصم بن يونس العجلي صاحب عيسى السراج، وابن أخيه عيسى وإدريس ابني معقل، وإدريس هو جد أبي دلف. ونمي إلى يوسف بن عمران العجلي من دعاة بني العباس، فحبسهم مع عمال خالد القسري. وكان أبو مسلم معهم في السجن بخدمتهم وقبل منهم الدعوة. وقيل لم يتصل بهم من عيسى السّراج، وإنما كان من ضياع بني العجلي بأصبهان أو الجبل. وتوجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهزبن قريط، وقحطبة بن شبيب من خراسان، يريدون إبراهيم الإمام بمكة، فمروا بعاصم بن يونس وعيسى وإدريس ابني معقل العجلي بمكانهم من الحبس فرأوا معهم أبا مسلم فأعجبهم وأخذوه. ولقوا إبراهيم الإمام بمكة فأعجبه فأخذه وكان يخدمه. ثم قدم النقباء بعد ذلك على إبراهيم الإمام يطلبون أن يوجه من قلبه إلى خراسان، فبعث معه أبا مسلم. فلما تمكن ونوى أمره ادّعى أنه من ولد سليط بن عَبْد الله بن عباس. وكان من أولية هذا الخبرأن

جارية لعبد الله بن العبّاس ولدت لغير رشدة فحدّها واستعبد وليدها وسماه سليطاً، فنشأ واختص بالوليد. وادعى أن عَبْد الله بن عباس أقر بأنه ابنه، وأقام البينة على ذلك. وخاصم علي بن عَبْد الله في الميراث وأذاه.

وكان في صحابته عمر الدنٌّ من ولد أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم ودخل عليها سليط بالخبر، فاستعدت الوليد على علي فأنكر وحلف، فنبشوا في البستان فوجدوه. فأمر الوليد بعلي فضرب ليدله على عمر الدن. ثم شفع فيه عباد بن زياد فاخرج إلى الحميمة. لمّا ولي سليمان رده إلى دمشق. وقيل إن أبا مسلم كان عبداً للعجليين، وابن بكير بن هامان كان كاتباً لعمال بعض السند. وقدم الكوفة فكان دعاة بني العباس فحبسوا وبكير معهم. وكان العجليون في الحبس، وأبو مسلم العبسي بن معقل، فدعاهم بكير إلى رأيه فأجابوه، واستحسن الغلام فاشتراه من عيسى بن معقل بأربعمائة درهم، وبعث به إلى إبراهيم الإمام فدفعه إبراهيم إلى موسى السرّاج من الشيعة. فسمع منه وحفظ، وصار يتردد إلى خراسان. وقيل كان لبعض أهل هراة، وابتاعه منه إبراهيم الإمام، ومكث عنده سنين وكان يتردد بكتبه إلى خراسان. ثم بعثه أميراً على الشيعة وكتب إليهم بالطاعة له، وإلى أبي سلمة الخلال داعيهم بالكوفة يأمره بإنفاذه إلى خراسان، فنزل على سليمان بن كثير وكان من أمره ما يذكر بعد هذا إن شاء الله تعالى. ثم جاء سليمان بن كثير، ولاهز بن قريط وقحطبة إلى مكة سنة سبع وعشرين، بعشرين ألف دينار للإمام إبراهيم، ومائتي ألف درهم وصه ومسك ومتاع كثير، ومعهم أبو مسلم وقالوا: هذا مولاك. وكتب بكير بن هامان إلى الإمام بأنه أوصى بأمر الشيعة بعده لأبي سلمة حفص بن سليمان الخلاّل وهو رضى. فكتب إليه إبراهيم بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان بذلك فقبلوه وصدّقوه، وبعثوا بخمس أموالهم ونفقة الشيعة للإمام إبراهيم. ثم بعث إبراهيم في سنة ثماني وعشرين مولاه أبا مسلم إلى خراسان، وكتب له: إني قد أمرته بأمري فاسمعوا له وأطيعوا، وقد أمرته على خراسان وما غلبت عليه، فارتابوا من توله ووفدوا على إبراهيم الإمام من قابل مكة، وذكر له أبو مسلم أنهم لم يقبلوه. فقال لهم: قد عرضت عليكم الأمر فأبيتم من قبوله وكان عرضه على سليمان بن كثير، ثم على إبراهيم بن مسلمة فأبوا. وإني قد أجمع رأيي على مسلم، وهو منّا أهل البيت فاسمعوا له وأطيعوا. وقال لأبي مسلم انزل في أهل

اليمن وأكرمهم. فإنّ بهم يتمّ الأمر وآتهم البيعة. وأمَّا مضر فهم العدوّ والغريب، واقتل من شككت فيه، وإن قدرت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وارجع إلى سليمان بن كثير واكتف به مني وسرّحه معهم فساروا إلى خراسان.

وفاة هشام بن عبد الملك وبيعة الوليد بن يزيد:

توفي هشام بن عَبْد الملك بالرصافة في ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، لعشرين سنة من خلافته، وولى بعده الوليد إبن أخيه يزيد بعهد يزيد بذلك كما مر، وكان الوليد متلاعباً، وله مجون وشراب وندمان، وأراد هشام خلعه فلم يمكنه. وكان يضرب من يأخذه في صحبته، فخرج الوليد في ناس من خاصته ومواليه، وخلف كاتبه عياض بن مسلم ليكاتبه بالأحوال، فضربه هشام وحبسه. ولم يزل الوليد مقيماً بالبرية حتى مات هشام، وجاءه مولى أبي محمد السفياني على البريد بكتاب سالم بن عَبْد الرحمن صاحب ديوان الرسائل بالخبر، فسأل عن كاتبه عياض فقال: لم يزل محبوساً حتى مات هشام، فأرسل إلى الحراق أن يحتفظوا بما في أيديهم حتى

منعوا هشاماً من شيء طلبه. ثم خرج بعد موته من الحبس، وختم أبواب الخزائن. ثم كتب الوليد من وقته إلى عمه العباس بن عَبْد الملك أن يأتي الرصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام وولده وعماله وخدمه، إلا مسلمة بن هشام فإنه كان يراجع أباه بالرفق بالوليد، فانتهى العباس لّما أمر به الوليد. ثم استعمل الوليد العمال وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة. فجاءته بيعتهم. وكتب مروان ببيعته واستأذن في القدوم. ثم عقد الوليد من سنته لإبنيه: الحكم وعثمان بعده وجعلهما وليي عهده، وكتب بذلك إلى العراق وخراسان.

ولاية نصر للوليد علي خراسان:

وكتب الوليد في سنته إلى نصر بن سيار بولاية خراسان وأفرده بها، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه نصراً وعماله، فرد إليه الوليد خراسان. وكتب يوسف إلى نصر بالقدوم، ويحمل معه الهدايا والأموال وعياله جميعاً وكتب له الوليد بأن يتخذ له برابط وطنابير وأباريق ذهب وفضة، ويجمع له البراذين الغرّة ويجمع بذلك إليه في

وجوه أهل خراسان، واستحثه رسول يوسف فأجازه. ثم سار واستخلف على خراسان عصمة بن عَبْد الله الأسدي، وعلى شاش موسى بن ورقاء، وعلى سمرقند حسان ابن من أهل الصغانيان، وعلى آمد مقاتل بن عليّ الصغدي وأسر إليهم أن يداخلوا الترك في المسير إلى خراسان ليرجع إليهم. وبينا هو في طريقه إلى العراق ببيهق لقيه مولى لبني ليث، وأخبره بقتل الوليد والفتنة بالشام. وأن منصور بن جمهور قدم العراق وهرب يوسف بن عمر فرجع الناس.

مقتل يحيي بن زياد:

كان يحيى بن زياد سار بعد قتل أبيه وسكون الطلب عنه كما مر فأقام عنه الحريش بن عمرو ومروان في بلخ. ولما ولي الوليد كتب إلى نصر بأن يأخذه من عند الحريش، فأحضر الحريش وطالبه بيحيى فأنكر، فضربه ستمائة سوط، فجاء ابنه قُرَيْش ودله على يحي فحبسه. وكتب إلى الوليد فأمره أن يخلي سبيله وسبيل أصحابه. فأطلقه نصر وأمره أن يلحق بالوليد، فسار وأقام بسرخس، فكتب نصر إلى عَبْد الله بن قيس بن عياد يخرجه عنها، فأخرجه إلى بيهق، وخاف يحيى بن يوسف بن عمر فسار إلى نيسابور وبها عمر بن زرارة وكان مع يحيى سبعون رجلاً، ولقوا دواب وأدركهم الإعياء فأخذوها بالثمن. وكتب عمر بن زرارة بذلك إلى نصر، فكتب إليه يأمره بحربهم. فحاربهم في عشرة آلاف فهزموه وقتلوه، ومروا بهراة فلم يعرضوا لها. وسرح نصر بن سيار مسلم بن أحور المازني إليهم، فلحقهم بالجوزجان فقاتلهم قتالاً شديداً وأصيب يحيى بسهم في جبهته فمات.وقتل أصحابه جميعاً وبعثوا برأسه إلى الوليد، وصلب بالجوزجان. وكتب الوليد إلى يوسف بن عمر بأن يحرق شلو زيد، فأحرقه وذراه لي الفرات.ولم يزل يحيى مصلوباً بالجوزجان حتى استولى أبو مسلم على خراسان فدفنه ونظر في الديوان اسماء من حضر لقتله فمن كان حياً قتله، ومن كان ميتاً خلفه في أهله بسوء.

مقتل خالد بن عَبْد اللّه القسري:

قد تقدم لنا ولاية يوسف بن عمر على العراق، وأنه حبس خالداً أصحاب العراق

وخراسان قبله، فأقام بحبسه في الحيرة ثمانية عشر شهراً مع أخيه إسمعيل وابنه يزيد بن خالد والمنذر ابن أخيه أسد. واستأذن هشاماً في عذابه فأذن له على أنه إن هلك قتل يوسف به فعذبه. ثم أمر هشام بإطلاقه سنة إحدى وعشرين، فأتى إلى قرية بإزاء الرصافة فأقام بها، حتى خرج زيد وقتل وانقضى أمره، فسعى يوسف بخالد عند هشام بأنه الذي داخل زيداً في الخروج، فرد هشام سعايته ووبخ رسوله وقال: لسنا نتهم خالداً في طاعة. وسار خالد إلى الصائفة، وأنزل أهله دمشق وعليها كلثوم بن عياض القشيري، وكان يبغض خالداً. فظهر في دمشق حريق في ليال، فكتب كلثوم إلى هشام بأن موالي خالد يريدون الوثوب إلى بيت المال، ويتطرقون إلى ذلك بالحريق كل ليلة في البلد. فكتب إليه هشام بحبس الكبير منهم والصغير والموالي، فحبسهم ثم ظهر على صاحب الحريق وأصحابه. وكتب بهم الوليد بن عَبْد الرحمن عامل الخراج، ولم يذكر فيهم أحداً من آل خالد ومواليه، فكتب هشام إلى كلثوم يوبخه ويأمره بإطلاق آل خالد وترك الموالي. فشفع فيهم خالد عند مقدمه من الصائفة، فلما قدم دخل منزله وأذّن للناس فاجتمعوا ببابه فوّبخهم وقال: إن هشاماً يسوقهن إلى الحبس كل يوم. ثم قال: خرجت غازياً سامعاً مطيعاً فحبس أهلي مع أهل الجرائم كما يفعل بالمشركين. ولم يغير ذلك أحد منكم، أخفتم القتل؟ أخافكم الله. والله ليكفن عني هشام، أو لاعودن إلى عراقي الهوى، شامي الدار، حجازي الأصل، يعني محمد بن علي بن عَبْد الله بن عباس.وبلغ ذلك هشاماً فقال: خرف أبو الهيثم. ثم تتابعت كتب يوسف بن عمر إلى هشام بطلب يزيد بن خالد، فأرسل إلى كلثوم بإنفاذه إليه، فهرب يزيد فطلبه كلثوم من خالد وحبسه فيه، فكتب إليه هشام بتخليته ووبخه اه. ولما ولي الوليد بن يزيد استقدم خالداً وقال: أين ابنك؟ قال: هرب من هشام، وكنّا نراه عندك حتى استخلفك الله فلم نره، وطلبناه ببلاد قومه من الشراة فقال: ولكن خلفته طلباً للفتنة فقال: إنا أهل بيت طاعة. فقال لتأتيني به أو لازهقن، نفسك. فقال: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه. فأمر الوليد بضربه. ولما قدم يوسف بن عمر من العراق بالأموال اشتراه من الوليد بخمسين ألف ألف فقال له الوليد: إن

يوسف يشتريك بكذا فاضمنها لي قبل أن أدفعك إليه. فقال: ما عهدت العرب تباع! والله لو سألتني عوداً ما ضمنته. فدفعه إلى يوسف، فألبسه عباءة وحمله على غير وطاء، وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه. ثم حمله إلى الكوفة فاشتد في عذابه، ثم قتله ودفنه في عباءة، يقال إنه قتله بشيء وضعه على وجهه، وقيل وضع على رجليه الأعواد وقام عليها الرجال حتى تكسرت قدماه. وذلك في المحرم سنة ست وعشرين ومائة.

مقتل الوليد وبيعة يزيد:

ولما ولي الوليد لم يقلع عما كان عليه من الهوى والمجون. حتى نسب إليه في ذلك كثير من الشنائع. مثل رمية المصحف بالسهام، حين استفتح فوقع على قوله: {وخاب كل جبار عنيد}. وينشدون له في ذلك بيتين تركتهما لشناعة مغزاهما. ولقد ساءت القالة فيه كثيراً، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه وقالوا: إنها من شناعات الأعداء، ألصقوها به. قال المدائني دخل ابن الغمر بن يزيد على الرشيد فسأله: ممن أنت؟ فقال: من قُرَيْش. قال: من أيها ؟ فوجم، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مروان. فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد. فقال: رحم الله

الوليد ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة مجمعاً عليه، إرفع حوائجك فرفعها وقضاها.وقال شبيب بن شبة كنا جلوساً عند المهدي فذكر الوليد، فقال المهدي: كان زنديقاً، فقام ابن علانة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل أعدل من أن يولي خلافه النبوَّة وأمر الأمة زنديقاً، لقد أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه، ويراه في طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة، يطرح الثياب التي عليه المصبية المصبغة. ثم يتوضأ فيحسن الوضوء، ويؤتى بثياب بيض نظيفة فيلبسها ويشتغل بربه. أترى هذا فعل من لا يؤمن بالله؟ فقال المهدي: بارك الله عليك يا ابن علانة، وإنما كان الرجل محسوداً في خلاله، ومزاحماً بكبار عشيرة بيته من بني عمومته مع لهوٍ كان يصاحبه أوجد لهم به السبيل على نفسه.وكان من خلاله قرض الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ. قال يوماً لهشام يعزيه في مسلمة أخيه: إن عقبى من بقي لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى. وعلى أثر من سلف يمضي من خلف، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى. فأعرض هشام وسكت القوم.وأمَّا حكاية مقتله فإنه لمّا تعرض له بنو عمه، ونالوا من عرضه، أخذ في مكافأتهم.

فضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط، وحلقه وغربه إلى معان من أرض الشام، فحبسه إلى آخر دولته. وحبس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين ابن الوليد وين امرأته، وحبس عدةً من ولد الوليد، فرموه بالفسق والكفر واستباحة نساء أبيه. وخوفوا بني أُمَيَّة منه بأنه اتخذ ميتة جامعة لهم، وطعنوا عليه في تولية إبنيه الحكم وعثمان العهد مع صغرهما. وكان أشدهم عليه في ذلك يزيد بن الوليد، لأنه كان يتنسك فكان الناس إلى قوله أميل. ثم فسدت اليمامة عليه بما كان منه لخالد القسري. وقالوا: إنما حبسه ونكبه لامتناعه من بيعة ولديه. ثم فسدت عليه قضاعة، وكان اليمن وقضاعة أكثر جند الشام. واستعظموا منه ما كان من بيعة خالد ليوسف بن عمر، وصنعوا على لسان الوليد قصيدة معيرة اليمنية بشأن خالد، فازداد واختفى. وأتوا إلى يزيد بن الوليد بن عَبْد الملك فأرادوه على البيعة. وشاور عمر بن زيد الحكمي فقال: شاور أخاك العباس وإلا فأظهر إنه قد بايعك، فإن الناس له أطوع. فشاور العباس فنهاه عن ذلك فلم ينته، ودعا الناس سراً، وكان بالبادية. وبلغ الخبر مروان بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عَبْد الملك يعظم عليه الأمر ويحذره الفتنة ويذكر له أمر يزيد، فأعظم ذلك سعيد، وبعث بالكتاب إلى العباس، فتهدد أخاه يزيد فكتمه فصدقه.ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق لأربع ليال متنكراً، معه سبعة نفر على الحمر. ودخل دمشق ليلاً وقد بايع له أكثر أهلها سراً، وأهل المزة. وكان على دمشق عَبْد الملك بن محمد بن الحجاج، فاستوياها فترل قطنا، واستخلف عليها إبنه محمداً. وعلى شرطته أبو العاج كثير بن عَبْد الله السلمي. ونمي الخبر إليهما فكذباه، وتواعد بزيد مع أصحابه بعد المغرب بباب الفراديس. ثم دخلوا المسجد فصلوا العتمة، ولما قضوا الصلاة جاء حرس المسجد لإخراجهم فوثبوا عليهم، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد، فجاء به إلى المسجد في زهاء مائتين وخمسين، وطرقوا باب المقصورة، فأدخلهم الخادم، فأخذوا أبا العاج وهو سكران

وخزان بيت المال وبعث عن محمد بن عَبْد الملك فأخذوه وأخذوا سلاحاً كثيراً كان بالمسجد، وأصبح الناس من الغد من النواحي القريبة متسائلين للبيعة أهل المزة والسكاسك وأهل دارا. وعيسى بن شيب الثعلبي في أهل

درهة وحرستا، وحميد بن حبيب اللخمي في أهل دمرعران، وأهل حرش والحديثة ودير كاوربعي بن هشام الحرثي في جماعة من عر وسلامان. ويعقوب بن عمير بن هانىء العبسي وجهينة ومواليهم. ثم بعث عَبْد الرحمن بن مصادي في مائتي فارس، فجاء بعبد الملك بن محمد بن الحجاج من قصره على الأمان. ثم جهز يزيد الجيش إلى الوليد بمكانه من البادية مع عَبْد العزيز بن الحجاج بن عَبْد الملك، ومنصور بن جمهور. وقد كان الوليد لّما بلغه الخبر بعث عَبْد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فأقام بطريقه قليلاً. ثم بايع ليزيد، وأشار على الوليد أصحابه أن يلحق بحمص فيتحصن بها. قال له ذلك يزيد بن خالد بن يزيد، وخالفه عَبْد الله بن عنبسة. وقال: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره وحرمه قبل أن يقاتل. فسار إلى قصر النعمان بن بشير، ومعه أربعون من ولد الضحاك وغيره. وجاء كتاب العباس بن الوليد بأنه قادم عليه، وقاتلهم عَبْد العزيز ومنصور بعد أن بعث إليهم زياد بن حصين الكلبي يدعوهم إلى الكتاب والسنة. فقتله أصحاب الوليد واشتدّ القتال بينهم، وبعث عَبْد العزيز بن منصور بن جمهور لاعتراض العباس بن الوليد أن يأتي بالوليد. فجاء به كرهاً إلى عَبْد العزيز، وأرسل الوليد إلى عَبْد العزيز بخمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقي على أن ينصرف عنه فأبى. ثم قاتل قتالاً شديداً حتى سمع النداء بقتله وسبه من جوانب الحومة، فدخل القصر فأغلق الباب، وطلب الكلام من أعلى القصر، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي فذكره بحرمه وفعله فيهم. فقال ابن عنبسة: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، وإنما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله. قال : حسبك الله يا أخا السكاسك ! فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت. ثم رجع إلى الدار فجلس يقرأ في المصحف وقال: يوم كيوم عثمان فتسوّروا عليه، وأخذ يزيد بن عنبسة بيده يقيه لا يريد قتله، وإذا بمنصور بن جمهور في جماعة معه ضربوه واجتزوا رأسه، فساروا به إلى يزيد فأمر بنصبه.فتلطّف له يزيد بن فروة مولى

بني مرّة في المنع من ذلك، وقال: هذا ابن عمك وخليفة، وإنما تنصب رؤوس الخوارج، ولا آمن أن يتعصب له أهل بيته، فلم يجبه، وأطافه بدمشق على رمح، ثم دفع إلى أخيه سليمان بن يزيد وكان معهم عليه. وكان قتله آخر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين لسنتين وثلاثة أشهر من بيعته. ولما قتل خطب الناس يزيد فذمّه وثلبه، وإنه إنما قتله من أجل ذلك. ثم وعدهم بحسن الظفر والاقتصار عن النفقة في غير حاجاتهم، وسد الثغور والعدل في العطاء والأرزاق ورفع الحجاب، وإلا فلكم ما شئتم من الخلع. وكان يسمى الناقص لأنه نقص الزيادة التي زادها الوليد في أعطيات الناس وهي عشرة عشرة. وردّ العطاء كما كان أيام هشام، وبايع لأخيه إبراهيم بالعهد ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عَبْد الملك، حمله على ذلك أصحابه القدرية لمرض طرقه . ولما قتل الوليد، وكان قد حبس سليمان ابن عمه هشام بعمان، خرج سليمان من الحبس وأخذ ما كان هناك من الأموال ونقله إلى دمشق. ثم بلغ خبر مقتله إلى حمص، وأن العباس بن الوليد أعان على قتله، فانتقضوا وهدموا دار العباس وسبوها، وطلبوه فلحق بأخيه يزيد. وكاتبوا الأجناد في الطلب بدم يزيد، وأمروا عليهم مروان بن عَبْد الله بن عَبْد الملك، ومعاوية بن يزيد بن حصين بن نمير، وراسلهم يزيد فطردوا رسوله، فبعث

أخاه مسروراً في الجيش فتزل حّوارين. ثم جاء سليمان بن هشام من فرد عليه ما أخذ الوليد من أموالهم، وبعث على الجيش وأمر أخاه مسروراً بالطاعة. واعتزم أهل حمص على المسير إلى دمشق، فقال لهم مروان: ليس من الرأي أن تتركوا خلفكم هذا الجيش وإنما نقاتله قبل، فيكون ما بعده أهون علينا. فقال لهم السميط بن ثابت إنما يريد خلافكم وإنما هواه مع يزيد والقدرية، فقتلوه وولّوا عليهم محمداً السفياني وقصدوا دمشق، فاعترضهم ابن

هشام بغدرا فقاتلهم قتالاً شديداً. وبعث يزيد عَبْد العزيز بن الحجاج بن عَبْد الملك في ثلاثة آلاف إلى ثنية العقاب وهشام بن مضاد في ألف وخمسمائة إلى عقبة السلامية. وبينما سالم يقاتلهم إذ أقبلت عساكر من ثنية العقاب، فانهزم أهل حمص، ونادى يزيد بن خالد بن عَبْد الله القسري: الله الله على قومك يا سليمان. فكف الناس عنهم وبايعوا ليزيد. وأخذ أبا محمد السفياني ويزيد بن خالد بن يزيد وبعثهما إلى يزيد فحبسهما اه. واستعمل على حمص معاوية بن يزيد بن الحصين، وكان لّما قتل الوليد وثب أهل فلسطين على عاملهم سعيد بن عَبْد الملك فطردوه، وتولى منهم سعيد وضبعان إبنا روح، وكان ولد سليمان يتزلون فلسطين، فأحضروا يزيد بن سليمان وولّوه عليهم، وبلغ ذلك أهل الأردن، فولوا عليهم محمد بن عَبْد الملك. وبعث يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني على ثمانين ألفاً، وبعث إلى إبني روح بالإحسان والولاية، فرجعا بأهل فلسطين. وقدّم سليمان عسكراً من خمسة آلاف إلى طبرية فنهبوا القرى والضياع، وخشي أهل طبرية على من وراءهم، فانتهبوا يزيد بن سليمان ومحمد بن عَبْد الملك ونزلوا بمنازلهم، فافترقت جموع الأردن وفلسطين. وسار سليمان بن هشام، ولحقه أهل الأردن فبايعوا ليزيد، وسار إلى طبرية والرملة وأخذ على أهلهما البيعة ليزيد، وولّى على فلسطين ضبعان بن روح، وعلى الأردن إبراهيم بى الوليد.

ولاية منصور بن جمهور علي العراق ثم ولاية عَبْد الله بن عمر.

لّما ولي يزيد استعمل منصور بن جمهور على العراق وخراسان، ولم يكن من أهل الدين، وإنما صار مع يزيد لرأيه في الغيلانية، وحنقاً على يوسف بقتله خالداً القسري. ولما بلغ يوسف قتل الوليد ارتاب في أمره، وحبس اليمانيّة لّما تجتمع المضرية عليه فلم ير عندهم ما يحب، فأطلق اليمانيّة. وأقبل المنصور وكتب من عين البقر إلى قوّاد الشام في الحيرة بأخذ يوسف وعماله، فأظهر يوسف الطاعة. ولما قرب منصور

دخل دار عمر بن محمد بن سعيد بن العاص، ولحق منها بالشام سًّراً، وبعث يزيد بن الوليد خمسين فارساً لتلقيه. فلما أحس بهم هرب واختفى، ووجد بين النساء فأخذوه وجاؤا به إلى يزيد، فحبسه مع إبني الوليد، حتى قتلهم مولى ليزيد بن خالد القسري. ولما دخل منصور بن جمهور الكوفة لأيام خلت من رجب، أفاض العطاء وأطلق من كان في السجون من العمال وأهل الخراج، واستعمل أخاه على الري وخراسان، فسار لذلك فامتنع نصر بن سيار من تسليم خراسان له. ثم عزل يزيد منصور بن جمهور لشهرين من ولايته، وولّى على العراق عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيز وقال: سر إلى أهل العراق، فإن أهله يميلون إلى أبيك. فسار وانقاد له أهل الشام، وسلم إليه منصور العمل، وانصرف إلى الشام. وبعث عَبْد الله العمّال على الجهات، واستعمل

عمر بن الغضبان بن القبعثرا على الشرطة وخراج السواد والمحاسبات، وكتب إلى نصر بن سيّار بعهده على خراسان.

انتقاض أهل اليمامة:

ولما قتل الوليد كان عليّ بن المهاجر على اليمامة عاملاً ليوسف بن عمر، فجمع له المهير بر سليمان بن هلال من بني الدول بن خولة. وسار إليه وهو في قصره بقاع هجر فالتقوا وانهزم عليّ، وقتل ناس من أصحابه، وهرب إلى المدينة. وملك المهير اليمامة، ثم مات. واستخلف عليها عَبْد الله بن النعمان من بني قيس بن ثعلبة من الدول، فبعث المندلب بن إدريس الحنفي على الفلج قرية من قرى بني عامر بن صعصعة، فجمع له بني كعب بن ربيعة بن عامر، وبني عمير، فقتلوا المندلب وأكثر أصحابه. فجمع عَبْد الله ابن النعمان جموعاً من حنيفة وغيرها، وغزا الفلج وهزم بني عقيل وبني بشير وبني جعدة وقتل أكثرهم. ثم اجتمعوا ومعهم نمير فلقوا بعض حنيفة بالصحراء فقتلوهم وسلبوا نساءهم، ثم جمع عمر بن الوازع الحنفي الجموع وقال: لست بدون عَبْد الله بن النعمان، وهذه فترة من السلطان. وأغار وامتلأت يداه من الغنائم، وأقبل ومن معه وأقبلت بنو عامر، والتقوا فانهزم بنو حنيفة ومات أكثرهم من العطش. ورجع بنو عامر بالأسرى والنساء، ولحق عمر بن الوازع باليمامة. ثم جمع

عبيد الله بن مسلم الحنفي جمعاً وأغار على قشير وعكل فقتل منهم عشرين، وسمى المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على اليمامة من قبل أبيه حتى ولي العراق لمروان، فتعرض المثنى لبني عامر وضرب عدة من بني حنيفة وحلقهم. ثم سكنت البلاد، ولم يزل عبيد الله بن مسلم الحنفي مستخفياً، حتى قدم كسرى بن عبيد الله الهاشمي والياً على العامة لبني العباس ودل عليه فقتله.

اختلاف أهل خراسان:

ولما قتل الوليد وقدم على نصر عهد خراسان من عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيزصاحب العراق، انتقض عليه جديع بن علي الكرماني، وهو أزدي. وإنما سمي الكرماني لأنه ولد بكرمان، وقال لأصحابه هذه فتنة فانظروا لأموركم رجلاً، فقالوا له: أنت ! وولّوه. وكان الكرماني قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عَبْد الله، فلما ولى نصر عزله عن الرياسة بغيره، فتباعد ما بينهما. وأكثر على نصر أصحابه في أمر الكرماني، فاعتزم على حبسه، وأرسل صاحب حرسه ليأتي به. وأراد الأزد أن يخلصوه فأبى، وجاء إلى نصر يعدد عليه أياديه قبله، من مراجعة يوسف بن عمر في قتله، والغرامة عنه، وتقديم ابنه للرياسة. ثم قال: فبدلت ذلك بالإجماع على الفتنة، فأخذ يعتذر ويتنصل، وأصحاب نصر يتحاملون عليه، مثل مسلم بن أحور وعصمة بن عَبْد الله ا لأسدي.ثم ضربه وحبسه آخر رمضان سنة ست وعشرين، ثم نقب السجن واجتمع له ثلاثة آلاف، وكانت الأزد قد بايعوا عَبْد الملك بن حرملة على الكتاب والسنة. ولما جاء الكرماني قدمه عَبْد الملك، ثم عسار نصر على باب مرو الروذ، واجتمع إليه الناس، وبعث سالم بن أحور في الجموع إلى الكرماني، وسفر الناس بينهما على أن يؤمنه نصر ولا يحبسه. وأجاب نصر إلى ذلك، وجاء الكرماني إليه و أمره بلزوم بيته. ثم بلغه عن نصر شيء

فعاد إلى حاله، وكلموه فيه فأمنه، وجاء إليه وأعطى أصحابه عشرة عشرة. فلما عزل جمهور عن العراق وولي عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيز، خطب نصر قدام بن جمهور وأثنى على عَبْد الله، فغضب الكرماني لابن الجمهور، وعاد لجمع المال واتخاذ السلاح. وكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة، ويصلي خارج المقصورة، ويدخل فيسلم ولا يجبس. ثم أظهر الخلاف، وبعث إليه نصر سالم بن أحور فأفحش في

صرفه، وسفر بينهما الناس في الصلح على أن يخرج الكرماني من خراسان، وتجهز للخروج إلى جرجان.

أمان الحرث بن شريح وخروجه من دار الحرث:

لّما وقعت الفتنة بخراسان بين نصر والكرماني خاف نصر أن يستظهر الكرماني عليه بالحارث بن شريح، وكان مقيماً ببلاد الترك منذ إثنتي عشرة سنة كما مرّ، فأرسل مقاتل بن حيان النبطي يراوده على الخروج من بلاد الترك، بخلاف ما يقتضي له الأمان من يزيد بن الوليد. وبعث خالد بن زياد البدي الترمذي وخالد بن عمرة مولى بني عامر لاقتضاء الأمان له من يزيد، فكتب له الأمان. وأمر نصراً أن يردّ عليه ما أخذ له، وأمر عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيز عامل الكوفة أن يكتب لهما بذلك أيضاً. ولما وصل إلى نصر بعث الى الحرث بذلك، فلقيه الرسول راجعاً مع مقاتل بن حيّان وأصحابه، ووصل سنة سبع وعشرين في جمادى الأخيرة، وأنزله نصر بمرو ورد عليه ما أخذ له، وأجرى عليه كل يوم خمسين درهماً، وأطلق أهله وولده. وعرض عليه أن يوليه، ويعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل، وقال: لست من الدنيا واللذات في شيء، وإنما أسأل كتاب الله والعمل بالسنة، وبذلك اساعدك على عدوك. وإنما خرجت من البلاد منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور، فكيف تزيدني عليه. وبعث إلى الكرماني إن عمل نصر بالكتاب عضدته في أمر الله، ولا أعتبك إن ضمنت لي القيام بالعدل والسنة. ثم دعا قبائل تميم فأجاب منهم ومن غيرهم كثير، واجتمع إليه ثلاثة آلاف وأقام على ذلك.

انتقاض مروان لّما قتل الوليد:

كان مروان بن محمد بن مروان على أرمينية، وكان على الجزيرة عبدة بن رياح العبادي. وكان الوليد قد بعث بالصائفة أخاه، فبعث معه مروان إبنه عَبْد الملك. فلما انصرفوا من الصائفة لقيهم بجرزان حين مقتل الوليد، وسار عبدة عن الجزيرة. فوثب عَبْد الملك بالجزيرة وجرزان فضبطهما، وكتب إلى أبيه بأرمينية يستحثه، فسار طلباً بدم الوليد بعد أن أرسل إلى الثغور من يضبطها. وكان معه ثابت بن نعيم الجذامي من أهل فلسطين، وكان صاحب فتنة. وكان هشام قد حبسه على إفساد

الجند بأفريقية عند مقتل كلثوم بن عياض، وشفع فيه مروان فأطلقاه واتخذه عنده يداً. فلما سار من أرمينية داخل ثابت أهل الشام في العود إلى الشام من وجه الفرات. واجتمع له الكبير من جند مروان وناهضه القتال. ثم غلبهم وانقادوا له، وحبس ثابت بن نعيم وأولاده، ثم أطلقهم من حرّان إلى الشام وجمع نيفاً وعشرين ألفاً من الجزيرة ليسير بهم إلى يزيد، وكتب إليه يشترط ما كان عَبْد الملك ولى أباه محمداً من الجزيرة والموصل وأذربيجان، فأعطاه يزيد ولاية ذلك وبايع له مروان وانصرف.

وفاة يزيد وبيعة أخيه إبراهيم:

ثم توفي يزيد آخر سنة ست وعشرين لخمسة أشهر من ولايته، ويقال: إنه كان قدرياً وبايعوا لأخيه إبراهيم من بعده، إلا أنه انتقض عليه الناس و لم يتم له الأمر. وكان يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة، وأقام على ذلك نحواً من ثلاثة أشهر، ثم خلعه مروان بن محمد على ما يذكر. وهلك سنة إثنتين وثلاثين.

مسير مروان إلي الشام:

ولما توفي يزيد وولى أخوه إبراهيم وكان مضعفاً، انتقض عليه مروان لوقته، وسار إلى دمشق. فلما انتهى إلى قنسرين وكان عليها بشر بن الوليد عاملاً لأخيه يزيد، ومعه أخوهما مسرور،ودعاهم مروان إلى بيعته. ومال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة، وخرج بشر للقاء مروان. فلما تراءى الجمعان مال ابن هبيرة وقيس إلى مروان، وأسلموا بشراً ومسروراً فأخذهما مروان وحبسهما، وسار بأهل قنسرين ومن معه إلى حمص، وكانوا امتنعوا من بيعة إبراهيم. فوجه إليهم عَبْد العزيز بن الحجاج بن عَبْد الملك في جند أهل دمشق، فكان يحاصرهم. فلما دخل مروان رحل عَبْد العزيز عنهم، وبايعوا مروان، وخرج للقائه سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفاً، ومروان في ثمانين فدعاهم إلى الصلح، وترك الطلب بدم الوليد على أن يطلقوا إبنيه الحكم وعثمان وليي عهده، فأبوا وقاتلوه. وسرب عسكراًص جاؤهم من خلفهم فانهزموا، وأثخن فيهم أهل حمص فقتلوا منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً وأسروا مثلها. ورجع مروان بالفل وأخذ عليهم البيعة للحكم وعثمان ابني الوليد، وحبس يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيين فهلكا في حبسه. وكان ممن شهد قتل الوليد بن الحجاج، وهرب يزيد بن خالد القسري إلى دمشق، فاجتمع له مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج وتشاوروا في قتل الحكم وعثمان، خشية أن يطلقهما مروان فيثأرا بأبيهما. وولوا ذلك يزيد بن خالد، فبعث مولاه أبا الأسد فقتلهما وأخرج يوسف بن عمر فقتله، واعتصم أبو محمد السفياني ببيت في الحبس فلم يطيقوا فتحه، وأعجلهم خيل مروان. فدخل دمشق وأتى بأبي الوليد ويوسف بن عمر مقتولين، فدفنها وأتى بأبي عمر السفياني في قيوده، فسلم عليه بالخلافة وقال: إنّ ولي العهد جعلها لك. ثم بايعه وسمع الناس فبايعوه، وكان أولهم بيعة معاوية بن يزيد بن حصين بن نضير وأهل حمص. ثم رجع مروان إلى خراسان واستأمن له إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام وقدما عليه، وكان قدوم سليمان من تدمر بمن معه من إخوته وأهل بيته ومواليه الذكوانية فبايعوا لمروان.

انتقاض الناس على مروان

ولما رجع إلى خراسان راسل ثابت بن نعيم من فلسطين أهل حمص في الخلاف على مروان، فأجابوه وبعثوا إلى من كان بتدمر ممن طلب، وجاء الأصبغ بن دُؤالة الكلبيّ وأولاده، ومعاوية السكسكي فارس أهل الشام وغيرها في ألف من فرسانهم، ودخلوا حمص ليلة الفطر من سنة سبع وعشرين. وزحف مروان في العساكر من حّران ومعه إبراهيم المخلوع، وسليمان بن هشام، ونزل عليهم ثالث يوم الفطر، وقد سدوا أبوابهم فنادى مناديه: ما دعاكم إلى النكث؟ قالوا لم ننكث ونحن على الطاعة. ودخل عمر الوضّاح في ثلاثة آلاف فقاتله المحتشدون هنالك للخلاف، وخرجوا من الباب الآخر، وجفل مروان في اتباعهم، وعلا الباب. فقتل منهم نحو

خمسمائة وصلبهم وهدم من سورها علوه، وأفلت الأصبغ بن دؤالة وابنه فرافصة. ثم بلغ مروان وهو بحمص خلاف أهل الغوطة، وأنهم ولّوا عليهم يزيد بن خالد القسري، وحاصروا دمشق وأميرها زامل بن عمر، فبعث مروان إليهم أبا الورد بن الكوثر بن زُفَر بن الحرث، وعمر بن الوضّاح، في عشرة آلاف، فلما دنوا من فى مشق حملوا عليهم، وخرج إليهم من كان بالمدينة فهزموهم، وقتلوا يزيد بن خالد وبعثوا برأسه الى مروان وأحرقوا الّمزة

وقرى البرامة. ثم خرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين وحاصر طبرية وعليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم. فبعث مروان إليه أبا الورد، فلما قرب منه خرج أهل طبرية عليه فهزموه، ولقيه أبو الورد منهزماً فهزمه أخرى، وافترق أصحابه، وأسر ثلاثة من ولده، وبعث بهم إلى مروان. وتغيب ثابت وولّى مروان على فلسطين الرُّماحس بن عَبْد العزيز الكنانيّ، فظفر بثابت بعد شهرين، وبعث به إلى مروان موثقاً فقطعه وأولاده الثلاثة، وبعثهم إلى دمشق فصلبوه. ثم بايع لابنيه عَبْد الله وعبيد الله وزوجهما بنتي هشام، ثم سار إلى ترمذ من دير أيوب، وكانوا قد غوروا المياه. فاستعمل المزاد والقرب والإبل، وبعث وزيره الأبرش الكلّبي إليهم، وأجابوا إلى الطاعة. وهرب نفر منهم إلى البلد، وهدم الأبرش سورها، ورجع بمن أطاع إلى مروان. ثم بعث مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لقتال الضحاك الشيبانيّ الخارجي بالكوفة، وأمدّه ببعوث أهل الشام، ونزل قرقيسيا ليقدّم ابن هبيرة لقتال الضحاك. وكان سليمان بن هشام قد استأذنه بالمقام في الرصافة أياماً ويلحق به، فرجعت طائفة عظيمة من أهل الشام الذين بعثهم مروان مع ابن هبيرة، فأقاموا بالرصافة ودعوا سليمان بن هشام بالبيعة فأجاب، وسار معهم إلى قِّنسْرِين فعسكر بها، وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه. وبلغ الخبر مروان فكتب إلى ابن هبيرة بالمقام، ورجع من قرقيسيا إلى سليمان فقاتله فهزمه، واستباح معسكره وأثخن فيهم وقتل أسراهم، وقتل إبراهيم أكبر ولد سليمان وخالد بن هشام المخزومي جا أبيه فيما ينيف على ثلاثين ألفاً وهرب سليمان إلى حمص في الفل فعسكر بها، وبنى ما كان تهدم من سورها. وسار مروان إليه، فلما قرب منه بيّته جماعة من أصحاب سليمان تبايعوا على الموت، وكان على احتراس وتعبية، فترك القتال بالليل وكمنوا له في طريقه من الغد، فقاتلهم إلى آخر النهار، وقتل منهم نحواً من ستمائة. وجاؤا إلى سليمان فلحق بتدمر وخلف أخاه سعيداً بحمص، وحاصره مروان عشرة أشهر ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقا، حتى استأمنوا

له وأمكنوه من سعيد بن هشام وآخرين شرطهم عليهم.ثم سار لقتال الضحّاك الخارجيّ بالكوفة. وقيل إنّ سليمان بن هشام لما انهزم بقِّنسْرين لحق بعبد الله بن عمر بن عَبْد العزيز بالعراق، وسار معه إلى الضحّاك فبايعوه، وكان النضر بن سعيد قد وَلِيَ العراق. فلما اجتمعوا على قتاله سار نحو مروان فاعترضه بالقادسية جنود الضحّاك من الكوفة مع ابن ملحان فقتله النضر. وولّى الضحاك مكانه بالكوفة المثنى بن عمران، وسار الضحّاك إلى الموصل وأقبل ابن هبيرة إلى الكوفة،فنزل بعيد التمر. وسار إليه المثنى فهزمه ابن هبيرة وقتله وعدّة من قوّاد الضحاك. وانهزم الخوارج ومعهم منصور بن جمهور، ثم جاؤا إلى الكوفة واحتشدوا وساروا للقاء ابن

هبيرة، فهزمهم ثانية ودخل الكوفة وسار إلى واسط. وأرسل الضحّاك عبيدة بن سوار الثعلبي لقتاله، فترل الصَّرَاة، وقاتله ابن هبيرة هنالك فانهزمت الخوارج كما يأتي في أخبارهم.

ظهور عَبْد اللّه بن معاوية

كان عَبْد الله بن معاوية بن عَبْد الله بن جعفر قدم على عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيز الكوفة في إخوانه وولده، فأكرمهم عَبْد الله وأجرى عليهم ثلثمائة درهم في كل يوم وأقاموا كذلك. ولما بويع إبراهيم بن الوليد بعد أخيه، واضطرب الشام وسار مروان إلى دمشق، حبس عَبْد الله بن عمر عَبْد الله بن معاوية عنده، وزاد في رزقه بعده لمروان يبايعه ويقاتله. فلما ظفر مروان بإبراهيم سار إسمعيل بن عَبْد الله القسري إلى الكوفة وقاتله عَبْد الله بن عمر. ثم خاف إسمعيل أن يفتضح، فكفوا خبرهم فوقعت العَصَبِيَّة بين الناس من إيثارعبد الله بن عمر بعضاً من مُضَر وربيعة بالعطاء دون غيرهم، فثارت

ربيعة، فبعث إليهم أخاه عاصماً ملقياً بيده فاستحيوا ورجعوا. وأفاض في رؤوس الناس يستميلهم.

فاستنفر الناس، واجتمعت الشيعة إلى عَبْد الله بن معاوية فبايعوه وأدخلوه قصر الكوفة، وأخرجوا منه عاصم بن عمر. فلحق بأخيه بالحيرة وبايع الكوفيون ابن معاوية ومنهم منصور بن جمهور وإسمعيل أخو خالد القسري وعمر بن العطاء، وجاءته البيعة من المدائن وجمع الناس، وخرج إلى عَبْد الله بن عمر بالحيرة، فسرّح للقائه مولاه. ثم خرج في أثره وتلاقيا، ونزع منصور بن جمهور وإسمعيل أخو خالد القسري وعمر بن العطاء.

وجاءته البيعة من ابن عمر ولحقوا بالحيرة وانهزم ابن معاوية إلى الكوفة. وكان عمر بن الغضبان قد حمل على ميمنة ابن عمر فكشفها، وانهزم أصحابه من ورائه. فرجع إلى الكوفة وأقام مع ابن معاوية في القصر، ومعهم ربيعة والزيدية على أفواه السكك يقاتلون ابن عمر. ثم أخذ ربيعة الأمان لابن معاوية ولأنفسهم وللزيدية، وسار ابن معاوية إلى المدائن، وتبعه قوم من أهل الكوفة، فتغلب بهم على حلوان والجبل وهمذان وأصبهان والري إلى أن كان من خبره ما نذكره.

غلبة الكرماني على مرو وقتله الحرث بن شريح:

لّما ولي مروان وولّى على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة كتب يزيد إلى نصر بعهده على خراسان، فبايع لمروان بن محمد، فارتاب الحرث وقال: ليس لي أمان من مروان، وخرج فعسكر، وطلب من نصر أن يجعل الأمر شورى فأبى. وقرأ جهم بن صفوان مولى راسب وهو رأس الجهميّة سيرته وما يدعو إليه على الناس، فرضوا وكثر جمعه. وأرسل إلى نصر في عزل سالم بن أحور عن الشرطة وتغيير العمال، فتقرّر الأمر بينهما على أن يردوا ذلك إلى رجال أربعة: مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حيان بتعيين نصر، والمغيرة بن شعبة الجهضي ومعاذ بن جبلة بتعيين الحرث.

وأمر نصر أن يكتب بولاية سمرقند وطخارستان لمن يرضاه هؤلاء الأربعة. وكان الحرث يقول إنه صاحب السور، وإنه يهدم سور دمشق، ويزيل ملك بني أُمَيَّة. فأرسل إليه نصر: إن كان ما تقوله حقاً فتعال نسير إلى دمشق، وإلا فقد أهلكت عشيرتك. فقال الحرث :هو حق لكن لا تبايعني عليه أصحابي. قال فكيف تملك

عشرين ألفاًص من ربيعة واليمن ؟ ثم عرض عليه ولاية ما وراء النهر ويعطيه ثلثمائة ألف فلم يقبل. فقال له فابدأ بالكرماني فاقتله وأنا في طاعتك. ثم اتفقا على تحكيم جهم ومقاتل، فاحتكما بأن يعزله نصر، ويكون الأمر شورى. فأتى نصر فخالفه الحرث، وقدم على نصر جمع من أهل خراسان حين سمعوا بالفتنة: منهم عاصم بن عمير الضريمي، وأبو الديَّال الناجي ومسلم بن عَبْد الرحمن وغيرهم. فكانوا معه. وأمر الحرث أن يقرأ سيرته في الأسواق والمساجد، وأتاه الناس وقرئت على باب نصر. فضرب غلمان نصر قارئها فنادى بهم، وتجهزوا للحرب. ونقب الحرث سور مرو من الليل، ودخل بالنهار فاقتتلوا وقتل جهم بن مسعود الناجي، وأعين مولى حيان، ونهبوا مترل مسلم بن أحور، فركب سالم حين أصبح، فقاتل الحرث وهزمه، وجاء إلى عسكره فقتل كاتبه. وبعث نصر إلى الكرماني، وكان في الأزد و ربيعة، وكان موافقاً للحرث لمّا قدمناه، فجاءه نصر على الأمان وحادثهم وأغلظوا له في القول فارتاب ومضى، وقتل من أصحابه جهم بن صفوان. ثم بعث الحرث إبنه حاتماً إلى الكرمانيّ يستجيشه، فقال له أصحابه: دع عدويك يضطربان، ثم ضرب بعد يومين وناوش القتال أصحاب نصر فهزمهم، وصرع تميم بن نصر ومسلم بن أحور. وخرج نصر من مرو من الغد، فقاتلهم ثلاثة أيام، وانهزم الكرمانيّ وأصحابه، ونادى مناد يا معشر ربيعة واليمن إن أبا سيّار قتل، فانهزمت مضر ونصر وترجل إبنه تميم، فقاتل وأرسل إليه الحرث أني كافّ عنك فإنّ اليمانية يعيرونني بانهزامكم، فاجعل أصحابك إزاء الكرمانيّ. ولما انهزم نصر غلب الكرمانيّ على مرو ونهب الأموال، فأنكر ذلك عليه الحرث، ثم اعتزل عن الحرث بشر بن جرموز الضبي في خمسة آلاف، وقال: إنما كنا نقاتل معك طلباً للعدل، فأمّا إن اتبعت الكرماني للعصبية فنحن لا نقاتل. فدعى الحرث الكرماني إلى الشورى فأبى، فانتقل الحرث عنه وأقاموا أياماً. ثم ثلم الحرث السور ودخل البلد وقاتله الكرمانيّ قتالاً شديداً فهزمه وقتله وأخاه سوادة. واستولى الكرمانيّ على مرو وقيل إن الكرماني خرج مع الحرث لقتال

بشر بن جرموز. ثم ندم الحرث على اتباع الكرماني. وأتى عسكر بشر فأقام معهم، وبعث إلى مضر من عساكر الكرماني فساروا إليهم، وكانوا يقتتلون كل يوم ويرجعون إلى خنادقهم. ثم نقب الحرث بعد أيام سور مرو ودخلها وتبعه الكرماني واقتتلوا، فقتل الحرث وأخاه، وبشر بن جرموز وجماعة من بني تميم. وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة، فانهزم الباقون، وصفت مرو لليمن وهدموا دور المضرية.

ظهور الدعوة العباسية بخراسان:

قد ذكرنا أن أبا مسلم كان يتردد إلى الإمام من خراسان، ثم استدعاه سنة تسعة وعشرين ليسأله عن الناس، فسار في سبعين من النقباء مؤدين بالحج. ومر بِنَسَا فاستدعى أسيداً فأخبره بأن كتب الإمام جاءت إليه مع الأزهر بن شعيب وعبد الملك بن سعيد، ودفع إليه الكتب. ثم لقيه بقومس كتاب الإمام إليه وإلى سليمان بن كثير أني قد بعثت إليك براية النصر، فارجع من حيث يلقاك كتابي ووجه قحطبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض. وجاء أبو مسلم إلى مرو وأعطى كتاب الإمام لسليمان بن كثير، وفيه الأمر بإظهار الدعوة، فنصبوا أبا مسلم، وقالوا رجل من أهل البيت، ودعوا إلى طاعة بني العباس. وكتبوا إلى الدعاة بإظهار الأمر، وترك أبو

مسلم بقرية من قرى مرو في شعبان من سنة تسع وعشرين.ثم بثوا الدعاة في طخارستان ومرو الرود والطالقان وخوارزم، وأنهم إن أعجلهم عدوّهم. دون الوقت عاجلوه وجرّدوا السيوف للجهاد، ومن شغله العدوّ عن الوقت فلا حرج عليه أن يظهر بعد الوقت. ثم سار أبو مسلم فنزل على سليمان بن كثير الخزاعي آخر رمضان، ونصر بن سيّار يقاتل الكرماني وشيبان. فعقد اللواء الذي بعث به الإمام إليه، وكان يدعى الظلّ على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً. ثم عقد الراية التي بعثها معه وتسمى السحاب وهو يتلو: { **أذن للذين يقاتلون** } [سورة....].ولبسوا السواد هو وسليمان بن كثير وأخوه سليمان ومواليه، ومن أجاب الدعوة من أهل تلك القرى، وأوقدوا النيران ليلتهم لشيعتهم في خرقان فأصبحوا عنده. ثم قدم عليه أهل السقادم مع أبي الوضّاح في سبعمائة راجل، وقدم من الدعاة أبو العباس المروزي، وحصن أبو مسلم بسفيدنج ورَمَّها، وحضر عيد الفطر، فصلى سليمان بن كُثَيّر، وخطب على المنبر في العسكر وبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة. وكبر في الأولى ست تكبيرات، وفي الثانية خمساً خلاف ما كانوا بنو أمَيَّة

يفعلون. وكل ذلك مما سنّه لهم الإمام وأبوه. ثم انصرفوا من الصلاة مع الشيعة، فطمعوا وكان أبو مسلم وهو في الخندق إذا كتب نصر بن سيار يبدأ بإسمه، فلما قوي بمن اجتمع إليه كتب إلى نصر وبدأ بنفسه وقال(أمَّا بعد) فإنّ الله تباركت أسماؤه عَيّر قوماً في القرآن فقال: { **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير**}[سورة:....] إلى: {**ولن تجد لسنة الله تحويلاً**}.[سورة:....]. فاستعظم الكتاب وبعث مولاه يزيد لمحاربة أبي مسلم لثمانية عشر شهراً من ظهوره، فبعث إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي، فدعاه إلى الرضا من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستكبروا، فقاتلهم مالك وهو في مائتين يوماً بكماله. وقدم على أبي مسلم صالح بن سليمان الضبيّ وإبراهيم بن يزيد وزياد بن عيسى، فسرّحهم إلى مالك فقوي مالك بهم، وقاتلوا القوم فحمل عَبْد الله الطائي على يزيد مولى نصر فأسره، وانهزم أصحابه وأرسله الطائي إلى أبي مسلم ومعه رؤوس القتلى، فأحسن أبو مسلم إلى يزيد وعالجه، ولما اندملت جراحه قال: إن شئت أقمت عندنا وإلا رجعت إلى مولاك سالماً، بعد أن تعاهدنا على أن لا تحاربنا ولا تكذب علينا، فرجع إلى مولاه. وتفرس نصر أنه عاهدهم فقال: والله هو ما ظننت وقد استحلفوني أن لا أكذب عليهم وأنهم والله يصلون الصلاة لوقتها بأذان وإقامة، ويتلون القرآن، ويذكرون الله كثيراً ويدعون إلى ولاية آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أحسب أمرهم إلا سيعلو. ولولا أنك مولاي لأقمت عندهم، وكان الناس يرجفون عنهم بعبادة الأوثان واستحلال الحرام. ثم غلب حازم بن خزيمة على مرو الروذ، وقتل عامل نصر بها. وكان من بني تميم من الشيعة، وأراد بنو تميم منعه. فقال: أنا منكم، فإن ظفرت فهي لكم، وإن قتلت كفيتم أمري فنزل قرية زاها. ثم تغلب على أهلها، فقتل بشر بن جعفر السغدي عامل نصر عليها أوائل ذي القعدة، وبعث بالفتح إلى أبي مسلم مع إبنه خزيمة بن حازم. وقيل فى أمر أبي مسلم غير هذا وأن إبراهيم الإمام أزوج أبا مسلم لمّا بعثه إلى حراسان بابنة أبي النجم، وكتب إلى النقباء بطاعته كان أبو مسلم من سواد الكوفة فهزما فانتهى لادريس بن

معقل العجلي. ثم سار الى ولاية محمد بن علي ثم إبنه إبراهيم ثم للأئمة من ولاية من ولده. وقدم خراسان وهو حديث

السن، واستصغره سليمان بن كثيّر فردّه. وكان أبو داود خالد بن إبراهيم غائباً وراء النهر. فلما جاء إلى مرو أقرأه كتاب الإمام وسألهم عن أبي مسلم، فأخبروه أنّ سليمان بن كثير ردّه لحداثة سنة وأنه لا يقدر على الأمر فنخاف على أنفسنا وعلى من يدعوه. فقال لهم أبو داود: إن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم إلى جميع خلقه، وأنزل عليه كتابه بشرائعه، وأنبأه بما كان وما يكون، وخلف علمه رحمة لأمته، وعمله إنما هو عند عترته وأهل بيته، وهم معدن العلم وورثة الرسول فيما علمه الله. أتشكون في شيء من ذلك ؟ قالوا لا. قال فقد شككتم والرجل لم يبعثه إليكم حتى علم أهليته لّما يقوم به، فبعثوا عن أبي مسلم وردوه من قومس بقول أبي داود، وولوه أمرهم وأطاعوه. ولم نزل في نفس أبي مسلم من سليمان بن كثّير. ثم بعث الدعاة ودخل الناس في الدعوة أفواجاً واستدعاه الإمام سنة تسع وعشرين أن يوافيه بالمرسوم ليأمره بأمره في إظهار الدعوة، وأن يقدم معه قحطبة بن شبيب، ويحمل ما اجتمع عنده من الأموال. فسار في جماعة من النقباء والشيعة، فلقيه كتاب الإمام بقومس يأمره بالرجوع وإظهار الدعوة بخراسان، وبعث قحطبة بالمال، وأنّ قحطبة سار إلى جرجان. واستدعى خالد بن برمك وأبا عون، فقدما بما عندهما من مال الشيعة فسار به نحو الإمام.

مقتل الكرماني:

قد ذكرنا من قبل أن الكرماني قتل الحرث بن شريح، فخلصت له مرو وتنحىّ نصر عنها. ثم بعث نصر سالم بن أَحْوَر في رابطته وفرسانه إلى مَرْو، فوجد يحيى بن نعيم الشيباني في ألف رجل من ربيعة، ومحمد بن المُثَنّى في سبعمائة من الأزد، وأبو الحسن بن الشيخ في ألف منهم، والحربي السغدي في ألف من اليمن. فتلاحى سالم وابن المثنى وشتم سالم الكرماني فقاتلوه فهزموه وقتل من أصحابه نحو مائة. فبعث نصر بعده عصمة بن عَبْد الله الأسدي فكان بينهم مثل ما كان أوّلاً. فقاتلهم محمد السغدي، فانهزم السغدي، وقتل من أصحابه أربعمائة، ورجع إلى نصر. فبعث مالك بن عمر التميمي فاقتتلوا كذلك، وانهزم مالك وقتل من أصحابه سبعمائة، ومن أصحاب الكرماني ثلثمائة. ولما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه، وأنه لا مدد لهم جعل يكتب إلى شيبان الخارجي يذمّ اليمانية تارةً ومضر أخرى ويوصي

الرسول بكتاب مضر أن يتعرض لليمانية ليقرؤا ذم مضر، والرسول بكتاب اليمانية، أن يتعرض لمضر ليقرؤا ذم اليمانية، حتى صار هوى الفريقين معه. ثم كتب إلى نصر بن سيّار والكرماني: أنّ الإمام أوصاني بكم ولا أعدو رأيه فيكم. ثم كتب يستدعي الشيعة: أسد بن عَبْد الله الخزاعي بنسا، ومقاتل بن حكيم بن غزوان، وكانوا أوّل من سود ونادوا يا محمد يا منصور ! ثم سود أهل أبي ورد ومرو الروذ وقرى مرو، فاستدعاهم أبو مسلم، وأقبل فنزل بين خندق الكرماني وخندق نصر، وهابه الفريقان، وبعث إلى الكرماني إني معك، وقبل فانضم أبو مسلم إليه، وكتب نصر بن سيّار إلى الكرماني يحذّره منه، ويشير عليه بدخول مرو ليصالحه. فدخل ثم خرج من الغد، وأرسل إلى نصر في إتمام الصلح في مائتي فارس، فرأى نصر فيه غرة، فبعث إليه ثلثمائة

فارس فقتلوه، وسار إبنه إلى أبي مسلم، وقاتلوا نصر بن سيار حتى أخرجوه من دار الإمارة إلى بعض الدور. ودخل أبو مسلم مرو فبايعه علي بن الكرماني، وقال له أبو مسلم أقم على ما أنت عليه حتى آمرك بأمري.

وكان نصر حين نزل أبو مسلم ين خندقه وخندق الكرماني ورأى قوته، كتب إلى مروان بن محمد يعلمه بخروجه وكثرة من معه ودعائه لإبراهيم بن محمد:

أرى خلل الرماد وميض جمرٍ ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب أولها الكلام

فإن لم تطفؤها يخرجوها مسجرة يغيب لها الغلام

أقول من التعجب ليت شعرى أأيقظ أمية أم نيام

فإن يك قومنا أضحوا نياماً فقل قوموا فقد حان القيم

تعزى عن رجالك ثم قولى على الإسلام والعرب السلام

فوجده مشتغلا بحرب الضحّاك بن قيس، فكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فأحثهم التلول قبلك. فقال نصر: أمَّا صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده. وصادف وصول كتاب نصر إلى مروان عثورهم على كتاب من إبراهيم الإمام لأبي مسلم يوبّخه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر والكرماني إذ أمكنته، ويأمره أن لا يدع بخراسان متكّلماً بالعربية. فلما قرأ الكتاب بعث إلى عامله بالبلقاء أن يسير إلى الحيسة، فيبعث إليه إبراهيم بن محمد مشدود الوثاق فحبسه مروان.

اجتماع أهل خراسان على قتل أبي مسلم:

لّما أظهر أبو مسلم أمره سارع إليه الناس، وكان أهل مرو يأتونه ولا يمنعهم نصر، وكان الكرماني وشيبان الخارجي لا يكرهان أمر أبي مسلم لأنه دعا إلى خلع مروان. وكان أبو مسلم ليس له حرس ولا حجّاب ولا غلظة الملك، فكان الناس يأنسون به لذلك، وأرسل نصر إلى شيبان الخارجي في الصلح ليتفرع لقتال أبي مسلم، إمَّا أن يكون معه أو يكفّ عنه، ثم نعود إلى ما كنا فيه. فهمّ شيبان بذلك، وكتب أبو مسلم إلى الكرمانيّ فحرضه على منع شيبان من ذلك، فدخل عليه وثناه عنه. ثم بعث أبو مسلم النضر بن نعيم الضبي إلى هراة فملكها، وطرد عنها عيسى بن عقيل بن معقل الليثي عامل نصر. فجاء يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني إلى الكرماني وشيبان، وأغراهما بمصالحة نصر. وقال: إن صالحتم نصراً قاتله أبو مسلم وترككم، لأنّ أمر خراسان لمضر. وإن لم تصالحوه صالحه وقاتلكم، فقدّموا نصر قبلكم. فأرسل شيبان إلى نصر في الموادعة فأجاب، وجاء مسلم بن أحور بكتب الموادعة فكتبوها. وبعث أبو مسلم إلى شيبان في موادعة ثلاثة أشهر. فقال ابن الكرمانيّ: إذا ما صالحت نصراً إنما صالحه شيبان وأنا موتور بأبي. ثم عاود القتال وقعد شيبان عن نصره، وقال: لا يحلّ الغدر، فاستنصر ابن الكرمانيّ بأبى مسلم، فأقبل حتى نزل الماخران لإثنتين وأربعين يوماً من نزوله يسفيدنج، وخندق على معسكره وجعل له بابين، وعلى شرطته مالك بن الهيثم، وعلى الحرس أبا إسحق خالد بن عثمان، وعلى ديوان الجند أبا صالح كامل بن المظفّر، وعلى الرسائل أسلم بن صبيح، وعلى

القضاء القاسم بن مجاشع النقيب وكان القاسم يصلي بأبي مسلم ويقرأ القصص بجد العصر، فيذكر فضل بني هاشم وسالف بني أُمَيَّة. فلما نزل أبو مسلم الماخران أرسل إلى ابن الكرمانيّ بأنه معه، فطلب لقاءه فجاءه أبو مسلم وأقام عنده يومين ثم رجع، وذلك أوّل المحرم سنة ثلاثين. ثم عرض الجند، وأمر كامل بن مظفّر بكتب أسمائهم وأنسابهم في دفتر، فبلغت عدّته سبعة آلاف. ثم إن القبائل من ربيعة ومضر واليمن توادعوا على وضع الحرب والاجتماع على قتال أبي مسلم، فعظم ذلك عليه وتحول عن الماخران لأربعة أشهر من نزولها لأنها كانت

تحت الماء. وخشي أن يقطع فتحوّل إلى طبسين وخندق بها، وخندق نصر بن سيار على نهر عياض، وأنزل عمّاله بالبلاد. فأنزل أبا الدَّيال في جنده لطوسان، فآذوا أهلها وعسفوهم، وكان أكثرهم مع أبي مسلم في خندق، فسير إليهم جنداً فقاتلوه فهزموه وأسروا من أصحابه ثلاثين، فأطلقهم أبو مسلم، ثم بعث محرز بن إبراهيم في جمع من الشيعة ليقطع مادّة نصر من مرو الروذ وبلخ وطخارستان، فخندق بين نصر وبين هذه البلاد، واجتمع إليه ألف رجل وقطع المادة عن نصر.

مقتل عَبْد الله بن معاوية:

قد تقدم لنا أنّ عَبْد الله بن معاوية بن عَبْد الله بن جعفر بويع بالكوفة، وغلبه عليها عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيز ولحق بالمدائن. وجاءه ناس من أهل الكوفة وغيرها، فسار إلى الجبال وغلب عليها وعلى حلوان وقومس وأصبهان والريّ وأقام بأصبهان. وكان محارب بن موسى مولى بني يشكر عظيم القدر بفارس، فجاء إلى دار الإمارة بأصطخر وطرد عامل عَبْد الله بن عمرعنها، وبايع الناس لعبد الله بن معاوية. ثم سار إلى كرمان فأغار عليها وانضم إليه قوّاد من أهل الشام. فسار إلى سا لم بن المسيَّب عامل عَبْد الله بن عمر على شيراز، فقتله سنة ثمان وعشرين. ثم سار محارب إلى أصبهان وحوّل عَبْد الله بن معاوية إلى أصطخر، بعد أن استعمل على الجبال أخاه الحسن بن معاوية، وأتى إلى أصطخر فنزل بها، وأتاه بنو هاشم وغيرهم، وجبى المال وبعث العمّال.

وكان معه منصور بن جمهور وسليمان بن هشام، وأتاه شيبان بن عَبْد العزيز الخارجي، ثم أتاه جعفر المنصور وعبد الله ابن أخيه عيسى. ولما قدم يزيد بن عمر بن هبيرة على العراق أرسل نباتة بن حنظلة الكلابي على الأهواز، وأن يقاتل عَبْد الله بن معاوية، وبلغ سليمان بن حبيب وهو بالأهواز فسرّح داود بن حاتم للقاء نباتة، وهرب سليمان من الأهواز إلى نيسابور، وقد غلب الأكراد عليها فطردهم عنها، وبايع لابن معاوية، فبعث أخاه يزيد بن معاوية عليها. ثم إنّ محارب بن موسى فارق عَبْد الله بن معاوية وجمع، وقصد نيسابور. فقاتله يزيد بن معاوية، وهزمه فأتى كرمان. وأقام بها حتى قدم محمد بن الأشعث، فصار معه ثم نافره. فقتله ابن الأشعث وأربعة وعشرين إبناً له.ثم بعث يزيد بن هبيرة بعد نباتة بن حنظلة إبنه داود بن يزيد في العساكر إلى عَبْد الله بن معاوية، وعلى مقدمته داود بن ضبارة.وبعث

معن بن زائدة من وجه آخر، فقاتلوا عَبْد الله بن معاوية وهزموه وأسروا وقتلوا، وهرب منصور بن جمهور إلى السند، وعبد الرحمن بن يزيد إلى عمان، وعمر بن سهيل بن عَبْد العزيز بن مروان إلى مصر، وبعثوا

بالأسرى إلى ابن هبيرة، فأطلقهم ومضى ابن معاوية عن فارس إلى خراسان. وسار معن بن زائدة في طلب منصور بن جمهور، وكان فيمن أسر مع عَبْد الله بن معاوية عَبْد الله بن علي بن عَبْد الله بن عباس، شفع فيه حرب بن قطن من أخواله بني هلال، فوهبه له ضبارة، وغاب عَبْد الله بن معاوية عن ابن ضبارة. ورمى أصحابه باللواطة، فبعث إلى ابن هبيرة ليخبره، وسار ابن ضبارة في طلب عَبْد الله بن معاوية إلى شيراز، فحاصره بها حتى خرج منها هارباً ومعه أخوه الحسن ويزيد وجماعة من أصحابه فسلك المفازة على كرمان إلى خراسان طمعاً في أبي مسلم، لأنه كان يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد استولى على خراسان فوصل إلى نواحي هراة وعليها مالك فقال له: انتسب نعرفك. فانتسب له فقال: أمَّا عَبْد الله وجعفر فمن أسماء آل الرسول، وأمَّا معاوية فلا نعرفه في أسمائهم. قال :إنّ جدّي كان عند معاوية حين ولد أبي، فبعث إليه مائة ألف على أن يسمي إبنه باسمه. فقال: لقد اشتريتم الأسماء الخبيثة بالثمن اليسير فلا نرى لك حقاً فيما تدعو إليه. ثم بعث بخبره إلى أبي مسلم، فأمره بالقبض عليه وعلى من معه فحبسهم. ثم كتب إليه بإطلاق أخويه الحسن ويزيد، وقتل عَبْد الله فوضع الفراش على وجهه فمات .

لّما تعاقد نصر وابن الكرماني وقبائل ربيعة واليمن ومضر على قتال أبي مسلم عظم على الشيعة، وجمع أبو مسلم أصحابه ودسّ سليمان بن كثيّر إلى ابن الكرماني يذكّره بثأر أبيه من نصر فانتقضوا، فبعث نصر إلى أبي مسلم بموافقة مضر، وبعث إليه أصحاب ابن الكرماني وهم ربيعة واليمن بمثل ذلك. واستدعى وفد الفريقين ليختار الركون إلى أحدهما، وأحضر الشيعة لذلك وأخبرهم بأن مضر أصحاب مروان وعمّاله وشيعته وقبله يحيى بن يزيد. فلما حضر الوفد تكلم سليمان بن كثيّر ويزيد بن شقيق

السَلَمِّي بمثل ذلك، وبأن نصر بن سيّار عامل مروان ويسميه أمير المؤمنين، وينفّذ أوامره فليس على هدى، وإنما يختار علي بن الكرماني. وأصحابه ووافق السبعون من الشيعة على ذلك وانصرف الوفد ورجع أبو مسلم من أبين إلى الماخران، وأمر الشيعة ببناء المساكن، وأمن من فتنة العرب ثم أرسل إليه علي بن الكرماني أن يدخل مرو من ناحيته ليدخل هو وقومه من الناحية الأخرى، فلم يطمئن لذلك أبو مسلم وقال: ناشبهم الحرب من قبل فناشب ابن الكرمانيّ نصر بن سيّار الحرب، ودخل مرو من ناحيته، وبعث أبو مسلم بعض النقباء. فدخل معه ثم سار وعلى مقدمته أسيد بن عَبْد الله الخزاعيّ، وعلى ميمنته مالك بن الهيثم، وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع. فدخل مرو والفريقان يقتتلان، ومضى إلى قصر الإمارة وهو يتلو: ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها. وأمر الفريقين بالانصراف فانصرفوا إلى معسكرهم وصفت له مرو، وأمر بأخذ البيعة من الجند، وتولى أخذها أبو منصور طلحة بن زريق أحد النقباء الذين اختارهم محمد بن علي من الشيعة حين بعث دعاته إلى خراسان سنة ثلاث وأربع، وكانوا إثني عشر رجلاً. فمن خُزاعة سليمان بن كثيّر ومالك بن الهيثم وزياد بن صالح وطلحة بن زريق وعمر بن أعين. ومن طيء قحطبة بن شبيب بن خالد بن سعدان، ومن تميم أبو عيينة موسى بن كعب ولاهز ابن قريط والقاسم بن مجاشع وأسلم بن سلام. ومن بكر بن وائل أبو داود خالد بن إبراهيم الشيبانيّ وأبو علي الهروي، ويقال شبل بن طهمان. وكان عمر بن أعين مكان

موسى بن كعب وأبو النَّجْم إسمعيل بن عمران مكان أبي علي الهروي وهو ختن أبي مسلم. ولم يكن أحد من النقباء غير أبي منصور طلحة بن زريق بن سعد، وهو أبو زينب الخزاعي، وكان قد شهد حرب ابن الأشعث، وصحب المهلّب وغزا معه. وكان أبو مسلم يشاوره في الأمور. وكان نصّ البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق، والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى تبدأكم به ولاتكم، وذلك سنة ثلاثين ومائة.ثم أرسل أبو مسلم لاهز بن قريط في جماعة إلى نصر بن سيّار يدعو إلى البيعة، وعلم نصر أن أمره قد استقام ولا طاقة له بأصحابه، فوعده بأنه يأتيه يبايعه من الغد، وأرسل أصحابه بالخروج من ليلتهم إلى مكان يأمنون فيه. فقال

أسلم بن أحوز لا يتهيأ لنا الليلة. فلما أصبح أبو مسلم كتابه، وأعاد لاهز بن قريط إلى نصر يستحثه فأجاب وأقام لوضوئه، فقال لاهز: إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. فخرج نصر عند المساء من خلف حجرته ومعه إبنه تميم، والحكم بن غيلة النميري، وامرأته المرزبانة، وانطلقوا هراباً. واستبطأه لاهز فدخل المترل فلم يجده وبلغ أبا مسلم هربه فجاء إلى معسكره وقبض على أصحابه، منهم سالم بن أحوز صاحب شرطته، والبحتري كاتبه، وإبنان له ويونس بن عَبْد ربه، ومحمد ابن قطن وغيرهم. وسار أبو مسلم وابن الكرماني في طلبه ليلتهما، فأدركا امرأته قد خلفها وسار، فرجعوا إلى مرو. وبلغ نصر من سرخس فأقام بطوس خمس عشرة ليلة. ثم جاء نيسابور فأقام بها، وتعاقد ابن الكرماني مع أبي مسلم على رأيه. ثم بعث إلى شيبان الحروري يدعوه إلى البيعة، فقال شيبان: بل أنت تبايعني ، واستنصر بابن الكرماني فأبى عليه، وسار شيبان إلى سرخس واجتمع له جمع من بكر بن وائل، وبعث إليه أبو مسلم في الكف فسجن الرسل. فكتب إلى بسّام بن إبراهيم مولى بني ليث المُكَنّى بأبي ورد أن يسير إليه، فقاتله وقتله، وقتل بكر بن وائل الرسل الذين كانوا عنده. وقيل إنّ أبا مسلم إنما وجه إلى شيبان عسكراً من عنده عليهم خزيمة بن حازم وبسّام بن إبراهيم. ثم بعث أبو مسلم كعباً من النقباء إلى أبيورد فافتتحها ثم أبا داود خالد بن إبراهيم من النقباء إلى بلخ وبها زياد بن عَبْد الرحمن القشيريّ، فجمع له أهل بلخ وترمذ وجند طخارستان ونزل الجوزجان، ولقيهم أبو داود فهزمهم وملك مدينة بلخ. وساروا إلى ترمذ فكتب أبو مسلم إلى أبي داود يستقدمه، وبعث مكانه على بلْخ يحيى بن نعيم أبا الميلا، فداخله زياد بن عَبْد الرحمن في الخلاف على أبي مسلم، واجتمع لذلك زياد ومسلم بن عَبْد الرحمن الباهليّ وعيسى بن زرعة السلميّ، وأهل بَلْخ وترمذ، وملوك طخارستان وما وراء النهر. ونزلوا على فرسخ من بلْخ، وخرج إليهم يحيى بن نعيم بمن معه.واتفقت كلمة مضر وربيعة واليمن ومن معهم من العجم على قتال المسوِّدة، وولّوا عليهم مقاتل بن

حيّان النبطي مخافة أن يتنافسوا. وبعث أبو مسلم أبا داود إليهم، فأقبل بعساكره حتى اجتمعوا على نهر السرحسان واقتتلوا. وكان زياد وأصحابه قد خلفوا أبا سعيد القرشي مسلحةً وراءهم خشية أن يؤتوا من خلفهم، وكانت راياته سوداً وأغفلوا ذلك. فلما اشتدّ القتال زحف أبو سعيد في أصحابه لمددهم، فظنّوه

كمينا للمسَودة فانهزموا وسقطوا في النهر، وحوى أبو داود معسكرهم بما فيه، وملك بلْخ. ومضى زياد ويحيى ومن معهما إلى ترمذ، وكتب أبو مسلم يستقدم أبا داود. وبعث النضر بن صبيح المزني على بلخ. ولما قدم أبو داود أشار على أبي مسلم بالتفرقة بين عليّ وعثمان إبني الكرماني. فبعث عثمان على بلْخ وقدمها فاستخلف الفرافصة بن ظهير العبسي، وسار هو والنضر بن صبيح إلى مرو الروذ. وجاء مسلم بن عَبْد الرحمن الباهليّ من ترمذ في المضريَّة، فاستولى على بلْخ. ورجع إليه عثمان والنضر فهربوا من ليلتهم، ولم يعن النضر في طلبهم، وقاتلهم عثمان ناحية عنه فانهزم، ورجع أبو داود إلى بلْخ. وسار أبو مسلم إلى نيسابور، ومعه علي بن الكرماني، وقد اتفق مع أبي داود على قتال إبني الكرماني، فقتل أبو داود عثمان في بلْخ، وقتل أبو مسلم عَّلياً في طريقه إلى نيسابور.

مسير قحطبة للفتح:

وفي سنة ثلاثين قدم قحطبة بن شبيب على أبي مسلم من عند الإمام إبراهيم، وقد عقد له لواء على محاربة العدوّ، فبعثه أبو مسلم في مقدمته وضم إليه العساكر، وجعل إليه التولية والعزل، وأمر الجنود بطاعته. وقد كان حين غلب على خراسان بعث العمّال على البلاد، فبعث ساعي بن النعمان الأزدي على سمرقند وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان، ومحمد بن الأشعث الخزاعي على طبسين، وجعل مالك بن الهيثم على شرطته. وبعث قحطبة إلى طوس ومعه عدّة من القوّاد: أبو عون عَبْد الملك بن يزيد، وخالد بن برمك، وعثمان بن نهيك، وحازم بن خزيمة وغيرهم، فهزم أهل طوس وأفحش في قتلهم. ثم بعث أبو مسلم القاسم بن مجاشع إلى نيسابور على طريق الحجَّة، وكتب إلى قحطبة بقتال تميم بن نصر بالسودقان،

ومعه الثاني ابن سويد وأصحاب شيبان، وأمدّه بعشرة آلاف مع عليّ بن معقل. فزحف إليهم ودعاهم بدعوته وقاتلهم، فقتل تميم بن نصر وجماعة عظيمة من أصحابه، يقال بلغوا ثلاثين ألفاً، واستبيح معسكرهم، وتحصّن الباقي بالمدينة فاقتحمها عليهم، وخلف خالد بن برمك على قبض الغنائم، وسار إلى نيسابور. فهرب منها نصر بن سيّار إلى قومس، ثم تفرق عنه أصحابه فسار إلى نباتة بن حنظلة بجرجان وكان يزيد بن هبيرة بعثه مدداً لنصر، فأتى فارس وأصبهان، ثم سار إلى الريّ، ثم إلى جرجان. وقدم قحطبة نيسابور، فأقام بها رمضان وشوّال، وارتحل إلى جرجان، وجعل ابنه الحسن على مقدمته، وانتهى إلى جرجان وأهل الشام بها مع نباتة، فهابهم أهل خراسان، فخطبهم قحطبة وأخبرهم أنّ الإمام أخبره أنهم يلقونه مثل هذه العدد فينصرونه عليهم. ثم تقدّم للقتال وعلى ميمنته ابنه الحسن، فانهزم أهل الشام وقتل نباتة في عشرة آلاف منهم، وبعث برأسه إلى أبي مسلم، وذلك في ذي الحجة من السنة، وملك قحطبة جرجان. ثم بلغه أن أهل جرجان يرومون الخروج عليه، فاستعرضهم وقتل منهم نحواً من ثلاثين ألفاً، وسار نصر من قومس إلى خوار الري وعليها أبو بكر العقيليّ، وكتب إلى ابن هبيرة بواسط يستمدّه، فحبس رسله. فكتب مروان إلى ابن هبيرة، فجهز ابن هبيرة جيشاً كثيفاً إلى نصر وعليهم ابن عطيف.

هلاك نصر بن سيار:

ثم بعث قحطبة ابنه الحسن إلى محاصرة نصر في جوار الري في محّرم سنة إحدى وثلاثين، وبعث إليه المدد مع أبي كامل وأبي القاسم محرز بن إبراهيم وأبي العّباس المروزيّ . ولما تقاربوا نزع أبو كامل إلى نصر فكان معه، وهرب جند قحطبة وأصحاب نصر أصابهم شيء من متاعهم، فبعثه نصر إلى ابن هبيرة، فاعترضه ابن عطيف بالري فأخذه فغاضبه نصر، فأقام ابن عطيف بالري. وسار نصر إلى الري وعليها حبيب بن يزيد النهشليّ، فلما قدمها سار ابن عطيف إلى همذان وكان فيها مالك بن أدهم بن محرز الباهلي، فعدل بن عطيف عنها إلى أصبهان وبها عامر بن

ضبارة، وقدم نصر الري فأقام بها يومين ومرض وارتحل. فلما بلغ نهاوند مات لإثني عشر من ربيع الأوّل من السنة ودخل أصحابه همذان.

استيلاء قحطبة علي الريّ:

ولما مات نصر بن سيّار بعث الحسن بن قحطبة خزيمة بن حازم إلى سمنان، وأقبل قحطبة من جرجان، وقدم زياد بن زرارة القشيري وقد كان قدم على طاعة أبي مسلم، واعتزم على اللحاق بابن ضبارة، فبعث قحطبة في أثره المسيَّب بن زهير الضبيّ فهزمه، وقتل عامة من مع ابن معاوية ورجع، ولحق قحطبة ابنه الحسن إلى الريّ فخرج عنها حبيب بن يزيد النهشليّ وأهل الشام، ودخلها الحسن في صفر، ثم لحق به أبوه وكتب برسالة إلى أبي مسلم. وقد أكثر أهل الري إلى بني أُمَيَّة، فأخذ أبو مسلم أملاكهم و لم يردّها عليهم إلا السفاح بعد حين. فأقام قحطبة بالريّ، وكتب أبو مسلم إلى أصبهبذ طبرستان بالطاعة واداء الخراج فأجاب، وكتب إلى المصمغان صاحب دنباوند وكبير الديلم بمثل ذلك، فأفحش في الردّ. فكتب أبو مسلم إلى موسى بن كعب أن يسير إليه من الري فسار و لم يتمكن منه لضيق بلاده. وكان الديلم يقاتلونه كل يوم، فكثر فيهم الجراح والقتل، ومنعهم الميرة فأصابهم الجوع، فرجع موسى إلى الري، و لم يزل المصمغان متمنعاً إلى أيام المنصور، فأغزاه حمّاد بن عمر في جيش كثيف، ففتح دنباوند. ولما ورد كتاب قحطبة على أبي مسلم ارتحل عن مرو ونزل نيسابور، ثم سير قحطبة إبنه الحسن بعد نزوله الريّ بثلاث ليالٍ، فسار عنها مالك بن أدهم وأهل الشام وخراسان إلى نهاوند، ونزل على أربعة فراسخ من المدينة، وأمدّه قحطبة بأبي الجهم بن عطية مولى باهلة في سبعمائة وأقام محاصراً لها.

استيلاء قحطبة على أصبهان ومقتل ابن ضبارة وفتح نهاوند وشهرزور:

قد تقدم لنا أنّ ابن هبيرة بعث إبنه داود بن يزيد لقتال عَبْد الله بن معاوية باصطخر،

وبعث معه عامر بن ضبارة فهزموه واتبعوه إلى كرمان سنة تسع وعشرين، فلما بلغ ابن هبيرة مقتل نباتة بجرجان سنة ثلاثين، كتب إلى إبنه داود بن ضبارة بالمسير إلى قحطبة، فسار من كرمان في خمسين ألفاً ونزلوا أصبهان. وبعث إليهم قحطبة جماعة من القوّاد عليهم مقاتل بن حكيم الكعبيّ فنزلوا قمّ، وسار قحطبة إلى نهاوند مدداً لولده الحسن الذي حاصرهم، فبعث مقاتلاً بذلك قحطبة، فسار حتى لحقه، وزحفوا للقاء داود بن ضبارة وهم في مائة ألف، وقحطبة في عشرين ألفاً. وحمل قحطبة وأصحابه فانهزم ابن ضبارة وقتل واحتووا

على ما كان في معسكرهم مما لا يعّبر عنه من الأصناف وذلك في رجب .وطّير قحطبة بالخبر إلى إبنه الحسن وسار إلى أصبهان، فأقام بها عشرين ليلة، وقدم على إبنه فحاصروا نهاوند ثلاثة أشهر إلى آخر شوّال، ونصبوا عليها المجانيق وبعث بالأمان إلى من كان في نهاوند من أهل خراسان فلم يقبلوا، فبعث إلى أهل الشام فقالوا أشغلٍ عنا أهل المدينة بالقتال نفتح لك المدينة من ناحيتنا، ففعلوا، وخرجوا إليه جميعاً، فقتلوا أهل خراسان فيهم أبو كامل وحاتم بن شريح وابن نصر بن سيّار وعاصم بن عمير وعليّ بن عقيل وبيهس. وكان قحطبة لّما جاء إلى نهاوند بعث إبنه الحسن إلى جهات حلوان وعليها عَبْد الله بن العلاء الكنديّ، فتركها وهرب. ثم بعث قحطبة عَبْد الملك بن يزيد ومالك بن طرا في أربعة آلاف إلى شهرزور، وبها عثمان بن سفيان على مقدمته عَبْد الله بن محمد، فقاتلوا عثمان آخر ذي الحجة، فانهزم وقتل. وملك أبو عون بلاد الموصل. وقيل إنّ عثمان هرب إلى عَبْد الله بن مروان، وغنم أبو عون عسكره وقتل أصحابه، وبعث إليه قحطبة بالمدد. وكان مروان بن محمد بحرّان، فسار في أهل الشام والجزيرة والموصل، ونزل الزاب الأكبر وأتوا شهرزور إلى المحرّم سنة إثنتين وثلاثين.

حرب السفاح ابن هبيرة مع قحطبة ومقتلهما وفتح الكوفة:

ولما قدم على يزيد بن هبيرة إبنه داود منهزماً من حلوان، خرج يزيد للقاء قحطبة في مدد لا يحصى، وكان مروان أمدّه بحوثرة بن سهيل الباهليّ، فسار معه حتى نزل حلوان، واحتفر الخندق الذي كانت فارس احتفرته أيام الواقعة. وأقام وأقبل

قحطبة إلى حلوان، ثم عبر دجلة إلى الأنبار، فرجع ابن هبيرة مبادراً إلى الكوفة. وقدم إليها حوثرة في خمسة عشرة ألفاً، وعبر قحطبة الفرات من الأنبار لثمان من المحرّم سنة إثنتين وثلاثين، وابن هبيرة معسكر على فم الفرات، وعلى ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة، ومعه حوثرة وفلُّ ابن ضبارة. وأشار عليه أصحابه أن يدع الكوفة ويقصد هو خراسان، فيتبعه قحطبة، فأبى إلا البدار إلى الكوفة، وعبر إليها دجلة من المدائن، وعلى مقدمته حوثرة، والفريقان يسيران على جانب الفرات.وقال قحطبة لأصحابه إنّ الإمام أخبرني بأنّ وقعة تكون بهذا المكان والنصر لنا، ثم دلوه على مخاضة فعبر منها، وقاتل حوثرة وابن نباتة فانهزم أهل الشام، وقعد قحطبة وشهد مقاتل العللي بأنّ قحطبة عهد لإبنه الحسن بعده، فبايع جميع الناس لأخيه الحسن، وكان في سرية فبعثوا عنه وولّوه. ووجد قحطبة في جدول هو وحرب بن كم بن أحوز وقيل: إنّ قحطبة لّما عبر الفرات وقاتل ضربه معن بن زائدة، فسقط وأوصى إذا مات أن يلقى في الماء. ثم انهزم ابن نباتة وأهل الشام ومات قحطبة وأوصى بأمر الشيعة إلى أبي مسلمة الخلاّل بالكوفة وزير آل محمد. ولما انهزم ابن نباتة وحوثرة لحقوا بابن هبيرة فانهزم إلى واسط، واستولى الحسن بن قحطبة على ما في معسكرهم وبلغ الخبر إلى الكوفة فثار بها محمد بن خالد القسري بدعوة الشيعة، خرج ليلة عاشوراء، وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثيّ، وعلى شرطته عَبْد الرحمن بن بشير العجلي وسار إلى فهرب زياد ومن معه من أهل الشام ودخل القصر ورجع

إليه حوثرة وعن محمد عامة من معه، ولزم القصر. ثم جاء قوم من بجيلة من أصحاب حوثرة، فدخلوا في الدعوة. ثم آخرون من كنانة، ثم آخرون من نجدل فارتحل حوثرة نحوه وكتب محمد إلى قحطبة
وهو لم يعلم بهلاكه، فقرأه الحسن على الناس. وارتحل نحو الكوفة، فصبحها الرابعة من مسيره، وقيل إنّ الحسن بن قحطبة سار إلى الكوفة بعد قتل ابن هبيرة، وعليها عَبْد الرحمن بن بشيرالعجلي، فهب عنها وسبق محمد بن خالد وخرج في أحد عشر رجلاً، فلقي الحسن ودخل معه، وأتوا إلى أبي مسلمة فاستخرجوه من بني مسلمة وعسكر بالنخيلة، ثم نزل حمام أعين.وبعث الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة، وبايع الناس أبا مسلمة حفص بن سليما ن الخلاّل وزير آل محمد، واستعمل محمد بن خالد القسري على الكوفة وكان يسمّى الأمير حتى ظهر أبو العباس السفاح، وبعث حميد بن قحطبة إلى المدائن في قواد، والمسيَّب بن هبيرة وخالد بن مرمل إلى دير فناء وشراحيل إلى عير وبسّام بن إبراهيم بن بسّام إلى الأهواز، وبها عَبْد الرحمن بن عمر بن هبيرة فقاتله بسّام وانهزم إلى البصرة، وعليها مسلم بن قتيبة الباهلي عاملاً لأخيه. وبعث بسّام في أثره سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب واليا على البصرة، فجمع سالم قيساً ومضر وبني أُمَيَّة. وجاء قائد من قواد ابن هبيرة في ألفي رجل، وجمع سفيان اليمانية وحلفاءهم من ربيعة، واقتتلوا في صفر. وقتل ابن سفيان واسمه معاوية، فانهزم لذلك. ثم جاء إلى سالم أربعة آلاف مدداً من عند مروار،، فقاتل الأزد واستباحهم، ولم يزل بالبصرة حتى قتل ابن هبيرة، فهرب عنها. واجتمع ولد الحارث بن عَبْد المطلب إلى محمد بن جعفر فولّوه أياماً، حتى قدم أبو مالك عَبْد الله بن أسيد الخزاعى من قبل أبي مسلم. فلما بويع أبو العباس السفاح ولاّها سفيان بن معاوية.

بيعة السفاح:

قد كنا قدمنا خبر الدعاة وقبض مروان على إبراهيم بن محمد، وأنه حبسه بحّران، وكان نعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم باللحاق بالكوفة، وأوصى على أخيه أبي العّباس عَبْد الله بن الحرثية. فسار أبو العّباس ومعه أهل بيته، وفي إخوته أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه إبراهيم وعيسى ابن أخيه موسى، ومن أعمامه داود وعيسى وصالح

وإسمعيل وعبد الله وعبد الصمد وبنو علي بن عَبْد الله بن عّباس، وموسى ابن عمه داود ويحيى بن جعفر بن تمام بن العّباس. فقدموا الكوفة في صفر، وأبو سلمة والشيعة على حمام أعين بظاهر الكوفة، وأنزلهم أبو سلمة دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود، وكتم أمرهم عن جميع القوّاد والشيعة أربعين ليلة، وأراد فيما زعموا أن يحول الأمر إلى أبي طالب. وسأله أبو الجهم من الشيعة وغيره فيقول: لا تعجلوا ليس هذا وقته.ولقي أبو حميد محمد بن إبراهيم ذات يوم خادم إبراهيم الإمام، وهو سابق الخوارزميّ فسأله عن الإمام فقال: قتل إبراهيم وأوصى إلى أخيه أبي العّباس، وها هو بالكوفة ومعه أهل بيته. فسأله في اللقاء فقال: حتى أستأذن: وواعده من الغد في ذلك المكان، وجاء أبو حميد إلى أبي الجهم فأخبره وكان في عسكر أبي سلمة، فقال له تلطف في لقائهم. فجاء إلى موعد سابق ومضى معه ودخل عليهم، فسأل عن الخليفة فقال داود بن علي: هذا

إمامكم وخليفتكم، يشير إلى أبي العّباس. فسلم عليه بالخلافة وعزاه بإبراهيم الإمام، ورجع ومعه خادم من خدمهم إلى أبي الجهم، فأخبره عن مترلهم وأن أبا العباس أرسل إلى أبي سلمة أن يبعث إليه كراء الرواحل التي جاؤوا إليها، فلم يبعث إليهم شيئاً. فمشى أبو الجهم وأبو الحميد والخادم إلى موسى بن كعب وأخبروه بالأمر، وبعثوا إلى الإمام مائتي دينار مع خادمه. واتفق رأي القواد على لقاء الإمام، فنهض موسى بن كعب وأبو الجهم عَبْد الحميد بن ربعي وسلمة بن محمد وعبد الله الطائي وإسحق بن إبراهيم وشراحيل وأبو حميد وعبد الله بن بسام ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن حصين وسليمان بن الأسود، فدخلوا على أبي العّباس فسلموا عليه بالخلافة وعزوه في إبراهيم. ورجع موسى بن كعب وأبو الجهم وخلفوا الباقين عند الإمام، وأوصوهم إن جاء أبو سلمة لا يدخلن إلا وحده. وبلغه الخبر فجاء ودخل وحده كما حددوا له، وسلم على أبي العباس بالخلافة، وأمره بالعود إلى معسكره، وأصبح الناس يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، فلبسوا الصُفاح واصطفوا للخروج إلى أبي العباس وأتوه بالدواب وله ولمن معه من أهل بيته، وأركبوهم إلى دار الإمارة.ثم رجع إلى المسجد فخطب وصلى بالناس، وبايعوه ثم صعد المنبر ثانية فقام في أعلاه، وصعد عفه داود فقام دونه وخطب خطبته البليغة المشهورة، وذكر حقهم في الأمر وميراثهم له. وزاد الناس في أعطياتهم وكان موعوكاً فاشتد عليه الوعك فحبس على المنبر. وقام عمه داود على أعلى المراقي فخطب

مثله، وذم سيرة بني أُمَيَّة، وعاهد الناس على إقامة الكتاب والسنة وسيرة النبي، ثم اعتذر عن عود السفاح بعد الصلاة على المنبر، وأنه أراد أن لا يخلط كلام الجمعة بغيرها، وإنما قطعه عن إتمام الكلام شدة الرعك، فادعوا الله له بالعافية. ثم بالغ ذم مروان، وشكر شيعتهم من أهل خراسان، وأن الكوفة مترلهم لا يتخلون عنها، وأنه ما صعد هذا المنبر خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين عَبْد الله بن محمد، وأشار إلى السفاح. وأن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه لعيسى بن مريم. ثم نزل أبو العباس وداود أمامه حتى دخل القصر، وأجلس أخاه أبا جعفر في المسجد يأخذ البيعة على الناس حتى جن الليل، وخرج أبو العباس إلى عسكر أبي سلمة ونزل معه في حجرته بينهما ستر. وحاجب السفاح يومئذ عَبْد الله بن بسام. واستخلف على الكوفة عمه داود، وبعث عمه عَبْد الله إلى أبي عون بن يزيد بشهرزور، وبعث ابن أخيه موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو يحاصر ابن هبيرة بواسط، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى أحمد بن قحطبة بالمدائن. وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز، وبعث سلمة بن عمر بن عثمان بن مالك بن الطواف. وأقام السفاح بالعسكر شهراً ثم ارتحل، فترل قصر الإمارة من المدينة الهاشمية، وقد قيل إن داود بن علي وابنه موسى لم يكونا بالشام عند مسير بني العباس إلى الكوفة، وإنهما لقياهم بدومة الجندل فعرفا خبرهم. وقال لهم داود: كيف تأتون الكوفة؟ ومروان بن محمد في حران في أهل الشام والجزيرة، فطل على العراق ويزيد بن هبيرة بالعراق. فقال يا عم: من أحب الحياة ذل فرجع داود وابنه معه.

مقتل إبراهيم بن الإمام:

قد تقدّم لنا أنّ مروان حبسه بحّران، وحبس سعيد بن هشام بن عَبْد الملك وابنيه عثمان ومروان والعّباس بن الوليد بن عَبْد الملك وعبد الله بن عمر بن عَبْد العزيز وأبا محمد السفياني، فهلك منهم في السجن من وباء وقع بحّران :العباس بن الوليد وإبراهيم بن الإمام وعبد الله بن عمر، وخرج سعيد بن هشام ومن معه من المحبوسين بعد أن قتلوا صاحب السجن، فقتلهم الغوغاء من أهل حّران. وكان فيمن قتلوه شراحيل بن مسلمة بن عَبْد الملك وعبد الملك بن بشر التغلبي، وبطريق أرمينية وإسمه كوشان

وتخلف أبو محمد السفياني في الحبس لم يستحلّ الخروج منه. ولفا قدم مروان منهزماً من الزاب حل عنه فيمن بقي، وقيل إنّ شراحيل بن مسلمة كان محبوساً مع إبراهيم، وكانا يتزاوران ويتهاديان، فدس في بعض الأيام إلى إبراهيم بن الإمام بلبن مسموم على لسان شراحيل فاستطلق بطنه. وقيل إنّ شراحيل قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، احتيل والله عليه، وأصبح ميتاً من ليلته.

هزيمة مروان بالزاب ومقتله بمصر:

قد ذكرنا أنّ قحطبة أرسل أبا عون عَبْد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور، فقتل عثمان بن سفيان وأقام بناحية الموصل ، وأنّ مروان بن محمد سار إليه عن حران في مائة وعشرين ألفاً وسار أبو عون إلى الزاب، ووجه أبو سلمة عيينة بن موسى والمنهال بن قبّان واسحق بن طلحة كل واحد في ثلاثة آلاف مدداً له. فلما بويع أبو العباس وبعث مسلمة بن محمد في ألفين، وعبد الله الطائيّ في ألف وخمسمائة، وعبد الحميد بن ربعي الطائى في ألفين، ودراس بن فضلة في خمسمائة، كلهم مدداً لأبي عون. ثم ندب أهل بيته إلى المسير إلى أبي عون، فانتدب عَبْد الله بن عليّ فسار وقدم على أبي عون، فتحوّل له عن سرادقه بما فيه. ثم أمر عيينة بن موسى بخمسة آلاف تعبر النهر من الزاب أوّل جمادى الأخير سنة إثنتين وثلاثين، وقاتل عساكر مروان إلى المساء. ورجع ففقد مروان الجسر من الغد، وقدم ابنه عَبْد الله، وعبر فبعث عَبْد الله بن عليّ المخارق بن غفّار في أربعة نحو عَبْد الله ان مروان، فسرّح ابن مروان الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، فانهزم أصحاب المخارق، وأسر هو وجيء به إلى مروان مع رؤوس القتلى. فقال: أنت المخارق ؟ قال: لا . قال: فتعرفه في هذه الرؤوس؟ قال: نعم . قال: هو ذا، فخلّى سبيله. وقيل بل أنكر أن يكون في الرؤوس فخلى سبيله.وعاجلهم عَبْد الله بن عليّ بالحرب قبل أن يفشوا الخبر، وعلى ميمنته أبو عون وعلى ميسرته الوليد بن معاوية. وكان عسكره نحواً من عشرين ألفاً، وقيل إثني عشر. وأرسل مروان إليه في الموادعة فأبى، وحمل الوليد بن معاوية بن مروان

وهو صهر مروان على إبنته، فقاتل أبا عون حتى انهزم إلى عَبْد الله بن علي فأمر الناس فارتحلوا. ومشى قدماً ينادي يا لثارات إبراهيم وبالأشعار يا محمد يا منصور. وأمر مروان القبائل بأن يحملوا فتخاذلوا واعتذروا حتى صاحب شرطته. ثم ظهر له الخلل، فأباح الأموال للناس على أن يقاتلوا فأخذوها من غير قتال. فبعث ابنه عَبْد الله يصدّهم عن ذلك، فتبادروا بالفرار وانهزموا، وقطع مروان الجسر وكان من غرق أكثر ممن قتل. وغرق إبراهيم بن الوليد المخلوع، وقيل بل قتله عَبْد الله بن علي بالشام، وممن قتل يحيى بن علي بن هشام، وكان

ذلك في جمادى الأخيرة سنة إثنتين وثلاثين.وأقام عَبْد الله في عسكره سبعة أيام، واجتاز عسكر مروان لّما فيه. وكتب بالفتح إلى أبي العّباس السفّاح، وسار مروان منهزماً إلى مدينة الموصل وعليها هشام بن عمر الثعلبي وابن خزيمة الأسدي، فقطعا الجسر ومنعاه العبور إليهم، وقيل هذا أمير المؤمنين، فتجاهلوا وقالوا أمير المؤمن لا يفّر. ثم أسمعوه الشتم والقبائح، فسار إلى حّران وبها أبان ابن أخيه، وسار إلى حمص، وجاء عَبْد الله إلى حّران، فلقيه أبو مسعود فأمنه، ولقي الجزيرة .ولما بلغ مروان حمص أقام بها ثلاثاً وارتحل، فاتبعه أهلها لينهبوه، فقاتلهم وهزمهم وأثخن فيهم. وسار إلى دمشق وعليها الوليد بن عمه، فأوصاه بقتال عدوه. وسار إلى فلسطين فنزل نهر أبي فطرس، وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامى، فأرسل إلى عَبْد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي فأجاره. ثم سار عَبْد الله بن عليّ في أثره من حّران بعد أن هدم الدار التي حبس فيها أخوه الإمام إبراهيم. وانتهى إلى قنج فأطاعه أهلها، وقدم عليه أخوه عَبْد الصمد، بعثه السفاح مددا فى ثمانية آلاف، وافترق قواد الشيعة على أبواب دمشق فحاصروها أياما. ثم دخلوها عنوة لخمس من رمضان واقتتلوا بها كثيرا، وقتل عاملها الوليد بن معاوية. وأقام عَبْد الله بدمشق خمس عشرة ليلة، وارتحل يريد فلسطين، فأجفل مروان إلى العريش.

وجاء عَبْد الله فنزل نهر أبى فطرس، ووصله هناك كتاب السفاح بأن يبعث صالح بن علي في طلب مروان، فسار صالح في ذي القعدة، وعلى مقدمته أبو عون وعامر بن إسماعيل الحارثي، فأجفل مروان إلى النيل ثم إلى الصعيد، ونزل صالح الفسطاط، وتقدمت عساكره فلقوا خيلا لمروان فهزموهم، وأسروا منهم ودلوهم على مكانه ببوصير. فسار إليه أبو عون وبيته هنالك خوفا من أن

يفضحه الصبح، فانهزم مروان وطعن فسقط في آخر ذي الحجة الحرام وقطع رأسه، وبعث به طليعة أبي عون إليه. فبعثه إلى السفاح، وهرب عَبْد الله وعبيد الله ابنا مروان إلى الحبشة وقاتلوهم، فقتل عبيد الله ونجا عَبْد الله، وبقي إلى أيام المهدي. فأخذه عامل فلسطين، وسجنه المهدي. وكان طليعة أبي عون عامر بن إسماعيل الحارثي، فوجد نساء مروان وبناته في كنيسة بوصير قد وكل بهن خادما يقتلهن بعده، فبعث بهن صالح. ولما دخلن عليه سألنه في الإبقاء فلامهن على قتالهم عند بني أُمَيَّة. ثم عفا عنهن وحملهن إلى حران يبكين. وكان مروان يلقب بالحمار لحرنه في مواطن الحرب. وكان أعداؤه يلقبونه الجعدي نسبة إلى الجعد بن درهم كان يقول بخلق القرآن ويتزندق. وأمر هشام خالداً القسري بقتله فقتله. ثم تتبعوا بني أُمَيَّة بالقتل. ودخل أسديف يوما على السفاح وعنده سليمان بن

هشام وقد أمنه والده فقال:

لا يغرنك ما تري من رجال		إنّ بين الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السوط حتي		لا ترى فوق ظهرها امويّا

فأمر السفاح بسليمان فقتل. ودخل شبل بن عَبْد الله مولى بني هاشم على عَبْد الله بن علي وعنده ثمانون أو تسعون من بني أُمَيَّة يأكلون على مائدته فقال:

أصبح الملك في ثبات الأساس بالبهاليل من بني العبّاس
طلبوا أمر هاشم فنعونا بعد ميلٍ من الزمان وباس
لا تقيلنَّ عَبْد شمس عثاراً فاقطعن كل رقلةٍ وغراس
فلنا اظهر التودُّد منهما وبها منكم كحزّ المواسي
فلقد غاضني وغاض سوائي قربهم من نمارقٍ وكراسي
انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهون والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجا نب المهراسس
والقتيل الذي بحران أضحى ثاوياً رهن غربةٍ ونعاس

فأمر بهم عَبْد الله فشدخوا بالعمد، وبسط من فوقهم الأنطاع فأكل الطعام عليهم، وأنينهم يسمع حتى ماتوا وذلك بنهرابي فطرس. وكان فيمن قتل: محمد بن عَبْد الملك بن مروان، والمعزُّ بن يزيد وعبد الواحد بن سليمان، وسعيد بن عَبْد الملك وأبو

عبيدة بن الوليد بن عَبْد الملك. وقيل: إنّ إبراهيم المخلوع قتل معهم، وقيل إنّ أسديفاً هو الذي أنشد هذا الشعر للسفاح، وأنه الذي قتلهم. ثم قتل سليمان بن علي بن عَبْد الله بن العبّاس بالبصرة جماعة من بني أُمَيَّة، فأمر بأشلائهم في الطرق، فأكلتهم الكلاب، وقيل: إنّ عَبْد الله بن علي أمر بنبش قبور الخلفاء من بني أُمَيَّة، فلم يجدوا في القبور إلاّ شبه الرماد وخيطاً في قبر معاوية، وجمجمة في قبر عَبْد الملك. وربّما وجد فيها بعد الأعضاء إلا هشام بن عَبْد الملك، فإنه وجد كما هو لم يبل، فضربه بالسوط ثم صلبه وحرقه وذراه في الريح، والله أعلم بصحة ذلك. ثم تتبعوا بني أُمَيَّة بالقتل، فلم يفلت منهم إلا الرضعاء أومن هرب إلى الأندلس مثل عَبْد الرحمن بن معاوية بن هشام، وغيرهم ممن تبعه من قرابته كما يذكر في أخبارهم.

بقية الصوائف في الدولة الاموية:

قد انتهينا بالصوائف إلى آخر أيام عمر بن عَبْد العزيز، وفي إثنتين ومائة أيام اليزيد غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية أرمينية وهو على الجزيرة قبل أن يلي العراق، فهزمهم وأسر منهم خلقاً وقتل منهم سبعمائة أسير. وغزا العباس بن الوليد الروم أيضا ففتحها لسنة. ثم غزا سنة ثلاث بعدها فافتتح مدينة رسلة. ثم غزا الجّراح الحكميّ أيام هشام سنة خمس فبلغ وراء بلنجر، وغنم وغزا في هذه السنة سعيد بن عَبْد الملك أرض الروم، وبعث ألف مقاتل في سرية فهلكوا جميعاً. وغزا فيها مروان بن محمد بالصائفة اليمنى، ففتح مدينة قريبة من أرض الزوكخ. ثم غزا سعيد بن عَبْد الملك بالصائفة أيام هشام سنة ست. ثم غزا مسلمة بن عَبْد الملك الروم من الجزيرة وهو والٍ عليها، ففتح قيساريَّة. وغزا إبراهيم بن هشام، ففتح حصناً. وغزا معاوية بن هشام في البحر قبرس، وغزا سنة تسع ففتح حصناً آخر يقال له طبسة. وغزا سنة عشر بالصائفة عَبْد الله بن عقبة الفهريّ ، وكان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية بن خديج. وغزا بالصائفة اليسرى سنة إحدى عشرة معاوية بن هشام، وبالصائفة اليمنى سعيد بن هشام، وفي البحر عَبْد الله بن أبي مريم. وافتتح معاوية في

صائفة ثلاث عشرة سنة خرشفة. وغزا سنة ثلاث عشرة عَبْد الله البطّال، فانهزم فثبت عَبْد الوهاب من أصحابه فقتل. ودخل معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش. ثم غزا سنة أربع عشرة بالصائفة اليسرى وأصحاب ربض أفرق. والتقى عَبْد الله البطال مع قسطنطين، فهزمه البطال وأسره. وغزا سليمان بن هشام بالصائفة اليسرى، فبلغ قيسارّية. وهزم مسلمة بن عَبْد الملك خاقان وباب الباب. وغزا معاوية بن هشام بالصائفة سنة خمس عشرة. وغزا سفيان بن هشام بالصائفة اليسرى سنة سبع عشرة، وسليمان بن هشام بالصائفة اليمنى من ناحية الجزيرة، وفرّق السرايا في أرض الروم وبعث فيها مروان بن محمد من أرمينية فافتتحوا من أرض اللان آهلها أخذها قومانساه صلحاً. وغزا معاوية وسليمان أيضاً أرض الروم سنة ثماني عشرة. وغزا فيها مروان بن محمد من أرمينية، ودخل أرض وارقيس، فهرب وارقيس إلى الحرور ونازل حصنه فحاصره. وقتل وارقيس بعض من اجتاز به، وبعث برأسه إلى مروان، ونزل أهل الحصن على حكمه، فقتل وسبى. وغزا سنة تسع عشرة مروان بن محمد من ارمينية ومّر ببلاد اللاّن إلى بلاد الخزر على بلنجر وسمندر، وانتهى إلى خاقان، فهرب خاقان منه. وغزا سليمان بن هشام سنة عشرين بالصائفة فافتتح سندرة، وغزا إسحق بن مسلم الحقيلي قومانساه، وافتتح قلاعه وخرب أرضه. وغزا مروان من أرمينية سنة إحدى وعشرين، وأفنى قلعة بيت السرير فقتل وسبى، ثم قلعة أخرى كذلك، ودخل عزسك وهو حصن الملك فهرب منه الملك ودخل

حصناً له يسمى جرج، فيه سرير الذهب، فنازله مروان حتى صالحه على ألف فارس كل سنة، ومائة ألف مدني. ثم دخل أرض أرزق ونصران فصالحه ملكها، ثم أرض تومان كذلك، ثم أرض حمدين فأخرب بلاده، وحصر حصناً له شهراً حتى صالحه، ثم أرض مسداد ففتحها على صلح. ثم نزل كيلان فصالحه أهل طبرستان وكيلان. وكل هذه الولايات على شاطيء البحر من أرمينية إلى طبرستان. وغزا مسلمة بن هشام الروم في هذه السنة فافتتح بها مطامير. وفي سنة إثنتين وعشرين بعدها قتل البطّال وإسمه عَبْد الله بن الحسين الأنطاكي، وكان كثير الغزو في بلاد الروم والإغارة عليهم. وقدّمه مسلمة على عشرة آلاف فارس، فكان يغزو بلاد الروم إلى أن قتل هذه السنة. وفي سنة أربعة وعشرين غزا سليمان بن هشام بالصائفة على عهد أبيه، فلقي أليون ملك الروم فهزمه وغنم، وفي سنة خمسة وعشرين خرجت الروم إلى حصن زنطره، وكان افتتحه حبيب بن مسلمة الفهري وخزينة الروم، وبنى بناء غير محكم فأخربوه ثانية أيام مروان. ثم بناه الرشيد وطرقه الروم أيام المأمون فشعبوه فأمر ببنائه وتحصينه. ثم طرقوه أيام المعتصم وخبره معروف. وفي هذه السنة غزا الوليد بن يزيد بالصائفة أخاه العمر، وبعث الأسود بن بلال المحاربي بالجيش في البحر إلى قبرس ليجير أهلها بين الشام والروم فافترقوا فريقين. وغزا أيام مروان سنة ثلاثين بالصائفة الوليد بن هشام ونزل العمق وبنى حصن مرعش.

عمال بني أُمَيَّة علي النواحي:

استعمل معاوية أوّل خلافته سنة أربعين عَبْد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة، ثم عزله واستعمل المغيره بن شعبة على الصلاة، واستعمل على الخراج وكان على النقباء بها شريح، وكان حمران بن أبان قد وثب على

البصرة عندما صالح الحسن معاوية، فبعث معاوية بشر بن أرطأة على البصرة وأمدّه، فقتل أولاد زياد بن أبيه، وكان عاملاً على فارس لعليّ بن أبي طالب. فقدم البصرة وقد ذكرنا خبره مع بني زياد فيما قبل. ثم ولّى على البصرة عَبْد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عَبْد شمس، وضم إليه خراسان وسجستان، فجعل على شرطته حبيب بن شهاب، وعلى القضاء عميرة بن تبرى، وقد تقدّم لنا أخبار قيس في خراسان. وكان عمرو بن العاص علي مصر كما تقدّم، فولّى سنة إحدى وأربعين من قبله على أفريقية عقبة بن نافع بن عَبْد قيس، وهو ابن خالته، فانتهى إلى لواتة ومزاتة فأطاعوه ثم كفروا، فغزاهم وقتل وسبى. ثم افتتح سنة إثنتين وأربعين بعدها غذامس وقتل وسبى، وافتتح سنة ثلاثة وأربعين بعدها بلد ودّان. وولّى معاوية بالمدينة سنة إثنتين وأربعين مروان بن الحكم، فاستقضى عَبْد الله بن الحرث بن نوفل، وولّى معاوية على مكّة في هذه السنة خالد بن العاص بن هشام، وكان على أرمينية حبيب بن مسلمة الفهريّ وولاه عليها معاوية ومات سنة إثنتين وأربعين فولى مكانه

واستعمل ابن عامر في هذه السنة على ثغر الهند عَبْد الله بن سوار العبدي، ويقال ولاّه معاوية. وعزل ابن عامر في هذه السنة قيس بن الهيثم عن خراسان وولّى مكانه الحرث بن عَبْد الله بن حازم. ثم عزل معاوية عَبْد الله بن عامر عن البصرة سنة أربع وأربعين، وولىّ مكانه الحرث بن عَبْد الله الأزدى، ثم عزله لأربعة أشهر، وولى أخاه زياداً سنة

خمس وأربعين. فولىّ على خراسان الحكم بن عمر الغفاريّ، وجعل معه على الخراج أسلم بن زرعة الكلابي. ثم مات الحكم فولىّ خليد بن عَبْد الله الحنفيّ سنة سبع وأربعين. ثم ولّى على خراسان سنة ثمان بعدها غالب بن فضالة الليثيّ، وتولى عمرو بن العاص سنة تسع وأربعين فولى مكانه سعيد بن العاص، فعزل عَبْد الله بن الحرث عن القضاء، واستقضى أبا سلمة بن عَبْد الرحمن. وفي سنة خمسين توفي المغيرة بن شعبة فضم الكوفة إلى أخيه زياد، فجاء إليها واستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وكان يقسم السنة بين المصريين في الإقامة نصفاً بنصف. وفي سنة خمسين هذه اقتطع معاوية أفريقية عن معاوية بن خديج بمصر، وولىّ عقبه بن نافع الفهريّ، وكان مقيماً ببرقة وزويلة من وقت فتحها أيام عمرو بن العاص، فأمده بعشرة آلاف، فسار إليها. وانضاف إليه من أسلم من البربر ودوّخ البلاد وبنى بالقيروان، وأنزل عساكر المسلمين، ثم استعمل معاوية على مصر وأفريقية مولاه أبا المهاجر، فأساء عزل عقبة. وجاء عقبة إلى الشام فاعتذر إليه معاوية ووعده بعمله، ومات معاوية فولاّه يزيد سنة إثنتين وستين. وذكر الواقدي أن عقبة ولي سنة إثنتين وستين واستعمل أبا المهاجر فولي الأمصار، فحبس عقبة وضيق عليه، وأمره يزيد بإطلاقه، فوفد عقبة فأعاده إلى عمله. فحبس أبا المهاجر وخرج غازياً وأثخن حتى قتله كسيلة كما يأتي في أخباره. وفي سنة إحدى وخمسين ولّى زياد على خراسان الربيع بن زياد الحرث مكان خليد بن عَبْد الله الحنفي. وفي سنة ثلاث وخمسين توفي زياد واستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وعلى الكوفة عَبْد الله بن خالد بن أسيد. ثم ولى الضحّاك بن قيس سنة خمس بعدها. وفي هذه السنة مات الربيع بن زياد عامل خراسان قبل موت زياد، واستخلفه ابنه عَبْد الله، ومات

لشهرين. واستخلف خليد بن يربوع الحنفي، وكان على صفا بيروز الديلميّ من قبل معاوية، فمات سنة ثلاث وخمسين. وفي سنة أربع وخمسين عزل معاوية عن المدينة سعيد بن العاص، وردّ إليها مروان بن الحكم، ثم عزله سنة سبعة وولىّ مكانه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان. وعزل سنة تسعة وخمسين عن البصرة ابن جندب، وولىّ مكانه عَبْد الله بن عمر بن غيلان، وولىّ على خراسان عبيد الله بن زياد، ثم ولاّه سنة خمس بعدها على البصرة مكان ابن غيلان. ثم ولىّ على خراسان سنة ستة وخمسين سعيد بن عثمان بن عفّان. وفي سنة ثمانية وخمسين عزل معاوية عن الكوفة الضحّاك بن قيس، واستعمل مكانه ابن أمّ الحكم وهي

أخته، وهو عَبْد الرحمن بن عثمان الثقفي، وطرده أهل الكوفة فولاّه مصر.فردّه معاوية بن خديج، وولىّ مكانه على الكوفة سنة تسعة وخمسين النعمان بن بشير، وولى فيها على خراسان عَبْد الرحمن بن زياد. فقدم إليها قيس بن الهيثم السلمي، فحبس أسلم بن زرعة، فأغرمه ثلثمائة ألف درهم. ثم مات معاوية سنة ستين وولاته على النواحي من ذكرناه، وعلى سجستان عبّاد بن زياد، وعلى كرمان شريك بن الأعور. وعزل يزيد لأوّل ولايته الوليد بن عقبة عن المدينة والحجاز، وولاّها عمر بن سعيد الأشدق. ثم عزله سنة إحدى وستين، ورد الوليد بن عقبة، وولىّ على خراسان سالم بن زياد، فبعث سالم إليها الحرث بن معاوية الحرثي، وبعث أخاه يزيد إلى سجستان، وكان بها أخوهما عبّاد فخرج عنهما. وقاتل يزيد أهل كابل فهزموه، فبعث مسلم على سجستان طلحة الطلحات، وهو طلحة بن عَبْد الله بن خلف الخزاعي فبقي سنة، وبعث سنة إثنتين وستين عقبة بن نافع إلى أفريقية، فحبس أبا المهاجر واستخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي كما نذكر في أخباره. وتوفي في هذه السنة مسلمة بن مخلد الأنصاريّ أمير مصر. ثم هلك يزيد سنة أربع وستين، واستخلف على أهل العراق عبيد الله بن زياد. وولى أهل البصرة عليهم عَبْد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عَبْد المطّلب ويلقب ببَّة، وهرب ابن زياد إلى الشام. وجاء إلى الكوفة عامر بن مسعود من قبل ابن الزبير، وبلغه خلاف أهل الري وعليهم الفرَّخان، فبعث عليهم محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب فهزموه، فبعث عتّاب بن ورقاء فهزمهم. ثم بويع مروان وسار إلى مصر فملكها من يد عبد الرحمن بن حجَّام القرشيّ داعية ابن الزبير وولىّ عليها عمر بن سعيد. ثم بعثه للقاء مصعب بن الزبير، لّما بعثه أخوه عَبْد الله إلى الشام، وولّى على مصر ابنه عَبْد العزيز فلم يزل عليها والياً إلى أن هلك لسنة خمسة وثمانين، فولىّ عَبْد الملك عليها ابنه عَبْد الله بن عَبْد الملك. وخلع أهل خراسان بعد يزيد سالم بن زياد، واستخلف المهلّب بن أبي صفرة، ثم ولىّ مسلم عَبْد الله بن حازم، فاستبدّ بخراسان إلى حين. ثم أخرج أهل الكوفة عمر بن حريث خليفة بن زياد، وبايعوا لابن الزبير، وقدم المختار بن أبي عبيد أميراً على الكوفة

من قبله بعد ستة أشهر من مهلك يزيد، وامتنع شريح من القضاء أيام الفتنة

واستعمل ابن الزبير على المدينة أخاه مصعباً سنة خمس وستين مكان أخيه عَبْد الله، وثار بنو تميم بخراسان على عَبْد الله بن حازم فغلبه عليها بكير بن وشّاح. وغلب المختار على ابن مطيع عامل ابن الزبير بالكوفة سنة ست وستين(ثم مات) مروان سنة خمس وستين، وولي عَبْد الملك. وولى ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة، وولى

مكانه بالمدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهري. ثم ملك عَبْد العزيز العراق سنة إحدى وسبعين، واستعمل على البصرة خالد بن عَبْد الله بن أسد، وعلى الكوفة أخاه بشر بن مروان، وكان على خراسان عَبْد الله بن حازم بدعوة ابن الزبير، فقام بكير بن وشاح التميمي بدعوة عَبْد الملك وقتله، وولاه عَبْد الملك خراسان.
وكان على المدينة طلحة بن عَبْد الله بن عوف بدعوة ابن الزبير بعد جابر بن الأسود،
فبعث عَبْد الملك طارق بن عمر مولى عثمان، فغلبه عليها. ثم قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين، وانفرد عَبْد الملك بالخلافة، وولى على الجزيرة وأرمينية أخاه محمداً. وعزل خالد بن عَبْد الله عن البصرة، وضمها إلى أخيه بشر، فسار إليها واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث. وولى على الحجاز واليمن واليمامة الحجاج بن يوسف، وبعثه من الكوفة لحرب ابن الزبير. وعزل طارقاً عن المدينة وسار من جنده. وفي سنة أربع وسبعين استقضى أبا إدريس الخولاني، وأمر بشر أخاه أن يبعث المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة. وعزل عن خراسان بكير بن وشاح، وولى مكانه أُمَيَّة بن عَبْد الله بن خالد بن أسيد، فبعث أُمَيَّة ابنه عَبْد الله على سجستان. وكان على أفريقية زهير بن قيس البلوي، فقتله البربر سنة تسع وستين. وشغل عَبْد الملك بفتنة ابن الزبير، فلما فرغ منها بعث إلى أفريقية سنة أربع وسبعين حسان بن النعمان القيساني في عساكر لم ير مثلها، فأثخن فيها وافترقت جموع الروم
والبربر. وقتل الكاهنة كما يذكر في أخبار أفريقية.
ثم ولى عَبْد الملك سنة خمس وسبعين الحجاج بن يوسف على العراق فقط، وولى على السند سعيد بن أسلم بن زرعة، وقتل في حروبها، وكان أمر الخوارج. وفي سنة ست وسبعين ولى على المدينة إبان بن عثمان، وكان على قضاء الكوفة شريح. وعلى قضاء البصرة زرراة بن أبي أوفى بعد هشام بن هبيرة، وعلى قضاء المدينة عَبْد الله بن قشير بن مخرمة. ثم كانت حروب الخوارج كما نذكر في أخبارهم. وفي سنة ثمان وسبعين عزل عَبْد الملك أُمَيَّة بن عَبْد الله عن خراسان وسجستان وضمهما إلى الحجاج بن يوسف، فبعث الحجاج على خراسان المهلب بن أبي صفرة، وعلى سجستان عَبْد الله بن أبي بكرة، وولى على قضاء البصرة موسى بن أنس، واستعفى شريح بن الحرث من القضاء بالكوفة، فولى مكانه أبا بردة بن أبي موسى، ثم ولى على قضاء البصرة عَبْد الرحمن بن اذينة. وخرج عَبْد الرحمن بن الأشعث، فملك سجستان وكرمان وفارس والبصرة، ثم قتل ورجعت إلى حالها، وذلك سنة إحدى وثمانين.
وفي سنة إثنتين وثمانين مات المهلب بن أبي صفرة، واستخلف ابنه يزيد على خراسان، فأقره الحجاج. وفي هذه السنة عزل عَبْد الملك أبان بن عثمان عن المدينة، وولى مكانه هشام بن إسماعيل المخزومي، فعزل هشام نوفل بن مساحق عن القضاء، وولى مكانه عمر بن خالد الزرقي. وبنى الحجاج مدينة واسط. وفي سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان، وولى مكانه هشام أخاه المفضل قليلاً، ثم ولي قتيبة بن مسلم وتوفي عَبْد الملك. وعزل الوليد لأول ولايته هشام بن إسماعيل عن المدينة وولى مكانه عمر بن عَبْد العزيز، فولى على القضاء أبا بكر بن عمرو بن حزم، وولى الحجاج على البصرة الجراح بن عَبْد الله الحكمي، وولى على قضائها

عَبْد الله بن أذينة، وعلى قضاء الكوفة أبا بكر بن أبي موسى الأشعري. وفي سنة تسع وثمانين ولى الوليد على مكة خالد بن عَبْد الله القسري، وكان على ثغر السند محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، وهو ابن عم الحجاج. ففتح السند وقتل ملكه. وكان على مصر عَبْد الله بن عَبْد الملك، ولاه عليها أبوه ففل ملكها. فعزله الوليد في هذه السنة وولى مكانه قرة بن شريك، وعزل خالداً عن الحجاز، وولى عمر بن عَبْد العزيز.

وفي سنة إحدى وتسعين عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية، وولى مكانه أخاه مسلمة بن عَبْد الملك، وكان على طندة في قاصية المغرب طارق بن زياد عاملاً لمولاه موسى بن نصير

عامل الوليد بالقيروان، فأجاز البلاد والبحر إلى بلاد الأندلس، وافتتحها سنة إثنتين وتسعين كما يذكر في أخبارها. وفي سنة ثلاث وتسعين عزل عمر بن عَبْد العزيز عن الحجاز وولى مكانه خالد بن عَبْد الله على مكة، وعثمان بن حيان على المدينة.

ومات الحجاج سنة خمس وتسعين، ثم مات الوليد سنة ست وتسعين، وفيها قتل قتيبة بن مسلم لانتقاضه على سليمان، وولاها سليمان يزيد بن المهلب. وفيها مات قرة بن شريك ، وكان على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم، وعلى مكة عَبْد العزيز بن عَبْد الله بن خالد بن أسيد، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن موسى، وعلى قضاء البصرة عَبْد الرحمن بن أذينة وفي سنة سبع وتسعين، عزل سليمان بن موسى بن نصير عن أفريقية وولى مكانه محمد بن يزيد القرشي حتى مات سليمان فعزل. واستعمل عمر مكانه إسمعيل بن عَبْد الله.

وفي سنة ثمان وتسعين كان فتح طبرستان وجرجان أيام سليمان بن عَبْد الملك على يد يزيد بن المهلب.

وفي سنة تسع وتسعين استعمل عمر بن عَبْد العزيز على البصرة عدي بن أرطاة الفزاري، وأمره بإبقاء يزيد بن المهلب موثوقاً، فولى على القضاء الحسن بن أبي الحسن البصري، ثم إياس بن معاوية، وعلى الكوفة عَبْد الحميد بن عد الرحمن بن يزيد بن الخطاب. وولى على المدينة عَبْد العزيز بن أرطاة، وولى على خراسان الجراح بن عَبْد الله الحكمي، ثم عزل سنة مائة. وولي عَبْد الرحمن بن نعيم القرشي، وولى على الجزيرة عمر بن هبيرة الفزاري، وعلى أفريقية إسمعيل بن عَبْد الله مولى بني مخزوم، وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولاني.

ثم في سنة إحدى ومائة عزل إسمعيل عن أفريقية، وولاها يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فلم يزل عليها إلى أن قتل. وفي سنة إثنتين ومائة ولى يزيد بن عَبْد الملك أخاه مسلمة على العراق وخراسان، فولى على خراسان سعيد بن عَبْد العزيز بن الحرث بن الحكم بن أبي العاص بن أُمَيَّة، ويقال له سعيد خدينة. ثم استحيا من مسلمة في أمر الجراح فعزله، وولى مكانه ابن يزيد بن هبيرة. فجعل على قضاء الكوفة القاسم

ابن عَبْد الرحمن بن عَبْد الله بن مسعود، وعلى قضاء البصرة عَبْد الملك بن يعلى. وكان على مصر أسامة بن زيد، وليها بعد قرة بن شريك، وولى ابن هبيرة على خراسان سعيداً الحرشي مكان حذيفة.

وفي سنة ثلاث ومائة جمع يزيد مكة والمدينة لعبد الرحمن بن الضحاك،وعزل عَبْد العزيز بن عَبْد الله بن خالد عن مكة وعن الطائف، وولى مكانه عَبْد الواحد بن عَبْد الله البصري.

وفي سنة أربع ومائة ولى يزيد على أرمينية الجراح بن عَبْد الله الحكمي، وعزل عَبْد الرحمن بن الضحاك عن مكة والمدينة لثلاث سنين من ولايته، وولى عليهما مكانه عَبْد الواحد البصري، وعزل ابن هبيرة سعيداً الحرشي عن خراسان، وولى عليها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي. وولى على قضاء الكوفة الحسين بن حسين الكندي.

ومات يزيد بن عَبْد الملك سنة خمس، وولي هشام فعزل ابن هبيرة عن العراق، وولي مكانه خالد بن عَبْد الله القسري، واستعمل خالد على خراسان أخاه أسداً سنة سبع ومائة. وعزل مسلم بن سعيد وولى على البصرة عقبة بن عَبْد الأعلى، وعلى قضائها ثمامة بن عبدالله بن أنس. وولى على السند الجنيد بن عَبْد الرحمن.

واستعمل هشام على الموصل الحر بن يوسف، وعزل عَبْد الواحد البصري عن الحجاز، وولى مكانه إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، واستقضى بالمدينة محمد بن صفوان الجمحي، ثم عزله واستقضى الصلت الكندي. وعزل الجراح بن عَبْد الله عن أرمينية وأذربيجان، وولى مكانه أخاه مسلمة، فولى عليها الحرث بن عمرو الطائي.

وكان على اليمن سنة ثمان يوسف بن عمر. وفي سنة تسع عزل خالد أخاه أسداً عن خراسان، وولى هشام عليها أشرس بن عَبْد الله السلمي، وأمره أن يكاتب خالداً بعد أن كان خالد ولى الحكم بن عوانة الكلبي مكان أخيه فلم يقر، فعزله هشام. ومات في سنة تسع عامل القيروان بشر بن صفوان، فولى هشام مكانه عبيدة بن عَبْد الرحمن بن الأغر السلمى، فعزل عبيدة يحيى بن سلمة الكلبي عن الأندلس، واستعمل حذيفة بن الأحوص الأشجعي. ثم عزل لستة أشهر، ووليها عثمان بن أبي تسعة الخثعمي. وفي سنة عشر ومائة جمع خالد الصلاة والأحداث والشرط والقضاء بالبصرة لبلال بن أبي بردة، وعزل ثمامة عن القضاء. وفي سنة إحدى عشرة عزل هشام عن خراسان أشرس بن عَبْد الله، وولى مكانه الجنيد بن عَبْد الرحمن بن الحرث بن خارجة بن

سنان بن أبي حارثة المري، وولى على أرمينية الجراح بن عَبْد الله الحكمي، وعزل مسلمة. وفيها عزل عبيدة بن عَبْد الرحمن عامل أفريقية، وعثمان بن أبي تسعة عن الأندلس، وولى مكانه الهيثم بن عبيد الكناني.

وفي سنة إثنتي عشرة قتل الجراح بن عَبْد الله صاحب أرمينية، قتله التركمان فولى هشام مكانه سعيدا الحرشي، ومات الهيثم عامل الأندلس، وولوا على أنفسهم مكانه محمد بن عَبْد الله الأشجعي شهرين، وبعده عَبْد الرحمن بن عَبْد الله الغافقي من قبيل ابن عَبْد الرحمن السلمي عامل أفريقية، وغزا إفرنجة فاستشهد. فولى عبيدة مكانه عَبْد الملك بن قطن الفهري، وعزل عبيدة عن أفريقية وولى مكانه عبيد الله بن الحجاب، وكان على مصر فسار إليها.

وفي سنة أربع عشرة عزل هشام مسلمة عن أرمينية وولى مكانه مروان بن محمد بن مروان، وعزل إبراهيم بن هشام عن الحجاز، وولى مكانه على المدينة خالد بن

عَبْد الملك بن الحرث بن الحكم، وعلى مكة والطائف محمد بن هشام المخزومي. وفي سنة ست عشرة ومائة عزل هشام الجنيد بن عَبْد الرحمن المري عن خراسان، وولى مكانه عاصم بن عَبْد الله بن يزيد الهلالي. وفيها استعمل عَبْد الله بن الحجاب على الأندلس عقبة بن الحجاج القيسي مكان عَبْد الملك بن قطن ففتح خليتيه. وفي سنة سبع عشرة ومائة عزل هشام عاصم بن عَبْد الله عن خراسان وولى مكانه خالد بن عَبْد الله القسري، فاستخلف خالد أخاه أسداً. وولى هشام على أفريقية والأندلس عبيد الله بن الحجاب، وكان على مصر فسار إليها. واستخلف على مصر ولده. وولى على الأندلس عقبة بن الحجاج، وعلى طنجة ابنه إسمعيل. وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان وفتح وغنم. وأغزاه إلى صقلية سنة إثنتين وعشرين ومائة ففتح أكثرها. ثم استدعاه لفتنة ميسرة كما نذكره في أخبارهم. وفي سنة ثمان عشرة عزل هشام عن المدينة خالد بن عَبْد الملك بن الحرث، وولى مكانه محمد بن هشام بن إسمعيل. وفي سنة عشرين مات أسد بن عَبْد الله الخراساني وولي مكانه نصر بن سيار. وعزل هشام خالد القسري عن جميع أعماله بالعراقين وخراسان، وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي

استقدمه إليها من ولاية اليمن. فأقر نصر بن سيار على خراسان، وكان على قضاء الكوفة ابن شرمة وعلى قضاء البصرة عامر بن عبيدة. وولى يوسف بن عمر بن شرمة على سجستان، واستقضى مكانه محمد بن عَبْد الرحمن بن أبي ليلى. وكان على قضاء البصرة إياس بن معاوية بن قرة، فمات في هذه السنة. وفي سنة ثلاث وعشرين، قتل كلثوم بن عياض الذي بعثه هشام لقتال البربر بالمغرب. وتوفي عقبة بن الحجاج أمير الأندلس، وقيل بل خلعوه. وولي مكانه عَبْد الملك بن قطن ولايته الثانية كما يذكر. وفي سنة أربع وعشرين ظهر أمر أبي مسلم بخراسان، وتلقب بلخ على الأندلس، ثم مات. وكان سار إليها من فل كلثوم بن عياض لمّا قتله البربر بالمغرب. وولى هشام على الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فأمر حنظلة بن صفوان أن يوليه فولاه. وكان ثعلبة بن خزامة سلامة الجرابي قد ولوه بعد بلخ، فعزله أبو الخطار.

وفي هذه السنة ولي الوليد بن يزيد خالد بن يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي

على الحجاز فأسره. ثم قتل الوليد سنة ست وعشرين، فعزل يزيد عن العراق يوسف بن عمر، وولى مكانه منصور بن جمهور، فبعث عامله على خراسان، فامتنع نصر بن سيار من تسليم العمل له. ثم عزل يزيد منصور بن جمهور وولى مكانه على العراق عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيز، وغلب حنظلة على أفريقية عَبْد الرحمن بن حبيب كما يذكر في خبرها. وعزل يزيد عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف، وولى مكانه عَبْد العزيز بن عمر بن عثمان، وغلب سنة سبع وعشرين عَبْد الله بن معاوية بن عَبْد الله بن جعفر على الكوفة، وولى مروان على الحجاز عَبْد العزيز بن عمر بن عَبْد العزيز، وعلى العراق النضر بن سعيد الحرشي. وامتنع ابن عمر من استلام العمل إليه، ووقعت الفتنة بينهم. ولحق ابن عمر بالخوارج كما يذكر في أخبارهم. واستولى بنو العباس على خراسان.

وفي سنة تسع وعشرين ولي يوسف بن عَبْد الرحمن الفهري على الأندلس بعد نوابة بن سلامة كما يأتي في أخبارهم. وولى مروان على الحجاز عَبْد الواحد وعلى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة. وفي سنة ثلاثين ملك أبو مسلم

خراسان، وهرب عنها نضر بن سيار فمات بنواحي همذان سنة إحدى وثلاثين. وجاء المسودة وعليهم قحطبة، فطلبوا ابن هبيرة على العراق وملكوه، وبايعوا خليفتهم أبا العباس السفاح. ثم غلبوا مروان على الشام ومصر وقتلوه. وانقرض أمر بني أُمَيَّة، وعاد الأمر والخلافة لبني العباس. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده. وهذه أخبار بني أُمَيَّة مخلصة من كتاب أبي جعفر الطبري. ولنرجع إلى أخبار الخوارج كما شرطنا في أخبارها بالذكر. والله المعين لا رب غيره.

الخوارج

الخبر عن الخوارج وذكر أوليتهم وتكرر خروجهم في الملة الإِسلامية

قد تقدم لنا خبر الحكمين في حرب صفين، واعتزل الخوارج علياً منكرين للتحكيم مكفرين به، ولاطفهم في الرجوع عن ذلك، وناظرهم فيه بوجه الحق فلجوا وأبوا إلا الحرب. وجعلوا شعارهم النداء بلا حكم إلا الله. وبايعوا عَبْد الله بن وهب الراسبي. وقاتلهم علي بالنهروان، فاستلحمهم أجمعين. ثم خرج من فلهم طائفة بالأنبار، فبعث إليهم من استلحمهم. ثم طويفة أخرى مع هلال بن علية، فبعث معقل بن قيس فقتلهم. ثم أخرى ثالثة كذلك، ثم أخرى على المدائن كذلك، ثم أخرى بشهرزور كذلك. وبعث شريح بن هانىء فهزموه فجرح واستلحمهم أجمعين، واستأمن من بقي فأمنهم، وكانوا نحو خمسين.

وافترق شمل الخوارج، ثم اجتمع من وجدانهم الثلاثة الذين توعدوا لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص. فقتل بالسهم عَبْد الرحمن بن ملجم علياً رضي الله عنه وباء بإثمه، وسلم الباقون. ثم اتفقت الجماعة على بيعة معاوية سنة إحدى وأربعين، واستقل معاوية بخلافة الإِسلام. وقد كان فروة بن نوفل الأشجعي اعتزل علياً والحسن، ونزل شهرزور وهو في خمسمائة من الخوارج. فلما بويع معاوية قال فروة لأصحابه: قد جاء الحق فجاهدوا واقبلوا، فتزلوا النخيلة عند الكوفة، فاستنفر معاوية أهل الكوفة فخرجوا لقتالهم، وسألوا أهل الكوفة أن يخلوا بينهم وبين معاوية فأبوا، فاجتمعت أشجع على فروة وأتوا له من القتال

ودخلوا الكوفة قهراً واستعمل الخوارج بعده عَبْد الله بن أبي الحريشي من طيىء. وقاتلوا أهل الكوفة، فقاتلوا وابن أبي الحريشي معهم. ثم اجتمعوا بعده على حوثرة بن وداع الأسدي وقدموا إلى النخيلة في مائة وخمسين، ومعهم فل بن أبي الحريشي. وبعث معاوية إلى حوثرة أباه ليرده عن شأنه فأبى، فبعث إليهم عَبْد الله بن عوف في معسكر فقتله وقتل أصحابه، إلا خمسين دخلوا الكوفة وتفرقوا فيها، وذلك في جمادى الأخيرة سنة إحدى وأربعين. وسار معاوية إلى الشام وخلف المغيرة بن شعبة، فعاد فروة بن نوفل الأشجعي إلى الخروج. فبعث إليه المغيرة خيلاً عليها ابن ربعي، ويقال معقل بن قيس، فلقيه بشهرزور فقتله. ثم بعث المغيرة إلى شبيب بن أبجر

من قتله، وكان من أصحاب ابن ملجم. وهو الذي أتى معاوية يبشره بقتل علي، فخافه على نفسه وأمر بقتله. فتنكر بنواحي الكوفة إلى أن بعث المغيرة من قتله.

ثم بلغ المغيرة أن بعضهم يريد الخروج، وذكر له معن بن عَبْد الله المحاربي فحبسه، ثم طالبه بالبيعة لمعاوية فأبى فقتله، ثم خرج على المغيرة أبو مريم مولى بني الحرث بن كعب، فأخرج معه النساء. فبعث المغيرة من قتله وأصابه. ثم حكم أبو ليلى في المسجد بمشهد الناس، وخرج في إثنين من الموالي، فأتبعه المغيرة معقل بن قيس الرياحي، فقتله بسور الكوفة سنة إثنتين وأربعين. ثم خرج على ابن عامر في البصرة سهم بن غانم الجهني في سبعين رجلاً منهم الحطيم، وهو يزيد بن حالك الباهلي، ونزلوا بين الجسرين والبصرة. ومر بهم بعض الصحابة منقلباً من الغزو فقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه، وقالوا: هؤلاء كفرة. وخرج إليهم ابن عامر فقتل منهم عدة وأمن باقيهم. ولما أتى زياد البصرة سنة خمس وأربعين، هرب منهم الحطيم إلى الأهواز، وجمع ورجع إلى البصرة فافترق عنه أصحابه، فاختفى وطلب الأمان من زياد فلم يؤمنه، ثم دل عليه فقتله وصلبه بداره. وقيل بل قتله عَبْد الله بعد زياد سنة أربع وخمسين.

ثم اجتمع الخوارج بالكوفة على المستورد بن عقلة التيمي من تيم الرباب، وعلى حيان بن ضبيان السلمي، وعلى معاذ بن جوين الطائي، وكلهم من فل النهروان الذين ارتموا في القتلى، ودخلوا الكوفة بعد مقتل علي، واجتمعوا في أربعمائة في مترل حيان بن ضبيان، وتشاوروا في الخروج، وتدافعوا الإمارة. ثم اتفقوا على المستورد وبايعوه في جمادى الأخيرة. وكبسهم المغيرة في مترلهم، فسجن حيان وأفلت

المستورد، فترل الحيرة، واختلف إليه الخوارج، وبلغ المغيرة خبرهم فخطب الناس وهدد الخوارج، فقام إليه معقل بن قيس فقال: ليكفك كل رئيس قومه.

وجاء صعصعة بن صوحان إلى عَبْد القيس، وكان عالماً بمترلهم عند سليم بن مخدوج العبدي إلا أنه لا يسلم عشيرته، فخرجوا ولحقوا بالصراة في ثلثمائة فجهز إليهم معقل بن قيس في ثلاثة آلاف، وجعل معظمهم من شيعة علي، وخرج معقل في الشيعة، وجاء الخوارج ليعبروا النهر إلى المدائن فمنعهم عاملها سمال بن عَبْد العبسي ودعاهم إلى الطاعة على الأمان فأبوا، فساروا إلى المذار. وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرهم فبعث شريك بن الأعور الحارثي في ثلاثة آلاف من الشيعة، وجاء معقل بن قيس إلى المدائن وقد ساروا إلى المذار، فقدم ين يديه أبا الرواع الشاكري في ثلثمائة، وسار ولحقهم أبو الرواع بالمذار فقاتلهم.

ثم لحقه معقل بن قيس متقدّما أصحابه عند المساء، فحملت الخوارج عليه فثبت وباتوا على تعبية، وجاء الخبر إلى الخوارج بنهوض شريك بن الأعور من البصرة فأسروا من ليلتهم راجعين. وأصبح معقل واجتمع بشريك، وبعث أبا الرواع في أتباعهم في ستمائة، فلحقهم بجرجان فقاتلهم فهزمهم إلى ساباط وهو في اتباعهم. ورأى المستورد أن هؤلاء مع أبي الرواع حماة أصحاب معقل، فتسرب عنهم إلى معقل وأبو الرواع في اتباعه. ولما لحق بمعقل قاتلهم قتالاً، وأدركهم أبو الرواع بعد أن لقي كثيراً من أصحاب معقل منهزمين فردهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل المستورد معقلا، طعنه بالرمح فأنفذه، وتقدم معقل والرمح فيه إلى المستورد، فقسم دماغه

بالسيف وماتا جميعاً. وأخذ الراية عمر بن محرز بن شهاب التميمي بعهد معقل بذلك. ثم حمل الناس على الخوارج فقتلوهم ولم ينج منهم إلا خمسة أو ستة.

وعند ابن الكلبي أن المستورد من تيم من بني رباح. خرج بالبصرة أيام زياد قريب الأزدي، ورحاف الطائي ابنا الخالة، وعلى البصرة سمرة بن جندب وقتلوا بعض بني ضبة، فخرج عليهم شبان من بني علي وبني راسب فرموهم بالنبل، وقتل قريب وجاء عَبْد الله بن أوس الطائي برأسه، واشتد زياد في أمر الخوارج وسمرة وقتلوا منهم خلقاً. ثم خرج سنة إثنتين وخمسين على زياد بن حراش العجلي في ثلثمائة بالسواد فبعث إليهم زياد سعد بن حذيفة في خيل فقتلوهم، وخرج أيضا أصحاب المستورد حيان بن ضبيا ن ومعاذ من طيىء، فبعث إليهما من قتلهما وأصحابهما. وقيل بل استأمنوا وافترقوا.

ثم اجتمع بالبصرة سنة ثمان وخمسين سبعون رجلاً من الخوارج من عَبْد

القيس، وبايعوا طواف بن على أن يفتكوا بابن زياد، وكان سبب ذلك أن ابن زياد حبس جماعة من الخوارج بالبصرة، وحملهم على قتل بعضهم بعضاً وخلى سبيل القاتلين ففعلوا وأطلقهم، وكان منهم طواف. ثم ندموا وعرضوا على أولياء المقتولين القود والدية فأبوا، وأفتاهم بعض علماء الخوارج بالجهاد لقوله تعالى: **{ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنواؤ}** الآية، فاجتمعوا للخروج كما قلنا. وسعى بهم إلى ابن زياد، فاستعجلوا الخروج وقتلوا رجلاً ومضوا إلى الجلحاء كما قلنا. فندب ابن زياد الشرط والمحاربة فقاتلوهم. فانهزم الشرط أولاً ثم كثرهم الناس فقتلوا عن آخرهم، واشتد ابن زياد على الخوارج، وقتل منهم جماعة كثيرة، منهم عروة بن أدية أخو مرداس وأدية أمهما، وأبوهما جرير بن تميم.

وكان وقف على ابن زياد يوماً يعظه فقال: أتبنون بكل ريع آية تعبثون الآيات؟. فظن ابن زياد أن معه غيره، فأخذه وقطعه وقتل إبنيه. وكان أخوه مرداس من عظمائهم وعبادهم، وممن شهد النهروان بالاستعراض. ويحرم خروج النساء، ولا يرى بقتال من لا يقاتله. وكانت امرأته من العابدات من بني يربوع وأخذها ابن زياد فقطعها. وألح ابن زياد في طلب الخوارج وقتلهم، وخلى سبيل مرداس من بينهم لمّا وصف له من عبادته، ثم خاف فخرج إلى الأهواز. وكان يأخذ مال المسلمين إذا مرّ به، فيعطي منه أصحابه وبرد الباقي.

وبعث ابن زياد إليهم أسلم بن زرعة الكلابي في ألفي رجل، ودعاهم إلى معاودة الجماعة فأبوا وقاتلوهم، فهزموا أسلم وأصحابه. فسرح إليهم ابن زياد عباد بن علقمة المازني ولحقهم بتوج وهم يصلون، فقتلهم أجمعين ما بين راجع وساجد لم يتغيروا عن حالهم. ورجع إلى البصرة برأس أبي بلال مرداس، فرصده عبيدة بن هلال في ثلاثة نفر عند قصر الإمارة ليستفتيه فقتلوه، واجتمع عليهم الناس فقتلوا منهم. وكان على البصرة عبيد الله بن أبي بكرة، فأمره زياد بتتبع الخوارج إلى أن تقدم فحبسهم، وأخذ الكفلاء على بعضهم، وأتى بعروة بن أدية فقال: أنا كفيلك وأطلقه.

ولما جاء ابن زياد قتل المحبوسين منهم والمكفولين، وطالب ابن أبي بكرة بعروة بن أدبة، فبحث عنه حتى ظفر به، وجاء به إلى ابن زياد فقطعه وصلبه سنة ثمان وخمسين. ثم مات يزيد واستفحل أمر ابن الزبير بمكة، وكان الخوارج لّما اشتدّذ عليهم ابن زياد بعد قتل أبي بلال مرداس أشار عليهم

نافع بن الأزرق منهم باللحاق بابن الزبير، لجهاد عساكر يزيد، لّما ساروا إليه قالوا: وإن لم يكن على رأينا داحضاً عن البيت، وقاموا يقاتلون معه فلما مات يزيد وانصرفت العساكر كشفوا عن رأي ابن الزبير فيهم، وجاؤه يرمون من عثمان ويتبرؤن منه فصرح بمخالفتهم. وقال بعد خطبة طويلة أثنى فيها على الشيخين وعلي وعثمان، واعتذر عنه فيما يزعمون وقال: أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان وعدو لأعدائه، قالوا: فبرىء الله منك قال بل برىء الله منكم ! فافترقوا عنه.وأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي، وعبد الله بن صفار السعدي، وعبد الله بن أباض وحنظلة بن بيهس، وبنو الماخور: عَبْد الله وعبيد الله والزبير من بني سليط بن يربوع وكلهم من تميم، حى أتوا البصرة. وانطلق أبو طالوت عن بني بكر بن وائل، وأبو فديك عَبْد الله بن نور بن قيس بن ثعلبة بن الأسود اليشكري إلى اليمامة، فوثبوا بها مع أبي طالوت. ثم تركوه ومالوا عنه إلى نجدة بن عامر الحنفي.

ومن هنا افترقت الخوارج على أربع فرق: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي، وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم، والاستعراض وقتل الأطفال واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفاراً. والفرقة الثانية النجدية وهم بخلاف الأزارقة في ذلك كله. والفرقة الثالثة الإباضية أصحاب عَبْد الله بن إباض المري، وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين، فلا ينتهون إلى الرأي الأوّل، ولا يقفون عند الثاني، ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم، ولا المنافقين فيهم، وهم عندهم كالمنافقين، وقول هؤلاء أقرب إلى السنة. ومن هؤلاء البيهسية أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر الضبعي. والفرقة الرابعة الصفرية وهم موافقون للإباضية إلا في العقدة، فإن الإباضية أشد على العقدة منهم.وربما اختلفت هذه الآراء من بعد ذلك، واختلف في تسمية الصفرية، ففيل نسبوا إلى ابن صفار وقيل اصفروا بما نهكتهم العبادة. وكانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشاذ من الفروع. وفي أصل اختلافهم هذا مكاتبات بين نافع بن الأزرق وأبي بيهس وعبد الله بن إباض ذكرها المبرد في كتاب الكامل فلينظر هناك.(ولما جاء نافع) إلى نواحي البصرة سنة أربع وستين، فأقام بالأهواز يعترض الناس، وكان على البصرة عَبْد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عَبْد المطلب. فسرح إليه مسلم عبس بن كويز بن ربيعة من أهل البصرة بإشارة الأحنف بن قيس، فدافعه عن نواحي البصرة وقاتله بالأهواز، وعلى ميمنة مسلم الحجاج بن

باب الحميري، وعلى ميسرته حارثة بن بدر العداني. وعلى ميمنة ابن الأزرق عبيدة بن هلال، وعلى ميسرته الزبير بن الماخور التميمي. فقتل مسلم، ثم قتل نافع، وأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب، والخوارج عَبْد الله بن الماخور. ثم قتل الحجاج وعبد الله، فأمر أهل البصرة ربيعة بن الأخدم، والخوارج عبيد الله بن الماخور. ثم اقتتلوا حتى أمسوا، وجاء إلى الخوارج مدد فحملوا على أهل البصرة فهزموهم. وقتل ربيعة وولوا مكانه

حارثة بن بدر، فقاتل وردهم على الأعقاب ونزل الأهواز. ثم عزل عن البصرة عَبْد الله بن الحرث، وبعث ابن الزبير عليها الحرث القباع بن أبي ربيعة، فزحف الخوارج إلى البصرة وأشار الأحنف بن قيس بتولية المهلب حروبهم، وقد كان ابن الزبير ولاه خراسان، فكتبوا لابن الزبير بذلك فأجاب. واشترطوا للمسلم ما سأل من ولاية ما غلب عليه، والإعانة بالأموال، فاختار من الجند إثني عشر ألفاً، وسار إليهم فدفعهم عن الجسر. وجاء حارثة بن بدر بمن كان معه في قتال الخوارج، فردهم الحرث إلى المهلب. وركب حارثة البحر يريد البصرة فغرق في النهر. وسار المهلب وعلى مقدمته إبنه المغيرة فقاتلهم المقدمة ودفعوهم عن سوق الأهواز إلى مادر. ونزل المهلب بسولاف، وقاتله الخوارج وصدقوا الحملة، فكشفوا أصحاب المهلب. ثم ترك من الغد قتالهم وقطع دجيل ونزل العقيل، ثم ارتحل فترل قريباً منهم، وخندق عليه وأذكى العيون والحرس.وجاء منهم عبيدة بن هلال والزبير بن الماخور في بعض الليالي ليبيتوا عسكر المهلب فوجدوهم حذرين. وخرج إليهم المهلب من الغد في تعبية، والأزد وتميم في ميمنته، وبكر وعبد القيس في ميسرته، وأهل العالية في القلب. وعلى ميمنة الخوارج عبيدة بن هلال اليشكري، وعلى ميسرهم الزبير بن الماخور، واقتتلوا ونزل الصبر. ثم، شدوا على الناس فأجفل عسكر المهلب وانهزم، وسبق المنهزمين إلى ربوة ونادى فيهم، فاجتمع له ثلاثة آلاف أكثرهم من الأزد فرجع بهم وقصد عسكر الخوارج، واشتد قتالهم ورموهم بالحجارة، وقتل عَبْد الله بن الماخور وكثير منهم وانكفؤا راجعين إلى كرمان وناحية أصبهان منهزمين، واستخلفوا عليهم الزبير بن الماخور، وأقام المهلب بمكانه حتى جاء مصعب بن الزبير أميراً على البصرة وعزل

المهلب.(وأمَّا نجدة) وهو نجدة بن عامر بن عَبْد الله بن سيار بن مفرج الحنفي، وكان مع نافع بن الأزرق. فلما افترقوا سار إلى اليمامة ودعا أبو طالوت إلى نفسه، وهو من بكر بن وائل، وتابعه نجدة ونهب الحضارم بلد بني حنيفة، وكان فيها رقيق كثير يناهز أربعة آلاف، فقسمها في أصحابه، وذلك سنة خمس وستين.

واعترض عيراً من البحرين جاءت لابن الزبير، فأخذها وجاء بها إلى أبي طالوت، فقسمها بين أصحابه. ثم رأى الخوارج أن نجدة خير لهم من أبي طالوت، فخالفوه وبايعوا نجدة. وسار إلى بني كعب بن ربيعة فهزمهم وأثخن فيهم، ورجع نجدة إلى اليمامة في ثلاثة آلاف، ثم سار إلى البحرين سنة سبع وستين، فاجتمع أهل البحرين من عَبْد القيس وغيرهم على محاربته. وسالمته الأزد والتقوا بالعطيف، فانهزمت عَبْد القيس، وأثخن فيهم نجدة وأصحابه، وأرسل سرية إلى الخط فظفروا بأهله. ولما قدم مصعب بن الزبير البصرة سنة تسع وستين، بعث عَبْد الله بن عمر الليثي الأعور في عشرين ألفاً، ونجدة بالعطيف فقاتلوهم، وهزمهم نجدة وغنم ما في عسكرهم. وبعث عطية بن الأسود الحنفي من الخوارج إلى عمان، وبها عباد بن عَبْد الله شيخ كبير، فقاتله عطية فقتله، وأقام أشهراً وسار عنها. واستخلف عليها بعض الخوارج، فقتله أهل عمان وولوا عليهم سعيداً وسليمان ابني عباد.ثم خالف عطية نجدة وجاء إلى عمان، فامتنعت منه. فركب البحر إلى كرمان، وأرسل إليه المهلب جيشاً فهرب إلى سجستان، ثم إلى السند، فقتله خيل المهلب بقندابيل. ثم بعث نجدة المعرفين إلى البوادي بعد هزيمة ابن عمير، فقاتلوا بني تميم بكاظمة وأعانهم أهل طويلع، فبعث نجدة من استباحهم وأخذ

منهم الصدقة كرهاً. ثم سار إلى صنعاء فبايعوه وأخذ الصدقة من مخالفيها. ثم بعث أبا فديك إلى حضرموت، فأخذ الصدقة منهم. وحج سنة ثمان وستين في تسعمائة رجل، وقيل في ألفين، ووقف ناحية عن ابن الزبير على صلح عقد بينهما.ثم سار نجدة إلى المدينة وتأهبوا لقتاله، فرجع إلى الطائف وأصاب بنتاً لعبد الله بن عمر بن عثمان، فضمها إليه. وامتحنه الخوارج بسؤاله بيعها فقال: قد أعتقت نصيبي منها. قالوا: فزوجها، قال: هي أملك بنفسها، وقد كرهت الزواج. ولما قرب من الطائف جاءه عاصم بن عروة بن مسعود فبايعه عن قومه، وولىّ عليهم الخازرق، وعلى يبانة والسراة. وولىّ على

ما يلي نجران سعد الطلائع، ورجع إلى البحرين، وقطع الميرة عن الحرمين. وكتب إليه ابن عباس أو ثمامة بن أثاك لّما أسلم قطع الميرة عن مكة وهم مشركون، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة فخلاها لهم، وانك قطعت الميرة ونحن مسلمون، فخلاها لهم نجدة.ثم اختلف إليه أصحابه لأن أبا سنان حيي بن وائل أشار عليه بقتل من أطاعه تقية، فانتهره نجدة وقال: إنما علينا أن نحكم بالظاهر. وأغضبه عطية في منازعة جرت بينهما على تفضيله لسرية البرّ على سرية البحر في الغنيمة، فشتمه نجدة فغضب. وسأله في درء الحدّ في الخمر عن رجل من شجعانهم، فأبى. وكاتبه عَبْد الملك في الطاعة على أن يوليه اليمامة، ويهدر لهم ما أصاب من الدماء. فاتهموه في هذه المكاتبة ونقموا عليه أمثال هذه، وفارقه عطية إلى عمان. ثم انحازوا عنه وولوا أمرهم أبو فديك عَبْد الله بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة. واستخفى نجدة، وألح أبو فديك في طلبه، وكان مستخفياً في قرية من قرى حجر. ثم نذر به فذهب إلى أخواله من تميم، وأجمع المسير إلى عَبْد الملك، فعلم به أبو فديك، وجاءت سرية منهم وقاتلهم فقتلوه. وسخط قتله جماعة من أصحاب أبي فديك، واعتمده مسلم بن جبير فطعنه إثنتي عشرة طعنة، وقتل مسلم لوقته، وحمل أبو فديك إلى منزله،ثم جاء مصعب إلى البصرة سنة ثمان وستين والياً على العراقين عن أخيه، وكان المهلب في حرب الأزارقة فأراد مصعب أن يوليه بلاد الموصل والجزيرة وأرمينية، ليكون بينه وبين عَبْد الملك. فاستقدمه من فارس

وولاّه، وولىّ على فارس وحرب الأزارقة عمر بن عَبْد الله بن معمر. وكان الخوارج قد ولوّا عليهم بعد قتل عَبْد الله بن الماخور سنة خمس وستين أخاه الزبير، فجاؤا به إلى إصطخر، وقدم عمر ابنه عبيد الله إليهم فقتلوه، ثم قاتل الزبير عمر فهزمهم وقتل منهم سبعون. وفلق قطري بن الفجاءة، وشتر صالح بن مخراق، وساروا إلى نيسابور فقاتلهم عمر بها وهزمهم، فقصدوا أصبهان فاستحموا بها. ثم أقبلوا إلى فارس وتجنبوا عسكر عمر، ومروا على ساجور ثم أرجان، فأتوا الأهواز قاصدين العراق. وأغذ عمر السير في أثرهم، وعسكر مصعب عند الجسر. فسار الزبير والخوارج، فقطع أرض صرصر، وشن الغارة على أهل المدائن يقتلون الولد ان، والرجال ويبقرون بطون الحبالىوهرب صاحب المدائن عنها، وانتهت جماعة منهم إلى الكرخ، فقاتلهم أبو

بكر بن مخنف فقتلوه، وخرج أمير الكوفة وهو الحرث بن أبي ربيعة القباع حتى انتهى إلى الصراة، ومعه إبراهيم بن الأشتر، وشبيب بن ربعي، وأسماء بن خارجة، ويزيد بن الحرث، ومحمد بن عمير، وأشاروا عليه بعقد الجسر والعبور إليهم، فانهزموا إلى المدائن. وأمر الحرث عَبْد الرحمن بن مخنف باتباعهم في ستة آلاف إلى

حدود أرض الكوفة، فانتهوا إلى الري وعليها يزيد بن الحرث بن دويم الشيباني، وما والاهم عليه أهل الري، فهزموه وقتلوه. ثم انحطوا إلى أصبهان وبها عتاب بن ورقاء، فحاصروه

أشهراً، وكان يقاتلهم على باب المدينة.ثم دعا إلى الاستماتة في قتالهم، فخرجوا وقاتلوهم، وانهزمت الخوارج، وقتل الزبير واحتووا على معسكرهم. ثم بايع الخوارج قطري بن الفجاءة المازني ويكنى أبا نعامة، وارتحل بهم إلى كرمان حتى استجمعوا فرجعوا إلى أصبهان فامتنعت، فأتوا الأهواز وقاموا. وبعث مصعب إلى المهلب فرده إلى قتال الخوارج، وولى على الموصل والجزيرة إبراهيم بن الأشتر، وجاء المهلب فانتجعت الناس من البصرة، وسار إلى الخوارج فلقيهم بسولاف. واقتتلوا ثمانية أشهر، وبعث مصعب إلى عتاب بن ورقاء الرباحي عامل أصبهان بقتال أهل الري بما فعله في ابن دويم، فسار إليهم وعليهم الفرخان فقاتلهم وافتتحها عنوة وقلاعها وعاث في نواحيها.

خبر ابن الحر ومقتله:

كان عبيد الله بن الحمر الجعفي من خيار قومه صلاحاً وفضلاً، ولما قتل عثمان حزن عليه، وكان مع معاوية على علي، وكانت له زوجة بالكوفة فتزوجت لطول مغيبه. فأقبل من الشام وخاصم زوجها إلى علي، فعدد عليه شهوده صفين. فقال: أيمنعني ذلك من عدلك؟ قال: لا. ورد إليه امرأته. فرجع إلى الشام وجاء إلى الكوفة بعد مقتل علي، ولقي إخوانه وتفاوضوا في النكير على علي ومعاوية. ولما قتل الحسين تغيب على ملحمته، وسأل عنه ابن زياد فلم يره. ثم لقيه فأساء عذله، وعرض له بالكون مع عدوه، فأنكر وخرج مغضباً. وراجع ابن زياد رأيه في فطلبه فلم يجده، فبعث عنه فامتنع وقال: أبلغوه أني لا آتيه طائعاً أبدا وأتى منزل أحمد بن زياد الطائي، فاجتمع اليه أصحابه، وخرج إلى المدائن، ومضى لمصارع الحسين وأصحابه فاستغفر لهم، ولما مات يزيد و وقعت الفتنه اجتمع إليه أصحابه، وخرج بنواحى، المدائن، ولم يعترض للقتل ولا للمال، إنما كان يأخذ مال السلطان متى لقيه، فيأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ويرد الباقي، ويأخذ لصاحب المال بما

أخذ.وحبس المختار إمرأته بالكوفة، وجاء فأخرجها من الحبس، وأخرج كل من فيه. وأراد المختار أن يسطو به، فمنعه إبراهيم بن الأشتر إلى الموصل لقتال ابن زياد. ثم فارقه ولم يشهد معه، وشهد مع مصعب قتال المختار وقتله. ثم أغرى به مصعب فحبسه، وشفع فيه رجال من وجوه مذحج فشفعهم وأطلقه، وأتى إليه الناس يهنؤونه. فصرخ بأن أحداً لا يستحق بعد الأربعة، ولا يحل أن يعقد لهم بيعة في أعناقنا، فليس لهم علينا من الفضل ما يستحقون به ذلك، وكلهم عاصٍ مخالف، قوي الدنيا ضعيف الآخرة، ونحن أصحاب الأيام مع فارس، ثم لا يعرف حقناً وفضلنا، وإني قد أظهرت لهم العداوة.

وخرج للحرب فأغار، فبعث إليه مصب سيف بن هانىء المرادي يعرض عليه الطاعة على أن يعطيه قطعة من بلاد فارس، فأبى فسرح إليه الأبرد بن فروة الرباحيّ في عسكر، فهزمه عبيد الله، فبعث إليه حريث بن زيد فهزمه فقتله، فبعث إليه الحجّاج بن حارثة الخثعمي ومسلم بن عمر فقاتلهما بنهر صرصر وهزمهما، فأرسل إليه مصعب بالأمان والولاية فلم يقبل. وأتى إلى فرس فهرب دهقانها بالمال، وتبعه ابن الحر إلى عين النمر

وعليه بسطام بن معلقة بن هبيرة الشيباني، فقاتل عبيد الله. ووافاهم الحجّاج بن حارثة فهزمهما عبيد الله وأسرهما، وأخذ المال الذي مع الدهقان.

وأقام بتكريت ليجبي الخراج، فسرح مصعب لقتاله الأبرد بن فروة الرباحي، والجون بن كعب الهمداني في ألف وأمدهم المهلّب بيزيد بن المعقل في خمسمائة، وقاتلهم عبيد الله يومين في ثلاثمائة. ثم تحاجزوا وقال لأصحابه إني سائر بكم إلى عَبْد الملك فتجهزوا! ثم قال: إني خائف أن أموت و لم أذعر مصعباً، وقصد الكوفة وجاءته العساكر من كل جهة. و لم يزل يهزمهم ويقتل منهم بنواحي الكوفة والمدائن. وأقام يغير بالسواد ويجبي الخراج. ثم لحق بعبد الملك فأكرمه وأجلسه معه على سريره، وأعطاه مائة ألف درهم، وقسّم في أصحابه الأعطيات، وسأل من عَبْد الملك أن يوجّه معه عسكراً لقتال مصعب فقال: سر بأصحابك وادع من قدرت عليه وأنا ممدك بالرجال، فسار نحو الكوفة ونزل بناحية الأنبار، وأذن لأصحابه في

إتيان الكوفة ليخبروا أصحابه بقدومه. وبعث الحارث بن أبي ربيعة إليه جيشاً كثيفاً، فقاتلهم وتفرّق عنه أصحابه، وأثخنه الجراح فخاض البحر إلى سفينة فركبها حتى توسط الفرات، فأشرفت خيالة على السفينة وتبادروا به، فقام يمشي في البحر فتعلقوا به فألقى نفسه في الماء مع بعضهم فغرّقوه.

حروب الخوارج مع عَبْد الملك والحجاج :

ولما استمر عَبْد الملك بالكوفة بعد قتل مصعب بعث على البصرة خالد بن عَبْد الله، وكان المهلّب يحارب الأزارقة، فولاه على خراج الأهواز. وبعث أخاه عَبْد العزيز بن عَبْد إلى قتال الخوارج، ومعه مقاتل بن مسمع، وأتت الخوارج من ناحية كرمان إلى دارابجرد، وبعث قطري بن الفجاءة صالح بن مخراق في تسعمائة، فاستقبل عَبْد العزيز ليلاً على غير تعبية فانهزم. وقتل مقاتل بن مسمع وأسرت بنت المنذر بن الجارود امرأة عَبْد العزيز، فقتلها الخوارج.

وتغير عَبْد العزيز إلى رامهرمز. وكتب خالد بالخبر إلى عَبْد الملك فكب إليه ، على ولاية أخيه الحرب وولاية المهلب جباية الخراج، وأمره بأن يسرح المهلب بحربهم. وكتب إلى بشر بالكوفة بإمداده بخمسة آلاف مع من يرضاه، فإذا فرغوا من قتال الخوارج ساروا إلى الري فكانوا هنالك مسلحة، فأنفذ بشر العسكر وعليهم عَبْد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكتب له عهده على الري، وخرج خالد بأهل البصرة، ومعه المهلّب واجتمعوا بالأهواز. وجاءت الأزارقة فأحرقوا السفن. ومر المهلّب بعبد الرحمن بن الأشعث وأمره أن يخندق عليه، وأقاموا كذلك عشرين ليلة. ثم زحف الخوارج بالناس، فهال الخوارج كثرتهم وانصرفوا.

وبعث خالد داود بن قحدم في اثارهم، وانصرف إلى البصرة، وكتب بالخبر إلى عَبْد الملك. فكتب إلى أخيه بشر أن يبعث أربعة آلاف من أهل الكوفة إلى فارس ويلحقوا بداود بن قحدم في طلب الأزارقة. فبعث بهم بشر بن عتاب، ولحقوا بداود واتبعوا الخوارج حتى أصابهم الجهد، ورجع عامتهم مشاة إلى الأهواز.

(ثم خرج أبو فديك) من بني قيس بن ثعلب، فغلب على البحرين، وقتل نجدة بن عامر الحنفي كما مر. وهزم خالدا فكتب إلى عَبْد الملك بذلك، وأمر عَبْد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر أن يندب الناس من أهل الكوفة

والبصرة، ويسير لقتال أبي فديك. فانتدب معه عشرة آلاف، وسار بهم وأهل الكوفة على ميمنته عليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وأهل البصرة في ميسرته عليهم عمر بن موسى أخيه، وهو في القلب. وانتهوا إلى البحرين، واصطفوا للقتال، وحملوا على أبي فديك وأصحابه،

فكشفوا ميسرته حتى أبعدوا إلا المغيرة بن المهلب ومجاعة وعبد الرحمن وفرسان الناس، فإنهم مالوا إلى أهل الكوفة بالميمنة ورجع أهل الميسرة. وحمل أهل الميمنة على الخوارج فهزموهم واستباحوا عسكرهم، وقتلوا أبا فديك وحصروا أصحابه بالمشقر حتى نزلوا على الحكم، فقتل منهم ستة آلاف وأسر ثمانمائة، وذلك سنة ثلاث وسبعين. ثم ولى عَبْد الملك أخاه بشراً على البصرة، فسار إليها، وأمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة، وأن ينتخب من أهل البصرة من أراد، ويتركه ورأيه في الحرب، ويمده بعسكر كثيف من أهل الكوفة مع رجل معروف بالنجدة. فبعث المهلب لانتخاب الناس جديع بن سعيد بن قبيصة، وشق على بشر ولاية المهلب من عَبْد الملك وأوغرت صدره. فبعث على عسكر الكوفة عَبْد الرحمن بن مخنف، وأغراه بالمهلب في ترك مشورته، وتنغصه. وسار المهلب إلى رامهرمز

وبها الخوارج، وأقبل ابن مخنف في أهل الكوفة، فترل على ميل منه بحيث يتراءى العسكران. ثم أتاهم نبأ بشر بن مروان، وأنه استخلف خالد بن عَبْد الله بن خالد على البصرة، وخليفته على الكوفة عمر بن حريث، فافترق ناس كثيرة من أهل البصرة وأهل الكوفة فترلوا الأهواز، وكتب إليهم خالد بن عَبْد الله يتهددهم فلم يلتفتوا إليه. وأقبل أهل الكوفة إلى الكوفة، وكتب إليهم عمر بن حريث بالنكير والعود إلى المهلب، ومنعهم الدخول فدخلوا ليلاً إلى بيوتهم.

(ثم قدم الحجاج) أميراً على العراقين سنة خمس وسبعين، فخطب بالكوفة خطبته المعروفة كان منها: "ولقد بلغني رفضكم المهلّب وإقبالكم إلى مصركم عاصين مخالفين، وأيم الله لا أجد أحداً متخلفاً عن عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه، وأنهب داره". ثم دعا العرفاء وقال: ألحقوا الناس بالمهلّب وأتوني بالبراءة بموافاتهم، ولا تغلقن أبواب الجسر. ووجد عمر بى ضابىء من المتخلفين، وأخبر أنه من قتلة عثمان فقتله. فأخرج جند المهلب وازدحموا على الجسر، وجاء العرفاء إلى المهلب برامهرمز

فأخذوا كتابه بموافاة الناس، وأمرهم الحجّاج بمناهضة الخوارج، فقاتلوهم شيئاً ثم انزاحوا إلى كازرون، وسار المهلّب وابن مخنف فترلوا بهم. وخندق المهلب ولم يخندق ابن مخنف، وبيتهم الخوارج فوجدوا المهلب حذراً، فمالوا إلى ابن مخنف فانهزم عنه أصحابه وقاتل حتى قتل. وفي حديث أهل الكوفة أنهم لّما ناهضوا الخوارج مالوا إلى المهلب واضطروه إلى معسكره، وأمده عَبْد الرحمن بعامة عسكره وبقي في خفّ من الجند. فمال إليه الخوارج، فترل ونزل معه القراء وواحد وسبعون من أصحابه فقتلوا، وجاء المهلب من الغد فدفنه وصلى عليه، وكتب بالخبر إلى الحجّاج، فبعث على معسكره عتاب بن ورقاء وأمره بطاعة المهلب، فأجاب لذلك وفي نفسه منه شيء، وعاتبه المهلب يوماً ورفع إليه القضيب، فرده إبنه المغيرة عن ذلك. وكتب عتاب يشكو المهلب إلى الحجّاج ويسأله العود، وصادف ذلك أمر شبيب فاستقدمه وبقي المهلب.

حروب الصفرية وشبيب مع الحجاج:

ثم خرج صالح بن مسرح التميمي من بني امرىء القيس بن زيد مناة وكان يرى رأي الصغرية، وكان عابداً ومسكنه أرض الموصل والجزيرة، وله أصحاب يقرئهم القرآن والفقه. وكان يأتي الكوفة ويلقى أصحابه، ويعد ما يحتاج إليه. فطلبه الحجاج فترك الكوفة، وجاء إلى أصحابه بالموصل، ودار فدعاهم إلى الخروج وحثه عليه. وجاءه كتاب شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني من رؤوسهم يحثه على مثل ذلك. فكتب إليه: إني في انتظارك فأقدم. فقدم شبيب في نفر من أصحابه منهم أخوه المضاد، والمحلل بن وائل اليشكري ولقيه بدارا، وأجمع صالح الخروج. وبعث إلى أصحابه وخرجوا في صفر سنة ست وسبعين. وأمر بالدعاء قبل القتال وخير في الدماء والأموال. وعرضت له دواب لمحمد بن مروان بالجزيرة، فأخذوها وحملوا عليها أصحابهم.

وبلغ محمد بن مروان وهو أمير الجزيرة خروجهم، فسرح إليهم عدي بن عدي الكندي في ألف، فسار من حّران، وكان ناسكاً فكره حروبهم، وبعث إليهم بالخروج، فحبسوا الرسول. فساروا إليه فطلعوا عليه وهو يصلي الضحى، وشبيب في الميمنة، وسويد بن سليم في الميسرة. وركب عدي على غير تعبية فانهزم، واحتوى الخوارج على معسكره ومضوا إلى آمد. وسرح محمد بن مروان خالد بن حر السلمي في ألف وخمسمائة، والحرث بن جعونة العامري في مثلها وقال : أيكما سبق فهو أمير على صاحبه.

وبعث صالح شبيباً إلى الحرث، وتوجه هو نحو خالد وقاتلوهم أشد القتال. واعتصم أصحاب محمد بخندقهم، فسارت الخوارج عنهم، وقطعوا أرض الجزيرة والموصل إلى الدسكرة. فسرح إليهم الحجّاج الحرث بن عميرة بن ذي الشعار في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة، فلقيهم على تخم ما ين الموصل وصرصر، والخوارج في تسعين رجلاً. فانهزم سويد بن سليم، وقتل صالح، وصرع شبيب. ثم وقف على صالح قتيلاً فنادى بالمسلمين فلاذوا به، ودخلوا حصناً هنالك، وهم سبعون. وعاث الحرث بهم وأحرق عليهم الباب، ورجع حتى يصبحهم من الغداة. فقال لهم شبيب. بايعوا من شئتم من أصحابكم واخرجوا بنا إليهم. فبايعوه وأطفؤوا النار بالماء في اللبود، وخرجوا إليه فبيتوا، وسرح الحرث فحملوا على أصحابه وانهزموا نحو المدائن، وحوى شبيب عسكرهم.

وسار شبيب إلى أرض الموصل فلقي سلامة بن سنان التميمي من تميم شيبان، أوخاه فضالة من أكابر الخوارج. وكان خرج قبل صالح في ثمانية عشر رجلاً ونزل على ماء لبني عنزة فقتلوهم وأتوا برؤوسهم إلى عَبْد الملك يتقربون له بهم. فلما دعا شبيب سلامة إلى الخروج شرط عليه أن ينتخب ثلاثين فارساً ويسير بهم إلى عنزة. فيثأر منهم بأخيه، فقبل شرطه. وسار إلى عنزة فأثخن فيهم، وجعل يقتل الحلة بعد الحلة. ثم أقبل شبيب إلى داران في نحو سبعين رجلاً ففرت منهم طائفة من بني شيبان نحو ثلاثة آلاف، فنزلوا ديراً خراباً وامتنعوا منه وسار في بعض حاجاته، واستخلف أخاه مضاد بن يزيد بجماعة من بني شيبان في أموالهم مقيمين، فقتل منهم ثلاثين شيخاً، فيهم حوثرة بن أسد. وأشرف بنو شيبان على مضاد وأصحابه، وسألوا الأمان ليخرجوا إليهم

ويسمعوا دعوقم فأخرجوا وقبلوا، ونزلوا إليهم واجتمعوا بهم. وجاء شبيب فاستصوب فعلهم. وصار بطائفة نحوأذربيجان.

وكان الحجّاج قد بعث سفيان بن أبي العالية الخثعمي إلى طبرستان يحاصرها في ألف فارس، وكتب إليه الحجّاج أن يرجع. فصالح أهل طبرستان، ورجع فأقام بالدسكرة يطلب المدد، وبعث الحجّاج أيضاً إلى الحرث بن عميرة الهمداني قاتل صالح أن يأتيه بجيش الكوفة والمدائن، وإلى سورة

ابن أبجر التميمي في خيل المناظر. ويعجل سفيان في طلب شبيب، فلحقه بخانقين، فاستطردهم وأكمن كميناً لهم مع أخيه، واتبعوه في سفح الجبل فخرج عليهم الكمين فانهزموا بغير قتال، وثبت سفيان وقاتل. ثم حمل شبيب فانكشف ونجا إلى بابل مهرود، وكتب إلى الحجّاج بالخبر وبوصول العساكر إلا سورة بن أبجر. فكتب الحجّاج إلى سورة يتهدده ويأمره أن يتخذ من المدائن خمسمائة

فارس، ويسير إلى شبيب فسار. وانتهى شبيب إلى المدائن ثم إلى الهندوان، فترحم على أصحابه هنالك. ويبيتهم سورة هنالك وهم حذرون فلم يصب منهم الغرة. ورجع نحو المدائن وشبيب في اتباعه.

وخرج ابن أبي العصغي عامل المدائن فقاتلهم، وهرب كثير من جنده إلى الكوفة، ومضى شبيب إلى تكريت. ووصل سورة إلى الكوفة بالغل، فحبسه الحجّاج ثم أطلقه. وسرح عثمان بن سعيد بن شرحيل الكندي ويلقب الجزل، في أربعة آلاف ليس فيهم من المنهزمين أحد، وساروا لحرب شبيب وأصحابه. وقدم بين يديه عياض بن أبي لبنة الكندي وجعلوا يتبعون شبيباً من رستاق إلى رستاق وهو على غير تعبية، والجزل على التعبية، ويخندق على نفسه متى نزل. وطال ذلك على شبيب، وكان في مائة وستين، فقسمه على أربع فرق وثبت الجزل ومشايخه فلم يصب منهم فرجع عنهم. ثم صحبهم ثانية فلم يظفر منهم بشيء.

وسار الجزل في التعبية كما كان وشبيب يسير في أرض الخوارج وغيرها يكسب الخراج وكتب الحجاج إلى الجزل ينكر عليه البطء ، ويأمره بالمناهضة. وبعث سعيد بن المجالدي على جيش الجزل فجاءهم بالهندوان ووبخهم وعجزهم. وجاءهم الخبر بأن شبيباً قد دخل قطيطيا والدهقان يصلح لهم الغداء، فنهض سعيد في الناس وترك الجزل مع العسكر وقد صف بهم خارج الخندق. وجاء سعيد إلى قطيطيا وعلم به شبيب، فأكل وتوضأ وصلى. وخرج فحمل على سعيد وأصحابه مستعرضاً فانهزموا وثبت سعيد فقتله وسار في اتباعهم إلى الجزل، فقاتلهم الجزل حتى وقع بين القتلى جريحاً. وكتب إلى الحجّاج بالخبر وأقام بالمدائن. وانتهى شبيب إلى الكرخ وعبر دجلة إليه، وأرسل إلى سوق بغداد فأتاهم في يوم سوقهم

واشترى منه حاجاته، وسار إلى الكوفة فلما قرب منها بعث الحجّاج سويد بن عَبْد الرحمن السعدي في ألفي رجل، فساروا إلى شبيب. وأمر عثمان بن قطن فعسكر في السبخة. وخالفه شبيب إلى أهل السبخة فقاتلوه. وجاء سويد في آثاره فمضى نحو الحيرة وسويد في إتباعه. ثم رحل من الحيرة وجاء كتاب الحجّاج إلى سويد يأمره باتباعه. فمضى في إتيانه وشبيب يغير في طريقه. وأخذ على القطقطاتة، ثم على قصر بني مقاتل، ثم على

الأنبار ثم ارتفع على أدنى أذربيجان- ولما أبعد سار الحجّاج إلى البصرة، واستعمل على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، فجاءه كتاب دهقان بابل مهرود يخبره بقصد شبيب الكوفة، فبعث بالكتاب إلى الحجّاج.

وأقبل شبيب حتى نزل عَقَرقوبا، ونزل وسار منها يسابق الحجاج إلى الكوفة. وطوى الحجّاج المنازل فوصل الكوفة عند العصر ووصل شبيب عند المغرب. فأراح وطعموا، ثم ركبوا ودخلوا إلى السوق. وضرب شبيب القصر بعموده. ثم اقتحموا المسجد الأعظم فقتلوا فيه من الصالحين، ومروا بدار صاحب الشرطة فدعوه إلى الأمير ونكرهم، فقتلوا غلامه. ومروا بمسجد بني ذهل فقتلوا ذهل بن الحرث، وكان يطيل الصلاة فيه. ثم خرجوا من الكوفة واستقبلهم النضر بن القعقاع بن شور الذهلي، وكان ممن أقبل مع الحجّاج من البصرة، فتخفف عنه. فلما رآه قال: السلام عليك أيها الأمير، فقال له شبيب: قل أمير المؤمنين ويلك، فقالها. وأراد شبيب أن يلقنه للقرابة بينهما. وكان النضر ناحية بيت هانىء بن قبيصة الشيباني، فقال له: يا نضر لا حكم إلا لله، ففطن بهم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وشدّ عليه أصحاب شبيب فقتلوه.ونادى منادي الحجّاج بالكوفة يا خيل الله اركبي وهو بباب القصر، وكان أول من أتاه عثمان بن قطن بن عَبْد الله بن الحسين ذي القصة. ثم جاء الناس من كل جانب، فبعث الحجّاج خالد بن الأسدي وزائدة بن قُدامة الثقفي وأبا الضريس مولى بني تميم، وعبد الأعلى بن عَبْد الله بن عامر، وزياد بن عَبْد الله العتكي في ألفين ألفين وقال: إن كان حرب فأميركم زائدة بن قدامة. وبعث معهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله من سجستان، وكان عَبْد الملك قد ولاّه عليها، وأمر الحجّاج أن

يجهزه ويبعثه في آلاف من الجنود إلى عمله، فجهّزه وحدث أمر شبيب. فقال له الحجّاج، تجاهد ويظهر إسمك ثم نمضي إلى عملك، فساروا جميعاً ونزلوا أسفل الفرات. وأخذ شبيب نحو القادسية وجرد الحجّاج ألفاً وثمانمائة من نقاوة الجند مع ذخر بن قبس، وأمره بمواقعة شبيب أينما أدركه، وإن ذهب فاتركه. فأدركه بالسلخين، وعطف عليه شبيب، فقاتل ذخر حتى صرع وفيه بضعة عشر جرحاً. وانهزم أصحابه يظنون أنه قتل. ثم أفاق من برد السحر، فدخل قرية وسار إلى الكوفة. ثم قصد شبيب وأعوانه وهم على أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة، فقال: إن هزمناهم فليس دون الحجاج والكوفة مانع. وانتهى إليهم وقد تعبوا للحرب وعلى الميمنة زياد بن عمر العتكي، وعلى الميسرة بشر بن غالب الأسدي، وكل أمير بمكانه. وعبى شبيب أصحابه ثلاثة كتائب، فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمر فانكشفوا، وثبت زياد قليلاً ثم حمل الثانية فانهزموا، وانهزم جريحاً عند المساء. ثم حملوا على عَبْد الأعلى بن عَبْد الله بن عامر فانهزم ولم يقاتل ولحق بزياد بن عمر، وحملت الخوارج حتى انتهت إلى محمد بن موسى بن طلحة عند الغروب، فقاتلوه وصبر لهم. ثم حمل مضاد أخو شبيب على بشر بن غالب في الميسرة فصبر ونزل في خمسين رجلاً فقاتلوه حتى قتلوا، وحملت الخوارج على أبي الضريس مولى بني تميم فهزموه حتى انتهى إلى أعين، ثم حملوا عليه وعلى أعين فهزموهما إلى زائدة بن قدامة. فلما انتهوا إليه نادى نزال وقاتلهم إلى السحر، ثم حمل شبيب عليه فقتله وقتل أصحابه، ودخل أبو الضريس مع الفل إلى الجوسق بازائهم. ورفع الخوارج عنهم السيف ودعوهم إلى البيعة لشبيب عند

الفجر فبايعوه، وكان فيمن بايعه أبو بردة وبقي محمد بن موسى لم ينهزم، فلما طلع الفجر سمع شبيب أذانهم وعلم مكانهم فأذن وصلّى، ثم حمل عليهم فانهزمت طائفة منهم وثبتت أخرى، وقاتل محمد حتى قتل. وأخذ الخوارج ما في العسكر وانهزم الذين بايعوا شبيباً فلم يبق منهم أحد، وجاء شبيب إلى الجوسق الذي فيه أعين وأبو الضريس فتحصنوا منه، فأقام يوماً عليهم وسار عنهم، وأراده أصحابه على

الكوفة وإزاءهم خوخى فتركها وخرج على نفر. وسمع الحجّاج بذلك فظن أنه يريد المدائن وهي باب الكوفة وأكثر السواد لها فهاله ذلك وبعث عثمان بن قطن أميراً على المدائن وخوخى والأنبار، وعزل منها عَبْد الله بن أبي عصيفير. وقيل في مقتل محمد بن موسى غير هذا وهو أنه كان شهد مع عمر بن عَبْد الله بن معمر قتال أبي فديك، فزوجه عمر ابنته وكانت أخته تحت عَبْد الملك، فولاّه سجستان فمر بالكوفة وقيل للحجّاج إن جاء إلى هذا أحد ممن تطلبه منعك منه، فمره بقتال شبيب في طريقه لعل الله يريحك منه، ففعل الحجّاج وعدل محمد إلى قتال شبيب، وبعث إليه لشيب بدهاء الحجّاج وخديعته إياه وأن يعدل عنه فأبى إلا شبيباً فبارزه وقتله شبيب، ولما انهزم الأمراء وقتل موسى بن محمد بن طلحة دعا الحجّاج عَبْد الرحمن بن الأشعث، وأمره أن ينتخب ستة آلاف فارس ويسير في طلب شبيب أين كان، فسار لذلك. ثم كتب إليه وإلى أصحابه يتهدّدهم إن انهزموا ومرّ ابن الأشعث بالمدائن وعاد الجزل من جراحته، فوصّاه وحذره وحمله على فرسه وكانت لا تجارى. وسار لشبيب على دقوقا وشهرزور، وابن الأشعث في إتباعه إلى أن وقف على أرض الموصل، وأقام يقاتله أهلها.فكتب إليه الحجاج: أمَّا بعد فاطلب شبيباً وأسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فاقتله أو تنفيه، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده. فجعل ابن الأشعث يتبعه وشبيب يقصد به الأرض الخشنة الغليظة، وإذا دنا منه رجع يبيته فيجده على حذره حق أتعب الجيش وأحفى دوائهم ونزل بطن أرض الموصل، ليس بينه وبين سواد إلا نهر حولايا في دادان الأعلى من الأرض خوخى. ونزل عَبْد الرحمن في عواقيل النهر وكانت أيام النحر، وطلب شبيب الموادعة فيها فأجابه قصداً للمطاولة. وكتب عثمان بن قَطَن بذلك إلى الحجّاج فنكر، وبعث إلى عثمان بن قَطَن بإمارة العسكر وأمره بالمسير، وعزل عَبْد الرحمن بن الأشعث. وبعث على المدائن مُطَرَّف بن المغيرة مكان ابن قَطَن، وقدم ابن قَطَن على عسكر الكوفة عشية يوم التروية وناداهم إلى الحرب فاستمهلوه وأنزله عَبْد الرحمن بن الأشعث.وأصبحوا إلى القتال ثالث يومهم على تعبية، وفي الميمنة خالد بن نَهِيك بن قَيْس، وفي الميسرة عقيل بن شدّاد السَّلُولِيّ وابن قَطَن في الرجالة

وعبر إليهم شبيب في مائة وثلاثين رجلاً فوقف في الميمنة وأخوه مضاد في القلب وسُوَيْد بن سليم في الميسرة، وحمل شبيب على ميسرة عثمان بن قَطَن فانهزموا، ونزل عَقِيل بن شدّاد فقاتل حتى قتل، وفتل معه مالك بن عَبْد الله الهَمْدَاني. وحمل سُوَيْد على ميمنة عثمان فهزمها، وقاتل خالد بن نَهِيك، فجاء شبيب من ورائه فقتله، وَتقدم عثمان إلى مضاد في القلب فاشتدّ القتال وحمل شبيب من وراء عثمان وعطف عليه سويد بن سليم ومضاد من القلب حتى أحاطوا به فقتلوه. وانهزمت العساكر ووقع عَبْد الرحمن بن الأشعث، فأتاه ابن أبي شَثْبَة الجُعْفي وهو على بغلة فأردفه ونادى في الناس باللحاق بدير أبي مريم.ورفع شبيب السيف عن الناس ودعاهم

إلى البيعة فبايعوه، ولحق ابن الأشعث بالكوفة فاختفى حتى أمنه الحجّاج. ومضى شبيب إلى ماه نهراذان فأقام فيه فصل الصيف، فلحق به من كان للحجّاج عليه تبعة. ثم أقبل إلى المدائن في ثمانمائة رجل، وعليها مُطَّرف بن المُغِيرة. وبلغ الخبر إلى الحجّاج فقام في الناس وتسخط وتوعد. فقال زُهْرَة بن حَوِيَّة وهو شيخ كبير لا يستطيع القيام إلا معتمداً: أنت تبعث الناس متقطعين فيصيبون منهم فاستنفر الناس جميعاً وابعث عليهم رجلاً شجاعاً مجّرباً، يرى الفرار عاراً والصبر مجداً وكرماً . فقال الحجّاج: أنت ذلك الرجل ! فقال: إنما يصلح من يحمل الدرع والرمح ويهز السيف ويثبت على الفرس، ولا أطيق من هذا شيئاً، وقد ضعف بصري، ولكن أكون مع أمير وأشير عليه. فقال له: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله أول أمرك وآخره.ثم قال للناس: سيروا فتجهّزوا بأجمعكم، فتجهزوا وكتب الحجّاج إلى عَبْد الملك بأن شبيباً شارف المدائن يريد الكوفة، وهم عاجزون عن قتاله بما هزم جندهم وقتل أمراءهم، ويستمده من جند الشام، فبعث إليه عَبْد الملك سفيان بن الأبرد الكلبي في أربعة آلاف، وحبيب بن عَبْد الرحمن الحكمي في ألفين، وذلك سنة ست وسبعين.

وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي يستقدمه من عند المهلب، وقد وقع بينهما كما مر فقدم عتاب وولاه على الجيش، فشكر زهرة بن حوية له وقال: رميتهم بحجرهم، والله لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل. وبعث الحجاج إلى جند الشام يحذرهم البيات ويوصيهم

الاحتياط، وأن يأتوا على عين التمر. وعسكر عتاب بجماع أعين، ثم قطع شبيب دجلة إلى المدائن، وبعث إليه مطرف أن يأتيه رجال من وجوههم ينظر في دعوتهم، فرجاً منه وبعث إليه بغيث بن سويد في جماعة مكثوا عنده أربعاً ولم يرجعوا من مطرف بشيء ونزل عتاب الصراة وخرج مطرف إلى الجبال خوفاً أن يصل خبره مع شبيب إلى الحجاج.

فخلا لهم الجو، وجاء مضاد إلى المدائن فعقد الجسر ونزل عتاب سوق حكم في خمسين ألفاً. وسار شبيب بأصحابه في ألف رجل، فصلى الظهر بساباط وأشرف على معسكر عتاب عند المغرب، وقد تخلف عنه أربعمائة من أصحابه، فصلى المغرب وعبى أصحابه ستمائة سويد بن سليم في مائتين في الميسرة، والمحفل بن وائل في مائتين في الميمنة، وهو في مائتين في القلب. وكان على ميمنة عتاب محمد بن عَبْد الرحمن بن سعيد، وعلى ميسرته نعيم بن عليم، وعلى الرجالة حنظلة بن الحرث اليربوعى وهو ابن عمه، وهم ثلاثة صفوف بين السيوف والرماح والرماة.

ثم حرض الناس طويلاً وجلس في القلب ومعه زهرة بن مرتد، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وأبو بكر بن محمد بن أبي جهم العدوي. وأقبل شبيب حين أضاء القمر بين العشاءين فحمل على الميسرة وفيها ربيعة فانفضوا وثبت قبيصة بن والق وعبيد بن الحليس ونعيم بن عليم على رايتهم حتى قتلوا. ثم حمل شبيب على عتاب بن ورقاء وحمل سويد بن سليم على محمد بن سليم في الميمنة في تميم وهمذان. واشتد القتال وخالط شبيب القلب، وانفضوا وتركوا عتاباً وفر ابن الأشعث في ناس كثيرين، وقتل عتاب بن ورقاء وركب زهرة

بن حوية فقاتل ساعة ثم طعنه عامر بن عمر الثعلبي من الخوارج، ووطأته الخيل فقتله الفضل بن عامر الشيباني منهم، ووقف عليه شبيب. وتوجع له ونكر الخوارج ذلك وقالوا أتتوجع لرجل كافر؟ فقال اعرف قديمه.

ثم رفع السيف عن الناس ودعا للبيعة فبايعوه وهربوا تحت ليلهم وحوى ما في العسكر، وأتاه أخوه من المدائن وأقام يومين. ثم سار نحو الكوفة، ولحق سفيان بن الأبرد وعسكر الشام بالحجاج، فاستغنى بهم عن أهل الكوفة واشتد بهم وخطب، فوبخ أهل الكوفة

وعجزهم. وجاء شبيب فنزل حمام أعين، فسرح الحجاج إليه الحرث بن معاوية الثقفي في نحو ألف من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب، فبادر إليه شبيب فقتله، وانهزم أصحابه إلى الكوفة وأخرج الحجّاج مواليه فأخذوا بأفواه السكك، وجاء شبيب فنزل السبخة ظاهر الكوفة، وبنى فيها مسجداً وسرح الحجاج مولاه أبا الورد في غلمان لقتاله، فحمل عليه شبيب وقتله يظنه الحجّاج. ثم أخرج إليه مولاه طهمان كذلك فقتله، فركب الحجاج في أهل الشام وجعل سبرة بن عَبْد الرحمن بن مخنف على أفواه السكك. وقعد على كرسيه ونادى في أهل الشام وحرضهم، فغضوا الأبصار وجثوا على الركب وشرعوا الرماح.

وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس معه ومع سويد بن سليم، ومع المحلل بن وائل. وحمل سويد وبيتوا وطاعنوه حتى انصرف. وقدم الحجّاج كرسيه وحمل المحلل ثانية فكذلك، وقدّم الحجاج كرسيه فثبتوا له وألحقوه بأصحابه وسرب شبيب سويد بن سليم

إلي أهل السكك، وكان عليها عروة بن المغيرة بن شعبة، فلم يطق دفاعه. ثم حمل شبيب فطاعنوه وردوه، وانتهى الحجّاج إلي مسجده وصعده وملك العرصة، وقال له خالد بن عتاب إئذن لي في قتالهم فإني موتور فأذن له فجاءهم من ورائهم وقتل أخا شبيب وغزالة إمرأته، وخرق عسكرهم وحمل الحجاج عليهم فانهزموا. وتخلف شبيب رداً لهم، فأمر الحجّاج أصحابه بموادعتهم ودخل الكوفة فخطب وبشر الناس.ثم سرح حبيب بن عَبْد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف فارس لاتباعه وحذّره بياته، فانتهى في أثره إلي الأنبار، وقد افترق عن شبيب كثير من أصحابه للأمان الذي نادى الحجّاج به، فجاءه شبيب عند الغروب وقد قسم حبيب جنده أرباعاً وتواصوا بالاستماتة، فقاتلهم شبيب طائفة بعد طائفة. فما زالت قدم إنسان عن موضعها إلي آخر الليل. ثم نزل شبيب وأصحابه واشتدّ القتال وكثر القتلى، وسقطت الأيدي وفقئت الأعين. وقتل من أصحاب شبيب نحو ثلاثين ومن أهل الشام نحو مائة. وأدركهم الإعياء والفشل جميعاً. فانصرف شبيب بأصحابه وقطع دجلة ومر في أرض خوخى. ثم قطع دجلة أخرى عند واسط ومضى على الأهواز وفارس إلي كرمان ليريح بها.

(وقد قيل) في هذه الحرب غير هذا، وهو أن الحجّاج بعث إليه أمراء واحداً بعد واحد فقتلهم، وكان منهم أعين صاحب حمام أعين، وكانت غزالة إمرأة شبيب نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين بالبقرة وآل عمران. فجاء لشبيب ودخل الكوفة ليلا

وأوفت بنذرها. ثم قاتلهم الناس وخرجوا. وقام الحجّاج في الناس يستشيرهم، وبرز إليه قتيبة وعذله في بعث الرعاع ينهزمون ويموت قائدهم، والرأي أن تخرج بنفسك فتحامله، فخرج من الغد إلي السبخة وبها شبيب، واختفى مكانه عن القوم ونصب أبا الورد مولاه تحت اللواء فحمل عليه شبيب فقتله. ثم حمل على خالد بن عتاب في الميسرة ثم على مطرف بن ناجية في الميمنة فكشفهما. ونزل عند ذلك لحجّاج وأصحابه، وجلس على عباءة ومعه عنبسة بن سعيد. وبينما هم على ذلك إذ اختلف الخوارج وقال مصقلة بن مهلهل الضبي لشبيب: ما تقول في صالح بن سرح؟ قال: برئت منه. فبريء مصقلة منه، وفارقه. وشعر الحجّاج باختلافهم فسرح خالد بن عتاب لقتالهم فقاتلهم في عسكرهم وقتل غزالة وبعث برأسها إلي الحجاج، فأمر شبيب من اعترضه فقتل حامله، وجاء به فغسله ودفنه. وانصرف الخوارج وتبعهم خالد. وقتل مضاد أخو شبيب، ورجع خالد عنهم بعد أن أبلى وسار شبيب إلي كرمان، وكتب الحجّاج إلي عَبْد الملك يستمدّه، فبعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبيّ في العساكر، فانفق فيهم المال وسرّحه بعد انصراف الخوارج بشهرين، وكتب إلي عامل البصرة، وهو الحكم بن أيوب زوج ابنته أن يبعث بأربعة آلاف فارس من جند البصرة إلي سفيان، فبعثهم مع زياد بن عمر العتكي فلحقه انقضاء الحرب.

وكان شبيب بعد أن استجم بكرمان أقبل راجعاً، فلقي سفيان بالأهواز فعبر إليه جسر دجيل، وزحف في ثلاثة كراديس فقاتلهم أشد قتال وحملوا عليهم أكثر من ثلاثين حملة، وسفيان وأهل الشام مستميتين يزحفون زحفاً حتى اضطّر الخوارج إلي الجسر، فنزل شبيب في مائة من أصحابه وقاتل إلي المساء، حتى إذا جاء الليل انصرف وجاء إلي الجسر فقدّم أصحابه وهو على أثرهم. فلما مر بالجسر اضطرب حجر تحت حافر فرسه وهو على حرف السفينة فسقط في الماء وغرق وهو يقول: وكان أمر الله مفعولا، ذلك تقدير العزيز العليم. وجاء صاحب الجسر إلي سفيان وهو يريد الإنصراف بأصحابه، فقال: إن رجلاً من الخوارج سقط، فتنادوا بينهم غرق أمير

المؤمنين ومرّوا وتركوا عسكرهم، فكبّر سُفيان وأصحابه وركب إلي الجسر وبعث إلي عسكرهم فحوى ما فيه، وكان كثير الخيرات ثم استخرجوا شبيباً من النهر ودفنوه.

خروج المطرف بن المغيرة بن شعبة:

لّما ولي الحجاج الكوفة وتدمها وجد بني المغيرة صلحاء أشرافاً، فاستعمل عروة على الكوفة ومطرفاً على المدائن، وحمزة على همذان، فكانوا أحسن العمال سيرة وأشدّهم على المريب. ولما جاء شبيب إلي المدائن نزل نهر شير، ومطّرف بمدينة الأبواب، فقطع مطّرف الجسر وبعث إلي شبيب أن يرسل إليه من يعرض عليه الدعوة، فبعث إليه رجلاً من أصحابه فقالوا: نحن ندعو إلي كتاب الله وسنة رسوله وإنا نقمنا على قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتبسط بالجزية فقال مطّرف دعوتم إلي حق جورا ظاهراً وأنا لكم متابع فبايعوني على قتال هؤلاء الظلمة بإحداثهم، وعلى الدعاء الى الكتاب والسنة وعلى الشورى كما تركها عمر بن الخطّاب حتى يولّي المسلمون من يرضونه، فإن العرب إذا علمت أن المراد بالشورى الرضا من قُرَيْش رضوا

فكثر مبايعكم، فقالوا: لا نجيبك إلي هذا! وأقاموا أربعة أيام يتناظرون في ذلك و لم يتفقوا وخرجوا من عنده، ثم دعا مطّرف أصحابه وأخبرهم بما دار بينه وبين أصحاب شبيب، وأنّ رأيه خلع عَبْد الملك والحجّاج فوجموا من قوله وأشاروا عليه بالكتمان فقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه: لن والله يخفى على ا الحجاج شيء مما وقع، ولو كنت في السحاب لاستزلك فالنجاء بنفسك، ووافقه أصحابه فسار عن المدائن إلي الجبال، ولما كان في بعض الطريق دعا أصحابه إلي الخلع والدعاء إلي الكتاب والسُنة، وأن يكون الأمر شورى فرجع عنه بعض إلي الحجّاج منهم سُبْرَة بن عَبْد الرحمن بن مخنف . وسار مطّرف ومرّ بحُلْوَان وبها سُوَيْد بن عَبْد الرحمن السعدي مع الأكراد فاعترضوه، فأوقع مطّرف بهم وأثخن في الأكراد ومال عن همذان ذات اليمين وبها أخوه حمزة واستمدّه بمال وسلاح فأمده سراً.وسار إلي قُم وقاشان فبعث عماله في نواحيه وفزع إليه من كل جانب، فجاءسويد بن سرحان الثقفي وبُكير بن هرون

النخعي من الري في نحو مائة رجل. وكان على الريّ عديّ بن زياد الأيادي، وعلى أصبهان البّراء بن قُبيصة فكتب إلي الحجّاج بالخبر، واستمدّه فأمدّه بالرجال وكتب إلي عديّ بالري أن يجتمع مع البّراء على حرب مطّرف، فاجتمعوا في ستة آلاف وعديّ أميرهم. وكتب الحجّاج إلي قيس بن سعد البجلي وهو على شرطة حمزة بهمذان، بأن يقبض على حمزة ويتولى مكانه، فجاءه في جمع من عجل وربيعة وأقرأه كتاب الحجّاج فقال: سمعاً وطاعة. وقبض قيس عليه وأودعه السجن. وسار عديّ والبّراء نحو مطّرف فقاتلوه، وانهزم أصحابه وقتل يزيد مولى أبيه. وكان صاحب الراية، وقتل من أصحابه عَبْد الرحمن بن عَبْد الله بن عفيف الأزدي وكان ناسكاً صالحاً، وكان الذي تولى قتل مطّرف عمر بن هبيرة الفزاريّ. وبعث عديّ أهل البلاء إلي الحجّاج وأمر بكير بن هرون وسويد بن سرحان، وكان الحجّاج يقول مطّرف ليس بولد للمغيرة وإنما هو ابن مصقلة الحر، لأن أكثر الخوارج كانوا من ربيعة و لم يكن فيهم من قيس.

اختلاف الازارقة:

قد تقدّم لنا مقام المهلب في قتال الأزارقة على سابور بعد مسير عتاب عنه إلي

الحجّاج، وأنه أقام في قتالهم سنة. وكانت كرمان لهم وفارس للمهلب فانقطع عنهم المدد وضاقت حالهم فتأخروا إلي كرمان، وتبعهم المهلّب ونزل خيررفت مدينة كرمان، وقاتلهم حتى أزالهم عنها. وبعث الحجّاج العمال على نواحيها وكتب إليه عَبْد الملك بتسويغ للمهلّب معونة له على الحرب، وبعث الحجّاج إلي المهلب البراء بن قبيصة يستحثه لقتال الخوارج، فسار وقاتلهم والبراء مشرف عليه من ربوة واشتد قتاله، وجاء البراء من الليل فتعجب لقتاله وانصرف إلي الحجّاج وأنهى غدر المهلّب، وقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء. ثم وقع الاختلاف بينهم فقيل في سببه إن المقعطر الضبي، وكان عاملاً لقطريّ على بعض نواحي كرمان قتل

بعض الخوارج، فطلبوا القود منه فمنعه قطري وقال: تأول فأخطأ، وهو من ذوي السابقة، فاختلفوا وقيل بل كان رجل في عسكرهم يصنع النصول مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب، فكتب المهلب كتاباً مع رجل

وامرأة أن يلتقيه في عسكرهم، وفيه وصلت نصالك وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما وقف على الكتاب سأل الصانع فأنكر فقتله، فأنكر عليه عَبْد ربه الكبير واختلفوا.(وقيل) بعث المهلّب نصرانياَ وأمره بالسجود لقطريّ، فقتله بعض الخوارج وولّوا عَبْد ربه الكبير وخلعوا قطرياً فبقي في نحو الخمسين منهم، وأقاموا يقتتلون شهراً، ثم لحق قطريّ بطبرستان وأقام عَبْد ربه بكرمان، وقاتلهم المهلّب وحاصرهم بخيرفت. ولما طال عليهم الحصار خرجوا بأموالهم وحريمهم وهو يقاتلهم حتى أثخن فيهم. ثم دخل خيرفت وسار في اتباعهم فلحقهم على أربعة فراسخ، فقاتلهم هو وأصحابه حتى أعيوا وكفّ عنهم. ثم استمات الخوارج ورجعوا فقاتلوه حتى يئس من نفسه. ثم نصره الله عليهم وهزمهم وقتل منهم نحواً من أربعة آلاف كان منهم عَبْد ربه الكبير، ولم ينج منهم إلا القليل.وبعث المهلّب المبشر إلي الحجّاج فأخبره وسأله عن بني المهلب فأثنى عليهم واحداً واحداً. قال فأيهم كان أنجد؟ قال كانوا كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفها. فاستحسن قوله وكتب إلي المهلّب يشكره ويأمره أن يولّي على كرمان من يراه ويترل حامية ويقدّم عليه، فولى عليها إبنه يزيد، وقدم على الحجّاج فاحتفل لقدومه وأجلسه إلي جانبه وقال: يا أهل العراق أنتم عبيد المهلّب! وسرحّ سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش عظيم نحو طبرستان لطلب قطريّ وعبيدة بن هلال ومن معهم من الخوارج. والتقوا هنالك بإسحق بن محمد بن الأشعث في أهل الكوفة، واجتمعا على طلبهم، فلقوهم في شعب من شعاب طبرستان وقاتلوهم فافترقوا عن قطريّ ووقع عن دابته فتدهده إلي أسفل الشعب، ومرّ به علج فاستقاه على أن يعطيه سلاحه. فعمد إلي أعلى الشعب وحدّر عليه حجراً من فوق الشعب فأصابه في رأسه فأوهنه، ونادى بالناس فجاء في أوّلهم نفر من أهل الكوفة فقتلوه منهم سورة بن أبجر التميمي وجعفر بن عَبْد الرحمن بن مخنف والسياح بن محمد بن الأشعث، وحمل رأسه أبو الجهم إلي

إسحق بن محمد، فبعث به إلي الحجّاج، وبعثه الحجاج إلي عَبْد الملك.وركب سفيان فأحاط بالخوارج وحاصرهم حتى أكلوا دوابهم، ثم خرجوا إليه واستماتوا فقتلهم أجمعين، وبعث برؤوسهم إلي الحجّاج ودخل دنباوند وطبرستان، فكان هناك حتى عزله الحجّاج قبل دير الجماجم قال بعض العلماء: وانقرضت الأزارقة بعد قطريّ وعُبيدة آخر رؤسائهم وأوّل رؤسائهم نافع بن الأزرق، واتصل أمرهم بضعاً وعشرين سنة إلي أن افترقوا كما ذكرناه سنة سبع وسبعين فلم تظهر لهم جماعة إلي رأس المائة.

خروج شوذب:

خرج شودب هذا أيام عمر بن عَبْد العزيز على رأس المائة، واسمه بسطام وهو من بني يشكر. فخرج في مائتي رجل وسار في خوخى، وعامل الكوفة يومئذ عَبْد الحميد بن عَبْد الرحمن بن زيد بن الخطّاب. فكتب إليه عمر أن لا يعرض لهم حتى يقتلوا أو يفسدوا فيوجه إليهم الجند مع صليب حازم، فبعث عَبْد الحميد بن جرير بن عَبْد الله البجلي في ألفين فأقام بإزائه لا يحرّكه. وكتب عمر إلي شودب: بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله، وكنت أولى بذلك مني، فهلم إليّ أناظرك فإن كان الحق معنا دخلت مع الناس، وإن كان الحق معك نظرنا في أمرك. فبعث إليه عاصماً الحبشي مولى بني شيبان ورجلاً من بني يشكر فقدما عليه بخاصر فسألهما:

ما أخرجكم وما الذي نقمتم؟ فقال عاصم ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر مشورة من الناس أم غلبت عليه؟ قال عمر: ما سألته ولا غلبت عليه. وعهد إليّ رجل قبلي فقمت ولم ينكر أحد، ومذهبكم الرضا لكل من عدل، وإن أنا خالفت الحق فلا طاعة لي عليكم. قالا: فقد خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم، فتبرأ منهم والعنهم. فقال عمر: أنتم تريدون الآخرة وقد أخطأتم طريقها، وإن الله لم يشرع اللعن. وقد قال إبراهيم: ومن عصاني فإنك غفور رحيم. وقال : أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. وبقي تسمية أعمالهم مظالم ذماً، ولو كان لعن أهل الذنوب فريضة لوجب عليكم لعن فرعون، أنتم لا تلعنونه وهو أخبث

الخلق، فكيف ألعن أنا أهل بيتي وهم مصلّون صائمون ولم يكفروا بظلمهم! لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلي الإيمان والشريعة، فمن عمل بها قبل منه، ومن أحدث حدثاً فرض عليه الحدّ. فقالا: فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلي التوحيد والإقرار بما نزل عليه. فقال عمر:وليس أحد ينكر ما نزل عليه ولا يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن القوم أسرفوا على أنفسهم. قال عاصم: فابرأ منهم ورد أحكامهم. قال عمر: أتعلمان أن أبا بكر سبى أهل الردة وأن عمر ردها بالفدية ولم يبرأ من أبي بكر، وأنتم لا تبرؤون من واحد منهما قال: فأهل النهروان خرج أهل الكوفة منهم فلم يقتتلوا ولا استعرضوا، وخرج أهل البصرة فقتلوا عَبْد الذ بن خباب وجارية حاملاً، ولم يتبرأ من لم يقتل ممن قتل واستعرض، ولا أنتم تتبرؤون من واحد منهما، وكيف ينفعكم ذلك مع علمكم باختلاف أعمالكم ؟ ولا يسعني أنا البراءة من أهل بيتي والدين واحد. فاتقوا الله ولا تقبلوا المردود وتردوا المقبول، وقد أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد شهادة الإِسلام وعصم ماله ودمه، وأنتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر الأديان وتحرمون دماءهم وأموالهم.فقال اليشكري: من استأمن على قوم وأموالهم فعدل فيها ثم صيّرها بعده إلي رجل غير مأمون، أتراه أدّى الحق الذي لزمه؟ فكيف تسلم هذا الأمر بعدك إلي يزيد مع علمك أنه لا يعدل فيه؟ فقال: إنما ولاّه غيري والمسلمون أولى بذلك بعدي. قال: فهو حق ممن فعله وولاّه، قال أنظراني ثلاثاً. ثم جاءه عاصم فرجع عن رأي الخوارج، وقال له اليشكري: أعرض عليهم ما قلت واسمع حجتهم. وأقام عاصم عند عمرو، وأمر له بالعطاء، وتوفي عمر لأيام قلائل ومحمد بن جرير ينتظر عود الرسل. ولما مات عمر كتب عَبْد الحميد إلي محمد بن جرير بمناجزة شوذب قبل أن يصل إليهم خبرعمر، فمالت الخوارج: ما خالف هؤلاء ميعادهم إلاّ وقد مات الرجل الصالح. واقتتلوا فانهزم حمد بن جرير واتبعه الخوارج إلي الكوفة، ورجعوا وقدم على شودب صاحباه وأخبراه بموت عمر، وسرّح يزيد تميم بن الحباب في ألفين فهزمه أصحابه، ثم بعث إليهم الشجاع بن وادع في ألفين فقتلوه وهزموه بعد أن قتل منهم هدبة ابن عم شودب، وبقي الخوارج بمكانهم. وجاء مسلمة إلي الكوفة فأرسل سعيد بن عمرو

الحريشي في عسكر آلاف، فاستماتت الخوارج وكشفوا العساكر مراراً ثم حملوا عليهم فطحنوهم طحناً.وقتل شودب وأصحابه ولم يبق منهم أحد، وضعف أمر الخوارج على ظهور أيام هشام سنة عشرين ومائة بهلول

بن بشر بن شيبان وبلغت كنارة. وكان لمّا عزم على الخوارج حج ولقي بمكة من كان على رأيه، فأبعدوا إلي قرية من قرى الموصل واجتمعوا بها وهم أربعون وأمروا عليهم البهلول وأخفوا أنفسهم بأنهم قدموا من عند هشام. ومرّوا بقرية كان بهلول ابتاع منها خلاًّ فوجده خمراً وأبى البائع من رده، واستعدى عليه عامل القرية، فقال: الخمر خير منك ومن قومك، فقتلوه وأظهروا أمرهم، وقصدوا خالد القسري بواسط، وتعللوا عليه بأنه يهدم المساجد ويبني الكنائس ويولّي المجرّد على المسلمين.وجاء الخبر إلي خالد فتوجه من واسط إلي الحيرة وكان بها جند من بني العين نحو ستمائة بعثوا مدداً لعامل الهند، فبعثهم خالد مع مقدمهم لقتال بهلول وأصحابه، وضمّ إليهم مائتين من الشرط والتقوا على الفرات، فقتل مقدمهم وانهزموا إلي الكوفة. وبعث خالد عابداً الشيباني من بني حوشب بن يزيد بن رويم فلقيه بين الموصل والكوفة، فهزمهم إلي الكوفة وارتحل يريد الموصل، ثم بدا له وسار يريد هشاماً بالشام، وبعث خالد جنداً من العراق وعامل الجزيرة جنداً وبعث هشام جنداً فاجتمعوا بين الجزيرة والموصل بكحيل وهم في عشرين ألفاً وبهلول في سبعين، فقاتلوا واستماتوا وصرع بهلول. وسأله أصحابه العهد فعهد إلي دعامة الشيباني ثم إلي عمر اليشكري من بعده. ومات بهلول من ليلته وهرب دعامة وتركهم، ثم خرج عمر اليشكري فلم يلبث أن قتل.(ثم خرج) على خالد بعد ذلك بسنتين الغفري صاحب الأشهب، وبهذا كان يعرف، فبعث إليه السمط بن مسلم البجلي في أربعة آلاف، فالتقوا بناحية الفرات فانهزمت الخوارج، ولقيهم عبيد أهل الكوفة وغوغاؤهم فرموهم بالحجارة حتى قتلوهم.ثم خرج وزير السختياني على خالد بالحيرة فقتل وأحرق القرى، فوجّه إليه خالد جنداً فقتلوا أصحابه وأثخن بالجراح، وأتى به خالد فوعظه فأعجبه وعظه فأعفاه من القتل. وكان يسامره بالليل وسعى بخالد إلي هشام، وأنه أخذ حرورياً يستحق القتل فجعله سميراً، فكتب إليه

هشام بقتله فقتله.ثم خرج بعد ذلك الصحارى بن شبيب الفريفية فمضى وندم خالد فطلبه فلم يرجع، وأتى جبل وبها نفر من اللاّت بن ثعلبة فأخبرهم وقال: إنما أردت التوصل إليه لأقتله بفلان من قعدة الصفرية كان خالد قتله صبراً. ثم خرج معه ثلاثون منهم فوجه إليهم خالد جنداً فلقوهم بناحية المناذر فاقتتلوا فقتل الصحارى وأصحابه أجمعون.وردّ أمر الخوارج بعد ذلك مرّة فلما وقعت الفتن أيام هشام بالعراق والشام وشغل مروان بمن انتقض عليه فخرج بأرض كفريموتا سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة وكان على رأي الحرورية، وخرج بسطام البهسي في مثل عدّهم من ربيعة، وكان مخالفاً لرأيه، فبعث إليه سعيد بن بهدل قائده الخبيري في مائة وخمسين فبيت كم وقتل بسطاماً ومن معه، ولم ينج منهم إلا أربعة عشر رجلا. ثم مضى سعيد بن بهدل نحو العراق فمات هنالك، واستخلف الضحاك بن قيس الشيباني فبايعه السراة وأتى أرض الموصل وشهرزور.فبعث إليه من الصغرية أربعة آلاف أو يزيدون.

وولى مروان على العراق النضر بن سعيد الحريشي وعزل به عَبْد الله بن عمر بن عَبْد العزيز، فامتنع عَبْد الله بالحيرة، وسار إليه النضر وتحاربا أشهراً. وكانت الصغرية مع النضر عصبة لمروان لطلبه بدم الوليد وأمه قيسية. وكانت اليمنية مع ابن عمر عصبية لدخولهم في قتل الوليد بما فعله مع خالد القسري، فلما علم الضحاك

والخوارج باختلافهم، أقبل إلي العراق سنة سبع وعشرين وزحف إليهم فتراسل ابن عمر والنضر وتعاقدا واجتمعا لقتاله بالكوفة، وكل واحد منهما يصلي بأصحابه وابن عمر أمير على الناس وجاء الخوارج فقاتلوهم فهزموهم الى خندقهم ثم قاتلوهم في اليوم الثاني كذلك فسلك الناس إلى واسط منهم النضر نب سعيد الحريشي ومنصور ابن جمهور وإسماعيل أخو خالد القسري وغيرهم من الوجوه.فلحق ابن عمر بواسط ، واستولى الضحّاك على الكوفة، وعادت الحرب بين ابن عمر والنضر. ثم زحف إليهما الضحّاك فاتفقا وقاتلا حتى ضرستهما الحرب، ولحق منصور بن جمهور بالضحّاك والخوارج وبايعهم ثم صالحهم ابن عمر ليشغلوا مروان عنه، وخرج إليهم وصلّى خلف الضحّاك وبايعه وكان معه سليمان بن هشام وصل إليه هارباً من حمص لّما انتقض بها وعليه... عليها مروان فلحق بابن عمر وبايع معه الضحّاك وصار معه وحرّضه على مروان... انما لحق بالضحّاك وهو يحاصر نضيراً وتزوج أخت شيبان الحروري. فرجع الضحّاك إلي الكوفة وسار منها إلي الموصل بعد عشرين شهراً من حصار واسط، بعد أن دخل أهل الموصل وعليهم القطرن أم أكمه من بني شيبان عامل لمروان فأدخلهم أهل البلد وقاتلهم القطرن فقتل ومن معه وبلغ الخبر إلي مروان وهو يحاصر حمص فكتب إلي ابنه عَبْد الله أن يسير إلي... يمانع الضحّاك عن توسط الجزيرة فسار في ثمانية آلاف فارس

والضحاك في مائة ألف وحاصره بنصيبين. ثم سار مروان بن محمد إليه فالتقيا عند كفريموتا من نواحي ماردين فقاتله عامة يومه إلي الليل وترجّل الضحّاك في نحو ستة آلاف وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم وعثر على الضحّاك في القتلى فبعث مروان برأسه إلي الجزيرة وأصبح الخوارج فبايعوا الخبيري قائد الضحّاك، وعاودوا الحرب مع مروان فهزموه وانتهوا إلي خيامه فقطعوا أطنابهم وجلس الخبيري على فرشه والجانحان ثابتان، وعلى الميمنة عَبْد الله بن مروان وعلى الميسرة إسحق بن مسلم العقيلى فلما انكشفت قلّة الخوارج أحاطوا بهم في مخيم مروان فقتلوهم جميعاً والخبيري معهم ورجع مروان من نحو ستة أميال .

وانصرف الخوارج وبايعوا شيبان الحروري وهو شيبان بن عَبْد العزيز اليشكري ويكنى أبا الدلقاء. وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ وأقام في قتالهم أياماً، وانصرف عن شيبان كثير منهم وارتحلوا إلي الموصل بإشارة سليمان بن هشام وعسكروا شرقي دجلة، وعقدوا الجسور، واتبعهم مروان فقاتلهم لتسعة أشهر، وقتل من الطائفتين خلق كثير. وأسر ابن أخ لسليمان بن هشام إسمه أُمَيَّة بن معاوية فقطعه ثم ضرب عنقه. وكتب مروان إلي يزيد بن عمر بن هبيرة وهو بقرقيسيا يأمره بالسير إلي العراق وولاّه عليها، وعلى الكوفة يومئذ المثنى بن عمران العائذي من قُرَيْش خليفةً للخوارج، فلقي ابن هبيرة بعين التمر، فاقتتلوا وانهزمت الخوارج. ثم تجمّعوا له بالنخيلة ظاهر الكوفة فهزمهم، ثم تجمعوا بالبصرة فأرسل شيبان إليهم عبيدة بن سوار في خيل عظيمة فهزمهم ابن هبيرة، وقتل عبيدة واستباح عسكرهم، واستولى على العراق.وكان منصور بن جمهور مع الخوارج فمضى إلي الماهين وغلب عليها وعلى الخيل جميعاً، وسار ابن

هبيرة إلي واسط فحبس ابن عمر، وكان سليمان بن حبيب عامل ابن عمر على الأهواز، فبعث ابن هبيرة إليه نباتة بن حنظلة، وبعث هو داود بن حاتم والتقيا على دجلة

فانهزم داود وقتل. وكتب مروان إلي ابن هبيرة أن يبعث إليه عامر بن ضبابة المزنيّ فبعثه في ثمانية آلاف وبعث شيبان لاعتراضه الجون بن كلاب الخارجي في جمع فانهزم عامر وتحصّن بالسند، وجعل مروان يمدّه بالجنود، وكان منصور بن جمهور بالجبل يمدّ شيبان بالأموال. ثم كثرت جموع عامر فخرج الى الجون والخوارج الذين يحاصرونه فهزمهم وقتل الجون وسار قاصداً الخوارج بالموصل، فارتحل شيبان عنها وقدم عامر على مروان فبعثه في اتباع شيبان، فمرّ على الجبل وخرج على بيضاء

فارس، وبها يومئذ عامر بن عَبْد اللہ بن حطوبة بن جعفر في جموع كثيرة، فسار ابن معاوية إلي كرمان وقاتله عامر فهزمه ولحق بهراة، وسار عامر بمن معه فلقي شيبان والخوارج بخيرفت فهزمهم واستباح عسكرهم، ومضى شيبان إلي سجستان فهلك بها سنة ثلاثين ومائة. وقيل بل كان قتال مروان وشيبان على الموصل شهراً. ثم انهزم شيبان ولحق بفارس وعامر بن صراة في أتباعه، ثم سار شيبان إلي جزيرة ابن كاوان وأقام بها. ولما ولي السفاح بعث حارثة بن خزيمة لحرب الخوارج هنالك لموجدة وجدها عليه، فأشير عليه ببعثه لذلك. فسار في عسكر إلي البصرة وركب السفن إلي جزيرة ابن كاوان، وبعث فضالة بن نعيم النهيلي في خمسمائة، فانهزم شيبان إلي عمان وقاتل هناك، وقتله جلندي بن مسعود بن جعفر بن جلندي ومن معه سنة أربع وثلاثين. وركب سليمان بن هشام السفن بأهله ومواليه إلي الهند بعد مسير شيبان إلي جزيرة ابن كاوان، حتى إذا بويع السفاح قدم عليه وأنشده سديف البيتين المعروفين وهما :

لا يغرنك ما ترى من رجال   إن بين الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع الصوت حتى   لا ترى فوق ظهرها أُمويا

فقتله السفاح وانصرف مروان بعد مسير شيبان إلي الموصل إلي منزله بحران، فلم يزل بها حتى سار إلي الزاب. ومضى شيبان بعد سلمة إلي خراسان والفتنة بها يومئذ بين نصر بن سيار والكرماني والحرث بن شريح، وقد ظهر أبو مسلم بالدعوة العباسية فكان له من الحوادث معهم ما ذكرناه، واجتمع مع علي بن الكرماني على قتال نصر سن سيار. فلما صالح الكرماني أبا مسلم كما مرّ وفارق شيبان تنحى شيبان عن عمر لعلمه أنه لا يقاومه، ثم هرب نصر بن سيار إلي سرخس، واستقام أمر أبي مسلم بخراسان فأرسل إلي شيبان يدعوه إلي البيعة ويأذنه بالحرب، واستجاش بالكرماني فأبى. فسار إلي سرخس واجتمع إليه الكثير من بكر بن وائل، وأرسل إليه أبو مسلم في الموادعة، فحبس الرسل، فكتب أبو مسلم إلي بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بالمسير إلي شيبان

فسار إليه فهزمه وقتل في عدة من بكر بن وائل. ويقال إن خزيمة بن حازم حضر مع بسام في ذلك.

خبر أبي حمزة وطالب وأسحق:

كان إسم أبي حمزة الخارجي المختار بن عوف الأزدي البصري وكان من الخوارج الإباضية، وكان يوافي مكة كل موسم يدعو إلي خلاف مروان، وجاء عَبْد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق سنة ثمان وعشرين وهو من حضرموت فقال له: إنطلق معي فإني مطاع في قومي. فانطلق معه إلي حضرموت وبايعه على الخلافة. وبعثه عَبْد الله سنة تسع وعشرين مع بلخ بن عقبة الأزدي في سبعمائة فقدموا مكة وحكموا بالموقف، وعامل المدينة يومئذ عَبْد الواحد بن سليمان بن عَبْد الملك، فطلبهم في الموادعة حتى ينقضي الموسم.وأقام للناس حجّهم ونزل بمنى، وبعث إلي أبي حمزة عبيد الله بن حسن بن الحسن، ومحمد بن عَبْد الله بن عمر بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد، وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن ربيعة بن أبي عَبْد الرحمن في أمثالهم. فكشر في وجه العلوي والعثماني وانبسط إلي البكري والعمري وقال لهما: ما خرجنا إلا بسيرة أبويكما! فقال له عبيد الله بن حسن: ما جئنا للتفضيل بين آبائنا، وإنما جئنا برسالة من الأمير وربيعة يخبرك بها.ثم أحكموا معه الموادعة إلي مدتها. ونفر عَبْد الواحد في النفر الأول فمضى إلي المدينة وضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة وبعث عليهم عَبْد العزيز بن عَبْد الله بن عمر بن عثمان، فانتهوا إلي فديك. وجاءتهم رسل أبي حمزة يسألونهم التجافي عن حربهم، وأن يخلوا بينهم وبين عدوهم. فلما نزلوا قديد وكانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب، فطلع عليهم أصحاب أبي حمزة من الغياض فأثخنوا فيهم، وكان قتلاهم نحو سبعمائة من قُرَيْش. وبلغ الخبر إلي عَبْد الواحد فلحق بالشام. ودخل أبو حمزة المدينة منتصف صفر سنة ثلاثين وخطب على المنبر وأعلن بدعوته ووعظ، وذكر وردّ مقالات من عليهم وسفه رأيهم وأحسن السيرة في أهل المدينة واستمالهم حتى سمعوه

يقول: من زنا فهو كافر ومن سرق فهو كافر، وأقام ثلاثة أشهر، ثم ودّعهم وسار نحو الشام.وكان مروان قد سرح إليهم عَبْد الملك بن محمد بن عطية بن هَوازِن في أربعة آلاف ليقاتل الخوارج حتى يبلغ اليمن، فلقي أبا حمزة في وادي القرى، فانهزمت الخوارج وقتل أبو حمزة ولحق فلهم بالمدينة. وسار عطية في أثرهم إلي المدينة فأقام بها شهراً، ثم سار إلي اليمن، واستخلف على المدينة الوليد ابن أخيه عروة، وعلى مكة رجلاً من أهل الشام. وبلغ عَبْد الله طالب الحق مسيره إليه وهو بصنعاء فخرج للقائه، واقتتلوا، وقتل طالب الحق، وسار ابن عطية إلي صنعاء وملكها. وجاء كتاب مروان بإقامة الحج بالناس، فسار في إثني عشر رجلاً ومعه أربعون ألف دينار وخلف ثقله بصنعاء، ونزل الحرف فاعترضه ابن حماية المرادي في جمع، وقال له ولأصحابه: أنتم لصوص فاستظهروا بعهد مروان فكذبوه، وقاتلهم فقتلوه. وركد ريح الخوارج من يومئذ إلي أن ظهرت الدولة العباسية وبويع المنصور بعد السفّاح.(فخرج سنة سبع وثلاثين) بالجزيرة ملبد بن حرملة الشيباني فسارت إليه روابط الجزيرة في ألف فارس فهزمهم وقاد منهم. ثم سار إليه يزيد بن حاتم المهلبي ومهلل بن صَفْوان مولى المنصور، ثم نزار من قواد خراسان، ثم زياد بن مسكان ثم صالح بن صبيح فهزمهم كلهم واحداً بعد واحد، وقتل منهم. ثم سار إليه حميد بن قحطبة وهو عامل الجزيرة فهزمه وتحصن حميد منه، فبعث المنصور عَبْد العزيز بن عَبْد الرحمن أخا عَبْد الجبار في الجيوش، ومعه زياد بن مسكان فأكمن له الملبد، وقاتلهم تم خرج الكعبين فانهزم

عَبْد العزيز وقتل عامّة أصحابه، فبعث المنصور حازم بن خزيمة في ثمانية آلاف من أهل خراسان فسار إلي الموصل وعبر إليه الملبد دجلة فقاتله فانهزم أهل الميمنة وأهل الميسرة من أصحاب حازم، وترجل حازم وأصحابه، وترجل ملبد كذلك.وأمر حازم أصحابه فنضحوهم بالنبل، واشتد القتال وتزاحفت الميمنة والميسرة ورشقوهم، فقتل ملبد في ثمانمائة ممن ترجل معه، وثلثمائة قبل أن يترجل. وتبعهم فضالة صاحب الميمنة فقتل منهم زهاء مائة وخمسين. ثم خرج سنة ثمان وأربعين أيام المنصور بنواحي الموصل حسان بن مخالد بن مالك بن الأجدع

الهمداني أخو مسروق. وكان على الموصل الصفر بن يجدة وليها بعد حرب ابن عَبْد الله فسار إليهم فهزموه إلي الدجلة. وسار حسان إلي العمال ثم إلي البحر، وركب إلي السند وقاتل، وكاتب الخوارج بعمان يدعوهم ويستأذنهم في اللحاق بهم فأبوا، وعاد إلي الموصل فخرج إليه الصفر بن الحسن بن صالح بن جنادة الهمذاني وهلال، فقتل هلالاً واستبقى ابن الحسن، فاتهمه بعض أصحابه بالعصبية وفارقوه. وقد كان حسان أمه من الخوارج وخاله حفص بن أشتم من فقهائهم. ولما بلغ المنصور خروجه قال: خارجي من همذان فقيل له إنه ابن اخت حفض بن أشتم، قال: من هناك وإنما أنكر المنصور ذلك لأن عامة همذان شيعة.وعزم المنصور على الفتك بأهل الموصل، فإنهم عاهدوه على أنهم إن خرجوا فقد فلت ديارهم وأموالهم، وأحضر أبا حنيفة وابن أبي ليلى بن شبرمة واستفتاهم فتلطفوا له في العفو، فأشار إلي أبي حنيفة فقال: أباحوا ما لا يملكون كما لو أباحت إمرأة، فزوّجها بغير عقد شرعيّ، فكف عن أهل الموصل.ثم خرج ايام المهدي بخراسان يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرة واجتمع شركس، فبعث إليه المهدي يزيد بن مزيد الشيباني ابن أخي معن فاقتتلوا قتالاً شديداً وأسره يزيد وبعث به إلي المهدي موثقاً، وحمل من النهروان على بعير وحوّل وجهه إلي ذنبه كذلك، فدخلوا إلي الرصافة وقطعوا ثم صلبوا.وكان حروباً متعوداً فغلب على بوشنج ومرو الروذ والطالقان والجوزجان، وكان على بوشنج مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين فهرب منه وكان من أصحابه معاذ الفارياني وقبض معه. ثم خرج معه أيام المهدي بالجزيرة حمزة بن مالك الخزاعي سنة تسع وستين وهزم منصور بن زياد وصاحب الخراج وقوي أمره، ثم اغتاله بعض أصحابه فقتله.ثم خرج آخر أيام المهدي بأرض الموصل خارجي من بني تميم إسمه ياسين يميل إلي مقاتلة صالح بن مسرح، فهزم عسكر الموصل وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة، فبعث إليها المهدي القائد أبا هريرة محمد بن مروخ وهزيمة بن أعين مولى بني ضبة فحارباه حتى قتل في عدة من أصحابه وانهزم الباقون. ثم خرج بالجزيرة أيام الرشيد سنة ثمان وسبعين الوليد بن طريف من بني مغلب، وقتل إبراهيم بن خالد بن خزيمة بنصيبين، ثم دخل أرمينية وحاصر- خلاط عشرين يوماً وافتدوا بثلاثين

ألفاً. ثم سار إلي أذربيجان ثم إلي حُلوان وأرض السواد، وعبر إلي غرب دجلة وعاث في أرض الجزيرة، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، وهو ابن أخي معن في العساكر فمكث يقاتله، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد فاغروا به الرشيد وأنه أبقى على الوليد برجم وائل. فكتب إليه الرشيد يتهدده فناجزه يزيد

الحرب في رمضان سنة تسع وسبعين وقاتلهم قتالاً شديداً، فقتل الوليد وجيء برأسه. ثم أصبحت اخته مستلئمة للحرب فخرج إليها يزيد وضربها على رأسها بالرمح وقال لها: أعدي فقد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت وهي تقول في رثائه الأبيات المشهورة الي منها:

أيا شجرالخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

وانقرضت كلمة هؤلاء بالعراق والشام، فلم يخرج بعد ذلك إلا شُذاذ متفرقون يستلحمهم الولاة بالنواحي، إلا ما كان من خوارج البربر بأفريقية، فإن دعوة الخارجية فشت فيهم من لدن مسيرة الظفري سنة ثلاث وعشرين ومائة. ثم فشت دعوة الإباضية والصفرية منهم في قوارة ولماية ونفزة ومغيلة وفي مغراوة وبني يفرن من زناتة حسبما بذكر في أخبار البربر، لسي رستم من الخوارج بالمغرب دولة في تاهرت من الغرب الأوسط نذكرها في أخبار البربر أيضاً. ثم سار بإفريقية منهم على دولة العبيديين خلفاء القيروان أبو يزيد بن مخلد المغربي، وكانت له معهم حروب وأخبار نذكرها فى موضعها. ثم لم يزل أمرهم في تناقص إلي أن اضمحلت ديانتهم وافترقت جماعتهم، وبقيت آثار نحلتهم في أعقاب البربر الذين دانوا بها أول الأمر. ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد في قصور ربع وواديه، وفي مغراوة من شعوب زناتة يسمون الراهبية نسبة إلي عَبْد الله بن وهب الراهبي. أول من بويع منهم أيام علي بن أبي طالب. وهم في قصور هنالك مظهرين لبدعتهم لبعدهم عن مقال أهل السنة والجماعة، وكذلك في جبال طرابلس، وزناتة أثر باق من تلك النحلة يدين بها أولئك البربر في المجاورة لهم مثل ذلك. وتطير إلينا هذا العهد من تلك البلاد دواوين ومجلدات من كلامهم في فقه الدين، وتمهيد عقائده، وفروعه مباينة لمناحي السنة وطرقها بالكلية، إلا أنها ضاربة بسهم في إجادة التأليف والترتيب،

وبناء الفروع على أصولهم الفاسدة.وكان بنواحى البحرين وعمان إلي بلاد حضرموت وشرقي اليمن ونواحي الموصل آثار تفشي وعروق في كل دولة، إلي أن خرج علي بن مهدي من خولان باليمن ودعا إلي هذه النحلة. وغلب يومئذ من كان من الملوك باليمن، واستلحم بنى الصليحي القائمين بدعوة العبيديين من الشيعة وغلبوهم على ما كان بأيديهم من ممالك اليمن، واستولوا أيضاً على زبيد ونواحيها من يد موالي بني نجاح ومولى ابن زياد كما نذكر ذلك كله في أخبارهم إن شاء الله سبحانه وتعالى. فلتصفح في أماكنها. ويقال: إن باليمن لهذا العهد شيعة من هذه الدعوة ببلاد حضرموت، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

الدولة الإِسلامية بعد افتراق الخلافة:

لم يزل أمر الإِسلام جميعاً دولة واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبني أُمَيَّة من بعدهم لاجتماع عصبية العرب. ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة، وهم الدعاة لأهل البيت، فغلب دعاة بني العباس على الأمر واستقلوا بخلافة الملك، ولحق الفل من بني أُمَيَّة بالأندلس، فقام بأمرهم فيها من كان هنالك من مواليهم، ومن هرب، فلم يدخلوا في دعوة بني العباس، وانقسمت لذلك دولة الإِسلام بدولتين لافتراق عصبية العرب. ثم ظهر دعاة أهل

البيت بالمغرب والعراق من العلوية ونازعوا خلفاء بني العباس واستولوا على القاصبة من النواحي كالأدارسة بالمغرب الأقصى، والعبيديين بالقيروان ومصر، والقرامطة بالبحرين، والدواعي بطبرستان والديلم والأطروش فيها من بعده. وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة نذكرها واحدة بعد واحدة. ونبدأ منها أولاً بذكر الشيعة ومباديء دولهم، وكيف انساقت إلي العباسية، ومن بعدهم إلي آخر دولهم. ثم نرجع إلي دولة بني أُمَيَّة بالأندلس. ثم نرجع إلي دولة الدعاة للدولة العباسية في النواحي من العرب والعجم كما ذكرناه في برنامج الكتاب، والله الموفق للصواب.

مبدأ دولة الشيعة

(أعلم) أن مبدأ هذه الدولة أن أهل البيت لّما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، وأن الخلافة لرجالهم دون من سواهم من قُرَيْش. وفي الصحيح أن العباس قال لعلي في وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه: اذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي: إن منعناها لا يعطيناها الناس بعده. وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي توفي فيه: هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فاختلفوا عنده في ذلك وتنازعوا ولم يتم الكتاب. وكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى اللهعليه وسلم وبين ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم، حتى لقد ذهب كثير من الشيعة إلي أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى في مرضه ذلك لعلي، ولم يصح ذلك من وجه يعول عليه. وقد أنكرت هذه الوصية عائشة وكفى بإنكارها. وبقي ذلك معروفاً من أهل البيت وأشياعهم.وفيما نقله أهل الآثار، أن عمر قال يوماً لابن العباس: إن قومكم يعني قريشاً ما

أرادوا أن يجمعوا لكم، يعني بني هاشم، بين النبوَّة والخلافة فتحموا عليهم، وأن ابن عباس نكر ذلك، وطلب من عمر إذنه في الكلام فتكلم بما عصب له. وظهر من محاورتهما أنهم كانوا يعلمون أن في نفوس أهل البيت شيئاً من أمر الخلافة والعدول عنهم بها. وفي قصة الشورى: أن جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي ويرون استحقاقه على غيره، ولما عدل به إلي سواه تأففوا من ذلك وأسفوا له: مثل الزبير ومعه عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم. إلا أن القوم لرسوخ قدمهم في الدين، وحرصهم على الإلفة، لم يزيدوا في ذلك على النجوى بالتأفف والأسف.

ثم لّما فشا التكبر على عثمان، والطعن في الآفاق، كان عَبْد الله بن سبأ ويعرف بابن السوداء، من أشد الناس خوضاً في الشيع لعلي بما لا يرضاه من الطعن على عثمان وعلى الجماعة في العدول إليه عن عليّ، وأنه وليّ بغير حق، فأخرجه عَبْد الله بن عامر من البصرة، ولحق بمصر. فاجتمع إليه جماعة من أمثاله جنحوا إلي الغلوّ في ذلك، وانتحال المذاهب الفاسدة فيه، مثل خالد بن ملجم وسوزان بن حمدان وكنانة بن بشر وغيرهم.ثم كانت بيعة عليّ وفتنة الجمل وصفين، وانحراف الخوارج عنه بما أنكروا عليه من التحكيم في الدين. وتمحضت شيعته للاستماتة معه في حرب معاوية مع عليّ، وبويع إبنه الحسن وخرج عن الأمر لمعاوية، فسخط ذلك

شيعة علي منه، وأقاموا يتناجون في السر باستحقاق أهل البيت والميل إليهم، وسخطوا من الحسن ما كان منه، وكتبوا إلي الحسين بالدعاء له فامتنع، وأوعدهم

إلي هلاك معاوية. فساروا إلي محمد بن الحنفية وبايعوه في السر على طلب الخلافة متى أمكنه، وولّى على كل بلد رجلاً، وأقاموا على ذلك ومعاوية يكف بسياسته من غربهم، ويقتلع الداء إذا تعّين له منهم، كما فعل بحجر بن عديّ وأصحابه، ويروّض من شماس أهل البيت ويسامحهم في دعوى تقدّمهم واستحقاقهم. ولا يهيّج أحداً منهم بالتثريب عليه في ذلك،إلي أن مات وولّيّ يزيد، وكان من خروج الحسين وقتله ما هو معروف، فكانت من أشنع الوقائع في الإسلام. عظمت بها الشحناء، وتوغّل الشيعة في شأنهم، وعظم النكير والطعن على من تولّى ذلك أو قعد عنه. ثم تلاوموا على ما أضاعوه من أمر الحسين، وأنهم دعوه ثم لم ينصروه فندموا ورأوا أن لا كفّارة في ذلك إلا الاستماتة دون ثأره، وسمّوا أنفسهم التوّابين. وخرجوا لذلك يقدمهم سليمان بن صرد الخزاعيّ، ومعه جماعة من خيار أصحاب عليّ. وكان ابن زياد قد انتقض عليه العراق ولحق بالشام، وجمع وزرينج قاصد العراق، فزحفوا إليه وقاتلوه حتى قتل سليمان وكثير من أصحابه كما ذكرنا في خبره، وذلك سنة خمس وستين. ثم خرج المختار بن أبي عبيد ودعا لمحمد بن الحنفية كما قدّمناه في خبره، وفشا التعصّب لأهل البيت في الخاصة والعامة بما خرج عن حدود الحق، واختلفت مذاهب الشيعة فيمن هو أحق بالأمر من أهل البيت، وبايعت كل طائفة لصاحبها سرّاً ورسخ الملك لبني أُمَيَّة.وطوى هؤلاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم فيها وتستّروا بها، مع تعدّد فرقهم وكثرة اختلافهم كما ذكرناه عند نقل مذاهبهم في فصل الإمامة من الكتاب الأوّل. ونشأ زيد بن علي بن الحسين وقرأ على واصل بن عطاء إمام المعتزلة في وقته، وكان واصل متردداً في إصابة علي في حرب صفين والجمل، فنقل ذلك عنه. وكان أخوه محمد الباقر يعذله في الأخذ عمن يرى سخطيّة جدّه، وحصان زيد أيضاً مع قوله بأفضلية عليّ على أصحابه، يرى أن بيعة الشيخين صحيحة، وأن إقامة المفضول جائزة خلاف ما عليه الشيعة. ويرى أنهما لم يظلما عليّاً.ثم دعته الحال إلي الخروج بالكوفة سنة إحدى وعشرين ومائة، واجتمع له عامّة الشيعة، ورجع عنه بعضهم لّما سمعوه يثني على الشيخين، وأنهما لم يظلما عليّاً. وقالوا: لم يظلمك هؤلاء ورفضوا دعوته فسمّوا الرافضة من أجل ذلك. ثم قاتل يوسف بن عمر

فقتله يوسف وبعث برأسه إلي هشام، وصلب شلوه بالكناسة، ولحق إبنه يحيى بخراسان فأقام بها، ثم دعته شيعته إلي الخروج فخرج هنالك سنة خمس وعشرين، وسرّح إليه نصر بن سيّار العساكر مع سالم بن أحور المازنيّ فقتلوه، وبعث برأسه إلي الوليد وصلب شلوه بالجوزجان، وانقرض شأن الزيدية. وأقام الشيعة على شأنهم وانتظار أمرهم، والدعاء لهم في النواحي يدعون على الأحجال للرضا من آل محمد، ولا يصرّحون بمن يدعون له حذراً عليه من أهل الدولة. وكان شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت، وكانوا يرون أنّ الأمر بعد محمد بن الحنفيّذة لإبنه أبي هشام عَبْد الله. وكان كثيراً ما يغدو على سليمان بن عَبْد الملك، فمرّ في بعض أسفاره محمد بن علي بن عَبْد الله بن عبّاس بمترله بالحميمة من أعمال البلقاء، فترل عليه وأدركه المرض

عنده، فمات وأوصى له بالأمر. وقد كان أعلم شيعته بالعراق وخراسان أنّ الأمر صائر إلي ولده محمد بن عليّ هذا، فلما مات قصدت الشيعة محمد بن عليّ وبايعوه سراً. وبعث الدعاة منهم إلي الآفاق على رأس مائة من الهجرة أيام عمر بن عَبْد العزيز، وأجابه عامّة أهل خراسان. وبعث عليهم النقباء وتداول أمرهم هنالك. وتوفي محمد سنة أربع وعشرين، وعهد لإبنه إبراهيم وأوصى الدعاة بذلك، وكانوا يسمّونه الإمام. ثم بعث أبو مسلم إلي أهل دعوته بخراسان ليقوم فيهم بأمره، فهلك وكتب إليهم بولايته. ثم قبض مروان بن محمد على إبراهيم الإمام وحبسه بخراسان، فهلك هنالك لسنة. وملك أبو مسلم خراسان وزحف إلي العراق، فملكها كما ذكرنا ذلك كله من قبل، وغلبوا بني أُمَيَّة على أمرهم وانقرضت دولتهم.

دولة بني العباس

الخبر عن بني العباس من دول الإِسلام في هذه الطبقة الثالثة للعرب وأولية أمرهم وإنشاء دولتهم والإلمام بنكت أخبارهم وعيون أحاديثهم:

هذه الدولة من دولة الشيعة كما ذكرناه، وفرقها منهم يعرفون بالكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن عليّ بن الحنفيّة بعد عليّ، ثم بعده إلي ابنه أبي هشام عَبْد الله. ثم

بعده إلي محمد بن عليّ بن عَبْد الله بن عبّاس بوصيته كما ذكرنا. ثم بعده إلي ابنه إبراهيم الإمام ابن محمد، ثم بعده إلي أخيه أبي العبّاس السفّاح، وهو عَبْد الله بن الحارثية، هكذا مساقها عند هؤلاء الكيسانية، ويسمّون أيضاً الحرماقّية نسبة إلي أبي مسلم لأنه كان يلقب بحرماق. ولبني العبّاس أيضاً شيعة يسمّون الراوندية من أهل خراسان، يزعمون أنّ أحق الناس بالإمامة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم هو العبّاس لأنه وارثه وعاصبه، لقوله وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وإنّ الناس منعوه من ذلك وظلموه إلي أن ردّه الله إلي ولده، ويذهبون إلي البراءة من الشيخين وعثمان، ويجيزون بيعة عليّ لأنّ العباس قال له يا ابن أخي هلم ابايعك فلا يختلف عليك إثنان. ولقول داود بن عليّ - عم الخليفة العباسي- على منبر الكوفة يوم بويع السفّاح: يا أهل الكوفة إنه لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عليّ بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم، يعني السفّاح.

دولة السفاح

قد تقدّم لنا كيف كان أصل هذه الدعوة وظهورها بخراسان على يد أبي مسلم، ثم استيلاء شيعتهم على خراسان والعراق، ثم بيعة السفّاح بالكوفة سنة ثلاث وثلاثين ومائة، ثم قتل مروان بن محمد وانقراض الدولة الأموية. ثم خرج بعض أشياعهم وقوّادهم وانتقضوا على أبي العبّاس السفّاح، وكان أوّل من انتقض حبيب بن مرَّة المرَّيّ من قوّاد مروان، وكان بخولان والبلقاء، خاف على نفسه وقومه، فخلع وبيض، ومعناه لبس البياض ونصب الرايات البيض مخالفة لشعار العبّاسية في ذلك. وتابعته قيس ومن يليهم، والسفّاح يومئذ بالحيرة، بلغه أنّ أبا الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابيّ انتقض بقنّسرين، وكان من قوّاد مروان، ولما انهزم مروان وقدم عليه عَبْد الله بن عليّ بايعه ودخل في دعوة العبّاسية، وكان ولد مسلمة بن عَبْد الملك مجاورين له

ببالس والناعورة، فعبث بهم وبنسائهم القائد الذي جاءهم من قبل عَبْد الله بن عليّ. وشكوا ذلك إلي أبي الورد، فقتل القائد، وخلع معه أهل قَّنسرين، وكاتبوا أهل حمص في الخلاف، وقدّموا عليهم أبا محمد عَبْد الله بن يزيد بن معاوية، وقالوا هو السفياني الذي بذكر.ولما بلغ ذلك عَبْد الله بن عليّ، وادع حبيب

بن مرّة، وسار إلي أبي الورد بقَّنسرين، ومرّ بدمشق، فخلف بها أبا غانم عَبْد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف فارس مع حرمه وأثقاله، وسار إلي حمص، فبلغه أنّ أهل دمشق خلعوا وبيّضوا، وقام فيهم بذلك عثمان بن عَبْد الأعلى بن سراقة الأزدي. وأنهم هزموا أبا غانم وعسكره، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانتهبوا ما خلف عندهم، فأعرض عن ذلك وسار للقاء السفياني وأبي داود، وقدّم أخاه عبد الصمد في عشرة آلاف، فكشف ورجع إلي أخيه عَبْد الله منهزماً، فزحف عبد الله في جماعة القوّاد، ولقيهم بمرج الأحزم وهم في أربعين ألفاً، فانهزموا، وثبت أبو الورد في خمسمائة من قومه، فقتلوا جميعاً.وهرب أبو محمد إلي ترمذ، وراجع أهل قَّنسرين طاعة العبّاسيّة، ورجع عَبْد الله بن علي إلي قتال أهل دمشق ومن معهم. فهرب عثمان بن سراقة، ودخل أهل دمشق في الدعوة، وبايعوا لعبد الله بن عليّ، ولم يزل أبو محمد السفياني بأرض الحجاز متغيباً إلي أيام المنصور، فقتله زياد بن عَبْد الله الحارثي عامل الحجاز يومئذ، وبعث برأسه إلي المنصور مع إبنين له أسيرين فأطلقهما المنصور.ثم خلع أهل الجزيرة وبيّضوا، وكان السفّاح قد بعث إليهم ثلاثة آلاف من جنده مع موسى بن كعب من قوّاده، وأنزلهم بحرّان. وكان إسحق بن مسلم العقيلي عامل مروان على أرمينية، فلما بلغته هزيمة مروان سار عنها، واجتمع إليه أهل الجزيرة، وحاصروا موسى بن كعب بحرّان شهرين، فبعث السفّاح أخاه أبا جعفر إليهم، وكان محاصراً لابن هبيرة بواسط، فسار لقتال إسحق بن مسلم، ومرّ بقرقيسيا والرقّة وأهلهما قد خلعوا وبيّضوا. وسار نحو حرّان، فأجفل إسحق بن مسلم عنها، ودخل الرها، وبعث أخاه بكَّضار بن مسلم إلي قبائل ربيعة بنواحي ماردين، ورئيسهم يومئذ برمكة من الحرورية ، فصمد إليهم أبو جعفر فهزمهم وقتل برمكة في المعركة، وانصرف بكّار إلي أخيه إسحق، فخلفه بالرها، وسار إلي شمشاط بمعظم عسكره. وجاء عَبْد الله بن عليّ فحاصره، ثم جاء أبو جعفر فحاصروه سبعة أشهر وهو يقول: لا أخلع البيعة من عنقي حتى أتيقّن موت صاحبها. ثم تيقّن موت مروان، فطلب الأمان، واستأذنوا السفّاح، فأمرهم بتأمينه، وخرج إسحق إلي أبي جعفر فكان من آثر أصحابه. واستقام أهل الجزيرة والشام، ووّلى السفّاح أخاه أبو جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، فلم يزل عليها حتى استخلف.

حصار ابن هبيرة بواسط ومقتله:

ثم تقدّم لنا هزيمة يزيد بن هبيرة أمام الحسن بن قحطبة وتحصنه بواسط، وكان جويرة وبعض أصحابه أشاروا عليه بعد الهزيمة اللحاق بالكوفة فأبى. وأشار عليه يحيى بن حصين باللحاق بمروان وخوّفه عاقبة الحصار، فأبى خشية على نفسه من مروان واعتصم بواسط. وبعث أبو مسلمة الحسن بن قحطبة في العسكر لحصاره، وعلى ميمنته ابنه داود، فانهزم أهل الشام واضطرّوا إلي دجلة، وغرق منهم كثير. ثم تحاجزوا ودخل ابن هبيرة المدينة، وخرج لقتالهم ثانية بعد سبعة أيام فانهزم كذلك، ومكثوا أياماً لا يقتتلون إلا رمياً. وبلغ ابن هبيرة أن أبا أُمَيَّة

الثعلبي قد سوّد فحبسه، فغضبت لذلك ربيعة ومعن بن زائدة، وحبسوا ثلاثة نفر من فزارة رهناً في أبي أُمَيَّة، واعتزل معن وعبد الله بن عَبْد الرحمن بن بشير العجلي فيمن معهما، فخلّى ابن هبيرة سبيل أبي أُمَيَّة وصالحهم وعادوا إلي اتفاقهم.ثم قدم على الحسن بن قحطبة من ناحية سجستان أبو نصر مالك بن الهيثم، فأوقد غيلان بن عَبْد الله الخزاعي على السفّاح يخبره بقدوم أبي نصر، وكان غيلان واجداً على الحسن، فرغب من السفّاح أن يبعث عليهم رجلاً من أهل بيته. فبعث أخاه أبا جعفر، وكتب إلي الحسن: العسكر لك، والقوّاد قوّادك، ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فاحسن طاعته ومؤازرته.وقدم أبو جعفر فأنزله الحسن في خيمته، وجعل على حرسه عثمان بن نهيك. ثم تقدّم مالك بن الهيثم لقتال أهل الشام، وابن هبيرة. فخرجوا لقتاله وأكمنوا معن بن زائدة وأبا يحيى الجرافي. ثم استطردوا لابن الهيثم وانهزموا للخنادق. فخرج عليهم معن وأبو يحيى فقاتلوهم إلي الليل، وتحاجزوا

وأقاموا بعد ذلك أياماً. ثم خرج أهل واسط مع معن ومحمد بن نباتة، فهزمهم أصحاب الحسن إلي دجلة، فتساقطوا فيها. وجاء مالك بن الهيثم فوجد إبنه قتيلاً في المعركة، فحمل على أهل واسط حتى أدخلهم المدينة. وكان مالك يملأ السفن حطباً ويضرمها ناراً فتحرق ما تمر به، فيأمر ابن هبيرة بأن تجر بالكلاليب، ومكثوا كذلك أحد عشر شهراً.وجاء إسمعيل بن عَبْد الله القسري إلي ابن هبيرة بقتل مروان، وفشلت اليمانية عن القتال معهم، وتبعهم الفزاريّة فلم يقاتل معه إلا الصعاليك. وبعث ابن هبيرة إلي محمد بن عَبْد الله بن الحسن المثنّى بأن يبايع له، فأبطأ عنه جوابه، وكاتب السفّاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة، وأطمعهم، فخرج إليه زياد بن صالح وزياد بن عبيد الله الحرثيان، ووعدا ابن هبيرة أن يصلحا له جهة السفّاح، و لم يفعلا. وتردّد الشعراء بين أبي جعفر وابن هبيرة في الصلح، وأن يكتب له كتاب أمان على ما اختاره ابن هبيرة، وشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه وأنفذه إلي أبي جعفر، فأنفذه إلي السفّاح وأمر بإمضائه، وكان لا يقطع أمراً دون أبي مسلم، فكتب إليه يحيى بن هبيرة قد خرج بعد الأمان إلي أبي جعفر في ألف وثلثمائة، فلقيه الحاجب سلاّم بن سليم، فأنزله وأجلسه على وسادة، وأطاف بحجرة أبي جعفر عشرة آلاف من أهل خراسان،ثم أذن لابن هبيرة فدخل على المنصور وحادثه، وخرج عنه ومكث يأتيه يوماً ويغبه يوماً. ثم أغرى أبا جعفر أصحابه بأنه يأتي في خمسمائة فارس وثلثمائة راجل فيهتز له العسكر. فأمر أبو جعفر أن يأتي في حاشيته فقط. فكان يأتي في ثلاثين ثم آخرا في ثلاثة. ثم ألح السفّاح على أبي جعفر في قتله، وهو يراجعه للأمان الذي كتب له، حتى كتب إليه السفّاح: والله لتقتلنه أو لأبعثنّ من يخرجه من حجرتك فيقتله. فبعث أبو جعفر الى وجوه القيسية والمضرية وقد أعد لهم ابن نهيك في مائة من الخراسانية في بعض حجره.وجاء القوم في إثنين وعشرين رجلاً يقدمهم محمد بن نباتة وجويرة بن سهيل، فدعاهم سلام الحاجب رجلين رجلين، وعثمان ابن نهيك يقيدهما إلي أن استكملهم، وبعث أبو جعفر لحازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة في مائة إلي ابن هبيرة، فقالوا: نريد حمل المال، فدلهم حاجبه على الخزائن، فأقاموا عندها الرجال، وأقبلوا نحوه، فقام حاجبه في وجوههم. فضربه الهيثم فصرعه، وقاتل ابنه داود فقتل في جماعة من مواليه. ثم قتل ابن هبيرة آخراً وحملت رؤوسهم

إلي أبي جعفر. ونادى بالأمان للناس إلا الحكم بن عَبْد الملك أبي بشر، وخالد بن مسلمة المخزومي، وعمر بن در، فهرب الحكم وأمن أبو جعفر خالداً، فلم يجز السفاح أمانه، وقتله واستأمن زياد بن عبيد الله لابن در فأمنه.

مقتل أبي مسلمة بن الخلال وسليمان بن كثير:

قد تقدّم لنا ما كان من أبي مسلمة الخلال في أمر أبى العباس السفّاح، واتهام

الشيعة في أمره، وتغير السفّاح عليه وهو بعكوة أعين ظاهر الكوفة. ثم تحول إلي مدينة الهاشمية ونزل قصرها وهو يتنكر لأبي مسلمة، وكتب إلي أبي مسلم ببغيته وبرأيه فيه، فكتب إليه أبو مسلم بقتله. وقال له داود بن علي: لا تفعل. فيحتج بها أبو مسلم عليك، والذين معك أصحابه وهم له أطوع، ولكن أكتب إليه يبعث من يقتله، ففعل. وبعث أبو مسلم مرار بن أنس الضبي فقتله. فلما قدم نادى السفّاح بالرضا عن أبي مسلمة، ودعا به وخلع عليه. ثم دخل عنده ليلة أخرى، فسهر عامة ليله، ثم انصرف إلي متزله، فاعترضه مرار بن أنس وأصحابه فقتلوه، وقالوا قتله الخوارج. وصفى عليه من الغد يحيى أخو السفّاح، وكان يسمى وزير آل محمد، وأبو مسلم أمير آل محمد. وبلغ الخبر إلي أبي مسلم، وسرح سليمان بن كثير بالنكير لذلك فقتله أبو مسلم، وبعث على فارس محمد بن الأشعث وأمره أن يقتل ابن أبي مسلمة ففعل.

عمال السفاح:

ولما استقام الأمر للسفّاح ولى على الكوفة والسواد عمه داود بن علي، ثم عزله

وولاه على الحجاز واليمن واليمامة، وولى مكانه على الكوفة عيسى ابن أخيه موسى بن محمد. ثم توفي داود سنة ثلاث وثلاثين، فولى مكانه على الحجاز واليمامة خالد بن زياد بن عبيد الله بن عبيد <*> وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عَبْد

... وولى السفّاح على البصرة سفيان بن معاوية المهفبيئ، ثم عزله وولى مكانه عمه سليمان بن علي، وأضاف إليه كور دجلة والبحرين وعمان. وولى عمه إسمعيل بن علي الأهواز، وعمه عَبْد الله بن علي على الشام، وأبا عون عَبْد الملك بن يزيد على مصر، وأبا مسلم على خراسان، وبرمك على ديوان الخراج. وولى عمه عيسى بن علي على فارس، فسبقه إليها محمد بن الأشعث من قبل أبي مسلم. فلما قدم عليه عيسى هم محمد بقتله، وقال: أمرني أبو مسلم أن أقتل من جاءني بولاية من غيره. ثم أقصر عن قتله وأستحلفه بأيمان لا مخارج لها أن لا يعلو منبرأ ما عاش، ولا يتقلد سيفأ إلا في جهاد، فوفى عيسى بذلك بقية عمره.واستعمل بعده على فارس عمه إسمعيل بن علي، واستعمل على الموصل محمد بن صول، فطرده أهلها وقالوا: بل علينا تولى خثعم، وكانوا منحرفين عن بني العباس، فاستعمل السفّاح عليهم أخاه يحيى وبعثه في إثني عشر ألفاً، فترل قصر الإمارة وقتل منهم إثني عشر رجلاً، فثاروا به وحمل السلاح، فنودي فيهم بالأمان لمن دخل المسجد الجامع، فتسايل الناس عليه، وقد أقام الرجال على أبوابه، فقتلوا كل من دخل. يقال: قتل أحد عشر ألفاً ممن لبث، وما لا يحصى من غيرهم. وسمع صياح النساء بالليل، فأمر من الغد بقتل النساء والصبيان، واستباحهم ثلاثة أيام.وكان في

عسكره أربعة آلاف من الزنوج فعانوا في النساء. وركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف، فاعترضته إمرأة وأخذت بعنان دابته وقالت له: ألست من بني هاشم؟ ألست ابن عم الرسول؟ أمَّا تعلم أن المؤمنات المسلمات ينكحهن الزنوج؟ فأمسك عنها وجمع الزنج من الغد للعطاء، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم. وبلغ السفّاح سوء أمره في أهل الموصل فعزله، وولى مكانه إسمعيل، بن علي، وولى يحيى مكان إسمعيل بالأهواز وفارس. وملك الروم ملطية وقالقيلا. وفي سنة ثلاث وثلاثين أقبل قسطنطين ملك الروم فحصر ملطية، والفتن يومئذ بالجزيرة، وعاملها يومئذ موسى بن كعب بن أسان. فلم يزل حاصرهم حتى نزلوا على الأمان، وانتقلوا إلي بلاد الجزيرة، وحملوا ما قدروا عليه. وخرب الروم ملطية، وساروا عنها إلي مرج الحصى، وأرسل قسطنطين العساكر إلي قالقيلا من نواحي ماردين مع قائده كوشان الأرمني، فحصرها وداخل بعض الأرمن من أهل المدينة فنقبوا له السور، فاقتحم البلد من ذلك النقب وا ستباحها.

الثوار بالنواحي:

كان المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة قد ولاه أبو علي اليمامة، فلما قتل يزيد أبوه امتنع هو باليمامة، فبعث إليه زياد بن عبيد المدن بالعساكر من المدينة مع إبراهيم بن حيان السلمي، فقتله وقتل أصحابه، وذلك سنة ثلاث وثلاثين. (وفيها) خرج شريك ابن شيخ إسحاراً على أبي مسلم، ونقض أفعاله، واجتمع إليه أكثر من ثلاثين ألفاً، فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعى فقاتله وقتله. (وفيها) توجه أبو داود وخالد بن إبراهيم إلي الختل، فتحصن ملكهم ابن السبيل منهما، ومنعه الدهاقين، فحاصره أبو داود حتى جهد الحصار، فخرج من حصنه مع الدهاقين ولحق بفرغانة. ثم سار منها إلي بلد الصين، وأخذ أبوداود من ظفر به في الحصن فبعث بهم إلي أبي مسلم.(وفيها) الفتنة بين أخشيد فرغانة وملك الشاش، واستمد الأخشيد ملك الصين فأمده بمائة ألف مقاتل، وحصروا ملك الشاش حتى نزلوا على حكم ملك الصين، فلم يعرض له ولا لقومه بسوء. وبعث أبو مسلم زياد بن صالح لاعتراضهم، فلقيهم على نهر الطرار، فظفر بهم وقتل منهم نحواً من خمسين ألفاً، وأسر نحواً من عشرين ألفاً، ولحق بهم بالصين، وذلك في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين. ثم انتقض بسام بن إبراهيم بن بسام من فرسان أهل خراسان، وسار من عسكر السفّاح وجماعة على رأيه سراً إلي المدائن، فبعث السفّاح في أثرهم خازم بن خزيمة فقاتلهم وقتل أكثرهم واستباحهم، وبلغ ماه وانصرف، فمر بذات المطامير،ن وبها أخوال السفّاح من بني عَبْد المدان في نحو سبعين من قرابتهم ومواليهم.وقيل له: إن المغيرة من أصحاب بسام عندهم، فسألهم عنه فقالوا: مر بنا مجتازا، فهددهم إن لم يأخذه، فأغلظوا له في القول فقتلهم أجمعين ، ونهب أموالهم، وهدم دورهم، وغضبت اليمانية لذلك ودخل بهم زياد بن عبيد الله الحرثي على السفّاح وشكوا إليه ما فعل بهم فهم بقتله. وبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطية فدخلا على السفاح، وذكراه سابقة الشيعة وطاعتهم، وأنهم آثروكم على الأقارب والأولاد وقتلوا من خالفكم، فإن كان لا بد من قتله فابعثه لوجه من الوجوه، فإن قتل هو الذي تريد، وإن ظفر فلك، بعثه إلي الخوارج الذين بجزيرة ابن كاوان من عمان، مع شيبان بن عَبْد العزيز اليشكري، فبعث معه سبعمائة رجل، فحملهم سليمان بن علي من

البصرة في السفن، وقد انضم إليه من أهله وعشيرته ومواليه وعدة من بني تميم من البصرة، فلما أرسوا بجزيرة ابن كاوان قدم خازم فضلة بن نعيم المنشلي في خمسمائة إلي شيبان، فانهزم هو وأصحابه وكانوا صفرية، وركبوا إلي عمان فقاتلهم الجلندي في الإباضية، فقتل شيبان ومن معه كما مر، وشيبان هذا غير شيبان بن سلمة الذي قتل بخراسان، فربما يشتبهان.ثم ركب خازم البحر إلي ساحل عمان، فنزل وقاتل الجلندي أياماً، أمر خازم أصحابه في آخرها أن يجعلوا على أطراف أسنتهم المشاقة، ويدوروها بالنفط، ويشعلوها بالنيران، ويرموها في بيوت القوم، وكانت من خشب. فلما اضطرمت فيها النار شغلوا بأهليهم وأولادهم عن القتل، فحمل عليهم خازم وأصحابه فاستلحموهم. وقتل الجلندي وعشرة آلاف، فبعث خازم برؤوسهم إلي البصرة فبعثها سليمان إلي السفاح فندم اه،ثم غزا خالد بن إبراهيم أهل كش، فقتل الاخر يد ملكها وهو مطيع واستباحهم،وأخذ من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة، ومن الديباج والسروج ومتاع الصين وظرفه ما لم يرمثله، وحمله إلي أبي مسلم بسمرقند. وقتل عدة من دهاقين كش، ومفك طازان أخا الاخر يد على كش، ورجع أبو مسلم إلي مرو بعد أن فتك في الصغد وبخارى، وأمر ببناء سور سمرقند. واستخلف زياد بن صالح على بخارى وسمرقند، ورجع أبو داود إلي بلخ. ثم بلغ السفّاح انتقاض منصور بن جمهور بالسند، فبعث صاحب شرطته موسى بن كعب، واستخلف مكانه على الشرطة المسيب بن زهير.وسار موسى لقتال ابن جمهور، فلقيه بتخوم الهند وهو في نحو إثني عشر ألفاً، فانهزم ومات عطشاً في الرمال. ورحل عامله على السند بعياله وثقلته، فدخل بهم بلاد الخزر. ثم انتقض سنة خمس وثلاثين زياد بن صالح وراء النهر. فسار أبو مسلم إليه من مرو، وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصر بن راشد إلي

ترمذ ليمنعها من زياد، فلما وصل إليها خرج عليه ناس من الطالقان فقتلوه، فبعث مكانه عيسى بن ماهان فسمع قتلة نصر فقتلهم. وسار أبو مسلم فانتهى إلي آمد ومعه سباع بن النعمان الأزدي، وكان السفّاح قد دس معه إلي زياد بن صالح الأزدي أن ينتهز فرصة في أبي مسلم فيقتله. ونمى الخبر إلي أبي مسلم فحبس سباعاً بآمد، وسار عنها وأمر عامله بقتله. ولقيه قواد زياد في طريقه وقد خلعوا زياداً، فدخل أبو مسلم بخارى، ونجا زياد إلي دهقان هناك فقتله وحمل رأسه إلي أبي مسلم. وكتب أبو مسلم إلي أبي داود فقتله، وكان قد شغل بأهل الطالقان، فرجع إلي كش، وبعث عيسى بن ماهان إلي بسام فلم يظفر منها بشيء، وبعث إلي بعض أصحاب أبي مسلم يعيب أبا داود وعيسى، فضربه وحبسه، ثم أخرجه فوثب عليه الجند فقتلوه، ورجع أبو مسلم إلي مرو.

حج أبي جعفر وأبي مسلم:

وفي سنة ست وثلاثين استأذن أبو مسلم السفّاح في القدوم عليه للحج، وكان منذ

ولي خراسان لم يفارقها، فأذن له في القدوم مع خمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم أني قد عاديت الناس ولست آمن على نفسي فأذن له في ألف، وقال: إن طريق مكة لا تحتمل العسكر، فسار في ثمانية آلاف فرقهم ما بين نيسابور والري، وخلف أمواله وخزائنه بالري وقدم في ألف وخرج القواد بأمر السفاح لتلقيه، فدخل

على السفاح وأكرمه وأعظمه. واستأذن في الحج فأذن له، وقال: لولا أن أبا جعفر يريد الحج لاستعملتك على الموسم، فأنزله بقرية وكان قد كتب إلي أبي جعفر أن أبا مسلم استأذنني في الحج وأذنت له، وهو يريد ولاية الموسم، فاسألني أنت في الحج، فلا تطمع أن يتقدمك، وأذن له فقدم الأنبار. وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم متباعداً من حيث بعث السفاح أبا جعفر إلي خراسان ليأخذ البيعة له ولأبي جعفر من بعده، ويولي أبا مسلم على خراسان، فاستخلى أبو مسلم بأبي جعفر. فلما قدم ألان أبو جعفر السفّاح بقتله، وأذن له فيه، ثم ندم وكفه عن ذلك، وسار أبو جعفر إلي الحج ومعه أبو مسلم واستعمل على حران مقاتل بن حكيم العكي.

موت السفاح وبيعة المنصور:

كان أبو العباس قد تحول من الحيرة إلي الأنبار في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين، فأقام بها سنتين ثم توفي في ذي الحجة سنة ست وثلاثين لثلاث عشرة ليلة خلت منه، ولأربع سنين وثمانية أشهر من لدن بويع، وصلى عليه عمه عيسى ودفن بالأنبار. وكان وزيره أبو الجهم بن عطية، وكان قبل موته قد عهد بالخلافة لأخيه أبي جعفر، ومن بعده لعيسى ابن أخيهما موسى، وجعل العهد في ثوب وختمه بخواتيمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلي عيسى، ولما توفي السفّاح، وكان أبو جعفر بمكة، فأخذ البيعة على الناس عيسى بن موسى، وكتب إليه بالخبر فجزع واستدعى أبا مسلم وكان متأخراً عنه، فأقرأه الكتاب فبكى واسترجع، وسكن أبا جعفر عن الجزع فقال: أخاف شر عَبْد الله بن عليّ، فقال: ألا أكفيكه وعامة جنده أهل خراسان، وهم أطوع لي منه فسري عنه. وبايع له أبو مسلم والناس، وأقبلا حتى قدما الكوفة. ويقال: إن أبا مسلم كان متقدماً على أبي جعفر، فإن الخبر قد أتاه قبله، فكتب أبو مسلم إليه يعزيه ويهنيه بالخلافة، وبعد يومين كتب له ببيعته. وقدم أبو جعفر الكوفة سنة سبع وثلاثين، وسار منها إلي الأنبار، فسلم إليه عيسى بيوت الأموال والدواوين واستقام أمر أبي جعفر.

انتقاض عَبْد الله بن عليّ وهزيمته:

كان عَبْد الله بن عليّ قدم على السفّاح قبل موته، فبعثه إلي الصائفة في جنود أهل الشام وخراسان، فانتهى إلي دلوك و لم يدر حتى جاءه كتاب عيسى بن موسى بوفاة السفّاح، وأخذ البيعة لأبي جعفر وله من بعده كما عهد به السفّاح، فجمع عَبْد الله الناس، وقرأ عليهم الكتاب، وأعلمهم أن السفّاح حين أراد أن يبعث الجنود إلي حران تكاسل بنو أبيه عنها، فقال لهم: من انتدب منكم فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري! وشهد له أبو غانم الطائي وخفاف المروزي وغيرهما من القواد وبايعوه، وفيهم حميد بن حكيم بن قحطبة وغيره من خراسان والشام والجزيرة. ثم سار عَبْد الله حتى نزل حران وحاصر مقاتل بن حكيم العكي أربعين يوماً، وخشي من أهل خراسان فقتل منهم جماعة، وولى حميد بن قحطبة على حلب، وكتب معه إلي عاملها زفر بن عاصم بقتله، فقرأ الكتاب في طريقه وسار إلي العراق.

وجاء أبو جعفر من الحج،

فبعث أبا مسلم لقتال عَبْد الله، ولحقه حميد بن قحطبة نازعاً عن عَبْد الله، فسار معه، وجعل على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي. ولما بلغ عَبْد الله خبر إقباله وهو على حران بذل الأمان لمقاتل بن حكيم ومن معه وملك حران. ثم بعث مقاتلاً بكتابه إلي عثمان بن عَبْد الأعلى، فلما قرأ الكتاب قتله وحبس إبنيه، حتى إذا هزم عَبْد الله قتلهما. وأمر المنصور محمد بن صول وهو على أذربيجان أن يأتي عَبْد الله بن علي ليمكر به، فجاء وقال: إني سمعت السفّاح يقول: الخليفة بعدي عمي عَبْد الله، فشعر بمكيدته وقتله، وهو جد إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب.ثم أقبل عَبْد الله بن علي حتى نزل نصيبين وخندق عليه، وقدم أبو مسلم فيمن معه.

وكان المنصور قد كتب إلي الحسن بن قحطبة عامله على أرمينية بأن يوافي أبا مسلم، فقدم عليه بالموصل، وسار معه. ونزل أبو مسلم ناحية نصيبين، وكتب إلي عَبْد الله: أني قد وليت الشام و لم أؤمر بقتالك، فقال أهل الشام لعبد الله سر بنا إلي الشام لنمنع نساءنا وأبناءنا. فقال لهم عَبْد الله: ما يريد إلا قتالنا وإنما قصد المكر بنا فأبوا إلا الشام، فارتحل بهم إلي الشام، ونزل أبو مسلم في موضع معسكره، وغور ما حوله من المياه، فوقف أصحاب عَبْد الله بكار بن مسلم العقيلي، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي، وعلى الخيل عَبْد الصمد بن علي أخو عَبْد الله وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة، وعلى ميسرته خازم بن خزيمة، فاقتتلوا شهراً. ثم حمل أصحاب عَبْد الله على عسكر أبي مسلم فأزالوهم عن مواضعهم، وحمل عَبْد الصمد فقتل منهم ثمانية عشر رجلاً. ثم حمل عليهم ثانية فأزالوا صفهم. ثم نادى منادي أبي مسلم في أهل خراسان فتراجعوا. وكان يجلس إذا لقي الناس على عريش ينظر منه إلي الحومة، فإن رأى خللاً أرسل بسده. فلا تزال رسله تختلف بينه وبين الناس حتى ينصرفوا. فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين اقتتلوا، وأمر أبو مسلم الحسن بن قحطبة أن يضم إلي الميسرة ويترل في الميمنة حماة أصحابه، فانضم أهل الشام من الميسرة إلي الميمنة كما أمرهم، وأمر أبو مسلم أهل القلب فحطموهم وركبهم أصحاب أبي مسلم.

فانهزم أصحاب عَبْد الله فقال لابن سراقة. ما ترى؟ قال الصبر إلي أن تموت، فالفرار فيكم بمثلك قبيح. قال: بل آتي العراق فأنا معك فانهزموا وحوى أبو مسلم عسكرهم. وكتب بذلك إلي المنصور، ومضى عَبْد الله وعبد الصمد. فقدم عَبْد الصمد الكوفة فاستأمن له عيسى بن موسى، وأمنه المنصور، وقيل بل أقام بالرصافة حتى قدمها جمهور بن مروان العجلي في خيول أرسلها المنصور، فبعث به موثقاً مع أبي الخطيب، فأطلقه المنصور. وأمَّا عَبْد الله فقدم البصرة، وأقام عند أخيه سليمان متوارياً حتى طلبه واشخص إليه. ثم إن أبا مسلم أمن الناس بعد الهزيمة وأمر بالكف عنهم <*>،

ذكر قتل أبي مسلم الخراساني

كان أبو مسلم لمّا حج مع المنصور يؤيد نفسه عليه، ويتقدم بالإحسان للوفود وإصلاح الطريق والمياه، وكان الذكر له، وكان الأعراب يقولون: هذا المكذوب عليه. ولما صدروا عن الموسم، تقدم أبو مسلم، ولقيه الخبر بوفاة السفاح، فبعث إلي أبي جعفر يعزيه، و لم يهنئه بالخلافة، ولا رجع إليه ولا أقام ينتظره. فغضب أبو جعفر وكتب إليه وأغلظ في العتاب، فكتب يهنئه بالخلافة ويقدم إلي <*>، فدعا عيسى بن موسى إلي أن

يبايع له، فأبى وقدم أبو جعفر، وقد خلع عبيد الله بن علي، فسرح أبا مسلم لقتاله، فهزمه كما مر، وجمع الغنايم من عسكره. فبعث المنصور مولاه أبا الخصيب لجمعها، فغضب أبو مسلم ونال: أنا أعين على الدعاء فكيف أخون الأموال؟ وهم

بقتل الخصيب ثم خلى عنه.وخشي المنصور أن يمضي إلي خراسان، فكتب إليه بولاية مصر والشام، فازداد نفاراً وخرج من الجزيرة يريد خراسان، وسار المنصور إلي المدائن، وكتب إليه يستقدمه، فأجابه بالامتناع والمسك بالطاعة عن بعد، والتهديد بالخلع إن طلب منه لسوى ذلك، فكتب إليه المنصور ينكر عليه هذا الشرط، وأنه لا يحسن طاعة. وبعث إليه عيسى بن موسى برسالة يؤنسه ويسليه. وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم يعرض له بالخلع، وأنه قد تاب إلي الله مما جناه من القيام بدعوتهم، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان، وأمر المنصور عمه عيسى ومشيخة بني هاشم بالكتاب على أبي مسلم يحرضونه على التمسك بالطاعة، ويحذرونه عاقبة البغي، ويأمرونه بالمراجعة. وبعث الكتب مع مولاه أبي حميد المرودوذي ، وأمره بملاينته والخضوع له بالقول حتى ييأس منه، فإذا يئس يخبره بقسم أمير المؤمنين لأوكلت أمرك إلي غيري، ولو خضت البحر خضته وراءك، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك وأموت. فأوصل أبو حميد الكتب وتلطف له في القول ما شاء، واحتج عليه بما كان منه في التحريض على طاعتهم، فاستشار أبو مسلم مالك بن الهيثم فأبى له من الإصغاء إلي هذا القول وقال: والله لئن أتيته ليقتلنك. ثم بعث إلي نيزك صاحب الري يستشيره، فأبى له من ذلك، وأشار عليه بنزول الري وخراسان من ورائه، فيكون أمكن لسلطانه. فأجاب أبا حميد بالامتناع، فلما يئس منه أبلغه مقالة المنصور، فوجم طويلاً ورعب من ذلك القول وأكبره. وكان المنصور قد كتب إلي عامل أبي مسلم بخراسان يرغبه في الإنحراف عنه بولاية خراسان فأجاب سراً، وكتب إلي أبي مسلم يحذره الخلاف والمعصية، فزاده ذلك رعباً وقال لأبي حميد قبل انصرافه: قد كنت عزمت على المضي إلي خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحق إلي أمير المؤمنين يأتيني برايته فإني أثق به. ولما قدم أبو إسحق تلقاه بنو هاشم وأهل الدولة بكل ما يجب، وداخله المنصور في صرف أبي مسلم عن وجهة خراسان ووعده بولايتها، فرجع إليه وأشار عليه بلقاء المنصور، فاعتزم على ذلك. واستخلف مالك بن الهيثم على عسكره بحلوان، وسار فقدم المدائن في ثلاثة آلاف، وخشي أبو أيوب وزير المنصور أن يحدث منه عند قدومه فتك، فدعا بعض إخوانه، وأشار عليه بأن يأتي أبا مسلم ويتوسل به إلي المنصور في ولاية كسكر ليعيب فيها مالاً عظيماً. وأن يشرك أخاه في ذلك، فإن أمير المؤمنين عازم أن يوليه ما يوري به ويريح نفسه. واستأذن له المنصور في لقاء أبي مسلم فأذن

له، فلقي أبا مسلم وتوسل إليه وأخبره الخبر، فطابت نفسه وذهب عنه الحزن. ولما قرب أمر الناس بتلقيه، ثم دخل على المنصور فقبل يده وانصرف ليريح ليلته، ودعا المنصور من الغد حاجبه عثمان بن نهيك وأربعة من الحرس، منهم شبيب بن رواح، وابن حنفية حرب بن قيس، وأجلسهم خلف الرواق، وأمرهم بقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه. واستدعى أبا مسلم، فلما دخل سأله عن سيفين أصابهما لعمه عَبْد الله بن علي، وكان متقلداً بأحدهما، فقال: هذا أحدهما ! فقال: أرني ! فانتضاه أبو مسلم وناوله إياه، فأخذ يقلبه بيده ويهزه. ثم وضعه

تحت فراشه، وأقبل يعاتبه، فقال: كتبت إلي السفاح تنهاه عن الموات كأنك تعلمه: قال: ظننت أنه لا يحل، ثم اقتديت بكتاب السفاح وعلمت أنكم معدن العلم. قال: فتوركك عني بطريق مكة! قال كرهت مزاحمتك على الماء! قال فامتناعك من الرجوع إلي حين بلغك موت السفّاح أو الإقامة حتى ألحقك! قال: طلبت الرفق بالناس والمبادرة إلي الكوفة! قال فجارية عَبْد الله بن علي أردت أن تتخذها لنفسك! قال: لا إنما وكلت بها من يحفظها. قال: فمراغمتك ومسيرك إلي خراسان! قال: خشيت منك، فقلت آتي خراساني وأكتب بعذري فأذهب ما في نفسك مني! قال: فالمال الذي جمعه بحران! قال: أنفقته في الجندية تقوية لكم. قال ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك وتخطب آسية بنت علي وتزعم أنك ابن سليط بن عَبْد الله بن عباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً. ثم قال له: وما الذي دعاك إلي قتل سليمان بن كثير، مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائنا، من قبل أن ندخلك في هذا الأمر؟ قال: أراد الخلافة فقتلته. ثم قال أبو مسلم: كيف يقال هذا بعد بلائي وما كان مني؟ قال: يا ابن الخبيثة لو كانت أمة مكانك لأغنت، إنما ذلك بدولتنا وربحنا. وأكب أبو مسلم يقبل يده ويعتذر، فازداد المنصور غضباً. ثم قال أبو مسلم دع هذا! فقد أصبحت لا أخاف إلا الله. فشتمه المنصور وصفق بيديه، فخرج الحرس. وضربه عثمان بن نهيك فقطع حمائل سيفه. فقال: استبقني لعدوك! فقال: لا أبقاني الله إذاً وأي عدو أعدى منك، وأخذه الحرس بسيوفهم حتى قتلوه، وذلك لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين. وخرج الوزير أبو الجهم فصرف الناس، وقال: الأمير قائل عند أمير المؤمنين فانصرفوا، وأمر لهم بالجوائز، وأعطى إسحاق مائة ألف. ودخل عيسى بن موسى على المنصور فسأل عنه، وأخذ في الثناء على طاعته وبلائه، وذكر رأي الإمام إبراهيم فيه.

فقال المنصور: والله ما أعلم على وجه الأرض عدواً أعدى لكم منه، هو ذا في البساط. فاسترجع عيسى، فأنكر عليه المنصور وقال: وهل كان لكم ملك معه؟ ثم دعا جعفر بن حنظلة واستشاره في أمر أبي مسلم، فأشار بقتله فقال له المنصور وفقك الله! ثم نظر إليه قتيلاً، فقال له يا أمير المؤمنين عد خلافتك من هذا اليوم. ثم دعا أبا إسحق عن متابعة أبي مسلم، وقال تكلم بما أردت، وأخرجه قتيلاً. فسجد أبو إسحق ثم رفع رأسه يقول: الحمد لله! أميت هو؟ ولله ما جئته قط إلا تكفنت وتحنطت ورفع ثيابه وأراه كفنه وحنوطه. فرحمه وقال له استقبل طاعتك، واحمد الله الذي أراحك. وكتب المنصور بعد قتل أبي مسلم إلي أبي نصر بن الهيثم على لسان أبي مسلم يأمره بحمل أثقاله، وقد كان أبو مسلم أوصاه إن جاءك كتاب بخاتمي تاماً فاعلم أني لم أكتبه، فلما رآه كذلك فطن وانحدر إلي همذان يريد خراسان، فكتب له المنصور بولاية شهرزور، وكتب إلي زهير بن التركي بهمذان بحبسه. فمر أبو نصر بهمذان وخادعه زهير ودعاه إلي طعامه وحبسه. وجاء كتاب العهد بشهرزور لأبي نصر، فأطلقه زهير، ثم جاءه بعد ذلك الكتاب بقتله، فقال جاءني كتاب عهده فخفيت سبيله. وقدم أبو نصر على المنصور فعذله في إشارته على أبي مسلم بخراسان، فقال: نعم استنصحني فنصحت له. وإن استنصحني أمير المؤمنين نصحت وشكرت، واستعمله على الموصل. وخطب أبو جعفر الناس بعد قتل أبي مسلم وانسهم وافترق أصحابه، وخرج منهم بخراسان رجل إسمه سنباد ويسمى فيروز أصبهبذ، وتبعه أكثر

الجبال يطلبون بدم أبي مسلم، وغلب على نيسابور والري، وأخذ الخزائن أبي مسلم التي خلفها بالري حين شخص إلي السفاح. وسبى الحرم ونهب الأموال، و لم يعرض إلي التجار. وكان يظهر أنه قاصد إلي الكعبة يهدمها، فسرح إليه المنصور جمهور بن مرار العجلي والتقوا على طرق المفازة بين همذان والري، فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم نحواً من ستين ألفاً، وسبى ذراريهم ونساءهم. ولحق سنباد بطبرستان، فقتله بعض عمال صاحبها وأخذ ما معه. وكتب إلي المنصور بذلك، فكتب إليه المنصور في الأموال فأنكر، فسرح إليه الجنود فهرب إلي الديلم. ثم إن جمهور بن مرار لّما حوى ما في عسكر سنباد، و لم يبعث به خاف من المنصور، فخلع واعتصم بالري فسرح إليه محمد بن الأشعث في الجيوش، فخرج من الري إلي أصبهان فملكها، وملك محمد الري. ثم اقتتلوا وانهزم جمهور فلحق بأذربيجان، وقتله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلي المنصور وذلك سنة ثمان وثلاثين.

حبس عَبْد الله بن علي:

كان عَبْد الله بن علي بعد هزيمته أمام أبي مسلم لحق بالبصرة، ونزل على أخيه سليمان. ثم إن المنصور عزل سليمان سنة تسع وثلاثين، فاختفى عَبْد الله وأصحابه، فكتب المنصور إلي سليمان وأخيه عيسى بأمان عَبْد الله وقواده ومواليه، وأشخاصهم إلي المنصور منهما فشخصوا. ولما قدما عليه فأذن لهما فأعلماه بحضور عَبْد الله، واستأذناه له فشغلهما بالحديث، وأمر بحبسه في مكان قد هيئ له في القصر، فلما خرج سليمان وعيسى لم يجد عَبْد الله، فعلما أنه قد حبس وأن ذمتهما قد أخفرت، فرجعا إلي المنصور فحبسا عنه. وتوزع أصحاب عَبْد الله بين الحبس والقتل، وبعث ببعضهم إلي أبي داود خالد بن إبراهيم بخراسان فقتلهم بها. و لم يزل عَبْد الله محبوساً حتى عهد المنصور إلي المهدي سنة تسع وأربعين، وأمر موسى بن عيسى فجعله بعد المهدي، ودفع إليه عَبْد الله، وأمره بقتله، وخرج حاجاً. وسار عيسى كاتبه يونس بن فروة في قتل عَبْد الله بن علي فقال: لا تفعل فإنه يقتلك به، وإن طلبه منك فلا ترده إليه سراً، فلما قفل المنصور من الحج دس على أعمامه من يحرضهم على الشفاعة في أخيهم عَبْد الله فشفعهم، وقال لعيسى: جئنا به! فقال: قتلته كما أمرتني. فأنكر المنصور وقال خذوه بأخيكم، فخرجوا به ليقتلوه حتى اجتمع الناس واشتهر الأمر، فجاء به وقال: هو ذا حي سوي، فجعله المنصور في بيت أساسه ملح وأجرى عليه الماء فسقط ومات.

وقعة الراوندية:

كان هؤلاء القوم من أهل خراسان، ومن أتباع أبي مسلم، يقولون بالتناسخ والحلول، وأن روح آدم في عثمان بن نهيك، وأن الله حل في المنصور وجبريل في الهيثم بن معاوية. فحبس المنصور نحواً من مائتين منهم، فغضب الباقون، واجتمعوا وحملوا بينهم نعشاً كأنهم في جنازة، وجاؤا إلي السجن، فرموا بالنعش وأخرجوا أصحابهم، وحملوا على الناس في ستمائة رجل. وقصدوا قصر المنصور، وخرج المنصور من القصر ماشيا. وجاء معن بن زائدة الشيباني وكان مستخفياً من المنصور لقتاله مع ابن هبيرة، وقد اشتد طلب المنصور له، فحضر عنده هذا

اليوم فتلثما، وترجل وأبلى. ثم جاء إلي المنصور ولجام بغلته في يد الربيع حاجبه، وقال: تنح ذا أنا أحق بهذا اللجام في هذا الوقت

وأعظم، فنازل وقاتل حتى ظفر بالراوندية. ثم سأله فانتسب فأمنه واصطنعه.

وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم ووقف على باب المنصور وقال: أنا اليوم بواب ثم قاتلهم أهل السوق، وفتح باب المدينة، ودخل الناس وحمل عليهم خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة حتى قتلوهم عن آخرهم. وأصاب عثمان بن نهيك في الحومة سهم فمات منه بعد أيام، وجعل على الحبس بعده أخاه عيسى، ثم بعده أبا العباس الطوسي، وذلك كله بالهاشمية. ثم أحضر معناً ورفع مترلته وأثنى عليه بما كان منه في ذلك اليوم مع عمه عيسى، فقال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد جئت إلي الحكومة وجلا حتى رأيت شذتك، فحملني ذلك على ما رأيت مني، وقيل: إنه كان مختفياً عند أبي الخصيب حاجب المنصور، وأنه جاء يوم الراوندية، فاستأذن أبو الخصيب وشاوره المنصور، فأشار ببث المال في الناس، وأبى المنصور إلا الركوب إليهم بنفسه، فخرج بين يديه وأبلى حتى قتلوا. ثم تغيب فاستدناه وأمنه وولاه على اليمن.

انتقاض خراسان ومسير المهدي إليها:

كان السفاح قد ولى على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم الذهلي، بعد انتقاض بسام بن إبراهيم ومهلكه. فلما كان سنة أربعين ثار به بعض الجند وهو بكشماهن وجاؤا إلي مترله، فأشرف عليهم ليلاً من السطح، فزلت قدمه فسقط ومات ليومه. وكان عصام صاحب شرطته، فقام بالأمر بعده. ثم ولى المنصور على خراسان عَبْد الجبار بن عَبْد الرحمن، فقدم علها وحبس جماعة من القواد. اتهمهم بالدعاء للعلوية، منهم مجاشع بن حريث الأنصاري عامل بخارى، وأبو المعرة خالد بن كثير مولى بني تميم عامل قهستان، والحريش بن محمد الذهلي ابن عم أبي داود في آخرين. ثم قتل هؤلاء وألح على عمال أبي داود في استخراج المال، وانتهت الشكوى إلي المنصور بذلك، فقال لأبي أيوب: إنما يريد بفناء شيعتنا الخلع، فأشار عليه أبو أيوب أن تبعث من جنود خراسان لغزو الروم، فإذا فارقوه بعثت إليه من شئت، واستمكن منه. فكتب إليه بذلك فأجاب بأن الترك قد جاشت، وإن فرقت الجنود خشيت على خراسان. فقال له أبو أيوب: اكتب إليه بأنك ممده بالجيوش، وابعث معها من شئت يستمكن منه، فأجاب عَبْد الجبار بأن خراسان مغلبة في عامها، ولا تحتمل زيادة العسكر. فقال له أبو يوسف هذا خلع فعاجله. فبعث إبنه المهدي، فسار ونزل الري.

وقدم خازم بن خزيمة

لحرب عَبْد الجبار، فقاتلوه فانهزم وجاء إلي مقطنة وتوارى فيها. فعبر أبي المحشد بن مزاحم من أهل مرو الروذ، وجاء به إلي خازم، فحمله على بعير وعليه جبة صوف، ووجهه إلي عجز البعير، وحمله إلي المنصور في ولده وأصحابه. فبسط إليهم العذاب حتى استخرج الأموال، ثم قطع يديه ورجليه وقتله. وذلك سنة اثنتين وأربعين، وبعث بولده إلي دهلك فعزلهم بها، وأقام المهدي بخراسان، حتى رجع إلي العراق سنة تسع وأربعين . وفي سنة اثنتين وأربعين انتقض عيينة بن موسى بن كعب بالسند، وكان عاملاً عليها من بعد أبيه، وكان أبوه

يستخلف المسيب بن زهير على الشرط، فخشي المسيب إن حضر عيينة عند المنصور أن يوليه على الشرط، فحذره المنصور وحرضه على الخلاف فخلع الطاعة. وسار المنصور إلي البصرة وسرح من هنالك عمر بن حفص بن أبي صفوة العتكي لحرب عيينة، وولاه على السند والهند، فورد السند وغلب عليها. وفي هذه السنة انتقض الأصبهبذ بطبرستان، وقتل من كان في أرضه من المسلمين، فبعث المنصور مولاه أبا الخطيب، وخازم بن خزيمة، وروح بن حاتم في العساكر فحاصروه في حصنه مدة، ثم تحيلوا ففتح لهم الحصن من داخله، وقتلوا المقاتلة، وسبى الذرية، وكان مع الأصبهبذ كبد سم فشربه ومات.

أمر بني العباس:

بنو هاشم حين اضطرب أمر مروان بن محمد اجتمعوا إليه، وتشاوروا فيمن يعقدون

له الخلافة، فاتفقوا على محمد بن عَبْد الله بن الحسن المثنى بن علي، وكان يقال: إن المنصور ممن بايعه تلك الليلة. ولما حج أيام أخيه السفاح سنة ست وثلاثين تغيب عنه محمد وأخوه إبراهيم، و لم يحضرا عنده مع بني هاشم. وسأل عنهما فقال له زياد بن عبيد الله الحرثي أنا آتيك بهما، وكان بمكة، فرده المنصور إلي المدينة. ثم استخلف المنصور وطفق يسأل عن محمد ويختص بني هاشم بالسؤال سراً، فكلهم يقول: إنك ظهرت على طلبه لهذا الأمر، فخافك على نفسه، ويحسن العذر عنه إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، فإنه قال له: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، لكان موسى بن عَبْد الله بن حسن يقول بعد هذا: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا. ثم إن المنصور حج سنة ، وألح على عَبْد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد، فاستشار عَبْد الله سليمان بن علي في إحضاره فقال له: لو كان عافياً عفى عن عمه! فاستمر عَبْد الله على الكتمان، وبث المنصور العيون بين الأعراب في طلبه بسائر بوادي الحجاز ومياهها. ثم كتب كتاباً على لسان الشيعة إلي محمد بالطاعة والمسارعة، وبعثه مع بعض عيونه إلي عَبْد الله، وبعث معه بالمال والألطاف كأنه من عندهم. وكان للمنصور كاتب على سره يتشيع، فكتب إلي عَبْد الله بن حسن بالخبر، وكان محمد بجهينة، وألح عليه صاحب الكتاب أمر محمد ليدفع إليه كتاب الشيعة. فقال له: اذهب إلي علي بن الحسن المدعو بالأغر يوصلك إليه في جبل جهينة، فذهب وأوصله إليه. ثم جاءهم حقيقة خبره من كاتب المنصور، وبعثوا أبا هبار إلي محمد وعلي بن حسن يحذرهما الرجل، فجاء أبو هبار إلي علي بن حسن وأخبره، ثم سار إلي محمد، فوجد العين عنده جالساً مع أصحابه، فخلا به وأخبره، فقال: وما الرأي؟ قال: تقتله. قال :لا أقارف دم مسلم. قال: تقيده وتحمله معك. قال: لا آمن عليه لكثرة الخوف والإعجال. قال: فتودعه عند بعض أهلك من جهينة. قال: هذه إذن. ورجع فلم يجد الرجل، ولحق بالمدينة. ثم قدم على المنصور وأخبره الخبر، وسمى إسم أبي هبار وكنيته، وقال: معه وبر. فطلب أبو جعفر وبراً المري، فسأله عن أمر محمد فأنكره، وحلف فضربه وحبسه. ثم دعا عقبة بن سالم الأزدي، وبعثه منكراً بكتاب والطاف من بعض الشيعة بخراسان، إلي

عَبْد الله بن حسن ليظهر على أمره، فجاءه بالكتاب فانتهره، وقال: لا أعرف هؤلاء القوم. فلم يزل يتردّد إليه حتى قبله وأنس به، وسأله عقبة الجواب فقال: لا أكتب لأحد، ولكن أقرئهم مني سلاماً، وأعلمهم أن إبني

خارجان لوقت كذا. فرجع عقبة إلي المنصور فأنشأ الحج، فلما لقيه بنو حسن رفع مجالسهم وعبد الله إلي جنبه، ثم دعا بالغداء فأصابوا منه. ثم قال لعبد الله بن حسن قد أعطيتني العهود والمواثيق أن لا تبغيني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً، فقال: وأنا على ذلك. فلحظ المنصور عقبة بن سالم، فوقف بين عَبْد الله حتى ملأ عينه منه فبادر المنصور يسأله الإقالة فلم يفعل، وأمر حبسه. وكان محمد يتردّد في النواحي، وجاء إلي البصرة فنزل في بني راهب، وقيل في بني مرّة بن عبيد، وبلغ الخبر إلي المنصور، فجاء إلي البصرة، وقد خرج عنها محمد، فلقي المنصور عمر بن عبيد، فقال له: يا أبا عثمان هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا؟ فقال: لا، فانصرف واشتد الخوف على محمد وإبراهيم، وسار إلي عدن، ثم إلي السند، ثم إلي الكوفة، ثم إلي المدينة. وكان المنصور حج سنة أربعين، وحج محمد وإبراهيم وعزما على اغتيال المنصور وأبى محمد من ذلك. ثم طلب المنصور عَبْد الله بإحضار ولديه، وعنفه وهم به، فضمنه زياد عامل المدينة. وانصرف المنصور، وقدم محمد المدينة قدمة، فتلطف له زياد وأعطاه الأمان له. ثم قال له: إلحق بأي بلاد شئت. وسمع المنصور فبعث أبا الأزهر إلي المدينة في جمادى سنة إحدى وأربعين ليستعمل على المدينة عَبْد العزيز بن المطلب، ويقضى زياداً وأصحابه. فسار بهم فحبسهم المنصور، وخلف زياد ببيت المال ثمانين ألف دينار. ثم استعمل على المدينة محمد بن خالد بن عَبْد الله القسري، وأمره بطلب محمد، وإنفاق المال في ذلك. فكثرت نفقته واستبطأه المنصور واستشار في عزله، فأشار عليه يزيد بن أسيد السلمي من أصحابه باستعمال رباح بن عثمان بن حسان المزني، فبعثه أميراً على المدينة في رمضان سنة أربع وأربعين، وأطلق يده في محمد بن خالد القسريّ. فقدم المدينة وتهدّد عَبْد الله بن حسن في إحضار إبنيه. وقال له عَبْد الله يومئذ: إنك لتريق المذبوح فيها كما تذبح الشاة، فاستشعر ذلك ووجد، فقال له حاجبه أبو البختري: إن هذا ما اطلع على الغيب. فقال ويلك! والله ما قال إلا ما سمع، فكان كذلك. ثم حبس رباح محمد بن خالد وضربه وجد في طلب محمد، فاخبر أنه في شعبان رضوى من أعمال ينبع وهو جبل جهينة، فبعث عامله في طلب فأفلت منه. ثم إنّ رباح بن مرّة حبس بني

حبس وقيدهم وهم: عَبْد الله بن حسن بن الحسن، وإخوته حسن وإبراهيم وجعفر، وإبنه موسى بن عَبْد الله، وبنو أخيه داود وإسمعيل وإسحق بنو إبراهيم بن الحسن، ولم يحضر معهم أخوه عليّ العائد. ثم حفر من الغد عند رباح، وقال: جئتك لتحبسني مع قومي فحبسه، وكتب إليه المنصور أن يحبس معهم محمد بن عَبْد الله بن عمر بن عثمان المعروف بالديباجة. وكان أخا عَبْد الله لأمه، أمهما فاطمة بنت الحسين. وكان عامل مصر قد عثر على عليّ بن محمد بن عَبْد الله بن حسن، بعثه أبوه إلي مصر يدعو له، فأخذه وبعث به إلي المنصور، فلم يزل في حبسه. وسمى من أصحاب أبيه عَبْد الرحمن بن أبي المولى وأبا جبير، فضربهما المنصور وحبسهما. وقيل عَبْد الله حبس أولاً وحده، وطال حبسه. فأشار عليه أصحابه بحبس الباقين فحبسهم ثم حج المنصور سنة أربع وأربعين، فلما قدم مكة بعث إليهم وهم في السجن محمد بن عمران بن إبراهيم بن طلحة ومال بن أنس يسألهم أن يرفعوا إليه محمداً وإبراهيم ابني عَبْد الله، فطلب عَبْد الله الإذن في لقائه، فقال المنصور: لا والله حتى يأتيني به وبإبنيه، وكان حسناً مقبولاً لا يكلم أحداً إلا أجابه إلي رأيه. ثم إنّ المنصور قضى حجه وخرج إلي

الربذة، وجاء رباح ليودعه فأمر بأشخاص بني حسن ومن معهم إلي العراق، فأخرجهم في القيود والأغلال، وأردفهم في محامل بغير وطء، وجعفر الصادق يعاينهم من وراء ستر ويبكي. وجاء محمد وإبراهيم مع أبيهما عَبْد الله يسايرانه مستترين بزي الأعراب ويستأذنانه في الخروج فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما، وإنا منعتما أن تعيشا كريمين فلا تمنعا أن تموتا كريمين، وانتهوا إلي الزيدية. وأحضر العثماني الديقا عند المنصور فضربه مائة وخمسين سوط بعد ملاحاة جرت بينهما أغضبت المنصور. ويقال: إن رباحاً أغرى المنصور به، وقال له: إن أهل الشام شيعته ولا يتخلف عنه منهم أحد. ثم كتب أبو عون عامل خراسان إلي المنصور، بأن أهل خراسان منتظرون أمر محمد بن عَبْد الله واحذر منهم. فأمر المنصور بقتل العثماني، وبعث برأسه إلي خراسان، وبعث من يحلف أنه رأس محمد بن عَبْد الله، وأن أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قدم المنصور بهم الكوفة، وحبسهم بقصر ابن هبيرة. يقال إنه قتل محمد بن إبراهيم بن حسن منهم على إسطوانة وهو حي فمات، ثم بعده عَبْد الله بن حسن ثم علي بن حسن، ويقال: إن المنصور أمر بهم فقتلوا، و لم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله إبنا داود، وإسحق وإسمعيل إبنا إبراهيم بن حسن، وجعفر بن حسن والله أعلم.

ظهور محمد المهدي ومقتله:

ولما سار المنصور إلي العراق، وحمل معه بني حسن، رجع رباح إلي المدينة وألح في طلب محمد وهو مختف يتنقل في اختفائه من مكان إلي مكان، وقد أرهقه الطلب حتى تدلى في بئر. فتدلى فغمس في مائها، وحتى سقط ابنه من جبل فتقطع، ودل عليه رباح بالمداد، فركب في طلبه فاختفى عنه و لم يره. ولما اشتد عليه الطلب، أجمع الخروج وأغراه أصحابه بذلك. وجاء الخبر إلي رباح بأنه الليلة خارج، فأحضر العباس بن عَبْد الله بن الحرث بن العباس، ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة وغيرهما، وقال لهم: أمير المؤمنين يطلب محمداً شرق الأرض وغربها، وهو بين أظهركم. والله لئن خرج ليقتلنكم أجمعين. وأمر القاضي بإحضار عشيرة بني زهرة فجاؤا في جمع كثير، وأجلسهم بالباب. ثم أحضر نفراً من العلويين فيهم جعفر بن محمد بن الحسين وحسين بن عليّ بن حسين بن عليّ، ورجال من قُرَيْش، فيهم إسمعيل بن أيوب بن سلمة بن عَبْد الله بن الوليد بن المغيرة، وإبنه خالد، وبينما هم عنده إذ سمعوا التكبير، وقيل قد خرج محمد فقال له ، ابن مسلم بن عقبة: أطعني واضرب أعناق هؤلاء فأبى، وأقبل من المداد في مائة وخمسين رجلاً، وقصد السجن، فأخرج محمد بن خالد بن عَبْد الله القسريّ، وابن أخيه النذير بن يزيد ومن كان معهم، وجعل على الرجالة خوات بن جبير، وأتى دار الإمارة وهو ينادي بالكف عن القتل. فدخلوا من باب المقصورة وقبضوا على رباح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة فحبسهم، ثم خرج إلي المسجد وخطب الناس، وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصر بهم. واستعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى قضائها عَبْد العزيز بن المطلب بن عَبْد الله المخزوميّ، وعلى بيت السلاح عَبْد العزيز الدراوردي، وعلى الشرط أبا الغلمش عثمان بن عبيد الله بن عَبْد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عَبْد الله بن جعفر بن عَبْد الرحمن بن المسور بن مخرمة، وأرسل إلي محمد بن عَبْد العزيز يلومه على القعود عنه، فوعده بالبصرة، وسار

إلي مكة، و لم يتخلف عن محمد من وجوه الناس إلا نفر قليل: منهم: الضحاك بن عثمان بن عَبْد الله بن خالد بن حرام، وعبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عَبْد الله بن خالد، وأبو سلمة بن عبيد الله بن عَبْد الله بن عمر، وحبيب بن ثابت بن عَبْد الله بن الزبير، واستفتى أهل المدينة مالكاً في الخروج مع محمد وقالوا: في أعناقنا بيعة المنصور، فقال: إنما بايعتم مكرهين. فتسارع الناس إلي محمد، ولزم مالك بيته، وأرسل محمد إلي إسمعيل بن عَبْد الله بن جعفر يدعوه إلي بيعته، وكان شيخاً كبيراً فقال: أنت والله وابن أخي مقتول فكيف أبايعك؟ فرجع الناس عنه قليلاً، وأسرع بنو معاوية بن عَبْد الله بن جعفر إلي محمد، فجاءت جمادة أختهم إلي عمها إسمعيل وقالت: يا عم إن مقالتك ثبطت الناس عن محمد وأخوتي معه، فأخشى أن يقتلوا فردها. فيقال: إنها عدت عليه فقتلته، ثم حبس محمد بن خالد القسريّ بعد أن أطلقه واتهمه بالكتاب إلي المنصور، فلم يزل في حبسه. ولما استوى أمر محمد، ركب رجل من آل اويس بن أبي سرح إسمه الحسين بن صخر، وجاء إلي المنصور في تسع فخبره الخبر، فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم، وكلمته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم تتابع الخبر، وأشفق المنصور من أمره، واستشار أهل بيته ودولته. وبعث إلي عمه عَبْد الله وهو محبوس يستشيره، فأشار عليه بأن يقصد الكوفه، فإنهم شيعة لأهل البيت، فيملك عليهم أمرهم، ويحفها بالمسالح حتى يعرف الداخل والخارج، ويستدعي سالم بن قتيبة من الري فيتحد معه كافة أهل الشام ويبعثه، وأن يبعث العطاء في الناس. فخرج المنصور إلي الكوفة، ومعه عبد الله بن الربيع بن عَبْد الله بن عَبْد المدان. ولما قدم الكوفة أرسل إلي يزيد بن يحيى وكان السفاح يشاوره، فأشار عليه بأن يشحن الأهواز بالجنود، وأشار عليه جعفر بن حنظلة الهرّاني بأن يبث الجند إلي البصرة. فلما ظهر إبراهيم بتلك الناحية تبيّن وجه إشارتهما. وقال المنصور لجعفر: كيف خفت البصرة؟ قال: لأن أهل المدينة ليسوا أهل حرب حبسهم أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء الطالبيين، و لم

يبق إلا البصرة. ثم إن المنصور كتب إلي محمد المهديّ كتاب أمان، فأجابه عنه بالردّ والتعريض بأمور في الأنساب والأحوال، فأجابه المنصور عن كتابه بمثل ذلك، وانتصف كل واحد منهما لنفسه بما ينبغي الإعراض عنه، مع أنهما صحيحان مرويان نقلهما الطبري في كتاب الكامل، فمن أراد الوقوف فليلتمسها في أماكنها. ثم إنّ محمداً المهديّ استعمل على مكة محمد بن الحسن بن معاوية بن عَبْد الله بن جعفر، وعلى اليمن القاسم بن إسحق، وعلى الشام موسى بن عَبْد الله. فسار محمد بن الحسن إلي مكة، والقاسم معه، ولقيهما السريّذ بن عَبْد الله عامل مكة ببطن أذاخر، فانهزم. وملك محمد مكة، حتى استنفره المهديّ لقتال عيسى بن موسى، فنفر هو والقاسم بن عبيد الله، وبلغهما قتل محمد بنواحي قديد، فلحق محمد بإبراهيم، فكان معه بالبصرة. واختفى القاسم بالمدينة، حتى أخذت له الأمان إمرأة عيسى، وهي بنت عَبْد الله بن محمد بن عليّ بن عَبْد الله بن جعفر. وأمَّا موسى بن عَبْد الله فسار إلي الشام فلم يقبلوا منه، فرجع إلي المدينة. ثم لحق بالبصرة مختفياً، وعثر عليه محمد بن سليمان بن عليّ، وعلى إبنه عَبْد الله، وبعث بهما إلي المنصور، فضربهما وحبسهما. ثم بعث المنصور عيسى بن موسى إلي المدينة لقتال محمد فسار في الجنود ومعه محمد بن أبي العباس بن السفّاح، وكثّير

بن حصين العبديّ وحميد بن قحطبة وهو زمرّد وغيرهم، فقال له: إن ظفرت فأغمد سيفك وابذل الأمان، وإن تغيب فخذ أهل المدينة فإنهم يعرفون مذاهبه، ومن لقيك من آل أبي طالب فعرفني به، ومن لم يلقك فاقبض ماله. وكان جعفر الصادق فيمن تغيب، فقبض ماله. ويقال إنه طلبه من المنصور لما قدم بالمدينة بعد ذلك، فقال: قبضه مهديكم. ولما وصل عيسى إلي فئته، كتب إلي نفر من أهل المدينة ليستدعيهم، منهم: عَبْد العزيز بن المطلب المخزومي، وعبيد الله بن محمد بن صَفْوان الجمحي، وعبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب. فخرج إليه عَبْد الله هو وأخوه عمر، وأبو عقيل محمد بن عَبْد الله بن محمد بن عقيل. واستشار المهديّ أصحابه في القيام بالمدينة ثم في الخندق عليها، فأمر بذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وحفر الخندق الذي حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم للأحزاب. ونزل عيسى الأعرض، وكان محمد قد منع الناس من الخروج

فخيرهم، فخرج كثير منهم بأهلهم إلي الجبال، وبقي في شرذمة يسيرة. ثم تدارك رأيه وأمر أبا الغلمش بردهم فأعجزوه، ونزل عيسى على أربعة أميال من المدينة، وبعث عسكراً إلي طريق مكة يعترضون محمداً إن انهزم إلي مكة، وأرسل إلي المهدي بالأمان والدعاء إلي الكتاب والسنة، ويحذره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى بالحرف لإثنتي عشرة من رمضان سنة خمس وأربعين، فقام يومين، ثم وقف على مسلم ونادى بالأمان لأهل المدينة، وأن يخفوا بينه وبين صاحبه، فشتموه، فانصرف وعاد من الغد، وقد فرّق القوّاد من سائر جهات المدينة وبرز محمد في أصحابه ورأية مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وشعارهم أحد أحد. وطلب أبو الغلمش من أصحابه البراز فبرز إليه أخو أسد فقتله، ثم آخر فقتلوا، وقال أنا ابن الفاروق. وأبلى محمد المهدي يومئذ بلاءً عظيماً، وقتل بيده سبعين رجلاً. ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قحطبة فتقدم في مائة من الرجال إلي حائط دون الخندق فهدمه، وأجازوا الخندق وقاتلوا من وراءه، وصابرهم أصاب محمد إلي العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فرموا الخندق بالحقائب، ونصبوا عليها الأبواب، وجازت الخيل واقتتلوا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنط. ثم رجع فقال: اترك أهل المدينة والله لا أفعل وأقتل، وأنت مني في سعة، فمشى قليلاً معه. ثم رجع وافترق عنه جل أصحابه، وبقي في ثلثمائة أو نحوها. فقال له بعض أصحابه: نحن اليوم في عدة أهل بدر، وطفق عيسى بن حصين من أصحابه يناشده في اللحاق بالبصرة أو غيرها، فيقول والله لا تبتلون بي مرتين. ثم جمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعهم. وجاء إلي السجن وقتل رياح بن عثمان وأخاه عباساً، وابن مسلم بن عقبة، وتوثق محمد بن القسريّ بالأبواب فلم يصلوا إليه. ورجع ابن حصين إلي محمد فقاتل معه، وتقدم محمد إلي بطن سلع، ومعه بنو شجاع من الخمس. فعرقبوا دوابهم، وكسروا جفون سيوفهم، واستماتوا وهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثة. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل، وانحدروا منه إلي المدينة. ورفع بعض نسوة إلي العباس خماراً لها أسود على منارة المسجد. فلما رآه أصحاب محمد وهم

يقاتلون هربوا، وفتح بنو غفّار طريقاً لأصحاب عيسى، فجاؤا من وراء أصحاب محمد. ونادى حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن حصين بالأمان فلم يصغ إليه، وكثرت فيه الجراح. ثم قتل وقاتل محمد على شلوه فهدّ الناس عنه هداً حتى ضرب، فسقط لركبته وطعنه ابن قحطبة في صدره. ثم أخذ رأسه وأتى به عيسى فبعثه إلي المنصور مع محمد بن الكرام عَبْد الله بن علي بن عَبْد الله بن جعفر، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن، وأرسل معه رؤوس بني شجاع، وكان قتل محمد منتصف رمضان. وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة للأمان، وصلب محمد وأصحابه ما بين ثنية الوداع والمدينة، واستأذنت زينب أخته في دفنه بالبقيع، وقطع المنصور الميرة في الجر عن المدينة، حتى أذن فيها المهديّ بعده، وكان مع المهديّ سيف عليّ ذو الفقار، فأعطاه يومئذ رجلاً من التجار في دين كان له عليه. فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة، أخذه منه وأعطاه من دينه. ثم أخذه منه المهديّ، وكان الرشيد يتقلده وكان فيه ثمان عشرة فقرة، وكان معه من مشاهير بني هاشم أخو موسى وحمزة بن عَبْد الله بن محمد بن علي بن الحسين، وحسين وعلي إبنا زيد بن علي. وكان المنصور يقول عجباً خرجا عليّ ونحن أخذنا بثأر أبيهما. وكان معه عليّ وزيد إبنا الحسن بن زيد بن الحسن، وأبوهما الحسن مع المنصور والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عَبْد الله بن جعفر، والقاسم بن إسحق بن عَبْد الله بن جعفر والمرحى عليّ بن جعفر بن إسحق بن علي بن عَبْد الله بن جعفر وأبوه عليّ مع المنصور، ومن غير بني هاشم محمد بن عَبْد الله بن عمر بن سعيد بن العاص، ومحمد بن عجلان وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، وأبو بكر بن عَبْد الله بن محمد بن أبي سبرة، أخذ أسيراً فضرب وحبس في سجن المدينة، فلم يزل محبوساً إلي أن نازل السودان بالمدينة على عَبْد الله بن الربيع الحارثي، وفر عنها إلي بطن نخل، وملكوا المدينة ونهبوا طعام المنصور. فخرج ابن أبي سبرة مقيداً وأتى المسجد، وبعث إلي محمد بن عمران ومحمد بن عَبْد العزيز وغيرهما، وبعثوا إلي السودان وردوهم عما

كانوا فيه، فرجعوا و لم يصلّ الناس يومئذ جمعة. ووقف الأصبغ بن أبي سفيان بن عاصم بن عَبْد العزيز لصلاة العشاء، ونادى أصلى بالناس على طاعة أمير المؤمنين، وصلى. ثم أصبح ابن أبي سبرة ورد من العبيد ما نهبوه، ورجع ابن الربيع، من بطن نخل، وقطع رؤساء العبيد. وكان مع محمد بن عَبْد الله أيضاً عَبْد الواحد بن أبي عون مولى الأزد، وعبد الله بن جعفر بن عَبْد الرحمن بن المسور بن مخرمة، وعبد العزيز بن محمد الدراورديّ، وعبد الحميد بن جعفر، وعبد الله بن عطاء بن يعقوب مولى بني سباع وبنوه تسعة، وعيسى وعثمان إبنا خضير. وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير قتله المنصور من بعد ذلك لّما أخذ بالبصرة، وعبد العزيز بن إبراهيم بن عَبْد الله بن مطيع وعليّ بن المطلب بن عَبْد الله بن حنطب، وإبراهيم بن جعفر بن مصعب بن الزبير، وهشام بن عميرة بن الوليد بن بن عَبْد الجبار وعبد الله بن يزيد بن هرمز وغيرهم.

شأن إبراهيم بن عَبْد الله وظهوره ومقتله:

كان إبراهيم بن عَبْد الله أخو المهديّ محمد قد اشتد الطلب عليه وعلى أخيه منذ خمس سنين، وكان إبراهيم يتنقل في النواحي بفارس وبكرمان والجبل والحجاز واليمن والشام، وحضر مرّة مائدة المنصور بالموصل، وجاء

أخرى إلي بغداد حين خطها المنصور مع النظار على قنطرة الفرات حين شدها، وطلبه فغاض في الناس فلم يوجد، ووضع عليه الرصد بكل مكان. ودخل بيت سفيان بن حيان العمي وكان معروفاً بصحبته، فتحيل على خلاصه بأن أتى المنصور وقال: أنا آتيك بإبراهيم، فاحملني وغلامي على البريد، وابعث معي الجند ففعل. وجاء بالجند إلي البيت، وأركب معه إبراهيم في زي غلامه، وذهب بالجند إلي البصرة، و لم يزل يفرقهم على البيوت ويدخلها موهماً أنه يفتشه، حتى بقي وحده فاختفى.

وطلبه أمير البصرة سفيان بن معاوية فأعجزه، وكان قدم قبل ذلك الأهواز، فطلبه محمد بن حصين، واختفى منه عند

الحسن بن حبيب، ولقي من ذلك غيًّا. ثم قدم إبراهيم البصرة سنة خمس وأربعين، بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة يحيى بن زياد بن حسان النبطي، وأنزله بداره في بني ليث. فدعا الناس إلي بيعة أخيه، وكان أول من بايعه نميلة بن مرّة العبسيّ، وعبد الله بن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمر بن سلمة الهجيمي، وعبد الله بن حي بن حصين الرَّقاشي، وبثوا دعوته في الناس، واجتمع لهم كثير من الفقهاء. وأهل العلم. وأحصى ديوانه أربعة آلاف، واشتهر أمره. ثم حوّلوه إلي وسط البصرة. ونزل دار أبي مروان مولى بني سليم في مقبرة بني يشكر وليقرب من الناس، وولاه سفيان أمير البصرة على أمره. وكتب إليه أخوه محمد يأمره بالظهور، وكان المنصور بظاهر، وأرسل من القوّاد مدّد السفيان على إبراهيم أن ظهر، ثم إن إبراهيم خرج أول رمضان من سنة خمس وأربعين، وصلى الصبح في الجامع، وجاء دار الإمارة بابن سفيان وحبسه وحبس القوّاد معه، وجاء جعفر ومحمد إبنا سليمان بن عليّ في ستمائة رجل. وأرسل إبراهيم إليها المعين بن القاسم الحدروري في خمسين رجلاً فهزمهما إلي باب زينب بنت سليمان بن عليّ، وإليها ينسب الزينبيون من بني العباس. فنادى بالأمان وأخذ من بيت المال ألفي ألف درهم، وفرض لكل رجل من أصحابه خمسين. ثم أرسل المغيرة على الأهواز في مائة رجل، فغلب عليها محمد بن الحصين وهو في أربعة آلاف. وأرسل عمر بن شدّاد إلي فارس وبها إسمعيل وعبد الصمد إبنا عليّ، فتحصنا في دار بجرد، وملك عمر نواحيها، فأرسل هرون بن شمس العجلي في سبعة عشر ألفاً إلي واسط، فغلب عليها هرون بن حميد الإيادي وملكها. وأرسل المنصور لحربه عامر بن إسمعيل في خمسه آلاف، وقيل في عشرين. فاقتتلوا أياماً ثم تهادنوا حتى يروا مآل الأميرين المنصور وإبراهيم. ثم جاء نعي محمد إلي أخيه إبراهيم قبل الفطر، فصلى يوم العيد وأخبرهم، فازدادوا حنقاً على المنصور. ونفر في حره وعسكر من الغد، واستخلف على البصرة غيلة وابنه حسناً معه. وأشار عليه أصحابه من أهل البصرة بالمقام، وإرسال الجنود وإمدادهم واحداً بعد واحد. وأشار أهل الكوفة باللحوق إليها لأن الناس في انتظارك، ولو رأوك ما توانوا عنك، فسار. وكتب المنصور إلي عيسى بن موسى بإسراع العود وإلى مسلم بن قتيبة بالري، وإلى سالم بقصد إبراهيم، وضم إليه غيرها من القواد. وكتب إلي المهديّ بإنفاذ خزيمة بن خازم إلى الأهواز وفارس والمدائن وواسط

والسواد، وإلى جانبه أهل الكوفة في مائة ألف يتربصون به. ثم رمى كل ناحية بحجرها، وأقام خمسين يوماً على مصلاه، ويجلس ولم ينزع عنه جبته ولا قميصه وقد توسخا، ويلبس السواد إذا ظهر للناس، وينزعه إذا دخل بيته. وأهديت له من المدينة إمرأتان فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبد الله، وأمة الكريم بنت عَبْد الله من ولد خالد بن أسيد فلم يحفل بهما. وقال: ليست هذه أيام نساء حتى أنظر رأس إبراهيم إليّ أو رأسي له. وقدم عليه عيسى بن موسى فبعثه لحرب إبراهيم في خمسة عشر ألفاً، وعلى مقدّمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف وسار إبراهيم من البصرة ومائة ألف حتى نزلا بإزاء عيسى بن موسى على ستة عشر فرسخاً من الكوفة، وأرسل إليه مسلم بن قتيبة بأن يخندق على نفسه أو يخالف عيسى إلي المنصور فهو في حف من الجنون، ويكون أسهل عليك. فعرض ذلك إبراهيم على أصحابه فقالوا: نحن هرون وأبو جعفر في أيدينا! فأسمع ذلك رسول سالم فرجع، ثم تصافوا للقتال. وأشار عليه بعض أصحابه أن يجعلهم كراديس، ليكون أثبت، والصف إذا انهزم بعضه تداعى سائره، فأبى إبراهيم إلا الصف صف أهل الإسلام، ووافقه بقية أصحابه. ثم اقتتلوا وانهزم حميد بن قحطبة، وانهزم معه الناس، وعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة، فقال لهم حميد: لا طاعة في الهزيمة. ولم يبق مع عيسى إلا فل قليل، فثبت واستمات. وبينما هو كذلك إذ قدم جعفر ومحمد بن سليمان بن عليّ، وجاء من وراء إبراهيم وأصحابه، فانعطفوا لقتالهم واتبعهم أصحاب عيسى. ورجع المنهزمون من أصحابه بأجمعهم، اعترضهم إمامهم، فلا يطيقون مخافة ولا وثوبة، فانهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في ستمائة أو أربعمائة من أصحابه وحميد يقاتله. ثم أصابه سهم بنحره، فأنزلوه واجتمعوا عليه. وقال حميد: شدّوا على تلك الجماعة فأحصروهم عن إبراهيم، وقطعوا رأسه وجاؤا به إلي عيسى، فسجد وبعثه إلي المنصور، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة الحرام سنة خمس وأربعين، ولما وضع رأسه بين يدي المنصور بكى وقال: والله إني كنت لهذا كارها ولكني ابتليت بك وابتليت بي. ثم جلس للعامة فأذن للناس فدخلوا، ومنهم من يثلب إبراهيم مرضاة للمنصور، حتى دخل جعفر بن حنظلة الهراني فسلم ثم قال: عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقك، فتهلل وجه المنصور وأقبل عليه وكناه بأبي خالد واستدناه.

بناء مدينة بغداد:

وابتدأ المنصور سنة ست وأربعين في بناء مدينة بغداد، وسبب ذلك ثورة الراوندية عليه بالهاشمية، ولأنه كان يكره أهل الكوفة، ولا يأمن على نفسه منهم. فتجافى عن جوارهم وسار إلي مكان بغداد اليوم، وجمع من كان هنالك من البطارقة، فسألهم عن أحوال مواضعهم في الحرّ والبرد والمطر والوحل والهوام، واستشارهم فأشاروا عليه بمكانها. وقالوا تجيئك الميرة في السفن من الشام والرّقة ومصر والمغرب إلي المصرات. ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل في دجلة. ومن أرمينية وما اتصل بها في تامر حتى يتصل بالزاب. وأنت بين أنهار كالخنادق لا تعبر إلا على القناطي والجسور. وإذا قطعتها لم يكن لعدوك مطمع، وأنت متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل، قريب من البر والبحر والجبل. فشرع المنصور في

عمارتها. وكب إلي الشام والجبل والكوفة وواسط والبصرة في الصنّاع والفعلة واختار من ذوي الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة، فأحضرهم لذلك، منهم: الحجاج بن أرطاة، وأبو حنيفة الفقيه. وأمر بخطها بالرماد، فشكلت أبوابها وفضلاتها وطاقاتها ونواحيها، وجعل على الرماد حب القطن. فأضرم ناراً ثم نظر إليها وهي تشتعل، فعرف رسمها وأمر أن تحفر الأسس على ذلك الرسم. ووكل بها أربعة من القواد يتولى كل واحد منهم ناحية. ووكل أبا حنيفة بعدّ الآجر واللبن. وكان أراده على القضاء والمظالم لأبى. فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل له عملاً، فكان هذا. وأمر المنصور أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين، وجعل في البناء القصب والخشب، ووضع بيده أّول لبنة وقال(بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.) ثم قال ابنوا على بركة الله، فلما بلغ مقدار قامة جاء الخبر بظهور محمد المهديّ، فقطع البناء وسار إلي الكوفة حتى فرغ من حرب محمد وأخيه، ورجع من مدينة ابن هبيرة إلي بغداد واستمر في بنائها، واستشار خالد بن برمك في نقض المدائن والإيوان. فقال: لا أرى ذلك لأنه من آثار الإسلام وفتوح العرب، وفيه مصفى عليّ بن أبي طالب، فاتهمه بمحبة العجم، وأمر

بنقض القصر الأبيض، فإذا الذي ينفق في نقضه أكثر من ثمن الجديد فأقصر عنه. فقال خالد: لا أرى إقصارك عنه لئلا يقال عجزوا عن هدم ما بناه غيرهم، فأعرض عنه ونقل الأبواب إلي بغداد من واسط ومن الشام ومن الكوفة، وجعل المدينة مدورة، وجعل قصره وسطها ليكون الناس منه على حد سواء. وجعل المسجد الجامع بجانب القصر وعمل لها سورين، والداخل أعلى من الخارج. ووضع الحجاج بن أرطاة قبلة المسجد، وكان وزن اللبنة التي يبني بها مائة رطل وسبعة عشر رطلاً وطولها ذراع في ذراع، وكانت بيوت جماعة من الكتاب والقواد تشرع أبوابها إلي رحبة الجامع، وكانت الأسواق داخل المدينة فأخرجهم إلي ناحية الكرخ لّما كان الغرباء يطرقونها ويبيتون فيها، وجعل الطرق أربعين ذراعاً، وكان مقدار النفقة عليها في المسجد والقصر والأسواق والفضلان والخنادق والأبواب أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم. وكان الأستاذ من البنائين يعمل يومه بقيراط، والروز كاري بحبتين، وحاسب القواد عند الفراغ منها فألزم كلاًّ بما بقي عنده، وأخذه حتى أخذ من خالد بن الصلت منهم خمسة عشر درهما بعد أن حبسه عليها.

العهد للمهدي وخلع عيسي بن موسي :

كان السفّاح قد عهد إلي عيسى بن موسى بن عليّ وولاه على الكوفة فلم يزل عليها، فلما كبر المهديّ أراد المنصور أبوه أن يقدمه في العهد على عيسى، وكان يكرمه في جلوسه فيجلس عن يمينه والمهدي عن يساره، فكلمه في التأخر عن المهديّ في العهد فقال: يا أمير المؤمنين كيف بالإيمان التى عليّ وعلى المسلمين وأبى ذلك، فتغير له المنصور وباعده بعض الشيء. وصار يأذن للمهديّ قبله ولعمه عيسى بن عليّ وعبد الصمد. ثم يدخل عيسى فيجلس تحت المهديّ واستمر المنصور على التنكر له وعزله عن الكوفة لثلاث عشرة سنة من ولايته، وولى مكانه محمد بن سليمان بن علي، ثم راجع عيسى نفسه فبايع المنصور للمهديّ بالعهد، وجعل عيسى من

بعده. ويقال: إنه أعطاه أحد عشر ألف ألف درهم، ووضع الجند في الطرقات لأذاه وإشهاد خالد بن برمك عليه جماعة من الشيعة بالخلع تركت جميعها لأنها لا تليق بالمنصور وعدالته المقطوع بها فلا يصح من تلك الأخبار شيء.

خروج استادسيس:

كان رجل ادعى النبوَّة في جهات خراسان فاجتمع إليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان، وسار إليه الأخثم عامل مرو الروذ في العساكر، فقاتل الأخثم وعامة أصحابه، وتتابع القواد في لقائه فهزمهم. وبعث المنصور وهو بالبرداق خازم بن خزيمة إلي المهديّ في إثني عشر ألفاً، فولاه المهدي حربه فزحف إليه في عشرين ألفاً. وجعل على ميمته الهيثم بن شبة بن ظهير، وعلى ميسرته نهار بن حصن السعدي، وفي مقدمته بكّار بن مسلم العقيلي، ودفع لواءه للزبرقان. ثم راوغهم في المزاحفة وجاء إلي موضع فخندق عليه وجعل له أربعة أبواب، وأتى أصحاب أستادسيس بالفؤس والمواعيل ليطموا الخندق، فبدؤا بالباب الذي يلي بكّار بن مسلم، فقاتلهم بكّار وأصحابه حتى ردّوهم عن بابهم. فأقبلوا على باب خازم وتقدم منهم الحريش من أهل سجستان، فأمر خازم الهيثم بن شعبة أن يخرج من باب بكّار ويأتي العدو من خلفهم، وكانوا متوقعين قدوم أبي عون وعمر بن مسلم بن قتيبة وخرج خازم على الحريش واشتد قتاله معهم. وبدت أعلام الهيثم من ورائهم، فكبر أهل العسكر وحملوا عليهم فكشفوهم، ولقيهم أصحاب الهيثم فاستمر فيهم القتال، فقتل سبعون ألفاً وأسر أربعة عشر، وتحصّن أستادسيس على حكم أبي عون، فحكم بأن يوثق هو وبنوه ويعتق الباقون، وكتب إلي المهديّ بذلك فكتب المهديّ إلي المنصور. ويقال: إنّ أستادسيس أبو مراجل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون الذي قتل الفضل بن سهل.

ولاية هشام بن عمرو الثغلبي على السند:

كان على السند أيام المنصور عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة ويلقب مرامى - يعني ألف رجل - ولما كان من أمر المهديّ ما قدمناه بعث ابنه عَبْد الله

الأشتر إلي البصرة ليدعو له، فسار من هنالك إلي عمر بن حفص وكان يتشيع فأهدى له خيلاً يمكن بها من لقائه. ثم دعاه فأجاب وبايع له وأنزله عنده مختفياً ودعا القوّاد وأهل البلد فأجابوا فمزق الأعلام، وهيأ لبسة من البياض يخطب فيها، وهو في ذلك إذ فجأه الخبر بقتل المهديّ، فدخل على ابنه أشتر وعزاه. فقال له الله في دمي فأشار عليه باللحاق بملك من ملوك السند عظيم المملكة كان يعظم جهة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان معروفاً بالوفاء، فأرسل إليه بعد أن عاهده عليه، واستقر عند ذلك الملك. وتسلل إليه جماعة من الزيدية نحواً من أربعمائة، وبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب إلي عمر بن حفص بعزله وأقام يفكر فيمن يوليه السند وعرض له يوماً هشام بن عمرو الثغلبي وهو راكب، ثم اتبعه إلي بيته وعرض عليه أخته، فقال للربيع: لو كانت لي حاجة في النكاح لقبلت فجزاك الله خيراً، وقد وليتك السند فتجهز لها، وأمره أن يحارب ملك السند ويسلم إليه الأشتر ففعل، وأقام المنصور يستحثه. ثم خرجت خارجة بالسند فبعث هشام أخاه سفيحاً لحسم

الداء عنها، فمر بنواحي ذلك الملك، فوجد الأشتر يتنزه في شاطىء همذان في عشرة من الفرسان فجاء ليأخذه فقاتلهم حتى قتل وقتل أصحابه جميعاً. وكب هشام بذلك إلي المنصور. فشكره وأمر بمحاربة ذلك الملك فظفر به وغلب على مملكته، وبعث بسراريّ عَبْد الله الأشتر ومعه ولد منه إسمه عَبْد الله بعث بهم المنصور إلي المدينة وأسلمه إلي أهله. ولما ولّى هشام بى عمر على السند وعزل عمر بن حفص عنها. ثم حدث فتق بإفريقية بعثه إلي سدّه كما سيأتي في أخبارها.

بناء الرصافة للمهدي:

ولما رجع المهديّ من خراسان قدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة فأجازهم وكساهم وحملهم وكذلك المنصور. ثم شعب عليهم الجند فأشار عليهم قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بأن يفرق بينهم ويستكفيه في ذلك، وأمر بعض غلمانه أن يعترضه بدار الخلافة ويسأله بحق الله ورسله والعباس وأمير المؤمنين أبي الحسين من أشرف اليمن أم مضر؟ فقال: مضر كان منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها كتاب الله وعندها بيت الله ومنها خليفة الله، لغضب اليمن إذ لم يذكر لها

فضلاً. ثم كبح بعضهم بغلة قثم فامتنعت مضر وقطعوا الذي كبحها، فتشاجر الحيان وتعصبت لليمن ربيعة والخراسانية للدولة وأصبحوا أربع فرق، وقال قثم للمنصور: إضرب كل واحدة بالأخرى وسير لابنك المهديّ فلل أمير له بجنده فيتناظرون في أهل مدينتك، فقبل رأيه وأمر صالحاً صاحب المصلى ببناء الرصافة للمهديً.

مقتل معن بن زائدة :

كان المنصور قد ولى على سجستان معن بن زائدة الشيباني وأرسل إلي رتبيل في الضريبة التي عليه فبعث بها عروضاً زائدة الثمن، فغضب معن وسار إلي الرخج على مقدمته يزيد ابن أخيه يزيد، ففتحها وسبى أهلها وقتلهم، ومضى رتبيل إلي عزمه، وانصرف معن إلي بست فشتى بها. ونكر قوم من الخوارج سيرته فهجموا عليه وفتكوا به في بيته. وقام يزيد بأمر سجستان وقتل قاتليه واشتدّت على أهل البلاد وطأته، فتحيل بعضهم بأن كتب المنصور على لسانه كتاباً يتضجر من كتب المهديّ إليه ويسأله أن يعفى من معاملته. فأغضب ذلك المنصور وأقرأ المهديّ كتابه وعزله وحبسه، ثم شفع فيه شخص إلي مدينة السلام فلم يزل مجفواً حتى بعث إلي يوسف البرم بخراسان كما يذكر بعد.

العمال علي النواحي أيام السفّاح والمنصور:

كان السفّاح قد ولّى عند بيعته على الكوفة عمه داود بن عليّ، وجعل على حجابته عَبْد الله بن بسّام وعلى شرطته موسى بن كعب، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك، وبعث عمه عَبْد الله قتال مروان مع أبي عون بن يزيد بن قحطبة تقدمة. وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلي المدائن، وكان أحمد بن قحطبة تقدمة، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن عمّار بن ياسر إلي الأهواز مدّداً لبسام بن إبراهيم،

ودفع ولاية خراسان إلي أبي مسلم، فولى أبو مسلم عليها إياداً وخالد بن إبراهيم، وبعث عمّه عَبْد الله في مقدمته لحرب مروان أخاه صالحاً ومعه أبو عون بن يزيد، فلما ظفر وانصرف ترك أبا عون يزيد بمصر واستقل

عَبْد الله بولاية الشام. وولّى السفّاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، فولّذى على أرمينية يزيد بن أسد وعلى أذربيجان محمد بن صول ونزل الجزيرة. وكان أبو مسلم ولّى على فارس محمد بن الأشعث حين قتل أبا مسلمة الخلاّل، فبعث السفّاح عليها عيسى فمنعه محمد بن الأشعث واستخلفه على الولاية، فبعث عليها عمّه إسمعيل. وولّى على الكوفة ابن أخته موسى، وعلى البصرة سفيان بن معاوية المهلبيّ وعلى السند منصور بن جمهور ونقل عمه داود إلي ولاية الحجاز واليمن واليمامة. ثم ولى على البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين وعمان. وتوفي داود بن عليّ سنة ثلاث وثلاثين، فولّى مكانه على اليمن محمد بن يزيد بن عَبْد الله بن عَبْد المدان، وعلى مكة والمدينة والطائف واليمامة خاله زياد بن عَبْد الله بن عَبْد المدان الحارثي وهو عم محمد بن يزيد. وفيها بعث محمد بن الأشعث إلي إفريقية ففتحها. وفي سنة أربع وثلاثين بعث صاحب الشرطة موسى بن كعب لقتال منصور بن جمهور، وولاّه مكانه على السند، فاستخلف مكانه على الشرطة المسيب بن زهير. وتوفي عامل اليمن محمد بن يزيد فولّى مكانه عليّ بن الربيع بن عبيد الله الحارثيّ. ولما استخلف المنصور وانتقض عَبْد الله بن علي وأبو مسلم ولّى على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم وعلى مصر صالح بن علي وعلى الشام عَبْد الله بن عليّ. ثم هلك خالد بن إبراهيم سنة أربعين فولى مكانه عَبْد الجبار بن عَبْد الرحمن فانتقض لسنة من ولايته، فبعث المنصور ابنه المهديّ على خراسان وفي مقدمته خازم بن خزيمة فظفر بعبد الجبار. وتوفي سليمان عامل البصرة سنة أربعين فولى مكانه سفيان بن معاوية، ومات موسى بن كعب بالسِّند وولّى مكانه ابنه عيينة فانتقض، فبعث المنصور مكانه عمر بن حفص بن أبي صفرة. وولّى على مصر في هذه السنة حميد بن قحطبة، وولّى على الجزيرة والثغور والعواصم أخاه العباس بن محمد وكان بها يزيد بن أسيد، وعزل عمه إسمعيل عن الموصل وولّىّ مكانه مالك بن الهيثم الخزاعيّ. وفي سنة ست وأربعين عزل الهيثم بن معاوية وولّى على مكة والطائف مكانه السريّ بن عَبْد الله بن الحرث بن العبّاس نقله إليها من اليمامة، وولّى مكانه من اليمن قثم بن العبّاس بن عَبْد الله بن العبّاس، وعزل حميد بن قحطبة عن مصر وولّى مكانه نوفل بن الفرات. ثم عزله وولّى مكانه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة. وولّى على المدينة محمد بن خالد بن عَبْد الله القسريّ، ثم اهمه في أمر ابن أبي الحسن فعزله، وولّى مكانه رباح بن عثمان المزنيّ. ولما قتله أصحاب محمد المهديّ ولّى مكانه عَبْد الله بن الربيع الحارثي. ولما قتل إبراهيم أخو المهدي سنة خمس وأربعين ولّى المنصور على البصرة سالم بن قتيبة الباهليّ، وولّى على الموصل ابنه جعفراً مكان مالك بن الهيثم، وبعث معه حرب بن عَبْد الله من أكابر قوّاده. ثم عزل سالم بن قتيبة عن البصرة سنة ست وأربعين، وولّى مكانه محمد بن سليمان، وعزل عَبْد الله بن الربيع عن المدينة، وولّى مكانه جعفر بن سليمان، وعزل السريّ بن عَبْد الله عن مكة وولّى مكانه عمه عَبْد الصمد بن عليّ، وولّى سنة سبع وأربعين على الكوفة محمد بن سليمان مكان عيسى بن موسى لمّا سخطه بسبب العهد. وولّى مكان محمد بن سليمان على البصرة محمد بن السفّاح، فاستعفاه ورجع إلي بغداد فمات، واستخلف بها عقبة بن سالم فأقّره. وولّى على المدينة جعفر بن سليمان، وولّى سنة ثمان وأربعين على الموصل خالد بن برمك لإفساد الأكراد في

نواحيها، وعزل سنة تسع وأربعين عمه عَبْد الصمد عن مكة، وولّى مكانه محمد بن إبراهيم.وفي سنة خمسين عزل جعفر بن سليمان عن المدينة، وولّى مكانه الحسن بن زيد بن الحسن. وفي سنة إحدى وخمسين عزل عمر بن حفص عن السِّند وولّى مكانه هشام بن عمرو الثغلبيّ، وولّى عمر بن حفص على أفريقية. ثم بعث يزيد بن حاتم من مصر مدّداً له، وولّى مكانه بمصر محمد بن سعيد. وفي هذه السنة قتل معن بن ذائدة بسجستان كما تقدّم فقام بأمره يزيد ابن أخيه يزيد، فأقّره المنصور ثم عزله. وفي هذه السنة سار عقبة بن سالم من البصرة واستخلف نافع بن عقبة، فغزا البحرين وقتل ابن حكيم العدويّ واستقصره المنصور بإطلاق أسراهم، فعزله وولّى جابر بن مومة الكلابيّ، ثم عزله وولّى مكانه عَبْد الملك بن ظبيان النميريّ. ثم عزله وولّى الهيثم بن معاوية العكّيّ.وفيها ولّى على مكة والطائف محمد بن إبراهيم الإمام، ثم عزله وولّى مكانه إبراهيم ابن أخيه، يحيى بن محمد، وولّى على الموصل إسمعيل بن خالد بن عَبْد الله القسريّ. ومات أسيد بن عَبْد الله أمير خراسان فولّى مكانه حميد بن قحطبة. وفي سنة ثلاث وخمسين توفي عبيد الله ابن بنت أبي ليلى قاضي الكوفة، فاستقضى شريك بن عَبْد الله النخعيّ، وكان على اليمن

يزيد بن منصور.وفي سنة خمس وأربعين بل أربع وخمسين عزل عن الجزيرة أخاه العبّاس وأغرمه مالاً، وولّى مكانه موسى بن كعب الخثعمي، وكان سبب عزله شكاية يزيد بن أسيد منه، ولم يزل ساخطاً على العبّاس حتى غضب على عمه إسمعيل، فشفع فيه أخوته عمومة المنصور. فقال عيسى بن عيسى: يا أمير المؤمنين شفعوا في أخيهم وأنت ساخط على أخيك العبّاس منذ كذا ولم يكلمك فيه أحد منهم فرضي عنه.وفي سنة خمس وخمسين عزل محمد بن سليمان عن الكوفة وولّى مكانه عمر بن زهير الضبي أخا المسيب صاحب الشرطة، وكان من أسباب عزله، أنه حبس عَبْد الكريم بن أبي العوجاء خال معن بن زائدة على الزندقة، وكتب إليه أن يتبين أمره، فقتله قبل وصول الكتاب، فغضب عليه المنصور وقال: لقد هممت أن أقيده به، وعزل عمّه عيسى في أمره لأنه الذي كان أشار بولايته. وفيها عزل الحسن بن زيد عن المدينة وولّى مكانه عمّه عَبْد الصمد بن علي، وكان على الأهواز وفارس عمارة بن حمزة.وفي سنة سبع وخمسين ولّى على البحرين سعيد بن دعلج صاحب الشرطة بالبصرة فأنفذ إليها ابنه تميماً، ومات سوار بن عَبْد الله قاضي البصرة فولّى مكانه عبيد الله بن الحسن بن الحسين العيريّ. وعزل محمد بن الكاتب عن مصر وولّى مكانه مولاه مطراً، وعزل هشام بن عمرو عن السِّند وولّى مكانه معبد بن الخليل. وفي سنة ثمان وخمسين عزل موسى بن كعب عن الموصل لشيء بلغه عنه فأمر ابنه المهديّ أن يسير إلي الرقّة مورياً بزيارة القدس ويكفل طريقه على الموصل فقبض عليه، وكان المنصور قد ألزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم وأجّله في إحضارها ثلاثاً وإلا قتله، فبعث ابنه يحيى إلي عمارة بن حمزة ومبارك التركي، وصالح صاحب المصلّى وغيرهم من القوّاد ليستقرض منهم، قال يحيى: فكلهم بعث إلا أنّ منهم من منعني الدخول ومنهم من يجيبني بالرد إلا عمارة بن حمزة فإنه أذن لي ووجهه إلي الحائط، ولم يقبل عليه، وسلّمت فردّ خفيفاً، وسأل كيف خالد فعرّفته واستقرضته فقال: إن أمكنني شيء يأتيك فانصرفت عنه .ثم أنفذ المال فجمعناه في يومين وتعذرت ثلثمائة ألف. وورد على المنصور انتقاض

الموصل والجزيرة وانتشار الأكراد بها، وسخط موسى بن كعب، فأشار عليه المسيب بن زهير بخالد بن برمك فقال: كيف يصلح بعدما فعلنا؟ فقال أنا ضامنه فصفح له عما بقي عليه، وعقد له على الموصل، ولابنه يحيى على أذربيجان. وسارا مع المهديّ

فعزل موسى بن كعب وولاهما.قال يحيى: وبعثني خالد إلي عمارة بمرضه وكان مائة ألف، فقال لي: أكنت لأبيك صديقاً؟ قم عني لا قمت. ولم يزل خالد على الموصل إلي وفاة المنصور. وفي هذه السنة عزل المنصور المسيب بن زهير عن شرطته وحبسه مقيداً لأنه ضرب أُبان بن بشير الكاتب بالسياط حتى قتله، وكان مع أخيه عمر بن زهير بالكوفة، وولّى المنصور على فارس نصر بن حرب بن عَبْد الله. ثم على الشرطة ببغداد عمر بن عَبْد الرحمن أخا عَبْد الجبّار، وعلى قضائها عَبْد الله بن محمد بن صَفْوان. ثم شفع المهديّ في المسيب وأعاده إلي شرطته.

الصوائف

كان أمر الصوائف قد انقطع منذ سنة ثلاثين بما وقع من الفتن، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين أقبل قسطنطين ملك الروم إلي ملطية ونواحيها فنازل حصن بلخ، واستنجدوا أهل ملطية فأمدوهم بثمانمائة مقاتل، فهزمهم الروم وحاصروا ملطية والجزيرة مفتوحة، وعاملها موسى بن كعب بخراسان، فسلموا البلد على الأمان لقسطنطين. ودخلوا إلي الجزيرة وخرب الروم ملطية ثم ساروا إلي قاليقلا ففتحوها. وفي هذه السنة سار أبو داود وخالد بن إبراهيم إلي الجتن فدخلها فلم تمتنع عليه، وتحصن منه السبيل ملكهم وحاصره مدة، ثم فرض الحصن ولحق بفرغانة.ثم دخلوا بلاد الترك وانتهوا إلي بلد الصين، وفيها بعث صالح بن علي بن فلسطين سعيد بن عَبْد الله لغزو الصائفة وراء الدروب. وفي سنة خمس وثلاثين غزا عَبْد الرحمن بن حبيب عامل أفريقية جزيرة صقلية فغنم وسبى وظفر بما لم يظفر به أحد قبله. ثم سفل ولاة إفريقية بفتن البربر، فأمن أهل صقلية وعمر الحصون والمعاقل، وجعلوا الأساطيل تطوف بصقليهة للحراسة، وربما صادفوا تجار المسلمين في البحر فأخذوهم. وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم فأخذ ملطية عنوة وهدم سورها وعفا عن أهلها. فغزا العبّاس بن محمد الصائفة ومعه عماه صالح وعيسى،

وبنى ما خربه الروم من سور ملطية أثناء ثورة الروم، وردّ إليها أهلها وأنزل بها الجند، ودخل دار الحرب من درب الحرث وتوغل في أرضهم، ودخل جعفر بن حنظلة البهراني من درب ملطية.وفي سنة تسع وثلاثين كان الفداء بين المسلمين والروم في أسرى قاليقلا وغيرهم. ثم غزا بالصائفة سنة أربعين عَبْد الوهاب بن إبراهيم الإمام ومعه الحسن بن قحطبة، وسار إليهم قسطنطين ملك الروم في مائة ألف، فبلغ جيحان، وسمع كثرة المسلمين فأحجم عنهم ورجع، ولم تكن بعدها صائفة إلي سنة ست وأربعين، لاشتغال المنصور بفتنة بني حسن. وفي سنة ست وأربعين، خرج الترك والحدر من باب الأبواب وانتهوا إلي أرمينية وقتلوا من أهلها جماعة ورجعوا.وفي سنة سبع وأربعين أغار أسترخان الخوارزمي في جمع من الترك على أرمينية فغنم وسبى، ودخل تفليس، فعاث فيها. وكان حرب بن عَبْد الله مقيماً بالموصل في ألفين من الجند لمكان الخوارزمي

بالجزيرة، فأمره المنصور بالمسير لحرب الترك مع جبريل بن يحيى، فانهزموا وقتل حرب في كثير من المسلمين. وفيها غزا بالصائفة مالك بن عَبْد الله الخثعمي من أهل فلسطين، ويقال له ملك الصوائف فغنم غنائم كثيرة وقسمها بدرب الحرث. وفي سنة تسع وأربعين غزا بالصائفة العباس بن محمد ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث فدخلوا أرض الروم وعاثوا ورجعوا. ومات محمد بن الأشعث في طريقه في سنة إحدى وخمسين وقتل أخوه محمد ولم يدر.ثم غزا بالصائفة سنة أربع وخمسين زفر بن عاصم الهلاليّ. وفي سنة خمس بعدها طلب ملك الروم الصلح على أن يؤدي الجزية، وغزا بالصائفة يزيد بن أسيد السلمي وغزا بها سنة ست وخمسين وغزا بالصائفة معيوب بن يحيى من درب الحرث ولقي العدو فاقتتلوا ثم تحاجزوا.

وفاة المنصور وبيعة المهدي

وفي سنة ثمان وخمسين توفي المنصور منصرفاً من الحج ببئر ميمون لست خلت من ذي الحجة، وكان قد أوصى المهديّ عند وداعه فقال: لم أدع شيئاً إلا تقدمت إليك فيه،

وسأوصيك بخصال وما أظنك تفعل واحدة منها، وله سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يفتحه غيره. فقال للمهديّ: انظر إلي هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلي يوم القيامة، فإن أحزنك أمر فانظر في الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث حتى تبلغ سبعة. فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد ما تريد فيها وما أظنك تفعل.فانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها، وقد جمعت فيها من الأموال ما أنكر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البيوت. فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك وأن تظهر كرامتهم وتحسن إليهم وتقدّمهم وتوطىء الناس أعقابهم وتوليهم المنابر فإن عزك عزهم وذكرهم لك وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، وأن لا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده وما أظنك تفعل. وإياك أنّ تبني مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وأظنك ستفعل. وإياك أن تستعين برجل من بني سليم وأظنك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في أمرك وأظنك ستفعل.وقيل قال له إني ولدت في ذي الحجة ووليت في ذي الحجة وقد يحس في نفسي أن أموت في ذي الحجة في هذه السنة، وإنما حدّ لي الحج على ذلك. فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعديّ يجعل لك فيما كربك وحزنك فرجاً ومخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب. يا بني إحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود فإن فيها صلاحك في الأجل وصلاحك في العاجل، ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله تعالى لو علم أن شيئاً أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في كتابه.واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً مع ما ادخر له من العذاب الأليم فقال: { **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً** } الآية.

فالسلطان يا بني حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه المقيم فاحفظه وحصّنه وذبّ عنه، وأوقع بالملحدين واقمع المارقين منه، وقابل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشعب وأحسم للعدو وأنجع فى الدواء، واعف عن الفيء فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك. وافتتح بصلة الرحم وبر القرابة وإياك والأثرة والتبديد لأموال الرعية، واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبيل وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم وارفع المكاره عنهم وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبديد فإن النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان. وأعدّ الأكراع والرجال والجند ما استطعت.وإياك وتأخير عمل اليوم لغد فتتداول الأمور وتضيع، وخذ في أحكام الأمور النازلات في أوقاتها أولاً، أولاً، واجتهد وشمر فيها وأعدّ رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل. وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن وأسيء الظن بعملك وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك وسفل إذنك للناس وانظر في أمر النزاع إليك وكل بهم عينا غير نائمة ونفساً غير ساهية. ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولّي الخلافة ولا دخل عينيه الغمض إلا وقلبه مستيقظ. هذه وصيتي إليك، والله خليفتي عليك.ثم ودعه وسار إلي الكوفة فأحرم منها قارناً، وساق الهدي وأشعره وقلده لأيام خلت من ذي القعدة. ولما سار منازل عرض له وجعه الذي مات به. ثم اشتدّ فجعل يقول للربيع- وكان عديله- بادر بي إلي حرم ربي هارباً من ذنوبي، فلما وصل بئر ميمون مات سحر السادس من ذي الحجة لم يحضر إلا خدمه والربيع مولاه. فكتموا الأمر ثم غدا أهل بيته على عادتهم، فدعا عيسى بن علي العم ثم عيسى بن موسى بن محمد ولّي العهد، ثم الأكابر وذوي الأنساب ثم عامتهم. فبايعهم الربيع للمهدي، ثم بايع القوّاد وعامة الناس. وسار العبّاس بن محمد ومحمد بن سليمان إلي مكة فبايعا الناس للمهديّ بين الركن والمقام وجهزوه إلي قبره، وصلى عليه عيسى بن موسى، وقيل إبراهيم بن يحيى، ودفن في مقبرة المعلاة وذلك لاثنتين وعشرين سنة من خلافته.وذكر علي بن محمد النوفلي عن أبيه، وهو من أهل البصرة وكان يختلف إلي المنصور تلك الأيام قال: جئت من مكة صبيحة موته إلي العسكر فإذا موسى بن المهدي عند عمود السرادق، والقاسم بن المنصور في ناحية فعلمت أنه قد مات.ثم أقبل الحسن بن زيد العلوي والناس حتى ملؤا السرادق وسمعنا همس البكاء.ثم خرج أبو العنبر الخادم مشقوق الأقبية وعلى رأسه التراب وهو يستغيث، وقام القاسم فشق ثيابه. ثم خرج الربيع وفي يده قرطاس فقرأه على الناس وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم..

من عَبْد الله

المنصور أمير المؤمنين، إلي من خلف من بني هاشم وشيعة من أهل خراسان وعامة المسلمين، ثم بكى وبكى الناس ثم قال: البكاء إمامكم فانصتوا رحمكم الله : ثم قرأ: أمَّا بعد فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض.ثم أخذ في وصيتهم للمهديّ وحثهم على الوفاء بعهده. ثم تناول الحسن بن زيد وقال: قم فبايع

موسى بن المهديّ لأبيه، ثم بايع الناس الأول فالأول. ثم دخل بنو هاشم وهو في أكفانه مكشوف الرأس لمكان الإحرام، فحملوه على ثلاثة أميال من مكة فدفنوه. وكان عيسى بن موسى لّما بايع الناس أبى من الشيعة، فقال له عليّ بن عيسى بن ماهان: والله لتبايعن وإلا ضربنا عنقك. ثم بعث موسى بن المهدي والربيع بالخبر والبردة والقضيب وخاتم الخلافة إلي المهديّ وخرجوا من مكة.ولما وصل الخبر إلي المهدي منتصف ذي الحجة اجتمع إليه أهل بغداد وبايعوه، وكان أول ما فعله المهدي حين بويع أنه أطلق من كان في حبس المنصور إلا من كان في دم أو مال أو ممن يسعى بالفساد، وكان فيمن أطلق يعقوب بن داود وكان محبوساً مع الحسن بن إبراهيم بن عَبْد الله بن حسن بن الحسن.فلما أطلق ساء ظن إبراهيم وبعث إلي من يثق به بحفر سرب يفضي إلي محبسه، وبلغ ذلك يعقوب بن داود فجاء إلي ابن علاثة القاضي وأوصله إلي أبي عبيد الله الوزير ليوصله إلي المهديّ فأوصله واستخلاه فلم يحدثه حتى قام الوزير والقاضي وأخبره بتحقيق الحال، فأمره بتحويل الحسن، ثم هرب بعد ذلك و لم يظفر به. وشاور يعقوب بن داود في أمره فقال: أعطه الأمان وأنا أحضره وأحضره. ثم طلب من المهديّ أن يجعل له السبيل في رفع أمور الناس وراء بابه إليه فأذن له وكان يدخل كلما أراد، ويرفع إليه النصائح في أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وترويح العذاب وفكاك الأسرى والمحبوسين، والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين، فحظي بذلك وتقدمت منزلته وسقطت منزلة أبي عَبْد الله، ووصله المهديّ بمائة ألف وكتب له التوقيع بالإخاء في الله.

ظهور المقنع ومهلكه:

كان هذا المقنع من أهل مرو ويسمى حكيماً وهاشمياً، وكان يقول بالتناسخ وأن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح، ثم إلي أبي مسلم ثم إلي هاشم وهو

المقنع. فظهر بخراسان وادعى الإلهية واتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه فسمي المقنع، وأنكر قتل يحيى بن زيد وزعم أنه يأخذ بثأره، وتبعه خلق عظيم من الناس وكانوا يسجدون له. وتحصن بقلعة بسّام من رساتيق كش وكان قد ظهر ببخارى والصغد جماعة من المبيضة فاجتمعوا معه على الخلاف، وأعانهم كفار الأتراك وأغاروا على المسلمين من ناحيتهم، وحاربهم أبو النعمان والجنيد وليث بن نصر بن سيّار، فقتلوا أخاه محمد بن نصروحسان ابن أخيه تميم.وأنفذ المهديّ إليهم جبريل بن يحيى وأخاه يزيد لقتال المبيضة، فقاتلوهم أربعة أشهر في بعض حصون بخارى وملكوه عنوة، فقتل منهم سبعمائة، ولحق فلهم بالمقنع وجبريل في اتباعهم. ثم بعث المهديّ أبا عون لمحاربة المقنع فلم يبالغ في قتاله، فبعث معاذ بن مسلم في جماعة القوّاد والعساكر، وعلى مقدّمته سعيد الحريشي، وأتاه عقبة بن مسلم من ذم فاجتمعوا بالطواويس وأوقعوا بأصحاب المقنع فهزموهم، ولحق فلهم بالمقنع في بسّام فتحصنوا بها. وجاء معاذ فنازلهم وفسد ما بينه وبين الحريشيّ، فكتب الحريشيّ إلي المهديّ بالسعاية في معاذ، ويضمن الكفاية إن أفرد بالحرب، فأجابه المهديّ إلي ذلك وانفرد بحرب المقنع وأمده معاذ بابنه وجاؤا بآلات الحرب حتى طلب أصحاب المقنع الأمان سراً فأمنهم وخرج إليه ثلاثون ألفاً وبقي معه زهاء ألفين، وضايقوه بالحصار فأيقن بالهلاك وجمع نساءه وأهله. فيقال

سقاهم السم، ويقال بل أحرقهم وأحرق نفسه بالنار، ودخلوا القلعة وبعث الحريشي برأس المقنع إلي المهدي فوصل إليه بحلب سنة ثلاث وتسعين.

الولاة أيام المهديّ:

وعزل المهديّ سنة تسع وخمسين عمه إسمعيل عن الكوفة وولّى عليها إسحق بن الصفّاح الكندي ثم الأشعي، وقتل عيسى بن لقمان بن محمد بن صاحب الجمحيّ وعزل سعيد بن دعلج عن أحداث البصرة، وعبيد الله بن الحسن عن الصلاة وولّى مكانهما عَبْد الملك بن أيوب بن طيبان الفهيريّ. ثم جعل الأحداث إلي عمارة بن حمزة فولاها للسود بن عَبْد الله الباهلي. وعزل قثم بن العبّاس عن اليمامة وولّى مكانه الفضل بن صالح، وعزل مطراً مولى المنصور عن مصر

وولّى مكانه أبا ضمرة محمد بن سليمان. وعزل عَبْد الصمد بن عليّ عن المدينة وولّى مكانه محمد بن عَبْد الله الكثيريّ ثم عزله وولّى عَبْد الله بن محمد بن عَبْد الرحمن بن صَفْوان، ثم عزله وولّى مكانه زفر بن عاصم الهلاليّ.وتوفي معبد بن الخليل عامل السّند فولى مكانه روح بن حاتم بإشارة وزيره أبي عَبْد الله. وتوفي حميد بن قحطبة بخراسان فولّى عليها مكانه أبا عون عَبْد الملك بن يزيد، ثم سخطه سنة ستين فعزله، وولّى معاذ بن مسلم. وولّى على سجستان حمزة بن يحيى، وعلى سمرقند جبريل بن يحيى فبنى سورها وحصّنها. وكان على اليمن رجاء بن روح، وولّى على قضاء الكوفة شريك. . وولّى على فارس والأهواز ودجلة قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن، ثم عزله وولّى مكانه محمد بن سليمان، وولّى على السِّند بسطام بن عمر، وولّى على اليمامة بشر بن المنذر.وفي سنة إحدى وتسعين ولّى على السِّند محمد بن الأشعث، واستقضى عافية القاضي مع ابن علاثة بالرصافة، وعزل الفضل بن صالح عن الجزيرة وولّى مكانه عَبْد الصمد بن عليّ، وولّى عيسى بن لقمان على مصر ويزيد بن منصور على سواد الكوفة وحسان السروريّ على الموصل وبسطام بن عمرو الثغلبيّ على أذربيجان، وعزله عن السِّند.وتوفي نصر بن مالك بن صالح صاحب الشرطة، فولّى مكانه حمزة بن مالك وكان الأبان بن صدقة كاتباً للرشيد فصرفه وجعله مع الهادي، وجعل هو مع هرون يحيى بن خالد، وعزل محمد بن سليمان أبا ضمرة عن مصر وولّى مكانه سليمان بن رجاء، وكان على سواد الكوفة يزيد بن منصور وعلى أحداثها إسحق بن منصور. وفي سنة ست وستين عزل عليّ بن سليمان عن اليمن وولّى مكانه عَبْد الله بن سليمان، وعزل مسلمة بن رجاء عن مصر وولّى مكانه عيسى بن لقمان، ثم عزله لأشهر وولّى مكانه مولاه واضحاً، ثم عزله وولّى مكانه يحيى الحريشي، وكان على طبرستان عمر بن العلاء وسعيد بن دعلج، وعلى جرجان مهليل بن صَفْوان، ووضع ديوان الأرمة وولّى عليها عمر بن بزيع مولاه.

العهد للهادي وخلع عيسي:

كان جماعة من بني هاشم وشيعة المهدي خاضوا في خلع عيسى بن موسى من ولاية

العهد والبيعة لموسى الهادي بن المهديّ، ونمي ذلك إلي المهديّ فسر به واستقدم عيسى بن موسى من مترله بالرحبة من أعمال الكوفة فامتنع من القدوم. فاستعمل المهديّ على الكوفة روح بن حاتم وأوصاه بالأضرار فلم يجد سبيلاً إلي ذلك. وكان عيسى لا يدخل الكوفة إلا يوم جمعة أو عيد. وبعث إليه المهدي يتهدده فلم يجب، ثم بعث عمه العبّاس يستقدمه فلم يحضر. فبعث قائدين من الشيعة فاستحضراه إليه، وقدم على عسكر المهديّ وأقام أياماً يختلف إليه ولا يكلم بشيء. غر الدار يوماً وقد اجتمع رؤساء الشيعة لخلعه، فثاروا به وأغلق الباب الذي كان خلفه فكسروه، وأظهر المهديّ النكير عليهم فلم يرجعوا إلا أن كاشفه أكابر أهل بيته وأشدهم محمد بن سليمان، واعتذر بالأيمان التي عليه. فأحضر المهديّ القضاة والفقهاء وفيهم محمد بن علاثة ومسلم بن خالد الزنجي فأفتوه بمخارج الأيمان، وخلع نفسه وأعطاه المهديّ عشرة آلاف درهم وضياعاً بالزاب وكسكر، وبايع لابنه موسى الهادي بالعهد. ثم جلس المهديّ من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم وخرج إلي الجامع وعيسى معه، فخطب وأعلم الناس ببيعة الهادي ودعاهم إليها فبادروا وأشهد عيسى بالخلع.

فتح باربد من السند:

وبعث المهدي سنة تسع وخمسين عَبْد الملك بن شهاب المسمعي في جمع كثير من الجند والمقطوعة إلي بلاد الهند، فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند، وفتحوا باربد فافتتحوها عنوة ولجأ أهلها إلي البدّ فأحرقوه عليهم فاحترق بعض وقتل الباقون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون وأقاموا بعض أيام إلي أن يطيب الريح، فوقع فيهم موتان فهلك ألف فيهم إبراهيم بن صبيح. ثم ركبوا البحر إلي فارس، فلما انتهوا إلي ساحل حرّان عصفت بهم الريح فانكسرت عامة مراكبهم وغرق الكثير منهم.

حج المهدي:

وفي سنة ستين حج المهديّ واستخلف على بغداد ابنه الهادي وخاله يزيد بن منصور، واستصحب ابنه هرون وجماعة من أهل بيته، وكان معه الوزير يعقوب بن

داود، فجاء في مكة بالحسن بن إبراهيم الذي ضمنه على الأمان فوصله بالمهدي وأقطعه. ولما وصل إلي مكة اهتم بكسوة الكعبة فكساها بأفخر الكسوة بعد أن نزع ما كان عليها. وكانت فيها كسوة هشام بن عَبْد الملك من الديباج الثخين، وقسم مالاً عظيماً هنالك في مصارف الخير فكان منه مما جاء به من العراق ثلاثون ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائة ألف دينار، ففرق ذلك كله، وفرق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسع المسجد، ونقل خمسمائة من الأنصار إلي العراق جعلهم في حرسه وأقطع لهم وأجرى الأرزاق. ولما رجع أمر ببناء القصور بطريق مكة أوسع من قصور المنصور، من القادسية إلي زبالة ، وأمر باتخاذ المصانع في كل منها منهل، وبتحديد الأميال وحفر الآبار، وولّى على ذلك بقطير بن موسى، وأمر بالزيادة في مسجد البصرة وتصغير المنابر إلي مقدار منبر النبي صلى الله عليه وسلم . وأمر في سنة سبع وستين بالزيادة في الحرمين على يد بقطير، فدخلت فيه دول كثيرة، و لم يزل البناء فيهما إلي وفاة المهديّ.

نكبة الوزير أبي عَبْد الله:

كان أبو عَبْد الله الأشعري قد اتصل بالمهدي أيام أبيه المنصور، فلطفت عنده مترلته واستوزره وسار معه إلي خراسان وعظمت به بطانة المهديّ فأكثروا فيه السعاية ،وكان الربيع يدرأ عنه ويعرض كتبه على المنصور وحسن القول فيه. فكتب المنصور إلي المهدي بالوصاة به وأن لا يقبل فيه السعايةّ، ولصا مات المنصور وقام الربيع ببيعة المهدي ،وقدموا إلي بغداد جاء الربيع إلي باب أبي عَبْد الله قبل المهدي وقبل أهله، فعذله ابنه افضل على ذلك ،فقال :هو صاحب الرجل وينبغي أن نعامله بغير ما كنا نعامله، وإياك أن تذكر ما كنا نصنع في حقه أو تمنن بذلك في نفسك. فلصا وقف ببابه أمهله طويلاً من المغرب إلي العشاء. ثم أذن له فدخل عليه وهو متكيء فلم يجلس ولا أقبل عليه.

وشرع الربيع يذكر أمر البيعة فكفه وقال: قد بلغنا أمركم: فلما خرج استطال عليه ابنه الفضل بالعذل فيما فعل بأن لم يكن الصواب. فقال له: ليس الصواب إلا ما عملته، ولكن والله لأنفقن مالي وجاهي في مكروهه، وجد في السعاية فيه فلم يجد طريقاً إليها لاحتياطه في أمر دينه وأعماله. فأتاه من قبل ابنه محمد، ودس إلي المهدي بعرضه لحرمه وأنه زنديق، حتى إذا استحكمت التهمة فيه أحضره

المهدي في غيبة من أبيه ثم قال له: اقرأ! فلم يحسن فقال لأبيه: ألم تقل إن ابنك يقرأ القرآن؟ فقال فارقني منذ سنين وقد نسي، فأمر به المهدي فقتل. واستوحش من أبي عَبْد الله وساءت مترلته إلي أن كان من أمره ما نذكره، وعزله عن ديوان الرسائل ورده إلي الربيع ، وارتفعت مترلة يعقوب بن داود عند المهدي وعظم شأنه وأنفذ عهده إلي جميع الآفاق بوضع الأمناء ليعقوب، وكان لا ينفذ كتاب المهديّ حتى يكتب يعقوب إلي يمينه بإنفاذ ذلك.

ظهور دعوة العباسة بالأندلس وانقطاعها:

وفي سنة إحدى وستين أجاز عَبْد الرحمن بن حبيب الفهريّ من إفريقية إلي الأندلس داعية لبني العباس،ن ونزل بساحل مرسية، وكاتب سليمان بن يقظان عامل سرقسطة في طاعة المهديّ فلم يجبه. وقصد بلاده فيمن معه من البربر فهزمه سليمان وعاد إلي تدبير. وسار إليه عَبْد الرحمن صاحب الأندلس وأحرق السفن في البحر تضييقاً على ابن حبيب في النجاة، فاعتصم بجبل منيع بنواحي بلنسية فبذل عَبْد الرحمن فيه المال فاغتاله بعض البربر وحمل رأسه إليه، فأعطاه ألف دينار وذلك سنة إثنتين وستين. وهم عَبْد الرحمن صاحب الأندلس أمر ذلك لغزو الشام من الأندلس على العدوة الشمالية لأخذ ثأره، فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان الأنصاري في سرقسطة فشغلوه عما اعتزم عليه من ذلك.

غزو المهدي:

تجهز المهديّ سنة ثلاث وستين لغزو الروم، وجمع الأجناد من خراسان ومن الأفاق، وتوفي عمه عيسى بن علي آخر جمادى الأخيرة بعسكره، وسار من الغد واستخلف على بغداد إبنه موسى الهادي واستصحب هرون، ومرّ في طريقه بالجزيرة والموصل، فعزل عَبْد الصمد بن علي وحبسه ثم أطلقه سنة ست وستين. ولما جاز ببني مسلمة بن عَبْد الملك ذكره عمه العبّاس بما فعله مسلمة مع جدهم محمد بن عليّ، وكان أعطاه مرة في اجتيازه

عليه ألف دينار، فاحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه وأعطاهم عشرين ألف دينار وأجرى عليهم الأرزاق، وعبر الفرات إلي حلب، فأقام بها وبعث إبنه

هرون للغزو وأجاز معه الدروب إلي جيحان مشيعاً، ولجث معه عسى بن موسى وعبد الملك بى صالح والحسن بن قحطبة والربيع بن يونس ويحيى بن خالد بن برمك، وكان إليه أمر العسكر والنفقات وحاصروا حصن سمالو أربعين يوماً ثم فتح بالأمان، وفتحوا بعده فتوحات كثيرة، وعادوا إلي المهديّ وقد أثخن في الزنادقة وقتل من كان في تلك الناحية منهم. ثم قفل إلي بغداد ومرّ ببيت المقدس وصلى في مسجده ورجع إلي بغداد.

العهد لهرون:

وفي سنة ست وستين أخذ المهديّ البيعة لابنه هارون بعد أخيه الهادي ولقبه الرشيد.

نكبة الوزير يعقوب بن داود:

كان أبو داود بن طهمان كاتباً لنصر بن سيار هو وأخوته، وكان شيعياً وعلى رأي الزيدية. ولما خرج يحيى بن زيد بخراسان كان يكاتبه بأخبار نصر فأقصاه نصر، فلما طلب أبو مسلم بدم يحيى جاءه داود فأمنه في نفسه وأخذ ما اكتسبه من المال أيام نصر،وأقام بعد ذلك عاطلاً. ونشأ له ولد أهل أدب وعلم وصحبوا أولاد الحسن. وكان داود يصحب إبراهيم بن عَبْد الله فورثوا ذلك عنه، ولما قتل إبراهيم طلبهم المنصور وحبس يعقوب وعلياً مع الحسن بن إبراهيم حتى توفي، وأطلقهما المهديّ بعده مع من أطلق. وداخله المهديّ في أمر الحسن لّما فر من الحبس فكان ذلك سبباً لوصلته بالمهدي حتى استوزره، فجمع الزيدية وولاهم شرقاً وغرباً، وكثرت السعاية فيه من البطانة بذلك وبغيره وكان المهديّ يقبل سعايتهم حتى يروا أنها قد تمكنت، فإذا غدا عليه تبسم وسأله.وكان المهدي مشتهراً بالنساء فيخوض معه في ذلك وفيما يناسبه ويتغلب برضاه، وسامره في بعض الليالي وجاء ليركب دابته وقد نام الغلام، فلما ركب نفرت الدابة من قعقعة ردائه فسقط ورمحته فانكسر، فانقطع عن المهدي وتمكن أعداؤه من السعاية حتى سخطه وأمر به فحبس وحبس عماله وأصحابه. ويقال بل دفع إليه علوياً ليقتله فأطلقه، ونمي ذلك إلي المهدي فأرسل من أحضره، وقال ليعقوب أين العلوي؟ فقال: قتلته، فأخرجه إليه حتى رآه. ثم حبس في المطبق ودلي في بئر فيه. وبقي أيام المهدي والهادي ثم أخرج وقد عمي وسأل من الرشيد المقام بمكة فأذن له. وقيل في سبب تغيره إنه كان ينهى المهدي عن شرب أصحابه النبيذ عنده، ويكثر

عليه في ذلك ويقول: أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ! لا والله لا على هذا استوزرتني ولا عليه صحبتك!

مسير الهادي إلي جرجان:

وفي سنة سبع وستين عصى وتداهر من شرو بن ملكا طبرستان من الديلم، فبعث المهدي ولي عهده موسى الهادي، وجعل على جنده محمد بن حميد، وعلى حجابته نفيعاً مولى المنصور، وعلى حرسه عيسى بن ماهان،

وعلى رسائله أبان بن صدقة. وتوفي أبان بن صدقة فبعث المهدي مكانه أبا خالد الأجرد فسار المهدي وبعث الجنود في مقدمته وأمّر عليهم يزيد، فحاصرهما حتى استقاما. وعزل المهدي يحيى الحريشيّ عن طبرستان وما كان إليه، وولّى مكانه عمر بن العلاء، وولّى على جرجان فراشة مولاه، ثم بعث سنة ثمان وستين يحيى الحريشيّ في أربعين ألفاً إلي طبرستان.

العمال بالنواحي:

وفي سنة ثلاث وستين ولّى المهدي إبنه هرون على المغرب كله وأذربيجان وأرمينية، وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى، وعلى الرسائل يحيى بن خالد بن برمك. وعزل زفر بن عاصم عن الجزيرة وولّى مكانه عَبْد الله بن صالح، وعزل معاذ بن مسلم عن خراسان وولّى مكانه المسيب بن زهير الضبي، وعزل يحيى الحريشيّ عن أصبهان وولّى مكانه الحكم بن سعيد، وعزل سعيد بن دعلج عن طبرستان وولّى مكانه عمر بن العلاء، ومهلهل بن صَفْوان عن جرجان وولاها هشام بن سعيد. وكان على الحجاز واليمامة جعفر بن سليمان، وعلى الكوفة إسحق بن الصباح، وعلى البحرين والبصرة وفارس والأهواز محمد بن سليمان، فعزله سنة أربع وستين وولّى مكانه صالح بن داود.وكان على السند محمد بن الأشعث. وفي سنة خمس وستين عزل خلف بن عَبْد الله عن الري وولاها عيسى مولى جعفر، وولّى على البصرة روح بن حاتم، وعلى البحرين وعمان والأهواز وفارس وكرمان النعمان مولى المهدي. وعزل محمد بن الفضل عن الموصل وولّى مكانه أحمد بن إسمعيل. وفي سنة ست وستين

عزل عبيد الله بن حسن العنبري عن قضاء البصرة واستقضى مكانه خالد بن طليق بن عمران بن حصين فاستعفى أهل البصرة منه. وولّى المهدي على قضائه أبا يوسف حين سار إلي جرجان. واضطربت في هذه السنة خراسان على المسيّب بن زهير فولاها أبا العبّاس الفضل بن سليمان الطوسي وأضاف إليه سجستان، فولى هو على سجستان سعيد بن دعلج. وولّى على المدينة إبراهيم ابن عمه، وعزل منصور بن يزيد عن اليمن وولّى مكانه عَبْد الله بن سليمان الربعي.وكان على مصر إبراهيم بن صالح، وتوفي في هذه السنة عيسى بن موسى بالكوفة وهي سنة سبع وستين. وعزل المهدي يحيى الحريشي عن طبرستان والرويان وما كان إليه، وولاه عمر بن العلاء وولّى على جرجان فراشة مولاه. وحج بالناس إبراهيم ابن عمه يحيى وهو على المدينة ومات بعد قضاء الحج، فولى مكانه إسحق بن موسى بن علي وعلى اليمن سليمان بن يزيد الحارثي وعلى اليمامة عَبْد الله بن مصعب الزبيري وعلى البصرة محمد بن سليمان، وعلى قضائها عمر بن عثمان التميمي وعلى الموصل أحمد بن إسمعيل الهاشمي. وقتل موسى بن كعب ووقع الفساد في بادية البصرة من الأعراب بين اليمامة والبحرين وقطعوا الطرق وانتهكوا المحارم وتركوا الصلاة.

الصوائف:

وفي سنة تسع وخمسين أغزى المهدي عمه العباس بالصائفة وعلى مقدمته الحسن الوصيف، فبلغوا أهرة وفتحوا مدية أوهرة ورجعوا سالمين و لم يصب من المسلمين أحد. وفي سنة إحدى وستين غزا بالصائفة يمامة بن الوليد

فترل دابق وجاشت الروم مع ميخاييل في ثمانين ألفاً، ونزل عمق مرعش فقتل وسبى وغنم، وحاصر مرعش وقتل من المسلمين عدداً، وانصرف إلي جيحان، فكان عيسى بن علي مرابطاً بحصن مرعش، فعظم ذلك على المهدي وتجهز لغزو الروم. وخرجت الروم سنة إثنتين وستين إلي الحرث فهدموا أسوارها. وغزا بالصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألفاً من المرتزقة فبلغ جهة أدرركبه، وأكثر التحريق والتخريق ولم يفتح حصناً ولا لقي

جمعاً ورجع بالناس سالماً.وغزا يزيد بن أسيد السلمي من ناحية قالقيلا فغنم وسبى وفتح ثلاثة حصون. ثم غزا المهدي بنفسه سنة ثلاث وستين كما مرّ. ثم غزا سنة أربع وستين عَبْد الكبير بن عَبْد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحرث فخرج إليه ميخاييل وطارد الأرمني البطريقان في تسعين ألفاً فخام عن لقائهم، ورجع بالناس فغضب عليه المهدي وهم بقتله فشفع فيه وحبسه. وفي سنة خمس وستين بعث المهدي ابنه هرون بالصائفة وبعث معه الربيع، فتوغل في بلاد الروم ولقيه عسكر نقيطاً من القواميس، فبارزه يزيد بن مزيد فهزمهم وغلب على عسكرهم ولحقوا بالدمشق صاحب المسالح، فحمل لهم مائتي ألف دينار وإثنتين وعشرين ألف درهم، وسار الرشيد بعساكره وكانت نحواً من مائة ألف، فبلغ خليج قسطنطينية وعلى الروم يومئذ غسطة امرأة إليون كافلة لابنها منه صغيراً، فجرى الصلح على الفدية وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطريق لأن مدخله كان ضيقاً مخوفاً فأجابت لذلك. وكان مقدار الفدية سبعين ألف دينار كل سنة، ومدة الصلح ثلاث سنين. وكان ما سباه المسلمون قبل الصلح خمسة آلاف رأس وستمائة رأس، وقتل من الروم في وقائع هذه الغزوات أربعة وخمسون ألفاً ومن الأسرى ألفان. ثم نقض الروم هذا الصلح سنة ثمان وستين ولم يستكملوا مدته، بقي منها أربعة أشهر. وكان على الجزيرة وقنسرين علي بن سليمان فبعث يزيد بن البدر بن البطّال في عسكر فغنموا وسبوا وظفروا ورجعوا.

وفاة المهدي وبيعة الهادي:

وفي سنة تسع وستين اعتزم المهدي على خلع إبنه موسى الهادي من العهد، والبيعة للرشيد به، وتقديمه على الهادي، وكان بجرجان فبعث إليه بذلك فاستقدمه،

فضرب الرسول وامتنع، فسار إليه المهدي، فلما بلغ سبدان توفي هنالك. يقال مسموماً من بعض جواريه، ويقال سمت إحداهما الأخرى في كمثرى، فغلط وأكلها، ويقال حاز صيداً فدخل وراءه إلي خربة فدق الباب ظهره. وكان موته في المحرم، وصلى عليه إبنه الرشيد، وبويع ابنه موسى الهادي لّما بلغه موت أبيه وهو مقيم جرجان يحارب أهل طبرستان.وكان الرشيد لّما توفي المهدي والعسكر بسبدان نادى في الناس بإعطاء

تسكيناً، وقسم فيهم مائتين مائتين، فلما استوفوها تنادوا بالرجوع إلي بغداد وتشايعوا إليها واستيقنوا موت المهدي، فأتوا باب الربيع وأحرقوه، وطالبوا بالأرزاق ونقبوا السجون.وقدم الرشيد بغداد في أثرهم، فبعثت الخيزران إلي الربيع، فامتنع يحيى خوفاً من غيرة الهادي، وأمرت الربيع بتسكين الجند فسكنوا، وكتب الهادي إلي الربيع يتهدده، فاستشار يحيى في أمره وكان يثق بودّه، فأشار عليه بأن يبعث ابنه الفضل يعتذر عنه

وتصحبه الهدايا والتحف ففعل، ورضي الهادي عنه، وأخذت البيعة ببغداد للهادي.وكتب الرشيد بذلك إلي الآفاق، وبعث نصيراً الوصيف إلي الهادي بجرجان، فركب البريد إلي بغداد فقدمها في عشرين يوماً. فاستوزر الربيع، وهلك لمدة قليلة من وزارته. واشتد الهادي في طلب الزنادقة وقتلهم، وكان منهم عليّ بن يقطين ويعقوب بن الفضل من ولد ربيعة بن الحرث بن عَبْد المطلب، كان قد أقر بالزندقة عند المهدي إلا أنه كان مقسماً أن لا يقتل هاشمياً فحبسه وأوصى الهادي بقتله وبقتل ولد عمهم داود بن علي فقتلهما.(وأمَّا عماله) فكان على المدينة عمر بن عَبْد العزيز بن عبيد الله بن عَبْد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى مكة والطائف عَبْد الله بن قثم، وعلى اليمن إبراهيم بن مسلم بن قتيبة، وعلى اليمامة والبحرين سويد القائد الخراساني، وعلى عمان الحسن بن سليم الحواري، وعلى الكوفة موسى بن عيسى بن موسى، وعلى البصرة ابن سليمان، وعلى جرجان الحجاج مولى الهادي، وعلى قومس زياد بن حسان، وعلى طبرستان والرويان صالح بن عميرة مولى وعلى الموصل هاشم بن سعيد بن خالد، وعزله الهادي لسوء سيرته وولّى مكانه عَبْد الملك وصالح بن علي.(وأمَّا الصائفة) فغزا بها في هذه السنة وهي سنة تسع وستين معيوب بن يحيى، وقد كان الروم خرجوا مع بطريق لهم إلي الحرث فهرب الوالي ودخلها الروم وعاثوا فيها، فدخل معيوب وراءهم من درب الراهب، وبلغ مدينة أستة وغنم وسبى وعاد.

ظهور الحسين المقتول بفتح:

وهو الحسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط، كان الهادي

قد استعمل على المدينة عمر بن عَبْد العزيز كما مر فأخذ يوماً الحسن بن المهدي بن محمد بن عَبْد الله بن الحسين الملقب أبا الزفت، ومسلم بن جندب الهذلي الشاعر، وعمر بن سلام مولى العمريين على شراب لهم، فضربهم وطيف بهم بالمدينة بالحبال في أعناقهم، وجاء الحسين إليه فشفع فيهم وقال: ليس عليهم حد فإن أهل العراق لا يرون به بأساً وليس من الحد أن نطيفهم فحبسهم. ثم جاء ثانية ومعه من عمومته يحيى بن عَبْد الله بن الحسن صاحب الديلم بعد ذلك فكفلاه وأطلقه من الحبس.وما زال آل أبي طالب يكفل بعضهم بعضاً ويعرضون، فغاب الحسن عن العرض يومين، فطلب به الحسين بن علي ويحيى بن عَبْد الله كافليه وأغلظ لهما، فحلف يحيى أنه يأتي به من ليلته أو يدق عليه الباب يؤذنه به. وكان بين الطالبيين ميعاد للخروج في الموسم فأعجلهم ذلك عنه وخرجوا من ليلتهم، وضرب يحيى على العمري في باب داره بالسيف، واقتحموا المسجد فصلوا الصبح، وبايع الناس الحسين المرتضى من آل محمد على كتاب الله وسنة رسوله. وجاء خالد اليزيدي في مائتين من الجند والعمري وابن إسحق الأزرق ومحمد بن واقد في ناس كثيرين فقاتلوهم وهزموهم في المسجد،واجتمع يحيى وإدريس بن عَبْد الله بن حسن فقتلاه وانهزم الباقون وافترق الناس.وأغلق أهل المدينة أبوابهم وانتهب القوم من بيت المال بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعين ألفاً، واجتمعت شيعة بني العبّاس من الغد وقاتلوهم إلي الظهر وفشت الجراحات وافترقوا. ثم قدم مبارك التركي من الغد حاجاً فقاتل مع العبّاسية إلي منتصف النهار وافترقوا، وواعدهم مبارك الرواح إلي القتال، واستغفلهم وركب رواحله راجعاً واقتتل

الناس المغرب ثم افترقوا. ويقال إنّ مباركاً دس إلي الحسين بذلك تجافياً عن أذية، أهل البيت وطلب أن يأخذ له عذراً في ذلك بالبيات، فبيته الحسين واستطرد له راجعاً. وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة واحداً وعشرين يوماً آخر ذي القعدة، ولما بلغها نادى في الناس بعتق من أتى إليه من العبيد فاجتمع إليه جماعة.وكان قد حج تلك السنة رجال من بني العباس منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعبّاس بن محمد بن عليّ وموسى وإسمعيل أبناء عيسى بن موسى، ولما بلغ خبر الحسين إلي الهادي كتب إلي محمد بن سليمان وولاه على حربه وكان معه رجال وسلاح وقد أغذ بهم عن البصرة خوف الطريق، فاجتمعوا بذي طوى وقدموا مكة فحلوا من العمرة التي كانوا أحرموا بها، وانضم إليهم من حج من شيعتهم

ومواليهم وقوادهم، واقتتلوا يوم التروية فانهزم الحسين وأصحابه وقتل كثير منهم ، وانصرف محمد بن سليمان وأصحابه إلي مكة ولحقهم بذي طوى رجل من خراسان برأس الحسين ينادي من خلفهم بالبشارة، حتى ألقى الرأس بين أيديهم مضروباً على قفاه وجبهته، وجمعت رؤوس القتلى فكانت مائة ونيفاً وفيها رأس سليمان أخي المهدي بن عَبْد الله، واختلط المنهزمون بالحاج.وجاء الحسن بن المهدي أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعبّاس بن محمد، فأخذه موسى بن عيسى وقتله، وغضب محمد بن سليمان من ذلك وغضب الهادي لغضبه وقبض أمواله. وغضب على مبارك التركي وجعله سائس الدواب، فبقي كذلك حتى مات الهادي، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عَبْد الله أخو المهدي فأتى مصر وعلي يريدها، وأصبح مولى صالح بن المنصور وكان يتشيع لآل عليّ فحمله على البريد إلي المغرب، ووقع بمدية وليلة من أعمال طنجة، واجتمع البريد على دعوته،وقتل الهادي وأصحابه بذلك وصلبه وكان لإدريس وابنه إدريس وأعقابهم حروب نذكرها بعده.

حديث الهادي في خلع الرشد:

كان الهادي يغض الرشيد بما كان المهدي أبوهما يؤثره، وكان رأى في منامه أنه دفع إليهما قضيبين فأورق قضيب الهادي من أعلاه وأورق قضيب الرشيد كله، وتأول ذلك بقصر مدة الهادي وطول مدة الرشيد وحسنها. فلما وليّ الهادي أجمع خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر مكانه، وفاوض في ذلك قواده، فأجابه يزيد بن مزيد وعلي بن عيسى وعبد الله بن مالك، وحرضوا الشيعة على الرشيد لينقصوه ويقولوا لا نرضى به، ونهى الهادي أن يشاور بين يديه بالحرب فاجتنبه الناس، وكان يحيى بن خالد يتولى أموره فاتهمه الهادي بمداخلته، وبعث إليه وتهدده فحضر عنده مستميتا وقال: يا أمير المؤمنين أنت أمرتني بخدمته من بعد المهدي ! فسكن غضبه وقال له في أمر الخلع، فقال يا أمير المؤمنين أنت إن حملت الناس على نكث الإيمان فيه هانت عليهم فيمن توليه، وإن بايعت بعده كان ذلك أوثق للبيعة، فصدقه وسكت عنه.

وعاد أولئك الذين جفلوه من القواد والشيعة فأغروه بيحيى، وأنه الذي منع الرشيد من خلع نفسه، فحبسه الهادي فطلب الحضور للنصيحة، وقال له: يا أمير المؤمنين! أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو صبي ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم، وتأمن أن يسموا إليها عند ذلك أكابر بيتك فتخرج من ولد أبيك، والله لو لم يعقده المهدي لكان ينبغي أن تعقده أنت له حذراً من ذلك، وإني أرى أن تعقده لأخيك، فإذا بلغ

ابنك أتيتك بأخيك فخلع نفسه وبايع له، فقبل الهادي قوله وأطلقه. و لم يقنع القواد ذلك لأنهم كانوا حذرين من الرشيد في ذلك، وضيق عليه واستأذنه في الصيد فمضى إلي قصر مقاتل، ونكره الهادي وأظهر خفاءه وبسط الموالي والقواد فيه ألسنتهم.

وفاة الهادي وبيعة الرشيد:

ثم خرج الهادي إلي حديقة الموصل فمرض واشتدّ مرضه هنالك، واستقدم العمال شرقاً وغرباً. ولما ثقل تآمر القواد الذين بايعوا جعفراً في قتل يحيى بن خالد، ثم أمسكوا خوفا من الهادي. ثم توفي الهادي في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وقيل توفي بعد أن عاد من حديقة الموصل. ويقال: إن أمه الخيزران وصت بعض الجواري عليه فقتلته لأنها كانت أول خلافته تستبد عليه بالأمور فعكف الناس واختلفت المواكب، ووجد الهادي لذلك فكلمته يوماً في حاجة فلم يجبها فقالت: قد ضمنتها لعبد الله بن مالك. فغضب الهادي وشتمه وحلف لا قضيتها فقامت مغضبة، فقال: مكانك وإلا انتفيت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لئن بلغني أن أحداً من قوادي وخاصتي وقف ببابك لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، ما للمواكب تغدو وتروح عليك؟ أمّا لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك: إياك! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي فانصرفت وهي لا تعقل.ثم قال لأصحابه: أيكم يحب أن يتحدث الرجال. بخبر أمه، ويقال فعلت أم فلان وصنعت؟ فقالوا لا نحب ذلك. قال: فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون معها؟ فيقال: إنه لّما جدّ في خلع الرشيد خافت عليه منه، فلما ثقل مرضه وصت بعض الجواري فجلست على وجهه فمات، وصلى عليه الرشيد.

وجاء هرثمة بن أعين إلي

الرشيد فأخرجه وأجلسه للخلافة، وأحضر يحيى فاستوزره، وكتب إلي الأطراف بالبيعة. وقيل: إن يحيى هو الذي جاءه وأخرجه فصلى على الهادي ودفنه إلي يحيى وأعطاه خاتمه، وكان يحيى يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد. وعزل لأوّل خلافته عمر بن عَبْد العزيز العمريّ عن المدينة وولّى مكانه إسحق بن سليمان، وتوفي يزيد بن حاتم عامل إفريقية فولّى مكانه روح بن حاتم، ثم توفي فولّى مكانه إبنه الفضل، ثم قتل فولّى هرثمة بن أعين كما يذكر في أخبار إفريقية. وأفرد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها عمالة واحدة وسماها العواصم، وأمره بعمارة طرسوس ونزلها الناس. وحج لأول خلافته وقسم في الحرمين مالاً كثيراً.وأغزى بالصائفة سليمان بن عَبْد الله البكائي، وكان على مكة والطائف عَبْد الله بن قثم، وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البحرين والبصرة واليمامة وعمان والأهواز وفارس محمد بن سليمان بن علي، وعلى خراسان أبو الفضل العباس بن سليمان الطوسي، ثم عزله وولّى مكانه جعفر بن محمد بن الأشعث. فسار إلي خراسان وبعث إبنه العباس إلي كابل فافتتحها وافتتح سابها وغنم ما كان فيها. ثم استقدمه الرشيد فعزله، وولّى مكانه ابنه العباس، وكان على الموصل عَبْد الملك بن صالح فعزله وولّى مكانه إسحق بن محمد بن فروح، فبعث إليه الرشيد أبا حنيفة حرب بن قيس فأحضره إلي بغداد وقتله، وولّى مكان وكان على أرمينية يزيد بن مزيد بن زائدة ابن أخي معن فعزله وولّى مكانه أخاه عَبْد الله بن المهدي.وولّى سنة إحدى وسبعين على صدقات بني

ثغلب روح بن صالح الهمداني، فوقع بينه وبين تغلب خلاف وجمع لهم الجموع فبيتوه وقتلوه في جماعة من أصحابه. وتوفي سنة ثلاث وسبعين محمد بن سليمان والي البصرة وكان أخوه جعفر كثير السعاية فيه عند الرشيد، وأنه يحدث نفسه بالخلافة وأن أمواله كلها فيء من أموال المسلمين،

فاستصفاها الرشيد وبعث من قبضها، وكان لا يعبر عنها من المال والمتاع والدواب، وأحضروا من العين فيها ستين ألف ألف دينار. ولم يكن إلا أخوه جعفر فاحتج عليه الرشيد بإقراره أنها فيء. وتوفي سنة أربع وسبعين والي الرشيد إسحق بن سليمان على السّند ومكران، واستقضى يوسف بن أبي يوسف في حياة أبيه، وفي سنة خمس وسبعين عقد لابنه محمد بن زبيدة ولاية العهد ولقبه الأمين وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين بسعاية خاله عيسى بن جعفر بن المنصور ووساطة الفضل بن يحيى، وفيها عزل الرشيد العباس بن جعفر عن خراسان وولاها خاله الغطريف بن عطاء الكندي.

خبر يحيي في عَبْد الله في الديلم :

وفي سنة خمس وسبعين خرج يحيى بن عَبْد الله بن حسن أخو المهدي بالديلم واشتدت شوكته وكثر جمعه وأتاه الناس من الأمصار، فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً وولاه جرجان وطبرستان والري وما إليها، ووصل معه الأموال. فسار ونزل بالطالقان وكاتب يحيى وحذره وبسط أمله، وكتب إلي صاحب الديلم في تسهيل أمر يحيى على أن يعطيه ألف ألف درهم، فأجاب يحيى على الأمان بخط الرشيد وشهادة الفقهاء والقضاة وأجلة بني هاشم ومشايخهم عن عَبْد الصمد منهم، فكتب له الرشيد بذلك وبعثه مع الهدايا والتحف. وقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأفاض عليه العطاء وعظمت مترلة الفضل عنده. ثم إن الرشيد حبس يحيى إلي أن هلك في حبسه.

ولاية جعفر بن يحيي مصر.

كان موسى بن عيسى قد ولاه الرشيد مصر، فبلغه أنه عازم على الخلع فرد أمرها إلي جعفر بن يحيى، وأمره بإحضار عمر بن مهران وأن يوليه عليها، وكان أحول مشوه الخلق خامل البزة يردف غلامه خلفه. فلما ذكرت له الولاية قال على شرطية أن يكون أمري بيدي إذا صلحت البلاد انصرفت فأجابه إلي ذلك. وسار إلي مصر وأتى مجلس موسى فجلس في أخريات الناس ، حتى إذا افترقوا رفع الكتاب إلي موسى فقرأه وقال: متى يقدم أبو حفص؟ فقال: أنا أبو حفص ! فقال موسى: لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي ملك مصر، ثم سلم له العمل. فتقدم عمر إلي كاتبه أن لا

يقبل من الهدية إلا ما يدخل في الكيس، فبعث الناس بهداياهم وكانوا يمطلون بالخراج. فلما حضر النجم الأول والثاني وشكوا الضيق في الثالث أحضر الهدايا وحسبها لأربابها واستوفى خراج مصر ورجع إلي بغداد.

الفتنة بدمشق:

وفي هذه السنة هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية، ورأس المضرية أبو الهيدام عامر بن عمارة من ولد خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري، وكان أصل الفتنة بين القيس وبين اليمانية أن اليمانية قتلوا منهم رجلاً

فاجتمعوا لثأره، وكان على دمشق عَبْد الصمد بن علي، فجمع كبار العشائر ليصلحوا بينهم فأمهلتهم اليمانية وبيتوا المضرية فقتلوا منهم ثلثمائة أو ضعفها، فاستجاشوا بقبائل قضاعة وسليم فلم ينجدوهم وأنجدتهم قيس، وساروا معهم إلي البلقاء فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وطال الحرب بينهم. وعزل عَبْد الصمد عن دمشق وولّى مكانه إبراهيم بن صالح بن عليّ. ثم أصلحوا بعد سنين ووفد إبراهيم على الرشيد وكان هواه مع اليمانية فوقع في قيس عند الرشيد واعتذر عنهم عَبْد الواحد بن بشر استخلف إبراهيم على دمشق ابنه إسحق، فحبس جماعة من قيس وضربهم.ثم وثبت غسان برجل من ولد قيس بن العبسي فقتلوه، واستنجد أخوه بالدواقيل من حوران فأنجدوه وقتلوا من اليمانية نفراً. ثم وثبت اليمانية بكليب بن عمر بن الجنيد بن عَبْد الرحمن وعنده ضيف له فقتلوهم، فجاءت أم الغلام سابة إلي أبي الهيدام، فقال انظريني حتى ترفع دماؤنا إلي الأمير، فإن نظر فيها وإلا فأمير المؤمنين ينظر فيها. وبلغ ذلك إسحق وحضر عنده أبو الهيدام فلم يأذن له. ثم قتل بعض الدواقيل رجلاً من اليمانية، وقتلت اليمانية رجلاً من سليم ونهبوا جيران محارب، وركب أبو الهيدام معهم إلي إسحق فوعده بالنظر لهم، وبعث إلي اليمانية يغريهم به فاجتمعوا وأتوا إلي باب الجابية، فخرج إليهم أبو الهيدام وهزمهم واستولى على دمشق وفتح السجون.ثم اجتمعت اليمانية واستنجدوا كلباً وغيرهم فاستمدوهم، واستجاش أبو الهيدام المضرية فجاؤه وهو يقاتل اليمانية عند باب توما فهزمهم أربع مرات. ثم أمره إسحق بالكف، وبعث إلي اليمانية يخبرهم بغرته وجاء الخبر وركب وقاتلهم فهزمهم، ثم هزمهم أخرى على باب توما. ثم جمعت اليمانية أهل الأردن والجولان من كلب وغيرهم فأرسل من يأتيه بالخبر فأبطؤا ودخل المدينة فأرسل إسحق من دلهم على مكمنه وأمرهم بالعبور إلي

المدينة، فبعث من أصحابه من يأتيهم من ورائهم فانهزموا. ولما كان مستهل صفر جمع إسحق الجنود عند قصر الحجاج، وجاء أصحاب الهيدام من أراد نهب القرى التي لهم بنواحى دمشق، ثم سألوا الأمان من أبي الهيدام فأمنهم وسكن الناس.

وفرق أبو الهيدام أصحابه وبقي في نفر يسير من أهل دمشق، فطمع فيه إسحق وسلط عليه العذافر السكسكي مع الجنود فقاتلهم، فانهزم العذافر وبقي الجند يحاربونه ثلاثاً. ثم إن إسحق قاتله في الثالثة والجند في إثني عشر ألفاً ومعهم اليمانية، فخرج أبو الهيدام من المدينة وقاتلهم على باب الجابية حتى أزالهم عنه. ثم أغار جمع من أهل حمص على قرية لأبي الهيدام فقاتلهم أصحابه وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً وأحرقوا قرى وديارا لليمانية في الغوطة، ثم توادعوا سبعين يوماً أو نحوها. وقدم السّندي في الجنود من نجل الرشيد، وأغزته اليمانية بأبي الهيدام فبعث هو إليه بالطاعة، فأقبل السّندي إلي دمشق، وإسحاق بدار الحجاج، وبعث قائده في ثلاثة آلاف وأخرج إليهم أبو الهيدام ألفاً، وأحجم القائد عنهم ورجع إلي السّندي فصالح أبا الهيدام وأمن أهل دمشق.وسار أبو الهيدام إلي حوران، وأقام السندي بدمشق ثلاثاً. وقدم موسى بن عيسى والياً عليها، فبعث الجند يأتونه بأبي الهيدام فكبسوا داره وقاتلهم هو وابنه وعبده فانهزموا، وجاء أصحابه من كل جهة وقصد بصرى. ثم بعث إليه موسى فسار إليه في رمضان سنة سبع وسبعين، وقيل إن سبب الفتنة بدمشق أن عامل الرشيد بسجستان قتل

أخاه الهيدام فخرج هو بالشام وجمع الجموع. ثم بعث الرشيد أخاً له ليأتيه به فتحيل حتى قبض عليه وشده وثاقاً وأتى به إلي الرشيد فمن عليه وأطلقه. وبعث جعفر بن يحيى سنة ثمانين إلي الشام من أجل هذه الفتن والعصبية، فسكن الثائرة وأمن البلاد وعاد.

فتنة الموصل ومصر:

وفي سنة سبع وثمانين تغلب العطاف بن سفيان الأزدي على خراسان، وأهل الموصل على العامل بها محمد بن العباس الهاشمي وقيل عَبْد الملك بن صالح، فاجتمع عليه أربعة آلاف رجل، وجبى الخراج وبقي العامل معه مغلباً إلي أن سار الرشيد إلي الموصل وهدم سورها ولحق العطاف بأرمينية ثم بالرقم فاتخذها وطناً. وفي سنة ثمان وسبعين

ثارت الحوفية بمصر، وهم من قيس وقضاعة على عاملها إسحق بن سليمان وقاتلوه. وكتب الرشيد إلي هرثمة بن أعين وكان بفلسطين فسار إليهم وأذعنوا بالطاعة، ووِلّي على مصر ثم عزله لشهر، وولّى عَبْد الملك بن صالح عليها.كان على خراسان أيام المهدي والهادي أبو الفضل العبّاس بن سليمان الطوسي فعزله الرشيد، وولّى على خراسان جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي، فأبوه من النقباء من أهل مصر، وقدم ابنه العباس سنة ثلاث وسبعين، ثم قدم فغزا طخارستان، وبعث ابنه العباس إلي كابل في الجنود وافتتح سابهار ورجع إلي مرو. ثم سار إلي العراق سنة ثلاث في رمضان، وكان الأمين في حجره قبل أن يجعله في حجر الفضل بن يحيى.ثم ولّى الرشيد ابنه العباس بن جعفر ثم عزله عنها فولّى خالداً الغطريف بن عطاء الكندي سنة خمس وسبعين على خراسان وسجستان وجرجان فقدم خليفة داود بن يزيد وبعث عامل سجستان. وخرج في أيامه حصين الخارجي من موالي قيس بن ثعلبة من أهل أوق، وبعث عامل سجستان عثمان بن عمارة الجيوش إليه فهزمهم حسين وقتل منهم وسار إلي باذغيس وبوشنج وهراة، فبعث إليه الغطريف إثني عشر ألفاً من الجند فهزمهم حصين وقتل منهم خلقاً، ولم يزل في نواحي خراسان إلي أن قتل سنة سبع وسبعين. وسار الفضل إلي خراسان سنة ثمان وسبعين وغزا ما وراء النهر سنة ثمانين، ثم ولّى الرشيد على خراسان علي بن عيسى بن ماهان وقدم إليه يحيى فأقام بها عشرين سنة. وخرج عليه في ولايته حمزة بن أترك وقصد بوشنج، وكان على هراة عمرويه بن يزيد الأزدي فنهض إليه في ستة آلاف فارس فهزمهم حمزة وقتل جماعة منهم ومات عمرويه في الزحام، فبعث عليّ بن عيسى ابنه الحسن في عشرة آلاف ففض حربه فعزله، وبعث إبنه الآخر عيسى فهزمه حمزة فأمده بالعساكر ورده فهزم حمزة وقتل أصحابه، ونجا إلي قهستان في أربعين. وأثخن عيسى في الخوارج بارق وجوين وفيمن كان يعينهم من أهل القرى حتى قتل ثلاثين ألفاً.وخلف عَبْد الله بن العباس النسيقي بزرنج فجبى الأموال وسار بها ومعه الصفة، ولقيه حمزة

فهزموه وقتلوا عامة أصحابه. وسار حمزة في القرى فقتل وسبى، وكان علي قد استعمل طاهر بن الحسين على بوشنج فخرج إلي حمزة وقصد قرية ففر الخوارج وهم الذين يرون التحكم ولا يقاتلون، والمحكمة هم الذين يقاتلون وشعارهم لا حكم إلا الله. فكتب العقد إلي حمزة بالكف وواعدهم، ثم انتفض وعاث في البلاد

وكانت بينه وبين أصحاب علي حروب كثيرة.ثم ولى الرشيد سنة إثنتين وثمانين ابنه عَبْد الله العهد بعد الأمين ولقبه المأمون، وولاه على خراسان وما يتصل بها إلي همذان، واستقدم عيسى بن علي من خراسان وردها إليه من قبل المأمون. وخرج عليه بنسا أبو الخصيب وهب بن عَبْد الله النسائي، وعاث في نواحي خراسان ثم طلب الأمان فأمنه. ثم بلغه أن حمزة الخارجي عاث بنواحي باذغيس فقصده وقتل من أصحابه نحواً من عشرة آلاف وبلغ كل من وراء غزنة. ثم غدر أبو الخصيب ثانية وغلب أبيورد ونساوطوس ونيسابور، وحاصر مرو وانهزم عنها وعاد إلي سرخس، ثم نهض إليه ابن ماهان سنة ست وثمانين فقتله في نسا وسبى أهله. ثم نمي إلي الرشيد سنة تسع وثمانين أن علي بن عيسى مجمع على الخلاف وأنه قد أساء السيرة في خراسان وعنفهم، وكتب إليه كبراء أهلها يشكون بذلك، فسار الرشيد إلي الري فأهدى له الهدايا الكثيرة والأموال ولجميع من معه من أهل بيته وولده وكتابه وقوّاده. وتبين للرشيد من مناصحته خلاف ما إنتهى إليه. فرده إلي خراسان، وولّي على الري وطبرستان ودنباوند وقومس وهمذان وبعث علي ابنه عيسى لحرب خاقان سنة ثمان وثمانين فهزمه وأسر أخوته، وانتقض على علي بن عيسى رافع بن الليث بن نصر بن سمار بسمرقند، وطالت حروبه معه، وهلك في بعضها إبنه عيسى.ثم إن الرشيد نقم على علي بن عيسى أموراً منها استخفافه بالناس وإهانته أعيانهم، ودخل عليه يوماً الحسين بن مصعب والد طاهر فأغلظ له في القول وأفحش في السب والتهديد وفعل مثل ذلك بهشام بن   فأما الحسين فلحق بالرشيد شاكياً ومستجيراً وأمَّا هشام فلزم بيته وادعى أنه بعلة الفالج حتى عزل عليّ، وكان مما نقم عليه أيضاً أنه لمّا قتل إبنه عيسى في حرب رافع بن الليث أخبر بعض جواريه أنه دفن في بستانه ببلخ ثلاثين ألف

دينار، وتحدث الجواري بذلك فشاع في الناس ودخلوا البستان ونهبوا المال، وكان يشكو إلي الرشيد بقلة المال ويزعم أنه باع حلي نسائه.فلما سمع الرشيد هذا المال استدعى هرثمة بن أعين وقال له: وليتك خراسان وكتب له بخطه وقال له: اكتم أمرك وامض كأنك مددُ، وبعث معه رجاء الخادم فسار إلي نيسابور وولّى أصحابه فيها، ثم سار إلي مرو ولقي علي بن عيسى فقبض عليه وعلى أهله وأتباعه وأخذ أمواله فبلغت ثمانين ألف ألف، وبعث إلي الرشيد من المتاع وقر خمسمائة بعير وبعث إليه بعلي بن عيسى على بعير من غير غطاء ولا وطاء، وخرج هرثمة إلي ما وراء النهر وحاصر رافع بن الليث بسمرقند إلي أن استأمن فأمنه، وأقام هرثمة بسمرقند وكان قدم مرو سنة ثلاث وتسعين.

إيداع كتاب العهد:

وفي سنة ست وثمانين حج الرشيد وسار من الأنبار ومعه أولاده الثلاثة محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم، وكان قد ولّى الأمين العهد وولاه العراق والشام إلي آخر الغرب. وولّى المأمون العهد بعده وضم إليه من همذان إلي آخر المشرق، وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المؤتمن وجعل خلعه وإثباته للمأمون. وجعل في حجر عَبْد الملك صالح وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم.ومرّ بالمدينة فأعطاه فيها ثلاثة أعطية: عطاء منه ومن الأمين ومن المأمون، فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. ثم سار إلي مكة فأعطى مثلها، وأحضر

الفقهاء والقضاة والقوّاد وكتب كتاباً أشهد فيه على الأمين بالوفاء للمأمون، وآخر على المأمون بالوفاء للأمين، وعلق الكتابين في الكعبة وجدّد عليها العهود هنالك.ولما شخص إلي طبرستان سنة تسع وثمانين وأقام بها أشهد من حضره أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون، وجدّد له البيعة عليهم وأرسل إلي بغداد فجدّد له البيعة على الأمين.

البرامكة

أخبار البرامكة ونكبتهم

قد تقدم لنا أن خالد بن برمك كان من كبار الشيعة، وكان له قدم راسخ في الدولة وكان يلي الولايات العظام، وولاه المنصور على الموصل وعلى أذربيجان، وولّ ابنه

يحيى على أرمينية، ووكله المهدي بكفالة الرشيد فأحسن تربيته ودفع عنه أخاه الهادي أراده على الخلع، وتولية العهد ابنه وحبسه الهادي لذلك. فلما ولي الرشيد استوزر يحيى وفوض إليه أمور ملكه وكان أولاً يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد، ثم استبد بالدولة. ولما ماتت وكان بيتهم مشهوراً بالرجال من العمومة والقرابة، وكان بنوه جعفر والفضل ومحمد قد شاهوا آباءهم في عمل الدولة واستولوا على حظ من تقريب السلطان واستخلا صه.وكان الفضل أخاه من الرضاع أرضعت أمه الرشيد وأرضعته الخيزران، وكان يخاطب يحيى يا أبت، واستوزر الفضل وجعفراً وولّ جعفراً على مصر وعلى خراسان وبعثه إلي الشام عندما وقعت الفتنة بين المضرية واليمانية فسكن الأمور، ورجع. وولّ الفضل أيضاً على مصر وعلى خراسان وبعثه لاستنزال يحيى بن عَبْد الله العلوي من الديلم. ودفع المأمون لّما ولاه العهد إلي كفالة جعفر بن يحيى، فحسنت آثارهم في دلك كله، ثم عظم سلطانهم واستيلاؤهم على الدولة، وكثرت السعاية فيهم. وعظم حقد الرشيد على جعفر منهم، يقال بسبب أنه دفع إليه يحيى بن عَبْد الله لمّا استنزله أخوه الفضل من الديلم وجعل حبسه عنده، فأطلقه استبداداً على السلطان ودالة وأنهى الفضل بن الربيع ذلك إلي الرشيد فسأله فصدقه الخبر فأظهر له التصويب وحقدها عليه، وكثرت السعاية فيهم فتنكر له الرشيد.ودخل عليه يوماً يحيى بن خالد بغير إذن فنكر ذلك منه، وخاطب به طبيبه جبريل بن بختيشوع منصرفاً به من مواجهته وكان حاضراً، فقال يحيى: هو عادتي يا أمير المؤمنين، وإذ قد نكرت مني فسأكون في الطبقة التي تجعلني فيها! فاستحيى هرون وقال: ما أردت ما يكره. وكان الغلمان يقومون بباب الرشيد ليحيى إذا دخل، فتقدم لهم مسرور الخادم بالنهي عن ذلك فصاروا يعرضون عنه إذا أقبل، وأقاموا على ذلك زماناً. فلما حج الرشيد سنة سبع وثمانين ورجع من حجه ونزل الأنبار أرسل مسروراً الخادم في جماعة من الجند ليلاً فأحضر جعفراً بباب الفسطاط، وأعلم الرشيد فقال: إئتني برأسه، فطفق جعفر يتذلل ويسأله المراجعة في أمره حتى قذفه الرشيد بعصا كانت في يده وتهدده فخرج وأتاه برأسه، وحبس الفضل من ليلته وبعث من احتياط على منازل يحيى وولده وجميع موجودهم وحبسه في منزله.وكتب من ليلته إلي سائر النواحي بقبض أموالهم ورقيقهم، وبعث من الغد بشلو جعفر وأمر أن يقسم قطعتين وينصبان على الجسر، وأعفى محمد بن خالد من النكبة و لم يضيق على يحيى ولا بنيه الفضل ومحمد

وموسى. ثم تجردت عنه التهمة بعبد الملك بن صالح بن علي وكانوا أصدقاء له، فسعى فيه إبنه عَبْد الرحمن بأنه يطلب الخلافة فحبسه عنه الفضل بن الربيع ثم أحضره من الغداة وقرعه ووبخه فأنكر وحلف واعترف لحقوق الرشيد وسلفه عليه، فأحضر كاتبه شاهداً عليه فكذبه عَبْد الملك، فأحضر ابنه عَبْد الرحمن فقال: هو مأمور معذور، أو عاق فاجر، فنهض الرشيد من مجلسه وهو يقول سأصبر حتى أعلم ما يرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك، فقال عَبْد الملك: رضيت بالله حكماً وبأمير المؤمنين حاكماً فإنه لا يؤثر هواه على رضا ربه.ثم أحضره الرشيد يوماً آخر فأرعد له وأبرق، وجعل عَبْد الملك يعدد وسائله ومقاماته في طاعته ومناصحته، فقال له الرشيد لولا إبقائي على بني هاشم لقتلتك ورده إلي محبسه، وكلمه عَبْد الله بن مالك فيه وشهد له بنصحه فقال: أطلقه إذا قال: أمَّا في هذا القرب فلا! ولكن سهل حبسه ففعل وأجرى عليه مؤنه حتى مات الرشيد وأطلقه الأمين. وعظم حقده على البرامكة بسبب ذلك، فضيق عليهم وبعث إلي يحيى يلومه فيما سترعنه من أمر عَبْد الملك. فقال: يا أمير المؤمنين كيف يطلعني عَبْد الملك على ذلك وأنا كنت صاحب الدولة، وهل إذا فعلت ذلك يجازيني بأكثر من فعلك؟ أعيذك بالله أن تظن هذا الظن ألا أنه كان رجلاً متجملاً يسرني أن يكون في بيتك مثله، فوليته ولا خصصته. فعاد إليه الرسول يقول: إن لم تقر قتلت الفضل إبنك. فقال: أنت مسلط علينا فافعل ما أردت.وجذب الرسول الفضل وأخرجه، فودع أباه وسأله في الرضا عنه فقال: رضي الله عنك. وفرق بينهما ثلاثة أيام و لم يجد عندهما شيئاً فجمعهما واحتفظ إبراهيم بن عثمان بن نهيك لقتل جعفر فكان يبكيه ويبكي قومه حزناً عليهم. ثم انتهى به إلي طلب الثأر بهم، فكان يشرب النبيذ مع جواريه ويأخذ سيفه وينادي واجعفراه واسيداه والله لأثأرن بك ولأقتلن قاتلك، فجاء إبنه وحفص كان مولاه إلي الرشيد فأطلعاه على أمره، فأحضر إبراهيم وأظهر له الندم على قتله جعفراً والأسف عليه، فبكى إبراهيم وقال: والله يا سيدي لقد أخطات في قتله فانتهره الرشيد وأقامه. ثم دخل عليه إبنه بعد ليال قلائل فقتله، يقال بأمر الرشيد. وكان يحيى بن خالد محبوساً بالكوفه و لم يزل بها كذلك إلي أن مات سنة تسعين ومائة، ومات بعده ابنه الفضل سنة ثلاث وتسعين. وكانت البرامكة من محاسن العالم، ودولتهم من أعظم الدول، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها.

الصوائف وفتوحاتها:

كان الرشيد على ما نقله الطبري وغيره يغزو عاماً ويحج عاماً، ويصلي كل يوم مائة ركعة ويتصدق بألف درهم، وإذا حج حمل معه مائة من الفقهاء ينفق عليهم، وإذا لم يحج أنفق على ثلثمائة حاج نفقة شائعة. وكان يتحذى بآثار المنصور إلا في بذل المال فلم ير خليفة قبله أبذل منه للمال. وكان إذا لم يغز غزا بالصائفة كبار أهل بيته وقوّاده، فغزا بالصائفة سنة سبعين سليمان بن عَبْد الله البكائي، وقيل غزا بنفسه. وغزا بالصائفة سنة إثنتين وسبعين إسحق بن سليمان بن علي فأثخن في بلاد الروم وغنم وسبى. وغزا في سنة أربع وسبعين بالصائفة عَبْد الملك بن صالح، وقيل أبوه عَبْد الملك فبلغ في نكاية الروم ما شاء، وأصابهم برد شديد سقطت منه أيدي الجند. ثم غزا بالصائفة سنة سبع وسبعين عَبْد الرزاق بن عَبْد الحميد الثغلبي. وفي سنة ثمان وسبعين

زفر بن عاصم. وغزا سنة إحدى وثمانين بنفسه فافتتح حصن الصفصاف وأغزى عَبْد الملك بن صالح فبلغ أنقرة، وافتتح مطمورة. وكان الفداء بين المسلمين والروم، وهو أول فداء في دولة بني العبّاس، وتولاه القاسم بن الرشيد وأخرج له من طرسوس الخادم الوالي عليها وهو أبو سليمان فرج، فنزل المدامس على إثني عشر فرسخاً، وحضر العلماء والأعيان وخلق من أهل الثغور وثلاثون ألفاً من الجند المرتزقة فحضروا هنالك وجاء الروم بالأسرى ففودي بهم من كان لهم من الأسرى، وكان أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة. وغزا بالصائفة سنة إثنتين وثمانين عَبْد الرحمن بن عَبْد الملك بن صالح دقشوسوس مدينة أصحاب الكهف، وبلغهم أن الروم سموا ملكهم قسطنطين بن إليون وملكوا أمه ربى وتلقب عطشة، فأثخنوا في البلاد ورجعوا.وفي سنة ثلاث وثمانين حملت إبنة خاقان ملك الخزر إلي الفضل بن يحيى فماتت ببردعة، ورجع من كان معها فأخبروا أباها أنها قتلت غيلة، فتجهز إلي بلاد الإسلام، وخرج من باب الأبواب وسبى أكثر من مائة ألف فارس وفعلوا ما لم يسمع بمثله. فولى الرشيد يزيد بن مزيد أمر أرمينية مضافة إلي أذربيجان وأمره

بالنهوض إليهم، وأنزل خزيمة بن خازم بنصيبين رداً لهم. وقيل إن سبب خروجهم أن سعيد بن مسلم قتل الهجيم السلمي فدخل إبنه إلي الخزر مستجيشاً بهم على سعيد، ودخلوا أرمينية وهرب سعيد والخزر

ورجعوا.وفي سنة سبع وثمانين غزا بالصائفة القاسم بن الرشيد وجعله قرباناً لله، وولاه العواصم، فأناخ على قرة، وضيق عليها وبعث عليها ابن جعفر بن الأشعث، فحاصر حصن سنان حتى جهد أهله، وفادى الروم بثلثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم وتم بينهم الصلح، ورحل عنهم، وكان ملك الروم يومئذ ابن زيني وقد تقدم ذكره، فخلعه الروم وملكوا نيقفور وكان على ديوان خراجهم، ومات زيني بعد خمسة أشهر. ولما ملك نيقفور كتب إلي الرشيد بما استفزه، فسار إلي بلاد الروم غازياً. ونزل هرقل وأثخن في بلادهم حتى سأل نيقفور الصلح، ثم نقض العهد وكان البرد شديد الكلب، وظن نيقفور أن ذلك يمنعه من الرجوع فلم يمنعه، ورجع حتى أثخن في بلاده، ثم خرج من أرضهم.وغزا بالصائفة سنة ثمان وثمانين إبراهيم بن جبريل ودخل من درب الصفصاف، فخرج إليه نيقفور ملك الروم وانهزم وقتل من عسكره نحواً من أربعين ألفاً. وفي هذه السنة رابط القاسم بن الرشيد أبق.. وفي سنة تسع وثمانين كتب الرشيد وهو بالري كتب الأمان لشروين أبي قارن وندا هرمز جد مازيار مرزبان خستان صاحب الديلم، وبعث بالكتب مع حسين الخادم إلي طبرستان، فقدم خستان ووندا هرمز فأكرمهما الرشيد وأحسن إليهما. وضمن وندا هرمز وشروين صاحبي طبرستان وذكرا كيف توجه الهادي لهما وحاصرهما.وفي سنة ست وثمانين كان فداء بين المسلمين حتى لم يبق بأرض الروم مسلم إلا فردي، وفي سنة تسعين سار الرشيد إلي بلاد الروم بسبب ما قدمناه من غدر نيقفور، في مائة وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة، سوى الأتباع والمتطوعة ومن ليس له ذكر في الديوان، واستخلف المأمون

بالرقة وفوض إليه الأمور، وكتب إلي الآفاق بذلك، فنزل على هرقل فحاصرها ثلاثين يوماً وافتتحها وسبى أهلها وغنم ما فيها، وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفاً غازياً في أرضهم، ففتح الله عليه وخرب

ونهب ما شاء. وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة وديسة. وافتتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف وقونية، وأناخ عَبْد الله بن مالك على حصن ذي الكلاع.واستعمل الرشيد حميد بن معيوب على الأساطيل ممن بسواحل الشام ومصر إلي قبرس، فهزم وخرق وسبى أهلها نحواً من سبعة عشر ألفاً وجاء بهم إلي الواقعة فبايعوا بها. وبلغ فداء أسقف قبرس ألفي دينار. ثم سار الرشيد إلي حلوانة فنزل بها وحاصرها، ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر. وبعث يقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير، وعن إبنه دينارين وعن بطارقته كذلك. وبعث يقفور في جارية من بني هرقلة وكان خطبها إبنه فبعث بها إليه. ونقض في هذه السنة قبرس فغزاهم معيوب بن لحمى فأثخن فيهم وسباهم. ولما رجع الرشيد من غزاته خرجت الروم إلي عين زربة والكنيسة السوداء وأغاروا ورجعوا، فاستنقذ أهل المصيصة ما حملوه من الغنائم.

وفيها غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف، فأخذت الروم عليه المضايق، فانهزم وقتل في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس. واستعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه خراسان، وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وأخرجه إلي الصائفة، وسار بالعساكر الإسلامية في أثره، ورتب بدرب الحرث عَبْد الله بن مالك، وبمرعش سعيد بن مسلم بن قتيبة، وأغارت الروم عليه فأصابوا من المسلمين وانصرفوا ولم يتحرك من مكانه. وبعث الرشيد محمد بن زيد بن مزيد إلي طرسوس، وأقام هو بدرب الحرث، وأمر قواده بهدم الكنائس في جميع الثغور. وأخذ أهل الذمة بمخالفة زي المسلمين في ملبوسهم.

وأمر هرثقة ببناء هرطوس وتولى ذلك فخرج الخادم بأمر الرشيد وبعث إليها جنداً من خراسان ثلاثة أيام، وأشخص إليهم ألفاً من أهل المصيصة وألفاً من أنْطاكِية فتم بناؤها سنة إثنتين وتسعين. وفي هذه السنة تحركت الخرمية بناحية أذربيجان فبعث إليهم عَبْد الله بن مالك في عشرة آلاف فقتل وسبى وأسر، ووافاه بقرمالين فأمره بقتل الأسرى وبيع السبي. وفيها استعمل الرشيد على الثغور ثابت بن مالك الخزاعي فافتتح مطمورة وكان الفداء على يديه بالبرذون. ثم كان الفداء الثاني وكان عدة أسرى المسلمين فيه ألفين وخمسمائة.

الولاية على النواحى

كان على إفريقية مزيد بن حاتم كما قدمناه، ومات سنة إحدى وسبعين بعد أن استخلف ابنه داود، فبعث الرشيد على إفريقية أخاه روح بن حاتم فاستقدمه من فلسطين وبعثه إلي إفريقية. وعزل أبا هريرة محمد بن فروج عن الجزيرة وقتله وولى مكانه وفي سنة ست وسبعين ولى الرشيد على الموصل الحكم بن سليمان، وقد كان خرج الفضل الخارجي بنواحي نصيبين وغنم وسار إلي داريا وآمد وأرزق وخلاط فقفل لذلك ورجع إلي نصيبين فأتى الموصل وخرج إليه الفضل في عساكرها فهزمهم على الزاب. ثم عادوا لقتاله فقتل الفضل وأصحابه. وفي سنة ست وسبعين مات روح بن حاتم بإفريقية، واستخلف حبيب بن نصر المهلبي فسار الفضل إلي الرشيد فولاه على إفريقية، وعاد إليها فاضطرب عليه الخراسانية من جند إفريقية ولم يرضوه، فولى مكانه هرثمة بن أعين وبعث في العساكر فسكن الاضطراب ورأى ما بإفريقية من الاختلاف فاستعفى الرشيد من ولايتها فاعفاه، وقدم إلي العراق بعد سنتين ونصف من مغيبه.وفي هذه ولى الفضل بن يحيى على مصر مكان

أخيه جعفر مضافاً إلي ما بيده من الري وسجستان وغيرهما، ثم عزله عن مصر وولّى عليها إسحق بن سليمان، فثارت به الحوقية من مصر وهم جموع من قيس وقضاعة فأمده بهرثمة بن أعين فأذعنوا، وولاه عليهم شهراً، ثم عزله وولى عَبْد الملك بن

صالح مكانه، وفيها فوض أمر دولته إلي يحيى بن خالد. وفي سنة ثمانين بعث جعفر بى يحيى إلي الشام في القواد والعساكر ومعه السلاح والأموال والعصبية التي كانت بها فسكنت الفتنة ورجع فولاه خراسان وسجستان، فاستعمل عليها عيسى بن جعفر، وولى جعفر بن يحيى المُريس.وقدم هرثمة بن أعين من إفريقية فاستخلفه جعفر على الحرد وعزل الفضل بن يحيى عن طبرستان والرويان وولاها عَبْد الله بن حازم، وولّى على الجزيرة سعيد بن مسلم، وولّى على الموصل يحيى بن سعيد الحرشيّ فأساء السيرة وطالبهم بخراج سنين ماضية، فانجلا أكثر أهل البلد، وعزله الرشيد وولّى عليها يحيى بن خالد. وفي سنة إحدى وثمانين ولى على إفريقية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي وكان أبوه من قواد الشيعة، ومحمد رضيع الرشيد وتلاده، فلما استعفى هرثمة ولاه مكانه، واضطربت عليه إفريقية، وكان إبراهيم بن الأغلب بها والياً على الزاب، وكان جند إفريقية يرجعون إليه، فأعانه وحمل الناس على طاعته بعد أن أخرجوه، فكرهوا ولاية محمد بن مقاتل، وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلي الرشيد يطلب ولاية إفريقية على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر معونة إلي والي إفريقية، ويحمل هو كل سنة أربعين.ألف دينار. فاستشار الرشيد بطانته، فأشار هرثمة بإبراهيم بن الأغلب، وولاه الرشيد في محرم سنة أربعة وثمانين، فضبط الأمور وقبض على المؤمنين وبعث بهم إلي الرشيد، فسكنت البلاد.وابتنى مدينة بقرب القيروان سماها العباسية وانتقل إليها بأهله وخاصته وحشمه، وصار ملك افريقية في عقبه كما يذكر في أخبارها إلي أن غلبهم عليها الشيعة العبيديون. وكان يزيد بن مزيد على أذربيجان فولاه الرشيد سنة ثمان وثمانين على أرمينية مضافة إليها، وولى خزيمة بن خازم على نصيبين. وولى الرشيد سنة أربع وثمانين على اليمن ومكة حماداً البربري، وعلى السند داود بن يزيد بن حاتم، وعلى الجبل يحيى الحرشي، وعلى طبرستان مهرويه الزاي، وقتله أهل طبرستان سنة خمس وثمانين، فولى مكانه عَبْد الله بن سعيد الحرشي.وفيها توفي يزيد بن زائدة الشيطاني ببردعة، وكان على أذربيجان وأرمينية فولى مكانه إبنه أسد بن يزيد بن حاتم. وفي سنة تسع وثمانين سار الرشيد إلي الري وولى على طبرستان والري ودنباوند

وقوس وهمذان عَبْد الملك بن مالك. وفي سنة تسعين ولى على الموصل خالد بن يزيد بن حاتم، وقد تقدم لنا ولاية هرثمة على سليمان ونكبة علي بن عيسى. وفي سنة إحدى وتسعين ظفر حماد البربري بهيصيم اليماني وجاء به إلي الرشيد فقتله، وولى في هذه السنة على الموصل محمد بن الفضل بن سليمان، وكان على مكة الفضل بن العباس أخي المنصور والسفّاح.

خلع رافع بن الليث بما وراء النهر:

كان رافع بن نصر بن سيار من عظماء الجند فيما وراء النهر، وكان يحيى بن الأشعث قد تزوج ببعض النساء المشهورات الجمال، وتسرى عليها وأكثر ضرارها وتشوقت إلي التخلص منه، فدس إليها رافع بن الليث بأن

تحاول من يشهد عليها بالكفر لتخلص منه وتحل للأزواج ثم ترجع وتتوب، فكان وتزوجها. وشكا يحيى بن الأشعث إلي الرشيد وأطلعه على جل الأمر، فكتب إلي علي بن عيسى أن يفرق بينهما ويقيم الحد على رافع ويطوف به في سمرقند مقيداً على حمار ليكون عظة لغيره، ففعل ذلك ولم يجده رافع وحبس بسمرقند، فهرب من الحبى ولحق بعلي بن عيسى في بلخ فهم بضرب عنقه، فشفع فيه إبنه عيسى، فأمره بالانصراف إلي سمرقند، فرجع إليها ووثب بعاملها فقتله وملكها وذلك سنة تسعين. فبعث علي لحربه إبنه عيسى فلقيه رافع وهزمه وقتله، فخرج علي بن عيسى لقتله وسار من بلخ إلي مرو مخافة عليها من رافع بن الليث.ثم كانت نكبة علي بن عيسى وولاية هرثمة بن أعين على خراسان، وكان مع رافع بن الليث جماعة من القواد، ففارقوه إلي هرثمة. منهم عجيف بن عنبسة وغيره. وحاصر هرثمة رافع بن الليث في سمرقند وضايقه، واستقدم طاهر بن الحسين من خراسان فحضر عنده، وعاث حمزة الخارجي في نواحي خراسان لخلائها من الجند، وحمل إليه عمال هراة وسجستان الأموال. ثم خرج عَبْد الرحمن إلي نيسابور سنة أربع وتسعين وجمع نحواً من عشرين ألفاً، وسار حمزة فهزمه وقتل من أصحابه خلقاً وأتبعه إلي هراة، حتى كتب المأمون إليه ورده عن

ذلك.وكانت سنة ثلاث وتسعين بين هرثمة وبين أصحاب رافع وقعة كان الظفر فيها لهرثمة، وأسر بشراً أخا رافع، وبعث به إلي الرشيد وافتتح بخارى. وكان الرشيد قد سار من الرقة بعد مرجعه من الصائفة التي بنى فيها طرسوس على اعتزام خراسان لشأن رافع، وكان قد أصابه المرض، فاستخلف على الرقة إبنه القاسم وضم إليه خزيمة بن خازم، وجاء إلي بغداد. ثم سار منها إلي خراسان في شعبان سنة إثنتين وتسعين واستخلف عليها إبنه الأمين، وأمر المأمون بالمقام معه، فأشار عليه الفضل بن سهل بأن يطلب المسير مع الرشيد، وحذره البقاء مع الأمين فأسعفه الرشيد بذلك وسار معه.

وفاة الرشيد وبيعة الأمين :

ولما سار الرشيد عن بغداد إلي خراسان بلغ جرجان في صفر سنة ثلاث وتسعين واشتدت عليه، فبعث إبنه المأمون إلي مرو ومعه جماعة من القواد: عَبْد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وأسد بن خزيمة والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث والسدي والحريشي ونعيم بن خازم. ثم سار الرشيد إلي موسى واشتد به الوجع وضعف عن الحركة وثقل، فأرجف الناس بموته، وبلغه ذلك فأراد الركوب ليراه الناس فلم يطق النهوض فقال ردوني.

ووصل إليه وهو بطوس بشير أخو رافع أسيراً، بعث به هرثمة بن أعين فأحضره وقال: لو لم يبق من أجلي إلا حركة شفتي بكلمة لقلت اقتلوه. ثم أمر قصاباً ففصل أعضاءه، ثم أغمي عليه وافترق الناس.

ولما يئس من نفسه أمر بقبره فحفر في الدار التي كان فيها وأنزل فيه قوماً قرؤا فيه القرآن حتى ختموه وهو في محفة على شفيره ينظر إليه وينادي واسوأتاه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم مات وصلى عليه إبنه صالح وحضر وفاته الفضل بن الربيع وإسمعيل بن صبيح ومسرور وحسين ورشيد، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة أو تزيد، وترك في بيت المال تسعمائة ألف ألف دينار.ولما مات الرشيد بويع الأمين في العسكر صبيحة يومه والمأمون يومئذ بمرو، وكتب حمويه مولى المهدي صاحب البريد إلي نائبه ببغداد، وهو سلام أبو مسلم

يعلمه بوفاة الرشيد وهنأه بالخلافة، فكان أول من فعل ذلك. وكتب صالح إلي أخيه الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد، وبعث معه بالخاتم والبردة

والقضيب، فانتقل الأمين من قصره بالخلد إلي قصر الخلافة. وصلى بالناس الجمعة وخطب ثم نعى الرشيد وعزى نفسه والناس، وبايعته جملة أهله ووكل سليمان بن المنصور، وهم عم أبيه وأمه بأخذ البيعة على القواد وغيرهم، ووكل السّندي بأخذ البيعة على الناس سواهم، وفرق في الجند ببغداد رزق سنين. وقدمت أمه زبيدة من الرقة فلقيها الأمين بالأنبار في جمع من بغداد من الوجوه، وكان معها خزائن الرشيد، وكان قد كتب إلي معسكر الرشيد وهو حي مع بكر بن المعتمر لّما اشتدت علة الرشيد، وإلى المأمون بأخذ البيعة لهما وللمؤتمن أخيهما، وإلى أخيه صالح بالقدوم بالعسكر والخزائن والأموال برأي الفضل. وإلى الفضل بالاحتفاظ على ما معه من الحرم والأموال، وأقر كل واحد على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة.وكان الرشيد قد سمع بوصول بكر بالكتاب فدعاه ليستخرجها منه فجحدها فضربه وحبسه. ثم مات الرشيد وأحضره الفضل فدفعها إليه، ولما قرؤا الكتاب تشاوروا في اللحاق بالأمين، وارتحل الفضل بالناس لهواهم في وطنهم، وتركوا عهود المأمون. فجمع المأمون من كان عنده من قواد أبيه، وهم عَبْد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وشبيب بن حميد بن قحطبة والعلاء مولى الرشيد،- وكان على حجابته-. والعباس بن المسيب بن زهير- وكان على شرطته- وأيوب بن أبي سمير- وهو على كتابته- وعبد الرحمن بن عَبْد الملك بن صالح وذو الرياستين الفضل بن سهل- وهو أخصهم به وأحظاهم عنده- فأشار بعضهم أن يركب في أثرهم ويردهم، ومنعه الفضل من ذلك وقال: أخشى عليك منهم، ولكن تكتب وترسل رسولك إليهم تذكرهم البيعة والوفاء، وتحذرهم الحنث، فبعث سهل بن صاعد ونوفلاً الخادم بكتابه إليهم بنيسابور، فقرأ الفضل كتابه وقال : أنا واحد من الجند.وشد عَبْد الرحمن برجليه على سهل ليطعنه بالرمح وقال: لو كان صاحبك حاضراً لوضعته فيه، وسب المأمون وانصرفوا، ورجع سهل ونوفل بالخبر إلي المأمون فقال له الفضل بن سهل: هؤلاء أعداء استرحت منهم وأنت بخراسان، وقد خرج بها المقنع وبعده يوسف البر فتضعضعت لهما الدولة ببغداد، وأنت رأيت عند خروج رافع بن الليث كيف كان الحال وأنت اليوم نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم فاصبر وأنا أضمن لك الخلافة، فقال المأمون: قد فعلت وجعلت الأمر إليك فقال: إن عَبْد الله بن مالك والقواد أنفع لك مني لشهرتهم وقوتهم، وأنا خادم

لمن يقوم بأمرك منهم حتى ترى رأيك. وجاءهم الفضل في منازلهم وعرض عليهم البيعة للمأمون، فمنهم من امتنع ومنهم من طرده، فرجع إلي المأمون وأخبره فقال: قم أنت بالأمر. وأشار عليه الفضل أن يبعث على الفقهاء ويدعوهم إلي الحق والعمل به وإحياء السنة ورد المظالم ويعقد على الصفوف، ففعل جميع ذلك، وأكرم القواد. وكان يقول للتميمي نقيمك مقام موسى بن كعب، وللربعيّ مكان أبي داود وخالد بن إبراهيم، ولليماني مكان قحطبة ومالك بن الهيثم، وكل هؤلاء نقباء الدولة. ووضع عن خراسان ربع الخراج فاغتبط به أهلها وقالوا: ابن أختنا وابن عم نبين. وأقام المأمون يتولى ما كان بيده من خراسان والري، وأهدى إلي الأمين

وكتب إليه وعظمه. ثم إن الأمين عزل لأول ولايته أخاه القاسم المؤتمن عن الجزيرة، واستعمل عليها خزيمة بن خازم وأقر المؤتمن على قنسرين والعواصم. وكان على مكة داود بن عيسى بن موسى بن محمد، وعلى حمص إسحاق بن سليمان فخالف عليه أهل حمص، وانتقل عنهم إلي سلمية، فعزله الأمين وولى مكانه عَبْد الله بن سعيد الحرشي، فقتل عدة منهم وحبس عدة وأضرم النار في نواحيها، وسألوا الأمان فأجابهم. ثم انتقضوا فقتل عدة منهم، ثم ولى عليهم إبراهيم بن العباس.

أخبار رافع وملوك الروم

وفي سنة ثلاث وتسعين دخل هرثمة بن أعين سمرقند وملكها وقام بها، ومعه طاهر بن الحسين، فاستجاش رافع بالترك فأتوه وقوى بهم. ثم انصرفوا وضعف أمره، وبلغه الحسن سيرة المأمون فطلب الأمان وحضر عند المأمون، فأكرمه. ثم هدم هرثمة على المأمون فولاه الحرس، وأنكر الأمين ذلك كله. وفي هذه السنة قتل يقفور ملك الروم في حزب برجان لسبع سنين من ملكه، وملك بعده إبنه استبراق وكان جريحاً فمات لشهرين، وملك بعده صهره على أخته ميخاييل بن جرجيس، ووثب عليه الروم سنة أربع وتسعين بعد اثنتين من ملكه، فهرب وترهب وولوا بعده إليون القائد

الفتنة بين الأمين والمأمون:

ولما قدم الفضل بن الربيع على الأمين ونكث عهد المأمون خشي غائلته، فأجمع قطع علائقه من الأمور وأغرى الأمين بخلعه والبيعة للعهد لإبنه موسى، ووافقه في ذلك على بن عيسى بن ماهان والسنديّ وغيرهما ممن يخشى المأمون. وخالفهم خزيمة بن خازم وأخوه عَبْدالله، وناشدوا الأمين في الكف عن ذلك وأن لا يحمل الناس على نكث العهود فيطرقهم لنكث عهده. ولج الأمين في ذلك وبلغه أن المأمون عزل العباس بن عَبْد الله بن مالك عن الري، وأنه ولىّ هرثمة بن أعين على الحرس، وأن رافع بن الليث أستأمن له فأفنه وسار في جملته فكتب إلي العمال بالدعاء لموسى ابنه بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن، فبلغ ذلك المأمون فأسقط اسم الأمين من الطرد وقطع البريد عنه. وأرسل الأمين إليه العباس بن موسى بن عيسى، وخاله عيسى بن جعفر بن المنصور وصالحا صاحب الموصل، ومحمد بن عيسى بن نَهِيك يطلب منه تقديم إبنه موسى عليه في العهد ويستقدمه. فلما قدموا على المأمون استشار كبراء خراسان فقالوا: إنما بيعتنا لك على أن لا تخرج من خراسان، فأحضر الوفد وأعلمهم بامتناعه مما جاؤا فيه. واستعمل الفضل بن سهل العباس بن موسى ليكون عيناً لهم عند الأمين ففعل، وكانت كتبه تأتيهم بالأخبار. ولما رجع الوفد عاودوه بطلب بعض كور خراسان، وأن يكون له بخراسان صاحب بريد يكاتبه، فامتنع المأمون من ذلك وأوعد إلي قعوده بالري ونواحيها يضبط الطرق وينقذها من غوائل الكتب والعيون، وهو مع ذلك يتخوف عاقبة الخلاف. وكان خاقان ملك التبت قد التوى عليه، وجيفونة فارق الطاعة، وملوك الترك منعوا الضريبة، فخشي المأمون ذلك، وحفظ عليه الأمر بأن يولي خاقان وجيفونة بلادهما، ويوادع ملك كابل، ويترك الضريبة لملوك الترك الآخرين. وقال له بعد ذلك: ثم أضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال، فإن ظفرت وإلا لحقت بخاقان مستجيراً فقبل إشارته وفعلها، وكتب إلي

الأمين يخادعه بأنه عامله على هذا الثغر الذي أمره الرشيد بلزومه، وأن مقامه به أشد غناء ويطلب إعفاءه من الشخوص إليه، فعلم الأمين أنه لا يتابعه على مراده، فخلعه وبايع لولده في أوائل سنة خمس وتسعين، وسمّاه الناطق بالحق، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن من المنابر، وجعل ولده موسى في حجر علي بن عيسى، وعلى شرطته محمد بن عيسى بن نهيك،

وعلى حرسه أخوه عيسى، وعلى رسائله صاحب القتلى. وكان يدعى له على المنابر ولابنه الآخر عَبْد الله ولقبه القائم بالحق، وأرسل إلي الكعبة من جاء بكتابي العهد للأمين والمأمون اللذين وضعهما الرشيد هنالك، وسارت الكتب من ذلك إلي المأمون ببغداد من عيونه بها، فقال المأمون: هذه أمور أخبر الرائي عنها وكفاني أنا أن أكون مع الحق وبعث الفضل بن سهل إلي جند الري بالأقوات والإحسان، وجمع إليهم من كان بأطرافهم. ثم بعث على الري طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق أسعد الخزاعي أبا العباس أميراً وضم إليه القواد والأجناد، فنزلها ووضع المسالح والمراصد، وبعث الأمين عصمة بن حماد بن سالم إلي همذان في ألف رجل، وأمره أن يقيم بهمذان ويبعث مقدمته إلي ساوة.

خروج ابن ماهان لحرب طاهر ومقتله:

ثم جهز الأمين علي بن عيسى بن ماهان إلي خراسان لحرب المأمون، يقال دس بذلك الفضل بن سهل العين له عند الفضل بن الربيع، فأشار به عليهم لمّا في نفوس أهل خراسان من النفرة عن ابن ماهان فجدّوا في حربه. ويقال حرّض أهل خراسان على الكتب إلي ابن ماهان ومخادعته إن جاء. فأمره الأمين بالمسير وأقطعه نهاوند وهمذان وقُم وأصبهان وسائر كور الجبل حرباً وخراجاً، وحكمه في الخزائن وأعطاه الأموال، وجهز معه خمسين ألف فارس. وكتب إلي أبي دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلْيّ وهلال بن عَبْد الله الحضرميّ في الانضمام، وركب إلي باب زبيدة ليودعها فأوصته بالمأمون بغاية ما يكون أن يوصى به، وأنه بمنزلة إبنها في الشفقة والموصلة، وناولته قيداً من فضة وقالت له: إن سار إليك فقيده به مع المبالغة في البر والأدب معه. ثم سار علي بن عيسى من بغداد في شعبان، وركب الأمين يشيعه في القواد والجنود، و لم ير عسكر مثل عسكره. ولقي السفر بالسابلة فأخبروه أن طاهرا بالريّ يعرض أصحابه، وهو مستعد للقتال. وكتب إلي ملوك الديلم وطبرستان يعدهم ويمنيهم، وأهدى لهم التيجان والأسورة على أن يقطعوا الطرق عن خراسان فأجابوا، ونزل أول بلاد الري، فأشار عليه أصحابه بإذكاء العيون والطلائع، والتحصن بالخندق فقال: مثل طاهر لا يستعدّ له، وهو إما أن يتحصن بالريّ فيثب إليه أهلها، وأمَّا أن يفر إذا قربت منه خيلنا. ولما كان من الريّ على عشرة فراسخ استشار أصحاب طاهر في لقائه فمالوا إلي التحصّن بالريّ فقال: أخاف أن يثب بنا أهلها. وخرج فعسكر على خمسة فراسخ

منها في أقل من أربعة آلاف فارس. وأشار عليه أحمد بن هشام كبير جند خراسان أن ينادي بخلع الأمين وبيعة المأمون لئلا يخادعه علي بن عيسى بطاعة الأمين وأنه عامله ففعل، وقال علي لأصحابه: بادروهم فإنهم قليل ولا يصبرون على حد السيوف وطعن الرماح، وأحكم تعبية جنده، وقدم بين يديه عشر رايات مع كل

راية ألف رجل، وبين كل رايتين غلوة سهم ليقاتلوا نوبا. وعبى طاهر أصحابه كراديس وحرضهم وأوصاهم، وهرب من أصحاب طاهر جماعة، فجلدهم علي وأهانهم، فأقصر الباقون وجذوا في قتاله..

وأشار أحمد بن هام على طاهر بأن يرفع كتاب البيعة على رمح ويذكر علي بن عيى بها نكثه. ثم اشتد القتال وحملت ميمنة علي فانهزمت ميسرة طاهر، وكذلك ميسرته على ميمنة طاهر فأزالوها، واعتمد طاهر القلب فهزموهم، ورجعت المجنبتان منهزمة، وانتهت الهزيمة إلي علي وهو ينادي لأصحابه. فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله وجاء برأسه إلي طاهر، وحمل شلوه على خشبة وألقي في بئر بأمر طاهر. وأعتق طاهر جميع غلمانه شكرا لله، وتمت الهزيمة. واتبعهم أصحاب طاهر فرسخين وأقفوهم فيها اثنتي عشرة مرة يقتلونهم في كلها ويأسرونهم، حتى جن الليل بينهم.

ورجع طاهر إلي الري وكتب إلي الفضل: كتابي إلي أمير المؤمنين ورأس علي بين يدي وخاتمه في إصبعي، وجنده متصرفون تحت أمري والسلام. وورد الكتاب على البريد في ثلاثة أيام، فدخل الفضل على المأمون وهنأه بالفتح، ودخل الناس فسلموا عليه بالخلافة ووصل رأس علي بعدها بيومين وطيف به في خراسان، ووصل الخبر إلي الأمين بمقتل علي وهزيمة العسكر، فأحضر الفضل بن الربيع وكيل المأمون ببغداد وهو نوفل الخادم، فقبض ما بيده من ضياعه وغلاته وخمسين ألف ألف درهم كان الرشيد وضاه بها، وندم الأمين على فعله، وسعت الجند والقواد في طلب الأرزاق، فهم عَبْد الله بن حاتم بقتالهم فمنعه الأمين وفرق فيهم أموالا.

مسير ابن جبلة إلي طاهر ومقتله:

ولما قتل علي بن عيسى بعث الأمين عَبْد الرحمن بن الأنباري في عشرين ألف فارس إلي همذان، وولاّه عليها وعلى كل ما يفتحه من بلاد خراسان وأمدّه بالمال، فسار إلي همذان وحصّنها، وجاءه طاهر فبرز إليه ولقيه، فهزمه طاهر إلي البلد. ثم خرج عَبْد الرحمن ثانية فانهزم إلي المدينة، وحاصره طاهر حتى ضجر منه أهل المدينة وطلب الأمان من طاهر، وخرج من همذان. وكان طاهر عند نزوله عليها قد خشي من

صاحب قزوين أن يأتيه من ورائه، فجهّز العسكر على همذان. وسار إلي قزوين في ألف فارس، ففرّ عاملها وملكها. ثم ملك همذان وسائر أعمال الجبل، وأقام عَبْد الرحمن بن جبلة في أمانه. ثم أصاب منه بعض الأيام غرة فركب وهجم عليه في عسكر، فقاتله طاهر أشدّ القتال، حتى انهزم أصحابه وقتل ولحق فلّهم بعبد الله وأحمد إبني الحريشيّ في عسكر عظيم بعثهما الأمين مدداً لعبد الرحمن، فانهزموا جميعاً إلي بغداد. وأقبل طاهر نحو البلاد وحده وأخذه إلي حلوان فخندق بها وجمع أصحابه.

بيعة المأمون:

وأمر المأمون عندها بأن يخطب له على المنابر، ويخاطب بأمير المؤمنين، وعقد للفضل بن سهل على المشرق كلّه من جبل همذان إلي البيت طولاً، ومن بحر فارس إلي بحر الديلم وجرجان عرضاً، وحمل له عمّاله ثلاثة آلاف ألف درهم. وعقد له لواء ذا شعبتين ولقّبه ذا الرياستين يعني الحرب والعلم، وحمل اللواء علي بن هشام، وحمل العلم نعيم بن خازم، وولّى أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج.

ظهور السفياني:

هو علي بن عد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ويلقّب أبا العميطر لأنه زعم أنها كنية الحردون فلقّبوه بها، وكانت أمه نفيسة بنت عَبْد الله بن العبّاس بن عليّ بن أبي طالب، وكان يقول: أنا ابن شيخي صفين يعني علياً ومعاوية. وكان من بقايا بني أُمَيَّة بالشام. وكان من أهل العلم والرواية، فادّعى لنفسه بالخلافة آخر سنة خمس وتسعين. وأعانه الخطاب بن وجه العلس مولى بني أُمَيَّة، كان متغلباً على صيدا، فملك دمشق من يد سليمان بن المنصور، وكان أكثر أصحابه من كلب. وكتب إلي محمد بن صالح بن بيهس يدعوه ويتهدده فأعرض عنه.وقصد السفياني القيسية فاستجاشوا بمحمد بن صالح، فجاءهم في ثلثمائة فارس من الصبات ومواليه. وبعث السفياني يزيد بن هشام للقائهم في إثني عشر ألفاً، فانهزم يزيد وقتل من أصحابه ألفان وأسر ثلاثة آلاف أطلقهم ابن بيهس وحلقهم. ثم جمع جمعاً مع إبنه القاسم وخرجوا

إلي ابن بيهس فانهزموا، وقتل القاسم وبعث برأسه إلي الأمين. ثم جمع جمعاً آخر وخرجوا مع مولاه المعتمر فانهزموا، وقتل المعتمر فوهن أمر السفياني وطمعت فيه قيس. ثم إن ابن بيهس مرض فجمع رؤساء بني نمير وأوصاهم بيعة مسلمة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعد بن مسلمة بن عَبْد الملك بالخلافة. وقال لهم: تولوه وكيدوا به السفياني فإنكم لا تتقون بأهل بيته. وعاد ابن بيهس إلي حوران، واجتمعت نمير على مسلمة فبايعوه، فقتل منهم وجمع مواليه. ودخل على السفياني فقيده وحبس رؤساء بني أُمَيَّة، وأدنى القيسية وجعلهم بطانة. وأفاق ابن بيهس من مرضه فجاء إلي دمشق وحاصرها وسلمها له القيسية في محرم سنة ثمان وتسعين وهرب مسلمة ، السفياني إلي المزة، وملك ابن بيهس دمشق إلي أن قدم عَبْد الله بن طاهر دمشق وسار إلي مصر، ثم عاد إليها فاحتمل ابن بيهس معه إلي العراق ومات بها.

مسير الجيوش إلي طاهر ورجوعهم بلا قتال:

ولما قتل عَبْد الرحمن بن جبلة أرسل الفضل بن الربيع إلي أسد بن يزيد بن مزيد ودعاه لحرب طاهر بعد أن ولّي الأمين الخلافة، وشكر لأسد فضل الطاعة والنصيحة وشدة البأس ويمن التقية. وطلب منه أرزاق الجد من المال لسنة، وألف فرس تحمل من معه بعد إزاحته عللهم بالأموال، وأن لا يطلب بحسبان ما يفتتح. فقال: قد أشططت ! ولا بدّ من مناظرة أمير المؤمنين. ثم ركب ودخل على الأمين فأمر بحبسه، وقيل إنه طلب ولدي المأمون كانا عند أمهّما إبنة الهادي ببغداد بحملهما معه، فإن أطاعه المأمون وإلاّ قتلهما. فغضب الأمين لذلك وحبسه، واستدعى عَبْد الله بن حميد بن قحطبة فاشتط كذلك، فاستدعى أحمد بن مزيد واعتذر له عبس أسد وبعثه لحرب طاهر، وأمر الفضل بأن يجهز له عشرين ألف فارس، وشفع في أسد بن أخيه فأطلقه.ثم سار وسار معه عَبْد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً أخرى وانتهوا إلي حلوان وأقاموا وطاهر بموضعه ودس المرجفين في عسكرهم، بأن العطاء والمنع ببغداد، والجند يقبضون أرزاقهم. حتى مشى الجند بعضهم إلي بعض، واختلفوا واقتتلوا ورجعوا من غير لقاء. وتقدم طاهر فنزل

حلوان وجاءه هرثمة في جيش من عند المأمون ومعه كتاب بأن يسلم إلي هرثمة ما ملكه من المدن ويتقدم إلي الأهواز ففعل ذلك.

أمر عَبْد الملك بن صالح وموته.

قد تقدم لنا حبس عَبْد الملك بن صالح إلي أن مات الرشيد وأخرجه الأمين، ولما كان أمر طاهر جاء عَبْد الملك إلي الأمين وأشار عليه بأن يقدم أهل الشام لحربه، فهم أجرأ من أهل العراق وأعظم نكاية في العدو، وضمن طاعتهم بذلك فولاه الأمين أهل الشام والجزيرة وقر له بالمال والرجال واستحثه. فسار إلي الرقة وكاتب أهل الشام فتسالموا إليه، فأكرمهم وخلع عليهم وكثرت جموعه. ثم مرض واشتد مرضه ووقعت فتنة في عسكره بين الخراسانيين وأهل الشام بسبب دابة أخذت لبعضهم في وقعة سليمان بن أبي جعفر وعرفها عند بعض أهل الشام، فاقتتلوا وأرسل إليهم عَبْد الملك بالقتل فلم يقتلوا، وأكثر القتل وأظهر عَبْد الملك النصرة للشاميين وانتقض الحسين بن مملي للخراسانيين وتنادى الناس بالرجوع إلي بلادهم، فمضى أهل حمص وقبائل كلب، فانهزم أهل الشام وأقام عَبْد الملك بن صالح بالرقة، توفي بها.

خلع الأمين وإعادته:

ولما مات عَبْد الملك بن صالح نادى الحسين بن علي في الجند بالرحيل إلي بغداد، وقدمها فلقيه القوّاد ووجوه الناس، ودخل مترله واستدعاه الأمين من جوف الليل، فامتنع وأصبح، فوافى باب الجسر وأغراهم بخلع الأمين، وحذرهم من نكثه. ثم أمرهم بعبور الجسر فعبروا، ولقيه أصحاب الأمين فانهزموا، وذلك منتصف رجب سنة ست، وأخذ البيعة للمأمون من الغد. ووثب العبّاس بن عيسى بن موسى بالأمين فأخرجه من قصر الخلد وحبسه بقصر المنصور ومعه أمه زبيدة، فلما كان من الغد طلب الناس أرزاقهم من الحسين وماج بعضهم في بعض، وقام محمد بن أبي خالد فنكر استبداد الحسين بخلع الأمين وليس بذي مترلة ولا حسب ولا نسب ولا غنائم.وقال أسد الحربي: قد ذهب أقوام بخلع الأمين، فاذهبوا أنتم بفكه يا معشر الحربية، فرجع الناس على أنفسهم باللائمة وقالوا: ما قتل قوم خليفتهم إلا سلّط الله عليهم السيف. ثم نهضوا إلي الحسين وتبعهم أهل الأرض فقاتلوه قتالاً شديداً وأسروه. ودخل

أسد الحربي إلي الأمين وكسر قيوده وأجلسه على أريكته، وأمرهم الأمين بلبس السلاح، فانتهبه الغوغاء وجيء بالحسين إليه أسيراً، فاعتذر إليه وأطلقهم، وأمر بجمع الجند والمسير إلي طاهر، وخلع عليه ما وراء بابه. ووقف الناس يهنئونه بباب الجسر حتى إذا خف عنه الناس قطع الجسر وهرب، وركب الجند في طلبه وأدركوه على فرسخ من بغداد وقتلوه وجاؤا برأسه إلي الأمين، واختفى الفضل بن الربيع عند ذلك فلم يوقف له على خبر.

استيلاء طاهر علي البلاد:

ولما جاء كتاب المأمون بالمسير إلي الأهواز قدم إليها الحسين بن عمر الرستمي، وسار في أثره وأتته عيونه بأن محمد بن يزيد بن حاتم قد توجه من قبل الأمين في جند ليحمي الأهواز من أصحاب طاهر، فبعث من أصحابه

محمد بن طالوت ومحمد بن العلاء والعباس بن بخارا أخذاه مدداً للرستمي. ثم أمدهم بقريش بن شبل. ثم سار بنفسه حتى كان قريباً منهم، وأشرفوا على محمد بن يزيد بعسكر مكرم، وقد أشار إليه أصحابه بالرجوع إلي الأهواز والتحصن بها حتى تأتيه قومه الأزد من البصرة، فرجع وأمر طاهر قُرَيْش بن شبل باتباعه قبل أن يتحصن بالأهواز، فخرج لذلك وفاته محمد بن يزيد إلي الأهواز، وجاء على أثره فاقتتلوا قتالاً شديداً، وفرّ أصحاب محمد واستمات هو ومواليه حتى قتلوا.وملك طاهر الأهواز، وولّى على اليمامة والبحرين وعمان. ثم سار إلي واسط وبها السّندي بن يحيى الحريشيّ والهيثم بن شعبة خليفة خزيمة بن حازم، فهربا عنها وملكها طاهر وبعث قائداً من قواده إلي الكوفة وبها العبّاس بن الهادي، فخلع الأمين وبايع للمأمون، وكتب بذلك إلي طاهر، وكذلك فعل المنصور بن المهدي بالبصرة والمطلب بن عَبْد الله بن مالك بالموصل، وأقرهم طاهر على أعمالهم.وبعث الحرث بن هشام وداود بن موسى إلي قصر ابن هبيرة وأقام بجرجايا. ولما بلغ الخبر بذلك إلي الأمين بعث محمد بن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربري إلي قصر ابن هبيرة فقاتلهم الحرث وداود قتالاً شديداً وهزموهم إلي بغداد. وبعث الأمين أيضاً الفضل بن موسى على الكوفة، فبعث إليه طاهر بن العلاء في جيش فلقيه في طريقه، فأراد مسالمته بطاعة المأمون كياداً، ثم قاتله فانهزم إلي بغداد. ثم سار طاهر إلي المدائن وعليها البرمكي، والمدّد متصل له كل يوم، فقدم قُرَيْش بن شبل، فلما أشرف عليهم وأخذ البرمكي في التعبية فكانت لا تتم له، فأطلق سبيل الناس وركب بعضهم بعضاً نحو بغداد، وملك طاهر المدائن ونواحيها، ثم نزل صرصر وعقد بها جسراً.

بيعة الحجاز للمأمون:

ولما أخذ الأمين كتب العهد من مكة، وأمر داود بن عيسى، وكان على مكة والمدينة بخلع المأمون قام في الناس ونكر نقض العهد وذكرهم ما أخذ الرشيد عليهم من الميثاق لإبنيه في المسجد الحرام أن يكونوا على الظالم، وأن محمداً بدأ بالظلم والنكث، وخلع أخويه وبايع لطفل صغير رضيع، وأخذ الكتابين من الكعبة فحرقهما ظلماً، ثم دعا إلي خلعه والبيعة للمأمون فأجابوه، ونادى بذلك في شعاب مكة وخطبهم. وكتب إلي إبنه سليمان بالمدينة بمثل ذلك ففعله، وذلك في رجب سنة ست وتسعين. وسار من مكة على البصرة وفارس وكرمان إلي المأمون، وأخبره فسر بذلك وولاه مكانه، وأضاف إليه ولاية عك. وأعطاه خمسمائة ألف درهم وسير معه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى على الموسم، ويزيد بن جرير بن مزيد بن خالد القسري في جند كثيف عاملاً على اليمن، ومروا بطاهر وهو محاصر بغداد؟ فأكرمهم وأقام يريد اليمن فبايعوه للمأمون وأطاعوه.

حصار بغداد واستيلاء طاهر عليها ومقتل الأمين:

ولما اتصلت بالأمين هذه الأحوال، وقتل الحسين بن علي بن عيسى، شمّر لحرب طاهر واستعد له. وعقد في شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة شتى، وأمر عليهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك، وأمرهم بالمسير إلي هرثمة فساروا إليه والتقوا بنواحي النهروان في رمضان، فانهزموا وأسر قائدهم علي بن محمد، فبعث به هرثمة

إلي المأمون وترك النهروان، وأقام طاهر بصرصر، والجيوش تتعاقب من قبل الأمين فيهزمها، ثم بذل الأمين الأموال ليستفسد بها عساكرهم، فسار إليه من عسكر طاهر نحو من خمسة آلاف، لفرق فيهم الأموال، وقود جماعة من الحربية، ودس إلي رؤساء

الجند في عسكر طاهر ورغبهم، فشغبوا على طاهر وسار كثير منهم إلي الأمين، وانضموا إلي قواد الحربية وقوّاد بغداد وساروا إلي صرصر. فعبى أصحابه كراديس وحرضهم ووعدهم.ثم تقدم فقاتلهم ملياً من النهار، وانهزم أصحاب الأمين، وغنم أصحاب طاهر عسكرهم. ولما وصلوا إلي الأمين فرق فيهم الأموال وقود منهم جماعة ولم يعط المنهزمين شيئاً، ودس إليهم طاهر واستمالهم، فشغبوا على الأمين. فأمر هؤلاء المحدثين بقتالهم وطاهر يراسلهم وقد أخذ رهائنهم على الطاعة، وأعطاهم الأموال. فسار فترل باب الأنبار بقواده وأصحابه، واستأمن إليه كثير من جند الأمين، وثارت العامة وفتقت السجون، ووثب الشطار على الأخيار. ونزل زهير بن مسيب الضبي من ناحية، ونصب المجانيق والعرادات، وحفر الخنادق. ونزل هرثمة بناحية أخرى وفعل مثل ذلك. ونزل عبيد الله بن الوضاح بالشماسية، ونزل طاهر بباب الأنبار، فضيق على الأمين بمترله ونفد ما كان بيد الأمين من الأموال، وأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة. وضرب آنية الذهب والفضة ليفرقها في الجند، وأحرق الحديثة فمات بها خلق، واستأمن سعيد بن مالك بن قادم إلي طاهر فولاه الأسواق وشاطىء دجلة، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان وكل ما غلب عليه من الدروب، وأمده بالرجال والأموال. ووكّل الأمين بقصر صالح وقصر سليمان بن المنصور إلي دجلة بعض قوّاده، فألح في إحراق الدور والرمي بالمجانيق وفعل طاهر مثل ذلك. وكثر الخراب ببغداد، وصار طاهر يخندق على ما يمكنه من النواحي ويقاتل من لم يجبه ، وقبض ضياع من لم يخرج إليه من بني هاشم والقواد وعجز الأجناد عن القتال.وقام به الباعة والعيارون، وكانوا ينهبون أموال الناس. واستأمن إليه القائد الموكل بقصر صالح فأمنه وسلم إليه ما كان بيده من تلك الناحية في جمادى الأخيرة من سنة سبع . واستأمن إليه محمد بن عيسى صاحب الشرطة فوهن الأمين. واجتمع العيارون والباعة والأجناد وقاتلوا أصحاب طاهر في قصر صالح، وقتلوا منهم خلقاً، وكاتب طاهر القواد بالأمان وبيعة المأمون، فأجابه بنو قحطبة كلهم ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العباس الطائي

وغيرهم. وفشل الأمين وفوض الأمر إلي محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الحسن الهرش، ومعهم الغوغاء يتولون أمر تلك الفتنة. وأجفل الناس من بغداد وافترقوا في البلاد.ولما وقع بطاهر في قصر صالح ما وقع بأصحابه شرع في هدم المباني وتخريبها، ثم قطع الميرة عنهم، وصرف السفن التي تحمل فيها إلي الفرات. فغلت الأسعار وضاق الحصار، واشتد كلب العيارين فهزموا عبيد الله بن الوضاح وغلبوه على الشماسية. وجاء هرثمة ليعيق فهزموه أيضاً وأسروه، ثم خلصه أصحابه. وعقد طاهر جسراً فوق الشماسية وعبر إليهم وقتلهم أشد قتال فردهم على أعقابهم، وقاتل منهم بشراً كثيراً . وعاد ابن الوضاح إلي مركزه، وأحرق منازل الأمين بالخيزرانية، وكانت النفقة فيها بلغت عشرين ألف درهم، وأيقن الأمين بالهلاك ، وفر منه عَبْد الله بن حازم بن خزيمة إلي المدائن لأنه اتهمه وحمل عليه السفلة والغوغاء.ويقال بل كاتبه طاهر وقبض ضياعه، لخرج عن

الأمين وقصد الهرش ومن معه جزيرة العباس من نواحي بغداد، فقاتلهم بعض أصحاب طاهر وهزموهم، وغرق منهم خلق كثير. وضجر الأمين وضعف أمره، وسار المؤتمن بن الرشيد إلي المأمون فولاه جرجان، وكاتب طاهر خزيمة بن حازم ومحمد بن علي بن موسى بن ماهان وأدخلهما قي خلع الأمين فأجاباه، ووثبا آخر محرم من سنة ثمان وتسعين فقطعا جسر دجلة، وخلع الأمين، وبعث إلي هرثمة وكان بإزائهما فسار إليهما من ناحيته، ودخل عسكر المهدي وملكه. وقدم طاهر من الغد إلي المدينة والكرخ فقاتلهم وهزمهم وملكها عنوة ونادى بالأمان، ووضع الجند بسوق الكرخ وقصر الوضاح، وأحاط بمدينة المنصور وقصر زبيدة وقصر الخلد من باب الجسر إلي باب البصرة، وشاطىء الصراة إلي مصبها في دجلة، ونصب عليها المجانيق.واعتصم الأمين في أمّه وولده بمدينة المنصور، واشتد عليه الحصار، وثبت معه حاتم بن الصقر والحرشي والأفارقة.

وافترق عامة الجنود والخصيان والجواري في الطرق، وجاء محمد بن حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي إلي الأمين وقالا له: بقي من خيلك سبعة آلاف فرس، نختار سبعة آلاف ونجعلهم عليها، ونخرج على بعض الأبواب ولا يشعر بنا أحد، ونلحق بالجزيرة والشام فيكون ملك جديد، وربما مال إليك الناس ويحدث الله أمراً. فاعتزم على ذلك وبلغ الخبر إلي طاهر، فكتب إلي سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نهيك والسندي بن شاهك يتهددهم إن لم يصرفوه عن ذلك الرأي. فدخلوا على الأمين وحذروه من ابن الصقر وابن الأغلب أن يجعل نفسه في أيديهم فيتقربوا به إلي طاهر، وأشاروا عليه بطلب الأمان على يد هرثمة بن أعين والخروج إله، وخالفهم إليه ابن الصقر وابن الأغلب.وقالوا له: إذا ملت إلي الخوارج فطاهر خير لك من هرثمة فأبى، وتطير من طاهر، وأرسل إلي هرثمة يستأمنه. فأجابه أنه يقاتل في أمانة المأمون فمن دونه

وبلغ ذلك طاهراً فعظم عليه أن يكون الفتح لهرثمة، واجتمع هو وقواده لهرثمة وقواده في مترل خزيمة بن حازم، وحضر سليمان والسندي وابن نهيك وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً، وأنه يخرج إلي هرثمة ويدفع إليه الخاتم والقضيب والبردة وهو الخلافة فرضي.ثم جاءه الهرش وأسر إليه أنهم يخادعونه وأنهم يحملونها مع الأمين إلي هرثمة، فغضب وأعد رجالاً حول قصور الأمين. وبعث إليه هرثمة لخمس بقين من محرم سنه ثمان وتسعين بأن يتربص ليلة لأنه رأى أولئك الرجال بالشط فقال: قد افترق عني الناس ولا يمكنني المقام لئلا يدخل علي طاهر فيقتلني. ثم ودع إبنيه وبكى وخرج إلي الشط،وركب حراقه هرثمة. وجعل هرثمة يقبل يديه ورجليه وأمر بالحراقة أن تدفع، وإذا بأصحاب طاهر في الزواريق، فشدوا عليها ونقبوها ورموهم بالآجر والنشاب فلم يرجعوا، ودخل الماء إلي الحراقة فغرقت.قال أحمد بن سالم صاحب المظالم: فسقط الأمين وهرثمة وسقطنا، فتعلق الملاح بشعر هرثمة وأخرجه، وشق الأمين ثيابه. قال: وخرجت إلي الشط فحملت إلي طاهر فسألني عن نفسي فانتسبت، وعن الأمين فقلت غرق، فحملت إلي بيت وحبست فيه حتى أعطيتهم مالاً فاديتهم به على نفسي. فبعد ساعة من الليل فتحوا علي الباب وأدخلوا علي الأمين عريان في سراويل وعمامة، وعلى كتفه خرقة فاسترجعت وبكيت. ثم عرفني فمال: ضمني إليك فإني أجد وحشة شديدة، فضممته وقلبه

يخفق فقال. يا أحمد! ما فعل أخي فقلت حي. قال: قبح الله بريدهم كان يقول قد مات، يريد بذلك العذر عن محاربته، فقلت: بل قبح الله وزراءك فقال: تراهم يفون لي بالأمان! قلت: نعم إن شاء الله.ثم دخل محمد بن حميد الطاهري فاستثبتنا حتى عرفه وانصرف، ثم دخل علينا منتصف الليل قوم من العجم منتضين سيوفهم، فدافع عن نفسه قليلاً. ثم ذبحوه ومضوا برأسه إلي طاهر، ثم جاؤا من السحر فأخذوا جثته. ونصب طاهر الرأس حتى رآه الناس، ثم بعث به إلي المأمون مع ابن عمه محمد بن الحسن بن مصعب، ومعه الخاتم والبردة والقضيب وكتب معه بالفتح . فلما رآه المأمون سجد.ولما قتل الأمين نادى طاهر بالأمان، ودخل المدينة يوم الجمعة فصلى بالناس وخطب للمأمون وذم الأمين، ووكل بحفظ القصور الخلافية ، وأخرج زبيدة أم الأمين وإبنيه موسى وعبد الله إلي بلاد الزاب الأعلى. ثم أمر بحمل الولدين إلي المأمون، وندم الجند على قتله. وطالبوا طاهراً بالأموال، فارتاب بجند بغداد وبجند ه أنهم تواطؤا عليه،

وثاروا به لخمس من قتل الأمين. فهرب إلي عقرقوبا ومعه جماعة من القواد. ثم تعبى لقتالهم فجاؤا واعتذروا وأحالوا على السفهاء والأحداث فصغ عمهم وتوعدهم أن يعودوا لمثلها، وأعطاهم أربعة أشهر. واعتذر إليه مشيخة بغداد وحلفوا أنهم لم يدخلوا الجند في شيء من ذلك، فقبل منهم ووضعت الحرب أوزارها واستوسق الأمر للمأمون في سائر الأعمال والممالك.ثم خرج الحسن الهرش في جماعة من السفلة واتبعه كثير من بوادي الأعراب،ودعا إلي الرضا من آل محمد ، وأتى النيل فجبى الأموال ونهب القرى. وولّى المأمون الحسن بن سهل أخا الفضل على ما افتتحه طاهر من كور الجبل والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن، فقدم سنه تسعة وتسعين وفرق العمال وولّى طاهراً على الجزيرة والموصل والشام والمغرب، وأمره أن يسير إلي قتال نصر بن شبيب، وأمر هرثمة بالمسير إلي خراسان، وكان نصر بن شبيب من بني عقيل بن كب بن ربيعة بن عامر في كيسوم شمالي حلب، وكان له ميل إلي الأمين. فلما قتل أظهر الوفاء له بالبيعة، وغلب على ما جاوره من البلاد، وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وعبر إلي شرقي العراق، وحصر حران.وسأل منه شيعة الطالبيين أن يبايعوا لبعض آل علي لّما رأوه من بني العباس ورجالهم وأهل دولتهم وقال: والله لا أبايع أولاد السوداوات، فيقول: إنه خلقني ورزقني. قالوا: فبعض بني أُمَيَّة قال: قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل ولو سلم علي رجل مدبر لأعداني بإدباره، وإنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم لتقديمهم العجم على العرب. ولما سار إليه طاهر نزل الرقة وأقام بها وكتب إليه يدعوه إلي الطاعة وترك الخلاف فلم يجبه، وجاء الخبر إلي طاهر في الرقة بوفاة أبيه الحسين بن زريق بن مصعب بخراسان، وأن المأمون حضر جنازته. ونزلا الفضل قبره وجاءه كتاب المأمون يعزيه فيه.وبعد قتل الأمين كانت الوقعة بالموصل بين اليمانية والتزارية وكان عليّ بن الحسن الهمداني متغلباً على الموصل فعسف بالتزارية ، وسار عثمان بن نعيم البرجمي إلي ديار مصر، وشكا إلي أحيائهم واستنفرهم، فسار معه من مصر عشرون ألفاً وأرسل إليهم علي بن الحسن بالرجوع إلي ما يريدون، فأبى عثمان فخرج علي في أربعة آلاف فهزمهم وأثخن فيهم وعاد إلي البلد.

ظهور ابن طباطبا العلوي:

لّما بعث المأمون الحسن بن سهل إلي العراق وولاّه على ما كان افتتحه طاهر من البلاد والأعمال، تحدث الناس أن الفضل بن سهل غلب على المأمون واستبد عليه وحجبه عن أهل بيته وقوّاده، فغضب بنو هاشم ووجوه الناس واجترؤا على الحسن بن سهل وهاجت الفتنة. وكان أبو السرايا السري بن منصور ويذكر أنه من بني شيبان من ولد هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود، وقيل من بني تميم بالجزيرة، وطلب فعبر إلي شرقي الفرات وأقام هناك يخيف السابلة ثم لحق بيزيد بن مزيد بأرمينية في ثلاثين فارساً فقوّده وقاتل معه الحرمية وأسر منهم وأخذ منهم غلامه أبا الشوك. ومات يزيد بن مزيد فكان مع ابنه أسد، وعزل أسد فسار إلي أحمد بن مزيد. ولما بعث الأمن أحمد بن مزيد لحرب هرثمة بعثه طليعة إلي عسكره، فاستماله هرثمة فمال إليه ولحق به وقصد بني شيبان مع الجزيرة، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة واجتمع إليه أزيد من ألفي فارس. فلما قتل الأمين تعصى هرثمة عن أرزاقهم فغضب واستأذن في الحج فأذن له وأعطاه عشرين ألف درهم ففرقها في أصحابه ومضى وأوصاهم باتباعه، فاجتمع له منهم نحو مائتين وسار إلي عين التمر، فأخذوا عاملها وقسمّوا ماله، ولقوا عاملاً آخر بمال موفور على ثلاثة أنفار فاقتسموه. وأرسل هرثمة عسكراً خلفه فهزمهم، ودخل البرية. ولحق به من تخفف من أصحابه فكثر جمعه، وسار نحو دقوقا وعليها أبو ضرغامة في سبعمائة فارس، فخرج وقاتله فهزمه، ورجع إلي القصر فحاصره أبو السرايا حتى نزل على الأمان وأخذ أمواله. وسار إلي الأنبار وعليها إبراهيم الشروي مولى المنصور، فقتله وأخذ ما فيها وعاد إليها عند إدراك الغلال فافتتحها. ثم قصد الرقة ومرّ بطوق بن مالك الثعلبي فاستجاشه على قيس، فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيساً بعصبية ربيعة حتى انقادت قيس إلي طوق. وسار أبو السرايا إلي الرقة فلقي محمد بن إبراهيم بن إسمعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن عليّ، وتلقب أبوه إبراهيم طباطبا فدعاه إلي الخروج، وأنفذ إلي الكوفة فدخلاها وبايعهم أهلها على بيعة الرضا من آل محمد، ونهب أبو السرايا قصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ ما فيه من الأموال والجواهر مما لا يحصى، وذلك منتصف جمادى الأخيرة سنة تسعة

وتسعين، وقيل إن أبا السرايا مطله هرثمة بأرزاق أصحابه، فغضب ومضى إلي الكوفة فبايع ابن طباطبا. ولما ملك الكوفة هرع إليه الناس والأعراب من النواحي فبايعوه، وكان عليها سليمان بن المنصور من قبل الحسن بن سهل، فبعث إليه زهير بن المسيب الضبي في عشرة آلاف، وخرج إليه ابن طباطبا وأبو السرايا فهزموه واستباحوا عسكره وأصبح محمد بن طباطبا من الغد ميتاً، فنصب أبو السرايا مكانه غلاماً من العلويّة، وهو محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين واستبد عليه. ورجع زهير إلى قصر ابن هبيرة فأقام به وبعث الحسن بن سهل عبدوس بن محمد بن خالد الموروذي في أربعة آلاف، فلقيه أبو السرايا منتصف رجب وقتله ولم يفلت من أصحابه أحد كانوا بين قتيل وأسير، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة وبعث جيوشاً إلى البصرة وواسط، وولى على البصرة العبّاس بن محمد بن عيسى بن محمد الجعفري، وعلى مكة الحسين الأفطس بن الحسين بن علي زين العابدين وجعل إليه الموسم. وعلى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر

الصادق، وعلى فارس إسماعيل بن موسى بن جعفر الصادق، وعلى الأهواز زيد بن موسى الصادق، فسار إلى البصرة وأخرج عنها العبّاس بن محمد بن داود بن الحسن المثنى إلى المدائن، وأمره أن يأتي بغداد من الجانب الشرقي ففعل.

وكان بواسط عَبْد الله بن سعد الحرشي من قبل الحسن بن سهل، ففرّ أمامهم وبعث الحسن بن سهل إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا وكان قد سار إلى خراسان مغاضباً له، فرجع بعد امتناع، وسار إلى الكوفة في شعبان. وبعث الحسن إلى المدائن وواسط علي بن أبي سعيد، وأبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة، فوجه جيشاً إلى المدائن فملكوها في رمضان. وتقدم فترل نهر صرصر، وعسكر هرثمة بإزائه غدوة. وسار عليّ بن أبي سعيد في سؤال المدائن فحاصر بها أصحاب أبي السرايا ورجع هو من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة وهرثمة وأتباعه، ثم حصره وقتل جماعة من أصحابه فانحاز إلى الكوفة ووثب الطالبيون على دور بني العبّاس وشيعتهم فنهبوها وخربوها وأخرجوهم واستخرجوا ودائعهم عند الناس، وكان على مكة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي، فلما بلغه قدوم حسين الأفطس جمع شيعة بني العباس. وكان مسرور الكبير قد حج في مائة فارس فتعبئ للحرب ودعا داود إلى حربهم فقال: لا أستحل ذلك في الحرم وخرج إلى العراق وتبعه مسرور. وكان حسين الأفطس بسرف يخاف دخول مكة فبلغه

الخبر أن مكة قد خلت من بني العبّاس، فدخل في عشرة أنفس وطاف وسعى ووقف بعرفة ليلاً وأتم الحجّ. وأقام هرثمة بنواحي الكوفة يحاصرها، واستدعى منصور بن المهدي وكاتب رؤساء الكوفة، وسار علي بن سعيد من المدائن إلى واسط فملكها ثم توجه إلى البصرة واشتد الحصار على أبي السرايا بالكوفة، فهرب عنها في ثمانمائة فارس ومعه صاحبه الذى نصبه وهو محمد بن جعفر بن محمد. ودخلها هرثمة منتصف محرم فأقام بها يوما وولّى عليها غسان صاحب الحرس بخراسان، وعاد وقصد أبو السرايا القادسية وسار منها إلى السوس، ولقي بخراسان مالاً حمل من الأهواز فقسّمه في أصحابه. وكان على الأهواز الحسن بن علي المأموني، فخرج إليه لقاتله فهزمه، وافترق أصحابه وجاء إلى مترلة برأس عين من جلولاء ومعه صاحبه محمد وغلامه أبو الشوك، فظفر بهم حمّاد الكند غوش وجاء بهم إلى الحسن بن سهل في النهروان، فقتل أبا السرايا وبعث برأسه إلى المأمون وبصاحبه محمد معه، ونصب شلوه على جسر بغداد. وسار عليّ بن أبي سعيد إلى البصرة فملكها من يد زيد بن موسى بن جعفر الصادق، وكان يسمّى زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين وشيعتهم، فاستأمن إليه زيد فأمنه وأخذه، وبعث الجيوش إلى مكة والمدينة واليمن لقتال من بها من العلويين، وكان إبراهيم بن موسى بن جعفر بمكة، فلما بلغه خبر أبي السرايا ومقتله ولّى وسار إلى اليمن وبها إسحاق بن موسى بن عيسى فهرب إلى مكة، واستولى إبراهيم على اليمن وكان يسمى الجزار لكثرة قتله وفتكه. ثم بعث رجلاً من ولد عقيل بن أبي طالب إلى مكة ليحجّ بالناس، وقد جاء لذلك أبو الحسن المعتصم في جماعة من القوّاد فيهم حدوية بن علي بن عيسى بن ماهان، والياً على اليمن من قبل الحسن بن سهل فخام العقيلي عن لقائهم، واعترض قافلة الكسوة فأخذها، ونهب أموال التجّار ودخل الحجّاج إلى مكة عراة، فبعث الخلودي

من القوّاد فصبحهم وهزمهم وأسر منهم، وتفقد أموال التجّار وكسوة الكعبة وطيبها، وضرب الأسراء عشرة أسواط لكل واحد وأطلقهم، وحجّ المعتصم بالناس.

بيعه محمد بن جعفر بمكة:

هو محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين ويلقّب الديباجة، وكان عالماً زاهداً ويروي عن أبيه وكان الناس يكتبون عنه. ولما ملك الحسين
الأفطس

مكة كما ذكرناه عاث فيها ونزع كسوة الكعبة وكساها بأخرى من الغد أنفذها أبو السرايا من الكوفة، وتتبع ودائع بني العباس وجعلها ذريعة لأخذ أموال الناس فخرجوا من مكة. وقلع أصحابه شبابيك الحرم وقلع ما على الأساطين من الذهب، واستخرج ما كان في الكعبة من المال فقسمه في أصحابه، وساء أثره في الناس. فلما قتل أبو السرايا تنكروا له فخشي على نفسه، فجاء إلى محمد بن جعفر ليبايع له بالخلافة، فلم يزل به هو وابنه حسن واستعانا عليه بابنه علي حتى بايعوه، ودعوه بأمير المؤمنين. واستبدّ عليه ابنه علي وابن الأفطس بأسوأ مما كان قبل، وأفحشوا في الزنا واللواط واغتصاب النساء والصبيان، فاجتمع الناس على خلع محمد بن جعفر أو يردّ إليهّم ابن القاضي كان مغتصبا ببيت ابنه عليّ، فاستأمنهم حتى ركب إلى بيت ابنه وسلّم إليهّم الغلام. وجاء إسحق بن موسى بن عيسى من اليمن، فاجتمع الناس وخندقوا مكة، وقاتلهم إسحق وامتنعوا عليه، فسار نحو العراق ولقي الجند الذين بعثهم هرثمة إلى مكة مع الجلودي ورجاء بن جميل، وهو ابن عم الحسين بن سهل. فرجع بهم وقاتل الطالبيين فهزمهم وافترقوا، واستأمن إليه محمد بن جعفر فأمنه وملك مكة، وسار محمد بن جعفر إلى الجحفة ثم إلى بلاد جهينة فجمع وقاتل هارون بن المسيب والي المدينة، فانهزم محمد وفقئت عينه وقتل خلق من أصحابه ورجع إلى موضعه. ولما انقضى الموسم استأمن الجلودي ورجاء بن جميل فأمناه ودخل مكة، وخطب واعتذر عما فعله بأنه بلغه موت المأمون ثم صح أنه حي، وخلع نفسه وسار إلى الحسن والي المأمون بمرو، فلم يزل عنده إلى أن سار المأمون إلى العراق فمات بجرجان في طريقه.

مقتل هرثمة:

لّما فرغ هرثمة من أبي السرايا رجع، وكان الحسن بن سهل بالمدائن فلم يعرج عليه، وسار إلى عقرقوبا إلى النهروان قاصداً خراسان، ولقيته كتب المأمون متلاحقة أن يرجع إلى الشام والحجاز، فأبى إلا لقاءه دالة عليه بما سبق له من نصحه له ولآبائه. وكان قصد أن يطلع المأمون على حال الفضل بن سهل في طيه الأخبار عنه وما عند الناس من القلق بذلك، وباستبداده عليه ومقامه بخراسان، وعلم الفضل بذلك فأغرى به المأمون، وألقى إليه أنه سلّط أبا السرايا وهو من جنده وقد خالف كتبك وجاء معانداً سيء القالة، وإن سومح في ذلك اجترأ غيره فسخطه المأمون وبقي في

انتظاره، ولما بلغ مرو قرع طبوله يسمعها لئلا يطوى خبره عن المأمون، وسأل المأمون عنها فقيل هرثمة أقبل يرعد ويبرق، فاستدعاه وقال هرثمة: مالأت العلويين وأبا السرايا ولو شئت إهلاكهم جميعاً لفعلت، فذهب يعتذر فلم يمهله، وأمر فربس بطنه وشُدخ أنفه، وسحب إلى السجن، ثم دسّ إليه من قتله.

انتقاض بغداد علي الحسن بن سهيل:

ولما بلغ خبر هرثمة إلى العراق كتب الحسن بن سهل إلى علي بن هشام والي بغداد من قبله أن يتعلل على الجند الحربية والبغداديين في أرزاقهم، لأنه كان بلغه عنهم قبل مسير هرثمة أنهم عازمون على خلعه وطرد عماله، وولوا عليهم إسحق بن الهادي خليفة المأمون. فلم يزل الحسين يتلطف إليهم ويكاتبهم حتى اختلفوا فأنزل علي بن هشام ومحمد بن أبي خالد في أحد جانبيها، وزهير بن المسيب في الجانب الآخر وقاتلوا الحربية ثلاثة أيام ثم صالحهم على العطاء وشرع فيه. وكان زيد بن موسى بن جعفر قد أخذه علي بن أبي سعيد من البصرة وحبسه كما ذكرناه قبل، فهرب من محبسه وخرج بناحية الأنبار ومعه أخ لأبي السرايا. ثم تلاشى أمره، وأخذوا [*] إلى علي بن هشام. ثم جاء خبر هرثمة وقد انتقض محمد بن أبي خالد على علي بن هشام بما كان يستحق به، وغضب يوماً مع زهير بن المسيب فقنعه بالسوط، فسار إلى الحربية ونصب لهم الحرب، وانهزم علي بن هشام إلى صرصر. وقيل إن ابن هشام أقام الحد على عَبْد الله بن علي بن عيسى، فغضب الحربية وأخرجوه. واتصل ذلك بالحسن بن سهل وهو بالمدائن كما قلناه، فانهزم إلى واسط أول سنة إحدى ومائتين، والفضل بن الربيع وقد ظهر من اختفائه من لدن الأمين. وجاء عيسى بن محمد بن أبي خالد من الرقة من عند طاهر، فاجتمع هو وأبوه على قتال الحسن وهزموا كل من تعرض للقائهم من أصحابه. وكان زهير بن المسيب عاملاً للحسن على جوخي من السواد وكان يكاتب بغداد، فركب إليه محمد بن أبي خالد

وأخذه أسيراً وانتهب ماله وحبسه ببغداد عند ابنه جعفر. ثم تقدم إلى واسط وبعثه ابنه هرون إلى النيل، فهزم نائب الحسن بها إلى الكوفة فلحق بواسط، ورجع هرون إلى أبيه وتقدم نحو واسط فسار الحسن عنها. وأقام الفضل بن الربيع مختفياً بها واستأمن لمحمد وبعثه إلى بغداد. وسار إلى الحسن على البقية ولقيتهم عساكر الحسن وقواده، وانهزم محمد وأصحابه وتبعهم الحسن إلى تمام الصلح، ثم لحقوا بجرجايا. ووجه محمد ابن ابنه هرون إلى [*] أ فأقام بها. وسار محمد ابن ابنه أبو رتيل وهو جريح إلى بغداد فمات بها ودفن في داره سراً ومحمد أبو رتيل إلى زهير بن المسيب فقتله من ليلته. وقام خزيمة بن خازم بأمر بغداد وبعث إلى عيسى بن محمد بأن يتولى حرب الحسن مكان أبيه، وبلغ الحسن موت محمد فبعث عسكره إلى هرون بالنيل فغلبوا وانتهبوها، ولحق هرون بالمدائن. ثم اجتمع أهل بغداد وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فأبى، فجعلوه خليفة للمأمون ببغداد والعراق انحرافاً عن الحسن بن سهل. وقيل: إن الحسن لّما ساعد أهل بغداد عيسى بن محمد بن أبي خالد على حربه خام عنه فلاطفه ووعده بالمصاهرة ومائة ألف دينار والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد وولاية النواحي، فقبل وطلب خط المأمون بذلك، وكتب إلى أهل بغداد: إني شغلت بالحرب عن جباية الخراج فولوا رجلاً من بني هاشم، فولوا المنصور بن المهدي: وأحصى عيسى أهل عسكره فكانوا، مائة ألف وخمسة

وعشرين ألفاً. وبعث منصور غسان بن الفرج إلى ناحية الكوفة فغزاه حميد الطوسي من قواد الحسن بن سهل، وأخذ أسيراً ونزل النيل، فبعث منصور بن محمد يقطين في العساكر إلى حميد، فلقيه حميد بكوبى فهزمه وقتل من أصحابه، ونهب ما حول كوثى ورجع إلى النيل وأقام ابن يقطين بصرصر.

أمر المطوعة:

ولما كثر الهرج ببغداد وامتدت أيدي الدعاوي بأذاية الناس في أموالهم وأفشى المناكير فيهم وتعذر ذلك، فخرجوا إلى القرى فانتهبوها. واستعدى الناس أهل الأمر فلم يغدوا عليهم، فتمشى الصلحاء من عمل ريظ وكل بينهم، ورأوا أنهم في كل درب قليلون بالنسبة إلى خيارهم، فاعتزموا على مدافعتهم واشتد خالد المدريوش من أهل بغداد، فدعا جيرانه وأهل محلته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن يغيروا على السلطان. فشد على من كان عندهم من الدّعار وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وتعدى ذلك إلى غير محلته. ثم قام بعده سهل بن سلامة الأنصاري من الحريشية من أهل خراسان ويكنى أبا حاتم فدعا إلى مثل ذلك، وإلى العمل بالكتاب والسنة، وعلق في عنقه مصحفاً وعبر على العامة وعلى أهل الدولة فبايعوه على ذلك وعلى قتال من خالف. وبلغ خبرهما إلى منصور بن المهدي وعيسى بن محمد بن أبي خالد فنكروا ذلك، لأن أكثر الدعار كانوا يشايعونهم على أمرهم، فدخلوا بغداد بعد أن عقد عليه الصلح مع الحسن بن سهل على الأمان له ولأهل بغداد، وانتظروا كتاب المأمون ورضي أهل البلد بذلك، فسهل عليهم أمر المدريوش وسهل.

العهد لعلي الرضا والبيعة لإبراهيم بن المهدي:

ولما بلغ أهل بغداد أن المأمون قد بايع العهد لعلي بن موسى الكاظم، ولقبه الرضا من آل محمد، وأمر الجند بطرح السواد ولبس الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق، وكتب الحسن بن سهل إلى عيسى بن محمد بن أبي خالد ببغداد يعلمه بذلك في رمضان من سنة إحدى ومائتين، وأمره أن يأخذ من عنده من الجند وبني هاشم بذلك، فأجاب بعض وامتنع بعض، وكبر عليهم إخراج الخلافة من بني العباس. وتولى كبر ذلك منصور وإبراهيم ابنا المهدي، وشايعهم عليه المطلب بن عَبْد الله بن مالك والسدّي ونصر الوصيف وصالح صاحب المصلّى ومنعوا يوم الجمعة من نادى في الناس بخلع المأمون والبيعة لإبراهيم بن المهدي ومن بعده لإسحق بن الهادي. ثم بايعوه في المحرم سنة إثنتين ومائتين ولقبوه المبارك ووعد الجند بأرزاق ستة أشهر، واستولى على الكوفة والسواد، وخرج فعسكر بالمدائن، وولّى بها على الجانب الغربي العباس بن الهادي، وعلى الجانب الشرقي إسحق بن الهادي. وكان بقصر ابن هبيرة حميد بن عَبْد الحميد عاملاً للحسن بن سهل، ومعه القواد سعيد بن الساحور وأبو البط وغسان بن الفرج ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب، كانوا منحرفين عن حميد، فداخلوا إبراهيم بن الهادي في أن يهلكوه في قصر ابن هبيرة وشعر بذلك الحسن بن سهل، فاستقدم حميداً وخلا لهم الجو منه، فبعث إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد بن أبي خالد وملك قصر ابن هبيرة وانتهب عسكر حميد ولحق به ابنه بجواريه. ثم عاد إلى الكوفة فاستعمل عليها العباس بن موسى الكاظم وأمره أن يدعو لأخيه فامتنع غلاة الشيعة من إجابته وقالوا لا حاجة إلينا بذكر المأمون وقعدوا عنه. وبعث إبراهيم بن المهدي

من القواد سعيداً وأبا البط لقتاله، فسرح إليهم العباس بن عمه وهو علي بن محمد الديباجة فانهزم، ونزل سعيد وأبو البط الحيرة، ثم تقدموا لقتال أهل الكوفة، وقاتلهم شيعة بني العباس ومواليهم. ثم سألوا الأمان للعباس وخرجوا من داره. ثم قاتل أصحابه أصحاب سعيد فهزموهم وأحرقوا دور عيسى بن موسى، وبلغ الخبر إلى سعيد بالحيرة بأن العباس قد نقض ورجع عن الأمان، فركب وجاء إلى

الكوفة وقتل من ظفر به، ولقيه أهله فاعتذروا إليه بأن هذا فعل الغوغاء، وأن العباس باق على عهده. ودخل سعيد وأبو البط ونادوا بالأمان، وولوا على الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكندي، ثم عزلوه وولوا مكانه غسان بن الفرج فقتل أخا السرايا. ثم عزلوه وولوا الهول ابن أخي سعيد القائد، وقدم حميد بن عَبْد الحميد لحربهم بالكوفة، فهرب الهول وبعث إبراهيم بن المهدي بن عيسى بن محمد بن أبي خالد لحصار الحسن بواسط على طريق النيل. وكان الحسن متحصناً بالمدينة، فسرح أصحابه لقتالهم فانهزموا وغنم عسكرهم، ورجع عيسى إلى بغداد فقاتل سهل بن سلامة المطوع حتى غلبه على منزله، فاختفى في كمار النظار، وأخذوه بعد ليال وأتوا به إسحق فقال: كل ما كنت أدعو إليه باطل. فقالوا: أخرج فأعلم الناس بذلك! فخرج وقال: قد كنت أدعوكم إلى الكتاب والسنة ولم أزل على ذلك، فضربوه وقيدوه وبعثوا به إلى إبراهيم المهدي فضربه وحبسه، وظهر أنه قتل في محبسه خفية لسنة من قيامه. ثم أطلقه فاختفى إلى أن انقرض أمر إبراهيم. وزحف حميد بن عَبْد الحميد سنة ثلاث ومائتين إلى قتال إبراهيم بن المهدي وأصحابه، وكان عيسى بن محمد بن أبي خالد هو المتولي لقتالهم بأمر إبراهيم، فداخلهم في الغدر بإبراهيم، وصار يتعلل عليه في المدافعة عنه، ونمي ذلك إلى إبراهيم بن هرون أخي عيسى فتنكر له، ونادى عيسى في الناس بمسالمة حميد، فاستدعاه إبراهيم وعاتبه بذلك فأنكر واعتذر، فأمر به فضرب، وحبس عدة من قوّاده وأفلت العباس خليفته، فمشى بعض الناس إلى بعض ووافقوا العباس على خلع إبراهيم وطردوا عامله من الجسر والكرخ. وثار الرعاع والغوغاء. وكتب العباس إلى حميد يستقدمه ليسلم إليه بغداد ونزل صرصر، وخرج إليه العباس والقواد وتواعدوا لخلع إبراهيم على أن يدفع لهم العطاء، وبلغ الخبر إلى إبراهيم فأخرج عيسى وأخوته، وسأله قتال حميد فامتنع. ودخل حميد فصلّى الجمعة وخطب للمأمون وشرع في العطاء ثم قطعه عنهم، فغضب الجند. وعاود إبراهيم سؤال عيسى في قتال حميد ومدافعته، فقاتل قليلاً ثم استأ سر لهم، وانفض العسكر راجعين إلى إبراهيم. وارتحل حميد فنزل في وسط المدينة وتسلل أصحاب إبراهيم إلى المدائن فملكوها، وقاتل بقيتهم حميد، وكان الفضل بن الربيع مع إبراهيم فتحول إلى حميد وكاتب المطلب بن عَبْد الله بن مالك بأن يسلموه إليه. وكان سعيد بن الساحور والبط وغيرهم من القواد يكاتبون علي بن هشام بمثل ذلك. ولما علم إبراهيم بما اجتمعوا

عليه أقبل على مداراتهم إلى أن جُنّ الليل. ثم تسرب في البلد واختفى منتصف ذي الحجة من سنة ثلاث، وبلغ الخبر إلى حميد وعلي بن هشام، فأقبلوا إلى دار إبراهيم فلم يجدوه، وذلك لسنتين من بيعته. وأقام علي بن هشام على شرقي بغداد وحميد على غربيها وأظهر سهل بن سلامة ما كان يدعو إليه فقربه حميد ووصله.

قدوم المأمون إلى العراق

لّما وقعت هذه الفتن بالعراق بسبب الحسن بن سهل ونفور الناس من استبداده وأخيه على المأمون، ثم من العهد لعلي الرضا بن موسى الكاظم وإخراج الخلافة من بني العباس، وكان الفضل بن سهل يطوي ذلك عن المأمون ويبالغ في إخفائه حذراً من أن يتغير رأي المأمون فيه وفي أخيه. ولما جاء هرثمة للمأمون وعلم أنه يخبره بذلك وأن المأمون يثق بقوله، أحكم السعاية فيه عند المأمون حتى تغير له فقتله و لم يصغ إلى كلامه، فازدادت نفرة الشيعة وأهل بغداد وكثرت الفتن، وتحدث القواد في عسكر المأمون بذلك و لم يقدروا على إبلاغه، فجاؤا إلى علي الرضا وسألوه إنهاء ذلك إلى المأمون فأخبره بما في العراق من الفتنة والقتال، وأنهم بايعوا إبراهيم بن المهدي فقال المأمون: إنما جعلوه أميراً يقوم بأمرهم! فقال ليس كذلك: وإن الحرب الآن قائمة ين ابن سهل وبينه، وإن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن ومكاني وعهدك لي. فقال له المأمون: ومن يعلم هذا غيرك؟ فقال: يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وغيرهما من وجوه قوادك. فاستدعاهم فكتموا حتى

استأمنوا إليه ثم أخبروه بما أخبره به الرضا، وأن الناس بالعراق يتهمونه بالرفض لعهده لعلي الرضا، وأن طاهر بن الحسين مع علم أمير المؤمنين ببلائه قد دفع إلى الرقة وضعف أمره، والبلاد تفتقت من كل جانب، وإن لم يتدارك الأمر ذهبت الخلافة منهم. فاستيقن المأمون ذلك وأمر بالرحيل واستخلف على خراسان غسان بن عباد وهو ابن عم الفضل بن سهل، وعلم الفضل بن سهل بذلك فشرع في عقاب أولئك القواد فلم يغنه. ولما نزل المأمون شرحبيل وثب بالفضل أربعة نفر فقتلوه في الحمام وهربوا، وجعل المأمون جعلاً لمن جاء بهم، فجاء بهم العباس بن الهيثم الدينوري. فلما حضروا عند المأمون قالوا له: أنت أمرتنا بقتله! وقيل بل اختلفوا في القول فقال بعضهم: أمرنا بقتله ابن أخيه، وقال آخرون بل عَبْد العزيز بن عمران من القواد وعلي وموسى، وغيرهم وأنكر

آخرون. فأمر المأمون بقتلهم وقتل من أقروا عليه من القواد، وبعث إلى الحسن بن سهل وسار إلى العراق. وجاءه الخبر بأن الحسن بن سهل أصابته الماليخوليا واختلط فبعث ديناراً مولاه ووكله بأمور العسكر، وكان إبراهيم بن المهدي وعيسى بالمدائن، وأبو البط وسعيد بالنيل والحرب متصلة بينهم. والمطلب بن عَبْد الله بن مالك قد اعتل بالمدائن، فرجع إلى بغداد وجعل يدعو إلى المأمون سراً وإلى خلع إبراهيم، وأن يكون منصور بن المهدي خليفة المأمون، وداخله في ذلك خزيمة بن خازم وغيره من القواد. وكتب إلى علي بن هشام وحميد أن يتقدما فتزل حميد نهر صرصر وعلي النهروان، وعاد إبراهيم بن المهدي من المدائن إلى بغداد منتصف صفر، وقبض على منصور وخزيمة ومنع المطلب مواليه، فأمر إبراهيم بنهب داره و لم يظفر، ونزل حميد وعلي بن هشام المدائن وأقاما بها. وزوج المأمون في طريقه إبنته من علي الرضا، وبعث أخاه إبراهيم بن موسى الكاظم على الموسم، وولاه اليمن وكان به حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان قد غلب عليه. ولما نزل المأمون مدينة طوس مات علي الرضا فجأة آخر صفر من سنة ثلاث من عنب أكله، وبعث المأمون إلى الحسن بن سهل بذلك وإلى أهل بغداد وشيعته يعتذر من عهده إليه وأنه قد مات ويدعوهم إلى الرجوع لطاعته. ثم سار إلى جرجان وأقام بها أشهراً وعقد على جرجان لرجاء بن أبي الضحاك قاعداً وراء النهر، ثم عزله سنة أربع وعقد

لغسان بن عباد من قرابة الفضل بن سهل على خراسان وجرجان وطبرستان وسجستان وكرمان وروبان ودهارير ثم عزله بطاهر كما نذكره. ثم سار إلى النهروان فلقيه أهل بيته وشيعته والقواد ووجوه الناس، وكان قد كتب إلى طاهر أن يوافيه بها، فجاء من الرقة ولقيه هنالك. وسار المأمون فدخل بغداد منتصف صفر من سنة أربعة فنزل الرصافة ثم نزل قصره بشاطىء دجلة، وبقي القواد في العسكر وانقطعت الفتن وبقي الشيعة يتكلمون في لبس الخضرة، وكان المأمون قد أمر طاهر بن الحسين أن يسأل حوائجه، فأول شيء سأل لبس السواد فأجابه؟ وقعد للناس وخلع عليه وعليهم الثياب السود، واستقامت الأمور . كانت الفتنة قد وقعت بالموصل بين بني شامة وبني ثعلبة، وكان علي بن الحسن الهمداني متغلباً عليها في قومه، فاستجارت ثعلبه بأخيه محمد فأمرهم بالخروج إلى البرية ففعلوا، وتبعهم بنو شامة في ألف رجل وحاصروهم بالقوجاء

ومعهم بنو ثعلب، وبعث علي ومحمد إليهم بالمدّد فقتلوا جماعة من بني شامة وأسروا منهم ومن بني ثعلب، فجاء أحمد بن عمر بن الخطاب الثعلبي إلى علي فوادعه وسكنت الفتنة. ثم إن علي بن الحسين سطا بمن كان في الموصل من الأزد عسف في الحكم عليهم، وقال لهم يوماً الحقوا بعمان! فاجتمعت الأزد إلى السيد بن أنس كبيرهم وقاتلوه. وكان في تلك النواحي مهدي بن علوان من الخوارج، فأدخله علي بن الحسين وبايعه وصفى بالناس، واشتدت الحرب. ثم كانت إصراً على علي وأصحابه، وأخرجهم الأزد عن البلد إلى الحديثة ثم اتبعوهم فقتلوا علياً وأخاه أحمد في جماعة، ولجأ محمد إلى بغداد وملك السيد بن أنس والأزد والموصل، وخطب للمأمون. ولما قدم المأمون بغداد وفد عليه السيد بن أنس فشكاه محمد بن الحسين بن صالح واستعداه عليه بقتل أخويه وقومه، فقال نعم يا أمير المؤمنين ! ادخلوا الخارجي بلدك وأقاموا على منبرك وأبطلوا دعوتك فأهدر المأمون دماءهم.

ولاية طاهر علي خراسان ووفاته:

كان المأمون بعد وصوله إلى العراق قد ولى طاهر بن الحسين الجزيرة والشرطة بجانبي بغداد والسواد، ودخل عليه يوماً في خلوته فأذن له بالجلوس وبكى ففداه. فقال المأمون: أبكي لأمر ذكره ذل وستره حزن، ولن يخلو أحد من شجن وقضى طاهر حديثه وانصرف. وكان حسين الخادم حاضراً فدسّ إليه على يد كاتبه محمد بن هرون أن يسأل المأمون عن مكاتبته على مائة ألف درهم ومثلها للكاتب، وخلا حسين بالمأمون وسأله ففطن وقال له: إن الثناء مني ليس برخيص، والمعروف عندي ليس بضائع فعيبي عن غير المأمون. فأجابه وركب إلى المأمون وفاوضه في أمر خراسان، وأنها يخشى عليها من الترك وأن غسان بن عباد ليس بكفء لها. فقال: لقد فكرت في ذلك فمن ترى يصلح لها؟ قال طاهر بن الحسين: قال هو خالع: قال أنا ضامنه. فاستدعاه وعقد له من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق من حلوان إلى خراسان، وعسكر من يومه خارج بغداد، وأقام شهراً تحمل إليه كل يوم عشرة آلاف ألف درهم عادة صاحب خراسان. وولى المأمون مكانه بالجزيرة ابنه عَبْد الله، وكان

ينوب عن أبيه بالشرطة فحملها إلى ابن عمه إسحق بن إبراهيم بن مصعب، وخرج إلى عمله ونزل الرقة لقتال نصر بن شيث ثم سار طاهر إلى خراسان آخر ذي القعدة سنة خمس ومائتين. وقيل في سبب ولاية طاهر خراسان: إن عَبْد الرحمن المطوع جمع جموعاً كثيرة بنيسابور لقتال الحرورية ولم يستأذن غسان بن عبّاد وهو الوالي على خراسان، فخشي أن يكون ذلك من المأمون فاضطرب، وتعصب له الحسن بن سهل. وخشي المأمون على خراسان فولى طاهراً وسار إلى خراسان فأقام بها إلى سنة سبع، ثم اعتزم على الخلاف. وخطب يوماً فأمسك عن الدعاء للمأمون ودعا بصلاح الأمة، وكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون بخلعه، فدعا بأحمد بن أبي خالد فقال: أنت ضمنته فسر وأتني به. ثم جاء من الغد الخبر بموته، فقال المأمون للبريد ونعم الحمد لله الذي قدّمه وأخرنا. وولى طلحة من قبله، وبعث إليه المأمون أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمره، فعبر أحمد إلى ما وراء النهر، وافتتح اشر وسنة، وأسر كاووس بن خالد أحمد وابنه الفضل وبعث بهما إلى المأمون، ووهب طلحة لأحمد بن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضاً بألف ألف ولمكاتبته خمسمائة ألف درهم. ثم خالف الحسين بن الحسين بن مصعب بكرمان فسار إليه أحمد بن أبي خالد وأتى به إلى المأمون فعفا عنه.

ولاية عَبْد الله بن طاهر الرقة ومصر ومحار بته نصر بن شيث:

وفي سنة ست ومائتين بلغ الخبر بوفاة يحيى بن معاذ عامل الجزيرة، وأنه استخلف ابنه أحمد، فولى المأمون عَبْد الله بن طاهر مكانه وجعل له ما بين الرقة ومصر، فأمره بحرب نصر بن شيث، وقيل ولاه سنة خمس، وقيل سنة سبع. واستخلف على الشرطة ببغداد إسحق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب وهو ابن عمه، وكتب إليه أبو طاهر كتاباً بالوصية جمع فيه محاسن الآداب والسياسة ومكارم الأخلاق، وقد ذكرناه في مقدمة كتابنا، فسار عَبْد الله بن طاهر لذلك، وبعث الجيوش لحصار نصر بن شيث بكيسوم في نواحي جانب، ثم سار إليه بنفسه سنة تسع ومائتين وأخذ بمخنقه. وبعث إليه المأمون محمد بن جعفر العامري يدعوه إلى الطاعة، فأجاب على شرط أن لا يحضر عنده. فتوقف المأمون وقال: ما باله ينفر مني فقال أبو جعفر لمّا تقدم من ذنبه. فقال: فتراه أعظم ذنباً من الفضل بن الربيع وقد أخذ جميع ما أوصى له به الرشيد من الأموال والسلاح وذهب مع القواد إلى أخي، وأسلمني وأفسد علي حتى كان ما كان، ومن عيسى ابن أبي خالد وقد خالف علي ببلدي وأخرب داري، وبايع لإبراهيم دوني فقال ابن جعفر يا أمير المؤمنين هؤلاء لهم سوابق ودالة يبقون بها، ونصر ليست له في دولتكم سابقة، وإنما كان من جند بني أُمَيَّة، وأنا لا أجيب إلى هذا الشرط. ولج نصر في الخلاف حتى جهده الحصار واستأمن فأمنه عَبْد الله بن طاهر، وخرج إليه سنة عشرة وبعث به إلى المأمون، وأخرب حصن كيسوم لخمس سنين من حصاره. ورجع عَبْد الله بن طاهر إلى الرقة. ثم قدم بغداد سنة إحدى عشرة فتلقاه العباس بن المأمون والمعتصم وسائر الناس.

الظفر بابن عائشة وبإبراهيم بن المهدي:

كان إبراهيم بن محمد بن عَبْد الوهاب بن إبراهيم الإمام ويعرف بابن عائشة ممن تولى كبر البيعة لإبراهيم بن المهدي، ومعه إبراهيم بن الأغلب ومالك بن شاهين، وكانوا قد اختفوا. عند قدوم المأمون في نواحي بغداد.

ولما وصل نصر بن شيث وخرجت النظارة أنفذوا للخروج في ذلك اليوم، ثم غلبهم بعض الناس فأخذوا في صفر من سنة عشرة، ثم ضربوا حتى أقروا على من كان معهم في الأمر فلم يعرض لهم المأمون وحبسهم فضاق عليهم المحبس وأرادوا أن ينقبوه، فركب المأمون بنفسه وقتلهم وصلب ابن عائشة ثم صلى عليه ودفنه. ثم أخذ في هذه السنة إبراهيم بن المهدي وهو متنقب في زي امرأة يمشي بين إمرأتين، واستراب به بعض العسس وقال: أين تردن في هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت في يده فازداد ريبة ورفعهن إلى صاحب المسلحة، وجاء بهن إلى أصاحب الجسر فذهب به إلى المأمون، وأحضره والغل في عنقه والملحبة على صدره ليراه بنو هاشم والناس. ثم حبسه عند أحمد بن أبي خالد، ثم أخرجه معه عندما سار الحسن بن سهل ليغنم الصلح، فشفع فيه الحسن وقيل ابنته بوران، وقيل: إن إبراهيم لّما أخذ حُمل إلى دار المعتصم وكان عند المأمون فأدخله عليه وأنبه فيما كان منه. واعتذر بمنظوم من الكلام ومنثور أتى فيه من وراء الغاية وهو منقول في كتب التاريخ فلا نطيل بنقله.

انتفاض مصر والإسكندرية:

كان السري بن محمد بن الحكم والياً على مصر وتوفي سنة خمس ومائتين، وبقي ابنه عَبْد الله، فانتقض وخلع الطاعة وأنزل بالإسكندرية جالية من الأندلس أخرجهم الحكم بن هشام من ربضي قرطبة وغربهم إلى المشرق. ولما نزلوا بالإسكندرية ثاروا وملكوها وولوا عليهم أبا حفص عمر البلوطي. وفشل عَبْد الله بن طاهر عنهم بمحاربة نصر بن شيث فلما فرغ منه ثار من الشام إليهم، وقدم قائداً من قوّاده، ولقيه ابن السرى وقاتله وأغذّ إبن طاهر المسير فلحقهم وهم في القتال، وانهزم ابن السري إلى مصر وحاصره عَبْد الله بن طاهر حتى نزل على الأمان، وذلك سنة عشرة. ثم بعث إلى الجالية الذين ملكوا الإسكندرية بالحرب، فسألوا الأمان على أن يرتحلوا إلى بعض الجزائر في بحر الروم مما يلي الإسكندرية ففعل. ونزلوا جزيرة أقريطش واستوطنوها وأقامت في مملكة المسلمين من أعقابهم دهراً إلى أن غلب عليها الإفرنجة.

العمال بالنواحي:

لّما استقر المأمون ببغداد وسكن الهج وذلك سنة أربع، ولى على الكوفة أخاه أبا عيسى، وعلى البصرة أخاه صالحاً، وعلى الحرمين عَبْد الله بن الحسين بن عَبْد الله بن العبّاس بن علي بن أبي طالب، وعلى الموصل السيد بن أنس الأزدي، وولى على الشرطة ببغداد ومعاون السواد طاهر بن الحسين استقدمه من الرقة، وكان الحسن بن سهل ولاه عليها فقدم واستخلف إأبنه عَبْد الله عليها. ثم ولاه المأمون سنة خمس خراسان وأعمال المشرق كلها، واستقدم ابنه عَبْد الله فجعله على الشرطة ببغداد مكان أبيه. وولى يحيى بن معاذ على الجزيرة وعيسى بن محمد بن أبي خالد على أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك. ومات عامل مصر السري بن محمد بن الحكم فولى ابنه عبيد الله مكانه.

ومات داود بن يزيد عامل السند فولى بشر بن داود مكانه على أن يحمل ألف ألف درهم كل سنة، ثم مات يحيى بن معاذ سنة ست واستخلف ابنه أحمد فعزله المأمون وولى مكانه عَبْد الله بن طاهر وأضاف إليه مصر،

وسيره لمحاربة نصر بن شيث وولّى عيسى بن يزيد الجلودي محاربة الزط سنة خمس، ثم عزله سنة ست وولّى داود بن منحور مع أعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين وولّى

في سنة سبع محمد بن حفص على طبرستان والرويان ودنباوند. وفيها أوقع السيد بن أنس بجماعة من عرب بني شيبان ووديعة بما فشا من إفسادهم في البلاد، فكبسهم بالدسكرة واستباحهم بالقتل والنهب.

وفي سنة تسع ولّى صدقة بن على و يعرف بزريق على أرمينية وأذربيجان وأمره بمحاربة بابك، وقام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك، فولى إبراهيم بن الليث بن الفضل أذربيجان. وكان على جبال طبرستان شهريار بن شروين، فمات سنة عشر وقام مكانه إبنه سابور، فقتله مازيار بن قارن في حرب أسره فيها، وملك جبال طبرستان. وفي سنة إحدى عشرة قتل زريق بن علي بن صدقة الأزدي السيد بن أنس صاحب الموصل، وقد كان زريق تغلب على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان وولاه المأمون عليها، فجمع وفصد الموصل لحرب السيد فخرج إليه أربعة آلاف، فاشتد القتال بينهم وقتل السيد في المعركة فغضب المأمون لقتله، وولّى محمد بن حميد الطوسي على الموصل وأمره بحرب زريق وبابك الخُرمي فسار إلى الموصل واستول عليها سنة إثنتي عشرة ومات موسى بن حفص عامل طبرستان فولى المأمون مكانه إبنه، وولّي حاجب بن صالح على الهند فوقعت بينه وبين بشر بن داود صاحب السند حرب، وانهزم بشر إلى كرمان. ثم قتل محمد بن حميد الطوسي سنة أربع عشرة، قتله بابك الخرمي. وذلك أنه لمّا فرغ من أمر المتغلبين بالموصل سار إلى بابك في العساكر الكاملة الحشد، وتجاوز إليه المضايق ووكل بحفظها حتى انتهى إلى الجبل، فصعد وقد أكمن بابك الرجال في الشعراء.

فلما جاز ثلاثة فراسخ خرجت عليهم الكمائن، فانهزموا وثبت محمد بن حميد، حتى إذا لم يبق معه إلا رجل واحد فتسلل يطلب النجاة، فعثر في جماعة من الحربية يقاتلون طائفة من أصحابه فقصدوه وقتلوه، وعظم ذلك على المأمون. واستعمل عَبْد الله بن طاهر على خراسان لأنه كان بلغه أن أخاه طلحة بن طاهر مات وقام علي أخوه مكانه خليفة لعبد الله، وعبد الله بالدينور يجهز العساكر إلى بابك، فولى على نيسابور محمد بن حميد، فكثر عيث الخوارج بخراسان فأمره المأمون بالمسير إليها، فسار ونزل نيسابور، وسأل عن سيرة محمد بن حميد فسكتوا فعزله لسكوتهم.

وفي سنة إثنتي عشرة خلع أحمد بن محمد العُمري ، يعرف بالأحمر، العين باليمن، فولّى المأمون ابنه العبّاس على الجزيرة والثغور والعواصم، وأخاه أبا إسحق المعتصم على الشام ومصر، وسير عَبْد الله بن طاهر إلى خراسان وأعطى لكل واحد منهم خمسمائة ألف درهم، وبعث المعتصم أبا عميرة

الباذغيسي عاملاً على مصر فوثب به جماعة من القيسية واليمانية فقتلوه سنة أربع عشرة، فسار المعتصم إلى مصر فقاتلهم، وافتتح مصر وولّى عليها واستقامت الأمور. وفي سنة ثلاث عشرة ولى المأمون غسان بن عبّاس على السند لمّا بلغه خلاف بشر بن داود.

وفي سنة أربع عشرة استقدم المأمون أبا دُلف وكان بالكرخ من نواحي همذان منذ سار مع عيسى بن ماهان لحرب طاهر، وقتل عيسى فعاد إلى همذان، وراسله طاهر يدعوه إلى البيعة فامتنع . وقال له ولا أكون مع أحد وأقام بالكرخ. فلما خرج المأمون إلى الري أرسل إليه يدعوه فسار نحوه وجلاً بعد أن أغرى عليه أصحابه الامتناع. وفي سنة أربع عشرة قتل باليمن، وفيها ولّى المأمون عليّ بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان، وخلع أهل قم وكانوا سألوا الحُطيطة من خراجهم وهو ألف ألف درهم، لأن المأمون لّما جاء من العراق أقام بالري أياماً وخفف عنهم من الخراج، فطمع أهل قم في مثلها فأبى فامتنعوا من الأداء، فسرح إليهم علي بن هشام وعجيف بن عنبسة وظفروا بهم وقتلوا يحيى بن عمران وهدموا سورها وجبوها على سبعة آلاف ألف. وفي سنة ست عشرة ظهر عبدوس الفهري بمصر وقتل بعض عمال المعتصم، فسار المأمون إلى مصر وأصلحها وأتى بعبدوس فقتله، وقدم من برقة وأقام بمصر. وفيها غضب المأمون على علي بن هشام ووجه عجيفاً وأحمد بن هشام لقبض أمواله وسلاحه لّما بلغه من تعسفه وظلمه، وأراد قتل عجيف واللحاق ببابك فلم يقدر، وظفر به عجيف وجاء به إلى المأمون فأمر بقتله، وطيف برأسه في الشام والعراق وخراسان ومصر ثم القي في البحر. وقدم غسان بن عبّاد من السند ومعه بشر بن داود متسأمناً فولى على السند عمران بن موسى العكي وهرب جعفر بن داود القفي إلى قم فخلع، وكان محبوساً بمصر منذ عزله المأمون عن قم، فهرب الآن وخلع فغلبه عليّ بن عيسى القمي وبعث به إلى المأمون فقتل.

الصوائف:

وفي سنة مائتين قتل الروم ملكهم إليون لسبع سنين ونصف من ملكه، وأعادوا ميخاييل بن جرجس المخلوع، وبقي عليهم تسع سنين. ثم مات سنة خمس عشرة، وملك ابنه نوفل. وفتح عَبْد الله بن حرداوية، والي طبرستان البلاد والسيرن من بلاد الديلم وافتتح جبال طبرستان، وأنزل شهريار بن شروين عنها وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون، وأسر أبا ليل ملك الديلم، وذلك سنة إحدى ومائتين. وفيها ظهر بابك الخرمي في

الجاوندانية أصحاب جاوندان سهل، وتفسيره الدائم الباقي. وتفسير خرم فرح، وكانوا يعتقدون مذاهب المجوس. وفي سنة أربع عشرة خرج أبو بلال الصابي الشاري، فسرح إليه المأمون ابنه العبّاس في جماعة من القواد وقتلوه.

وفي سنة خمس عشرة دخل المأمون بلاد الروم بالصائفة، وسار عن بغداد في المحرم واستخلف عليها إسحق بن إبراهيم بن مصعب وهو ابن عم طاهر، وولاه السواد

وحلوان وكور دجلة، ولما وصل تكريت لقيه محمد بن علي الرضا فأجازه وزف إليه ابنته أم الفضل، وسار إلى المدينة فأقام بها وسار المأمون على الموصل إلى منبج ثم دابق ثم أنْطاكِية ثم المصيصة وطرطوس. ودخل من هنالك فافتتح حصن قرة عنوةً وهدمه. وقيل بل فتحه على الأمان، وفتح قبله حصن ماجد كذلك. وبعثه أشناس إلى حصن سدس، ودخل ابنه العباس ملطية، ووجه المأمون عجيفاً وجعفر الخياط إلى حصن سنان

فأطاع. وعاد المعتصم من مصر فلقي المأمون قبل الموصل، ولقيه العبّاس ابنه برأس عين. وجاء المأمون منصرفه من العراق إلى دمشق، ثم بلغه أن الروم أغاروا على طرسوس والمصيصة وأثخنوا فيهم بالقتل.

وكتب إليه ملك الروم فيه بنفسه فرجع إليهم وافتتح كثيراً من معاقلهم وأناخ على هرقلة حتى استأمنوا وصالحوه، وبعث المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً منها مطمورة، وبعث يحيى بن أكثم فأثخن في البلاد، وقتل وحرق وسبى. ثم رجع المأمون إلى كيسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل إلى دمشق.

وفي سنة سبع عشرة رجع المأمون إلى بلاد الروم فأناخ على لؤلؤة فحاصرها مائة يوم، ثم رحل عنها وخلف عجيفاً على حصارها. وجاء نوفل ملك الروم فأحاط به فبعث إليه المأمون بالمدد، فارتحل نوفل واستأمن من أهل لؤلؤة إلى عجيف، وبعث نوفل في المهادنة والمأمون على سلوين فلم يجبه. ثم رجع المأمون سنة ثمان عشرة وبعث إبنه العبّاس إلى بناء طوانة فبنى بها ميلاً في ميل ودورها أربعة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب ونقل إليها الناس من البلدان.

وفاة المأمون وبيعة المعتصم:

ثم مرض المأمون على نهر البربرون واشتد مرضه، ودخل العراق وهو مريض فمات بطرسوس، وصلى عليه المعتصم وذلك لعشرين سنة من خلافته، وعهد لابنه المعتصم وهو أبو إسحاق محمد فبويع له بعد موته، وذلك منتصف رجب من سنة ثمان عشرة

ومائتين. وشغب الجند وهتفوا باسم العبّاس بن المأمون فأحضره وبايع، فسكتوا وخرب لوقته ما كان بناه من مدينة طوانة وأعاد الناس إلى بلادهم وحمل ما أطاق حمله من الآلة وأحرق الباقي.

ظهور صاحب الطالقان:

وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي زين العابدين بن الحسين، كان ملازما للمسجد بالمدينة، فلزمه شيطان من أهل خراسان وزين له أنه أحق بالإمامة، وصار يأتيه بحجّاج خراسان يبايعونه. ثم خرج به إلى الجوزجان وأخفاه وأقبل علي الدعاء له، ثم حمله على إظهار الدعوة للرضا من آل محمد على عادة الشيعة في هذا الإبهام كما قدمناه. وواقعه قواد عَبْد الله بن طاهر بخراسان المرة بعد المرة فهزموه وأصحابه، وأخرج ناجياً بنفسه ومر بنسا، فوشي به إلى العامل فقبض عليه وبعثه إلى عَبْد الله بن طاهر، فبعثه إلى المعتصم منتصف ربيع أول سنة تسع عشرة فحبسه عند الخادم مسرور الكبير، ووكل بحفظه فهرب من محبسه ليلة الفطر من سنته ولم يوقف له على خبر.

حرب الزّط:

وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد، وولّوا عليهم رجلاً منهم إسمه محمد بن عثمان، وقام بأمره آخر منهم إسمه سماق. وبعث المعتصم لحربهم في هذه السنة عجيف بن عنبسة في جمادى الآخرة فسار إلى واسط وحاربهم، فقتل منهم في معركة ثلثمائة وأسر خمسمائة، ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى باب المعتصم وأقام قبالتهم سبعة أشهر. ثم استأمنوا إليه في ذي الحجة آخر السنة وجاؤا بأجمعهم

في سبعة وعشرين ألفاً، المقاتلة منهم إثنا عشرألفاً، فعباهم عجيف في السفن على هيئتهم في الحرب ودخل بهم بغداد في عاشوراء سنة عشرين، وركب المعتصم إلى الشماسة في سفينة حتى رآهم، ثم غربهم إلى عين زربة فأغارت عليهم الروم فلم يفلت منهم أحد.

بناء سامرا:

كان المعتصم قد اصطنع قوماً من أهل الحرف بمصر وسماهم المطاربة، وقوماً من

سمرقند وأش روسنة وفرغانة وسماهم الفرغانة وأكثر من صبيانهم، وكانوا يركضون الدواب في الطرق ويختلفون بها ركضاً فيصدمون النساء والصبيان فتتأذى العامة بهم، وربما انفرد بعضهم فقتلوه. وتأذى الناس من ذلك ونكروه، وربما أسمعوا النكير للمعتصم، فعمد إلى بناء القاطون، وكانت مدينة بناها الرشيد و لم يستتمها وخربت، فجددها المعتصم وبناها سنة عشرين وسماها سرّ من رأى فرخمها الناس سامرا وصارت داراً لملكهم من لدن المعتصم ومن بعده، واستحلف ببغداد حتى انتقل إليها ابنه الواثق.

نكبة الفضل بن مروان

كان للمعتصم في ولاية أخيه كاتب يعرف بيحيى الجرمقابي، واتصل به الفضل بن مروان، وهو من البردان، وكان حسن الخط. فلما هلك الجرمقابي استكتبه المعتصم وسار معه إلى الشام فأثرى. ولما استخلف المعتصم استولى على هواه واستتبع الدواوين واحتجر الأموال، ثم صار يرد أوامر المعتصم في العطايا ولا ينفذها، واختلفت فيه السعايات عند المعتصم ودسوا عليه عنده من ملأ مجلسه ومساخره من يعير المعتصم باستبداده عليه ورد أوامره، فحقد له ذلك. ثم نكبة سنة عشرين وصادره وجميع أهل بيته، وجعل مكانه محمد بن عَبْد الملك بن الزيات وغرب الفضل إلى بعض قرى الموصل. محاربة بابك الخرمي:قد تقدم لنا حديث بابك الخرمي وظهوره سنة إثنتين ومائتين بدعوة جاوندان بن سهل، واتخذ مدينة البذّ لامتناعه وولّى المأمون حروبه، فهزم عساكره وقتل جماعة من قواده، وخرب الحصون فيما بين أردبيل وزنجان، فلما ولي المعتصم بعث أبا سعيد محمد بن يوسف فبنى الحصون التي خربها وشحنها بالرجال والأقوات، وحفظ السابلة لجلب الميرة. وبينما هو في ذلك أغارت بعض سرايا بابك بتلك النواحي فخرج في طلبهم واستنقذ ما أخذوه، وقتل كثيراً وأسر أكثر، وبعث بالرؤوس والأسرى إلى المعتصم. وكان ابن البعيث أيضاً في قلعة له حصينة من كور أذربيجان ملكها من يد

ابن الرواد، وكان يصانع بابك ويضيف سراياه إذا مروا به. ومرّ به في هذه الأيام قائده عصمة، وأضافه على العادة ثم قبض عليه وقتل أصحابه وبعث به إلى المعتصم، فسأله عن عورات بلاد بابك فدله عليها. ثم حبسه وعقد لقائده الأفشين حيدر بن كاوس على الجبال، ووجهه لحرب بابك، فسار إليها ونزل بساحتها وضبط الطرقات ما بينه وبين أردبيل، وأنزل قواده في العساكر ما بينه وبين أردبيل يتلقون الميرة من أردبيل من واحد إلى الآخر حتى تصل عكسر الأفشين. وكان إذا وقع بيده أحد من جواسيس بابك يسأله عن إحسان بابك إليه فيضاعفه ويطلقه. ثم إن المعتصم بعث بغا الكبير بمدد الأفشين بالنفقات، وسمع بابك فاعتزم على اعتراضه،

وأخبر الأفشين بذلك بعض جواسيسهم فكتب إلى بغا أ ن يرتحل من حصن النهرقيلا، ثم يرجع إلى أردبيل ففعل ذلك.وجاءت الأخبار إلى بابك وركب الأفشين في يوم مواعدته لبغا وأغذ المسير،وخرجت سرية بابك فلقيت قافلة النهر، ولم يصادفوا بغا فيها فقتلوا من وجدوا فيها من الجند وفاتهم المال. ولقوا في طريقهم الهيثم من قواد الأفشين فهزموه وامتنع بحصنه، ونزل بابك عليه يحاصره وإذا بالأفشين قد وصل، فأوقع بهم، وقتل الكثير من جنده؟ ونجا بابك إلى موقان وأرسل إلى عسكره في البر فلحقت به، وخرج معهم من موقان إلى البذّ. ولما رجع الأفشين إلى عسكره استمر على حصار بابك وانقطعت عنه الميرة من سائر النواحي، ووجه صاحب مراغة إليه ميرة فلقيتها سرية من سرايا بابك فأخذوها، ثم خلص إليه بغا بما معه من المال ففرقه في العساكر، وأمر الأفشين قواده فتقدموا ليضيقوا الحصار على بابك في حصن البذّ، ونزل على ستة أميال منه. وسار بغا الكبير حتى أحاط بقرية البذّ وقاتلهم وقتلوا منهم جماعة، فتأخر إلى خندق محمد بن حميد من القواد، وبعث إلى الأفشين في المدد فبعث إليه أخاه الفضل وأحمد بن الخليل بن هشام وأبا خوس وصاحب شرطة الحسن بن سهر، وأمره بمناجزتهم إلى الحرب في يوم عينه فركبوا في ذلك اليوم، وقصدوا البذّ وأصابهم برد شديد ومطر. وقاتل الأفشين فغلب من بإزائه من أصحاب بابك واشتد عليهم المطر فترلوا واتخذ بغا دليلاً أشرف به على جبل يطل منه على الأفشين، ونزل عليهم الثلج والضباب فترلوا منازلهم. وعمد بابك إلى الأفشين ففض معسكره، وضجر أصحاب بغا من مقامهم في رأس الجبل فارتحل بهم ولا يعلم

ما تم على الأفشين، وقصد حصن البذّ فتعرف خبر الأفشين ورجع على غير الطريق الذي دخلوا منه لكثرة مضايقه وعقباته، وتبعته طلائع بابك فلم يلتفت إليهم مسابقة للمضايق أمامه. وأجنهم الليل وخافوا على أثقالهم وأموالهم فعسكر بهم بغا من رأس جبل وقد تعبوا وفنيت أزوادهم وبيتهم بابك، ففضهم ونهبوا ما كان معهم من المال والسلاح ونجوا إلى خندقهم الأول في أسفل الجبل وأقام بغا هنالك. وكان طرخان كبير قواد بابك قد استأذنه أن يشتوا بقرية في ناحية مراغة، فأرسل الأفشين إلى بعض قواده بمراغة فأسرى إليه وقتله وبعث برأسه. ودخلت سنة إثنتين وعشرين فبعث المعتصم جعفر الخياط بالعساكر مدداً للأفشين، وبعث أتياخ بثلاثين ألف ألف درهم لنفقات الجند فأرسلها وعاد، ورحل الأفشين لأول فصل الربيع، ودنا من الحصن وخندق على نفسه. وجاءه الخبر بأن قائد بابك واسمه أدين قد عسكر بإزائه وبعث عياله إلى بعض حصون الجبل، فبعث الأفشين بعض قواده لاعتراضهم، فسلكوا مضايق وتملقوا وأغاروا إلى أن لقوا العيال فأخذوهم وانصرفوا، وبلغ الخبر أدين فركب لاعتراضهم وحاربهم واستنقذ بعض النساء. وعلم بشأنهم الأفشين من علامات كان أمرهم بها أن رأى بهم ريباً، فركب إليهم فلما أحسوا به فرجوا عن المضيق ونجا القوم، وتقدم الأفشين قليلاً قليلاً إلى حصن البذّ وكان يأمر الناس بالركوب ليلاً للحراسة خوف البيات، فضجر الناس من التعب وارتاد في رؤوس تلك الجبال أماكن يتحصن فيها الرجالة، فوجد ثلاثة فأنزل فيها الرجالة بأزوادهم وسد الطرق إليها بالحجارة وأقام يحاصرهم. وكان يصلي الصبح بغلس، ثم يسير زحفاً ويضرب الطبول ليزحف الناس لزحفه في الجبال والأودية على مصافهم، وإذا أمسك وقفوا. وكان إذا أراد أن يتقدم المضيق

الذي أتى منه عام أول خلّف به عسكراً على رأس العقبة يحفظونه لئلا يأخذه الحرس منه عليهم. وكان بابك متى زحفوا عليه كمن عسكراً تحت تلك العقبة، واجتهد الأفشين أن يعرف مكان الكمين فلم يطق. وكان يأمر أبا سعيد وجعفراً الخياط وأحمد بن الخليل بن هشام فيتقدمون إلى الوادي في ثلاثة كراديس، ويجلس على تلك ينظر إليهم وإلى قصر بابك. ويقف بابك قبالته فى عسكر قليل وقد أكمن بقية العسكر، فيشربون الخمر ويلعبون بالسرياني، فإذا صلى الأفشين الظهر رجع إلى خندقه بروذ الروز مصافاً بعد مصاف، الأقرب إلى العدو ثم الذي يليه،

وآخرين ترجع العسكر الذي عقبه المضيق، حتى ضجرت الخرمية من المطاولة، وانصرف بعض الأيام وتأخر جعفر، فخرج الخرمية من البذّ على أصحابه، فردهم جعفر على أعقابهم، وارتفع الصياح ورجع الأفشين وقد نشبت الحرب. وكان مع أبي دلف من أصحاب جعفر قوم من المطوعة فضيقوا على أصحاب بابك وكانوا يصدعون البذّ، وبعث جعفر إلى الأفشين يستمده خمسمائة راجل من الناشبة، فأتى له وأمره بالتحيل في الانصراف، وتعلق أولئك المطوعة بالبذّ وارتفع الصياح وخرج الكمناء من تحت العقبة، وتبين الأفشين أماكنهم واطلع على خدعتهم. وانصرف جعفر إلى الأفشين وعاتبه، فاعتذر إليه يستأمن الكمين وأراه مكانه، فانصرف عن عتابه وعلم أن الرأي معه. وشكا المطوعة ضيق العلوفة والزاد فأذن لهم في الانصراف، وتناولوه بألسنتهم طلبوه في المناهضة فأذن لهم وودعهم ليوم معلوم، وتجهز وحمل المال والزاد والماء والمحامل لجرجان، وتقدم إلى مكانه بالأمس، وجهز العسكر على العقبة على عادته. وأمر جعفراً بالتقدم بالمطوعة وأن يأتوا من أسهل الوجوه، وأطلق يده بمن يريده من الناشبة والنفاطين، وتقدم جعفر إلى مكانه بالأمس والمتطوعة معه، فقاتلوا وتعلقوا بسور البذّ حتى ضرب جمعهم ما به وجاء الفعلة بالفؤوس وطيف عليهم بالمياه والأزودة. ثم جاء الخرمية من الباب وكسروا على المطوعة وطرحوهم على السور ورموهم بالحجارة فنالت منهم وضعفوا عن الحرب، ثم تحاجزوا آخر يومهم وأمرهم الأفشين بالانصراف وداخلهم اليأس من الفتح تلك السنة،

وانصرف أكثر المطوعة. ثم عاود الأفشين الحرب بعد أسبوعين، وبعث من جوف الليل ألفاً من الناشبة إلى الجبل الذي وراء البذّ حتى يعاينوا الأفشين من هذه الناحية فيرمون على الخرمية. وبعث عسكراً آخر كميناً تحت ذلك الجبل الذي وراء البذّ، وركب هو من الغداة إلى المكان الذي يقف فيه على عادته. وتقدم جعفر الخياط والقواد حتى صاروا جميعاً حول ذلك الجبل، فوثب كمين بابك من أسفل الجبل بالعسكر الذي جاء إليه لمّا فضحهم الصبح، وانحدر الناشبة من الجبل وقد ركبوا الأعلام على رماحهم وقصدوا جميعاً أدين قائد بابك في جفلة، فانحدر إلى الوادي، فحمل عليه جماعة من أصحاب القواد فرمى عليهم الصخور من الجبل، وتحدرت إليهم. ولما رأى ذلك بابك استأمن للأفشين على أن يحمل عياله من البذّ، وبينما هم في ذلك إذ جاء الخبر إلى الأفشين بدخول البذّ. وأن الناس صعدوا بالأعلام فوق قصور بابك حتى دخل وادياً هنالك.

وأحرق الأفشين قصور بابك وقتل الخرمِيه عن آخرهم، وأخذ أمواله وعياله ورجع إلى معسكره عند المساء، وخالفه بابك إلى الحصن فحمل ما أمكنه من المال والطعام. وجاء الأفشين من الغد فهدم القصور وأحرقها،

وكتب إلى ملوك أرمينية وبطارقتهم بإذكاء العيون عليه في نواحيهم حتى يأتوه به. ثم عثر على بابك بعض العيون في واد كثير الغياض يمر من أذربيجان إلى أرمينية، فبعث من يأتي فلم يعثروا عليه لكثرة الغياض والشجر. وجاء كتاب المعتصم بأمانه فبعث به الأفشين بعض المستأمنة أصحاب بابك فامتنع من قبوله. وقتل بعضهم ثم خرج من ذلك الوادي هو وأخوه عَبْد الله ومعاوية وأمه يريدون أرمينية، ورآهم الحرس الذين جاؤا لأخذه، وكان أبو السفاح هو المقدّم عليهم فمروا في أتباعهم وأدركوهم على بعض المياه، فركب ونجا وأخذ أبو السفاح معاوية وأم بابك وبعث بهم إلى الأفشين. وسار بابك في جبال أرمينية مختفياً وقد أذكوا عليه العيون، حتى إذا مسه الجوع بعث بعض أصحابه بدنانير لشراء قوتهم، فعثر به بعض المسلحة. وبعث إلى سهل بن ساباط فجاء واجتمع بصاحب بابك الذي كانت حراسة الطريق عليه، ودله على بابك فأتاه وخادعه حتى سار إلى حصنه وبعث بالخبر إلى الأفشين، فبعث إليه بقائدين من قبله وأمرهما بطاعة ابن ساباط، فأكمنهما في بعض نواحي الحصن وأغرى بابك بالصيد وخرج معه. فخرج القائدان من الكمين فأخذاه وجاء به إلى الأفشين ومعهما معاوية بن سهل بن ساباط فحبسه ووكل بحفظه وأعطى معاوية ألف درهم، وآتى سهلاً ألف ألف درهم ومنطقة مفرقة بالجوهر. وبعث إلى عيسى بن يوسف بن أسطقانوس ملك البيلقان يطلب منه عَبْد الله أخا بابك، وقد كان لجأ إلى حصنه عندما أحاط به ابن ساباط فأنفذه إليه، وحبسه الأفشين مع أخيه.

وكتب إلى المعتصم فأمره بالقدوم بهما وذلك في شوال من سنة إثنتين وعشر ين،وسار الأفشين بهما إلى سامرا فكان يلقاه في كل رحلة رسول من المعتصم بخلعة وفرس. ولما قرب من سامرا تلقاه الواثق وكبر لقدومه وأنزل الأفشين وبابك عنده بالمطيرة، وتوج الأفشين وألبسه وشاحين ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها في عسكره، وذلك في صفر سنة ثلاث وعشرين. وجاء أحمد بن أبي داود إلى بابك متنكراً وكلمه، ثم جاء المعتصم أيضاً

متنكراً فرآه. ثم عقد من الغد واصطف النظارة سماطين وجيء ببابك راكباً على الفيل. فلما وصلا أمر المعتصم بقطع أطرافه ثم بذبحه، وأنفذ رأسه إلى خراسان، وصلب شلوه بسامرا وبعث بأخيه عَبْد الله إلى إسحق بن إبراهيم ببغداد ليفعل به مثل ذلك ففعل. وكان الذي أنفق الأفشين في مدة حصاره لبابك سوى الأرزاق والأنزال والمعاون عشرة آلاف ألف درهم يوم ركوبه لمحاربته وخمسة آلاف يوم قعوده. وجميع من قتل بابك في عشرين سنة أيام قتيبة مائة ألف وخمسة وخمسين ألفاً، وهزم من القواد يحيى بن معاذ وعيسى بن محمد بن أبي خالد وأحمد بن الجنيد وزريق بن علي بن صدقة ومحمد بن حميد الطوسي وإبراهيم بن الليث.

وكان الذين أسروا مع بابك ثلاثة آلاف وثلثمائة والذي استنقذ من يديه من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان جعلوا في حظيرة، فمن أتى من أوليائهم وأقام بينه على أحد منهم أخذه، والذي صار في يد الأفشين من بني بابك وعياله سبعة عشر رجلاً وثلاثاً وعشرين امرأة.

فتح عمورية :

وفي سنة ثلاث وعشرين خرج نوفل بن ميخاييل ملك الروم إلى بلاد المسلمين،فأوقع بأهل زبطرة ، لأن بابك لّما أشرف على الهلاك كتب إليه أن المعتصم قد وجه عساكره حتى خياطة يعني جعفر بن دينار وطباخة يعني إيتاخ ولم يبق عنده أحد، فانتهز الفرصة ثلاثاً أو دونها. وظن بابك، أن ذلك يدعو المعتصم إلى إنفاذ العساكر لحرب الروم، فيخص عنه ما هو فيه. فخرج نوفل في مائة ألف وفيهم من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال وهزمهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب فلحق بالروم، وبلغ نوفل زبطرة فاستباحها قتلاً وسبياً وأعاد على ملطية وغيرها، ومثل بالأسرى. وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه، وبلغه أن هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم: وامعتصماه فأجاب وهو على سريره لبيك، لبيك ! . ونادى بالنفير ونهض من ساعته فركب دابته واحتقب شكالاً وسكة من حديد فيها رداؤه. وجمع العساكر وأحضر قاضي بغداد عَبْد الرحمن بن إسحق ومعه ابن سهل في - ثلثمائة وثلاثين

من العدول فأشهدهم بما وقف من الضياع، ثلثاً لولده وثلثاً لمواليه وثلثاً لوجه الله. وسار فعسكر بقرى دجلة لليلتين من جمادى الأولى، وبعث عجيف بن عنبسة وعمر الفرغاني وجماعة من القواد مدّداً لأهل زبطرة، فوجدوا الروم قد ارتحلوا عنها فأقاموا حتى تراجع الناس واطمأنوا . ولما ظفر ببابك سأل أي بلاد الروم أعظم عندهم فقيل له عمورية فتجهز إليها بما لا يماثله أحد قبله من السلاح والآلة والعدد وحياض الأدم والقرب والروايا وجعل مقدمته أشناس وبعده محمد بن إبراهيم بن مصعب وعلى الميمنة إيتاخ، وعلى الميسرة جعفر بن دينار الخياط، وعلى القلب عجيف بن عنبسة. وجاء إلى بلاد الروم فأقام بسلوقية على نهر السن قريبا من البحر، وعلى مسيرة يوم من طرطوس وبعث الأفشين إلى سروج وأمره بالدخول من درب الحرب وبعث أشناس من درب طرطوس وأمره بانتظاره بالصفصاف، وقدم وصيفاً في أثر أشناس وواعدهم يوم اللقاء.

ورحل المعتصم لست بقين من رجب وبلغه الخبر أن ملك الروم عازم على كبس مقدمته، فبعث إلى أشناس بذلك وأن يقيم ثلاثة أيام ليلحق به. ثم كتب إليه أن يبعث إليه من قواده من يأتيه بخبر الروم وملكهم، فبعث عمر الفرغاني في مائتي فارس، فطاف في البلاد وأحضر جماعة عند أشناس أخبروه بأن ملك الروم بينما هو ينتظر المقدمة ليواقعها إذ جاءه الخبر بأن العساكر دخلت من جهة أرمينية يعني عسكر الأفشين، فاستخلف ابن خاله على عسكره وسار إلى تلك الناحية، فوجه أشناس بهم إلى المعتصم. وكتب المعتصم إلى الأفشين بالمقام حذراً عليه، وجعل لمن يوصل الكتاب عشرة آلاف درهم، وأوغل في بلاد الروم فلم يدركه الكتاب. وكتب المعتصم إلى أشناس بأن يتقدم والمعتصم في أثره، حتى إذا كانوا على ثلاث مراحل من أنقرة أسر أشناس في طريقه جماعة من الروم فقتلهم، وقال لهم شيخ منهم أنا أدلك على قوم هربوا من أنقرة معهم الطعام والشعيرة، فبعث معه مالك بن كرد في خمسمائة فارس فدل بهم إلى مكان أهل أنقرة فغنموا منهم ووجدوا فيهم جرحى قد حضروا وقعة ملك الروم مع الأفشين وقالوا: لّما استخلف على عسكره سار إلى ناحية أرمينية فلقينا المسلمين صلاة الغداة فهزمناهم وقتلنا رجالهم وافترقت عساكرنا في طلبهم، ثم رجعوا بعد الظهر فقاتلونا وحرقوا عسكرنا وفقدنا الملك وانهزمنا، ورجعنا إلى العسكر فوجدناه قد انتقض. وجاء الملك من الغد فقتل

نائبه الذي استخلفه وكتب إلى بلاده بعقاب المنهزمين ومواعدهم بمكان كذا ليلقى المسلمين بها. ووجه خصيا له إلى أنقرة ليحفظها فوجد أهلها قد أجلوا، فأمره الملك بالمسير إلى عمورية، فوعى مالك بن كرد خبرهم ورجع بالغنيمة والأسرى إلى أشناس وأطلق الأمير الذي دله. وكتب أشناس بذلك إلى المعتصم، ثم جاء البشير من ناحية الأفشين بالسلامة،وأن الوقعة كانت لخمس بقين من شعبان. وقدم الأفشين على المعتصم بأنقرة ورحل بعد ثلاث والأفشين في ميمنته وأشناس في ميسرته وهو في القلب، وبين كل عسكر وعسكر فرسخان، وأمرهم بالتخريب والتحريق ما بين أنقرة وعمورية . ثم وافى عمورية وقسمها على قواده، وخرج إليه رجل من المنتصرة فدته على عورة من السور بني ظاهره وأخل باطنه، فضرب المعتصم خيمته قبالته ونصبت عليه المجانيق، فتصدع السور. وكتب بطريقها باطيس والخصي إلى الملك يعلمانه بشأنهما في السور وغيره، فوقع في يد المسلمين مع رجلين. وفي الكتاب أن باطيس عازم على أن يخرج ليلاً ويمر بعسكر المسلمين للحاق بالملك، فنادى المعتصم حرسه. ثم انثلمت فوهة من السور بين برجين، وقد كان الخندق طم بأوعية الجلود المملوءة تراباً. ثم ضرب بالذبالات عليها فدحرجها الرجال إلى السور، فنشبت في تلك الأوعية وخلص من فيها بعد الجهد. ولما جاء من الغد بالسلالم والمنجنيقات فقاتلوهم على تلك الثلمة، وحارب وبدر بالحرب أشناس وجمعت المنجنيقات على تلك الثلمة. وحارب في اليوم الثاني الأفشين والمعتصم راكب إزاء الثلمة، وأشناس وأفشين وخواص الخدام معه. ثم كانت الحرب في اليوم الثالث على المعتصم، وتقدم إيتاخ بالمغاربة

والأتراك،واشتد القتال على الروم إلى الليل وفشت فيهم الجراحات، ومشى بطريق تلك الناحية إلى رؤساء الروم، وشكا إليهم واستمدهم فأبوا، فبعث إلى المعتصم يستأمن، فأمنه وخرج من الغد إلى المعتصم وكان إسمه وندوا، فبينما هو والمعتصم يحادثه أومأ عَبْد الوهاب

بن علي من لين يديه إلى المسلمين بالدخول، فافتتحوا من الثلمة ورآهم وندوا فخاف، فقال له المعتصم: كل شيء تريده هو لك. ودخل المسلمون المدينة وامتنع الروم بكنيستهم وسطها فأحرقها المسلمون عليهم. وامتنع باطيس البطريق في بعض أبراجها حتى استنزله المعتصم بالأمان، وجاء الناس بالأسرى والسبي من كل جانب، واصطفى الأشراف وقتل من سواهم، وبيعت مغانمهم في خمسة أيام وأحرق الباقي. ووثب الناس على المغانم في بعض الأيام ينهبونها فركب المعتصم وسار نحوهم فكفوا بعمورية فهدمت وأحرقت، وحاصرها خمسة وخمسين يوماً من سادس رمضان إلى آخر شوال، وفرق الأسرى على القواد ورجع نحو طرطوس. ولم يزل نوفل ملكاً على الروم إلى أن هلك سنة تسع وعشرين ومائتين في ولاية الواثق، ونصبوا ابنه ميخاييل فى كفالة أمه ندورة فأقامت عليهم ست سنين، ثم اقممها ابنها ميخاييل بقمط من أقماطها عليها وألزمها بيتها سنة ثلاث وثلاثين.

حبس العباس بن المأمون ومهلكه:

كان المعتصم يقدم الأفشين على عجيف بن عنبسة ولما بعثه إلى زبطرة لم يطلق يده في النفقات كما أطلق للأفشين، وكان يستقصر شأن عجيف وأفعاله فطوى عجيف على النكث ولقي العباس بن المأمون فعذله على قعوده عند وفاة المأمون عن الأمر حتى بويع المعتصم وأغراه قبلاً في ذلك فقبل العباس منه، ودس رجلاً من

بطانته يقا ل له السمرقندي قرابة عَبْد الله بن الوضاح وكان له أدب ومداراة، فاستأمن له جماعة من القواد ومن خواص المعتصم فبايعوه، وواعد كل واحد منهم أن يثب بالقائد الذي معه فيقتله من أصحاب المعتصم، والأفشين وأشناس بالرجوع إلى بغداد فأبى من ذلك وقال: لا أفسد العراق. فلما فتحت عمورية وصعب التدبير بعض الشيء أشار عجيف بأن يضع من ينهب الغنائم، فإذا ركب المعتصم وثبوا به ففعلوا مثل ما ذكرنا. وركب فلم يتجاسروا عليه.وكان للفرغاني قرابة غلام أمرد في جملة المعتصم، فجلس مع ندمان الفرغاني تلك الليلة وقص عليهم ركوب المعتصم، فأشفق الفرغاني وقال يا بني أقلل من المقام عند أمير المؤمنين والزم خيمتك، وإن سمعت هيعة فلا

تخرج فأنت غلام غر. ثم ارتحل المعتصم إلى الثغور، وتغير أشناس على عمر الفرغاني وأحمد بن الخليل وأساء إليهما، فطلبا من المعتصم أن يضمهما إلى من شاء وشكيا من أشناس، فقال له المعتصم أحسن أدبهما، فحبسهما وحملهما على بغل. فلما صار بالصفصاف حدث الغلام ما سمع من قريبه عمر الفرغاني، فأمر بغا أن يأخذه من عند أشناس ويسأله عن تأويل مقالته فأنكر وقال إنه كان سكران، فدفعه إلى إيتاخ. ثم دفع أحمد بن الخليل إلى أشناس [*] عنده نصيحة للمعتصم، وأ خبره خبر العباس بن المأمون والقواد والحرث السمرقندي، فأنفذ أشناس إلى الحرث وقيده وبعث به إلى المعتصم وكان في المقدمة، فأخبر الحرث المعتصم بجلية الأثر فأطلقه وخلع عليه، ولم يصدقه على القواد لكثرتهم. ثم حضر العباس بن المأمون واستحلفه أن لا يكتم عنه شيئا فشرح له القصة فحبسه عند الأفشين، وتتبع القواد بالحبس والتنكيل وقتل منهم المشاء بن سهيل ثم دفع العبّاس للأفشين، فلما نزل منبج طلب الطعام فأطعم ومنع الماء. ثم أدرج في بج فمات. ولما وصل المعتصم إلى نصيبين احتفر لعمر الفرغاني بئراً وطمت عليه، ولما دخلوا بلاد الموصل قتل عجيف بمثل ما قتل به العبّاس، واستلحم جميع القواد في تلك الأيام، وسموا العباس اللعين. ولما وصل إلى سامرا جلس أولاد المأمون في داره حتى ماتوا.

ا نتقاض مازيار وقتله:

كان مازيار بن قارن بن وندا هرمز صاحب طبرستان وكان منافراً لعبد الله بن طاهر فلا يحمل إليه الخراج، وقال لا أحمله إلا للمعتصم، فيبعث المعتصم من يقبضه من أصحابه ويدفعه إلى وكيل عَبْد الله بن طاهر يرده إلى خراسان، وعظمت الفتنة بين مازيار وعبد الله، وعظمت سعاية عَبْد الله في مازيار عند المعتصم حتى استوحش منه. ولما ظفر الأفشين ببابك، وعظم محله عند المعتصم، وطمع في ولاية خراسان ظن أن انتقاض مازيار وسيلة لذلك، فجعل يستميل مازيار ويحرضه على عداوة ابن طاهر وإنّ

أدت إلى الخلاف ليبعثه المعتصم لحربه؟ فيكون ذلك وسيلة له إلى استيلائه على خراسان ظنا بأن ابن طاهر لا ينهض لمحاربته. فانتقض مازيار وحمل الناس على بيعته كرهاً وأخذ رهائنهم وعجل جباية الخراج، فاستكثر منه وخرب سور آمد وسور سابة وفتل أهلها إلى جبل يعرف بهرمازا باروني سرخاشان سورطمس، منها إلى البحر على ثلاثة أميال، وهي على حد جرجان ، وكانت تبنيه سداً بين الترك وطبرستان وجعل عليه خندقاً

ومن أهل جرجان إلى نيسابور، وأنفذ عَبْد الله بن طاهر عمه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لحفظ جرجان فعسكر على الخندق، ثم بعث مولاه حيان بن جبلة إلى قومس فعسكر على جبال شروين. وبعث المعتصم من بغداد محمد بن إبراهيم بن مصعب، وبعث منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى الري، وبعث أبا الساج إلى دنباوند وأحاطت العساكر بحياله من كل ناحية وداخل أصحاب الحسن بن الحسين أصحاب سرخاشان في تسليم سورهم وليس بينهما إلا عرض الخندق، فكلموه وسار الآخرون إليه على حين غفلة من القائدين، وركب الحسن بن الحسين وقد ملك أصحابه السور ودخلوا منه، فهرب سرخاشان وقبضوا على أخيه شهريار فقتل، ثم قبض على سرخاشان على خمسة فراسخ من معسكره، وجيء به إلى الحسن بن الحسين فقتله أيضا. ثم وقعت بين حيان بن جبلة وبين فارو بن شهريار وهو ابن أخي مازيار ومن قواده مداخلة استمالة حيان، فأجاب أن يسلم مدينة سارية إلى حد جرجان على أن يملكوه جبال آبائه، وبعث حيان إلى ابن طاهر فسجل لقارن بما سأل، وكان قارن في جملة عَبْد الله بن قارن أخي مازيار ومن قواده، فأحضر جميعهم لطعامه وقبض عليهم وبعث بهم إلى حيان، فدخل جبال قارن في جموعه، واعتصم لذلك مازيار وأشار عليه أخوه القوهيار أن يخلي سبيل من عنده من أصحابه يترلون من الجبل إلى مواطنهم لئلا يؤتى من قبلهم، فصرف صاحب شرطته وخراجه، وكاتبه حميدة فلحقوا بالسهل، ووثب أهل سارية بعامله عليهم مهرستان بن شهرين، فهرب ودخل حيان سارية. ثم بعث قوهيدار أخو مازيار محمد بن موسى بن حفص عامل طبرستان، وكانوا قد حبسوه عند انتقاضهم فبعثه إلى حيان ليأخذ له الأمان وولاية جبال آبائه على أن يسلم إليه مازيار، وعزل قوهيدار بعض أصحابه في عدوله بالاستئمان عن الحسن إلى حيان، فرجع إليهم وكتبوا إلى الحسن يستدعون قوهيدار من أخيه مازيار فركب من معسكره بطمس وجاء لموعدهم، ولقي حيان على فرسخ فرده إلى جبال شروين التي افتتحها، ووبخه على غيبته عنها فرجع سارية وتوفي وبعث عَبْد الله مكانه محمد بن الحسين بن مصعب وعهد إليه أن لا يمنع قارن ما يريده، ولما وصل الحسن إلى خرماباذ وسط جبال مازيار لقيه قوهيدار هنالك واستوثق كل منهما من صاحبه، وكاتب محمد بن إبراهيم بن مصعب من قواد المعتصم قوهيدار بمثل ذلك، فركب قاصداً إليه. وبلغ الحسن خبره فركب في العسكر وحازم يسابق محمد بن إبراهيم إلى قوهيار فسبقه ولقي قوهيار وقد جاء بأخيه مازيار، فقبض عليه وبعثه مع إثنين من قواده إلى خرماباذ، ومنها إلى مدينة سارية. ثم ركب واستقبل محمد بن إبراهيم بر مصعب وقال: أين تريد؟ فقال إلى المازيار: فقال هو بساريه. ثم حبس الحسن أخوي المازيار ورجع إلى مدينة سارية فقيد المازيار بالقيد الذي قيد به محمد بن محمد بن موسى بن حفص. وجاء كتاب عَبْد الله بن طاهر بأن يدفع المازيار وأخويه وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم يحملهم إلى المعتصم. وسأل الحسن المازيار عن أمواله فذكر أنها عند قوم من وجوه سارية سماهم وأمر الحسن القوهيار بحمل هذه الأموال، وسار إلى الجبل ليحملها، فوثب به مماليك المازيار من الديلم وكانوا ألفاً ومائتين فقتلوه بثأر أخيه وهربوا إلى الديلم، فاعترضتهم جيوش محمد بن إبراهيم وأخذوهم فبعث بهم إلى مدينة سارية. وقيل إن الذي غدر بالمازيار ابن عم له كان يتوارث جبال طبرستان والمازيار يتوارث سهلها،

وكانت جبال طبرستان ثلاثة أجبل، فلما انتقض واحتاج إلى الرجال دعا ابن عمه من السهل وولاه على أصعبها، وظن أنه قد توثق به فكاتب هو الحسن وأطلعه على مكاتبة الأفشين لمازيار، وداخله في الفتك على أن يوليه ما كان لآبائه، وأن المازيار

لّما ولاه الحسن بن سهل طبرستان انتزع الجبل من يده، فأفضى له الحسن كتاب ابن طاهر وتوثق له فيه وأوعده ليوم معلوم، ركب فيه الحسن إلى الجبل فأدخله ابن عم مازيار وحاصروه حتى نزل على حكمه، ويقال أخذه أسيراً في الصيد. ومضى الحسن به ولم يشعر صاحب الجبل الآخر وأقام في قتاله لمن كان بإزائه فلم يشعر إلا والعساكر من ورائه فانهزم، ومضى إلى بلاد الديلم فأتبعوه وقتلوه. ولما صار المازيار في يده طلبت منه كتب الأفشين فأحضرها، وأمر ابن طاهر أن يبعث بها معه إلى المعتصم، فلما وصل إلى المعتصم ضربه حتى مات وصلبه إلى جانب بابك وذلك سنة أربع وعشرين.

ولاية ابن السيد على الموصل:

وفي سنة أربع وعشرين ولّى المعتصم على الموصل عَبْد الله بن السيد بن أنس الأزدي، وكان سبب ولايته أن رجلا من مقدّميّ الأكراد يعرف بجعفر بن فهرجس كان قد عصى بأعمال الموصل، وتبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم، وأفسدوا البلاد فبعث المعتصم لحربه عَبْد الله بن السيد بن أنس فقاتله وغلبه على ماتعيس وأخرجه منها بعد أن كان استولى عليها، ولحق بجبل دانس وامتنع بأعاليه، وقاتله عَبْد الله وتوغل في مضايق ذلك الجبل ، فهزمه الأكراد وأثخنوا في أصحابه بالقتل، وقتل إسحق بن أنس عم عَبْد الله. فبعث المعتصم مولاه إيتاخ في العساكر إلى الموصل سنة خمس وعشرين وقصد جبل داس فقاتل جعفراً وقتله و افترق أصحابه، وأوقع بالأكراد واستباحهم وفروا أمامه إلى تكريت.

نكبة الأفشين ومقتله:

كان الأفشين من أهل أشر وسنة تبوأها ونشأ ببغداد عند المعتصم وعظم محله عنده، ولما حاصر بابك كان يبعث إلى أشر وسنة بجميع أمواله فيكتب ابن طاهر بذلك إلى المعتصم، فيأمره المعتصم بأن يجعل عيونه عليه في ذلك. وعثر مرة ابن طاهر على تلك الأموال فأخذها وصرفها في العطاء، وقال له حاملوها: هذا مال الأفشين، فقال كذبتم لو كان ذلك لأعلمني أخي أفشين به وإنما أنتم لصوص، وكتب إلى

الأفشين بذلك بأنه دفع المال إلى الجند ليوجههم إلى الترك، فكتب إليه أفشين مالي ومال أمير المؤمنين واحد، وسأله في إطلاق القوم فأطلقهم واستحكمت الوحشة بينهما وتتابعت السعاية فيه من طاهر، وربما فهم الأفشين أن المعتصم يعزله عن خراسان فطمع في ولايتها، وكان مازيار يحسن له الخلافة ليدعو المعتصم ذلك إلى عزله وولاية الأفشين لحرب مازيار. فكان من أمر مازيار ما ذكر ناه وسيق إلى بغداد مقيداً، وولى المعتصم الأفشين على أذربيجان فولى عليها من قبله منكجور من بعض قرابته، فاستولى على مال عظيم لبابك، وكتب به صاحب البريد إلى المعتصم فكذبه منكجور وهم بقتله، فمنعه أهل أردبيل فقاتلهم. وسمع ذلك المعتصم فأمر الأفشين بعزل منكجور، وبعث قائداً في عسكره مكانه، فخلع منكجور وخرج من أردبيل فهزمه القائد،

ولحق ببعض حصور أذربيجان كان بابك خربه، فأصلحه وتحصن فيه شهراً ثم وثب فيه أصحابه وأسلموه إلى القائد، فقدم به إلى سامرا فحبسه المعتصم واتهم الأفشين في أمره، وذلك سنة خمس وعشرين ومائتين بأن القائد كان بغا الكبير وأنه خرج إليه بالأمان اه . ولما أحس الأفشين بتغير المعتصم أجمع أمره على الفرار واللحاق بأرمينية، وكانت في ولايته، ويخرج منها إلى بلاد الخزر ويرجع إلى بلاد أشر وسنة، وصعب عليه ذلك بمباشرة المعتصم أمره فأراد أن يتخط لهم صنيعاً يشغلهم فيه نهارهم، ثم يسير من أول الليل. وعرض له في أثناء ذلك غضب على بعض مواليه، وكان سيء الملكة فأيقن مولاه بالهلكة، وجاء إلى إتياخ فأحفره إلى المعتصم وخبره الخبر فأمره بإحضاره وحبسه بالجوثق، وكان ابنه الحسن عاملاً على بعض ما وراء النهر.

فكتب المعتصم إلى عَبْد الله بن طاهر في الاحتيال عليه، وكان يشكو من نوح بن أسد صاحب بجارى. فكتب ابن طاهر إلى الحسن بولاية بخارى، وكتب إلى نوح بذلك وأن يستوثق منه إذا وصل إليه ويبعث به، ثم يبعث به إلى ابن طاهر ثم إلى المعتصم. ثم أمر المعتصم بإحضار الأفشين ومناظرته فيما قيل عنه، فأحضر عند الوزير محمد بن عَبْد الملك بن الزيات وعنده القاضي أحمد بن أبي دواد وإسحق بن إبراهيم وجماعة القواد والأعيان، وأحضر المازيار من محبسه والمؤيد والمرزبان بن تركش أحد ملوك الصغد ورجلان من أهل الصغد يدعيان أن الأفشين ضربهما وهما إمام ومؤذن بمسجد. فكشفا عن ظهورهما وهما عاريان من

اللحم، فقال ابن الزيات للأفشين: ما بال هذين؟ قال عهدا إلى معاهدين فوثبا على بيت أصنامهم فكسراها، واتخذا البيت مسجداً فعاقبتهما على ذلك. وقال ابن الزيات: ما بال الكتاب المحلى بالذهب والجوهر عندك وفيه الكفر؟ قال كتاب ورثته من آبائي وأوصوني بما فيه من آدابهم فكنت آخذها منه وأترك كفرهم، ولم أحتج إلى نزع حليبة، وما ظننت أن مثل هذا يخرج عن الإسلام. ثم قال المؤيد إنه يأكل لحم المنخنقة ويحملني على أكلها ويقول هو أرطب من لحم المذبوحة. ولقد قال لي يوماً حملت على كل مكروه لي حتى أكلت الزيت وركبت الجمل ولبست النعل، إلى هذه الغاية لم أختتن ولم تسقط عني شعرة العانة. فقال الأفشين: أثقة هذا عندكم في دينه؟ وكان مجوسياً قالوا: لا ! قال فكيف تقبلونه عليّ؟ ثم قال للمؤيد أنت ذكرت أني أسررت إليك ذلك، فلست بثقة في دينك ولا بكريم في عهدك ثم قال له المرزبان: كيف يكاتبك أهل أشر وسنة؟ قال: ما أدري قال: أليس يكاتبونك بما تفسره بالعربي: إلى اله الآلهة من عبده فلان؟ قال: بلى فقال ابن الزيات فما أبقيت لفرعون؟ قال: هذه عادة منهم لأبي وجدي ولي قبل الإسلام، ولو منعت! لفسدت علي طاعتهم. ثم قال له أنت كاتبت هذا؟ وأشار إلى المازيار. كتب أخوه إلى أخي قوهيار أنه لن ينصر هذا الدين غيري وغيرك وغير بابك، فأما بابك قد قتل نفسه بجمعه ولقد عهدت أن أمنعه فأبى إلا حنقه، وأنت إن خالفت لم يرمك القوم بغيري ومعي أهل النجدة، وإن توجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة والترك، والعربي كلب تناوله لقمة وتضرب رأسه، والمغاربة أكلة رأس، والأتراك لهم صدمة ثم تجول الخيل جولة فتأتي عليهم، ويعود هذا الدين إلى ما كان عليه أيام العجم. فقال الأفشين هذا يدعي أن أخي كتب إلى أخيه فما يجب علي؟ ولو كتب فأنا أستميله مكراً به لأحظى عند الخليفة كما حظي به ابن طاهر، فزجره ابن

أبي دواد فقال له الأفشين: ترفع طيلسانك فلا تضعه حتى تقتل جماعة فقال: أمتطهر أنت؟ قال لا! قال فما يمنعك وهو شعار الإسلام؟ قال خشيت على نفسي من قطعة! قال فكيف وأنت تلقى الرماح والسيوف؟ قال تلك ضرورة أصبر عليها وهذا أستجلبه. فقال ابن أبي دواد لبغا الكبير: قد بان لكم أمره يا بغا عليك به! فدفعه بيديه ورده إلى محبسه وضرب مازيار أربعمائة سوط فمات منها، وطلب أفشين من المعتصم أنّ ينفذ إليه من يثق به، فبعث حمدون بن إسمعيل فاعتذر له عن جميع ما قيل فيه، وحمل إلى دار إيتاخ فقتل بها وصلب على باب العامة، ثم أحرق. وذلك في شعبان من سنة ست وعشرين، وقيل قطع عنه الطعام والشراب حتى مات.

ظهور المبرقع:

كان هذا المبرقع يعرف بأبي حرب اليماني وكان بفلسطين، وأراد بعض الجند النزول في داره فمنعه بعض النساء فضربها الجندي وجاءت فشكت إليه بفعل الجندي، فسار إليه وقتله، ثم هرب إلى جبال الأردن، فأقام بها واختفي ببرقع على وجهه. وصار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعيب الخليفة ويزعم أنه أموي، واجتمع له قوم من تلك الناحية وقالوا هو السفياني. ثم أجابه جماعة من رؤساء اليمانية منهم ابن بهيس وكان مطاعاً في قومه وغيره فاجتمع له مائة ألف، وسرح المعتصم رجاء بن أيوب في ألف من الجند، فخام عن لقائه لكثرة من معه، عسكر قبالته ينتظر أوان الزراعة وانصراف الناس عنه لأعمالهم. وبينما هم في الانصراف توفي المعتصم وثارت الفتنة بدمشق، فأمره الواثق بقتل من أثار الفتنة والعود إلى المبرقع، ففعل وقاتله فأخذه أسيراً وابن بهيس معه، وقتل من أصحابه عشرين ألفاً وحمله، وذلك سنة سبع وعشرون ومائتين.

وفاة المعتصم وبيعة الواثق:

وتوفي المعتصم أبو إسحق محمد بن المأمون بن الرشيد، منتصف ربيع الأول سنة سبع وعشرين لثمان سنين وثمانية أشهر من خلافته، وبويع ابنه هرون الواثق صبيحته وتكنى أبا جعفر. فثار أهل دمشق بأميرهم وحاصروه، وعسكروا بمرج واسط وكان رجاء بن أيوب بالرملة في قتال المبرقع، فرجع إليهم بأمر الواثق فقاتلهم وهزمهم وأثخن فيهم، وقتل منهم نحو من ألف و خمسمائة ومن أصحابه نحو ثلثمائة، وصلح أمر دمشق، ورجع رجاء إلى قتال، المبرقع حتى جاء به أسيراً [*] بيعة

الواثق توجه أشناس ووشحه، وكان للواثق سمر يجلسون عنده ويفيضون في الأخبار حتى أخبروه عن شأن البرامكة واستبدادهم على الرشيد واحتجابهم الأموال، فأغراه ذلك بصادرة الكتاب فحبسهم وألزمهم الأموال. فآخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألفاً، ومن إبراهيم بن رباح وكاتبه مائة ألف، ومن أبي الوزر مائة وأربعين ألفاً، وكان على اليمن إيتاخ، وولاه عليها المعتصم بعدما عزل جعفر بن دينار وسخطه وحبسه ثم رضي عنه وأطلقه، فلما ولي الواثق ولى إيتاخ على اليمن من قبله سار بأميان، فسار إليهما وكان الحرس إسحق بن يحيى بن معاذ ولاه المعتصم بعد عزل الأفشين. وولّى الواثق على المدينة سنة إحدى وعشرين محمد بن صالح بن

العباس وبقي محمد بن داود على مكة، وتوفي عَبْد الله بن طاهر سنة ثلاثين، وكان على خراسان وكرمان وطبرستان، والري وكان له الحرب والشرطة والسواد فولّى الواثق على أعماله كلها ابنه طاهراً.

وقعة بغا في الاعراب:

كان بنو سليم يفسدون بنواحي المدينة ويتسلطون على الناس في أموالهم، وأوقعوا بناس من كنانة وباهلة، وبعث محمد بن صالح إليهم مسلحة المدينة ومعهم متطوعة من قُرَيْش والأنصار، فهزمهم بنو سليم وقتلوا عامتهم وأحرقوا لباسهم وسلاحهم وكراعهم ونهبوا القرى ما بين مكة والمدينة وانقطع الطريق، فبعث الواثق بغا الكبير، وقدم المدينة في شعبان فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم خمسين رجلاً وأسر مثلها، واستأمنوا له على حكم الواثق، فقبض على ألف منهم ممن يعرف بالفساد فحبسهم بالمدينة وذلك سنة ثلاثين. ثم حج وسار إلى ذات عرق وعرض على بني هلال مثل بني سليم فأخذ من المفسدين منهم نحو ثلثمائة رجل وحبسهم بالمدينة وأطلق الباقين. ثم خرج بغا إلى بني مُرة فنقب أولئك الأسرى الحبس وقتلوا الموكلين فاجتمع عليهم أهل المدينة ليلاً ومنعوهم من الخروج فقاتلوهم إلى الصبح ثم قتلوهم، وشق ذلك على بغا وكان سبب غيبته أن فزارة وبني مُرّة تغلبوا على فدك فخرج إليهم وقدم رجلاً من قوّاده يعرض عليهم الأمان، فهربوا من سطوته إلى الشام واتبعهم إلى تخوم الحجاز من الشام، وأقام أربعين ليلة ثم رجع إلى المدينة بمن ظفر منهم. وجاءه قوم من بطون غفار وفزارة وأشجع وثعلبة فاستخلفهم على الطاعة. ثم سار إلى بني كلاب فأتوه

في ثلاثة آلاف رجل، فحبس أهل الفساد منهم ألفاً بالمدينة وأطلق الباقين، وأمره الواثق سنة إثنتين وثلاثين بالمسير إلى بني نُمير باليمامة وما قرب منها لقطع فسادهم، فسار إليهم ولقي جماعة الشريف منهم فحاربهم وقتل منهم خمسين وأسر أربعين. ثم سار إلى مُرة وبعث إليهم في الطاعة فامتنعوا وساروا إلى جبال السند وطف اليمامة، وبعث سراياهم فأوقع بهم في كل ناحية. ثم سار إليهم في ألف رجل فلقيهم قريباً من أضاخ فكشفوا مقدمته وميسرته وأثخنوا في عسكره بالقتل والنهب. ثم ساروا تحت الليل وهو في أتباعهم يدعوهم إلى الطاعة، وبعث طائفة من جنده يدعون بعضهم وأصبح وهو في قلة، فحملوا عليه وهزموه إلى معسكره وإذا بالطائفة الذين بعثهم قد جاؤا من وجهتهم، فلما رآهم بنو نُمير من خلفهم ولوا منهزمين وأسلموا رجالهم وأموالهم ونجوا على خيلهم ولم يفلت من رجالهم أحد، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وأقام بمكان الوقعة واستأمن له أمراؤهم فقيدهم وحبسهم بالبصرة. وقدم عليه واجن الأشروسني في سبعمائة مقاتل مدداً، فبعثه إلى أتباعهم إلى أن بلغ تبالة من أعمال اليمن ورجع، وسار بغا إلى بغداد بمن معه منهم وكانوا نحو ألفي رجل ومائتي رجل، وكتب إلى صالح أمير المدينة أن يوافيه ببغداد من عنده منهم فجاء بهم وسلموا جميعاً.

مقتل أحمد بن نصر:

وهو أحمد بن مالك وهو أحد النقباء كما تقدم، وكان أحمد هذا نسيبة لأهل الحديث ويغشاه جماعة منهم مثل ابن حصين وابن الدورقي وأبي زهير، ولقن منهم النكير على الواثق بقوله بخلق القرآن. ثم تعدى ذلك إلى الشتم، وكان ينعته بالخترير والكافر، وفشا ذلك عنه. وانتدب رجلان ممن كان يغشاه: هما أبو هرون السراج

وطالب وغيرهما، فدعوا الناس له وبايعه خلق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفرقوا الأموال في الناس ديناراً لكل رجل وأنفذوا لثلاث تمضي من شعبان من سنة إحدى وثلاثين يظهرون فيها دعوتهم. واتفق أن رجالاً ممن بايعهم من بني الأشرس جاؤا قبل الموعد بليلة وقد نال منهم السكر، فضربوا الطبل وصاحب الشرطة إسحق بن إبراهيم غائب، فارتاع خليفته محمد أخوه فأرسل من يسأل عن ذلك فلم يوجد أحد، وأتوه برجل أعور إسمه عيسى وجدوه في الحمام، فدلهم على بني الأشرس وعلى أحمد بن نصر وعلى أبي هرون وطالب، ثم سيق خادم أحمد بن نصر فذكر القصة، فقبض عليه وبعث بهم جميعاً إلى الواثق بسامرا مقيدين، وجلس لهم مجلساً عاماً وحضر فيه أحمد بن أبي دؤاد، ولم يسأله الواثق عن خروجه وإنما سأله عن خلق القرآن فقال: هو كلام الله. ثم سأله عن الرؤية فقال: جاءت بها الأخبار الصحيحة، ونصيحتي أن لا يخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم سأل الواثق العلماء حوله عن أمره، فقال عَبْد الرحمن بن إسحق قاضي الجانب الغربي: هو حلال الدم! وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب. فدعا الواثق بالصمصامة فانتضاها ومشى إليه فضربه على حبل عاتقه ثم على رأسه، ثم وخزه في بطنه ثم أجهز سيما الدمشقي عليه وحزوا رأسه، ونصب ببغداد وصلب شلوه عند بابها.

الفداء والصائفة:

وفي سنة إحدى وثلاثين عقد الواثق لأحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء هو وخاقان الخادم، وأمرهما أن تمتحن الأسرى باعتقاد القرآن والرؤية. وجاء الروم بأسراهم والمسلمون كذلك والتقوا على نهر اللامس على مرحلة من طرطوس، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعة وستين، والنساء والصبيان ثمانمائة، وأهل الذمة مائة. فلما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم شاتياً وأصاب الناس ثلج ومطر وهلك منهم مائة نفس، وأسر منهم نحوها، وخرق بالنبل قرون خلق، ولقيه بطريق من الروم خام عن لقائه ثم غنم ورجع، فعزله الواثق وولّى مكانه نصر بن حمزة الخزاعى.

وفاة الواثق وبيعة المتوكل:

وتوفي الواثق أبو جعفر هرون بن المعتصم محمد لست بقين من سنة إثنتين وثلاثين، وكانت علته الاستسقاء وأدخل في تنور مسجر فلقي خفة ثم عاوده في اليوم الثاني أكثر من الأول فأخرج في محفة فمات فيها ولم يشعروا به. وقيل إن ابن أبي دؤاد غمضه ومات لخمس سنين وتسعة أشهر من خلافته. وحضر في الدار أحمد بن أبي

دؤاد وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرح وابن الزيات، وأراد البيعة لمحمد بن واثق وهو غلام إمر فألبسوه فإذا هو قصير، فقال وصيف: أمّا تتقون الله تولون الخلافة مثل هذا! ثم تناظروا فيمن يولونه وأحضروا المتوكل فألبسه ابن أبي دؤاد الطويلة وعممه وسلم عليه بإمارة المؤمنين ولقبه المتوكل وصلى على الواثق ودفنه. ثم وضع العطاء للجند لثمانية أشهر، وولّى على بلاد فارس إبراهيم بن محمد بن مصعب، وكان على الموصل غانم بن

محمد الطويس فأقره وعزل ابن العباس محمد بن صول عن ديوان النفقات، وعقد لابنه المنتصر على الحرمين واليمن والطائف.

نكبة الوزير ابن الزيات ومهلكه:

كان محمد بن عَبْد الملك بن الزيات قد استوزره الواثق فاستمكن من دولته وغلب على هؤلاء، وكان لا يحفل بالمتوكل ولا يوجب حقه، وغضب الواثق عليه مرة فجاء إلى ابن الزيات ليسترله فأساء معاملته في التحية والملاقاة فقال: اذهب فإنك إذا صلحت رضي عنك. وقام عنه حزيناً فجاء إلى القاضي أحمد بن دؤاد فلم يدع شيئا من البر إلا فعله وحياه وفداه، وخطب حاجته فقال: أحب أن ترضي عني أمير المؤمنين فقال: أفعل ونعمة عين ! ولم يزل بالواثق حتى رضي عنه. وكان ابن الزيات كتب إلى الواثق عندما خرج عنه المتوكل أن جعفر أتاني فسأل الرضا عنه وله وفرة شبه زي المخنثين، فأمره الواثق أن يحضره من شعر قفاه فاستحضره فجاء يظن الرضا عنه وأمر حجاماً أخذ من شعره وضرب به وجهه فحقد له ذلك وأساء له. ولما ولي الخلافة بقي شهراً ثم أمر إيتاخ أن يقبض عليه ويقيده بداره ويصادره، وذلك في صفر سنة ثلاث وثلاثين فصادره واستصفى أمواله وأملاكه وسلط عليه أنواع العذاب، ثم جعله في تنور خشب في داخله مسامير تمنع من الحركة وتزعج من فيه لضيقه، ثم مات منتصف ربيع الأول، وقيل: إنه مات من الضرب وكان لا يزيد على التشهد وذكر الله. وكان عمر بن الفرح الرخجي يعامل المتوكل بمثل ذلك فحقد له، ولما استخلف قبض عليه في رمضان واستصفى أمواله ثم صودر على أحد عشر ألف ألف.

نكبة إيتاخ ومقتله:

كان إيتاخ مولى السلام الأبرص، وكان عنده ناخورياً طباخاً، وكان شجاعاً فاشتراه المعتصم منه سنة تسع وتسعين وارتفع في دولته ودولة الواثق ابنه، وكان له المؤنة بسامرا مع إسحق بن إبراهيم بن مصعب، وكانت نكبة العظماء في الدولة على يديه وحبسهم بداره، مثل أولاد المأمون وابن الزيات وصالح وعجيف وعمر بن الفرج وابن الجنيد وأمثالهم، وكان له البريد والحجابة والجيش والمغاربة والأتراك. وشرب ذات ليلة مع المتوكل فعربد على إيتاخ، وهم إيتاخ بقتله ثم غدا عليه فاعتذر له ودس عليه من زين له الحج فاستأذن المتوكل فأذن له وخلع عليه وجعله أمير كل بلد يمر به. وسار لذلك في ذي القعدة سنة أربع وثلاثين أو ثلاث وثلاثين، وسار العسكر بين يديه وجعلت الحجابة إلى وصيف الخادم، ولما عاد إيتاخ من الحج بعث إليه المتوكل بالهدايا والألطاف، وكتب إلى إسحق بن إبراهيم بن مصعب يأمره بحبسه. فلما قارب بغداد كتب إليه إسحق بأن المتوكل أمر أن يدخل بغداد وأن تلقاه بنو هاشم ووجوه الناس، وأن يقعد بدار خزيمة بن خازم فيأمر للناس بالجوائز على قدر طبقاتهم ففعل ذلك، ووقف إسحق على باب الدار فمنع أصحابه من الدخول إليه، ووكل بالأبواب ثم قبض على ولديه منصور مظفر وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد، وبعث إيتاخ إليه يسأله الرفق بالولدين ففعل، ولم يزل إيتاخ مقيداً بالسجن إلى أن مات فقيل: إنهم منعوه الماء، وبقي إبناه محبوسين إلى أن أطلقهما المنتصر بعد المتوكل.

شأن ابن البغيث:

كان محمد بن البغيث بن الحليس ممتنعاً في حصونه بأذربيجان وأعظمها مرند، واستترل من حصنه أيام المتوكل وحبس بسامرا فهرب من حبسه ولحى بمرند، وقيل: إنه في حبس إسحق بن إبراهيم بن مصعب وشفع فيه بغا الشرابي، فأطلقه إسحق في كفالة محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وكان يتردد إلى سامرا حتى مرض المتوكل ففر ولحق بمرند وشحنها بالأقوات، وجاءه أهل الفتنة من ربيعة وغيرهم فاجتمع له نحو ألفين ومائتي رجل، والوالي بأذربيجان يومئذ محمد بن حاتم بن هرثمة فلم يقامعه، فعزله المتوكل وولّى حمدويه بن علي بن الفضل السعدي، فسار إليه وحاصره بمرند مدة وبعث إليه المتوكل بالمدّد، وطال الحصار فلم يقن فيه، فبعث بغا الشرابي في ألفي فارس فجاء لحصاره. وبعث إليه عيسى بن الشيخ بن السلسل بالأمان له ولوجوه أصحابه أن يترلوا على حكم المتوكل، فترل الكثير منهم وانفض جمعه ولحق ببغا وخرج هو هارباً، ونهبت منازله واسرت نساؤه وبناته. ثم أدرك بطريقه واتي به أسيراً وبأخويه صقر وخالد وأبنائه حليس وصقر والبغيث ، وجاء بهم بغا إلى بغداد وحملهم على الحجال يوم قدومه حتى رآهم الناس وحبسوا. ومات البغيث لشهر من وصوله سنة خمس وثلاثين وجعل بنوه في الشاكرية مع عَبْد الفه بن يحيى خاقان.

بيعة العهد:

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة والعهد وكانوا ثلاثة محمدا وطلحة وإبراهيم، ويقال فى طلحة ابن الزبير، وجعل محمداً أولهم ولقبه المستنصر وأقطعه أفريقية والمغرب وقنسرين والثغور الشامية والخزرية، وديار مضر وديار ربيعة، وهيت والموصل وغانة والخابور، وكور دجلة والسواد والخرمين وحضرموت والحرمين والسند ومكران وقندابيل وكور الأهواز والمستغلات بسامرا، وماء الكوفة وماء البصرة. وجعل طلحة ثانيهم ولقبه المعتز، وأقطعه أعمال خراسان وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وأعمال فارس. ثم أضاف إليه سنة أربعين خزن الأموال ودور الضرب في جيم الأفاق، وأمر أن يرسم اسمه في السكة. وجعل الثالث إبراهيم وأقطعه حمص ودمشق وفلسطين وسائر الأعمال الشامية. وفي هذه السنة أمر الجند بتغيير الزي فلبسوا الطيالسة العسلية وشدوا الزنانير في أوساطهم [*] وجعلوا الطراز في لباس المصاليك، ومنع من لباس المناطق، وأمر بهدم البيع المحدثة لأهل الذمة، ونهى أن يستغاث بهم في الأعمال وأن يظهروا في شعاهم الصلبان، وأمر أن يجعل على أبواهم صور شياطين من الخشب.

ملك محمد بن ابراهيم:

كان محمد بن إبراهيم بن الحسن بن مصعب على بلاد فارس، وهو ابن أخي طاهر، وكان أخوه إسحق بن إبراهيم صاحب الشرطة ببغداد منذ أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكان ابنه محمد بباب الخليفة بسامرا نائباً عنه. فلما مات إسحق سنة خمس وثلاثين ولاه المتوكل وضم إليه أعمال أبيه، واستخلفه المعتز على اليمامة والبحرين ومكة وحمل إلى المتوكل وبنيه من الجواهر والذخائر كثيراً، وبلغ ذلك محمد بن إبراهيم فتنكر للخليفة ولمحمد ابن أخيه، وشكا ذلك محمد إلى المتوكل فسرحه إلى فارس وولاه مكان عمه محمد،

فسار وعزل عمه محمداً وولى مكانه ابن عمه الحسين بن إسمعيل بن مصعب، وأمره بقتل عمه محمد فأطعمه ومنعه الشراب فمات.

انتقاض أهل أرمينية:

كان على أرمينية يوسف بن محمد فجاءه البطريق بقراط بن أسواط ، وهو بطريق البطارقة، يستأمن فقبض عليه وعلى ابنه وبعث بهما إلى المتوكل، فاجتمع بطارقة أرمينية مع ابن أخيه وصهره موسى بن زرارة وتحالفوا على قتله وحاصروه بمدينة طرون في رمضان سنة سبع وثلاثين، وخرج لقتالهم فقتلوه ومن كان معه. فسرح المتوكل بغا الكبير، فسار إلى الموصل والجزيرة وأناخ على أردن حتى أخذها وحمل موسى وأخوته إلى المتوكل، وقتل منهم ثلاثين ألفاً وسبى خلقاً وسار إلى مدينة دبيل فأقام بها شهراً، ثم سار إلى تفليس فحاصرها وبعث في مقدمته بزرك التركي، وكان بتفليس

إسحق بن إسمعيل بن إسحق مولى بني أُمَيَّة فخرج وقاتلهم، وكانت المدينة كلها مشيدة من خشب الصنوبر، فأمر بغا أن يرمي عليها بالنفط فاضطرمت النار في الخشب، واحترقت قصور إسحق وجواريه وخمسون ألف إنسان وأسر الباقون، وأحاطت الأتراك والمغاربة بإسحق فأسروه وقتله بغا لوقته، ونجا أهل إسحق بأمواله إلى صعدنيل، مدينة حذاء تفليس على نهر الكرمن من شرقيه بناها أنوشروان وحصنها إسحق، وجعل أمواله فيها فاستباحها بغا، ثم بعث الجند إلى قلعة أخرى بين بردعة وتفليس ففتحوها وأسروا بطريقها. ثم سار إلى عيسى بن يوسف في قلعة كيس من كور البيلقان ففتحها وأسره وحمل معه جماعة من البطارقة، وذلك سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

عزل ابن أبي دؤاد وولاية ابن أكثم:

وفي سنة سبع وثلاثين غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وقبض ضياعه وحبس أولاده، فحمل أبو الوليد منهم مائة وعشرين ألف دينار وجواهر تساوي عشرين ألفاً، ثم صولح عن ستة عشر ألف آلف درهم وأشهد عليهم ببيع أملاكهم وفلح أحمد، فأحضر المتوكل يحيى بن أكثم وولاه قضاء القضاة، وولى أبا الوليد بن أبي دؤاد المظالم ثم عزله. وولى أبا الربيع محمد بن يعقوب ثم عزله، وولى يحيى بن أكثم على المظالم ثم عزله سنة أربعين، وصادره على خمسة وسبعين ألف دينار وأربعة آلاف حربو، وولّى مكانه جعفر بن عَبْد الواحد بن جعفر بن سليمان بن عليّ. وتوفى في هذه السنة أحمد بن أبي دؤاد بعد ابنه أبي الوليد بعشرين يوماً وكان معتزلياً أخذ مذهبهم عن بشر المريسي وأخذه بشر عن جهم بن صَفْوان، وأخذه جهم عن الجعد بن دهم معلم مروان.

انتقاض أهل حمص :

وفي سنة سبع وثلاثين وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي بسبب أنه قتل بعض رؤسائهم فأخرجوه وقتلوا من أصحابه، فولى مكانه محمد بن عبدويه الأنباري فأساء إليهم وعسف فيهم

فوثبوا به، وأمره المتوكل بجند من دمشق والرملة فظفر بهم وقتل منهم جماعة، وأخرج النصارى منها وهدم كنائسهم وأدخل منها بيعة في الجامع كانت تجاوره.

اغارة البجاة على مصر:

كانت الهدنة بين أهل مصر والبجاة من لدن الفتح، وكان في بلادهم معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى أهل مصر، فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين بالمعادن، وكتب صاحب البريد بذلك إلى المتوكل، فشاور الناس في غزوهم فأخبروه أنهم أهل إبل وشاء وأن بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولا بد فيها من الزاد وإن فنيت الأزواد هلك العسكر فأمسك عنهم. وخاف أهل الصعد من شرهم فولّى المتوكل محمد بن عَبْد الله القمي على أسوان وقفط والأقصر وأسنا وأرمنت، وأمره بحرب البجاة. وكتب إلى عنبسة بن إسحق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معه وأزاحه عليهم فسار في عشرين ألفاً من الجند والمتطوعة، وحملت المراكب من القلزم بالدقيق والتمر والأدم إلى سواحل بلاد البجاة، وانتهى إلى حصونهم وقلاعهم. وزحف إليه ملكهم وإسمه علي بابا في إضعاف عساكرهم على المهاري، وطاولهم علي بابا رجاء أن تفنى أزوادهم فجاءت المراكب وفرقها القمي في أصحابه، فناجزهم البجاة الحرب وكانت إبلهم نفورة، فأمر القمي جنده باتخاذ الأجراس بخيلهم. ثم حملوا عليهم فانهزموا وأثخن فيهم قتلاً وأسراً حتى استأمنوا على أداء الخراج لّما سلف ولما يأتي وأن يرد إلى مملكته، وسار مع القمي إلى المتوكل واستخلف ابنه، فخلع القمي عليه وعلى أصحابه وكسا أرجلهم الجلال

المديحة وولاهم طريق ما بين مصر ومكة، وولى عليهم سعداً الإيتاخي الخادم فولى سعد محمد القمي فرجع معهم واستقامت ناحيتهم.

الصوائف:

وفي سنة ثمان وثلاثين ورد على دمياط أسطول الروم في مائة مركب فكبسوها، وكانت المسلحة الذين بها قد ذهبوا إلى مصر باستدعاء صاحب المعونة عنبسة بن إسحق الضبي فانتهزوا الفرصة في مغيبهم وانتهبوا دمياط وأحرقوا الجامع بها وأوقروا سفنهم سبياً ومتاعاً، وذهبوا إلى تنيس ففعلوا فيها مثل ذلك وأقطعوا. وغزا بالصائفة في هذه السنة علي بن يحيى الأرميني صاحب الصوائف، وفي سنة إحدى وأربعين كان الفداء بين الروم وبين المسلمين، وكان ندورة ملكة الروم قد حملت أسرى المسلمين على التنصر، فتنصر الكبير منهم. ثم طلبت المفاداة فيمن بقي فبعث المتوكل سيفاً الخادم بالفداء ومعه قاضي بغداد جعفر بن عَبْد الواحد، واستخلف على القضاء ابن أبي الشوارب،. وكان الفداء على نهر اللامس. ثم أغارت الروم بعد ذلك على روبة فأسروا من كان هنالك من الزط وسبوا نساءهم وأولادهم. ولما رجع علي بن يحيى الأرميني من الصائفة خرجت الروم في ناحية سمسياط فانتهوا إلى آمد، واكتسحوا نواحي الثغور والخزرية نهبا وأسروا نحواً من عشرة آلاف ورجعوا وأتبعهم قرشاس وعمر بن عَبْد الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يدركوهم ، وأمر المتوكل علي بن يحيى أن يدخل بالثانية في تلك السنة ففعل. وفي سنة أربع وأربعين جاء المتوكل من بغداد إلى دمشق

وقد اجتمع نزولها ونقل الكرسي إليها فأقام بها شهرين، ثم استوبأها ورجع بعد أن بعث بغا الكبير في العساكر للصائفة فدخل بلاد الروم فدوخها واكتسحها من سائر النواحي ورجع، وفي سنة خمس وأربعين أغارت الروم على

سميساط فغنموا، وغزا علي بن يحيى الأرميني بالصائفة كركرة وانتقض أهلها على بطريقهم فقبضوا عليه وسلموه إلى بعض موالي المتوكل، فأطلق ملك الروم في فداء البطريق ألف أسير من المسلمين. وفي سنة ست وأربعين غزا عمر بن عَبَيْد الله الأقطع بالصائفة فجاؤا بأربعة آلاف رأس، وغزا قرشاش فجاء بخمسة آلاف رأس، وغزا الفضل بن قاران في الأسطول بعشرين مركباً فافتتح حصن أنْطاكِية وغزا ملكها دورهم وسبا، وغزا علي بن يحيى فجاء بخمسة آلاف رأس ومن الظهر بعشرة آلاف، وكان على يده في تلك السنة الفداء في ألفين وثلثمائة من الأسرى.

الولايات في النواحي:

ولى المتوكل سنة إثنتين على بلاد فارس محمد بن إبراهيم بن مصعب، وكان على الموصل غانم بن حميد الطوسي، واستوزر لأول خلافته محمد بن عَبْد الله بن الزيات. وولّى على ديوان الخراج يحيى بن خاقان الخراساني مولى الأزد، وعزل الفضل بن مروان. وولى على ديوان النفقات إبراهيم بن محمد بن حتول. وولى سنة ثلاث وثلاثين على الحرمين واليمن والطائف ابنه المستنصر، وعزل محمد بن عيسى. وولى على حجابة بابه وصيفاً الخادم عندما سار إيتاخ للحج . وفي سنة خمس وثلاثين عهد لأولاده كما مر، وولى على الشرطة ببغداد إسحق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب مكان ابنه ابراهيم عندما توفي، وكانت وفاته ووفاة الحسن بن سهل في سنة واحدة. وفي سنة ست وثلاثين استكتب عبيد الله بن يحيى بن خاقان ثم استوزره بعد ذلك وولى على أرمينية وأذربيجان حرباً وخراجاً يوسف بن أبي سعيد محمد بن يوسف المروذوذي عندما توفي أبوه فجاءه فسار إليها وضبطها، وأساء إلى البطارقة بالناحية، فوثبوا به كما مر وقتلوه. وبعث المتوكل بغا الكبير في العساكر فأخذ ثأره منهم، وولى معادن السواد عَبْد الله بن إسحق بن إبراهيم. وفي سنة تسع وثلاثين عزل ابن أبي دؤاد عن القضاء وصادره، وولى مكانه يحيى بن أكثم. وقدم محمد بن عَبْد الله بن طاهر من خراسان فولاه الشرطة والجزية وأعمال السواد، وكان على مكة علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور فحج بالناس، ثم ولى مكانه في السنة القابلة عَبْد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى. وولى على الأحداث بطريق مكة والمواسم جعفر بن دينار، وكان على. حمص أبو المغيب موسى بن إبراهيم الرافقي وثبوا به سنة تسع وثلاثين، فولى مكانه محمد بن عبدويه. وفي سنة تسع وثلاثين عزل يحيى بن أكثم عن القضاء، وولى مكانه جعفر بن عَبْد الواحد بن جعفر بن سليمان. وفي سنة إثنتين وأربعين ولى على مكة عَبْد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام، وولى على ديوان النفقات الحسن بن مخلد بن الجراح عندما توفي إبراهيم بن العباس الصوليّ وكان خليفته فيها من قبل. وفي سنة خمس وأربعين اختط المتوكل مدينته وأنزلها القواد والأولياء وأنفق عليها ألف ألف دينار، وبنى فيها قصر اللؤلؤة لم ير مثله في علوه وأجرى له الماء في نهر احتفره وسماها المتوكلية،

وتسمى الجعفري والماخورة . وفيها ولى على طريق مكة أبا الساج مكان جعفر بن دينار لوفاته تلك السنة. وولى على ديوان الضياع والتوقيع نجاح بن سلمة وكانت له صولة على العمال، فكان ينام المتوكل فسعى عنده في الحسن بن مخلد، وكان معه على ديوان الضياع ولى موسى بن عقبة عَبْد الملك وكان على ديوان الخراج، وضمن للمتوكل في مصادرتهما أربعين ألفاً. وأذن المتوكل وكانا منقطعين إلى عبيد الله بن خاقان، فتلطف عند نجاح وخادعه حتى كتب على الرقعتين، وأشار إليه بأخذ ما فيهما معاً وبدأ بنجاح فكتبه وقبض منه مائة وأربعين ألف دينار سوى الغلات والفرش والضياع، ثم ضرب فمات وصودر أولاده في جميع البلاد على أموال جمة.

مقتل المتوكل وبيعة المنتصر ابنه:

كان المتوكل قد عهد إلى ابنه المنتصر ثم ندم وأبغضه لّما كان يتوهم فيه من استعجاله الأمر لنفسه، وكان يسميه المنتصر والمستعجل لذلك. وكان المنتصر تنكر عليه انحرافه عن سنن سلفه فيما ذهبوا إليه من مذهب الاعتزال والتشيُّع لعلي، وربما كان الندمان في مجلس المتوكل يفيضون في ثلب علي فينكر المنتصر ذلك ويتهددهم ويقول للمتوكل: إن علياً هو كبير بيننا وشيخ بني هاشم، فإن كنت لا بد ثالبه فتول ذلك بنفسك ولا تجعل لهؤلاء الصفاغين سبيلاً إلى ذلك فيستخف به ويشتمه، ويأمر وزيره عَبَيْد الله بصفعه ويتهدده بالقتل ويصرح بخلعه. وربما استخلف ابنه الحبر في الصلاة والخطبة مراراً وتركه، فطوى من ذلك على النكث. وكان المتوكل قد

استفسد إلى بغا ووصيف الكبير ووصيف الصغير ودواجن، فأفسدوا عليه الموالي. وكان المتوكل قد أخرج بغا الكبير من الدار وأمره بالمقام بسميساط لتعهد الصوائف، فسار لذلك واستخلف مكانه ابنه موسى في الدار، وان ابن خالة المتوكل، واستخلف على الستر بغا الشرابي الصغير. ثم تغير المتوكل لوصيف وقبض ضياعه بأصبهان والجبل وأقطعها الفتح بن خاقان، فتغير وصيف لذلك وداخل المنتصر في قتل المتوكل، وأعد لذلك جماعة من الموالي بعثهم مع ولده صالح وأحمد وعبد الله ونصر، وجاؤا في الليلة الي اتعدوا فيها. وحضر المنتصر ثم انصرف على عادته، وأخذ زرافة الخادم معه، وأمر بغا الشرابي الندمان بالانصراف حتى لم يبق إلا الفتح وأربعة من الخاصة، وأغلق الأبواب إلا باب دجلة فأدخل منه الرجال وأحس المتوكل وأصحابه بهم فخافوا على أنفسهم، واستماتوا وابتدروا إليه فقتلوه. وألقى الفتح نفسه عليهم ليقيه فقتلوه. وبعث إلى المنتصر وهو ببيت زرافة فأخبره وأوصى بقتل زرافة فمنعه المنتصر، وبايع له زرافة وركب إلى الدار فبايعه من حضر، وبعث إلى وصيف إن الفتح قتل أبي فقتلته. فحضر وبايع، وبعث عن أخويه المعتز والمؤيد فحضرا وبايعا له. وانتهى الخبر إلى عبيد الله بن يحيى فركب من ليله وقصد مترل المعتز فلم يجده، واجتمع عليه عشرة آلاف من الأزد والأرمن والزواقيل، وأغروه بالحملة على المنتصر وأصحابه فأبى وخام عن ذلك، وأصبح المنتصر فأمر بدفن المتوكل والفتح، وذلك لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين. وشاع الخبر بقتل المتوكل فثار الجند

وتبعهم وركب بعضهم بعضاً، وقصدوا باب السلطان، فخرج إليهم بعض الأولياء فاسمعوه، ورجع فخرج المنتصر بنفسه وبين يديه المغاربة فشردوهم عن الأبواب فتفرقوا بعد أن قتل منهم ستة أنفس.

خلفاء بني العباس أيام الفتنة

الخبر عن الخلفاء من بني العباس أيام الفتنة، وتغلب الأولياء

وتضايق نطاق الدولة باستبداد الولاة في النواحي

من لدن المنتصر إلي أيام المستكفي

كان بنو العباس حين ولوا الخلافة قد امتدت إيالتهم على جميع ممالك الإسلام،كما كان بنو أُمَيَّة من قبلهم. ثم لحق بالأندلس من فل بني أُمَيَّة من ولدها هاشم بن عَبْد الملك حافده عَبْد الرحمن بن معاوية بن هشام، ونجا من تلك الهلكة فأجاز البحر ودخل الأندلس، فملكها من يد عَبْد الرحمن بن يوسف الفهري، وخطب للسفاح فيها حولاً ثم لحق به أهل بيته من المشرق فعذلوه في ذلك فقطع الدعوة عنهم. وبقيت بلاد الأندلس مقتطعة من الدولة الإسلامية عن بني العباس. ثم لّما كانت وقعة فتح أيام الهادي علي بن الحسن بن علي سنة تسع وتسعين ومائة، وقتل داعيتهم يومئذ حسين بن علي بن حسن المثنى وجماعة من أهل بيته ونجا آخرون، وخلص منهم إدريس بن عَبْد الله بن حسن إلى المغرب الأقصى، وقام بدعوته البرابرة هنالك، فاقتطع المغرب عن بني العباس فاستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم. ثم ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة فيها الأولياء والقرابة والمصطنعون، وصار تحت حُجرهم من حين قتل المتوكل وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحي مظهرين لدعوتهم، فدعا أبو عَبْد الله الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بإفريقية في طامة لعبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق وبايع له، وانتزع إفريقية من يد بني الأغلب واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام، واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بني العباس واستحدثوا له دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر في أخبارهم. ثم ظهر بطبرستان من العلوية الحسن بن زيد بن محمد بن إسمعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط ويعرف بالداعي، خرج سنة خمسين ومائتين أيام المستعين ولحق بالديلم فأسلموا على يديه، وملك طبرستان ونواحيها، وصار هنالك دولة أخذها من يد أخيه سنة إحدى وثلثمائة الأطروش من بني الحسين، ثم من بني علي، عمر داعي الطالقان أيام المعتصم، وقد مر خبره. واسم هذا الأطروش الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر، وكانت لهم دولة وانقرضت أيام الحسين، واستولى عليها الديلم، وصارت لهم دولة أخرى.

وظهر باليمن الرئيس وهو ابن إبراهيم طباطبا بن إسمعيل بن إبراهيم بن حسن المثنى فأظهر هنالك دعوة الزيدية وملك صعدة وصنعاء وبلاد اليمن، وكانت لهم هنالك دولة ولم تزل حتى الآن. وأول من ظهر منهم يحيى بن الحسين بن القاسم سنة تسعين ومائتين ثم ظهر أيام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج ادعى أنه أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد، وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهتدي، وطعن الناس في نسبه فادعى أنه من ولد يحيى بن زيد قتيل الجوزجان ، وقيل إنه انتسب إلى طاهر بن الحسين بن علي والذي ثبت عند المحققين أنه

علي بن عَبْد الرحيم بن عَبْد القيس، فكانت له ولبنيه دولة بنواحي البصرة أيام الفتنة قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد المعتضد أيام السبعين ومائتين. ثم ظهر القرظ بنواحي البحرين وعمان فسار إليها من الكوفة سنة تسع وسبعين أيام المعتضد، وانتسب إلى بني إسمعيل الإمام بن جعفر الصادق دعوى كاذبة، وكان من أصحابه الحسن الجمالي وزكرونة القاشاني فقاموا من بعده بالدعوة ودعوا لعبد الله المهدي وغلبوا على البصرة والكوفة، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان، وكانت لهم هنالك دولة انقرضت آخر المائة الرابعة، وتغلب عليهم العرب من بني سليم وبني عقيل. وفي خلال ذلك استبد بنو سامان بما وراء النهر آخر الستين ومائتين وأقاموا على الدعوة إلا أنهم لا ينفذون أوامر الخلفاء، وأقامت دولتهم إلى آخر المئة الرابعة. ثم اتصلت دولة أخرى في مواليهم بغزنة إلى منتصف المائة السادسة، وكانت للأغالبة بالقيروان وإفريقية دولة أخرى بمصر والشام بالاستبداد من لدن الخمسين والمائتين أيام الفتنة إلى اخر المائة الثالثةثم أعقبتها دولة أخرى لمواليهم بني طفج إلى الستين والثلثمائة. وفي خلال هذا كله. تضايق نطاق الدولة العباسية إلى نواحي السواد والجزيرة فقط، إلا أنهم قائمون ببغداد على أمرهم. ثم كانت للديلم دولة أخرى استولوا فيها على النواحي وملكوا الأعمال ثم ساروا إلى بغداد وملكوها وصيروا الخليفة في ملكتهم من لدن المستكفي أعوام الثلاثين والثلثمائة، وكانت من أعظم الدول. ثم أخذها من أياديهم السلجوقية من الغز إحدى شعوب الترك، فلم تزل دولتهم من لدن القائم سنة أربعين وأربعمائة إلى آخر المائة

السادسة، وكانت دولتهم من أعظم الدول في العالم. وتشعبت عنها دول هي متصلة إلى عهدنا حسبما يذكر ذلك كله في مكانه، ثم استبد الخلفاء من بني العباس آخراً في هذا النطاق الضيق ما بين دجلة والفرات وأعمال السواد وبعض أعمال فارس، إلى أن خرج التتار من مفازة الصين وزحفوا إلى الدولة السلجوقية وهم على دين المجوسية، وزحفوا إلى بغداد فقتلوا الخليفة المعتصم، وانقرض أمر الخلافة، وذلك سنة ست وخمسين وستمائة. ثم أسلموا بعد ذلك وكانت لهم دولة عظيمة، وتشعبت عنها دول لهم ولأشياعهم في النواحي وهي باقية لهذا العهد آخذة في الثلاثين كما نذكر ذلك كله في أماكنه.

دولة المنتصر:

ولما بويع المنتصر كما ذكرناه ولى على المظالم أبا عمرو أحمد بن سعيد، وعلى دمشق عيسى بن محمد النوشري، وكان على وزارته أحمد بن الخصيب، واستقامت أموره وتفاوض وصيف وبغا وأحمد بن الخصيب في شأن المعتز والمؤيد لّما توقعوا من سطوتهما بسبب قتل المتوكل، فحملوا المنتصر على خلعهما لأربعين يوماً من خلافته وبعث إليهما بذلك، فأجاب المؤيد وامتنع المعتز فأغلظوا عليه وأوهموه القتل، فخلا به المؤيد وتلطف به حتى أجاب وخلع نفسه وكتبا ذلك بخطهما. ثم دخلا على المنتصر فأجلسهما واعتذر لهما بسمع من الأمراء بأنهم الذين حملوه على خلعهما فأجبتهم إلى ذلك خشية عليكما منهم، فقبلا يده وشكرا له وشهد عليهما القضاة وبنو هاشم والقواد ووجوه الناس، وكتب بذلك المنتصر إلى الآفاق وإلى محمد بن طاهر ببغداد. ثم إن أحمد بن الخصيب أخا المنتصر أمر بإخراج وصيف للصائفة وإبعاده عن الدولة لّما بينهما من الشحناء،

فأحضره المنتصر وقال له: قد أتانا من طاغية الروم أنه أفسد الثغر فلا بد من مسيرك أو مسيري، فقال بل أنا أشخص يا أمير المؤمنين ! فأمر أحمد بن الخصيب أن يجهزه ويزيح علل العسكر معه، وأمره أن يوافي ثغر ملطية، فسار، وعلى مقدمته مزاحم بن خاقان أخو الفتح، وعلى نفقات العساكر والمغانم والمقاسم أبو الوليد الاقروالى أن يأتيه رأيه.

وفاة المنتصر وبيعة المستعين:

ثم أصابت المنتصر علة الذبحة فهلك لخمس بقين من ربيع الأول من سنة ثمان

وأربعين ومائتين لستة أشهر من ولايته، وقيل بل أكثر من ذلك، فجعل السم في مشرطة الطبيب فاجتمع الموالي في القصر وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش وغيرهم، فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسية على الرضا بمن يرضونه لهم، ثم خلصوا للمشورة ومعهم أحمد بن الخصيب، فعدلوا عن ولد المتوكل خوفاً منهم ونظروا في ولد المعتصم فبايعوه واستكتب أحمد بن الخصيب واستوزر أتامش وغدا على دار العامة في زي الخلافة، وإبراهيم بن إسحق يحمل بين يديه الحربة، وصفت المماليك والأشروسية صفين بترتيب دواجن، وحضر أصحاب المراتب من العبّاسيين والطالبيين، وثار جماعة من الجند وقصدوا الدار يذكرون أنهم من أصحاب محمد بن عَبْد الله بن طاهر، والغوغاء فشهروا السلاح وهتفوا باسم المعتز وشدوا على أصحاب دواجن فتضعضعوا، ثم جاءت المبيضة والشاكرية وحمل عليهم المغاربة والأشروسية، فنشبت الحرب وانتهبت الدروع والسلاح من الخزائن بدار العامة، وجاء بغا الصغير، فدفعهم عنها وقتل منهم عدة وفتفت السجون وتمت بيعة الأترال للمستعين، ووضع العطاء على البيعة وبعث الى محمد بن عَبْد الله بن طاهر فبايع له هو والناس ببغداد.

ثم جاء الخبر بوفاة طاهر بن عَبْد الله بن طاهر بخراسان، وهلك عمه الحسين بن طاهر بمرو، فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر مكانه، وعقد لمحمد بن عَبْد الله بن طاهر على خراسان سنة ثمان وأربعين ومائتين، وولى عمه طلحة على نيسابور، وابنه منصور بن طلحة على مرو وسرخس وخوارزم، وعمه الحسين بن عَبْد الله على هراة وأعمالها، وعمه سليمان بن عَبْد الله على طبرستان، والعباس ابن عمه على الجوزجان والطالقان. ومات بغا الكبير فولى ابنه موسى على أعماله كلها وبعث أناجور من قواد الترك إلى العمرط الثعلبي فقتله، واستأذنه عَبْد الله بن يحيى بن خان في الحجّ فأذن له، ثم بعث خلفه من نفاه إلى برقة، وحبس المعتز والمؤيد في حجره بالجوسق بعد أن أراد قواد الأتراك قتلهما، فمنعهم أحمد بن الخصيب من ذلك. ثم قبض على أحمد بن الخصيب فاستصفى ماله ومال ولده ونفاه إلى قرطيش

واستوزر أتامش وعقد له على مصر والمغرب، وعقد بغا الصغير على حلوان وماسيدان ومهرجا تعرف، وجعل شاهك الخادم على داره وكراعه وحرمه وخاصة أموره وخدمه، وأشناس على جميع الناس. وعزل علي بن يحيى الأرمني عن الثغور الشامية وعقد له على أرمينية وأذربيجان. وكان على حمص كندر، فوثب به أهلها فأخرجوه، فبعث المستعين الفضل بن قارن وهو أخو مازيار فاستباحهم وحمل أعيانهم إلى سامرا، وبعث

المستعين إلى وصيف وهو بالثغر الشامي بأن يغزو بالصائفة، فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قرورية. ثم غزا بالصائفة سنة تسع وأربعين جعفر بن دينار وافتتح مطامير، واستأذنه عمر بن عَبْد الله الأقطع في تدويخ بلاد الروم فأذن له فدخل في جماعة من أهل ملطية ولقي ملك الروم فخرج الأسقف في خمسين ألفاً أحاطوا به، وقتل عمر في ألفين من المسلمين. وكان على الثغور الجزرية فأغار عليها الروم، وبلغ ذلك علي بن يحيى وهو قابل من أرمينية إلى ميافارقين ومعه جماعة من أهلها، فنفر إليهم وهو في نحو أربعمائة فقتلوا وقتل.

فتنة بغداد وسامرا:

ولما اتصل الخبر ببغداد وسامرا بقتل عمر بن عَبْد الله وعلي بن يحيى شق ذلك على الناس لّما كانوا عليه من عظيم الغناء في الجهاد، واشتد نكيرهم على الترك في غفلتهم عن المصالح، وتذكروا قتل المتوكل واستيلاءهم على الأمور، فاجتمعت العامة وتنادوا بالنفير إلى الجهاد. وانضم إليهم الشاكرية يطلبون أرزاقهم، ثم فتقوا السجون وقطعوا الجسور وانتهبوا دور كتاب محمد بن عَبْد الله بن طاهر. ثم أخرج أهل اليسار من بغداد الأموال ففرّقوها في المجاهدين، وجاءت العامة من الجبال وفارس والأهواز فنفروا للغزو، ولم يظهر للمستعين ولا لأهل الدولة في ذلك أثر. ثم وثب العامة بسامرا وفتقوا السجون وخرج من كان فيها، وجاء جماعة من الموالي في طلبهم فوثب العامة بهم وهزموهم، وركب بغا ووصيف وأتامش في الترك فقتلوا من العامة خلقا وانتهبوا منازلهم وسكنت الفتنة.

مقتل أتامش:

كان المستعين لّما ولي أطلق يد أمّه وأتامش وشاهك الخادم في الأموال، وما فضل عنهم فلنفقات العباس بن المستعين وكان في حجر أتامش، فبعث ذلك عليه بغا

و وصيف، وضاق حال الأتراك والفراعنة ودسهم عليهم بغا ووصيف، فخرج منهم أهل الكرخ والدور وقصدوه في الجوسق مع المتعين، وأراد الهرب فلم يطق واشجار بالمستعين فلم يجره، وحاصروه يومين. ثم افتتحوا عليه الجوسق وقتلوه وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم ونهبت أموالهم، واستوزر المستعين مكانه أبا عَبْد الله بن محمد بن علي على الأهواز، وبغا الصغير على فلسطين. ثم غضب بغا الصغير على أبي صالح فهرب إلى بغداد، واستوزر المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجاني، وولى على ديوان الرسائل سعيد بن حميد.

ظهور يحيي بن عمر ومقتله:

كان على الطالبيين بالكوفة يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد الشهيد ويكنى أبا الحسين، وأمه من ولد عَبْد الله بن جعفر وكان من سُراقهم ووجوههم، وكان عمر بن فرج يتولى أمر الطالبيين أيام المتوكل، فعرض له أبر الحسين عند مقدمه من خراسان يسأله صلة لدين لزمه، فأغلظ له عمر القول وحبسه حتى أخذ عليه الكفلاء وانطلق إلى بغداد. لم جاء إلى سامرا، وقد أملق فتعرض لوصيف في رزق يجرى له، فأساءه عليه وإليها فرجع إلى الكوفة وعاملها يومئذ أيوب بن الحسين بن موسى بن جعفر بن سليمان بن علي من قبل محمد بن عَبْد الله

بن طاهر، فاعتزم على الخروج والتف عليه جمع من الأعراب وأهل الكوفة، ودعا للرضى من آل محمد ففتق السجون ونهبها وطرد العمال، وأخذ من بيت المال ألفي دينار وسبعين ألف درهم.

وكان صاحب البريد قد طير بخبره إلى محمد بن عَبْد الله بن طاهر، فكتب إلى عامله بالسواد عَبْد الله بن محمود السرخسي أن يصير مددا إلى الكوفة، فلقيه وقاتله، فهزمهم يحيى، وانتهب ما معهم وخرج إلى سواد الكوفة وتبعه خلق من الزيدية، وانتهى الى ناحية واسط وكثرت جموعه. وسرح محمد بن عَبْد الله بن طاهر إلى محاربة الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب في العساكر فسار إليه.

وقد كان يحيى قصد الكوفة فلقيه عَبْد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفلس فهزمه يحيى إلى ناحية ساهي، ودخل الكوفة واجتمعت عليه الزيدية واشتمل عليه عامة أهل الكوفة وإمداد الزيدية من بغداد، وجاء الحسين بن إسماعيل وانضم إليه عَبْد الرحمن بن الخطاب. وخرج يحيى من الكوفة ليعاجلهم الحرب فأسرى ليلته وصبح العساكر فساروا إليه فهزموه ووضعوا السيف في أصحابه، وأسروا الكثير من أتباعه كان منهم الهيصم العجلي وغيره، وانجلت الحرب عن يحيى بن عمر قتيلا فبعثوا برأسه إلى محمد بن عَبْد الله بن طاهر فبعث به إلى المستعين، وجعل في صندوق في بيت السلاح، وجيء بالأسرى فعبسوا وكان ذلك منتصف رجب سنة خمس ومائتين.

الدولة العلوية

ابتداء الدولة العلوية بطبرستان

لّما ظهر محمد بن عَبْد الله بن طاهر بيحيى بن عمرو وكان له من الغناء في حربه ما قدمناه، أقطعه المستعين قطائع من صوافي السلطان بطبرستان كانت منها قطعة بقرب ثغر الديلم تسمى روسالوس ، وفيها أرض موات ذات غياض وأشجار وكلأ، مباحة لمصالح الناس من الاحتطاب والرعي، وكان عامل طبرستان يومئذ من قبل محمد بن طاهر صاحب خراسان عمه سليمان بن عَبْد الله بن طاهر وهو أخو محمد صاحب القطائع، وكان سليمان مكفولا لأمه، وقد حظي عندها وتقدم وفرق أولاده في أعمال طبرستان. وأساؤوا السيرة في الرعايا، ودخل حمد بن أوس بلاد الديلم وهم مسالمون، فسبى منهم وانحرفوا لذلك. وجاء نائب حمد بن عَبْد الله لقبض القطائع فحاز فيها تلك الأرض الموات المرصدة المرافق الناس، فنكر ذلك الناظر على تلك الأرض وهما محمد وجعفر ابنا رستم واستنهضا من أطاعهما من أهل تلك الناحية لمنعه من ذلك، فخافهما النائب ولحق بسليمان صاحب طبرستان. وبعث ابنا رستم إلى الديلم يستنجدانهم على حرب سليمان، وبعثا إلى محمد بن إبراهيم من العلويين بطبرستان يدعوانه إلى القيام بأمره، فامتنع ودلهما على كبير العلوية بالري الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط، فشخص إليهما وقد اجتمع أهل كلار وسالوس ومقدمهم ابنا رستم وأهل الريان ومعهم الديلم بأسرهم، فبايعوه جميعاً وطردوا عمال سليمان وابن أوس. ثم انضم إليهم جبال طبرستان وزحف الحسن بمن معه إلى مدينة آمد، وخرج ابن أوس من صارية لمدافعته، فانهزم ولحق بسليمان من سارية، فخرج سليمان لحرب الحسن. لّما التقى الجمعان بعث الحسن بعض

قواده خالد سليمان إلى سارية، وسمع بذلك سليمان فانهزم، وملك الحسن سارية وبعث بعيال سليمان وأولاده في البحر إلى جرجان. وقيل: إن سليمان انهزم اختياراً لّما

كان بنو طاهر يتهمون به من التشييع. ثم بعث الحسن إلى الري ابن عفه وهو القاسم بن علي بن إسماعيل، ويقال محمد بن جعفر بن عَبْد الله العقيقي بن الحسين بن علي بن زين العابدين، فملكها. وبعث المستعين جنداً إلى همذان ليمنعها. ولما ملك محمد بن جعفر قائد الحسن بن زيد الري أساء السيرة، وبعث محمد بن طاهر قائد محمد بن ميكال أخو الشاه فغلبه على الرى وانتزعها منه وأسره، نحث إليه الحسن بن زيد قائده دواجن، فهزم ابن ميكال وقتله واسترجع الرى. ثم رجع سليمان بن طاهر من جرجان إلى طبرستان فملكها، ولحق الحسين بالديلم، وسار سليمان إلى سارية وآمد ومعهم أبناء قارن بن شهرزاد، فصفح عنهم ونهى أصحابه عن الملك والأذى. ثم جاء موسى بن بغا بالعساكر فملك الري من يدي أبي دُلف ، وبعث مصلحا إلى طبرستان فحارب الحسن بن زيد وهزمه، واستولى على طبرستان، ولحق الحسن بالديلم ودخل مفلح آمد وخرب منازل الحسن ورجع إلى موسى بالري.

مقتل باغر:

وكان باغر هذا من قواد الترك ومن جملة بغا الصغير، ولما قتل المتوكل زيد في أرزاقه وأقطعوه قرى بسواد الكوفة وضمنها له بعض أهل باروسما بألفي دينار فطلبه ابن مارمة وكيل باغر، وحبسه، ثم تخلص وسار إلى سامرا، وكانت له ذمة من نصراني عند بغا الصغير، فأجاره النصراني من كيد بغا وأغراه عليه، فغضب لذلك باغر وشكى إلى بغا فأغلظ له القول، وقال: إني مستبدل من النصراني، وافعل فيه بعد ذلك ما تريد، ودس الى النصراني بالحذر من باغر وأظهر عزله، وبقي باغر يتهدده. وقد انقطع عن المستعين، وقد منعه بغا في يوم نوبته عن الحضور بدار السلطان، فسأل المستعين وصيفاً من أعمال إيتاخ وقلدها لباغر، فعذل وصيفاً في الشأن فحلف له أنه ما علم قصد الخليفة. وتنكر بغا لباغر فجمع أصحابه الذين بايعوه على المتوكل وجدد عليهم العهد في قتل المستعين وبغا ووصيف، وأن ينصبوا ابن المعتصم أو ابن الواثق ويكون الأمر لهم. ونما الخبر على الترك إلى المستعين فأحضر بغا ووصيفاً وأعلمهما بالخبر، فحلفا له على العلم وأمروا بحبس باغر ورجلين معه من الأتراك، فسخطوا ذلك، وثاروا فانتهبوا الإصطبل وحضروا الجوثق. وأمر بغا ووصيف وشاهك الخادم وكاتبه أحمد بن صالح

بن شيرزاده، ونزل على محمد بن طاهر في بيته في المحرم سنة إحدى وخمسين، ولحق به القواد والكتاب والعمال وبنو هاشم، وتخلف جعفر الخياط وسليمان بن يحيى بن معاذ، فندم الأتراك وركب جماعة من قوادهم إلى المستعين وأصحابه ليردوهم فأبوا ورجعوا آيسين منه وتفاوضوا في بيعة المعتز.

بيعة المعتز وحصار المستعين:

كان قواد الأتراك لّما جاؤا إلى المستعين ببغداد يعتذرون من فعل ويتطارحون في الرضا عنهم والرجوع إلى دار مكة وهو يوبخهم ويعدد عليهم إحسانه وإساءهم، ولم يزالوا به حتى صرح لهم بالرضا. فقال بعضهم: فإن

كنت رضيت فقم واركب معنا إلى سامرا فكلمه ابن طاهر لسوء خطابهم، وضحك المستعين لعُجمِتهم وجهلهم بآداب الخطاب، وأمر باستمرار أرزاقهم ووعدهم بالرجوع، فانصرفوا حاقدين ما كان من ابن طاهر، وأخرجوا المعتز من محبسه وبايعوا له بالخلافة، وأعطى للناس شهرين.وحضر للبيعة أبو أحمد بن الرشيد فامتنع منها وقال: قد خلعت نفسك! فقال أكرهت! فقال ما علمنا ذلك ولا مخلص لنا في إيماننا فتركه. وولوا على الشرطة إبراهيم البربرح وأضيفت له الكتابة والدواوين وبيت المال، وهرب عتاب بن عتاب من القواد إلى بغداد، وقام محمد بن عَبْد الله بن طاهر بالاحتشاد، واستقدم مالك بن طوق في أهل بيته وجنده، وأمر حوبة بن قيس وهو على الأنبار- بالاحتشاد. وكتب إلى سليمان بن عمران صاحب الموصل بمنع الميرة عن سامرا وشرع في تحصين بغداد وأدار عليها الأسوار والخنادق من الجانبين، وجعل على كل باب قائداً، ونصب على الأبواب المجانيق والعرادات، وشحن الأسوار بالرماة

والمقاتلة، وبلغت النفقة في ذلك ثلثمائة وثلاثين ألف دينار، وفوض للعيارين الرزق وأغدق عليهم، وأنفذ كتب المستعين إلى العمال بالنواحي تحمل الخراج إلى بغداد. وكتب المستعين إلى الأتراك يأمرهم بالرجوع عما فعلوا، وكتب المعتز إلى محمد يدعوه إلى بيعته، وطالت المراجعات في ذلك، وكان موسى بن بغا قد خرج لقتال أهل حمص، فاختلفت إليه وهو بالشام كتب المستعين والمعتز يدعوه كل واحد منهما إلى نفسه، فاختار المعتز ورجع إليه، وهرب إليه عَبْد الله بن بغا الصغير من بغداد بعد أن هرب عنه فقتله. وهرب الحسن بن الأفشين إلى بغداد فخلع عليه المستعين وضمّ إليه الأشروسنة. ثم عقد المعتز لأخيه إلى أحمد الواثق عن حرب بغداد، وضمّ إليه الجنود مع باكلبال من قوادهم، فسار في خمسين ألفاً من الأتراك والفراغنة والمغاربة، وانتهبوا ما بين عكبرا وبغداد من القرى والضياع وخرّبوها، وهرب إليهم جماعة من أصحاب بغا الصغير ووصلوا إلى باب الشماسية. وولى المستعين على باب الشماسية الحسين بن إسمعيل بن إبراهيم بن الحسن بن مصعب، وجعل القواد هنالك تحت يده، ووافت طلائع الأتراك إلى باب الشماسية فوقفوا بالقرب منه وأمده ابن طاهر بالشاه بن ميكال وبيدار الطبري. ثم ركب محمد بن عَبْد الله بن طاهر من الغد ومعه بغا ووصيف والفقهاء والقضاة، وذلك عاشر صفر، وبعث إليهم يدعوهم إلى مراجعة الطاعة على المعتزّ ولي عهده فلم يجيبوا، فانصرفوا، وبعث إليه القواد من الغد بأنهم زحفوا إلى باب الشماسية فنهاهم عن مناداتهم بالقتال. وقدم ذلك اليوم عَبْد الله بن سليمان خليفة بغا من مكة في ثلثمائة رجل. ثم جاء الأتراك من الغد فاقتتلوا مع القواد وانهزم القواد، وبلغ ابن طاهر أن جماعة من الأتراك ساروا نحو النهروان، فبعث قائداً من أصحابه إليهم فرجع منهزماً، واستولى الأتراك على طريق خراسان وقطعوها عن بغداد. ثم بعث المعتز عسكراً آخر نحو أربعة آلاف فنزلوا في الجانب الغربي، وبعث ابن طاهر إليهم الشاه بن ميكال فهزمهم وأثخن فيهم، ورجع إلى بغداد فخلع عليه وسائر القواد أربع خلع وطوقاً وسواراً من ذهب لكل واحد. ثم أمر ابن طاهر بهدم الدور والحوانيت إلى باب الشماسية ليتسع المجال للحرب، وقدمت عليه أموال فارس والأهواز مع مكحول الأشروسي.

وخرج الأتراك الاعتراضه. وبعث ابن طاهر لحفظه فقدموا به بغداد، ولم يظفر به الأتراك، ومضوا نحو النهروان فأحرقوا سفن الجسر. وكان المستعين قد بعث محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد والياً على الثغور الجزرية، وأقام ينتظر الجند والمال، فلما بلغه خبر هذه الفتنة جاء على طريق الرقة إلى بغداد، فخلع عليه ابن طاهر وبعثه في جيش كثيف لمحاربتهم، وصار إلى ضبيعة بالسواد فأقام بها. فقال ابن طاهر: لن يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به، ثم ذهب الأتراك وقاتلوا. واتصل الحصار واشتدت الحرب وانتهبت الأسواق، وورد الخبر من الثغور بأن بلكاجور حمل الناس على بيعة المعتز فقال ابن طاهر: لعله ظن موت المستعين فكان كذلك، ووصل كتابه بأنه جدد البيعة. وكان موسى بن بغا مع الأتراك كما قد قدمنا فاراد الرجوع على المستعين فامتنع اصحابه وقاتلوه فلم يتم له أمره، وفر القطاعون من البصرة ورموا على الأتراك فأحرقوهم، فبعث ابن طاهر إلى المدائن ليحفظها وامده بثلاثة آلاف فارس، وبعث إلى الأنبار حوبة بن قيس فشق الماء إلى خندقها من الفرات وجاء إلى الإسحاقي من قبل المعتز، فسبق المدد الذي جاء من قبل ابن طاهر وملك الأنبار. ورجع حوبة إلى بغداد فأنفذ ابن طاهر الحسين بن إسمعيل في جماعة من القواد والجند، فاعترضه الأتراك وحاربوه وعاد إلى الأنبار، وتقدم هو ليترل عليهما، وبينما هو يحط الأثقال إذا بالأتراك فقاتلهم وهزمهم وأثخن فيهم، وكانوا قد كمنوا له فخرج الكمين وانهزم الحسين وغرق كثير من أصحابه في الفرات. وأخذ الأتراك عسكره ووصل إلى الياسرية آخر جمادى الآخرة، ومنع ابن طاهر المنهزمين من دخول بغداد، وتوعدهم على الرجوع إليه. وأمده بجند آخر فدخل من الياسرية، وبعث على المخاض الحسين بن علي بن يحيى الأرميني في مائتي مقاتل ليمنع الأتراك من العبور إليه من عدوة الفرات، فوافوه وقاتلوه عليها فهزموه، وركب الحسين في زورق منحدراً، وترك عسكره وأثقاله فاستولى عليها الأتراك، ووصل المنهزمون إلى بغداد من ليلتهم. ولحق من عسكره جماعة من القواد والكتاب بالمعتز وفيهم علي ومحمد ابنا الواثق، وذلك أول رجب. ثم كانت بينهم عدة وقعات، وقتل من الفريقين خلق، ودخل الأتراك في كثير من الأيام بغداد وأخرجوا عنها. ثم ساروا إلى المدائن وغلبوا طيها ابن أبي السفاح وملكوها. وجاء الأتراك الذين بالأنبار إلى الجانب الغربي، وانتهوا إلى

صرصر وقصر ابن هبيرة، واتصل الحصار إلى شهر ذي القعدة، وخرج ابن طاهر في بعض أيامه في جميع القواد والعساكر، فقاتلهم وانهزموا وقتل منهم خلق، وارتقم الذين كانوا مع بغا ووصيف لذلك فلحقوا بالأتراك. ثم تراجع الأتراك وانهزم أهل بغداد. ثم خرج في ذي الحجة رشيد بن كاووس أخو الأفشين ساعياً في الصلح بين الفريقين، واتهم الناس ابن طاهر بالسعي في خلع المستعين، فلما جاء رشيد وأبلغهم سلام المعتز وأخيه أبي أحمد شتموه وشتموا ابن طاهر، وعمدوا إلى دار رشيد ليهدموها، وسأل ابن طاهر من المستعين أن يسكنهم فخرج إليهم ونهاهم وبرأ ابن طاهر مما اتهموه به فانصرفوا، وترددت الرسل بين ابن طاهر وبين أبي أحمد فتجدد للعامة والجند سوء الظن. وطلب الجند أرزاقهم فوعدهم بشهرين، وأمرهم بالترول فأبوا إلا أن يعلمهم الصحيح من رأيه في المستعين. وخاف أن يدخلوا الأتراك كما عمل أهل المدائن والأنبار، فأصعد

المستعين على سطح دار العامة حتى رآه الناس وبيده البردة والقضيب، وأقسم عليهم فانصرفوا. واعتزم ابن طاهر على التحول إلى المدائن، فجاءه وجوه الناس واعتذروا له بالغوغاء فأقصروا بنقل المستعين عن دار ابن طاهر إلى دار رزق الخادم بالرصافة. وأمر القوّاد وبني هاشم بالكون مع ابن طاهر، فركب في تعبية وحلف لهم على المستعين وعلى قصد الإصلاح فدعوا له، وسار إلى المستعين وأغراه به، وأمر بغا ووصيفاً بقتله فلم يفعلا. وجاءه أحمد بن إسرائيل والحسين بن مخلد بمثل ذلك في المستعين، فتغير له ابن طاهر. فلما كان يوم الأضحى وقد حضر الفقهاء والقضاة طالبه ابن طاهر بإمضاء الصلح، فأجاب وخرج إلى باب الشماسية، فجلس هناك ابن طاهر إلى المستعين وأخبره بأنه عقد الأمر إلى أن يخلع نفسه، ويبتذلوا له خمسين ألف دينار، ويعطوه غلة ثلاثين ألف دينار، ويقيم بالحجاز متردداً بين الحرمين، ويكون بغا والياً على الحجاز، ووصيف على الجبل، ويكون ثلث الجباية لابن طاهر، وجند بغداد والثلثان للموالي والأتراك. فامتنع المستعين أولاً من الخلع ظناً منه أن وصيفاً وبغا معه. ثم تبين موافقتهما عليه، فأجاب وكتب بما أراد من الشروط، وأدخل الفقهاء، والقضاة وأشهدهم بأنه قد صير أمره إلى ابن طاهر. ثم أحضر القواد وأخبرهم بأنه ما قصد بهذا الإصلاح إلا حقن الدماء، وأخرجهم الى المعتز ليوافقهم بخطه على كتاب الشرط ويشهدوا على إقراره، فجاؤا بذلك لستٍ خلون من المحرم سنة إثنتين وخمسين ومائتين.

خلع المستعين ومقتله والفتن خلال ذلك:

ولما تم ما عقده ابن طاهر ووافق القواد بخط المعتز على كتاب الشروط أخذ البيعة للمعتز على أهل بغداد، وخطب له بها وبايع له المستعين وأشهد على نفسه بذلك، فنقله من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل ومعه عياله وأهله، وأخذ البردة والقضيب والخاتم ومنع من الخروج إلى مكة، فطلب البصرة فمنع منها، وبعث إلى واسط. فاستوزر المعتز أحمد بن أبي إسرائيل، ورجع أخوه أبو أحمد إلى سامرا. وفي آخر المحرم انصرف أبو الساج دبواز بن درموسب إلى بغداد، فقلده ابن طاهر معاون السواد، فبعث معه مؤنة إليها لطرد الأتراك والمغاربة عنها، وسار هو إلى الكوفة. ثم كتب المعتز إلى ابن طاهر بإسقاط بغا ووصيف ومن معهما من الدواوين، وكان محمد أبو عون من قواد ابن طاهر قد تكفل لأبي إسحق بقتلهما، وعقد له المعتز على اليمامة والبحرين والبصرة. ونمي الخبر إليهما بذلك فركبا إلى ابن طاهر وأخبراه الخبر وأن القوم قد نقضوا العهد. ثم بعث وصيف أخته سعاد إلى المؤيد، وكان في حجرها فاستوهبت له الرضا من المعتز، وكذا فعل أبو أحمد مع بغا، وكتب لهم المعتز جميعاً بالرضا. ثم رغب الأتراك في إحضارهما بسامرا، فكتب بذلك ودس إلى ابن طاهر بمنعهما فخرجا فيمن معهما ولم يقدر ابن طاهر على منعهما. وحضرا بسامرا فعقد إليهما المعتز على أعمالهما، ورد البريد إلى موسى بن بغا الكبير. ثم كانت فتنة بين جند بغداد وابن طاهر في شهر رمضان، جاؤا إليه يطلبون أرزاقهم قال: كتبت إلى أمير المؤمنين في ذلك فكتب إلي إن كنت تريد لجند لنفسك فأعطهم، وإن كان لنا فلا حاجة لنا فيهم. فشغبوا ففرق فيهم ألفي دينار فسكنوا. ثم اجتمعوا ثانية ومعهم الأعلام الطبول، وضربوا الخيام بباب الشماسية وبنوا البيوت من أ الأعواد والقصب. وجمع محمد بن إبراهيم أصحابه

وشحن داره بالرجال، وأرادوا يوم الجمعة أن يمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فقعد واعتذر بالمرض، فخرجوا إلى الجسر ليقطعوه فقاتلهم أصحاب ابن طاهر ودفعوهم عنه. ثم دفعوا أصحاب ابن طاهر بإعانة! أهل الجانب الشرقي، وجاء العامة فجلس الشرطة فأمر ابن طاهر بإحراق الحوانيت إلى باب الجسر، ومات أصحاب تعبية الحرب وجاء من دله على عورة الجند، فسرح الشاه

ابن ميكال وعرض القواد فسار إلى ناحيتهم، وافترقوا وقتل بينهم ابن الخليل .

وحمل رئيسهم الآخر ابن القاسم عبدون بن الموفق إلى ابن طاهر ومات في خلال ذلك. وأخرج المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد، وذلك أن العلاء بن أحمد عامل أرمينية بعث إلى المؤيد بخمسة آلاف دينار، فأخذها عيسى بن فرخانشاه، فأغرى المؤيد بعيسى الأتراك والمغاربة، فبعث المعتز إلى المؤيد وأبي أحمد فحبسهما وقيد المؤيد، فأخذ خطه بخلع نفسه. ثم نمي إليه أن الأتراك يرومون إخراجه من الحبس، فسأل عن ذلك موسى بن بغا فأنكر علم ذلك، وأخرج المؤيد من الغد ميتاً ودفنته أمه، فيقال غطى على أنفه فمات، وقيل أقعد في الثلج ووضع على رأسه. ثم نقل أخوه ابن أحمد إلى مجلسه. ثم اعتزم المعتز على قتل المستعين، فكتب إلى محمد بن عَبْد الله بن طاهر أن يسلمه إلى سيما الخادم، وكتب محمد في ذلك إلى الموكلين به بواسط، يقال بل أرسل بذلك أحمد بن طولون، فسار به في القاطون وسلمه إلى سعيد بن صالح، فضربه سعيد حتى مات، وقيل ألقاه في دجلة بحجرٍ في رجله، وكانت معه دابته فقتلت معه وحمل رأسه إلى المعتز فأمر بدفنه، وأمر لسعيد بخمسين ألف درهم وولاه معونة البصرة. ثم وقعت فتنة بين الأتراك والمغاربة مستهل رجب، بسبب أن الأتراك وثبوا بعيسى بن فرخانشاه فضربوه وأخذوا دابته لّما أمرهم المؤيد، فامتعضت المغاربة له ونكروا على الأتراك وغلبوهم على الجوسق، وأخذوا دوابهم وركبوها وملكوا بيت المال. واستجاش الأتراك بمن كان منهم في الكرخ والدور، وانضم الغوغاء والشاكرية إلى المغاربة، فضعفت الأتراك عن لقائهم وسعى بينهم جعفر بن عَبْد الواحد في الصلح، فتوادعوا أياماً. ثم اجتمع الأتراك على حين افتراق المغاربة، فقصد محمد بن راشد ونصر بن سعيد منزل محمد بن عون يختفيان عنده حتى تسكن الهيعة، فدس للاتراك بخبرهما وجاؤا فقتلوهما في منزله وبلغ ذلك المعتز فهم بقتل ابن عون ثم نفاه.

أخبار مساور الخارجي:

كان الوالي على الموصل عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن هانيء الخزاعي وكان صاحب الشرطة بالحديثة من أعمالها حسين بن بكير، وكان مساور

ابن عَبْد الله بن مساور البجلي من الخوارج يسكن بالبواريخ. وحبس صاحب الشرطة حسين بن بكير بالحديثة ابناً للمساور هذا يسمى جوثرة وكان جميلاً، فكتب إلى أبيه مساور بأن حسين بن بكير نال منه الفاحشة، فغضب لذلك وخرج فقصد الحديثة، فاختفى حسين وأخرج ابنه من الحبس. ثم كثر جمعه من الأكراد والأعراب، وقصد الموصل فقاتلها أياماً، ثم رجع فكان تحت طريق خراسان، وكانت لنظر بندأر ومظفر بن مشبك فسار إليه بندأر في ثلثمائة مقاتل، والخوارج مع مساور في سبعمائة فهزموه وقتلوه،ولم ينج

منهم إلا نحو خمسين رجلاً، وفر مظفر إلى بغداد. وجاء الخوارج إلى جلولاء، وكانت فيهم حرب هلك فيها من الجانبين خلق. ثم سار خطرمش في العساكر فلقيهم بجلولاء، وهزمه مساور. ثم استولى مساور على أكثر أعمال الموصل، ثم ولي الموصل أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي سنة أربع وخمسين، فاستخلف عليها ابنه الحسن، فجمع عسكراً كان فيهم حمدون بن الحرث بن لقمان جد الأمراء من بني حمدان، ومحمد بن عَبْد الله بن السيد بن أنس، وسار إلى مساور وعبر إليه نهر الزاب، فتأخر عن موضعه. وسار الحسن في طلبه فالتقوا واقتتلوا وانهزم عسكر الموصل، وقتل محمد بن السيد الأزدي، ونجا الحسن بن أيوب إلى أعمال إربل. ثم كانت الفتنة سنة خمس وخمسين خلع المعتز وبويع للمهتدي، وولي على الموصل عَبْد الله بن سليمان. فزحف إليه مساور، وخام عَبْد الله عن لقائه، فملك مساور البلد، وأقام بها جمعة وصلى وخطب، ثم خرج منها إلى الحديثة وكانت دار هجرته. ثم انتقض عليه سنة ست وخمسين رجل من الخوارج اسمه عبيدة بن زهير العمر بسبب الخلاف في توبة الخاطىء. وقال عبيدة لا تقبل واجتمع معه جماعة، وخرج إليهم مساور من الحديثة واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم قتل عبيدة وانهزم أصحابه. وخرج إليه آخر من بني زهر اسمه طوق، فجمع له الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعاً كثيراً وحاربه فقاتله سنة خمس أو سبع، واستولى مساور على أكثر العراق ومنع الأموال، فسار إليه موسى بن بغا بابكيال في العساكر فانتهوا إلى [*]

وبلغهم خبر الأتراك مع المهتدي فأقاموا ثم زحفوا بخلع المهدي، فلما ولي المعتمد سير مفلحاً إلى، قتال مساور في عسكر كبير، وخرج مساور عن الحديثة إلى جبلين حذاءها وقاتله مفلح في اتباعه، ولحق الجبل فاعتصم به وأقام مفلح في حصاره، فكانت بينهما وقعات، وكثرت الجراحة في أصحاب مساور من لدن. حربه مع عبيدة إلى هذه الحروب فسار عن الجبل وتركه وأصبح مفلح وقد فقدهم فسار إلى الموصل ثم إلى ديار ربيعة وسنجار ونصيبين والخابور، فأصلح أمورها وخرج من الموصل إلى الحديثة ففارقها عنه، فرجع مساور في اتباعهم يتخطف من أعقابهم ويقاتلهم حتى وصل الحديثة، فأقام بها أياماً، ثم سار إلى بغداد في رمضان سنة ست وخمسين، فرجع مساور إلى الحديثة واستولى على البلاد واشتدت شوكته، ثم أوقع به مسرور البلخي سنة ثمان وخمسين، وجهز العسكر بالحديثة مع جعلان من قواد الترك. ثم قتل سنة إحدى وستين يحيى بن جعفر من ولاة خراسان، وسار مسرور في طلبه وتبعه الموفق فلم يدركاه.

مقتل وصيف ثم بغا:

وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز اجتمع الجند من الأتراك والفراغنة والأشروسية فطلبوا أرزاقهم منهم لأربعة أشهر وشغبوا، فخرج إليهم بغا ورصيف وسيما الطويل، وكلمهم وصيف واعتذر بعدم المال وقال: خذوا الزاب في أرزاقكم. ونزلوا بدار أشناس يتناظرون في ذلك، ومضى بغا وسيما إلى المعتز يسألانه في أمرهم، وبقي وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فقتله وقطعوا رأسه ونصبوه. ثم انقادوا وأهدر لهم ذلك، وجعل المعتز لبغا الشرابي ما كان لوصيف، وألبسه التاج والوشاحين، ثم تغير له المعتز لّما عليه من الاستبداد على الدولة، وخشي غائلته ومال باطناً إلى بابكيال وداخله فى أمره واعتده لذلك. ثم زوج بغا إبنته آمنة من صالح

بن وصيف وشغل بجهازها، فركب المعتز في تلك الغفلة ومعه حمدان بن إسرائيل إلى بابكيال في كرخ سامرا، وكانت بينه وبين بغا وحشة شديدة، وبلغ ذلك بغا فركب في خمسمائة من غلمانه وولده وقواده، وكان أكثرهم منحرفين عنه ولحق بالسن، وأقام المعتز على وجل لا ينام إلا بسلاحه. ثم تعلل أصحاب بغا عليه فأعرض عنهم وركب البحر راجعاً إلى بغداد، وجاء الجسر ليلاً لئلا يفطن به الموكلون هنالك، وبعثوا إلى المعتز

بخبره، فأمر بقتله وحمل إليه رأسه، ونصب بسامرا وأحرقت المغاربة شلوه، وكان قصد دار صالح بن وصيف ليثبوا على المعتز.

ابتداء دولة الصفار

كان يعقوب بن الليث بن عمرو الصفار بسجستان، وكان صالح بن النضر الكناني

من أهل البيت قد ظهر بتلك الناحية وقام يقاتل الخوارج، وسمى أصحابه المتطوعة، حتى قيل له صالح المطوعي، وصحبه جماعة منهم درهم بن الحسن ويعقوب بن الليث هذا وغلبوا على سجستان، ثم أخرجهم عنها طاهر بن عَبْد الله أمير خراسان. وهلك صالح إثر ذلك، وقام بأمر المتطوعة درهم بن الحسن فكثر أتباعه. وكان يعقوب بن الليث شهماً وكان درهم مضعفاً، واحتال صاحب خراسان حتى ظفر به وحبس ببغداد، فاجتمعت المتطوعة على يعقوب بن الليث، وقام بقتال السراة وأتيح له الظفر عليهم وأثخن فيهم وخرب قراهم، وكانت له شرية في أصحابه لم تكن لأحد قبله، فحسنت طاعتهم له وعظم أمره وملك سجستان مظهراً طاعة الخليفة وكاتبه وقلده حرب السراة، فأحسن الغناء فيه وتجاوزه إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم سار من سجستان إلى نواحي خراسان وعليها يومئذ محمد بن عَبْد الله بن طاهر، وعلى هراة من قبله محمد بن أوس الأنباري، فجمع لمحاربة يعقوب وسار إليهم في التعبية، فاقتتلوا وانهزم ابن أوس وملك يعقوب هراة وبوشنج، وعظم أمره وهابه صاحب خراسان وغيرها من الأطراف- وكان المعتز قد كتب بولاية سجستان، فكتب له الآن بولاية كرمان، وكان على فارس علي بن الحسين بن شبل، وأبطأ عامل الخراج. واعتذر، فكتب له المعتز بولاية كرمان يريد إعداء كل منهما بصاحبه لأن طاعتهما مهوضة، فأرسل عليّ

ابن الحسين بفارس طوق بن الغلس خليفة على كرمان، وسار يعقوب الصفار من سجستان فسبقه طوق واستولى عليها، وأقام يعقوب بمكانه قريباً منها يترقب خروج طوق إليه. وبعد شهرين ارتحل إلى سجستان فوضع طوق أوزار الحرب وأقبل على اللهو، واتصل ذلك بيعقوب في طريقه، فكر راجعاً وأغذ السير فصادفه بعد يومين، وركب أصحابه وقد أحيط بهم ففروا ناجين بأنفسهم، وملك يعقوب كرمان وحبس طوق. وبلغ الخبر إلى عليّ بن الحسين وهو على شيراز، فجمع جيشه ونزل على مضيق شيراز وأقبل عليه يعقوب حتى نزل قبالته، والمضيق متوعر بين جبل ونهر ضيق المسلك بينهما، فاقتحم يعقوب النهر بينهما وأجاز إلى علي بن الحسين وأصحابه فانهزموا، وأخذ عليّ أسيراً، واستولى على جميع عسكره، ودخل شيراز وملكها وجبى الخراج ورجع إلى سجستان وذلك سنة خمس وخمسين. ويقال بل وقع بينهما بعد عبور النهر حرب شديدة انهزم

آخرها علّي، وكان عسكره نحواً من خمسة عشر ألفاً من الموالي والأكراد، ورجعوا منهزمين إلى شيراز آخر يومهم وازدحموا في الأبواب، وافترقوا في نواحي فارس وانتهوا إلى الأهواز وبلغ القتلى منهم خمسة آلاف، ولما دخل يعقوب وملك فارس امتحن عليًّا وأخذ منه ألف بردة، ومن الفرش والسلاح والآلة ما لا يحد، وكتب إلى الخليفة بطاعته وأهدى هدية جليلة يقال منها عشر بازات بيض وباز أبلق صيني ومائة نافجة من المسك وغير ذلك من الطرف ورجع إلى سجستان، ثم استعاد الخليفة بعد ذلك فارس وبعث عماله إليها.

ابتداء دولة ابن طولون بمصر:

كان بابكيال من أكابر قواد الأتراك مع بغا ووصيف وسيما الطويل، ولما حدثت هذه الفتن وتغلبوا على الخلفاء أخذوا الأعمال والنواحي في اقطاعهم، فأقطع المعتز بابكيال هذا أعمال مصر وبها يومئذ ابن مدبر، وكان بابكيال مقيماً بالحفيدة فنظر فيمن يستخلفه عليها، وكان أحمد بن طولون من أبناء الأتراك وأبوه من سبي فرغانة وربّي في دار الخلفاء، ونشأ ابنه أحمد بها على طريقة مستقيمة لبابكيال خاله، وأشير عليه بتوليته فبعثه على مصر فاستولى عليها أوّلاً دون أعمالها والإسكندرية. ثم قتل المعتز بابكيال وصارت مصر في إقطاع بارجوع الترك، وكان بينه وبين أحمد بن طولون

مودّة متأكدة، فكتب إليه واستخلفه على مصر جميعها، ورسخت قدمه فيها وأصارها تراثاً لبنيه فكانت لهم فيها الدولة المعروفة.

استقدام سليمان بن طاهر لولاية بغداد:

قد تقدّم لنا أن محمد بن عَبْد الله بن طاهر بن الحسين كان على العراق والسواد، وكانت لهم الشرطة وغيرها، وكان مقيماً ببغداد، وكان في المدافعة عن المستعين لّما لجأ اليه. ثم صلح ما بينه وبين المعتز، واستقل المعتز بالخلافة والآثار المذكورة. ثم هلك آخر سنة ثلاث وثمانين أيام المعتز وفوض ما كان بيده من الولاية إلى أخيه عَبْيد الله، نازعه ابنه طاهر في الصلاة عليه ومالت العامّة مع أصحاب طاهر، والقواد مع عبيد الله لوصية أخيه. ثم أمضى المعتز عهد أخيه وخلع عليه، وبذل لصاحب الخلع خمسين ألف درهم. ثم بعث المعتز عن سليمان بن عَبْد الله بن طاهر من خراسان، وولاه على العراق والشرطة وغيرها مكان أخيه محمد، وعزل أخاهما عبيد الله. فلما علم عبيد الله تقدم سليمان أخذ ما في بيت المال وانتقل إلى غربيّ دجلة، وجاء سليمان وقائده محمد ابن أوس ومعه جند من خراسان، فأساؤا السيرة في أهل بغداد فحنق الناس عليهم وأعطى أرزاقهم مما بقي في بيت المال، وقدمهم على جند بغداد وشاكريّها، فاتفق الجند على الثورة وفتقوا السجون، وعبر ابن أوس إلى الجزيرة واتبعه الجند والعامّة، فحاربهم وانهزم وأخرجوه من باب الشماسية، ونهب من منزله قيمة ألفي ألف درهم، ومن الأمتعة ما لا يحصر ونهب منازل جنده. ورأى سليمان أن يسكن الثائرة فأمره بالخروج إلى خراسان، ثم كانت الفتنة في خلع المعتز وولاية المهدي كما يذكر، وبعث المهتدي سلخ رجب من سنة خمس وخمسين إلى سليمان ليأخذ البيعة له ببغداد، وكان أبو أحمد بن المتوكل ببغداد قد بعثه إليها المعتز، فنقله سليمان إلى داره ووثب الجند والعامة لذلك واجتمعوا بباب سليمان، وقاتلهم أصحابه ملياً، ثم انصرفوا وخطب من الغد للمعتز

فسكنوا ثم ساروا ودعوا إلى بيعة أبي أحمد، وطلبوا رؤيته فأظهره لهم ووعدهم بما طلبوا، فافترقوا ووكل بحفظ أبي أحمد ثم بايع للمهتدي في شعبان من تلك السنة.

خبر كرخ أصبهان وأبي دلف:

قد تقدّم لنا شان أبي دُلف أيام المأمون وأنه كان مقيماً بكرخه، وأن المأمون عفا له عما وقع منه في القعود عن نصره، وأقام بتلك الناحية وهلك، فقام ابنه عَبْد العزيز مكانه. ولما كانت أيام الفتنة تمسك بطاعة المستعين، وولّى وصيف على الجبل وأصبهان، فكتب إلى عَبْد العزيز باستخلافه عليها وبعث عليه بالخلع، وعقد المعتز لموسى بن بغا الكبير في شهر رجب من سنة ثلاث وخمسين على الجبل وأصبهان، فسار لذلك وفي مقدمته مفلح، فلقيه عَبْد العزيز بن أبي دلف في عشرين ألفا خارج همذان، فتحاربا وانهزم عَبْد العزيز وقتل أصحابه. وسار مفلح إلى الكرخ، فخرج إليه عَبْد العزيز وقاتله ثانية، فانهزم واستولى مفلح على الكرخ. ومضى عَبْد العزيز إلى قلعة نهاوند، فتحصن بها وأخذ مفلح أهله وأمّه. ثم عقد له وصيف سنة اثنين وخمسين على أعمال الجبل، ثم عقد لموسى بن بغا، فسار وفي مقدمته مفلح، فقاتله عَبْد العزيز فانهزم وملك مفلح الكرخ وأخذ ماله وعياله. ثم ملك عَبْد العزيز وقام مكانه ابنه دلف، وقاتله القاسم بن صبهاه من أهالي أصبهان. ثم قتل القاسم أصحاب أبي دلف وولّوا أخاه أحمد بن عَبْد العزيز سنة خمس وستين. وولاه عمر الصفار من قبله على أصبهان عندما ولاه عليها المعتمد سنة ست وستين، وحاربه كغليغ التركي سنة تسع وستين، فغلبه أحمد وأخرجه إلى الصميرة، وبعث إليه عمر سنة ثمان وستين في المال فبعث إليه. ثم سار الموفق سنة ست وسبعين يريد أحمد بأصبهان، فشاغله أحمد عن البلد وترك داره بفرشها لنزول الموفق. ثم مات أ حمد سنة ثمانين وولى أخوه عمر وأخوه بكير يرادفه، وقاتلا رافع بن الليث بأمر المعتضد فهزمهما كما يأتي ذكره. ثم قلد المعتضد أصبهان ونهاوند والكرخ عمر بن عَبْد العزيز سنة إحدى وثمانين ثم راجعا الطاعة.

خلع المعتز وموته وبيعة المهتدي:

كان صالح بن وصيف بن بغا متغلباً على المعتز وكان كاتبه أحمد بن إسرائيل، وكانت أمّه قبيحة ووزيرها الحسن بن مخلد. وكان أبو نوح عيسى بن إبراهيم من كبار الكتّاب وجباة الأموال. وطلب الأتراك أرزاقهم وشغبوا، فقال صالح للمعتز: هذه الأموال قد ذهب بها الكتّاب والوزراء، وليس في بيت المال شيء، فردّ عليه أحمد بن إسرائيل وأفحش في ردّه، وتفاوضا في الكلام فسقط صالح مغشياً عليه، وتبادر أصحابه بالباب فدخلوا منتضين سيوفهم فدخل إلى قصره، فأمر صالح بالوزراء الثلاثة فقيّدوا، وشفع المعتز في أمر وزيره فلم تقبل شفاعته، وصادرهم على مال جليل حملوه فلم يسدّ شيئاً، فلما فعلوا بالكتاب ما فعلوا من المصادرة اتّهم الجند أنهم حملوا على مال ولم يكن ذلك، فشفعوا في طلب أرزاقهم وضمنوا للمعتز قتل صالح بن وصيف على خمسين ألفاً يبذلها لهم. وسألها من أمّه فاعتذرت فاتفقت كلمتهم على خلعه. ودخل إليه صالح بن وصيف ومحمد بن بغا المعروف بأبي نصر وبابكيال وطلبوه في الخروج إليهم، فاعذر لهم وأذن لبعضهم في الدخول فدخلوا، وجرّوه إلى الباب وضربوه وأقاموه في الشمس في صحن الدار، وكلما مرّ به أحد منهم لطمه. ثم

أحضروا القاضي ابن أبي الشوارب في جماعة فاشهدهم على خلعه، وعلى صالح بن وصيف بأمانه وأمان أمّه وأخته وولده. وفرت أمه قبيحة من سرب كانت اتخذته بالدار، ثم عذبوا المعتز ثم جعلوه في سرب وطمّوا عليه، وأشهد وا على موته بني هاشم والقواد، وذلك آخر رجب من سنة خمس وخمسين، وبايعوا لمحمد ابن عمه الواثق، ولقبّوه المهتدي بالله عندما خلع المعتز نفسه وأقر بالعجز والرغبة في تسليمها إلى المهتدي بايعه الخاصة والعامة. وكانت قبيحة أم المعتز لّما فعل صالح بالكتاب ما فعل قد [*] ، نفراً منهم على الفتك بصالح، ونمي ذلك إليه، فجمع الأتراك على الثوران، وأيقنت قبيحة بالهلاك فأودعت ما في الخزائن من الأموال والجواهر، وحفرت سرباً في حجرتها هربت منه لّما احيط بالمعتز، ولما قتل خشيت على نفسها فبعثت إلى صالح تستأمنه فأحضرها في رمضان وظفر منها بخمسمائة ألف دينار، وعذبها على خزائن تحت الارض فيها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ومقدار مكوك من الزبرجد لم ير مثله، ومقدار مكوك آخر من اللؤلؤ العظيم وجراب من الياقوت الأحمر القليل النظير، وذمها الناس بأنها عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار ومعها هذا المال، ثم سارت إلى مكة فأقامت هنالك، وقبض صالح على أحمد بن إسرائيل وزيد بن المعتز وعذبه وصادره. ثم قبض على

أبي نوح وفعل به مثله وقبض على الحسن بن مخلد كذلك و لم يمت. وبلغ المهتدي ذلك فنكره وقال: كان الحبس كافياً في العقوبة. ولأول ولاية المهدي أخرج القيمان والمغنين من سامرا ونفاهم عنها، وأمر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطرد الكلاب ورد المظالم وجلس للعامة، وكانت الفتن قائمة، والدولة مضطربة، فشمر لإصلاحها لو امهل واستوزر سليمان بن وهب وغلب على أمره صالح بن وصيف وقام بالدولة.

مسير موسى بن بغا إلي سامرا ومقتل صالح بن وصيف:

كان موسى بن بغا غائبا بنواحي الري وأصبهان منذ ولاية المعتز عليها سنة ثلاث وخمسين، ومعه مفلح غلام أبي الساج، وكانت قبيحة أم المعتز لّما رأت اضطراب أموره كتبت إلى موسى قبل أن يفوت في المعتز أمره، فجاءه كتابها، وقد بعث مفلحاً لحرب الحسن بن زيد العلوي فحربه بطبرستان فغلبه، وأحرق قصوره بآمد وخرج في اتباعه إلى الديلم، فكتب إلى موسى بالرجوع لمداهمة من شاء وبينما هو في استقدامه وانتظاره قتل المعتز وبويع المهتدي، وبلغ أصحابه ما حواه صالح من أموال المعتز وكتابه وأمه، فشرهوا إلى مثل ذلك، وأغروا موسى بالمسير إلى سامرا، ورجع مفلح من بلاد الديلم إليه وهو بالري، فسار نحو سامرا، وسمع المهتدي بذلك فكتب إليه بالمقام يحذره على ما وراءه من العلويين فلم يصغ لذلك، وأفحش أصحابه في إساءة الرسل الواصلين بالكتب. فكتب بالاعتذار واحتج بما عاينه الرسل وأنه يخشى أن يفتله أصحابه أن عادوا إلى الرى وصالح بن وصيف في خلال ذلك يغري به المهتدي وينسبه إلى المعصية والخلاف، إلى أن قدم في المحرم سنة ست وخمسين ودخل في التبعية، فاختفى صالح بن وصيف، ومضى موسى إلى الجوسق والمهتدي جالس للمظالم. فأعرض له عن الإذن ساعة ارتاب فيها هو وأصحابه، وظنوا أنه ينتظر تدوم صالح بالعساكر. ثم أذن

لهم فدخلوا وقبضوا على المهتدي وأودعوه دار باجورة، وانتهبوا ما كان في الجوسق. واستغاث المهتدي بموسى فعطف عليه ثم

أخذ عليه العهود والأيمان أن لا يوالي صالحا، وأن باطنه وظاهره في موالاتهم سواء فجددوا له البيعة واستبد موسى بالأمر، وبعث إلى صالح للمطالبة بما احتجبه من الأموال فلم يوقف له على أثر، وأخذوا في البحث عنه. وفي آخر المحرم أحضر المهتدي كتابا رفعه إليه سيما الشرابي زعم أن امرأة دفعته إليه وغابت فلم يرها، وحضر القواد وقرأه سليمان بن وهب عليهم وهو بخط صالح بذكر ما صار إليه من الأموال، وأنه إنما استتر خشية على نفسه وحسما للفتنة وإبقاء على الموالي. ولما قرأ الكتاب حثهم المهتدي على الصلح والاتفاق، فاتهمه الأتراك بالميل الى صالح وأنه مطلع على مكانه، وطال الكلام بينهم بذلك. ثم اجتمعوا من الغد بدار موسى بن بغا داخل الجوسق واتفقوا على خلع المهتدي، إلا أخا بابكيال فإنه أبى من ذلك وتهدّدهم بأنه مفارقهم إلى خراسان، واتصل الخبر بالمهتدي فاستدعاه إليه، وقد نظف ثيابه وتطيب وتقلد سيفه فأرعد وأبرق، تهددهم بالاستماتة،ثم حلف لا يعلم مكان صالح، وقال لمحمد بن بغا وبابكيال قد حضرتما مع صالح في أمر المعتز وأموال الكتّاب وأنتم شركاؤه في ذلك كلّه. وانتشر الخبر في العامة بأنهم أرهقوه وأرادوا خلعه، فطفقوا يحاذرون على الدعاء في المساجد والطرقات ويبغون على القوّاد بغيهم على الخليفة، ويرمون الرقاع بذلك في الطرقات. ثم إن الموالي بالكرخ والدور دسوا إلى المهتدي أن يبعثوا إليه أخاه أبا القاسم عَبْد الله بعد أن ركبوا وتحركوا، فقالوا لأبي القاسم: بلغنا ما عليه موسى وبابكيال وأصحابهما ونحن شيعة للخليفة فيما يريده، وشكوا مع ذلك تأخر أرزاقهم وما صاروا من الاقطاع والزيادات إلى قوادهم وما أخذه النساء والدخلاء حتى أصحب ذلك كله بالخراج والضياع، وكتبوا بذلك إلى المهتدي. فأجابهم بالثناء على التشيع له والطاعة، والوعد الجميل في الرزق، والنظر الجميل في شأن الاقطاعات للقواد والنساء، فأفاضوا في الدعاء وأجمعوا على منع الخليفة من الحجر والاستبداد عليه، وأن ترجع الرسوم على عادتها أيام المستعين على كل عشرة عريف، وعلى كل خمسين خليفة، وعلى كل مائة قائد، وأن تسقط النساء والزيادة في الاقطاع، ويوضع العطاء في كل شهرين، وكتبوا بذلك إلى المهتدي وأنهم صائرون إلى بابه ليقضي حوائجهم، وإن أحد اعترض عليه أخذوا رأسه وإن تعرض له أحد قتلوا موسى بن بغا وبابكيال وماجور. فجاء أبو القاسم بالكتاب وقد قعد المهتدي للمظالم وعنده الفقهاء. والقضاة والقواد قائمون في مراتبهم، فقرأ كتابهم على

القوّاد فاضطربوا وكتب جوابهم بما سألوا، وطلب أبو القاسم من القواد أن يبعثوا معه رسولاً بالعذر عنهم ففعلوا، ومضى أبو القاسم إليهم بكتاب الكتّاب وبرسل القوّاد وأعذارهم. فكتبوا إلى المهتدي يطلبون التوقيعات بحط الزيادات ورد الإقطاعات وإخراج الموالي البرانيين من الخاصة، وردّ الرسوم إلى عاداتها أيام المستعين، ومحاسبة موسى بن بغا وصالح بن وصيف على ما عندهم من الأموال ووضع العطاء على كل شهرين وصرف النظر في الجيش إلى بعض أخوته أو قرابته وإخراجه من الموالي، وكتبوا بذلك إلى المهتدي والقواد فأجابهم إلى جميع ما سألوه. وكتب إليهم موسى بن بغا بالإجابة في شأن صالح والإذن في ظهوره

فقرؤا الكتابين وعدوا بالجواب، فركب إليهم أبو القاسم واتبعه موسى في ألف وخمسمائة فوقف في طريقهم، وجاءهم أبو القاسم فاضطربوا في الجواب ولم يتفقوا فرجع ورد موسى بن بغا فأمرهم المهتدي بالرجوع وأن يتقدم إليهم محمد بن بغا مع أبي القاسم، ويدفعوا إليهم كتاب الأمان لصالح بن وصيف، وقد كان من طلبتهم أن يكون موسى في مرتبة أبيه وصالح كذلك والجيش في يده، وأن يظهر على الأمان فأجيبوا إلى ذلك. وافترق الناس إلى الكرخ والدور وسامرا، فلما كان من الغد ركب بنو وصيف في جماعة ولبسوا السلاح فنهبوا دواب العامة وعسكروا بسامرا وتعلقوا بأبي القاسم يطلبون صالحاً، فأنكر المهتدي أن يكون علم بمكانه، وقال: إن كان عندهم فليظهروه. ثم ركب ابن بغا في القواد ومعه أربعة آلاف فارس وعسكر، وافترق الأتراك ولم يظهر للكرخيين ولا لأهل الدور وسامرا في هذا اليوم حركة. وجدّ موسى في طلب صالح ونادى عليه وعثر عليه بعض الغوغاء فجاء به إلى الجوسق والعامة في اتباعه فضربه بعض أصحاب مفلح فقتله، وطيف برأ سه على قناة وخرج موسى بن بغا لقتال السراة بناحية السنّ.

الصوائف

منذ ولاية المنتصر إلى آخر أيام المهتدي

في سنة ثمان وأربعين أيام المستعين خرج بناحية الموصل محمد بن عمر الشرابي وحكم، فسرح المنتصر إسحق بن ثابت الفرغاني فأسره في عدة من أصحابه وقتلوا وصلبوا. وفي هذه السنة غزا بالصائفة وصيف وأمره المنتصر بالمقام بملطية أربع سنين يغزو في أوقات الغزو إلى أن يأتيه رأيه،وكان مقيماً بالثغر الشامي فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قدورية. وفي سنة تسع وأربعين غزا بالصائفة جعفر بن دينار، فافتتح مطامير واستأذنه عمر بن عَبْد الله الأقطع في الدخول إلى بلاد الروم فأذن له، فدخل في جموع من أهل ملطية، ولقي ملك الروم بمرج الأسقف في خمسين ألفاً فأحاطوا به، وقيل في الفين من المسلمين، وخرج الروم إلى الثغور الخزرية فاستباحوها، وبلغ ذلك عليّ بن يحيى الأرمني وقد كان صرف عن الثغور الشامية وعقد له على أرمينية وأذربيجان. فلما سمع بخبرهم نفر إليهم وقاتلهم فانهزم وقتل في أربعمائة من المسلمين، وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر.

الولاة:

لّما ولى المنتصر استوزر أحمد بن الخصيب، وولّى على المظالم أبا عمر أحمد بن سعيد مولى بني هاشم. ثم ولّي المستعين ومات طاهر بن عَبْد الله بخراسان، فولّى المستعين مكانه ابنه محمداً وولّى محمد بن عَبْد الله على العراق وجعل إليه الحرمين والشرطة ومعادن السواد، واستخلف أخاه سليمان بن عَبْد الله على طبرستان. وتوفي بغا الكبير فولّى ابنه موسى على أعماله، وضاف إليه ديوان البريد، وشغب أهل حمص على عاملهم وأخرجوه، فبعث عليهم المستعين الفضل بن قارن أخا مازيار فقتل منهم خلقاً وحمل مائة من أعيانهم إلى سامرا. واستوزر المستعين أتامش بعد أن عزل أحمد بن الخصيب، واستصفى بقى إلى أقريطش، وعقد لأتامش على مصر والمغرب، ولبغا الشرابي على حلوان وماسبذان ومهرجا بعده. ثم قتل أتامش فاستوزر المستعين مكانه أبا صالح

عَبْد الله بن محمد بن داود، وعزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج وولاّه عيسى بن فرخانشاه، وولّى وصيفاً على الأهواز وبغا الصغير على فلسطين، ثم غضب بغا على أبي صالح ففرّ إلى بغداد، واستوزر المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجاني، وولّى ديوان الرسائل سعيد بن حميد وعزل جعفر بن عَبْد الواحد عن القضاء ونفاه إلى البصرة، وولّي جعفر بن محمد بن عمار البرجمي، وفي خمسين عقد لجعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى المعروف بساسان على مكة، ووثب أهل حمص على عاملهم الفضل بن قارن فقتلوه فسرح إليهم المستعين موسى بن بغا وحاربوه فهزمهم، وافتتحت حمص وأثخن فيهم وأحرقها. وفيها وثب الشاكرية والجند بفارس بعبد الله بن إسحق فانتهبوا مترله، وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن، وهرب عَبْد الله بن إسحق وفيها كان ظهور العلوية بنواحي طبرستان. وفي سنة إحدى

وخمسين عقد المعتز لبغا ووصيف على أعمالها، وردّ البريد إلى موسى بن بغا الكبير، وعقد محمد بن طاهر لأبي الساج وقدّم بين يديه عَبْد الرحمن كما قلنا، وأظهر أنه إنما جاء لحرب الأعراب وتلطف لأبي أحمد حتى خالطه وقيده وبعث إلى بغداد في سنة إثنتين وخمسين. وولّى المعتز الحسين بن أبي الشوارب على القضاء، وبعث محمد بن عَبْد الله بن طاهر أبا الساج عن طريق مكة وعقد المعتز لعيسى الشيخ بن السليل الشيباني من ولد جساس بن مرة على الرملة فاستولى على فلسطين وعلى دمشق وأعمالها، وقطع ما كان يحمل من الشام. وكان إبرهيم بن المدبر على مصر فبعث إلى بعداد من المال بسبعمائة ألف دينار فاعترضها عيسى وأخذها، وطولب بالمال فقال: الفتنة على الجند ! فولاه المعتمد على أرمينية يقيم بها دعواه. وبث المعتمد إلى الشام ماجور على دمشق وأعمالها، وبلغ الخبر إلى عيسى فبعث ابنه منصوراً في عشرين ألف مقاتل فانهزم وقتل، وسار عيسى إلى أرمينية على طريق الساحل. وفيها عقد وصيف لعبد العزيز بن أبي دلف العجلي على أعمال الجبل. وفي سنة ثلاث وخمسين عقد لموسى بن بغا على الجبل، فسارو في مقدمته مفلح مولى بني الساج، وقاتله عَبْد العزيز بن أبي دلف فانهزم ولجأ إلى قلعة لهادر، وملك مفلح الكرخ وأخذ أهله وعياله، وفيها مات ابن عَبْد الله بن طاهر ببغداد وولّى أخوه عبيد الله بعهده. ثم بعث المعتز عن أخيه سليمان بطبرستان فولاّه مكانه وكان على الموصل سليمان بن عمران الأزدي، وكانت بينه وبين الأزد حروب بنواحي الموصل. وفيها مات مزاحم بن خاقان بمصر. وفيها يعقوب الصفار سجستان وفارس وهراة، وكان ابتداء دولته، وولّى بابكيال أحمد بن طولون على بر مصر من قبله فكان ابتداء دولته. ثم أقطعها المعتمد سنة سبع وخمسين ليارجوج فولى عليها أحمد بن طولون من قبله، وفي سنة خمس وخمسين أيام المهتدي استولى مساور الخارجي على الموصل وفيها ظهر صاحب الزنج وكان ابتداء فتنته.

أخبار أصحاب الزنج وابتداء فتنته:

كان أكثر دعاة العلوية الخارجين بالعراق أيام المعتصم وما بعده أكثرهم من

الزيدية، وكان من أئمتهم علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد الشهير وكان نازلاً بالبصرة، ولما وقع البحث عليه من الخلفاء ظفروا بابن عمّه عليّ بن محمد بن الحسين، فقتل بغدك، ولأيام من قتله خرج رجل

بالريّ يدّعي أنه عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى المطلوب، وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهتدي. ولما ملك البصرة لقي علياً هذا حياً معروف النسب، فرجع عن ذلك وانتسب إلى يحيى قتيل الجوزجان أخي عيسى المذكور. ونسبه المسعودي إلى طاهر بن الحسين، وأظنه الحسين بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسين بن جعفر بن عَبْد الله بن الحسين بن علي، لأن ابن حزم قال في الحسين السبط إنه لا عقب له إلا من عليّ بن الحسين، وقال فيه عليّ بن محمد بن جعفر بن الحسين بن طاهر. وقال الطبري وابن حزم وغيرهم من المحققين أنه من عَبْد القيس، واسمه عليّ بن عَبْد الرحيم من قرية من قرى الري، ورأى كثرة خروج الزيدية فحدثته نفسه بالتوثب فانتحل هذا النسب، ويشهد لذلك أنه كان على رأي الأزارقة من الخوارج، ولا يكون ذلك من أهل البيت. وسياقة خبره أنه كان اتصل بجماعة من حاشية المنتصر ومدحهم. ثم شخص من سامرا إلى البحرين سنة تسع وأربعين أدعى أنه من ولد العباس بن أبي طالب، ثم من ولد الحسين بن عَبْد الله بن العباس، ودعا الناس إلى طاعته فأتبعه كثير من أهل حجر وغيرها، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه وعظمت فتنته، فتحول عنهم إلى الإحساء ونزل على بني الشماس من سعد بن تميم، وصحبه جماعة من البحرين منهم يحيى بن محمد الأزرق وسليمان بن جامع فكانا قائدين له، وقاتل أهل البحرين فانهزم وافترقت العرب عنه واتبعه علي بن أبان وسار إلى البصرة ونزل في بني ضبيعة وعاملها يومئذ محمد بن رجاء، والفتنة فيها بين البلالية والسعدية، وطلبه ابن رجاء فهرب وحبس ابنه وزوجته وجماعة من أصحابه، فسار إلى بغداد وأقام بها حولاً وانتسب إلى محمد بن أبي أحمد بن عيسى كما قلناه، واستمال بها جماعة منهم جعفر بن محمد الصوحاني من ولد زيد بن صوحان، ومسروق ورفيق غلامان ليحيى بن عَبْد الرحمن، وسفي مسروقاً حمزة وكناه أبا أحمد، وسمي رفيقاً جعفراً وكناه أبا الفضل. ثم وثب رؤساء البلالية والسعدية بالبصرة وأخرجوا العامل محمد بن رجاء، فبلغه ذلك وهو ببغداد، وأن أهله خلعوه، فرجع إلى البصرة في رمضان سنة خمس وخمسين ويحيى بن محمد وسليمان بن جامع ومسروق ورفيق، فترل بقصر القرش

ودعا الغلمان من الزنوج ووعدهم بالعتق فاجتمع له منهم خلق وخطبهم ووعدهم بالملك ورغبهم في الإحسان، وحلف لهم وكتب لهم في خرقة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} الآية. واتخذها راية، وجاءه موالي الزنوج في عبيدهم، فأمر كل عَبْد أن يضرب مولاه وحبسهم ثم أطلقهم، ولم يزل هذا رأيه والزنوج في متابعته والدخول في أمره وهو يخطبهم في كل وقت ويرغبهم. ثم عبر دجُيلاً إلى نهر ميمون، فأخرج عند الحميري وملكه وسار إلى الأيلّة وبها ابن أبي عون، فخرج إليه في أربعة آلاف فهزمهم ونال منهم. ثم سار إلى القادسية فنهبها وكثر سلاحهم، وخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله، فبعث إليهم يحيى بن محمد في خمسمائة رجل، فهزمهم وأخذ سلاحهم. ثم طائفة أخرى كذلك وأخرى، وخرج قائدان من البصرة فهزمهما وقتل منهما، وكانت معهما سفن ألقتها الريح إلى الشط فغنموا ما فيها وقتلوا وكثر عيثه وفساده. وجاء أبو هلال من قواده الأتراك في أربعة آلاف مقاتل فلقيه على نهر الريان فهزمه الزنج واستلحموا أكثر أصحابه. ثم خرج أبو منصور أحد موالي الهاشميين في عسكر عظيم من المطوعة البلالية والسعدية فسرح

للقائهم علي بن أبان، فلقي طائفة منهم فهزمهم. ثم أرسل طائفة أخرى إلى مرفأ السفن وفيه نحو من ألفي سفينة، فهرب عنها أهلها ونهبوها ثم جاءه عساكر أبي منصور وقعد الزنوج لهم بين النخل، وعليهم على بن أبي أبان ومحمد بن مسلم فهزموا العسكر وقتلوا منهم وأخذوا سلاحهم. ثم سار فنهب القرى حتى امتلأت أيديهم بالنهب. ثم سار يريد البصرة ولقيته عساكرها فهزمهم الزنج وأثخنوا فيهم. ثم سار من الغد نحو البصرة وخرج إليه أهلها واحتشدوا وزحفوا إليه بًرا وبحراً فلقيهم بالسُد وانهزموا هزيمة شنعاء كثر فيها القتل. ووهن أهل البصرة وكتبوا إلى الخليفة فبعث إليهم جعلان التركي مدداً، وولّى على الأُبُلّة أبا الأحوص الباهلي وأمه بجند من الأتراك. وقد بث صاحب الزنج أصحابه يميناً وشمالاً للغارة والنهب. ولما وصل جعلان إلى البصرة نزل على فرسخ منهم وخندق عليه، وأقام ستة أشهر يسرح لحربهم الزيني مع بني هاشم ومرجف، ثم بيته الزنج فقتلوا جماعة من أصحابه، وتحول عن مكانه، ثم انصرف عن حربهم وظفر صاحب الزنج بعدد من المراكب غنم فيها أموالاً عظيمة، وقتل أهلها وألح بالغارات على الأبلة إلى أن دخلها عنوة آخر رجب سنة ست وخمسين، وقتل عاملها أبا الأحوص عبيد الله بن حميد الطوسي وخلقاً من أهلها واستباحها وأحرقها، وبلغ ذلك أهل عبّادان

فاستأمنوا له وملكها واستولى على ما فيها من الأموال والعبيد والسلاح إلى الأهواز، وبها إبراهيم بن المدبّر على الخراج، فهرب أهلها ودخلها الزنج ونهبوا وأسروا ابن المدّبر، فخاف أهل البصرة وافترق كثير منهم إلى البلدان. وبعث المعتمد سعيد بن صالح الحاجب لحربهم سنة سبع وخمسين، فهزمهم وأخذ ما معهم وأثخن فيهم، وكان ابن المدّبر أسيراً عندهم في بيت يحيى بن محمد البحراني، وقد ضمن لهم مالاً كثيراً ووكل به رجلين قد أخلفهم حتى حفر سرباً من البيت وخرج منه ولحق بأهله.

خلع المهتدي وقتله وبيعة المعتمد:

وفي أول رجب من سنة ست وخمسين شعب الأتراك من الترك والدور بطلب أرزاقهم وبعث المهتدي أخاه أبا القاسم ومعه كفقا وغيره فسكّنوهم وعادوا، وبلغ محمد بن بغا أن المهتدي قال للأتراك إن الأموال عند محمد وموسى ابني بغا، فهرب إلى أخيه بالسند وهو في مقاتلة موسى الشرابي فأمنه المهتدي ورجع ومعه أخوه حنون وكيغلغ، فكتب له المهتدي بالأمان ورجع إلى أصحابه وحبسه وصادره على خمسة عشر ألف دينار، ثم قتله وبعث بابكيال بكتابه إلى موسى بن بغا بأن يتسلم العسكر وأوصاه بمحاربة الشرابي وقتل موسى بن بغا ومفلح، فقرأ الكتاب على موسى وتواطؤا على أن يرجع بابكيال فيتدبر على قتل المهتدي، فرجع ومعه يارجوج وأساتكين وسيما الطويل ودخلوا دار الخلافة منتصف رجب، فحبس بابكيال من بينهم واجتمع أصحابه ومعه الأتراك وشغبوا. وكان عند المهتدي صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور فأشار بقتله ومناجزهم، فركب في المغاربة والأتراك والفراغنة على التعبية. ومشى والبلخي في الميمنة ويارجوج في الميسرة، ووقف هو في القلب ومعه أساتكين وغيره من القواد، وبعث برأس بابكيال إليهم مع عتاب بن عتاب، ولحق الأتراك من ميمنة المهتدي وميسرته بإخوانهم الأتراك، فانهزم الباقون عن المهتدي وولّى منهزماً ينادي بالناس

ولا يجيبه أحد، وسار إلى السجن فأطلق المحبوسين ودخل دار أحمد بن جميل صاحب الشرطة، وافتتحوا عليه وحملوه على بغل إلى الجوسق، وحبس عند أحمد

ابن خاقان، وأرادوه على الخلع فأبى واستمات، فأخرجوا رقعة بخطه لموسى بن بغا وبابكيال وجماعة القواد أنه لا يغدر بهم ولا يقاتلهم ولا يهم بذلك، ومتى فعل شيئا من ذلك فقد جعل أمر الخلافة بأيديهم يولون من شاؤا، فاستحلوا بذلك أمره وقتلوه. وقيل في سبب خلعه غير هذا وهو إن أهل الكرخ والدور من الأتراك طلبوا الدخول على المهتدي ليكلموه فأذ ن لهم، وخرج محمد بن بغا إلى المحمدية، ودخلوا في أربعة آلاف، فطلبوا أن يعزل عنهم قواده ويصادرهم وكتابهم على الأهواز، ويصير الأمر إلى أخوته فوعدهم بالإجابة وأصبحوا من الغد يطلبون الوفاء بما وعدهم به، فاعتذر لهم بالعجز عن ذلك إلا بسياسة ورفق فأبوا إلا المعاجلة فاستخلفهم على القيام معه في ذلك بإيمان البيعة فحلفوا ثم كتبوا إلى محمد بن بغا عن المهتدي وعنهم يعذلونه في غيبته عن مجلسهم مع المهتدي، وأنهم إنما جاؤا بشكوى حالهم ووجدوا الدار خالية، فأقاموا ورجع محمد بن بغا فحبسوه في الأموال وكتبوا إلى موسى بن بغا ومفلح بالقدوم وتسليم العسكر إلى من ذكروه لهم، وبعثوا من يقيدهما إن لم يأتمرا ذلك. ولما قرئت الكتب على موسى وأصحابه امتنعوا لذلك وساروا نحو سامّرا، وخرج المهتدي لقتالهم على التعبية وترددت الرسل بينهم بطلب موسى أن يولّي على ناحية ينصرف إليها، ويطلب أصحاب المهتدي أن يحضر عندهم فيناظرهم على الأموال إلى أن أنفض عنهم أصحابه وسار هو ومفلح على طريق خراسان، ورجع بابكيال وجماعة من القواد إلى المهتدي فقتل بابكيال ثم أنف الأتراك من مساواة الفراغنة والمغاربة لهم وأرادوا طردهم فأبى المهتدي ذلك، فخرج الأتراك عن الدار بأجمعهم طالبين ثأر بابكيال، فركب المهتدي على التعبية في ستة آلاف من الفراغنة والمغاربة ونحو ألف من الأتراك أصحاب صالح بن وصيف، واجتمع الأتراك للحرب في عشرة آلاف، فانهزم المهتدي وكان ما ذكرناه من شأنه. ثم أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل وكان محبوساً بالجوسق، فبايعه الناس، وكتب الأتراك إلى موسى بن بغا وهو غائب فحضر وكملت البيعة لأحمد بن المتوكل ولقب المعتمد على الله، واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فأصبح المهتدي ثاني يوم البيعة ميتاً منتصف رجب من سنة ست وخمسين على رأس سنة من ولايته. ولم يزل ابن خاقان في وزارته إلى أن هلك سنة ثلاث وستين من سقطة بالميدان سال فيها دماغه من منخريه، فاستوزر محمد بن مخلد. ثم سخط عليه موسى بن بغا واختلفا فاستوزر مكانه سليمان بن وهب، ثم عزله وحبسه وولّى الحسن بن مخلد، وغضب الموفق لحبسه ابن وهب وعسكر بالجانب الغربي وترددت الرسل بينهما فاتفقا وأطلقه وذلك سنة أربع وستين.

ظهور العلوية بمصر والكوفة:

وفي سنة ست وخمسين ظهر بمصر إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عَبْد الله بن محمد بن الحنفية، ويعرف بالصومي، يدعو إلى الرضا من آل محمد، وملك أشياء من بلاد الصعيد. وجاءه عسكر أحمد بن طولون من مصر فهزمهم وقتل قائدهم، فجاء جيش آخر فانهزم أمامهم إلى أبوخات وجمع هنالك جموعاً وسار إلى

الأشمومين، فلقيه هنالك أبو عَبْد الرحمن العمري، وهو عَبْد الحميد بن عَبْد العزيز بن عَبْد الله بن عمر كان قد أخذ نفسه بحرب البجاة وغزوا بلادهم لّما كان منهم في غزو بلاد المسلمين، فاشتد أمره في تلك الناحية وكثر أتباعه، وبعث إليه ابن طولون عسكراً فقال لقائده: أنا ألبث هناك لدفع الأذى عن بلاد المسلمين، فشاور أحمد بن طولون فأبى القائد إلا من أجزته فهزمه العمري. ولما سمع ابن طولون خبره أنكر عليهم أن لا يكونوا بذكره، فبقي على حاله من الغارة على البجاة حتى أدوا الجزية. فلما جاء الصولي من الأشمونين لقيه العمري فهزمه وعاد العمري إلى أسوان واشتد عيثه، فبعث إليه ابن طولون العساكر فهرب إلى عيذاب وأجاز البحر إلى مكة وافترق أصحابه، وقبض عليه والي مكة وبعث به إلى ابن طولون فحبسه مدة ثم أطلقه فرجع إلى المدينة ومات بها وفي هذه السنة ظهر علي بن زيد، وجاءه الشاه بن ميكال من قبل المعتمد في جيش كثيف فهزمه وأثخن في أصحابه. فسرح المعتمد إلى حربه كجور التركي فخرج على عن الكوفة إلى القادسية وملك كيجور الكوفة أول شوال، وأقام علي بن زيد ببلاد بني أسد. ثم غزا كيجور آخر ذي الحجة فأوقع به وقتل وأسر من أصحابه ورجع إلى الكوفة، ثم إلى سر من رأى، وبقي علي هنالك إلى أن بعث المعتمد سنة تسع [*]،

عسكراً فقتلوه بعبكر وانقطع أمره، وقيل سار إلى صاحب الزنج فقتله سنة ستين وفي هذه السنة غلب الحسين بن زيد الطالبي على الرى وسار موسى بن بغا إليه.

بقية أخبار الزنج:

قد تقدم لنا أن المعتمد بعث سعيد بن صالح الحاجب لحربهم فأوقع بهم، ثم عاودوه قاوقعوا به وقتلوا من أصحابه وأحرقوا عسكره، ورجع إلى سامرا فعقد المعتمد على حربهم لجعفر بن منصور الخياط فقطع عنهم ميرة السفن. ثم سار إليهم في البحر فهزموه إلى البحرين، ثم بعث الخبيث عليّ بن أبان من قواده إلى إربل لقطع قنطرتها، فلقي إبراهيم بن سيما منصرفاً من فارس، فأوقع بهم إبراهيم وخرج علي بن أبان وسار إبراهيم إلى نهر جي وأمر كاتبه شاهين بن بسطام باتباعه. وجاء الخبر إلى عليّ بن أبان باقبال شاهين فسار ولقيه وهزمه أشد من الأول، وانصرف إلى جي. وكان منصور بن جعفر الخياط منذ انهزم في البحر لم يعد لقتال الزنج واقتصر على حفر الخنادق وإصلاح السفن، فزحف عليّ بن أبان لحصاره بالبصرة وضيق على أهل البلد وأشرف على دخولها وبعث لاحتشاد العرب، فوافاه منهم خلف فدفعهم لقتال أهل البصرة وفرقهم على نواحيها فقاتلهم كذلك يومين، ثم افتتحها علي بن أبان منتصف شوال وأفحش في القتل والتخريب، ورجع ثم عاودهم ثانية وثالثة حتى طلبوا الأمان فأمنهم وأحضرهم في بعض دور الإمارة فقتلهم أجمعين وحرق علي بن أبان الجامع ومواضع من البصرة، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل وعم النهب وأقام كذلك أياماً. ثم نادى بالأمان فلم يظهر أحد، وانتهى الخبر إلى الخبيث فصرف عليّ بن أبان وولّى عليها يحيى بن محمد البحراني.

مسير المولد لحربهم:

لّما دخل الزنج البصرة وخربوها أمر المعتمد محمداً المعروف بالمولد بالمسير إلى البصرة، وسار إلى الأبله ثم نزل البصرة واجتمع إليه أهلها، وأخرج الزنج عنها إلى نهر معقل. ثم بعث الخبيث قائده يحيى بن محمد لحرب المولد فقاتله عشرة أيام،

ووطن المولد نفسه على المقام، وبعث الخبيث إلى يحيى بن محمد أبا الليث الأصبهاني مدداً وأمرهم بتبييت المولد، فبيتوه وقاتلوه تلك الليلة والغد إلى المساء، ثم هزموه وغنم الزنج عسكره واتبعه البحراني إلى الجامدة، وأوقع بأهلها، ونهب تلك القرى أجمع، وعاث فيها ورجع إلى نهر معقل.

مقتل منصور الخياط:

كان الزنج لّما فرغوا من البصرة سار على بن أبان إلى جي، وعلى الأهواز يومئذ منصور بن جعفر الخياط قد ولاه عليها المعتمد بعد مواقعته الزنج بالبحرين، فسار إلى الأهواز ونزل جي وسار علي بن أبان قائد الزنج لحربه. وجاء أبو الليث الأصبهاني في البحر مدداً له، وتقدم إلى منصور من غير أمر علي فظفر منصور وقتل الكثير ممن معه وأفلت منهزماً إلى الخبيث. ثم تواقع علي بن أبان مع منصور فهزمه واتبعه الزنج فحمل عليهم وألقى نفسه في النهر ليعبر إليهم فغرق، وقيل تقدم إليه بعض الزنج لّما رآه فقتله في الماء. ثم قتل أخوه خلف وغيره من العسكر وولّى يارجوج. على عمل منصور اصطيخور من قواد الأتراك.

مسير الموفق لحرب الزنج:

كان أبو أحمد الموفق، وهو أخو المعتمد بمكة، وكان المعتمد قد استقدمه عندما اشتد أمر الزنج وعقد له على الكوفة والحرمين وطريق مكة واليمن، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز، وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد بن صالح. ولما انهزم سعيد بن سعيد بن صالح عقد يارجوج لمنصور بن جعفر مكانه على البصرة وكور دجلة والأهواز ثم قتله كما قلناه. فعقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الموفق على مصر وقنسرين والعواصم وخلع على مفلح، وذلك في ربيع سنة ثمان وخمسين وسيرهما لحرب الزنج فساروا في عدة كاملة. وخرج المعتمد يشيع أخاه، وكان علي بن أبان بجي ويحيى بن محمد البحراني بنهر العباس والخبيث في قلة من الناس وأصحابه مترددون إلى البصرة لنقل ما نهبوه. فلما نزل الموفق نهر معقل أجفل الزنج إلى صاحبهم مرتاعين، فأمر علي بن أبان بالمسير إليهم ولقي مفلحاً في مقدمة الموفق فاقتتلوا، وبينما هم يقتتلون إذ أصاب مفلحاً

سهم غرب فقتل، وانهزم أصحابه وأسر الكثير منهم. ثم رحل الموفق نحو الأبلة ليجمع العساكر، ونزل نهر أبي الأسد ووقع الموتان في عسكره، فرجع إلى بادرود، وأقام لتجهيز الآلة وإزاحة العلل وإصلاح السفن، ثم عاد إلى عسكر الخبيث فالتقوا واشتد الحرب بينهم على نهر أبي الخصيب وقتل جماعة من الزنج ،واستنقذ كثيراً من النساء المسبيات، ورجع إلى عسكره بيادرود فوقع الحريق في عسكره، ورحل إلى واسط، وافترق أصحابه، فرجع إلى سامرا واستخلف على واسط.

مقتل البحراني قائد الزنج:

كان اصطيخور لمّا ولي الأهواز بعد منصور الخياط بلغه مسير يحيى بن محمد قائد الزنج إلى نهر العبّاس عند مسير الموفق إليهم، فخرج إليه اصطيخور فقاتله، وعبر يحيى النهر، وغنم سفن الميرة التي كانت عند أصطيخور، وبعث طلائعه إلى دجلة فلقوا جيش الموفق فرجعوا هاربين، وطلائع الموفق في اتباعهم، وعبروا النهر منهزمين. وبقي يحيى فقاتل وانهزم، ودخل في بعض السفن جريحاً وغنم طلائع الموفق غنائمهم والسفن، وأحرقوا بعضها وعبروا الماخورة على يحيى فأنزلوه من سفنهم خشية على أنفسهم، فسعى به طبيب كان يداوي جراحه، وقبض عليه وحمل إلى سامرا وقطع، ثم قتل، ثم أنفذ الخبيث علي بن أبان وسليمان بن موسى الشعراني من قواده إلى الأهواز، وضم إليهما الجيش الذي كان مع يحيى ومحمد البحراني، وذلك سنة تسع وخمسين فلقيهما اصطيخور بدستميسان وانهزم أمامهما وغرق، وهلك من أصحابه خلق وأسر الحسن بن هزيمة والحسن بن جعفر وغيرهما وحبسوا، ودخل الزنج الأهواز فأقاموا يفسدون في نواحيها ويغنمون إلى أن قدم موسى بن بغا،

مسير ابن بغا لحرب الزنج:

ولما ملك الزنج الأهواز سنة تسع وخمسين سرح المعتمد لحربهم موسى بن بغا وعقد له على الأعمال، فبعث إلى الأهواز عَبْد الرحمن بن مفلح، وإلى البصرة إسحق بن كنداجق، وإلى بادرود إبراهيم بن سيما، وأمرهم بمحاربة الزنج. فسار عَبْد الرحمن إلى

علي بن أبان فهزمه أولاً، ثم كانت لعبد الرحمن الكرة ثانياً فأثخن فيهم، ورجعوا إلى الخبيث، وجاء عَبْد الرحمن إلى حصن مهدي فعسكر به، وزحف إليه علي بن أبان فامتنع عليه، فسار إلى إبراهيم بن سيما ببادرود فواقعه، فانهزم أولاً إبراهيم ثم كانت له الكرة ثانياً. وسار ابن أ بان في الغياض فأضرموها عليهم ناراً ففروا هاربين، وأسر منهم جماعة. وسار عَبْد الرحمن إلى علي بن أبان، وجاءه المدد من الخبيث في البحر، فبينما عَبْد الرحمن فى حربه إذ بعث علي جماعة من خلفه وشعر بهم، فرجيم القهقرى ولم يصب منهم شيء الا بعض السفن البحرية. ثم راجع عَبْد الرحمن حرب علي بن أبان وفي مقدمته طاشتمر، فأوقعوا بعلي بن أبان ولحق بالخبيث صاحب الزنج، وأقام عَبْد الرحمن بن مفلح. وابراهيم يتناوبان حرب الخبيث ويوقعان به، وإسحق بن كنداجق بالبصرة يقطع عنه المدد، وهو يبعث لكل منهما طائفة يقاتلونهم، وأقاموا على ذلك سبعة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بغا عن حربهم ووليها مسرور البلخي كما نذكر.

استيلاء الصفار على فارس وطبرستان:

قد تقدم استيلاء يعقوب بن الليث الصفار على فارس أيام المعتز من يد علي بن الحسين بن مقبل. ثم عادت فارس إلى الخلفاء ووليها الحرث بن سيما، وكان بها من رجال العراق محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي، فاتفق مع أحمد بن الليث من الأكراد الذين بنواحيها ووثبوا بالحرث بن سيما فقتلوه، واستولى ابن واصل على فارس سنة ست وخمسين، وقام بدعوة المعتمد وبعث عليها المعتمد الحسن بن الفياض، فسار إليه يعقوب بن الليث سنة سبع وخمسين، وبلغ ذلك المعتمد فكتب إليه بالنكير، وبعث إليه الموفق بولاية بلخ وطخارستان

فملكهما وقبض على رتبيل، وبعث إلى المعتمد برسله وهداياه. ثم رجع إلى بست، واعتزم على العود إلى سجستان، فعجل بعض قواده الرحيل قبله، فغضب وأقام سنة ثم رجع إلى سجستان.

استيلاء الصفار على خراسان وانقراض أمر بني طاهر منها ثم استيلاؤه على طبرستان:

ثم جاء إلى هراة وحاصر مدينة نيسابور حتى ملكها ثم سار إلى بوشنج وقبض على الحسين بن علي بن طاهر بن الحسين، وبعث إليه محمد بن طاهر بن عبدالله شافعاً فيه فابى من إطلاقه، ثم ولّى على هراة وبوشنج وباذغيس ورجع إلى سجستان وكان بها عبدالله السجزي ينازعه. فلما قوي عليه يعقوب فر منه إلى خراسان وحاصر محمد بن طاهر في نيسابور، ورجع إليه الفقهاء فأصلحوا بينه وبين محمد، وولاه الطبسين وقهستان، وأرسل يعقوب في طلبه فأجاره محمد فسار يعقوب إليه بنيسابور فلم يطق لقاءه ونزل يعقوب بظاهرها، فبعث محمد بعمومته وأهل بيته فتلقوه. ثم خرج إليه فوبخّه على التفريط في عمله وقبض عليه وعلى أهل بيته، ودخل نيسابور واستعمل عليها، وأرسل إلى الخليفة بأن أهل خراسان استدعوه لتفريط ابن طاهر في أمره، وغلبه العلوي على و طبرستان فبعث إليه المعتمد بالنكير والاقتصار على ما بيده، وإلا سلك به سبيل المخالفين وذلك سنة تسع وخمسين. وقيل في ملكه نيسابور غير ذلك وهو إن محمد بن طاهر أصاب دولته العجز والإدبار، فكاتب بعض قرابته يعقوب بن الصفار واستدعوه، فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر بمجيئه إلى ناحية موريا بقصد الحسن بن زيد في طبرستان، وأن المعتمد أمره بذلك، وأنه لا يعرض شيئاً من أعمال خراسان. وبعث بعض قواده عيناً عليه يمنعه من البراح عن نيسابور، وجاء بعده. وقدم أخاه عمرا إلى محمد بن طاهر فقبض عليه وعنفه على الأعمال والعجز، وقبض على جميع أهل بيته نحو من مائة وستين رجلاً، وحملهم جميعاً إلى سجستان، واستولى على خراسان، ووثب نوابه في سائر أعمالها، وذلك لإحدى عشرة سنة وشهرين من ولاية محمد. ولما قبض يعقوب على ابن طاهر واستولى على خراسان هرب منازعه عَبْد الله السخري إلى الحسن بن زيد صاحب طبرستان، فبعث إليه فيه فأجاره. وسار إلى يعقوب سنة ستين وحاربه فانهزم الحسن إلى أرض الديلم، وملك يعقوب سارية وآمل ومضى في أثر الحسين من عسكره نحو من أربعين ألفاً من الرجل والظهر ونجا بعد مشقة شديدة، وكتب إلى المعتمد بذلك وكان عَبْد الله السخري قد هرب بعد هزيمة الحسن العلوي إلى الري فسار يعقوب في طلبه، وكتب إلى عامل الري يؤذنه بالحرب إن لم يدفعه إليه، فبعث به إليه وقتله ورجع إلى سجستان.

استيلاء الحسن بن زيد على جرجان:

ولما هرب الحسن بن زيد إمام مفلح من طبرستان، ورجع مفلح اعتزم الحسن على الرجوع إلى جرجان فبعث محمد بن طاهر إليها العساكر لحفظها فلم يغنوا عنها، وجاء الحسن فملكها وضعف أمر ابن طاهر في خراسان، وانتقض عليه كثير من أعمالها، وظهر المتغلبون في نواحيها، وعاث السراة من الخوارج في أعمالها ولم يقدر على دفعهم، وآل ذلك إلى تغلب الصفار على ابن طاهر، وانتزاع خراسان من يده كما ذكرنا [*]

فتنة الموصل :

كان المعتمد قد ولّى على الموصل أساتكين من قواد الأتراك، فبعث عليها هو ابنه أذكرتكين، وسار إليها في جمادى سنة تسع وخمسين، فأساء السيرة وأظهر المنكر وعسف بالناس في طلب الخوارج، وتعرض بعض الأيام رجل من حاشيته إلى امرأة في الطريق، وتخلصها من يده بعض الصالحين، فأحضره أذكرتكين وضربه ضرباً شديداً، فاجتمع وجوه البلد وتامروا في رفع أمرهم إلى المعتمد، فركب إليهم ليوقع بهم فقاتلوه وأخرجوه، واجتمعوا على يحيى بن سليمان وولوه أمرهم. ولما كانت سنة إحدى وستين ولى أستاكين عليها الهيثم بن عَبْد الله بن العمد الثعلبي العدوي وأمره أن يزحف لحربهم ففعل، وقاتلوه أياماً وكثرت القتلى بينهم ورجع عنهم الهيثم، وولى أستاكين مكانه إسحق بن أيوب الثعلبي جد بني حمدان وغيره،

وحاصرها مدة، ومرض يحيى بن سليمان الأمير في أثنائها فطمع إسحق في البلد وجد في الحصار، واقتحمها من بعض الجهات فأخرجوه، وحملوا يحيى بن سليمان في قبة وألقوه أمام الصف واشتد القتال، ولم يزل إسحق يراسلهم ويعدهم حسن السيرة إلى أن أجابوه على أن يقيم بالربض فأقام أسبوعاً، ثم حدثت ممن بايعة بعض الفعلات فوثبوا به وأخرجوه، واستقر يحيى بن سليمان بالموصل.

حروب ابن واصل بفارس:

قد تقدم لنا وثوب محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي بالحرث بن سيما عامل فارس وتغلبه عليها سنة ست وخمسين، فلما بلغ ذلك إلى المعتمد أضاف فارس إلى عَبْد الرحمن بن مفلح وبعثه إلى الأهواز وأمده بطاشتمر، وزحفوا من الأهواز إلى ابن واصل سنة إحدى وستين، فسار معهم من فارس ومعه أبو داود العلوس، ولقيهم برام هرمز فهزمهم، وقتل طاشتمر وأسر ابن مفلح وغنم عسكرهم. وبعث إليه المعتمد في إطلاق ابن مفلح فقتله خفية وسار لحرب موسى بن بغا بواسط، وانتهى إلى الأهواز، وبها إبراهيم بن سيما في جموع كثيرة. ولما رأى موسى بن بغا اضطراب هذه الناحية استعفى المعتمد من ولايتهم فأعفاه، وكان عند انصراف ابن مفلح عن الأهواز إلى فارس قد ولّي مكانه بالساج وأمره بمحاربة الزنج، فبعث صهره عَبْد الرحمن لذلك فلقيه علي بن أبان قائد الزنج، فهزمه علي وقتله، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرم، وملك الزنج الأهواز فعاثوا فيها. ثم عزل أبو الساج عن ذلك وولّى مكانه إبراهيم بن سيما فلم يزل بها حتى انصرف موسى بن بغا عن الأعمال كلها ولما هزم إبراهيم بن سيما بن واصل بن عَبْد الرحمن بن مفلح وقتله، طمع يعقوب الصفار في ملك فارس، فسار من سجستان مجداً، ورجع ابن واصل من الأهواز، وترك محاربة ابن سيما، وأرسل خاله أبا بلال مرداس إلى الصفار، وراجعه بالكتب والرسل بحبس ابن واصل رسله، ورحل بعد السير ليفجأه على بغتة، وشعر به الصفار فقال لخاله مرداس: إن صاحبك قد غدر بنا وسار إليهم، وقد أعيوا وتعبوا من شدة السير، ومات أكثرهم عطشاً. فلما تراءى الجمعان انهزم ابن واصل دون قتال، وغنم الصفار ما في عسكره وما كان لابن مفلح، واستولى على بلاد فارس ورتب بها العمال وأوقع بأهل زم لإعانتهم ابن واصل، وطمع في الاستيلاء على الأهواز وغيرها.

مبدأ دولة بني سامان وراء النهر:

كان جدهم أسد بن سامان من أهل خراسان وبيوتها، وينتسبون في الفرس تارة إلى سامة بن لؤي وإلى ابن غالب أخرى. وكان لأسد أربعة من الولد: نوح وأحمد ويحيى وإلياس. وتقدموا عند المأمون أيام ولايته خراسان واستعملهم، ولما انصرف المأمون إلى العراق ولى على خراسان غسان بن عباد من قرابة الفضل بن سهل، فولى نوحاً منهم على سمرقند وأحمد على فرغانة، ويحيى على الشاش وأشروسنة وإلياس على هراة. فلما ولي طاهر بن الحسين بعده أقرهم على أعمالهم. ثم مات نوح بن أسد فأقر أخويه يحيى وأحمد على عمله، وكان حسن السيرة. ومات إلياس بهراة، فولى عَبْد الله بن طاهر مكانه ابنه أبا إسحق محمد بن إلياس، وكان لأحمد بن أسد من البنين سبعة نصر ويعقوب ويحيى وإسمعيل وإسحق وأسد وكنيته أبو الاشعث وحميد وكنيته أبو غانم. فلما توفي أحمد استخلف ابنه نصراً على أعماله بسمرقند وما إليها، وأقام إلى انقراض أيام بني طاهر وبعدهم، وكان يلي أعماله من قبل ولاة خراسان إلى حين انقراض أيام بني طاهر. واستولى الصفار على خراسان، فعقد المعتمد لنصر هذا على أعماله من قبله سنة إحدى وستين، ولما ملك يعقوب الصفار خراسان كما قلنا بعث نصر جيوشه إلى شط جيحون مسلحة من الصفار، فقتلوا مقدمهم ورجعوا إلى بخارى، وخشيهم واليها على نفسه ففرعنها، فولوا عليهم ثم عزلوا ثم ولوا ثم عزلوا فبعث نصر أخاه إسمعيل لضبط بخارى. ثم ولي خراسان بعد ذلك رافع بن هرثمة بدعوة بني طاهر، وغلب الصفار عليها، وحصلت بينه وبين إسمعيل صاحب بخارى موالاة اتفقا فيها على التعاون والتعاضد، وطلب منه إسمعيل أعمال خوارزم، فولاه إياها، وفسد ما بين إسمعيل وأخيه مضر، وزحف نصر إليه سنة إثنتين وسبعين، واستجاش إسمعيل برافع بن هرثمة فسار إليه بنفسه مدداً، ووصل إلى بخارى، ثم أوقع الصلح بينه وبين أخيه خوفاً على نفسه، وانصرف رافع ثم انتقض ما بينهما وتحاربا سنة خمس وسبعين، وظفر إسمعيل بنصر. ولما حضر عنده ترجل له إسمعيل وقبل يده ورده إلى كرسي إمارته بسمرقند، وأقام نائباً عنه ببخارى، وكان إسمعيل خيراً مكرماً لأهل العلم والدين.

مسير الموفق إلي البصرة لحرب الزنج وولاية العهد:

ولما استعفى موسى بن بغا من ولاية الناحية الشرقية عزم المعتمد على تجهيز أخيه أبي أحمد الموفق، فجلس في دار العامة وأحضر الناس على طبقاتهم، وذلك في شوال من سنة إحدى وستين، وعقد لابنه جعفر العهد من بعده، ولقبه المفوض إلى الله، وضم إليه موسى بن بغا وولاه أفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان ونهر تصدق، وعقد لأخيه أبي أحمد العهد بعده ولقبه الناصر لدين الله الموفق، وولاه المشرق وبغداد وسواد الكوفة وطريق مكة واليمن وكسكر وكور دجلة والأهواز وفارس وأصبهان والكرخ والدينور والري وزنجان والسند. وعقد لكل واحد منهما لواءين أبيض وأسود، وشرط أنه إن مات وجعفر لم يبلغ يتقدم الموفق عليه، ويكون هو بعده، وأخذت البيعة بذلك على الناس، وعقد جعفر لموسى بن بغا على أعمال العرب، واستوزر صاعد بن مخلد، ثم نكبه سنة إثنتين وسبعين واستصفاه واستكتب مكانه الصفر إسمعيل بن بابل، وأمر المعتمد أخاه الموفق بالمسير لحرب الزنج فبعثه في مقدمته واعتزم على المسير بعده.

وقعة الصفار والموفق:

لّما كان يعقوب الصفار ملك فارس من يد واصل، وخراسان من يد ابن طاهر، وقبض عليه صرح المعتمد بأنه لم يولّه ولا فعل ما فعل بإذنه، وبعث ذلك مع حاج خراسان وطبرستان. ثم سار إلى الأهواز يريد لقاء المعتمد، وذلك سنة إثنتين وسبعين. فأرسل إليه المعتمد إسمعيل بن إسحق وفهواج من قواد الأتراك ليردوه على ذلك، وبعث معهما من كان في حبسه من أصحابه الذين حبسوا عندما قبض على محمد بن طاهر، وعاد إسمعيل من عند الصفار بعزمه على الموصل، فتأخر الموفق لذلك عن المسير لحرب الزنج ووصل مع إسمعيل من عند الصفار حاجبه درهم يطلب ولاية طبرستان وخراسان وجرجان والري وفارس والشرطة ببغداد، فولاه المعتمد ذلك كله مضافاً إلى ما بيده من سجستان وكرمان، وأعاد حاجبه إليه بذلك ومعه عمر بن سيما فكتب يقول: لا بد من الحضور بباب المعتمد. وارتحل من عسكر مكرم حاما، وسار إليه أبو

الساج من الأهواز لدخوله تحت ولايته، فأكرمه ووصله وسار إلى بغداد. ونهض المعتمد من بغداد فعسكر بالزعفرانية وأخاه مسرور البلخي، فقاتله منتصف رجب، وانهزمت ميسرة الموفق، وقتل فيها إبراهيم بن سيما وغيره من القواد. ثم تراجعوا واشتدت الحرب، وجاء إلى الموفق محمد بن أوس والداراني مدداً من المعتمد، وفشل أصحاب الصفار لّما رأوا مدد الخليفة فانهزموا، وخرج الصفار وأتبعهم أصحاب الموفق وغنموا من عسكره نحواً من عشرة آلاف من الظهر، ومن الأموال ما يؤد حمله، وكان محمد بن طاهر معتقلاً معه في العسكر منذ قبض عليه بخراسان، فتخلص ذلك اليوم، وجاء إلى الموفقة وخلع عليه وولاه الشرطة ببغداد، وسار الصفار إلى خوزستان فترل جنديسابور، وأرسله صاحب الزنج يحثه على الرجوع ويعده المساعدة، فكتب إليه: **{قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون }** السورة. وكان ابن واصل قد خالف الصفار إلى فارس وملكها، فكتب إليه المعتمد بولايتها، وبعث الصفار إليه جيشاً مع عمر بن السري من قواده، فأخرجه عنها وولّى على الأهواز محمد بن عبدالله بن طاهر. ثم رجع المعتمد إلى سامرا والموفق إلى واسط، واعتزم الموفق على اتباع الصفار، فقعد به المرض عن ذلك، وعاد إلى بغداد ومعه مسرور البلخى سار بعد موسى وأقطعه ما لأبي الساج من الضياع والمنازل، وقدم معه محمد بن طاهر فقام بولاية الشرطة ببغداد.

سياقة أخبار الزنج:

قد ذكر أن مسروراً البلخي سار بعد موسى بن بغا لحرب الزنج، ثم سار مسرور للقاء المعتمد وحضر الموفق حرب الصفار، وبلغ صاحب الزنج جاؤا النواحي من العساكر، فبعث سراياه فيها للنهب والحرق والتخريب في بعث سليمان بن جامع إلى البطيحة وسليمان بن موسى إلى القادسية. وجاء أبو التركي في السفن يريد عسكر الزنج فأخذ عليه سليمان بن موسى وقاتله شهراً حتى تخلص وانحاز إلى سليمان بن جامع، وبعث إليهما الخبيث بالمدد، وكان مسرور قد بعث قبل مسيره من واسط جنداً في البحر إلى سليمان فهزمهم وأوقع بهم وقتل أسراهم، ونزل بقرة مروان قريباً من يعقوب متحصناً بالغياض والأغوار. وزحف إليه قائدان من بغداد وهما أغرتمش وحشيش في العساكر براً وبحراً، وأمر سليمان أصحابه بالاختفاء في تلك

الغياض حتى يسمعوا أصوات الطبول. وأقبل أغرتمش، ونهض شرذمة من الزنج فواقعوا أصحابه وشاغلوهم،وسار سليمان من خلفهم وضرب طبوله وعبروا إليهم في الماء، فانهزم أصحاب أغرتمش وظهر ما كان مختفياً، وقتل حشيش واتبعوهم إلى العسكر وغنموا منه، وأخذوا من القطع البحرية، ثم استردها أغرتمش من أيديهم، وعاد سليمان ظافراً وبعث برأس حشيش إلى الخبيث صاحبه، فبعث به إلى علي بن أبان في نواحي الأهواز، وكان مسرور البلخي قد بعث إلى كور الأهواز أحمد بن كيتونة، فنزل السوس وكان صاحب الأهواز من قبل الصفار يكاتب صاحب الزنج ويداريه، ويطلب له الولاية عنه، فشرط عليه أن يكون خليفة لابن أبان، واجتمعا بتستر. ولما رأى أحمد تظاهرهما رجع إلى السوس، وكان علي بن أبان يروم خطبة محمد له بعمله، فلما اجتمعا بتستر خطب للمعتضد والصفار ولم يذكر الخبيث، فغضب علي وسار إلى الأهواز. وجاء أحمد بن كيتونة إلى تستر، فأوقع بمحمد بن عَبْد الله وتحصن منه بتستر. وأقبل علي بن أبان إليه فاقتتلا واشتد القتال بينهما، وانهزم علي بن أبان، وقتل جماعة من أصحابه ونجا بنفسه جريحاً في الساريات بالنهر، وعاد إلى الأهواز. وسار منها إلى عسكر الخبيث، واستخلف على عسكره بالأهواز حتى داوى جراحة ورجع. ثم بعث أخاه الخليل إلى أحمد بن كيتونة بعسكر مكرم فقاتله، وقد أكمن لهم فانهزموا، وقتل من الزنج خلق ورجع المنهزمون إلى علي بن أبان، وبعث مسلحة إلى السرقان فاعترضهم جيش من أعيان فارس أصحاب أحمد بن كيتونة، وقتلهم الزنج جميعاً فحظي عنده بذلك وبعث في أثر إبراهيم من قتله في سرخس. ولما أراد الصفار العود إلى سجستان ولى على نيسابور عزيز بن السري وعلى هراة أخاه عمرو بن الليث، فاستخلف عمر وعليها طاهر بن حفص الباذغيسي وسار إلى سجستان سنة إحدى وستين، فجاء الخبيث إلى أخيه علي وزين له أن يقيم نائباً عنه في أموره بخراسان، وطلب ذلك من أخيه يعقوب فأذن له. ولما ارتحلوا جمع جمعاً وحارب عليا فأخرجه من بلده، ثم غلب عزيز بن السري على نيسابور وملكها أول إثنتين وستين، وقام بدعوة بني طاهر. واستقدم رافع بن هرثمة من رجالاتهم فجعله صاحب جيشه، وكتب إلى يعمر بن سركب وهو يحاصر بلخ يستقدمه فلم يثق إليه، وسار إلى هراة فملكها من يد طاهر بن حفص، وقتله وزحف إليه أحمد وكانت بينهما مواساة. ثم داخل بعض قواد أحمد الخجستاني في

الغدر بيعمر، على أن يمكنه من أخيه أبي طلحة، فكلف ذلك القائد به فتم ذلك، وكبسهم أحمد وقبض على يعمر وبعثه إلى نائبه بنيسابور فقتله، وقتل أبا طلحة القائد الذي غدر بأخيه. وسار إلى نيسابور في جماعة، فلقي بها الحسين بن طاهر مردوداً من أصبهان طمعاً أن يدعو له أحمد الخجستاني كما كان يزعم حين أورد فلم يخطب، فخطب له أبو طلحة وأقام معه بنيسابور، فسار إليهما الخجستاني من هراة في إثني عشر ألفاً، وقدم أخاه العباس فخرج إليه أبو طلحة وهزمه، فرجع أحمد إلى هراة ولم يقف على خبر أخيه، وانتدب رافع وهرثمة إلى استعلام خبره واستأمن إلى أبي طلحة فأمنه ووثق إليه. وبعث رافع إلى أحمد بخبر أخيه العباس، ثم أنفذه طاهر إلى بيهق لجباية مالها، وضم معه قائدين لذلك، فجبى المال وقبض على القائدين وانتقض. وسار إلى الخجستاني ونزل في طريقه بقرية وبها علي بن يحيى الخارجي، فنزل ناحية عنه، وركب ابن طاهر في أتباعه

فأدركه بتلك القرية، فأوقع بالخارجي يظنه رافعاً، ونجا رافع إلى الخجستاني. وبعث ابن طاهر إسحق الشرابي إلى جرجان لمحاربة الحسن بن زيد والديلم منتصف ثلاث وستين، فأثخن في الديلم ثم انتقض على ابن طاهر، فسار إليه وكبسه إسحق في طريقه فانهزم إلى نيسابور واستضعفه أهلها فأخرجوه، فأقام على فرسخ منها، وجمع جمعاً وحاربهم، ثم كتب إلى أهل نيسابور، إلى إسحق باستدعائه ومساعدته علي بن طاهر وأبي طلحة، وكتب إلى أهل نيسابور عن إسحق بالمواعدة. وسار إسحق أبو محمد في قفة من الجند، فاعترضه أبو طلحة وقتله وحاضر نيسابور، فاستقدموا الخجستاني من هراة وأدخلوه. وسار أبو طلحة إلى الحسن بن زيد مستنجداً فأنجده ولم يظفر، وعاد إلى بلخ وحاصرها سنة خمس وستين، وخرج للخجستاني من نيسابور به، وحاربه الحسن بن زيد لمساعدته أبا طلحة. وجاء أهل جرجان مددا للحسن، فهزمهم الخجستاني وأغرمهم أربعة آلاف ألف درهم. ثم جاء عمرو بن الليث إلى هراة بعد وفاة أخيه يعقوب الصفار، وعاد الخجستاني من جرجان إلى نيسابور، وسار إليه عمرو من هراة فاقتتلا وانهزم عمر، ورجع إلى هراة، وأقام أحمد بنيسابور. وكانت الفقهاء بنيسابور يميلون إلى عمرو لتولية السلطان إياه، فأوقع السجستاني بينهم الفتنة ليشغلهم بها، ثم سار إلى هراة سنة سبع وستين وحاصر عمرو بن الليث فلم يظفر منه بشيء، فسار نحو سجستان وترك نائبه بنيسابور فأساء السيرة وقوى أهل الفساد، فوثب به أهل نيسابور

واستعانوا بعمرو بن الليث وبعث إليهم جنداً يقبض على نائب الخجستاني وأقاموا بها، ورجع من سجستان فأخرجهم وملكها، وأقام إلى تمام سبع وستين، وكاتب عمرو أبا طلحة وهو يحاصر بلخ فقدم عليه وأعطاه أموالاً واستخلفه بخراسان، وسار إلى سجستان، وسار أحمد إلى سرخس ولقيه أبو طلحة فهزمه أحمد ولحق بسجستان، وأقام أحمد بطخارستان. ثم جاء أبو طلحة إلى نيسابور فقبض على أهل الخجستاني وعياله، وجاء أحمد من طخارستان إلى نيسابور وأقام بها. ثم تبين لابن طاهر أن الخجستاني إنما يروم لنفسه، وليس على ما يدعيه من القيام بأمرهم. وكان على خوارزم أحمد بن محمد بن طاهر، فبعث قائده أبا العباس النوفلي إلى نيسابور في خمسة آلاف مقاتل، وخرج أحمد أمامهم وأقام قريباً منهم، وأفحش النوفلي في القتل والضرب والتشويه، وبعث إليه الخجستاني فنهاه عن مثل ذلك فضرب الرسل، فلحق أهل نيسابور بالخجستاني واستدعوه وجاؤا به وقبض على النوفلي وقتله. ثم بلغه أن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عَبْد الله بن طاهر بمرو، فسار إليه من أسورد في يوم وليلة وقبض عليه وولّى عليها موسى البلخي، ثم وافاها الحسين بن طاهر فأحسن فيهم السيرة ووصل إليهم نحو عشرين ألف درهم، وكان الخجستاني لمّا بلغه أخذ والدته من نيسابور وهو بطخارستان وسار مجدًّا، فلما بلغ هراة أتاه غلام لأبي طلحة مستأمناً فأمنه وقربه فغص به وغلامه الخالصة عنده والجنود، وطلب الفرصة في قتل الخجستاني، وكان قد غور ساقية قطلغ، فاتفقا على قتله فقتلاه في شوال سنة ثمان وستين. وأنفذ دامجور خاتمه إلى الإسطبل. مع جماعة فركبوا الدواب وساروا بالخبر إلى أبي طلحة ليستقدموه، وأبطأ ظهوره على القوّاد فدخلوا فوجدوه قتيلاً، وأخبرهم صاحب الإسطبل بخبر الخاتم والدواب،

وطلبوا دامجور فلم يجدوه، ثم عثروا عليه بعد أيام فقتلوه، واجتمعوا على رافع بن هرثمة وكان من خبره ما نذكره.

استيلاء الصفّار على الأهواز:

ثم سار يعقوب الصفار من فارس إلى الأهواز، وأحمد بن كيتونة قائد مسرور البلخي على الأهواز مقيم على تستر، فرحل عنها ونزل يعقوب جنديسابور، ففرّ كل من كان في تلك النواحي من عساكر السلطان، وبعث إلى الأهواز من أصحابه الخضر بن

المعبر، فأفرج عنها عليّ بن أبان والزنج ونزلوا السِّدرة، ودخل خضر الأهواز، وأقام أصحاب الخضر وابن أبان يغير بعضهم على بعض. ثم فرّ ابن أبان وسار إلى الأهواز فأوقع بالخضر وفتك في أصحابه وغنم، ولحق الخضر بعسكر مكرم، واستخرج ابن أبان ما كان بالأهواز ورجع إلى نهر السِّدرة. وبعث يعقوب إلى الخضر مدّداً وأمره بالكفّ عن قتال الزنج والمقام بالأهواز، فأبى ابن أبان من ذلك إلا أن ينقل طعاماً ما كان هناك فنقله وتوادعوا.

استيلاء الزنج علي واسط:

قد تقدّم لنا واقعة أغرتمش مع سليمان بن جامع، وظفر سليمان به، فلما انقضى أمره سار سليمان إلى صاحب الخبيث ومرّ في طريقه بعسكر تكين البخاريّ وهو ببردود، فلما حاذاه قريباً أشار عليه الجناني أن يغير على العسكر في البحر ويستطرد لهم لينتهزوا منهم الفرصة ففعل، وجاء مستطردا وقد أكمنوا لهم الكمناء حتى أجازوا موضع الكمائن. وركب سليمان إليهم وعطف الجناني على من في النهر وخرجت الكمائن من خلفهم فأثخنوا فيهم إلى معسكرهم، ثم بيتوهم ليلاً فنالوا منهم، وانكشف سليمان قليلاً، ثم عبر أصحابه وأتاهم من وجوه عديدة برأ وبحراً، فانهزم تكين وغنم الزنج عسكره. ثم استخلف سليمان على عسكره الجناني، وسار إلى صاحب الخبيث سنة ثلاث وستين. ومضى الجناني بالعسكر لطلب الميرة، فاعترضه جعلان من قوّاد السلطان وهزمه وأخذ سيفه. ثم زحف منكجور ومحمد بن علي بن حبيب من القوّاد، وبلغ الحجاجيّة فرجع سليمان مجدًّا إلى طهثا يريد جعلان وفي مقدمته الجنانيّ. ثم كر إلى ابن حبيث فهزمه وقتل أخاه وغنم ما معه. ثم سار في شعبان إلى قرية حسّان فأوقع بالقائد هناك جيش ابن خمار تكين وهزمه ونهب القرية وأحرقها. ثم بعث العساكر في الجهات للنهب برًّا وبحراً، واعترض جعلان بعضهم فأوقع بهم، ثم سار سليمان إلى الرصافة فأوقع بالقائد بها واستباحها وغنم ما فيها ورجع إلى منزله بمدينة الخبيث، وجاء مطر إلى الحجّاجيّة فعاث فيها وأسر جماعة منها كان منهم القاضي سليمان، فحمله إلى

واسط. ثم سار إلى طهثا وكتب الجنانيّ بذلك إلى سلمان فوافاه لإثنتين من ذي الحجة، وجاء أحمد بن كيتونة بعد أن كان سار إلى الكوفة وجبيل، فعاد إلى البريدية وصرف جعلان وضبط تلك الأعمال، وأوقع تكين بسليمان وقتل جماعة من قوّاده. ثم ولّى الموفّق على مدينة واسط محمد بن الوليد وجاءه في العساكر، واستمّد سليمان صاحبه بالخليل بن أبان في ألف وخمسمائة مقاتل، فزحف إلى ابن المولّد وهزمه واقتحم واسط بها

منكجور البخاريّ فقاتله عامة يومه، ثم قتل ونهب البلد وأحرقها وانصرف سليمان إلى جبيل، واستدعوه في نواحيها تسعين ليلة.

استيلاء ابن طولون على الشام:

كان على دمشق أيام المعتمد ماجور من قواد الأتراك، فتوفي سنة أربع وستين وقام ابنه عليّ مكانه. وتجهز أحمد بن طولون من مصر إلى دمشق، وكتب إلى ابن ماجور بأن المعتمد أقطعه الشام والثغور، فأجاب بالطاعة، وسار أحمد واستخلف على مصر إبنه العبّاس، ولقيه ابن ماجور بالرملة فولاّه عليها، وسار إلى دمشق فملكها وأقرّ القوّاد على أقطاعهم. ثم سار إلى حمص فملكها ثم حماة ثم حلب، وكان على أنْطاكِية وطرسوس سيما الطويل من قواد الأتراك، فبعث إليه ابن طولون بالطاعة، وأن يقرّه على ولايته فامتنع، فسار إليه ودلّوه على عورة في سور البلد نصب عليها المجانيق، وقاتله فملكها عنوة وقتل سيما في الحرب، فسار ثم قصد طرسوس فدخلها واعتزم على المقام بها ويريد الغزو. وشكا أهلها غلاء السعر وسألوه الرحيل فرحل عنهم إلى الشام، ومضى إلى حرّان وبها محمد بن أتامش فحاربه وهزمه، واستولى عليها. ثم جاءه الخبر بانتقاض إبنه العبّاس بمصر وأنه أخذ الأموال وسار إلى برقة فلم يكترث لذلك، وأصلح أحوال الشام وأنزل بحرّان عسكراً، وولّى مولاه لؤلؤاً على الرقّة وأنزل معه عسكراً، وبلغ موسى بن أتامش خبر أخيه محمد فجمع العساكر وسار نحو

جرجان وبها أحمد بن جيفونة من قوّاد ابن طولون فأهمل مسيره، وقال له بعض الأعراب واسمه أبو الأعز: لا يهمك أمره فإنه طيّاش قلق وأنا آتيك به ! فقال: إفعل! وزاده عشرين رجلاً، وسار إلى عسكر موسى بن أتامش، فأكمن بعض أصحابه ودخل العسكر بالباقي على زيّ الأعراب، وقصد الخيل المرتبطة عند خيام ابن موسى فأطلقها وصاحوا فيها فنفرت واهتاج العسكر وركبوا واستطرد لهم أبو الأعز حتى جاوز الكمين وموسى في أوائلهم، فخرج الكمين وانهزم أصحاب موسى من ورائه، وعطف عليه أبو الأعز فأخذه أسيراً وجاء به إلى ابن جيفونة، وبعث به إلى ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر وذلك سنة ست وستين. (ومن أخبار الزنج) أنّ سليمان احتفر نهراً يمرّ إلى سواد الكوفة ليتهيأ له الغارة على تلك النواحي وكان أحمد بن كيتونة [*] فكبسهم وهم يعلمون، وقد جمروا عساكرهم لذلك فأوقع بهم وقتل منهم نحواً من أربعين قائداً وأحرق سفنهم، ورجع سليمان مهزوماً إلى طهتا. ثم عدت عساكر الزنج على النعمانية واستباحوها وصار أهلها إلى جرجرايا وأحفل أهل السواد إلى بغداد، وزحف عليّ بن أبان بعسكر الزنج إلى تستر فحاصرها وأشرف على أخذها. وكان الموفق استعمل على كور الأهواز مسروراً البلخي فولّى عليها تكين البخاريّ فسار إليها ووافاها أهل تستر في تلك الحال فأغزى عليّ بن أبان وهزمه، وقتل من الزنج خلقاً ونزل تستر. وبعث ابن أبان جماعة من قواد الزنج ليقيموا بقنطرة فارس، وجاء عين بخبرهم إلى تكين فكبسهم وهزمهم وقتل منهم جماعة. وسار ابن أبان فانهزم أمامه وكتب ابن أبان إلى تكين يسأله الموادعة فوادعه بعض الشيء

واتهمه مسرور فسار وقبض عليه وحبسه عند عجلان بن أبان، وفرّ منه أصحابه وطائفة إلى الزنج وطائفة إلى محمد بن عبدالله الكرخيّ ثم أمن الباقين فرجعوا إليه.

موت يعقوب الصفار وولاية عمر وأخيه:

وفي سنة خمس وستين أخريات شوّال منها مات يعقوب الصفّار وقد كان افتتح

الرحج وقتل ملكها وأسلم أهلها على يده، وكانت مملكة واسعة الحدود. وافتتح زابلستان وهي غزنة، وكان المعتمد قد استماله وقلّده أعمال فارس. ولما مات قام أخوه عمرو بن الليث وكتب إلى المعتمد بطاعته، فولاه الموفق من قبله ما كان له من الأعمال، خراسان وأصبهان والسّند وسجستان والشرطة ببغداد وسر من رأى وقبله عبيد الله بن عبدالله بن طاهر، وخلع الموفق عمرو بن الليث، وولّى على أصبهان من قبله أحمد بن عَبْد العزيز بن أبى دلف محمد بن أبي الساج.

أخبار الزنج مع أغرتمش:

قد كان تقدم لنا إيقاع سليمان بن جامع بأغرتمش وحربه بعد ذلك مع تكين وجعلان ومطر بن جامع وأحمد بن كيتونة واستيلاؤه على مدينة واسط، ثم ولّى أغرتمش مكان تكين البخاري ما يتولاه من أعمال الأهواز فدخل تستر في رمضان ومعه مطر بن جامع، وقتل جماعة من أصحاب أبان كانوا مأسورين بها. ثم سار إلى عسكر مكرم، ووافاه هناك علي بن أبان والزنج، فاقتتلوا ثم تحاجزوا لكثرة الزنج، ورجع عليّ إلى الأهواز وسار أغرتمش إلى الخليل بن أ بان ليعبروا إليه من قنطرة أربل، وجاءه أخوه عليّ وخاف أ صحابه المخلّفون بالأهواز فارتحلوا إلى نهر السروة وتحارب عليّ وأغرتمش يوماً ثم رجع عليّ إلى الأهواز و لم يجد أصحابه، فبعث من يردهم إليه فلم يرجعوا. وجاء أغرتمش وقتل مطر بن جامع في عدّة من القوّاد، وجاء المدّد لابن أبان من صاحبه الخبيث فوادعه أغرتمش وتركه. ثم بعث محمد بن عبيد الله إلى أبكلاي ابن الخبيث في أن يرفع عنه يد ابن أبان فزاد ذلك في غيظه، وبعث يطالبه محمد بالخراج ودافعه فسار إليه، وهرب محمد من رامهرمز إلى أقصى معاقله، ودخل عليّ والزنج رامهرمز وغنموا ما فيها. ثم صالحه محمد على مائتي ألف درهم، وترك أعماله. ثم استنجده محمد بن عبيد الله على الأكراد، على أنّ لعليّ غنائمهم، فاستخلف عليّ على ذلك بجلز، وطلب منه الرهن فمطل وبعث إليه الجيش فزحف بهم إلى الأكراد. فلما نشب القتال انهزم أصحاب محمد فانهزم الزنج

وأثخن الأكراد فيهم، وبعث عليّ من يعترضهم فاستلبوهم، وكتب عليّ إلى محمد يتهدده فاعتذر ورد عليهم كثيراً من أسلابهم، وخشي من الخبيث وبعث إلى أصحابه مالاً ليسألوه في الرضا عنه، فأجابهم إلى ذلك على أن يقيم دعوته في أعماله ففعل كذلك. ثم سار ابن أبان لحصار مؤتة واستكثر من آلات الحصار، وعلم بذلك مسرور البلخي وهو بكور الأهواز، فسار إليه ووافاه عليها، فانهزم ابن أبان وترك ما كان حمله هناك، وقتل من الزنج خلق، وجاء الخبر بمسير الموفّق إليهم.

استرجاع ابن الموفّق ما غلب عليه الزنج من أعمال دجلة:

لّما دخل الزنج واسط وعاثوا فيها كما ذكرناه بعث الموفّق ابنه أبا العبّاس، وهو الذى ولّي الخلافة بعد المعتمد ولقّب ،المعتضد فبعثه أبوه بين يديه في ربيع سنة ست وستين في عشرة آلاف من الخيل والرجال. وركب لتشييعه، وبعث معه السفن في النهر، عليها أبو حمزة نصر، فسار حتى وافى الخيل والرجل والسفن النهرية، وعلى مقدّمته الجناني وأنهم نزلوا الجزيرة قريباً من بردروبا، وجاءهم سليمان بن موسى الشعراني مدداً بمثل ذلك، وأن الزنج احتلفوا في الاحتشاد، ونزلوا من السفح إلى أسفل واسط ينتهزون الفرصة في ابن الموفّق لّما يظنون من قلّة درايته بالحرب، فركب أبو العبّاس لاستعلام أمرهم ووافى نصيراً فلقيهم جماعة من الزنج فاستطرد لهم أولاً، ثم كر في وجوههم وصاح بنصير فرجع، وركب أبو العبّاس السفن النهرية فهزم الزنج وأثخن فيهم، واتبعهم ستة فراسخ، وغنم من سعيهم وكان ذلك أول الفتح. ورجع سليمان بن جامع إلى نهر الأمين، وسليمان بن موسى الشعراني إلى سوق الخميس، وأبو العباس على فرسخ من واسط يغاديهم القتال ويراوحهم. ثم احتشد سليمان وجاء من ثلاثة وجوه، وركب في السفن النهرية وبرز إليه نصير في سفنه، وركب معه أبو العباس في خاصته وأمر الجند بمحاذاته من الشط، ونشب الحرب فوقعت الهزيمة على الزنج وغنمت سفنهم، وأفلت سليمان والجناني من

الهلكة، وبلغوا طهتا، ورجع أبو العباس إلى معسكره وأمر لإصلاح السفن المغنومة، وحفر الزنج في طريق الجبل الآبار وغطوها، فوقع بعض الفرسان فيها، فعدل جند السلطان عن ذلك الطريق. وأمر الخبيث أصحابه بالسفن في النهر وأغاروا على سفن أبي العباس، وغنموا بعضها، وركب في أتباعهم واستنقذ سفنهم، وغنم من سفنهم نحواً من ثلاثين، وجدّ في قتالهم وتحصّن ابن جامع بطهتا، وسمّى مدينته المنصورة. والشعراني بسوق الخميس، وسمّى مدينته المنيعة. وكان أبو العباس يغير على الميرة التي تأتيهم من سائر النواحي، وركب في بعض الأيام إلى مدينة الشعراني التي سمّاها المنيعة، وركب نصير في النهر، وافترقوا في مسيرهم، واعترضت أبا العباس جماعة من الزنج فمنعوه من طريق المدينة وقاتلوه مقدار نهاره، وأشاعوا قتل نصير، وخالفهم نصير إلى المدينة فأثخن فيها وأضرموا النار في بيوتها. وجاء الخبر بذلك إلى أبي العبّاس بسبرة. ثم جاء نصير ومعه أسرى كثيرون فقاتلوا الزنج وهزموهم، ورجع أبو العباس إلى عسكره، وبعث الخبيث إلى ابن أبان وابن جامع فأمرهما بالاجتماع على حرب أبي العباس.

وصول الموفق لحرب الزنج وفتح المنيعة والمنصورة:

كان الموفق لّما بعث ابنه أبا العباس لحرب الزنج تأخر لإمداده بالحشود والعدد وإزاحة علله ومسارقة أحواله، فلما بلغه اجتماع ابن أبان وابن جامع لحربه سار من بغداد إليه فوصل إلى واسط في ربيع الأول من سنة سبع وستين، ولقيه ابنه وأخبره بالأحوال، ورجع إلى عسكره. ونزل الموفق على نهر شدّاد، ونزل ابنه شرقي دجلة على موهة بن مساور، فأقام يومين ثم رحل إلى المنيعة بسوق الخميس، سار إليها في النهر، ونادى بالمقامة ولقيه الزنج فحاربوه، ثم جاء الموفق فانهزموا واتبعهم أصحاب أبي العبّاس فاقتحموا عليهم المنيعة وقتلوا خلقاً وأسروا آخرين، وهرب الشعراني، واختفى في الآجام آخرون، ورجع الموفق إلى عسكره وقد استنقذ من

المسلمات نحو خمس عشرة امرأةن ثم غدا على المنيعة فأمر بنهبها وهدم سورها وطم خندقها وإحراق ما بقي من

السفن فيها، وبيعت الأقوات التي أخذت، فكانت لا حدّ لها فصرفت في الجند.وكتب الخبيث إلى ابن جامع يحذره مثل ما نزل بالشعراني، وجاءت العيون إلى الموفّق أن ابن جامع بالحوانيت، فسار إلى الضبية وأمر إبنه بالسير في النهر إلى الحوانيت، فلم يلق ابن جامع بها، ووجد قائدين من الزنج استخلفهم عليها بحفظ الغلاّت، ولحق بمدينته المنصورة بطهتا، فقاتل ذلك الجند ورجع إلى أبيه بالخبر فأمره بالمسير إليه، وسار على أثره برّاً وبحراً حتى نزلوا على ميلين من طهتا، وركب لبيوني مقاعد القتال على المنصورة فلقيه الزنج وقاتلوه وأسروا جماعة من غلمانه. ورمى أبو العباس بن الموفق أحمد بن مهدي الجناني فمات وأوهن موته، ثم ركب يوم السبت آخر ربيع من سنة سبع وعبّى عسكره وبعث السفن فى البحر الذي يصل إلى المنصورة، ثم صلّى وابتهل بالدعاء، وقدّم ابنه أبا العباس إلى السور، واعترضه الجند فقاتلهم عليه واقتحموا وولّوا منهزمين إلى الخنادق وراءه، فقاتلوه عندها واقتحمها عليهم كلّها، ودخلت السفن المدينة من النهر فقتلوا وأسروا، وأجلوهم عن المدينة، وما اتصل بها، وهو مقدار فرسخ، وملكه الموفق وأفلت ابن جامع في نفر من أصحابه. وبلغ الطلاّب في أثره إلى دجلة، وكثر القتل في الزنج والأسر، واستنقذ العبّاس من نساء الكوفة وواسط وصبيانهم أكثر من عشرة آلاف، وأعطى ما وجد في المنصورة من الذخائر والأموال للأجناد، وأسر من نساء سليمان وأولاده عدة. ولما جاء جماعة من الزنج إلى الآجام اختفوا فأمر بطلبهم وهدم سور المدينة وطم خنادقها وأقام سبعة عشر يوماً في ذلك ثم رجع إلى واسط.

حصار مدينة الخبيث المختارة وفتحها:

ثم إن الموفق عرض عساكره وأزاح عليهم وسار معه ابنه أبو العبّاس إلى مدينة

الخبيث فأشرف عليها، ورأى من حصانتها بالأسوار والخنادق ووعر الطرق، وما أعد من الآلات للحصار ومن كثرة المقاتلة ما استعظمه. ولما عاين الزنج عساكر الموفق دهشوا وقدم ابنه أبا العبّاس في السفن حتى ألصقها بالأسوار فرموه بالحجارة في المجانيق والمقاليع والأيدي، ورأوا من صبره وأصحابه ما لم يحتسبوه. ثم رجعوا وتبعهم مستأمنة من المقاتلة والملاّحين نزعوا إلى الموفق فقبلهم وأحسن إليهم، فتتابع المستأمنون في النهر، فوكل الخبيث بفوهة النهر من منعهم وتعبى أهل السفن للحرب مع بهبود قائد الخبيث، فزحف إليه أبو العبّاس في السفن وهزمه وقتل الكثير من أصحابه، ورجع فاستأمن إليه بعض تلك السفن النهرية وكثير من المقاتلة فأمنهم وأقام شهراً لم يقاتلهم. ثم عبى عساكره منتصف شعبان في البر والبحر وكانوا نحوا، من خمسين ألفاً، وكان الزنج في نحو ثلثمائة ألف مقاتل، فأشرف عليهم ونادى بالأمان إلا للخبيث، ورمى بالرقاع في السهام بالأمان، فجاء كثير منهم ولم يكن حرب. ثم رحل من مكانه ونزل قريباً من المختارة، ورتب المنازل من إنشاء السفن، وشرع في اختطاط مدينة لنزله سماها الموفّقيّة. فأكمل بناءها وشيد جامعها وكتب بحمل

الأموال والميرة إليها، وأغب الحرب شهراً فتتابعت الميرة إلى المدينة، ورحل إليها التجّار بصنوف البضائع، واستبحر فيها العمران ونفقت الأسواق، وجلبت صنوف الأشياء.

ثم أمر الموفق ابنه أبا العبّاس بقتال من كان من الزنج خارج المختارة فقاتلهم وأثخن فيهم، فاستأمن إليه كثير منهم فأمنهم ووصلهم، وأقام الموفّق أياماّ يحاصر المحاربين ويصل المستأمنين، واعترض الزنج بعض الوفاد الجائية بالميرة، فأمر بترتيب السفن على مخارج الأنهار، ووكل ابنه أبا العبّاس بحفظها، وجاءت طائفة من الزنج بعض الأيام إلى عسكر نصير يريدون الإيقاع به، فأوقع بهم وظفر ببعض القواد منهم، فقتل رشقاً بالسهام، وتتابع المستأمنة فبلغوا إلى آخر رمضان خمسين ألفاً.

ثم بعث الخبيث عسكراً من الزنج مع عليّ بن أبان ليأتوا من وراء الموفق إذا ناشبهم الحرب، ونمى إليه الخبر بذلك فبعث ابنه أبا العبّاس فأوقع بهم، وحملت الأسرى والرؤوس في السفن النهرية ليراها الخبيث وأصحابه، وظنّوا أنّ ذلك تمويه، فرميت الروس في المجانيق حتى عرفوها، فظهر منهم الجزع وتكررت الحرب في السفن بين أبي العبّاس وبين الزنج، وهو يظهر عليهم في جميعها حتى انقطعت الميرة عنهم، فاشتد الحصار عليهم وخرج كثير من وجوه أصحابه مستأمنين، مثل محمد بن الحرث

القمي وأحمد اليربوعي. وكان من أشجع رجاله القمي منهم موكلاً بحفظ السور فأمنهم الموفق ووصلهم، وبعث الخبيث قائدين من أصحابه في عشرة آلاف ليأتوا البطيحة من ثلاثة وجوه، فيعبروا من تلك النواحي ويقطعوا الميرة عن الموفق. وبلغ الموفق خبرهم فبعث إليهم عسكراً مع مولاه، ونزل فأوقع بهم وقتل وأسر، وأخذ منهم أربعمائة سفينة.

ولّما تتابع خروج المستأمنة وكل الخبيث من يحفظها، وجهدهم الحصار فبعث جماعة من قواده إلى الموفق يستأمنون، وأن يناشبهم الحرب ليجدوا السبيل إليه، فأرسل ابنه أبا العبّاس إلى نهر الغربي وبه علي بن أبان فاشتد الحرب، وظهر أبو العبّاس على بن أبان، وأمده الخبيث بابن جامع ودامت الحرب عامة يومهم، وكان الظفر لأبي العبّاس، وسار إليه المستأمنة الذين واعدوه. وانصرف أبو العبّاس إلى مدينة الخبيث وقاتل بعض الزنج طمعاً فيهم لقتلهم، فتكاثروا عليه، ثم جاءه المدد من قبل أبيه فظهر عليهم. وكان ابن جامع قد صعد في النهر وأتى أبا العبّاس من ورائه، وخفقت طبوله، فانكشف أصحاب أبي العباس، ورجع منهزمة الزنج فأجبت جماعة من غلمان الموفق وعدة من أعلامهم، وحامى أبو العبّاس عن أصحابه حتى خلصوا، وقوي الزنج بهذه الواقعة، فأجمع الموفق العبور إلى مدينتهم بعسكره.

فعبى الناس لذلك من الغداة آخر ذي الحجة، واستكثر من المعابر والسفن وقصدوا حصن أو كان بالمدينة، فيها أنكلاي بن الخبيث وابن جامع وابن أبان، وعليه المجانيق والآلات، فأمر غلمانه بالدنو منه فخاموا لاعتراض نهر الأتراك بينهم وبينه، فصاح بهم فقطعوا النهر سبحاً ،وتناولوا الركن بالسلاح يهدمونه، ثم صعدوا عليه وملكوه ونصبوا به علم الموفق وأحرقوا ما كان عليه من الآلات وقتلوا من الزنج خلقاً عظيماً. وكان أبو العبّاس

يقاتلهم من الناحية الأخرى وابن أبان قبالته، فهزمه ووصل أصحاب أبي العبّاس إلى السور فثلموه ودخلوا، ولقيهم ابن جامع فقاتلهم حتى ردهم إلى مواقفهم.

ثم توافى الفعلة فثلموا السور في مواضع ونصبوا على الخندق جسراً عبر عليه المقاتلة، فانهزم الزنج عن السور واتبعهم أصحاب الموفق يقتلونهم إلى دير ابن سمعان فملكه أصحاب الموفق وأحرقوه، وقاتلهم الزنج هناك. ثم انهزموا فبلغوا ميدان الخبيث، فركب من هنالك، وانهزم عنه أصحابه وأظلم الليل ورجع الموفق بالناس، وتأخر أبو العبّاس لحمل بعض المستأمنين في السفن واتبعه بعض الزنج ونالوا من آخر السفن. وكان بهبود بإزاء مسرور البلخي فنال من أصحابه واستأمن

بعض المنهزمين من الزنج والأعراب بعثوا بذلك من عبادان والبصرة، وكان منهم قائده ريحان أبو صالح المعريّ فأمنهم الموفق وأحسن إليهم وضم ريحان إلى أبي العبّاس. وخرج في المحرّم إلى الموفق من قوّاد الخبيث وثقاته جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجان، فأحسن إليه الموفق وحمله في بعض السفن إلى قصر الخبيث، فوقف وكلم الزنوج فى ذلك وأقام الموفق أياماً استجم فيها أصحابه، فلما كان منتصف ربيع الثاني قصد مدينة الخبيث وفرّق القواد على جهاتها ومعهم النقّابون للسور، ومن ورائهم الرماة يحمونهم. وتقدم إليهم أن لا يدخلوا بعد الهزم إلاّ بإذنه، فوصلوا إلى السور وثلمّوه وحاربوا الزنج من ورائه وهزموهم، وبلغوا أبعد مما وصلوا إليه بالأمس. ثم تراجع الزنج وحاربوا من المكامن فرجع أصحاب الموفق نحو دجلة بعد أن نال منهم الزنج، ورجع الموفق إلى مدينته، ولام أصحابه على تقدمهم بغير إذنه، ثم بلغ الموفق أن بعض الأعراب من بني تميم يجلبون الميرة إلى الزنج فبعث إليهم عسكراً أثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، وجيء بالأسرى فقتلهم، وأوعز إلى البصرة بقطع الميرة فانقطعت عن الزنج بالكلية، وجهدهم الحصار وكثر المستأمنة وافترق كثير من الزنج في القرى والأمصار البعيدة، وبث الموفق دعاته فيهم، ومن أبى قتلوه وعرض المستأمنين وأحسن إليهم ليستميلهم وتابع الموفق وابنه قتال الزنج، وقتل بهبود بن عَبْد الواحد من قواد الخبيث في تلك الحروب، فكان قتله من أعظم الفتوح، وكان قتله في السفن البحرية ينصب فيها أعلاماً كأعلام الموفق، ويخايل أطراف العسكر فيصيب منهم. وأفلت في بعض الأيام من يد أبي العبّاس بعد أن كان حصل في قبضته، ثم خيل أخرى لبعض السفن طامعاً فيها فحاربوه وطعنه بعض الغلمان منها فسقط في الماء، وأخذه أصحابه فمات بين أيديهم، وخلع الموفق على الغلام الذي طعنه وعلى أهل السفينة. ولما هلك بهبود قبض الخبيث على بعض أصحابه وضربهم على ما له، فاستفسد قلوبهم، وهرب كثير منهم إلى الموفق، فوصلهم ونادى بالأمان لبقيتهم. ثم اعتزم على العبور إلى الزنج من الجانب الغربي وكانت طرقه ملتفة بالنخيل، فأمر بقطعها وأدار الخنادق على معسكره حذراً من البيات. ثم صعب على الموفق القتال من الجانب الغربي لكثرة أوعاره وصعوبة مسالكه، وما يتوجه فيها على أصحابه من خيل الزنج لقلة خبرتهم بها، فصرف قصده إلى هدم أسوارهم، وتوسعت الطرق فهدم طائفة من السور من ناحية نهر سلمى، وباشر الحرب بنفسه، واشتدّ القتال وكثرت

القتلى في الجانبين وفشت الجراح، وكانت في النهر قنطرتان يعبر منهما الزنج عند القتال، ويأتون أصحاب الموفق من ورائهم، فأمر بهدمهما فهدمتا، ثم هدم طائفة من السور ودخلوا المدينة وانتهوا إلى دار ابن سمعان من خزائن الخبيث ودواوينه. ثم تقدّموا إلى الجامع فخرّبوه وجاؤا بمنبره إلى الموفق بعد أن استمات الزنج دونه فلم يغنوا به. ثم أكثروا من هدم السور وظهرت علامات الفتح، ثم أصاب الموفّق في ذلك اليوم سهم في صدره، وذلك لخمس بقين من جمادى سنة تسع وستين، فعاد إلى عسكره. ثم صابح الحرب تقوية لقلوب الناس. ثم لزم الفراش واضطرب العسكر، واشير عليه بالذهاب إلى بغداد فأبى، فاحتجب عن الناس ثلاثة أشهر حتى اندمل جرحه. ثم ركب إلى الحرب فوجد الزنج قد سدوا ما تثلم من الأسوار، فأمر بهدمها كلها، واتصل القتال مما يلي نهر سلمى كما كان، والزنج يظنون أنهم لا يأتون إلا منها فركب يوماً لقتالهم، وبعث السفن أسفل نهر أبي الخصيب، فانتهوا إلى قصر من قصور الزنج فأحرقوه وانتهبوا ما فيه، واستنقذوا كثيراً من الساكن فيه. ورجع الموفّق آخر يومه ظافراً. ثم بكر لحربهم فوصلت المقدّمات دار أنكلاي بن الخبيث وهي متصلة بدار أبيه. وأشار ابن أبان بإجراء المياه على الساج وحفر الخنادق بين يدي العساكر، وأمر الموفق بطم الخنادق والأنهار، ورام إحراق قصره وقصده من دجلة فمنع من ذلك كثرة الحماة عنه، فأمر أن تسقف السفن بالأخشاب وتطلى بالأدوية المانعة من الإحراق. ورتب فيها أنجاد أصحابه، وباتوا على اهبة الزحف من الغد. وجاء كاتب الخبيث وهو محمد بن سمعان عشاء ذلك اليوم مستأمناً، وبكروا إلى الحرب وأمر الموفق ابنه أبا العبّاس بإحراق منازل القواد المتصلة بقصر الخبيث ليشملهم عن حمايته، وقصدت السفن المطليّة قصر الخبيث فأحرقوا الرواشن والأبنية الخارجة وعلت النار فيه ورموا بالنار على السفن فلم تؤثر فيها. ثم حصر الماء من النهر فزحفت السفن، فلما جاء الدعاة إلى القصر أحرقوا بيوتاً كانت تشرع على دجلة، واشتعلت النار فيها وقويت وهرب الخبيث وأصحابه وتركوها وما فيها. واستولى أصحاب الموفق على ذلك كله واستنقذوا جماعة من النساء، وأحرق قصر أنكلاي ابنه، وجرحا، وعاد الموفق عشاء يومه مظفراً. ثم بكر من الغد للقتال وأمر نصيراً قائد السفن بقصد القنطرة التي كان الخبيث عملها في نهر أبي الخصيب دون القنطرة التي كان اتخذها، وفرق العسكر في الجهات فدخل نصير في أول المدّ ولصق

بالقنطرة واتصل الشد من ورائه فلم يقدر على الرجوع حتى حسر الماء عنها، وفطن لها الزنج فقصدوها فألقى الملاحون أنفسهم في الماء، وألقى نصير نفسه وقاتل ابن جامع ذلك اليوم أشدّ قتال. ثم انهزم وسقط في الحريق فاحترق، ثم خلص بعد الجهد. وانصرف الموفق سالماً وأصابه مرض المفاصل واتصل به إلى شعبان من سنته، فأمسك في هذه المدة عن الحرب حتى أبلى فأعاد الخبيث القنطرة التي غرق عندها نصير وزاد فيها وأحكمها، وجعل أمامها سكراً من الحجارة ليضيق المدخل على السفن، فبعث الموفق طائفة من شرقي نهر أبي الخصيب وطائفة من بحريه ومعهم الفعلة لقطع القنطرة، وجعل أمامها سفناً مملوءة من القصب لتصيبها النار بالنفط فيحترق الجسر، وفرّق جنده على القتال وساروا لمّا أمرهم عاشر شوال، وتقدموا إلى الجسر ولقيهم أنكلاي بن الخبيث وابن أبان وابن جامع، وحاموا على القنطرة لعلمهم بما في قطعها من المضرة عليهم،

ودامت الحرب عليها إلى العشي، ثم غلبهم أصحاب الموفق عليها ونقضها النجارون ونقضوا الأثقال التي دونها وأدخلوا السفن بالقصب وأضرموها ناراً، ووافت القنطرة فأحرقتها ووصل النجارون بذلك إلى ما أرادوا.

وسهل سبيل السفن في النهر، وقتل من الزنج خلق واستأمن آخرون، وانتقل الخبيث بعد حرق قصوره ومساكن أصحابه إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، ونقل أسواقه اليه وتبين ضعفه فانقطعت عنه الميرة وفقدت الأقوات وغلت حتى أكل بعضهم بعضاً وأجمع الموفق أن يحرق الجانب الشرقي كما أحرق الغربي.

فقصد دار الهمذاني وكان حصيناً وعليه الآلات، فلما انتهى إليها تعذر الصعود لعلو السور فرموا بالكلاليب ونشبت في أعلام الخبيث وجذبوها فتساقطت، فانهزم المقاتلة وصعد النفاطون فأحرقوا ما كان عليها من الآلة، ونهبوا الأثاث والمتاع. واتصل الحريق بما حولها من الدور، واستأمن للموفق جماعة من خاصة الخبيث فأمنهم، ودلّوه على سوق عظيمة متصلة بالجسر الأول تسمى المباركة، وبها التجّار الذين بهم قوامهم، فقصدها لإحراقها وحاربه الزنج بعدها، وأضرم أصحابه النار فيها فاتصلت وبقي الحريق عامة اليومّ. ثم رجع الموفق، ثم انتقل التجّار بأمتعتهم وأموالهم إلى أعلى المدينة، ثم فعل الخبيث في الجانب الشرقي بعد هذه من حفر الخنادق وتغوير الطرق مثل ما كان فعل في الجانب الغربي، واحتفر خندقاً عريضاً حصّن به منازل أصحابه على النهر الغربي. ثم خرق الموفق باقي السور إلى النهر الغربي بعد حرب شديدة كانت

عليه، وكان للخبيث جمع من الزنج وهم أشجع أصحابه، وقد تحصنوا بحصن منيع يخرجون على أصحاب الموفق عند الحرب فيعوقونهم فأجمع على تخريبه وجمع المقاتلة عليه براً وبحراً وفرّقهم على سائر جهاته وجهات الخبيث، وأمد الخبيث الحصن بالمهلبيّ وابن جامع، فلم يغنوا عنه وانهزموا وتركوا الحصن في يدي أصحاب الموفق وهزموه وقتلوا من الزنج خلقاً، وخلصوا من الحصن كثيراً من النساء والصبيان، ورجع الموفق إلى عسكره ظافراً.

استيلاء الموفق علي الجهة الغربية:

ولما هدم الموفق سور دار الخبيث أمر بتوسعة الطرق للحرب، وأحرق الجسر الأول الذي على نهر أبي الخصيب ليمنع من مدد بعضهم بعضا، فكان في إحراقه حرب عظيمة. وأعدت لذلك سفينة ملئت قصباً وجعل فيها النفط، وأرسلت في قوة المدد، فتبادر الزنوج إليها وغرقوها. فركب الموفق إلى فوهة نهر أبي الخصيب وقصدهم من غربي النهر وشرقية إلى أن انتهوا إلى الجسر من غربية وعليه أنكلاي بن الخبيث وابن جامع فأحرقوه، وفعال مثل ذلك من الجانب الشرقي، فاحترق الجسر والحظيرة التي كانت لإنشاء السفن وسجن كان هناك للخبيث. وانحاز هو وأصحابه من الجانب الغربي، واستأمن كثير من قواده فأمّنهم وأخرجوا أرسالاً وخرج قاضيه هارباً، ووكل بالجسر الثاني من يحفظه. وأمر الموفق ابنه أبا العبّاس بأن يتجهز لإحراقه فزحف في إنجاد غلمانه ومعه الفعلة والآلات.

وكان في الجانب الغربي قبالة أبي العبّاس أنكلاي وابن جامع، وفي الجانب الغربي قبالة أسد مولى الموفق الخبيث نفسه والمهلّبي. وجاءت السفن في النهر وقاتلوا حامية الجسر فانهزم ابن جامع وأنكلاي واضرمت النار في

الجسر، ولما وافياه وهو مضطرم ناراً ألقيا أنفسهما في النهر فخلصا بعد أن غرق من أصحابهما خلق، واحترق الجسر واتصل الحريق بدورهم وقصورهم وأسواقهم وافترق الجيش في الجانبين ونهبت دار الخبيث واستنفذ من كان في حبسه من النسوة والرجال. وأخرج ما كان في نهر أبي الخصيب من أصناف السفن إلى دجلة، ونهبها أصحاب الموفّق، واستأمن أنكلاي بن الخبيث وعلم أبوه فثناه عن ذلك. واستأمن ابن سليمان بن موسى الشعراني من رؤساء قواده فأجيب بعد توقف. ولما خرج تبعه أصحاب الخبيث فقاتلهم ووصل إلى الموفق فأحسن إليه، واقتفى أثره في ذلك شبل بن سالم من قواده، وعظم على الخبيث وأوليائه استئمان هؤلاء، وصار شبل بن سالم يخرج في السرايا إلى عسكر الخبيث ويكثر النكاية فيهم.

استيلاء الموفق علي الجهة الشرقية:

وفي خلال هذه الحروب واتصالها مرن أصحاب الموفق على تخلل تلك المسالك والشعاب مع تضايقها ووعرها، وأجمع الموفق على قصد الجانب الشرقي في نهر أبي الخصيب، وندب لذلك قواد المستأمنة لخبرتهم بذلك دون غيرهم، ووعدهم بالإحسان والزيادة فأبوا وسألوه الإقالة فأبى لتتميز مناصحتهم. وجمع سفن دجلة من كل جانب، وكان فيها عشرة آلاف ملاح من المرتزقة. وأمر ابنه أبا العبّاس بقصد مدينة الخبيث الشرقية من جهاتها، فسار إلى دار المهلبي وهو في مائة وخمسين قطعة من السفن قد شحنها بأنجاد غلمانه، وانتخب عشرة آلاف مقاتل وأمرهم بالمسير حفافي النهر يشاهد أحوالهم، وبكر الموفق لثمان خلون من ذي القعدة زاحفاً للحرب، فاقتتلوا مليًّا وصبروا. ثم انهزم الزنج وقتل منهم خلق واسر آخرون فقتلوا، وقصد الموفق جمعه دار الخبيث، وقد جمع الخبيث أصحابه للمدافعة فلم يغنوا عنه وانهزموا وأسلموها فنهبها أصحاب الموفق وسبوا حريمه وبنيه وكانوا عشرين. ونجا إلى دار المهلبي ونهبها واشتغل أصحابهم جميعا بنقل الغنائم إلى السفن، فأطمع ذلك الزنج فيهم وتراجعوا وردوا الناس إلى مواقفهم. ثم صدق الموفق الحملة عشي النهار فهزم الزنج إلى دار الخبيث ورجع الناس الى معسكره، ووصله كتاب لؤلؤ غلام ابن طولون يستأذنه في القدوم عليه فأخر القتال إلى حضوره.

مقتل صاحب الزنج:

ولما وصل غلام ابن طولون في ثالث المحرم من سنة سبعين وجاء في جيش عظيم، فأحسن إليهم الموفق وأجرى لهم الأرزاق على مراتبهم، وأمره بالتأهب لقتال الخبيث. وقد كان لّما غلب على نهر أبي الخصيب وقطعت القناطر والجسور التي عليه، أحدث فيه سكراً وضيق جرية الماء ليمنع السفن من دخوله إذا حضر، ويتعذر خروجها أمامه. وبقي جريه لا يتهيأ الا بإزالة ذلك السكر. فحاول ذلك مدة والزنج يدافعون عنه. ودفع الموفّق لذلك لؤلؤاً في أصحابه ليتمرنوا كلى حرب الزنج في تلك المسالك والطرق فأحسنوا البلاء فيها ووصلهم، وألح على العسكر، وهو كل يوم يقتل مقاتلهم ويحرق مساكنهم ويقتل المستأمنة منهم. وقد كان بقي بالجهة الغربية بقية من أبنية ومزارع، وبها جماعة يحفظونها. فسار اليهم أبو العبّاس وأوقع بهم، و لم

يسلم منهم إلا الشريد. ثم غلبهم على السكر وأحرقه واعتزم على لقاء الخبيث وقدّم ابنه أبا العبّاس إلى دار المهلّب وأضاف المستأمنة إلى شبل بن سالم، وأمرهم أن ينتظروا بالقتال نفخ البوق، ونصب علمه الأسود على دار الكرماني. ثم صمد إليهم وزحف الناس في البر والنهر، ونفخت الأبواق، وذلك لثلاث بقين من المحّرم سنة سبعين واشتد القتال وانهزم الزنج ومات منهم قتلاً وغرقاً ما لا يحصى واستولى الموفق على المدينة واستنقذوا الأسرى وأسروا الخليل وابن أبان وأولادهما وعيال أخيهما، ومضى الخبيث ومعه ابنه أنكلاي وابن جامع، وقواد من الزنج إلى موضع بنهر السفياني، كانوا أعدوه ملجأ إذا غلب على المدينة، واتبعه الموفق في السفن ولؤلؤ في البر. ثم اقتحم النهر بفرسه واتبعه أصحابه فأوقعوا بالخبيث ومن معه حتى عبروا نهر السامان واعتصموا بجبل وراءه، ورجع لؤلؤ عنهم وشكره الموفق ورفع منزلته واستبشر الناس بالفتح.

وجمع الموفق أصحابه فوبخهم على انقطاعهم عنه فاستعذروا بأنهم ظنوا انصرافه. ثم تحالفوا على الإقدام والثبات حتى يظفروا وسألوه أن ترد المعابر التي يعبرون فيها ليستميت الناس في حرب عدوهم، فوعدهم بذلك وأصبح ثالث صفر فعبى المراكب وبعثهم إلى المراكز ورد المعابر التي عبروا فيها، وتقدّم سرعان العسكر فأوقعوا بالخبيث وأصحابه ففضوا جماعة وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً وافترقوا كل ناحية. وثبت مع الخبيث لمة من أصحابه، فيهم المهلبي، وذهب ابنه أنكلاي وابن جامع وأتبع كلا منهم طائفة من العسكر بأمر أبي العبّاس بن الموفق. ثم أسر إبراهيم بن جعفر الهمذاني فاستوثقوا منه.

ثم كر الخبيث والمنهزمون معه على من اتبعهم من أهل العسكر فأزالوهم عن مواقفهم. ثم رجعوا ومضى الموفق في اتباع الخبيث إلى آخر نهر أبي الخصيب، فلقيه غلام من أصحاب لؤلؤ برأس الخبيث وسار أنكلاي نحو الديناري ومعه المهلبي. وبعث الموفق أصحابه في طلبهم فظفر بهم وبمن معهم، وكانوا زهاء خمسة آلاف، فاستوثق منهم ثم استأمن إليه ورمونة، وكان عند البطيحة قد اعتصم بمغايض وآجام هنالك يخيف السابلة ويغير على تلك النواحي، وعلى الواردين إلى مدينة الموفق. فلفا علم بموت الخبيث سقط في يده وبعث يستأمن، فأمنه الموفق فحسنت توبته ورد الغصوبات إلى أهلها ظاهراً

، وأمر الموفق بالنداء برجوع الزنج إلى موطنهم فرجعوا وأقام الموفق بمدينة الموفقية ليأمن الناس بمقامه وولّى على البصرة والأبلة وكور دجلة محمد بن حماد، وقدم ابنه أبا العباس إلى بغداد فدخلها منتصف جمادى من سنة سبعين، وكان خروج صاحب الزنج آخر رمضان سنة خمس وخمسين، وقتله أول صفر سنة سبعين لأربع عشرة سنة وأربعة أشهر من دولته.

ولاية ابن كنداج على الموصل:

لّما سار أحمد بن موسى بن بغا إلى الجزيرة وولّى موسى بن أتامش على ديار ربيعة فتغّير لذلك إسحق بن كنداج، وفارق عسكره وأوقع بالأكراد اليعقوبية وانتهب أموالهم ثم لقي ابن مساور الخارجي فقتله، وسار إلى الموصل، فقاطع أهلها على مال، وكان عليهم علي بن داود قائداً، فدفعه وسار ابن كنداج إليه، فخرج علي بن داود واجتمع حمدان بن حمدون الثعلبي، وإسحق بن عمر بن أيوب بن الخطاب الثعلبي العدوي، فكانوا

خمسة عشر، وجاءهم علي بن داود فلقيهم إسحق في ثلاثة آلاف فهزمهم بدسيسة من أهل مسيرتهم، وسار حمدان وعلي بن داود إلى نيسابور وابن أيوب إلى نصيبين، وابن كنداج في اتباعه، فسار عنها واستجار بعيسى ابن الشيخ الشيباني وهو بآمد وأبي العز مرسى بن زرارة وهو عامل أردن، فأنجداه وبعث المعتمد إلى إسحق بن كنداج بولاية الموصل، فدخلها وأرسل إليه ابن الشيخ وابن زرارة مائة ألف دينار على أن يقرهم على أعمالهم فأبى، فاجتمعوا على حربه فرجع إلى إجابتهم. ثم حاربوه سنة سبع وستين. واجتمع لحربه إسحق بن أيوب وعيسى ابن الشيخ وأبو العز بن حمدان بن حمدون في ربيعة وثعلب وبكر واليمن، فهزمهم ابن كنداج إلى نصيبين ثم إلى آمد، وحمر عسكر الحصار ابن الشيخ بآمد وكانت بينهم حروب.

حروب الخوارج بالموصل:

كان مساور الخارجي قد هلك في حروبه مع العساكر سنة ثلاث وستين بالبوارسح،

وأراد أصحابه ولاية محمد بن حرداد بشهرزور، فامتنع وبايعوا أيوب بن حيان المعروف بالغلام، فقتل فبايعوا هرون بن عَبْد الله البجلي وكثر اتباعه، واستولى على بلد الموصل، وخرج عليه من أصحابه محمد بن حرداد، وكان كثير العبادة والزهد يجلس على الأرض ويلبس الصوف الغليظ ويركب البقر لئلا يفر من الحرب، فنزل واسط وجاء وجوه أهل الموصل فسار إليهم وهرون غائب في الأحشاد، فبادر إليه واقتتلا وانهزم هرون وقتل من أصحابه نحو مائتين. وقصد بني ثعلب مستنجداً بهم فأنجدوه وسار معه حمدان بن حمدون، ودخل معه الموصل، ودخل ابن حرداد واستمال هرون أصحابه، ورجع إلى الحديثة، ولم يبق مع ابن حرداد إلا قليل من الأكراد فمالوا إلى هرون بالموصل، فخرج وأوقع بابن حرداد فقتله وأوقع بالأكراد الجلالية، وكثر أتباعه وغلب على القرى والرساتيق، وجعل على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المصعدة والمنحدرة، ووضع في الرساتيق من يقبض اعتبار الغلات، واستقام أمره. ثم جاء بنو ساسان لقتاله سنة ست وسبعين، واستنجد بحمدان بن حمدون فجاءه بنفسه، وسار إلى نهر الخازن، وانهزمت طليعتهم وانهزموا بانهزامها، وجاء بنو شيبان إلى فسا فانجفل أهلها وأقام هرون وأصحابه بالحديثة.

أخبار رافع بن هرثمة من بعد الخجستاني:

لّما قتل أحمد الخجستاني سنة ثمان وستين كما قدمناه اجتمع أصحابه على رافع بن هرثمة من قواد محمد بن طاهر، وكان رافع هذا لّما استولى يعقوب الصفار على نيسابور، وزال بنو طاهر، صار رافع في جملته، وصحبه إلى سجستان. ثم أقصاه عن خدمته وعاد الى منزله بنواحي جيّ، حتى استخدمه الخجستاني وجعله صاحب جيشه. فلما قتل الخجستانيّ اجتمع الجيش عليه بهراة وأمروه، وسار إلى نيسابور فحاصر بها أبا طلحة بن شركب، وقد كان وصل إليها من جرجان، فضيق عليه المخنق، ففارقها أبو طلحة إلى مرو، وولّى على هراة ابن المهدي، وخطب لمحمد بن طاهر بمرو وهراة، وزحف إليه عمرو بن الليث فهزمه وغلبه على ما بيده. واستخلف على

مرو محمد بن سهل بن هاشم، وخرج أبو طلحة إلى مكمد، واستعان بإسمعيل بن أحمد الساماني، فأمده بعسكر وأخرج محمد بن سهل، وخطب بها لعمرو بن الليث سنة إحدى وسبعين. ثم قلّد الموفّق تلك السنة أعمال خراسان لمحمد بن طاهر، وهو ببغداد، فاستخلف عليها رافع بن الليث وأقّر على ما وراء النهر نصر بن أحمد، ووردت كتب الموفّق بعزل عمرو بن الليث ولعنه، فسار رافع إلى هراة وقد كان بها محمد بن المهدي خليفة أبي طلحة، فثار عليه يوسف بن معبد. فلما جاء رافع استأمن إليه فأمنه واستعمل على هراة مهدي بن محسن. ثم سار رافع إلى أبي طلحة بمرو بعد أن استمد إسمعيل بن أحمد وأمده بنفسه في أربعة آلاف فارس، واستقدم علي بن محسن المروروزي فقدم عليه في عسكره وساروا جميعاً إلى أبي طلحة بمرو سنة إثنتين وسبعين، فهزموه وعاد إسمعيل إلى بخارى ولحق بأبي طلحة وبها مهدي، فاجتمع معه على مخالفة رافع فهزمهما رافع ولحق أبو طلحة بعمرو بن الليث. وقبض على مهدي سنة إثنتين وسبعين ثم خلى سبيله، وسار رافع إلى خوارزم فجبى أموالها ورجع إلى نيسابور.

مغاضبة المعتمد للموفّق ومسيرة ابن طولون وما نشأ من الفتنة لأجل ذلك:

كان الموفّق حدثت بينه وبين ابن طولون وحشة وأراد عزله، وبعث موسى بن بغا في العساكر إليه سنة إثنتين وستين فأقام بالرقة عشرة أشهر، واختلف عليه العسكر فرجع. وكان الموفّق مستبداً على أخيه المعتمد منذ قيامه بأمر دولته مع ما كان من الكفاية والغناء، إلا أنه كان المعتمد يتأفف من الحجر، وكتب إلى أحمد بن طولون في السر يشكو ذلك وأشار عليه باللحاق إليه بمصر لينصره، وبعث عسكراً إلى الرقة فى انتظاره وكان الموفق مشغولاً بحرب الزنج، فسار المعتمد منتصف سنة تسع وستين في القوّاد مظهراً أنه يتصيد، ثم سار إلى أعمال الموصل وعليها يومئذ وعلى سائر الجزيرة أصحاب كنداج وكتب صاعد بن مخلد وزير الموفّق عن الموفّق إلى

إسحق برده عن طريقه، والقبض على من معه من القواد. فلما وصل المعتمد إلى عمله أظهر إسحق طاعته، فارتحل في خدمته إلى أول عمل ابن طولون. ثم اجتمع بالمعتمد والقواد وفيهم نيزك وأحمد بن خاقان وغيرهم فعذلهم فى المسير إلى ابن طولون والمقام تحت يده، وطال الكلام بينهم ملياً. ثم دعاهم إلى خيمته للمناظرة في ذلك أدباً مع المعتمد، وقيدهم وجاء إلى المعتمد فعدله في المسير عن دار خلافته ومغاضبة أخيه، وهو في دفاع عدوه ومن يريد خراب ملكه، وحمل الجميع إلى سامّرا وقطع ابن طولون الدعاء للموفّق على منابره وأسقط إسمه من الطرز، وغضب الموفّق بسبب ذلك على أحمد بن طولون، وحمل المعتمد على أن يشار بلعنه على المنابر. وولّى إسحق بن كنداج على أعماله وفوض إليه من باب الشماسية إلى أفريقية، وكان لؤلؤ مولى ابن طولون عاملاً له على حمص وحلب وقنسرين وديار مصر من الجزيرة. وكان مترله بالرقة، فانتقض عليه في هذه السنة، وسار إلى بالس فنهبها، وكتب إلى الموفق فمر بفرقيسيا وبها ابن صَفْوان العقيلي، فحاربه وغلبه عليها وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق. ووصل إلى الموفّق في عسكر عظيم وهو يقاتل صاحب الزنج فأكرمه الموفق وأحسن هو الغناء في تلك الحرب. ثم بعث ابن طولون في تلك السنة جيشه إلى مكة لإقامة

الموسم، وعامل مكة هرون بن محمد ففارقها خوفاً منهم، وبعث الموفق جعفراً في عسكر فقوي بهم هرون ولقوا أصحاب ابن طولون فهزموهم وصادروا القائد على ألف دينار. وقرىء الكتاب في المسجد بلعن ابن طولون، وانقلب أهل مصر إلى بلدهم آمنين. و لم يزل لؤلؤ في خدمة الموفق إلى أن قبض عليه سنة ثلاث وسبعين، وصادره على أربعمائة ألف وأدبر أمره ثم، ثم عاد إلى مصر آخر أيام هرون بن حماديه.

وفاة ابن طولون ومسير ابن كند اج إلى الشام:

وفي سنة سبعين انتقض بازمان الخادم بطرسوس وقبض على نائبه، وسار إليه أحمد بن طولون في العساكر وحاصروه فامتنع عليه، فرجع إلى أنْطاكِية فمرض هنالك ومات لست وعشرين سنة من ولايته على مصر ووِلّي بعده ابنه خمارويه،

وانتقضت عليه دمشق فبعث إليها العساكر وعادت إلى طاعته. وكان يومئذ بالموصل والجزيرة إسحق بن كنداج وعلى الأنبار والرحبة وطريق الفرات محمد بن أبي الساج، فكاتبا الموفّق في المسير إلى الشام واستمداه، فأذن لهما ووعدهما بالمدّد، فسارا وملكا ما يجاورهما مرّ بلاده، واستولى إسحق على أنْطاكِية وحلب وحمص، وكاتبه نائب دمشق، واجتمع الخلاف على خمارويه فسار إليه فهرب إلى شيزر وهي في طاعة خمارويه، ودمشق. وجاء أبو العباس بن الموفّق وهو المعتضد من بغداد بالعساكر فكبس شيزر وقتل من جند ابن طولون مقتلة عظيمة ولحق فلهم بدمشق وأبو العباس في اتباعهم، فجلوا عنها وملكها في شعبان سنة إحدى وسبعين. ورجعت عساكر خمارويه إلى الرملة فأقاموا بها وزحف إسحاق بن كنداج إلى الرقة وعليها وعلى الثغور والعواصم ابن دعاص من قبل خمارويه، فقاتله وكان الظهور لإسحاق. ثم زحف أبو العباس المعتضد من دمشق إلى الرملة، وسار خمارويه من مصر واجتمع بعساكره في الرملة على ماء الطواحين. وكان المعتضد قد استفسد لابن كنداج وابن أبي الساج ونسبهما إلى الجبن في انتظارهما إياه في محاربة خمارويه.

وعبى المعتضد عساكره ولقي خمارويه وقد أكمن له فانهزم خمارويه أولا وملك المعتضد خيامه، وشغل أصحابه بالنهب فخرج عليهم الكمين فانهزم المعتضد إلى دمشق، فلم يفتح له أهلها، فراح إلى طرسوس وأقام العسكران يقتتلان دون أمير، وأقام أصحاب خمارويه عليهم أخاه سعدا مكانه، وذهبوا إلى الشام فملكوه أجمع وأذهبوا منه دعوة الموفق وابنه. وبلغ الخبر إلى خمارويه فسر وأطلق الأسرى الذين كانوا معه. ثم سار أهل طرسوس بأبي العباس فأخرجوه، وسار إلى بغداد وولوا عليهم مازيار فاستبد بها. ثم دعا لخمارويه بعد أن وصله بمال جليل يقال أنفذ إليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحا كثيرا فدعا له ثم بعث إليه بخمسين ألف دينار.

وفاة صاحب طبرستان وولاية أخيه:

ثم توفي الحسن بن زيد العلويّ صاحب طبرستان في رجب سنة سبعين لعشرين سنة من ولايته، ووِلّي مكانه أخوه وكان على قزوين أتكوتكين، فسار إلى الريّ في أربعة

آلاف فارس، وسار إليه محمد بن زيد في عالم كثير من الديلم والخراسانية، والتقوا فانهزم محمد بن زيد وقتل من عسكره نحو من ستة آلاف وأسر ألفان، وغنم أتكوتكين معسكراً وملك الري وأغرم أهلها مائة ألف دينار، وفرق عماله عليها، وسار محمد بن زيد إلى جرجان، ثم عزل عمرو بن الليث عن خراسان، وولّى عليها محمد بن طاهر، واستخلف محمد بن رافع بن هرثمة، وسار سنة خمس وسبعين إلى جرجان، وهرب عنها ليلاً إلى استراباد فحاصره رافع فيها سنتين حتى أجهده الحصار ففرّ عنها ليلاً إلى سارية، فاتبعه فهرب عن طبرستان سنة سبع وسبعين واستأمن رستم بن قارن إلى رافع بطبرستان فأمنه، وبعث إلى سالوس محمد بن هرون نائباً عنه وأتاه بها عليّ بن كاني مستأمناً. ثم جاءه محمد وحاصرهما بسالوس، وانقطعت أخبارهما عن نافع. ثم جاءه الخبر بحصارهما فسار إليهما، فارتحل محمد بن زيد إلى أرض الديلم فدخل رافع خلفه وأثخن فيها نهباً وتخريباً إلى حدود قزوين، وعاد إلى الري إلى أن توفي المعتمد سنة تسع وتسعين.

فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج وابن طولون:

كان ابن أبي الساج في أعماله بقنسرين والفرات والرحبة ينافس إسحق وهو على الجزيرة، ويريد التقدم عليه، فحدثت لذلك منهما فتنة. فخطب ابن أبي الساج لخمارويه بن طولون. وبعث ابنه ديوداد رهينة إليه فبعث إليه خمارويه أموالاً جمّة وسار إلى الشام، واجتمع بابن أبي الساج ببالس، ثم عبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقّة، وهزم إسحق بن كنداج، واستولى على أعماله. وعبر خمارويه ونزل الرقّة. ومضى إسحق إلى قلعة ماردين وحاصره ابن أبي الساج بها، ثم أفرج عنها وسار إلى سنجار لقتال بعض الأعراب، فسار ابن كنداج من ماردين إلى الموصل، فاعترضه ابن أبي الساج، وهزمه، فعاد إلى ماردين، واستولى ابن أبي الساج على الجزيرة والموصل، وخطب لخمارويه ثم لنفسه بعده، وبعث غلامه فتحاً إلى أعمال الموصل لجباية الخراج. وكان اليعقوبية من السراة قريباً منه فهادنهم، ثم

غدر بهم فكبسهم، وجاءهم أصحابهم من غير شعور بالواقعة، فحملوا على أصحاب فتح فاستلحموهم. ثم انتقض ابن أبي الساج واستبيح عسكره. وكان له بحمص مخلف من أثقاله، فقدم خمارويه طائفة من العسكر إليها، فاستولوا على ما فيها، ومنعوا ابن أبي الساج من دخولها، فسار إلى حلب ثم إلى الرقة وخمارويه في اتباعه، فعبر الفرات إلى الموصل، وجاء خمارويه إلى بلد وأقام بها، وسار ابن أبي الساج إلى الحُدْيثة. وكان إسحق بن كنداج قد لحق بخمارويه من ماردين، فبعث معه جيشاً وجماعة من القواد، وسار في طلب ابن أبي الساج، وقد عبر دجلة، فجمع ابن كنداج السفن ليوطىء جسراً للعبور. وبينما هو في ذلك أسرى ابن أبي الساج من تكريت إلى الموصل، فوصلها الرابعة، وسار ابن كنداج في اتّباعه، فاقتتلوا بظاهر الموصل وابن أبي الساج في ألفين، فصبر واشتد القتال، وانهزم ابن كنداج وهو في عشرين ألفاً. فخلص إلى الرقة ومحمد ابن أبي الساج في اتّباعه. وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى بلاد خمارويه بالشام، فأمره بالتوقف إلى وصول المدّد من عنده، ومضى ابن كنداج إلى خمارويه فجاء بجيوشه إلى الفرات، وتوافق مع ابن أبي الساج والفرات بينهما. ثم عبرت طائفة من عسكر ابن كنداج فأوقعوا بطائفة من عسكر ابن أبي الساج فانهزموا إلى

الرقّة، فسار ابن أبي الساج عن الرقّة إلى بغداد سنة ست وسبعين في ربيع منها، فأكرمه الموفّق ووصله واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة من أعمال الجزيرة، وأقام بها وولّى الموفّق محمد بن أبي الساج على أذربيجان، فسار إليها فخرج إليه عَبْد الله بن الحسين الهمذاني عامل مراغة ليصدّه فهزمه ابن أبي الساج فحاصره وأخذ منه مراغة سنة ثمان وسبعين وقتله، واستقرّ ابن أبي الساج في عمله بأذربيجان.

أخبار عمرو بن الليث :

كان عمرو بن الليث بعد مهلك أخيه يعقوب قد ولاّه الموفّق خراسان وأصبهان وسجستان والسّند وكرمان والشرطة ببغداد، كما كان أخوه، وقد ذكرنا ذلك قبل. وكان عامله على فارس ابن الليث فانتقض عليه سنة ثمان وستين، فسار عمرو لحربه فهزمه واستباح عسكره ونهب اصطخر ثم ظفرت جيوشه بمحمد وأسره وحبسه بكرمان، فأقام بها ثم بعث إلى أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف وهو بأصبهان يطلبه

بالمال. فبعث إليه بالأموال، وبعث عمرو إلى الموفّق بثلثمائة ألف دينار، وبخمسين منا من المسك ومثلها من العنبر ومائتين من العود، وثلثمائة ثوب من الوشي ومن آنية الذهب والفضة والدواب والغلمان قيمة مائة ألف دينار. واستأذنه في غزو محمد بن عبيد الكرديّ رامهرمز فأذن له، فبعث قائداً من جيشه إليه فأسره وجاء به إلى عمرو، ثم عزل المعتمد سنة إحدى وستين عمرو بن الليث عما كان قلّده من الأعمال، وأدخل إليه الحاج من أهلها عند منصرفهم من مكة، فأعلمهم بعزله، وأنه قد ولى على خراسان محمد بن طاهر، وأمر بلعن عمرو على المنابر. وجهز مخلد بن صاعد إلى فارس لحرب عمرو، واستخلف محمد بن طاهر على خراسان رافع بن هرثمة. وكتب المعتمد إلى أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف يأمره بقتاله، وبعث إليه الجيوش فاقتتلوا مع عمرو، وكان في خمسة عشر ألف مقاتل، فانهزم عمرو وخرج قائده الديلميّ، وقتل مائة من أعيانهم وأسر ثلاثة آلاف، فاستأمن منهم وغنموا من عسكره ما لا يحصى. ثم زحف الموفّق سنة أربع وسبعين إلى فارس لحرب عمرو فأنفذ عمرو ابنه محمدا إلى أرّجان في العساكر، وعلى مقدمته أبو طلحة بن شركب وعباس بن إسحق إلى سيراف، واستأمن أبو طلحة إلى الموفّق ففت ذلك في عضد عمرو، وعاد إلى كرمان واستراب الموفّق بأبي طلحة فقبض عليه قريباً من شيراز، وجعل ماله لابنه أبي العبّاس المعتضد، وسار في طلب عمرو فخرج من كرمان إلى سجستان. ومات ابنه محمد بالمفازة، ورجع عنه الموفق، وسار رافع بن الليث من خراسان، وغلب محمد بن زيد على طبرستان كما قدمناه، (وقدم عليه هنالك علي بن الليث هو وابناه المعدل والليث (بن حسن أخيه عليّ بكرمان، ثم قتله رافع سنة ثمان وستين.)

مسير الموفق إلي أصبهان والجبل:

كان كاتب أتكوتكين أنهى إلى المعتضد أن له مالاً عظيماً ببلاد الجبل، فتوجّه لذلك فلم يجد شيئاً. ثم سار إلى الكرخ ثم إلى أصبهان يريد أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف،

فتنحى أحمد عن البلد بعسكره، وترك داره بفرشها لنزل الموفّق عند قدومه، ثم رجع الموفّق إلى بغداد.

قبض الموفق على ابنه أبي العبّاس المعتضد ثم وفاته وقيام ابنه أبي العبّاس بالأمر بعده:

كان الموفّق بعد رجوعه من أصبهان نزل واسط، ثم عاد إلى بغداد، وترك المعتمد بالمدائن، وأمر ابنه أبا العبّاس وهو المعتضد بالمسير إلى بعض الوجوه فأبى، فأمر بحبسه، ووكل به. وركب القوّاد من أصحابه واضطربت بغداد فركب الموفّق إلى الميدان وسكن الناس وقال: إني احتجت إلى تقويم ابني فقومته فانصرف الناس، وذلك سنة ست وسبعين. وكان عند منصرفه من الجبل قد أشتد به وجع النقرس، ولم يقدر على الركوب، فكان يحمل في المحفّة، ووصل إلى داره في صفر من سنة سبع، وطال مرضه وبعث كاتبه أبا الصقر ابن بلبل إلى الميدان، فجاء بالمعتمد وأولاده وأنزله بداره، ولم يأت دار الموفّق، فارتاب الأولياء لذلك، وعمد غلمان أبي العبّاس فكسروا الأقفال المغلقة عليه، وأخرجوه وأقعدوه عند رأس أبيه وهو يجود بنفسه، فلما فتح عينه قربه وأدناه وجمع أبو الصقر عنده القواد والجند. ثم تسامع الناس أن الموفق حي فتسللوا عن أبي الصفر وأولهم محمد بن أبي الساج، فلم يسع أبا الصقر إلا الحضور بدار الموفّق، فحضر هو وابنه وأشاع أعداء أبي الصقر أنه هرب بمال الموفّق إلى المعتمد، فنهبوا داره، واخرجت نساؤه حفاة عراة، ونهب ما يجاوره من الدور، وفتقت السجون، ثم خلع الموفّق على ابنه أبي العبّاس وأبي الصقر، وركب إلى مترلهما وولّى أبو العبّاس غلامه بدار الشرطة. ثم مات لثمان بقين من صفر سنة ثماني وسبعين ودفن بالرصافة، واجتمع القوّاد فبايعوا ابنه أبا العبّاس المعتضد بالله، واجتمع عليه أصحاب أبيه ثم قبض المعتضد على أبي الصقر ابن بلبل وأصحابه، وانتهبت منازلهم، وولّى عبدالله بن سليمان بن وهب الوزارة، وبعث محمد بن أبي الساج إلى واسط ليرد غلامه وصيفاً إلى بغداد فأبى وصيف وسار إلى السوس فأقام بها.

ا لقرامطة

ابتداء أمر القرامطة

كان ابتداء أمرهم فيما زعموا أن رجلاً ظهر بسواد الكوفة سنة ثمان وسبعين ومائتين يتسم بالزهد، وكان يدعى قرمط يقال لركوبه على ثور كان صاحبه يدعى كرميطة فعرب، وقيل بل إسمه حمدان ولقبه قرمط. يقال وزعم أنه داعية لأهل البيت للمنتظر منهم. واتبعه العبّاس فقبض عليه الهيصم عامل الكوفة وحبسه، ففر من حبسه وزعم أن الإغلاق لا يمنعه. ثم زعم أنه الذي بشربه أحمد بن محمد بن الحنفية، وجاء بكتاب تناقله القرامطة، فيه بعد البسملة: يقول الفرح بن عثمان من قرية نصرانة أنه داعية المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل. وإن المسيح تصور له في جسم إنسان فقال له إنك الداعية وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح القدس، وعرّفه أنّ الصلاة أربع ركعات قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان بالتكبير في افتتاحه، وشهادة التوحيد مرتين، ثم شهادة بالرسالة لآدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم عيسى ثم محمد صلوات الله عليهم، ثم لأحمد بن محمد بن الحنفية ويقرأ الاستفتاح في كل ركعة وهو من المترل على أحمد بن محمد بن الحنفية، والقبلة بيت المقدس والجمعة يوم الأثنين، ولا يعمل فيه شيء. والسورة التي تقرا فيها: الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لأوليائه بأوليائه، قل إنّ الأهلّة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا

عبادي سبيلي، اتقوني يا أولي الألباب، وأنا الذي لا اسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي وفي نعمتي، ومن زال عن أمري وكذّب رسلي أخلدته مهاناً في عذابي وأتممت أجلي وأظهرت على ألسنة رسلي. فأنا الذي لم يعل جبار إلا وضعته وأذللته، فبئس الذي أصر على أمره، ودام على جهالته. وقال: لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك فم الكافرون. ثم يركع ويقول في ركوعه مرتين: سبحان ربي وربّ العزة وتعالى عما يصف الظالمون، وفي سجوده: الله أعلى مرتين، الله أعظم مرة، والصوم مشروع يوم المهرجان، والنيروز. والنبيذ حرام، والخمر حلال، والغسل من الجنابة كالوضوء. ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخالب، ومن خالفهم

وحارب وجب قتله، وإن لم يحارب أخذت منه الجزية وانتهى. إلى غير ذلك من دعاوى شنيعة متعارضة يهدم بعضها بعضاً، وتشهد عليهم بالكذب، وهذا الفرح بن يحيى الذي ذكر هذا أول الكتاب أنه داعية القرامطة يلقب عندهم ذكرويه بن مهرويه. ويقال: إنّ ظهور هذا الرجل كان قبل مقتل صاحب الزنج، وإنه سار إليه على الأمان، وقال له: إنّ ورائي مائة سيف، فتعال نتناظر فلعلنا نتفق ونتعاون. ثم تناظرا فاختلفا وانصرف قرمط عنه، وكان يسمي نفسه القائم بالحق. وزعم بعض الناس أنه كان يرى رأي الأزارقة من ا لخوارج.

فتنة طرسوس:

قد تقدّم لنا انتقاض بازمان بطرسوس على مولاه أحمد بن طولون، وأنه حاصره فامتنع عليه، وأنه راجع بعد طاعة ابنه خمارويه مما حمل إليه من الأموال والأمتعة والسلاح، فاستقام أمره بطرسوس مدة، وغزا سنة ثمان وسبعين بالصائفة مع أحمد الجعفي وحاصروا اسكندا فأصيب بحجر منجنيق، فرجع وهلك في طريقه، ودفن بطرسوس. وكان استخلف ابن عجيف فأقره خمارويه وأمده بالخيل والسلاح والمال، ثم عزله واستعمل عليها ابن عمه ابن محمد بن موسى بن طولون. ولما توفي الموفّق نزع خادم من خواصه إسمه راغب إلى الشكّ، وطلب المقام بالثغر للجهاد فأذن له المعتضد، فسار إلى طرسوس وحط أثقاله بها وسار إلى لقاء خمارويه بدمشق فأكرمه واستجلب أنسة، فطال مقامه وألهم أصحابه بطرسوس أنه قبض عليه، فأوصوا أهل البلد في ذلك فوثبوا بأميرهم محمد بن موسى حتى يطلق لهم راغب، وبلغ الخبر إلى خمارويه فأطلقه فجاء إليهم ووبخهم على فعلهم، فأطلقوا محمد بن موسى، وسار عنهم إلى بيت المقدس فأعادوا ابن عجيف إلى ولايته.

فتنة أهل الموصل مع الخوارج:

قد تقدّم لنا أن هرون بن سليمان كان على الشراة من الخوارج، وكان بنو شيبان يقاتلونهم ويغيرون على الموصل. فلما كانت سنة تسع- وسبعين جاء بنو شيبان لذلك وأغاروا على نينوى وغيرها من الأعمال، فاجتمع هرون الشاري في الخوارج، وحمدان

بن حمدون الثعلبي على مدافعتهم. وكان مع بني شيبان هرون بن سيما مولى أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيبانيّ، بعثه محمد بن إسحق بن كنداجق والياً على الموصل عندما مات أبوه إسحق، وولّي مكانه على

أعماله بالموصل وديار ربيعة فلم يرضه أهل الموصل وطردوه، فسار إلى بني شيبان مستنجداً بهم، فلما التقى الجمعان انهزم بنو شيبان أولاً، واشتغل أصحاب حمدان والخوارج بالنهب، فكر عليهم بنو شيبان وظفروا بهم. وكتب هرون بن سيما إلى محمد بن إسحق بن كنداجق يستمده، فسار بنفسه وخشيه أهل الموصل، فسار بعضهم إلى بغداد يطلبون عاملاً يكفيهم أمر ابن كنداجق ومروا في طريقهم بمحمد بن يحيى المجروح الموكل بحفظ الطريق فألفوه وقد وصل إليه بولاية العهد بالموصل، فبادر ملكها، وتواثق ابن كنداجق في مكانه، وبعث إلى خمارويه بالهدية، ويسأل إمارة الموصل كما كان من قبل، فلم يجبه إلى ذلك، ثم عزل المجروح وولّى بعده عليّ بن داود الكرديّ.

الصوائف

الصوائف أيام المعتمد

وصل الخبر في سنة سبع وخمسين بأن ملك الروم بالقسطنطينية ميخاييل بن روفيل وثب عليه قريبه مسك، ويعرف بالصقلي، فقتله لأربع وعشرين سنة من ملكه، وملك مكانه. وفي سنة تسع وخمسين خرجت عساكر الروم فنازلوا سميساط، ثم نازلوا مليطة، وقاتلهم أهلها فانهزموا، وقتل بطريق من بطارقتهم. وفي سنة ثلاث وستين استولى الروم على قلعة الصقالبة، وكانت ثغراً لطرسوس وتسمى قلعة كركرة فرد المعتمد ولاية ثغر طرسوس لابن طولون، وكان أحمد بن طولون قد خطب ولايتها من الموفّق يريد أن يجعلها ركاباً لجهاده لخبرته بأحوالها. وكان يردد الغزو من طرسوس إلى بلاد الروم قبل ولاية مصر، فلم يجبه الموفّق، وولّى عليها الموفّق محمد بن هرون الثعلبيّ، واعترضه الشراة أصحاب مساور وهو مسافر في دجلة فقتلوه، فولّى مكانه أماجور بن أولغ بن طرخان من الترك، فسار إليها وكان غراً جاهلاً ،فأساء السيرة ومنع أقران أهل كركرة ميرتهم، وكتبوا إلى أهل طرسوس يشكون فجمعوا لهم خمسة عشر ألف دينار، فأخذها أماجور لنفسه، وأبطأ على أهل القلعة شأنها. فنزلوا

عنها وأعطوها الروم، وكثر أسف أهل طرسوس لذلك بما كانت ثغرهم وعيناً لهم على العدو، وبلغ ذلك المعتمد فكتب لأحمد بن طولون بولايتها وفوض إليهم أمر الثغور، فوليها واستعمل فيها من يحفظ الثغر ويقيم الجهاد، وقارن ذلك وفاة أماجور عامل دمشق، وملك ابن طولون الشام جميعها كما ذكرناه من قبل. وفي سنة أربع وستين غزا بالصائفة عَبْد الله بن رشيد بن كاوس في أربعين ألفاً من أهل الثغور الشامية، فأثخن فيهم وغنم ورجع، فلما رحل عن البدندون خرج عليه بطريق سلوقية، وقرّة كوكب وحرسية وأحاطوا بالمسلمين، فاستمات المسلمون واستلحمهم الروم بالقتل، ونجا فلّهم إلى الثغر، وأسر عَبْد الله بن كاوس وحمل إلى القسطنطينية، وفي سنة خمس وستين خرج خمسة من بطارقة الروم إلى أدنة فقتلوا وأسروا والي الثغور أوخرد فعزل عنها وأقام مرابطاً، وبعث ملك الروم بعبد الله بن كاوس ومن معه من الأسرى إلى أحمد بن طولون، وأهدى إليه عدة مصاحف. وفي سنة ست وستين لقي أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقلية فظفر الروم بهم ولحق من سلم منهم بصقلية، وفيها خرجت الروم على ديار ربيعة واستنفر الناس ففروا ولم يطيقوا دخول

الدرب لشدة البرد فيها. وغزا عامل ابن طولون على الثغور الشامية في ثلثمائة من أهل طرسوس، واعترضهم أربعة آلاف من الروم من بلاد هرقل فنال المسلمون منهم أعظم النيل. وفي سنة ثمان وستين خرج ملك الروم، وفيها غزا بالصائفة خلص الفرغانيّ عامل ابن طولون على الثغور الشامية فأثخن ورجع. وفي سنة سبعين زحف الروم في مائة ألف ونزلوا قلمية على ستة أميال من طرسوس فخرج إليهم بازيار فهزمهم وقتل منهم سبعين ألفاً وجماعة من البطارقة وقتل مقدمهم بطريق البطارقة، وغنم منهم سبع صلبان ذهباً وفضة، وكان أعظمها مكللاً بالجواهر. وغنم خمسة عشر ألف دابة، ومن السروج والسيوف مثل ذلك، وأربع كراس من ذهب، ومائتين من فضّة وعشرين علماً من الديباج وآنية كثيرة. وفي سنة ثلاث وسبعين غزا بالصائفة بازيار وتوغل في أرض الروم وقتل وغنم وأسر وسبى وعاد إلى طرسوس. وفي سنة ثمان وسبعين دخل أحمد الجعفي طرسوس وغزا مع بازيار

بالصائفة ونازلوا إسكندا فأصيب بازيار عليها بحجر منجنيق فرجع ومات في طريقه ودفن بطرسوس.

الولايات في النواحي

الولايات بالنواحي أيام المعتز

كانت الفتنة قد ملأت نواحي الدولة من أطرافها وأوساطها، واستولى بنو سامان على ما وراء النهر، والصفار على سجستان وكرمان، وملك فارس من يد عمّال الخليفة، وانتزع خراسان من بني طاهر وكلهم مع ذلك يقيمون دعوة الخليفة. وغلب الحسن بن زيد على طبرستان وجرجان منازعاً بالدعوة ومحارباً بالديلم لابن سامان والصفّار، وعساكر الخليفة بأصبهان، واستولى صاحب الزنج على البصرة والأبلة إلى واسط وكور دجلة منازعاً للدعوة ومشاققاً، وأضرم تلك النواحي فتنة. و لم يزل الموفّق في محاربته حتى حسم علته وقطع أثره واضطرمت بلاد الموصل والجزيرة فتنة بخوارج السراة وبالقرب من بني شيبان وتغلب بالأكراد، واستولى ابن طولون على مصر والشام مقيماً لدعوة الخلافة العبّاسيّة، وابن الأغلب بأفريقية كذلك. وأمّا المغرب الأقصى والأندلس فاقتطعا عن المملكة العبّاسيّة منذ أزمان كما قلنا، و لم يكن للمعتمد مدة خلافته كلها حكم ولا أمر ونهي إنما كان مغلباً لأخيه الموفّق وتحت استبداده، و لم يكن لهما جميعاً كبير ولاية في النواحي باستيلاء من استولى عليها ممن ذكرناه آلا بعض الأجناس، فلنذكر ما وصل إلينا من هذه الولايات أيام المعتمد، فلأول ولايته استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وبعث جعلان لحرب الزنج بالبصرة فكان أمره معهم كما مرّ. ثم ولى عيسى ابن الشيخ من بني شيبان على دمشق، فاستأثر بها ومنع الخراج، وجاءه حسين الخادم من بغداد يطلب المال فاعتذر بأنه أنفقه على الجند، فكتب له المعتمد عهده في أرمينية ليقيم بها دعوته وقلد أماجور دمشق وأعمالها فسار إليها وأنفذ عيسى ابن الشيخ ابنه منصوراً لقتال أماجور في عشرين ألفاً فانهزموا وقتل منصور وسار عيسى إلى أرمينية على طريق الساحل ودخل أماجور دمشق. وفي سنة ست وخمسين سار موسى بن بغا لحرب مساور الخارجي فلقيه (ساحة جائعين) فنال الخوارج منهم. وفيها كان وثوب محمد بن واصل بن

إبراهيم التميمي على الحرث بن سيما عامل فارس، فقتله وغلب عليها كما مرّ. وفيها غلب الحسن بن زيد الطالبي على الريّ فسار إليها موسى بن بغا وغلب على عساكر الحسن، وظهر عليّ بن زيد بالكوفة وملكها، وبعث المعتمد لمحاربته كيجور التركيّ فخرج عنها إلى القادسية، ثم إلى ختان، ثم إلى بلاد بني أسد. وغزاه كيجور من الكوفة فأوقع به وعاد إلى الكوفة، ثم إلى سر من رأى. وفي سنة سبع وخمسين عقد المعتمد لأخيه الموفق على الكوفة والحرمين واليمن، ثم على بغداد والسواد إلى البصرة والأهواز، وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد الحاجب. وعقد يارجوج على ذلك لمنصور بن جعفر الخياط ونزل الأهواز. ثم عقد المعتمد حرب الزنج بالبصرة لأحمد بن المولّد، فسار إليها وقاتل الزنج. وكان بالبطائح سعيد بن أحمد الباهلي متغلباً عليها فأخذه ابن المولّد وبعث به إلى سامّرا. وفيها تغلب يعقوب الصفّار على فارس وبعض أعمال خراسان، وولاه المعتمد ما غلب عليها [*] ، وفيها غلب الحسن بن زيد على خراسان، وانتقضت على ابن طاهر أعمال خراسان، وفيها اقتطع المعتمد مصر وأعمالها ليارجوج التركيّ فولّى عليها أحمد بن طولون، ومات يارجوج لسنة بعدها، فاستبد ابن طولون بها،وكان عَبْد العزيز بن أبي دلف على الري، فخرج عليها خوفا من جيوش ابن زيد صاحب طبرستان، فبعث الحسن من قرابته القاسم بن علي بن القاسم، فأساء فيها السيرة. وفي سنة ثمان وخمسين قتل منصور بن جعفر الخياط في حرب الزنج وولى يارجوج على أعمال منصور، فولى عليها اصطيخور، وهلك في حرب الزنج، وعقد المعتمد للموفق على ديار مصر وقنسرين والعواصم. وبعثه لحرب الزنج ومعه مفلح، فهلك في تلك الحرب. وعقد المعتمد على الموصل والجزيرة لمسرور البلخي فكانت بينه وبين مساور الشيباني حروب، وكذلك بين الأكراد واليعقوبية وأوقع بهم كما مر، وفيها رجع أحمد بن واصل إلى طاعة السلطان وسلم فارس للحسن بن الفياض. وفي سنة تسع وخمسين كان مهلك اصطيخور بالأهواز، فأمر المعتمد موسى بن بغا بالمسير

لحرب الزنج كما مر، وفيها ملك يعقوب الصفار خراسان وقبض على محمد بن طاهر، وكان لمنكجور على الكوفة فسار عنها إلى سامرا بغير إذن وامر بالرجوع فأبى، وبعث المعتمد عدة من القواد فلقوه بعكبرا فقتلوه وحملوا رأسه. وفيها غلب الحسن بن زيد على قومس وملكها وكانت وقعة بين محمد بن الفضل بن نيسان وبين دهشودان بن حسان الديلمي فهزمه محمد. وفيها غلب شركب الحمال على مرو ونواحيها. وفي سنة ستين قام يعقوب بن الصفار على الحسن بن زيد فهزمه وملك طبرستان كما مر، وأخرج أهل الموصل عاملهم أتكوتكين بن أساتكين، فبعث عليهم أساتكين إسحاق بن أيوب في عشرين ألفا ومعه حمدان بن حمدون الثعلبي، فامتنع أهل الموصل منهم وولوا عليهم يحيى بن سليمان، فاستولى عليها. وفيها قتلت الأعراب منجور والي حمص فولى بكتر. وولى على أذربيجان الرذيني عمر بن علي لمّا بلغه أن عاملها العلاء بن أحمد الأزدي فلج، فلما أتى الرذيني حاربه العلاء فانهزم وقتل، واستولى الرذيني على مخلفه قريباً من ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم. وفيها سار علي بن زيد القائد بالكوفة إلى صاحب الزنج فقتله. وفى سنة إحدى وستين عقد المعتمد لموسى بن بغا على الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة، مضافاً لمّا بيده. فولاها عَبْد الرحمن بن مفلح وبعثه

لحرب ابن واصل، فهزمه ابن واصل وأسره كما مرّ، ورأى موسى بن بغا اضطراب تلك الناحية فاستعفى منها ووليها أبو الساج، وملك الزنج الأهواز من يده، فصرف عن ولايتها، ووليها إبراهيم بن سيما وولّي محمد بن أوس البلخيّ طريق خراسان. ثم جاء الصفّار إلى فارس، فغلب عليها ابن واصل كما مر، فجهز المعتمد أخاه الموفق إلى البصرة بعد أن ولاّه المعتمد عهده بعد ابنه جعفر كما ذكرناه. وبعث الموفق ابنه أبا العبّاس لحرب الزنج فتقدّما بين يديه، وفيها فارق محمد بن زيد ولاية يعقوب الصفّار، وسار ابن أبي الساج إلى الأهواز، وطلب أن يوجه الحسين بن طاهر بن عَبْد الله بن طاهر إلى خراسان، وفيها استبد نصر بن أحمد بن سامان بسمرقند وما وراء النهر، وولى أخاه إسمعيل بخارا وفيها ولّى المعتمد على الموصل الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب ، وفيها رجع الحسين بن زيد إلى طبرستان وأخرج منها أصحاب الصفّار وأحرق سالوس لممالأة أهلها الصفّار وأقطع ضياعهم للديلم، وفيها نادى المعتمد في حافي خراسان والري وطبرستان وجرجان بالنكير على ما فعله الصفّار في خراسان وابن طاهر، وأنه لم يكن عن أمره ولا ولاّه.

وفيها قتل مساور الشاربي يحيى بن جعفر من ولاة خراسان، فسار مسرور البلخي في طلبه والموفق من ورائه. وفي سنة اثنتين وستين كانت الحرب بين الموفق والصفّار، واستولى الزنج على البطيحة ودسميسان وولّى على الأهواز كما ذكرنا، وبعث مسرور البلخي أحمد بن ليتونة لحربهم كما مر. وفيها ثار أحمد بن عَبْد الله الخجستاني في خراسان بدعوة بني طاهر، وغلب عليها الصفّار إلى أن قتل كما مر ذكره. وفيها وقعت مغاضبة بين الموفق وابن طولون فبعث إليه الموفق موسى بن بغا فأقام بالرقة حولاً، وعجز عن المسير لقلة الأموال، فرجع إلى العراق. وفيها انصرف عامل الموصل وهو القطّان صاحب مفلح، فقتله الأعراب بالبريّة. وفي سنة ثلاث وستين استولى الصفّار على الأهواز، ومات مساور الشاربي وهو قاصد لقاء العساكر السلطانية بالتواريخ، فولّى الخوارج مكانه هارون بن عَبْد الله البلخى فاستولّى على الموصل. وفيها ظفر أصحاب الصفّار بابن واصل. وفيها هزم ابن أوس من طريق خراسان وعاد إلى الموصل. وفيها ظفر أصحاب الصفّار بابن واصل وأسروه، ومات عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد فاستوزر مكانه الحسن بن مخلد، وكان موسى بن بغا غائباً في غزو العرب، فلما قدم خافه الحسين وتغيب فاستوزر مكانه سليمان بن وهب. وفيها غلب أخو شركب الحمّال على نيسابور، وخرج عنها الحسين بن طاهر إلى مرو، وبها خوارزم شاه يدعو لأخيه محمد. وفيها ملك الزنج مدينة واسط وقاتله دونها محمد بن المولد، فهزمه ودخلها واستباحها. وفيها قبض المعتمد على وزيره سليمان بن وهب، وولّى مكانه الحسن بن مخلد، وجاء الموفق مع عبدالله بن سليمان شفيعاً فلم يشفعه، فتحول إلى الجانب الغربي مغاضباً واختلفت الرسل بينه وبين المعتمد وكان مع الموفق مسرور كيغلغ وأحمد بن موسى بن بغا. ثم أطلق سليمان ودعا إلى الجوسق وهرب محمد بن صالح بن شيرزاده والقواد الذين كانوا بسامرا مع المعتمد خوفاً من الموفّق، فوصلوا إلى الموصل. وكتب الموفّق لأحمد بن أبي الأصبغ في قبض أموالهم. وفيها مات أماجور

عامل دمشق، وملك ابن طولون الشام وطرسوس، وقتل عاملها سيما. وفي سنة خمس وستين ولّي مسرور البلخي على الأهواز وهزم الزنج. وفيها مات يعقوب الصفّار وقام بأمره أخوه عمر، ولاّه الموفق مكان أخيه بخراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد. وفيها وثب القاسم بن مهان بدلف بن عَبْد العزيز بن أبي دلف بأصبهان، فقتله، فوثب جماعة من أصحاب دلف بالقاسم فقتلوه. فولي أصبهان أحمد بن عَبْد العزيز أخو دلف، وفيها لحق محمد بن المولّد بيعقوب الصفّار وقبضت أمواله وعقاره ببغداد. وفيها حبس الموفّق سليمان بن وهب وابنه عَبْد الله وصادرهما على تسعمائة ألف دينار، وفيها ذهب موسى بن أتامش وإسحق بن كنداجق والفضل بن موسى بن بغا مغاضبين. وبعث الموفّق في أثرهم صاعد بن مخلد فردّهم من صرصر. وفيها استوزر الموفّق أبا الصقر إسمعيل بن بلبل. وفي سنة ست وستين ملك الزنج رامهرمز وغلب أساتكين على الري وأخرج عنها عاملها فطلقت. ثم مضى إلى قزوين وبها أخوه كيغلغ، فصالحه وملكها.

وفيها ولّى عليّ بن الليث على الشرطة ببغداد عبيد الله بن عَبْد الله طاهر، وعلى أصبهان أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف، وعلى الحرمين وطريق مكة محمد بن أبي الساج. وولّى الموفّق على الجزيرة أحمد بن موسى، بن بغا، فولى من قبله على ديار ربيعة موسى بن أتامش، فغضب لذلك إسحق بن كنداجق، وفارق عسكر موسى، وسار إلى بلد وأوقع بالأتراك اليعقوبية. ثم لقي ابن مساور الخارجي فقاتله. وسار إلى الموصل وطلب من أهلها المال، وخرج على بن داود لقتاله مع إسحق بن أيوب وحمدان بن حمدون وكانت بينهم حروب، آخرها المعتمد وعقد لإسحق بن كنداجق على الموصل، وقد مر ذلك من قبل. وفيها قتل أهل حمص عاملها عيسى الكرخي وفيها كانت بين لؤلؤ غلام ابن طولون ، بين موسى بن أتامش وقعة برأس عين وأسره لؤلؤ وبعث به إلى الرقة. ثم لقيه أحمد بن موسى فاقتتلوا، وغلب أحمد أولاً، ثم كر لؤلؤ فغلبهم وانتهوا إلى قرقيسيا، ثم ساروا إلى بغداد وسامرا. وفيها أوقع أحمد بن عَبْد العزيز ببكتم فانهزم ولحق ببغداد، وأوقع الخجستاني بالحسن بن زيد بجرجان فلحق بآمد، وملك الخجستاني جرجان وأقطعه من طبرستان، واستخلف على سارية الحسن بن محمد بن جعفر بن عَبْد الله العقيقي بن

حسين الأصفر بن زين العابدين. فلما انهزم الحسن بن زيد أظهر الحسن بن محمد أنه قتل، ودعا لنفسه، وحاربه الحسن بن زيد فظفر به وقتله. وفيها ملك الخجستاني نيسابور من يد عامل ابن عمرو بن الليث، وفيها في صفر زحف الموفّق لقتال صاحب الزنج فلم يزل يحاصره حتى اقتحم عليه مدينته وقتله منتصف سنة سبعين. وفيها كانت الحرب بالمدينة ين بني حسن وبني جعفر. وفي "سنة سبع وستين كانت الفتنة بالموصل بين الخوارج. وفيها حبس السلطان محمد بن عبدالله بن طاهر وجماعة من بيته اتهمه عمرو بن الليث بممالأة الخجستاني والحسين بن طاهر أخيه، فكتب إلى المعتمد وحبسه. وفيها كانت ين كيغلغ التركي وأحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف، وانهزم أحمد وملك كيغلغ همذان، فزحف إليه أحمد بن عد العزيز فهزمه وملك همذان، وسار كيغلغ إلى الصحيرة. وفيها أزال الخجستاني ذكر محمد بن طاهر من المنابر ودعا لنفسه بعد المعتمد، وضرب السكة باسمه، وجاء يريد العراق فانتهى إلى الري، ثم رجع. وفيها أوقع أصحاب أبي الساج بالهيثم

العجلي صاحب الكوفة، وغنموا عسكره. وفيها أوقع أبو العباس بن الموفّق بالأعراب الذين كانوا يجلبون الميرة بالزنج من بني تميم وغيرهم.

وفي سنة ثمان وستين كان مقتل الخجستاني وأصحابه بعده. على رافع بن هَرْثَمَة من قوّاد بني طاهر، وملك بلاد خراسان وخوارزم، وفيها انتقض محمد بن الليث بفارس على أخيه عمرو، فسار إليه وهزمه واستباح عسكره، وملك أصطيخور وشيراز وظفر به، فحبسه كما مرّ. وفيها كانت وقعة بين أتكوتكين بن أساتكين وبين أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف، فهزمه أتكوتكين وغلبه على قمّ. وفيها بعث عمرو بن الليث عسكراً إلى محمد بن عَبْد الله الكردي. وفيها انتقض لؤلؤ على مولاه أحمد بن طولون، وسار إلى الموفق وقاتل معه الزنج وفيها سار المعتمد إلى ابن طولون بمصر مغاضباً لأخيه الموفق. وكتب الموفق إلى إسحق بن كنداجق بالموصل برده فسار معه إلى آخر عمله. ثم

قبض على القوّاد الذين معه، وردّه إلى سامرا. وفيها وثب العامة ببغداد بأميرهم الخلنجي وكان كاتب عبيد الله بن طاهر، وقتل غلام له امرأة بسهم، فلم يعدهم عليه، فوثبوا به وقتلوا من أصحابه ونهبوا منزله وخرج هارباً، فركب محمد بن عَبْد الله واسترد من العامة ما نهبوه. وفيها وثب بطرسوس خلق من أصحاب ابن طولون وعامله على الثغور الشامية، فاستنقذه أهل طرسوس من يده، وزحف إليهم ابن طولون فامتنعوا عليه، ورجع إلى حمص، ثم إلى دمشق. وفيها كانت وقعة بين العلويّين والجعفريّين بالحجاز، فقتل ثمانية من الجعفريّين وخلّصوا عامل المدينة من أيديهم. وفيها عقد هرون بن الموفّق لأبي السّاج على الأنبار والرحبة وطريق الفرات، وولّى محمد بن أحمد على الكوفة وسوادها، ودافعه عنها محمد بن الهيثم، فهزمه محمد ودخلها. وفيها مات عيسى بن الشيخ عامل الشيباني عامل أرمينية وديار بكر. وفيها عظمت الفتنة بين الموفّق وابن طولون، فحمل المعتمد على لعنه وعزله وولّى إسحق بن كنداجق على أعماله إلى أفريقية، وعلى شرطة الخاصة.وقطع ابن طولون الخطبة للموفّق وإسمه من الطرر. وفيها ملك ابن طولون الرحبة بعد مقاتلة أهلها، وهرب أحمد بن مالك بن طوق إلى الشام، ثم سار إلى ابن الشمّاخ بقرقيسيا.وفي سنة سبعين كان مقتل صاحب الزنج وانقراض دعوته، ووفاة الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان، وقيام أخيه محمد بأمره، ووفاة أحمد بن طولون صاحب مصر وولاية ابنه خمارويه ومسير إسحق بن كنداجق بابن دعامس عامل الرقة والثغور العواصم لابن طولون.وفي سنة إحدى وسبعين ثار بالمدينة محمد وعلي إبنا الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم وقتلا جماعة من أهلها، ونهبا أموال الناس، ومنعا الجمعة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً. وفيها عزل المعتمد عمرو بن الليث من خراسان فقاتله أحمد بن عَبْد الله بن أبي دلف بأصبهان وهزمه. وفيها استعاد خمارويه الشام من يد أبي العبّاس بن الموفّق، وفر إلى طرسوس كما تقدم. وفيها عقد المعتمد لأحمد بن محمد الطائي على المدينة وطريق مكة، وكان يوسف بن أبي السّاج والي مكة. وجاء بدر غلام الطائي أميراً على الحاج فحاربه يوسف على باب المسجد الحرام

وأسره، فسار الجند والحاج بيوسف وأطلقوا بدراً من يده وحملوا يوسف أسيراً إلى بغداد. وفي منتصف سنة إثنتين وسبعين غلب أتكوتكين على الرى من يد محمد بن

زيد العلويّ. سار هو من قزوين في أربعة آلاف، ومحمد بن زيد من طبرستان في الديلم، وأهل خراسان، فانهزموا وقتل منهم ستة آلاف. وفيها ثار أهل طرسوس بأبي العباس بن الموفّق وأخرجوه إلى بغداد وولوا عليهم بازيار. وفيها توفي سليمان بن وهب في حبس الموفق. وفيها دخل حمدان بن حمدون وهرون مدينة الموصل. وفيها قدم صاعد بن مخلد الوزير من فارس، وقد كان بعثه الموفق إليها لحرب فرجع إلى واسط، وركب القواد لاستقباله فترجلوا إليه وقتلوا يده، ولم يكلمهم. ثم قبض الموفق على جميع أصحابه وأهله ونهب منازلهم، وكتب إلى بغداد بقبض ابنه أبي عيسى وصالح وأخيه عبدون، واستكتب مكانه أبا الصقر إسمعيل بن بلبل، واقتصر به على الكتابة.وفيها جاء بنو شيبان إلى الموصل فعاثوا في نواحيها وأجمع هرون الشاربي وأصحابه على قصدهم، وكتب إلى أحمد بن حمدون الثعلبي فجاءه وساروا إلى الموصل وعبروا الجانب الشرقي من دجلة، ثم ساروا إلى نهر الحادر، فلما تراءى الجمعان انهزم هرون وأصحابه وانجلى سوى عنها.وفي سنة ثلاث وسبعين وقعت الفتنة بين ابن كنداجق وبين ابن أبي السّاج، وسار ابن أبي السّاج إلى ابن طولون واستولى على الجزيرة والموصل، وخطب له فيها. وقاتل الشراة كما ذكرنا. وفيها قبض الموفق على لؤلؤ غلام ابن طولون وصادره على أربعمائة ألف دينار. وبقي في إدبار إلى أن عاد إلى مصر أيام هرون بن خمارويه. وفي سنة أربع وسبعين سار الموفق إلى فارس فاستولى عليها من يد عمرو بن الليث، ورجع عمرو إلى كرمان وسجستان، وعاد الموفق إلى بغداد. وفي سنة خمس وسبعين نقض ابن أبي السّاج طاعة خمارويه، وقاتله خمارويه فهزمه، وملك الشام من يده وسار إلى الموصل، وخمارويه في اتباعه إلى بغداد، ولحق ابن أبي السّاج بالحُديثة فأقام بها إلى أن رجع خمارويه. وكان إسحق بن كنداجق قد جاء إلى خمارويه فبعث معه جيشاً وقوادا في طلب ابن أبي السّاج واشتغل بعمل السفن للعبور إليه، فسار ابن أبي السّاج عنها إلى الموصل، واتبعه ابن

كنداج وسار إلى الرقة فاتبعه ابن أبي السّاج، وكتب إلى الموفّق يستأذنه في اتباعه إلى الشام. وجاء ابن كنداج بالعساكر من عند خمارويه وأقام على حدود الشام. ثم هزم ابن أبي السّاج فسار إلى الموفق وملك ابن كنداج ديار ربيعة وديار مضر، وقد تقدم ذكر ذلك. وفيها خرج أحمد بن محمد الطائي من الكوفة لحرب فارس العبدي كان يخيف السابلة فهزمه العبدي، وكان الطائي على الكوفة وسوادها وطريق خراسان وسامرا وشرطة بغداد، وخراج بادردباد قطربل. وفيها قبض الموفق على ابنه أبي العباس وحبسه. وفيها ملك رافع بن هرثمة جرجان من يد محمد بن زيد وحاصره في استراباذ نحواً من سنتين، ثم فارقها الجيش لحربه فسار عن سارية وعن طبرستان سنة سبع وسبعين. وأستأمن رستم بن قارن إلى رافع، وقدم عليه علي بن الليث من حبس أخيه بكرمان هو وابناه العدل والليث. وبعث رافع على سالوس محمد بن

هرون وجاء إليه علي بن كاني مستأمناً فحصرهما محمد بن زيد، وسار إليه رافع ففر إلى أرض الديلم ورافع في اتباعه إلى حدود قزوين فسار فيها وأحرقها وعاد إلى الريّ، وفي سنة ست وسبعين رضي المعتمد عن عمرو بن الليث وولاه وكتب إسمه على الأعلام، وولّى على الشرطة ببغداد من قبله عبيد الله بن عَبْد الله بن طاهر. ثم انتقض فأزيل. وفيها كان مسير الموفق إلى الجبل لأتكوتكين ومحاربة أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف، وقد تقدم ذلك. وفيها ولى الموفّق ابن أبي السّاج على أذربيجان فسار إليها، ودافعه عَبْد الله بن حسن الهمذاني صاحب مراغة فهزمه ابن أبي السّاج، واستقر في عمله. وفيها زحف هرون الشاري من الحُديثة إلى الموصل يريد حربها، ثم صانعه أهل الموصل ورحل عنهم. وفي سنة سبع وسبعين دعا مازيار بطرسوس لخمارويه بن أحمد بن طولون، وكان أنفذ إليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحاً كثيراً. وبعث إليه بعد الدعاء بخمسين ألف دينار. وفي سنة ثمان وسبعين كانت وفاة الموفق وبيعة المعتضد بالعهد كما مرّ. وفيها كان ابتداء أمر القرامطة وقد تقدّم. وفي سنة تسع وسبعين خلع جعفر بن المعتمد وقدّم عليه المعتضد، وكانت الحرب بين الخوارج وأهل الموصل، وبين بني شيبان. وعلى بني شيبان هرون بن سيما من قبل محمد بن إسحق بن كنداج، ولاه عليها فطرده أهلها، فزحف إليهم مع بني شيبان، ودافع عن أهل الموصل هرون الشاري وحمدان بن حمدون، فهزمهم بنو شيبان، وخاف أهل الموصل من ابن سيما وبعثوا إلى بغداد يطلبون والياً، فولى المعتمد عليهم محمد بن يحيى المجروح الموكّل بحفظ الطريق، وكان يترل الحُديثة فأقام بها أياماً ثم استبدل منه بعلي بن داود الكردي.

وفاة المعتمد وبيعة المعتضد:

توفي المعتمد على الله أبو العبّاس أحمد بن المتوكل لعشر بقين من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، لثلاث وعشرين سنة من ولايته، ودفن بسامرا، وهو أول من انتقل إلى بغداد، وكان في خلافته مغلباً عاجزاً، وكان أخوه الموفق مستبداً عليه، ولم يكن له معه حكم في شيء. ولما مات الموفق سنة ثمان وسبعين كما قدمناه أقام مكانه ابنه أبا العبّاس أحمد المعتضد، وحجر المعتمد كما كان أبوه يحجره، وولاه عهده كما كان أبوه. ثم قدمه في العهد على ابنه جعفر، ثم هلك فبايع الناس للمعتضد بالخلافة صبيحة موته، فولى غلامه بدراً الشرطة وعبيد الله بن سليمان بن وهب الوزارة ومحمد بن الشاري بن مالك الحرس. ووفد عليه لأول خلافته رسول عمرو بن الليث بالهدايا وسأل ولاية خراسان فعقد له عليها، وبعث إليه بالخلع واللواء ولأول خلافته مات نصر بن أحمد الساماني ملك ما وراء النهر، وقام مكانه أخوه إسماعيل.

مقتل رافع بن الليث:

كان رافع بن الليث قد وضع يده على قرى السلطان بالري وكتب إليه المعتضد برفع يده عنها، فكتب إلى أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف بإخراجه عن الريّ فقاتله وأخرجه وسار إلى جرجان ودخل نيسابور سنة ثلاث وثمانين، فوقعت بينه وبين عمرو حرب، وانهزم رافع إلى أبورد، وخلص عمرو وابني أخيه من

حبسه، وهما العدل والليث إبنا عليّ بن الليث، وقد تقدّم خبرهما. ثم سار رافع إلى هراة ورصده عمرو بسرخس، فشعر به ورجع إلى نيسابور في مسالك صعبة، وطرق ضيقة، واتبعه عمرو فحاصره في نيسابور. ثم تلاقيا وهرب عن رافع بعض قواده إلى عمرو فانهزم رافع، وبعث أخاه محمد بن هرثمة إلى محمد بن زيد يستمده كما شرط له فلم يفعل. وافترق عن رافع أصحابه وغلمانه، وفارقه محمد بن هارون إلى أحمد بن إسماعيل في

بخارى، ولحق رافع بخوارزم في فل من العسكر ومعه بقية أمواله وآلته، ومرّ في طريقه بأبي سعيد الدرعاني ببلد* فاستغفله وغدر به وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث بنيسابور، وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين.

خبر الخوارج بالموصل:

قد تقدم لنا أن خوارج الموصل من الشراة استقدر عليهم بعد مساور هارون الشاري وذكرنا شيئاً من أخبارهم. ثم خرج عليه سنة ثمانين محمد بن عبادة ويعرف بأبي جوزة من بني زهير من البقعاء، وكان فقيراً ومعاشه ومعاش بنيه في التقاط الكمأة وغيرها وأمثال ذلك، وكان يتدين ويظهر الزهد، ثم جمع الجموع وحكم، واستجمع إليه الأعراب من تلك النواحي، وقبض الزكوات والأعشار من تلك الأعمال، وبنى عند سنجار حصناً ووضع فيه أمتعته وماعونه، وأنزل به ابنه أبا هلال في مائة وخمسين، فجمع هارون الشاري أصحابه وبدأ بحصار الحصن، فأحاط به ومحمد بن عبادة في داخله. وجد في حصاره حتى أشرف على فتحه، وقيد أبا هلال إبنه ونفراً معه، وبعث بنو ثعلب وهم مع هارون إلى من كان بالحصن من بني زهير فأمنوهم، وملك هارون الحصن. ثم ساروا إلى محمد فلقيهم وهزمهم أولاً ثم كروا عليه مستميتين فهزموه، وقتلوا من أصحابه ألفاً وأربعمائة، وقسم هارون ماله، ولحق محمد بآمد، فحاربه صاحبها أحمد بن عيسى بن الشيخ، فظفر به وبعثه إلى المعتضد فسلخه حياً.

إيقاع المعتضد ببني شيبان واستيلاؤه علي ماردين:

وفي سنة ثمانين سار المعتضد إلى بني شيبان بأرض الجزيرة ففروا أمامه، وأثار على طوائف من العرب عند السّند، فاستباحهم وسار إلى الموصل، فجاءه بنو شيبان وأعطوه رهنهم على الطاعة، فغلبهم وعاد إلى بغداد. وبعث إلى أحمد بن عيسى بن الشيخ في أموال ابن كنداج التي أخذها بأحمد، فبعث بها وبهل أياماً كثيرة معها. ثم بلغه أن أحمد بن حمدون ممالىء لهارون الشاري وداخل في دعوته، فسار المعتضد إليه سنة إحدى وثمانين. واجتمع الأعراب من بني ثعلب وغيرهم للقائه، وقتل منهم،

وغرق في الزاب كثيراً، وسار إلى الموصل. ثم بلغه أن أحمد هرب عن ماردين، وخلف بها إبنه، فسار المعتضد إليه ونازله وقاتله يوماً، ثم صعد من الغد إلى باب القلعة، وصاح بابن حمدان واستفتح الباب ففتح له دهشاً، وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها، وبعث في طلب حمدان وأخذ أمواله.

الولاية علي الجبل وأصبهان:

عقد المعتضد سنة إحدى وثمانين لإبنه عليّ، وهو المكتفي على الريّ وقزوين وزنجان وأبهر وقم وهمذان والدينور فاستأمن إليه عامل الريّ لرافع بن الليث، وهو الحسن بن عليّ كوره فأمنه وبعث به إلى أبيه.

عود حمدان إلي الطاعة:

وفي سنة إثنتين وثمانين سار المعتضد إلى الموصل واستقدم إسحاق بن أيوب وحمدان بن حمدون فبادر إسحاق بقلاعه، وأودع حرمه وأمواله، فبعث إليه المعتضد العساكر مع وصيف ونصر القسوري فمروا بذيل الزعفران من أرض الموصل، وبه الحسن بن عليّ كوره، ومعه الحسين بن حمدان. فاستأمن الحسين وبعثوا به إلى المعتضد فأمر بهدم القلعة. وسار وصيف في اتباع حمدان فواقعه وهزمه وعبر إلى الجانب الغربي من دجلة، وسار في ديار ربيعة، وعبرت إليه العساكر وحبسوه فأخذوا ماله، وهرب وضاقت عليه الأرض، فقصد خيمة إسحاق بن أيوب في عسكر المعتضد مستجيراً به فأحضره عند المعتضد فوكل به وحبسه.

هزيمة هارون الشاري ومهلكه:

كان المعتضد قد ترك بالموصل نصراً القسروي لاعادته العمال على الجباية، وخرج بعض العمال لذلك فأغارت عليهم طائفة من أصحاب هارون الشاري وقتل بعضهم، فكثر عيث الخوارج. وكتب نصر القسروي إلى هارون يهدده، فأجابه وأساء في الرد وعرض بذكر الخليفة فبعث نصر بالكتاب إلى المعتضد فأمره بالجد في طلب هارون، وكان على الموصل يكتم طاتشمر من مواليهم، فقبض عليه وقيده، وولّى على الموصل الحسن كوره، وأمر ولاة الأعمال بطاعته، فجمعهم وعسكر بالموصل،

وخندق على عسكره إلى أن أوقع بالناس غلاتهم. ثم سار إلى الخوارج وعبر الزاب إليهم فقاتلهم قتالاً شديداً، فهزمهم وقتل منهم وافترقوا، وسار الكثير منهم إلى أذربيجان ودخل هارون البرية واستأمن وجوه أصحابه إلى المعتضد فأمنهم. ثم سار المعتضد سنة ثلاث وثمانين في طلب هارون، فانتهى إلى تكريت، وبعث الحسين بن حمدون في عسكر نحو من ثلثمائة فارس، واشترط إن جاء به إطلاق ابنه حمدان! وسار معه وصيف وانتهى إلى بعض مخايض دجلة فأرصد بها وصيفاً وقال: لا تفارقوها حتى تروني ! ومضى في طلبه فواقعه وهزمه، وقتل من أصحابه. وأقام وصيف ثلاثة أيام فأبطأ عليه الأمر، فسار في اتباع ابن حمدان، وجاء هارون منهزماً إلى تلك المخاضة فعبر، وابن حمدان في أثره إلى حي من أحياء العرب قد اجتاز بهم هارون، فدلّوا ابن حمدان عليه فلحقه وأسره وجاء به إلى المعتضد. فرجع المعتضد آخر ربيع الأول، وخلع على الحسين وإخوته وطوقه، وأدخل هارون على الفيل وهو ينادي: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون، وكان صغدياً. ثم أمر المعتضد بحل القيود عن حمدان بن حمدون والإحسان إليه وبإطلاقه. وفي سنة إثنتين وثمانين سار المعتضد من الموصل إلى الجبل، فبلغ الكرخ، فهرب عمر بن عَبْد العزيز بن أبي دلف بين يديه، فأخذ أمواله وبعث إليه في طلب جدّ كان عنده فوجهه إليه. ثم بعث المعتضد وزيره عبيد الله بن سليمان

إلى ابنه بالري ليسير من هنالك إلى عمر بن عَبْد العزيز بالأمان، فسار وأمنه ورجع إلى الطاعة، فخلع عليه وعلى أهل بيته، وكان أخوه بكر بن عَبْد العزيز قد استأمن قبل ذلك إلى عبيد الله بن سليمان وبدر فولاّه عمله، على أن يسير إلى حربه. فلما وصل عمر في الأمان قال لبكر: إنما وليناك وأخوك عاصٍ، فامضيا إلى أمير المؤمنين المعتضد، وولّى عيسى النوشري على أصبهان من قبل عمر، وهرب بكر إلى الأهواز. وسار عبيد الله بن سليمان الوزير إلى عليّ بن المعتضد بالري. ولما بلغ الخبر إلى المعتضد بعث وصيفاً موسكين إلى بكر بن عَبْد العزيز بالأهواز، فلحقه بحدود فارس، فمضى بكر إلى أصبهان ليلاً، ورجع وصيف إلى بغداد، وكتب المعتضد إلى بدر مولاه بطلب بكر بن عَبْد العزيز وحربه، فأمر بذلك عيسى النوشري فقام به ولقي بكراً بنواحي أصبهان، فهزمه بكر، ثم عاد النوشري لقتاله سنة أربع وثمانين، فهزمه بنواحى أصبهان واستباح عسكره. ولجأ بكر إلى محمد بن زيد العلوي بطبرستان، وهلك بها سنة خمس وثمانين. وكان عمر لّما مات أبوه قبض على أخيه الحارث، ويكنى أبا ليلى، وحبسه في قلعة ردّ، ووكل به شفيعاً الخادم. فلما جاء المعتضد وأستأمن من عمر وهرب بكر وبقيت القلعة بيد شفيع بأموالها، رغب إليه الحارث في إطلاقه فلم يفعل، وكان شفيع يسامره كل ليلة وينصرف، فحادثه ليلة ونادمه، وقام شفيع لبعض حاجته، فجعل الحارث في فراشه تمثالاً وغطاه، وقال لجاريته قولي لشفيع إذا عاد هو نائم ومضى. فاختفى في الدار، وفك القيد عن رجله بمبرد أدخل إليه وبرد به مسماره. ولما أخبر شفيع بنومه مضى إلى مرقده، وقصده أبو ليلى على فراشه فقتله، وأمر أهل الدار واجتمع عليه الناس فاستحلفهم ووعدهم، وجمع الأكراد وغيرهم وخرج من القلعة ناقضاً للطاعة. فسار إلى عيسى النوشري وحاربه فأصاب أبا ليلى سهم فمات وحمل رأسه إلى أصبهان ثم إلى بغداد.

خبر ابن الشيخ بآمد:

وفي سنة خمس وثمانين توفي أحمد بن عيسى بن الشيخ، وقام بأمره في آمد وأعمالها ابنه محمد، فسار المعتضد إليه في العساكر ومعه ابنه أبو محمد عليّ المكتفي، ومرّ بالموصل وحاصر المعتضد إلى ربيع الآخر من سنة ست وثمانين، ونصب عليها المجانيق حتى استأمن لنفسه ولأهل آمد. وخرج إلى المعتمد فخلع عليه وهدم سورها. ثم بلغه أنه يروم الهرب، فقبض عليه وعلى أهله.

خبر ابن أبي السّاج :

قد تقدم لنا ولاية محمد بن أبي السّاج على أذربيجان ومدافعة الحسين إياه عن مراغة ثم فتحها، واستيلاؤه على أعمال أذربيجان. وبعث المعتضد سنة إثنتين وثمانين أخاه يوسف بن أبي السّاج إلى الصمرة مدداً لفتح القلانسي غلام الموفّق، فخرج يوسف فيمن أطاعه فولاه المعتضد على أعماله، وبعث إليه بالخلع وأعطاه الرهن بما ضمن من الطاعة والمناصحة وبعث بالهدايا.

القرامطة

ابتداء أمر القرامطة بالبحرين والشام:

كان في سنة إحدى وثمانين قد جاء إلى القطيف بالبحرين رجل تسمّى بيحيى بن المهدي وزعم أنه رسول من المهدي ، وأنه قد قرب خروجه، وقصد من أهل القطيف علي بن المعلى بن حمدان الربادين، وكان متغالياً في التشيع، فجمع الشيعة وأقرأهم كتاب المهدي ليشيع الخبر في سائر قرى البحرين، فأجابوا كلهم وفيهم أبو سعيد الجنابي وكان من عظمائهم. ثم غاب عنهم يحي بن المهدي مدة ورجع بكتاب المهدي يشكرهم على إجابتهم، وأمرهم أن يدفعوا ليحيى ستة دنانير وثلثين عن كل رجل منهم ففعلوا. ثم غاب وجاء بكتاب آخر بأن يدفعوا إليه خمس أموالهم فدفعوا، وأقام يتردد في قبائل قيس. ثم أظهر أبو سعيد الجنابي الدعوة بالبحرين سنة ست وثمانين، واجتمع إليه القرامطة والأعراب، وقتلى واستباح، وسار إلى القطيف طالباً البصرة، وبلغت النفقة فيه أربعة عشر ألف دينار. ثم قرب أبو سعيد من نواحى البصرة، وبعث المعتضد إليهم المدد مع عباس بن عمر الغنوي، وعزله عن فارس وأقطعه اليمامة والبحرين، وضم إليه ألفين من المقاتلة، وسار إلى البصرة وأكثر من الحشد جنداً ومتطوعة. فسار ولقي أبا سعيد الجنابي، ورجع من كانه معه من بني ضبّة إلى البصرة. ثم كان اللقاء فهزمه الجنابي وأسره واحتوى على معسكره، وحرق الأسرى بالنار، وذلك في شعبان من هذه السنة. وسار إلى هجر فملكها وأمّن أهلها ورجع إلى أهل البصرة، وبعثوا إليهم بالرواحل عليها الطعام والماء، فاعترضهم بنو أسد وأخذوا الرواحل وقتلوا الفل واضطربت البصرة وتشوف أهلها إلى الانتقال، فمنعهم الواثقي، ثم أطلق الجنابي العباس الغنوي، فركب إلى الأبلة وسار منها إلى بغداد، فخلع عليه المعتضد. وأمَّا ظهورهم بالشام فإن داعيتهم ذكرويه بن مهرويه الذي جاء بكتاب المهدي إلى العراق لمّا رأى الجيوش متتابعة إلى القرامطة بالسواد، وأبادهم القتل، لحق بأعراب أسل وطيىء، فلم يجبه. فبعث أولاده في كلب بن وبرة فلم يجبه منهم إلا بنو القليظي بن ضمضم بن عدي بن جناب، فبايعوا ذكرويه ويسمّى بيحيى ويكنى بأبي القاسم، ولقبوه الشيخ، وأنه من ولد إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، وأنه يحي بن عَبْد الله بن يحي بن إسماعيل. وزعم أن له مائة ألف تابع، وأن ناقته التي يركبها مأمورة فمن تبعها كان منصوراً. فقصدهم شبل مولى المعتضد في العساكر من ناحية الرصافة فقتلوه. فسار إليهم شبل مولى أحمد بن محمد الطائي فأوقع بهم. وجاء ببعض رؤسائهم أسيراً فأحضره المعتضد وقال له: هل تزعمون أن روح الله وأنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل، وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له؟ يا هذا أرأيت أن حلت روح إبليس فما ينفعك؟ فاترك ما لا يعنيك إلى ما يعنيك. قال له فقل فيما يعنيني؟ فقال له: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوكم العباس حي فلم يطلب الأمر ولا بايعه. ثم مات أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى العبّاس و لم يعهد إليه عمر ولا جعله من أهل الشورى، وكانوا ستة وفيهم الأقرب والأبعد، وهذا إجماع منهم على دفع جدك عنها. فبماذا تستحقون أنتم الخلافة؟ فأمر به المعتضد فعذب وخلعت عظامه، ثم قطع مرتين، ثم قتل. ولما أوقح شبل بالقرامطة بسواد الكوفة ساروا إلى الشام فانتهوا إلى دمشق، وعليها طغج بن جف مولى أحمد بن طولون من

قبل ابنه هارون، فخرج إليهم فقاتلهم مراراً، هزموه في كلها. هذه أخبار بدايتهم. ونقبض العنان عنها إلى أن نذكر سياقتها عندما نعدد أخبارهم على شريطتنا في هذا الكتاب كما تقدم.

استيلاء ابن سامان علي خراسان من يد عمرو بن الليث وأسره ثم مقتله:

لّما تغلب عمرو بن الليث الصفار على خراسان من يد رافع بن الليث، وقتله وبعث برأسه إلى المعتضد، وطلب منه أن يوليه ما وراء النهر مضافاً إلى ولاية خراسان، كتب له بذلك فجهز الجيوش لمحاربة إسماعيل بن أحمد صاحب ما وراء النهر، وجعل عليهم محمد بن بشير من أخص أصحابه. وبعث معه القواد فانتهوا إلى آمد من شط جيحون، وعبر إليهم إسماعيل فهزمهم، وقتل محمد بن بشير في ستة آلاف، ولحق الفل بعمرو في نيسابور، فتجهز وسار إلى بلخ، وكتب إليه إسماعيل يستعطفه ويقول: أنا في ثغر وأنت في دنيا عريضة فاتركني واستفد ألفتي فأبى. وصعب على أصحابه عبور النهر لشذته، فعبر إسماعيل وأخذ الطرق على بلخ، وصار عمرو محصوراً. ثم اقتتلوا وانهزم عمرو وتسرب من بعض المسالك عن أصحابه، فوجد في أجمة وأخذ أسيراً. وبعث به إسماعيل إلى سمرقند ومن هناك إلى المعتضد سنة ثمان وثمانين، فحبسه إلى أن مات المعتضد سنة تسع بعدها فقتله ابنه المكتفي. وعقد لإسماعيل على

خراسان كما كانت لعمرو، وكان عمرو عظيم السياسة، وكان يستكثر من المماليك ويجري عليهم الأرزاق ويفرقهم على قواده ليطالعوه بأحبارهم. وكان شديد الهيبة، ولم يكن أحد يتجاسر أن يعاقب غلاماً ولا خادماً إلا أن يرفعه إلى حجابه.

استيلاء ابن سامان علي طبرستان من يد العلوي ومقتله:

ولما بلغ محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان والديلم ما وقع بعمرو بن الليث وأنه أسر طمع هو في خراسان وظن أن ابن إسماعيل لا يتجاوز عمله، فسار إلى جرجان وبعث إليه إسماعيل بالكف فأبى، فجهز لحربه محمد بن هارون، وكان من قواد رافع بن الليث. واستأمن إلى عمرو ثم إلى إسماعيل فنظمه في قواده وندبه الآن لحرب محمد بن زيد، فسار لذلك. ولقيه على باب خراسان. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم محمد بن هارون أولاً، وافترقت عساكر محمد بن زيد على النهب ثم رجع هو وأصحابه، وانهزم محمد بن زيد وجرح جراحات فاحشة هلك منها لأيام وأسر ابنه زيد وبعث به إسماعيل إلى بخارى واجترأ عليه وغنم ابن هارون معسكرهم ثم سار إلى طبرستان فملكها، وصار خراسان وطبرستان لبني سامان، واتصلت لهم دولة نذكر سياقة أخبارها عند إفراد دولتهم بالذكر كما شرطناه في تأليفنا.

ولاية علي بن المعتضد علي الجزيرة والثغور:

ولما ملك المعتضد آمد من يد ابن الشيخ كما قدمناه، سار إلى الرقة وتسلم قنسرين والعواصم من يد عمال هارون بن خمارويه، لأنه كان كتب إليه أن يقاطعه على الشام ومصر ويسلم إليه أعمال قنسرين، ويحمل إليه أربعمائة ألف دينار وخمسين ألفاً. فأجابوه وسار من آمد إلى الرقة فأنزل ابنه علياً الذي لقبه بعد ذلك بالمكتفي

وعقد له على الجزيرة وقنسرين والعواصم سنة ست وثمانين. واستكف له الحسن بن عمر النصراني واستقدم وهو بالرقة راغباً مولى الموفق من طرسوس، فقدم عليه وحبسه وحبس ملنون غلامه واستصفى أموالهما. ومات راغب لأيام من حبسه، وقد كان راغب استبد بطرسوس وترك الدعاء لهارون بن خمارويه، ودعا لبدر مولى المعتضد. ولما جاء أحمد بن طبان للغز سنة ثلاث وثمانين تنازع معه راغب، فركب أحمد البحر في رجوعه ولم يعرج على طرسوس، وترك بها دميانة غلام بازيار وأمده فقوي وأنكر على راغب أفعاله بحمل دميانة إلى بغداد، واستبدّ راغب وبادر إلى استدعاء المعتضد ونكبه كما قلناه، وولّى ابن الأخشاء على طرسوس فمات لسنة. واستخلف أبا ثابت وخرج سنة سبع وثمانين غازياً، فأسر وولّى الناس عليهم مكانه علي بن الأعرابي، ولحق بملطية في هذه السنة وصيف مولى محمد بن أبي السّاج صاحب بردعة، وكتب إلى المعتمد يسأله ولاية الثغور وقد وطأ صاحبه أن يسير إليه إذا وليها فيقصدان ابن طولون ويملكان مصر من يده وظهر المعتضد على ذلك فسار لاعتراضه، وقدم العساكر بين يديه فأخذوه بعين زربة وجاؤا به إلى المعتضد فحبسه، وأمن عسكره ورحل إلى قرب طرسوس، واستدعى رؤساءها وقبض عليهم بمكاتبتهم وصيفاً، وأمر بإحراق مراكب طرسوس بإشارة دميانة، واستعمل على أهل الثغور الحسن بن علي كوره وسار إلى أنْطاكية وحلب ورجع منها إلى بغداد وقتل وصيفاً وصلبه. واستقدم المكتفى بعد وفاة المعتضد الحسن بن علي وولّى على الثغور مظفر بن حاج. ثم شكا أهل الثغر منه فعزله وولّى أبا العشائر بن أحمد بن نصر سنة تسعين.

حرب الأعراب:

وفي سنة ست وثمانين اعترضت طيىء ركب الحاج بالأجيعر، وقاتلوه ونهبوا أموال التجار ما قيمته ألف ألف دينار، ثم اعترضوا الحاج كذلك سنة تسع وثمانين بالقرن فهزمهم الحاج وسلموا.

تغلب ابن الليث على فارس وإخراج بدر إياه:

وفي فاتح ثمان وثمانين جاء طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث في العساكر إلى بلاد فارس، وأخرج منها عامل المعتضد، وهو عيسى النوشري كان على أصبهان فولاه المعتضد فارس، فسار إليها فجاءه طاهر وملكها. وكتب إليه إسماعيل صاحب ما وراء النهر بأن المعتضد ولاه سجستان لذلك، وعقد المعتضد لبدر مولاه على فارس، وهرب عمال طاهر عنها وملكها بدر وجبى خراجها. ثم مات المعتضد وسار مغرّباً عن فارس، فقتل بواسط وقاطع طاهر بلاد فارس على مال يحمله، فقلده المكتفي ولايتها سنة تسعين.

الولايات في النواحي:

كان أكثر النواحي في دولة المعتضد مغلباً عليها كخراسان وما وراء النهر لابن سامان، والبحرين للقرامطة ومصر لابن طولون وأفريقية لابن الأغلب، وقد ذكرنا من ولي الموصل. وفي سنة خمس وثمانين ولّي المعتضد عليها وعلى الجزيرة والثغور الشامية* مولاه. ثم ملك آمد من يد ابن الشيخ وجعلها لابنه علي المكتفي وأنزله الرقة كما ذكرناه وعقد له على الثغور. ثم عقد بعده للحسن بن علي كوره، وولّى على

فارس بدراً مولاه. ومات إسحاق بن أيوب بن عمر بن الخطاب الثعلبي العدوي أمير ديار ربيعة، فولى المعتضد مكانه عَبْد الله بن الهيثم بن عَبْد الله بن المعمر. وفي سنة ثمان وثمانين ظهر باليمن بعض العلويين وتغلب على صنعاء، فجمع له بنو يعفر وقاتلوه فهزموه وأسروا ابنه، وتجافى نحو خمسين فارساً، وملك بنو يعفر صنعاء وخطبوا فيها للمعتضد، وهلك ابن أبي السّاج في هذه السنة، فولي أصحابه ابنه ديوداد.
ونازعه عمه يوسف بن رافع بابن أخيه وهزمه ومضى إلى بغداد على طريق الموصل، واستقل يوسف بملك أذربيجان، وعرض على ابن أخيه المقام عنده فأبى وقلد المعتضد لأول خلافته ديوان المشرق لمحمد بن داود بن الجراح، عوضاً عن أحمد بن محمد بن الفرات، وديوان المغرب على بن عيسى بن داود بن الجراح، ومات وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب فولى ابنه أبا القاسم مكانه.

الصوائف:

وفي سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق من طرسوس في البحر، فغنم مراكب الروم، قتل فيها نحواً من ثلاثة آلاف وأحرقها. وخرج الروم سنة سبع وثمانين ونازلوا طرسوس فقاتلهم أميرها واتبعهم إلى نهر الرحال فأسروه. وفي سنة ثمان وثمانين بعث الحسن بن علي كوره صاحب الثغور بالصائفة، فغزا وفتح حصوناً كثيرة وعاد بالأسرى، فخرج الروم في أثره براً وبحراً إلى كيسوم من نواحي حلب، فأسروا نحواً من خمسة عشر ألفاً ورجعوا.

وفاة المعتضد وبيعة ابنه:

كان بدر مولى المعضد عظيم دولته، وكان القاسم بن عبيد الله الوزير يروم نقل الخلافة في غير بني المعتضد، وفاوض في ذلك بدراً أيام المعتضد فأبى، ولم يمكن القاسم مخالفته. فلما مات المعتضد كان بدر بفارس بعثه إليها المعتضد لّما بلغه أن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث غلب عليها فبعث بدراً وولاه. فلما مات عقد الوزير البيعة لابنه المكتفي وخشى من بدر فيما اطلع عليه منه، فأعمل الحيلة في أمره.
وكان المكتفي أيضاً يحقد لبدر كثيراً من منازعة معه أيام أبيه، فدس الوزير إلى القواد الذين مع بدر بمفارقته، ففارقه العباس بن عمر الغنوي ومحمد بن إسحاق بن كنداج وخاقان العلجي وغيرهم، فأحسن الملتقى إليهم، وسار بدر إلى واسط، فوكل المكتفي بداره وقبض على أصحابه وأمر بمحو إسمه من الفراش والأعلام. وبعث الحسن بن علي كوره في جيش إلى واسط، وعرض على بدر ما شاء من النواحي، فقال: لا بد لي أن اشافه مولاي بالقول، فخوف الوزير المكتفي خائنته ومنعه من ذلك، وشعر أن بدراً بعث عن إبنه هلال فوكل به. ثم بعث الوزير عن القاضي أبي عمر المالكي وحمّله الأمان إلى بدر، فجاء بأمانه وبعث الوزير من اعترضه بالطريق فقتله لست خلون من رمضان، وحمل أهله شلوه إلى مكة فدفن بها لوصيته بذلك وحزن القاضي أبو عمر لاخفار ذمته.

استيلاء محمد بن هارون علي الريّ ثم أسره وقتله :

قد تقدم لنا ذكر محمد بن هارون، وأنه كان من قواد رافع بن هرثمة، ونظمه إسماعيل بن أحمد صاحب ما وراء النهر في قواده وبعثه لحرب محمد بن زيد فهزمه واستولى على طبرستان، وولاه إسماعيل عليها. ثم انتقض ودعا بدعوة العلوية وبيض وساعده ابن حسان الديلمي. وبعث إسماعيل العساكر لقتال ابن حسان فهزموه. وكان على الريّ من قبل المكتفي أغرتمش التركي، فأساء السيرة فبعث أهل الريّ إلى محمد بن هارون أن يسير إليهم ويولوه، فسار وحارب أغرتمش فهزمه وقتله، وقتل أبنيه وأخاه

كيغلغ من القواد واستولى على الريّ وبعث المكتفي مولاه خاقان المفلحي لولاية الريّ في جيش كثيف فلم يصلها، وبعث المكتفي إلى إسماعيل بولايته ومحاربة محمد بن هارون، فسار إسماعيل إليه وهزمه، فخرج عن الريّ إلى قزوين وزنجان. ثم لحق بطبرستان واستقر مع ابنه مستجيزاً، ولما ملك إسماعيل الريّ ولى على جرجان مولاه نارس الكبير، والزمه إحضار محمد بن هارون فكاتبه نارس وضمن له صلاح الحال، فقبل وانصرف عن الديلم إلى بخارى، فبعث إسماعيل من اعترضه وحُمل إلى بخارى مقيداً فمات في الحبس بعد شهر وذلك في شعبان سنة تسعين.

استيلاء المكتفي علي مصر وانقراض دولة ابن طولون:

كان محمد بن سليمان من قواد بني طولون وكاتب جيشهم واستوحش منهم، فلحق بالمعتضد وصرفوه في الخدم، وكانت القرامطة عاثوا في بلاد الشام وحاصروا عامل بني طولون بدمشق وهو طغج بن جف، وقتلوا قواده. وسار المكتفي إليهم فنزل الرقة وبعث محمد بن سليمان لحربهم ومعه الحسن بن حمدان والعساكر وبنو شيبان، فلقيهم قرب حماة فهزمهم واتبعهم إلى الكوفة. وقبض في طريقه على أميرهم صاحب الشامة فبعث به إلى المكتفي، فرجع إلى بغداد، وخلف محمد بن سليمان في العساكر فتبعهم وأسر جماعة منهم. وبجما هو يروم العود إلى بغداد جاءه كتاب بدر الحمامي مولى هارون بن خمارويه ومحمد فائق صاحب دمشق يستقدمانه إلى البلاد لعجز هارون عنها، فأنهى ذلك محمد بن سليمان عند عوده إلى المكتفي فأعاده وأمده بالجنود والأموال، وبعث دميانة غلام بازيار في الاسطول ليدخل من فوهة النيل ويحاصر مصر، ولما وصل ودنا من مصر كاتب القواد، وخرج إليه رئيسهم بدر الحمامي وتتابع منهم جماعة، وبرز هارون لقتاله فحاربه أياماً. ثم وقعت بعض الأيام في عسكره هيعة ركب لها ليسكنها فأصابته حربة مات منها، واجتمع أصحابه على عمه شيبان وبذل الأموال فقاتلوا معه. ثم جاءهم كتاب محمد بن سليمان بالأمان فأجابوه، وخالف شيبان إلى مصر فاستولى عليها وأستأمن إليه شيبان سرًّا فأمنه ولحق به. ثم قبض على بني طولون وحبسهم واستصفى أموالهم وذلك في صفر سنة إثنتين وتسعين، وأمره المكتفي بإزالة آل طولون وأشياعهم من مصر والشام ففعل.

وسار بهم إلى بغداد وولى المكتفي على مصر عيسى النوشري وخرج عليه إبراهيم الخليجي من قواد بني طولون يخلف عن محمد بن سليمان، فخلفه وكثر جمعه وسار النوشري إلى الاسكندرية عجزاً عن مدافعته،

واستولى الخليجي على مصر وبعث المكتفي بالجنود مع فاتك مولى المعتضد، وأحمد بن كيغلغ وبدر الحمامي من قواد بني طولون، فوصلوا سنة ثلاث وتسعين، وتقدم أحمد بن كيغلغ وجماعة من القواد فلقيهم قرب العريش فهزمهم وقوى الأمر، وبلغ الخبر إلى المكتفي فعسكر ظاهر بغداد، وانتهى مدة إلى تكريت فلقيه كتاب فاتك في شعبان يذكر أنهم هزموا الخليجي بعد حروب متصلة، وغنموا عسكره. ثم هرب واختفى بفسطاط مصر وجاء من دل عليه، فأمر المكتفي بحمله ومن معه إلى بغداد فبعثوا بهم وحبسوا.

دولة بني حمدان

ابتداء دولة بني حمدان:

وفي سنة إثنتين وتسعين عقد المكتفي على الموصل وأعمالها لأبي الهيجاء عَبْد الله بن حمدان بن حمدون العدوي التغلبي، فقدمها أول المحرم، وجاء الصريخ من نينوى بأن الأكراد الهدبانية ومقدمهم محمد بن سلاّل قد أغاروا على البلاد وعانوا، فخرج في العساكر وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي. ولقيهم على الحارد فقاتلهم وقتل من قواد سليمان الحمداني ورجع عنهم، وبعث إلى الخليفة يستمده فأبطأ عليه المدد إلى ربيع من سنة أربع؛ فلما جاءه المدد سار إلى الهدبانية وهم مجتمعون في خمسة آلاف بيت فارتحلوا أمامه واعتصموا بجبل السَّلق المشرف على الزاب، فحاصرهم وعرفوا حقه فخذله أميرهم محمد بن سلال بالمراسلة في الطاعة والرهن وحث أصحابه خلال ذلك في المسير إلى أذربيجان، وأتبعهم أبو الهيجاء فلحقهم صاعداً إلى جبل القنديل، فنال منهم، وامتنعوا بذروته.

ورجع أبو الهيجاء عنهم فلحقوا بأذربيجان، ووفد أبو الهيجاء على المكتفي فأنجده بالعسكر وعاد إلى الموصل. ثم سار إلى الأكراد بجبل السلف فدخله وحاصرهم بقنته، وطال حصارهم واشتد البرد وعدمت الأقوات، وطلب محمد بن سلال النجاة بأهله

وولده، فنجا واستولى ابن حمدان على أموالهم وأهليهم وأمنهم. ثم استأمن محمد بن سلال فأمنه وحضر عنده وأقام بالموصل وتتابع الأكراد الحميدية مستأمنين، واستقام أمر أبي الهيجاء بالموصل. ثم انتقض سنة إحدى وثلثمائة، فبعث إليه المُقْتَدِر مؤنساً الخادم، فجاء بنفسه مستأمناً، ورجع به إلى بغداد، فقبله المُقْتَدِر وأكرمه. وبقي ببغداد إلى أن انتقض أخوه الحسين بديار ربيعة سنة ثلاث وثلثمائة، وسارت العساكر فجاؤوا به أسيراً. فحبس المُقْتَدِر عند دلك أبا الهيجاء وأولاده، وجمع اخوته بداره ثم أطلقهم سنة خمس وثلثمائة.

أخبار ابن الليث بفارس:

قد تقدم لنا استقلال طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ببلاد فارس، وأن المكتفي عقد له عليها سنة تسعين، ثم أنه تشاغل باللهو والصيد، وأعرض عن أمور ملكه. ومضى في بعض الأيام إلى سجستان فوثب

على فارس الليث بن عليّ بن الليث، وسيكرى مولى عمرو بن الليث، فاستوحش منهما أحد قوادهما يعرف بأبي قابوس، وفارقهما إلى بغداد. وأحسن المكتفي إليه. ثم كتب إليه طاهر في رد أبي قابوس إليه، ويحتسب له ما معه من أموال الجباية فأعرض الخليفة عن ذلك.

الصوائف:

وفي سنة إحدى وتسعين خرج الروم إلى الثغور في مائة ألف، وقصد جماعة منهم الحدث. ثم غزا بالصائفة من طرسوس القائد المعروف غلام زرافة، ففتح مدينة أنْطاكِية وفتحها عنوة فقتل خمسة آلاف من مقاتلتهم وأسر مثلها. واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها، وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق، فقسمها مع غنائم أنْطاكِية، فكان السهم ألف دينار وفي سنة إثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها، فخرج أهل المصيصة وأهل طرسوس فأصيب منهم جماعة، فعزل المكتفي أبا العشائر على الثغور، وولى رستم بن برد، فكان على يديه الفداء، وفودي ألف من المسلمين. ثم أغارت الروم سنة ثلاث وتسعين على موارس من أعمال حلب، وقاتلهم أهلها فانهزموا وقتل منهم خلق، ودخلها الروم فأحرقوا جامعها وأخذوا من بقي فيها. وفي سنة أربع وتسعين غزا ابن كيغلغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف سبياً، واستأمن بطريق من الروم فأسلم. ثم عاود ابن
كيغلغ الغزو، وبلغ سكند وافتتحها، وسار إلى الليس فبلغ خمسين ألف رأس، وقتل من الروم خلقاً ثم استأمن البطريق المتولي الثغور من جهة الروم إلى المكتفي، وخرج بمائتي أسير من المسلمين. وكان ملك الروم قد شعر بأمره وبعث من يقبض عليه، فقتل الأسرى المسلمون من جاء للقبض عليه وغنموا عسكرهم. واجتمع الروم على محاربة البطريق انذوقس، وزحف المسلمون لخلاصه وخلاص من معه من الأسرى فبلغوا قونية وخربوها وانصرف الروم ومر المسلمون في طريقهم بحصن أندوس، فخرج معهم بأهله، وسار إلى بغداد. وفي سنة إحدى وتسعين خرج الترك إلى ما وراء النهر في خلقٍ لا يحصون، فبعث إليهم إسماعيل عسكراً عظيماً من الجند والمتطوعة فكبسوهم واستباحوهم. وفي سنة ثلاث وتسعين افتتح إسماعيل مدائن كثيرة من بلاد الترك والديلم.

الولايات بالنواحي:

قد ذكرنا ولايات خاقان المفلحيّ على الرى، ثم إسماعيل بن أحمد بن سامان بعده، وولاية عيسى النوشرى على مصر بعد انتزاعها من بني طولون، وولاية أبي العشائر أحمد بن نصر على طرسوس، وعزل مظفر بن حاج عنها سنة تسعين، ثم عزل أبي العشائر وولاية رستم بن برد، سنة إثنتين وتسعين. وانتزاع الليث بن علي بن الليث بلاد فارس من يد طاهر بن محمد سنة ثلاث وتسعين بعد أن كان المكتفي عقد له عليها سنة تسعين، وولاية أبي الهيجاء عَبْد الله بن حمدان على الموصل سنة ثلاث وتسعين. وفي هذه السنة ثار داعية القرامطة باليمن إلى صنعاء فملكها واستباحها، وتغلب على كثير من مدن اليمن. وبعث المكتفي المظفر بن

الحاج في شوال من هذه السنة إلى عمله باليمن فأقام به. وفي سنة إحدى وتسعين ترفي الوزير أبو القاسم بن عبيد الله، واستوزر مكانه العباس بن الحسن.

وفاة المكتفي وبيعة المُقْتَدِر:

ثم توفي المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد في شهر جمادى سنة خمس وتسعين لست سنين ونصف من ولايته، ودفن بدار محمد بن طاهر من بغداد بعد أن عهد

بالأمر إلى أخيه جعفر. وكان الوزير العباس بن الحسن قد استشار أصحابه فيمن يوليه، فأشار محمد بن داود بن الجراح بعبد الله بن المعتز، ووصفه بالعقل والرأي والأدب وأشار أبو الحسين بن محمد بن الفرات بجعفر بن المعتضد، بعد أن أطال في مفاوضته وقال له: اتق الله ولا تول إلا من خبرته، ولا تؤذ البخيل فيضيق على الناس في الأرزاق، ولا الطماع فيشره إلى أموال الناس، ولا المتهاون بالدين فلا يجتنب المآثم ولا يطلب الثواب. ولا تول من خبر الناس وعاملهم واطلع على أحوالهم، فيستكثر على الناس نعمهم، وأصلح الموجودين مع ذلك جعفر بن المعتضد. قال ويحك وهو صبي! فقال وما حاجتنا بمن لا يحتاج إلينا ويستبد علينا؟ ثم استشار علي بن عيسى فقال: اتق الله وانظر من يصلح. فمالت نفس الوزير إلى جعفر كما أشار ابن الفرات، وكما أوصى أخوه، فبعث صائفاً الخدمي فأتى به من داره بالجانب الغربي، ثم خشي عليه غائلة الوزير فتركه في الحّراقة، وجاء إلى دار الخلافة فأخذ له البيعة على الحاشية. ثم جاء به، من الحّراقة وأقعده على الأريكة. وجاء الوزير والقواد فبايعوه، ولقّب المُقْتَدِر بالله وأطلق يد الوزير في المال وكان خمسة عشر ألف ألف دينار، فأخرج منه حق البيعة واستقام الأمر.

خلع المُقْتَدِر بابن المعتز وإعادته:

ولما بويع المُقْتَدِر وكان عمره ثلاث عشرة سنة إستصغره الناس، وأجمع الوزير خلعه والبيعة لألي عَبْد الله محمد بن المعتز وراسله في ذلك، فأجاب وانتظر قدوم نارس حاجب إسماعيل بن سامان، كان قد انتقض إلى مولاه وسار عنه، فاستأذن في القدوم إلى بغداد وأذن له. وقصد الاستعانة به على موالي المعتضد. وأبطأ نارس عليه، وهلك أبوعَبْد الله بن المُقْتَدِر خلال ذلك فصرف الوزير وجهه لأبي الحسين بن الموكل فمات، فأقر المُقْتَدِر، ثم بدا له وأجمع عزله، واجتمع لذلك مع القوّاد والقضاة والكتاب وراسلوا عَبْد الله بن المعتز فأجابهم على أن لا يكون قتال. فأخبروه باتفاقهم وأن لا منازع لهم. وكان المتولون لذلك الوزير العباس بن الحسين ومحمد بن داود بن الجراح وأبا المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين. ثم رأى الوزير أمره صالحاً مع المُقْتَدِر فبداله في ذلك فأجمع الآخرون أمرهم، واعترضه الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى ووصيف في طريق لستانة، فقتلوه لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين، وخلعوا المُقْتَدِر من الغد وبايعوا لابن المعتز، وكان المُقْتَدِر في الحلبة يلعب الأكرة، فلما بلغه قتل الوزير دخل الدار وأغلق الأبواب، وجاء الحسين بن حمدان إلى الحلبة ليفتك

به فلم يجده، فقدم وأحضروا ابن المعتز فبايعوه، وحضر الناس والقوّاد وأرباب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص الْمُقْتَدِر فلم يحضروا. ولقب ابن المعتز المرتضى بالله، واستوزر محمد بن داود بن الجراح، وقلّد عليّ بن موسى الدواوين، وبعث إلى الْمُقْتَدِر بالخروج من دار الخلافة، فطلب الإمهال إلى الليل. وقال مؤنس الخادم، ومؤنس الخازن، وعربت الحال وسائر الحاشية لا بد أن يبدي عذراً فيما أصابنا. وباكر الحسين بن حمدان من الغد دار الخلافة، فقاتله الغلمان والخدم من وراء السور وانصرف. فلما جاء الليل سار إلى الموصل بأهله، وأجمع رأي أصحاب الْمُقْتَدِر على قصد ابن المعتز في داره، فتسلحوا وركبوا في دجلة، فلما رآهم أصحاب ابن المعتز اضطربوا وهربوا، واهموا الحسين بن حمدان أنه قد وطأ الْمُقْتَدِر عليهم، وركب ابن المعتز ووزيره محمد بن داود بن الجراح وخرجوا إلى الصحراء ظناً منهم أن الجند الذين بايعوهم يخرجون معهم، وأهم يلحقون بسامرا فيمتنعون، فلما تفردوا بالصحراء رجعوا إلى البلد وتسربوا في الدور واختفى ابن الجراح في داره، ودخل ابن المعتز ومولاه دار أبي عَبْد الله بن الجصاص مستجيراً به. وثار العيّارون والسفل ينتهبون. وفشا القتل، وركب ابن عمرويه صاحب الشرطة، وكان ممن بايع ابن المعتز فنادى بثأر الْمُقْتَدِر مغالطاً، فقاتله فهرب واستتر، وأمر الْمُقْتَدِر مؤنساً الخازن، فزحف في العسكر وقبض على وصيف بن صوارتكين، فقتله وقبض على القاضي أبي عمر علي بن عيسى، والقاضي محمد بن خلف. ثم أطلقهم وقبض على القاضي أبي المثنى أحمد بن يعقوب قال له بايع الْمُقْتَدِر! قال هو صبي، فقتله وبعث الْمُقْتَدِر إلى أبي الحسن بن الفرات كان مختفياً فأحضره واستوزره. وجاء سوسن خادم ابن الجصاص فأخبر صافياً الحُرمي مولى الْمُقْتَدِر بمكانه عندهم، فكبست الدار وأخذ ابن المعتز وحبس إلى الليل، ثم خصيت خصيتاه فمات وسلم إلى أهله، وأخذ

ابن الجصّاص وصودر على مال كثير، وأخذ محمد بن داود وزير ابن المعتز وكان مستتراً فقتل. ونفي عليّ بن عيسى بن علي إلى واسط، واستأذن من ابن الفرات في المسير إلى مكة، فسار إليها على طريق البصرة وأقام بها، وصودر القاضي أبو عمر على مائة ألف دينار، وسارت العساكر في طلب الحسين بن حمدان إلى الموصل فلم يظفروا به، وشفع الوزير ابن الفرات في ابن عمرويه صاحب الشرطة وإبراهيم بن كيغلغ وغيرهم. وبسط ابن الفرات الإحسان وأدر الأرزاق للعباسيين والطالبيين، وأرضى القوّاد بالأموال، ففرق معظم ما كان في بيت المال، وبعث الْمُقْتَدِر القاسم بن سيما وجماعة من القوّاد في طلب الحسين بن حمدان، فبلغوا قرقيسيا والرحبة ولم يظفروا به، وكتب الْمُقْتَدِر إلى أخيه أبي الهيجاء وهو عامل الموصل بطلبه فسار مع القاسم بن سيما والقوّاد ولقوه عند تكريت فهزموه، وبعث مع أخيه إبراهيم يستأمن فأمنوه وجاؤا به إلى بغداد، فخلع عليه الْمُقْتَدِر وعقد له على قم وقاشان، وعزل عنها العباس بن عمر الغنوي فسار إليها الحسين، ووصل نارس مولى إسماعيل بن سامان فقلده الْمُقْتَدِر ديار ربيعة.

ابتداء دولة العبيديين من الشيعة بأفريقية:

نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق ابن محمد المكتوم ابن إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق، ولا يلتفت لإنكار هذا النسب، لكتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسلجماسة يغريهم بالقبض عليه لّما سار إلى المغرب ة شاهد بصحة نسبهم وشعر الشريف الرضي في قوله:

ألبس الذل في بلاد الأعادي بمصر الخليفة العلوي

من أبوه أبي ومولاه مولاي إذا ضامني البعيد القصي

لفّ عرقي بعرقه سيدً لناس جميعاً، محمد وعلي

وأمَّا المحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالقدح في نسبهم، وشذّ فيه أعلام الأئمة مثل القدوري والصهيري وأبي العباس الأبيوردي وأبي حامد الأسفرايني وأبي الفضل النسوي وأبي جعفر النسفي، ومن العلوية المرتضى وابن

البطحاوي وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبو عَبْد الله بن النعمان، فهي شهادة على السماع. وكان ذلك متصلاً في دولة العباسية منذ مائتين من السنين فاشياً في أمصارهم وأعصارهم. والشهادة على السماع في مثله جائزة على أنها شهادة نفي، ولا تعارض ما ثبت في كتاب المعتضد مع أن طبيعة الوجود في الانقياد لهم، وظهور كلمتهم أدل شيء على صدق نسبهم. وأمَّا من جعل نسبهم في اليهودية أو النصرانية لميمون القداح وغيره فكفاه إثماً تعرضه لذلك. وأمَّا دعوتهم التي كانوا يدعرن لها فقد تقدم ذكرها في مذاهب الشيعة من مقدمة الكتاب. وانقسمت مذاهب الشيعة مع اتفاقهم على تفضيل عليّ على جميع الصحابة إلى الزيدية القائلين بصحة إمامة الشيخين مع فضل علي، ويجوزون إمامة المفضول، وهو مذهب زيد الشهيد وأتباعه، والرافضة ويدعون بالإمامية المتبرئين من الشيخين بإهمالهما وصية النبي بخلافة عليّ. مع أن هذه الوصية لم تنقل من طريق صحيح قال بها أحد من السلف الذين يقتدى بهم، وإنما هي من أوضاع الرافضة.وانقسم الرافضة بعد ذلك إلى إثني عَشَرِيّة نقلوا الخلافة من جعفر بعد الحسن والحسين وعليّ زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم وولده على سلسلة واحدة إلى تمام الإثني عشر، وهو محمد المهدي، وزعموا أنه دخل سرداباً وهم في انتظاره إلى الآن. وإلى الإسماعيلية نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم ساقوها في عقبه فمنهم من انتهى بها إلى عبيد الله هذا المهدي، وهم العبيديون، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبيد الله بن محمد المكتوم. وهؤلاء طائفة من القرامطة وهي من كذباتهم، ولا يعرف لمحمد بن إسماعيل ولد إسمه عبيد الله. وكان شيعة هؤلاء العبيديين بالمشرق واليمن وأفريقية. وسار بها إلى أفريقية رجلان يعرف أحدهما بالحلواني والآخر بالسفياني أنفذهما الشيعة إلى هنالك وقالوا لهما أن العرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يحيا صاحب البذر، وسارا لذلك ونزلا أرض كتامة أحدهما ببلد يسمى سوق حمار. وفشت هذه الدعوة منهما في أهل تلك النواحي من البربر وخصوصاً في كتامة. وكانوا يزعمون أن النبي أوصى إلى علي بالخلافة

بالنصوص الجليّة، وعدل عنها الصحابة إلى غيره فوجب البراءة ممن عدل عنها. ثم أوصى علي إلى ابنه الحسن، ثم الحسن إلى أخيه الحسين، ثم الحسين إلى ابنه عليّ زين العابدين، ثم زين العابدين إلى إبنه محمد الباقر، ثم محمد الباقر إلى ابنه جعفر الصادق، ثم جعفر الصادق إلى إبنه إسماعيل الإمام، ومنه إلى ابنه محمد، ويسمّونه المكتوم لأنهم كانوا يكتمون إسمه حذراً عليه. ثم أوصى محمد المكتوم إلى ابنه جعفر المصدق، وجعفر المصدق إلى إبنه محمد الحبيب، ومحمد الحبيب إلى ابنه عبيد الله المهدي الذي دعا له أبو عَبْد الله الشيعي. وكانت شيعهم منتشرين في الأرض من اليمن إلى الحجاز والبحرين والطرق وخراسان والكوفة والبصرة والطالقان. وكان محمد الحبيب يترل سَلَمْيَة من أرض حمص، وكان عادهم في كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد، ويرومون إظهار الدعوة بحسب ما عليهم. وكان الشيعة من النواحي يعلمون مكيهم في أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين، ثم يعرجون على سَلَمْيَة لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل- وكافي باليمن من شيعتهم. ثم بعده لأئمة قوم يعرفون ببني موسى، ورجل آخر يعرف بمحمد بن الفضل أصله من جند. وجاء محمد إلى زيارة الإمام محمد الحبيب، فبعث معه أصحابه رستم بن الحسين بن حوشب بن داود النجار، وهو كوفي الأصل، وأمره بإقامة الدعوة، وأن المهدي خارج في هذا الوقت، فسار إلى اليمن ونزل على بني موسى وأظهر الدعوة هنالك للمهدي من آل محمد الذي ينعتونه بالنعوت المعروفة عندهم، فاتبعه واستولى على كثير من نواحي اليمن.

وكان أبو عَبْد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالمحتسب، وكان محتسباً بالبصرة. وقيل إنما المحتسب أخوه أبو العباس المخطوم، وأبو عَبْد الله يعرف بالعلم لأنه كان يعرف مذهب الإمامية الباطنية قد اتصل بالإمام محمد الحبيب وخبر أهليته، فأرسله إلى أبي حوشب، ولزم مجالسته وأفاد علمه. ثم بعثه مع الحاج اليمني إلى مكة، وبعث معه عَبْد الله بن أبي مُلأ، فأتى الموسم ولقي به رجالات كتامة مثل حريث الحُمَيْليّ وموسى بن مكاد، فاختلط بهم وعكفوا عليه لّما رأوا عنده من العبادة والزهد، ووجه إليهم بدراً من ذلك المذهب، فاغتبط واغتبطوا وارتحل معهم إلى بلدهم ونزل بها منتصف ربيع سنة ثمان وثلاثين، وعين لهم مكان مترله بفتح الأحار وأن النص عنده من المهدي بذلك، ولجهره بالمهدي وأن أنصاره الاخيار من أهل زمانه، وأن إسم أنصاره مشتق من الكتمان ولم يعينه، واجتمع لمناظرته كثير من أهل كتامة فأبى ثم أطاعوه بعد فتن وحروب. واجتمعوا على دعوته وكانوا يسمّونه أبا عَبْد الله المشرقي والشيعي. ولما اختلف كتامة عليه واجتمع كثير منهم على قتله قام بنصرته الحسن بن هارون، وسار به

إلى جبل إيكجان وأنزله مدينة تاصروت من بلد زرارة، وقاتل من لم يتبعه بمن تبعه حتى استقاموا جميعاً على طاعته. وبلغ خبره إبراهيم بن أحمد بن الأغلب عامل أفريقية بالقيروان، فأرسل إلى عامل ميلة يسأله عن أمره فحقره وذكر أنه رجل يلبس الخشن، ويأمر بالعبادة والخير، فأعرض عنه حتى إذا اجتمع لأبي عَبْد الله أمره ، زحف في قبائل كتامة إلى بلد ميلة فملكها على الأمان بعد الحصار، فبعث إبراهيم بن أحمد بن الأغلب إبنه الأحول في عسكرهم يجاوز عشرين ألفاً، فهزم كتامة وامتنع أبو عَبْد الله بجبل إيكجان، وأحرق الأحول مدينة تاصروت ومدينة ميلة، وعاد إلى أفريقية وبنى أبو عَبْد الله بجبل إيكجان مدينة سماها دار الهجرة. ثم توفي

إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية وولّى ابنه أبو العباس، وقتل واستقر الأمر لزيادة الله، وكان الأحول حمل العساكر لحضوره فاستقدمه زيادة الله وقتله.

وفاة الحبيب وايصاؤه لابنه عبيد الله:

ولما توفي محمد الحبيب وأوصى لابنه عبيد الله، وقال له: أنت المهدي، وتهاجر بعدي هجرةً بعيدةً، وترى محناً شديدةً. فقام عبيد الله بالأمر وانتشرت دعوته. وأرسل إليه أبو عَبْد الله الشيعي رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم في انتظاره. وشاع خبره وطلبه المكتفي فهرب هو وولده نزار الذي ولّي بعده، وتلقب بالقائم. وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب. وانتهى إلى مصر وعليها يومئذ عيسى النوشري، فلبس عبيد الله زي التجّار يتستّر به. وجاء كتاب المكتفي للنوشري بالقبض عليه، وفيه صفته وحليته، فبعث العيون في طلبه. ونمي الخبر بذلك إلى عبيد الله من بعض خواص النوشري فخرج في رفقة ورآه النوشري وأحضره ودعاه للمؤاكلة، فاعتذر بالصوم. ثم امتحنه فلم تشهد له أحواله بشيء مما ذكر له عنه. وقارن ذلك رجوع إبنه أبي القاسم يسأل عن كلب للصيد ضاع له، فلمّا رآه النوشري وأخبر أنه ولد عَبْد الله علم أن هذه الدالة في طلب الضائع منافية للرقبة والخوف، فخلّى سبيله. وجدّ المهدي في السير وكان له كتب من الملاحم ورثها منقولة عن أبيه سرقت من رحله في تلك الطريق. ويقال: إنّ ابنه أبا القاسم لّما زحف إلى مصر أخذها من بلاد برقة. ولما انتهى المهدي وابنه إلى طرابلس وفارقه التجّار أهل الرفقة، قدم أبا

العباس أخا أبي عبيد الله الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومرّ بالقيروان، وقد سبق خبرهم إلى زيادة الله وهو يسأل عنهم، فقبض على أبي العباس وسأله فأنكر فحبسه، وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي ففاته، وسار إلى قسطنطينة فعدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل بالقيروان، وذهب إلى سجلماسة وبها أَلِيشَع بن مدرار فأكرمه. ثم جاءه كتاب زيادة الله، ويقال كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه، وبعث زيادة الله العساكر إلى كتامة مع قريبه إبراهيم بن حيش، وكانوا أربعين ألفاً، فانتهى إلى قسطنطينة فأقام بها وهم متحصّنون بخيلهم ستة أشهر. ثم زحف إليهم ودافعهم عند مدينة بلزمة، فانهزم إلى القيروان. وكتب أبو عَبْد الله بالفتح إلى المهدي وهو في محبسه. ثم زحف إلى مدينة طبنة فحاصرها وملكها بالأمان، ثم إلى مدينة بَلْزَمَة فملكها عنوة، فبعث زيادة الله العساكر مع هارون الطبني فانتهوا إلى مدينة دار ملوك، وكانوا قد أطاعوا الشيعي فهدمها هارون، وقتل أهلها، وسار إلى الشيعي فانهزم من غير قتال وقتل. وفتح الشيعي مدينة عيسى فزحف زيادة الله في العساكر سنة خمس وتسعين، ونزل الأُرْبُس. ثم أشار عليه أصحابه بالرجوع إلى القيروان ليكون ردءاً للعساكر، فبعث الجيوش مع إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته ورجع، وزحف أبو عَبْد الله إلى باغاية فهرب عاملها وملكها. ثم إلى مدينة مرماجنة فافتتحها عنوة وقتل عاملها ثم إلى مدينة تيفاش، فملكها على الأمان، واستأمن إليه القبائل

من كل جهة، فأمنهم وسار بنفسه إلى مسلبابة، ثم إلى تبسة، ثم إلى مجانة ففتحها على الأمان، ثم سار إلى القصرين من قمودة وأمن أهلها وسار يريد قادة. وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن أبي الأغلب وهو بالأربس أميراً على الجيش، فخشي على زيادة الله برقادة لقلة عسكره، وارتحل ذاهباً إليه، وسار أبو عَبْد الله إلى قسطنطينة فحاصرها وافتتحها على الأمان. ورجع إلى باغاية فأنزل بها عسكرا. وعاد إلى إيكجان، فسار إبراهيم بن أبي الأغلب إلى باغاية وحاصر أصحاب أبي عَبْد الله بها. فبعث أبو عَبْد الله عساكره إلى مج العرعار فألفوا

إبراهيم قد عاد عنها إلى الأُربُس. ثم زحف أبو عَبْد الله إلى إبراهيم سنة ست وتسعين في مائة ألف مقاتل. وبعث من عسكره من يأتي إبراهيم من خلفه، وسار إليه فانهزم، وأثخن فيهم أبو عَبْد الله بالقتل والأسر، وغنم أموالهم وخيلهم وظهرهم. ودخل الأُربُس فاستباحها، ثم سار فنزل قمودة، وبلغ الخبر إلى زيادة الله فهرب إلى مصر. وافترق أهل مدينة رقادة إلى القيروان وسوسة، ونهب قصور بني الأغلب ووصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، فنزل قصر الإمارة وجمع الناس ووعدهم الحماية، وطلب المساعدة بطاعتهم وأموالهم، فاعتذروا وخرجوا إلى الناس فأخبروهم، فثاروا به وأخرجوه. وبلغ أبا عَبْد الله الشيعي هرب زيادة الله وهو يشبه، فدخل إلى رقادة وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير فساروا وأمّنوا الناس. وخرج أهل القيروان للقاء أبي عَبْد الله فأكرمهم وأمّنهم، ودخل رقادة في رجب سنة ست وتسعين، ونزل قصورها، وفرّق دورها على كتامة، ونادى بالأمان. وتراجع الناس فأخرج العمال، وطلب أهل الشر فهربوا، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه وأمر بحفظها وبحفظ جواريه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يعيّن لهم أحداً. ونقش على السكة من أحد الوجهين بلغت حجة الله، ومن الآخر تفرّق أعداء الله، وعلى السلاح عدة في سبيل الله، ورسم أفخاذ الخيل بالملك لله.

بيعة المهدي بسجلماسة:

ولما ملك أبو عَبْد الله أفريقية لقيه أخوه أبو العباس منطلقاً من اعتقاله، فاستخلفه عليها وترك معه أبا زاكي تمام بن معارك من قواد كتامة. وسار إلى المغرب ففرق القبائل من طريقه، وخافته زناتة فدخلوا في طاعته. ولما قرب من سجلماسةأرسل إلى المهدي بمحبسه يسأله عن حاله فأنكر، ثم سأل ولده كذلك فأنكر، وضرب رجاله فانكروا، ونمي الخبر إلى أبي عَبْد الله فخشي عليهم، وأرسل إلى أليسع يتلطفه فقتل الرسل فأغذ أبو عبد الله السير وحاصره يوماً، وهرب أليسع من الليل هو وأصحابه وبنو عمه ، وخرج أهل البلد إلى أبي عَبْد الله فجاء إلى مجلس المهدي

فأخرجه هو وابنه أبا القاسم، وأركبهما ومشى مع رؤساء القبائل بين يديهما وهو يقول: هذا مولاكم ويبكي من شدة الفرح، ثم أنزله بالمخيم وبعث في أثر أليسع فجيء به فجلد، ثم قتل، وأقام بسجلماسة أربعين يوماً ورجع إلى أفريقية، ووصل إلى رقادة في ربيع من سنة ست وتسعين، وجدد البيعة للمهدي

واستولى على ملك بني الأغلب بأفريقية. وملك مدرار سجلماسة، ونزل برقادة، وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين. وبعث دعاته في الناس فحملوهم على مذهبهم، فأجابوا إلا قليلاً عرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجواري في رجال كُتامة، وأقطعهم الأموال والأعمال، ودوّن الدواوين وجبى الأموال، وبعث العمال على البلاد. فبعث على صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنزير فوصل إلى مازر في عيد الأضحى من سنة تسع وتسعين، فاستقضى بها إسحاق بن المنهال، وأجاز البحر سنة ثمان وتسعين إلى بسط قلورية، فأثخن فيها وعاد وثار به أهل صقلية سنة تسع وتسعين فحبسوه واعتذروا إلى المهدي لسوء سيرته، فعذرهم وولّى عليهم علي بن عمر البلويّ فوصل إليهم خاتمة السنة المذكورة،

أخبار ابن الليث بفارس:

قد ذكرنا من قبل استيلاء الليث بن عليّ بن الليث، وسيكري مولى عمر بن الليث على فارس من يد طاهر بن محمد. ثم أخرج سيكري بعد ذلك الليث وانفرد بها، وسار إليه طاهر بن محمد بن عمرو، فواقعه وانهزم طاهر وأسر سيكرى وأسر أخاه يعقوب، وبعث بهما إلى المُقْتَدِر مع كاتبه عَبْد الرحمن بن جعفر الشيرازي، وقد أمره على ما يحمله وذلك سنة ست وتسعين، ثم سار إليه الليث بن عليّ من سجستان سنة سبع وتسعين، فغلبه وملك فارس، وهرب سيكرى إلى أرجان وأمده المُقْتَدِر بمؤنس الخادم في العساكر، فجاء إلى أرجان، وجاء الحسين بن حمدان من قم إلى البيضاء في إعانته، فصار لملاقاته وأضل الطريق إلى مسالك صعبة أشرف على عسكر مؤنس. وكان سيكرى قد بعث أخاه إلى شيراز ليحفظها، فلما أشرف على العسكر ظنه عسكر أخيه، فثاروا إليه واقتتلوا وانهزم عسكر الليث وأخذ أسيراً. وأشار عليه أصحابه أن يقبض على سيكرى ويطلب من المُقْتَدِر ولاية فارس مكانه، فوافقهم طاهر ودسّ إليه، فلحق بشيراز، وعاد مؤنس إلى بغداد بالليث أسيراً، والحسين بن حمدان إلى عمله بقم. ثم أن عَبْد الرحمن بن جعفر كاتب سيكري استولى على أمره، وحسده أصحابه وأكثروا السعاية فيه عند سيكري، فحبسه واستكتب مكانه إسماعيل بن إبراهيم اليمن، فحمله على العصيان، ومنع الحمل ودسّ عَبْد الرحمن بن جعفر من محبسه إلى الوزير ابن الفرات بذلك، فكتب إلى مؤنس وهو بواسط يأمره بالعود إلى فارس، فسار وأرسله سيكري أنسه وسأل منه الوساطة في أمره وشعر ابن الفرات بميل مؤنس إلى بغداد، وسار محمد بن جعفر فهزم سيكري على شيراز، فخلص إلى قم وتحصن بها، وحاصره محمد بن جعفر. ثم خرج إليه فهزمه ثانية ودخل مغارة خراسان فلقيته عساكر إسماعيل إلى بغداد، فحبس هنالك. واستولى محمد بن جعفر من القواد على فارس وولّى عليها قبيجاً خادم الأفشين، ثم صارت ولايتها لبدر ابن عَبْد الله الحمامي وفي آخر سنة تسع وتسعين ومائتين قبض حرمه وقامت الهيعة ببغداد ثلاثة أيام، ثم سكنت وذلك لثلاث سنين وثلاثة أشهر من وزارته. فاستوزر مكانه أبا عليّ محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى، فرتب الأمور على الدواوين. ثم زاد قرفه لضيق صدره وطيشه وعدوله عن مذاهب الرياسة إلى الوضاعة،

ومراجعة أصحاب الحاجات والحقوق إلى ما يريد قضاءه منها، وكثرة التولية والعزل وتبجح أصحابه عليه في إطلاق الأموال وانبساط الجاه بإفساد الأحوال. واعتزم المُقْتَدِر على عزله بأبي الحسين بن أبي الفضل، فاستدعاه من أصبهان. ثم قبض عليه وعلى أبي الحسن ببغداد، وأهمل رأي الوزراء وصار يرجع إلى قول النساء والخدم، فطمع العمال في الأطراف ثم أخرج ابن الفرات من محبسه وجعله في بعض الحجر، وأحسن إليه وصار يعرض عليه مطالعات العمال، وأراد أن يستوزره. ثم بدا له واستدعي عليّ بن عيسى من مكة فاستوزره لأول سنة إحدى وثلثمائة، وقبض على الخاقاني وحبسه وعين حرسياً عليه. وقام عليّ بن عيسى بالوزارة وأصلح ما أفسده الخاقاني واستقامت الأمور.

قيام أهل صقلية بدعوة المُقْتَدِر ثم رجوعهم الى طاعة المهدي:

قد ذكرنا ولاية عليّ بن عمر على صقلية من عَبْد الله المهدي سنة تسع وتسعين. ثم أنّ أهل صقلية انتقضوا عليه وولّوا عليهم أحمد بن موهب. ثم انتقضوا عليه وأرادوا قتله، فدعا إلى طاعة المُقْتَدِر، وخطب له بصقلية، وقطع خطبة المهدي، وبعث أسطولاً إلى ناحية ساحل أفريقية، فلقوا أسطول المهدي، وعليه الحسن بن أبي خنزير، فأحرقوه وقتلوا الحسن، ووصلت خلع السواد وألويته لابن موهب من بغداد. ثم جاءت أساطيل المهدي في البحر، وفسد أمر ابن موهب. ثم ثارت أهل صقلية به سنة ثلثمائة، وأسروه وبعثوا به إلى المهدي مع جماعة من أصحابه فأمرهم بقتلهم على قبر ابن أبي خنزير.

ولاية العهد:

وفي سنة إحدى وثلثمائة ولّى المُقْتَدِر إبنه أبا العباس العهد، وهو الذي ولّي الخلافة بعد القاهر وسُمِّيَ بالرافضي، فولاه أبو المُقْتَدِر العهد وهو ابن سنين وقلّده مصر والمغرب، واستخف له عليها مؤنساً الخادم، وولّى ابنه الآخر عليًّا على الريّ ودنباوند وقزوين وأذربيجان وأبهر.

ظهور الاطروش وملكه خراسان:

كان هذا الأطروش من ولد عمر بن علي زين العابدين وهو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر، وكان قد دخل إلى الديلم بعد قتل محمد بن زيد، ولبث فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإِسلام، ويأخذ منهم العُشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسّان، فأسلم على يديه منهم خلق كثير، وبنى لهم المساجد، وزحف بهم إلى ثغور المسلمين، أراهم مثل قزوين وسالوس فأطاعوه، وهدم حصن سالوس. ثم دعاهم إلى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان، وكان إسماعيل بن أحمد لّما انتقض بها محمد بن هارون، وقبض عليه إسماعيل وولى عليها أبا العباس عَبْد الله بن محمد بن نوح، فأحسن السيرة وأظهر العدل، وبالغ في الإحسان إلى العلوية الذين بها، واستمال الديلم بالمهاداة والإحسان، فاشتمل الناس عليه. فلما دعاهم الحسن إلى غزو طبرستان، لم يجيبوه من أجل ابن نوح. ثم أن أحمد بن إسماعيل عزل ابن نوح عنها، وولّى عليها سلاماً فأساء السيرة ولم يحسن سياسة الديلم، فهاجوا عليه فقاتلهم وهزمهم، واستعفى من ولايتها.

فعاد إليها إبن نوح وصلحت الحال كما كانت إلى أن مات، فولّى عليها محمد بن إبراهيم بن صعلوك ،فأساء السيرة وتنكر للديلم فصادف الحسن منها الغرة ودعاهم إلى غزو طبرستان فأجابوه، وسار إليه ابن صعلوك على من يرحّله من سالوس بشاطئ البحر، فانهزم وقتل من أصحابه أربعة آلاف، ولجأ الباقون إلى سالوس، فحاصرهم الأطروش حتى استأمنوا، ورجع عنهم إلى آمد. ثم جاء الحسن بن القاسم العلوي الداعي صهر الأطروش إلى أولئك المستأمنين فقتلهم، واستولى الأطروش على طبرستان، ولحق ابن صعلوك بالري سنة إحدى وثلثمائة، وسار منها إلى بغداد. وكان الأطروش زيدي المذهب، وجميع الذين أسلموا على يده فيما وراء أسعيد "ولى" إلى آمد كلهم على مذهب الشيعة. ثم إن الأطروش العلوي تنحّى عن آمد إلى سالوس بعد أن غلب عليها، فبعث إليه صعلوك الرى من قبل ابن سامان جيشاً فهزمهم وعاد إلى آمد. ثم زحفت إليه عساكر السعيد صاحب خراسان سنة أربع وثلثمائة فقتلوه. وكان هذا الأطروش عادلاً حسن السيرة لم ير مثله في أيامه وأصابه الصمم من ضربة في رأسه بالسيف في الحرب. وقال ابن مسكويه في كتاب تجارب الامم، ويقال فيه الحسن بن عليّ الداعي وليس به، وإنما الداعي الحسن بن القاسم صهره، وسنذكره فيما بعد. وكان له من الولد أبو الحسن، وكان قواده من الديلم جماعة منهم ابن النعمان وكانت له ولاية جرجان، وما كان بن كالي، وكان على استراباذ ومعرّا. ثم كان من قواد ولده من الديلم جماعة آخرون منهم أسفار بن شيرويه من أصحاب ما كان ابن كالي ومرداويج بن
زياد من أصحاب أسفار، واسكري من أصحابه أيضاً، وبنو بويه من أصحاب مرداويج، وسيأتي الخبر عن جميعهم إن شاء الله تعالى.

غلب المهدي علي الاسكندرية ومسير مؤنس إلي مصر:

وفي سنة إثنتين وثلثمائة بعث عبد الله المهدي عساكره من أفريقية إلى الإسكندرية مع قائده خفاشة الكتابي، فغلب عليها وسار إلى مصر، وبلغ المُقْتَدِر فبعث مؤنسا الخادم في العساكر لمحاربته، وأمده بالأموال والسلاح. وسار إليهم وقاتلهم فهزمهم بعد وقائع متعددة، قتل فيها من الفريقين، وبلغ القتل والأسر من المغاربة سبعة آلاف ورجعوا إلى المغرب.

انتقاض الحسين على ابن حمدان بديار ربيعة وأسره:

كان الحسين بن حمدان والياً على ديار ربيعة، وطالبه الوزير عليّ بن عيسى بالمال، فدافعه وأمره بتسليم البلاد إلى عمال السلطان، فامتنع وكان مؤنس الخادم بمصر في محاربة عساكر المهدي صاحب أفريقية، فجهّز الوزير إلى ابن حمدان، رائقاً الكبير في عسكر سنة ثلاث وثلثمائة، وكتب إلى مؤنس أن يسير إلى الجزيرة لقتاله بعد فراغه من أصحاب العلوي بمصر فسار رائق أولاً وهزمه الحسين، ولحق بمؤنس فأمره بالمقام بالموصل. وسار نحو الحسين وتبعه أحمد بن كيغلغ، وانتهى إلى جزيرة ابن عمر والحسين بأرمينية. ورجع الكثير من عسكره إلى مؤنس. ثم بعث مؤنس عسكراً في أثره عليهم بُلَيْق ومعه سيما الجزري.

وجاء الصفواني واتبعوه فادركوه، وقاتلوه فهزموه، وجاؤا به أسيراً ومعه ابنه عَبْد الوهاب وأهله وكثير من أصحابه. وعاد مؤنس إلى بغداد على الموصل، فحبسه المُقْتَدِر، وأغار على أبي الهيجاء بن حمدان وجميع إخوته وحبسهم. ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وقتل الحسين سنة ست تقريباً كما نذكر إن شاء الله تعالى.

وزارة ابن الفرات الثانية:

كان الوزير أبو الحسن بن الفرات محبوساً كما ذكرنا، وكان المُقْتَدِر يشاوره ويرجع إلى رأيه، ويبغي بعض أصحاب المُقْتَدِر إعادته. وبلغ ذلك الوزير علي بن عيسى فاستعفى ومنعه المُقْتَدِر. ثم جاءت في بعض الأيام قهرمانة القصر تناظره في نفقات

الحرم والحاشية وكسوتهم، فألفته نائماً فلم يوقظه لها أحده. فرجعت وشكت إلى المُقْتَدِر وأمّه، فقبض عليه في ذي القعدة من سنة أربع وثلثمائة، وأعاد ابن الفرات على أن يحمل إلى بيت المال ألف دينار وخمسمائة دينار في كل يوم. وقبض على الوزير من قبله علي بن عيسى والخاقاني وأصحابهما، وصادرهم أبو علي بن مقلة وكان مختفياً منذ قبض على ابن الفرات فقدمه الآن واستخلصه.

خبر ابن أبي السّاج بأذربيجان:

قد ذكرنا استقرار يوسف بن أبي السّاج على أرمينية وأذربيجان منذ مهلك أخيه محمد سنة ثمان وثمانين ومائتين، وكان على الحرب والصلاة والأحكام، وكان عليه مال يؤديه. فلما وَلِيَ الخاقاني وعليّ بن عيسى الوزارة، والتأمت أمور يوسف في الاستبداد، وأخر بعض المال، واجتمع له ما يريده لذلك، وبلغته نكبة الوزير علي بن عيسى، فأظهر أن العهد وصل إليه بولاية الريّ على يد علي بن عيسى. وكان حميد بن صعلوك من قواد بن سامان قد بعث على الرى وما يليها، وقاطع عليها بمال يحمله فسار إليه يوسف سنة أربع وثلثمائة، فهرب إلى خراسان واستولى يوسف على الرى وقزوين وزنجان، وكتب إلى الوزير ابن الفرات بالفتح ويعتذر بأنه طرد المتغلبين، ويذكر كثرة ما أنفق من ذلك وأنه كان بأمر الوزير علي بن عيسى وعهده إليه بذلك، فاستعظم المُقْتَدِر ذلك وسئل علي بن عيسى فأنكر، وقال سلوا الكتّاب والحاشية والعهد واللواء اللذين كان يسير بهما مع بعض القوّاد والخدّام.فكتب ابن الفرات بالنكير على يوسف، وجهز العساكر لحربه مع خاقان المفلحي، ومعه أحمد بن مسرور البلخيّ، وسيما الجزري، ونحرير الصغير، وساروا سنة خمس وثلثمائة، فهزمهم يوسف وأسر منهم جماعة. فبعث المُقْتَدِر مؤنساً الخادم في جيش كثيف لمحاربته. وعزل خاقان المفلحيّ عن أعمال الجبل، وولاّها نحريراً الصغير. وسار مؤنس واستأمن له أحمد بن علي أخو صعلوك فأمنه وأكرمه، وبعث ابن أبي السّاج في المقاطعة على أعمال الرى بسبعمائة ألف دينار سوى أرزاق الجند والخدم، فأبى له المُقْتَدِر من ذلك عقوبة على ما أقدم عليه، وولّي على ذلك العمل وصيفاً البكتمري، وطلب ابن أبي السّاج أن يقاطعه على ما كان بيده قبل الريّ من أذربيجان وأرمينية، فأبى المُقْتَدِر إلا أن يحضر في خدمته. فلما يئس

ابن أبي السّاج زحف إلى مؤنس وقاتله، فانهزم مؤنس إلى زَنْجَان وقتل من قواده جماعة، وأسر هلال بن بدر وغيره فحبسهم يوسف في أردبيل، وأقام مؤنس بزنجان بجميع العساكر، يستمدّ من المُقْتَدِر وابن أبي السّاج يراسله في الصلح، والمقتدر لا يجيب إلى ذلك. ثم قاتله مؤنس في فاتح سنة سبع وثلثمائة عند أردبيل، فهزمه وأسره وعاد به إلى بغداد أسيراً، فحبسه المُقْتَدِر وولّى مؤنس على الريّ ودنبوند وقزوين وأبهر وزنجان علي بن وهشودان، وجعل أموالها لرجاله، وولّى مؤنس على أصبهان وقم وقاشان أحمد بن علي بن صعلوك، وسار عن أذربيجان فوثب سبك مولى يوسف بن أبي الساح فملكها واجتمع عليه عسكر فولى مؤنس بن صمد بن عبيد الفارقي، وسار بمحاربة سبك، فانهزم وعاد إلى بغداد. وتمكن سبك في أذربيجان، وسأل المقاطعة على مائتي ألف وعشرين ألف دينار في كل سنة، فأجيب وعقد له عليها، وكان مقيماً بقزوين، فقتله على مراسة ولحق ببلده، فولى المُقْتَدِر وصيفاً البكتمري مكانه على أعمال الريّ، وولى محمد بن سليمان صاحب الجيش على الخوارج بها، ثم وثب أحمد بن علي بن صعلوك صاحب أصبهان وقم على الريّ، فملكها وكتب إليه المُقْتَدِر بالنكير، وأن يعود إلى قم، فعاد ثم أظهر الخلاف وأجمع المسير إلى الريّ، وسار وصيف البكتمري لحربه. وأمر نحرير الصغير أن يسير مدداً لبكتمري، فسبقهم أحمد بن صعلوك إلى الريّ. وملكها، وقتل محمد بن سليمان صاحب الخوارج، وبعث إلى نصر الحاجب ليصلح أمره بالمقاطعة على أعمال الريّ بمائة وستين ألف دينار، ويترل عن قم فكتب له بذلك وولّى غيره على قمّ.

خبر سجستان وكرمان:

كانت سجستان قد صارت لابن سامان منذ سنة ثمان وتسعين ومائتين، ثم تغلب عليها كثير بن أحمد بن صهفود من يده، فكتب المُقْتَدِر إلى عامل فارس وهو بدر بن عَبْد الله الحمامي أن يرسل العساكر لمحاربته، ويؤمر عليهم دركاً، ويجعل على الخراج بها زيد بن إبراهيم. فسارت العساكر وحاربوا أهل سجستان فهزموهم وأسروا زيد بن إبراهيم، وكتب كثير إلى المُقْتَدِر بالبراءة من ذلك، وطوية أهل سجستان. وأرسل المُقْتَدِر أن يسير لقتاله بنفسه، فخاف كثير وطلب المقاطعة على خمسمائة ألف دينار في كل سنة فأجيب وقررت البلاد عليه. وذلك سنة أربع وثلثمائة. وانتقض في هذه السنة بكرمان صاحب الخوارج بها أبو زيد خالد بن محمد

الماردايي، وسار منها إلى شيراز يروم التغلّب على فارس، فسار إليه بدر الحمامي العامل، وحاربه فقتله وحمل رأسه إلى بغداد.

وزارة حامد بن العباس:

وفي سنة ست وثلثمائة قبض المُقْتَدِر على وزيره أبي الحسن بن الفرات، بسبب شكوى الجند بمطله أرزاقهم، واعتذر بضيق الأموال للنفقة في حروب ابن أبي السّاج، ونقص الارتياع بخروج الريّ عن ملكه. فشغب الجند وركبوا، وطلب ابن الفرات من الخليفة إطلاق مائتي ألف دينار من خاصته يستعين بها، فنكر

ذلك عليه لأنه كان ضمن القيام بأرزاق الأحشاد، وجميع النفقات المرتبة، فاحتج بنقص الارتياع وبالنفقة في الحرب كما تقدم، فلم يقبل. ويقال: سعى فيه عند الْمُقْتَدِر بأنه يروم إرسال الحسين بن حمدان إلى أبي السّاج فيحاربه، وإذا سار عنده اتفقا على الْمُقْتَدِر، فقتل الْمُقْتَدِر ابن حمدان، وقبض على ابن الفرات في جمادى الآخرة، وكان حامد بن العباس على الأعمال بواسط، وكان منافراً لابن الفرات، وسعى به عنده بزيادة ارتياعه على ضمانه، فخشيه حامد على نفسه. وكتب إلى نصر الحاجب والي والده الْمُقْتَدِر سعة نفسه وكثرة اتباعه، وذلك عند استيحاشه من ابن الفرات. فاستقدمه من واسط، وقبض على ابن الفرات وابنه المحسن واتباعهما، واستوزر حامدا فلم يوفِ حقوق الوزارة ولا سياستها، وتحاشى عليه الدواوين، فأطلق الْمُقْتَدِر عليّ بن عيسى وأقامه على الدواوين كالنائب عن حامد. فكان يزاحمه واستبد بالأمور دونه، ولم يبق لحامد أمر عليه. فأجابه ابن الفرات بأسفه منه. وقال لشفيع اللؤلؤي: قل لأمير المؤمنين حامد، إنما حمله على طلب الوزارة أني طالبته بأكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانه، فاستشاط حامد وزاد في السفه، فأنفذ الْمُقْتَدِر من رد ابن الفرات إلى محبسه، ثم صودر وضرب إبنه المحسن وأصحابه وأخذت منهم الأموال. ثم أن حامداً لّما رأى استطالة علي بن عيسى عليه، وكثرة تصرفه في الوزارة دونه، ضمن للمقتدر أعمال الخوارج والضياع الخاصة والمستحدثة والقرارية، بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان، واستأذنه في الانحدار إلى واسط لاستخراج ذلك، فانحدر واسم الوزارة له، وأقام علي بن عيسى يدبر الأمور، فأظهر حامد سوء تصرف في الأموال، وبسط الْمُقْتَدِر يده حتى خافه علي بن عيسى. ثم

تحرك السعر ببغداد فشغبت العامة ونهبوا الغلال، لأن حامداً وغيره من القواد كان يخزنون الغلال. وأحضر حامد لمنعهم فحضر فقاتلوه، وفتقوا السجون، ونهبوا دار الشرطة. وأنفذ الْمُقْتَدِر غريب الحال في العسكر، فسكن الفتنة وعاقب المتصدين للشر، وأمر بفتح المخازن التي للحنطة وببيعها، فرخص السعر وسكن إلى منع الناس من بيع الغلال في البيادر وخزنها، فرفع الضمان عن حامد، وصرف عمّاله عن السواد، وردّ ذلك لعلي بن عيسى وسكن الناس.

وصول ابن المهدي وهو أبو القاسم إلي ابنه:

وفي سنة سبع وثلثمائة بعث المهدي صاحب أفريقية أبا القاسم في العساكر إلى مصْرَ، فوصل إلى الاسكندرية في ربيع الآخر وملكها، ثم سار إلى مِصْرَ ونزل بالجيزة واستولى على الصعيد، وكتب إلى أهل مكة في طاعته فلم يجيبوا. وبعث الْمُقْتَدِر مؤنساً الخادم إلى مصر لمدافعته، فكانت بينهم حروب كثر فيها القتلى من الجانبين، وكان الظهور لمؤنس ولقب يومئذ بالْمُظَفّر. ووصل من أفريقية أسطولٌ من ثمانين مركباً مدداً للقائهم، وعليهم سليمان الخادم ويعقوب الكُتَامِيّ، وأمر الْمُقْتَدِر بأن يسير إليهم أسطول طرسوس فسار في خمسة وعشرين مركباً وعليهم أبو اليمن، ومعهم العُدَدَ والأنفاط، فغلبوا أسطول أفريقية وأحرقوا

أكثر مراكبه. وأسر سليمان الخادم ويعقوب الكتامي في جماعة قتل أكثرهم، وحبس سليمان بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد. ثم هرب وعاد إلى أفريقية، وانقطع المدد عن عسكر المغاربة، فوقع الغلاء عندهم، وكثر الموتان في الناس والخيل، فارتحلوا راجعين إلى بلادهم وسار عساكر مصر في أثرهم حتى ابعدوا.

بقية خبر ابن أبي السّاج:

قد تقدم لنا أنّ مؤنساً حارب يوسف بن أبي السّاج عامل أذربيجان، فأسره وحمله إلى بغداد فحبس بها، واستقر بعده في عمله سبك مولاه. ثم أن مؤنساً شفع فيه سنة عشر، فأطلقه المُقْتَدِر وخلع عليه. ثم عقد له على اذربيجان وعلى الرى وقزوين وأبْهَروزَنْجان وعلى خمسمائة ألف دينار في كل سنة سوى أرزاق العساكر. وسار يوسف إلى اذربيجان ومعه وصيف البكتمري في العساكر، ومر بالموصل فنظر في أعمالها وأعمال ديار ربيعة. وقد كان المُقْتَدِر تقدم إليه بذلك. ثم سار إلى أذربيجان وقد مات مولاه سبك، فاستولى عليها. وسار سنة إحدى عشرة إلى الريّ، وكان عليها أحمد بن علي أخو صعلوك، وقد اقتطعها كما قدّمنا. ثم انتقض على المُقْتَدِر، وهادن ما كان بن كالي من قوّاد الدَيلم القائم بدعوة أولاد الأطروش في طبرستان وجرجان. فلما جاء يوسف إلى الريّ حاربه أحمد، فقتله يوسف وأنفذ رأسه إلى بغداد، واستولى على الريّ في ذي الحجة وأقام بها مدة، ثم سار عنها إلى همذان فاتح ثلاث عشرة، واستخلف بها مولاه مفلحا وأخرجه أهل الريّ عنهم، فعاد يوسف إليهم في جمادى من سنته، واستولى عليها ثانية. ثم قلده المُقْتَدِر سنة أربع عشرة نواحي المشرق، وأذن له في صرف أموالها في قواده وأجناده، وأمره بالمسير إلى واسط، ثم منها إلى هجر لمحاربة أبي طاهر القرمطي، فسار يوسف إلى أبي طاهر وكان بها مؤنس المُظَفّر، فرجع إلى بغداد وجعل له أموال الخراج بنواحي همذان وساوة وقمّ وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وما سبَذَان لينفقها في عسكره، ويستعين بها على حرب القرامطة. ولما سار من الريّ كتب المُقْتَدِر إلى السعيد نصر بن سامان بولاية الريّ، وأمره بالمسير إليها وأخذها من فاتك مولى يوسف، فسار إليها فاتح أربع عشرة، فلما انتهى إلى جبل قارن منعه أبو نصر الطبري من العبور، وبذل له ثلاثين ألف دينار، فترك سبيله وسار إلى الريّ فملكها من يد فاتك، وأقام بها شهرين، وولى عليها سيمجور الدواني وعاد إلى بخارى. ثم استعمل على الريّ محمد بن أبي صعلوك، فأقام بها إلى شعبان سنة ست عشرة وأصابه مرض، وكاتب الحسن بن القاسم الداعي وما كان بن كالي أميري الديلم في تسليم الريّ إليهما، فقدما وسار عنها ومات في طريقه، واستولى الداعي والدَيْلَم عليها.

بقية الخبر عن وزراء المُقْتَدِر:

قد تقدّم الكلام في وزارة حامد بن العبّاس، وأنّ عليّ بن عيسى كان مستبداً عليه في وزارته، وكان كثيراً ما يطرح جانبه ويسيء في توقعاته على عماله. وإذا اشتكى إليه أحد من نوابه يوقّع على القصّة: إنما عقد الضمان على الحقوق الواجبة فليكفّ

الظالم عن الرعية. فأنف حامد من ذلك، واستأذن في المسير إلى واسط للنظر في ضمانة، فأذن له. ثم كثرت إستغاثة الخدم والحاشية من تأخر أرزاقهم وفسادها، فإن علي بن عيسى كان يؤخرها، وإذا اجتمعت عدة شهور أسقطوا بعضها، وكثرت السعاية واستغاث العمال وجميع أصحاب الأرزاق بأنه حطّ من أرزاقهم شهرين من كل سنة، فكثرت الفتنة على حامد، وكان الحسن ابن الوزير ابن الفرات متعلقا بمُفلح الأسود خالصة الخليفة المُقْتَدِر وكان شقيقه لأبيه، وجرى بينه وبين حامد يوماً كلام، فأساء عليه حامد وحقد له. وكتب ابن الفرات إلى المُقْتَدِر وضمن له أموالاً فأطلقه واستوزره، وقبض على علي بن عيسى وحبسه في مكانه، وذلك سنة إحدى عشرة، وجاء حامد من واسط فبعث ابن الفرات من يقبض عليه، فهرب من طريقه واختفى ببغداد. ثم مضى إلى نصر بن الحاجب سراً وسأل إيصاله إلى المُقْتَدِر، وأن يحبسه بدار الخلافة، ولا يُمَكّن ابن الفرات منه. فاستدعى نصر الحاجب مفلحاً الخادم حتى وقفه على أمره وشفع له في رفع المؤاخذة بما كان منه، فمضى إلى المُقْتَدِر وفاوضه بما أحب، وأمر المُقْتَدِر بإسلامه لابن الفراث، فحبسه مدة ثم أحضره وأحضر له القضاة والعمال، وناظره فيما وصل إليه من الجهات فأقر بنحو ألف ألف دينار. وضمنه المحسن بن الفرات بخمسمائة ألف دينار فسلم إليه وعذبه أنواعاً من العذاب، وبعثه إلى واسط ليبيع أمواله هناك، فهلك في طريقه بإسهال أصابه. ثم صودر عليّ بن عيسى على ثلثمائة ألف دينار، وعذّبه المحسن بعد ذلك عليها فلم يستخرج منه شيئاً، وسيره ابن الفرات أيام عطلته وحبسه بعد أن كان رباه وأحسن إليه، فقبض عليه مدة ثم أطلقه، وقبض على ابن الجوزي وسلمه إلى ابنه المحسن، فعذبه ثم بعثه إلى الأهواز لاستخراج الأموال، فضربه الموكل به حتى مات. وقبض أيضاً على الحسين بن أحمد، وكان تولى مصر والشام وعلى محمد بن علي الماردايي وصادرهما على ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وصادر جماعة من الكتّاب سواهم ونكبهم. وجاء مؤنس من غزاته فانهى إليه أفعال ابن الفرات، وما يعتمده من المصادرات والنكايات وتعذيب إبنه للناس، فخافه ابن الفرات وخوف المُقْتَدِر منه. وأشار بسيره إلى الشام ليقيم هنالك بالثغر، فبعثه

المُقْتَدِر وأبعده. ثم سعى ابن الفرات بنصر الحاجب وأغراه به وأطمعه في ماله وكان مكثراً. واستجار نصر بأم المُقْتَدِر. ثم كثر الارجاف بابن الفرات، فخاف وانهى إلى المُقْتَدِر بأن الناس عادوه لنصحه للسلطان واستيفاء حقوقه، وركب هو وابنه المحسن إلى المُقْتَدِر فأوصلهما إليه وأسهمهما، وخرجا من عنده فمنعهما نصر الحاجب، ودخل مفلح على المُقْتَدِر وأشار إليه بعزله، فأسرّ إليه وفاقه على ذلك، وأمر بتخلية سبيلهما. واختفى المحسن من يومه. وجاء نازوك وبليق من الغد في جماعة من الجند إلى دار ابن الفرات فاخرجوه حافياً حاسراً. وحمل إلى مؤنس المُظَفّر ومعه هلال بن بدر، ثم سُلّم إلى شفيع اللؤلؤي فحبس عنده وصودر على ألف ألف دينار، وذلك سنة إثنتي عشرة. وكان عَبْد الله أبو القاسم بن علي بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان لّما تغير حال ابن الفرات سعى في الوزارة، وضمن في ابن الفرات وأصحابه

ألفي ألف دينار على يد مؤنس الخادم وهارون بن غريب الحال ونصر الحاجب، فاستوزره المُقْتَدِر على كراهية فيه، ومات أبوه علي على وزارته. وشفع إليه مؤنس الخادم في إعادة علي بن عيسى من صنعاء، فكتب له في العود وبمشارفة أعمال مصر والشام، وأقام المحسن بن الفرات مختفياً مدة. ثم جاءت امرأة إلى دار المُقْتَدِر تنادي بالنصيحة، فأحضرها نصر الحاجب فدلت على المحسن، فأحضره نازوك صاحب الشرطة، فسلم للوزير وعذب، بأنواع العذاب، فلم يستخرج منه شيء فأمر المُقْتَدِر بحمله إلى أبيه بدار الخلافة، وجاء الوزير أبو القاسم الخاقاني إلى مؤنس وهارون، ونصر فحذرهم شأن ابن الفرات وعائلته بدار الخلافة، وأغراهم به، فوضعوا القواد والجند وقالوا لا بد من قتل ابن الفرات وولده. ووافق هؤلاء على ذلك، فأمر نازوك بقتلهما فذبحهما. وجاء هارون إلى الوزير الخاقاني يهنئه بذلك فأغمي عليه، ثم أفاق وأخذ منه ألفي دينار، وشفع مؤنى المظفر في ابنيه عَبْد الله وأبي نصر فأطلقهما ووصلهما بعشرين ألف دينار. ثم عزل الخاقاني سنة ثلاث عشرة لأنه أصابه المرض وطال به، وشغب الجند في طلب أرزاقهم فوقفت به الأحوال، وعزله المُقْتَدِر وولى مكانه أبا العباس الخصي وكان كاتبا لأمه فقام بالأمر، وأقر علي بن عيسى على أعمال مصر والشام، فكان يتردد إليهما من مكة ثم أن الخصي اضطربت أموره وضاقت الجباية، وكان مدمنا للسكر مهملاً للأمور، ووكل من يقوم عنه فآثروا مصالحهم

وأضاعوا مصلحته. وأشار مؤنس المظفر بعزله وولاية ابن عيسى، فعزل لسنة وشهرين. واستقدم عليّ بن عيسى من دمشق، وأبو القاسم عَبْد الله بن محمد الكلواذي بالنيابة عنه إلى أن يحضر، فحضر أوّل سنة خمس عشرة واستقل بأمر الوزارة، وطلب كفالات المصادرين والعمّال، وما ضمن من الأموال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب، فاستحضرها شيئاً بعد شيء، وأدر الأرزاق وبسط العطاء وأسقط أرزاق المغنين والمسامرة والندمان والصفاعنة. وأسقط من الجند أصاغر الأولاد ومن ليس له سلاح والهرمى والزمنى، وباشر الأمور بنفسه، واستعمل الكفاة. وطلب أبا العباس الخصي في المناظرة، وأحضر له الفقهاء والقضاة والكتاب، وسأله عن أموال الخوارج والنواحي والمصادرات وكفالاتها، وما حصل من ذلك وما الواصل والبواقي، فقال لا أعلم. فسأله عن المال الذي سلمه لابن أبي السّاج كيف سلمه بلا مصرف ولا منفق، وكيف سلم إليه أعمال المشرق، وكيف بعثه لبلاد الصحراء بهجر هو وأصحابه من أهل الغلول والخصب، فقال ظننت منهم القدرة على ذلك. وامتنع ابن أبي السّاج من المنفق فقال: وكيف استجزت ضرب حرم المصادرين؟ فسكت، ثم سئل عن الخراج فخلط فقال أنت غررت أمير المؤمنين من نفسك، فهلا استعذرت بعدم المعرفة. ثم أعيد إلى محبسه واستمر علي بن عيسى في ولايته. ثم اضطربت عليه الأحوال واختلفت الأعمال، ونقص الارتياع نقصاً فاحشاً، وزادت النفقات، وزاد المُقْتَدِر تلك الأيام في نفقات الخدم والحرم ما لا يحصى، وعاد الجند من الأنبار فزادهم في أرزاقهم مائتين وأربعين ألف دينار. فلما رأى ذلك علي بن عيسى ويئس من انقطاعه أو توقفه، وخشي من نصر الحاجب، فقد كان انحرف

عنه لميل مؤنس إليه وما بينهما من المنافرة في الدولة، فاستعفى من الوزارة وألح في ذلك وسكنه مؤنس فقال له أنت سائر إلى الرقة، وأخشى على نفسي بعدك. ثم فاوض المُقْتَدِر نصراً الحاجب بعد مسير مؤنس فأشار بوزارة أبي علي بن مقلة، فاستوزره المُقْتَدِر سنة ست عشرة وقبض على علي بن عيسى وأخيه عَبْد الرحمن، وأقام ابن مقلة بالوزارة وأعانه فيها أبو عَبْد الله البريدي لمودة كانت بينهما، واستمرت حاله على ذلك. ثم عزله المُقْتَدِر ونكبه بعد سنتين وأربعة أشهر حين استوحش من مؤنس كما نذكره، وكان ابن مقلة متهماً بالميل إليه، فاتفق مغيبه في بعض الوجوه فقبض عليه المُقْتَدِر. فلما جاء مؤنس سأل في إعادته فلم يجبه المُقْتَدِر

أراد قتله فمنعه، واستوزر المُقْتَدِر سليمان بن الحسن، وأمر عليّ بن عيسى بمشاركته في الاطلاع على الدواوين، وصودر ابن مقلة على مائتي ألف دينار، وأقام سليمان في وزارته سنة وشهرين، وعلي بن عيسى يشاركه في الدواوين، وضاقت عليه الأحوال إضاقة شديدة، وكثرت المطالبات ووقفت وظائف السلطان. ثم أفرد السواد بالولاية، فانقطعت مواد الوزير لأنه كان يقيم من قبله من يشتري توقعات الأرزاق ممن لا يقدر على السعي في تحصيلها من العمال والفقهاء وأرباب البيوت، فيشتريها بنصف المبلغ فيتعرض بعض من كان ينتمي لمفلح الخادم لتحصيل ذلك للخليفة، وتوسط له مفلح فدافع لذلك وجاهر في تحصيله من العمال، فاختلت الأحوال بذلك وفضح الديوان ودفعت الأحوال لقطع منافع الوزراء والعمال التي كانوا يرتفقون بها، وإهمالهم أمور الناس بسبب ذلك. وعاد الخلل على الدولة وتحرك المرشحون للوزارة في السعاية وضمان القيام بالوظائف وأرزاق الجند. وأشار مؤنس بوزارة أبي القاسم الكلواذي، فاستوزره المُقْتَدِر في رجب من سنة تسع عشرة وأقام في وزارته شهرين. وكان ببغداد رجل من المخرفين يسمى الدانيالي، وكان ورّاقاً ذكياً محتالاً يكتب الخطوط في الورق ويداويها حتى تتم بالبلى. وقد أودعها ذكر من يراه من أهل الدولة برموز وإشارات، ويقسم له فيها من حظوظ الملك والجاه والتمكين قسمة من عالم الغيب، يوهم أنها من الحدثان القديم المأثور عن دانيال وغيره، وأنها من الملاحم المتوارثة عن آبائه، ففعل مثل ذلك بمفلح. وكتب له في الأوراق م م م بأن يكون له كذا وكذا، وسأله مفلح عن الميم فقال هو كناية عنك لأنك مفلح مولى المُقْتَدِر. وناسب بينه وبين علامات مذكورة في تلك الأوراق حتى طبقها عليه، فشغف به مؤنس وأغناه. وكان يداخل الحسين بن القاسم بن عَبْد الله بن وهب، فرمز اسمه في كتاب وذكر بعض علاماته المنطبقة عليه، وذكر أنه يستوزره الخليفة الثامن عشر من بني العباس، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعادي وتعمر الدنيا في أيامه. وخلط ذلك في الكتاب بحدثان كثير وقع بعضه ولم يقع الآخر. وقرأ الكتاب على مفلح فأعجبه، وجاء بالكتاب إلى المُقْتَدِر فأعجب به الآخر، وقال لمفلح من تعلم بهذه القصة؟ فقال لا أراه إلا الحسين بن القاسم. قال: صدقت

وإني لأميل إليه، وقد كان المُقْتَدِر أراد ولايته قبل ابن مقلة وقبل الكلوذي، فامتنع مؤنس. ثم قال المُقْتَدِر لمفلح أن جاءتك رقعة منه بالسعي في

الوزارة فأعرضها علي. ثم سأل مفلح الدانيالي من أين لك الكتاب؟ قال: وراثة من آبائي وهو من ملاحم دانيال. فأنهى ذلك إلى المُقْتَدِر، واغتبطوا بالحسين وبلغ الخبر إليه، فكتب إلى مفلح بالسعي في الوزارة، فعرض كتابه على المُقْتَدِر فأمره بإصلاح مؤنس. واتفق أنّ الكلوذي عمل حساباً بما يحتاج إليه من النفقات الزائدة على الحاصل، فكانت سبعمائة ألف دينار، وكتب عليه أهل الديوان خطوطهم، وقال: ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين. فعظم ذلك على المُقْتَدِر، وأمر الحسين بن القاسم أن يضمن جميع النفقات وزيادة ألف ألف دينار لبيت المال. وعرض كتابه على الكلوذي فاستقال، وأذن للكلوذي لشهرين من وزارته، وولّى الحسين بن القاسم، واشترط أن لا يشاركه علي بن عيسى في شيء من أموره، وإخراجه الصافية. واختص به الحسين بن اليزيدي وابن الفرات. ولما ولي واطلع على نقصان الارتياع وكثرة الإنفاق، وضاق عليه الأمر فتعجل الجباية المستقبلة، وصرفها في الماضية. وبلغ ذلك هارون بن غريب الحال فأنهاه إلى المُقْتَدِر، فرتب معه الخصي واطلع على حسابه، فألقى له حسبة ليس فيها رمزه. فأظهر ذلك المُقْتَدِر وجميع الكتاب، واطلعوا عليها وقابلوا الوزير بتصديق الخصي فيما قاله، وقبض على الحسين بن القاسم في شهر ربيع من سنة عشرين لسبعة أشهر من ولايته. واستوزر أبا الفتح الفضل بن جعفر وسلم إليه الحسين فلم يؤاخذه بإساءته ولم يزل على وزارته.

القرامطة

أخبار القرامطة في البصرة والكوفة :

كان القرامطة قد استبد طائفة منهم بالبحرين، وعليهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي، ورث ذلك عن أبيه واقتطعوا ذلك العمل بأسره عن الدولة، كما يذكر في أخبار دولتهم عند إفرادها بالذكر. فقد أبو طاهر البصرة سنة إحدى عشرة ومائتين، وبها سبط مفلح، لكبسها ليلاً في ألفين وسبعمائة، وتسنّمو الأسوار بالحبال، وركب سُبُك فقتلوه ووضعوا السيف في الناس، فافحشوا في القتل، وغرق كثير في الماء، وأقام أبو طاهر بها سبعة عشر يوماً، وحمل ما قدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان وعاد إلى هجر. وولى المُقْتَدِر على البصرة محمد بن عَبْد الله الفارقي فانحدر إليها بعد انصرافهم عنها. ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة إثنتي عشرة

معترضاً للحاج في رجوعهم من مكة، فاعترض أوائلهم ونهبهم، وجاء الخبر إلى الحاج وهم بعيد، وقد فنيت أزوادهم وكان معهم أبو الهيجاء بن حمدان صاحب طريق الكوفة. ثم أغار عليهم أبو طاهر فأوقع بهم، وأسر أبا الهيجاء أحمد بن بدر من أخوال المُقْتَدِر، ونهب الأمتعة، وسبى النساء والصبيان، ورجع إلى هجر. وبقي الحجاج ضاحين في القفر إلى أن هلكوا، ورجع كثير من الحرم إلى بغداد، وأشغبوا واجتمع

معهم حرم المنكوبين أيام ابن الفرات، فكان ذلك من أسباب نكبته. ثم أطلق أبو طاهر الأسرى الذي عنده ابن حمدان وأصحابه، وأرسل إلى المُقْتَدِر يطلب البصرة والأهواز، فلم يجبه وسار من هجر لاعتراض الحاج، وقد سار بين أيديهم جعفر بن ورقاء الشيباني في ألف رجل من قومه، وكان صاحب أعمال الكوفة وعلى الحاج بمثل صاحب البحر وجنا الصفواني وطريف اليشكري وغيرهم في ستة آلاف رجل فقاتل جعفر الشيباني أولاً وهزمه. ثم اتبع الحاج إلى الكوفة فهزم عسكرهم وفتك فيهم، وأسرجنا الصفواني، وهرب الباقون. وملك الكوفة وأقام بظاهرها ستة أيام يقيم في المسجد إلى الليل، ويبيت في عسكره. وحمل ما قدر عليه من الأموال والمتاع ورجع إلى هجر. ووصل المنهزمون إلى بغداد فتقدم المُقْتَدِر إلى مؤنس بالخروج إلى. الكوفة، فسار إليها بعد خروجهم عنها، واستخلف عليها ياقوتاً، ومضى إلى واسط ليمانع أبا طاهر دونها، و ليحج أحد هذه السنة، وبعث المُقْتَدِر سنة أربع عشرة عن يوسف بن أبي السّاج من أذربيجان، وسيره إلى واسط لحرب أبي طاهر. ورجع مؤنس إلى بغداد، وخرج أبو طاهر سنة خمس عشرة وقصد الكوفة، وجاء الخبر إلى ابن أبي السّاج فخرج من واسط آخر رمضان يسابق أبا طاهر إليها، فسبقه أبو طاهر، وهرب العمال عنها واستولى على الأتراك والعلوفات التي أعدت بها. ووصل ابن أبي السّاج ثامن شوال بعد وصول أبي طاهر بيومٍ، وبعث يدعوه إلى الطاعة للمقتدر، فقال لا طاعة إلا لله، فآذنه بالحرب وتزاحفوا يوماً إلى الليل. ثم انهزم أصحاب ابن أبي السّاج وأسروا ووكل أبو طاهر طبيباً يعالج جراحته، ووصل المنهزمون ببغداد فأرجفوا بالهرب، وبرز مؤنس المظفر لقصد الكوفة. وقد سار القرامطة إلى عين التمر فبعث مؤنس من بغداد خمسمائة سرية ليمنعهم من عبور الفرات. ثم قصد القرامطة الأنبار ونزلوا غربي الفرات، وجاؤا بالسفن من الحديثة، فأجاز فيهم ثلثمائة منهم، وقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم واستولوا على مدينة الأنبار. وجاء الخبر إلى بغداد فخرج

الحاجب في العساكر، ولحق بمؤنس المظفر واجتمعوا في نيف وأربعين ألف مقاتل إلى عسكر القرامطة ليخلصوا ابن أبي السّاج، فقاتلهم القرامطة وهزموهم. وكان أبو طاهر قد نظر إلى ابن أبي السّاج وهو يستشرف إلى الخلاص، وأصحابه يشيرونه، فأحضره وقتله وقتل جميع الأسرى من أصحابه، وكثر الهرج ببغداد، واتخذوا السفن بالإنحدار إلى واسط ومنهم من نقل متاعه إلى حلوان. وكان نازوك صاحب الشرطة فأكثر التطواف بالليل والنهار، وقتل بعض الدعار فاقصروا عن [*] . ثم سار القرامطة عن الأنبار فاتحة سنة ست عشرة، ورجع مؤنس إلى بغداد، وسار أبو طاهر إلى الرحبة فملكها واستباحها، واستأمن إليه أهل قرقيسيا فأمنهم، وبعث السرايا إلى الأعراب بالجزيرة فنهبوهم وهربوا بين يديه، وقدر إليهم الأتاوة في كل سنة يحملونها إلى هجر. ثم سار أبو طاهر إلى الرقة وقاتلها ثلاثاً، وبعث السرايا إلى رأس عين وكفر توثا وسنجار فاستأمنوا إليهم، وخرج مؤنس المظفر من بغداد في العسكر وقصد الرقة، فسار أبو طاهر عنها إلى الرحبة ووصلها مؤنس، وسار القرامطة إلى هَيت، فامتنعت عليهم فساراوا إلى الكوفة.

وخرج من بغداد نصر الحاجب وهارون بن غريب وبني بن قيس في العساكر إليها، ووصلت جند القرامطة إلى قصر ابن هبيرة. ثم مرض نصر الحاجب واستخلف على عسكره أحمد بن كيغلغ، وعاد فمات في طريقه وولى مكانه على عسكره هارون بن غريب، وولى مكانه في الحجة ابنه أحمد. ثم انصرف القرامطة إلى بلادهم، ورجع هارون إلى بغداد في شوال من السنة. ثم اجتمع بالسواد جماعات من أهل هذا المذهب بواسط وعين التمر، وولى كل جماعة عليهم رجلاً منهم، فولى جماعة واسط حريث بن مسعود، وجماعة عين التمر عيسى بن موسى وسار إلى الكوفة ونزل بظاهرها وصرف العمال عن السواد، وجبى الخراج. وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها دارا سماها دار الهجرة، واستولى على تلك الناحية، وكان صاحب الحرب بواسط بني بن قيس، فهزموه، فبعث إليه المُقْتَدِر هارون بن غريب في العساكر، وإلى قرامطة الكوفة صافيا البصري، فهزموهم من كل جانب وجاؤوا بأعلامهم بيضاء، عليها مكتوب: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) الآية، وأدخلت إلى بغداد منكوسة، واضمحل أمر القرامطة بالسواد.

استيلاء القرامطة على مكة وقلعهم الحجر الاسود:

ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة تسع عشرة إلى مكة، وحج بالناس منصور الديلمي، فلما كان يوم التروية، نهب أبو طاهر أموال الحجاج، وفتك فيهم بالقتل حتى في المسجد والكعبة، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر، وخرج إليه أبو مخلب أمير مكة في جماعة من الأشراف، وسألوه فلم يسعفهم، وقاتلوه فقتلهم وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً يقتلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في زمزم، ودفن الباقين في المسجد حيث قتلوا، ولم يغسلوا ولا صلي عليهم ولا كُفِّنوا. وقسم كسوة البيت على أصحابه، ونهب بيوت أهل مكة، وبلغ الخبر إلى المهدي عبيد الله بأفريقية،. وكانوا يظهرون الدعاء له، فكتب إليه بالنكير واللعن ويتهدده على الحجر الأسود، فرده وما أمكنه من أموال الناس واعتذر عن بقية ما أخذوه بافتراقه في الناس.

خلع المُقْتَدِر وعوده:

كان من أول الأسباب الداعية لذلك أن فتنة وقعت بين ماجوريه هارون الحال، ونازوك صاحب الشرطة في بعض مذاهب الفواحش، فحبس نازوك ماجوريه هارون، وجاء أصحابه إلى محبس الشرطة، ووثبوا بنائبه وأخذوا أصحابهم من الحبس. ورفع نازوك الأمر إلى المُقْتَدِر فلم يعد أحداً منهما لمكانهما منه، فعاد الأمر بينهما إلى المقاتلة. وبعث المُقْتَدِر إليهما بالنكير فاقصرا، واستوحش هارون، وخرج بأصحابه ونزل البستان النجمي وبعث إليه المُقْتَدِر يسترضيه، فأرجف الناس أن المُقْتَدِر جعله أمير الأمراء، فشق ذلك على أصحاب مؤنس. وكان بالرقة فكتبوا إليه فأسرع العود إلى بغداد، ونزل بالشماسية مستوحشاً من المُقْتَدِر ولم يلقه، وبعث ابنه أبا العباس ووزيره ابن مقلة لتلقيه وإيناسه فلم يقبل، وتمكنت الوحشة وأسكن المُقْتَدِر

ابن خاله هارون معه في داره فازداد نفور مؤنس. وجاء أبو العباس بن حمدان من بلاده في عسكر كبير، فترل عند مؤنس وتردد الأمراء بين المُقْتَدِر ومؤنس، وسار إليه نازوك صاحب

الشرطة، وجاءه بني بن قيس. وكان المُقْتَدِر قد أخذ منه الدينور، وأعادها إليه مؤنس، واشتمل عليه. وجمع المُقْتَدِر في داره هارون بن غريب وأحمد بن كيغلغ، والغلمان الحجرية، والرجال المصافية، ثم انتقض أصحاب المُقْتَدِر وجاؤا إلى مؤنس وذلك في فتح سنة سبع عشرة. فكتب مؤنس إلى المُقْتَدِر بأن الناس ينكرون سرفه فيما أقطع الحرم والخدم من الأموال والضياع، ورجوعه إليهم في تدبير ملكه، ويطالبه بإخراجهم من الدار، وإخراج هارون بن غريب معهم، وانتزاع ما في أيديهم من الأموال والأملاك. فأجاب المُقْتَدِر إلى ذلك وكتب يستعطفه ويذكره البيعة ويخوفه عاقبة النكث، وأخرج هارون إلى الثغور الشامية والجزرية، فسكن مؤنس ودخل إلى بغداد ومعه ابن حمدان ونازوك والناس يرجفون بأنه خلع المصدر.فلما كان عشر محرم من هذه السنة ركب مؤنس إلى باب الشماسية وتشاور مع أصحابه قليلاً، ثم رجعوا إلى دار الخليفة بأسرهم، وكان المُقْتَدِر قد صرف أحمد بن نصر القسوري عن الحجابة وقلّدها ياقوتاً، وكان على حرب فارس، فاستخلف مكانه إبنه أبا الفتح المظفر. فلما جاء مؤنس إلى الدار هرب ابن ياقوت وسائر الحجبة والخدم والوزير وكل من بالدار، ودخل مؤنس فأخرج المُقْتَدِر وأمه وولده وخواص جواريه، فنقلهم إلى داره واعتقلهم بها، وبلغ الخبر هارون بن غريب بقُطْرُبُّل، فدخل إلى بغداد واستتر، ومضى ابن حمدان إلى دار ابن طاهر فأحضر محمد بن المعتضد، وبايعوه ولقبوه القاهر بالله.

وأحضروا القاضي أبا عمر المالكي عند المُقْتَدِر للشهادة عليه بالخلع، وقام ابن حمدان يتأسف له ويبكي ويقول: كنت أخشى عليك مثل هذا ونصحتك فلم تقبل، وآثرت قول الخدم والنساء على قولي، ومع هذا فنحن عبيدك وخدمك. وأودع كتاب الخلع عند القاضي أبي عمر، ولم يظهر عليه أحداً حتى سلمه إلى المُقْتَدِر بعد عوده، فحسن موقع ذلك منه وولاه القضاء، ولما تم الخلع عمد مؤنس إلى دار الخليفة فنهبها، ومضى ابن نفيس إلى تربة أم المُقْتَدِر فاستخرج من بعض قبورها ستمائة ألف دينار وحملها إلى القاهر.

وأخرج مؤنس علي بن عيسى الوزير من الحبس وولى علي بن مقلة الوزارة، وأضاف إلى نازوك الحجابة مع الشرطة، وأقطع ابن حمدان حلوان والدينور وهمذان وكرمان والصيمرة ونهاوند وشيراز وماسبذان مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان، وكان ذلك منتصف المحرم. ولما تقلد نازوك الحجابة أمر الرجالة بتقويض خيامهم من الدار

وأداهم ابن جالة من أصحابه فأسفهم بذلك، وتقدموا إلى خلفاء الحجاب بأن يمنعوا الناس من الدخول إلا أصحاب المراتب، فاضطربت الحجرية لذلك، فلما كان سابع عشر المحرم وهو يوم الإثنين بكر الناس إلى الخليفة لحضور الموكب، وامتلأت الرحاب وشاطئ دجلة بالناس، وجاء الرجالة المصافية شاكي السلاح يطالبون بحق البيعة ورزق سنة، وقد بلغ منهم الحنق على نازوك مبالغه. وقعد مؤنس عن الحضور

ذلك اليوم، وزعق الرجالة المصافية، فنهى نازوك أصحابه أن يعرضوا لهم، فزاد شغبهم وهجموا على الصحن المنيعي ودخل معهم من كان على الشط من العامة بالسلاح، والقاهر جالس وعنده علي بن مقلة الوزير ونازوك. فقال لنازوك: اخرج إليهم فسكنهم، فخرج وهو متحامل من الخمار، فتقدم إلى الرجالة للشكوى بحالهم ورأى السيوف في أيديهم فهرب، فحدث لهم الطمع فيه وفي الدولة واتبعوه فقتلوه وخادمه عجيفاً، ونادوا بشعار المُقْتَدِر. وهرب كل من في الديار من سائر الطبقات وصلبوا نازوك وعجيفاً على شاطيء دجلة. ثم ساروا إلى دار مؤنس يطلبون المُقْتَدِر، وأغلق الخادم أبواب دار الخليفة، وكانوا كلهم صنائع المُقْتَدِر. وقصد أبو الهيجاء حمدان الفرات فتعلق به القاهر واستقدم به فقال له اخرج معي إلى عشيرتي أقتل دونك، فوجد الأبواب مغلقة فقال له ابن حمدان: قف حتى أعود إليك، ونزع ثيابه ولبس بعض الخلقان، وجاء إلى الباب فوجده مغلماً والناس من ورائه، فرجع إلى القاهر وتمالأ بعض الخدام على قتله، فقاتلهم حتى كشفهم ودخل في بعض مسارب البستان، فجاؤه فخرج إليهم فقتلوه وحملوا رأسه. وانتهى الرّجالة إلى دار مؤنس يطلبون المُقْتَدِر، فسلمه إليهم وحملوه على رقابهم إلى دار الخلافة، فلما توسط الصحن المنيعي اطمأن وسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان، وكتب لهما الأمان بخطه، وبعث فيهما فقيل له أن ابن حمدان قد قتل، فعظم عليه وقال والله ما كان أحمد بسيف في هذه الأيام غيره، وأحضر القاهر فاستدناه وقبل رأسه، وقال له لا ذنب لك ولو لقّبوك المقهور لكان أولى من القاهر، وهو يبكي ويتطارح عليه حتى حلف له على الأمان، فانبسط وسكن. وطيف برأس نازوك وابن حمدان،

وخرج أبو نفيس هارباً من مكان استتاره إلى الموصل، ثم إلى أرمينية، ولحق بالقسطنطينية فتنصر، وهرب أبو السرايا أخو أبي الهيجاء إلى الموصل، وأعاد المُقْتَدِر أبا علي بن مقلة إلى الوزارة، وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم. وبيع ما في الخزائن بأرخص الأثمان، وأذن في بيع الأملاك لتتمة الأعطيات، وأعاد مؤنسا إلى محله من تدبير الدولة والتعويل عليه في أموره. ويقال إنه كان مقاطعاً للمقتدر وأنه الذي دس إلى المصافية والحجرية بما فعلوه، ولذلك قعد عن الحضور إلى القاهر. ثم أن المُقْتَدِر حبس أخاه القاهر عند أمه فبالغت في الإحسان إليه، والتوسعة عليه في النفقة والسراري.

أخبار قوّاد الديلم وتغلبهم علي أعمال الخليفة:

قد تقدّم لنا الخبر عن الديلم في غير موضع من الكتاب، وخبر افتتاح بلادهم بالجبال والأمصار التي تليها، مثل طبرستان وجرجان وسارِيَة وآمد واستراباذ، وخبر إسلامهم على يد الأطروش، وأنه جمعهم وملك بهم بلاد طبرستان سنة إحدى وثلثمائة، وملك من بعده أولاده والحسن بن القاسم الداعى صهره، واستعمل منهم القوّاد على ثغورها. فكان منهم ليلى بن النعمان، كانت إليه ولاية جرجان عن الحسن بن القاسم الداعي سنة ثمان وثلاثين. وكانت بين بني سامان وبين بني الأطروش والحسن بن القاسم الداعي وقوّاد الديلم حروب هلك فيها ليلى بن النعمان سنة تسع وثلثمائة، لأن أمر الخلفاء كان قد انقطع عن

خراسان، وولوها لبني سامان. فكانت بسبب ذلك بينهم وبين أهل طبرستان من الحروب ما أشرنا إليه. ثم كانت بعد ذلك حرب مع بني سامان فولاها من قواد الديلم شرخاب بن بهبودان، وهو ابن عم ماكان بن كالي، وصاحب جيش أبي الحسن الأطروش، وقاتله سيمجور صاحب جيش بني سامان، فهزمه وهلك شرخاب وولّى ابن الأطروش ما كان ابن كالي على استراباذ. فاجتمع إليه الديلم وقدموه على أنفسهم، واستولى على جرجان كما يذكر ذلك كله في أخبار العلوية. وكان من أصحاب ما كان هذا أسفار ابن شيرويه من قواد الديلم عن ما كان إلى قواد بني سامان. فاتصل ببكر بن محمد بن اليسع بنيسابور، وبعثه في الجنود لافتتاح جرجان، وبها أبو الحسن بن كالي نائبا عن أخيه ماكان وهو بطبرستان. فقتل أبو الحسن وقام بأمر جرجان علي بن خرشيد. ودعا

أسفار ابن شيرويه إلى حمايتها من ما كان، فزحف إليهم من طبرستان فهزموه وغلبوه عليها ونصبوا أبا الحسن وعلي بن خرشيد. فزحف ما كان إلى أسفار وهزمه وغلبه على طبرستان، ورجع إلى بكر بن محمد بن اليسع بجرجان. ثم توفي بكر سنة خمس عشرة، فولى نصر بن أحمد بن سامان أسفار بن شيرويه مكانه على جرجان، وبعث أسفار عن مرداويج بن زيار الجبلي وقدمه على جيشه، وقصدوا طبرستان فملكوها. وكان الحسن بن القاسم الداعي قد استولى على الرى وأعمالها من يد نصر بن سامان، ومعه قائده ماكان بن كالي. فلما غلب أسفار على طبرستان زحف إليه الداعي وقائده ماكان فانهزما وقتل الداعي ورجع ماكان إلى الريّ واستولى أسفار بن شيرويه على طبرستان وجرجان. ودعا لنصر بن أحمد بن سامان، ونزل سارية واستعمل على آمد هارون بن بهرام. ثم سار أسفار إلى الريّ فأخذها من يد ماكان بن كالي وسار ماكان إلى طبرستان واستولى اسفار على سائر أعمال الريّ وقزوين وزنجان وأبهروقم والكرخ، وعظمت جيوشه وحدثته نفسه بالملك، فانتقص على نصر بن سامان صاحب خراسان، واعتزم على حربه وحرب الخليفة. وبعث المُقْتَدِر هارون بن غريب الحال في عسكر إلى قزوين، فحاربه أسفار وهزمه وقتل كثيراً من أصحابه، ثم زحف إليه نصر بن سامان من بخارى فراسله في الصلح وضمان أموال الجباية، فأجابه وولاه ورجع إلى بخارى، فعظم أمر أسفار وكثر عيثه وعسف جنده، وكان قائده مرداويج من أكبر قواده قد بعثه أسفار إلى سلار صاحب سميرم، والطرم يدعوه إلى طاعته. فاتفق مع سلار على الوثوب بأسفار، وقد باطن في ذلك جماعة من قواد أسفار ووزيره محمد بن مطرف الجرجاني. ونمي الخبر إلى أسفار، وثار به الجند فهرب إلى بيهق. وجاء مرداويج من قزوين إلى الريّ، وكتب إلى ماكان بن كالي يستدعيه من طبرستان ليظاهره على أسفار، فقصد ما كان أسفار، فهرب أسفار إلى الري ليتصل بأهله وماله، وقد كان أنزلهم بقلعة المرت، وركب المفازة إليها ونمى الخبر إلى مرداويج، فسار لاعتراضه. وقدم بعض قواده أمامه، فلحقه القائد وجاء به إلى مرداويج، فقتله ورجع إلى الريّ ثم إلى قزوين، وتمكن في الملك وافتتح البلاد وأخذ همذان والدينور وقم وقاشان وأصبهان، وأساء السيرة في أهل أصبهان وصنع سريراً من ذهب

لجلوسه. فلما قوي أمره نازع ماكان في طبرستان فغلبه عليها. ثم ط ر إلى جرجان فملكها وعاد إلى أصبهان ظافراً. وسار ما كان على الديلم

مستنجداً بأبي الفضل الثائر بها، وسار معه إلى طبرستان فقاتلهم عاملها من قبل مرداويج بالقسم ابن بايجين وهزمهم، ورجع الثائر إلى الديلم، وسار ماكان إلى نيسابور، ثم سار إلى الدامغان فصده عنها القسم فعاد إلى خراسان. وعظم أمر مرداويج واستولى على بلد الريّ والجبل، واجتمع إليه الديلم، وكثرت جموعه وعظم خرجه. فلم يكف ما في يده من الأعمال فسما إلى التغلب على النواحي، فبعث إلى همذان الجيوش مع ابن أخته، وكانت بها عساكر الخليفة مع محمد بن خلف، فحاربهم وهزمهم وقتل ابن أخت مرداويج. فسار من الريّ إلى همذان، وهرب عسكر الخليفة عنها وملكها مرداويج عنوة واستباحها. ثم أمن بقيتهم. وأنفذ المُقْتَدِر هارون بن غريب الحال في العساكر، فلقيه مرداويج وهزمهم واستولى على بلاد الجبل وما وراء همذان، وبعث قائده إلى الدينور ففتحها عنوة، وانتهت عساكره إلى حلوان، فقتل وسبى. وسار هارون إلى قرقيسيا فأقام بها واستمد المُقْتَدِر وكان معه اليشكري من قواد اسفار، وكان قد استأمن بعد اسفار إلى الخليفة، وسار في جملته. وجاء مع هارون في هذه الغزاة إلى نهاوند لحمل المال إليه منها. فلما دخلها استمدت عينه إلى ثروة أهلها فصادرهم على ثلاثة آلاف ألف دينار، واستخرجها في مدة أسبوع، وجند بها جندا ومضى إلى أصبهان، وبها يومئذ ابن كيغلغ قبل استيلاء مرداويج عليها، فقاتله أحمد وانهزم وملك اليشكري أصبهان، ودخل إليها أصحابه، وقام بظاهرها. وسار أحمد بن كيغلغ في ثلاثين فارسا إلى بعض قرى أصبهان وركب اليشكري ليتطوف على السور، فنظر إليهم فسار نحوهم فقاتلوه، وضربه أحمد بن كيغلغ على رأسه بالسيف فقد المغفر وتجاوزه إلى دماغه فسقط ميتا. وقصد أحمد المدينة ففر أصحاب اليشكري ودخل أحمد إلى أصبهان وذلك قبل استيلاء عسكر مرداويج عليها، فاستولى عليها وجددوا له فيها مساكن أحمد بن عَبْد العزيز بن أبي دلف العجلي وبساتينه، وجاء مرداويج في أربعين أو خمسين ألفا، فنزلها وبعث جمعا إلى الأهواز فاستولوا عليها، والي خوزستان كذلك، وجبى أموالها وقسم الكثير منها في أصحابه وادخر الباقي، وبعث إلى المُقْتَدِر يطلب ولاية هذه الأعمال وإضافة همذان وماه الكوفة إليها على مائتي ألف دينار كل سنة، فأجابه وقاطعه وولاه، وذلك سنة تسع عشرة. ثم دعا مرداويج

سنة عشرين أخاه وشكمير من بلاد كيلان، فجاء إليه بدوياً حافياً بما كان يعاني من أحوال البداوة والتبذل في المعاش، ينكر كل ما يراه من أحوال الترف ورقة العيش. ثم صار إلى ترف الملك وأحوال الرياسة، فرقت حاشيته وعظم ترفه، وأصبح من عظماء الملوك وأعرفهم بالتدبير والسياسة.

ابتداء حال أبي عَبْد الله البريدي:

كان بداية أمره عاملا على الأهواز، وضبط ابن ماكرلان هذا الاسم بالموحدة والراء المهملة نسبة إلى البريد. وضبطه ابن مسكويه بالياء المثناة التحتانّية والزاي نسبة إلى يزيد بن عَبْد الله بن المنصور الحميري،

كان جده يخدمه ولما ولي علي بن عيسى الوزارة واستعمل العمال، وكان أبو عَبْد الله قد ضمن الخاصة بالأهواز وأخوه أبو يوسف على سوق فائق من الاقتصارية، وأخوه على هذا. فلما وزر أبو علي بن مقلة بذل له عشرين ألف دينار على أن يقلده أعمالا فائقة، فقلده الأهواز جميعها غير السوس وجنا سبور، وقلد أخاه أبا الحسن القرانية، وأخاهما أبا يوسف الخاصة والأسافل، وضمن المال أبا يوسف السمسار وجعل الحسين بن محمد المارداني مشرفا على أبي عَبْد الله، فلم يلتفت إليه، وكتب إليه الوزير ابن مقلة بالقبض على بعض العمال ومصادرته. فأخذ منه عشرة آلاف دينار واستأثر بها على الوزير، فلما نكب ابن مقلة كتب المُقْتَدِر بخطه إلى الحاجب أحمد بن نصر القسوري بالقبض على أولاد البريدي وأن لا يطلقهم إلا بكتابه، فقبض عليهم، وجاء أبو عَبْد الله بكتاب المُقْتَدِر بخطه بإطلاقهم. وظهر تزويره فأحضرهم إلى بغداد وصودروا على أربعمائة ألف دينار فأعطوها.

الصوائف أيام المُقْتَدِر:

سار مؤنس المظفر سنة ست وتسعين في العساكر من بغداد إلى الفرات، ودخل من ناحية ملطية ومعه أبو الاغر السلمي، فظفر وغنم وأسر جماعة. وفى سنة سبع وتسعين بعث المُقْتَدِر أبا القاسم بن سيما لغزو الصائفة سنة ثمان وتسعين. وفي سنة تسع وتسعين غزا بالصائفة رستم أمير الثغور، ودخل من ناحية طرسوس ومعه دميانة،

وحاصر حصن مليح الأرمني ففتحه وأحرقه. وفي سنة ثلاثمائة مات اسكندروس بن لاور ملك الروم، وملك بعده ابنه قسطنطين ابن اثنتي عشرة سنة. وفي سنة إثنتين وثلاثمائة سار علي بن عيسى الوزير في ألف فارس لغزو الصائفة مددا لبسر الخادم عامل طرسوس، ولم يتيسر لهم الدخول في المصيف، فدخلوا شاتية في كلب البرد وشدته، وغنموا وسبوا.

وفي سنة إثنتين وثلاثمائة غزا بسر الخادم والي طرسوس بلاد الروم، ففتح وغنم وسبى وأسر مائة وخمسين، وكان السبي نحوا من ألفي راس. وفي سنة ثلاث وثلاثمائة أغارت الروم على ثغور الجزيرة ونهبوا حصن منصور وسبوا أهله بتشاغل عسكر الجزيرة بطلب الحسين بن حمدان مع مؤنس، حتى قبض عليه كما مر. وفي هذه السنة خرج الروم إلى ناحية طرسوس والفرات. فقاتلوا وقتلوا نحوا من ستمائة فارس. وجاء مليح الأرمني إلى مرعش فعاث في نواحيها. ولم يكن للمسلمين في هذه السنة صائفة.

وفي سنة أربع بعدها سار مؤنس المظفر بالصائفة ومر بالموصل، فقلد سبكا المفلحي باريدي وقردي من أعمال الفرات، وقلد عثمان العبودي مدينة بلد وسنجار، ووصيفا البكتمري باقي بلاد ربيعة، وسار إلى ملطية، فدخل منها وكتب إلى أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام أن يدخل من طرسوس في أهلها، ففتح مؤنس حصوناً كثيرة وغنم وسبى ورجع إلى بغداد، فأكرمه المعتضد وخلع عليه.وفي سنة خمس وثلاثمائة وصل رسولان من ملك الروم إلى المُقْتَدِر في المهادنة والفداء، فتلقيا بالإكرام وجلس لهما الوزير في الابهة،

وصف الأجناد بالسلاح العظيم الشأن والزينة الكاملة، فأديا إليه الرسالة وأدخلهما من الغد على المُقْتَدِر وقد احتفل في الابهة ما شاء. فأجابهما إلى ما طلب ملكهم. وبعث مؤنساً الخادم للفداء وجعله أميرا على كل بلد يدخله إلى أن ينصرف. وأطلق الأرزاق الواسعة لمن سار معه من الجنود، وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار للفدية. وفيها غزا الصائفة جنا الصفواني، فغنم وغزا وسير نمالي الخادم في الاسطول فغنم. وفي السنة بعدها غزا نمالي في البحر كذلك، وجنا الصفواني، فظفر وفتح وعاد وغزا بشر الافشين بلاد الروم، ففتح عدة حصون وغنم وسبى. وفي سنة سبع غزا نمالي في البحر فلقي مراكب المهدي صاحب أفريقية فغلبهم وقتل جماعة منهم، وأسر خادما للمهدي. وفي سنة عشر وثلاثمائة غزا محمد بن نصر الحاجب من الموصل على قاليقلا، فأصاب من الروم. وسار أهل طرسوس من ملطية فظفروا واستباحوا وعادوا. وفي سنة

إحدى عشرة غزا مؤنس المظفر بلاد الروم، فغنم وفتح حصونا. وغزا نمالي في البحر فغنم ألف رأس من السبي وثمانية آلاف من الظهر ومائة ألف من الغنم وشيئا كثيراً من الذهب والفضة. وفي سنة اثنتي عشرة جاء رسول ملك الروم بالهدايا ومعه أبو عمر بن عد الباقي يطلبان الهدنة وتقرير الفداء، فأجيبا إلى ذلك. ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فأثخنوا ورجعوا. وفي سنة أربع عشرة خرجت الروم إلى ملطية ونواحيها من الدمستق، ومليح الأرمني صاحب الدروب، وحاصروا ملطية وهربوا إلى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا. وغزا أهل طرسوس بالصائفة فغنموا ورجعوا. وفي سنة خمس عشرة دخلت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم، فأوقع بهم الروم وقتلوا أربعمائة رجل صبراً، وجاء الدمستق في عساكر من الروم إلى مدينة دبيل، وبها نصر السبكي فحاصرها وضيق مخنقها واشتد في قتالها حتى نقب سورها ودخل الروم إليها، ودفعهم المسلمون فأخرجوهم وقتلوا منهم بعد أن غنموا ما لا يحصى وعاثوا في أنعامهم، فغنموا من الغنم ثلاثمائة ألف رأس فأكلوها. وكان رجل من رؤساء الأكراد يعرف بالضحاك في حصن له يعرف بالجعبري، فتنصر وخدم ملك الروم فلقيه المسلمون في سنة الغزاة فأسروه وقتلوا من معه. وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق في عساكر الروم، فحاصر خلاط وملكها صلحا وجعل الصليب في جامعها ورحل إلى تدنيس ففعل بها كذلك. وهرب أهل أردن إلى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا. وفيها ظهر أهل ملطية على سبعمائة رجل من الروم والأرمن دخلوا بلدهم خفية وقدمهم مليح الأرمني ليكونوا لهم عونا إذا حاصروها، فقاتلهم أهل ملطية عن آخرهم. وفي سنة سبع عشرة بعث أهل الثغور الجزرية مثل ملطية وفارقين وآمد وارزا يستمدون المُقْتَدِر في العساكر، وإلا فيعطوا الاتاوة للروم فلم يمدهم، فصالحوا الروم وملكوا البلاد. وفيها دخل مفلح الساجي بلاد الروم. وفي سنة عشرين غزا نمالي بلاد الروم من طرسوس، ولقي الروم فهزمهم وقتل منهم ثلثمائة وأسر ثلاثة آلاف، وغنم من الفضة والذهب شيئاً كثيراً وعاد بالصائفة في سنته في حشد كثير، وبلغ عمورية فهرب عنها من كان تجمع إليها من الروم، ودخلها

المسلمون فوجدوا من الأمتعة والأطعمة كثيرا، فغنموا وأحرقوا وتوغلوا في بلاد الروم يقتلون ويكتسحون ويخربون حتى بلغوا انكمورية التي مصرها أهده، وعادوا سالمين. وبلغت قيمة السبي مائة ألف وستة وثلاثين ألف دينار. وفي هذه السنة راسل ابن

الزيداني وغيره من الأرمن في نواحي أرمينية وحثوا الروم، على قصد بلاد الإسلام، فساروا وخربوا نواحي خلاط، وقتلوا وأسروا فسار إليهم مفلح غلام يوسف بن أبي السّاج من أذربيجان في جموع من الجند والمتطوعة، فأثخن في بلاد الروم حتى يقال أن القتلى بلغوا مائة ألف وخرب بلاد ابن الريداني ومن وافقه، وقتل ونهب. ثم جاءت الروم إلى سميساط فحصروها وأمدهم سعيد بن حمدان، وكان الْمُقْتَدِر ولاه الموصل وديار ربيعة على أن يسترجع ملطية من الروم. فلما جاء رسول أهل سميساط إليهم فأجفل الروم عنها فسار إلى ملطية وبها عساكر الروم ومليح الأرمني صاحب الثغور الرومية، وبني ابن قيس صاحب الْمُقْتَدِر الذي تنضر. فلما أحسوا بإقبال سعيد هربوا وتركوها خشية أن يثب بهم أهلها، وملكها سعيد فاستخلف عليها وعاد إلى الموصل.

الولايات علم النواحي أيام الْمُقْتَدِر:

كان باصبهان عَبْد الله بن إبراهيم المسمعي عاملا عليها، خالف لأول ولاية الْمُقْتَدِر وجمع من الأكراد عشرة آلاف، وأمر الْمُقْتَدِر بدراً الحمامي عامل أصبهان بالمسير إليه. فسار إليه في خمسة آلاف من الجند وأرسل من يخوفه عاقبة المعصية، فراجع الطاعة وسار إلى بغداد واستخلف على اصبهان. وكان على اليمن المظفر بن هاج. ففتح ما كان غلب عليه الحرثي باليمن وأخذ الحاتمي من أصحابه. وكان على الموصل أبو الهيجاء بن حمدان، وسار أخوه الحسين بن حمدان وأوقع بأعراب كلب وطيء، وأسر سنة أربع وتسعين. ثم سار إلى الأكراد المتغلبين على نواحي الموصل سنة خمس وتسعين فاستباحهم وهربوا إلى رؤوس الجبال. وخرج بالحاج في سنة أربع وتسعين رصيف بن سوارتكين فحصره أعراب طيء بالقتال وأوقعهم فهزمهم، ومضى إلى وجهه. ثم أوقع بهم هنالك الحسن بن موسى فأثخن فيهم. وكان على فارس سنة ست وتسعين اليشكري غلام عمرو بن الليث، فلما تغلب وكان على الثغور الشامية أحمد بن كيغلغ في سنة سبع وتسعين ملك الليث فارس من يد اليشكري، ثم جاءه مؤنس فغلبه وأسره ورجع اليشكري إلى عمله كما مر في خبره. وفي سنة ست وتسعين وصل ناسر موسى بن سامان وقلد ديار ربيعة وقد مرّ ذكره.

وفيها رجع الحسين حمدان من الخلاف وعقد له على قم وقاشان، فسار إليها ونزل عنها العباس بن عمر الغنوي. وفي سنة سبع وتسعين توفي عيسى النوشري عامل مصر، وولى الْمُقْتَدِر مكانه تكين الخادم. وفي سنة ثمان وتسعين توفي منيح خادم الافشين وهو عامل فارس، وكان معه محمد بن جعفر الفريابي فماتا معا، وولى على فارس عَبْد الله بن إبراهيم المسمعي وأضيفت إليه كرمان. وفيها وليت أم موسى الهاشمية قهرمة دار الْمُقْتَدِر، وكانت تؤذي الرسائل عن الْمُقْتَدِر وأمه إلى الوزراء، وعن الوزراء إليهما. وفي سنة تسع

وتسعين كان على البصرة محمد بن إسحاق بن كنداج، وجاء إليه القرامطة فقاتلهم فهربوا. وفي سنة ثلاثمائة عزل إبراهيم بن عَبْد الله المسمعي عن فارس وكرمان ونقل إليها بدر الحمامى عامل أصبهان، وولى على اصبهان علي بن وهشودان. وفيها ولى بشير الافشين طرسوس، وفيها قلد أبو العباس بن الْمُقْتَدِر مصر والمغرب وهو ابن أربع سنين، واستخلف له على مصر مؤنس المظفر وقلد معين الطولوني المعونة بالموصل. ثم عزل واستعمل مكانه نحرير الصغير. وفيها خالف أبو الهيجاء عَبْد الله بن حمدان بالموصل، فسار إليه مؤنس وجاء به على الأمان. ثم قلد الموصل سنة إثنتين وثلاثمائة فاستخلف عليها وهو ببغداد. ثم خالف أخوه الحسين سنة ثلثمائة وسار إليه مؤنس وجاء به أسيرا، فحبس. وقبض الْمُقْتَدِر على أبي الهيجاء واخوته جميعاً فحبسوا. وفيها ولى الحسين بن محمد بن عينونة عامل الخراج والضياع بديار ربيعة بعد وفاة أبيه محمد بن أبي بكر. وفى سنة أربع عزل على بن وهشودان صاحب الحرب بأصبهان بمنافرة وقعت بينه وبين أحمد بن شاه صاحب الخراج، وولى مكانه أحمد بن مسرور البلخي. وأقام ابن وهشودان بنواحي الجبل. ثم تغلب يوسف بن أبي السّاج عليها كما مر، وسار إليه مؤنس سنة سبع فهزمه وأسره، وولى على أصبهان وقم وقاشان وساوة أحمد بن علي بن صعلوك، وعلى الرى ودنباوند وقزوين وأبهر وزنجان علي بن وهشودان، استدعاه من الجبل فولاه، ووثب به عمه أحمد بن مسافر صاحب الكرم فقتله بقزوين. فاستعمل مكانه على الحرب وصيفا البكتمري، وعلى الخراج محمد بن سليمان.

ثم سار أحمد بن صعلوك إليها فقتل محمد بن سليمان وطرد وصيفا، ثم قاطع على الأعمال بمال معلوم كما مر. وكان على أعمال سجستان كثير بن أحمد مقهور متغلباً عليها، فسار إليه أبو الحمامي عامل فارس، فخافه كثيراً وقاطع

على البلاد وعقد له عليها. وكان على كرمان سنة أربع وثلثمائة أبو زيد خالد بن محمد المارداني، فانتقض وسار إلى شيراز، فقاتله بدر الحمامي وقتله. وفي هذه السنة قتل مؤنس المظفر عند مسيره إلى الصائفة وانتهائه إلى الموصل، فولّوا على بلد باريدى وقردى سبكاً المفلحيّ، وعلى مدينة بلد وسنجار وباكري عثمان العبودي صاحب الحرس بديار مصر، فولى مكانه وصيف البكتمري فعجز عن القيام بها، فعزل وولّى مكانه جنا الصفواني. وكان على البصرة في هذه السنة الحسن بن الخليل، تولاها منذ سنين ووقعت فتن بينه وبين العامة في مضر وربيعة، واتصلت وقتل منهم خلق. ثم اضطروه إلى الالتحاق بواسط، فاستعمل عليها أبا دلف هاشم بن محمد الخزاعي، ثم عزل لسنة، وولى سبكاً المفلحي نيابة عن شفيع المقتدري. وفي سنة ست وثلثمائه عزل عن الشرطة نزار وجعل فيها نجيح الطولوني، فأقام في الأرباع فقهاء يعمل أهل الشرطة بفتواهم، فضعفت الهيبة بذلك، وكثر اللصوص والعيارون، وكبست دور التجار، واختطفت ثياب الناس. وفي سنة سبع وثلثمائة ولي إبراهيم بن حمدان ديار ربيعة، وولّي بنيّ بن قيس بلاد شهرزور، واتسعت عليه فاستمد الْمُقْتَدِر وحاصرها. ثم قلد الحرب بالموصل وأعمالها، وكان على الموصل

قبله محمد بن إسحاق بن كنداج، وكان قد سار لإصلاح البلاد، فوقعت فتنة بالموصل فرجع إليها فمنعوه الدخول فحاصرهم. وعزله المُقْتَدِر سنة ثلاث وثلثمائة وولّي مكانه عَبْد الله بن محمد الغساني. وفي سنة ثمان وثلثمائة ولى المُقْتَدِر أبا الهيجاء عَبْد الله بن حمدان على طريق خراسان والدرّنور، وفيها ولّى على دقوقاً وعكبراً وطريق الموصل بدراً الشرابي. وفي سنة تسع ولّى المُقْتَدِر على حرب الموصل ومعونتها محمد بن نصر الحاجب، فسار إليها وأوقع بالمخالفين من الأكراد المادرانية. وفيها ولى داود بن حمدان على ديار ربيعة. وفي سنة عشر عقد ليوسف بن أبي السّاج على الريّ وقزوين وأبْهَروزَنْجان وأذربيجان على تقدير العلوية كما مرّ. وفيها قبض المُقْتَدِر على أم موسى، القهرمانة لأنها كانت كثيرة المال، وزوجت بنت أختها من بعض ولد المتوكل، كان مرشحاً للخلافة، وكان محسناً. فلما صاهرته أوسعت في الشوار واليسار والعرس، وسعى بها إلى المُقْتَدِر أنها استخلصت القوّاد، فقبض عليها وصادرها على أموال عظيمة، وجواهر نفيسة. وفيها قتل خليفة نصر بن محمد الحاجب بالموصل، قتله العامة، فجهز العساكر من بغداد،

وسار إليها. وفي سنة إحدى عشرة ملك يوسف بن أبي السّاج الريّ من يد أحمد بن علي صعلوك، وقتله المُقْتَدِر، وقد مرّ خبره. وفيها ولّى المُقْتَدِر بنيّ بن قيس على حرب أصبهان، وولّى محمد بن بدر المعتضدي على فارس مكان ابنه بدر عندما هلك. وفي سنة إثنتي عشرة ولّى على أصبهان يحيى الطولوني، وعلى المعاون والحرب بنهاوند سعيد بن حمدان. وفيها توفي محمد بن نصر الحاجب صاحب الموصل، وتوفي شفيع اللؤلؤي صاحب البريد، فولّى مكانه شفيع المقتدري. وفي سنة ثلاث عشرة فتح إبراهيم المسمعي عامل فارس ناحية القفص من حدود كرمان، وأسر منهم خمسة آلاف. وكان في هذه السنة ولّي على الموصل أبا الهيجاء عَبْد الله بن حمدان، وابنه ناصر الدولة خليفة فيها، فأفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل وطريق خراسان وكانت إليه، فكتب إليه ابنه ناصر الدولة سنة أربع عشرة بالإنحدار إلى تكريت للقائه، فجاءه في الحشد وأوقع بالعرب والأكراد الحلالية وحسم علتهم. وفيها قلد المُقْتَدِر يوسف بن أبي السّاج أعمال الشرق وعزله عن أذربيجان وولاه واسط، وأمده بالسير إليها لحرب القرامطة، وأقطعه همذان وساوة وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماسبذان للنفقة في الحرب، وجعل على الريّ من أعماله نصر بن سامان، فوليها وصار من عماله كما مرّ. وفيها ولّى أعمال الجزيرة والضياع بالموصل أبا الهيجاء عَبْد الله بن حمدان، وأضيف إليه باريدي وقردي وما إليهما. وفيها قتل ابن أبي السّاج كما مرّ. وفي سنة خمس عشرة مات إبراهيم المسمعي بالنوبندجان، وولّى المُقْتَدِر على مكانه ياقوت، وعلى كرمان أبا طاهر محمد بن عَبْد الصمد. وفي سنة ست عشرة عزل أحمد بن نصر القسوري عن حجبة الخليفة ووليها ياقوت وهو على الحرب بفارس واستخلف عليها ابنه أبا الفتح المظفر. وفيها ولّى على الموصل وأعمالها يونس المؤنسي، وكان على الحرب بالموصل ابن عَبْد الله بن حمدان، وهو ناصر الدولة فغضب وعاد إلى الخلافة. وقتل في تلك الفتنة نازوك، وأقر على أعمال قردى وباريدى التي كانت بيد أبي الهيجاء ابنه ناصر الدولة

الحسن، وعلى أعمال الموصل نحريراً الصغير. ثم ولى عليها سعيداً ونصراً إبني حمدان، وهما أخوا أبي الهيجاء. وولى ناصر الدولة على ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين وميافارقين من ديار بكر وأرزن على مقاطعة معلومة. وفي سنة ثمان عشرة صرف إبنا رائق عن الشرطة، ووليها أبو بكر محمد بن ياقوت عن الحجبة، وقلد أعمال فارس وكرمان. وقلد

إبنه المظفرأصبهان، وإبنه أبا بكر محمداً سجستان، وجعل مكان ياقوت وولده في الحجبة والشرطة إبراهيم ومحمد ابنا رائق، فأقام ياقوت بشيراز، وكان علي بن خلف ابن طيان على الخوارج، فتعاقدا على قطع الحمل عن الْمُقْتَدِر إلى أن ملك علي ابن بويه بلاد فارس سنة ثلاث وعشرين وفي هذه السنة غلب مرداويج على أصبهان وهمذان والري وحلوان، وقاطع عليها بمال معلوم وصارت في ولايته.

استيحاش مؤنس من الْمُقْتَدِر ومسيره إلى الموصل:

كان الحسين بن القاسم بن عَبْد الله بن وهب وزيراً للمقتدر، وكان مؤنس منحرفاً عنه قبل الوزارة حتى أصلح بليق حاله عند مؤنس، فوزر واختص به بنو البريدي وابن الفرات. ثم بلغ مؤنساً أن الحسين قد واطأ جماعة من القواد في التدبير عليه، فتنكر له مؤنس وضاقت الدنيا على الحسين وبلغه أن مؤنساً يكبسه، فانتقل إلى دار الخلافة وكتب الحسين إلى هارون بن غريب الحال يستقدمه وكان مقيماً بدير العاقول بعد انهزامه من مرداويج كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه من الأهواز فاستوحش مؤنس. ثم جمع الحسين الرجال والغلمان الحجرية في دار الخلافة، وأنفق فيهم فعظمت نفرة مؤنس، وقدم هارون من الأهواز فخرج مؤنس مغاضباً للمقتدر وقصد الموصل، وكتب الحسين إلى القوّاد الذين معه بالرجوع فرجع منهم جماعة، وسار مؤنس في أصحابه ومواليه ومعه من الساجية ثمانمائة من رجالهم، وتقدم الوزير بقبض أملاكه وأملاك من معه وأقطاعهم، فحصل منه مال كثير، واغتبط الْمُقْتَدِر به لذلك ولقبه عميد الدولة ورسم إسمه في السكة وأطلق يده في الولاية والعزل، فولى على البصرة وأعمالها أبا يوسف يعقوب بن محمد البريدي على مبلغ ضمنه، وكتب إلى سعيد وداود ابني حمدان وابن أخيهما ناصر الدولة الحسين بن عَبْد الله بمحاربة مؤنس، فاجتمعوا على حربه إلا داود فإنه توقف لإحسان مؤنس إليه وتربيته إياه. ثم غلبوا عليه فوافقهم على حربه، وجمع مؤنس في طريقه رؤساء العرب، وأوهمهم أن الخليفة ولاه الموصل وديار ربيعة، فنفر معه بعضهم واجتمع له من العسكر ثمانمائة وزحف إليه بنو حمدان في ثلاثين ألفاً فهزمهم، وملك مؤنس الموصل في صفر من سنة عشرين، وجاءته العساكر من بغداد والشام ومصر رغبة في إحسانه. وعاد ناصر الدولة بن حمدان إلى خدمته وأقام معه بالموصل ولحق سعد ببغداد.

مقتل الْمُقْتَدِر وبيعة القاهر:

ولما ملك مؤنس الموصل أقام بها تسعة واجتمعت العساكر، فإنحدر إلى بغداد لقتال الْمُقْتَدِر، وبعث الْمُقْتَدِر الجنود مع أبي بكر محمد بن ياقوت وسعد بن حمدان، فرجع عنهم العسكر إلى بغداد ورجعوا. وجاء مؤنس

فنزل بباب الشماسية والقواد قبالته، وندب المُقْتَدِر ابن خاله هارون بن غريب إلى الخوارج لقتاله، فاعتذر ثم خرج، وطالبوا المُقْتَدِر بالمال لنفقات الجند، فاعتذر وأراد أن ينحدر إلى واسط ويستدعي العساكر من البصرة والأهواز وفارس وكرمان، فرده ابن ياقوت عن ذلك وأخرجه للحرب وبين يديه الفقهاء والقواد والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس يحدقون به، فانهزم أصحابه ولقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس، فعظمه وأشار عليه بالرجوع ولحقه قوم من المغاربة والبربر فقتلوه وحملوا رأسه وتركوه بالعراء، فدفن هنالك. ويقال: أن علي بن بليق أشار إليهم بقتله. ولما رأى مؤنس ذلك ندم وسقط في يده، وقال والله لنقتلن جميعاً، ولقدّم إلى الشماسية وبعث من يحتاط على دار الخلافة، وكان ذلك لخمس وعشرين سنة من خلافة المُقْتَدِر. فاتسع الخرق وطمع أهل القاصية في الاستبداد، وكان مهملاً لأمور خلافته محكماً للنساء والخدم في دولته، مبذراً لأمواله. ولما قتل لحق ابنه عَبْد الواحد بالمدائن ومعه هارون بن غريب الحال ومحمد بن ياقوت وإبراهيم بن رائق. ثم اعتزم مؤنس على البيعة لولده أبي العباس وكان صغيراً، فعزله وزيره أبو يعقوب إسماعيل النويحي في ولاية صغير في حجر أمه، وأشار لأخيه أبي منصور محمد بن المعتضد، فأجاب مؤنس إلى ذلك على كره، وأحضروه وبويع آخر شوال من سنة عشرين، ولقبوه القاهر بالله. واستحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق وابنه علي، واستقدم أبا علي بن مقلة من فارس فاستوزره، واستحجب علي بن بليق. ثم قبض على أم المُقْتَدِر وضربها على الأموال، فحلفت فأمرها بحل أوقافها فامتنعت، فأحضر هو القضاة وأشهد بحل أوقافها ووكل في بيعها، فاشتراها الجند من أرزاقهم وصادر جميع حاشية المُقْتَدِر، واشتدّ في البحث عن ولده وكبس عليهم المنازل إلى أن ظفر بأبي العباس الراضي وجماعة من إخوته وصادرهم وسلمهم عليّ ابن بليق إلى كاتبه الحسين بن هارون، فأحسن صحبتهم وقبض الوزير ابن مقلة على البريدي واخوته وأصحابه وصادرهم على جملة من المال.

خبر ابن المُقْتَدِر وأصحابه:

قد ذكرنا أن عَبْد الواحد بن المُقْتَدِر لحق بعد مقتل أبيه بالمدائن، ومعه هارون بن غريب الحال ومفلح ومحمد بن ياقوت وابنا رائق، ثم انحدروا منها إلى واسط وأقاموا بها، وخشيهم القاهر على أمره واستأمن هارون بن غريب على أن يبذل ثلثمائة ألف دينار وتطلق له أملاكه، فأمنه القاهر ومؤنس وكتب له بذلك وعقد له على أعمال ماه الكوفة وماسبذان ومهروبان، وسار إلى بغداد، وسار عَبْد الواحد بن المُقْتَدِر فيمن معه من واسط، ثم إلى السوس وسوق الأهواز، وطردوا العمال وجبوا الأموال. وبعث مؤنس إليهم بليقاً في العساكر، وبذل أبو عَبْد الله البريدي في ولاية الأهواز خمسين ألف دينار فأنفقت في العساكر. وسار معهم وانتهوا إلى واسط ثم إلى السوس، فجاز عَبْد الواحد ومن معه من الأهواز إلى تستر، ثم فارقه جميع القواد واستأمنوا إلى بليق إلا ابن ياقوت ومفلحاً ومسروراً الخادم، وكان محمد بن ياقوت مستبداً على جميعهم في الأموال والتصرف، فنفروا لذلك واستأمنوا لأنفسهم ولابن المُقْتَدِر إلى بليق، فأمنهم بعد أن

استأمنوا محمد بن ياقوت وأذن لهم. ثم استأمن هو على بليق إلى أمان القاهر ومؤنس، وساروا إلى بغداد جميعهم فوفى لهم القاهر وأطلق لعبد الواحد أملاكه وترك لأمه المصادرة التي صادرها، واستولى أبو عَبْد الله البريدي على أعمال فارس، وأعاد إخوته إلى أعمالهم.

مقتل مؤنس وبليق وابنه:

لّما رجع محمد بن ياقوت من الأهواز واستخلصه القاهر واختصه لخلواته وشوراه، وكانت بينه وبين الوزير ابن عليّ بن مقلة عداوة، فاستوحش لذلك ودسّ إلى مؤنس أن محمد بن ياقوت يسعى به عند القاهر، وأن عيسى الطبيب سفيره في ذلك، فبعث مؤنس علي بن بليق لإحضار عيسى، وتقدم علي بن بليق بالإحتياط على القاهر، فوكل به أحمد بن زيرك وضيق على القاهر وكشف وجوه النساء المختلفات إلى القصر خشية إيصالهم الرقاع إلى القاهر حتى كشفت أواني الطعام، ونقل بليق المحابيس من دار الخلافة إلى داره وفيهم أم المُقْتَدِر، فأكرمها علي بن بليق وأنزلها عند أمه فماتت في جمادى من سنة إحدى وعشرين. وعلم القاهر أن ذلك من مؤنس وابن مقلة، فشرع في التدبير عليهم. وكان طريف السيكمري ونشرى من خدم مؤنس قد استوحشا من مؤنس لتقدم بليق وإبنه عليهما. وكان اعتماد مؤنس على الساجية وقد جاؤا معه من الموصل ولم يوف لهم فاستوحشوا لذلك، فداخلهم القاهر جميعاً وأغراهم بمؤنس وبليق وبعث إلى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عَبْد الله وكان مختصاً بابن مقلة وصاحب رأيه، فوعده بالوزارة، فكان يطالعه بالأخبار. وشعر ابن مقلة بذلك فأبلغوا إلى مؤنس وبليق، وأجمعوا على خلع القاهر، واتفق بليق وابنه علي وابن مقلة والحسن بن هارون على البيعة لأبي أحمد بن المكتفي فبايعوه، وحلفوا له وأطلعوا مؤنساً على ذلك، فأشار بالمهل وتأنيس القاهر حتى يعرفوا من واطأه من القواد والساجية والحجرية، فأبوا وهونوا عليه الأمر في استعجال خلعه فأذن لهم، فأشاعوا أن أبا طاهر القرمطي ورد الكوفة، وندبوا علي بن بليق للمسير إليه ليدخل للوداع ويقبض على القاهر، وابن مقلة كان نائماً فلما استيقظ أعاد الكتاب إلى القاهر فاستراب. ثم جاءه طريف السيكري غلام مؤنس في زي إمرأة مستنصحاً، فأحضره وأطلعه على تدبيرهم وبيعتهم لأبي أحمد بن المكتفي فأخذ القاهر حذره، وأكمن الساجية في دهاليز القصر وممراته، وجاء علي بن بليق في خف من أصحابه، واستأذن فلم يؤذن له، وكان ذا خمار، فغضب وأفحش في القول فأخرج الساجية في السلاح وشتموه وردوه، وفرّ عنه أصحابه، وألقى بنفسه في الطيار وعبر إلى الجانب الغربي. واختفى الوزير ابن مقلة والحسن بن هارون، وركب طريف إلى دار القاهر، فأنكر بليق ما جرى لابنه وشتم الساجية وقال: لا بد أن أستعدي الخليفة عليهم، وجاء إلى القاهر ومعه قواد مؤنس، فلم يأذن له وقبض عليه وحبسه، وعلى أحمد بن زيرك صاحب الشرطة وجاء العسكر منكرين لذلك فاسترضاهم ووعدهم بالزيادة وبإطلاق هؤلاء المحبوسين فافترقوا، وبعث إلى مؤنس بالحضور عنده ليطالعه برأيه فأبى فعزله، وولّى طريف السيكري مكانه وأعطاه خاتمه وقال: قد فوضت إلى إبني عَبْد الصمد ما كان المُقْتَدِر

فوضه إلى ابنه محمد، وقلدتك خلافته ورياسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت الأموال كما كان مؤنس وأمض إليه وأحمله إلى دار الخلافة مرفهاً عليه لئلا يجتمع إليه أهل الشّر ويفسد ما بيننا وبينه. فسار طريف إلى مؤنس وأخبره بأمان القاهر له ولأصحابه، وحمله على الحضور عنده وهون عليه أمره، وأن القاهر لا يقدر على مكروهة. فركب وحضر فقبض عليه القاهر وحبسه قبل أن يراه، وندم طريف على ما فعل، واستوحش. واستوزر القاهر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، ووكّل بدور مؤنس وبُلَيْق وابنه عليّ وابن مقلة وابن زيرك وابن هارون ونقل ما فيها، وأحرقت دار ابن مقلة، وجاء محمد بن ياقوت وقام بالحجبة، فتنكر له طريف السيكري والساجية فاختفى ولحق لابنه بفارس وكتب إليه القاهر بالعتب على ذلك وولاه الأهواز، وكان الذي دعا طريفاً السيكري إلى الإنحراف عن مؤنس وبليق أن مؤنساً رفع رتبة بليق وابنه عليه بعد أن كانا يخدمانه، فأهملا جانبه. ثم اعتزم بليق على أن يوليه مصر وفاوض في ذلك الوزير ابن مقلة، فوافق عليه ثم أراد عليّ بن بليق عمل مصر لنفسه ومنع من إرسال طريف فتربص بهم. وأمَّا الساجية فكانوا مع مؤنس بالموصل وكان يعدهم ويمنيهم. ولما ولّي القاهر واستبد بأمره لم يفِ لهم. وكان من أعيانهم الخادم صندل، وكان له بدار القاهر خادم إسمه مؤتمن باعه واتصل بالقاهر قبل الخلافة فلما شرع في التدبير على مؤنس وبليق بعث مؤنساً هذا إلى صندل يمت إليه تقديمه ويدخله في أمر القاهر وإزالة الحجر عنه. فقصد إلى صندل وزوجته وتلطف ووصف القاهر بما شاء من محاسن الأخلاق، وحمل زوجته على الدخول إلى دار القاهر حتى شافهها بما أراد إبلاغه إلى صندل، وداخل صندل في ذلك سيما من قواد الساجية، واتفقوا على مداخلة طريف السيكري في ذلك لعلمهم باستيحاشه من مؤنس، فأجابهم على شريطة الابقاء على مؤنس وبليق وابنه وأن لا يزال مؤنس من مرتبته وتحالفوا على ذلك من الجانبين. وطلب طريف عهد القاهر بخطه فكتب وزاد فيه أنه يصلي بالناس ويخطب لم ويحج بهم ويغزو معهم ويتتد لكشف المظالم وغير ذلك من حسن السيرة، وكان جماعة من الحجرية قد أبعدهم ابن بليق وأدال منهم بأصحابه، فداخلهم طريف في أمر القاهر فأجابوه. ونمي الخبر بذلك إلى ابن مقلة وإلى بليق، وأرادوا القبض على قواد الساجية والحجرية. ثم خشوا الفتنة ودبروا على القاهر فلم يصلوا إليه لاحتجابه عنهم بالمرض. فوضعوا أخبار القرامطة كما قدمناه. ولما قبض القاهر على مؤنس ولّي الحجابة سلامة الطولوني. وعلى الشرطة أحمد بن خاقان، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم ابن عَبْد الله مكان ابن مقلة،

وأمر بالنداء على المتسترين والوعيد لمن أخفى، وطلب أبا احمد بن المكتفي فظفر به، وبنى عليه حائطاً فمات. ثم ظفر بعلي فقتله. ثم شغب الجند في شعبان ومعهم أصحاب مؤنس وثاروا ونادوا بشعاره، وطلبوا إطلاقه وأحرقوا روشن دار الوزير أبي جعفر. فعمد القاهر إلى بليق في محبسه وأمر به فذبح وحمل الرأسين إلى مؤنس، فلما رآهما مؤنس استرجع ولعن قاتلهما فأمر به فذبح وطيف بالرؤوس. ثم أودعت

بالخزانة. وقيل أن قتل علي بن بليق تأخر عن قتل أبيه ومؤنس لأنه كان مختفياً، فلما ظفر به بعدهما قتله. ثم بعث القاهر إلى أبي يعقوب إسحق بن إسمعيل اليوصحي فأخذ من محبس الوزير محمد بن القاسم وحبسه، وارتاب الناس من شدة القاهر، وندم الساجية والحجرية على مداخلته في ذلك الأمر. ثم قبض القاهر على وزيره أبي جعفر وأولاده وأخيه عبيد الله وخدمه لثلاثة أشهر ونصف من ولايته، ومات لثمان عشرة ليلة من حبسه، واستوزر مكانه أبا العباس أحمد بن عبيد الله بن سليمان الحصيبي. ثم استبد القاهر على طريف السيكري واستخف به، فخافه وتنكر ثم أحضره بعد أن قبض على الوزير أبي جعفر فقبض عليه وأودعه السجن إلى أن خلع القاهر.

دولة بني بويه

ابتداء دولة بني بويه:

كان أبوهم أبو شجاع بويه من رجالات الديلم وكان له أولاد علي والحسن وأحمد، فعلي أبو الحسن عماد الدولة، والحسن أبو علي ركن الدولة، وأحمد أبو الحسن معز الدولة. ونسبهم ابن ماكولا في الساسانية إلى بهرام جور بن يزدجرد، وابن مسكويه إلى يزدجرد بن شهريار، وهو نسب مدخول، لأن الرياسة على قوم لا تكون في غير أهل بلدهم كما ذكرنا في مقدمة الكتاب. ولما أسلم الديلم على يد الأطروش وملك بهم طبرستان وجرجان، وكان من قواده ماكان بن كالي وليلى بن النعمان وأسفار بن شيرويه ومرداويج بن وزيار، وكانوا ملوكاً عظاماً وازدحموا في طبرستان، فساروا لملك الأرض عند اختلاط الدولة العباسية وضعفها، وقصدوا الإستيلاء على الأعمال والأطراف. وكان بنو بويه من جملة قواد ماكان بن كالي. فلما وقع بينه وبين مرداويج من الفتنة والخلاف ما تقدم، وغلبه مرداويج على طبرستان وجرجان عادوا إلى مرداويج لتحف عنه مؤنتهم على أن يرجعوا إليه إذا صلح أمره، فساروا إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم. واستأمن إليه جماعة من قواد ما

كان فقتلهم وأولادهم، وولّى علي بن بويه على الكرج وكان أكبر اخوته. وسار جميعهم إلى الريّ، وعليها وشمكير بن وزيار أخو مرداويج، ومعه وزيره الحسين بن محمد الملقب بالعميد، فاتصل به علي بن بويه، وأهدى إليه بغلة كانت عنده ومتاعاً، وندم مرداويج على ولاية هؤلاء المستأمنة من قواد ماكان، فكتب إلى أخيه وشمكير بالقبض على الباقين، وأراد أن يبعث في أثر علي بن بويه، فخشي الفتنة وتركه. ولما وصل علي بن بويه إلى الكرج استقام أمره، وفتح قلاعاً للخرمية ظفر منها بذخائر كثيرة واستمال الرجال، وعظم أمره، وأحبه الناس، ومرداويح يومئذ بطبرستان. ثم عاد إلى الريّ وأطلق مالاً لجماعة من القواد على الكرج فوصلوا إلى علي بن بويه فأحسن إليهم واستمالهم، وبعث إليهم مرداويج فدافعه فندم على إطلاقهم، وبعث فيهم مرداويج أمراء الكرج فاستأمن إليه شيرازاد من أعيان قوّاد الديلم. فقويت نفسه وسار إلى أصبهان وبها المظفر بن ياقوت على الحرب في عشرة آلاف مقاتل أبو علي بن رستم على

الخوارج، فأرسل علي بن بويه يستعطفهما في الإنحياز إلى طاعة الخليفة وخدمته والمسير إلى الحضرة فلم يجيباه. وكان أبو علي أشد كراهة له فمات تلك الأيام.وسار ابن ياقوت ثلاثة فراسخ عن أصبهان، وكان في أصحابه حسلُ وديلم، واستأمنوا إلى ابن بويه، ثم اقتتلوا فانهزم ابن ياقوت واستولى علي بن بويه على أصبهان، وهو عماد الدولة، وكان عسكره نحواً من تسعمائة، وعسكر ابن ياقوت نحواً من عشرة لاف. وبلغ ذلك القاهر فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده. وبعث إلى عماد الدولة يخادعه يطلب الطاعة منه ليطمئن للرسالة، ويخالفه أخوه وشمكير في العساكر وشعر ابن بويه بذلك فرحل عن أصبهان وقصد أرجان، وبها أبو بكر بن ياقوت. فانهزم أبو بكر من غير قتال ولحق برامهرمز. واستولى ابن بويه على أرجان وخالفه وشمكير أخو مرداويج إلى أصبهان فملكها. وأرسل القاهر إلى مرداويج بأن يسلم أصبهان لمحمد ابن ياقوت ففعل. وكتب أبو طالب يستدعيه ويهون عليه أمر ابن ياقوت ويغريه به، فخشي ابن بويه من كثرة عساكر ياقوت وأمواله وأن يحصل بينه وبين ابنه تأهبات فتوقف، فأعاد عليه أبو طالب وأراه أن مرداويج طلب الصلح من ابن ياقوت وخوفه اجتماعهما عليه. فسار ابن بويه إلى أرجان في ربيع سنة إحدى وعشرين ولقيتهم هنالك مقدمة ابن ياقوت فانهزمت، فزحف ابن ياقوت إليهم وبعث عماد الدولة أخاه ركن الدولة الحسن إلى

كازرون وغيرها من أعمال فارس، فجبى أموالها ولقي عسكر ابن ياقوت هنالك فهزمهم ورجع إلى أخيه. وخشي عماد الدولة من اتفاق مرداويج مع ابن ياقوت فسار إلى أصطخر واتبعه ابن ياقوت وشيعه إلى قنطرة بطريق كرمان اضطروا إلى الحرب عليها. فتزاحفوا هنالك واستأمن بعض قواده إلى ابن ياقوت فقتلهم، فاستأمن أصحابه وانهزم ابن ياقوت واتبعه ابن بويه واستباح معسكره، وذلك في جمادى سنة إثنتين وعشرين. وأبلى أخوه معز الدولة أحمد في ذلك اليوم بلاء حسناً ولحق ابن ياقوت بواسط، وسار عماد الدولة إلى شيراز فملكها وأمّن الناس واستولى على بلاد فارس، وطلب الجند أرزاقهم فعجز عنها، وعثر على صناديق من مخلف ابن ياقوت وذخائر بني الصفار فيها خمسمائة ألف دينار، فامتلأت خزائنه وثبت ملكه. واستقر ابن ياقوت بواسط وكاتبه أبو عَبْد الله اليزيدى حتى قتل مرداويج. عاد إلى الأهواز ووصل عسكر مكرم، وكانت عساكر ابن بويه سبقته فالتقوا بنواحي أرجان. وانهزم ابن ياقوت فأرسل أبو عَبْد الله اليزيدي في الصلح فأجابه ابن بويه واستقر ابن ياقوت بالأهواز ومعه ابن اليزيدي وابن بويه ببلاد فارس. ثم زحف مرداويج إلى الأهواز وملكها من يد ابن ياقوت، ورجع إلى واسط وكتب إلى الراضي. وكان بعد القاهر كما نذكره، والى وزيره أبي علي بن مقلة بالطاعة والمقاطعة فيما ليده من البلاد بأعمال فارس على ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك وبعث إليه باللواء والخلع، وعظم شأنه في فارس وبلغ مرداويج شأنه فخاف غائلته، وكان أخوه وشمكير قد رجع إلى أصبهان بعد خلع القاهر وصرف

محمد بن ياقوت عنها فسار إليها مرداويج للتدبير على عماد الدولة، وبعث أخاه وشمكير على الريّ وأعمالها.

خلع القاهر وبيعة الراضي:

ولما قتل القاهر مؤنساً وأصحابه أقام يتطلب الوزير أبا علي بن مقلة والحسن بن هارون وهما مستتران، وكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويغريانهم بالقاهر، فإنهم غرّوه كما فعل بأصحابه قبلهم. وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ويراسلهم ويجيء إليهم متنكراً ويغريهم، ووضعوا على سيما أن منجماً أخبره أنه ينكب القاهر ويقتله ودسوا إلى معبر كان عنده أموالاً على أن يحذره من القاهر، فنفر واستوحش، وحفر القاهر مطامير في داره، فقيل لسيما والقواد إنما صنعت لكم فازدادوا نفرة. وكان سيما رئيس الساجية، فارتاب بالقاهر وجمع أصحابه وأعطاهم السلاح، وبعث إلى الحجرية فجمعهم عنده وتحالفوا على خلع القاهر، وزحفوا إلى الدور وهجموا عليه، فقام من النوم ووجد الأبواب مشحونة بالرجال، فهرب إلى السطح ودلهم عليه خادم فجاؤه واستدعوه للنزول فأبى فتهددوه بالرشق بالسهام، فنزل وجاؤا به إلى محبس طريف السيكري، فحبسوه مكانه وأطلقوه حتى سمل بعد ذلك، وذلك لسنة ونصف من خلافته. وهرب الخصيبي وزيره وسلامة حاجبه. وقد قيل في خلعه غير هذا، وهو أن القاهر لمّا تمكن من الخلافة اشتد على الساجية والحجرية واستهان بهم فتشاكوا ثم خافه حاجبه سلامة لأنه كان يطالبه بالأموال ووزيره الخصيبي كذلك، وحفر المطامير في داره فارتابوا به كما ذكرنا. وأسر جماعة من القرامطة فحبسهم بتلك المطامير، وأراد أن يستظهر بهم على الحجرية والساجية فتنكروا ذلك وقالوا فيه للوزير وللحاجب، فأخرجهم من الدار وسلمهم لمحمد بن ياقوت صاحب الشرطة وأوصاه إليهم، فازداد الساجية والحجرية ريبة. ثم تنكر لهم الماهر وصار يعلن بذمهم وكراهتهم فاجتمعوا لخلعه كما ذكرنا. ولما قبض القاهر بحثوا عن أبي العباس بن المُقْتَدِر وكان محبوساً مع أمه فأخرجوه وبايعوه في جمادى سنة إثنتين وعشرين، وبايعه القواد والناس وأحضر علي بن عيسى وأخاه عَبْد الرحمن وصدر عن رأيهما، وأراد علي بن عيسى على الوزارة فامتنع واعتذر بالنكير، وأشار بابن مقلة فأمنه واستوزره. وبعث القضاة إلى القاهر ليخلع نفسه. فأبى فسمل وأمن ابن مقلة الخصيبي وولاه وولّى الفضل بن جعفر بن الفرات نائبا عنه عن أعمال الموصل وقردى وباريدى وماردين وديار الجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والثغور الجزرية والشامية وأجناد الشام وديار مصر يعزل ويولي من يراه في الخراج والمعادن والنفقات والبريد وغير ذلك. وولّى الراضي على الشرطة بدراً الحمامي، وأرسل إلى محمد بن رائق يستدعيه وكان قد استولى على الأهواز ودفع عنها ابن ياقوت من تلك الولاية إلى السوس وجنديسابور، وقد ولى على أصبهان وهو يروم المسير إليها. فلما ولي الراضي استدعاه

للحجابة فسار إلى واسط، وطلب محمد بن ياقوت الحجابه فأجيب إليها فسار في أثر ابن رائق، وبلغ ابن رائق الخبر فسار من واسط مسابقاً لابن ياقوت بالمدائن توقيع الراضي بالحرب، والمعادن في واسط، مضافاً إلى ما بيده من البصرة والمعادن. فعاد منحدراً في دجلة ولقيه ابن ياقوت مصعداً، ودخل بغداد وولّي الحجبة وصارت إليه رياسة الجيش ونظر في أمر الدواوين وأمرهم بحضور مجلسه، وأن لا ينفذوا توقيعاً في ولاية أو عزل أو إطلاق إلا بخطه، وصار نظر الوزير في الحقيقة له وابن مقلة مكابر مجلسه مع جملتهم ومتميز عنهم في الإيثار والمجلس فقط.

مقتل هارون:

كان هارون بن غريب الحال على ماه الكوفة والدينور وماسبذان وسائر الأعمال التي ولاها القاهر إياه، فلما خلع القاهر واستخلف الراضي رأى هارون أنه أحق بالدولة من غيره لأنه ابن خال المُقْتَدِر، فكاتب القوّاد ووعدهم وسار من الدينور إلى خانقين وشكا ابن مقلة وابن ياقوت والحجرية والساجية إلى الراضي فأذن لهم في منعه، فراسلوه أولاً بالممانعة والزيادة على ما في يده من الأعمال، فلم يلتفت إليهم، وشرع في الجباية فقويت شوكته. فسار إليه محمد بن ياقوت في العساكر وهرب عنه بعض أصحابه إلى هارون، وكتب إلى هارون يستميله فلم يجب، وقال لا بد من دخول بغداد. ثم تزاحفوا لست بقين من جمادى الآخرة سنة إثنتين وعشرين فانهزم أولاً أصحاب ابن ياقوت، ونهب سوادهم. وسار محمد حتى قطع قنطرة تبريز، وسار هارون منفرداً لاعتراضه، فدخل في بعض المياه وسقط عن فرسه، ولحقه غلام لمحمد بن ياقوت فقطع رأسه وانهزم أصحابه وقتل قواده وأسر بعضهم، ورجع ابن ياقوت إلى بغداد ظافراً.

نكبة ابن ياقوت:

قد ذكرنا أنه كان نظر في أمر الدواوين، وصيّر ابن مقلة كالعاطل، فسعى به عند القاضي وأوهمه خلافه حتى أجمع القبض عليه في جمادى سنة ثلاث وعشرين، فجلس الخليفة على عادته، وحضر الوزير وسائر الناس على طبقاتهم يريد تقليد جماعة من القواد للأعمال، واستدعى ابن ياقوت للخدمة في الحجبة على عادته، فبادر، وعدل به إلى حجرة فحبس فيها وحمار. وبعث الوزير ابن مقلة إلى دار محمد من يحفظها من النهب، وأطلق يده في أمور الدولة واستبد بها وكان ياقوت مقيماً بواسط، فلما بلغه القبض على إبنه انحدر إلى فارس لمحاربة ابن بويه، وكتب يستعطف الراضي ويسأله إبقاء ابنه ليساعده على شأنه. ولم يزل محمد محبوساً إلى أن هلك سنة أربع عشرة في محبسه.

خبر البريدي:

كان أبو عَبْد الله البريدي أيام ابن ياقوت ضامناً للأهواز، فلما استولى عليها مرداويج، وانهزم ابن ياقوت كما مرّ، رجع البريدي إلى البصرة وصار يتصرف في أسافل الأهواز مع كنانة ياقوت. ثم سار إلى ياقوت فأقام معه بواسط، فلما قبض على ابن ياقوت وكتب ابن مقلة إليه وإلى ياقوت يعتذر عن قبض ابن ياقوت

ويأمرهما بالمسير لفتح فارس، فسار ياقوت على السوس، والبريدي على طريق الماء حتى انتهيا إلى الأهواز. وكان إلى أخويه أبي الحسن وأبي يوسف ضمان السوس وجندي سابور، وادعيا أن دخل البلاد أخذه مرداويج. وبعث ابن مقلة ثانياً لتحقق ذلك فوافاهم وكتب بصدقهم، فاستولى ابن البريدي ما بين ذلك على أربعة آلاف ألف دينار. ثم أشار أبو عَبْد الله بن علي بن ياقوت بالمسير لفتح فارس، وأقام هو لجباية الأموال فحصل منها بغيته. وسار ياقوت فلقيه ابن بويه على أرجان فهزمه، وسار إلى عسكر مكرم. واتبعه ابن بويه إلى رامهرمز وأقام بها إلى أن اصطلحا.

مقتل ياقوت:

قد تقدم لنا انهزام ياقوت من فارس أمام عماد الدولة ابن بويه إلى عسكر مكرم، واستيلاء ابن بويه على فارس. وكان أبو عَبْد الله البريدي بالأهواز ضامناً كما تقدم. وكان مع ذلك كاتباً لياقوت. وكان ياقوت يستنيم إليه ويثق به. وكان مُغفلاً ضعيف السياسة فخادعه أبو عَبْد الله البريدي وأشار عليه بالمقام بعسكر مكرم، وأن يبعث إليه بعض جنده الواصلين من بغداد تخفيفاً للمؤنة وتحذيراً من شغبهم. وبعث إليه أخاه بذلك أبا يوسف ودفع له من مال الأهواز خمسين ألف دينار. ثم قطع عنه فضاق الحال عليه وعلى جنده، وكان قد نزع إليه من أصحاب ابن بويه طاهر الحمل، وكاتبه أبو جعفر الصهيري، ثم انصرف عنه لضيق حاله إلى غربي تستر ليتغلب على ماه البصرة، فكبسه ابن بويه وغنم معسكره وأسر الصهيري، فشفع فيه وزيره، وأطلقه،

فلحق بكرمان، واتصل بعد ذلك بمعز الدولة ابن بويه واستكتبه. ولما انصرف طاهر عن ياقوت كتب إلى البريدي يشكو ضعفه واستطالة أصحابه، فأشار عليه بإرسالهم إلى الأهواز متعرفين لقومهم. فلما وصلوا إليه انتقى خيارهم ورد الباقين، وأحسن إلى من عنده. وبعث ياقوت إليه في طلب المعز فلم يبعث إليه، فجاءه بنفسه فتلقاه وترجل إليه وقبل يده، وأنزله بداره، وقام في خدمته أحسن مقام، ووضع الجند على الباب يشغبون ويرومون قتله، فأشار إليه بالنجاة. فعاد إلى عسكر مكرم، فكتب إليه يحذره اتباعهم، وأن عسكر مكرم على ثمانية فراسخ من الأهواز، وأرى أن تتأخر بتستر فتتحصن بها. وكتب له على عامل تستر بخمسين ألف دينار، وعذله خادمه مؤنس في شأن ابن البريدي وأراه خديعته. وأشار إليه باللحاق ببغداد، وأنه شيخ الحجرية، وقد كاتبوك فسر إلى رياسة بغداد وإلا فتعاجل إلى البريدي وتخرجه عن الأهواز فصم عن نصيحته وأبى من قبول السعاية فيه، وتسايل أصحابه إلى ابن البريدي حتى لم يبق معه إلا نحو الثمانمائة. وجاءه ابنه المظفر ناجياً من حبس الراضي بعد أسبوع، فأطلقه وبعثه إلى أبيه فأشار عليه بالمسير إلى بغداد، فإن حصل على ما يريد وإلا فإلى الموصل وديار ربيعة ويتملكها، فأبى عليه أبوه ففارقه إلى ابن البريدي فأكرمه ووكل به. ثم حذر ابن البريدي غائله ياقوت، فبعث إليه بأن الخليفة أمره بإزعاجه من البلاد أمَّا إلى بغداد وأمَّا إلى بلاد الجبل ليوليه بعض أعمالها، فكتب يستمهله فأبى من المهلة، وبعث

العساكر من الأهواز. وسار ياقوت إلى عسكر مكرم ليكبس ابن البريدي هنالك فصبح البلد ولم يجده، وجاءت عساكر ابن البريدي مع قائد أبي جعفر الجمال، فقاتله من أمامه وأكمن آخرين من خلفه فانهزم وافترق أصحابه، وحسا إلى حائط متنكراً فمر به قوم ابن البريدي فكشفوا وجهه وعرفوه فقتلوه وحملوا رأسه إلى العسكر فدفنه الجمال وبعث البريدي إلى تستر فحمل ما كان لياقوت هنالك، وقبض على ابنه المظفر وبعثه إلى بغداد واستبد بتلك الأعمال وذلك سنة أربع وعشرين.

مسير ابن مقلة إلى الموصل واستقرارها لابن حمدان :

كان ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن أبي الهيجاء عَبْد الله بن حمدان عاملاً على الموصل، فجاء عمه أبو العلاء سعيد فضمن الموصل وديار ربيعة سراً وسار إليها فظهر أنه في طلب المال من ابن أخيه. وشعر ناصر الدولة بذلك فخرج لتلقيه، فخالفه إلى بيته فبعث من قبله واهتم الراضي بذلك وأمر الوزير أبا علي بن مقلة بالمسير إلى الموصل، فسار في العساكر من شعبان سنة ثلاث وعشرين، فرحل عنها ناصر الدولة ودخل الزوران واتبعه الوزير إلى حمل السن. ثم عاد عنها إلى الموصل وأقام في جبايتها، وبعث ناصر الدولة إلى بغداد بعشرة آلاف دينار لابن الوزير ليستحث أباه في القدوم، فكتب إليه بما أزعجه، فسار من الموصل واستخلف عليها عليّ بن خلف بن طياب وماترد الديلمي من الساجية. ودخل بغداد منتصف شوال، وجمع ناصر الدولة ولقي ما ترد الديلمي على نصيبين، إلى الرقة وانحدر منها إلى بغداد ولحقه ابن طياب، واستولى ناصر الدولة حمدان على الموصل وكتب في الرضا وضمان البلاد فأجيب وتعذرت عليه.

نكبة ابن مقلة وخبر الوزارة:

كان الوزير ابن مقلة قد بعث سنة ثلاث وعشرين إلى محمد بن رائق بواسط يطالبه بارتفاع أعمال واسط والبصرة، وكان قد قطع الجبل. فلما جاءه كتاب ابن مقلة كتب إليه جوابه يغالطه وكتب إلى الراضي بالسعي في الوزارة، وانه يقوم بنفقات الدار وأرزاق الجند، فجهز الوزير ابنه سنة أربع وعشرين لقصده ووري بالأهواز، وأنفذ رسوله إلى ابن رائق بهذه التورية يؤنسه بها، وباكر القصر لانفاذ الرسول فقبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية. وكان المظفر قد أطلق من محبسه وأعيد إلى الحجبة، فاستحسن الراضي فعلهم، واختفى أبو الحسين ابن الوزير وسائر أولاده وحرمه وأصحابه، وأشار إلى الحجرية والساجية لوزارة علي بن عيسى، فامتنع وسار بأخيه عَبْد الرحمن، فاستوزره الراضي وصادر ابن مقلة. ثم عجز عن تمشية الأمور وضاقت عليه الجباية، فاستعفى من الوزارة فقبض عليه الراضي وعلى أخيه على ثلاثة أشهر من وزارته، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخيّ، فصادر علي بن عيسى على

مائة ألف دينار. ثم عجز عن الوزارة وضاقت الأموال وانقطعت. وطمع أهل الأعمال فيما بأيديهم، فقطع ابن رائق حمل واسط والبصرة، وقطع ابن البريدي حمل الأهواز وأعمالها، وانقطع حِمْل فارس لغلب ابن بويه عليها ولم يبق غير هذه الأعمال ونطاق الدولة قد تضايق إلى الغاية، وأهل الدولة مستبدون على

الخلافة، والأحوال متلاشية. فتحير أبو جعفر، وكثرت عليه المطالبات، وذهبت هيبته. فاختفى لثلاثة أشهر ونصف من وزارته، واستوزر الراضي مكانه أبا القاسم سليمان بن الحسن، فكان حاله مثل حال من قبله في قلة المال ووقوف الحال.

استيلاء ابن رائق على الخليفة:

ولما رأى الراضي وقوف الحال من الوزراء استدعى أبا بكر محمد بن رائق من واسط وكاتبه بأنه قد أجابه إلى ما عرض من السعي في الوزارة على القيام بالنفقات وأرزاق الجند، فسرّ ابن رائق بذلك وشرع يتجهز للمسير. ثم أنفذ إليه الراضي الساجية وقلده إمارة الجيش، وجعله أمير الأمراء، وفوض إليه الخراج والدواوين والمعادن في جميع البلاد، وأمر بالخطبة له على المنابر، وانحدر إليه أرباب الدواوين والكتاب والحجاب. ولما جاءه الساجية قبض عليهم بواسط في ذي الحجة من سنة أربع وعشرين، ونهب رجالهم ودوابهم ومتاعهم ليوفر أرزاقهم على الحجرية، فاستوحشوا لذلك وخيموا بدار الخلافة، وأصعد ابن رائق إلى بغداد وفوض الخليفة إليه أمرهم. وأمر الحجرية بتقويض خيامهم والرجوع إلى منازلهم، وأبطل الدواوين وصيّر النظر إليه، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور. وبقي ابن رائق وكتابه ينظرون في جميع الأمور، فبطلت الدواوين وبيوت الأموال من يومئذ وصارت لأمير الأمراء، والأموال تحمل إلى خزانته، ويتصرف فيها كما يريد، ويطلب من الخليفة ما يريد. وتغلب أصحاب الأطراف وزال عنهم الطاعة. ولم يبق للخليفة إلا بغداد وأعمالها، وابن رائق مستبد عليه. وأمَّا باقي الأعمال فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان والأهواز في يد ابن البريدي، وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه، وكرمان في يد علي بن الياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة ابن بويه، وشمكير أخو مرداويج ينازعه في هذه الأعمال، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد حمدان ومصر والشام في يد ابن طغج، والمغرب وأفريقية في يد العبيديين، والأندلس في يد

عَبْد الرحمن بن الناصر من ولد عَبْد الرحمن الداخل، وما وراء النهر في يد بني سامان، وطبرستان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي، ولم يبق لنا من الأخبار إلا ما يتعلق بالخلافة فقط في نطاقها المتضايق أخيراً، وأن كانت مغلبة. وهي أخبار ابن رائق والبريدي، وأمَّا غير ذلك من الأعمال التي اقتطعت كما ذكرناه فنذكر أخبارها منفردة، ونسوق المستبدين دولا كما شرطناه أول الكتاب. ثم كتب ابن رائق عن الراضي إلى أبي الفضل بن جعفر بن الفرات. وكان على الخراج بمصر والشام، وظن أنه بوزارته تكون له تلك الجباية، فوصل إلى بغداد وولّي وزارة الراضي وابن رائق جميعاً.

وصول يحكم مع ابن رائق :

كان يحكم هذا من جملة مرداويج قائد الديلم ببلاد الجبل، وكان قبله في جملة ماكان بن كالي ومن مواليه، وهبه له وزيره أبو علي الفارض، ثم فارق ماكان مع من فارقه إلى مرداويج. وكان مرداويج قد ملك الريّ

وأصبهان والأهواز، وضخم ملكه وصنع كراسي من ذهب وفضة للجلوس عليها هو وقواده، ووضع على رأسه تاجاً تظنه تاج كسرى. وأمر أن يخاطب بشاهنشاه، واعتزم على قصد العراق والاستيلاء عليه، وتجديد قصور كسرى بالمدائن. وكان في خدمته جماعة من الترك ومنهم بحكم. فأساء ملكهم وعسكرهم فقتلوه سنة ثلاث وعشرين بظاهر أصبهان كما نذكره في أخبارهم. واجتمع الديلم والجبل بعده على أخيه وشمكير بن زيار وهو والد قابوس، ولما قتل مرداويح افترق الأتراك فرقتين ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، والآخرى وهي الأكثر سارت نحو الجبل عند بحكم فجبوا خراج الدينور وغيرها. ثم ساروا إلى النهروان وكاتبوا الراضي في المسير إليه فأذن لهم وارتاب الحجرية بهم، فأمرهم الوزير بالرجوع إلى بلد الجبل، فغضبوا واستدعاهم ابن رائق صاحب واسط والبصرة فمضوا إليه وقدم عليهم بحكم وكان الأتراك والديلم من أصحاب مرداويج، فجاءته جماعة منهم فأحسن إليهم وإلى لحكم وسماه الرائقي نسبة إليه وأذن له أن يكتبه في مخاطباته.

مسير الراضي وابن رائق لحرب ابن البريدي:

ثم اعتزم ابن رائق سنة خمس وعشرين على الراضي في المسير إلى واسط لطلب ابن البريدي في المال ليكون أقرب لمناجزته، فانحدر في شهر محرم وارتاب الحجرية بفعله مع الساجية، فتخلفوا ثم تبعوه فاعترضهم وأسقط أكثرهم من الديوان، فاضطربوا وثاروا فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم جماعة ولجأ فلّهم إلى بغداد، فأوقع بهم لؤلؤ صاحب الشرطة ونهبت دورهم وقطعت أرزاقهم وقبضت أملاكهم، وقتل ابن رائق من كان في حبسه من الساجية، وسار هو والراضي نحو الأهواز لاجلاء ابن البريدي منها. وقدم إليه في طلب الاستقامة، وتوعده فجدّد ضمان الأهواز بألف دينار في كل شهر، ويحمل في كل يوم قسطه. وأجابه إلى تسليم الجيش لمن يسير إلى قتال ابن بويه لنفرتهم عن بغداد. وعرض ذلك على الراضي، فأشار الحسين بن علي القونجي وزير إبن رائق بأن لا تقبل لأنه خداع ومكر. وأشار أبو بكر بن مقاتل بإجابته، وعقد الضمان على ابن البريدي، وعاد ابن رائق والراضي إلى بغداد فدخلاها أول صفر، ولم يف ابن البريدي بحمل المالى، وأنفذ ابن رائق جعفر بن ورقاء ليسير بالجيش إلى فارس. ودسّ إليهم ابن البريدي أن يطلبوا منه المال ليتجهزوا به، فاعتذر فشتموه وتهددوه بالقتل. وأتى ابن البريدي فأشار عليه بالنجاء. ثم سعى ابن مقاتل لابن البريدي في وزارة ابن رائق عوضاً عن الحسين القونجي وبذل عنه ثلاثين ألف دينار، فاعتذر له بسوابق القونجي عنده وسعيه له، وكان مريضاً. فقال له ابن مقاتل: أنه هالك، فقال ابن رائق: قد أعلمني الطبيب أنه ناقه، فقال الطبيب: يراجيك فيه لقربه منك، ولكن سل ابن أخيه علي بن حمدان. وكان القونجي قد استناب ابن أخيه في مرضه، فأشار عليه ابن مقاتل أن يعرف الأمير إذا بمهلكة وأشار عليه أن يستوزره. فلما سأله ابن رائق أيأسه منه. فقال ابن رائق عند ذلك لابن مقاتل: اكتب لابن البريدي يرسل

من ينوب عنه في الوزارة، فبعث أحمد بن الكوني واستولى مع مقاتل على ابن رائق وسعوا لابن البريدي أبي يوسف في ضمان البصرة. وكان عامل البصرة من قبل ابن رائق محمد بن

يزداد وكان شديد الظلم والعسف بهم، فخادعه ابن البريدي وأنفذ أبو عَبْد الله مولاه إقبالاً في ألفي رجل، وأقاموا في حصن مهدي قريباً. فعلم ابن يزداد أنه يروم التغلب على البصرة، وأقاما على ذلك وأقام ابن رائق شأن هذا العسكر في حصن مهدي. وبلغه أيضاً أنه استخدم الحجريين الذين أذن لهم في الانسياح في الأرض، وأنهم اتفقوا مع عسكره على قطع الحمل، وكاتبه بطردهم عنه فلم يفعل. فأمر ابن السكوني أن يكتب إلى ابن البريدي بالكتاب على ذلك. ويأمر بإعادة العسكر من حصن مهدي، فأجاب بأعدادهم للقرامطة وابن يزداد عاجز عن الحماية. وكان القرامطة قد وصلوا إلى الكوفة في ربيع الآخر، وخرج ابن رائق في العساكر إلى حصن ابن هبيرة ولم يستقر بينهم أمر. وعاد القرمطي إلى بلده وسار ابن رائق إلى واسط، فكتب ابن البريدي إلى عسكره بحصن مهدي أن يدخلوا البصرة ويملكوها من ابن يزداد، وأمدهم جماعة الحجرية فقصدوا البصرة وقاتلوا ابن يزداد فهزموه، ولحق بالكوفة وملك إقبال مولى ابن البريدي وأصحابه البصرة، وكتب ابن رائق إلى البريدي يتهدده ويأمره بإخراج أصحابه من البصرة فلم يفعل.

استيلاء يحكم على الأهواز:

ولما امتنع ابن البريدي من الإفراج عن البصرة بعث ابن رائق العساكر مع بدر الحريشي ويحكم مولاه، وأمرهم بالمقام بالجامدة، فتقدّم يحكم عن بدر وسار إلى السوس وجاءته عساكر البريدي مع غلامه محمد الجمال في ثلاثة آلاف، ومع يحكم مائتان وسبعون من الترك، فهزمهم يحكم ورجع محمد بن الجمال إلى ابن البريدي فعاقبه على انهزامه، وجشد له العسكر، فسار في ستة آلاف ولقيهم يحكم عند نهر تستر فانهزموا من غير قتال. وركب ابن البريدي السفن ومعه ثلثمائة ألف دينار، ففرّق أصحابه وماله ونجا إلى البصرة، وأقام بالأبلة، وبعث غلامه إقبالاً فلقي جماعة من أصحاب ابن رائق فهزمهم، وبعث ابن رائق مع جماعة من أهل البصرة يستعطفه فأبى، فطلبوا البصرة فحلف ليحرقنها ويقتل كل من فيها، فرجعوا مستبصرين في قتاله. وأقام ابن البريدي بالبصرة، واستولى يحكم على الأهواز ثم

بعث ابن رائق جيشه في البحر والبر، فانهزم عسكر البر، واستولى عسكر الماء على الكلا، فهرب ابن البريدي في السفن إلى جزيرة أوال، وترك أخاه أبا الحسين في عسكر بالبصرة، فدفع عسكر ابن رائق عن الكلا فسار ابن رائق من واسط. واستولى يحكم على الأهواز وقاتلوا البصرة فامتنعت عليهم. وسار أبو عَبْد الله بن البريدي من أوال إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، فأطعمه في العراق وبعث معه أخاه معز الدولة إلى الأهواز، فسير إليها ابن رائق مولاه يحكم على أن يكون له الحرب والخراج، وأقام ابن البريدي

على البصرة وزحفت إليه عساكرهم فأعجلوه عن تقويض خيامه فأحرقها وسار إلى الأهواز مجرداً، وسبقته عساكره إلى واسط، وأقام عند يحكم أياماً وأشير عليه بحبسه فلم يفعل ورجع ابن رائق إلى واسط.

استيلاء معز الدولة علي الأهواز:

لّما سار أبو عَبْد الله بن البريدي من جزيرة أوال إلى عماد الدولة ابن بويه بفارس مستجيراً به من ابن رائق ويحكم ومستنجداً عليهم طمع عماد الدولة في الاستيلاء على العراق، فسير معه أخاه معز الدولة أحمد بن بويه في العسكر، ورهن ابن البريدي عنده ولديه أبا الحسين محمداً وأبا جعفر الفيّاض. وسار يحكم للقائهم فلقيهم بأزجان. فانهزم أمامهم وعاد إلى الأهواز وخلف جيشاً بعسكر مكرم. فقاتلهم معز الدولة ثلاثة عشر يوماً ثم انفضوا ولحقوا بتستر، وملك معز الدولة عسكر مكرم وذلك سنة ست وعشرين وسار يحكم من الأهواز إلى تستر، وبلغ الخبر إلى ابن رائق بواسط، فسار إلى بغداد وجاء يحكم من تستر إلى واسط. ولما استولى معز الدولة وابن البريدي على عسكر مكرم، ولقيهم أهل الأهواز وسار معهم إليها، فأقاموا شهراً. ثم طلب معز الدولة من ابن البريدي عسكره الذي في البصرة ليسير بهم إلى أخيه ركن الدولة بأصبهان لحرب وشمكير، فأحضر منهم أربعة آلاف. ثم طلب من عسكره الذين بحصن مهدي ليسير بهم في الماء إلى واسط، فارتاب ابن البريدي وهرب إلى البصرة. وبعث إلى عسكرها الذين ساروا إلى أصبهان وكانوا متوقفين بالسوس، فرجعوا إليه. ثم كتب إلى معز الدولة أن يفرج له عن الأهواز ليتمكن من الجباية والوفاء بها لأخيه عماد الدولة، وكان قد ضمن له الأهواز والبصرة بثمانية عشر ألف ألف درهم. فرحل معز الدولة إلى عسكر مكرم وأنفذ ابن البريدي عامله إلى

الأهواز. ثم بعث إلى معز الدولة بأن يتأخر إلى السوس فأبى، وعلم يحكم بحالهم فبعث جيشاً استولوا على السوس وجندي سابور، وبقيت الأهواز بيد ابن البريدي ومعز الدولة بعسكر مكرم، وقد ضاقت أحوال جنده. ثم بعث إليه أخوه عماد الدولة بالمدد فسار إلى الأهواز وملكها. ورجع ابن البريدي إلى البصرة ويحكم في ذلك مقيم بواسط، وقد صرف همه إلى الإستيلاء على رتبة ابن رائق ببغداد. وقد أنفذ له ابن رائق علي بن خلف بن طياب ليسيروا إلى الأهواز ويخرجوا ابن بويه. ويكون يحكم على الحرب وابن خلف على الخراج، فلم يلتفت يحكم لذلك واستوزر علي بن خلف ويحكم في أحوال واسط. ولما رأى أبو الفتح الوزير ببغداد إدبار الأحوال أطمع ابن رائق في مصر والشام، وقال أنا أجيبهما لك، وعقد بينه وبين ابن طغج صهرا. وسار أبو الفتح إلى الشام في ربيع الآخر، وشعر ابن رائق بمحاولة يحكم عليه، فبعث إلى ابن البريدي بالإتفاق على يحكم على أن يضمن ابن البريدي واسط بستمائة ألف، فنهض يحكم إلى ابن البريدي قبل ابن رائق وسار إلى البصرة، فبعث إليه ابن البريدي أبا جعفر الجمال في عشرة آلاف، فهزمهم يحكم وارتاع ابن البريدي لذلك، ولم يكن قصد يحكم إلا الإلفة فقط، والتضرع لابن رائق، فبعث إليه بالمسالمة وأن يقلّده واسط إذا تم أمره، فاتفقا على ذلك وصرف نظره إلى أمر بغداد.

وزارة ابن مقلة ونكبته:

ولما انصرف أبو الفتح بن الفرات إلى الشام استوزر الراضي أبا علي بن مقلة على سنن من قبله والأمر لابن رائق، وابن مقلة كالعارية. وكتب له في أمواله وأملاكه فلم يردها. فشرع في التدبير عليه، فكتب إلى ابن رائق بواسط ووشمكير بالري يطمع كلا منهما في مكانه، وكتب الراضي يشير بالقبض على ابن رائق وأصحابه، واستدعى يحكم لمكانه وأنه يستخرج منهم ثلاثة آلاف ألف دينار، فأطمعه الراضي على كره. فكتب هو إلى يحكم يستحثه. وطلب من الراضي أن ينتقل إلى دار الخلافة حتى يتم الأمر، فأذن له وحضر متنكراً آخر ليلة من رمضان سنة ست وعشرين، فأمر الراضع باعتقاله وأطلع ابن رائق من الغد على كتبه، فشكر ذلك له ابن رائق، وأمر بابن مقلة في منتصف شوال فقطع لم عولج، وبريء وعاد إلى السعي في الوزارة والتظلّم من ابن رائق والدعاء عليه، فأمر بقطع لسانه وحبسه إلى أن مات.

استيلاء يحكم على بغداد:

لم يزل يحكم يظهر التبعية لابن رائق، ويكتب على أعلامه وتراسه يحكم الرائقيّ إلى أن وصلته كتب ابن مقلة بأن الراضي قلده إمرة الأمراء، فطمع وكاشف ابن رائق ومحانسبه إليه من أعلامه وسلاحه. وسار من واسط إلى بغداد في ذي القعدة سنة ست وعشرين. وكتب إليه الراضي بالرجوع فأبى ووصل إلى نهر دبالي وأصاب ابر رائق في غربيه، فانهزموا وعبروا النهر سبحاً. وسار ابن رائق إلى عكبراً، ودخل يحكم بغداد منتصف ذي القعدة ولقي الراضي من الغد، وولاه أمير الأمراء، وكتب عن الراضي إلى القوّاد الذين مع ابن رائق بالرجوع عنه فرجعوا، وعاد ابن رائق إلى بغداد فاختفى بها لسنة وأحد عشر شهراً من إمارته، ونزل يحكم بدار مؤنس واستقر ببغداد متحكماً في الدولة مستبداً على الخليفة.

دخول أذربيجان في طاعة وشمكير:

كان من عمال وشمكير على أعمال الجبل السيكري بن مردى،وكان مجاوراً لأعمال أذربيجان وعليها يومئذ ديسم بن إبراهيم الكردي من أصحاب ابن أبي الساج، فحدثت السيكري نفسه بالتغلب عليها، فجمع وسار إليها. وخرج إليه ديسم فانهزم فاستولى على سائر بلاده إلا أردبيل وهي كرسي أذربيجان، فحاصرها السيكري وضيق حصارها، فراسلوا ديسم بالمثنى لقتال السيكري من ورائه ففعل، وجاؤه يوم قتالهم من خلف، فانهزم السيكري إلى موقان فأعانه أصبهبذها ابن دوالة وسار معه نحو ديسم، فانهزم ديسم وقصد وشمكير بالري واستمده على أن يدخل في طاعته ويضمن له مالاً في كل سنة فأجابه وبعث معه العسكر وبعث أصحاب السيكري إلى وشمكير بأنهم على الطاعة، وشعر بذلك السيكري فسار في خاصته إلى أرمينية واكتسح في نواحيها. ثم سار إلى الزوزان من بلاد الأرمن، فاعترضوه وقتلوه ومن معه، ورجع فلّهم وقد ولّوا عليهم سان بن السيكري، وقصد بلد طرم الأرمني ليثأروا منهم بأصحابهم، فقاتلهم

طرم وأثخن فيهم، وساروا إلى ناصر الدولة بن حمدان وإنحدر بعضهم إلى بغداد، وكان على المعادن بأذربيجان

الحسين بن سعيد بن حمدان من قبل ابن عمه ناصر الدولة، فلما جاء إلى الموصل أصحاب السيكري مع ابنه بعثهم ابن عمه بأذربيجان لقتال ديسم، فلم تكن له به طاقة ورجع إلى الموصل واستولى ديسم على أذربيجان في طاعة وشمكير.

ظهور ابن رائق ومسيره إلي الشام:

وفي سنة سبع وعشرين وثلثمائة سار يحكم إلى الموصل وديار ربيعة بسبب أن ناصر الدولة بن حمدان أخرّ المال الذي عليه من ضمان البلاد، فأقام الراضي بتكريت وسار يحكم، ولقيه ناصر الدولة على ستة فراسخ من الموصل، فانهزم واتبعه يحكم إلى نصيبين ثم إلى آمد، وكتب إلى الراضي بالفتح. فسار من تكريت في الماء إلى الموصل وفارقه جماعة من القرامطة كانوا في عسكره، وكان ابن رائق يكاتبهم من مكان اكتفائه فلما وصلوا بغداد خرج ابن رائق إليهم واستولى، وطار الخبر إلى الراضي فأصعد من الماء وسار إلى الموصل وكتب إلى يحكم بذلك. فرجع عن نصيبين بعد أن استولى عليها. وشرع أهل العسكر يتسللون إلى بغداد فأهم ذلك يحكم. ثم جاءت رسالة ابن حمدان في الصلح وتعجيل خمسمائة ألف درهم، فأجابوه وقرره ورجعوا إلى بغداد، ولقيهم أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد رسولاً عن ابن رائق في الصلح على أن يقلده الراضي طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورها جندي قنسرين والعواصم. فأجابه الراضي وقلده وسار إلى ولايته في ربيع الآخر. وكان يحكم قد استناب بعض قواد الأتراك على الأنبار وإسمه بالبان، وطلب تقليد طريق الفرات فقلد وسار إلى الرحبة. ثم انتقض وعاد لابن رائق وعصى على يحكم، فسار إليه غازياً وكبسه بالرحبة على حين غفلة لخمسة أيام من مسيره، فظفر به وأدخله بغداد على جمل وحبسه وكان آخر العهد به.

وزارة ابن البريدي:

قد تقدم لنا مسير الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات إلى الشام، ولما سار استناب بالحضرة عَبْد الله بن علي البصري، وكان يحكم قد قبض على وزيره خلف بن طباب، واستوزر أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، فسعى في وزارة ابن البريدي ليحكم حتى تم ذلك. ثم ضمن ابن البريدي أعمال واسط بستمائة ألف دينار كل سنة. ثم جاء الخبر بموت أبي الفتح بن الفرات بالرملة. فسعى أبو جعفر ابن شيرزاد في وزارة أبي عَبْد الله للخليفة، فعقد له الراضي بذلك واستخلف بالحضرة عَبْد الله بن علي البصري كما كان مع أبي الفتح.

مسير ركن الدولة إلى واسط ورجوعه عنها:

لّما استقر ابن البريدي بواسط بعث جيشاً إلى السوس، وبها أبو جعفر الظهيري وزير معز الدولة أحمد بن بويه، ومعز الدولة بالأهواز. فتحصن أبو جعفر بقلعة السوس، وعاث الجيش في نواحيها. وكتب معز الدولة إلى أخيه ركن الدولة وهو على اصطخر قد جاء من أصبهان لّما غلبه وشمكير عليها. فلما جاء كتاب أخيه معز الدولة سار محمد إلى السوس وقد رجع عنه جيش ابن البريدي. ثم سار إلى واسط يحاول ملكها فنزل في جانبها الشرقي، وابن البريدي في الجانب الغربي، واضطرب عسكر ابن بويه واستأمن جماعة منهم إلى ابن البريدي. ثم سار الراضي ويحكم من بغداد إلى واسط للإمداد، فرجع ركن الدولة إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز. وبلغه أن وشمكير قد أنفذ عسكره مدداً لماكان بن كالي وأن أصبهان خالية، فسار إليها من رامهرمز وأخرج من بقي منها من أصحاب وشمكير وملكها فاستقر بها.

مسير يحكم إلى بلد الجبل وعوده إلى واسط واستيلاؤه عليها :

كان يحكم قد أرسل ابن البريدي وصاهره واتفقا على أن يسير يحكم إلى بلاد الجبل لفتحها من يد وشمكير، وأبو عَبْد الله بن البريدي إلى الأهواز لأخذها من يد معز الدولة ابن بويه، فسار يحكم إلى حلوان وبعث إليه ابن البريدي بخمسمائة رجل مدداً. وبعث يحكم بعض أصحابه إلى ابن البريدي يستحثه إلى السوس والأهواز فأقام يماطله ويدافعه ويبين له أنه يريد مخالفة يحكم إلى بغداد. فكتب إليه بذلك، فرجع عن قصده إلى بغداد. وعزل ابن البريدي من الوزارة، وولى مكانه أبا القاسم بن سليمان بن الحسين بن مخلد، وقبض على ابن شيرزاد الذي كان ساعياً له، وتجهز إلى واسط، وانحدر في الماء آخر ذي الحجة سنة ثمان وعشرين. وبعث عسكراً في البر، وبلغ الخبر ابن البريدي فسار عن واسط إلى البصرة واستولى عليها يحكم وملكها.

استيلاء ابن رائق علي الشام:

قد تقدم لنا مسير ابن رائق إلى ديار مضر وثغور قنسرين والعواصم، فلما استقر بها حدثته نفسه بملك الشام، فسار إلى حمص فملكها. ثم سار إلى دمشق وبها بدر بن عَبْد الله الأخشيدي، ويلقب بدير، فملكها من يده. ثم سار إلى الرملة ومنها إلى عريش مصر يريد ملك الديار المصرية، ولقيه الأخشيد محمد بن طغج، وانهزم أولاً وملك أصحاب ابن رائق خيامه. ثم خرج كمين الاخشيد فانهزم ابن رائق إلى دمشق، وبعث الأخشيد في أثره أخاه أبا نصر بن طغج، وسار إليهم ابن رائق من دمشق فهزمهم وقتل أبو نصر، فكفنه ابن رائق وحمله مع ابنه مزاحم إلى أخيه الاخشيد بمصر. وكتب يعزيه ويعتذر. فأكرم الأخشيد مزاحماً، واصطلح مع أبيه على أن تكون مصر للأخشيد من حد الرملة وما وراءها من الشام لابن رائق، ويعطي الأخشيد عن الرملة في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار.

الصوائف أيام الراضي:

وفي سنة إثنتين وعشرين سار الدمستق إلى سميساط في خمسين ألفاً من الروم، ونازل ملطية وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها بالأمان، وبعثهم إلى مأمنهم مع بطريق من بطارقته. وتنصر الكثير منهم محبة في أهليهم وأموالهم. ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأفحشوا في أسطوله في البحر. ففتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فأوقعوا بأهلها، ثم مروا بقرقيسيا من ساحل الشام فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين. وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم في ذي القعدة على يد ابن ورقاء الشيباني البريدي في ستة آلاف وثلثمائة أسير.

الولايات أيام الراضي والقاهر قبله:

قد تقدم لنا أنه لم يبق من الأعمال في تصريف الخلافة لهذا العهد إلا أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة، وذكرنا استيلاء بني بويه على فارس وأصبهان، ووشمكير على بلاد الجبل، وابن البريدي على البصرة، وابن رائق على واسط. وأن عماد الدولة ابن بويه على فارس، وركن الدولة أخوه يتنازع مع وشمكير على أصبهان

وهمذان وقم وقاشان والكرج والري وقزوين. واستولى معز الدولة أخوهما على الأهواز وعلى كرمان، واستولى ابن البريدي على واسط. وسار ابن رائق إلى الشام فاستولى عليها. وفي سنة ثلاث وعشرين قلد الراضي إبنيه أبا جعفر وأبا الفضل ناحية المشرق والمغرب. وفي سنة إحدى وعشرين ورد الخبر بوفاة تكين الخاصكي بمصر وكان أميراً عليها، وولّى القاهر مكانه ابنه محمداً وثار به الجند، فظفر بهم. وفيها وقعت الفتنة بين بني ثعلب وبني أسد ومعهم طيء، وركب ناصر الدولة الحسن بن عَبْد الله بن حمدان ومعه أبو الأعز بن سعيد بن حمدان ليصلح بينهم، فوقعت ملاحاة قتل فيها أبو الأعز على يد رجل من ثعلب، فحمل عليهم ناصر الدولة واستباحهم إلى الحُديثة. فلقيهم يانس غلام مؤنس والياً على الموصل، فانضم إليه بنو ثعلب وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة. وفي سنة أربع وعشرين قلد الراضي محمد بن طغج أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام، وعزل عنها أحمد بن كيغلغ.

وفاة الراضي وبيعة المتقي:

وفي سنة تسع وعشرين وثلثمائة توفي الراضي أبو العباس أحمد بن المُقْتَدِر في ربيع الأول منها لسبع سنين غير شهر من خلافته. ولما مات أحضر بحكم ندماءه وجلساءه لينتفع بما عندهم من الحكمة فلم يفهم عنهم لعجمته. وكان آخر خليفة خطب على المنبر وأن خطب غيره فنادر. وآخر خليفة جالس السمر ووصل الندماء. ودولته آخر دول الخلفاء في ترتيب النفقات والجوائز والجرايات والمطابخ والخدم والحجاب.

وكان بحكم يوم وفاته غائباً بواسط حين ملكها من يد ابن البريدي، فانتظر في الأمور وصول مراسمه فورد كتابه مع كاتبه أبي عَبْد الله الكوفي يأمر فيه باجتماع الوزراء وأصحاب الدواوين، والقضاه والعلويين والعباسيين ووجوه البلد عند الوزير أبي القاسم سليمان بن الحسن، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب

للخلافة ممن يرتضي مذهبه وطريقه، فاجتمعوا وذكروا إبراهيم بن المُقْتَدِر واتفقوا عليه وأحضروه من الغد، وبايعوا له آخر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين. وعرضت عليه الألقاب فاختار المتقي لله وأقر سليمان على وزارته كما كان، والتدبير كله للكوفي كاتب يحكم، وولى سلامة الطولوني على الحجبة.

تاريخ ابن خلدون

مقتل يحكم:

كان أبو عَبْد الله البريدي بعد هربه إلى البصرة من واسط أنفذ جيشاً إلى المدار، فبعث إلى لقائهم جيشاً من واسط عليهم توزون انتخب له الكرة، فظفر بجيش ابن البريدي ولقي يحكم خبره في الطريق، فسر بذلك وذهب يتصيد فبلغ نهر جور وعثر في طريقه ببعض الأكراد فَشَرِه لغزوهم وقصدهم في خف من أصحابه، وهربوا بين يديه وهو يرشقهم بسهامه. وجاءه غلام منهم من خلفه فطعنه فقتله. واختلف عسكره فمضى الديلم فكانوا ألفاً وخمسمائة إلى ابن البريدي. وقد كان عزم على الهرب من البصرة فبعث لقدومهم وضاعف أرزاقهم وأدرها عليهم. وذهب الأتراك إلى واسط وأطلقوا بكتيك من حبسه وولوه عليهم.

فسار بهم إلى بغداد في خدمة المتقي وحصر ما كان في دار يحكم من الأموال والدواوين، فكانت ألف ألف ومائة ألف دينار ومدة إمارته سنتان وثمانية أشهر.

إمارة البريدي ببغداد وعوده إلى واسط:

لّما قتل يحكم قدم الدَيْلَم عليهم بشكوار بن ملك بن مسافر، ومسافر هو ابن سلار صاحب الطرم الذي ملك ولده بعده أذربيجان، وقاتلهم الأتراك فقتلوه، فقدم الديلم عليهم مكانه كورتكين منهم. وقدم الأتراك عليهم بكتيك مولى يحكم. وانحدر الديلم إلى أبي عَبْد الله بن البريدي فقوي بهم واصعدوا إلى واسط. وأرسل المتقي إليهم مائة وخمسين ألف دينار على أن يرجعوا عنها. ثم قسم في الأتراك في أجناد بغداد أربعمائة ألف دينار من مال يحكم. وقدم عليهم سلامة الطولوني وبرز بهم المتقي إلى نهر ديالي آخر شعبان سنة ست وعشرين. وسار ابن البريدي من واسط فأشفق أتراك يحكم، ولحق بعضهم بابن البريدي وسار آخرون إلى الموصل، منهم تورون وجحجح. واختفى سلامة الطولوني وأبو عَبْد الله الكوفيّ ودخل أبو عَبْد الله البريدي بغداد أول رمضان، ونزل بالشفيعي ولقيه الوزير أبو الحسين بن ميمون

والكتّاب والقضاة وأعيان الناس. وبعث إليه المتقي بالتهنئة والطعام، وكان يخاطب بالوزير. ثم قبض على الوزير أبي الحسين لشهرين من وزارته وحبسه بالبصرة وطلب من المتقي خمسمائة ألف دينار للجند، وهدده بما وقع للمعتز والمستعين والمهتدي، فبعث بها إليه، ولم يلقه مدّة مقامه ببغداد. ولّما وصله المال من المتقي شغب الجند عليه في طلبه، وجاء الديلم إلى دار لأخيه أبي الحسين ثم انضم إليهم الترك وقصدوا دار أبي عَبْد الله، فقطع الجسر، ووثب العامة على أصحابه، وهرب هو وأخوه وإبنه أبو القاسم وأصحابهم وانحدروا إلى واسط، وذلك سلخ رمضان لأربعة وعشرين يوماً من قدومه.

إمارة كورتكين الديلمي:

ولما هرب ابن البريدي استولى كورتكين على الأمور ببغداد، ودخل إلى المتقي فقلده إمارة الأمراء وأحضر علي بن عيسى وأخاه عَبْد الرحمن، فدبّر الأمور ولم يسمهما بوزارة. واستوزر أبا إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي القراريطي، وولي على الحجبة بدر الجواشيني. ثم قبض كورتكين على بكتيك مقدّم الأتراك خامس شوال وغرّقه،واقتتل الأتراك والديلم وقتل بينهما خلق، وانفرد كورتكين بالأمر وقبض على الوزير أبي إسحاق القراريطي لشهر ونصف من وزارته، وولى مكانه أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخيّ.

عود ابن رائق إلي بغداد:

قد تقدّم لنا أن جماعة من أتراك يحكم لّما انفضوا عن المتّقي ساروا إلى الموصل، ثم ساروا منها إلى ابن رائق بالشام، وكان من قوّادهم تورون وجحجح وكورتكين وصيقوان فأطمعوه في بغداد. ثم جاءته كتب المتقي يستدعيه، فسار آخر رمضان واستخلف بالشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل وتنحى ناصر الدولة بن حمدان على طريقه. ثم حمل إليه مائة ألف دينار وصالحه، وبلغ الخبر إلى أبي عَبْد الله بن البريدي، فبعث إخوته إلى واسط وأخرج الديلم عنها وخطبوا له بها. وخرج

كورتكين عن بغداد إلى عُكبرا، فقاتله ابن رائق أياماً ثم أسرى له ليلة عرفة، فأصبح ببغداد من الجانب الغربيّ ولقي الخليفة وركب معه في دجلة. ووصل كورتكين آخر النهار، فركب ابن رائق لقتاله وهو مرجل، واعتزم على العود إلى الشام ثم طائفة من عسكره ليعبروا دجلة ويأتوا من ورائهم. وصاحت العامة مع ابن رائق بكورتكين وأصحابه ورجموهم، فانهزموا واستأمن منهم نحو أربعمائة فقتلوا وقتل قواده، وخلع المتّقي علي ابن رائق وولاّه أميرالأمراء، وعزل الوزير أبا جعفر الكرخي لشهر من ولايته، وولى مكانه أحمد الكوفي وظفر بكورتكين فحبسه بدار الخلافة.

وزارة ابن البريدي واستيلاؤه علي بغداد وفرار المتقي إلي الموصل:

لّما استقر ابن رائق في إمارة الأمراء ببغداد أخر ابن البريدي حمل المال من واسط، فانحدر إليه في العساكر في عاشوراء من سنة ثلاثين، وهرب بنو البريدي إلى البصرة. ثم سعى أبو عَبْد الله الكوفيّ بينهم وبين ابن رائق، وضمن واسط بستمائة ألف دينار وبقاياها بمائتي ألف. ورجع ابن رائق إلى بغداد فشغبت عليه الجند، وفيهم تورون وأصحابه. ثم انفضوا آخر ربيع إلى أبي عَبْد الله بواسط، فقوي بهم وذهب ابن رائق إلى مداراته فكاتبه بالوزارة، واستخلف عليها أبا عَبْد الله بن شيرزاد. ثم انتقض واعتزم على المسير إلى بغداد في جميع الأتراك والديلم. وعزم ابن رائق على التحصّن بدار الخلافة،ونصب عليها المجانيق والعرّادات، وجنّد العامّة، فوقع الهرج، وخرج بالمتقي إلى نهر دبالي منتصف جمادى الآخرة. وأتاهم أبو الحسين في الماء والبرّ فهزمهم، ودخل دار الخلافة، وهرب المتّقي وابنه أبو منصور وابن رائق إلى الموصل لستة أشهر من إمارته. واختفى الوزير القراريطي، ونهبت دار الخليفة، ودور الحرم، وعظم الهرج،وأخذ

كورتكين من محبسه فأنفذ إلى واسط، ولم يتعرّضوا للقاهر. وكان نزل أبو الحسن بدار الخلافة وجعل توزون على الشرطة بالجانب الغربيّ، وأخذ رهائن القواد توزون وغيره وبعث بنسائهم وأولادهم إلى أخيه عَبْد الله بواسِط. وعظم النهب ببغداد، وترك الناس دورهم وفُرضت المكوس في الأسواق خمسة دنانير على الكّر فغلت الأسعار، وانتهى إلى ثلثمائة دينار الكّر، وجاءت ميرة من الكوفة وأخذت فقيل إنها لعامل الكوفة، وأخذها عامل بغداد، وكان معه جماعة من القرامطة، فقاتلهم الأتراك وهزموهم، ووقعت الحرب بين العامة والديلم، فقتل خلق من العامة، واختفى العمّال لمطاولة الجند إلى الضواحي ينتهبون الزرع بسنبله عند حصاده، وساءت أحوال بغداد وكثرت نقمات الله فيهم.

مقتل ابن رائق وولاية ابن حمدان مكانه:

كان المتّقي قد بعث إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمدّه على ابن البريدي عندما قصد بغداد، فأمدّه بعسكر مع أخيه سيف الدولة، فلقيه بتكريت منهزماً، ورجع معه إلى الموصل. وخرج ناصر الدولة عن الموصل حتى حلف له ابن رائق واتفقا، فجاء وتركه شرقي دجلة، وعبر إليه أبو منصور بن المتّقي وابن رائق، فبالغ في تكرمتهما. فلما ركب ابن المتّقي قال لابن رائق: أقم نتحدّث في رأينا فذهبا إلى الإعتذار، وألحّ عليه ناصر الدولة فاستراب وجذب يده وقصد الركوب، فسقط فأمر ناصر الدولة بقتله والقائه في دجلة، وبعث إلى المتقي بالعذر وأحسن القول وركب إليه، فولاّه أميرالأمراء ولقبه ناصر الدولة وذلك مستهل شعبان من سنة ثلاثين، وخلع على أخيه أبي الحسن ولقّبه بسيف الدولة. فلمّا قتل ابن رائق سار الأخشيد من مصر إلى دمشق، وبها محمد بن يزداد من قبل ابن رائق فاستأمن إليه، وملك الأخشيد دمشق وأقر ابن يزداد عليها ثم نقله إلى شرطة مصر.

عود المتّقي إلى بغداد وفرار البريدي:

لّما استولى أبو الحسين البريدي على بغداد وأساء السيرة كما مرّ، إمتلأت القلوب منه نفرة، فلما قتل ابن رائق أخذ الجند في الفرار عنه والانتقاض عليه ففرّ جحجح إلى المتقي واعتزم تورون وأنوش تكين والأتراك على كبس أبي الحسين البريدي. وزحف تورون لذلك في الديلم، فخالفه أنوش تكين في الأتراك، فذهب تورون إلى الموصل فقوي بهم ابن حمدان والمتّقي وانحدروا إلى بغداد، وولّى ابن حمدان على أعمال الخراج والضياع بديار مضر، وهي الرها وحرّان، ولقيا أبا الحسن أحمد بن عليّ بن مقاتل، فاقتتلوا وقتل ابن مقاتل، واستولى ابن طبّاب عليها. ولما وصل المتقي وابن حمدان إلى بغداد هرب أبو الحسين ابن البريدي منها إلى واسط لثلاثة أشهر وعشرين يوما من دخوله، واضطربت العامة وكثر النهب، ودخل المتّقي وابن حمدان في العساكر في شوال من السنة. وأعاد أبا إسحاق القراريطي إلى الوزارة، وولى تورون على الشرطة. ثم سار إليهم أبو الحسين البريدي، فخرج بنو حمدان للقائهم وانتهوا إلى المدائن، فأقام بها ناصر الدولة، وبعث أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عَبْد الله الحسين بن سعيد بن

حمدان، فاقتتلوا عنده أياماً وانهزم سيف الدولة أولاً. ثم أمدهم ناصر الدولة بالقواد الذين كانوا معه وجحجح بالأتراك، وعاودوا القتال فانهزم أبو الحسين إلى واسط، وأقصر سيف الدولة عن اتباعه لّما أصاب أصحابه من الوهن والجراح. وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصف ذي الحجة. ثم سار سيف الدولة إلى واسط وهرب بنو البريدي عنها إلى البصرة فملكها وأقام بها.

استيلاء الديلم علي أذربيجان:

كانت أذربيجان بيد ديسم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج، وكان أبوه من أصحاب هارون الشاري من الخوارج. ولما قتل هارون لحق بأذربيجان وشرد في الأكراد فولد له ديسم هذا فكبر وخدم ابن أبي الساج، وتقدم عنده إلى أن ملك بعدهم أذربيجان. وجاء السيكري خليفة وشمكير في الجبل سنة ست وعشرين وغلبه على أذربيجان. ثم سار هو إلى وشمكير وضمن له طاعة ومالاً، واستمده فأمده بعسكر من الديلم وساروا معه، فغلب السيكري وطرده وملك البلاد، وكان معظم جيشه الأكراد فتغلّبوا على بعض قلاعه، فاستكثر من الديلم وفيهم صعلوك بن محمد بن مسافر بن الفضل وغيرهما، فاستظهر بهم وانتزع من الأكراد ما تغلبوا عليه، وقبض على جماعة من رؤسائهم. وكان وزيره أبو القاسم علي بن جعفر قد ارتاب منه، فهرب إلى الطرم وبها محمد بن مسافر من أمراء الديلم، وقد انتقض عليه إبناه وهشودان والمرزبان، واستوليا على بعض قلاعه، ثم قبضا على أبيهما محمد وانتزعا أمواله وذخائره وتركاه في حصنه سليباً فريداً. فقصد عليّ بن جعفر

المرزبان وأطمعه في أذربيجان، فقلده وزارته وكانت نحلتهما في التشيع واحدة، لأن علي بن جعفر كان من الباطنيّة والمرزبان من الديلم وهم شيعة .وكاتب علي بن جعفر أصحاب ديسم واستمالهم واستفسدهم عليه، وخصوصاً الديلم. ثم التفوا للحرب وجاء الديلم إلى المرزبان واستأمن معهم كثير من الأكراد، وهرب ديسم في فلّ من أصحابه إلى أرمينية واستجار بجاحق بن الديواني فأجاره وأكرمه، وندم على ما فرط في إبعاد الأكراد وهم على مذهبه في الخارجية. وملك المرزبان أذربيجان واستولى عليها. ثم استوحش منه علي بن جعفر وزير ديسم وتنكر له أصحاب المرزبان، فأطمعه المرزبان بأخذ أموالهم وحملهم على طاعة ديسم، وقتل الديلم عندهم من جند المرزبان ففعلوا. وجاء ديسم فملكها وفرّ إليه من كان عند المرزبان حتى اشتدّ عليه الحصار، واستصلح أثناء ذلك الوزير علي بن جعفر. ثم خرجوا مى توزير، ولحق ديسم بأردبيل، وجاء عليّ بن جعفر إلى المرزبان. ثم حاصر المرزبان أردبيل حتى نزل له ديسم على الأمان وملكها صلحاً. وملك توزير كذلك ووفى له، ثم طلب ديسم أن يبعثه إلى قلعته بالطرم، فبعثه بأهله وولده وأقام هنالك.

خبر سيف الدولة بواسط:

لّما فر بنو البريدي عن واسط إلى البصرة، ونزل بها سيف الدولة أراد الانحدار خلفهم لانتزاع البصرة منهم، واستمد أخاه ناصر الدولة فأمده بمال مع أبي عَبْد الله الكوفي. وكان تورون وجحجح يستطيلان عليه، فأراد الاستئثار بالمال فرده سيف الدولة مع الكوفي إلى أخيه وأذن لتورون في مال الجامدة، ولجحجح في مال المدار. وكان من قبل يراسل الأتراك وملك الشام ومصر معه فلا يجيبونه. ثم ثاروا عليه في شعبان من سنة إحدى وثلاثين، فهرب من معسكره ونهب سواده ولتل جماعة من أصحابه. وكان ناصر الدولة لّما أخبره أبو عَبْد الله الكوفي بخبر أخيه في واسط برز يسير إلى الموصل وركب إليه المتقي يستمهله، فوقف حتى عاد وأغذّ السير لثلاثة عشر شهرا من إمارته فثار الديلم والأتراك ونهبوا داره، ودبر الأمور أبو إسحاق القراريطي من غير لقب الوزارة. وعزل أبو العبّاس الأصبهاني لأحد وخمسين يوما من وزارته.

ثم تنازع الإمارة بواسط بعد سيف الدولة تورون وجحجح، واستقر الحال

أن يكون تورون أميراً وجحجح صاحب الجيش. ثم طمع ابن البريدي في واسط وأصعد إليها، وطلب من تورون أن يضّمنه إياها فرده رداً جميلاً. وكان قد سار جحجح لمدافعته فمر به الرسول في طريقه وحادثه طويلا، وسعى إلى تورون بأنه لحق بابن البريدي فأسرى إليه وكبسه منتصف رمضان، فقبض عليه وجاء به إلى واسط فسمله، وبلغ الخبر إلى سيف الدولة، وكان لحق بأخيه، فعاد إلى بغداد منتصف رمضان، وطلب المال من المتقي لمدافعة تورون. فبعث أربعمائة ألف درهم وفرقها في أصحابه وظهر له من كان مستخفياً ببغداد. وجاء تورون من واسط بعد أن خلّف بها كيغلغ. فلمّا أحس به سيف الدولة رحل فيمن انضم إليه من أجناد واسط وفيهم الحسن بن هارون، وسار إلى الموصل ولم يعاود بنو حمدان بعدها بغداد.

إمارة تورون ثم وحشته مع المتقي:

لّما سار سيف الدولة عن بغداد دخلها تورون آخر رمضان سنة إحدى وثلاثين، فولاه المتقي أمير الأمراء، وجعل النظر في الوزارة لأبي جعفر الكرخي، كما كان الكوفي. ولما سار تورون عن واسط خالفه إليها البريدي فملكها. ثم انحدر تورون أول ذي القعدة لقتل البريدي، وقد كان يوسف بن وجيه صاحب عُمَان سار في المراكب إلى البصرة، وحارب ابن البريدي حتى أشرفوا على الهلاك. ثم احترقت مراكب عُمَان بحيلة دبرها بعض الملاحين، ونهب منها مال عظيم. ورجع يوسف بن وجيه مهزوماً في المحرم سنة إثنتين وثلاثين، وهرب في هذه الفتنة أبو جعفر بن شيرزاد من تورون فاشتمل عليه، وكان تورون عند إصعاده من بغداد استخلف مكانه محمد بن ينال الترجمان. ثم تنكّر له فارتاب محمد وارتاب الوزير أبو الحسن بن مقلة بمكان ابن شيرزاد من تورون، وخافا غائلته وخوفّاً المتقي كذلك، وأوهماه أن البريدي ضمنه من تورون بخمسمائة ألف دينار التي أخذها من تركة يحكم، وأن ابن شيرزاد جاء عن البريدي ليخلفه ويسلمه، فانزعج لذلك وعزم على المسير إلى ابن حمدان، وكتبوا إليه أن ينفذ عسكرا يسير صحبته.

مسير المتقي إلى الموصل:

ولما تمت سعاية ابن مقلة وابن ينال بتورون مع المتقي اتفق وصول ابن شيرزاد إلى بغداد أول اثنتين وثلاثين في ثلاثمائة فارس، وأقام بدست الأمر والنهي لا يعرج على
المتّقي في شيء. وكان المتّقي قد طلب من ناصر الدولة بن حمدان عسكراً يصحبه إلى الموصل، فبعثهم ابن عمّه أبو عَبْد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فلما وصلوا بغداد اختفى ابن شيرزاد وخرج المتقى إليهم في حرمه ووُلده، ومعه وزيره وأعيان دولته مثل سلامة الطولوني وأبي زكريا يحيى بن سعيد السوسي وأبي محمد الماردايي وأبي إسحاق القراريطي وأبي عَبْد الله الموسوي وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب، وأبي نصر بن محمد بن ينال الترجمان، وساروا إلى تكريت وظهر ابن شيرزاد في بغداد، وظلم الناس وصادرهم، وبعث إلى تورون في واسط بخبر المتقي فعقد ضمان واسط على ابن البريدي، وزوّجه إبنته، وسار إلى بغداد.وجاء سيف الدولة إلى المتقي بتكريت. ثم بعث المتّقي إلى ناصر الدولة يستحثه، فوصل إليه في ربيع الآخر، وركب المتّقي من تكريت إلى الموصل، وأقام هو بتكريت. وسار تورون لحربه فتقدّم إليه أخوه سيف الدولة فاقتتلوا أياماً. ثم انهزم سيف الدولة، وغنم تورون سواده وسواد أخيه، ولحقوا بالموصل، وتورون في اتّباعهم. ثم ساروا عنها مع المتقي إلى نصيبين، ودخل تورون الموصل ولحق المتقي بالرقّة، وراسل تورون بأن وحشته لأجل ابن البريدي، وأن رضاه في إصلاح بني حمدان، فصالحهما تورون وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم لكل سنة، وعاد تورون إلى بغداد وأقام المتّقي وبنو حمدان بالرقة.

مسير ابن بويه إلى واسط وعوده عنها ثم استيلاؤه عليها:

كان معزّ الدولة بن بويه بالأهواز، وكان ابن البريدي يطمعه في كل وقت في ملك العراق، وكان قد وعده أن يمده إلى واسط. فلمّا أصعد تورون إلى الموصل خالفه معزّالدولة إلى واسط وأخلف ابن البريدي وعده في المدد. وعاد تورون من الموصل إلى بغداد وانحدر منها للقاء معزّ الدولة منتصف ذي القعدة من سنة إثنتين وثلاثين، واقتتلوا بقباب حميد بضعة عشر يوماً. ثم تأخر تورون إلى نهر ديالي فعبره ومنع الديلم من عبوره بمن كان معه من المقاتلة في الماء، وذهب ابن بويه ليصعد ويتمكن من الماء، فبعث تورون بعض أصحابه فعبروا ديالي وكمنوا له حتى إذا صار مصعداً خرجوا عليه على غير أهبة، فانهزم هو ووزيره الصهيري وأسر منهم أربعة عشر
قائداً، واستأمن كثير من الديلم إلى تورون، ولحق ابن بويه والصهيري بالسوس. ثم عاد إلى واسط ثانية فملكها ولحق أصحاب بني البريدي بالبصرة.

قتل ابن البريدي أخاه ثم وفاته:

كان أبو عَبْد الله بن البريدي قد استهلك أمواله في هذه النوائب التي تنوبه، واستقرض من أخيه أبي يوسف مرة بعد مرة، وكان أثرى منه ومال الجند إليه لثروته. وكان يعيب على أخيه تبذيره وسوء تدبيره. ثم نمي

الخبر إليه أنه يريد المكر به والاستبداد بالآمر. وتنكر كل واحد منهما للآخر، ثم أكمن أبو عَبْد الله غلمانه في طريق أبي يوسف فقتلوه، وشغب الجند لذلك فأراهم شلوه فافترقوا ودخل دار أخيه وأخذ ما فيها من الأموال، وجواهر نفيسة كان باعها له بخمسين ألف درهم، وكان أصلها ليحكم وهبها لبنته حين زوجها له، وأخذها يحكم من دار الخلافة، فاحتاج إليها أبو عَبْد الله بعد فباعها له وبخسه أبو يوسف في قيمتها. وكان ذلك من دواعي العداوة بينهما. ثم هلك أبو عَبْد الله بعد مهلك أخيه بثمانية أشهر وقام بالأمر بعده بالبصرة أخوهما أبو الحسن، فأساء السيرة في الجند فثاروا به ليقتلوه. فهرب منهم إلى هجر مستجيرا بالقرامطة وولوا عليهم بالبصرة أبا القاسم ابن أخيه أبي عَبْد الله وأمد أبو طاهر القرمطي أبا الحسن، وبعث معه أخويه لحصار البصرة فامتنعت عليهم وأصلحوا بين أبي القاسم وعمّه، ودخل البصرة وسار منها إلى تورون ببغداد. ثم طمع يأنس مولى أبي عَبْد الله في الرياسة وداخل بعض قواد الديلم في الثورة بأبي القاسم: واجتمع الديلم إلى القائد وبعث أبو القاسم واليه يأنس فهم به ليفرد بالأمر، فهرب يأنس واختمى وتفرق الديلم واختفى القائد. ثم قبض عليه ونفاه، وقبض على يأنس بعد أيام وصادره على مائة ألف دينار وقتله. ولما قدم أبو الحسين البريدي إلى بغداد مستأمناً إلى تورون فأمنه وطلب الإمداد على ابن أخيه، وبذل في ذلك أموالاً. ثم بعث ابن أخيه من البصرة بالأموال، فأقره على عمله وشعر أبو الحسن بذلك فسعى عند ابن تورون في ابن شيرزاد إلى أن قبض عليه، وضرب واستظهر أبو عَبْد الله بن أبي موسى الهاشمي بفتاوى الفقهاء والقضاة بإباحة دم أبي الحسين، كانت عنده من أيام ناصر الدولة، وأحضروا بدار المتقي وسئلوا عن فتاويهم، فاعترفوا بأنهم أفتوا بها، فقتل وصلب ثم أحرق ونهب داره. وكان ذلك منتصف ذي الحجة من السنة وكان ذلك آخر أمر البريديين.

الصوائف أيام المتقّي:

خرج الروم سنة ثلاثين أيام المتقي وانتهوا إلى قرب حلب، فعاثوا في البلاد وبلغ سبيهم خمسة آلاف. وفيها دخل ثمل من ناحية طرسوس، فعاث في بلاد الروم وامتلأت أيدي عسكره من الغنائم وأسر عدة من بطارقتهم. وفي سنة إحدى وثلاثين بعث ملك الروم إلى المتقي يطلب منه منديلاً في بيعة الرّها زعموا أن المسيح مسح به وجهه، فارتسمت فيه صورته، وأنه يطلق فيه عدداً كثيراً من أسرى المسلمين، واختلف الفقهاء والقضاة في إسعافه بذلك، وفيه غضاضة أو منعة ويبقى المسلمون بحال الأسر. فأشار عليه وعليّ ابن عيسى بإسعافه لخلاص المسلمين فأمر المتقي بتسليمه إليهم. وبعث إلى ملك الروم من يقوم بتسليم الأسرى. وفي سنة إثنتين وثلاثين خرجت طوارق من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان ودخلوا في نهر اللكز إلى بردعة، وبها نائب المرزبان ابن محمد بن مسافر ملك الديلم بأذربيجان، فخرج في جموع الديلم والمطوعة فقتلوهم، وقاتلوهم فهزمهم الروس وملكوا البلد، وجاءت العساكر الإِسلامية من كل ناحية لقتالهم فامتنعوا بها، ورماهم بعض العامة بالحجارة فأخرجوهم من البلد وقاتلوا من بقي، وغنموا أموالهم

واستبدوا بأولادهم ونسائهم. واستنفر المرزبان الناس وزحف إليهم لي ثلاثين ألفا، فقاتلوهم فامتنعوا عليه فأكمن لهم بعض الأيام فهزمهم وقتل أميرهم، ونجا الباقون إلى حصن البلد، وحاصرهم المرزبان وصابرهم. ثم جاءه الخبر بأن أبا عَبْد الله الحسين بن سعيد بن حمدان بلغ سلماس متوجها إلى أذربيجان، بعثه إليها ابن عمه ناصر الدولة ليتملكها فجهز عسكراً لحصار الروس في بردعة، وسار إلى قتال ابن حمدان. فارتحل ابن حمدان راجعاً إلى ابن عمه باستدعائه بالانحدار إلى بغداد لّما مات تورون وأقام العسكر على حصار الروس ببردعة، حتى هربوا من البلد وحملوا ما قدروا عليه، وطهر الله البلد منهم، وفيها ملك الروم رأس عين واستباحوها ثلاثا وقاتلهم الأعراب ففارقوها.

الولايات أيام المتقي:

قد تقدّم لنا أنه لم يكن بقي في تصريف الخليفة إلاّ أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة والموصل لبني حمدان. واستولى معزّ الدولة على الأهواز ثم على واسط، وبقيت البصرة بيد أبي عَبْد الله بن البريدي واستولى على بغداد مع المتقي بحكم، ثم ابن البريدي، ثم تورتكين الديلمي، ثم ابن رائق ثانية، ثم ابن البريدي ثانية، ثم حمدان، ثم تورون. يختلفون على المتقي واحداً بعد واحد، وهو مغلب لهم والحل والعقد والابرام والنقض بأيديهم، ووزير الخليفة عامل من عمّالهم متصرّف تحت أحكامهم. وآخر من دبّر الأمور أبو عَبْد الله الكوفي كاتب تورون، وكان قبله كاتب ابن رائق، وكان على الحجبة بدر بن الجرسي، فعزله عنها سنة ثلاثين وجعل مكانه سلامة الطولوني، وولي بدر طريق الفرات ففزع إلى الأخشيد واستأمن إليه، فولاه دمشق. وكان من المستبدّين في النواحي يوسف بن وجيه، وكان صاحب الشرطة ببغداد أبا العبّاس الديلمي.

خلع الّمتقي وولاية المستكفي:

لم يزل المتقي عند بني حمدان من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين إلى آخر السنة، ثم آنس منهم الضجر واضطّر لمراجعة تورون، فأرسل إليه الحسن بن هارون وأبا عَبْد الله بن أبي موسى الهاشمي في الصلح، وكتب إلى الأخشيذ محمد بن طغج صاحب مصر يستقدمه، فجاءه وانتهى إلى حلب وبها أبو عَبْد الله بن سعيد بن حمدان من قبل إبن عمه ناصر الدولة، فارتحل عنها وتخلّف عنه ابن مقاتل. وقد كان صادره ناصر الدولة على خمسين ألف دينار، فاستقدم الأخشيد وولاه خراج مصر. وسار الأخشيد من حلب ولقي المتقي بالرقة وأهدى إليه وإلى الوزير بن الحسين بن مقلة وسائر الحاشية، واجتهد به أن يسير معه إلى مصر ليقيم خلافته هنالك، فأبى فخوفه من تورون فلم يقبل.وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر فيحكمه في البلاد فأبى، وكانوا ينتظرون عود رسلهم من تورون، فبعثوا إليهم بيمين تورون والوزير ابن شيرزاد بمحضر القضاة والعدول والعباسيين والعلويين وغيرهم من طبقات الناس. وجاء الكتاب بخطوطهم بذلك وتأكيد اليمين ففارق المتقي

الأخشيد وانحدر من الوقت في الفرات آخر المحرم سنة ثلاث وثلاثين، ولقيه تورون بالسندية فقبّل الأرض وقال: قد وفيت بيميني، ووكل به وبأصحابه وأنزله في خيمته. ثم سلمه لثلاث سنين ونصف من خلافته، وأحضر أبا القاسم عَبْد الله بن المكتفي فبايعه الناس على طبقاتهم ولقّب المستكفي، وجيء بالمتقي فبايعه وأخذت منه البردة والقضيب واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامري، فكان له اسم الوزارة على سنن من قبله، والأمور راجعة لابن شيرزاد كاتب تورون. ثم خلع المستكفي على تورون وتوجه وحبس المتقي، وطلب أبا القاسم الفضل بن المقتدر الذي لقّب فيما بعد بالمطيع، فاختفى سائر أيامه وهدمت داره.

وفاة تورون و إمارة ابن شيرزاد:

وفي المحرم من سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مات تورون ببغداد لست سنين وخمسة أشهر من إمارته، وكان ابن شيرزاد كاتبه أيامه كلّها، وبعثه قبل موته لاستخلاص الأموال من هيت. فلما بلغه خبر الوفاة عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة بن حمدان، فأبى الجند من ذلك واضطربوا وعقدوا له الرياسة عليهم، واجتمعوا عليه وحلفوا وبعث إلى المستكفي ليحلف له، فأجابه وحلف له بحضرة القضاة والعدول. ودخل إليه ابن شيرزاد فولاه أمير الأمراء، وزاد في الأرزاق زيادة متّسعة فضاقت عليه الأموال فبعث أبا عَبْد الله بن أبي موسى الهاشمي إلى إبن حمدان يطالبه بالمال ويعده بإمارة الأمراء، فأنفذ إليه خمسمائة ألف درهم وطعاماً. وفرقها في الجند فلم تكف ففرض الأموال على العمال والكتّاب والتجّار لأرزاق الجند، ومدت الأيدي إلى أموال الناس، وفشا الظلم وظهرت اللصوص وكبسوا المنازل، وأخذ الناس في الخلاص من بغداد. ثم استعمل على واسط ينال كوشه، وعلى تكريت الفتح السيكري، فسار إلى ابن حمدان ودعا له شكراً فولاّه عليها من قبله.

استيلاء معزّ الدولة بن بويه علي بغداد واندراج أحكام الخلافة في سلطانهم:

قد تقدم لنا استبداد أهل النواحي على الخلافة منذ أيام المتوكّل، ولم يزل نطاق الدولة العبّاسية يتضايق شيئاً فشيئاً. وأهل الدولة يستبدّون واحدا بعد واحد إلى أن

أحاطوا ببغداد وصاروا ولاة متعدّدة يفرد كل واحد منهم بالذكر وسياقة الخبر إلى آخرها. وكان من أقرب المستبدّين إلى مقر الخلافة بنو بويه بأصبهان وفارس ومعز الدولة منهم بالأهواز. وقد تغلّب على واسط ثم انتزعت منه، وبنو حمدان بالموصل والجزيرة، وقد تغلب على هيت، وصارت تحت ملكهم، ولم يبق للخلفاء إلا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات، وأمراؤهم مع ذلك مستبدون عليهم، ويسمون القائم بدولتهم أمير الأمراء كما مرّ في أخبارهم إلى أن انتهى ذلك إلى دولة المتقي، والقائم بها ابن شيرزاد. وولى على واسط ينال كوشة كما قلنا، فانحرف عن ابن شيرزاد، وكاتب معزّ الدولة، وقام بدعوته في واسط واستدعاه لملك بغداد. فزحف في عساكر الديلم إليها، ولقيه ابن شيرزاد والأتراك وهربوا إلى ابن حمدان بالموصل، واختفى المستكفي وقدّم معزّ الدولة كاتبه الحسن بن محمد المهلبي إلى بغداد، فدخلها

وظهر الخليفة فظهر عنده المهلبيّ وجدد له البيعة عن معزّ الدولة أحمد بن بويه، وعن أخويه عماد الدولة علي وركن الدولة الحسن. وولاّهم المستكفي على أعمالهم ولقبهم بهذه الألقاب، ورسمها على سكّته. ثم جاءه معزّ الدولة إلى بغداد وملكها، وصرف الخليفة في حكمه، واختصّ باسم السلطان. فبقيت أخبار الدولة تؤثر عنهم، وأن كان منها ما يختص بالخليفة فقليل. فلذلك صارت أخبار هؤلاء الخلفاء منذ المستكفي إلى المتقي مندرجة في أخبار بني بويه والسلجوقيّة من بعدهم لعطلهم من التصرف إلا قليلاً يختصّ بالخلفاء نحن ذاكروه، ونرجئ بقية أخبارهم إلى أخبار الديلم والسلجوقية الغالبين على الدولة عندما نفرد دولتهم كما شرطناه.

(الخبر عن الخلفاء من بني العباس المغلبين لدولة بني بويه
من السلجوقية من بعدهم من لدن المستكفي إلي المتقي
وما لهم من الأحوال الخاصة بهم ببغداد ونواحيها):

لّما دخل معزّ الدولة بن بويه إلى بغداد غلب على المستكفيّ وبقي في كفالته، وكان المستكفي في سنة ثلاث وثلاثين قبلها قبض على كاتبه أبي عَبْد الله بن أبي سليمان، وعلى أخيه، واستكتب أبا أحمد الفضل بن عَبْد الرحمن الشيرازي في خاص أمره

وكان قبله كاتباً لابن حمدان، وكان يكتب للمستكفي قبل الخلافة. فلما نصّب للخلافة قدم من الموصل فاستكتبه المستكفي في هذه السنة على وزيره أبي الفرج لاثنتين وأربعين يوماً من وزارته. وصادره على ثلثمائة ألف درهم. ولما استولى معزّ الدولة ببغداد على الأمر بعث أبو القاسم البريدي صاحب البصرة، ضمن واسط وأعمالها وعقد له عليها.

خلع المستكفي وبيعة المطيع:

وأقام المستكفي بعد استيلاء معزّ الدولة على الأمر أشهراُ قلائل، ثم بلغ معزّ الدولة أن المستكفي يسعى في إقامة غيره، فتنكّر له ثم أجلسه، في يوم مشهود لحضور رسول من صاحب خراسان، وحضر هو في قومه وعشيرته وأمر رجلين من نقباء الديلم جاءا ليقبّلا يد المستكفي. ثم جذباه عن سريره وساقاه ماشياً.

وركب معزّ الدولة وجاء به إلى داره فاعتقله بها، واضطرب الناس وعظُم النهب ونهب دار الخلافة وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي، وكان ذلك في جمادى الآخرة لسنة وأربعة أشهر من خلافته. ثم بويع أبو القاسم الفضل بن المقتدر، وقد كان المستكفي طلبه حين ولي لإطلاعه على شأنه في طلب الخلافة فلم يظفر به واختفى. فلما جاء معزّ الدولة تحول إلى داره واختفى عنده، فلما قبض على المستكفي بويع له ولقّب المطيع لله. ثم أحضر المستكفي عنده فأشهد على نفسه بالخلع، وسلم عليه بالخلافة ولم يبق للخليفة من الأمر شيء البتة منذ أيام معزّ الدولة. ونظر وزير الخليفة مقصور على إقطاعه ونفقات داره، والوزارة منسوبة إلى معزّ الدولة وقومه من الديلم شيعة للعلويّة منذ إسلامهم على يد الأطروش، فلم

يكونوا من شيعة العبّاسية في شيء، ولقد يقال بأنّ معزّ الدولة اعتزم على نقل الخلافة منهم إلى العلويّة، فقال له بعض أصحابه لا تول أحداً يشركك قومك كلهّم في محبته والاشتمال عليه، وربما يصير لهم دونك، فأعرض عن ذلك وسلبهم الأمر والنهي وتسلم عماله وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وسائر أراضيه. وصار الخليفة إنما يتناول منه ما يقطعه معزّ الدولة ومن بعده فما يسد بعض حاجاته. نعم إنهم كانوا يفردونهم بالسرير والمنبر والسكّة والختم على الرسائل والصكوك والجلوس للوفد، وإجلالهم في التحية والخطاب، وكل ذلك طوع القائم على الدولة وكان يفرد في كل دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان،

مما لا يشاركه فيه أحد، ومعنى الملك من تصريف القدرة وإظهار الأبهة والعزّ حاصل له دون الخليفة وغيره، وكانت الخلافة حاصلة للعبّاسى المنصوب لفظاً مسلوبة معنى، والله المدبّر للأمور لا إله غيره.

انقلاب حال الدولة بما تجدّد في الجباية والإقطاع:

لّما استولى معزّ الدولة طلب الجند أرزاقهم على عادتهم وأكثر لسبب ما تجدّد من الاستيلاء الذي لم يكن له، فاضطّرإلى ضرب المكوس وأخذ أموال الناس من غير وجهها، وأقطع قوّاده وأصحابه من أهل عصبيته وغير المساهمين له في الأمر جميع القوى التي بجانب السلطان فارتفعت عنها أيدي العمّال، وبطلت الدواويز واختلف حال القرى في العمارة عما كان في أيدي القوّاد والرؤساء، حصل بهم لأهلها الرفق فزادت عمارتها وتوفّر دخلها. ولم تكن مناظرتهم في ذلك ولا تقديره عليهم، وما كان بأيدي العامّة والأتباع عظم خرابه لّما كان يعدم من الغلاء والنهب واختلاف الأيدي وما يزيد الآن من الظلم ومصادرات الرعايا والحيف في الجباية وإهمال النظر في تعديل القناطر والمشارب، وقسم المياه على الأرضين. فإذا خربت قراهم ردّوها وطلبوا العوض عنها فيصير الآخر منها لّما صار إليه الأول. ثم أمر معزّ الدولة قواده وأصحابه بحماية الإقطاع والضياع وولاتها، وصارت الجبايات لنظرهم والتعويل في المرتفع على أخبارهم. فلا يقدر أهل الدواوين والحسابات على تحقيق ذلك عليهم، ولم يقف عند ذلك على غاية. فبطلت الأموال وصار جمعها من المكوس والظلامات، وعجز معزّ الدولة عن ذخيرة يعدّها لنوائب سلطانه. ثم استكثر من الموالي الأتراك ليجدع بهم من أنوف قومه، وفرض لهم الأرزاق وزاد لهم الاقطاع، فعظمت غيرة قومه من ذلك وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في طبيعة الدول.

دولة بني حمدان

مسير ابن حمدان إلى بغداد:

ولما استولى معزّ الدولة على بغداد، وخلع المستكفي بلغ الخبر إلى ناصر الدولة بن حمدان، فشق ذلك عليه، وسار من الموصل إلى بغداد وانتهى إلى سامرّا في شعبان سنة أربع. وكان معزّ الدولة حين سمع قدوم عساكره مع ينال كوشة وقائد آخر،

فقتل القائد ولحق بناصر الدولة. وجاء ناصر الدولة إلى بغداد، فأقام بها وخالفه معزّ الدولة إلى تكريت فنهبها لأنها من أعماله. ثم عاد معزّ الدولة والمطيع فنزلوا بالجانب الغربي من بغداد، وقاتلوا ناصر الدولة بالجانب الشرقي وتقدم ناصر الدولة إلى الأعراب بالجانب الغربي بقطع الميرة عن معزّ الدولة، فغلت الأسعار وعزّت الأقوات، ومنع ناصر الدولة من الخطبة للمطيع والمعاملة بسكته، ودعا للمتّقي وبيّت معزّ الدولة مراراً. وضاق الأمر به، واعتزم على ترك بغداد والعود إلى الأهواز.ثم أظهر الرحيل ذات ليلة، وأمر وزيره أبا جعفر الصهيري بالعبور في أكثر العساكر، وأقام بالكيلة مكانه وجاء ينال شوكه لقتاله فانهزم واضطرب عسكر ناصر الدولة وأجفلوا، وغنم الديلم أموالهم وأظهرهم. ثم أمّن معزّ الدولة الناس وعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وقام التورونية عليه، فلما شعروا به نكروه وهموا بقتله فأسرى هارباً ومعه ابن شيرزاد، وفر إلى الجانب الغربي. ثم لحق بالقرامطة فأجاروه وبعثوه إلى الموصل. ثم استقر الصلح بينه وبين الدولة كما طلب، ولما فر عن الأتراك اتفقوا على تكين الشيرازي فولوه عليهم وقبضوا على من تخلف من كتابه وأصحابه، وساروا في اتباعه إلى نصيبين، ثم إلى سنجار، ثم إلى الحديثة، ثم إلى السن. ولحق هنالك عسكر معزّ الدولة مع وزيره أبي جعفر الصهيري، وقد كان استمدّه ناصر الدولة. وسار ناصر الدولة وابن الصهيري إلى الموصل، فنزلوا عليها، وأخذ الصهيري من ناصر الدولة ابن شيرزاد وحمله إلى معزّ الدولة وذلك سنة خمس وثلاثين.

استيلاء معزّ الدولة على البصرة:

وفي هذه السنة انتقض أبو القاسم البريدي بالبصرة، فجهز معزّ الدولة الجيش وجماعة أعيانهم إلى واسط ولقيهم جيش بن البريدي في الماء على الظهر، فانهزموا إلى البصرة وأسروا من أعيانهم جماعة. ثم سار معزّ الدولة سنة ست وثلاثين إلى البصرة

ومعه المطيع لاستنقاذها من يد أبي القاسم بن البريدي وسلكوا إليها البرية، فبعث القرامطة يعذلون في ذلك معزّ الدولة فكتب يهددهم. ولما قارب البصرة استأمنت إليه عساكر أبي القاسم، وهرب هو إلى القرامطة فأجاروه، وملك معزّ الدولة البصرة. ثم سار منها إلى الأهواز لتلقي أخيه عماد الدولة، وترك المطيع وأبا جعفر الصهيري بالبصرة ولقي أخاه بأرّجان. ثم عاد إلى بغداد والمطيع معه، وأراد السير إلى الموصل فأرسل إليه ناصرالدولة في الصلح وحمل المال فتركه. ثم انتقض سنة سبع وثلاثين، فسار إليه معزّ الدولة، وملك الموصل، ولحق ناصر الدولة بنصيبين، وأخذ معزّ الدولة في ظلم الرعايا وعسفهم. ثم بعث إليه أخوه ركن الدولة بأصبهان بأن عسكر خراسان قصد جرجان والري، واستمده فاضطر معزّ الدولة إلى صلح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة وما ملكه سيف الدولة من الشام دمشق وحلب على ثمانية آلاف ألف درهم، ويخطب لعماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة بني بويه، فاستقر الصلح على ذلك وعاد إلى بغداد.

ابتداء أمر بني شاهين بالبطيحة:

كان عمران بن شاهين من أهل الجامدة، وحصلت عنده جبايات، فهرب إلى البطيحة خوفا من الحكام، وأقام بين القصب والأجام يقتات بصيد السمك والطير وكشف سابلة البطيحة. واجتمع عليه جماعة من الصيادين واللصوص. ثم اشتد خوفه فاستأمن إلى أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة نقله جماعة الجامدة ونواحي البطائح. وجمع السلاح واتخذ مقاتل على تلال البطيحة وغلب على نواحيها، وسرح معزّ الدولة وزيره أبا جعفر الصهيري سنة ثمان وثلاثين فقاتله وهرب واستأمن أهله وعياله. ثم جاء الخبر إلى معزّ الدولة بموت أخيه عماد الدولة بفارس، واضطراب أحواله بها. فكتب إلى الصهيري بالفرار إلى شيرزاد لإصلاح الأمور، فسار إليها وعاد عمران بن شاهين إلى البطيحة، واجتمع إليه أصحابه وقوي أمره. وبعث معزّ الدولة إلى قتاله روزبهان من أعيان عسكره، فأطال حصاره في مضايق البطيحة. ثم ناجزه الحرب فهزمه عمران وهرب عسكره وصار أصحابه يطلبون البذرقة والخفارة من جند السلطان في السابلة، وانقطع طريق البصرة إلا على الظهر.وكان الصهيري قد هلك وولّى مكانه المهلّبي، فكتب معزّ الدولة إلى المهلّبي وهو بالبصرة، فصعد إلى

واسط آمده بالقواد والسلاح، وأطلق يده في الإنفاق. فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فانتهى إلى مضايق خفية، وأشار عليه روزبهان بمعاجلة القوم، وكتب إلى معزّ الدولة يشكو المطاولة من المهلبي، فكتب إليه معزّ الدولة بالاستبطاء، فبادر إلى المناجزة وتوغل في تلك المضايق، فانهزم وقتل من أصحابه وأسرونجا هو سباحة في الماء، وأسر عمران أكابر القواد حتى صالحه معزّ الدولة وقلده البطائح وأطلق له أهله على أن يطلق القوّاد الذين في أسره فأطلقهم.

موت الصهيري ووزارة المهلبي:

كان أبو جعفر محمد بن أحمد الصهيري وزيراً لمعزّ الدولة، وكان قد سار لقتال عمران واستخلف مكانه أبا محمد الحسن بن محمد المهلّبي، فعرفت كفايته وإصلاحه وأمانته وتوفي أبو جعفر الصهيري محاصراً لعمران، فولّى معزّ الدولة مكانه أبا محمد المهلبي، فأحسن السيرة وأزال المظالم وخصوصا عن البصرة فكان فيها شعبٌ كثيرة من المظالم من أيام أبي البريدي، وتنقل في البلاد لكشف المظالم وتخليص الحقوق، فحسن أثره ونقم عليه معزّ الدولة بعض الأمور، فنكبه سنة إحدى وأربعين وحبسه في داره ولم يعزله.

حصار البصرة:

قد تقدّم لنا أن القرامطة أنكروا على معزّ الدولة مسيره إلى البصرة على بلادهم، وذكرنا ما دار بينهم في ذلك. ولّما علم يوسف بن وجيه استيحاشهم بعث إليهم يطمعهم في النصرة، واستمدهم فأمدوّه. وسار في

البحر سنة احدى وأربعين، وبلغ الخبر إلى الوزير المهلبيّ، وقد قدم من شأن الأهواز. فسار إلى البصرة وسبق إليها ابن وجيه، وقاتله فهزمه وظفر بمراكبه.

استيلاء معزّ الدولة على الموصل وعوده:

قد تقدم لنا صلح معزّ الدولة مع ناصر الدولة على ألفي ألف درهم كل سنة. فلما كانت سنة سبع وأربعين أخرج حمل المال، فسار معزّ الدولة إلى الموصل في جمادى ومعه وزيره المهلبي، فاستولى على الموصل ولحق ناصر الدولة بنصيبين ومعه كتابه وجميع أصحابه وحاشيته، ومن يعرف وجوه المنافع، وأنزلهم في قلعة كواشي وغيرها.

وأمر الاعراب بقطع الميرة عن الموصل، فضاقت الأبواب على عسكر معزّ الدولة. فسار عن الموصل إلى نصيبين، واستخلف عليها سبكتكين الحاجب الكبير، وبلغه في طريقه أن أولاد ناصر الدولة بسنجار في عسكر، فبعث عسكراً فكبسوهم واشتغلوا بالنهب، فعاد إليهم أولاد ناصر الدولة وهم غازون فاستلحموهم، وسار ناصر الدولة عن نصيبين إلى ميافارقين. ورجع أصحابه إلى معزّ الدولة مستأمنين، فسار هو إلى أخيه سيف الدولة بحلب فتلقاه وأكرمه وتراسلوا في الصلح على ألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم، وإطلاق من أسر بسنجار، وأن يكون ذلك في ضمان سيف الدولة فتم بينهما، وعاد معزّ الدولة إلى العراق في محرم سنة ثمان وأربعين.

بناء معزّ الدولة ببغداد:

أصاب معزّ الدولة سنة خمسين مرض أشفى منه حتى وصى، واستوخم بغداد فارتحل إلى كلواذا ليسير إلى الأهواز، وأسف أصحابه لمفارقة بغداد، فأشاروا عليه أن يبني لسكناه في أعاليها. فبنى داراً أنفق عليها ألف ألف دينار. وصادر فيها جماعة من الناس.

ظهور الكتابة على المساجد:

كان الديلم كما تقدم لنا شيعة لإسلامهم على يد الأطروش، وقد ذكرنا ما منع بني بويه من تحويل الخلافة عن العباسية إليهم. فلما كان سنة إحدى وخمسين وثلثمائة أصبح مكتوباً على باب الجامع ببغداد لعن صريح في معاوية ومن غصب فاطمة فدك، ومن منع من دفن الحسن عند جده، ومن نفى أبا ذر، ومن أخرج العباس من الشورى. ونسب ذلك إلى معزّ الدولة. ثم محي من الليلة القابلة، فأراد معزّ الدولة إعادته. فأشار المهلبي بأن يكتب مكان المحو لعن معاوية فقط والظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلّم. وفي ثامن عشر ذي الحجة من هذه السنة أمر الناس بإظهار الزينة والفرح لعبد العزيز من أعيان الشيعة. وفي السنة بعدها أمر الناس في يوم عاشوراء أن يغلقوا دكاكينهم ويقعدوا عن البيع والشراء، ويلبسوا المسوح، ويعلنوا بالنياحة، وتخرج النساء مسبلات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن

ولطمن خدودهن حزناً على الحسين، ففعل الناس ذلك. ولم يقدر أهل السّنة على منعه لأن السلطان للشيعة. وأعيد ذلك سنة ثلاث وخمسين، فوقعت فتنة بين أهل السنة والشيعة وجرى نهب الأموال.

استيلاء معزّ الدولة على عمان وحصاره البطائح:

انحدر معزّ الدولة سنة خمس وخمسين إلى واسط لقتال عمران بن شاهين بالبطائح، فأنفذ الجيش من هنالك مع أبي الفضل العبّاس بن الحسن، وسار إلى الأُبُلَّة فأنفذ الجيش إلى عمان، وكان القرامطة قد استولوا عليها، وهرب عنها صاحبها نافع، وبقي أمرها فوضى، فاتفق قاضيها وأهل البلد أن ينصبوا عليهم رجلاً منهم فنصبوه، ثم قتله بعضهم فولوا آخر من قرابة القاضي يعرف بعبد الرحمن بن أحمد بن مروان، واستكتب علي بن أحمد الذي كان وصل مع القرامطة كاتباً. وحضر وقت العطاء، فاختلف الزنج والبيض في الرضا بالمساواة وبعدمها واقتتلوا، فغلب الزنج وأخرجوا عَبْد الوهاب، واستقر علي بن أحمد أميراً، فلما جاء معزّ الدولة إلى واسط هذه السنة، قدم عليه نافع الأسود صاحب عمان مستنجداً به، فانحدر به من الابلة، وجهز له المراكب لحمل العساكر، وعليهم أبو الفرج محمد بن العباس بن فساغس وهي مائة قطعة، فساروا إلى عمان وملكوها تاسع ذي الحجة من سنة خمس وخمسين، وقتلوا من أهلها وأحرقوا مراكبها، وكانت تسعة وثمانين، وعاد معزّ الدولة إلى واسط، وحاصر عمران، وأقام هنالك فاعتل وصالح عمران وانصرف عنه.

وفاة الوزير المهلبي:

سار الوزير المهلبي في جمادى سنة إثنتين وخمسين إلىعمان ليفتحها، فاعتل في طريقه ورجع إلى بغداد، فمات في شعبان قبل وصوله، وحمل فدفن بها لثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر من وزارته. وقبض معزّ الدولة أمواله وذخائره، وصارت إليه وحواشيه، ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي وأبو الفرج محمد بن العباس ابن فساغس، ولم يلقب أحد منهما بوزارة.

وفاة معزّ الدولة وولاية ابنه بختيار:

ولما ارجع معزّ الدولة إلى بغداد اشتد مرضه فعهد بالسلطنة إلى ابنه عز الدولة، وتصدق وأعتق. وتوفي في ربيع من سنة ست وخمسين لإثنتين وعشرين سنة من سلطنته، وولّى إبنه عز الدولة بختيار، وقد كان أوصاه بطاعة عمّه ركن الدولة، وبطاعة ابنه عضد الدولة، لأنه كان أكبر سناً وأخبر بالسياسة، ووصّاه بحاجبه

سبكتكين وبكاتبيه أبي الفضل العباس وأبي الفرج، فخالف وصاياه وعكف على اللهو، وأوحش هؤلاء، ونفى كبار الديلم شرها في أقطاعاتهم. وشغب عليه الأصاعد فذادهم واقتدى بهم الأتراك، وجاء أبوالفرج محمد بن العباس من عمان بعد أن سلمها إلى نواب عضد الدولة الذين كانوا في أمداده، وخشي أن يؤمر بالمقام بها وينفرد أبو الفضل صاحبه بالوزارة ببغداد، فكان كما ظن. ثم انتقض بالبصرة حبشي بن معزّ

الدولة على أخيه بختيار سنة ست وخمسين، فبعث الوزير أبو الفضل العباس فسار مورياً بالأهواز، ونزل واسط وكتب إلى حبشي بأنه جاء ليسلمه البصرة، وطلب منه المعونة على أمره، فأنفذ إليه مائتي ألف درهم، وأرسل الوزير خلال ذلك إلى عسكر الأهواز أن يوافوه بالأبلة لموعد ضربه لهم، فوافوه وكبسوا حبشياً بالبصرة، وحبسوه برامهرمز، ونهبوا أمواله. وكان من جملة ما أخذ له عشرة آلاف مجلد من الكتب، وبعث ركن الدولة بتخليص حبشي ابن أخيه، وجعله عند عضد الدولة فأقطعه إلى أن مات سنة سبع وستين.

عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقية:

لّما ولي أبو الفضل وزارة بختيار كثر ظلمه وعسفه، وكان محمد بن بقية من حاشية بختيار، وكان يتولى له المطبخ. فلما كثر شغب الناس من أبي الفضل عزله بختيار سنة إثنتين وستين، وولّى مكانه محمد بن بقية، فانتشر الظلم أكثر، وخربت النواحي وظهر العيّارون، ووقعت الفتن بين الأتراك وبختيار، فأصلح ابن بقية بينهم، وركب سبكتكين بالأتراك إلى بختيار، ثم أفسد بينهم وتحرّك الديلم على سبكتكين وأصحابه، فأرضاهم بختيار بالمال ورجعوا عن ذلك. كان ناصر الدولة بن حمدان قد قبض عليه ابنه أبو تغلب وحبسه سنة ست وخمسين، وطمع في المسير إلى بغداد، وجاء أخوه حمدان وإبراهيم فازعين إلى بختيار ومستنجدين به فشغل عنهما بما كان فيه من شأن البطيحة وعمان، حتى إذا قضى وطره من ذلك وعزل أبا الفضل الوزير واستوزر ابن بقية حمله على ذلك وأغراه به، فسار إلى الموصل ونزلها في ربيع الآخر سنة ثلاث وستين، ولحق أبو ثعلب بسنجار بأصحابه وكتابه ودواوينه.ثم سار إلى بغداد وبعث بختيار في أثره الوزير ابن بقية وسبكتكين، فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتكين يحاربه في ظاهرها، ووقعت الفتنة داخل بغداد في الجانب الغربي بين أهل السنة والشيعة. واتفق سبكتكين وأبو ثعلب على أن يقبضا على الخليفة والوزير وأهل بختيار ويعود سبكتكين إلى بغداد مستولياً وأبو ثعلب إلى الموصل. ثم اقصرسبكتكين عن ذلك وتوقف، وجاءه الوزير ابن بقية. وأرسلوا إلى أبي تغلب في الصلح وأن يضمن البلاد ويرد على أخيه حمدان أقطاعه وأملاكه إلا ماردين، وعاد أبو ثعلب إلى الموصل ورحل بختيار، وسار سبكتكين للقائه.واجتمع بختيار وأبو ثعلب على الموصل، وطلب أبو ثعلب زوجته إبنة بختيار وأن يحط عنه من الضمان ويلقب لقباً سلطانياً فأجيب إلى ذلك خشية منه، ورحل بختيار إلى بغداد، وسرّ أهل الموصل برحيله لّما نالهم منه، وبلغه في طريقه أن أبا ثعلب قتل قوماً من أصحابه وكانوا استأمنوا لبختيار وزحفوا لنقل أهلهم وأموالهم فاشتد ذلك عليه، وكتب إلى الوزير أبي طاهر بن بقية والحاجب ابن سبكتكين يستقدمهما في العساكر فجاؤا وعادوا إلى الموصل، وعزم على طلبه حيث سار. فأرسل أبو ثعلب في الصلح، وجاء الشريف أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي وحلف على العلم في قتل أولئك المستأمنة، وعاد الصلح والاتفاق كما كان، ورجع بختيار إلى بغداد وبعث إبنته إلى زوجها أبي ثعلب.

الفتنة بين بختيار وسبكتكين والأتراك:

كان بختيار قد قلّت عنده الأموال وكثرت مطالب الجند وشغبهم، فكان يحاول جمع الأموال فتوجه إلى الموصل لذلك ثم رجع فتوجه إلى الأهواز ليجدّد ريعه إلى مصادرة عاملها، وتخّلف عنه سبكتكين والأتراك الذين معه، ووقعت فتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز واقتتلوا ولجّ الأتراك في طلب ثأرهم. وأشار عليه أصحاب الديلم بقبض رؤساء الأتراك وقوّادهم ففعل، وكان من جملتهم عامل الأهواز وكاتبه، ونهبت أموالهم وبيوتهم ونودي في البلد باستباحتهم، وبلغ الخبر إلى سبكتكين وهو ببغداد فنقض طاعة بختيار وركب في الأتراك وحاصر داره يومين

وأحرقها وأخذ أخويه وأمّهما فبعثهم إلى واسط في ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وانحدر المطيع معهم فردّه وترك الأتراك في دور الديلم ونهبوها وثارت العامة مع سبكتكين، لأن الديلم كانوا شيعة وسفكت الدماء وأحرق الكرخ وظهر أهل السنّة.

خلع المطيع وولاية الطائع:

كان المطيع قد أصابه الفالج وعجز عن الحركة، وكان يتستّر به وانكشف حاله بسبكتكين في هذه الواقعة، فدعاه إلى أن يخلع نفسه ويسلّم الخلافة عَبْد الكريم ففعل ذلك منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين لستٍ وعشرين سنة ونصف من خلافته، وبويع ابنه عَبْد الكريم ولقب الطائع.

الصوائف:

وعادت الصوائف منذ استبدّ ناصر الدولة بن حمدان بالموصل وأعمالها، وملك سيف الدولة أخوه مدينتي حلب وحمص سنة ثلاث وثلاثين، فصار أمر الصوائف إليه فنذكرها في أخبار دولتهم. فقد كان لسيف الدولة فيها آثار وكان للروم في أيامه جولات حسنت فيها مدافعته. وأمَّا الولايات فانقطعت منذ استيلاء معزّ الدولة على العراق، وانقسمت الدولة الإِسلامية دولاً نذكر ولايات كلّ منها في أخبارها عند انفرادها على ما شرطناه.

فتنة سبكتكين وموته وإمارة افتكين:

لّما أوقع بختيار في الأتراك بالأهواز ما أوقع، وانتقض سبكتكين ببغداد عمد بختيار إلى من حبسه من الأتراك فأطلقهم وولّى منهم على الأتراك زادويه الذي كان عامل الأهواز، وسار إلى واسط للقائه وأخويه، وكتب إلى عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة يستنجدهما، وإلى أبي ثعلب بن حمدان في المدد بنفسه، ويسقط عنه مال الاقطاع، وإلى عمران بن شاهين بالبطيحة كذلك فجهز إليه عمّه ركن الدولة العسكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ابن عمّه عضد الدولة بالمسير معه فتثاقل وتربّص بختيار طمعاً في ملك العراق. وأمَّا عمران بن شاهين فدافع واعتذر

بأنّ عسكره لا يفتكون في الديلم لّما كان بينهم، وأمَّا أبو ثعلب فبعث أخاه أبا عَبْد الله الحسين في عسكر إلى تكريت فلما سار الأتراك عن بغداد إلى واسط لقتال بختيار، وجاء هو إليها ليقيم الحجة في سقوط الأقطا ع عنه، ووجد الفتنة حامية بين العيارين فكف القسامة وانتظر ما يقع ببختيار فيدخل بغداد ويملكها. ولما سار الأتراك إلى واسط حملوا معهم خليفتهم الطائع لله وأباه المطيع المخلوع، وانتهوا إلى دير العاقول فهلك المطيع وسبكتكين معاً، وولى الأتراك عليهم افتكين من أكابر قوادهم ومولى معزّ الدولة، فانتظم أمرهم، وساروا إلى واسط وحاصروا بها بختيار خمسين يوماً حتى اشتد عليه الحصار وهو يستحث عضد الدولة.

نكبة بختيار على يد عضد الدولة ثم عوده إلى ملكه:

لّما تتابعت كتب بختيار إلى عضد الدولة باستحثاثه سار في عساكر فارس، وجاءه أبو القاسم بن العميد وزير أبيه إلى الأهواز في عساكر الري وساروا إلى واسط وأجفل عنها أفتكين والأتراك إلى بغداد، ورجع أبو ثعلب إلى الموصل. ولما جاء عضد الدولة إلى واسط سار إلى بغداد في الجانب الشرقي، وسار بختيار في الجانب الغربي، وحاصروا الأتراك ببغداد من جميع الجهات. وأرسل بختيار إلى ضبّة بن محمد الأسدي من أهل عين التمر وإلى أبي سنان وأبي ثعلب بن حمدان بقطع الميرة والإغارة على النواحي فغلا السعر ببغداد وثار العيارون ووقع النهب، وكبس أفتكين المنازل في طلب الطعام فعظم الهرج، وخرج أفتكين والأتراك للحرب فلقيهم عضد الدولة فهزمهم وقتل أكثرهم واستباحهم، ولحقوا بتكريت، وحملوا الخليفة معهم، ودخل عضد الدولة إلى بغداد في جمادى سنة أربع وستين. وحاول في ردّ الخليفة الطائع فرده وأنزله بداره وركب للقائه الماء في يوم مشهود.ثم وضع الجند على بختيار فشغبوا عليه في طلب أرزاقهم وأشار عليه بالغلظة عليهم والاستعفاء من الإمارة، وأنه عند ذلك يتوسط في الإصلاح فأظهر بختيار التخلي، وصرف الكتاب والحجاب ثقة بعضد الدولة، وتردّد السفراء بينهم ثلاثاً. ثم قبض عضد الدولة على بختيار وإخوته ووكل بهم وجمع الناس أعلمهم بعجز بختيار، ووعدهم بحسن النظر وقام بواجبات الخلافة. وكان المرزبان بن بختيار أميراً بالبصرة فامتنع فيها على عضد الدولة وكتب إلى ركن الدولة يشكو ما جرى على أبيه بختيار من إبنه عضد الدولة ووزيره ابن

العميد فأصابه من ذلك المقيم المقعد حتى لقد طرقه المرض الذي لم يستقل منه.وكان ابن بقية وزير بختيار قد سار إلى عضد الدولة وضمنه واسط وأعمالها فانتقض عليه بها، وداخل عمران بن شاهين في الخلافة فأجابه، وكتب إلى سهل بن بشر وزير أفتكين بالأهواز، وقد كان عضد الدولة ضمنه إياها وبعثه إليها مع جيش بختيار فاستماله ابن بقية، وخرجت إليه جيوش عضد الدولة فهزمهم وكاتب أباه ركن الدولة بالأحوال، وأوعز ركن الدولة إليه وإلى المرزبان بالبصرة على المسير بالعراق لإعادة بختيار.واضطربت النواحي على عضد الدولة لإنكار أبيه، وانقطع عن مدد فارس، وطمع فيه الأعداء فبعث أبا الفتح بن

العميد إلى أبيه يعتذر عما وقع، وأن بختيار عجز ولا يقدر على المملكة، وأنه يضمن أعمال العراق بثلاثين ألف ألف درهم، ويبعث بختيار وإخوته إليه ليترله بأي الأعمال أحب، ويخير أباه في نزوله العراق لتدبير الخلافة ويعود هو إلى فارس وهدد أباه بقتل بختيار وإخوته وجميع شيعهم إن لم يوافق على واحدة من هذه. فخاف ابن العميد غائلة هذه الرسالة وأشار بإرسال غيره وأن يمضي هو بعدها كالمصلح فبعث عضد الدولة غيره. فلما ألقى الرسالة غضب ركن الدولة ووثب إلى الرسول ليقتله ثم رده بعد أن سكن غضبه، وحمله إلى عضد الدولة من الشتم والتقريع على ما فعله وعلى ما يطلب منه من كل صعب من

القول.وجاء ابن العميد على أثر ذلك فحجبه وهدده ثم لم يزل يسترضيه بجهده، واعتذر بأن قبوله لهذه الرسالة حيلة على الوصول إليه والخلاص من عضد الدولة، وضمن له إعادة عضد الدولة إلى فارس وتقرير بختيار بالعراق فأجاب عضد الدولة إلى ذلك وأفرج عن بختيار ورده إلى السلطنة على أن يكون نائباً عنه ويخطب عنه، ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لعجز بختيار، ورد عليهم ما أخذ لهم، وسار إلى فارس، وأمر ابن العميد أن يلحق به بعد ثلاث فتشاغل مع بختيار باللذات ووعده أن يصير إلى وزارته بعد ركن الدولة. وأرسل بختيار عن ابن بقية فقام بأمر الدولة، واحتجن الأموال فإذا طولب بها دسّ للجند فشغبوا حتى تنكر له بختيار واستوحش هو.

خبر أفتكين:

ولما انهزم أفتكين من عضد الدولة بالمدائن لحق الشام ونزل قريباً من حمص، وقصد ظالم ابن موهوب أمير بني عقيل العلويّة بالشام فلم يتمكن منه، وسار أفتكين إلى

دمشق وأميرها ريّان خادم المعز لدين الله العلويّ، وقد غلب عليه الأحداث فخرج إليه مشيخة البلد وسألوه أن يملكهم ويكفّ عنهم شر الأحداث وظلم العمال، واعتقاد الرافضة فاستحلفهم على ذلك ودخل دمشق وخطب فيها للطائع في شعبان سنة أربع وستين. ورجع أيدي العرب من ضواحيها وفتك فيهم وكثرت جموعه وأمواله، وكاتب المعز بمصر يداريه بالإنقياد، فكتب يشكره ويستدعيه ليولّيه من جهته فلم يثق إليه فتجهّز لقصده، ومات في طريقه سنة خمس وستين كما نذكر بقية خبره في دولتهم.

ملك عضد الدولة بغداد وقتل بختيار:

ولما انصرف عضد الدولة إلى فارس كما ذكرناه، أقام بها قليلاً ثم مات أبوه ركن الدولة سنة ست وستين بعد أن رضي عنه وعهد له بالملك كما نذكره في خبره. فلما مات شرع بختيار ووزيره ابن بقية في استمالة أهل أعماله مثل أخيه فخر الدولة وحسنويه الكردي، وطلب ابن حمدان وعمران بن شاهين في عدوانه فسار عضد الدولة لطلب العراق، واستمد حسنويه وابن حمدان فواعداه ولم يبعداه فسار إلى الأهواز ثم سار إلى بغداد، ولقيه بختيار فهزمه عضد الدولة واستولى على أمواله وأثقاله ولحق بواسط، وحمل إليه ابن شاهين أموالاً وهدايا، ودخل إليه مؤكداً للاستجارة به. ثم صعد إلى واسط، وبعث عضد الدولة عسكراً

إلى البصرة فملكوها، وكانت مصر شيعة له دون ربيعة. وجمع بختيار ما كان له ببغداد والبصرة في واسط، وقبض على ابن بقية، وأرسل عضد الدولة في الصلح واختلفت الرسائل، وجاءه عَبْد الرزاق وبدر إبنا حَسْنَوَيْه في ألف فارس مدداً فانتقض. وسار إلى بغداد وسار عضد الدولة إلى واسط ثم إلى البصرة فأصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهم مائة وعشرين سنة.ثم دخلت سنة سبع وستين فقبض عضد الدولة على أبي الفتح ابن العميدي وزير أبيه، وجدع أنفه وسمل إحدى عينيه لّما بلغه عنه في مقامه بالفرات عند بختيار.

ولما أطلع عليه من مكاتبته إياه فبعث إلى أخيه فخر الدولة بالري بالقبض عليه وعلى أهله فقبض عليه وأخذ داره بما فيها. ثم سار عضد الدولة إلى بغداد سنة سبع وستين، وبعث إلى بختيار يخيره في الأعمال فأجاب إلى طاعته وأمره بإنفاذ ابن بقية إليه ففقأ عينيه وأنفذه وخرج عن بغداد يقصد الشام، ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها وضرب على بابه ثلاث توتات ولم يكن شيء من ذلك لمن قبله، وأمر بابن بقية فرمي بين الفيلة فقتلته.ولما سار بختيار إلى الشام ومعه حمدان أخو أبي ثعلب وانتهوا إلى عكبراً أحسن له حمدان وقصد الموصل. وكان عضد الدولة قد استحلفه أن لا يدخل ولاية أبي ثعلب فنكث وقصدها، وجاءته رسل أبي ثعلب بتكريت في إِسلام أخيه حمدان إليه فيمدّه بنفسه، ويعيده إلى ملكه فقبض على حمدان وبعثه مع نّوابه فحبسه وسار أبو ثعلب إليه في عشرين ألف مقاتل، وزحفوا إلى بغداد ولقيهما عضد الدولة فهزمهما، وأمر ببختيار فقتل صبراً في عدّة من أصحابه لإحدى عشرة سنه من ملكه.

استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان:

ثم سار عضد الدولة بعد الهزيمة ومقتل بختيار إلى الموصل فملكها منتصف ذي القعدة من سنة سبع وستين، وكان حمل معه الميرة والعلوفات فأقام في رغد، وبثّ السراة في طلب أبي ثعلب وراسله في ضمان البلاد على عادته فلم يجبه فسار إلى نصيبين ومعه المرزبان بن بختيار وأبو إسحق وطاهرأخو بختيار وأمّهم فبعث عضد الدولة معسكراً إلى جزيرة ابن عمر مع حاجبه أبي عمر لحرب طغان، وعسكراً إلى نصيبين مع أبي الوفاء طاهر بن محمد ففارقها أبو ثعلب إلى ميافارقين واتّبعه أبو الوفاء إليها فامتنعت عليه. ولحق أبو ثعلب بأردن الروم ثم بالحسنية من أعمال الجزيرة، وتتبع أبو ثعلب قلاعه وأخذ أمواله في كواشي وغيرها، وعاد إلى ميافارقين. ثم سار عضد الدولة إليه بنفسه واستأمن إليه كثير من أصحابه، ورجع إلى الموصل وبعث العسكر في اتباعه فدخل بلاده فصاهره ورد الرومي المملك عليهم في غير بيت الملك ليستعين به على أمره واتبعه عسكر عضد الدولة فهزمهم ونجا إلى بلاد الروم لمساعدة

ورد على شأنه لّما يؤمّل من نصرته إياه. واتفق أن ورداً انهزم فيئس منه أبو ثعلب وعاد إلى بلاد الإِسلام ونزل بآمد شهرين، حتى فتح عضد الدولة جميع بلاده كما يذكر في أخبار دولتهم، واستخلف أبا الوفاء على الموصل، وعاد إلى بغداد، وانقطع ملك بني حمدان عن الموصل حيناً من الدهر.

وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة:

ثم توفي عضد الدولة في شوال سنة إثنتين وسبعين لخمس سنين ونصف من ملكه، واجتمع القوّاد والأمراء على ولاية إبنه كاليجار المرزبان وبايعوه ولقّبوه صمصام الدولة. وجاءه الطائع معزياً في أبيه، وبعث أخويه أبا الحسين أحمد وأبا ظاهر فيروزشاه فانتقض أخوهم شرف الدولة بكرمان في فارس، وسبق إليها أخويه وملكها وأقاما بالأهواز، وقطع خطبة صمصام الدولة أخيه وخطب لنفسه، وتلقب تاج الدولة. وبعث إليه صمصام الدولة عسكراً صحبة علي بن دنقش حاجب أبيه، وبعث شرف الدولة عسكره مع الأمير أبي الأغّر دفليس بن عفيف الأسدي والتقيا عند قرقوب فانهزم ابن دنقش في ربيع سنة ثلاث وسبعين وأسر واستولى أبو الحسن على الأهواز ورامهرمز وطمع في الملك.ثم أن أسفار بن كردويه من أكابر الديلم قام بدعوة شرف الدولة ببغداد سنة خمس وسبعين، واستمال كثيراً من العسكر، واتفقوا على ولاية أبي نصر بن عضد الدولة نائباً عن أخيه شرف الدولة، وراسلهم صمصام الدولة فى الرجوع عن ذلك فلم يزدهم إلا تمادياً. وأجابه فولاد بن مابدرار أنفة من متابعة أسفار وقاتله فهزمه، وأخذ أبا مضل أسيراً وأحضره عند أخيه صمصام الدولة، واتهم وزيره ابن سعدان بمداخلتهم فقتله، ومضى أسفار إلى أبي الحسين بن عضد الدولة وباقي الديلم إلى شرف الدولة. وسار شرف الدولة إلى الأهواز فملكها من يد أخيه الحسين. ثم ملك البصرة من يد أخيه أبي طاهر، وراسله صمصام الدولة في الصلح فاتفقوا على الخطبة لشرف الدولة بالعراق، وبعث إليه بالخلع والألقاب من الطائع.

نكبة صمصام الدولة وولاية أخيه شرف الدولة:

لّما ملك شرف الدولة من يد أخيه أبي طاهر سار إلى واسط فملكها، وعمد صمصام الدولة إلى أخيه أبي نصر، وكان محبوساً عنده فأطلقه وبعثه إلى أخيه شرف الدولة

بواسط يستعطفه به فلم يلتفت إليه. وجزع صمصام الدولة واستشار أصحابه في طاعة أخيه شرف الدولة فخوفوه عاقبته وأشار بعضهم بالصعود إلى عكبراً، ثم منها إلى الموصل وبلاد الجبل حتى يحدث من أمر الله في فتنة بين الأتراك والديلم أو غير ذلك ما يسهل العود. وأشار بعضهم بمكاتبة عمه فخر الدولة والمسير على طريق أصبهان فيخالف شرف الدولة إلى فارس فى بما يقع الصلح على ذلك. فأعرض صمصام الدولة عن ذلك كله وركب البحر إلى أخيه شرف الدولة فتلقاه وأكرمه. ثم قبض عليه لأربع سنين من إمارته، وسار إلى بغداد في شهر رمضان من سنة ست وسبعين فوصلها وأخوه صمصام الدولة في اعتقاله. واستفحل ملكه واستطال الديلم على الأتراك بكثرتهم فانهم بلغوا خمسة عشر ألفاً والأتراك ثلاثة آلاف. ثم كثرت المنازعات بينهم، وغضّ الديلم بالأتراك وأرادوا إعادة صمصام الدولة إلى الملك. ثم اقتتلوا فغلبهم الديلم وقتلوا منهم وغنموا أموالهم، وسار بعضهم فذهب في الأرض، ودخل الآخرون مع شرف الدولة إلى بغداد، وخرج الطائع لتلقيه وهنأه وأصلح شرف الدولة بين الفريقين، وبعث صمصام الدولة إلى فارس فاعتقل بها واستوزر شرف الدولة أبا منصور بن صالحان.

ابتداء دولة باد وبني مروان بالموصل:

قد تقدم لنا أن عضد الدولة استولى على ملك بني حمدان بالموصل سنة سبع وستين، ثم استولى على ميافارقين وآمد وسائر ديار بكر من أعمالهم، وعلى ديار مضر أيضاً من أعمالهم سنة ثمان وستين، وولى عليها أبا الوفاء من قواده، وذهب ملك بني حمدان من هذه النواحي. وكان في ثغور ديار بكر جماعة من الأكراد الحميدية مقدم أبو عَبْد الله الحسين بن دوشتك، ولقبه باد، وكان كثير الغزو بتلك البلاد وإخافة سُبُلها. وقال ابن الأسثير: حدثني بعض أصدقائنا من الأكراد الحميدية أن إسمه باد وكنيته أبو شجاع وأن الحسين هو أخوه وأن أول أمره أنه ملك أرجيش من بلاد أرمينية فقوي اه.ولما ملك عضد الدولة الموصل حضرعنده وهمّ بقبضه، ثم سأل عنه فافتقده وكفّ عن طلبه. فلما مات عضد الدولة استفحل أمره واستولى على ميافارقين، وكثير من ديار بكر،ثم على نصيبين. وقال ابن الأثير سار من أرمينية إلى ديار بكر فملك ثم ميافارقين، وبعث صمصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعيد بهرام بن أردشير فهزمهم وأسر جماعة منهم، فبعث عساكر أخرى مع أبي القاسم سعيد بن الحاجب فلقيهم في بلد كوَاشي وهزمهم، وقتل منهم وأسر، ثم قتل الأسرى صبراً. ونجا سعيد إلى الموصل وباد

في أتباعه فثار به أهل الموصل، نفوراً من سوء سيرة الديلم فهرب منها ودخل باد وملك الموصل. وحدث نفسه بالمسير إلى صمصام الدولة ببغداد وانتزاع بغداد من يد الديلم واحتفل فيه ولقيهم باد في صفر من سنة أربع وسبعين فهزموه وملكوا الموصل، ولحق باد بديار بكر وجمع عليه عساكر.وكان بنو سيف الدولة بن حمدان بحلب قد ملكها معهم سعد الدولة ابنه بعد مهلكه فبعث إليه صمصام الدولة أن يكفيه أمر باد على أن يسلم إليه ديار بكر فبعث سعد الدولة إليه جيشاً فلم يكن لهم طاقة، وزحفوا إلى حلب فبعث سعد الدولة من اغتاله في مرقده بخيمته من البادية، وضربه فاعتل واشفى على الموت، وبعث إلى سعد وزياد الأميرين بالموصل فصالحهما على أن تكون ديار بكر والنصف من طور عبدين لباد، ورجع زياد إلى بغداد وهو الذي جاء بعساكر الديلم وانهزم باد أمامه. ثم توفي سعد الحاجب بالموصل سنة سبع وسبعين فتجدد لباد الطمع في ملكها، وبعث شرف الدولة على الموصل أبا نصر خواشاذه فدخل الموصل واستمد العساكر والأموال فأبطأت عنه فدعا العرب من بني عقيل وبني نمير، وأقطعهم البلاد ليدافعوا

عنها.واستولى باد على طور عبدين وأقام بالجبل، وبعث أخاه في عسكر لقتال العرب فانهزم وقتل. وبينما خواشاذه يتجهز لقتال باد جاءه الجند بموت شرف الدولة. ثم جاء أبو طاهر إبراهيم وأبو عَبْد الله الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان أميرين على الموصل من قبل بهاء الدولة، وبقيت في ملكهما إلى سنة إحدى وثمانين فبعث بهاء الدولة عسكراً مع أبي جعفر الحجاج بن هرمز فملكها وزحف إليه أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل فقاتله وبالغ في مدافعته، واستمد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير أبا القاسم علي بن

أحمد وسار أول سنة إثنتين وثمانين وكتب إلى أبي جعفر بالقبض عليه بسعاية ابن المعلم، وشعر الوزير بذلك فصالح أبا الرواد ورجع ووجد بهاء الدولة قد قبض على ابن المعلم وقتله.

وفاة شرف الدولة وملك بهاء الدولة:

ثم توفي شرف الدولة أبو الفوارس شرزيك بن عضد الدولة في جمادى سنة تسع وسبعين لسنتين وثمانية أشهر من إمارته، ودفن بمشهد علي بعد أن طالت علّته

بالإستسقاء، وبعث وهو عليل إلى أخيه صمصام الدولة بفارس فشمله وبعث إبنه أبا علي إلى بلاد فارس، ومعه الخزائن والعدد وجملة من الأتراك، وسئل شرف الدولة في العهد فملكه وأبى أن يعهد، واستخلف أخاه بهاء الدولة لحفظ الأمور في حياته. فلما مات قعد في المملكة وجاء الطائع للعزاء، وخلع عليه للسلطنة فأقرّ أبا منصور بن صالحان على وزارته، وبعث أبا طاهر إبراهيم وأبا عَبْد الله الحسين ابني ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل، وكان في خدمته شرف الدولة فاستأذنا بهاء الدولة بعد موته في الإصعاد إلى الموصل فأذن لهما. ثم ندم على ما فرط في أمرهما، وكتب إلى خواشاذه بمدافعتهما فامتنعا وجاآ ونزلا بظاهر الموصل.ونار أهل الموصل بالديلم والأتراك وخرجوا إلى بني حمدان، وقاتلوا الديلم فهزموهم، وقتل الديلم كثيراً منهم، واعتصم الباقون بدار الإمارة فأخرجوهم على الأمان ولحقوا ببغداد، وملك بنو حمدان الموصل. وكان أبو علي بن شرف الدولة لّما انصرف إلى فارس بلغه موت ابنه بالبصرة، فبعث العيال والأموال في البحر إلى أرجان وسار هو إليها. ثم سار إلى شيراز فوافاه بها عمه صمصام الدولة وأخوه أبو طاهر قد أطلقهما الموكلون بهما ومعهما فولاد، وجاؤا إلى شيراز، واجتمع عليهم الديلم، وخرج أبو علي إلى الأتراك فاجتمعوا عليه، وقاتل صمصام الدولة والديلم أياماً. ثم سار إلى نسا فملكها وقتل الديلم بها. ثم سار إلى أرجان وبعث الأتراك إلى شيراز لقتال صمصام الدولة فنهبوا البلد وعادوا إليه بأرجان. ثم بعث بهاء الدولة إلى علي ابن أخيه يستقدمه، واستمال الأتراك سرا فحملوا أبا علي على المسير إليه فسار في جمادى سنة ثمانين فأكرمه ثم قبض عليه وقتله. ثم وقعت الفتنة ببغداد بين الأتراك والديلم، واقتتلوا خمسة أيام. ثم راسلهم بهاء الدولة في الصلح فلم يجيبوا وقتلوا رسله فظاهر الأتراك عليهم فغلبوهم، واشتدت شوكة الأتراك من يومئذ وضعف أمر الديلم، وصالح بينهم على ذلك. وقبض على بعض الديلم وافترقوا.

خروج القادر إلى البطيحة :

كان إسحق بن المقتدر لّما توفي ترك إبنه أبا العباس أحمد الذي لقّب بالقادر فجرت بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة، ومرض الطائع مرضاً مخوفاً ثم أبلّ فسعت تلك الأخت بأخيها، وأنه طلب الخلافة في مرض الطائع فأنفذ أبا الحسين بن حاجب النعمان في جماعة للقبض عليه، وكان بالحريم الظاهري فغلبهم النساء عليه، وخرج من داره متستراً. ثم لحق بالبطيحة ونزل على مهذب الدولة فبالغ في خدمته إلى أن أتاه بشيرالخلافة.

فتنة صمصام الدولة:

لّما تغلّب صمصام الدولة على بلاد فارس، وجاء أبو علي شرف الدولة إلى عمّه بهاء الدولة فقتله كما ذكرنا، سار بهاء الدولة من بغداد إلى خوزستان سنة ثمانين وثلثمائة قاصداً بلاد فارس. واستخلف أبا نصر خواشاذه على بغداد. ولما بلغ خوزستان أتاه نعي أخيه أبي طاهر فجلس للعزاء له. ثم سار إلى أرجان فملكها وأخذ ما فيها من الأموال، وكان ألف ألف دينار وثمانية آلاف درهم وكثيراً من الثياب والجواهر، وشغب الجند لذلك فأطلق تلك الأموال كلها لهم؟ ثم سارت مقدمته وعليها أبو العلاء بن الفضل إلى النوبندجان، وبها عسكر صمصام الدولة فانهزموا وثبت أبو العلاء بن الفضل في نواحي فارس.ثم بعث صمصام الدولة عسكره وعليهم قولاد بن مابدان فهزموا أبا العلاء وعاد إلى أزجان، وجاءه صمصام الدولة من شيراز إلى قولاد، ثم وقع الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأزجان ولبهاء الدولة خوزستان وما وراءها من ملك العراق، وأن يكون لكل واحد منهما اقطاع في بلد صاحبه، وتعاقدا على ذلك، ورجع بهاء الدولة إلى بغداد فوجد الفتنة بين أهل السنة والشيعة بجانب بغداد، وقد كثر القتل والنهب والتخريب فأصلح ذلك. وكان قبل سيره إلى خوزستان قبض على وزيره أبي منصور بن صالحان، واستوزر أبا نصر سابور بن اردشير، وكان الحكم والتدبير في دولته لأبي الحسين بن المعلّم.

خلع الطائع وبيعة القادر:

ثم أن بهاء الدولة قلّت عنده الأموال وكثر شغب الجند ومطالباتهم، وقبض على

وزيره سابور فلم يغن عنه، وامتدّت عيناه إلى أموال الطائع وهمّ بالقبض عليه، وحسن له ذلك أبو الحسين بن المعلّم الغالب على هواه فتقدّم إلى الطائع بالجيوش لحضوره في خدمته فجلس وجلس بهاء الدولة على كرسيّ، ثم جاء بعض الديلم يقبّل يد الطائع فجذبه عن سريره وأخرجه، ونهب قصور الخلافة، وفشا النهب في الناس، وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة فأشهد عليه بالخلع سنة إحدى وثمانين لسبع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه إلى البطيحة ليحضروا القادر بالله أبا العبّاس أحمد بن إسحق بن المقتدر ليبايعوه فجاؤا به بعد أن بايع مهذّب الدولة صاحب البطيحة في خدمته، وسار بهاء الدولة وأعيان الناس لتلقّيه فتلقّوه وساروا في خدمته، ودخل دار الخلافة لإثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وخطب له صبيحتها، وكانت مدّة إقامته بالبطيحة ثلاث سنين غير شهر، ولم يخطب له بخراسان، وأقاموا على بيعة الطائع فأنزله بحجرة من قصره، ووكّل عليه من يقوم بخدمته على أتمّ الوجوه، وأجرى أحواله على ما كان عليه في الخلافة إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعين فصلّى عليه ودفنه.

ملك صمصام الدولة الأهواز وعودها لبهاء الدولة ثم استيلاؤه ثانيا عليها:

قد تقدم لنا ما وقع بين بهاء الدولة وصمصام الدولة من الصلح على أن يكون له فارس ولبهاء الدولة خوزستان وما وراءها، وذلك سنة ثمان. ولما كانت سنة ثلاث وثمانين تحيل بهاء الدولة فبعث أبا العلاء عَبْد

الله بن الفضل إلى الأهواز على أن يبعث إليه الجيوش مفترقة، فإذا اجتمعت كبس بلاد فارس على حين غفلة. وشعر صمصام الدولة بذلك قبل اجتماع العساكر فبعث عساكره إلى خوزستان؛ ثم جاءت عساكر العراق والتقوا فانهزم أبو العلاء، وحمل إلى صمصام الدولة أسيراً فاعتقله، وبعث بهاء الدولة وزيره أبا نصر بن سابور إلى واسط يحاول له جمع المال فهرب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة.ثم كثر شغب الديلم على بهاء الدولة ونهبوا دار الوزير نصر بن سابور، واستعفى واستوزر أبا القاسم عليّ بن أحمد. ثم هرب، وعاد سابور إلى الوزارة وأصلح الديلم، ثم أنفذ بهاء الدولة عسكره إلى الأهواز سنة أربع وثمانين وعليهم طغان التركي، وانتهوا إلى السوس فارتحل عنها أصحاب

صمصام الدولة وملكها طغان، وكان أكثر أصحابه الترك وأكثر أصحاب صمصام الدولة الديلم، ومعه تميم واشد فزحف إلى طغان بالأهواز وأسرى من تستر ليكبس الأتراك الذين مع طغان فقتل في طريقه، وأصبح دونهم بمرأى منهم فركبوا لقتالهم وأكمنوا له، ثم قاتلوه فهزموه وفتكوا في الديلم بالقتل حرباً وصبراً. وجاء الخبر إلى بهاء الدولة بواسط فسار إلى الأهواز فترك بها طغان، ورجع ولحق صمصام الدولة بفارس فاستلحم من وجد بها من الأتراك، وهرب فلهم إلى كرمان واستأذنوا ملك السند في اللحاق بأرضه فأذن لهم، ثم ركب لتلقيهم فقتلهم عن آخرهم. ثم جهز صمصام الدولة عساكره إلى الأهواز مع العلاء بن الحسين، وكان أفتكين برامهرمز من قبل بهاء الدولة مكان أبي كاليجار المرزبان بن سفهيعون، وجاء بهاء الدولة إلى خوزستان للعلاء قائد صمصام الدولة، وكاتبه وكاتب أفتكين وابن مكرم إلى أن قرب منهم، وملك البلد من أيديهم وأقاموا بظاهرها، واستمدوا بهاء الدولة فأمدهم بثمانين من الأتراك فقتلوهم عن آخرهم، وسار بهاء الدولة نحو الأهواز، ثم عاد إلى البصرة، وعاد ابن مكرم إلى عسكر مكرم والعلاء والديلم في اتّباعه إلى أن جاوزوا تستر إليه فاقتتلوا طويلاً وأصحاب بهاء الدولة من تستر إلى رامهرمز، وهم الأتراك وأصحاب صمصام الدولة من تستر إلى أرجان فاقتتلوا ستة أشهر، ورجعوا إلى الأهواز، ثم رحل الأتراك إلى واسط، واتبعهم العلاء قليلاً، ثم رجع وأقام بعسكر مكرم.

ملك صمصام الدولة البصرة:

لّما رحل بهاء الدولة إلى البصرة استأمن كثير من الديلم الذين معه إلى العلاء نحو من أربعمائة، فبعثهم مع قائده السكرستان إلى البصرة، وقاتلوا أصحاب بهاء الدولة،

ومال إليهم أهل البلد ومقدّمهم أبو الحسن بن أبي جعفر العلويّ، وارتاب بهم بهاء الدولة فهرب الكثير منهم إلى السكرستان، وحملوه في السفن فأدخلوه البصرة. وخرج بهاء الدولة وأصحابه فكتب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة يغريه بالبصرة فبعث إليها جيشاً مع قائده عَبْد الله بن مرزوق فغلب عليها السكرستان، وملكها المهذب الدولة، ثم عاد السكرستان وقاتلها، وكاتب مهذب الدولة بالصلح والطاعة والخطبة له بالبصرة، وأعطى ابنه رهينة على ذلك فأجابه وملك البصرة وعسف بهم، وكان يظهر طاعة

صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة.ثم أن العلاء بن الحسن نائب صمصام الدولة بخوزستان توفي بعسكر مكرم فبعث مكانه أبا علي إسماعيل بن أستاذ هرمز، وسار إلى جنديسابور فدفع عنها أصحاب بهاء الدولة، وأزاح الأتراك عن ثغر خراسان جملة، وعادوا إلى واسط، وكاتب جماعة منهم ففزعوا إليه، ثم زحف إليهم أبو محمد مكرم والأتراك وجرت بينهم وقائع؛ ثم انتقض أبو علي إسمعيل بن أستاذ هرمز، ورجع إلى طاعة بهاء الدولة وهو بواسط سنة ثمان وثمانين فاستوزره ودبر أمره واستدعاه إلى مظاهرة قائده ابن مكرم بعسكر مكرم فسار إليه، وكانت من إسمعيل خديعة تورط فيها بهاء الدولة، واستمد بدر بن حسنويه فأمده بعض الشيء، وكاد يهلك، ثم جاءه الفرج بقتل صمصام الدولة.

مقتل صمصام الدولة:

كان صمصام الدولة بن عضد الدولة مستولياً على فارس كما ذكرناه، وكان أبو القاسم وأبو نصر ابنا بختيار محبوسين ببعض قلاع فارس فجرد الموكلين بهما في القلعة وأخرجوا عنها، واجتمع إليهما من الأكراد. وكان جماعة من الديلم استوحشوا من صمصام الدولة لّما أسقطهم من الديوان فلحقوا بابني بختيار، وقصدوا أزجان، وتجهز صمصام الدولة إليهم. وكان أبو علي بن استاذهرمز مقيماً بنسا فثار به الجند، وحبسه ابنا بختيار، ثم نجا، وقصد صمصام الدولة القلعة التي على شيراز ليمتنع فيها إلى أن يأتيه المدد فلم يمكنه أن يأتيها من ذلك، وأشار عليه باللحاق بأبي علي بن أستاذهرمز أو بالأكراد، وجاءته منهم طائفة فخرج معهم بأمواله فنهبوه وسار إلى الرودمان على مرحلتين من شيراز. وجاء أبو النصر بن بختيار إلى شيراز فقبض صاحب الرودمان على صمصام الدولة، وأخذه منه أبو نصر وقتله في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين لتسع سنين من إمارته على فارس.

استيلاء بهاء الدولة علي فارس:

ولما قتل صمصام الدولة، وملك إبنا بختيار بلاد فارس، كتبا إلى أبي علي بن أستاذهرمز في الأهواز بأخذ الطاعة لهما من الديلم، ومحاربة بهاء الدولة فخافهما أبو علي بما كان من قتله أخويهما، وأغرى الديلم بطاعة بهاء الدولة وراسله واستحلفه لهم فحلف وضمن لهم غائلة الأتراك الذين معه، وأغراهم بثأر أخيه من إبني بختيار فدخلوا في طاعته، وجاءه وفد من أعيانهم فاستوثقوا منه وكتبوا إلى من كان بالسوس منهم بذلك. وركب بهاء الدولة إلى نائب السوس فقاتلوه أولاً ثم اجتمعوا عليه وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان، وملكوا سائر بلاد خوزستان. وسار أبو علي بن إسماعيل إلى شيراز وقاتلهما، وتسرب إليه أصحاب ابنى بختيار فاستولى على شيراز سنة تسع وثمانين، ولحق أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم وأبو القاسم ببدر بن حسنويه، ثم بالبطيحة، وكتب أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح فجاءه وترك شيراز وأحرق قرية الرودمان حيث قتل أخوه صمصام الدولة، واستأصل أهلها، وبعث عسكراً مع أبي الفتح إلى جعفر بن أستاذهرمز إلى كرمان فملكها.ولما لحق أبو القاسم بن بختيار ببلاد الديلم كاتب من هنالك الديلم

الذين بكرمان وفارس تسلمهم فأجابوه وسار إلى بلاد فارس، واجتمع عليه كثير من الزط والديلم والأتراك، ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن أستاذهرمز فهزمه إلى السرجان. ومضى ابن بختيار إلى جيرفت فملكها وأكثر كرمان، وبعث بهاء الدولة الموفق بن علي بن إسماعيل في العساكر إلى جيرفت فاستأمن إليه ما كان بها من أصحاب بختيار، وملكها وتجرد في جماعة من شجعان أصحابه لاتباع ابن بختيار فلحقه بدارين، وقاتله فغدر به بعض أصحابه فقتله وحمل رأسه إلى الموفق، واستولى على بلاد كرمان وإسماعيل عليها، وعاد إلى بهاء الدولة فتلقاه وعظمه واستعفى الموفق من الخدمة فلم يعفه، ولجّ الموفق في ذلك فقبض عليه بهاء الدولة، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على ذويه، ثم قتله سنة أربع وتسعين، واستعمل بهاء الدولة أبا محمد مكرما على عمان.

الخبر عن وزراء بهاء الدولة:

قد ذكرنا أن بهاء الدولة كان استوزر أبا نصر بن سابور بن أردشير ببغداد، وقبض على وزيره أبي منصور بن صالحان قبل مسيره إلى خوزستان، وأن أبا الحسن بن المعلّم

كان يدّبر دولته وذلك منذ سنة ثمانين فاستولى ابن المعلّم على الأمور وانصرفت إليه الوجوه فأساء السيرة،وسعى في أبي نصر خواشاذه وأبي عَبْد الله بن طاهر فقبضهما بهاء الدولة مرجعه من خورستان، وشغب الجند وطلبوا تسليمه إليهم، ولاطفهم فلم يرجعوا فقبض عليه وسلّمه إليهم فقتلوه، وذلك سنة إثنتين وثمانين. ثم قبض على وزيره أبي نصر بالأهواز سنة إحدى وثمانين، واستوزر أبا القاسم عَبْد العزيز بن يوسف، ثم استوزر بعده أبا القاسم علي بن أحمد وقبض عليه سنة إثنتين وثمانين لإتهامه بمداخلة الجند في أمر ابن المعلم، واستوزر أبا نصر بن سابور، وأبا منصور بن صالحان جميعاً. وشغب الجند على أبي نصر ونهبوا داره سنة ثلاث وثمانين فاستعفى رفيقه ابن صالحان فاستوزر أبا القاسم علي بن أحمد، ثم هرب، وعاد أبو نصر إلى الوزارة بعد أن أصلح أمور الديلم فاستوزر مكانه الفاضل، وقبض عليه سنة ست وثمانين، واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير فبقي شهرين، وفّرق أموال بهاء الدولة في القوّاد ثم هرب إلى البطيحة فاستوزر بهاء الدولة مكانه عيسى بن ماسرخس.

ولاية العراق:

كان بهاء الدولة منذ استولى على فارس سنة تسع وثمانين أقام بها، وولّى على خورستان والعراق أبا جعفر الحجّاج بن هرمز فنزل بغداد ولقبه عميد الدولة فساءت سيرته، وفسدت أموال البلاد وعظمت الفتنة ببغداد بين الشيعة وأهل السنة، وتطاول الدعار والعيارون فعزله بهاء الدولة سنة تسعين، وولى مكانه أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقبه عميد الجيوش فأحسن السيرة وحسم الفتنة وحمل إلى بهاء الدولة أموالا جليلة. ثم ولى مكانه سنة إحدى وتسعين أبا نصر سابور وثار به الأتراك ببغداد فهرب منهم ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ والأتراك، وكان أهل السنة مع الأتراك. ثم مشى الأعلام بينهم في الصلح فتهادنوا.

انقراض دول وابتداء أخري في النواحي:

وفي سنة ثمانين ابتدأت دولة بني مروان بديار بكر بعد مقتل خالهم باد، وقد مر ذكره. وفي سنة إثنتين وثمانين انقرضت دولة بني حمدان بالموصل وابتدئت دولة بني المسيب من عقيب كما نذكرها. وفي سنة أربع وثمانين انقرضت دولة بني سامان من

خراسان وابتدئت دولة بني سبكتكين فيها. وفي سنة تسع وثمانين انقرضت دولة بني سامان مما وراء النهر وانقسمت بنو سبكتكين وملك الخاقان ملك الترك. وفي سنة ثمان وثمانين ابتدأت دولة بني حسنويه الأكراد بخراسان. وفي سنة تسع وتسعين كان ابتداء دولة بني صالح بن مرداس من بني كلاب بحلب كما نستوفي سياقة أخبارهم في دولهم منفردة كما شرطناه.

ظهور بني مزيد:

وفي سنة سبع وثمانين خرج أبو الحسن علي بن مزيد في قومه بني أسد، ونقض طاعة بهاء الدولة فبعث إليه العساكر فهرب أمامهم وأبعد حتى امتنع عليهم. ثم بعث في الصلح والاستقامة وراجع الطاعة. ثم رجع إلى انتقاضه سنة اثنتين وتسعين، واجتمع مع قرواش بن المقلد صاحب الموصل وقومه بني عقيل فحاصروا المدائن. ثم بعث إليهم أبو جعفر الحجاج وهو نائب بغداد العساكر فدفعوهم عنها، وخرج الحجاج، واستنجد خفاجة فجاء من الشام وقاتل بني عقيل وبني أسد فهزموه. ثم خرج إليهم ولقيهم بنواحي الكوفة فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر، واستباح ملك بني مزيد، وظهر في بغداد في مغيب أبي جعفر من الفتنة والفساد والقتل والنهب ما لا يحصى فكان ذلك السبب في أن بعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر أستاذ هرمز كما مر، ولقبه عميد الجيوش فسكن الفتنة وأمن الناس. ولما عزل أبو جعفر أقام بنواحي الكوفة، وارتاب به أبو علي فجمع الديلم والأتراك وخفاجة وسار إليه، واقتتلوا بالنعمانية، وذلك سنة ثلاث وتسعين فانهزم أبو جعفر وسار أبو علي إلى خوزستان، ثم إلى السوس فعاد أبو جعفر إلى الكوفة ورجع أبو علي في اتباعه فلم تزل الفتنة بينهما، وكل واحد منهما يستنجد ببني عقيل وبني أسد وخفاجة، حتى أرسل بهاء الدولة عن أبي علي وبعثه إلى البطيحة لفتنة بني واصل كما نذكره في دولتهم. ولما كانت سنة سبع وتسعين جمع أبو جعفر وسار لحصار بغداد، وأمده ابن حسنويه أمير الأكراد، وذلك أن عميد الجيوش ولى على طريق خراسان أبا الفضل بن عنان، وكان عدو البدر بن حسنويه فارتاب لذلك، واستدعى أبا جعفر، وجمع له جموعاً من أمراء الأكراد، منهم هندي بن سعد وأبو عيسى شادي بن محمد، ورزام بن محمد. وكان أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي انصرف عن بهاء الدولة مغاضباً له فسار معهم، وكانوا

عشرة آلاف، وحاصروا بغداد وبها أبو الفتح بن عنان شهراً. ثم جاءهم الخبر بانهزام ابن واصل بالبطيحة الذي سار عميد الجيوش إليه فافترقوا وعاد ابن مزيد إلى بلده، وسار أبو جعفر إلى حلوان، وأرسل بهاء الدولة في الطاعة، وحضر عنده بتستر فأعرض عنه رغباً لعميد الجيوش.

فتنة بني مزيد وبني دبيس:

كان أبو الغنائم محمد بن مزيد مقيماً عند أصهاره بني دبيس في جزيرتهم بخوزستان فقتل أبو الغنائم بعض رجالاتهم، ولحق بأخيه أبي الحسن فانحدر أبو الحسن إليهم في ألفي فارس، واستمد عميد الجيوش فأمده بعسكر من الديلم، ولقيهم فانهزم أبو الحسن، وقتل أخوه أبو الغنائم.

ظهور دعوة العلوية بالكوفة والموصل :

وفي أوّل المائة الخامسة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل لصاحب مصر الحاكم العلوي في جميع أعماله: وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة فبعث القادرالقاضي أبا بكر الباقلاني إلى بهاء الدولة يعرفه فأكرمه، وكتب إلى عميد الجيوش بمحاورة قرواش، وأطلق له مائة ألف دينار يستعين بها. وسار عميد الجيوش لذلك فراجع قرواش الطاعة، وقطع خطبة العلويين، وكان ذلك داعياً في كتابة المحضر بالطعن في نسب العلوية بمصر، شهد فيه الرضي والمرتضى وابن البطحاوي وابن الأزرق والزكي وأبو يعلى عمر بن محمد، ومن العلماء والقضاة ابن الأكفاني وابن الجزري وأبو العباس الأبي وردي وأبو حامد الأسفرايني والكستلي والقدوري والصهيري وأبو عَبْد الله البيضاوي وأبو الفضل النسوي وأبو عَبْد الله النعمان فقيه الشيعة. ثم كتب ببغداد محضر آخر بمثل ذلك سنة أربع وأربعين وزيد فيه انتسابهم إلى الديصانية من المجوس وبني القداح من اليهود، وكتب فيه العلوية والعباسية والفقهاء والقضاة، وعملت به نسخ وبعث بها إلى البلاد.

وفاة عميد الجيوش وولاية فخر الملك:

كان عميد الجيوش أبو علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز، وكان أبو جعفر هذا من حجاب عضد الدولة وجعل ابنه أبا علي في خدمة ابن صمصام الدولة. فلما قتل رجع إلى

خدمة بهاء الدولة، ولما استولى الخراب على بغداد وظهر العيارون بعثه بهاء الدولة عليها فأصلحها وقمع المفسدين، ومات لثمان سنين ونصف من ولايته إلى أوّل المائة الخامسة. وولّى بهاء الدولة مكانه بالعراق فخر الملك أبا غالب فوصل بغداد وأحسن السياسة واستقامت الأمور به، واتفق لأول قدومه وفاة أبي الفتح محمد بن عنّان صاحب طريق خراسان بحُلوان لعشرين سنة من إمارته، وكان كثير الأجلاب على بغداد. فلما توفي ولّي ابنه أبو الشوك وقام مقامه فبعث فخر الملك العساكر لقتاله فهزموه إلى حُلوان. ثم راجع الطاعة وأصلح حاله.

مقتل فخر الملك وولاية ابن سهلان:

كان فخر الملك أبو غالب من أعظم وزراء بني بويه، وولي نيابة بغداد لسلطان الدولة خمس سنين وأربعة أشهر. ثم قبض عليه وقتله في ربيع سنة ست وأربعمائة، وولى مكانه أبا محمد الحسن بن سهلان ولقبه عميد أصحاب الجيوش. وسار سنة تسع إلى بغداد وجرد من الطريق مع طراد بن دبيس الأسدي في طلب مهارش ومضر ابني دبيس، وكان مضر قد قبض عليه قديماً بأمر فخر الملك، فأراد أن يأخذ جزيرة بني أسد منه ويوليها طراداً، فساروا عن المدار واتبعهم ولحق الحسن بن دبيس آخرهم فأوقع به واستباحه. ثم استأمن له مضر ومهارش فأمنهما وأشرك معهما طراداً في الجزيرة، ورجع وأنكر عليه سلطان الدولة فعله، ووصل إلى واسط والفتنة قائمة فأصلحها. ثم بلغه اشتداد الفتن ببغداد فسار وأصلحها، وكان أمر الديلم قد ضعف ببغداد وخرجوا إلى واسط.

الفتنة بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس:

قد ذكرنا أن سلطان الدولة لّما ملك بعد أبيه بهاء الدولة ولى أخاه أبا الفوارس على كرمان فلما سار إليها اجتمع إليه الديلم وحملوه على الانتقاض وانتزاع الملك من يد أخيه فسار سنة ثمان إلى شيراز. ثم سار منها ولقيه سلطان الدولة فهزمه، وعاد إلى كرمان، واتبعه سلطان الدولة فخرج هارباً من كرمان، ولحق محمود بن سبكتكين مستنجداً به فأكرمه وأمده بالعساكر، وعليهم أبو سعيد الطائي من أعيان قوّاده فسار إلى كرمان وملكها، ثم إلى شيراز كذلك، وعاد سلطان الدولة لحربه فهزمه وأخرجه من بلاد فارس إلى كرمان، وبعث الجيوش في أثره فانتزعوا كرمان منه. ولحق بشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب همذان، وترك ابن سبكتكين لأنه أساء معاملة قائده أبي سعيد الطائي. ثم فارق شمس الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة فأكرمه، وبعث إليه أخوه جلال الدولة من البصرة مالاً وثياباً، وعرض عليه المسير إليه فأبى وأرسل أخاه سلطان الدولة في المراجعة وأعاده إلى ولاية كرمان، وقبض سلطان الدولة سنة تسع على وزير بن فانجس وإخوته، وولى مكانه أبا غالب الحسن بن منصور.

خروج الترك من الصين :

وفي سنة ثمان وأربعين خرجت من المفازة التي بين الصين وما وراء النهر أمم عظيمة من الترك تزيد على ثلثمائة ألف خيمة، ويسمون الخيمة (جذكان)، ويتخذونها من الجلود. وكان معظمهم من الخطا قد ظهروا في ملك تركستان، فمرض ملكها طغان فساروا إليها وعاثوا فيها. ثم أبل طغان واستنفر المسلمين من جميع النواحي، وسار إليهم في مائة وعشرين ألفاً فهزموا أمامه، واتبعهم مسيرة ثلاثة أشهر، ثم كبسهم فقتل منهم نحواً من مائتي ألف، وأسر مائة ألف، وغنم من الدواب والبيوت وأواني الذهب والفضّة من معمول الصين ما لا يعبّر عنه.

ملك مشرف الدولة وغلبه على سلطان الدولة:

لم يزل سلطان الدولة ثابت القدم في ملكه بالعراق إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة فشغب عليه الجند ونادوا بشعار أخيه مشرف الدولة فأشير عليه بحبسه فعف عن ذلك، وأراد الإنحدار إلى واسط فطلبه الجند في الاستخلاف فاستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق، وسار إلى الأهواز فلما بلغ تستر استوزر سهلان، وقد كان اتفق مع أخيه مشرف الدولة الوزير ابن سهلان أن لا يستوزره فاستوحش لذلك مشرف الدولة، وبعث سلطان الدولة الوزير ابن سهلان ليخرجه من العراق فجمع أتراك واسط وأبا الأغردبيس بن علي بن مزيد، ولقي ابن سهلان عند واسط فهزمه وحاصره بها حتى اشتد حصاره، وجهده الحصار فصالحه، ونزل عن واسط فملكها في ذي الحجة من سنة إحدى عشرة. وسار الديلم الذين بواسط في خدمته، وسار أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة إلى وفاقه،وخطب له ببغداد، وقبض على ابن

سهلان وكحله. وسار سلطان الدولة إلى أرجان. ثم رجع إلى الأهواز، وثار عليه الأتراك الذين هنالك، ودعوا بشعار مشرف الدولة، وخرجوا إلى السابلة فأفسدوها. وعاد مشرف الدولة إلى بغداد فخطب له بها سنة إثنتي عشرة، وطلب منه الديلم أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوزستان فبعث معهم وزيره أبا غالب فلمّا وصلوا إلى الأهواز انتقضوا ونادوا بشعار سلطان الدولة، وقتلوا أبا غالب لسنة ونصف من وزارته. ولحق الأتراك الذين كانوا معه بطراد بن دبيس بالجزيرة. وبلغ سلطان الدولة قتل أبي غالب، وافتراق الديلم فأنفذ إبنه أبا كاليجار إلى الأهواز وملكها. ثم وقع الصلح بينهما على يد أبي محمد بن أبي مكرم، ومؤيد الملك الرخجي على أن تكون العراق لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة.واستوزر مشرف الدولة أبا الحسين بن الحسن الرخجي ولقبه مؤيد الملك بعد قتل أبي غالب ومصادرة إبنه أبي العباس. ثم قبض عليه سنة أربع عشرة بعد حول من وزارته بسعاية الأثير الخادم فيه، واستوزر مكانه أبا القاسم الحسين بن علي بن الحسين المغربي كان أبوه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان، وهرب إلى مصر وخدم الحاكم فقتله وهرب إبنه أبو القاسم هذا إلى الشام، وحمل حسان بن الفرج بن الجراح الطائي على نقض طاعة الحاكم، والبيعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي أمير مكة فاستقدمه إلى الرملة وبايعه. ثم خالفه وعاد إلى مكة، وقصد أبو القاسم العراق، واتصل بالوزير فخر الملك، وأمره القادر بإبعاده فلحق قرواش أمير الموصل، وكتب له ثم عاد إلى العراق وتنقلت به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرخجي، وكان خبيثاً محتالاً حسوداً. ثم قدم مشرف الدولة إلى بغداد سنة أربع عشرة، ولقيه القادر ولم يلق أحداً قبله.

الخبر عن وحشة الأكراد وفتنة الكوفة:

كان الأثير عنبر الخادم مستولياً في دولة مشرف الدولة الوزير أبي القاسم المغربي عديله في حملها فنقم الأتراك عليهما، وطلب من مشرف الدولة الخراج من بغداد خوفاً على أنفسهما فخرج معهما غضباً على الأتراك، ونزلوا على قرواش بالسنديَّة. واستعظم الأتراك ذلك، وبعثوا بالإعتذار والرغبة. وقال أبو

القاسم المغربي دخل بغداد إنما هو أربعمائة ألف، وخرجها ستمائة فاتركوا مائة واحتمل مائة فأجابوه إلى ذلك خداعاً. وشعر بوصولهم فهرب لعشرة أشهر من وزارته.ثم كانت فتنة بالكوفة بين العلوية والعباسية، وكان لأبي القاسم المغربي صهر وصداقة في العلوية فاستدعى العباسيون المغربي عليهم فلم يعدهم لمكان المغربي. وأمرهم بالصلح فرجعوا إلى الكوفة، واستمد كل واحد منهم خفاجة فأمدوهم وافترقوا عليهم، واقتتل العلوية والعباسية فغلبهم العلوية ولحقوا ببغداد، ومنعوا الخطبة يوم الجمعة، وقتلوا بعض قرابة العلوية الذين بالكوفة فعهد القادر للمرتضي أن يصرف أبا الحسن علي بن أبي طالب ابن عمر عن نقابة الكوفة، وبردّها إلى المختار صاحب العباسية. وبلغ ذلك المغربي عند قرواش بسرّ من رأى فشرع في إرغام القادر. وبعث القادر إلى قرواش يطرده فلحق بابن مروان في ديار بكر.

وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه جلال الدولة:

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة سنة ست عشرة في ربيع لخمس سنين من ملكه، وولّي مكانه بالعراق أخوه أبو طاهر جلال الدولة صاحب البصرة، وخطب له ببغداد، واستقدم فبلغ واسط. ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته، وخطب ببغداد في شوّال لإبن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة، وهو بخوزستان يحارب عمه أبا الفوارس صاحب كرمان. وسمع جلال الدولة بذلك فبادر إلى بغداد، ومعه وزيره أبو سعد بن ماكولا. ولقيه عسكرها فردّوه أقبح ردّ ونهبوا خزائنه فعاد إلى البصرة، واستحثوا أبا كاليجار فتباطأ لشغله بحرب عمه، وسار إلى كرمان لقتال عمه فملكها واعتصم عمه بالجبال. ثم تراسلا واصطلحا على أن تبقى كرمان لأبي الفوارس، وتكون بلاد فارس لأبي كاليجار.

قدوم جلال الدولة إلي بغداد:

ولما رأى الأتراك اختلال الأحوال، وضعف الدولة بفتنة العامّة، وتسلط العرب والأكراد بحصار بغداد، وطمعهم فيها، وأنّهم بقوا فوضى، وندموا على ما كان منهم في ردّ جلال الدولة اجتمعوا إلى الخليفة يرغبون إليه أن يحضر جلال الدولة من البصرة

ليقيم أمر الدولة فبعث إليه القاضي أبا جعفر السمناني بالعهد عليه، وعلى القوّاد فسار جلال الدولة إلى بغداد في جمادى من سنة ثمان عشرة. وركب الخليفة في الطيار لتلقّيه فدخل ونزل التجيبي، وأمر بضرب الطبل في أوقات الصلوات. ومنعه الخليفة من ذلك فقطعه مغاضباً. ثم أذن له الخليفة فيه فأعاده، وأرسل مؤيد الملك أبا علي الرخجي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش يستدعيه يعتذر عن الأتراك. ثم شغب الأتراك عليه سنة تسع عشرة، وحاصروه بداره، وطلبوا من الوزير أبي علي بن ماكولا أرزاقهم، ونهبوا دوره ودور الكتاب والحواشي. وبعث القادر من اصلح بينهم وبينه فسكن شغبهم. ثم خالفوا أبا كاليجار بن سلطان الدولة إلى البصرة فملكها، ثم ملك كرمان بعد وفاة صاحبها قوام الدولة أبي الفوارس ابن بهاء

الدولة كما نذكر في أخبارهم في دولتهم عند إفرادها بالذكر فنستوفي أخبارهم، ودول سائر بني بويه وبني وشمكير وبني المرزبان وغيرهم من الديلم في النواحي.

مسير جلال الدولة إلي الأهواز :

كان نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد صاحب الحلّة، ولم تكن الحلّة يومئذ بمدينة، قد خطب لأبي كاليجار لمضايقة المقلد بن أبي الأغر الحسن بن مزيد، وجمع عليه منيعا أمير بني خفاجة وعساكر بغداد فخطب هو لأبي كاليجار، واستدعاه لملك واسط، وبها الملك العزيز ابن جلال الدولة فلحق بالنعمانية وتركها، وضيق عليه نور الدولة من كل جهة فتفرق ناس من أصحابه وهلك الكثير من اثقاله. واستولى أبو كاليجار على واسط، ثم خطب له في البطيحة، وأرسل إلى قرواش صاحب الموصل، وعنده الأثير عنبر يستدعيهما إلى بغداد فانحدر عنبر إلى الكحيل ومات به. وقعد قرواش، وجمع جلال الدولة عساكره ببغداد، واستمد أبا الشوك وغيره، وانحدر إلى واسط، وأقام هنالك من غير قتال، وضاقت عليه الأحوال. واعتزم أبو كاليجار على مخالفته إلى بغداد، وجاءه كتاب أبي الشوك بزحف عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق، وبشير بالصلح والاجتماع لمدافعتهم فأنفذ أبو كاليجار الكتاب لجلال الدولة فلم ينته عن قصده، ودخل الأهواز فنهبها، وأخذ من دار الإمارة مائتي ألف دينار. واستباح العرب والأكراد سائر البلد، وحمل حريم كاليجار إلى بغداد سبياً فماتت أمه في الطريق.وسار أبو كاليجار لاعتراض جلال الدولة، وتخلف عنه دبيس

لدفع خفاجة عن أصحابه، واقتتلوا في ربيع سنة إحدى وعشرين ثلاثة أيام فانهزم أبو كاليجار، وقتل من أصحابه ألفان. ودبيس لّما فارق أبا كاليجار وصل إلى بلده وجمع إليه جماعة من قومه، وكانوا منتقضين عليه بالجامعين فأوقع بهم وحبس منهم وردهم إلى وفاقه. ثم لقي المقّد بن أبي الأغر وعساكر جلال الدولة فانهزم أمامهم وأسر جماعة من أصحابه، وسار منهزما إلى أبي سنان غريب ابن مكين فأصلح حاله مع جلال الدولة وأعاده إلى ولايته على ضمان عشرة آلاف دينار، وسمع بذلك المقلد فجمع خفاجة ونهبوا النيل وسورا وأحرقوا منازلها. ثم عبر المقلد إلى أبي الشوك فأصلح أمره مع جلال الدولة. ثم بعث جلال الدولة سنة إحدى وعشرين عسكره إلى المدار فملكها من يد أصحاب أبي كاليجار، واستباحوها، وبعث أبو كاليجار عسكره لمدافعتهم فهزموهم، وثار أهل البلد بهم فقتلوهم، ولحق من نجا منهم بواسط، وعادت المدار إلى أبي كاليجار.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانيا وانتزاعها منه:

لما استولى جلال الدولة على واسط نزل بها ولده، وبعث وزيره أبا علي بن ماكولا إلى البطائح فملكها. ثم بعثه إلى البصرة وبها أبو منصور بختيار بن علي من قبل أبي كاليجار، فسار في السفن وعليهم أبو عَبْد الله الشرابي صاحب البطيحة فلقي بختيار وهزمه. ثم سار الوزير أبو علي فى أثره في السفن فهزمه بختيار.

وسيق إليه أسيرا فأكرمه وبعثه إلى أبي كاليجار فأقام عنده، وقتله غلمانه خوفاً منه لقبيح منهم اطلع عليه. وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة ومكوساً فاضحة. ولما أصيب الوزير أبو علي بعث جلال الدولة من كان عنده من جند البصرة فقاتلوا عسكر أبي كاليجار، وهزموهم وملكوا البصرة، ونجا من كان بها إلى أبي منصور بختيار بالأبلة. وبعث السفن لقتاله من بالبصرة فظفر بهم أصحاب جلال الدولة فسار بختيار بنفسه وقاتلهم، وانهزم وقتل، وأخذ كثير من السفهاء. وعزم الأتراك بالبصرة على المسير إلى الأبلة، وطلبوا المال من العامل فاختلفوا وتنازعوا وافترقوا، ورجع صاحب البطيحة واستأمن آخرون إلى أبي الفرج بن مسافجس وزير أبي كاليجار. وجاء إلى البصرة فملكها. ثم توفي بختيار نائب الملك أبي كاليجار في البصرة، وقام بعده صهره أبو القاسم بطاعة أبي كاليجار في البصرة. ثم استوحش وانتقض، وبعث بالطاعة لجلال

الدولة، وخطب له، وبعث إلى ابنه العزيز بواسط يستدعيه فسار إليه وأخرج عساكر أبي كاليجار، وأقام معه إلى سنة خمس وعشرين والحكم لأبي القاسم. ثم أغراه الديلم به وأنه يتغلب عليه فأخرجه العزيز وامتنع بالأبلة وحاربهم أياماً، وأخرج العزيز عن البصرة، ولحق بواسط، وعاد أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

وفاة القادر ونصب القائم:

ثم توفي القادر بالله سنة إثنتين وعشرين وأربعمائة لإحدى وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وكانت الخلافة قبلها قد ذهب رونقها بجسارة الديلم والأتراك عليها فأعاد إليها أبهتها وجدّد ناموسها، وكان له في قلوب الناس هيبة. ولما توفي نصب للخلافة ابنه أبو جعفر عَبْد الله، وقد كان أبوه بايع له بالعهد في السنة قبلها لمرض طرفه وأرجف الناس بموته، فبويع الآن واستقّرت له الخلافة، ولقب القائم بأمر الله. وأول من بايعه الشريف المرتضى. وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليجار ليأخذ عليه البيعة، ويخطب له في بلاده فأجاب وبعث بالهدايا، ووقعت لأول بيعته فتنة ين أهلا السّنة والشيعة، وعظم الهرج والنهب والقتل، وخربت فيها أسواق، وقتل كثير من جباة المكوس. وأصيب أهل الكرخ، وتطرق الدعار إلى كبس المنازل ليلاً، وتنادى الجند بكراهية جلال الدولة، وقطع خطبته. ولم يجبهم القائم إلى ذلك، وفرق جلال الدولة فيهم الأموال فسكنوا، وقعد في بيته، وأخرج دوابه من الأصطبل وأطلقها بغير سائس ولا حافظ لقلة العلف. وطلب الأتراك منه أن يحملهم في كل وقت فأطلقها، وكانت خمسة عشر وفقد الجاري فطرد الطواشي والحواشي والأتباع، وأغلق باب داره، والفتنة تتزايد إلى آخر السنة.

وثوب الجند بجلال الدولة وخروجه من بغداد:

ثم جاء الأتراك سنة ست وعشرين إلى جلال الدولة فنهبوا داره وكتبه ودواوينه، وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهيلي فهرب إلى حلّة غريب بن مكين، وخرج جلال الدولة إلى عكبراً وخطبوا ببغداد لأبي

كاليجار وهو بالأهواز، واستقدموه فأشار عليه بعض أصحابه بالامتناع فاعتذر إليهم فأعادوا جلال الدولة. وساروا إليه معتذرين، وأعادوه بعد ثلاثة وأربعين يوماً. واستوزر أبا القاسم بن ماكولا، ثم عزله واستوزر

عميد الملك أبا سعيد عَبْد الرحيم. ثم أمره بمصادرة أبي المعمر بن الحسين البساسيري فاعتقله في داره، وجاء الأتراك لمنعه فضربوا الوزير ومزقوا ثيابه وأدموه. وركب جلال الدولة فأطفأ الفتنة وأخذ من البساسيري ألف دينار وأطلقه، واختفى الوزير.ثم شغب الجند ثانياً في رمضان، أنكروا تقديم الوزير أبي القاسم من غير علمهم، وأنه يريد التعرض لأموالهم فوثبوا به ونهبوا داره وأخرجوه إلى مسجد هنالك فوكلوا به فوثب العامة مع بعض القواد من أصحابه فأطلقوه، وأعادوه إلى داره، وذهب هو في الليل إلى الكرخ بحرمه ووزيره أبو القاسم معه. واختلف الجند في أمره وأرسلوا إليه بأن يملكوا بعض أولاده الأصاغر، وينحدر هو إلى واسط، وهو في خلال ذلك يستميلهم حتى فرق جماعتهم، وجاء الكثير إليه فأعادوه إلى داره، واستخلف البساسيري في جماعة للجانب الغربي سنة خمس وعشرين لاشتداد أمر العيارين ببغداد، وكثرة الهرج، وكفايته هو ونهضته.ثم عاد أمر الخلافة والسلطنة إلى أن اضمحل وتلاشى، وخرج بعض الجند إلى قرية فلقيهم أكراد وأخذوا دوابهم وجاؤا إلى بستان القائم فتعللوا على عماله بأنهم لا يدفعوا عنهم، ونهبوا ثمرة البستان، وعجز جلال الدولة من عتاب الأكراد وعقاب الجند، وسخط القائم أمره وتقدم إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل المراتب الدينية فرغب جلال الدولة من الجند أن يحملهم إلى ديوان الخلافة فحملوا وأطلقوا، وعظم أمر العيارين وصاروا في حماية الجند، وانتشر العرب في النواحى فنهبوها وافسدوا السابلة، وبلغوا جامع المنصور من البلد، وسلبوا النساء في المقبرة.

ولحق الوزير أبو سعيد وزير جلال الدولة بأبي الشوك مفارقا للوزارة، ووزر بعده أبا القاسم فكثرت مطالبات الجند عليه فهرب وأخذه الجند وجاؤا به إلى دار الملك حاسراً عارياً إلا من قميص خلق، وذلك لشهرين من وزارته، وعاد سعيد بن عَبْد الرحيم إلى الوزارة. ثم ثار الجند سنة سبع وعشرين بجلال الدولة وأخرجوه من بغداد بعد أن استمهلهم ثلاثاً فأبوا ورموه بالحجارة فأصابوه، ومضى إلى دار المرتضى بالكرخ. وسار منها إلى رافع بن الحسين بن مكن بتكريت، ونهب الأتراك داره، وقلعوا أبوابها، ثم أصلح القائم شأنه مع الجند وأعاده وقبض على وزيره أبي سعيد

بن عَبْد الرحيم، وهي وزارته السادسة. وفي هذه السنة نهى القائم عن التعامل بالدنانير المعزية، وتقدم إلى الشهود أن لا يذكروها في كتب التعامل.

الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار:

ترددت الرسل سنة ثمان وعشرين بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليجار حتى انعقد بينهما الصلح على يد القاضي أبي الحسن الماوردي وأبي عَبْد الله المردوسي، واستحلف كل واحد منهما للآخر، وأظهر جلال

الدولة سنة تسع وعشرين من القائم الخطاب بملك الملوك فرد ذلك إلى الفتيا، وأجازه القاضي أبو الطيب الطبري، والقاضي أبو عَبْد الله الصهيري والقاضي ابن البيضاوي وأبو القاسم الكرخي، ومنع منه القاضي أبو الحسن الماوردي ورد عليهم فأخذ بفتواهم، وخطب له بملك الملوك. وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وكان يتردد إليه. ثم انقطع عنه بهذه الفتيا، ولزم بيته من رمضان إلى النحر فاستدعاه جلال الدولة وحضر خائفاً، وشكره على القول بالحق، وعدم المحاباة، وقد عدت إلى ما تحب فشكره ودعا له، وأذن للحاضرين بالانصراف معه، وكان الاذن لهم تبعاً له.

استيلاء أبي كاليجار على البصرة:

وفي سنة إحدى وثلاثين بعث أبو كاليجار عساكره إلى البصرة مع العادل أبي منصور ابن مافّنة، وكانت في ولاية الظهير أبي القاسم*، وليها بعد بختيار، انتقض عليه مرة ثم عاد، وكان يحمل إلى أبي كاليجار كل سنة سبعين ألف دينار، وكثرت أمواله ودامت دولته. ثم تعرض ملا الحسين بن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان فكاتب أبا كاليجار وضمن البصرة بزيادة ثلاثين ألف دينار، وبعث أبو كاليجار العساكر مع ابن مسافية كما ذكرنا. وجاء المدد من عمان إلى البصرة، وملكوها وقبض على الظهير أبي القاسم، وأخذت أمواله، وصودر على مائتي ألف دينار فأعطاها. وجاء الملك أبو كاليجار البصرة فأقام بها أياماً وولى فيها ابنه غزّ الملوك، ومعه الوزير أبو الفرج بن فسانجس، ثم عاد إلى الأهواز وحمل معه الظهير.

شغب الأتراك علي جلال الدولة:

ثم شغب الأتراك على جلال الدولة سنة إثنتين وثلاثين، وخيموا بظاهر البلد، ونهبوا منها مواضع. وخيّم جلال الدولة بالجانب الغربي وأراد الرحيل عن بغداد فمنعه أصحابه فاستمد دبيس بن مزيد وقرواشاً صاحب الموصل فأمدّوه بالعساكر. ثم صلحت الأحوال بينهم، وعاد إلى داره، وطمع الأتراك وكثر نهبهم وتعدّيهم، وفسدت الأمور بالكلية.

دولة السلجوقية

ابتداء دولة السلجوقية:

قد تقدم لنا أن أمم الترك في الربع الشرقي الشمالي من المعمور: ما بين الصين إلى تركستان إلى خوارزم والشاش وفرغانة، وما وراء النهر بخارى وسمرقند وترمذ، وأن المسلمين أزاحوهم أول الملة عن بلاد ما وراء النهر وغلبوهم عليها، وبقيت تركستان وكاشغر والشاش وفرغانة بأيديهم يؤدون عليها الجزاء. ثم أسلموا عليها فكان لهم بتركستان ملك ودولة نذكرها فيما بعد فإن استفحالها كان في دولة بني سامان جيرانهم فيما وراء النهر. وكان في المفازة بين تركستان وبلاد الصين أمم من الترك لا يحصيهم إلاخالقهم لاتساع هذه المفازة وبعد أقطارها فإنها فيما يقال مسيرة شهر من كل جهة فكان هنالك أحياء بادون منتجعون رجالة غذاؤهم اللحوم والألبان والذرة في بعض الأحيان، ومراكبهم الخيل، ومنها كسبهم

وعليها قيامهم وعلى الشاء والبقر من بين الأنعام فلم يزالوا بتلك القفار مذودين عن العمران بالحامية، والمالكين له في كل جهة.وكان من أممهم الغز والخطا والتتر، وقد تقدّم ذكر هؤلاء الشعوب. فلما انتهت دولة ملوك تركستان، وكان شغر إلى غايتها، وأخذت في الاضمحلال والتلاشي كما هو شأن الدول وطبيعتها تقدم هؤلاء إلى بلاد تركستان فأجلبوا عليها بما كان غالب معاشهم في تخطف الناس من السبل، وتناول الرزق بالرماح شأن أهل القفر البادين، وأقاموا بمفازة بخارى.ثم انقرضت دولة بني سامان، ودولة أهل تركستان. واستولى محمود بن سبكتكين من قواد بني سامان وصنائعهم على ذلك كله. وعبر بعض الأيام إلى بخارى فحضر عنده أرسلان بن سلجوق فقبض عليه،

وبعث به إلى بلاد الهند فحبسه، وسار إلى أحيائه فاستباحها، ولحق بخراسان، وسارت العساكر في اتباعهم فلحقوا بأصبهان، وهم صاحبها علاء الدولة ابن كالويه بالغدر بهم، وشعروا بذلك فقاتلوه بأصبهان فغلبهم فانصرفوا إلى أذربيجان فقاتلهم صاحبها وهشودان من بني المرزبان. وكانوا لّما قصدوا أصبهان بقي فلهم بنواحي خوارزم فعاثوا في البلاد، وخرج إليهم صاحب طوس وقاتلهم. وجاء محمود بن سبكتكين فسار في اتباعهم من رستاق إلى جرجان، ورجع عنهم ثم استأمنوا فاستخدمهم وتقدمهم يغمر، وأنزل ابنه بالري.ثم مات محمود، وولي أخوه مسعود، وشغل بحروب الهند فانتقضوا، وبعث إليهم قائداً في العساكر، وكانوا يسمون العراقية وأمراؤهم يومئذ كوكاش ومرقاوكول ويغمر وباصعكي، ووصلوا إلى الدامغان فاستباحوها، ثم سمنان، ثم عاثوا في أعمال الري، واجتمع صاحب طبرستان وصاحب الري مع قائد مسعود، وقاتلوهم فهزمهم الغز وفتكوا فيهم وقصدوا الري فملكوه، وهرب صاحبه إلى بعض قلاعه فتحصن بها، وذلك سنة ست وعشرين وأربعمائة.واستألفهم علاء الدولة بن كالويه ليدافع بهم ابن سبكتكين فأجابوه أولاً، ثم انتقضوا. وأمَّا الذين قصدوا أذربيجان منهم، ومقدموهم بوقا وكوكباش ومنصور ودانا فاستألفهم وهشودان ليستظهر بهم فلم يحصل على بغيته من ذلك. وساروا إلى مراغة سنة تسع وعشرين فاستباحوها، ونالوا من الأكراد الهديانية فحاربوهم وغلبوهم وافترقوا فرقتين، فرجع بوقا إلى أصحابهم الذين بالري، وسار منصور وكوكباش إلى همذان، وبها أبو كاليجار بن علاء الدولة بن كالويه فظاهرهم على حصاره مّتى خسرو بن مجد الدولة. فلما جهد الحصار لحق بأصبهان وترك البلد فدخلوها واستباحوها، وفعلوا في الكرخ مثل ذلك، وحاصروا قزوين حتى أطاعوهم وبذلوا لهم سبعة آلاف دينار. وسار طائفة منهم إلى بلد الأرمن فاستباحوها وأثخنوا فيها ورجعوا إلى أرمينية.ثم رجعوا من الري إلى حصار همذان، فتركها أبو كاليجار وملكوها سنة ثلاثين، ومعهم متى خسرو المذكور فاستباحوا تلك النواحي إلى استراباذ، وقاتلهم أبو الفتح بن أبي الشوك صاحب الدينور فهزمهم وأسر منهم وصالحوه على إطلاق أسراهم. ثم مكروا بأبي كاليجار أن يكون معهم ويدبر أمرهم، وغدروا به ونهبوه. وخرج

علاء الدولة من أصبهان فلقي طائفة منهم فأوقع بهم وأثخن فيهم، وأوقع وهشودان بمن كان منهم في أذربيجان وظفر بهم الأكراد وأثخنوا فيهم وفرقوا

جماعتهم.ثم توفي كول أمير الفرق التي بالري، وكانوا لّما أجازوا من وراء النهر إلى خراسان بقي بمواطنهم الأولى هنالك طغرلبك بن ميكاييل بن سلجوق وإخوته داود وسعدان وينال ، همغري فخرجوا إلى خراسان من بعدهم، وكانوا أشد منهم شوكة وأقوى عليهم سلطاناً فسار ينال أخو طغرلبك إلى الري فهربوا إلى أذربيجان، ثم إلى جزيرة ابن عمر وديار بكر. ومكر سليمان بن نصير الدولة بن مروان صاحب الجزيرة بمنصور بن عز علي منهم فحبسه وافترق أصحابه، وبعث قرواش صاحب الموصل إليهم جيشه فطردهم وافترقت جموعهم، ولحق الغز بديار بكر وأثخنوا فيها، وأطلق نصير الدولة أميرهم منصوراً من يد ابنه فلم ينتفع منهم بذلك. وقاتلهم صاحب الموصل فحاصروه، ثم ركب فى السفين ونجا إلى السند وملكوا البلد وعاثوا فيها. وبعث قرواش إلى الملك جلال الدولة يستنجده، وإلى دبيس بن مزيد وأمراء العرب. وفرض الغز على أهل الموصل عشرين ألف دينار فثار الناس بهم، وكان كوكباش قد فارق الموصل فرجع ودخلها عنوة في رجب سنة خمس وثلاثين، وأفحش في القتل والنهب. وكانوا يخطبون للخليفة ولطغرلبك بعده فكتب الملك جلال الدولة إلى طغرلبك يشكو له بأحوالهم فكتب إليه أن هؤلاء الغز كانوا في خدمتنا وطاعتنا، حتى حدث بيننا وبين محمود بن سبكتكين ما علمتم، ونهضنا إليه، وساروا في خدمتنا في نواحي خراسان فتجاوزوا حدود الطاعة وملكة الهيبة، ولا بد من إنزال العقوبة بهم، وبعث إلى نصير الدولة بعده يكفهم عنه. وسار دبيس بن مزيد وبنو عقيل إلى قرواش صاحب الموصل، وقعد جلال الدولة عن إنجاده لّما نزل به من الأتراك، وسمع الغز بجموع قرواش فبعثوا إلى من كان بديار بكر منهم، واجتمعوا إليهم، واقتتل الفريقان فانهزم العرب أول النهار، ثم أتيحت لهم الكرة على الغز فهزموهم واستباحوهم وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، واتبعهم، قرواش إلى نصيبين، ورجع عنهم فساروا إلى ديار بكر وبلاد الأرمن والروم، وكثر عيثهم فيها. وكان طغرلبك وإخوته لّما جاؤا إلى خراسان طالت الحروب بينهم وبين عساكر بني سبكتكين حتى غلبوهم وحصل لهم الظفر، وهزموا سياوشي حاجب مسعود آخر هزائمهم، وملكوا هراة فهرب عنها سياوشي الحاجب، ولحق بغزنة وزحف إليهم مسعود، ودخلوا البرية. ولم يزل في اتباعهم ثلاث سنين. ثم انتهزوا فيه الفرصة باختلاف عسكره يوماً على الماء فانهزموا وغنموا عسكره، وسار طغرلبك إلى نيسابور سنة إحدى وثلاثين فملكها وسكن

الساذياج، وخطب له بالسلطان الأعظم العمال في النواحي. وكان الدعّار قد اشتد ضررهم بنيسابور فسد أمرهم وحسم عللهم، واستولى السلجوقية على جميع البلاد. وسار بيقو إلى هراة فملكها، وسار داود إلى بلخ وبها القوتباق حاجب مسعود فحاصره وعجز مسعود عن إمداده فسلم البلد لداود، واستقل السلجوقية بملك البلاد أجمع. ثم ملك طغرلبك طبرستان وجرجان من يد أنو شروان بن متوجهر

قابوس، وضمنها أنو شروان بثلاثين ألف دينار، وولّى على جرجان مرداويج من أصحابه بخمسين ألف دينار، وبعث القائم القاضي أبو الحسن الماوردي إلى طغرلبك فقرر الصلح بينه وبين جلال الدولة القائم بدولته ورجع بطاعته.

فتنة قرواش مع جلال الدولة:

كان قرواش قد أنفذ عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار خميس بن ثعلب بتكريت،واستغاث بجلال الدولة، وأمر قرواشاً بالكف عنه فلم يفعل وسار لحصاره بنفسه. وبعث إلى الأتراك ببغداد يستفسدهم على جلال الدولة فأطلع على ذلك فبعث أبا الحرث أرسلان البساسيري في صفر سنة إثنتين وثلاثين للقبض على نائب قرواش بالسندسية، واعترضه العرب فمنعوه ورجع وأقاموا بين صرصر وبغداد يفسدون السابلة، وجمع جلال الدولة العساكر، وخرج إلى الأنبار وبها قرواش فحاصرها. ثم اختلفت عقيل على قرواش فرجع إلى مصالحة جلال الدولة.

وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار:

لّما قلت الجبايات ببغداد مدّ جلال الدولة يده إلى الجوالي فأخذها، وكانت خاصة بالخليفة ثم توفي جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لسبع عشرة من ملكه. ولما مات خاف حاشيته من الأتراك والعامة فانتقل الوزير كمال الملك بن عَبْد الرحيم وأصحابه الأكابر إلى حرم دار الخلافة، واجتمع القواد للمدافعة عنهم وكاتبوا الملك العزيز أبا منصور بن جلال الدولة في واسط بالطاعة، واستقدموه وطلبوا حق البيعة فراوضهم فيها فكاتبهم أبو كاليجار عنها فعدلوا إليه. وجاء العزيز من واسط وانتهى إلى النعمانية فغدر به عسكره، ورجعوا إلى واسط وخطبوا لأبي كاليجار. وسار العزيز إلى دبيس بن مزيد، ثم إلى

قرواش بن المقلّد، ثم فارقه إلى أبي الشوك فغدر به فسار إلى ينال أخي طغرلبك فأقام عنده مدة، ثم قصد بغداد مختفياً فظهر على بعض أصحابه فقتله، ولحق هو بنصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميافارقين سنة إحدى وأربعين.وأمَّا أبو كاليجار فخطب له ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين. وبعث إلى الخليفة بعشرة آلاف دينار وبأموال أخرى فرقت إلى الجند ولقبه القائم بمحيي الدين، وخطب له أبو الشوك ودبيس بن مزيد ونصير الدولة بن مروان بأعمالهم. وسار إلى بغداد، ومعه وزيره أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن فسانجس. وهم القائم لاستقباله فاستعفى من ذلك، وخلع على أرباب الجيوش، وهم البساسيري والنساوري والهمام أبو اللقاء. وأخرج عميد الدولة أبا سعيد من بغداد فمضى إلى تكريت، وعاد أبو منصور بن علاء الدولة بن كالويه صاحب أصبهان إلى طاعته، وخطب له على منبره انحرافا عن طغرلبك ثم راجعه بعد الحصار واصطلحا على مال يحمله، وبعث أبو كاليجار إلى السلطان طغرلبك في الصلح، وزوجه ابنته فأجاب وتم بينهما سنة تسع وثلاثين.

وفاة أبي كاليجار وملك ابنه الملك الرحيم:

كان أبو كاليجار والمرزبان بن سلطان الدولة قد سارا سنة أربعين إلى نواحي كرمان، وكان صاحبها بهرام بن لشكرستان من وجوه الديلم قد منع الحمل فتنكر له أبو كاليجار، وبعث إلى أبي كاليجار يحتمي به، وهو بقلعة بردشير فملكها من يده، وقتل بهرام بعض الجند الذين ظهر منهم على الميل لأبي كاليجار فسار إليه ومرض في طريقه، ومات بمدينة جنايا في سنة أربعين لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه. ولما توفي نهب الأتراك معسكره وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى فخيم الوزير أبي منصور، وأرادوا نهبه فمنعهم الديلم، وساروا إلى شيراز فملكها أبو منصور واستوحش الوزير منه فلحق ببعض للاعه، وامتنع بها، ووصل خبر وفاة أبي كاليجار إلى بغداد، وبها ولده الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز فبايع له الجند، وبعث إلى الخليفة في الخطبة والتلقب بالملك الرحيم فأجابه إلى ما سأل إلا اللقب بالرحيم للمانع الشرعي من ذلك. واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة، وكان بها أخوه أبو علي، واستولى أخوه أبو منصور كما ذكرنا على شيراز فبعث الملك الرحيم أخاه أبا سعد في العساكر فملكها، وقبض على أخيه أبي منصور، وسار العزيز جلال الدولة من

عند قرواش إلى البصرة فدافعه أبو علي بن كاليجار عنها. ثم سار الملك الرحيم إلى خوزستان، وأطاعه من بها من الجند، وكثرت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة.

مسير الملك الرحيم إلى فارس:

ثم سار الملك الرحيم من الأهواز إلى فارس سنة إحدى وأربعين، وخيم بظاهر شيراز، ووقعت فتنة بين أتراك شيراز وبغداد فرحل أتراك بغداد إلى العراق، وتبعهم الملك الرحيم لانحرافه عن أتراك شيراز. وكان أيضا منحرفاً عن الديلم بفارس لميلهم إلى أخيه فلاستون بأصطخر، وانتهى إلى الأهواز فأقام بها واستخلف بأرجان أخويه أبا سعد وأبا طالب فزحف إليهما أخوهما فلاستون، وخرج الملك الرحيم من الأهواز إلى رامهرمز للقائهم فلقيهم وانهزم إلى البصرة، ثم إلى واسط. وسارت عساكر فارس إلى الأهواز فملكوها وخيموا بظاهرها. ثم شغبوا على أبي منصور، وجاء بعضهم إلى الملك الرحيم فبعث إلى بغداد واستقر الجند الذين بها، وسار إلى الأهواز فملكها وأقام ينتظر عسكر بغداد. ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة إثنتين وأربعين. ثم تقدم سنة ثلاث وأربعين، ومعه دبيس بن مزيد والبساسيري وغيرهما. وسار هزارشب بن تنكير ومنصور بن الحسين الأسدي فيمن معهما من الديلم والأكراد من أرجان إلى تستر فسبقهم الملك الرحيم إليها وغلبهم عليها. ثم زحف في عسكر هزارسب فوافاه أميره أبو منصور بمدينة شيراز فاضطربوا ورجعوا، ولحق منهم جماعة بالملك الرحيم فبعث عساكر إلى رامهرمز وبها أصحاب أبي منصور فحاصرها وملكها في ربيع سنة ثلاث وأربعين. ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر إلى بلاد فارس لأن أخاه أبا نصر خسرو كان بأصطخر وضجر من تغلب هزارشب بن تنكير صاحب أخيه أبي منصور فكتب إلى أخيه

الملك الرحيم بالطاعة فبعث إليه أخاه أبا سعد فأدخله أصطخر وملكه.ثم اجتمع أبو منصور فلاستون وهزارشب ومنصور بن الحسين الأسدي، وساروا للقاء الملك الرحيم بالأهواز واستمدوا السلطان طغرلبك، وأبوا طاعته فبعث إليهم عسكراً، وكان قد ملك أصبهان واستطال وافترق كثير من أصحاب الملك الرحيم عنه، مثل البساسيري ودبيس بن مزيد والعرب والأكراد، وبقي في الديلم الأهوازية وبعض الأتراك من بغداد. ورأى أن يعود من عسكر مكرم إلى الأهواز ليتحصن بها وينتظر عسكر بغداد. ثم بعث أخاه أبا سعد إلى فارس كما ذكرنا ليشعل أبا منصور

وهزراشب ومن مرهما عن قصده فلم يعرجوا على ذلك، وساروا إليه بالأهواز، وقاتلهم فانهزم إلى واسط، ونهب الأهواز وفقد في الواقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي عَبْد الرحيم فلم يوقف له على خبر.وسار أبو منصور وأصحابه إلى شيراز لأجل أبي سعد وأصحابه فلقيهم قريباً منها، وهزمهم مرات واستأمن إليه الكثير منهم؛ واعتصم أبو منصور ببعض القلاع وأعيدت الخطبة بالأهواز للملك الرحيم، واستدعاه الجند بها وعظمت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة في غيبة الملك الرحيم واقتتلوا، وبعث القائم نقيب العلويين ونقيب العباسيين لكشف الأمر بينهما فلم يوقف على يقين في ذلك. وزاد الأمر وأحرقت مشاهد العظماء من أهل البيت، وبلغ الخبر إلى دبيس بن مزيد، فاتهم القائم بالمداهنة في ذلك فقطع الخطبة له ثم عوتب فاستعتب وعاد إلى حاله.

مهادنة طغرلبك للقائم:

قد تقدم لنا شأن الغز واستيلائهم على خراسان من يد بني سبكتكين عام إثنتين وثلاثين، ثم استيلاء طغرلبك على أصبهان من يد ابن كالويه سنة إثنتين وأربعين. ثم بعث السلطان طغرلبك أرسلان ابن أخيه داود إلى بلاد فارس فافتتحها سنة إثنتين وأربعين، واستلحم من كان بها من الديلم، ونزل مدينة نسا، وبعث إليه القائم بأمر الله بالخلع والألقاب، وولاه على ما غلب عليه فبعث إليه طغرلبك بعشرة آلاف دينار، وأعلاق نفيسة من الجواهر والثياب والطيب، وإلى الحاشية بخمسة آلاف دينار، وللوزير رئيس الرؤساء بألفين، وحضروا العيد في سنة ثلاث وأربعين ببغداد فأمر الخليفة بالاحتفال في الزينة والمراكب والسلاح. ثم سار الغز سنة أربع وأربعين إلى شيراز وبها الأمير أبو سعد أخو الملك الرحيم فقاتلهم وهزمهم كما نذكر في أخبارهم.

استيلاء الملك الرحيم على البصرة من يد أخيه:

ثم بعث الملك الرحيم سنة أربع وأربعين جيوشه إلى البصرة مع بصيرة البساسيري فحاصروا بها أخاه أبا علي وقاتلوا عسكره في السفن فهزموهم وملكوا عليهم دجلة والأنهر. وجاء الملك الرحيم بالعسكر في البر واستأمن إليه قبائل ربيعة ومضر فأمّنهم وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان بطاعتهم. ومضى أخوه أبو علي إلى

شطّ عمان وتحصّن به فسار إليه الملك الرحيم، وملك عليه شط عمان ولحق بعبادان، وسار منها إلى أرّجان. ثم لحق بالسلطان طغرلبك بأصبهان فأكرمه وأصهر إليه، وأقطع له وأنزله بقلعة من أعمال جرباذقان. وولّى الملك الرحيم وزيره البساسيري على البصرة، وسار إلى الأهواز، وأرسل منصور بن الحسين وهزارشب في تسليم أرجان وتستر فتسلمها واصطلحا. وكان المقدم على أرجان فولاد بن خسرو من الديلم فرجع إلى طاعة الملك الرحيم سنة خمس وأربعين.

فتنة ابن أبي الشوك ثم طاعته:

كان سعدي بن أبي شوك قد أعطى طاعته للسلطان طغرلبك بنواحي الري، وسار في خدمته، وبعثه سنة أربع وأربعين في العساكر إلى نواحى العراق فبلغ النعمانية وكثر عيثه، وراسله ملد من بنى عقيل قرابة قُرَيْش بن بدران في الاستظهار له على قُرَيْش ومهلهل أخي أبي الشوك فوعدهم، فسار إليهم مهلهل وأوقع بهم على عكبرا فساروا إلى سعدي وشكوا إليه، وهو على سامرا فسار وأوقع بعمه مهلهل وأسره وعاد إلى حلوان، وهمّ الملك الرحيم بتجهيز العساكر إليه بحلوان، واستقدم دبيس بن مزيد لذلك.ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين ببغداد من أهل الكرخ وأهل السنة، ودخلها طوائف من الأتراك، وعمّ الشر واطرحت مراقبة السلطان، وركب القواد لحسم العلّة فقتلوا علوياً من أهل الكرخ فنادت نساؤه بالويل فقاتلهم العامة، وأضرم النار في الكرخ بعض الأتراك فاحترق جميعه. ثم بعث القائم وسكن الأمر، وكان مهلهل لّما أسرَ سار ابنه بدر إلى طغرلبك وابن سعدي كان عنده رهينة، وبعث إلى سعدي بإطلاق مهلهل عند ذلك فامتنع سعدي من ذلك وانتقض على طغرلبك، وسار من همذان إلى حلوان وقاتلها فامتنعت عليه فكاتب الملك الرحيم بالطاعة، ولحقه عساكر طغرلبك فهزموه، ولحق ببعض القلاع هنالك. وسار بدر في اتباعه إلى شهرزور، ثم جاءه الخبر بأن جمعاً من الأكراد والأتراك قد أفسدوا السابلة وأكثروا العيث فخرج إليهم البساسيري واتبعهم إلى البواريج، وأوقع بالطوائف منهم واستباحهم وعبروا الزاب فلم يمكنه العود إليهم ونجوا.

فتنة الأتراك:

وفي سنة ست وأربعين شغب الأتراك على وزير الملك الرحيم في مطالبة أرزاقهم واستعدوه عليه فلم يعدهم فشكوا من الديوان وانصرفوا مغضبين، وباكروا من الغد لحصار دار الخليفة. وحضر البساسيري واستكشف حال الوزير فلم يقف له على خبر. وكبست الدور في طلبه فكان ذلك وسيلة للأتراك في نهب دور الناس. واجتمع أهل المحال لمنعهم، ونهاهم الخليفة فلم ينتهوا فهمّ بالرحلة عن بغداد. ثم ظهر الوزير وأنصفهم في أرزاقهم فتمادوا على بغيهم وعسفهم، واشتدّ عيث الأتراك والأعراب في النواحي فخربت البلاد، وتفرّق أهلها، وأغار أصحاب ابن بدران بالبرد وكبسوا حلل كامل بن محمد بن المسيّب ونهبوها، ونهبوا في جملتها ظهراً وأنعاماً للبساسيري، وانحل أمر الملك والسلطنة بالكلية.

استيلاء طغرلبك على أذربيجان وعلى أرمينية والموصل:

سار طغرلبك سنة أربعين إلى أذربيجان فأطاعه صاحب قبرير أبو منصور وشهوذان ابن محمد وخطب له ورهن ولده عنده. ثم أطاعه صاحب جنده أبو الأسوار ثم تابع سائر النواحي على الطاعة، وأخذ رهنهم، وسار إلى أرمينية فحاصر ملاذكرد وامتنعت عليه فخرّب ما جاورها من البلاد. وبعث إليه نصير الدولة بن مروان بالهدايا وقد كان دخل في طاعته من قبل. وسار السلطان طغرلبك لغزو بلاد الروم واكتسحها إلى أن بلغ أردن الروم، ورجع إلى أذربيجان ثم إلى الري وخطب له قُرَيْش بن بدران صاحب الموصل في جميع أعماله وزحف إلى الأنبار ففتحها ونهب ما فيها البساسيري فانتقض لذلك وسار في العساكر إلى الأنبار فاستعاده من يده.

وحشة البساسيري:

كان أبو الغنائم وأبو سعد إبنا المجلبان صاحبي قُرَيْش بن بدران، وبعثهما إلى

القائم سرّاً من البساسيري بما فعل بالأنبار فانتقض البساسيري لذلك، واستوحش من القائم ومن رئيس الرؤساء، وأسقط مشاهرتهم ومشاهرة حواشيهم وهمّ بهدم منازل بني المجلبان. ثم أقصر وسار إلى الأنبار، وبها أبو القاسم بن المجلبان، وجاءه دبيس بن مزيد ممداً له فحاصر الأنبار وفتحها عنوة ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة، ومائة من بني خفاجة وأسر أبا الغنائم وجاء به إلى بغدا فأدخله على جمل، وشفع دبيس بن مزيد في قتله، وجاء إلى مقابل التاج من دار الخليفة فقبل الأرض وعاد إلى مترله.

وصول الغز إلى الدسكرة ونواحي بغداد:

وفي شوال من سنة ست وأربعين وصل صاحب حلوان من الغز وهو إبراهيم بن إسحاق إلى الدسكرة فافتتحها ونهبها وصادر النساء. ثم سار إلى رسغباد وقلعة البردان وهي لسعدي بن أبي الشوك، وبها أمواله فامتنعت عليه فخرب ما حولها من القرى ونهبها، وقوي طمع الغز في البلاد وضعف أمر الديلم والأتراك. ثم بعث طغرلبك أبا علي ابن أبي كاليجار الذي كان بالبصرة في جيش من الغز إلى خوزستان فاستولى على الأهواز وملكها ونهب الغز الذين معه أموال الناس ولقوا منهم عناء.

استيلاء الملك الرحيم على شيراز:

وفي سنة سبع وأربعين سار فولاذ - الذي كان بقلعة أصطخر من الديلم، وقد ذكرناه - إلى شيراز فملكها من يد أبي منصور فولاستون بن أبي كاليجار، وكان خطب بها للسلطان طغرلبك فخطب فولاذ بها للملك الرحيم ولأخيه أبي سعد يخادعهما بذلك. وكان أبو سعد بأزجان فاجتمع هو وأخوه أبو منصور على حصار شيراز في طاعة أخيهما الملك، واشتد الحصار على فولاذ وعدمت الأقوات فهرب عنها إلى قلعة أصطخر وملك الأخوان شيراز وخطبا لأخيهما الملك الرحيم.

وثوب الأتراك ببغداد بالبساسيري:

قد ذكرنا تأكد الوحشة بين البساسيري ورئيس الرؤساء. ثم تأكدت سنة سبع وأربعين، وعظمت الفتنة بالجانب الشرقي بين العامة وبين أهل السنة للأمر بالمعروف والنهي المنكر، وحضروا الديوان حتى أذن لهم في ذلك، وتعرضوا لبعض سفن البساسيري منحدرة إليه بواسط، وكشفوا فيها عن جرار خمر، فجاؤا إلى أصحاب الديوان الذين أمروا بمساعدتهم واستدعوهم لكسرها فكسروها، واستوحش لذلك البساسيري ونسبه إلى رئيس الرؤساء. واستفتى الفقهاء في أن ذلك تعد على سفينته فأفتاه الحنفية بذلك. ووضع رئيس الرؤساء العيون على البساسيري بإذن من دار الخلافة، وأظهر معايبه. وبالغوا في ذلك؛ ثم قصدوا في رمضان دور البساسيري بإذن من دار الخلافة فنهبوها وأحرقوها، ووكلوا بحرمه وحاشيته. وأعلن رئيس الرؤساء بذم البساسيري وأنه يكاتب المستنصر صاحب مصر فبعث القائم إلى الملك الرحيم فأمره بإبعاده فأبعده.

استيلاء السلطان طغرلبك على بغداد والخلعة والخطبة له:

قد ذكرنا من قبل رجوع السلطان طغرلبك من غزو الروم إلى الري، ثم رجع إلى همذان، ثم سار إلى حلوان عازماً على الحج، والاجتياز بالشام لإزالته من يد العلوية. وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وعظم الأرجاف ببغداد ونواحيها، وخيم الأتراك بظاهر البلد. وجاء الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد البساسيري عنه كما أمره القائم فسار إلى بلد دبيس بن مزيد لصهر بينهما. وبعث طغرلبك إلى لقائهما بالطاعة، وإلى الأتراك بالمقاربة والوعد فلم يقبلوا، وطلبوا من القائم إعادة البساسيري لأنه كبيرهم. ولما وصل الملك الرحيم سأل من الخليفة إصلاح أمره مع السلطان طغرلبك فأشار القائم بأن يقوّض الأجناد خيامهم ويخيموا بالحريم الخلافي، ويبعثوا جميعاً إلى طغرلبك بالطاعة فقبلوا إشارته وبعثوا إلى طغرلبك بذلك فأجاب بالقبول والإحسان.وأمر القائم بالخطبة لطغرلبك على منابر بغداد فخطب آخر رمضان من سنة سبع وأربعين، واستأذن في لقاء الخليفة، وخرج إليه رؤساء الناس في موكب من القضاة والفقهاء والأشراف وأعيان الديلم. وبعث طغرلبك للقائم وزيره أبا نصر الكندري وأبلغه رسالة القائم واستحلفه له وللملك الرحيم وأمراء الأجناد. ودخل طغرلبك بغداد ونزل بباب الشّمّاسّية لخمس بقين من رمضان، وجاء هنالك قُرَيْش بن بدران صاحب الموصل، وكان من قبل في طاعته.

القبض على الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه:

ولما نزل طغرلبك بغداد وافترق أهل عسكره في البلد يقضون بعض حاجاتهم فوقعت بينهم وبين بعض العامة منازعة فصاحوا بهم ورجموهم، وظن الناس أن الملك الرحيم قد اعتزم على قتال طغرلبك فتواثبوا بالغز من كل جهة إلا أهل الكرخ فإنهم سألوا من وقع إليهم من الغز وأرسل عميد الملك وزير طغرلبك عن عدنان بن الرضي نقيب العلويين، وكان مسكنه بالكرخ فشكره عن السلطان طغرلبك. ودخل أعيان الديلم وأصحاب الملك الرحيم إلى دار الخلافة نفياً للتهمة عنهم. وركب أصحاب طغرلبك فقاتلوا العامة

وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً ونهبوا سائر الدروب ودور رئيس الرؤساء وأصحابه والرصافة، ودور الخلفاء، وكان بها أموال الناس نقلت إليها للحرمة فنهب الجميع، واشتد البلاء وعظم الخوف. وأرسل طغرلبك إلى القائم بالعتاب ونسبة ما وقع إلى الملك الرحيم والديلم، وأنهم انحرفوا، وكانوا برآء من ذلك.وتقدم إليهم الخليفة بالحضور عند طغرلبك مع رسوله فلما وصلوا إلى الخيام نهبها الغز ونهبوا رسل القائم معهم. ثم قبض طغرلبك على الملك الرحيم ومن معه، وبعث بالملك الرحيم إلى قلعة السيروان فحبس بها وكان ذلك لست سنين من ملكه. ونهب في تلك الهيعة قُرَيْش بن بدران صاحب الموصل ومن معه من العرب، ونجا سليباً إلى خيمة بدر بن المهلهل، واتصل بطغولبك خبره فأرسل إليه وخلع عليه وأعاده إلى مخيمه، وبعث القائم إلى طغرلبك بإنكار ما وقع في أخفار ذمته في الملك الرحيم وأصحابه، وأنه يتحوّل عن بغداد فأطلق له بعضهم

بلكسكسالربه وأنزع الاقطاعات من يد أصحابه الملك الرحيم فلحقوا بالبساسيري، وكثر جمعه، وبعث طغرلبك إلى دبيس بالطاعة وإنفاذ البساسيري، فخطب له في بلاده، وطرد البساسيري فسار إلى رحبة ملك، وكاتب المستنصر العلوي صاحب مصر وأمر طغرلبك بأخذ أموال الأتراك الجند وأهملهم، وانتشر الغز السلجوقية في سواد بغداد فنهبوا الجانب الغربي من تكريت إلى النيل، والجانب الشرقي إلى النهر وأنات، وخرب السواد وانجلى أهله، وضمن السلطان طغرلبك البصرة والأهواز من هزارشب بن شكر بن عياض بثلثمائة وستين ألف دينار، وأقطعه أزجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالاهواز دون ما سواها. وأقطع أبا علي بن أبي كاليجارويسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ بزيادة: الصلاة خير من النوم، في نداء الصبح، وأمر بعمارة دار المملكة وانتقل إليها في شوال. وتوفي ذخيرة الدين أبو العباس محمد بن القائم بالله في ذي القعدة من هذه السنة. ثم أنكح السلطان طغرلبك من القائم بالله خديجة بنت أخيه داود وإسمها أرسلان خاتون، وحضر للعقد عميد الملك الكندي وزير طغرلبك، وأبو علي بن أبي كاليجار، وهزارشب بن شكر بن عياض الكردي، وابن أبي الشوك وغيرهم من أمراء الأتراك من عسكر طغرلبك. وخطب رئيس الرؤساء وولي العقد وقبل الخليفة بنفسه. وحضر نقيب النقباء أبو علي بن أبي تمام، ونقيب العلويين عدنان بن الرضي والقاضي أبو الحسن الماوردي وغيرهم.

انتقاض أبي الغنائم بواسط:

كان رئيس الرؤساء سعى لأبي الغنائم بن المجلبان في ولاية واسط وأعمالها، فوليها وصادر أعيانها وجند جماعة وتقوى بأهل البطيحة، وخندق على واسط، وخطب

للمستنصر العلوي بمصر فسار أبو نصر عميد العراق لحربه فهزمه وأسر من أصحابه، ووصل إلى السور فحاصره حتى تسلم البلد. ومر أبو الغنائم ومعه الوزير بن فسانجس، ورجع عميد العراق إلى بغداد بعد أن ولّى على واسط منصور بن الحسين فعاد ابن فسانجس إلى واسط وأعاد خطبة العلوي، وقتل من وجده من

الغز، ومضى منصور بن الحسين إلى المدار وبعث يطلب المدد فكتب إليه عميد العراق ورئيس الرؤساء بحصار واسط فحاصرها، وقاتله ابن فسنجس فهزمه وضيق حصاره، واستأمن إليه جماعة من أهل واسط فملكها وهرب فسانجس واتبعوه فأدركوه، وحمل إلى بغداد في صفر سنة ست وأربعين فشُهر وقُتل.

الوقعة بين البساسيري وقطلمش:

وفي سلخ شوال في سنة ثمان وأربعين سار قطلمش، وهو ابن عم السلطان طغرلبك، وجد بني قليج أرسلان ملوك بلاد الروم فسار ومعه قُرَيْش بن بدران صاحب الموصل لقتال البساسيري ودبيس، وسار بهم إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر العلوي صاحب مصر وبعث إليهم بالخلع، وكان معهم جابر بن ناشب وأبو الحسن وعبد الرحيم وأبو الفتح بن ورائر ونصر بن عمر ومحمد بن حماد.

مسير طغرلبك إلى الموصل:

لّما كان السلطان طغرلبك قد ثقلت وطأته على العامة ببغداد، وفشى الضرر والأذى فيهم من معسكره فكاتبه القائم يعظه ويذكره، ويصف له ما الناس فيه فأجابه السلطان بالاعتذار بكثرة العساكر. ثم رأى رؤيا في ليلته كان النبي صلى الله عليه وسلم يوبخه على ذلك فبعث وزيره عميد الملك إلى القائم بطاعة أمره فيما أمر، وأخرج الجند في وراء العامة ورفع المصادرات. ثم بلغه خبر وقعة قطلمش مع البساسيري، وانحراف قُرَيْش صاحب الموصل إلى العلوية، فتجهز وسار عن بغداد ثلاثة عشر شهراً من نزوله عليها، ونهبت عساكره أُوانا وعًكبرا، وحاصر تكريت حتى رجع صاحبها نصر بن عيسى إلى الدعوة العباسية، وقتله السلطان، ورجع

عنه إلى البواريج فتوفي نصر، وخافت أمّه غريبة بنت غريب بن حكن أن يملك البلد أخوه أبو العشام فاستخلفت أبا الغنائم ابن المجلبان ولحقت بالموصل، ونزلت على دبيس بن مزيد.وأرسل أبو الغنائم رئيس الرؤساء فأصلح حاله ورجع إلى بغداد وسلم له تكريت،وأقام السلطان بالبواريج إلى سنة تسع وأربعين، وجاءه أخوه ياقوتي في العساكر فسار إلى الموصل، وأقطع مدينة بلد هزارشب بن شكر الكردي، وأراد العسكر نهبها فمنعهم السلطان. ثم أذن لهم في اللحاق إلى الموصل، وتوجه إلى نصيبين، وبعث هزارشب إلى البرية في ألف فارس ليصيب من العرب فسار حتى قارب رحالهم، وأكمن الكمائن، وقاتلهم ساعة. ثم استطردهم واتبعوه فخرجت عليهم الكمائن فانهزموا، وأثخن فيهم الغز بالقتل والأسر. وكان فيهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقة، وحمل الأسرى إلى السلطان فقتلهم أجمعين. ثم بعث دبيس وقريش إلى هزارشب يستعطف لهم السلطان فقبل السلطان ذلك منهما، وورد أمر البساسيري إلى الخليفة فرحل ومعه الأتراك البغداديون، وقتل ابن المقلد وجماعة من عقيل إلى الرحبة، وأرسل السلطان إليهما أبا الفتح بن ورام يستخبرهما فجاء بطاعتهما، وبمسير هزارشب إليهما فأذن له السلطان في المسير، وجاء إليهما واستحلفهما وحثهما على الحضور فخافا.وأرسل قُرَيْش أبا السيد هبة الله بن جعفر، ودبيس ابنه منصوراً

فأكرمهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما. وكان لقريش نهر الملك وبادرويا والأنبار وهيت ودُجيل ونهر بيطر وعكبرا وأوانا وتكريت والموصل ونصيبين. ثم سار السلطان إلى ديار بكر فحاصر جزيرة ابن عمر وبعث إليه يستعطفه ويبذل له المال، وجاء إبراهيم ينال أخو السلطان وهو محاصر، ولقيه الأمراء والناس، وبعث هزارشب إلى دبيس وقريش يحذرهما فانحدر دبيس إلى بلده بالعراق. وأقام قُرَيْش عند البساسيري بالرحبة ومعه ابنه مسلم، وشكا قطلمش ما أصاب أهل سنجار منه عند هزيمته أمام قُرَيْش ودبيس فبعث العساكر إليها، وحاصرها ففتحها عنوة واستباحها، وقتل أميرها علي بن مرجي، وشفع إبراهيم في الباقين فتركها وسلمها الله وسلم معها الموصل وأعمالها، ورجع إلى بغداد في سنة تسع وأربعين فخرج رئيس الرؤساء للقائه عن القائم، وبلغه سلامه وهديته، وهي جام من ذهب فيه جواهر، وألبسه لباس الخليفة وعمامته فقبل السلطان ذلك بالشكر والخضوع والدعاء، وطلب لقاء الخليفة، فأسعف وجلس له جلوساً فخماً. وجاء السلطان في البحر فقرب له لّما نزل من السهيرية من مراكب الخليفة، والقائم على سرير علوه سبعة"أذرع متوشحاً البردة، وبيده القضيب، وقبالته كرسي لجلوس السلطان فقبل الأرض وجلس على الكرسي، وقال له رئيس الرؤساء عن القائم: أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك، ولاك ما ولاه الله من بلاده، ورد إليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك، واعرف نعمته عليك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية فقبل الأرض، وأفيضت عليه الخلع وخوطب بملك المشرق والمغرب، وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ودفع إليه كتاب العهد، وخرج فبعث إلى القائم خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك منتقين بخيولهم وسلاحهم، إلى ما في معنى ذلك من الثياب والطيب غيرهما.

فتنة ينال مع أخيه طغرلبك ومقتله:

كان إبراهيم ينال قد ملك بلاد الجبل وهمذان واستولى على الجهات من نواحيها إلى حلوان عام سنة سبع وثلاثين. ثم استوحش من السلطان طغرلبك بما طلب منه أن يسلم إليه مدينة همذان والقلاع فأبى من ذلك ينال وجمع جموعاً وتلاقيا فانهزم ينال، وتحصن بقلعة سرماج فملكها عليه بعد الحصار، واستنزله منها، وذلك سنة إحدى وأربعين. وأحسن إليه طغرلبك وخيره بين المقام معه أو إقطاع الأعمال فاختار المقام. ثم لّما ملك طغرلبك بغداد وخطب له بها سنة سبع وأربعين خرج إليه البساسيري مع قُرَيْش بن بدران صاحب الموصل ودبيس بن مزيد صاحب الحلة، وسار طغرلبك إليهم من بغداد، ولحقه أخوه إبراهيم ينال فلما ملك الموصل سلمها إليه وجعلها لنظره مع سنجار والرحبة وسائر تلك الأعمال التي لقريش، ورجع إلى بغداد سنة تسع وأربعين.ثم بلغه سنة خمسين بعدها أنه سار إلى بلاد الجبل فاستراب به وبعث إليه يستقدمه بكتابه وكتاب القائم مع العهد الكندي فقدم معه. وفي خلال ذلك قصد

البساسيري وقريش بن بدران الموصل فملكاها وجفلوا عنها فاتبعهم إلى نصيبين، وخالفه أخوه إبراهيم ينال إلى همذان في رمضان سنة خمسين. يقال إنّ

العلويّ صاحب مصر والبساسيري كاتبوه واستمالوه وأطمعوه في السلطنة فسار السلطان في اتباعه من نصيبين، وردّ وزيره عميد الملك الكندي وزوجته خاتون إلى بغداد، ووصل إلى همذان ولحق به من كان ببغداد من الأتراك فحاصر همذان في قلعة من العسكر، واجتمع لأخيه خلق كثير من الترك، وحلف لهم أن لا يصالح طغرلبك ولا يدخل بهم العراق لكثرة نفقاته. وجاءه محمد وأحمد ابنا أخيه أرباش بأمداد من الغز فقوي بهم ووهن طغرلبك فأفرج عنه إلى الري، وكاتب إلى أرسلان ابن أخيه داود، وقد كان ملك خراسان بعد أبيه سنة إحدى وخمسين كما يذكر في أخبارهم، فزحف إليه في العساكر ومعه إخواه ياقوت وقاروت بك، ولقيهم إبراهيم فيمن معه فانهزم، وجيء به وبابني أخيه محمد وأحمد أسرى إلى طغرلبك فقتلهم جميعاً، ورجع إلى بغداد لاسترجاع القائم.

دخول البساسيري بغداد وخلع القائم ثم عوده:

قد ذكرنا أن طغرلبك سار إلى همذان لقتال أخيه وترك وزيره عميد الملك الكندي ببغداد مع الخليفة، وكان البساسيري وقريش بن بدران فارقا الموصل عند زحف السلطان طغرلبك إليهما فلما سار عن بغداد لقتال أخيه بهمذان خالفه البساسيري وقريش إلى بغداد فكثر الأرجاف بذلك، وبعث على دبيس بن مزيد ليكون حاجبه ببغداد ونزلوا بالجانب الشرقي، وطلب من القائم الخروج معه إلى أحيائه واستدعى هزارشب من واسط للمدافعة واستمهل في ذلك فقال العرب لا نشير فأشيروا بنظركم، وجاء البساسيري ثامن ذي القعدة سنة خمسين في أربعمائة غلام على غاية من سوء الحال ومعه أبو الحسين بن عَبْد الرحيم، وجاء حسين بن بدران في مائة فارس، وخيموا مفترقين عن البلد، واجتمع العسكر والقوم إلى عميد العراق، وأقاموا ازاء البساسيري، وخطب البساسيري ببغداد للمستنصر العلوي صاحب مصر بجامع المنصور، ثم بالرصافة؛ وأمر بالأذان بحي على خير العمل، وخيم بالزاهر، وكان هوى البساسيري لمذاهب الشيعة، وترك أهل السنة للإنحراف عن الأتراك فرأى الكندي المطاولة لانتظار السلطان، ورأى رئيس الرؤساء المناجزة، وكان غير بصير بالحرب فخرج لقتالهم في غفلة من الكندي فانهزم وقتل من أصحابه خلق، ونهب باب الأزج وهو باب الخلافة.

القسم الخامس

وهرب أهل الحريم الخلافي فاستدعى القائم العميد الكندي للمدافعة عن دار الخلافة فلم يرعهم إلاّ اقتحام العدوّ عليهم من الباب النوبي، فركب الخليفة ولبس السواد، والنهب قد وصل باب الغردوس، والعميد الكندي قد استأمن إلى قُرَيْش فرجع ونادى بقريش من السور فاستأمن إليه على لسان رئيس الرؤساء،

واستأمن هو أيضاً معه، وخرجا إليه وسار معه ونكر البساسيري على قُرَيْش نقضه لّما تعاهدا عليه، فقال: إنما تعاهدنا على الشركة فيما يستولي عليه، وهذا رئيس الرؤساء لك والخليفة لي.

ولما حضر رئيس الرؤساء عند البساسيري وبخه وسأله العفو فأبى منه، وحمل قُرَيْش القائم إلى معسكره على هيئته، ووضع خاتون بنت أخي السلطان طغرلبك في يد بعض الثقات في خواصه وأمره بخدمتها، وبعث القائم ابن عمه مهارش فسار به إلى بلده حُدَيْثَةَ خان وأنزله بها. وأقام البساسيري ببغداد وصلى عيد النحر بالألوية المصرية وأحسن إلى الناس وأجرى أرزاق الفقهاء ولم يتعصب لمذهب. وأنزل أم القائم بدارها وسفل جرايتها. وولى محمود بن الأفرم على الكوفة، وسعى الفرات وأخرج رئيس الرؤساء من محبسه آخر ذي الحجة فصلبه عند التجيبي لخمسين سنة من ترددة في الوزارة. وكان ابن ماكولا قد قبل شهادته سنة أربع عشرة. وبعث البساسيري إلى المستنصر العلوي بالفتح والخطبة له بالعراق، وكان هنالك أبو الفرج ابن أخي أبي القائم المغربي فاستهان بفعله وخوفه عاقبته، وأبطأت أجوبته مدّة، ثم جاءت بغير ما أمل، وسار البساسيري من بغداد إلى واسط والبصرة فملكها وأراد قصر الأهواز فبعث صاحبها هزارشب بن شكر فأصلح أمره على مال يحمله. ورجع البساسيري إلى واسط في شعبان سنة إحدى وخمسين، وفارقه صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي إلى هزارشب، وقدكان ولى بغداد اباه على ما يذكر. ثم جاء الخبر إلى البساسيري بظفر طغرلبك بأخيه، وبعث إليه والي قُرَيْش في إعادة الخليفة إلى داره، ويقيم طغرلبك، وتكون الخطبة والسكة له فأبى البساسيري من ذلك فسار طغرلبك إلى العراق، وانتهى إلى قصر شيرين، وأجفل الناس بين يديه. ورحل أهل الكرخ بأهليهم وأولادهم براً وبحراً، وكثر عيث بني شيبان في الناس، وارتحل البساسيري بأهله وولده سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين لحول كامل من دخوله وكثر الهرج في المدينة والنهب والإحراق. ورحل طغرلبك إلى بغداد بعد أن أرسل من طريقه الأستاذ أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابر فورك إلى قُرَيْش بر بدران بالشكر على فعله في القائم وفي خاتون بنت أخيه زوجة القائم، وأن أبا بكر بن فورك جاء بإحضارهما والقيام بخدمتهما، وقد كان قُرَيْش بعث إلى مهارش بأن يدخل معهم إلى البرية بالخليفة ليصد ذلك طغرلبك عن العراق، ويتحكم عليه بما يريد فأبى مهارش لنقض البساسيري عهوده، واعتذر بأنه قد عاهد الخليفة القائم بما لا يمكن نقضه، ورحل بالخليفة إلى العراق، وجعل طريقه على بدران بن مهلهل. وجاء أبو فورك إلى بدر فحمله معه إلى الخليفة وأبلغه رسالة طغرلبك وهداياه، وبعث طغرلبك للقائه وزيره الكندي والأمراء والحجاب بالخيام والسرادقات والمقربات بالمراكب الذهبية فلقوه في بلد بدر. ثم خرج السلطان فلقيه بالنهروان، واعتذر عن تأخره بوفاة أخيه داود بخراسان، وعصيان إبراهيم بهمذان، وأنه قتله على عصيان. وأقام حتى رتب أولاد داود في مملكته، وقال إنه يسير إلى الشام في اتباع البساسيري. وطلب صاحب مصر فقلده القائم سيفه إذ لم يجد سواه، وأبدى وجهه للأمراء فجوه وانصرفوا. وتقدم طغرلبك إلى بغداد فجلس في الباب النوبي مكان الحاجب، وجاء القائم فأخذ طغرلبك بلجام بغلته إلى باب داره، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين، وسار السلطان إلى معسكره وأخذ في تدبير أموره.

مقتل البساسيري:

ثم أرسل السلطان طغرلبك خمارتكين في ألفين إلى الكوفة، واستقّر معه سرايا بن

منيع في بني خفاجة، وسار السلطان طغرلبك في أثرهم فلم يشعر دبيس وقريش والبساسيري، وقد كانوا نهبوا الكوفة إلاّ والعساكر قد طلعت عليهم من طريق الكوفة فأجفلوا نحو البطيحة. وسار دبيس ليردّ العرب إلى القتال فلم يرجعوا ومضى معهم،ووقف البساسيري وقريش فقتل من أصحابهما جماعة، وأسر أبو الفتح بن ورام ومنصور بن بدران وحماد بن دبيس، وأصاب البساسيري سهم فسقط عن فرسه وأخذ رأسه لمتنكيرز، وأتى العميد الكندريّ وحمله إلى السلطان، وغنم العسكر جميع أموالهم وأهليهم، وحمل رأس البساسيري إلى دار الخلافة فعلّق قبالة

النوبي في منتصف ذي الحجة. ولحق دبيس بالبطيحة ومعه زعيم الملك أبو الحسن عَبْد الرحيم، وكان هذا البساسيري من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة إسمه أرسلان، وكنيته أبو الحرث ونسبه في الترك. وهذه النسبة المعروفة له نسبة إلى مدينة بفارس حرفها الأوّل متوسط بين الفاء والباء، والنسبة إليها فسوي، ومنها أبو علي الفارسيّ صاحب الإيضاح. وكان أوّلا ينسب إليها فلذلك قيل فيه هو بساسيري.

مسير السلطان إلي واسط وطاعة دبيس:

ثم انحدر السلطان إلى واسط أول سنة اثنتين وخمسين وحضر عنده هزارشب بن شكر من الأهواز، وأصلح حال دبيس بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين، أحضرهما عند السلطان، وضمن واسط أبو علي بن فضلان بمائتي ألف دينار، وضمن البصرة الأغر أبو سعد سابور بن المظفر، وأصعد السلطان إلى بغداد، واجتمع بالخليفة، ثم سار إلى بلد الجبل في ربيع سنة إثنتين وخمسين. وأنزل ببغداد الأمير برسو شحنة، وضمن أبو الفتح المظفر بن الحسين في ثلاث سنين بأربعمائة ألف دينار، وردّ إلى محمود الأخرم إمارة بني خفاجة وولاّه الكوفة وسقي الفرات وخواصّ السلطان بأربعة آلاف دينار في كل سنة.

وزارة القائم:

ولما عاد القائم إلى بغداد ولّى أبا تراب الأشيري على الأنهار وحضور المراكب،

ولّقبه حاجب الحجّاب، وكان خدمه بالحُدَيْثَة. ثم سعى الشيخ أبو منصور في وزارة أبي الفتح بن أحمد بن دارست على أن يحمل مالاً فأجيب وأحضر من الأهواز في منتصف ربيع من سنة ثلاث وخمسين فاستوزره وكان من قبل تاجراً لأبي كاليجار، ثم ظهر عجزه في استيفاء الأموال فعزله، وعاد إلى الأهواز. وقدم أثر ذلك أبو نصر بن جهير وزير نصير الدولة بن مروان نازعاً منه إلى الخليفة القائم فقبله واستوزره، ولقبه فخر الدولة.

عقد طغرلبك على ابنة الخليفة:

كان السلطان طغرلبك قد خطب من القائم إبنته على يد أبي سعد قاضي الريّ سنة ثلاث وخمسين فاستنكف من ذلك. ثم بعث أبا محمد التميمي في الاستعفاء من ذلك وإلاّ فيشترط. ثلثمائة ألف دينار وواسط وأعمالها. فلما ذكر التميمي ذلك للوزير عميد الملك بني الأمر على الإجابة قال: ولا يحسن الاستعفاء، ولا يليق بالخليفة طلب المال، وأخبر السلطان بذلك فسر به وأشاعه في الناس، ولقّب وزيره عميد الملك وأتى أرسلان خاتون زوجة القائم، ومعه مائة ألف ألف دينار وما يناسبها من الجواهر والجوار، وبعث معهم قرامرد بن كاكويه وغيره من أمراء الري فلما وصلوا إلى القائم استشاط وهمّ بالخروج من بغداد. وقال له العميد: ما جمع لك في الأول بين الامتناع والاقتراح وخرج مغضباً إلى النهروان فاستوقفه قاضي القضاة والشيخ أبو منصور بن يوسف. وكتب من الديوان إلى خمارتكين من أصحاب السلطان بالشكوى من عميد الملك، وجاءه الجواب بالرفق ولم يزل عميد الملك يريض الخليفة وهو يتمنع إلى أن رحل في جمادى من سنة أربع وخمسين. ورجع إلى السلطان وعرفه بالحال، ونسب القضية إلى خمارتكين فتنكر له السلطان وهرب واتبعه أولاد ينال فقتلوه بثأر أبيهم، وجعل مكانه سارتكين وبعث للوزير بشأنه.وكتب السلطان إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف بالعتب، وطلب بنت أخي زوجة القائم فأجاب الخليفة حينئذ إلى الإصهار، وفوّض إلى الوزير عميد الكندري عقد النكاح على إبنته للسلطان، وكتب بذلك إلى أبي الغنائم المجلبان فعقد عليها في شعبان من تلك السنة بظاهر تبريز. وحمل السلطان للخليفة أموالاً كثيرة وجواهر لولي العهد وللمخطوبة، وأقطع ما كان بالعراق لزوجته خاتون المتوفاة للسيدة بنت الخليفة. وتوجه السلطان في المحرم سنة خمس وخمسين من أرمينية إلى بغداد، ومعه من الأمراء أبو علي بن أبي كاليجار وسرخاب بن بدر وهزار وأبو منصور بن قرامرد بن كاكويه، وخرج الوزير ابن جهير فتلقاه وترك عسكره بالجانب الغربي، ونادى الناس بهم. وجاء الوزير ابن العميد لطلب المخطوبة فأفرد لهم القائم دوراً لسكناه وسكنى

حاشيته، وانتقلت المخطوبة إليها وجلست على سرير ملبّس بالذهب، ودخل السلطان فقبل الأرض وحمل لها مالاً كثيراً من الجواهر وأولم أياماً، وخلع على جميع أمرائه وأصحابه، وعقد ضمان بغداد على أبي سعد الفارسي بمائة وخمسين ألف دينار، وأعاد ما كان أطلقه رئيس العراقين من المواريث والمكوس، وقبض على الأعرابي سعد ضامن البصرة، وعقد ضمان واسط على أبي جعفر بن فضلان بمائتي ألف.

وفاة السلطان طغرلبك وملك ابن أخيه داود:

ثم سار السلطان طغرلبك من بغداد في ربيع الآخر إلى بلد الجبل فلمّا وصل الريّ أصابه المرض وتوفي ثامن رمضان من سنة خمس وخمسين، وبلغ خبر وفاته إلى بغداد فاضطربت، واستقدم القائم مسلم بن قُرَيْش صاحب الموصل ودبيس بن مزيد وهزارشب صاحب الأهواز وبني ورّام وبدر بن مهلهل فقدموا، وأقام أبو سعد الفارسيّ ضامن بغداد سوراً على قصر عيسى، وجمع الغلال، وخرج مسلم بن قُرَيْش من بغداد

فنهب النواحي، وسار دبيس بن مزيد وبنو خفاجة وبنو ورام والأكراد لقتاله. ثم استتيب ورجع إلى الطاعة. وتوفي أبو الفتح بن ورام مقدم الأكراد والجاوانية، وحمل العامة السلاح لقتال الأعراب فكانت سبباً لكثرة الذعار. ولما مات طغرلبك بايع عميد الدولة الكندري بالسلطنة لسليمان ابن داود، وجعفر بك، وكان ربيب السلطان طغرلبك خلف أخاه جعفر بك داود على أمه، وعهد إليه بالملك فلما خطب له اختلف عليه الأمر، وسار باغي سيان وأرذم إلى قزوين فخطب لأخيه ألب أرسلان، وهو محمد بن داود، وهو يومئذ صاحب خراسان ووزيره نظام الملك سار إلى المذكور، وسال الناس إليه، وشعر الكندري باختلال أمره فخطب بالري للسلطان ألب أرسلان وبعده لأخيه سليمان. وزحف ألب أرسلان في العساكر من خراسان إلى الرى فلقيه الناس جميعاً ودخلوا في طاعته، وجاء عميد الملك الكندري إلى وزيره نظام الملك فخدمه وهاداه فلم يغن عنه، وخشي السلطان غائلته فقبض عليه سنة ست وخمسين وحبسه بمروالروذ. ثم بعث بعد سنة من محبسه بقتله من ذي الحجة من سنة سبع وخمسين، وكان من أهل نيسابور كاتباً بليغاً. فلما ملك طغرلبك نيسابور، وطلب كاتباً فدله عليه الموفق والد أبي سهل فاستكتبه

واستخلصه وكان خصيًّا يقال إنّ طغرلبك خصاه لأنه تزوج بامرأة خطبها له، وغطى عليه فظفر به فحاصره وأقره على خدمته. وقيل أشاع عند أعدائه أنه

تزوجها ولم يكن ذلك فخصى نفسه ليأمن غائلته، وكان شديد التعصب على الشافعية والأشعرية.

واستأذن السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان، ثم أضاف إليهم الأشعرية فاستعظم ذلك أئمة السنة. وفارق خراسان أبو القاسم القشيري ثم أبو المعالي إلى مكة فأقام أربعة سنين يتردد بين الحرمين يدرس ويفتي حتى لقب إمام الحرمين. فلما جاءت دولة ألب أرسلان أحضرهم نظام الملك وزيره فأحسن إليهم وأعاد السلطان ألب أرسلان السيدة بنت الخليفة التي كانت زوجة طغرلبك إلى بغداد، وبعث في خدمتها الأمير أيتكين السليماني، وولاه شحنة ببغداد وبعث معها أيضاً أبا سهل محمد بن هبة الله المعروف بابن الموفق لطلب الخطبة ببغداد فمات في طريقه، وكان من رؤساء الشافعية بنيسابور. وبعث السلطان مكانه العميد أبا الفتح المظفر بن الحسين فمات أيضاً في طريقه فبعث وزيره نظام الملك، وخرج عميد الملك ابن الوزير فخر الدولة بن جهير لتلقيهم، وجلس لهم القائم جلوساً فخماً في جمادى الأولى من سنة ست وخمسين، وساق الرسل بتقليد ألب أرسلان السلطنة، وسلمت إليهم الخلع بمشهد من الناس، ولقب ضياء الدولة، وأمر بالخطبة له على منابر بغداد، وأن يخاطب بالولد المؤيد حسب اقتراحه فأرسل إلى الديوان لأخذ البيعة النقيب طراد الزينبي، فأرسل إليه بنقجوان من أذربيجان، وبايع وانتقض على السلطان ألب أرسلان من السلجوقية صاحب هراة وصغانيان، فسار إليهم وظفر بهم كما نذكر في أخبارهم ودولتهم عن إفرادها بالذكر انتهى.

فتنة قطلمش والجهاد بعدها:

كان قطلمش هذا من كبار السلجوقية وأقربهم نسباً إلى السلطان طغرلبك، ومن أهل بيته، وكان قد استولى على قومة واقصراي وملطية، وهو الذي بعثه السلطان طغرلبك أول ما ملك بغداد سنة تسع وأربعين لقتال البساسيري وقريش بن بدران صاحب الموصل، ولقيهم على سنجار الري فجهز ألب أرسلان العساكر من نيسابور في المحرم من سنة سبع وخمسين، وساروا على المفارقة فسبقوا قطلمش إلى الريّ، وجاء كتاب السلطان إليه ولقيه فلم يثبت ومضى منهزما، واستباح السلطان عسكره قتلاً وأسراً، وأجلت الواقعة عنه قتيلاً فحزن له السلطان ودفنه. ثم سار إلى بلاد الروم معتزماً على الجهاد، ومر بأذربيجان ولقيه طغرتكين من أمراء التركمان في عشيرة، وكان ممارساً للجهاد فحثه على قصده، وسلك دليلاً بين يديه فوصل إلى نجران على نهر أرس، وأمر بعمل السفن لعبوره، وبعث عساكر لقتال خوي وسلماس من حصون أذربيجان، وسار هو في العساكر فدخل بلاد الكرخ وفتح قلاعها واحدة بعد واحدة كما نذكر في أخبارهم. ودوخ بلادهم وأحرق مدنهم وحصونهم، وسار إلى مدينة آي من بلاد الديلم فافتتحها وأثخن فيها، وبعث بالبشائر إلى بغداد، وصالحه ملك الكرخ على الجزية، ورجع إلى أصبهان. ثم سار منها إلى كرمان فأطاعه أخوه قاروت بن داود جعفر بك. ثم سار إلى مرو وأصهر إليه خاقان ملك ما وراء النهر بإبنته لابنه ملكشاه، وصاحب غزنة بابنته لابنه الآخر انتهى.

العهد بالسلطنة لملكشاه بن ألب أرسلان:

وفي سنة ثمان وخمسين عهد ألب أرسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه، واستخلف له الأمراء وخلع عليهم وأمر بالخطبة في سائر أعماله، وأقطع بلخ لأخيه سليمان، وخوارزم لأخيه ازعزا. ومرو لابنه أرسلان شاه، وصغانيان وطخارستان لأخيه إلياس، ومازندران للأمير ابتايخ وبيغوا، وجعل ولاية نقشوان ونواحيها لمسعود ابن ازناس. وكان وزيره نظام الملك قد ابتدأ سنة سبع وخمسين بناء المدرسة النظامية ببغداد، وتمت عمارتها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين، وعين للتدريس بها الشيخ إسحاق الشيرازي، واجتمع الناس لحضور درسه وتخلف لأنه سمع أن في مكانها غصباً. وبقي الناس في انتظاره حتى يئسوا منه فقال الشيخ أبو منصور لا ينفصل هذا الجمع إلا عن تدريس، وكان أبو منصور الصباغ حاضراً فدرس وأقام مدرساً عشرين يوماً حتى سمع أبو إسحاق الشيرازي بالتدريس فاستقّر بها.

وزراء الخليفة:

كان فخر الدولة ابن جُهير وزير القائم كما ذكرناه، ثم عزله سنة ستين وأربعمائة فلحق بنور الدولة دبيس بن مزيد بالقلوجة، وبعث القائم عن أبي يعلى والد الوزير أبي شجاع، وكان يكتب لهزارشب ابن عوض صاحب الأهواز فاستقدمه ليوليه الوزارة، فقدم ومات في طريقه، وشفع دبيس بن مزيد في فخر الدولة بن جهير فأعيد إلى وزارته سنة إحدى وستين في صفر.

الخطبة بمكة:

وفي سنة إثنتين وستين خطب محمد بن أبي هاشم بمكة للقائم وللسلطان ألب أرسلان، وأسقط خطبة العلويّ صاحب مصر، وترك حيّ على خير العمل من الأذان، وبعث إبنه وافداً على السلطان بذلك فأعطاه ثلاثين ألف دينار، وخلعاً نفيسة ورتب كل سنة عشرة آلاف دينار.

طاعة دبيس ومسلم بن قُرَيْش:

كان مسلم بن قُرَيْش منتقضاً على السلطان، وكان هزارشب بن شكر بن عوض قد أغرى السلطان بدبيس بن مزيد ليأخذ بلاده فانتقض. ثم هلك هزارشب سنة إثنتين وستين بأصبهان منصرفاً من وفادته على السلطان بخراسان ، فوفد دبيس على السلطان ومعه مشرف الدولة مسلم بن قُرَيْش صاحب الموصل، وخرج نظام الملك لتلقّيهما، وأكرمهما السلطان ورجعا إلى الطاعة.

الخطبة العباسية بحلب واستيلاء السلطان عليها:

كان محمود بن صالح بن مراد قد استولى هو وقومه على مدينة حلب، وكانت للعلويّ صاحب مصر. فلمّا رأى إقبال دولة ألب أرسلان وقوتّها خافه على بلده فحملهم على الدخول في دعوة القائم، وخطب له على منابر حلب سنه ثلاث وستين، وكتب بذلك إلى القائم فبعث إليه نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي بالخلع، ثم سار السلطان ألب أرسلان إلى حلب ومرّ بديار بكر فخرج إليه صاحبها ابن مروان، وخدمه بمائة ألف دينار. ومرّ بآمد فامتنعت عليه وبالرها كذلك. ثم نزل على حلب

وبعث إليه صاحبها محمود مع نقيب النقباء طراد بالاستعفاء من الحضور فألح في ذلك، وحاصره فلما اشتدّ عليه الحصار خرج ليلاً إلى السلطان، ومعه أمّه منيعة بنت رتاب النميري ملقياً بنفسه فأكرمه السلطان وخلع عليه وأعاده إلى بلده فقام بطاعته.

واقعة السلطان مع ملك الروم وأسره:

كان ملك الروم في القسطنطينية وهو أرمانوس قد خرج سنة إثنتين وستين إلى بلاد الشام في عساكر كثيفة، ونزل على منبج ونهبها وقتل أهلها، وزحف إليه محمود بن صالح بن مرداس وابن حسان الطائي في بمي كلاب وطيىء ومن إليهم من جموع العرب فهزمهم، وطال عليه المقام على منبج، وعزّت الأقوات فرجع إلى بلاده، واحتشد وسار في مائتي ألف من الزنج والروم والروس والكرخ، وخرج في احتفال إلى أعمال خلاط ووصل إلى ملازجرد. وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة خوي من أذربيجان عند عوده من حلب فتشوق إلى الجهاد، ولم يتمكن من الاحتشاد فبعث أثقاله وزوجته مع نظام الملك إلى همذان، وسار فيمن حضره من العساكر، وكانوا خمسة عشر ألفاً. ووطن نفسه على الاستماتة فلقيت مقدمته عند خلاط جموع الروسية في عشرة آلاف فانهزموا وجيء بملكهم إلى السلطان فحبسه، وبعث بالأسلاب إلى نظام الملك ليرسلها إلى بغداد. ثم تقارب العسكران وجنح السلطان للمهادنة فأبى ملك الروم فاعتزم السلطان وزحف وأكثر من الدعاء والبكاء، وعفر وجهه بالتراب. ثم حمل عليهم فهزمهم وامتلأت الأرض

بأشلائهم، وأسر الملك أرمانوس، جاء به بعض الغلمان أسيراً فضربه السلطان على رأسه ثلاثاً ووبخه. ثم فاداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وعلى أن يطلق كل أسير عنده، وأن تكون عساكر الروم مدداً للسلطان متى يطلبها. وتم الصلح على ذلك لمدة خمسين سنة. وأعطاه السلطان عشرة آلاف دينار وخلع عليه وأطلقه، ووثب ميخائيل على الروم فملك عليهم مكان أرمانوس فجمع ما عنده من الأموال فكان مائتي ألف دينار، وجيء بطبق مملوء بجواهر قيمته تسعون ألفاً. ثم استولى أرمانوس بعد ذلك على أعمال الأرمن وبلادهم.

شحنة بغداد:

قد ذكرنا أن السلطان ألب أرسلان ولّى لأول ملكه إيتكين السليماني شحنة بغداد

سنة ست وخمسين فأقام فيها مدّة، ثم سار إلى السلطان في بعض مهماته، واستخلف إبنه مكانه فأساء السيرة، وقتل بعض المماليك الداريّة فأنفذ قميصه من الديوان إلى السلطان، وخوطب بعزله. وكان نظام الملك يعني به فكتب فيه بالشفاعة، وورد سنة أربع وستين فقصد دار الخلافة، وسأل العفو فلم يجب، وبعث إلى تكريت ليسوغها بإقطاع السلطان فبرز المرسوم من ديوان الخلافة بمنع ذلك. ولما رأى السلطان ونظام الملك إصرار القائم على عزله، بعث السلطان مكانه سعد الدولة كوهرابين اتباعا لمرضاة الخليفة. ولما ورد بغداد خرج الناس للقائه وجلس له القائم واستقّر شحنة.

مقتل السلطان ألب أرسلان وملك ابنه ملكشاه:

سار السلطان ألب أرسلان محمد إلى ما وراء النهر، وصاحبه شمس الملك تكين، وذلك سنة خمس وستين، وعبر على جسر عقده على جيحون في نيف وعشرين يوماً، وعسكره تزيد على مائتي ألف. وجيء له بمستحفظ القلاع، ويعرف بيوسف الخوارزمي فأمر بعقابه على ارتكابه فأفحش في سب السلطان فغضب وأمر بإطلاقه، ورماه بسهم فأخطأه فسير إليه يوسف، وقام السلطان عن سريره فعثر ووقع فضربه بسكينة، وضرب سعد الدولة، ودخل السلطان خيمته جريحاً. وقتل الأتراك يوسف هذا، ومات السلطان من جراحته عاشر ربيع سنة خمس وستين، لتسع سنين ونصف من ملكه، ودفن بمرو عند أبيه. وكان كريماً عادلاً كثير الشكر لنعمة الله والصدقة، واتّسع ملكه حتى قيل فيه سلطان العالم. ولما مات وقد أوصى بالملك لابنه ملكشاه فجلس للملك، وأخذ له البيعة وزيره نظام الملك، وأرسل إلى بغداد فخطب له على منابرها. وكان ألب أرسلان أوصى أن يعطي أخوه قاروت بك أعمال فارس وكرمان وشيئاً عّينه من المال، وكان بكرمان. وأن يعطي إبنه إياس بن ألب أرسلان

ما كان لأبيه داود، وهو خمسمائة ألف دينار، وعهد بقتال من لم يقض بوصّيته. وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر فعبر الجسر في ثلاثة أيام، وزاد الجند في أرزاقهم سبعمائة ألف دينار، ونزل نيسابور، وأرسل إلى ملوك الأطراف بالطاعة والخطبة فأجابوا. وأنزل أخاه أياس بن ألب أرسلان ببلخ وسارإلى الريّ. ثم

فوّض إلى نظام الملك وأقطعه مدينة طوس التي هي منشؤه وغيرها، ولقّبه ألقاباً منها أتابك ومعناها الأمير الوالد، فحمل الدولة بصرامة وكفاية، وحسن سيرة وبعث كوهرابين الشحنة إلى بغداد سنة ست وستين لاقتضاء العهد فجلس له القائم وعلى رأسه حافده وولّي عهده المقتدي بأمر الله، وسلم إلى سعد الدولة كوهرابين عهد السلطان ملكشاه بعد أن قرأ الوزير أوّله في المحفل، وعقد له اللواء بيده ودفعه إليه.

وفاة القائم ونصب المقتدي للخلافة:

ثم توفي القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر، افْتُصد منتصف شعبان من سنة سبع وستين ونام فانفجر فصاده، وسقطت قوّته. ولما أيقن بالموت أحضر حافده أبا القاسم عَبْد الله ابن إبنه ذخيرة الدين محمد، وأحضر الوزير ابن جهير، والنقباء والقضاة وغيرهم، وعهد له بالخلافة. ثم مات لخمس وأربعين سنة من خلافته. وصلى عليه المقتدي، وبعي بعهد جده، وحضر بيعته مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد الدولة، وأبو إسحاق الشيرازي وأبو نصر بن الصباغ، ونقيب النقباء طراد، والنقيب الطاهر المعمر بن محمد، وقاضي القضاة أبو عَبْد الله الدامغاني وغيرهم من الأعيان والأماثل. ولما فرغوا من البيعة صلى بهم العصر، ولم يكن للقائم عقب ذكر غيره لأن ابنه ذخيرة الدين أبا العباس محمدا توفي في حياته، ولم يكن له غيره فاعتمد القائم لذلك. ثم جاءت جاريته أرجوان بعد موته لستة أشهر بولد ذكر فعظم سرور القائم به، ولما كان حادثة البساسيري حمله أبو الغنائم ابن المجلبان إلى حران وهو ابن أربع سنين، وأعاده عند عود القائم إلى داره. فلما بلغ الحلم عهد له القائم بالخلافة، ولما تمت بيعته لقب المقتدي وأقر فخر الدولة بن جهير على وزارته بوصية جده القائم بذلك. وبعث ابن عميد الدولة إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة في رمضان من سنة سبع وستين وبعث معه من الهدايا ما يجل عن الوصف. وقدم سعد الدولة كوهرابين سنة ثمان وستين إلى بغداد شحنة، ومعه

العميد أبو نصر ناظراً في أعمال بغداد، وقدم مؤيد الملك ابن نظام الملك سنة سبعين للإقامة ببغداد، ونزل بالدار التي بجوار مدرستهم.

عزل الوزير ابن جُهَيْر ووزارة أبي شجاع:

كان أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري قد حج سنة تسع وستين فورد بغداد منصرفاً من الحج، ووعظ الناس بالنظامية، وفي رباط شيخ الشيوخ، ونصر مذهب الأشعري فأنكر عليه الحنابلة، وكثر التعصب من الجانبين، وحدثت الفتنة والنهب عند المدرسة النظامية فأرسل مؤيد الملك إلى العميد والشحنة فحضروا في الجند، وعظمت الفتنة، ونسب ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جهير، وعظم ذلك على عضد الدولة فأعاد كوهرابين إلى الشحنة ببغداد. وأوصاه المقتدي بعزل فخر الدولة من الوزارة، وأمر كوهرابين بالقبض على أصحابه، ونمي الخبر إلى بني جهير فبادر عميد الدولة ابن الوزير إلى نظام الملك يستعطفه. ولما بلغ كوهرابين رسالة الملك إلى المقتدي أمر فخر الدولة بلزوم منزله. ثم جاء ابنه عميد الدولة، وقد

استصلح نظام الملك في الشفاعة لهم فأعيد عميد الملك إلى الوزارة دون أبيه فخر الدولة، وذلك في صفر سنة إثنتين وسبعين.

استيلاء تتش بن ألب أرسلان على دمشق وابتداء دولته ودولة ونفيه فيها:

كان أتسز - بهمزة وسين وزاي بن أبق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه، وقد سار سنة ثلاث وستين إلى فلسطين من الشام ففتح مدينة الرَمْلَة، ثم حاصر بيت المقدس وفتحها من يد العلوّيين أصحاب مصر، وملك ما يجاورها ما عدا عسقلان. ثم حاصر دمشق حتى جهدها الحصار فرجع وبقي يردّد الغزوات إليها كل سنة. ثم حاصرها سنة سبع وستين وبها المعلّى بن حمدرة من قبل المنتصر العبيدي فأقام عليها شهراً. ثم أقلع ديار أهل دمشق بالمعلى لسوء سيرته فهرب إلى بانياس، ثم إلى صور، ثم أخذ إلى مصر وجلس بها ومات محبوساً. واجتمع المصامدة بعد هربه من دمشق وولوا عليهم انتصار ابن يحمى المصمودي ولقبوه زين الدولة. ثم اختلفوا عليه ووقعت الفتنة وغلت الأسعار ورجع أتسز إلى حصارها فنزل له عنها انتصار على الأمان، وعوضه عنها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل، وخطب فيها أتسز للمقتدي العباسي في ذي القعدة سنة ثمان وستين. وتغلب على أكثر الشام ومنع من الأذان بحي على خير العمل. ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها حتى أشرف على أخذها. ثم انهزم من غير قتال، ورجع إلى دمشق، وقد انتقض عليه أكثر بلاد الشام فشكر لأهل دمشق صونهم لمخلفه وأمواله، ورفع عنهم خراج سنة. وبلغه أن أهل القدس وثبوا بأصحابه ومخلفه وحصروهم في محراب داود عليه السلام فسار إليهم، وقاتلوه فملكهم عنوة وقتلهم في كل مكان إلا من كان عند الصخرة. ثم أن السلطان ملك شاه أقطع أخاه تاج الدولة تتش سنة سبعين وأربعمائة بلاد الشام وما يفتحه من نواحيها فسار إلى حلب سنة إحدى وسبعين وحاصرها وضيق عليها، وكانت معه جموع كثيرة من التركمان. وكان صاحب مصر قد بعث عساكره مع قائده نصير الدولة لحصار دمشق فأحاطوا بها، وبعث أتسز إلى تتش وهو على حلب يستمدّه فسار إليه، وأجفلت العساكر المصرية عن دمشق، وجاء إليها تتش فخرج أتسز للقائه بظاهر البلد فتجني عليه حيث لم يستعد للقائه، وقبض عليه وقتله لوقته، وملك البلد وأحسن السيرة فيها، وذلك سنة إحدى وسبعين فيما قال الهمذاني. وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر أن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين. وقال ابن الأثير والشاميون في هذا الإسم افسلس، والصحيح أنه أتسز وهو إسم تركي.

سفارة الشيخ أبي إسحق الشيرازي عن الخليفة:

كان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث، قد أساء السيرة وأساء إلى الرعّية وعسفهم، واطرح جانب الخليفة المقتدي وحواشيه فاستدعى المقتدي الشيخ أبا إسحق الشيرازي، وبعثه إلى السلطان ملك شاه والوزير نظام الملك بالشكوى من ابن العميد فسار لذلك ومعه جماعة من أعيان الشافعية منهم أبو بكر الشاشي وغيره، وذلك سنة خمس وخمسين. وتنافس أهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة

في ملبوسه ومركوبه، وكان أهل البلاد إذا مرّ بهم يتسايلون إليه ويزدحمون على ركابه، وينشدون على موكبه كل أحد ما يناسب ذلك، وصدر الأمر بإهانة ابن العميد ورفع يده عما يتعلق بحواشي المقتدي، وجرى بينه وبين إمام الحرمين مناظرة بحضرة نظام الملك ذكرها الناس في كتبهم انتهى.

عزل ابن جهير عن الوزارة وإمارته على ديار بكر:

ثم أن عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير عزله الخليفة المقتدي عن الوزارة، ووصل يوم عزل رسول من قبل السلطان ونظام الملك، يطلب بني جهير فأذن لهم وساروا بأهلهم إلى السلطان فلقاهم كرامة وبرّا، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر مكان بني مروان، وبعث معه العساكر سنة وأعطاه الآلة، وأذن له أن يخطب فيها لنفسه ويكتب إسمه في السكة فسار لذلك سنة ست وسبعين. ثم بعث إليه السلطان سنة سبع وسبعين بمدد العساكر مع الأمير أُرْتُق بن اكسب جل أصحاب ماردين لهذا العهد، وكان ابن مروان قد استمد فخر الدولة بن جهير بنواحيها، وكان معه جماعة من التركمان فتقدموا إلى قتل مشرف الدولة، وانهزم أمامهم وغنم التركمان من كان معه من أحياء العرب، ودخل آمد فحصره بها فخر الدولة وأرتق فراسل أرتق وبذل له مالاً على الخروج من ناحيته فأذن له وخرج. ورجع ابن جهير إلى ميافارقين ومعه بهاء الدولة منصور بن مزيد صاحب الحلة والنيل والجامعين، وابنه سيف الدولة صدقة ففارقوه إلى العراق، وسار هو إلى خلاط. وكان السلطان لّما بلغه انهزام مشرف الدولة وحصاره بآمد بعث عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير في عسكره إلى الموصل ومعه قسيم الدولة اقسنقر جد نور الدين العادل، وكاتب أمراء التركمان بطاعته، وساروا

إلى الموصل فملكوها. وسار السلطان بنفسه إليها وقارن ذلك خلوص مشرف الدولة من حصار آمد فراسل مؤيد الدولة بن نظام الملك وهو على الرحبة، وأهدى له فسعى له عند السلطان وأحضره وأهدى للسلطان سوابق خيله وصالحه وأقره على بلاده، وعاد إلى خراسان. ولم يزل فخر الدولة بن جهير في طلب ديار بكر حتى ملكها. فأنفذ إليه زعيم الرؤساء القاسم سنة ثمان وسبعين وحاصرها وضيق عليها حتى غدر بها بعض أهل العسكر من خارج وملكها، وعمد أهل البلد إلى بيوت النصارى بينهم فنهبوها بما كانوا عمال بني مروان، وكان لهم جور على الناس. وكان فخر الدولة مقيماً على ميافارقين محاصراً لها، وجاءه سعد الدولة كوهرابين في العسكر مدداً من عند السلطان فخرج في حصارها وسقط بعض الأيام جانب من سورها فدهش أهل البلد وتمادوا بشعار السلطان ملك شاه، واقتحم فخر الدولة البلد واستولى على ما كان لبني مروان، وبعث بأموالهم إلى السلطان مع ابنه زعيم الرؤساء فلحقه بأصبهان سنة ثمان وسبعين. ثم بعث فخر الدولة أيضاً عسكراً إلى جزيرة ابن عمر وحاصروها حتى جهدهم الحصار فوثب طائفة من أهل البلد بعاملها، وفتحوا الباب، ودخل مقدم العسكر فملك البلد ودخل سنة ثمان وسبعين. وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر، واستولى عليها فخر الدولة بن جهير، ثم أخذها السلطان من

يده، وسار إلى الموصل فتوفي بها، وكان مولده بها، واستخدم لبرلة بن مقلة وسفر عنه إلى ملك الروم. ثم سار إلى حلب ووزر لمعز الدولة أبي هال بن صالح. ثم مضى إلى ملطية ثم إلى مروان بديار بكر، فوزر له ولولده. ثم سار إلى بغداد ووزر للخليفة كما مرّ في آخر ما ذكرنا، وتوفي سنة ثلاث وثمانين انتهى.

خبر الوزارة:

لّما عزل الخليفة المقتدي عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين رتّب في الديوان أبا الفتح المظفر بن رئيس الرؤساء. ثم استوزر أبا شجاع محمد بن الحسين فلم يزل في الوزارة إلى سنة أربع وثمانين فتعرض لأبي سعد بن سمحاء اليهودي وكان وكيلاً للسلطان، ونظام الملك. وسار كوهرابين الشحنة إلى السلطان بأصبهان، فمضى

اليهودي في ركابه، وسمع المقتدي بذلك فخرج توقيعه بالزام أهل الذمة بالغيار فأسلم بعضهم وهرب بعضهم. وكان ممن أسلم أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن موصلايا الكاتب وقرابته، ولما وصل كوهرابين وأبو سعد إلى السلطان وعظمت سعايتهما في الوزير أبي شجاع فكتب السلطان ونظام الملك إلى المقتدي في عزله فعزله، وأمره بلزوم بيته، وولى مكانه أبا سعد ابن موصلايا الكاتب، وبعث المقتدي إليهما في عميد الدولة بن جُهير فبعثا به إليه واستوزره سنة أربع وثمانين، وركب إليه نظام الدولة فهنأه بالوزارة في بيته وتوفي الوزير أبو شجاع سنة ثمان وثمانين.

استيلاء السلطان على حلب:

قد ذكرنا من قبل استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب، وخطبة صاحبها محمود ابن صالح بن مرداس على منابره بإسمه سنة ثلاث وستين. ثم عاد بعد ذلك إلى طاعة العلوية بمصر. ثم انتقضت دولة بني مرداس بها وعادت رياستها شورى في مشيختها، وطاعتهم لمسلم بن قُرَيْش صاحب الموصل، وكبيرهم ابن الحثيثي. واستقر ملك سليمان ابن قطلمش ببلاد الروم، وملك أنْطاكِية سنة سبع وسبعين. وتنازع مع مشرف الدولة ابن قُرَيْش ملك حلب وتزاحفا فقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قُرَيْش سنة تسع وسبعين. وكتب إلى أهل حلب يستدعيهم إلى طاعته فاستمهلوه إلى أن يكاتبوا السلطان ملك شاه. فإن الكل كانوا في طاعته وكتبوا إلى تتش أخي السلطان وهو بدمشق أن يملكوه فسار إليهم ومعه ارتق بن أكسب، كان قد لحق به عندما جاء السلطان إلى الموصل وفتحها خشية مما فعله في خلاص مسلم بن قُرَيْش من حصار آمد فأقطعه تتش بيت المقدس. فلما جاء تتش إلى حلب، وحاصر القلعة، وبها سالم بن مالك ابن بدران ابن عم مشرف الدولة مسلم بن قُرَيْش، وكان ابن الحثيثي وأهل حلب قد كاتبوا السلطان ملك شاه أن يسلموا إليه البلد فسار من أصبهان في جمادى سنة تسع وستين، ومرّ بالموصل، ثم بحرّان فتسلمها وأقطعها محمد بن مسلم بن قُرَيْش، ثم بالرها فملكها من يد الروم، ثم بقلعة جعفر فحاصرها وملكها من يد بعض بني قشير، ثم بمَنْبج فملكها، ثم عبر

الفرات إلى حلب فأجفل أخوه تتش إلى البرية ومعه أرتق. ثم عاد إلى دمشق وكان سالم بن مالك ممتنعاً بالقلعة فاستنزله منها وأقطعه قلعة جعبر فلم تزل بيده ويد بنيه حتى ملكها منهم نور الدين العادل، وبعث إلى السلطان بالطاعة على شيراز، وولّى السلطان على حلب قسيم الدولة صاحب شيراز نصر بن عليّ بن منقذ الكناني وسلّم إليه اللاذقية وكفرطاب وفامية فأقرّ على شيراز، وولّى السلطان على حلب قسيم الدولة أقسنقر جدّ نور الدين العادل، ورحل إلى العراق وطلب أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فحمله معه وأنزله بديار بكر فتوفي فيها بحال أملاق.ودخل السلطان بغداد في ذي الحجة من سنة تسع وسبعين، وأهدى إلى المقتديوخلع عليه الخليفة، وقد جلس له في مجلس حفل، ونظام الملك قائم يقدم امراء السلطان واحداً بعد واحد آخر للسلام للخليفة، ويعرف بأسمائهم وأنسابهم ومراتبهم. ثم فوض الخليفة المقتدي إلى السلطان أمور الدولة، ولبل يده والصرف. ودخل نظام الملك إلى مدرسته فجلس في خزانة الكتب، وأسمع جزء حديث وأملى آخر، وأقام السلطان في بغداد شهراً، ورحل في صفر من سنة ثمانين إلى أصبهان، وجاء إلى بغداد مرة أخرى في رمضان من سنة أربع وثمانين، ونزل بدار الملك، وقدم عليه أخوه تاج الدولة تتش، وقسيم الدولة اقسنقر من حلب، وغيرهما من امراء النواحي. وعمل ليلة الميعاد من سنة خمس وثمانين لم ير أهل بغداد مثله، وأخذ الأمراء في بناء الدور ببغداد لسكناهم عند قدومهم فلم تمهلهم الأيام لذلك.

فتنة بغداد:

كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنته إليه مدينة في العالم منذ مبدء الخليقة فيما علمناه، واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن وكثر فيها المفسدون والدعار والعيارون من الرها، وأعيا على الحكام أمرهم، وربما أركبوا العساكر لقتالهم ويثخنون فيهم فلم يحسم ذلك من عللهم شيئاً. وربما حدثت الفتن من أهل المذاهب، ومن أهل السنة والشيعة من الخلاف في الإمامة ومذاهبها، وبين الحنابلة والشافعية وغيرهم من تصريح الحنابلة بالتشبيه في الذات والصفات، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه، فيقع الجدال والنكير، ثم يفضي إلى الفتنة بين العوام. وتكرر ذلك منذ حجر الخلفاء. ولا يقدر بنو بويه ولا السلجوقية على حسم ذلك منها لسكنى أولئك بفارس، وهؤلاء بأصبهان، وبعدهم عن بغداد. والشوكة التي تكون بها حسم العلل لاتفاقهم. وإنما تكون ببغداد شحنة تحسم ما. خف من العلل ما لم ينته إلى عموم الفتنة، ولم يحصل من ملوكهم إهتمام لحسم ذلك

لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي. وعامة بغداد أهون عليهم من أن يصرفوا همتهم عن العظائم إليهم فاستمرت هذه العلّة ببغداد، ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جدّمّا وتلاشى عمرانها، وبقي طراز في ردائها لم تذهبه الأيام.

مقتل نظام الملك وأخباره.

كان من أبناء الدهاقين بطوس أبو علي الحسين بن علي بن إسحق فشب وقرأ بها، وسمع الحديث الكبير وتعلق بالأحكام السلطانية، وظهرت فيها كفايته، وكان يعرف بحسن الطوسي. وكان أميره الذي يستخدمه يصادره كل سنة فهرب منه إلى داود وحفري بك، وطلبه مخدومه الأمير فمنعه، وخدم أبا علي بن شادان متولي الأعمال ببلخ لحفري بك أخي السلطان طغرلبك، وهو والد السلطان ألب أرسلان. ولما مات أبو علي وقد عرف نظام الملك هذا بالكفاية والأمانة أوصى به ألب أرسلان فأقام بأمور دولته ودولة ابنه ملك شاه من بعده، وبلغ المبالغ كما مر واستولى على الدولة. وولى أولاده الأعمال، وكان فيمن ولاه منهم ابن ابنه عثمان جمال، وولى على مرو، وبعث السلطان إليها شحنة من أعظم أمرائه ووقع بينه وبين عثمان نزاع فحملته الحداثة والإدلال بجاهه على أن قبض على الأمير وعاقبه فانطلق إلى السلطان مستغيثاً، وامتعض لها السلطان، وبعث إلى نظام الملك بالنكير مع خواصه وثقاته فحملته الدالة على تحقيق تعديد حقوقه على السلطان، وإطلاق القول في العتاب والتهديد بطوارق الزمن. وأرادوا طي ذلك عن السلطان فوشى به بعضهم. فلما كان رمضان من سنة خمس وثمانين، والسلطان على نهاوند عائداً من أصبهان إلى بغداد، وقد انصرف الملك يومه ذلك من خيمة السلطان إلى خيمته، فاعترضه صبي قيل إنه من الباطنية في صورة مستغيث فطعنه بسكينة فمات، وهرب الصبي فأدرك وقتل، وجاء السلطان إلى خيمة نظام الملك يومه، وسكن أصحابه وعسكره، وذلك لثلاثين سنة من وزارته سوى ما وزر لأبيه ألب أرسلان أيام إمارته بخراسان.

وفاة السلطان ملك شاه وملك ابنه محمود:

لّما قتل نظام الملك على نهاوند كما ذكرناه سار السلطان لوجهه، ودخل بغداد آخر رمضان من سنته، ولقيه الوزير عميد الدولة بن جهير، واعتزم السلطان أن يولّي

وزارته تاج الملك، وهو الذي سعى بنظام الملك، وكانت قد ظهرت كفايته. فلما صلّى السلطان العيد عاد إلى بيته وقد طرقه المرض، وتوفي منتصف شوّال فكتمت زوجته تركمان خاتون موته، وأنزلت أموالها وأموال أهل الدولة بحريم دار الخلافة، وارتحلت إلى أصبهان. وسلوا السلطان معها في تابوته، وقد بذلت الأموال للأمراء على طاعة ابنها محمود والبيعة له فبايعوه، وقدمت من طريق قوام الدولة كربوقا الذي ملك الموصل من بعد ذلك، فسار بخاتم السلطان لنائب القلعة وتسلمها. ولما بايعت لولدها محمود وعمره يومئذ أربع سنين بعثت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة له فأجابها على شرط أن يكون أنز من أمراء أبيه هو القائم بتدبير الملك، وأن يصدر عن رأي الوزير تاج الملك، ويكون له ترتيب العمال وجباية الأموال فأبت أولاً من قبول هذا الشرط، حتى جاءها الإمام أبو حامد الغزالي وأخبرها أن الشرع لا يجيز تصرفاته فأذعنت لذلك فخطبت لابنها آخر شوال من السنة، ولقب ناصر الدولة والدين، وكتب إلى الحرمين الشريفين فخطب له بهما.

ثورة بركيارق بملك شاه:

كانت تركمان خاتون عند موت السلطان ملك شاه قد كتمت موته وبايعت لابنها محمود كما قلناه، وبعثت إلى أصبهان سراً في القبض على بركيارق ابن السلطان ملك شاه خوفاً من أن ينازع إبنها محموداً فحبس. فلما ظهر موت ملك شاه وثب مماليك بركيارق نظام الملك على سلاح كان له بأصبهان وثاروا في البلد، وأخرجوا بركيارق من محبسه وبايعوه وخطبوا له بأصبهان. وكانت أمه زبيدة بنت عم ملك شاه وهو ياقولي خائفة على ولدها من خاتون أم محمود، وكان تاج الملك قد تقدم إلى أصبهان وطالبه العسكر بالأموال فطلع إلى بعض القلاع ليترل منها المال وامتنع فيها خوفاً من مماليك نظام الملك. ولما وصلت تركمان خاتون إلى أصبهان جاءها فقبلت عذره. وكان بركيارق لّما أقامت خاتون إبنها محموداً بأصبهان خرج فيمن معه من النظامية إلى الري واجتمع معه بعض أمراء أبيه، وبعثت خاتون العساكر إلى قتاله، وفيهم أمراء ملك شاه. فلما تراءى الجمعان هرب كثير من الأمراء إلى بركيارق واشتد القتال فالهزم عسكر محمود وخاتون وعادوا إلى أصبهان وسار بركيارق في أثرهم فحاصرهم بها.

مقتل تاج الملك:

كان الوزير تاج الملك قد حضر مع عسكر خاتون وشهد وقعة بركيارق. فلما الهزموا سار إلى قلعة يزدجرد فحبس في طريقه، وحمل إلى بركيارق، وهو محاصر أصبهان، وكان يعرف كفايته فأجمع أن يستوزره، وأصلح هو النظامية وبذل لهم مائتي ألف دينار واسترضاهم بها. ونمي ذلك إلى عثمان نائب نظام الملك فوضع الغلمان الأصاغر عليه الطالبين ثار سيدهم، وأغراهم فقتلوه وقطعوه قطعاً وذلك في المحرم سنة ست وثمانين. ثم خرج إلى بركيارق من أصبهان وهو محاصر لها عز الملك أبو عَبْد الله بن الحسين بن نظام الملك، وكان على خوارزم، ووفد على السلطان ملك شاه قبل مقتل أبيه. ثم كان ملكهما فأقام هو بأصبهان، وخرج إلى بركيارق وهو يحاصرها فاستوزره وفوض إليه أمر دولته انتهى.

الخطبة لبركيارق ببغداد:

ثم قدم بركيارق بغداد سنة ست وثمانين، وطلب من المقتدي الخطبة فخطب له على منابرها ولقّب ركن الدين، وحمل الوزير عميد الدولة بن جهير إليه الخلع فلبسه وتوفي المقتدي وهو مقيم ببغداد:

وفاة المقتدي ونصب المستظهر للخلافة:

ثم توفي المقتدي بأمر الله أبو القاسم عَبْد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله في منتصف محرم سنة سبع وثمانين، وكان موته فجأة، أحضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلم عليه فقرأه ووضعه. ثم قدم إليه طعام فأكل منه ثم غُشي عليه فمات، وحضر الوزير فجهزوا جنازته وصلى عليه إبنه أبو العباس أحمد، ودفن، وذلك لتسع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وكانت له قوة وهمة لولا أنه كان مغلباً، وعظمت عمارة بغداد في أيامه وأظن ذلك لاستفحال دولة بني طغرلبك. ولما توفي المقتدي وحضر الوزير

أحضر ابنه أبا العباس أحمد الحاشية فبايعوه ولقبوه المستظهر، وركب الوزير إلى بركيارق، وأخذ بيعته للمستظهر. ثم حضر بركيارق لثالثة من وفاته ومعه وزيره عز الملك بن نظام الملك وأخوه بهاء الملك، وأمر السلطان بأرباب

المناصب فجمعوا، وحضر النقيبان طراد العبّاسي والمُعَمرّ العلويّ، وقاضي القضاة أبو عَبْد الله الدامغاني والغزالي والشاشي وغيرهم فحبسوا في العراء وبايعوا.

أخبار تتش وانتقاضه وحروبه ومقتله:

قد ذكرنا فيما تقدم أن تتش بن السلطان ألب أرسلان استقل بملك دمشق وأعمالها، وأنه وفد على السلطان ملك شاه ببغداد قبل موته وانصرف، وبلغه خبر وفاته بهيت فملكها وسار إلى دمشق فجمع العساكر، وزحف إلى حلب فأطاعه صاحبها قسيم الدولة أقسنقر، وسار معه، وكتب إلى ناعيسان صاحب أنْطاكِية وإلى برار صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تتش حتى يصلح حال أولاد ملك شاه فقبلوا منه، وخطبوا له في بلادهم، وساروا معه فحضر الرحبة وملكها في المحرم سنة ست وثمانين، وخطب فيها لنفسه. ثم فتح نصيبين عنوة، وعاث فيها، وسلمها لمحمد بن مشرف الدولة، وسار يريد الموصل، ولقيه الكافي فخر الدولة بن جهير، وكان في جزيرة ابن عمر فاستوزره وبعث إلى إبراهيم بن مشرف الدولة مسلم بن قُرَيْش وهو يومئذ ملك الموصل يأمره بالخطبة له، وتسهيل طريقه إلى بغداد فأبى من ذلك وزحف إليه تتش وهو في عشرة آلاف، وأقسنقر على ميمنته وتوزران على ميسرته، وإبراهيم في ستين ألفاً والتقوا فانهزم إبراهيم وأخذ أسيراً وقتل جماعة من أمراء العرب صبراً، وملك تاج الدولة تتش الموصل، وولى عليها علي بن مشرف الدولة. وفوض إليه أمر صفية عمة تتش، وبعث إلى بغداد يطلب مساعدة كوهرابين الشحط فجاء العذر بانتظار الرسل من العسكر، فسار إلى ديار بكر وملكها، ثم إلى أذربيجان، وبلغ خبره إلى بركيارق، وقد استولى على همذان والري فسار لمدافعته فلما التقى العسكران جنح أقسنقر إلى بركيارق وفاوض توران في ذلك، وأنهما إنما اتبعا تُتُش حتى يظهر أمر أولاد ملكشاه فوافقه على ذلك وسارا معا إلى بركيارق فانهزم تتش وعاد إلى دمشق، واستفحل بركيارق وجاءه كوهرابين يعتذر عن مساعدته لتتش في الخطبة فلم يقبله، وعزله، وولى الأمير نكبرد شحنة بغداد مكانه. ثم خطب لبركيارق ببغداد كما قدمناه. ومات المقتدي ونصب المستظهر، ولما عاد تتش من أذربيجان إلى الشام جمع العساكر، وسار إلى حلب لقتال أقسنقر، وبعث بركيارق كربوقا الذي صار أمير الموصل مدداً لأقسنقر، ولقيهم تُتُش قريباً من حلب فهزمهم وأسر أقسنقر فقتله صبراً. ولحق

توران وكربوقا بحلب، وحاصرهما تتش فملكها وأخذهما أسيرين وبعث إلى حرّان والرّها في الطاعة، وكانتا لتوران فامتنعوا فبعث برأسه إليهم وأطاعوه، وحبس كربوقا في حمص إلى أن أطاعه رضوان بعد قتل أبيه تُتُش. ثم سار تتش إلى الجزيرة فملكها، ثم ديار بكر، ثم خلاط وأرمينية، ثم أذربيجان. ثم سار إلى

همذان فملكها، وكان بها فخر الدولة نظام الملك، سار من حران لخدمة بركيارق فلقيه الأمير تاج من عسكر محمود بن ملكشاه بأصبهان فنهب ماله ونجا بنفسه إلى همذان، وصادف بها تتش، وشفع فيه باغسيان وأشار بوزارته فاستوزره، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من المستظهر، وبعث يوسف بن أبق التركماني شحنته إلى بغداد في جمع من التركمان فمنع من دخولها.وكان بركيارق قد سار إلى نصيبين، وعبر دجلة فوق الموصل إلى أربل، ثم إلى بلد سرخاب بن بدر، حتى إذا كان بينه وبين عمه تسعة فراسخ، وهو في ألف رجل، وعمه في خمسين ألفاً فبيته بعض أمراء من عسكر عمه فانهزم إلى أصبهان، وبها محمود ابن أخيه، وقد ماتت أمه تركمان خاتون فأدخله أمراء محمود، واحتاطوا عليه. ثم مات محمود سلخ شوال من سنة سبع وثمانين، واستولى بركيارق على الأمر، وقصده مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره في ذي الحجة، واستمال الأمراء فرجعوا إليه وكثر جمعه. وكان تتش بعد هزيمة بركيارق قد اختلف عليه الأمراء، وراسل أمراء أصبهان يدعوهم إلى طاعته فواعدوه انتظار بركيارق، وكان قد أصابه الجدري، فلما أبل نبذوا إليه عهده، وساروا مع بركيارق من أصبهان وأقبلت إليهم العساكر من كل مكان، وانتهوا إلى ثلاثين ألفاً والتقوا قريباً من الريّ فانهزم تُتُش وقتله بعض أصحاب أقسنقر، وكان قد حبس وزيره فخر الملك بن نظام الملك فأطلق ذلك اليوم، واستفحل أمر بركيارق وخطب له ببغداد.

ظهور السلطان ملكشاه والخطبة له ببغداد:

كان السلطان بركيارق قد ولى على خراسان وأعمالها أخاه لأبيه سنجر فاستقل بأعمال خراسان كما يذكر في أخبار دولتهم عند انفرادها بالذكر. وإنما نذكر هنا من أخبارهم ما يتعلق بالخلافة والخطبة لهم ببغداد، لأنّ مساق الكلام هنا إنما هو عن أخبار دولة بني العبّاس، ومن وزر لهم أو تغلّب خاصة. وكان لسنجر بن ملكشاه أخ شقيق إسمه محمد، ولّما هلك السلطان ملكشاه سار مع أخيه محمود وتركمان خاتون إلى

أصبهان. فلمّا حاصرهم بركيارق لحق به أخوه محمد هذا وسار معه إلى بغداد سنة ست وثمانين، وأقطعه دجلة وأعمالها وبعث معه قَطْلَغ تكين أتابك. فلما استولى على أمره قتله أنفة من حجره. ثم لحق به مؤيد الملك بن عبيد الله بن نظام الملك، كان مع الأمير أنز، وداخله في الخلاف على السلطان بركيارق. فلما قتل أنز كما نذكر في أخبارهم لحق مؤيد الملك بمحمد ابن السلطان ملك شاه، وأشار عليه ففعل وخطب لنفسه. واستوزره مؤيد الملك، وقارن ذلك أن السلطان بركيارق قتل خاله مجد الملك البارسلاني

فاستوحش منه أمراؤه، ولحقوا بأخيه محمد وسار بركيارق إلى الري واجتمع له بها عساكر وجاء عز الملك منصور ابن نظام الملك في حسماكر، وبينما هو في الري إذ بلغه مسير أخيه محمد إليه فأجفل راجعاً إلى أصبهان فمنعه أهلها الدخول، فسار إلى خوزستان. وجاء السلطان محمد إلى الرى أول ذي القعدة من سنة إثنتين وتسعين، ووجد أم بركيارق بها وهي زبيدة خاتون فحبسها مؤيد الملك وقتلها، واستفحل ملك

محمد، وجاءه سعد الدولة كوهرايين شحنة بغداد وكان مستوحشاً من بركيارق، وجاء معه كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، وسرخاب ابن بدر صاحب كركور فلقوه جميعاً بقم. وسار كربوقا وجكرمش معه إلى أصبهان، ورد كوهرايين إلى بغداد في طلب الخطبة من الخليفة، وأن يكون شحنة بها فأجابه المستظهر إلى ذلك، وخطب له منتصف ذي الحجة سنة إثنتين وتسعين، ولقب غياث الدنيا والدين.

اعادة الخطبة لبركيارق:

لّما سار بركيارق مجفلاً من الريّ إلى خوزستان أمام أخيه محمد، وأمير عسكره يومئذ ينال بن أنوش تكين الحسامي، ومعه جماعة من الأمراء أجمع المسير إلى العراق فسار إلى واسط، وجاءه صدقة بن مزيد صاحب الحلّة. ثم سار إلى بغداد فخطب له بها منتصف صفر من سنة ثلاث وتسعين. ولحق سعد الدولة كوهرايين ببعض الحصون هنالك، ومعه أبو الغاري بن أرتق وغيره من الأمراء، وأرسل إلى السلطان محمد ووزيره مؤيد الملك يستحثهما في الوصول، فبعث إليه كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب الجزيرة فلم يرضه. وطلب جكرمش العود إلى بلده فأطلقه. ثم نزع كوهرايين ومن معه من الأمراء إلى بركيارق باغزاء كربوقا صاحب الموصل، وكاتبوه فخرج إليهم ودخلوا معه بغداد، واستوزره الأغر أبو المحاسن عَبْد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني، وقبض على عميد الدولة ابن جُهير وزير الخليفة وطالبه بأموال ديار بكر والموصل في ولايته وولاية أبيه، وصادره على مائة وستين ألف دينار فحملها إليه، وخلع المستظهر على السلطان بركيارق واستقر أمره.

المصاف الأوّل بين بركيارق ومحمد وقتل كوهرايين والخطبة لمحمد:

ثم سار بركيارق من بغداد إلى شهرزور لقتال أخيه محمد، واجتمع إليه عسكر عظيم من التركمان وكاتبه رئيس همذان بالمسير إليه فعدا عنه، ولقي أخاه محمداً على فراسخ من همذان ومحمد في عشرين ألف مقاتل، ومعه الأمير سرخو شحنة أصبهان، وعلى ميمنته أمير آخر وإبنه أياز، وعلى ميسرته مؤيد الملك والنظامية. ومع بركيارق في القلب وزيره أبو المحاسن، وفي ميمنته كوهرايين وصدقة بن مَزْيَد، وسرخاب بن بدر. وفي ميسرة كربوقا وغيره من الأمراء. فحمل كوهرايين من ميمنة بركيارق على ميسرة محمد فانهزموا حتى نهبت خيامهم. ثم حملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزمت، وحمل محمد معهم فانهزم بركيارق، ورجع كوهرايين للمنهزمين فكبا به فرسه وقتل، وافترقت عساكر بركيارق وأسر وزيره أبو المحاسن فأكرمه مؤيد الملك وأنزله وأعاده إلى بغداد ليخاطب المستظهر في إعادة الخطبة للسلطان محمد ففعل، وخطب له ببغداد منتصف رجب سنة ثلاث وتسعين. وابتداء أمر كوهرايين أنه كان لامرأة بخوزستان، وصار خادماً للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة. وحظي عنده وكان يستعرض حوائج تلك المرأة، وأصاب أهلها منه خيراً. وأرسله أبو كاليجار مع ولده أبي نصر إلى بغداد، فلما قبض عليه السلطان

طغرلبك مضى معه إلى محبسه بقلعة طبرك. ولما مات أبو نصر سار إلى خدمة السلطان ألب أرسلان فحظي عنده وأقطعه واسط، وجعله شحنة بغداد، وكان حاضراً معه يوم قتله يوسف الخوارزمي ووقاه بنفسه. ثم بعثه ابنه ملك شاه إلى بغداد لإحضار الخلع والتقليد، واستقرّ

شِحْنة ببغداد إلى أن قتل، ورأى ما لم يره خادم قبله من نفوذ الكلمة وكمال القدرة، وخدمة الأمراء والأعيان وطاعتهم انتهى.

مصاف بركيارق مع أخيه سنجر:

ولما انهزم السلطان بركيارق من أخيه محمد لحق بالريّ واستدعى شيعته وأنصاره

من الأمراء فلحقوا به. ثم ساروا إلى أسفراين، وكاتب الأمير داود حبشر بن التونطاق يستدعيه، وهو صاحب خراسان وطبرستان، ومنزله بالدامغان، فأشار عليه باللحاق بنيسابور حتى يأتيه. فدخل نيسابور وقبض على رؤسائها، ثم أطلقهم، وأساء التصرف. ثم أعاد الكتاب إلى داود حبشي بالاستدعاء فاعتذر بأن السلطان سنجر زحف إليه في عساكر بلخ. ثم سأل منه المدد فسار بركيارق إليه في ألف فارس وهو في عشرين ألفاً والتقوا بسنجر عند النوشجان، وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي ميسرته كوكر، ومعه في القلب رستم. فمحل بركيارق على رستم فقتله وانهزم أصحابه، ونهب عسكرهم، وكادت الهزيمة تتم عليهم. ثم حمل برغش وكوكر على عسكر بركيارق وهم مشتغلون بالنهب فانهزموا، وانهزم بركيارق. وجاء بعض التركمان بالأمير داود حبشي أسيراً إلى برغش لقتله ولحق بركيارق بجرجان ثم بالدامغان، وقطع البرية إلى أصبهان بمراسلة أهلها فسبقه أخوه محمد إليها فعاد أسيرهم انتهى.

عزل الوزير عميد الدولة بن جهير ووفاته:

قد ذكرنا أن وزير السلطان بركيارق وهو الأغر أبو المحاسن أسر في المصاف الأول بين بركيارق ومحمد، وأن مؤيد الملك بن نظام الملك وزير محمد أطلقه واصطنعه وضمنه عمارة بغداد، وحمله طلب الخطبة لمحمد ببغداد من المستظهر فخطب له، وكان فيما حمله للمستظهر عزل وزيره عميد الدولة بن جهير. وبلغ ذلك عميد الدولة فأرسل من يعترض الأغر ويقتله فامتنع بعقر بابل. ثم صالحه ذلك الذي اعترضه وطلب لقاءه فلقيه ودسّ الأغر إلى أبي الغازي بن ارتق، وكان وصل معه وسبقه إلى بغداد فرجع إليه ليلاً ويئس منه ذلك الذي اعترضه، ووصل الأغر بغداد، وبلغ إلى المستظهر رسالة مؤيد الدولة في عزل عميد الدولة فقبض عليه في رمضان من سنة

ثلاث وتسعين، وعلى إخوته، وصودر على خمسة وعشرين ألف دينار، وبقي محبوساً بدار الخلافة إلى أن هلك في محبسه.

المصاف الثاني بين بركيارق وأخيه محمد

ومقتل مؤيد الملك والخطبة لبركيارق:

قد ذكرنا أن بركيارق لّما انهزم أمام أخيه محمد في المصاف الأول سار إلى أصبهان، ولم يدخلها فمضى إلى عسكر مكرم إلى خوزستان وجاءه الأميران زنكي وألبكي ابنا برسق. ثم سار إلى همذان فكاتبه أياز من كبار أمراء محمد بما كان استوحش منه فجاءه في خمسة آلاف فارس، وأغراه باللقاء فارتحل لذلك. ثم استأمن إليه سرخاب بن كنخسرو صاحب آوة فاجتمع له خمسون ألفاً من المقاتلة، وبقي أخوه في خمسة عشر ألفاً. ثم اقتتلوا أول جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين، وأصحاب محمد يغدون على محمد شيئاً فشيئاً مستأمنين. ثم انهزم آخر النهار وأسر وزيره مؤيد الملك، وأحضره عند بركيارق غلام لمجد الملك البارسلاني ثار منه مولاه، فلما حضر وبخه بركيارق وقتله وبعث الوزير أبو المحاسن من يسلم إليه أمواله، وصادر عليها قرابته، في بغداد وفي غير بغداد وفي بلاد العجم. ويقال كان فيما أخذ له قطعة من البلخش زنة إحدى وأربعين مثقالاً. ثم سار بركيارق إلى الري ولقيه هناك كربوقا صاحب الموصل، ونور الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد، واجتمعت إليه نحو من مائة ألف فارس حتى ضاقت بهم البلاد ففرق العساكر. وعاد دبيس إلى أبيه، وسار كربوقا إلى أذربيجان لقتال مودود بن إسماعيل بن ياقوتا، كان خرج على السلطان هنالك. وسار أياز إلى همذان ليقضي الصوم عند أهله ويعود فبقي بركيارق في خف من الجنود. وكان محمد أخوه لّما انهزم لجهات همذان سار إلى شقيقه بخراسان فانتهى إلى جرجان، وبعث يطلب منه المدد فأمده بالمال أولاً. ثم سار إليه بنفسه إلى جرجان، وسار معه إلى الدامغان وخرب عسكر خراسان ما مروا به من البلاد، وانتهوا إلى الريّ، واجتمعت إليهم النظامية، وبلغهم افتراق العساكر عن بركيارق فأغذوا إليه السير فرحل إلى همذان فبلغه أن اياز راسل محمدا فقصد خوزستان وانتهى إلى تستر، واستدعى بني برسق فقعدوا عنه لّما بلغهم مراسلة أياز للسلطان فسار بركيارق نحو العراق، وكان أياز راسل محمداً في الكون معه فلم يقبله فسار من همذان، ولحق بركيارق إلى حلوان

وساروا جميعاً إلى بغداد. واستولى محمد على مخلف أياز بهمذان وحلوان وكان شيئاً مما لا يعبر عنه. وصادر جماعة من أصحاب أياز من أهل همذان، ووصل بركيارق إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة أربع وتسعين، وبعث المستظهر لتلقيه أمين الدولة بن موصلايا في المراكب، وكان بركيارق مريضاً فلزم بيته، وبعث المستظهر في عيد الأضحى إلى داره منبراً خطب عليه بإسمه، وتخلف بركيارق عن شهود العيد لمرضه، وضاقت عليه الأموال فطلب الإعانة من المستظهر، وحمل إليه خمسين ألف دينار بعد المراجعات ومد يده إلى أموال الناس وصادرها فضجوا، وارتكب خطيئةً شنعاء في قاضي جبلة وهو أبو محمد عَبْد الله بن منصور. وكان من خبره أن أباه منصورا كان قاضياً بجبلة في ملكة الروم، فلما ملكها المسلمون وصارت في يد أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس أقره على القضاء بها. وتوفي فقام ابنه أبو محمد هذا مقامه، ولبس شعار الجندية وكان شهماً فهمّ ابن عمار بالقبض عليه، وشعر فانتقض وخطب للخلفاء العباسية. وكان ابن عمار يخطب للعلوية بمصر، وطالت منازلة الفرنج بحصن جبلة إلى أن ضجر أبو محمد

هذا، وبعث إلى صاحب دمشق وهو يومئذ طغتكين الأتابك أن يسلم إليه البلد فبعث ابنه تاج الملوك موري وتسلم منه البلد، وجاء به إلى دمشق وبذل لهم فيه ابن عمار ثلاثين ألف دينار دون أمواله فلم يرضوا بإخفار ذمتهم وسار عنهم إلى بغداد ولقي بها بركيارق فأحضره الوزير أبو المحاسن وطلبه في ثلاثين ألف دينار فأجاب وأحالهم على منزله بالأنبار، فبعث الوزير من أتاه بجميع ما فيه، وكان لا يعبر فكانت من المنكرات التي أتاها بركيارق. ثم بعث الوزير إلى صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد صاحب حلب يطلب منه ألف ألف دينار متخلفة من مال الجباية، وتهدده عليها فغضب وانتقض وخطب لمحمد، وبعث إليه بركيارق الأمير أياز يستقدمه فلم يجب، وبعث إلى الكوفة وطرد عنها نائب بركيارق واستضافها إليه.

استيلاء محمد على بغداد:

قد ذكرنا استيلاء محمد على همذان في آخر ذي الحجة من سنة أربع وتسعين،

ومعه أخوه سنجر. وذهب بركيارق إلى بغداد فاستولى عليها، وأساء السيرة بها،وبلغ الخبر إلى محمد فسار من همذان في عشرة آلاف فارس، ولقيه بحلوان أبو الغازي بن أرتق شحنته ببغداد في عساكره وأتباعه. وكان بركيارق في شدة من المرض، وقد أشرف

على الهلاك فاضطرب أصحابه وعبروا به إلى الجانب الغربي حتى إذا وصل محمد بغداد وترآى الجمعان من عُدْوَتَي دجلة ذهب بركيارق وأصحابه إلى واسط، ودخل محمد بغداد، وجاءه توقيع المستظهر بالانتقاض مما وقع به بركيارق، وخطب له على منابر بغداد، وجاءه صدقة بن منصور صاحب الحِلّ فأخرج الناس للقائه ونزل سنجر بدار كوهرابين، واستوزر محمد بعد مؤيد الملك خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين، فقدم إليه في المحرم سنة خمس وتسعين انتهى.

المصاف الثالث والرابع وما تخلل بينهما من الصلح و لم يتم:

ثم ارتحل السلطان وأخوه سنجر عن بغداد منتصف المحّرم من سنة خمس وتسعين، وقصد سنجر خراسان ومحمد همذان فاعترض بركيارق خاص الخليفة المستظهر، وأبلغه القبيح فاستدعى المستظهر محمداً لقتال بركيارق فجاء إليه وقال أنا أكفيكه. ورتب أبا المعالي شحنة ببغداد، وكان بركيارق بواسط كما قلنا فلما أبلّ من مرضه عبر إلى الجانب الشرقي بعد جهد وصعوبة لفرار الناس من واسط لسوء سيرتهم. ثم سار إلى بلاد بني برسق حتى أطاعوا واستقاموا وساروا معه فاتبع أخاه محمداً إلى نهاوند وتصافوا يومين ومنعهما شدّة البرد من القتال. ثم اجتمع أياز والوزير الأغر من عسكر بركيارق وبلد أجي وغيرهم من الأمراء من عسكر محمد. وتفاوضوا في شكوى ما نزل بهم من هذه الفتنة ثم اتفقوا على أن تكون السلطنة بالعراق لبركيارق، ويكون لمحمد من البلاد الحيرة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل على أن يمده بركيارق بالعسكر متى احتاج إليه على من يمتنع عليه منها. وتحالفا على ذلك وافترقا في ربيع الأول سنة خمس وتسعين ثم سار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى قزوين، وبدا له في الصلح واتّهم الأمراء الذين سعوا

فيه، وأسر إلى رئيس قزوين أن يدعوهم إلى صنيع عنده، وغدر بهم محمد فقتل بعضا وسمل بعضا وأظهر الفتنة. وكان الأمير ينال بن أنوش تكين قد فارق بركيارق، وأقام مجاهدا للباطنية في الجبال والقلاع فلقي محمداً وسار معه إلى الري، وبلغ الخبر إلى بركيارق فأغذّ إليه السير في ثمان ليال واصطفّوا في التاسع، وكلا الفريقين في عشرة آلاف مقاتل. وحمل سرخاب بن

كنجسر والديلمي صاحب آوة من أصحاب بركيارق على ينال بن أنوش تكين فهزمه، وانهزم معه عسكر محمد، وافترقوا فلحق فريق بطبرستان وآخر بقزوين، ولحق محمد بأصبهان في سبعين فارساً، واتّبعه أياز وألبكي بن برسق فنجا إلى البلد وبها نوّابه فلمَّ ما تشعَّث من السور، وكان من بناء علاء الدين بن كاكويه سنة تسع وعشرين لقتال طغرلبك وحفر الخنادق وأبعد مهواها وأجرى فيها المياه، ونصب المجانيق، واستعدّ للحصار. وجاء بركيارق في جمادى ومعه خمسة عشر ألف فارس ومائة ألف من الرجل والأتباع فحاصرها حتى جهدهم الحصار، وعدمت الأقوات والعلوفة فخرج محمد عن البلد في عيد الأضحى من سنته في مائة وخمسين فارساً، ومعه ينال، ونزل في الأمراء، وبعث بركيارق في اتباعه الأمير أياز. وكانت خيل محمد ضامرة من الجوع، فالتفت إلى أياز يذكّره العهود فرجع عنه بعد أن نهب منه خيلًا ومالاً، وأخذ علمه وجنده إلى بركيارق. ثم شد بركيارق في حصار أصبهان وزحف بالسلاليم والذبابات، وجمع الأيدي على الخندق فطمّه، وتعلق الناس بالسور فاستمات أهل البلد ودفعوهم. وعلم بركيارق امتناعها فرحل عنها ثامن عشر ذي الحجة. وجمّر عسكراً مع إبنه ملكشاه وترشك الصوالي على البلد القديم الذي يسمّى شهرستان، وسار إلى همذان بعد أن كان قتل على أصبهان وزيره الأغر أبو المحاسن عَبْد الجليل الدهستاني، اعترضه في ركوبه من خيمته إلى خدمة السلطان متظلم فطعنه وأشواه، ورجع إلى خيمته فمات وذهب للتجار الذين كانوا يعاملونه أموال عظيمة لأن الجباية كانت ضاقت بالفتن فاحتاج إلى الاستدانة، ونفر منه التجار لذلك. ثم عامله بعضهم فذهب مالهم بموته، وكان أخوه العميد المهذب أبو محمد قد سار إلى بغداد لينوب عنه حين عقد الأمراء الصلح بين بركيارق ومحمد فقبض عليه الشحنة ببغداد أبو الغازي بن أرتق وكان على طاعة محمد.

الشحنة ببغداد والخطبة لبركيارق:

كان أبو الغازي بن أرتق شحنة ببغداد، وولاه عليها السلطان محمد عند استيلائه في المصاف الأول، وكان طريق خراسان إليه فعاد بعض الأيام منها إلى بغداد، وضرب

فارس من أصحابه بعض الملاّحين بسهم في ملاحاة وقعت بينهم عند العبور فقتله فثارت بهم العامة وأمسكوا القاتل، وجاؤا به إلى باب النوبة في دار الخلافة ولقيهم ولد أبي الغازي فاستنقذه من أيديهم فرجموه، وجاء إلى أبيه مستغيثاً، وركب إلى محلةالملاّحين فنهبها وعطف عليه العيارون فقتلوا من أصحابه، وركبوا السفين للنجاة فهرب الملاّحون وتركوهم فغرقوا. وجمع أبو الغازي التركماني لنهب الجانب الغربي

فبعث إليه المستظهر قاضي القضاة والكيا الهّراسي مدرس النظامية بالامتناع من ذلك فاقتصر أبو الغازي أثناء ذلك متمسكا بطاعة السلطان محمد. فلما انهزم محمد وانطلق من حصار أصبهان واستولى بركيارق على الري بعث في منتصف ربيع الأول من سنة ست وتسعين من همذان كمستكين القيصراني شحنة إلى بغداد. فلما سمع أبو الغازي بعث إلى أخيه سقمان بحصن كيفا يستدعيه للدفاع. وجاءه سقمان ومر بتكريت فنهبها، ووصل كمستكين ولقيه شيعة بركيارق وأشاروا عليه بالمعاجلة، ووصل إلى بغداد منتصف ربيع. وخرج أبو الغازي وأخوه سقمان إلى دجيل ونهبا بعض قراها، واتبعهما طائفة من عسكر كمستكين. ثم رجعوا عنهما وخطب للسلطان بركيارق ببغداد وبعث كمستكين إلى سيف الدولة صدقة بالحلة عنه وعن المستظهر بطاعة بركيارق فلم يجب، وكشف القناع وسار إلى جسر صرصر فقطعت الخطبة على منابر بغداد فلم يذكر أحد عليها من السلاطين، واقتصر على الخليفة فقط. وبعث سيف الدولة صدقة إلى أبي الغازي وسقمان بأنه جاء لنصرتهما فعادوا إلى دجيل وعاثوا في البلاد، واجتمع لذلك حشد العرب والأكراد مع سيف الدولة، وبعث إليه المستظهر في الإصلاح وخيموا جميعاً بالرملة وقاتلهم العامة، وبعث الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني وتاج رؤساء الرياسة ابن الموصلايا إلى سيف الدولة بكف الأيدي عن الفساد فاشترطوا خروج كمستكين القيصراني شحنة بركيارق وإعادة الخطبة للسلطان محمد فتم الأمر على ذلك، وعاد سيف الدولة إلى الحلة وعاد القيصراني إلى واسط، وخطب بها لبركيارق فسار إليه صدقة وأبو الغازي، وفارقها القيصراني فاتبعه سيف الدولة. ثم استأمن ورجع إليه فأكرمه، وخطب للسلطان محمد بواسط، وبعده لسيف الدولة وأبي الغازي واستناب كل واحد ولده، ورجع أبو الغازي إلى بغداد وسيف الدولة إلى الحلة، وبعث ولده منصور إلى المستظهر يخطب رضاه بما كان منه في هذه الحادثة فأجيب إلى ذلك.

استيلاء ينال علي الريّ بدعوة السلطان محمد ومسيره إلى العراق:

كانت الخطبة بالريّ للسلطان بركيارق. فلما خرج السلطان محمد من الحصار بأصبهان، بعث ينال بي أنوش تكين الحسامي إلى الري ليقيم الخطبة له بها فسار ومعه أخوه علي، وعسف الرعايا. ثم بعث السلطان بركيارق إليه برسق بن برسق في العساكر فقاتله على الري، وانهزم ينال وأخوه منتصف ربيع من سنة ست وتسعين، وذهب علي إلى قزوين وسلك ينال على الجبال إلى بغداد، وتقطع أصحابه في الأوعار وقتلوا ووصل إلى بغداد في سبعمائة رجل، وأكرمه المستظهر واجتمع هو وأبو الغازي وسقمان إبنا أرتق بمشهد أبي حنيفة فاستحلفوه على طاعة السلطان محمد، وساروا إلى سيف الدولة صدقة واستحلفوه على ذلك. واستقر ينال ببغداد في طاعة السلطان محمد، وتزوج أخت أبي الغازي كانت تحت تاج الدولة تتش. وعسف بالناس وصادر العمّال، واستطال أصحابه في العامة بالضرب والقتل. وبعث إليه المستظهر مع القاضي الدامغاني بالنهي عن ذلك وتقبيح فعله. ثم مع إيلغازي فأجاب وحلف على كف أصحابه ومنعهم.

واستمر على قبح السيرة فبعث المستظهر إلى سيف الدولة صدقة يستدعيه لكف عدوانه فجاء إلى بغداد في شوال من سنة ست وتسعين، وخيم بالمنجمي ودعا ينالا للرحلة عن العراق على أن يدفع إليه. وعاد إلى الحلة، وسار ينال مستهل ذي القعدة إلى أوانا ففعل من النهب والعسف أقبح مما فعل ببغداد فبعث المستظهر إلى صدقة في ذلك فأرسل ألف فارس، وساروا إليه مع جماعة من أصحاب المستظهر، وأبي الغازي الشحنة، وذهب ينال أمامهم إلى أذربيجان قاصداً إلى السلطان محمد، ورجع أبو الغازي والعساكر عنه.

المصاف الخامس بين السلطانين:

كانت كنجة وبلاد أرزن للسلطان محمد وعسكره مقيم بها مع الأمير عز علي فلما طال حصاره بأصبهان جاؤا لنصرته، ومعهم منصور بن نظام الملك ومحمد بن

أخيه مؤيد الملك، ووصلوا إلى الري آخر ذي الحجة سنة خمس وتسعين، وفارقه عسكر بركيارق. ثم خرج محمد من أصبهان فساروا إليه ولقوه بهمذان، ومعه ينال وعلي إبنا أنوش تكين فاجتمعوا في ستة آلاف فارس. وسار ينال وأخوه على الريّ وأزعجتهم عنها عساكر بركيارق كما مرّ. ثم جاءهم الخبر في همذان بزحف بركيارق إليهم فسار محمد إلى بلاد شروان. ولما انتهى إلى أردبيل بعث إليه مودود بن إسماعيل بن ياقوتي، وكان أميرا على بيلقان من أذربيجان، وكان أبوه إسماعيل خال بركيارق، وانتقض عليه أول أمره فقتله فكان مودود يطالبه بثأر أبيه، وكانت أخته تحت محمد فبعث إليه وجاءه إلى بيلقان. وتوفي مودود اثر قدومه منتصف ربيع من سنة ست وتسعين فاجتمع عسكره على الطاعة لمحمد، وفيهم سقمان القطبي صاحب خلاط وأرمينية ومحمد بن غاغيسا، كان أبوه صاحب أنْطاكِية. وكان ألب أرسلان ابن السبع الأحمر. ولما بلغ بركيارق اجتماعهم لحربه أغذ السير إليهم فوصل وقاتلهم على باب خوي من أذربيجان من المغرب إلى العشاء. ثم حملا أياز من أصحاب بركيارق على عسكر محمد فانهزموا، وسار إلى خلاط، ومعه سقمان القطبي ولقيه الأمير علي صاحب أرزن الروم. ثم سار إلى<*> وبها منوجهر أخو فضلون الروادي.ثم سار إلى تبريز، ولحق محمد بن يزيد الملك بديار بكر، وسار منها إلى بغداد. وكان من خبره أنه كان مقيما ببغداد مجاورا للمدرسة النظامية فشكا الجيران منه إلى أبيه، فكتب إلى كوهرابين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة. ثم سار سنة اثنتين وتسعين إلى محمد الملك الباسلاني، وأبوه حينئذ بكنجة عند السلطان محمد قبل أن يدعو لنفسه. ثم سار بعد أن قتل محمد الملك إلى والده مؤيد الملك، وهو وزير السلطان محمد. ثم قتل أبوه واتصل هو بالسلطان، وحضر هذه الحروب كما ذكرنا. وأمَّا السلطان بركيارق بعد هزيمة محمد فإنه نزل جبلا بين مراغة وتبريز، وأقام به حولاً وكان خليفة المستظهر سديد الملك أبو المعالي كما ذكرناه. ثم قبض عليه منتصف رجب سنة ست وتسعين وحبس بدار الخليفة مع أهله كانوا قد وردوا عليه من أصبهان. وسبب عزله جهله بقواعد ديوان الخلافة لأنه كان يتصرف

في أعمال السلاطين، وليست فيها هذه القوانين. ولما قبض عاد أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا إلى النظر في الديوان، وبعث المستظهر عن زعيم الرؤساء أبي القاسم بن جهير من الحلّة، وكان ذهب إليها في السنة قبلها مستجيرا بسيف الدولة صدقة، لأن خاله أمين الدولة أبا سعد بن الموصلايا كان الوزير الأعز وزير بركيارق يشيع عنه أنه الذي يحمل المستظهر على موالاة السلطان محمد، والخطبة له دون بركيارق فاعتزل أمين الدولة الديوان، وسار ابن أخته هذا أبو القاسم بن جهير مستجيرا بصاحب الحلّة فاستقدمه الخليفة الآن، وخرج أرباب الدولة لاستقباله، وخلع عليه للوزارة، ولقبه قوام الدولة ثم عزله على رأس المائة الخامسة. واستجار سيف الدولة صدقة بن منصور ببغداد فأجاره وبعث عنه إلى الحلّة وذلك لثلاث سنين ونصف من وزارته، وناب في مكانه القاضي أبو الحسن بن الدامغاني أياماً. ثم استوزر مكانه أبا المعالي بن محمد بن المطلب في المحرم سنة إحدى وخمسمائة. ثم عزله سنة إثنتين بإشارة السلطان محمد، وأعاده بإذنه على شرطية العدل وحسن السيرة، وأن لا يستعمل أحدا من أهل الذمة. ثم عزل في رجب من سنة إثنتين وخمسين، واستوزر أبا القاسم بن جهير سنة تسع وخمسين، واستوزر بعده الربيع أبا منصور بن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان.

الصلح بين السلطانين بركيارق ومحمد.

ولما تطاولت الفتنة بين السلطانين، وكثر النهب والهرج، وخربت القرى، واستطال الأمر عليهم، وكان السلطان بركيارق بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين. وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له بها وببلاد أرّان وأرمينية وأصبهان والعراق جميعه إلا تكريت. وأمَّا البطائح فبعضها لهذا وبعضها لهذا، والخطبة بالبصرة لهما جميعاً. وأمَّا خراسان من جرجان إلى ما وراء النهر فكان يخطب فيها لسنجر بعد أخيه السلطان محمد. فلما استبصر بركيارق في ذلك، ورأى تحكم الأمراء عليه، وقلة المال، جنح إلى الصلح، وبعث القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي، وأبا الفرج أحمد بن عَبْد الغفار الهمذاني، المعروف بصاحب قراتكين إلى أخيه محمد في الصلح فوصلا إليه بمراغة وذكراه ووعظاه فأجاب إلى الصلح على أن السلطان لبركيارق، ولا يمنع محمداً من اتخاذ

الآلة، ولا يذكر أحد منهما مع صاحبه في الخطبة في البلاد التي صارت إليه، وتكون المكاتبة من وزيريهما في الشؤن لا يكاتب أحدهما الآخر، ولا يعارض أحد من العسكر في الذهاب إلى أيهما شاء ،ويكون للسلطان محمد من نهر استبدرو إلى الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، وأن يدخل سيف الدولة صدقة بأعماله في خلفه وبلاده والسلطنة كلها، وبقية الأعمال والبلاد كلها للسلطان بركيارق ،وبعث محمد إلى أصحابه بأصبهان بالإفراج عنها لأصحاب أخيه، وجاؤا بحريم محمد إليه بعد أن دعاهم السلطان بركيارق إلى خدمته فامتنعوا فأكرمهم، وحمل حريم أخيه وزودهم بالأموال، وبعث العساكر في

خدمتهم. ثم بعث السلطان بركيارق إلى المستظهر بما استقر عليه الحال في الصلح بينهم، وحضر أبو الغازي بالديوان وهو شحنة محمد وشيعته، إلا أنه وقف مع الصلح فسأل الخطبة لبركيارق فأمر بها المستظهر، وخطب له على منابر بغداد وواسط في جمادى سنة سبع وتسعين، ونكر الأمير صدقة صاحب الحلّة الخطبة لبركيارق، وكان شيعة لمحمد. وكتب إلى الخليفة بالنكير على أبي الغازي، وأنه سائر لإخراجه عن بغداد، فجمع أبو الغازي التركمان، وفارق بغداد إلى عقرقوبا، وجاء سيف الدولة صدقة، ونزل مقابل التاج، وقبل الأرض وخيم بالجانب الغربي. وأرسل إليه أبو الغازي يعتذر عن طاعة بركيارق بالصلح الواقع، وأن إقطاعه بحلوان في جملة بلاده التي وقع الصلح عليها وبغداد التي هو شحنه فيها قد صارت له فقبل ورضى، وعاد إلى الحلّة. وبعث المستظهر في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين الخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والخطير وزير بركيارق، وبعث معهما العهد له بالسلطنة، واستحلفه الرسل على طاعة المستظهر ورجعوا.

وفاة السلطان بركيارق وملك ابنه ملك شاه:

كان السلطان بركيارق بعد الصلح وانعقاده أقام بأصبهان أشهراً وطرقه المرض فسارإلى بغداد، فلمّا بلغ بلد يزدجرد اشتدّ مرضه وأقام بها أربعين يوماً حتى أشفى على الموت فأحضر ولده ملك شاه وجماعة الأمراء، وولاّه عهده في السلطنة، وهو ابن خمس سنين وجعل الأمير أياز أتابكه، وأوصاهم بالطاعة لهما، واستحلفهم على ذلك، وأمرهم بالمسير إلى بغداد وتخلّف عنهم ليعود إلى أصبهان فتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين. وبلغ الخبر إلى إبنه ملك شاه والأمير أياز على إثني عشر فرسخا من بلد يزدجرد فرجعوا وحضروا لتجهيزه، وبعثوا به إلى أصبهان للدفن بها في تربة أعدها، وأحضر أياز السرادقات والخيام والخفر والشمسة، وجميع آلات السلطنة فجعلها لملك شاه. وكان أبو الغازي شحنة ببغداد، وقد حضر عند السلطان بركيارق بأصبهان في المحرم وحثه على المسير إلى بغداد، فلما مات بركيارق سار مع إبنه ملك شاه والأمير أياز ووصلوا بغداد منتصف ربيع الآخر في خمسة آلاف فارس، وركب الوزير أبو القاسم علي بن جهير لتلقيهم فلقيهم بديالي، وأحضر أبو الغازي والأمير طمايدل بالديوان وطلبوا الخطبة لملك شاه بن بركيارق فأجاب المستظهر إلى ذلك، وخطب له، ولقب بألقاب جده ملك شاه، ونثرت الدنانير عند الخطبة.

وصول السلطان محمد إلى بغداد واستبداده بالسلطنة والخطبة ومقتل أياز:

كان محمد بعد صلحه مع أخيه بركيارق قد اعتزم على المسير إلى الموصل ليتناولها من يد جكرمش لّما كانت من البلاد التي عقد عليها، وكان بتبريز ينتظر وصول أصحابه من أذربيجان فلما وصلوا استوزر سعد الملك أبا المحاسن لحسن أثره في حفظ أصبهان. ثم رحل في صفر سنة ثمان وتسعين يريد الموصل، وسمع جكرمش فاستعدّ للحصار وأمر أهل السواد بدخول البلد. وجاء محمد فحاصره وبعث إليه كتب أخيه بأن

الموصل والجزيرة من قسمته، وأراه أيمانه بذلك، ووعده بأن يقره على ولايتها فقال جكرمش قد جاءتني كتب بركيارق بعد الصلح بخلاف هذا فاشتد محمد في حصاره، وقتل بين الفريقين خلق، ونقب السور ليلة فأصبحوا وأعادوه، ووصل الخبر إلى جكرمش بوفاة بركيارق عاشر جمادى فاستشار أصحابه ورأى المصلحة في طاعة السلطان محمد فأرسل إليه بالطاعة، وأن يدخل إليه وزيره سعد الملك فدخل، وأشار عليه بالحضور عند السلطان فحضر، وأقبل السلطان عليه ورده لجيشه لّما توقع من ارتياب أهل البلد بخروجه، وأكثر من الهدايا والتحف للسلطان ولوزيره.ولما بلغه وفاة أخيه بركيارق سار إلى بغداد ومعه سقمان القطبي، نسبة إلى قطب الدولة

إسماعيل بن ياقوتا بن داود، وداود هو حقربيك وأبو ألب أرسلان، وسار معه جكرمش وصاحب الموصل وغيرهما من الأمراء. وكان سيف الدولة صاحب الحلّة قد جمع عسكراً خمسة عشر ألفاً من الفرسان وعشرة آلاف رجل، وبعث ولديه بدران ودبيس إلى السلطان محمد يستحثه على بغداد. ولما سمع الأميرأياز بقدومه خرج هو وعسكره وخيموا خارج بغداد واستشار أصحابه فصمموا على الحرب، وأشار وزيره أبو المحاسن بطاعة السلطان محمد وخوفه عاقبة خلافه وسفّه آراءهم في حربه، وأطمعه في زيادة الأقطاع. وتردّد أياز في أمره وجمع السفن عنده، وضبط المثار، ووصل السلطان محمد آخر جمادى من سنة ثمان وتسعين، ونزل بالجانب الغربي، وخطب له هنالك، ولملك شاه بالجانب الشرقي. واقتصر خطيب جامع المنصور على الدعاء للمستظهر ولسلطان العالم فقط. وجمع أياز أصحابه لليمين فأبوا من المعاودة وقالوا لا فائدة فيها والوفاء إنما يكون بواحدة فارتاب أياز بهم، وبعث وزيره المصفى أبا المحاسن إلى السلطان محمد فى الصلح، وتسليم الأمر فلقي أوّلاً وزيره سعد الملك أبا المحاسن سعد بن محمد وأخبر فأحضره عند السلطان محمد وأدى رسالة أياز والعذر عما كان منه أيام بركيارق فقبله السلطان وأعتبه، وأجابه إلى اليمين. وحضر من الغد القاضي والنقيبان واستحلف الكيا الهرّاسي مدرس النظامية بمحضر القاضي - وزير أياز بمحضرهم - لملك شاه، ولأياز وللأمراء الذين معه فقال: أمَّا ملك شاه فهو إبني، وأمَّا أياز والأمراء فأحلف لهم إلا ينال بن أنوش، وسار واستحلفه الكيا الهرّاسي مدرس النظامية بمحضر القاضي والنقيبين. ثم حضر أياز من الغد، ووصل سيف الدولة صدقة وركب السلطان للقائهما وأحسن إليهما، وعمل أياز دعوه في داره وهي دار كوهرابين، وحضر عنده السلطان وأتحفه بأشياء كثيرة منها حبل البلخش الذي كان أخذه من تركة مؤيد الملك بن نظام الملك. وحضر مع السلطان سيف الدولة صدقة بن مزيد. وكان أياز قد تقدم إلى غلمانه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان، وحضر عندهم بعض الصفاعين فأخذوا معه في السخرية وألبسوه درعا تحت قميصه، وجعلوا يتناولونه بأيديهم فهرب منهم إلى خواص السلطان، ورآه السلطان متسلحا فأمر بعض غلمانه فالتمسوه وقد وجدوا السلاح فارتاب ونهض من ديار أياز. ثم استدعاه بعد أيام ومعه جكرمش وسائر الأمراء فلما حضر وقف عليهم

بعض قواده وقال لهم: أن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصد ديار بكر ليملكما فأشيروا بمن نسيّر لقتاله فأشاروا جميعاً

بالأمير أياز، وطلب هو مسير سيف الدولة صدقة معه فاستدعى أياز وصدقة ليفوضهم في ذلك فنهضوا إليه، وقد أعد جماعة من خواصه لقتل أياز فلما دخلوا ضرب أياز فقطع رأسه ولف شلوه في مشلح وألقي على الطريق، وركب عسكره فنهبوا داره وأرسل السلطان لحمايتها فافترقوا واختفى وزيره. ثم حمل إلى دار الوزير سعد الملك وقتل في رمضان من سنته. وكان من بيت رياسة همذان، وكان أياز من مماليك السلطان ملك شاه، وصار بعد موته في جملة أمير آخر فاتخذه ولداً، وكان شجاعا حسن الرأي في الحرب واستبدّ السلطان محمد بالسلطنة وأحسن السيرة، ورفع الضرائب، وكتب بها الألواح ونصبت في الأسواق وعظم فساد التركمان بطريق خراسان، وهي من أعمال العراق فبعث أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد بدل ابن أخيه بهرام بن أرتق على ذلك البلد فحماه وكف الفساد عنه. وسار إلى حصن من أعمال سرخاب بن لدر فحصره وملكه. ثم ولّى السلطان محمد سنقر البرسقي شحنة بالعراق وكان معه في حروبه، وأقطع الأمير قاياز الكوفة، وأمر صدقة صاحب الحلّة أن يحمي أصحابه من خفاجة. ولما كان شهر رمضان من سنة ثمانية وتسعين عاد السلطان محمد إلى أصبهان، وأحسن فيهم السيرة وكف عنهم الأيدي العادية.

الشحنة ببغداد:

كان السلطان قد قبض سنة إثنتين وخمسين على أبي القاسم الحسين بن عَبْد الواحد صاحب المخزن، وعلى بن الفرج بن رئيس الرؤساء واعتقلهما وصادرهما على مال يحملانه، وأرسل مجاهد الدين لقبض المال، وأمره بعمارة دار الملك فاضطلع بعمارتها، وأحسن السيرة في الناس وقدم السلطان أثر ذلك إلى بغداد فشكر سيرته، وولاه شحنة بالعراق وعاد إلى أصبهان.

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود:

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة من سنة إحدى وخمسمائة،و قد كان عهد لولده محمود وهو يومئذ غلام محتلم وأمره بالجلوس على التخت بالتاج والسوارين وذلك لإثنتي عشرة سنة ونصف من استبداده بالملك، واجتماع الناس عليه بعد أخيه. وولي بعده إبنه محمود وبايعه أمراء السلجوقية، ودّبر دولته الوزير الرسب

أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير أبيه، وبعث إلى المستظهر في الخطبة فخطب له على منابر بغداد منتصف المحرم سنة إثنتي عشرة، وكان اقسنقر البرسقي مقيما بالرحبة استخلف بها ابنه مسعودا، وسار إلى السلطان محمد يطلب الزيادة ير الأقطاع والولاية. ولقيه خبر وفاته قريباً من بغداد فمنعه بهروز الشحنة من دخولها، وسار إلى أصبهان فلقيه بحلوان توقيع السلطان محمود بأن يكون شحنة

بغداد لسعي الأمراء له في ذلك تعصبا على مجاهد الدين بهروز وغيره منه لمكانه عند السلطان محمد. ولما رجع اقسنقر إلى بغداد هرب مجاهد الدين بهروز إلى تكريت وكانت من أعماله. ثم عزل السلطان محمود اقسنقر وولى شحنة بغداد الأمير منكبرس حاكماً في دولته بأصبهان فبعث نائباً عنه ببغداد والعراق الأمير حسين بن أروبك أحد أمراء الأتراك. ورغب البرسقي من المستظهر بالعدة فلم يتوقف فسار اقسنقر إليه وقاتله، وانهزم الأمير حسين وقتل أخوه، وعاد إلى عسكر السلطان وذلك في ربيع الأول من سنه إثنتي عشرة.

وفاة المستظهر وخلافة المسترشد:

ثم توفي المستظهر بالله أبو العبّاس أحمد بن المقتدي بالله أبو القاسم عَبْد الله بن القائم بالله في منتصف ربيع الآخر سنة إثنتي عشرة وخمسمائة لأربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر من خلافته، وبويع بعده إبنه المسترشد بالله الفضل، وكان ولي عهده منذ ثلاث وعشرين سنة، وبايعه أخوه أبو عَبْد الله محمد وهو المقتدي، وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي وغيرهم من الأمراء والقضاة والأئمة والأعيان. وتولى أخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني، وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد عليها، ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا للمسترشد، وأحمد بن أبي داود للواثق، والقاضي أبو علي إسماعيل بن إسحاق للمعتضد. ثم عزل المسترشد قاضي القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الرسب أبي منصور، خاطبه أبوه وزير السلطان محمود وإبنه محمد في شأنه فاستوزره. ثم عزله سنة عشر واستوزر مكانه جلال الدين عميد الدولة أبا علي بن صدقة وهو عمّ جلال الدين أبي الرضي بن صدقة وزير الراشد.

ولما شغل الناس ببيعة المسترشد ركب أخوه الأمير أبو الحسن في السفن مع ثلاثة نفر وانحدر إلى المدائن، ومنها إلى الحلّة فأكرمه دبيس، وأهم ذلك المسترشد وبعث إلى دبيس في إعادته مع النقيب علي بن طراد الرثيني فاعتذر بالذمام، وأنه لا يكرهه فخطب النقيب أبا الحسن أخا الخليفة في الرجوع فاعتذر بالخوف، وطلب الأمان. ثم حدث مع البرسقي ودبيس ما نذكره فتأخر ذلك إلى صفر من سنته وهي سنة ثلاث عشرة فسار أبو الحسن ابن المستظهر إلى واسط وملكها، فبادر المسترشد إلى ولاية العهد لإبنه جعفر المنصور ابن إثنتي عشرة سنة، فخطب له وكتب إلى البلاد بذلك، وكتب إلى دبيس بمعاجلة أخيه أبي الحسن فإنه فارق ذمامه فبعث دبيس العساكر إلى واسط فهرب منها، وصادفوه عند الصبح فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد والأتراك عنه، وقبض عليه بعض الفرق وجاؤا به إلى دبيس فأكرمه المسترشد وأمّنه وأنزله أحسن نزل.

انتقاض الملك مسعود علي أخيه السلطان محمود
ثم مصالحته واستقرار جكرمش شحنة ببغداد:

كان السلطان محمد قد أنزل إبنه مسعوداً بالحلّة، وجعل منه حيوس بك أتابك فلما ملك السلطان محمود بعد وفاة أبيه، ثم ولي المسترشد الخلافة بعد أبيه، وكان دبيس صاحب الحلّة ممرضاً في طاعته، وكان أقسنقر البرسقي شحنة بالعراق كما ذكرناه، أرافى قصد الحلّة وأخلى دبيس عنها، وجمع لذلك جموعاً من العرب والأكراد وبرزمن بغداد في جمادى سنة إثنتي عشرة، وبلغ الخبر إلى الملك مسعود بالموصل وأن العراق خال من الحامية فأشار عليه أصحابه بقصد العراق للسلطنة فلا مانع دونها فسار في جيوش كثيرة، ومعه وزيره فخر الملك أبو علي بن عمّار صاحب طرابلس، وسيأتي خبره وقسيم الدولة زنكي بن أقسنقر ابن الملك العادل، وصاحب سنجار وأبو الهيجاء صاحب اربل، وكربادي بن خراسان التركماني صاحب البواريخ. ولما قربوا من العراق خافهم أقسنقر البرسقي بمكان حيوس بك من الملك المسعود، وأمّا هو فقد كان أبوه محمد جعله أتابك لإبنه مسعود فسار البرسقي لقتالهم، وبعثوا إليه الأمير كربادي في الصلح، وأنهم إنما جاؤا بحدّة له على دبيس فقبل، وتعاهدوا ورجعوا إلى بغداد كما مرّ خبره، وسار البرسقي لقتاله فاجتمع مع

دبيس بن صدقة واتفقا على المعاضدة، وسار الملك مسعود ومن معه إلى المدائن للقاء دبيس ومنكبرس. ثم بلغهم كثرة جموعهما فعاد الملك مسعود والبرسقي وحيوس بك، وعبروا نهر صرصر وحفظ المخاضات وأفحش الطائفتان في نهب السواد واستباحته بنهر الملك، ونهر صرصر ونهر عيسى ودجيل. وبعث المسترشد إلى الملك مسعود والبرسقي بالنكير عليهم فأنكر البرسقي وقوع شيء من ذلك، واعتزم على العود إلى بغداد، وبلغه أن دبيس ومنكرس قد جهز العساكر إليها مع منصور أخي دبيس وحسن بن أوربك ربيب منكبرس فأغذّ السير، وخلف إبنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر. واستصحب عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وجاؤا بغداد ليلاً فمنعوا عساكر منكبرس ودبيس من العبور. ثم انعقد الصلح بين منكبرس والملك مسعود، وكان سببه أن حيوس بك كاتب السلطان محمود وهو بالموصل في طلب الزيادة له وللملك مسعود، فجاء كتاب الرسول بأنه أقطعهم أذربيجان. ثم بلغه قصدهم بغداد فاتهمهم بالانتقاض، وجهز العساكر إلى الموصل، وسقط الكتاب بيد منكبرس، وكان على أم الملك مسعود فبعث به إلى حيوس بك، وداخله في الصلح والرجوع عمّا هم فيه فاصطلحوا واتفقوا. وبلغ الخبر إلى البرسقي فجاء إلى الملك مسعود وأخذ ماله وتركه، وعاد إلى بغداد فخيم بجانب منها. وجاء الملك مسعود وحيوس بك فخيما في جانب آخر، وأصعد دبيس ومنكبرس فخيما كذلك، وتفرق عن البرسقي أصحابه وجموعه وسار عن العراق إلى الملك مسعود فأقام معه، واستقر منكبرس شحنة ببغداد وعاد دبيس إلى الحلّة وأساء منكبرس السرة في بغداد بالظلم والعسف، وانطلاق أيدي أصحابه بالفساد حتى ضجر الناس، وبعث عنه السلطان محمود فسار إليه وكفى الناس شرّه.

انتقاض الملك طغرل على أخيه السلطان محمود:

كان الملك طغرل قد أقطعه أبوه السلطان محمد سنة أربع وخمسين وخمسمائة ساوة وآوة وزنجان، وجعل أتابكه الأمير شركير، وكان قد افتتح كثيراً من قلاع الإسماعلية فاتسع ملك طغرل بها، ولما مات السلطان محمد بعث السلطان محمود الأمير كتبغري أتابك طغرل، وأمره أن يحمله إليه، وحسن له المخالفة فانتقض سنة ثلاث عشرة، فبعث إليه السلطان بثلاثين ألف دينار وتحف وودّعه بإقطاع كثيرة،

وطلبه في الوصول فمنعه كتبغري وأجاب بأننا في الطاعة، ومعنا العساكر وإلى أيّ جهة أراد السلطان قصدنا. فاعتزم السلطان على السير إليهم، وسار من همذان في جمادى سنة ثلاث عشرة في عشرة آلاف غازياً. وجاء النذير إلى كتبغري بمسيره فأجفل هو وطغرل إلى قلعة سرجهان، وجاء السلطان إلى العسكر بزنجان فنهبه، وأخذ من خزانة طغرل ثلثمائة ألف دينار، وأقام بزنجان وتوجّه منها إلى الريّ وكتبغري من سرجهان بكنجة، وقصده أصحابه وقويت شوكته وتأكدت الوحشة بينه وبين أخيه السلطان محمود.

الفتنة بين السلطان محمود وعمه سنجر

صاحب خراسان والخطبة ببغداد لسنجر:

كان الملك سنجر أميراً على خراسان وما وراء النهر منذ أيام شقيقه السلطان محمد الأولي مع بركيارق. ولما توفي السلطان محمد جزع له جزعاً شديداً حتى أغلق البلد للعزاء، وتقدم للخطبة بذكر آثاره ومحاسن سيره من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك. وبلغه ملك ابنه محمود مكانه، وتغلب الأمراء عليه فنكر ذلك واعتزم على قصد بلد الجبل والعراق، وأتى له محمود ابن أخيه، وكان يلقب بناصر الدين فتلقب بمعز الدين لقب أبيه ملك شاه. وبعث إليه السلطان محمود بالهدايا والتحف مع شرف الدولة أنو شروان بن خالد، وفخر الدولة طغايرك بن أكفربن، وبذل عن مازندان مائتي ألف دينار كل سنة فتجهز لذلك، ونكر على محمود تغلب وزيره أبي منصور، وأمير حاجب علي بن عمر عليه، وسار وعلى مقدمته الأمير أنز وجهز السلطان محمود عليّ بن عمر حاجبه وحاجب أبيه في عشرة آلاف فارس، وأقام هو بالري فلما قارب الحاجب مقدمّة سنجر مع الأمير أنز بجرجان راسله باللين والخشونة. وأن السلطان محمد أوصانا بتعظيم أخيه سنجر واستحلفنا على ذلك إلا أنا لا نقضي على زوال ملكنا. ثم هدده بكثرة العساكر وقوتها فرجع أنز عن جرجان، واتبعه بعض العساكر فنالوا منه. وعاد علي بن عمر إلى السلطان محمود فشكره، وأشار عليه أصحابه بالمقام بالري فلم يقبل. ثم ضجر وسار إلى حرقان وتوافت إليه الأمداد من العراق؛ منكبرس شحنة بغداد في عشرة آلاف فارس، ومنصور أخو دبيس، وأمراء

البلخية وغيرهم. وسار إلى همذان فأقام بها، وتوفي بها وزيره الربيب، واستوزر مكانه أبا طالب السميري. ثم جاء السلطان سنجر إلى الريّ في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد، والأمير أنز والأمير قماج، واتصل به علاء الدولة كرساسف بن قرامرد بن كاكويه صاحب يزد، وكان صهر محمد وسنجر على أختهما. واختص بمحمد ودعاه محمود فتأخر عنه

فأقطع بلده لقراجا الساقي الذي ولي بعد ذلك فارس. وسار علاء الدولة إلى سنجر وعرفه حال السلطان محمود، واختلاف أصحابه، وفساد بلاده فزحف إليه السلطان محمود من همذان في ثلاثين ألفاً، ومعه علي بن عمر أمير حاجب ومنكبرس وأتابكه غز غلي وبنو برسق وسنجق البخاري وقراجا الساقي ومعه تسعمائة حمل من السلاح، والتقيا على ساوة في جمادى سنة ثلاث عشرة فانهزمت عساكر السلطان سنجر أولاً، وثبت هو بين الفيلة والسلطان محمود، واجتمع أصحابه إليه. وبلغ الخبر إلى بغداد فأرسل دبيس بن صدقة إلى المسترشد في الخطبة للسلطان سنجر فخطب له آخر جمادى، وقطعت خطبة محمود بعد الهزيمة إلى أصبهان ومعه وزيره أبو طالب السميري والأمير علي بن عمر وقراجا، واجتمعت عليه العساكر وقوي أمره. وسار السلطان سنجر من همذان ورأى قلّة عساكره فراسل ابن أخيه في الصلح، وكانت والدته وهي جدة محمود تحرضه على ذلك فأجاب إليه. ثم وصل إليه أقسنقر البرسقي الذي كان شحنة ببغداد، وكان عند الملك مسعود من يوم انصرافه عنها، وجاء رسوله من عند السلطان محمود بأن الصلح إنما يوافق عليه الأمراء بعد عود السلطان سنجر إلى خراسان فأنف من ذلك، وسار من همذان إلى الكرج، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح، وأن يكون ولي عهده فأجاب إلى ذلك، وتحالفا عليه. وجاء السلطان محمود إلى عمه سنجر، ونزل في بيت والدته وهي جدة محمود، وحمل إليه هدية حفلة. وكتب السلطان سنجر إلى أعماله بخراسان وغزنة وما وراء النهر وغيرها من الولايات بأن يخطب للسلطان محمود، وكتب إلى بغداد بمثل ذلك،

وأعاد عليه جميع البلاد سوى الري لئلا تحدّث محموداً نفسه بالانتقاض.ثم قتل السلطان محمود الأمير منكبرس شحنة بغداد لأنه لّما انهزم محمود، وسارإلى بغداد ليدخلها منعه دبيس فعاد في البلاد، ورجع وقد استقرّ في الصلح فقصد السلطان مستجيراً به فأبى من إجارته ومؤاخذته، وبعثه إلى السلطان محمود فقتله صبراً لّما كان يستبد عليه بالأمور. وسار شحنة إلى بغداد على زعمه فحقد له ذلك، وأمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدين بهروز شحنة بالعراق، وكان بها نائب دبيس بن صدقة فعزل به. ثم قتل السلطان محمود حاجبه علي بن عمر، وكان قد استخلفه ورفع منزلته فكثرت السعاية فيه فهرب إلى قلعة عند الكرج، كان بها أهله وماله. ثم لحق بخوزستان وكان بيد بني برسق فاقتضى عهودهم، وسار إليهم. فلما كان على تستر بعثوا من يقبض عليه فقاتلهم فلم يقّر عنه وأسروه، واستأذنوا السلطان محموداً في أمره فأمر بقتله وحمل رأسه إليه.

انتقاض الملك مسعود علي أخيه السلطان محمود والفتنة بينهما:

كان الملك مسعود قد استقر بالموصل وأذربيجان منذ صالحه السلطان محمود عليها بأوّل ملكه، وكان أقسنقر البرسقي مع الملك مسعود منذ فارق شحنة بغداد، وأقطعه مراغة مضافة إلى الرحبة، وكان دبيس يكاتب حيوس بك الأتابك في القبض عليه وبعثه إلى مولاه السلطان محمود، ويبذل لهم المال على ذلك.

وشعر بذلك البرسقي ففارقه إلى السلطان محمود، وعاد إلى جميل رأيه فيه. وكان دبيس مع ذلك يغري الأتابك حيوس بك بالخلاف على السلطان محمود، ويعدهم من نفسه المناصرة لينال باختلافهم في تمهيد سلطانه ما ناله أبوه باختلاف بركيارق ومحمد. وكان أبو المؤيد محمد بن أبي إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني يكتب للملك محمود، ويرسم الطغري وهي العلامة على مراسيمه، ومنها هباته. وجاء والده أبو إسماعيل من أصبهان فعزل الملك مسعود وزيره أبا علي بن عمار صاحب طرابلس، واستوزره مكانه سنة ثلاث عشرة فحسن له الخلاف الذي كان دبيس يكاتبهم فيه ويحسنه لهم. وبلغ السلطان محموداً خبرهم فكتب يحذّرهم فلم يقبلوا وخلعوا، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس، وذلك سنة أربع عشرة. وكانت عساكر السلطان محمود مفترقة فبادروا إليه والتقوا في عقبة استراباذ منتصف ربيع الأول، والبرسقي في مقدمة محمود، وأبلى يومئذ واقتتلوا يوماً كاملاً، وانهزمت عساكر مسعود في عشيته وأسر جماعة منهم، وفيهم الوزير الأستاذ أبو إسمعيل الطُّغرائي فأمر السلطان بقتله لسنة من وزارته. وقال هو فاسد العقيدة. وكان حسن الكتابة والشعر، وله تصانيف في الكيمياء. وقصد الملك مسعود بعد الهزيمة جبلاًعلى إثني عشر فرسخاً من مكان الوقعة فاختفى فيه، وبعث يطلب الأمان من أخيه فبعث إليه البرسقي يؤمّنه ويحضره. وكان بعض الأمراء قد لحق به في الجبل وأشار عليه باللحاق بالموصل، واستمد دبيساً فسار لذلك، وأدركه البرسقي على ثلاثين فرسخاً من مكانه وأمنه عن أخيه، وأعاده إليه فأريب العساكر للقائه وبالغ في إكرامه وخلطه بنفسه. وأمَّا أتابكه حيوس بك فلما افتقد السلطان مسعود سار إلى الموصل، وجمع العساكر وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب. ثم جاء السلطان بهمذان فأمنه وأحسن إليه. وأمَّا دبيس فلما بلغه خبر الهزيمة عاث في البلاد وأخربها وبعث إليه المسترشد بالنكير فلم يقبل فكتب بشأنه إلى السلطان محمود، وخاطبه السلطان في ذلك فلم يقبل، وسار إلى بغداد وخيم إزاء المسترشد، وأظهر أنه يثأر منهم بأبيه. ثم عاد عن بغداد ووصل السلطان في رجب فبعث دبيس إليه زوجته بنت عميد الدولة بن جهير بمال وهدايا نفيسة، وأجيب إلى الصلح على شروط امتنع منها فسار إليه السلطان في شوال ومعه ألف سفينة. ثم استأمن إلى السلطان فأمنه وأرسل نساءه إلى البطيحة. وسار إلى أبي الغازي مستجيراً به، ودخل السلطان الحلة وعاد عنها ولم يزل دبيس عند أبي الغازي. وبعث أخاه منصوراً إلى أصحابه من أمراء النواحي ليصلح حاله مع السلطان فلم يتم ذلك. وبعث إليه أخوه منصور يستدعيه إلى العراق فسار من قلعة جعبر إلى الحلة سنة خمس عشرة وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان بالاعتذار والوعد بالطاعة فلم يقبل منه، وسارت إليه العساكر مع سعد الدولة بن تتش ففارق الحلة، ودخلها سعد، وأنزل بالحلة عسكراً وبالكوفة آخر. ثم راجع ديبس الطاعة على أن يرسل، أخاه منصوراً رهينة فقبل، ورجع العسكر إلى بغداد سنة ست عشرة.

اقطاع الموصل للبريقي وميافارقين لأبي الغازي:

ثم أقطع السلطان محمود الموصل وأعمالها والجزيرة وسنجار وما يضاف إلى ذلك للأمير أقسنقر البرسقي شحنة بغداد، وذلك أنه كان ملازماً للسلطان في حروبه ناصحاً له، وهو الذي حمل السلطان مسعوداً على طاعة أخيه محمود، وأحضره عنده فلما حضر حيوس بك وزيره عند السلطان محمود من الموصل بقيت بدون أمير فولى عليها البرسقي سنة خمس عشرة وخمسمائة، وأمره بمجاهدة الفرنج فأقام في إمارتها دهراً هو وبنوه كما يأتي في أخبارهم. ثم بعث الأمير أبو الغازي بن أرتق ابنه حسام الدين تمرتاش شافعاً في دبيس بن صدقة، وأن يضمن الحلّة بألف دينار وفرس في كل يوم ولم يتم ذلك. فلمّا انصرف عن السلطان أقطع أباه أبا الغازي مدينة ميافارقين وتسلّمها من يد سُقمان صاحب خلاط سنة خمس عشرة، وبقيت في يده ويد بنيه إلى أن ملكها منهم صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة كما يذكر في أخبارهم.

طاعة طغرل لأخيه السلطان محمود:

قد تقدم ذكر انتقاض الملك طغرل بساوة وزنجان على أخيه السلطان محمود بمداخلة أتابكه كتبغري، وأن السلطان محمود المشار إليه أزعجه إلى كنجة، وسار إلى أذربيجان يحاول ملكها. ثم توفي أتابكه كتبغري في شوال سنة خمس عشرة، وكان أقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة فطمع في رتبة كتبغري، وسار إلى طغرل واستدعاه إلى مراغة وقصدوا أردبيل فامتنعت عليهم فجاؤا إلى تبريز، وبلغهم أن السلطان اقطع اذربيجان لحيوس بك، وبعثه في العساكر، وأنه سبقهم إلى مراغة فعدلوا عنها وكافؤا صاحب زنجان فأجابهم، وسار معهم إلى أبهر فلم يتم لهم مرادهم، وراسلوا السلطان في الطاعة واستقر حالهم. وأمَّا حيوس بك فوقعت بينه وبين الأمراء من عسكره منافرة فسعوا به عند السلطان فقتله بتبريز في رمضان من سنته، وكان تركيا من مماليك السلطان محمد، وكان حسن السيرة مضطلعاً بالولاية. ولما ولي الموصل والجزيرة كان الأكراد قد عاثوا في نواحيها، وأخافوا سبلها فأوقع بهم وحصر قلاعهم، وفتح الكثير منها ببلد الهكارية وبلد الزوزان وبلد النسوية وبلد النحسة، حتى خاف الأكراد، واطمأن الناس وأمنت السبل.

أخبار دبيس مع المسترشد:

قد ذكرنا مسير العساكر إلى دبيس مع بُرْسُق الكركوي سنة أربع عشرة، وكيف وقع الاتفاق وبعث دبيس أخاه منصورا رهينه فجاء برتقش به إلى بغداد سنة ست عشرة، ولم يرض المسترشد ذلك، وكتب إلى السلطان محمود بأن دبيس لا يصلحه شيء لأنه مطالب بثأر أبيه، وأشار بأن يبعث عن البرسقي من الموصل لتشديد دبيس، ويكون. شحنة ببغداد فبعث إليه السلطان وأنزله شحنة ببغداد، وأمره بقتال دبيس فأقام عشرين شهراً ودبيس معمل في الخلاف. ثم أمره المسترشد بالمسير إليه، وإخراجه من الحلة فاستقدم البرسقي عساكره من الموصل، وسار إلى الحلّة، ولقيه دبيس فهزم عساكره ورجع إلى بغداد في ربيع من سنة ست عشرة، وكان معه في العسكر مضر بن النفيس بن مذهب الدولة أحمد بن أبي الخير عامل البطيحة، فغدا عليه عمه المظفر بن عماد بن أبي الخير فقتله في انهزامهم. وسار إلى البطيحة فتغلب

عليها، وكاتب دبيس في الطاعة، وأرسل دبيس إلى المسترشد بطاعته وأن يبعث عماله لقرى الخاص يقبضون دخلها على أن يقبض المسترشد على وزيره جلال الدين بن علي بن صدقة فتم بينهما ذلك، وقبض المسترشد على وزيره، وهرب ابن أخيه جلال الدين أبو الرضي إلى الموصل، وبلغ الخبر بالهزيمة إلى السلطان محمود فقبض على منصور أخي دبيس، وحبسه، وأذن دبيس لأصحاب الإقطاع بواسط في المسير إلى إقطاعهم فمنعهم الأتراك منها فجهز إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر. وأمر مظفر بن أبي الخير عامل البطيحة بمساعدته. وبعث البرسقي المدد إلى أهل واسط فلقيهم مهلهل بن أبي المظفر فهزموه وأسروه وجماعة من عسكره واستلحموا كثيرا منهم. وجاء المظفر أبو الخير على أثره، وأكثر النهب والعيث، وبلغه خبر الهزيمة فرجع وبعث أهل واسط بتذكرة وجدوها مع مهلهل بخط دبيس فأمره بالقبض على المظفر فمال إليهم وانحرف عن دبيس، ثم بلغ دبيس أن السلطان محموداً سمل أخاه منصوراً، فانتقض ونهب ما كان للخليفة بأعماله، وسار أهل واسط إلى

النعمانّية فأجلوا عنها أصحاب دبيس. وتقدم المسترشد إلى البرسقي بالمسير لحرب دبيس فسار لذلك كما نذكر. ثم أقطع السلطان محمود مدينة واسط للبرسقي مضافة إلى ولاية الموصل فبعث عماد الدين زنكي بن أقسنقر ولد نور الدين العادل.

نكبة الوزير ابن صدقة وولاية نظام الملك:

قد ذكرنا آنفاً أن دبيس اشترط على المسترشد في صلحه معه القبض على وزيره جلال الدين أبي علي بن صدقة فقبض عليه في جمادى سنة ست عشرة، وأقام في نيابة الوزارة شرف الدين علي بن طراد الزينبي. وهرب جلال الدين أبو الرضي ابن أخي الوزير إلى الموصل. وبعث السلطان محمود إلى المسترشد في أن يستوزر نظام الدولة أبا نصر أحمد بن نظام الملك، وكان السلطان محمود قد استوزر أخاه شمس الملك عثمان، عندما قلّ الباطنية بهمذان <* >، وزيره الكمال أبا طالب السميري فقبل المسترشد إشارته، واستوزر نظام الملك، وقد كان وزر للسلطان محمد سنة خمسمائة، ثم عزل ولزم داره ببغداد. فلما وزر وعلم ابن صدقة أنه يخرجه طلب من المسترشد أن يسير إلى سليمان بن مهارش بحديثة غانة، فأذن له فسار ونهب في طريقه وأسر، ثم خلص إلى مأمنه في واقعة عجيبة. ثم قتل السلطان محمود وزيره شمس الملك فعزل المسترشد أخاه نظام الدين أحمد عن وزارته، وأعاد جلال الدين أبا علي بن صدقة إلى مكانه.

واقعة المسترشد مع دبيس:

كان دبيس في واقعته مع البرسقي قد أسر عفيفاً الخادم، ثم أطلقه سنة سبع عشرة، وحمله إلى المسترشد رسالة بخروج البرسقي للقتال يتهدده بذلك على ما بلغه من سمل أخيه، وحلف لينهبن بغداد فاستطار المسترشد غضباً، وأمر البرسقي بالمسير لحربه فسار في رمضان من سنته. ثم تجهز للخليفة وبرز من بغداد

واستدعى العساكر فجاءه سليمان بن مهارش صاحب الحديثة في بني عقيل، وقرواش بن مسلم وغيرهما. ونهب

دبيس نهر الملك من خاص الخليفة ونودي في بغداد بالنفير فلم يتخلف أحد، وفرقت فيهم الأموال والسلاح وعسكر المسترشد خارج بغداد في عشر ذي الحجة، وبرز لأربع بعدها وعبر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني، ووزيره معه نظام الدين، ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم فنزلي بخيمة، وبلغ البرسقي خروجه فعاد بعسكره إليه. ونزل المسترشد بالحديثة بنهر الملك، واستحلف البرسقي والأمراء على المناصحة، وسار فنزل المباركة وعبى البرسقي أصحابه للحرب، ووقف المسترشد وراء العسكر في خاصته، وعبّى دبيس أصحابه صفاً واحداً، وبين يديهم الإماء تعزف وأصحاب الملاهي، وعسكر الخليفة تتجاذب القراءة والتسبيح مع جنباته، ومع أعلامه كرباوي خراسان، وفي الساقة سليمان بن مُهارش. وفي ميمنة البرسقي أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البلخية، فحمل عنتر بن أبي العسكر من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي فدحرجها، وقتل ابن أخي أبي بكر. ثم حمل ثانية كذلك فحمل عماد الدين زنكي بن أقسنقر في عسكر واسط على عنتر بن أبي العسكر فأسره ومن معه. وكان من عسكر المسترشد كمين متوار، فلما التحم الناس خرج الكمين واشتد الحرب، وجرد المسترشد سيفه وكبر وتقدم فانهزمت عساكر دبيس، وجيء بالأسرى فقتلوا بين يدي الخليفة وسبي نساؤهم، ورجع الخليفة إلى بغداد في عاشوراء من سنة سبع عشرة. وذهب دبيس وخفي أثره، وقصد غزية من العرب فأبوا من ذلك إيثاراً لرضا المسترشد والسلطان، فسار إلى المشقر من البحرين فأجابوه، وسار بهم إلى البصرة فنهبوها وقتلوا أميرها، وتقدم المسترشد للبرسقي بالانحدار إليه بعد أن عنفه على غفلته عنه، وسمع دبيس ففارق البصرة، وبعث البرسقي عليها زنكي بن أقسنقر فأحسن حمايتها وطرد العرب عن نواحيها، ولحق دبيس بالفرنج في جُعْبُر وحاصر معهم حلب فلم يظفروا وأقلعوا عنها سنة ثمان عشرة فلحق دبيس بطغرل ابن السلطان محمد، وأغراه. بالمسترشد، وبملك العراق كما نذكر.

ولاية برتقش شحنة بغداد:

ثم أن المسترشد وقعت بينه وبين البرسقي منافرة فكتب إلى السلطان محمود في عزله عن العراق، وإبعاده إلى الموصل فأجابه إلى ذلك، وأرسل إلى البرسقي بالمسير إلى الموصل لجهاد الإفرنج، وبعث إليه بابن صغير من أولاده يكون معه وولّى على شحنة بغداد برتقش

الزكوي، وجاء نائبه إلى بغداد فسلّم إليه البرسقي العمل وسار إلى الموصل بابن السلطان، وبعث إلى عماد الدين زنكي أن يلحق به فسار إلى السلطان، وقدم عليه بالموصل فأكرمه وأقطعه البصرة وأعاده إليها.

وصول الملك طغرل ودبيس إلى العراق:

قد ذكرنا مسير دبيس بن صدقة من الشام إلى الملك طغرل فأحسن إليه، ورتبه في خاص أمرائه، وجعل دبيس يغريه بالعراق ويضمن له ملكه، فسار لذلك سنة تسع عشرة، ووصلوا دقوقاً، فكتب مجاهد الدين مهروز من تكريت إلى المسترشد بخبرهما فتجهز إلى دفاعهما وسار إليهما. وأمر برتقش الزكوي الشحنة أن يستنفر ويستبعد فبلغت عدة إلعسكر إثني عشر ألفاً سوى أهل بغداد، وبرز خامس صفر سنة تسع عشرة، وسار فنزل الخالص، وعدل طغرل إلى طريق خراسان، وأكثرت عساكره النهب، ونزل رباط جلولاء. وسار إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في العساكر فنزل الدسكرة. وجاء المسترشد فنزل معه، وتوجه طغرل ودبيس فنزلا الهارونية، واتفقا أن يقطعا جسر النهروان فيقيم دبيس على المعابر، ويخالفهم طغرل إلى بغداد، ثم عاقتهم جميعاً عوالق المطر، وأصابت طغرل الحمى، وجاء دبيس إلى النهروان ليعبر، وقد لحقهم الجوع فصادف أحمالاً من البر، والأطعمة جاءت من بغداد للمسترشد فنهبها، وأرجف في معسكر المسترشد أن دبيس ملك بغداد فأجفلوا من الدسكرة إلى النهروان، وتركوا أثقالهم. ولما حلوا بالنهروان وجدوا دبيس وأصحابه نياماً فاستيقظ وقبل الأرض بين يدي المسترشد، وتذلل فهمّ بصلحه، ووصل الوزير ابن صدقة فثناه عن ذلك، ثم مد المسترشد الجسر، وعبر ودخل بغداد لفتنة خمسة وعشرين يوماً. وسار دبيس إلى طغرل؛ ثم اعتزموا على المسير إلى السلطان سنجر، ومروا بهمذان فعاثوا في أعمالها وصادروا، واتبعهم السلطان فانهزموا بين يديه، ولحقوا بالسلطان سنجر شاكين من المسترشد والشحنة برتقش.

الفتنة بين المسترشد والسلطان محمود:

ثم وقعت بين برتقش الزكوي وبين نواب المسترشد نبوة فبعث إليه المسترشد يتهدّده فخافه على نفسه، وسار إلى السلطان محمود في رجب سنة عشرين فحذر منه، وأنه ثاور العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه، وأشار بمعاجلته قبل أن يستفحل أمره، ويمتنع عليه فسار السلطان نحو العراق، فبعث إليه المسترشد بالرجوع عن البلاد لّما فيها من الغلاء من فتنة دبيس، وبذل له المال، وأن يسير إلى العراق مرة أخرى؛ فارتاب السلطان وصدق ما ظنه برتقش وأغذ السير فعبر المسترشد إلى الجانب الغربي مغضباً يظهر الرحيل عن بغداد إذ قصدها السلطان. وصانعه السلطان بالاستعطاف وسؤاله في العود فأبى فغضب السلطان ودخل نحو بغداد.وأقام المسترشد بالجانب الغربي وبعث عفيفاً الخادم من خواصه في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان، فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وكان على البصرة كما ذكرناه فسار إليه وهزمه، وقتل من عسكره، ونجا عفيف إلى المسترشد برأسه فجمع المسترشد السفن وسد أبواب دار الخلافة إلا باب النوبي، ووصل السلطان في عشر ذي الحجة من سنة عشرين، ونزل باب الشماسية، ومنع العسكر عن دور الناس. وراسل المسترشد في العود والصلح فأبى، ونجا جماعة من عسكر

السلطان فنهبوا التاج في أول المحرم سنة إحدى وعشرين فضج العامة لذلك، واجتمعوا وخرج المسترشد والشماسية على رأسه والوزير بين يديه، وأمر بضرب الطبول ونفخ الأبواق، ونادى بأعلى صوته يا لهاشم ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة. وكان في الدار رجال مختفون في السراديب فخرجوا على العسكر، وهم مشتغلون في نهب الدار فأسروا جماعة منهم، ونهب العامة دور أصحاب السلطان. وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بحفر الخنادق فحفرت ليلاً، ومنعوا بغداد عنهم، واعتزموا على كبس السلطان محمود. وجاء عماد الدين زنكي من البصرة في حشود عظيمة ملأت البر والبحر فاعتزم السلطان على قتال بغداد. واذعن المسترشد إلى الصلح فاصطلحوا، وأقام السلطان ببغداد إلى ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، ومرض فأشير عليه بمفارقة بغداد فارتحل إلى همذان، ونظر فيمن يوليه شحنة العراق مضافاً إلى ما بيده، ويثق به في مد تلك الحلّة. وحمل إليه الخليفة عند رحيله

الهدايا والتحف الألطاف فقبل جميعها. ولما أبعد السلطان عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر النشاباذي لاتهامه بممالأة المسترشد، واستوزر مكانه شرف الدين أنو شروان بن خالد، وكان مقيماً ببغداد فاستدعاه وأهدى إليه الناس حتى الخليفة. وسار من بغداد في شعبان فوصل إلى السلطان بأصبهان وخلع عليه، ثم استعفى لعشرة أشهر، وعاد إلى بغداد ولم يزل الوزير أبو القاسم محبوساً إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الري في السنة بعدها فأطلقه وأعاده إلى وزارة السلطان.

أخبار دبيس مع السلطان سنجر:

لّما وصل دبيس إلى السلطان سنجر، ومعه طغرل أغرياه بالمسترشد والسلطان محمود، وأنهما عاصيان عليه، وسهلا عليه أمر العراق فسار إلى الري واستدعى السلطان محموداً يختبر طاعته بذلك فبادر للقائه. ولما وصل أمر سنجر العساكر فتلقوه وأجلسه معه على سريره، وأقام عنده مدة وأوصاه بدبيس أن يعيده إلى بلده، ورجع سنجر إلى خراسان منتصف ذي الحجة ورجع محمود إلى همذان ودبيس معه. ثم سار إلى بغداد فقدمها في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين، واسترضى المسترشد لدبيس فرضي عنه، على شريطة أن يوليه غير الحلّة فبذل في الموصل مائة ألف دينار. وشعر بذلك زنكي فجاء بنفسه إلى السلطان وهجم على الستر متذمما، وحمل الهدايا، وبذل مائة ألف فأعاده السلطان إلى الموصل، وأعاد بهروز شحنة على بغداد، وجعلت الحلّة لنظره.وسار السلطان إلى همذان في جمادى سنة ثلاث وعشرين، ثم مرض السلطان فلحق دبيس بالعراق، وحشد المسترشد لمدافعته، وهرب بهروز من الحلة فدخلها دبيس في رمضان من سنة ثلاث وعشرين. وبعث السلطان في أثره الأميرين اللذين ضمناه له، وهما كزل والأحمديلي؛ فلما سمع دبيس بهما أرسل إلى المسترشد يستعطفه، وتردد الرسل، وهو يجمع الأموال والرجال حتى بلغ عسكره عشرة آلاف، ووصل الأحمديلي بغداد في شوال، وسار في أثر دبيس. ثم جاء السلطان إلى العراق فبعث إليه دبيس

بالهدايا، وبذل الأموال على الرضى فأبى، ووصل إلى بغداد، ودخل دبيس البرية، وقصد البصرة فأخذ ما كان فيها للخليفة والسلطان، وجاءت العساكر في اتباعه فدخل البرية انتهى.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود ثم منازعته عمومته واستقلال مسعود:

ثم توفي السلطان محمود في شوال من سنة خمس وعشرين، لثلاث عشرة سنة من ملكه، واتفق وزيره أبو القاسم النشاباذي، وأتابكه أقسنقر الأحمديلي على ولاية ابنه داود مكانه، وخطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمذان ونواحيها. ثم سكنت فسار الوزير بأمواله إلى الري ليأمن في أياله السلطان سنجر، ثم أن الملك داود سار في ذي القعدة من سنة خمس وعشرين من همذان إلى ربكان، وبعث إلى المسترشد ببغداد في الخطبة، وأتاه الخبر بأن عمه مسعوداً سار من جرجان إلى تبريز، وملكها فسار إليه وحصره في تبريز إلى سلخ المحرم من سنة ست وعشرين، ثم اصطلحا وأفرج داود عن تبريز، وخرج السلطان مسعود منها، واجتمعت عليه العساكر فانتقض وسار إلى همذان. وأرسل إلى المسترشد في الخطبة فأجابهم جميعاً بأن الخطبة للسلطان سنجر صاحب خراسان، ويعين بعده من يراه. وبعث إلى سنجر بأن الخطبة إنما ينبغي أن تكون لك وحدك فوقع ذلك منه أحسن موقع، وكاتب السلطان منه أحسن موقع؛ وكاتب السلطان مسعود عماد الدين زنكي صاحب الموصل فأجابه، وسار إليه وانتهى إلى المعشوق. وبينما هم في ذلك إذ ثار قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان بالملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد، وكان أتابكه فدخل بغداد في عسكر كبير، ونزل دار السلطان، واستخلفه المسترشد لنفسه، ووصل مسعود إلى عباسة فبرزوا للقائه، وجاءهم خبر عماد الدين زنكي فعبر قراجا إلى الجانب الغربي للقائه، وواقعه فهزمه، وسار منهزماً إلى تكريت، وبها يومئذ نجم الدين أيوب أبو السلطان صلاح الدين فهيأ له الجسر للعبور، وعبر فأمن وسار لوجهه. وجاء السلطان مسعود من العباسة للقاء أخيه سلجوق ومن معه مدلاً بمكان زنكي وعسكره من ورائهم، وبلغه خبر انهزامهم فنكص على عقبه، وراسل المسترشد بأن السلطان سنجر وصل إلي وطلب الاتفاق من المسترشد وأخيه سلجوق شاه قراجا على قتال سنجر، على أن يكون العراق للمسترشد يتصرف فيه نوابه، والسلطنة لمسعود وسلجوق شاه ولي عهده فأجابوه إلى ذلك، وجاء إلى بغداد في جمادى الأولى سنة ست وعشرين، وتعاهدوا على ذلك.

واقعة مسعود مع سنجر وهزيمته وسلطنة طغرل:

لّما توفي السلطان محمود، وولي ابنه داود مكانه، نكر ذلك عمه السلطان سنجر عليهم، وسار إلى بلاد الجبل، ومعه طغرل ابن أخيه السلطان محمد، كان عنده منذ وصوله مع دبيس فوصل إلى الري، ثم إلى همذان؛ وسار السلطان مسعود وأخوه سلجوق وقراجا الساقي أتابك سلجوق للقائه. وكان المسترشد قد عاهدهم على الخروج وألزموه ذلك؛ ثم أن السلطان سنجر بعث إلى دبيس، وأقطعه الحلة وأمره بالمسير إلى بغداد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بولاية شحنكية بغداد، والسير إليها فبلغ المسترشد خبر مسيرهما

فرجع لمدافعتهما.وسار السلطان مسعود وأصحابه للقاء السلطان سنجر، ونزل استراباذ في مائة ألف من العسكر فخاموا عن لقائه، ورجعوا أربع مراحل فأتبعهم سنجر، وتراءى الجمعان عند الدينور ثامن رجب، فاقتتلوا، وعلى ميمنة مسعود قراجا الساقي وكزل، وعلى ميسرته برتقش باردار، ويوسف حاروس فحمل قراجا الساقي في عشرة آلاف على السلطان سنجر، حتى تورط في مصافه فانعطفوا عليه من الجانبين، وأخذ أسيراً بعد جراحات. وانهزم مسعود وأصحابه، وقتل بعضهم، وفيهم يومئذ يوسف حاروس، وأسر آخرون، فيهم قراجا فأحضر عند السلطان سنجر فوبخه، ثم أمر بقتله. وجاء السلطان مسعود إليه فأكرمه، وعاتبه على مخالفته، وأعاده أميراً إلى كنجة. وولى الملك طغرل ابن أخيه محمداً في السلطنة وجعل وزيره أبا القاسم النشاباذي وزير السلطان محمود، وعاد إلى خراسان، ووصل نيسابور في عاشر رمضان من سنته. وأمَّا الخليفة فرجع إلى بغداد كما قلناه لمدافعة دبيس وزنكي، وبلغه الخبر بهزيمة السلطان مسعود فعبر إلى الجانب الغربي، وسار إلى العباسة، ولقيهما بحصن البرامكة آخر رجب. وكان في ميمنته جمال الدولة إقبال، وفي ميسرته مطر الخادم فانهزم إقبال لحملة زنكي، وحمل الخليفة ومطر على دبيس فانهزم، وتبعه زنكي فاستمرت الهزيمة عليهم وافترقوا، ومضى دبيس إلى الحلّة وكانت بيد إقبال، وجاءه المدد من بغداد فلقي دبيس وهزمه، ثم تخلص بعد

الجهد، وقصد واسط وأطاعه عسكرها إلى أن خلت سنة سبع وعشرين، فجاءهم إقبال وبرتقش باردار، وزحفوا في العساكر براً وبحراً فانهزمت أهل واسط.ولما استقر طغرل بالسلطنة وعاد عمه سنجر إلى خراسان لخلاف أحمد خان صاحب ما وراء النهر عليه، وكان داود ببلاد أذربيجان وكنجة فانتقض وجمع العساكر، وسار إلى همذان وبرز إليه طغرل وفي ميمنته ابن برسق وفي ميسرته كزل وفي مقدمته أقسنقر. وسار إليه داود في ميمنته برتقش الزكوي والتقيا في رمضان سنة ست وعشرين فأمسك برتقش عن القتال، واستراب التركمان منه فنهبوا خيمته، واضطرب عسكر داود لذلك فهرب أتابكه أقسنقر الأحمديلي، واستمرت الهزيمة عليهم وأسر برتقش الزكوي، ومضى داود ثم قدم بغداد، ومعه أتابكه أقسنقر الأحمديلي فأنزله الخليفة بدار السلطان وأكرمه.ولما بلغ السلطان مسعوداً هزيمة داود ووصوله إلى بغداد، قدم إليها وخرج داود لتلقيه، وترجل له عن فرسه، ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر سنة سبع وعشرين، وخطب له على منابر بغداد ولداود بعده، واتفقا مع المسترشد بالسير إلى أذربيجان، وأن يمدهما، وسارا لذلك، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وحاصر جماعة من الأمراء بأردبيل، ثم هزمهم وقتل منهم، وسار إلى همذان وبرز أخو طغرل للقائه فانهزم، واستولى مسعود على همذان، وقتل أقسنقر، قتله الباطنية، ويقال بدسيسة السلطان محمود. ولما انهزم طغرل قصد الرى، وبلغ قم، ثم عاد إلى أصبهان ليمتنع بها، وسار أخوه مسعود للحصار فارتاب طغرل بأهل أصبهان، وسار إلى بلاد فارس فاتبعه مسعود، واستأمن إليه بعض أمراء طغرل فارتاب بالباقين، وانهزم إلى الرى في رمضان من سنة'، واتبعه مسعود

فلحقه بالرقي، وقاتله فانهزم طغرل وأسر جماعة من أمرائه، وعاد مسعود إلى همذان ظافرا وعندما قصد طغرل الري من فارس، قتل في طريقه وزيره أبا القاسم النشاباذي، في شوّال من سنته لموجدة وجدها عليه.

مسير المسترشد لحصار الموصل:

لّما انهزم عماد الدين زنكي أمام المسترشد كما قلنا لحق بالموصل، وشغل سلاطين السلجوقية في همذان بالخلف الواقع بينهم، ولجأ جماعة من أمراء السلجوقية إلى بغداد فراراً من الفتنة فقوي بهم المسترشد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بعض شيوخ

الصوفّية من حضرته فأغلظ في الموعظة فأهانه زنكي وحبسه، فاعتزم المسترشد على حصار الموصل، وبعث بذلك إلى السلطان مسعود، وسار من بغداد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين في ثلاثين ألف مقاتل. ولما قارب الموصل فارقها زنكي ونزل بها نائبه نصير الدين حقر، ولحق بسنجر وأقام يقطع المدد والميرة عن عسكر المسترشد، حتى ضاقت بهم الأمور، وحاصرها المسترشد ثلاثة أشهر فامتنعت عليه، ورحل عائداً إلى بغداد فوصل يوم عرفة من سنته، يقال أن مطراً الخادم جاء من عسكر السلطان مسعود لأنه قاصد العراق فارتحل لذلك.

مصاف طغرل ومسعود وانهزام مسعود:

ولما عاد مسعود إلى همذان بعد انهزام أخيه طغرل، بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه وحصره ببعض قلاعها فخالفه طغرل إلى بلاد الجبل واجتمعت عليه العساكر ففتح كثيراً من البلاد، وقصد مسعودا وانتهى إلى قزوين فسار مسعود للقائه، وهرب من عسكره جماعة كان طغرل قد داخلهم واستمالهم فولى مسعود منهزماً آخر رمضان سنة ثمان وعشرين، واستأذن المسترشد في دخول بغداد وكان نائبه بأصبهان البقش السلامي، ومعه أخوه سلجوق شاه، فلما بلغهم خبر الهزيمة لحقوا ببغداد، ونزل سلجوق بدار السلطان، وبعث إليه الخليفة بعشرة آلاف دينار. ثم قدم مسعود بعدهم ولقي في طريقه شدة وأصحابه بين راجلين وركاب فبعث إليهم المسترشد بالمقام والخيام والأموال والثياب والآلات، وقرب إليهم المنازل، ونزل مسعود بدار السلطنة ببغداد منتصف شوال سنة ثمان، وأقام طغرل بهمذان.

وفاة طغرل واستيلاء السلطان مسعود:

ولما وصل مسعود إلى بغداد أكرمه المسترشد، ووعده بالمسير معه لقتال أخيه طغرل، وأزاح علل عسكره واستحثه لذلك، وكان جماعة من أمراء السلجوقية قد ضجروا من الفتنة، ولحقوا بالمسترشد فساروا معه، ودس إليهم طغرل بالمواعيد فارتاب المسترشد ببعضهم، وأطلع على كتاب طغرل إليه، وقبض عليه، ونهب ماله فلحق الباقون بالسلطان، وبعث فيهم المسترشد فمنعهم السلطان فحدثت بينهم الوحشة لذلك،

وبعث السلطان إلى الخليفة يلزمه المسير معه، وبيناهما على ذلك إذ جاءه الخبر بوفاة طغرل، في المحرّم من سنة تسع وعشرين، فسار السلطان مسعود إلى همذان، وأقبلت إليه العساكر فاستولى عليها، وأطاعه أهل البلاد، واستوزر شرف الدين أنو شروان خالداً، وكان قد سار معه بأهله.

فتنة السلطان مسعود مع المسترشد:

لّما استولى السلطان مسعود على همذان استوحش منه جماعة من أعيان الأمراء، منهم برتقش وكزل وسنقر والي همذان، وعبد الرحمن بن طغرلبك ففارقوه ودبيس بن صدقة معهم، واستأمنوا إلى الخليفة، ولحقوا بخوزستان وتعاهدوا مع برسق على طاعة المسترشد، وحذر المسترشد من دبيس وبعث شديد الدولة بن الأنباري الأمان للأمراء دون دبيس، ورجع دبيس إلى السلطان مسعود. وسار الأمراء إلى بغداد فأكرمهم المسترشد، واشتدت وحشة السلطان مسعود لذلك، ومنافرته للمسترشد فاعتزم المسترشد على قتاله، وبرز من بغداد في عاشر رجب، وأقام بالشفيع وعصى عليه صاحب البصرة فلم يجبه، وأمراء السلجوقية الذين بقوا معه يحرضونه على المسير فبعث مقدمته إلى حلوان. ثم سار من شعبان واستخلف على العراق إقبالاً خادمه في ثلاثة آلاف فارس، ولحقه برسق بن برسق فبلغ عسكره سبعة آلاف فارس، وكان أصحاب الأعراب يكاتبون المسترشد بالطاعة فاستصلحهم مسعود، ولحقوا به، وبلغ عكسره خمسة عشر ألفاً. وتسفل إليه كثير من عكسر المسترشد حتى بقي في خمسة آلاف، وبعث إليه داود ابن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد الدينور ليلقاه بها بعسكره فجفل للقاء السلطان مسعود، وسار وفي ميمنته برتقش باردار وكور

الدولة سنقر وكزل وبرسق بن برسق، وفي ميسرته جاولي برسقي، وسراب سلار وأغلبك الذي كان قبض عليه من أمراء السلجوقية بموافقتهم السلطان، وكان ذلك عاشر رمضان سنة تسع وعشرين.

وانحازت ميسرة المسترشد إليه وانطبقت عساكره عليه، وانهزم أصحاب المسترشد وأخذ هو أسيراً بموكبه، وفيهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وقاضي القضاة والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم. وأنزل المسترشد في خيمة، وحبس الباقون بقلعة سرحاب، وعاد السلطان إلى همذان، وبعث الأمير بك آي المحمدي إلى بغداد شحنة فوصل سلخ رمضان، ومعه عميد فقبضوا أملاك الخليفة، وأخذوا غلاته، وضج الناس ببغداد وبكوا على خليفتهم، وأعول النساء، ثم عمد العامّة إلى المنبر فكسروه، ومنعوا من الخطبة وتعاقبوا في الأسواق يحثون التراب على رؤسهم، وقاتلوا أصحاب الشحنة فأثخن فيهم بالقتل وهرب الوالي والحاجب وعظمت الفتنة، ثم بلغ السلطان في شوّال أن داود ابن أخيه محمود عصى عليه بالمراغة، فسار لقتاله، والمسترشد معه، وتردّد الرسل بينهما في الصلح.

مقتل المسترشد وخلافة الراشد:

قد ذكرنا مسير المسترشد مع السلطان مسعود إلى مراغة، وهو في خيمة موكل به. وترددت الرسل بينهما وتقرر الصلح، على أن يحمل مالاً للسلطان، ولا يجمع العساكر لحرب ولا فتنة، ولا يخرج من داره فانعقد على ذلك بينهما، وركب المسترشد، وحملت الغاشية بين يديه، وهو على العود إلى بغداد فوصل الخبر بموافاة رسول من السلطان سنجر فتأخر مسيره لذلك، وركب السلطان مسعود للقاء الرسول، وكانت خيمة المسترشد منفردة عن العسكر فدخل عليه عشرون رجلاً أو يزيدون من الباطنّية فقتلوه وجدعوه وصلبوه، وذلك سابع عشر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين، لسبع عشرة ونصف من خلافته. وقتل الرجال الذين قتلوه وبويع إبنه أبو جعفر، بعهد أبيه إليه بذلك فجددت له البيعة ببغداد في ملأ من الناس، وكان إقبال خادم المسترشد في بغداد فلمّا وقعت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربي، وأصعد إلى تكريت، ونزل على مجاهد الدين بهروز. ثم بعد مقتل المسترشد بأيام قتل دبيس بنصدقةعلى باب سرادقة بظاهر مدينة خويّ، أمر السلطان مسعود غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه فضربه، وأسقط رأسه، واجتمع إلى أبيه صدقة بالحِلّة عساكره ومماليكه، واستأمن إليه قطلغ تكين، وأمر السلطان مسعود بك آي شحنة بغداد، فأخذ الحلة من يد صدقة فبعث بعض عساكره إلى المدائن، وخام عن لقائه حتى قدم السلطان إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين فقصده وصالحه ولزم بابه.

الفتنة بين الراشد والسلطان مسعود ولحاقه بالموصل وخلعه:

وبعد بيعة الراشد واستقراره في الخلافة وصل برتقش الزكويّ من عند السلطان محمود، يطلب من الراشد ما استقر على أبيه من المال أيام كونه عندهم، وهو أربعمائة ألف دينار فأجابه بأنه لم يخلف شيئا وأن ماله كان معه فنهب. ثم نمي إلى الراشد أن برتقش هجم على دار الخلافة وفتش المال فجمع الراشد العساكر وأصلح السور، ثم ركب برتقش ومعه الأمراء البلخية وجاؤا لهجم الدار، وقاتلهم عسكر الخليفة والعامة فساروا إلى طريق خراسان، وانحدر بك آي إلى خراسان، وسار برتقش إلى البند هجين، ونهبت العامة دار السلطان والراشد، واشتدت الوحشة بين السلطان والراشد، وانحرف الناس عن طاعة السلطان إلى الخليفة، وسار داود ابن السلطان في عسكر أذربيجان إلى بغداد، ونزل بدار السلطان في صفر من سنة ثلاثين.ووصل عماد الدين زنكي من الموصل، ووصل برتقش باردار صاحب قزوين، والبقش الكبير صاحب أصبهان، وصدقة بن دبيس صاحب الحلّة، وابن برسق وابن الأحمديلي، وجفل الملك داود برتقش باردار شحنة ببغداد، وقبض الراشد على ناصح الدولة أبي عَبْد الله الحسن بن جهير استادار، وعلى جمال الدين اقبال. وكان قدم إليه من تكريت فتنكر له أصحابه وخانوه، وشفع زنكي في إقبال الخادم فأطلقه وصار عنده وخرج الوزير جلال الدين أبو الرضا بن صدقة لتلقي زنكي فأقام عنده. ثم شفع فيه وأعاده إلى وزارته ولحق قاضي القضاة الزينبي بزنكي أيضاً وسار معه إلى الموصل، ووصل سلجوق شاه إلى واسط

وقبض بها بك آي ونهب ماله فانحدر زنكي إليه وصالحه ورجع إلى بغداد.ثم سار السلطان داود نحو طريق خراسان

ومعه زنكي لقتال السلطان مسعود، وبرز الراشد أوّل رمضان وسار إلى طريق خراسان، ورجع بعد ثلاث وأرسل إلى داود والأمراء بالعود، وقتال مسعود من وراء السور، وراسلهم مسعود بالطاعة والموافقة فأبوا، وتبعهم الخليفة في ذلك. وجاء مسعود فنزل على بغداد وحصرهم فيها، وثار العيارون وكثر الهرج وأقاموا كذلك نيفاً وخمسين، وامتنعوا وأقلع السلطان عنهم. ثم وصله طرنطاي صاحب واسط بالسفن فعاد وعبر إلى الجانب الغربي فاضطرب الراشد وأصحابه، وعاد داود إلى بلاده، وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد وسار معه إلى الموصل، ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين، وأمّن الناس. واستدعى القضاة والفقهاء والشهود وعرض عليهم يمين الراشد بخطّه: إني متى جندت جنداً وخرجت ولقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر فأفتوا بخلعه. ووافقهم على ذلك أصحاب المناصب والولايات، واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان لخلعه، وقطعت خطبته ببغداد وسائر البلاد في ذي القعدة من سنة ثلاثين لسنة من خلافته.

خلافة المقتفي:

ولما قطعت خطبة الراشد استشار السلطان مسعود أعيان بغداد فيمن يوليه فأشاروا بمحمد بن المستظهر فقدم إليهم بعمل محضر في خلع الراشد، وذكروا ما ارتكبه من أخذ الأموال ومن الأفعال القادحة في الإمامة، وختموا آخر المحضر بأن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. وحضر القاضي أبو طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك وحكم بخلعه، ونفذه القضاة الآخرون وكان قاضي القضاة غائباً عند زنكي بالموصل، وحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن ابن العسقلاني، وأحضر أبو عَبْد الله بن المستظهر فدخل إليه السلطان والوزير واستخلفاه. ثم أدخلوا الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء فبايعوه ثامن عشر ذي الحجة ولقبوه المقتفي. واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي وبعث كتاب الحكم بخلع الراشد إلى الآفاق، وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين فأعاده إلى منصبه، وكمال الدين حمزة بن طلحة صاحب المخزن كذلك.

فتنة السلطان مسعود مع داود واجتماع داود للراشد للحرب ومقتل الراشد:

ولما بويع للمقتفي والسلطان مسعود ببغداد، بعث عساكره يطلب الملك داود فلقيه عند مراغة فانهزم داود وملك قراسنقر أذربيجان. ثم قصد داود خوزستان، واجتمع عليه من عساكر التركمان وغيرهم نحو عشرة آلاف مقاتل، وحاصر تستر وكان السلطان سلجوق شاه بواسط بعث إلى أخيه مسعود يستنجده فأنجده بالعساكر، وسار إلى تستر فقاتله داود وهزمه. وكان السلطان مسعود مقيماً في بغداد مخافة أن يقصد الراشد العراق من الموصل، وكان قد بعث لزنكي فخطب للمقتفي في رجب سنة إحدى وثلاثين،

وسار الراشد من الموصل فلما بلغ خبر مسيره إلى السلطان مسعود أذن للعسكر في العود إلى بلادهم، وانصرف صدقة بن دبيس صاحب الحلة بعد أن زوجه إبنته. ثم قدم على السلطان مسعود جماعة الأمراء الذين كانوا مع الملك داود مثل البقش السلامي وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر خمارتكين شحنة همذان فرضي عنهم، وولى البقش شحنة ببغداد فظلم الناس وعسفهم. ولما فارق الراشد زنكي من الموصل وسار إلى أذربيجان وانتهى إلى مراغة، وكان بوزابة وعبد الرحمن طغرلبك صاحب خلخال والملك، وداود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان مسعود فاجتمعوا إلى منكبرس صاحب فارس، وتعاهدوا على بيعة داود، وأن يردّوا الراشد إلى الخلافة فأجابهم الراشد إلى ذلك، وبلغ الخبر إلى السلطان فسار من بغداد في شعبان سنة إثنتين وثلاثين، وبلغهم قبل وصوله وصول الراشد إليهم فقاتلهم بخوزستان فانهزموا وأشر منكبرس صاحب فارس فقتله السلطان مسعود صبراً، وافترقت عساكره للنهب وفي طلب المنهزمين، ورآه بوزابة وعبد الرحمن طغرلبك في فل من الجنود فحملوا عليه، وقتل بوزابة جماعة من الأمراء منهم صدقة بن دبيس وابن قراسنقر الأتابك صاحب أذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم، كان قبض عليهم لأول الهزيمة وأمسكهم عنده. فلما بلغه قتل منكبرس قتلهم جميعاً، وانصرف العسكران منهزمين، وقصد مسعود أذربيجان وداود همذان. وجاء إليه الراشد بعد الوقعة وأشار بوزابة، وكان كبير القوم، بمسيرهم، فسار بهم إلى فارس فملكها وأضافها إلى خوزستان. وسار سلجوق شاه ابن السلطان مسعود ليملكها فدافعه عنها البقش الشحنة ومطر الخادم أمير الحاج، وثار العيارون أيام تلك الحرب، وعظم الهرج ببغداد، ورحل الناس عنها إلى البلاد. فلما انصرف سلجوق شاه واستقر البقش الشحنة فتك فيهم بالقتل والصلب. ولما قتل صدقة بن دبيس ولى السلطان على الحلة محمداً أخاه وجعل معه مهلهلاً أخا عنتر بن أبي العسكر يدبره. ولما وصل الراشد والملك داود إلى خوزستان مع الأمراء على ما ذكرنا وملكوا فارس، ساروا إلى العراق، ومعهم خوارزم شاه. فلما قاربوا الجزيرة خرج السلطان مسعود لمدافعتهم فافترقوا، ومضى الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده فسار إلى أصبهان فوثب عليه في طريقه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه في القيلولة خامس عشر رمضان سنة إثنتين وثلاثين، ودفن بشهرستان ظاهر أصبهان. وعظم أمر هذه الفتنة، واختلفت الأحوال والمواسم، وانقطعت كسوة الكعبة في هذه السنة من دار الخلافة من قبل السلاطين، حتى قام بكسوتها تاجر فارسي من المترددين إلى الهند، أنفق فيها ثمانية عشر ألف دينار مصرية، وكثر الهرج من العيارين حتى ركب زعماؤهم الخيول وجمعوا الجموع، وتستر الوالي ببغداد بلباس ابن أخيه سراويل الفتوة عن زعيمهم ليدخل في جملتهم، وحتى هم زعيمهم بنقش إسمه في سكة بانبار فحاول الشحنة والوزير على قتله فقتل، ونسب أمر العيارين إلى البقش الشحنة لّما أحدث من الظلم والعسف فقبض عليه السلطان مسعود وحبسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز، ثم

أمر بقتله فقتل. ثم قدم السلطان مسعود في ربيع سنة ثلاث وثلاثين في الشتاء، وكان يشتي بالعراق ويصيف بالجبال. فلما قدم أزال المكوس وكتب بذلك في الألواح فنصبت في الأسواق وعلى أبواب الجامع ورفع عن العامة نزول الجند عليهم فكثر الدعاء له والثناء عليه.

وزارة الخليفة:

وفي سنة أربع وثلاثين. وقع بين المقتفي ووزيره علي بن طراد الزينبي وحشة بما كان يعترض على المقتفي في أمره فخاف واستجار بالسلطان مسعود فأجاره، وشفع إلى المقتفي في إعادته فامتنع وأسقط إسمه من الكتب، واستناب المقتفي ابن عمه قاضي القضاة والزينبي، ثم عزله واستناب شديد الدولة الأنباري. ثم وصل السلطان إلى بغداد سنة ست وثلاثين فوجد الوزير شرف الدين الزينبي في داره فبعث وزيره إلى المقتفي شفيعاً في إطلاق سبيله إلى بيته فأذن له انتهى.

الشحنة ببغداد:

وفي سنة ست وثلاثين عزل مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، وولى كزل أميراً آخر من مماليك السلطان محمود، فكان على البصرة فأضيف إليه شحنكية بغداد، ولما وصل السلطان مسعود إلى بغداد ورأى تبسط العيارين وفسادهم أعاد بهروز شحنة، ولم ينتفع الناس بذلك لأن العيارين كانوا يتمسكون بالجاه من أهل الدولة فلا يقدر بهروز على منعهم، وكان ابن الوزير وابن قاروت صهر السلطان يقاسمانهم فيما يأخذون من النهب.

واتفق سنة ثمان وثمانين أن السلطان أرسل نائب الشحنكية ووبخه على فساد العيارين فأخبره بشأن صهره وابن وزيره فأقسم ليصلبنه أن لم يصلبهما فأخذ خاتمه على ذلك، وقبض على صهره ابن قاروت فصلبه، وهرب ابن الوزير، وقبض على أكثر العيارين وافترقوا وكفى الناس شرهم.

انتقاض الأعياض واستبداد الأمراء علي الأمير مسعود وقتله إياهم:

وفي سنة أربعين سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره إلى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود، واتصل بهم الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، ولقي بوزابة الأمير عباس صاحب الري وتآمرا في الانتقاض على السلطان مسعود، وملكا كثيراً من بلاده فسار السلطان مسعود عن بغداد، ونزل بها الأمير مهلهل والخادم مطر وجماعة من غلمان بهروز. وسار معه الأمير عَبْد الرحمن طغرلبك، وكان حاجبه ومتحكماً في دولته، وكان هواه مع ذينك الملكين فسار السلطان وعبد الرحمن حتى تقارب العسكران فلقي سليمان شاه أخاه مسعوداً فحنق عليه، وجرى عَبْد الرحمن في الصلح بين الفريقين، وأضيفت وظيفة أذربيجان وأرمينية إلى ما بيده. وسار أبو الفتح بن هزارشب وزير السلطان مسعود ومعه وزير بوزابة فاستبدوا على السلطان وحجروه عن التصرف فيما يريده، وكان بك أرسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك خالصة للسلطان بما كان من تربيته فداخلوه واستولوا به على هوى السلطان بكل معنى. وكان صاحب خلخال وبعض أذربيجان فلما

عظم تحكمه أسر السلطان إلى خاص بك بقتل عَبْد الرحمن فدس ذلك إلى جماعة من الأمراء وقتلوه في موكبه، ضربه بعضهم بمقرعة حديد فسقط إلى الأرض ميتاً، وبلغ إلى السلطان مسعود ببغداد ومعه عباس صاحب الري في عسكر أكثر من عسكره فامتعض لذلك فتلطف له السلطان، واستدعاه إلى داره فلما انفرد عن غلمانه أمر به فقتل. وكان عباس من غلمان السلطان محمود وولي الري، وجاهد الباطنية وحسنت آثاره فيهم. وكان مقتله في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين. ثم حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت، وبلغ مقتل عباس إلى بوزاية فجمع عساكره من فارس وخوزستان، وسار إلى أصبهان فحاصرها، ثم سار إلى السلطان مسعود والتقيا بمرج قراتكين فقتل بوزابة قيل بسهم أصابه، وقيل أخذ أسيراً وقتل صبراً وانهزمت عساكره إلى همذان وخراسان.

انتقاض الأمراء ثانية على السلطان:

ولما قتل السلطان من قتل من أمرائه استخلص الأمير خاص بك وأنفذ كلمته في الدولة، ورفع منزلته فحسده كثير من الأمراء وخافوا غائلته وساروا نحو العراق وهم ايلدكر المسعودي صاحب كنجة وارانية وقيصر والبقش كون صاحب أعمال الجبل وقتل الحاجب وطرنطاي المحمودي شحنة واسط وابن طغابرك. ولما بلغوا حلوان خاف الناس بأعمال العراق وعني المقتفي بإصلاح السور، وبعث إليهم بالنهي عن القدوم فلم ينتهوا ووصلوا في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين، والملك محمد ابن السلطان محمود معهم، ونزلوا بالجانب الشرقي، وفارق مسعود جلال الشحنة ببغداد إلى تكريت، ووصل إليهم علي بن دبيس صاحب الحلة، ونزل بالجانب الغربي. وجند المقتفي أجناداً وقتلوهم مع العامة فكانوا يستطردون للعامة والجند حتى يبعدوا، ثم يكرون عليهم فيثخنوا فيهم. ثم كثر عيثهم ونهبهم. ثم اجتمعوا مقابل التاج وقبلوا الأرض واعتذروا وترددت الرسل، ورحلوا إلى النهروان. وعاد مسعود جلال الشحنة من تكريت إلى بغداد، وافترق هؤلاء الأمراء وفارقوا العراق، والسلطان مع ذلك مقيم ببلد الجبل. وأرسل عمه سنجر إلى الري سنة أربع وأربعين فبادر إليه مسعود وترضاه

فأعتبه وقبل عذره. ثم جاءت سنة أربع وأربعين جماعة أخرى من الأمراء وهم البقش كون والطرنطاي وابن دبيس وملك شاه ابن السلطان محمود فراسلوا المقتفي في الخطبة لملك شاه فلم يجبهم، وجمع العساكر وحصن بغداد وكاتب السلطان مسعوداً بالوصول إلى بغداد فشغله عمه سنجر إلى الري. ولما علم البقش مراسلة المقتفي إلى مسعود نهب النهروان، وقبض على علي بن دبيس وهرب الطرنطاي إلى النعمانية ووصل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف شوّال، ورحل البقش كون من النهروان وأطلق ابن دبيس.

وزارة المقتفي:

وفي سنة أربع وأربعين استوزر المقتفي يحيى بن هبيرة، وكان صاحب ديوان الزمام، وظهرت منه كفاية في حصار بغداد فاستوزره المقتفي.

وفاة السلطان مسعود وملك ملك شاه ابن أخيه محمود:

ثم توفي السلطان مسعود أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة، لإحدى وعشرين سنة من بيعته، وعشرين من عوده بعد منازعة إخوته. وكان خاص بك بن سلمكرى متغلباً على دولته فبايع لملك شاه ابن أخيه السلطان محمود، وخطب له بالسلطنة في همذان، وكان هذا السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية عن بغداد. وبعث السلطان ملك شاه الأمير شكاركرد في عساكر إلى الحلّة فدخلها، وسار إليه مسعود جلال الشحنة، وأظهر له الاتفاق. ثم قبض عليه وغرقه واستبد بالحلّة. وأظهر المقتفي إليه العساكر مع الوزير عون الدولة والدين بن هبيرة فعبر الشحنة إليهم الفرات، وقاتلهم فانهزموا. وثار أهل الحلة بدعوة المقتفي ومنعوا الشحنة من الدخول فعاد إلى تكريت. ودخل ابن هبيرة الحلة، وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها، وجاءت عساكر السلطان إلى واسط فغلبوا عليها عسكر المقتفي فتجهز بنفسه، وانتزعها من ايديهم، وسار منها إلى الحلة. ثم عاد إلى بغداد في عشر ذي

القعدة. ثم إن خاص بك المتغلب على السلطان ملك شاه استوحش وتنكر وأراد الاستبداد فبعث عن الملك محمد ابن السلطان محمد بخوزستان سنة ثمان وأربعين فبايعة أول صفر، وأهدى إليه وهو مضمر الفتك، فسبقه السلطان محمد لذلك، وقتله ثاني يوم البيعة إيد غدي التركماني المعروف بشملة من أصحاب خاص بك، ونهاه عن دخوله إلى السلطان محمد، فلم يقبل. فلما قتل خاص بك نهب شملة عسكره، ولحق بخوزستان. وكان خاص بك صبيا من التركمان اتصل بالسلطان مسعود واستخلصه وقدمه على سائر الأمراء.

حروب المقتفي مع أهل الخلاف وحصار البلاد:

ثم بعث المقتفي عساكره لحصار تكريت مع ابن الوزير عون الدين والأمير ترشك من خواصه وغيرهما، ووقع بينه وبين ابن الوزير منافرة خشي لها ترشك على نفسه فصالح الشحنة صاحب تكريت، وقبض على ابن الوزير والأمراء، وحبسهم صاحب تكريت وغرق كثير منهم. وسار ترشك والشحنة إلى طريق خراسان فعاثوا فيها، وخرج المقتفي في اتباعهم فهربا بين يديه، ووصل تكريت وحاصرها أياماً. ثم رجع إلى بغداد، وبعث سنة تسع وأربعين بتكريت في ابن الوزير وغيره من المأسورين فقبض على الرسول فبعث إليهم عسكراً فامتنعوا عليه. فسار المقتفي بنفسه في صفر من سنته، وملك تكريت، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها، ورجع في ربيع. ثم بعث الوزير عون الدين في العساكر لحصارها، واستكثر من الآلات، وضيق عليها. ثم بلغه الخبر بأن شحنة مسعود وترشك وصلا في العساكر ومعهم الأمير البقش كون وأنهما استحثا الملك محمداً لقصد العراق فلم يتهيأ له فبعث هذا العسكر معهم، وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان فسار المقتفي للقائهم. وبعث الشحنة مسعود عن أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد، وكان محبوساً بتكريت فأحضره عنه ليقاتل به المقتفي، والتقوا عند عقر بابل فتنازلوا ثمانية عشر يوماً، ثم تناجزوا

آخر رجب فانهزمت ميمنة المقتفي إلى بغداد، ونهبت خزائنه، وثبت هو واشتد القتال وانهزمت عساكر العجم، وظفر المقتفي بهم، وغنم أموال التركمان وسبى نساءهم وأولادهم. ولحق البقش كون ببلد الحلو وقلعة الماهكين وأرسلان بن طغرل، ورجع المقتفي إلى بغداد أول شعبان. وقصد مسعود الشحنة وترشك بلد واسط للعيث فيها فبعث المقتفي الوزير ابن هبيرة

في العساكر فهزمهم. ثم عاد فلقيه المقتفي سلطان العراق وأرسلان بن طغرل، وبعث إليه السلطان محمد في إحضاره عنده. ومات البقش في رمضان من سنته وبقي أرسلان مع ابن البقش، وحسن الخازنداد فحملاه إلى الجبل ثم سارا به إلى الركن زوج أمه، وهو أبو البهلوان وأرسلان وطغرل الذي قتله خوارزم شاه، وكان آخر السلجوقية ثلاثتهم أخوة لأم. ثم سار المقتفي سنة خمسين إلى دقوقا فحاصرها أياماً، ثم رجع عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل تجهز لمدافعته عنها فرحل.

استيلاء شملة علي خوزستان:

قد ذكرنا من قبل شأن شملة وأنه من التركمان، وإسمه ايدغدي، وأنه كان من أصحاب خاص بك التركماني، وهرب يوم قتل السلطان محمد صاحبه خاص بك بعد أن حذره منه فلم يقبل، ونجا من الواقعة فجمع جموعاً وسار يريد خوزستان، وصاحبها يومئذ ملك شاه ابن السلطان محمود بن محمد. وبعث المقتفي عساكره لذلك فلقيهم شملة في رجب وهزمهم وأسر وجوههم. ثم أطلقهم وبعث إلى الخليفة يعتذر فقبل عذره، وسار إلى خوزستان فملكها من يد ملك شاه ابن السلطان محمود.

إشارة إلي بعض أخبار السلطان سنجر بخوزستان ومبل أ دولة بني خوارزم شاه:

كان السلطان سنجر من ولد السلطان ملك شاه لصلبه، ولما استولى بركيارق بن ملك شاه على خوزستان سنة تسعين وأربعمائة من يد عمه أرسلان أرغون، كما نذكر في أخبارهم عند تفردها مستوفى، ولى عليها أخاه سنجر، وولى على خوارزم محمد بن أنوش تكين من قبل الأمير داود حبشي بن أليوساق. ثم لمّا ظهر السلطان محمد ونازع بركيارق وتعاقبا في الملك، وكان سنجر شقيقاً لمحمد فولاه على خراسان، ولم يزل عليها. ولما اختلف أولاد محمد من بغده كان عقيد أمرهم وصاحب شوراهم إذ خلف له ببغداد مقدما إسمه على اسم سلطان العراق منهم سنة <* >، ثم خرجت أمم الخطا من الترك من مفازة الصين وملكوا ما وراء النهر من يد الجابية ملوك تركستان سنة ست وثلاثين كما نذكر في أخبارهم.

وسار سنجر لمدافعتهم فهزموه فوهن

لذلك فاستبدّ عليه خوارزم شاه بعض الشيء. وكان الخلفاء لّما ملكوا بلاد تركستان أزعجوا الغز عنها إلى خراسان وهم بقية السلجوقية هناك. وأجاز السلجوقية لأول دولتهم إلى خراسان فملكوها، وبقي هؤلاء الغز بنواحي تركستان فأجازوا أمام الخطا إلى خراسان، وأقاموا السلطان بها حتى عتوا ونموا. ثم كثر عيثهم وفسادهم وسار إليهم السلطان سنجر سنة ثمان وأربعين فهزموه واستولوا عليه وأسروه، وملكوا

بلاد خراسان وافترق أمراؤه على النواحي. ثم ملكوه وهو أسير في أيديهم ذريعة لنهب البلاد واستولوا به على كثير منها، وهرب من أيديهم سنة إحدى وخمسين ولم يقدر على مدافعتهم. ثم توفي سنة إثنتين وخمسين وافترقت بلاد خراسان على أمرائه كما يذكر في أخبارهم. ثم تغلب بنو خوارزم شاه عليها كلها وعلى أصبهان والري من ورائها، وعلى أعمال غزنة من يد بني سبكتكين، وشاركهم فيها النور بعض الشيعة وقام بنو خوارزم شاه مقام السلجوقية إلى أن انقرضت دولتهم على يد جنكزخان ملك التتر من أمم الترك في أوائل المائة السابعة كما يذكر ذلك كله في أخبار كل منهم عندما نفردها بالذكر إن شاء الله تعالى.

الخطبة ببغداد لسليمان شاه ابن السلطان محمد

وحروبه مع السلطان محمد بن محمود:

كان سليمان بن محمد عند عمّه سنجر بخراسان منذ أعوام، وقد جعله وليّ عهده، وخطب له بخراسان. فلما غلب الغّز على سنجر وأسروه تقدم سليمان شاه على العساكر، ثم غلبتهم الغّز فلحق بخوارزم شاه فصاهره أولاً بابنة أخيه، ثم تنكر فسار إلى أصبهان فمنعه شحنتها من الدخول فسار إلى قاشان فبعث إليه السلطان محمد شاه بن محمود فقصد اللحف، ونزل على السيد محسن، وبعث إلى المقتفي ليستأذنه في القدوم، وبعث زوجته وولده رهناً على الطاعة والمناصحة فأذن له، وقدم في خفّ من العساكر ثلثمائة أو نحوها، وأخرج الوزير عون الدين بن هبيرة ولده لتلقيه، ومعه قاضي القضاة والنقباء، ودخل وعلى رأسه الشمسية، وخلع عليه. ولما كان المحرم من سنة إحدى وخمسين حضر عند المقتفي بمحضر قاضي القضاة وأعيان العباسيين

واستحلفه على الطاعة، وأن لا يتعرض للعراق. ثم خطب له ببغداد وبلقب أبيه السلطان محمد، وبعث عسكراً نحو ثلاثة آلاف، واستقدم داود صاحب الحلّة فجعل له أمر الحجابة، وسار نحو الجبل في ربيع. وسار المقتفي إلى حلوان، وسار إلى ملك شاه بن محمود أخي سليمان صاحب خوزستان فاستحلفه لسليمان شاه وجعله ولي عهده، وأمدهما بالمال والأسلحة، وساروا إلى همذان وأصبهان، وجاءهم المذكر صاحب بلاد أران فكثر جمعهم وبلغ خبرهم السلطان محمد بن محمود فبعث إلى قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ونائبه زين الدين ليستنجدهما فأجاباه، وسار للقاء سليمان شاه، وأصحابه فالتقوا في جمادى، وانهزم سليمان شاه، وافترقت عساكره. وسار المذكر إلى بلاده، وسار سليمان شاه إلى بغداد، وسلك على شهرزور فاعترضه زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين بالموصل، وكان مقطع شهرزور الأمير بران من جهة زين الدين فاعترضاه وأخذاه أسيراً، وحمل زين الدين إلى الموصل فحبسه بقلعتها وبعث إلى السلطان محمد بالخبر.

حصار السلطان محمد بغداد:

كان السلطان محمد قد بعث إلى المقتفي في الخطبة له ببغداد فامتنع من إجابته، ثم بايع لعمّه سليمان، وخطب له وكان ما قدمناه من أمره معه. ثم سار السلطان محمد من همذان في العساكر نحو العراق فقدم في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين، وجاءته عساكر الموصل مدداً من قبل قطب الدين ونائبه زين الدين، واضطربت الناس ببغداد، وأرسل المقتفي عن فضلوبواش صاحب واسط فجاء في عسكره، وملك مهلهل الحلّة فاهتّم ابن هبيرة بأمر الحصار، وجمع السفن تحت الناحي، وقطع الجسر، وأجفل الناس من الجانب الغربي، ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة. وفرّق المقتفي السلاح في الجند والعامّة، ومكثوا أياماً يقتتلون ومد لسلطان جسراً على دجلة فعبر على الجانب الشرقي حتى كان القتال في الجانبين. ونفذت الأقوات في العسكر، واشتدّ القتال والحصار على أهل بغداد لانقطاع الميرة والظهر من عسكر الموصل، لأنّ نور

الدين محمود بن زنكي وهو أخو قطب الدين الأكبر بعث إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة. ثم بلغ السلطان محمداً أن أخاه ملك شاه والمذكر صاحب بلاد أرّان، وأرسلان ابن الملك طغرل بن محمد ساروا إلى همذان وملكوها فارتحل عن بغداد في آخر ربيع سنة إثنتين وخمسين. وسار إلى همذان، وعاد زين الدين كوجك إلى الموصل. ولما قصد السلطان محمد همذان صار ملك شاه والمذكر ومن معهما إلى الري فقاتلهم شحنتها آبنايخ وهزموه، وأمده السلطان محمد بالأمير سقمان بن قيمار فسار لذلك ولقيهما منصرفين عن الرى قاصدين بغداد فقاتلهما، وانهزم أمامهما فسار السلطان في أثرهما إلى خوزستان، فلما انتهى إلى حلوان جاءه الخبر بأن المذكر بالدّينور، وبعث إليه آبنايخ بأنه استولى على همذان وأعاد خطبته فيها فافترقت جموع ملك شاه والمذكر، وفارقهم شملة صاحب خوزستان فعادوا هاربين إلى بلادهم، وعاد السلطان محمد إلى همذان.

حروب المقتفي مع أهل النواحي:

كان سنقر الهمذاني صاحب اللحف، وكان في هذه الفتنة قد نهب سواد بغداد وطريق خراسان فسار المقتفي لحربه في جمادى سنة ثلاث وخمسين، وضمن له الأمير خلطوا براس إصلاحه فسار إليه خاله، على أن يشرك المقتفي معه في بلد اللحف الأمير أزغش المسترشدي فأقطعها لهما جميعاً ورجع. ثم عاد سنقر على أزغش وأخرجه، وانفرد ببلده، وخطب للسلطان محمد فسار إليه خلطوا براس من بغداد في العساكر وهزمه، وملك اللحف، وسار سنقر إلى قلعة الماهكي للأمير قايماز العميدي، ونزلها في أربعمائة ألف فارس. ثم سار إليه سنقر سنة أربع وخمسين فهزمه، ورجع إلى بغداد فخرج المقتفي إلى النعمانية، وبعث العساكر مع ترشك فهرب سنقر في الجبال، ونهب ترشك مخلفه، وحاصر قلعة الماهكي. ثم عاد إلى البندنجين وبعث بالخبر إلى بغداد، ولحق سنقر بملك شاه فأمده بخمسمائة فارس، وبعث ترشك إلى المقتفي في المدد فأمدّه وبعث إليه سنقر في الإصلاح فحبس رسوله، وسار إليه فهزمه،

واستباح عسكره ونجا سنقر جريحاً إلى بلاد العجم فأقام بها. ثم جاء بها سنة أربع وخمسين إلى بغداد، وألقى نفسه تحت التاج فرضي عنه المقتفي، وأذن له في دخول دار الخلافة. ثم زحف إلى قايماز السلطان في ناحية بادرايا سنة ثلاث وخمسين فهزمه وقتله، وبعث المقتفي عساكره لقتال شملة فلحق بملك شاه.

وفاة السلطان محمد بن محمود وملك عمه سلطان شاه ثم أرسلان بن طغرل:

ثم أن السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه لّما رجع عن حصار بغداد أصابه مرض السل وطال به، وتوفي بهمذان في ذي الحجة سنة أربع وخمسين لسبع سنين ونصف من ملكه، وكان له ولد فيئس من طاعة الناس له، ودفعه لأقسنقر الأحمديلي، وأوصاه عليه فرحل به إلى مراغة. ولما مات السلطان محمد اختلف الأمر فيمن يولونه، ومال الأكثر إلى سليمان شاه عمه وطائفة إلى ملك شاه أخيه، وطائفة إلى أرسلان ابن السلطان طغرل الذي مع إلدكز ببلاد أرّان. وبادر ملكشاه أخوه فسار من خوزستان ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس، ورحل إلى أصبهان فأطاعه ابن الخجندي وأنفق عليه الأموال. وبعث إلى عساكر همذان في الطاعة فلم يجيبوه، وأرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل في سليمان شاه المحبوس عنده ليولوه عليهم، وذلك أول سنة خمس وخمسين فأطلقه على أن يكون أتابكاً له وجمال الدين وزيره وزيراً، وجهزه بجهاز السلطنة، وبعث معه نائبه زين الدين علي كوجك في عسكر الموصل. فلما قاربوا بلاد الجبل وأقبلت العساكر من كل جهة على السلطان سليمان فارتاب كوجك لذلك، وعاد إلى الموصل فلم ينتظم أمر سليمان، ودخل همذان وبايعوا له وخطب له ببغداد. وكثرت جموع ملك شاه بأصبهان وبعث إلى بغداد في الخطبة، وأن يقطع خطبة عمه ويراجع القواعد بالعراق إلى ما كانت فوضع عليه الوزير عون الدين بن هبيرة جارية بعث بها إليه فسمته، فمات سنة خمس وخمسين، فأخرج أهل أصبهان أصحابه، وخطبوا لسليمان شاه. وعاد شملة إلى خراسان فملك كل ما كان ملك شاه تغلب عليه منها. واستقر سليمان شاه بتلك البلاد، وشغل باللهو والسكر ومنادمة الصفاعين، وفوض الأمور إلى شرف الدين دواداره من مشايخ السلجوقية، كان ذا دين وعقل وحسن تربية فشكا الأمراء إليه فدخل عليه وعذله وهو سكران فأمر الصفاعين بالرد عليه، وخرج مغضباً. وصحا سليمان فاستدرك أمره بالاعتذار فأظهر القبول، واجتنب الحضور عنده. وبعث سليمان إلى ابنايخ صاحب الري يستقدمه فاعتذر بالمرض إلى أن يفيق. ونمي الخبر إلى كربازة الخادم فعمل دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء وقبض عليه وعلى وزيره أبي القاسم محمود بن عَبْد العزيز الحامدي، وعلى أصحابه في شوّال من سنة ست وخمسين فقتل وزيره وخواصه وحبسه أياماً. وخرج ابنايخ صاحب الري، ونهب البلاد وحاصر همذان وبعث كردباز إلى إلدكز يستدعيه ليبايع لربيبه أرسلان شاه بن طغرل فسار في عشرين ألف فارس، ودخل همذان، وخطب لربيبه أرسلان شاه بن طغرل بالسلطنة وجعل إلدكز أتابكا له، وأخاه من أمّه البهلول ابن إلدكز حاجباً. وبعث إلى المقتفي في الخطبة، وأن تعاد الأمور إلى ما كانت عليه أيام السلطان

مسعود فطرد رسوله وعاد إليه على أقبح حالة. وبعث إلى ابنايخ صاحب الرى فحالفه على الاتفاق، وصاهره في إبنته على البهلول، وجاءت إليه بهمذان وكان إلدكز من مماليك السلطان مسعود، وأقطعه أران وبعض أذربيجان، ولم يحضر شيئاً من الفتنة، وتزوج أم أرسلان شاه وزوجه طغرل فولدت له محمد البهلوان، وعثمان كزل أرسلان. ثم بعث إلدكز إلى أقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة في الطاعة لأرسلان شاه ربيبه فأمتنع وهددهم بالبيعة للطفل الذي عنده محمود بن ملك شاه. وقد كان الوزير ابن هبيرة أطمعه في الخطبة لذلك تطفل فيما بينهم فجهز إلدكز العساكر مع ابنه البهلوان وسار إلى مراغة، واستمد أقسنقر ساهرمز صاحب خلاط فأمده بالعساكر، والتقى أقسنقر والبهلوان فانهزم البهلوان وعاد إلى همذان. وعاد أقسنقر إلى مراغة ظافراً. وكان ملك شاه بن محمود لّما مات بأصبهان مسموماً كما ذكرنا لحق طائفة من أصحابه ببلاد فارس، ومع إبنه محمود فقبض عليه صاحب فارس زنكي بن دكلا السلعري بقلعة إصطخر. ولما مات بعث إلدكز إلى بغداد في الخطبة لربيبه أرسلان، وشرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة في التصريف بينهم بعث ابن دكلا وأطمعه في الخطبة لمحمود بن ملك شاه الذي عنده أن ظفربإلدكز فأطلقه ابن دكلا، وبايع له، وضرب الطبل على بابه خمس نوب، وبعث إلى ابنايخ صاحب الري فوافقه، وسار إليه في عشرة آلاف. وبعث إليه

أقسنقر الأحمديليّ، وجمع إلدكز العساكر، وسار إلى أصبهان يريد بلاد فارس. وبعث إلى صاحبها زنكي بن دكلا في الطاعة لربيبه أرسلان فأبى، وقال أن المقتفي أقطعني بلاده وأنا سائر إليه. واستمد المقتفي وابن هبيرة فواعدوه وكاتبوا الأمراء الذين مع إلدكز بالتوبيخ على طاعته والانحراف عنه إلى زنكي بن دكلا صاحب فارس، وابنايخ صاحب الري وبدأ إلدكز بقصد ابنايخ. ثم بلغه أن زنكي بن دكلا نهب سميرم ونواحيها فبعث عسكراً نحوا من عشرة آلاف فارس لحفظها فلقيهم زنكي فهزمهم، فبعث إلدكز إلى عساكر أذربيجان فجاء بها ابنه كزل أرسلان. وبعث زنكي بن دكلا العساكر إلى ابنايخ ولم يحضر بنفسه خوفاً على بلاد شملة من صاحب خوزستان. ثم التقى إلدكز وابنايخ في شعبان سنة ست وخمسين فانهزم ابنايخ واستبيح عسكره، وحاصره إلدكز ثم صالحه ورجع إلى همذان.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد، وهو أوّل الخلفاء المستبدين على أمرهم من بني العباس، عند تراجع الدولة وضيق نطاقها ما بين الموصل وواسط والبصرة وحلوان:

ثم توفي المقتفي لأمر الله أبو عَبْد الله محمد بن المستظهر في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وهو أول من استبدّ بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم فحكم على عسكره وأصحابه فيما بقي لمملكتهم من البلدان بعد استبداد الملوك في الأعمال والنواحي. ولما اشتد مرضه تطاول كل من أم ولده إلى ولاية ابنها. وكانت أم المستنجد تخاف عليه، وأم أخيه علي تروم ولاية ابنها، واعتزمت على قتل المستنجد، واستدعته لزيارة أبيه وقد جمعت جواريها

وآتت كل واحدة منهن سكينا لقتله، وأمسكت هي وابنها سيفين وبلغ الخبر إلى يوسف المستنجد فأحضر أستاذ دار أبيه، وجماعة من الفرّاشين، وأفرغ السلاح ودخل معهم الدار وثار به الجواري فضرب إحداهن وأمكنها فهربوا وقبض على أخيه علي وأمه فحبسها وقسم الجواري بين القتل والتغريق، حتى إذا توفي المقتفي جلس للبيعة فبايعه أقاربه أولهم عمه أبو طالب، ثم الوزير عون الدين بن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له. وأقر ابن هبيرة على الوزارة وأصحاب الولايات على ولايتهم؛ وأزاك المكوس والضرائب، وقرب رئيس الرؤساء وكان أستاذ دار فرفع مترلته عَبْد الواحد المقتفي، وبعث عن الأمير ترشك سنة ست وخمسين من بلد اللحف، وكان مقتطعاً بها فاستدعاه لقتال جمع من التركمان أفسدوا في نواحي البندنجين فامتنع من المجيء وقال: يأتيني العسكر وأنا أقاتل بهم، فبعث المستنجد العساكر مع جماعة من الأمراء فقتلوه، وبعثوا برأسه إلى بغداد. ثم استولى بعد ذلك على قلعة الماهكي من يد مولى سنقر الهمذاني، ولاه عليها سنقر وضعف عن مقاومة التركمان والأكراد حولها فاستترله المستنجد عنها بخمسة عشر ألف دينار، وأقام ببغداد. وكانت هذه القلعة أيام المقتدر بأيدي التركمان والأكراد.

فتنة خفاجة:

اجتمعت خفاجة سنة ست وخمسين إلى الحلّة والكوفة، وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر، وكان مقطع الكوفة أرغش، وشحنة الحلّة قيصر، وهما من مماليك المستنجد فمنعوهما فعاثوا في تلك البلاد والنواحي فخرجوا إليهم في أثرهم، واتبعوهم إلى الرحبة فطلبوا الصلح فلم يجبهم أرغش ولا قيصر فقاتلوهم فالهزمت العساكر، وقتل قيصر، وخرج أرغش، ودخل الرحبة فاستأمن له شحنتها وبعثوه إلى بغداد. ومات أكثر الناس عطشا في البرية وتجهز عون الدين بن هبيرة في العساكر لطلب خفاجة فدخلوا البرية ورجع، وانتهت خفاجة إلى البصرة وبعثوا بالعدو وسألوا الصلح فأجيبوا.

إجلاء بني أسد من العراق:

كان في نفس المستنجد بالله من بني أسد أهل الحلّة شيء لفسادهم ومساعدهم السلطان محمد في الحصار، فأمر يزدن بن قماج بإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح فجمع العساكر وأرسل إلى ابن معروف فقدم السفن، وهو بأرض البصرة فجاءه في جموع، وحاصرهم وطاولهم فبعث المستنجد يعاتبه ويتهمه بالتشيع فجّهز هو وابن معروف في قتالهم، وسد مسالكهم في الماء فاستسلموا، وقتل منهم أربعة آلاف، ونودي عليهم بالملا من الحلّة فتفرقوا في البلاد، ولم يبق بالعراق منهم أحد وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف.

الفتنة بواسط وما جرت إليه:

كان مقتطع البصرة منكبرس من موالي المستنجد، وقتله سنة تسع وخمسين، وولّى مكانه كمستكين، وكان ابن سنكاه ابن أخي شملة صاحب خوزستان فانتهز الفرصة في البصرة، ونهب قراها، وأمر كمستكين بقتاله فعجز عن إقامة العسكر، وأصعد ابن سنكاه إلى واسط ونهب سوادها. وكان مقتطعها خلطوا براس، فجمع الجموع وخرج لقتاله واستمال ابن سنكاه الأمراء الذين معه فخذلوه، وانهزم وقتله ابن سنكاه سنة إحدى وستين ثم قصد البصرة سنة إثنتين وستين، ونهب جهتها الشرقية، وخرج إليه كمستكين وواقعه، وسار ابن سنكاه إلى واسط، وخافه الناس ولم يصل إليها.

مسير شملة إلي العراق:

سار شملة صاحب خوزستان إلى العراق سنة إثنتين وستين، وانتهى إلى قلعة الماهكي، وطلب من المستنجد إقطاع البلاد، واشتط في الطلب فبعث المستنجد العساكر لمنعه، وكتب إليه يحذّره عاقبة الخلاف فاعتذر بأن إلدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه أقطعا الملك الذي عنده، وهو ابن ملك شاه، بلاد البصرة وواسط والحلّة، وعرض للتوقيع بذلك، وقال أنا أقنع بالثلث منه فأمر المستنجد حينئذ بلعنه، وأنه من الخوارج، وتعبت العساكر إلى أرغمش المسترشدي بالنعمانية وإلى شرف الدين أبي جعفر البلدي ناظر واسط ليجتمعا على قتال شملة، وكان شملة أرسل مليح ابن أخيه في عسكر لقتال بعض الأكراد فركب إليه أرغمش، وأسره وبعض أصحابه، وبعث إلى بغداد وطلب شملة الصلح فلم يجب إليه. ثم مات أرغمش من سقطة سقطها عن فرسه، وبقي العسكر مقيماً ورجع شملة إلى بلاده لأربعة أشهر من سفره.

وفاه الوزير يحيي:

ثم توفي الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن المظفر بن هبيرة سنة ستين وخمسمائة في جمادى الأولى، وقبض المستنجد على أولاده وأهله، وأقامت الوزارة بالنيابة. ثم استوزر المستنجد سنة ثلاث وستين شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد

المعروف بابن البلديّ ناظر واسط، وكان عضد الدين أبو الفرج بن دبيس قد تحكم في الدولة فأمره المستنجد بكفّ يده وأيدي أصحابه، وطالب الوزير أخاه تاج الدين بحساب عمله بنهر الملك من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره فخافه العمال وأهل الدولة وحصل بذلك أموالا جمة.

وفاة المستنجد وخلافة المستضيء:

كان الخليفة المستنجد قد غلب على دولته استاذ دارعضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وكان أكبر الأمراء ببغداد، وكان يرادفه قطب الدين قايماز المظفري. ولما ولى المستنجد أبا جعفر البلدي على وزارته غضّ من استاذ دار وعارضه في أحكامه فاستحكمت بينهما العداوة، وتنكر المستنجد لأستاذ دار وصاحبه قطب الدين فكانا يتّهمان بأنّ ذلك بسعاية الوزير. ومرض المستنجد سنة ست وستين وخمسمائة واشتدّ مرضه فتحيّلا في إهلاكه، يقال إنّهما واضعا عليه الطبيب، وعلم أنّ هلاكه في الحمام فأشار عليه بدخوله فدخله،

وأغلقوا عليه بابه فمات. وقيل كتب المستنجد إلى الوزير ابن البلدي بالقبض على استاذدار وقايماز وقتلهما، وأطلعهما الوزير على كتابه فاستدعيا يزدن وأخاه يتماش وفاوضهما، وعرضا عليهم كتابه، واتفقوا على قتله فحملوه إلى الحمام وأغلقوا عليه الباب وهو يصيح إلى أن مات تاسع ربيع من سنة ست وستين لإحدى عشرة سنة من خلافته. **ولما أرجف بموته قبل أن يقبض ركب الأمراء والأجناد متسلحين، وغشيتهم العامة واخفت بهم، وبعث إليه استاذدار بأنه إنما كان غشياً عرضاً، وقد أفاق أمير المؤمنين وخف ما به فخشي الوزير من دخول الجند إلى دار الخلافة فعاد إلى داره وافترق الناس. فعند ذلك أغلق استاذدار وقايماز أبواب الدار وأحضر ابن المستنجد أبا محمد الحسن. وبايعاه بالخلافة، ولقباه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين استاذادر وقطب قايماز أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك، وبايعه أهل بيته البيعة الخاصة. ثم توفي المستنجد وبايعه الناس من الغد في التاج البيعة العامة، وأظهر العدل وبذل الأموال، وسقط في يد الوزير وندم على ما فرط، واستدعي للبيعة فلما دخل قتلوه. وقبض المستضيء على القاضي ابن مزاحم وكان ظلوماً جائراً واستصفاه ورد الظلامات منه على أربابها، وولى أبا بكر بن نصر بن العطار صاحب المخزن ولقبه ظهير الدين.**

انقراض الدولة العلوية بمصر وعود الدعوة العباسية إليها:

ولأول خلافة المستضيء كان انقراض الدولة العلوية بمصر، والخطبة بها للمستضيء من بني العباس في شهر المحرم فاتح سنة سبع وستين وخمسمائة قبل عاشوراء، وكان آخر الخلفاء العبيديين بها العاضد لدين الله من أعقاب الحافظ لدين الله عَبْد المجيد، وخافوا المستضيء معه ثامن خلفائهم، وكان مغلباً لوزارته. واستولى شاور منهم وثقلت وطأته عليهم فاستقدم ابن شوار من أهل الدولة من الاسكندرية، وفر شاور إلى الشام مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من أقسنقر، وكان من مماليك السلجوقية وأمرائهم المقيمين للدعوة العباسية. وكان صلاح الدين يوسف بن نجم أيوب بن <*>، الكردي هو وأبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه في جماعة من الأكراد في خدمة نور الدين محمود بالشام. فلما جاء شاور مستنجداً بعث معه هؤلاء الأمراء الأيوبية وكبيرهم أسد فأعاده إلى وزارته، وقتل الضرغام، ولم يوف له شاور بما ضمن له عند مسيره من الشام في نجدته. وكان الفرنج قد ملكوا سواحل مصر والشام وزاحموا ما يليها من الأعمال، وضيقوا على مصر والقاهرة إلى أن ملكوا بلبيس وأيله عند العقبة. واستولوا على الدولة العلوية في الضرائب والطلبات، وأصبحوا مأوى لمن ينحني عن الدولة. وداخلهم شاور في مثل ذلك فارتاب به العاضد، وبعث عز الدين مستصرخاً به على الفرنج في ظاهر أمره، وشمرحون في ارتعاء من إباة شاور والتمكن منه فوصل لذلك وولاه العاضد وزارته وقلده ما وراء بابه فقتل الوزير شاور، وحسم داءه، وكان مهلكه قريباً من وزارته، يقال لسنة ويقال لخمسين يوما فاستوزر العاضد مكانه صلاح الدين ابن أخيه

نجم الدين فقام بالأمر، وأخذ في إصلاح الأحوال وهو يعد نفسه وعمه من قبله نائبا عن نور الدين محمود بن زنكي الذي بعثه وعمه للقيام بذلك.

ولما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين ضعف أمر العاضد، وتحكم صلاح الدين **ي أموره، وأقام خادمه قراقوش للولاية عليه في قصره والتحكم عليه فبعث إليه نور الدين محمود الملك العادل بالشام أن يقطع الخطبة للعاضد، ويخطب للمستضيء ففعل ذلك على توقع النكير من أهل مصر. فلما وقع ذلك ظهر منه الاغتباط وانمحت آثار الدولة العلوئة، وتمكنت الدولة العباسية فكان ذلك مبدأ الدولة لبني أيوب بمصر. ثم ملكوا من بعدها أعمال نور الدين بالشام واستضافوا اليمن وطرابلس الغرب واتسع ملكهم كما يذكر في أخبارهم. ولما خطب للمستضيء بمصر كتب له نور الدين محمود من دمشق مبشرا بذلك فضربت البشائر ببغداد، وبعث بالخلع إلى نور الدين وصلاح الدين مع عماد الدين صندل من خواص المقتفوية، وهو أستاذدار المستضيء فجاء إلى نور الدين بدمشق، وبعث الخلع إلى صلاح الدين وللخطباء بمصر وبِإسلام السواد. واستقرت الدعوة العباسية بمصر إلى هذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.**

ثم بعث نور الدين محمود إلى المستضيء رسوله القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عَبْد الله الشهرزوري قاضي بلاده يطلب التقليد لّما بيده من الأعمال، وهي مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما هو في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم التي لقليج ارسلان، وأن يقطع صريعين ودرب هارون من بلاد سواد العراق كما كانتا لأبيه فأكرم الرسول، وزاد في الإحسان إليه وكتب له بذلك.

خبر يزدن من امراء المستضيء:

كان يزدن قد ولاه المستضيء الحلة فكانت في أعماله، وكانت حمايتها لخفاجة

وبني حزن منهم فجعلها يزدن لبني كعب منهم، وأمرهم الغضبان فغضب بنو حزن، وأغاروا عليهم على السواد، وخرج يزدن في العسكر لقتالهم، ومعه الغضبان وعشيرة بنو كعب فبينما هم ليلة يسيرون رمي الغضبان بسهم فمات، فعادت العساكر إلى بغداد، وأعيدت حفاظة السواد إلى بني حزن. ثم مات يزدن سنة ثمان وستين، وكانت واسط من اقطاعه فاقتطعت لاخيه ايتامش ولقب علاء الدين.

مقتل سنكاه بن أحمد أخي شملة:

قد ذكرنا في دولة المستنجد فتنة سنكاه هذا، وعمه شملة صاحب خوزستان. ثم جاء ابن سنكاه إلى قلعة الماهكي فبنى بإزائها قلعة ليتمكن بها من تلك الأعمال، فبعث المستضيء العسكر من بغداد لمنعه فقاتلهم واشتد قتاله. ثم انهزم وقتل، وعلق رأسه ببغداد وهدمت القلعة.

وفاة قايماز وهربه:

قد ذكرنا شأن قطب الدين قايماز وأنه الذي بايع للمستضيء وجعله أمير العسكر، وجعله عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وزيراً. ثم استفحل أمر قايماز وغلب . على الدولة، وحمل المستضيء على عزل عضد الدين أبي الفرج من الوزارة، فلم يمكنه مخالفته، وعزله سنة سبع وستين فأقام معزولاً. وأراد الخليفة سنة تسع وتسعين أن يعيده إلى الوزارة فمنعه قطب الدين من ذلك، وركب فأغلق المستضيء أبواب داره مما يلي بغداد، وبعث إلى قايماز ولاطفه بالرجوع فيما هم من وزارة عضد الدين فقال لا بد من إخراجه من بغداد فاستجار برباط شيخ الشيوخ صدر الدين عَبْد الرحيم بن إسماعيل فأجاره، واستطال قايماز على الدولة وأصهر على علاء الدين يتامش في أخته فزوجها منه وحملوا الدولة جميعاً. ثم سخط قايماز ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن وكان خاصاً بالخليفة، وطلبه فهرب فأحرق داره وجمع الأمراء فاستحلفهم على المظاهرة وأن يقصدوا دار المستضيء ليخرجوا منها ابن العطار، فقصد المستضيء على سطح داره وخدامه يستغيثون، ونادى في العامة بطلب قايماز، ونهب داره فهرب من ظهر بيته، ونهبت داره وأخذ منها ما لا يحصى من الأموال. واقتتل العامة على <* >، ولحق قايماز بالحلة وتبعه الأمراء، وبعث إليه المستضيء شيخ الشيوخ عَبْد الرحيم ليسير عن الحلة إلى الموصل تخوفاً من عوده إلى بغداد فيعود استيلاؤه لمحبة العامة فيه، وطاعتهم له، فسار إلى الموصل

وأصابه ومن معه في الطريق عطش فهلك الكثير منهم، وذلك في ذي الحجة من سنة سبعين. وأقام صهره علاء الدين يتامش بالموصل. ثم استأذن الخليفة في القدوم إلى بغداد فقدم، وأقام بها عاطلاً بغير اقطاع، وهو الذي حمل قايماز على ما كان منه، وولى الخليفة استاذ داره سنجر المقتفوي، ثم عزله سنة إحدى وسبعين وولى مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن الصاحب.

فتنة صاحب خوزستان:

قد ذكرنا أن ملك شاه بن محمود بن السلطان محمد استقر بخوزستان، وذكرنا فتنة شملة مع الخلفاء. ثم مات شملة سنة سبعين وملك ابنه مكانه. ثم مات ملك شاه بن محمود وبقي ابنه بخوزستان فجاء سنة إثنتين وسبعين إلى العراق، وخرج إلى البندنجين، وعاث في الناس. وخرج الوزير عضد الدين أبو الفرج في العساكر، ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاش تكين أمير الحاج وغز علي، وساروا للقاء العدو وكان معه جموع من التركمان فأجفلوا ونهبتهم عساكر بغداد. ثم ردهم الملك ابن ملك شاه وأوقعوا بالعسكر أياماً، ثم مضى الملك إلى مكانه وعادت العساكر إلى بغداد.

مقتل الوزير:

قد ذكرنا أخبار الوزير عضد الدين أبي الفرج محمد بن عَبْد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة، كان أبوه استاذ دار المقتفي. ولما مات ولي ابنه مكانه. ولما مات المقتفي أقره المستنجد ورفع قدره، ثم استوزره المستضيء وكان بينه وبين قايماز ما قدمناه، وأعاد المستضيء للوزارة فلما كانت

سنة ثلاث وسبعين استأذن المستضيء في الحج فأذن له، وعبر دجلة فسافر في موكب عظيم من أرباب المناصب، واعترضه متظلم ينادي بظلامته، ثم طعنه فسقط، وجاء ابن المعوذ صاحب الباب ليكشف خبره فطعن الآخر، وحملا إلى بيتهما فماتا. وولي الوزير ظهير الدين أبو منصور بن نصر، وشرف بابن العطار فاستولى على الدولة وتحكم فيها.

وفاة المستضيء وخلافة الناصر:

ثم توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد في ذي القعدة سنة خمس وسبعين لتسع سنين ونصف من خلافته، وقام ظهير الدين العطار في البيعة

لابنه أبي العباس أحمد ولقبه الناصر لدين الله فقام بخلافته، وقبض على ظهير الدين بن العطار وحبسه واستصفاه. ثم أخرجه من عشر ذي القعدة من محبسه ميتاً. وفطن به العامة. فتناوله العامة وبعثوا به، وتحكم في الدولة استاذ دار مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب، وكان تولى أخذ البيعة للناصر مع ابن العطار، وبعث الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة. وسار صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همذان وأصبهان والري فامتنع من البيعة فأغلظ له صدر الدين في القول. وحرض أصحابه على نقض طاعته أن لم يبايع فاضطر إلى البيعة والخطبة. ثم قبض سنة ثلاث وثمانين على استاذ دار أبي الفضل ابن الصاحب وقتله من أجل تحكمه، وأخذ له أموالاً عظيمة. وكان الساعي فيه عند الناصر عبيد الله بن يونس من أصحابه وصنائعه فلم يزل يسعى فيه عند الناصر حتى أمر بقتله، واستوزر ابن يونس هذا ولقبه جلال الدين وكنيته أبو المظفر، ومشى أرباب الدولة في خدمته حتى قاضي القضاة.

هدم دار السلطنة ببغداد وانقراض ملوك السلجوقية:

قد ذكرنا فيما تقدم ملك أرسلان شاه بن طغرل ربيب إلدكز، واستيلاء إلدكز عليه وحروبه مع ابنايخ صاحب الري. ثم قتله سنة أربع وستين واستولى على الري. ثم توفي إلدكز الأتابك بهمذان سنة ثمان وستين، وقام مكانه ابنه محمد البهلوان، وبقي أخوه السلطان أرسلان بن طغرل في كفالته. ثم مات سنة ثلاث وستين ونصب البهلوان مكانه ابنه طغرل. ثم توفي البهلوان سنة اثنتين وثمانين، وفي مملكته همذان والري وأصبهان وأذربيجان وأرانية وغيرها، وفي كفالته السلطان طغرل بن أرسلان. ولما مات البهلوان قام مكانه أخوه كزل أرسلان ويسمى عثمان فاستبد طغرل وخرت عن الكفالة، ولحق به جماعة من الأمراء والجند، واستولى على بعض البلاد ووقعت بينه وبين كزل حروب. ثم قوي أمر طغرل وكثر جمعه، وبعث كزل إلى الناصر يحذره من طغرل ويستنجده، ويبذل الطاعة على ما يختاره المستضيء رسوله فأمر بعمارة دار السلطنة ليسكنها. وكانت ولايتهم ببغداد والعراق قد انقطعت منذ أيام المقتفي فأكرم رسول كزل وعده بالنجدة، وانصرف رسول طغرل بغير حرب. وأمر الناصر بهدم دار السلطنة ببغداد فمحى أثرها. ثم بعث الناصر وزيره جلال الدين أبا المظفر عبيد الله بن

يونس في العساكر لإنجاد كزل ومدافعة طغرل عن البلاد فسار لذلك في صفر لسنة أربع وثمانين، واعترضهم طغرل على همذان قبل اجتماعهم بكزل، واقتتلوا ثامن ربيع، وانهزمت عساكر بغداد، وأسروا الوزير. ثم استولى كزل على طغرل وحبسه ببعض القلاع، ودانت له البلاد وخطب لنفسه بالسلطنة، وضرب النوب الخمس. ثم قتل على فراشه سنة سبع وثمانين ولم يعلم قاتله.

استيلاء الناصر على النواحي:

توفي الأمير عيسى صاحب تكريت سنة خمس ثمانين قتله إخوته فبعث الناصر العساكر فحصروها حتى فتحوها على الأمان <*>، وجاؤا بإخوة عيسى إلى بغداد فسكنوها وأقطع لهم السلطان. ثم بعث سنة خمس وثمانين عساكره إلى مدينة غانة فحاصروها مدة وقاتلوها طويلاً. ثم جهدهم الحصار فنزلوا عنها على الأمان وإقطاع عيونها ووفى لهم الناصر بذلك.

نهب العرب البصرة:

كانت البصرة في ولاية طغرل مملوك الناصر، كان مُقطعها واستناب بها محمد بن إسماعيل، واجتمع بنو عامر بن صعصعة سنة ثمان وثمانين، وأميرهم عميرة قصدوا البصرة للنهب والعيث. وخرج إليهم محمد بن إسماعيل في صفر فقاتلهم سائر يومه. ثم ثلموا في الليل ثلماً في السور ودخلوا البلد، وعاثوا فيها قتلاً ونهباً. ثم بلغ بني عامر أن خفاجة والمشفق ساروا لقتالهم فرحلوا إليهم وقاتلوهم فهزموهم، وغنموا أموالهم وعادوا إلى البصرة، وقد جمع الأمير أهل السواد فلم يقوموا للعرب وانهزموا، ودخل العرب البصرة فنهبوها ورحلوا عنها.

استيلاء الناصر على خوزستان ثم أصبهان والري وهمذان:

كان الناصر قد استناب في الوزارة بعد أسر ابن يونس مؤيد الدين أبا عَبْد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب، وكان قد ولي الأعمال في خوزستان وغيرها، وله فيها الأصحاب. ولما توفي صاحبها شملة واختلف أولاده راسله بعضهم في ذلك فطلب

من الناصر أن يرسل معه العساكر ليملكها فأجابه وخرج في العساكر سنة إحدى وتسعين، وحارب أهل خوزستان فملك أولاً مدينة تستر. ثم ملك سائر الحصون والقلاع وأخذ بني شملة ملوكها فبعث بهم إلى بغداد، وولى الناصر على خوزستان طاش تكين مجير الدين أمير الحاج. ثم سار الوزير إلى جهات الري سنة إحدى وتسعين، وجاءه قطلغ ابنايخ بن البهلوان وقد غلبه خوارزم شاه وهزمه عند زنجان، وملك الري من يده. وجاء قطلغ إلى الوزير مؤيد ورحل معه إلى همذان وبها ابن خوارزم شاه في العساكر فأجفل عنها إلى الري، وملك الوزير همذان، ورحل في اتباعهم، وملك كل بلد مروا بها إلى الري. وأجفل عسكر خوارزم إلى دامغان وبسطام وجرجان. ورجع الوزير إلى الرى فأقام بها. ثم انتقض قطلغ بن البهلوان، وطمع في الملك فامتنع بالري وحاصره الوزير فخرج عنها إلى مدينة آوة فمنعهم الوزير منها ورحل الوزير

في أثرهم من الري إلى همذان، وبلغه أن قطلغ قصد مدينة الكرج فسار إليه وقاتله وهزمه، ورجع إلى همذان فجاءه رسول خوارزم شاه محمد تكش بالنكير على الوزير في أخذ البلاد، ويطلب إعادتها فلم يجبه الوزير إلى ذلك فسار خوارزم شاه إلى همذان وقد توفي الوزير ابن القصاب خلال ذلك في شعبان سنة إثنتين وتسعين فقاتل العساكر التي كانت معه بهمذان وهزمهم، وملك همذان وترك ولده بأصبهان، وكانوا يبغضون الخوارزمية فبعث صدر الدين الخُجندي رئيس الشافعية إلى الديوان ببغداد يستدعي العساكر لملكها، فجهز الناصر العساكر مع سيف الدين طغرل يقطع بلد اللحف من العراق، وسار فوصل أصبهان، ونزل ظاهر البلد، وفارقها عسكر الخوارزمية فملكها طغرل، وأقام فيها الناصر وكان من مماليك البهلوان. ولما رجع خوارزم شاه إلى خراسان، اجتمعوا واستولوا على الري، وقدموا عليهم كركجة من أعيانهم، وساروا إلى أصبهان فوجدوا بها عسكر الناصر وقد فارقها عسكر الخوارزمية فملكوا أصبهان، وبعث كركجة إلى بغداد بالطاعة، وأن يكون له الري وساوة وقمّ وقاشان. ويكون للناصر أصبهان وهمذان وزنجان وقزوين فكتب له بما طلب وقوي أمره. ثم وصل إلى بغداد أبو الهيجاء السمين من أكابر أمراء بني أيوب، وكان في إقطاعه بيت المقدس وأعماله فلما ملك العزيز والعادل مدينة دمشق من الأفضل بن صلاح الدين عزلوا أبا الهيجاء عن القدس، فسار إلى بغداد فأكرمه

الناصر وبعثه بالعساكر إلى همذان سنة ثلاث وتسعين فلقي بها أزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه قطلمش، وقد كاتبوا الناصر بالطاعة فداخل أمير علم وقبض على أزبك وابن قطلمش بموافقته، وأنكر الناصر ذلك على أبي الهيجاء وأمره بإطلاقهم. وبعث إليهم بالخلع فلم يأمنوا، وفارقوا أبا الهيجاء فخشي من الناصر ودخل إلى أربل لأنه كان من أكرادها، ومات قبل وصوله إليها. وأقام كركجة ببلاد الجبل واصطنع رفيقه إيدغمش، واستخلصه ووثق به فاصطنع إيدغمش المماليك، وانتقض عليه آخر المائة السادسة، وحاربه فقتله واستولى على البلاد. ونصب أزبك بن البهلوان للملك وكفله. ثم توفي طاش تكين أمير خوزستان سنة إثنتين وستمائة، وولى الناصر مكانه صهره سنجر وهو من مواليه. وسار سنجر سنة ثلاث وستمائة إلى جبال تركستان جبال منيعة بين فارس وعمان وأصبهان وخوزستان، وكان صاحب هذه الجبال يعرف بأبي طاهر، وكان للناصر مولى إسمه قشتمر من أكابر مواليه، ساءه وزير الدولة ببعض الأحوال فلحق بأبي طاهر صاحب تركستان فأكرمه وزوجه بإبنته. ثم مات أبو طاهر فأطاع أهل تلك الولاية قشتمر وملك عليهم، وبعث الناصر إلى سنجر صاحب خوزستان يعضده في العساكر فسار إليه وبذل له الطاعة على البعد. فلم يقبل منه فلقيه وقاتله فانهزم سنجر، وقوي قشتمر على أمره، وأرسل إلى ابن دكلا صاحب فارس، وإلى إيدغمش صاحب الجبل فاتفق معهما على الإمتناع على الناصر واستمر حاله.

عزل الوزير نصير الدين:

كان نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت إمارة، وقدم إلى بغداد عندما ملك الوزير ابن القصاب الرى فأقبل عليه الخليفة، وجعله نائب الوزارة. ثم استوزره وجعل ابنه صاحب المخزن فتحكم في الدولة، وأساء إلى أكابر موالي الناصر فلما حج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع سنة ثلاث وستمائة، وكان أميراً ففارق الحاج ومضى إلى الشام، وبعث إلى الناصر أن الوزير ينفي عليك مواليك ويريد أن يدعي الخلافة فعزله الناصر، وألزمه بيته. وبعث من كل شيء ملكه، ويطلب الإقامة بالمشهد فأجابه الناصر بالأمان والإتفاق، وأن المعزلة لم

تكن لذنب، وإنما أكثر الأعداء المقالات فوقع ذلك. واحتز لنفسه موضعاً ينتقل إليه موقراً محترماً فاختار أيالة الناصر، خوفاً أن يذهب الأعداء بنفسه. ولما عزل عاد سنقر أمير الحاج، وعاد أيضا قشتمر، وأقيم نائباً في الوزارة فخر الدين أبو البدر ومحمد بن أحمد بن اسمينا الواسطي، ولم يكن له ذلك التحكم، وقارن ذلك وفاة صاحب المخزن ببغداد أبو فراس نصر بن ناصر بن مكي المدائني فولى مكانه أبو الفتوح المبارك بن عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وأعلى محله، وذلك في المحرم سنة خمس وستمائة. ثم عزل آخر السنة لعجزه، ثم عزل في ربيع من سنة ست وستمائة فخر الدين بن اسمينا، ونقل إلى المخزن، وولى نيابة الوزارة مكانه مكين الدين محمد بن محمد بن حمد بن بدر القمر كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين.

انتقاض سنجر بخوزستان:

قد ذكرنا ولاية سنجر مولى الناصر على خوزستان بعد طاش تكين أمير الحاج، ثم استوحش سنة ست وستمائة واستقدمه الناصر فاعتذر فبعث إليه العساكر مع مؤيد الدين نائب الوزارة، وعز الدين بن نجاح الشرابي من خواص الخليفة. فلما قاربته العساكر لحق بصاحب فارس أتابك سعد بن دكلا فأكرمه ومنعه، ووصلت عساكر الخليفة خوزستان في ربيع من سنته، وبعثوا إلى سنجر في الرجوع إلى الطاعة فأبى وساروا إلى أرجان لقصد ابن دكلا بشيراز، والرسل تترور بينهم. ثم رحلوا في شوال يريدون شيراز فبعث ابن دكلا إلى الوزير والشرابي بالشفاعة في سنجر واقتضاء الأمان له فأجابوه إلى ذلك، وأعادوا سنجر إلى بغداد في المحرم سنة ثمان وستمائة، ودخلوا به مقيداً. وولى الناصر مولاه ياقوتاً أمير الحاج على خوزستان. ثم أطلق الناصر سنجر في صفر من سنة ثمان وستمائة وخلع عليه.

استيلاء منكلى على بلاد الجبل وأصبهان وهرب ايدغمش ثم مقتله ومقتل منكلى وولاية اغلمش:

قد ذكرنا استيلاء إيدغمش من امراء البهلوانية على بلاد الجبل: همذان وأصبهان والري وما إليها فاستفحل فيها، وعظم شأنه، وتخطى إلى أذربيجان وأرانية فحاصر صاحبها أزبك بن البهلوان. ثم خرج سنة ثمان وستمائة منكلي من البهلوانية، ونازعه الملك،

وأطاعه البهلوانية فاستولى على سائر تلك الأعمال. وهرب شمس الدين إيدغمش إلى بغداد، وأمر الناصر بتلقيه فكان يوما مشهوداً. وخشي منكلى من اتصاله فأوفد ابنه محمداً في جماعة من العكر وتلقاه الناس

على طبقاتهم، وقد كان الناصر شرع في إمداد إيدغمش فأمده وسار إلى همذان في جمادى من سنة عشر، ووصل إلى بلاد ابن برجم من التركمان الأيوبية، وكان الناصر عزله عن إمارة قومه، وولى أخاه الأصغر فبعث إلى منكلى بخبر إيدغمش فبعث العساكر بطلبه فقتلوه وافترق جمعه. وبعث الناصر إلى أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأرانية يغريه به وكان مستوحشاً منه. وأرسل أيضاً إلى جلال الدين صاحب قلعة الموت وغيرها من قلاع الإسماعيلية من بلاد العجم بمعاضدة أزبك على أن يقتسموا بلاد الجبل، وجمع الخليفة العساكر من الموصل والجزيرة وبغداد، وقدم على عسكر بغداد مملوكه مظفر الدين وجه السبع، واستقدم مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك، وهو على أربل وشهرزور وأعمالها، وجعله مقدم العساكر جميعاً. وساروا إلى همذان فهرب منكلى إلى جبل قريب من الكرج، وأقاموا عليه يحاصرونه، ونزل منكلى في بعض الأيام فقاتل أزبك وهزمه إلى مخيمه. ثم جاء من الغد وقد طمع فيهم فاشتدوا في قتاله وهزموه فهرب عن البلاد اجمع، وافترقت عساكره، واستولت العساكر على البلاد، وأخذ جلال الدين ملك الإسماعيلية منها ما عينته القسمة. وولى أزبك بن البهلوان على بقية البلاد أغلمش مملوك أخيه، وعادت العساكر إلى بلادها، ومضى منكلى منهزماً إلى مدينة ساوة فقبض عليه الشحنة بها وقتله وبعث أزبك برأسه إلى بغداد وذلك في جمادى سنة إثنتي عشرة.

ولاية حافد الناصر علي خوزستان:

كان للناصر ولد صغير إسمه علي وكنيته أبو الحسن قد رشحه لولاية العهد وعزل عنها ابنه الأكبر، وكان هذا أحب ولده إليه فمات في ذي القعدة سنة عشر فتفجع له وحزن عليه حزناً لم يسمع بمثله. وشمل الأسف عليه الخاص والعام. وكان ترك ولدين لقبهما المؤيد والموفق فبعثهما الناصر إلى تستر من خوزستان بالعساكر في المحرم سنة ثلاث عشرة وبعث معهما مؤيد الدين نائب الوزارة، وعزل مؤيد الدين الشرابي فأقاما بها أياماً. ثم أعاد الموفق مع الوزير والشرابي إلى بغداد في شهر ربيع، وأقام المويد بتستر.

استيلاء خوارزم شاه علي بلاد الجبل وطلب الخطبة له ببغداد:

كان أغلمش قد استولى على بلاد الجبل كما ذكرناه، واستفحل أمره وقوي ملكه فيها. ثم قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمائة. وكان علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه وأرث ملك السلجوقية. قد استولى على خراسان وما وراء النهر فطمع في إضافة هذه البلاد إليه، فسار في عساكره واعترضه صاحب بلاد فارس أتابك سعد بن دكلا على أصبهان، وقد ساقه من الطمع في البلاد مثل الذي ساقه فقاتله وهزمه خوارزم وأخذه أسيراً. ثم سار إلى ساوة فملكها، ثم قزوين وزنجان وأبهر، ثم همذان ثم أصبهان وقمّ وقاشان. وخطب له صاحب أذربيجان وأرانية، وكان يبعث في الخطبة إلى بغداد ولا يجاب فاعتزم الآن على المسير إليها، وقدم أميراً في خمسة عشر ألف فارس، وأقطعه حلوان فنزلها. ثم أتبعه بأمير آخر فلما سار

عن همذان سقط عليهم الثلج وكادوا يهلكون، وتخطف بقيتهم بنو برجم من التركمان وبنو عكا من الأكراد. واعتزم خوارزم شاه على الرجوع إلى خراسان، وولى على همذان طابسين، وجعل إمارة البلاد كلها لابنه ركن الدين وأنزل معه عماد الملك المساوي متولياً أمور دولته، وعاد إلى خراسان سنة خمس عشرة وأزال الخطبة للناصر من جميع أعماله.

إجلاء بني معروف عن البطائح:

كان بنو معروف هؤلاء من ربيعة ومقدمهم معلى، وكانت رحالهم غربي الفرات قرب البطائح فكثر عيثهم وإفسادهم السابلة، وارتفعت شكوى أهل البلاد إلى الديوان منهم فرسم للشريف سعد متولي واسط وأعمالها أن يسير إلى قتالهم وإجلائهم، فجمع العساكر من تكريت وهيت والحَديثة والانبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة فهزمهم واستباحهم، وتقسموا بين القتل والأسر والغرق وحملت الرؤوس إلى بغداد في ذي القعدة سنة عشر.

ظهور التتر:

ظهرت هذه الأمة من أجناس الترك سنة ست عشرة وستمائة، وكانت جبال طمغاج من أرض الصين بينها وبين بلاد تركستان ما يزيد على ستة أشهر، وكان ملكهم يسمى جنكزخان، من قبيلة يعرفون نوحي فسار إلى بلاد تركستان وما وراء النهر وملكها من أيدي الخطا، ثم حارب خوارزم شاه إلى أن غلبه على ما في يده من خراسان وبلاد الجبل، ثم تخطى أرانية فملكها. ثم ساروا إلى بلاد شروان وبلد اللاّن واللكز فاستولوا على الأمم المختلفة بتلك الأصقاع. ثم ملكوا بلاد قُفجاق، وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان فملكوا ذلك كله في سنة أو نحوها، وفعلوا من العيث والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله في غابر الأزمان. وهزموا خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش فلحق بجزيرة في بحر طبرستان فامتنع بها إلى أن مات سنة سبع عشر وستمائة لإحدى وعشرين سنة من ملكه. ثم هزموا ابنه جلال الدين بغزنة واتبعه جنكزخان إلى نهر السند فعبر إلى بلاد الهند، وخلص منهم وأقام هنالك مدة. ثم رجع سنة إثنتين وعشرين إلى خوزستان والعراق. ثم ملك أذربيجان وأرمينية إلى أن قتله المظفر حسبما نذكر ذلك كله مقسماً بين دولتهم ودولة بني خوارزم شاه، أو مكرراً فيهما. فهناك تفصيل هذا المحل من أخبارهم والله الموفق بمنه وكرمه.

وفاة الناصر وخلافة الظاهر ابنه:

ثم توفي أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء في آخر شهر رمضان سنة إثنتين عشرين وستمائة لسبع وأربعين سنة من خلافته، بعد أن عجز عن الحركة ثلاث سنين من آخر عمره، وذهبت إحدى عينيه وضعف بصر الأخرى. وكانت حاله مختلفة في الجد واللعب، وكان متفنناً في العلوم، وله تآليف في فنون منها متعددة، ويقال إنه الذي أطمع التتر في ملك العراق لّما كانت بينه وبين خوارزم شاه من الفتنة، وكان

مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسيب، ويلبس سراويل الفتوة شأن العيارين من أهل بغداد. وكان له فيها سند إلى زعمائها يقتصه على من يلبسه إياها، وكان ذلك كله دليلاً على هرم الدولة وذهاب الملك عن أهلها بذهاب ملاكها منهم. ولما توفي بويع ابنه أبو نصر محمد، ولقب الظاهر وكان ولي عهده عهد له أولاً سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم خلعه من العهد وعهد لأخيه الصغير علي لميله

إليه. وتوفي سنة إثنتي عشرة فاضطر إلى إعادة هذا فلما بويع بعد أبيه أظهر من العدل والإحسان ما حمد منه، ويقال إنه فرق في العلماء ليلة الفطر التي بويع فيها مائة ألف دينار.

وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر:

ثم توفي الظاهر أبو نصر محمد في منتصف رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة لتسعة أشهر ونصف من ولايته، وكانت طريقته مستقيمة وأخباره في العدل مأثورة. ويقال إنه قبل وفاته كتب بشطه إلى الوزير توقيعاً يقرؤه على أهل الدولة فجاء الرسول به وقال: أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم وأنفذ مثال، ثم لا يتبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال. ثم تناولوا الكتاب وقرأوه فإذا فيه بعد البسملة أنه ليس إمهالنا إهمالاً ولا إغضاؤناً إغفالاً، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرعايا، وتقبيح السنة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة، وتسمية الإستئصال والاجتياح استيفاءً واستدراكاً للأغراض؛ انتهزتم فرصتها مختلسة من براثن ليثٍ باسل، وأنياب أسد مهيب، تنطقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم ماطلتم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً، وفقركم غنى وباطلكم حقاً. ورزقكم سلطاناً يقبل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل، وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه، يخاف الله فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام.ولما توفي بويع ابنه أبو جعفر المستنصر وسلك مسالك أبيه إلا أنه وجد الدولة اختلفت، والأعمال قد انتقضت والجباية قد انتقصت، أو عدمت فضاقت عن أرزاق الجند وأعطياتهم فأسقط كثيراً من الجند، واختلفت الأحوال. وهو الذي أعاد له محمد بن يوسف بن هود دعوة العباسية بالأندلس آخر دولة الموحدين بالمغرب فولاه عليها، وذلك سنة تسع وعشرين وستمائة كما يذكر في أخبارهم. ولآخر دولته ملك التتر بلاد الروم من يد غياث الدين كنخسر، وآخر ملوك بني قليج أرسلان، ثم تخطوها إلى بلاد أرمينية فملكوها. ثم استأمن إليهم غياث الدين فولوه من قبلهم وفي طاعتهم كما يذكر في أخبارهم إن شاء الله تعالى (انتهى).

وفاة المستنصر وخلافة المستعصم آخر بني العباس ببغداد:

لم يزل هذا الخليفة المستنصر ببغداد فالنطاق الذي بقي لهم بعد استبداد أهل النواحي كما قدمنا. ثم انحل أمرهم من هذا النطاق عروة، وتملك التتر سائر البلاد، وتغلبوا على ملوك النواحي ودولهم أجمعين، ثم زاحموهم في هذا النطاق وملكوا أكثره. ثم توفي المستنصر سنة إحدى وأربعين لست عشرة سنة من خلافته، وبويع بالخلافة ابنه عَبْد الله ولقب المستعصم، وكان فقيهاً محدثاً. وكان وزيره ابن العلقمي رافضيًّا، وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة، وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين مبدأ الأمراء الأول، فلا تتجدد فتنة بين الملوك وأهل الدول إلا ويحدث فيها بين هؤلاء ما يعني أهل الدولة خاصة زيادة لّما يحدث منهم أيام سكون الدولة واستقامتها، وضاقت الأحوال على المستعصم فأسقط أهل الجند وفرض أرزاق الباقين على البياعات والأسواق، وفي المعايش فاضطرب الناس وصالت الإحوال وعظم الهرج ببغداد، ووقعت الفتن بين الشيعة وأهل السنة، وكان مسكن الشيعة بالكرخ في الجانب الغربي وكان الوزير ابن العلقمي منهم فسطوا بأهل السنة، وأنفذ المستعصم ابنه أبا بكر وركن الدين الدوادار، وأمرهم بنهب بيوقمم بالكرخ ولم يراع فيه ذمة الوزير فآسفه ذلك - وتربص بالدولة وأسقط معظم الجند يمّوه بأنه يدافع التتر بما يتوفر من أرزاقهم في الدولة. وزحف هلاكو ملك التتر سنة إثنتين وخمسين إلى العراق، وقد فقح الري وأصبهان وهمذان، وتتبع قلاع الإسماعيلية؛ ثم قصد قلعة الموت سنة خمس وخمسين فبلغه في طريقه كتاب ابن الموصلايا صاحب أربل، وفيه وصية ابن العلقمي وزير المستعصم إلى هلاكو يستحثه لقصد بغداد، ويهون عليه أمرها فرجع عن بلاد الإسماعيلية، وسار إلى بغداد واستدعى أمراء التتر فجاءه بنحو مقدم العسكر ببلاد الروم، وقد كانوا ملكوها. ولما قاربوا بغداد برز للقائهم أيبك الدوادار في العساكر فانكشف التتر أولاً ثم تذامروا فانهزم المسلمون واعترضهم دون بغداد أو حال مياه من بثوق انتفثت من دجلة، فتبعهم التتر دونها، وقتل الدوادار، وأسر الأمراء الذين معه.ونزل هلاكو بغداد، وخرج إليه الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فاستأمن لنفسه ورجع

بالأمان إلى المستعصم، وأنه يبقيه على خلافته كما فعل بملك بلاد الروم. فخرج المستعصم ومعه الفقهاء والأعيان فقبض عليه لوقته، وقتل جميع من كان معه. ثم قتل المستعصم شدخاً بالعمد ووطأً بالأقدام لتجافيه بزعمه عن دماء أهل البيت، وذلك سنة ست وخمسين. وركب إلى بغداد فاستباحها واتصل العيث بها أياماً، وخرج النساء والصبيان وعلى رؤوسهم المصاحف والألواح فداستهم العساكر وماتوا أجمعين. ويقال أن الذي أحصي ذلك اليوم من القتلى ألف ألف وستمائة ألف، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد، وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعاً في دجلة، وكانت شيئاً لا يعبر عنه مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم. واعتزم هلاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته. ثم بعث العساكر إلى ميافارقين فحاصروها سنين، ثم جهدهم الحصار

واقتحموها عنوة وقتل حاميتها جميعاً وأميرهم من بني أيوب، وهو الملك ناصر الدين محمد بن شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب وبايع له صاحب الموصل، وبعث بالهدية والطاعة وولاه على عمله. ثم بعث بالعساكر إلى إربل فحاصرها وامتنعت فرحل العساكر عنها، ثم وصل إليه صاحبها ابن الموصلايا فقتله واستولى على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة كلها، وتاخم الشام جميع جهاته حتى زحف إليه بعد كما يذكر، وانقرض أمر الخلافة الإسلامية لبني العباس بغداد، وأعاد لها ملوك الترك رسماً جديداً في خلفاء نصبوهم هنالك من أعقاب الخلفاء الأولين، ولم يزل متصلاً لهذا العهد على ما نذكر الآن. ومن العجب أن يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف العرب ذكر في ملاحمه وكلامه على القرآن الذي دل على ظهور الملة الإسلامية العربية أن انقراض أمر العرب يكون أعوام الستين والستمائة فكان كذلك، وكانت دولة بني العباس من يوم بويع للسفاح سنة إثنتين وثلاثين ومائة إلى أن قتل المعتصم سنة خمس وستمائة خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين وعدد خلفائهم ببغداد سبعة وثلاثون خليفة. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن الخلفاء العباسيين المنصوبين بمصر من بعد انقراض

الخلافة ببغداد ومبادى أمورهم وتصاريف أحوالهم:

لّما هلك المستعصم ببغداد، واستولى التتر على سائر الممالك الإسلامية فافترق شمل الجماعة، وانتشر سلك الخلافة، وهرب القرابة المرشحون، وغير المرشحين، من قصور بغداد فذهبوا في الأرض طولاً وعرضاً، ولحق بمصر كبيرهم يومئذ أحمد ابن الخليفة الظاهر، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر، وكان سلطانها يومئذ الملك الظاهر بيبرس، ثالث ملوك الترك بعد بني أيوب بمصر والقاهرة فقام على قدم التعظيم، وركب لتلقيه وسر بقدومه، وكان وصوله سنة تسع وخمسين فجمع الناس على طبقاتهم بمجلس الملك بالقلعة، وحضر القاضي يومئذ تاج ابن بنت الأغر فأثبت نسبه في بيت الخلفاء بشهادة العرب الواصلين معه بالاستفاضة، ولم يكن شخصه خفياً، وبايع له الظاهر وسائر الناس، ونصبه للخلافة الإسلامية ولقبوه المستنصر، وخطب له على المنابر، ورسم إسمه في السكّة. وصدرت المراسم السلطانية بأخذ البيعة له في سائر أعمال السلطان، وفوّض هو للسلطان الملك الظاهر سائر أعماله، وكتب تقليده بذلك؛ وركب السلطان ثاني يومه إلى خارج البلد، ونصب خيمة يجتمع الناس فيها فاجتمعوا وقرأ كتاب التقليد.وقام السلطان بأمر هذا الخليفة ورتب له أرباب الوظائف والمناصب الخلافية من كل طبقة، وأجرى الأرزاق السنية وأقام له الفسطاط والآلة. ويقال أنفق عليه في معسكره ذلك ألف ألف دينار من الذهب العين، واعتزم على بعثه إلى بلاد العراق لاسترجاعه ممالك الإسلام من يد أهل الكفر. وقد كان وصل على أثر الخليفة صاحب الموصل، وهو إسماعيل الصالح بن لؤلؤ، أخرجه التتر من ملكه بعد مهلك أبيه فامتعض له الملك الظاهر، ووعده باسترجاع ملكه وخرج آخر هذه السنة مشيعاً للخليفة ولصالح بن لؤلؤ، ووصل بهما إلى دمشق فبالغ هنالك في تكرمتهما، وبعث معهما أميرين من أمرائه مدداً لهما، وأمرهما أن ينتهيا

معهما إلى الفرات. فلما وصلوا الفرات بادر الخليفة بالعبور، وقصد الصالح بن لؤلؤ الموصل، واتصل الخبر بالتتر فجردوا العساكر للقائه، والتقى الجمعان بعانة، وصدموه هنالك فصادمهم قليلاً؛ ثم تكاثروا عليه فلم يكن له بهم طاقة، وأبلى في جهادهم طويلاً ثم استشهد

رحمه الله. وسارت عساكر التتر إلى الموصل فحاصروا الصالح إسمعيل بها سبعة أشهر، وملكوها عليه عنوة، وقتل رحمه الله. وتطلب السلطان بمصر الملك الظاهر بعده آخر من أصل هذا البيت يقيم برسم الخلافة الإسلامية، وبينما هو يسائل الركبان عن ذلك إذ وصل رجل من بغداد ينسب إلى الراشد بن المسترشد. قال صاحب حماة في تاريخه عن نسابة مصر: أنه أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي ابن الأمير حسن بن الراشد. وعند العباسيين السليمانيين في درج نسبهم الثابت أنه أحمد بن أبي بكر بن علي بن أحمد بن الإمام المسترشد، انتهى كلام صاحب حماة. ولم يكن في آبائه خليفة فيما بينه وبين الراشد. وبايع له بالخلافة الإسلامية ولقبه الحاكم، وفوض هو إليه الأمور العامة والخاصة، وخرج هو له عن العهدة وقام حافظاً لسياج الدين بإقامة رسم الخلافة. وعمرت بذكره المنابر، وزينت بإسمه السكة، ولم يزل على هذا الحال أيام الظاهر بيبرس، وولديه بعده؛ ثم أيام الصالح قلاون وابنه الأشرف، وطائفة من دولة ابنه الملك الناصر محمد بن قلاون إلى أن هلك سنة إحدى وسبعمائة، ونصب ابنه أبو الربيع سليمان للخلافة بعده، ولقبه المستكفي. وحفظ به الرسم وحضر مع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون للقاء التتر في النوبتين اللتين لقيهم فيها فاستوحش منه السلطان بعض أيامه، وأنزله بالقلعة، وقطعه عن لقاء الناس عاماً أو نحوه. ثم أذن له في النزول إلى بيته ولقائه الناس إذا شاء، وكان ذلك سنة ست وثلاثين. ثم تجددت له الوحشة وغربه إلى قوص سنة ثمان وثلاثين؛ ثم هلك الخليفة أبو الربيع سنة أربعين قبل مهلك الملك الناصر رحمهما الله تعالى. وكان عهد بالخلافة لابنه أحمد فبويع له، ولقب الحاكم ثم بدا للسلطان في إمضاء عهد أبيه بذلك فعزله، واستبدل منه بأخيه إبراهيم، ولقبه الواثق. وكان مهلك الناصر لأشهر قريبة من ذلك فأعادوا أحمد الحاكم ولي عهد أبيه سنة إحدى وأربعين، وأقام في الخلافة إلى سنة ثلاث وخمسين. وهلك رحمه الله فولي من بعده أخوه أبو بكر ولقب المعتضد، ولم يزل مقيماً لرسم الخلافة إلى أن هلك لعشرة أعوام من خلافته سنة ثلاث وستين، ونصب بعده ابنه محمد ولقب المتوكل فأقام برسم الخلافة، وحضر مع السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر عام انتقض عليه الترك في طريقه إلى الحج. وفسد أمره، ورجع الفلّ إلى مصر وطلبه أمراء الترك في البيعة له بالسلطنة مع الخلافة فامتنع من ذلك. ثم

خلعه أيبك من أمراء الترك المستبدّين أيام سلطانه بالقاهرة سنة تسع وتسعين لمغاضبة وقعت بينهما. ونصّب للخلافة زكريا ابن عمّه إبراهيم الواثق فلم يطل ذلك، وعزل زكريا لأيام قليلة، وأعاده إلى منصبه إلى أن كانت واقعة قرط التركماني من أمراء العساكر بمصر ومداخلته للمفسدين في الثورة بالسلطان

الملك الظاهر أبي سعيد برقوق سنة خمس وثمانين ؛ وسعى عند السلطان بأنه ممن داخله قرط هذا فاستراب به وحبسه بالقلعة سنة ستين وأدال منه بعمر ابن عفه الواثق إبراهيم ولقبه فأقام ثلاثاً أو نحوها ثم هلك رحمه الله آخر عام ثمانية وثلاثين، ونصب السلطان عوضه أخاه زكريا الذي كان أيبك نصبه كما قدمنا ذكره. ثم حدثت فتنة بليقا الناصري صاحب حلب سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وتعالى على السلطان بحبسه الخليفة، وأطال النكير في ذلك فأطلق السلطان الخليفة محمد المتوكل من محبسه بالقلعة، وأعاده إلى الخلافة على رسمه الأول، وبالغ في تكرمته وجرت فيما بين ذلك خطوب نذكر أخبارها مستوفاة في دولة الترك المقيمين لرسم هؤلاء الخلفاء بمصر. وإنما ذكرنا هنا من أخبارهم ما يتعلق بالخلافة فقط، دون أخبار الدولة والسلطان. وهذا الخليفة المتوكل المنصوب الآن لرسم الخلافة، والمعين لإقامة المناصب الدينية على مقتضى الشريعة، والمبرك بذكره على منابر هذه الإيالة تعظيماً لأبيهم الظاهر، وجرياً على سنن التبرك بسلفهم، ولكمال الإيمان في محبتهم، وتوفية لشروط الإمامة بينهم. وما زال ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالنواحي يطلبون التقليد منه، ومن سلفه بمصر، ويكاتبون في ذلك ملوك الترك بها من بني قلاون وغيره فيجيبونهم إلى ذلك، ويبعثون إليهم بالتقليد والخلع والأبهة، ويمدون القائمين بأمورهم بمواد التأييد والإعانة بمن الله وفضله.

(خريطة غير متواجدة في هذه النسخة)

المجلد الرابع

القسم الأول

من تاريخ العلامة ابن خلدون

الدولة العلوية

أخبار الدولة العلوية المزاحمة لدولة بني العبّاس

ونبدأ منهم بدولة الأدارسة بالمغرب الأَقصى. قد تقدّم لنا ذكر شيعة أهل البيت لعليّ بن أبي طالب وبنيه رضي الله عنهم، وما كان من شأنهم بالكوفة، وموجدتهم على الحسن في تسليم الأمر لغيره، واضطراب الأمر على زياد بالكوفة من أجلهم، حتى قتل المتولون كَبِر ذلك، منهم حِجْر بن عديّ وأصحابه, ثم استدعوا الحسين بعد وفاة معاوية فكان من قَتله بِكربلاء ما هو معروف، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته، فخرجوا بعد وفاة يزيد، وبيعة مروان، وخرج عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وسَمّوا أنفسهم التوّابين، وولّوا عليهم سليمان بن صُرَد، ولقيتهم جيوش ابن زياد بأطراف الشام فاستلحموهم.

ثم خرج المختار بن أبي عُبَيد بالكوفة طالباً بدم الحسين رضي الله عنه، وداعياً لمحمد بن الحنفيّة وتبعه على ذلك جموعه من الشيعة، وسمّاهم شرطة الله، وزحف إليه عبيد الله بن زياد فهزمه المختار وقتله، وبلغ محمد بن الحنفيَة من

أحوال المختار ما نقمه عليه ،فكتب إليه بالبراءة منه فصار إلى الدعاء لعبد الله بن الزبير. ثم استدعى الشيعة من بعد ذلك زيد بن عليّ بن الحسين إلى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك، فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر وصلبه، وخرج إليه ابنه يحيى بالجوزجان من خُراسان

فقُتِل وصُلِب كذلك، وطلت دماء أهل البيت في كل ناحية، وقد تقدّم ذلك كله في أخبار الدولتين.

ثم اختلف الشيعة وافترقت مذاهبهم في مصير الإمامة إلى العلويّة وذهبوا طرائق قِدَداً، فمنهم الإمامية القائلون بوصيّة النبي صلى الله عليه و سلم لعليّ بالإمامة، ويسمّونه الوصيّ بذلك، ويتبرؤون من الشيخين لما منعوه حقه بزعمهم، وخاصموا زيدا بذلك حين دعا بالكوفة. ومن لم يتبرأ من الشيخين رفضوه فسمَوا بذلك رافضة.

ومنهم الزيدية القائلون بإمامة بني فاطمة لفضل علي وبنيه على سائر الصحابة، وعلى شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة وإن كان عليّ أفضل، وهذا مذهب زيد وأتباعه، وهم جمهور الشيعة، وأبعدهم عن الانحراف والغلو.

ومنهم الكيسانية نسبة إلى كيسان يذهبون إلى إمامة محمد بن الحنفية وبنيه من بعد الحسن والحسين، ومن هؤلاء كانت شيعة بني العبّاس القائلون بوصيّة أبي هاشم بن محمد بن الحنفيّة إلى محمد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس بالإمامة. وانتشرت هذه المذاهب بين الشيعة، وافترق كل مذهب منها إلى طوائف بحسب اختلافهم.

وكان الكيسانية شيعة بني الحنفية أكثرهم بالعراق وخراسان. ولما صار أمر بني أمية إلى اختلال ،أجمع أهل البيت بالمدينة، وبايعوا بالخلافة سرّاً لمحمد بن عبد الله بن حسن المُثّنى بن الحسن بن عليّ وسلّم له جميعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، وهو المنصور، وبايع له فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتّجان إليه حين خرج من الحجاز، ويريدون أنّ إمامته أصح من إمامة أبي جعفر لإنعقاد هذه البيعة من قبل، وربّما صار إليه الأمر عند الشيعة بانتقال الوصية من زيد بن عليّ. وكان أبو حنيفة يقول بفضله، ويحتج إلى حقّه فتأذّت إليهما المحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء.

(ولما انقرضت) دولة بني أمية، وجاءت دولة بني العبّاس، وصار الأمر لأبي جعفر المنصور سعى عنده ببني حسن، وأنّ محمد بن

عبد الله يروم الخروج، وأنّ دعاته ظهروا بخراسان فحبس المنصور لذلك بني حسن وإخوته وإبراهيم وجعفر، وعلي القائم، وابنه موسى بن عبد الله، وسليمان وعبد الله ابن أخيه داود، ومحمد وإسماعيل واسحاق بنو عمّه إبراهيم بن الحسن في خمسة وأربعين من أكابرهم وحبسوا بقصر ابن هُبيرة ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم، وأرهبوا لطلب محمد بن عبد الله فخرج بالمدينة سنة خمس وأربعين، وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة فغلب عليها، وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسن بن معاوية إلى مكة فملكها، وبعث عاملاً إلى اليمن، ودعا لنفسه، وخطب على منبر النبيّ صلى الله عليه و سلم وتسمّى بالمهدي وكان يُدعى النفس الزَكِيّة، وحبس رباح بن عثمان المّري عامل المدينة، فبلغ الخبر إلى أبي جعفر المنصور فأشفقوا من أمره وكتب إليه كتابه المشهور(ونصه:)

بعد البسملة: من عبد الله أمير المؤمنين، إلى محمد بن عبد الله. أما بعد فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يْقتَّلوا أو يُصلّبوا أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلاّ الذين تابوا مِن قبل أن تَقدِروا عليهم فاعلموا أنّ الله غفور رحيمِ. وأنّ لك ذمة الله وعهده وميثاقه، إن تبت من قبل أن نقدر عليك ان نُؤمّنك على نفسك ووُلدِك وإخوتك ومن تابعك وجميع شيعتك، وأن أُعطيك ألف درهم، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأقضي لك ما شئت من الحاجات، وأن اطلق من سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا اتبع أحداً منكم بمكروه. وإن شئت أن تتوثّق لنفسك فوجّه إلي من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما احببت والسلام.

(فأجابه) محمد بن عبد الله بكتاب نصه بعد البسملة: من عبد الله محمد .المهدي أمير المؤمنين ابن عبد الله محمد.أمّا بعد "طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقوم يؤمنون إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةٌ منهم يُذبّحُ أبناءُهم ويستحي نساءهُم إنّه كان من المفسدين،ونريد ان نَمُنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةٌ ونجعلهم الوارثين، ونُمكِن لهم في

الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون، وأنا أعرض عليك من الامان مثل الذي أعطيتني فقد تعلم أنّ الحقّ حقّنا، وأنّكم إنّما أُعطيتُموه بنا، ونهضتم فيه بسعينا وحزتموه بفضلنا، وأنّ أبانا علياًّ عليه السلام، كان الوصيّ والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء!

وقد علمتم أنه ليس أحد من بني هاشم يشدّ بمثل فضلنا، ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ونسيبنا، وإنّا بنو بنته فاطمة في الإسلام من بينّكم فإنّا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماًّ وأباًّ، لم تلدني العجم، ولم تعرف فيّ أمّهات الأولاد، وأن الله عز وجل لم يزل يختار لنا، فولدني من النبيّين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً عليّ بن أبي طالب، ومن نسائه أفضلهنّ خديجة بنت خُويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلَة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المتولدين في الإسلام سيّدا شباب أهل الجنة، ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياًّ مرتين من قبل جدّي الحسن والحسين فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في معنى النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنّة، وأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، فأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنّة، وابن خير أهل النار. ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن أؤمنك على نفسك ووُلدك ،وكل ما أصبتها إلاّ حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك فأنا أوفى بالعهد منك، وأحرى بقبول الأمان منك. فأمّا أمانك الذي عرضت عليّ فهو أي الأمانات هي؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمّك عبد الله بن عليّ أم أمان أبي مسلم؟ والسلام.(فأجابه المنصور) بعد البسملة: من عبد الله امير المؤمنين، إلى محمد بن عبد الله!. فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك، فإذا جلّ فخرك بالنساء لتضلّ به الحفاة والغوغاء، و لم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل الله العم أباً وبدأ به على الولد فقال جلّ ثناؤه عن نبيّه عليه السلام:{ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب}[سورة]. ولقد علمت أنّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه و سلم وعمومته أربعة، فأجابه إثنان أحدهما أبي وكفر به إثنان أحدهما أبوك. وأمّا ما ذكرت من النساء وقراباتهنّ فلو أعطى على قرب الأنساب، وحق الأحساب، لكان الخير كلّه لآمنة بنت وهب، ولكنّ الله يختار لدينه من يشاء من خلقه. وأمّا ما ذكرت من فاطمة أمّ أبي طالب فإنّ الله لم يهد أحداً من ولدها إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاًهم بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنّة غداً. ولكن الله أبى ذلك فقال:{ انك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء}[سورة]، وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أمّ علي بن أبي طالب، وفاطمة أمّ الحسين، وأنّ هاشماً ولد علياّ

مرّتين، وأنّ عبد المطلب ولد الحسن مرّتين، فخير الأوّلين رسول الله صلى الله عليه و سلم ، لم يلده هاشم مرة واحدة، ولم يلده عبد المطلب الآ مرّة واحدة، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنّ الله عزّ وجل قد أبى ذلك فقال: ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين، ولكنكم قرابة ابنته وإنها لقرابة قريبة، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث، ولا يجوز أن تؤمّ فكيف تورث الإمامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك من كل وجه، وأخرجها تخاصم، ومرضها سرا ودفنها ليلاً، وأبى الناس إلا تقديم

الشيخين: ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم فأمر بالصلاة غيره. ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم0 ثم كان في أصحاب الشورى، فكل دفعه عنها، بايع عبد الرحمن عثمان، وقبلها عثمان، وحارب أباك طلحة والزبير، ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه. ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدّك إلى أبيك الحسن، فسلّمه إلى معاوية بخزف ودراهم، وأسلم في يديه شيعته، وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حِلّة، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه، فأمّا قولك إن الله اختار لك في الكفر فجعل اباك اهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار، ولا من عذاب الله هيّن، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الاخر أن يفتخر بالنار، ستردّ فتعلم، {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون}.

وأمّا قولك لم تلدك العجم، ولم تعرف فيك امهات الأولاّد، وأنك أوسط بني هاشم نسباً، وخيرهم أماً وأباً، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخراً واصلاً وفصلاً.

فخرت على إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وعلى والد والده، فانظر ويحك أين تكون من الله غداً وما ولد قبلكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم افضل من عليّ بن الحسين، وهو لأم ولد، ولقد كان خيراً من جدّك حسن بن حسن. ثم ابنه محمد خير من ابيك، وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر وهو خير، ولقد علمت أنّ جدك علياً حكم الحكمين وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به، فأجمعا على خلعه. ثم خرج عمك الحسين بن علي بن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه، ثم أتوا بكم على الأقتاب كالسبي المجلوب إلى الشام، ثم خرج منكم غيرُ واحدٍ فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل، حتى خرجنا عليهم فأدركنا يسيركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم

وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار كل صلاة مكتوبة، كما يلعن الكفرة فسفّهناهم وكفّرناهم وبيّنا فضله، وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجةً، وظننت أنّا بما ذكرنا من فضل عليّ قدّمناه على حمزة والعبّاس وجعفر، كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم، وابتلي أبوك بالدماء.

ولقد علمت أنّ مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعبّاس من دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر بها، وتوفي رسول الله صلى الله عليه و سلم وليس من عمومته أحد حياً إلاّ العبّاس جعفر كل أولئك مضو سالمين مسلماً منهم وابتلى أبوك بالدماء 0 ،وكان وارثه دون عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلاّ ولده فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه و سلم خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولو أن العباس اخرج إلى بدر كرهاً لمات عماك طالب وعقيل جوعاً أو يلحسان جفان عتبة وشيبة، فأذهب عنهما العار والشنار.

ولقد جاء الإسلام والعباس يمون به طالب للأزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلاً يوم بدر، فعززناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وأدركنا بثأركم إذ عجزتم عنه، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام.

(ثم عقد) أبو جعفر على حربه لعيسى ابن عمّه موسى بن علي، فزحف إليه في العساكر، وقاتله بالمدينة فهزمه، وقتله في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين، ولحق ابنه عليّ بالسند إلى أن هلك هناك، واختفى ابنه الاخر عبد الله الأشتر إلى أن هلك في أخبار طويلة قد استوفيناها كلها في أخبار أبي جعفر المنصور، ورجع عيسى إلى المنصور فجهّزه لحرب إبراهيم، أخي محمد، بالعيرة فقاتله آخر ذي القعدة من تلك السنة فهزمه، وقتله حسبما مرّ ذكره هنالك، وقتل معه عيسى بن زيد بن عليّ فيمن قتل من أصحابه.(وزعم ابنّ قُتيبة)أنّ عيسى بن زيد بن عليّ ثار على المنصور بعد قتل أبي مسلم، ولقيه0
في مائة وعشرين الفاً، وقاتله أياما إلى أن همّ المنصور بالفرار، ثم اتيح له الظفر فانهزم عيسى ولحق بابراهيم بن عبد الله بالبصرة فكان معه هنالك إلى ان لقيه عيسى بن موسى بن علي وقتلهما كما مر.
(ثم خرج بالمدينة أيام المهدي) سنة تسع وستين من بني حسن الحسين بن عليّ بن حسن المثلّث، وهو أخو عبد الله بن حسن المثنّى، وعمّ المهدي، وبويع للرضا من آل محمد وسار إلى مكة، وكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بن علي وقد كان قدم حاجّاً من البصرة فولاّه حربه يوم التَرْوِيَة فقاتله بفجّة على ثلاثة أميال من مكة،

وهزمه وقتله، وافترق أصحابه، وكان فيهم عمّه إدريس بن عبد الله فأفلت من الهزيمة مع من افلت منهم يومئذ، ولحق بمصر نازعاً إلى المغرب، وعلى بريد مصر يومئذ واضح مولى 5مالح بن المنصور ويعرف بالمسكين، وكان يتشيّع ،فعلم بشأن إدريس وأتاه إلى المكان الذي كان به مستخفياً، وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بو ليلى سنة ست وسبعين، وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من قبائل البربر، وكبيرهم لعهده فأجاره وأكرمه، وجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العبّاسية، وكشف القناع واجتمع عليه البرابرة بالمغرب فبايعوه وقاموا بأمره، وكان فيهم مجوس فقاتلهم إلى أن أسلموا.
وملك المغرب الأقصى، ثم ملك تلمسان سنة ثلاث وسبعين0 ودخلت ملوك زناتة أجمع في طاعته، واستفحل مُلْكه، وخاطب إبراهيم بن الاغلب صاحب القَيروان، وخاطب الرشيد بذلك فشدّ إليه الرشيدّ مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن حريز، ويرف بالشمّاخ، وأنفذه بكتابه إلى ابن الأغلب فأجازه ولحق بإدريس مظهراً للنزوع إليه فيمن نزع من وحدان المغرب متبرئاً من الدعوة العبّاسية، ومنتحلاً للطالبيين ،واختصه الإمام إدريس وًحلِيَ بعينيه، وكان قد تأبّط سّماً في سنون فناوله اياه عند شكايته من وجع اسنانه فكان فيها فيما زعموا حتفه، ودفن ببوليلى سنة خمس وسبعين، وفرّ الشمّاخ، ولحقه راشد بوادي ملوية فاختلفا بينهما ضربتين قطع فيها راشد يده، وأجاز الشمّاخ الوادي فاعجزه وبايع البرابرة بعد مهلكه ابنه إدريس سنة ثمان وثمانين، واجتمعوا على القيام بأمره ولحق به كثير من العرب من إفريقيا والأندلس، وعجز بنو الأغلب امراء إفريقيا عنه فاستفحلت له ولبنيه بالمغرب الأقصى دولة إلى أن انقرضت على يد أبي العافية وقومه مكناسة

أولياء العبيديين عام ثلاثة عشر وثلاثمائة حسبما نذكر ذلك في أخبار البربر، ونعدّد ملوكهم هناك واحداً واحداً، وانقراض دولتهم وعودها، ونستوعب ذلك كله لانه امّس بالبربر فإنهم كانوا القائمين بدعوتهم.

(ثم خرج يحيى) اخو محمد بن عبد الله بن حسن وإدريس في الدَيْلَم سنة ست وسبعين أيام الرشيد، واشتدت شوكتهم وسرح الرشيد لحربه الفضل بن يحيى فبلغ الطالقان، وتلطّف في استنزاله من بلاد الدَيْلَم على ان يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطّه، فتمّ بينهما، وجاء به الفضل فوفّى له الرشيد بكل ما أحب، وأجرى له أرزاقاً سنيّة ،ثم حبسه بعد ذلك لسعاية كانت

فيه من آل الزبير، فيقال اطلقه بعدها، ووصله بمال ،ويقال سمه لشهر من اعتقاله، ويقال اطلقه جعفر بن يحيى افتياتاً فكان بسببه نكبة البرامكة، وانقرض شأن بني حسن، وخفيت دعوة الزيديّة حيناً من الدهر حتى كان منهم بعد ذلك باليمن والديلم ما نذكره والله غالب على امره.

الخبر عن خرج الفاطميين بعد فتنة بغداد:

كانت الدولة العبّاسية قد تمهدت من لدن أبي جعفر المنصور منهم، وسكن أمر الخوارج والدعاة من الشيعة من كل جهة حتى إذا هلك الرشيد، ووقع بين بنيه من الفتنة ما وقع، وقتل الأمين بيد طاهر بن الحسين، ووقع حصار بغداد من الحرب والعبث ما وقع، وبقي المأمون مقيماً بخراسان تسكيناً لأهلها عن ثائرة الفتن، وولى على العراق الحسن بن سهل اتسع الخرق حينئذ بالعراق وأشيع عن المأمون انّ الفضل بن سهل غلب عليه، وحجره فامتعض الشيعة لذلك، وتكلّموا ،وطمع العلويّة في التوثّب على الامر، فكان في العراق أعقاب إبراهيم بن محمد بن حسن المثنّى المقتول بالبصرة أيام المنصور.

وكان منهم محمد بن إسمعيل بن إبراهيم ولقبه أبوه طباطبا، للكنة كانت في لسانه، أيام مرباه بين داياته فلقّب بها. وكان شيعته من الزيدية وغيرهم يدعون إلى إمامته لأنها كانت متوارثة في آبائه من إبراهيم الإمام جدّه على ما قلناه في خبره، فخرج سنة تسع وتسعين، ودعا لنفسه، ووافاه أبو السرايا السريّ بن منصور كبير بني شيبان فبايعه وقام بتدبير حربه، وملك الكوفة وكثر تابعوه من الأعراب وغيرهم، وسرّح الحسن بن سهل زهير بن المسيب لقتاله فهزمه طباطبا واستباح معسكره، ثم مات محمد في صبيحة ذلك اليوم فجأة، ويقال إنّ أبا السرايا، سمّه لما منعه من الغنائم فبايع أبو السرايا يومه ذلك لمحمد بن محمد بن زيد بن عليّ زين العابدين واستبدّ عليه، وزحفت عليهم جيوش المأمون فهزمهم أبو السرايا، وملك البصرة وواسط والمدائن.

وسرح الحسن بن سهل لحربه هرثَمة بن اعين وكان

مغضباً فاسترضاه وجهزّ له الجيوش، وزحف إلى أبي السرايا وأصحابه فغلبهم على المدائن، وهزمهم وقتل منهم خلقاً، ووجه أبو السرايا إلى مكّة الحسين الأفطس بن الحسن بن عليّ زين العابدين، وإلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن حسن المثنّى ابن الحسن، وإلى البصرة زيد بن موسى بن جعفر الصادق، وكان يقال له زيد النار لكثرة من أحرق من الناس بالبصرة فملكوا مكة والمدينة والبصرة، وكان بمكّة مسرور الخادم الأكبر، وسليمان بن داود بن عيسى فلما أحسوا بقدوم الحسين فّروا عنها، وبقي الناس في الموقف فوضى، ودخلها

الحسين من الغد فعاث في أهل الموسم ما شاء الله، واستخرج الكتر الذي كان في الكعبة من عهد الجاهلية، وأقره النبي صلى الله عليه و سلم والخلفاء بعده، وقدره فيما قيل مائتا قنطار اثنتان من الذهب فأنفقه وفرّقه في أصحابه ما شاء الله.

ثم إن هرثَمَةَ واقع أبا السرايا فهزمه، ثم بحث عن منصور بن المهدي فكان أميراً معه، واتبع أبا السرايا فغلبه على الكوفة، وخرج إلى القادسية، ثم إلى واسط ولقيه عاملها وهزمه، ولحق بجلولا مغلولاً جريحاً فقبض عليه عاملها وقدمه إلى الحسن بن سهل بالنهروان فضرب عنقه، وذلك سنة مائتين0 وبلغ الخبر الطالبيّين بمكة فاجتمعوا وبايعوا محمد بن جعفر الصادق، وسمّوه أمير المؤمنين، وغلب عليه ابناه عليّ وحسين فلم يكن يملك معهما من الامر شيئاً، ولحق إبراهيم بن أخيه موسى الكاظم بن جعفر الصادق باليمن في أهل بيته فدعا لنفسه هنالك، وتغلّب على الكثير من بلاد اليمن، وسُمّيَ الجزَار لكثرة ما قتل من الناس.

وخلص عامل اليمن وهو إسحاق بن موسى بن عيسى إلى المأمون فجهزّ لحرب هؤلاء الطالبيين فتوجّه إلى مكة وغلبهم عليها، وخرج محمد بن جعفر الصادق إلى الأعراب بالساحل فاتبعهم إسحاق وهزمهم، ثم طلبهم وطلب محمد الأمان فامّنه، ودخل مكّة وبايع للمأمون وخطب على المنبر بدعوته، وسابقته الجيوش إلى اليمن فشرّدوا عنه الطالبيّين وأقاموا فيه الدعوة العباسية، ثم خرج الحسين الأفطس، ودعا لنفسه بمكة، وقتله ابنيه علياً ومحمداً.

ثم إنّ المأمون لما رأى كثرة الشيعة واختلاف دعاتهم، وكان يرى مثل رأيهم او قريباً منه في شأن عليّ والسبطين فعهد بالعهد من بعده لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سنة إحدى ومائتين، وكتب بذلك إلى الافاق، وتقدّم إلى الناس فتزع السواد ولبس الخضرة، فحقد بنو العبّاس ذلك من أمره وبايعوا بالعراق لعمّه إبراهيم بن المهدي سنة اثنين ومائتين، وخطب له

ببغداد، وعظمت الفتنة. وشخص المأمون من خراسان متلافياً امر العراق ،وهلك علي بن موسى في طريقه فجأة، ودفن بطوس سنة ثلاث ومائتين. ووصل المأمون إلى بغداد سنة أربع، وقبض على عمّه إبراهيم وعفا عنه، وسكن الفتنة.

(وفي سنة تسع) بعدها خرج باليمن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب يدعو للرّضا من آل محمد، وبايعه أهل اليمن، وسرّح إليه المأمون مولاه ديناراً، واستأمن له فافنّه وراجع الطاعة.

(ثم كثر خروج الزيدية) من بعد ذلك بالحجاز والعراق والجبال والديلم، وهرب إلى مصر خلق، وأخذ منهم خلق، وتتابع دعاتهم.

(فأوّل) من خرج منهم بعد ذلك محمد بن القاسم عليّ بن عمر بن زين العابدين، هرب خوفا من المعتصم سنة تسع عشرة ومائتين، وكان بمكان من العبادة والزهد فلحق بخراسان، ثم مضى إلى الطالقان ودعا بها لنفسه،

واتبعته أمم الزيدية كلهم. ثم حاربه عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فغلبه وقبض عليه، وحمله إلى المعتصم فحبسه حتى مات، ويقال إنه مات مسموماً.

(ثم خرج) من بعده بالكوفة أيضاً الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين الأعرج بن علي بن زين العابدين، واجتمع إليه الناس من بني أسد وغيرهم من جموعه وأشياعه، وذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين، وزحف إليه ابن بشكال من أمراء الدولة فهزمه، ولحق بصاحب الزنج فكان معه، وكاتبه أهل الكوفة في العود إليه، وظهر عليه صاحب الزنج فقتله. وكان خروج صاحب الزنج بالبصرة قبله بقليل، واجتمعت له جموع العبيد من زنج البصرة وأعمالها، وكان يقول في لفظه من أعلمه أنه من ولد عيسى بن زيد الشهيد وأنه عليّ بن محمد بن زيد بن عيسى. ثم انتسب إلى يحيى بن زيد الشهيد، والحق أنه دعّي في أهل البيت كما نذكره في أخباره.

وزحف إليه الموفّق اخو المعتمد ودارت بينه وبينهم حروب إلى ان قتله، ومحا أثر تلك الدعوة كما قدّمناه في أخبار الموفّق ونذكره في أخبارهم.

(ثم خرج في الديلم) من ولده الحسن بن زيد بن الحسن السبط الداعي المعروف

بالعلوي، وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسمعيل بن الحسن خرج لخمس وخمسين فملك طبرستان وجرجان وسائر أعمالها، وكانت له ولشيعته الزيدية دولة هناك. ثم انقرضت آخر المائة الثالثة،

وورثها من ولد الحسن السبط، ثم من ولد عمر بن علي بن زين العابدين الناصر الأطروش، وهو الحسن بن علي بن الحسين بن عليّ بن عمر، وهو ابن صاحب الطالقان. اسلم الديلم على يد هذا الأطروش وملك بهم طبرستان وسائر أعمال الداعي، وكانت له ولبنيه هنالك دولة،وكانوا سببا لملك الديلم البلاد وتغلّبهم على الخلفاء كما نذكر ذلك في أخبار دولتهم.

(ثم خرج باليمن) من الزيدية من ولد القاسم الرسيّ بن إبراهيم طباطبا، أخي محمد صاحب أبي السرايا عام ثمانية وثمانين ومائتين يحيى بن الحسين بن القاسم الرسيّ فاستولى على صعدة وأورث عقبه فيها ملكا باقيا لهذا العهد، وهي مركز الزيدية كما نذكر في أخبارهم.(وفي خلال ذلك خرج بالمدينة) الأخوان محمد وعليّ ابنا الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم وعاثاً في المدينة عيثاً شديداً، وتعطلت الصلاة بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من شهر وذلك سنة إحدى وسبعين.

(ثم ظهر بالمغرب) من دعاة الرافضة أبو عبد الله الشيعي في كتامة من قبائل البربر عام ستة وثمانين ومائتين داعياً لعبيد الله المهدي محمد بن جعفر بن محمد بن إسمعيل الإمام بن جعفر الصادق فظهر على الأغالبة بالقيروان، وبايع لعبيد الله المهدي سنة ست وتسعين 0فتم أمره وملك المغربين، واستفحلت له دولة بالمغرب ورثها بنوه. ثم استولوا بعد ذلك على مصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فملكها منهم المعزّ لدين الله معد بن إسمعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله المهدي، وشيّد القاهرة. ثم ملك الشام واستفحل ملكه إلى أن انقرضت دولتهم على العاضد منهم على يد صلاح الدين بن ايوب سنة خمس وستين وخمسمائة.

(ثم ظهر في سواد الكوفة) سنة ثمان وخمسين ومائتين من دعاة الرافضة رجل اسمه الفرج بن يحيى، ويدعى قرمط، بكتاب زعم أنه من عند أحمد بن محمد بن الحنفيَّة فيه كثير من كلمات الكفر والتحليل والتحريم، وادّعى أن محمد بن الحنفيَّة هو المهدي المنتظر، وعاث في بلاد السواد، ثم في بلاد الشام وتلقّب وكرويه بن مهرويه واستبدّ

طائفة منهم بالبحرين ونواحيها ورئيسهم أبو سعيد الجناجيّ، وكان له هناك ملك ودولة أورثها بنيه من بعده إلى أن انقرضت اعوامهم كما يذكر 0في اخبار دولتهم. وكان أهل البحرين هؤلاء يرجعون إلى دعوة العبيديّين بالمغرب وطاعتهم.

(ثم كان بالعراق) من دعاة

الإسماعيلية وهؤلاء الرافضة طوائف آخرون، استبدوا بكثير من النواحي، ونسب إليهم فيها القلاع: قلعة الموت وغيرها، وينسبون تارة إلى القرامطة، وتارة إلى العبيديّين، وكان من رجالاتهم الحسن بن الصبّاح في قلعة الموت وغيرها إلى أن انقرض أمرهم آخر الدولة السلجوقية.

(وكان باليمامة ومكة والمدينة) من بعد ذلك دول للزيديّة والرَّافضة فكان باليمامة دولة لبني الأخضر، وهو محمد بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن المثّنى، خرج أخوه إسمعيل بن يوسف في بادية الحجاز سنة اثنتين وخمسين ومائتين وملك مكة. ثم مات فمضى أخوه محمد إلى اليمامة فملكها وأورثها لبنيه إلى أن غلبهم القرامطة.

(وكان بمكة) دولة لبني سليمان بن داود بن حسن المثّنى، خرج محمد بن سليمان أيام المأمون وتسمّى بالناهض، وملك مكّة، واستقرّت إمارتها في بنيه إلى أن غلبهم عليها الهواشم وكبيرهم محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون فملكها من إبراهيم سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وغلب بني حسن على المدينة وداول الخطبة بمكة بين العبّاسيين والعُبيديّين واستفحل ملكه في بنيه إلى أن انقرضوا آخر المائة السادسة، وغلب على مكة بنو أبي قمي أمراؤها لهذا العهد. ملك أولهم أبو عزيز قتادة بن إدريس مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن موسى الجون وورث دولة الهواشم وملكهم، أورثها بنيه إلى هذا العهد كما نذكر في أخبارهم، وهؤلاء كلهم زيديّة.

(وبالمدينة) دولة للرافضة لولد الهناء. قال المسبجي: اسمه الحسن بن طاهر بن مسلم، وفي كتاب العتبي مؤرخّ دولة ابن سبكتكين أنّ مسلماً اسمه محمد بن طاهر، وكان صديقاً لكافور، ويدبّر أمره وهو من ولد الحسن بن عليّ زين العابدين. واستولى طاهر بن مسلم على المدينة أعوام ستين وثلاثمائة وأورثها بنيه لهذا العهد كما نذكر في أخبارهم، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن الأدارسة ملوك المغرب الأقصي ومبد أ دولتهم وانقراضها ثم تجدّدها مفترقة في نواحي المغرب

لما خرج حسين بن عليّ بن حسن المثلّث. بن حسن المثّنى بن الحسن السبط بمكة في

ذي القعدة سنة ست وتسعين ومائة أيام المهدي، واجتمع عليه قرابته وفيهم عماه إدريس ويحيى، وقاتلهم محمد بن سليمان بن علي بعجة على ثلاثة أميال عن مكة فقتل الحسين في جماعة من أهل بيته وإنهزموا وأسر كثير منهم. ونجا يحيى بن إدريس وسليمان، وظهر يحيى بعمد ذلك في الديلم، وقد ذكرنا خبره من قبل وكيف استنزله الرشيد وحبسه.

(وأمّا إدريس)ففّر ولحق بمصر، وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويرف بالمسكين، وكان واضح يتشّيع فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان به مستخفياً، ولم ير شيئا أخلص من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصي حر ومولاه راشد، ونزل بو ليلى سنة اثنتين وسبعين، وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد امير أوربة وكبيرهم لعهده فاجاره، واجمع البرابر على القيام بدعوته، وكشف القناع في ذلك، واجتمعت عليه زواغة ولواتة ومدراته وغياثة ونفرة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب فبايعوه، وقاموا بأمره.

وخطب الناس يوم بويع فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا فإنّ الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا ولحق به من إخوته سليمان، ونزل بأرض زناتة من تلمسان ونواحيها ونذكر خبره فيما بعد.

(ولما استوثق) أمر إدريس وتمت دعوته زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسيّة واليهوديَّة. والنصرانيَّة مثل قندلاوة وبهلوانة ومديونة وما زار، وفتح تامستا ومدينة شالة وتادلا، وكان أكثرهم على دين الّيهودية والنصرانيّة فأسلموا على يديه طوعاً وكرهاً وهدم معاقلهم وحصونهم. ثم يزحف إلى تلمسان وبها من قبائل بني يعرب ومغراوه سنة ثلاث وسبعين، ولقيه أميرها محمد بن حرز بن جزلان فأعطاه الطاعة، وبذل له إدريس الأمان ولسائر زناتة فأمكنه من قياد البلد، وبنى مسجدها وأمر بعمل

منبره، وكتب اسمه فيه حسبما هو مخطوط في صفح المنبر لهذا العهد. ورجع إلى مدينة وليلى، ثم دسّ إليه الرشيد مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشمّاخ أنفذه بكتابة إلى ابن الأغلب فأجازه، ولحق بإدريس مظهراً التروع

إليه فيمن نزع من وهران المغرب متبرئا من الدعوة العبّاسية ومنتحلًا للطلب. واختصه الإمام إدريس وحلا بعينه وكان قد تأبّط سمًّا في سنون، فناوله إيّاه عند شكايته من وجع أسنانه، فكان فيه كما زعموا حتفه ودفن بوليلى سنة خمس وسبعين.

وفر الشمّاخ ولحقه فيما زعموا راشد بوادي ملويَّة فاختلفا ضربتين قطع فيها راشد يد الشمّاخ، وأجاز الوادين فاعجزه، واعتلق بالبرابر من أوربة وغيرهم فجمل من دعوته في ابنه إدريس الأصغر من جاريته كتزه، بايعوه حملاً ثم رضيعاً ثم فصيلاً إلى أن شبّ واستنم فبايعوه بجامع وليلى سنة ثمان وثمانين ابن إحدى عشرة سنة، وكان ابن الأغلب دسّ إليهم الأموال واستمالهم حتى قتلوا راشداً مولاه سنة ست وثمانين، وقام بكفالة إدريس

من بعده أبو خالد بن يزيد بن الياس العبديّ، و لم يزل كذلك إلى أن بايعوا لإدريس، فقاموا بأمره وجردوا لانفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته، وافتتحوا بلاد المغرب كلّها واستوثق لهم الملك بها، واستوزر إدريس مصعب بن عيسى الأزدي المّسمى بالملجوم من ضربة في بعض حروبهم.

وسمته على الخرطوم وكأنها خطام، ونزع إليه كثير من قبائل العرب والأندلس، حتى اجتمع إليه منهم زهاء خمسمائة فاختصهم دون البربر، وكانوا له بطانة وحاشية، واستفحل بهم سلطانه. ثم قتل كبير أوربة إسحاق بن محمود سنة اثنتين وتسعين لما أحسّ منه بموالاة إبراهيم بن الاغلب، وكثرت حاشية الدولة، وأنصارها، وضاقت وليلى بهم فاعتام موضعاً لبناء مدينة لهم، وكانت فاس موضعا لبني بوغش وبني الخير من وزاغة، وكان في بني بوغش مجوس ويهود ونصارى، وكان موضع شيبوبة منها بيت نار لمجوسهم، وأسلّموا كلهم على يده. وكانت بينهم فتن فبعث للإصلاح بينهم كاتبه أبا الحسن عبد الملك بن مالك الخزرجيّ. ثم جاء إلى فاس وضرب أبنيته بكزواوه، وشرع في بنائها فاختط عدوة، الأندلس سنة اثنين وتسعين. وفي سنة ثلاث بعدها اختطّ عدوة القرويين وبنى مساكنه، وانتقل إليها، وأسس جامع الشرفاء، وكانت عدوة القرويّين من لدن باب السلسلة إلى غدير الجوزاء والجرف، واستقام له أمر الخلافة وأمر القائمين بدعوته وأمر العزَ والملك.

ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبع وتسعين فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته. ثم غزا تلمسان وجدّد بناء مسجدها وإصلاح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين، وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحوا دعوة الخوارج منهم، واقتطع الغربيّين عن دعوة العبّاسيين من لدن الشموس الاقصى إلى شلف. ودافع إبراهيم بن

الأغلب عن حماه بعد ما ضايقه بالمكاد، واستقاد الأولياء، واستمال بهلول بن عبد الواحد المظفري بمن معه من قومه عن طاعة إدريس إلى طاعة هارون الرشيد. ووفد عليه بالقيروان، واستراب إدريس بالبرابرة فصالح

ابراهيم بن الأغلب، وسكن من غربه. وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة، ودافعوا خلفاء بني العبّاس بالمعاذير بالغضّ من إدريس والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أوهن من خيوط العناكب.

(وهلك إدريس) سنة ثلاث عشرة، وقام بالأمر من بعده ابنه محمد بعهده إليه فأجمع أمره بوفاة جدّته كترة أمّ إدريس، على أن يشرك إخوته في سلطانه ويقاسم ممالك أبيه. فقّسم المغرب بينهم أعمالاً اختص منها القاسم بطنجة وبسكلة وسبته وتيطاوين وقلعة حجر النسر وما إلى ذلك من البلاد والقبائل واختصّ عمر بتيكيسان وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازى وما بينهما من القبائل: مكناسة وغياثة واختص عبد الله بإغمات وبلد نفيس وجبال المصامده وبلاد لمطة والسوس الأقصى واختص يحيى <*>، بأصيلاً والعرائش وبلاد زوغة وما إلى ذلك.

واختص عيسى بشالة وسلا وأزمور وتامستا وما إلى ذلك من القبائل. واختص حمزة بوليلى وأعمالها، وأبقى الباقين في كفالتهم وكفالة جدّتهم كترة لصغرهم. وبقيت تلمسان لولد سليمان بن عبد الله. وخرج عيسى بأزمور على أخيه محمد طالباً الأمر، لنفسه فبعث لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع. ولما أوقع عمر بعيسى وغلب على ما في يده إستنابه إلى أعماله باذن أخيه محمد. ثم أمره أخوه محمد بالنهوض إلى حرب

القاسم لقعوده عن إجابته في محاربة عيسى فزحف إليه، وأوقع به، واستناب عليه إلى ما في يده فصار الريف البحري كلّه من عمل عمر هذا من تيكيسان، وبلاد غمارة إلى سبتة، ثم إلى طنجة. وهذا ساحل البحر الرومي ثم ينعطف إلى أصيلا ثم سلا، ثم أزمور وبلاد تامستا، وهذا ساحل البحر الكبير. وتزهد القاسم وبنى رباطا بساحل أصيلا للعبادة إلى أن هلك.

واتسعت ولاية عمر بعمل، عيسى والقاسم، وخلصت طويته لأخيه

محمد الأمير، وهلك في إمارة أخيه محمد ببلد صنهاجة بموضع يقال له :فجّ الفرس سنة عشرين ومائتين، ودفن بفاس وعمر هذا هو جدّ المحموديّن الدائلين بالأندلس من بني أمية كما نذكره. وعقد الأمير محمد على عمله لولده عليّ بن عمر. ثم كان مهلك الأمير محمد لسبعة أشهر من مهلك أخيه عمر سنة إحدى وعشرين ومائتين بعد أن استخلف ولده علياً في مرضه وهو ابن تسع سنين فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة، وبايعوه غلاماً مترعرعاً، وقاموا بأمره وأحسنوا كفالته وطاعته فكانت أيامه يخر أيام، وهلك سنة أربع وثلاثين لثلاث عشرة سنة من ولايته، وعهد لأخيه يحيى بن محمد فقام بالأمر، وامتدّ سلطانه، وعظمت دولته، وحسنت آثار ايامه.

واستجدّت فاس في العمران وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار، وبينت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمّى أم البنين بنت محمد الفهريّ ،وقال ابن أبي ذرع اسمها فاطمة، وإنها من هّوارة، وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها واعتزمت على صرفه في وجوه الخير فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين أصغر ما كان سنة خمس وأربعين في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئراً شراباً للناس، فكأنما نبّهت بذلك عزائم الملوك من بعدها، ونقلت إليه الخطبة من جامع ادري لضيق محلته وجوار بيته.

واختط بعد ذلك أحمد بن سعيد بن أبي بكر اليغرنيّ صومعته سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، على رأس مائة سنة من اختطاط الجامع حسبما هو منقوش في الحجارة بالركن الشوقي منها. ثم أوسع في خطته المنصور بن أبي عامر، وجلب إليه الماء وأعدّله السقاية والسلسلة بباب الحفاة منه. ثم أوسع في خطته آخر ملوك لمتونة من الموحدين، وبنى مرين واستمرّت العمارة به، وانصرفت هممهم إلى تشييده والمنافسات في الاحتفال به فبلغ الاحتفال فيه ما شاء الله حسبما هو مذكور في تواريخ المغرب. وهلك يحيى هذا سنة وولي ابنه يحيى بن يحيى فأساء السيرة وكثر عبثه في الحرم، وثارت به العامّة لمركب شنيع أتاه وتولى كبر الثورة عبد الرحمن بن أبي سهل الحزامي، وأخرجوه من عدوة القرويّين إلى عدوة الأندلسيّين فتوارى ليلتين، ومات أسفاً لليلته. وانقطع الملك من عقب محمد

بن ادريس. وبلغ الخبر بشأن يحيى إلى ابن عمّه علي بن عمر صاحب الريف ،واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجاء إلى فاس ودخلها وبايعو، واستولى على أعمال المغرب إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الخارجي، خرج بجبال لمتونة وكان على رأي الصفريّة فزحف إلى فاس، وغلب عليها ففرّ إلى أوربة، وملك

عبد الرزاق عدوة الأندلس، وامتنعت منه عدوة القرويّين، وولوا على أنفسهم يحيى بن القاسم بن إدريس، وكان يعرف بالصرام، بعثوا إليه فجاءهم في جموعه، وكانت بينه وبين الخارجي حروب. ويقال إنه اخرجه من عدوة الأندلس، واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن أبي صفرة. ثم استعمل إبنه عبد الله ،المعروف بعبود من بعده، ثم ابنه محارب بن عبود بن ثعلبة إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين. وقام بالأمر مكانه يحيى بن إدريس بن عمر صاحب الريف، وهو ابن أخي عليّ بن عمر فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني ادريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً، وكان فقيهاً عارفاً بالحديث، ولم يبلغ احد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة، وفي أثناء ذلك كله خلط الملك للشيعة بأفريقيا، وتغلّبوا على الإسكندرية واختطوا المهديّة كما نذكره في دولة كتامة. ثم طمحوا إلى ملك المغرب، وعقدوا لمضالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة، فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة، وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة وسائر البرابرة والموالي، والتقوا على مكناسة وكانت الدبرة على يحيى وقومه، ورجع إلى فاس مغلولاً، وأجاز له بها معاملة إلى أن صالحه على مال يؤديه إليه وطاعة معروفة لعبيد الله الشيعي سلطانه، يؤدّيها فقبل الشرط، وخرج عن الأمر، وخلع نفسه، وأنفذ بيعته إلى عبيد الله المهديّ وابقى عليه مصالحه في سكنى فاس، وعقد له على عملها خاصة، وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يومئذ وصاحب سنوروتازه على سائر أعمال البربر كما نذكره في أخبار مكناسة ودولة موسى.

وكان بين موسى بن أبي العافية وبين يحيى بن إدريس شحناء وعداوة، يضطغنها كل واحد لصاحبه حتى إذا عاد مضالة إلى المغرب في غزاته الثانية سنة تسع أغزاه موسى بن أبي العافية بطلحة بن يحيى بن إدريس صاحب فاس، فقبض عليه مضالة واستصفى أمواله وذخائره وغّربه إلى أصيلا والريف عمل ذي قرباه ورحمه، وولّى على فاس ريحان الكتامّي. ثم خرج يحيى يريد إفريقيا فاعترضه ابن أبي العافية وسجنه سنتين واطلقه ولحق بالمهدية سنة إحدى وثلاثين، وهلك في حصار أبي يزيد سنة واستبد ابن أبي العافية بملك المغرب وثار على ريحان الكتامّي بفاس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بالحجّام، ونفى ريحان عنها وملكها عامين، وزحف للقاء موسى بن أبي العافية، وكانت بينهما حروب شديدة هلك فيها ابنه منهال بن موسى، وانجلت المعركة على أكثر من ألف قتيل، وخلص الحسن إلى فاس منهزماً وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله.

وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس وملكها وطالبه بإحضار الحسن فدافعه عن ذلك، وأطلق الحسن متنكراً فتدلى من السور فسقط ومات من ليلته. وفّر حامد بن حمدان إلى المهدّية، وقتل موسى بن أبي العافية عبد الله بن ثعلبة بن محارب وابنيه محمداً ويوسف، وذهب ملك الأدارسة، واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم ابراهيم بن محمد بن القاسم أخي الحسن وولّوه عليهم، واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك وهو حجر النسر سنة

سبع عشرة وثلاثمائة، وانزلوه وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمّر الناصر المرواني لطلب المغرب، وملك سبتة عليّ بن إدريس سنة تسع عشرة، وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن ادريس بن عمر فانجابوا له عنها وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد فتوليّ عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكانون، وهو اخو الحسن الحجّام، واسمه القاسم بن محمد بن القاسم، وقام بدعوة الشيعة انحرافاً عن أبي العافية ومذاهبه. واتصل الأمر في ولده، وغمارة أولياؤهم والقائمون بأمرهم كما نذكره في أخبار غمارة.

ودخلت دعوة المروانيين خلفاء قرطبة إلى المغرب، وتغلّبت زناتة على الضواحي. ثم ملك بنو يعرب فاس وبعدهم مغراوة وأقام

الأدارسة بالريف مع غمارة وتجدّد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة وقلعة حجر النسر ومدينة سبتة وأصيلا. ثم تغلّب عليهم المروانيون وأنخنوهم إلى الأندلس،، ثم أجازوهم إلى الاسكندرية. وبعث العزيز العبيديّ بن كانون منهم لطلب ملكهم بالمغرب فغلبه عليه المنصور بن أبي عامر وقتله.

وعليه كان انقراض أمرهم، وانقراض سلطان أوربة من المغرب، وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة فكانوا الدائلين من ملوك الأموية بالأندلس. وذلك أنّ الأدارسة لما انقرض سلطانهم، صاروا إلى بلاد غمارة واستجدّوا بها رياسة، واستمرّت في بني محمد وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس، وكانت للبربر إليهم بسبب ذلك طاعة وخلطة. وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة فأجازوا مع البربر حين أجازوا في مظاهرة المستعين. ثم غلبوه بعد ذلك على الأمر وصار لهم ملك الأندلس حسبما نذكر في أخبارهم.

(وأما سليمان) أخو إدريس الاكبر فإنه فرّ إلى المغرب أيام العبّاسيّين فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه ادريس، وطلب الأمر هناك فاستنكره البرابرة وطلبه ولاة الاغالبة فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكهما واذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك، وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على سننه ،ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه فكانت تلمسان من بعده لابنه حمد بن أحمد بن القاسم بن محمد بن أحمد، وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدعي بنو عبد الواد نسبه فإنّ هذا أشبه من القاسم بن ادريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول لعيسى بن محمد بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة، وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى، وكنيته أبو العيش، ولم تزل إمارتها في ولده ووليها بعده ابنه ابراهيم بن عيسى، ثم ابنه يحمى بن ابراهيم، ثم أخوه ادريس بن ابراهيم، وكان إدريس بن إبراهيم، صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر وأخوه يحيى كذلك. وأرتاب من قبله ميسور قائد الشيعة فقبض عليه سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، ثم انحرف عنهم فلما أخذ ابن أبي العافية بدعوة العلوية نابذ أولياء الشيعة فحاصر صاحب جراوة الحسن بن أبي العيش، وغلبه على جراوة فلحق بابن عمه إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول. ثم حاصرها البوري بن موسى

ابن أبي العافية وغلب عليهما، وبعث بهما إلى الناصر فأسكنهما قرطبة، وكانت تنس لإبراهيم بن محمد بن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه عليّ بن يحيى، وتغلّب عليه زيري بن مناد سنة إثنتين وأربعين وثلاثمائة ففرّ إلى الجبر بن محمد بن خزر، وجاز إبناه حمزة ويحيى إلى الناصر فتلقّاهما رحباً وتكرمة. ورجع يحيى منهما إلى طّلب تنس فلم يظفر بها. وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وبطوش بن حناتش بن الحسن بن محمد بن سليمان، قال ابن :حزم وهم بالمغرب كثير جداً، وكان لهم بها ممالك، وقد بطل جميعها، و لم يبق منهم بها رئيس بنواحي بجاية. وحمل بني حمزة هؤلاء جوهر إلى القيروان، وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفون هنالك عند البربر، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن صاحب الزنج وتصاريف أمره واضمحلال دعوته:

هذه الدعوة فيها اضطراب منذ اوّلها فلم يتم لصاحبها دولة، وذلك أنّ دعاة العلوية منذ زمان المعتصم من الزيدية كما شرحناه، وكان من أعظمهم الذين دعا لهم شيعتهم بالنواحي عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد، ولما اشتهر أمره فرّ وقتل ابن عمه عليّ بن محمد بن الحسن بن علم بن عيسى، وبقي هو متغيباً فادعى صاحب الزنج هذا سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهدي أنه هو فلما، ملك البصرة ظهر هذا المطلوب، ولقيه صاحب الزنج حيّاً معروفا بين الناس فرجع عن دعوى نسبه وانتسب إليه إلى يحمى بن يزيد قتيل الجون، ونسبه المسعودي إلى طاهر بن الحسين بن عليّ، وقال فيه علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن طاهر.

ويشكل ذلك بأنّ الحسين بن فاطمة لم يكن له عقب إلاّ من زين العابدين، قاله ابن حزم وغيره فإن أراد بطاهر، طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن عبيد الله بن

الحسن الأصغر بن زين العابدين فتطول سلسلة نسبه، وتشتمل على إثني عشرة إلى الحسين بن فاطمة، ويبعد ذلك إلى العصر الذي ظهر فيه. والذي عليه المحقّقون الطبري وابن حزم وغيرهما أنه رجل من عبد القيس من قرية تسمّى ودريفن من قرى الري، وإسمه علي بن عبد الرحيم حدثّته نفسه بالتوثب، ورأى كثرة خروج الزيديّة من الفاطميين فانتحل هذا النسب وادّعاه، وليس من أهله. ويصدق هذا أنه كان خارجيّاً على رأي الأزارقة يعلن الطائفتين من أهل الجمل وصفين، وكيف يكون هذا من علويّ صحيح النسب؟ ولأجل انتحاله هذا النسب وبطلانه في دعاويه فسد أمره فقتل و لم تقم له دولة بعد أن فعل الأفاعيل، وعاث في جهات البصرة، واستباح الأمصار وخرّبها، وهزم العساكر وقتل الأمراء الأكابر، واتخذ لنفسه حصونا قتل فيها، من جاوبه لمكره، سنة الله في عباده.

(وسياق الخبر عنه)أنه شخص من الذين حجبوا ببغداد مع جماعة من حاشية المنتصر، ثم سار إلى البحرين سنة تسع واربعين ومائتين فادّعى انه علويّ من ولد الحسين بن عبيد الله بن عباس بن عليّ، ودعا الناس إلى طاعته فاتبعه كثير من أهل هجر. ثم تحوّل إلى الإحساء، ونزل على بعض بني تميم ومعه قوارة يحيى بن محمد الأزرق

وسليمان بن جامع، وقاتل أهل البحرين فهزموه وافترقت العرب عنه، ولحق بالبصرة والفتنة فيها بين البلاليّة والسعديّة، وبلغ خبره محمد بن رجاء العامل فطلبه فهرب وحبس أبنه وزوجته وبعض أصحابه، ولحق هو ببغداد فانتسب إلى عيسى بن زيد الشهيد كما قلناه، وأقام بها حولاً. ثم بلغه أنّ البلالية والسعدية اخرجوا محمد بن رجاء من البصرة، وأن أهله خلصوا فرجع إلى البصرة في رمضان سنة خمس وخمسين، ومعه يحمى بن محمد وسليمان بن جامع.

ومن أهل بغداد الذين استمالهم جعفر بن محمد الصمدحاني، وعلي بن أبان وعبدان غير من سمينا فنزل بظاهر البصرة، ووجّه دعوته إلى العبيد من الزنوج وأفسدهم على مواليهم ورغبّهم في العتق، ثم في الملك، واتخذ راية رسم فيها، "إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم" الآية. وجاءه موالي العبيد في طلبهم فأمرهم بضربهم وحبسهم، ثم أطلقهم. وتسايل إليه الزنوج واتبعوه، وهزم عساكر البصرة والأبلّة وذهب إلى القادسية، وجاءت العساكر من بغداد فهزمهم، ونهب النواحي، وجاء المدد إلى البصرة مع جعلان من ّقواد الترك، وقاتلوه فهزمهم. ثم ملك الأبلّة واستباحها، وسار إلى الأهواز، وبها إبراهيم بن المدبر على الخوارج 0فافتتحها وأسر ابن

المدير سنة ست وخمسين، إلى أن فر من محبسهم فبعث المعتمد سعيد بن صالح الحاجب لحربهم سنة سبع وخمسين، وهو يومئذ عامل البصرة وسار من واسط فهزمه علي بن أبان من قوّاد الزنج لحربهم، هزمه إلى البحرين فتحصّن بالبصرة، وزحف علي بن أبان لحصاره حتى نزل على أمانه، ودخلها وأحرق جامعها، ونكب عليه صاحب الزنج فصرفه، وولّى على البصرة مكانه يحيى بن محمد البحراني.

وبعث المعتمد محمد المولد إلى البصرة فأخرج عنها الزنج، ثم بيتوا محمد بن المولد فهزموه0 ثم ساروا إلى الأهواز، وعليها منصور الخياط فواقع الزنج فغلبوه وكان المعتمد قد استقدم أخاه أبا أحمد الموفق من مكة وعقد له على الكوفة والحرمين وطريق مكة واليمن، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز، وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد بن صالح. ثم انهزم سعيد بن صالح فعقد يارجوج لمنصور بن جعفر مكانه، ثم قتله الزنج كما قلناه فأمر المعتمد أخاه الموفّق بالمسير إليهم في ربيع سنة ثمان وخمسين، وعلى مقدّمته مفلح فأجفل الزنج عن البصرة، وسار قائدهم عليّ بن أبان فلقي مفلحاً فقتل مفلح وانهزم أصحابه ورجع الموفّق إلى سامّرا، وكان اصطيخور ولي الأهواز بعد منصور الخيّاط، وجاءه يحيى بن محمد البحراني من قّواد الزنج، وبلغهم مسير الموفق فانهزم يحمى البحراني، ورجع في السفن فأخذ وحمل إلى سامرا فقتل وبعث صاحب الزنج مكانه عليّ بن أبان وسليمان الشعراني فملكوا الأهواز من يد اصطيخور سنة تسع وخمسين، بعد ان هزموه وهرب في السفن فغرق.

وسرحّ المعتمد لحربهم موسى بن بغا بعد أن عقد له على تلك الأعمال فبعث إلى الأهواز عبد الرحمن بن مفلح، وإلى البصرة إسحاق بن كيداجق، وإلى باداورد إبراهيم بن سليمان، وأقاموا في حروبهم مدّة سنة ونصفها. ثم استعفى موسى بن بغا وولّى على تلك

الأعمال مكانه مسرور البلخي، وجهّز المعتمد أخاه أبا أحمد الموفقّ حربهم بعد أن عهد له بالخلافة ولقبه الناصر لدين الله الموفق، وولّي على أعمال المشرق كلها إلى آخر أصفهان، وعلى الحجاز فسار لذلك سنة أثنتين وستين واعترضه يعقوب الصفّار يريد بغداد فشغل بحربه، وانهزم الصفّار وانتزع من يده ما كان ملكه من الأهواز.

وكان مسرور البلخي قد سار إلى المعتمد وحضر معه حرب الصفّار فاغتنم صاحب الزنج خلو تلك النواحي من العسكر، وبث سراياه للنهب والتخريب في القادسيّة، وجاءت العساكر من بغداد مع أغرتمش وخشنش فهزمهم الزنج وقائدهم سليمان بن جامع، وقتل خشنش. وكان علي بن أبان من قوّادهم قد سار إلى الأهواز، وأميرها يومئذ محمد بن هزار مرد الكردي فبعث مسرور البلخي أحمد بن الينونة للقائهم فغلب أولاً على الأهواز عليّ بن أبان 0ثم ظاهره، محمد بن هزار مرد والأكراد فرجع إلى السوس، وأقام علي بن أبان وصاحبه بتستر، وطمع أنه يخطب لصاحب الزنج فخطب هو للصفّار فاقتتلا، وانهزم علي بن أبان وخرج، واضطربت فارس بالفتنة.

ثم ملك الصفّار الأهواز وواعد الزنج، وسار سليمان بن جامع من قوّاد الزنج، وولّى الموفّق على مدينة واسط أحمد بن المولد، فزحف إليه الخليل بن أبان فهزمه، واقتحم واسطاً واستباحها سنة أربع وستين وضربت خيولهم في نواحي السواد إلى النعمانية إلى جرجرايا فاستباحوها، وسار علي بن ابان إلى الأهواز فحاصرها، واستعمل الموفق عليها مسروراً البلخيّ فبعث تكيد البخاريّ إلى تستر فهزمهم علي بن أبان وجماعة الزنج، وسألوه الموادعة فوادعهم واتهمه مسرور فقبض عليه، وبعث مكانه اغرتمش فهزم الزنج أولاً ثم هزموه ثانياً فوادعهم. ثم سار علي بن أبان إلى محمد بن هزارمرد الكرديّ فغلبه على رامهرمز حتى صالحه عليها على مائتي ألف درهم، وعلى الخطبة له في أعماله. ثم سار ابن أبان لحصار بعض القلاع بالأهواز، فزحف إليه مسرور البلخيّ فهزمه واستباح معسكره.

وكان الموفق لما اقتحم الزنج مدينة واسط بعث ابنه أبا العبّاس سنة ست وستين فم عشرة آلاف من المقاتلة، ومعه السفن في النهر عليها أبو حمزة نصير فكتب إليه نصير بان سليمان بن جامع اقبل

في المقاتلة، والسفن براً وبحراً وعلى مقدمته الجناني، ولحقهم سليمان بن موسى الشعراني بالعساكر، ونزلوا من الطفح إلى أسفل واسط فسار إليهم أبو العبّاس فهزمهم فتأخروا وراءهم وأقام على واسط يرددّ عليهم الحروب والهزائم مرة بعد أخرى ،ثم أمر صاحب الزنج قائده ابن أبان وابن جامع أن يجتمعا الحرب أبي العبّاس بن الموفق، وبلغ ذلك الموفّق فسار من بغداد في ربيع سنة سبع وستين فانتهى إلى المنيعة، وقاتل الزنج فانهزموا أمامه واتبعهم أصحاب أبي العبّاس إبنه فاقتحموا عليهم المنيعة وقتلوا وأسروا، وهدم سور المنيعة وطمس خندقها، وهرب الشعراني وابن جامع0 وسار أبو العباس إلى المنصورة بطهشا فنازلها وغلب عليها، وأفلت ابن جامع إلى واسط وغلب على ما فيها من الذخائر والأموال، وهدم سورها

وطمّ خنادقها ورجع إلى واسط. ثم سار الموفّق إلى الزنج بالأهواز واستخلف ابنه هرون على جنده بواسط، وجاءه الخبر برجوع الزنج إلى طهشا والمنصورة ،فردّ إليهم من يوقع بهم، ومضى لوجهه فانتهى إلى السوس وعليّ بن أبان بالأهواز، فسار إلى صاحبه واستأمن المخلفون هنالك إلى الموفّق فأمّنهم، وسار إلى تستر وأمّن محمد بن عبد الله الكردي، ثم وافى الاهواز وكتب إلى ابنه هرون أن يوافيه بالجند بنهر المبارك من فرات البصرة ،وبعث ابنه أبا العبّاس لحرب الخبيث بنهر أبي الخصيب وأستأمن إليه جماعة من قوّاده فأمّنه وكتب إليه بالدعوة والأعذار، وزحف إليه في مدينته المختارة له، وأطلق السفن في البحر وعبّى عساكره وهي نحو من خمسين ألفاً والزنج في نحو من ثلاثمائة ألف مقاتل، ونصب الالات ورتّب المنازل للحصار، وبنى المقاعد للقتال واختطّ مدينة الموفقية لنزوله، وكتب بحمل الأموال والميرة إليها فحملت، وقطع الميرة عن المختارة، وكتب إلىظالبلاد بإنشاء السفن والاستكثار منها، وقام يحاصرها من شعبان سنة سبع وستين إلى صفر من سنة سبعين.

ثم اقتحم عليهم المختارة فملكها وفّر الخبيث وابنه انكلاي وابن جامع إلى معقل أعده، واتبعه طائفة من الجند فانقطعوا عنه، وأمرهم من الغد باتباعه فانهزم وقتل من أصحابه وأسر ابن جامع. ثم قتل صاحب الزنج وجيء برأسه، ولحق انكلاي بالديناري في خمسة آلاف، ولحقهم أصحاب الموفق فظفروا بهم وأسروهم أجمعين.

وكان درمونة من قواده قد لحق

بالبطيحة، واعتصم بالمغايض والآجام ليقطع الميرة عن أصحاب الموفّق. فلما علم بقتل صاحبه استأمن إلى الموفّق فأمنّه. ثم أقام الموفق بمدينته قليلا وولى على البصرة والأبلة وكوردجلة، ورجع إلى بغداد فدخلها في جمادى سنة سبعين، وكان لصاحب الزنج من الولد محمد ولقبه انكلاي، ومعناه بالزنجية ابن الملك، ثم يحيى وسليمان والفضل حبسوا في المطبق إلى أن هلكوا. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن دعاة الديلم والجبل من العلويّة وما كان لهم من الدولة بطبرستان للدّاعي و أخيه أولاً. ثم للأطروش وبنيه وتصاريف ذلك إلى انقضائه:

(كان) أبو جعفر المنصور قد اختص من العلوية من بني الحسن السبط حافده

الحسن بن زيد بن الحسن وولاّه المدينة، وهو الذي امتحن الإمام مالكاً رحمه الله كما هو معروف. وهو الذي أغرى المنصور من قبل ببني حسن وأخبره بدسيسة محمد المهديّ وابنه عبد الله في شأن الدعاء لهم حتى قبض عليهم وحملهم إلى العراق كما قدّمناه. وكان له عقب بالريّ منهم: الحسن بن زيد بن محمد بن إسمعيل بن الحسن والي المدينة، ولما حدث بين عامل طبرستان محمد بن أوس الكافل بها لسليمان بن عبد الله بن طاهر نائباً عن محمد بن طاهر صاحب خراسان، وبين محمد وجعفر من بني رستم من أهل نواحي طبرستان حادث فتنة، وقد تقدّم ذكرها، أغروا به أهل تلك النواحي وبعثوا إلى الديلم ليستنجدوا بهم عليه، وكانوا على المجوسيّة يومئذ، وهم حرب لمحمد بر، أوس لدخوله بلادهم، وقتله وسبيه منهم أيام المسالمة، وملكهم يومئذ وهشوذار بن حسّان فأجابوا ابني رستم إلى حربه.

وبعث ابنا رستم إلى محمد بن إبراهيم بطبرستان لكون الدعوة له فامتنع ،ودلهم

على الحسن بن زيد بالري فاستدعوه بكتاب محمد بن إبراهيم فشخص إليهم، وقد اتفق الديلم وابنا رستم وأهل ناحيتهم على بيعته فبايعوه، وانضم إليهم أهل جبال طبرستان. وزحف إلى آمد فقاتله ابن أوس دونه، وخالفه الحسن بن زيد في جماعة إلى آمد فملكها، ونجا ابن أوس إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر بسارية وزحف إليهم الحسن فخرجوا للقائه فناشبهم

الحرب، وبعث بعض قواده، إلى سارية فملكها، وانهزم سليمان إلى جرجان، واستولى الحسن على معسكره بما فيه وعلى حرمه وأولاًده فبعثهم إليه في السفن.

ويقال: إنّ سليمان انهزم له لدسيسة التشّيع التي كانت في بني طاهر، ثم أقبل الحسن بن زيد إلى طبرستان فملكها وهرب عنها سليمان.، ثم بعث الحسن دعاته إلى النواحي، وكان يعرف بالداعي العلوي فبعث إلى الري القاسم ابن عمّه علي بن إسمعيل، وبها القاسم بن علي بن زيد العابدين السمري فملكها، واستخلف بها محمد بن جعفر بن أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن زين العابدين. وبعث إلى قزوين الحسين المعروف بالكوكبي بن أحمد بن محمد بن إسمعيل بن محمد بن جعفر، وهزمه وأسره فبعث الحسن بن زيد قائده دواجن إلى محمد بن ميكال فهزمه وقتله، وملك الري من يده، وذلك سنة خمسين ومائتين.

ثم زحف سليمان بن عبد الله بن طاهر من جرجان في العساكر فأجفل الحسن بن زيد عن طبرستان إلى الديلم ودخلها سليمان. ثم قصد سارية وأتاه ابنا قاران بن شهرزاد من الديلم، وأتاه أهل آمد وغيرهم طائعين فصفح عنهم. ثم سار محمد بن طاهر إلى لقاء الحسن فهزمه، وقتل من أعيان أصحابه ثلاثمائة وأربعين رجلاً 0ثم زحف موسى بن بغا لحربهم سنة ثلاث وخمسين فلقيه الحسن الكوكبي على قزوين، وأنهزم إلى الديلم، واستولى موسى بن بغا على قزوين، ثم رجع الكوكبيّ سنة ست وخمسين فاستولى على الري، واستولى القاسم بن علي بعدها على الكرخ سنة سبع0 ثم زحف الحسن بن زيد إلى جرجان، وبعث إليها محمد بن طاهر صاحب خراسان العساكر فهزمهم الحسن، وغلبهم عليها، وانتقض أمر ابن طاهر بخراسان من يومئذ واختلف المغلبون عليه، وكان ذلك داعياً إلى انتزاع يعقوب الصفّار خراسان من يده. ثم غلبه الحسين سنة تسع وخمسين على قومس.

استيلاء الصفار علي طبرستان:

كان عبد الله السخري، ينازعه يعقوب بن الليث الصفّار الرياسة بسجستان، فلما استولى يعقوب على الأمر هرب عبد الله إلى نيسابور مستجيراً بابن طاهر فاجاره. فلما هلك يعقوب الصفار بنيسابور، هرب عبد الله إلى الحسن بن زيد ونزل سارية وبعث فيه

يعقوب الصفار فلم يسلمه الحسن بن زيد، فسار إليه يعقوب سنة ستين، وهزمه فلحق بارض الديلم، ولحق عبد الله بالري، وملك يعقوب سارية وآمد، وجبى خراجها، وسار في طلب الحسن فتعلق بجبال طبرستان واعترضته الأمطار والأوحال فلم يخلص إلا بمشقة. وكتب إلى الخليفة بخبر الحسن، وما فعله معه، وسار إلى الريّ في طلب عبد الله السخري فأمكنه منه، والي الريّ فقتله.

ثم رجع الحسن بن زيد إلى طبرستان سنة إحدى وستين، وغلب عليها اصحاب الصفار، واقتطعها عنهم. ثم انتقض السجستانيّ على يعقوب بن الليث بخراسان، وملكها من يده كما ذكرناه فسار وحاربه أبو طلحة بن شركب وامره الحسن بن زيد فسار السجستاني إلى محاربته بسبب ذلك سنة خمس وستين، وانتزاع جرجان من يده، ثم خرج عنها بقتال عمرو بن الليث بعد موت أخيه يعقوب كما نذكر في أخبارهم، فملكها الحسن بن زيد. ثم أوقع السجستاني بالحسن بن زيد سنة ست وستين، كبسه بجرجان

وهو غاز فهزمه، ولحق بآمد، وملك سارية، واستخلف عليها الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الله الشيعي بن الحسين الأصغر بن زين العابدين. وانصرف فأظهر . الحسن بسارية قتل الحسن بن زيد، ودعا لنفسه فبايعه جماعة، ثم وافاه الحسن بن زيد فظفر به وقتله.

وفاة الحسن بن زيد وولاية أخيه:

ثم توفي الحسن بن زيد صاحب طبرستان في رجب سنة سبعين وولي مكانه أخوه محمد، وكان قيامهم أولاً على ابن طاهر كما ذكرناه. ثم غلب يعقوب الصفار على خراسان، وانتقض عليه أحمد السجستاني، وملكها من يده. ثم مات يعقوب سنة خمس وستين وولي مكانه أخوه عمرو، وزحف إلى خراسان، وقاسم السجستاني فيها، وكانت بينهما حروب، وكان الحسن داعي طبرستان يقابلهما جميعاً إلى ان هلك، وولي مكانه أخوه كما ذكرناه. وكانت قزوين تغلّب عليها أثناء ذلك عساكر الموفّق، ووليها أذكوتكين من مواليهم فزحف إلى الري سنة اثنتين وسبعين، وزحف إليه محمد

بن زيد في عالم كبير من الديلم وأهل طبرستان وخراسان فانهزم، وقتل من عسكره ستة آلاف، وأسر ألفان، وغنم أذكوتكين عسكره جميعا وملك الريّ وفرق عماله في نواحيها. ثم مات السجستاني وقام بأمره في خراسان رافع بن الليث من قواد الظاهرية فغلب محمد بن زيد على طبرستان وجرجان فلحق بالديلم، ثم صالحه سنة إحدى وثمانين، وخطب له فيها سنة إثنتين وثمانين على أن ينجده على عمرو بن الليث0 وكتب له عمرو بن الليث يعذله عن ذلك فأقصر عنه، فلما غلب عمرو على رافع رعى لمحمد بن زيد خذلانه لرافع فخفى له عن طبرستان وملكها.

مقتل محمد بن زيد:

كان عمرو بن الليث لما ملك خراسان، وقتل رافع بن هرثمة، طلب من المعتضد ولاية ما وراء النهر فولاّه. واتصل الخبر بإسماعيل بن أحمد الساماني ملك تلك الناحية فعبر جيحون، وهزم جيوش عمرو بن الليث، ورجع إلى بخارى، فزحف عمرو بن الليث من نيسابور إلى بلخ وأعوزه العبور. وجاء إسمعيل فعبر النهر، وأخذ عليه الجهات بكثرة جموعه فأصبح كالمحاصر، ثم اقتتلوا فانهزم عمرو وأسره إسمعيل، وبعث به إلى المعتضد سنة ثمان وثمانين فحبسه إلى أن قتل، وعقد لإسماعيل على ما كان بيد عمرو. ولما اتصل بمحمد بن زيد، واقعة عمرو وأمره سار من طبرستان لا يرى أنّ إسمعيل يقصدها فلما انتهى إلى جرجان بعث إليه إسمعيل يصده عن ذلك فأبى، فسرح إليه محمد بن هرون، وكان من قواد رافع بن هرثمة، وصار من قواد إسمعيل بن سامان فلقي

ا محمد بن زيد على جرجان واقتتلوا فانهزم محمد بن هارون أولاً. ثم رجعت الكرة على محمد بن زيد، وافترقت عساكره، وقتل من عسكره عالم وأسر أبنه زيد، وإصابته هو جراحات هلك منها، لأيام قلائل، وغنم ابن هارون عسكره بما فيه، وسار إلى طبرستان فملكها، وبعث يزيد إلى إسمعيل فأنزله ببخارى، ووسع عليه الانفاق، واشتدت عليه شوكة الديلم. وحاربهم إسمعيل سنة تسع وثمانين، وملكهم يومئذ ابن حسان فهزمهم، وصارت طبرستان وجرجان في ملك بني سامان مع خراسان، إلى أن ظهر بها الأطروش كما نذكر بعد. ويقال إن زيد بن محمد بن زيد ملك طبرستان من بعد ذلك، إلى أن توفي وملكها من بعده إبنه الحسن بن زيد.

ظهور الأطروش العلوي وملكه طبرستان:

الأطروش هذا من ولد عمر بن زين العابدين الذي كان منهم داعي الطالقان أيام المعتصم، وقد مر ذلك.
واسم الأطروش الحسن بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن عمر، دخل إلى الديلم بعد مقتل محمد بن زيد وأقام فيهم ثلاث عشرة سنة، يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ من العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسّان فأسلم منهم خلق كثير، واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد، وحملهم على رأي الزيدية فدانوا به. ثم دعاهم إلى المسير معه إلى طبرستان. وكان عاملها محمد بن نوح، من قبل أحمد بن إسمعيل بن سامان، وكان كثير الإحسان إليهم فلم يجيبوا الأطروش إلى البغي عليه. ثم عزل ابن سامان عن طبرستان ابن نوح، وولّى عليها غيره فأساء السيرة فأعاد إليها ابن نوح، ثم مات فاستعمل عليها أبا العبّاس محمد بن إبراهيم، صعلوكاً فأساء السيرة وتنكر لرؤساء الديلم، فدعاهم الحسن الأطروش للخروج معه فأجابوه فسار إليهم صعلوك، ولقيهم بشاطئ البحر على مرحلة من سالوس فانهزم وقتل من أصحابه نحو من أربعة آلاف، وحصر الأطروش بقيتهم في سالوس حتى استأمنوا إليه فأمنهم ونزل آمد.
وجاء صهره الحسن بن قاسم بن عليّ بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد والي المدينة، وقد مر ذكره فلم يحضر قتل أولئك المستأمنين، واستولى الأطروش على طبرستان وتسمى الناصر، وذلك سنة إحدى وثلاثمائة، ولحق صعلوك بالري، وسار منها إلى بغداد.
ثم زحف الناصر سنة اثنتين [وثلثمائة] فخرج عن آمد، ولحق بسالوس، وبث إليه صعلوك العساكر فهزمهم الحسن الداعي، وهو الحسن بن زيد. ثم زحفت إليه عساكر خراسان وهي للسعيد نصر بن أحمد فقتلوه سنة أربع وثلاثمائة، وولى صهره وبنوه، وكانت بينهم حروب بالديلم كما نذكره. وكان له من الولد أبو القاسم وأبو الحسن، وكان قواده من الديلم جماعة منهم ليلى بن النعمان، وولاه صهره الحسن بعد ذلك جرجان، وما كان بن كالي، وكانت له ولاية استراباذ، ويقرأ من كتاب الديلم، وكان من قواده الديلم جماعة أخرى منهم أسفار بن شيرويه من أصحاب ما كان ومرداويج من أصحاب أسفار
والسيكري من أصحابه أيضا، ومولويه من أصحاب مرداويح، ويأتي الخبر عن جميعهم.

وكان الحسن بن قاسم صهر الأطروش، وكان رديفه في الأمر حتى كان يعرف بالداعي الصغير، واستعمل على جرجان سنة ثمان وثلاثمائة ليلى بن النعمان من كبار الديلم، وكان له مكان في قومه، وكان الأطروش وأولاًده يلقّبونه المؤيد لدين الله، المنتصر لآل رسول الله، وكانت خراسان يومئذ لنصر بن أحمد من بني سامان. وكان الدامغان ثغرها من ناحية طبرستان، وكان بها فراتكين من موالي ابن سامان فوقعت بينه وبين ليلى حروب، وهزمه ليلى، واستفحل أمره، ونزع إليه فارس مولى فراتكين فأكرمه وأصهر إليه بأخته واستأمن إليه أبو القاسم بن حفص وهو ابن أخت أحمد بن سهل قائد السامانية عندما نكب خاله أحمد فأمّنه وأجاره. ثم حرضه الحسن بن قاسم الداعي الصغير على المسير إلى نيسابور، فسار إليها، ومعه أبو القاسم بن حفص فملكها من يد فراتكين، سنة ثمان وثلاثمائة ،وخطب بها للداعي0 وأنفذ السعيد نصر عساكره إليه من بخارى مع قائده حمويّه بن عليّ، ومعه محمد بن عبيد الله البلعي وأبو جعفر صعلوك، وخوارزم شاه وسيجور الدواني ويقراخان فلقيهم ليلى بطوس، وقاتلوه فانهزم إلى آمد، ولم يقدر على الحصار، ولحقه يقراخان فقبض عليه، وبعث حمويه من قتله، واستأمن الديلم إليهم فأمّنوهم، وأشار حمويه بقتلهم فاستجاروا بالقواد، وبعث برأس ليلى إلى بغداد، وذلك في ربيع من سنة تسع وبقي فارس مولى فراتكين بجرجان.

إمارة العلوية بطبرستان بعد الأطروش:

ولما قتل الحسن الأطروش سنة أربع وثلاثمائة، كما قدّمناه، ولّى مكانه بطبرستان صهره، وهو الحسن بن القاسم، وقد مرذكره، ويسّمى بالداعي الصغير، ويلقب بالناصر. وبعض الناس يقولون هو الحسن بن محمد أخي الأطروش، هكذا قال ابن حزم وغيره، وليس بصحيح، وانما هو صهره، الحسن بن القاسم من عقب الحسين بن زيد والي المدينة. ثم من عقب حافده محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن، وكان أبو الحسن بن الأطروش باستراباذ فبايع له ما كان بن كالي، وقام بأمره فلما قتل ليلى بن النعمان صاحب جرجان، وعاد فراتكين إليها، ثم انصرف عنها

وجاءه أبو الحسن بن الأطروش باستراباذ فبايع له فملكها، فبعث السعيد بن سامان صاحب خراسان قائده سيجور الدواني في أربعة آلاف فارس لحصاره بجرجان فحاصره شهراً، ومع الحسن صاحب جيشه سرخاب بن وهشوداب، وهو ابن عم ما كان بن كالي فلما اشتدّ بهم الحصار خرج أبو الحسن وسرخاب في ثمانية آلاف من الديلم والجند فانهزم سيجور أوّلاً فاتبعوه، وقد أكمن لهم الكمائن فخرجت عليهم، وقتل من الديلم والجند نحو أربعة آلاف، وخلص أبو الحسن في البحر إلى استراباذ، ولحقه سرخاب فخلفه، وأقام سيجور بجرجان.

ثم هلك سرخاب وسار أبو الحسن إلى سارية، وإستخلف ما كان بن كالي على استراباذ، فاجتمع إليه الديلم، وولّوه على أنفسهم، وزحف إليه عساكر السعيد بن سامان فحاصروه مدّة. ثم خرج عن استراباذ إلى سارية فملكوها وولوا عليها يقراخان، وعادوا إلى جرجان، ثم إلى نيسابور، ثم سار ما كان بن كالي إلى استراباذ وملكها من يد يقراخان، ثم ملك جرجان، وأقام بها، وذلك سنة عشر وثلثمائة. ثم استولى أسفار بن شيرويه

على جرجان، واستقلّ بها، وكان سبب ذلك أنه كان من أصحاب ما كان بن كالي، ونكره لبعض أحواله فطرده من عسكره، وسار إلى أبي بكر بن محمد بن اليسع من السامانية بنيسابور فخدمه، وبعثه في عسكر إلى جرجان ليفتحها له، وقد كان ما كان سار إلى طبرستان، وولّى على جرجان مكانه أخاه أبا الحسن عليّاً، وكان أبو الحسن بن الأطروش معتقلا عنده، وهمّ ليله بقتله، وقصده في محبسه فظفر به أبو علي وقتله، وخرج من الدار. واختفى، وبعث من الغد إلى القوّاد فبايعوا لى، وولّوا عليّ جيشه علي بن خرشيد ورضوا به.
واستقدموا أسفار بن شيرويه فأستأذن بكر بن محمد وقدم عليهم، وسار إليهم ما كان بن كالي فحاربوه وغلبوه على طبرستان، وأنزلوا بها أبا عليّ بن الأطروش فأقام بها أياما، ومات على أثره علي بن خرشيد صاحب جيشه، وجاء ما كان بن كالي لحرب أسفار بطبرستان فانهزم أسفار ولحق ببكر بن محمد بجرجان، وأقام إلى أن توفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة فولاّه السعيد على جرجان، وأرسل إلى مرداويج بن دينار الجبلي، وجعله أمير جيشه،. وزحفوا إلى طبرستان فملكوها. وكان الحسن بن القاسم الدّاعي قد استولى على الريّ وقزوين وزنجان وأبهر وقمّ، وقائده ما كان بن كالي الديلميّ فسار إلى طبرستان، وقاتله أسفار فانهزم ما كان، والحسن بن القاسم الداعي، وقتل بخذلان أصحابه إيّاه، لأنه كان
يشتدّ عليهم في تغيير المنكرات فتشاوروا في أن يستقدموا هذرسيدان من رؤساء الجبل، وكان خال مرداويج ووشكين فيقدموه عليهم، ويحبسوا الحسن الداعي وينصبوا أبا الحسن بن الأطروش.
ونما الخبر بذلك إلى الداعي، وقدم هذرسيدان فلقيه الداعي مع القواد وادخلهم إلى عصره بجرجان ليأكلوا من مائدته فدخلوا، وقتلهم عن آخرهم ،فعظمت نفرتهم عنه فخذلوه في هذا الموطن وقتل، واستولى أسفار على طبرستان والريّ وجرجان وقزوين وزنجار وابهر وقُمَ والكرج، ودعا للسعيد بن سامان صاحب خراسان، وأقام بسارية، واستعمل على آمد هرون بن بهرام، وقصد بذلك استخلاصه لنفسه لأنه كان يخطب لابي جعفر، من ولد الناصر الأطروش فولاه آمد وزوّجه بإحدى نسائه الأعيان بها، وحضر عرسه أبو جعفر وغيره من العلويّين، وهجم عليه أسفار يوم عرسه بآمد، فقبض على أبي جعفر وغيره من اعيان العلويّين، وحملهم إلى بخارى فاعتقلوا بها إلى أن خلصوا من بعد ذلك.
(ومن تاريخ بعض المتأخرين): أنّ الحسن بن القاسم الداعي صهر الأطرواش، بويع بعد موته ولقب الناصر، وملك جرجان. وكان الديلم قد اشتملوا على جعفر بن الأطروش، وتابعوه فصار الداعي إلى طبرستان وملكها، ولحق جعفر بدنباوند فقبض عليه عليّ بن أحمد بن نصر وبعث به إلى عليّ بن وهشودان بن حسّان ملك الديلم وهو عامله، فحبسه عليّ بن وهشودان بن حسّان ملك الديلم فلما قتل أطلقه من بعده حسرة فيروز، فاستجاش جعفر بالديلم، وعاد إلى طبرستان فملكها وهرب الحسن. ثم مات جعفر فبويع أبو الحسن، ابن أخيه الحسن فلما ظهر ما كان بن كالي بايع للحسن الداعي وأخرجه إليه، وقبض على الحسن أحمد وهو ابن أخي جعفر وحبسه بجرجان عند أخيه أبي علي ليقتله فقتله الحسن ونجا، وبايعه القواد بجرجان.

ثم حاربه ما كان فانهزم الحسن إلى آمد، ومات بها، وبويع أخوه أبو جعفر بن محمد بن أحمد، وقصده ما كان من الري فهرب من آمد إلى سارية، وبها أسفار ابن شيرويه. فقاتل دونه، وانهزم أسفار إلى جرجان، واستأمن إلى أبي بكر بن محمد بن الياس. ثم بايع ما كان لأبي القاسم الداعي، وخرج الحسن إلى الري وطلب مرداويج بثأر خاله سيداب بن بندار. وكان الداير بجرجان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة،

وانصرف ما كان إلى الديلم، ثم ملك طبرستان وبايع بها لأبي عليّ الناصر بن إسمعيل ابن جعفر بن الأطروش، وهلك بعد مدّة. ومضى أبو جعفر محمد بن أبي الحسن أحمد بن الأطروش إلى الديلم، إلى أن غلب مرداويج على الريّ، فكتب إليه وأخرجه عن الديلم، وأحسن إليه. فلما غلب على طبرستان وأخرج ما كان عنها بايع لأبي جعفر هذا، وسمّي صاحب القلنسوة إلى أن مات، وبويع أخوه ولقب الثائر، وأقام مع الديلم. وزحف سنة ست وثلاثين إلى جرجان، وبها ركن الدولة بن بويه، فسرح إليه ابن العميد فانهزم الثائر، وتعلق بالجبال، وأقام مع الديلم وملوك العجم يخطبون له إلى أن هلك سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، لثلاثين سنة من ملكه، وبايعوا لأخيه الحسين بن جعفر، وتلقّب بالناصر، وتقبض عليه ليكوبن وشكس ملك الجبل وسلّمه وانقرض ملك الفاطميّين أجمع بتلك الجبال والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة الإسماعيلية ونبدأ منهم بالعبيديين الخلفاء بالقيروان والقاهرة. وما كان لهم من الدولة من المشرق والمغرب.

أصل هؤلاء العبيديّين من الشيعة الإمامية، وقد تقدم لنا حكاية مذهبهم، والبراءة من الشيخين ومن سائر الصحابة، لعدولهم عن بيعة عليّ إلى غيره، مع وصية النبيّ صلى الله عليه و سلم له بالإمامة بزعمهم، وبهذا امتازوا عن سائر الشيعة. وإلا فالشيعة كفهم مطبقون على تفضيل عليّ ولم يقدح ذلك عند الزيدية في إمامة أبي بكر لقولهم بجواز إمامة المفضول مع الافضل، ولا عند الكيسانية لأنهم لم يدّعوا هذه الوصية، فلم يكن عندهم قادح فيمن خالفها. وهذه الوصية لم تعرف لأحد من أهل النقل. وهي من موضوعات الإمامية، وقد يسمّون رافضة، قالوا لأنه لما

خرج زيد الشهيد بالكوفة، واختلف عليه الشيعة ناظروه في أمر الشيخين، وأنهم ظلموا علياً فنكر ذلك عليهم فقالوا له: وأنت أيضا فلم يظلمك أحد، ولا حق لك في الأمر، وانصرفوا عنه ورفضوه فسموا رافضة، وسمّي أتباعه زيدية. ثم صارت الإمامة من عليّ إلى الحسن، ثم الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق، كل هؤلاء بالوصيّة، وهم ستة أئمة لم يخالف احد من الرافضة في إمامتهم.

ثم افترقوا من ههنا فرقتين: وهم الاثنا عشرية والإسماعيلية. واختص الاثنا عشرية باسم الإمامية لهذا العهد، ومذهبهم أنّ الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم، وخرج دعاته بعد موت أبيه فحمله هرون من المدينة وحبسه عند عيسى بن جعفر، ثم أشخصه إلى بغداد وحبسه عند ابن شاهك. ويقال أنّ يحيى بن خالد سمّه في رطب فقتله، وتوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة، وزعم شيعتهم أنّ الإمام بعده ابنه عليّ الرضا وكان عظيماً في بني هاشم، وكانت له مع المأمون صحبة، وعهد له بالامر من بعده سنة إحدى ومائتين عند

ظهور الدعاة للطالبيّين، وخروجهم في كل ناحية. وكان المأمون يومئذ بخراسان، لم يدخل العراق بعد مقتل أخيه الأمين فنكر ذلك عليه شيعة العبّاسيّين وبايعوا لعمّه إبراهيم بن المهدي ببغداد، فارتحل المأمون إلى العراق وعليّ الرضا معه، فهلك عليّ في طريقه سنة ثلاث ومائتين ودفن بطوس، وبقال إن المأمون سمّه.

(ويحكى) أنه دخل عليه يعوده في مرضه فقال له: أوصني، فقال له عليّ إياك ان تعطي شيئاً وتندم عليه، ولا يصح ذلك لنزاهة المأمون عن إراقة الدماء بالباطل، سما دماء أهل البيت. ثم زعم شيعتهم أنّ الأمر من بعد علي الرضا لابنه محمد التقي، وكان له من المأمون مكان، وأصهر إليه في ابنته، فأنكحه المأمون إياها سنة خمس ومائتين، ثم هلك سنة عشرين ومائتين ودفن بمقابر قريش وتزعم الاثنا عشرية أنّ الإمام بعده ابنه عليّ، ويلقّبونه الهادي، ويقال الجواد، ومات سنة أربع وخمسين ومائتين وقبره بقمّ، وزعم ابن سعيد أن المقتدر سمَّه. ويزعمون انّ الإمام بعده ابنه الحسن، ويلقّب العسكري لأنه ولد بسر من رأى، وكانت تسمّى العسكر، وحبس بها بعد أبيه إلى أن هلك سنة ستين ومائتين، ودفن إلى جنب أبيه في المشهد، وترك حملا ولد منه ابنه محمد فاعتقل، ويقال دخل مع أمّه في السرداب بدار أبيه، وفقد، فزعمت شيعتهم انه الإمام بعد أبيه، ولقّبوه المهدي والحجة. وزعموا انه حي لم يمت، وهم الآن ينتظرونه، ووقفوا عند هذا الانتظار، وهو الثاني عشر من ولد عليّ، ولذلك سمّيت شيعته الاثني عشرية. وهذا المذهب في المدينة والكرخ والشام والحلّة والعراق، وهم حتى الآن على ما بلغنا يصلّون المغرب، فإذا قضوا الصلاة قدّموا مركباً إلى دار السرداب بجهازه وحليته ونادوا بأصوات متوسطة: أيها الإمام اخرج إلينا فإن الناس منتظرون، والخلق حائرون، والظلم عام، والحق مفقود! فاخرج إلينا فتقرب الرحمة من الله آثارك! ويكررون ذلك إلى أن تبدو النجوم، ثم ينصرفون إلى الليلة القابلة، هكذا دأبهم. وهؤلاء من الجهل بحيث ينتظرون من يقطع بموته مع طول الامد، لكن التعصب حملهم على ذلك، وربما يحتجون لذلك بقصة الخضر والاخرى أيضا باطلة، والصحيح أن الخضر قد مات.

(وأما الإسماعيلية) فزعموا أنّ الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسمعيل، وتوفي قبل أبيه. وكان أبو جعفر المنصور طلبه فشهد له عامل المدينة بأنه مات. وفائدة النصّ عندهم على إسمعيل، وإن كان مات قبل أبيه بقاء الإمامة في ولده كما نص موسى على هارون صلوات الله عليهما ومات قبله. والنصّ عندهم لا مرجع وراءه، لأن البداء على الله محال. ويمولون في ابنه محمد أنه السابع التامّ من الأئمة الظاهرين، وهو أول الأئمة المستورين عندهم الذين يستترون ويظهرون الدعاة، وعددهم ثلاثة، ولن تخلو الأرض منهم عن إمام، إما ظاهر بذاته أو مستور، فر بد من ظهور حجّته ودعاته. والأئمة يدور عددها عندهم على سبعة عدد الاسبوع، والسماوات والكواكب، والنقباء تدور عندهم على اثني عشر. هم يغلّطون الأئمة المستورين عندهم محمد بن إسمعيل، وهو محمد المكتوم، ثم ابنه جعفر المصدق، ثم ابنه محمد الحبيب، ثم ابنه عبد الله المهدي صاحب الدولة بإفريقية والمغرب التي قام بها أبو عبد الله الشيعي بكتامة.

وكان من هؤلاء الإسماعيلية القرامطة، واستقرّت لهم دولة بالبحرين في أبي سعيد الجنابيّ وبنيه أبي القاسم الحسين بن فروخ بن حوشب الكوفي داعي اليمن لمحمد الحبيب، ثم ابنه عبد الله وشمى بالمنصور، وكان من

الاثني عشرية أولاً، فلما بطل ما في أيديهم رجع إلى رأي الإسماعيلية وبعث محمد الحبيب أبو عبد الله إلى اليمن داعية له فلّما بلغه عن محمد بن يعفر ملك صنعاء انه

اظهر التوبة والنسك، وتخلّى عن الملك فقدم اليمن ووجد بها شيعة يعرفون ببني موسى في عدن لاعة. وكان عليّ بن الفضل من أهل اليمن، ومن كبار الشيعة، وطاهر بن حوشب على أمره، وكتب له الإمام محمد بالعهد لعبد الله ابنه، وأذن له في الحرب فقام بدعوته وبثها في اليمن وجيّش الجيوش، وفتح المدائن وملك صنعاء، وأخرج منها بني يبعن، وفرّق الدعاة في اليمن واليمامة. والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب، وكان يظهر الدعوة للرضا من آل محمد، وكان من دعاته أبو عبد الله الشيعي صاحب كتامة. ومن عنده سار إلى إفريقية فوجد في كتامة من الباطنية خلقا كثيراً، وكان هذا المذهب هنالك من لدن الدعاة الذين بعثهم جعفر الصادق إلى المغرب. أقاموا بإفريقية وبثّوا فيها الدعوة، وتناقله من البرابرة أمم، وكان أكثرهم من كتامة فلما جاء أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي ووجد هذا المذهب في كتامة فقام على تعليمه وبثّه وإحيّائه، حتى تم الأمر وبويع لعبد الله كما نذكر الآن في أخبارهم.

ابتداء دولة العبيديين

وأولهم عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم بن جعفر الصادق0 ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم وبالمحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالطعن في نسبهم، وشهد فيه أعلام الائمة. وقد مرّ ذكرهم 0فإن كتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان، وابن مدرار بسجلماسة، يغريهم بالقبض عليه لّما سار إلى المغرب0 شاهد بصحّة نسبهم. وشعر الشريف الرضيّ مسجّل بذلك. والذين شهدوا في المحضر فشهادتهم على السماع، وهي ما علمت. وقد كان نسبهم ببغداد منكرا عند أعدائهم شيعة بني العباس منذ مائة سنة، فتلّون الناس بمذهب أهل الدولة، وجاءت شهادة عليه مع أنها شهادة على النفي، ميم أنّ طبيعة الوجود في الانقياد إليهم، وظهور كلمتهم حتى في مكة والمدينة أدل شيء على صحة نسبهم. وأما من يجعل نسبهم0 في اليهودية والنصرانية ليعمون القدح وغيره فكفاه ذلك إثماً وسفسفة. وكان شيعة هؤلاء العبيديين بالمشرق واليمن وأفريقية. وكان أصل

ظهورهم بأفريقية دخول الحلواني وأبي سفيان من شيعتهم إليها أنفذهما جعفر الصادق، وقال لهما بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر فنزل أحدهما ببلد مراغة، والآخر ببلد سوف جمار وكلاهما من أرض كتامة ففشت هذه الدعوة في تلك النواحي، وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حمص، وكان شيعتهم يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين، فجاء محمد بن الفضل من عدن لاعة من اليمن لزيارة محمد الحبيب، فبعث معه رستم بن الحسن بن حوشب من أصحابه لإقامة دعوته باليمن، وأنّ المهدي خارج في هذا الوقت، فسار وأظهر الدعوة للمهدي من آل محمد بنعوته . المعروفة عندهم، واستولى على أكثر اليمن، وتّسمى بالمنصور، وابتنى حصناً بجبل لاعة.

وملك صنعاء من بني يعفر، وفرّق الدعاة في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب. وكان أبو عبد الله الحسين بن محمد بن زكريا المعروف بالمحتسب، وكان محتسباً بالبصرة، وقيل أنما المحتسب أخوه أبو العباس المخطوم وأبو عبد الله. هذا يعرف بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الإمامية، فاتصل أبو عبد الله بمحمد الحبيب، ورأى ما فيه من الاهليّة فأرسله إلى ابن حوشب باليمن ليأخذ عنه، ثم يذهب إلى المغرب، يقصد بلد كتامة فيظهر بينهم الدعوة. فجاء أبو عبد الله إلى ابن حوشب ولزمه، وشهد مجالسه، وأفاد علمه.

ثم خرج مع حاج اليمن إلى مكة فلقي بالموسم رجالات كتامة ورؤساءهم، وفيهم من القي الحلواني وابن بكّار واخذوا عنهما فقصدهم أبو عبد الله في رحالهم، وكان منهم موسى بن حريث كبير بني سكان من جملة أحد شعوبهم وأبو القاسم الورنجومي من أحلافهم،

ومسعود بن عيسى بن ملال المساكتي، وموسى بن تكاد فجلس إليهم وسمعوا منه مذاهبهم، ورأوا ما هو عليه من العبادة والزهد فعلق بقلوبهم، وصار يتعهدهم في رحالهم فاغتبطوا به0 واغتبط بهم. ولما أرادوا الرحلة إلى بلادهم سألوه الصحبة فوافقهم طاوياً وجه مذهبه عنهم، بعد أن سألهم عن قومهم وعصابتهم وبلادهم وملكة السلطان فيهم فكشفوا له علم ذلك وأنهم أنما يعطون السلطان طاعة معروفة فاستيقن تمام أمره فيهم، وخرج معهم إلى المغرب، وسلكوا طريق الصحراء، وعدلوا عن القيروان إلى أن وصلوا بلد سوماتة، وبها محمد بن حمدون بن سماك الاندلسيّ من بجاية الأندلس نزيلا عندهم، وكان قد أدرك الحلواني وأخذ عنه. فنزل أبو عبد الله الشيعي عليه فاكرمه، وفاوضه، وتفرس ابن حمدون فيه أنه صاحب الدولة.

ثم ارتحلوا وصحبهم ابن حمدون، ودخلوا بلد كتامة منتصف ربيع سنة ثمان وثمانين ومائتين فنزل على موسى بن حريث ببلده انكجان في بلد بني سكتان من جبيلة، وعين له مكان منزله بفج الأخيار، وأن النص عنده من المهدي بذلك، وبهجرة المهدي، وأن أنصار الأخيار من أهل زمانه، وأن إسمهم مشتق من الكتمان. واجتمع إليه الكثير من أهل كتامة، ولقي علماءهم واشتمل عليه الكثير من أهوائهم فجاهر بمذهبه، وأعلن بإمامة أهل البيت، دعا للرضا من آل محمد، واتبعه أكثر كتامة، وكانوا يسمّونه بأبي عبد الله الشيعي والمشرقيّ. وبلغ خبره إلى أمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فبعث إليه بالتهديد والوعيد، فأساء الرد عليه، وخاف رؤساء كتامة عادية ابن الأغلب، وأغراهم عمال بلادهم بالشيعي، مثل موسى بن عياش صاحب مسيلة، وعليّ بن حفص بن عسلوجة صاحب سريف. وجاء ابن تميم صاحب يلزمة فاجتمعوا وتفاوضوا في شأنه، وحضريحى المساكتي وكان يدعى الأمير، ومهديّ بن أبي كمارة رئيس لهيعة، وفرج بن حيران رئيس أجانة، وثمل بن بحل رئيس لطانة. وراسلوا بيان بن صفلان رئيس بني سكتان، وأبو عبد الله الشيعي عندهم بجبل ايكجان، في أن يسلمه إليهم أو يخرجه من بلدهم، وحذروه عاقبة أمره فردّ أمره إلى أهل العلم، فجاؤوا بالعلماء وهمّوا باغتياله فلم يتم لهم ذلك، وأطبقت بجيلة على مظاهرته فهزموا هؤلاء المثيرين عليه وردّوهم خائبين.

ثم راجعوا بيات بن صقلاب في أمره ولاطفوه حتى صفا إليهم، وشعر بذلك أبو عبد الله الشيعيّ وأصحابه، فبعثوا إلى الحسن بن هارون الغسّاني يسألونه الهجرة إليهم فأجابهم، ولحق

ببلدة تازروت من بلادهم واجتمعت غسّان لنصرته مع بطون كتامة الذين بايعوه من قبل، فاعتز وامتنع وعظم أمره. ثم انتفض على الحسن بن هارون أخوه محمد منافسة له في الرياسة، وكان صديقاً لمهدي بن أبي كمارة فداخله في التثريب على أبي عبد الله، وعظمت الفتنة بين لهيعة وغسّان، وولّى أبو عبد الله الشيعي الحسن بن هارون على حروبه، وظهر بعد أن كان مختفياً.

وكان لمهدي بن أبي كمارة شيخ لهيعة إخ اسمه أبو مديني، وكان من أحباب أبي عبد الله فقتل اخاه مهديا ورأس على لهيعة مكانه فصاروا جميعاً إلى ولاية أبي عبد الله وأبي مديني شيخهم.

ثم تجمعت كتامة لحرب الشيعي وأصحابه، ونازلوه بمكانه من تازروت، وبعث الشيعي سهل بن فوكاش إلى فحل بن نوح رئيس لطانة، وكان صهره، لينجد له عن حربهم في السلم فمشى إلى كتامة، وأبوا إلأ أن يناجزوهم الحرب، فغلبهم أبو عبد الله وأصحابه، وانهزمت كتامة وابلى عروبة بن يوسف الملوشي في ذلك اليوم بلاءً حسناً، واجتمعت إلى أبي عبد الله غسانّ كلها ويلزمة ولهيعة وعامّة بجاية ورئيسهم يومئذ ماكنون بن ضبارة وأبو زاكي تمام بن معارك. ولحق بجيلة من بجاية فرج بن خيران، ويوسف بن محمد من لطانة، وفحل بن نوح، واستقام أمر الباقي للشيعي وجمع فتح بن يحمى من أطاعه من قومه مسالمة لحرب الشيعي فسار إليهم وأوقع بهم، ولحق فلهم بسطيف.

ثم استأمنوا إليه فأمنهم ودخلوا في أمره، وولّى منهم هارون بن يونس على حروبه، ولحق رئيسهم فتح بن يحيى بعجيسة، وجمع ثانية لحربه الشيعي فسار إليه ومعه جموع كتامة، وتحصّن منه فتح ببعض قلاعهم فحاصره الشيعي وفتحها، واجتمعت إليه عجيسة وزواوة وجميع قبائل كتامة، ورجع إلى تازروت وبثّ دعاته في كل ناحية فدخل الناس في أمره طوعا وكرها. ولحق فتح بن يحى بالأمير إبراهيم بن احمد بتونس، واستحثه لحرب الشيعي. ثم فتح أبو عبد الله مساكتة بمداخلة بعض أهلها، وقتل صاحبها موسى بن عيّاش وولّى عليها ماكنون بن ضبارة الجاي وهو أبو يوسف ولحق إبراهيم بن موسى بن عيّاش بأبي العبّاس إبراهيم بن الاغلب بتونس، بعد خروج أبيه إلى صقلية. وكان فتح بن يحيى المساكتي قد نزع إليه من قبل ذلك، ووعده المظاهرة فجهز العساكر، وعقد عليها لابنه أبي خوال، وزحف من تونس سنة تسع وثمانين فدوّخ كتامة، ثم صمد إلى

تازروت فلقيه أبو عبد الله الشيعي في جموعه ببلد ملوسة فهزمهم أبو خوال، وفرّ الشيعي من قصر تازروت إلى ايكجان

فامتنع بها، فهدم أبو خوال القصر، واتبعه. وتوغل أبو خوال في بلاد كتامة فاضطرب أمره، وتوقع البيات. وسار إبراهيم بن موسى بن عيّاش من عسكر أبي خوال إلى نواحي مسيلة يتجسّس الاخبار فتواقع مع طائفة من أصحاب الشيعي فهزموه، واتبعوه إلى المعسكر فاضطرب، وأجفل أبو خوال، وخرج من بلاد كتامة، واستوطن أبو عبد الله ايكجان، وبنى بها بلدا وسمّاها دار الهجرة. واستبصر الناس في امره، ودخلوا في دعوته.

ثم هلك الحسن بن هارون، وجهز أبو العباس العساكر ثانية مع ابنه أبي خوال، ورده لحرب الشيعي وكتامة فسار في بلادهم، ورجع منهزماً، وأقام قريباً منهم يدافعهم، ويمنعهم من التقدم. وفي خلال ذلك هلك إبراهيم بن أحمد بن الاغلب، وقتل ابنه أبو العبّاس، وقام بالامر ابنه زيادة الله فاستدعى اخاه أبا خوال وقتله، وانتقل من تونس إلى وقادة، وانهمك في لذاته، وانتشرت جيوش الشيعي في البلاد، وعلا أمره وبشّرهم بأنّ المهدي قرب ظهوره فكان كما قال.

وصول المهدي إلى المغرب واعتقاله بسجلماسة ثم خروجه من الاعتقال وبيعته:

ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن إسمعيل الإمام، عهد إى ابنه عبيد الله وقال له: أنت المهدي وتهاجر بعدي هجرة بغيدة، وتلقى محنا شديدة. واتصل خبره بسائر دعاته في إفريقية واليمن، وبعث إليه أبو عبد الله رجالا من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وانهم في انتظاره. وشاع خبره، واتصل بّالعباسيّين ،فطلبه المكتفي ففر، من أرض الشام إلى العراق. ثم لحق بمصر ومعه ابنه أبو القاسم غلاما حدثا وخاصته ومواليه، بعد أن كان أراد قصد اليمن فبلغه ما أحدث بها عليّ بن الفضل من بعد ابن حوشب، وانه أساء السيرة فانثنى عن ذلك، واعتزم على اللحاق بابي عبد الله الشيعي بالمغرب فارتحل من مصر إلى الإسكندرية، ثم خرج من الإسكندرية في زي التجّار. وجاء كتاب المكتفي إلى عامل مصر، وهو يومئذ عيسى النوشري بخبرهم، والقعود لهم بالمراصد، وكتب نعته وحليته فسرح في طلبهم حتى وقف عليهم، وامتحن أحوالهم فلم بقف على اليقين في شيء منها فخلى سبيلهم.

وجدّ المهدي في السير، وكان له كتب في الملاحم منقولة عن آبائه سرقت من رحله في

طريقه، فيقال إن ابنه أبا القاسم استردّها من برقة حين زحف إلى مصر، ولما انتهى إلى طرابلس وفارقه التجّار أهل الرفقة بعث معهم أبا العباس أخا أبي عبد الله الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومرّ بالقيروان، وقد سبق خبرهم إلى زيادة الله، وهو يسأل عنهم فقبض على أبي العباس، وساءله فانكر فحبسه. وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي ففاته، وسار إلى قسنطينة. ثم عدل عنها خشية على ابم العبّاس، أخي الشيعي المعتقل بالقيروان فذهب إلى سجلماسة، وبها اليسع بن مدرار فأكرمه.

ثم جاء كتاب زيادة الله، ويقال كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيته في كتامة فحبسه اليسع، ثم إن أبا عبد الله الشيعي بعد مهلك أبي خوال الذي كان مضايقاً لهم اجتمعت إليه سائركتامة، وزحف إلى سطيف

فحاصرها مدة، وكان بها علي بن جعفر بن عسكوجة صاحبها، وأخوه أبو حبيب فملكها وكان بها ايضا داود بن جاثة من كبار لهيعة، لحق بها فيمن لحق من وجوه كتامة فقام بها من بعد علي وأخيه، واستأمن أهل سطيف فأمّنهم أبو عبد الله ودخلها فهدمها، وجهز زيادة الله العساكر إلى كتامة مع قريبه إبراهيم بن حشيش، وكانوا أربعين ألفا فانتهى إلى قسنطينة، فأقام بها وهم متحصنون بجبلهم. ثم زحف إليهم وواقعهم عند مدينة يلزمة فانهزم إلى باغاية، ولحق بالقيروان. وكتب الشيعي بالفتح إلى المهدي مع رجال من كتامة، اخفوا

أنفسهم حتى وصلوا إليه وعرّفوه بالخبر. ثم زحف الشيعي إلى طبنة فحاصرها وقتل فتح بن يحيى المساكتي، ثم افتتحها على الأمان. ثم زحف إلى يلزمة فملكها عنوة.

وجهّز زيادة الله العساكر مع هارون الطبني عامل باغاية فانتهوا إلى مدينة أزمول، وكانوا في طاعة الشيعي فهدمها هارون وقتل أهلها، وزحف إليه عروبة بن يوسف من أصحاب الشيعي فهزمه وقتله. ثم فتح الشيعي مدينة ينجبت كلّها على يد يوسّف الغساني، ولحق عسكرها بالقيروان. وشاع عن الشيعي وفاؤه بالأمان فافنه الناس، وكثر الارجاف بزيادة الله فجهز العساكر وأزاح العلل، وأنفق ما في خزائنه وذخائره، وخرج بنفسه سنة خمس وتسعين، ونزل الأريس.

ثم حاد عن اللقاء، وأشار عليه أصحابه بالرجوع إلى القيروان، ليكون ردءاً للعساكر فرجع، وقدم على العساكر إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته، وأمره بالمقام هنالك. ثم زحف الشيعي إلى باغاية فهرب عاملها وملكها صلحاً، وبعث إلى مدينة قرطاجنة فافتتحها عنوة، وقتل عاملها، وسرح عساكره في إفريقية فردّدوا فيها الغارات على قبائل البربر من نفزة وغيرهم. ثم استأمن إليه أهل

تيفاش فأمّنهم، واستعمل عليهم صواب بن أبي القاسم السكتاني فجاء إبراهيم بن الأغلب واقتحمها عليه. ثم نهض الشيعي في احتفال من العساكر إلى باغاية، ثم إلى سكتانة، ثم إلى تبسة ففتحها كفها على الأمان. ثم إلى القصرين من قمودة فأمّن أهلها وأطاعوه، وسار يريد رقادة فخشي إبراهيم بن أبي الأغلب على زيادة الله لقلة عسكره، فنهض إلى الشيعي واعترضه في عساكره واقتتلوا، ثم تحاجزوا، ورجع الشيعي إلى ايكجان، وإبراهيم إلى الأريس.

ثم سار الشيعي ثانية بعساكره إلى قسنطينة فحاصرها، واقتحمها على الأمان، ثم إلى قفصة كذلك، ثم رجع إلى باغاية فأنزل بها عسكراً مع أبي مكدولة الجيلي. ثم سار إلى إيكجان، وخالفه إبراهيم إلى باغاية، وبلغ الخبر إلى الشيعي فسرح لقتاله أبا مديني بن فروخ اللهيمي، ومعه عروبة بن يوسف الملوشي، ورجاء بن أبي قنة في اثني عشر ألفاً فقاتلوا ابن أبي الاغلب، ومنعوه من باغاية فرحل عنها، واتبعوه إلى فجّ العرعر ورجعوا عنه. ثم زحف أبو عبد الله الشيعي سنة ست وتسعين في مائتي الف من العساكر إلى إبراهيم بن أبي الاغلب بالاريس. ثم اقتتلوا أياما، ثم انهزم إبراهيم، واستبيح عسكره، وفرّ إلى القيروان، ودخل الشيعي الأريس فاستباحها، ثم سار فترل قمودة، واتصل الخبر بزيادة الله وهو برقادة ففرّ إلى المشرق، ونهبت قصوره. وافترق أهل رقادة إلى القيروان وسوسة. ولما وصل إبراهيم بن أبي الاغلب إلى القيروان نزل قصر الإمارة، وجمع الناس، وأرادهم على البيعة له على أن يعينوه بالاموال فاعتدوا، وتصايحت به العامّة ففر عنها، ولحق بصاحبه. وبلغ أبا عبد الله الشيعي خبر فرارهم بسبيبة فقدّم إلى رقادة، وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير فساروا، وأمّنوا الناس، وجاء على أثرهم.

وخرج أهل رقادة والقيروان للقائه فأفمّهم وأكرمهم، ودخل رقادرة في رجب سنة ست وتسعين، ونزل قصرها، وأطلق أخاه أبا العبّاس من الاعتقال ونادى بالأمان فتراجع الناس، وفر العمّال في النواحي. وطلب أهل القيروان فهربوا، وقسّم دور البلد، على

كتامة فسكنوها، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه فأمر بحفظها وحفظ جواريه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يعين أحداً. ونقش على السكة من أحد الوجهين بلغت حجة الله، ومن الآخرّ تفرق أعداء الله، وعلى

السلاح عدة في سبيل الله، وفي وسم الخيل، الملك لله. ثم ارتحل إلى سجلماسة في طلب المهدي، واستخلف على إفريقية أخاه أبا العبّاس، وترك معه أبا زاكي تمام بن معارك الألجائي، واهتزّ المغرب لخروجه، وفرت زناتة من طريقه. ثم بعثوا إليه بالطاعة فقبلهم، وأرسل إلى اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة يتلطفه فقتل الرسل، وخرج للقائه. فلمّا تراءى الجمعان انفض معسكره، وهرب هو وأصحابه وخرج أهل البلد من الغد للشيعي، وجاؤوا معه إلى محبس المهدي وابنه فأخرجهما وبايع للمهدي، ومشى للمهدي، ومشى مع رؤساء القبائل بين أيديهما وهو يبكي من الفرح ويقول: هذا مولاكم، حتى أنزله بالمخيّم، وبعث في طلب اليسع فأدرك ،وجيء به فقتل، وأقاموا بسجلماسة اربعين يوماً، ثم ارتحلوا إلى إفريقية، ومروا بأيكجان، فسلم الشيعي ما كان بها من الاموال للمهدي.

ثم نزلوا رقادة في ربيع سبع وتسعين، وحضر أهل القيروان، وبويع للمهدي البيعة العامة، واستقام أمره، وبث دعاته في الناس فأجابوا إلا قليلا عرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجواري في رجال كتامة، واقطعهم الأعمال، ودوّن الدواوين وجبى الأموال، وبعث العفال على البلاد فبعث على طرابلس ماكنون بن ضبارة الألجائي، وعلى صقلية الحسن بن احمد بن أبي خترير، فسار إليها ونزل البحر، ونزل مازر في عيد الأضحى من سنة سبع وتسعين، فاستقضى إسحاق بن المنهال، وولّى اخاه على كريت. ثم أجاز البحر سنة ثمان وتسعين إلي العدوة الشمالية، ونزل بسيط قلورية من بلاد الافرنج فاثخن فيها، ورجع إلى صقلّية فاساء السيرة في أهلها فثاروا به وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي فقبل عذرهم، وولّى عليهم مكانه علي بن عمر البلويّ فوصل خاتم تسع وتسعين.

مقتل أبي عبل الله الشيعي وأخيه:

لما استقام سلطان عبيد الله المهدي بإفريقية استبدّ بأمره، وكفح أبا عبد الله

الشيعي واخاه أبا العبّاس عن الاستبداد عليه، والتحكم في أمره فعظم ذلك عليهما، وصرّح أبو العبّاس بما في نفسه فنهاه أخوه أبو عبد الله عن ذلك فلم يصر إليه. ثم استماله أبو العباس لمثل رأيه فأجابه، وبلغ ذلك إلى المهدّي فلم يصدقه. ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس، وقال إنه مفسد للهيبة فتلطّف في ردّه و لم يجبه إليه ففسدت النية بينهما، واستفسدوا كتامة وأغروهم به وذكروهم بما اخذه من أموال أيكجان، واستأثر به دونهم وألقوا اليهم ان هذا ليس هو الإمام المعصوم الذي دعونا إليه، حتى بعث إلى المهدي رجل كان في كتامة

يعرف بشيخ المشايخ، وقال له :جئنا بآية على أمرك فقد شككنا فيك، فقتله المهدي، ثم عظمت استرابتهم واتفقوا على قتل المهدي، وداخلهم في ذلك أبو زاكي تمام بن معارك، وغيره من قبائل كتامة.
ونمي الخبر إلى المهدي فتلطفّ في أمرهم وولّى من داخلهم من قّواد كتامة على البلاد، فبعث تمام بن معارك على طرابلس، وبعث إلى عاملها ماكنون بقتله، فقتله عند وصوله. ثم اتهم المهدي ابن الغريم بمداخلتهم، وكان من أصحاب زيادة الله فأمر بقتله واستصفاء أمواله، وكان أكثرها لزيادة الله. ثم إنّ المهدي استدعى عروبة بن يوسف، وأخاه حباسة، وأمرهما بقتل الشيعي وأخيه فوقفا لهما عند القصر، وحمل عروبة على أبي عبد الله فقال له: لا تفعل! فقال :الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك! ثم أجهز عليهما في نصف جمادى سنة ثمان وتسعين. ويقال إن المهدي صلىّ على أبي عبد الله وترحم عليه، وعلم أن الذي حمله على ذلك اغراء أبي العبّاس أخيه، وثارت فتنة بسبب قتلهما من أصحابهما فركب المهدي وسكنها. ثم ثارت فتنة أخرى بين كتامة وأهل القيروان، وفشا القتل فيهم فركب المهدي وسكّنها، وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة، وقتل جماعة من بني الأغلب برقادة لما رجعوا إليها بعد زيادة الله.

بقية أخبار المهدي بعد الشيعي:

ولما استقام أمر المهدي بعد الشيعي، جعل ولاية عهده لابنه أبي القسم نزار، وولى على برقة وما إليها حباسة بن يوسف. وعلى المغرب أخاه عروبة، وأنزله باغاية فسار إلى تاهرت فاقتحمها، وولّى عليها دواس بن صولات اللهيص. ثم انتقضت عليه كتامة بقتله أبا عبد الله الشيعي، ونصبوا طفلاً لقبوه المهدي، وزعموا أنه نبيّ، وأن أبا عبد الله الشيعي لم يمت فجهز ابنهّ أبا القاسم لحربهم فقاتلهم وهزمهم، وقتل الطفل الذي نصبوه، وأثخن فيهم ورجع 0ثم انتقض أهل طرابلس سنة ثلاثمائة وأخرجوا عاملهم ماكنون فبعث إليهم ابنه أبا القاسم فحاصرها طويلاً، ثم فتحها وأثخن فيهم وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار. ثم أغزى ابنه أبا القاسم وجموعه كتامة سنة إحدى وثلاثمائة إلى الإسكندرية ومصر، وبعث أسطوله في البحر في مائتين من المراكب، وشحنها بالإمداد، وعقد عليها لحباسة بن يوسف، وسارت العساكر فملكوا برقة ثم الإسكندرية والفيوم.

وبعث المقتدر العساكر من بغداد مع سبكتكين ومؤنس الخادم فتواقعوا مّرات، وأجلاهم عن مصر فرجعوا إلى المغرب. ثم عاد حباسة في العساكر في البحر سنة اثنتين إلى الإسكندرية فملكها، وسار يريد مصر فجاء مؤنس الخادم من بغداد لمحاربته فتواقعوا مّرات، وكان الظهور آخراً لمؤنس، وقتل من أصحابه نحو من سبعة آلاف. وانصرف إلى المغرب فقتله المهدي وانتقض لذلك أخوه عروبة بالمغرب، واجتمع إليه خلق كثير من كتامة والبربر. وسرح إليهم المهدي مولاه غالبا في العساكر فهزمهم، وقتل عروبة وبني عمه في أمم لا تحصى. ثم انتقض أهل صقلية وتقبضوا على عاملهم عليّ بن عمرو، وولوا عليهم أحمد بن قهرب فدعا للمقتدار العبّاسي، وذلك سنة أربع وثلاثمائة، وخلع طاعة المهديّ وجهز إليه الأسطول مع الحسن بن أبي خترير فلقيه أسطول بن قهرب فغلبه، وقتل ابن أبي خترير.

ثم راجع أهل صقلية أمرهم وكاتبوا المهدي وثاروا بابن قهرب فخلعوه، وبعثوا به إلى المهدي فقتله على قبر ابن أبي خترير، وولّى على صقلية علي بن موسى بن أحمد، وبعث معه عساكر كتامة، ثم اعتزم المهدي على بناء مدينة على ساحل البحر يتخّذها معصماً لاهل بيته لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج.
(ويحكى عنه) أنه قال: بنيتها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار، وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها فخرج بنفسه يرتاد موضعاً لبنّائها، ومربتونس وقرطاجنة حتى وقف على مكانها جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند، فاختطّ المهدية بها، وجعلها دار ملكه، وأدار بها سوراً محكماً، وجعل لها أبواباً من الحديد وزن كل مصراع مائة قنطار، وابتدأ ببنائها آخر سنة ثلاث. ولما ارتفع السور رمى من فوقه بسهم إلى ناحية المغرب، ونظر إلى منتهاه وقال: إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار يعني أبا يزيد. ثم أمر أن يبحث في الجبل لإنشاء السفن تسعمائة سفين، وبحث في أرضها
أهراء للطعام ومصانع للماء، وبنى فيها القصور والدور فكملت سنة ست، ولما فرغ منها قال :اليوم أمنت على الفواطم.
ثم جهز إبنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر مرّة ثانية سنة سبع وثلاثمائة فملك الإسكندرية، ثم سار فملك الجيزة والاشمونين وكثيراً من الصعيد. وكتب إلى أهل مكة بطلب الطاعة فلم يجيبوا إليها، وبعث المقتدر مؤنساً الخادم في العساكر وكانت بينه وبين أبي القاسم عدة وقعات ظهر فيها مؤنس، وأصاب عسكر أبي القاسم الجهد من الغلاء والوباء فرجع إلى إفريقية، وكانت مراكبهم قد وصلت من المهدّية إلى الإسكندرية في ثمانين اسطولاً مدداً لأبي القاسم، وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي، وكانا شجاعين، وسار الأسطول من طرسوس للقائهم في خمسة وعشرين مركباً والتقوا على رشيد وظفرت مراكب طرسوس، واحرقوا وأسروا سليمان ويعقوب فمات سليمان في حبس مصر، وهرب يعقوب من حبس بغداد إلى إفريقية.
ثم اغزى المهدي سنة ثمان مضالة بن حبوس في رجالات مكناسة إلى بلاد المغرب، فأوقع بملك فاس من الأدارسة، وهو يحيى بن إدريس بن إدريس بن عمرو، واستنزله عن سلطانه إلى طاعة المهدي فأعطى بها صفقته، وعقد لموسى بن أبي العافية المكناسى من رجالات قومه على أعمال المغرب ورجع. ثم عاود غزو المغرب سنة تسع فدوخّه ومهد جوانبه، وأغراه قريبه عامل المغرب موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس صاحب فاس، فتقبّض عليه، وضم فاس إلى أعمال موسى، ومحا دعوة الإدريسيّة من المغرب، وأجهضهم عن أعماله فتحيزوا إلى بلاد الريف وغمارة واستجدّوا بها ولاية كما نذكره في أخبار غمارة.
ومنهم كان بنو حمود العلويون المستولون على قرطبة عند انقراض ملك الأمويين في سنة ثلاث وأربعمائة، كما نذكر هنالك ثم صمد مضالة إلى بلاد سجلماسة فقتل أميرها من آل مدرار المكناسيين المنحرف عن طاعة الشيعة، وعقد لابنّ عمه كما نذكر في أخبارهم. وسار في أتباعه زناتة في نواحي المغرب فكانت بينه وبينهم حروب، هلك مضالة في بعضها على يد محمد بن خرز. واضطرب المغرب فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكره كتامة وأولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة ففرّ

محمد بن خزر، وأصحابه إلى الرمال.

وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوّارة

وسائر الإباضيّة والصفريّة ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها ثم عاج إلى الريف فافتتح بلد لكور من ساحل المغرب الأوسط. ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيّق عليه ودوخ أقطار المغرب، ورجع ولم يلق كيداً. ومر بمكان بلد المسيلة وبها بنو كملان من هوّارة، وكان يتوقع منهم الفتنة فنقلهم إلى فجّ القيروان، وقضى الله أن يكونوا أولياء لصاحب الحمار عند خروجه. ولما نقلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم وسمّاها المحمّديّة، ودفع علي بن حمدون الاندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها، وعقد له عليها وعلى الزاب بعد اختطاطها فبناها وحصّنها وشحنها بالأقوات ،فكانت مددا للمنصور في حصار صاحب الحمار كما يذكر.

ثم انتقض موسى بن أبي العافية عامل فاس والمغرب، وخلع طاعة الشيعة، وانحرف إلى الأمويّة من وراء البحر، وبثّ دعوتهم في أقطار المغرب فنهض إليه أحمد ابن بصلين المكناسيّ قائد المهدي، وسار في العساكر فلقيه ميسور وهزمه، وأوقع به وبقومه بمكناسة، وأزعجه عن الغرب إلى الصحارى وأطراف البلاد، ودوّخ المغرب، وثقف أطرافه ورجع ظافراً.

وفاة عبيد الله المهدي وولاية ابنه أبي القاسم:

ثم توفي عبيد الله في ربيع سنة اثنتين وعشرين، لاربع وعشرين سنة من خلافته، وولّي ابنه أبو القاسم محمد، ويقال نزار بعده، ولقب القائم بأمر الله فعظم حزنه على أبيه حتى يقال أنه لم يركب سائر أيامه إلاّمرتين، وكثر عليه الثوّار. وثار بجهات طرابلس ابن طالوت القرشي، وزعم أنه ابن المهدي، وحاصر طرابلس. ثم ظهر للبربر كذبه فقتلوه. ثم أغزى المغرب وملكه، وولّى على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذابي، وحاصرا الأدارسة ملوك الريف وغوارة فنهض ميسور الخصيّ من القيروان في العساكر، ودخل المغرب، وحاصر فاس، واستنزل عاملها أحمد بن بكر. ثم نهض في اتباع موسى فكانت بينهما حروب، وأخذ الثوري بن موسى في بعضها أسيراً، وأجلاه ميسور عن المغرب، وظاهره عليه الأدارسة الذين

بالريف، وانقلب ميسورا إلى القيروان سنة أربع وعشرين، وعقد للقاسم بن محمد كبير أدارسة الريف من ولد محمد بن إدريس على أعمال بن أبي العافية، وما يفتحه من البلاد فملك المغرب كلها ما عدا فاس، واقام دعوة الشيعة بسائر أعماله. ثم جهّز أبو القاسم اسطولًا ضخماً لغزو ساحل الإفرنجة، وعقد عليه ليقرب بن إسحاق فأثخن في بلاد الإفرنجة، وسبى ونازل بلد جنوة وافتتحها، وعظم صنع الله في شأنها، ومروا بسردانية من جزر الفرنج فأثخنوا فيها. ثم مروا بقرقيسا من سواحل الشام فاحرقوا مراكبها. ثم بعث عسكراً إلى مصر مع خادمه زيران فملكوا الإسكندرية، وجاءت عساكر الأخشيد من مصر فأزعجوهم عنها ورجعوا إلى المغرب. أخبار أبي يزيد الخارجي:

وهو أبو يزيد مخلد بن كيراد، وكان أبوه كيراد من أهل قسطيلة من مدائن بلد توزر، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة وبها ولد ولده أبو يزيد ونشأ بتوزر. وتعلم القرآن وخالط النكاريّة من الخوارج، وهم الصفريّة فمال إلى مذهبهم، واخذ به ثم سافر إلى تاهرت، وأقام بها يعلّم الصبيان. ولما صار الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي انتقل هو إلى تقيوس، واقام يعلم. فيها. وكان يذهب إلى تكبير أهل ملّته، واستباحة الاموال والدماء والخروج على السلطان. ثم اخذ نفسة بالحسبة على الناس، وتغيير المنكر بسنة ست عشرة وثلاثمائة فكثر أتباعه. ولّما مات المهدي خرج بناحية جبل أوراس، وركب الحمار، وتلقّب بشيخ المؤمنين، ودعا للناصر صاحب الأندلس من بني أمّية فاتبعه أمم من البربر. وزحف إليه عامل باغاية فلقيه في جموع البربر وهزمه، وزحف إلى باغاية فحاصرها ثم انهزم عنها، وكتب إلى بني واسى من قبائل زناتة بضواحي قسنطينة يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين. ثم فتح تبسة صلحاً، ومجانة كذلك، وأهدى له رجل من أهل مرماجنة حمارا اشهبّ فكان يركبه وبه لقب. وكان يلبس جبة صوف قصيرة ضيّقة الكميّن.

وكان عسكر الكتاميين على الأريس فانفضوا، وملكها أبو يزيد واحرقها ونهبها، وتتل في الجامع من لجأ إليه، وبعث عسكراً إلى سبيبة ففتحها وقتل عاملها. وبلغ الخبر إلى القاسم فقال لا بدّ أن

يبلغ المصلى من المهدية. ثم جهز العساكر وبعثها إلى رقادة والقيروان، وبعث خادمه ميسوراً الخصيّ لحربه0 وبعث عسكرا مع خادمه بشرى إلى باجة فنهض إليه أبو يزيد وهزمه إلى تونس، ودخل أبو يزيد باجة فنهبها وأحرقها، وقتل الأطفال وسبى النساء، واجتمع إليه قبائل البربر، واتخذ الأبنية والبيوت وآلات الحرب، وبعث إليه بشرى عسكراً من تونس. وبعث أبو يزيد للقائهم عسكراً آخر فانهزم أصحاب أبي يزيد وظفر أصحاب بشرى.

ثم ثار أهل تونس ببشرى فهرب فاستأمنوا لأبي يزيد فأمنّهم وولّى عليهم، وسار إلى القيروان، وبعث القائم خديمه بشرى للقائه0 وأمره أن يبعث من يتجسس عن أخباره فبعث طائفة، وبعث أبو يزيد طائفة أخرى فانهزم عسكر أبي يزيد، وقتل منهم أربعة آلاف، وجيء بأسراهم إلى المهديّة فقتلوا فسار أبو يزيد إلى قتال الكتاميّين فهزم طلائعهم، واتبعهم إلى القيروان، ونزل على رقادة في مائتي ألف مقاتل، وعاملها يومئذ خليل بن إسحاق، وهو ينتظر وصول ميسور بالعساكر، ثم ضايقه أبو يزيد وأغراه الناس بالخروج فخرج، وهزمه أبو يزيد فمضى إلى القيروان. ودخل أبو يزيد رقادة فعاث فيها وبعث أيوب الزويلي في عسكر إلى القيروان فملكها في صفر سنة ثلاث وثلاثين، ونهبها وأمن خليلاً فقتله أبو يزيد، وخرج إليه شيوخ أهل القيروان فأمنهم ورفع النهب عنهم وزحف ميسور إلى أبي يزيد، وكان معه أبو كملان فكاتبوا أبا يزيد، وداخلوه في الغدر بميسور، وكتب إليه القائم بذلك فحذّرهم فطردهم عنه. ولحقوا بأبي يزيد، وسار معه إلى ميسور فانهزم ميسور، وقتله بنو كملان وجاؤوا برأسه فاطافه بالقيروان، وبعث بالبشرى إلى البلاد.

وبلغت هزيمة ميسور إلى القائم بالمهدية فاستعد للحصار، وأمر بحفر الخنادق، وأقام أبو يزيد سبعين عاماً في مخيم ميسور، وبث السرايا في كل ناحية يغنمون ويعودون، وارسل سرية إلى سوسة ففتحوها عنوة واستباحوها، وخرّب عمران افريقية من سائر الضواحي، ولحق فلهم بالقيروان حفاة عراة. ومات أكثرهم جوعاً وعطشاً.

ثم بعث القائم إلى رؤساء كتامة والقبائل، وإلى زيري بن مناد ملك صنهاجة بالمسير إلى المهدية فتأهّبوا لذلك، وسمع أبو يزيد بخبرهم فترل على خمسة فراسخ من المهدية، وبثّ السرايا في جهاتها، وسمع كتامة بافتراق عسكره في الغارة فخرجوا لبياته آخر جمادى الاول. وكان ابنه فضل قد جاء بالمدد من القيروان فبعثه للقاء كتامة، وركب في أثرهم، ولقي أصحابه منهزمين. ولما رآه الكتاميون انهزموا بغير قتال

وأتبعهم أبو يزيد إلى باب المهدية ورجع. ثم جاء أيام لقتالهم فوقف على الخندق المحدث، وعليه جماعة من العبيد فقاتلهم ساعة، وهزمهم وجاوز السور إلى البحر، ووصل المصلى على رمية سهم من البلد، والبربر يقاتلون من الجانب الاخر. ثم حمل الكتاميون عليهم فهزموهم، وبلغ ذلك أبا يزيد، وسمع بوصول زيري بن مناد فاعتزم ان يمر بباب المهدية، ويأتي زيري وكتامة من ورائهم فقاتلوا أهل الأرباض، ومالوا عليه لما عرفوه ليقتلوه، وتخلّص بعد الجهد، ووصل إلى مترله فوجدهم يقاتلون العبيد كما تركهم فقوي أصحابه وانهزم العبيد.

ثم رحل وتأخّر قليلا وحفر على معسكره خندقاً، واجتمع عليه خلق عظيم من البربر ونفوسة والزاب واقاصي المغرب، وضيق على أهل المرية، ثم زحف إليها آخرّ جمادى فقاتلها وتورط في قتالها يومه ذلك. ثم خلص، وكتب إلي عامل القيروان أن يبعث إليه مقاتلتها فجاؤوا، وزحف بهم آخر رجب فانهزم، وقتل من أصحابه. ثم زحف الزحف الرابع آخر شوال ولم يظفرّ، ورجع إلى معسكره، واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب وافترق اهلها في النواحي، ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدهّا المهدي وفرقها فيهم. ثم اجتمعت كتامة وعسكروا بقسنطينة فبعث إليهم أبو يزيد بعثاً من ورجومة وغيرهم فهزموا كتامة ووافت أبا يزيد حشود البربر من كل ناحية واحاط بسوسة وضيّق عليها.

ثم انتقض البربر عليه بما كان منه من المجاهرة بالمحرّمات والمنافسة بينهم فانفضوا عنه، ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين. وغنم أهل المهديّة معسكره، وكثر عبث البربر في امصار إفريقية وضواحيها، وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم. وجاء علي بن حمدون من المسيلة بالعساكر فبيته أيوب بن أبي يزيد وهزمه، وسار إلى نونس وجاءت عساكر القائم فواقعوه مرّات، وانهزم إلى القيروان في ربيع سنة أربع وثلاثين. فبعث ايوب ثانية لقتال عليّ بن حمدون ببلطة. وكانت حروبه معه سجالاً إلى ان اقتحم عليه البلد بمداخلة بعض أهلها. ولحق ابن حمدون ببلاد كتامة، واجتمعت قبائل كتامة ونفزة ومزاتة وعسكروا بقسطنطينة. وبعث ابن حمدون العساكر إلى هوارة فأوقعوا بهم، وجاءهم مدد أبي يزيد فلم يغن عنهم. وملك ابن حمدون مدينة يتجست وباغاية.

ثم زحف أبو يزيد

إلى سوسة في جمادى الاخر من سنته وبها عسكر القائم، وتوفي القائم وهو بمكانه من حصارها.

وفاة القائم وولاية ابنه المنصور:

ثم توفي القائم أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي صاحب أفريقية، بعد أن عهد إلى ولده إسمعيل بعده، وتلقّب بالمنصور، وكتم موت أبيه حذراً أن يطلع عليه أبو يزيد وهو بمكانه من حصار سوسة، فلم يسمّ بالخليفة، ولا غيّر السكة ولا الخطبة ولا البنود إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد كما يذكر.

بقية أخبار أبي يزيد ومقتله:

ولّما مات القائم كان أبو يزيد محاصراً لسوسة كما تقدّم، وقد جهد أهلها الحصار، فلمّا وليّ إسمعيل المنصور، وكان أول عمله أن بعث الأساطيل من المهديّة إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والأمتعة والميرة مع رشيق الكاتب، ويعقوب بن إسحق، وخرج بنفسه في أثرهم وأشار أصحابه بالرجوع فرجع ووصل الاسطول إلى سوسة، وخرجوا لقتال أبي يزيد، وعساكر سوسة معهم فانهزم أبو يزيد، واستُبيح معسكره نهبا وإحراقاً، ولحق بالقيروان فمنعه أهلها من الدخول، وثاروا بعامله فخرج إليه، ورحل إلى سبيبة وذلك أواخر شّوال سنة أربع. وجاء المنصور إلى القيروان وأمّن أهلها، وأبقى على حرم أبي يزيد وأولاده، وأجرى عليهم الرزق، وخرجت سرية من عسكر المنصور لاستكشاف خبر أبي يزيد. وجاءت أخرى من عسكر أبي يزيد لمثل ذلك، فالتقوا وانهزمت سرية المنصور، فقوي أبو يزيد بذلك، وكثر جمعه، وعاد فقاتل القيروان وخندق المنصور على عساكره، وقاتلهم أبو يزيد فكان الظفر أول يوم للمنصور ثم قاتلهم ثانياً فانهزموا وثبت المنصور وراجع أصحابه من طريق المهديّة وسوسة.ولما رأى أبو يزيد امتناعهم عليه رحل آواخر ذي القعدة، ثم رجع فقاتلهم، وكانت الحرب سجالا، وبعث السرايا إلى طريق المهديّة وسوسة نكاية فيهم، وبعث إلى المنصور في حرمه وأولاده فبعثهم إليه بعد أن وصلهم. وقد كان

أقسم على الرحيل فلّما وصلوا إليه نكث وقاتلهم خامس المحّرم سنة خمس وثلاثين، فهزمهم. ثم عبّى المنصور عساكره منتصف المحّرم، وجعل البرابر في الميمنة وكتامة في الميسرة، وهو وأصحابه في القلب. وحمل أبو يزيد على الميمنة فهزمها، ثم على القلب فلقيه المنصور واشتدّ القتال. ثم حملوا عليه حملة رجل واحد فانهزم وأسلم أثقاله وعسكره، وقتل خلق من أصحابه وبلغت رؤوس القتلى الذي في أيدي صبيان القيروان عشرة آلاف، ومضى أبو يزيد لوجهه، ومّر بباغاية فمنعه أهلها من الدخول فأقام يحاصرها، ورحل المنصور في ربيع الأول لاتباعه، واستخلف على المهديّة مراما الصقليّ وأدركه على باغاية فأجفل المنصور في إتباعه. وكّلما قصد حصناً سبقه المنصور إليه إلى أن نزل المنصور طبنة فجاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة، من أصحاب أبي يزيد،ومواطئه بالغرب الأوسط فاستأمن للمنصور فأمنه، وأمره بطلب أبي يزيد. ووصل أبو يزيد إلى بني برْزال وكانوا نكاريّة، وبلغه خبر المنصور في اتباعه فسلك الرملة. ثم عاد نواحي غمرت فصادف المنصور وقاتله فانهزم أبو زيد إلى جبل سالات، والمنصور في أثره في جبال وأوعار ومضايق تفضي إلى القفر، وأصابهم الجهد

وعلم أنه ليس أمامه إلاّالمفازة إلى بلاد السودان فرجع إلى غمرت من بلاد صنهاجة. ووفد عليه هنالك زيري بن مناد أمير صنهاجة فأكرمه ووصله كما يجب له. وجاء كتاب محمد بن خزر بالمكان الذي فيه أبو يزيد من المفازة، وأقام المنصور هنالك لمرض أصابه فرجع أبو يزيد إلى المسيلة وحاصرها. فلما عوفي المنصور رحل أوّل رجب سنة خمس وثلاثين وقصده فأفرج عن المسيلة، وقصد المفازة يريد بلاد السودان فأبى عليه بنو كملان أصحابه فرجعوا إلى جبال كتامة وعجيسة فتحصّنوا بها. وجاء المنصور نترل بساحتهم عاشر شعبان، ونزل أبو يزيد فقاتلهم فاهزم وأسلم عسكره وأولاده، وطعنه بعض الفرسان فأكبّه وحامى عنه أصحابه فقتل في الحومة ما يزيد على عشرة آلاف، وتخلص. ثم سار المنصور في آثره أوّل رمضان، ولم يقدر أحد من الفريقين على الهزيمة لضيق المكان وصعوبته. ثم انهزم أبو يزيد لما ضرسه الحرب، وترك أثقاله وساروا إلى رؤوس الجبال يرمون بالصخر، وتزاحفوا حتى تعانقوا بالأيدي، وكثر القتل. ثم تحاجزوا وتحصّن أبو يزيد بقلعة كتامة، واستأمن الذين معه من هوارة فأمنهم المنصور، وحصر أبا يزيد في القلعة وقاتلها غير مرة حتى افتتحها عنوة وأضرمها ناراً، وقتل أصحاب أبي يزيد في كل ناحية، وجمع أهله وأولاده في

القصر، وأظلم الليل فأمرالمنصور بإشعال النيران في الشعراء المحيطة بالقصر، حتى أضاء الليل لتكون أحواله بمرأى منهم حذراً من فراره، حتى خرج الليل وحمل في أصحاب المنصور حملة منكرة فأفرجوا له، وأمر المنصور بطلبه فألفوه، وقد حمله ثلاثة من أصحابه لأنه كان جريحاً فسقط من الوعر وارتث فحملوه إلى المنصور فسجد سجدة الشكر، وأقام عنده إلى سلخ المحرم من سنة ست وثلاثين. ثم هلك من الجراحة التي به فأمر بسلخ جلده، وحشوه تبناً، واتخذ له قفصاً فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه بعثاله. ورحل إلى القيروان والمهديّة، ولحق ابنه فضل بمعبد بن خزر، وزحف به إلى طبنة وبسكرة. وقصد المنصور فاهزم معبد، وصعد إلى كتامة فبعث إليه العساكر مع موليه شفيع وقيصر، ومعهما زيري بن مناد في صنهاجة، فاهزم فضل ومعبد، وافترق جمعهم، ورجع المنصور إلى القيروان فدخلها.

بقية أخبار المنصور:

ثم انتقض حميد بن يضلبتن عامل المغرب وانحرف عن طاعة الشيعة، ودعا للأموية من وراء البحر، وزحف إلى تاهرت فحاصرها فنهض إليه المنصور في صفر سنة ست وثلاثين، وجاء إلى سوق حمزة فأقام به. وحشد زيري بن مناد جموع صنهاجة من كل ناحية، ورحل مع المنصور فأخرج حميد عن تاهرت، وعقد عليها ليعلى بن محمد اليفرني، وعقد لزيري بن مناد على قومه وعلى سائر بلادهم. ثم رحل لقتال لواتة فهربوا إلى الرمال، وأقام هو على واد ميناس، وكان هنالك ثلاثة جبال، كل منهم عليه قصر مبني بالحجر المنحوت، فوجد في وجه أحد هذه القصور كتابة على حجر فسيح فأمر المنصور التراجمة بقراءته، وإذا فيه أنا سليمان السردغوس، خالف أهل هذا البلد على الملك، فبعثني إليهم ففتح الله عليهم وبنيت هذا البناء لأذكر به. ذكر هذه الغريبة ابن الرقيق في تاريخه.ثم رحل المنصور إلى القيروان بعد أن خلع

على زيري بن مناد وحمله، ودخل المنصورية في جمادى سنة ست وثلاثين فبلغه أن فضل بن ابي يزيد جاء إلى جبل أوراس، وداخل البربر في الثورة فخرج إليه المنصور فدخل الرمل، ورجع المنصور إلى القيروان ثم إلى المهدية، ورجع فضل بن أبي يزيد إلى باغاية. وأقام يحاصرها فغدر به باطيط، وبعث برأسه إلى المنصور. ثم عقد سنة تسع وثلاثين للحسين بن عليّ بن أبي الحسين الكلبيّ على صقليّة وأعمالها، وكانت لخليل بن إسحق فصرفه الحسين واستقلّ بولايتها، فكان له فيها ولبنيه ملك سنذكره. وبلغ المنصور أنّ ملك إفرنجة يريد غزو المسلمين فأخرج أسطوله، وشحنه بالعساكر لنظر مولاه فرج الصقليّ، وأمر الحسين بن عليّ عامل صقلية بالخروج معه فأجازوا البحر إلى غُدْوَة الإفرنجة، ونزلوا قلورية ولقيهم رجاء ملك الفرنجة فهزموه. وكان فتحا لا كفاء له، وذلك سنة أربعين وثلاثمائة، ورجع فرج بالغنائم إلى المهديّة سنة إثنين وأربعين، وكان معبد بن خزر بعد مظاهرته لفضل بن أي يزيد لم يزل منتقضاً وأولياء المنصور في طلبه حتى أخذ في بعض الوقائع، وسيق مع ابنه إلى المنصور فطيف بهما في أسواق المنصوريّة، ثم قتلا سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وفاة المنصور وولاية ابنه المعز:

ثم توفى المنصور إسمعيل بن القاسم سلخ رمضان سنة إحدى وأربعين لسبع سنين من خلافته، أصابه الجهد من مطر وثلج تجلّد على ملاقاته، ودخل على أثره الحمّام فعيت حرارته، ولازمه السهر فمات. وكان طبيبه إسحق بن سليمان الإسرائيلي قد نهاه عن الحمّام فلم يقبل. وولى الأمر بعده ابنه معدّ ، ولقب المعز لدين الله فاستقام أمره، وخرج لجبل أوراس سنة إثنتين وأربعين، وجالت فيه عساكره واستأمن إليه بنو كملان ومليلة من هوارة، ودخلوا في طاعته فأمنهم وأحسن إليهم. واستأمن إليه محمد بن خزر بعد مقتل أخيه معبد فأمّنه، ورجع إلى القيروان وترك مولاه قيصر في العساكر، وعقد له على باغاية فدّوخ البلاد وأحسن إلى الناس، وألف من كان شارداً من البربر، ورجع بهم إلى القيروان فأكرمهم المعز ووصلهم. ثم وفد بعدهم محمد بن خزر أمير مغراوة فلقّاه مبّرة وتكريماً. وأقام عنده بالقيروان إلى أن هلك سنة ثمان وأربعين. واستقدم المعزّ زيري بن مناد سنة ثلاث وأربعين أمير صنهاجة، فقدم من أشير فأجزل صلته، وردّه إلى عمله. وبعث إلى الحسين بن علي عامل صقلية سنة أربع وأربعين أن يخرجه بأسطوله إلى ساحل المرية من بلاد الأندلس، فعاث فيه، وغنم وسبى، ورجع فأخرج الناصر صاحب الأندلس أسطوله إلى سواحل إفريقية، مع غالب مولاه فمنعتهم العساكر، وأقلعوا. ثم عاودوا سنة خمس وأربعين في سبعين مركباً فأحرقوا مرسى الخزر، وعاثوا في جهات سوسة، ثم في نواحي طبرنة ورجعوا. واستقام أمر المعز في بلاد أفريقية والمغرب، واتسعت إيالته وكانت أعماله من ايفكان خلف تاهرت بثلاثة مراحل، إلى زناتة التي دون مصر، وعلى تاهرت وإيفكان يعلى بن محمد اليفرني، وعلى أشير وأعمالها زيرى بن مناد الصنهاجي، وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن علي الأندلسي، وعلى باغية وأعمالها قيصر الصقلي. وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وعلى سجلماسة محمد بن واسول المكناسي. ثم بلغه سنة سبع وأربعين أن يعلى بن محمد اليفرني داخل الأموية من وراء البحر، وأنّ أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة فأغزى جوهر الصقلّيّ الكاتب إلى المغرب

بالعساكر، وكان على وزارته، وخرج معه جعفر بن عليّ صاحب المسيلة، وزيري بن مناد صاحب أشير، وتلقّاهم يعلى بن محمد صاحب المغرب الأوسط .ولما ارتحل عن ايفكان وقعت هيعة في أصحاب صيلة، وقيل له إن بني يعرب أوقعوها فتقبض على يعلى، وناشته سيوف كتامة لحينه، وخرب ايفكان وأسر ابنه يدو بن يعلى، وتمادوا إلى فاس، ثم تجاوزوها إلى سجلماسة فأخذها، وتقبّض على الشاكر لله محمد بن الفتح الذي تلقّب بأمير المؤمنين من بني واسول، وولّى ابن المعتز من بني عمه مكانه ودوّخ المغرب إلى البحر. ثم رجع إلى فاس وحاصرها وواليها يومئذ أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وقاتلها مدّة فامتنعت عليه، وجاءته هدايا الأمراء الأدكرنية من السوس. ثم رحل إلى سجلماسة، وبها محمد بن واسول من مكناسة، وقد تلقّب بأمير المؤمنين الشاكر لله، وضرب السكة بإسمه، تقدّست عزة الله، فلما سمع بجوهر هرب، ثم أخذ أسيراً وجيء به إلى جوهر، وسار عن سجلماسة، وافتتح البلاد في طريقه. ثم عاد إلى فاس، وأقام في حصارها إلى أن افتتحها عنوة على يد زيري بن مناد تسنمّ أسوارها ليلاً، ودخلها وتقبّض على أحمد بن بكر، وذلك سنة ثمان وأربعين، وولّى عليها من

قبله وطرد عمّال بني أمية من سائر المغرب. وانقلب إلى القيروان ظافراً عزيزاً، وضم تاهرت إلى زيري بن مناد. وقدم بالفاطميين، وبأحمد بن بكر وبمحمد بن واسال أسيرين في قفصين، ودخل بهما إلى المنصورية في يوم مشهود. وكانت ولاية المغرب والمشرق منقسمة بين مولييه قيصر ومُظفرَّ، وكانا متغلبين على دولته فقبض عليهما سنة تسع وأربعين وقتلهما. وفي سنة خمسين كان تغلّب النصارى على جزيرة إقريطش، وكان بها أهل الأندلس من جالية الحكم بن هشام بسبب ثورة الرفض، ففر بهم إلى الاسكندريّة فثاروا بها، وعبد الله بن طاهر يومئذ عامل مصر فحاصرهم بالأسكندرية، حتى نزلوا على الأمان، وأن يجيزوا البحر إلى جزيرة إقريطش فعمروها ونزلوها منذ تلك الأيام، وأميرها أبو حفص البلّوطي منهم، واستبدّ بها وورث بنوه رياسة فيها إلى أن نازلهم النصارى في هذه السنة في سبعمائة مركب، واقتحموها عليهم عنوة، وقتلوا منهم وأسروا، وبقيت في أيدي النصارى لهذا العهد، والله غالب على أمره. وافتتح صاحب صقلية سنة إحدى وخمسين قلعة طرمين، من حصون صقلّية، بعد حصار طويل أجهدهم فنزلوا على حكم صاحب صقلية بعد تسعة أشهر ونصف للحصار، وأسكن المسلمين بالقلعة وسمّاها المُعزيَّة نسبة إلى المُعزّ صاحب إفريقية. ثم سار صاحب صقلية بعدها، وهو أحمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسن إلى حصار رمطة من قلاع صقلية فاستمدوا ملكهم صاحب القسطنطينيّة فجهز لهم العساكر برا وبحرا، واستمد صاحب صقلية المعزّ فأمده بالعساكر مع إبنه الحسن ووصل مدده إلى مدينة ميسنى، وساروا بجموعهم إلى رمطة، وكان على حصارها الحسن بن عمار فحمل عسكرا على رمطة وزحف إلى عسكر الروم مستميتا فقاتلهم فقتل أمير الروم وجماعة من البطارقة، وهزموا أقبح هزيمة، واعترضهم خندق فسقطوا فيه، وأثخن المسلمون فيهم وغنموا عساكرهم. واشتدّ الحصار على أهل رمطة، وعدموا الأقوات فاقتحمها المسلمون عنوة، وركب فلّ الروم البحر يطلبون النجاة فأتبعهم الأمير احمد بن الحسن في أسطوله فأدركهم، وسبح بعض المسلمين في الماء فخرّق مراكبهم وانهزموا، وبث

أحمد سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها وعاثوا فيها حتى صالحوهم على الجزية، وكانت هذه الواقعة سنة أربع وخمسين وتسمّى وقعة المجاز.

فتح مصر

ثم إنّ المعز لدين الله بلغه اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الأخشيدي، وعظم فيها الغلاء، وكثرت الفتن وشغل بغداد عنهم بما كان من الفتن بين بختيار بن مُعزّ الدولة، وعُضدُ الدولة ابن عمه، فاعتزم المُعزّ على المسير إلى مصر، وأخرج جوهراً الكاتب إلى المغرب لحشد كتامة، وأوعز إلى عمّال برقة لحفر الآبار في طريقها، وذلك سنة خمس وخمسين فسيّره إلى مصر، وخرج لتوديعه وأقام أياماً في معسكره، وسار جوهر وبلغ خبره إلى عساكر الأخشيدية بمصر فافترقوا، وكان ما يذكر في أخبارهم، وقدم جوهر منتصف شعبان من سنة ثمان وخمسين فدخلها، وخطب في الجامع العتيق منه باسم المُعزّ، وأقيمت الدعوة العلويّة. وفي جمادى من سنة تسع وخمسين دخل جوهر جامع ابن طولون فصلّى فيه، وأمر بزيادة حيّ على خير العمل في الآذان، فكان أوّل أذان أذّن به في مصر. ثم بعث إلى المعزّ بالهدايا وبأعيان دولة الأخشيدية فحبسهم المعز بالمهديّة، وأحسن إلى القضاة والعلماء من وفدهم، وردّهم إلى مصر، وشرع جوهر في بناء القاهرة واستحث المعزّ للقدوم على مصر.

فتح دمشق

ولما فتحت مِصْرَ، وأُخِذَ بنو طفج ،هرب منهم الحسن بن عبد الله بن طفج إلى مكّة، ومعه جماعة من قوّادهم، فلّما استشعر جوهر به بعث جعفر بن فلاح الكتامي في العساكر إليه فقاتله مراراً، ثم أسره ومن كان معه من القوّاد، وبعث بهم إلى جوهر فبعث بهم جوهر إلى المُعِزّ بأفريقية. ودخل جعفر الرملة عنوة فاستباحها، ثم أمّن من بقي وجبى الخراج وسار إلى طبرية، وبها ابن مُلْهَم وقد أقام الدعوة للمعز فتجافى عنه، وسار إلى دمشق فافتتحها عنوة وأقام بها الخطبة للمعز لأيام من المحّرم سنة تسع وخمسين، وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن يعلى الهاشميّ، وكان مطاعاً فيهم فجمع الأوباش والذعّار وثار بهم في الجمعة الثانية، ولبس السواد، وأعاد الخطبة

للمطيع فقاتلهم جعفر بن فلاح أياماً وأولى عليهم الهزائم. وعاثت جيوش المغاربة في أهل دمشق فهرب ابن أبي يعلى ليلا من البلد، وأصبحوا حيارى، وكانوا قد بعثوا الشريف الجعفري إلى جعفر في الصلح فأعاده إليهم بتسكين الناس والوعد الجميل، وأن يدخل البلد، فيطوف فيه، ويرجع إلى معسكره فدخل، وعاث المغاربة في البلد بالنهب فثار الناس بهم وحملوا عليهم، وقتلوا منهم، وشرعوا في حفر الخنادق وتحصين البلد. ومشى الشريف أبو القاسم في الصلح بينهم وبين جعفر بن فلاح، فتم ذلك منتصف ذي الحجة من سنة تسع وخمسين، ودخل صاحب شرطة جعفر فسَكَنَ الناس وقَبَضَ علي جماعة من الأحداث، وقتل منهم وحبس. ثم قبض على الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى في المحرّم من سنة ستين، وبعث به إلى مصر، واستقام ملك دمشق لجعفر بن فلاح، وكان خرج بأفريقية في سنة ثمان وخمسين أبوجعفر الزناتي واجتمعت إليه جموع من البربر

والنكاريَّة، وخرج إليه المُعزِّ بنفسه، وانتهى إلى باغاية، وافترقت جموع أبي خزر، وسلك الأوعار فعاد المعزّ وأمر بلكين بن زيري بالمسير في طلبه فسار لذلك حتى انقطع عنه خبره، ثم جاء أبو جعفر مستأمناً سنة تسع وخمسين فقبله، وأجرى عليه الرزق، وعلى أثر ذلك وصلت كتب جوهر بإقامة دعوته بمصر والشام، وباستدعائه إليها فاشتدّ سرور المعز بذلك، وأظهره في الناس، ونطق الشعراء بامتداحه. ثم زحف القرامطة إلى دمشق وعليهم ملكهم الأعصم. ولقيهم جعفر بن فلاح فظفر بهم وقتلهم. ثم رجعوا إليه سنة إحدى وستين وبرز إليهم جعفر فهزموه وقتلوه، وملك الأعصم دمشق، وسار إلى مصر، وكاتب جوهر بذلك للمُعزّ فاعتزم على الرحلة إليها.

مسير المعز إلى مصر ونزوله بالقاهرة:

ولما انتهت هذه الأخبار إلى المعزّ اعتزم على المسير إلى مصر، وبدأ بالنظر في تمهيد المغرب وقطع شواغله، وكان محمد بن الحسن بن خزر المغراوي مخالفا عليه بالمغرب الأوسط، وقد كثرت جموعه من زناتة والبربر، وكان جّباراً طاغياً فأَهَمّ المُعزّ أمره، وخشي على أفريقية عائلته، فأمر بلكين بن زيري بن مناد بغزوه، فغزاه في بلاده،

وكانت بينهما حروب عظيمة. ثم انهزم محمد بن خزر وجموعه، ولما أحسّ بالهزيمة تحامل على سيفه فقتل نفسه، وقتل في المعركة سبعة عشر من أمراء زناتة، وأُسِرَ منهم كثيرٌ وذلك سنة ستين. وسَرَّ المَعز ذلك، وقعد للهناء به. واستقدم بلكين بن زيري فاستخلفه على أفريقية والمغرب، وأنزله القيروان وسمّاه يوسف، وكنّاه أبا الفتوح، وولّى على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي، ولم يجعل لبلكين ولاية عليه، ولا على صاحب صقليّة. وجعل على جباية الأموال زيادة الله بن الغريم، وعلى الخراج عبد الجبّار الخراسانيّ، وحسين بن خلف المرصدي بنظر بلكين، وعسكر ظاهر المنصوريّة آخر شوّال من سنة إحدى وستين، وأقام على سردانية قريباً من القيروان حتى فرغ من أعماله، ولحقته عسكره، وأهل بيته وعمّاله وحمل له ما كان في قصره من الأموال والأمتعة. وارتحل بعد أربعة أشهر من مقامه، وسار معه بلكين قليلا، ثم وّدعه وردّه إلى عمله، وسار هو إلى طرابلس في عساكره، وهرب بعضهم إلى جبل نَفُوسة فامتنعوا به، وسار إلى بَرْقَة فقتل بها شاعره محمد بن هانىء الأندلسي، وجد قتيلا بجانب البحر في آخر رجب من سنة إثنتين وستين. ثم سار إلى الإسكندريّة وبلغها في شعبان من هذه السنة، ولقيه بها أعيان مصر فأكرمهم ووصلهم، وسار فدخل القاهرة لخمس من رمضان من هذه السنة فكانت منزله ومنزل الخلفاء بعده إلى آخر دولتهم.

حروب **المعز** مع القرامطة واستيلاؤه علي دمشق:

كان لِلْقَرَامِطَة على بني طفج بدمشق ضريبة يؤدّونها إليهم، فلّما ملك ابن فلاح بدعوة المُعزّ قطع تلك الضريبة، وآسفهم بذلك فرجعوا إلى دمشق، وعليهم الأعصم ملكهم، فبرز إليهم جعفر بن فلاح فهزموه وقتلوه، وملكوا دمشق وما بعدها ،إلى الرَمْلَة، وهرب من كان بالَرمْلَة وتحصّنوا بيافا. وملك القرامطة الَرمْلَة، وجهّزوا العساكر على يافا، وساروا إلى مِصْرَ، ونزلوا عَيْن شمس وهي المعروفة لهذا العهد بالمطرية. واجتمع إليهم خلق

كثير من العرب، وأولياء بني طفج، وحاصروا المغاربة بالقاهرة، وقاتلوهم أياماً فكان الظفر بهم. ثم خرج المغاربة واستماتوا، وهزمهم فرحلوا

إلى الرَمْلَة، وضيّقوا حصار يافا، وبعث إليهم جعفر بالمدد في البحر فأخذه القرامطة وانتهى الخبر إلى المعزّ بالقيروان. وجاء إلى مصر ودخلها كما ذكرناه. وسمع أنهم يريدون المسير إلى مصر فكتب إلى الأعصم يذكّره فضل بنيه، وأنهم إنما دعوا له ولآبائه وبالغ في وعظه وتهدّده فأساء في جوابه، وكتب إليه: وصل كتابك الذي قلّ تحصيله، وكثُر تفصيله، ونحن سائرون إليك والسلام. وسار من الأحساء إلى مصر، ونزل عين شمس في عساكره، واجتمع إليه الناس من العرب وغيرهم. وجاء حسّان بن الجرّاح في جموع عظيمة من طيء، وبثّ سراياه في البلاد فعاثوا فيها وأهمّ المعز شأنه فراسل ابن الجرّاح، واستماله بمائة ألف دينار على أن ينهزم على القرامطة واستحلفوه على ذلك. وخرج المعز ليوم عيّنوه لذلك فانهزم ابن الجرّاح بالعرب، وثبت القرامطة قليلا، ثم إنهزموا وأخذ منهم نحو ألف وخمسمائة أسير. وساروا في أتباعهم ولحق القرامطة باذرعات، وساروا منها إلى الأحساء، وقتلوا صبراً ونهب معسكرهم. وجرّد المعز القائد أبا محمود في عشرة آلاف فارس، وبعث المعز القائد ظالم ابن موهوب العُقيليّ والياً على دمشق فدخلها، وكان العامل بها من قبل القرامطة أبو اللجاء وابنه. في جماعة منهم فحبسهم ظالم، وأخذ أموالهم، ورجع القائد أبو محمود من اتباع القرامطة إلى دمشق فتلقّاه ظالم وسرّ بقدومه، وسأله المقام بظاهر دمشق حذراً من القرامطة ففعل ودفع أبا اللجاء وابنه فبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها، وعاث أصحاب أبي محمود في دمشق، فاضطرب الناس، وقتل صاحب الشرطة بعضهم فثاروا به وقتلوا أصحابه. وركب ظالم بذراريهم وأجفل أهل الضواحي إلى البلد من عيث المغاربة، ثم وقعت في منتصف شوّال من سنة ثلاث وستين فتنة بين العامّة وبين عسكر أبي محمود وقاتلوه أياماً، ثم هزمهم وتبعهم إلى البلد. وكان ظالم بن موهوب يداري العامّة فأشفق في هذا اليوم على نفسه، وخرج من دار الإمارة وأحرق المغاربة ناحية باب الفراديس، ومات فيها خلق، واتصلت الفتنة إلى ربيع الآخر من سنة أربع وستين. ثم وقع الصلح بينهم على إخراج ظالم من البلد، وولاية جيش بن الصمصامة ابن أخت محمود فسكن الناس إليه. ثم رجع المغاربة إلى العيث، وعاد العامّة إلى الثورة، وقصدوا القصر الذي فيه جيش فهرب ولحق بالعسكر، وزحف إلى البلد فقاتلهم وأحرق ما كان بقي، وقطع الماء عن البلد فضاقت الأحوال، وبطلت

الأسواق، وبلغ الخبر إلى المعزّ فنكر ذلك على أبي محمود واستعظمه، وبعث إلى زياد الخادم في طرابلس يأمره بالمسير إلى دمشق لاستكشاف حالها، وأن يصرف القائد أبا محمود عنها ،فصرفه إلى الرملة، وبعث إلى المعز بالخبر، وأقام بدمشق إلى أن وصل أفتكين والياً على دمشق. وكان أفتكين هذا من موالي عزّ الدولة بن بويه، ولما ثار الأتراك على إبنه بختيار مع سبكتكين، ومات سبكتكين، قدّمه الأتراك عليهم، وحاصروا بختيار بواسط، وجاء عضد الدولة لإنجاده فاجفلوا عن واسط فتركوه ببغداد. وسار أفتكين في طائفة من الجند إلى حمص فترل قريباً منها، وقصده ظالم بن موهوب العُقيليّ ليقبضه فعجز عنه، وسار أفتكين فترل بظاهر دمشق وبها زياد خادم المعز، وقد غلب عليه، وعلى أعيان البلد الأحداث والدّعار، فلم يملكوا معهم أمر أنفسهم

فخرج الأعيان إلى أفتكين، وسألوا منه الدخول إليهم ليولّوه، وشكوا إليه حال المغاربة، وما يحملونهم عليه من عقائد بعض الرفض، وما أنزل بهم عمّالهم من الظلم والعسف فأجابهم واستحلفهم، وحلف لهم، وملك البلد، وخرج منها زياد الخادم، وقطع خطبة الُمعزّ العلوي، وخطب للطائع العبّاسيّ، وقمع أهل الفساد، ودفع العرب عمّا كانوا استولوا عليه من الضواحي. واستقل ملك دمشق، وكاتب المعزّ بطلب طاعته وولايتها من قبله فلم يثق إليه، وردّه وتجهز لقصده، وجهّز العساكر فتوفي بعسكره ببلبيس كما يذكر.

وفاة المعز وولاية ابنه العزيز:

ثم توفي المعزّ بمصر في منتصف ربيع الآخر سنة خمس وستين لثلاث وعشرين سنة من خلافته، ووليَ إبنه نزار بعهده إليه، ووصّيته، ولقّب العزيز بالله، وكتم موت أبيه إلى عيد النحر من السنة فصلّى بالناس وخطبهم، ودعا لنفسه وعزّى بأبيه، وأقّر يعقوب بن كلس على الوزارة كما كان أيام أبيه، وأقّر بلكين بن زيري على ولاية أفريقية، وأضاف إليه ولاية عبد الله بن يخلف الكتامي، وهي طرابلس، وسرت وجرابيه. وكان أهل مكة والمدينة قد خطبوا للمعز أبيه في الموسم، فتركوا الخطبة للعزيز فبعث جيوشه إلى الحجاز فحاصروا مكة والمدينة، وضيّقوا عليهم حتى رجعوا إلى دعوتهم،

وخطب للعزيز بمكة، وكان أمير مكة عيسى بن جعفر، والمدينة طاهر بن مسلم، ومات في هذه السنة فولي إبنه الحسن وابن أخيه مكانه.

بقية أخبار أفتكين:

ولما توفي المعز وولي العزيز قام أفتكين، وقصد البلاد التي لهم بساحل الشام فبدأ بصيدا فحاصرها، وبها ابن الشيخ في رؤوس المغاربة، وظالم بن موهوب العُقيليّ فبرزوا إليه، وقاتلوه فاستنجد لهم، ثم كرّ عليهم وأوقع بهم، وقتل منهم أربعة آلاف، وسار إلى عكة فحاصرها، وقصد طبرية وفعل فيها مثل صيدا. ورجع واستشار العزيز وزيره يعقوب بن كلس فأشار بإرسال جوهر الكاتب إليه، فجهّزه العزيز وبعثه، وأقبل أفتكين على أهل دمشق يريهم التحوُّل عنهم، ويذكرهم بذلك ليختبرهم فتطارحوا إليه، واستماتوا واستحلفهم على ذلك، ووصل جوهر في ذي القعدة سنة خمس وستين فحاصر دمشق شهرين، وضيّق حصارها وكتب افتكين إلى الأعصم مَلك القرامطة يستنجده، فسار إليه من الإحساء، واجتمع إليهم من رجال الشام والعرب نحو من خمسين ألفاً وأدركوا جوهراً بالرملة، وقطعوا عنه الماء فارتحل إلى عسقلان فحاصروه بها حتى بلغ الجهد، وأرسل جوهر إلى أفتكين بالمغاربة والوعد. والقرمطيّ يمنعه، ثم سأله في الاجتماع فجاءه أفتكين، ولم يزل جوهر يعتل له في الدروة والغارب، وأفتكين يعتذر بالقرمطيّ ويقول: أنت حملتني على مداراته. فلما أيس منه، كشف له عمّا هم فيه من الضيق، وسأله الصنيعة وأنها يتّخذها عند العزيز فحلف له على ذلك، وعزله القرمطيّ. وأراه جوهر أن يحمل العزيز على المسير بنفسه فصُمّ من عزله وأبى إلاّ الوفاء، وانطلق جوهر إلى مصر وأغرى العزيز بالمسير إليهم، فتجهّز في العساكر، وسار وجوهر في مقدّمته، ورجع أفتكين والقرمطيّ إلى الرملة، واحتشدوا ووصل العزيز فاصطفوا للحرب بظاهر الرملة في محّرم سنة سبع وستين. وبعث العزيز إلى

أفتكين يدعوه إلى الطاعة،و يرغّبه ويعده بالتقدّم في دولته، ويدعوه إلى الحضورعنده فتقدم بين الصفّين، وترجّل وقبّل الأرض وقال: قل لأمير المؤمنين لوكان قبل هذه لسارعت، وأما الآن فلا يمكنني. وحمل على المسيرة فهزمهم وقتل الكثير منهم فامتعض العزيز وحمل هو والميمنة جميعاً فهزمهم، ووضع المغاربة السيف فقتلوا نحواً من

عشرين الفاً. ثم نزل في خيامه، وجيء بالأسرى فخلع على من جاء بهم، وبذل لمن جاء بأفتكين مائة ألف دينار، فلقيه المفرّج بن دغفل الطائي، وقد جهده العطش فاستسقاه، وتركه بعرشه مُكَّرماً. وجاء إلى العزيز فأخبره بمكانه، وأخذ المائة ألف التي بذلها فيه، وأمكنه من قياده. ولما حضر عند العزيز وهو لا يشك أنه مقتول أكرمه العزيز ووصله، ونصب له الخيام، وأعاد إليه ما نهب له، ورجع به إلى مصر فجعله أخص خدمه وحجّابه، وبعث إلى الأعصم القرمطيّ من يردّه إليه ليصله، كما فعل بأفتكين فأدرك بطبرية، وامتنع من الرجوع فبعث إليه بعشرين ألف دينار، وفرضها له ضريبة. وسار القرمطيّ إلى الأحساء، وعاد العزيز إلى مصر، ورقي رتبة أفتكين وخصّ به الوزير يعقوب بن كلس فسمّه، وسمع العزيز بأنه سمّه فحبسه أربعين يوماً وصادره على خمسمائة ألف دينار، ثم خلع عليه، وأعاده إلى وزارته. وتوفي جوهر الكاتب في ذي القعدة من سنة إحدى وثمانين، وقام إبنه الحسن مقامه، ولقّب قائد القوّاد. وكان أفتكين قد استخلص أيام وزارته بدمشق رجلا إسمه قسّام، فعلا صبته وكثُر تابعه، واستولى على البلد. ولما انهزم أفتكين والقرامطة، بعث العزيز القائد أبا محمود بن إبراهيم والياً على دمشق كما كان لأبيه المعزّ فوجد فيها قسّاماً قد ضبط البلد، وهو يدعو للعزيز فلم يتم له معه ولاية. وبقي قسّام مستبداً عليه إلى أن مات أبو محمود سنة سبعين. ثم جاء أبو ثعلب بن حمدان صاحب الموصل إلى دمشق، عند انهزامه أمام عضد الدولة فمنعه قسّام من الدخول، وخاف أن يغلبه على البلد بنفسه أو بأمر العزيز،واستوحش أبو ثعلب لذلك فقاتله قليلا، ثم رحل إلى طبريّة. وجاءت عساكر العزيز مع قائده الفضل فحاصروا قسّاما بدمشق، ولم يظفروا به ورجعوا. ثم بعث العزيز سنة تسع وستين سليمان بن جعفر بن فلاح فنزل بظاهرها، ولم يمكّنه قسّام من دخولها، ودسّ إلى الناس فقاتلوه، وأزعجوه عن مكانه. وكان مفرج بن الجرّاح أمير بني طيء، وسائر العرب بأرض فلسطين قد كثرت جموعه، وقويت شوكته، وعاث في البلاد، وخرّبها فجهّز العزيز العساكر لحربه مع قائده بلتكين التركيّ ،فسار إلى الرملة، واجتمع إليه العرب من قيس وغيرهم، ولقي ابن الجرّاح وقد أكمن لهم بلتكين من ورائهم، فانهزم ومضى إلى أنْطاكِية، فأجاره

صاحبها. وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية إلى بلاد الشام فخاف ابن الجرّاح، وكاتب بكجور مولى سيف الدولة وعامله على حمص، ولجأ إليه فأجاره. ثم زحف بلتكين إلى دمشق وأظهر لقسّام أنه جاء لإصلاح البلد. وكمان مع قسّام جيش بن الصمصامة ابن أخت أبي محمود قد قام بعده في ولايته، فخرج إلى بلتكين فأمره بالنزول معه بظاهر البلد هو وأصحابه. واستوحش قسّام وتجهّز للحرب. ثم قاتل وانهزم أصحابه، ودخل بلتكين أطراف البلد فنهبوا وأحرقوا. واعتزم أهل البلد على الإستئمان إلى بلتكين، وشافهوه بذلك

فأذن لهم وسمع قسّام فاضطرب وألقي ما بيده، واستأمن الناس إلى بلتكين لأنفسهم ولقسّام فأمّن الجميع. وولّى على البلد أميراً إسمه خطلج ،فدخل البلد، وذلك في المحرم سنة إثنتين وسبعين. ثم اختفى قسّام بعد يومين فنهبت دوره ودور أصحابه، وجاء ملقياً بنفسه على بلتكين فقبله، وحمله إلى مصر فأمّنه العزيز. وكان بكجور في غويّة من غلمان سيف الدولة وعامله على حمص. وكان يمدّ دمشق أيام هذه الفتنة والغلاء، ويحمل الأقوات من حمص إليها، ويكاتب العزيز بهذه الخدم. ثم استوحش سنة ثلاث وسبعين من مولاه أبي المعالي فاستنجز من العزيز وعده إياه بولاية دمشق، وصادف ذلك أنّ المغاربة بمصر أجمعوا على التوثّب بالوزير ابن كلس، ودعت الضرورة إلى استقدام بلتكين من دمشق فأمره العزيز بالقدوم، وولاية بكجور على دمشق ففعل، ودخلها بكجور في رجب من سنة ثلاث وسبعين، وعاث في أصحاب ابن كلس وحاشيته بدمشق، لما كان يبلغه عنه من صدّ العزيز عن ولايته.ثم أساء السيرة في أهل دمشق فسعى ابن كلس في عزله عند العزيز، وجهّز العساكر سنة ثمان وسبعين مع منير الخادم، وكتب إلى نزال عامل طرابلس بمظاهرته، وجمع بكجور العرب وخرج للقائه فانهزم. ثم خاف من وصول نزال فاستأمن لهم وتوجّه إلى الرقّة فاستولى عليها، ودخل منير دمشق واستقرّ في ولايتها، وارتفعت منزلته عند العزيز وجهزه لحصار سعد الدولة بحلب. وكان بكجور بعد انصرافه من دمشق إلى الرقّة سأل من سعد الدولة العَوْد إلى ولاية حمص فمنعه فأجلب عليه، واستنجد العزيز لحربه، وبعث إلى نزال عامل طرابلس بمظاهرته فسار إليه بالعساكر، وخرج سعد الدولة من حلب للقائهم. وقد أضمر نزال الغدر ببكجور، وتقدّم إليه بذلك عيسى بن نسطورس وزير العزيز بعد ابن كلس.وجاء سعد الدولة للقائهم، وقد استمدّ عامل أنْطاكِية للروم فامدّه بجيش

كثير وداخل العرب الذين مع بكجور في الإنهزام عنه، ووعدوه ذلك من أنفسهم، فلما تراءى الجمعان، وشعر بكجور بخديعة العرب فاستمات، وحمل على الصفّ بقصد سعد الدولة فقتل لؤلؤ الكبير مولاه بطعنه إياه، ثم حمل عليه سعد الدولة فهزمه، فسار إلى بعض العرب، وحمل إلى سعد الدولة فقتله، وسار إلى الرقّة فملكها وقبض جميع أمواله وكانت شيئاً لا يعبّر عنه. وكتب أولاده إلى العزيز يستشفعون به فشفع إلى سعد الدولة فيهم أن يبعثهم إلى مصر، ويتهدّده على ذلك فأساء سعد الدولة الردّ، وجهّز لحصار حلب الجيوش مع منجوتكين، فنزل عليها وحاصرها، وبها أبو الفضائل بن سعد الدولة، ومولاه لؤلؤ الصغير. وأرسلا إلى بسيل ملك الروم يستنجدانه، وهو في قتال بلغار فبعث إلى عامل أنْطاكِية أن يمدّهما، فسار في خمسين ألفاً حتى نزل حبس العاصي، وبلغ خبره إلى منجوتكين فارتحل عن حلب، ولقي الروم فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وأسرا.وسار إلى أنْطاكِية وعاث في نواحيها، وخرج أبو الفضائل في مغيب منجوتكين إلى ضواحي حلب، فنقل ما فيها من الغلال وأحرق بقيتها لتفقد عساكر منجوتكين الأقوات. فلما عاد منجوتكين إلى الحصار، جهّز عسكره، وأرسل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربيّ في الصلح، فعقد له ذلك، ورحل منجوتكين إلى دمشق، وبلغ الخبر إلى العزيز فغضب، وكتب إلى منجوتكين بالعود إلى حصار حلب وإبعاد الوزير المغربيّ، وأنفذ الأقوات للعسكر في البحر إلى طرابلس. وأقام منجوتكين في حصار حلب. وأعادوا مراسلة ملك الروم

فاستنجدوه وأغروه، وكان قد توسط بلاد البلغار فعاد مجدّا في السير. وبعث لؤلؤ إلى منجوتكين بالخبر حذرا على ال مسلمين، وجاءته جواسيسه بذلك فأجفل بعد أن خرّب ما كان اتخذه في الحصار من الأسواق والقصور والحمّامات. ووصل ملك الروم إلى حلب ولقي أبا الفضائل ولؤلؤاً، ثم سار في الشام وافتتح حمص وشيزر، ونهبهما، وحاصر طرابلس أربعين يوما، فامتنعت عليه، وعاد إلى بلاده، وبلغ الخبر إلى العزيز فعظم عليه، واستنفر الناس للجهاد، وبرز من القاهرة، وذلك سنة إحدى وثمانين. ثم انتقض منير في دمشق،فزحف إليه منجوتكين إلى دمشق.

أخبار الوزراء

كان وزير المعز لدين الله، يعقوب بن يوسف بن كلس أصله من اليهود وأسلم، وكان يدبّر الأحوال الأخشيدية بمصر، وعزله أبو الفضائل بن الفرات سنة سبع وخمسين، وصادره فاستتر بمصر، ثم فرّ إلى المغرب ولقي المعز لدين الله، وجاء في ركابه إلى مصر فاستوزره وعظم مقامه عنده، واستوزره بعده إبنه العزيز إلى أن توفي سنة ثمانين، وصلى عليه العزيز وحضر دفنه، وقضى عنه دينه، وقسّم عمله فردّ النظر في الظلامات إلى الحسن بن عمّار كبير كتامة، وردّ النظر في الأموال إلى عيسى بن نسطورس، ولم تزل الوزارة سائر دولتهم في أرباب الأقلام، وكانوا بمكان، وكان منهم البارزي. وكان مع الوزارة قاضي القضاة وداعي الدعاة. وسأل أن يرسم إسمه على السكّة فغرب ومنع، ومات قتيلا بتنيس. وأبو سعيد النسري، وكان يهودياً وأسلم قبل وزارته، والجرجاني وقطع الجرجاني في أمر منع من الكتب فيه فكتب وحلف الحاكم بيمين لا تكفّر ليُقطعنّه. ثم ردّه بعد ثلاث وخلع عليه وابن أبي كُدينة ثلاثة عشر شهراً. ثم صرف وقتل وأبو الطاهر بن ياشاد، وكان من أهل الدين واستعفى فأُعفِيَ، وأقام معتكفاً في جامع مصر، وسقط ليلة من السطح فمات. وكان آخرهم الوزير أبو القاسم بن المغربيّ، وكان بعده بدر الجيالي أيام المستنصر وزير سيف الدولة، واستبدّ له على الدولة، ومن بعده منهم كما يأتي في أخبارهم.

أخبار القضاة

كان النُعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيُّون في خطة القضاء للمعزّ بالقيروان. ولما جاء إلى مصر أقام بها في خطة القضاء إلى أن توفي، وولي ابنه عليّ، ثم توفي سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، فولّى العزيز أخاه أبا عبد الله محمداً، خلع عليه وقُلّده سيفاً. وكان المعز قد وعد أباه بقضاء إبنه محمد هذا بمصر، وتمّ في سنة تسع وثمانين أيام الحاكم. وكان كبير الصيت، كثير الإحسان، شديد الاحتياط في العدالة فكانت أيامه شريفة.

ووليَ بعده ابن عمه أبو عبد الله الحسين علي بن النعمان أيام الحاكم،

ثم عزل سنة أربع وتسعين، وقتل وأحرق بالنار، ووليَ مكانه ملكة بن سعيد الفارقيّ إلى أن قتله الحاكم سنة خمس وأربعمائة بنواحي القصور، وكان عالم المنزلة عند الحاكم ومداخلاً له في أمور الدولة، وخالصة له في خلواته. وولّى بعده أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوّام. واتصل في آخرين إلى آخر دولتهم، كان كثيراً ما

يجمعون للقاضي المظالم والدعوة، فيكون داعي الدعاة، وربما يفردون كلاًّ منهما. وكان القاضي عندهم يصعد مع الخليفة المنبر مع من يصعده من أهل دولته عندما يخطب الخلفاء في الجمع والأعياد.

وفاة المعز وولاية ابنه الحاكم:

قد تقدم لنا أنّ العزيز استنفر الناس للجهاد سنة إحدى وثمانين، وبرز في العساكر لغزو الروم، ونزل بلبيس فاعتورته الامراض، واتصلت به إلى أن هلك آخر رمضان سنة ست وثمانين لإحدى عشرة سنة ونصف من خلافته، ولقّب الحاكم بأمر الله، واستولى برجوان الخادم على دولته كما كان لأبيه العزيز بوصيته بذلك، وكان مدبّر دولته، وكان رديفه في ذلك أبو محمد الحسن بن عمّار ويلقّب بأمين الدولة، وتغلّب على ابن عمّار، وانبسطت أيدي كتامة في أموال الناس وحرمهم، ونكر منجوتكين تقديم ابن عمّار في الدولة، وكاتب برجوان بالموافقة على ذلك فأظهر الانتقاض، وجهّز العساكر لقتاله مع سليمان بن جعفر بن فلاح فلقيهم بعسقلان، وانهزم منجوتكين وأصحابه، وقتل منهم ألفين، وسيق أسيراً إلى مصر فأبقى عليه ابن عمّار، واستماله للمشارقة، وعقد على الشام لسليمان بن فلاح، ويكّنى أبا تميم، فبعث من طبريّة أخاه عليا إلى دمشق، فامتنع أهلها، فكاتبهم أبو تميم، وتهدّدهم وأذعنوا، ودخل على البلد ففتك فيهم. ثم قدّم أبو تميم فأمّن وأحسن، وبعث أخاه علياً إلى طرابلس، وعزل عنها جيش ابن الصمصامة فسار إلى مصر، وداخل برجوان في الفتك بالحسن بن عمّار وأعيان كتامة، وكان معهما في ذلك شكر خادم عضد الدولة، نزع إلى مصر بعد مهلك عضد الدولة، ونكبة أخيه شرف الدولة إياه، فخلص إلى العزيز فقرّبه، وحظي عنده، فكان مع برجوان وجيش بن الصمصامة. وثارت الفتنة، واقتتل المشارقة والمغاربة فانهزمت المغاربة، واختفى ابن عمّار وأظهر برجوان الحاكم وجدّد

له البيعة، وكتب إلى دمشق بالقبض على أبي تميم بن فلاح فنهب، ونهبت خزائنه، واستمرّ القتل في كتامة واضطربت الفتنة بدمشق، واستولي الأحداث. ثم أذن برجوان لابن عمّار شي الخروج من أستاره، وأجرى له أرزاقه على أن يقيم بداره. واضطرب الشام فانتقض أهل صور، وقام بها رجلٌ ملاّح إسمه العلاّقة، وانتقض مُفَرّج بن دغفل بن الجّراح، ونزل على الرملة، وعاث في البلاد، وزحف الدوقش ملك الروم إلى حصن أفامية محاصراً لها. وجهّز برجوان العساكر مع جيش ابن الصمصامة فسار إلى عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدون، وأسطولاً في البحر، واستنجد العلاّقة ملك الروم فأنجده بالمقاتلة في المراكب، فظفر بهم أسطول المسلمين. واضطرب أهل صور، وملكها ابن حمدان، وأسر العلاّقة، وُبعِثَ به إلى مصر فسلخ وصلب، وسار جيش ابن الصمصامة إلى الفرج بن دغفل فهرب أمامه، ووصل إلى دمشق وتلقّاه أهلها مذعنين، وأحسن إليهم وسكّنهم، ورفع أيدي العدوان عنهم. ثم سار إلى أفامية وصافّ الروم عندها فانهزم أولاً هو وأصحابه ،وثبت بشارة أخشيدي بن قرارة في خمسمائة فارس، ووقف الدوقش ملك الروم على رابية في ولده، وعدّة من غلمانه ينظر فعل الروم في المسلمين، فقصد كردي من مصاف الأخشيدي ،وبيده عصا من حديد يسمّى الخشت، وظنّه الملك مستأمناً، فلما دنا منه ضربه بالخشت فقتله، وانهزم الروم وأتبعهم جيش بن الصمصامة

إلى أنْطاكِية يغنم ويسبي ويحرق. ثم عاد مظفّراً إلى دمشق فنزل بظاهرها و لم يدخل. واستخلص رؤساء الأحداث واستحجبهم وأُقيم له الطعام في كل يوم، وأقام على ذلك برهة. ثم أمر أصحابه إذا دخلوا للطعام أن يغلق باب الحجرة عليهم، ويوضع السيف في سائرهم، فقتل منهم ثلاثة آلاف، ودخل دمشق، وطاف بها، وأحضر الأشرف فقتل رؤساء الأحداث بين أيديهم، وبعث بهم إلى مصر، وأمّن الناس.ثم إنه توفي وولىّ محمود بن جيش، وبعث برجوان إلى بسيل ملك الروم فصالحه لعشر سنين، وبعث جيشاً إلى برقة وطرابلس المغرب ففتحها، وولّى عليها يانساً الصِقليّ. ثم ثقل مكان برجوان على الحاكم فقتله سنة تسع وثمانين، وكان خِصِيّا أبيض، وكان له وزير نصراني استوزره الحاكم من بعده. ثم قتل الحسين بن عمّار، ثم الحسين بن جوهر القائد. ثم جهّز العساكر مع يارختكين إلى حلب،

وقصد حسّان بن فرج الطائي، لما بلغ من عيثه وفساده. فلما رحل من غزوه إلى عسقلان لقيه حسّان وأبوه مفرج فانهزم وقتل، ونهبت النواحي، وكثرت جموع بني الجرّاح، وملكوا الرملة، واستقدموا الشريف أبا الفتوح الحسن بن جعفر أمير مكة فبايعوه بالخلافة.ثم استمالهما الحاكم ورغّبهما فردّاه إلى مكة، وراجعا طاعة الحاكم، وراجع هو كذلك، وخطب له بمكة. ثم جهّز الحاكم العساكر إلى الشام مع عليّ ابن جعفر بن فلاح، وقصد الرملة، فانهزم حسّان بن مفرج وقومه، وغلبهم على تلك البلاد واستولى على أموالهم وذخائرهم، وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل السراة، ووصل إلى دمشق في شوّال سنة تسعين، فملكها واستولى عليها، وأقام مفرج وابنه حسّان شريدين بالقفز نحواً من سنتين. ثم هلك مفّرج، وبعث حسّان إبنه إلى الحاكم فأمّنه وأقطعه، ثم وفد عليه بمصر فأكرمه ووصله.

خروج أبي ركوة ببرقة والظفر به:

كان أبو ركوة هذا يزعم أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل، وأنه هرب من المنصور بن أبي عامر حين تتّبعهم بالقتل وهو ابن عشرين سنة، وقصد القيروان فأقام بها يعلّم الصبيان. ثم قصد مصر وكتب الحديث، ثم سار إلى مكة واليمن والشام، وكان يدعو للقائم من ولد أبيه هشام، وإسمه الوليد، وإنما لقبه أبا ركوة لأنه كان يحملها لوضوئه على عادة الصوفيّة. ثم عاد إلى نواحي مصر ونزل على بني قُرَّة من بادية هلال بن عامر، وأقام يعلّم الصبيان ويؤمهم في صلاتهم. ثم أظهر ما في نفسه، ودعا للقائم. وكان الحاكم قد اسرف في القتل في أصناف الناس وطبقاتهم، والناس معه على خطر، وكان قتل جماعة من بني قُرَّة، وأحرقهم بالنار لفسادهم، فبادر بنو قُرَّة، وكانوا في أعمال برقة فأجابوه وانقادوا له وبايعوا. وكان بينهم وبين لواتة ومزاتة وزناتة جيرانهم في الاصل حروب ودماء فوضعوها، واتّفقوا على بيعته.وكتب عامل برقة أنيال الطويل بخبرهم إلى الحاكم فأمره بالكفّ عنهم. ثم اجتمعوا وساروا إلى برقة فهزموا العامل برمادة، وملكوا برقة، وغنموا الأموال والسلاح وقتلوه. وأظهر أبو ركوة العدل، وبلغ الخبر إلى الحاكم فاطمأنت نفسه، وكفّ عن

الأذى والقتل، وجهّز خمسة آلاف فارس مع القائد أبي الفتوح الفضل بن صالح فبلغ ذات الحمّام، وبينها وبين برقة مفازة صعبة معطشة، وأمر أبو ركوة من غور المياه التي فيها. على قلبها. ثم سار للقائهم بعد خروجهم من المفازة على جهد العطش فقاتلهم، ونال منهم وثبت أبو ركوة، واستأمن إليه جماعة من كتامة لما نالهم من أذى الحاكم وقتله فأمّنهم، ولحقوا به، وانهزمت عساكر الحاكم، وقتل خلق كثير منهم. ورجع أبو ركوة إلى برقة ظافراً، وردّد البعوث والسرايا إلى الصعيد وأرض مصر. وأهمّ الحاكم أمره، وندم على ما فّرط. وجهّز عليّ بن فلاح العساكر لحربهم. وكاتب الناس أبا ركوة يستدعونه، وممن كتب إليه الحسن بن جوهر قائد القوّاد، وبعثهم في ستة عشر ألف مقاتل سوى العرب، وبعث أخاه في سرية فواقع بني قُرَّة وهزمهم، وقتل من شيوخهم عبد العزيز بن مّصعب، ورافع بن طراد ومحمد بن أبي بكر، واستمال الفضل بني قُرَّة فأجابه ماضي بن مقرب من أمرائهم، وكان يطالعه بأخبارهم. وبعث عليّ بن فلاح عسكراً إلى الفيّوم فكبسه بنو قُرَّة وهزموه، ونزل أبو ركوة بالهرمين، ورجع من يومه. ثم رحل الفضل إلى الفيّوم لقتالهم فواقعهم برأس البركة وهزمهم، واستأمن بنو كلاب وغيرهم، ورجع عليّ بن فلاح، وتقدّم الفضل لطلب أبي ركوة، وخذل ماضي بن مقرب بني قُرَّة عن أبي ركوة فقالوا له أنج بنفسك إلى بلد النوبة، ووصل إلى تخومهم وقال: أنا رسول الحاكم، فقالوا: لا بدّ من استئذان الملك، فوكّلوا به، وطالعوا الملك بحقيقة الحال. وكان صغيراً قد وليَ بعد سرقة أبيه، وبعث إليه الفضل بشأنه، وطلبه فكتب إلى شجرة بن مينا قائد الخيل بالثغر بأن يسلّمه إلى نائب الحاكم، فجاء به رسول الفضل، وأنزله الفضل في خيمة، وحمله إلى مصر فطيف به على جمل لابسا طرطوراً وخلفه قرد يصفعه. ثم حمل إلى ظاهر القاهرة ليقتل، فمات قبل وصوله، وقُطِعَ رأسهُ وصُلِبَ. وبالغ الحاكم في إكرام الفضل، ورفع مرتبته، ثم قتله بعد ذلك، وكان ظفر الحاكم بأبي ركوة سنة سبع وتسعين.

بقية أخبار الحاكم:

كان الحسن بن عمّار زعيم كتامة مدّبر دولته كما ذكرناه، وكان برجوان خادمه وكافله، وكان بين الموالي والكتاميين في الدولة منافسة. وكان كثيراً ما يفضي إلى القتال. واقتتلوا سنة سبع وثمانين. وأركب المغاربة ابن عمّار، والموالي برجوان، وكانت بينهم حروب شديدة. ثم تحاجزوا واعتزل ابن عمّار الأمور، وتخلّى بداره عن رسومه وجراياته، وتقدّم برجوان بتدبير الدولة. وكان كاتب بن فهر بن إبراهيم يربع، وينظر في الظلامات، ويطالعه. وولّى على برقة يانس صاحب الشرطة مكان صندل. ثم قتل برجوان سنة تسع وثمانين، ورجع التدبير إلى القائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر، وبقي ابن فهر على حاله. وفي سنة تسعين انقطعت طرابلس عن منصور بن بلكين بن زيري صاحب أفريقية، وولّى عليها يأنس العزيزي، من موالي العزيز، فوصل إليها، وأمكنه عامل المنصور منها، وهو عصولة بن بكّار.وجاء إلى الحاكم بأهله وولده وماله وأطلق يد يأنس على مخلّفه بطرابلس، يقال كان له من الولد نيف وستون بين ذكر وأنثى، ومن السراري خمس وثلاثون فتلقيّ بالمبّرة وهُيّيء له القصور، ورُتّب له الجراية وقلّده دمشق وأعمالها ،فهلك بها لسنة من ولايته. وفي سنة إثنتين وتسعين وصل الصريخ من جهة فلفول بن خزرون المُغراوي في ارتجاع طرابلس إلى منصور بن بلكين،

فجهزّت العساكر مع يحيى بن علي الأندلسي الذي كان جعفر أخوه عامل الزاب للعبيديين، ونزع إلى بني أمية وراء البحر. ولم يزل هو وأخوه في تصريفهم إلى أن قتل المنصور بن أبي عامر جعفراً منهما، ونزع أخوه يحيى إلى العزيز بمصر فنزل عليه، وتصرّف في خدمته وبعثه الآن الحاكم في العساكر لما قدّمناه، فاعترضه بنو قُرَّة ببرقة ففضّوا جموعه. ورجع إلى مصر وسار يانس من برقة إلى طرابلس، فكان من شأنه مع عصولة ما ذكرناه.وبعد وفاة عصولة وليَ على دمشق مفلح الخادم، وبعده عليّ بن فلاح سنة ثمان وتسعين. وبعد مسير يانس ولى على برقة صندل الأسود. وفي سنة ثمان وتسعين عزل الحسين بن جوهر القائد، وقام بتدبير الدولة صالح بن علي بن صالح الروباذيّ. ثم نكب حسين القائد بعد ذلك وقتل، ثم قتل صالح بعد ذلك، وقام بتدبير الدولة الكافي بن نصر بن عبدون، وبعده زُرعة بن عيسى بن نسطورس، ثم أبو عبد الله الحسن بن طاهر الوزّان. وكثر عيث الحاكم في أهل دولته، وقتْله إيّاهم مثل الجرجراي وقطعه أيديهم، حتى أنّ كثيراً منهم كانوا يهربون من سطوته، وآخرون يطلبون الأمان فيكتب لهم به السجلاّت. وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل، والإخافة والأمن، والنسك والبدعة. وأمّا ما يرمى به من الكفر، وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح، ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته. وأمّا مذهبه في الرافضة فمعروف. ولقد كان مضطرباً فيه مع ذلك، فكان يأذّن في صلاة التراويح ثم ينهى عنها. وكان يرى بعلم النجوم ويؤثره، وينقل عنه أنه منع النساء من التصرّف في الأسواق، ومنع من أكل الملوخيّا. ورفع إليه أنّ جماعة من الروافض تعرّضوا لأهل السُنَّة في التراويح بالرجم، وفي الجنائز فكتب في ذلك سجلاً قرىء على المنبر بمصر كان فيه:أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين، يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين،{ لا إكراه في الدين }[الآية]. مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه. معاشر المسلمين نحن الأئمة، وأنتم الأمّة. لا يحلّ قتل من شهد الشهادتين ولا يحلّ عروة بين إثنين، تجمعها هذه الأخوّة، عصمَ الله بها من عصمْ، وحرّم لها ما حرّم، من كل محرّم، من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح، والفساد والإفساد من العبّاد يستقبح. يطوى ما كان فيما مضى فلا يُنْشَر، ويعرض عما انقضى فلا يُذْكَر. ولا يقبل على ما مرّ وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت عليه في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين، سلام الله عليهم أجمعين، مهديهم بالله، وقائمهم بأمر الله، ومنصورهم بالله، ومعزّهم لدين الله، وهو إذ ذاك بالمهديّة والمنصوريّة، وأحوال القيروان تجري فيها ظاهرة غير خفيّة، ليست بمستورة عنهم ولا مطويّة. يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون، صلاة الخمس للدين بها جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون. يخمّس في التكبير على الجنائز المخمّسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربّعون. يؤذّن بحيّ على خير العمل المؤذّنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذّنون. لا يسبّ أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف، والخالف فيهم بما خلف. لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده وإلى الله ربّه ميعاده، عنده كتابه، وعليه حسابه. ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم، لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده. من

جميع ما نصّه أمير المؤمنين في سجلّه هذا، وبعد قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون } والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وفاة الحاكم وولاية الظاهر:

ثم توفي الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز نزار، قتيلا ببركة الحبش بمصر، وكان يركب الحمار ويطوف بالليل، ويخلو بدار في جبل المقطم للعبادة، ويقال لاستنزال روحانية الكواكب. فصعد ليلة من ليالي لثلاث بقين من شوّال سنة إحدى عشرة ركب على عادته ومشى معه راكبان فردّهما واحداً بعد آخر في تصاريف أموره. ثم افتُقِدَ ولم يرجع، وأقاموا أياماً في انتظاره. ثم خرج مُظَفَّر الصقلي والقاضي وبعض الخواصّ إلى الجبل فوجدوا حماره مقطوع اليدين، واتبعوا أثره إلى بركة الحبش فوجدوا ثيابه مُزرّرة، وفيها عدّة ضربات بالسكاكين فأيقنوا بقتله. ويقال إنّ أخته بلغه أنّ الرجال يتناوبون بها فتوعّدها فأرسلت إلى ابن دواس من قوّاد كتامة، وكان يخاف الحاكم فأغرته بقتله، وهوّنته عليه، لما يرميه به الناس من سوء العقيدة، فقد يهلك الناس ونهلك معه. ووعدته بالمترلة والاقطاع، فبعث إليه

رجلين فقتلاه في خلوته. ولما أيقنوا بقتله اجتمعوا إلى أخته ست الملك فأحضرت عليّ بن دواس، وأجلس علي بن الحاكم صبياً لم يناهز الحلم، وبايع له الناس ولقّب الظاهر لإعزاز دين الله، ونفذت الكتب إلى البلاد بأخذ البيعة له. ثم حضر ابن دواس من الغد، وحضر معه القوّاد فأمرت ست الملك خادمها فعلاه بالسيف امامهم حتى قتله، وهو ينادي بثأر الحاكم فلم يختلف فيه اثنان، وقامت بتدبير الدولة أربع سنين. ثم ماتت، وقام بتدبير الدولة الخادم معِضاد وتافر بن الوزّان، وولى وزارته أبو القاسم علي بن احمد الجرجراي وكان متغلبا على دولته، وانتقض الشام خلال ذلك، وتغلّب صالح بن مرداس من بني كلاب على حلب، وعاث بنو الجراح في نواحيه فبعث الظاهر سنة عشرين قائده الزريري والي فلسطين في العساكر، وأوقع بصالح بن الجراح، وقُتِل صالح وابنه وملك دمشق.وملك حلب من يد شبل الدولة نصر بن صالح وقتله، وكان بينه وبين بني الجَراح قبل ذلك وهو بفلسطين حروب؟ حتى هرب من الرملة إلى قيسارية فاعتصم بها، وأخرب ابن الجّراح الرملة واحرقها. وبعث السرايا فانتهت إلى العريش وخشي أهل بلبيس وأهل القرافة على أنفسهم فانتقلوا إلى مصر، وزحف صالح بن مرداس في جموع العرب لحصار دمشق، وعليها يومئذ ذو القرنين ناصر الدولة بن الحسين. وبعث حسّان بن الجّراح إليهم بالمدد، ثم صالحوا صالح بن مرداس، وانتقل إلى حصار حلب، وملكها من يد شعبان الكتامي وجردّت العساكر من الشام مع الوزيري، وكان ما تقدّم، وملك دمشق وأقام بها.

وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر:

ثم توفي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن عليّ ابن الحاكم منتصف شعبان سنة سبع وعشرين لست عشرة سنة من خلافته، فولي أبنه أبو تميم معدّ، ولقّب المستنصر بأمر الله، وقام بأمره وزير أبيه أبو القاسم عليّ بن أحمد الجرجراي، وكان بدمشق

الوزيري واسمه أقوش تكين. وكانت البلاد صلحت على يديه لعدله ورفقه وضبطه، وكان الوزير الجرجراي يحسده ويبغضه، وكتب إليه بإبعاد كاتبه ابي سعيد فانفذ إليه أنه يحمل الوزيري على الانتقاض فلم يجب الوزيري إلى ذلك واستوحش، وجاء جماعة من الجند إلى مصر في بعض حاجاتهم فداخلهم الجرجراي في التوثّب به، ودسّ معهم بذلك إلى بقية الجند بدمشق فتعلّلوا عليه * فخرج إلى بعلبك سنة ثلاث وثلاثين، فمنعه عاملها من الدخول فسار إلى حماة فمُنِع أيضاً فقوتل، وهو خلال ذلك ينهب فاستدعى بعض اوليائه من كفر طاب، فوصل إليه في ألفي رجل، وسار إلى حلب فدخلها وتوفي بها في جمادى الآخرة من السنة، وفسد بعده أمر الشام، وطمع العرب في نواحيه، وولّى الجرجراي على دمشق الحسين بن حمدان فكان قصارى أمره منع الشام، وملك حسّان بن مفرّج فلسطين، وزحف معزّ الدولة بن صالح الكلابي إلى حلب فملك المدينة، وامتنع عليه أصحاب القلعة، وبعثوا إلى مصر للنجدة فلم ينجدهم فسلّموا القلعة لمعزّ الدولة بن صالح فملكها.

مسير العرب إلي إفريقية:

كان المعز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بإفريقية، وخطب للقائم العباسيّ،وقطع الخطبة للمستنصر العلويّ سنة أربعين وأربعمائة فكتب إليه المستنصر يتهدّده. ثم إنه استوزر الحسين بن علي التازوري بعد الجرجراي، ولم يكن في رتبته فخاطبه المعز دون ما كان يخاطب من قبله، كان يقول في كتابه إليهم عبده، ويقول في كتاب التازوري صنيعته فحقد ذلك، واغرى به المستنصر واصلح بين زغبة ورياح من بطون هلال، وبعثهم إلى إفريقية وملكهم كل ما يفتحونه، وبعث إلى المعز: أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولاً، وحملنا عليها رجالاً فحولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولا.

فساروا إلى برقة فوجدوها خالية، لأن المعز كان اباد أهلها من زناتة فاستوطن العرب برقة، واحتقر المعز شأنهم، واشترى العبيد واستكثر منهم، حتى اجتمع له منهم ثلاثون الفاً.وزحف بنو زغبة إلى طرابلس فملكوها سنة ست وأربعين، وجازت رياح الأتبج وبنو عدي إلى إفريقية فأضرموها ناراً. ثم سار امراؤهم إلى المعز، وكبيرهم مؤنس بن يحيى من بني مرداس من زياد فأكرمهم المعزّ، وأجزل لهم عطاياه فلم يغن شيئاً، وخرجوا إلى ما كانوا عليه من الفساد، ونزل بإفريقية بلاء لم يترل بها مثله. فخرج إليهم المعزّ في جموعه من صنهاجة والسودان نحوا من ثلاثين الفاً، والعرب في ثلاثة آلاف فهزموه واثخنوا في صنهاجة بالقتل

واستباحوهم. ودخل المعزّ القيروان مهزوما. ثم بيتهم بوم النحر، وهم في الصلاة فهزموه أعظم من الأولى.ثم سار إليهم بعد أن احتشد زناتة معه فانهزم ثالثة، وقتل من عساكره نحو من ثلاثة آلاف، ونزل العرب بمصلّى القيروان، ووالوا عليهم الهزائم، وقتلت منهم أمم. ثم أباح لهم المعز دخول القيروان للميرة فاستطالت عليهم العامة فقتلوا منهم خلقاً، وأدار المعزّ السور على القيروان سنة ست وأربعين. ثم ملك مؤنس بن يحيى مدينة

باجة سنة ست وأربعين، وأمر المعز أهل القيروان بالانتقال إلى المهدية للتحصّين بها، وولّى عليها ابنه تيما سنة خمس وأربعين. ثم انتقل إليها سنة تسع وأربعين، وانطلقت أيدي العرب على القيروان بالنهب والتخريب، وعلى سائر الحصون والقرى كما يذكر في أخبارهم. ثم كانت الخطبة للمستنصر ببغداد على يد البساسيري من مماليك بني بويّه عند انقراض دولتهم، واستيلاء السلجوقيّة كما نذكره في أخبارهم.

مقتل ناصر الدولة ابن حمدان بمصر:

كانت أمّ المستنصر متغلّبة على دولته، وكانت تصطنع الوزراء وتوليّهم، وكانوا يتخذون الموالي من الأتراك للتغلّب على الدولة. فمن استوحشت منه أغرت به المستنصر فقتله. فاستوزرت أولاً أبا الفتح الفلاحي، ثم استوحشت منه فقبض عليه المستنصر وقتله، ووزر بعده أبا البركات حسن بن محمد وعزله. ثم ولّي الوزارة أبا محمد التازوري من

قرية بالرملة تسمى تازور، فقام بالدولة إلى أن قتل. ووزر بعده أبو عبد الله الحسين ابن البابلي، وكان في الدولة من موالي السودان ناصر الدولة بن حمدان، واستمالوا معهم كتامة والمصامدة. وخرج العبيد إلى الضياع واجتمعوا في خمسين ألف مقاتل، وكان الأتراك ستة آلاف، وشكوا إلى المستنصر فلم يشكهم، فخرجوا إلى غرمائهم والتقوا بكوم الريش، وأكمن الأتراك للعبيد ولقوهم فانهزموا، وخرج كمينهم على العبيد، وضربوا البوقات والكاسات فارتاب العبيد وظنّوه المستنصر فانهزموا وقتل منهم وغرق نحو أربعين الفاً.وفدى الأتراك وتغلّبوا، وعظم الإفتراء فيهم فخلت الخزائن، واضطربت الأمور وتجمّع باقي العسكر من الشام وغيره إلى الصعيد، واجتمعوا مع العبيد وكانوا خمسة عشر الفاً، وساروا إلى الجيزة فلقيهم الأتراك، وعليهم ناصر الدولة بن حمدان فهزموهم إلى الصعيد، وعاد ناصر الدولة والأتراك ظافرين. واجتمع العبيد في الصعيد، وحضر الأتراك بدار المستنصر فأمرت أمه العبيد بالدار أن يفتكوا بمقدمي الأتراك ففعلوا وهربوا إلى ظاهر البلد، ومعهم ناصر الدولة، وقاتل أولياء المستنصر فهزمهم، وملك الإسكندرية ودمياط وقطع الخطبة منهما ومن سائر الريف للمستنصر. وراسل الخليفة العبّاسيّ ببغداد وافترق الناس من القاهرة. ثم صالح المستنصر ودخل القاهرة واستبدّ عليه، وصادر أمه على خمسين ألف دينار، وافترق عنه أولاده وكثير من أهله في البلاد. ودسّ المستنصر لقوّاد الأتراك بأنه يحول الدعوة فامتعضوا لذلك، وقصدوه في بيته، وهو آمن منهم فلما خرج إليهم تناولوه بسيوفهم حتى قتلوه وجاءوا برأسه، ومروا على أخيه في بيته فقطعوا رأسه، وأتوا بهما جميعاً إلى المستنصر، وذلك سنة خمس وستين، وولّى عليهم الذكر منهم وقام بأمر الدولة.

باستيلاء بدر الجمالي علي الدولة:

أصل بدر هذا من الأرمن من صنائع الدولة بمصر وواليها، وكان حاجباً لصاحب دمشق، واستكفاه فيما وراء بابه. ثم مات صاحب دمشق فقام بالأمور إلى أن وصل الأمير على دمشق، وهو ابن منير فسار هو إلى مصر وترقّى في الولايات إلى أن ولي عكّا وظهر منه كفاية واضطلاع. ولما وقع بالمستنصر ما وقع من استيلاء الترك عليه،

والفساد والتضييق، استقدم بدرا الجمالي لولاية الأمور بالحضرة فاستأذن في الاستكثار من الجند لقهر من تغلب من جند مصر فأذن له في ذلك، وركب البحر من عكا في عشرة مراكب، ومعه جند كثيف من الارمن وغيرهم فوصل إلى مصر، وحضر عند الخليفة فولاَه ما وراء بابه، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق، ولقبه بالسيد الأجل أمير الجيوش، مثل والي دمشق. وأضيف إلى ذلك كافل قضاة المسلمين، وداعي دعاة المؤمنين، ورتّب الوزارة وزاده سيفه ورد الأمور كلّها إليه، ومنه إلى الخليفة. وعاهده الخليفة على ذلك، وجعل إليه ولاية الدعاة والقضاة، وكان مبالغاً في مذهب الإمامية فقام بالأمور، واستردّ ما كان تغلّب عليه أهل النواحي مثل ابن عفار بطرابلس، وابن معروف بعسقلان وبني عقيل بصور. ثم استرد من القوّاد والأمراء بمصر جميع ما أخذوه أيام الفتنة من المستنصر من الأموال والأمتعة.وسار إلى دمياط وقد تغلَب عليها جماعة من المفسدين من العرب وغيرهم فأثخن في لواته بالقتل والنهب في الرجال والنساء، وسبى نساءهم، وغنم خيولهم. ثم سار إلى جهينة وقد ثاروا ومعهم قوم من بني جعفر فلقيهم على طرخ العليا سنة تسع وستين فهزمهم، وأثخن فيهم، وغنم أموالهم. ثم سار إلى أسوان وقد تغلب عليها كتر الدولة محمد فقتله وملكها، وأحسن إلى الرعايا ونظّم حالهم وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، وعادت الدولة إلى أحسن ما كانت عليه.

وصول الغز إلى الشام واستيلاؤهم عليه وحصارهم مصر:

كان السلجوقية وعساكرهم من الغزّ قد استولوا في هذا العصر على خراسان والعراقين وبغداد، وملكهم طغرلبك، وانتشرت عساكرهم في سائر الأقطار، وزحف إتسز

بن أنز من أمراء السلطان ملك شاه وسماه الشاميون أفسفس، والصحيح هذا، وهو اسم تركي هكذا قال ابن الأثير فزحف سنة ثلاث وثلاثين، بل وستين ففتح الرملة، ثم بيت المقدس، وحاصر دمشق وعاث في نواحيها، وبها المعلى بن حيدرة، ولم يزل يوالي عليها البعوث إلى سنة ثمان وستين، وكثر عسف المعلى بأهلها مع ما هم فيه من شدة الحصار فثاروا به، وهرب إلى بلسيس. ثم لحق بمصر فحبس إلى أن مات، ولما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة وولوا عليهم انتصار بن يحمى منهم ولقبوه وزير الدولة. ثم اضطربوا مما هم فيه من الغلاء، وجاء أمير من القدس فحاصرهم حتى نزلوا على أمانه.وانزل وزير الدولة بقلعة بانياس، ودخل دمشق في ذي القعدة، وخطب فيها للمقتدي العباسي. ثم سار إلى مصر سنة تسع وستين فحاصرها، وجمع بدر الجمالي العساكر من العرب وغيرهم وقاتله فهزمه، وقتل اكثر أصحابه، ورجع إتسز منهزما إلى الشام فأتى دمشق، وقد صانوا مخلفه فشكرهم ورفع عنهم خراج سنة تسع وستين، وجاء إلى بيت المقدس فوجدهم قد عاثوا في مخلفه، وحصروا أهله وأصحابه في مسجد داود عليه السلام فحاصرهم ودخل البلد عنوة، وقتل أكثر أهله حتى قتل كثيرا في المسجد الأقصى.ثم جهز أمير الجيوش بدر الجمالي العساكر من مصر مع قائده نصير الدولة فحاصر دمشق، وضيق عليها، وكان ملك السلجوقية السلطان ملك شاه قد اقطع أخاه تتش سنة سبعين وأربعمائة بلاد الشام، وما يفتحه منها فزحف إلى حلب وحاصرها وضيق عليها، ومعه جموع كثيرة من التركمان فبعث إليه إتسز من دمشق يستصرخه فسار إليه، وأجفلت عساكر مصر عن دمشق، وخرج إتسز

من دمشق للقائه فقتله وملك البلد، وذلك سنة إحدى وسبعين. وملك ملك شاه بعد ذلك حلب، واستولى السلجوقية على الشام أجمع وزحف أمير الجيوش بدر الجمالي من مصر في العساكر إلى دمشق، وبها تاج الدولة تتش فحاصره وضيق عليه، وامتنع عليه، ورجع، وزحفت عساكر مصر سنة اثنتين وثمانين إلى الشام فاسترجعوا مدينة صور من يد أولاد القاضي عين الدولة بن ابي عقيل، كان أبوهم قد انتزى عليها، ثم فتحوا مدينة صيدا، ثم مدينة جميل(3)،

وضبط أمير الجيوش البلاد وولى عليها العمال. وفي سنة أربع وثمانين استولى الفرنج على جزيرة صقلية، وكان أمير الجيوش قد ولى على مدينة صور منير الدولة الجيوشى من طائفته فانتقض سنة ست وثمانين، وبعث إليه أمير الجيوش العساكر فثار به أهل المدينة، واقتحمت عليهم العساكر، وبعث منير الدولة إلى مصر في جماعة من أصحابه فقتلوا كلهم.ثم توفي أمير الجيوش بدر الجمالي سنة سبع وثمانين في ربيع الأول لثمانين سنة من عمره. وكان له موليان أمين الدولة لاويز ونصير الدولة أفتكين، فلما قضى بدر نحبه استدعى المستنصر لاويز ليقلده فأنكر ذلك أفتكين، وركب في الجند وشغبوا على المستنصر، واقتحموا القصر، وأسمعوه خشن الكلام فرجع إلى ولاية ولد بدر، وقدم للوزارة ابنه محمدا الملك أبا القاسم شاه، ولقبه بالأفضل مثل لقب أبيه. وكان أبو القاسم بن المقري رديفا لبدر في وزارته بما كان اختصه لذلك، فولى بعد موته الوزارة المقري، وكانت عندهم عبارة عن التوقيع بالقلم الغليظ. وقام الأفضل أبو القاسم بالدولة، وجرى على سنن أبيه في الاستبداد، وكانت وفاة المستنصر قريبا من ولايته.

وفاة المستنصر وولاية ابنه المستعلي:

ثم توفي المستنصر معد بن الظاهر يوم التروية سنة سبع وثمانين لستين سنة من خلافته، ويقال لخمس وستين بعد أن لقي أهوالا وشدائد وانفتقت عليه فتوق استهلك فيها أمواله وذخائره حتى لم يكن له إلا بساطه الذي يجلس عليه، وصار إلى حد العزل والخلع، حتى تدارك أمره باستقدام بدر الجمالي من عكا فتقوم أمره، ومكنه في خلافته. ولما مات خلف من الولد احمد ونزارا وأبا القاسم. وكان المستنصر فيما يقال قد عهد لنزار، وكانت بينه وبين ابي القاسم الأفضل عداوة فخشي بادرته، وداخل عمته في ولاية أبي القاسم، على أن تكون لها كفالة الدولة، فشهدت بان المستنصر عهد له بمحضر القاضي والداعي فبويع ابن ست، ولقب المستعلى بالله واكره أخوه الأكبر على بيعته ففر إلى الإسكندرية بعد ثلاث، وبها نصير الدولة أفتكين مولى بدر الجمالي الذي سعى للأفضل فانتقض وبايع لنزار بعهده، ولقب المصطفى لدين الله.

وسار الأفضل بالعساكر وحاصرهم بالإسكندرية، واستنزلهم على الامان أعطاهم اليمين على ذلك، واركب نزارا السفن إلى القاهرة وقتل بالقصر. وجاء الأفضل ومعه أفتكين اشيرا فأحضره يوما ووبخه فهم بالرد عليه فقتل بالضرب بالعصى، وقال: لا يتناول اليمين هذه للقتلة، ويقال أن الحسين بن الصباح رئيس الإسماعيلية بالعراق قصد المستنصر في زفي تاجر وسأله إقامة الدعوة له ببلاد العجم فأذن له في ذلك، وقال له الحسن من إمامي بعدك؟ فقال: ابني نزار فسار ابن الصباح ودعا الناس ببلاد العجم إليه سرا. ثم أظهر أمره وملك القلاع

هنالك، مثل قلعة الموت وغيرها كما نذكره في أخبار الإسماعيلية، وهم من اجل هذا الخبر يقولون بإمامة نزار.ولما ولي المستعلي خرج ثغرعن طاعته وولي عليه واليه كشيلة، وبعث المستعلي العساكر فحاصره، ثم اقتحموا عليه، وحملوه إلى مصر فقتل بها سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكان تتش صاحب الشام قد مات، واختلف بعده ابناه رضوان ودقاق، وكان دقاق بدمشق، ورضوان بحلب فخطب رضوان في أعماله للمستعلي بالله أياما قلائل ثم عاودوا الخطبة للعباسيين.

استيلاء الفرنج علي ين المقدس:

كان بيت المقدس قد أقطعه تاج الدولة تتش للأمير سليمان بن ارتق التركماني، وقارن ذلك استفحال الفرنج واستطالهم على الشام، وخروجهم سنة تسعين وأربعمائة، ومروا بالقسطنطينية وعبروا خليجها وخلى صاحب القسطنطينية سبيلها ليحولوا بينه وبين صاحب الشام من السلجوقية والغز فنازلوا اولاً أنْطاكِية فأخذوها من يد باغيسيان، من قواد السلجوقية، وخرج منها هاربا فقتله بعض الأرمن في طريقه، وجاء برأسه إلى الفرنج بأنْطاكِية. وعظم الخطب على عساكر الشام، وسار كربوقا صاحب الموصل فنزل مرج دابق واجتمع إليه دقاق بن تتش، وسليمان بن ارتق، وطغتكين أتابك صاحب حمص، وصاحب سنجار، وجمعوا من كان هنالك من الترك والعرب، وبادروا إلى أنْطاكِية لثلاثة عشر يوماً من حلول الفرنج بها.وقد اجتمع ملوك الفرنج ومقدمهم بنميد، وخرج الفرنج وتصادموا مع المسلمين، فانهزم المسلمون وقتل الفرنج منهم ألوفا، واستولوا على معسكرهم، وساروا إلى معرة النعمان، وحاصروها أياما، وهربت حاميتها، وقتلوا منها نحوا من مائة ألف، وصالحهم ابن منقذ على بلده شيزر، وحاصروا حمص فصالحهم عليها جناح الدولة، ثم حاصروا عكة فامتنعت عليهم، وأدرك عساكر الغز من الوهن ما لا يعبر عنه فطمع أهل مصر فيهم، وسار الأفضل بن بدر بالعساكر لاسترجاع بيت المقدس فحاصرها، وبها سقمان، وأبو الغازي ابنا ارتق، وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سوتج، ونصبوا عليها نيفا وأربعين منجنيقاً، أقاموا عليها نيفا وأربعين يوما ثم ملكوها بالأمان في سنة تسعين.وأحسن الأفضل إلى سقمان وأبي الغازي ومن معهما، وخفى سبيلهم، فسار سقمان إلى بلد الرها وأبو الغازي إلى بلد العراق، وولى الأفضل على بيت المقدس، ورجع إلى مصر ثم سارت الفرنج إلى بيت المقدس وحاصروه نيفا وأربعين يوما، ونصبوا عليه برجين، ثم اقتحموها من الجانب الشمالي لسبع بقين من شعبان، واستباحوها أسبوعا، ولجأ المسلمون إلى محراب داود عليه السلام، واعتصموا به، إلى أن استنزلهم الفرنج بالأمان، وخرجوا إلى عسقلان، وقتل بالمسجد عند الشجرة سبعون الفاً، واخذوا من المسجد نيفاً وأربعين قنديلا من الفضة، يزن كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة، وتنورا من الفضة يزن أربعين رطلا بالشامي، ومائة وخمسين قنديلا من الصفر، وغير ذلك مما لا يحصى. وأجفل أهل بيت المقدس وغيرهم من أهل الشام إلى بغداد، باكين على ما أصاب الإسلام ببيت المقدس من القتل والسبي والنهب. وبعث الخليفة أعيان العلماء إلى السلطان بركيارق وإخوته محمد وسنجر، بالمسير إلى الجهاد فلم يتمكنوا من ذلك، للخلاف الذي كان بينهم. ورجع الوفد مؤيسين من نصرهم. وجمع الأفضل أمير الجيوش بمصر العساكر، وسار إلى الفرنج فساروا

إليهم وكبسوهم على غير أهبة فهزموهم. وافترق عسكر مصر، وقد لاذوا بخم الشعراء هناك فأضرموها عليهم ناراً فاحترقوا وقتل من ظهر، ورجع الفرنج إلى عسقلان فحاصروها حتى أنزلوا لهم عشرين ألف دينار فارتحلوا.

وفاة المستعلي وولاية ابنه الأمر:

ثم توفي المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر منتصف صفر سنة خمس وتسعين لسبع سنين من خلافته، فبويع ابنه أبو علي ابن خمس سنين، ولقب الآمر بأحكام الله، ولم يل الخلافة فيهم أصغر منه، ومن المستنصر فكان هذا لا يقدر على ركوب الفرس وحده.

هزيمة الفرنج لعساكر مصر:

ثم بعث الأفضل أمير الجيوش بمصر العساكر لقتال الفرنج مع سعد الدولة الفراسي أميرا، مملوك أبيه، فلقي الفرنج بين الرملة ويافا، ومقدمهم بغدوين فقاتلهم، وانهزم وقتل واستولى الفرنج على معسكره فبعث الأفضل ابنه شرف المعالي في العساكر فبارزوهم قرب الرملة وهزمهم، واختفى بغدوين في الشجر، ونجا إلى الرملة مع جماعة من زعماء الفرنج، فحاصرهم شرف المعالي خمسة عشر يوما حتى أخذهم فقتل منهم أربعمائة صبرا. وبعث ثلاثمائة إلى مصر ونجى بغدوين للغزو، وسار بهم إلى عسقلان فهرب شرف المعالي وعاد إلى أبيه. وملك الفرنج عسقلان، وبعث العساكر في البر مع تاج العجم مولى أبيه إلى عسقلان، وبعث ا أسطول في البحر إلى يافا مع القاضي ابن قادوس فبلغ إلى يافا، واستدعى تاج العجم وحبسه. وبعث جمال الملك من مواليه إلى عسقلان مقدم العساكر الشامية. ثم بعث الأفضل سنة ثمان وتسعين ابنه سنا الملك حسين، وأمر جمال الملك بالسير معه لقتال الفرنج فساروا في خمسة آلاف، واستمدوا طغتكين أتابك دمشق فأمدهم ألف وثلاثمائة، ولقوا الفرنج بين عسقلان ويافا فتفانوا بالقتل، وتحاجزوا، وافترق المسلمون إلى عسقلان ودمشق. وكان مع الفرنج بكتاش بن

تتش، عدل عنه طغتكين بالملك إلى بني أخيه دقاق بن تتش فلحق بالإفرنج مغاضبا.

استيلاء الفرنج علي طرابلس وبيروت:

كانت طرابلس رجعت إلى صاحب مصر، وكان يحاصرها من الفرنج ابن المرداني صاحب صيحيل، والمدد يأتيهم من مصر. فلما كانت سنة ثلاث وخمسين وصل اسطول من الفرنج مع "ويمتدين" إلى صيحيل، من قمامصتهم فنزل على طرابلس، وتشاجر مع المرداني فبادر بغدوين صاحب القدس، وأصلح بينهم ونزلوا جميعا على طرابلس، وألصقوا أبراجهم بسورها، وتأخرت الميرة عنهم من مصر في البحر لركود البحر فاقتحمها الفرنج عنوة ثاني الأضحى من سنة ثلاث وخمسين، وقتلوا ونهبوا وأسروا وغنموا. وكان واليها قد أستأمن قبل فتحها في جماعة من الجند فلحقوا بدمشق، ووصل الأسطول بالمدد وكفاية سنة من الأقوات بعد فتحها ففرقوه في صور وصيدا وبيروت، واستولى الفرنج على معظم سواحل الشام. وإنما خصصنا هذه بالذكر في الدولة العلوية لأنها كانت من أعمالهم وسنذكر البقية في أخبار الفرنج أن شاء الله تعالى.

استرجاع أهل مصر بعسقلان:

كان الأمير قد استولى على عسقلان، وبها قائد من قواد شص الخلافة فداخل بغدوين صاحب بيت المقدس من الفرنج وهاداه ليمتنع به على أهل مصر، وجهز أمير الجيوش عسكرا من مصر للقبض عليه إذا حضر وشعر بذلك، وانتقض، وأخرج من عنده من أهل مصر، وخاف الأفضل أن يسلم عسقلان إلى الفرنج فأقره على عمله، وارتاب شمس الخلافة بأهل عسقلان وأتخذ بطانة من الأرمن فاستوحش أهل البلد فثاروا به وقتلوه، وبعثوا إلى الآمر والأفضل بذلك فأرسل إليهم الوالي من مصر، واحسن إليهم واستقامت أحوالهم. وحاصر بغدوين بعد ذلك مدينة صور وفيها عساكر الأرمن واشتد في حصارها بكل نوع وكان به عز الملك الأعز من أولياء

الأمر فاستمد طغتكين اتابك دمشق فأمده بنفسه وطال الحصار، وحضر أوان الغلال فخشي الفرنج أن يفسد طغتكين غلال بلدهم فأفرجوا عنها إلى عكا وكفى بالله شرهم. ثم زحف بغدوين ملك الفرنج من القدس إلى مصر وبلغ سنتين، وسبح في النيل فانتقض عليه جرح كان به، وعاد إلى القدس ومات، وعهد بملك القدس للقمص صاحب الرها، ولولا ما نزال بملوك السلجوقية من الفتنة لكانوا قد استرجعوا من الفرنج جميع ما ملكوه من الشام. ولكن الله خبأ ذلك لصلاح الدير بن أيوب حتى فاز بذكره.

مقتل الأفضل:

قد قدمنا أن الآمر ولاه الأفضل صغيرا ابن خمس، فلما استجمع واشتد تنكر للأفضل وثقلمت وطأته عليه، فانتقل الأفضل إلى مصر وبنى بها دارا ونزلها، وخطب منه الأفضل ابنته فزوجها على كره منه، وشاور الآمر اصحابه في قتله فقال له ابن عمه عبد المجيد، وكان ولي عهده لا تفعل، وحذره سوء الاحدوثة لما اشتهر بين الناس من نصحه ونصح أبيه وحسن ولايتهما للدولة، ولا بد من إقامة غيره والاعتماد فيتعرض للحذر من مثلها إلى الامتناع منه. ثم أشار عليه من مداخلة ثقته ابي عبد الله بن البطائحي في مثل ذلك فإنه يحسن تدبيره ويضع عليه من يغتاله، وبقتل به فيسلم عرضك. وكان ابن البطائحي فراشا بالقصر، واستخلصه الأفضل ورقاه واستحجبه فاستدعاه الآمر وداخله في ذلك، ووعده بمكانه فوضع عليه رجلان فقتلاه بمصر، وهو سائر في موكبه من القاهرة منقلبا من خزانة السلاح في سنة خمس عشرة وخمسمائة، كان يفرق السلاح على العادة في الأعياد، وثار الغبار في طريقه فانفرد عن الموكب فبدره الرجلان وطعناه فسقط، وقتلا، وحملا إلى داره وبه رمق فجاءه الآمر متوجعا، وسأله عن ماله فقال: أما الظاهر فأبو الحسن ابن ابي أسامة يعرفه، وكان أبوه قاضيا بالقاهرة، واصله من حلب. وأما الباطن فإن البطائحي يعرفه. ثم قضى الأفضل نحبه لثمان وعشرين سنة من وزارته، وإحتاط الآمر على داره فوجد له ستة آلاف كيس من الذهب العين، وخمسين أردبا من الورق، ومن الديباج الملون والمتاع البغدادي والاسكندري، وطرف الهند، وأنواع الطيوب والعنبر

والمسك ما لا يحصى. حتى لقد كان من ذخائره دكة عاج وأبنوس محلاه بالفضة عليها عرم متمن من العنبر زنته ألف رطل، وعلى العرم مثل طائر من الذهب برجلين مرجانا ومنقار زمرذا، وعينان ياقوتتان كان ينصبها في بيته ويضوع عرفها فيعم القصر وصارت إلى صلاح الدين.

ولاية ابن البطائحي:

قال ابن الأثير: كان أبوه من جواسيس الأفضل بالعراق، ومات و لم يخلف شيئا. ثم ماتت أمه وتركته معلقا فتعلم البناء اولاً. ثم صار يحمل الأمتعة بالأسواق، ويدخل بها على الأفضل فخف عليه واستخدمه مع الفراشين، وتقدم عنده واستحجبه ولما قتل الأفضل ولاه الآمر مكانه وكان يعرف بابن فاتت، وابن القائد فدعاه الآمر جلال الإسلام، ثم خلع عليه بعد سنتين من ولايته للوزارة، ولقبه المأمون فجرى على سنن الأفضل في الاستبداد، ونكر ذلك الآمر، وتنكر له، واستوحش المأمون، وكان له أخ يلقب المؤتمن فاستأذن الآمر في بعثه إلى الإسكندرية لحمايتها ليكون له ردءاً هنالك فأذن له، وسار معه القواد، وفيهم علي بن السلار، وتاج الملوك قائمين، وسنا الملك الجمل ودري الحروب وأمثالهم، وأقام المأمون على استيحاش من الآمر، وكثرت السعاية فيه وأنه يدعي أنه ولد نزار من جارية خرجت من القصر حاملا به، وأنه بعث ابن نجيب الدولة إلى اليمن يدعو له فبعث الآمر اليمن في استكشاف ذلك.

مقتل البطائحي:

ولما كثرت السعاية فيه عند الآمر، وتوغر صدره عليه، كتب إلى القواد الذين كانوا مع أخيه بثغر الإسكندرية بالوصول إلى دار الخلافة (1) فهم لذلك علي بن

سلار فحضروا، واستأذن المؤتمن بعدهم في الوصول فأذن له. وحضر رمضان من سنة تسع عشرة فجاؤوا إلى القصر للإفطار على العادة، ودخل المأمون والمؤتمن فقبض عليهما وحبسهما داخل القصر، وجلس الآمر من الغد في إيوانه، وقرأ عليه وعلى الناس كتابا بتعديد ذنوبهم. وترك الآمر رتبة الوزارة خلوا، وأقام رجلين من أصحاب الدواوين يستخرجان الأموال من الخراج والزكاة والمكس، ثم عزلهما لظلمهما. ثم حضر الرسول الذي بعثه إلى اليمن ليكشف خبر المأمون، وحضر ابن نجيب وداعيته فقتل، وقتل المأمون وأخوه المؤتمن.

مقتل الآمر وخلافة الحافظ:

كان الآمر مؤثرا للذاته، وطموحا إلى المعالي وقاعدا عنها، وكان يحدث نفسه بالنهوض إلى العراق في كل الوقت، ثم يقصر عنه، وكان يقرض الشعر قليلا ومن قوله:

#أصبحت لا أرجو ولا القى إلا إلهي وله الفضل

#جدي نبي وإمامي ابي ومذهبي التوحيد والعدل

وكانت الفداوية تحاول قتله فيتحرر منهم، واتفق أن عشرة منهم اجتمعوا في بيت، وركب بعض الأيام إلى الروضة، ومر على الجسر بين الجزيرة ومصر فسبقوه فوقفوا في طريقه. فلما توسط الجسر أنفرد عن الموكب لضيقه فوثبوا عليه، وطعنوه وقتلوا لحينهم، ومات هو قبل الوصول إلى مترله سنة أربع وعشرين وخمسمائة

لتسع وعشرين سنة ونصف من خلافته. وكان قد استخلص مملوكين، وهما برغش العادل، وبرعوارد هزبر الملوك، وكان يؤثر العادل منهما، فلما مات الآمر تحيلوا في قيام المأمون عبد الحميد بالأمر، وكان أقرب القرابة سنا وابوه أبو القاسم بن المستضيء معه،

وقالوا أن الآمر أوصى بأن فلانة حامل فدلته الرؤيا بأنها تلد ذكرا فهو الخليفة بعدي، وكفالته لعبد الحميد فأقاموه كافلا ولقبوه الحافظ لدين الله؟ وذكروا من الوصية أن يكون هزبر الملوك وزيرا والسعيدباس من موالي الأفضل صاحب الباب، وقرأوا السجل بذلك في دار الخلافة.

ولاية أبي علي بن الأفضل الوزارة ومقتله:

ولما تقرر الأمر على وزارة هزبر الملوك، وخلع عليه أنكر ذلك الجند، وتولى كبر ذلك رضوان بن ونحش كبيرهم. وكان أبو علي بن الأفضل حاضرا بالقصر فحثه برغش العادل على الخروج حسدا لصاحبه، وأوجد له السبيل إلى ذلك فخرج، وتعلق به الجند، وقالوا: هذا الوزير ابن الوزير، وتنصل فلم يقبلوا، وضربوا له خيمة بين القصرين، وأحدقوا به، وأغلقت أبواب القصر فتسوروه، وولجوا من طيقانه. واضطر الحافظ إلى عزل هزبر الملوك، ثم قتله وولى أبو علي احمد بن الأفضل الوزارة، وجلس بدست أبيه، ورد الناس أموال الوزارة المقضية. واستبد على الحافظ ومنعه من التصرف، ونقل الأموال من الذخائر والقصر إلى داره، وكان إماميا متشددا فأشار عليه الإمامية بإقامة الدعوة للقائم المنتظر. وضرب الدراهم بإسمه دون الدنانير. ونقش عليها الله الصمد الإمام محمد، وهو الإمام المنتظر.

وأسقط ذكر إسمعيل من الدعاء على المنابر، وذكر الحافظ، وأسقط من الآذان حي على خير العمل. ونعت نفسه بنعوت أمر الخطباء بذكرها على المنابر. وأراد قتل الحافظ بمن قتله الآمر من أخوته، فإن الآمر أجحفهم عند نكبة الأفضل، وقتلهم فلم يقدر أبو علي على قتله، فخلعه واعتقله. وركب بنفسه في المواسم، وخطب للقائم مموها فتنكر له أولياء الشيعة

ومماليك الخلفاء. وداخل يونس الجند من كتامة وغيرهم في شأنه، واتفقوا على قتله. وترصد له قوم من الجند فاعترضوه خارج البلد، وهو في موكبه، وهم يتلاعبون على الخيل. ثم اعتمدوه فطعنوه وقتلوه، وأخرجوا الحافظ من معتقله، وجددوا له البيعة بالخلافة، ونهب دار ابي علي. وركب الحافظ وحمل ما بقي فيها إلى القصر. واستوزر أبا الفتح يانسا الحافظي، ولقبه أمير الجيوش، وكان عظيم الهيبة بعيد الغور، واستبد عليه، فاستوحش كل منهما بصاحبه. ويقال أن الحاكم وضع له سما في المستراح هلك به، وذلك آخر ذي الحجة سنة ست وعشرين.

قيام حسن بن الحافظ بأمر الدولة ومكره بأبيه ومهلكه

ولما هلك يانس، أراد الحافظ أن يخلي دست الوزارة ليستريح من التعب الذي عرض منهم للدولة، وأجمع أن يفوض ا أمور إلى ولده، وفوض إلى ابنه سليمان. ومات لشهرين فأقام ابنه الآخر حسنا فحدثته نفسه بالخلافة، وعزم على اعتقال أبيه، وداخل الإجناد في ذلك فأطاعوه، واطلع أبوة على أمره ففتك بهم. يقال إنه قتل منهم

في ليلة أربعين. وبعث أبوه خادما من القصر فهزمه حسن، وبقي الحافظ محجورا، وفسد أمره، وبعث حسن بهرام الأرمني لحشد الأرمن ليستظهر بهم على الجند، وثاروا بحسن وطلبوه من أبيه، ووقفوا بين القصرين، وجمعوا الحطب لإحراق القصر. واستبشع إلى حافظ قتله بالحديد، فأمر طبيبه ابن فرقة عنه في ذلك سنة تسع وعشرين.

وزارة بهرام ورضوان بعده:

ولما مات حسن بن الحافظ، ورحل بهرام لحشد الأرمن، اجتمع الجند وكان بهرام

كبيرهم وراودوا الحافظ على وزارته فوافقهم، وخلع عليه، وفوض إليه الأمور السلطانية، واستثنى عليه الشرعية، وتبعه تاج الدولة أفتكين في الدولة، واستعمل الأرمن، وأهانوا المسلمين، وكان رضوان بن ولحيس صاحب الباب، وهو الشجاع الكاتب من أولياء الدولة، وكان ينكر على بهرام ويهزأ به فولاه بهرام الغربية، ثم جمع رضوان وأتى إلى القاهرة ففر بهرام وقصد قوص، في ألفين من ا أرمن، ووجد أخاه قتيلا فلم يعرض لأهل قوص، وباء بحق الخلافة، وصعد إلى أسوان فامتنعت عليه بكتر الدولة. ثم بعث رضوان العساكر في طلبه مع أخيه الأكبر، وهو إبراهيم ا أوحد فاستترله على الأمان له وللأرمن الذين معه. وجاء به فأنزله الحافظ في القصر إلى أن مات على دينه، واستقر رضوان في الوزارة، ولقب بالأفضل وكان سنيا، وثان أخوه إبراهيم إماميا فأراد الاستبداد، وأخذ في تقديم معارفه سيفا وقلما. وأسقط المكوس، وعاقب من تصدى لها فتغير له الخليفة فأراد خلعه، وشاور في ذلك داعي الدعاة وفقهاء الإمامية فلم يعينوه في ذلك بشيء.

وفطن له الحافظ فدس خمسين فارسا ينادون في الطرقات بالثورة عليه، وينهضون باسم الحافظ فركب لوقته هاربا منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين، ونهبت داره، وركب الحافظ، وسكن الناس، ونقل ما فيها إلى قصره. وسار رضوان يريد الشام ليستنجد الترك، وكان في جملته شاور، وهو من مصطفيه وأرسل الحافظ الأمير بن مصال ليرده على الأمان فرجع وحبس في القصر، وقيل وصل إلى سرخد فأكرمه صاحبها أمين الدولة كمستكين، وأقام عنده ثم رجع إلي مصر سنة أربع وثلاثين فقاتلهم عند باب القصر وهزمهم. ثم افترق عنه أصحابه أرادوا العود إلى الشام فبعث عنه الحافظ بن مصال، وحبسه بالقصر إلى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وهرب إلى الجيزة، وجمع المغاربة وغيرهم، ورجع إلى القاهرة، ونزل عند جامع الأقمر، وأرسل إلى الحافظ في المال ليفرقه فبعث عشرين ألفاً على عادتهم مع الوزير، ثم استزاد عشرين وعشرين. وفي خلال ذلك وضع الحافظ عليه جمعا كثيرا من السودان فحملوا عليه وقتلوه،

وجاؤوا برأسه إلى الحافظ. واستمر الحافظ في دولته مباشرا لأموره وأخلى رتبة الوزارة فلم يول أحدا بعده.

وفاة الحافظ وولاية ابنه الظافر:

ثم توفي الحافظ لدين الله عبد الحميد بن الأمير أبي القاسم، أحمد بن المستنصر، سنة أربع وأربعين لتسع عشرة سنة ونصف من خلافته، وعن أبي العالية يقال بلغ عمره سبعا وسبعين سنة، ولم يزل في خلافته محجور الوزارة، ولما مات ولي بعده ابنه أبو منصور إسمعيل بعهده إليه بذلك، ولقب الظافر بأمر الله.

وزارة ابن مصال ثم ابن السلار:

كان الحافظ لما عهد لابنه الظافر أوصاه بوزارة ابن مصال فاستوزره أربعين يوما، وكان علي بت السلار واليا على الإسكندرية، ومعه بلارة بنت عمه القاسم، وابنه منها عباس، وتزوجت بعده بابن السلار، وشب عباس، وتقدم عند الحافظ حتى ولي الغربية فلم يرض ابن السلار وزارة ابن مصال، واتفق مع عباس على عزله، وبلغ الخبر إلى

ابن مصال فشكا إلى الظافر فلم يشكه فقال ذوو الحرب: ليس هنا من يقاتل ابن السلار فغضب الظافر، ودس عليه من بني علي مصلحيه فخرج إلى الصعيد وقدم ابن السلار إلى القاهرة فاستوزره الظافر، وهو منكر له، ولقبه العادل. وبعث العساكر مع العباس ربيبه في اتباع ابن مصال فخرج في طلبه.

وكان جماعة من لواتة السودان فتحصنوا من عباس في جامع دولام فأحرقه عليهم، وقتل ابن مصال وجاء برأسه. وقام ابن سلار بالدولة وحفظ النواميس وشد من مذاهبه أهله. وكان الخليفة مستوحشا منه منكرا له، وهو مبالغ في النصيحة والخدمة. واستخدم الرجالة لحراسته فارتاب له صبيان الخاص من حاشية الخليفة فاعتزموا على قتله ونمي ذلك فقبض على رؤوسهم فحبسهم، وقتل جماعة منهم وافترقوا، ولم يقدر الظافر على إنكار ذلك. واحتفل ابن السلار بأمر عسقلان، ومنعها من الفرنج، وبعث إليها بالمدد كل حين من الأقوات والأسلحة فلم يغن ذلك عنها، وملكها الفرنج، وكان لذلك من الوهن على الدولة ما تحدث به الناس.

ولما قتل العادل بن السلار صبيان الخاص تأكد نكر الخليفة له، واشتد قلقه. وكان عباس بن أبي الفتوح صديقاً ملاطفا له فكان يسكنه ويهديه. وكان لعباس ولد اسمه نصير، استخصه الظافر واستدناه، ويقال كان يهواه ففاوض العادل عباسا في شأن ابنه، عن مخالطة ابنه للظافر فلم ينته ابنه، فنهى العادلى جدته عن السماح للولد أن يدخل إلى بيته فشق ذلك على نصير وعلى أبيه، وتنكر للعادل. وزحف الفرنج إلى عسقلان فجهز العادل الجيوش والعساكر إليها مددا مع ما كان يمدها به، وبعثهم مع عباس ابن أبي الفتوح فارتاب لذلك، وفاوض الظافر في قتل العادل وحضر معهم مؤيداً لدولة الأمير أسامة بن منقذ أحد أمراء شيزر وكان مقرباً عند الظافر، وصديقا لعباس فاستصوب ذلك وحث عليه، وخرج عباس بالعساكر إلى بلبيس، وأوصى ابنه نصير بقتله فجاء في جماعة إلى بيت جدته، والعادل نائم فدخل إليه وضربه فلم يجهز عليه، وخرج إلى أصحابه. ثم دخلوا جميعا فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى الظافر، ورجع عباس من بلبيس بالعساكر فاستوزره الظافر وقام بالدولة، وأحسن إلى الناص وأيس أهل عسقلان من المدد فأسلموا أنفسهم وبلدهم بعد حصار طويل، وكان ذلك كله سنة ثمان وأربعين.

مقتل الظافر واخويه وولاية ابنه الفائز:

ولما وزر عباس للظافر، وقام بالدولة، كان ولده نصير من ندمان الظافر، وكان يهواه كما تقدم. وكان أسامة بن منقذ من خلصاء عباس وأصدقائه فقبح عليه سوء المقالة في ابنه، وأشار عليه بقتل الظافر فاستدعى ابنه

نصيرا وقبح عليه في شناعة الاحدوثة فيه بين الناس، وأغراه باغتيال الظافر ليمحو عنه ما يتحدث به الناس فسأل نصير من الظافر أن يأتي إلى بيته في دعوة فركب من القصر إليه فقتله نصير، ومن جاء معه، ودفنهم في داره وذلك في محرم سنة تسع وأربعين وباكر إلى القصر، ولم ير الظافر، وسأل خدام القصر فأحسن العذر، ورجع إلى أخوي الظافر يوسف وجبريل فخبرهما بركوب الظافر إلى دار نصير فقالا له: خبر الوزير. فلما جاء عباس من الغد أخبره بأنه ركب إلى بيت نصير ابنه، ولم يعد فاستشاط غيظا عليه، ورماه بأنه داخل اخويه في قتله. ثم استدعاهما فقتلهما، وقتل معهما ابنا هنالك لحسن بن الحافظ. ثم أخرج ابنه القاسم عيسى ابن خمس سنين، وحمله على كتفه، وأجلسه على سرير الملك، وبايع له بالخلافة، ولقبه الفائز بالله ونقل عباس بسبب ذلك ما في القصر من الأموال والذخائر ما لا حد له. وعند خروجه بأخويه رأى القتلى فاضطرب وفزع، وبقي سائر أيامه يعتاده الصرع.

وزارة الصالح بن رزيك:

ولما قتل الظافر وأخواه كما ذكرناه، كتب النساء من القصر إلى طلائع بن زريك وكان واليا على الاشمونين، والبهنسة. وجاء الخبر بان الناس اختلفوا على عباس بسبب ذلك فجمع وقصد القاهرة ولبس السواد حزنا، ورفع على الرماح الشعور التي بعث بها النساء حزنا. ولما عبر البحر خرج عباس وولده، ودفعوا ما قدروا عليه من مال وسلاح من حاصل الدولة، ومعهما صديقهما أسامة بن منقذ فاعترضهم الفرنج،

وقاتلوا فقتل عباس، وأسر ولده، ونجا أسامة إلى الشام. ودخل طلائع القاهرة في ربيع سنة تسع وخمسين، رجاء إلى القصر راجلا. ثم مضى إلى دار عباس ومعه الخادم الذي حضر لقتله فاستخرجه من التراب، ودفنه عند آبائه، وخلع الفائز عليه الوزارة ولقبه الصالح. وكان إماميا كاتبا أديبا فقام بأمر الدولة، وشرع في جمع الأموال والنظر في الولايات. وكان الأوحد بن تميم من قرابة عباس والياً على تنيس، وكان لما سمع بفعله قريبه عباس جمع وقصد القاهرة فسبقه طلائع؟ فلما استقل بالوزارة أعاده إلى عمله بدمياط وتنيس. ثم بعث في فداء نصير من عباس بن الفرنج فجيء به وقتله، وصلبه به زويله. ثم نظر في المزاحمين من أهل الدولة، ولم يكن أرفع رتبة من تاج الملوك قايماز، وابن غالب فوضع عليهما الجند فطلبوهما فهربا، ونهب دورهما وتتبع كبراء الأمراء بمثل ذلك حتى خلا الجو، ووضع الرقباء والحجاب على القصر، وثقلت وطأته على الحرم، ودبرت عمة الفائز في قتل الصلح، وفرقت الأموال في ذلك. ونمي الخبر إليه فجاء إلى القصر، وأمر الأستاذين والصقالبة بقتلها فقتلوها سرا، وصار الفائز في كفالة عمته الصغرى، وعظم اشتداد الفائز واستفحل أمره، وأعطى الولايات للأمراء، واتخذ مجلساً لأهل الأدب يسامرون فيه، وكان يقرض الشعر ولا يجيده. وولى شاور السعدي على قرضه، وأشار عليه حجابه يصرفه، واستقدمه فامتنع وقال: أن عزلني دخلت بلاد النوبة. وعلى عهده كان استيلاء نور الدين محمود الملك العادل على دمشق من يد ابن طغتكين أتابك تتش، سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

وفاة الفائز وولاية العاضد:

ثم توفي الفائز بنصر الله، أبو القاسم عيسى بن الظافر إسمعيل، سنة خمس وخمسين، لست سنين من خلافته فجاء الصالح بن رزيك إلى القصر، وطلب الخدام بإحضار أبناء الخلفاء ليختار منهم، وعدل عن كبرائهم إلى صغرائهم لمكان استبداده فوقع اختياره على ابي محمد عبد الله بن يوسف قتيل عباس فبايع له بالخلافة، وهو غلام، ولقبه العاضد لدين الله، وزوجه ابنته وجهزها بما لم يسمع بمثله.

مقتل الصالح بن رزيك وولاية ابنه رزيك:

ولما استفحل يمر الصالح، وعظم استبداده بجباية الأموال والتصرف، وحجر العاضد تنكر له الحرم ودس إلى الأمراء بقتله. وتولت كبر ذلك عمة العاضد الصغرى التي كانت كافلة الفائز بعد أختها. واجتمع قوم من القواد والسودان، منهم الريفي الخادم، وابن الداعي والأمير بن قوام الدولة، وكان صاحب الباب، وتواطؤا على قتله، ووقفوا في دهليز القصر، وأخرج ابن قوام الدولة الناس أمامه وهو خارج من القصر، واستوقفه عنبر الريفي يحادثه، وتقدم ابنه رزيك فوثب عليه جماعة منهم وجرحوه، وضرب ابن الداعي الصالح فأثبته، وحمل إلى داره فبقي يجود بنفسه يومه ذلك. وإذا أفاق يقول رحمك الله يا عباس ومات من الغد. وبعث إلى العاضد يعاتبه على ذلك فحلف على البراءة من ذلك، ونسبه إلى العمة، وأحضر ابنه رزيك وولاه الوزارة مكان أبيه، ولقبه العادل فأذن له في الأخذ بثأره فقتل العفة، وابن قوام الدولة، والأستاذ عنبر الريفي، وقام بحمل الدولة، وأشير عليه بصرف شاور من قوص، وقد كان أبوه أوصاه ببقائه وقال له قد ندمت على ولايته، ولم يمكني عزله فصرفه، وولى مكانه الأمير بن الرفعة فاضطرب شاور وخرج إلى طريق الواحات، وجمع وقصد القاهرة، وجاء الخبر إلى رزيك فعجز عن لقائه، وخرج في جماعة من غلمانه بعدة أحمال من المال والثياب والجوهر، وانتهى إلى طفيحة، واعترضه ابن النضر، وقبض عليه، وجاء به إلى شاور فاعتقله، واعتقل معه أخاه فأراد الهرب من محبسه فوشى به أخوه فقتل لسنة من ولايته، ولتسع سنين من ولاية أبيه.

وزارة شاور ثم الضرغام من بعده:

ودخل شاور القاهرة سنة ثمان وخمسين، ونزل بدار سعيد السعداء ومعه ولده طبن، وشجاع والطازي، وولاه العاضد الوزارة ولقبه أمير الجيوش، وأمكنه من أموال بني رزيك فاستصفى معظمها، وزاد أهل الرواتب والجرايات عشرة أمثالها، واحتجب

عن الناس، وكان الصالح بن رزيك قد أنشأ في لواتة أمراء يسمون البرقية، وكان مقدمهم الضرغام، وكان صاحب الباب فنازع شاور في الوزارة لتسعة أشهر من ولايته، وثار عليه وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام، وقتل ولده عليا وكثيرا من أمراء المصريين، حتى ضعفت الدولة، وخلت من الأعيان، وأدى ذلك إلى خرابها.

مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلي مصر مع شاور:

ولما لحق شاور إلى الشام نزل على الملك العادل نور الدين بدمشق صريخا، وشرط له ثلث الجباية على أن يقيم له العساكر. وجهز نور الدين شيركوه وكان مقدما في دولته ويذكر سبب اتصاله به في موضعه فساروا في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين، وقد تقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بان يعيد شاور إلى وزارته،

وينتقم له ممن نازعه، وسار نور الدين بعساكره إلى طرف بلاد الفرنج ليمنعهم من اعتراض أسد الدين أن هموا به، ولما وصل اشد الدين وشاور إلى بلبيس، لقيهم ناصر الدين همام، وفخر الدين همام أخو الضرغام في عساكر مصر فهزموه، ورجع إلى القاهرة، وقتل رفقاؤه الأمراء البرقية الذين أغروه بشاور. ودخل أسد الدين القاهرة، ومعه أخو الضرغام أسيرا، وفر الضرغام فقتل بالجسر عند مشهد السيدة نفيسة، وقتل أخواه، وعاد شاور إلى وزارته، وتمكن منها. ثم نكث عهده مع أسد الدين وسلطانه وصرفه إلى الشام.

فتنة أسد الدين مع شاور وحصاره:

ولما رجع أسد الدين من مصر إلى الشام، أقام بها في خدمة نور الدين. ثم استأذن نور الدين العادل سنة اثنتين وستين في العود إلى مصر فأذن له، وجهزه في العساكر وسار إلى مصر، ونازل بلاد الفرنج في طريقه. ثم وصل إلى أطفيح من ديار مصر، وعبر النيل إلى الجانب الغربي، ونزل الجيزة، وتصرف في البلاد الغربية نيفا وخمسين واستمد شاور الفرنج، وجاء بهم إلى مصر، وخرج معهم للقاء أسد الدين شيركوه فأدركوه بالصعيد فرجع للقائهم على رهب لكثرة عددهم، وصدقهم القتال فهزمهم

على قلة من معه فأنهم لم يبلغوا ألفي فارس. ثم سار إلى الاسكندرية، وهو يجبي الأموال في طريقه إلى أن وصلها فاستأمن أهلها، وملكها، وولى عليها صلاح الدين يوسف بن أخيه نجم الدين أيوب، ورجع إلى جباية الصعيد. واجتمعت عساكر مصر والفرنج على القاهرة، وأزاحوا عللهم وساروا إلى الأسكندرية وحاصروا بها صلاح الدين فسار أسد الدين إليهم من الصعيد، ثم خذله بعض من معه من التركمان بمداخلة شاور، وبعثوا له أثر ذلك في الصلح فصالحهم ورد إليهم الأسكندرية، ورجع إلى دمشق فدخلها آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وستين. واستطال الفرنج على أهل مصر، وشرطوا عليهم أن يترلوا القاهرة وشحنة، وان تكون أبوابها بأيديهم لئلا تدخل عساكر نور الدين، وقرر ضريبة يحملها كل سنة فأجابه إلى ذلك.

رجوع أسد الدين إلى مصر ومقتل شاور ووزارته:

ثم طمع الإفرنج في مصر، واستطالوا على أهلها، وملكوا بلبيس، واعتزموا على فصد القاهرة. وأمر شاور بتخريب مصر خشية عليها منهم فحرقت ونهب أهلها، ونزل الفرنج على القاهرة وأرسل العاضد إلى نور الدين يستنجده، وخشي شاور من إتفاق العاضد ونور الدين فداخل الفرنج في الصلح على ألفي ألف دينار مصرية معجلة، وعشرة آلاف إردب من الزرع، وحذرهم أمر القهر إلى ذلك، وكان فيه السفير الجليس بن عبد القوي، وكان الشيخ الموفق كاتب السر، وكان العاضد قد أمرهم بالرجوع إلى رأيه وقال: هو رب الحرمة علينا وعلى آبائنا، وأهل

النصيحة لنا. فأمر الكامل شجاع بن شاور القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني أن يأتيه، ويشاوره فقال له قل لمولانا يعني العاضد أن تقرير الجزية للفرنج خير من دخول الغز للبلاد، وإطلاعهم على الأحوال. ثم بعث نور الدين العساكر مع أسد الدين شيركوه مددا للعاضد كما سأل، وبعث صلاح الدين ابن أخيه، وجماعة الأمراء فلما سمع الفرنج بوصولهم أفرجوا عن وفاة أسد الدين وولاية صلاح الدين الوزارة وقال ابن الطويل،

مؤرخ دولة العبيدين: إنه هزمهم على القاهرة، ونهب معسكرهم، ودخل أسد الدين إلى القاهرة في جمادى سنة أربع وستين، وخلع عليه العاضد ورجع إلى معسكره، وفرضت له الجرايات. وبقي شاور على ريبة وخوف، وهو يماطله فيما يعين له من الأموال. ودس العاضد إلى أسد الدين بقتل شاور وقال: هذا غلامنا، ولا خير لك في بقائه، ولا لنا فبعث عليه صلاح الدين بن أخيه، وعز الدين خرديك. وجاء شاور إلى أسد الدين على عادته فوجده عند قبر الإمام الشافعي فسار إليه هنالك فاعترضه صلاح الدين وخرديك فقتلاه، وبعثا برأسه إلى العاضد، ونهبت العامة دوره، واعتقل ابناه شجاع والطازي، وجماعة من أصحابه بالقصر، وخلع عليه للوزارة واستقر في الأمر، وغلب على الدولة، وأقطع البلاد لعساكره. واستعد أصحابه في ولايتها، ورد أهل مصر إلى بلدهم، وأنكر ما فعلوه في تخريبها. ثم اجتمع بالعاضد مرة أخرى وقال له جوهر الأستاذ: يقول لك مولانا لقد تيقنا أن الله أدخرك نصرة لنا على أعدائنا فحلف له أسد الدين على النصيحة فقال له: الأمل فيك أعظم، وخلع عليه، وحسن عنده موقع الجليس بن عبد القوي، وكان داعي الدعاة وقاضي القضاة فأبقاه على مراتبه.

وفاة أسد الدين وولاية صلاح الدين الوزارة:

ثم توفي أسد الدين رحمه الله تعلى لشهرين في أيام قلائل من وزارته، وقيل لأحد عشر شهرا، وأوصى أصحابه أن لا يفارقوا القاهرة. ولما توفي كان معه جماعة من الأمراء النورية، منهم عين الدولة الفاروقي، وقطب الدين نسال، وعين الدين المشطوب الهكاوي، وشهاب الدين محمود الحازمي فتنازعوا في طلب الرياسة، وفي الوزارة، وجمع كل أصحابه للمغالبة. ومال العاضد إلى صلاح الدين لصغره وضعفه عنهم، ووافقه أهل دولته على ذلك، بعد أن ذهب كثير منهم إلى دفع الغز وعساكرهم إلى الشرقية، ويولى عليهم قراقوش. ومال آخرون إلى وزارة صلاح الدين، ومالى العاضد إلى ذلك لمكافأته عن خدمته السالفة فاستدعاه، وولاه الوزارة، واضطرب أصحابه. وكان الفقيه عيسى الهكاري من خلصاء صلاح الدين فاستمالهم إليه إلا عين الدولة الفاروقي فإنه سار إلى الشام، وقام صلاح الدين بوزارة مصر نائباً عن نور الدين يكاتبه بالأمير الأصفهسان، ويشركه في الكتاب مع كافه الأمراء بالديار المصرية. ثم استبد صلاح الدين بالأمور، وضعف أمر العاضد، وهدم دار المعرفة بمصر، وكانت حبسا. وبناها مدرسة للشافعية، وبنى دار الغزل كذلك للمالكية، وعزل قضاة الشيعة، وأقام قاضيا شافعياً في مصر، واستناب في جميع البلاد.

حصار الفرنج دمياط:

ولما جاء أسد الدين وأصحابه إلى مصر، وملكوها ودفعوهم عنها، ندموا على ما فرطوا فيها، وانقطع عنهم ما كان يصل إليهم، وخشوا غائلة العز على بيت المقدس، وكاتبوا الفرنج بصقلية والأندلس، واستنجدوهم، وجاءهم المدد من كل ناحية فنازلوا دمياط سنة خمس وستين، وبها شمس الخواص منكوريين فأمدها صلاح الدين بالعساكر

والأموال، مع بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز، واستمد نور الدين، واعتذر عن المسير إليها بشأن مصر والشيعة فبعث نور الدين العساكر إليها شيئا فشيئا، وسار بنفسه إلى بلاد الفرنج بسواحل الشام فضيق عليها، فاقلع الفرنج عن دمياط لخمسين يوما من نزولها فوجدوا بلادهم خراباً. وأثنى العاضد على صلاح الدين في ذلك. ثم بعث صلاح الدين غرابيه نجم الدين وأصحابه إلى مصر وركب العاضد للقائه تكرمة له.

واقعة الخصيان وعمارة:

ولما استقام الأمر لصلاح الدين بمصر غص به الشيعة وأولياؤهم، واجتمع منهم العوريش، وقاضي القضاة ابن كامل، والأمير المعروف، والكاتب عبد الصمد، وكان فصيحا، وعمارة اليمني الشاعر الزبيدي، وكان متولي كبرها فاتفقوا على استدعاء الفرنج لأخراج الغز من مصر، وجعلوا لهم نصيبا وافرا من ارتفاعها، وعمدوا إلى شيعي من خصيان القصر اسمه نجاح ولقبه مؤتمن الدولة وكان قد ربى العاضد وصهره فأغروه بذلك، ورغبوا على أن يجمع رسول الفرنج بالعاضد فجمعه معه في بيته ملبساً بذلك، و لم يكن العاضد الذي حضر، وأوهموه انه عقد معه. ثم اتصل الخبر بنجم الدين بن مضال من أولياء الشيعة، وكان نجم الدين قد اختصه صلاح الدين وولاه الأسكندرية، واستغضبه بهاء الدين قراقوش ببعض النزغات فظنوا أنه غضب فاطلعوه على شأنهم، وأن يكون وزيرا وعمارة كات الدست، وصاحب ديوان الإنشاء، والمكاتبات مكان الفاضل بن كامل قاضي القضاة داعي الدعاة، وعبد الصمد جابي الأموال، والعوريش ناظرا عليه فوافقهم ابن مضال ووشى بهم إلى صلاح الدين فقبض عليهم، وعلى رسول الفرنج، وقررهم في عدة مجالس. وأحضر زمام القصر، وهو مختص بالغز، ونكر عليه خروج العاضد إلى بيت نجاح فحلف على نفسه وعلى العاضد أن هذا لم يقع، وأخبر العاضد بطلب حضور نجاح مع مختص فحضر، واعترف بالحق أن العاضد لم يحضر فتحقق صلاح الدين براءته. وكان عمارة

يجالس شمس الدولة تورنشاه فنقل لأخيه صلاح الدين أنه امتدحه بقصيدة يغريه فيها بالمضي إلى اليمن، ويحمله على الإستبداد وأنه تعرض فيها للجانب النبوي، يوجب استباحة دمه وهو قوله:

#فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به إلى سواك وأور النار في العلم

#هذا ابن تومرت قد كانت ولايته كما يقول الورى لحماً على وضم

#وكان أول هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

فجمعهم صلاح الدين وشنقهم في يوم واحد بين القصرين، وأخر ابن كامل عنهم عشرين يوما. ثم شنقه ومرعمارة بباب القاضي الفاضل فطلب لقاءه فمنع فقال وهو سائر إلى المشقة:

#عبد الرحيم قد احتجب أن الخلاص هو العجب

وفي كتاب ابن الأثير: أن صلاح الدين إنما اطلع على أمرهم من كتابهم الذي كتبوه إلى الفرنجة، عثر على حامله، وقرأ الكتاب، وجيء به إلى صلاح الدين فقتل مؤتمن الخلافة لقرينة، وعزل جميع الخدام، واستعمل على القصر بهاء الدين قراقوش وكان خصيا أبيض، وغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة، واجتمعوا في خمسين

ألفاً وقاتلوا أجناد صلاح الدين بين القصرين، وخالفهم إلى بيوتهم فأضرمها نارا، واحرق أموالهم وأولادهم فانهزموا، وركبهم السيف. ثم استأمنوا ونزلوا الجيزة وعبر إليهم شمس الدولة توريشاه فاستلحمهم.

قطع الخطبة للعاضد وانقراض الدولة العلوية بمصرة :

كان نور الدين العادل يوم استقل صلاح الدين بملك مصر، وضعف أمر العاضد بها، وتحكم في قصره يخاطبه في قطع دعوتهم من مصر، والخطبة بها للمستضيء العباسي، وهو يماطل بذلك حذرا من استيلاء نور الدين عليه، ويعتذر بتوقع المخالفة من أهل مصر في ذلك فلا يقبل. ثم ألزمه ذلك فاستأذن فيه أصحابه فأشاروا به، وانه لا يمكن مخالفة نور الدين. ووفد عليه من علماء العجم الفقيه الخبشاني، وكان يدعى بالأمير العالم فلما رأى أحجامهم عن هذه الخطبة قال: أنا أخطبها فلما كان أول جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة، صعد المنبر قبل

الخطيب، ودعا للمستنصر فلم ينكر أحد عليه فأمر صلاح الدين في الجمعة الثانية الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء ففعلوا، وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر. وكان العاضد في شدة من المرض فلم يعلمه أحد بذلك، وتوفي في عاشوراء من السنة، وجلس صلاح الدين للعزاء فيه، واحتوى طى قصر الخلافة بما فيه فحمله بهاء الدين قراقوش إليه، وكان في خزائنهم من الذخيرة ما لم يسمع بمثله من أصناف الجواهر واليواقيت والزمرد وحلي الذهب وآنية الفضة والذهب، ووجد ماعون القصر *، من الموائد

والطسوت والأباريق والقدور والصحاف والخوان والبواقيل والمناير والطيافر والقباقب والأسورة كل ذلك من الذهب. ووجد من أنواع الطيوب واللباس والمذهبات والقرقبيات والمعلقات والوشي ما لا تقله الأوقار، ومن الكتب ما يناهز مائة وعشرين ألف سفر أعطاها للفاضل عبد الرحيم البيساني كاتبه وقاضيه، ومن الظهر والكراع والسلاح ومن الخدم والوصائف خمسين الفاً. ومن المال ما يملأ مائة بيت. ثم حبس رجالهم ونساءهم حش ماتوا، وكانت الدولة عند عهد العزيز والحاكم قد خلا جوها من رجالات كتامة، وتفرقوا في المشرق في سبيل ذلك الملك، وانقرضوا بانقراض أمر الشيعة وموت العاضد آخر خلفائهم، وأكلتهم الأقطار والوقائع شأن الدول كما ذكرناه من قبل. ولما هلك العاضد وحول صلاح الدين الدعوة إلى العباسية اجتمع قوم من الشيعة بمصر،

وبايعوا الداود بن العاضد، ونمي خبرهم إلى صلاح الدين فقبض عليهم وقتلهم، وأخرج داود من القصر، وذلك سنة تسع وستين وخمسمائة. ثم خرج بعد حين ابنه سليمان بن داود رضي الله تعالى عنه بالصعيد، وحبس إلى أن هلك. وظهر بعد حين بجهة فاس بالمغرب محمد بن عبد الله بن العاضد، ودعا هنالك، وتسمى بالمهدي فقتل وصلب. ولم يبق للعبيديين ذكر إلا في بلاد الحثيثية من العراق، وهم دعاة الفداوية. وفي بلاد الإسماعيلية التي كانت فيها دعوتهم بالعراق. وقام بها ابن الصباح في قلعة الموت وغيرها كما يذكر في أخبارهم، إلى أن انقرضت تلك الدعوة اجمع بانقطاع دعوة العباسيين ببغداد على يد هولاكو، من ولد جنكزخان ملوك التتر سنة خمس وخمسين وستماية، والأمر لله وحده. هذه أخبار الفاطميين ملخصة من كتاب

ابن الأثير، ومن تاريخ دولتهم لابن الطوير، وقليل من ابن المسيحي جمعت ما أمكنني منها ملخصا والله ولي العون.

الخبر عن بني حمدون ملوك المسيلة

والزاب بدعوة العبيديين ومال أمرهم

كان علي بن حمدون أبوهم من أهل الأندلس، وهو علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي، يعرف بابن الأندلسي، واتصل بعبيد الله وأبي القاسم بالمشرق قبل شأن الدعوة، وبعثوه من طرابلس إلى عبد الله الشيعي فاحسن اللقاء والانصراف، ولزمهم أيام اعتقالهم بسجلماسة فلما استفحل ملكهم جذبوا أبا ضبيعة ورقوه إلى الرتب. ولما رجع أبو القاسم من حركته إلى المغرب سنة خمس عشرة وثلاثمائة، واختط مدينة المسيلة استعمل علي بن حمدون على بنائها وسماها المحمدية. ولما تم بناؤها عقد له على الزاب، وانزله بها، وشحنها بالأقوات التي كانت ميرة للعساكر عند محاصرة المنصور لأبي يزيد صاحب الحمار بجبل كتامة. ولم يزل واليا على الزاب، ورئى ابنيه جعفراً ويحيى بدار أبي القاسم. وكان جعفر سار إلى المعز. ولما كانت فتنة ابي يزيد وأضرمت إفريقية نارا وفتنة، وأهاب القائم بالأولياء من كل ناحية، كتب إلى ابن حمدون أن يجند قبائل البربر، ويوافيه فنهض إلى المهدية في عسكر ضخم بقسنطينة وهو يحتشد كل من مر به في طريقه حتى وصل إلى شق

بنارية. ثم قارب باجة، وكان بها أيوب بن ابي يزيد في عسكر كبير من النكارية والبربر فزحف إليهم وتناور الفريقان. ثم بيته أيوب فاستباح معسكره وتردى كلي بن حمدون من بعض الشواهق فهلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. ولما انقضت فتنة ابي يزيد عقد المنصور على المسيلة والزاب لجعفر بن على بن حمدون، وأنزله بها أخاه يحيى، واستجدوا بها سلطاناً ودولة، وبنوا القصور وإلمنتزهات، واستفحل بها ملكهم وقصدهم بها العلماء والشعراء، وكان فيمن قصدهم ابن هانيء شاعر الأندلس وأمداحه فيهم معروفة مذكورة. وكان بين جعفر هذا وبين زيري بن مناد عداوة جرها المنافسة والمساماة في الدولة فساء أثر زيري فيه عند صدمته للمغرب، وفتكه بزناتة، وسعوا به إلى الخليفة والقح له في جوانحه العداوة فكانت داعيته إلى زناتة.وتولى محمد بن خزر أمير مغراوة. ثم أن المعز لما اعتزم على الرحيل إلى القاهرة سنة اثنتين وثلاثمائة استقدم جعفرا فاستراب جعفر، ومال بعسكره إلى زناتة قبل قدومه، وانقطعت الرسائل بينه وبين صنهاجة والخليفة المعز، وشملت عليه زناتة قبل قدومه واجتمعوا عليه، ودعا إلى نقض طاعة المعز والدعاء للحاكم المستنصر فوجدهم اقدم إجابة لها، وناهضهم زيري الحرب قبل استكمال التعبية فكانت عليه من أمراء زناتة فكبا بزيري فرسه فطاح فقصوا رأسه، وبعثوا به مع جماعة من زناتة إلى الحاكم المستنصر فكرم الحاكم وفادهم، ونصب رأس زيري بسوق قرطبة وأسنى جوائز الوفد، ورفع مترلة يحمى بن علي وأذن لجعفر في اللحاق بسدته.ولما علمت زناتة أن يوسف بن زيري يطالبهم بدم أبيه أظهروا الغدر به، ورأى أن يتجنب مجاهتهم لضيق ذات يده، وعجز رؤساؤهم عن الذب والدفاع عنها وقبضت الأيدي عن تناوله لدنو الفتنة ومراس العصبية فأوجس الخيفة في

نفسه، وألطف الحيلة في الفرار رغبة بحيلته، وشحن السفن بما معه من المال والمتاع والرقيق والحشم وذخيرة السلطان، وأجاز البحر، ولحق بسدة الخلافة من قرطبه، وأجاز معه عظماء الزناتيين معطين الصفقة على القيام بدعوته، والإحتطاب في جبل طاعته فكرم مثواه وأجمل وفادقم، وأحسن منصرفهم، وانقلبوا لمحبته والتشيع له، ومناغاة الأدارسة للقيام في خدمته بالمغرب الأقصى وبث دعوته. وتخلف عنهم أولاد علي بن حمدون بالحضرة، وأقاموا بسدة الخلافة، ونظموا في طبقات الوزراء وأجريت عليهم

سنيات الارزاق، والتحقوا على حديث عهدهم بالقوم من أولياء الدولة.ثم كان بعد ذلك شأن اعتقالهم على طريق التأديب، لارتكابهم في منازعتهم أمرا، خرقوا به حدود الآداب مع الخلافة فاستدعوا إلى القصر واعتقلوا، ثم أطلقوا لأيام قلائل، لما انغمس الحكم في عله الفالج، وركدت ريح المروانية بالمغرب، واحتاجت الدولة إلى رجالهم لسد الثغور ودفع العدو. واستدعي يحمى بن محمد بن هاشم من العدوة، وكان والياً على فاس والمغرب، وأداله الحاجب المصفحي لجعفر بن علي بن حمدون، وجمعوا بين الانتفاع في مقارعة زناتة بالعدوة والراحة مما يتوقع منه على الدولة عند من ولي الخلافة، لما كانوا صاروا إليه من النكبة، وطروق المحنة فعقدوا له ولأخيه يحيي على المغرب، وخلعوا عليهما، وأمكنوهما من مال وكسى فاخرة للخلع على ملوك العدوة فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وضبطه، واجتمع إليه ملوك زناتة من بني يفرن ومغراوة وسجلماسة. ولما هلك الحكم، وولي هشام، وقام بأمره المنصور بن أبي عامر اقتصر لأول قيامه على سبتة من بلاد العدوة فضبطها جند السلطان، ورجال الدولة، وقلدها أرباب السيوف والأقلام من الأولياء والحاشية، وعدل في ضبطه على ما وراء ذلك على ملوك زناتة ونقدهم بالجوائز والخم وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب الإثبات في ديوان السلطان منهم فجدوا في ولاية الدولة، وبث الدعوة، وفسد ما بين هذين الأميرين جعفر وأخيه، واقتطع يحمى مدينة البصرة لنفسه، وذهب بأكثر الرجال. ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبته بنو غواطة في غزاته إياهم. ثم استدعاه حمد بن أبي عامر لأول أمره لما رأى من الاستكانة إليه، وشد أزره به ونقم عليه كراهته لما لقيه بالأندلس من الحكم، ثم أصحبه وتخلى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابن أبي عامر فحل منه بالمكان الأثير ولما زحف بلكين إلى المغرب سنة تسع وستين زحفته المشهورة، خرج حمد بن ابي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه، وأجاز جعفر بن علي إلى سبتة وعقد له على حرب بلكين وأمده بمائة حمل 5كأ المال، وانضمت إليه ملوك زناتة، رجع عنهم بلكين كما نذكره. ولما رجع إلى ابن أبي عامر اغتاله في بعض ليالي معاقرقم وأعذله رجالا في طريقه من سمره إلى داره فقتلوه سنة (1) ولحق يحيى بن علي

بمصر ونزل بدار العزيز، وتلقاه بالمبرة والتكريم وطال به ثراؤه، واستكفى به العظائم، ولما استصرخ فلفول بن خزرون بالحاكم في استرجاع طرابلس من يد صنهاجة المتغلبين عليه، دفع إليه العساكر، وعقد عليها ليحى بن علي، واعترضه بنو قُرَّة من الهلاليين ببرقة ففلوه وفضوا جموعه، ورجع إلى مصر. ولم يزل بمصر إلى أن هلك هنالك. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن القرامطة واستبداد أمرهم وما استقر

لهم من الدولة بالبحرين وأخبارها إلي حين انقراضها

هذه الدعوة لم يظهرها أحد من أهل نسب العلوية ولا الطالبيين، وإنما قام بها دعاة المهدي من أهل البيت على اختلاف منهم في تعيين هذا المهدي كما نذكره وكان مدار دعوتهم على رجلين أحدهما يسمى الفرج بن عثمان القاشاني، من دعاة المهدي، ويسمى أيضا كرويه بن مهدويه وهو الذي انتهى إليه دعاتهم بسواد الكوفة، ثم بالعراق والشام، و لم يتم لهؤلاء دولة، والآخر يسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، كانت دعوته بالبحرين، واستقرت له هنالك دولة ولبنيه. وانتسب بعض مزاعمهم إلى دعاة الإسماعيلية الذين كانوا بالقيروان كما نذكره.ودعوى هؤلاء القرامطة في غاية الاضطراب مختلة العقائد والقواعد، منافية للشرائع والإسلام في الكثير من مزاعمهم وأول من قام بها بسواد الكوفة سنة ثمان وسبعين ومائتين رجل اظهر الزهد والتقشف، وزعم أنه يدعو إلى المهدي، وان الصلوات المفروضة خمسون كل يوم واستجاب له جمع كثير ولقب قرمط، وأصلها بالكاف. وكان يأخذ من كل من يجيب دعوته دينارا للإمام. وجعل عليهم نقباء وسماهم الحواريين، وشغل الناس بذلك عن شؤونهم، وحبسه عامل الناحية ففرمن محبسه، و لم يوقف له على خبر فازداد أتباعه فتنة فيه ثم زعم أنه الذي بشر به أحمد بن محمد ابن الحنفية. وأن أحمد نبي، وفشا هذا المذهب في السواد، وقرىء بينهم كتاب زعموا أنه جاءهم من داعيه المهدي نصه بعد البسملة:يقول الفرج بن عثمان الحمد الله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لأوليائه قل أن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها لتعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام. وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي اتقوني يا أولي

الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما افعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأستخبر خلقي فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي، وأخلدته في نعمتي، ومن زال عن امري، وكذب رسلي أخلدنه مهانا في عذابي، وأتممت اجلي، وأظهرت على ألسنة رسلي. فأنا الذي لا يتكبرعلي جبار إلا وضعته، ولا عزيز إلا ذللته، فليس الذي أصر على أمره ودام على جهالته، وقال لن نبرح عليه عاكفين، وبه مؤمنين، أولئك هم الكافرون. ثم يركع ويقول في ركوعه مرتين سبحان ربي ورب العزة تعالى عما يصف الظالمون وفي سجوده الله أعلى مرتين الله أعظم مرة، والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز، والنبيذ حرام والخمر حلال، والغسل من الجنابة كالوضوء، ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب. ومن خالف وحارب وجب قتله، ومن لم يحارب أخذت منه الجزية انتهى.إلى غير ذلك من دعاوى شنيعة متعارضة، يهدم بعضها بعضاً وتشهد عليهم الكذب. والذي حملهم على ذلك إنما هو ما اشتهر بين الشيعة من أمر المهدي، مستندين فيه إلى الأحاديث التي خرجها بعضهم، وقد أريناك عللها في مقدمة الكتاب في باب الفاطمي فلهجوا به، وبالدعوة إليه فمن الصادق فيمن يعنيه، وأن كان كاذبا في استحقاقه. ومنهم من بني أمره على الكذب والانتحال، عساه يستولي بذلك على حظ من الدنيا ينال بها صفقة. وقد يقال أن ظهور هذا الرجل كان قبل مقتل صاحب الزنج، وإنه سار على الأمان وقال له أن ورائي مائة ألف سيف فناظرني لعلنا نتفق ونتعاون. ثم اختلفا وانصرف قرمط

عنه، وكان يسمي نفسه القائم بالحق.وزعم بعض الناس أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج، ثم زحف إليه أحمد بن محمد الطائي صاحب الكوفة في العساكر فأوقع بهم، وفتك بهم، وتتابعت العساكر في السواد في طلبهم، وأبادوهم وفر هو إلى أحياء العرب فلم يجبه أحد منهم فاختفى في القفر في جب بناه، واتخذه لذلك، وجعل عليه باب حديد، واتخذ بجانبه تنورا سحرا أن أرهقه الطلب فلا يفطن له. ولما اختفى في الجب بعث أولاده في كلب بن دبرة بأنهم من ولد إسمعيل الإمام مستجيرون بهم. ثم دعوا إلى دعوتهم أثناء ذلك وكانوا ثلاثة يحمى وحسين وعلي فلم يجبهم أحد، إلى ذلك، إلا بنو القليص بن ضمضم بن علي بن جناب فبايعوا ليحمى على أنه يحمى بن عبد الله بن محمد بن إسمعيل الإمام، وكنوه أبا القاسم ولقبوه الشيخ. ثم حول اسمه وادعى أنه محمد بن عبد الله، وأنه كان يكتم هذا الاسم وأن ناقته التي يركبها

مأمورة ومن تبعها منصور فزحف إليه سبك مولى المعتضد في العساكر فهزمها، وقتل فسار إليه محمد بن أحمد الطائي في العساكر فانهزمت القرامطة، وجيء ببعضهم أسيرا فحتضره المعتضد وقال:هل تزعمون أن روح الله وأنبيائه تحل فيكم فتعصمكم من الزلل، وتوفقكم لصالح العمل. فقال له: يا هذا أرأيت لو حلت روح إبليس فما ينفعك فاترك ما لا يعنيك إلى ما يعنيك. فقال له قل فيما يعني فقال له قبض رسول الله وأبوكم العباس في فلم يطلب هذا الأمر ولا بايعه أحد، ثم قبض أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى العباس و لم يعهد إليه عمر ولا جعله من أهل الشورى، وكانوا ستة وفيهم الأقرب والأبعد، وهذا إجماع منهم على دفع جدك عنها فبماذا تستحقون أنتم الخلافة؟ فأمر المعتضد به فعذب، وخلعت عظامه، ثم قطع مرتين ثم قتل.ثم زحف القرامطة إلى دمشق وعليها طغج مولى ابن طولون سنة تسعين، واستصرخ بابن سيده بمصر فجاءت العساكر لامداده فقاتلهم مرارا، وقتل يحي بن ذكرويه المسمى بالشيخ في خلق من أصحابه، واجتمع فلهم على أخيه الحسين وتسمى أحمد أبا العباس، وكانت في وجهه شامة يزعم أنها * فلقب صاحب الشامة المهدي أمير المؤمنين، وأتاه ابن عمه عيسى بن مهدي وهو عبد الله بن أحمد بن محمد بني إسمعيل الإمام، ولقبه المدثر، وعهد إليه وزعم أنه المذكور في القرآن. ولقب غلاما من أهله المطوق. ثم دعا الناس فأجابه كثير من أهل البوادي، وسار إلى دمشق فحاصرها حتى صالحوه على مال ودفعوه له. ثم سار إلى حمص وحماة والمعرة وبعلبك فخطب له بها، واستباحها جميعا ثم إلى سلمية وبها جماعة من بني هاشم فاستلحمهم حتى الصبيان بالمكاتب والبهائم. ثم خر المكتفي إليه وقدم عساكره فكبسهم ونجا ففهم إلى حلب. وانتهى المكتفي إلى الرقة، وقد سار بدر مولى ابن طولون في اتباع القرامطة فهزمهم واثخن فيهم وبعث المكتفي العساكر مع يحى بن سليمان الكاتب، وفيهم الحسين بن حمدان من بني تغلب ومعهم بنو شيبان فواقعوا القرامطة سنة إحدى وتسعين فهزموهم، وقتل منهم خلق من أصحاب القرمطي، ونجا ابنه أبو القاسم ببعض ذخيرته. وسار هو مستخفيا إلى ناحية الكوفة. ومعه المدثر والمطوق وغلام له، وانتهوا إلى الرحبة فوشى بهم إلى العامل فقبض عليهم، وبعث بهم إلى المكتفي بالرقة، ورجع إلى بغداد فقطعهم بعد أن ضرب صاحب الشامة مائتي سوط، وأما علي بن ذكرويه ففر بعد مقتل أخيه يحى على

دمشق إلى ناحية الفرات. واجتمع إليه فل من القرامطة فاستباح طبرية.ثم لما اتبعهم الحسين بن حمدان فر إلى اليمن، واجتمع إليه دعاتهم هنالك، وتغلب على كثير من مدنه، وقصد صنعاء فهرب عنها ابن يعفر فاستباحها وتجافى عن صعدة لذمة العلوية بينه وبين بني الرسى، ونازل بني زياد بن بيد، ومات في نواحي اليمن. وفي خلال ذلك بعث أبوه ذكرويه إلى بني القليص بعد أن كانوا استكانوا، وأقاموا بالسماوة فبعث إليهم من أصحابه عبد الله بن سعيد، ويسمى أبا غانم فجاءهم بكتابه سنة ثلاث وتسعين بأنه أوحي إليه بأن صاحب الشامة وأخاه الشيخ مقبلان، وأن إمامه يظهر من بعدهما يملأ الأرض عدلا، ويظهر وطاب أبو غانم على أحياء؟طب فاجتمع إليه جماعة منهم، وقصد الشام فاستباح بصرى وأذرعات، ونازل دمشق وعاملها يومئذ أحمد بن كيغك، وهو غائب بمصر في محاربة الجليجي الثائر من شيعة بني طولون على عساكر المكتفي، وقابله خلفاؤه فهزمهم، وقتل بعضهم وسار إلى الأردن فقتل عاملها، ونهب طبرية وبعث المكتفي الحسين بن حمدان في العساكر ففر أبو غانم إلى السماوة وغور مياهها، واتبعته العساكر إلى أن جهدهم العطش. ثم رجع الحسين بهم إلى الرحبة وقيل إنهم تقبضوا على ابي غانم وقتلوه، وافترق جمعهم، وذلك سنة ثلاث وتسعين.

ظهور ذكرويه ومقتله:

ثم اجتمع القرامطة إلى ذكرويه وأخرجوه من الجب الذي كان مختفيا فيه منذ عشرين سنة، وحضر عنده دعاتهم فاستخلف عليهم أحمد بن القاسم بن أحمد، وعرفهم بما له عليهم من المنة وأن رشادهم في امتثال أمره، ورمز لهم في ذلك بآيات من القرآن حرف تأويلها، وسار وهو محتجب يدعونه السيد ولا يرونه، والقاسم يباشر الأمور ويتولاها. وبعث المكتفي عساكره فهزمهم القرامطة بالسواد، وغنموا معسكرهم، وساروا لاعتراض الحاج ومروا بالصوان، وحاصروا الواقصة فامتنعت عليهم، وطموا الآبار والمياه في تلك النواحي. وبعث المكتفي محمد بن إسحق بن كنداج الصهال ورجعوا. ونهب القرامطة الحاج، وقتلوهم بعد أن قاتلوهم ثلاثا على غير ماء فاستسلموا، وغنم أموالهم وأموال التجار وأموال بني طولون كانوا نقلوهامن

مصر إلى مكة. ثم من مكة إلى بغداد عندما أجمعوا النقل إليها. ثم حاصر القرامطة بقية الحاج في حمص قبل فامتنعوا وجهز المكتفي العساكر مع وصيف بن صوارتكين وجماعة من القواد فساروا على طريق خفان، وأدركوا القرامطة فقاتلوهم يومين، ثم هزموهم، وضرب ذكرويه على رأسه فانهشم وجيء به اشيرا، وبخليفة القاسم وابنه وكاتبه وزوجته، ومات لخمس ليال فسيق شلوه إلى بغداد، وصلب وبعث برأسه إلى خراسان من اجل الحاج الذين نهبهم من أهلها. ونجا الفل من اصحابه إلى الشام فأوقع بهم الحسين بن حمدان واستلحمهم، وتتبعوا بالقتل في نواحي الشام والعراق، وذلك سنة أربع وتسعين وثلاثمائة.

خبر قرامطة البحرين ودولة بني الجنابي منها:

وفي سنة إحدى وثمانين جاء إلى القطيعي من البحرين رجل تسمى بيحيى بن المهدي، وزعم أنه رسول من المهدي، وأنه قد قرب خروجه وقصد من أهل القطيف علي بن المعلي بن أحمد الدبادي، وكان متغاليا في التشيع فجمع الشيعة وأقرأهم كتاب المهدي، وشنع الخبر في سائر قرى البحرين فأجابوا كلهم، وفيهم أبو

سعيد الجنابي، واسمه الحسن بن بهرام، وكان منه عظمائهم. ثم غاب عنهم يحمى بن المهدي مدة ورجع بكتاب المهدي يشكرهم على إجابتهم، ويأمرهم أن يدفعوا ليحيى ستة دنانير وثلاثين عن كل رجل فدفعوها. ثم غاب وجاء بكتاب آخر يأمرهم أن يدفعوا إليه خمس أموالهم فدفعوا، وقام يتردد في قبائل قيس. ثم أظهر أبو سعيد الجنابي الدعوة بالبحرين سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليه القرامطة والأعراب، وسار إلى القطيف طالبا البصرة وكان عليها أحمد بن محمد بن يحمى الواثقي فأدار السور على البصرة، وبعث المعتمد على ابن عمر الغنوي، وكان على فارس فاقطعه اليمامة والبحرين، وضم إليه ألفين من المقاتلة، وسيره إلى البصرة فاحتشد وخرج للقاء الجنابي ومن معه، ورجع عنه عند اللقاء بنو ضبة فانهزم واشره الجنابي واحتوى على

معسكره، وحرق الأسرى بالنار. من عليه وأطلقه فسار إلى الأبلة ومنها إلى بغداد وسار أبو سعيد إلى هجر فملكها وأمنها واضطربت البصرة للهزيمة، وهم أهلها بالارتحال فمنعهم الواثقي. ومن كتاب ابن سعيد في خبر قرامطة البحرين ملخصا من كلام الطبري فلعله كما ذكره قال: كان ابتداء أمر القرامطة سنة ثمان وثلاثمائة فنقل الكلام، وكان أبو سعيد عهد لابنه الأكبر سعيد فلم (1) به وثار به أخوه الأصغر والظاهر سليمان فقتله، وقام بأمرهم، وبايعه العقدانية، وجاءه كتاب عبيد الله المهدي بالولاية. وفي سنة ست وثمانين وصل أبو القاسم القائم إلى مصر، واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتطره فأعجلة مؤنس الخادم عن انتظاره، وسار من قبل المقتدر فهزمه ورجع إلى المهدئة. ثم سار أبو الطاهر سنة سبع إلى البصرة فاستباحها، ورجع واضطربت بغداد، وأمر المقتدر بإصلاح ما تثلم من سورها. ثم زحف إ أليها أبو الطاهر سنة إحدى عشرة فاستباحها، وخرب الجامع وتركها خربة. تم خرج سنة اثنتي عشرة لاعتراض الحاج فأوقع بهم، وهزم قواد السلطان الذين كانوا معهم، وأسر أميرهم أبا النجاء بن حمدون، واستصفى النساء والصبيان وترك الباقي بالبرية فهلكوا.ثم خرج سنة أربع عشرة إلى العراق فعاث في السواد، ودخل الكوفة، وفعل فيها أشد من البصرة. وفي سنة أربع عشرة وقع ببن العقدانية وأهل البحرين خلاف فخرج أبو الطاهر وبنى مدينة الأحساء، وسماها المؤمنية فلم تعرف إلا به، وبنى قصره وأصحابه حوله. وفي سنة خمس عشرة استولى على عمان وهرب واليها في البحر إلى فارس، وزحف سنة ست عشرة إلى الفرات وعاث في بلاده. وبعث المقتدر عن يوسف بن ابي الساج من أذربيجان وولاه واسط، وبعثه لحربه فالتقوا بظاهر الكوفة وهزمه أبو طاهر وأسره. وأرجف أهل بغداد، وسار أبو طاهر إلى الأنبار، وخرجت العساكر من بغداد لدفاعه مع مؤنس المظفر وهارون بن غريب الحال فلم يطيقوا دفاعه، وتوافقوا ثم تحاجزوا، وعاد مؤنس إلى بغداد، وسار هو إلى الرحبة واستباحها ودوخ بلاد الجزيرة بسراياه. وسار إلى هشت والكوفة، وقاتل الرقة فامتنعت عليه، وفرض الأتاوة على أعراب الجزيرة يحملونها إلى هجر، ودخل في دعوته جماعة من بني سليم بن منصور وبنى عامر بن صعصعة. وخرج إليه هرون بن غريب الحال فانصرف أبو طاهر إلى

البرية، وظفر هارون بفريق منهم فقتلهم وعاد إلى بغداد.وفي سنة سبع عشرة هجم على مكة وقتل كثيرا من الحاج ومن أهلها، ونهب أموالهم جميعا، وقلع باب البيت والميزاب، وقسم كسوة البيت في أصحابه، واقتلع

الحجر الأسود وانصرف به، وأراد أن يجعل الحج عنده، وكتب إليه عبيد الله المهدي من القيروان يوبخه على ذلك، ويتهدده فكتب إليه بالعجز عن رده من الناس، ووعد برد الحجر فرده سنة تسع وثلاثين بعد أن خاطبه منصور إسمعيل من القيروان في رده فردوه، وقد كان الحكم المتغلب على الدولة ببغداد أيام المستكفي بذل لهم خمسين ألفاً من الذهب على أن يردوه فأبوا، وزعموا انهم إنما حملوه بأمر إمامهم عبيد الله وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته. وأقام أبو طاهر بالبحرين وهو يتعاهد العراق والشام بالغزو حتى ضربت له الأتاوة ببغداد وبدمشق على بني طغج. ثم هلك أبو طاهر سنة اثنتين وثلاثين لإحدى وثلاثين سنة من ملكه، ومات عن عشرة من الولد كبيرهم سابور، وولى أخوه الأكبر احمد بن الحسن، واختلف بعض العقدانية عليه، ومالوا إلى ولاية سابور بن ابي طاهر، وكاتبوا القائم في ذلك فجاء جوابه بولاية الأخ احمد، وان يكون الولد سابور ولي عهده فاستقر احمد في الولاية عليهم، وكنوه أبا منصور، وهو الذي رد الحجر الأسود إلى مكانه كما قلناه.

ثم قبض سابور على عمه ابي منصور فاعتقله بموافقة اخوته له على ذلك، وذلك سنة ثمان وخمسين. ثم ثار بهم أخوه فاخرجه من الاعتقال، وقتل سابور ونفى إخوته واشياعهم إلى جزيرة أوال. ثم هلك أو منصور سنة تسع وخمسين، يقال مسموماً على يد شيعة سابور، وولى ابنه أبو علي الحسن بن احمد ويلقب الأعصم، وقيل الأغنم فطالت مدته وعظمت وقائعه، ونفى جمعا كثيرا من ولد ابي طاهر، يقال اجتمع منهم بجزيرة أوال نحو من ثلاثمائة، وحج هذا الأعصم بنفسه ولم يتعرض للحاج، ولا أنكر الخطبة للمطيع.

فتنة القرامطة مع المعز العلوي:

ولما استولى جوهر قائد المعز لدين الله على مصر وجعفر بن فلاح الكتامي على دمشق طالب الحسن بالضريبة التي كانت له على دمشق فمنعوه ونابذوه، وكتب له المعز وأغلظ عليه، ودس لشيعة أبي طاهر وبنيه أن الأمر لولده، وأطلع الحسن على ذلك

فخلع المعز سنة اثنتين، وخطب للمطيع العباسي في منابره، ولبس السواد. ثم زحف إلى دمشق وخرج جعفر بن فلاح لحربه فهزمه الأعصم وقتله، وملك دمشق وسار إلى مصر فحاصر جوهرا بها وضيق عليه. ثم غدر به العرب وأجفلوا فأجفل معهم وعاد إلى الشام ونزل الرملة، وكتب إليه المعز سنة إحدى وستين بالنفي والتوبيخ، وعزله عن القرامطة وولى بني أبي طاهر فخرجوا من أوال ونهبوا الاحساء في غيبته، وكتب إليهم الطائع العباسي بالتزام الطاعة، وأن يصالحوا ابن عمهم ويقيموا بجزيرة أوال. وبعث من أحكم بينهم الصلح. ثم سار الأعصم إلى الشام وتخطاها دون صور فقاتلوه وراء الخنادق، وبذل جوهر المال للعرب فافترقوا عنه، وانهزم ونهب معسكره. وجاء المعز من إفريقية ودخل القاهرة سنة ثلاث وستين، وسرح العساكر إلى الشام فاستولوا عليه فنهض الأعصم إليهم فأوقع بهم، وأثخن فيهم، وانتزع ما ملكوه من الشام، وسار إلى مصر، وبعث المعز لدين الله ابنه عبد الله فلقيهم على بلبيس وانهزم الأعصم وفشا القتل والأسر في أصحابه فكانوا نحوا من ثلاث آلاف، ورجع الأعصم إلى الإحساء واستخلص المعز بني الجراح أمراء الشام من طسيء حتى استرجع بهم ما غلب عليه القرامطة من الشام بعد حروب وحصار. ثم مات المعز سنة خمس وستين، وطمع

الأعصم في بلاد الشام، وكان أفتكين التركي مولى معز الدولة بن بويه لما انتقض على أبيه بختيار، وهزمه ببغداد سار أفتكين منهزما إلى دمشق، وكانوا مضطربين فخرجوا إليه وولوه عليهم وصالح المعز إلى أن توفي فنابذ العزيز، وبعث إليه جوهر في العساكر فحاصره فكتب أفتكين إلى الأعصم، واستدعاه فجاء إلى الشام سنة ست وستين. وخرج معه أفتكين، ونازلوا الرملة فملكوها من يد جوهر، وزحف إليهم العزيز وهزمهم، وتقبض على أفتكين، ولحق الأعصم بطبرية منهزما. ثم ارتحل منها إلى الاحساء، وأنكروا ما فعله الأعصم من البيعة لبني العباس، واتفقوا على إخراج الأمر عن ولد ابي سعيد الجنابي وقدموا رجلين منهم: وهما جعفر وإسحاق، وسار بنو أبي سعيد إلى جزيرة أوال وكان بنو أبي طاهر قبلهم فقتلوا كل من دخل إليهم من ولد أحمد بن أبي سعيد واشياعه. ثم قام بأمر القرامطة جعفر وإسحاق هذان، ورجعوا إلى دعوة العلوية ومحاربة بني بويه ورجعوا سنة أربع وستين إلى الكوفة فملكوها. وبعث صمصام الدولة بن بويه العساكر إليهم فهزمهم على الفرات، وقتل منهم خلق واتبعوهم إلى القادسية. ثم اختلف جعفر

وإسحق، وطمع كل منهما في الرياسة على صاحبه وافترق أمرهم وتلاشت دعوهم إلى أن استولى الأصغر لن ابي الحسن الثعلبي سنة ثمان وتسعين عليهم، وملك الأحساء من أيديهم، واذهب دولتهم وخطب للطائع واستقرت الدولة له ولبنيه.

ذكر المتغلبين بالبحرين من العرب بعد القرامطة:

كان بأعمال البحرين خلق من العرب، وكان القرامطة يستنجدونهم على أعدائهم، ويستعينون بهم في حروبهم، وربما يحاربونهم ويقاطعونهم في بعض الأوقات، وكان أعظم قبائلهم هنالك بنو ثعلب وبنو عقيل وبنو سليم، وأظهرهم في الكثرة والعزة بنو ثعلب. ولما فشلت دولة القرامطة بالبحرين، واستحكمت العداوة بينهم وبين بني بويه بعد انقراض ملك بني الجنابي، وعظم اختلافهم عند القائم بدعوة العباسية وكان خالصة للقرامطة، ودعاه إلى إذهاب دولتهم فأجابه، وداخل بني مكرم رؤساء عمان في مثل ذلك فأجابوه، واستولى الأصغر على البحرين وأورثها بنيه، واستولى بنو مكرم على عمان ثم غص بنو ثعلب بسليم، واستعانوا عليهم ببني عقيل، وطردوهم من البحرين فساروا إلى مصر ومنها كان دخولهم إلى إفريقية كما يأتي.ثم اختلف بنو ثعلب وبنو عقيل بعد مده، وطردهم بنو ثعلب إلى العراق فملكوا الكوفة والبلاد العراقية، وامتد ملك الأصغر، وطالت أيامه، وتغلب على الجزيرة والموصل، وحارب بني عقيل سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة برأس عين من بلاد الجزيرة، وغص بشأنه نصير الدولة بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر فقام له، وجمع له الملوك من كل ناحية فهزمه واعتقله، ثم أطلقه ومات. وبقي الملك متوارثا في بنيه بالبحرين إلى أن ضعفوا وتلاشوا وانقرضت دولة بني عقيل بالجزيرة، وغلبهم عليها وعلى تلك البلاد أولياء الدولة السلجوقية فتحولوا عنها إلى البحرين مواطنهم ا أولى، ووجدوا بنيئ ثعلب قد أدركهم الهرم فغلبوا عليهم.

قال ابن سعيد: سألت أهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية سنة إحدى وخمسين وستمائة عن البحرين فقالوا :الملك فيها لبني

عامر بن عوف بن عقيل، وبنو ثعلب من جملة رعاياهم، وبنو عصفور منهم أصحاب الأحساء. (ولنذكر) هنا نبذة في التعريف بكاتب القرامطة وأمصار البحرين وعمان لما أن ذلك من توابع أخبارهم.

الكاتب - كان كاتبهم أبو الفتح الحسين بن محمود، ويعرف بكشاجم، كان من أعلام الشعراء وذكره الثعالبي في اليتيمة والحصري في زهر الآداب، وهو بغدادي المولد، واشتهر بخدمة القرامطة فيما ذكره البيهقي وكتب لهم بعده ابنه أبو الفتح نصر، ولقبه كشاجم مثل أبيه كاتبا للأعصم.البحرين - إقليم يسمى باسم مدينته، ويقال هجر باسم مدينة أخرى منه وكانت حضرية فخربها القرامطة وبنو الاحساء وصارت حاضرة، وهذا الإقليم مسافة شهر على بحر فارس بين البصرة وعمان شرقيها بحر فارس، وغربيها متصل باليمامة، وشماليها البصرة وجنوبها بعمان، كثيرة المياه ببطونها على القامة والقامتين كثيرة البقل والفواكه، مفرطة الحر منهالة الكثبان، يغلب الرمل عليهم في منازلهم وهي من الإقليم الثاني، وبعضها في الثالث. كانت في الجاهلية لعبد القيس، وبكر بن وائل من ربيعة، وملكها للفرس، وعاملها من قبلهم المنذر بن ساوى التميمي. ثم صارت رياستها صدر الإسلام لبني الجار ودى، ولم يكن ولاة بني العباس يترلون هجر، إلى أن ملكها أبو سعيد القرمطي بعد حصار ثلاث سنين، واستباحها قتلا وإحراقا وتخريبا. ثم بنى أبو طاهر "مدينة الأحساء، وتوالت دولة القرامطة، وغلب على البحرين بنو أبي الحسن بن ثعلب، وبعدهم بنو عامر ابن عقيل قال ابن سعيد: والملك الآن فيهم في بني عصفور.

(الأحساء)- بناها أبو طاهر القرمطي في المائة الثالثة، وسميت بذلك لما فيها من أحساء المياه في الرمال ومراعي الإبل وكانت للقرامطة بها دولة وجالوا في أقطار الشام والعراق ومصر والحجاز وملكوا الشام وعمان.

(دارين)- هي من بلاد البحرين ينسب إليها الطيب، كما تنسب الرماح إلى الخط بجانبها، فيقال مسك دارين، والرماح الخطية.

(عمان)- وهي من ممالك جزيرة العرب المشتملة على اليمن والحجاز والشحر وحضرموت وعمان وهي خامسها، إقليم سلطاني منفرد على بحر فارس من غربية مسافة شهر شرقيها بحر فارس وجنوبها بحر الهند، وغربيها بلاد حضرموت،

وشماليها البحرين كثيرة النخل والفواكه، وبها مغاص اللؤلؤ سميت بعمان بن قحطان، أول من نزلها بولاية أخيه يعرب، وصارت بعد سيل العرم للأزد. وجاء الإسلام وملوكها بنو الجلندي، والخوارج بها كثيرة. وكانت لهم حروب عمال بني بويه وقاعدتهم تروى وملك عمان من البحر ملوك فارس غير مرة، وهي في الإقليم الثاني، وبها مياه وبساتين وأسواق، وشجرها النخل. وكانت بها في الإسلام دولة لبني شامة بن لؤي بن غالب. وكثير من نسابة قريش يدفعونهم عن هذا النسب أولهم بها محمد بن القاسم الشامي، عثه المعتضد وأعانه ففتحها وطرد الخوارج إلى تروى قاعدة الجبال، وأقام الخطبة لبني العباس، وتوارث ذلك بنوه، وأظهروا شعار السنة. ثم اختلفوا سنة خمس وثلاثمائة، وتحاربوا ولحق بعضهم بالقرامطة، وأقاموا في فتنة إلى أن تغلب عليهم أبو طاهر القرمطي سنة سبع عشرة عند اقتلاعه الحجر، وخطب بها لعبيد الله المهدي وترددت ولاة

القرامطة عليها من سنة سبع عشرة إلى سنة خمس وسبعين فترهب واليها منهم، وزهد وملكها أهل تروى الخوارج وقتلوا من كان بها من القرامطة والروافض، وبقيت في أيديهم ورياستها للأزد منهم. ثم سار بنو مكرم من وجوه عمان إلى بغداد واستخدموا لبني بويه، وأعانوهم بالمراكب من فارس فملكوا مدينة عمان وطردوا الخوارج إلى جبالهم، وخطوا لبني العباس.ثم ضعفت دولة بني بويه ببغداد فاستبد بنو مكرم بعمان، وتوارثوا ملكها، وكان منهم مؤيد الدولة أبو القاسم علي بن ناصر الدولة الحسين بن مكرم، وكان ملكاً جواداً ممدوحاً. قاله البيهقي، ومدحه مهيار الديلمي وغيره، ومات سنة ثمان وعشرين وأربعمائة بعد مدة طويلة في الملك، وفي سنة اثنين وأربعين، ضعف ملك بني مكرم، وتغلب عليهم النساء والعبيد فزحف إليها الخوارج وملكوها، وقتلوا بقيتهم وانقطع منها رسم الملك، وصار في حجار من مدر هذا الإقليم قلهاة هي عرصة عمان على بحر فارس من الإقليم الثاني ومما يلي الشحر وحجار في شماليها إلى البحرين بينهما سبع مراحل، وهي فم جبال منيعة فلم تحتج إلى سور، وكان ملكها سنة ثمان وأربعين زكريا بن عبد الملك الازدي من ذرية رياسة. وكان الخوارج بتروى مدينة الشراة يدينون لهم، ويرون أنهم من ولد الجلندى.

الخبر عن الإسماعيلية أهل الحصون بالعراق

وفالس والشام وسائر أمورهم ومصائرها

هذا المذهب هو مذهب القرامطة، وهم غلاة الرافضة، وهو على ما رأيته من الاضطراب والاختلاف. ولم يزل متناقلا في أهله بأنحاء العراق وخراسان وفارس والشام. واختلف بعضهم باختلاف الاعصار والامصار، وكانوا يدعون أولا قرامطة. ثم قيل لهم بالعراق باطنية، ثم الإسماعيلية، ثم النزارية لما حدث من عهد المستضيء العلوي لابنه نزار، وقتله شيعتهم بمصر ولم يبايعوا له، وكان عنده ابن الصباح من هؤلاء الإسماعيلية، ونفى الإمامة بعده عن أئمتهم بصر فسموا اصحابه لذلك نزارية، وكان هذا المذهب بعد موت ذكرويه، وانحلال عقدتهم بقي منبثا في الأقطار ويتناوله أهله، ويدعون إليه ويكتمونه، ولذلك سموا الباطنية وفشت أذيتهم بالأمصار، بما كانوا يعتقدونه، من استباحة الدماء فكانوا يقاتلون الناس، ويجتمع لذلك جموع منهم يكمنون في البيوت ويتوصلون إلى مقاصدهم من ذلك.ثم عظمت أمورهم أيام السلطان ملك شاه عندما استمر الملك للعجم من الديلم والسلجوقية وعقل الخلفاء وعجزوا عن النظر في تحصين إمامتهم، وكف الغوائل عنها فانتشروا في هذه العصور، وربما اجتمع منهم جماعة بساوة بأنحاء همذان فصلوا صلاة العيد بأنحائهم فحبسهم الشحنة، ثم أطلقهم. ثم استولوا بعد ذلك على الحصون والقلاع فأول قلعة غلبوا عليها قلعة عند فارس، كان صاحبها على مذهبهم فأووا إليه واجتمعوا عنده، وصاروا يخطفون الناس من السابلة، وعظم ضررهم بتلك النواحي.ثم استولوا على قلعة أصفهان واسمها شاه در، كان السلطان ملك شاه بناها وانزل بها عامله فاتصل به أحمد بن غطاش، كان أبوه من مقدمي الباطنية، وعنه اخذ ابن الصباح وغيره منهم، وكان أحمد هذا عظيما فيهم لمكان أبيه ورسوخه في العلم بينهم فعظموه لذلك وتوجوه، وجمعوا له مالا وقدموه عليهم، واتصل بصاحب القلعة فآثر مكانه، وقلده الأمور حتى إذا توفي استولى احمد بن غطاش على قلعة شاه در، وأطلق ايدي أصحابه في

نواحيها يخيفون السابلة من كل ناحية.ثم استولوا على قلعة الموت من نواحي قزوين وهي من بنيان الديلم، ومعنى هذا الاسم عندهم تميل العقاب.

ويقال لتلك الناحية طالقان، وكانت في ضمان الجعفري فاستناب بها علويا، وكان بالري أبو مسلم صهر نظام الملك، واتصل به الحسن بن الصباح، وكان بينهم عالما بالتعاليم والنجوم والسحر، وكان من جملة تلامذة ابن غطاش صاحب قلعة أصفهان، ثم اتهمه أبو مسلم بجماعة من دعاة المصريين عنده فهرب منه، وجال في البلاد وانتهى إلى مصر فأكرمه المستنصر وأمره بدعاء الناس إلى إمامته وقال له الحسن من الإمام بعدك فأشار إلى ابنه نزار، وعاد من مصر إلى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم، ورجع إلى خراسان بقلعة الموت فترل على العلوي فأكرمه، واعتقد البركة فيه، وأقام بها وهو يحاول إحكام أمره في تملكها، فلما تم له من ذلك ما أراد اخرج العلوي منها وملكها. واتصل الخبر بنظام الملك فبعث العسكر لحصارها فجهده الحصار، وبعث جماعة من الباطنية فقتلوا نظام الملك، ورجعت العساكر واستولوا أيضا على قلعة طبس وما جاورها من قلاع قوهستان، وهي زرون وقائد. وكان رئيس قوهستان المنور من أعقاب بني سيجور، أمراء خراسان للسامانية فطلبه عامل قوهستان وأراد اغتصاب أخته فاستدعى الإسماعيلية وملكهم هذه القلاع، واستولوا على قلعة خالنجان على خمسة فراسخ من أصفهان كانت لمؤيد الملك بن نظام الملك، وانتقلت إلى جاولي سقاور من أمراء الغز، وولى عليها بعض الترك فاتصل به بعض الباطنية وخدمه، وأهدى له حتى صارت مفاتيح القلعة في يده، فدس لابن غطاش في قلعة شاه در فجاء في جمع من أصحابه ليلا، وهرب التركي فملكها، وقتل من كان بها وقوي بها على أهل أصفهان، وفرض عليهم القطائع.ومن قلاعهم أسويا، وندبين الرمل وآمد، ملكوها بعد ملك شاه غدرا، ومنها أزدهر ملكها أبو الفتوح ابن أخت الحسن بن الصباح. ومنها كردكوه، ومنها قلعة الناظر بخوزستان، وقلعة الطنبور قرب أزجان، ملكها أبو حمزة الإسكاف من أهل أزجان، وقد كان سافر إلى مصر فأخذ بمذهبهم ورجع داعية لهم. ومنها قلعة ملاوخان بين فارس وخوزستان امتنع بها المفسدون نحوا من مائتي سنة لقطع الطريق، حتى فتحها عضد الدولة بن بويه، وقتل من بها فلما ملك ملك شاه أقطعها للأمير أنز فولى عليها من قبله، وداخله الباطنية الذين من أزجان في بيعها منهم فأبى، فقالوا نرسل إليك من يناظرك حتى نرى الحق في مذهبنا، وبعثوا إليهم رجالا منهم فاعتقلوا مملوكه حتى سلم لهم مفاتيح القلعة، وقبضوا على صاحبها وقويت شوكتهم.وامتدت أيدي

الناس إلى قتلهم، واعتقدوا جهادهم، وثاروا بهم في كل وجهة فقتلوهم وقتلتهم العامة بأصفهان، وكانوا قد ظهروا بها عند محاصرة السلطان بركيارق أصفهان، وبها أخوه محمد وأمه خاتون الجلالية، وفشت فيها دعوتهم وكثر فيها الاغتيال من أتباعهم فثاروا بهم، وقتلوهم وحفروا الاخاديد وأوقدوها بالنيران، وجعلوا يأتون بالباطنية فيلقونهم فيها، وتجرد جاولي سقاور، وكان واليا بفارس للجهاد فيهم، وتحيل عليهم بجماعة من أصحابه، أظهروا الهروب إليهم فوثقوا هم وسار هو من بعد ذلك إلى همذان فأغزاهم.ثم صار الباطنية من بعد ذلك إلى همذان لقتل أمراء السلجوقية غدرا فكان يقصد أحدهم أميرا من هؤلاء وقد استبطن خنجرا

واستمات. حملهم على ذلك السلطان بركيارق، واستعان بهم على أمر أخيه فكان أحدهم يعرض نفسه بين يدي الأمير حتى يتمكن من طعنه فيطعنه، ويهلك غالبا وبقتل الباطني لوقته فقتلوا منهم كذلك جماعة؟ ولما ظهر بركيارق على أخيه محمد انتشروا في عسكره واستعانوا بطائفة منهم، وتهددوا بالقتل على ذلك حتى ارتاب أمراء العسكر بأنفسهم، وخافوا عاديتهم ولازموا حمل السلاح، وشكوا إلى بركيارق بذلك وبما يلقونه منهم ومن عسكر أخيه فيما يرمونهم به من الاتحاد بهؤلاء الباطنية فأذن في قتلهم، وركب والعسكر معه فتتبعوهم بالقتل، حتى أن الأمير محمدا من أعقاب علاء الدولة بن كاكويه وكان صاحب يزد اتهم برأيهم فهرب وقتل. وكتب إلى بغداد في أبي إبراهيم الاسترابادي وكان بركيارق بعثه رسولا فاخذ هنالك وقتل واستلحموا في كل جهة، واستلحم المتهمون وانطلقت عليهم الأيدي في كل ناحية، وذلك سنة ست وثمانين.

ولما استفحل أمر السلطان محمد بعد أخيه بركيارق زحف إلى قلعة شاه در، التي بها أحمد بن غطاش، لقربها من أصفهان سرير ملكه فجمع العساكر والأمم، وخرج في رجب من أول المائة السادسة وأحاط بجبل القلعة، ودووه أربعة فراسخ، ورتب الامراء لقتالهم نوبا. ولما اشتد الأمر بهم سألوا فتوى الفقهاء في أمرهم وكتبوا ما نصه: ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وكتبه ورسله، وإن ما جاء به محمد عته حق وصدق، وإنما يخالفون في الإمام، هل يجوز للسلطان مساعدتهم ومراعاتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى أم لا؟

فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف بعضهم، وجمعوا للمناظرة. فقال السمنجاني من كبار الشافعية: يجب قتالهم، ولا يجوز قرارهم بمكانهم، ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين، فإنهم لا يرون مخالفة إمامهم إذا خالف أحكام الشرع، وبذلك تباح دماؤهم إجماعاً، وطالت المناظرة في ذلك. ثم سألوا أن يأتيهم من العلماء، من يناظرهم وعينوا أعياناً من أصفهان، وقصدوا بذلك المطاولة والتعلل فبعثهم السلطان إليهم فعادوا من غير شيء فاشتد السلطان إليهم في حصارهم، واستأمنوا على أن يعوضوا عن قلعتهم بقلعة خالنجان على سبعة فراسخ من أصفهان وان يؤجلوا في الرحيل شهرا فأجابهم، واقاموا في تلك المدة يجمعون ما يقدرون عليه من الأطعمة، ووثبوا على بعض الأمراء وسلم منهم فجدد السلطان حصارهم، وطلبوا أن ينتقلوا إلى قلعة الناظر وطبس، ويبعث السلطان معهم من يوصلهم ويقيم الباقون بضرس من القلعة إلى أن يصل الأولون، ثم يبعث مع الآخرين من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجابهم إلى ذلك وخرج الأولون إلى الناظر وطبس، وخرب السلطان القلعة وتمسك ابن غطاش بالضرس الذي هو فيه، وعزم على الاعتصام به، وزحف إليه الناس عامة، وهرب بعضهم إلى السلطان فدله على عورة المكان فصعدوا إليه وقتلوا من وجدوا فيه، وكانوا ثمانين وأخذ ابن غطاش أسيرا فسلخ وحشي جلده تبنا، وقتل ابنه وبعث براشيهما إلى بغداد، وألقت زوجه نفسها من الشاهق فهلكت.

خبر الإسماعيلية بالشام:

لما قتل أبو إبراهيم الاستراباذي ببغداد كما تقدم، هرب بهرام ابن أخيه إلى الشام وأقام هنالك داعية متخفيا، واستجاب له من الشام خلق. وكان الناس يتبعونهم لكثرة ما اتصفوا به من القتل غدرا. وكان أبو الغازي بن ارتق بحلب يتوصل بهم إلى غرضه في أعدائه، وأشار أبو الغازي على ابن طغتكين الأتابك بدمشق بمثل ذلك فقبل رأيه، ونقل إليه فأظهر حينئذ شخصه، وأعلن بدعوته، وأعانه الوزير أبو علي ظاهر بن سعد المزدغاني، لمصلحتهم فيه فاستفحل أمره، وكثر تابعوه، وخاف من عامة دمشق فطلب من ابن طغتكين ووزيره أبي علي حصنا يأوي إليه فأعطوه قلعة

بانياس سنة عشرين وخمسمائة، وترك بدمشق خليفة له يدعو الناس إلى مذهبه فكثروا وانتشروا، وملك هو عدة حصون في الجبال منها القدموس وغيره وكان بوادي التيم من أعمال بعلبك طوائف من المجوس

والنصرانية والدرزية وأميرهم يسمى الضحاك فسار بهرام لقتالهم، سنة اثنتين وعشرين، واستخلف على بانياس إسمعيل من أصحابه، ولقيهم الضحاك في ألف رجل، وكبس عسكره فهزمهم وقتله(1) وعاد فلهم إلى بانياس فألام بأمرهم إسمعيل، وجمع شملهم وبث دعاته في البلاد، وعاضده المزدغاني وزير دمشق وانتصر لهذه الطائفة، وأقام بدمشق خليفة لبهرام اسمه أبو الوفا فقوي أمره، وكثر أتباعه. واستبد على صاحبها تاج الملوك بن طغتكين. ثم أن المزدغاني راسل الفرنج أن يملكهم دمشق على أن يعطوه صور، وتواعدوا ليوم عينوه، ودس للإسماعيلية أن يكونوا ذلك اليوم على أهبة، ونمى الخبر إلى إسمعيل فخاف أن يثور به الناس فأعطى بانياس للفرنج، وانتقل إليهم ومات سنة أربع وعشرين وكان للإسماعيلية قلاع في تلك الجهات تتصل بعضها ببعض أعظمها قلعة مصياف فسار صلاح الدين لما ملك الشام سنة اثنتين وسبعين إليها وحاصر مصياف وضيق حصارها، وبعث سنان مقدم الإسماعيلية إلى خال صلاح الدين بحماة، وهو شهاب الدين الحادي، أن يسأل صلاح الدين في الصلح معهم، ويتهددونه على ذلك سرا فسار إلى صلاح الدين وأصلح أمرهم عنده ورحل عنهم.

بقية الخبر عن قلا ع الإسماعيلية في العراق:

و لم تزل قلاع هؤلاء الإسماعيلية بالعراق عشا لهذه الغواية، وسفطا لهؤلاء الخباث، منذ سار بها أحمد بن غطاش، والحسن بن الصباح. وكان لهذا الحسن مقالات في مذاهب الرافضة عريقة في الغلو داخلة من باب الكفر وتسميها الرافضة المقالات الجديدة ولا يدين بقبولها إلا الغلاة منهم. وقد ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل

والنحل فعليك به أن أردت معرفتها. وبقي الملوك يقصدونهم بالجهاد لما اشتهر عنهم من الضرر بالاغتيال، ولما افترق أمر السلجوقية واستبد ايتغمش بالري وهمذان، سار إليهم سنة ثلاث وستمائة إلى قلاعهم المجاورة لقزوين فحاصرها، وفتح منها خمس قلاع، واعتزم على حصار قلعة الموت فعرض له ما شغله عن ذلك، ثم زحف إليهم جلال الدين منكبري بن علاء الدين وخوارزم شاه عندما رجع من الهند، وملك بلاد أذربيجان وأرمينية فقتلوا بعض أمرائه بمثل قتلهم فسار إلى بلادهم ودوخ نواحي الموت، وقد مر ذكره. وقلاعهم التي

بخراسان خربها واستباحها قتلا ونهبا. وكانوا منذ ظهر التتر قد شرهوا على الجهات فأوقع بهم جلال الدين هذه الواقعة سنة أربع وعشرين وستمائة، وكفحهم عما سموا إليه من ذلك. ولما استفحل أمر التتر سار هولاكو عام الخمسين والستمائة من بغداد وخرب قلاعهم، وزحف الظاهر بعد ذلك إلى قلاعهم التي بالشام فخرب كثيرا منها وطوع ما بقي منها، وصارت مصياف وغيرها في طاعته، وانقرض أمرهم، إلا مغتالين يستعملهم الملوك في قتل أعدائهم على البعد غدرا، ويسمون الفداوية أي الذين يأخذون فدية أنفسهم على الاستماتة في مقاصد من يستعملهم. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن دولة بني الأخيضر باليمامة من بني حسن:

كان موسى الجون بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط لما اختفى أخواه محمد وإبراهيم، طالبه أبو جعفر المنصور بإحضارهما فضمن له ذلك. ثم اختفى وعثر عليه المنصور فضربه ألف سوط، فلما قتل أخوه محمد المهدي بالمدينة اختفى موسى الجون إلى أن هلك وكان من عقبه إسمعيل وأخوه محمد الأخيضر ابنا يوسف بن إبراهيم بن موسى فخرج إسمعيل في أعراب الحجاز وتسمى السفاك سنة إحدى وخمسين ومائتين. ثم قصد مكة فهرب عاملها جعفر بسباسات، وانتهب منزله ومنازل أصحاب السلطان، وقتل جماعة من الجند وأهل مكة، وأخذ ما كان حمل للإصلاح من المال، وما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة، وأخذ كسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحوا من مائتي ألف دينار. ثم نهبها وأحرق بعضها بعضا وأقام في ذلك

خمسين يوما. ثم سار إلى المدينة فتوارى عاملها وحاصرها حتى مات أهلها جوعا و لم يصل أحد في مسجد رسول الله ، ووصل عساكر المعتز إلى المدينة فأفرج عنها، ورجع إلى مكة وحاصرها حتى جهدها الحصار، ورحل بعد مقامه شهرين إلى جدة فأخذ أموال التجار ونهب ما في مراكبهم، ورجع إلى مكة، وقد وصل إليها محمد بن عيسى بن المنصور وعيسى بن محمد المخزومي بعثهما المعتز لقتاله فتواقعوا بعرفة، واقتتلوا وقتل من الحاج نحو ألف، وسلبوا الناس وهربوا إلى مكة، وبطل الموقف إسمعيل وأصحابه، وخطب لنفسه، ثم رجع إلى جدة، واستباحوها ثانية. ثم هلك لسنة من خروجه بالجدري آخر سنة اثنتين وخمسين أيام حرب المستعين والمعتز. وكان يتردد بالحجاز منذ اثنتين وعشرين سنة، ومات و لم يعقب، وولي مكانه أخوه محمد الأخيضر، وكان أسن منه بعشرين سنة، ونهض إلى اليمامة فملكها واتخذ قلعة الخضرمية، وكان له من الولد محمد وإبراهيم وعبد الله ويوسف. وهلك فولي بعده ابنه يوسف، وأشرك ابنه إسمعيل معه في الأمر مدة حياته. ثم هلك وانفرد إسمعيل بملك اليمامة وكان له من الإخوة الحسن وصالح ومحمد بنو يوسف. فلما هلك إسمعيل ولي من بعده أخوه الحسن، وبعده ابنه أحمد بن الحسن. و لم يزل ملكها فيهم إلى أن غلب عليهم القرامطة، وانقرض أمرهم، والبقاء لله. وكان بمدينة غانة من بلاد السودان بالمغرب مما يلي البحر المحيط ملك بني صالح، ذكرهم صاحب كتاب زجار في الجغرافيا. و لم نقف على نسب صالح هذا من خبر يعول عليه. وقال بعض المؤرخين إنه صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله الملقب أبا الكرام ابن موسى الجون، وإنه خرج أيام المأمون بخراسان، وحمل إليه وحبسه وابنه محمد من بعده، ولحق بنوه بالمغرب فكان لهم ملك في بلد غانة. و لم

يذكر ابن حزم في أعقاب موسى الجون صالحا هذا بهذا النسب ولعله صالح الذي ذكرناه آنفا في ولد يوسف بن محمد الأخيضر والله أعلم.

دولة السليمانيين

الخبر عن دولة السليمانيين من بني الحسن بمكة ثم بعدها

باليمن ومبادئ أمورهم وتصاريف أحوالهم

مكة هذه أشهر من أن نعرف بها أو نصفها، إلا أنه لما انقرض سكانها من قريش بعد المائة الثانية بالفتن الواقعة بالحجاز من العلوية مرة بعد أخرى فأقفرت من قريش، ولم يبق بها إلا أتباع بني حسن أخلاط من الناس، ومعظمهم موال سود من الحبشة والديلم. ولم يزل العمال عليها من قبل بني العباس وشيعتهم، والخطبة لهم إلى أن اشتغلوا بالفتن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما فحدثت الرياسة فيها لبني سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن السبط. وكان كبيرهم آخر المائة الثانية محمد بن سليمان، وليس هو سليمان بن داود لأن ذلك ذكره ابن حزم أنه قام بالمدينة أيام المأمون، وبين العصرين نحو من مائة سنة، سنة إحدى وثلاثمائة أيام المقتدر، وخلع طاعة العباسية، وخطب في الموسم فقال: الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وابرز زهر الإيمان من أكمامه وكمل دعوة خير الرسل بإسباطه لابني أعمامه وعلى آله الطاهرين، وكف عنا ببركته أسباب المعتدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين ثم أنشد:

لأطلبن بسيفي ما كان للحق دينا

واسطون بقوم بغوا وجاروا علينا

يعدون كل بلاد من العراق علينا

وكان يلقب بالزيدي نسبة إلى نحلته من مذاهب الإمامية، وبقي ركب العراق يتعاهد مكة إلى أن اعترضه أبو طاهر القرمطي سنة اثنتي عشرة، وأسر أبا الهيجاء بن حمدان والد سيف الدولة وجماعة معه، وقتل الحجاج وترك النساء والصبيان بالقفر فهلكوا وانقطع الحاج من العراق بسبب القرامطة. ثم أنفذ المقتدر سنة سبع عشرة منصورا الديلمي من مواليه، فوافاه يوم التروية بمكة أبو طاهر القرمطي فنهب الحاج، وقتلهم حتى في الكعبة والحرم، وامتلأ زمزم بالقتل، والحجاج يصيحون كيف يقتل جيران الله فيقول ليس بجار من خالف أوامر الله ونواهيه. ويتلو: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية. وكان يخطب لعبيد الله المهدي صاحب إفريقية. ثم قلع الحجر الأسود وحمله إلى الاحساء، وقلع باب البيت وحمله، وطلع رجل يقلع الميزاب فسقط ومات فقال اتركوه فإنه محروس، حتى يأتي صاحبه يعني المهدي فكتب إليه ما نصه: والعجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا، من حرم الله وجيرانه، بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها. ثم تعديت ذلك، وقلعت الحجر الذي هو يمين الله في الأرض يصافح بها عباده، وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك فلعنك الله ثم لعنك، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده انتهى. فانحرفت القرامطة عن طاعة العبيديين لذلك. ثم قتل المقتدر

على يد مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة، وولى أخوه القاهر، وحج بالناس أميره تلك السنة. وانقطع الحج من العراق بعدها إلى أن كاتب أبو علي يحيى الفاطمي سنة سبع وعشرين من العراق، أبا طاهر القرمطي، أمراء يطلق السبيل للحجاج على مكس يأخذه منهم. وكان أبو طاهر يعظمه لدينه ويؤمله فأجابه إلى ذلك، واخذ المكس من الحجاج لم يعهد مثله في الإسلام. وخطب في هذه السنة بمكة للراضي بن المقتدر. وفي سنة تسع وعشرين لأخيه المقتفي من بعده، ولم يصل ركب العراق في هذه السنين من القرامطة. ثم ولي المستكفي بن المكتفي سنة ثلاث وثلاثين على يد توروز أمير الأمراء ببغداد فخرج الحاج في هذه السنة لمهادنة القرامطة بعد أبي طاهر. ثم خطب للمطيع ابن المقتدر بمكة مع معز الدولة سنة أربع وثلاثين عندما استولى معز الدولة ببغداد، وقلع عين المستكفي واعتقله. ثم تعطل الحاج بسبب القرامطة وردوا الحجر الأسود سنة تسع وثلاثين بأمر المنصور العلوي صاحب إفريقية، وخطابه في ذلك لأميرهم احمد بن ابي سعيد.ثم جاء الحاج إلى مكة سنة اثنتين وأربعين مع أمير من العراق، وأمير من مصر فوقعت الحرب بينهما على الخطبة لابن بويه ملك العراق، وابن الأخشيد صاحب مصر فانهزم المصريون وخطب لابن بويه، واتصل ورود الحاج من يومئذ. فلما كانت سنة ثمان وأربعين وجاء الحاج من بغداد، ومصر، كان أمير الحاج من العراق، ومحمد بن عبيد الله (1) فأجابه إلى ذلك. ثم جاء إلى المنبر مستعدا، وأمر بالخطبة لابن

بويه فوجم الآخر، وتمت عليه الحيلة وعاقبه أميره كافور ويقال قتله. ووقع ابن بويه لمحمد بن عبيد الله باتصال إمارته على الحاج. ولما كانت سنة ست وخمسين، وصل بركب العراق أبو أحمد الموسوي، نقيب الطالبيين، وهو والد الشريف الرضي، ليحج بالناس، ونهب بنو سليم حاج مصر، وقتل أميرهم. وفي سنة ست وخمسين حج بالناس أبو أحمد المذكور، وخط بمكة لبختيار بعد موت أبيه معز الدولة، والخليفة يومئذ المطيع. واتصل حج ابي أحمد بركب العراق. وفي سنة ثلاث وخمسين خطب للقرمطي بمكة، فلما قتل أحمد وقعت الفتنة بين ابي الحسن القرمطي وخلع طاعة العبيديين، وخطب للمطيع وبعث إليه بالرايات السود، ونهض إلى دمشق فقتل جعفر بن فلاح قائد العلويين، وخطب للمطيع. ثم وقعت الفتنة بين ابي الحسن وبين جعفر، وحصلت بينهم دماء. وبعث المعز العلوي من اصلح بينهم، وجعل دية القتلى الفاضلة في مال المعز. وهلك بمصر أبو الحسن فولي أخوه عيسى. ثم ولي بعده أبو الفتوح الحسن بن جعفر سنة أربع وثمانين. ثم جاءت عساكر عضد الدولة ففر الحسن بن جعفر إلى المدينة ولما مات العزيز بالرملة، وعاد بنو ابي طاهر، وبنو أحمد بن ابي سعيد إلى الفتنة فجاء من قبل الطائع أمير علوي إلى مكة، وأقام له بها خطبة.وفي سنة سبع وستين بعث العزيز من مصر باديس بن زيري الصنهاجي، وهو أخو بلكين صاحب إفريقية، أميرا على الحاج فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة، وشغل عضد الدولة في العراق بفتنة بختيار ابن عمه فبطل ركب العراق. ثم عاد في السنة بعدها وخطب لعضد الدولة أبو أحمد الموسوي، وانقطعت بعدها خطبة العباسيين عن مكة وعادت لخلفاء مصر العبيديين إلى حين من الدهر. وعظم شأن ابي الفتوح واتصلت إمارته في مكة، وكتب إليه القادر سنة ست وتسعين في الأذن لحاج العراق فأجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر. وبعث الحاكم إلى ابن جراح

أمير طيىء باعتراضهم وكان على الحاج الشريف الرضي، وأخوه المرتضى فلاطفهم ابن الجراح وخلى سبيلهم على أن لا يعودوا. ثم

اعترض حاج العراق سنة أربع وتسعين الأصيغر الثعلبي عندما ملك الجزيرة فوعظه قارئان كانا في الركب. ثم اعترضهم في السنة بعدها أعراب خفاجة ونهبوهم. وسار في طلبهم علي بن يزيد أمير بني أسد فأوقع بهم سنة اثنتين وأربعمائة. ثم عادوا إلى مثل ذلك من السنة بعدها فعاد علي بن يزيد وأوقع بهم، وسما له بذلك ذكر، وكان سببا لملكه وملك قومه.ثم كتب الحاكم سنة اثنتين وأربعين إلى عماله بالبراءة من ابي بكر وعمر، ونكر ذلك أبو الفتوح أمير مكة، وانتقض له، وحمل الوزير أبو القاسم المغربي على طلب الأمر لنفسه. وكان الحاكم قتل أباه وأعمامه فخطب أبر الفتوح لنفسه، وتلقب الراشد بالله، وسار إلى مدينة الرملة لاستدعاء ابن الجراح أمير طيىء لمغاضبة بينه وبين الحاكم. ثم سرب الحاكم أمواله في بني الجراح فانتقضوا على ابي الفتوح وأسلموه، وفر الوزير المغربي إلى ديار بكر من أرض الموصل، ومعه ابن سبابة. وفر التهامي إلى الري، وكان معه. وقطع الحاكم الميرة عن الحرمين، ثم راجع أبو الفتوح الطاعة فعفا عنه الحاكم وأعاده إلى إمارته بمكة. و لم يحج من العراق في هذه السنين أحد. وفي سنة اثنتي عشرة حج بأهل العراق أبو الحسن محمد بن الحسن الافساسي فقيه الطالبيين، واعترضهم بنو نبهان من طيىء، وأميرهم حسان بن عدي، وقاتلوهم فهزموهم، وقتل أميرهم حسان. وخطب في هذه السنة للظاهر بن الحاكم بمكة. ولما كان الموسم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ضرب رجل من قوم مصر الحجر الأسود بدبوس فصدعه وثلمه، وهو يقول: كم تعبدكم تقبل فتبادر إليه الناس فقتلوه، وثار أهل العراق بأهل مصر فنهبوهم وفتكوا فيهم. تم حج بركب العراق سنة أربع عشرة النقيب بن الافساسي، وخشي من العرب فعاد إلى دمشق الشام وحج في السنة التي بعدها، وبطل حج العراق. ولما بويع القائم العباسي سنة اثنتين وعشرين رام أن يجهز الحاج فلم يقدر لاستيلاء العرب وانحلال أمر بني بويه. ثم خطب بمكة للمستنصر بن الظاهر. ثم توفي الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد بن سليمان رئيس مكة، وبني سليمان، سنة ثلاثين وأربعمائة، لأربعين سنة من إمارته، وولى بعده إمارة مكة ابنه شكر، وجرت له مع أهل المدينة خطوب ملك في أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين وعليه انقرضت دولة بني سليمان سنة ثلاثين بمكة،

وجاءت دولة الهواشم كما يذكر. وشكر هذا هو الذي يزعم بنو هلال بن عامر أنه تزوج الجازية بنت سرحان من أمراء الأثبج منهم، وهو خبر مشهور بينهم في أقاصيصهم، وحكايات يتناقلونها ويطرزونها بأشعار من جنس لغتهم، ويسمونه الشريف بن هاشم. وقال ابن حزم: غلب جعفر بن أبي هاشم على مكة أيام الأخشيديين، وولي بنوه من بعده عيسى بن جعفر وأبو الفتوح وابنه شكر بن ابي الفتوح وقد انقرض لأن شكرا لم يولد له، وصار أمر مكة إلى عبد كان له. انتهى كلام ابن حزم. وليس أبو هاشم الذي نسب جعفر إليه أبا الهواشم الذي يأتي ذكرهم، لأن هذا كان أيام الأخشيديين، وذلك أيام المستضيىء العبيدي وبينهما نحو من مائة سنة.

دولة الهواشم

الخبر عن دولة الهواشم بمكة من بني

الحسن وتصاريف أحوالهم إلى انقراضها

هؤلاء الهواشم من ولد ابي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله ابي الكرام بن موسى الجون، ونسبه معروف وقد مر. وكانت بين هؤلاء الهواشم وبين السليمانيين فتن متصلة ولما مات شكر ذهبت الرياسة من بني سليمان لأنه لم يعقب. وتقدم فيهم طراد بن احمد، و لم يكن من بيت الإمارة، وإنما كانوا يؤملونه لإقدامه وشجاعته. وكان رئيس الهواشم يومئذ محمد بن جعفر بن محمد، وهو أبو هاشم المذكور، وقد ساد في الهواشم، وعظم ذكره فاقتتلوا سنة أربع وخمسين، بعد موت شكر فهزم الهواشم بني سليمان، وطردوهم عن الحجاز فساروا إلى اليمن، وكان لهم بها ملك كما يذكر. واستقل بمكة الأمير محمد بن جعفر وخطب للمستنصر العبيدي ثم ابتدأ الحاج من العراق سنة ست وخمسين بنظر السلطان البارسلان بن داود ملك السلجوقية حين استولى على بغداد والخلافة، طلب منه القائم ذلك فبذل المال وأخذ رهائن العرب. وحج بالناس أبو الغنائم نور الدين المهدي الزيني نقيب الطالبيين.

ثم جاور في السنة بعدها واستمال الأمير محمد بن جعفر عن طاعة العبيديين فخطب لبني العباس سنة ثمان وخمسين، وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله على ما فعل فرد الخطبة للعبيديين ثم خاطبه القائم وعاتبه، وبذل له أموالا

فخطب له سنة "اثنتين وستين بالموسم فقط، وكتب إلى المستنصر بمصر معتذرا ثم بعث القائم أبا الغنائم الزيني سنة ثلاث وستين أميرا على الركب العراقي، ومعه عسكر ضخم، ولأمير مكة من عند ألب أرسلان ثلاثون دينارا وتوقيعا بعشرة آلاف دينار.واجتمعوا بالموسم وخط الأمير محمد بن جعفر وقال: الحمد لته الذي هدانا إلى أهل بيته بالرأي المصيب، وعوض بيته بلبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة. فانحرف المستنصر عن الهواشم، ومال إلى السليمانيين. وكتب إلى علي بن محمد الصبيحي صاحب دعوتهم باليمن أمراء يعينهم على استرجاع ملكهم، وينهض معهم إلى مكة فنهض، وانتهى إلى المهجم. وكان سعيد بن نجاح الأحوال موتور بني الصبيحي قد جاء من الهند، ودخل صنعاء فثار بها واتبع الصبيحي في سبعين رجلا، وهو في خمسة آلاف فبيته بالمهجم وقتله. ثم جمع محمد بن جعفر أجنادا من الترك، وزحف بها إلى المدينة فأخرج منها بني حسن، وملكها وجمع بين الحرمين.ثم مات القائم العباسي، وانقطع ما كان يصل إلى مكة فقطع محمد بن جعفر الخطبة للعباسيين. ثم جاء الزيني من قابل بالأموال فأعادها. ثم بعث المقتدي سنة سبعين منبرا إلى مكة صنيعاً استجيد خشبه، ونقش عليه بالذهب اسمه. وبعث على الحاج ختلع التركي. وهو أول تركي تامر على الحاج، وكان واليا بالكوفة. وقهر العرب مع جماعته فبعثه المقتدي أميرا على الحاج فوقعت الفتنة بين الشيعة وأهل السنة، وكسر المنبر وأحرق وتم الحج. ثم عاودوا الفتنة سنة ثلاث وسبعين، وقطعت الخطبة للمستنصر، وأعيدت للمقتدي واتصلت إمارة ختلع على الحاج وبعده خمارتكين إلى

أن مات ملك شاه، ووزيره نظام الملك فانقطعت الخطبة للعباسيين، وبطل الحاج من العراق باختلاف السلجوقية، وتغلب العرب.ومات المقتدي خليفة بغداد، وبويع ابنه المستظهر ومات المستنصر خليفة مصر وبويع ابنه المستعلي من إمارته وهو الذي أظهر الخطبة العباسية بمكة، وبها ابتدىء أمره وكان يسقطها بعض الأحيان. وولي بعده ابنه قاسم فكثر اضطرابه، ومهد بنو مزيد أصحاب الحلة طريق الحاج من العراق فاتصل حجهم. وحج سنة اثنتي عشرة وخمسمائة نظر

الخادم من قبل المسترشد بركب العراق، وأوصل الخلع والأموال إلى مكة. ثم توفي قاسم بن محمد سنة ثمان عشرة وخمسمائة لثلاثين سنة من إمارته، وكانت في اضطراب. وتغلب وولي بعده ابنه أبو قليبة بمكة فافتتح بالخطبة العباسية، وأحسن الثناء عليه بالعدل، ووصل نظر الخادم أميرا على الركب ومعه الأموال والخلع.ثم مات أبو قليبة سنة سبع وعشرين لعشر سنين من إمارته، والخطبة للعباسيين، وإمارة الحاج لنظر الخادم. ثم كانت واقعة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله، وتعطل ركب الحاج. ثم حج نظر الخادم في السنة بعدها. ثم بعثت أسماء الصبيحية صاحبة اليمن لأمير مكة قاسم بن ابي قليبة فتوعدته على قطع خطبة الحافظ، وماتت فكفاه الله شرها، وانقطع الركب العراقي في هذه السنين للفتن والغلاء. ثم حج سنة أربع وأربعين نظر الخادم ومات في طريقه فولي قيماز واعترضه رهط من الأعراب فنهب الركب، واتصل حج قيماز والخطبة لبني العباس إلى سنة خمس وخمسين قبله.وبويع المستنجد فخطب له كما كان لأبيه المقتفي - ثم قتل قاسم بن ابي قليبة سنة ست وستين، وبعث المستضيء بالركب طاتنكين التركي. وانقرضت دولة العبيديين بمصر، ووليها صلاح الدين بن أيوب، واستولى على مكة واليمن، وخطب له بالحرمين ثم مات المستضيء سنة خمس وسبعين، وبويع ابنه الناصر، وخطب له بالحرمين، وحجت أمه بنفسها سنة خمس وثلاثين، وكانت له آثار عظيمة ورجعت فانهت إلى الناصر بن عيسى بن قاسم ما اطلعت عليه من أحواله فعزله عن إمارة مكة، وولى أخاه مكثر بن قاسم، وكان جليل القدر، ومات سنة تسع وثمانين السنة التي مات فيها صلاح الدين. وضعف أمر الهواشم، وملك مكة من أيديهم، وانقرضت دولتهم، والبقاء لله.

بنو قتادة

الخبر عن بني قتادة أمراء مكة بعد الهواشم

ثم عن بني أبي نمير منهم أمراؤها لهذا العهد

كان من ولد موسى الجون الذي مر ذكره في بني حسن، عبد الله ابي الكرام، وكان له على ما نقل نسابتهم ثلاثة من الولد: سليمان وزيد واحمد. ومنه تشعبت ولده. فأما زيد فولده اليوم بالصحراء بنهر الحسنية، وأما احمد فولده بالدهناء، وأما سليمان

فكان من ولده مطاعن بن عبد الكريم بن يوسف بن عيسى بر سليمان. وكان لمطاعن إدريس وثعلب، بالثعالبة بالحجاز. فكان لإدريس ولدان قتادة النابغة وصرخة. فأما صرخة فولده شيع يعرفون بالشكرة، وأما قتادة النابغة فكان يكنى أبا عزيز، وكان من ولده علي الأكبر وشقيقه حسن. فمن ولده حسن إدريس وأحمد

ومحمد وجماز، وإمارة ينبع في أعقابهم ومنهم لهذا العهد أميران يتداولان إمارتها من ولد إدريس بن حسن بن إدريس وأما أبو عزيز قتادة النابغة فمن ولد موالي عز أمراء مكة لهذا العهد. وكان بنو حسن بن الحسن كلهم موطنين بنهر العلقمية من وادي ينبع لعهد إمارة الهواشم بمكة وكانوا ظواعن بادية. ولما نشأ فيهم قتادة هذا جمع ذوي مطاعن، وأركبهم واستبد بإمارتهم، وكان بوادي ينبع بنو خراب من ولد عبد الله بن حسن بن الحسن، وبنو عيسى بن سليمان بن موسى الجون فحاربهم بنو مطاعن هؤلاء، وأميرهم أبو عزيز قتادة وأخرجهم، وملك ينبع والصفراء، واستكثر من الجند والمماليك. وكان على عهد المستنصر العباسي في أواسط المائة السادسة.وكان الأمراء يومئذ بمكة الهواشم من ولد جعفر بن هاشم بن الحسن بن محمد بن موسى بن أبي الكرام عبد الله، وقد مر ذكرهم. وكان أخرجهم مكثر بن عيسى بن قاسم الذي بنى القلعة على جبل أبي قبيس، ومات سنة تسع وثمانين وخمسمائة فسار قتادة إلى مكة، وانتزعها من أيديهم وملكها، وخطب للناصر العباسي، وأقام في إمارتها نحوا من أربعين سنة. واستفحل ملكه، واتسع إلى نواحي اليمن، وكان لقبه أبا عزيز. وفي سنة ثلاث وستمائة حج بالركب وجه السبع التركي من مماليك الناصر، وفر من طريقه إلى مصر فنهب الركب. وفي سنة ثمان وستمائة وثب شخص من حاج العراق على شريف من قرابة قتادة فقتله فاتهم الشرفاء به أمراء الركب فثاروا بهم، وقتلوا منهم خلقا. ثم بعث إليهم بالأموال من بغداد، وبعث قتادة بعض أولاده يستعتب فأعتب. وفي سنة خمس عشرة خطب بمكة للعادل بن أيوب بعد الناصر الخليفة، وللكامل بن العادل بعدهما.وفي سنة ست عشرة كان خروج التتر، وكان قتادة عادلا وأمن الناس في أيامه، ولم يعد قط على أحد من الخلفاء ولا من الملوك، وكان يقول أنا أحق بالخلافة، وكانت الأموال والخلع تحمل إليه، واستدعاه الناصر في بعض السنين فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل ببسطها	واشري بها عز الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها	وفي بطنها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرجا ثم ابتغي	خلاصا لها إني إذا لوضيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة	يضوع وأما عندكم فيضيع

واتسعت دولته فملك ملك مكة والينبع وأطراف اليمن، وبعض أعمال المدينة، وبلاد نجد، وكان يستكثر من المماليك. وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة، ويقال سمه ابنه حسن ويقال داخل ابنه حسن جاريته فأدخلته ليلا فخنق أباه، ثم قتلها وملك مكة، وامتعض لذلك ابنه راجح بن ابي عزيز قتادة، وشكاه إلى أمير حاج أقباش التركي عند وصوله فأشكاه، ووعده بالإنصاف منه فأغلق حسن أبواب مكة، وخرج بعض أصحابه إلى الأمير أقباش فلقوه عند باب المعلى فقتلوه، وعلقوه بالمسعى.ثم جاء المسعود بن الكامل سنة عشرين من اليمن إلى مكة فحج وقاتله حسن ببطن المسعى فغلبه المسعود، وملك مكة، ونصب رايته، وأزال راية أمير الركب، وكتب الخليفة من بغداد يعاتب أباه على ذلك، وعلى ما فعله في مكة والتخلف فكتب إليه أبوه: برئت يا أقسى من ظهر العادل أن لم أقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك، ولا حول ولا قوة إلا بالله

العلي العظيم. فغرم ديات الشرفاء، وأصابه شلل في يده، ومضى حسن بن قتادة إلى بغداد صريخا بعد أن بقي طريدا بالشام والجزيرة والعراق. ثم جاء إلى بغداد دخيلا وهم الترك بقتله بأقباش أمير الركب فمنعوا منه.

ومات ببغداد سنة اثنتين وعشرين ودفن بمشهد الكاظم. ثم مات المسعود بن الكامل بمكة سنة ست

وعشرين،ودفن بالمعلى وبقي على مكة قائده فخر الدين بن الشيخ، وعلى اليمن أمير الجيوش عمر بن علي بن رسول

وقصد راجح بن قتادة مكة سنة تسع وعشرين مع عساكر عمر بن رسول فملكها سنة ثلاثين من يد فخر الدين بن الشيخ، ولحق فخر الدين بمصر، ثم جاءت عساكر مصر سنة اثنتين وثلاثين مع الأمير جبريل، وملكوا مكة، وهرب راجح إلى اليمن. ثم جاء عمر بن رسول معه بنفسه فهربت عساكر مصر، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن رسول بعد المستنصر. ولما ملك التتر العراق سنة أربع وثلاثين، وعظم أمرهم وانتهوا إلى أربل ابطل المستنصر الحج من أمر الجهاد، وأفتاه العلماء بذلك.ثم جهز المعتصم الحاج مع أمه سنة ثلاث وأربعين وشيعها إلى الكوفة. ولما حجت ضرب تركي في الموسم شريفا وكتب راجح فيه إلى الخليفة فقطعت يده، وبطل الحج بعد ذلك. ثم قوي أمر الموطىء أمام الزيدية باليمن،

واعتزم على قطع الخطبة لبني الباس فضاق به المظفر بن عمر بن رسول، وكاتب المعتصم يحرضه على تجهيز الحاج بسبب ذلك. ثم قوي أمر الموطىء أمام الزيدية باليمن، وسار جماز بن حسن بن قتادة سنة إحدى وخمسين إلى الناصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدمشق مستجيشا على أبي سعيد، وسار إلى مكة فقتل أبا سعيد فرب الحرم، ونقض عهد الناصر، وخطب لصاحب اليمن.قال ابن سعيد: وفي سنة ثلاث وخمسين بلغني وأنا بالمغرب أن راجح بن قتادة جاء إلى مكة وهو شيخ كبير السن، وكان يسكن السدير على نحو اليمن فوصل إلى مكة، وأخرج منها جماز بن ابي عزيز فلحق بالينبع. قال: وفي سنة اثنتين وستين وصل الخبر إلى المغرب بأن أمر مكة دائر بين أبي نمى بن أبي سعيد الذي قتل جماز به على إمارة مكة، وبين غالب بن راجح الذي أخرجه أبوه جماز إلى الينبع. ثم استبد أبو نمي على أمر مكة، ونفى قتلة أبيه ابي سعيد إلى الينبع، وهم إدريس وجماز ومحمد، وقد كان إدريس منهم ولي أمر مكة قليلا فانطلقوا إلى الينبع وملكوه، وأعقابهم أمراؤه لهذا العهد. وأقام أبو نمى أميرا بمكة نحوا من خمسين سنة، وهلك على رأس المائة السابعة أو بعدها بسنتين، وخلف ثلاثين ولدا.

إمارة بني أبي نمي بمكة

ولما هلك أبو نمي قام من بعده بأمر مكة ابناه رميثة وحميضة ونازعهما عطيفة وأبو الغيث فاعتقلاهما، ووافق ذلك وصول بيبرس الجاشنكير كافل الملك الناصر بمصر، لأوّل ولايته فأطلقهما وولاهما وبعث برميثة وحميضة إلى مصر، ثم ردّهما السلطان إلى إمارتهما بمكة مع عسكره، وبعث إليه بعطيفة وأبي الغيث. ثم طال تنازعهم وتعاقبهم في إمارة مكة مرّة بعد أخرى. وهلك أبو الغيث في بعض حروبهم ببطن مرّ. ثم تنازع حميضة ورميثة، وسار رميثة إلى الملك الناصر سنة خمس عشرة، واستمدّ بأمرائه وعساكره. وهرب حميضة بعد أن استصفى

أموال أهل مكة. ثم رجع بعد رجوع العساكر إلى مكّة. ثم اصطلحوا وتوافقوا. ثم خالف عطيفة سنة ثمان عشرة، ووصل إلى السلطان، وجاء بالعسكر فملك مكّة، وتقبض على رميثة فسجن أياماً ثم أطلق سنة عشرين عند مقدم السلطان من حجه، وأقام بمصر.وبقي حميضة مشرداً إلى

أن استأمن السلطان فأمنّه، وكان معه جماعة من المماليك فرّوا إليه من مصر أيام انتقاضه فشعروا بطاعته فخافوا على أنفسهم أن يحضروا معه فقتلوه، وجاؤوا إلى السلطان يعتقدون ذلك وسيلة عنده فأقاد رميثة منهم بأخيه فقتل المباشر للقتل، وعفا عن الباقين. وأطلق رميثة إلى مكة مشاركاً لأخيه عطيفة في إمارتها. ثم هلك عطيفة، وأقام أخوه رميثة بعده مستقلاً بإمارة مكة إلى أن كبر وهرم. ثم هلك وكان إبناه ثقبة وعجلان قد اقتسما معه إمارة مكة برضاه. ثم أراد الرجوع عن ذلك فلم يجيباه إلى شيء مما أراد، واستمرا على ولايتهما معه. ثم تنازعا وخرج ثقبة، وبقي عجلان بمكّة. ثم غلبه عليها ثقبة، ثم اجتمعا بمصر سنة ست وخمسين فولي صاحب الأمر بمصر عجلان منهما، وفرّ ثقبة إلى بلاد الحجاز فأقام هنالك، وعاقبه إلى مكة مراراً. وجاء عجلان سنة إثنتين وستين بالمدد من عسكر القاهرة فكبسه ثقبة وقتل أخاه وبعضاً من العسكر ولم يزل عجلان على إمارته سالكاً سبيل العدل والإنصاف في الرعيّة، متجافياً عن الظلم عما كان عليه قومه من التعرض للتجّارّ والمجاورين. وسعى في أيام إمارته في قطع ما كان لعبيدهم على الحاج من المكس. وثبت لهم في ديوان السلطان عليها عطاء يتعاهدهم أيام الموسم، وكانت من حسنات سلطان مصر. وسعى هذا

الأميرعجلان جزاه الله خيراً، وأقام على ذلك إلى أن هلك سنة سبع وسبعين، وولي ابنه أحمد بعده. وقد كان فوّض إليه في حياته وقاسمه في أمره فقام أحمد بأمر مكّة، وجرى على سنن أبيه في إنبات مراسم العدل وإحياء معالمه، حتى شاع عنه ذلك في الآفاق على السنة الحاج والمجاورين.وولّاه صاحب مصر لعهده الملك الظاهر أبو سعيد برقوق على ما كان أبوه. وسيّر إليه بالخلع والتفويض على عادتهم في ذلك. وكان في محبس أحمد جماعة من قرابته منهم أخوه محمد، ومحمد ابن أخيه ثقبة، وعنانٌ ابن عمّه مغامس، في آخرين. فلما مات أحمد هربوا من محبسهم ولحقوا بهم فردوهم، وأجلوا محمد بن عجلان منهم، إلاّ عناناً فإنه لحق بمصر مستجيشا على محمد وكبيش فأنجده السلطان وبعثه مع أمير الركب ليطالع أحوالهم، واستصحب معّه جماعة من الباطنّية فتكوا بمحمد عند لقائه المحمل الذي عليه كسوة الكعبة بشارة الخليفة، وتقبيله الخص الذي يحمله على العادة في ذلك،

وتركوه صريعاً في مكانه، ودخلوا إلى مكّة فولي أمير الحاج عنان بن مغامس، ولحق كبيش وشيعته بجدّة فلما انقضى الموسم ورجع الحاج، جاء كبيش وأصحابه وحاصروا مكة.وكان بينهم وبين عنان حروب قتل كبيش في بعضها. ثم لحق عليّ بن عجلان وأخوه حسن بالملك الظاهر صاحب مصر فرأى أن يحسم المادّة بولايته فولاّه سنة تسع وثمانين مشاركاً لعنان بن مغامس في الإمارة، وسار مع أمير الركب فلما وصلوا لكومرد بكّروا إلى مكّة على العادة، وخرج عنانٌ للقائهم. ثم نكص من بعض الطريق هارباً، ودخل على مكة واستقل بإمارتها. ولما انفضّ الموسم ورجع الحاج جاء عنان ومعه بنو عمه مبارك، وجماعة الشرفاء فحاصروا مكة على

عليّ ونازعوه الإمارة ثم أفرجوا، ثم رجعوا، وحالهم على ذلك متصل لهذا العهد. ووفدوا على السلطان بمصر سنة أربع وتسعين فأفرد علياً بالإمارة وأفاض عليه العطاء، وأكثف له الجند والمستخدمين، وأبقى عنان بن مغامس عنده، وأجرى عليه الرزق ونظّمه في أهل دولته. ثم نمى إلى السلطان انه يروم الفرار إلى الحجاز لينازع أمير مكّة علي بن عجلان فقبض عليه وحبسه، فقبض طي بن ب ن على الأشراف الذين كانوا هنالك شيعة له. ثم من عليهم وأطلقهم فعادوا إلى منازعته والفتنة معه لهذا العهد، والله متولي الأمور لاربّ غيره.

الخبر عن بني مهنى أمراء المدينة النبوية

من بني الحسن وذكر أوليتهم ومفتتح إمارتهم:

كانت المدينة بلد الأنصار من الأوس والخزرج كما هو معروف. ثم افترقوا على أقطار الأرض في الفتوحات وانقرضوا، ولم يبق بها أحد إلا بقايا من الطالبيّين. قال ابن الحصين في ذيله على الطبري: دخلت المائة الرابعة والخطبة بالمدينة للمقتدر. قال: وتردّدت ولاية بني العبّاس عليها والرياسة فيها بين بني حسين وبني جعفر إلى أن أخرجهم بنو حسين فسكنوا بين مكّة والمدينة. ثم أجلاهم بنو حرب من زبيد إلى القرى والحصون، وأجازوهم إلى الصعيد فهم هنالك إلى اليوم. وبقي بنو حسين بالمدينة إلى أن جاءهم ظاهر بن مسلم من مصر فملكوه عليهم. وفي الخبر عن وصول ظاهر هذا أمراء مسلماً أباه اسمه محمد بن عبيد الله بن ظاهر بن يحيى المحدّث ابن الحسن

بن جعفر، ويسمّى عند الشيعة حجّة الله بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن زين العابدين، وكان مسلم هذا صديقاً لكافور المتغلّب على الأخشيديّة بمصر، وكان يدبّر أمره، ولم يكن بمصر لعصره أوجه منه. ولما ملك العبيديّون مصر، وجاء المعزّ لدين الله، ونزل بالقاهرة التي اختطها وذلك سنة خمس وستين وثلاثمائة خطب يومئذ من مسلم هذا كريمته لبعض بنيه فردّه مسلم فسخطه المعزّ ونكبه، واستصفى أمواله، وأقام في اعتقاله إلى أن هلك. ويقال فّر من محبسه فهلك في مفرة، ولحق ابنه ظاهر بن محمد بعد ذلك بالمدينة فقدمه بنو حسين على أنفسهم، واستقل بإمارتها سنين.ثم مات سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وولي مكانه إبنه الحسن. وفي كتاب العتبي مؤرخ دولة ابن سبكتكين: أن الذي ولي بعده هو صهره وابن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن ظاهر، وكنيته أبو عليّ، واستقل بها دون ابنه الحسن إلى أمراء هلك، وولي بعده ابنه هاني، ثم ابنه مهنّى. ولحق الحسن بمحمود بن سبكتكين فأقام عنده بخراسان، وهذا غلط لأن المسبحي مؤرخ العبيديّين ذكر وفاة ظاهر بن مسلم في سنتها كما قلناه وولاية الحسن ابنه. وقال: في سنة ثلاث وثمانين وعامل المدينة الحسن بن ظاهر ويلقّب مهنّى والمسبحي أقعد بأخبار المدينة ومصر من العتبي، إلا أن أمراء المدينة لهذا العهد، ينتسبون إلى داود ويقولون: جاء من العراق فلعلهم لقنوا ذلك عمن لا يعرفه. ومؤرخ حماة متى ينسب أحداً من أوّليهم فإنما ينسبه إلى أبي داود والله أعلم. وقال أبو سعيد: وفي سنة تسعين وثلاثمائة ملكها أبو الفتوح حسن بن جعفر أمير مكة من بني سليمان بأمر الحاكم العبيدي، وأزال عنها إمارة بني مهنّى من بني الحسين، وحاول نقل

الجسد النبوي إلى مصر ليلا فأصابتهم ريح عاصفة اظلم لها الجّو، وكادت تقتلع البناء من أصله فردهم أبو الفتوح عن ذلك، ورجع إلى مكة. وعاد بنو مهنّى إلى المدينة. وذكر مؤرّخ حماة من امرائهم منصور بن عمارة، و لم ينسبه، وقال: مات سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وولي بعده ابنه. قال: وهم من ولد مهنى. وذكر منهم أيضاً القاسم بن مهنى بن حسين بن مهنّى بن داود، وكنيته أبو قليتة، وانه حضر مع صلاح الدين بن أيوب غزاة أنْطاكِية وفتحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة. وقال الزنجازي مؤرخ الحجاز فيما ذكر عنه ابن سعيد، حين ذكر ملوك المدينة من ولد الحسين فقال: وأحقهم بالذكر لجلالة قدره قاسم بن جماز بن قاسم بن مهنّى. ولاه المستضيء فأقام خمساً وعشرين سنة. ومات سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وولي إبنه سالم بن قاسم، وكان شاعراً وهو الذي كانت بينه وبين أبي عزيز قتادة صاحب مكة وقعة المصارع ببدر سنة إحدى وستمائة. زحف أبو عزيز من مكة وحاصره بالمدينة، وأشتدّ في حصاره. ثم ارتحل، وجاء المدد إلى سالم من بني لام إحدى بطون همذان فأدرك أبا عزيز ببدر واقتتلوا وهلك من الفريقين خلق، وانهزم أبو عزيز إلى مكة. وفي سنة إحدى وستمائة جاء المعظم عيس بن العادل فجددّ المصانع والبرك، وكان معه سالم بن قاسم أمير المدينة، جاء يشكو من قتادة فرجع معه، ومات في الطريق قبل وصوله إلى المدينة. وولي بعده ابنه شيخة، وكان سالم قد استخدم عسكراً من التركمان فمضى بهم جماز بن شيخة إلى قتادة وغلبه، وفر إلى الينبع، وتحصن بها. وفي سنة سبع وأربعين قتل صاحب المدينة شيخة، وولي إبنه عيسى. ثم قبض عليه أخوه جماز سنة تسع وأربعين وملك مكانه. قال ابن سعيد: وفي سنة تسع وخمسين كان بالمدينة أبو الحسن بن شيخة بن سالم، وقال غيره: كان بالمدينة سنة ثلاث وخمسين أبو مالك منيف بن شيخة ومات سنة سبع وخمسين، وولي أخوه جماز، وعال عمره ومات سنة أربع وسبعمائة، وولي إبنه منصور. ولحق أخوه مقبل بالشام، ووفد على بمصر فأقطعه نصف إقطاع منصور. ثم أقبل إلى المدينة على حين غفلة مز أخيه منصور، وبها إبنه أبو كبيشة فملكها عليه، ولحق أبو كبيشة بإحياء العرب، ثم استجاشهم، ورجع إلى المدينة سنة تسع فقتل عمّه مقبلاً. وجاء منصوراً إلى محل إمارته. وكان لمقبل ابن اسمه ماجد فأقطع بعض إقطاع أبيه فأقام مع العرب يجلب على المدينة، ويخالف منصوراً عمّه إليها متى خرج عنها. ووقع بين منصور وبين قتادة صاحب الينبع حرب سنة إحدى عشرة من أجله. ثم جاء ماجد بن مقبل بالمدينة سنة سبعة عشرة لقتال عمّه منصور، واستنجد منصور بالسلطان فبعث إليه العساكر وحاصر ماجد بن مقبل بالمدينة. ثم قاتلهم وانهزم وبقي منصور على إمارته وتوفي سنة خمس وعشرين وولي إبنه كبيش بن منصور على إمارته، وطالت أيامه، ونازعه ودي بن جماز وحاصره، وولي بعده طفيل وقبض عليه طاز سنة إحدى وخمسين وولي عطية. ثم توفي عطية سنة ثلاث وثمانين وولي بعده طفيل، وقبض عليه فامتنع وولي جماز بن هبّة بن جماز بن منصور وملوك الترك بمصر يختارون لولايتها من هذين البيتين، لا يعدلون عنهما إلى سواهما. وولايتها اليوم لجماز بن هبة بن جماز، وابن عمه عطيّة بن محمد بن على ينازعه، لما بينهما من المنازعة والمنافسة قديماً وحديثاً شأن العجليين في التثّور، وهما جميعاً على

مذهب الإمامية من الرافضة، ويقولون بالأئمة الاثني عشر وبما يناسب ذلك من اعتقادات الإمامية. والله يخلق ما يشاء ويختار. هذا آخر الخبر عن أمراء المدينة، و لم اقف على أكثر منه، والله الّمقدر لجميع الأمور سبحانه لا إله إلّا هو.

الخبر عن دولة بني الرسى أئمة الزيدية

بصعدة وذكر أوليتهم ومصائر أحوالهم:

قد ذكرنا فيما تقدّم خبر محمد بن إبراهيم، الملقّب أبوه طباطبا بن إسمعيل بن إبراهيم بن حسن الدعيّ، وظهوره أيام المأمون، وقيام ابي السرايا ببيعته وشأنه كله. ولما هلك وهلك أبو السرايا وانقرض أمرهم، طلب المأمون أخاه القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا ففرّ إلى السّند، و لم يزلط به إلى أمراء هلك سنة خمس وأربعين ومائتين، ورجع ابنه الحسن إلى اليمن، وكان من عقبه الأئمة بصعدة من بلاد اليمن أقاموا للزيدية بها دولة اتصلت أخر الأيام وصعدة جبل في الشرق عن صنعاء، وفيه حصون كثيرة أشهرها صعدة وحصن تلا وجبل مطابة، وتعرف كلها ببني الرسى. وأول من خرج بها منهم يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى، دعا لنفسه بصعدة، وتسمى بالهادي، وبويع بها سنة ثمان وثمانين في حياة أبيه الحسين، وجمع الجموع من شيعتهم وغيرها، وحارب إبراهيم بن يعفر. وكان اسعد بن يعفر السادس من أعقاب التبابعة لصنعاء وكملا فغلبه على صنعاء ونجران فملكها وضرب السكّة، ثم انتزعها بنو يعفر منه، ورجع إلى صعدة وتوفي سنة ثمان وتسعين لعشر سنين من ولايته، هكذا قال ابن الحارث قال: وله مصنفّات في الحلال والحرام. وقال غيره: كان مجتهدا في الأحكام الشرعيّة، وله في الفقه آراء غريبة وتواليف بين الشيعة معروفة. قال الصولي: وولي بعده إبنه محمد المرتضى، واضطرب الناس عليه، وهلك سنة عشرين وثلاثمائة لست وعشرين سنة من ولايته. وولي بعده أخوه الناصر أحمد واستقام ملكه، واطرد في بنيه بعده فولي بعده ابنه حسين المنتجب ومات سنة أربع وعشرين. وولي بعده أخوه القاسم المختار إلى أن قتله أبو القاسم الضحاك؟ الهمداني سنة أربع وأربعين. وقال الصولي: من بني الناصر الرشيد والمنتجب ومات سنة أربع وعشرين. وقال ابن حزم لما ذكر ولد ابي القاسم الرسى فقال: ومنهم القائمون

بصعدة من أرض اليمن، أوّلهم يحيى الهادي، له رأي في الفقه، وقد رأيته، و لم يبعد فيه عن الجماعة كل البعد. كان لأبيه أحمد الناصر بنون ولي منهم صعدة بعده جعفر الرشيد، وبعده أخوه القاسم المختار، ثم الحسن المنتجب ومحمد المهدي. قال: وكان اليماني القائم بماردة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة يذكر انه عبد الله بن أحمد الناصر أخو الرشيد والمختار والمنتجب والمهدي وقال ابن الحاجب: و لم تزل إمامتهم بصعدة مطردة إلى أمراء وقع الخلاف بينهم، وجاء السليمانيون من مكّة عندها أخرجهم الهواشم فغلبوا عليهم بصعدة.

وانقرضت دولتهم بها في المائة السادسة. قال ابن سعيد: وكان من بني سليمان حين خرجوا من مكّة إلى اليمن أحمد بن حمزة بن سليمان، فاستدعاهم أهل زبيد لينصروهم على عليّ بن مهدي الخارجي حين حاصرهم، وبها فاتك بن محمد من بني نجاح فأجابهم على أمراء يقتلوا فاتكاً فقتلوه سنة ثلاث وخمسمائة، وملكوا عليهم

أحمد بن حمزة فلم يطق مقاومة عليّ بن مهديّ ففرعن زبيد وملكها ابن مهدي قال: وكان عيسى بن حمزة أخو أحمد في عشرة باليمن، ومنهم غانم بن يحيى ثم ذهب ملك بني سليمان من جميع التهائم والجبال واليمن على يد بني مهدي. ثم ملكهم بنو أيوب وقهروهم، واستقر ملكهم آخراً في المنصور عبد الله بن أحمد بن حمزة.

قال ابن العديم: أخذ الملك بصعدة عن أبيه واشتدت يده مع الناصر العبّاسي، وكان يناظره ويبعث دعاته إلى الديلم وجيلان، حتى خطب له هنالك وصار له فيها ولاة، وأنفق الناصر عليه أموالا في العرب باليمن ولم يظفر به. قال ابن الأثير: جمع المنصور عبد الله بن حمزة أيام الزيدية بصعدة سنة إثنتين وخمسمائة، وزحف إلى اليمن فخاف منه المعزّ بن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب. ثم زحف إليه المعزّ فهزمه، ثم جمع ثانية سنة إثنتي عشرة وستمائة جموعا من همذان وخولان، وارتجت له اليمن، وخاف المسعود بن الكامل وهو يومئذ صاحب اليمن، ومعه الكرد والترك، وأشار أمير الجيوش عمر بن رسول بمعاجلته قبل أمراء يملك الحصون. ثم اختلف أصحاب المنصور، ولقيه المسعود فهزمه، وتوفي المنصور سنة ثلاثين وستمائة عن عمر مديد، وترك ابناً اسمه أحمد ولاه الزيدية، ولم يخطبوا له بالإمامة ينتظرون علو سنه واستكمال شروطه ولما كانت

سنة خمس وأربعين بايع قوم من الزيدية لأحمد الموطىء من بقية الرسى، وهو احمد بن الحسين من بني الهادي لأنهم لما أخرجهم بنو سليمان من كرسي إمامتهم بصعدة آووا إلى جبل قطابة بشرقي صعدة فلم يزالوا هنالك، وفي كل عصر منهم إمام شائع بأن الأمر إليهم أن بايع الزيديّة الموطىء، وكان فقيهاً أديباً عالماً بمذهبهم قواماً صواماً، بويع سنة خمس وأربعين وستمائة.

القسم الثاني

وأهم نور الدين عمر بن رسول شأنه فحاصره بحصن تلا سنة، وامتنع عليه فأفرج عنه، وحمل العساكر من الحصون المجاورة لحصاره. ثم قتل عمر بن رسول، وشغل ابنه المظفّر بحصن الدملوة فتمكّن الموطىء، وملك عشرين حصناً، وزحف إلى صعدة فغلب السليمانيّين عليها، وقد كانوا بايعوا لأحمد ابن إمامهم عبد الله المنصور، ولقبوه المتوكل عندما بويعا للموطىء بالإمامة في تلا لأنهم كانوا ينتظرون استكمال سنه فلما بويع الموطىء بايعوه، ولما غلبهم على صعدة نزل أحمد المتوكل إمامهم، وبايع له وأمّنه، وذلك سنة تسع وأربعين، ثم حجّ سنة خمسين وبقي أمر الزيدية بصعدة في عقب الموطىء هذا وسمعت بصعدة أن الإمام بصعدة كان قبل الثمانين والسبعمائة علي بن محمد في أعقابهم، وتوفي قبل الثمانين والسبعمائة عليّ بن محمد في أعقابهم، وولي إبنه صلاح، وبايعه الزيدية. وكان بعضهم يقول ليس هو بإمام لعدم شروط الإمامة فيقول هو أنا لكم ما شئتم إمام أو سلطان. ثم مات صلاح آخر سنة ثلاث وتسعين، وقام بعده ابنه نجاح، وامتنع الزيدية من بيعته فقال أنا محتسب لله، هذا ما بلغنا عنهم بمصر أيام المقام فيها، والله وارث الأرض ومن عليها.

نسب الطالبيين

الخبر عن نسب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم

وأما نسب هؤلاء الطالبيّين فأكثرها راجع إلى الحسن والحسين ابني عليّ بن ابي طالب، من فاطمة رضي الله عنها، وهما سبطا الرسول صلى الله عليه و سلم وإلى أخيها محمد بن الحنفية، وإن كان لعلي رضي الله عنه غيرهم من الولد، إلاّ أنّ الذين طلبوا الحق في الخلافة، وتعصبت لهم الشيعة، ودعوا لهم في الجهات إنما هم الثلاثة لا غيرهم، فأمّا الحسن فمن ولده الحسن المثنى وزيد، ومنهما العقب المشهود له في

الدعوة والإمامة. ومن ولد حسن المثنى عبد الله الكامل، وحسن المثلث وإبراهيم العمر وعباس وداود. فأمّا عبد الله الكامل وبنوه فقد مرّ ذكرهم وأنسابهم عند ذكر ابنه، محمد المهدي، وأخبارهم ى أبي جعفر المنصور. وكان منهم الملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى، بنو إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل. ومن عقبهم بنو حمود ملوك الأندلس الدائلون بها من بني أمية آخر دولتهم. ومنهم بنو حمود بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، وسيأتي ذكر أخبارهم. ومنهم بنو سليمان بن عبد الله الكامل، كان من عقبه ملوك اليمامة بنو محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون، ومنهم بنو صالح بن موسى بن عبد الله الساقي ويلقّب بابي الكرام بن موسى الجون، وهم الذين كانوا ملوكا بغانة من بلاد السودان بالمغرب الأقصى، وعقبهم هنالك معروفون. ومن عقبه أيضاً الهواشم بنو أبى هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر بن موسى الثاني بن عبد الله أبي الكرام. كانوا أمراء مكة لعهد العبيديّين، وقد مر ذكرهم. ومن أعقابهم بنو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن موسى الجون، وملكوا مكّة بعد الهواشم على يد قتادة أبيهم هذا. فمنهم بنو نمى بن سعد بن علي بن قتادة أمراء مكّة لعهدنا. ومن عقب داود بن حسن المثنى السليمانيون الذين كانوا بمكّة، وهم بنو سليمان بن داود، وغلبهم عليها الهواشم آخرا وصاروا إلى اليمن فقامت الزيدية بدعوتهم كما مر في أخبارهم. ومن عقب حسن المثلث بن حسن المثنى حسين بن علي بن حسن المثلث الخارج على الهادي، وقد مر ذكره. ومن عقب إبراهيم العمر بن حسن المثّنى بن طباطبا، وأسمه إبراهيم بن إسمعيل بن إبراهيم كان منهم محمد بن طباطبا أبو الأئمة بصعدة الذين غلبهم عليها بنو سليمان بن داود بن حسن المثنى، حين جاؤوا من مكّة. ثم غلبهم بنو الرسى عليها، ورجعوا إلى إمامهم بصعدة، وهم بها لهذا العهد. ومنهم بنو سليمان بن داود بن حسن المثّنى، وإبنه محمد بن سليمان القائم بالمدينة أيام المأمون. قال ابن حزم: وعقبه بالمدينة لأبي جعفر المنصور، ولا عقب لزيد إلاّ منه. وكان من عقبه محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن زيد. قام بالمدينة أيام المعتمد، وجاهر بالمنكرات والقتل إلى أن تعطلت الجماعات. ومن عقبه أيضاً القائم بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسمعيل بن الحسن بن زيد، وأخوه محمد القائم من بعده، وقد مر خبرهما.ومنهم الداعي الصغير بالري وطبرستان، وهو الحسن بن القاسم بن عليّ بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد الطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد، وكانت بين هذا الداعي الصغير وبين الاطروش حروب. وقتل هذا الداعي سنة تسع عشرة وثلاثمائة. ومن عقبه أيضاً القاسم بن عليّ بن إسمعيل أحد قوّاد الحسن بن زيد. وهم غّيروا نعم أهل تلك الآفاق، وأذهبوا بمهجتهم وكانوا سبباً لتورد الديلم ببلاد الإسلام، لما يستجيشوهم. وخرج معهم ومع الاطروش الحسني ما كان بن كالي ملك

الديلم. وكان مرداويج وبنو بويه من بعض رجاله، وكان لهم من عشيرهم قوّاد ورجال تسموا باسم الديلم من أجل مرباهم بينهم والله يخلق ما يشاء. وأما الحسين وهو القتيل بالطعن أيام يزيد بن معاوية، فمن ولده عليّ بن زين العابدين بن زيد الشهيد، ومحمد الباقر، وعبد الله الأرقط، وعمر والحسن الأعرج. فمن ولد الأرقط الحسين الكويكي بن أحمد بن محمد بن إسمعيل بن أحمد بن عبد الله الأرقط كان من قوّاد الحسن الأطروش بن الحسن بن علي القائم بن علي بن عمر. قام بأرض الطالقان أيام المعتصم. ثم هرب من سفك الدماء، واستتر إلى أن مات، وكان معتزلياً. ومنهم الأطروش أسلم على يديه الديلم، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر، وكان فاضلا حسن المذهب عدلاً، ولي طبرستان وقتل سنة أربع وثلاثمائة. وقام بعده أخوه محمد ومات. وقام الحسين ابن أخيه محمد بن علي وقتل بها سنة ست عشرة وثلاثمائة، قتله جيوش نصر بن احمد بن إسمعيل بن أحمد بن نوح بن أسد الساماني صاحب خراسان.ومن ولد الحسين الهمّرج بن زين العابدين بن عبد الله العقيقي بن الحسين، كان من ولده الحسين بن صمد بن جعفر بن عبد الله العقيقي قتله الحسن بن زيد صاحب طبرستان. ومنهم جعفر بن عبيد الله بن الحسين الأعرج. كان شيعته يسمّونه حجّة الله، وكان من عقبه الملقب بمسلم الذي دبر أمر مصر أيام كافور، وهو محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحمى المحدّث ابن الحسين بن جعفر حجّة الله، وابنه طاهر بن مسلم. ومن عقب طاهر هذا أمراء المدينة لهذا العهد بنو جماز بن هبة بن جماز بن شيخة بن هاشم بن القاسم بن مهنّى، ومهنّى بن مهنّى بن داود بن القاسم أخي مسلم وعمر وطاهر. وزعم ابن سعيد: أن بني جماز بن شيخة أمراء المدينة هؤلاء من ولد عيسى بن زيد

الشهيد، وفيه نظر. ومن ولد الحسين الحسن الأعرج، وزيد هو القائم بالكوفة على عهد هشام بن عبد الملك سنة احدى وعشرين ومائة، وقتل، وخرج ابنه يحمى سنة خمس وعشرين بخراسان وقتل، وقد انتمى صاحب الزنج في بعض أوقاته إليه.وأخوه عيسى بن زيد الذي حارب المنصور أول خلافته من ولد الحسين الذي كان من عقبه يحمى بن عمر بن يحيى، القائم بالكوفة أيام المستعين، وكان حسن المذهب في الصحابة وإليه ينسب العمريّون الذين استولوا على الكوفة أيام الديلم من قبل السلطان ببغداد. وعلي بن زيد بن الحسين بن زيد قام بالكوفة، ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة فقتله وأخذ جارية له كان سباها من البصرة. ومن ولد محمد الباقر بن زين العابدين عبد الله الأفطح، وجعفر الصادق، فكانت لعبد الله الأفطح شيعة يدّعون إمامته: منهم زرارة بن أعين الكوفي. ثم قام بالمدينة وسأله عن مسائل من الفقه فألفاه جاهلاً فرجع عن القول بإمامته فانقطعت الأفطحيّة. وزعم ابن حزم أن بني عبيد ملوك مصر ينسبون إليه وليس ذلك بصحيح. ومن ولد جعفر الصادق إسمعيل الإمام، وموسى الكاظم، ومحمد الديباجة. فأمّا محمد الديباجة فخرج بمكّة أيام المأمون وبايع له أهل الحجاز بالخلافة، وحمله المعتصم لما حج، وجاء به إلى المأمون فعفا عنه، ومات سنة ثلاث ومائتين. وأما إسمعيل م الإمام وموسى الكاظم فعليهما وعلى بنيهما مدار اختلاف الشيعة، وكان الكاظم على زيّ الأعراب مائلاً إلى السواد، وكان الرشيد يؤثره ويتجافى عن السعاية فيه كما مر ثم حبسه. ومن عقبه بقية

الأئمة الأثني عشر عند الإمامية من لدن علي بن أبي طالب الوصي ووفاته سنة خمس وأربعين، ثم أخوه الحسين ومقتله سنة احدى وستين، ثم ابنه زين العابدين ووفاته ثم ابنه محمد الباقر ووفاته سنة احدى وثمانين ومائة، ثم ابنه جعفر الصادق ووفاته سنة ثلاث وأربعين ومائة، ثم ابنه موسى الكاظم ووفاته سنة ثلاث وثمانين ومائة، وهو سابع الأئمة عندهم. ثم ابنه علي الرضا ووفاته سنة ثلاث ومائتين، ثم ابنه محمد المقتفى ووفاته سنة عشرين

ومائتين، ثم ابنه علي الهادي ووفاته سنة أربع وخمسين ومائتين، ثم ابنه حسن العسكري ووفاته سنة ستين ومائتين، ثم ابنه محمد المهدي وهو الثاني عشر، وهو عندهم حيّ منتظر وأخبارهم معروفة. ومن عقب موسى الكاظم من غير الأئمة ابنه إبراهيم المرتضى، ولاه محمد بن طباطبا وأبو السرايا على اليمن فذهب إليها، ولم يزل بها أيام المأمون يسفك الدماء حتى لقّبه الناس بالجزارّ، وأظهر الإمامة عندما عهد المأمون لأخيه الرضا. ثم اتهم المأمون بقتله فجاهر وطلب لنفسه. ثم عقد المأمون على حرب الفاطميّين باليمن لمحمد بن زياد بن أبي سفيان لما بينهم من البغضاء فأوقع بهم مراراً، وقتل شيعتهم، وفرّق جماعتهم، ومن عقب موسى بن إبراهيم جد الشريف الرضي والمرتضى، واسم كل منهما علي بن الحسين بن محمد بن موسى بن إبراهيم، ومن عقب موسى الكاظم ابنه زيد ولاّه أبو السرايا على الأهواز فسار إلى البصرة وملكها، وأحرق دور العبّاسيّين بها فسمّي زيد النار، ومن عقبه زيد الجنة بن محمد بن زيد بن الحسن بن زيد النار من أفاضل هذا البيت وصلحائهم، حمل إلى بغداد في محنة الفاطميين أيام المتوكل، ودفع إلى ابن أبي دواد يمتحنه فشهد له وأطلقه. ومن عقب موسى الكاظم ابنه. إسمعيل ولاه أبو السرايا على فارس. ومن عقب جعفر الصادق من غير الأئمة محمد وعلي إبنا الحسين بن جعفر، قاما بالمدينة سنة احدى وسبعين ومائتين، وسفكا الدماء وانتهبا الأموال، واستلحما آل جعفر بن أبي طالب وأقامت المدينة شهرا لا تقام فيها جمعة ولا جماعة، ومن عقب إسمعيل الإمام العبيديون خلائف القيروان ومصر بنو عبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسمعيل، وقد مرّ ذكرهم وما للناس محن الخلاف في نسبهم، وهو مطروح كله وهذا أصح ما فيه. وقال ابن حزم إنهم من بني حسن البغيض وهو عم المهدي وعنده أنها دعوى منهم.(وأمّا محمد بن الحنفية) فكان من ولده عبد الله بن عبّاس وأخوه علي بن محمد وابنه الحسن بن علي بن محمد، وكلّ ادّعت الشيعة إمامته وخرج باليمن على المأمون ولد علي من غير هؤلاء عبد الرحمن بن احمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن أبي طالب، ومن ولد جعفر بن ابي طالب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب القائم بفارس، وبويع بالكوفة، وأراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة إليه فمنع أبو مسلم من ذلك وكانت له شيعة ينتظرونه، وساقوا الخلافة إليه من ابي هاشم بن محمد بن الحنفية بالوصيّة. وكان

فاسقا وكان معاوية ابنه نظير أبيه في الشّر. انتهى الكلام في أنساب الطالبيّين وأخبارهم فلنرجع الآن إلى أخبار بني أمية بالأندلس، المنازعين للدعوة العبّاسية. ثم نرجع إلى دولة القائمين بالدعوة العبّاسية المستبدّين عليهم من العرب والترك واليمن والجزيرة والشام والعراق والمغرب، والله المستعان.

دولة بني أمية بالأندلس

الخبر عن دولة بني أمية بالأندلس من هذه الطبقة المنازعين للدعوة العباسية وبداية أمرهم وأخبار ملوك الطوائف من بعدهم

كان هذا القطر الأندلسي من العدوة الشمالية عن عدوة البحر الرومي، وبالجانب الغربي منها يسمى عند العرب أندلوش. وتسكنه أمم من إفرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة. وكان القوط قد تملكوها وغلبوا على أمره لمائتين من السنين قبل الإسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة. ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس فساروا إليها وملكوها. ولما أخذ الروم واللطينيون لبسلة(1) النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من أهل إفرنجة والقوط عليها فدانوا بها وكان ملوك القوط يترلون طليطلة، وكانت دار ملكهم. وربما انتقلوا ما بينها وبين قرطبة وماردة واشبيلية، واقاموا كذلك نحو أربعمائة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح. وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لزريق وهو سمة لملوكهم كجرجير سمة ملوك صقلية، ونسب القوط وخبر دولتهم قد تقدم. وكانت لهم خطوة وراء البحر في هذه العدوة الجنوبية خصوها من فرضة المجاز بطنجة، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر واستعبدوهم. وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى بليان(1)، وكان يدين بطاعمهم وبملتهم، وموسى بن نصير أمير العرب إذ ذاك عامل

على أفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك، ومترله بالقيروان. وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوّخ اقطاره، وأوغل في جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق، واستترل بليان لطاعة الإسلام، وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي واليا بطنجة، وكان بليان ينقم على لزريق ملك القوط لعهده بالأندلس لفعله بابنته في داره كما زعموا على عادقم في بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز إلى لزريق فأخذ ابنته منه. ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلهم على غرة فيهم أمكنت طارقا فانتهزها لوقته، وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب، وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف فصيرهم عسكرا (1) و نزل بهم جبل الفتح فسمي به وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين. وبلغ الخبر لزريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم، وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفاً فالتقوا بفحص شريش فهزمه إليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم. وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة، وكتب إلى طارق يتوعّده بأنه يتوغّل بغير إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القيروان ولده عبد الله، وخرج معه حسين بن ابي عبد الله المهدي الفهري.ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس، وتلقّاه طارق وانقاد واتبع، وتمم موسى الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق، وأربونة في الجوف وصنم قادس في الغرب ودوخ أقطارها وجمع غنائمها. وجمع أن يأتي

المشرق على القسطنطينية وبتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس(1)، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانيّة مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق دار الخلافة. ونمى الخبر إلى الوليد فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما همّ به موسى غرر بالمسلمين فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف. وأسر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين أن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها، واستعمل إبنه عبد العزيز لغزوها وجهاد أعدائها، وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة، واحتلّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى الشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر. يقال: كان من جملتها ثلاثون ألف فارس من السبي وولّى على إفريقية ابنه عبد الله. وقدم على سليمان فسخطه ونكبه. وسارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته، وكان خيّراً فاضلا، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة. وولي من بعده أيوب بن حبيب اللّخميّ وهو ابن أخت موسى بن نصير فتولى عليها ستة أشهر. ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس فتارة من قبل الخليفة، وتارة من قبل عامله على القيروان، وأثخنوا في أمم الكفر وافتتحوا برشلونة من جهة الشرق، وحصون بشتالة(2) وبسائطها، من جهة الجوف، وانقرضت أمم القوط وأرزا(3) الجلالقة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب فتحصّنوا بها، وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلّوا بسائط وراءها، وتوغّلوا في بلاد الفرنجة وعصف ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع، أوجب للعدّو بعض الكرة فرجع الفرنج ما كانوا غلبوهم عليه. وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك، لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير، بعث إلى الأندلس الحارث بن عبد الرحمن بن عثمان (4) فقدم

الأندلس وعزل أيوب بن حبيب، وولي سنتين وثمانية أشهر. ثم بعث عمر بن عبد العزيز على الأندلس السمح بن مالك الخولاني على رأس المائة من الهجرة، وأمره أن يخمس أرض الأندلس فخمسها، وبنى قنطرة قرطبة واستشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة إثنتين ومائة فقدم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، إلى أن قدم عنبسة بن شحيم الكلبيّ من قبل يزيدا بن مسلم عامل إفريقية. وكان أوّلهم يحيى بن سلمة الكلبيّ، أنفذه حنظلة بن صفوان الكلبيّ والي إفريقية، لما استدعى منه أهل الأندلس واليا بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة سبع، وأقام في ولايتها سنتين ونصفا و لم يغز ثم قدم إليها عثمان بن أبي (1) والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية، وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص العتبي فوافاها سنة عشر، وعزل قريباً يقال لسنة من ولايته، واختلف هل تقدمه عثمان أم هو تقدم عثمان. ثم ولي بعده الهيثم بن عبيد الكلابي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن أيضا قدم في المحرم سنة احدى عشرة وغزا أرض مقرشة فافتتحها وأقام عشرة أشهر. وتوفي سنة ثلاث عشرة لسنتين من ولايته، وقدم بعده محمد بن عبيد الله بن الحجاب صاحب إفريقية فدخلها سنة ثلاث عشرة وغزا إفرنجة. وكانت له فيهم وقائع وأجبَّ عسكره في رمضان سنة أربع عشرة فولي سنتين. وقال الواقدي :أربع سنين، وكان ظلوماً جائراً في حكومته وغزا أرض البشكنس سنة خمس عشرة

ومائة، وأوقع بهم وغنم، ثم عزل في رمضان سنة ست عشرة وولي عتبة بن الحاج السلولي، من قبل عبيد الله بن الحجاب فقدم سنة سبع عشرة. وأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مُظَفَّراً حتى بلغ سكنى المسلمين أرمونة، وصار مساكنهم على نهر ودوُّنة. ثم قام عليه عبد الملك بن قطن الفِهريّ سنة احدى وعشرين فخلفه وقتله. ويقال أخرجه من الأندلس وولّي مكانه إلى أن دخل بلخ بن بِشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين كما مر فغلب عليه، وولي الأندلس سنة أو نحوها. وقال الرازي: ثار أهل الأندلس بعقبة بن الحجّاج أميرهم في صفر من سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك، وولوا عليهم عبد الملك ابن قطن ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر. وتوفي بسَرَقُوسَة في صفر سنة ثلاث وعشرين، واستقام الأمر لعبد الملك. ثم

دخل بلخ بن بِشر من أهل الشام، ناجياً من وقعة كلثوم بن عيّاض، مع البربر فثار على عبد الملك وقتله، وانحاز الفهريّون إلى جانب فامتنعوا عليه وكاشفوه، واجتمع عليهم من نكر فعلته بابن قطن، وقام بأمرهم قطن وأميّة ابنا عبد الملك بن قطن والتقوا فكانت الدبرة على الفهِريّين، وهلك بلخ من الجراح التي أصابته في حربهم، وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته ثم ولي ثعلبة بن سلامة الجذامي، غلب على إمارة الأندلس بعد مهلك بلخ وانحاز عنه الفهريّون فلم يطيعوه، وولي سنين أظهر فيها العدل، ودانت له الأندلس عشرة أشهر إلى أن ثار بالعصبة اليمانية فعسر أمره، وهاجت الفتنة. وقدم أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية، وركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين فدانت له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي سعد، وإبنا عبد الملك فلقيهم واحسن إليهم واستقام أمره. وكان شجاعا كريما ذا رأي وحزم، وكثر أهل الشام عنده، و لم تحملهم قرطبة ففرّقهم في البلاد، وأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسمّاها دمشق، وأنزل أهل حمص أشبيلية وسماها حمص لشبهها بها، وأهل قنسرين حسان وسمّاها قّنسرين، وأهل الأردن ريّة وهي مالقة وسمّاها الأردن، وأهل فلسطين شدونة وهي شريش وسمّاهافلسطين،وأهل

مصر تدمير وسمّاها مصر. وقفل ثعلبة إلى الشرق، ولحق بمروان بن محمد وحضر حروبه وكان أبو الخطاب(1) أعرابياً عصبياً أفرط عند ولايته في التعصُّب لقومه من اليمانية وتحامل على المصريّة، وأسخط قيساً، وأمر في بعض الأيام بالضميل بن حاكم كبير القيسية، وكان من طوالع بلخ، وهو الضّميل بن حاكم بن شمر بن ذي الجوشن، ورأس على الحصرية(2) فأمر به يوما فأقيم من مجلسه، وتقنع فقال له بعض الحجّاب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجوشن، فقال أن كان لي قوم فسيقيمونها فسار الضميل بن حاتم زعيمهم يومئذ وألب عليه قومه، واستعان بالمنحرفين عنه من اليمنّية فخلع أبا الخطاب سنة ثمان وعشرين، لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته، وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامي وهاجت الحرب المشهورة. وخاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية فكتب إلى ثوابة بعهده على الأندلس، منسلخ

رج0ب سنة تسع وعشرين فضبط الأندلس، وقام بأمره الضّميل، واجتمع عليه الفريقان. وهلك لسنتين من ولايته. ووقع الخلاف بإفريقية، وتلاشت أمور بني أميّة بالمشرق وشغلواعن قاصية المغرب بكثرة الخوارج وعظم أمر المسودة فبقي أهل الأندلس فوضى، ونصبوا للأحكام خاصة عبد الرحمن بن كثّير. ثم اتفق جند الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضريّة واليمنيّة، وإدالتها بين الجندين سنة لكل دولة. وقدم المضرية على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفهريّ سنة تسع وعشرين، واستقّر سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة. ثم وافقتهم اليمنية لميعاد إدالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم فبيتهم يوسف بمكان نزلهم من شقندة من قرى قرطبة (1) من الضّميل بن حاتم والقيسّية والمضريّة فاستلحموهم، واستبدّ يوسف بما وراء البحرين عدوة الأندلس، وغلب اليمنية على أمرهم فاستكانوا للغلبة، وتربصوا بالدوائر إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل، فكان يوسف بن عبد الرحمن قد ولى الضميل بن حاتم سرقسطة، فلما ظهر أمر المسودة بالمشرق ثار الحباب بن رواحة الزهري بالأندلس داعيا لهم، وحاصر الضميل بسرقسطة، واستمد يوسف فلم يمده رجاء هلاكه بما كان يغص به. وأمدّته القيسّية فأخرج عنه الحبحاب، وفارق الضميل سرقسطة فملكها الحباب وولى يوسف الضميل على طليطلة إلى أن كان من أمر عبد الرحمن الداخل ما نذكره.

مسير عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتجديده الدولة بها:

لما نزل ما نزل ببني أمية بالمشرق، وغلبهم بنو العبّاس على الخلافة، وأزالوهم عن كرسيّها، وقتل عبد الله بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وتتّبع بنو مروان بالقتل فطلبوا من بعدها بطن الأرض. وكان ممن أفلت منهم عبد

الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وكان قومه يتحيّنون له ملكاً بالمغرب، ويرون فيه علامات لذلك يؤثرونها عن مسلمة بن عبد الملك، وكان هو قد سمعها منه مشافهة فكان يحدّث نفسه بذلك فخلص إلى المغرب، ونزل على أخواله نفرة من برابرة طرابلس. وشعر به عبد الرحمن بن حبيب، وكان قتل ابني الوليد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية من قبله فلحق عبد الرحمن بمغيلة ويقال بمكناسة، ويقال نزل على قوم من زناتة فأحسنوا قبوله واطمأنّ فيهم. ثم لحق بمَليلة، وبعث بَدراً مولاه إلى من بالأندلس مَن موالي المروانيين وأشياعهم فاجتمع بهم، وبثّوا له بالأندلس دعوةً، ونشروا له ذكراً. ووافق ذلك ما قدمناه من الفتنة ين اليمنية والمضرية فاجتمعت اليمنيّة على أمره، ورجع إليه بدر مولاه بالخبر فأجاز البحر، سنة ثمان وثلاثين في خلافة ابي جعفر المنصور، ونزل بساحل السّند، واتاه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه. ثم انتقل إلى كورة رحب فبايعه عاملها عيسى بن مسّور، ثم رجع إلى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخميّ. ثم أتى مورور فبايعه ابن الصبّاح، ونهز(1) إلى قرطبة واجتمعت عليه اليمنيّة. ونمي خبره إلى والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازياً بجلّيقة فانفض عسكره، وسار إلى قرطبة، وأشار عليه وزيره الضّميل بن حاتم بالتلطف له، والمكر به فلم يتم له مراده. وارتحل عبد الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جندها، ثم بِرَندَة فبايعه جندها، ثم بشريش كذلك، ثم بإشبيلية فتوافت عليه الإمداد والإمصار، وتسايلت المضرية إليه حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد

الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الضميل منه، زحف إليه حينئذ عبد الرحمن بن معاوية وناجزهم الحرب، بظاهر قرطبة فانكشف، ورجع إلى غرناطة فتحصن بها وأتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله. ثم رغب إليه يوسف في الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة، وأقفله معه، ثم نقض يوسف عهده وخرج سنة إحدى وأربعين ولحق بطُلَيطِلَة، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر، وقدم الأمير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني، كان وفد عليه من المشرق، وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم، في كفالة أخيه عبد العزيز بمصر فلما هلك سنة خمس عشرة بقي عبد الملك بمصر فلما دخلت المسودّة أرض مصر، خرج عبد الملك يوم

الأندلس في عشرة رجال من بيته مشهورين بالبأس والنجدة، حتى نزل على عبد الرحمن سنة إحدى وأربعين فعقد له على إشبيلية، ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور. وسار يوسف إليهما وخرجا إليه فلقياه، وتناجز الفريقان فكانت الدبرة على يوسف، وأبعد العزّ واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة، واحتز رأسه، وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن فاستقام أمره، واستقر بقرطبة، وبنى القصر والمسجد الجامع. أنفق ثمانين ألف دينار، ومات قبل تمامه. وبنى مساجد، ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق، وكان يدعو للمنصور، ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس، ومهّد أمرها وخلد لبني مروان السلطان بها، وجددّ ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها. واستلحم الثوار في نواحيها وقطع دعوة العبّاسيين من منابرها وسد المذاهب منهم دونها. وهلك سنة إثنتين وسبعين ومائة، وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل، لأن أول داخل من ملوك بني مروان هو وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر بني أمية لما رأى ما فعل بالأندلس، وما ركب إليها من الأخطار. وأنه صمد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا قوة ولا أنصار فغلب على أهلها، وعلى أميرهم، وتناول الملك من ايديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم. ثم تحفى وأطيع، وأورثه عقبه. وكان عبد الرحمن هذا يلقب بالأمير، وعليه جرى بنوه من بعده فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين، إذ بايع الخلافة بمقر الإسلام ومبتدا العرب، حتى كان عبد الرحمن الناصر وهو الثامن منهم على ما نذكره فتسمّى بأمير المؤمنين، وتوارث ذلك بنوه واحداً بعد واحد. وكان لبني عبد الرحمن الداخل بهذه العدوة الأندلسية ملك ضخم، ودولة ممتعة(1) اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة كما نذكر. وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوي أمر الخلافة، واستفحل سلطانه، وتجهّز فرويلة بن الأدفونش ملكهم، وسار إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم ورد مديزلك وبريعال وسمورة وسلمنقة وقشتالة وسقونية، وصارت للجلاقة حتى افتتحها المنصور بن ابي عامر رئيس الدولة كما نذكر في أخباره. ثم استعادوها بعده من بلاد الأندلس واستولوا على جميعها. وكان عبد الرحمن عندما تمهد له الأمر بالأندلس، ودعا للسفّاح، ثم خلعه، واستبد بأمره كما ذكرناه، وجد هشام بن عبد ربه الفهري

مخالفاً بطليطلة على يوسف من قبله، بقي على خلافه ثم أغزاه عبد الرحمن سنة تسع وأربعين بدراً مولاه وتمام بن علقمة فحاصراه- ومعه حيوة بن الوليد الحصبي، وحمزة بن عبد الله بن عمر- حتى غلباه، وجاءا بهم إلى قُرطُبة فصلبوا. وسار من إفريقية سنة تسع وأربعين العلاء بن مغيث اليحصبي، ونزل باجة من بلاد الأندلس

داعياً لأبي جعفر المنصور واجتمع إليه خلق فسار عبد الرحمن إليه، ولقيه بنواحي إشبيلية فقاتله أياماً. ثم انهزم العلاء وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثيرة منهم إلى القيروان ومكة فألقيت في أسواقها سراً، ومعها اللواء الأسود. وكاتب المنصور العلاء، ثم ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة لبلة طالباً بثأر من قتل من اليمنية مع العلاء، وملك إشبيلية. وسار إليه عبد الرحمن فامتنع ببعض الحصون فحاصره، وكان عتاب بن علقمة اللخمي بمدينة شدونة فأمدّ المطري، وبعث عبد الرحمن بدراً مولاه فحال دون المدد، ودون المطري. ثم طال عليه الحصار، وقتل في بعض أيامه ووَلي مكانه بالقلعة خليفة بن مروان. ثم استأمن من بالقلعة إلى عبد الرحمن، وأسلموا إليه الحصن فخربه وقتل عبد الرحمن خليفة ومن معه. ثم سار إلى غياث فحاصره بشدونة حتى استأمنوا فأمنهم، وعاد إلى قرطبة فخرج عليه عبد الرحمن بن خراشة الاسدي بكورة جيان. وبعث إليه العساكر فافترق جمعه واستأمن فأمنه ثم حرج عليه سنة خمس غياث بن المستبد الاسدي فجمع عامل باجة العساكر، وسار إليه فهزمه وقتله، وبعث برأسه إلى عبد الرحمن بقرطبة. وفي هذه السنة شرع عبد الرحمن في بناء السور على قرطبة ثم ثار رجل بشرق الأندلس من بربر مكناسة يعرف بشقنا بن عبد الواحد، كان يعلم الصبيان، وادعى أنه من ولد الحسين الشهيد، وتسمى بعبد الله بن محمد، وسكن شنة برية(1)، واجتمع إليه خلق من البربر فسار إليه عبد الرحمن فهرب في الجبال، واعتصم بها فرجع وولى على طُليطلة حبيب بن عبد الملك فولى حبيب شنة بَرِيَّة سليمان بن عثمان بن مروان بن عثمان بن مروان بن عثمان بن عفّان. فسار إليه سليمان وقتله، وغلب على ناحية فورية فسار إليه عبد الرحمن سنة اثنتين وخمسين ومائة. وأعياه أمره وصار ينتقل في البلاد ويهزم العساكر وكان سكن بحصن شيطران من جبال بلنسيه فسار إليه عبد الرحمن سنة ست وخمسين، واستخلف على قرطبة ابنه سليمان فأتاه الخبر بعصيان أهل أشبيلية، وثورة عبد الغفّار، وحيوة بن قلاقس مع اليمانية فرجع عن شقنا، وهاله أمر أشبيلية. وقدم عبد الملك بن عمر لقتالهم فساروا إليه ولقيهم مستميتاً فهزمهم واثخن فيهم. ولحق بعبد الرحمن فشكرها له وجزاه خيراً، ووصله بالصهر وولّاه الوزارة ونجا عبد الغفار وحيوة بن قلاقس إلى إشبيلية فسار عبد الرحمن سنة سبع وخمسين إليها فقتلهم وقتل خلقاً ممن كان معهم واستراب من يومئذ بالعرب إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي. ولما كانت سنة إحدى وستين غدر بشقنا رجلان من أصحابه وجاءا برأسه إلى عبد الرحمن. ثم سار عبد الرحمن بن حبيب الفهريّ المعروف بالقلعي من إفريقية إلى الأندلس مظهراً للدعوة العبّاسيّة، ونزل بتدمير، واجتمع إليه البربر. وكان سليمان بن يقظان عاملا على برشلونة فكتب إليه يدعوه إلى أمره فلم يجبه فسار إليه في البربر، ولقيه سليمان فهزمه وعاد إلى تدمير. وزحف إليه عبد الرحمن من قرطبة فاعتصم بجبل بلنسية فبذل عبد الرحمن فيه الأموال فاغتاله رجل من أصحابه البربر وحمل رأسه إلى عبد الرحمن، وذلك سنة اثنتين وستين. ورجع عبد الرحمن إلى قرطبة. ثم خرج دحية الغساني في بعض حصون البيرة فبعث إليه شهيد بن عيسى فقتله، وخالف البربر وعليهم بحرة بن البرانس، فبعث بدرا مولاه فقتله، وفرق جموعهم. وفر القائد السلمي من قرطبة إلى طليطلة وعصى بها فبعث حبيب بن عبد الملك، وحاصره فهلك في الحصار. وزحف عبد الرحمن سنة أربع

وستين إلى سرقسطة، وبها سليمان بن يقظان، والحسين بن عاصي، وقد حاصرهما ثعلبة بن عبيد من قواده فامتنعت عليه، وقبض سليمان، على ثعلبة، وبعث إلى ملك الفرنج فجاء وقد تنفّس عنه الحصار، فدفع إليه ثعلبة. ثم غلب الحسين على سليمان وقتله، وانفرد فحاصره عبد الرحمن حتى صالحه. وسار إلى بلاد الفرنج والبشكنس ومن وراءهم من الملوك، ورجع إلى وطنه. وغدر الحسين بسرقسطة فسار إليه عامله ابن علقمة فأسر أصحابه ثم سار إليه عبد الرحمن سنة ست وستين وملكها عنوة، وقتل الحسين وقت أهل سرقسطة. ثم خرج سنة ثمان وستين أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن فلقيه بقسطلونة وهزمه، وأثخن في أصحابه. ثم لقيه ثانية سنة تسع وستين فهزمه. ثم هلك سنة سبعين في

أعمال طليطلة، وقام مكانه أخوه قاسم وغزاه عبد الرحمن فحاصره فجاء بغير أمان فقتله. ثم توفي عبد الرحمن سنة إثنتين وسبعين ومائة لثلاثة وثلاثين سنة من إمارته.

وفاة عبد الرحمن الداخل وولاية ابنه هشام:

ولما هلك عبد الرحمن كان إبنه الأكبر سليمان والياً على طليطلة وكان إبنه هشام على ماردة، وكان قد عهد له بالأمر. وكان ابنه عبد الله المسكين حاضراً بقرطبة فاخذ البيعة لأخيه هشام، وبعث إليه بالخبر فسار إلى قرطبة، وقام بالدولة، وغص بذلك أخوه سليمان فأظهر الخلاف بطليطلة، ولحق به أخوه عبد الله. وبعث هشام في أثره فلم يلحق. وسار هشام في العساكر فحاصرهم بطليطلة، وخالفه سليمان إلى قرطبة فلم يظفر بشيء منها وبعث هشام بن عبد الملك في أثره فقصد ماردة فحاربه عامله، وهزمه الله بغير أمان ودخل في طاعته فأكرمه. ثم بعث سنة أربع وسبعين ابنه معاوية لحصار أخيه سليمان بتدمير فدّوخ نواحيها، وهرب سليمان إلى جبال بلنسية فاعتصم بها، ورجع معاوية إلى أبيه بقرطبة. ثم طلب سليمان العبور إلى عدوة البربر بأهله وولده فأحازه هشام، وأعطاه ستين ألف دينار صلحا على تركه أبيه. وأقام بعدوة المغرب، وسار معه أخوه عبد الله. ثم خرج على هشام سعيد بن الحسين بن يحمى الانصاري بطرسوسة من شرق الاندلس، وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه. ودعى إلى اليمانية فملكها، وأخرج عاملها يوسف العبسي فعارضه موسى بن فرقوق في المضرية بدعوة هشام، وخرج أيضا مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة، وملك مدينة سرقسطة وواشقة، وكان هشام في شغل بأمر أخَوَيه فلما فرغ منهما بعث أبا عثمان عبيد الله بن عثمان بالعساكر إلى مطروح فحاصره بسرقسطة أياماً، ثم أفرج عنه ونزل بطرسوسة قريبا، وأقام بتحيفة، ثم غدر بمطروح بعض أصحابه، وجاء برأسه إلى ابي عثمان فبعث به إلى هشام وسار إلى سرقسطة فملكها. ثم دخل إلى دار الحرب غازيا، وقصد ألبة والقلاع فلقي العدو وظفر بهم، وفتح الله عليه وذلك سنة خمس وسبعين، وبعث هشام العساكر مع يوسف بن نحية إلى جليقة فلقي ملكه ابن مند، وهزمه، وأثخن في العدوّ. وفي هذه السنة دخل أهل طليطلة في طاعة الأمير هشام بعد منصرف أخويه عنهم فقلبهم، وأمّنهم وبعث عليها ابنه الحكم واليا فضبطها وأقام

بها. وفي سنة ست وسبعين بعث هشام وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبة والقلاع وأثخن في نواحيها. ثم بعثه في العساكر إلى اربُونَة وجَرَندَة فأثخن فيهما، ووطىء أرض سلطانية، وتوغّل في بلادهم، ورجع بالغنائم التي لا تحصى. واستمدّ الطاغية بالبشكنس وجيرانه من الملوك فهزمهم عبد الملك، ثم بعث بالعساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى بلاد جلّيقة فأثخنوا في بلاد العدو، وغنموا ورجعوا. وفي هذه السنة هاجت فتنة بتاكدنا، وهي بلاد رندة من الأندلس، وخلع البربر هنالك الطاعة فبعث إليهم هشام بن عبد القادر بن أبان بن عبد الله مولى معاوية بن ابي سفيان فأبادهم، وخرّب بلادهبم، وفّر من بقي منهم فدخلوا في القبائلى وبقيت تاكدنا قفراء خالية سبع سنين. وفي سنة تسع وسبعين بعث هشام الحاجب عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث في العساكر إلى جليقة فانتهى إلى مّيُورقَةٌ(2) فجمع ملك الجلالقة واستمد بالملوك ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه، وأتبعه عبد الملك وتوغل في بلادهم. وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك، وأثخنوا في البلاد واعرضهم عسكر الأفرنج فنالوا منهم بعض الشيء، ثم خرجوا ظافرين سالمين.

وفاة هشام وولاية ابنه الحكم:

ثم توفي هشام بن عبد الرحمن سنة ثمانين ومائة، لسبع سنين من إمارته وقيل ثمان شن، وكان من أهل الخير والصلاح، وكان كثير الغزو والجهاد، وهو الذي أكمل بناء الجامع بقُرطُبة الذي كان أبوه شرع فيه، وأخرج المصرف لآخذي الصدقة على الكتاب والسنة. ولما مات ولي ابنه الحكم بعده فاستكثر من المماليك وارتباط الخيل، واستفحل ملكه وباشر ا أمور بنفسه. ولأول ولايته أجاز ابنه عبد الله البَلَنسِي من

عدوة المغرب فملك بلنسية، ثم أخوه سليمان من طنجة فحاربهما الحَكَم سنة، ثم ظفر بعمّه سليمان فقتله سنة أربع وثمانين. وأقام عبد الله ببلنسية وكفّ عن الفتنة، وارسل الحكم في الصلح على يد يحيى بن الفقيه وغيره فصالحه سنة ست وثمانين. وفي خلال الفتنة مع عمّيه سليمان وعبد الله اغتنم الفرنج الفرصة واجتمعوا

وقصدوا برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها. وبعث الحَكَم العساكر إلى برشلونة مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الجلالقة فأثخن فيها، وخالفهم العدو إلى المضايق فرجع إلى التعبيه وظفر بهم، ورجع إلى بلاد الإسلام ظافراً .وفي سنة إحدى وثمانين ثار البهلول بن مرزوق بناحية الثغر، وملك سرقُسطة. وفيها جاء عبد الله البلنسيّ عم الحكم كما ذكرناه وفي هذه السنة خالف عبيدة بن عمير بطليطلة، وكان القائد عَمروس بن يوسف من قواد الحكم بطلبيرة فكتب إلى هشام بحصارهم فحاصرهم. ثم استمال بني مخشي من أهل طليطلة فقتلوا عٌبيدة وبعثوا برأسه إلى عمروس فبعث به إلى الحَكَم، وأنزل بني مخشي عنده فقتلهم البربر بطلبيرة بثار كاتب لهم، وقتل عمروس الباقين واستقامت تلك الناحية. واستعمل عمروس ابنه يوسف على مدينة طليطلة، ولحق بالفرنج سنة تسع وثمانين بعض أهل الحرابة، وأطمعوا الفرنج في ملك طليطلة فزحفوا إليها، وملكوها وأسروا أميرها يوسف وحبسوه بصخرة قيسر(1) وسار

عمروس من فوره إلى سرقسطة ليحميها من العدو وبعث العساكر مع ابن عمه فلقي العدوّ وهزمهم، وسار إلى صخرة قيسر وقد وهن الفرنج من الهزيمة فافتتحها، وبعث عمروس نائبه وخلص يوسف وعظم صيته.

وقعة الربض:

كان الحَكَمٌ في صدر ولايته قد انهمك في لذّاته، واجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به، وامتنع فخلعوه وبايعوا

محمد بن القاسم من عمومة هشام. وكان الربض الغربي من قرطبة محلّة متصلة بقصره، وحصروه سنة تسعين ومائة، وقاتلهم فغلبهم وافترقوا، وهدم دورهم ومساجدهم، ولحقوا بفاس من أرض العدوة، إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر وافتتحها، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش كما مرّ. وكان مقدمهم أبا حفص عمر البلوطي فلم يزل رئيسا عليهم، وولده من بعده إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم.

وقعة الحفرة بطليطلة:

كان أهل طليطلة يكثرون الخلاف، ونفوسهم قويّة لحصانة بلدهم فكانت طاعتهم ملتانة فأعيا الحكم أمرهم، واستقدم عمروس بن يوسف من الثغر، وكان أصله من أهل مدينة وشقة من المولّدين، وكان عاملا عليها فداخله في التدبير على أهل طليطلة، وكتب له بولايتها فأنسوا به، واطمأنوا إليه. ثم داخلهم في الخلع وأشار عليهم ببناء مدينة يعتزل فيها مع أصحاب السلطان فوافقوه، وامضي رأيه في ذلك. ثم بعث صاحب الأعلى(1) إلى الحَكَم يستنجده على العدّو فبعث العساكر مع ابنه عبد الرحمن والوزراء، ومرّوا بطليطلة و لم يعرض عبد الرحمن لدخولها ثم رجع العدو، وكفى الله شره فاعتزم عبد الرحمن على العود إلى قرطبة، فأشار عمروس عند ذلك على أهل طليطلة بالخروج إلى عبد الرحمن فخرج إليه الوجوه، وأكرمهم، ودس خادم الحكم كتابه إلى عمروس بالحيلة على أهل طليطلة فأشار عليهم عمروس بأن يدخلوا عبد الرحمن البلد، وأنزله بداره واتخذ صنيعاً للناس، واستعد له (2) على موعد لذلك فكان يدخلهم من باب، ويخرجهم من آخر خشية الزحام فيدخلون إلى حفرة في القصر وتضرب رقابهم عليها إلى أن قتل معظمهم، وفطن الباقون فنفروا وحسنت طاعتهم من بعد ذلك إلى أيام الفتنة كما نذكر. ثم عصى اصبغ بن عبد الله

بماردَة، وأخرج عامل الحكم فسار إليه الحكم وحاصره وجاءه الخبر بعصيان أهل قُرطُبة فرجع وقتلهم. ثم استنزل أصبغ من بعد ذلك وأنزله قرطبة. وفي سنة اثنتين وتسعين جمع لزريق بن قارله ملك الإفرنج وسار لحصار طرطوسة(1) فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه، وفتح الله على المسلمين. ثم عاود أهل ماردة الخلاف عن الحكم سنة أربع وتسعين فسار إليهم وقاتلهم ثلاث سنين. وكثر عيث الفرنج في الثغور فسار إليهم سنة ست وتسعين فافتتح الحصون، وخرّب النواحي وأثخن في القتل والسبي والنهب، وعاد إلى قرطبة ظافرا. وفي سنة مائتين بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فسار فيها وخربها ونهبها، وهدم عدة من حصونها، وأقبل إليه ملك الجلالقة في جموع عظيمة، وتنازلوا على نهر

واقتتلوا عليه أياماً، ونال المسلمون منهم أعظم النيل، وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة، ثم كثرت الأمطار ومدّ النهر، وقفل المسلمون ظافرين.

وفاة الحكم وولاية ابنه عبد الرحمن الأوسط:

ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته، وهو أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتّخذ المماليك، وكان يسميّهم الخرس لعجمتهم وبلغت عدّتهم خمسة آلاف، وكان يباشر الأمور بنفسه، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس. وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي وطأ الْمُلْكَ لعقبه بالأندلس. ولما مات قام بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن فخرج عليه لأول إمارته عبد الله البلنسي عم أبيه، وسار إلى تدمير يريد قرطبة فتجهّز له عبد الرحمن فخام عن اللقاء، ورجع إلى بلنسية ومات أثر ذلك فنمل عبد الرحمن ولده وأهله إلى قرطبة. ثم غزا لأوّل ولايته إلى جليقة فأبعد وأطال الغيبة، وأثخن في أمم النصرانية هنالك ورجع. وقدم عليه سنة ست ومائتين من العراق زرآب المغنّي مولى المهدي، ومعلم إبراهيم الموصلّي، وإسمه علي بن نافع فركب لتلقيه وبالغ في إكرامه، وأقام عنده بخير حال. وأورث صناعة الغناء بالأندلس، وخلف ولده مخلفه كبيرهم عبد الرحمن في صناعته وحظوته. وفي سنة سبع كانت وقعة بالثغر، كان الحكم قد قبض على عاملها ربيع، وصلبه حيّاً لما بلغه من ظلمه. وهلك الحكم أثر ذلك فتوافى المتظلمون من ربيع إلى قرطبة يطلبون ظلاماتهم، ومعظمهم جند إلبيرة ووقفوا بباب القصر، وشغبوا، وبعث عبد الرحمن من يسكتهم فلم يقبلوا فركبت العساكر إليهم وأوقعوا بهم. ونجا الفل منهم إلى البيرة وبالشر، وتتبعهم عبد الرحمن.

وفي هذه السنة نشأت الفتنة بين المضرية واليمانّية واقتتلوا، فهلك منهم نحو من ثلاثة آلاف. وبعث عبد الرحمن إليهم يحيى بن عبد الله بن خالد في جيش كثيف، ليكفهم عن الفتنة فكفّوا عن القتال لما أحسوا بوصوله. ثم عاودوا الحرب عند مغيبه، وأقاموا على ذلك سبع سنين.

وفي سنة ثمان أغزا حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى ألبة والقلاع فخرب كثيراّ من البلاد وانتسفها، وفتح كثيراً من حصونهم، وصالح بعضا على الجزية واطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافراً. وفي سنة ثلاث عشرة انتقض عليه أهل ماردة وقتلوا عامله فبعث إليهم العساكر فافتتحوها، وعاودوا الطاعة، وأخذوا رهائنهم وخرّبوا سورها، ورجعوا عنهم. ثم أمر عبد الرحمن بنقل حجارة السور إلى النهر فعاودوا الخلاف، وأسروا العامل، وأصلحوا سورهم فسار إليهم عبد الرحمن سنة أربع عشرة، وحاصرهم فامتنعوا عليه. ثم بعث العساكر سنة سبع عشرة فحاصرها فامتنعوا، ثم حاصرها سنة عشرين وافتتحها، ونجا فلهم مع محمود بن عبد الجبار منهم إلى ملت شلوط فاعتصم بها سنة عشرين ومائتين، فبعث عبد الرحمن العساكر لحصاره فلحق بدار الحرب، واستولى على حصن من حصونهم، أقام به خمسة أعوام حتى حاصره أدفونش ملك الجلالقة وافتتح الحصن وقتل محمودا وجميع أصحابه سنة خمس وعشرين.

وفي سنة خمس عشرة خرج بمدينة طليطلة هاشم الضراب من أهل واقعة الربض، واشتدّت شوكته واجتمعت له الخلق، وأوقع بأهل شنت بريّة، فبعث عبد الرحمن العساكر لقتاله فلم يصيبوا منه. ثم بعث عساكر أخرى فقاتلوه بنواحي دورقة فهزموه، وقتل هو وكثير من أصحابه. واستمر أهل طليطلة على الخلاف. وبعث عبد الرحمن ابنه أمية لحصارها فحاصرها مدة، ثم أفرج عنها ونزل قلعة رياح، وبعث معسكراً للاغارة عليها.
وكان أهل طليطلة قد خرجوا في أتباعه إلى قلعة رياح فكمن لهم فأوقعوا به فاغتم لذلك،
وهلك لأيام قليلة. وبعث عبد الرحمن العساكر لحصارها ثانيا فلم يظفروا وكمن المغيرون عليها بقلعة رياح يعاودونها بالحصار كل حين.
ثم بعث عبد الرحمن أخاه الوليد في العساكر سنة إثنتين وعشرين لحصارها، وقد أشرفوا على الهلكة، وضعفوا عن المدافعة فاقتحمها عنوة وسكن أهلها، وأقام إلى آخر ثلاث وعشرين، ورجع. وفي سنة أربع وعشرين بعث عبد الرحمن قريبه عبيد الله بن البلنسي لي العساكر لغزو بلاد ألبة والقلاع، ولقي العدّو فهزمهم، وكثر السبي والقتل، ثم خرج لزريق ملك الجلالقة، وأغار على مدينة سالم بالثغر، فسار إليه فرنون بن موسى وقاتله فهزمه، وأكثر القتل في العدو والأسر. ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل البة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه. ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقة فدوخّها وافتتح عدة حصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم. وفي سنة ست وعشرين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض سرطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تَطِيلَة، ولقيهم العدو فصبروا حتى هزم الله عدوهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود، ووقعت بينه وبن بعض قواد عبد الرحمن ملاحاة، وأغلظ له القائد فكان ذلك سبباً لانتقاضه فعصى على عبد الرحمن، وبعث إليه الجيوش مع الحارث بن بزيغ فقاتله موسى، وانهزم وقتل ابن عمه. ورجع الحارث إلى سرقسطة. ثم زحف إلى تطيلة، وحاصر بها موسى حتى نزل عنها على الصلح إلى أربط وأقام الحارث بتطيلة أياماً. ثم سار لحصار موسى في أربط فاستنصر موسى بغرسية من ملوك الكفر فجاءه، وزحف الحارث وأكمنوا له فلقيهم على نهر بَلْبَة، فخرجت عليه الكمائن بعد أن أجاز النهر، وأوقعوا به وأسروه، وقد فقئت عينه. واستشاط عبد الرحمن لهذه الواقعة، وبعث ابنه محمداً في العساكر سنة تسع وعشرين. وحاصر موسى بتطيلة حتى صالحه، وتقدم إلى يَنْبَلُونَة فأوقع بالمشركين عندها، وقتل غرسية صاحبها الذي أنجد موسى على الحارث. ثم عاود موسى الخلاف فزحفت إليه العساكر فرجع إلى المسالمة، ورهن ابنه عند كبد الرحمن على الطاعة، وقبله عبد الرحمن وولاّه تطيلة فسار إليها، واستقّرت في عمالته. ثم كان في هذه السنة خروج المجوس في أطراف بلاد الأندلس، ظهروا سنة ست وعشرين بساحل أشبونة ،
فكانت بينهم وين أهلها الحرب ثلاثة عشر يوماً. ثم تقدموا إلى قادس، ثم إلى أشدونة، فكانت بينهم وبين المسلمين بها وقعة. ثم قصدوا إشبيلية ونزلوا لريبا منها، وقاتلوا أهلها منتصف المحّرم من سنة ثمان وعشرين فهزمهم المسلمون وغنموا. ثم مضوا إلى باجة، ثم إلى مدينة أشبونة. ثم أقلعوا من هنالك، وانقطع خبرهم

وسكنت البلاد، وذلك سنة ثلاثين. وتقدم عبد الرحمن الأوسط بإصلاح ما خربوه من البلاد، وأكثف الحامية بها. وذكر بعض المؤرخين حادثة المجوس هذه سنة ست وأربعين، ولعلّها غيرها والله أعلم.وفي سنة إحدى وثلاثين بعث عبد الرحمن العساكر إلى جليقة فدوخوها وحاصروا مدينة ليون، ورموا سورها فلم يقدروا عليه، لأنّ عرضه سبعة عشر ذراعاً فثلموا فيه ثلمة ورجعوا. ثم اغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم بن مغيث في العساكر إلى بلاد برشلونة فجاز في نواحيها، وأجاز الدروب التي تسمى السرب إلى بلاد الفرنجة فدوخها قتلا واسراً وسبياً، وحاصر مدينتهم العُظْمَى وعاث في نواحيها وقفل. وقد كان ملك القسطنطينية توفلس بن نوفلس بن نوفيل بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية، ويطلب مواصلته فكافأه عبد الرحمن عن هديته، وبعث إليه يحيى العزال من كبار الدولة. وكان مشهورا في الشعر والحكمة فأحكم بينهما المواصلة، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس. وفي سنة ست وثلاثين هلك نصر الحفي القائم بدولة الأمير عبد الرحمن، وكان يضغن على مولاه، ويمالىء ابنه عبد الرحمن على ابنه الآخر وليّ عهده، بما كانت أم عبد الله قد اصطنعته وكانت حظية عند السلطان، ومنحرفة عن ابنه محمد ولي العهد فداخلت نصراً هذا في أمرها، وداخل هو طبيب الدار في أن يسم محمداً ولي العهد. ودس الطبيب بذلك إلى الأمير مع قهرمانة داره، وأن نصراً أكرهه على إذابة السمّ فيه، وباكر نصر القصر ودخل على السلطان يستفهمه عن شراب الدواء فوجده بين يديه، وقال له أن نفسي قد بشعته فاشربه أنت فوجم، فأقسم عليه فلم يسمه خلافه فشربه، وركب مسرعاً إلى داره فهلك لحينه، وحسم السلطان علّة ابنه عبد الله، وكان من بعدها مهلكه.

وفاة عبد الرحمن الأوسط وولاية ابنه محمد:

ثم توفى عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هاشم بن عبد الرحمن الداخل، في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين لإحدى وثلاثين سنة من إمارته، وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة، وكانت أيامه هدوّ وسكون. وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمنتزهات، وجلب إليها الماء، وجعل له مصنعاً اتخذه الناس شريعة. وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه فأتمه ابنه محمد بعده. وبنى بالأندلس جوامع كثيرة، ورتّب رسوم المملكة واحتجب عن العامّة، ولما مات ولي مكانه ابنه محمد فبعث لأوّل ولايته العساكر مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح لإصلاح أسوارها. وكان أهل طليطلة خربوها فرمَّها وأصلح حالها، وتقدم إلى طليطلة فعاث في نواحيها. ثم بعث الجيوش مع موسى بن موسى صاحب تطيلة فعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها ورجع، وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برشلونة وما وراءها فعاثوا فمها، وفتحوا حصون برشلونة ورجعوا. ثم سار محمد سنة أربعين في جيوشه إلى طليطلة فاستمدوا ملك جليقة، وملك البشكنس فساروا لإنجادهم مع أهل طليطلة فلقيهم الأمير محمد على وادي سليط، وقد أكمن لهم فأوقع بهم. وبلغ عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً. ثم سار إليهم سنة ثلاث وأربعين فأوقع بهم ثانية، وأثخن فيهم وخرب ضياعهم فصالحوه ثم نكثوا. وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكب المجوس، ونزلوا بإشبيلية والجزيرة، وأحرقوا مسجدها. ثم عادوا إلى تدمير، ودخلوا قصر ارْيولة وساروا إلى سواحل الفرنجة وعاثوا فيها،

وانصرفوا فلقيهم مراكب الأمير محمد فقاتلوهم، وغنموا منهم مركبين، واستشهد جماعة من المسلمين، ومضت مراكب المشركين إلى ينبلونة، واشروا صاحبها غرسية وفدّى نفسه منهم بسبعين ألف دينار. وفي سنة سبع وأربعين حاصر طليطلة ثلاثين يوماً. ثم بعث الأمير محمد سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي البة والقلاع فعاثوا فيها، وجمع لزريق للقائم فلقيهم وانهزم، وأثخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر وكان فتحاً لا كفاء له. ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة فأثخن وخرب، وانتقض عليه عبد الرحمن بن مروان الجليقي فيمن معه من المولدين، وساروا إلى التخم، ووصل يده بأذفونش ملك

جليقة فسار إلى الوزير هاشم بن عبد الرحمن في عساكر الأندلس، سنة ثلاث وستين فهزمه عبد الرحمن وحصل هاشم في أسره. ثم وقعت المراودة في الصلح على أن يترل عبد الرحمن بطليوس (1) ويطلق الوزير هاشماً فتم ذلك سنة خمس وستين، ونزل عبد الرحمن بطليوس، وكانت خربة فشيدها وأطلق هاشماً بعد سنتين ونصف من أمره. ثم تغير أذفونش لعبد الرحمن بن مروان وفارقه، وخرج من دار الحرب بعد أن قاتله ونزل مدينة أنْطانية بجهات ماردة وهي خراب فحصّنها، وملك ما إليها من بلاد اليون وغيرها من بلاد الجلالقة، واستضافها إلى بطليوس. وكان مظفر بن موسى بن ذي النون الهواري عاملاً بشنت برية فانتقض، وأغار على أهل طليطلة فخرجوا إليه في عشرين ألفاً، ولقيهم فهزمهم، وانهزم معهم مطرف بن عبد الرحمن، وقتل من أهل طليطلة خلقٌ. وكان مطرّف بن موسى فرداً في الشجاعة ومحلاً من النسب، ولقي شنجة صاحب ينبلونة أمير البشكنس فهزمه شنجة وأسره، وفرّ من الأسر، ورجع إلى شنت بريّة فلم يزل بها قويم الطاعة إلى أن مات آخر دولة الأمير محمد. وفي سنة إحدى وستين انتقض أسد بن الحارث بن بديع بتاكرتا(2) وهي رندة فبعث إليهم الأمير محمد العساكر، وحاصروهم حتى استقاموا على الطاعة. وفي سنة ثلاث وستين اغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب، وجعل طريقه على ماردة، وكان بها ابن مروان الجليقي، ومرت طائفة من عساكر المنذر بماردة فخرج عليهم ابن مروان، ومعه جمع من المشركين استظهر بهم فقتل تلك الطائفة عن آخرهم وفي سنة أربع وستين بعث ابنه المنذر ثانية إلى بلد ينبلونة، ومر بسرَقُسْطَة فقاتل أهلهما، ثم تقدّم إلى تطيلة وعاث في نواحيها وخرّب بلاد بني موسى، ثم لوجهه إلى ينبلونة فدوخها ورجع. وفي سنة ست وستين أمر الأمير محمد بإنشاء المراكب بنهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط، ويأتي جليقة من ورائها فلما تمّ إنشاؤها، وجرت في البحر أصابها الريح وتقطعت فلم يسلم منها إلا القليل. وفي سنة سبع وستين انتقض عمر بن حفصون بحصن يشتر من جبال مالقة، وزحف إليه عساكر تلك الناحية فهزمهم، وقوي أمره، وجاءت عساكر الأمير محمد فصالحهم ابن حفصون واستقام أمر الناحية. وفي سنة ثمان وستين بعث الأمير محمد ابنه المنذر لقتال أهل الخلاف

فقصد سرقُسطَة، وحاصرها، وعاث في نواحيها، وفتح حصن ريطة. ثم تقدم إلى دير بروجة، وفيه محمد بن لبّ بن موسى(1) ثم قصد مدينة لاردة وقرطاجنة، ثم دخل دار الحرب وعاث في نواحي البة والقلاع، وفتح

منها حصونا ورجع. وفي سنة سبعين سار هاشم بن عبد العزيز بالعساكر لحصار عمر بن حفصون بحصن يشتر، واستنزله إلى قرطبة فأقام بها، وفيها شرع إسمعيل بن موسى ببناء مدينة لاردة فجمع صاحب برشلونة لمنعه من ذلك، وسار إليه فهزمه إسمعيل وقتل أكثر رجاله، وفي سنة إحدى وسبعين سار هاشم بن عبد العزيز في العساكر إلى سرقسطة فحاصرها هاشم وافتتحها، ونزلوا جميعا على حكمه. وكان في عسكره عمر بن حفصون واستدعاه من الثغر فحضر معه هذه الغزاة فهرب، ولحق بيشتر فامتنع به، وسار هاشم إلى عبد الرحمن بن مروان الجليقي، وحاصره بحصن منت مولن. ثم رجع عنه فأغار ابن مروان على إشبيلية ولقنت(2). ثم نزل منت شلوط فامتنع فيه، وصالح عليه الأمير محمداً، واستقام على طاعته إلى أن هلك الأمير محمد. وكان ملك رومة والفرنجة لعهده اسمه فرلبيب بن لوزنيق.

وفاة الأمير محمد وولاية ابنه المنذر:

ثم توفي الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في شهر صفر من سنة ثلاث وسبعين، لخمس وثلاثين سنة من إمارته، ووليَ بعده ابنه المنذر فقتل لأوّل ولايته هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه، وسار في العساكر لحصار ابن حفصون فحاصره بحصن يشتر سنة أربع وسبعين، وافتتح جميع قلاعه وحصونه. وكان منها ريّة وهي مالقة، وقبض على واليها من قبله عيشون فقتله. ولما اشتد الحصار على ابن حفصون سأل الصلح فأجابه، وأفرج عنه فنكث فرجع لحصاره، وصالح ثم نكث مرتين فأقام المنذر على حصاره وهلك قريبا فانفرج عن ابن حفصون.

وفاة المنذر وولاية أخيه عبيد الله ابن الأمير محمد:

ثم توفي المنذر محاصراً لابن حفصون بجبل يشتر سنة خمس وسبعين لسنتين من إمارته(1)، فولي مكانه أخوه عبد الله ابن الأمير محمد، وقفل بالعساكر إلى قرطبة، وقد اضطربت نواحي الأندلس بالثوار. ولما كثر الثوّار قلّ الخراج لامتناع أهل النواحي من الأداء. وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار، مائة ألف منها للجيوش، ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفرا فأنفقوا الوفر في تلك السنين، وقل الخراج.

أخبار الثوار وأولهم ابن مروان ببطليوس وأشبونة:

قد تقدّم لنا أن عبد الرحمن بن مروان انتقض على الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة خمس وخمسين في غزاته إلى بلاد الجلالقة، واجتمع إليه المولّدون وصار إلى التخم، ووصل يده باذفونش ملك الجلالقة فعرف لذلك بالجلّيقي. وذكرنا كيف سار إليه هاشم بن عبد العزيز سنة ثلاثين في عساكر الأندلس فهزمه ابن مروان، وأسره. ثم وقع الصلح على إطلاق هاشم، وأن يترل ابن مروان بطليوس فتمّ ذلك سنة خمس، ونزل عبد الرحمن بطليوس فشيّدها وترسّ بالدولتين. ثم تغيّر له اذفونش وقاتله ففارق دار الحرب، ونزل مدينة أنْطانية جهات ماردة فحصّنها، وهي خراب، وملك ما إليها من بلد اليون وغيرها من بلاد الجلالقة، واستضافها إلى بطليوس، واستعجل له الأمير عبد الله على بطليوس وكان معه بدار الحرب سعدون السرساقي وكان من

الأبطال الشجعان، وكان دليلا للغزو، وهو من الخارجين معه. فلما نزل عبد الله بطليوس انتزى سعدون ببعضى الحصون ما بين قلنيرة(2)

وباجة(1). ثم ملك قلنيرة وترس(2) بأهل الدولتين إلى أن قتله أذفونش في بعض حروبه معه.

ابن تاكيت بماردة:

كان محمد بن تاكيت من مصمودة، وثار بناحية الثغر أيام الأمير محمد، وزحف إلى ماردة وبها يومئذ جند من العرب وكتامة فأعمل الحية في إخراجهم منها، ونزلها هو وقومه مصمودة.

بقية خبر ابن مروان:

ولما ملك ابن تاكيت ماردة زحفت إليه العساكر من قرطبة وجاء عبد الرحمن مروان من بطليوس مدداً له فحاصروهم اشهراً، ثم اقلعوا. وكان بماردة جموع من العرب ومصمودة وكتامة فتحيل محمد بن تاكيت على العرب، وكتامة وأقاربهم فأخرجهم واستقل بماردة هو وقومه، وعظمت الفتنة بينه وبين عبد الرحمن بن مروان صاحب بطليوس بسبب مظاهرته عليه، وحاربه فهزمه أن مروان مراراً كانت إحداها على لقنت، استلحم فيها مصمودة فقصّت من جناح ابن تاكيت واستجاش بسعدون السرساقي صاحب قلنيرة فلم يغنه، وعلا كعب ابن مروان عليهم وتوثق أمره، وطلبه ابن حفصون في الولاية فامتنع ثم هلك أثر ذلك سنة(3) أيام الأمير عبد الله وولي ابنه عبد الرحمن بن مروان، وأثخن في البرابرة المجاورين له، وهلك لشهرين من ولايته فقعد الأمير عبد الله على بطليوس لأميرين من العرب ولحق من بقي من ولد عبد الرحمن بحصن شونة، وكانا إثنين من أعقابه، وهما مروان

وعبد الله ابنا ابنه محمد، وعمّهما مروان. ثم خرجا من حصن شونة ولحقا بآخر من أصحاب جدّهما عبد الرحمن. ثم اضطرب الأميران ببطليوس وتنازعا، وقتل أحدهما الأخر، واستقل ببطليوس، ثم تسور عبد الله منها سنة ست وثمانين فقتله وملك بطليوس، واستفحل أمره، والمعجّل له الأمير عبد الله عليها. ونازل حصون البرابرة حتى طاعوا له، وحارب ابن تاكيت صاحب ماردة. ثم اصطلحوا وأقاموا جميعاً طاعة الأمير عبد الله، ثم تحاربوا فاتصلت حروبهم إلى آخر دولته.

ثورة بى بن محمد بسرقسطة وتطيلة:

ثم ثار لب بن محمد بن موسى بسرقُسطة سنة ثمان وخمسين ومائتين، أيام الأمير محمد فتردّدت إليه الغزوات حتى استقام، وأسجل(1) له الأمير على سرقسطة وتطيلة وطرسونة فأحسن حمايتها، واستفحلت إمارته فيها. ونازله ملك الجلالقة أذفونش في بعض الأيام بطرسونة فترل إليه وردّه على عقبه منهزماً وقتل نحواً من ثلاثة آلاف من قومه، وانتقض على الأمير عبد الله وحاصر تطيلة.

ثورة مطرف بن موسى بن ني النون الهواري بشنة بريه:

كان لمطرف صيت من الشجاعة ومحل من النسب والعصبيّة فثار في شنت برية، وكانت بينه وبين صاحب ينبلونة سلطان البشكنس من الجلالقة حروب أسرة العدو في بعضها ففر من الأسر، ورجع إلى شنت بريّة، واستقامت طاعته إلى آخر دولة الأمير محمد.

ثورة الأمير ابن حفصون في يشتر ومالقة ورندة واليس:

وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن اذفونش القس،

هكذا نسبه ابن حيان، أوّل ثائر كان بالأندلس، وهو الذي افتتح الخلاف بهما وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن في سني السبعين والمائتين. خرج بجبل يشتر من ناحية ريّة ومالقة، وانضم إليه الكثير من جند الأندلس ممن في قلبه مرض في الطاعة، وابتنى قلعته المعروفة به هنالك، واستولى على غرب الأندلس إلى رندة وعلى السواحل من الثجة إلى البيرة، وزحف إليه هاشم بن عبد العزيز الوزير فحاصره واستنزله إلى قرطبة سنة سبعين. ثم هرب ورجع إلى حصن يشتر ولما توفي الأمير محمد تغلب على حصن الحامة ورية ورندة والثجة، وغزاه المنذر سنة أربع وسبعين فافتتح جميع قلاعه وقتل عامله برية، ثم سأل الصلح فعقد له السمنذر. ثم نكث ابن حفصون وعاد إلى الخلاف فحاصره المنذر إلى أن هلك محاصراً له فرجع عنه الأمير عبد الله، واستفحل أمر ابن حفصون والثوار، وتوالت عليه الغزوات والحصار. وكاتب ابن الأغلب صاحب أفريقية، وهاداه وأظهر دعوة العباسية بالأندلس فيما إليه، وتثاقل ابن الأغلب على إجابته لاضطراب إفريقية فأمسك وأكثر الاجلاب على قرطبة، وبنى حصن بلاية قريباً منها، وغزاه عبد الله وافتتح بلاية والثجة. ثم قصده في حصنه فحاصره أياماً وانصرف عنه فاتبعه ابن-فصون فكر عليه الأمير عبد الله وهزمه، وأثخن فيه، وافتتح البيرة من أعماله. ووالى عليه الحصار في كل سنة، فلما كانت وثمانين (1) عمر بن حفصون وخالص ملك الجلالقة فنبذ إليه أمراؤه بالحصون عهده، وسار الوزير أحمد بن أبي عبيدة لحصاره في العساكر فاستنجد بإبراهيم بن حجّاج الثائر بإشبيلية، ولقياه فهزمهما وراجع ابن حجّاج الطاعة، وعقد له الأمير عبد الله على إشبيلية وبعث ابن حفصون بطاعته للشيعة عندما تغلبوا على القيروان من يد الأغالبة، وأظهر بالأندلس دعوة عبيد الله.ثم راجع طاعة بني أمية عندما هيأ الله للناصر ما هيأه من استفحال الملك، واستنزل الثوار، واستقام إلى أن هلك سنة ست وثلاثمائة لسبع وثلاثين سنة من ثورته. وقام مكانه ابنه جعفر فأقره الناصر على أعماله. ثم دسّ إليه أخوه سليمان بن عمر بعض

رجالاهم فقتله لسنتين أو ثلاثة من ولايته. وكان مع الناصر فسار إلى أهل يشتر، وملكوه مكان أخيه، وذلك سنة ثمان وثلاثمائة، وخاطب الناصر فعقد له كما كان أخوه، ثم نكث وتكرر إنكاثه ورجوعه. ثم بعث إليه الناصر وزيره عبد الحميد بن سبيل بالعساكر، ولقيه فهزمه وقتله، وجيء برأسه إلى قرطبة. وقدّم المولّدون أخاه حفص بن عمر فانتكث ومضى على العصيان، وغزاه الناصر، وجهزّ العساكر لحصاره حتى استأمن له، ونزل إلى قرطبة بعد سنة من ولايته. وخرج الناصر إلى يشتر فدخله وجال في أقطاره، ورفع أشلاء عمر وابنه

جعفر، وسليمان فصلبهم بقرطبة، وخرب جميع الكنائس التي كانت في الحصون التي بنواحي ريّة وأعمال مالقة، ثلاثين حصنا فأكثر، وانقرض أمر بني حفصون، وذلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة والبقاء لله.

ثوار إشبيلية المتعاقبون:

ابن أبي عبيدة وابن خلدون وابن حجاج وابن مسلمة، وأوّل الثّوار كان بإشبيلية أمية بن عبد الله المغافر بن أبي عبيدة، وكان جده أبو عبدة عاملاً عليها من قبل عبد الرحمن الداخل. قال ابن سعيد، ونقله عن مؤرّخي الأندلس: الحجازي ومحمد بن الأشعث. وابن حيّان قال: لما اضطربت الأندلس بالفتن أيام الأمير عبد الله وسما رؤساء البلاد إلى التغلب، وكان رؤساء إشبيلية المرشّحون لهذا الشأن أميّة بن عبد الغافر، وكليب بن خلدون الحضرمي وأخوه خالد، وعبد الله بن حجاج. وكان الأمير عبد الله قد بعث على إشبيلية ابنه محمداً، وهو أبو الناصر والنفر المذكورون يحومون على الاستبداد فثاروا بمحمد بن الأمير عبد الله، وحصروه في القصر مع أمه وانصرف ناجياً إلى أبيه. ثم استبد أمية بولايتها على مداراتهم، ودسّ على عبد الله بن حجاج من قتله فقام أخوه إبراهيم مكانه فثاروا به، وحاصروه في القصر، ولما أحيط به خرج إليهم مستميتاً بعد أن قتل أهله، وأتلف موجودة فقتل، وعاثت العامّة برأسه، وذلك أعوام الثمانين والثلاثمائة. وكتب ابن خلدون وأصحابه بذلك إلى الأمير عبد الله، وأن أميّة خلع وقتل فتقبل منهم للضرورة، وبعث عليهم عمّه هشام بن عبد الرحمن، واستبدوا عليه، وتولى كبر ذلك (1)كريب ابن خلدون، واستبدّ عليهم بالرياسة. قال ابن حيان ونسبهم في حضرموت، وهم بإشبيلية نهاية في النباهة. مقتسمين الرياسة السلطانية والعلمية، وقال ابن حزم إنهم من ولد وائل بن حجر، ونسبهم في كتاب الجمهرة، وكذلك قال ابن حيان في بني حجّاج. قال الحجازي: ولما قتل عبد الله بن حجّاج قام أخوه إبراهيم مقامه، وظاهر بني خلدون على قتل أمية وأنزل نفسه منهم منزلة الخديم. واستبد كريب، وعسف أهل إشبيلية فنفر عنه الناس وتمكن لإبراهيم الغرض، وصار يظهر الرفق كلما أظهر كريب الغلظة، ويترل نفسه منزلة الشفيع والملاطف. ثم دس للأمير عبد الله بطلب الولاية ليشتد بكتابه على كريب بن خلدون، وكتب له بذلك عهده فاظهر للعامّة، وثاروا جميعا بكريب فقتلوه. واستقام إبراهيم بن حجاج على الطاعة للأمير عبد الله، وحصن مدينة قرمونة(2)، وجعل فيها مرتبط خيوله، وكان يتردّد ما بينها وبين إشبيلية. وهلك ابن حجاج، واستبد ابن مسلمة بمكانه. ثم استقرت إشبيلية آخراً بيد الحجّاج بن مسلمة، وقرمونة بيد محمد بن إبراهيم بن حجاج، وعقد له الناصر. ثم انتقض، وبعث له الناصر بالعساكر، وجاء ابن حفصون لمظاهرة ابن مسلمة فهزمته العساكر، وبعث ابنه شفيعاً فلم يشفعه فبعث ابن مسلمة بعض أصحابه سراً فداخل الناصر في المكر به وعقد له. وجاء بالعساكر وخرج ابن مسلمة للحديث معه فغدروا به، وملكوا عليه أمره، وحملوه إلى قرطبة. ونزل عامل السلطان إشبيلية، وكان من الثوار على الأمير عبد الله قريبه، وغدر به أصحابه فقتل.

مقتل الأمير محمد ابن الأمير عبد الله ثم مقتل أخيه المطرف:

كان المطّرف قد أكثر السعاية في أخيه محمد عند أبيهما، حتى إذا تمكنت سعايته، وظهر سخطه على ابنه محمد لحق حينئذ ببلد ابن حفصون. ثم استأمن ورجع، وبالغ المطرفّ في السعاية إلى أن حبسه أبوه ببعض حجر القصر وخرج لبعض غزواته، واستخلف

ابنه المطرف على قصره فقتل أخاه في محبسه مفتاتا(1) بذلك على أبيه، وحزن الأمير عبد الله على ابنه محمد، وضم إبنه عبد الرحمن إلى قصره وهو ابن يوم فربي مع ولده. ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطّرف بالصائفة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ففتك المطرف بالوزير لعداوة بينهما وسطا (2)به أبوه الأمير عبد الله، وقتله أشّر قتله ثأر فيها منه بأخيه محمد وبالوزير. وعقد مكان الوزير لابنه أميّة فسنح على الفقراء بأنفه، وترفّع على الوزراء فمقتوه وسعوا فيه عند الأمير عبد الله بأنه بايع جماعة من سماسرة الشّر لأخيه هشام بن محمد، ولفقت بذلك شهادات اعتمد القاضي حينئذ قبولها(3) وأشار للساعين أن يجعلوا في الجماعة للمشهود عليهم بالبيعة بعض أعدائه فتمّت الحيلة وقتل هشام أميّة الوزير وذلك سنة أربع وثمانين.

وفاة الأمير عبد الله بن محمل وولاية حافده عبد الرحمن الناصر بن محمد:

ثم توفي الأمير عبد الله في شهر ربيع الاول من آخر المائة الثالثة لستٍ وعشرين سنة من إمارته، وولي حافده عبد الرحمن ابن إبنه محمد قتيل أخيه المطّرف، وكانت ولايته من الغريب لأنه كان شاباً وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدّى إليها، وحازها دونهم، ووجد الأندلس مضطربة فسكنها، وقاتل المخالفين حتى أذعنوا، واستنزل الثوّار ومحا أثر ابن حفصون كبيرهم، وحمل أهل طليطلة على الطاعة، وكانوا معروفين بالخلاف والانتفاض. واستقامت الأندلس وسائر جهاتها في نيّف وعشرين سنة من أيامه ودامت أيامه نحواً من خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك النواحي، وهو أوّل من تسمّى بأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع

وعشرين وثلاثمائة فتلقّب بألقاب الخلفاء، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب، إلى أن انهزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين ومحص الله المسلمين فقعد عن الغزو بنفسه، وصار يردّد الصوائف في كل سنة فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج ما لم يطأه قبل أيام سلفه، ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة القسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم، والاحتمال فيما يعنّ من مرضاته. ووصل إلى سدنة ملوك الجلالقة من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين، كجهات قشتالة وينبلونة وما إليها من الثغور الجوفية فقبّلوا يده، والتمسوا رضاه، واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه. ثم سما إلى ملك العدوة فتناولى سبتة من أيدي أهلها سنة سبع عشرة، وأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة البربر، وأجاز إليه الكثير منهم كما نذكر في أخباره وبدأ أمره لأول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا، واستحجب موسى بن محمد بن يحمى. واستوزر عبد الملك بن جهور بن عبد الملك بن جوهر، وأحمد بن عبد الملك بن سعد، واهدى له هديته المشهورة المتعددة الأصناف. ذكرها ابن حيان وغيره وصب مما نقل من ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها، وهي خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين، وأربعمائه رطل من التبر،

ومصارفه خمسة وأربعين ألف دينار، ومن سبائك الفضة مائتا بدرة وإثنا عشر رطلاً من العود الهندي يختم عليه كالشمع، ومائة وثمانون رطلاً من العود الصمغي المتخير، ومائة رطل من العود الشبه المنقّى، ومائة أوقية من المسك الذكي المفضّل في جنسه، وخمسمائة أوقية من العنبر الاشهب المفضّل في جنسه على خليقته من غير صناعة ومنها قطعة ململمة عجيبة الشكل، وزن مائة أوقية، وثلاثمائة أوقية من الكافور المترفع الذكاء. ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب للباس الخلفاء، مختلفة الألوان والصنائع، وعشرة أفرية (1)من عالي جلود الفنك الخراسانية، وستة من السرادقات العراقية، وثمان وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب، وثلاثون شقة الغريون من الملاحف لسروج الهبات، وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من الحرير المنتقى للاستغزال، وثلاثون بساطاً من الصوف وعشر مائة منقاة مختلفة، ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة، وخمسة عشر من نخاخ الخزّ المقطوع شطرها. ومن السلاح والعدة ثمانمائة من تخافيف الزينة أيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية، ومائة ألف سهم من النبال البارعة الصنعة، ومن الظهر خمسة عشر فرساً من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت، وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية، ولجم بغال مجالس سروجها خزّ جعفري عراقيّ، ومائة فرس من عتاق الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات، ومن الرقيق أربعون وصيفاً وعشرون جارية متخيرات بكسوتهن وزينتهنّ ومن سائر الأصناف ومن الصخر سيات ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار، وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه واقدمه، قيمته خمسون ألف دينار. وعرضت الهدية على الناصر سنة سبع وعشرين فشكرها وحسن لديه موقعها.

سطوة الناصر بأخيه القاضي ابن محمد:

كان محمد بن عبد الجبار ابن الأمير محمد، وعبد الجبّار هو عمّ ابي الناصر، قد سعى عنده في أخيه القاضي ابن محمد، وأنه يريد الخلاف والبيعة لنفسه. وسعى القاضي في محمد بن عبد الجبّار، وأنه يروم الانتقاض، واستطلع على الجلي من أمرهما، وتحقق نقضهما فقتلهما سنة ثمان وثلاثمائة.

سطوة الناصر ببني إسحق المروانيين:

وهو إسحق بن محمد بن إسحق بن إبراهيم بن الوليد بن إبراهيم بن عبد الملك بن مروان، دخل جدهم أوّل الدولة ولن يزالوا في إكرام وعزّ، واستقرت الرياسة في إسحق، وسكن إشبيلية أيام الفتنة عند ابن حجّاج. ثم هلك ابن حجّاج وولي ابن مسلمة فاتهمه، وقبض عليه وعلى ولده وصهره يحمى بن حكم بن هشام بن خالد بن أبان بن خالد بن عبد الله بن عبد الملك بن الحارث بن مروان فقتل الولد والصهر.

وكان عنده سفير لابن حفصون فشفع في الشيخ إسحق وولده أحمد. ثم ملك الناصر إشبيلية من يد ابن مسلمة فرحل إسحق إلى قرطبة، واستوزره الناصر، واستوزره بنيه أحمد وإبنه ومحمد وعبد الله ففتحوا الفتوحات، وكفوا المهمات، وعلت مقاديرهم في الدولة. وتوفي أبوهم إسحق فورثوا مكانه في كل رفيعة. ثم

هلك كبيرهم عبد الله، وكان مقدمهم عند الناصر، واستوزره ثم اتهمه الناصر بالخلاف، وكثرت فيهم السعايات، وصاروا في مجال الظنون فسطا بهم الناصر وغرّبهم في النواحي فانزوى أمية منهم في تسترين سنة خمس وعشرين، وخلع الطاعة وقصده الناصر في العساكر فدخل دار الحرب، وأجاره رزمير ملك الجلالقة. ثم تغير له فجاء إلى الناصر من غير عهد وعفا عنه، وبقي في غمار الناس إلى أن هلك. وأما أحمد فعزل عن سرقسطة لما نكب أبوه، وبقي خاملا مغضياً. ثم تكاثرت السعاية فيه فقتل. وأما أحمد فبقي في جملة الناصر، حتى إذا تحرك إلى سرقسطة نمى عنه ففر ولقي في مفره جماعة من أهل سرقسطة فقتلوه.

أخبار الناصر مع الثوار:

كان أول فتحه أبيح له أسجه(1) بعث إليها بدراً مولاه، وحاجبه فافتتحها من يد ابن حفصون سنة ثلاثمائة وغزا في أثرها بنفسه فافتتح أكثر من ثلاثين حصنا من يد ابن حفصون منها البيرة، ودوّخ سائر أقطاره، وضيّق مخنقه بالحصار، واستنزل سعيد بن مزيل من حصن المنتلون، وحصن سمنان. وفي سنة إحدى وثلاثمائة ملك إشبيلية من يد أحمد بن مسلمة كما ذكرناه. ثم سار سنة إثنتين في العساكر فنازل حصون ابن حفصون وانتهى إلى الجزيرة الخضراء، وضبط البحر، ونظر في أساطيله واستكثر منها. ومنع ابن حفصون من البحر، وسأله في الصلح على لسان يحى بن إسحق المرواني فعقد له. ثم أغزى إسحق بن محمد القرشيّ إلى الثوار بمرسية وبلنسِيَة فأثخن في نواحيها، وفتح أريولة وأغزى بدراً مولاه إلى مدينة لبة فاستنزل منها عثمان بن نصر الثائر بها، وساقه مقّيداً إلى قرطبة، ثم أغزى إسحق بن محمد سنة خمس وثلثمائة مدينة

قرمونة فملكها من يد حبيب بن سواره، كان ثائراً بها. وفتح حصن ستمرية سنة ست، وحصن طرش سنة تسع. وأطاعه أحمد بن أضحي الهمداني الثائر بحصن الجامة، ورهن إبنه على الطاعة. وغزا ابن حفصون سنة أربع عشرة فردته العساكر المجمّرة لحصاره، ورجع وبعث إليه حفص يستأمنه فأمنه وجاء إلى قرطبة، وملك الناصر يشتر كما مر. ثم انتقض سنة خمس وعشرين أميّة بن إسحق في تسترين، وقد مر ذكر أوليته ومحمد بن هشام التجيبي في سرقسطة، ومطرّف بن مندف التجيبي في قلعة أيوب فغزاهم الناصر بنفسه، وبدأ بقلعة أيوب فحاصرها، وقتل مطرف في أوّل جولة عليها، وقتل معه يونس بن عبد العزيز. ولجأ أخوه إلى القصبة حتى استأمن وعفا عنه، وقتل من كان معهم من النصرانية أهل ألبة. وافتتح ثلاثين من حصونهم، وبلغه انتقاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها في ينبلونة، ودوّخ أرضها واستباحها ورجع. ثم غزا سنة سبع وعشرين غزوة الخندق إلى جليّقة فانهزم، وأصيبت فيها المسلمون وأسر محمد بن هاشم التجيبي، وحاول الناصر إطلاقه فأطلق بعد سنتين وثلاثة أشهر. وقعد الناصر بعدها عن الغزو بنفسه، وصار يردد البعوث والصوائف. وثار سنة ثلاث وأربعين بجهات ماردة ثائر، وتوجهت إليه العساكر فجاؤوا به وبأصحابه ومثل بهم وقتلوا.

أخبار طليطلة ورجوعها إلي الطاعة:

قال ابن حبان اختطها ديرنيقيوش الجبار، وكان قوّاد رومة يتزلونها دار ملك. ثم ثار بها برباط من نجدانية فملكها، واختلف قوّاد رومة على حصاره. ثم وثب به بعض أصحابه فقتله وملكها. ثم قتل ورجعت إلى قوّاد

رومة، ثم انتقض أهلها وولّوا أميراً منهم أسمه أنيش. ثم قتل ورجعت إلى قواد رومة، وقام أولهم شنتيلة، وأطاعه أهل الأندلس، وامتنع على ملوك رومة. ثم غزاهم وحاصر رومة، وفتح كثيرا من بلادها، ورجع إلى طليطلة، وثار عليه البشكنس فظهر عليهم، وأوقع بهم، ولحقوا بالجبال. وهلك شنتيلة بعد تسع، وملك مكانه على الغوط بسيلة ست سنين، و لم يغن فيها. ثم ولي منهم حندس، وغزا إفريقية، وولي بعده قتبان وبنى الكنائس، وبلغه خبر المبعث فقال له بليان، وكان من أكابر الغوط، وأعاظمهم: وجدت في كتاب
مطريوس العالم عن دانيال النبيّ أنهم يملكون الأندلس. ثم هلك فتبادر وملك أبنه ، ست عشرة سنة وكان سيء السيرة وليَ بعده لزريق(1). ثم لم تزل طليطلة دار فتنة وعصبية ومنعة، أتعبت عبد الرحمن الداخل سبع سنين، وانتقضت على هشام والحكم، وعلى عبد الرحمن الأوسط، إلى أن جاء الناصر فأدخلهم في الطاعة كرهاً، لما أكمل فتح ماردة وبطليوس وتسترين، سار إليهم في العساكر وحاصرهم، وجاء الطاغية يظاهرهم فدافعه الناصر، وجثم عليها فخرج أميرهم ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث إلى الناصر فاستقال واستأمن فأمّنه وعفا عنه، ودخلها الناصر وجال في أقطارها، ورجع عنها فلم يزالوا مستقيمين على الطاعة بعد.

أخبار الناصر مع أهل العدوة

ثم سما للناصر أمل في ملك عدوة البربر من بلاد المغرب فافتتح أمره بملك سبتة من بني عصام ولاتها، واستدعى أمراء البربر بالعدوة، وبلغ الخبر إبراهيم بن محمد أمير بني إدريس فبادر إلى سبتة، وحاصرها أنفة من عبور الناصر إليهم. ثم استقال وكاتب الناصر بالولاية. وأمّا إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكوك من الأدارسة فبادر بولاية الناصر، وكاتبه وأهدى إليه وتقبل أثره في ذلك محمد بن خزر أمير مغراوة، وموسى بن أبي العافية أمير مكناسة، وهو يومئذ صاحب المغرب بعد أن ملك قواعد المغرب الأوسط، وهي تنس ووهران وشرشال والبطحاء. وأهدوا إلى الناصر فقبل وكافأهم وأحكم ولايتهم، وبادر جماعة من الأدارسة إلى مثل ذلك منهم: القاسم بن إبراهيم، والحسن بن عيسى وأهدى صاحب فاس هدية عظيمة، وعقد له الناصر على أهل بيته. ولما فشت دعوة الناصر في المغرب الأقصى بعث عبيد الله المهدي قائده ابن يصل أمير مكناسة، وعامل تاهرت فزحف في العساكر إلى المغرب سنة إحدى وعشرين، وكتب موسى بن أبي العافية إلى الناصر يستنجده فأخرج إليه قاسم بن طملس في العساكر، ومعه الأسطول فوصل إلى سبتة، وبلغه الخبر بأنّ موسى بن أبي العافية هزم عساكر حميد فأقصر ورجع حسبما هو مذكور في أخبارهم.

أخبار الناصر مع الفرنجة والجلالقة:

وكان في أوّل المائة الرابعة ملك على الجلالقة أردون بن رذمير بن برمند بن قريولة بن اذفونش بن بيطر. وخرج سنة اثنتين وثلاثمائة إلى الثغر الجوفي لأوّل ولاية الناصر، وعاث في جهات ماردة، وأخذ حصن الحنش. وبعث الناصر وزيره أحمد بن عبدة في العساكر إلى بلاده فدوخها. ثم أغزاه ثانية سنة خمس فنكث وقتل. ثم أغزى بدراً مولاه فدوخ ورجع. ثم غزا بنفسه بلاد جليقة سنة ثمان. واستنصر أردون بشانجة ابن غرسية ملك البشكنس وصاحب بنبولة فهزمهم الناصر، ووطىء بلادهم وخربها وفتح حصونها وهدمها وردّد الغزو بعد

ذلك في بلد غرسية إلى أن هلك أذفونش وولي بعده إبنه فرويلة. قال ابن حيان: لما ملك فرويلة بن أردون بن رذمير ملك الجلالقة سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ملك أخوه أذفونش، ونازعه أخوه شانجة واستقل غرسية بليون من قواعد ملكهم، وظاهر أذفونش على أمره ابن أخيه، وهو أذفونش بن فرويلة، وصهره شانجة فانهزموا وافترقت كلمتهم. ثم اجتمعوا ثانية وخلعوا شانجة وأخرجوه عن مدينة ليون ففرّ إلى قاصية جليقة، وولىّ أخاه رذمير بن أردون على ملكه بغربي جليقة إلى قلنسرية. وهلك شانجة أثر ذلك و لم يعقب. واستقل أذفونش، وخرج على أخيه رذمير، وملك مدينة سنت ماذكش. ثم أكثروا عليه العذل في نزوعه عن الرهبانية فرجع إلى رهبانيته. ثم خرج ثانياً وملك مدينة ليون، وكان رذمير أخوه غازيا إلى سمورة فرجع إليه وحاصره بها حتى اقتحمها عليه عنوة سنة عشرين وثلاثمائة فحبسه، ثم سمله في جماعة من ولد أبيه أردون، خافهم على أمره.

وكان غرسية بن شانجة ملك البشكنس لما هلك قامت بأمرهم بعده أخته طوطة، وكفلت وُلده. ثم انتقضت سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بليونة، وردد عليها الغزوات. وفي أثناء هذه الغزوات نازل محمد بن هشام التجيبي سرقُسطة، حتى أطاع كما مر، وكذا أمية بن إسحق في تسترين. وكان الناصر سنة إثنتين وعشرين قد غزا إلى وحنشمة، واستدعى محمد بن هشام من سرقسطة فامتنع ورجع إليه، وافتتح حصونه، وأخذ أخاه يحيى من حصن روطة. ثم رحل إلى ينبلونة فجاءته طوطة بنت أنثير بطاعتها، وعقد لابنها غرسية بن شانجة على ينبلونة. ثم عدل إلى البلة

وبسائطها فدوّخها وخرب حصونها. ثم اقتحم جلّيقة، وملكها يومئذ رذمير بن أردون فخام عن اللقاء، ودخل هو وحشمه فنازله الناصر فيها، وهدم برغث وكثيرا من معاقلهم، وهزمهم مراراً ورجع. ثم كانت بعدها غزوة الخندق و لم يغز الناصر بعدها بنفسه. وكان يرّدد الصوائف، وهابته أمم النصرانية. ووفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب القُسطنطينّية وهديته، وهو يومئذ قسنطين بن ليون بن شل واحتفل الناصر للقائهم في يوم مشهود، وكتب(1) فيه العساكر بالسلاح في أكمل هيئة وزيّ وزيّن القصر الخلافيّ بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجمّل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرابة، ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم، ودخل الرسل فهالهم ما رأوا وقربوا حتى أدّوا رسالتهم. وأمر يومئذ الاعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل، ويعظموا أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه، وذلّة عدوّه فاستعدوا لذلك. ثم بهرهم هول المجلس فرجعوا وشرعوا في الغزل(2) فارتج عليهم، وكان فيهم أبو علي القالي وافد العراق، كان في جملة الحكم ولي العهد، وندبه لذلك استئثاراً لفخره، فلمّا وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي من غير استعداد ولا رويّة، ولا تقدّم له أحد في ذلك بشيء فخطب واستخفر وعى في ذلك القصد، وأنشد آخره شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع. واعجب الناصر به وولاّه القضاء بعدها، وأصبح من رجالات العالم، وأخباره مشهورة، وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره. ثم انصرف هؤلاء الرسل، وبعث الناصر معهم هشام بن كليب إلى الجاثليق ليجدد الهدنة، ويؤكد المودة، ويحسن الإجابة. ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما

شاء، وجاءت معه رسل قسطنطين. ثم جاء رسل ملك الصقالبة، وهو يومئذ هوتو، وأخر من ملك اللمان، وأخر من ملك الفرنجة وراء المغرب، وهو يومئذ أفوه. وأخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق، وهو يومئذ كلدة. واحتفل السلطان لقدومهم، وبعث مع رسل الصقالبة ريفاً الأسقف إلى ملكهم هوتو، ورجعوا بعد سنتين. وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردون بن رذمير، وأبوه رذمير، هو الذي سمل أخاه أذفونش، وقد مرّ ذكره، بعث

يخطب السلم فقعد له. ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال قومس قشتيلية فردلند، وقد مرّ ذكره، ومال إلى أردون بن زذمير كما ذكرناه. وكان غرسية بن شانجة حافد الطوطه بنت أسنين، ملكة البشكنس فامتعضت لحل حافدها غرسية، ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك وأعانه حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدّوة وجاء ملك جلّيقة فرّد عليه ملكه وخلع الجلالقة طاعة أردون، وبعث إلى الناصر يشكوه على فعلته وكتب إلى الأمم في ّالنواحى بذلك ،وبما غرتكبه فردلند خمس قشتيلة وعظيم قوامسه في نكسة ، ووثبه ، ونفر لذلك عند الامم و لم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك .ولما وصل معه رسول كلدة ملك الإفرنجة بالمشرق كما تقدّم ،وصل معه رسول مغيرة بن شبير ملك برشلونة وطركونة، راغباً في الصلح فأجابه الناصر، ووصل بعده رسول صاحب رومة يطلب المودّة فأجيب.

سطوة الناصر بابنه عبد اللّه:

كان الناصر قد وشحه(1) ابنه الحكم وجعله وليّ عهده وآثره على جميع ولده، ودفع إليه كثيراً من التصرف في دولته، وكان أخوه عبد الله يساميه في الرتبة فغص لذلك وأغراه الحسد بالنكثة فنكث، وداخل في قلبه مرض من أهل الدولة فأجابوه، وكان منهم ياسر الفتى وغيره. ونمى الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجليّ فيه، وقبض على ابنه عبد الله وعلى ياسر الفتى، وعلى جميع من داخلهم وقتلهم أجمعين سنة ثلاث وتسعين.

مباني الناصر:

ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتلفوا في ذلك، وبنوا قصورهم

على أكمل الاتفاق والضخامة، وكان منها المجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم، وسمّاه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنّائين من كل قطر،فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية. ثم أخذ في بناء المنتزهات فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل على بعد المسافة. ثم اختط مدينة الزهراء، واتخذها مترله وكرسيا لملكه فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ماعلا على مبانيهم الأولى واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياح ومسارح الطيور، ومظللة بالشباك واتخذ فيها داراً لصناعة آلات السلاح

للحرب، والحلي للزينة، وغير ذلك من المهن. وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس.

وفاة الناصر وولاية ابنه الحكم المستنصر:

ثم توفي الناصر سنة خمسين وثلثمائة أعظم ما كان سلطانه، وأعز ما كان الإسلام بملكه. وكان له قضاة أربعة: مسلم بن عبد العزيز، وأحمد بن بقى بن مخلد، ومحمد بن عبد الله بن أبي عيسى، ومنذر بن سعيد البلوطي. ولما توفي الناصر ولي ابنه الحكم وتلقّب المستنصر بالله، وولّى على حجابته جعفر المصحفي، وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الأنصاف ما ذكره ابن حيان في المقتبس وهي مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة، كاملو الشيكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس والقلانس الهندويّة، وثلاثمائة وتّيف وعشرون درعاً مختلفة الأجانس، وثلثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجة غير الحبش التي يسمّونها الطاشانية، وثلثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية الجنس، وعشرة جواشن نقية مذهبة، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس. ولأوّل وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزا الحكم بنفسه، واستباحها، وقفل فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه. ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جلّيقة، وسار إلى مدينة سالم قبل الدخول لدار الحرب فجمع له الجلالقة، ولقيهم على أشتة فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلاد فردلند

القومس، ودوّخها وكان شانجة بن رذمير ملك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم يحمى بن محمد التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر. وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم، وامتنعوا في حصونها. وعاث في نواحيها، وأغزى الهذيل بن هاشم، ومولاه غالباً فعاثا فيها وقفلا. وعظمت فتوحات الحَكَم وقوّاد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس على يد غالب فعمّرها الحكم واعتنى بها. ثم فتح قَطْرية على يد قائد وَشْقَة، وغنم ما فيها من الأموال والسلاح والآلات والأقوات. وغنم ما في بسيطة من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى. وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلاد ألبة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فأخذ حصن غرماج، ودوّخ بلادهم وانصرف. وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير، وأفسدوا بسايط أحشبونة وناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم. وأخرج الحكم القوّاد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماجس بتعجيل حركة الأسطول. ثم وردت الأخبار بأنّ العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل. ثم كانت وفادة اردون بن أذفونش ملك الجلالقة. وذلك أنّ الناصر لما أعان عليه شانجة بن رذمير، وهو ابن عمّه، وهو الملك من قبل أردون وحمل النصرانية. واستظهر أردون بصهره فردلند قومس قشتيلية(1). ثم توقع مظاهرة الحَكَم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر بالوفادة علم الحَكَم مستجيراً به فاحتفل لقدومه، وكان يوماً مشهوداً وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله. ووصل إلى الحَكَم وأجلسه ووعده بالنصر على عدوه، وخلع عليه لما جاء ملقياً بنفسه، وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فردلند القومس، واعطى على ذلك صفقة يمينه، ورهن

وَلَدَه غرسية، ودفعت الصلات والحملات له ولأصحابِه. وانصرف معه وجوه نصارى الذمّة بقرطبة ولبد بن مغيث القاضي، وأصْبَغ بن عبد الله بن نبيل الجاثليق، وعبد الله بن قاسم مطران طُليطلة ليوطؤا له الطاعة عند رسميته، ويقبضوا رهنه، وذلك سنة إحدى وخمسين. وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن رذمير ببيعته وطاعته مع قَوْلب من أهل جلّيقة وسمورة وأساقفهم يرغب في قبوله، ويبقي بما فعل أبوه الناصر معه فتقبل بيعتهم على شروط

شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين. ثم بعث قومس الفرنجة برسل ومسيرة أثناء سيرملك برشلونة وطركونة وغيرها يسألان تجديد العهد، وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية وهي عشرون صبياً من الخصيان الصقالبة، وعشرون قنطاراً من الصوف السمور، وخمسة قناطير من الفرصدس(1)، وعشرة أذراع صقلية ومائتا سيف إفرنجية فقبل هديتهم، وعقد لهم على أن يهدموا الحصون التي بقرب الثغور، وعلى أن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن ينذروه بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين.ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح، بعد أن كان توقف فعقد لهم الحَكَم، ورجعوا. وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة وردت أمّ لزريق بن بلاكش القومس بالقرب من جلّيقة، وهو القومس الأكبر فأخرج الحَكَم لتلقّيها، واحتفل لقدومها في يوم مشهود فوصلها وأسعفها، وعقد السلم لابنها كما رغبت وأحبت، ودفع لها مالاً تقسّمه بين وفدها، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج. ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت. ثم أوطأ عساكره من أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مَغْراوة ومِكْناسة فبثوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم. ووفد عليه ملوكهم من آل خزر، وبني أبي العافية فأجزل صلتهم وأكرم وفادهم وأحسن منصرفهم واستترل بني إدريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف وأجازهم البحر إلى قرطبة، ثم أجلاهم إلى الإسكندريّة حسبما نشير إلى ذلك كله بعد. وكانم محباً للعلوم مكرماً لأهلها جَمَّاعَةً للكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله. قال ابن حزم: أخبرني تُكيَّة الخصِيّ وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان - أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلاّ ذكر أسماء الدواوين لا غير. فأقام للعلم والعلماء سلطاناً نفقت فيها بضائعه من كل قطر. ووفد عليه أبو علي الغالي صاحب كتاب الأمالي من بغداد فأكرم مثواه، وحسنت مترلته عنده وأورث أهل الأندلس علمه. واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه، وكان يبعث في الكتب

إلى الأقطار رجالاً من التجّار، ويسرّب إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه. وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنّفه أبي الفرج الأصفهاني، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه، قبل أن يخرجه بالعراق. وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الابهريّ المالكيّ في شرحه لمختصر ابن عبد الحَكَم، وأمثال ذلك. وجمع بداره الحذّاق في صناعة النَسْخ، والمهرة في

الضبط والإجادة في التجليد فأوعى من ذلك كلّه، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العبّاسي بن المستضيء. ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، أمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر. ونُهِبَ ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة، واقتحامهم إيّاها عنوة كما نشير إليه بعد. واتصلت أيام الحَكَم المُستنصر، وأوطأ العساكر أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقى دعوته هلوك زناتة ومغراوة ومكناسة فبثّها في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما يليهم ووفد عليه ملوكهم من آل خزر وبني أبي العافية فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم.

وفاة الحكم المستنصر وبيعة ابنه هشام المؤيد:

ثم أصابت الحكم العلّة فلزم الفراش إلى أن هلك سنة ست وستين وثلثمائة لست عشرة سنة من خلافته، ووليَ من بعده إبنه هشام صغيراً مناهز الحُلُم، وكان الحَكَم قد استوزر له محمد ابن أبي عامر نقله من خطة القضاء إلى وزارته، وفوّض إليه في أموره فاستقل وحسنت حاله عند الحَكَم، فلما توفي الحَكَم بويع هشام ولقَب المؤيد، بعد أن قتل ليلتئذ أخو الحَكَم المرشّح لأمره، تناول الفتك به محمد بن عامر هذا بممالأة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه، وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم، ومن خصيان القصر ورؤسائهم فائق وجودر فقتل محمد بن أبي عامر المغيرة وبايع لهشام.

أخبار المنصور ابن أبي عامر:

ثم سما محمد بن أبي عامر المتغلب على هشام لمكانه في السن، وثاب له رأي في الاستبداد فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضها ببعض. وكان من رجال اليمنية من مغافر وإسمه محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المغافري، دخل جدّه عبد الملك مع طارق، وكان عظيماً في قومه، وكان له في الفتح أثر فاستوزره الحكم لابنه هشام كما ذكرنا. فلما مات الحكم حجبه محمد، وغلب عليه، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلاّ في النادر من الأيام يسلمون وينصرفون. وأرخص للجند في العطاء وأعلى مراتب العلماء، وقمع أهل البِدَع، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين. ثم تجّرد لرؤساء الدولة ممن عانده، وزاحمه فمال عليهم وحطّهم عن مراتبهم، وقتل بعضها ببعض. كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقعيه، حتى استأصل بهم وفرّق جموعهم. وأوّل ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدّام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم، وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ثم اصهر إلى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصّح له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة الفازع إلى الحكم أوّل الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر. ثم قتل جعفر عماله ابن عبد الودود وابن جوهر وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم. ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة، رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرّف

عرفاء من صنهاجة ومغراوة، وبني يفرن وبني برزال ومكناسة، وغيرهم فتغلّب على هشام وحجره واستولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته، مع تعظيم الخلافة والخضوع لها، وردّ الأمور إليها وترديد الغزو والجهاد، وقدّم رجال البرابرة زناتة، وأخّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وابتنى لنفسه مدينة فترلها وسمّاها الزاهرة. ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وأمر أن يُحيّا بتحيّة الملوك، وتسمى

بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر، وكتب اسمه في السكّة والطرز، وعمر ديوانه بما سوى ذلك وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرغبة، وقهر من يطاول إليها من الغلبة فظفر من ذلك بما أراد، وردّد الغزو بنفسه إلى دار الحارث فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش ولا أصيب له بعث، ولا هلكت سرية وأجاز عساكره إلى العدوة وضرب بين ملوك البرابرة بعضهم في بعض فاستوثق ملكه بالمغرب وأذعنت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا لسلطانه، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر لما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغه من إعلانه بالنيل منه والغض من ملكهم، والتأنف لحجر الخليفة هشام فأوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين، ونزل بفاس وملكها، وعقد لملوك زناتة على المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها على ما نشير إليه بعد. وشرد زيري بن عطية إلى تاهرت، وأبعد المفر، وهلك في مفرّه. ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة واستعمل واضحا على المغرب. وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا وأشد استيلاء سنة أربع وسبعين ثلاثمائة بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته، ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه.

المظفر بن المنصور:

ولما هلك المظفر قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه في حجر الخليفة هشام، والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه. ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه، وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى، وأهل الحل والعقد فكان يوماً مشهوداً. وكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن برد بما نصه: هذا ما عهد هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عافة، وعاهد الذي عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعه تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمّه ما جعل الله إليه من الإمامة، ونصب إليه من أمر المؤمنين واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي أن هجم محتوم

ذلك عليه، ونزل مقدوره به، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه، وملجأ تنعطف إليه، أن يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها. وأعتبر عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يستند هذا الأمر إليه، ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته، بعد إطراح الهوى والتحرّي للحق والتزلف إلى الله عز وجل بما يرضيه. وبعد أن قطع الأقاصي وأسخط الأقارب فلم يجد أحداً يولّيه

عهده، ويفوض إليه الخلافة بعده غيره لفضل نسبه، وكرم خيمه، وشرف مرتبته، وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه وتفاوته، المأمون العيب الناصح الحبيب أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وفقه الله تعالى، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شانه واعتبره فرآه مسارعا في الخيرات، سابقاً إلى الجليات، مستولياً على الغايات، جامعا للمأثرات. ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البرمداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه. مع أن أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الغيب، رأى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، فلما استوى له الاختيار، وتقابلت عنده الآثار، و لم يجد عنه مذهبا ولا إلى غيره معدلا خرج إليه من تدبير الأمور في حياته، وفوض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعا راضيا مجتهدا، وامضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنفذه، و لم يشترط فيه ثنياً ولا خياراً، وأعطى على الوفاء به في سره وجهره، وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه صلى الله عليه و سلم ، وذمة الخلفاء الراشدين من أبائه، وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول. وأشهد على ذلك الله والملائكة وكفى بالله شهيدا، وأشهد من أوقع اسمه في هذا وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون ابي المظفر عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى، وقيد له ما قلده والزمه نفسه ما في الذمة. وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وكتب الوزراء والقضاء وسائر الناس شهادهم بخطوط أيديهم. وتسمى بعدها بولي العهد ونقم أهل الدولة عليه ذلك فكان فيه حتفه، وانقراض دولته ودولة قومه، والله وارث الأرض ومن عليها.

ثورة المهدي ومقتل عبد الرحمن المنصور وانقراض دولتهم:

ولما حصل عبد الرحمن المنصور على ولاية العهد، ونقم ذلك الأمويون والقرشيون وغصوا بأمره، واتفقوا على تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمنية فاجتمعوا لشأنهم، وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من الحاجب الناصر ببلاد الجلالقة في غزاه من صوائف، ووثبوا بصاحب الشرطة ففتكوا به بمقعدة من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وخلعوا هشاماً المؤيد، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعياص الملك، وأعقاب الخلفاء، ولقبوه المهدي، وطار الخبر إلى الحاجب بمكانه من الثغر فانفض جمعه، وقفل إلى الحضرة مدلا بمكانه زعيماً بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة نسلل عنه الجند ووجوه البربر، ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي القائم بالأمر، وأغروه بالناصر واعترضه منهم من تقبض عليه، واحتز رأسه وحمله إلى المهدي وإلى الجماعة وذهبت دولة العامريين.

ثورة البربر وبيعة المستعين وفرار المهدي:

كان الجند من البرابرة وزناتة قد ظاهروا المنصور على أمره، وأصبحوا شيعة لبنيه من بعده ورؤساؤهم يومئذ زاوى بن مناد الصنهاجي وبنو ماكير ابن أخيه زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، ونصيل بن حميد المكناسي الفازع أبوه عن العبيديين إلى الناصر، وزيري بن عزانة المتيطي، وأبو زيد بن دوناس اليفربي، وعبد الرحمن بن

عطاف اليفرني وأبو نور بن ابي قُرَّة اليفرني، وأبو الفتوح بن ناصر وحزرون بن محصن المغراوي، وبكساس بن سيد الناس، ومحمد بن ليلى المغراوي فيمن إليهم من عشائرهم فلحقوا بمحمد بن هشام لما رأو من انتقاض أمر عبد الرحمن وسوء تدبيره. وكانت الأموية تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين وتنسب إليهم تغلب المنصور وبنيه على أمرهم فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون، وتنفست

بذلك صدور الغوغاء من أذيال الدولة، ولفظت به ألسنة الدهماء من المدينة. وأمر محمد بن هشام أن لا يركبوا ولا يتسلحوا وردوا في بعض الأيام من باب القصر، وانتهت العامّة يومئذ دورهم، ودخل زاوي وابن أخيه حساسة وأبو الفتوح بن ناصر على المهدي شاكين بما أصابهم فاعتذر إليهم، وقتل من آذاهم من العامّة في أمرهم، وكان مع ذلك مظهراً لبغضهم مجاهراً بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنه سره الفتك بهم فتشمت رجالاتهم، وأسروا نجواهم. واتفقوا على بيعة هشام بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وفشا في الخاصة حديثهم فعوجلوا عن أمرهم ذلك، واغرى بهم السواد الأعظم فثاروا بهم وأزعجوهم عن المدينة. وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر، واحضرا بين يدي المهدي فضرب عنقيهما، ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر وزناتة، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتآمروا فبايعوه ولقبوه المستعين بالله، ونهضوا به إلى ثغر طليطلة فاستجاش بابن أذفونش. ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة، وبرز إليهم المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة، وكانت الدبرة عليهم، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفا، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتم ومؤذنيها عالم. ودخل المستعين قرطبة خاتم المائة الرابعة، ولحق ابن عبد الجبار بطليلة.

رجوع المهدي إلى ملكه بقرطبة:

ولما استولى المستعين على قرطبة خالفه محمد بن هشام المهدي إلى طليطلة، واستجاش بابن أذفونش ثانية فنهض معه إلى قرطبة، وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من ظاهرها في آخر باب سبتة، ودخل المهدي قرطبة وملكها.

هزيمة المهدي وبيعته للمؤيد هشام ومقتله:

ولما دخل المهدي إلى قرطبة خرج المستعين إلى البرابرة، وتفرّقوا في البسائط والقرى

فينهبون ويقتلون ولا يبقون على أحد. ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء فخرج المهدىّ وابن أدفونش، واتبعهم المستعين والبرابرة أثناء ذلك يحاصرونهم، حتى خشي الناس من اقتحام البرابرة عليهم فأغروا أهل القصر وحاجبه المدبر بالمهدي، وإن الفتنة إنما جاءت من قبله، وتولّى كبر ذلك واضح العامري فقتلوا المهدي محمد بن هشام، واجتمعت الكافة على تجديد البيعة لهشام المؤيد ليعتصموا به من معرّة البرابرة، وما يسومونهم به ملوكهم من سوء العذاب، وعاد هشام إلى خلافته وأقام واضح العامري لحجابته، وهو من موالي المنصور بن أبي عامر.

حصار قرطبة واقتحامها عنوة ومقتل هشام:

واستمر البرابرة على حصار قرطبة والمستعين بينهم و لم يفرّ عن أهل قرطبة، تبعه هشام المؤيد، والبرابرة يترددون إليها ذاهبين وجائين بأنواع النهب والفتك، إلى أن هلكت القرى والبسائط، وعدمت المرافق، وصافت أحوال أهل قرطبة وجهدهم الحصار. وبعث المستعين البرابرة إلى ابن أذفونش يستقدمونه لمظاهرتهم فبعث إليه هشام المؤيد، وحاجبه واضحاً يكفونه عن ذلك، بأن نزلوا له عن ثغور قشتالة التي كان المنصور اقتحمها فسكن عزمه، وسكن عن مظاهرتهم. ثم اتصل الحصار بمخنق البلد، وصدق البرابرة القتال فتقتحموها عنوة سنة ثلاث وأربعمائه، وفتكوا بهشام المؤيد، ودخل المستعين. ولحق بأهل قرطبة من البرابرة في نسائهم ورجالهم وبناتهم وأبنائهم ومنازلهم. وظن المستعين أن قد استحكم أمره، وتوثبت البرابرة العبيد على الأعمال فولوا المدن العظيمة، وتقلدوا الأعمال الواسعة مثل باديس بن حبوس في غرناطة، ومحمد بن عبد الله البرزالي في قرمونة وابوثور بن ابي شبل * بالأندلس، وصار الملك صوائف في آخرين من أهل الدولة، مثل ابن عباد باشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس وابن ذي النون بطليطلة، وابن ابي عامر ببلنسية ومرسية، وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية والجزائر منذ عهد هذه الفتنة كما نذكر في أخبارهم.

ثورة ابن حمود واستيلاؤه وقومه علي ملك قرطبة:

ولما افترق شمل جماعة قرطبةوتغلّب البرابرة على الأمر، وكان عليّ بن حمود وأخوه قاسم من عقب إدريس قد أجازوا معهم من العدوة فدعوا لأنفسهم، وتعصب معهم الكثير من البربر، وملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائه، وقتلوا المستعين ومحوا ملك بني امئة. واتصل ذلك في خلق منهم سبع سنين. ثم رجع الملك في بني أمية، وفي ولد الناصر نحواً من سبع سنين. ثم خرج عنهم وافترق الأمرفي رؤساء الدولة من العرب والموالي والبربر، واقتسموا الأندلس امالك ودولاً، وتلقبوا بألقاب الخلفاء كما نذكر ذلك كله مستوفى في أخبارهم.

عود الملك إلي بني أمية وأولاد المستظهر:

لما قطع أهل قرطبة دعوة المحموديِّين يعد سبع من ملكهم، وزحف إليهم قاسم بن حمود في جموع من البربر فهزمهم أهل قرطبة، ثم اجتمعوا واتفقوا على ردّ الأمر إلى بني أمية، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائه، ولقبوه المستظهر. وقام بأمره المستكفي. ثم ثار على المستظهر لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر أمير المؤمنين. كان المنصور بن أبي عامر قتل أباه عبد الرحمن لسعيه في الخلاف فثار الآن محمد هذا وتبعه الغوغاء وفتك بالمستظهر واستقلّ بأمرقرطبة، وتلقب بالمستكفي.

عود الأمر إلى بني حمود:

وبعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى يحي ابن علي بن حمود، وهو المعتلي كما يذكر في أخبارهم، وفرّ المستكفي إلى ناحية الثغر ومات في مفرّه.

المعتمد من بني أمية:

ثم خلع أهل قرطبة المعتلي بن حمود ثانياً سنة سبع عشرة، وبايع الوزير أبو محمد جهور ابن محمد بن جهور عميد الجماعة، وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى، وكان بالثغر في لاردة عند ابن هود. ولما بلغه خبر البيعة له انتقل إلى البرنث، واستقرّ عند التغلب عليها محمد بن عبد الله بن قاسم، وكانت البيعة له انتقل سنة ثمان عشرة وأربعمائه، وتلقب المعتمد بالله، وأقام متردداً في الثغر ثلاثة أعوام، واشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف، واتفقوا على أن يترل دار الخلافة بقرطبة فاستقدمه ابن جهور والجماعة، ونزلها آخر سنة عشرين وأقام يسيراً. ثم خلعه الجند سنة اثنتين وعشرين، وفر إلى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين، وانقطعت دولة الأموية والله غالب على أمره

بنو حمود

الخبر عن دولة بني حمود التي أدالت من دولة بني أمية

بالأندلس و أولية ملكهم وتصاريف أمورهم إلي أخرها

كان في جملة المستعين مع البربر والمغاربة أخوان من ولد عمر بن إدريس، وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن عبيد الله بن عمر، كانوا في لفيف البرابرة فكانت للبربر إليهم صاغية بسبب ذلك وخلطة. وبقي الفخر منهم بتاز غدره من غمارة فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة عقد لعلي منهما على طنجة وعملها، وللقاسم - وكان الأسن- على الجزيرة الخضراء. وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس متوارث من دولتهم بالعدوة كما ذكرناه. واستقام أمر علي بن حمود، وتمكن سلطانه، واتصلت دولته عامين إلى أن قتله صقالبته بالحمام سنة ثمان

وأربعمائه، فولي مكانه أخوه القاسم بن حمود، وتلقب بالمأمون. ونازعه في الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن أخيه عليّ بسبتة، وكان أمير الغرب ووليّ عهد أبيه فبعث إليه أشياعهم من البربر مالاً مع جند الأندلس سنة عشر، واحتل بمالقة، وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما فبعث إلى سبتة، ووصل إلى يحيى بن علي زاوى بن زيري من غرناطة، وهو عميد البرابرة ثانية يومئذ فزحف إلى قرطبة فملكها سنة اثنتي عشرة، وتلقب المعتلي، واستوزر أبا بكر بن ذكوان، وفرّ المأمون إلى إشبيلية، وبايع له القاضي محمد بن إسمعيل بن عباد. واستمال بعضا من البرابرة ثانية، واستجاشهم على ابن أخيه ورجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة. ولحق المعتلي بمكانه من مالقة وتغلب أخوه على الجزيرة الخضراء عمل المأمون من لدن عهد المستعين، وتغلب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر، وكان المأمون يعتدها حصناً لنفسه وبنيه، ويستودع بها ذخيرته، وبلغ الخبر إلى قرطبة بتغلبه على قواعده وحصونه مع ما كان يتشدد على بني أمية فاضطرب أمر المأمون، وثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته، وبايعوا للمستظهر، ثم للمستكفي من بني أمية كما ذكرناه. وتحيز المأمون وبرابرته إلى الأرباض فاعتصموا به، وقاتلوا دونه وحاصروا المدينة خمسين يوماً. ثم صمم أهل قرطبة لمدافعتهم فأخرجوا عن الأرباض وانفضت جموعهم سنة عشرة. ولحق المأمون باشبيلية وبها ابنه محمد، ومحمد بن زيري من رجالات

البربر فأطمعه القاضي محمد بن إسمعيل بن عبّاد في الملك، وأن يمتنعوا من القاسم فمنعوه، وأخرجوا إليه ابنه وضبطوا بلدهم. ثم اشتد ابن عباد وأخرج محمد بن زيري، ولحق المأمون ثحريش، ورجع عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابن أخيه فبايعوه سنة خمس عشرة. وزحف إلى عمه المأمون بشريش فتغلب عليه، ولم يزل في حبسه سنة سبع وعشرين وأربعمائه، واستقل يحيى المعتلي بالأمور، واعتقل محمداً والحسن ابني عمه القاسم المأمون بالجزيرة، ووكل بهما أبا الحجاج من المغاربة، وأقاما كذلك. ثم خلع أهل قرطبة المستكفي، وصاروا إلى طاعة المعتلي، واستعمل عليهم عبد الرحمن بن عطاف اليفرني من رجالات البربر، وفر المستكفي إلى ناحية الثغر فهلك بمدينة سالم. ثم نقض أهل قرطبة طاعة المعتلي سنة

سبع عشرة، وصرفوا عامله عليهم ابن عطاف وبايعوا للمعتمد أخي المرتضى. ثم خلعوه كما ذكرنا في خبره، واستبد بأمر قرطبة الوزير ابن جهور بن محمد كما نذكره في أخبار ملوك الطوائف وأقام يحيى بن المعتلي يتخيفهم ويردد العساكر لحصارهم إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له فلا سلطانه، واشتد أمره وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره فتزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد باشبيلية، إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد، وقد أكمنوا له فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي، وانقطعت دولة بني حمود بقرطبة. وكان أحمد بن موسى بن بقية والخادم نجى الصقلي وزيري دولة الحموديين عند أولها فرجعا إلى مالقة دار ملكهم، واستدعوا أخاه إدريس بن علي بن حمود من سبتة وطنجة وبايعوه على أن يولي سبتة حسن ابن أخيه يحيى فتم أمره بمالقة، وتلقب المتأيد بالله، وبايعه المرية وأعمالها ورندة والجزيرة، وعقد لحسن ابن أخيه يحمى على سبتة، ونهض معه نجى الخادم. وكان له ظهور على ملوك الطوائف، وكان أبوه القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده إلى انتزاع البلاد من أيدي الثوار، وملك اشبونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي وبعث العساكر مع ابنه إسمعيل لحصار قزمونة فاستصرخ محمد بن عبد الله بالقائد هذا وبزاوي فجاء زاوي بنفسه، وبعث القائد هذا عساكره مع ابن بقية فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة، هزم فيها ابن عباد وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد، وهلك ليرمين بعدها سنة إحدى وثلاثين وأربعمائه. واعتزم ابن بقية على بيعة ابنه يحيى الملقب حبون فأعجله عن ذلك نجى الخادم، وبادر إليه من سبتة، ومعه حسن بن يحمى المعتلي فبايعه البربر، ولقب المستنصر، وقتل ابن بقبة، وفرّ يحيى بن إدريس إلى قمارش فهلك بها سنة أربع

وثلاثين، ويقال بل قتله نجى، ورجع نجى إلى سبتة ليحفظ ثغرها، ومعه ولد حسن بن يحيى صبيا، وترك السطيفي على وزارة حسن لثقته به، وبايعته غرناطة وجملة من بلاد الأندلس. وهلك حسن مسموماً بيد إبنة عمه إدريس، ثارت بأخيها حسن سنة ثمان وثلاثين فاعتقل السطيفي أخاه إدريس بن يحيى، وكتب إلى نجى وابن حسن المستنصر الذي كان عنده بسبتة ليعقد له. واغتاله نجى وأجاز إلى مالقة، ودعى لنفسه. ووافقه البربر والجند ثم نهض إلى الجزيرة ليستأصل حسناً ومحمداً ابني قاسم بن حمود، ورجع خاسئاً فاغتاله في طريقه

بعض عبيد القاسم وقتلوه. وبلغ الخبر إلى مالقة فثارت العامة بالسطيفي، وقتل وأخرج إدريس بن يحمى المعتلى من معتقله، وبويع له سنة أربع وثلاثين، وأطاعته غرناطة وقرمونة وما بينهما ولقب العالي، وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه. ثم قتل محمدا وحسنا ابني عمه إدريس فثار السودان بدعوة أخيهما محمد بمالقة، وامتنعوا بالقصبة، وكانت العامة مع إدريس، ثم أسلموه. وبويع محمد بمالقة سنة ثمان وثلاثين وتلقب المهدي، وولى أخاه عهده ولقبه السامي. ثم نكر منه بعض الترعات ونفاه إلى العدوة فأقام بين غمارة، ولحق العالي بقمارش فامتنع بها وأقام يحاصر مالقة، وزحف بإدريس من غرناطة منكراً على المهدي فعله فامتنع عليه، فبايع له وانصرف وأقام المهدي في ملكه بمالقة، وأطاعته غرناطة وحيان وأعمالها إلى أن مات بمالقة سنة أربع وأربعين. وبويع إدريس المخلوع ابن يحيى المعتلي من مكانه بقمارش، وبويع له بمالقة، وأطلق ايدي عبيده عليها لحقده عليهم ففرّ كثير منهم إلى أن هلك سن سبع وأربعين، وبويع محمد الأصغر ابن إدريس المتأيد وتلقبه، وخطب له بمالقة والمرية ورندة. ثم سار إليه باديس فتغلب على مالقة سنة تسع وأربعين وأربعمائه، وسار محمد المستعلي إلى المرية مخلوعاً، واستدعاه أهل مليلة فأجاز إليهم وبايعوه سنة تسع وخمسين، وبايعه بنو ورقدى وقلوع جارة ونواحيها. وهلك سنة(1) وأربعمائه. وأما محمد بن القاسم المعتقل بمالقة ففرّ هو من ذلك الاعتقال سنة أربع عشرة، ولحق بالجزيرة الخضراء فملكها، وتلقب المعتصم إلى أن مات سنة أربعين. ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة خمسين، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عباد

وكان سكوت البرغواطي الحاجب مولى القاسم الواثق محمد بن المعتصم، ويقال مولى يحمى المعتلي واليا على سبتة من قبلهم، فلما غلب ابن عباد على الجزيرة طلبه في الطاعة، وطلب هو ملك الجزيرة فامتنعت عليه، واتصلت الفتنة بينهما إلى أن كان من أمر المرابطين وتغلبهم على سبتة وعلى الأندلس ما سنذكره والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى.

الخبر عن ملوك الطوائف بالأندلس بعد الدولة الأموية:

كان ابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم لما انتثر ملك الخلافة العربية بالأندلس، وافترق الجماعة بالجهات، وصار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء وأب ص الخلافة وكبار العرب والبربر، واقتسموا خططها، وقام كل واحد بأمر ناحية منها. وتغلب بعض على بعض استقل أخيراً بأمرها ملوك منهم استفحل شأنهم، ولاذوا بالجزية للطاغية أو يظاهرون عليهم أو ينتزعونهم ملكهم، حتى أجاز إليهم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وغلبهم جميعاً على أمرهم فلنذكر أخبارهم واحداً بعد واحد.

بنو عباد

الخبر عن بني عباد ملوك إشبيلية وغربي

الأندلس وعمن تغلبوا عليه من أمراء الطوائف

كان أوّلهم القاضي أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسمعيل بن محمد بن إسمعيل بن قريش بن عباد بن عمر بن أسلم بن عمر بن عطاف بن نعيم اللخمي، وعطاف هو الداخل إلى الأندلس في طوالع لخم

وأصلهم من جند حمص، ونزل عطاف قرية طشانة بشرق إشبيلية، ونسل بنيه بها. وكان محمد بن إسمعيل بن فريش صاحب الصلاة بطشانة. ثم ولي ابنه إسمعيل الوزارة بإشبيلية سنة ثلاث عشرة وأربعمائه، وولي ابنه أبو القاسم القضاء بها والوزارة من سنة أربع عشرة وأربعمائه إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين. وكان أصل رياسته أنه كان له اختصاص بالقاسم بن حمود وهو الذي أحكم عقد ولايته، وكان محمد بن زيري من أقيال البرابرة والياً

على إشبيلية، فلما فرّ القاسم من نرطبة، وقصده داخل ابن عباد محمد بن زيري في غرناطة ا ففعل وطردوا القاسم، وطردوا بعده ابن زيري، وصار الأمر شورى بينه وبين أبي بكر الزبيدي معلم هشام، وصاحب مختصر العين في اللغة، ومحمد بن برمخ الألهاني. ثم استبد عليهم وجند الجند، ولم يزل على القضاء. ولما منع القاسم من إشبيلية عدل عنها إلى قرمونه ونزل على محمد بن عبد الله البرزالي، وكان ولي قرمونة أيام هشام والمهدي من بعده. ثم استبد بها سنة أربع وأربعمائه أزمان الفتنة فداخله ابن عباد في خلع القاسم والاستبداد بها. ثم تنصح للقاسم فتحول إلى شريش واستبد محمد بن البرزالي بقرمونة. واستبد أبو القاسم إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين كما قلناه، وقام بأمره ابنه عباد وتلقب المعتضد، واستولى على سلطانه واشتدت حروبه وأيامه.
وتناول طائفة من الممالك بعد بالأندلس وانفسح أمده وأول ما افتتح أمره بمداخلة محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة في إفساد ما بينه وبين القاسم بن حمود حتى تحول عنه إلى شريش. ثم تحارب مع عبد الله بن الافطس صاحب بطليوس، وغزاه ابنه إسمعيل في عساكره ومعه محمد بن عبد الله البرزالي فلقيه المظفر بن الأفطس فهزمهما، وأسر المظفر بن البرزالي إلى أن أطلقه بعد حين. ثم فسد ما بينه وبين البرزالي واتصلت الفتنة بينهما إلى أن قتله ابنه إسمعيل، خرج إليه في سرية فأغار على قرمونة، وأكمن الكمائن فركب محمد البرزالي في أصحابه، واستطرد له إسمعيل إلى أن بلغ به الكمين فخرجوا عليه فقتلوه، وذلك سنة أربع وثلاثين. ثم خالف عليه ابنه إسمعيل، وأغراه العبيد والبرابرة بالملك فأخذ ما قدر عليه من المال والذخيرة، وفر إلى جهة الجزيرة للتوثب بها، وكان أبوه ليلتئذ بحصن الفرج فأنفذ الخيالة في طلبه فمال إلى قلعة الورد فتقبض واليها عليه، وأنفذه إلى أبيه فقتله وقتل كاتبه، وكل من كان معه. ثم رجع إلى مطالبة البربر المتزين بالثغور، وأول من نذكر منهم صاحب قرمونة وكان بها المستظهر العزيز بن محمد بن عبد الله البرزالي، وليها بعد أبيه كما ذكرناه.
وكانت له معها أستجة والمروز، وكان نموز ورواركش للوزير نوح الرموي من برابرة العدوة وشيعة المنصور، واستبدّ بها سنة أربع، ومات سنة ثلاث وثلاثين. وولي ابنه عز الدولة الحاجب أبو مياد محمد بن نوح ومات سنة.(1)

وكان يزيد أبو ثور بن أبي قُرَّة اليفرني استبدّ بها أيام الفتنة سنة خمسين، من يد عامر بن فتوح من صنائع العلويين، ولم يزل المعتضد يضايقه، واستدعاه بعض الأيام لولاية فحبسه وكاده في ابنه بكتاب على لسان جاريته برندة أنه ارتكب منها محرما، ثم أطلقه فقتل ابنه وشعر بالمكيدة فمات أسفاً سنة خمسين، وولي إبنه أبو نصر إلى أن غدر به في الحصن بعض أجناده فسقط من السور، ومات سنة تسع وخمسين. وكان بشريش

خزرون بن عبدون ثار بها سنة إثنتين وأربعمائه فتقبض عليه ابن عباد وطالبهم، وطاف على حصونهم وصار يهاديهم، وأسجل لهم بالبلاد التي بأيديهم فاسجل لابن نوح باركش، ولابن خزرون بشريش، ولابن ابي قُرَّة برندة؟ وصاروا في حزبه ووثقوا به. ثم استدعاهم لوليمة وغدر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة، وأطبقه عليهم فهلكوا جميعاً إلا ابن نوح فإنه سالمه من بينهم لليد التي كانت له عنده في مثلها. ثم بعث من تسلم معاقلهم وصارت في أعماله. وخرج باديس لطلب ثأرهم منه، واجتمعت إليه عشائرهم فنازلوه مدة ثم انصرفوا، وأجازوا إى العدوة فاحتلوا بسبتة وطردهم سكوت فهلكوا في المجاعة التي صادفوا وأحلوا بالمغرب لذلك العهد. واستقل ابن عباد، وكان بأونية وشلطليش عبد العزيز البكري، وكانت عساكر المعتضد ابن عباد تحاصره فشفع فيه ابن جهور للمعتضد فسالمه مدة. ثم هلك ابن جهور فعاد إلى مطالبته إلى أن تخلى له عنها سنة ثلاث وأربعين فولى عليها ابنه المعتمد. ثم سار إلى شلب وبها المظفر أبو الأصبغ عيسى بن القاضي أبي بكر محمد بن سيد بن مزين ثار بها سنة تسع عشرة، ومات سنة اثنتين وأربعين فسار إليها المعتضد وملكها من يد ابنه، ونقل إليها المعتمد فنزلها واتخذها دار إمارة. ثم سار إلى شنت بريه، وبها المعتصم محمد بن سعيد بن هارون فانخلع له عنها سنة تسع وثلاثين، وأضافها للمعتمد. وكان بلبلة تاج الدين أبو العباس أحمد بن يحيى التحصيني ثار بها سنة أربع عشرة، وخطب له بأونية وشلطليش، ومات سنة ثلاث وثلاثين، وأوصى إلى أخيه محمد، وضايقه المعتضد فهرب إلى قرطبة واستبد بها ابن أخيه فتح بن خلف بن يحيى. وانخلع للمعتضد سنة خمس وأربعين وصارت هذه كلها من ممالك بني عباد. وتملك المعتضد أيضاً مرسية، وثار بها عليه ابن رشيق البناء، وتسمى خاصة الدولة، وبقي ثمان سنين. ثم ثاروا عليه سنة خمس وخمسين ورجعوا لابن عباد. وتملك المعتضد مرثلة من يد ابن طيفور سنة ست وثلاثين، وكان

تملكها من يد عيسى بن نسب الجيش الثائر بها، وصارت هذه الممالك كلها في ملك ابن عباد، وكانت بينه وبين باديس ابن حبوس صاحب غرناطة حروب إلى أن هلك سنة إحدى وستين وولي من بعده إبنه المعتمد بن المعتضد بن إسمعيل أبو القاسم بن عباد، وجرى على سنن أبيه، واستولى على دار الخلافة قرطبة من يد ابن جهور، وفرّق أبناءه على قواعد الملك، أنزلهم بها، واستفحل ملكه بغرب الأندلس، وعلت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف، مثل ابن باديس بن حبوس بغرناطة، وابن الأفطس ببطليوس، وابن صمادح بالمرية وغيرهم. وكانوا يطلبون سلمه ويعملون في مرضاته وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى إلى أن ظهر بالعدوة ملك المرابطين، واستفحل أمر يوسف بن تاشفين، وتعلقت آمال المسلمين في الأندلس بإعانته، وضايقهم الطاغية في طلب الجزية فقتل ابن عباد ثقته اليهودي الذي كان يتردّد إليه لأخذ الجزية، بسبب كلمة أسف بها. ثم أجاز البحر صريخاً إلى يوسف بن تاشفين، وكان من إجازته إليه، ومظاهرته إياه ما يأتي ذكره في أخباره. ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين، رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجازوه بالامتساك، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم، وهو خلال ذلك يردّد العساكر للجهاد. ثم أجاز إليهم وخلع جميعهم، ونقلهم إلى العدوة، واستولى على الأندلس كما يأتي ذكره في

أخباره. وصار ابن عباد في قبضة حكمه بعد حروب نذكرها. ونقله إلى أغمات قرية مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائه، واعتقله هنالك إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين. وكانت بالأندلس ثغور أخرى دون هذه، ولم يستول عليها ابن عباد، فمنها بلد السهلة استبد بها هذيل بن خلف بن رزين أوّل المائة الخامسة بدعوة هشام، تسمى مؤيد الدولة. وهلك شهيداً سنة خمسين واربعمائة، وملك بعده أخوه حسام الدولة عبد الملك بن خلف. ولم يزل أميراً عليها إلى أن ملكها المرابطون من يده عند تغلبهم على الأندلس. ومنها بلد البونت واللج تغلب عليها عبد الله بن قاسم الفهري، أزمان الفتنة، وتسمى نظام الدولة وهو الذي كان المعتمد عنده عندما ولاه الجماعة بقرطبة ومن عنده جاء إليها، وهلك سنة إحدى وعشرين وولي إبنه محمد يمين الدولة،

وكانت بينه وبين مجاهد حروب. وملك بعده إبنه أحمد عقد الدولة، وهلك سنة أربعين. وملك أخوه عبد الله جناح الدولة، إلى أن خلعه المرابطون سنة خمس وثمانين. ولنرجع إلى ذكر بقية الملوك الأكابر من الطوائف، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار ابن جهور:

كان رئيس الجماعة أيام الفتنة بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ابن عبد الله بن محمد بن المعمر بن يحيى بن أبي المغافر بن أبي عبيدة الكلبيّ، هكذا نسبه ابن بشكوال. وأبو عبيدة هو الداخل إلى الأندلس، وكانت لهم وزارة الدولة العامرية بقرطبة، واستبد جهور هذا سنة إثنتين وعشرين وأربعمائه، لما خلع الجند المعتز آخر خلفاء بني أمية، ولم يدخل في أمور الفتنة، فاستولى على المملكة ورتب الأمور، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة. وكان على سنن أهل الفضل، يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويؤذن عند مسجدهم بالربض الشرقي، ويصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس فأسندوا أمرهم إليه إلى أن يوجد خليفة إلى أن خاطبهم محمد بن إسمعيل بن عباد يعرّفهم أن هشاماً المؤيد عنده بإشبيلية، وأكثر في ذلك فخطب له بقرطبة بعد مراوضات. ثم أتي به إلى قرطبة فمنعوه الدخول وأضربوا عن ذكره في الخطبة، وانفرد ابن جهور بأمرهم إلى أن هلك في محرم سنة خمس وثلاثين واربعمائة ودفن بداره وولي إبنه أبو الوليد محمد بن جهور باتفاق من الكافة فجرى على سنن أبيه. وكان قد قرأ على مكي ابن أبي طالب المكي وغيره فكان مكرماً لأهله. واستوزر ثقته إبراهيم بن يحيى فكفاه، وهلك كما هو معروف ففوّض التدبير إلى إبنه عبد الملك فأساء السيرة، وتكرّه إلى الناس. وحاصره ابن ذي النون بقرطبة فاستغاث بمحمد بن عباد فأمده بالجيش، ووصى عسكره بذلك فداخلوا أهل قرطبة، وخلعوه سنة إحدى وستين وأخرجوه عن قرطبة. واعتقل بشلطليش إلى أن هلك سنة إثنتين وسبعين. وولى ابن عباد على قرطبة إبنه سراج الدولة، وقدمها من بلنسية ودخلها إلى

أن قتل بها مسموماً، وحمل إلى طليطلة فدفن بها. وزحف المعتمد بن عباد بعد مهلكه إلى قرطبة فملكها سنة تسع وستين. وقتل ابن عكاشة واستخلف إبنه المأمون الفتح بن محمد، وصار غرب الأندلس كلّه في ملكه إلى أن دخل المرابطون الأندلس، وغلبوا عليهم سنة أربع وثمانين واربعمائة فقتل الفتح وحمل أباه المعتمد إلى أغمات كما ذكرناه ونذكره. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار ابن الأفطس صاحب بطليوس من غرب الأندلس ومصاير أمره:

ملك بطليوس من غرب الأندلس عند الفتنة واهتياجها أبو محمد عبد الله بن مسلمة التجيبي المعروف بابن الأفطس، واستبدّ بها سنة إحدى وستين وأربعمائه فهلك، وولي من بعده إبنه المظفر أبو بكر، واستفحل ملكه، وكان من أعاظم ملوك الطوائف. وكانت بينه وبين ابن ذي النون حروب مذكورة، وكذا مع ابن عباد بسبب ابن يحيى صاحب مليلة، أعانه ابن عباد عليه فاستولى بسبب ذلك على كثير من ثغوره ومعاقله. واعتصم المظفر ببطليوس بعد هزيمتين هلك فيهما خلق كثير، وذلك سنة ثلاث وأربعين. ثم أصلح بينهما ابن جهور، وهلك المظفر سنة ستين وأربعمائه. وتولى بعده إبنه المتوكل أبو حفص عمر بن محمد المعروف بساجةّ، ولم يزل سلطاناً بها إلى أن قتله يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة تسع وثمانين وأربعمائه، وقتل معه أولاده. أغراه به ابن عباد فلما تمكنت الاسترابة من المتوكل، خاطب الطاغية واستراح إليه مما دهمه. وشعر به ابن عباد فكاتب يوسف بن تاشفين واستحثه لمعاجلته قبل أن يتصل بالطاغية، ويتصل بالثغر فأغذ إليه السير ووافاه سنة (1) فقبض عليه، وعلى بنيه وقتلهم يوم الأضحى حسبما نذكر في أخبارهم. ورثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة وهي:

#الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

عدد فيها أهل النكبات ومن عثر به الزمان بما يبكي الجماد، وسنذكر قصتهم في أخبار لمتونة وفتحهم الأندلس، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

أخبار باديس بن حسون ملك غرناطة والبيرة:

كان عميد صنهاجة في الفتنة البربرية زاوي بن زيري بن مناد. أجاز إلى الأندلس على عهد المنصور، فلما هاجت الفتنة البربرية، وانحل نظام الخلافة، كان فحل ذلك الشول، وكبش تلك الكتائب، وعمد إلى البيرة، ونزل غرناطة، واتخذها دارا لملكه. ولما بايع الموالي العامريّون للمرتضى المرواني، وتولّى كبر ذلك مجاهد العامريّ، ومنذر بن يحيى بن هاشم التجيبي، وعمد إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري في جموع صنهاجة، وهزمهم سنة عشرين وأربعمائه، وقتل المرتضى. وأصاب زاوي من ذخائرهم وأموالهم وعددهم ما لم يقتنه ملك. ثم وقع في نفسه سوء آثار البربر بالأندلس أيام هذه الفتنة، وحذّر مغبة ذلك فارتحل إلى سلطان قومه بالقيروان، واستخلف على غرناطة إبنه فدبّر القبض على ابن رصين ومشيخة غرناطة إذا رجعوا عن أبيه، وشعروا بذلك فبعثوا إلى ابن أخيه ماكس بن زيري من بعض الحصون فوصل، وملك غرناطة واستبد بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين واربعمائة ووليَ إبنه باديس، وكانت بينه وبين ذي النون وابن عبّاد حروب. واستولى على سلطانه كاتبه وكاتب أبيه إسمعيل بن نعزلة الذمّي. ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين، وقتل معه خلقاً من اليهود. وتوفي سنة سبع وستين واربعمائة وولي حافده المظفّر أبو محمد عبد الله بن بلكّين بن باديس، وولّى أخاه تميماً بمالقة بعهده جده. وخلعهما المرابطون سنة ثلاث وثمانين وأربعمائه، وحملا إلى أغمات

ووريكة، واستقرّا هنالك حسبما يذكر بعد في أخبارهم مع يوسف بن تاشفين، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني زي النون ملوك طليطلة من الثغر

الجوفي وتصاريف أمورهم ومصاير أحوالهم:

جدّهم إسمعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون، أصله من قبائل هوارة،

ورأس سلفه في الدولة المروانية. وكانت لهم رياسة في شنترية. ثم تغلب على حصن أفلنتين أزمان الفتنة سنة تسع وأربعمائه. وكانت طليطلة ليعيش بن محمد بن يعيش، واليها منذ أوّل الفتنة فلما هلك سنة سبع وعشرين، استدعاه إسمعيل الظافر من حصن أفلنتين مع بعض أجناد طليطلة فمضى إليها، وملكها. وامتدّ ملكه إلى جنجالة من عمل مرسية و لم يزل أميراً بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين. وولي إبنه المأمون أبو الحسن يحيى، واستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه، وكانت بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة. وفي سنة خمس وثلاثين غزى بلنسية وغلب على صاحبها المظفر ذي السابقين من ولد المنصور بن أبي عامر. ثم غلب على قرطبة وملكها من يد ابن عبّاد، وقتل إبنه أبا عمر بعد أن كان ملكها وهلك الظافر بها مسموماً سنة سبع وستين كما ذكرناه. وولي بعده على طليطلة حافده القادر يحيى بن إسمعيل بن المأمون يحيى بن ذي النون، وكان الطاغية ابن أدفونش قد استفحل أمره لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافية، وخفّ ما كان على كاهله من أمره العرب فآلتهم البسائط، وضايق ابن ذي النون حتى غلب على طليطلة فخرج له القادر عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائه، وشرط عليه أن يظاهره على أخذ بلنسية، وعليها عثمان القاضي بن أبي بكر بن عبد العزيز، من وزراء ابن أبي عامر فخلعه أهلها خوفاً من القادر أن يمكن منهم ألفنش فدخلها القادر، وأقام بها سنتين، وقتل سنة إحدى وثمانين على ما نذكر بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أبي عامر صاحب شرق الأندلس من بني ملوك الطوائف وأخبار الموالي العامريّين الذين كانوا قبله وابن صمادح قائده بالمريّة وتصاريف أحوالهم ومصايرها:

بويع للمنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر بن أبي عامر بشاطبة سنة إحدى عشرة وأربعمائه، أقامه الموالي العامريّون عند الفتنة البربرية فاستبدّ بها. ثم ثار عليه أهل شاطبة فأفلت، ولحق ببلنسية فملكها وفوّض أمره للموالي. وكان من وزرائه ابن

عبد العزيز وكان خيران العامريّ من مواليهم، تغلّب من قبل ذلك على أربولة سنة أربع. ثم ملك مرسية سنة سبع، ثم حيّان ثم المريّة سنة تسع، وبايعوا جميعاً للمنصور عبد العزيز. ثم انتفض خيران على المنصور، وسار من المريّة إلى مرسية، وأقام بها ابن عمّه أبا عامر محمد بن المظفّر بن المنصور بن أبي عامر، خرج إليه من قرطبة من حجر القاسم بن حمود، وخلص إلى خيران بأموال جليلة، فجمع الموالي فأخذوا ماله وطردوه. ثم ولاّه خيران وسمّاه المؤتمن ثم المعتصم. ثم تنكّر عليه وأخرجه من مرسية ولحق بالمريّة وأغرى به الموالي فأخذوا ماله وطردوه، ولحق بغرب الأندلس إلى أن مات. ثم هلك خيران بالمريّة سنة تسع عشرة، وقام بالأمر بعده الأمير عميد

الدولة أبو قاسم زُهير العامريّ، وزحف إلى غرناطة فبرز إليه باديس بن حبّوس وهزمه، وقتل بظاهرها سنة تسع وعشرين فصار ملكه للمنصور عبد العزيز صاحب بلنسية، وملكها من يده سنة سبع وخمسين. ولما هلك المأمون بن ذي النون وولى حافده القادر، ولّى على بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز بقية وزراء ابن أبي عامر، فداخله ابن هود في الانتقاض على القدر ففعل واستبدّ بها، وضبطها سنة ثمان وستين حين تغلّب المقتدر على دانية. ثم هلك سنة ثمان وسبعين لعشر سنين من ولايته. وولي إبنه القاضي عثمان فلما سلم القادر بن ذي النون طليطلة زحف إلى بلنسية ومعه ألفنش كما قلناه، وخلع أهل بلنسية عثمان بن أبي بكر، وأمكنوا منها القادر خوفا من استيلاء النصرانيّ وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائه. ثم ثار القادر سنة ثلاث وثمانين القاضي جعفر بن عبد الله بن حجاب، وقتله واستبدّ بها. ثم تغلّب النصارى عليها سنة تسع وثمانين وقتلوه. ثم تغلّب المرابطون على الأندلس، وزحف ابن ذي النون قائدهم إلى بلنسيه فاسترجعها من أيديهم سنة خمس وتسعين وأربعمائه. وأمّا معنُ بن صالح قائد الوزير ابن ابي عامر فأقام بالمريّة لما ولاّه المنصور سنة ثمان وثمانين، وتسمّى ذا الوزارتين. ثم خلعه وولّى ابنه المعتصم أبو يحيى محمد بن معن بن صُمادح، واستبدّ بها أربعاً وأربعين سنة، وثار عليه صاحب لورقة ابن شبيب، وكان أبوه معزولاً عليها فجهّز إليه المعتصم جيشا، واستمد ابن شبيب المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية ومرسية بالعدّو، واستمدّ المعتصم بباديس، ونهض عمّه صُمادح بن باديس بن صمادح فقاتلوا حصوناً من حصون لورقة، واستولوا عليها، ورجعوا ولم يزل المعتصم أميراً بالمريّة إلى أن هلك سنة ثمانين وولي إبنه، وخلعه يوسف بن تاشفين أمير

المرابطين سنة أربع وثمانين، وأجاز إلى العدوة ونزل على آل حمّاد بالقلعة، وبها مات ولده، والله وارث الأرض ومن عليها.

بنو هود

الخبر عن بني هود ملوك سرقسطة من الطوائف صارت

إليهم من بني هاشم وما كان من اوليتهم ومصاير أمولهم:

كان منذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان بين المنصور وعبد الرحمن منافسة على الإمارة والرياسة، وكانت دار إمارته سرقسطة ولما بويع المهدي بن عبد الجبّار، وانقرض أمر العامريّين، وجاءت فتنة البربر كان مع المستعين حتى قتل هشام مولاه فامتعض لذلك، وفارقه وبايع المرواني للمرتضى مع مجاهد، ومن اجتمع إليه من الموالي والعامريّين، وزحفوا إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري وهزمهم. ثم ارتابوا بالمرتضى ووضعوا عليه من قتله مع خيران بالمريّة، واستبدّ منذر هذا بسرقسطة والثغر وتلقّب بالمنصور، وعقدها بين طاغية جليقة وبرشلونة وبنيه، وهلك سنة أربع عشرة، ووليَ إبنه وتقلب المظفر. وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي من أهل نسبهم مستبداً بمدينة تطيلة، ولاّها منذ أوّل الفتنة، وجدّهم هود هو الداخل للأندلس، ونسبه الأزد إلى سالم مولى أبي حذيفة. قال هود بن عبد الله بن موسى بن سالم: وقيل هود من ولد روح بن زنباع فتغلّب سليمان على المظفر يحيى بن المنذر،

وقتله سنة إحدى وثلاثين، وملك سرقسطة والثغر الأعلى، وإبنه يوسف المظفر لاردة. ثم نشأت الفتنة بينهما، وانتصر المقتدر بالإفرنج والبشكنس فجاؤا لميعاده فوقعت الفتنة بين المسلمين وبينهم ثائرة، وانصرفوا إلى يوسف صاحب لاردة فحاصرها بسرقسطة، وذلك سنة ثلاث وأربعين. وهلك أحمد المقتدر سنة أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه فولي بعده إبنه يوسف المؤتمن، وكان قائماً على العلوم الرياضيّة، وله فيها تآليف مثل الاستهلال والمناظر ومات سنة ثمان وسبعين، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طليطلة من يد القادر بن ذي النون. وولي بعده المستعين، وعلى يده كانت وقعة وشقة، زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين، وهلك فيهما خلق نحو عشرة آلاف، و لم يزل أميراً بسرقسطة إلى أن هلك شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة

بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية إليها. وولي بعده ابنه عبد الملك، وتلقب عماد الدولة، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة اثنتي عشرة فترل روطة من حصونها وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث عشرة. وولي ابنه أحمد، وتلقب سيف والمستنصر، وبالغ النكاية في الطاغية ثم سلم له روطة على أن يملكه بلاد الأندلس فانتقل معه إلى طليطلة بحشمه وآلته، وهنالك هلك سنة ست وثلاثين وخمسمائة. وكان من ممالك بني هود هؤلاء مدينة طرطوشة، وقد كان بقايا من الموالي العامريين فملكها سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائه. ثم هلك سنة خمس وأربعين وملكها بعده يعلى العامري، و لم تطل مدته. وملكها بعده شبيل إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين سنة ثلاث وخمسين، فلم تزل في يده وفي يد بنيه من بعده إلى أن غلب عليها العدو فيما غلب عليه من شرق الأندلس. والله وارث الأرض ومن عليهما وهو خير الوارثين.

الخبر عن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية

وأخبار بنية ومواليهم من بعدهم ومصائر أمورهم

كان فتح ميورقة سنة تسعين ومائتين على يد عصام الخولاني، وذلك أنه خرج حاجا في

سفينة اتخذها لنفسه فعصفت بهم الريح فأرسلوا بجزيرة ميورقة، وطال مقامهم هنالك، واختبروا من أحوالهم ما أطمعهم في فتحها فلمما رجع بعد فرضه أخبر الأمير بما رأى فيها، وكان من أهل الغناء عنده في مثلها فبعث معه القطائع في البحر. ونفر الناس معه إلى الجهاد فحاصرها أياما وفتحوها حصناً حصناً إلى أن كمل فتحها. وكتب عصام بالفتح إلى الأمير عبد الله فكتب له بولايتها فوليها عشر سنين، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات. ولما هلك قدم أهل الجزيرة عليهم ابنه عبد الله، وكتب له الأمير بالولاية. ثم زهد وترهب وركب إلى الشرق حاجا وانقطع خبره، وذلك سنة خمسين وثلاثمائة. وبعث الناصر المرواني إليها الموفق من الموالي فأنشأ الأساطيل وغزا بلاد الإفرنج، وهلك سنه تسع وخمسين أيام الحكم المستنصر، وولي بعده كوثر من مواليه فجرى على سنن الموفّق في جهاده. وهلك سنة تسع وثمانين أيام المنصور فوليّ عليها مقاتل من مواليه، وكان كثير الغزو والجهاد. وكان المنصور وابنه المؤيد يمدّانه في جهاده. وهلك سنة ثلاث وأربعمائه أزمان الفتنة. وكان مجاهد بن يوسف بن عليّ من فحول الموالي العامريّين. وكان المنصور قد ربّاه وعلمه مع

مواليه القرآآت والحديث والعربية فكان مجيداً في ذلك. وخرج من قرطبة يوم قتل المهدي سنة أربعمائة، وبايع هو والموالي العامريّين وكثير من جند الأندلس للمرتضى كما قدّمناه. ولقيهم زاوي بفحص غرناطة فهزمهم وبددّ شملهم. ثم قتل المرتضى كما تقدّم، وسار مجاهد إلى طرطوشة فملكها. ثم تركها وانتقل إلى دانية واستقلّ بها، وملك ميورقة ومنورقة ويابسة واستبدّ سنة ثلاث عشرة. ونصّب العيطي كما مر فأراد الاستبداد، ومنع طاعة مجاهد، ومنعه أهل ميورقة من ذلك فبعث عنه، مجاهد، وقدّم على ميورقة عبد الله ابن أخيه فولي خمس عشرة سنة. ثم هلك وكان غزا سردانية في الأساطيل فاقتحمها وأخرج النصارى منها، وتقبضوا على أبنه أسيراً ففدّاه بعد حين، وولّى مجاهد على ميورقة بعد ابن أخيه مولاه الأغلب سنة ثمان وعشرين وكان بين مجاهد صاحب دانية وبين خيران صاحب مرسية وابن أبي عامر صاحب بلنسية حروب إلى أن هلك مجاهد سنة ست وثلاثين. وولي إبنه عليّ وتسمى إقبال الدولة، وأصهر إلى المقتدر بن هود، وأخرجه من دانية سنة ثمان وستين ونقله إلى سرقسطة، ولحق إبنه سراج الدولة بالإفرنجة، وأمدّوه على شروط شرطها لهم فتغلب على بعض حصونه. ثم مات فيما زعموا مسموماً بحيلة من المقتدر سنة تسع. ومات عليّ قريباً من وفاة المقتدر سنة أربع وسبعين. ويقال بل فرّ أمام المقتدر إلى بجاية، ونزل على صاحبها يحيى بن حمّاد، ومات هنالك. وأمّا الأغلب مولى مجاهد صاحب ميورقة فكان صاحب غزو وجهاد في البحر. ولما هلك مجاهد استأذن ابنه عليّاً في الزيارة فأذن له، وقدم على الجزيرة صهره ابن سليمان بن مشكيان نائباً عنه. وبعث على آل الأغلب فاستعفاه وأقام سليمان خمس سنين. ثم مات فولّى على مكانه مبشراً وتسمى ناصر الدولة وكان أصله من شرق الأندلس أسر صغيراً وّجّبه العدو وأقام بدانية محبوباً يجاهد في أسرى دانية وسردانية، واصطفاه فولاّه بعد مهلك سليمان فولي خمس سنين، وانقرض ملك علي، وتغلّب عليه المقتدر بن هود

فاستبد مبشر بميورقة، والفتنة يومئذ تموج بين ملوك الطوائف. وبعث إلى دانية في تسليم أهل سيده فبعثوا إليه بهم، وأولادهم جميلاً. ولم يزل يردّد الغزو إلى أرض العدو إلى أن جمع طاغية برشلونة الجموع، ونازله بميورقة عشرة أشهر. ثم افتتحها واستباحها * سنة من ولايته. وكان بعث بالصريخ إلى عليّ بن يوسف صاحب المغرب من لمتونة فلم يوافهم الأسطول بالمدد إلا بعد استيلاء العدوّ. فلما وصل الأسطول دفعوا العدّو عنها وولّى علي بن يوسف من قبله أنور بن أبي بكر اللمتوني فعسف بهم، وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فثاروا به وصفدوه. وبعثوا إلى علي بن يوسف فردهم إلى ولاية محمد بن عليّ بن إسحق بن غانية المستولي صاحب غرب الأندلس فبعث إليها أخاه محمد بن علي من قرطبة، كان والياً عليها فوصل إلى ميورقة فصفد أنور، وبعث به إلى مراكش، وأقام في ولايتها عشر سنين إلى أن هلك أخوه يحيى وسلطانهم عليّ بن يوسف. واستقرّت ميورقة في ملك بني غانية هؤلاء وسلطانهم. وكانت لهم في زمن عليّ بن يوسف بها دولة. وخرج منها علي ويحيى إلى بجاية وملكوها من الموحّدين، وكانت لهم معهم حروب بإفريقية كما نذكر في أخبارهم بعد أخبار لمتونة. وملك الأفرنج ميورقة من أيدي الموحّدين آخر دولتهم. والبقاء لله والملك يؤتيه من يشاء، وهو العزيز الحكيم.

الخبر عن ثوار الأندلس آخر الدولة اللمتونية واستبداد بني مردنيس ببلنسية ومزاحمتهم لدولة بني عبد المؤمن من أولها إلى آخرها ومصائر أحوالهم وتصاريفهم :

لما شغل لمتونة بالعدوّ، وبحرب الموحّدين بعد عليهم الأندلس، وعادت إلى الفرقة بعض الشيء فثار ببلنسية سنة سبع وثلاثين وخمسمائة القاضي مروان بن عبد الله بن مروان ابن حضاب، وخلعوه لثلاثة أشهر من ملكه، ونزل بالمريّة. ثم حمل إلى ابن غانية بميورقة فسجن بها، وثار بمرسية أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن ظاهر. ثم خلع، وقتل لأربعة أشهر من ولايته، وولي حافد المستعين بن هود شهرين. ثم ولي ابن عياض، وبايع أهل بلنسية بعد ابن حضاب للأمير أبي محمد عبد الله بن سعيد بن مردنيش الجذامي. وأقام مجاهداً إلى أن استشهد في بعض أيامه مع النصارى سنة أربع وخمسمائة، فبويع لعبد الله بن عياض كان ثائراً بمرسية كما قدمناه. وهلك سنة إثنتين وأربعين فبويع إلى ابن أخيه محمد بن أحمد بن سعيد بن مردنيش، وملك شاطبة ومدينة شقر ومرسية. وكان إبراهيم ابن همشك من قوّاده فعبث في أقطار الأندلس وأغار على قرطبة وتملّك بها. ثم استرجعت منه. ثم غدر بغرناطة وملكها من أيدي الموحدين وحصرهم بالقصبة هو وابن مردنيش. ثم استخلصها عبد المؤمن من أيديهم بعد حروب شديدة دارت بينهم بفحص غرناطة، لقيه فيها ابن همشك وابن مردنيش وجيوش من أمم النصرانية استعانوا بهم في المدافعة عن غرناطة فهزمهم عبد المؤمن، وقتلهم أبرح قتل. وحاصر يوسف بلنسية فخطب للخليفة العبّاسيّ المستنجد، وكاتبه فكتب له بالعهد والولاية. ثم بايع للموحدين سنة ست وستين. وكان المظفّر عيسى بن المنصور بن عبد العزيز الناصر بن أبي عامر عندما انصرف إلى ملك شاطبة ومرسية تغلّب على بلنسية مدّة. ثم هلك سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ورجعت إلى ابن مردنيش وكان أحمد بن عيسى تغلّب على حصن مزيلة، ثائراً بالمرابطين من أتباعه فغلب منذر بن أبي وزير عليه، فأجاز سنة أربعين وخمسمائة إلى عبد المؤمن، ورغبه في ملك الأندلس فبعث معه البعوث، وتغلبوا على بني غانية أمراء المرابطين بالأندلس وكان بميورقة أيضاً منذ اضطراب أمر لمتونة محمد بن علي بن غانية المستوفي، وليها سنة عشرين وخمسمائة، واستشهد بها. ورحل عنها سنة سبع وثلاثين إلى زيارة أخيه يحيى ببلنسية. واستخلف على ميورقة عبد الله بن تيما فلما مكث ثار عليه ثوّار فرجع محمد بن غانية، وأصلح شانها إلى أن هلك سنة سبع وستين وولي أبنه إبراهيم أبو إسحق، وتوفي سنة إحدى وثمانين. وأوفد عليهم أهل ميورقة فبعثوا معهم عليّ بن الربرتبر فلما وصل إلى ميورقة ثار على طلحة بنو أخيه إسحق وهم علي ويحيى ويعفر بن الربرتبر وخلعوا طلحة. ثم بلغهم موت يوسف بن عبد المؤمن فخرجوا إلى إفريقية حسبما نذكر في أخبار دولتهم. فانقرضت دولة المرابطين بالمغرب والأندلس، وأدال الله منهم بالموحدّين وقتلوهم في كل وجه. واستفحل أمرهم بالأندلس، واستعملوا فيها القرابة من بني عبد المؤمن وكانوا يسمّونهم السادة، واقتسموا ولايتها بينهم. وأجاز يعقوب المنصور منهم غازياً بعد أن إستقرّ أهل العدوة كافة، من زناتة فأوقع العرب بابن أدفونش ملك الجلالقة بالأركة من نواحي بطليوس الوقعة المذكورة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وأجاز ابنه الناصر من بعده سنة تسع فمحص الله المسلمين واستشهد منهم عدة ثم تلاشت إمارة الموحدين من بعده،

وانتزى بالسادة بنواحي الأندلس في كلّ عمله، وضعف بمراكش فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بقص، واستسلام حصون المسلمين إليه في ذلك فسمت رجالات الأندلس، وأعقاب العرب من دولة الأموية، وأجمعوا أخراجهم فثاروا بهم لحين وأخرجوهم. وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر بالأندلس. وقام ببلنسية زيّان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد، من أعقاب دولة بني مردنيش وثوار آخرون. ثم خرج عليّ بن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وتلقب محمد هذا بالشيخ فحاربه أهل الجبل، وكانت لكل منهما دولة أورثها بنيه. فأمّا زيد بن مردنيش فكان مع عشرة من بنى مردنيش رؤساء بلنسية، واستظهر الموحّدون على إمارتها. ولما وليها السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن بعد مهلك المستنصر كما نذكر في أخبارهم وذلك سنة عشرين وستمائة، كان زيّاد هذا بطانته وصاح أمره. ثم انتقض عليه سنة ست وعشرين عندما بويع ابن هود بمرسية، وخرج إلى أبداه فخشيه السيد أبو زيد وبعث إليه يلاطفه في الرجوع فامتنع، ولحق السيد أبو زيد بطاغية برشلونه ودخل في دين النصرانية. وملك زيّان بلنسية، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن هود، وخالف عليه بنو عمه عزيز بن يوسف بن سعد في جزيرة سقم، وصاروا إلى طاعة بن هود وزحف زيّان للقائه على شريش فانهزم وتبعه ابن هود، ونازله في بلنسية أياماً وامتنعت عليه فأقلع، وتكالب الطاغية على ثغور المسلمين، ونازل صاحب برشلونة أنيشة وملكها،

وزحف زيّان إليها بجميع من معه من المسلمين سنة أربع وثلاثين، ونفر معه أهل شاطبة وجزيرة شقر فكانت عليهم الواقعة العظيمة التي استشهد فيها أبو الربيع سليمان، وأخذ الناس في الأنتقال عن بلنسية فبعث إليهم يحيى بن أبي زكريا صاحب إفريقية بالمدد، من الأموال والأسلحة والطعام مع قريبه يحيى عندما نبذ دعوة بني عبد المؤمن وأوفد عليه أعيان بلنسية وهي محصورة فرجع إلى دانية. ثم أخذ الطاغية بلنسية سنة ست وثلاثين، وخرج زيّان إلى جزيرة شقر وأقام بدعوة الأمير أبي زكريا وبعث إليه بيعتها مع كاتبه الحافظ أبي عبد الله محمد بن الأنباري فوصل إلى تونس، وأنشده قصيدته المشهورة على رويّ السين بلغ فيها من الإجادة حيث شاء، وهي معروفة وسيأتي ذكرها في دولة بني حفص بإفريقية من الموحدين. ثم هلك ابن هود، وانتقض أهل مرسية على إبنه أبي بكر الواثق، وكان واليه بها أبو بكر بن خطاب فبعثوا إلى زيّان واستدعوه فدخلها، وانتهب قصرها، وحملهم على البيعة للأمير أبي زكريا على ولاية شرق الأندلس كله، وذلك سنة سبع وثلاثين. ثم انتقض عليه ابن عصام باريولة، ولحق به قرابة زيّان بمدينة لقنت فلم يزل بها إلى أن أخذها منه طاغية برشلونة سنة أربع وأربعين فأجاز إلى تونس، وبها مات سنة ثمان وستين. وأما ابن هود فسيأتي الخبر عن دولته، وأما ابن الأحمر فلم تزل الدولة في أعقابه لهذا العهد. ونحن ذاكرون أخبارهم لأنهم من بقايا دولة العرب، والله خير الوراثين.

الخبر عن ثورة ابن هود علي الموحدين بالأندلس

ول ولته و أولية أمره وتصاريف أحواله:

هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود، ثار بالصخيرات من عمل مرسية مما يلي رقوط عند فشل دولة الموحدّين، واختلاف السادة الذين كانوا أمراء بلنسية. وذلك عندما هلك المستنصر سنة عشرين. وبايع الموحدون بمراكش لعمّه المخلوع عبد الواحد بن أمير المؤمنين يوسف. ثار العادل ابن أخيه المنصور بمرسية، ودخل في طاعة صاحب حيّان أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وخالفهما في ذلك السيد أبو زيد أخوه ابن محمد بن أبي حفص. وتفاقمت الفتنة، واستظهر كل على أمره بالطاغية، ونزلوا له عن كثير من الثغور. وتلقت من ذلك ضمائر أهل الأندلس فتصدر ابن هود هذا للثورة، وهو من أعقاب بني هود من ملوك الطوائف، وكان يؤمل لها. وربما امتحنه الموحدون لذلك مرّات فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين، وجهّز إليه والي مرسية يومئذ السيد أبو العبّاس بن أبي عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عسكراً فهزمهم. وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد، وخطب للمستنصر صاحب بغداد لذلك العهد من بني العبّاس. وزحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن من شاطبة، وكان واليه بها فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة واستجاش بالمأمون وهو يومئذ بإشبيلية بعد أخيه العادل فخرج في العساكر، ولقيه ابن هود فانهزم وأتبعه إلى مرسية فحاصره مدّة، وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيليه. ثم انتقض على السيد أبي زيد ببلنسية زيّان ابن أبي الحملات مدافع ابن حجّاج بن سعد بن مردنيش، وخرج عنه إلى أبّدة وذلك سنة ست وعشرين. وكان بنو مردنيش هؤلاء أهل عصابة، وأولي بأس وقوة فتوقّع أبو زيد اختلال أمره، وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فامتنع فخرج أبو زيد من بلنسيه، ولحق بطاغية برشلونة، ودخل في دين النصرانية. وبايعت أهل شاطبة لابن هود. ثم تابعه أهل جزيرة شقر، حملهم عليها ولاهم بنو عزيز بن يوسف عم زيان بن مردنيش. ثم بايعه أهل خبيان وأهل قرطبة، تسمّى بأمير المسلمين، وبايعه أهل إشبيليه عند رحيل المأمون عنها إلى مراكش، وولّى عليهم أخاه. ونازعه زيان بن مردنيش، وكانت بينهما ملاقاة انهزم فيها زيّان سنة تسع وعشرين. وحاصره ابن هود ببلنسية، ثم أقلع. ولقي الطاغية على ماردة فانهزم ومحص الله المسلمين، وانهزم بعدها أخرى على الكوس. ولم تزل غزواته مترددة في بلاد العدوّ

كل سنة، وحربه معهم سجالاً، والطاغية يلتقم الثغور والقواعد. ثم استولى ابن هود على الجزيرة الخضراء، وجبل الفتح فرضتي المجاز على سبتة، من يد السيد أبي عمران موسى لما انتقض على أخيه المأمون، ونازله بسبتة فبايع هو لابن هود وأمكنه منها. ثم ثار بها إليناشتي على ما يذكر. ثم بويع للسلطان محمد بن يوسف بن نصر سنة تسع وعشرين بأرجونة، ودخلت قرطبة في طاعته، ثم قرفونة. ثم انتقض أهل إشبيلية واخرجوا سالم بن هود، وبايعوا لابن مروان أحمد بن محمد الباجي وجهّز عسكراً للقاء ابن الأحمر فانهزموا وأسر قائده. ثم اتفق الباجي مع ابن الأحمر على فتنة ابن هود. وصالح ابن هود الفنش على فعلتهم على ألف دينار في كل يوم. ثم صارت قرطبة إلى ابن هود، وزحف إلى الباجي وابن الأحمر فانهزم، ونزل ابن الأحمر ظاهر إشبيلية. ثم غدر الباجي فقتله وتولّى ذلك صهره واشقيلولة، وزحف سالم بن هود إلى إشبيلية فنازلها وامتنعت عليه.

ووصل خطاب الخليفة المستنصر العبّاسي إلى ابن هود من بغداد سنة إحدى وثلاثين وفد بط أبو علي حسن بن علي بن حسن بن الحسين الكردي الملقب بالكمال. وجاء بالراية والخلع والعهد، ولقبه المتوكل. وقدم عليه بذلك في غرناطة في يوم مشهود، وبايع له ابن الأحمر. وعندما غدر ابن الأحمر بالباجي فرّ من إشبيلية شعيب بن محمد إلى البلد فاعتصم بها، وتسمّى المعتصم فحاصره ابن هود وأخذها من يده. ثم خرج العدوّ من كل جهة ونازلوا ثغور المسلمين وأحاطوا بهم، وانتهت محلاتهم على الثغور، إلى سبع. ثم حاصر الطاغية مدينة قرطبة، وغلب عليها سنة ثلاث وثلاثين، وبايع أهل إشبيلية للرشيد من بني عبد المؤمن. ثم زحف ابن الأحمر إلى غرناطة وملكها كما يذكر، وبويع للرشيد سنة سبع وثلاثين. وكان عبد الله أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الأموي الرميمي وزير ابن هود، وكان يدعوه ذا الوزارتين ولاّة المريّة من عمله فلم يزل بها، وقدم عليه المتوكل سنة خمس وثلاثين وستمائة فهلك بالحمام ودفن بمرسية، ويقال إنه قتله. ثم استبدّ من بعده المؤيّد، واستنزله عنها ابن الأحمر سنة ثلاث وأربعين. ولما هلك المتوكّل ولي من بعده بمرسية إبنه أبو بكر محمد بعهده إليه، وتلقب بالواثق وثار عليه عزيز بن عبد الملك بن خطاب سنة ست وثلاثين لأشهر من ولايته فاعتقله، وكان يلقّب ضياء الدولة. ثم تغلّب زيّان بن مردنيش على مرسية، وقتل ابن خطاب لأشهر من ولايته. وأطلق الواثق بن هود من اعتقاله. ثم ثار عليه بمدينة مرسية محمد بن هود عم

المتوكّل سنة ثمان وثلاثين، وأخرج منها زيّان بن مردنيش، وتلقّب بهاء الدولة. وهلك سنة سبع وخمسين وستمائة. وولي ابنه الأمير أبو جعفر. ثم ثار عليه سنة اثنتين وستين أبو بكر الواثق الذي كان ابن خطّاب خلعه، وهو المتوكل أمير المسلمين وبقي بها أميراً إلى أن ضايقه الفنش والبرشلونّي فبعث إليه عبد الله بن علي بن أشقيلولة، وتسلّم مرسية منه. وخطب بها لابن الأحمر. ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر فأوقع به البصريّ في طريقه، ورجع الواثق إلى مرسية ثالثة فلم يزل بها إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين، وعوّضه منها حصناً من عملها يسمّى يسّ إلى أن هلك، والله خير الوارثين.

دولة بني الأحمر

الخبر عن دولة بني الأحمر ملوك الأندلس

لهذا العهد ومبد أ أمورهم وتصاريف أحوالهم

أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، ولهم فيها سلف في أبناء الجند، ويعرفون ببني نصر وينسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج. وكان كبيرهم لآخر دولة الموحّدين محمد بن يوسف بن نصر، ويعرف بالشيخ وأخوه إسمعيل. وكانت لهم وجاهة في ناحيتهم. ولما فشل ريح الموحّدين وضعف أمرهم، وكثر الثوّار بالأندلس، وأعطى حصونها للطاغية، واستقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية فأقام بدعوته العبّاسيّة، وتغلّب على شرق الأندلس أجمع فتصدى محمد بن يوسف هذا للثورة على ابن هود، وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة على الدعاء للأمير ابي زكريا صاحب إفريقية، وإطاعته حيّان وشريش سنة ثلاثين بعدها، وكان يعرف بالشيخ ويلقب بابي دبوس. واستظهر على أمره أوّلاً بقرابته من بني نصر وأصهاره ببني اشميلولة

عبد الله وعلي. ثم بايع لابن هود سنة إحدى وثلاثين عندما وصله خطاب الخليفة من بغداد. ثم ثار باشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها، ورجوعه إلى مرسية فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوّجه إبنته فأطاعه، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين. ثم فتك بابن الباجي وقتله، وتناول

الفتك به علي بن أشقيلولة. ثم راجع أهل إشبيلية بعدها لشهر دعوة ابن هود، وأخرجوا ابن الأحمر. ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها ثم ثار ابن أبي خالد بدعوته في لحيان ووصلته بيعتها فقدم إليها أبا الحسن بن إشقيلولة. ثم جاء على أثره ونزلها واستقرّ بها بعد مهلك ابن هود، وبايع للرشيد سنة تسع وثلاثين. ثم تناول المؤيد من يد محمد بن الرميمي فخلعه أهل البلد سنة ثلاث وستين وبايعوا لابن الأحمر. ثم ثار أبو عمرو بن الجدّ، واسمه يحيى بن عبد الملك بن محمد الحافظ أبي بكر وملك أشبيلية، وبايع للأمير ابي زكريا بن حفص صاحب إفريقية سنة ثلاث وأربعين، وولي عليهم أبو زكريا أميراً، وقام بأمرهم القائد شغاف، والعدو أثناء ذلك يلتقم بلاد المسلمين وحصونهم من لدن عام عشرين أو قبله، وصاحب برشلونة من ولد البطريق الذي استعمله الافرنجة عليها الأوّل استرجاعهم لها من أيدي العرب فتغلّب عليها، وبعد عن الفرنجة، وضعف لعهده سلطانهم. ووصلوا وراء الدروب، وعجزوا فكانوا عن برشلونة وجماعتها أعجز فسما أهل طاغيتها منهم لذلك العهد، وإسمه حاقمة، إلى التغلّب على ثغور المسلمين. واستولى على ماردة سنة ست وعشرين وستمائة، ثم ميورقة سنة سبع وعشرين وستمائة. ثم أجاز إلى سرقسطة وشاطبة، كان تملكها منذ مائة وخمسين من السنين قبلها. ثم بلنسية سنة ست وثلاثين وستمائة بعد حصار طويل، وطوى ما بين ذلك من المحصون والقرى حتى انتهى إلى المريّة حصوناً، وابن أدفونش أيضا ملك الجلالقة هو ابن الأدفونش، "الملقب بالحكيم" وآباؤه من قبله يتقّرى الفرستيرة حصناً حصناً، ومدينة مدينة إلى أن طواها. واستعبد ابن الأحمر هذا لأوّل أمره بما كان بينه وبين الثوّار بالأندلس من المنازعة فوصل يده بالطاغية، في سبيل الاستظهار على أمره فوصله وشد عضده. وصار ابن الأحمر في جملته وأعطاه ابن هود ثلاثين من الحصون أو نحوها في كفّ غربه عن ابن الأحمر، وأن يعينه على ملك قرطبة فتسلمها. ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وأعاد إليها خيرة الله كلمة الكفر. ثم نازل إشبيلية سنة ست وأربعين، وابن الأحمر معه مظهر الامتعاض لابن الجدّ وحاصرها سنتين. ثم دخلها صلحاً وانتظم معها حصونها وثغورها، وأخذ طليطلة من يد ابن كماشة، وغلب بعد ذلك ابن محفوظ على شلب وطلبيره سنة تسع وخمسين. ثم ملك مرسية سنة خمس وستين. ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك الأندلس كورة كورة،

وثغراً ثغراً، إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب، وإلبيرة من شرق الأندلس، نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق. وفي مقدار مرحلة أو ما دونها في العرض ما بين البحر والجوف. ثم سخط بعد ذلك الشيخ ابن الأحمر، وطمع في الاستيلاء على كافة الجزيرة فامتنعت عليه، وتلاحق بالأندلس غزاة من زناتة الثائرين يومئذ من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وبني مرين، وكان أعلاهم كعباً في ذلك، وأكثرهم غزى بنو مرين فأجاز أوّلا أولاد إدريس بن عبد الحق، وأولاد رحو بن عبد الله بن عبد الحق أعياص الملك منهم سنة

ستين أو نحوها، عقد لهم عمهم يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب، وأجازوا في ثلاثة آلاف أو نحوها فنقبل ابن الأحمر إجازتها، ودفع بهم في نحر عدوّه ورجعوا. ثم تهايلوا إليه من بعد ذلك من كل بيت من بيوت بني مرين، ومعظمهم الأعياص من بني عبد الحق لما تزاحمهم مناكب السلطان في قومهم، وتغص بهم الدولة فيترعون إلى الأندلس مغنين بها من بأسهم وشوكتهم في المدافعة عن المسلمين، ويخلصون من ذلك على حظ من الدولة بمكان. ولم يزل الشأن هذا إلى أن هلك محمد بن يوسف بن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة، وقام بأمره من بعده إبنه محمد، وكان يعرف بالفقيه لما كان يقرأ الكتاب من ين أهل بيته، ويطالع كتب العلم. وكان أبوه الشيخ أوصاه باستصراخ ملوك زناتة من بني مرين الدائلين بالمغرب من الموحّدين، وأن يوثق عهده بهم، ويحكم أراضي سلطانه بمداخلتهم فأجاز محمد الفقيه ابن الأحمر إلى يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين سنة إثنتين وسبعين وستمائة، عندما تم استيلاؤه على بلاد المغرب، وتغلبه على مراكش، وافتقاده سرير ملك الموحّدين بها فأجاب صريخه، وأجاز عساكر المسلمين من بني مرين وغيرهم إلى الجهاد مع إبنه منديل. ثم جاء على أثرهم وأمكنه ابن هشام من الجزيرة الخضراء كان ثائراً بها فتسلّمها منه ونزل بها، وجعلها ركابا لجهاده يترل بها جيش الغزو. ولما أجاز سنة إثنتين وسبعين كما قلناه هزم زعيم النصرانية ثم حذّره ابن الأحمر على ملكه فداخل الطاغية. ثم حذر الطاغية فراجعه وهو مع ذلك يده في نحره بشوكة الاعياص الذين نزعوا إليه من بني مرين بما شاركوا صاحب المغرب من نسب ملكه وقاسموه في يعسوبية قبيلته فكان له بذلك مدفع عن نفسه ومرض في طاعة قرابته من بني إشقيلولة، كان عبد الله منهم بمالقة وعلي بوادي آش وإبراهيم بحصن قمارش فالتاثوا عليه، وداخلوا يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين في المظاهرة عليه فكان له معهم فتنة، وأمكنوا يعقوب من الثغور التي

بأيديهم مالقة ووادي آش حتى استخلصها هذا السلطان الفقيه من بعد ذلك كما نذكره في أخبار بني مرين مع بني الأحمر. وصار بنو إشقيلولة آخراً وقرابتهم بني الزرقاء إلى المغرب ونزلوا على يعقوب بن عبد الحق وأكرم مثواهم وأقطعهم واستعملهم في كبير الخطط للدولة حسبما يذكر. واستبدّ السلطان الفقيه ابن الأحمر بملك ما بقي من الأندلس وأورثه عقبة من غير قبيل ولا كثير عصبة ولا استكثار من الحامية إلا من يأخذه الجلاء من فحول زناتة وأعياص الملك فيترلون بهم غزى، ولهم عليهم عزة وتغلّب، وسبب ذلك ما قدّمناه في الكتاب الأوّل من افقاد القبائل والعصائب بأرض الأندلس جملة فلا تحتاج الدولة هنالك إلى كبير عصبية.

وكان للسطان ابن الأحمر في أوّل أمره عصبية من قرابته بني نصر، وأصهارهم بني إشقيلولة وبني المولى ومن تبعهم من الموالي والمصطنعين كانت كافية في الأمر من أوّله مع معاضدة الطاغية على ابن هود وثوار الأندلس، ومعاضدة ملك المغرب على الطاغية والإستظهار بالأعياص على ملك المغرب فكان لهم بذلك كله أقدار على بلوغ أمرهم وتمهيده، وربما يفهم في مدافعة الطاغية اجتماع الخاصّة والعامّة في عداوته، والرهب منه بما هو عدوّ للدين فتستوي القلوب في مدافعته ومخافته فيترل ذلك بعض الشيء مترلة العصبية. وكانت إجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق إليه أربع مرات، وأجاز إبنه يوسف إليهم بعد أبيه. ثم شغلته الفتنة مع بني

يغمراسن، إلى أن هلك السلطان الفقيه سنة إحدى وسبعمائة، وهو الذي أعان الطاغية على منزلة طريف وأخذها، وكان يمير عسكره مدة حصاره إياها إلى أن فتحها سنة أربع وسبعمائة لما كانت ركابا لصاحب المغرب، متى همّ بالجواز لقرب مسافة الزقاق. فلما ملكها الطاغية صارت عيناً على من يروم الجواز من الغزاة فصعب أمره عليهم، وولي من بعده ابنه محمد المخلوع، واستبد عليه وزيره محمد بن محمد بن الحكم اللخميّ، من مشيخة رندة ووزرائها فحجره واستولى على أمره، إلى أن ثار به أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد فقتل الوزير، واعتقل أخاه سنة ثمان وسبعمائة، وكان أبوهما السلطان الفقيه استعمل على مالقة الرئيس أبا سعيد بن عمه إسمعيل بن نصر، وطالت فيها إمارته. وهو الذي تملّك سبتة، وغدر بني الغرفي بها على عهد المخلوع وبدعوته كما يذكر في أخبار سبتة، ودولة بني مرين. وكان أصهر إليه في إبنته وكان له منها ابنه أبو الوليد إسمعيل، فلما تملّك الجيوش نصر غرناطة، واستولى على سلطانهم بها ساءت سيرته، وسيرة وزيره ابن الحاج، وأحقد الأعياص من بني مرين، واستظهر الرعية بالقهر والعسف. وكان بنو إدريس بن عبد الله بن الحق أمراء على الغزاة بمالقة، وكان كبيرهم عثمان بن ابي المعلّى فداخل أبا الوليد في الخروج على السلطان نصر، وتناول الأمر من يده لضعفه، وسعفه بطانته وأقرباؤه فاعتزموا على ذلك، ولم يتم لهم إلا باعتقال أبيه أبي الجيوش فاعتقلوه، وبايعوا أبا الوليد. وثار بمالقة سنة سبع عشرة الرئيس أبو سعيد، وزحفوا إلى غرناطة فهزموا عساكر أبي الجيوش، وثارت به الدهماء من أهل المدينة، وأحيط به. وصالحهم على الخروج إلى وادي آش فلحق بها، وجددّ بها ملكاً إلى أن مات سنة إثنتين وعشرين، ودخل أبو الوليد إلى غرناطة فاصل بها لنفسه وبنيه ملكاً جديداً وسلطاناً فسيحاً. ونازله ملك النصارى الفنش بغرناطة سنة ثمان عشرة وأبلى فيها بني أبي العلا. ثم كان من تكييف الله تعالى في قتله وقتل رديفه، واستلحام جيوش النصرانية بظاهر غرناطة ما ظهرت فيه معجزة من معجزات الله. وترددّ إلى أرض النصرانية بنفسه غازياً مرات مع عساكر المسلمين من زناتة والأندلس. وكانت زناتة أعظم غناء في ذلك لقرب عهدهم بالتقشّف والبداوة التي ليست للناس. وبلغ أبو الوليد من العزّ والشوكة إلى أن غدر به بعض قرابته من بني نصر سنة سبع وعشرين وسبعمائة، طعنه غدراً عندما انفض مجلسه بباب داره فأنفذه، وحمل إلى فراشه، ولحق القادر بدار عثمان بن أبي العلى فقتله لحينه، وقتل الموالي المجاهدين فخرج عليهم، ولحق بانديس فتملّكها، واستدعى محمد بن الرئيس أبي سعيد في معتقله بسلوباشة. ونصّبه للملك فلم يتمّ له مراده من ذلك. ورجعوا آخراً للمهادنة، وقتل السلطان محمد وزيره ابن المحروق بداره غدراً سنة تسع وعشرين، استدعاه للحديث على لسان عمّته المتغلّبة عليه مع ابن المحروق، وتناوله مع علوجه طعناً بالخناجر إلى أن مات.وقام السلطان بأعباء ملكه، ورجع عثمان بن أبي العلى إلى مكانه من يعسوبية الغزاة وزناتة، حتى إذا هلك قدم عليهم مكانه ابنه أبا ثابت. وأجاز السلطان محمد إلى المغرب صريخا للسلطان أبي الحسن على الطاغية فوجده مشغولا بفتنة أخيه محمد. ومع ذلك جهّز له العساكر، وعقد عليها سنة ثلاث وثلاثين. واستراب بنو أبي العلى بمداخلة

السلطان أبي الحسن فتشاوروا في أمره، وغدروا به يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة فتقاصفوه بالرماح، وقدّموا أخاه أبا الحجّاج يوسف فقام بالأمر، وشمّر عن ساعده في الأخذ بثار أخيه فنكب بني العلى وغرّبهم إلى تونس، وقدّم على الغزاة مكان أبي ثابت بن عثمان قرثية من بني رحو بن عبد الله بن عبد الحق، وهو يحيي بن عمر بن رحو فقام قامرهم وطال أمر رياسته. واستدعى السلطان أبو الحجاج السلطان أبا الحسن صاحب المغرب فأجاز ابنه عندما تم له الفتح بتلمسان، وعقد له على عساكر جمة من زناتة والمطّوعة فغزاهم، وغنم وقفل راجعاً. وتلاحقت به جموع النصارى وبّيتوه على حدود أرضهم فاستشهد كثير من الغزاة، وأجاز السلطان أبو الحسن سنة إحدى وأربعين بكافة أهل المغرب من زناتة ومغراوة والمرتزقة والمتطوعة فنازل طريف، وزحف إليه الطاغية فلقيه بظاهرها فانكشف المسلمون، واستشهد الكثير منهم، وهلك فيها نساء السلطان وحريمه وفسطاطة من معسكره وكان يوم ابتلاء وتمحيص. وتغلّب الطاغية أثرها على القلعة ثغر غرناطة، ونازل الجزيرة الخضراء وأخذها صلحا سنة ثلاث وأربعين. ولم يزل أبو الحجّاج في سلطانه إلى أن هلك يوم الفطر سنة خمس وخمسين، طعنه في سجوده من صلاة العيد وغد من صفاعفة البلد كان مجتمعاً. وتوّلى إبنه، واستبدّ عليه مولاهم رضوان حاجب أبيه وعمه فقام بأمره وغلبه عليه وحجبه. وكان إسمعيل أخوه ببعض قصور الحمراء قلعة الملك، وكانت له ذمّة وصهر من محمد بن عبد الله بن إسمعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد، بما كان أبوه أنكحه شقيقة إسمعيل هذا. وكان أبو يحيى هذا يدعى بالرئيس، وجدّه محمد هذا هو الذي قدّمنا أنّ عثمان بن أبي العلى دعاه من مكان اعتقاله للملك فداخل محمد هذا الرئيس بعض الزعالقة من الغوغاء، وبيت حصن الحمراء وتسوّره وولج على الحاجب رضوان في داره فقتله، وأخرج صهره إسمعيل ونصبه للملك ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة ستين وسبعمائة. وكان السلطان محمد هذا المخلوع بروضة خارج الحمراء فلحق بوادي آش وأجاز منها إلى العدوة، ونزل على ملك المغرب السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن فرعى له ذمته، وأحمد نزوله. وارتاب شيخ الغزاة يحيي بن عمرو بالدولة ففرّ إلى دار الحرب، ولحق منها بالمغرب. ونزل على السلطان أبي سالم فأحمد نزوله، وولى مكانه على الغزاة بغرناطة من جهة إدريس بن عثمان بن أبي العلى. فقام الرئيس بأمر

إسمعيل أخيه ودبّر ملكه. ثم تردّدت السعايات وأنذر الرئيس بالنكبة فغدر بإسماعيل، وقتله وإخوته جمعياً سنة إحدى وستين. وقام بملك الأندلس، ونبذ إلى الطاغية عهده ومنعه ما كان سلفه يعطونه من الجزية على بلاد المسلمين فشمّر الطاغية لحربه، وجهزّ العساكر إليه فأوقع المسلمون بهم بوادي آش، وعليهم بعض الرؤساء من قرابة السلطان فعظمت النكاية. وأرسل ملك المغرب إلى الطاغية في شأن محمد المخلوع، وردّه إلى ملكه فأركب الأساطيل، وأجازه إلى الطاغية فلقيه ووعده المظاهرة على أمره، وشرط له الاستئثار بما يفتح من حصون المسلمين. ثم نقض فيما افتتح منها ففارقه السلطان وأوى إلى الثغر المغربي في ملكة بني مرين وأمكن من ثغور رندة فزحف منها إلى مالقة سنة خمس وستين فافتتحها. وفرّ الرئيس محمد بن إسمعيل من غرناطة، ولحق بالطاغية. وكان معه إدريس بن عثمان شيخ الغزاة بحبسه إلى أن فرّ من محبسه بعد حين، كما يذكر في

أخبارهم. وزحف السلطان محمد فيمن معه وأتوه بحاجب الرئيس وقتله، واستلحم معه الرجال من الزعالقة الذين لتلوا الحاجب، وتسوّروا قصور الملك. ودخل السلطان محمد غرناطة، واستولى على ملكه. وقدّم على الغزاة شيخهم يحيى بن عمر، واختصّ إبنه عثمان، ثم نكبها لسنة وحبسهما بالمطبق بالمرية، ثم غربهما بعد أعوام. وقدم على الغزاة قرّيبهما علي بن بدر الدين بن محمد بن رحو. ثم مات فقدّم مكانه عبد الرحمن بن أبي يغلوسن وترفع على السلطان أبي علي بن محمد ملك المغرب، وتملأ هذا السلطان محمد المخلوع أريكة ملكه بالحمراء ممتنعاً بالظهور والترف والعزّة على الطاغية والجلالقة، وعلى ملوك المغرب بالعدوة بما نال دولتهم جميعاً من الهرم الذي يلحق الدول.وأما الجلالقة فانتقضوا على ملكهم بطرة بن أدفونش سنة ثمان وستين من لدن مهلك أبيهما، ووقعت بين بطرة وبين ملك برشلونة بسبب إجارته عليه فتن وحروب حجر منها

الجلالقة، وكانت سبباً لانتقاضهم على بطرة، واستدعائهم لأخيه الفنش فجاء وبايعوه، وانحرفوا إليه جميعا عن بطره فتحيزّ ناحية بلاد المسلمين. واستدعى هذا السلطان محمداً صاحب غرناطة لنصره من عدوه، وأغزّاه ببلاد الفنش ففتح كثيرا من معاقلها وخربها مثل حيان وأبدة وأثر وغيرها. وعاث في بسائطها، ونزل قرطبة، وخرّب نواحيها ورجع ظافراً غانماً. ولحق

ببطرة سلطان الافرنجة الأعظم في ناحية الشمال من وراء جزيرة الأندلس، وهو صاحب جزيرة أركبلطرة، وتسمّى بنسر غالس، وفد عليه صريخاً وزوّجه بنته فبعث إبنه لنصره في أمم الافرنج. وانهزم الفنش أمامهم، وارتجع بطرة البلاد حتى إذا رجعت عساكر الافرنجة، رجع الفنش فارتجع البلاد ثانياً وحاصر أخاه بطرة في بعض حصون جلّيقة، حتى أخذه وقتله، واستولى على ملكهم.واغتنم السلطان صاحب غرناطة شغلهم بهذه الفتنة فأعتزّ عليهم، ومنع الجزية التي كانوا يأخذونها من المسلمين منذ عهد سلفه فأقاموا من لدن سنة اثنتين وسبعين لا يعطونهم شيئاً. واستمر على ذلك، وسما إلى مطالبتهم بنسر غالس ملك الافرنجة من ورائهم الذي جاء لنصر بطرة، وأنكحه بطرة إبنته، وولدت له ولداً فزعم أبوه هذا الملك أنه أحق بالملك من الفنش وغيره، على عادة العجم في تمليك الاسباط من ولد البطن. وطالت الحرب بينهما، ونزل بالجلالقة من ذلك شغل شاغل، واقتطع الكثير من ثغورهم وبلادهم فمنعهم ابن الأحمر الجزية، واعتزّ عليهم كما ذكرناه، والحال على ذلك لهذا العهد. وأما ملوك المغرب فإن السلطان عبد العزيز ابن السلطان ابي الحسن لما استبد بملكه،

واستفحل أمره، وكان عبد الرحمن بن أبي يغلوسن مقدّماً على الغزاة بالأندلس كما قلناه، وهو قسيمه في النسب، ومرادفه في الترشيح للملك فعثر السلطان عبد العزيز على مكاتبة بينه وبين أهل دولته، فارتاب وبعث إلى ابن الأحمر في حبسه فحبسه، وحبس معه الأمير مسعود بن ماسي لكثرة خوضه في الفتنة، ومكاتبته لأهل الدولة. فلما توفي السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين، وبويع ابنه محمد السعيد يافعاً وكفله وزير أبيه أبو بكر بن غازي الثائر أطلق ابن الأحمر عبد الرحمن ابن يغلوسن من محبسه فنقم ذلك عليه الوزير أبو بكر كافل الدولة بالمغرب، واعتزم على بعث الرؤساء من قرابة ابن الأحمر إلى الأندلس لمنازعته، ومدّه بالمال والجيش. وبلغ ذلك ابن الأحمر فعاجله عنه وسار في العساكر إلى فرضة المجاز، ونازل جبل الفتح، ومعه ابن يغلوسن

وابغ ماسي، واركبهما السفن فنزلوا ببلاد بطرة فاضطرب المغرب، واشتد الحصار على أهل جبل الفتح، واستأمنوا لابن الأحمر وأطاعوه. وكان بسبتة محمد بن عثمان بن الكاس صهر أبي بكر بن غازي وقريبه بعثه لضبط المراسي عندما نزل ابن الأحمر على الجبل، وبطنجة يومئذ جماعة من ولد السلطان أبي الحسن المرشحين محبوسون منذ عهد عبد العزيز فوقعت المراسلة من السلطان ابن الأحمر، ومحمد ابن عثمان، ونكر عليه مبايعتهم لولدٍ صغير لم يراهق. وأشار ببيعة واحد من أولئك المرشحين المحبوسين بطنجة، ووعده بالمظاهرة والمدد بالمال والجيش، ووقع اختيار محمد بن عثمان على السلطان أبي العبّاس أحمد فاخرجه وبايع له. وقد كان أولئك الفتية تعاهدوا في محبسهم أن من استولى منهم على الملك أطلق الباقين منهم فوفى لهم السلطان أبو العبّاس لأوّل بيعته، وأطلقهم من المحبس، وبعثهم إلى الأندلس، ونزلوا على السلطان ابن الأحمر فأكرمهم وجعلهم لنظره. وبعث بالأموال والعساكر للسلطان أبي العبّاس ولوزيره محمد بن عثمان، وكتب إلى عبد الرحمن بن يغلوسن بموافقتهما واجتماعهما على الأمر فساروا جميعاً، ونازلوا دار الملك بفاس حتى استأمن أبو بكر بن غازي للسلطان ابي العبّاس، وامكنه من البلد الجديد دار الملك فدخلها في محرم سنة ست وسبعين. وشيّع عبد الرحمن بن يغلوسن إلى مراكش وأعمالها وسوّغ له ملكها كما كان الوفاق بينهما من قبل. وبعث بالسعيد بن عبد العزيز المنصوب، واتصلت الموالاة والمهاداة بينه وبين عبد الرحمن صاحب مراكش، ونهض مرارا، وحاصره وابن الأحمر يمدّه تارة، وبسعى بينهما في الصلح أخرى، إلى أن نهض إليه سنة أربع وثمانين وحاصره شهراً، واقتحم عليه حصنه عنوة، وقتله ورجع إلى فاس. ثم نهض إلى تلمسان وهرب صاحبها أبو أحمد سلطان بني عبد الواد، ودخل السلطان أبو العباس تلمسان. وكان جماعة من سماسرة الفتن قد سعوا ما بينه وبين السلطان ابن الأحمر بالفساد حتى أوغروا صدره، وحملوه على نقض دولة السلطان أبي العباس ببعض الأعياص الذين عنده فاختار من أولئك الفتية الذين نزلوا عليه من طنجة، موسى ابن السلطان أبي عنّان، واستوزر له مسعود بن ماسي، وركب السفن معه إلى سبتة فبادر أهلها بطاعة موسى، وأتوه ببيعتهم، وارتحل عنهم إلى فاس. وملك السلطان ابن الأحمر سبتة، وصارت في دعوته، وعمد السلطان موسى إلى دار الملك بفاس فوقف عليها يوما، واستأمنوا له آخر النهار فدخلها سنة ست وثمانين، وأصبح جالساً على سرير ملكه.وطار الخبر إلى السلطان أبي العبّاس، وقد ارتحل من تلمسان لقصد أبي حمو وبني عبد الواد بمكانهم من دار الملك فكرّ راجعاً،

وأغذّ السير إلى فاس فلما تجاوز تازي وتوسّط ما بينها وبين فاس افترق عنه بنو مرين وسائر عساكره وساروا على راياتهم إلى السلطان موسى، ونهب معسكره، ورجع هو إلى تازي فتوثّق منه عاملها حتى جاءه يريد السلطان من فاس فتقبض عليه، وحمله إلى فاس وأزعجه السلطان موسى إلى الأندلس ونزل على ابن الأحمر كما كان هو. واستولى السلطان موسى على المغرب،واستبد عليه وزيره مسعود، وطالب ابن الأحمر بالنزول على سبتة فامتنع، ونشأت بينهما الفتنة، ودسّ ابن ماسي لأهل بيته بالثورة على حامية السلطان ابن الأحمر عندهم فثاروا عليهم، وامتنعوا بالقصبة حتى جاءهم المدد في أساطيل ابن الأحمر فسكن أهل بيته واطمأنت

الحال، ونزع إلى السلطان ابن الأحمر جماعة من أهل الدولة، وسألوه أن يبعث لهم ملكاً من الأعياص الذين عنده فبعث إليهم الواثق محمد بن الأمير أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن. وشيّعه في الأسطول إلى سبتة، وخرج إلى غمارة. وبلغ الخبر إلى مسعود بن ماسي فخرج إليه في العسكر، وحاصره بتلك الجبال. ثم جاءه الخبر بموت سلطانه موسى ابن السلطان أبي عنان بفاس فارتحل راجعاً. ولما وصل إلى دار الملك نصب على الكرسي صبياً من ولد السلطان أبي العبّاس كان تركه بفاس. جاء السلطان أبو عنان ابن الأمير أبي الفضل، ونزل بجبل زرهون قبالة فاس. وخرج ابن ماسي في العساكر فنزل قبالته. وكان متولى أمره أحمد بن يعقوب الصبيحي، وقد غص به أصحابه فذبوا عنه، وقتلوه أمام خيمة السلطان. وامتعض السلطان لذلك ووقعت المراسلة بينه وبين ابن ماسي على أن يبايع بشرط الاستبداد عليه، واتفقا على ذلك.ولحق السلطان بابن ماسي ورجع به إلى دار الملك فبايع له وأخذ له البيعة من الناس. وكانت معه حصة من جند السلطان ابن الأحمر مع مولى من مواليه فحبسهم جميعاً. وامتعض لذلك السلطان فأركب أبا العبّاس البحر، وجاء معه بنفسه فدخلها وعساكر ابن ماسي عليها يحاصرونها فبايعوا جميعاً للسلطان أبي العبّاس. ورجع ابن الأحمر إلى غرناطة، وسار السلطان أبو العباس إلى فاس، واعترضه ابن ماسي في العساكر فحاصره بالصفيحة من جبلى غمارة، وتحدث أهل عسكره في اللحاق بالسلطان أبي العباس ففزعوا إليه، وهرب ابن ماسي، وحاصره السلطان شهراً حتى نزلوا على حكمه فقطع ابن ماسي بعد أن قتله ومثّل به. وقتل سلطانه، واستلحم سائر بني ماسي بالتنكيل والقتل والعذاب. واستولى على المغرب واستبدّ بملكه، وأفرج السلطان ابن الأحمر عن سبتة وأعادها إليه. واتصلت الموالاة بينهما. وأقام ابن الأحمر في اعتزازه، ولم تطرقه نكبة ولا حادثة سائر أيامه، إلا ما بلغنا أنه نمى له عن إبنه ولي عهده ابي الحجاج يوسف أنه يروم التوثّب به، وكان على سفر في بعض نواحي الأندلس فقبض على ولده لحينه، ورجع إلى غرناطة. ثم استكشف حاله فظهرت براءته فأطلقه وأعاده إلى أحسن أحواله. وإلا ما بلغنا أيضاً أنه لّما سار من غرناطة إلى جبل الفتح شارباً لأحوال السلطان أبي العبّاس، وهو بالصفيحة من جبال غمارة، وابن ماسي يحاصره فنمي إليه أن بعض حاشيته من أولاد الوزراء وهو ابن مسعود البلنسي ابن الوزير أبي القاسم بن حكيم وقد اتفقوا على اغتياله، وأن ابن ماسي دسّ إليهم بذلك ونصبت له على ذلك العلامات التي عرفتها فقبض عليهم لحينه، ولم يمهلهم وقتلهم وجميع من داخلهم في ذلك، ورجع إلى غرناطة، وأقام ممتنعاً بملكه إلى أن هلك سنة ثلاث وتسعين. فولي مكانه ابنه أبو الحجاج، وبايعه الناس، وقام بأمره خالد مولى أبيه، وتقبّض على أخوته سعد ومحمد ونصر فهلكوا في حبسهم، ولم يوقف لهم على خبر.ثم سعى عنده في خالد القائم بدولته أنه أعد السمّ لقتله، وأن يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب دارهم داخله في ذلك ففتك بخالد، وقتل بين يديه صبراً بالسيوف لسنة أو نحوها من ملكه. وحبس الطبيب فذبح في محبسه. ثم هلك سنة أربع وتسعين لسنتين أو نحوها من ملكه. وبويع ابنه محمد، وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من صنائع أبيه، والحال على ذلك لهذا العهد، والله غالب على أمره. وقد انقضى ذكر الدولة الأموية المنازعين لبني

العبّاس ومن تبعهم من الملوك بالأندلس، فلنذكر الآن شيئاً من أخبار ملوك النصرانية الذين يجاورون المسلمين بجزيرة الأندلس، من سائر نواحيهم، ونلم بطرف من أنسابهم ودولهم.

الخبر عن ملوك بني أدفونش من الجلالقة ملوك الأندلس بعد الغوط ولعهد المسلمين وأخبار من جاورهم من الفرنجة والبشكنس والبرتغال والالمام ببعض أخبارهم:

والملوك لهذا العهد من النصرانية أربعة في أربعة من العمالات محيطة بعمالة المسلمين، قد ظهر إعجاز الملة في مقامهم معهم وراء البحر، بعدما استرجعوا من أيديهم ما نظمه الفتح الإسلامي أوّل الأمر. وأعظم هؤلاء الملوك الأربعة: قشتالة؟ وعمالاته عظيمة متسعة، مشتملة على أعمال جليقية كلها، مثل قشتالة وغليسية. والقرنتيرة، وهي بسيط قرطبة وإشبيلية وطليطلة وجيان أخذة في جوف الجزيرة من المغرب إلى المشرق. ويليه من جانب الغرب ملك البرتغال وعمالته صغيرة، وهي اشبونة، ولا أدري نسبه فيمن هو من الأمم. ويغلب على الظنّ أنه من أعقاب القواميس الذين تغلبوا على عمالات بني أدفونش في العصور الماضية كما نلى كر بعد، ولعله سن اسباطهم وأولي نسبهم والله أعلم. ويلي ملك قشتالة هذا من جهة الشرق ملك نبرة، وهو ملك البشكنس، وعمالته صغيرة فاصلة بين عمالات قشتالة وعمالة ملك برشلونة وقاعدة ملك نجرة، وهي مدينة ينبلونة. وملك برشلونة وما وراءها. ونحن الآن نذكر أخبار هذه الأمم من عهد الفتح بما يظهر لك منه تفصيل أخبارهم، وذلك أن النصرانية لما تغلب عليهم المسلمون عند الفتح سنة تسعين من الهجرة وقتلوا لزريق ملك الغوط، وانساحوا في نواحي جزيرة الأندلس، واجفلت أمم النصرانية كلها أمامهم إلى سيف البحر من جانب الجوف، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة، واجتمعوا بجليقة وملكوا عليهم ثلاثة: ابن ناقلة فأقام ملكاً تسع عشرة سنة، وهلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وولي ابنه قافلة سنتين. ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أدفونش بن بطرة، وهو الذي اتصل ملكه في عقبه لهذا العهد. ونجهم في الجلالقة من العجم كما تقدم. ويزعم ابن حيان أنهم ما أعقاب الغوط، وعندي أن ذلك ليس بصحيح فإن أمة الغوط قد دثرت وغبرت

وهلكت، وقل أن يرجع أمر بعد إدباره. وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى، والله أعلم. فجمعهم أدفونش بن بطرة على حماية ما بقي من أرضهم بعد أن ملك المسلمون عامتها. وانتهوا إلى جليقة واقصروا عن الفتح بعدها حتى فشلت الدولة الإسلامية بالأندلس، وارتجع النصارى الكثير مما غلبوا عليه وكان مهلك أدفونش بن بطرة سنة اثنتين وأربعين ومائة لثمان عشرة سنة من ملكه، وولي بعده إبنه فرويلة إحدى عشرة سنة قوي فيها سلطانه، وقارنه فيها شغل عبد الرحمن الداخل بتمهيد أمره فاسترجع مدينة بك، وبرتغال وسمورة، وسلمنقة، وشقرنية، وقشتالة بعد أن كانت انتظمت للمسلمين في الفتح. وهلك سنة ثمان وخمسين، وولي ابنه شيلون عضرة سنين. وهلك سنة ثمان وستين فولوا مكانه أدفونش منهم، ووثب عليه سمول ماط فقتله وملك مكانه سبع سنين. وعلى عقب ذلك استفحل ملك عبد الرحمن بالأندلس، وأغزى جيوشه أرض جليقية ففتح وغنم وأسر. ثم ولي منهم أدفونش آخر سنة اثنتين وخمسين، وهلك سنة ثمان وستين فولوا مكانه أدفونش منهم، ووثب أحد ملوكهم المستبدين بأمرهم. قال ابن حيان: كانت ولاية رذمير هذا عند ترهب أخيه أدفونش

الملك قبله، وذلك سنة تسع عشرة وثلاثمائة على عهد الناصر، وتهيأ للناصر الظهور عليه إلى أن كان التمحيص على المسلمين في غزوة الخندق وذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وكانت الواقعة بالخندق وقريباً من مدينة شنت ماكس كما ذكر في أخباره. ثم هلك رذمير سنة تسع وثلاثين وولي أخوه شانجة وكان تياهاً معجباً بطالاً فانتقض سلطانه، ووهن ملك قومه، وانتزى عليه قوامس دولته فلم يتم لبني أدفونش بعدها ملك مستبد في الجلالقة إلا من بعد أزمان الطوائف وملوكهم كما ذكرناه. وكان اضطراب ملكهم كما نقل ابن حيان على يد فردلند بن عبد شلب قومس البة والقلاع فكان أعظم القوامس، وهم ولاة الأعمال من قبل الملك الأعظم فانتقض على شانجة البة وظاهرهم ملك البشكنس على شانجة، وورد شانجة على الناصر بقرطبة صريخا فأمده، واستولى بذلك الإمداد على سمورة فملكها، وأنزل المسلمين بها، واتصلت الحرب بين شانجة وبين فردلند إلى أن أسر فردلند في بعض أيام حروبهم، وحصل في أسر ملك البشكنس على أن ينفذ إليه أسيره فردلند بن عبد شلب قومس البة والقلاع فأبى من ذلك، وأطلقه. ووفد على المنتصر أرذون بن أدفونش المقارع لشانجة صريخاً سنة إحدى وخمسين فأجابه، وأنفذ غالباً مولاه في مدده. ثم هلك شانجة ملك بني أدفونش ببطليوس، وقام بأمرهم بعده ابنه رذمير، وهلك أيضا فردلند بن عبد شلب قومس ألبة، وولي بعده إبنه غرسية، ولقي رذمير المسلمين بالثغر في بعض صوائفهم، وعظمت نكايته بعد مهلك الحكم المستنصر إلى أن قيض الله لهم المنصور بن أبي عامر حاجب إبنه هشام فأثخن في عمل رذمير، وغزاه مراراً وحاصره في سمورة، ثم في ليون بعد أن زحف إلى غرسية بن فردلند صاحب ألبة، وظاهر معه ملك البشكنس فغلبهما. ثم ظاهروا مع رذمير وزحفوا جميعاً للقائه بشنت ماكس فهزمهم، واقتحمها عليهم وخربها. وتشاءم الجلالقة برذمير، وخرج عليهم عمه بزمند بن أرذون، وافترق أمرهم. ثم رجع رذمير طاعة المنصور سنة أربع وسبعين، وهلك على أثرها فأطاعت أمه، واتفقت الجلالقة على بزمند بن أرذون، وعقد له المنصور على سمورة والعيون وما اتصل بهما من أعمال غليسية إلى البحر الأخضر واشترط عليه فقبل. ثم امتعض بزمند لما نزل بالجلالقة عيث المنصور سنة ثمان وسبعين فافتتح حيون، وحاصره في سمورة ففرعنها، وأسلمها أهلها إلى المنصور فاستباحها، و لم يبق لملك الجلالقة إلا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بين بلدهم وبين البحر الأخضر. ثم اختلف حال بزمند في الطاعة والإنتقاض، والمنصور يردّد إليه الغزو حتى أذعن واخفر ذمته (1) الخارج على المنصور فأسلمه إليه سنة خمس وثمانين، وضرب عليه الجزية. وأوطن المسلمين مدينة سمورة سنة تسع وثمانين، وولي عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي. ثم سار إلى كرسية بن فردلند صاحب ألبة، وكان أعان المخالفين على المنصور، وكان فيمن أعان عليه حين خرج عليه فنازل المنصور مدينة أشبونة، قاعدة غليسية فملكها وخرّبها. وهلك غرسية هذا فولي ابنه شانجة، وضرب المنصور عليهم الجزية، وصار أهل جليقة جميعاً في طاعته، وكانوا كالعمال له إلا بزمند بن أرذون، ومسد بن عبد شلب قومس غليسية فإنهما كانا أملك لأمرهما. على أنّ مسداً بعث بنته للمنصور سنة ثلاث وثمانين وصيّرها جارية له فأعتقها وتزوّجها. ثم انتقض بزمند وغزاه المنصور

فبلغ شنت ياقب، موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحواري من أقصى غليسية، وأصابها خالية فهدمها ونقل

أبواها إلى قرطبة فجعلها في سمت الزيادة التي أضافها إلى المسجد الأعظم. ثم تطارح بزمنذ بن أرذون في السلم وأنفذ إبنه يلانة مع معن بن عبد العزيز صاحب جليقة فوصل به إلى قرطبة، وعقد له السلم وانصرف إلى أبيه. وألح المنصور على أرغومس من القوامس، وكانوا في طرت جليقية بين سمورة وقشتالة، وقاعدتهم شنت برية فافتتحها سنة خمس وثمانين. ثم هلك بزمند بن أرذون ملك بني أدفونش، وولي إبنه أدفونش وهو صاحب بسيط غرسية، واحتكما إلى عبد الملك بن المنصور فخرج أصبغ بن سلمة قاضي النصارى للفصل بينهما فقضى به لمسد بن عبد شلب. فلم يزل أدفونش بزمند في كفالته إلى أن قتل غيلة سنة ثمان فاستبد أدفونش بأمره وطلب القواميس المقتدرين على أبيه وعلى من سلف من قومه برسوم الملك فحاز ذلك منهم لنفسه وبعث على نواحيهم من عنده، وأذعنوا له وسقط ذكرهم في وقته مثل بني أرغومس وبني فردلند الذين قدّمنا ذكرهم، وقد كان قيامهم أيام شانجة بن رذمير من بني أدفونش كما قدّمناه. جمعهم أدفونش للقاء عبد الملك المظفر بن المنصور فظاهرهم ملك البشكنس ولقيهم بظاهر فلونية فهزموهم وافتتح الحصن صلحاً. ثم انقرض أمر المنصور وبنيه، وجاءت الفتنة البربرية على رأس المائة الرابعة فانتهز الفرصة في المسلمين صاحب ألبة، وهو شانجة بن غرسية وصار يظاهر الفرقة الخارجة على الأخرى إلى أن أدرك بعض الأمل، وقتل ملك البشكنس سنة ست وأربعمائه وتغلب النصارى على ما كان عليه بقشتالة وجليقية. ولم يزل أدفونش ملكاً على جليقية وأعمالها. واتصل الملك في عقبة إلى أن كان شأن الطوائف. تغلب المرابطون ملوك المغرب من لمتونة على ملوك الطوائف، واستولوا على الأندلس وانقرض منها ملك العرب أجمع. وفي تواريخ لمتونة وأخبارهم أن ملك قشتالة الذي ضرب الجزية على ملوك الطوائف سنة خمسين وأربعمائه هو البيطبيين، ويظهرأنه كان متغلباً على شانجة ابن أبرك الملك يومئذ من بني أدفونش، وهو مذكور في أخبارهم، وأنه لما هلك قام بأمره بنوه فردلند وغرسية ورذمير، وولي أمرهم فردلند، واحتوى على شنت بريّة وعلى كثير من عمل ابن الأفطس. ثم هلك وخلف شانجة وغرسية والفنش فتنازعوا ثم خلص الملك لألفنش، وعلى عهده مات الظاهر إسمعيل بن ذي النون سنة سبع وستين وأربعمائه وهو المستولي على طليطلة سنة ثمان وسبعين، وهو يومئذ اعتزاز النصرانية بجزيرة الأندلس، وكان من بطارقته وقواميس دولته البرهانس فكان يلقب

الانبنذور، ومعناه ملك الملوك. وهو الذي لقي يوسف بن تاشفين بالزلاقة، وكانت الدائرة عليه، وذلك سنة إحدى وثمانين. وحاصر ابن هود في سرقسطة، وكان ابن عمه رذمير منازعا له فزحف إلى طليطلة وحاصرها فامتنعت عليه، وحاصر القسريلية وغرسية المرية والبرهانس مرسية وقسطون شاطبة وسرقسطة. ثم استولى على بلنسية سنة تسع وثمانين، وارتجعها المرابطون من يده بعد أن غلبوا ملوك الطوائف على أمرهم. ثم مات الفنش سنة إحدى وخمسمائة، وقام بأمر الجلالقة زوجته، وتزوجت رذمير ثم فارقته، وتزوجت بعده قمطاً من أقماطها، وجاءت منه بولد كانوا يسمونه السليطين، وأوقع ابن رذمير بابن هود سنة ثلاث وخمسمائة الواقعة

المشهورة التي استشهد فيها. وملك ابن رذمير سرقسطة وفر عماد الدولة وابنه إلى روطة فأقام إلى أن استنزله السليطين، ونقله إلى قشتالة. ثم كانت بين رذمير وأهل قشتالة حرب هلك فيها البرهانس سنة سبع وخمسمائة وذلك لآخر أيام المرابطون بلمتونة. ثم انقرض أمرهم على يد الموحدين. وكان أمر النصارى لعهد المنصور يعقوب ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن، كان دائراً بين ثلاثة من ملوكهم الفنش والبيبوح وابن الرند، وكبيرهم الفنش، وهو أميرهم يوم الأرك الذي كان للمنصور عليهم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، والبيبوح صاحب ليون هو الذي مكر بالناصر عام العقاب فداخله وقدم عليه، وأظهر له التنصيح فبذل له أموالاً. ثم غدر به وكر عليه الهزيمة يوم العقاب. ثم هلك الناصر وولي المستنصر، وفشل ريح بني عبد المؤمن، واستولى الفنش على جميع ما افتتحه المسلمون من معاقل الأندلس وارتجعها. ثم هلك الفنش وولي ابنه هراندة، وكان أحول، وكان يلقب بذلك وهو الذي ارتجع قرطبة واشبيلية من أيدي بني هود، وعلى عهده زحف ملك أرغون فارتجع شرق الأندلس كله شاطبة ودانية وبلنسية وسرقسطة، وسائر الثغور والقواعد الشرقية. وانحاز المسلمون إلى سيف البحر، وملكوا عليهم ابن الأحمر بعد ولايه ابن هود. ثم هلك هراندة وولي ابنه، ثم هلك ابنه وولي إبنه هراندة وأجاز بنو مرين إلى الأندلس صريخاً لابن الأحمر، وسلطانهم يومئذ يعقوب بن عبد الحق فلقيته جموع النصرانية بوادلك، وعليهم ذنبة من أقباط بني أدفونش وزعمائهم فهزمهم يعقوب بن عبد الحق، وبقيت فتن متصلة، و لم يلقه يعقوب، وإنما كان يغزو بلادهم ويكثر فيها العيث إلى أن القوه بالسلم، وخالف على هراندة ملك قشتالة هذا إبنه شانجة فوفد هراندة على يعقوب بن عبد الحق صريخاً،

وقبل يده فقبل وفادته وأمده بالمال والجيش ورهن في المال التاج المعروف من ذخائر سلفهم فلم يزل بدار بني عبد الحق من بني مرين لهذا العهد. ثم هلك هراندة ثلاث وثمانين، واستقل ابنه شانجة بالملك، ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب، وعقد معه السلم. ثم انتقض وحاصر طريف وملكها، وهلك سنة ثلاث وتسعين فولي ابنه هراندة. ثم هلك سنة إثنتي عشرة وسبعمائة فولي ابنه بطرة صغيراً، وكفله عمه جران، وكان نزلها جميعاً على غرناطة عند زحفهما إليها سنة ثمان عشرة وسبعمائة، فولي ابنه الهنشة بن بطرة صغيراً، وكفله زعماء دولتهم. ثم استبد بأمره وزحف إلى السلطان أبي الحسن وهو محاصر لطريف سنة إحدى وخمسين فهلك في الطاعون الجارف، وملك ابنه بطرة وقرابته القمط برشلونة فأجاره ملكها وزحف إليه بطرة مراراً وتغلّب على كثير من أعماله. وحاصر بلنسية مراراً. ثم أتيح الغلب للقمط سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فاستولى على بلاد قشتالة. وزحفت إليه أمم النصرانية لما كانوا سئموا من عنف بطرة وسوء ملكته، ولحق بطرة باسم الفرنجة الذين وراء قشتالة في الجوف بجهات الليمانية وفرطانية إلى سيف البحر الأخضر وجزيرة قدوح شنت مزين ملكهم الأعظم، وهو البلنس غالس. وجاء معه مدداً بأمم لا تحصى حتى ملك قشتالة والقرنتيرة ورجعوا عنه إلى بلادهم بعد أن أصابهم وباءً هلك الكثير منهم. تم اتصلت الحرب بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلبه القمط، واعتصم منه بطرة ببعض الحصون، ونازله القمط، حتى إذا أشرف على أخذه بعث بطرة إلى بعض الزعماء سراً لنيل النزول في جواره فأجابه، ووشى به لأخيه القمط فكسبه في بيت

ذلك الزعيم وقتله سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة. واستولى على ملك بني أدفونش أجمع، واستنزل ابن أخيه بطرة من قرمونة. وقد كان اعتصم بها بعد مهلك أبيه مع وزيره مرتين لبس هو. واستقام له ملك قشتالة، ونازعه إلبلنس غالس ملك الأفرنجة بالابن الذي هو من بنت بطرة، على عادة العجم في تمليك ابن البنت محتجاً بأن القمط لم يكن لرشدة. واتصلت الحرب بينهما، وشغله ذلك عن المسلمين فامتنعوا من الجزية التي كانت عليهم لمن قبله. وهلك هذا القمط سنة إحدى وثمانين وسبعمائة فملك ابنه شانجة، وفرّ إبنه الآخر غرمس إلى غرناطة. ثم رجع إلى نواحي قشتالة، والأمر على ذلك لهذا العهد، وفتنتهم مع الفنش ملك الفرنج موصولة، وعاديتهم لذلك عن المسلمين مرفوعة، والله من ورائهم محيط. وأما ملك

البرتغال بجهة أشبونة غرب الأندلس، ومملكته صغيرة، وهي من أعمال جليقية، وصاحبها لهذا العهد متميز بسمته. وملكه مشارك لابن أدفونش في نسبه. ولا أدري كيف يتصل نسبه معهم. وأمّا ملك برشلونة بجهة شرق الأندلس فعمالتهم واسعة، ومملكتهم كبيرة تشتمل على برشلونة بجهة وارغون وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة وبنورقة، ونسبهم في الفرنج، وسياق الخبر عن ملكهم ما نقل ابن حيان أن الغوط الذين كانوا بالأندلس كانوا قديماً في ملك الفرنج، ثم اعتزموا عليهم وامتنعوا ونبذوا إليهم عهدهم وكانت برشلونة من مماليك الفرنج وعمالاتهم فلما جاء الله بالإسلام، وكان الفتح، قعد الفرنج عن نصر الغوط لتلك العداوة فلما انقضى أمر الغوط، زحف المسلمون إلى الفرنج فأزعجوهم عن برشلونة وملكوها. ثم تجاوزوا الدروب من ورائها إلى البسائط بالبر الكبير فملكوا من قواعدها جزيرة أربونة وما إليها من تلك البسائط. ثم كانت فترة عند انقراض الدولة الأموية بالمشرق، وبداية الدولة العباسية افتتن فيها العرب بالأندلس، وانتهز الفرنج فرصتهم فارتجعوا بلادهم إلى برشلونة فملكوها لهذا العهد مائتين من الهجرة، وولّوا عليهم من قبلهم، وصار أمرها راجعا إلى ملك رومة من الفرنجة، و هو قارله الأكبر، وكان من الجبابرة. ثم ركبهم من الخلاف والمنافسة في أوقات ضعفهم واختلاف ملوكهم كالذي ركبه المسلمون من ضعفت يده من الملوك فاقتطع الأمراء نواحيهم بكل جهة، فكان ملوك برشلونة هؤلاء ممن اقتطع عمله، وكان ملوك بني أمية لأول دولتهم يتراضون بمهادنة هؤلاء الملوك أهل برشلونة حذراً من مدد صاحب رومة، ثم صاحب القسطنطينية من ورائه. فلما كانت دولة المنصور بن أبي عامر بين إقطاع برشلونة عن ملك الفرنج، شمر المنصور لغزوهم، واستباح بلادهم، وأثخن في أعمالهم، وافتتح برشلونة وخربها، وانزلى بهم النقمات. وملكهم لعهده بردويل بن سير وكانت حالة الظهور عليه كحاله مع سائر الملوك النصارى ولما هلك بردويل ترك من الولد فلبة وريند وأومنقود. ثم انتقض أومنقود على عبد الملك بن المنصور فغزاه وأخذه في بعض ثغوره صلحاً. ثم كانت الفتنة البربرية وحضرها أومنقود فهلك في الوقعة مع البربر سنة أربعمائه، وانفرد بيمند بملك برشلونة إلى أن هلك بعد عشر وأربعمائه، وملك ابنه يلتنفير وكفلته أمه وحاربت

يحيى بن منذر من ملوك الطوائف، وهي التي تغلبت على ثغر طرشوشة، واتصل الملك في عقب بيمند. وكان الملك منهم لآخر دولة الموحدين جامعة بن بطرة بن أدفونش بن ريند، وهو الذي ارتجع بلنسية وملكهم بهذا

العهد إسمه بطرة. ولم يبلغني كيف اتصال نسبه بقومه. وملك بعد العشرين من هذه المائة وهو حيّ لهذا العهد، وابنه غالب عليه لكبر سنه. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار القائمين بالدولة العباسية من العرب المستبدين بالنواحي ونبد أ منهم ببني الأغلب ولاة إفريقية واولية أمرهم ومصائر أحوالهم:

قد ذكرنا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه شأن فتح إفريقية على يد عبد الله بن أبي سرح، وكيف زحف إليها في عشرين ألفاً من الصحابة وكبار العرب ففض جموع النصرانية الذين كانوا بها من الفرنجة والروم والبربر، وهدم سبيطلة قاعدة ملكهم وخرّبها، وواستبيحت أموالهم وسبيت نساؤهم وبناتهم، وأفترق أمرهم وساحت خيول العرب في جهات إفريقية، وأثخنوا بها في أهل الكفر قتلاً وأسراً، حتى لقد طلب أهل إفريقية من ابن أبي سرح أن يرحل عنهم بالعرب إلى بلادهم، ويعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب ففعل، وقفل إلى مصر سنة سبع وعشرين.

معاوية بن خديج:

ثم أغزى معاوية بن أبي سفيان معاوية بن خديج السكوني إفريقية سنة أربع وثلاثين، وكان عاملاً على مصر فغزاها ونازل جلولاء، وقاتل مدد الروم الذي جاءها من قسطنطينيه لقيهم بقصر الأحمر فغلبهم، وأقلعوا إلى بلادهم، وافتتح جلولاء، وغنم وأثخن وقفل.

عقبة بن نافع:

ثم ولى معاوية سنة خمس وأربعين عقبة بن نافع بن عبد الله بن قيس الفهري على إفريقية واقتطعها عن معاوية بن خديج فبنى القيروان، وقاتل البربر، وتوغّل في أرضهم.

أبو المهاجر:

ثم استعمل معاوية على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد فعزل عقبة عن إفريقية، وولى مولاه أبا المهاجر ديناراً سنة خمس وخمسين فغزا المغرب، وبلغ إلى تلمسان، وخرب قيروان عقبة وأساء عزله، وأسلم على يديه كسيله الأوربي بعد حرب ظفر به فيها.

عقبة بن نافع ثانياً:

ولما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة، رجع عقبة بن نافع إلى إفريقية سنة إثنتين وستين فدخل إفريقية، وقد نشأت الردّة في البرابرة فزحف إليهم، وجعل مقدمته زهير بن قيس البلوي، وفرّ منه الروم والفرنجة فقاتلهم، وفتح حصونهم مثل لميس وباغاية، وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم، وأصاب من غنائمهم، وحبس أبا المهاجر فلم يزل في اعتقاله. ثم رحل إلى طنجة فأطاعه بلبان ملك غمارة، وصاحب طنجة، وهاداه وأتحفه ودله على بلاد البربر وراءه بالمغرب، مثل وليلى عند زرهون، وبلاد المصامدة وبلاد السرس، وكانوا على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية فسار عقبة وفتح وغنم وسبى، وأثخن فيهم وانتهى إلى السوس. وقاتل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس، ووقف على البحر المحيط وقفل راجعاً،

وأذن لجيوشه في اللحاق بالقيروان. وكان كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر قد اضطغن عليه بما كان يعامله به من الاحتصار، يقال إنه كان يحاصره في كل يوم، ويأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت لمطبخه فانتهز فيه الفرصة، وأرسل البربر فاعترضوا له في تهودا وقتلوه في ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين، واستشهدوا كلهم. وأسر في تلك الوقعة محمد ابن أوس الأنصاري في نفر فخلصهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى القيروان مع من كان بها من المخلفين والذراري. ورجع زهير بن قيس إلى القيروان، واعتزم على القتال، وخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني، وارتحل إلى مصر، واتبعه الناس فاضطر زهير إلى الخروج معهم، وانتهى إلى برقة فأقام بها مرابطا، واستأمن من كان بالقيروان إلى كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان وأقاموا في عهده.

زهير بن قيس البلوي:

ولما ولي عبد الملك بن مروان بعث إلى زهير بن قيس مكانه من برقة بالمدد وولاّه حرب البرابرة فزحف سنة سبع وستين، ودخل إفريقية ولقيه كسيلة على ميس من نواحي القيروان فهزمه زهير بعد حروب صعبة، وقتله واستلحم في الوقعة كثير من أشراف البربر ورجالاتهم. ثم قفل زهير إلى المشرق زاهداً في الملك وقال: إنما جئت للجهاد، وأخاف أن نفسي تميل إلى الدنيا، وسار إلى مصر، واعترضه بسواحل برقة أسطول صاحب قسطنطينية جاؤوا لقتاله فقاتلهم، واستشهد رحمه الله تعالى.

حسان بن النعمان الغساني:

ثم أن عبد الملك بن مروان بعد أن مل عبد الله بن الزبير، وصفا له الأمر أمر حسان بن النعمان الغساني بغزو إفريقية، وأمده بالعساكر، ودخل القيروان وافتتح قرطاجنة عنوة وخربها وفر من كان بها من الروم والفرنجة إلى صقلية والأندلس، ثم اجتمعوا

في صطفورة وبترزت، وهزمهم ثانية. وانحاز الفل إلى باجة وبونة فتحصنوا بها. ثم سار حسان إلى الكاهنة ملكة جرارة بجبل أوراس، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر فحاربها، وانهزم المسلمون وأسر منهم جماعة. وأطلقتهم الكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسي فإنها أمسكته وأرضعته مع ولديها وصيرته أخاً لهما. وأخرجت العرب من إفريقية، وانتهى حسان إلى برقة، وجاءه كتاب عبد الملك بالمقام حتى يأتيه المدد. ثم بعث إليه المدد سنة أربع وسبعين فسار إلى إفريقية، ودس إلى خالد بن يزيد يستعمله فأطلعه على خبرهم، واستحثه فلقي الكاهنة وقتلها، وملك جبل أوراس وما إليه، ودوخ نواحيه وانصرف إلى القيروان، وأمن البربر، وكتب الخواج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج، على أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر لا يفارقونه في مواطن جهاده ورجع إلى عبد الملك، واستخلف على إفريقية رجلًا اسمه صالح من جنده.

موسى بن نصير:

ولما ولي الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمه عبد الله، وهو على مصر، - ويقال عبد العزيز - أن يبعث بموسى بن نصير إلى إفريقية، وكان أبوه نصير من حرس معاوية فبعثه عبد الله، وقدم القيروان، وبها صالح خليفة حسان فعقد له، ورأى البربر قد طمعوا في البلاد فوجه البعوث في النواحي، وبعث إبنه عبد الله في البحر إلى

جزيرة ميورقة فغنم منها وسبى وعاد. ثم بعثه إلى ناحية أخرى وابنه مروان كذلك، وتوجه هو إلى ناحية فغنم منها وسبى. وعاد وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبي. ثم غزا طنجة، وافتتح درعة لسلطانه ودولته، وأخذ رهائن المصامدة، وانزلهم بطنجة، وذلك سنة ثمان وثمانين، وولى عليها طارق بن زياد الليثي. ثم أجاز طارق إلى الأندلس دعاه إليها بلبان ملك غمارة فكان فتح الأندلس سنة تسعين. وأجاز موسى بن نصير على أثره فكمل فتحها كمما ذكرناه. ثم قفل موسى إلى الشرق واستخلف على إفريقية إبنه عبد الله، وعلى الأندلس عبد العزيز، وهلك الوليد، وولي سليمان سنة ست وتسعين فسخط موسر وحبسه.

محمد بن يزيد:

ولما ولي سليمان، وحبس موسى بن نصير عن ابنه عبد الله عن إفريقية، ولّى مكانه محمدا بن يزيد مولى قريش فلم يزل عليها حتى مات سليمان.

إسمعيل بن أبي المهاجر:

ولما مات سليمان استعمل عمر بن عبد العزيز على إفريقية إسمعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان حسن السيرة، واسلم جميع البربر في أيامه.

يزيد بن أبي مسلم:

ولما تولى يزيد بن عبد الملك، ولي على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج، وكاتبه فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم تأسياً بما فعله الحجاج بالعراق فقتله البربر لشهر من ولايته. ورجعوا إلى محمد بن يزيد مولى من الأنصار الذين كان عليهم قبل إسمعيل، وكتبوا إلى يزيد بالطاعة والعذر عن قتل ابن أبي مسلم فأجابهم بالرضاء، وأقّر محمد بن أبي يزيد على عمله.

بشر بن صفوان الكلبي:

ثم ولى يزيد على إفريقية بشر بن صفوان الكلبي فقدمها سنة ثلاث ومائة فمهدها، وسكن أرجاءها وغزا بنفسه صقلية سنة تسع، وهلك مرجعه عنها.

عبيدة بن عبد الرحمن:

ثم عزل هشام بن عبد الملك بشر بن صفوان عن إفريقية، وولى مكانه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وهو ابن أخي أبي الأعور فقدمها سنة عشر.

عبيدة الله بن الحبحاب:

ثم عزل هشام عبيدة بن عبد الرحمن، وولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول، وكان والياً على مصر فأمره أن يمضي إلى إفريقية، واستخلف على مصر ابنه أبا القاسم وسار إلى إفريقية فقدمها سنة أربع عشرة، وبنى جامع تونس، واتخذ لها دار الصناعة لإنشاء المراكب البحرية. وبعث إلى طنجة إبنه إسمعيل، وجعل معه عمر بن عبيد الله المرادي. وبعث على الأندلس عقبة بن حجاج القيسي. وبعث حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان، وأصاب من مغانم الذهب والفضة

والسبي كثيراً، ودوخ بلاد المغرب وقبائل البربر ورجع. ثم أغزاه ثانية في البحر إلى صقلية سنة إثنتين وعشرين، ومعه عبد الرحمن بن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدائن صقلية، وضرب عليهم الجزية وأثخن في سائر الجزيرة. وكان محمد بن عبيد الله بطنجة قد أساء السيرة في البربر، وأراد أن يخمس من أسلم منهم، وزعم أنه الفيء فأجمعوا الانتقاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فسار ميسرة المظفرى بدعوة الصفيرية من الخوارج، وزحف إلى طنجة فقتل عمر بن عبيد الله وملكها، واتبعه البربر وبايعوه بالخلافة، وخاطبوه بأمير المؤمنين، وفشت مقالته في سائر القبائل بإفريقية. وبعث ابن الحبحاب إليه خالد بن حبيب الفهري فيمن بقي معه من العساكر. واستقدم حبيب بن أبي عبيدة من صقلية ومن معه من العساكر، وبعثه في أثر خالد، ولقيهم ميسرة والبربر بناحية طنجة فاقتتلا قتالاً شديداً. ثم تحاجزوا، ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه، وولّوا عليهم مكانه خالد بن حبيب الزناتي. واجتمع إليه البربر، ولقيه خالد ابن حبيب في العرب وعساكر هشام فانهزموا، وقتل خالد بن حبيب وجماعة من العرب وسميت بهم غزوة الاشراف، وانتقضت أفريقية على ابن الحبحاب، وبلغ الخبر إلى الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج وولوا عبد الملك بن قطن كما مرّ.

كلثوم بن عياض:

ولما انتهى الخبر إلى هشام بن عبد الملك. بهزيمة العساكر بالمغرب، إستنقص ابن الحبحاب وكتب إليه يستقدمه، وولّى على إفريقية سنة ثلاث وعشرين كلثوم بن عياض، وعلى مقدمته بلخ بن بشر القشيريّ فأساء إلى أهل القيروان، فشكوا إلى حبيب بن أبي عبيدة، وهو بتلمسان موافق للبربر، فكتب إلى كلثوم بن عيّاض ينهاه ويتهدّده فاعتذر وأغضى له عنها، ثم سار واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة، ومر على طريق سبيبة، وانتهى إلى تلمسان، ولقي حبيب بن عبيدة واقتتلا، ثم اتفقا ورجعا جميعاً. وزحف البرابرة إليهم على وادي طنجة وهو وادي سوا فانهزم بلخ في الطلائع، وانتهوا إلى كلثوم فانكشف واشتد القتال. وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة، وكثير من الجند. وتحيَّز أهل الشام إلى سبتة مع بلخ بن بشر فحاصرهم البرابرة، وأرسلوا إلى عبد الملك بن قطن أمير الأندلس في أن يجيزوا إليه فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يقيموا سنة واحدة. وأخذ رهنهم على ذلك، وانقضت السنة، وطالبهم بالشرط فقتلوه وملك بلخ الأندلس. وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع لما قتل أبوه حبيب مع كلثوم بن عيّاض، وأجاز بلخ إلى الأندلس فملكها فأجاز عبد الرحمن إلى الأندلس، يحاول ملكها. فلما جاء أبو الخطار إلى الأندلس من قبل حنظلة أيس عبد الرحمن من أمرها، ورجع إلى تونس سنة ست وعشرين، وقد توفي هشام، وولي الوليد بن يزيد فدعا لنفسه، وسار إلى القيروان، ومنع حنظلة من قتاله، وبعث إليه وجوه الجند فانتهز عبد الرحمن الفرصة فيهم واوثقهم لئلا يقاتله أصحابهم، وأغذ السير إلى القيروان فرحل حنظلة من إفريقية، وقفل إلى المشرق سنة سبع وعشرين. واستقل عبد الرحمن بملك إفريقية، وولّى مروان

بن محمد فكتب له بولايتها، ثم ثارت عليه الخوارج في كلّ جهة فكان عمر بن عطاب الأزدي بطبنياش، وعروة بن الوليد الصفريّ بتونس، وثابت الصّنهاجيّ بباجة، وعبد الجبّار بن الحارث بطرابلس على رأي الاباضيّة فزحف عبد الرحمن إليهما سنة إحدى وثلاثين فظفر بهما، وقتلهما، وسرّح أخاه الياس لابن عطاب فهزمه وقتله. ثم زحف إلى عروة بتونس فقتله، وانقطع أمر الخوارج. وزحف سنة خمس وثلاثين إلى جموع من البربر بنواحي تلمسان فظفر بهم، وقفل. ثم بعث جيشاً في البحر إلى صقلئة، وآخر إلى سردانية فأثخنوا في أمم الفرنج حتى استقّروا بالجزاء. ثم دالت دولة بني العباس، وبعث عبد الرحمن بطاعته إلى السفاح ثم إلى أبي جعفر من بعده. ولحق كثير من بني أمية إلى إفريقية. وكان ممن قدم عليه القاضي، وعبد المؤمن ابنا الوليد بن يزيد، ومعهما ابنة عمّ لهما فزوجها عبد الرحمن من أخيه الياس. ثم بلغ عبد الرحمن عنهما السعي في الخلافة فقتلهما، وامتعضت لذلك ابنه عمهما فأغرس زوجها بأخيه عبد الرحمن و استفسدته. وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى ابي جعفر بهدية قليلة، وذهب يعتذر عنها فلم يحسن العذر، وأفحش في الخطاب فكنب إليه المنصور يتهدده، وبعث إليه بالخلعة فانتقض هو ومزق خلعته على المنبر فوجد أخوه الياس بذلك السبيل إلى ما كان يحاول عليه، وداخل وجوها من الجند في الفتك بعبد الرحمن، وإعادة الدعوة للمنصور ومالأه في ذلك أخوه عبد الوارث وفطن عبد الرحمن لهما فأمر الياس بالمسير إلى تونس، وجاء ليودّعه ومعه أخوه عبد الوارث فقتلاه في آخر سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته.

حبيب بن عبد الرحمن:

ولما قتل عبد الرحمن نجا ابنه حبيب إلى تونس فلحق به بعد أن طلبوه، وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به. وكان عمّه عمران بن حبيب بتونس فلحق به، واتبعه الياس فاقتتلوا ملياً، ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقصطيلة ونغراوة، ولعمران تونس وصطغورة، وهي تبرزو والجزيرة، ولالياس سائر إفريقية. وتمّ هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين. وسار حبيب إلى عمله ببلاد الجريد، وسار الياس مع أخيه عمران إلى تونس فغدر بعمران وقتله وجماعة من الأشراف معه، وعاد إلى القيروان. وبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية. ثم سار حبيب إلى تونس فملكهما، وجاءه عمّه الياس فقاتله، وخالفه حبيب إلى القيروان فدخلها وفتق السجون فرجع الياس في طلبه، وفارقه أكثر أصحابه إلى حبيب فلما تواقفا دعاه حبيب إلى البراز فتبارزا وقتله حبيب، ودخل القيروان، وملكها آخر سنة ثمان وثلاثين، ونجا عمه الآخر عبد الوارث إلى وريجومة من قبائل البربر، وكبيرهم يومئذ عاصم بن جميل، وكان كاهنا ويدّعي النبّوة فأجار عبد الوارث، وقاتلهم حبيب فهزموه إلى قابس. واستفحل أمرهم، وكتب من كان بالقيروان من العرب إلى عاصم بن جميل يدعونه للولاية عليهم، واستخلفوه على الحماية، والدعاء للمنصور فلم يجب إلى ذلك، وقاتلهم فهزمهم، واستباح القيروان، وضرب المساجد واستهانها. ثم سار إلى حبيب بن عبد الرحمن بقابس فقاتله وهزمه، ولحق حبيب بجبل أوراس فأجاره أهله، وجاء عاصم فقاتلهم فهزموه، وقتل

جماعة من أصحابه. وقام بأمر وربجومة والقيروان من بعده عبد الملك، وقتله سنة أربعين ومائة. وكانت إمارة الياس على إفريقية سنة ونصفا، وإمارة حبيب ثلاث سنين.

عبد الملك بن أبي الجعد الوربجومى:

ولما قتل عبد الملك بن أبي الجعد حبيب بن عبد الرحمن رجع في قبائل وربجومة إلى القيروان وملكها، واستولت وربجومة على إفريقية، وساروا في أهل القيروان بالعسف والظلم كما كان عاصم وأسوأ منه. وافترق أهل القيروان بالنواحي فراراً بأنفسهم، وشاع خبرهم في الافاق فخرج بنواحي طرابلس عبد الأعلى بن السمح المغافري الاباضيّ منكراً لذلك، وقصد طرابلس وملكها.

عبد الأعلي بو السمح المغافري:

ولما ملك عبد الأعلى مدينة طرابلس ، بعث عبد الملك بن أبي الجعد العساكر لقتاله

سنة إحدى وأربعين فلقيهم أبو الخطّاب وهزمهم، وأثخن فيهم، واتبعهم إلى القيروان فملكها، وأخرج وربجومة منها واستخلف عليها عبد الرحمن بن رستم، وسار إلى طرابلس للقاء العساكر القادمة من ناحية أبي جعفر.

محمد بن الأشعث الخزاعى :

كان أبو جعفر المنصور، لما وقع بإفريقية ما وقع من الفتنة وملك قبائل وربجومة الفيروان، وفد عليه زجالات من جند إفريقية يشكون ما نزل بهم من وربجومة، ويستصرخونه فولّى على مصر وإفريقية محمد بن الاشعث الخزاعي فتزل مصر، وبعث على إفريقية أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجليّ. وسار في مقدمته فلقيه أبو الخطاب عبد الأعلى بسرت، ودهمه بالعساكر ومعهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سوادة التميمي فسار لذلك، ولقي أبا الخطاب بسرت ثانية فانهزم أبو الخطاب، وقتل عامة أصحابه، وذلك سنة أربع وأربعين.

وبلغ الخبر إلى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان ففرّ عنها إلى تاهرت وبنى هنالك مدينة ونزلها، وقام ابن الأشعث فافتتح طرابلس، واستعمل عليها المخارق غفاراً الطائي، وقام بأمر إفريقية وضبطها. وولّى على طبنة والزاب الأغلب بن سالم. ثم ثارت عليه المضريّة وأخرجوه سنة ثمان وأربعين فقفل إلى المشرق الأغلب بن سالم. ولما قفل بن الأشعث إلى المشرق ولى على المضريّة عيسى بن موسى الخراساني فبعث أبو جعفر المنصور الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي بعده على إفريقية، وكان من أصحاب أبي مسلم بخراسان. وقدم مع ابن الأشعث فولاّه على الزاب وطبنة فقدم القيروان، وسكن الناس. ثم خرج عليه أبو قُرَّة اليفرني في جموع البربر فهرب وسكن * فأبى عليه الجند وخلعوه. وكان الحسن بن حرب الكندي بقابس فكاتب الجند، وثبطهم عن الأغلب فلحقوا به، وأقبل بهم إلى القيروان فملكها، ولحق الأغلب بقابس. ثم رجع إلى إقبال الحسن بن حرب سنة خمسين فهزمه، وسار إلى القيروان فكر عليه الحسن دونها واقتتلوا، وأصاب الأغلب سهم فقتله. وقدم أصحابه عليهم المغافر بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس، وحملوا على الحسن فانهزم امامهم إلى تونس: ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في اتباعه. ثم رجع إلى تونس بعد شهرين

فقتله الجند، وقيل أصحاب الأغلب قتلوه في الموقف الذي قتل فيه الأغلب، وقام بأمر إفريقية المخارق بن غفار إلى أن كان ما نذكره.

عمر بن هزار مرد:

و لم بلغ أبا جعفر المنصور قتل الأغلب بن سالم بعث على إفريقية مكانه عمر بن حفص هزار مرد، من ولد قبيصة بن ابي صفرة أخي المهلّب فقدمها سنة إحدى وخمسين فاستقامت أموره ثلاث سنين. ثم سار لبناء السور على مدينة طبنة، واستخلف على القيروان أبا حازم حبيب بن حبيب المهلّبي فلمّا توجه لذلك ثار البربر بإفريقية، وغلبوا على من كان بها، وزحفوا إلى القيروان وقاتلوا أبا حازم فقتلوه واجتمع البربر الاباضية بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الأباضيّ مولى كندة، وكان على طرابلس الجنيد بن بشّار الاسديّ من قبل عمر بن حفص فأمدّه بالعساكر، وقاتلوا أبا حازم فهزمهم وحصرهم بقابس، وانقضت إفريقية من كل ناحية. ثم ثاروا في عسكر إلى طبنة وحاصروا بها عمر بن حفص، فيهم أبو قُرَّة اليعقوبي في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً من الاباضية جاؤوا معه، والمسور الزناتي في عشرة آلاف من الاباضية، وأمم من الخوارج، من صنهاجة وزناتة وهوّارة ما لا يحصى فدافعهم عمر بن حفص بالأموال، وفرق كلمتهم وبذل لأصحاب أبي قُرَّة مالا فانصرفوا. واضطر أبو قُرَّة لاتباعهم فبعث عمر جيشا إلى ابن رستم

وهو بتهودا فانهزم إلى تاهرت وضعف الأباضية عن حصار طبنة فافرجوا عنها، وسار أبو حاتم إلى القيروان، وحاصرها ثمانية أشهر، واشتد حصارها. وسار عمر بن حفص، وجهزّ العساكر لطبنة فخالفه أبو قُرَّة إلى طبنة فهزموه. وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهو على القيروان مسير عمر بن حفص إليهم فساروا للقائه فمال هو من الاربس إلى تونس، ثم جاء إلى القيروان فدخلها واستعدّ للحصار، واتبعه أبو حاتم والبربر فحاصروه إلى أن جهده الحصار، وخرج لقتالهم مستميتاً فقتل آخر سنة حميد بن صخر فواح أبا حاتم على أنه يقيم دعوة العباسية بالقيروان، وخرج أكثر الجند إلى طبنة، وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها.

يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب:

ولما بلغ المنصور انتقاض أفريقية على عمر بن حفص، وحصاره بطبنة ثم بالقيروان، بعث إليه يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلّب بن أبي صفرة في ستين ألف مقاتل. وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة حتى قتل، وسار يزيد بن حاتم فقدم عليها، وأبو حاتم يعقوب بن حبيب مستولٍ عليها فسار إلى طرابلس للقائه، واستخلف على القيروان عمر بن عثمان الفهريّ فانتقض وقتل أصحابه، وخرج المخارق بن غفار فرجع إليهما أبو حاتم ففرا من القيروان، ولحقا بجيجل من سواحل كتامة فتركهما، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السبع المغافري، وسار للقاء يزيد. وسار يزيد إلى طرابلس فلحق أبو حاتم بجبال نفوسة، واتبعته عساكر يزيد فهزمهم فسار إليه يزيد بنفسه. وقاتله قتالًا شديداً فانهزم البربر، وتتل أبو حاتم في ثلاثين ألفأ من أصحابه، وتتبعهم يزيد بالقتل بثأر عمر بن حفص. ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها منتصف سنة

خمس وخمسين. وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهرّي مع أبي حاتم فلحق بكتامة، وبعث يزيد في طلبه فحاصروهم، ثم ظفروا بهم. وهرب عبد الرحمن، وقتل جميع من كان معه. وبعث يزيد المخارق بن غفار على الزاب، ونزل طبنة، وأثخن في البربر في وقائع كثيرة مع وربجومة وغيرهم إلى أن هلك يزيد، سنة سبعين ومائة في خلافة هارون الرشيد، وقام بأمره إبنه داود فخرج عليه البربر، وأوقع بهم، ورجع إلى القيروان إلى أن كان من أمره ما نذكر.

أخوه روح بن حاتم:

و لم بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم، وكان أخوه روح على فلسطين استقدمه وعزّاه في أخيه، وولاه على إفريقية فقدمهما منتصف إحدى وسبعين. وسار داود ابن أخيه يزيد إلى الرشيد. وكان يزيد قد أذل الخوارج ومهّد البلاد فكانت ساكنة أيام روح، ورغب في موادعة عبد الوهاب بن رستم، وكان من الوهبيّة فوادعه. ثم هلك روح

في رمضان سنة أربع وسبعين، وكان الرشيد قد بعث بعهده سراً إلى نصر بن حبيب من قرابتهم فقام بالأمر بعد روح إلى أن ولي الفضل.

ابنه الفضل بن روع:

ولما توفي روح بن حاتم قام حبيب بن نصر مكانه، وسار ابنه الفضل إلى الرشيد فولاه على إفريقية مكان أبيه فعاد إلى القيروان في محرّم سنة سبع وسبعين، واستعمل على تونس المغيرة ابن أخيه بشر بن روح، وكان غلاماً غراً فاستخف بالجند، واستوحشوا من الفضل لما أساء فيهم السيرة، واخذهم بموالاة حبيب بن نصر فاستعفى أهل تونس من المغيرة فلم يعفهم، فانتقضوا وقدّموا عليهم عبد الله بن الجارود، ويعرف بعبد ربه الأنباري، وبايعوه على الطاعة، وأخرجوا المغيرة، وكتبوا إلى الفضل أن يولي عليهم من أراد فولى عليهم ابن عمّه عبد الله بن يزيد بن أبي حاتم، وسار إلى تونس. ولما قاربها بعث ابن، لجارود جماعة لتلقّيه، واستفهامه في أيّ شيء جاء فعدوا عليه وقتلوه افتئاتاً بذلك على ابن الجارود واضطر إلى إظهار الخلاف، وتولى كبر ذلك محمد بن الفارسي من قوّاد الخراسانية، وكتب إلى القّواد والعمّال في النواحي، واستفسدهم على الفضل. وكثر جموع ابن الجارود، وخرج الفضل فانهزم واتبعه ابن الجارود، واقتحم عليه القيروان. ووكّل به وبأهله من يوصلهم إلى قابس. ثم رده من طريقه وقتله منتصف ثمان وسبعين. ورجع ابن الجارود إلى تونس، وامتعض لقتل الفضل جماعة من الجند وفي مقدّمتهم مالك بن المنذر ووثبوا بالقيروان فملكوها، وسار إليهم ابن الجارود من تونس فقتلهم، وقتل مالك بن المنذر وجماعة من أعيانهم ، ولحق ففهم بالأندلس فقدًموا عليهم الصلت بن سعيد، وعادوا إلى القيروان واضطربت إفريقية.

خزيمة بن أعين:

ولما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح، وما وقع بإفريقية من الإضطراب، ولّى

مكانه خزيمة بن أعين، وبعث إلى ابن الجارود يحيى بن موسى لمحلّه عند أهل خراسان. ويقال يقطين يرغبه في الطاعة فأجابه بشرط الفراغ من العلاء بن سعيد. وعلم يقطين أنه يغالطه فداخل صاحبه محمد بن الفارسيّ، واستماله فنزع عن ابن الجارود. وخرج ابن الجارود من القيروان فراراً من العلاء في محرّم سنة تسع وسبعين لسبعة أشهر من ولايته وسار للقاء ابن الفارسيّ من القيروان، وتزاحفا للقتال فدعا ابن الجارود ابن الفارسي إلى و من أصحابه يغتاله في خلوتهما فقتله، وانهزم أصحابه وسابق العلاء بن سعيد ويقطين إلى القيروان فسبق إليها العلاء، وملكها وفتك في أصحاب ابن الجارود. ولحق ابن الجارود بهرثمة فبعث به إلى الرشيد، وكتب إليه أن العلاء بن سعيد هو الذي أخرجه من القيروان فأمره بأن يبعث بالعلاء فبعث به مع يقطين، فاعتقل ابن الجارود واحسن إلى العلاء إلى أن توفي بمصر. وسار هرثمة إلى القيروان فقدمها سنة سبع وسبعين فأمن الناس وسكنهم، وبنى القصر الكبير بالمنستير لسنة من قدومه، وبنى السور على طرابلس مما يلي البحر. وكان إبراهيم بن الأغلب عاملاً على الزاب وطبنة فهاداه، ولاطفه فعقد له على عمله فقام بأمره وحسن أثره. ثم خرج عليه عياض بن وهب الهوّاري، وكليب بن جميع الكلبيّ، وجمعا الجموع فسرّح هرثمة إليهما يحيى بن موسى من قواد الخراسانية ففرّق جموعهما، وقتل كثيراً من أصحابهما، ورجع إلى القيروان. ولما رأى هرثمة كثرة الثوار والخلاف بإفريقية استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه، ورجع إلى العراق لسنتين ونصف من ولايته.

محمد بن مقاتل الكعبي:

ثم بعث الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل الكعبيّ وكان صنيعته فقدم القيروان في رمضان سنة إحدى وثمانين، فكان سيئ السيرة فاختلف عليه الجند، وقدّموا مخلّد بن مرّة الأزديّ فبعث إليه العساكر فهزم وقتل. ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميّمي سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليه الناس، وسار إلى القيروان فخرج إليه محمد بن مقاتل، ولقيه فانهزم أمامه ورجع إلى القيروان، وتمام في اتباعه إلى أن

دخل عليه القيروان، وأمّنه تمام علي أن يخرج عن إفريقية، فسار محمد إلى طرابلس، وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكانه من الزاب فانتقض لمحمد، وسار بجموعه إلى القيروان، وهرب تمام ين يديه إلى تونس، وملك القيروان. واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس، وأعاده إلى إمارته بالقيروان آخر ثلاث وثمانين، وزحف تمام لقتالهم فخرج إليه إبراهيم بن الأغلب بأصحابه فهزمه، وسار في اتباعه إلى تونس. واستأمن له تمام فأمّنه، وجاء به إلى القيروان وبعث به إلى بغداد فاعتقله الرشيد.

إبراهيم بن الأغلب:

ولما استوثق الأمر لمحمد بن مقاتل، كره أهل البلاد ولايته، وداخلوا إبراهيم بن الأغلب في أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم فكتب إبراهيم إلى الرشيد في ذلك، على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت من مصر إلى أفريقية وعلى أن يحمل هو من إفريقية أربعين ألفاً. وبلغ الرشيد غناءه في ذلك، واستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بولايته فكتب له بالعهد إلى إفريقية، منتصف أربع وثمانين فقام إبراهيم بالولاية، وضبط الأمور. وقفل ابن مقاتل إلى المشرق، وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان، وانتقل

إليها بجملته. وخرج عليه سنة ست وثمانين بتونس حمديس من رجالات العرب، ونزع السواد فسرّح إليه ابن الأغلب عمران بن مجالد في العساكر فقاتله، وانهزم حمديس، وقتل من أصحابه نحو عشرة آلاف. ثم صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى، وقد ظهر فيه دعوة العلويّة بإدريس بن عبد الله. وتوفي ونصّب البرابرة أبنه الأصغر، وقام مولاه راشد بكفالته، وكبر إدريس، واستفحل أمره براشد فلم يزل إبراهيم يدسّ إلى البربر، ويسرِّب فيهم الأموال حتى قتل راشد، وسيق رأسه إليه. ثم قام بأمر إدريس بعده بهلول عبد الرحمن المظفر من رؤس البربر فاستفحل أمره، فلم يزل إبراهيم يتلطّفه ويستميله بالكتب والهدايا، إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العبّاسيّة فصالحه إدريس، وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله صلى الله عليه و سلم فكفّ عنه. ثم خالف أهل طرابلس على إبراهيم بن الأغلب سنة تسع وثمانين، وثاروا

بعاملهم سفيان بن المهاجر، وأخرجوه من داره إلى المسجد وقتلوا عامه أصحابه. ثم أمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج سفيان لشهر من ولايته، واستعملوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي فبعث إليهم إبراهيم بن الأغلب العساكر، وهزمهم، ودخل طرابلس عسكره. ثم استحضر إبراهيم الذين تولّوا كبر ذلك فحضروا في ذي الحجَّة آخر السنة، وعفا عنهم وأعادهم إلى بلدهم. ثم انتقض عمران بن مجالد الربعيّ سنة خمس وتسعين على ابن الأغلب. وكان بتونس، واجتمع معه على ذلك قريش بن التونسي، وكثرت جموعهما. وسار عمران إلى القيروان فملكها، وقدم عليه قريش من تونس، وخندق إبراهيم على نفسه بالعبّاسيّة فحاصروه سنة كاملة، كانت بينه وبينهم حروب كان الظفر في آخرها لابن الأغلب. وكان عمران يبعث إلى اشد بن الفرات القاضي في الخروج إليهم وامتنع. ثم بعث الرشيد إلى إبراهيم بالمال فنادى في الناس بالعطاء، ولحق به أصحاب عمران، وانتقض أمره ولحق بالزاب فأقام به إلى أن توفي ابن الأغلب. ثم بعث إبراهيم على طرابلس ابنه عبد الله سنة ست وتسعين فثار عليه الجند وحاصروه بداره. ثم أمّنوه على أن يخرج عنهم فخرج، واجتمع إليه الناس، وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية. وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة. ثم عزله أبوه وولّى سفيان بن المضاء فثارت هوارة بطرابلس، وهجم الجند فلحقوا بإبراهيم بن الأغلب وأعاد معهم ابنه عبد الله في ثلاثة عشر ألفاً من العساكر ففتك بهوّارة، وأثخن فيهم وجدد سور طرابلس. وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البربر، وجاء إلى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناتة، وكان يقاتل من باب هوارة. ثم جاءه الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وأعمالها لعبد الوهاب، وسار إلى القيروان. وكانت وفاة إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين.

ابنه أبو العباس عبد الله:

ولما توفي إبراهيم بن الأغلب عهد لابنه عبد الله، وكان غائباً بطرابلس والبربر يحاصرونه كما ذكرناه، وأوصى ابنه الآخر زيادة الله أن يبايع له بالإمارة ففعل، وأخذ له البيعة

على الناس بالقيروان. وكتب إليه بذلك فقدم أبو العبّاس عبد الله في صفر سنة سبع وتسعين، ولم يرع حق أخيه فيما فعله. وكان ينتقصه ولم يكن في أيامه فتنة بما مهد له أبوه الأمر. وكان حائراً حتى قيل أن مهلكه

كان بدعوة حفص بن حميد من الأولياء الصالحين من أهل حمّود ومهريك، وفد عليه في جماعة من الصالحين يشكو ظلامة فلم يصغ إليهم فخرج حفص يدعو عليه، وهم يؤمنون فأصابته قرحة في أذنه عن قريب هلك منها في ذي الحجّة سنة إحدى ومائتين لخمس سنين من ولايته.

أخوه زيادة الله:

ولما توفي أبو العباس ولي مكانه أخوه زيادة الله وجاءه التقليد من قبل المأمون، وكتب إليه يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابره فغضب من ذلك، وبعث مع الرسول بدنانير من سكة الأدارسة يعرض له بتحويل الدعوة. ثم استأذنه قرابته في الحج وهم أخوه الأغلب وأبناء أخيه أبي العباس محمد وأبو محمد بهر وإبراهيم أبو الأغلب. فأذن لهم، وانطلقوا لقضاء فرضهم فقضوه، وأقاموا بمصر حتى وقعت بين زيادة الله وبين الجند الحروب فاستقدمهم، واستوزر أخاه والأغلب وهاجت الفتن. واستولى كل رئيس بناحية فملكوها عليه كلها، وزحفوا إلى القيروان فحصروه. وكان فاتحة الخلاف زياد بن سهل بن الصقلية، خرج سنة سبع ومائتين وجمع وحاصر مدينة باجة فسرح إليه العساكر فهزموه، وقتلوا أصحابه. ثم انتقض منصور الترمذي بطبنة، وسار إلى تونس فملكها، وكان العامل عليها إسمعيل بن سفيان، وسفيان أخو الأغلب فقتله لتستخلص له طاعة الجند.

وسرح زيادة الله العساكر من القيروان مع غلبون ابن عمه ووزيره، اسمه الأغلب بن عبد الله بن الأغلب، وتهددهم بالقتل أن انهزموا فهزمهم منصور، وخشوا على أنفسهم ففارقوا الوزير غلبون، وافترقوا على إفريقية، واستولوا على باجة والجزيرة وصطفورة والاربس وغيرها. واضطربت أفريقية، ثم اجتمعوا إلى منصور، وسار بهم إلى القيروان فملكها، وحاصره في العباسية أربعين يوماً، وعمروا سور القيروان الذي خربه إبراهيم بن الأغلب. ثم خرج إليه زيادة الله فقاتله فهزمه، ولحق بتونس. وخرب زيادة الله سور القيروان.

ولحق قواد الجند بالبلاد التي تغلبوا عليها. فلحق منهم عامر بن نافع الأزرق بسبيبة. وسرح زيادة الله سنة تسع ومائتين عسكراً مع محمد بن عبد الله بن الأغلب فهزمهم عامر وعادوا، ورجع منصور إلى تونس. ولم يبق على طاعة زيادة الله من إفريقية إلا تونس والساحل وطرابلس ونفزاوه. وبعث الجند إلى زيادة الله بالأمان، وأن يرتحل عن إفريقية وبلغه أن عامر بن نافع يريد نفزاوة، وأن برابرها دعوه فسرح إليهم مائتي مقاتل لمنع عامر بن نافع فرجع عامراً عنها، وهزمه إلى قسطيلة ورجع. ثم هرب عنها واستولى سفيان على قسطيلة وضبطها. وذلك سنة تسع ومائتين. واسترجع زيادة الله قسطيلة والزاب وطرابلس، واستقام أمره. ثم وقدت الفتنة بين منصور الطبندي وبين عامر بن نافع، لأن منصوراً كان يحسده ويضغن عليه فاستمال عامر الجند وحاصره بقصره بطبندة، حتى استأمن إليه على أن يركب إلى الشرق. وأجابه إلى ذلك وخرج منصور من طنبدة منهزماً. ثم رجع فحاصره عامر حتى استأمن إليه ثانياً على يد عبد السلام بن المفرّج من قوّاد الجند، وأخذ له الأمان من عامر على أن يركب البحر إلى المشرق فأجابه عامر وبعثه مع ثقاته إلى تونس وأوصى إبنه. وكان يغريه أن يقتله إذا مر به فقتله، وبعث برأسه ورأس إبنه. وأقام عامر بن نافع بمدينة تونس إلى أن توفي سنة أربع عشرة. ورجع عبد السلام بن المفرج إلى باجة فأقام بها إلى أن انتقض فضل بن ابي العين بجزيرة

شريك، سنة ثمان عشرة ومائتين فسار إليه عبد السلام بن المفرج الربعي، وجاءت عساكر زيادة الله فقاتلوهما، وقتل عبد السلام. وانهزم فضل إلى مدينة تونس وامتنع بها وحاصرته العساكر حتى اقتحموها عليه، وقتلوا كثيراً من أهلها وهرب آخرون حتى أمنهم زيادة الله وعادوا. وفي سنة تسع عشرة ومائتين فتح أسد بن الفرات صقلية. كانت صقلية من عمالات الروم وأمرها راجع إلى صاحب قسطنطينية، وولي عليها سنة إحدى عشرة ومائتين بطريقاً اسمه قسنطيل، واستعمل على الأسطول قائداً من الروم حازماً شجاعاً فغزا سواحل أفريقية وانتهبها. ثم بعد مدة كتب ملك الروم إلى قسنطيل يأمره بالقبض

على مقدم الأسطول وقتله. ونمى الخبر إليه بذلك فانتقض، وتعصب له أصحابه، وسار إلى مدينة سرقوسة من بلاد صقلي فملكها، وقاتله قسنطيل فهزمه القائد، ودخل مدينة نطانية فأتبعه جيشاً أخذوه وقتلوه واستولى القائد على صقلية فملكها وخوطب بالملك. وولى على ناحية من الجزيرة رجلاً إسمه بلاطة، وكان ميخاييل ابن عم بلاطة على مدينة بليرم فانتقض هو وابن عمه على القائد، واستولى بلاطة على مدينة سرقوسة.

وركب القائد في أساطيله إلى إفريقية مستنجداً بزيادة الله فبعث معهم العساكر، واستعمل عليهم أسد بن الفرات قاضي القيروان فخرجوا في ربيع سنة اثنتي عشرة فنزلوا بمدينة مأزر، وساروا إلى بلاطة ولقيهم القائد، وجميع الروم الذين بها استمدّهم فهزموا بلاطة والروم الذين معه، وغنموا أموالهم. وهرب بلاطة إلى فلونرة فقتل، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى القلعة الكرات، وقد اجتمع بها خلق كثير فخادعوا القاضي أسد بن الفرات في المراودة على الصلح وأداء الجزية، حتى استعدوا للحصار، ثم امتنعوا عليه فحاصرهم وبعث السرايا في كل ناحية، وكثرت الغنائم. وحاصروا سرقوسة براً وبحراً، وجاءه المدد من إفريقية وحاصروا بليرم. وزحف الروم إلى المسلمين وهم يحاصرون سرقوسة قد بعثوهم، واشتذ حصار المسلمين بسرقوسة. ثم أصاب معسكرهم الفناء، وهلك كثير منهم، ومات أسد بن الفرات أميرهم ودفن بمدينة قصريانة، ومعهم القائد الذي جاء يستنجدهم فخادعه أهل قصريانة وقتلوه. وجاء المدد من القسطنطينية فتصافوا مع المسلمين وهزموهم، ودخل فلهم إلى قصريانة. ثم توفي محمد بن الحواري أمير المسلمين وولي بعده زهير بن عوف. ثم محض الله المسلمين فهزمهم الروم مرات، وحصروهم في معسكرهم حتى جهدهم الحصار، وخرج من كان في كبركيب من المسلمين بعد أن هدموها وساروا إلى مأزر. وتعذر عليهم الوصول إلى إخوانهم وأقاموا كذلك إلى سنة أربع عشرة إلى أن اشرفوا على الهلاك فوصلت مراكب أفريقية مدداً وأسطول من الأندلس خرجوا للجهاد. واجتمع منهم ثلاثمائة مركب فنزلوا الجزيرة، وافرج الروم عن حصار المسلمين، وفتح المسلمون مدينة بليرم بالأمان سنة سبع عشرة. ثم ساروا سنة تسع عشرة إلى مدينة قصريانة وهزموا الروم

عليها سنة عشرين.ومئتين ثم بعثوا إلى طرميس. ثم بعث زيادة الله الفضل بق يعقوب في سرية إلى سرقوسة فغنموا. ثم سارت سرية أخرى واعترضها بطريق صقلية فامتنعوا منه في وعر وحمل من الشعراء، حتى يئس منهم وانصرف على غير طائل فحمل عليهم أهل السرية وانهزموا، وسقط البطريق عن فرسه فطعن وجرح،

وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ومتاع. ثم جهز زيادة الله إلى صقلية إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب في العساكر، وولاه أميراً عليها فخرج منتصف رمضان، وبعث أسطولا فلقي أسطولاً للروم فغنمه، وقتل من كان فيه. ا آخر إلى قصورة فلقي أسطولاً فغنمه وسارت سرية إلى جبل النار والحصون التي في نواحيها وكثر السبي بأيدي المسلمين. وبعث الأغلب سنة إحدى وعشرين أسطولا نحو الجزائر فغنموا وعادوا. وبعث سرية إلى قطلبانة وأخرى إلى قصريانة كان فيهما التمحيص على المسلمين، ثم كانت وقعة أخرى كان فيها الظفر للمسلمين. وغنم المسلمون من أسطولهم تسع مراكب، ثم عثر بعض المسلمين على عورة من قصريانة فدل المسلمين عليها، ودخلوا منها البلد، وتحصن المشركون بحصنه حتى استأمنوا وفتحه الله، وغنم المسلمون غنائمه، وعادوا إلى بليرم إلى أن وصلهم الخبر بوفاة زيادة الله فوهنوا اولاً، ثم انشطوا وعادوا لي الصبر والجهاد وكانت وفاة زيادة الله منتصف سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته.

أخوهما أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب:

ولما توفي زيادة الله بن إبراهيم تولى أخوه الأغلب، ويكنى أبا عقال فأحسن إلى الجند، وأزال المظالم، وزاد العمال في أرزاقهم وكفهم عن الرعية. وخرج عليه بقسطيلة خوارج زواغة ولواتة ومكناسة، وقتلوا عاملها بها، وبعث إليهم العساكر فقتلهم واستأصلهم. وبعث سنة أربع وعشرين سرية إلى صقلية فغنموا وعادوا ظافرين. وفي سنة خمس وعشرين استأمن للمسلمين عدة حصون من صقلية فأمنوهم، وفتحوها صلحاً. وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحوها ولقوا أسطول

القسطنطينية فهزموهم وفم سنة ست وعشرين سارت سرايا المسلمين بصقلية إلى قصريانة، ثم حصن القيروان، واثخنوا في نواحيها كما نذكر. ثم توفي الأغلب بن إبراهيم في ربيع من سنة ست وعشرين ومائتين، لسنتين وسبعة أشهر من إمارته.

ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب في إبراهيم:

ولما توفي أبو عقال الأغلب ولي بعده إبنه أبو العباس، ودانت له إفريقية، وشيد مدينة بقرب تاهرت، وسفاها العباسية وذلك سنة سبع وعشرين، وأحرقها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم. وكتب إلى صاحب الأندلس يتقرّب إليه بذلك فبعث إليه بمائة ألف درهم. وفي أيامه ولي سحنون القضاء سنة أربع وثلاثين بعد عزل ابن الجواد، وضربه سحنون فمات، ومات سحنون سنة أربعين ومائتين، وثار عليه أخوه أبو جعفر وغلبه. ثم اتفقا على أن يستوزره فاستبد عليه، وقتل وزارءه ومكث على ذلك. ثم أقام أبو العباس محمد بأمره، واستبد سنة ثلاث وأربعين بعد أن استعد لذلك رجالاً، وحارب أخوه أبو جعفر فغلبه محمد وانتقض عليه، وأخرجه من إفريقية إلى مصر سنة ست وأربعين ومائتين لستة عشر شهراً من ولايته.

ابنه أبو إبراهيم أحمد بن أبي **العباس** محمد:

لما توفي أبو العباس محمد بن أبي عقال سنة إثنتين وأربعين، ولي مكانه ابنه أبو إبراهيم أحمد فأحسن السيرة، وأكثر العطاء للجند، وكان مولعاً بالعمارة فبنى بإفريقية نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد. واتخذ العبيد جنداً؛ وخرج عليه بناحية طرابلس خوارج من البربر فغلبهم عاملها وهو يومئذ أخوه عبد الله بن محمد بن الأغلب، سرح إليهم أخاهما زيادة الله يحاربهم، واستلحمهم وكتب إلى أخيه أبي إبراهيم بالفتح. وفي أيامه افتتحت قصريانة من مدن صقلية في شوال سنة أربع وأربعين، وبعث بفتحها إلى المتوكل، وأهدى له من سبيها. ثم توفي إبراهيم هذا سنة تسع وأربعين لثمان سنين من ولايته.

ابنه زيادة الله الأصغر بن أبي إبراهيم بن أحمل.

ولما توفي أبو إبراهيم ولي مكانه إبنه زيادة الله، ويعرف بزيادة الله الأصغر فجرى على سنن سلفه، و لم تطل أيامه. وتوفي سنة خمسين لحول من ولايته.

أخوه أبو الغرانيق بن أبي إبراهيم بن أحمل:

ولما توفي زيادة الله كما قدّمناه، ولي مكانه أخو محمد ويلقب بأبي الغرانيق فغلب عليه اللهو والشراب. وكانت في أيامه حروب وفتن. وفتح جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين. وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية، وبنى محمد حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب وهي الآن معروفة. ثم توفي أبو الغرانيق منتصف إحدى وستين لإحدى عشرة سنة من ولايته.

بقية أخبار صقلية:

وفي سنة ثمان وعشرين سار الفضل بن جعفر الهمداني في البحر ونزل مرسى مسينة وحاصرها فامتنعت عليه، وبث السرايا في نواحيها فغنموا. ثم بعث طائفة من عسكره وجاؤوا إلى البلد من وراء جبل مطل عليه، وهمك مشغولون بقتاله فانهزموا، وأعطوا باليد ففتحها. ثم حاصر سنة إثنتين وثلاثين مدينة لسى، وكاتب أهلها بطريق صقلية يستمدونه فاجابهم، وأعطاهم العلامة بإيقاد النار على الجبل. وبلغ ذلك الفضل بن جعفر فأوقد النار على الجبل، وأكمن لهم من ناحيته فخرجوا، واستطرد لهم، حتى جاوزوا الكمين فخرجوا عليهم فلم ينج منهم إلا القليل، وسلموا البلد على الأمان. وفي سنة ثلاث وثلاثين أجاز المسلمون إلى أرض انكبردة من البر الكبير، وملكوا منها مدينة وسكنوها وفي سنة أربع وثلاثين صالح أهل رغوس،

وسلموا المدينة للمسلمين فهدموها بعد أن حملوا جميع ما فيها. وفي سنة ثلاث وثلاثين توفي أمير صقلية محمد بن عبد الله بن الأغلب، واجتمع المسلمون بعده على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب بعد موت أميرهم. وكتب له محمد بن الأغلب بعهده على صقلية، وكان من قبل يغزو ويبعث السرايا، وتأتيه الغنائم. ولما جاءه كتاب الولاية خرج بنفسه، وعلى مقدمته عمه رياح فعاث في نواحي صقلية، وردد البعوث والسرايا إلى قطانية وسرقوسة وبوطيف ورغوس فغنموا وخربوا وحرقوا، وافتتح حصونا جمة، وهزم أهل قصريانة، وهي مدينة ملك صقلية. وكان الملك قبله يسكن سرقوسة فلما فتحها المسلمون كما ذكرناه انتقل الملك إلى قصريانة واخبر أن العباس كان يردد الغزو إلى نواحي سرقوسة وقصريانة شاتية وصائفة فيصيب منهم، ويرجع

بالغنائم والأسارى. فلما كان في شاتية منها أصاب منهم أسارى، وقدمهم للقتل فقال له بعضهم وكان له قدر وهيبة استبقني وأنا أملك قصريانة، ودلهم علي عورة البلد فجاؤهاليلاً، ووقفهم باب صغير فدخلوا منه. فلما توسطوا البلد، وضعوا السيف، وفتحوا الأبواب ودخل العباس في العسكر فقتل المقاتلة وسبى بنات البطارقة، وأصاب فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الروم بصقلية من يومئذ. وبعث ملك الروم عسكراً عظيماً مع بعض بطارقته، وركبوا البحر إلى مرسى سرقوسة فجاءهم العباس من بليرم فقاتلهم وهزمهم وأقلع فلهم إلى بلادهم بعد أن غنم المسلمون من أسطولهم ثلاثة أو أكثر، وذلك سنة سبع وثلاثين. وافتتح بعدها كثيراً من قلاع صقلية، وجاء مدد الروم من القسطنطينية وهو يحاصر قلعة الروم فنزلوا سرقوسة، وزحف إليهم العباس من مكانه وهزمهم ورجع إلى قصريانة فحصنها وانزل بها الحامية. ثم سار سنة سبع وأربعين إلي سرقوسة فغنم ورجع واعتل في طريقه فهلك منتصف سنته. ودفن في نواحي سرقوسة، واحرق النصارى شلوه، وذلك لإحدى عشرة سنة من إمارته. واتصل الجهاد بصقلية والفتح، واجاز المسلمون إلى عدوة الروم في الشمال وغزوا ارض قلورية وانكبرده، وفتحوا فيها حصوناً وسكن بها المسلمون. ولما توفي العباس اجتمع الناس على إبنه عبد الله، وكتبوا إلى صاحب إفريقية، وبعث عبد الله السرايا ففتح القلاع؛ وبعد خمسة أشهر من ولايته وصل خفاجة بن سفيان من إفريقية على صقلية في منتصف ثمان وأربعين، وأخرج ابنه محموداً في سرية إلى سرقوسة فعاث في نواحيها، وخرج إليهم الروم فقاتلهم وظفر

ورجع. ثم فتح مدينة نوطوس سنة خمس وخمسين وسار إلى سرقوسة وجبل النار، واستأمن إليه أهل طرميس ثم غدروا فسرح إبنه محمداً في العساكر وسبى أهلها. ثم سار خفاجة إلى رغوس وافتتحها، وأصابه المرض فعاد إلى بليرم. ثم سار سنة ثلاث وخمسين إلى سرقوسة وقطانية فخرّب نواحيها، وأفسد زرعها، وبعث سراياه في أرض صقلية فامتلأت أيديهم من الغنائم. وفي سنة أربع وخمسين وصل بطريق من القسطنطينية لأهل صقلية فقاتله جمع من المسلمين وهزموه، وعاث خفاجة في نواحي سرقوسة، ورجع إلى بليرم. وبعث سنة خمس وخمسين إبنه محمداً في العساكر إلى طرميس، وقد دله بعض العيون على بعض عوراتها فدخلوها وشرعوا في النهب. وجاء محمد بن خفاجة من ناحية أخرى فظنوه مدداً للعدو فأجفلوا، ورآهم محمد مجفلين فرجع. ثم سار خفاجة إلى سرقوسة فحاصرها وعاث في نواحيها، ورجع فاغتاله بعض عسكره في طريقه وقتله، وذلك سنة خمس وخمسين وولى الناس عليهم ابنه محمداً. وكتبوا إلى محمد بن أحمد أمير إفريقية فأقرّه على الولاية، وبعث إليه بعهده.

إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرانيق:

ولما توفي أبو الغرانيق ولي أخوه إبراهيم، وقد كان عهد لابنه أبي عقال، واستحلف أخاه إبراهيم أن لا ينازعه ولا يعرض له، بل يكون نائباً عنه إلى أن يكبر فلما مات عدا عليه أهل القيروان وحملوه على الولاية عليهم، لحسن سيرته وعدله فامتنع، ثم أجاب وترك وصية أبي الغرانيق في ولده أبي عقال، وانتقل إلى قصر الإمارة وقام بالأمر أحسن قيام ". وكان عادلا حازماً فقطع البغي والفساد، وجلس لسماع شكوى المتظلمين فأمنت

البلاد، وبنى الحصون والمحارس بسواحل البحر، حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو فيتصل إيقادها بالإسنكدرية في الليلة الواحدة وبنى سور سوسة. وفي أيامه كان مسير العباس بن أحمد بن طولون مخالفاً على أبيه صاحب مصر سنة خمس وستين فملك برقة من يد محمد بن قهرب قائد ابن الأغلب ثم ملك لبدة، ثم حاصر طرابلس، واستمدّ ابن قهرب بقوسة فأمدوه ولقي العباس بن طولون بقصر حاتم سنة سبع وستين فهزمه، ورجع إلى مصر. ثم خالفت

وزداجة ومنعوا الرهن، وفعلت مثل ذلك هوارة، ثم لواتة، وقتل ابن قهرب في حروبهم فسرح إبراهيم ابنه أبا العباس عبد الله إليهم في العساكر سنة تسع وستين فأثخن فيهم. وفي سنة ثمانين كثر الخوارج، وفرّق العساكر إليهم فاستقاموا، واستركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف. وفي سنة إحدى وثمانين انتقل إلى سكنى تونس، واتخذ بها القصور ثم تحرك إلى مصر سنة ثلاث وثمانين لمحاربة ابن طولون، واعترضته نفوسة فهزمهم وأثخن فيهم. ثم انتهى إلى سرت فانفضت عنه الحشود فرجع، وبعث إبنه أبا العباس عبد الله على صقلية سنة سبع وثمانين فوصل إليها في مائة وستين مركباً. وحاصر طرابة وانتقض عليه بليرم وأهل كبركيت، وكانت بينهم فتنة فأغراه كل واحد منهم بالآخرين. ثم اجتمعوا لحربه، وزحف إليه أهل بليرم في البحر فهزمهم واستباحهم، وبعث جماعة من وجوه إلى أبيه، وفرّ آخرون من أعيانهم إلى القسطنطينية، وآخرون إلى طرميس فاتبعهم وعاث في نواحيها. ثم حاصر أهل قطانية فامتنعوا عليه فأعرض عن قتال المسلمين. وتجهز سنة ثمان وثمانين للغزو فغزا دمقش ثم مسيني. ثم جاء في البحر إلى ربو ففتحها عنوة، وشحن مراكبه بغنائمها، ورجع إلى مسيني فهدم سورها. وجاء مدد القسطنطينية في المراكب فهزمهم، وأخذ لهم ثلاثين مركباً. ثم أجاز إلى عدوة الروم وأوقع بأمم الفرنجة من وراء البحر. ورجع إلى صقلية. وجاء في هذه السنة رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم لشكوى أهل تونس به فاستقدم ابنه أبا العباس من صقلية، وارتحل هو إليها مظهرا لغربة الانتجاع. هكذا قال ابن الرقيق. وذكر أنه كان جائراً ظلوماً سفّاكاً للدماء، وأنه أصابه أخر عمره ماليخوليا أسرف بسببها في القتل فقتل من خدمه ونسائه وبناته ما لا يحصى. وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به. وافتقد ذات يوم منديلا لشرابه فقتل بسببه ثلاثمائة خادم. وأمّا ابن الأثير فاثنى عليه بالعقل والعدل

وحسن السيرة، وذكر أن فتح سرقوسة كان في أيامه على يد جعفر بن محمد أمير صقلية، وأنه حاصرها تسعة أشهر، وجاءهم المدد من قسطنطينية في البحر فهزمهم. ثم فتح البلد واستباحها. واتفقوا كلهم على أنه ركب البحر من إفريقية إلى صقلية فنزل طرابنة، ثم تحول عنها إلى بليرم ونزل على دمقش وحاصرها سبعة عشر يوما. ثم فتح مسيني وهدم سورها. ثم فتح طرميس آخر شعبان من سنة تسع وثمانين، ووصل ملك الروم

بالقسطنطينية ففتحها. ثم بعث حافده زيادة الله ابن ابنه أبي العباس عبد الله إلى قلعة بيقش فافتتحها، وابنه أبو محرز إلى رمطة فأعطوه الجزية. ثم عبر إلى عدوة البحر وسار في برّ الفرنج، ودخل قلورية عنوة فقتل وسبى ورهب منه الفرنجة. ثم رجع إلى صقلية ورغب منه النصارى في قبول الجزية فلم يجب إلى ذلك. ثم سار إلى كنسة فحاصرها، واستأمنوا إليه فلم يقبل. ثم هلك وهو محاصر لها آخر تسع وثمانين لثمان وعشرين سنة من

إمارته فولى أهل العسكر عليهم حافده أبا مضر ليحفظ العساكر والأمور، إلى أن يصل ابنه أبو العباس، وهو يومئذ بإفريقية فأمن أهل كنسة قبل أن يعلموا بموت جدّه، وقبل منهم الجزية، وأقام قليلاً حتى تلاحقت به السرايا من النواحي. ثم ارتحل وحمل جدّه إبراهيم فدفنه في بليرم، وقال ابن الأثير حمله إلى القيروان فدفنه بها.

ظهور الشيعي بكتامة:

وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي بكتامة يدعو للرضا من آل محمد، ويبطن الدعوة لعبيد الله المهدي من أبناء إسمعيل الإمام، واتبعه كتامة، وهو من الأسباب التي دعته للتوبة والاقلاع، والخروج إلى صقلية. وبعث إليه موسى بن عياش صاحب صلة ا بالخبر، وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعي بانكجان يهدده ويحذره فلم يقبل، وأجابه بما يكره. فلما قربت أمور أبي عبد الله، وجاء كتاب المعتضد لإبراهيم كما قدمناه أظهر التوبة، ومضى إلى صقلية، وكانت بعده بإفريقية حروب أبي عبد الله الشيعي مع

قبائل كتامة، حتى استولى عليهم واتبعوه، وكان إبراهيم قد أسر لابنه أبي العباس في شأن الشيعي ونهاه عن محاربته، وأن يلحق به إلى صقلية إن ظهر عليه.

ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم أخي محمد أبي الغرانيق:

ولما هلك إبراهيم سنة تسع وثمانين كما قدمناه، قدم حافده زيادة الله بالجيوش على أبيه أبي العباس عبد الله لقام بأمر إفريقية، وعظم غناؤه، وكتب إلى العمال كتاباً يقرأ على الناس بالوعد الجميل والعدل والرفق

والجهاد واعتقل إبنه زيادة الله هذا لما بلغه عنه من اعتكافه على اللذات واللهو، وأنه يروم التوثب عليه، وولى على صقلية مكانه محمد بن السرقوسي. وكان أبو العباس حسن السيرة عادلاً بصيراً بالحروب، وكانت أيامه صالحة، وكان نزوله بتونس. ولما توفي استولى أبو عبد الله الشيعي على كتامة، ودخلوا في أمره كافة، وزحف إلى ميلة فافتتحها، وقتل موسى بن عياش. وكان فتح بن يحيى أمير مسالة من كتامة حارب أبا عبد الله طويلاً، ثم غلبه، واستولى على قومه فنزع فتح إلى أبي العباس، وحرضه على قتال يكزاخول، وانما كان يكرّ على جفنة إذا نظر وزحف إليه من تونس سنة تسع وثمانين، ودخل سطيف ثم يلزمه، وقتل من دخل في دعوتهم. ولقيه أبو عبد الله الشيعي فانهزم وهرب من تاوزرت إلى انكجان، وهدم أبو خول قصر الشيعي، ثم قاتلهم يوماً إلى الليل فانهزم عسكر أبي خول، ولحق بتونس، ورجع بكتامة إلى مواضعهم. ولما دخل أبو خول بأبيه جدد له العسكر وأعاده ثانية، وانتظمت إليه القبائل، وسار حتى نزل سطيف. ثم ارتحل منها إلى لقائهم. وزحف إليه أبو عبد الله فهزمه، ورجع إلى سطيف، ثم ارتحل منها إلى لقائهم. وفي أثناء ذلك صانع زيادة الله بعض الخدم على قتل أبيه أبي العباس فقتل نائما في شعبان سنة تسعين ومائتين، وأطلق زيادة الله من اعتقاله.

ابنه أبو مضر زيادة الله:

ولما أطلق زيادة الله من الاعتقال اجتمع أهل الدولة، وبايعوا له فقتل الخصيان الذين قتلوا أباه، وأقبل على اللذات واللهو ومعاشرة المضحكين والصفاعين، وأهمل أمرر الملك واستقل. وكتب إلى أخيه أبي خول على لسان أبيه يستقدمه، وقدم فقتله، وتتل عمومته وإخوته. وقوي أمر الشيعي، وانتقل زيادة الله إلى رقادة ليلاً

لئلا يخالفه الشيعي إليها. وفتح الشيعي مدينة سطيف فسرّح زيادة الله العساكر لحربه، وعقد عليها لإبراهيم بن حبيش من صنائعه فخرج في أربعين ألفاً، وأقام بقسطيلة ستة أشهر فاجتمعت إليه مائة ألف، وزحف إلى كتامة، وتلقوه بأجانة فاخترمت عساكره وولت الهزيمة عليه. وانتهى إلى باغاية، ثم انتقل إلى القيروان، وافتتح أبو عبد الله مدينة طبنة، وقتل فتح بن يحيى المسالتي، وكان بها. ثم فتح يلزمة، وهدم سورها. ثم وصل عروبة بن يوسف من أمراء كتامة إلى باغاية، وأوقع بالعساكر التي كانت بها مجمرة لحربهم بنظر هارون بن الطبني.

وأرسل أبو عبد الله الشيعي إلى تيحيسن فحاصرها، ثم افتتحها صلحاً. وكثر الارجاف بالقيروان ففتح زيادة الله ديوان العطاء، واستلحق واستركب وأجمع الخروج فخرج إلى الاربس سنة خمس وتسعين، فلما انتهى إليها تخوف غائلة الشيعي، وأشار عليه أهل بيته بالرجوع فرجع إلى رقادة، وقدم على العساكر إبراهيم بن أبي الأغلب من وجوه أهل بيته. ثم زحف أبو عبد الله إلى باغاية ففتحها صلحاً، وهرب عاملها. ثم سرّب أبو عبد الله الجيوش فبلغت مجانة، واوقعوا بقبائل نفزة، واستولوا على تيفاش. وزحف ابن أبي الأغلب إلى تيفاش فمنعه أهلها، وهزموا طلائعه فافتتحها، وقتل من كان بها. ثم خرج أبو عبد الله الشيعي في عساكر كتامة إلى باغاية ثم إلى سكاية؛ ثم إلى سبيبة، ثم إلى حمودة فاستولى على جميعها، وأمن أهلها ورحل ابن ابي الأغلب من الأربس. ثم سار أبو عبد الله إلى قسطيلة وقفصة فأمّنهم، ودخلوا في دعوته، وانصرف إلى باغاية، ثم إلى انكجان. وزحف ابن أبي الأغلب إلى باغاية فقاتلها، وامتنعت عليه، ورجع إلى الأربس. ثم زحف أبو عبد الله إلى الأربس سنة ست وتسعين في جمادى ومر بشق بنارية، وأمن أهلها إلى قمودة.

خروج زيادة الله إلى المشرق:

ولما وصل الخبر إلى زيادة الله بوصول الشيعي إلى قمودة، حمل أمواله وأثقاله، ولحق بطرابلس معتزماً على الشرق. وأقبل الشيعي إلى إفريقية، وفي مقدمته عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير؛ ووصل إلى رقادة في رجب سنة ست وتسعين، وتلقاه أهل القيروان وبايعوا لعبيد الله المهدي كما ذكرناه في أخبارهم ودولتهم.

وأقام زيادة الله بطرابلس سبعة عشر يوماً، وانصرف ومعه إبراهيم بن الأغلب. وكان نمي عنه أنه أراد الاستبداد لنفسه بالقيروان بعد خروج زيادة الله فاعرض عنه، واطرحه وبلغ مصر فمنعه عاملها عيسى البرشدي من الدخول إلا عن أمر الخليفة، وانزله بظاهر البلد ثمانية أيام. وانصرف إلى ابن الفرات وزير المقتدر يستأذن له في الدخول فأتاه كتابه بالمقام في الرقة، حتى يأتيه رأي المقتدر فأقام بها سنة. ثم جاءه كتاب المقتدر بالرجوع إلى إفريقية. وأمر النوشزي بإمداده بالرجال والمال لاسترجاع الدعوة بإفريقية، ووصل إلى مصر فأصابته بها علة مزمنة، وسقط شعره. ويقال أنه سم، وخرج إلى بيت المقدس ومات بها. وتفرّق بنو الأغلب، وانقطعت أيامهم، والبقاء لله وحده. والله سبحانه وتعالى أعلم.

دولة بني أبي الحسن الكلبيين

بقية أخبار صقلية ودولة بني الحسن الكلبيين بها من العرب المستبدين بدعوة العبيديين وبداية أمرهم وتصاريف أحوالهم

ولما استولى عبيد الله المهدي على أفريقية ودانت له، وبعث العمال في نواحيها بعث على جزيرة صقلية الحسن بن محمد بن أبي خنزير، من رجالات كتامة، فوصل إلى مأزر سنة سبع وتسعين في العساكر، فولى أخاه على كبركيت؛ وولى على القضاء بصقلية إسحق بن المنهال.. ثم سار سنة ثمان وتسعين في العساكر إلى ومش فعاث في نواحيها ورجع. ثم شكا أهل صقلية سوء سيرته وثاروا به

وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي معتذرين فقبل عذرهم وولى عليهم أحمد بن قهرب. وبعث سرية إلى أرض قلورية فدوخوها ورجعوا بالغنائم والسبي. ثم أرسل سنة ثلاثمائة ابنه علياً إلى قلعة طرمين المحدثة ليتخذها حصناً لحاشيته وأمواله حذراً من ثورة أهل صقلية فحصرها ابنه ستة أشهر. ثم اختلف عليه العسكر فأحرقوا خيامه، وأرادوا قتله فمنعه العرب، ودعا هو الناس إلى المقتدر فأجابوه. وقطع خطبة المهدي، وبعث الأسطول إلى إفريقية، ولقوا أسطول المهدي وقائده الحسن بن ابي خنزير فقتلوه، واحرقوا الأسطول. وسار أسطول بن قهرب إلى صفاقس فخربوها وانتهوا إلى طرابلس، وانتهى الخبر إلى القائم بن المهدي. ثم وصلت الخلع والألوية من المقتدر إلى ابن قهرب. ثم بعث الجيش في الأسطول إلى قلورية فعاثوا في نواحيها ورجعوا. ثم بعث ثانية أسطولاً إلى إفريقية فظفر به أسطول المهدي فانتقض أمره، وعصى عليه أهل كبركيت، وكاتبوا المهدي. ثم ثار الناس بابن قهرب آخر الثلاثمائة وحبسوه، وأرسلوه إلى المهدي فأمر بقتله على قبر ابن خنزير في جماعة من خاصته. وولى على صقلية أبا سعيد بن احمد، وبعث معه العساكر من كتامة فركب إليها البحر فنزل في طرابنة، وعصى عليه أهل صقلية بمن معه من العساكر فامتنعوا عليه، وقاتله أهل كبركيت وأهل طرابنة فهزمهم وقتلهم. ثم استأمن إليه أهل طرابنة فأمنهم وهدم أبوابها. وأمره المهدي بالعفو عنهم. ثم ولى المهدي على صقلية سالم بن راشد، وأمده سنة ثلاث عشرة بالعساكر فعبر البحر إلى أرض انكبردة فدوّخها، وفتحوا فيها حصوناً ورجعوا. ثم عادوا إليها ثانية وحاصروا مدينة ادرنت أياماً، ورحلوا عنها. ولم يزل أهل صقلية يغيرون على ما بأيدي الروم من جزيرة صقلية وقلورية، ويعيثون في نواحيها. وبعث المهدي سنة إثنتين وعشرين جيشاً في البحر مع يعقوب بن إسحق فعاث في نواحي جنوة ورجعوا. ثم بعث جيشه من قابل ففتحوا مدينة جنوة، ومروا بسردانية فأحرقوا فيها مراكب وانصرفوا. ولما كانت سنة خمس وعشرين انتقض أهل كبركيت على أميرهم سالم بن راشد، وقاتلوا جيشه، وخرج إليهم سالم بنفسه فهزمهم، وحصرهم ببلدهم. واستمد القائم فأمدّه بالعساكر مع خليل بن إسحق، فلما وصل إلى صقلية شكا إليه أهلها من سالم بن راشد، واسترحمته النساء والصبيان. وجاءه أهل كبركيت وغيرها من أهل صقلية بمثل ذلك فرق لشكواهم، ودس إليهم سالم بأن خليلا إنما جاء للانتقام منهم بمن قتلوا

من العساكر فعاودوا الخلاف، واختط خليل مدينة على مرسى المدينة، وسماها الخالصة. وتحقق بذلك أهل كبركيت ما قال لهم سالم، واستعدوا للحرب فسار إليهم خليل منتصف ست وعشرين، وحصرهم ثمانية أشهر يغاديهم بالقتال ويراوحهم؛ حتى إذا جاء الشتاء رجع إلى الخالصة، واجتمع أهل صقلية على الخلاف، واستمدوا ملك القسطنطينية فأمدهم بالمقاتلة والطعام. واستمد خليل القائم فامده بالجيش فافتتح قلعة أبي ثور

وقلعة البلوط، وحاصر قلعة بلاطنو إلى أن انقضت سنة سبع وعشرين فارتحل عنها وحاصر كبركيت. ثم حبس عليها عسكرا للحصار مع أبي خلف بن هارون ورحل عنها، وطال حصارها إلى سنة تسع وعشرين فهرب كثير من أهل البلد إلى بلد الروم، واستأمن الباقون فأمنهم على النزول عن القلعة. ثم غدر بهم فارتاع لذلك سائر القلاع وأطاعوا، ورجع خليل إلى إفريقية آخر سنة تسع وعشرين، وحمل معه وجوه أهل كبركيت في سفينة، وأمر بخرقها في لجة البحر فغرقوا أجمعين. ثم ولى على صقلية عطاف الأزدي. ثم كانت فتنة أبي يزيد، وشغل القائم والمنصور بأمره فلما انقضت فتنة أبي يزيد، عقد المنصور على صقلية للحسن بن أبي الحسن الكلبي من صنائعهم ووجوه قواده، وكنيتة أبو الغنائم، وكان له في الدولة محل كبير. وفي مدافعة أبي يزيد غناء عظيم. وكان سبب ولايته أن أهل بليرم كانوا قد استضعفوا عطافاً واستضعفهم العدو لعجزه، فوثب به أهل المدينة يوم الفطر من سنة خمس وثلاثين، وتولى كبر ذلك بنو الطير منهم، ونجا عطاف إلى الحصن، وبعث للمنصور يعلمه ويستمده فولى الحسن بن علي على صقلية، وركب البحر إلى مأزر، وأرسى بها فلم يلقه أحد منهم. وأتاه في الليل جماعة من كتامة واعتذروا إليه عن الناس بالخوف من بني الطير. وبعث بنو الطير عيونهم عليه واستضعفوه وواعدوه أن يعودوا إليه فسبق ميعادهم، ودخل المدينة، ولقيه حاكم البلد وأصحاب الدواوين، واضطر بنو الطير إلى لقائه، وخرج إليهم كبيرهم إسمعيل، ولحق به من انحرف عن بني الطير فكثر جمعه. ودس إسمعيل بعض غلمانه فاستغاث بالحسن من بعض عبيده أنه أكره امرأته على الفاحشة، يعتقد أن الحسن لا يعاقب مملوكه فتخشن قلوب أهل البلد عليه. وفطن الحسن لذلك فدعا الرجل

واستحلفه على دعواه، وقتل عبده فسر الناس بذلك، ومالوا عن الطيري وأصحابه، وافترق جمعهم. وضبط الحسن أمره، وخشي الروم بادرته فدفعوا إليه جزية ثلاث سنين. وبعث ملك الروم بطريقاً في البحر في عسكر كبير إلى صقلية، واجتمع هو والسردغرس. واستمدّ الحسن بن علي المنصور فأمده بسبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل، وجمع الحسن من كان عنده وسار براً وبحراً. وبعث السرايا في أرض قلورية، ونزل على أبراجه فحاصرها وزحف إليه الروم فصالحه على مال أخذه، وزحف إلى الروم ففروا من غير حرب. ونزل الحسن على قلعة قيشانة فحاصرها شهراً، وصالحهم على مال ورجع إلى قلورية فعبر إلى خراجة فلقي الروم والسردغرس فهزمهم، وامتلأ من غنائمهم، وذلك يوم عرفة سنة أربعين وثلاثمائة. ثم ثار إلى خراجة فحاصرها حتى هادنه ملك الروم قسطنطين. ثم عاد إلى ربو وبنى بها مسجداً وسط المدينة، وشرط على الروم أن لا يعرضوا له، وأن من دخله من الاسرى أمن. ولما توفي المنصور وملك ابنه المعز سار إليه الحسن، واستخلف على صقلية ابنه أحمد، وأمره المعز بفتح القلاع التي بقيت للروم بصقلية فغزاها، وفتح طرمين وغيرها سنة إحدى وخمسين، وأعيته رمطة فحاصرها فجاءها من القسطنطينية أربعون ألفا مددا. وبعث أحمد يستمد المعز فبعث إليه المدد بالعساكر والأموال مع أبيه الحسن. وجاء مدد الروم فنزلوا بمرسى مسينة، وزحفوا إلى رومطة، ومقدم الجيوش على حصارها الحسن بن عمار وابن أخي الحسن بن علي فأحاط الروم بهم. وخرج أهل البلد إليهم، وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا، وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل

فسقط عن فرسه، وقتل جماعة من البطارقة معه. وانهزم الروم وتتبعهم المسلمون بالقتل، وامتلأت ايديهم من الغنائم والأسرى والسبي. ثم فتحوا رمطة عنوة وغنموا ما فيها، وركب فلّ الروم من صقلية وجزيرة رفق في الأسطول ناجين بأنفسهم فاتبعهم الأمير أحمد في المراكب فحرقوا مراكبهم، وقتل كثير منهم، وتعرف هذه الوقعة بوقعة المجاز، وكانت سنة أربع وخمسين وأسر فيها ألف من عظمائهم، ومائة بطريق. وجاءت الغنائم والأسارى إلى مدينة بليرم حاضرة صقلية،

وخرج الحسن للقائهم فأصابته الحمى من الفرح فمات، وحزن الناس عليه وولي ابنه أحمد باتفاق أهل صقلية بعد أن ولى المعز عليهم يعيش مولى الحسن فلم ينهض بالأمر ووقعت الفتنة بين كتامة والقبائل، وعجز عن تسكينها. وبلغ الخبر إلى المعز فولى عليها أبا القاسم علي بن الحسن نيابة عن أخيه أحمد. ثم توفي أحمد بطرابلس سنة تسع وخمسين، واستبد بالإمارة أخوه أبو القاسم علي، وكان مدلًا محباً. وسار إليه سنة إحدى وسبعين ملك الفرنج في جموع عظيمة، وحصر قلعة رمطة وملكها، وأصاب سرايا المسلمين. وسار الأمير أبو القاسم في العساكر من بليرم يريدهم، فلما قاربهم خام عن اللقاء ورجع، وكان الفرنج في الأسطول يعاينونه فبعثوا بذلك للملك بردويل فسار في اتباعه، وأدركه فاقتتلوا، وقتل أبو القاسم في الحرب. وأهم المسلمين أمرهم فاستماتوا، وقاتلوا الفرنج فهزموهم اقبح هزيمة. ونجا بردويل إلى خيامه برأسه، وركب البحر إلى رومة. وولى المسلمون عليهم بعد الأمير أبي القاسم ابنه جابر فرحل بالمسلمين لوقته راجعاً، ولم يعرج على الغنائم. وكانت ولاية الأمير أبي القاسم اثنتي عشرة سنة ونصفاً. وكان عادلاً حسن السيرة. ولما ولي ابن عمه جعفر بن محمد بن علي أبي الحسن، وكان من وزراء وندمائه استقامت الأمور، وحسنت الأحوال. وكان يحب اهل العلم ويجزل الهبات لهم. وتوفي سنة خمس وسبعين، وولي أخوه عبد الله فاتبع سيرة اخيه إلى أن توفي سنة تسع وسبعين، وولي ابنه ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي الحسن، فأنسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم إلى أن أصابه الفالج، وعطل نصفه الأيسر سنة ثمان وثمانين. وولي ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف فضبط الأمور، وقام بأحسن قيام، وخالف عليه أخوه علي سنة خمس وأربعمائة مع البربر والعبيد، فزحف إليه جعفر فظفر به وقتله، ونفى البربر والعبيد، واستقامت أحواله. ثم انقلبت حاله واختلت على يد كاتبه ووزيره حسن بن محمد الباغاني فثار عليه الناس بسببها، وجاؤوا حول القصر، وأخرج إليهم أبو الفتوح في محفة فتلطف بالناس، وسلم إليهم الباغاني فقتلوه، وقتلوا حافده أبا رافع، وخلع ابنه ابن جعفر، ورحل إلى مصر، وولى ابنه ابن جعفر سنة عشرة ولقبه بأسد الدولة بن تاج الدولة. ويعرف بالأكحل فسكن الاضطراب واستقامت الاحوال، وفوض الأمور إلى ابنه ابن جعفر، وجعل مقاليد الأمور بيده فأساء ابن جعفر السيرة، وتحامل على صقلية ومال إلى أهل إفريقية. وضج الناس وشكوا أمرهم إلى المعز صاحب القيروان، وأظهروا دعوته فبعث الأسطول فيه ثلاثمائة فارس مع ولديه عبد الله وأيوب، واجتمع أهل صقلية وحصروا أميرهم الأكحل، وقتل وحمل رأسه إلى المعز سنة سبع عشرة واربعمائة. ثم ندم أهل صقلية

على ما فعلوه وثاروا بأهل إفريقية، وقتلوا منهم نحواً من ثلاثمائة واخرجوهم، وولوا الصمصام أخا الأكحل فاضطربت الأمور، وغلب السفلة على الأشراف. ثم سار أهل بليرم طى الصمصام وأخرجوه، وقدموا عليهم ابن الثمنة من رؤس الأجناد، وتلقب القادر بالله واستبد بمازر ابنه عبد الله قبل الصمصام، وغلب ابن الثمنة على ابن الأكحل فقتله واستقل بملك الجزيرة، إلى أن أخذت من يده. ولما استبد ابن الثمنة بصقلية تزوج ميمونة بنت الجراس فتخيل له منها شيء فسقاها السم. ثم تلافاها وأحضر الاطباء فأنعشوها، وأفاقت فندم واعتذر فأظهرت له القبول. واستأذنته في زيارة أخيها بقصريانة، وأخبرت أخاها فحلف أن لا يردّها، ووقعت الفتنة وحشد ابن الثمنة فهزمه ابن جراس فانتصر ابن الثمنة بالروم.

وجاء القمص وجاز ابن ينقر بن خبرة ومعه سبعة من إخوته، وجمع من الافرنج، ووعدهم بملك صقلية فداخل في بيع مية. وقصد قصريانة وحكموا على مروا من لمنازل، وخرج ابن جراس فهزمه ورجع إلى إفريقية عمر بن خلف بن مكي فنزل تونر، وولي قضاءها. ولم يزل الروم يملكونها حتى لم يبق إلا المعاقل. وخرج ابن الجراس بأهله وماله صلحا سنة أربع وستين واربعمائة، وتملكها رجار كلها، وانقطعت كلمة الإسلام مها، ودولة الكلبيين وهم عشرة، ومدّتهم خمس وتسعون سنة. ومات رجار في قلعة مليطو من أرض قلورية سنة أربع وتسعين، وولي ابنه رجار الثاني وطالت أيامه. وله ألف الشريف أبو عبد الله الإدريسى كتاب نزهة المشارق في أخبار الآفاق، وسماه قصار رجار علما عليه معروفاً به في الشهرة، والله مقدر الليل والنهار.

الخبر عن جزيرة اقريطش وما كان بها للمسلمين من

الملك علي يد بني البلوطي إلى أن استرجعها العدو:

هذه الجزيرة من جزر البحر الرومي ما بين صقلية وقبرص، في مقابلة الإسكندرية على يد الجالية أهل الربض. وذلك أن أهل الربض الغربي من قرطبة، وكان محلة متصلة بقصر الحكم بن هشام فنقموا عليه، وثاروا به سنة إثنتين ومائتين فأوقع بهم الوقعة المشهورة، واستلحمهم وهدم ديارهم ومساجدهم، وأجلى الفلّ منهم إلى العدوة، ونزلوا بفاس وغيرها. وغرب آخرين إلى الإسكندرية فنزلوا وافترقوا في جوانبها. وتلاحى رجل منهم مع جزار من سوقة الإسكندرية فنادوا بالثأر، واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم، وامتنعوا بها وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي ويعرف بأبي الفيض، من أهل قرية مطروح، من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة فقام برياستهم. وكان على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر فزحف إليهم، وحصرهم بالإسكندرية فاستأمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى جزيرة أقريطش فعمروها وأميرهم أبو حفص البلوطي. وتداولها بنوه من بعده مدة من مائة وأربعين سنة، إلى أن ملكها أريانوس بن قسطنطين ملك القسطنطينية من يد عبد العزيز بن شعيب من أعقابه سنة خمس وثلاثمائة، وأخرجوا المسلمين منها، والله يعيد الكرة ويذهب آثار الكفرة، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار اليمن

أخبار اليمن والدول الإسلامية التي كانت فيه للعباسيين

العبيديين وسائر ملوك العرب وإبتداء ذلك واتصاريفه علي
الجملة ثم تفصيل ذلك علي مدنه وممالكه واحدة بعد واحدة

قد كنا قدّمنا في أخبار السير النبوية كيف صار اليمن في ملكة الإسلام بدخول عامله في الدعوة الإسلامية، وهو باذان عامل كسرى، وأسلم معه أهل اليمن. وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على جميع مخالفيها، وكان مترله صنعاء كرسي التبابعة. ولما مات

بعد حجة الوداع قسم النبي صلى الله عليه وسلم اليمن على عمال من قبله. وجعل صنعاء لابنه شهربان بن باذان. وذكرنا خبر الأسود العنسي ، وكيف أخرج عمال النبي صلى الله عليه وسلم من اليمن، وزحف إلى صنعاء فملكها. وقتل شهربان بن باذان، وتزوج إمرأته واستولى على أكثر اليمن، وارتد أكثر أهله. وكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وعماله، وإلى من ثبت على إسلامه فداخلوا زوجة شهربان بن باذان التي تزوجها في أمره، على يد ابن عمها فيروز. وتولى كبر ذلك قيس بن عبد يغوث المرادي فبيته هو وفيروز وذاذويه بإذن زوجته فقتلوه. ورجع عمال النبي صلى الله عليه وسلم على أعمالهم، وذلك قبيل الوفاة.

واستبدّ قيس بصنعاء، وجمع الفل من جند الأسود فولى أبو بكر على اليمن فيروز فيمن إليه من الأبناء، وأمر الناس بطاعته فقاتل قيس بن مكشوح وهزمه. ثم ولى أبو بكر المهاجر بن أبي أمية فقاتل أهل الردة باليمن، وكذلك عكرمة بن أبي جهل، وأمره أن يبدأ بالمرتده. ثم دعته عائشة فسار معها وحضر حرب الجمل. وولي على اليمن عبيد الله بن عباس، ثم أخاه عبد الله. ثم ولى معاوية على صنعاء فيروز الديلمي، ومات سنة ثلاث وخمسين.

ثم جعل عبد الملك اليمن في ولاية الحجاج لما بعثه لحرب ابن الزبير سنة إثنتين وسبعين. ولما جاءت دولة بني العبّاس ولّى السفاح على اليمن عمه داود بن علي حتى إذا توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وولى مكانه محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الملك عبد الدار. ثم تعاقب الولاة على اليمن، وكانوا يترلون صنعاء حتى انتهت الخلافة إلى المأمون، وظهرت دعاة الطالبين بالنواحي، وبايع أبو السرايا من بني شيبان بالعراق لمحمد بن إبراهيم طباطبا بن إسمعيل بن إبراهيم أخو المهدي، النفس الزكية، محمد بن عبد الله بن حسن. وكثر الهرج وفرق العمال في الجهات، ثم قتل وبويع محمد بن جعفر الصادق بالحجاز. وظهر باليمن إبراهيم بن موسى الكاظم سنة مائتين، ولم يتم أمره، وكان يعرف بالجزار لسفكه الدماء. وبعث المأمون عساكره إلى اليمن فدوخوا نواحيه وحملوا كثيراً من وجوه الناس فاستقام أمر اليمن كما نذكره.

دعوة زياد بالدعوة العباسية:

ولما وفد وجوه أهل اليمن على المأمون، كان فيهم محمد زياد ولد عبد الله بن زياد
بن أبي سفيان فاستعطف المأمون، وضمن له حياطة اليمن من العلويين فوصله، وولاه على اليمن، وقدمها سنة ثلاث ومائتين. وفتح تهامة اليمن، وهي البلد التي على ساحل البحر الغربي. واختط بها مدينة زبيد، ونزلها

وأصارها كرسياً لتلك المملكة. وولى على الجبال مولاه جعفراً، وفتح تهامة بعد حروب من العرب. واشترط على عرب تهامة أن لا يركبوا الخيل، واستولى على اليمن أجمع.

ودخلت في طاعته أعمال حضرموت والشحر وديار كندة، وصار في مرتبة التبابعة. وكان في صنعاء قاعدة اليمن بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة، استبدوا بها مقيمين بالدعوة العباسية، ولهم مع صنعاء سبحان ونجران وجرش. وكان أخوهم أسعد بن يعفر، ثم أخوه قد دخلوا في طاعة ابن زياد، وولي بعده ابنه إبراهيم ثم ابنه زياد بن إبراهيم، ثم أخوه أبو الجيش إسحق بن إبراهيم. وطالت مدته إلى أن أسن وبلغ الثمانين. وقال عمارة: ملك ثمانين سنة باليمن وحضرموت والجزائر البحرية. ولما بلغه قتل المتوكل وخلع المستعين، واستبداد الموالي على الخلفاء مع ارتفاع اليمن ركب بالمظلة شأن سلاطين العجم المستبدين.

وفي أيامه خرج باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن طباطبا بدعوة الزيدية، جاء بها من السند، وكان جده القاسم قد فر إلى السند بعد خروج أخيه محمد مع أبي السرايا، ومهلكه كما مرّ فلحق القاسم بالسند، وأعقب بها الحسين ثم ابنه يحيى باليمن سنة ثمان وثمانين، ونزل صعدة وأظهر دعوة الزيدية، وزحف إلى صنعاء فملكها من يد أسعد بن يعفر، ثم استردها منه بنو أسعد، ورجع إلى صعدة. وكان شيعته يسمونه الإمام، وعقبه الآن بها. وقد تقدّم خبرهم.

في أيام أبي الجيش بن زياد أيضاً ظهرت دعوة العبيديين باليمن فأقام بها محمد بن الفضل بعدن لاعة وجبال اليمن إلى جبال المديخرة سنة أربعين وثلاثمائة. وبقي له باليمن من السرجة إلى عدن عشرون مرحلة، ومن مخلافة إلى صنعاء خمس مراحل. ولما غلبه محمد بن الفضل بهذه الدعوة امتنع أصحاب الأطراف عليه، مثل بني أسعد بن يعفر بصنعاء، وسليمان بن طرف بعثر، والإمام الرسي بصعدة فسلك معهم طريق المهادنة. ثم هلك أبو الجيش سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة بعد أن اتسعت جبايته وعظم ملكه.

قال ابن سعيد: رأيت مبلغ جبابته وهو ألف ألف مكررة مرتين، وثلاثمائة ألف وستة وستون ألفاً من الدنانير العشرية ما عدا ضرابيه على مراكب السند، وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن أبين، وعلى مغائص اللؤلؤ، وعلى جزيرة دهلك، ومن بعضها

وصائف. وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر يهادونه ويخطبون مواصلته. ولما مات خلف صبياً صغيراً إسمه عبد الله، وقيل إبراهيم وقيل زياد، وكفلته أخته ومولاه رشيد الحبشي، واستبد عليهم إلى أن انقرضت دولتهم سنة سبع وأربعمائة. ثم هلك هذا الطفل فولوا طفلاً آخر من بني زياد أصغر منه. وقال ابن سعيد: لم يعرف عمارة إسمه لتوالي الحجبة عليه، ويعني عمارة مؤرخ اليمن، وقيل هذا الطفل الأخير اسمه إبراهيم، وكفلته عمته ومرجان من موالي الحسن بن سلامة.

واستبد بأمرهم ودولتهم، وكان له موليان إسم أحدهما قيس، والآخر نجاح فجعل الطفل المملك في كفالته، وأنزله معه بزبيد. وولى نجاحاً على سائر الأعمال خارج زبيد، ومنها الكرارة واللجم. وكان يؤثر قيساً على نجاح، ووقع بينهما تنافر، ورفع لقيس أن عمة الطفل تميل إلى نجاح وتكاتبه دونه فقبض عليها بإذن مولاه

مرجان، ودفنها حية واستبد وركب بالمظلة، وضرب السكة. وانتقض نجاح لذلك فزحف في العساكر، وبرز قيس للقائه فكانت بينهما حروب ووقائع، انهزم قيس آخرها، وقتل في خمسة آلاف من عسكره. وملك نجاح زبيد سنة عشر وأربعمائة. ودفن قيساً ومولاه مرجاناً مكان الطفل والعمة، واستبد وضرب السكة بإسمه. وكاتب ديوان الخلافة ببغداد فعقد له على اليمن. ولم يزل مالكاً لتهامة قاهراً لأهل الجبال، وانتزع الجبال كلها من مولاه الحسن بن سلامة. ولم تزل الملوك تتقي صولته إلى أن قتله علي الصليحي القائم بدعوة العبيديين على يد جارية بعث بها إليه سنة إثنتين وخمسين وأربعمائة فقام بالأمر بعده بزبيد مولاه كهلان. ثم استولى الصليحي على زبيد وملكها من يده كما يذكر.

الخبر عن بني الصليحي القائمين بدعوة العبيديين باليمن:

كان القاضي محمد بن علي الهمداني ثم الصليحي رئيس حران من بلاد همذان، وينتسب في بني يام، ونشأ له ولد إسمه علي، وكان صاحب الدعوة يومئذ عامر بن عبد الله الزوابي نسبة إلى زواية من قرى حران، ويقال إنه كان عنده كتاب لجفر من ذخائر أبيهم بزعمهم فزعموا أن علي ابن القاضي محمد مذكور فيه فقرأ على علي عامل

الداعي، وأخذ عنه. ولما توسم فيه الأهلية أراه مكان إسمه في الجفر وأوصافه. وقال لأبيه القاضي احتفظ بابنك فيملك جميع اليمن. ونشا فقيهاً صالحاً، وجعل يحج بالناس على طريق الطائف والسروات خمس عشرة سنة فطار ذكره، وعظمت شهرته، والقى على ألسنة الناس أنه سلطان اليمن. ومات الداعي عامر الزوابي فأوصى له بكتبه، وعهد إليه بالدعوة. ثم حج بالناس سنة ثمان وعشرين وأربعمائة على عادته، واجتمع بجماعة من قومه همدان كانوا معه فدعاهم إلى النصرة والقيام معه فأجابوه وبايعوه، وكانوا ستين رجلاً من رجالات قومهم فلما عادوا قام في مسار وهو حصن بذروة جبل حمام، وحصن ذلك الحصن، ولم يزل أمره ينمى. وكتب إلى المستنصر صاحب مصر يسأله الإذن في إظهار الدعوة فأذن له، وأظهرها وملك اليمن كله. ونزل صنعاء واختط بها القصور، وأسكن عنده ملوك اليمن الذين غلب عليهم، وهزم بني طرف ملوك عثر وتهامة، وأعمل الحيلة في قتل نجاح مولى بني زياد ملك زبيد، حتى تم له ذلك على يد جارية أهداها إليه كما ذكرناه سنة إثنتين وخمسين. ثم سار إلى مكة بأمر المستنصر صاحب مصر ليمحو منها الدعوة العباسية والإمارة الحسنية. واستخلف على صنعاء ابنه المكرم أحمد، وحمل معه زوجته أسماء بنت شهاب، قد سباها سعيد بن نجاح ليلة البيات فكتبت إلى إبنها المكرم أني حبلى من العبد الاحول فأدركني قبل أن أضع، وإلا فهو العار الذي لا يمحوه الدهر فسار المكرم من صنعاء سنة خمس وسبعين في ثلاثة آلاف، ولقي الحبشة في عشرين ألفاً فهزمهم. ولحق سعيد بن نجاح بجزيرة دهلك. ودخل المكرم إلى أمه وهي جالسة بالطاق الذي عنده رأس الصليحي وأخيه فأنزلهما ودفنهما ورفع السيف، وولى خاله أسعد بن شهاب على أعمال تهامة كما كان، وأنزله بزبيد منها، وارتحل بأمه إلى صنعاء وكانت تدبر ملكه.

ثم جمع أسعد بن شهاب أموال تهامة، وبعث بها مع وزيره أحمد بن سالم ففرقتها أسماء على وفود العرب. ثم هلكت أسماء سنة سبع وسبعين، وخرجت زبيد من يد المكرم، واستردها سعيد بن نجاح سنة تسع وسبعين. ثم انتقل المكرم إلى ذي جبلة سنة ثمانين واربعمائة، وولى على صنعاء عمران بن الفضل الهمداني فاستبدّ بها، وتوارثها عقبه، وتسمى ابنه أحمد باسم السلطان واشتهر به، وبعده ابنه حاتم بن أحمد، وليس بعده بصنعاء من له ذكر حتى ملكها بنو سليمان لما غلبهم الهواشم على مكة كما مر في أخبارهم. ولما

انتقل المكرم إلى ذي جبلة وهي مدينة اختطها عبد الله بن محمد الصليحي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان انتقاله بإشارة زوجه سيدة بنت أحمد التي صار إليها تدبير ملكه بعد أمه اسماء فنزلها، وبنى فيها دار العز، وتحيل على قتل سعيد بن نجاح فتم له كما نذكر في أخبار ابن نجاح. وكان مشغولاً بلذاته محجوباً بزوجته. ولما حضرته الوفاة سنة أربع وثمانين عهد إلى ابن عمه المنصور بن أحمد المظفر بن علي الصليحي صاحب معقل أشيح، وأقام بمعقله وسيدة بنت أحمد بذي جبلة، وخطبها المنصور سبا وامتنعت منه فحاصرها بذي جبلة، وجاءها أخوها لأمها سليمان بن عامر وأخبرها أن المستنصر زوجك منه، وأبلغها أمره بذلك، وتلا عليها: "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان تكون لهم الخيرة من امرهم " وأن أمير المؤمنين زوجك من الداعي المنصور أبي حمير سبا بن أحمد بن المظفر، على مائة الف دينار، وخمسين ألفاً من أصناف التحف واللطائف فانعقد النكاح، وسار إليها من معقل أشيح إلى ذي جبلة. ودخل إليها بدار العز، وبقال إنها شبهت بجارية من جواريها فقامت على رأسه ليلها كله، وهو لا يرفع الطرف إليها حتى أصبح فرجع إلى معقله. وأقامت هي بذي جبلة، وكان المتولي عليها المفضل بن أبي البركات من بني تام رهط الصليحي، واستدعى عشيرته جنبا. وأنزلهم عنده بذي جبلة فكان يسطو بهم وكانت سيدة تأتي التعكر في الصيف، وبه ذخائرها وخزائنها فإذا جاء الشتاء رجعت إلى ذي جبلة. ثم انفرد المفضل لقتال نجاح، فرتب في حصن التعكر فقيهاً يلقب بالجمل، مع جماعة من الفقهاء احدهم إبراهيم بن زيد بن عمر عمارة الشاعر فبايعوا الجمل، على أن يمحو الدعوة الإمامية فرجع المفضل من طريقه، وحاصرهم، وجاءت خولان لنصرتهم، وضايقهم المفضل، وهلك في حصارهم سنة أربع وخمسمائة، فجاءت بعده الحرة سيدة وأنزلتهم على عهد فنزلوا، ووف لهم به وكفلت عقب المفضل وولده، وصار معقل التعكر في يد عمران بن الذر الخولاني، وأخيه سليمان.

واستولى عمران على الحرة سيدة مكان المفضل. ولما ماتت استبد عمران وأخوه بحصن التعكر، واستولى منصور بن المفضل بن أبي البركات على ذي جبلة، حتى باعه من الداعي الذريعي صاحب عدن كما يأتي واعتصم بمعقل أشيح الذي كان للداعي المنصور سبا بن أحمد. وذلك أن المنصور توفي سنة ست وثمانين وأربعمائة، واختلف أولاده من بعده. وغلب ابنه علي منهم على المعقل، وكان ينازع

المفضل بن أبي البركات، والحرة سيدة، وأعياهما أمره فتحيل المفضل بسم أودعه سفرجلاً أهداه إليه فمات منه، واستولى بنو أبي البركات علي بني المظفر في أشيح وحصونه. ثم باع حصن ذي جبلة من الداعي الزريعي

صاحب عدن بمائة ألف دينار. ولم يزل يبيع معاقله حصناً حصناً حتى لم يبق له غير معقل تعز، أخذه منه علي بن مهدي بعد أن ملك ثمانين سنة، وبلغ من العمر مائة سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني نجاح بزبيد موالي بني زياد ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم:

ولما استولى الصليحي على زبيد من يد كهلان، بعد أن أهلكه بالسم على يد الجارية التي بعثها إليه سنة إثنتين وخمسين واربعمائة كما مرّ. وكان لنجاح ثلاثة من الولد معارك و سعيد وجياش: فقتل معارك نفسه، ولحق سعيد وجياش بجزيرة دهلك وأقاما هنالك يتعلمان القرآن والآداب. ثم رجع سعيد إلى زبيد مغاضباً لأخيه جياش، واختفى بها في نفق احتفره تحت الأرض ثم استقدم أخاه جياشاً فقدم وأقاما هنالك في الإختفاء ثم أن المستنصر العبيد في الخليفة بمصر، قطع دعوته بمكة محمد بن جعفر أميرها من الهواشم فكتب إلى الصليحي يأمره بقتاله، وحمله علي إقامة الدعوة العلوية بمكة فسار علي الصليحي لذلك من صنعاء، وظهر سعيد وأخوه من الإختفاء، وبلغ خبرهم الصليحي فبعث عسكراً نحواً من خمسة آلاف فارس، وامرهم بقتلهما. وقد كان سعيد وجياش خالفاً العسكر، وسارا في أتباع الصليحي وهو في عساكره فبيتوه في اللجم ، وهو متوجه إلى مكة فانتقض عسكره وقتل. وتولى قتله جياش بيده سنة ثلاث وسبعين واربعمائة ثم قتل عبد الله الصليحي أخا عليّ في مائة وسبعين من بني الصليحي، وأسر زوجته أسماء بنت عمه شهاب في مائة وخمس وثلاثين من ملوك القحطانيين الذين غلبوا باليمن. وبعث إلى العسكر الذين ساروا لقتل سعيد وجياش فأمنهم واستخدمهم، ورحل إلى زبيد، وعليها أسعد بن شهاب أخو زوجة الصليحي، ففرّ أسعد إلى صنعاء، ودخل سعيد إلى زبيد، وأسماء زوجة الصليحي أمامه في هودج، ورأس الصليحي وأخيه عند هودجها. وأنزلها بدارها

ونصب الرأسين قبالة طاقها في الدار. وامتلأت القلوب منه رعباً، وتلقب نصير الدولة، وتغلب ولاة الحصون على ما بأيديهم. ودس المكرم بن الصليحي بن سعيد بن نجاح بصنعاء على لسان بعض أهل الثغور، وضمن له الظفر فجاء سعيد لذلك في عشرين ألفاً من الحبشة. وسار إليه المكرم من صنعاء، وهزمه وحال بينه وبين زبيد فهرب إلى جزيرة دهلك، ودخل المكرم زبيد، وجاء إلى أمه وهي جالسة بالطاق، وعندها رأس الصليحي وأخيه فأنزلهما ودفنهما. وولى على زبيد خاله أسعد سنة سبع وتسعين اربعمائة وكتب المكرم إلى عبد الله بن يعفر صاحب حصن الشعر بأن يغري سعيداً بالمكرم، وانتزاع ذي جبلة من يده لاشتغاله بلذاته، واستيلاء زوجه سيدة بنت أحمد عليه. وأنه بلغ فتمّت الحيلة فسار سعيد في ثلاثين الفاً من الحبشة، وأكمن له المكرم تحت حصن الشعر فثاروا به هنالك. وانهزمت عساكره وقتل ونصب رأسه عند الطاق الذي كان فيها رأس الصليحي بزبيد. واستولي عليها المكرم، وانقطع منها ملك الحبشة. وهرب جياش ومعه وزير أخيه خلف بن أبي الظاهر المرواني، ودخلا عدن متنكرين. ثم لحقا بالهند وأقاما بها ستة أشهر، ولقيا هنالك كاهناً جاء من سمرقند فبشرهما بما يكون فرجعا إلى اليمن، وتقدم خلف الوزير إلى زبيد، وأشاع موت جياش، واستأمن لنفسه، ولحق جياش فأقاما هنالك مختفيين وعلى زبيد يومئذ أسعد بن شهاب خال المكرم ومعه علي بن القم

وزير المكرم، وكان حنقاً على المكرم ودولته فداخله الوزير خلف، ولاعب ابنه الحسين الشطرنج. ثم انتقل إلى ملاعبة أبيه فاغتبط به، واطلعه على رأيه في الدولة وكان يتشيع لال نجاح.

وانتمى بعض الأيام، وهو يلاعب فسمعه علي بن القم، واستكشف أمره فكشف له القناع واستحلفه، وجياش اثناء ذلك يجمع اشياعه من الحبشة، وينفق فيهم الأموال، حش اجتمع له خمسة آلاف فثار بهم في زبيد سنة إثنتين وثمانين واربعمائة ونزل دار الإمارة ومنّ على أسعد بن شهاب وأطلقه لزمانة كانت به، وبقي ملكاً على زبيد يخطب للعباسيين، والصليحيون يخطبون للعبيديين والمكرم يبعث العرب للغارة على زبيد كل حين إلى أن هلك جياش على رأس المائة الخامسة، وكانت كنيته ابن القطاي. وكان موصوفاً بالعدل. وولي بعده ابنه الفاتك صبياً لم يحتلم، ودبروا ملكه. وجاء عمه إبراهيم لقتاله وبرزوا له فثار عبد الواحد بالبلد، وبعث منصور إلى الفضل بن أبي البركات صاحب التعكر فجاء لنصره

مضمراً للغدر به، ثم بلغه انتقاض أهل التعكر عليه فرجع ولم يزل منصور في ملكه بزبيد إلى أن وزر له أبو منصور عبيد الله فقتله مسموماً سنة سبع عشرة وخمسمائة، ونصب فاتكأ ابنه طفلاً صغيراً. واستبد عليه، وقام بضبط الملك، وهان عليه التعرض لآل نجاح حتى هربت منه أم فاتك هذا، وسكنت خارج المدينة، وكان قرماً شجاعاً، وله وقائع مع الأعداء. وحاربه ابن نجيب داعي العلوية فامتنع عليه، وهو الذي شيد المدارس للفقهاء بزبيد، واعتنى بالحاج. ثم راود مفارك بنت جياش، ولم تجد بدّاً من إسعافه فأمكنته، حتى إذا قضى وطره مسحت ذكره بمنديل مسموم فنثر لحمه. وذلك سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

وقام بأمر فاتك بعده زريق من موالي نجاح. قال عمارة: كان شجاعاً فاتكاً قرماً ، وكان من موالي أم فاتك المختصين بها. قال عمارة: وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة توفي فاتك بن المنصور، وولي بعده ابن عمه وسميه فاتك بن محمد بن فاتك، وسرور قائم بوزارته، وتدبير دولته، ومحاربة أعدائه. وكان يلازم المسجد إلى أن دس عليه علي بن مهدي الخارجي من قتله في المسجد، وهو يصلي العصر يوم الجمعة ثاني عشر صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وثار السلطان بالقاتل فقتل جماعة من أهل المسجد، ثم قتل واضطرب موالي نجاح بالدولة، وثار عليهم ابن مهدي الخارجي، وحاربهم مراراً، وحاصرهم طويلاً. واستعانوا بالشريف المنصور أحمد بن حمزة السليماني، وكان يملك صعدة فأغاثهم على أن يملكوه ويقتلوا سيدهم فاتك بن محمد فقتلوه سنة ثلاث وخمسين وملكوا عليهم الشريف أحمد فعجز عن مقاومة ابن مهدي، وفرّ تحت الليل، وملكها علي بن مهدي سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وانقرض أمر آل نجاح، والملك لله.

الخبر عن دولة بني الزريع بعدن من دعاة

العبيديين باليمن و أولية أمرهم ومصايره:

وعدن هذه من أمنع مدائن اليمن، وهي على ضفة البحر الهندي. وما زالت بلد تجارة من عهد التبابعة، وأكثر بنائهم بالأخصاص، ولذلك يطرقها لجار الحرير كثيراً. وكانت صدر الإسلام دار ملك لبني معن، ينتسبون إلى معن بن زائدة، وملكوها من

أيام المأمون، وامتنعوا علي بني زياد، وقنعوا منهم بالخطبة والسكة. ولما استولى الداعي علي بن محمد الصليحي رعى لهم ذمام العروبية، وقرر عليهم ضريبة يعطونها. ثم أخرجهم منها ابنه أحمد المكرم، وولّى عليها بني المكرم من عشيرة جسم بن يام من همذان، وكانوا أقرب عشائره إليه فأقامت في ولايتهم زمناً. ثم حدثت بينهم الفتنة، وانقسموا إلى فئتين بني مسعود بن المكرم وبني الزريع بن العباس بن المكرم. وغلب بنو الزريع بعد حروب عظيمة. قال ابن سعيد: وأول مذكور منهم الداعي بن أبي السعود بن الزريع، أول من اجتمع له الملك بعد بني الصليحي، وورثه عنه بنوه، وحاربه ابن عمه علي بن أبي الغارات بن مسعود بن المكرم صاحب الزعازع فاستولى على عدن من يده، بعد مقاساة ونفقات في الأعراب. ومات بعد فتحها بسبعة أشهر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. وولي ابنه الاغر، وكان مقيماً بحصن الدملوة المعقل الذي لا يرام، وامتنع عليه بعده ابن بلال بن الزريع من مواليه، وخشي محمد بن سبا على نفسه ففرّ إلى منصور بن المفضل من ملوك الجبال الصليحيين بذي جبلة. ثم مات الاغر قريباً فبعث بلال عن محمد بن سبا فوصل إلى عدن، وكان التقليد جاء من مصر باسم الأغر فكتب مكانه محمد بن سبا، وكان في نعوته الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين فوقعت كلها عليها، وزوجه بلال بنته ومكنه من الأموال التي كانت في خزائنه. ثم مات بلال عن مال عظيم، وورثه محمد بن سبا وأنفقه في سبيل الكرم والمروءات. واشترى حصن ذي جبلة من منصور بن المفضل بن أبي البركات كما ذكرناه. واستولى عليه وهو دار ملك الصليحيين، وتزوج سيدة بنت عبد الله الصليحي. وتوفي سنة ثمان وأربعين. وولي ابنه عمران بن محمد بن سبا. وكان ياسر بن بلال يدثر دولته. وتوفي سنة ستين وخمسمائة، وترك ولدين صغيرين وهما محمد وأبو السعود فحبسهما ياسر بن بلال في القصر، واستبد بالأمر. وكان ياسر محمد كثير العطية للشعراء. ومفن وفد عليه ومدحه ابن قلاقس شاعر الإسكندرية، ومن قصائده في مدحه:

سافر إذا حاولت قدراً　　　　سار الهلال فصار بدرا

وهو آخر ملوك الزريعيين. ولما دخل سيف الدولة أخو صلاح الدين إلى اليمن سنة ست وستين وستمائة، واستولى عليها جاء إلى عدن فملكها، وقبض على ياسر بن بلال، وانقطعت دولة بني زريع. وصار اليمن للمعز، وفيه ولاتهم بنو أيوب كما نذكر في

أخبارهم. وكانت مدينة الجدة قرب عدن اختطفها ملوك الزريعيين فلما جاءت دولة بني أيوب تركوها ونزلوا تعزمن الجبال كما يأتي ذكره.

أخبار ابن مهد ي الخارجي وبنيه وذكر دولتهم باليمن وبد ايتها وانقراضها:

هذا الرجل من أهل العثر من سواحل زبيد، وهو علي بن مهدي الحميري. كان أبوه مهدي معروفاً بالصلاح والدين. ونشأ ابنه على طريقته فاعتزل ونسك. ثم حج ولقي علماء العراق وأخذ الوعظ من وعاظهم ؛ وعاد إلى اليمن، واعتزل ولزم الوعظ. وكان حافظاً فصيحاً، ويخبر بحوادث أحواله فيصدق فمال إليه الناس، واغتبطوا به، وصار يتردد للحج سنة إحدى وستين، ويعظ الناس في البوادي. فإذا حضر الموسم ركب على

نجيب له ووعظ الناس. ولما استولت أم فاتك علي بني جياش أيام ابنها فاتك بن منصور، أحسنت فيه المعتقد، وأطلقت له ولقرابته وأصهاره خرجهم فحسنت أحوالهم، وآثروا وركبوا الخيول. وكان يقول في وعظه: دنا الوقت! يشير إلى وقت ظهوره. واشتهر ذلك عنه، وكانت أم فاتك تصل أهل الدولة عنه فلما ماتت سنة خمس وأربعين جاءه أهل الجبال وحالفوه على النصرة. وخرج من تهامة سنة ثمان وثلاثين، وقصد الكودا فانهزم وعاد إلى الجبال، وأقام إلى سنة إحدى واربعين. ثم أعادته الحرّة أم فاتك إلى وطنه، وماتت سنة خمس وأربعين فخرج إلى هوازن، ونزل ببطن منهم يقال له حيوان في حصن يسمى الشرف، وهو حصن صعب ليس يرتقي على مسيرة يوم من سفح الجبل، في طريقه أوعار في واد ضيق عقبة كؤد. وأصحابه سماهم الأنصار، وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين.

وأمر للأنصار رجلاً إسمه سبا، وللمهاجرين آخر إسمه شيخ الإسلام، وإسمه النوبة. واحتجب عمن سواهما. وجعل يشن الغارات على أرض تهامة، وأعانه على ذلك خراب النواحي بزبيد فأخرب سابلتها ونواحيها، وانتهى إلى حصن الداثر على نصف مرحلة من زبيد وأعمل الحيل في قتل مسرور مدبر الدولة فقتل كما مرّ وأقام يخيف زبيد بالزحوف. قال عمارة: زاحفها سبعين زحفاً، وحاصرها طويلاً، واستمد الشريف أحمد بن حمزة السليماني صاحب صعدة فأمدهم وشرط عليهم قتل سيدهم فاتك

فقتلوه سنة ثلاث وخمسين. وملك عليهم الشريف، ثم عجز وهرب عنهم.

واستولى علي بن مهدي عليها في رجب سنة أربع وخمسين، ومات لثلاثة أشهر من ولايته. وكان يخطب له بالإمام المهدي أمير المؤمنين. وقامع الكفرة والملحدين، وكان على رأي الخوارج يتبرأ من على وعثمان ويكفر بالذنوب، وله قواعد وقواميس في مذهبه يطول ذكرها. وكان يقتل على شرب الخمر. قال عمارة: كان يقتل من خالفه من أهل القبلة، ويبيح نساءهم وأولادهم، وكانوا يعتقدون فيه العصمة، وكانت أموالهم تحت يده ينفقها عليهم في مؤنهم، ولا يملكون معه مالاً ولا فرساً ولا سلاحاً. وكان يقتل المنهزم من أصحابه، ويقتل الزاني وشارب الخمر وسامع الغناء، ويقتل من تأخر عن صلاة الجماعة، ومن تأخر عن وعظه يوم الاثنين والخميس. وكان حنفياً في الفروع. ولما توفي تولى بعده ابنه عبد النبي، وخرج من زبيد، واستولى على اليمن أجمع، وبه يومئذ خمس وعشرون دولة فاستولى على جميعها ولم يبق له سوى عدن ففرض عليها الجزية.

ولما دخل شمس الدولة تورشاه بن ايوب اخو صلاح الدين سنة ست وستين وخمسمائة، واستولى على الدولة التي كانت باليمن فقبض على عبد النبي وامتحنه ، وأخذ منه اموالاً عظيمة، وحمله إلى عدن فاستولى عليها. ثم نزل زبيد واتخذها كرسياً لملكه. ثم استوخمها، وسار في الجبال، ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء ليتخذ فبه سكناه فوقع اختيارهم على مكان تعز فاختط به المدينة ونزلها. وبقيت كرسياً لملكه وبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكر في أخبارهم. وبانقراض دولة بني المهدي انقرض ملك العرب من اليمن وصار للغز ومواليهم.

قواعد اليمن

(ولنذكر الآن)* طرفاً من الكلام على قواعد اليمن ومدته واحدة واحدة كما أشار إليه ابن سعيد* (اليمن)* من جزيرة العرب يشتمل على كراسي سبعة للملك تهامة والجبال، وفي تهامة مملكتان: مملكة زبيد ومملكة عدن. ومعنى تهامة ما انخفض من بلاد اليمن مع ساحل البحر من البرين من جهة الحجاز، إلى آخر أعمال عدن دورة

البحر الهندي. قال ابن سعيد: وجزيرة العرب في الإقليم الأول، ويحيط بها البحر الهندي من جنوبها، وبحر السويس من غربها، وبحر فارس من شرقها. وكانت اليمن قديماً للتبابعة، وهي أخصب من الحجاز، وأكثر أهلها القحطانية، وفيها من عرب وائل. وملكها لهذا العهد لبني رسول موالي بني أيوب، ودار ملكهم تعز، بعد أن نزلوا الحرة أولاً: وبصعدة من اليمن أئمة الزيدية وبزبيد وهي مملكة اليمن شمالها الحجاز، وجنوبها البحر الهندي، وغربها بحر السويس اختطها محمد بن زياد أيام المأمون سنة أربع ومائتين، وهي مدينة مسورة تدخلها عين جارية، تحلها الملوك. وعليها غيطان يسكنونها أيام الغلة. وهي الآن من ممالك بني رسول، وبها كان ملك بني زياد ومواليهم. ثم غلب بنو الصليحي وقد مر خبرهم.

(عثر وحلى والسرجة)* من أعمال زبيد في شمالها، وتعرف بأعمال ابن طرف، مسيرة سبعة أيام في يومين من السرجة إلى حلى، ومكة ثمانية أيام. وعثر هي منبر الملك وهي على البحر، وكان سليمان بن طرف ممتنعاً بها على أبي الجيش ابن زياد. وكان مبلغ ارتفاعه خمسمائة. ألف دينار. ثم دخل في طاعته وخطب له وحمل المال. ثم صارت هذه المملكة للسليمانيين من بني الحسن من أمراء مكة، حين طردهم الهواشم عن مكة. وكان غالب بن يحيى منهم يؤدي الأتاوة لصاحب زبيد، وبه استعان محمد مفلح الفاتكي من سرور. ثم هلك بعدها. ثم عيسى بن حمزة من بنيه. ولما ملك الغز اليمن أخذ يحيى أخو عيسى أسيراً، وسيق إلى العراق فحاول عليه عيسى فتخلصه من الأسر. ورجع إلى اليمن فقتل أخاه عيسى، وولي مكانه المهجم من أعمال زبيد على ثلاثة مراحل عليها، وعربها من العسيرة من حكم وجغفر قبيلتين منهم. ويجلب منها الزنجبيل. (السرير): آخر أعمال تهامة من اليمن، وهي على البحر دون سور، وبيوتها أخصاص، وملكها راجح بن قتادة سلطان مكة أعوام الخمسين وستمائة. وله قلعة على نصف مرحلة منها.

(الزرائب)* من الأعمال الشمالية من زبيد، وكانت لابن طرف، واجتمع له فيها عشرون ألفاً من الحبشة الذين معه جميعاً. وقال ابن سعيد: في أعمال زبيد والأعمال التي في الطريق الوسطى بين البحر والجبال. وهي في خط زبيد في شماليها، وهي الجادة إلى مكة. قال عمارة: هي الجادة السلطانية منها إلى البحر يوم أو دونه. وكذلك إلى الجبال. ويجتمع الطريقان الوسطى والساحلية في السرير ويفترقان. (عدن)* من ممالك اليمن في جوف زبيد، وهي كرسي عملها

، وهي على ضفة البحر الهندي. وكانت بلد تجارة منذ أيام التبابعة، وبعدها عن خط الاستواء ثلاث عشرة درجة، ولا تنبت زرعاً ولا شجراً، ومعاشهم السمك، وهي ركاب الهند من اليمن وأول ملكها لبني معن بن زائدة، استقاموا لبني زياد وأعطوهم الأتاوة. ولما ملك الصليحيون أقرهم الداعي. ثم أخرجهم ابنه أحمد المكرم،

وولاها بني المكرك من جشم بن يام رهطه بهمدان، وصفا الملك فيها لبني الزريع منهم، وقنع منهم بالأتاوة، حتى ملكها من أيديهم شمس الدولة بن أيوب كما تقدم.

(عدن أبين) من بينات المدن وهي إلى جهة الشحر.

(الزعزاع) باودية ابن أيوب عدن، وكانت لبني مسعود بن المكرم المقارعين لبني الزريع.

(الجوة) اختطها ملوك الزريعيين قرب عدن، ونزلها بنو أيوب ثم انتقلوا إلى تعز.

(حصن ذي جبلة) من حصون مخلاف جعفر، اختطه عبد الله الصليحي أخو الداعي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وانتقل إليه ابنه المكرم من حصن صنعاء. وزوجه سيدة بنت أحمد المستبدة عليه، وهي التي تحكمت سنة ثمانين. ومات المكرم وقد فوض الأمر في الملك والدعوة إلى سبا بن أحمد بن المظفر الصليحي، وكان في معقل اشيح، وكانت تستظهر بقبيل جنب، وكانوا خاملين في الجاهلية فظهروا بمخلاف جعفر. ثم وصل من مصر ابن نجيب الدولة داعياً، ونزل مدينة جند، واعتضد بهمذان فحاربته السيدة بجنب وخولان إلى أن ركب البحر وغرق. وكان يتولى أمورها المفضل بن أبي البركات بعد زوجها المكرم، واستولى عليها.

(التعكر) من مخلاف جعفر، كان لبني الصليحي، ثم لسيدة من بعدهم، ثم طلبه

منها المفضل بن أبي البركات فسلمته إليه، وأقام فيه إلى أن سار إلى زبيد، وحاصر فيها بني نجاح، وطالت غيبته فثار بالتعكر جماعة من الفقهاء، وقتلوا نائبه، وبايعوا لإبراهيم بن زيدان منهم، وهو عمارة الشاعر. واستظهروا بخولان فرجع المفضل وحاصرهم كما ذكرنا ذلك من قبل.

(حصن خدد) كان لعبد الله بن يعلي الصليحي، وهو من مخلاف جعفر، وكان المفضل قد أدخل من خولان في حصون المخلاف عدداً كثيراً في بني بحر وبني منبه ورواح وشعب. فلما مات المفضل وفي كفالته سيدة كما مرّ، وثب مسلم بن الذر من خولان في حصن خدد، وملكه من يد عبد الله بن يعلى الصليحي، ولحق عبد الله بحصن مصدود، ورشحته سيدة لمكان المفضل، واستخلصته الدولة من مدينة الجند ومن اليمن بأمرها.

(حصن مصدود) من حصون مخلاف جعفر وهي

خمسة: ذو جبلة والتعكر وحصن خدد. ولما غلبت خولان على حصن خدد من يد عبد الله الصليحي، ولحق بحصن مصدود، واستولى عليه منهم زكريا بن شكير البحري، وكان بنو الكردي من حمير ملوكاً قبل بني الصليحي باليمن، وانتزع بنو الصليحي ملكهم، وكان لهم مخلاف بحصونة، ومخلاف مغافر، ومخلاف الجند، وحصن سمندان. ثم استقرت لمنصور بن المفضل بن أبي البركات، وباعها من بني الزريع كما مرّ.

(صنعاء) قاعدة التبابعة قبل الإسلام، وأول مدينة اختطت باليمن، وبنتها فيما يقال عاد، وكانت تسمى أوال من الأولية بلغتهم. وقصر غمدان قريب منها أحد البيوت السبعة، بناه الضحّاك بإسم الزهرة، وحجّت إليه الأمم، وهدمه عثمان. وصنعاء أشهر حواضر اليمن، وهي فيما يقال معتدلة، وكان فيها أول المائة الرابعة بنو يعفر من التبابعة، ودار ملكهم كحلان، ولم يكن لها نباهة في الملك إلى أن سكنها بنو الصليحي، وغلب عليها الزيدية، ثم السليمانيون من بعد بني الصليحي.

(قلعة كحلان) من أعمال صنعاء لبني يعفر من التبابعة، بناها قرب صنعاء إبراهيم، وكانت له صعدة ونجران. واعتصم بنو يعفر بقلعة كحلان وقال البيهقي: سيد قلعة كحلان أسعد بن يعفر، وحارب بني الرسي وبني زياد أيام أبي الجيش.

(حصن الصمدان) من أعمال صنعاء، كانت فيه خزائن بني الكردي الحميريين إلى أن ملكه على الصليحي، ورد عليهم المكرم بعض حصونهم إلى أن انقرض أمرهم على يد ابن مهدي. وكان لهم مخلاف جعفر الذي منه مدينة ذي جبلة، ومعقل التعكر وهو مخلاف الجند ، ومخلاف معافر مقر ملكهم السمدان، وهو أحصن من الدولة.

(قلعة منهاب) من قلاع صنعاء بالجبال ملكها بنو زريع، واستبدّ بها منهم الفضل بن علي بن راضي بن الداعي محمد بن سبا بن زريع نعته صاحب الجزيرة بالسلطان. وقال: كانت له قلعة منهاب، وكان حياً سنة ست وثمانين وخمسمائة، وصارت بعده لأخيه الأغر أبي علي.

(جبل الدبجرة) وهو بقرب صنعاء، وقد اختط جعفر مولى بني زياد سلطان اليمن مخلاف جعفر فنسب إليه.

(عدن لاعة) بجانب الدبجرة، أول موضع ظهرت فيه دعوة الشيعة باليمن، ومنها محمد

بن المفضل الداعي. ووصل إليها أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة بالمغرب. وفيها قرأ على علي بن محمد الصليحي صبياً، وهي دار دعوة اليمن. كان محمد بن المفضل داعياً عهد أبي الجيش بن زياد وأسعد بن يعفر.

(بيجان) ذكرها عمارة في المخاليف الجبلية، وملكها نستوان بن سعيد القحطاني.

(تعمر) من أجَلّ معاقل الجبال المطلة، على تهامة، ما زال حصناً للملوك، وهو اليوم كرسي لبني رسول ومعدود في الأمصار. وكان به من ملوك اليمن منصور بن المفضل بن أبي البركات، وبنو المظفر، وورثها عنه ابنه منصور ثم باعها حصناً حصناً من الداعي بن المظفر والداعي الزريعي، إلى أن بقي بيده حصن تعمر فأخذه منه بن مهدي.

(معقل اشيح) من أعظم حصون الجبال، وفيه خزائن بني المظفر من الصليحيين، صارت له بعهد المكرم ابن عمه صاحب ذي جبلة، وقلده المستنصر الدعوة، وتوفي سنة ست وثمانين وأربعمائة. وغلب ابنه عليّ على معقل الملك أشيح. وأعيا المفضل أمره إلى أن تحتل عليه وقتله بالسم، وصارت حصون بني المظفر إلى بني أبي البركات. ثم مات المفضل، وخلف ابنه منصوراً. واستقل بملك أبيه بعد حين، وباع جميع الحصون، تباع ذا جبلة من الداعي الزريعي صاحب عدن بمائة ألف دينار، وحصن صنبر، بعد أن كان حلف بالطلاق من زوجته أنه يستبقيه، وطفق زوجته الحرة وتزوجها الزريعي، وطال عمره. ملك ابن عشرين، وبقي في الملك ثمانين، وأخذ منه معقل علي مهدي.

(صعدة) مملكتها تلو مملكة صنعاء، وهي في شرقيها، وفي هذه المملكة ثلاثة

قواعد: صعدة وجبل قطابة وحصن تلا وحصون أخرى، وتعرف كلها ببني الرسي، وقد تقدم ذكر خبره. وأما حصن تلا فمنه كان ظهور الموطيء الذي أعاد إمامة الزيدية لبني الرضا، بعد أن استولى عليهما بنو

سليمان فأوى إلى جبل قطابة. ثم بايعوا لأحمد الموطىء سنة، خمس وأربعين وستمائة، وكان فقيهاً عابداً، وحاصره نور الدين بن رسول في هذا الحصن سنة جمر عليه عسكراً للحصار. ثم مات ابن رسول سنة ثمان وأربعين، واشتغل ابنه المظفر بحصار حصن الدمولة فتمكن الموطىء، وملك حصون اليمن، وزحف إلى صعدة، وبايعه السليمانيون وإمامهم أحمد المتوكل كما مر في أخبار بني الرسي. وأما قطابة فهو جبل شاهق مشرف على صعدة إلى أن كان ما ذكرناه.

(حران ومسار) أما حران فهو إقليم من بلاد همدان، وحران بطن من بطونهم، كان منهم الصليحي، وحصن مسار هو الذي ظهر فيه الصليحي

وهي من إقليم حران. قال البيهقي: بلادهم شرقية بجبال اليمن، وتفرّقوا في الإسلام، ولم يبق لهم قبيلة وفرقة إلا في اليمن، وهو أعظم قبائل اليمن، وبهم قام الموطىء، وملكوا جملة من حصون الجبال، ولهم بها إقليم بكيل، وإقليم حاشد، وهما إبنا جشم بن حيوان وأنوق بن همذان: قال ابن حزم: ومن بكيل وحاشد افترقت قبائل همذان انتهى. ومن همذان بنو الزريع أصحاب السلطنة والدعوة في عدن والجوة، ومنهم بنو يام من قبائل همذان انتهى. ومن همذان بنو الزريع سبعة، وهم الآن في نهاية من التشيع ببلادهم وأكثرهم زيدية.

(بلاد خولان) قال البيهقي: هي شرقية من جبال اليمن، ومتصلة ببلاد همذان، وهي حصون خدد والتعكر وغيرهما. وهم أعظم قبائل اليمن مع همذان، ولهم بطون كثيرة. وافترقوا على بلاد الإسلام، ولم يبق منهم وبرية إلا باليمن.

(مخلاف بني وائل) مدينة هذا المخلاف شاحط، وصاحبها أسعد بن وائل، وبنو وائل بطن من ذي الكلاع. وذو الكلاع من سبا تغلبوا على هذه البلاد عند مهلك الحسن بن سلامة، حتى عادوا إلى الطاعة. واختط مدينة الكدد على مخلاف سهام، ومدينة المعقل على وادي دوال، ومات سنة إثنتين وأربعمائة.

(بلاد كندة) وهي من جبال اليمن مما يلي حضرموت، وجبال الرمل، وكان لهم بها ملوك وقاعدتهم دمون ذكرها امرؤ القيس في شعره.

(بلاد مذحج) موالي جهات الجند من الجبال، ويترلها من مذحج عنس وزبيد ومراد. ومن عنس بإفريقية فرقة وبرية مع ظواعن أهلها، ومن زبيد بالحجاز بنو حرب بين مكة والمدينة. وبنو زبيد الذين بالشام والجزيرة فهم من طيء وليسوا من هؤلاء.

(بلاد بني نهد) في أجواف السروات. وتبالة والسروات بين تهامة والجبال ونجد من اليمن والحجاز كسوأة الفرس. وبنو نهد من قضاعة سكنوا اليمن جوار خثعم وهم كالوحوش، والعامة تسميهم السرو، واكثرهم أخلاط من جبلة وخثعم. ومن بلادهم تبالة يسكنها قوم نمير وائل، ولهم بها صولة، وهي التي وليها الحجاج واستحقرها فتركها.

(البلاد المضافة

إلى اليمن) أولها الثمامة. قال البيهقي: هو بلد منقطع بعمله، والتحقيق أنه من الحجاز، كما هي نجران من اليمن. وكذا قال ابن حوقل وهي دونها في المملكة، وأرضها تسمى العروض لاعتراضها بين الحجاز والبحرين. وفي شرقيها البحرين، وغربيها أطراف اليمن والحجاز، وجنوبها نجران، وشمالها نجد من الحجاز. وفي أطرافها عشرون مرحلة، وهي على أربعة أميال من مكة. وقاعدتها حجر "بالفتح "

وبلد اليمامة كانت مقراً لملوك بني حنيفة. ثم اتخذ بنو حنيفة حجراً وبينهما يوم وليلة، وبظواهرها أحياء من بني يربوع من تميم، وأحياء من بني عجل. قال البكري: وإسمها جو، وسميت باسم زرقاء اليمامة، سماها بذلك تبع الآخر، وهي في الاقليم الثاني مع مكة وبعدهما عن خط الاستواء [*] واحد، منازلها توضيح وقرقرا. وقال الطبري: إن رمل عالج من اليمامة والشحر، وهي من أرض وبار. وكانت اليمامة والطائف لبني مزان بن يعفر والسكسك، وغلبتهم عليها طسم وجديس. ثم غلبتهم بنو مزان آخراً وملكوا اليمامة. وطسم وجديس في تبعهم، وآخر ملوك بني طسم عمليق. ثم غلبت جديس. ومنهم باليمامة التي سميت مدينة جو بها، وأخبارها معروفة. ثم استولى على اليمامة بعد طسم وجديس بنوحنيفة، وكان منهم هودة بن علي ملك اليمامة، وتتوج. ويقال إنما كانت خرزات هودة بن علي ملك اليمامة، على عهد النبوة، وأسر وأسلم وثبت عند الردة. وكان منهم مسيلمة وأخباره معروفة. قال ابن سعيد: وسألت عرب البحرين وبعض مذحج لمن اليمامة اليوم؟ فقالوا لعرب من قيس عيلان، وليس لبني حنيفة بها ذكر.

(بلاد حضرموت)* قال ابن حوقل: هي في شرقي عدن بقرب البحر، ومدينتها صغيرة ولها أعمال عريضة، وبينها وبين عمان من الجهة الأخرى رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وكانت مواطن لعاد. وبها قبر هود عليه السلام، وفي وسطها جبل بشام، وهي في الإقليم، الأول. وبعدها عن خط الأستواء إثنتا عشرة درجة، وهي معدودة من اليمن، بلد نخل وشجر ومزارع. وأكثر أهلها يحكمون بأحكام علي وفاطمة، ويبغضون عليا للتحكيم.

وأكبر مدينة بها الان قلعة بشام فيها خيل الملك، وكانت لعاد مع الشحر وعمان، وغلبهم عليها بنو يعرب بن قحطان. ويقال إن الذي دل عاداً على جزيرة العرب هو

رقيم بن إرم، كان سبق إليها مع بني هود فرجع إلى عاد، ودلهم عليها، وعلى دخولها بالجوار فلما دخلوا غلبوا على من فيها. ثم غلبهم بنو يعرب بن قحطان بعد ذلك، وولى على البلاد فكانت ولاية ابنه حضرموت على هذه البلاد، وبه سميت الشحر من ممالك جزيرة العرب مثل الحجاز واليمن. وكان معقلاً عن حضرموت وعمان، والذي يسمى الشحر قصبته، ولا زرع فيه ولا نخل، إنما أموالهم الإبل والمعز، ومعشهم من اللحوم والألبان، ومن السمك الصغار، ويعلفونها للدواب. وتسمى هذه البلاد أيضاً بلاد مهرة، وبها الإبل المهرية، وقد يضاف الشحر ألى عمان، وهو ملاصق لحضرموت، وقيل هو بسائطها. وفي هذه البلاد يوجد اللبان، وفي ساحله العنبر الشحري وهو متصل في جهة الشرق. ومن غربيها ساحل البحر الهندي الذي عليه عدن، وفي شرقيها بلاد عمان وجنوبها بحر الهند مستطيلة عليه، وشمالها حضرموت كأنها ساحل لها، ويكونان معاً لملك

واحد. وهي في الإقليم الأول، وأشد حراً من حضرموت. وكانت في القديم لعاد، وسكنها بعدهم مهرة من حضرموت أومن قضاعة، وهم كالوحوش في تلك الرمال، ودينهم الخارجية على رأي الإباضية منهم. وأول من نزل بالشحر من القحطانية مالك بن حمير، وخرج على أخيه مالك وهو ملك بقصر غمدان فحاربه طويلاً، ومات مالك فولي بعده ابنه قضاعة بن مالك فلم يزل السكسك يحاربه إلى أن قهره، واقتصر قضاعة على بلاد مهرة. وملك بعده ابنه أطاب ثم مالك بن الحاف، وانتقل إلى عمان وبها كان سلطانه. قال البيهقي: وملك مهرة بن حيدان بن الحاف بلاد قضاعة، وحارب عمه مالك بن الحاف صاحب عمان حتى غلبهم عليها، وليس لهم اليوم في غير بلادهم ذكر. ولبلاد الشحر مدينة مرياط وضفان على وزن نزال. وضفان دار ملك التبابعة، ومرياط بساحل الشحر، وقد خربت هاتان المدينتان. وكان أحمد بن محمود الحميري، ولقبه الناخودة، وكان تاجراً كثير المال يعبر إلى صاحب مرياط بالتجارة. ثم استوزره، ثم هلك فملك أحمد الناخودة. ثم خرّبها وخرب ضفان سنة تسع عشرة وستمائة، وبنى على ساحل مدينة ضفا بضم الضاد المعجمة وسماها الأحمدية باسمه، وخرب القديمة لأنها لم يكن لها مرسى.

(نجران) قال صاحب الكمائم: هي صقع منفرد عن اليمن،

وقال غيره هي من اليمن. قال البيهقي: مسافتها عشرون مرحلة وهي شرقي صنعاء وشماليها، وتوالي الحجاز، وفيها مدينتان: نجران وجرش، متقاربتان في القدر والعادية غالبة عليها، وسكانها كالأعراب وبها كعبة نجران ينبت على هيئة عمدان كعبة اليمن وكانت طائفة من العرب تحج إليها وتنهر عندها وتسمى الدير. وبها قسق بن ساعدة، كان يتعبد فيها. ونزلها من القحطانية طائفة من جرهم، ثم غلبهم عليها حمير، وصاروا ولاة للتبابعة. وكان كل ملك منهم يسمى الأفعى. وكان منهم أفعى نجران، وإسمه القلمس بن عمرو بن همذان بن مالك بن شهاب بن زيد بن وائل بن حمير، وكان كاهناً، هو الذي حكم بين أولاد نزار لما أتوه حسبما هو مذكور. وكان والياً على نجران لبلقيس فبعثته إلى سليمان عليه السلام، وآمن وبث دين اليهودية في قومه وطال عمره. ويقال: إن البحرين والمسلل كانتا له. قال البيهقي ثم نزل نجران بنو مذحج، واستولوا عليها. ومنهم الحارث بنو كعب. وقال غيره: لما خرجت اليمانية في سيل العرم مرّوا بنجران فحاربتهم مذحج ومنها افترقوا. قال ابن حزم: ونزل في جوار مذحج بالصلح الحرث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد. ثم غلبوا عليها مذحجاً وصارت لهم رياستها. ودخلت النصرانية نجران من قيمون، وخبره معروف في كتب السير وانتهت رياسة بين الحرث فيها إلى بني الريان. ثم صارت إلى بني عبد المدان. وكان يزيد منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسلم على يد خالد بن الوليد، ووفد مع قومه، و لم يذكره ابن عبد المؤمن، وهو مستدرك عليه. وابن أخيه زياد بن عبد الرحمن بن عبد المدان خال السفاح، ولاه نجران واليمامة، وخلف ابنيه محمداً ويحيى. ودخلت المائة الرابعة والملك بها لبني أبي الجود بن عبد المدان، واتصل فيهم. وكان بينهم وبين الفاطميين حروب. وربما يغلبونهم بعض الأحيان على نجران. وكان آخرهم عبد القيس الذي أخذ علي بن مهدي الملك من يده، ذكره عمارة وأثنى عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني حمد ان المستبدين بالدعوة العباسية من العرب

بالموصل والجزيرة والشام ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان بنو ثعلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار، ولهم محل في الكثرة والعدد، وكانت مواطنهم بالجزيرة في ديار ربيعة، وكانوا على دين النصرانية في الجاهلية، وصاغيتهم مع قيصر. وحاربوا المسلمين مع غسّان وهرَقْل أيام الفتوحات في نصارى العرب يومئذ من غسّان وإيّاد وقُضاعة وزَابلة وسائر نصارى العرب. ثم ارتحلوا مع هرقْل إلى بلاد الروم، ثم رجعوا إلى بلادهم. وفرض عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية. فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة ففعل. وكان قائدهم يومئذ حنظَلَة بن قَيس بن هرير من بني مالك بن بكربن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب وكان من رهطه عمرو بن بسطام صاحب السند أيام بني أمية. ثم كان منهم بعد ذلك في الإسلام ثلاثة بيوت :آل عمر بن الخطّاب العدويّ، وآل هارون المغمر، وآل حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن أسد. و لم يذكر ابن حزم هؤلاء البيوت الثلاثة في بطون بني ثعلب في كتاب الجمهَرَة. ووقفت على حاشية في هذا الموضع من كتابه فيها ذكر هؤلاء الثلاثة كالاستلحاق عليه. وقال في بني حمدان: وقيل إنهم موالي بني أسد. ثم قال آخر الحاشية إنه من خط المصنّف يعني ابن حزم. ولما فشا دين الخارجيّة بالجزيرة أيام مروان بن الحكم و فرّق جموعه، ومحا آثار تلك الدعوة. ثم ظهر في الجزيرة بعد حين أثر من تلك الدعوة. وخرج مساور بن عبد الله بن مساور البجليّ من السرات أيام الفتنة بعد مقتل المتوكّل، واستولى على أكثر أعمال الموصل، وجعل دار هجرته الحديثة.

وكان على الموصل يومئذ عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي الذي ولّى المنصور جدّه محمداً على إفريقية، وعليه خرج مساور. ثم وليَ على الموصل أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب الثعلبي سنة أربع وخمسين، واستخلف عليه ابنه الحسن فسار إلى مساور في جموع قومه، وفيهم حمدون بن الحرث فهزموا الخوارج وفرّقوا جمعهم. ثم وليَ أيام المهتدي عبد الله بن سليمان بن عمران الأزدي فغلبه

الخوارج، وملك مساور الموصل، ورجع إلى الحُديثَة. ثم انتقض أهل الموصل أيام المُعتمِد سنة تسع وخمسين، وأخرجو العامل وهو ابن أساتكين آلهيثم بن عبد الله بن المعتمد العدويّ من بني ثعلب، فامتنعوا عليه، وولّوا مكانه إسحق بن أيوب من آل الخطّاب، فزحف، ومعه حمدان بن حمدون وحاصرها مدّة. ثم كانت فتنة إسحق بن كنداجُق وانتقاضه على المعتمد، واجتمع لمدافعته عليّ بن داود صاحب الموصل، وحمدان بن حمدون، وإسحق بن أيوب فهزمهم إسحق بن كنداجق، وافترقوا فاتبع إسحق بن ايوب إلى نصيبين ثم إلى آمد. واستجار فيها بعيسى بن الشيخ الشيبانيّ وبعث إلى المُعزّ موسى بن زرارة صاحب أرزن فامتنع بأنجادهما. ثم ولي المعتمد ابن كنداجق على الموصل سنة سبع وستين فاجتمع لحربه إسحق بن ايوب، وعيسى بن الشيخ، وابو العزّ بن زرارة وحمدان بن حمدون في ربيعة و ثعلب فهزمهم ابن كنداجق، وحاصره هو ولجأوا إلى آمد

عند عيسى بن الشيخ الشيباني، وحاصرهم بها، وتوالت عليهم الحروب. وهلك مساور الخارجيّ أثناء هذه الفتن في حربه مع العساكر سنة ثلاث وستين. واجتمع الخوارج بعده على هارون بن عبد الله البجليّ، واستولى على الموصل وكثر تابعه. وخرج عليه محمد بن خردان من أصحابه فغلبه على الموصل، فقصد حمدان بن حمدون مستنجداً به فسار معه وردّه إلى الموصل ولحق محمد بالحديثة، ورجع أصحابه إلى هارون. ثم سار هارون من الموصل إلى محمد فأوقع به وقتله، وعاث في الأكراد الجلاليّة أصحابه، وغلب على القرى والرساتيق، وجعل يأخذ الزكاة والعشر. ثم زحف بنو شيبان لقتاله سنة إثنتين وسبعين، فاستنجد بحمدان بن حمدون، وانهزم قبل وصوله إليه. ثم كانت الفتنة بين اسحق بن كنداجق ويوسف بن أبي الساج، وأخذ ابن أبي الساج بدعوة ابن طولون وكلب على الجزيرة والموصل، ثم عاد وملكها لابن كنداجق، وولّى عليها هارون بن سيما سنة تسع وسبعين ومائتين. فطرده أهلها، واستنجد ببني شيبان فساروا معه إلى الموصل، واستمدّ أهلها الخوارج وبني ثعلب فسار لامدادهم هارون الساري وحمدان فهزمهم بنو شيبان، وخاف أهل الموصل من ابن سيما. فبعثوا إلى بغداد، وولّى عليهم المعتمد علي بن داود الأزديّ. ولما بلغ المعتضد ممالأة حمدان بن حمدون لهارون الساري، وما فعله بنو شيبان، وقد كان خرج لإصلاح الجزيرة، وأعطاه بنو شيبان رهنهم على الطاعة زحف إلى حمدان وهزمه فلحق بماردين، وترك

بها ابنه الحسين. وهرب فسار مع وصيف ونصر القسوري، ومروا بدير الزعفران وبه الحسين بن حمدان فاستأمن لهم، وبعثوا به إلى المعتضد. وأمر بهدم القلعة، ولقي وصيف حمدان فهزمه، وعبر إلى الجانب الغربي. ثم سار إلى معسكر، المعتضد، وكان إسحق بن أيوب الثعلبيّ قد سبق إلى طاعة السلطان، وهو في معسكره، فقصد خيمته ملقيا بنفسه عليه فأحصره عند المعتضد فحبسه. ثم سار نصر القسوري في اتباع هارون فهزم الخوارج، ولحق بأذربيجان. واستأمن آخرون إلى المعتضد، ودخل هارون البريّة. ثم سار المعتضد سنة ثلاث وثمانين في طلب هارون، وبعث في مقدمته وصيفا وسرّح معه الحسين بن حمدان بن يكرين، واشترط له إطلاق ابنه إن جاء بهارون فاتبعه وأسره وجاء به إلى المعتضد فخلع عليه وعلى إخوته وطوّقه، وفك القيود عن حمدان ووعده بإطلاقه. ومات إسحق بن أيوب العدويّ وكان على ديار ربيعة فولّى المعتضد مكانه عبد الله بن الهيثم بن عبد الله بن المعتمد.

مبدأ الدولة وولاية أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان علي الموصل:

ولما وليّ المكتفي عقد لأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل وأعمالها، وكان الأكراد الهدبانيّة قد عاثوا في نواحيها ومقدمهم محمد بن سلاّل فقاتلهم وعبر وراءهم إلى الجانب الشرقي، وقاتلهم على الخازر، وقتل مولاه سيما ورجع. ثم أمدّه الخليفة فسار في أثرهم سنة أربع وتسعين، وقاتلهم على أذربيجان، وهزم محمد بن سلال بأهله وولده، واستباحهم ابن حمدان. ثم استأمن صمد وجاءه إلى الموصل، واستأمن سائر الأكراد الحميدية، واستقام أمر أبي الهيجاء. ثم كانت فتنة الخلع ببغداد سنة ست وتسعين، وقتل الوزير العباس بن الحسن، وخلع المقتدر، وبويع عبد الله بن المعتز يوماً أو بعض يوم، وعاد المقتدر كما مرّ ذلك كله في أخبار

الدولة العبّاسية. وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة، وكان ممن تولّى كبر هذه الفتنة مع القوّاد، وباشر قتل الوزير مع من قتله فهرب. وطلبه المقتدر وبعث في طلبه القاسم بن سيما وجماعة من القوّاد فلم يظفروا به، فكتب إلى أبي الهيجاء وهو على الموصل فسار مع القاسم.

ولقيهم الحسين عند تكريت فانهزم واستأمن فأمّنه المقتدر، وخلع عليه، وولاّه أعمال قُمّ وقاشان. ثم ردّه بعد ذلك إلى ديار ربيعة.

انتقاض أبي الهيجاء ثم الحسين بن حمدان:

ولما كانت سنة تسع وتسعين خالف أبو الهيجاء بالموصل إلى سنة إثنتين وثلاثمائة، وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة كما قدّمناه، فطالبه الوزير عيسى بن عيسى بحمل المال فدافعه فأمره بتسليم البلاد إلى العمّال فامتنع، فجهّز إليه الجيش فهزمهم. فكتب إلى مؤنس العجليّ، وهو بمصر يقاتل عساكر العلويّة، بأن يسير إلى قتال الحسين بعد فراغه من أمره، فسار إليه سنة ثلاث وثلاثمائة، فارتحل بأهله إلى أرمينية، وترك البلاد. وبعث مؤنس العساكر في أثره فأدركوه، وقاتلوه فهزموه، وأُسر هو وابنه عبد الوهاب وأهله وأصحابه، وعاد به إلى بغداد فأدخل على جمل وقبض المقتدر يومئذ على أبي الهيجاء وجميع بني حمدان فحبسهم جميعاً. ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وثلاثمائة بعدها، وقتل الحسين سنة ست، وولّى إبراهيم بن حمدان سنة وسبع على ديار ربيعة، وولّى مكانه داود بن حمدان.

ولاية أبي الهيجاء ثانية علي الموصل ثم مقتله:

ثم ولّى المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل سنة أربع عشرة وثلاثمائة، فبعث ابنه ناصر الدولة الحسين عليها، وأقام هو ببغداد. ثم بلغه إفساد العرب والأكراد في نواحيها، وفي نواحي عمله الاخر بخراسان. فبعث إلى أبيه ناصر الدولة فأوقع بالعرب في الجزيرة، ونكّل بهم. وجاءه في العساكر إلى تكريت فخرج ورحل بهم إلى شهرزور، وأوقع بالأكراد الجلاليّة حتى استقاموا على الطاعة. ثم كان خلع المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة بأخيه القاهر. ثم عاد ثاني يوم وأحيط بالقاهرة في قصره فتذمّم بأبي الهيجاء، وكان عنده يومئذ، وأطال المقام يحاول على النجاة به فلم يتمكن من ذلك. وانقض الناس على القاهر، ومضى أبو الهيجاء يفتّش عن بعض

المنافق في القصر يتخلّص منه فاتبعه جماعة وفتكوا به، وقتلوه منتصف المحرّم من السنة، وولّى المقتدر مولاه تحريراً على الموصل.

ولاية سعيد ونصر ا بني حمدان على الموصل:

ثم إن أبا العلاء سعيد بن حمدان ضمن الموصل وديار ربيعة، وما بيد ناصر الدولة فولاه الراضي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وسار إلى الموصل فخرج ناصر الدولة لتلقيه، وخالفه أبو العلاء إلى بيته، وفعد ينتظره، فأنفذ ناصر الدولة جماعة من غلمانه فقتلوه. وبلغ الخبر إلى الراضي فأعظم ذلك، وأمر الوزير ابن مقلة بالمسير إلى الموصل فسار إليها. وارتحل ناصر الدولة، واتبعه الوزير إلى جبل السن، ورجع عنه، وأقام بالموصل. واحتال

بعض أصحاب ابن حمدان ببغداد على ابن الوزير، وبذل له عشرة آلاف دينار على أن يستحث أباه ففعل، وكتب إليه بأمور أزعجته فاستعمل على الموصل من وثق به من أهل الدولة. ورجع إلى بغداد في منتصف شوّال. ورجع ناصر الدولة إلى الموصل فاستولى عليها، وكتب إلى الراضي في الصفح، وأن يضمن البلاد فأجيب إلى ذلك واستقر في ولايته.

مسير الراضي إلى الموصل:

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة تأخر ضمان البلاد من ناصر الدولة فغضب الراضي، وسار ومدير دولته تحكم. وسار إلى الموصل، وتقدم تحكم إلى تكريت فخرج إليه ناصر الدولة فانهزم أصحابه، وسار إلى نصيبين، وأتبعه تحكم فلحق به. وكتب تحكم إلى الراضي بالفتح فسار في السفن يريد الموصل. وكان ابن رائق مختفياً ببغداد منذ غلبه ابن البريدي على الدولة، فظهر عند ذلك، واستولى على بغداد. وبلغ الخبر إلى الراضي فأصعد من الماء إلى البرّ، واستقدم تحكم من نصيبين، واستعاد ناصر

الدولة ديار ربيعة وهو يعلم بخبر ابن رائق. وبعث في الصلح على تعجيل خمسمائة ألف فأجابه إلى ذلك. وسار الراضي وتحكم إلى بغداد، ولقيهم ابو جعفر محمد بن يحيى بن سريق رسولاً من ابن رائق في الصلح، وعلى أن يولى ديار مضر، وهي حران والرها والرقة. وتضاف إليها قنسرين والعواصم فأجيب إلى ذلك. وسار عن بغداد إلى ولايته ودخل الراضي وتحكم بغداد ورجع ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل.

مسير المتقي إلى الموصل وولاية ناصر الدولة إمارة الأمراء:

كان ابن رائق بعد مسيره إلى ديار مضر والعواصم سار إلى الشام وملك دمشق من يد الأخشيد، ثم الرملة. ثم لقيه الأخشيد على عريش مصر وهزمه، ورجع إلى دمشق ثم اصطلحا على أن يجعلا الرملة تخماً بين الشام ومصر، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. ثم توفي الراضي سنة تسع وعشرين، وولي المتقى وقتل تحكم، وجاء البريدي إلى بغداد، وهرب الأتراك التحكمية إلى الموصل، وفيهم توزون وجحجح. ثم لحقوا بأبي بكر محمد بن رائق واستحثوه إلى العراق. وغلب بعدهم على الخلافة الأتراك الديلمية، وجاء أبو الحسن البريدي من واسط فأقام ببغداد أربعة وعشرين يوماً أمير الأمراء .ثم شغب عليه الجند فرجع إلى واسط، وغلب كورتكين. ثم حجر المتقي، وكتب إلى ابن رائق يستدعيه فسار من دمشق في رمضان سنة تسع وعشرين، واستخلف عليها أبا الحسن أحمد بن علي بن حمدان، على أن يحمل إليه مائة ألف دينار، وسار ابن رائق إلى بغداد، وغلب كورتكين والديلمية، حبس كورتكين بدار الخلافة. ثم شغب عليه الجند، وبعث أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسن إلى بغداد في العساكر فغلبوا عليها، وهرب المتقي وابنه أبو منصور، وزاد في المبرة فنثر الدراهم على ابن الخليفة، وبالغ في مبرته حتى ركب للإنصراف. وأمسك ابن رائق للحديث معه فأستدعاه المتقي، وخلع عليه، ولقبه ناصر الدولة، وجعله أمير الأمراء. وخلع على أخيه أبي الحسن، ولقبه سيف الدولة. وكان قتل ابن رائق، لتسع بقين من رجب ،وولاية ناصر الدولة مستهل شعبان من سنة ثمانين. ثم سار

الأخشيدي من مصر إلى دمشق فملكها من يد عامل ابن رائق، وسار ناصر الدولة مع المتقي إلى بغداد.

أخبار بني حمد ان ببغداد:

ولما قتل ابن رائق، وأبو الحسن البريدي على بغداد، وقد سخطه العامة والخاصة فهرب جحجح إلى المتقي، وأجمع توزون وأصحابه إلى الموصل، واستحثوا المتقي وناصر الدولة فانجدوهم إلى بغداد. وولى على الخراج والضياع بديار مضر وهي الرها وحران والرقة أبا الحسن علي بن خلف بن طياب، وكان عليها أبو الحسن علي أحمد بن مقاتل من قبل ابن رائق، فقاتله ابن طياب وقتله. ولما قرب المتقي وناصر الدولة من بغداد هرب أبو الحسن بن البريدي إلى واسط بعد مقامه مائة يوم وعشرة أيام، ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان، وقلد توزون شرطة جانبي بغداد وذلك في شوال من السنة. ثم سار بنو حمدان إلى واسط فترل ناصر الدولة بالمدائن، وبعث أخاه سيف الدولة إلى قتال البريدي وقد سار من واسط إليهم فقاتلوه تحت المدائن، ومعهم توزون وجحجح والأتراك فانهزموا أولاً. ثم أمدهم ناصر الدولة بمن كان معه من المدائن فانهزم البريدي إلى واسط، وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصف ذي الحجة وبين يديه الاسرى من أصحاب البريدي.

واقام سيف الدولة بموضع المعركة حتى اندملت جراحه، وذهب وهنه. ثم سار إلى واسط فلحق البريدي بالبصرة، واستولى على واسط فأقام بها معتزماً على اتباع البريدي إلى البصرة، واستمد أخاه ناصر الدولة في المال فلم يمده، وكان للأتراك عليه استطالة وخصوصاً توزون وجحجح. ثم جاء ابو عبد الله الكوفي بالمال من قبل ناصر الدولة ليفرقه في الأتراك فاعترضه توزون وجحجح، وأراد البطش به فأخفاه سيف الدولة عنهما، وردّه إلى أخيه. ثم ثار الأتراك بسيف الدولة سلخ شعبان فهرب من معسكره إلى بغداد ، ونهب سواده، وقتل جماعة من أصحابه. وكان أبو عبد الله الكوفي لما وصل إلى ناصر الدولة، وأخبره خبر اخيه اراد أن يسير إلى الموصل فركب المتقي إليه واستمهله، وعاد إلى قصره فأغذ السير إلى الموصل بعد ثلاثة عشر شهراً من إمارته.

وثار الديلم والأتراك

ونهبوا داره. ولما هرب سيف الدولة من معسكره بواسط عاد الأتراك إلى معسكرهم، وولوا تورون أميراً وجحجح صاحب جيش، ولحق سيف الدولة ببغداد منتصف رمضان بعد مسير أخيه، وبلغه خبر تورون. ثم اختلف الأتراك وقبض توزون على جحجح، وسمله وسار سيف الدولة، ولحق بأخيه بالموصل وولى إمارة الأمراء ببغداد.

خبر عدل التحكمي بالرحبة:

كان عدل هذا مولى تحكم، ثم صار مع ابن رائق واصعد معه إلى الموصل. ولما قتل ابن رائق صار في جملة ناصر الدولة بن حمدان فبعثه مع علي بن طياب إلى ديار مضر، فاستولى ابن طياب عليها، وقتل نائب ابن رائق.

وكان بالرحبة من ديار مضر رجل من قبل ابن رائق يقال مسافر بن الحسين فامتنع بها، وجبى خراجها، واستولى على تلك الناحية فأرسل إليه ابن طياب عدلاً التحكمي فاستولى عليها، وفر مسافر عنها. واجتمع التحكمية إلى عدل واستولى على طريق الفرات وبعض الخابور. ثم استنصر مسافر بجمع من بني نمير، وسار إلى قرقيسيا وملكها وارتجعها عدل من يده. ثم اعتزم عدل على ملك الخابور، وانتصر أهله ببني نمير فأعرض

عدل عن ذلك حيناً حتى أمنوا. ثم أسرى إلى فسيح سمصاب وهي من أعظم قرى خابور فقاتلها، ونقب السور وملكها، ثم ملك غيرها. وأقام في الخابور ستة اشهر، وجبى الأموال، وقوي جمعه واتسعت حاله. ثم طمع في ملك بني حمدان فسار يريد نصيبين لغيبة سيف الدولة عن الموصل وبلاد الجزيرة، ونكب عن الرحبة وحران لأن يأنس المؤنسي كان بها في عسكر، ومعه جمع من بني نمير فحاد عنها إلى رأس عين، ومنها إلى نصيبين، وبلغ الخبر إلى أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان فجمع وسار إليه، فلما التقى الجمعان استأمن من أصحاب عدل إلى ابن حمدان، ولم يبق معه إلا القليل فقبض عليه وسمله، وبعث به مع ابنه إلى بغداد في آخر شعبان سنة إحدى

وثلاثين ومائتين.

مسير المتقي إلى الموصل وعوده:

ولما انصرف ناصر الدولة وسيف الدولة عن المتقي من بغداد جاء توزون من واسط واستولى على الدولة، ثم رجع إلى واسط ووقعت بينه وبين ابن البريدي بالبصرة مواصلة وصهر استوحش لها المتقي. وكان بعض أصحاب توزون منافراً له، فأكثر فيه السعاية عند المتقي والوزير ابن مقلة، وخوفهما اتصال يده بابن البريدي. وقارن ذلك اتصال ابن شيرزاده بتوزون ومسيره إليه بواسط، فذكروا الخليفة بما فعل ابن البريدي معه في الّمرة الأخرى وخوّفوه عاقبة أمرهم، فكتب إلى ابن حمدان أن ينفذ إليه عسكراً يسير صحبته إليهم فأنفذه مع ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان، ووصلوا إلى بغداد سنة إثنتين وثلاثين وخرج المتقي معهم بأهله وأعيان دولته، ومعه الوزير ابن مقلة، وانتهى إلى تكريت فلقيه سيف الدولة هنالك.

وجاء ناصر الدولة فأصعد المتقي إلى الموصل. ولما بلغ الخبر إلى توزون سار نحو تكريت فلقيه سيف الدولة عندها فقاتله ثلاثة أيام. ثم هزمه تورون ونهب سواده وسواد اخيه. وسار سيف الدولة إلى الموصل وتوزون في اتباعه فخرج ناصر الدولة والمتقي وجملته إلى نصيبين، ثم إلى الرقة، ولحقهم سيف الدولة إليها. وملك توزون الموصل، وبعث إليه المتقي يعاتبه على اتصاله بابن البريدي، وأنه إنما استوحش من ذلك فإن آثر رضاه واصل ابن حمدان فأجاب توزون إلى ذلك، وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين، كل سنة بثلاثة آلاف وستمائة الف. وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقي بالرقة. ثم أحس من ابن حمدان ضجراً به، وبلغ سيف الدولة ان محمد بن نيال الترجمان أغرى المتقي بسيف الدولة، وهو الذي كان أفسد بين المتقي وتوزون فقبض عليه سيف الدولة وقتله، وارتاب المتقي بذلك فكتب إلى توزون يستصلحه. وكتب إلى الأخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يستقدمه، فسار إليه الأخشيد. ولما وصل إلى حلب، وعليها من قبل سيف الدولة ابن عمهم أبو عبد الله سعيد بن حمدان

فرحل عنها، وتخلف عنه ابن مقاتل الذي كان بدمشق مع ابن رائق. ولم وصل الأخشيد إلى حلب لقيه ابن مقاتل فأكرمه واستعمله على خراج مصر. ثم سار إلى المتقي بالرقة فلقيه منتصف ثلاث وثلاثين فبالغ المتقي في إكرامه، وبالغ هو في الأدب معه، وحمل إليه الهدايا والى وزيره وحاشيته، وسأله المسير إلى مصر أو الشام فأبى

فأشار عليه أن لا يرجع إلى توزون فأبى. وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر ليحكمه في دولته، وخوفه من توزون فلم يعمل، وجاءهم رسل توزون في الصلح وأنهم استحلفوه للخليفة والوزير، فانحدر المتقي إلى بغداد آخر المحرم، وعاد الأخشيد إلى مصر. ولما وصل المتقي إلى هيت لقيه توزون فقبل الأرض، ورأى أنه تحلل عن يمينه بتلك الطاعة. ثم وكل به وسمل المتقي ورجع، إلى بغداد فبايع للمستكفي. ولما ارتحل المتقي عن الرقة ولى عليها ناصر الدولة ابن عمه أبا عبد الله بن سعيد بن حمدان، وعلى طريق الفرات وديار مضر وقنسرين وجند والعواصم وحمص. فلما وصل إلى الرقة طمع أهلها فيه فقاتلهم، وظفر بهم ورجع إلى حلب، وقد كان ولى على هذه البلاد قبله أبا بكر محمد بن عليّ بن مقاتل.

استيلاء سيف الدولة على حلب وحمص:

ولما ارتحل المتقي من الرقة، وانصرف الأخشيد إلى الشام بقي يأنس المؤنسي

بحلب فقصده سيف الدولة، وملكها من يده. ثم سار إلى حمص فلقيه بها كافور مولى الأخشيد فهزمه سيف الدولة، وسار إلى دمشق فامتنعوا عليه فرجع. وجاء الأخشيد من مصر إلى الشام وسار في اتباع سيف الدولة فاصطفا بقنسرين، ثم تحاجزوا، ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، والأخشيد إلى دمشق. ثم سار سيف الدولة إلى حلب فملكهما وسارت عساكر الروم إليها فقاتلهم وظفر بهم. ثم بلغ ناصر الدولة بن حمدان

ما فعله توزون من سمل المتقي وبيعة المستكفي، فامتنع من حمل المال، وهرب إليه غلمان توزون فاستخدمهم، ونقض الشرط في ذلك. وخرج توزون والمستكفي قاصدين الموصل، وترددت الرسل بينهما في الصلح فتم ذلك آخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وعاد المستكفي وتوزون إلى بغداد، فتوفي توزون إثر عوده، وولى الأمور بعده ابنه شيرزاده، واستعمل على واسط قائدأ، وعلى تكريت آخر، فأمّا الذي على واسط فكاتب معز الدولة ابن بويه، واستقدمه فقدم بغداد، واستولى على الدولة فخلع المستكفي، وبايع للمطيع. وأما الذي على تكريت فسار إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، وسار معه وولاه عليها من قبله.

الفتنة بين ابن حمدان وابن بويه:

ولما خلع معز الدولة بن بويه المستكفي عند استيلائه على بغداد امتعض ناصر

الدولة بن حمدان لذلك، وسار من الموصل إلى العراق. وبعث معز الدولة بن بويه قواده فالتقى الجمعان بعكبرا، واقتتلوا، وخرج معز الدولة مع المطيع إلى عكبرا، وكان ابن شبرزاده ببغداد وأقام بها، ولحق بناصر الدولة بن حمدان. وجاء بعساكره إلى بغداد فنزلوا بالجانب الغربي، وناصر الدولة بالجانب الشرقي، ووقع الغلاء في معسكر معز الدولة، والخليفة لانقطاع الميرة. وبقي عسكر ابن حمدان في رخاء من العيش لاتصال الميرة من الموصل. واستعان ابن شيرزاده بالعامة والعمارين على حرب معز الدولة والديلم، وضاق الأمر بمعز الدولة حتى اعتزم على الرجوع إلى الأهواز. ثم أمر أصحابه بالعبور من قطربال بأعلى دجله، وتسابق أصحاب ناصر الدولة إلى مدافعتهم ومنعهم، وبقي في خف من الناس فأجاز إليه شجعان الديلم من أقرب الأماكن فهزموه، وملك معز الدولة الجانب الشرقي، وأعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ورجع ناصر الدولة إلى عكبرا. وأرسل في الصلح فوقف الأتراك التورونية الذين معه على خبر رسالته فهموا بقتله، فأغذ السير إلى الموصل ومعه ابن شيرزاده، وأحكم الصلح مع معز الدولة.

استيلاء سيف الدولة علي دمشق:

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة توفي الأخشيد أبو بكر محمد بن طغج صاحب مصر والشام، فنصب للأمر بعده ابنه ابو القاسم أنوجور، واستولى عليه كافور الأسود وخادم أبيه، وسار بهما إلى مصر. وجاء سيف الدولة إلى دمشق فملكها وارتاب به أهلها فاستدعوا كافوراً فجاءهم، وخرج سيف الدولة إلى حلب، ثم أتبعوه فعبر إلى الجزيرة وأقام أنوجور على حلب. ثم اتفقوا واصطلحوا، وعاد أنوجور إلى مصر، وسيف الدولة إلى حلب، وأقام كافور بدمشق قليلاً. ثم عاد إلى مصر واستعمل على دمشق بدرا الأخشيد ويعرف ببدير. ثم عزله بعد سنة وولى أبا المظفر طغج.

الفتنة بين ناصر الدولة ابن حمدان وبين تكين والأتراك:

كان مع ناصر الدولة جماعة من الأتراك أصحاب توزون فّروا إليه كما قدّمنا، فلما

وقعت المراسلة بينه وبين معز الدولة في الصلح ثاروا به، وهرب منهم، وعبر إلى الجانب الغربي ونزل الموصل واستجار القرامطة فأجاروه، وبعثوا معه إلى مأمنه، وفي جملته ابن شيرزاده فقبض ناصر الدولة عليه، واجتمع الأتراك بعده فقدموا عليهم تكين الشيرازي، وقبضوا على من تخلف من أصحاب ناصر الدولة، وأتبعوه إلى الموصل فسار عنها إلى نصيبين، ودخل الأتراك الموصل. وبعث ناصر الدولة إلى معز الدولة يستصرخه، فبعث إليه بالجيوش مع وزيره أبي جعفر الصيمري. وخرج الأتراك من الموصل في اتباع ناصر الدولة إلى نصيبين فمضى إلى سنجار، ثم إلى الحديثة، ثم إلى السن، وهم في اتباعه. وبقي هنالك العساكر فقاتلوا الأتراك وهزموهم، وسيق قائدهم تكين إلى ناصر الدولة فسلمه لوقته، ثم حبسه وسار مع الصيمري إلى الموصل فأعطاه ابن شيرزاده، وارتحل به إلى بغداد.

انتقاض جمان بالرحبة ومهلكه:

كان جمان هذا من أصحاب توزون، وسار إلى ناصر الدولة بن حمدان فلما كان في محاربة معز الدولة ببغداد، استراب بمن معه من الديلم، وجمعهم على جمان هذا، وأخرجه إلى الرحبة والياً فعظم أمره. وانتقض سنة ست وثلاثين وثلاثمائة على ناصر الدولة، وحدثته نفسه بالتغلب على ديار مضر فسار إلى الرقة وحاصرها سبعة عشر يوماً، وانهزم عنها. ووثب أهل الرحبة بأصحابه وعماله فقتلوهم لسوء سيرتهم. وجاء من الرقة فأثخن فيهم، وبعث ناصر الدولة بن حمدان حاجبه باروخ مع عسكر فاقتتلوا على الفرات، وانهزم جمان فغرق في الفرات واستأمن أصحابه إلى باروخ فأمنهم ورجع إلى ناصر الدولة.

فتنة ناصر الدولة مع معز الدولة:

ثم وقعت الفتنة بين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه، وسار إليه معز الدولة من بغداد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فسار هو من الموصل إلى نصيبين، وملك معز الدولة الموصل فظلم الرعايا واخذ أموالهم،

وأجمع الاستيلاء على بلاد ابن حمدان كلها، فجاءه الخبر بأنّ عساكر خراسان قصدت جرجان والريّ. وبعث أخوه ركن الدولة يستمده فصالح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة والشام على ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة، وعلى أن يخطب له ولأخويه عماد الدولة وركن الدولة، وعاد إلى بغداد في ذي الحجة آخر سبع وثلاثين وثلاثمائة.

غزوات سيف الدولة:

كان أمر الثغور راجعاً إلى سيف الدولة بن حمدان، ووقع الفداء سنة خمس وثلاثين

وثلاثمائة في ألفين من الأسرى على يد نصر النملي، ودخل الروم سنة إثنتين وثلاثين مدينة واسرغين ونهبوها وسبوها وأقاموا بها ثلاثاً وهم في ثمانين آلفاً مع الدمشق. ثم سار سيف الدولة سنة سبع وثلاثين غازياً إلى بلاد الروم فقاتلوه وهزموه. ونزل الروم على مرعش فأخذوها وأوقعوا بأهل طرسوس. ثم دخل سنة ثمان وثلاثين، وتوغل في بلاد الروم، وفتح حصوناً كثيرة وغنم وسبا. ولما قفل أخذت الروم عليه المضايق وأثخنوا في المسلمين قتلاً وأسراً، واستردوا ما غنموه. ونجا سيف الدولة في فل قليل. ثم ملك الروم سنة إحدى وأربعين مدينة سروج واستباحوها. ثم دخل سيف الدولة سنة ثلاث واربعين إلى بلاد الروم فأثخن فيها وغنم وقتل قسطنطين بن الدمشق فيمن قتل، فجمع الدمشق عساكر الروم والروس وبلغار، وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة بن حمدان، والتقوا عند الحرث فانهزم الروم، واستباحهم المسلمون قتلاً وأسراً، وأسر صهر الدمشق، وبعض أسباطه وكثير من بطارقته، ورجع سيف الدولة بالظفر والغنيمة ثم دخل بلاد الروم النصرانية ثم رجع إلى أذنة، وأقام بها حتى جاءه نائبه على طرسوس فخلع عليه، وعاد إلى حلب. وامتعض الروم لذلك فرجعوا إلى بلادهم. ثم غزا الروم طرسوس والرها وعاثوا في نواحيها سبياً وأسراً ورجعوا. ثم غزا سيف الدولة بلاد الروم سنة ست وأربعين واثخن فيها، وفتح عدة حصون وامتلأت أيدي عسكره من الغنائم والسبي وانتهى إلى خرسنة ورجع، وقد أخذت الروم عليه المضايق فقال له أهل طرسوس: إرجع معنا فإن الدروب التي دخلت منها قد ملكها الروم عليك فلم يرجع إليهم، وكان معجباً برأيه فظهر الروم عليه في الدرب، واستردوا ما أخذوا منهم، ونجا في فلّ قليل يناهزون الثلاثمائة. ثم دخل سنة خمسين قائد من موالي سيف الدولة إلى بلاد الروم، من ناحية ميافارقين فغنم وسبا، وخرج سالماً

.

الفتنة بين ناصر الدولة ومعز الدولة بن بويه:

قد تقدم لنا ما وقع من الصلح بين ناصر الدولة وبين معز الدولة بن بويه، وطالبه في المال فانتقض. وسار إليه معز الدولة إلى الموصل منتصف السنة وملكها، وفارقها ناصر الدولة إلى نصيبين وحمل نوابه ومن يعرف وجوه المال وحمايته، وأنزلهم في قلاعه مثل الزعفراني وكواشي، ودس إلى العرب بقطع الميرة عن عسكر معز الدولة فضاقت عليهم الأقوات، فرحل معز الدولة إلى نصيبين لما بها من الغلات السلطانية، واستخلف سبكتكين الحاجب الكبير على الموصل. وبلغه في طريقه أن أبا الرجاء وعبد الله إبني ناصر الدولة مقيمان بسنجار

فقصدهما فهربا، وخلفا أثقالهما، وانتهب العسكر خيامهما. ثم عادا إلى معسكر معز الدولة وهم غازون فنالوا منهم، ورجعوا إلى سنجار. وسار معز الدولة إلى نصيبين ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين، واستأمن كثير من أصحابه إلى معز الدولة فسار ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فقام بخدمته وباشرها بنفسه. وأرسل إلى معز الدولة في الصلح بينه وبين أخيه، فامتنع معز الدولة من قبول ناصر الدولة لانتقاضه وإخلافه، فضمن سيف الدولة البلاد بألفي ألف وتسعمائة ألف درهم، وأطلق معز الدولة أسرى أصحابهم. وتم ذلك في محرم سنة ثمان وأربعين، ورجع معز الدولة إلى العراق وناصر الدولة إلى الموصل.

استيلاء الروم على عين زربة ثم على مدينة حلب:

وفي المحرم من سنة إحدى وخمسين نزل الدمستق في جموع الروم على عين زربة، وملك الجبل المطل عليها، وضيق عليها حصارها، ونصب عليها المنجنيقات. وشرع في النقب فاستأمنوا ودخل المدينة. ثم ندم على تأمينهم لما رأى من اختلال أحوالهم فنادى فيهم أن يخرجوا بجميع أهاليهم إلى المسجد فمات منهم في الأبواب بكض الزحام خلق، ومات آخرون في الطرقات، وقتل من وجدوا آخر النهار. واستولى الروم على أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة، وفتحوا في نواحي عين زربة أربعة وخمسين

حصناً. ورحل الدمستق بعد عشرين يوماً بنية العود، وخلف بجيشه بقيسارية. وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان، واعترضه، الدمستق في بعض مذاهبه فأوقع به، وقتل أخاه وأعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة، وألقى ابن الزيات نفسه في النهر فغرق .ثم رجع الدمستق إلى بلاد الثغور، وأغذ السير إلى مدينة حلب، وأعجل سيف الدولة عن الاحتشاد فقاتله في خف من أصحابه فانهزم سيف الدولة، واستلحم آل حمدان، واستولى الدمستق على ما في داره خارج حلب من خزائن الأموال والسلاح. وخرب الدار وحصر المدينة، وأحس أهل حلب مدافعته فتأخر إلى جبل حيوش.ثم انطلقت أيدي الدعار بالبلد على النهب، وقاتلهم الناس على متاعهم، وخربت الأسوار لخلوها من الحامية فجاء الروم، ودخلوها عليهم. وبادر الأسرى الذين كانوا في حلب وأثخنوا في الناس، وسبي من البلد بضعة عشر ألفاً ما بين صبي وصبية. واحتمل الروم ما قدروا عليه، وأحرقوا الباقي. ولجأ المسلمون إلى قصبة البلد فامتنعوا بها، وتقدم ابن أخت الملك إلى القلعة يحاصرها فرماه بحجر منجنيق فمات. وقتل الدمستق به من كان معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفاً ومائتين. وارتحل الدمستق عنهم، ولم يعرض لسواد حلب. وأمرهم بالعمارة على أنه يعود ابن عمه عن قريب فخيب الله ظنه. وأعاد سيف الدولة عين زربة، وأصلح أسوارها وغزا حاجبه مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم فاثخنوا فيها، ورجعوا فجاء الروم إلى حصن سبة فملكوه وملكوا أيضاً حصن دلوكة وثلاثة حصون مجاورة لهم. ثم سار نجا غلام سيف الدولة إلى حصن زياد فلقيهم جمع من الروم فانهزم الروم، وأسر منهم خمسمائة رجل. وفي السنة أسر أبو فراس بن سعيد بن حمدان، وكان عاملاً على منبج. وفيها سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة إقريطش، وبعث إليهم المعز بالمدد فأسر الروم وانهزم من بقي منهم. ثم ثار الروم في إثنتين وخمسين بعدها بملكهم فقتلوه، وملكوا غيره، وصار ابن السميسرة دمستقا.

انتقاض أهل حران:

كان سيف الدولة قد ولى هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة غيرها من ديار مضر فساء
أثره فيهم، وطرح الأمتعة على التجار، وبالغ في الظلم فانتظروا به غيبته عند عمه سيف الدولة، وثاروا بعماله ونوابه فطردوهم فسار هبة الله إليهم، وحاصرهم شهرين، وأفحش في القتل فيهم. ثم سار سيف الدولة فراجعوا الطاعة، وداخلوا هبة الله، وأفحش في القتل واستقاموا.

انتقاض هبة الله:

وفي هذه السنة بعث سيف الدولة الصوائف إلى بلاد الروم فدخل أهل طرسوس من درب ومولاه نجا من درب، وأقام هو ببعض الدروب، لأنه كان أصابه الفالج قبل ذلك بسنتين فكان يعاني منه شدّة إذا عاوده وجعه، توغّل أهل طرسوس في غزوتهم وبلغوا قونية، وعادوا فعاد سيف الدولة إلى حلب، واشتدّ وجعه فأرجف الناس بموته فوثب عبد الله ابن أخيه، وقتل ابن نجا النصراني من غلمان سيف الدولة. ولما تيقن حياة عمه رحل إلى حران وامتنع بها، وبعث سيف الدولة غلامه فجاء إلى حران في طلبه، فلحق هبة الله بأبيه بالموصل ونزل نجا على حران آخر شوال من سنة إثنتين وخمسين، وصادر أهلها على ألف ألف درهم، وأخذها منهم في خمسة أيام بالضرب والنكال، وباعوا فيها ذخائرهم حتى أملقوا، وصاروا إلى ميافارقين ونزلها شاغرة فتسلط العيارون على أهلها.

انتقاض نجا بميافارقين وأرمينية واستيلاء سيف الدولة عليها:

ولما فعل نجا بأهل حران ما فعل، واستولى على أموالهم فقوي بها وبطر، وسار
إلى
ميافارقين، وقصد بلاد أرمينية. وكان قد استولى على أكثرها رجل من العراق يعرف بأبي الورد فغلبه نجا على ما ملك منها، وأخذ قلاعه وبلاده فملك خلاط وملاذكرد وأخذ كثيراً من أموال أبي الورد وقتله، ثم انتقض على سيف الدولة. واتفق أن معز الدولة ابغ بويه استولى على الموصل ونصيبين فكاتبه نجا يعده المساعدة علي بني حمدان. ثم صالحه ناصر الدولة، ورجع إلى بغداد فسار سيف الدولة إلى نجا فهرب منه بين يديه، واستولى على جميع البلاد التي ملكها من أبي الورد، واستأمن إليه نجا وأخوه وأصحابه، فأمنهم وأعاد نجا إلى مرتبته. ثم وثب عليه غلمانه وقتلوه في داره بميافارقين في ربيع سنة ثلاث وخمسين.

مسير معز الدولة إلى الموصل وحروبه مع ناصر الدولة:

كان الصلح قد استقّر بين ناصر الدولة ومعز الدولة على ألف ألف درهم في كل سنة. ثم طلب ناصر الدولة دخول ولده أبي ثعلب المظفر في اليمن على زيادة بذلها، وامتنع سيف الدولة من ذلك، وسار إلى الموصل منتصف سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة. ولحق ناصر الدولة بنصيبين وملك معز الدولة الموصل، وسار عنها في اتباع ناصر الدولة بعد أن استخلف على الموصل في الجباية والحرب فلم يثبت ناصر الدولة، وفارق نصيبين وملكها معز الدولة. وخالفه أبو ثعلب إلى الموصل، وعاث في نواحيها، وهزمه قواد معز الدولة بالموصل

فسكنت نفس معز الدولة. واقام ببرقعيد يترقب أخباره، وخالف ناصر الدولة إلى الموصل فأوقع بأصحابه وقتلهم، وأسر قوّاده واستولى على مخلفه من المال والسلاح. وحمل ذلك كله إلى قلعة كواشي. وبلغ الخبر إلى معز الدولة فلحق بالنواب، وأعيا معز الدولة أمرهم. ثم ارسلوا إليه في الصلح فأجاب، وعقد لناصر الدولة على الموصل وديار ربيعة، وجميع أعماله بمقرها المعلوم، وعلى أن يطلق الأسرى الذين عنده من أصحاب معز الدولة إلى بغداد.

حصار المصيصة وطرسوس واستيلاء الروم عليها:

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة خرج الدمستق في جموع الروم فنازل المصيصة، وشدّ حصارها، وأحرق رساتيقها، وبلغ إلى نقب السور فدافعه أهلها أشد مدافعتهم. ثم رحل إلى أذنة وطرسوس، وطال عيثه في نواحيها، وأكثر القتل في المسلمين، وغلت الأسعار في البلاد، وقلت الأقوات. وعاود مرض سيف الدولة فمنعه من النهوض إليهم، وجاء من خراسان خمسة آلاف رجل غزاة فبلغوا إلى سيف الدولة، فارتحل بسببهم للمدافعة فوجد الروم انصرفوا ففرّق هؤلاء الغزاة في الثغور من أجل الغلاء، وكان الروم قد انصرفوا بعد خمسة عشر يوماً. وبعث الدمستق إلى أهل المصيصة وأذنة وطرسوس يتهددهم بالعود، ويأمرهم بالرحيل من البلاد. ثم عاد إليهم وحاصر طرسوس فقاتلهم أشدّ قتال، وأسروا بطريقاً من بطارقته، وسقط الدمشق إلى أهل المصيصة، ورجعوا إلى بلادهم. ثم سار يعفور ملك الروم من القسطنطينية سنة أربع وخمسين إلى الثغور، وبنى بقيسارية مدينة ونزلها، وجهز عليها العساكر وبعث أهل المصيصة وطرسوس في الصلح فامتنع، وسار بنفسه إلى المصيصة فدخلها عنوة واستباحها، ونقل أهلها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي ألف. ثم سار إلى طرطوس واستنزل أهلها على الأمان، وعلى أن يحملوا من أموالهم وسلاحهم ما قدروا عليه، وبعث معهم حامية من الروم يبلغونهم أنْطاكِية، وأخذ في عمارة طرسوس وتحصينها وجلب الميرة إليها. ثم عاد إلى القسطنطينية، وأراد الدمشق بن شمسيق أن يقصد سيف الدولة في ميافارقين، ومنعه الملك من ذلك.

انتقاض أهل أنْطاكِية وحمص:

ولما استولى الروم على طرطوس لحق الرشيق النعيمي من قوادهم وأولي الرأي فيهم

بأنْطاكِية في عدد وقوة فاتصل به ابن أبي الأهوازي من الجباة بأنْطاكِية، وحسن له العصيان وأراه ان سيف الدولة بميافارقين عاجز عن العود إلى الشام بما هو فيه من الزمانة، وأعانه بما كان عنده من مال الجباة، فأجمع رشيق الانتقاض، وملك أنْطاكِية وسار إلى حلب وبها عرقوبة وجاء الخبر إلى سيف الدولة بأن رشيقاً أجمع الانتقاض، ونجا ابن الأهوازي إلى أنْطاكِية فأقام في إمارتها رجلاً من الديلم اسمه وزير ولقبه الأمير، وأوهم أنه علوي وتسمى هو بالأشاد وأساء السيرة في أهل أنْطاكِية، وقصدهم عرقوبة من حلب فهزموه. ثم جاء سيف الدولة من ميافارقين إلى حلب، وخرج إلى أنْطاكِية، وقاتل وزيرا وابن الأهوازي أياماً. وجيء بهما إليه أسيرين فقتل وزير وحبس ابن الأهوازي أياماً وقتله، وصلح أمر أنْطاكِية. ثم ثار بحمص مروان القرمطي كان من متابعة القرامطة، وكان يتقلد السواحل لسيف الدولة، فلما تمكن ثار بحمص فملكها وملك غيرها في غيبة

سيف الدولة بميافيارقين، وبعث إليه عرقوبة مولاه بدراً بالعساكر فكانت بينهما عدة حروب أصيب فيها مروان بسهم فأثبت، وبقي أياماً يجود بنفسه والقتال بين أصحابه وبين بدر، وأسر بدر في بعض تلك الحروب فقتله مروان، وعاش بعده أياماً، ثم مات وصلح أمرهم.

خروج الروم الي الثغور واستيلاؤهم علي دارا:

وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة خرجت جموع الروم إلى الثغور فحاصروا آمد، ونالوا من أهلها قتلا واسراً فامتنعت عليهم فانصرفوا إلى دارا قريباً من ميافارقين فأخذوها، وهرب الناس إلى نصيبين، وسيف الدولة يومئذ بها فهم بالهروب وبعث عن العرب ليخرج معهم ثم انصرف الروم، وأقام هو بمكانه، وساروا إلى أنْطاكِية فحاصروها مدة، وعاثوا في جهاتها فامتنعت فعاد الروم إلى طرسوس.

وفاة سيف الدولة ومحبس أخيه ناصر الدولة:

وفي صفر من سنة خمس وخمسين و ثلاثمائة توفي سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بحلب، وحمل إلى ميافارقين فدفن بها وولي مكانه بعده ابنه أبو المعالي شريف. ثم في جمادى الأولى منها حبس ناصر الدولة أخوه بقلعة الموصل، حبسه ابنه أبو ثعلب فضل الله الغضنفر. وكان كبير ولده، وكان سبب ذلك أنه كبر وساءت أخلاقه، وخالف أولاده وأصحابه في المصالح، وضيق عليهم فضجروا منه، ولما بلغهم معز الدولة بن بويه اعتزم أولاده على قصد العراق فنهاهم ناصر الدولة، وقال لهم: اصبروا حتى ينفق بختيار ما خلف أبوه معز الدولة من الذخيرة فتظفروا به، وإلا استظهر عليكم وظفر بكم فلجوا في ذلك، ووثب به ابو ثعلب بموافقة البطانة، وحبسه بالقلعة، ووكل بخدمته. وخالفه بعض إخوته في ذلك واضطرب أمره، واضطر إلى مداراة بختيار بن معز الدولة، وأرسل له في تجديد الضمان ليحتج به على إخوته فضمنه بألفي ألف درهم في كل سنة.

ولاية أبي المعالي بن سيف الدولة بحلب ومقتل أبي فراس:

ولما مات سيف الدولة كما ذكرناه، ولي بعده ابنه أبو المعالي شريف، وكان سيف الدولة قد ولى أبا فراس بن أبي العلاء سعد بن حمدان، عندما خلصه من الأسر الذي أسره الروم في منبج فاستفداه في الفداء الذي بينه وبين الروم، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وولاه على حمص. فلما مات سيف الدولة استوحش من أبي المعالي بعده ففارق حمص، ونزل في صدد، قرية في طرف البرية قريباً من حمص، فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وغيرهم، وبعثهم مع عرقوبة في طلبه فجاء إلى صدد، واستأمن له أصحاب أبي فراس، وكان في جملتهم فأمر به عرقوبة فقتل، واحتمل رأسه إلى أبي المعالي، وكان أبو فراس خاله.

أخبار أبي ثعلب مع إخوته بالموصل:

كان لناصر الدولة بن حمدان زوجة تسمى فاطمة بنت أحمد الكردية، وهي أم أبي ثعلب، وهي التي دبرت مع ابنها أبي ثعلب على أبيه فلما حبس ناصر الدولة، كاتب ابنه حمدان يستدعيه ليخلصه مما هو فيه. وظفر ابو ثعلب بالكتاب فنقل أباه إلى قلعة كواشي، واتصل ذلك بحمدان، وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة

من الرحبة إلى الرقة فملكها. ولما اتصل به شأن الكتاب سار إلى نصيبين، وجمع الجموع، وبعث إلى إخوته في الإفراج عن أبيهم فسار أبو ثعلب لحربه، وانهزم حمدان قبل اللقاء للرقة فحاصره أبو ثعلب أشهراً. ثم اصطلحا، وعاد كل منهما إلى مكانه. ثم مات ناصر الدولة في محبسه سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ودفن بالموصل. وبعث ابو ثعلب أخاه أبا البركات إلى حمدان بالرحبة فافترق عنه أصحابه، وقصد العراق مستجيراً ببختيار، فدخل بغداد في شهر رمضان من سنته ؛ وحمل إليه الهدايا . وبعث بختيار إلى أبي ثعلب النقيب أبا أحمد، والد الشريف الرضي في الصلح مع أخيه حمدان فصالحه، وعاد إلى الرحبة منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وفارقه أبو البركات، ثم استقدمه أبو ثعلب فامتنع من القدوم عليه، فبعث إليه أخاه أبا البركات ثانياً، في العساكر، فخرج حمدان إلى البرية، وترك الرحبة فملكها أبو البركات، واستعمل عليها. وسار إلى الرقة، ثم إلى عرابان. وخالفه حمدان إلى الرحبة فكبسها، وقتل أصحاب أبي ثعلب بها فرجع إليه أبو البركات، وتقاتلا فضرب أبا البركات على رأسه فشجه، ثم ألقاه إلى الأرض أسره ومات من يومه. وحمل إلى الموصل فدفن بها عند أبيه. وجهز أبو ثعلب إلى حمدان، وقدم أخاه أبا فراس محمداً إلى نصيبين، ثم عزله عنها لأنه داخل حمدان ومالأه عليه فاستدعاه وقبض عليه، وحبسه بقلعة ملاشي من بلاد الموصل فاستوحش أخواه إبراهيم والحسن، ولحقا بأخيهما حمدان في شهر رمضان، وساروا جميعاً إلى سنجار. وسار أبو ثعلب من الموصل في أثرهم في شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة فخاموا عن لقائه، واستأمن

إليه أخوا إبراهيم والحسن خديعة ومكراً فأمنهما، ولم يعلم، وتبعهما كثير من أصحاب حمدان. وعاد حمدان من سنجار إلى عرابان، واطلع أبو ثعلب على خديعة أخويه فهربا منه. ثم استأمن الحسن ورجع إليه، وكان حمدان أقام نائباً بالرحبة غلامه نجا، فاستولى على أمواله، وهرب بها إلى حران وبها سلامة البرقعيدي من قبل أبي ثعلب، فرجع حمدان إلى الرحبة. وسار أبو ثعلب إلى قرقيسيا، وبعث العساكر إلى الرحبة فعبروا الفرات، واستولوا عليها، ونجا حمدان بنفسه، ولحق بسنجار مستجيراً به، ومعه أخوه إبراهيم فأكرمهما ووصلهما، وأقاما عنده. ورجع أبو ثعلب إلى الموصل وذلك كله آخر سنة ستين وثلاثمائة.

خروج الروم إلى الجزيرة والشام:

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة دخل ملك الروم الشام فسار في نواحيها، ولم يجد من يدافعه فعاث في نواحي طرابلس، وكان أهلها قد أخرجوا عاملهم إلى عرقة لسوء سيرته فنهب الروم أمواله، ثم حاصر الروم عرقة فملكوها ونهبوها. ثم قصدوا حمص وقد انتقل أهلها عنها فأحرقوها، ورجعوا إلى بلاد السواحل، وملكوا منها ثمانية عشر بلداً، واستباحوا عامة القرى، وساروا في جميع نواحي الشام ولا مدافع لهم، إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم. ثم رجع ملك الروم مجمعا حصار حلب وأنْطاكِية، وبلغه استعدادهم فرحل عنهم إلى بلاده، ومعه من السبي مائة ألف رأس. وكان بحلب قرعويه مولى سيف الدولة فمانعهم، وبعث ملك الروم سراياه إلى الجزيرة فبلغوا كفرثوثا وعاثوا في نواحيها، ولم يكن من أبي ثعلب مدافعة لهم.

استبدال قرعويه بحلب:

كان قرعويه غلام سيف الدولة، وهو الذي أخذ البيعة لابنه أبي المعالي بعد موته،

فلما كان سنة ثمان وخمسين وثلثماية انتقض على أبي المعالي، وأخرجه من حلب، واستبد بملكها. وسار أبو المعالي إلى حران فمنعه أهلها فسار إلى والدته بميافارقين، وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس. ولحق أصحابه بأبي ثعلب، وبلغ أمه بميافارقين وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس أنه يريد القبض عليها فمنعته أياما من الدخول، حتى استوثقت لنفسها، وأذنت له ولمن رضيته، وأطلقت لهم الأرزاق، ومنعت الباقين وسار أبو المعالي لقتال قرعويه بحلب فامتنع عليه، ثم لحق أبو المعالي بحماة، وأقام بها وبقيت الخطبة بحران له ولا والي عليهم من قبله، فقدموا عليهم من يحكم بينهم.

مسير أبي ثعلب من الموصل إلى ميافارقين:

ولما سمع أبو ثعلب بخروج أبي المعالي من ميافارقين إلى حلب لقتال قرعويه، سار إليها وامتنعت زوجة سيف الدولة منه، واستقر الأمر بينهما على أن تحمل إليه مائتي ألف درهم. ثم نمي إليها أنه يحاول على ملك البلد فكبسته ليلاً، ونالت من معسكره فبعث إليها يلاطفها فأعادت إليه بعض ما نهب، وحملت إليه مائة ألف درهم، وأطلقت الأسارى فرجع عنها.

استيلاء الروم على أنْطاكِية ثم حلب وثم ملاذكرد:

وفي سنة تسع وخمسين خرج الروم إلى أنْطاكِية فمروا بحصن الوفاء بقربها، وهم نصارى فحاصروهم، واتفقوا على أن يرحلوا إلى أنْطاكِية، فاذا نزل الروم عليها ثاروا من داخل. وانتقل أهل الوفاء، ونزلوا بجبل أنْطاكِية. وجاء بعد شهرين أخو تعفور ملك الروم في أربعين ألفاً من جموع الروم، ونازل أنْطاكِية فأخلى له أهل الوفاء السور من ناحيتهم، وملكوا البلد وسبوا منها عشرين ألفاً. ثم أنفذ ملك الروم جيشاً

كثيفاً إلى حلب، وأبو المعالي بن سيف الدولة عليها يحاصرها ففارقها أبو المعالي، وقصد البرية وملك الروم حلب. وتحصن قرعويه وأهل البلد بالقلعة فحاصروها مدّة. ثم ضربوا الهدنة بينهم على، مال يحمله قرعويه، وعلى أن الروم إذا أرادوا الميرة من قرى الفرات لا يمنعونهم منها. ودخل في هذه الهدنة حمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر، وما بين ذلك من الحصون والقرى، وأعطاهم رهنهم على ذلك الروم، وأفرج الروم عن حلب. وكان ملك الروم قد بعث جيشاً إلى ملاذكرد من أعمال أرمينية فحاصروها، وفتحوها عنوة، ورعب أهل الثغور منهم في كل ناحية.

مقتل يعفور ملك الروم:

كان نقفور ملكاً بالقسطنطينية، وهي البلاد التي بيد بني عثمان لهذا العهد، وكان من يليها يسمى الدمشق. وكان يعفور هذا شديداً على المسلمين وهو الذي أخذ حلب أيام سيف الدولة وملك طرسوس والمسينة وعين زربه. وكان قتل الملك قبله وتزوج امرأته، وكان له منها إبنان فكفلهما يعفور وكان كثيراً ما يطرق بلاد المسلمين ويدوخها في ثغور الشام والجزيرة، حتى هابه المسلمون وخافوه على بلادهم. ثم أراد أن يجب ربيبيه ليقطع نسلهما ففرقت أمهما من ذلك، وأرسلت إلى الدمشق بن الشميشق وداخلته في قتله. وكان شديد

الخوف من يعفور. وهذا كان أبوه مسلماً من أهل طرسوس يعرف بابن العفاش، تنصر ولحق بالقسطنطينية. ولم يزل يترقى في الأطوار إلى أن نال من الملك ما ناله. وهذه غلطة ينبغي للعقلاء أن يتنزهوا عنها، ولا ينال الملك من كان عريقاً في السوقة، وفقيداً للعصابة بالكلية، وبعيداً عن نسب أهل الدولة، فقد تقدم من ذلك في مقدمه الكتاب ما فيه كفاية.

استيلاء أبي ثعلب على حران:

وفي منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، سار أبو ثعلب إلى حران وحاصرها نحواً من شهر، ثم جنح أهلها إلى مصالحته واضطربوا في ذلك، ثم توافقوا عليه وخرجوا إلى أبي ثعلب واعطوه الطاعة ودخل في إخوانه وأصحابه فصلى الجمعة، ورجع إلى معسكره. واستعمل عليهم سلامة البرقعيدي، وكان من أكابر أصحاب بني حمدان. وبلغه الخبر بأن نميراً عاثوا في بلاد الموصل، وقتلوا العامل ببرقعيد فأسرع العود.

مصالحة قرعويه لأبي المعالي:

قد تقدم لنا استبداد قرعويه بحلب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وخروج أبي المعالى بن سيف الدولة منها، وأنه لحق بأمه بميافارقين. ثم رجع لحصار قرعويه بحلب. ثم رجع إلى حمص ونزل بها. ثم وقع الإتفاق بينه وبين قرعويه، على ان يخطب له بحلب، ويخطبان جميعاً للمعز العلوي صاحب مصر.

مسير الروم إلى بلاد الجزيرة:

وفي سنة إحدى وستين سار الدمشق في جموع الروم إلى الجزيرة فأغار على الرها ونواحيها. ثم تنقل في نواحي الجزيرة، ثم بلغ نصيبين واستباحها ودوخها. ثم سار في ديار بكر ففعل فيها مثل ذلك. ولم يكن لأبي ثعلب في مدافعتهم أكثر من حمل المال إليهم، وسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وجلسوا إلى الناس في المساجد والمشاهد يصفون ما جرى على المسلمين، وخوفوهم عاقبة أمرهم فتدمهم أهل بغداد إلى دار الطائع الخليفة، وأرادوا الهجوم عليه فاغلقت دونهم الأبواب فأعلنوا بشتمه. ولحق آخرون من أهل بغداد ببختيار وهو بنواحي الكوفة يستغيثونه من الروم فوعدهم بالجهاد، وأرسل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهيز للغزو، وأن يستنفر العامة. وكتب إلى أبي ثعلب بن حمدان بإعداد الميرة والعلوفات والتجهيز، وانه عازم على الغزو. ووقعت بسبب ذلك فتنة في بغداد من قبل اشتغال العامة بذلك أدت إلى القتل والنهب بين عصائب الفتيان والعيارين.

أسر الدمشق وموته:

ولما فعل الدمشق في ديار مضر والجزيرة ما فعل، قوي طمعه في فتح آمد فسار إليه أبو ثعلب، وقدم أخاه أبا القاسم هبة الله واجتمعا على حرب الدمشق، ولقياه في رمضان سنة إثنتين وستين. وكانت الجولة في مضيق لا تتحرك فيه الخيل، وكان الروم على غير أهبة فانهزموا. وأخذ الدمشق أسيراً، فلم يزل محبوساً عند أبي ثعلب إلى أن مرض سنة ثلاث وستين، وبالغ في علاجه وجمع له الأطباء فلم ينتفع بذلك ومات.

استيلاء بختيار بن معز الدولة على الموصل وما كان بينه وبين أبي ثعلب:

قد تقدم لنا ما كان بين أبي ثعلب وأخويه حمدان وإبراهيم من الحروب، وأنهما سارا +إلى بختيار بن معز الدولة صريخين فوعدهما بالنصرة، وشغل عن ذلك بما كان فيه فأبطأ عليهما أمره، وهرب إبراهيم، ورجع إلى أخيه أبي ثعلب فتحرّك عزم بختيار على قصد الموصل، وأغراه وزيره ابن بقية لتقصيره في خطابه فسار، ووصل إلى الموصل في ربيع سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، ولحق أبو ثعلب بسنجار وأخلى الموصل من الميرة، ومن الدواوين. وخالف بختيار إلى بغداد، و لم يحدث فيها حدثا من نهب ولا غيره، وإنما قاتل أهل بغداد فحدثت فيها الفتنة بسبب ذلك بين عامتها. واضطرب أمرهم، وخصوصاً الجانب الغربي. وسمع بختيار بذلك فبعث في أثره وزيره ابن بقية وسبكتكين، فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتكين في الضاحية. وتأخر أبو ثعلب عن بغداد، وحاربه يسيراً. ثم داخله في الانتقاض واستيلاء سبكتكين على الأمر. ثم أقصر سبكتكين عن ذلك، وخرج إليه ابن بقية، وراسلوا أبا ثعلب في الصلح على

مال يضمنه ويرد على أخيه حمدان إقطاعه ما سوى ماردين، وكتبوا بذلك إلى بختيار. وارتحل أبو ثعلب إلى الموصل، وأشار ابن بقية على سبكتكين باللحاق ببختيار فتقاعد ثم سار. وارتحل بختيار عن الموصل بعد أن جهد منه أهل البلد بما نالهم من ظلمه وعسفه. وطلب منه أبو ثعلب الإذن في لقب سلطاني، وأن يحط عنه من الضمان فأجابه وسار. ثم بلغه في طريقه أن أبا ثعلب نقض وقتل بعضاً من أصحاب بختيار، عادوا إلى الموصل لنقل أهاليهم فاستشاط بختيار، واستدعى ابن بقية وسبكتكين في العساكر، وعادوا جميعاً إلى الموصل. وفارقها أبو ثعلب، وبعث أصحابه بالاعتذار، والحلف على إنكار ما بلغه فقبل، وبعث الشريف أبا أحمد الموسوي لاستحلافه. وتم الصلح، ورجع بختيار إلى بغداد فجهز ابنته إلى أبي ثعلب، وقد كان عقد له عليها من قبل.

عود أبي المعالي بن سيف الدولة إلى حلب:

قد تقدم لنا أن قرعويه مولى أبيه سيف الدولة كان تغلب عليه، وأخرجه من حلب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فسار إلى والدته بميافارقين. ثم إلى حماة فترلها، وكانت الروم قد أمنت حمص، وكثر أهلها. وكان قرعويه قد استناب بحلب مولاه بكجور فقوي عليه وحبسه في قلعة حلب، وملكها سنين فكتب أصحاب قرعرية إلى أبي المعالي واستدعوه فسار، وحاصرها أربعة أشهر، وملكها وأصلح أحوالها، وازدادت عمارتها حتى انتقل إلى ولاية دمشق كما يذكر.

استيلاء عضد الدولة بن بويه علي الموصل وسائر ملوك بني حمدان:

ولما ملك عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بغداد، وهزم بختيار ابن عمه معز الدولة، سار بختيار في الفل إلى الشام، ومعه حمدان بن ناصر الدولة أخو أبي ثعلب فحسن له قصد الموصل على الشام، وقد كان عضد الدولة عاهده أن لا يتعرض

لأبي ثعلب لمودة بينهما فنكث وقصدها.ولما انتهى إلى تكريت أتته رسل أبي ثعلب بالصلح، وأن يسير إليه بنفسه وعساكره، ويعيده على ملك بغداد على أن يسلم إليه أخاه حمدان فسلمه إلى رسل أبي ثعلب فحبسه،

وسار بختيار إلى الحديثة ولقي أبا ثعلب، وسار معه إلى العراق في عشرين الف مقاتل. وزحف نحوهما عضد الدولة، والتقوا بنواحي تكريت في شوال سنة ست وستين فهزمهما عضد الدولة، وقتل بختيار، ونجا أبو ثعلب إلى الموصل فاتبعه عضد الدولة، وملك الموصل في ذي القعدة، وحمل معه الميرة والعلوفات للإقامة. وبث السرايا في طلب أبي ثعلب ومعه المرزبان بن بختيار وأخواله أبو إسحق وظاهر إبنا معز الدولة، ووالدتهم.

وسار لذلك أبو الوفاء ظاهر بن إسمعيل من أصحابه. وسار حاجبه أبو ظاهر طغان إلى جزيرة ابن عمر، ولحق أبو ثعلب بنصيبين. ثم انتقل إلى ميافارقين فأقام بها. وبلغه مسير أبي الوفاء إليه ففارقها إلى تدليس. وجاء أبو الوفاء إلى ميافارقين فامتنعت عليه فتركها، وطلب أبا ثعلب فخرج من أرزن الروم إلى الحسينية من أعمال الجزيرة، وصعد إلى قلعة كواشي وغيرها من قلاعه. ونقل منها ذخيرته، وعاد فعاد أبو الوفاء إلى ميافارقين وحاصرها، واتصل بعضد الدولة مجيئه إلى القلاع فسار إليه، ولم يدركه، واستأمن إليه كثير من أصحابه. وعاد إلى الموصل وبعث قائده طغان إلى تفليس فهرب منها أبو ثعلب واتصل بملكهم المعروف بورد الرومي، وكان منازعاً لملكهم الأعظم في الملك فوصل ورد يده بيد أبي ثعلب، وصاهره ليستعين به واتبعه في مسيره عسكر عضد الدولة، وأدركوه فهزمهم وأثخن فيهم. ونجا فلّهم إلى حصن زياد، ويسمى خرت برت. وأرسل إلى ورد يستمده فاعتذر بما هو فيه، ووعده بالنصر. ثم انهزم ورد أمام ملك الروم فأيس أبو ثعلب من نصره، وعاد إلى بلاد الإسلام، ونزل بآمد حتى جاء خبر ميافارقين. وكان أبو الوفاء لما رجع من طلب أبي ثعلب حاصر ميافارقين، والوالي عليها هزارمرد فضبط البلد، ودافع أبا الوفاء ثلاثة أشهر. ثم مات وولى أبو ثعلب مكانه مؤنساً من موالي الحمدانية، ودس أبو الوفاء إلى بعض أعيان البلد فاستماله فبعث له في الناس رغبة. وشعر بذلك مؤنس فلم يطق مخالفتهم فانقاد واستأمن، وملك أبو الوفاء البلد، وكان في أيام حصاره قد افتتح سائر حصونه فاستولى على سائر

ديار بكر وأمن أصحاب أبي ثعلب، واحسن إليهم ورجع إلى الموصل. وبلغ الخبر إلى أبي ثعلب منقلبه من دار الحرب فقصد الرحبة. وبعث إلى عضد الدولة يستعطفه فشرط عليه المسير إليه فامتنع. ثم استولى عضد الدولة على ديار مضر، وكان عليها من قبل أبي ثعلب سلامة البرقعيدي من كبار أصحاب بني حمدان. وكان أبو المعالي بن سيف الدولة بعث إليها جيشاً من حلب فحاربوها وامتنعت عليهم، وبعث أبو المعالي إلى عضد الدولة، وعرض بنفسه عليه فبعث عضد الدولة النقيب أبا أحمد الموسوي إلى سلامة البرقعيدي، وتسلمها بعد حروب. وأخذ لنفسه منها الرقة، ورد باقيها على سعد الدولة فصارت له. ثم استولى عضد الدولة على الرحبة، وتفرغ بعد ذلك لفتح قلاعه وحصونه. واستولى على جميع أعماله، واستخلف أبا الوفاء على الموصل، ورجع إلى بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وستين. ثم بعث عضد الدولة جيشاً إلى الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فحاصروهم حتى استقاموا وسلموا قلاعهم، ونزلوا إلى الموصل فحال الثلج بينهم وبين بلادهم فقتلهم قائد الجيش، وصلبهم على جانبي طريق الموصل.

مقتل أبي ثعلب بن حمدان:

ولما أيس أبو ثعلب بن حمدان من إصلاح عضد الدولة، والرجوع إلى ملكه بالموصل وسار إلى الشام، وكان على دمشق قسّام داعية العزيز العلوي، غلب عليها بعد أفتكين، وقد تقدم ذلك، وكيف ولي أفتكين على دمشق. فخاف قسام من أبي ثعلب، ومنعه من دخول البلد فأقام بظاهرها، وكاتب العزيز، وجاء الخبر بأنه يستقدمه فرحل إلى طبرية بعد مناوشة حرب بينه وبين قسام. وجاء الفضل قائد العزيز لحصار قسام بدمشق، ومر بأبي ثعلب ووعده عن العزيز بكل جميل. ثم حدثت الفتنة بين دغفل وقسام وأخرجهم، وانتصروا بأبي ثعلب فنزل بجوارهم مخافة دغفل والقائد الذي يحاصر دمشق. ثم ثار أبو ثعلب في بني عقيل إلى الرملة في محرم سنة تسع وتسعين، فاستراب به الفضل ودغفل وجمعوا لحربه، ففر بنو عقيل عنه، وبقي في سبعمائة من غلمانه وغلمان أبيه، وولى منهزماً فلحقه الطلب فوقف يقاتل، فضرب وأسر وحمل إلى دغفل، وأراد الفضل حمله إلى العزيز فخاف دغفل أن يصطنعه كما فعل

بأفتكين فقتله،وبعث الفضل بالرأس إلى مصر. وحمل بنو عقيل أخته جميلة، وزوجته بنت سيف الدولة إلى أبي المعالي بحلب فبعث بجميلة إلى الموصل، وبعث بها أبو الوفاء إلى عضد الدولة ببغداد فاعتقلها.

وصول ورد المنازع لملك الروم إلى ديار بكر مستجيراً:

كان ملك الروم أرمانوس لما توفي خلف ولدين صغيرين ؛ وهما بسيل وقسطنطين، ونصب أحدهما للملك، وعاد حينئذ الدمشق يعفور من بلاد الإسلام بعد أن عاث في نواحيها وبالغ في النكاية، فاجتمع إليه الروم، ونصبوه للنيابة عن إبني أرمانوس فداخلت أمهما ابن الشميشق على الدمشقية، وقبض على لاوون أخي دمشق، وعلى ابنه ورديس بن لاوون واعتقلهما في بعض القلاع. وسار إلى بلاد الشام وأعظم فيها النكاية. ومرّ بطرابلس فحاصرها، وكان لوالده الملك أخ خصي وهو يومئذ وزير فوضع على ابن الشميشق من سقاه السم، وأحس به من نفسه فأغذ السير إلى القسطنطينية فمات في طريقه. وكان ورد بن منير من عظماء البطارقة في الأمر، وصاهر أبا ثعلب بن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور، وقصد الروم ووالى عليهم الهزائم فخافه الملكان، وأطلقا ورديس بن لاوون، وبعثاه على الجيوش لقتال الورد فقاتله فانهزم ورد إلى ديار بكر سنة تسع وستين وثلاثمائة، ونزل بظاهر ميافارقين، وبعث أخاه إلى عضد الدولة مستنصراً به. وبعث ملكا الروم بالقسطنطينية إلى عضد الدولة فاستمالاه فرجح جانبهما، وأمر بالقبض على ورد وأصحابه فقبض عليه أبو علي التميمي عامل ديار بكر، وعلى ولده وأخيه وأصحابه وأودعهم السجن بميافارقين، ثم بعثهم إلى بغداد فحبسوا بها إلى أن أطلقهم بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وشرط عليه إطلاق عدد من المسلمين، وإسلام سبعة من الحصون برساتيقها، وأن لا يتعرض لبلاد المسلمين ما عاش. وجهزه فسار وملك في طريقه ملطية وقوي بما فيه، وصالحه ورديس بن لاوون علي أن يكون قسطنطينية وجانب الشمال من الخليج له وحاصر قسطنطينية، وبها الملكان إبنا أرمانوس، وهما بسيل

وقسطنطين في ملكها، وأقرّا وردا على ما بيده قليلاً. ثم مات وتقدم بسيل في الملك، ودام عليه ملكه، وحارب البلغار خمساً وثلاثين سنة، وظفر بهم وأجلاهم عن بلادهم وأسكنها الروم.

ولاية بكجور على دمشق:

قد قدمنا ولاية بكجور على حمص لأبي المعالي بن سيف الدولة، وأنه عمرها، وكان أهل دمشق ينتقلون إليها لما نالهم من جور قسام، وما وقع بها من الغلاء والوباء، وكان بكجور يحمل الأقوات من حمص تقرباً إلى العزيز صاحب مصر، وكاتبه في ولايته فوعده بذلك. ثم استوحش من أبي المعالي سنة ثلاث وسبعين، وأرسل إلى العزيز يستنجز وعده في ولاية دمشق فمنع الوزير بن كلس من ولايته ريبة به، وكان بدمشق من قبل العزيز القائد بلكين بعثه فمنع الوزير بعد قسام، وساء أثر ابن كلس في الدولة، واجتمع الكتاميون بمصر على التوثب بابن كلس، ودعته الضرورة لاستقدام بلكين من دمشق فأمر العزيز باستقدامه، وولى بكجور مكانه فداخلها في رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وأساء السيرة فيها، وعاث في أصحاب الوزير بن كلس، وأقام على ذلك ستاً.وعجز أهل دمشق منه، وجهزت العساكر من مصر مع القائد منير الخادم، وكوتب نزال والي طرابلس بمعاضدته فسار في العساكر، وجمع بكجور عسكراً من العرب وغيرهم، وخرج للقائه فهزمه منير واستأمن إليه بكجور على أن يرحل عن دمشق فأمنه، ورحل إلى الرقة واستولى عليها، وتسلم منير دمشق، وأقام بكجور بالرقة واستولى على الرحبة وما يجاور الرقة وراسل بهاء الدولة بن عضد الدولة بالطاعة وباد الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل بالمسير إليه، وأبا المعالي سعد الدولة صاحب حلب بالعود إلى طاعته على أن يقطعه حمص، فلم يجبه أحد إلى شيء فأقام بالرقة يراسل موالي سعد الدولة أبي المعالي، ويستميلهم في الغدر به فأجابوه، وأخبروه أن أبا المعالي مشغول بلذاته فاستمد حينئذ العزيز، فكتب إلى نزال بطرابلس وغيره من ولاة الشام أن يمدوه ويكونوا في تصرفه.ودس إليهم عيسى بن نسطورس النصراني وزير العزيز في المباعدة عنه لعداوته مع ابن كلس الوزير قبله،

وتجديدها مع ابن منصور هذا فكتب نزال إلى بكجور يواعده بذلك في يوم معلوم، وأخلفه وسار بكجور من الرقة، وبلغ خبر مسيره إلى أبي المعالي فسار من حلب، ومعه لؤلؤ الكبير مولى أبيه، وكتب إلى بكجور يستميله ويذكره الحقوق، وأن يقطعه من الرقة إلى حمص فلم يقبل. وكتب أبو المعالي إلى صاحب أنْطاكِية يستمده فأمده بجيش الروم، وكتب إلى العرب الذين مع بكجور يرغبهم في الأموال والإقطاع فوعدوه خذلان بكجور عند اللقاء.فلما التقى العسكراًن، وشغل الناس بالحرب، عطف العرب على سواد بكجور فنهبوه، ولحقوا بأبي المعالي فاستمات بكجور وحمل على موقف أبي المعالي يريده، وقد أزاله لؤلؤ عن موقفه، ووقف مكانه خشية عليه. وحمل ذلك فلما انتهى بكجور لحملته برز إليه. لؤلؤ وضربه فأثبته. وأحاط به أصحابه فولى منهزماً. وجاء بعضهم إلى أبي المعالي فشارطه على تسليمه إليه فقبل شرطه، وأحضره فقتله وسار إلى الرقة وبها سلامة الرشقي مولى بكجور وأولاده وأبو الحسن علي بن الحسين المغربي وزيره فاستأمنوا إليه فأمنهم، ونزلوا عن الرقة فملكها، واستكثر ما مع أولاد بكجور فقال له القاضي ابن أبي الحصين: هو مالك، وبكجور لا يملك شيئاً، ولا حنث عليك. فاستصفى مالهم أجمع، وشفع فيهم العزيز فأساء عليه الردّ، وهرب الوزير المغربي إلى مشهد علي.

خبرباد الكردي ومقتله على الموصل:

كان من الأكراد الحميدية بنواحي الموصل، ومن رؤسائهم رجل يعرف، بباد وقيل باد لقب له، وإسمه أبو عبد الله الحسين بن ذوشتك، وقيل باد إسمه وكنيته أبو شجاع بن ذوشتك. وإنما أبو عبد الله الحسين أخوه. وكان له بأس وشدة، وكان يخيف السابلة، ويبذل ما تجمع له من النهب في عشائره فكثرت جموعه. ثم سار إلى مدينة أرمينية فملك مدينة أرجيش. ثم رجع إلى ديار بكر فلما ملك عضد الدولة الموصل، حضر عنده في جملة الوفود وخافه على نفسه فعدا وأبعد في مذهبه، وبلغ عضد الدولة أمره فلم يظفر به. ولما هلك عضد الدولة سار باد إلى ديار بكر فملك آمد وميافارقين. ثم ملك نصيبين فجهز صمصام الدولة العساكر إليه مع الحاجب أبي القاسم سعيد بن محمد فلقيه على خابور الحسينية من بلاد كواشي فانهزم الحاجب وعساكره، وقتل كثير من الديلم.ولحق الحاجب سعيد بالموصل، وباد في اتباعه. وثارت عامة الموصل بالحاجب لسوء سيرته فأخرجوه، ودخل باد الموصل سنة ثلاث وسبعين، وقوي أمره وسما إلى طلب بغداد. وأهم صمصام الدولة أمره ونظر مع وزيره ابن سعدان في توجيه العساكر إليه، وأنفذ كبير القواد زياد بن شهرا كونه. فتجهز لحربه، وبالغوا في مدده وإزاحة علله فلقيهم في صفر سنة أربع وسبعين. وانهزم باد وقتل كثير من أصحابه، وأسر آخرون، وطيف بهم في بغداد. واستولى الديلم على الموصل، وأرسل زياد القائد عسكراً إلى نصيبين فاختلفوا على مقدمهم. وكتب ابن سعدان وزير صمصام الدولة إلى أبي المعالي بن حمدان صاحب حلب يومئذ بولاية ديار بكر، وإدخالها في عمله، فسير إليه أبو المعالي عسكره إلى ديار بكر فلم يكن لهم طاقة بأصحاب باد، فحاصروا ميافارقين أياماً، ورجعوا إلى حلب.وبعث سعد الحاجب من يتولى غدر باد فدخل عليه رجل في خيمته، وضربه بالسيف على ساقه يظنها رأسه فنجا من الهلكة. ثم بعث باد إلى زياد القائد، وسعد الحاجب بالموصل بطلب الصلح فأتمروا بينهم على أن تكون ديار بكر لباد، والنصف من طور عبدين. فخلصت ديار بكر لباد من يومئذ، وانحدر زياد القائد إلى بغداد. وأقام سعد الحاجب بالموصل إلى أن توفي سنة سبع وسبعين فطمع باد في الموصل، وبعث إليها شرف الدولة بن بويه أبا نصر خواشاده في العساكر، فزحف إليه باد، وتأخر المدد عن أبي نصر فبعث عن العرب من بني عقيل وبني نمير لمدافعة باد، وأقطعهم البلاد. واستولى باد على طور عبدين آخر الجبال ولم يضجر، وأرسل أخاه في عسكر لقتال العرب فقتل، وانهزم عسكره، وأقام باد قبالة خواشاده حتى جاء الخبر بموت شرف الدولة بن بويه، فزحف خواشاده إلى الموصل، وقامت العرب بالصحراء وباد بالجبال.

عود بني حمدان إلى الموصل ومقتل باد:

كان أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسن إبنا ناصر الدولة بن حمدان قد لحقا بعد مهلك أخيهما أبي ثعلب بالعراق، وكانا ببغداد، واستقرا في خدمة شرف الدولة بن عضد الدولة، فلما تولى شرف الدولة وخواشاده في الموصل بعثهما إليها ثم أنكر ذلك

عليه أصحابه فكتب إلى خواشاده عامل الموصل فمنعهما فكتب إليهما بالرجوع عنه فلم يجيبا، وأغذا السير إلى الموصل حتى نزلا بظاهرها. وثار أهل الموصل بالديلم والأتراك الذين عندهم وخرجوا إلى بني حمدان. وزحف الديلم لقتالهم فانهزموا، وقتل منهم خلق، وامتنع باقيهم بدار الإمارة ومن معه على الأمان إلى بغداد،وملكوا الموصل.وتسايل إليهم العرب من كل ناحية. وأراد أهل الموصل استلحامهم فمنعهم بنو حمدان، وأخرجوا خواشاده وبلغ الخبر إلى باد وهو بديار بكر بملك الموصل ، وجمع فاجتمع إليه الأكراد البشنوية أصحاب قلعة فسك، وكان جمعهم كثيراً. واستمال أهل الموصل بكتبه فأجابه بعضهم، فسار ونزل على الموصل، وبعث أبو طاهر وأبو عبد الله إبنا حمدان إلى أبي عبد الله محمد بن المسيب أمير بني عقيل يستنصرانه. وشرط عليهما جزيرة ابن عمر ونصيبين فقبلا شرطه. وسار أبو عبد الله صريخاً، وأقام أخوه أبو طاهر بالموصل، وباد يحاصره. وزحف أبو الرواد في قومه مع أبي عبد الله بن حمدان، وعبروا دجلة عند بدر، وجاؤا إلى باد من خلفه. وخرج أبو طاهر والحمدانية من أمامه، والتحم القتال، ونكب بباد فرسه فوقع طريحاً، ولم يطق الركوب، وجهض العدو عنه أصحابه فتركوه فقتله بعض العرب، وحمل رأسه إلى بني حمدان ورجعوا ظافرين إلى الموصل، وذلك سنة ثمانين وثلاثمائة.

مهلك أبي طاهر بن حمدان واستيلاء بني عقيل علي الموصل:

لما هلك باد طمع أبو طاهر وأبو عبد الله إبنا حمدان في استرجاع ديار بكر، وكان أبو علي بن مروان الكردي، وهو ابن أخت باد قد خلص من المعركة، ولحق بحصن كيفا، وبه أهل باد وماله، وهو من أمنع المعاقل فتزوج إمرأة خاله واستولى على ماله وعلى الحصن. وسار في ديار بكر فملك ما كان لخاله فيها تليداً. وبينما هو يحاصر ميافارقين زحف إليه أبو طاهر وأبو عبد الله إبنا حمدان يحاربانه فهزمهما، وأشر عبد الله منهما. ثم أطلقه ولحق بأخيه أبي طاهر وهو يحاصر آمد فزحفا لقتال ابن مروان فهزمهما، وأسر أبا عبد الله ثانية إلى أن شفع فيه خليفة مصر فأطلقه، واستعمله الخليفة على حلب إلى

أن هلك. وأما أبو طاهر فلحق بنصيبين في فل من أصحابه، وبها أبو الدرداء محمد بن المسيب أمير بني عقيل. وسار إلى الموصل فملكها وأعمالها، وبعث إلى بهاء الدولة أن ينفذ إليه عاملاً من قبله فبعث إليها قائداً كان تصرفه عن أبي الدرداء، ولم يكن له من الأمر شيء إلى أن استبد أبو الدرداء، واستغنى عن العامل، وانقرض ملك بني حمدان من الموصل والبقاء لله.

ملك سعد الدولة بن حمدان بحلب وولاية ابنه أبي الفضائل واستبداد لؤلؤ عليه:

ولما هزم سعد الدولة مولاه بكجور، وقتله حين سار إليه من الرقة، رجع إلى حلب فأصابه فالج وهلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. وكان مولاه لؤلؤ كبير دولته فنصب ابنه أبا الفضائل، وأخذ له العهد على الاجناد، وتراجعت إليهم العساكر. وبلغ الخبر أبا الحسن المغربي وهو بمشهد علي فسار إلى العزيز بمصر، وأغراه بملك حلب فبعث إليها قائده منجوتكين في العساكروحاصرها،ثم ملك البلد، واعتصم أبو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة، وبعث أبو الفضائل ولؤلؤ إلى ملك الروم يستنجدانه، وكان مشغولاً بقتال البلغار فأرسل إلى نائبه بأنْطاكِية

أن يسير إليهم، فسار في خمسين الفاً، ونزل جسر الحديد على وادي العاصي فنفر إليه منجوتكين في عساكر المسلمين، وهزم الروم إلى أنْطاكِية، واتبعهم فنهب بلادها وقراها وأحرقها. ونزل أبو الفضائل ولؤلؤ من القلعة إلى مدينة حلب فنقل ما فيها من الغلال، وأحرق الباقي. وعاد منجوتكين إلى حصارهم بحلب.وبعث لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي في الوساطة لهم في الصلح فصالحهم منجوتكين، ورحل إلى دمشق حجراً من الحرب وتعذر الأقوات. ولم يراجع العزيز في ذلك فغضب العزيز، وكتب إليه يوبخه ويأمره بالعود لحصار حلب فعاد وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً. فبعث أبو الفضائل ولؤلؤ مراسلة لملك الروم وحرضوه على أنْطاكِية، وكان قد توسط بلاد البلغار فرجع عنها وأجفل في الحشد، ورجع إلى حلب. وبلغ الخبر إلى منجوتكين فأجفل عنها بعد أن أحرق خيامه، وهدم مبانيه، وجاء ملك الروم. وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ فشكرا له ورجعا، ورحل ملك الروم إلى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبهما. وحاصر طرابلس فامتنعت عليه فأقام بها أربعين ليلة، ثم رحل عائداً إلى بلده.

انقراض بني حمدان بحلب واستيلاء بني كلاب عليها:

ثم إن أبا نصر لؤلؤاً مولى سيف الدولة عزل أبا الفضائل مولاه بحلب، وأخذ البلد منه ومحا دعوة العباسية، وخطب للحاكم العلوي بمصر، ولقبه مرتضى الدولة. ثم فسد حاله معه فطمع فيه بنو كلاب بن ربيعة، وأميرهم يومئذ صالح بن مرداس وتقبض لؤلؤ على جماعة منهم دخلوا إلى حلب، كان فيهم صالح فاعتقله مدة وضيق عليه. ثم فر من محبسه ونجا إلى أهله، وزحف إلى حلب ولؤلؤ فيها ؛ وكانت بينه وبينهم حروب هزمه صالح آخرها، وأسره سنة ستين وأربعمائة. وخلص أخوه نجا إلى حلب فحفظها، وبعث إلى صالح في فدية أخيه وشرط له ما شاء فأطلقه، ورجع إلى حلب واتهم مولاه فتحاً، وكان نائبه على القلعة بالمداخلة في هزيمته فأجمع نكبته. ونمي إليه الخبر فكاتب الحاكم العلوي وأظهر دعوته، وانتقض على لؤلؤ فأقطعه الحاكم صيدا وبيروت، ولحق لؤلؤ بالروم في أنْطاكِية فأقام عندهم. ولحق فتح بصيدا. واستعمل الحاكم على حلب من قبله، وانقرض أمر بني حمدان من الشام والجزيرة أجمع. وبقيت حلب في ملك العبيديين. ثم غلب عليها صالح بن مرداس الكلابي، وكانت بها دولة له ولقومه، وورثها عنه بنوه كما يذكر في أخبارهم.

دولة بني عقيل

الخبر عن دولة بني عقيل بالموصل وابتداء

أمرهم بأبي الدرداء وتصاريف أحوالهم

كان بنو عقيل وبنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة، وكفهم من عامر بن صعصعة وبنو طيء من كهلان قد انتشروا ما بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات. وكانوا كالرعايا لبني حمدان يؤدون إليهم الأتاوات وينفرون معهم في الحروب. ثم استفحل أمرهم عند فشل دولة بني حمدان، وساروا إلى ملك البلاد. ولما انهزم أبو طاهر بن

حمدان أمام أبي علي بن مروان بديار بكر كما قدمناه سنة ثمانين وثلاثمائة، ولحق بنصيبين، وقد استولى عليها أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد بن جعفر بن عمر بن مهند، أمير بني عقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر، فقتل أبا طاهر وأصحابه، وسار إلى الموصل فملكها. وبعث إلى بهاء الدولة بن بويه المستبد. على الخليفة بالعراق، في أن يبعث عاملاً من قبله، والحكم راجع لأبي الدرداء. وأقام على ذلك سنتين. وبعث بهاء الدولة سنة إثنتين وثمانين عساكره إلى الموصل مع أبي جعفر الحجاج بن هرمز فغلب عليها أبا الدرداء، وملكها. وزحف لحربه أبو الدرداء في قومه، ومن اجتمع إليه من العرب فكانت بينهم حروب ووقائع، وكان الظفر فيها للديلم.

مهلك أبي الدرداء وولاية أخيه المقلد:

ثم مات أبو الدرداء سنة ست وثمانين وولي إمارة بني عقيل مكانه أخوه عليّ بعد أن تطاول إليها أخوهما المقلد بن المسيب، وامتنع بنو عقيل لأن علياً كان أسن منه فصرف المقلد وجهه إلى ملك الموصل، واستمال الديلم الذين فيها مع أبي جعفر بن هرمز فمالوا إليه، وكتب إلى بهاء الدولة أن يضمنه الموصل بألفي ألف درهم كل سنة. ثم أظهر لأخيه علي وقومه أن بهاء الدولة قد ولاه واستمدهم فساروا معه، ونزلوا على الموصل، وخرج إلى المقلد من كاد استماله من الديلم واستأمن إليهم أبو جعفر قائد الديلم فأمنوه، وركب السفن إلى بغداد، واتبعوه فلم يظفروا منه بشيء، وتملك المقلد ملك الموصل.

فتنة المقلد مع بهاء الدولة بن بويه:

كان المقلد يتولى حماية غربي الفرات، وكان له ببغداد نائب فيه تهور وجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة. وكاد بهاء الدولة مشغولاً بفتنة أخيه، فكتب نائب المقلد إليه يشكو من أصحاب بهاء الدولة، فجاء في العساكر، وأوقع بهم، ومد يده

إلى جباية الأموال. وخرج نائب بهاء الدولة ببغداد، وهو أبو علي بن إسمعيل عن ضمان القصر وغيره فغالط بهاء الدولة، وأنفذ أبا جعفر الحجاج بن هرمز للقبض على أبي علي بن إسمعيل ومصالحة المقلد بن المسيب، فصالحه على أن يحمل إلى بهاء الدولة عشرة آلاف دينار ويخطب له ولأبي جعفر بعده، ويأخذ من البلاد رسم الحماية، وأن يخلع على المقلد الخلع السلطانية، وبلقب حسام الدولة، ويقطع الموصل والكوفة والقصر والجامعين وجلس له ولأبي جعفر القادر بالله فاستولى على البلاد، وقصده الأعيان والأماثل، وعظم قدره. وقبض أبو جعفر على أبي علي بن إسمعيل ثم هرب ولحق بمهذب الدولة.

القبض على عليّ بن المسيب

كان المقلد بن المسيب قد وقعت المشاجرة بين أصحابه وأصحاب أخيه في الموصل قبل مسيره إلى العراق فلما عاد إلى الموصل، أجمع الإنتقام من أصحاب أخيه. ثم نوى أنه لا يمكنه ذلك مع أخيه فأعمل الحيلة في قبض أخيه، وأحضر عسكره من الديلم والأكراد. وورى بقصر دقوقا واستحلفهم على الطاعة. ثم نقب دار أخيه، وكانت ملاصقة له. ودخل إليه فقبض عليه، وحبسه وبعث زوجته وولديه قرواش وبدران إلى كربت.

واستدعى رؤساء العرب وخلع عليهم، وأقام فيهم العطاء فاجتمعت له زهاء ألفي فارس، وخرجت زوجة أخيه بولديها إلى أخيها الحسن بن المسيب، وكانت أحياؤه قريباً من تكريت فاستجاش العرب على المقلد، وسار إليه في عشرة آلاف فخرج المقلد عن الموصل، واستشار الناس في محاربة أخيه. فأشار رافع بن محمد بن معز بالحرب، وأشار أخوه غريب بن محمد بالموادعة، وصلة الرحم. وبينما هو في ذلك إذ جاءت أخته رميلة بنت المسيب شافعة في أخيها عليّ فأطلقه، ورد عليه ماله وتوادع الناس، وعاد المقلد إلى الموصل، وتجهز لقتال علي بن مزيد الأسدي بواسط، لأنه كان مغضباً لأخيه الحسن، فلما قصد الحلة خالفه علي إلى الموصل فدخلها. وعاد إليه المقلد، وتقدمه أخوه الحسن مشفقاً عليه من كثرة جموع المقلد فأصلح ما بينهما، ودخل المقلد إلى الموصل وأخواه معه. ثم خاف علي فهرب: ثم وقع الصلح بينهما على أن يكون أحدهما بالبلد. ثم هرب علي فقصده المقلد ومعه بنو خفاجة فهرب إلى العراق، واتبعه المقلد فلم يدركه ورجع عنه. ثم سار المقلد إلى بلد علي بن مزيد فدخله ثانية، ولحق ابن مزيد بمهذب الدولة صاحب البطيحة فأصلح ما بينهما.

استيلاء المقلد علي دقوقا:

ولما فرغ المقلد من شأن أخويه وابن مزيد، وسار إلى دقوقا فملكها. وكانت لنصرانيين قد استعبدا أهلها وملكها من أيديهما جبريل بن محمد من شجعان بغداد أعانه عليها مهذب الدولة صاحب البطيحة وكان مجاهداً يحب الغزو فملكها، وقبض على النصرانيين وعدل في البلد. ثم ملكها المقلد من يده، وملكها بعده محمد بن نحبان، ثم بعده قرواش بن المقلد. ثم انتقلت إلى فخر الملك أبي غالب فعاد جبريل، واستجاش بموشك بن حكويه من أمراء الأكراد. وغلب عليها عمال فخر الدولة. ثم جاء بدران بن المقلد فغلب جبريل وموشك عليها وملكها.

مقتل المقلد وولاية ابنه قرو اش:

كان للمقلد موال من الأتراك فهربوا منه، واتبعهم فظفر بهم، وقتل وقطع وأفحش في المثلة فخاف إخوانهم منه، واغتنموا غفلته فقتلوه فيها بالأنبار سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة. وكان قد عظم شأنه، وطمع في ملك بغداد. ولما قتل كان ولده الأكبر قرواش غائباً وكانت أمواله بالأنبار فخاف نائبه عبد الله بن إبراهيم بن شارويه بادرة عمّه الحسن، وراسل أبا منصور بن قراد وكان بالسندية، وقاسمه في مختلف المقلد على أن يدافع الحسن إن قصده، فأجابه إلى ذلك، وأرسل عبد الله إلى

قرواش يستحثه فوصل، ووفى لابن قراد بما عاهده عليه نائبه عبد الله، وأقام ابن قراد عنده. ثم إن الحسن بن المسيب جاء إلى مشايخ بني عقيل شاكياً مما فعله قرواش وابن قراد عنده، فسعوا بينهم في الصلح، واتفق الحسن وقرواش على الغدر بابن قراد، وأن يسير أحدهما إلى الأخر متحاربين فإذا تلاقيا قبضا على ابن قراد ففعلا ذلك. فلما تراءى الجمعان نمي الخبر إلى ابن قراد فهرب واتبعه قرواش والحسن و لم يدركاه، ورجع قرواش إلى بيوته فأخذها بما فيها من الأموال، فوجه الأموال إلى أن أخذها ابو جعفر الحجّاج بن هرمز.

فتنة قرواش مع بهاء الدولة بن بويه:

ولما كانت سنة إثنتين وتسعين وثلاثمائة بعث قرواش بن المقلّد جمعاً من بني عقيل إلى المدائن فحصروها فبعث أبو جعفر بن الحجاج بن هرمز نائب بهاء الدولة ببغداد عسكراً اليهم فدفعوهم عنها، فاجتمعت عقيل وبنو أسد، وأميرهم علي بن مزيد. وخرج أبو جعفر إليهم، واستجاش بخفاجة، واحضرهم من الشام فانهزم واستبيح عسكره، وقتل وأسر من الأتراك والديلم كثير. ثم جمع العساكر ثانياً، ولقيهم بنواحي الكوفة فهزمهم، وقتل وأسر، وسار إلى أحياء بني مزيد، ونهب منها ما لا يقدر قدره. ثم سار قرواش إلى الكوفة سنة سبع وتسعين، وكانت لأبي علي بن ثمال الخفاجي، وكان غائباً عنها فدخل قرواش الكوفة وصادرهم. ثم قتل أبو علي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وكان الحاكم صاحب مصر قد ولاه الرحبة فسار إليها . وخرج إليه عيسى بن خلاط العقيلي فقتله وملكها. ثم ملكها بعده غيره إلى أن ولي امرها صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب.

قبض قرواش علي وزرائه:

كان معتمد الدولة قرواش بن المقلّد قد استوزره أبا القاسم الحسين بن عليّ بن الحسين المغربي، وكان من خبره أنّ أباه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان فذهب عنه

إلى مصر وولي بها الأعمال. وولد ابنه أبا القاسم، ونشأ هنالك، ثم قتله الحاكم فلحق أبو القاسم بحسّان بن مفرج بن الجرّاح الطائي بالشام، وأغراه بالانتقاض والبيعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر صاحب مكة ففعل ذلك. ولم يتم أمر أبي الفتوح، ورجع إلى مكة. ولحق أبو القاسم المغربي بالعراق، واتصل بفخر الملك فارتاب به القادر لانتسابه إلى العلوية فأبعده فخر الملك، فقصد قرواش بالموصل فاستوزره. ثم قبض عليه سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وصادره على مال زعم أنه ببغداد والكوفة فأحضره، وترك سبيله فعاد إلى بغداد ووزر لشرف الدولة بن بويه بعد وزيره مؤيد الملك الرجيحي، وكان مداخلاً لعنبر الخادم الملقب بالأثير المستولي على الدولة يومئذ.ثم سخطه الأتراك وسخطوا الأبهر فأشار عليه بالخروج عن بغداد، فخرج الوزير وأبو القاسم معه إلى السندية وبها قرواش فأنزلهم، وساروا إلى أوانا. وبعث الأتراك إلى الأثير عنبر بالاستعتاب فاستعتب، ورجع وهرب أبو القاسم المغربي إلى قرواش سنة خمس عشرة واربعمائة لعشرة أشهر من وزارته. ثم وقعت فتنة بالكوفة كان منشؤها من صهره ابن أبي طالب فأرسل الخليفة إلى قرواش في إبعاده عنه فأبعده، وسار إلى ابن مروان إلى ديار بكر، وهنالك يذكر بقية خبره. ثم قبض معتمد الدولة قرواش على أبي القاسم سليمان بن فهر عامل الموصل له ولأبيه، وكان من خبره أنه كان يكتب في حداثته بين يدي أبي إسحق الصابي، ثم اتصل بالمقلد بن المسيّب، وأصعد معه إلى الموصل واقتنى بها الضياع. ثم استعمل قرواش على الجبايات فظلم أهلها وصادرهم فحبسه، وطالبه بالمال فعجز وقتل.

حرب قرواش مع العرب وعساكر بغداد:

وفي سنة إحدى عشرة واربعمائة اجتمع العرب على فتن قرواش، وسار إليه دبيس

ابن علي بن مزيد الأسديّ وغريب بن معن، وجاءهم العسكر من بغداد فقاتلوه عند سرّمن رأى، ومعه رافع بن الحسين فانهزم، ونهبت أثقاله وخزائنه، وحصل في أسرهم، وفتحوا تكريت عنوة من أعماله. ورجعت عساكر بغداد إليها. واستجار قرواش بغريب بن معن فأطلقه، ولحق بسلطان بن الحسن من عمّال أمير خفاجه، واتبعه عسكر من الترك وقاتلهم غربي الفرات، وانهزم هو وسلطان، وعاث العسكر في أعماله فبعث إلى بغداد بمراجعة الطاعة وقبل. ثم كانت الفتنة بينه وبين أبي أسد وخفاجة سنة سبع عشرة واربعمائة، لأن خفاجه تعرضوا لأعماله بالسواد فسار إليهم من الموصل، وأميرهم أبو الفتيان منيع بن حسّان فاستجاش بدبيس بن علي بن مزيد فجاءه في قومه بني أسد، وعسكر من بغداد، والتقوا بظاهر الكوفة، وهو يومئذ لقرواش فخام قرواش عن لقائهم، وأجفل ليلاً للأنبار. واتبعوه فرحل عنها إلى حلله، واستولى القوم على الأنبار وملكوها. ثم فارقوها وافترقوا فاستعادها قرواش.

ثم كانت الحرب بينه وبين عقيل في هذه السنة، وكان سببها ان عنبر الخادم حاكم دولة بني بويه انتقض عليه الجند، وخافهم على نفسه فلحق بقرواش فجاء قرواش وأخذ له أقطاعه وأملاكه بالقيروان، فجمع مجد الدولة بن قراد ورافع بن الحسين جمعاً كبيراً من بني عقيل، وانضم إليهم بدران أخو قرواش وساروا لحربه. وقد اجتمع هو وغريب بن معن والأثير عنبر، وأمدّهم ابن مروان فكانوا في ثلاثة عشر ألفا، والتقوا عند بلدهم فلما تصافوا والتحم القتال، خرج بدران بن المقلد إلى أخيه قرواش فصالحه وسط المصاف، وفعل ثوران بن قراد كذلك مع غريب بن معن فتوادعوا جميعاً واصطلحوا. وأعاد قرواش إلى أخيه بدران مدينة الموصل.

ثم وقعت الحرب بين قرواش وين خفاجة ثانياً. وكان سببها أن منيع بن حسان أمير خفاجه وصاحب الكوفة سار إلى الجامعين بلد دبيس، ونهبها فخرج دبيس في طلبه إلى الكوفة فقصد الأنبار، ونهبها هو وقومه فسار قرواش إليهم ومعه غريب بن معن ، الأنبار. ثم مضى في اتباعهم إلى القصر فخالفوه إلى الأنبار ونهبوها وأحرقوها. واجتمع قرواش ودبيس في عشرة آلاف، وخاموا عن لقاء خفاجه فلم يكن من قرواش الإ بناء السور على الأنبار. ثم سار منيع بن حسان الخفاجي إلى الملك كيجار، والتزم

الطاعة، وخطب له بالكوفة وأزال حكم بني عقيل عن سقي الفرات. ثم سار بدران بن المقلد في جموع من العرب إلى نصيبين، وحاصرها وهي لنصير الدولة بن مروان فجهز لهم الجند، وبعثهم إليها فقاتلوا بدران فانهزم أولاً ثم عطف عليهم فانهزموا وأثخن فيهم، وبلغه الخبر أن أخاه قرواش قد وصل إلى الموصل فأجفل خوفاً منه.

استيلاء الغز علي الموصل:

كان هؤلاء الغزّ من شعوب الترك بمفازة بخارى، وكثر فسادهم في جهاتها فأجاز إليهم محمود بن سبكتكين، وهرب صاحب بخارى، وحضر عنده أميرهم أرسلان بن سلجوق فقبض عليه، وحبسه بالهند، ونهب أحياءهم وقتل كثيراً منهم فهربوا إلى خراسان وأفسدوا ونهبوا فبعث إليهم العساكر فأثخنوا فيهم، وأجلوهم عن خراسان. ولحق كثير منهم بأصبهان، وقاتلوا صاحبها، وذلك سنة عشرين وأربعمائة. ثم افترقوا فسارت طائفة منهم إلى جبل بكجار عند خوارزم، ولحقت طائفة أخرى بأذربيجان، وأميرها يومئذ وهشوذان

فأكرمهم، ووصلهم ليكفوا عن فسادهم فلم يفعلوا. وكان مقدموهم أربعة: توقا وكوكناش ومنصور ودانا فدخلوا مراغة سنة تسع وعشرين، ونهبوها وأثخنوا في الأكراد الهدبائه، وسارت طائفة منهم إلى الري فحاصروها، وأميرها علاء الدين بن كاكويه، واقتحموا عليه البلد وافحشوا في النهب والقتل، وفعلوا كذلك في الكرخ وقزوين.

ثم ساروا إلى أرمينية، وعاثوا في نواحيها وفي أكرادها. ثم عاثوا في الدينور سنة ثلاثين. ثم أوقع وهشوذان صاحب تبريز لجماعة منهم في بلده وكانوا ثلاثين، ومقدمهم فضعف الباقون، وأكثر فيهم القتل. واجتمع الغز الذين بأرمينية، وساروا نحو بلاد الأكّراد الهكارية من أعمال الموصل فأثخنوا فيهم، وعاثوا في البلاد. ثم كر عليهم الأكراد فنالوا منهم وافترقوا في الجبال وتمزقوا. وبلغهم مسير نيال أخي السلطان طغرلبك، وهم في الريّ، وكانوا شاردين منه فأجفلوا من الريّ، وقصدوا ديار بكر والموصل سنة ثلاث وثلاثين. ونزلوا جزيرة ابن عمر، ونهبوا باقردى وبازندى والحسنية. وغدر سليمان بن نصير الدولة بن مروان بأمير منهم، وهو منصور بن عزعنيل فقبض عليه وحبسه، وافترق أصحابه في كل جهة.

وبعث نصير الدولة بن مروان عسكراً في اتباعهم، وأمدهم قرواش صاحب الموصل عسكر آخر ؛ وانضم إليهم الأكراد البثنوية ، صحاب فتك فأدركوهم فاستمات الغز وقاتلوهم. ثم تحاجزوا، وتوجهت العرب إلى العراق للمشتى، وأخرجت الغز ديار بكر، ودخل قرواش الموصل ليدفعهم عنها لما بلغه أن طائفة منهم قصدوا بى ه. فلما نزلوا برقعيد عزم على الإغارة عليهم فتقدموا إليه فرجع إلى مصانعتهم بالمال على ما شرطوه.

وبينما هو يجمع لهم المال وصلوا إلى الموصل فخرج قرواش في عسكره، وقاتلهم عامة يومه. وعادوا للقتال من الغد فانهزمت العرب وأهل البلد، وركب قرواش سفينة في الفرات، وخلف جميع ماله. ودخل الغز البلد ونهبوا ما لا يحصى من المال والجوهر والحلى والأثاث. ونجا قرواش إلى السند، وبعث إلى الملك جلال الدولة يستنجده، وإلى دبيس علي بن مزيد وأمراء العرب والأكراد يستمدهم. وأفحش الغزّ في أهل الموصل قتلاً ونهباً وعيثاً في الحرم. وصانع بعض الدروب والمحال منها عن أنفسهم بمال ضمنوه فكفوا عنهم، وسلموا.

وفرضوا على أهل المدينة عشرين ألف دينار فقبضوها ؛ ثم فرضوا أربعة آلاف أخر وشرعوا في تحصيلها فثار بهم أهل الموصل، وقتلوا من وجدوا منهم في البلد. ولما سمع اخوانهم اجتمعوا ودخلوا البلد عنوة منتصف سنة خمس وثلاثين، ووضعوا السيف في الماس واستباحوها اثني عشر يوماً، وانسدت الطرق من كثرة القتلى حتى واروهم جماعات في الحفائر. وطلبوا الخطبة للخليفة ثم لطغرلبك، وطال مقامهم بالبلد فكتب الملك جلال الدولة بن بويه، ونصير الدولة بن مروان إلى السلطان طغرلبك يشكون امنهم، فكتب إلى جلال الدولة معتذرا بأنهم كانوا عبيدا وخدما لنا، فأفسدوا في جهات الري فخافوا على أنفسهم وشردوا. ويعده بأنه يبعث العساكر إليهم، وكتب إلى نصير الدولة بن مروان يقول له: بلغني أن عبيدنا قصدوا بلادك فصانعتهم بالمال، وأنت صاحب ثغور ينبغي أن تعطي ما تستعين به على الجهاد، ويعده أنه يرسل من يدفعهم عن بلاده.

ثم سار دبيس بن مزيد إلى قرواش مددا، واجتمعت إليه بنو عقيل، وساروا من السن إلى الموصل فتأخر الغز إلى تل أعفر، وأرسلوا إلى أصحابهم بديار بكر ومقدمتهم ناصفلي ولوقا فوصلوا إليهم، وتزاحفوا مع قرواش في رمضان سنة خمس وثلاثين فقاتلوهم إلى الظهر، وكشفوا العرب عن حللهم. ثم استماتت العرب فانهزمت الغز وأخذهم السيف. ونهب العرب أحياءهم، وبعثوا برؤوس القتلى إلى

بغداد، واتبعهم قرواش إلى نصيبين ورجع عنهم. وقصدوا ديار بكر فنهبوها. ثم أرزن الروم كذلك، ثم أذربيجان ؛ ورجع قرواش إلى الموصل.

استيلاء بدران بن المقلد علي نصيبين:

قد تقدّم لنا محاصرة بدران نصيبين ورحيله عنها من أخيه قرواش. ثم اصطلحا بعد ذلك واتفقا وتزّوج نصير الدولة ابنة قرواش فلم يعدل بينها وبين نسائه، وشكت إلى أبيها فبعث عنها. ثم هرب بعض عمّال ابن مروان إلى قرواش، وأطمعه في الجزيرة فتعلل عليه قرواش بصداق إبنته، وهو عشرون ألف دينار. وطلب الجزيرة ونصيبين لأخيه بدران فامتنع ابن مروان من ذلك، فبعث قرواش جيشاً لحصار الجزيرة وآخر مع أخيه بدران لحصار نصيبين. ثم جاء بنفسه وحاصرها مع أخيه، وامتنعت عليه. وتسلّلت العرب والأكراد إلى نصير الدولة بن مروان بميّافارقين. وطلب منه نصيبين فسلمها إليه، وأعطى قرواش من صداق امة خمسة عشر ألف دينار. وكان ملك ابن مروان في دقوقا فزحف إليه أبو الشوك من أمراء الأكراد فحاصره بها، وأخذها من يده عنوة وعفا عن أصحابه. ثم توفي بدران سنة خمس وعشرين، وجاء ابنه عمر إلى قرواش فأقره على ولاية نصيبين، وكان بنو نمير قد طمعوا فيها وحاصروه فسار إليهم ودافعهم عنها.

الفتنة بين قرواش وغريب بن معن:

كانت تكريت لابي المسّيب رافع بن الحسين من بني عقيل فجمع غريب جمعاً من العرب والأكراد، وأمده جلال الدولة بعسكر، وسار إلى تكريت فحاصرها. وكان رافع بن الحسين عند قرواش بالموصل فسار لنصره بالعساكر، ولقيه غريب في نواحي تكريت فانهزم، واتبعه قرواش ورافع، ولم يتعرّضوا لمحلّته وماله. ثم تراسلوا واصطلحوا.

فتنة قرواش وجلال الدولة وصلحهما:

كان قرواش قد بعث عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار خميس بن ثعلب بتكريص، واستجار خميس بجلال الدولة فبعث إليه بالكف عنه فلم يفعل فسار بنفسه يحاصره، وكتب إلى الأتراك ببغداد يستفسدهم عن جلال الدولة. وسار جلال الدولة إلى الأنبار، فامتنعت عليه. وسار قرواش للقائه، وأعوزت عساكر جلال الدولة الأقوات. ثم اختلفت عقيل على قرواش، وبعث إلى جلال الدولة بمعاودة الطاعة فتحالفا وعاد كل إلى بلده.

ملوك القسطنطينية

اخبار ملوك القسطنطينية لهذه العصور

كان بسيل وقسطنطين قد تزوج أبوهما أمّ هما في يوم عيد، ركب إلى الكنيسة فرآها في النظارة فشغف بها. وكان أبوها من أكابر الروم فخطبها منه، وتزوّجها وولدت الولدين ومات أبوهما وهما صغيران. وتزوّجت بعده بمدة نقفور، وملك وتصرف، وأراد أن يجبّ ولديها. وأغرت الدمستق بقتله فقتله وتزوّجت به. وأقامت معه سنة، ثم خافها وأخرجها بولديها إلى دير بعيد فأقامت فيه سنة أخرى. ثم دلست إلى بعض الرهبان ليقتل الدمستق فأقام بكنيسة الملك يتحيل لذلك، حتى جاء الملك واستطعمه القربان في العيد من يده، فدسّ له معه سماً ومات. وجاءت هي قبل العيد بليال إلى القسطنطينية فملك ولدها بسيل واستبدّت عليه لصغره. فلما كبر سار لقتال البلغار في بلادهم، وبلغه وهو هنالك وفاتها فأمر خادماً له بتدبير الأمر في غيبته بالقسطنطينية. وأقام في قتال البلغار اربعين سنة.

ثم انهزم وعاد إلى القسطنطينية، وتجهز ثانية، وعاد إليهم فظفر بهم، وقتل ملكهم، وملك بلادهم. ونقل أهلها إلى بلاد الروم. قال ابن الأثير: وهؤلاء البلغار الذين ملك بلادهم بسيل غير الطائفة المسلمة

منهم، وهؤلاء أقرب من أولئك إلى بلاد الروم بصمهرين، وكلاهما بلغار انتهى. وكان بسيل عادلا حسن السيرة، وملك على الروم نيفاً وسبعين سنة. ولما مات الملك أخوه قسطنطين. ثم مات وخلّف بناتاً ثلاثاً فملكت الكبرى وتزوّجت بأرمانوس من بيت ملكهم، وهو الذي ملك الرّها من المسلمين. وكان له من قبل الملك رجل يخدمه من السوقة الصيارفة اسمه ميخاييل فاستخلصه، وحكمه في دولته فمالت زوجة أرمانوس إليه. وأعملا الحيلة في قتل الملك أرمانوس فقتلاه خنقاً، وتزوجته على كره من الروم. ثم عرض لميخاييل هذا مرض شوه خلقته فعهد بالملك إلى ابن أخيه واسمه ميخاييل، فملك بعده، وقبض على أخواله واخوتهم، وضرب الدنانير باسمه سنة ثلاثين وأربعمائة.

ثم أحضر زوجته بنت الملك، وحملها على الرهبانية والخروج له عن الملك، وضربها ونفاها إلى جزيرة في البحر. ثم اعتزم على قتل البطرك للراحة من تحكمه فأمره بالخروج إلى الدير لعمل وليمة يحضرها عنده، وأرسل جماعة من الروم وبلغار لقتله، فبذل لهم البطرك مالا على الإبقاء، ورجع إلى بيعته، وحمل الروم على عزل ميخاييل فأرسل إلى زوجته الملكة من الجزيرة التي نفاها إليها فلم تفعل، وأقبلت على رهبانيتها فخلعها البطرك من الملك. وملكت اختها الصغيرة بدرونة، وأقاموا من خدم أبيها من يدبر ملكها، وخلعوا ميخاييل، وقاتل أشياعه أشياع بدرونة فظفر بهم أشياع بدرونة ونهبوهم، وفزع الروم إلى التماس ملك يدبرهم، وقارعوا بين المرشحين فخرجت القرعة على قسطنطين فملكوه، وتزوجته الملكة الكبرى، ونزلت لها الصغيرة عن الملك سنة أربع وثلاثين. ثم خرج خارجي من الروم اسمه ميناس، وكثر جمعه، وبلغ عشرين ألفاً. وجهز قسطنطين إليه العساكر فقتلوه، وسيق رأسه إليه، وافترق أصحابه. ثم ورد على القسطنطينية سنة خمس وثلاثين مراكب للروم، ووقعت منها محاورات نكرها الروم فحاربوهم، وكانوا قد فارقوا مراكبهم إلى البرّ فأحرقوها وقتلوا الباقين.

الوحشة بين قرواش والأكراد:

كان للأكراد عدّة حصون تجاور الموصل ؛ فمنها للحميديّة قلعة العقر وما إليها،

وصاحبها أبو الحسن بن عكشان، وللهدبانية قلعة إربل وأعمالها، وصاحبها أبو الحسن بن موشك، ونازعه أخوه أبو علي بن أربل فأخذها منه بإعانة ابن عكشان، وأسر أخاه أبا الحسن. وكان قرواش وأخوه زعيم الدولة أبو كامل مشغولين بالعراق فنكرا ذلك لّما بلغهما، ورجعا إلى الموصل فطلب قرواش من الحميديّ والهدباني النجدة على نصير الدولة بن مروان، فجاء الحميدي بنفسه. وبعث الهدباني أخاه، وأصلح قرواش ونصير الدولة. ثم قبض على عكشان وصالحه على إطلاق أبي الحسن بن موشك، وامتنع أخوه أبو علي، وكان عكشان عوناً عليه فأجاب ورهن في ذلك ولده. ثم أرسل أبا علي في ذلك الأمر، وحضر بالموصل ليسلّم أربل إلى أخيه أبي الحسن، وسلم قرواش إليه قلاعه. وخرج ابن عكشان وأبو علي ليسلّما إربل إلى أبي الحسن بن موشك فغدرا به، وقبضا على أصحابه، وهرب هو إلى الموصل وتأكدت الوحشة بينهما وبين قرواش.

خلع قرواش بأخيه أبي كامل ثم عوده:

ثم وقعت الفتنة بين معتمد الدولة وقرواش وأخيه زعيم الدولة أبي كامل، وكان سببها أن قريشاً ابن أخيهما بدران فتن عمّه أبا كامل، وجمع عليه الجموع، وأعانه عمّه الاخر. واستمد قرواش بنصير الدولة بن مروان فبعث إليه بابنه سليمان. وأمدّه الحسن بن عكشان وغيرهما من الأكراد وساروا إلى معلابا فنهبوها وأحرقوها. ثم اقتتلوا في المحرم سنة إحدى وأربعين يوماً وثانياً، ووقفت الأكراد ناحية عن المصاف، ولم يغشوا المجال. وتسلل عن قرواش بعض جموعه من العرب إلى أخيه، وبلغه أنّ شيعة أخيه أبي كامل بالأنبار، وثبوا فيها وملكوها فضعف أمره، وأحس من نفسه الظهور عليه. ولم يبرح فركب أخوه أب وكامل، وقصد حلته فركب قرواش للقائه، وجاء به أبو كامل لحلته. ثم بعث به إلى الموصل ووكّل به، وملك أبو كامل الموصل، واشتطّ عليه

العرب فخاف العجز والفضيحة أن يراجعوا طاعة أخيه فسبقهم إليها، وأعاده إلى ملكه، وبايعه على الطاعة. ورجع قرواش إلى ملكه. وكان أبو كامل قد أحدث الفتنة بين البساسيري كافل الخلافة ببغداد، وملك الأمراء بها لما فعله بنو عقيل في عراق العجم من التعرض لاقطاعة فسار إليهم الساسيدي، وجمع أبو كامل بن عقيل، ولقيه فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم حاجزوا فلما رجع قرواش إلى مكة نزع جماعة من أهل الأنبار إلى البساسيري شاكرين شاكين سيرة قرواش، وطلبوا أن يبعث معهم عسكراً وعاملاً إلى بلدهم ففعل ذلك، وملكها من يد قرواش وأظهر فيهم العدل.

خلع قرواش ثانية واعتقاله:

كان قرواش لّما أطاعه أخوه أبو كامل بقي معه كالوزير يتصرّف، إلا أن قرواش أنف من ذلك، وأعمل الحيلة في التخلّص منه فخرج من الموصل سائراً إلى بغداد. وشقّ ذلك على أخيه أبي كامل فأرسل إليه أعيان قومه ليردّوه طوعاً أو كرهاً فلاطفوه أوّلاً، وشعر منهم بالدخيلة فأجاب إلى العود؟ وشرط سكنى دار الإمارة. فلما جاء إلى أبي كامل بمبرّته وإكرامه، ووكّل به من يمعنه التصرّف.

وفاة أبي كامل وولاية قريش بن بدران:

لما ملك قريش بن بدران وحبس عمه بقلعة الجراحّية ارتحل يطلب العراق سنة أربع وأربعين فانتقض عليه أخوه المقلّد، وسار إلى نور الدولة دبيس بن مزيد فنهب قريش حلله، وعاد إلى الموصل. واختلف العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بنواحي العراق. ثم استمال قريش العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بن المسيّب صاحب الحظيرة مخالفاً عليه. وبعث قريش بعض أصحابه فلقيهم، وأوقع بهم فسار إليه قريش، ولقيه فهزمه واتبعه إلى حلل بلاد ابن غريب ونهبها، ودخل العراق. وبعث إلى عمّال الملك الرحيم

بالطاعة، وضمان ما كان عليه في أعماله فأجابوه إلى ذلك لشغل الملك الرحيم بخوزستان فاستقر أمره وقوي.

وفاة قرواش: وفي سنة أربع وأربعين هذه توفي معتمد الدولة أبو منيع قرواش بن

المقلد بمحبسه في قلعة الجراحية، وحمل إلى الموصل، ودفن بها ببلد نينوى شرقيها، وكان من رجال العرب.

استيلاء قريش علي الأنبار:

وفي سنة ست وأربعين زحف قريش بن بدران من الموصل ففتح مدينة الأنبار، وملكها من يد عماك البساسيري. وسار البساسيري إلى الأنبار فاستعادها.

حرب قريش بن بدران والبساسيري ثم اتفاقهما وخطبة قريش لصاحب مصر:

كان قريش بن بدران قد بعث بطاعته إلى طغرلبك وهو بالري، وخطب له بجميع أعماله، وقبض على الملك الرحيم. وكان قريش معه فنهب معسكره واختفى، وسمع به السلطان فأمنه، ووصل إليه فأكرمه ورده إلى عمله. وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم عند مسيره من واسط إلى بغداد، ومسير طغرلبك من حلوان. وقصد نور الدولة دبيس بن مزيد للمصاهرة بينهما. وكان سبب مفارقه البساسيري للملك الرحيم كتاب القائم له بابعاده لاطلاعه على كتابه إلى خليفة مصر، فلما وصل قريش بن بدران إلى بغداد، وعظم استيلاء السلطان طغرلبك على الدولة، بعث جيشا، وزحف البساسيري للقائهم ومعه نور الدولة دبيس فالتقوا بسنجار، فانهزم قريش وقطلمش وأصحابهما، وقتل كثير منهم. وعاث أهل سنجار فيهم، وسار بهم إلى الموصل، وخطب بها للمستنصر خليفة مصر، وقد كانوا بعثوا إليه بطاعتهم من قبل فبعث إليهم بالخلع ولقريش جملتهم.

استيلاء طغرلبك علي الموصل وولاية أخيه نيال عليها ومعاودة قريش الطاعة:

كان السلطان طغرلبك لما طال مقامه ببغداد، ساء أثر عساكره في الرعايا، فبعث القائم وزيره رئيس الرؤساء أن يحضر عميد الملك المكندريّ وزير طغرلبك ويعظه في ذلك، ويهدده برحيل القائم عن بغداد فبلغه خلال ذلك شأن الموصل، فرحل إليها، وحاصر تكريت ففتحها، وقبل من صاحبها نصر بن عيسى من بمي عقيل ما لا بد له منه. ورحل عنه فمات نصر، وولي بعده أبو الغنائم بن البحلبان فأصلح حاله مع رئيس الرؤساء، ورحل السلطان من البواريح، وكان في انتظار أخيه ياقوتي بن تنكير. ثم توجه السلطان إلى نصيبين، وبعث

هزارسب إلى البرّية لقتال العرب، وفيهم قريش ودبيس وأصحاب حران والرقة من نمير فأوقع بهم، ونال منهم، وأسر جماعة فقتلهم.

وعاد إلى السلطان طغرلبك، فبعث إليه قريش ودبيس بطاعتهما، وأن يتوسط لهما عند السلطان فعفا السلطان عنهما، وقال البساسيري: ردهما إلى الخليفة فيرى ما عندهما. فرحل البساسيري عند ذلك إلى الرحبة، وتبعه أتراك بغداد، ومقبل بن المقلد، وجماعة من بني عقيل. وبعث السلطان إلى قريش ودبيس هزارسب بن تنكير ليقضي ما عندهما ويحضرهما، وكان ذلك بطلبهما. ثم خافا على أنفسهما فبعث قريش أبا اليد هبة الله بن جعفر، ودبيس ابنه بهاء الدولة منصوراً فقبلهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما. وكان لقريش من الاعمال: الموصل ونصيبين وتكريت وأوانا ونهر بيطر وهيت والأنبار وبادرونا ونهر الملك. ثم قصد السلطان ديار بكر، ووصل إليه أخوه إبراهيم نيال، وأرسل هزارسب إلى قريش ودبيس يحذرهما منه. وسار لسنجار لأجل واقعته مع قريش ودبيس فبعث العساكر إليها واستباحهم وقتل أميرها علي بن مرحا وخلق كثير من أهلها رجالا ونساء، وشفع إبراهيم نيال في الباقين فكف

عنهم، وأقطع سنجار والموصل وتلك الاعمال كلها لأخيه إبراهيم نيال، وعاد إلى بغداد فدخلها في ذي القعدة سنة تسع وأربعين.

مقارنة نيال الموصل وما كان لقريش فيها

وفي بغداد مع البساسيري وحبسهما القائم:

شفي سنة خمسين وأربعمائة خرج إبراهيم نيال من الموصل إلى بلاد الروم، فخشي طغرلبك أن يكون منتقضاً، وبادر بكتابه وكتاب الخليفة إليه، فرجع وخرج الوزير الكندري للقائه. وخالفه البساسيري وقريش إلى الموصل فملكها، وحاصر القلعة حتى استأمن أهلها على يد ابن موسك وصاحب أربد فأمّناهم، وهدما القلعة. وسار السلطان طغرلبك من وقته إلى الموصل ففارقها، واتبعها إلى نصيبين ففارقه أخوه نيال في رمضان سنة خمسين. وسار السلطان طغرلبك في أثره، وحاصره بهمذان، وجاء البساسيري إلى بغداد. وكان هزارست بواسط، ودبيس ببغداد قد استدعاه الخليفة للدفاع فسئم المقام، ورجع إلى بلده. وجاء البساسيري وقريش ووزير بني بويه أبو الحسن بن عبد الرحيم ونزلوا بجوانب بغداد، ونزل عميد العراق بالعسكر قبالة البساسيري، ورئيس الرؤساء وزير الخليفة قبالة الآخرين.

وخطب البساسيري للمستنصر صاحب مصر بجوامع بغداد، واذّن بحيّ على خير العمل. ثم استعجل رئيس الرؤساء الحرب فاستنجده القوم، ثم كرّوا عليه فهزموه واقتحموا حريم الخلافة، وملكوا القصور بما فيها، وركب الخليفة فوجد عميد العراق قد استأمن إلى قريش بن بدران فاستأمن هو كذلك، وأمّنهما قريش وأعادهما، وعذله البساسيري في الانفراد بذلك دونه، وقد تعاهدا على خلاف ذلك فاستعتب له بالوزير رئيس الرؤساء، ودفعه إليه. وأقام الخليفة والعميد عنده فقتل البساسيري الوزير ابن عبد الرحيم، وبعث قريش

بالخليفة القائم مع ابن عمّه مهارش بن نجلى إلى حديثة عانة فأنزله بها مع أهله وحرمه وحاشيته؟ حتى إذا فرغ السلطان

طغرلبك من أمر أخيه نيال، وقتله، ورجع إلى بغداد بعث البساسيري وقريش في إعادة القائم إلى داره فامتنع، وأجفل عن بغداد في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين.

وشمل النهب مدينة بغداد وضواحيها من بني شيب ن وغيرهم وبعث السلطان طغرلبك الإمام أبا بكر محمد بن فورك إلى قريش ابن بدران يشكره على فعله بالخليفة وبابنة أخته زوجة الخليفة ارسلان خاتون، وأنه بعث ابن فورك لإحضارهما وكتب قريش إلى مهارش ابن عمه بأن يلحق به هو والخليفة في البرية فأبى، وسار الخليفة إلى العراق، وجعل طريقه على الريّ ومرّ ببدر، ابن مهلهل فخدم القائم، وخرج السلطان للقاء الخليفة، وقدم إليه الأموال والآلات، وعرضه أرباب الوظائف، ولقيه بالنهروان، وجاء معه إلى قصره كما تقدّم في أخباره.

وبعث السلطان خبارتكين الطّغرائيّ في العساكر لاتباع البساسيري والعرب، وجاء إلى الكوفة، واستصحب سرايا ابن منيع ببني. خفاجة، وسار السلطان في أثرهم، وصبحت السرية البساسيري في حلّة دبيس بن يزيد فنهبوها، وفرّ دبيس، وقاتل البساسيري وأصحابه فقتل في المعركة.

وفاة قريش في بدل ان وولاية ابنه مسلم:

ثم توفي قريش بن بدران سنة ثلاث وخمسين ودفن بنصيبين، وجاء فخر الدولة أبو نصر بن محمد بن جهير من دارا وجمع بني عقيل على ابنه أبي المكارم مسلم بن قريش فولّوه عليهم، واستقام أمره، وأقطعه السلطان سنة ثمان وخمسين الأنبار وهيت وحريم والسن والبواريح، ووصل إلى بغداد فركب الوزير بن جهير في المركب للقائه. ثم سار سنة ستين وأربعمائة إلى الرحبة فقاتل بها بني كلاب وهم في طاعة المستنصر العلويّ فهزمهم وأخذ أسلابهم، وبعث بأشلائهم، وعليها سمات العلوية فطيف بها منكسة ببغداد.

استيلاء مسلم بن قريش علي حلب:

وفي سنة إثنتين وسبعين سار شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل إلى

مدينة حلب فحاصرها، ثم افرج عنها فحاصرها تتش بن ألبارسلان، وقد كان ملك الشام سنة إحدى وسبعين قبلها فأقام عليها أياماً. ثم أفرج عنها وملك بزاغة والبيرة، وبعث أهل حلب إلى مسلم بن قريش بأن يمكّنوه من بلدهم، ورئيسها يومئذ ابن الحسين العبّاسيّ فلما قرب منهم امتنعوا من ذلك فترصد لهم بعض التركمان، وهو صاحب حصن بنواحيها. وأقام كذلك أياماً حتى صادف ابن الحسين يتصيد في ضيعته فأسره، وبعث به إلى مسلم بن قريش فأطلقه على أن يسلموا له البلد فلما عاد إلى البلد تم له ذلك، وسلم له البلد فدخله سنة ثلاث وسبعين وحصر القلعة، واستترل منها سابغاً ووثاباً إبني محمد بن مرداس، وبعث ابنه إبراهيم، وهو ابن عمّة السلطان، إلى السلطان يخبره بملك حلب وسال أن يقدر عليه ضمانه فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع ابنه محمداً مدينة بالس. ثم سار مسلم إلى حرّان وأخذها من بني وثاب النميريّين وأطاعه صاحب الرها ونقش السكة باسمه.

حصار مسلم بن قريش دمشق وعصيان أهل حران عليه:

وفي سنة ست وسبعين سار شرف الدولة إلى دمشق فحاصرها وصاحبها تتش فخرج في عسكره، وهزم مسلم بن قريش فارتحل عنها راجعاً إلى بلاده. وقد كان استمد أهل مصر فلم يمدّوه. وبلغه الخبر بأنّ أهل حران نقضوا الطاعة وأن ابن عطيّة وقاضيها ابن حلية عازمان على تسليم البلد للترك فبادر إلى حرّان، وصالح في طريقه ابن ملاعب صاحب حمص وأعطاه سليمة ورفسة، وحاصر حران وخرب أسوارها واقتحمها عنوة وقتل القاضي وابنه.

حرب ابن جهير مع مسلم بن قريش واستيلاؤه علي الموصل ثم عودها إليه:

كان فخر الدولة أبو نصر محمد بن أحمد بن جهير من أهل الموصل، واتصل بخدمة بني المقلد. ثم استوحش من قريش بن بدران، واستجار ببعض رؤساء بني عقيل فأجاروه منه. ومضى إلى حلب فاستوزره معز الدولة أبو ثمال بن صالح. ثم فارقه إلى نصير الدولة بن مروان بديار بكر فاستوزره. ولما عزل القائم وزيره أبا الفتح محمد بن منصور بن دارس استدعاه للوزارة فتحيّل في المسير إلى بغداد، واتبعه ابن مروان فلم يدركه. ولما وصل إلى بغداد استوزره القائم سنة أربع وخمسين، وطغرلبك يومئذ هو السلطان المستبد على الخلفاء. واستمرّت وزارته، وتخلّلها العزل في بعض المرات إلى أ ن مات القائم، وولي المقتدي، وصارت السلطنة إلى ملك شاه فعزله المقتدي سنة إحدى وسبعين، بشكوى نظام الملك إلى الخليفة به وسؤاله عزله فعزله. وسار ابنه عميد الدولة إلى نظام الملك بأصفهان واستصلحه، وشفع فيه إلى المقتدي فأعاد ابنه عميد الدولة. ثم عزله سنة ست وسبعين فبعث السلطان ملك شاه ونظام الملك إلى المقتدي بتخلية سبيل بني جهير إليه فوفدوا عليه بأصفهان، ولقوا منه مبّرةً وتكرمة.

وعقد السلطان ملك شاه لفخر الدولة على ديار بكر، وبعث معه العساكر، وأمره أن يأخذ البلاد من ابن مروان، وأن يطب لنفسه بعد السلطان، وينقش إسمه على السكة كذلك فسار لذلك، وتوسط ديار بكر. ثم أردفه السلطان سنة سبع وسبعين بالعساكر مه الأمير أرتق جد الملوك بماردين لهذا العهد، وكان ابن مروان عندما أحس بمسير العساكر إليه، بعث إلى شرف الدولة مسلم بن قريش يستنجده على أن يعطيه آمد من أعماله فجا. إلى امد، وفخر الدولة بنواحيها، وقد ارتاب من اجتماع العرب على نصرة بن مروان ففتر عزمه عق لقائهم. وسارت عساكر الترك الذين معه فصبحوا العرب في أحيائهم فانهزموا وغنموا أموالهم ومواشيهم، ونجا شرف الدولة إلى آمد، وحاصره فخر الدولة فيمن ما من العساكر .

وبعث مسلم بن قريش إلى الأمير أرتق يغضي عنه في الخروج من آمد على مال بذله له فاغضى له وخرج إلى الرقة وسار أحمد بن جهير إلى ميّافارقين

بلد ابن مروان لحصارها ففارقه بهاء الدولة منصور بن مزيد وابنه سيف الدولة صدقة إلى العراق، وسار ابن جهير إلى خلاط وكان السلطان ملك شاه لما بلغه انحصار مسلم بن قريش بآمد بد عميد الدولة اقسنقر جدّ الملك العادل محمود في عساكر الترك، ولقيهم الأمير أرتق طريقهم سائراً إلى العراق فعاد معهم وجاؤوا إلف

الموصل فملكوها. وسار السلطان عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش وانتهى إلى البواريح وقد خلمى مسلم بن قريش الحصار بآمد، ووصل إلى الرّحبة وقد ملكت عليه الموصل، وذهبت أمواله فراسل مؤيد الملك بن نظام الملك فتوسل به فتقبل وسيلته وأذن له في الوصول إلى السلطان بعد أن أعطاه من العهد ما رضي به. وسار مسلم بن قريش من الرّحبة فأحضره مؤيد الملك عند السلطان، وقدّم هديّة فاخرة من الخيل وغيرها، ومن جملتها فرسه الذي نجا عليه، وكان لا يجارى فولع من السلطان موقعا وصالحه وأقره على بلاده فرجع إلى الموصل، وعاد السلطان إلى ما كان بسبيله.

مقتل مسلم بن قريش وولاية ابنه إبراهيم:

قد قدّمنا ذكر قطلمش قريب السلطان طغرلبك، وكان سار إلى بلاد الروم فملكها واستولى على قونية واقصر اي، ومات فملك مكانه ابنه سليمان، وسار إلى أنْطاكِية سنة سبع وسبعين وأربعمائة وأخذها من يد الروم كما نذكر في أخباره. وكان لشرف الدولة مسلم بن قريش بانطاكيه جزية يؤدّيها إليه صاحبا القردروس من زعماء الروم، فلما ملكها سليمان بن قطلمش بعث إليه يطالبه بتلك الجزية، ويخوفه معصية السلطان فأجابه بأني على طاعة السلطان، وأمري فيها غير خفي، وأمّا الجزية فكانت مضروبة على قوم كفّار يعطونها عن رؤوسهم، وقد أدال الله منهم بالمسلمين ولا جزية عليهم فسار شرف الدولة، ولهب جهات أنْطاكِية. وسار سليمان فنهب جهات حلب، وشكت عليه الرعايا فردّ عليهم. ثم جمع شرف الدولة جموع العرب وجموع التركق، وسار إلى أنْطاكِية فسار سليمان للقائه، والتقيا في أعمال أنْطاكِية في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائه . ولما التقوا مال الأمير جق بمن

معه من التركمان إلى سليمان فاختلّ مصاف مسلم بن قريش، وانهزمت العرب عنه، وثبت فقتل في اربعمائة من أصحابه، وكان ملكه تد اتسع من نهر عيسى وجميع ما كان لأبيه وعمّه قرواش من البلاد. وكانت أعماله في غاية الخصب والأمن، وكان حسن السياسة كثير العدل. ولما قتل مسلم اجتمع بنو عقيل وأحرجوا أخاه إبراهيم من محبسه، بعد أن مكث فيه سنين مقيّداً حتى أفسد القيد مشيته فأطلقوه، وولّوه على انفسهم مكان أخيه مسلم. ولما قتل مسلم سار سليمان بن قطلمش إلى أنْطاكِية وحاصرها شهرين فامتنعت عليه، ورجع. وفي سنة تسع وسبعين بعدها بعث عميد العراق عسكراً إلى الأنبار فملكها من يد بني عقيل. وفيها أقطع السلطان ملك شاه مدينة الرحبة وأعمالها وحران وسروج والرقة والخابور لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وزوجه بأخته خاتون زليخة فتسلّم جميع هذه البلاد، وامتنع محمد بن المشاطر من تسليم حرّان فأكرهه السلطان على تسليمها.

نكبة إبراهيم وتنازع محمد وعلي ابني مسلم بعده على ملك الموصل ثم استيلاء علي عليها:

لم يزل إبراهيم بن قريش ملكا بالموصل وأميراً على لومه بني عقيل، حتى استدعاه السلطان ملك شاه سنة إثنتين وثمانين فلمّا حضر اعتقله، وبعث فخر الدولة بن جهير على البلاد فملك الموصل وغيرها، وأقطع السلطان عمّته صفيّة مدينة بلد وكانت زوجاً لمسلم بن قريش ولها منه ابنه عليّ، وتزوجت بعده بأخيه إبراهيم

فلما مات ملك شاه ارتحلت صفية إلى الموصل ومعها ابنها عليّ بن مسلم، وجاءه اخوه محمد بن مسلم وتنازعا في ملك الموصل وانقسمت العرب عليهما. واقتتلوا على الموصل فانهزم محمد وملك عليّ، ودخل الموصل وانتزعها من يد ابن جهير.

عود إبراهيم إلى ملك الموصل ومقتله:

ولما مات ملك شاه واستبدّت تركمان خاتون بعده بالأمور، وأطلقت إبراهيم من الاعتقال فبادر إلى الموصل، فلما قاربها سمع أنّ عليّ إبن أخيه مسلم قد ملكهما ومعه أمه صفيّة عمّة ملك شاه فبث إليها، وتلطّف بها فدفعت إليه ملك الموصل فدخلها وكان تتش صاحب الشام أخو ملك شاه قد طمع في ملك العراق، واجتمع إليه الأمراء بالشام وجاء أقسنقر صاحب حلب، وسار إلى نصيبين فملكها، وبعث إلى إبراهيم أن يخطب له ويسهّل طريقه إلى بغداد فامتنع إبراهيم من ذلك فسار تتش، ومعه أقسنقر، وجموع الترك. وخرج إبراهيم للقائه في ثلاثين ألفاً. والتقى الفريقان بالمغيم فانهزم إبراهيم، وقتل وغنم الترك حللهم، وقتل كثير من نساء العرب أنفسهنّ خوفاً من الفضيحة، واستولى تتش على الموصل.

ولاية علي بن مسلم علي الموصل ثم استيلاء كربوقا وانتزاعه

إياها من يده وانقراض أمر بني المسيب من الموصل:

ولما قتل إبراهيم، وملك تتش الموصل ولّى عليها علي بن أخيه مسلم بن قريش فدخلها مع أمّه صفيّة عند ملك شاه، واستقرّت هى وأعمالها في ولايته. وسار تتش إلى ديار بكر فملكها، ثم إلى أذربيجان فاستولى عليها. وزحف إليه بركيارق وابن أخيه ملك شاه، وتقاتلا فانهزم تش، وقام بمكانه ابنه رضوان، وملك حلب. وأمره السلطان بركيارق باطلاق كربوقا فأطلقه. واجتمعت عليه رجال، وجاء إلى حرّان فملكها، وكاتبه محمد بن مسلم بن قريش وهو بنصيبين ومعه توران بن وهيب وأبو الهيجاء الكردي يستنصرونه على عليّ بن مسلم بن قريش بالموصل فسار إليهم وقبض على محمد بن سم وسار به إلى نصيبين فملكها. ثم سار إلى الموصل فامتنعت عليه ورجع مدينة بلد وقتل بها محمد بن مسلم غريقاً، وعاد إلى حصار الموصل. واستنجد علي بن مسلم بالأمير جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر فسار إليه منجداً له. وبعث كربوقا إليه عسكراً مع اخيه التوتناش فردّه مهزوماً إلى الجزيرة فتمسك بطاعة كربوقا، وجاء مدداً له على حصار الموصل. واشتد الحصار بعليّ بن مسلم فخرج من الموصل، ولحق بصدقة بن مزيد بالحلّة، وملك كربوقا بلد الموصل بعد حصار تسعة أشهر. وانقرض ملك بني المسّيب من الموصل وأعمالها واستولى عليها ملوك الغزّ من السلجوقية أمراؤهم، والبقاء لله وحده.

دولة بني صالح

الخبر عن دولة بني صالح بن مرداس بحلب وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان ابتداء أمر صالح بن مرداس ملك الرّحبة، وهو من بني كلاب بن ربيعة بن عامر لن صعصعة، ومجالاتهم بضواحي حلب. وقال ابن حزم، إنه من ولد عمرو بن كلاب، وكانت مدية الرجة لأبي علي بن ثمال

الخفاجيّ، فقتله عيسى بن خلاط العقيلي وملكها من يده، و بقيت له مدّة . ثم أخذها منه بدران بن المقلد. وزحف لؤلؤ الساري نائب الحاكم بدمشق فملك الرقة، ثم الرحبة من يد بدران، وعاد إلى دمشق. وكان رئى الرحبة ابن مجلكان فاستبدّ بها. وبعث إلى صالح بن مرداس يستعين به على أمر فأقام عنده مدة، ثم فسد ما بينهما، وقاتله صالح. ثم اعطلحا، وزوّجه ابن مجلكان إبنته ودخل البلد. ثم انتقل ابن مجلكان إلى عانه بأهله وماله بعد أن أطاعوه وأخذ رهنهم. ثم نقضوا وأخذوا ماله، وسار إليهم ابن مجلكان مع صالح فوضع عليه صالح من قتله ؛ وسار إلى الرّحبة فملكها واستولى على أموال ابن مجلكان وأقام دعوة العلويّين بمصر.

إبتداء أمر صالح في ملك حلب:

قد قدّمنا أن لؤلؤاً مولى أبي المعالى بن سيف الدولة استبدّ بحلب على ابنه أبي الفضائل، وأخذ البلد منه ومحا دعوة العبّاسية وخطب للحاكم العلويّ بمصر. ثم فسد حاله معه، وطمع صالح بن مرداس في ملك حلب.

وذكرنا هنالك ما كان بين صالح ولؤلؤ من الحروب، وأنه كان له مولى إسمه فتح وضعه في قلعة حلب حافظا لها فاستوحش وانتقض على لؤلؤ بممالأة صالح بن مرداس، وبايع للحاكم على أن يقطعه صيدا أو بيروت، وسوّغه ما كان في حلب من الأموال. ولحق لؤلؤ بأنْطاكِية، وأقام عند الروم. وخرج فتح بحرم لؤلؤ وأمه وتركهن في منبج. وترك حلب وقلعتها إلى نواب الحكم وتداولت في أيديهم حتى وليها بعض بني حمدان من قمل حاكم يعرف بعزيز الملك، اصطنعه الحاكم، وولاه حلب. ثم عصى على ابنه الظاهر،

وكانت عمّته بنت الملك مدبّرة لدولته فوضعت على عزيز الملك من قتله. وولّوا على حلب عبد الله بن عليّ بن جعفر الكتامي، ويعرف بابن شعبان الكتامي وعلى القلعة صفي الدولة موصوفاً الخادم.

استيلاء صالح بن مرداس علي حلب:

ولما ضعف أمر العبيديّين بمصر من بعد المائة الرابعة وانقرض أمر بني حمدان من الشام والجزيرة، تطاولت العرب إلى الاستيلاء على البلاد فاستولى بنو عقيل على الجزيرة، واجتمع عرب الشام فتقاسموا البلاد، على أن يكون لحسّان بن مفرج بن دغفل وقومه طيء من الرملة إلى مصر، ولصالح بن مرداس وقومه بني كلاب من حلب إلى عانه ولحسّان بن عليناد وقومه دمشق وأعمالها. وكان العامل على هذه البلاد من قبل الظاهر خليفة مصر أنوشتكين إلى عسقلان، وملكها ونهبها حسان. وسار صالح بن مرداس إلى حلب فملكها من يد ابن شعبان، وسلّم له أهل البلد ودخلها. وصعد ابن شعبان إلى القلعة فحصرهم صالح بالقلعة حتى جهدهم الحصار، واستأمنوا وملك القلعة، وذلك سنة أربع وعشرين واربعمائة، واتسع ملكه ما بين بعلبك وعانة.

مقتل صالح وولاية ابنه أبي كامل:

و لم يزل صالح مالكا لحلب إلى سنة عشرين فجهّز الظاهر العساكر من مصر إلى الشام لقتال صالح وحسان، وعليهم أنوشتكين الدريديّ فسار لذلك ولقيهما

على الأردن بطبريّة، وقاتلهما فانهزما، وقتل صالح وولده الأصغر، ونجا ولده الأكبر أبو كامل نصر بن صالح إلى حلب، وكان يلقّب شبل الدولة. ولما وقعت هذه الواقعة طمع الروم أهل أنْطاكِية في حلب فزحفوا إليها في عدد كثير.

مسير الروم إلى حلب وهزيمتهم:

ثم سار ملك الروم إلى حلب في ثلاثمائة ألف مقاتل، ونزل قريبا من حلب ومعه ابن الدوقس من أكابر الروم، وكان منافراً له فخالفه ولارقه في عشره آلاف مقاتل ونمي إليه أنّه يروم الفتك به، وأنه دسّ عليه فكرراجعا، وقبض على ابن الدوقس واضطرب الروم واتبعهم العرب وأهل السواد الأرمن، ونهبوا أثقال الملك أربعمائة حمل، وهلك أكثر عسكره عطشاً. ثم أشرف بعض العرب على معسكره فهربوا وتركوا سوادهم وأموالهم، وأكرم الله المسلمين بالفتح.

مقتل نصر بن صالح واستيلاء الوزيري علي حلب:

وفي سنة تسع وعشرين زحف الوزيري من مصر في العساكر إلى حلب، وخليفتهم يومئذ المستنصر، وبرز إليه نصر فالتقوا عند حماة، وانهزم نصر وقتل. وملك الوزيري حلب في رمضان من هذه السنة.

مهلك الوزيري وولاية ثمال بن صالح:

ولما ملك الوزيري حلب واستولى على الام عظم أمره، واستكثر من الأتراك في الجند ونمي عنه إلى المستنصر بمصر، ووزيره الجرجاي أنه يروم الخلاف فدس الجرجاي إلى جانب الوزيري والجند بدمشق في الثورة به، وكشف لهم عن سوء

رأي المستنصر فثاروا به، وعجز عن مدافعتهم فاحتمل أثقاله، وسار إلى حلب، ثم إلى حماة فمنع من دخولها فكاتب صاحب كفرطاب فسار إليه وتبعه إلى حلب ودخلها وتوفي سنة ثلاث وثلاثين. ولما توفي فسد أمر الشام وانحل النظام وتزايد طمع العرب. وكان معز الدولة ثمال بن صالح بالرحبة منذ مهلك أبيه وأخيه فقصد حلب، وحاصرها فملك المدينة، وامتنع أصحاب الوزيري بالقلعة. واستمدوا أهل مصر وشغل الوالي بدمشق بعد الوزيري، وهو الحسين بن حمدان لحرب حسان بن مفرج صاحب فلسطين فاستأمن أصحاب الوزيري إلى ثمال بن صالح بعد حصاره إياها حولاً فأمنهم، وملكها في صفر سنة أربع وثلاثين. فلم يزل مملكاً عليها إلى أن زحفت إليه العساكر من مصر مع أبي عبيد الله بن ناصر الدولة بن حمدان. وبلغت جموعهم خمسة آلاف مقاتل فخرج إليهم ثمال، وقاتلهم وأحسن دفاعهم، وأصابهم سيل كاد يذهب بهم فأفرجوا عن حلب، وعادوا إلى مصر . ثم عادت العساكر ثانية من مصر سنة إحدى وأربعين مع رفقا الخادم فقاتلهم ثمال وهزمهم، وأسر الخادم رفقا، ومات عنده.

رغبة ثمال عن حلب ورجوعها لصاب مصر وولاية ابن ملهم عليها:

لم تزل العساكر تتردد من مصر إلى حلب، وتضيق عليها حتى سئم ثمال بن صالح إمارتها، وعجز عن القيام بها فبعث إلى المستنصر بمصر وصالحه على أن يترل له عن حلب فبعث عليها مكين الدولة أبا علي الحسن بن ملهم

فتسلمها آخر سنة تسع وأربعين. وسار ثمال إلى مصر، ولحق أخوه عطية بن صالح بالرحبة، واستولى ابن ملهم عليها.

ثورة أهل حلب بابن ملهم وولاية محمود بن نصر بن صالح:

وأقام ابن ملهم بحلب سنتين أو نحوها، ثم بلغه عن أهل حلب أنهم كاتبوا محمود بن نصر بن صالح فقبض عليه، فثار به أهل حلب، وحصروه بالقلعة، وبعثوا إلى محمود فجاء منتصف إثنتين وخمسين، وحاصره معهم بالقلعة. واجتمعت معه جموع العرب، واستمد ابن ملهم المستنصر فكتب إلى أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان أن يسير إليه في العساكر، فسار إلى حلب وأجفل محمود عنها. ونزل ابن ملهم إلى البلد، ودخلها ناصر الدولة ونهبتها عساكره وابن ملهم. ثم تواقع محمود وناصر الدولة بظاهر حلب، فانهزم ناصر الدولة بن حمدان وأسر فرجع به محمود إلى البلد وملكها، وملك القلعة في شعبان من هذه السنة وأطلق أحمد بن حمدان وابن ملهم فعاد إلى مصر.

رجوع ثمال بن صالح إلى ملك حلب وفرار محمود بن نصر عنها:

لما هزم محمود بن حمدان، وأخذ القلعة من يد ابن ملهم. وكان معز الدولة ثمال بن صالح بمصر منذ سلمها للمستنصر سنة تسع وأربعين فسرحه المستنصر الآن وأذن له في ملك حلب من ابن أخيه فحاصره في ذي الحجة من سنة إثنتين وخمسين. واستنجد محمود بخاله منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران فأمده بنفسه، وجاء لنصره فأفرج ثمال عن حلب، وسار إلى البرية في محرم سنة ثلاث وخمسين. ثم عاد منيع إلى حران، وملك ثمال حلب في ربيع ثلاث وخمسين، وغزا بلاد الروم فظفر وغنم.

وفاة ثمال وولاية أخيه عطية:

ثم توفي ثمال بحلب قريباً من استيلائه، وذلك في ذي المعدة سنة أربع وخمسين، وعهد بحلب لأخيه عطية بن صالح، وكان بالرحبة من لدن مسير ثمال إلى مصر فسار وملكها.

عود محمود إلى حلب وملكه إياها من يد عطية:

ولما ملك عطية حلب، وكان ذلك عند استيلاء السلجوقية على ممالك العراق والشام، وافتراقهم على العمالات. ونزل به قوم منهم فاستخدمهم وقوي بهم. ثم خشي اصطحاب عائلتهم فأشاروا بقتلهم، فسلط أهل البلد عليهم فقتلوا منهم جماعة، ونجا الباقون فقصدوا محمود بن نصر بحران فاستنهضوه لملك حلب. وجاءهم فحاصرها وملكها في رمضان سنة خمس وخمسين، واستقام أمره. ولحق عطية عمه بالرقة، فملكها إلى أن أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ثلاث وستين، فسار إلى بلد الروم سنة خمس وستين، واستقام أمر محمود بن نصر في حلب. وبعث الترك الذين جاؤوا في خدمته مع أميرهم ابن خان سنة ستين إلى بعض قلاع الروم فحاصروها وملكها. وسار محمود إلى طرابلس فحاصرها، وصالحوه على حال فأخرج عنهم. ثم سار إليه السلطان ألبأرسلان بعد فراغه من- حصار ديار بكر وآمد والرها، ولم يظفر بشيء منها كما نذكر في أخبارهم.

وجاء إلى حلب وحاصرها، وبها محمود بن نصر. وجاءت رسالة الخليفة القائم بالرجوع إلى الدعوة العباسية فأعادها، وسأل من الرسول أزهر أبو الفراس طراد الزيبي أن يعفيه السلطان من الحضور عنده فأبى السلطان من ذلك، واشتد الحصار على محمود وأضربهم حجارة المجانيق فخرج ليلا، ومعه والدته منيعة بنت وثاب متطارحين على السلطان، فخلع على محمود في حلب آخر ثمان وستين، وعهد لابنه شبيب إلى الترك الذين ملكوا أباه وهم بالحاضر، وقد بلغه عنهم العيث والفساد فلما دنا من حللهم تلقوه فلم يجبهم، وقاتلهم وأصيب بسهم في تلك الجولة ومات.

مهلك نصر بن محمود وولاية أخيه سابق:

ولما هلك نصر ملك أخوه سابق. قال ابن الأثير: وهو الذي أوصى له أبوه بالملك فلم ينفذ عهده لصغره، فلما ولي استدعى أحمد شاه مقدم التركمان الذين قتلوا أباه فخلع عليه، وأحسن إليه، وبقي فيها ملكاً.

استيلاء مسلم بن قريش علم حلب من يد

سابق وانقراض دولة بني صالح بن مرداس:

ولما كانت سنة إثنتين وسبعين زحف تتش بعد أن ملك دمشق إلى حلب فحاصرها أياماً، ووجل أهل حلب من ولاية الترك فبعثوا إلى مسلم بن قريش ليملكوه. ثم بدا لهم في أمره، ورجع من طريقه، وكان مقدمهم يعرف بابن الحسين العباسي. وخرج ولده متصيداً في ضيعة له فأرسل له بعض أهل القلاع بنواحي حلب من التركمان، وأسره وأرسله إلى مسلم بن قريش فعاهده على تمكينه من البلد، وعاد إلى أبيه فسلم البلد إلى مسلم بن قريش، وملكها سنة ثلاث وسبعين. ولحق سابق بن محمود وأخوه وثاب إلى القلعة، واستنزلهما بعد أيام على الأمان واستولى على نواحيها. وبعث إلى السلطان ملك شاه بالفتح، وأن يضمن البلد على العادة فأجابه إلى ذلك، وصارت في ولاية مسلم بن قريش إلى أن ملكها السلطان من بعده.

استيلاء السلطان ملك شاه علي حلب وولاية اقسنقر عليها:

قد تقدم لنا أن مسلم بن قريش قتله سليمان بن قطلمش كما مر في أخبار مسلم، فلما قتله أرسل إليه ابن الحسين العباسي مقدم أهل حلب يطلب تسليمها إليه. وكان تتش أيضاً قد حاصرها، وضيق عليها يطلب ملكها فوعد كلاً منهما ونمي الخبر إلى تتسش فسار إلى حلب وجاءه سليمان بن قطلمش فاقتتلا، وقتل سليمان سنة تسع وسبعين، وبعث برأسه إلى ابن الحسين فكتب أنه يشاور السلطان ملك شاه في ذلك فغضب تتش وحاصره، وداخله بعض أهل البلد فغدر به، وأدخله ليلاً فملك تتش مدينة حلب، وشفع الأمير أرتق بن اكسك من أمراء تتش في ابن الحثيثي، وامتنع بالقلعة سالم بن مالك بن بدران بن المقلد فحاصره تتش. وكان ابن الحثيثي قد كاتب السلطان ملك شاه، واستدعاه لملك حلب عندما خاف من أخيه تاج الدولة تتش، فسار إليها من أصفهان سنة تسع وأربعين، ومر بالموصل. ثم تسلم حران

من يد ابن الشاطر، وأقطعها لمحمد بن قريش.

ثم سار إلى الرها فملكها من يد الروم، وكانوا اشتروها من ابن عطية، وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من بها من بني قشير، وأخذ صاحبها جعفراً شيخاً أعمى وولدين له، وكانوا يفسدون السابلة ويرجعون إليها. ثم سار إلى منبج فملكها، وسار إلى حلب وأخوه تتش يحاصر القلعة سبعة عشر يوماً من حصارها، وعاد إلى دمشق، وملك السلطان مدينة حلب، وقاتل القلعة ساعة من نهار رشقاً بالسهام، فأذعن سالم بن مالك بن بدران بالطاعة والنزول عنها على أن يقطعه قلعة جعفر، فاقطعها له السلطان فلم تزل بيده ويد بنيه إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد. وبعث نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر بالطاعة، وولي على حلب قسيم الدولة اقسنقر جد العادل نور الدين الشهيد، وارتحل عائداً إلى العراق، وسأله أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فاستصلحه، وأرسله إلى ديار بكر فنزلها إلى أن توفي على حال شديدة من الفقر والاملاق، والله مالك الأمور لا رب غيره.

دولة بني مزيد

الخبر عن دولة بني مزيد ملوك الحلة وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان بنو مزيد هؤلاء من بني أسد، وكانت محلاتهم من بغداد إلى البصرة إلى نجد، وهي معروفة. وكانت له النعمانية، وكانت بنو دبيس من عشائرهم فم نواحي خوزستان في جزائر معروفة بهم. وكان كبير بني مزيد ابو الحسن علي بن مزيد واخوه أبو الغنائم. وسار أبو الغنائم إلى بني دبيس فأقام عندهم، وفر فلم يدركوه، ولحق بناحية أبي الحسن فسار إليهم أبو الحسن، واستمد عميد الجيوش فأمده بعسكر من الديلم في البحر، ولقيهم فانهزم ابو الحسن، وقتل ابو الغنائم، وذلك سنة إحدى وأربعمائة. فلما كانت سنة خمس جمع ابو الحسن، وسار إليهم لإدراك الثأر بأخيه. وجمع بني دبيس وهم مضر وحسان ونبهان وطراد فاجتمع إليهم العرب، ومن في نواحيهم من

الأكراد الشاهجان والحادانية، وتزاحفوا. ثم انهزم بنو دبيس، وقتل حسان ونبهان، واستولى ابو الحسن بن مزيد على اموالهم وحللهم. ولحق الفل منهم بالجزيرة، وقلده فخر الدولة أمر الجزيرة الدبيسية واستثنى منها الطيب وقرقوب. وأقام ابو الحسن هناك. ثم جمع مضر بن دبيس جمعا وكبسه فنجا في فل يسير، ولحق ببلد النيل منهزماً، واستولى مضر على امواله وعلى الجزيرة وملكها.

وفاة علي بن مزيد وولاية ابنه دبيس:

ثم توفي ابو الحسن بن مزيد سنة ثمان، وقام الأمر مكانه ابنه نور الدولة أبو الأغر دبيس، وقد كان ابوه عهد لأخيه في حياته، وخلع عليه سلطان الدولة، وأذن في ولايته. فلما ولي بعد ابيه نزع اخوه المقلد إلى بني عقيل فأقام بينهم، وكانت بسبب ذلك بين دبيس وقرواش: اميري بني عقيل، فتن وحروب. وجمع دبيس عليه بني خفاجة، وملك الأنبار من يده سنة سبع عشرة. ثم انتقض خفاجة، على دبيس، وأميرهم منيع بن حسان. وسار إلى الجامعين فنهبها، وملك الكوفة. وصار أمر دبيس وقرواش إلى الوفاق، واستوى الأمر على ذلك، ومنعت خفاجة بني عقيل من سقي الفرات.

استيلاء منصور في الحسين علي الجزيرة الدبيسية:

كانت الجزيرة الدبيسية قد استقرت لطراد بن دبيس، وكان منصور بن الحسين من شعوب بنم اشد تغلب عليها، واخرج طراد بن دبيس عنها سنة ثمان عشرة.واربعمائه ثم مات طراد فسار ابنه ابو الحسن إلى جلال الدولة ببغداد، وكان منصور بن الحسين قد خطب للملك أبي كليجار، وقطع الخطبة لجلال الدولة فسأل منه علي بن طراد أن يبعث معه عسكراً ليخرج منصوراً من الجزيرة فأنفذ معه العسكر، وسار إلى واسط. ثم أغذ السير، وكان منصور جمع للقائه، واعانه بعض أمراء الترك، وهو ابو صالح كركبر. وكان قد هرب من جلال الدولة إلى أبي كليجار فأعان منصوراً على

شأنه، ولقوا علي بن طراد فهزموه، وقتلوه وجماعة من الترك الذين بعثهم جلال الدولة لنصرته. واستقر ملك الجزيرة الدبيسية لمنصور بن الحسين.

فتنة دبيس مع جلال الدولة وحروبه مع قومه:

كان المقلد اخو دبيس بن مزيد قد لحق ببني عقيل كما ذكرناه، وكانت بينه وبين نور الدولة دبيس عداوة فسار إلى منيع بن حسان امير خفاجه، واجتمعا على قتال دبيس وعلى خلافة جلال الدين، وخطب لأبي كليجار واستقدمه للعراق فجاء إلى واسط، وبها ابن جلال الدولة ففارقها، وقصد النعمانية ففجر عليه البثوق محن بلده. وارسل ابو كليجار إلى قرواش صاحب الموصل، والأثير عنبر الخادم أن ينحدروا إلى العراق فانحدروا إلى الكحيل. ومات بها الأثير عنبر، وجمع جلال الدولة عساكره واستنجد أبا الشوك صاحب بلاد الأكراد فأنجده، وانحدر إلى واسط، وأقام بها، وتتابعت الامطار والاوحال فسار جلال الدولة إلى الاهواز بلد أبي كليجار لينهبها. وبعث ابو كليجار إليه بأن عساكر محمود بن سكتكين لد قصدت العراق ليرده عن الأهواز فلم يلتفت إلى ذلك وسار ونهب الأهواز وبلغ الخبر إلى أبي كليجار فسار إلى مدافعته، وتخلف عنه دبيس خوفاً على حلله من خفاجة.

والتقى ابو كليجار وجلال الدولة فانهزم أبو كليجار، وقتل من أصحابه كثير. واستولى جلال الدولة على واسط، وأعاد إليها ابنه عبد العزيز كما كان. ولما فارق دبيس أبا كليجار وجد جماعة من عشيرته قد خالفوا عليه، وعاثوا في نواحي الجامعين فقاتلهم وظفر بهم، وأسر منهم جماعة، منهم أبو عبد الله الحسين ابن عمه أبي الغنائم، وشبيب وسرايا ووهب وبنو عمه حماد بن مزيد، وحبسهم بالجوسق. ثم جمع المقلد أخوه جموعاً من العرب، واستمد جلال الدولة فأمده بعسكر، وقصدوا دبيس فانهزم وأسر جماعة من أصحابه، ونزل المعتقلون بالجوسق فنهبوا حلله. ولحق دبيس بالشريد منهزماً فسار به إلى مجد الدولة، وضمن عنه المال المقّرر في ولايته فأجيب إلى ذلك، وخلع عليه، واستقام حاله. وذهب المقلد مع جماعة من خفاجة فنهبوا مطير أباد والنيل أقبح نهب، وعاثوا في منازلها، ولم تكن الحلة بنيت يومئذ. وعبر المقلد دجلة إلى أبي الشوك فأقام عنده حتى أصلح أمره.

الفتنة بين دبيس وأخيه ثابت:

كان أبو قوام ثابت بن علي بن مزيد متصلاً بالبساسيري سنة أربع وعشرين، وتزحزح لهم دبيس عن البلاد، وملك ثابت النيل وأعمال دبيس. وبعث دبيس طائفة من أصحابه لقتال ثابت فانهزموا فسار دبيس عن البلاد، وتركها لثابت حتى رجع البساسيري إلى بغداد فسار في جموع بني أسد وخفاجة، ومعه أبو كامل منصور بن قراد وتركوا حللهم بين حصني خفان وجرى. وساروا جريدة، ولقيهم ثابت عند جرجراً فاقتتلوا ملياً. ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يعود دبيس إلى أعماله، ويقطع أخاه ثابتا بعض تلك الاعمال، وتحالفوا على ذلك، وافترقوا. وجاء البساسيري منجداً لثابت فبلغه الخبر بالنعمانية فرجع.

الفتنة بين دبيس وعسكر واسط:

كان الملك الرحيم قد أقطع دبيس بن مزيد سنة إحدى وأربعين حماية نهر الصفة ونهر الفضل، وهي من اقطاع جند واسط فسخطوا ذلك، واجتمعوا وبعثوا إليه بالتهديد فراجعهم إلى حكم الملك الرحيم، فغضبوا وزحفوا إليه فلقيهم وأكمن لهم فهزمهم وأثخن فيهم، وغنم أموالهم ودوابهم، ورجعوا إلى واسط يستنجدون جند بغداد، ويرغبون من البساسيري في المدافعة عنهم ويعطوه نهر الصلة ونهر الفضل.

ايقاع دبيس بخفاجة:

وفي سنة ست واربعين قصد بنو خفاجة الجامعين من أعمال دبيس فعاثوا فيها من غربي الفرات، وكان دبيس في شرقيه فاستنجد البساسيري فجاء بنفسه، وعبر

دبيس الفرات معه، وقاتل خفاجة وأجلاهم عن الجامعين فسلكوا البرية، ورجع عنهم. ثم عادوا للفساد فعاد إليهم فدخلوا البرية فاتبعهم إلى خفان فأوقع بهم، وأثخن فيهم. وحاصر خفان ثم اقتحمه، وأخرجهم ورجع إلى بغداد ومعه أسارى من خفاجة فصلبوا. ثم سار إلى جرى فحاصرها، ووضع عليهم سبعة آلاف دينار فالتزموها وأمنهم.

حرب دبيس مع الغز وخطبته للعلوي صاحب مصر ومعاودته الطاعة:

ولما انقرض أمر بني بويه، وغلب عليهم الغز، وصارت الدولة للسلطان طغرلبك سلطان السلجوقئة، وجاء السلطان طغرلبك إلى بغداد، واستولى على الخليفة، وخطب له على منابر الإسلام، وقبض على الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه حسبما ذلك كله مذكور في أخبارهم ؛ وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم قبل مسيره من واسط إلى بغداد للقاء طغرلبك مجمعاً على الخلاف على الغز مع قطلمش ابن عم طغرلبك، جد الملوك ببلاد الروم أولاد قليج ارسلان، ومعه متمم الدولة أبو الفتح عمر ؛ وسار معهم قريش بن بدران صاحب الموصل فلقيهم دبيس والبساسيري على سنجار، وهزمهم ورجع قريش إلى دبيس جريحاً فخلع عليه، وسار معهم وذهب بهم إلى الموصل. وخرج دبيس وقريش والبساسيري إلى البرية ومعهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقة، واتبعهم عساكر السلطان مع هزارسب من أمراء السلجوقية فأوقع بهم، ورجع بالغنائم والاسرى. وأرسل دبيس وقريش إلى هزارسب أن يستعطف السلطان ففعل. وبعث دبيس ابنه بهاء الدولة مع وافد قريش فأكرمهما السلطان طغرلبك.

ثم انتقض عليه أخوه نيال بهمذان فسار لحربه. وترك بغداد، وخالفه البساسيري إليها. وبعث الخليفة القائم عن دبيس ليقيم عنده ببغداد فاعتذر

بأن العرب لا تقيم. وطلب الخليفة في الخروج إليه حتى يجتمع عليه هو وهزارسب، ويدافعوا عن بغداد. وجاء البساسيري ودخل بغداد ومعه قريش بن بدران فملكها سنة خمسين، وخطب فيها للعلويين واستذم الخليفة القائم بقريش بن بدران فأذمه، وبعثه إلى عانة عند مهاوش العقيلي من بني عمه. وفعل البساسيري وجموعه في بغداد الافاعيل، وأطاعه دبيس بن علي بن مزيد، وصدقة بن منصور بن الحسين صاحب الجزيرة الدبيسية، وكان ولي بعد أبيه، وقد تقدم ذكر هذا كله.

ثم رجع السلطان من همذان بعد قتل أخيه، وقضى أشغاله فأجفل البساسيري وأصحابه من بغداد، ولحق ببلاد دبيس، وفارقه صدقة بن منصور إلى هزارسب بواسط. وأعاد طغرلبك الخليفة إلى داره، وسار السلطان في اتباعه، رفي مقدمته خمارتكين الطغرائي في ألفي فارس، ومعه سرايا بن منيع الخفاجي فصبحت المقدمة دبيس بن مزيد والبساسيري، فهرب دبيس، ووقف البساسيري فقتل، وذلك سنة إحدى وخمسين. ورجع السلطان إلى بغداد، ثم انحدر إلى واسط. وجاء هزارسب بن تنكين فأصلح عنده حال دبيس بن مزيد، وصدقة بن منصور بن الحسين، وحضرا عند السلطان وجاءا في ركابه إلى بغداد فخلع عليهما وردهما إلى عمالتهما.

وفاة دبيس وامارة ابنه منصور:

و لم يزل دبيس على أعماله إلى أن توفي سنة أربع وسبعين لسبع وخمسين سنة من إمارته، وكان ممدوحاً. ورثاه الشعراء بعد وفاته بأكثر مما مدحوه في حياته. ولما مات ولي في أعماله وعلي بني أسد ابنه أبو كامل منصور، ولقب بهاء الدولة. وسار إلى السلطان ملك شاه فأقره على أعماله، وعاد في صفر سنة خمس وسبعين فأحسن السيرة.

وفاة منصور في دبيس وولاية ابنه صدقة:

ثم توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دبيس بن علي بن مزيد صاحب الحلة والنيل

وغيرهما في ربيع الأول سنة تسع وسبعين، فأرسل الخليفة نقيب العلويين أبا الغنائم إلى ابنه سيف الدولة صدقة يعزيه. وسار صدقة إلى السلطان ملك شاه فخلع عليه وولاه مكان أبيه.

انتقاض صدقة في منصور بن دبيس علي السلطان بركيارق:

وكان السلطان بركيارق قد خرج عليه أخوه محمود بن ملك شاه ينازعه في الملك، وكانت بينهما عدة وقعات، و لم يزل صدقة بن منصور على طاعته ويحضر حروبه تارة بنفسه، وتارة يبعث إليه العساكر مع ابنه سنة أربع وتسعين، فبعث إليه وزير السلطان بركيارق وهو الاغر أبو المحاسن الدهستاني يطلبه فيما تخلف عنده من المال، وهو ألف ألف دينار، ويتهدده عليه فقطع صدقة الخطبة لبركيارق، وعاد إلى بغداد في هذه السنة منهزماً أمام أخويه محمد وسنجر، فبعث الأمير أياز من أكبر أصحابه، وطرد نائب السلطان عن الحكومة واستضافها إليه.

استيلاء صدقة علي واسط وهيت:

كان السلطان محمد في سنة ست وتسعين مستولياً على بغداد والخطبة بها، وشحنته فيها الغازي بن أرتق، وصدقة بن دبيس على طاعته ومظاهرته. ثم ظهر في هذه السنة بركيارق على محمد، وحاصره بأصفهان فامتنع عليه فأخرج عنه إلى همذان، وبعث كمستكين القصيري شحنة إلى بغداد فاستدعى أبو الغازي أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستعين به في مدافعة كمستكين. وجاء كمستكين إلى بغداد، وخطب بها لبركيارق، وخرج أبو الغازي وسقمان إلى دجيل فأقاما به بجرى. وجاء صدقة بن مزيد إلى صرصر بعد أن جاءه رسول الخليفة في طاعة أبي الغازي

وسقمان فعادا، وعاثت عساكرهما في نواحي دجيل، وتقدما إلى بغداد، وبعث معهما صدقة ابنه دبيساً فخيموا بالرملة، وقاتلهم العامة، وكثر الهرج. وبعث الخليفة إلى صدقة يعظم عليه الأمر فأشار بإخراج كمستكين القيصري من بغداد لتصلح الأحوال، فأخرج إلى النهروان في ربيع سنة ست وتسعين. وعاد صدقة إلى الحلة، وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد، ولحق القيصري بواسط، وخطب بها لمحمد فسار إليه صدقة وأخرجه. وجاء ابلغازي، واتبعوا القيصري، واستأمن إلى صدقة فأكرمه وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط وبعده لصدقه والغازي. وولى كل واحد منهما ولده على واسط، وذهب ابلغازي إلى بغداد، وعاد صدقة إلى الحلة، وأرسل ابنه منصورا مع ابلغازي إلى المستنصر ليستظهر رضاه فرضي عنه.

ثم استولى صدقة على هيت، وكان بركيارق أقطعها لبهاء الدولة توران بن تمبية، وكان مقيماً في جماعة من بني عقيل عند صدقة. ثم تشاجرا. ومال بنو عقيل إلى صدقة، وحج عقب ذلك، ورجع فوكل به صدقة. وبعث ابنه دبيس ليتسلم هيت فمنعه نائب توران بها، وهو محمد بن رافع بن رفاع بن منيعة بن مالك بن المقلد. فلما أخذ صدقة واسطا سار إلى هيت، وبها منصور بن كثير نائباً عن عمه توران فلقي صدقة، وحاربه، ثم انتقض جماعة من أهل البلد، وفتحوا لصدقة فملكها، وخلع على منصور وأصحابه، وعاد إلى الحلة. واستخلف على هيت ابن عمه ثابت بن كامل. ثم اصطلح السلطان محمد وبركيارق، وسار صدقة في شوال إلى واسط فملكها، وأخرج الترك الذين كانوا بها. وأحضر مهذب الدولة بن أبي الخير فضمنه لثلاثة أشهر بقيت من السنة بخمسين ألف دينار، وعاد إلى الحلة.

استيلاء صدقة بن مزيد علي البصرة:

كانت البصرة منذ سنين في ولاية إسماعيل بن ارسلان جق من السلجوقية، أقام فيها

عشر سنين، وعظم تمكنه للخلاف الواقع بين بركيارق ومحمد. وكان يظهر طاعة صدقة

وموافقته، فلما صفا الأمر لمحمد رغب إليه صدقة في إبقائه فأبقاه. وبعث السلطان محمد عاملاً على خاصة البصرة فمنعه إسماعيل، فأمر السلطان صدقة بأخذ البصرة منه. وأظهر منكبرس الخلاف فشغلوا عن البصرة، وبعث إليه صدقة بتسليم الشرطة إلى مهذب الدولة بن أبي الخير فمنع من ذلك فسار صدقة إليه، وحصن إسماعيل القلاع التي استجدها حوالي البصرة، واعتقل وجوه البلد من العباسيين والعلويين والقاضي والمدرس

والاعيان، وحاصرها صدقة. وخرج إسماعيل لقتاله، وخالفه طائفة من أصحاب صدقة إلى مكان آخر من البلد فاقتحموها، وانهزم إسماعيل إلى قلعة الجزيرة فامتنع بها، ونهبت البلد.

وانحدر المهذب بن أبي الخير في السفن فأخذ القلعة التي كانت لإسماعيل بمطارا. ثم استأمن إسماعيل إلى صدقة فأمنه. وجاء صدقة فأمن أهل البصرة، ورتب عندهم شحنة، وعاد إلى الحلة منتصف تسع وتسعين وأربعمائة لستة عشر يوماً من مقامه بالبصرة. وسار إسماعيل نحو فارس فطرقه المرض في رام هرمز، ومات. وكان صدقة قد استعمل على البصرة مملوك جده دبيس وإسمه اليونشاش، ورتب معه مائة وعشرين فارساً فاجتمعت ربيعة والمتقن، وقصدوا البصرة فدخلوها بالسيف وأسروا اليونشاش، وأقاموا بها شهراً ينهبون ويخربون، وبعث صدقة عسكراً فوصل بعد خروجهم من البلد فانتزع السلطان البصرة من صدقة، وبعث إليها شحنةً وعميداً، واستقام أمرها.

استيلاء صدقة علي تكريت:

كانت تكريت لبني معن من بني عقيل، وكانت إلى آخر سبع وعشرين وأربعمائة بيد

رافع بن الحسين بن معن، فلما مات وليها ابن أخيه أبو منعة بن ثعلب بن حماد، ووجد بها خمسمائة ألف دينار. وتوفي سنة خمس وثلاثين، ووليها ابنه أبو غشام إلى سنة أربع وأربعين فوثب عليه أخوه عيسى فحبسه، وملك القلعة والأموال. فلما اجتاز به طغرلبك سنة ثمان وأربعين صالحه على البعض المال فرحل عنه، ومات عيسى أثر

ذلك. وخافت زوجته من عود أخيه أبي غشام إلى الملك فقتلته في محبسه. وولت على القلعة أبا الغنائم ابن المحلبان فسلمها إلى أصحاب طغرلبك، وسارت هي إلى الموصل فقتلها ابن أبي غشام بأبيه. وأخذ مسلم بن قريش مالها. وولى طغرلبك على قلعة تكريت أبا العباس الرازي فمات لستة أشهر، فولي عليها المهرباط، وهو أبو جعفر محمد بن أحمد بن غشام من بلد الثغر فأقام بها إحدى وعشرين سنة، ومات فوليها ابنه سنتين، وأخذها من تركمان خاتون وولت عليها كوهرايين الشحنة.

ثم مات ملك شاه فملكها قسيم الدولة اقسنقر صاحب حلب، فلما قتل صارت للأمير كمستكين الجاندار، فولى عليها رجلاً يعرف بأبي نصر المصارع. ثم عادت إلى كوهرايين اقطاعا. ثم أخذها منه محمد الملك الباسلاني فولى عليها لمقا بن هزارسب الديلمي، وأقام بها إثنتي عشرة سنة فظلم أهلها؟ وأساء السيرة. فلما أجاز به سقمان بن أرتق سنة ست وتسعين وأربعمائة لنهبها. وكان كيقباذ ينهبها ليلاً، وسقمان ينهبها نهارا. فلما استقر السلطان محمد بعد أحيه بركيارق أقطعها للأمير اقسنفر البرسقي شحنة بغداد فسار إليها، وحصرها مدة تزيد على سبعة أشهر، حتى ضاق على كيقباذ الأمر فراسل صدقة بن مزيد ليسلمها إليه، فسار إليها في صفر من هذه السنة، وتسلمها منه. وانحدر البرسقي ولم يملكها. ومات كيقباذ بعد نزوله من القلعة بثمانية أيام، وكان عمره ستين سنة، واستناب صدقة بها ورام بن أبي قريش بن ورام وكان كيقباذ ينسب إلى الباطنية.

الخلف بين صدقة وصاب البطيحة:

قد كنا قدمنا أن السلطان محمداً أقطع صدقة بن مزيد مدينة واسط فضمنها صدقة لمهذب الدولة بن أبي الخير، وولى في أعمالها أولاده فبذروا الأموال، وطالبه صدقة عند انقضاء السنة بالمال وحبسه. وسعى في خلاصه بدران بن صدقة، وكان صهرا لمهذب الدولة، وأعاده إلى البطيحة. وضمن حماد والمختم محمد والد مهذب الدولة، كانا أخوين، وهما ابنا أبي الخير. وكانت لهما رياسة قومهما. وهلك المصطنع وقام ابنه أبو السيد المظفر والد حماد مقامه. وهلك المختم محمد وقام ابنه مهذب الدولة مقامه، ونازعا إبراهيم صاحب البطيحة حتى غلبه مهذب الدولة، وقبض عليه، وسلمه إلى كوهرايين فحمله إلى أصفهان فهلك في الطريق. وعظم أمر مهذب الدولة وصير كوهرايين أمير البطيحة، وصارت جماعته لحكمه. وكان حماد شابا، وكان مهذب الدولة يداريه بجهده، وهو يضمر نقضه. فلماط ت كوهرايين انتقض حماد عن مهذب الدولة وأظهر ما في نفسه، واجتهد مهذب الدولة في استصلاحه فلم يقدر. وجمع ابنه القيسر وقصد حمادا فهرب إلى صدقة بالحلة، وبعث معه مدداً من العسكر. وحشد مهذب الدولة، وسار في العساكر براً وبحراً- وأكمن حماد لهم وأصحابه واستطردوا بين أيديهم. ثم خرجت عليهم الكمائن فانهزموا. وأرسل حماد يستمد صدقة فبعث إليه مقدم جيشة، وجمعوا السفن وكان مهذب الدولة جواداً فبعث إلى مقدم الجيش بالانعامات والصلات فمال إليه، وأشار عليه أن يبعث ابن النفيس إلى صدقة فرضي عنه وأصلح بينه وبين حماد ابن عمه، وذلك آخر المائة الخامسة.

مقتل صدقة وولاية ابنه دبيس:

كان صدقة بن منصور بن مزيد شيعة للسلطان محمد بن ملك شاه على أخيه بركيارق، ومن أعظم أنصاره. ولما هلك بركيارق واستبد السلطان محمد بالملك رعى وسائله في ذلك، وأقطعه و اسطا وأذن له في ملك البصرة، وأنزله مترل المصافاة حتى كان يجبر عليه. وسخط مرة على سرخاب بن كيخسدو وصاحب ساوة فلجأ إليه مستجيرا به فأجاره، وطلبه السلطان فمنعه. وكان العميد أبو جعفر يستبدله السلطان لكثرة السعاية، ويغريه به وينكر دالته وتبسطه فتعين السلطان وسار إلى العراق، وأرسل إلى صدقة فاستشار صدقة أصحابه، فأشار ابنه دبيس بملاطفته واستعطافه بالهدايا، وأشار سعيد بن حميد صاحب جيشه بالمحاربة فجنح إلى رأيه، واستطال في الخطاب، وجمع الجند وأفاض فيهم العطاء، واعترضهم فكانوا عشرين ألف فارس، وثلاثين ألف راجل. وبعث إليه المستظهر مع علي بن طراد الزينبي نقيب النقباء يعظه في المخالفة، ويحضه على لقاء السلطان فاعتذر بالخوف منه.

ثم بعث إليه السلطان قاضي القضاة أبا سعيد الهروي ليؤمنه ويستنفره لجهاد الفرنج في جملته فامتنع، ووصل السلطان إلى بغداد في ربيع من سنة إحدى وخمسمائة، ومعه وزيره أحمد بن نظام الملك، فقدم البرسقي شحنة بغداد في جماعة من الأمراء فترلوا بصرصر مسلحة لقلة عسكر السلطان. وإنه إنما جاء في ألفي فارس للإصلاح والاستئلاف، فلما تبين له لجاج صدقة أرسل إلى الأمراء بأصفهان بأن يستجيشوا ويقدموا فكتب صدقة إلى

الخليفة بالمقاربة وموافقة السلطان. ثم رجع صدقة عن رأيه وقال: إذا رحل السلطان عن بغداد مددته بالأموال والرجال لجهاده. وأما الآن وعساكره متصلة فلا وفاق عندي، وقد أرسل إلى جاولى سكاو، وصاحب الموصل، وابلغازي بن أرتق صاحب ماردين بالانتقاض على السلطان. وأيس السلطان من استقامته.

ووصل إليه ببغداد قراوش شرف الدولة وكروباوي بن خراسان التركماني وأبو عمران فضل بن ربيعة بن خادم بن الجرج الطائي، وكان آباؤه أصحاب البلقاء وبيت المقدس، ومنهم حسان بن مفرج، وطرده كفرتكين أتابك دمشق لما كان عليه من الأجلاب تارة مع الفرنج وتارةً مع أهل مصر. فلجا إلى صدقة وقبله وأكرمه وأجزل له العطاء سبعة آلاف دينار. فلما كانت هذه الحادثة رغب عن صدقة وسار في طلائعه فهرب إلى السلطان فخلع عليه وعلى أصحابه، وسوغه دار صدقة عن الهروب. وأذن له فعبر من الأنبار، وكان آخر العهد به.

ثم أنفذ السلطان في جمادى الأولى إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني فملكها، وأخرج منها أصحاب صدقة، وأنفذ خيله إلى بلد قوسان من أعمال صدقة فنهبه، وأقام أياما حتى بعث صدقة ابن عمه ثابت بن سلطان في عسكر فخرج منها الأمير محمد وملكها ثابت، وأقاموا على دجلة. وخرج ثابت لقتالهم فهزموه واقتحموا البلد. ومنعهم الأمير محمد من النهب ونادى بالأمان. وأمر السلطان الأمير محمدا بنهب بلاد صدقة فسار إليها، وأقطع مدينة واسط لقسيم الدولة البرسقي.

ثم سار السلطان من بغداد آخر رجب، ولقيه صدقة، واشتد القتال وتخاذلت عنه عبادة وخفاجة. ورفع صوته بالابتهال بالناشرة بالعرب، ورغب الأكراد بالمواعد. ثم غشيه الترك فحمل عليهم وهو ينادي: أنا ملك العرب، أنا صدقة، فأصابه سهم أثبته، وتعلق به غلام تركي يسمى برغش فجذبه إلى الأرض. فقال يا برغش ارفق فقتله وحمل رأسه إلى السلطان فأنفذه إلى بغداد، وأمر بدفن شلوه. وقتل من أصحابه ثلاثة آلاف أو يزيدون، ومن لني شيبان نحو مائة، وأسر ابنه دبيس، ونجا ابنه بدران إلى الحلة، ومنها إلى البطيحة عند صهره مهذب الدولة. وأسر سرجان بن كيخسرو والمستجير بصدقة على السلطان، وسعيد بن حميد العمدي صاحب الجيش.

وكان مقتل صدقة لإحدى وعشرين سنة من إمارته وهو الذي بنى الحلة بالعراق.

وكان قد عظم شأنه وعلا قدره بين الملوك، وكان جواداً حليماً صدوقاً عادلا في رعيته. وكان يقرأ ولا يكتب، وكانت له خزانة كتب منسوبة الخط ألوف مجلدات، ورجع السلطان إلى بغداد من دون الحلة، وأرسل أمانا لزوج صدقة فجاءت إلى بغداد. وأمر السلطان الأمراء بتلقيها، وأطلق لها ولدها دبيساً، واعتذر لها من قتل صدقة. واستحلف دبيساً على الطاعة، وأن لا يحدث حدثاً. وأقام في ظله وأقطعه السلطان إقطاعاً كثيراً.

ولم يزل دبيس مقيماً عند السلطان محمد إلى أن توفي، وملك ابنه محمود سنة إحدى عشرة فرغب دبيس من السلطان محمود أن يسرحه إلى بلده فسرحه، وعاد إليها فملكها واجتمع عليه خلق كثير من العرب والأكراد واستقام أمره.

خبر دبيس مع البرسقي ومع الملك مسعود:

لما توفي الخليفة المستظهر سنة إثنتي عشرة، وبويع ابنه المسترشد خاف ابنه الآخر من غائلة أخيه، وانحدر في البحر إلى المدائن، وسار منها إلى الحلّة فأبى أن يكرهه فتلطف علي بن طراد لأخي الخليفة فأجاب، وتكفل دبيس بما يطلبه. وبينما هو في خلال ذلك برز البرسقي من بغداد مجلباً على دبيس الجموع، وسار أخو الخليفة إلى واسط فملكها في صفر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقوي أمره وكثرت جموعه فبعث الخليفة إلى دبيس في شأنه، وأنه خرج عن جواره فلقي أمره بالطاعة، وبعث إليه وهو بواسط عسكراً من قبله فتلقاه وقبض عليه، وبعثه إلى أخيه المسترشد.

وكان مسعود أخو السلطان محمد بالموصل، ومعه أتابكه حيوس بك فاعتزما على قصد العراق لغيبة السلطان محمود عنه، فسار لذلك ومعه وزيره فخر الملك أبو عليّ بن عمّار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زنكي بن اقسنقر أبو المعالي أبو الملك العادل، وكروباوي بن خراسان التركماني صاحب البواريح، وأبو الهيجاء صاحب أربل، وصاحب سنجار فلما قاربوا بغداد خاف البرسقي شأنهم. وبعث إليه الملك مسعود وحيوس بك أنهم إنما جاؤوا نجدة على دبيس.

وكان البرسقي إنما ارتاب من حيوس بك فصالحهم، ودخل مسعود بغداد، ونزل دار المملكة. وجاء منكبرس في العساكر فسار البرسقي عن بغداد لمحاربته ودفاعه فمال إلى النعمانية، وعبر دجلة. واجتمع مع دبيس بن صدقة. وكان دبيس قد صانع مسعوداً وصاحبه بالهدايا والالطاف مدافعة عن نفسه، فلما لقيه منكبرس اعتضد به، وسار الملك مسعود

والبرسقي وحيوس بك إلى المدائن للقائهما. ثم خاموا عن لقائهما لكثرة جموعهما، ونكبوا عن المدائن وعبروا نهر صرصر، وأكثروا النهب في تلك النواحي من الطائفتين. وبعث إليهم المسترشد بالموعظة، ويأمرهم بالموادعة والمصالحة فأجابوا إلى ذلك. ثم بلغهم أن دبيساً ومنكبرس قد بعثا العساكر مع منصور أخي دبيس، وحسين بن أوزبك ربيب منكبرس ليخالفوهم إلى بغداد فخلوها من الحامية، فأغذ البرسقي، السير إلى بغداد، وترك ابنه عزّ الدين مسعود على العسكر، وصحبه عماد الدين زنكي بن اقسنقر. وانتهى إلى ديالى، ومنع العسكر من العبور.

ثم جاءه الخبر ليومين بصلح الفريقين كما اشار الخليفة ففتر نشاطه، وعبر إلى الجانب الغربيّ من بغداد. وجاء في أثره منصور أخو دبيس، وحسين ربيب منكبرس فنزلا في الجانب الشرقي من بغداد. وأغار البرسقي على نعم الملك مسعود فأخذها، وعاد فخيم بجانب آخر من بغداد، وخيّم مسعود وحيوس بك من جانب آخر، ودبيس ومنكبرس من جانب ومعهما عز الدولة بن البرسقي منفرداً عن أبيه. وكان حيوس بك قد بعث إلى

السلطان محمود بطلب الزيادة له وللملك مسعود فجاء كتاب مع رسوله يذكر بأن السلطان كان أقطعهم أذربيجان، حتى إذا بلغه مسيرهم إلى بغداد تثاقل عن ذلك، وقد جهّز العساكر إلى الموصل. ووقع الكتاب بيد منكبرس فبعث إلى حيوس بك، وضمن له إصلاح الحال. وكان يؤثر مصلحته إذ كان متزوّجاً بأمّه فتّم الصلح، وافترق عن البرسقي أصحابه، وبطل ما كان يحدّث به نفسه من الاستبداد بالعراق. وصار مع الملك مسعود، واستقر منكبرس شحنة ببغداد، ورجع دبيس إلى الحلة.

فتنة دبيس مع السلطان محمود وإجلاؤه عن بغداد ثم معاودته الطاعة:

كان دبيس بن صدقة كثيراً ما يكاتب حيوس بك أتابك الملك مسعود، ويغريه بطلب السلطنة، ويعده بالمساعدة ليحصل له بذلك علوً اليد، كما كان لأبيه مع بركيارق ومحمد إبني ملك شاه. وكان قسيم الدولة البرسقي شحنة بغداد قد سار للملك مسعود، وأقطعه مراغة مع الرحبة. وكانت بينه وبين دبيس عداوة مستحكمة فأغراهم دبيس بالقبض عليه، ففارقهم البرسقي إلى السلطان محمود فأكرمه. ثم

اتصل الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن عليّ الأصفهاني بالملك مسعود، وكان ولده أبو المؤيد محمد يكاتب الطغرائي عن الملك مسعود. فلمّا وصل ابوه عزل أبا علي بن عمّار صاحب طرابلس واستوزره. وحسن لهم ما أشار به دبيس فعزموا عليه.

ونمي الخبر إلى السلطان محمود فكاتبهم بالوعيد فأظهروا أمرهم وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، وضربوا له النوب الخمس. وبلغهم ان عساكر محمود متفرقة فاغذوا السير لمحاربته، والتقوا عند عقبة استراباد في ربيع سنة أربع عشرة، وأبلى البرسقي، وكان في مقدمته. ثم انهزم مسعود، وامر كثير من أصحابه وجيء بالوزير أبي إسماعيل الطغرائي فأمر بقتله لسنة من ولايته، وكان حسن الكتابة والشعر، وله تصانيف في صنعة الكيمياء.

وسار مسعود يطلب الموصل بعد أن استأمن البرسقي، وأدركه فرده إلى أخيه، وعفا عنه وعطف عليه. ولحق حيوس بك بالموصل. ثم بلغه فعل السلطان محمود، ومعه ألف سفينة لعبوره فبادر دبيس لطلب الأمان، بعد أن أرسل حرمه إلى البطيحة. وسار بأمواله عن الحلّة وأمر بنهبها. ولحق بأبلغازي بن أرتق بماردين، ووصل السلطان إلى الحلة فوجدها خاوية على عروشها فرجع عنها.

وأرسل دبيس أخاه منصوراً من قلعة صفد في عسكر إلى العراق فمر بالحلة والكوفة، وانحدر إلى البصرة، وبعث إلى برتقش الزكوي في صلاح حالهما مع السلطان محمود فقبض على منصور أخي دبيس وولده، وحبسهما ببعض القلاع حذاء الكرخ. ثم أذن دبيس لجماعة من أصحابه بالمسير إلى إقطاعهم بواسط فمنعهم أتراك واسط، فبعث إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر، وأمر مظفر بن أبي الخير فساعده، واستمدّ أهل واسط البرسقي فأمدّهم بعسكر. وسار مهلهل للقائهم قبل مجيء المظفر فهزم وأخذ أسيراً في جماعة من أصحابه.

وأصعد المظفر من البطيحة ينهب ويفسد، حتى قارب واسط. وسمع بالهزيمة فأسرع منحدراً. ووقع على كتاب بخط دبيس إلى مهلهل يأمره بالقبض على مظفّر بن أبي الخير ومطالبته بالاموال فبعثوا به إلى المظفر. وسار

معهم وبلغ دبيساً أن السلطان كحل أخاه فلبس السواد، ونهب البلاد، وأخذ للمسترشد بنهر الملك، وأجفل الناس إلى بغداد. وسار عسكر واسط إلى النعمانية فاوقعوا بمن هنالك من عساكر دبيس، واجلوهم
عنها. وكان دبيس قد أسر في واقعة البرسقي عفيفاً خادم الخليفة فأطلقه، وحمله إلى المسترشد عقاباً ووعيدا على كحل أخيه فغضب الخليفة، وتقدم إلى البرسقيّ بالخروج لحرب دبيس، وخرج بنفسه في رمضان سنة عشرة. وأتاه سليمان بن مهارش من الحديثة في جماعة من بني عقيل، وقريش بن مسلم صاحب الموصل في كافة بني عقيل.

وأمر المسترشد باستنفار الجند كافة، وفرّق فيهم الاموال والسلاح. وجاء دبيساً مالم يكن يحتسبه فرجع إلى الاستعطاف وبرز الخليفة آخر ذي الحجّة، وعبر دجلة، وهو في أكمل زيّه، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك، ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء عليّ بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل. وبلغ البرسقي مسير المسترشد فعاد إلى خدمته، ونزل معه بالحديثة. ثم سار إلى الموصل على سبيل التعبية، والبرسقي في المقدّمة، وعبّى دبيس أصحابه صفا واحدا. وجعل الرجالة بين يدي الخيالة. وقد كان وعد أصحابه بنهب بغداد، وسبي حريمها فالتقى الفريقان فانهزم عسكر دبيس، وأسر جماعة من أصحابه فقتلوا صبراً وسبيت حرمه، ورجع المسترشد إلى بغداد يوم عاشوراء من سنة سبع عشرة.

ونجا دبيس، وعبر الفرات، وقصد غزنة من عرب نجد مستنصراً بهم فأبوا عليه، فسار إلى المنتفق وحالفهم على أخذ البصرة فدخلوا ونهبوا أهلها، وقتل مقدم عسكرها. وبعث المسترشد إلى البرسقي بالعتاب على إهمال أمر البصرة، فتجهز البرسقي للانحدار إليها ففارقها دبيس، ولحق بقلعة جعبر. وصار مع الفرنج وأطعمهم في حلب، وسار معهم لحصارها سنة ثمان عشرة فامتنعت عليهم فعادوا عنها، ولحق هو بالملك طغرلبك بن السلطان محمد فأغراه بالمسير إلى العراق كما نذكر.

مسير دبيس إلى الملك طغرل:

لما سار دبيس من الشام إلى الملك طغرل بأذربيجان تلقاه بالمبرّة والتكرمة، وأنظمه في خواصّه ووزرائه. وأغراه دبيس بالعراق، وضمن له ملكه فسار معه لذلك، وانتهوا
إلى دقوقا في عساكر كثيرة. وكتب مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت إلى المسترشد بالخبر فتجهّز لمدافعتهم، وجمع العساكر فبلغوا اثني عشر ألف فارس، وبرز من بغداد في صفر سنة تسع عشرة، وفي مقدّمته برتقش الزكوي ونزل الخالص. وانتهى إلى طغرل خروج المسترشد فعدل إلى طريق خراسان ونزل جلولاء، وتفرق أصحابه للنهب. وبرز إليه الوزير جلال الدين بن صدقه في عسكر كبير فنزل الدسكرة ، ولحقه المسترشد، وكان معه. ورحل طغرل ودبيس إلى الهارونيّة. ثم سارا إلى تامرّا ليقطعا جسر النهروان فحفظ دبيس المعابر، وتقدّم إلى بغداد وتملكها ونهبها.

ثم رحل دبيس من تامرّا، واقام طغرل لحمّى أصابته، وحالت بينهما الامطار والسيول. ثم أخذ دبيس ثقلاً جاء للخليفة فيه ملبوس وطعام كثير، وكان لحقه الجوع والتعب والبرد فاخذ من ذلك الملبوس ولبسه، واكل من

الطعام كثيراً. واستقبل الشمس فاخذه النوم ورقد. وأما الخليفة لما بلغه الخبر باخذ الثقل رجع إلى بغداد، ففي حال سيره عثر على دبيس وهو نائم فوقف وأيقظه فحّل عينيه ورأى الخليفة فبادر بتقبيل الأرض على العادة، وسأل العفو فرقّ له الخليفة، وثناه الوزير بن صدقة عن ذلك، ووقف دبيس أزاء عسكر برتقش يحادثهم. ثم مدّوا الجسر آخر النهار للعبور فتسلل دبيس عنهم، ولحق بالملك طغرل، وسار معه إلى عمه الملك سنجر، وعاثوا في أعمال همذان، واتبعهم السلطان محمود فلم يظفر بهم.

مسير دبيس إلى السلطان سنجر:

لما أيس طغرل من ملك العراق عندما سار إليه مع دبيس عاد منه، وسار هو ودبيس إلى السلطان سنجر، وهو يومئذ صاحب خراسان، والمتقدّم علي بني ملك شاه فشكا إليه طغرل ودبيس من المسترشد، وبرتقش الشحنة، ووعدهم النصفة منهم. ثم داخله دبيس وأطعمه في ملك العراق. وخيّل له أن المسترشد والسلطان محمود متفقان على مباعدته، ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى حرّك حفيظته

لذلك، وسار إلى العراق سنة إثنتين وعشرين فوصل إلى الريّ، واستدعى السلطان محموداً من همذان يختبر ما خيل له دبيس، فجاء محمود مبادراً وأكذب دبيساً فيما خيل. وأمر السلطان سنجر العساكر بتلقي السلطان محمود، وأجلسه معه على التخت. وأقام عنده إلى آخر سنة إثنتين وعشرين، ثم عاد إلى خراسان، وأوصاه بإعادة دبيس إلى بلده فرجع السلطان محمود إلى همذان، ودبيس معه. ثم سار إلى بغداد في محّرم سنة ثلاث وعشرين، وأنزل دبيس بداره، واسترضى له الخليفة فرضي عنه، وامتنع من ولايته، وبذل دبيس مائة ألف دينار لذلك فلم يقبله، وعاد السلطان محمود إلى همذان منتصف السنة.

فتنة دبيس مع محمود وأسره:

كانت زوجة السلطان محمود وهي إبنة عمّه سنجر تعين بأمر دبيس، فماتت عند رحيل السلطان إلى همذان فانحل أمره. ثم مرض السلطان فأخذ دبيس ابنه الصغير، وقصد العراق فجمع المسترشد لمدافعته. وكان بهروز شحنة بغداد بالحلّة فهرب عنها، وملكها دبيس في رمضان سنة ثلاث وعشرين. وبلغ الخبر إلى السلطان صمود فأحضر الأمير ابن قزل والأحمديلّي، وكانا ضمنا دبيس فطالبهما بالضمان، فسار الأحمديلي في أثره. وجاء السلطان إلى العراق فبعث إليه دبيس بهدايا عظيمة كان فيها مائتا ألف دينار، وثلاثمائة فرس بسروج مثقلة بالذهب. ثم جاء إلى البصرة ونهبها وأخذ ما في بيوت الأموال.

وبعث السلطان في أثره العساكر فدخل البرية، وجاءه عند مفارقته البصرة قاصداً من صرصر يستدعيه، وكان صاحبها خصياً فتوفي في هذه السنة، وخلف سرية له فاستولى على القلعة، وأرادت أن تتم أمرها برجل له قوة ونجدة فوصف لها دبيس، وحاله في العراق وكثرة عشيرته، فكتبت تستدعيه لتتزوج به، وتملكه القلعة بما فيها فلحقه الكتاب بعد مفارقته البصرة. وقفل من العراق إلى الشام ومعه الادلاّء، ومر بدمشق فحبسه واليها عنده، وبعث فيه عماد الدين زنكي، وكان عدوه. وكان عنده ابن تاج الملوك مأسوراً في واقعة كانت بينهما فطلب

أن يبعث إليه دبيس، ويفادى به ابنه والأمراء الذين معه ففعل ذلك تاج الملوك وحصل دبيس في يد زنكي، وقد أيقن بالهلاك فأطلقه زنكي، وحمل له

الأموال والدواب والسلاح وخزائن الأمتعة كما يفعل مع أكابر الملوك. وبلغ المسترشد خبره فبعث سديد الدين ابن الأنبار يطلبه من تاج الملوك فسار لذلك من جزيرة ابن عمر، وبلغه في طريقه أنه بعثه إلى زنكي وأنه فاته القصد منه.

مسير دبيس إلى بغداد مع زنكي وانهزامهما:

لما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين، وولي بعده داود، ونازعه عمومته مسعود وسلجوق، ثم استقّرت السلطنة لمسعود، وكان أخوهما طغرل عند عمّه سنجر بخراسان، وكان كبير بيت أهل السلجوقيّة، وله الحكم على ملوكهم فنكر على السلطان محمود لقتاله سلجوق وطغرل، وسار به إلى العراق، وانتهى إلى همذان. وبعث إلى عماد الدين زنكي فولاّه شحنة بغداد، وإلى دبيس بن صدقة وهو عند زنكي فأقطعه الحلّة. وتجهز السلطان محمود لقتال سنجر وطغرل، واستدعى الخليفة للحضور معه فخرج من بغداد وعاجلهم، ورجع المسترشد إلى بغداد، وقد سمع بوصول زنكي ودبيس إليها، ولقيهم بالعبّاسيّة فهزمهم وقتل من معسكرهم ودخل بغداد. وسار دبيس إلى بلاد الحلة، وكانت بيد أقيال المسترشد فبعث إليها بالمدد فهزموا دبيساً، ونجا من المعركة. ثم جمع جمعاً وقصد واسط وانضمّ إليه عسكرها وابن أبي الخير صاحب البطيحة، وملكها إلى سنة سبع وعشرين فبعث إقبال الخادم، وبرتقش الشحنة العساكر إلى دبيس فلقيهم في عسكر واسط، وانهزم، وسار إلى السلطان مسعود فأقام عنده.

مقتل دبيس وولاية ابنه صدقة:

لم يزل دبيس مقيماً عند السلطان مسعود إلى أن حدثت الفتنة بينه وبين المسترشد، ومات أخوه طغرل كما هو مذكور في أخبارهم. وسار مسعود إلى همذان بعد موت أخيه طغرل فملكها، وفارقه جماعة من أعيان أمرائه، ومعهم دبيس بن صدقة مستوحشين منه واستأمنوا للخليفة فحذر من دبيس، ولم يقبلهم فمضوا إلى خوزستان، واتفقوا مع برسق بن برسق. ثم تدارك الخليفة رأيه، وبعث إلى الأمراء الذين مع دبيس بالأمان، وكانوا لما ردّهم الخليفة بسبب أجمعوا القبض عليه، وخدمة الخليفة به. وشعر بهم وهرب إلى السلطان مسعود وبرز الخليفة من بغداد في رجب من سنة تسع وعشرين لقتال مسعود، وكتب إليه أكثر أهل الأعمال بالطاعة. وأرسل إليه داود بن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد المسترشد الدّينور ليحضر داود حربه فأبى، وسار على التعبية حتى بلغ وأعرج فالتقوا هنالك. وانهزمت عساكر المسترشد، وأخذ أسيراً ومعه وزيره شرف الدين عليّ بن طراد، وقاضي القضاة، وابن الأنباري أعيان الدولة. وغنم ما في عسكره ؛ وعاد السلطان إلى بغداد. وبعث الأمير بكاية شحنة إلى بغداد، وكثر العويل والبكاء والضجيج ببغداد على الخليفة. وجعل الخليفة في خيمة، ووكّل به، وراسله السلطان مسعود في الصلح، وشرط عليه مالاً يؤدّيه، ولا يجمع العساكر ولا يخرج من داره ما بقي، وانعقد ذلك بينهما. وبينما هما في ذلك وصل رسول السلطان سنجر فركب السلطان

مسعود للقائه، وافترق المتوكّلون بالمسترشد فدخل عليه خيمته آخر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين جماعة الباطنية، وقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه.

ولما قتل المسترشد اتهم السلطان مسعود أن دبيس بن صدقة دسّ أولئك النفر عليه فأمر بقتله، وقصده غلام فوقف على رأسه عند باب خيمته، وهو ينكث الأرض بإصبعه فأطار رأسه وهو لا يشعر. وبلغ الخبر إلى ابنه صدقة وهو بالحلّة فاجتمعت إليه عساكر أبيه

ومماليكه، واستأمن إليه الأمير قطلغ تكين، وأمر السلطان مسعود الشحنة بك أبه بمعاجلته، وأخذ الحلّة من يده، إلى أن قدم السلطان بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فقصده صدقة، وأصلح حاله معه ولزم بابه.

مقتل صدقة وولاية ابنه محمد:

ولما قتل المسترشد ولي ابنه الراشد بإشارة السلطان مسعود، ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان مسعود، وأغراه بها عماد الدين زنكي صاحب الموصل، ومعه الراشد.

وبايع السلطان مسعود للمقتفي سنة ثلاثين، وخلع الراشد ففارق الموصل، وسار الأمراء الذين كانوا مع داود إلى السلطان مسعود، ورضي عنهم. ورجع إلى همذان وأذن للعساكر في العود إلى بلادهم، وتمسّك بصدقة بن دبيس، وزوّجه ابنته وسار الراشد من الموصل إلى أذربيجان قاصداً الملك، واجتمع إليه صاحب فارس

وخوزستان وجماعة الأمراء فسار إليهم السلطان مسعود وهزمهم، وأخذه صاحب فارس الأمير منكبرس فقتله صبراً. تسلل صاحب خوزستان وعبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال إلى السلطان مسعود وهو في خف من الناس فحملوا عليه وهزموه، وقبضوا على جماعة من الأمراء الذين معه فقتله منكبرس: فيهم صدقة بن دبيس، وعنبر بن أبي العسكر. وذهب داود إلى همذان فملكها، واستقال السلطان مسعود من عثرته، وولّى على الحلّة محمد بن دبيس، وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا نمير بربرة، واستقام أمره بالحلّة، وكان من شأن الراشد والسلجوقية ما نذكره في أخبارهم.

تغلب علي بن دبيس علي الحلة وملكه إياها من أخيه محمد:

ثم خرج على السلطان مسعود سنة ست وأربعين وخمسمائة بوزاية صاحب فارس وخوزستان وبايع للسلطان محمد ابن السلطان محمود، وسار كل مهم عبّاس صاحب الريّ وملكوا كثيراً من البلاد فسار السلطان مسعود إليهم من بغداد، واستخلف بها الأمير مهلهل بن أبي العسكر ونظر الخادم، وأشار مهلهل على السلطان مسعود عند رحيله من بغداد أن يحبس عليّ بن دبيس بقلعة تكريت. ونمي إليه الخبر فهرب في نفر قليل، ومضى إلى بني أسد فجمعهم فسار إلى الحلّة، فبرز إليه محمد أخوه فهزمه علي، وملك الحلّة، واست كان السلطان أمره أوّلا فاستفحل وضم إليه جمعاً من غلمانه وغلمان أبيه، وأهل بيته

وعساكرهم، وكثر جمعهم فسار إليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا عليه مصافاً وكسرهم، وعادوا منهزمين إلى بغداد. وكان أهلها يتعصّبون لعلي بن دبيس فكانوا يعيطون إذا ركب مهلهل أو بعض أصحابه يا عليّ كله، فكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب، ويد علي فوق كل يد

في أوضاع الأمراء بالحلة وتصرّف فيها. وصار شحنه بغداد ومن فيها على وجل منه، ووضع الخليفة الحامية على الأسوار، وأرسل إلى علي يحضه على الاستقامة فأجاب بالآمال والطاعة فسكن الناس.

أخذ السلطان الحلة من يد علي وعوده إليها:

كان علي بن دبيس كثير العسف بالرعية والظلم لهم، وارتفعت شكوى الرعية به إلى السلطان مسعود سنة إثنتين وأربعين وخمسمائة فأشكاهم، وأقطع الحلّة سلاركرد فسار إليها من همذان. وجمع عسكراً من بغداد وقصد الحلّة، واحتاط على أهل علي، وأقام بالحلة في مماليكه وأصحابه. ورجعت عنه العساكر؛ ولحق عليّ بن دبيس بالتقشكنجر وكان في اقطاعه باللحف متجنياً على السلطان مسعود فاستنجده عليّ فأنجده، وسار معه إلى واسط، وسار معهما الطرنطاي صاحب واسط فانتزعوا الحلّة من سلاركرد، ورجع إلى بغداد آخر إثنتين وأربعين واستولى عليّ على الحلّة.

نكبة علي بن دبيس:

ثم انتقض على السلطان مسعود سنة أربع وأربعين جماعة من الأمراء: منهم التقشكنجر والطرنطاي وعليّ بن دبيس، وبايعوا ملك شاه ابن السلطان محمود، وساروا به إلى العراق، وراسلوا المقتفي في الخطبة له فامتنع، وجمع العساكر وحصن بغداد. وأرسل إلى السلطان مسعود بالخبر فشغل عنهم بلقاء عفه السلطان سنجر، كان سار إليه بالريّ. ولما علم التقشكنجر بذلك نهب النهروان وقبض على عليّ بن دبيس، وهرب الطرنطاي إلى النعمانية. ثم وصل السلطان مسعود إلى بغداد فرحل التقشكنجر من النهروان، وأطلق عليّ بن دبيس فسار إلى السلطان مسعود فلقيه ببغداد، واستعطفه فرضي عنه.

وفاة علي في دبيس وانقراض بني مزيد:

ثم توفي علي بن دبيس صاحب الحلّة عليلًا بسعد اباد، واتهم طبيبه محمد بن صالح بالإدهان فيه فمات بعده بقليل. ثم مات السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية الأعاظم، وبويع ملك شاه ابن أخيه محمود بعهده. واستبدّ المقتفي على ملوك السلجوقية بعده. وبعث السلطان ملك شاه سلاركرد إلى الحلّة فملكها، ولحق به مسعود بلاك شحنة بغداد، هرب منها عند موت السلطان مسعود، وأظهر لسلاركرد الوفاق. ثم قبض عليه وغرقه، واستبدّ بالحلّة، وبعث المقتفي إليه العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة فبرز مسعود بلاك للقائهم، فانهزم وعاد إلى الحلة فمنعه أهلها من الدخول، فسار إلى تكريت، وملك ابن هبيرة الحلّة، وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها. ثم جاءت عساكر السلطان ملك شاه إلى واسط، وخرجت منها عساكر المقتفي إلى واسط فملكها، ثم إلى الحلة كذلك. ثم عاد إلى بغداد آخر ذي القعدة سنة سبع وأربعين وخمسمائة،

ثم قبض الأمراء على مالك شاه سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وبايعوا لأخيه محمد، وطلب الخطبة من المقتفي فمنع منها، فسار السلطان محمد بن محمود إلى العراق سنة إحدى وخمسين. واضطرب الناس ببغداد، واهتم المقتفي بالاحشاد، وجاءته عساكر واسط. وبعث السلطان مهلهل بن أبي العسكر إلى الحلة فملكها، وحاصر السلطان محمد بغداد سنة إثنتين وخمسين وخمسمائة، وامتنعت عليه فرجع وتوفي المقتفي سنة خمس وخمسين

وخمسمائة، وبويع ابنه المستنجد، واستبدّ بأمره كما كان أبوه. ومنع خطبة السلجوقيّة من بغداد، وكان في نفسه شيء من بني أسد لاجلابهم على بغداد مع مهلهل بن أبي العسكر، أيام حصار السلطان محمد لها فأمر يردن بن قماج بقتالهم واجلائهم، وكانوا منتشرين في البطائح، ولا يقدر عليهم، وجمع عساكره وبعث عن ابن معروف مقدم المنتفق من أرض البصرة فجاءه في جمع كبير، وحاصرهم حتى انحسر الماء عنهم. وأبطأ أمرهم على المستنجد، فبعث إلى يردن يعاتبه وينسبه إلى موافقتهم في التشيع فجهد هو وابن معروف في قتالهم، وسدّ مسالكهم في الماء، واستسلموا فقتل منهم أربعة الاف، ونودي عليهم بالجلاء من الحلّة فافترقوا في البلاد، ولم يبق منهم

بالعراق من يعرف، وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف والمتقي وانقرضت دولة بني مزيد والبقاء لله.

ملوك العجم القائمين بالدعوة العباسية

الخبر عن ملوك العجم القائمين بالدعوة العباسية في

ممالك الإسلام والمستدين ين علي الخلفاء ونبدأ منهم أولا

بدولة ابن طولون بمصر وبد اية أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدّم لنا عند ذكر الفتوحات فتح مصر على يد عمرو بن العاص، سنة عشرين من الهجرة في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بإذنه، وولاّه عليها، وافتتح ما وراءها في المغرب إلى طرابلس وودان وغدامس حسبما ذلك مذكور هنالك. وأقام عمرو في ولايتها أيام عمر كلّها. وولّى عثمان على الصعيد عبد الله بن أبي سرح، وأفردها بالولاية، وكان يعدو على عمرو فغضب عمرو، وأبى من الرجوع إلى ولاية مصر، فضمها عثمان لعبد الله بن أبي سرح وولاّه عليها. وكانت في أيامه غزوة الصواري، جاءت مراكب الروم من القسطنطينية في ألف مركب، ونزلوا بسواحل الإسكندرية. وانتقض أهل القرى، ورغب أهل الإسكندرية من عثمان أن يمدّهم بعمرو بن العاص فبعثه، وزحف إليهم في العرب ومعه المقوقس في القبط؟ وخرجوا من البحر ومعهم من انتقض من أهل القرى ففتح الله على المسلمين، وهزموا الروم إلى الإسكندريّة.

وأمضى عمرو في قتلهم، ورد على أهل القرى ما غنم المسلمون منهم، وعذرهم بالاكراه، ورجع إلى المدينة. وأقام عبد الله في ولايتهم وغزا إفريقية وافتتحها. ثم غزا بلد النوبة، ووضع عليهم الجزية المعروفة الباقية على الأيام، وذلك سنة إحدى وثلاثين. ثم كان من بعد ذلك يبعث معاوية بن حديج فيفتح ويثخن إلى أن استملك فتح إفريقية. ووفد على عثمان آخر أيامه عندما اهتاجت الفتنة، وكثر الطعن عليه من جماعة جند مصر يتعلّلون بالشكوى من ابن أبي سرح مع وفد من الجند شاكين من عمّالهم بالأمصار. وعزله عثمان يسترضيهم به فكانت قضية الكتاب المنسوب إلى مروان، وحصارهم عثمان بداره.

وخرج عبد الله من مصر

مددا لعثمان فخالفه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى مصر، وانتزى بها. ورجع عبد الله من طريقه فمنعه الدخول فسار إلى عسقلان، وأقام بها حتى قتل عثمان. ثم سار إلى الرملة وكانت من مهماته فأقام بها

هربا من الفتنة، حتى مات ولم يبايع علياً ولا معاوية. ثم قتل عمرو بن العاص محمد بن أبي حذيفة، وفي كيفية قتله إياه اضطراب. ثم ولى علي على مصر قيس بن سعد بن عبادة، وكان ناصحاً له شديداً على عدّوه، واستماله معاوية في الردّ عليه. وأشاع معاوية خلاف ذلك عنه فعزله عليّ من أجل ذلك، وولى بعد ذلك الأشتر النخعي، وإسمه مالك بن الحارث بن يغوث بن سلمة بن ربيعة بن الحارث بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع. وسار إليها فمات بالقلزم قريبها منها سنة سبع وثلاثين، فولّى علي مكانه محمد بن أبي بكر، وكان نشأ في حجره.

ثم بعث معاوية إلى عمرو بن العاص، وهو بفلسطين قد اعتزل الناس بعد مقتل عثمان، واستماله، واجتمع معه على قتال علي وولاه مصر فسار إليها بعد انقضاء أمر صفّين وأمر الحكمين. وطلب معاوية الخلافة، وقد اضطرب الامر على محمد ابن أبي بكر، وخرج عليه معاوية بن خديج السّكونيّ مع جماعة من العثمانية بنواحي مصر فكاتب عمرو العثمانية، وسرّح الكتائب إلى مصر، وفي مقدّمتها معاوية بن خديج فهزموا عساكر محمد، وافترق عنه أصحابه وقتل كما هو معروف في أخباره، ودخل عمرو بن العاص الفسطاط، وملك مصر إلى سنة ثلاث وأربعين فتوفي، وملك مكانه ابنه عبد الله. ثم عزله معاوية وولّى أخاه عتبة بن أبي سفيان، ولوفي سنة أربع وأربعين، وولّى مكانه عقبة بن عامر الجهنيّ، ثم عزله سنة سبع وأربعين وولي مكانه معاوية بن خديج.

ثم اقتطع عنه إفريقية سنة خمسين، وولّى عليها عقبة بن نافع ثم جمع مصر وإفريقية لمسلمة بن مخلد الأنصاري، فبعث مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر، وأساء عزل عقبة كما هو معروف. ثم مات معاوية، وولى ابنه يزيد، واضطربت الأمور، وبويع عبد الله بن الزبير بمكة وانتشرت دعوته في الممالك الإسلامية، فبعث على مصر عبد الرحمن بن جحدم القرشيّ، وهو عبد الرحمن بن عقبة بن أياس بن الحارث بن عبد بن أسد بن جحدم الفهريّ، ثم بويع مروان، وانتقض ابن الزبير، وسار مروان إلى

مصر فأخرج منها عبد الرحمن بن جحدم، وولّى عليها عمر بن سعيد الاشدق. ثم بعثه للقاء مصعب بالشام، وولّى مكانه على مصر ابنه عبد العزيز بن مروان. ثم هلك سنة خمس، وكان مروان قد مات فولي مكانه ابنه عبد الله بن عبد الملك، ثم عزله الوليد سن تسع وثمانين، وولّى عليها مرّة بن شريك بن مرة بن الحارث العبسيّ، ومات سنة خمس وتسعين فولى الوليد مكانه عبد الله بن رفاعة سنة تسع وتسعين، وكان قد استخلفه عند موته. ويقال بل ولى قبله أسامة بن زيد التّنوخيّ.

ثم عزل عمر بن عبد العزيز عبد الملك بن رفاعة سنة تسع وتسعين، وولّى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكرم بن ابرهة بن الصبّاح الأصبحي. ثم عزله يزيد بن عبد الملك، وولى مكانه بشد بن صفوان، وأقّره يزيد، ثم عزله هشام بن عبد الملك وولى عبد الملك ابن رفاعة، وتوفي بعد خمس عشرة ليلة، واستخلف أخاه الوليد بن رفاعة. وأقره هشام فأقام سبعة أشهر، ثم عزله وولّى حنظلة بن صفوان في المحرّم سنة أربع وعشرين، و أقرّه هشام. ثم استعفى مروان بن محمد حين ولي فأعفاه، وولّى مكانه حسان بن عتامة بن عبد الرحمن السجيني،

وكان بالشام فاستخلف حمير بن نعيم الحصري بمصر. ثم قدم ورفضى ولايتها فولى مكانه حفص بن الوليد لستة عشر يوماً . من ولايته. وبقي حفص شهرين، ثم ولّى مروان الحوثرة بن سهل بن العجلان الباهلي في محّرم سنة ثمان وعشرين. ثم صرف عنها في رجب سنة إحدى وثلاثين، وولي المغيرة بن عبد الله بن مسعود الفزاريّ.

ثم مات في جمادى سنة ست وثلاثين، واستخلف ابنه الوليد. وولّى مروان بن عبد الملك موسى بن نصير فأمر باتخاذ المنابر في الكور، وإنما كانوا يخطبون على العصي. ثم قدم مروان بن محمد إلى مصر، وكان فيها مهلكه كما هو معروف. ثم جاءت الدولة العبّاسيّة فولّى السفاح على مصر عمّه صالح بن عليّ سنة أربع وثلاثين ومائة، وبقيت في ولايته يستخلف عليها فاستخلف أولا محصن بن فاني الكنديّ ثمانية أشهر، ثم أبا عون عبد الملك بن يزيد مولى مناه ثمانية أشهر. وولّي داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة محرم سنة أربع وسبعين. ثم عزله في محرّم سنة خمس وسبعين لسنة من ولايته، وأعاد إليها موسى بن عيسى. ثم صرفه في ربيع سنة ست وسبعين وولّي ابن عمّه إبراهيم بن صالح، وتوفي لثلاثة أشهر من ولايته، وقام بالأمر بعده ابنه صالح فولّي الرشيد عبد الله بن المسيّب بن زهير الضبي في رمضان سنة ست وسبعين.

ثم عزله بعد الحول، ولي هرثمة بن أعين: ثم أمره بالمسير إلى إفريقية لثلاثة أشهر من ولايته سلخ ثمان وسبعين، وولّي أخاه عبيد الله بن المسّيب. ثم أعاد موسى بن عيسى في رمضان سنة تسع وسبعين فاستخلف ابنه يحيى. ثم صرف موسى في منتصف سنة ثمانين لعشرة أشهر من ولايته، وأعيد عبيد الله بن المهدي. ثم صرفه في رمضان سنة إحدى وثمانين، وأعيد إسماعيل بن صالح بن عليّ من العمومة فاستخلف، ثم صرف في منتصف إثنتين وثمانين وأعيد لعشرة أشهر من ولايته. وولّي الليث بن الفضل من أهل أسبورد في ليها أربع سنين ونصفاً وعزل.

ثم ولي الرشيد من قرابته أحمد بن إسماعيل بن عليّ منتصف سبع وثمانين فبقي عليها سنتين وشهرين. ثم ولّى مكانه عبد الله بن محمد بن الإمام إبراهيم بن صمد ويرف بابن زينب، وصرفه عنها آخر شعبان من سنة تسعين لسنة وشهرين من ولايته. وولى حاتم بن هرثمة بن اعين فقدم في شوال سنة أربع وتسعين، ثم صرفه الأمير منتصف خمس وتسعين لسنة وثلاثة أشهر من ولايته، وولّى جابر بن الأشعث بن يحيى بن النعمان الطائي منتصف خمس وتسعين فأخرجه الجند منها سنة ست وتسعين، لسنة من ولايته. ثم ولى المأمون عليها عباد بن محمد بن حيّان البلخيّ مولي كندة، ويكنى أبا نصر. ثم عزله لسنة ونصف من ولايته في صفر سنة ثمان وتسعين، وولى المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعيّ وقدمها من مكة في منتصف ربيع الأول. ثم صرفه في شوال لثمانية أشهر من ولايته، وولى من عمومته العبّاس بن موسى بن لمجسى فبعث عليها ابنه عبد الله، ومعه الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه فاقام عليها شهرين ونصفاً، فقتله الجند يوم النحر سنة ثمان وتسعين، وولوا عليهم المطلب بن عبد الله. ثم جرت بينه وبين السديّ وبين الحكم بن يوسف

مولي بني ضبّة من أهل بلخ، من قوم يقال لهم الزّط، وجرت بينه وبين أهل المطّلب حروب، وخرج هاربا إلى مكة بعد سنة وثمانية أشهر من ولايتها.

ووليها السري بإجماع الجند في رمضان سنة مائتين. ثم وثب به الجند بعد ستة أشهر، وولوا سليمان بن غالب بن جبريل بن يحيى بن قرّة العجليّ في ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة.

وولّي عبد الله بن طاهر بن الحسين مولى خزاعة فأقام عشرة. ثم ولّى المأمون عليها أخاه أبا إسحاق الملقب في خلافته بالمعتصم فأقرّ عبسى الجلودي، وبعده عمير بن الوليد التميمي في صفر سنة أربع عشرة. ثم قتل بعد شهرين، واستخلف ابنه محمد بن عمير شهراً، ثم أعاد عيسى الجلودي. ثم جاء أبو إسحاق المعتصم إلى الفسطاط، وعاد إلى الشام، واستخلف عبدويه بن جبلة في المحرم فاتح خمس عشرة فأقام سنة، وولّي عيسى ين منصور بن موسى الخراساني الرافعي مولى بني نصر بن معاوية.

ثم قدم المأمون مصر لسنة من ولايته فسخط على عيسى بن منصور، وعمّر المقياس وجسراً آخر بالفسطاط، وولّي كندر بن عبد الله بن نصر الضفدي، ويكنى أبا ما أسك، ورجع إلى العراق. ومات كندر في ربيع سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفّر. ولما صارت الخلافة للمعتصم ولى على مصر مولاه اشناس، ويكنّى أبا جعفر في رجب سنة ثمان عشرة فاستخلف عليها موسى بن أبي العبّاس ثابت من بني حنيفة من أهل الشاش في رمضان سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفّر فأقام مستخلفاً لأشناس اربع سنين ولصفا. ثم عزله بعد سنتين، واستخلف مالك بن كيد بن عبد الله الصّفديّ فقدم في ربيع سنة أربع وعشرين. شم عزله بعد سنتين واستخلف عليّ بن يحيى الارمني، وقدم في ربيع سنة ست وعشرين. ثم عزله بعد سنتين وثمانية أشهر، واستخلف عيسى بن منصور الذي كان مستخلفاً. للمعتصم أيام المأمون، وسخطه المأمون عند قدومه مصر فقدم عيسى في محّرم سنة تسع وعشرين.

ثم مات أشناس بعد الثلاثين، وقد استخلف على مصر إيتاخ مولى المعتصم، وأقيم إيتاخ مكان أشناس فأقرّ الواثق أتياخ على مصر، فأقر إيتاخ عيسى بن منصور في ربيع سنة ست وثلاثين فبقي أربعة أشهر. ثم استخلف إيتاخ هرثمة بن النضر الجبلي فقدم منتصف سنة ثلاث وثلاثين، وأقام سنة، ثم مات سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وقام بأمره ابنه حاتم رضي الله تعالى عنه فاستخلف إيتاخ علي بن يحيى الأرمني في رمضان سنة أربع وثلاثين ومائتين. ثم صرف إيتاخ عن ولاية مصر في محرم سنة خمس وثلاثين بعد وفاة المعتصم.

وولّي المتوكل على مصر ابنه المستنصر فاستخلف عليها إسحاق بن يحيى بن معاذ الختليّ، وقدم في ذي القعدة من سنته. وفي أيامه أخرج ولد علي من مصر إلى العراق. ثم صرف في ذي القعدة من سنة ست وثلاثين، واستخلف المستنصر عليها عبد الرحمن بن يحيى بن منصور بن طلحة وريق، وهو ابن عم طاهر بن الحسين، وقدم في ذي القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين. ثم صرفه واستخلف عنبسة بن إسحاق بن عبس بن عبسة من أهل هراة. ويكنى أبا حاتم في صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين. وفي ولايته كبس الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين.

واستخلف يزيد بن عبد الله بن دينار من مواليهم، ويكنّى أبا خالد. وفي أيامه منع العلويّون من ركوب الخيل واقتناء العبيد. ثم ولي المستنصر الخلافة في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين فأقرّ يزيد على ولاية مصر. ثم صرف عنها في ربيع سنة ثلاث وخمسين لعشر سنين من ولايته. وولى المعتز مكانه مزاحم بن خاقان بن عزطوج التركي في ربيع سنة أربع وخمسين، وعهد إلى أزجور بن أولغ طرخان التركي فأقام خمسة أشهر، وخرج حاجاً في رمضان سنة أربع وخمسين. وولي أحمد بن طولون، واستفحل بها أمره، وكانت له ولبنيه بها دولة كما نذكر الآن أخبارها.

دولة أحمد بن طولون

الخبر عن دولة أحمد بن طولون بمصر وبنيه ومواليه

بني طغج وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

قال ابن سعيد، ونقله من كتاب ابن الداية في أخبار بني طولون: كان طولون أبو أحمد من الطغز، غزوهم التتر. حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون في وظيفته من المال والرقيق والبراذين . وولد له أحمد سنة عشرين ومائتين من جارية إسمها ناسم. ونوفي طولون سنة أربعين ومائتين، وكفله رفقاء أبيه بدار الملك، حتى ثبتت مرتبته، ونصرف في خدمة السلطان، وانتشر له ذكر عند الاولياء فاق به على أهل طبقته.

وشاع بين الترك صونه ودينه وأمانته على الأسرار والأموال والفروج. وكان يستصغر عقول الأتراك، ويرى أنهم ليسوا بأهل للرتب. وكان يحب الجهاد. وطلب من محمد بن أحمد بن خاقان أن يسأل من عبد الله الوزير أن يكتب لهما بأرزاقهما إلى الثغر، ويقيما هنالك مجاهدين. وسار إلى طرسوس، وأعجبه ما عليه أهل الحق من تغيير المنكر واقامة الحق فأنس، وعكف على طلب الحديث. ثم رجع إلى بغداد، وقد امتلأ علماً وديناً وسياسةً. ولما تنكّر الاتراك للمستعين، وبايعوا المعتزّ، وآل أمر المستعين إلى الخلع والتغريب إلى واسط، وكّلوا به أحمد بن محمد الواسطيّ يومه. وكان حسن العشرة فكه المجالسة. ولّما اعتزموا على قتله بعثوا إلى أحمد بن طولون أن يمضى ذلك فتفادى منه ، فبعثوا سعيداً الحاجب قسمله ثم قتله، ودفنه ابن طولون، وعظم محلّه بذلك عند أهل الدولة. انتهى كلام ابن سعيد.

وقال ابن عبد الظاهر: وقفت على سيرة للاخشيد قديمة عليها خط الفرغاني، وفيها أن أحمد هو ابن النج من الاتراك، كان طولون صديق أبيه ومن طبقته. فلما مات النج رباه طولون وكفله، فلمّا بلغ من الحداثة مشى مع الحشوية وغزا وتنقلت به الأحوال إلى أن صار معدوداً في الثقات. وولي مصر واستقربها. قال صدر الدين بن عبد الظاهر: ولم أر ذلك لغيره من المؤرخين انتهى.

ولما وقع اضطراب الترك ببغداد، وقتل المستعين وولي المعتز، واستبدّ عليه الأتراك وزعيمهم يومئذ باك باك، وولاّه المعتزّ مصر، ونظر فيمن يستخلفه عليها فوقع اختياره على أحمد بن طولون فبعثه عليها، وسار معه أحمد بن محمد الواسطى، ويعقوب بن إسحق، ودخلها في رمضان سنة أربع وخمسين، وعلى الخوارج بها أحمد ابن

المدبّر، وعلى البريد سفير مولى قبيجة فأهدى له ابن المدبر، ثم استوحش منه وكاتب المعتز بأنّ ابن طولون يروم العصيان، وكاتب صاحب البريد بمثل ذلك فسطا بسفير صاحب البريد ومات من غده.

ثم قتل المعتز وولي المهتدي فقتل باك باك، ورتب مكانه يارجوج، وولاّه مصر. وكانت بينه وبين أحمد بن طولون مودّة أكيدة فاستخلفه على مصر، وأطلق يده على الاسكندرية والصعيد بعد أن كان مقتصراً على مصر فقط. وجعل إليه الخراج فسقطت رتبة ابن المدبّر. ثم أعاده المعتمد فلم ينهض إلى مساماة ابن طولون ولا منازعته. ثم كتب إليه المعتمد بضبط عيسى بن شيخ الشيباني، وكان يتقلّد فلسطين والاردن، وتغلّب على دمشق وطمع في مصر ومنع الحمل. واعترض حمل ابن المدبر، وكان خمسة وسبعين حملاً من الذهب فأخذها فكتب إليه المعتمد يومئذ بولاية أعماله فادّعى العجز، وأنكر مال الحمل ونزع السواد، وأنفذ أناجور من الحضرة في العساكر إلى دمشق سنة سبع وخمسين.

ثم خرج أحمد بن طولون إلى الاسكندرية ومعه أخوه موسى وكان يتجنى عليه، ويرى أنه لم يوف بحقّه. وظهر ذلك منه في خطابه فأوقع به ونفاه، وحبس كاتبه إسحق بن يعقوب، واتهمه بأنه أفضى بسرّه إلى أخيه.

وخرج أخوه حاجاً . وسار من هنالك إلى العراق، ووصف أخاه بالجميل فحظي بذلك عند الموفّق. واستفحل أمر أحمد، واستكثر من الجند وخافه أناجور بالشام. وكتب الموفّق يغريه بشأنه، وأنه يخشى على الشام منه. ثم كتب الموفّق إلى ابن طولون بالشخوص إلى العراق لتدبير أمر السلطان، وأن يستخلف على مصر فشعر ابن طولون بالمكيدة في ذلك، فبعث كاتبه أحمد بن محمد الواسطي إلى يارجوج وإلى الوزير وحمل إليهما الأموال والهدايا. وكان يارجوج متمكّناً في الدولة فسعى في أمره، وأعفاه من الشخوص وأطلق ولده وحرمه واشتدت وطأة ابن طولون، وخافه أحمد بن المدبّر فكتب إلى أخيه إبراهيم أن يتلطف له في الانصراف عن مصر فورد الكتاب بتقليده خراج دمشق وفلسطين والأردن. وصانع ابن طولون بضياعه التي ملكها، وسار إلى عمله بمصر، وشيّعه ابن طولون ورضي عنه. وذلك سنة ثمان وخمسين ومائتين. وولي الوزير على الخراج من قبله. وتقدم لابن طولون باستحثاثه فتتابع حمل الأموال إلى المعتمد. ثم كتب ابن طولون بأن تكون جباية الخراج له فأسعف بذلك. وأنفذ المعتمد نفيساً الخادم بتقليده خراج مصر وضريبتها وخراج مصر وضريبتها وخراج الشام. وبعث إليه نفيس الخادم، ومعه صالح بن أحمد بن حنبل قاضي الثغور، ومحمد بن أحمد الجزوعي قاضي واسط شاهدين بإعفائه ما زاد على الرسم من المال والطراز. ومات يارجوج في رمضان سنة تسع وخمسين، وكان صاحب مصر، ومن أقطاعه. ويدعى له قبل ابن طولون فلمّا مات استقل أحمد بمصر.

فتنة ابن طولون مع الموفق:

لما استأمن الزنج وتغلّبوا على نواحي البصرة، وهزموا العساكر، بعث المعتمد إلى الموفق، وكان المهتدي نفاه إلى مكة فعهد له المعتمد بعد ابنه المفوّض، وقسّم ممالك الإسلام بينهما. وجعل الشرق للموفّق ودفعه لحرب الزنج، وجعل الغرب للمفوّض، واستخلف عليه موسى بن بغا، واستكتب موسى بن عبيد الله بن سليمان بن

وهص. وأوح كتاب عهدهما في الكعبة. وسار الموفّق لحرب الزنج، واضطرب الشرق ، وقعد الولاة عن الحمل. وشكا الموفق الحاجة إلى المال. وكان ابن طولون يبعث الأموال إلى المعتمد يصطنعه بذلك، فأنفذ الموفق نحريراً خادم المتوكّل إلى أحمد بن طولون يستحثّه لحمل الأموال والطراز والرقيق والخيل، ودسّ إليه يعتقله. واطلع على الكتب. وقتل بعض القوّاد، وعاقب آخرين. وبعث مع نحرير ألفي ألف ومائتي ألف دينار ورقيقا وطرزاً. وجمع الرسم وبعث معه من أسلمه إلى الثقة أناجور صاحب الشام.

ولما فعل ابن طولون بنحرير ما فعل، كتب الموفّق إلى موسى بن بغا بصرف أحمد

ابن طولون عن مصر، وتقليدها أناجور فكتب إلى أناجور بتقليدها فعجز عن مناهضة أحمد، فسار موسى بن بغا ليسلّم إليه مصر، وبلغ الرقّة. واستحث أحمد في الأموال فتهيّأ أحمد لحربه، وحصّن الجزيرة معقلاً لحربه وذخيرته. وأقام موسى بالرقة عشرة أشهر، واضطرب عليه الجند وشغبوا وطالبوه بالأرزاق، واختفى كاتبه موسى بن عبيد الله بن وهب فرجع وتوفي سنة أربع وستين ومائتين. ثم كتب الموفّق إلى ابن طولون باستقلال ما حمله من المال، وعنّفه وهدّده فأساء ابن طولون جوابه، وأنّ العمل لجعفر بن المعتمد ليس لك فأحفظ ذلك الموفق، وسأل من المعتمد أن يولّي على الثغور من يحفظها، وأن ابن طولون لا يؤمن عليها لقلة اهتمامه بأمرها فبعث محمد بن هارون التغلبيّ عامل الموصل، وركب السفن فألقته الريح بشاطىء دجلة فقتله الخوارج أصحاب مساو الساري.

ولاية أحمل بن طولون علي الثغور:

وكانت أمهات الثغور يومئذ أنْطاكِية وطرسوس والمصيصة وملطية، وكان على أنْطاكِية محمد بن علي بن يحيى الأرمني، وعلى طرسوس سيما الطويل وإليه أمر الثغور. وجاء في بعض أيامه إلى أنْطاكِية فمنعه الأرمني من الدخول فدس إلى أهل البلد بقتله. فقتلوه، وأحفظ ذلك الموفق فولّى على الثغور أرجون بن أولغ طرخان التركي، وأمره بالقبض على سيما الطويل فقام بالثغور، وأساء التصرّف، وحبس الأرزاق عن أهلها. وكانت قلعة لؤلؤة من قلاع طرسوس في نحر العدوّ، وأهمّ أهل طرسوس أمرها فبعثوا إلى حاميتها خمسة آلاف دينار رزقاً من عندهم فأخذها أرجون لنفسه، وضاعت حاميتها وافترقوا. وكتب الموفّق إلى أحمد بن طولون بتقليد الثغور، وأن يعث عليها من قبله فبعث من قبله طحشى بن بكروان، وحسنت حالهم وطلب منه ملك الروم الهدنة، واستأذن في ذلك ابن طولون فمنعه، وقال: إنما حملهم على ذلك تخريبكم لقلاعهم وحصونهم فيكون في الصلح راحة لهم فحاش لته منه، وأمره برمّ الثغور وأرزاق الغزاة. استيلاء أحمد بن طولون علي الشام:

قد تقدم لنا ولاية أناجور على دمشق سنة سبع وخمسين ومائتين ، وما وقع بينه وبين أحمد بن طولون. ثم توفي أناجور في شعبان سنة أربع وستين، ونصّب ابنه عليّ مكانه. وقام يدبّر أمره أحمد بن بغا وعبيد الله بن يحيى بن وهب. وسار إلى الشام موريا بمشارفة الثغور واستخلف ابنه العبّاس على مصر، وضمّ إليه أحمد بن- محمد الواسطي وعسكر في مينة الأصبع ، وكتب إلى عليّ بن أناجور بإقامة الميرة للعساكر فأجاب الآمال. وسار ابن طولون إلى الرملة، وبها محمد بن أبي رافع من

قبل أناجور، ومدبّر دولته أحمد بن هنالك منذ نفاه المهتدي فأكرمه. ثم سار عن دمشق، واستخلف عليها أحمد بن دوغياش، ورحل إلى حمص وبها أكبر قواد أناجور فشكت الرعية منه فعزله، وولّى يمتا التركي. ثم سار إلى أنْطاكِية، وقد امتنع بها سيما الطويل بعد أن كتب بالطاعة، وأن ينصرف عنه فأبى وحاصرها وشد حصارها.

وضجر أهلها من سيما فداخل بعضهم أحمد بن طولون، ودلّوه على بعض المسارب فدخلها منه في فاتحة خمس وستين، وقتل سيما الطويل وقبض على أمرائه وكاتبه. ثم سار إلى طرسوس فملكها، ودخلها في خلق كثير، وشرع في الدخول إلى بلاد الروم للغزو. وبينما هو يروم ذلك جاءه الخبر بانتقاض ابنه العبّاس الذي استخلفه بمصر فرجع، وبعث عسكراً إلى الرقة وعسكراً إلى حرّان، وكانت لمحمد بن أناشر فأخرجوه عنها وهزموه. وبلغ الخبر إلى أخيه موسى فسار إلى حران وكان شجاعاً. ود، ن مقدم العسكر بحرّان بن جيعونة فأهمه أمرهم فقال له أبو الأغرّ من العرب: أنا آتيك بموسى. واختار عشرين فارسا من الشجعان، وسار إلى معسكر موسى فأكمن بعفهم، ودخل بالباقين بعض الخيام فعقدت، واهتاج العسكر، وهرب أبو الأغرّ واتبعوه فخرج عليهم الكمين فهزموهم وأسر موسى، وجاء به أبو الأغرّ إلى جيعونة، قائد إبن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر سنة ست وستين ومائتين.

الخبر عن انتقاض العباس بن أحمد بن طولون علي ابيه:

لما رحل أحمد بن طولون إلى الشام، واستخلف ابنه العبّاس، وكان أحمد بن الواسطي محكماً في الدولة. وكان للعبّاس بطانة يدارسونه الأدب والنحو، وأراد أن يولّي بعضهم الوظائف، ولم يكونوا يصلحون لها فمنع الواسطي من ذلك خشية الخلل في الأعمال فحمل هؤلاء البطانة عليه عند العباس، وأغروه به. وكتب هو إلى أحمد

يشكوهم فاجابه بمداراة الأمور إلى حين وصوله. وكان محمد بن رجاء كاتب أحمد مداخلا لابنه العباس فكان يبعث إليه بكتب الواسطي يتنزّل له فاطّلع على جواب أبيه عن كتبه بالمداراة فازداد خوفاً، وحمل ما كان هنالك من المال والسلاح، وهو ألف ألف دينار. وتسلّف من التجار مائتي ألف أخرى، واحتمل أحمد بن محمد الواسطي وأيمن الأسود مقيّدين، وسار إلى برقة.

ورجع أحمد إلى مصر، وبعث له جماعة فيهم القاضي أبو بكرة بكّار بن قتيبة، والصابوني القاضي، وزياد المرّيّ مولى اشهب فتلطّفوا به بالموعظة حتى لان. ثم منعه بطانته وخوّفوه فقال لبكّار: ناشدتك الله هل تأمنه عليّ ؟ فقال: هو قد حلف، وأنا لا أعلم فمضى على ريبته. ورجع القوم إلى أبيه. وسار هو إلى إفريقية يطلب ملكها، وسهل عليه أصحابه أمر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب صاحبها. وكتب إليه بأن المعتمد قلّده إفريقية، وأنه أقره عليها. وانتهى إلى المدينة لبلة فخرج عليه عامل بن الأغلب فقبض عليه، ونهب البلد وقتل أهله، وفضح نساءهم فاستغاثوا بالياس بن منصور كبير نفوسة ورئيس الاباضيّة، وقد كان خاطبه يتهدّده على الطاعة.

وبلغ الخبر إلى ابن الأغلب فبعث العساكر مع خادمه بلاغ، وكتب إلى محمد بن قهرب عامل طرابلس بأن يظاهر معه على قتال العبّاس فسار ابن قهرب وناوشه القتال من غير مسارعة. ثم صحبهم الياس في اثني عشر ألفاً من قومه. وجاء بلاغ الخادم من خلفه فأجفل، واستبيح أمواله وذخائره، وقتل أكثر من كان معه، وأفلت بحاشيته. وانطلق أيمن الأسود من القيد، ورجع إلى مصر. وجاء العبّاس إلى برقة مهزوما. وكان قد أطلق أحمد الواسطي بعد أن ضمن حزب برقة إحضاره، فلما رجع أعاده إلى محبسه فهرب من . الحبس، ولحق

بالفسطاط. ووجد أحمد بز طولون قد سار إلى الإسكندرية عازماً على الرحيل إلى برقة فهوّن أمره، ومنعه من الرحيل بنفسه. وخرج طبارجي وأحمد الواسطي فجاؤوا به مقيّداً على بغل، وذلك سنة سبع وستين. وقبض على كاتبه محمد بن رجاء، وحبسه لما كان يطلع ابنه العبّاس على كتبه. ثم ضرب ابنه وهو باك عليه وحبسه.

خروج الصوفي والعمري بمصر:

كان أبو عبد الرحمن العمريّ بمصر، وهو عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، مقيماً بالقاصية من الصعيد، وكان البجاة يغيرون في تلك الأعمال ويعيثون فيها. وجاؤوا يوم عيد فنهبوا وقتلوا فخرج هذا العمري غضبا لله، وأكمن لهم في طريقهم ففتك بهم، وسار في بلادهم حتى أعطوه الجزية، واشتدّت شوكته. وزحف العلويّ للقائه فهزمه العمري، وذلك سنة ستين ومائتين. وكان من خبر هذا العلوي انه ظهر بالصعيد سنة سبع وخمسين ومائتين ، وذكر أنّ إسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن أبي طالب، ويعرف بالصوفيّ. فملك مدينة أسنا ونهبها، وعاث في تلك الناحية. وبعث إليه ابن طولون جيشاً فهزمهم، وأسر مقدم الجيش فقطعه فأعاد إليه جيشاً آخر، وانهزم إلى الواحات. ثم عاد إلى الصعيد سنة تسع وخمسين ومائتين، وسار إلى الأشمونين. ثم سار للقاء العمري وانهزم إلى أسوان، وعاث غي جهاتها. وبعث إليه ابن طولون العسكر فهرب إلى عيذاب، وعبر البحر إلى مكة فقبض عليه الوالي بمكة، وبعث به إلى ابن طولون فحبسه مدة. ثم أطلقه ومات بالمدينة. ثم بعث ابن طولون العسكر إلى العمري فلقي قائدهم وقال: إني لم أخرج بالفساد، ولا يؤذى مسلم ولا ذمي، وإنما خرجت للجهاد فشاور أميرك في فأبى، وناجزه الحرب فانهزم العسكر، ورجعوا إلى ابن طولون فاخبروه بشأنه فقال: هلا كنتم شاورتموني فيه؟ فقد نصره الله عليكم ببغيكم. ثم وثب عليه بعد مدّة غلامان له فقتلاه وجاءا برأسه إلى أحمد بن طولون فقتلهما.

انتفاض برقة:

وفي سنة إحدى وستين ومائتين وثب أهل برقة بعاملهم محمد بن فرج الفرغاني

فأخرجوه، ونقضوا طاعة ابن طولون فبعث إليهم العساكر مع غلامه لؤلؤ ، وأمره بالملاينة فحاصرهم أياماً وهو يلين لهم حتى طمعوا فيه، ونالوا من عسكره فبعث إلى أحمد بخبره فأمره بالاشتداد فشدّ حصارهم، ونصب عليهم المجانيق فاستأمنوا، ودخل البلد، وقبض على جماعة من أعيانهم فضربهم وقطعهم، ورجع إلى مصر واستعمل عليهم مولى من مواليه، وذلك قبل خلاف العبّاس على أبيه.

انتقاض لؤلؤ علي ابن طولون:

كان ابن طولون قد ولى مولاه لؤلؤاً على حلب وحمص وقنسرين وديار مضر من الجزيرة، وأنزله الرقة، وكان يتصرّف عن أمره. ومتى وقع في مخالفته عاقب ابن سليمان كاتب لؤلؤ فسقط لؤلؤ في المال، وقطع الحمل عن أحمد بن طولون. وخاف الكاتب مغبة ذلك فحمل لؤلؤاً على الخلاف، وأرسل إلى الموفّق بعد أن شرط على المعتمد شروطاً أجابه الموفق إليها. وسار إلى الرقّة وبها ابن صفوان العقيلي فحاربه، وملكها منه، وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق. وسار إلى الموفّق فوصل إليه بمكانة من حصار صاحب الزنج وأقبل عليه، واستعان به في تلك الحروب وولاّه على الموصل. ثم قبض عليه سنة ثلاث وسبعين ومائتين وصادره على أربعمائة ألف دينار فافتقر وعاد إلى مصر آخر أيام هارون بن خمارويه فقيراً فريداً.

مسير المعتمد إلى ابن طولون وعوده عنه من الشام:

كان ابن طولون يداخل المعتمد في السرّ ويكاتبه، ويشكو إليه المعتمد ما هو فيه من الحجر والتضييق عليه من أخيه الموفّق والموفق بسبب ذلك ينافر ابن طولون وشمعى في إزالته عن مصر. ولما وقع خلاف لؤلؤ على ابن طولون خاطب المعتمد، وخوّفه الموفّق واستدعاه إلى مصر. وأنّ الجيوش عنده لقتال الفرنج فأجابه المعتمد إلى ذلك، وأراد لقاءه بجميع عساكره فمنعه أهل الرأي من أصحابه، وأشاروا عليه بالعدول عن المعتمد جملة، وأنّ أمره يؤول معه إلى أكثر من أمر الموفّق، من أجل بطانته التي

يؤثرها على كل أحد. واتصلت الأخبار بأنّ الموفّق شارف القبض على صاحب الزنج فبعث ابن طولون بعض عساكره إلى الرقة لانتظار المعتمد، واغتنم المعتمد غيبة الموفق وسار في جمادى سنة ثمان وستين ومائتين، ومعه جماعة من قواده فقبض عليهم وقيّدهم.

وقد كان ساعد بن مخلّد وزير الموفّق خاطبه في ذلك عن الموفق فأظهر طاعتهم حين صاروا إلى عمله، وسار معهم إلى أوّل عمل أحمد بن طولون فلم يرحل معهم حين رحلوا. ثم جلس معهم بين يدي المعتمد وعذلهم في المسير إلى ابن طولون، ودخلوهم تحت حكمه وحجره. ثم قام بهم عند المعتمد ليناظرهم في خلوة فلما دخلوا خيمته قبض عليهم. ثم رجع إلى المعتمد فعذله في الخروج عن دار خلافته، وفراق أخيه وهو في قتال عدوّه. ثم رجع بالمعتمد والذين معه حتى أدخلهم سر من رأى. وبلغ الخبر إلى ابن طولون فقطع خطبة الموفق ومحا إسمه من الطرز فتقدم الموفق إلى المعتمد بلعن ابن طولون في دار العامّة فأمر بلعنه على المنابر، وعزله عن مصر وفوّض إليه من باب الشاتية إلى أفريقيا، وبعت إلى مكة بلعنه في المواسم فوقعت بين أصحاب ابن طولون وسلبوا، وأمر جعفر المصريّين وقرأوا الكتاب في المسجد بلعن ابن طولون.

اضطراب الثغور ووصول أحمد بن طولون إليها ووفاته:

كان عامل أحمد بن طولون على الثغور طلخشى بن بلذدان، وإسمه خلف، وكان نازلا بطرسوس. وكان ما زيار الخادم مولى فتح بن خاقان معه بطرسوس، وارتاب به طلخشي فحبسه فوثب جماعة من أهل طرسوس، واستقدموا مازيار من يده وولوه. وهرب خلف، وتركوا الدعاء لابن طولون من مصر، وانتهى إلى أذنة وكاتب مازيار واستماله فامتنع، واعتصم بطرسوس فرجع ابن طولون إلى حمص ثم إلى دمشق فأقام بها. ثم

رجع وحاصره في فصل الشتاء بعد أن بعث إليه يدعوه وانساح على معسكر أحمد وخيمه، وكادوا يهلكون فتأخر ابن طولون إلى أذنة، وخرج أهل طرسوس فنهبوا العسكر. وطال مقام أحمد بأذنة في طلب البرد.

ثم ثار إلى المصيصة فأقام بها ومرض هناك. ثم تماسك إلى أنْطاكِية فاشتد وجعه ونهاه الطبيب عن كثرة الغذاء فتناوله سراً فكثر عليه الاختلاف، لأن أصل علته هيضة من لبن الجواميس. وثقل عليه الركوب فحملوه على العجلة فبلغ الفرمار، وركب من ساحل الفسطاط إلى داره، وحضره طبيبه فسهّل عليه الأمر، وأشار بالحمية فلم يداوم عليها. وكثر الإسهال، وحميت كبده من سوء. الفكر فساءت أفعاله. وضرب بكار بن قتيبة القاضي، وأقامه للناس في الميدان، وخرق سواده وأوقع بابن هرثمة، وأخذ ماله وحبسه. وقتل سعيد بن نوفل مضروباً بالسياط.

ثم رجع أولياءه وغلمانه وعهد إلي ابنه أبي الجيش خمارويه، وأوصاهم بانظاره وحسن النظر فسكنوا إلى ذلك لخوفهم من ابنه أبي العبّاس المعتقل. ثم مات سنة ست وسبعين ومائتين لست وعشرين سنة من إمارته. وكان حازماً سائساً، وبنى جامعه بمصر؛ وأنفق فيه مائة وعشرين ألف دينار. وبنى قلعة يافا، وكان يميل إلى مذهب الشافعيّ رضي الله تعالى عنه. وخفف من المال عشرة آلاف دينار، ومن الموالي سبعة آلاف،

ومن الغلمان أربعة آلاف ومن الخيل المرتبطة مائة، ومن الدواب لركابه مائتين وثلاثين. وكان خراج مصر لأيامه مع ما ينضاف إليها من ضياع الأمراء لحضرة السلطان أربعة آلاف ألف دينار، وثلاثمائة ألف دينار وعلى المارستان وأوقافه ستين ألف دينار، وعلى حصن الجزيرة، والجزيرة- وهي المسماة لهذا العهد بقلعة الروضة- ثمانين ألف دينار. وخربت بعد موته، وجدّدها الصالح نجم الدين بن أيوب. ثم خربت ثانية، ولم يبق منها إلا أطلال دائرة ، وكان يتصدق في كل شهر بألف دينار، ويجري على المسجونين خمسمائة في ينار في كل شهر وكانت نفقة مطابخه وعلوفته ألف دينار في كل يوم.

ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون:

ولما توفي أحمد بن طولون اجتمع أهل الدولة وخواص الأولياء وكبيرهم أحمد بن محمد الواسطي والغالب على الدولة الحسن بن مهاجر، فاتفقوا على بيعة ابنه أبي الجيش خمارويه، وأحضروا ابنه العبّاس من محبسه وعزّاه الواسطي وهم يبكون. ثم قال: بايع لأخيك فأبى فقام طبارجي وسعد الآيس من الموالي، وسحبوه إلى حجرة في القصر فاعتقلوه بها واخرج من الغد ميتاً وأخرجوا أحمد إلى مدفنه، وصلى عليه أبنه ابو الجيش، وواراه ورجع إلى القصر مقيماً لأمر سلطانه.

مسير خمارويه إلى الشام وواقعته مع ابن الموفق:

ولما توفي أحمد بن طولون كان إسحاق بن كنداج عاملاً على الجزيرة والموصل، وابن أبي الساج على الكوفة، وقد ملك الرحبة من يد أحمد بن مالك فطمعا في ملك الشام، واستأذنا الموفق فأذن لهما ووعدهما بالمدد.

وسار إسحق إلى الرقّة والثغور والعواصم فملكها من يد ابن دعاس عامل ابن طولون. واستولى إسحق على حمص وحلب وأنْطاكِية، ثم على دمشق. وبعث خمارويه العساكر إلى الشام فملكوا دمشق

وهرب العامل الذي انتقض بها ثم سار العسكر إلى شيزر فأقام عليها قبالة إسحق وابن أبي الساج، وهما ينتظران المدد من العراق. ثم هجم الشتاء فتفرّق عسكر خمارويه في دور شيزر، ووصل العسكر من العراق مع أبي العبّاس أحمد بن الموفق الذي صارت إليه الخلافة، ولقّب المعتضد فكبسوا عسكر خمارويه في دور شيزر، وفتكوا فيهم. ونجا الفل إلى دمشق، والمعتضد في اتباعهم فارتحلوا عنها، وملكها المعتضد في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ولحق عساكر خمارويه بالرملة فأقاموا بها، وكتبوا إلى خمارويه بالخبر، وسار المعتضد نحوهم من دمشق. وبلغه وصول خمارويه، وكثرة عساكره فهم بالعود، ومعه أصحاب خمارويه الذين خالفوا عليه، ولحقوا به. وكان ابن كنداج وابن أبي الساج متوحشين من المعتضد لسوء معاملته لهما. والتقى العسكر اًن على الماء الذي عليه الطواحين بالرملة فولّى خمارويه منهزماً مع عصابة معه ليس لهم دربة بالحرب. ومضى إلى مصر بعد أن أكمن مولاه سعداً الايس في عسكر. وجاء المعتضد فملك خيام خمارويه وسواده، وهو يظنّ الظفر فخرج سعدً الآيس من كمينه، وقصد الخيام وظنّ المعتضد أن خمارويه قد رجع فركب وانهزم لا يلوي على شيء. وجاء إلى دمشق فمنعوه الدخول فمضى إلى طرسوس، ولما افتقد سعد الآيس خمارويه نصّب أخاه ابا العشائر لقيادة العساكر، ووضع العطاء، ووصلت البشائر إلى مصر فسرّ خمارويه بالظفر، وخجل من الهزيمة، واكثر الصدقة واكرم الأسرى واطلقهم. وسارت عساكره إلى الشام فارتجعوه كله من أصحابه فأخرجوهم، ولحقوا بالعراق. وغزا بالصائفة هذه السنة مازيار صاحب الثغر، وغنم وعاد، ثم غزا كذلك سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج والخطبة لابن طولون بالجزيرة:

كان ابن أبي الساج عاملا على قّنسرين، وإسحق على الجزيرة والموصل فتنافسوا في الأعمال، واستظهر ابن أبي الساج بخمارويه، وخطب له بأعماله، وبعث ابنه رهينة إليه فسار في عساكره بعد أن بعث إليه الأموال وانتهى إلى السنّ، وعبر ابن أبي الساج الفرات ولقي إسحق بن كنداج على الرقّة فهزمه، وجاز خمارويه من بعده فعبر الفرات إلى الرافقيّة. ونجا إسحاق إلى ماردين، وحصره ابن أبي الساج. ثم خرج وسار إلى الموصل، فصده ابن أبي الساج عنها، وهزمه فعاد إلى ماردين. واستولى ابن أبي الساج على الجزيرة والموصل، وخطب في أعمالها لخمارويه، ثم لنفسه بعده. وبعث العساكر مع غلامه فتح لجباية نواحي الموصل فأوقع بالشراة اليعقوبيّة، ومكر بهم. وعلم أصحابهم بما فعل معهم فجاؤوا إليه، وهزموه واستلحموا أصحابه. ونجا ابن أبي الساج في فل قليل.

ثم انتفض ابن أبي الساج على خمارويه سنة خمس وسبعين ومائتين، وذلك أن إسحق بن كنداج سار إلى خمارويه بمصر، وصار في جملته فانتقض ابن أبي الساج. وسار خمارويه إليه فلقيه على دمشق في المحرم فانهزم ابن أبي الساج، واستبيح معسكره. وكان وضع بحمص خزائنه فبعث خمارويه عسكراً إلى حمص فمنعوه من دخولها، واستولوا على خزائنه. ومضى ابن أبي الساج إلى حلب، ثم إلى الرقة، وخماوريه في اتباعه. ثم فارق الرقّة إلى الموصل، وعبر خمارويه الفرات واحتل مدينة بلد، وأقام بها وسار ابن أبي الساج إلى الحديثة.

وبعث خمارويه عساكره وقواده مع إسحق بن كنداج في طلب ابن أبي الساج فعبر دجلة، واقام بتكريت وإسحاق في عشرين الفاً، وابن أبي الساج في ألفين، وأقاموا يترامون في العوتين. ثم جمع ابن كنداج السفن ليمدّ الجسر للعبور فخالفهم ابن أبي الساج إلى الموصل ونزل بظاهرها فرحلوا في أتباعه فسار لقتالهم، فانهزم إسحق إلى الرقة، وتبعه ابن أبي الساج. وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى الشام، وأعمال خمارويه فأجابه بالتربص وانتظار المدد. ولما انهزم إسحاق سار إلى خمارويه، وبعث معه العسكر، ورجع فنزل على حد الفرات من أرض الشام،. وابن أبي الساج قبالته على حدود الرقّة فعبرت طائفة من عسكر ابن كنداج لم يشعروا بهم، واوقعوا بجمع من عسكر ابن أبي الساج فلما رأى أن لا مانع لهم من العبور، سار إلى الرقّة إلى بغداد، وقدم على الموفق سنة ست وسبعين ومائتين فأقام عنده إلى أن ولاه أذربيجان في سنته واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة وديار مضر، وأقام الخطبة فيها لخمارويه.

عود طرسوس إلى ايالة خمارويه:

قد كنا قدّمنا أن مازيار الخادم ثار بطرسوس سنة سبعين ومائتين، وحاصره أحمد بن طولون

فامتنع عليه فلمّا ولي خمارويه، وفرغ من شواغله أنفذ إلى مازيار سنة سبع وسبعين ومائتين ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف، واصطنعه فرجع إلى طاعته وخطب له بالثغور. ثم دخل بالصائفة سنة ثمان وسبعين ومائتين وحاصروا أسكند فأصابه منها حجر منجنيق رثه، ورجع إلى طرسوس فمات بها. وقام بأمر طرسوس ابن عجيف. وكتب إلى خمارويه فأقره على ولايتها. ثم عزله واستعمل مكانه محمد ابن عمه موسى بن طولون. وكان من خبره أنّ اباه موسى لما ملك أحمد اخوه مصر تبّسط عليه بدلالة القرابة وذوي الارحام فلم يحتمله له أحمد ورده عليه، وكسر جاهه فانحرف موسى وسخط دولته.

ثم خاطبه في بعض مجالسه بما لا يحتمله السلطان فضربه، ونفاه إلى طرسوس. وبعث إليه بمال يتزوّده فأبى من قبوله، وسار إلى العراق، ورجع إلى طرسوس فأقام بها إلى ان مات، وترك ابنه محمداً. وولاّه خمارويه وبعث إلى اميرهم راغب فأكرمه خمارويه وأنس به، وطالت إقامته عنده، وشاع بطرسوس أن خمارويه حبسه فاستعظم الناس ذلك، وثاروا بأميرهم محمد بن موسى وسجنوه رهينة في راغب. وبلغ الخبر إلى خمارويه فسرّحه إلى طرسوس فلمّا وصلها أطلقوا اميرهم محمد بن موسى، وقد سخطهم فسار عنهم إلى بيت المقدس. وعاد ابن عجيف إلى ولايته بدعوه خمارويه وغزا سنة ثمانين ومائتين بالطائفة، ودخل معه بدر الحمامي فظفروا وغنموا ورجعوا. ثم دخل بالطائفة سنة إحدى وثمانين ومائتين من طرسوس طغج بن جف الفرغاني من قبل خمارويه في عساكره طرابزون وفتح مكودية.

صهر المعتضد مع خمارويه:

ولما ولي المعتضد الخلافة بعث إلى خمارويه خاطباً قطر الندى إبنته، وكانت أكمل نساء عصرها في الجمال والآداب. وكان متولي خطبتها أمينه الخصيّ ابن عبد الله بن الجصاص فزوّجه خمارويه بها، وبعثها مع ابن الجصاص، وبعث معها من الهدايا

ما لا يوصف. وقدمت سنة تسع وسبعين ومائتين فدخل بها، وتمتع بجمالها وآدابها، وتمكّن سلطانه في مصر والشام والجزيرة إلى أن هلك.

مقتل خمارويه وولاية ابنه جيش:

كان خمارويه قد سار سنة اثنين وثمانين ومائتين إلى دمشق فأقام بها أياماً، وسعى إليه بعض أهل بيته بأن جواريه يتخذون الخصيان يفترشوهنّ، واراد استعلام ذلك من بعضهن فكتب إلى نائبه بمصر أن يقّرر بعضهن فلما وصله الكتاب، قرّر بعض الجواري وضربهنّ. وخاف الخصيان، ورجع خمارويه من الشام، وبات في مخدعه فأتاه بعضهم وذبحه على فراشه في ذي الحجة سنة إثنتين وثمانين. وهرب الذين تولّوا ذلك فاجتمع القواد صبيحة ذلك اليوم، وأجلسوا ابنه جيش بن خمارويه على كرسي سلطانه، وأفيض العطاء فيهم، وسيق الخدم الذين تولّوا قتل خمارويه فقتل منهم نيف وعشرون.

مقتل جيش بن خمارويه وولاية أخيه هارون:

ولما ولي جيش كان صبياً غرّاً فعك ف على لذّاته، وقرّب الأحداث والسفّلة، وتنكر لكبار الدولة، وبسط فيهم القول ؛ وصرّح لهم بالوعيد فأجمعوا على خلعه. وكان طغج ابن جف مولى أبيه من كبار الدولة، وكان عاملاً لهم على دمشق فانتقض وخلع طاعته. وسار آخرون من القوّاد إلى بغداد، منهم إسحق بن كنداج وخاقان المفلحي، وبدر بن جف أبو طغج، وقدموا على المعتضد فخلع عليهم، وأقام سائر القواد بمصر على انتقاضهم وقتل قائداً منهم. ثم وثبوا بجيش فقتلوه ونهبوا داره، ونهبوا مصر وحرقوه، وبايعوا لأخيه هارون وذلك لتسعة اشهر من ولايته.

فتنة طرسوس وانتفاضها:

وقد تقدم لنا أن راغباً مولى الموفّق نزل طرسوس للجهاد فأقام بها، ثم غلب عليها بعد ابن عجيف. ولما ولي هارون بن خمارويه سنة ثلاث وثمانين ترك الدعاء له،

ودعا لبدر مولى المعتضد، وقطع طرسوس والثغور من عمالة بني طولون. ثم بعث هارون بن خمارويه إلى المعتضد أن يقاطعه على أعماله بمصر والشام بأربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، ويسلّم قنسرين والعواصم، وهي الثغور لمعتضد فأجابه إلى ذلك. وسار من آمد، وكان قد ملكها من يد محمد بن أحمد بن الشيخ فاستخلف ابنه المكتفي عليها. وسار سنة ست وثمانين ومائتين فتسلّم قنّسرين والثغور من يد أصحاب هارون، وجعلها مع الجزيرة في ولاية ابنه المكتفي.

ولاية طغج بن جف علي دمشق:

ولما ولي هارون بعد أخيه جيش على ما ولي عليه من اختلاف القوّاد وقوّة أيديهم، خشي أهل الدولة من افتراق الكلمة ففوّضوا أمرها إلى أسب جعفر بن أبان. كان مقدّماً عند أحمد وخمارويه فأصلح ما استطاع، وبقي يرتّق الفتق، ويجبر الصدع. ثم نظر إلى الجند الذين كانوا خالفوا بدمشق مع طغج بن جف فبعث إليهم بدراً الحمامي والحسين بن أحمد الماردايي فأصلح أمور الشام وأفردا طغج بن جف بولاية دمشق، واستعملا في

سائر الأعمال، ورجعا إلى مصر، والأمور مضطربة والقوّاد طوائف لا ينقاد منهم أحد إلى أن وقع ما نذكر.

زحف القرامطة إلى دمشق:

قد تقدّم لنا ابتداء أمر القرامطة، وما كان منهم بالعراق والشام، وأنّ ذكرويه بن مهداوية داعية القرامطة لما هزم بسواد الكوفة، وأفنى أصحابه القتل لحق ببني القليص بن كلب بن وبرة في السماوة فبايعوه، ولقبوه الشيخ، وسمّوه يحيى، وكنّوه أبا القاسم. وزعم أنه محمد بن عبد الله بن المكتوم بن إسمعيل الإمام فلقبوه المدّثر، وزعم أنه المشار إليه في القرآن. ولقب غلاماً من أهله المطوّق. وسار من حمص إلى حماة ومعرة النعمان إلى بعلبك ثم إلى سلميّه فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان والبهائم. ونهب سائر القرى من كل النواحي.

وعجز طغج بن جف وسائر

جيشه وصاحبه هارون عن دفاعهم.

وتوجّ أهل الشام ومصر إلى المكتفي مستغيثين فسار إلى أهل الشام سنة تسعين ومائتين، ومرّ بالموصل، وقدّم بين يديه أبا الأغرّ من بني حمدان في عشرة آلاف رجل. ونزل قريباً من حلب، وكبسه القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم جماعة، ونجا أبو الأغر إلى حلب في فلّ من أصحابه. وحاصره القرمطي، ثم أفرج عنه، وانتهى المكتفي إلى الرقة. وبعث محمد بن سليمان الكاتب في العساكر، ومعه الحسين من بني حمدان، وبنو شيبان فناهضه في المحرّم سنة إحدى وتسعين ومائتين على حماة، وانهزم القرامطة. وأخذ صاحب الشامة أسيراً فبعث به إلى الرقة، وبين يديه المدّثر والمطوّق وتقدّم المكتفي إلى بغداد، ولحقه محمد بن سليمان بهم فأمر المكتفي بضربهم وقطعهم، وضرب أعناقهم وحسم دائهم، حتى ظهر منهم من ظهر بالبحرين.

استيلاء المكتفي علي الشام ومصر وقتل هارون

وشيبان ابني خمارويه وانقراض دولة بني طولون:

ونبدأ أولا بخبر محمد بن سليمان المتولّي بتحويل دولة بني طولون، كان أصله من ديار مضر من الرقّة اصطنعه أحمد بن طولون وخدمه في مصر. ثم تنكّر له وعامله في

جاهه وأقاربه بما أحفظه، وخشي على نفسه فلحق ببغداد، ولقي بها مبّرة وتكرمة. واستخدمه الخلفاء وجعلوه كاتباً للجيش فما زال يغريهم بملك مصر إلى أن ولي هارون بن خمارويه، وفشلت دولة بني طولون بالشام.

وعاث القرامطة في نواحيه؟ وعجز هارون عن مدافعتهم، ووصل صريخ أهل الشام إلى المكتفي فقام لدفع ضررهم عن المسلمين، ودفع محمد بن سليمان لذلك وهو يومئذ من أعظم قوّاده فسار في العساكر في مقدمته.

ثم أمره المكتفي باتباع القرامطة. وأقام بالرقّة فسار حتى لقيهم وقاتلهم حتى هزمهم واستلحمهم، ودفع عن الشام ضررهم، ورجع بالقرمطي صاحب الشامة وأصحابه أسرى إلى المكتفي بالرقّة فرجع إلى بغداد، وقتلهم هنالك، وشفى نفسه ونفس المسلمين منهم.

وكان محمد بن سليمان لما تخلّف عن المكتفي عند وصوله إلى بغداد فأمره بالعود، وبعث معه جماعة من القوّاد وأمدّه بالأموال وبعث دميانة غلام مازيار في الأسطول وأمره بالمسير إلى سواحل مصر ودخول نهر

النيل، والقطع عن أهل مصر ففعل وضيق عليهم. وسار محمد بن سليمان والعساكر، واستولى على الشام وما وراءه فلما قارب مصر كاتب القوّاد يستميلهم فجاء إليه بدر الحمامي، وكان رئيسهم فكسر ذلك من شوكتهم. وتتابع إليه القواد مستأمنين فبرز هارون لقتالهم فيمن معه من العساكر. وأقام قبالتهم، واضطرب عسكره في بعض الأيام من فتنة وقعت بينهم.

واقتتلوا فركب هارون ليسكنهم فأصابته حربة من بعض المغاربة، كان فيها حتفه فقام عمه شيبان بن أحمد بن طولون بعده بالأمر، وبذل الأموال للجند من غير حسبان ولا تقدير، ثم أباح نهب ما بقي منه يصطنعهم بذلك فنهبوه في ساعة واحدة، وتشوف إلى جمع المال فعجز عنه واضطرب، وفسد تدبيره، وتسايل إلى محمد بن سليمان جنده، وفاوض اعيان دولته في أمره فاتفقوا على الاستئمان إلى محمد بن سليمان فبعث إليه مستأمناً فسار إليه. ثم تبعه قواده وأصحابه فركب محمد إلى مصر، واستولى عليها، وقيد بني طولون وحبسهم، وكانوا سبعة عشر رجلا. وكتب بالفتح فأمره المكتفي بأشخاص بني طولون جميعاً من مصر والشام إلى بغداد فبعث بهم. ثم أمر بإحراق القطائع التي بناها أحمد بن طولون على شرقي مصر، وكانت ميلا في ميل فأحرقت ونهب الفسطاط.

ولاية عيسي النوشزي علي مصر وثورة الخليجي:

ولما اعتزم محمد بن سليمان على الرجوع إلى بغداد وكان المكتفي قد ولاه على مصر فولى المكتفي عيسى بن محمد النوشزي، وقدم في منتصف سنة اثنتين وتسعين. ثم ثار بنواحي مصر إبراهيم الخليجي، وكان من قواد بني طولون، وتخلف عن محمد بن سليمان. وكتب إلى المكتفي عيسى النوشزي بالخبر. وكثرت جموع الخليجي، وزحف إلى مصر فخرج النوشزي هاربا إلى الإسكندرية وملك الخليجي مصر، وبعث المكتفي العساكر مع فاتك مولى أبيه المعتضد وبدر الحمامي، وعلى مقدمتهم أحمد بن كيغلغ في جماعة من القواد، ولقيهم الخليجي على العريش في صفر سنة ثلاث وتسعين فهزمهم. ثم تراجعوا وزحفوا إليه وكانت بينهم حروب فني فيها

أكثر أصحاب الخليجي، وانهزم الباقون فظفر عسكر بغداد، ونجا الخليجي إلى الفسطاط واختفى به. ودخل قواد المكتفي المدينة وأخذوا الخليجي وحبسوه.

وكالت المكتفي عندما بلغته هزيمة ابن كيغلغ، وسار ابن كيغلغ في ربيع،- وبرز المكتفي من ورائهم يسير إلى مصر - فجاءه كتاب فاتك بالخبر، والحبس الخليجي فكتب المكتفي بحمله ومن معه إلى بغداد. وبرز من تكريت فبعث فاتك بهم، وحبسوا ببغداد. ورجع عيسى النوشري إلى مصر في منتصف ثلاث وتسعين فلم يزل واليا عليها إلى أن توفي في شعبان سنة سبع وتسعين لخمس سنين من ولايته وشهرين ، وقام بأمره ابنه محمد. وولى المقتدر على مصر أبا منصور تكين الخزري فقدمها آخر شوال من سنة سبع وتسعين، وأقام واليا عليها.

واستفحلت دولة العلويين بالمغرب. وجهز عبيد الله المهدي العساكر مع ابنه أبي القاسم سنة إحدى وثلاثمائة، فملك برقة في ذي الحجّة آخرها. ثم سار إلى مصر وملك الإسكندرية والفيوم، وبلغ الخبر إلى المقتدر فقلد ابنه أبا العبّاس مصر والمغرب، وعمره يومئذ أربع سنين. وهو الذي ولي الخلافة بعد ذلك ولقب الراضي ولما قلّده مصر استخلف له عليها مؤنساً الخادم، وبعثه في العساكر إلى مصر، وحاربهم فهزمهم. ورجعوا إلى المغرب فأعاد عبيد الله العساكر سنة اثنين مع قائده حامسة الكتامي. وجاء في الأسطول فملك الإسكندرية، وسار منها إلى مصر. وجاء مؤنس الخادم في العساكر فقاتله وهزمه. ثم كانت بينهم وقعات، وانهزم أصحاب المهدي آخراً في منتصف إثنتين وثلاثمائة وقتل منهم نحواً من سبعة آلاف، ورجعوا إلى المغرب فقتل المهدي حامسة وعاد مؤنس إلى بغداد.

ولاية ذكاء الأعور:

لم يزل تكين الخزري واليا على مصر استخلافاً إلى أن صرف آخر إثنتين وثلاثمائة، فولّى المقتدر مكانه أبا الحسن ذكاء الأعور، وقدم منتصف صفر من سنة ثلاث فلم يزل واليا عليها إلى أن توفي سبع لأربع سنين من ولايته.

ولاية تكين الخزري ثانية:

لما صرف المقتدر ذكاء ولّى مكانه أبا منصور تكين الخزري ولاية ثانية، فقدم في شعبان سنة سبع، وكان عبيد الله المهدي قد جهّز العساكر مع ابنه أبي القاسم، ووصل إلى الإسكندرية في ربيع من سنة سبع وملكها. ثم سار إلى مصر، وملك الجزيرة والأشمونين من الصعيد وما إليه، وكتب أهل مكة بطاعته. وبعث المقتدر من بغداد مؤنساً الخادم في العساكر فواقع ابا القاسم عدة وقعات، وجاء الأسطول من إفريقيا إلى الإسكندرية في ثمانين مركباً مدداً لأبي القاسم، وعليه سليمان بن الخادم، ويعقوب الكتامي فسار إليهم في أسطول طرسوس في خمسة وعشرين مركباً، وفيها النفط والمدد، وعليها أبو اليمن فالتقت العساكر في الأساطيل في مرسى رشيد. فظفر أسطول طرسوس بأسطول إفريقيا، واشر كثير منهم. وقتل بعضهم، وأطلق البعض. وأسر سليمان الخادم فهلك في محبسه بمصر، وأسر يعقوب الكتامي وحمل إلى بغداد فهرب منها إلى أفريقيا. واتصل الحرب بين أبي القاسم ومؤنس، وكان الظفر لمؤنس، ووقع الغلاء والوباء في عسكر أبي القاسم ففني كثير منهم بالموت. ووقع الموتان في الخيل فعاد العسكر إلى المغرب، واتبعهم عساكر مصر حتى أبعدوا فرجعوا عنهم. ووصل أبو القاسم إلى القيروان منتصف السنة. ورجع مؤنس إلى بغداد، وقدم تكين إلى مصر كما مرّ، ولم يزل والياً عليها إلى أن صرف في ربيع من سنة تسع.

ولاية أحمد بن كيغلغ:

ولاّه المقتدر بعد هلال بن بدر فقدم في جمادى، وصرف لخمسة أشهر من ولايته. وأعيد تكين المرّة الثالثة فقدم في عاشوراء سنة ثلاث عشرة، وأقام والياً عليها تسع سنين إلى أن توفي في منتصف ربيع الأوّل سنة إحدى وعشرين. وفي أيامه جدّد المقتدر عهده لابنه أبي العباس على بلاد المغرب ومصر والشام

واستخلف له مؤنساً، وذلك سنة ثمان عشرة. وقال ابن الأثير: وفي سنة إحدى وعشرين توفي تكين الخزري بمصر فولي عليها مكانه ابنه محمد، وبعث له القاهر بالخلع، وثار به الجند فظفر بهم انتهى.

ولاية أحمد بن كيغلغ الثانية:

ولاّه القاهر في شوّال سنة إحدى وعشرين بعد أن كان ولّى محمد بن طغج، وهو عامل دمشق، وصرفه لشهر من ولايته قبل أن يتسلم العمل، وردّه إلى أحمد بن كيغلغ كما قلناه. فقدم مصر في رجب سنة إثنتين وعشرين وثلاثمائة. ثم عزل آخر رمضان من سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وولي الراضي الخليفة بأن يدعى على المنبر باسمه ويزاد في ألقابه الأخشيد فقام بولاية مصر أحسن قيام ثم انتزع الشام من يده كما يذكر.

استيلاء ابن رائق علي الشام من يد الأخشيد:

كان محمد بن رائق أمير الأمراء ببغداد، وقد مر ذكره. ثم نازعه مولاه تحكم وولى مكانه سنة ست وعشرين وثلاثمائة. وهرب ابن رائق ثم استتر ببغداد، واستولى عليها؟ ورجع الخليفة من تكريت بعد أن كان قدم تحكم. ثم كتب إليه واستردّه، وقد عقد الصلح مع ناصر الدولة بن حمدان من قبل أن يسمع بخبر ابن رائق. ثم عادوا جميعاً وراسلهم ابن رائق مع أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد في الصلح فأجيب وقلّده الراضي طريق الفرات وديار مضر التي هي حران والرّها وما جاورهما وجند قّنسرين والعواصم فسار إليها واستقر بها. ثم طمحت نفسه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى ملك الشام فسار إلى مدينة حمص فملكها، وكان على دمشق بدر بن عبد الله مولى الأخشيد ويلقّب بتدبير فملكها ابن رائق من يده، وسار إلى الرملة يريد مصر. وبرز الأخشيد من مصر فالتقوا بالعريش، وأكمن له

الأخشيد؟ ثم التقيا فانهزم الأخشيد أولاً، وملك أصحاب ابن رائق سواده، ونزلوا في خيامهم. ثم خرج عليهم كمين الأخشيد فانهزموا ونجا ابن رائق إلى دمشق في فل من أصحابه، فبعث إليه الأخشيد أخاه أبا نصير بن طغج في العسكر فبرز إليهم ابن رائق وهزمهم، وقتل أبو نصر في المعركة فبعث ابن رائق شلوه إلى مصر مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق وكتب إليه بالعزاء والاعتذار، وأن مزاحماً في فدائه فخلع عليه وردّه إلى أبيه. وتمّ الصلح بينهما على أن تكون الشام لابن رائق، ومصر للأخشيد، والتخم بينهما للرملة. وحمل الأخشيد وبقي في عمالة ابن رائق إلى أن قتل تحكم والبريدي. وعاد ابن رائق من الشام إلى بغداد فاستدعاه المتقي وصار أمير الأمراء بها، فاستخلف على الشام أبا الحسن عليّ بن أحمد بن مقاتل. ولما وصل إلى بغداد قاتله كورتكين القائم بالدولة فظفر به وحبسه وقاتل عامّه أصحابه من الديلم. وزحف إليهم البريدي من واسط سنة ثلاثين وثلاثمائة فانهزم المتقي وابن رائق وسار إلى الموصل. وكان المتقي قد استنجد ناصر الدولة بن حمدان فبعث إليه أخاه سيف الدولة ولقيه المتقي بتكريت، ورجع معه إلى الموصل وقتل ناصر الدولة بن حمدان محمد بن رائق، وولي إمارة الأمراء للمتقي. فلما سمع الأخشيد بمقتل ابن رائق سار إلى دمشق، ثم استولى يوسف بعد ذلك عليها سنة إثنتين وثلاثين وثلاثمائة. وولّي ناصر الدولة بن حمدان في ربيع سنة اثنتين وثلاثين وثاثمائة على أعمال ابن رائق كلّها: وهي طريق الفرات وديار مفر وجند قنسرين، والعواصم وحمص أبا بكر محمد عليّ بن

مقاتل، وأنفده إليها من الموصل في جماعة من القوّاد. ثم ولّى بعده في رجب ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان على تلك الأعمال ؛ وامتنع أهل الكوفة من طاعته فظفر بهم وملكها. وسار إلى حلب، وكان المتقي قد سار إلى الموصل سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة مغاضباً لأمير الأمراء تورون فأقام بالموصل عند بني حمدان. ثم سار إلى الرقة فأقام بها، وكتب إلى الأخشيد يشكو إليه ويستقدمه فأتاهما النصر. ومرّ بحلب فخرج عنها الحسين بن سعيد بن حمدان وتخلف عنه أبو بكر بن مقاتل للقاء الأخشيد فأكرمه، واستعمله على خراج مصر. وولّى على حلب يأنس المؤنسي. وسار الأخشيد من حلب إلى الرقة في محرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وأهدى له ولوزيره الحسين بن مقله وحاشيته، وأشار عليه بالمسير إلى مصر

والشام ليقوم بخدمته فأبى فخوّفه من تورون وأن يلزم الرقّة. وكان قد أنفذ رسله إلى تورون في الصلح وجاؤه بالإجابة فلم يعرج على شيء من إشارته. وسار إلى بغداد، وانصرف الأخشيد

إلى مصر وكان سيف الدولة بالرقّة معهم فسار إلى حلب وملكها، ثم سار إلى حمص. وبعث الأخشيد عساكره إليها مع كافور مولاه فلقيهم سيف الدولة إلى قنسرين، والتقيا هنالك وتحاربا. ثم افترقا على منعة وعاد الأخشيد إلى دمشق، وسيف الدولة إلى حلب؟ وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وسارت الروم إلى حلب وقاتلهم سيف الدولة فظفر بهم.

وفاة الأخشيد وولاية ابنه أنوجور

واستبداد كافور عليه واستيلاء سيف الدولة على دمشق:

ثم توفي الإخشيد أبو بكر بن طغج بدمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقيل خمس، وولي مكانه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً فاستبدّ عليه كافور، وسار من دمشق إلى مصر فخالفه سيف الدولة فسار إلى حلب، وزحف أنوجور في العساكر إليه فعبر سيف الدولة إلى الجزيرة، وحاصر أنوجور حلب أياماً. ثم وقع الصلح بينهما، وعاد سيف الدولة إلى حلب وأنوجور إلى مصر، ومضى كافور إلى دمشق، وولى عليها بدراً الأخشيدي المعروف بتدبير فرجع إلى مصر فأقام بدرها سنة، ثم عزل عنها وولى أبو المظفّر طغج وقبض على تدبير.

وفاة أنوجور ووفاة أخيه علي واستبداد كافور عليه:

ثم علت سن أبي القاسم أنوجور ورام الاستبداد بأمره وإزالة كافور فشعر به وقتله فيما قيل مسموماً سنة ونصّب أخاه علياً للأمر في كفالته، وتحت استبداده إلى أن هلك.

وفاة علي بن الأخشيد وولاية كافور:

ثم توفي علي بن الأخشيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. فأعلن كافور بالاستبداد بالأمر دون بني الأخشيد، وركب بالمظلّة. وكتب له المطيع بعهده على مصر والشام والحرمين وكناه العالي بالله فيم يقبل الكنية، واستوزر أبا الفضل جعفر بن الفرات. وكان من أعاظم الملوك جواداً ممدوحاً سيوساً كثير الخشية لله والخوف

منه. وكان يداري المعزّ صاحب المغرب ويهاديه، وصاحب بغداد وصاحب اليمن، وكان يجلس للمظالم في كل سبت إلى أن هلك.

وفاة كافور وولاية أحمد بن علي بن الأخشيد:

ثم توفي كافور منتصف سبع وخمسين وثلاثمائة لعشره سنين وثلاثة أشهر من استبداده، منها سنتان وأربعه أشهر مستقلاً من قبل المطيع، وكان أسود شديد السواد، واشتراه الأخشيد بثمانية عشر ديناراً. ولما هلك اجتمع أهل الدولة وولّوا أحمد بن علي بن الأخشيد وكنيته أبو الفوارس، وقام بتدبير أمره الحسن إ بن عمه عبد الله بن طغج، وعلى العساكر شمول مولى جدّه، وعلى الأموال جعفر بن الفضل، واستوزر كاتبه جابر الرياحي. ثم أطلق ابن الفرات بشفاعة ابن مسلم الشريف، وفوّض أمر مصر إلى ابن الرياحي.

مسير جوهر إلى مصر وانقراض دولة بني طغج:

ولما فرغ المعز لدين الله من شواغل المغرب بعث قائده جوهر الصّقلي الكاتب إلى مصر، وجهّزه في العساكر، وأزاح عللها. وسار جوهر من القيروان إلى مصر ومرّ ببرقة، وبها أفلح مولى المعز فلقيه وترجل له فملك الإسكندرية، ثم الجيزة. ثم أجاز إلى مصر وحاصرها، وبها أحمد بن علي بن الأخشيد وأهل دولته. ثم افتتحها سنة

ثمان وخمسين وقتل أبا الفوارس، وبعث بضائعهم وأموالهم إلى القيروان صحبة الوفد من مشيخة مصر وقضاتها وعلمائها. وانقرضت دولة بني طغج، وأذّن سنة تسع وخمسين في جامع ابن طولون بحيّ علي خير العمل. وتحوّلت الدعوة بمصر للعلوية واختطّ جوهر مدينة القاهرة في موضع العسكر، وسير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام فغلب القرامطة عليه كما تقدّم ذلك في أخبارهم.

الخبر عن دولة بني ملا ان بديار بكر بعد بني

حمدان ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم:

كان حق هذه الدولة أن نصل ذكرها بدولة بني حمدان كما فعلنا في دولة بني المقلّد بالموصل، وبني صالح بن مرداس بحلب ؛ لأنّ هذه الدول الثلاث إنما نشأت وتفرعت عن دولتهم ؛ إلا أن بني مروان هؤلاء ليسوا من العرب، وإنما هم من الأكراد فأخّرنا دولتهم حتى ننسقها مع العجم. ثم أخرّناها عن دولة بني طولون، لأنّ دولة بني طولون متقدّمة عنها في الزمن بكثير. فلنشرع الآن في الخبر عن دولة بني مر وان. وقد كان تقدم لنا خبر باد الكردي وإسمه الحسين بن دوشك، وكنيته أبو عبد الله، وقيل كنيته أبو شجاع، وإنه خال أبي عليّ بن مروان الكردي وأنه تغلّب على الموصل وعلى ديار بكر، ونازع فيها الديلم. ثم غلبوه عليها وأقام بجبال الأكراد. ثم مات عضد الدولة وشرف الدولة. ثم جاء أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسن إلى الموصل فملكاها. ثم حدثت الفتنة بينهما وبين الديلم، وطمع باد في ملك الموصل، وهو بديار بكر فسار إلى الموصل فغلبه ابنا ناصر الدولة، وقتل في المعركة، وقد مرّ الخبر عن ذلك كله. فلما قتل خلص ابن اخته أبو علي بن مروان من المعركة، ولحق بحصن كيفا، وبه أهل باد، وذخيرته، وهو من أمنع المعاقل فتحيل في دخوله بأن خاله

أرسله، واستولى عليه، وتزوج امرأة خاله. ثم سار في ديار بكر فملك جميع ما كان لخاله باد. وزحف إليه إبنا حمدان وهو يحاصر ميّافارقين فهزمهما. ثم رجعا إليه وهو يحاصر آمد فهزمهما ثانياً، وانقرض أمرهما من الموصل، وملك أبو علي بن مروان ديار بكر وضبطها، واستطال عليه أهل ميّافارقين وكان شيخها أبو الأصغر فتركهم يوم العيد حتى أصحروا وكبسهم بالصحراء، وأخذ أبا الأصغر فألقاه من السور، ونهب الأكراد عامّة البلد، وأغلق أبو علي الأبواب دونهم، ومنعهم من الدخول فذهبوا كل مذهب، وذلك كله سنة ثمانين وثلاثمائة.

مقتل أبي علي بن مروان وولاية أخيه أبي منصور:

كان أبو علي بن مروان قد تزوّج بنت سعد الدولة بن سيف الدولة، وزفّت إليه من حلب وأراد البناء بها بآمد فخاف شيخها ان يفعل به وبهم ما فعل في ميّافارقين فحذر أصحابه منه، واشار عليهم ان ينثروا الدنانير والدراهم اذا دخل، ويقصدوا بها وجهه فيضربوه فكان كذلك. ثم أغفله وضرب رأسه، واختلط أصحابه فرمى برأسه إليهم وكر الأكراد راجعين إلى ميافارقين فاستراب بهم مستحفظا ان يملكوها عليه، ومنعهم من الدخول. ثم وصل مهد الدولة ابو منصور بن مروان اخو أبي علي إلى ميافارقين فامكنه المستحفظ من الدخول فملكه، و لم يكن له فيه إلا السكّة والخطبة، ونازعه اخوه ابو نصر فأقام بها مضيّقاً عليه فغلبه أبو منصور، وبعثه إلى قلعة اسعرد فأقام بها مضيّقاً عليه. وأمّا آمد فتغلّب عليها عبد الله شيخهم اياماً، وزوّج ابنته من ابن دمنة الذي تولّى قتل أبي علي بن مروان فقتله ابن دمنة، وملك آمد، وبنى لنفسه قصراً ملاصقاً للسور. واصلح أمره مع مهد الدولة بالطاعة. وهادى ملك الروم، وصاحب مصر وغيرهما من الملوك، وانتشر ذكره.

مقتل مهد الدولة بن مروان وولاية أخيه أبي نصر:

ثم إن مهد الدولة أقام بميّافارقين، وكان قائده شروة متحكماً في دولته. وكان له مولى قد ولاّه الشرطة. وكان مهد الدولة يبغضه، ويهمّ بقتله مراراً، ثم يتركه من أجل شروة فاستفسد مولاه شروة على مهد الدولة لحضوره. فلما حضر عنده قتله، وذلك سنة إثنتين واربعمائة. ثم خرج على أصحابه وقرابته يقبض عليهم كأنه بأمر مهد الدولة. ثم مضى إلى ميافارقين ففتحوا له يظنونه مهد الدولة فملكها، وكتب إلى أصحاب القلاع يستدعيهم على لسان مهد الدولة، وفيهم خواجا ابو القاسم صاحب ارزن الروم، فسار إلى ميّافارقين، و لم يسلم القلعة لأحد. وسمع في طريقه بقتل مهد الدولة فرجع من الطريق إلى أرزن الروم، واحضّر أبا نصر بن مروان من اسعرد، وجاء به إلى أبيهم مروان. وكان قد اضر، ولزم قبر ابنه أبي علي بارزن هو وزوجته فأحضره خواجا عنده، واستحلفه عند أبيه وقبر أخيه، وملك أرزن. وبعث شروة من ميّافارقين إلى اسعرد عن أبي نصر بن مروان ففاته إلى أرزن، فأيّقن بانتقاض أمره. ثم ملك أبو نصر سائر ديار بكر، ولقّب نصير الدولة، ودامت أيامه. وأحسن السيرة، وقصده العلماء من سائر الآفاق وكثروا عنده. وكان ممن قصده ابو عبد الله الكازروني، وعنه انتشر مذهب الشافعيّ بديار بكر، وقصده الشعراء ومدحوه وأجزل جوائزهم. وأقامت الثغور معه آمنة، والرعية في احسن ملكة إلى أن توفي.

استيلاء نصير الدولة بن مروان علي الرها:

كانت مدينة الرّها بيد عطير، وكاتبوا ابا نصر بن مروان أن يملكوه فبعث نائبه بأمد ويسمى زنك فملكها، واستشفع عطير بصالح بن مرداس صاحب حلب إلى ابن مروا فأعطاه نصف البلد، ودخل إلى نصير الدولة بميّافارقين فأكرمه ومضى إلى الرها فأقام مع زنك. وحضر بعض الأيام مع زنك في صنيع، وحضر ابن النائب الذي قتله زنك على الأخذ بثأره فاتبعه لما خرج، ونادى بالثأر، واستنفر أهل السوق فقتلوه في ثلاثة نفر. وكمن له بنو نمير خارج البلد، وبعثوا من يغير منهم عليها فخرج زنك في العسكر ولما جاوز الكمين خرجوا عليه وقاتلوه، وأصابه حجر فمات من ذلك فاتح ثمان عشرة، وخلصت الرّها لنصير الدولة. ثم شفع صالح بن مرداس في ابن عطير وابن شبل فردّ إليهما البلد، إلى أن باعه ابن عطير من الروم كما يأتي.

حصار بدران بن مقلد نصيبين:

كانت نصيبين لنصير الدولة بن نصر بن مروان فسار إليها بدران بن المقلّد في جموع

بني عقيل، وحاصرها فظهر على العساكر الذين بها، وأمدّهم نصير الدولة بعسكر آخر فبعث بدران من اعتراضهم في طريقهم، وهزمهم فاحتفل ابن مروان في الإحتشاد، وبعث العساكر إلى نصيبين فخرجوا عليه فهزموه أؤلاً. ثم كرّ عليهم ففتك فيهم، وأقام يقاتلهم حتى سمع بأنّ اخاه قرواش وصل إلى الموصل فخشي منه وارتحل عنها.

دخول الغز إلى ديار بكر:

هؤلاء الغزّ من طوائف الترك، وهم الشعب الذين منهم السلجوقية، وقد تقدّم لنا كيف أجازوا إلى خراسان لما قبض محمد بن سبكتكين على أرسلان بن سلجق منهم فحبسه، وما ظهر من فسادهم في خراسان، وكيف أوقع بهم مسعود بن سبكتكين من بعد أبيه محمود ففروا في البرية يريدون أذربيجان واللحاق بمن تقدّم منهم هنالك، ويسمون العراقية بعد أن عاثوا في همذان وقزوين وأرمينية. وعاث الآخرون في أذربيجان، وقتل وهشوذان صاحب تبريز منهم جماعه، ثم عاثوا في الأكراد واستباحوهم. ثم جاءهم الخبر بأن نيال إبراهيم أخا السلطان طغرلبك سار إلى الريّ فأجفلوا منها سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ووصلوا أذربيجان واتصلت الأخبار بأن نيال في أثرهم فأجفلوا ثانياً خوفاً منه، لأنهم كانوا له ولإخوته رعّية.

ولما أجفلوا سلك بهم الدليل في الجبال على الزّوزن، وأسهلوا إلى جزيرة ابن عمر فسار بعضهم إلى ديار بكر، ونهبوا قزوين ويازدي والحسنية، وبقي آخرون بالجانب الشرقي من الجزيرة، وسار آخرون إلى الموصل. وكان سليمان بن نصير الدولة قيماً بها فراسلهم في الصلح على أن يسير معهم إلى الشام فقبلوا. ثم صنع سليمان صنيعاً ودعا إليه ابن غزعلي، وقبض عليه وحبسه. وأجفل الغز في كل ناحية، واتبعهم عساكر نصير الدولة، وقرواش والأكراد البثنويّة. ثم قصدت العرب العراق للمشتى،

وعاد الغزّ إلى جزيرة أبن عمر فحصروها، وخرّبوا ديار بكر نهباً وقتلا. وصانعهم نصير الدولة بإطلاق منصور بن غزعلي الذي حبسه سليمان فلم يكف إطلاقه من فسادهم، وساروا إلى نصيبين وسنجار والخابور، ودخل قرواش الموصل كما نبهنا، واتبعه طائفة منهم فكان من خبرة معهم ما قدّمناه في أخباره.

مسير الروم إلى بلد ابن مروان ثم فتح الرها:

ولما كانت الدعوة العلويّة قد انتشرت في الشام والجزيرة، وكان سبب ذلك أنّ وثاباً النميريّ صاحب حّران والرقّة يخطب لهم فلمّا ولي الوزيري للعلويّين على الشام بعث إلى ابن مروان بالتهديد، وأنه يسير إلى بلاده فاستمدّ ابن مروان قرواش صاحب الموصل، وشبيب بن وثاب صاحب الرقّة، ودعاهما إلى الموافقة، وقطع الدعوة العلويّة فأجابوه، وخطبوا للقائم وقطعوا الخطبة للمستنصر، وذلك سنة ثلاثين وأربعمئة فقام الوزيري في ركائبه وتهدّدهم وأعاد ابن وثّاب خطبة العلوية بحّران في ذي الحجة آخر السنة.

مقتل سليمان بن نصير الدولة:

كان نصير الدولة قد ولّى ابنه سليمان،(ويكّنى أبا حرب) الأمور، وكان يحاوره في الجزيرة بشرموشك بن المحلي زعيم الأكراد في حصون له هنالك منيعة، ووقعت بينهما منافرة. ثم استماله سليمان ومكر به. وكان الأمير أبو طاهر البشّوي صاحب قلعة فنك وغيرها، وهو ابن أخت نصير الدولة، وكان صديقاً لسليمان فكان مما استماله به موشك أن زوّجه بابنة أبي طاهر فاطمأن موشك إلى سليمان، وسار إلى غزو الروم بأرمينية. وأمدّة نصير الدولة بن مروان بالعساكر والهدايا، وقد كان خطب له من قبل ذلك، وأطاعه فشفع عنده في موشك فقتله سليمان، وقال لطغرلبك أنه مات. وشكر له ابو طاهر حيث كان صهره واتخذها ذريعة إلى قتله فخافه سليمان، وتبرّأ إليه مما وقع فأظهر القبول، ولي الإجتماع، ونزل من حصنه فنك لذلك. وخرج سليمان إليه في قلّة من أصحابه فقتله عبيد الله وأدرك من ثار أبيه. وبلغ الخبر إلى نصير الدولة فبادر بابنه نصير، وبعث معه العساكر لحماية الجزيرة وسمع قريش بن بدران صاحب الموصل فطمع في ملك جزيرة ابن عمر فسار إليها، واستمال الأكراد الحسنية والبثنوية، واجتمعوا على قتال نصير بن مروان فأحسن المدافعة عن بلده، وقاتلهم وجرح قريش جراحاً عديدة، ورجع إلى الموصل وأقام نصير بن مروان بالجزيرة والأكراد على خلافه.

مسير طغرلبك إلى ديار بكر:

ولما ان صرف طغرلبك من الموصل وملكها، وفرّ قريش عنها. ثم عاود الطاعة وذلك سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، فسار طغرلبك بعدها إلى ديار بكر، وحاصر جزيرة ابن عمر. وكان ابن مروان في خدمته وهداياه مترادفة عليه في مسيره إلى الموصل وعوده. فبعث إليه بالمال مفاداة عن الجزيرة، ويذكر ما هو بصدده من الجهاد وحماية الثغر فأفرج عنه طغرلبك، وسار إلى سنجار كما ذكرناه في أخبار قريش.

وفاة نصير الدولة بن مروان وولاية ابنه نصر:

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة توفي نصير الدولة أحمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر، وكان لقبه القادر بالله. ومات لإثنتين وخمسين سنة من ولايته. وكان قد عظم استيلاؤه، وتوفرت أمواله، وحسّن في

عمارة الثغور وضبطها اثره. وكان يهادي السلطان طغرلبك بالهدايا العظيمة، ومنها حبل الياقوت الذي كان لبني بويه، اشتراه من أبي منصور بن جلال الدولة، وأرسل معه مائة ألف دينار فحسنت حاله عنده، وكان يناغي عظماء الملوك في الترف فيشتري الجارية بخمسمائة دينار

وأكثر. واجتمع عنده منهن للافتراش والاستخدام أزيد من ألف واقتنى من الأواني والآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار. وجمع في عصمته بنات الملوك، وأرسل طباخين إلى الديار المصرية، وأنفق عليهم جملة حتى تعلموا الطبخ هنالك. ووفد عليه أبو القاسم بن المغربي من أهل الدولة العلويّة بمصر، وفخر الدولة بن جهير من الدولة العبّاسيّة فاقبل عليهما واستوزرهما. ووفد عليه الشعراء فوصلهم، وقصده العلماء فحمدوا عنده مقامهم

ولما توفي في كان الظفر فيها لنصر واستقر بميّافارقين، ومضى أخوه سعيد إلى آمد فملكها، واستقّر الحال بينهما على ذلك.

وفاة نصير الدولة وولاية ابنه منصور:

ثم توفي نظام الدين نصر بن نصير الدولة في ذي الحجة سنة إثنتين وسبعين وأربعمائة، وولي ابنه منصور، ودبّر دولته ابن الأنباري، ولم يزل في ملكه إلى أن قدم ابن جهير، وملك البلاد من يده.

مسير ابن جهير إلى ديار بكر:

كان فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير من أهل الموصل، واستخدم لجارية قرواش، ثم لأخيه بركة، وسار عنه بالعوائد إلى ملك الروم. ثم استخدم لقريش بن بدران، وأراد حبسه فاستجار ببعض بني عقيل، ومضى إلى حلب فوزر لمعزّ الدولة أبي ثمال بن صالح. ثم مضى إلى عطّية ولحق منها بنصير الدولة بن مروان، واستوزره وأصلح حال دولته. ولما توفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة دبّر أمر ابنه نصر القائم بعده. ثم هرب إلى بغداد سنة أربع وخمسين وأربعمائة، استدعى منها للوزارة فوزر بعد محمد بن منصور بن دؤاد. ثم تداول العزل والولاة مرات هو وابنه عميد الملك، واستخدم لنظام الملك والسلطان طغرلبك. وكان شفع عند الخليفة فلما

عزل ابنه آخرا بعث عنه السلطان ونظام الملك، وعن ابنه وجميع أقاربه، وسار إليه بأصفهان ولقاه مبرة وتكريما. وبعثه في العساكر لفتح ديار بكر، وأخذها من يد بني مروان، وأعطاه الآلات، وأذن له أن يخطب لنفسه بعد السلطان، وينقش إسمه على السكة فسار لذلك سنة ست وسبعين وأربعمائة.

استيلاء ابن جهير علي أمد:

قد ذكرنا مسير فخر الدولة بن جهير في العساكر إلى ديار بكر، ثم أمده السلطان سنة سبع وسبعين وأربعمائة بأرتق بن أكسك في العساكر. واستنجد نصر بن مروان شرف الدولة مسلم بن قريش على أن يعطيه آمد فأنجده، وسار لمظاهرته فأقصر فخر الدولة بن جهير عن حربهم عصبة للعرب. وخالفه أرتق، وسار في الترك إليهم وهزمهم، ولحق مسلم بآمد وحاصره بها فبذل المال لأرتق. وخلص من أمره، ولحق بالرقّة وسار ابن جهير إلى ميافارقين فرجع عنه منصور بن مزيد، وابنه صدقة ومن معهما من العرب. وسار فخر الدولة

المعروف بالقرم فنزل عليها، وشدّد حصارها، ونزل يوماً بعض الحامية من السور، وأخلى مكانه فوقف فيه بعض العامّة، ونادى بشعار السلطان، واتبعه سائر الحامية بالسور. وبعثوا إلى زعيم الرؤساء ابن جهير فركب إليهم، وملك البلد . وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. ونصب أهل البلد بيوت النصارى الذين كانوا يستخدمون لبني مروان في الجبايات. وانتقموا منهم، والله أعلم.

استيلاء ابن جهير علي ميافارقين وجزيرة ابي عمر وانقراض دولة بني مروان:

كان فخر الدولة بن جهير لما بعث ابنه إلى آمد سار هو إلى ميّافارقين، وأقام على حصارها منذ سنة سبع وسبعين وأربعمائة. وجاءه سعد الدولة وكوهرايين مدداً، واشتد الحصار، وأنثلم السور في تعض الأيام فنادى أهلها بشعار ملك شاه. ودخل فخر

الدولة، وملك البلد، واستولى على أموال بني مروان وذخائرهم، وبعثها إلى السلطان ملك شاه مع ابنه زعيم الرؤساء فوصل أصفهان في شوّال سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. وسار فخر الدولة وكوهرايين إلى بغداد، وكان قد- بحث عسكراً لحصار جزيرة ابن عمر فحصروها، وثار بها أهل بيت من أعيانها يعرفون ببني رهان، وفتحوا باباً صغيراً للبلد كان منفذاً للرجّالة، وأدخلوا العسكر منه، وملكوه بدعوة السلطان ملك شاه. وانقرضت دولة بني مروان، ولحق منصور بن نظام الدين نصر بن نصير الدولة بالجزيرة، وأقام في ايالة الغزّ. ثم قبض عليه جكرمش وحبسه بدار يهودي فمات بها سنة تسع وثمانين وأربعمائة، والبقاء لله وحده.

دولة بني الصفار

الخبر عق دولة بني الصفار ملوك سجستان المتغلبين

علي خراسان ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان أهل هذه الدولة قوماً اجتمعو بنواحي سجستان، ونصّبوا لقتال الخوارج الشّراة بتلك الناحية عندما اضطربت الدولة ببغداد لقتل المتوكّل، وسمّو أنفسهم المتطّوعة. وكان اجتماعهم على صالح بن نصير الكناني، وبقال له صالح المتطّوعة، وصحبه جماعة منهم: درهم بن الحسن، ويعقوب بن الليث الصفّار، وغلبوا على سجستان وملكوها. ثم سار إليهم طاهر بن عبد الله أمير خراسان، وغلبهم عليها وأخرجهم منها. ثم هلك صالح اثر ذلك، وقام بامره في المتطّوعة درهم بن الحسن فكثر أتباعه. وكان يعقوب بن الليث قائده، وكان درهم مضعّفاً فتحيّل صاحب خراسان عليه حتى ظفر به، وبعثه إلى بغداد فحبس بها، واجتمع المتطّوعة على يعقوب بن الليث قائده، وكان درهم

يكاتب المعتزّ يسأله ولايتها، وأن يقلّده حرب الخوارج فكتب له بذلك. وأحسن الغناء في حرب الشراة، وتجاوزه إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم سار من سجستان إلى خراسان سنة ثلاث وخمسين ومائتين، وعلي الأنبار ابن أوس فجمع لمحاربة يعقوب، وسار إليهم في التعبية فاقتتلوا، وانهزم ابن اوس ، وملك يعقوب قراة وبوشنج، وعظم أمره، وهابه صاحب خراسان وغيرها من الأطراف.

استيلاء يعقوب الصفار علي كرمان ثم علي فارس وعودها:

كان على فارس علي بن الحسن بن شبل، وكتب إلى المعتز يطلب كرمان، ويذكر عجز ابن طاهر عنها. وكان قد أبطأ عن حرب الخوارج فكتب له المعتز بولاية كرمان، وكتب ليعقوب الصفار أيضاً بولايتها بقصد التضريب بينهما لتتمحّص طاعتهما أو طاعة أحدهما. فارسل علي بن الحسين من فارس على كرمان طوق بن المفلّس من أصحابه فسبق إليها يعقوب وملكها. وجاء يعقوب فأقام قريباً منها شهرين يترقب خروج طوق إليه، ثم ارتحل إلى سجستان؟ ووضع طوق أوزار الحرب، وأقبل على اللهو، واتصل ذلك بيعقوب في طريقه فكّر راجعاً، وأغذّ السير، ودخل كرمان، وحبس طوقا. وبلغ الخبر إلى عليّ بن الحسين، وهو شيراز فجمع عسكره ونزل مضيّق شيراز.

وأقبل يعقوب حتى نزل قبالته، والمضيق متوعر بين جبل ونهر ضيق المسلك بينهما فاقتحم يعقوب النهر بأصحابه، وأجاز إلى علي بن الحسين وأصحابه فانهزموا. وأخذ عليّ بن الحسين أسيراً، واستولى على سواده، ودخل شيراز وملكها، وجبى الخراج، وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين. وقيل قد وقع بينهما بعد عبور النهر حروب شديدة، وانهزم آخرها علي، وكان عسكره نحواً من خمسة عشر ألفاً من الموالي والأكراد فرجعوا منهزمين إلى شيراز آخر يومهم، وازدحموا في الأبواب، وبلغ القتلى منهم خمسة آلاف. ثم افترقوا في نواحي فارس، وانتهبوا الأموال. ولما دخل يعقوب شيراز، وملك فارس امتحن علياً وأخذ منه ألف بدرة ومن الفرش والسلاح والآلة ما لا يحصى، وكتب للخليفة بطاعته، وأهدى هدية جليلة منها عشرة بازات بيض، وباز أبلق صيني، ومائة نافجة من إلى مسك، وغير ذلك من الطرف، ورجع إلى سجستان ومعه علي، وطوق في اعتقاله، ولما فارق فارس بعث المعتز عماله إليها.

ولاية يعقوب الصفار علي بلخ وهراة:

ولما انصرف يعقوب عن فارس، ولّى عليها المعتز من قبله والخلفاء بعده، وليها

الحارث بن سيما فوثب به محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي من رجال العرب، وأحمد بن الليث من الأكراد الذين بنواحيها فقتلاه، واستولى ابن واصل على فارس سنة ست وخمسين ومائتين، وأظهر دعوة المعتمد.

وبعث عليها المعتمد الحسين بن الفياض فسار إليه يعقوب بن الليث سنة سبع وخمسين ومائتين، وكتب إليه المعتمد بالنكير على ذلك. وبعث إليه الموفّق بولاية بلخ طخارستان فملكها، وخرّب المباني التي بناها داود بن العبّاس بظاهر بلخ، وتسمّى باسادیانج. ثم سار إلى كابل، واستولى عليها، وقبض على رتبيل، وبعث بالأصنام التي أخذها من كابل، وملك البلاد إلى المعتمد. وأهدى إليه هدية جليلة المقدار، وعاد إلى بست معتزماً على العود إلى سجستان فاحفظه بعض قوّاده بالرحيل قبله فغضب، وأقام منه إلى سجستان. ثم سار إلى خراسان، وملك هراة. ثم إلى بوشنج فملكها، وقبض على عاملها الحسين بن علي بن طاهر الكبير، وكان كبير بيتهم. وشفع له فيه محمد بن طاهر صاحب خراسان فأبى من إسعافه، وبقي في قلبه وولّى على هراة وبوشنج وباذغيس ورجع إلى سجستان.

استيلاء الصفار علي خراسان وانقراض أمر بني طاهر:

كان بسجستان عبد الله السجزيّ ينازع يعقوب بن الليث، فلمّا قوي يعقوب واستفحل سار عبد الله إلى خراسان، وطمع في ملكها، وحاصر محمد بن طاهر في كرسيّ ولايته نيسابور. ثم تردّد الفقهاء بينهم في الصلح حتى تمّ بينهما، وولاّه محمد الطبسين وقهستان. ثم بعث يعقوب إلى محمد في طلبه فأجاره، وأحفظ ذلك يعقوب فسار إلى محمد بنيسابور، فخام محمد عن لقائه. ونزل يعقوب بظاهر نيسابور، وخرج إليه قرابة محمد وعمومته وأهل بيته، ودخل نيسابور واستعمل عليها وذلك سنة تسع وخمسين ومائتين، وكتب إلى المعتمد بأنّ أهل خراسان استدعوه لعجز ابن طاهر وتفريطه في أمره. وغلبه العلويّ على طبرستان فكتب إليه المعتمد بالنكير والاقتصار على ما بيده، وإلاّ سلك به سبيل المخالفين. وقيل في ملكه نيسابور غير

ذلك، وهو أن محمد بن طاهر لما أصاب دولته العجز والإدبار كاتب بعض قرابته يعقوب بن الليث الصفّار. واستدعوه فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر بمجيئه إلى ناحيته موريا بقصد الحسن بن زيد في طبرستان. وأنّ المعتمد أمره بذلك، وأنه لا يعرض لشيء من أمر خراسان. وبعث بعض قوّاده عيناً عليه، وعنّفه على الإهمال والعجز، وقبض على جميع أهل بيته نحواً من مائة وستين رجلا. وحملهم جميعاً إلى سجستان، وذلك لإحدى عشرة سنة من ولاية محمد. واستولى يعقوب على خراسان، وهرب منازعه عبد الله السجزيّ إلى الحسين بن يزيد صاحب طبرستان، وقد كان ملكها من لدن سنة إحدى وخمسين ومائتين فأجاره الحسين. وسار إليه يعقوب سنة ستين وحاربه فانهزم الحسين إلى أرض الديلم، واعتصم بجبال طبرستان. وملك يعقوب سارية وآمد، ورجع في طلب السّنجريّ إلى الريّ، وتهدد العامل على دفعه إليه فبعث به وقتله يعقوب.

استيلاء الصفار علي فارس:

قد تقدم لنا تغلّب محمد بن واصل على فارس سنة ست وخمسين ومائتين، ومسير الصفّار إليه سنة سبع وثلاثمائة، ورجوعه عنها، وأنه أعاضه عنها ببلخ وطخارستان. ثم إن المعتمد أضاف فارس إلى موسى بن بغا مع الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة، وما بيده من الأعمال، فولّى موسى على فارس من قبله عبد الرحمن بن مفلح وبعثه إلى الأهواز، وأمدّه بطاشتمر . وزحفوا إلى ابن واصل، وسار لحرب موسى بن بغا بواسط فولى على الأهواز مكانه أبا الساج وأمره بمحاربة الزنج فبعث صهره عبد الرحمن لذلك، فلقيه عليّ بن أياز قائد الزنج، وهزمه وقتل. وملك الزنج الأهواز وعاثوا فيها، وأديل من أبي الساج بابراهيم بن سيما وسار لحرب ابن واصل واضطرابت الناحية على موسى بن بغا فاستعفى من ولايتها، وأعفاه المعتمد. وطمع يعقوب الصفار في ملك فارس فسار من سجستان ممداً، ورجع ابن واصل من الأهواز إليه، وترك محاربة ابن سيما، وأغذّ السير ليفجأه على بغتة ففطن له الصفّار، وسار إليهم وقد أعيوا وتعبوا من شدة السير والعطش. ولما تراءى الجمعان، تخاذل أصحاب ابن واصل وانهزموا من غير قتال، وغنم الصفّار في معسكره، وما كانوا أصابوا لابن

مفلح. واستولى على بلاد فارس، ورتّب بها العمّال، وأوقع بأهل ذمّ لاعانتهم ابن واصل، وطمع في الاستيلاء على الأهواز وغيرها.

حروب الصفار مع الموفق:

ولما ملك الصفّار خراسان من يد ابن طاهر، وقبض عليه، وملك فارس من يد ابن واصل. وكان المعتمد نهاه عن تلك فلم ينته، صرّح المعتمد بأنه لم يولّه ولا فعل ما فعل بإذنه، وأحضر حاجّ خراسان وطبرستان والري، وخاطبهم بذلك فسار الصفّار إلى الأهواز سنة اثنتين أصحابه الذين أسروا بخراسان فأبى إلا العزم على الوصول إلى الخليفة ولقائه. وبعث حاجبه درهماً يطلب ولاية طبرستان وخراسان وجرجان والريّ وجارس والشرطة ببغداد، فولاّه المعتمد ذلك كله مضافاً إلى سجستان وكرمان. وأعاد حاجبه بذلك، ومعه عمرو بن سيما فكتب يقول لا بدّ من الحضور بباب المعتمد، وارتحل من عسكر مكرم جائياً. وخرج أبو الساج من الأهواز لتلقّيه لدخول الأهواز في أعماله فأكرمه، ووصله. وسار إلى بغداد ونهض المعتمد من بغداد فعسكر بالزعفرانيّة، ووافاه مسرور البلخيّ من مكانه من مواجهه الزنج. وجاء يعقوب إلى واسط فملكها، ثم سار منها إلى دير العاقول.

وبعث المعتمد أخاه الموفق لمحاربته، وعلى ميمنته موسى بن بغا، وعلى ميسرته موسى البلخي فقاتله منتصف رجب، وانهزمت ميسرة الموفّق، وقتل فيها إبراهيم بن سيما وغيره من القوّاد. ثم تزاحفوا واشتدّت الحرب، وجاء للموفّق محمد بن أوس والدواني مدداً من المعتمد. وفشل أصحاب الصفّار، ولما رأوا مدد الخليفة انهزموا وخرج الصفّار، واتبعهم أصحاب الموفق، وغنموا من عسكره نحواً من

عشرة آلاف من الظهر ومن الأموال والمسك ما يؤود حمله.

وكان محمد بن طاهر معتقلاً في العسكر منذ قبض عليه بخراسان فتخلّص ذلك اليوم. وجاء إلى الموفّق وخلع عليه، وولاّه الشرطة ببغداد. وسار الصفار إلى خوزستان فنزل جند يسابور، وراسله صاحب الزنج على الرجوع، ويعده المساعدة فكتب له: { قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون} [الكافرون:1]. وكان ابن واصل قد خالف الصفار إلى فارس وملكها فكتب إليه المعتمد بولايتها، وبعث إليه الصفار جيشاً مع عمر بن السري من قواده فأخرجه عنها، وولّى على الأهواز محمد بن عبيد الله بن هزارمرد الكردي. ثم رجع المعتمد إلى سامرّا والموفّق إلى واسط، واعتزم الموفّق على اتباع الصفار فقعد به المرض عن ذلك. وعاد إلى بغداد ومعه مسرور البلخي، وأقطعه ما لأبي الساج من الضياع والمنازل، وقدم معه محمد بن طاهر فقام بولاية الشرطة ببغداد.

انتقاض الخجستاني بخراسان علي يعقوب الصفار وقيامه بدعوة بني طاهر:

كان من أصحاب محمد بن طاهر ورجالاته أحمد بن عبد الله بن خجستان، وكان متوليّاً على وهي من جبال سراة وأعمال باذغيس. فلما استولى الصفّار على نيسابور وخراسان انضم أحمد هذا إلى أبيه علي بن الليث، وكان شركب الحمّال قد تغلّب على مرو ونواحيها سنة تسع وخمسين ومائتين، وتغلّب على نيسابور سنة ثلاث وستين ومائتين وأخرج منها الحسين بن طاهر. وكان لشركب ثلاثة من الولد إبراهيم وهوأكبرهم، وأبوحفص يعمر، وأبو طلحة منصور. وكان إبراهيم قد أبلى في واقعة المغار مع الحسن بن زيد بجرجان فقدمه

الصفار، وحسده أحمد الخجستاني فخوفه عادية الصفّار، وزين له الهرب. وكان يعمر أخوه محاصرا لبعض بلاد بلخ فاتفق إبراهيم وأحمد الخجستاني في الخروج إلى يعمر، وسبقه إبراهيم إلى الموعد ولم يلقه فسار إلى سرخس.

ولما عاد الصفّار إلى سجستان سنة إحدى وستين ومائتين، ولّى

على هراة أخاه عمرو بن الليث فاستخلف عليها طاهر بن حفص الباذغيسيّ. وجاء الخجستاني إلى علي بن الليث، وزيّن له أن يقيم بخراسان نائباً عنه في أموره وأقطاعه، فطلب ذلك من أخيه يعقوب فأذن له. فلمّا ارتحلوا عن خراسان جمع أحمد الخجستاني وأخرج علي بن الليث من بلده سنة إحدى وستين ومائتين، وفلك تونس وأعاد دعوة بني طاهر، وملك نيسابور سنة إثنتين وستين. واستقدم رافع بن هرثمة من رجالات بني طاهر فجعله صاحب جيشه، وسار إلى هراة فملكها من يد طاهر بن حفص. وقتله ثم قتل يعمر بن شركب، واستولى على بلاد خراسان، ومحا منها دعوة يعقوب بن الليث. ثم جاء الحسن بن طاهر أخو محمد بأصفهان ليخطب له فأبى فخطب له أبو طلحة بن شركب بنيسابور. وانتقض الخجستاني، واضطربت خراسان فتنة. وزحف إليها الحسن بن زيد فقاتلوه وهزموه. ثم ملك نيسابور من يد عمرو بن الليث، وترك الخطبة لمحمد بن طاهر، وخطب للمعتمد ولنفسه من بعده كما هو مشروح في أخبار الخجستانيّ.

استيلاء الصفار علي الأهواز:

قد تقدّم لنا استيلاء الصفّار على فارس بعد خراسان. ثم سار منها إلى الأهواز، وكان أحمد بن لسوقة قائد مسرور البلخي على الأهواز قد نزل تستر فرحل عنها، ونزل يعقوب جنديسابور، وفرّت عساكر السلطان من تلك النواحي. وبعث يعقوب بالخضر بن العين إلى الأهواز، وعليّ بن أبان والزنج يحاصرونها فتأخروا عنها إلى نهر السّدرة. ودخل الخضر الأهواز وملكها بدعوة الصفّار. وكان عسكره وعسكر الزنج يغير بعضهم على بعض. ثم أوقع الزنج بعسكره، ولحق الخضر بعسكر مكرم،

واستخرج ابن أبان ما كان في الأهواز، ورجع إلى نهر السّدرة. وبعث يعقوب الإمداد إلى الخضر، وأمره بالكفّ عن قتال الزنج والمقام بالأهواز فواح الزنج، وشحن الأهواز بالأقوات وأقام.

وفاة يعقوب الصفّار وولاية عمرو أخيه:

ثم توفي يعقوب الصفار في شوال سنة خمس وستين بعد أن افتتح الزنج، وقتل ملكها، وأسلم أهلها على يده. وكانت مملكة واسعة الحدود. وافتتح زابلستان، وهي غزنة وأعمالها. وكان المعتمد قد استماله وولاه على سجستان والسّند. ثم تغلّب على كرمان وخراسان وفارس، وولاّه المعتمد على جميعها. ولما مات قام مكانه أخوه عمرو بن الليث، وكتب إلى المعتمد بطاعته فولاّه الموفّق من قبل أعمال أخيه، وهي خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد. وبعث إليه بالخلع، فولّى عمرو بن الليث على الشرطة ببغداد وسر من رأى من قبله عبيد الله بن عبيد الله بن طاهر. وخلع عليه الموفّق وعمرو بن الليث. وولّى على أصفهان من قبله أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف. وولى على طريق مكة والحرمين محمد بن أبي الساح.

مسير عمرو بن الليث إلم خراسان لقتال الخجستاني:

قد تقدّم ذكر الخجستاني وتغلبه على نيسابور وهراة بدعوة بني طاهر سنة إثنتين وستين ومائتين، فلما توفي يعقوب سار عمرو إلى خراسان سنة خمس ومائتين وستين، واستولى على هراة. وسار الخجستاني بنيسابور فقاتله فانهزم عمرو، ورجع إلى هراة. وكان الفقهاء بنيسابور يشيعون لعمرو لولاية الخليفة إياه فاوقع الخجستاني الفتنة بينهم بالميل إلى بعضهم، وتكرمتهم عن بعض ليشغلهم بها. ثم سار إلى هراة سنة سبع وستين ومائتين، وحاصر عمرو بن الليث فلم يظفر بشيء فتركه وخالفه إلى سجستان. ووثب أهل نيسابور بنائبه عليهم، وأمدّهم عمرو بن الليث بجنده فقبضوا على نائب الخجستاني،.أقاموا بها.

ورجع الخجستاني من سجستان فأخرجهم وملكها. وكان أبو منصور طلحة بن شركب محاصرا لبلخ من قبل ابن طاهر. وكاتبه عمرو بن الليث واستقدمه، وأعطاه أموالاً واستخلفه على خراسان، ورجع إلى سجستان. وبقي أبو طلحة بخراسان، والخجستاني يقاتله إلى أن قتل الخجستاني سنة ثمان وستين ومائتين، قتله بعض مواليه كما مر في أخباره مع رافع بخراسان.

كان رافع بن هرثمة من قوّاد بني طاهر بخراسان فلما ملكها يعقوب سار إليه، واستقرّ في منزله بتامين من قرى باذغيس. فلما قتل الخجستاني اجتمع الجيش على رافع، وهو بهراة فأقّروه عليهم. وكان أبو طلحة بن شركب قد سار من جرجان إلى نيسابور فسار إليه رافع وحاصرها. وخرج عنها أبو طلحة إلى مرو، وخطب بها وبهراة لمحمد بن طاهر، وولّى على هراة من قبله. ثم زحف إليه عمرو بن الليث فغلبه عليها، وولّى عليها محمد بن سهيل بن هاشم. ورجع وبعث أبو طلحة إلى إسماعيل بن أحمد يستنجده فأنجده بعسكر سار بهم إلى مرو، وأخرج منها محمد بن سهل، وخطب لعمرو بن الليث، وذلك في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين. ثم عزل المعتمد عمرو بن الليث عن سائر أعمال خراسان وقلّدها الموفق محمد بن طاهر، وهو مقيم ببغداد، فاستخلف محمد عليها رافع بن هرثمة وأقّر نصر بن محمد أحمد الساماني على ما وراء النهر، فسار رافع إلى إسماعيل يستنجده على أبي طلحة فجاءه في أربعة آلاف مدداً. واستقدم رافع أيضا عليّ بن الحسين المروروذي، وساروا جميعاً إلى أبي طلحة وهو بمرو سنة إثنتين وسبعين ومائتين، وغلبوه عليها ولحق بهراة، وعاد إسماعيل إلى خوارزم فجبى أموالها ورجع إلى نيسابور.

حروب عمرو مع عساكر المعتمد ومع الموفق:

ولما عزل المعتمد عمرو بن الليث عن خراسان أمر بلعنه على المنابر، وأعلم حاجّ خراسان بذلك، وقلّد محمد بن طاهر أعمالها فاستخلف عليها رافع بن الليث، وكتب المعتمد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف بعزله عن أصفهان والريّ. وبعث

إليه العساكر لقتاله سنة إحدى وسبعين ومائتين فزحف إليه عمرو في خمسة عشر ألفاً من المقاتلة فهزمه أحمد بن عبد العزيز والعساكر واستباحوا معسكره، ودفعوه عن أصفهان والري.

وكان المعتمد لما عزله ولعنه بعث صاعد بن مخلد في العساكر إلى فارس لقتال عمرو بن الليث وإخراجه من فارس، فسار لذلك و لم يظفر. ورجع سنة اثنتين وسبعين.

ثم سار الموفق سنة أربع وسبعين إلى فارس لحرب عمرو بن الليث فسير عمرو قائده عباس بن إسحاق إلى شيراز، وابنه محمد بن عمرو إلى ازجان، وبعث على مقدمته أبا طلحة بن شركب صاحب جيشه، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفق. وفت ذلك في عضد عمرو، وخام عن لقائه. وسار الموفق إلى شيراز، وارتاب بأبي طلحة فقبض عليه. وملك الموفق فارس، وعاد عمرو إلى كرمان فسار الموفق في طلبه، فلحق بسجستان على المفازة. وتوفي ابنه محمد بن عمرو بها. وامتنعت كرمان وسجستان على الموفق فعاد إلى بغداد.

وارتاب عمرو بن الليث بأخيه علي فحبسه بكرمان، وحبس معه ابنه المعدل والليث فهربوا من محبسهم، ولحقوا برافع بن الليث عندما ملك طبرستان وجرجان من محمد بن زيد العلوى سنة سبع وسبعين فأقاموا عنده وهلك علي بن الليث وبقي ولد عنده. ثم رضي المعتمد عن عمرو بن الليث، وولاه الشرطة ببغداد، وكتب إسمه على الاعلام والترسة سنة ست وسبعين. واستخلف في الشرطة عبيد الله بن عبيد الله بن طاهر. ثم سخطه لسنة، ومحا إسمه من الاعلام.

ولاية عمرو بن اللين علي خراسان ثانيا ومقتل رافع بن الليث:

ثم سخط المعتمد رافع بن الليث لامتناعه من تخلية قرى السلطان بالريّ، بعد أن أمره بذلك، فكتب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف يأمره بمحاربة رافع وإخراجه عن الريّ. وكتب إلى عمرو بن الليث بولاية خراسان. وحارب أحمد بن عبد العزيز سنة ثمانين ومائتين فقاتله أخويه عمر وبكرا إبني عبد العزيز فهزمهما إلى اصفهان، وأقام بالري باقي سنته. ثم سار إلى أصفهان فملكها سنة إحدى وثمانين، وعاد إلى جرجان. ووافى عمرو بن الليث خراسان والياً عليها بجموعه.

وتورط رافع بن الليث، ورجع إلى مصالحة محمد بن زيد، على أن يعيد إليه طبرستان فصالح محمد بن زيد، وخطب له بطبرستان سنة إثنتين وثمانين ومائتين، على أن يمدّه بأربعة آلاف من الديلم.

وسار عن طبرستان إلى نيسابور سنة ثلاث وثمانين ومائتين فحاربه عمرو وهزمه إلى ابيورد، وأخذ منه المعدل والليث ابني أخيه. ثم أراد رافع المسير إلى هراة فأخذ عليه عمرو الطريق لسرخس، وسرّب رافع في المضايق، ونكب عن جمهور الطريق فدخل نيسابور، وحاصره فيها عمرو بن الليث. ثم برز للقائه، واستأمن بعض قوّاد رافع إلى عمرو فانهزم رافع وأصحابه، وبعث إلى محمد بن وهب يستمدّه كما شرط له. وكان عمرو قد حذّر محمد بن زيد من امداده فاقصر عن ذلك، وتفرق عن رافع أصحابه وغلمانه. وكانوا أربعة آلاف غلام.

وفارقه محمد بن هارون إلى أحمد بن إسماعيل بن سمّان ببخارى، وخرج رافع منهزماً إلى خوارزم في فل من العسكر، وحمل بقية المال والالة، وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين. فلما رآه صاحب خوارزم أبو سعيد الفرغاني في قلة من العسكر غدر به وقتله في أول شوال، وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث بنيسابور

فأنفذه عمرو إلى بغداد فكتب إليه المعتضد بولاية الري مضافة إلى خراسان، وأنفذ له الألوية والخلع سنة أربع وثمانين ومائتين.

استيلاء بني سامان علي خراسان وهزيمة عمرو بن الليث وحبسه ثم مقتله:

لما بعث عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة إلى المعتضد، طلب ولاية ما وراء النهر فولاّه وبعث إليه بالخلع واللواء فسرّح عمرو الجيوش من نيسابور، مع قائده محمد بن بشير وغيره من قوّاده لمحاربة إسماعيل بن أحمد، وانتهوا إلى آمد فعبر إسماعيل جيحون، وهزمهم وقتل محمد بن بشير وغيره من قوّاده. ورجع الفلّ إلى عمرو بنيسابور. وعاد إسماعيل إلى بخارى وتحفز للسير إلى إسماعيل، وسار إلى بلخ، وبعث إليه

إسماعيل أنك قد حزت الدنيا العريضة فاتركني في هذا الثغر فأبى. وعبر إسماعيل، وأخذ عليه الجهات فصار محصوراً. وندم وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل، وقاتله فانهزم عمرو ونكب عن طريق العسكر إلى مضيق ينفرد فيه. وتوارى في أجمة فوحلت به دابته، ولم يتفطن له أصحابه فأخذ أسيراً، وبعث به إسماعيل إلى المعتضد بعد أن خيّره فاختار المسير إليه، ووصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائتين وأدخل على جمل وحبس. وبعث المعتضد إلى إسماعيل بولايته خراسان إلى أن توفي المعتضد. وجاء المكتفي إلى بغداد. وكان في نفسه اصطناعه. وكره ذلك الوزير القاسم بن عبيد الله فوضع عليه من قتله سنة تسع وثمانين ومائتين.

ولاية طاهر بن محمد بن عمرو علي سجستان وكرمان ثم علم فارس:

ولما أسر عمرو سار إلى محبسه، قام مكانه بسجستان وكرمان حافده طاهر بن محمد بن عمرو، وهو الذي مات أبوه محمد بمفازة سجستان عندما هرب عمرو أمام الموفّق من فارس. ثم سار طاهر إلى فارس، وسار إليها في الجيوش سنة ثمان وثمانين ومائتين. واعترضه بدر فعاد طاهر إلى سجستان، وملك بدر فارس وجبى أموالها. ثم بعث طاهر بن محمد سنة تسع وثمانين ومائتين يطلب المقاطعة على فارس بمال يحمله. وكان المعتضد قد توفي فعقد له المكتفي عليها. وتشاغل طاهر بالصيد واللهو، ومضى إلى سجستان فغلب على الأمر بفارس الليث ابن عمه علي بن الليث، وسيكرى مولى جدّه عمرو، وكان معهما أبو فارس قائد طاهر فلحق بالخليفة المكتفي، وكتب طاهر رده بما جباه من المال، ويحتسب له من جملته فلم يجب إلى ذلك.

استيلاء الليث علي فارس ثم مقتله واستيلاء سيكري:

ولما تغلّب سيكري على فارس لحق الليث بن علي بطاهر ابن عمه، وزحف طاهر إلى فارس فهزمه السيكري وأسره، وبعث به وبأخيه يعقوب إلى المقتدر سنة سبع وتسعين

ومائتين. وضمن فارس بالحمل الذي كان قّرره فولاّه على فارس. ثم زحف إليه الليث بن علي بن الليث فملك فارس الليث للقائهم. وجاءه الخبر بأنّ الحسين بن حمدان سار من قمّ مداداً لمؤنس فركب لأعتراضه، وتاه الدليل عن الطريق فأصبح على معسكر مؤنس فثاروا، واقتتلوا وانهزم عسكر الليث وأخذ أسيراً،. وأشار أصحاب مؤنس بأن يقبض على سيكري معه، ويملك بلاد فارس، ويقّره الخليفة فوعدهم بذلك، ودسّ إلى سيكري بأن يهرب إلى شيراز. وأصبح يلوم أصحابه على ظهور الخبر من جهتهم، وعاد بالليث إلى بغداد،

واستولى سيكري على فارس، واستبدّ كاتبه عبد الرحمن بن جعفر على أموره فسعى فيه أصحابه عند سيكري حتى قبض عليه، وحملوه على العصيان فمنع الحمل، فكتب هو من محبسه إلى الوزير ابن الفرات يعرفّه بامرهم.

وكتب ابن الفرات إلى مؤنس، وهو بواسط يأمره بالعود إلى فارس، ويعاتبه حيث لم يقبض على سيكري فسار مؤنس إلى الاهواز، وراسله سيكري وهاداه. وعلم ابن الفرات بميل مؤنس إليه فأنفذ وصيفاً وجماعة من القواد، ومعهم محمد بن جعفر، وامرهم بالتعويل عليه في فتح فارس. وكتب إلى مؤنس باستصحاب الليث إلى بغداد ففعل، وسار محمد بن جعفر إلى فارس ودافع سيكري على شيراز فهزمه، وحاصره بها وحاربه ثانية فهزمه، ونهب أمواله ودخل سيكري مفازة خراسان فظفرت به جيوش خراسان واسروه، وبعثوا به إلى بغداد، وولّي على فارس فتح خادم الأفشين.

انقراض ملك بني الليث من سجستان وكرمان:

وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين توفي فتح صاحب فارس فولّى المقتدر مكانه عبد الله بن إبراهيم المسمعي، واضاف إليه كرمان من اعمال بني الليث. وسار أحمد بن إسماعيل

ابن سامان إلى الريّ فبعث منها جيوشه إلى سجستان سنة ثمان وتسعين ومائتين مع جماعة من قواده، وعليهم الحسن بن علي المروروذيّ. وكانت سجستان لما أسر طاهر سنة سبع وتسعين زومائتين ولي بها بعده الليث بن علي بن الليث. فلما أسر الليث كما تقدّم ولي بعده اخوه المعدّل بن علي بن الليث. فلما بلغه مسير هذه العساكر إليه من قبل أحمد بن إسماعيل، بعث اخاه ابا علي بن الليث محمد بن علي بن الليث إلى بست والرخّج ليجبيهما، ويبعث منهما إلى سجستان بالميرة فسار إليه أحمد بن إسماعيل بن سامان، وعلى سجستان أبو صالح منصور ابن عمه إسحاق بن أحمد بن إسماعيل بن سامان، وعلى إلى سجستان في المفازة، فبعث إليه جيشاً فاخذه، وكتب الأمير أحمد إلى المقتدر بالخبر وبالفتح فأمره بحمل سيكري والليث فبعث إلى بغداد وحبسهما.

ثورة أهل سجستان بأصحاب ابن سامان ودعوتهم إلى بني عمرو

ابن الليث بن الصفار ثم عودهم إلى طاعة أحمد بن إسماعيل بن سامان:

كان محمد بن هرمز، ويعرف بالمولى الصندليّ خارجياً، وهو من أهل سجستان. خرج ايام بني سامان وأقام ببخارى، وسخط بعض الأعيان بها فسار إلى سجستان، واستمال جماعة من الخوارج رئيسهم ابن الحفّار فخرجوا، وقبضوا على منصور بن إسحاق عاملهم من بني سامان وحبسوه، وولّوا عليهم عمرو بن يعقوب بن محمد بن الليث وخطبوا له فبعث أحمد بن إسماعيل الجيوش ثانياً مع الحسين بن علي سنة ثلاثمائة، وحاصرها ستة أشهر. ومات الصندلي فاستأمن عمرو بن يعقوب الصفّار وابن الحفّار إلى الحسين بن علي، وخرج منصور بن إسحاق من محبسه. واستعمل أحمد بن اسماعيل على سجستان سيجور الدواني، ورجع الحسيني بالجيوش إلى الأمير أحمد، ومعه يعقوب وابن الحفّار في ذي الحجة سنة ثلاثمائة.

استيلاء خلف بن أحمد بن علي على سجستان ثم انتفاضهم عليه:

كان خلف بن أصمد من ذرية عمرو بن الليث الصفّار، وهو بسطة برسمه بانوا، ولما فشل أمر بني سامان استولى على سجستان، وكان من أهل العلم ويجالسهم. ثم حج سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، واستخلف على أعماله طاهر بن الحسين من أصحابه، فلما علد، من الحج انتقض عليه طاهر بن الحسين فسار خلف إلى بخارى مستجيشا بالأمير منصور بن سامان، فبعث معه العساكر، وملك سجستان، وكثرت أمواله وجنوده. وقطع ما كان يحمله إلى بخارى فسارت العساكر إليه، ومقدّمهم وحاصروا خلف ابن أحمد في حصن أوّآل من أمنع الحصون وأعلاها. ولما اشتدّ به الحصار، وفنيت الأموال والآلاتي كتب إلى نوح بن منصور صاحب بخارى بأن يستأمنه، ويرجع إلى دفع الحمل فكتب نوح بن منصور إلى أبي الحسن بن سيمجور عامله على خراسان، وقد عزل بالمسير إلى حصار خلف، فسار من قهستان إلى سجستان، وحاصر خلف، وكانت بينهما مودّة فأشار عليه سيمجور بتسليم حصن أوّال للحسن لتتفرق الجيوش عنه إلى بخارى، ويرجع هو إلى شأنه مع صاحبه فقبل خلف مشورته.. ودخل سيمجور إلى حصن أرك. وخطب فيه للامير نوح. ثم سلمه للحسن بن طاهر وانصرف إلى بخارى وكان هذا أوّل وهن دخل علي بني سامان من سوء طاعة أصحابهم.

استيلاء خلف بن أحمد علي كرمان ثم انتزاع الديلم لها:

ولما استفحل أمر خلف بسجستان حدّث نفسه بملك كرمان، وكانت في أيدي بني بويه وملكهم يومئذ عضد الدولة فلمّا وسق أمرهم، ووقع الخلف بين صمصام الدولة وبهاء الدولة ابني عضد الدولة، جهّز العساكر إلى كرمان وعليهم عمرو ابنه وقائدهم يومئذ تمرتاش من الديلم. فلما قاربها عمرو هرب تمرتاش إلى بردشير، وحمل ما أمكنه، وغنم عمرو الباقي، وملك كرمان، وجبى الأموال. وكان صمصام الدولة صاحب فارس فبعث العساكر إلى تمرتاش مع أبي جعفر، وأمره بالقبض عليه لاتهامه بالميل إلى أخيه بهاء الدولة فسار وقبض عليه، وحمله إلى شيراز. وسار بالعساكر إلى عمرو بن خلف فقاتله عمرو بدار زين. وانهزم الديلم وعادوا على طريق جيرفت، وبعث صمصام الدولة عسكراً آخر مع العباس بن أحمد من أصحابه فلقوا عمرو بن خلف بالسيرجان في المحرّم سنة إثنتين وثمانين وثلاثمائة فهزموه. وعاد إلى أبيه بسجستان مهزوماً ووبّخه ثم قتله.

ثم غزل صمصام الدولة العبّاس عن كرمان فأشاع خلف بأن أستاذ هرمز سمّه، واستنفر الناس لغزو كرمان، وبعثهم مع ابنه طاهر فانتهوا إلى برماشير، وملكوها من الديلم. ولحق الديلم بجيرفت، واجتمعوا بها، وبعثوا بها إلى بردشير حامية من العسكر، وهو أصل بلاد كرمان ومصرها فحصرها طاهر ثلاثة أشهر، وضيّق على أهلها، وكتبوا إلى أستاذ هرمز يستمدونه قبل أن يغلبهم عليها طاهر فخاطر بنفسه، وركب إليهم المضايق والأوعار حتى دخلها. وعاد طاهر إلى سجستان، واستنفر الناس لغزو الديلم بجيرفت، واجتمعوا بها وبعثوا إلى بردشير حامية من العسكر، وهو أصل بلاد كرمان، وذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

استيلاء طاهر بن خلف علي كرمان وعوده عنها ومقتله:

كان طاهر بن خلف من العقوق لأبيه على عظيم وانتقض عليه، وجرت بينهما وقائع كان الظفر بها لخلف ففارق طاهر سجستان وسار إلى كرمان وبها الديلم عسكر بهاء الدولة فصعد إلى جبالها، واحتمى بقوم هنالك

كانوا عصاة، ونزل على جيرفت فملكها ولقيه الديلم فهزمهم، واستولى على الكثير مما بأيديهم فبعث بهاء الدولة عسكراً مع أبي جعفر بن أستاذ هرمز فغلب طاهرا على كرمان فعاد إلى سجستان وقاتل أباه فهزمه وملك البلاد. وامتنع أبوه خلف ببعض حصونه وكان الناس قد سئموا منه لسوء سيرته فرجع إلى مخادعة ابنه فتواعدا اللقاء تحت القلعة وأكمن له بالقرب كميناً فلما لقيه خرج الكمين واستمكن منه أبوه خلف فقتله أبوه.

استيلاء محمود في سبكتكين علي سجستان ومحو آثار بني الصفار منها:

كان خلف بن أحمد قد بعث ابنه طاهراً إلى قهستان فملكها ثم إلى بوشنج كذلك. وكانت هي وهراة لبغراجق عمّ محمود، وكان محمود مشتغلاً بالفتنة مع قوّاد بني سامان، فلما فرغ منها استأذنه عمّه في إخراج طاهر بن خلف فأذن له. وسار إليه سنة تسعين وثلاثمائة ولقيه بنواحي بوسنج فهزمه، ولج في طلبه فكّر عليه طاهر، وقتله فساء ذلك محموداً ، وجمع عساكره وسار إلى خلف بن أحمد، وحاصره بحصن اصبهيل ، وضيّق عليه حتى بذل له أموالاً جليلة، وأعطاه الرهن عليها فأفرج عنه. ثم عهد خلف بملكه إلى ابنه، وعكف على العبادة والعلم خوفاً من محمود بن سبكتكين، فلما استولى طاهر على الملك عقّ أباه وكان من أمره ما تقدّم. ولما قتل طاهر تغيرت نيات عساكره، وساءت فيه ظنونهم. واستدعوا محمود بن سبكتكين وملكوه مدينتهم. وقعد خلف في حصنه وهو حصن الطاق له سبعة أسوار محكمة، وعليها

خندق عتيق له جسر يرفع ويحط عند الحاجة فحاصره محمود سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وطمّ الخندق بالأعواد والتراب في يوم واحد، وزحف لقتاله بالخيول. وتقدّم عظيمها فاقتلع باب الحصن بنابه وألقاه، وملك محمود السور الأوّل. ودفع عنه أصحاب خلف إلى السور الثاني، ثم إلى الثالث كذلك فخرج خلف واستأمن، وحضر عنده محمود وخيره في المقام حيث شاء من البلاد فاختار الجوزجان، وأقام بها أربع سنين. ثم نقل عنه الخوض في الفتنة، وأنه راسل أيلكخان يغريه بمحمود فنقله إلى جردين، وحبسه هنالك إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وورثه ابنه أبو حفص. ولما ملك محمود سجستان، واستنزل خلف من حصن بالطاق ولّي على سجستان أحمد الفتحي من قواد أبيه. ثم انتقض أهل سجستان فسار إليهم محمود سنة ثلاث وتسعين في ذي الحجة، وحصرهم في حصن أول واقتحمه عليهم عنوة، وقتل أكثرهم وسبى باقيهم حتى خلت سجستان منهم، وصفا ملكها له فاقطعها أخاه نصرا مضافة إلى نيسابور، وانقرض ملك بني بالصفار وذويهم من سجستان والبقاء لله وحده.

دولة بني سامان

الخبر عن دولة بني سامان ملوك ما وراء النهر المقيمين

بها الدولة العباسية و أولية ذلك ومصادره

أصل بني سامان هؤلاء من العجم ؛ كان جدهم أسد بن سامان من أهل خراسان وبيوتها وينتسبون في الفرس إلى بهرام حشيش الذي ولاّه كسرى أنوشروان مرزبان أذربيجان. وبهرام حشيش من أهل الريّ ونسبهم إليه

هكذا: أسد بن سامان خذاه بن جثمان بن طغان بن نوشردين بن بهرام نجرين بن بهرام حشيش. ولا وثوق لنا بضبط هذه الأسماء. وكان لأسد أربعة من الولد: نوح وأحمد ويحيى والياس، وأصل دولتهم، هذه فيما وراء النهر أنّ المأمون لما وليَ خراسان اصطنع بني أسد هؤلاء، وعرف لهم حق سلفهم واستعملهم. فلمّا انصرف إلى العراق ولّى على خراسان غسّان بن عبّاد من قرابة الفضل بن طاهر، مكان إبنه إسحق، ومحمد بن الياس. ثم مات

أحمد بن أسد بفرغانة سنة إحدى وستين ، وكان له من الوُلْد سبعة: نصر ويعقوب ويحيى وإسمعيل وإسحق وأسد وكنيته أبو الأشعث، وحميد وكنيته أبو غانم. ولما توفي أحمد، وكانت سمرقند من أعماله، استخلف عليها ابنه نصراً، وأقام في ولايتها أيام بني طاهر و بعدهم. وكان يلي أعماله من قبل ولاة خراسان إلى حين انقراض أمر بني طاهر واستيلاء الصفّار على خرا سان.

ولاية نصر بن أحمل علي ما وراء النهر:

ولما استولى الصفّار على خراسان، وانقرض أمر بني طاهر، عقد المعتمد لنصر بن أحمد على أعمال ما وراء النهر، فبعث جيوشه إلى شطّ جيحون مسلحة من عبور الصفّار فقتل مقدّمهم. ورجعوا إلى بخارى. وخشيهم واليها على نفسه ففرّ عنها. وولوا عليهم ثم عزلوا، ثم ولّوا ثم عزلوا، فبعث نصر أخاه إسمعيل على شط بخارى. وكان يعظم محلّه ويقف في خدمته. ثم ولّى على غزنة أبا إسحق بن التكين. ثم ولّى على خراسان من بعد ذلك رافع بن هرثمة بولاية بني طاهر، وأخرج عنها الصفار. وحصلت بينه وبين إسمعيل أعمال خوارزم فولاّه إياها، وفسد ما ين إسمعيل وأخيه نصر، وزحف إليه سنة إثنتين وسبعين فأرسل قائده حمويه بن عليّ إلى رافع يستنجده، فسار إليه بنفسه منها، وأصلح بينهما ورجع إلى خرا سان. ثم انتقض ما بينهما وتحاربا سنة خمس وسبعين، وظفر إسمعيل بنصر. ولما حضر عنده ترجّل له إسمعيل وقبّل يده وردّه إلى كرسي إمارته بسمرقند. وأقام نائباً عنه ببخاري، وكان إسمعيل خيّراً مكرماً لأهل العلم والدين.

وفاة نصر بن أحمد وولاية أخيه إسمعيل علي ما وراء النهر:

ثم توفي نصر سنة تسع وسبعين، وقام مكانه في سلطان ما وراء النهر أخوه إسمعيل وولاّه المعتضد. ثم ولاّه خراسان سنة سبع وثمانين، وكان سبب ولايته

على خراسان أنّ عمرو بن الليث كان المعتضد ولاّ خراسان، وأمره بحرب رافع بن هرثمة فحاربه وقتله، وبعث برأسه إلى المعتضد، وطلب منه ولاية ما وراء النهر فولاّه وسير العساكر لمحاربة إسمعيل بن أحمد مع محمد بن بشير من خواصه، فانتهوا إلى آمد بشط جيجون. وعبر إليهم إسمعيل فهزمهم وقتل محمد بن بشير، ورجع إلى بخارى فسار عمرو بن الليث من نيسابور إلى بلخ يريد العبور إلى ما وراء النهر، فبعث إليه إسمعيل يستعطفه بأن الدنيا العريضة في يدك وإنما لي هذا الثغر فأبى ولجّ. وعبر إسمعيل النهر، وأحاط به، وهو على نجد فصار محصورا وسأل المحاجزة فأبى إسمعيل وقاتله فهزمه. وأخذه بعض العسكر أسيرا، وبعث به إلى سمرقند. ثم خيّره في إنفاذه إلى المعتضد فاختاره فبعث به إليه، ووصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين، وأدخل على جمل وحبس.

وأرسل المعتضد إلى إسمعيل بولاية خراسان كما كانت لهم فاستولى عليها، وصارت بيده. ولما قُتل عمرو بن الليث طمع محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان والديلم في لملك خراسان، فسار إليها، وهو يظن ان إسمعيل بن احمد لا بريدها ولا يتجاوز عمله، فلما سار إلى جرجان، وقد وصل كتاب المعتضد إلى إسمعيل بولاية خراسان، فكتب إليه ينهاه عن المسير إليها فأبى، فسرّح إليه محمد بن هرون قائد رافع، وكان قد فارقه عند هزيمته ومقتله. ولحق بإسمعيل فسرّحه في العساكر لقتال محمد بن زيد العلوي ولقيه على جرجان فانهزم محمد بن زيد وغنم ابن هرون عساكره، وأصابت محمد بن زيد جراحات هلك لأيام منها. وأسر إبنه زيد فانزله إسمعيل ببخارى، وأجرى عليه، وسار محمد بن هرون إلى طبرستان فملكها، وخطب فيها لإسمعيل وولاّه إسمعيل عليها.

استيلاء إسمعيل علي الري:

كان محمد بن هرون قد انتقض في طبرستان على إسمعيل، وخلع دعوة العبّاسيّة،

وكان الوالى على أهل الري من قبل المكتفي أغرتمش التركي، وكان سئ السيرة فيهم فاستدعوا محمد بن هرون من طبرستان فسار إليهم، وحارب أغرتمش فقتله، وقتل إبنين له، وأخاه كيغلغ من قواد المكتفي.

واستولى على الري فكتب المكتفي إلى إسمعيل

بولاية الريّ، وسار إليها فخرج محمد بن هرون عنها إلى قزوين وزنجان، وعاد إلى طبرستان، واستعمل إسمعيل بولاية الذين على جرجان فارس الكبير. وألزمه بإحضار محمد بن هرون فكاتبه. فارس، وضمن له إصلاح حاله، فقبل قوله وانصرف عن حسّان الديلمي إلى بخارى في شعبان سنة تسعين ومائتين. ثم قُبِض في طريقه، وأُدْخِل إلى بخارى مقيّداً فحبس بها، ومات لشهرين.

وفاة إسمعيل بن أحمد وولاية ابنه أحمد:

ثم توفي إسمعيل بن أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر في منتصف سنة خمس وتسعين ومائتين، وكان يلقّب بعد موته بالماضي، وولىَ بعده أبو نصر أحمد، وبعث إليه المكتفي بالولاية، وعقد له لواءه بيده. وكان إسمعيل عادلاً حسن السيرة حليماً. وخرجت الترك في أيامه سنة إحدى وتسعين ومائتين إلى ما وراء النهر في عدد لا يحصى، يقال كان معهم سبعمائة قبّة، وهي لا تكون إلا للرؤساء ،فاستنفر لهم إسمعيل الناس، وخرج من الجند والمتطوّعة خلق كثير. وخرجوا إلى الترك وهم غارّون فكبسوهم مصبحين، وقتلوا منهم ما لا يحصى وانهزم الباقون. واستبيح عسكرهم. ولما مات ولىَ إبنه أبو نصر أحمد، واستوسق أمره ببخارى بعث عن عمّه إسحق بن أحمد من سمرقند فقبض عليه، وحبسه. ثم عبر إلى خراسان ونزل نيسابور، وكان فارس الكبير مولى أبيه عاملاً على جرجان، وكان ظهر له أنّ أباه عزله عن جرجان بفارس هذا. وكان فارس قد ولىَ الريّ

وطبرستان، وبعث إلى إسمعيل أحمد بثمانين حملاً من المال، فلما سمع بوفاة إسمعيل استردّها من الطريق. وحقد له أبو نصر ذلك كله فخافه فارس. فلما نزل أبو نصر نيسابور كتب فارس إلى المكتفي يستأذنه في المسير إليه، وسار في أربعة آلاف فارس، وأتبعه أبو نصر فلم

يدركه. وتحصّن منه عامل أبي نصر بالريّ، ووصل إلى بغداد فوجد المقتدر قد وليَ بعد المكتفي، وقد وقعت حادثة ابن المعين فولاّه المقتدر ديار ربيعة، وبعثه في طلب بني حمدان، وخشي أصحاب المقتدر أن يتقدّم عليهم فوضعوا عليه غلاماً له فسمّه، ومات الموصل وتزوج الغلام امرأته.

استيلاء أحمد بن إسمعيل علي سجستان:

كانت سجستان في ولاية الليث بن علي بن الليث، وخرج إلى طلب فارس فأسره مؤنس الخادم، وحُبس ببغداد وولى على سجستان أخوه المعدّل. ثم سار أبو نصر أحمد بن إسمعيل سنة سبع وتسعين من بخارى إلى الري، ثم إلى هراة، وطمع في ملك سجستان فبعث إليه العسكر في محرّم سنة ثمان وتسعين مع أعيان قوّاده: أحمد بن سهل، ومحمد بن المظفّر وسيمجور الدواتيّ، والحسين بن علي المروروذيّ. فلما بلغ الخبر ألى المعدّل، بعث أخاه محمد بن علي إلى بست والزنج فحاصرته العساكر بسجستان. وسار أحمد بن إسمعيل إلى بُست فملكها، وأسر محمد بن علي، وبلغ الخبر إلى المعدّل فاستأمن إلى الحسين فملكها، وحمل المعدّل معه إلى بخارى. وولّى الأمير على سجستان أبا صالح منصور بن عمّه إسحق بن أحمد، وكان قد قبض على إسحق لأوّل ولايته. ثم أطلقه الآن وأعاده إلى سمرقند وفرغانة. وقد كان سبُكري هزمته عساكر المقتدر بفارس، وخرج إلى مفازة سجستان فبعث الحسين عسكراً لاعتراضه، وأُخِذَ أسيراً، وبعثوا به وبمحمد بن علي إلى بغداد. وبعث المقتدر إلى أحمد بالخلع والهدايا. ثم انتقض أهل سجستان على سيجور الدواني، وولّوا منصور ابن عمه إسحق على نيسابور

قتل أبي نصر أحمد بن إسمعيل وولاية ابنه نصر:

ثم قُتِل أبو نصرأحمد صاحب خراسان وما وراء النهر آخر جمادى الآخرة سنة إحدى وثلثمائة، وكان مولعاً بالصيد فخرج إلى برير متصيّداً. وكان له أسد يربط كل ليلة على باب خيمته، فأغفل ليلة، فعدا عليه بعض غلمانه وذبحوه على سريره. وحمل إلى بخارى فدفن بها، ولقّب الشهيد، وقتل من وُجد من أولئك الغلمان. وولىَ الأمير مكانه إبنه أبا الحسن نصر بن أحمد وهو ابن ثَمان سنين، ولّقب السعيد. وتولّى الأمور له أصحاب أبيه ببخارى، وحمله على عاتقه أحمد بن الليث مستولي الأمور. وانتقض عليه أهل سجستان وعمّ أبيه إسحق بن أحمد بسمرقند، وإبناه منصور والياس ومحمد بن الحسين ونصر بن محمد وأبو الحسين بن يوسف والحسن بن علي المروروذيّ وأحمد بن سهل وليلى بن النعمان من الديلم صاحب العلويّين بطبرستان، ومعه سيمجور وأبو حسين بن الناصر الأطروش وقراتكين، وخرج عليه إخوته يحيى ومنصور وإبراهيم بنو أبيه وجعفر بن داود ومحمد بن الياس، ومرداويج ووشكمير ابنا زياد من أمراء الديلم، وكان سعيد نصر مظفّراً على جميعهم.

انتقاض سجستان:

ولما قتل أحمد بن إسمعيل انتقض أهل سجستان وبايعوا للمقتدر، وبعثوا إليه وأخرجوا سيجور الدواتي، فأضافها المقتدر إلى بدر الكبير، وأنفذ إليها الفضل بن حميد وأبا يزيد من قبل السعيد نصر، وسعيد الطالقاني

بغزنة كذلك فقصدها الفضل وخالد واستوليا على غزنة وبستة، وقبضا على سعيد الطالقاني وبعثا به إلى بغداد. وهرب عبيد الله الجهستاني.ثم اعتل الفضل وانفرد خالد بالأمور. ثم انتقض فأنفذ إليه

المقتدر أخا نجح الطولونيّ فهزمه خالد، وسار إلى كرمان فأنفذه إليه بدر الجيش فأخذ أسيرا ومات، وحمل إلى بغداد.

القسم الرابع

انتقاض إسحق العمّ وابنه الياس:

كان إسحق بن أحمد عم الأمير أحمد بن إسمعيل والياً على سمرقند، فلما بلغه مقتل الأمير أحمد، وولاية إبنه السعيد نصر، دعا لنفسه بسمرقند، وتابعه إبنه الياس على ذلك. وساروا إلى بخارى فبرز إليهم القائد حمويه بن عليّ فهزمهم إلى سمرقند. ثم جمعوا وعادوا فهزمهم ثانية،وملك سمرقند من أيديهم عنوة. واختفى إسحق وجدّ حمويه في طلبه فضاق به مكانه، واستأمن إلى حمويه وحمله إلى بخارى ،وأقام بها إلى أن هلك، ولحق الياس بفرغانة فأقام بها إلى أن خرج ثانية كما يأتي.

ظهور الأطروش واستيلا ؤه علي طبرستان:

قد تقدّم لنا في أخبار العلويّة شأن دولة الاطروش وبنيه بطبرستان، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمرو بن علي بن الحسن السبط، وأنه استعمل الأمير أحمد على طبرستان مكانه أبا العبّاس أحمد عبد الله بن محمد بن نوح فأحسن السيرة، وعدل في الرعية، وأكرم العلويّة وبالغ في الإكرام والإحسان إليهم. واستمال رؤساء الديلم وهاداهم، وكان الحسن الأطروش قد دخل إليهم بعد قتل محمد بن زيد، وأقام فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإ سلام، ويقتصر منهم على العُشْر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسّان فأسلم منهم خلقٌ كثيرٌ، واجتمعوا إليه، وبنى في بلادهم المساجد، ودعاهم للمسير معه إلى طبرستان فلم يجيبوه إلى ذلك. ثم عزل أبو العبّاس، وتولّى سلام فلم يحسن سياسة الديلم فخرجوا عليه، وقاتلوه فهزمهم، واستعان بالأمير أحمد السعيد، فأعاد الأمير أحمد إليها ابن نوح، فاستعمل عليها أبا العبّاس محمد بن إبراهيم صعلوك، ففسد ما بينه وبين الديلم بإساءة السيرة وعدم السياسة. فطلبهم الأُطروش في الخروج معه فخرجوا، ولقيهم ابن صعلوك على

مرحلة من سالوس وهي ثغر طبرستان فانهزم، وقتل من أصحابه أربعة آلاف، وحصر الأطروش الباقين، ثم أمَّنهم وعاد إلى آمد. وسار إليهم الحسن بن القاسم العلويّ الداعي صهر الأُطروش فقتلهم، متعللا عليهم بأنه لم يحضر لعهدهم. واستولى الأطروش على طبرستان سنة إحدى وثلثمائة أيام السعيد نصر، وخرج صعلوك إلى الريّ متعلّلاً عليهم، ومنها إلى بغداد. وكان الذين أسلموا على يد الأطروش الديلم من وراء أسفيجاب إلى آمد، فيهم شيعة زيدية. وكان الأطروش زيديًّا. وخرجت طبرستان يومئذ من ملك بني سامان.

انتقاض منصور بن إسحق العم والحسين والمرورذي:

كان الأمير أحمد بن إسمعيل لما افتتح سجستان ولّى عليها منصور ابن عمّه إسحق، وكان الحسين بن عليّ هو الذي تولّى فتحها وطمع في ولايتها. ثم افتتحها ثانياً كما ذكرنا فوليا سيجور الدواتي فاستوحش الحسين لذلك، وداخل منصور بن إسحق في الانتقاض ،على أن تكون إمارة خراسان لمنصور والحسين بن علي خليفته على أعماله. فلما قتل الأمير أحمد انتقض الحسين بهراة، وسار إلى منصور بنيسابور فانتقض أيضاً، وخطب لنفسه سنة إثنتين وثلثمائة.وسار القائد حمويه بن علي من بخارى في العساكر لمحاربتهما، ومات منصور قبل وصوله فلما قارب حمويه نيسابور، سار الحسين عنها إلى هراة، وأقام بها. وكان محمد بن جند على شرطته من مدة طويلة، وبعث من بخارى بالنكير فخشي على نفسه، وعذل عن الطريق إلى هراة فسار الحسين بن علي من هراة إلى نيسابور، بعد أن استخلف عليها أخاه منصوراً فملك نيسابور، فسار إلى محاربته من بخارى أحمد بن سهل فحاصر هراة وملكها من منصور على الأمان. ثم سار إلى نيسابور فحاصر بها الحسين وملكها عنوة، وأسر الحسين سنة إثنتين وثلثمائة. وأقام أحمد بن سهل بنيسابور، وجاءه ابن

جيد مزمر وقبض عليه، وسيّره والحسين بن علي إلى بخارى. فأمّا ابن جيد مزمر فُسّير إلى خوارزم ومات بها، وأمّا الحسين فحبس، ثم خلّصه أبو عبد الله الجهانيّ مدبر الدولة، وعاد إلى خدمة السعيد نصر.

انتقاض أحمد بن سهل بنيسابور وفتحها:

كان الأمير أحمد بن سهل من قوّاد إسمعيل، ثم إبنه أحمد، ثم ابنه نصر بن أحمد. قال ابن الأثير: وهو أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن جبلة بن كامكان بن يزدجرد بن شهربان الملك. قال: وكان كامكان دهقان بنواحي مَرْو قال: وكان لأحمد إخوة ثلاثة وهم: محمد والفضل والحسين قُتُلوا في عصبيّة العرب والعجم. وكان خليفة عمرو بن الليث على مرو فسخطه وحبسه بسجستان. ثم فرّمن محبسه ولحق بمرو فملكها، واستأمن إلى أحمد بن إسمعيل، وقام بدعوته فاستدعاه إلى بخارى وأكرمه ورفع مترلته. ونظّمه في طبقة القوّاد، وبقي في خدمته وخدمة بنيه، فلما انتقض الحسين بن علي بنيسابور على السعيد نصر بن أحمد بن إسمعيل سنة إثنتين وثلثمائة، سار إليه أحمد بن سهل في العساكر وظفر به كما مرّ. وولّى السعيد نصر بن أحمد بن إسمعيل على نيسابور وقراتكين مولاهم.

مقتل ليلي بن النعمان ومهلكه:

كان ليلى بن النُعمان من كبار الديلم، ومن قوّاد الأُطروش، وكان الحسن بن القاسم الداعي قد ولاّه على جرجان سنة ثلاث وثلاثمائة، وكان أولاد الأطروش يحلّونه في كتابهم بالمؤيد لدين الله المنتصر لأولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان كريماً شجاعاً . ولّما وليَ جرجان سار إليه قراتكين، وقاتله عشرة فراسخ من جرجان، فالهزم قراتكين، واستأمن غلامه فارس إلى ليلى في ألف رجل من أصحابه فأمّنه

وأكرمه وزوّجه أخته. واستأمن إليه أبو القاسم بن حفص ابن أخت سهل، وحرّضه على المسير إلى نيسابور، وبها قراتكين. وكان أجناده قد كثروا وضاقت عليهم الأموال فاستأذن الداعي في المسير إلى نيسابور، فأذن له، وسار إليها في ذي الحجة سنة ثمان وثلثمائة فملكها، وأقام بها الخطبة للداعي الحسين بن القاسم. وأنفذ السعيد

نصر العساكر من بخارى مع حمويه بن علي، ومحمد بن عبيد الله البلغميّ، وأبي جعفر صعلوك، وخوارزم شاه، وسيجور الدواتيّ، فانهزم أكثر أصحاب حمويه، وثبت القوّاد، وجالت العساكر جولة فانهزم ليلى ودخل آمد. ولحقه بقراخان ملك الترك، جاء مع العساكر مدداً فقبض على ليلى في آمد، وبعث إلى حمويه بذلك، فبعث إليه من قطع رأس ليلى في ربيع سنة تسع وثلثمائة. وبعث به إلى بخارى. وطلب قوّاد الديلم الذين كانوا مع ليلى الأمان فأمّنوهم، بعد أن أشار حمويه بقتلهم، والراحة منهم فلم يوافقوه. وهؤلاء القوّاد هم الذين خرجوا بعد ذلك على الجهات وملكوها: مثل أسفار ومرداويج وشبكين وبني بويه، وستأتي أخبارهم. وبقي فارس غلام قراتكين بجرجان والياً عليها. ثم جاءه قراتكين، واستأمن إليه غلامه فارس فأمّنه. ثم قتله سنة ست عشرة وثلثمائة وانصرف عن جرجان.

حرب سيجور مع ابن الأطروش:

ولما قتل قراتكين غلامه سنة ست عشرة وثلثمائة، وانصرف عن جرجان، سار إليها أبو الحسن بن ناصر الأطروش من أستراباذ فملكها، وأنفذ السعيد لحربه سيجور الدواتي في أربعة آلاف فارس فنزل على فرسخين من جرجان، وخرج إليه أبو الحسن في ثمانية آلاف راجل من الديلم فاقتتلا. وكان سيجور قد أكمن لهم، وأبطأ عليه الكمين فانهزم واتبعه سُرخاب. وشغل عساكر أبي الحسن بالنهب. ثم خرج عليهم الكمين بعد ساعة فانهزم أبو الحسن، وقتل من عسكره نحو أربعة آلاف. وركب البحر إلى

أُستراباذ. واجتمع إليه فلّ من أصحابه. وجاءه سرُخاب بعد أن رجع عن سيجور، وجمع عيال أصحابه ومخلفهم، وقدم بهم. وأقام سيجور بجرجان. ثم مات سُرخاب، ورجع ابن الأطروش إلى سارية بعد أن استخلف ما كان بن كالي على أستراباذ، واجتمع إليه الديلم وأمَّرُوه. ثم سار إلى أستراباذ ومعه محمد ليظهر غناؤهم فخرج من سارية، وولوا عليها بقراخان، ووصلوا إلى جرجان، ثم إلى نيسابور. ورجع ما كان إلى أستراباذ مع جرجان ولحق بقراخان بنيسابور. وهذا كان مبتدأ أمر ما كان بن كالي وستأتي أخباره.

خروج الياس بن إسحق:

قد تقدّم لنا انتقاض إسحق وابنه الياس بسمرقند سنة إحدى وثلثمائة، وكيف غلبهم القائد حمويه. وسار بإسحق إلى بخارى ومات بها. ولحق إبنه الياس بفرغانة فأقام بها إلى سنة ست عشرة وثلثمائة، وأجمع المسير إلى سمرقند، واستظهر بمحمد بن الحسين بن مت من قوّاد بني سامان، واستمدّ أهل فرغانة من الترك فأمدّوه، واجتمع إليه ثلاثون ألف فارس، وقصد سمرقند. وبعث السعيد للمدافعة عنها أبا عمرو، ومحمد بن أسد، وغيره في ألفين وخمسمائة راجل. فلما ورد الياس كمنوا له بين الشجر، حتى إذا اشتغلت عساكره بضرب الأبنية خرجوا عليه، فانهزم الحسن بن ست ولحق بأسفيجاب، ومنها إلى ناحية طراز وكريت فلقيه دهقان الناحية فقتله،

وأنفذ رأسه إلى بخارى. ثم استمدّ الياس صاحب الشاش، وهو أبو الفضل بن أبي يوسف فأمدّه بنفسه، وبعث إليه أليسعَ بالمدد، وعاود محاربة الوالي بسمرقند، فانهزم إلى كاشغر، وأسر أبو الفضل وحُمل إلى بخارى فمات بها. وسار الياس إلى كاشغر، وصاحبها طغاتكين من ملوك الترك فصاهره بإبنته وأقام معه.

استيلاء السعيد علي الري:

كان المقتدر قد عقد على الريّ ليوسف بن أبي الساج، وسار إليه سنة إحدى عشرة وثلثمائة فملكه من يد أحمد بن علي أخي صعلوك، وقد كان فارق أخاه صعلوكاً، وسار إلى المقتدر فولاّه على الري. ثم انتقض على المقتدر ووصل يده بماكان بن كالي قائد الديلم وأولاد الأطروش وهم بطبرستان وجرجان. وفارق طاعة المقتدر فسار إليه يوسف بن أبي الساج وحاربه فقتله، واستولى على الريّ. ثم استدعاه المقتدر سنة أربع عشرة وثلثمائة إلى واسط لقتال القرامطة، وكتب إلى السعيد نصر بن أحمد بولاية الريّ فاستخلف عليها وأمره بالمسير إليها. وأخذها فاتك مولى يوسف بن أبي الساج فسار نصر السعيد لذلك أوّل سنة أربع عشرة وأربعمائة. فلما وصل إلى جبل قارن منعه أبو نصرالطبري من الاجتياز به فبذل له ثلاثين ألف دينار واسترضاه. وسار إلى الريّ فخرج عنها فاتك، واستولى عليها السعيد منتصف السنة، وأقام بها شهرين، ثم عاد عنها إلى بخارى، واستعمل عليها محمد بن علي الملقّب صعلوك، فأقام بها إلى شعبان سنة ست عشرة، ومرض فكاتب الداعي وماكان بن كالي في القدوم ليسلّم لهم الريّ فقدموا، واستولوا على الري. وسار صعلوك عنها فمات في طريقه. وأقام الحسن الداعي بالريّ مالكاً لها. واستولى معها على قزوين وزنجان وأبهر وقمّ، ومعه ماكان. وكان أسفار قد استولى على طبرستان، فسار الداعي وماكان إليه، والتقوا على سارية فانهزم، وقتل الداعي كما مرّ في أخبار العلويّة بطبرستان.

ولاية أسفار علي جرجان والري:

كان أسفار بن شيرويه من أعيان الديلم، وكان من أصحاب ماكان بن كالي. وقد تقدّم لنا أنّ أبا الحسن بن الأطروش ولّى ماكان على أستراباذ، وأنّ الديلم اجتمعوا إليه وأمرّوه، وأنه ملك جرجان، واستولى بعدها على طبرستان، وولّى أخاه أبا الحسن بن كالي على جرجان. وكان أسفار بن شيرويه من قوّاده ،فانصرف مغاضباً عنه سنة خمس عشرة وثلثمائة إلى بكر بن محمد بن أليسع بنيسابور فبعثه بكر إلى جرجان ليفتحها، واضطرب أمر جرجان، لأن ماكان بن كالي اعتقل بها أبا علي الأطروش بنظر أخيه ابن كالي، فوثب الأطروش على أخيه أبي الحسن وقتله، وملك جرجان. واستقدم أسفار بن شيرويه فقدم وضبط أمره، وسار إليهم ماكان من طبرستان في جيوشه فهزموه، واتبعوه إلى طبرستان فملكوها وأقاموا بها.وهلك أبو علي ابن الأطروش بطبرستان، فعاد ماكان بن كالي، وأخرج أسفار بن شيرويه من طبرستان. ثم زحف أسفار إلى الداعي وماكان والتقوا على السيَّاريّة فانهزم الداعي وماكان، وقُتِل الداعي. واستولى أسفار على طبرستان وجرجان والريّ وقزوين وزنجان وأبهر وقمّ والكرخ. ودعا للسعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان. واستعمل على آمد هرون بن بهرام يريد استخلاصه لنفسه، لأن هرون كان يخطب لأبي جعفر من ولد الأطروش فولاّه آمد، وزوّجه

ببعض نساء الأعيان بها. وحضر عرسه أبو جعفر، وغيره من العلويّين فهجم عليه أسفار يوم العرس، فقبض على أبي جعفر والعلويّين، وحملهم إلى بخارى فاعتقلوا بها، واستفحل أمر أسفار وانتقض على السعيد صاحب خراسان، وعلى الخليفة المقتدر. وسار السعيد من بخارى إلى نيسابور لمحاربته، وأشار عليه وزيره محمد بن مطرّف الجرجاني بطاعة السعيد، وخوّفه منه فقبل إشارته، ورجع إلى طاعة السعيد، وقبل شروطه من حمل المال وغيره. ثم انتقض عليه

مرداويج واستدعى ماكان من طبرستان، وهزم أسفار وقتله. وملك ما بيده من الأعمال كما يذكر في أخبار الديلم. ثم ملك طبرستان وجرجان من يد ماكان، فاستمدّ ماكان السعيد فأمدّه بأبي علي بن محمد المظفرّ فهزمهما مرداويج، وعاد أبو علي إلى نيسابور، وماكان إلى خراسان.

خروج أولاد الأمير أحمد بن إسمعيل علي أخيهم السعيد:

كان السعيد نصر بن أحمد لّما وليَ استراب بإخوته، وكانوا ثلاثة: أبو زكريا يحيى، وأبو صالح منصور، وأبو إسحق إبراهيم أولاد الأمير أحمد بن إسمعيل ،فحبسهم في القندهان ببخارى ووكّل بهم. فلما سار السعيد إلى نيسابور سنة خمس عشرة فتقوا السجن، وخرجوا منه على يد رجل خبّاز من أصفهان يسمّى أبا بكر، داخلهم في محبسهم بتسهيل نفقتهم التي كانت على يده. وجاء إلى القندهان قبل يوم الجمعة الذي كان ميقاتاً لفتحه. وأقام عندهم مُظهراً للزهد والدين، وبذل للبوّاب دنانير على أن يخرجه ليلحق الصلاة في الجماعة، ففتح له الباب، وقد أعدّهم جماعة للوثوب، فحبسوا البواب، وأخرجوا أولاد الأمير أحمد ومن معهم في الحبس من العلويّين والديلم والعيّارين. واجتمع إليهم من كان وافقهم من العسكر والقوّاد، ورأسهم شروين الجبليّ، وبايعوا يحيى ابن الأمير أحمد، ونهبوا خزائن السعيد وقصوره. وقدّم يحيى أبا بكر الخبّاز، وبلغ الخبر إلى السعيد فعاد من نيسابور إلى بخارى. وكان أبو بكر محمد بن المظفّر بن محتاج صاحب خراسان مقيماً بجرجان، فاستدعى ماكان بن كالي، وصاهره، وولاّه نيسابور فسار إليها. ولما جاء السعيد إلى بخارى اعترضه أبو بكر الخبّاز عند النهر فهزمه السعيد، وأسره ودخل بخارى فعذّبه وأحرقه في تنوره الذي كان يخبز فيه. ولحق يحيى بسمرقند، ثم مرّ بنواحي الصغانيان، وبها أبو علي بن أحمد بن أبي بكر بن المظفّر بن محتاج صاحب خراسان مقيماً بجرجان ،فاستدعى ماكان بن كالي إلى جرجان، ولقوا بها محمد بن الياس،

وقوي أمره فلما جاء يحيى إلى نيسابور خطب له، وأظهر دعوته. ثم قصدهم السعيد فافترقوا، ولحق ابن الياس بكرمان، ولحق يحيى وقراتكين بُبْست والرخَّج، ووصل السعيد إلى نيسابور سنة عشرين وثلثمائة، واصطلح قراتكين وأمّنه، وولاّه بلخ، وذهبت الفتنة. وأقام السعيد بنيسابور إلى أن استأمن إليه أخواه يحيى ومنصور وحضرا عنده وهلكا، وفرّ إبراهيم إلى بغداد، ومنها إلى الموصل. وهلك قراتكين بُبسْت، وصلحت أمور الدولة. وكان جعفر بن أبي جعفر بن داود والياً لبني سامان على الخُتَّل، فاستراب به السعيد، وكتب إلى أبي علي أحمد بن أبي بكر محمد بن المظفّر وهو بالصغانيان أن يسير إليه، فسار إليه وحاربه وكسره، وجاء به إلى بخارى فحبس بها، فلما فتق السجن خرج مع يحيى وصحبهم. ثم لما رأى تلاشي أموره استأذنه في المسير إلى

الخُتّل فأذن له فسار إليها، وأقام بها، ورجع إلى طاعة السعيد سنة ثمان عشرة وصلح حاله. (والختل بخاء معجمة مضمومة، وتاء مثناة فوقانية مشددة مفتوحة).

ولاية ابن المظفر علي خراسان:

كان أبو بكر محمد بن المظفّر واليا للسعيد نصر على جرجان. ولما استفحل أمر مرداويح بالريّ كما يأتي في أخبار الديلم، خرج عنها ابن المظفّر، ولحق بالسعيد نصر في نيسابور وهو مقيم بها، فسار السعيد في عساكره نحو جرجان، ووقعت المكاتبة ين محمد بن عبيد الله البلغميّ مدبر دولته، وبين مُطَّرف بن محمد، واستماله محمد فمال إليه مطّرف، وقتله سلطانه مرداويح. ثم بعث محمد ينتصح لمرداويح، ويذكره نعمة السعيد عنده في اصطناعه وتوليته، وتطّوق العار في ذلك المطرف الوزير الهالك. ويهوّل عليه أمر السعيد ويخوّفه، ويشير عليه بمسالمة جرجان إليه. وصالحه السعيد عليها. ولما فرغ السعيد من أمر جرجان، وأحكمه استعمل محمد بن المظفّر بن محتاج على جيوش خراسان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، وردّ إليه تدبير الأمور بجميع نواحيها. وسار إلى كرسي ملكه ببخارى واستقرّ بها.

استيلاء السعيد علي كرمان:

كان محمد بن الياس من أصحاب السعيد، ثم سخطه وحبسه، وشفع فيه محمد بن عبيد الله البلغمي فأطلقه، وسيّره محمد بن المظفّر إلى جرجان. ثم سار إلى يحيى وإخوته عندما توثبوا ببخارى فكان معه في الفتنة، وخطب له بنيسابور كما مرّ. فلمّا زحف السعيد إليهم فارق يحيى ولحق بكرمان، واستولى عليها. ثم خرج إلى بلاد فارس وبها ياقوت مولى الخلفاء فوصل إليه بأصطخر يريد أن يستأمن له، وأطلع ياقوت على مكره، فرجع إلى كرمان. ثم بعث السعيد ماكان بن كالي في العساكر سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، وقاتل ابن الياس وهزمه، وملك كرمان بدعوة السعيد نصر بن أحمد. وسار الياس إلى الدّينور. ثم رجع ماكان عن كرمان على ما نذكره بعد، فرجع إليها ابن الياس. وسبب خروج ماكان أنّ السعيد بعد قتل مرداويح، كتب إليه وإلى محمد بن المظفّر صاحب خراسان أن يقصد جرجان والريّ، وبها وشمكير أخو مرداويح، فجاء ماكان على المفازة، ووصل إلى نيسابور بعد أن كان محمد بن المظفّر قد استولى عليها، بعث إليه مدداً فهزمتهم عساكر وشمكين فأقصر ماكان عن حربهم، وأقام بنيسابور وجعلت ولايتها له. وذلك أوّل سنة أربع وعشرين وثلثمائة. ثم صفت كرمان لمحمد بن الياس بعد حروب مع جيش نصر كان له الظفر فيها آخراً.

استيلاء ماكان علي كرمان وانتقاضه:

لما ملك مانحين جرجان، وأقام ماكان بنيسابور، وجُعِلَت ولايتها له، وهلك مانحين لأيام من دخوله جرجان، استنفر محمد المظفّر ماكان للمسير إلى جرجان فاعتلّ بالخروج بجميع أصحابه. وسار إلى أسفراين، فأنفذ عسكراً إلى جرجان، واستولى عليها. ثم انتقض وسار إلى نيسابور، وبها محمد بن المظفّر. وكان غير مستعدّ للحرب فسار نحو سرخس، ودخل ماكان نيسابور سنة أربع وعشرين وثلثمائة. ثم رجع عنها خوفا من اجتماع العساكر.

ولاية علي بن محمد علي خراسان وفتحه جرجان:

كان أبو بكر محمد بن المظفّر بن محتاج صاحب خراسان من ولاة السعيد عليها سنة احدى وعشرين وثلثمائة، فلمّا كانت سنة سبع وعشرين وثلثمائة اعتلّ أبو بكر، وطال به مرضه، وقصد السعيد راحته فاستقدم ابنه أبا علي من الصغانيان، وبعثه أميراً على خراسان. واستدعى أباه أبا بكر فلقي إبنه أبا عليّ على ثلاث مراحل من نيسابور فوصّاه، وحمّله حملاً من سياسته. وسار إلى بخارى، ودخل إبنه أبو علي نيسابور من السنة فأقام بها أياما. ثم سار في محرّم سنة ثمان وعشرين وثلثمائة إلى جرجان وبها ماكان بن كالي مستنقضاً على السعيد، وقد غوّروا المياه في طريقه فسلك إليهم غمرة حتى نزل على فرسخ من جرجان، وحاصرها وضيّق عليها، وقطع الميرة عنها حتى جهدهم الحصار. وبعث ماكان بن كالي إلى وشمكير وهو بالريّ فأمدّه بقائد من قوّاده، فلما وصل إلى جرجان شرع في الصلح بينهما لينجو فيه ماكان فتمّ ذلك، وهرب ماكان إلى طبرستان واستولى أبو علي على جرجان سنة ثلاث وعشرين واستخلف عليها إبراهيم بن سيجور الدواتي.

استيلاء أبي علي على الريّ وقتل ماكان بن كالي:

ولما ملك أبو علي جرجان أصلح أمورها. ثم استخلف عليها إبراهيم بن سيجور، وسار إلى الريّ في ربيع سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، وبها وشمكير بن زياد أخو مرداويح قد تغلّب عليها من بعد أخيه. وكان عماد الدولة وركن الدولة إبنا بويه يكاتبان أبا علي صاحب خراسان، ويستحثّانه لقصد الريّ بأنّ أبا عليّ لا يقيم بها لسعة ولايته فتصفو لهما. فلمّا سار أبو علي لذلك بعث وشمكير إلى ماكان بن كالي يستنجده، فسار إليه من طبرستان، وسار أبو علي، وجاءه مدد ركن الدولة بن بويه، والتقوا بنواحي الريّ فانهزم وشمكير وماكان. ثم ثبت ماكان، ووقف مستميتاً فأصابه سهم فقتله، وهرب وشمكير إلى طبرستان فأقام بها، واستولى أبو علي على الريّ سنة تسع وعشرين وثلثمائة، وأنفذ رأس ماكان والأسرى معه إلى بخارى فأقاموا حتى دخل وشمكير في طاعة بني سامان. وسار إلى خراسان سنة ثلاثين وثلثمائة واستوهبهم الأسرى فأطلقوا له، وبقي الرأس ببخارى و لم يحمل إلى بغداد.

استيلاء أبي عليّ على بلد الجبل:

ولما ملك أبو علي بن محتاج صاحب خراسان بلد الريّ والجبل من يد وشمكير، وأقام بها دعوة السعيد نصر بعث العساكر إلى بلد الجيل ففتحها، واستولى على زنجان وأبهر وقزوين وقُمّ وكرخ وهمذان ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان، ورتّب فيها العمّال وجبى الأموال. وكان الحسن بن الفيرزان بسارية وهو ابن عم ماكان بن كالي، وكان وشمكير يطمع في طاعته له وهو يتمنع، فقصده وشمكير وحاصره بسارية وملكها عليه. واستنجد الحسن أبا عليّ بن محتاج فسار معه لحصار وشمكير بسارية سنة ثلاثين وثلثمائة، وضيّق عليه حتى سأل الموادعة، فصالحه أبو علي على طاعة السعيد نصر، وأخذ رهنه، ورحل عنه إلى جرجان سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة. ثم بلغه موت السعيد فعاد أبو عليّ إلى خراسان فملكها، وراسله الحسن بن الفيرزان يستميله، وردّ عليه ابنه سلار الرهينة ليستعين به على الخراسانية، فوعده واطمعه. ولما ملك وشمكير الريّ طمع

فيه بنو بويه لأنه كان قد اختلّ أمره بحادثته مع أبي علي، فسار الحسن بن الفيرزان إلى الريّ، وقاتل وشمكير فهزمه، واستأمن إليه الكثير من جنده. وسار وشمكير إلى الريّ فاعترضه الحسن بن الفيرزان من جرجان وهزمه إلى خراسان، وراسل الحسن ركن الدولة، وتزّوج بنته واتصل ما بينهما.

وفاة السعيد نصر وولاية ابنه نوح:

ثم أصاب السعيد نصراً صاحب خراسان وما وراء النهر مرضُ السلّ فاعتلّ ثلاثة عشر شهراً، ومات في شعبان سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة لثلاثين سنة من ولايته. وكان يؤثر عنه الكرم والحلم، وأخلص في مرضه التوبة، إلى أن توفي. ولما مات وليَ مكانه إبنه نوح، وكان يؤثر الكرم والحلم عنه، وبايعه الناس، ولقّب الحميد، وقام بتدبير

ملكه أبوالفضل أحمد بن حويه وهو من أكابر أصحاب أبيه، كان أبوه السعيد ولّى إبنه إسمعيل بخارى في كفالة أبي الفضل وولايته، فأساء السيرة مع نوح، وحقد له ذلك. وتوفي إسمعيل في حياة أبيه، وكان يؤثر أبا الفضل فحذّره من إبنه نوح. فلما وليَ نوح سار أبو الفضل من بخارى وعبر جيحون إلى آمد. وكان بينه وبين أبي علي بن محتاج صهر، فبعث إليه يخبره بقدومه فنهاه عن القدوم عليه. ثم كتب له نوح بالأمان، وولاّه سمرقند وكان على الحاكم صاحب الدولة ولا يلتفت إليه، والآخر يحقد عليه ويعرض عنه. ثم انتقض عبد الله بن أشكام بخوارزم على الأمير نوح فسار من بخارى إلى مرَوْ سنة إثنتين وثلاثين وثلثمائة، وبعث إليه جيشا مع إبراهيم بن فارس فمات في الطريق. واستجار ابن اشكام بملك الترك. وكان ابنه محبوسا ببخارى فبعث إليه نوح بإطلاق إبنه على أن يقبض على ابن أشكام، وأجابه ملك الترك لذلك. ولما علم بذلك ابن أشكام عاد إلى طاعة نوح وعفا عنه وأكرمه.

استيلاء أبي علي على الريّ ودخول جرجان في طاعة نوح:

ثم إن الأمير نوحاً سار إلى مَرْو، وأمر أبا علي بن محتاج أن يسير بعساكر خراسان الى الريّ وينتزعها من يد ركن الدولة بن بويه فسار لذلك، ولقي في طريقه وشمكير وافداً على الأمير نوح فبعثه إليه. وسار أبو علي إلى بسطام فاضطرب جنوده، وعاد عنه منصور بن قراتكين من أكابر أصحاب نوح، فقصدوا جرجان، وصدّهم الحسن بن الفيرزان فانصرفوا إلى نيسابور. وسار إلى الأمير نوح بمَرُو فأعاده وأمده بالعساكر. وسار من نيسابور في منتصف ثلاث وثلاثين وثلثمائة وعلم ركن الدولة بكثرة جموعه، فخرج من الري واستولى أبو علي عليها، وعلى سائر أعمال الجبال. وأنفذ نوّابه إلى الأعمال،

وذلك في رمضان من سنته. ثم سار الأمير نوح من مَرْو إلى نيسابور، وأقام بها، ووضع جماعة من الغوغاء والعامّة يستغيثون من أبي علي، ويشكون سوء السيرة منه ومن نّوابه، فولى على نيسابور إبراهيم بن سيجور، وعاد عنها، وقصد أن يقيم أبو علي بالري لحسن دفاعه عنها، وينقطع طمعه عن خراسان، فاستوحش أبو علي للعزل وشق عليه. وبعث أخاه أبا العبّاس الفضل بن محمد إلى كور الجبال، وولاّه همذان، وخلافة العساكر، فقصد الفضل نهاوند والدينور، واستولى عليها. واستأمن إليه رؤساء الأكراد بتلك النواحي، وأعطوا

رهنهم على الطاعة. وكان وشمكير لما وفد على الأمير نوح بَمَرْو كما قدّمناه استمدّه على جرجان، فأمدّه بعسكر، وبعث إلى أبي علي بمساعدته فلقي أبا علي منصرفه في المرّة الأولى من الري إلى نيسابور، فبعث معه جميع من بقي من العسكر، وسار وشمكير إلى جرجان، وقاتل الحسن بن الفيرزان فهزمه، واستولى على جرجان بدعوة نوح بن السعيد، وذلك في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة.

انتقاض أبي على وولاية منصور بن قراتكين علي خراسان:

قد تقدم لنا أنّ الأمير نوحا عزل أبا علي بن محتاج عن خراسان، وكان من قبلها عزله عن ديوان الجند وهو لنظره، وبعث من يستعرض الجند فمحا وأثبت وزاد في العطاء ونقص فاستوحش لذلك كله، واستوحش الجند من التعرّض إليهم بالإسقاط، ولأرزاقهم بالنقصان. وخلص بعضهم إلى بعض بالشكوى، واتفقوا في سيرهم إلى الريّ وهم بهمذان على استقدام إبراهيم بن أحمد أخي السعيد الذي كان قد هرب أمامه إلى الموصل كما تقدم. وظهر أبو علي على شأنهم فنكر عليهم فتهدّدوه، وكاتبوا ابراهيم واستدعوه، جاء إليهم بهمذان في رمضان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة. وكاتبه أبو علي، وكتب أخوه الفضل سراً إلى الأمير نوح بذلك. ونمي خبر كتابه إلى أخيه أبي

علي فقبض عليه، وعلى متولي الديوان. وسار إلى نيسابور، واستخلف على الريّ والجبل، وبلغ الخبر إلى الأمير نوح، فنهض إلى مَرْو، واضطرب الناس عليه، وشكوا من محمد بن أحمد الحاكم مدبّر ملكه، ورأوا أنه الذي أوحش أبا عليّ وأفسد الدولة، فنقموا ذلك عليه، واعتلّوا عليه فدفع إليهم الحاكم فقتلوه منتصف سنة خمس وثلاثين وثلثمائة. ووصل أبو علي إلى نيسابور وبها إبراهيم بن سيجور ومنصور بن قراتكين وغيرهما من القوّاد فاستمالهم، وساروا معه ودخلها في محرم سنة ست وثلاثين وثلثمائة. ثم ارتاب بمنصور بن قراتكين فحبسه، وسار من نيسابور، ومعه العم إبراهيم إلى مَرْو، وهرب أخوه الفضل في طريقه من محبسه، ولحق بقهستان. ولما قاربوا مَرْو اضطرب عسكر الأمير نوح، وجاء إليهم أكثرهم. واستولى عليها وعلى طخارستان. وبعث نوح العساكر من بخارى مع الفضل أبي علي إلى الصغانيان فأقاموا بها، ودسّ إليهم أبو علي فقبض على الفضل وبعثوا به إلى بخارى. وعاد أبو علي من طخارستان إلى الصغانيان فأقاموا بها في ربيع سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وقاتل العساكر فغلبوه، ورجع إلى الصغانيان. ثم تجاوزها وأقام قريباً منها، ودخلتها العساكر فخرّبوا قصوره، ومساكنه، وخرجوا في اتباعه، فرجع وأخذ عليهم المسالك، فضاقت أحوالهم، وجنحوا إلى الصلح معه، على أن يبعث بابنه أبي المظفّر عبد الله إلى الأمير نوح رهينة، فانعقد ذلك منتصف سنة سبع وثلاثين وثلثمائة. وبعث بإبنه إلى بخارى فأمر نوح بلقائه، وخلع عليه وخلطه بندمائه، وسكنت الفتنة. قال ابن الأثير: هذا الذي ذكره مؤرخوا خراسان في هذه القصة، وأمّا أهل العراق فقالوا: إنّ أبا علي لّما سار نحو الريّ استمدّ ركن الدولة بن بويه أخاه عماد الدولة فكتب يشير عليه بالخروج عن الريّ، وملكها أبو علي. وكتب عماد الدولة إلى نوح سرًّا يبذل له في الريّ في كل سنة مائة ألف دينار وزيادة على ضمان أبي علي، ويعجّل له ضمان سنة وسجله عليه. ثم دسّ عماد الدولة إلى نوح في القبض على أبي علي

وخوّفه منه، فأجاب الأمير نوح إلى ذلك، وبعث تقرير الضمان، وأخذ المال. ودسّ ركن الدولة إلى أبي علي بهمذان، ورجع به على خراسان. وعاد ركن الدولة إلى الريّ، واضطربت خراسان، ومنع عماد الدولة مال الضمان خوفاً عليه في طريقه من أبي علي. وبعث إلى أبي علي. يحرّضه على اللقاء، ويعده بالمدد. وفسد ما بينه وبين إبراهيم وانقبض عنه، وأنّ الأمير نوحاً سار إلى بخارى عند مفارقتها أبي علي.

وحارب إبراهيم العم ففارقه القوّاد إلى الأمير نوح فأُخِذَ أسيراً، وسمله الأمير نوح وجماعة من أهل بيته، والله أعلم.

انتقاض ابن عبد الرزاق بخراسان:

كان محمد بن عبد الرزاق عاملا بطوس وأعمالها، وكان أبو علي استخلفه بنيسابور عندما زحف منها إلى الأمير نوح، فلما راجع الأمير نوح ملكه انتقض ابن عبد الرزاق بخراسان. وولّى الأمير نوح على خراسان محمد بن عبد الرزاق، واتفق وصول وشمكير منهزماً من جرجان أمام الحسن بن فيرزان. واستمدّ الأمير نوحاً فأخرج معه منصوراً في العساكر، وأمرهما بمعاجلة ابن عبد الرزاق، فخرج سنة ست وثلاثين وثلثمائة إلى أستراباذ ومنصور في اتباعه فلحق بجرجان، واستأمن إلى ركن الدولة بن بويه، ومضى إلى الريّ. وسار منصور بن قراتكين إلى طوس، وحاصر رافع إلى قلعة أخرى فحاصره منصور بها حتى استأمن إليه، وجمع ما معه فأنهبه أصحابه. وخرج معهم فافترقوا في الجبال، واحتوى منصور على ما وجد بالحصن، وحمل عيال محمد بن عبد الرزاق وأمّه إلى بخارى فاعتقلوا بها. ولما وصل محمد بن عبد الرزاق إلى ركن الدولة بن بويه أفاض عليه العطاء، وسرّحه إلى محاربة المرزبان بأذربيجان كما يأتي.

استيلاء ركن الدولة بن بويه علي طبرستان وجرجان ومسير العساكر إلي جرجان والصلح مع الحسن بن الفيرزان:

ولما وقع من الاضطراب ما وقع بخراسان، اجتمع ركن الدولة بن بويه والحسن بن الفيرزان، وقصدوا بلاد وشمكير فهزموه، وملك ركن الدولة طبرستان. وسار إلى جرجان فملكها، وأقام بها الحسن بن الفيرزان. واستأمن قوّاد وشمكير إليهم فأمّنوهم. وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بصاحب خراسان، فسار معه منصور بن قراتكين في عساكر خراسان إلى جرجان، وبها الحسن بن الفيرزان. واسترهن ابنه، ثم أبلغه عن الأمير نوح ما أقلعه فأعاد على الحسن ابنه، وعاد إلى نيسابور وأقام وشمكير باورن.

مسير ابن قراتكين إلي الريّ وعوده إليه:

ثم سار منصور بن قراتكين سنة تسع وثمانين وثلثمائة إلى الريّ بأمر الأمير نوح لغيبة ركن الدولة بن بويه في نواحي فارس، فوصل إلى الريّ، واستولى عليها وعلى الجبل إلى قرميسين فكبس، الذين بها من العسكر وهم غازون، وأسروا مقدمّهم محكماً وحبس ببغداد، ورجع الباقون إلى همذان. فسار سبكتكين نحوهم، وجاء ركن الدولة إثر الإنهزام، وشاور وزيره أبا الفضل بن العميد فأشار عليه بالثبات. ثم أجفل عسكر خراسان إلى الريّ

لانقطاع الميرة عنهم، وكان ذلك سواء بين الفريقين إلاّ أنّ الديلم كانوا أقرب إلى البداوة فكانوا أصبر على الجوع والشظف، فركب ركن الدولة، واحتوى على ما خلفه عسكر خراسان.

وفاة ابن قراتكين ورجوع أبي عليّ بن محتاج إلي ولاية خراسان:

ثم توفي منصور بن قراتكين صاحب خراسان بالريّ بعد عوده من أصفهان في ربيع سنة أربعين، وحملت جنازته إلى أسفيجاب فدفن بها عند والده، فولّى الأمير نوح على خراسان أبا علي بن محتاج، وأعاده إلى نيسابور. وقد كان منصور يستقيل من ولاية خراسان لما يلقى بها من جندها، ويستعفى نوحاً المرة بعد المرّة. وكان نوح يعد أبا علي بعوده إلى ولايته. فلما توفي منصور بعث إليه بالخلع واللواء، وأمره بالمسير، وأقطعه الري، وأمره بالمسير إليها فسار عن الصغانيان في رمضان سنة أربعين وثلثمائة، واستخلف مكانه إبنه أبا منصور، وانتهى إلى مَرْو فأقام إلى أن أصلح أمر خوارزم وكانت شاغرة. ثم سار إلى نيسابور فأقام بها. ولما كانت سنة إثنتين وأربعين وثلثمائة كتب وشمكير إلى الأمير نوح أن يأمر أبا علي بن محتاج بالمسير معه في عساكر خراسان، فساروا في ربيع من السنة، وخام ركن الدولة عن لقائهم، فامتنع بطزل، وأقام عليه أبو علي عدّة شهور يقاتله حتى سئم العسكر، وعجفت دوابهم فمال إلى الصلح، وسعى بينهما فيه محمد بن عبد الرزاق المقدّم ذكره، فتصالحا على مائتي ألف دينار ضريبة يعطيها ركن الدولة في كل سنة، ورجع أبو علي إلى خراسان. وكتب وشمكير إلى الأمير نوح بأنّ أبا علي لم ينصح في الحرب، وأنّ بينه وبين ركن الدولة مداخلة. وسار ركن الدولة بعد انصراف أبي علي نحو وشمكير فانهزم إلى أسفراين، واستولى ركن الدولة على طبرستان.

عزل الأمير أبي علي عن خراسان ومسيره إلى ركن الدولة وولاية بكر بن مالك مكانه:

ولما تمكنت سعاية وشمكير من أبي علي عند الأمير نوح، كتب إليه بالعزل عن خراسان سنة إثنتين وأربعين وثلثمائة، وكتب إلى القواد بمثل ذلك. واستعمل على

الجيوش مكانه أبا سعيد بكر بن مالك الفرغاني، وبعث أبو علي يعتذر فلم يقبل. وأرسل جماعة من أعيان نيسابور يسألون إبقاءه فلم يجيبوا، فانتقض أبو علي، وخطب لنفسه بنيسابور. وكتب نوح إلى وشمكير والحسن بن الفيرزان بأن يتفقا ويتعاضدا على أولياء ركن الدولة حيث كانوا ففعلا ذلك، فارتاب أبو علي بأمره، ولم يمكنه العود إلى الصغانيان، ولا المقام بخراسان فصرف وجهه إلى ركن الدولة، واستأذنه في المسير إليه فأذن. وسار أبو علي إلى الريّ سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة فأكرمه ركن الدولة، وأنزله معه، واستولى بكر على خرا سان.

وفاة الأمير نوح وولاية ابنه عبد الملك:

ثم توفي الأمير نوح بن نصر، ولقبه الحميد، في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة لإثنتي عشرة سنة من ولايته، ووليَ بعده إبنه عبد الملك. وقام بأمره بكر بن مالك الفرغاني فلمّا قرّر أمر دولته، وثبت ملكه، أمر بكراً بالمسير إلى خراسان فكان من شأنه مع أبي علي ما قدّمناه.

مسير العساكر من خراسان إلي الري وأصفهان:

ثم زحفت عساكر خراسان إلى الريّ سنة أربع وأربعين وثلثمائة، وبها ركن الدولة بن بويه قدم إليها من جرجان، واستمدّ أخاه. مُعِزّ الدولة ببغداد فأمدّه بالحاجب سبكتكين. وبعث بكر عسكراً آخر من خراسان مع محمد بن ماكان على طريق المفازة إلى أصفهان. وكان بأصفهان أبو منصور علي بن بويه بن ركن الدولة فخرج عنها مَجَرم أبيه وخزائنه، وانتهى إلى خالنجان. ودخل محمد بن ماكان أصفهان، وخرج في اتباع ابن بويه، وأدرك الخزائن فأخذها وسار فأدركه. ووافق وصول أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة في تلك الساعة فقاتله ابن ماكان وهزم أصحابه، وثبت ابن العميد، وشُغِل عسكر ابن ماكان بالنهب، فاجتمع على ابن العميد لمة من العسكر فاستمات، وحمل على عسكر أبن ماكان فهزمهم وأسر ابن

ماكان. وسار ابن العميد إلى اصفهان فملكها، وأعاد حرم ركن الدولة وأولاده إلى حيث كانوا من أصفهان. ثم بعث ركن الدولة إلى بكر بن مالك صاحب الجيوش بخراسان، وقرّر معه الصلح على مال يحمله ركن الدولة إليه على الريّ وبلد الجيل، فتقرّر ذلك بينهما، وبعث إليه من عند أخيه ببغداد بالخلع واللواء بولاية خراسان، فوصلت إليه في ذي القعدة سنة أربع وأربعين وثلثمائة.

وفاة عبد الملك بن نوح صاحب ما وراء النهر وولاية أخيه منصور:

ثم توفي الأمير عبد الملك لإحدى عشرة خلت من شوّال سنة خمس وثلاثين وثلثمائة لسبع سنين من ولايته. ووليَ بعده أخوه أبو الحرث منصور بن نوح، واستولى ركن الدولة لأوّل أيامه على طبرستان وجرجان فملكهما. وسار وشمكير عنها فدخل بلاد الجبل.

مسير العساكر من خراسان إلى الري ووفاة وشمكير:

قد ذكرنا من قبل أنّ وشمكير كان يقدح في عمّال بني سامان بأنهم لا ينصحون لهم، ويداخلون عدوّهم من الديلم. ووفد أبو علي بن الياس صاحب كرمان على الأمير أبي الحرث منصور مستجيشا به على بني بويه، فحرّضه على قصد الريّ، وحذّره من الاستمالة في ذلك إلى عمّاله كما أخبره وشمكير، وبعث إلى الحسن بن الفيرزان بالنفير مع عساكره. ثم أمر صاحب جيوش خراسان أبا الحسن بن محمد بن سيجور الدواني بالمسير إلى الريّ وأوصاه بالرجوع إلى رأي وشمكير، وبلغ الخبر إلى ركن الدولة، فاضطرب وبعث بأهله وولده إلى أصفهان. واستمدّ إبنه عضد الدولة بفارس، وبختيار ابن أخيه عزّ الدولة ببغداد، فبادر عضد الدولة إلى إمداده وبعث العساكر على طريق خراسان يريد قصدها لخلوّها من العسكر، فأجحفت

عساكر خراسان، وانتهوا إلى الدامغان، فأقاموا. وبرز ركن الدولة نحوهم في عساكره من الريّ. وبينما هم في ذلك ركب وشمكير يوما ليتصيّد فاعترضه خنزير فأجفل فرسه، وسقط إلى الأرض وانهشم ومات، وذلك في المحرم سنة سبع وخمسين وثلثمائة، وانتقض ما كانوا فيه، وقام يسنون بن وشمكير مقام أبيه، وراسل ركن الدولة وصالحه فأمدّه ركن الدولة بالمال والرجال.

خبر ابن الياس بكرمان:

كان أبو علي بن الياس قد ملك كرمان بدعوة بني سامان، واستبدّ بها وأصابه فالج وأزمن به. وكان له ثلاثة من الولد اليسع والياس وسليمان: فعهد إلى اليسع وبعده الياس، وأمر سليمان بالعود إلى أرضهم ببلاد الصغد، يقيم بها فيما لهم هنالك من الأموال لعداوة كانت بين سليمان وإليسع فخرج سليمان لذلك، واستولى على السيرجان، فأنفذ إليه أبوه أبو علي إبنه الآخر في عسكر، وأمره بإجلائه عن البلاد، ولا يمكنه من قصد الصغد إن طلبها، فسار وحاصره. ولما ضاق الحصار على سليمان جمع أمواله، ولحق بخراسان. وملك إليسع السيرجان، وسار إلى خراسان. ثم لحق أبو علي ببخارى ومعه ابنه سليمان فأكرمه الأمير أبو الحرث، وقرّبه. وأغزاه أبو علي بالريّ، وتجهيز العساكر إليه كما ذكرناه. وأقام عنده إلى أن توفي سنة ست وخمسين وثلثمائة كما نذكر في أخباره. ولحق إليسع ببخارى فأقام بها،ثم سعى سليمان عند الأمير أبي الحرث منصور في المسير إلى كرمان وأطمعه في ملكها، وأنّ أهلها في طاعته فبعث معه عسكراً. ولما وصل أطاعه أهل نواحيها من القُمْص والبولص وجميع المنتقضين على عضد الدولة، واستفحل أمره فسار إليه كوركين عامل عضد الدولة بكرمان، وحاربه، ونزعت عساكره عنه، فانهزم وقتل معه إبنا أخيه إليسع، وهما بكر والحسين وكثير من القوّاد وصارت كرمان للديلم.

انعقاد الصلح بين منصور بن نوح وبين بني بويه:

ثم انعقد الصلح بين الأمير أبي الحرث منصور بن نوح صاحب خراسان وما وراء النهر، وبين ركن الدولة، وزوّجه إبنته، وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لم يحمل مثله. وكتب بينهم كتاب الصلح، شهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق. وتمّ ذلك على يد أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور صاحب الجيوش بخراسان من جهة الأمير أبي الحرث في سنة إحدى وستين وثلثمائة.

وفاة منصور بن نوح وولاية ابنه نوح:

ثم توفي الأمير أبو الحرث منصور ببخارى منتصف سنة ست وستين وثلثمائة، وولي بعده إبنه أبو القاسم نوح صبياً لم يبلغ الحلم، فاستوزر أبا الحسن العتبي، وجعل على حجابة بابه مولاه أبا العبّاس قاسماً، وكان من موالي أبي الحسن العتبي فأهداه إلى الأمير أبي صالح وشركهما في أمر الدولة أبو الحسن فائق، وأقرّ على خراسان أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور، واطردت أمور الدولة على استقامتها.

عزل ابن سيجور عن خراسان وولاية أبي العباس تاش:

قد تقدّم لنا شأن خلف بن أحمد الليثي صاحب سجستان، وانتصاره بالأمير منصور ابن فرج على قريبه طاهر بن خلف بن أحمد بن الحسين المنتقض عليه لسنة أربع وخمسين وثلثمائة، وأنه مدّه بالعسكر وردّه إلى ملكه. ثم انتقض طاهر ثانيا بعد انصراف العسكر عن خلف، وبعث مستجيشاً فأمدّه ثانياً. وقد هلك طاهر ووليَ إبنه الحسين فحاصره خلف، وأرهقه الحصار فترل لخلف عن سجستان ولحق بالسعيد نوح بن منصور. وأقام خلف دعوة نوح في سجستان، وحمل المال متقرّراً عليه

كل سنة. ثم قصر في الطاعة والخدمة، وصار يتلقى الأوامر بالإعراض والإهمال فَرُمِيَ بالحسين بن طاهر في جيوش خراسان، وحاصره بقلعة أَرَك، وطال انحصاره. وأمدّه العتبي الوزير بجماعة القوّاد كالحسن بن مالك وبكتاش فأقاموا عليه سبع سنين، حتى فنيت الرجال والأموال. وكان ابن سيجور بخراسان، وكانت أيامه قد طالت بها فلا يطيع السلطان إلا فيما يراه. وكان خلف بن أحمد صاحبه فلم يغن عليه، وعوتب في ذلك، وعزل عن خراسان بأبي العبّاس تاش فكتب يعتذر، ورحل إلى قهستان ينتظر جواب كتابه، فجاءه كتاب الأمير نوح بالمسير إلى سجستان فسار، واستترل خلفاً من معقله للحسين بن طاهر. وسار خلف إلى حصن الطاق، وداخله ابن سيجور، وأقام خطبة لرضا نوح به وانصرف. ولّما ولّى الأمير نوح الحاجب أبا العبّاس تاش قيادة خراسان، سار إليها سنة إحدى وسبعين وثلثمائة فلقي هنالك فخر الدولة ابن ركن الدولة، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير ناجين من جرجان، وكان من خبرهما أنّ عضد الدولة لما استولى على بلاد أخيه فخر الدولة وهزمه، ولحق فخر الدولة بقابوس، وبعث عضد الدولة في طلبه ترغيباً وترهيباً فأجاره قابوس، وبعث عضد الدولة في طلبه أخاه مؤيد الدولة في العساكر إليهم، ولقيهم قابوس فهزموه فسار إلى بعض قلاعه، واحتمل منها ذخائره ولحق بنيسابور. ولحق به فخر الدولة ناجيا من المعركة فأكرمهم أبو العبّاس تاش، وأنزلهم خير مترل، وأقاموا عنده. واستولى مؤيد الدولة على جرجان وطبرستان.

مسير أبي **العباس** في عساكر خراسان إلى جرجان ثم مسيره إلي بخاري:

ولما وصل قابوس بن وشمكير وفخر الدولة بن ركن الدولة إلى أبي العبّاس تاش مستجيرين بالأمير نوح على استرجاع جرجان وطبرستان من يد مؤيّد الدولة، كتب بذلك إلى الأمير نوح ببخارى فأمره بالمسير معهما، وإعادتهما إلى ملكهما فسار معهما لذلك في العساكر، ونازلوا جرجان شهرين، حتى ضاق عليهم الحصار. وداخل مؤيد الدولة فائقاً من قوّاد خراسان، ورغّبه فوعده بالإنهزام. ثم خرج مؤيد الدولة من جرجان في عساكره مستميتاً فهزمهم، ورجعوا إلى نيسابور، وكتبوا إلى بخارى بالخبر فأجابهم الأمير نوح بالوعد، واستنفر العساكر من جميع الجهات إلى نيسابور للمسير

مع قابوس وفخر الدولة فاجتمعوا هنالك. ثم جاء الخبر بقتل الوزير أبي الحسن العتبي، وكان زمام الدولة بيده، فيقال: إنّ أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور وضع عليه من قتله، وذلك سنة إثنتين وسبعين وثلثمائة. ولما قتل كتب الأمير نوح بن منصور إلى الحاجب أبي العبّاس تاش يستدعيه لتدبير دولته ببخارى، فسار عن نيسابور إليها، وقتل من ظفر به من قتلة أبي الحسن.

ردّ أبي العباس الى خراسان ثم عزله وولاية ابن سيجور:

ولما سار أبو العبّاس إلى بخارى وكان أبو الحسن بن سيجور من حين سار إلى سجستان كما مرّ مقيماً بها. ثم رجع آخراً إلى قهستان. فلما سار أبو العبّاس تاش إلى، بخارى وكتب ابن سيجور إلى فائق يطلب مظاهرته على ملك خراسان أجابه إلى ذلك، واجتمعا بنيسابور، واستوليا على خراسان، وسار إليهما أبو العبّاس تاش في العساكر. ثم تراسلوا كلّهم واتفقوا على أن يكون بنيسابور، وقيادة العساكر لأبي العبّاس تاش، وبلخ لفائق،

وهراة لأبي الحسن بن سيجور، وانصرف كل واحد إلى ولايته. وكان فخر الدولة بن بويه خلال ذلك معهما بنيسابور ينتظر النجدة إلى أن هلك أخوه مؤيد الدولة بجرجان في شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة.
واستدعاه أهل دولته للملك فكاتبه الصاحب ابن عبّاد وغيره فسار إليهم، واستولى عل ملك أخيه بجرجان وطبرستان. وكان الأمير نوح لما سار أبو العبّاس من بخارى إلى نيسابور استوزر مكانه عبد الله بن عزيز، وكانت بينه وبين أبي الحسن العتبي منافسة وعداوة. ثم لمّا وليَ الوزارة تقدّم على عزل أبي العبّاس عن خراسان وكتب إلى أبي الحسن محمد بن إبراهيم بخراسان بولاية نيسابور.
انتقاض أبي العباس وخروجه مع ابن سيجور ومهلكه:
ولما عُزِل أبو العبّاس تاش عن خراسان كتب إلى الأمير نوح يستعطفه فلم يجبه،
فانتقض، وكتب إلى فخر الدولة يستمدّه على ابن سيجور فأمدّه بالأموال والعسكر مع أبي محمد عبد الله بن عبد الرزاق، وسار إلى نيسابور في عساكره وعساكر الديلم، وتحصّن ابن سيجور بنيسابور. وجاءه مدد آخر من فخر الدولة، وبرز ابن سيجور للقائهم فهزموه، وغنموا منه. واستولى أبو العبّاس على نيسابور، وكتب إلى الأمير نوح يستعطفه ولجّ ابن عزيز في عزله. ثم ثاب لابن سيجور رأيه، وعادت إليه قوّته، وجاءه الأمراء من بخارى مدداً. وكاتب شرفُ الدولة أبا الفوارس بن عضد الدولة بفارس يستمدّه فأمده بألفي فارس مراغمة لعمّه فخر الدولة. فلمّا كثف جمعه زحف إلى أبي العبّاس وقاتله فهزمه، ولحق بفخر الدولة ابن بويه بجرجان فأكرمه وعظّمه، وترك له جرجان ودهستان وأستراباذ إقطاعاً. وسار عنها إلى الري، وبعث إليه من الأموال والآلات ما يخرج عن الحدّ. وأقام أبو العبّاس بجرجان. ثم جمع العساكر وسار إلى خراسان فلم يقدر على الوصول إليها، وعاد إلى جرجان وأقام بها ثلاث سنين، ومات سنة سبع وسبعين وثلثمائة. وقام أهل جرجان بأصحابه لما كانوا يحقدون عليهم من سوء السيرة فقاتلهم أصحابه، واستباحوهم حتى استأمنوا وكفّوا عنهم. ثم افترق أصحابه وسار أكثرهم وهم كبار الخواص والغلمان إلى خراسان، وقد كان صاحبها أبو الحسن سيجور مات فجأة. وقام بأمرها مكانه إبنه أبو علي، وأطاعه إخوته وكبيرهم أبو القاسم، ونازعه فائق الولاية فلحق به أصحاب أبي العبّاس، واستكثر بهم لشأنه.
ولاية أبي علي بن سيجور على خراسان:
قد تقدم اتفاق أبي الحسن بن سيجور وأبي العبّاس تاش وفائق على أن تكون نيسابور وقيادة خراسان لتاش، وبلخ لفائق، وهراة لأبي علي بن أبي الحسن سيجور. ثم عُزِل تاش بسعاية الوزير ابن عزيز، ووليَ أبو الحسن، وكانت بينهما الحرب التي مرّ ذكرها. وانهزم تاش إلى جرجان فاستقرّ أبو علي بهراة وفائق ببلخ، وكان ابن عزيز يستحثّ الحسن لقصد جرجان. ثم عزل ابن عزيز ونفي إلى خوارزم، وقام
مكانه أبو علي محمد بن عيسى الدامغاني. ثم عجز لما نزل بالدولة من قلّة الخراج وكثرة المصاريف، فصرف عن الوزارة بأبي نصر بن أحمد بن محمد بن أبي يزيد، ثم عزل وأعيد أبو علي الدامغاني. وهلك أبو الحسن بن سيجور خلال ذلك، وقام إبنه أبو علي مقامه. وكاتب الأمير نوح بن منصور يطلب أن يعقد له الولاية كما

كانت لأبيه فأجيب إلى ذلك ظاهراً، وكتب لفائق بولاية خراسان، وبعث إليه بالخلع والألوية. وكان أبو علي يظنّ أنّها له، فلما بدا له من ذلك ما لم يحتسب، جمع عسكره وأغذ السير، وأوقع بفائق ما بين هراة وبوشنج، فانهزم فائق إلى مرَوْ الروذ، وملك أبو علي مرو، ووصله عهد الأمير نوح بقيادة الجيوش وولاية نيسابور وهراة وقهستان، ولقبه عماد الدولة، ثم رقّاه الأمير نوح. واستولى على سائر خراسان، واستبدّ بها على السلطان حتى طلبه نوح في بعض أعمالها لنفقته فمنعه، وأقام مظهراً لطاعته، وخشي غائلة السلطان من طلبة نوح فكاتب بقراخان ملك الترك ببلاد كاشغر وشاغور يغريه ويستحثّه لملك بخارى وما وراء النهر على أن يستقّر هو بخراسان.

خبر فائق:

وأقام بعد انهزامه أمام أبي علي بمرو الروذ حتى اندملت جراحه، واجتمع إليه أصحابه. وسار إلى بخارى قبل أن يستأذن، فارتاب به الأمير نوح فسرّح إليه العساكر مع أخي الحاجب، وفكترون فانهزم وعبر النهر إلى بلخ، فأقام بها أياما، وسار إلى ترمذ، وكاتب بقراخان يستحثّه. وكتب الأمير نوح إلى والي الجوزجان أبي الحرث أحمد بن محمد الفيرقوني بقصد فائق، فقصده في جموعه، وسّرح فائق إليه بعض عسكره فهزمه وعاد إلى بلخ. وكان طاهر بن الفضل قد ملك الصغانيان على أبي المظفّر محمد بن أحمد، وهو واحد خراسان فانقطع أبو المظفّر إلى فائق صريخاً فأمده، وسار إلى طاهر بعسكر فائق، واقتتلوا فانهزم طاهر وقتل، وصارت الصغانيان لفائق.

استيلاء الترك علي بخاري:

ولما خرج الأمير نوح عن بخارى عبر النهر واستقر بآمل الشط، وكاتب أبا علي بن سيجور يستحثّه للنصرة، وكاتب فائقا أيضاً يستصرخه فلم يصرخه أحد منهما. وبلغه مسير بقراخان عن بخارى فأغذّ السير إليها، وعاود الجلوس على كرسي ملكه، وتباشر الناس بقدومه. ثم بلغه مهلك بقراخان فتزايد سرورهم، ولما عاد الأمير نوح إلى بخارى ندم أبو علي على ما فرّط فيه من نصرته، وأجمع الاستظهار بفائق فأزاحوه عن ملكه وملكوها، ولحق فائق بأبي علي بن سيجور، وتظاهرا على الأمير نوح، وذلك سنة أربع وثمانين وثلثمائة.

عزل أبي علي بن سيجور عن خراسان وولاية سبكتكين:

ولما اجتمع أبو علي بن سيجور وفائق على منافرة الأمير نوح وعصيانه، كتب الأمير نوح إلى سبكتكين، وكان أميراً على غزنة ونواحيها يستقدمه لنصره منهما، وإنجاده عليهما وولاّه خراسان. وكان سبكتكين في شغل عن أمرهم بما هو فيه من الجهاد مع كفّار الهند. فلما جاءه كتاب نوح ورسوله بادر إليه، وتلقّى أمره في ذلك، وعاد إلى غزنة فجمع العساكر، وبلغ الخبر أبا علي وفائقاً، فبعثا إلى فخر الدولة بن بويه يستنجدانه، واستعانا في ذلك بوزيره الصاحب ابن عبّاد، فبعث إليهما مدداً من العساكر. ثم سار سبكتكين وابنه محمود نحو خراسان سنة أربع وثمانين وثلثمائة. وسار الأمير نوح واجتمعوا ولقوا أبا علي وفائقاً بنواحي هراة، وكان معهما دارا بن قابوس بن وشمكير، فنزع إلى الأمير نوح، وانهزم أصحاب أبي علي وفائق، وفتك فيهم أصحاب

سبكتكين، واتبعوهم إلى نيسابور، فلحقا بجرجان، وتلقّاهما فخر الدولة بالهدايا والتحف والأموال، وأنزلهما بجرجان. واستولى نوح على نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبّه سيف الدولة. ولقّب أباه

سبكتكين ناصر الدولة، وعاد نوح إلى بخارى وترك سبكتكين بهراة ومحمود بنيسابور.

عود ابن سيجور الى خراسان:

لما افترق نوح وسبكتكين طمع أبو علي وفائق في خراسان، فسار عن جرجان إلى نيسابور في ربيع سنة خمس وثمانين وثلثمائة وبرز محمود للقائهما بظاهر نيسابور، وأعجلوه عن وصول المدد من أبيه سبكتكين. وكان في قلّة ، وانهزم إلى أبيه، وغنموا اسواده. وأقام أبو علي بنيسابور. وكان الأمير نوح يستميله ويتلطّف في العُذْرِ مما كان من سبكتكين فلم يجيباه إلى ما طلب.

ظهور سبكتكين وابنه محمود عل أبي علي وفائق ومقتل أبي علي:

ولما دخل أبوعلي نيسابور، وانهزم عنها محمود جمع سبكتكين العساكر، وسار إليه، فالتقوا بطوس، وجاء محمود على أثره مدداً فانهزم، هو وفائق إلى أبيورد، فاتبعهما سبكتكين بعد أن أستخلف إبنه محموداً بنيسابور فلحقا بمرو، ثم آمل الشطّ، وكتبا إلى الأمير نوح يستعطفانه، فشرط على أبي علي أن ينزل بالجرجانّية، ويفارق فائقاً ففعل. ونزل قريباً من خوارزم بالجرجانية، فأكرمه أبو عبد الله خوارزم شاه، وسكن إليه، وبعث من ليلته من جاء به واعتقله وأعيان أصحابه. وبلغ الخبر إلى مأمون بن محمد صاحب الجرجانية فاستعظم ذلك. وسار بعساكره إلى خوارزم شاه، وافتتح مدينته وتسمّى كاش عنوة وخلّص أبا علي من محبسه، وعاد إلى الجرجانية. واستخلف بعض أصحابه على بلاد خوارزم. ولما عاد إلى الجرجانية أخرج خوارزم شاه، وقتله بين يدي أبي علي بن سيجور، وكتب إلى الأمير نوح يشفع في أبي علي

فشفعه. واستدعى أبا علي إلى بخارى فسار إليها وأمر الأمراء والعساكر بتلقيه، فلما دخل عليه أمر بحبسه. وشفع سبكتكين فيه فهرب ولحق بفخر الدولة، وأقام عنده. وأمّا فائق فلما فارقه أبو علي كما شرط عليه الأمير نوح، سار إلى إيلك خان ملك الترك بكاشغر، فأكرمه، وكتب إلى نوح يشفع فيه فقبل شفاعته، وولاّه عليها وأقام بها.

وفاة الأمير نوح وولاية ابنه منصور وولاية بكثرزون علي خراسان:

ثم توفي الأمير نوح بن منصور منتصف سبع وثمانين وثلثمائة لإحدى وعشرين سنة من ملكه، وانتقض بموته ملك بني سامان، وصار إلى الإنحلال. ولما توفي قام بالملك بعده إبنه أبو الحرث منصور، وتابعه أهل الدولة واتفقوا على طاعته، وقام بتدبير دولته بكثرزون. واستوزر أبا طاهر محمد بن إبراهيم. وبلغ خبر وفاة نوح إلى إيلك خان، فطمع في ملكهم، وسار إلى سمرقند، وبعث من هنالك فائقاً والخاصة إلى بخارى فاضطرب منصور، وهرب عن بخارى. وقطع النهر. ودخل فائق بخارى، وأعلم الناس أنه إنما جاء لخدمة الأمير منصور، فبعث مشايخ بخارى بذلك إلى منصور ودخل. واستقدموه بعد أن أخذوا له مواثيق العهود من فائق، فاطمأن،

وعاد إلى بخارى، وأقام فائق بتدبير أمره، وتحكّم في دولته، وأبعد بكثرزون إلى خراسان أميراً. وقد كان سبكتكين توفي في شعبان من هذه السنة، ووقعت الفتنة بين إبنيه إسمعيل ومحمود فقدم بكثرزون أيام فتنتهما واستولى على خراسان.

عود أبي القاسم بن سيجول الى خراسان وخيبته:

قد ذكرنا مسير بكثرزون إلى خراسان عند مفرّه أيام محمود بن سبكتكين من خراسان، وأقام عند فخر الدولة، وعند أبيه مجد الدولة،واجتمع عنده أصحاب أبيه. وكتب إليه فائق من بخارى يغريه ببكثرزون ويأمره بقصد خراسان، ويخرج بكثرزون منها فسار عن جرجان إلى نيسابور، وبعث جيشاً إلى أسفرايين فملكوها من يد أصحاب بكثرزون. ثم تردّد السفراء بينهما، ووقع الصلح والصهر، وعاد بكثرزون إلى نيسابور.

انتقاض محمود بن سبكتكين وملكه نيسابور ثم خروجه عنها:

لما فرغ محمود بن سبكتكين من أمر الفتنة بينه وبين أخيه إسمعيل، واستولى على ملك غزنة، وعاد إلى بلخ وجد بكثرزون واليا على خراسان كما ذكرنا فبعث إلى الأمير منصور بن نوح يذكر وسائله في الطاعة والمحاباة، ويطلب ولاية خراسان فاعتذر له عنها، وولاه ترمذ وبلخ وما وراءهما من أعمال بست فلم يرض ذلك، وأعاد الطلب فلم يجب فسار إلى نيسابور، وهرب منها بكثرزون وملكها محمود سنة ثمان وثمانين وثلثمائة فسار الأمير منصور من بخارى إليه فخرج عنها إلى مرو الروذ وأقام بها.

خلع الأمير منصور وولاية أخيه عبد الملك:

ولما سار الأمير منصور عن بخارى إلى خراسان لمدافعة محمود بن سبكتكين عن نيسابور، سار بكثرزون للقائه فلقيه بسرخس ثم لم يلق من قبوله ما كان يؤمّله فشكا ذلك إلى فائق فألفاه واجداً مثل ذلك فخلصا في نجواهما، واتفقا على خلعه، وإقامة أخيه

عبد الملك مقامه. ووافقهما على ذلك جماعة من أعيان العسكر. ثم قبضوا عليه وسملوه أول سنة تسعين لعشرين شهراً من ولايته. وولى مكانه أخوه عبد الملك، وبعث محمود إلى فائق وبكثرزون يقبح عليهما فعلهما، وسار نحوهما طامعا في الاستيلاء على الملك.

استيلاء محمود بن سبكتكين علي خراسان:

ثم سار محمود بن سبكتكين إلى فائق وبكثرزون ومعهما عبد الملك الصبي الذي نصّبوه فساروا إليه، والتقوا بمرو سنة تسعين وثلثمائة، وقاتلهم فهزمهم وافترقوا. ولحق عبد الملك ببخارى ومعه فائق، ولحق بكثرزون بنيسابور، ولحق أبو القاسم بن سيجور بقهستان. وقصد محمود نيسابور، وانتهى إلى طرسوس فهرب بكثرزون إلى جرجان، وبعث في أثره ارسلان الحاجب إلى أن وصل جرجان، ورجع فاستخلفه محمود على طرسوس، وسار إلى هراة فخالفه بكثرزون إلى نيسابور وملكها. ورجع إليها محمود فأجفل عنها، ومرّ بمرو فنهبها، ولحق ببخارى. واستقرّ محمود بخراسان، وأزال عنها ملك بني سامان، وخطب فيها للقادر العبّاسي، واستدعى الولاية من قبله فبعث إليه بالعهد عليها والخلع لبني سيجور، وأنزله نيسابور. وسار هو إلى بلخ

كرسي أبيه فافتقده واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته، مثل آل افريقون بالجوزجان، والشاه صاحب غرسيان، وبني مأمون بخوارزم.

استيلاء ايلك خان علي بخاري وانقراض دولة بني سامان:

ولما ملك محمود خراسان، ولحق عبد الملك ببخارى اجتمع إليه فائق وبكثرزون وغيرهما من الأمراء، وأخذوا في جمع العساكر لمناهضة محمود بخراسان. ثم مات فائق في شعبان من هذه السنة فاضطربوا ووهنوا لأنه كان المقدم فيهم، وكان خصيّاً من موالي نوح بن نصر فطمع ايلك خان في الاستيلاء على ملكهم، كما ملكه بقراخان قبله فسار في جموع الترك يظهر المدافعة لعبد الملك عنه، فاطمأنوا لذلك، وخرج بكثرزون وغيره من الأمراء والقواد للقائه فقبض عليهم جميعاً، ودخل بخارى عاشر ذي القعدة، ونزل دار الإمارة. واختفى عبد الملك فبعث العيون عليه حتى ظفر به، وأودعه السجن في أرزكند فمات. وحبس معه أخاه أبا الحارث منصورا المخلوع وإخوته الآخرين أبا إبراهيم

إسمعيل وأبا يعقوب، وأعمامه أبا زكريا وأبا سليمان وأبا صالح القاري وغيرهم من بني سامان. وانقرضت دولتهم بعد أن كانت انتشرت في الافاق ما بين حلوان وبلاد الترك، ووراء النهر، وكانت من أعظم الدول وأحسنها سياسة.

خروج إسمعيل بن نوح بخراسان:

ثم هرب أبو إبراهيم إسمعيل بن نوح من محبسه في زيّ امرأة كانت تتعاهد خدمته فاختفى ببخارى. ثم لحق بخوارزم، وتلّقب المنتصر، واجتمع إليه بقايا القوّاد والأجناد. وبعث قابوس عسكراً مع إبنيه منوجهر ودارا. ووصل إسمعيل إلى نيسابور في شوّال سنة إحدى وتسعين، وجبى أموالها. وبعث إليه محمود مع التوتناش الحاجب الكبير صاحب هراة فلقيهم، فانهزم المنتصر إلى أبيورد، وقصد جرجان فمنعه قابوس منها فقصد سرخس، وجبى أموالها وسكنها في ربيع سنة إثنتين وتسعين وثلثمائة فأرسل إليها محمود العساكر مع منصور، والتقوا فانهزم إسمعيل، وأسر أبو القاسم بن سيجور في جماعة من أعيان العسكر فبعث بهم منصور إلى غزنة. وسار إسمعيل حائرا فوافى أحياء الغز بنواحي بخارى فتعصبّوا عليه، وسار بهم إلى ايلك خان في شوال سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فلقيه بنواحي سمرقند.

وانهزم ايلك، واستولى الغز على سواده وأمواله، وأسرى من قوّاده. ورجعوا إلى أحيائهم وتفاوضوا في إطلاق الأسرى من أصحاب ايلك خان، وشعر بهم إسمعيل فسار عنهم خائفا، وعبر النهر إلى آمل الشط. وبعث إلى مرو ونسا وخوارزم فلم يقبلوه، وعاودوا العبور إلى بخارى. وقاتله واليها فانهزم إلى دبوسية وجمع بها. ثم عاد فانهزم من معسكر بخارى، وقاتله واليها. وجاءه جماعة من فتيان سمرقند فصاروا في جملته. وبعث إليه أهله بأموال وسلاح ودواب. وسار إليه ايلك خان بعد أن استوعب في الحشد، ولقيه بنواحي سمرقند في شعبان سنة أربع وتسعين وثلثمائة.

وظاهر الغز إسمعيل فكانت الدبرة على ايلك خان. وعاد إلى بلاد الترك فاحتشد، ورجع إلى إسمعيل وقد افترقت عنه أحياء الغزّ إلى أوطانهم. وخفّ جمعه فقاتلهم بنواحي مروسية فهزموه، وفتك الترك في أصحابه. وعبر إسمعيل النهر إلى جوزجان فنهبها، وسار إلى مرو وركب المفازة إلى قنطرة راغول، ثم إلى بسطام وعساكر محمود

في اتباعه مع ارسلان الحاجب صاحب طوس. وأرسل إليه قابوس عسكراً مع الأكراد الشاهجانية فأزعجوه عن بسطام، فرجع إلى ما وراء النهر، وأدرك أصحابه الكلل والملال ففارقه الكثير منهم، وأخبروا أصحاب ايلك خان وأعلموهم بمكانه فكبسه الجند فطاردهم ساعة. ثم دخل في حي من أحياء العرب بالفلاة من طاعة محمود بن سبكتكين يعرف أميرهم بابن بهيج، وقد تقدم إليهم محمود في طلبه فأنزله عندهم، حتى إذا جنّ الليل وثبوا عليه وقتلوه، وذلك سنة خمس وتسعين. وانقرض أمر بني سامان، وانمحت آثار دولتهم، والبقاء لله وحده.

دولة بني سبكتكين

الخبر عن دولة بني سبكتكين ملوك غزنة وما ورثوه من الملك بخراسان وما وراء النهر عن مواليهم وما فتحوه من بلاد الهند وأول أمرهم ومصائر أحوالهم

هذه الدولة من فروع دولة بني سامان وناشئة عنها. وبلغت من الاستطالة والعزّ المبالغ العظيمة، واستولت على ما كانت دولة بني سامان عليه في عدوتي جيحون وما وراء النهر وخراسان وعراق العجم وبلاد الترك، وزيادة بلاد الهند. وكان مبدأ أمرهم عن غزنة. وذلك أنّ سبكتكين من موالي بني التيكين. وكان التيكين من موالي بني سامان، وكان في جملته، وولاّه حجابته، وورد بخارى أيام السعيد منصور بن نوح وهو إذ ذاك حاجبه. ثم توفي التيكين هذا، وعقد له السعيد منصور بن نوح سنة خمس وستين وثلاثمائة، وولّى إبنه نوح، ويكّنى أبا القاسم، واستوزر أبا الحسن العتبي، وولى على نيسابور أبا الحسن محمد بن سيجور. وكان سبكتكين شديد الطاعة له والقيام بحاجاته. وطرقت دولة بني سامان النكبة من الترك، واستولى بقراخان عل! بخارى من يد الأمير نوح. ثم رجع إليها، ومات أبو الحسن بن سيجور، وولي مكانه بخراسان ابنه أبو علي. واستبدّ على الأمير نوح في الاستيلاء على خراسان عند نكبة الترك. فلما عاد الأمير نوح إلى كرسيه وثبت في الملك قدمه كاشفه أبو علي في خراسان بالانتقاض، واستدعى أبا منصور سبكتكين يستمده على أبي علي ويستعين به في أحوال الدولة فبادر لذلك، وكان له المقام المحمود فيه. وولاّه الأمير نوح خراسان فدفع عنها أبا علي. ثم استبد بعد ذلك على بني سامان بها. ثم غلبهم على بخارى وما وراء النهر، ومحا اثر دولتهم وخلفهم أحسن خلف، وأورث ذلك بنيه. واتصلت دولتهم في تلك الأعمال إلى أن ظهر الغزّ، وملك الشرق والغرب بنو سلجوق منهم فغلبوهم على أمرهم، وملكوا تلك الأعمال جميعاً من أيديهم حسبما يذكر ذلك كله. ولنبدأ الان بسبكتكين من الجهاد في بلاد الهند قبل ولايته خراسان.

فتح بست:

كانت بست هذه من أعمال سجستان وفي ولايتها. ولما فسد نظام تلك الولاية بانقراض دولة بني الصفّار، واخترقت تلك العمالات طوائف فانفرد ببست أمير اسمه طغان. ثم غلبه عليها آخر إسمه كان، يكنى بأبي ثور فاستصرخ طغان سبكتكين على مال ضمنه على الطاعة والخدمة، فسار سبكتكين إلى بست وفتحها، وأخذ الوزير أبا الفتح علي بن محمد البستيّ الشاعر المشهور فأحضره واستكتبه، وكتب لابنه محمود من بعده. ثم استخلف سبكتكين وسار إلى قصدار من ورائها فملكها وتقبض على صاحبها. ثم أعاده إلى ملكه على مال يؤدّيه، وطاعة يبذلها له.

غزو الهند:

ثم سار سبكتكين بعدما فتح بست، وقصد غازياً بلاد الهند، وتوغل فيها حتى افتتح بلادا لم يدخلها أحد من بلاد الإسلام. ولما سمع به ملك الهند سار إليه في جيوشه، وقد عبى العساكر والفيلة على عادتهم في ذلك بالتعبية المعروفة بينهم. وانتهى إلى لمغان من ثغوره، وتجاوزه؟ وزحف إليه سبكتكين من غزنة في جموع المسلمين. والتقى الجمعان، ونصر الله المسلمين، وأسر ملك الهند وفدى نفسه على ألف ألف درهم، وخمسين فيلا، ورهن في ذلك من قومه. وبعث معه رجالا لقبض ذلك فغدر بهم في طريقه. وتقبض عليهم فسار سبكتكين في تعبيته إلى الهند فقبض كل من لقيه من جموعهم، وأثخن فيهم. وفتح لمغان وهدمها، وهي ثغر الهند مما يلي غزنة فاهتز لذلك جيبال واحتشد، وسار إلى سبكتكين فكانت بينهم حرب شديدة. وانهزم جيبال وجموع الكفر، وخمدت شوكتهم، ولم يقم لملوك الهند بعدها معه قائمة. ثم صرف وجهه إلى إعانة سلطانه الأمير نوح كما نذكر.

ولاية سبكتكين علي خراسان:

قد قدّمنا أن الأمير نوح بن منصور لما طرقته النكبة ببخارى من الترك، وملكها عليه بقراخان، عبر النهر إلى آمل الشطّ واستصرخ ابن سيجور صاحب خراسان وفائقاً صاحب بلخ فلم يصرخاه، وبلغه مسير بقراخان عن بخارى فأغذّ السير إليها، وارتجع ملكه كما كان. وهلك بقراخان فثبت قدمه في سلطانه، وارتاب أبو علي وفائق بأمرهم عنده، وغلط فائق بالمبادرة إلى بخارى للتهنئة والتقدّم في الدولة من غير إذن في ذلك، فسرّح الأمير نوح غلمانه ومواليه فحاربوه، وملكوا بلخاً من يده. ولحق بأبي علي بن سيجور فاستظهر به على فتنة الأمير نوح، وذلك سنة أربع وثمانين. فكتب الأمير نوح عند ذلك إلى سبكتكين يستدعيه للنصرة عليهما، وعقد له على خراسان وأعمالها، وكان في شغل شاغل من الجهاد بالهند كما ذكرناه فبادر لذلك. وسار إلى نوح فلقيه، واتفق معه. ثم رجع إلى غزنة، واحتشد وسار هو وابنه محمي، ولقيا الأمير نوحا بخراسان في الموضع الذي تواعد معه، ولقيهم أبو علي بن سيجور وفائق فهزمهما. وفتك فيهم أصحاب سبكتكين واتبعوهم إلى نيسابور، ثم صدوهم عنها إلى جرجان. واستولى نوح على نيسابور؟ واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، وأنزله بها، ولّقبه سيف الدولة. وأنزل أباه سبكتكين بهراة، ولقّبه ناصر الدولة ورجع إلى بخارى.

الفتنة بين سيجور وفائق بخراسان وظهور سبكتكين وابنه محمود عليهم:

ولما رجع نوح إلى بخارى، وطمع أبو علي بن سيجور وفائق في انتزاع خراسان من يد سبكتكين وابنه. وبادروا إلى محمود بن سبكتكين بنيسابور سنة خمس وثمانين وثلثمائة، وأعجلوه عن وصول المدد إليه من إبنه سبكتكين. وكان في قلّة فانهزم إلى أبيه بهراة، وملك أبو علي نيسابور؟ وسار إليه سبكتكين في العساكر، والتقوا بطوس فانهزم أبو علي وفائق حتى انتهيا إلى آمل الشطّ. واستعطف أبو علي الأمير نوحاً فاستدعاه وحبسه، ثم بعث به إلى سبكتكين وحبسه عنده، ولحق فائق بملك الترك ايلك خان في كاشغر، وشفع فيه إلى الأمير نوح فولاه سمرقند كما مر ذلك كله في أخبارهم. وكان أبو القاسم أخو أبي علي قد نزع إلى سبكتكين يوم اللقاء فأقام عنده مدّة مديدة. ثم انتقض وزحف إلى نيسابور فجاء محمود بن سبكتكين فهرب، ولحق بفخر الدولة بن بويه فأقام عنده، واستولى سبكتكين على خراسان.

مزاحفة سبكتكين وايلك خان:

كان ايلك خان ولي بعد بقراخان على كاشغر وشاغور، وعلى أمم الترك، وطمع في أعمال الأمير نوح كما طمع أبوه، ومد يده إليها شيئاً فشيئاً. ثم اعتزم على الزحف إليه فكتب الأمير نوح إلى سبكتكين بخراسان يستجيشه على ايلك خان فاحتشد، وعبر النهر، وأقام بين نسف وكشف حتى لحقه ابنه محمود بالحشود من كل جهة، وهنالك وصله أبو علي بن سيجور مقّيداً، بعث به إليه الأمير نوح فأبى من ذلك، وجمع ايلك خان أمم الترك من سائر النواحي. وبعث سبكتكين إلى الأمير نوح يستحثّه فخام عن اللقاء، وبعث قواده وجميع عساكره وجعلهم لنظره وفي تصريفه فألحّ عليه سبكتكين، وبعث أخاه بغراجق وابنه محموداً لاستحثاثه فهرب الوزير ابن عزيز خوفاً منهم، وتفادى نوح من اللقاء فتركوه، وفت ذلك في عزم سبكتكين. وبعث ايلك خان في الصلح فبادر سبكتكين وبعث أبا القاسم. ثم ارتاب به عند عبوره إلى ايلك خان فحبسه مع أبي علي وأصحابه حتى رجع سبكتكين من طوس إلى بلخ فبلغ الخبر بمقتلهم، ووصل نعي مأمون بن محمد صاحب الجرجانية بخوارزم غدر به صاحب جيشه في صنيع أعده له وقتله، ووصل خبر الأمير نوح اثرهما وأنه هلك منتصف رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

أخبار سبكتكين مع فخر الدولة بن بويه:

كان أبو علي بن سيجور وفائق لما هزمهما سبكتكين لحقا بجرجان عند فخر الدولة بن بويه. ثم لمّا أجلب أبو القاسم على خراسان، وسار إليه محمود بن سبكتكين، وعمّه بغراجق وكان معه أبو نصر بن محمود الحاجب فهربا إلى فخر الدولة، وأقاما في نزله وتحت حرابه بقومس والدّامغان وجرجان، وأناخ سبكتكين على طوس. ثم وقعت المهاداة بينه وبين فخر الدولة بن بويه صاحب الريّ، وكان آخر هدية من سبكتكين جاء بها عبد الله الكاتب من ثغابة. ونمي إلى فخر الدولة أنه يتجسّس عدد الجند، وغوامض الطرق فبعث إلى سبكتكين بالعتاب في ذلك. ثم ضعف الحال بينهما، واتصل ما بين فخر الدولة والأمير نوح على يد سبكتكين.

وفاة سبكتكين وولاية ابنه إسمعيل :

ولما فرغ سبكتكين من أمر ايلك خان ورجع إلى بلخ وأقام بها قليلا طرقه المرض فبادر به إلى غزنة، وهلك في طريقه في شعبان سنة سبع وثمانين لعشرين سنة من ملكه في غزنة وخراسان، ودفن بغزنة. وكان عادلًا خيراً حسن العهد محافظاً على الوفاء كثير الجهاد. ولما هلك بايع الجند لابنه إسمعيل بعهده إليه، وكان أصغر من محمود فأفاض فيهم العطاء وانعقد أمره بغزنة.

استيلاء محمود بن سبكتكين علي ملك أبيه وظفره بأخيه إسمعيل:

ولما ولي إسمعيل بغزنة استضعفه الجند واستولوا عليه، واشتطوا عليه في الطلب حتى أنفذ خزائن أبيه، وكان أخوه محمود بنيسابور فبعث إليه أن يكتب له بالأعمال التي لنظره مثل بلخ فأبى، وسعى أبو الحرب والي الجوزجان في الإصلاح بينهما فامتنع إسمعيل، فسار محمود إلى هراة معتزماً عليه، وتحيّز معه عمه بغراجق. ثم سار إلى بست وبها أخوه نصر فاستماله، وساروا جميعاً إلى غزنة. وقد كتب إليه الأمراء الذين مع إسمعيل واستدعوه ووعدوه بالطاعة. وأغذ السير ولقيه إسمعيل بظاهر غزنة فاقتتلوا قتالاً شديداً. وانهزم إسمعيل واعتصم بقلعة غزنة. واستولى محمود على الملك وحاصر أخاه إسمعيل حتى استنزله على الأمان فأكرمه وأشركه في سلطانه، وذلك لسبعة أشهر من ولاية إسمعيل، واستقامت الممالك لمحمود ولقب بالسلطان، ولم يلقّب به أحد قبله ثم سار إلى بلخ.

استيلاء محمود علي خراسان:

لما ولي أبو الحارث منصور بعد نوح استوزر محمد بن إبراهيم، وفوّض أمره إلى فائق كفالة وتدبيرا لصغره. وكان عبد الله بن عزيز قد هرب من بخارى عند قدوم محمد إليها في استحثاث الأمير نوح للقاء ايلك خان كما مرّ، فلما مات الأمير نوح وولي ابنه منصور أطمع عزيز أبا منصور محمد بن الحسين الأسفيجابي في قيادة الجيش بخراسان، وحمله على الانحدار به إلى بخارى مستغيثاً بأيلك خان على غرضه، فنهض ايلك خان لمصاحبتهما، وسار بهما كأنه يريد سمرقند. ثم قبض على أبي منصور وابن عزيز وأحضر فائقاً وأمره بالمسير على مقدّمته إلى بخارى فهرب أبو الحارث، وملك فائق بخارى، ورجع ايلك خان. واستدعى فائق أبا الحارث فاطمأن، وبعث من مكانه بكثرزون

الحاجب الأكبر على خراسان ولقّبه بستان الدولة، ورجع إلى بخارى فتلقاه فائق، وقام بتدبير دولته. وكانت بينه وبين بكثرزون ضغن فأصلح أبو الحارث بينهما، وأقام بكثرزون وجبى الأموال، وزحف إليه أبو القاسم بن سيجور، وكانت بينهما الفتنة التي مرّ ذكرها.

وجاء محمود إلى بلخ بعد فراغه من فتنة أخيه إسمعيل، فبعث إلى أبي الحارث منصور رسله وهداياه، فعقد له على بلخ وترمذ وهراة وبست. واعتذر عن نيسابور فراجعه مع ثقته أبي الحسن الحمولي فاستخلصه أبو الحارث لوزارته، وقعد عن رسالة صاحبه فأقبل محمود إلى نيسابور، وهرب عنها بكثرزون فنهض أبو الحارث إلى نيسابور، فخرج محمود عنها إلى مرو الروذ، وجمع أبو الحارث وكحلة وبكثرزون، وبايعوا لأخيه عبد الملك بن نوح.

وبعث محمود إلى فائق وبكثرزون بالعتاب على صنيعهما بالسلطان، وزحف إليهما فبرزا من مرو للقائه. ثم سألوه الإبقاء فأجاب وارتحل عنهم، وبعض أوباشهم في أعقابه فرجع إليهم. وحشدوا الناس للقائه فهزمهم وافترقوا فسار عبد الملك إلى بخارى وبكثرزون إلى نيسابور، وكان معهم أبو القاسم بن سيجور. ولحق بقهستان، واستولى محمود على خراسان وذلك سنة تسع وثمانين وثلثمائة.

ثم سار إلى طوس، وهرب بكثرزون إلى جرجان، وبعث محمود ارسلان الحاجب في اثره فأخرجه من نواحي خراسان فولّى ارسلان على طوس، وسار إلى هراة لمطالعة أحوالها فخالفه بكثرزون إلى نيسابور، وملكها. ورجع فطرده عنها أبو القاسم بن سيجور وملكها، وولّي محمود أخاه نصر بن سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان، وأنزله بنيسابور. ثم سار إلى بلخ فأنزل بها سريره. ثم استراب بأخيه إسمعيل فاعتقله ببعض القلاع موسعاً عليه، وكتب بالبيعة للقادر الخليفة من بني العبّاس فبعث إليه بالخلع والألوية على العادة. وأقام بين يديه السماطين، واستوثق له ملك خراسان، وبقي يردّد الغزو إلى الهند كل سنة.

استيلاء محمود علي سجستان:

كان خلف بن أحمد صاحب سجستان في طاعة بني سامان ، ولما شغل عنه بالفتن استفحل أمره، وشغل للاستبداد فلما سار سبكتكين للقاء ملك الهند كما مرّ، اغتنم

الفرصة من بست، وبعث إليها عسكراً فملكوها وجبوها. ولما رجع سبكتكين من الهند ظافراً تلقّاه بالمعاذير والتعزية والهدايا والطاعة فقبل وأعرض عنه، وارتهن عنده على طاعته. وسار معه الحارث أبو علي بن سيجور بخراسان فملأ يده ويد عسكره بالعطاء، وبتقدّمه لقتال ايلك خان بما وراء النهر كما مرّ فدسّ إلى ايلك خان يغريه بسبكتكين. واعتزم سبكتكين على غزو سجستان، ثم أدركه الموت فاغتنم خلف الفرصة وبعث طاهراً إلق قهستان وبوشنج فملكها، وكاتب البغراجق أخا سبكتكين. فلما فرغ محمود من شأن خراسان، بعث لبغراجق عمه بانتزاع قهستان وبوشنج، فسار إلى طاهر فهزمه واتبعه، وكرّ عليه طاهر فقتله وانهزم الفريقان. وزحف محمود إلى خلف سنة تسعين وثلاثمائة فامتنع في حصن بلد، وهي قلعة عالية منيعة، وحاصره بها حتى لاذ بالطاعة.

وبذل مائة ألف دينار فأفرج عنه وسار إلى الهند فتوغّل فيها، وانتهى في اثني عشر ألف فارس، وثلاثين ألف راجل فاختار محمود من عساكره خمسة عشر ألفاً، وسار لقتال جميال فهزمه وأسره في بنيه وحفدته وكثير من قرابته، ووجد في سلبه مقلد من فصوص يساوي مائة ألف دينار وأمثال ذلك، فوزّعها على أصحابه، وكان الأسرى والسبي خمسمائة ألف رأس، وذلك سنة إثنتين وتسعين وثلثمائة. وفتح من بلاد الهند بلادا أوسع من بلاد خراسان. ثم فادى جيبال ملك الهند نفسه بخمسين رأساً من الفيلة ارتهن فيها إبنه وحافده، وخرج إلى بلده فبعث إلى إبنه أندبال وشاهينة وراء سيجور فأعطوه تلك الفيلة، وسار لا يعود له ملك. وسار السلطان محمود إلى ويهند فحاصرها وافتتحها، وبعث العساكر لتدويخ نواحيها فأثخنوا في القتل في أوباش كانوا مجتمعين للفساد، مستترين بخمر الغياض فاستلحموهم.

ورجع السلطان محمود إلى غزنة. وكان خلف بن أحمد عند منصرف السلطان عنه أظهر النسك، وولّى ابنه طاهراً على سجستان فلما طالت غيبة السلطان، أراد الرجوع إلى ملكه فلم يمكّنه إبنه فتمارض وبعث إليه بالحضور للوصية، والاطلاع على خبايا الذخيرة. فلما حضر اعتقله، ثم قتله كما مرّ.

وجزعت نفوس قواده لذلك وخافوه، وبعثوا للسلطان محمود بطاعتهم ما بقيت له الدعوة في سجستان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة. وسار السلطان محمود إلى خلف فامتنع منه في معقله بحصن الطاق، وهو في رأس شاهق تحيط به سبعة أسوار عالية، ويحيط به خندق

بعيد المهوى، وطريقه واحدة على جسر فجثم عليه أشهراَ. ثم فرض على أهل العسكر قطع الشجر التي تليه، وطم بها الخندق. وزحف إليه، وقدّم الفيول بين يديه على تعبيتها فحطم الفيل الأعظم على باب الحصن فقلعه ورمى به. وفشا القتل في أصحاب خلف، وتماسكوا داخل الباب يتناضلون بأحجار المجانيق والسهام والحراب فرأى خلف هول المطلع فأثاب واستأمن، وخرج إلى السلطان وأعطاه كثيراً من الذخيرة فرفع من قدره وخيّره في مقاماته فاختار الجوزجان، فأذن له في المسير إليها على ما بينه وبين ايلك خان من المداخلة.

ثم هلك خلف سنة تسع وتسعين وثلثمائة، وأبقى السلطان على ولده عمر، وكان خلف كثير الغاشية من الوافدين والعلماء، وكان محسناً لهم. ألف تفسيراً جمع له العلماء من أهل ايالته، وأنفق عليهم عشرين ألف دينار، ووضعه في مدرسة الصابوني بنيسابور. ونسخه يستغرق عمر الكاتب إلا أن يستغرق في النسخ.

واستخلف السلطان على سجستان أحمد الفتحي من قوّاد أبيه ورجع إلى غزنة. ثم بلغه انتقاض أحمد

بسجستان فسار إليهم في عشرة آلاف، ومعه أخوه صاحب الجيش أبي المظفّر نصر والتوتناش الحاجب وزعيم العرب أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي فحاصرهم، وفتحها ثانية، ش ولى عليها أخاه صاحب الجيش نصر بن سبكتكين مضافة إلى نيسابور فاستخلف عليها وزيره أبا منصور نصر بن إسحق. وعاد السلطان محمود إلى بلخ مضمراً غزو الهند. هكذا مساق خبر السلطان محمود مع خلف بن أحمد، وخبر سجستان عند العيني. وأمّا عند ابن الأثير فعلى ما وقع في أخبار دولة بني الصفار.

غزوة بهاطية والملتان وكوكير:

ولما فرغ السلطان محمود من سجستان اعتزم على غزو بهاطية من أعمال الهند، وهي وراء الملتان، مدينة حصينة عليها نطاق من الأصبوان، وآخر من الخنادق، بعيدة المهوى. وكانت مشحونة بالمقاتلة والعدّة، وإسم صاحبها بجير فعبر السلطان إليها جيحون، وبرز إليه بجير فاقتتلوا بظاهر بهاطية ثلاثة أيام. ثم انهزم بجير وأصحابه في الرابع. وتبعهم المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم، وأخذتهم السيوف من أمامهم ومن ورائهم فبلغ القتل والسبي والسلب والنهب فيهم مبالغه. وسار بجير في رؤوس

الجبال فستر في شعابها وبعث السلطان سرية في طلبه فأحاطوا به، وقتلوا من أصحابه. ولما أيقن بالهلكة قتل نفسه بخنجر معه، وأقام السلطان محمود في بهاطية حتى أصلح أمورها، واستخلف عليها من يعلم أهلها قواعد

الإسلام، ورجع إلى غزنة فلقي في طريقه شدّة من الأمطار في الوحل وزيادة المدد في الأنهار، وغرق كثير من عسكره.

ثم بلغه عن أبي الفتوح والي الملتان أنه ملحد، وأنه يدعو أهل ولايته إلى مذهبه فاعتزم على جهاده، وسار كذلك. ومنعه سيجور من العبور لكثرة المدد فبعث السلطان إلى اندبال ملك الهند في أن يبيح له العبور إلى بلاده لغزو الملتان، فأبى فبدأ بجهاده، وسار في بلاده ودوخّها. وفّر اندبال بين يديه، وهو في طلبه إلى أن بلغ كشمير. ونقل أبو الفتوح أمواله على الفيول إلى سرنديب، وترك الملتان فقصدها السلطان، وامتنع أهلها فحاصرهم حتى افتتحها عنوة، وأغرمهم عشرين ألف ألف درهم عقوبة لهم على عصيانهم.

ثم سار إلى كوكبر واسم صاحبها بيدا، وكان بها ستمائة صنم فافتتحها، وأحرق أصنامها. وهرب صاحبها إلى قلعته وهي كاليجار، وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة وعشرون ألف راية، وهو مشحون بالأقوات، والمسالك إليه متعذرة بخمر الشجر، وملتف الغياض فأمر بقطع الأشجار حتى اتضحت المسالك. واعترضه دون الحصن واد بعيد المهوى فطمّ منه عشرين ذراعاً بالأجربة المحشوة بالتراب، وصيره جسرا ومضى منه إلى القلعة، وحاصرها ثلاثة وأربعين يوماً حتى جنح صاحبها إلى السلم. وبلغ السلطان أن ايلك خان مجمع على غزو خراسان فصالح ملك الهند على خمسين فيلا وثلاثة آلاف من الفضة. وخلع عليه السلطان فلبس خلعته وشد منطقته. ثم قطع خلعته وأنفذها إلى السلطان، وتبعه بما عقد معه، وعاد السلطان إلى خراسان بعد أن كان عازماً على التوغّل في بلاد الهند.

مسير ايلك خان إلي خراسان وهزيمته:

كان السلطان محمود لما ملك ايلك خان بخارى كما مرّ، وكتب إليه مهنئاً، وتردّد السفراء بينهما في الوصلة، وأوفد عليه سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي إمام

الحديث، ومعه طغان جقّ والي سرخس، في خطبة كريمته بهدية فاخرة من سبائك العقيان واليواقيت والدّر والمرجان والوشي والحمر، وصواني الذهب مملوءة بالعنبر والكافور والعود والنصول، وأمامه الفيول تحت الخروج المغشّاة فقوبلت الهدية بالقبول، والوافد بالتعظيم له ولمن أرسله. وزفّت المخطوبة بالهدايا والألطاف، واتحدت الحال بين السلطانين. ولم يزل السعاة يغرون ما بينهما حتى فسد ما بينهما، فلما سار السلطان محمود إلى الملتان اغتنم ايلك خان الفرصة، وبعث سباسي تكين قريبه وقائد جيشه إلى خراسان، وبعث معه أخاه جعفر تكين وذلك سنة تسعين فملك بلخاً وأنزل بها جعفر تكين. وكان ارسلان الحاجب بهراة أنزله السلطان بها، وأمره إذا دهمه أن ينحاز إلى غزنة. وقصد سباسي هراة وسكنها، وندب الحسين بن نصر إلى نيسابور فملكها، ورتب العمّال واستخرج الأموال.

وطار الخبر إلى السلطان بالهند، وقصد بلخ فهرب جعفر تكين إلى ترمذ، واستقر السلطان ببلخ وسرح ارسلان الحاجب في عشرة آلاف من العساكر إلى سباسي تكين بهراة فسار سباسي إلى مرو، واعترضه التركمان، وقاتلهم فهزمهم وأثخن فيهم. ثم سار إلى أبيورد، ثم إلى نسا وارسلان في اتباعه حتى انتهى إلى جرجان فصد

عنها، وركب قلل الجبال والغياض، وتسلط الكراكلة على أثقاله ورجاله، واستأمن طوائف من أصحابه إلى قابوس لعدم الظهر. ثم عاد إلى نسا وأصدر ما معه إلى خوارزم شاه أبي الحسن علي بن مأمون، وديعة لأيلك خان، واقتحم المفازة إلى مرو فسار السلطان لاعتراضه، ورماه محمد بن سبع بمائة من القواد حملوا إلى غزنة. ونجا سباسي تكين في فلّ من أصحابه فعبر النهر إلى ايلك خان. وقد كان ايلك خان بعث أخاه جعفر تكين في ستة آلاف راجل إلى بلخ ليفتر من عزيمة السلطان عن قصد سباسي تكين فلم يفتر ذلك من عزمه، حتى أخرج سباسي من خراسان. ثم تصدهم فانهزموا أمامه، وتبعهم أخوه نصر بن سبكتكين صاحب جيش خراسان إلى ساحل جيحون فقطع دابرهم. ولما بلغ الخبر إلى ايلك خان قام في ركائبه وبعث بالصريخ إلى ملك الختّل وهو قدر خان بن بقراخان لقرابة بينهما وصهر فجاءه بنفسه، ونفر معه. واستجاش أحياء الترل ودهاقين ما وراء النهر، وعبر النهر في خمسين ألفاً، وانتهى إلى السلطان خبره، وهو بطخارستان فقدم إلى بلخ، واستعد للحرب، واستنفر

جموع الترك والجند والخلنجية والأفقانية والفربوية. وعسكر على أربعة فراسخ من بلخ. وتزاحفوا على التعبئة فجعل السلطان في القلب أخاه نصراً صاحب الجيش بخراسان، وأبا نصر بن أحمد الفريغوني صاحب الجوزجان، وأبا عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطائي في كماة الأكراد والعرب والهنود. وفي الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التمرتاشي، وفي الميسرة ارسلان الحاجب. وحضن الصفوف بخمسمائة من الفيلة.

وجعل ايلك خان على ميمنته قدر خان ملك الختّل، وعلى ميسرته أخاه جعفر تكين، وهو في القلب. وطالت الحرب، واستمات الفريقان. ونزل السلطان وعفّر خدّه بالأرض متضرعاً. ثم ركب وحمل في فيلته على القلب فأزاله عن مكانه، وانهزم الترك واتبعوهم يقتلون ويأسرون إلى أن عبروا بهم النهر. وأكثر الشعراء تهنئة السلطان بهذا الفتح، وذلك سنة سبع وتسعين وثلثمائة. ولما فرغ السلطان من هذه الحرب سار للهند للإيقاع بنواسه شاه أحد أولاد الملوك، كان أسلم على يده، واستخلفه على بعض المعاقل التي افتتحها فارتد، ونبذ الإسلام فأغذّ السير إليه فّفرّ أمامه، واحتوى على المعاقل التي كانت في يده من أصحابه، وانقلب إلى غزنة ظافراً وذلك سنة سبع وتسعين وثلثمائة.

فتح بهيم نقرا:

ثم سار السلطان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة في ربيع منها غازياً إلى الهند فانتهى إلى سبط وبهند، فلقيه هنالك ابن هزبال ملك الهند في جيوش لا تحصى، فصدقهم السلطان القتال فهزمهم، واتبعهم إلى قلعة بهيم نقرا، وهي حصن على حصن عالية اتخذها أهل الهند خزانة للصنم، ويودعون به أنواع الذخائر والجواهر التي يتقّرب بها للصنم فدافع عنه خزنته أياماً. ثم استأمنوا وأمكنوا السلطان من القلعة فبعث عليه أبا نصر الفريغوني، وحاجبه الكبير ابن التمرتاش، وواسع تكين، وكلفّهما بنقل ما في الخزائن فكان مبلغ المنقول من الوزن سبعين ألف ألف شامية ومن الذهبيات والفضيات موزونة، والديباج السوسي ما لا عهد بمثله. ووجد في جملتها بيت من الفضة الخالصة طوله ثلاثون ذراعا في خمسة عشر صفائح مضروبة، ومعالق للطي والنشر، وشراع من ديباج

طوله أربعون ذراعاً في عرض عشرين بقائمتين من ذهب، وقائمتين من فضة فوكلهما بحفظ ذلك. ومضوا إلى غزنة فأمر بساحة داره ففرشت بتلك الجواهر، واجتمعت وفود الأطراف

لمشاهدتها، وفيهم رسول طغان أخي ايلك خان.

خبر الفريغون واستيلاء السلطان علي الجوزجان:

وكان بنو فريغون هؤلاء ولاة على الجوزجان أيام بني سامان، يتوارثونها. وكان لهم شهرة مكارم. وكان أبو الحارث أحمد بن محمد غرّتهم. وكان سبكتكين خطب كريمته لابنه محمود، وأنكح كريمته أخت محمود لإبنه أبي نصر فالتحم بينهما. وهلك أبو الحارث فأقر السلطان محمود ابنه أبا نصر على ولايته إلى أن مات سنة إحدى وأربعمائة، وكان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف بالبديع يؤلف له التآليف ويجعلها بإسمه. ونال عنده بذلك فوق ما أمّل.

غزوة بارين:

ثم سار السلطان محمود على رأس المائة الرابعة لغزو بلاد الهند فدوّخها واستباحها، وأوقع بملكها، ورجع إلى غزنة فبعث إليه ملك الهند في الصلح على جزية مفروضة، وعسكر مقّرر عليه، وعلى تعجيل مال عظيم، وهديّة فيها خمسون فيلا، وتقّرر الصلح بينهما على ذلك.

غزوة الغور وقصران:

بلاد الغور هذه تجاور بلاد غزنة، وكانوا يفسدون السابلة ويمتنعون بجبالهم وهي وعرة ضيقة. وأقاموا على ذلك متمردّين على كفرهم وفسادهم فامتعض السلطان محمود، وسار لحسم عللهم سنة إحدى وأربعمائة. وفي مقدمته التوتناش الحاجب والي هراة وارسلان الحاجب والي طوس، وانتهوا إلى مضيق الجبل وقد شحنوه بالمقاتلة فنازلتهم الحرب ودهمهم السلطان فارتدّوا على أعقابهم، ودخل عليهم لبلادهم وملكها. ودخل حصناً في عشرة آلاف واستطرد لهم السلطان إلى فسيح من الأرض. ثم كر عليهم فهزمهم وأثخن فيهم وأسر ابن سورى وقرابته وخواصه، وملك قلعتهم، وغنم جميع أموالهم، وكانت لا يعبّر عنها. وأسف ابن سورى على نفسه فتناول سماً كان معه ومات. ثم سار السلطان سنة إثنتين وأربعمائة لغزو قصران، وكان صاحبها يحمل ضمانه كل سنة

فقطع الحمل، وامتنع بموالاة ايلك خان، وسار إليه فبادر باللقاء وتنصل واعتذر، وأهدى عشرين فيلاً وألزمه السلطان خمسة عشر ألف درهم، ووكل بقبضها ورجع إلى غزنة.

خبر اليشار واستيلاء السلطان علي غرشتان:

كان اسم اليشار عند الأعاجم لقباً على ملك غرشتان، كما أن كسرى على ملك الفرس وقيصر على ملك الروم ومعناه الملك الجليل. وكان اليشار أبو نصر محمد بن إسمعيل بن أسد ملكها إلى أن بلغ ولده محمد سن النجابة فغلب على أبيه، وانقطع أبو نصر للنظر في العلوم لشغفه بها، وصاحب خراسان يومئذ أبو علي بن سيجور. ولما انتقض على الرضى نوح خطبهم لطاعته وولايته فأبوا من ذلك لانتقاضه على سلطانه، فبعث

العساكر إليهم وحاصرهم زماناً. ثم نهض سبكتكين إلى أبي علي بن سيجور، وانضاف اليشار إلى سبكتكين في تلك الفتنة كلّها فلما ملك السلطان محمود خراسان، وأذعن له ولاة الأطراف والأعمال بعث إليهم في الخطبة فاجابوه. ثم استنفر محمد بن أبي نصر في بعض غزواته فقعد عن النفير، فلمّا رجع السلطان من غزوته بعث حاجبه الكبير أبا سعيد التوتناش في العساكر وأردفه بإرسلان الحاجب والي طوس لمناهضة اليشار ملك غرشتان. واستصحبا معهما أبا الحسن المنيعي الزعيم بمرو الروذ لعلمه بمخادع تلك البلاد. فأمّا أبو نصر فاستأمن إلى الحاجب، وجاء به إلى هراة مرفها محتاطا عليه. وأمّا إبنه محمد فتحصن بالقلعة التي بناها أيام ابن سيجور فحاصروها طويلا، واقتحموها عنوة، وأخذ أسيراً فبعث به إلى غزنة، واستصفيت أمواله، وصودرت حاشيته. واستخلف الحاجب على الحصن ورجع إلى غزنة فامتحن الولد بالسياط، واعتقله مرفّها واستقدم أباه أبا نصر من هراة فأقام عنده في كرامة إلى أن هلك سنة ست وأربعمائة.

وفاة ايلك خان وصلح أخيه طغان خان مع السلطان:

كان ايلك خان بعد هزيمته بخراسان يواصل الأسف، وكان أخوه طغان يكبر عليه فعلته، ونقضه العهد مع السلطان. وبعث إلى السلطان يتبرّأ ويعتذر فنافره ايلك خان بسبب ذلك، وزحف إليه. ثم تصالحا. ثم هلك ايلك خان سنة ثلاث وأربعمائة، وولّي مكانه أخوه طغان خان فراسل السلطان محمود وصالحه. وقال له: اشتغل أنت بغزو

الهند، وأنا بغزو الترك فأجابه إلى ذلك. وانقطعت الفتنة بينهما، وصلحت الأحوال. ثم خرجت طوائف الترك من جانب الصين في مائة ألف خركاه، وقصدوا بلاد طغان فهال المسلمين أمرهم، فاستنفر طغان من الترك أزيد من مائة ألف، واستقبل جموع الكفرة فهزمهم، وقتل نحوا من مائة ألف، وأسر مثلها، ورجع الباقون منهزمين. وهلك طغان اثر ذلك، وملك بعده أخوه ارسلان خان سنة ثمان وأربعمائة، وخلّص ما بينه وبين السلطان محمود، وخطب بعض كرائمه للسلطان مسعود ولده فأجابه. وعقد السلطان لابنه على هراة فسار إليها سنة ثمان وأربعمائة.

فتح بارين:

ثم سار السلطان سنة ثمان وأربعمائة عندما فصل الشتاء غازياً إلى الهند، وتوغل فيها مسيرة شهرين. وامتنع عظيم الهند في جبل صعب المرتقى ومنع القتال. واستدعى الهنود وملك عليهم الفيلة. وفتح الله بارين، وكثرت الأسرى والغنائم. ووجد به في بيت البدجي حجر منقوش تال التراجمة كتابته: إنه مبني منذ أربعين ألف سنة. ثم عاد إلى غزنة، وبعث إلى القادر يطلب عهد خراسان وما بيده من الممالك.

غزوة تنيشرة:

كان صاحب تنيشرة عاليا في الكفر والطغيان، وانتهى الخبر إلى السلطان في ناحيته من الفيلة فيلة من الفيتلمان الموصوفة في الحروب فاعتزم السلطان على غزوه، وسار إليه في مسالك صعبة وعرة بين أودية وقفارات حتى انتهى إلى نهر طام قليل المخاضة. وقد استندوا من ورائه إلى سفح جبل فسرّب إليهم جماعة من الكماة خاضوا

النهر، وشغلوهم بالقتال حتى تعدّت بقية العسكر. ثم قاتلوهم وانهزموا، واستباحهم المسلمون، وعادوا إلى غزنة ظافرين ظاهرين. ثم غزا السلطان على عادته فضل الأدلاء طريقهم فوقع السلطان في مخاضات من المياه غرق فيها كثير من العسكر، وخاض الماء بنفسه أياماً حش تخلّص ورجع إلى خراسان.

استيلاء السلطان علي خوارزم:

كان مأمون بن محمد صاحب الجرجانية من خوارزم، وجمان مخلصاً في طاعة

الرضى نوح أيام مقامه في آمد كما مرّ فأضاف نسا إلى عمله فلم يقبلهاا لمودّة بينه وبين أبي علي بن سيجور. وكان من خبره مع ابن سيجور واستنقاذه إياه من أسر خوارزم شاه سنة ست وثمانين وثلثمائة ما مرّ ذكره، وصارت خوارزم كلها له. ثم هلك وملك مكانه أبو الحسن علي. ثم هلك وملك مكانه إبنه مأمون، وخطب إلى السلطان محمود بعض كرائمه فزّوجه أخته. واتحد الحال بينهما إلى أن هلك وولّي مكانه أبو العبّاس مأمون، ونكح أخته كما نكحها أخوه من قبله. ثم دعاه إلى الدخول في طاعته والخطبة له كما دعا الناس فمنعه أصحابه وأتباعه، وتوجّس الخيفة من السلطان في ذلك فرجعوا إلى الفتك به فقتلوه، وبايعوا إبنه داود. وازداد خوفهم من السلطان في ذلك فتعاهدوا على الامتناع ومقدّمهم التكين البخاريّ. وسار إليهم السلطان في العساكر حتى أناخ عليهم وبيّتوا محمد بن إبراهيم الطائي، وكان في مقدمة السلطان فقاتلهم إلى أن وصل السلطان فهزمهم، وأثخن فيهم بالقتل والأسر. وركب التكين السفن ناجيا فغدره الملاّحون، وجاؤوا به إلى السلطان فقتله في جماعة من القواد الذين قتلوا مأموناً على قبره. وبعث بالباقين إلى غزنة فأخرجوا في البعوث إلى الهند، وأنزلوا هنالك في حامية الثغور وأجريت لهم الأرزاق، واستخلف على خوارزم الحاجب التونتاش ورجع إلى بلاده.

فتح كشمير وقنوج:

ولما فرغ السلطان من أمر خوارزم، وانضافت إلى مملكته عدل إلى بست، وأصلح أحوالها ورجع إلى غزنة. ثم اعتزم على غزو الهند سنة تسع وأربعمائة، وكان قد دوخ بلادها كلها، ولم يبق عليه إلّا كشمير، ومن دونها الفيافي والمصاعب فاستنفر الناس من جميع الجهات من المرتزقة والمتطوّعة. وسار تسعين مرحلة، وعبر نهر جيحون وحيلم وخيالا هو وأمراؤه. وبث عساكره في أودية لا يعبر عن شدة جريها وبعد أعماقها، وانتهى إلى كشمير. وكانت ملوك الهند في تلك الممالك تبعث إليه بالخدمة والطاعة، وجاءه صاحب درب كشمير وهو جنكي بن شاهي وشهي فأقرّ بالطاعة، وضمن دلالة الطريق، وسار أمام العسكر إلى حصن مأمون لعشرين من رجب. وهو خلال ذلك يفتتح القلاع إلى أن دخل في ولاية هردت أحد ملوك الهند فجاء طائعاً مسلماً.

ثم سار السلطان إلى قلعة كلنجد من أعيان ملوكهم فبرز للقائه، وانهزم.

واعترضهم أنهار عميقة سقطوا فيها وهلكوا قتلاً وغرقاً، يقال هلك منهم خمسون ألفاً. وغنم السلطان منهم مائة فيل وخمسة إلى غير ذلك مما جلّ عن الوصف. ثم عطف إلى سقط التقيد، وهو بيت مبني بالصخور الصم

يشرع منها بابان إلى الماء المحيط، موضوعة أبنيته فوق التلال، وعن جنبتيه ألف قصر مشتملة على بيوت الأصنام.

وفي صدر البلد بيت أصنام: منها خمسة من الذهب الأحمر مضروبة على خمسة أذرع في الهواء قد جعلت عينا كل واحدة منهما ياقوتتين تساويان خمسين ألف دينار، وعين الآخر قطعة ياقوت أزرق تزن أربعمائة وخمسين مثقالا. وفي وزن قدمي الصنم الواحد أربعة آلاف وأربعمائة مثقال، وجملة ما في الأشخاص من الذهب ثمانية وتسعون ألف مثقال. وزادت شخوص الفضة على شخوص الذهب في الوزن فهدمت تلك الأصنام كلّها وخربتّ، وسار السلطان طالباً قنوج، وخرّب سائر القلاع في طريقه، ووصل إليها في شعبان سنة تسع، وقد فارقها نزو جبال حين سمع بقدومه، وعبر نهر كنك الذي نغرق الهنود فيه أنفسهم، ويذرون فيه رماد المحرقين منهم.

وكان أهل الهند واثقين بقنوج: وهي سبع قلاع موضوعة على ذلك الماء، فيها عشرة آلاف بيت للأصنام، تزعم الهنود أن تاريخها منذ مائتي ألف سنة أو ثلاثمائة ألف سنة، وأنها لم تزل متعبّداً لهم. فلمّا وصلها السلطان ألفاها خالية قد هرب أهلها ففتحها كلّها في يوم واحد، واستباحها أهل عسكره. ثم أخذ في السير منها إلى قلعة لنج، وتعرف بقلعة البراهمة فقاتلوا ساعة، ثم تساقطوا من أعاليها على سنا الرماح وضياء الصفاح. ثم سار إلى قلعة أسا وملكها جندبال فهرب وتركها، وأمر السلطان بتخريبها. ثم عطف على جندراي من أكابر الهنود في قلعة منيعة، وكان جيبال ملك الهند من قبل ذلك يطلبه للطاعة والإلفة فيمتنع عليه. ولحق جيبال بنهوجد أحد المغرورين بحصانة المعقل فنجا بنفسه.

ورام جندراي المدافعة وثوقاً بامتناع قلعته. ثم تنصح له بجيبال، ومنعه من ذلك فهرب إليه أمواله وأنصاره إلى جبال وراء القلعة، وافتتحها السلطان، وحصل منها على غنائم. وسار في اتباع جندراي، وأثخن فيهم قتلا ونهباً، وغنم منهم أموالاً وفيولا. وبلغت الغنائم ثلاثة آلاف ألف درهم ذهباً وفضّةً ويواقيت، والسبي كثير وبيع بدرهمين إلى عشرة. وكانت الفيول تسمّى عندهم جنداي داد. ثم قضى السلطان جهاده ورجع إلى غزنة فابتنى مسجدها الجامع، وجلب إليه جذوع الرخام من الهند، وفرشه بالمرمر، وأعالي جدرانه بالأصباغ وصباب الذهب المفرغة من تلك الأصنام. واحتضر بناء المسجد بنفسه. نقل إليه الرخام من نيسابور، وجعل أمام البيت مقصورة تسع ثلاثة آلاف غلام. وبنى بازاء المسجد مدرسة احتوت فيها الكتب من علوم الأوّلين والآخرين، وأجريت بها الأرزاق، واختصّت لنفسه يفضي منه إليه في أمن من العيون وأمر القوّاد والحجّاب وسائر الخدّام، فبنوا بجانب المسجد من الدور ما لا يحصى. وكانت غزنة تحتوي على مربط ألف فيل، يحتاج كل واحد منها لسياسته ومائدته خطّة واسعة.

غزوة الأفقانية:

لما رجع السلطان إلى غزنة راسل بيدو ووالي قنوج، وإسمه راجبان بدلحة، وطال بينهما العتاب وآل إلى القتال فقتل والي قنوج، واستلحمت جنوده. وطغى بيدو، وغلب على الملوك الذين معه، وصاروا في جملته، ووعدهم

برد ما غلبهم عليه السلطان محمود. ونمي الخبر بذلك إليه فامتعض، وسار إلى بيدو فغلبه على ملكه. وكان ابتداؤه في طريقه بالأفقانية طوائف من كفّار الهند معتصمون بقلل الجبال، ويفسدون السابلة فسار في بلادهم ودّوخها، وعبر نهر كنك، وهو وادٍ عميق، وإذا جيبال من ورائه فعبر إليه على عسر العبور فانهزم جيبال، وأسر كثير من أصحابه. وخلص جريحاً، واستأمن إلى السلطان فلم يؤمّنه إلا أن يسلم فسار ليلحق ببيدو فغدر به بعض الهنود وقتله. فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى السلطان في الطاعة على الاتاوة. وسار إلى مدينة باري من أحصن بلاد الهند فألفاها خالية فأمر بتخريبها وعشر قلاع مجاورة لها، وقتل من أهلها خلقاً.

وسار في طلب بيدو، وقد تحصن بنهر أدار ماءه عليه من جميع جوانبه، ومعه ستة وخمسون ألف فارس، وثمانون ألف راجل، وسبعمائة وخمسون فيلا فقاتلهم هنالك يوماً وحجز بينهم الليل فأجفل بيدو، وأصبحت دياره بلاقع. وترك خزائن الأموال والسلاح فغنمها المسلمون، وتتبعوا آثارهم فوجدوهم في الغياض والآكام فأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا بيدو بذماء نفسه، ورجع السلطان إلى غزنة ظافراً.

فتح سومنات:

كان للهند صنم يسمّونة سومنات، وهو أعظم أصنامهم في حصن حصين على

ساحل البحر بحيث تلتقفه أمواجه. والصنم مبني في بيته على ستة وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وهو من حجر طوله خمسة أ.ذرع: منها ذراعان غائصان في البناء، وليس له صورة مشخّصة، والبيت مظلم يضيء بقناديل الجوهر الفائق، وعنده سلسلة ذهب بجرس وزنها مائة منّ تحرّك بأدوار معلومة من الليل فيقوم عباد البرهّميين لعبادتهم بصوت الجرس. وعنده خزانة فيها عدد كثير من الأصنام ذهباً وفضةً، عليها ستور معلقة بالجوهر منسوجة بالذهب تزيد قيمتها على عشرين ألف ألف دينار. وكانوا يحجونّ إلى هذا الصنم ليلة خسوف القمر فتجتمع إليه عوالم لا تحصى. وتزعم الهنود أن الأرواح بعد المفارقة تجتمع إليه فيبثّها فيمن شاء بناء على التناسخ والمدّ والجزر عندهم، هو عبادة البحر. وكانوا يقّربون إليه كل نفيس، وذخائرهم كلّها عنده. ويعطون سدنته الأموال الجليلة. وكان له أوقاف تزيد على عشرة آلاف ضيعة.

وكان نهرهم المسمّى كنك الذي يزعمون أنّ مصبه في الجنّة، ويلقون فيه عظام الموتى من كبرائهم، وبينه وبين سومنات مائتا فرسخ. وكان يحمل من مائه كل يوم لغسل هذا الصنم. وكان يقوم عند الصنم من عبّاد البرهّميين ألف رجل في كل يوم للعبادة، وثلاثمائة لحلق رؤوس الزوّار ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغّنون ويرقصون، ولهم على ذلك الجرايات الوافرة. وكان كلمّا فتح محمود بن سبكتكين من الهند فتحاً أو كسر صنماً يقول أهل الهند: إن سومنات ساخط عليهم، ولو كان راضياً عنهم لأهلك محموداً دونه. فاعتزم محمود بن سبكتكين إلى غزوه، وتكذيب دعاويهم في شأنه. فسار من غزنة في شبعان سنة ست عشرة وأربعمائة في ثلاثين ألف فارس سوى المتطّوعة، وقطع القفر إلى الملتان، وتزوّد له من القوت والماء قدر الكفاية، وزيادة عشرين ألف حمل.

وخرج من المفازة إلى حصون مشحونة بالرجال قد غوّروا آبارهم مخافة الحصار، فقذف الله الرعب في قلوبهم، وفتحها وقتل سكانها وكسر أصنامها، واستقى منها الماء. وسار إلى اهلوارن، وأجفل عنها صاحبها بهيم، وسار إلى بعض حصونه. وملك السلطان المدينة، ومرّ إلى سومنات، ووجد في طريقه حصوناً كثيرة فيها أصنام وضعوها كالنقباء والخدمة لسومنات ففتحها، وخرّبها وكسر الأصنام. ثم سار في قفر معطش، واجتمع من سكانه عشرون ألفا لدفاعه فقاتلهم سراياه، وغنموا أموالهم وانتهوا إلى دبلواه على مرحلتين من سومنات فاستولى عليها، وقتل رجالها، ووصل إلى سومنات منتصف

ذي القعدة فوجد أهلها مختفين في أسوارهم، وأعلنوا بكلمة الإسلام فوقها فاشتد القتال، حتى حجز بينهم الليل.

ثم أصبحوا إلى القتال، وأثخنوا في الهنود. وكانوا يدخلون إلى الصنم فيعنّقونه ويبكون ويتضرّعون إليه، ويرجعون إلى القتال. ثم انهزموا بعد أن أفناهم القتل. وركب فلّهم السفن فأدركوا، وانقسموا بين النهب والقتل والغرق، وقتل منهم نحو من خمسين ألفاً. واستولى السلطان على جميع ما في البيت. ثم بلغه أنّ بهيم صاحب اهلوارن اعتصم بقلعة له تسمّى كندهة في جزيرة على أربعين فرسخاً من البّر فرام خوض البحر إليها، ثم رجع عنها، وقصد المنصورة، وكان صاحبها ارتد عن الإسلام ففارقها، وتسّرب في غياض هناك فأحاطت عساكر السلطان بها، وتتبعوهم بالقتل فأفنوهم. ثم سار إلى بهاطية فدان أهلها بالطاعة، ورجع إلى غزنة في صفر سنة سبع عشرة.

دخول قابوس صاحب جرجان وطبرستان في ولاية السلطان محمود:

قد قدّمنا وفادة قابوس على الأمير نوح بن منصور بن سامان، وعامله بخراسان أبي العباس تاش مستصرخاً على بني بويه عندما ملكوا طبرستان وجرجان من يده سنة إحدى وسبعين، وأقام بخراسان ثماني عشرة سنة، وهم يعدونه بالنصرة والمدد حتى يئس منهم. ولما جاء سبكتكين وعده بمثل ذلك. ثم شغله شغل بني سيجور، ثم وعده السلطان محمود، وشغلته فتنة أخيه. واستولى أبو القاسم بن سيجور على جرجان بعد مهلك فخر الدولة بن بويه. ثم أمر من ببخارى بالمسير إلى خراسان فسار إلى أسفرايين، واستمدّ قابوس رجال الديلم والجبل فأمدوه، وظاهروه على أمره حتى غلب على طبرستان وجرجان، وملكها كما يذكر في أخبار الديلم والجبل. وكان نصر بن الحسن بن افي زان، وهو ابن عمّ ماكان بن كالي ينازعه فيهما فآل الحال بنصر إلى أن اعتقله بنو بويه بالريّ، واستقلّ قابوس بولاية جرجان وطبرستان وديار الديلم كلّها من ممالك محمود.

استيلاء السلطان محمود علم الري والجبل:

كان مجد الدولة بن فخر الدولة صاحب الريّ، وكان قد ضعف أمره، وأدبرت دولته. وكان يتشاغل بالنساء والكتاب نسخاً ومطالعة. وكانت أمه تدبًر ملكه فلما توفيت

انتقضت أحواله، وطمع فيه جنده. وكتب إلى محمود يشكو ذلك، ويستدعي نصرته فبعث إليه جيشاً عليهم حاجبه، وأمره أن يقبض على مجد الدولة فقبض عليه وعلى ابنه أبي دلف عند وصوله. وطيّر بالخبر إلى

السلطان فسار في ربيع من سنة عشرين وأربعمائة، ودخل الريّ وأخذ أموال مجد الدولة، وكانت ألف ألف دينار، ومن الجواري قيمة خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ستة آلاف ثوب، ومن الألات ما لا يحصى.
ووجد له خمسين زوجة ولدن نيفاً وثلاثين ولداً فسئل عن ذلك فقال: هذه عادة. وأحضر مجد الدولة وعنّفه، وعرض له بتسفيه رأيه في الانتصار عن جندراي منه، وبعثه إلى خراسان فحبس بها.
ثم ملك السلطان قزوين وقلاعها، ومدينة ساوة وآوة، وصلب أصحاب مجد الدولة من الباطنية. ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجوم، وأخذ مما سوى ذلك من الكتب مائة حمل. وتحصّن منه منوجهر بن قابوس ملك الجيل بالجبال الوعرة فقصده فيها، ولم تصعب عليه فهرب منوجهر وتحصّن بالغياض، وبعث له بخمسمائة ألف دينار استصلاحاً فقبلها، ورجع عنه إلى نيسابور. وتوفيّ منوجهر عقب ذلك، وولي بعده ابنه أنوشروان فأقّره السلطان على ولايته، وقّرر عليه خمسمائة ألف دينار ضريبة. وخطب للسلطان محمود في بلاد الجيل إلى أرمينية، وافتتح ابنه مسعود زنجان وأبهر من يد إبراهيم السيلار بن المرزبان من عقب شوذان بن محمد بن مسافر الديلمي، وجميع قلاعه، ولم يبق بيده إلا شهرزان قرر عليه فيها ضريبة كما يأتي في أخبار الديلم. ثم أطاعه علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان، وخطب له، وعاد السلطان إلى خراسان. واستخلف بالري إبنه مسعوداً فقصد أصفهان وملكها من علاء الدولة، واستخلف مسعود عليها بعض أصحابه، وعاد عنها فثار أهلها بعامله، وقتلوه فرجع إليهم واستباحهم، ثم عاد إلى الريّ فأقام بها.
استيلاء السلطان محمود علي بخاري ثم عوده عنها:
كان ايلك خان ملك الترك وصاحب تركستان لما ملك بخارى من يد بني سامان سنة تسعين وثلاثمائة ولّى عليها، ورجع إلى بلاده كما مرّ، وكان الغزّ أحياء بادية بضواحي بخارى، وزعيمهم ارسلان بن سلجوق عمّ السلطان طغرلبك. وكان بينه وبين ايلك خان
وأخيه بقراخان حروب وفتن، بسبب استظهار بني سامان بهم. فلما ملك ايلك خان بخارى عرف لارسلان بن سيجور حقّه ورفع محلّه، وهو مع ذلك مستوحش. وكان على تكين أخو ايلك خان، وحبس ارسلان ولحق ببخارى فاستولى عليها، وطلب موالاة ارسلان بن سيجور فوالاه واستفحل أمرهما. ونهض إليهما ايلك خان وقاتلهما فهزماه. واستوثق أمر تكين في بخارى. وكان يسيء جوار السلطان محمود بن سبكتكين في أعماله، ويعترض رسله المتردّدين إلى ملوك الترك فأحفظ ذلك السلطان، وأجمع المسير إليه فنهض من بلخ سنة عشرين وأربعمائة، وعبر النهر وقصد بخارى فهرب منها تكين ولحق بأيلك خان. ودخل السلطان بخارى، وملك سائر أعمالها، وأخذ الجزية من سمرقند. وأجفلت أحياء الغزّ وارسلان بن سلجوق، وتلطف في استدعائه. فلما حضر عنده !بض عليه، وبعثه إلى بعض قلاع الهند وحبسه بها. وسار إلى أحياء الغز - فنهبهم، وأثخن فيهم قتلًا وأسراً، ورجع إلى خراسان.
خبر السلطان محمود مع الغز بخراسان:

لما حبس السلطان أرسلان بن سلجوق، ونهب أحياءهم أجلاهم عن ضواحي بخارى فعبروا نهر جيحون إلى خراسان، وامتدّت فيهم أيدي العمّال بالظلم والتعدّي في أموالهم وأولادهم فتفرّقوا. وجاءت منهم طائفة في أكشر من ألفي خركاه إلى كرمان، ثم إلى أصفهان، وكانوا يسمّون العراقية. وطائفة إلى جبل بكجان عند خوارزم القديمة، وعاث كل منهم فيما سار فيه من البلاد. وبعث السلطان إلى علاء الدولة بأصفهان لردّ الذين ساروا إليه إلى الريّ وقبلهم، وحاول ذلك بالغدر فلم يستطع، وحاربهم فهزموه وساروا عنه إلى أذربيجان، وأفسدوا ما ساروا عليه وصانعهم وهشوذان صاحب أذربيجان وآنسهم. وكان مقدّموهم: بوقا وكوكاش ومنصور ودانا. وأمّا الذين ساروا إلى خرارزم القديمة فكثر عيثهم في تلك النواحي. وأمر السلطان محمود صاحب طوس ارسلان الحاجب أن يسير في طلبهم فاتبعهم سنتين. ثم جاء السلطان على اثره فشرّدهم على نواحي خراسان، واستخدم بعضهم. وكان أمراؤهم: كوكاش وبوقا وقزل ويغمر وتاصفلي.

ولّما مات السلطان محمود استخدمهم إبنه مسعود أيضاً، وساروا معه من غزنة إلى

خراسان فسألوه فيمن بقي منهم بجبل بكجان عند خوارزم فأذن لهم أن يسهلوا إلى البسائط على شرط الطاعة. ثم انتقض أحمد نيال عامل الهند فسار مسعود إليه، وولى على خراسان تاش، وكثر عيث هؤلاء الغز في البلاد فأوقع بهم تاش، وقتل أميرهم يغمر. وبعث السلطان مسعود من أجلاهم عن البلاد، ومثلّ بهم بالقتل والقطع والصلب. فساروا إلى الريّ طالبين أذربيجان للحاق بالعراقية منهم كما مرّ ذكرهم فملكوا الدامغان ونهبوها، ثم سمنان. ونهبوا جوار الريّ وايحاباذ ومشكوبة من أعمال الري، وخربوا كل ما مرّوا عليه من القرى والضياع فاجتمع لحربهم تاش أبو سهل الحمدوني صاحب الريّ. وسار إليهم تاش في العساكر والفيلة على التعبئة، ولقوه مستميتين، وسبق إليه أحياؤهم فهزموه وقتلوه.

ثم ساروا إلى الريّ فهزموا أبا سهل الحمدوني وعسكره، ولحق بقلعة طبول، ونهبوا الريّ واستباحوا أموالها. وجاء عساكر من جرجان فاعترضوه وكبسوه، وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً ، ومضوا إلى أذربيجان ليجتمعوا بالعراقية. ثم رجع علاء الدولة بن كاكويه إلى أصفهان بعد مسيرهم من الريّ، وطلبوا مولاه أبا سهل على طاعة مسعود فلم يتم وعاث الغز في أذربيجان، وأوقع بهم وهشوذان وقتل منهم، وجمع عليهم أهل أذربيجان وأوقع بهم ففارقوها إشفاقا من نيال وأخيه طغرلبك، وافترقوا يين الموصل وديار بكر فملكوها ونهبوها وعاثوا في نواحيها، كما مرّ ذكره في أخبار قرواش صاحب الموصل وابن مروان صاحب ديار بكر.

هذه أخبار ارسلان بن سلجوق مفصلة إلاّ ما اختصر منها بالريّ وأذربيجان فإنه يأتي في مواضعه من دولة الديلم. وأما طغرلبك واخوته داود وبيقو، وأخوه لأمه نيال المسمى بعد الإسلام إبراهيم فانهزموا وأقاموا بعد سلجوق ببلاد ما وراء النهر. وكان بينهم وبين علي تكين صاحب بخارى حروب ظهر عليهم فيها فعبروا جيحون إلى خوارزم وخراسان، وكان من أخبارهم فيها ومآل أمرهم إلى الملك والدولة ما يأتي ذكره.

افتتاح نرسي من الهند:

كان السلطان محمود قد استخلف على الهند من مواليه أحمد نيال تكين، فغزا سنة

إحدى وعشرين مدينة نرسي من أعظم مدن الهند في مائة ألف مقاتل، فنهب وخرب الأعمال واستباحها. وجاء إلى المدينة فدخلها من أحد جوانبها، واستباحها يوماً و لم يستوعبها حتى خرجوا فباتوا بظاهرها خوفاً على أنفسهم من أهل البلد. وقسموا الأموال كيلاً، وأرادوا العود من الغد فدافعهم أهلها، ورجع أحمد نيال بعساكره إلى بلده.

وفاة السلطان محمود وولاية ابنه محمل:

ثم توفي السلطان محمود في ربيع سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، وكان ملكاً عظيماً استولى على كثير من الممالك الإسلامية، وكان يعظِّم العلماء ويكرّمهم، وقصدوه من أقطار البلاد. وكان عادلًا في رعيته رفيقا بهم محسناً إليهم، وكان كثير الغزو والجهاد، وفتوحاته مشهورة. ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لابنه محمد وهو ببلخ، وكان أصغر من مسعود إلا أنه كان مقبلاً عليه ومعرضاً عن مسعود. فلما توفي بعث أعيان الدولة إلى محمد بخبر الوصية واستحثّوه، وخطب له في أقاصي الهند إلى نيسابور، وسار إلى غزنة فوصلها لأربعين يوماً، واجتمعت العساكر على طاعته، وقسم فيهم الاعطيات.

خلع السلطان محمد ابن السلطان محمود وولاية ابنه الآخر مسعود الأكبر:

لما توفي السلطان محمود كان ابنه مسعود بأصفهان فسار إلى خراسان، واستخلف على أصفهان فثار أهلها بخليفته وعسكره فقتلوهم، فعاد إليهم مسعود وحصرها وافتتحها عنوة واستباحها. ثم استخلف عليها، وسار إلى الريّ ومنها إلى نيسابور. وكتب إلى أخيه محمد بالخبر وأنه لا ينازعه، ويقتصر على فتحه من طبرستان وبلد الجبل وأصفهان، ويطلب تقديمه على محمد في الخطبة فأحفظه ذلك، واستحلف العساكر. وسار إلى مسعود، وكان أكثر العساكر يميلون إلى مسعود لقوته وشجاعته وعلو سنه. وأرسل التونتاش صاحب خوارزم وكان من أصحاب السلطان محمود يشير على محمد بترك الخلاف فلم يسمع، وسار فانتهى إلى بكياباد أوّل رمضان من سنته. وأقام وكان مشتغلاً باللعب عن تدبير الملك فتفاوض جنده في خلعه والإدالة منه بأخيه مسعود. وتولى كبر ذلك عمّه يوسف بن سبكتكين، وعلي خشاوند صاحب أبيه. وحبسوا محمداً بقلعة بكياباد، وكتبوا بالخبر إلى مسعود، وارتحلوا إليه بالعساكر فلقوه بهراة فقبض على عمّه،

وعلى صاحب أبيه، وعلى جماعة من القوّاد. واستقر في ملك أبيه شهر ذي القعدة من سنته، وأخرج الوزير أبا القاسم أحمد بن الحسن السيمندي من محبسه، وفوّض إليه الوزارة وأمور المملكة. وكان أبوه قبض عليه سنة ست عشرة وصادره على خمسة آلاف دينار. ثم سار إلى غزنة فوصلها منتصف إثنتين وعشرين، ووفدت عليه رسل جميع الملوك من جميع الآفاق، واجتمع له ملك خراسان وغزنة والهند والسند وسجستان وكرمان ومكران والري وأصفهان والجبل، وعظم سلطانه.

عود أصفهان إلى علاء الدولة بن كاكويه ثم رجوعها للسلطان مسعود:

كان قناخر مجد الدولة بن بويه صاحب أصفهان، وملكها السلطان محمود من يده فهرب عنها، وامتنع بحصن قصران. وأنزل السلطان محمود ابنه مسعوداً بأصفهان، وأنزل معه علاء الدولة بن كاكويه فاستقل بها، وسار

عنه مسعود. ثم زحف إليه وملكها من يده، ولحق علاء الدولة بخوزستان يستنجد أبا كاليجار بن سلطان الدولة. وسار عنه إلى تستر ليستمدّ له من أخيه جلال الدولة العساكر لمعاودة أصفهان. وكان ذلك عقب فتنة وحرب بين أبي كاليجار وأخيه جلال الدولة فوعده أبوه بذلك إذا اصطلحا، وأقام عنده إلى أن توفي السلطان محمود. ولما توفي السلطان محمود جمع قناخر جمعاً من الديلم والأكراد، وقصد الريّ، وقاتله نائبه مسعود فهزمه، ودفعه عن الري، وفتك في عسكره قتلاً وأسراً. وعاد قناخر إلى بلده، وبلغ الخبر إلى علاء الدولة بموت السلطان محمود، وهو عند أبي كاليجار بخوزستان، وقد أيس من النصر فبادر إلى أصفهان فملكها، ثم همذان. وقصد الري فقاتله نائب مسعود، ورجع إلى أصفهان. ثم اقتحموا عليه البلد عنوة، ونجا علاء الدولة إلى قلعة قردخان على خمسة عشر فرسخاً من همذان، وخطب لمسعود بالريّ وجرجان وطبرستان.

فتح التيز ومكران وكرمان ثم عود كرمان لأبي كاليجار:

كان صاحب التيز ومكران لما توفي خلّف ولدين أبا العساكر وعيسى، واستبدّ عيسى منهما بالملك فسار أبو العساكر إلى خراسان مستنجداً بمسعود فبعث معه عسكراً ودعوا عيسى إلى الطاعة فامتنع، وقاتلوه فاستأمن كثير من أصحابه إلى أبي العساكر

فانهزم عيسى وقتل في المعركة. واستولى أبو العساكر على البلاد وملكها. وخطب فيها للسلطان مسعود، وذلك سنة إثنتين وعشرين واربعمائة. وفي هذه السنة ملك السلطان مسعود كرمان، وكانت للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة فبعث إليها السلطان مسعود عساكر خراسان، فحاصروا مدينة بردسير، وشدّوا في حصارها، واستبد إلى أطراف البلاد. ثم وصل عسكر أبي كاليجار إلى جيرفت، واتبعوا الخراسانية بأطراف البلاد فعاود هزيمتهم، ودخلوا المفازة إلى خراسان، وعاد العساكر إلى فارس.

فتنة عساكر السلطان مسعود مع علاء الدولة بن كاكويه وهزيمته:

قد تقدم لنا هزيمة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه من الريّ، ونجاته إلى قلعة قردخان. ثم سار منها إلى يزدجرد ومعه فرهاد بن مرداويج مدداً له. وبعث صاحب الجيوش بخراسان عسكراً مع ابن عمران الديلميّ لاعتراضهما، فلما قاربهما العسكر فرّ فرهاد إلى قلعة شكمين، ومضى علاء الدولة إلى سابور خرات، وملك علي بن عمران يزدجرد. ثم أرسل فرهاد إلى الأكراد الذين مع علي بن عمران، وداخلهم في الفتك به ؛ وشعر بذلك فسار إلى همذان، ولحقه فرهاد فاعتصم بقلعة في طريقه منيعة ؛ وكادوا يأخذونه لولا عوائق الثلج والمطر في ذلك اليوم، وكانوا ضاحين من الخيام فتركوه ورجعوا عنه. وبعث ابن عمران إلى تاش قرواش صاحب جيوش خراسان يستمدّه في العسكر إلى همذان. وبعث علاء الدولة يستدعي أبا منصور ابن أخيه من أصفهان بالسلاح والأموال ففعل. وسار علي بن عمران من همذان لاعتراضه فكبسه بجر باذقان، وغنم ما معه، وقتل كثيراً من عسكره وأسره، وبعث به إلى تاش قرواش صاحب جيوش خراسان، وسار إلى همذان. وزحف إليه علاء الدولة وفرهاد فانقسموا عليه، وجاؤوه من ناحيتين فانهزم علاء الدولة، ونجا إلى أصفهان، وفرّ هارباً إلى قلعة شمكين فتحصّن بها.

مسير السلطان مسعود إلي غزنة والفتن بالري والجبل:

لما استولى السلطان على أمره سار من غزنة إلى خراسان لتمهيد أمورها، وكان عامله وعامل أبيه على الهند أحمد نيال تكين قد استفحل فيها أمره، وحدّثته نفسه بالاستبداد فمنع الحمل وأظهر الانتقاض فسار السلطان إلى الهند، ورجع أحمد نيال إلى

الطاعة. وقام علاء الدولة بأصفهان، وأظهر الانتقاض، ومعه فرهاد بن مرداويج فزحف إليهم أبو سهل وهزمهم، وقتل فرهاد، ونجا علاء الدولة إلى جبال أصفهان وجرباذقان فامتنع بها. وسار أبو سهل إلى أصفهان فملكها سنة خمس وعشرين واربعمائة، ونهب خزائن علاء الدولة، وحمل كتبه إلى غزنة. وأحرقها الحسين الغوري بعد ذلك.

عود أحمل نيال تكين إلي العصيان:

ولما عاد السلطان إلى خراسان لقتال الغز عاد أحمد نيال تكين إلى العصيان بالهند، وجمع الجموع فبعث السلطان سنة ست وعشرين وأربعمائة إليه جيشاً كثيفاً. وكتب إلى ملوك الهند بأخذ المذاهب عليه. فلما قاتله الجيوش انهزم ومضى هارباً إلى ملتان، وقصد منها بهاطية، وهو في جمع فلم يقدر ملك بهاطية على منعه. وأراد عبور نهر السند في السفن فهيّأ له الملك ليعبر إلى جزيرة وسط النهر ظنها متصلة بالبر، وأوصى الملك الملاحين أن يتزلوه بها ويرجعوا عنه. وعلموا أنها منقطعة فضعفت نفوسهم، وأقاموا بها سبعة أيام ففنيت أزوادهم وأكلوا دوابهم، وأوهنهم الجوع. وأجاز إليهم ملك بهاطية فاستوعبهم بالقتل والغرق والأسر، وقتل أحمد نفسه.

فتح جرجان وطبرستان:

كانت جرجان وطبرستان وأعمالهما لدارا بن منوجهر بن قابوس، وكان السلطان مسعود قد أقّره عليها فلمّا سار السلطان إلى الهند، وانتشر الغزّ في خراسان منع الحمل، ودخل علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن ماكان في العصيان. فلمّا عاد مسعود من الهند وأجلى الغزّ عن خراسان، سار إلى جرجان سنة ست وعشرين فملكها. ثم سار إلى آمد فملكها وفارقها أصحابها، وافترقوا في الغياض فتبعهم، وقتل منهم وأسر. ثم راسله دارا في الصلح وتقرير البلاد عليه، وحمل ما بقي عليه فأجابه السلطان إلى ذلك ورجع إلى خراسان.

مسير علاء الدولة إلي أصفهان وهزيمته:

كان أبو سهل الحم دوني قد أنزله السلطان بأصفهان ودلّهم على النواحي القريبة من علاء الدولة فأوقع بهم وغنم ما معهم، وقوي طمعه بذلك في أصفهان فجمع الجموع.

وسار إليها فخرج إليهم أبو سهل وقاتلهم، وتحيّز من كان مع علاء الدولة من الأتراك إلى أبي سهل فانهزم علاء الدولة، ونهب سواده وسار إلى بروجرد، ثم إلى الطّرم فلم يقبله ابن السلّار صاحبها.

استيلاء طغرلبك علي خراسان:

كان طغرلبك وأخواه بيقو وحقربيك، واسم طغرلبك محمد، ولما أسر السلطان محمود ارسلان بن سلجوق وحبسه كما مرّ وأجاز أحياء من الغزّ إلى خراسان فكان من أخبارهم ما قدّمناه، وأقام طغرلبك واخوته في أحيائهم بنواحي بخارى. ثم حدثت الفتنة بينهم وبين عل تكين صاحب بخارى، وكانت بينهم حروب ووقائع، وأوقعوا بعساكره مراراً فجمع أهل البلاد عليهم، وأوقع بهم واستلحمهم واستباحهم فانحازوا إلى خراسان سنة ست وعشرين وأربعمائة، واستخدموا لصاحب خوارزم وهو هرون بن التونتاش. وغدر بهم فساروا عنه إلى مفازة نسا ، ثم قصدوا مرو، وطلبوا الأمان من السلطان مسعود على أن يضمنهم أمان السابلة فقبض على الرسل، ولم يجبهم على ما سألوا. وبعث العساكر فأوقعوا بهم على نسا، ثم طار شررهم في البلاد، وعم ضررهم.

وسار السلطان ألب أرسلان إلى نيسابور ففارقها أبو سهل الحمدوني فيمن معه، واستولى عليها داود. وجاء أخوه طغرلبك على اثره، ولقيهم رسل الخليفة إليهم وإلى العراقية الذين فتلهم بالري وهمذان يعنفّهم وينهاهم عن الفساد، ويطمعهم فتلقوا الرسل بالاعظام والتكرمة. ثم امتدّت عين داود إلى نهب نيسابور فمنعه طغرلبك، وعرض له بشهر رمضان ووصية الخليفة فلجّ فقوي طغرلبك في المنع وقال: والله لئن نهبت لأقتلنّ نفسي فكفّ داود عن ذلك، وقسّطوا على أهل نيسابور ثلاثين ألف دينار فرّقوها في أصحابهم. وجلس طغرلبك على سرير ملك مسعود بدار الملك، وصار يقعد للمظالم يومين في الأسبوع على عادة ولاة خراسان، وكانوا يخطبون للملك مسعود مغالطة وإيهاماً.

مسير السلطان مسعود من غزنة إلي خراسان وإجلاء السلجوقية عنها:

ولما بلغ الخبر إلى السلطان مسعود باستيلاء طغرلبك والسلجوقية على نيسابور،

جمع عساكره من غزنة، وسار إلى خراسان فنزل بلخ في صفر سنة ثلاثين وأربعمائة، وأصهر إلى بعض ملوك الخانية دفعاً لشرّه. وأقطع خوارزم، ولحق إسمعيل بطغرلبك. ثم أراح السلطان مسعود، وفرغ من خوارزم والخانية فبعث السلطان سباسي فسار إليهم في العساكر فلم يشف نفسه، ونزل سرخس، وعدلوا عن لقائه، ودخلوا المفازة التي بين مرو وخوارزم. واتبعهم السلطان مسعود وواقعهم في شعبان من هذه السنة فهزمهم فما بعدوا حتى عادوا في نواحيه، فأوقع بهم أخرى. وكان القتلى فيها منهم ألفاً وخمسمائة، وهربوا إلى المفازة. وثار أهل نيسابور بمن عندهم وقتلوهم، ولحق فلّهم بأصحابهم في المفازة. وعدل السلطان إلى هراة ليجهّز العساكر ليطلبهم فبلغه الخبر بأنّ طغرلبك سار إلى أستراباذ، وأقام بها في فصل الشتاء يظن أنّ الثلج يمنعهم عنه فسار السلطان إليه هنالك، ففارقها طغرلبك وعدل عن طوس إلى جبال الريّ التي كان فيها طغرلبك وأصحابه، وقد امتنعوا بجبالهم خوفاً من السلطان، لما كان منهم من موالاة السلجوقية فأغذّ إليهم السير، وصبحهم فتركوا أهلهم وأموالهم واعتصموا بوعر الجبل، وغنمت عساكره جميع ما استولوا عليه. ثم صعد إليهم بنفسه وعساكره، وهلك كثير من العسكر بالثلج في شعاب الجبل. ثم ظفروا بهم في قلّة الجبل

واستلحموهم. وسار مسعود إلى نيسابور في جمادى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائو ليريح ويخرج في فصل الربيع لطلبهم في المفاوز.

ثم عاد طغرلبك وأصحابه من المفازة، وبعث إليهم السلطان بالوعيد فيقال إنّ طغرلبك قال لكاتبه، اكتب إليه: { **قل اللهمّ مالك الملك** } [الآية]، ولا تزده عليها. ولما ورد الكتاب على السلطان مسعود كتب إليه" وآنسه بالمواعيد"، وبعث إليه بالخلع وأمره بالرحيل إلى آمل الشطّ على جيحون. وأقطع نسا لطغرلبك، ودهستان لداود، وبدارة لبيقو، وسمّى كل واحد منهم بالدهقان فلم يقبلوا أشياً من ذلك ولا وثقوا به، وأكثروا من العيث والفساد. ثم كفّوا عن ذلك، وبعثوا إلى السلطان مسعود يخادعونه بالطاعة ببلخ، ورغبوه في أن يسّرح إليهم أخاهم ارسلان المحبوس بالهند فبعث إليه السلطان مسعود، وجاؤوا بارسلان من الهند. ولّما لم يتم بينهم أمر بإعادته إلى محبسه.

هزيمة السلطان مسعود واستيلاء طغرلبك على مدائن خراسان وأعمالها:

ولما تغلّبت السلجوقية على نواحي خراسان، وفضّوا عساكر السلطان، وهزموا الحاجب سباسي اهتز السلطان لذلك، وأجمع لخراسان الحشد وبثّ العطاء وأزاح العلل. وسار من غزنة في الجيوش الكثيفة والفيلة العديدة على التعبية المألوفة، ووصل إلى بلخ، ونزل بظاهرها. وجاء داود بأحيائه فترل قريباً منه، وأغار يوما على معسكره فساق من باب الملك مسعود عدّة من الجنائب المقربات، معها الفيل الأعظم، وارتاع الملك لذلك. وارتحل مسعود من بلخ في رمضان سنة تسع وعشرين، ومعه مائة ألف مقاتل. ومرّ بالجوزجان فصلب الوالي الذي كان بها للسلجوقية، وانتهى إلى مرو الشاهجان. ومضى داود إلى سرخس، واجتمع معه أخوه طغرلبك وبيقو، وبعث إليهم السلطان في الصلح فوفد عليه بيقو فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأجابه هو عن أصحابه بالامتناع من الصلح للخوف من السلطان.

وسار من عند السلطان فسقط في يده وسار في اتباعهم من هراة إلى نيسابور، ثم سرخس. كلما تبعهم إلى مكان هربوا منه إلى آخر، حتى أظلهم فصل الشتاء فأقاموا بنيسابور ينتظرون انسلاخه فانسلخ، والسلطان عاكف على لهوه غافل عن شأنه، حتى انقضى زمن الربيع. واجتمع وزراؤه وأهل دولته وعذلوه في إهمال أمر عدوه فسار من نيسابور إلى مرو في طلبهم، فدخلوا المفازة فدخل وراءهم مرحلتين، وقد ضجر العسكر من طول السفر وعنائه. وكانوا منذ ثلاث سنين منقلبين فيه منذ سفرهم مع سباسي فترل بعض الأيام في مترلة على قليل من الماء، وازدحم الناس على الورود، واستأثر به أهل الدولة والحاشية فقاتلهم عليه الجمهور، ووقعت في العساكر لذلك هيعة.

وخالفهم الدعرة إلى الخيام ينهبون ويتخطفون. وكان داود وأحياؤه متابعاً للعسكر على قرب يتخطّف الناس من حولهم فشعر بتلك الهيعة، فركب في قومه، وصدم العساكر، وهم في تلك الحال فولّوا منهزمين، والسلطان والوزير ثابتان في موقفهما يحرّضان الناس على الثبات فلم يثبت أحد، فانصرفا مع المنهزمين في فل، واتبعهم

داود وأثخن فيهم بالقتل. ثم رجع إلى العسكر، وقد غنمه أصحابه فآثرهم بالغنائم، وقسم فيهم ما حصل له. وقعد على كرسي السلطان، وأقام عسكره ثلاثة أيام ولياليها خشية من

كر العساكر السلطانية عليهم. ونجا السلطان إلى غزنة فدخلها في شوال سنة إحدى وثلاثين، وقبض على سباسي وغيره من الأمراء وسار طغرلبك إلى نيسابور فملكها آخر إحدى وثلاثين وأربعمائة، ونهب عسكره أهلها، وكان بها هرج عظيم من الدعرة. وكانوا ينالون من الناس بالنهب والزنا والقتل فارتدعوا لذلك لهيبة طغرلبك، وسكن الناس.

وملك السلجوقية البلاد فسار بيقو إلى هراة فملكها، وسار داود إلى بلخ وبها الحاجب التونتاش فاستخلفه السلطان عليها فأرسل إليه داود في الطاعة فسجن الرسل، وحاصره داود. وبعث السلطان مسعود جيشاً كثيفاً لإمداده. ودفع السلجوقية عن البلاد فسار فريق مشهم إلى الرخج فدفعوا من كان بها من السلجوقية، وهزموهم وأفحشوا في قتلهم وأسرهم. وسار فريق منهم إلى بيقو في هراة فقاتلوه ودفعوه عنها. ثم بعث السلطان ابنه مودود بعساكر أخرى، وجعل معه وزيره أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يدّبره فسار عن غزنة سنة إثنتين وثلاثين. فلما قارب بلخ وداود يحاصرها، بعث داود جماعة من عسكره فلقوا طلائع مودود فهزمهم. فلمّا وصلت منهزمة تأخّر مودود عن نهايته، وأقام وسمع التونتاش بإحجام مودود عنه فأطاع داود وخرج إليه.

خلع السلطان مسعود ومقتله وولاية أخيه محمد مكانه:

ولما بعث السلطان ولده مودود إلى خراسان لمدافعة السلجوقية عنها، وأقام بعده سبعة أيام، وخرج من غزنة في ربيع سنة إثنتين وثلاثين وأربعمائة يريد الهند للمشتى به على عادة أبيه، ويستنفر الهنود لقتال السلجوقية. واستصحب أخاه محمداً المسمول معه. وكان أهل الدولة قد ضجروا منه فتفاوضوا في خلعه وولاية أخيه محمد، وأجمعوا ذلك فلما عبروا نهر سيحون وتقدّم بعض الخزائن فتخلّف أنوش تكين البلخيّ في جماعة من الغلمان الفداوية، ونهبوا بقية الخزائن، وبايعوا لمحمد المسمول، وذلك في منتصف ربيع الاخر من السنة. وافترق العسكر، واقتتلوا وعظم الخطب، وانهزم السلطان محمود، وحاصروه في رباط هناك. ثم استنزلوه على الأمان. وخيره أخوه محمد في السكنى فاختار مسعود قلعة كيدي فبعث إليها، وأمر بإكرامه. ورجع محمد بالعساكر إلى غزنة، وفوّض إلى إبنه أحمد أمر دولته. وكان أهوج

فاعتزم على قتل عمه مسعود، وداخل في ذلك عمّه يوسف وعلي خشاوند فوافقوه عليه، وحرّضوه فطلب من أبيه خاتمه ليختّم به بعض خزائنهم، وبعث بهم إلى القلعة مع بعض خدمه ليؤدّي رسالة مسعود، وهو بخراسان يعتذر بأن أولاد أحمد نيال تكين قتلوا السلطان مسعود قصاصاً بأبيهم فكتب إليه يتوعّده. ثم طمع الجند في السلطان محمد ومدّوا أيديهم إلى الرعايا ونهبوها. وخربت البلاد وارتحل عنها محمد. وكان السلطان مسعود شجاعاً كريماً غزير الفضل حسن الخط سخيّاً محبّاً للعلماء مقرّباً لهم محسناً إليهم وإلى غيرهم من ذوي الحاجات، كثير الصلوات والعطاء والجوائز للشعراء، حليت تصانيف العلوم بإسمه، وكثرت المساجد في البلاد

بعمارته. وكان ملكه فسيحاً. ملك أصفهان وهمذان والريً وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وبلاد الدارون وكرمان وسجستان والسند والرخّج وغزنة وبلاد الغور، وأطاعه أهل البّر والبحر، وقد صنّف في أخباره ومناقبه.

مقتل السلطان محمد وولا ية مودود ابن أخيه مسعود:

لما بلغ الخبر بمقتل السلطان مسعود إلى إبنه مودود بخراسان سار مجداً في عساكره إلى غزنة فلقيه عمّه محمد في شعبان سنة إثنتين وثلاثين وأربعمائة، وانهزم محمد وقبض عليه وعلى ابنيه أحمد وعبد الرحمن، وعلي أنوش تكين البلخيّ الخصيّ، وعلى علي خشاوند وقتلهم أجمعين، إلاّ عبد الرحمن لرفقه بأبيه مسعود عند القبض عليه. وقتل كل من داخل في قبض أبيه وخلعه، وسار سيرة جدّه محمود. وبلغ الخبر إلى أهل خراسان فثار أهل هراة بمن عندهم من السلجوقية فأخرجوهم، وتشوّف أهل خراسان للنصر على الغزّ من قبل مودود، وكان أبوه السلطان مسعود قد بعث إبنه الآخر إلى الهند أميراً عليها سنة ست وعشرين وأربعمائة. فلمّا بلغه موت أبيه بايع لنفسه، وقفل إلى لهاور والملتان فملكهما، وأخذ الأموال، وجمع العساكر، وأظهر الخلاف على أخيه مودود. وحضر عيد الأضحى فأصبح ثالثه ميتاً بلهاور، بعد أن كان مودود يجهز العساكر من غزة لقتاله، وهو في شغل شاغل من أمره، ففرغ عن الشواغل، ورسخت قدمه في ملكه، وخالفه السلجوقية بخراسان، وخاطبه خان الترك من وراء النهر بالانقياد والمتابعة.

استيلاء طغرلبك على خوارزم:

كانت خوارزم من ممالك محمود بن سبكتكين وابنه مسعود من بعده، وكان عليها التوتناش حاجب محمود من أكابر أمرائه ووليها لهما معاً. ولما شغل مسعود بفتنة أخيه محمد عند مهلك أبيهما أغار على تكين صاحب بخارى من أطراف البلاد وغيرهما. فلما فرغ مسعود من مراجعة محمد، واستقل بالملك بعث إلى التونتاش بالمسير إلى أعمال علي وانتزاع بخارى وسمرقند منه، وأمدّه بالعساكر فعبر جيحون سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وأخذ من بلاد تكين كثيراً فأقام بها، وهرب تكين بين يديه. ثم دعته الحاجة إلى الأموال للعساكر، ولم يكن في جبايته تلك البلاد. وجاء بها فاستأذن في العود إلى خوارزم، وعاد واتبعه علي تكين، وكبسه على غّرة فثبت وانهزم علي تكين، ونجا إلى قلعة دبوسية. وحاصره التوتناش وضيّق عليه فبعث إليه واستعطفه فأفرج عنه، وعاد إلى خوارزم ، وكانت به جراحة من هذه الوقعة، فانتقض عليه ومات. وترك من الولد ثلاثة وهم: هرون ورشيد وإسمعيل، وضبط وزيره أحمد بن عبد الصمد البلد والخزائن حتى جاء هرون الأكبر من الولد من عند السلطان بعهده على خوارزم، ثم توفي المتميدي وزير السلطان مسعود، وبعث على أبي نصر لوزارته، واستناب أبو نصر عند هرون بخوارزم ابنه عبد الجبّار. ثم استوحش من هرون وسخطه، وأظهر العصيان في رمضان سنة خمس وعشرينوأربعمائة فاختفى عبد الجبار خوفاً من غائلته، وسعى عند السلطان مسعود. وكتب مسعود الى شاه ملك بن علي أحد ملوك الأطراف بنواحي خوارزم بالمسير لقتال إسمعيل فسار، وملك البلد فهزمهما، وهرب إسمعيل، وشكر إلى طغرلبك وداود صريخين، فسار داود إلى خوارزم فلقيهما شاه ملك

وهزمهما. ثم قتل مسعود، وملك ابنه مودود فدخل شاه ملك بأمواله وذخائره في المفاوز إلى دهستان ثم إلى طبس، ثم ولى نواحي كرمان، ثم إلى أعمال البتر ومكران. وقصد أرتاش أخا إبراهيم نيال، وهو ابن عم طغرلبك في أربعة آلاف فارس فأسره، وسلّمه إلى داود واستأثر هو بما غنم من أمواله. ثم أعاد أرتاش الى باذغيس، وأقام على محاصرة هراة على طاعة مودود بن مسعود فامتنعو منه خوفاً من معرّة هجومه عليهم.

مسير العساكر من غزنة إلى خراسان:

ولما ملك الغزّ خراسان، واستولوا على سائر أملاكها وأعمالها واستولى طغرلبك على جرجان وطبرستان وخوارزم، وإبراهيم نيال على همذان وعلى الريّ والجبل؟ وولّي على خراسان وأعمالها داود بن ميكايل ، وبعث السلطان أبو الفتح مودود عساكره مع بعض حجابه إلى خراسان سنة خمس وثلاثين فسرح إليهم داود ابنه ألب ارسلان في العساكر فاقتتلوا، وكان الغلب لألب ارسلان. وعاد عسكر غزنة مهزوماً ، وسار محس!كر من الغز إلى نواحي بست وعاثوا وأفسدوا فبعث أبو الفتح مودود إليهم عسكراً فقاتلهم، وانهزموا وظفر عسكر مودود بهم وأثخنوا فيهم.

مسير الهنود لحصار لهاور وامتناعها وفتح حصون أخري من بلادهم:

وفي سنة خمس وثلاثين اجتمع ثلاثة من ملوك الهند على لهاور فجمع مقدّم العساكر الإسلامية هناك عسكره، وبعثهم للدفاع عنها. وبعث إلى السلطان مودود، وحاصرها الثلاثة ملوك. ثم أفرج الآخران وعادا إلى بلادهما. وسارت عساكر الإسلام في اتباع أحدهما وهو دوبالي هربابة فانهزم منهم، وامتنع بقلعة له هو وعساكره، وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل. وحاصرهم المسلمون حتى استأمنوا، وسلّموا ذلك الحصن وجميع الحصون التي من أعمال الملك، وغنموا أموالهم، وأطلقوا من كان في الحصون من أسرى المسلمين بعد أن أعطوهم خمسة آلاف ثم ساروا إلى ولاية الملك الآخر واسمه باس الريّ فقاتلوه وهزموه وقتل في المعركة هو وخمسة آلاف من قومه، وأسر الباقون، وغنم المسلمون ما معهم. وأذعن ملوك الهند بعدها بالطاعة، وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجيبوا.

وفاة مودود وولا ية عمه عبد الرشيد:

ثم توفي أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بغزنة لعشر سنين من ولايته في رجب سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وقد كان كاتب فأجابوه وجمع أبو كليجار صاحب أصفهان العساكر، و0سار في المفازة لنصره فمرض في طريقه ورجع. وسار خاقان إلى ترمذ لنصره، وطائفة أخرى مما وراء النهر إلى خوارزم. وسار مودود من غزنة فعرض له بعد رحيله من غزنة مرض القولنج، فعاد إلى غزنة، وبعث إلى وزيره أبي الفتح عبد الرزاق بن أحمد المتميدي في العساكر إلى سجستان لانتزاعها من الغزّ. ثم اشتدّ وجعه فمات ونصّب إبنه للأمر خمسة أيام. ثم عدل الناس عنه إلى عمه عليّ بن مسعود، وكان مسعود لأوّل ولايته قبض على عمّه عبد الرشيد أخي محمود، وحبسه بقلعة بطريق بُسْت. فلمّا قاربها الوزير أبو الفتح وبلغه وفاة مودود، نزل عبد

الرشيد إلى العسكر فبايعوا له، ورجعوا به إلى غزنة فهرب عليّ بن مسعود واستقّر الأمر لعبد الرشيد، ولقّب سيف الدولة، وقيل جمال الدولة. واستقام أمر السلجوقّية بخراسان، واندفعت العوائق عنهم.

مقتل عبد الرشيد وولاية فرخزاد:

كان لمودود صاحب إسمه طغرل، وجعله حاجباً ببابه. وكان السلجوقّية قد ملكوا سجستان، وصارت في قسم بيقو أخي طغرلبك، وولّى عليها أبا الفضل من قبله فأشار طغرلبك على عبد الرشيد بانتزاعها منهم، وألحّ عليهم في ذلك، فبعث إليها طغرل في ألف فارس، فحاصر حصن الطاق أربعين يوماً. وكتب أبو الفضل من سجستان يستنجده. وسار طغرل، ولمّا سمع أصوات البوقات والدبادب، وأخبر أنه بيقو فتحاجزوا، وعلم أنه تورط ولقيهم مستمياً فهزمهم وسار إلى هراة. واتبعهم طغرل فرسخين، وعاد إلى سجستان فملكها، وكتب إلى عبد الرشيد بالخبر، واستمدّه لغزو خراسان فأمدّه بالعساكر. ثم حدّثته نفسه بالملك فأغذّ السير إلى غزنة حتى كان على خمسة فراسخ منها، كتب إلى عبد الرشيد باستيجاش العسكر، وطلبهم الزيادة في العطاء فشاور أصحابه فكشفوا له وجه المكيدة في ذلك. وحذّروه من طغرل فصعد إلى قلعة غزنة وتحصّن بها. وجاء طغرل من الغد فترل في دار الإمارة، وأرسل أهل القلعة في عبد الرشيد فأسلموه إليه فقتله، واستولى على ملكهم. وتزوّج إبنة السلطان عبد الرشيد ويحضهم على الأخذ بثأره فأجابوا ودخلوا عليه في مجلسه وقتلوه وجاء خرخيز الحاجب لخمسة أيام من قتله، وجمع وجوه القوّاد وأعيان البلد، وبايع فرخاد أبن السلطان مسعود، وقام بتدبير دولته وقتل الساعين في إلى غزنة، ولقي الغز وهزمهم. ودخل غزنة فملكها من أيديهم. ثم سار من غزنة إلى كرمان وسوران فملكها. وكرمان هذه بين غزنة والهند، وليست كرمان المعروفة. ثم سار غيّاث الدين إلى نهر السند ليعبر إلى لهاور كرسي

خسرو شاه بن بهرام شاه فبادر خسرو شاه ومنعه العبور فرجع، وملك ما يليه من جبال الهند وأعمال الأنبار. وولّى على غزنة أخاه شهاب الدين ورجع إلى بيروز كوه.

استيلاء الغورية علي لهاور ومقتل خسرو شاه وانقراض دولة بني سبكتكين:

ولما ولي شهاب الدين الغوري غزنة أحسن السيرة فيهم، وافتتح جبال الهند مما يليه فاستفحل ملكه، وتطاول إلى ملك لهاور قاعدة الهند من يد خسرو شاه فسار سنة تسع وسبعين وأربعمائة في عسكر غزنة والغور، وعبر إليها وحاصرها، وبذل الأمان لخسرو شاه وأنكحه إبنته وسوّغه ما يريد من الإقطاع على أن يخرج إليه، ويخطب لأخيه فأبى من ذلك. وأقام شهاب الدين يحاصره حتى ضاق مخنقه. وخذله أهل البلد فبعث القاضي والخطيب يستأمنان له فأمنّه ودخل شهاب الدين، وبقي خسرو شاه عنده مكرّماً. وبقي شهرين ينتظر المعونة من يد غيّاث الدين فأنفذ خسرو شاه إليه فارتاب من ذلك، وأمنه شهاب الدين وحلف له، وبعث به وبأهله وولده مع جيش يحفظونهم. فلمّا وصلوا بلد الغور حبسهم غياث الدين ببعض قلاعه فكان آخر العهد به، وانقرضت دولة بني سبكتكين بموته، وكان مبدؤها سنة ست وستين وثلاثمائة فتكون مدّة الدولة مائتين وثلاث عشرة سنة.

دولة الترك

الخبر عن دولة الترك في كاشغر وأعمال تركستان وما كان لهم
من الملك في الملة الإسلامية بتلك البلاد وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم

كان هؤلاء الترك ملوك تركستان، ولا أدري أولية أمرهم بها إلا أنّ أوّل من أسلم منهم سبق قراخان، وتسمّى عبد الملك ، وكانت له تركستان، وقاعدتها كاشغر وساغون وخيمو وما يتصل بها إلى أوان المفازة المتصلة بالصين في ناحية الشمال عنهم، أعمال طراز والشاش وهي للترك أيضاً. إلا أنّ ملوك تركستان أعظم ملكاً منهم بكثير. وفي المغرب عنهم بلاد ما وراء النهر التي كان ملكها لبني سامان وكرسيّهم بخارى. ولما أسلم ملكهم عبد الكريم سبق أقام على ملكه بتلك الناحية، وكان يطيع بني سامان هو وعقبه يستنفرونهم في حروبهم، إلى أن ملك عهد الأمير نوح بن منصور في عشر التسعين والثلاثمائة على حين اضطراب دولة بني سامان، وانتقاض عمّالهم بخراسان.

وانتقض أبو علي بن سيجور فراسل بقراخان وأطمعه في ملك بخارى فطمع بقراخان في البلاد. ثم قصد أعمال بني سامان وملكها شيئاً فشيئا. وبعث الأمير نوح إليه العساكر مع قائده أنج فلقيهم بقراخان وهزمهم، وأسر أنج وجماعة من القوّاد. وسار فائق إلى بقراخان واختصّ به، وصار في جملته. ورجع الأمير نوح إلى بخارى كما مرّ من قبل، وهلك بقراخان في طريقه.

وفاة بقراخان وملك أخيه ايلك خان سليمان:

ولما ارتحل بقراخان من بخارى، وهو على ما به من المرض أدركه الموت في طريقه فمات سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة0 وكان دّيناً عادلاً حسن السيرة، محبّاً للعلماء وأهل الدين مكرّماً لهم، متشيّعاً سنياً. وكان موالياً لأل رسول الله صلى اللة وعلية وسلم . ولّما مات ولي بعده أخوه ايلك خان سليمان، ولقبه شهير الدولة. واستوثق ملكه بتركستان وأعمالها، ووفد عليه فائق بعد حروبه بخراسان مع جيوش الأمير نوح وسبكتكين وإبنه محمود، ولحق به مستصرخاً فأكرمه ووعده، وكتب إلى الأمير نوح يشفع في فائق وأن يوليه سمرقند فولاه عليها وأقام بها.

استيلاء ايلك خان علي ما وراء النهر:

لما عاد بقراخان على بخارى وعاد إليها الأمير نوح، وقد كان من أبي علي بن سيجور وإجلائه عن خراسان ما كان استدعى الأمير نوح مولاه سبكتكين بعد ذلك، واختلف إبناه بكثرزون ومنصور كما تقدّم ذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة. ثم هلك سبكتكين كما تقدم ذلك كله قبل، ثم استوحش بكثرزون من منصور واتفق مع فائق على خلعه، فخلعه وسمله بخراسان سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكان فائق خصيّاً من موالي نوح بن منصور. وهذه الأخبار كلها مستوفاة في دولة بني سامان. ثم بلغ الخبر إلى ايلك خان فطمع في ملك بخارى وأعمالها، وسار في جموع الترك إلى بخارى مورياً بالمحاماة عن عبد الملك والنصرة له0 وخرج بكثرزون والأمراء والقواد للقائه فقبض عليهم، وسار فدخل بخارى عاشر ذي القعدة من سنة تسع وثمانين واربعمائة،

ونزل دار الإمارة وظفر بعبد الملك فحبسه فانكدر حتى مات. وحبس معه أخاه المخلوع أبا الحارث منصور، وأخويه الآخرين إسمعيل ويوسف ابني نوح، وأعمامه محموداً وداود وغيرهم0 وانقرضت دولة بني سامان والبقاء لله.

ثورة إسمعيل إلي بخارى ورجوعه عنها:

قد تقدّم لنا أنّ إسمعيل فر من محبسه ولحق بخوارزم، واجتمع إليه قوادهم، وبايعوه ولقبوه المستنصر. وبعث قائداً من أصحابه إلى بخارى ففر من كان بها من عساكر ايلك خان فهزمهم، وقتل منهم وحبس. وكان النائب بها جعفر تكين أخي ايلك خان فحبسه، واتبع المنهزمين إلى سمرقند. ولحق إسمعيل بأحياء الغز وجمعوا عليه. وجاء ايلك خان في جيوشه، والتقوا فانهزم ايلك خان، وأسروا قوّاده، وغنموا سواده، ورجعوا إلى بلادهم. وتشاوروا في الأسرى فارتاب بهم إسمعيل، وعبر النهر، وانضمّت إليه فتيان سمرقند. واتصل الخبر بأيلك خان فجمع والتقى هو وإسمعيل، وهزمه بنواحي أسروشنّة، وعبر النهر إلى نواحي الجوزجان0 ثم إلى مرو. وبعث محمود العساكر في اثره من خراسان، وكذلك قابوس من جرجان فعاد إلى ما وراء النهر، وقد ضجر أصحابه، ونزل بحيّ من العرب فأمهلوه الليل وقتلوه. واستقّرت بخارى في ملك ايلك خان، وولّى عليها أخوه علي تكين.

عبور ايلك خان إلي خراسان:

قد تقدم لنا ما كان انعقد بين ايلك خان ومحمود من المواصلة. ثم دبّت عقارب السعاية بينهما، وأكثر محمود من غزو بلاد الهند. ولّما سار إلى الملتان اغتنم ايلك خان الفرصة في خراسان، وبعث سباسي تكين صاحب جيشه وأخاه جعفر تكين إلى بلخ في عدة من الأمراء، وأرسلان الحاجب. فسار أرسلان إلى غزنة، وملك سباسي هراة وأقام بها، وبعث إلى نيسابور عسكراً فاستولى عليها. وبادر محمود بالرجوع من الهند، وفرق العطايا وأزاح العلل، واستنفر الأتراك الخلنجيّة. وسار إلى جعفر تكين ببلخ ففارقها إلى ترمذ، وبعث العساكر إلى سباسي بهراة ففارقها إلى مرو ليعبر النهر، فاعترضه التركمان فأوقع بهم، وسار إلى أبيورد والعساكر في اتباعه. ثم سار إلى خراسان فاعترضه محمود وهزمه، وأسر أخاه وجماعة من قوّاده، وعبر النهر إلى ايلك، وأجلى عساكره وأصحابه من خراسان، فبعث ايلك خان إلى قراخان ملك الختل فاستنفر الترك الغزّية والخلنجيّة والهنود، وعسكر على فرسخين من بلخ، وتقدّم ايلك وقراخان في عساكرهما، ونزلوا قبالته، واقتتلوا يوماً إلى الليل، ومن الغد اشتدت الحرب ونزل الصبر. ثم حمل محمود في الفيلة على ايلك خان في القلب فاختلّ المصاف، وانهزم الترك، واتبعهم عساكر محمود، وأثخنوا فيهم بالقتل والأسر إلى أن عبر النهر، وانقلب ظافراً غانماً، وذلك سنة سبع وتسعين وثلثمائة .

وفاة ايلك خان وولاية أخيه طغان خان:

ثم هلك ايلك خان سنة ثلاث وأربعمائة، وكان موالياً للسلطان محمود، ومظاهراً له على أخيه طغان خان. فلما ولي تجدّد ما بينه وبين السلطان من الولاية، وصلحت الأحوال وانمحت آثار الفتنة في خراسان وما وراء النهر.

وفاة طغان خان وولاية أخيه أرسلان خان:

ثم توفي طغان خان ملك الترك سنة ثمان وأربعمائة بعد أن كان له جهاد مع أمم من

الترك خرجوا من الصين في زهاء ثلاثمائة ألف وقصدوا بلاده في ساغون، وهال المسلمون أمرهم فاستنفر طغان طوائف المسلمين وغيرهم، واستقبلهم فهزمهم، وقتل منهم نحو مائة ألف، وأسر مثلها، ورجع الباقون منهزمين. ومات طغان اثر ذلك، وولي بعده أخوه أرسلان. وكان من الغريب الدال على قصد ايمان طغان أنه كان عند خروج الترك إلى بلاد ساغون عليلًا، فلمّا بلغه الخبر تضرّع لله أن يعافيه حتى ينتقم من هؤلاء الكفرة ويدفعهم عن البلاد، فاستجاب الله دعاءه ، وكان محباً لأهل العلم والدين. ولما توفي واصل ارسلان خان الولاية مع السلطان محمود، وأصهر إلى إبنه مسعود في بعض كرائمه فاستحكم الاتصال بينهما.

انتقاض قراخان علي ارسلان وصلحه:

كان أرسلان خان قد ولّي على سمرقند قراخان يوسف بن بقراخان هرون الذي ملك بخارى، فانتقض عليه سنة تسع وأربعمائة وكاتب السلطان محمود صاحب خراسان يستظهر به على أرسلان خان، فعقد السلطان على جيحون جسرا من السفن محكمة الربط بسلاسل الحديد، وعبر إليه. ثم ظ م عن لقائه فعاد إلى خراسان وانقطعت الموالاة بينه وبين أرسلان خان، وتصالح مع قراخان واتفقا على محاربة السلطان محمود، والمسير إلى بلاده فسار إلى بلخ، وقاتلهما السلطان قتالًا شديداً حتى انهزم الترك، وعبروا النهر إلى بلادهم. وكان من غرق أكثر ممن نجا، وعبر السلطان في اثرهم، ثم رجع عنهم.

أخبار قرا خان:

الذي يظهر من كلام ابن الأثير: أن قراخان ولي بلاد الترك بتركستان وساغون، فإنه ذكره عقب هذا الخبر بالعدل وحسن السيرة وكثرة الجهاد. ثم قال عقب كلامه: فمن فتوحاته ختن بين الصين وتركستان، وهي كثيرة العلماء والفضلاء. ثم قال: وبقي كذلك إلى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة فتوفي فيها. ولّما توفي خلّف ثلاثة بنين: أرسلان خان وكنيته أبو شجاع، ولقبه شرف الدولة، وبقراخان، ولم يذكر الثالث. والظاهر أنه شرف الدولة. قال: وكان لأرسلان كاشغر وختن وساغون، وخطب له على منابرها وكان عادلاً مكرّماً للعلماء وأهل الدين محسناً لهم، وقصده كثير منهم فأكرمهم. قال: وكان لبقراخان طراز وأسفيجاب. ووقعت الفتنة بين بقراخان وأرسلان فغلبه بقراخان وحبسه وملك بلاده. وقال في موضع آخر: كان يقنع من اخوته وأقاربه بالطاعة فقسّم البلاد بينهم، وأعطى أخاه ارسلان تكين كثيراً من بلاد الترك، وأعطى أخاه طراز وأسفيجاب، وأعطى عمه طغان خان فرغانة بأسرها، وأعطى ابنه علي تكين بخارى وسمرقند وغيرهما. وقنع هو ببلاد ساغون وكاشغر.

قال: وفي سنة خمس وثلاثين واربعمائة أسلم كثير من كفّار الترك الذي كانوا يطرقون بلاد الإسلام بنواحي ساغون وكاشغر ويعيشون فيها ويصيفّون ببلاد بلغار فأسلموا، وافترقوا في البلاد، وبقي من لم يسلم التتر والخطا في نواحي الصين انتهى. ورجع إلى بقراخان الأوّل وقال فيه: حبس أخاه ارسلان خان وملك بلاده، ثم عهد بالملك لولده الأكبر او إسمه حسين جعفر تكين. وكان له ولد آخر أصغر من حسين إسمه إبراهيم فغارت أمّه لذلك، وقتلت بقراخان بالسم، وخنقت أخاه أرسلان في محبسه. ثم استلحمت وجوه أصحابه وأمرائه، وملكت إبنها إبراهيم سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، وبعثته في العساكر إلى برسخان، مدينة بنواحي تركستان، وكان صاحبها يسمّى نيال تكين. فانهزم إبراهيم، وظفر به نيال تكين وقتله. واختلف أولاد بقراخان وفسد أمرهم، وقصدهم طقفاج خان صاحب سمرقند وفرغانة، فأخذ من أولاد بقراخان الملك من أيديهم.

الخبر عن طقفاج خان وولده:

كان بسمرقند وفرغانة أيام بني بقراخان واخوته ملك من الترك الخانية إسمه نصر ايلك، ويلقّب عماد الدولة، ويكّنى أبا المظفّر. ثم فلج سنة إثنتين وأربعمائة ومات، وقد

عهد بملكه لابنه شمس الدولة نصر فقصده أخوه طغان خان بن طقفاج وحاصره بسمرقند، وبيّته شمس الدولة فهزمه وظفر به. وكان ذلك في حياة أبيهما. ثم جاء بعد مماته إلى محاربة شمس الدولة بقراخان هرون بن قدرخان يوسف وطغرك خان، وكان طقفاج قد استولى على ممالكه وحاصره بسمرقند، ولم يظفروا به ورجعوا عنه. وصارت أعمال الخانية كلها في أيديهما والأعمال المتاخمة لسبحون لشمس الدولة، والتخم بينهما خجندة. وكان السلطان ألبأرسلان قد تزوّج بابنة قدرخان، وكانت قبله زوجاً لمسعود بن محمود بن سبكتكين.

وتزوّج شمس الدولة بابنة ألبأرسلان شمس الملك ،وذلك سنة خمس وستين وأربعمائة وملكها ونقل ذخائرها إلى سمرقند. وخاف أهل بلخ منه فاستأمنوا إليه وخطبوا له فيها لأن ارباس ألبأرسلان سار إلى الجوزجان، وجاء إليها التكين، وولّى عليها وعاد إلى ترمذ فثار أهل بلخ بأصحابه وقتلوهم فرجع إليهم، وأمر بإحراق المدينة، ثم عفا عنهم وصادر التجّار. وبلغ الخبر إلى ألبارسلان فعاد من الجوزجان وسار في العساكر إلى ترمذ في منتصف سنة خمس ستين واربعمائة فلقيه التكين وهزمه، وغرق كثير من أصحابه في النهر. ثم استقامت الأمور للسلطان ملك شاه فسار إلى ترمذ سنة ست وستين واربعمائة، وحاصرها ورماها بالمنجنيق، وطم خندقها حتى استأمن أهلها واعتصم بقلعتها أخو التكين. ثم استأمن وأطلقه السلطان إلى أخيه. ثم سار ملك شاه إلى سمرقند ففارقها، وبعث أخوه السلطان في الصلح فأجابه ورده إلى سمرقند. ورجع السلطان إلى خراسان انتهى.

قال ابن الأثير: ثم مات شمس الدولة، وولي بعده أخوه خضر خان. ثم مات خضر خان فولي بعده إبنه أحمد خان. وكان أحمد هذا أسره ملك شاه في سمرقند لما فتحها، ووكّل به جماعة من الديلم فلقّن عنهم معتقدات

الإباحة والزندقة. فلمّا ولّي أظهر الانحلال فاعتزم جنده على قتله، وتفاوضوا في ذلك مع نائبه بقلعة قاشان فأظهر العصيان عليه، فسار في العساكر، وحاصر القلعة. وتمكّن جنده منه فقبضوا عليه، ورجعوا به إلى سمرقند فدفعوه إلى القضاة وقتلوه بالزندقة. وولّوا مكانه مسعود خان ابن عمّه.

قال ابن الأثير: وكان جده من ملوكهم، وكان أصمّ. وقصده طغان خان بن قراخان صاحب طراز فقتله، واستولى على الملك، وولّى على سمرقند أبا المعالي محمد بن محمد بن زيد العلويّ فوليها ثلاث سنين. ثم عصى عليه فحاصره وأخذه فقتله. ثم خرج

طغان خان إلى ترمذ فلقيه السلطان سنجر، وظفر به وقتله، وأخذها منه عمر خان. وملك سمرقند، ثم هرب من جنده إلى خوارزم فظفر به السلطان أحمد. وولي سمرقند محمد خان، وولي بخارى محمد تكين.

وقال ابن الأثير في ذكر كاشغر وتركستان: إنها كانت لأرسلان خان بن يوسف قدرخان كما ذكرنا. ثم صارت لمحمود نوراخان صاحب طراز والشاش فملكها سنة وثلاثة أشهر، ثم مات فولي بعده طغراخان بن يوسف قدرخان، وملك بلاد ساغون وأقام ست عشرة سنة. ثم توفي فملك إبنه طغرل تكين شهرين. ثم جاء هرون بقراخان بن طقفاج نوراخان، وهو أخو يوسف طغرك خان فملك كاشغر، وقبض على هرون، واستولى على ختن، وما يتصل به إلى ساغور، وأقام عشرين سنة، وتوفي سنة ست وتسعين وأربعمائة ، فولي بعده أحمد بن أرسلان خان، وبعث إليه المستظهر بالخلع، ولقبه نور الدولة.

مقتل قدرخان صاحب سمرقند:

قال ابن الأثير، سنة خمس وتسعين وأربعمائة: ولّما سار سنجر إلى بغداد مع أخيه السلطان محمد، طمع قدرخان جبريل بن عمر صاحب سمرقند في خراسان فخالف إليها سنجر بعد رجوعه إليها، وقد عظم الخلاف بين بركيارق وأخيه محمد. وكان بعض أمراء سنجر إسمه كنذعري يكاتب قدرخان ويغريه ويستحثه إلى البلاد، فسار قدرخان إلى بلخ سنة سبع وتسعين وأربعمائة في مائة ألفا. وبادر سنجر إليها في ستة آلاف ، فلمّا تقاربا لحق كنذعري بقدرخان ، فبعثه إلى ترمذ وملكها. وجاء الخبر إلى سنجر بأنّ قدرخان نزل قريباً من بلخ، وأنه خرج متصيداً في ثلاثمائة فارس فجرّد إليه عسكراً مع أميره برغش فهزمهم، وجاء بكنذعري وقدرخان أسيرين. وقيل إنه وقع بينهما مصاف وانهزم قدرخان وأسر فقتله سنجر، وسار إلى ترمذ فحاصرها حتى استأمن إليه كنذعري فأمّنه، ولحق بغزنة. وكان محمد أرسلان خان بن سليمان بن داود بقراخان نازلاً بمرو فبعث عنه السلطان سنجر، وولاّه على سمرقند، وهو من نسل الخانية مما وراء النهر، وأمه بنت السلطان سنجر، وولي ملك شاه دفع عن ملك آبائه فقصد مرّو، وأقام بها فلمّا قتل قدرخان ولاّه سنجر أعماله، وبعث معه العساكر الكثيرة فاستولى عليها، واستفحل ملكه. ثم انتقض عليه من أمراء الترك تيمورلنك ؛ وجمع وسار إلى محمد خان بسمرقند وغيرها فاستنجد محمد خان

بالسلطان سنجر فأنجده بالعساكر، وسار إلى تيمورلنك فهزمه وفض جموعه، ورجعت العساكر إليه.

انتقاض محمد خان عن سنجر:

ثم بلغ السلطان سنجر سوء سيرة محمد في رعيّته وإهماله لأوّامر السلطان فسار إليه سنة سبع وخمسمائة فخاف محمد خان غائلته، وبعث إلى الأمير قماج أعظم أمراء سنجر يعتذر ويسأله الصلح فشرط عليه الحضور عند السلطان فاعتذر بالخوف، وأنه يقف من وراء جيحون، ويقبّل الأرض من هنالك فأجيب إلى ذلك، ووقفوا بعدوة النهر حتى وافى محمد خان بشرطه وسكنت الفتنة.

استيلاء السلطان سنجر على سمرقند:

كان السلطان سنجر لما ملك سمرقند، ولّى عليها أرسلان خان بن سليمان بقراخان داود فأصابه الفالج، واستناب إبنه نصر خان فوثب به أهل سمرقند وقتلوه. وتولّى كبر ذلك إثنان منهم أحدهما علويّ، وكان أبوه محمد المفلوج غائباً فعظم عليه، وبعث عن إبنه الآخر من تركستان فجاء وقتل العلويّ وصاحبه. وكان والد أرسلان خان قد بعث إلى السلطان سنجر يستحثّه قبل قدوم إبنه الآخر فسار سنجر لذلك. فلمّا قدم إلى أبيه أرسلان، وقتل قاتلي أخيه، بعث ارسلان إلى السلطان سنجر يعرّفه، ويسأله العود إلى بلده فغضب لذلك، وأقام أياماً. ثم جيء إليه بأشخاص، واعترفوا بأنّ محمداً خان بعثهم لقتله فغضب، وسار إلى سمرقند فملكها عنوة وتحصّن محمد خان ببعض الحصون حتى استنزله سنجر بالأمان بعد مدّة وأكرمه. وكانت بنته تحبّه فبعثه إليها وأقام عندها، وولّى على سمرقند حسين تكين ورجع إلى خراسان. ومات حسين تكين فولي بعده عليها محمود بن محمد خان أخا زوجته.

استيلاء الخطا علي تركستان وبلاد ما وراء النهر وانقراض دولة الخانية:

نقل ابن الأثير هذا الخبر عن اضطراب عنده فيه، على أنّ أخبار هذه الدولة الخانية
في كتابه ليست جلّية ولا متّضحة، وأرجو إن مدّ الله في العمر أن أحقّق أخبارها بالوقوف عليها في مظان الصحة وألخّصها مرتبة، فإني لم أوفها حقها من الترتّيب لعدم وضوحها في نقله. وحاصل ما قرز في هذا الخبر من أحد طرقه أنه قال: إنّ بلاد تركستان وير
كاشغر وبلاد ساغون وختن وطراز وغيرها مما بجوارها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية من الترك، وهم من نسل فراسياب ملكهم الأوّل المنازع لملوك اليكنيّة من الفرس. وأسلم جدّهم الأوّل سبق قراخان. ويقال سبب إسلامه أنه رأى في منامه رجلاً نزل من السماء فقال له باللسان الترير ما معناه: اسلم تسلم في الدنيا والآخرة فأسلم في منامه ؛ وأصبح مظهرا لإسلامه. ولما مات قام مقامه إبنه موسى، واتصل الملك في عقبه إلى أرسلان خان بن محمد بن سليمان سبق فخرج عليه قدرخان في ملكه سنة أربع وتسعين وأربعمائة. واجتمع الترك عليه، وكانوا طوائف فكان منهم القارغلية، وبقيّة الغزّ الذين عبروا إلى خراسان ونهبوها على ما مرّ.

وكان لأسلان إبن إسمه نصرخان، وفي صحابته شريف علويّ إسمه الأشرف محمد بن أبي شجاع السمرقنديّ ، فحسّن له طلب الملك من أبيه، وأطمعه فيه فقتلهما أرسلان. ثم وقعت بينه وبين القارغلية من الترك وحشة دعتهم إلى الانتقاض والعصيان، واستنجد بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين

وخمسمائة، ووصل إلى سمرقند وهرب القارغلية بين يديد . ثم عثر على رجّالة استراب بهم فقبضى عليهم، وهدّدهم فذكروا أنّ أرسلان خان وضعهم على قتله فرجع إلى سمرقند، وملك القلعة وبعث أرسلان أميراً إلى بلخ فمات بها. وقيل إنه اختراع منه، ووضع هذه الحكاية وسيلة لذلك.

ثم ولّى السلطان سنجر على سمرقند فلج طمغاج، وهو أبو المعالي الحسن بن علي المعروف بحسين تكين، كان من أعيان بيت الخانية فلم تطل أيامه. ومات فولّى سنجر مكانه محمود ابن أخته، وهو ابن السلطان أرسلان فأقام ملكاً عليها. وكان ملك الصين كوخان قد وصل إلى كاشغر سنة إثنتين وعشرين وخمسمائة في جيوش كثيفة0 ومعنى كو ، بلسان أهل الصين أعظم، وخان سمة ملوك الترك. وكان أعور، وكان يلبس لبسة ملوك الترك، وهو مانويّ المذهب. ولما خرج من الصين، إلى تركستان انضاف إليه طوائف الخطا من الترك، وكانوا قد خرجوا قبله من الصين، وأقاموا في خدمة الخانية أصحاب تركستان فانضافوا إلى كو، ملك الصين، وكثف جمعه بهم.

وزحف إليه صاحب كاشغر، وهو الخان أحمد بن الحسين بجموعه فهزمه، وأقامت طوائف الخطا معه في تلك البلاد، وكان سبب خروجهم من الصين ونزولهم ساغون أن

أرسلان محمد كان يستنجد بهم، ويجري عليهم الأرزاق والإقطاعات، وينزلهم مسالح في ثغوره. ثم استوحشوا منه ونفروا وطلبوا الرحلة إلى غير بلده، وارتادوا البلاد واختاروا منها بلد الساغون فساروا إليها، وردد عليهم ارسلان الغزو. ولما جاء كوخان ملك الصين صاروا في جملته حتى إذا رجع زحفوا إلى بلاد تركستان فملكوها بلداً بلداً. وكانوا إذا ملكوا المدينة يأخذون ديناراً من كل بيت ولا يزيدون عليه، ويكلّفون من يطيعهم من الملوك أن يعلّق في منطقته لوحاً من فضّة علامة على الطاعة. ثم ساروا إلى بلاد ما وراء النهر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة. ولقيهم محمود خان بن أرسلان خان فهزموه إلى سمرقند وبخارى، واستنجد بالسلطان سنجر ودعاه لنصر المسلمين فجمع العساكر واستنجد صاحب سجستان ابن خلف والغوريّ صاحب غزنة، وملوك ما وراء النهر وغيرهم. وسار للقائهم وعبر النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسماية.

وشكا إليه محمود من القارغلية فأراد أخذهم فهربوا إلى كوخان، وسألوه أن يشفع لهم عند السلطان سنجر، وكتب إليه يشفع لهم فلم يشفعه. وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام ويتهدّده. ولّما بلغ الكتاب إلى كوخان عاقب الرسول، وسار للقاء سنجر في أمم الترك والخطا والقارغلية فلقيه السلطان سنجر أوّل صفر سنة ست وخمسماية، وعلى ميمنته قماج، وعلى ميسرته صاحب سجستان وأبلى ذلك اليوم، وساء أثر القارغلية في تلك الحرب، وانهزم السلطان سنجر والمسلمون، واستمرّ القتل فيهم. وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان إبنة أرسلان خان محمد وأطلقهم الكفار. و لم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه، ولا أفحش قتلاً. واستقرت الدولة فيما وراء النهر للخطا والترك، وهم يومئذ غلى دين الكفر. وانقرضت دولة الخانية المسلمين الذين كانوا فيها. ثم هلك كوخان منتصف سبع وثلاثين، وكان جميلا حسن الصوت، ويلبس الحرير الصيني، وكان له هيبة على أصحابه ولا يقطع أحداً منهم خوفا على الرعية من العسف. ولا يقدّم أميراً

على فوق مائة فارس، خشية أن تحدّثه نفسه بالعصيان. وينهى عن الظلم وعن السكر، ويعاقب عليه. ولا ينهى عن الزنى ولا يقبّحه. ولما مات ملكت بعده إبنته وماتت قريبا فملكت بعدها أمها زوجة كوخان، وبقي ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن غلبهم عليه علاء الدين محمد بن خوارّزم شاه صاحب دولة الخوارزمية سنة إثنتي عشرة وستمائة على ما يأتي في أخبار دولتهم.

إجلاء القارغلية من وراء النهر:

لما ملك ما وراء النهر سمرقند وبخارى جقري خان بن حسين تكين من بيت الخانية، وأمره سنة تسع وخمسين وخمسماية بإجلاء الترك القارغلية من أعمال بخارى وسمرقند إلى كاشغر، وإلزامهم الفلاحة ومجانبة حمل السلاح فامتنعوا من ذلك. وألحّ عليهم جقري خان فامتنعوا واجتمعوا لحربه. وسار إلى بخارى فبعث إليهم بالوعظ في ذلك والوعد الجميل بخلال ما جمع بقراخان، وكبسهم على بخارى فانهزموا، وأثخن فيهم، وقطع دابرهم وأجلاهم عن نواحي سمرقند، وصلحت تلك النواحي والله أعلم.

دولة الغورية

الخبر عن دولة الغورية القائمين بالدولة العباسية بعد بني سبكتكين

وما كان لهم من السلطان والدولة وابتداء أمرهم ومصائر أحوالهم

كان بنو الحسين أيام سبكتكين ملوكا على بلاد الغور لبني سبكتكين، وكانت لهم شدّة وشوكة. وكان منهم لآخر دولة بني سبكتكين أربعة أمراء قد اشتهروا واستفحل ملكهم: وهم محمد وشورى والحسين شاه وسام بنو الحسين، ولا أدري إلى من ينسب الحسين، وأظنهم إلى بهرام شاه آخر ملوك بني سبكتكين، والتحم به فعظم شأنه. ثم كانت الفتنة بين بهرام وأخيه أرسلان فمال محمد إلى أرسلان، وارتاب به بهرام لذلك. ثم انقضى أمر أرسلان، وسار محمد بن الحسين في جموعه إلى غزنة سنة ثلاث وأربعين وخمسماية، موريا بالزبارة وهو يريد الغدر به، وشعر بذلك بهرام فحبسه ثم قتله واستوحش الغورية لذلك.

مقتل محمد بن الحسين الغوري وولاية أخيه الحسين شاه ثم أخيه شوري:

ولما قتل محمد ولي من بعده أخوه شاه بن الحسين، ثم كانت الوقعة. وملك بعده أخوه شورى بن الحسين، وأجمع الأخذ بثأر أخيه من بهرام شاه فجمع له، وشار إلى غزنة سنة ثلاث وأربعين وخمسماية فملكها.

وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند فجمع عسكره التي هناك، ورجع إلى غزنة وعلى مقدّمته السلاّر بن الحسين، وأمير هندوخان إبراهيم العلويّ. وسار شورى للقائه فانفضّ عنه عسكر غزنة إلى بهرام شاه فانهزم وأسره بهرام، ودخل غزنة في محرّم سنة أربع وأربعين وخمسماية، وصلب شورى على باب غزنة واستقر في ملكه.

مقتل شورى بن الحسين وولاية أخيه علاء الدين بن الحسين واستيلاؤه علي غزنة وانتزاعها منه:

لما هلك شورى بن الحسين ملك الغور من بعده أخوه الحسين، ويلقّب علاء الدولة. واستولى على جبال الغور ومدينة بيروز كوه المجاورة لأعمال غزنة من بلاد الهند، وهي تقارب في اتساعها بلاد خراسان فاستفحل ملكه، وطمع في ملك خراسان. وسار إلى هراة باستدعاء أهلها فحاصرها ثلاثاً، ثم ملكها بالأمان، وخطب

فيها للسلطان سنجر، وسار إلى بلخ، وبها الأمير قماج من قبل السلطان سنجر فغدر به أصحابه فملك علاء الدولة بلخ، وسار إلى السلطان سنجر، وقاتله وظفر به فأسره. ثم خلع عليه وردّه إلى بيروز كوة. ثم سار علاء الدين يريد غزنة سنة سبع وأربعين وخمسماية ففارقها صاحبها بهرام شاه، وملكها علاء الدولة وأحسن السيرة، واستخلف عليهم أخاه سيف الدولة، وعاد إلى بلاد الغور فلما جاء فصل الشتاء وسدّ الثلج المسالك، كتب أهل غزنة إلى بهرام شاه واستدعوه فلمّا وصل وثبوا بسيف الدولة وصلبوه، وبايعوا لبهرام شاه وملكوه عليهم كما كان.

انتقاض شهاب الدين وغياث الدين علي عمهما علاء الدولة:

لما استفحل أمر علاء الدولة، واستفحل ملكه استعمل على البلاد العمّال، وكان فيمن ولاه بلاد الغور إبنا أخيه سالم بن الحسين وهما غيّاث الدين وشهاب الدين فأحسنا السيرة في عملّهما، ومال إليهما الناس وكثرت السعاية فيهما عند عمهما بأنهما يريدان الوثوب فبعث عنهما فامتنعا، فجهّز إليهما العساكر فهزماها وأظهرا عصيانه، وقطعا خطبته فسار إليهما فقاتلاه قتالاً شديداً، حتى انهزم فاستأمن إليهما فأجلساه على التخت، وقاما بخدمته. وزوّج غيّاث الدين أحدهما بنتا له، وبقي مستبدّاً على عمّه علاء الدولة، ثم عهد إليه بالأمر من بعده ومات.

وفاة علاء الدولة وولاية غياث الدين ابن أخيه من بعده وتغلب الغز علي غزنة:

ثم توفي علاء الدولة ملك الغورية سنة ست وخمسين، وقام بالأمر من بعده بيروز كوه غياث الدين أبو الفتح ابن أخيه سالم، وطمع الغز بموته في ملك غزنة

فملكوها من يده، وبقي غياث الدين في كرسيه ببيروز كوه وأعمالها، وإبنه سيف الدين محمد في بلاد الغور. ثم أساء السيرة الغز فى غزنة بعد مقامهم فيها خمس عشرة سنة، واستفحل أمر غياث الدين فسار إلى غزنة سنة إحدى وسبعين وخمسماية في عساكر الغوريّة. والخلج والخراسانية، ولقي الغزّ فهزمهم وملك غزنة من أيديهم. وسار إلى كرمان وشنوران فملكهما - وكرمان هذه بين غزنة والهند وليست كرمان المعروفة- ثم سار غيّاث الدين إلى لهاور ليملكها من يد خسروشاه بن بهرام فبادر خسروشاه إلى نهر المدّ ومنعه العبور منه فرجع، وملك ما يليه من جبال الهند وأعمال الأثغار، وولّى غزنة أخاه شهاب الدين ورجع إلى بيروز كوه.

استيلاء شهاب الدين الغوري علي لهاور ومقتل خسروشاه صاحبها:

ولما ولي شهاب الدين الغوري غزنة أحسن السيرة فيهم، وافتتح جبال الهند مما يليه فاستفحل ملكه، وتطاول إلى ملك لهاور قاعدة الهند من يد خسروشاه فسار سنة تسع وسبعين وخمسماية في عساكر خراسان والغور، وعبر إليها وحاصرها، وبذل الأمان لخسروشاه وأنكحه إبنته وسوّغه ما يريد من الإقطاع، على أن يخرج إليه، ويخطب لأخيه فأبى من ذلك، وبقي شهاب الدين يحاصره حتى ضاق مخنقه بالحصار. وخذله أهل البلد فبعث بالقاضي والخطيب يستأمنان له فأمّنه ودخل شهاب الدين البلد، وبقي خسروشاه عنده مكّرماً. وبعد شهرين وصل الأمر من غيّاث بإنقاذ خسروشاه إليه فارتاب من ذلك فأمنه شهاب الدين، وحلف له وبعث به وبأهله

وولده مع جيش يحفظونهم، فلمّا وصلوا بلاد الغور حبسهم غيّاث الدين ببعض قلاعه فكان آخر العهد به وبابنه.

استيلاء غياث الدين علي هراة وغيرها من خراسان:

ولما استقر ملك غيّاث الدين بلهاور، كتب إلى أخيه شهاب الدين الذي تولّى فتحها أن يقيم الخطبة له، ويلّقبه بألقاب السلطان فلّقبه غياث الدنيا والدين معين الإسلام والمسلمين، قسيم ؛ أمير المؤمنين 0 ولّقب أخاه شهاب الدين بعزّ الدين. ثم لما فرغ شهاب الدين من أمور لهاور، وسار إلى أخيه غيّاث الدين ببيروز كوه، واتفق رأيهما على المسير إلى هراة مر، خراسان سار في العساكر فحاصرها، وبها عسكر السلطان سنجر وأمراؤه فاستأمنوا إليها، وملكا هراة. وسار إلى بوشنج فملكها ، ثم إلى باذغيس كذلك. وولّى غياث الدين على ذلك، وعاد إلى بيروز كوه وشهاب الدين إلى غزنة ظافرين غانمين.

فتح أجرة علي يد شهاب الدين:

لما عاد شهاب الدين إلى غزنة راح بها أياماً حش استراحت عساكره. ثم سار غازياً

إلى بلاد الهند سنة سبع وأربعين وخمسماية، وحاصر مدينة أجرة وبها ملك من ملوكهم فلم يظفر منه بطائل، فراسل امرأة الملك في أنه يتزوّجها اذا ملك البلد فأجابت بالعذر، ورغبت في إبنتها فأجاب فقتلت زوجها بالسمّ وملّكته البلد فأخذ الصبية وأسلمت، وحملها إلى غزنة ووسع عليها الجراية، ووكّل بها من يعلّمها القرآن حتى توفت والدتها ، وتوفت هي من بعدها لعشر سنين. ولما ملك البلد سار في نواحي الهند فدوّخها وفتح الكثير منها، وبلغ منها ما لم يبلغه أحد قبله.

حروب شهاب الدين مع الهنود وفتح دلهي وولاية قطب الدين ايبك عليها:

ولما اشتدّت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند تراسل ملوكهم، وتلاوموا بينهم وتظاهروا على المسلمين، وحشدوا عساكرهم من كل جهة، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم في حكم إمرأة ملكت عليهم وسار هو في عساكره من الغوّرية والخلج والخلنجين والخراسانية وغيرهم، والتقوا فمحّص الله المسلمين وأثخن فيهم الكفرة بالقتل. وضرب شهاب الدين في يده اليسرى فشلّت، وعلى رأسه فسقط عن فرسه، وحجز بينهم الليل، وحمله جماعة من غلمانه إلى منجاته ببلده. وسمع الناس بنجاته فتباشروا ووفدوا عليه من كل جهة، وبعث إليه أخوه غياث الدين بالعساكر، وعذله في عجلته.

ثم ثارت الملكة ثانياً إلى بلاد شهاب الدين بالعساكر، وبعثت إلى شهاب الدين بالخروج عن أرض الهند إلى غزنة فأجاب إلى ذلك بعد أن يستأذن أخاه غياث الدين وينظر جوابه. وأقاموا على ذلك، وقد حفظ الهنود مخاضات النهر بينهم وهو يحاول العبور فلا يجد، وبينما هو كذلك جاء بعض الهنود فدلّه على مخاضة فاستراب به حتى عرفه قوم من أهل أجرة والملتان. وبعث الأمير الحسن بن حرميد الغوري في عسكر

كثيف، وعبر تلك المخاضة ووضع السيف في الهنود فأجفل الموكلون بالمخاضات. وعبر شهاب الدين وباقي العساكر وأحاطوا بالهنود، ونادوا بشعار الإسلام فلم ينج منهم إلاّ الأقل، وقتلت ملكتهم وأسروا منهم أمماً.

وتمكن شهاب الدين بعدها من بلاد الهند، وحملوا له الأموال وضربت عليهم الجزية فصالحوه وأعطوه الرهن عليها. وأقطع قطب الدين أيبك مدينة دلهي، وهي كرسي الممالك التي فتحها وأرسل عسكراً من الخلج مختارين ففتحوا من بلاد الهند ما لم يفتحه أحد، حتى قاربوا حدود الصين من جهة الشرق، وذلك كله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

مقتل ملك الغور محمد بن علاء الدين:

قد تقدّم لنا أن محمد بن علاء الدين ملك الغور بعد أبيه، وأقام مملكاً عليها. ثم سار سنة ثمان وخمسين وخمسماية بعد أن احتفل في الاحتشاد، وجمع العساكر، وقصد بلخ وهي يومئذ للغزّ فزحفوا إليه. وجاءهم بعض العيون بأنه خرج من معسكره لبعض الوجوه في خفّ من الجند فركبوا لاعتراضه، ولقوه فقتلوه في نفر من أصحابه، وأسروا منهم آخرين، ونجا الباقون إلى المعسكر فارتحلوا هاربين إلى بلادهم، وتركوا معسكرهم بما فيه فغنمه الغزّ وانقلبوا إلى بلخ ومروا ظافرين غانمين.

الفتنة بين الغورية وبين خوارزم شاه علي ما ملكوه من بلاد خراسان:

قد تقدّم لنا أنّ غيّاث الدين وشهاب الدين إبني أبي الفتح سام بن الحسين الغوري

رجعا إلى خراسان سنة سبع وأربعين وخمسماية فملكا هراة وبوشنج وباذغيس وغيرها، وذلك عند انهزام سنجر أمام الغزّ، وافترق ملكه بين أمرائه ومواليه فصاروا طوائف، وأظهرهم خوارزم شاه بن أنس بن محمد بن أنوشرتكين صاحب خوارزم. فلما كان سنة خمس وسبعين وخمسماية قام بأمره ابنه سلطان شاه، ونازعه أخوه علاء الدين تكش فغلبه على خوارزم. وخرج سلطان شاه إلى مرو فملكها من يد الغزّ. ثم أخرجوه منها فاستجاش بالخطا وأخرجهم من مرو وسرخس ونسا وأبيورد، وملكها جميعاً، وصرف الخطا إلى بلادهم.

وكتب الى غياث الدين أن يترل له عن هراة وبوشنج وباذغيس وما ملكه من خراسان،

وهدّده على ذلك فراجعه بإقامة الخطبة له بمرو وسرخس، وما ملكه من خراسان فامتعض لذلك سلطان شاه وسار إلى بوشنج فحاصرها، وعاث في نواحيها.

وجهز غيّاث الدين عساكره مع صاحب سجستان وابن أخته بهاء الدين سام بن باميان لغيبة أخيه شهاب الدين في الهند فساروا إلى خراسان، وكان سلطان شاه يحاصر هراة فخام عن لقائهم، ورجع إلى مرو، وعاث في البلاد في طريقه، وأعاد الكتاب إلى غيّاث الدين بالتهديد فاستقدم أخاه شهاب الدين من الهند فرجع مسرعاً، وساروا إلى خراسان. وجمع سلطان شاه جموعا ونزل الطالقان، وتردّدت الرسل بين سلطان شاه وغيّاث الدين حتى جنح إلى الصلح بالترول له عن بوشنج وبادغيس، وشهاب الدين يجنح إلى الحرب، وغيّاث الدين يكفهم.

وجاء رسول سلطان شاه لإتمام العقد فقام شهاب الدين العلويّ وقال: لا يكون هذا أبداً، ولا تصالحوه. وقام شهاب الدين ونادى في عسكره بالحرب، والتقدّم إلى مرو الروذ. وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه، ودخل إلى مرو في عشرين فارساً. وبلغ الخبر إلى أخيه فسار لتعرّضه عن جيحون. وسمع سلطان شاه بتعرّض أخيه له

فرجع عن جيحون، وقصد غيّاث الدين فأكرمه وأكرم أصحابه، وكتب أخوه علاء الدين في ردّه إليه، وكتب إلى نائب هراة يتهدّده فامتعض غيّاث الدين لذلك، وكتب إلى خوارزم شاه بأنه مجير وشفيع له، ويطلب بلاده وميراثه من أبيه، ويضمن له الصلح مع أخيه سلطان شاه. وطلب منه مع ذلك أن يخطب له بخوارزم، ويزوّج أخته من شهاب الدين فامتعض علاء الدين لذلك، وكتب بالتهديد فسرّح غيّاث الدين جميع عساكره مع سلطان شاه إلى خوارزم شاه، وكتب إلى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجده فجمع عساكره، وقام في انتظارهم. وسمع بذلك علاء الدين تكش، وهو زاحف للقاء أخيه سلطان شاه، وعساكر الغورية فخشي أن يخالفوه إلى خوارزم وكرّ إليها راجعاً. واحتمل أمواله وعبر إلى الخطا، وقدم فقهاء خوارزم في الصلح والصهر، ووعظه الفقهاء وشكوا إليه بأنّ علاء الدين يستجيش بالخطا فإمّا أن تتخذ مرو كرّسيّاً لك فتمنعنا منهم، أو تصالحه فأجاب إلى الصلح، وترك معاوضة البلاد ورجع إلى كرسيّه.

غزوة شهاب الدين إلي الهند وهزيمة المسلمين بعد الفتح ثم غزوته الثانية وهزيمة الهنود وقتل ملكهم وفتح أجمير:

كان شهاب الدين قد سار سنة ثلاث وثمانين وخمسماية إلى الهند وقصد بلاد أجمير، وتعرف

بولاية السواك، وإسم ملكهم كوكه فملك عليهم مدينة تبرندة ومدينة أسرستي وكوه رام فامتعض الملك، وسار للقاء المسلمين، ومعه أربعة عشر فيلا ولقيهم شهاب الدين في عساكر المسلمين فانهزمت ميمنته وميسرته، وحمل على الفيلة فطعن منها واحداً، ورمي بحربة في ساعده فسقط عن فرسه. وقاتل أصحابه عليه فخلصوه وانهزموا، ووقف الهنود بمكانهم. ولما أبعد شهاب الدين عن المعركة نزف من جرحه الدم فأصابه الغشي، وحمله القوم على أكتافهم في محفّة اتخذوها من اللبود ووصلوا به إلى لهاور. ثم سار منها إلى غزنة فأقام إلى سنة ثمان وثمانين وخمسماية، وخرج من غزنة غازياً لطلب الثأر من ملك الهند، ووصل إلى برساور. وكان وجوه عسكره في سخطة منه منذ انهزموا عنه في النوبة الأولى فحضروا عنده واعتذروا، ووعدوا من أنفسهم الثبات، وتضرّعوا في الصفح فقبل منهم، وصفح عنهم وسار حتى انتهى إلى موضع المصاف الأوّل وتجاوزه بأربع مراحل، وفتح في طريقه بلاداً. وجمع ملك الهند، وسار للقائه فكّر راجعاً إلى أن قارب بلاد الإسلام بثلاث مراحل، ولحقه الهنود قريبا من بربر فبعث شهاب الدين سبعين ألفاً من عسكره ليأتوا العدوّ من ورائهم، وواعدهم هو الصباح، وأسرى هو ليله فصابحهم فذهلوا وركب الملك فرسه للهروب فتمسّك به أصحابه فركب الفيل، واستماتت قومه عنده، وكثر فيهم القتل ، وخلص إليه المسلمون فأخذوه أسيراً، وأحضروه عند شهاب الدين فوقف بين يديه وجذبوا بلحيته حتى قبّل الأرض. ثم أمر به فقتل ولم ينج من الهنود إلا الأقل. وغنم المسلمون جميع ما معهم وكان في جملة الغنائم الفيول. ثم سار شهاب الدين إلى حصنهم الأعظم وهو أجمير ففتحه عنوة، وملك جميع البلاد التي تقاربه، وأقطعها كلها لمملوكه أيبك نائبه في دلهي وعاد إلى غزنة.

غزوة بناوس ومقتل ملك الهند ثم فتح بهنكر:

كان شهاب الدين ملك غزنة قد أمر مملوكه قطب الدين أيبك خليفته على دلهي أن

يغم!و بلاد الهند من ناحيته فسار فيها ودوّخها وعاث في نواحيها. وسمع ملك بناوس، وهو أكبر ملوك الهند وولايته من تخوم الصين إلى بلاد ملاوا طولاً، ومن البحر الأخضر إلى عشرة أيام من لهاور عرضا. وتلك البلاد من أيام السلطان محمود مقيمون على إسلامهم، فاستنفر معه مسلمون كانوا في تلك البلاد فسار إلى شهاب الدين سنة تسعين وخمسماية، والتقوا على ماحون نهر كبير يقارب دجلة فاقتتلوا، ونزل الصبر. ثم نصر الله المسلمين واستلحم الهنود، وقتل ملكهم وكثر السبي في جواريهم، والأسرى من أبنائهم، وغنموا منهم تسعين فيلا. وهرب بقية الفيول، وقتل بعضها. ودخل شهاب الدين بلاد بناوس، وحمل من خزائنها ألفا وأربعمائة حمل، وعاد إلى غزنة، ثم سار سنة اثنتين وتسعين إلى بلاد الهند، وحاصر قلعة بهنكر حتى تسلمها على الأمان، ورتب فيها الحامية. وسار إلى قلعة كواكير، وبينهما خمس مراحل يعترضها نهر كبيو فحاصرها شهرا حتى صالحوه على مال يحملونه، فحملوا إليه حمل فيل من الذهب فرحل عنهم إلى بلاد أبي رسود فأغار ونهب وسبى وأسر، وعاد إلى غزنة ظافرا.

استيلاء الغورية علي بلخ وفتنتهم مع الخطا بخراسان:

كان الخطا قد غلبوا على مدينة بلخ، وكان صاحبها تركيا اسمه ازبة يحمل إليهم الخراج كل سنة وراء النهر. فتوفي ازبة سنة أربع وتسعين. وكان بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود صاحب باميان من قبل خاله غياث الدين فسار إلى بلخ، وقطع الحمل للخطا، وخطب لغياث الدين. وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت في طاعة الكفار فامتعض الخطا لذلك، واعتزموا على فتنة الغورية. واتفق أن علاء الدين تكش صاحب خوارزم بعث إليهم يغريهم ببلاد غياث الدين. وكان سبب ذلك أنه ملك الري وهمذان وأصفهان وما بينهما، وتعرض لعساكر الخليفة، وطلب الخطبة والسلطنة ببغداد مكان ملوك السلجوقية فبعث الخليفة يشكوه إلى غياث الدين، يقبح فعله وينهاه عن قصد العراق، ويتهدده بسلطان شاه وأخذ بلاده فأنف من ذلك، وبعث إلى الخطا يغريهم ببلاده فجهز ملك الخطا جيشاً كثيفاً مع مقدم عساكره وعبروا النهر إلى بلاد الغور.

وسار علاء الدين تكش إلى طوس لحصارها لأن غياث الدين عاجز عن الحركة بعلة النقرس فعاثوا في بلاده ما شاء الله، وحاصر الخطا بهاء الدين فاشتدت الحرب وثبت المسلمون. وجاء المدد من عند غياث الدين، ثم حملوا جميعاً على الخطا فهزموهم إلى

جيحون وألقى الكثير منهم أنفسهم في الماء فهلك منهم نحو اثني عشر ألفا وعظم الأمر على ملك الخطا، وبعث إلى علاء الدين تكش صاحب خوارزم يطوقه الذنب ويطالبه بدية القتلى من أصحابه. وألزمه الحضور عنده فبعث علاء الدين تكش يشكو ذلك إلى غياث الدين فرد جوابه، باللوم على عصيان الخليفة، ودعا ذلك علاء الدين إلى الفتنة مع الخطا وانتزاعه بخارى من أيديهم كما يأتي في أخبارهم.

استيلاء الغورية علم ملك خوارزم شاه بخراسان:

ثم توفي علاء الدين تكش صاحب خوارزم، وكان قد ملك بعض خراسان وبلاد الري والبلاد الجبالية فولي بعده ابنه قطب الدين، ولقب علاء الدين بلقب أبيه، وولى علاء الدين أخاه علي شاه خراسان، وأقطعه

نيسابور. وكان هندوخان ابن أخيهما ملك شاه فخاف عمه فلحق بمرو، وجمع الجموع. وبعث إليه عمه محمد العسكر مع جنقر التركي فهرب هندوخان، ولحق بغياث الدين مستنجدا به على عمه فأكرمه ووعده. :دخل جنقر إلى مرو، وحمل منها ولدخان وأمه مكرمين إلى خوارزم. وأرسل غياث الدين إلى صاحب الطالقان محمد بن خربك بأن يتهدد جنقر فسار من الطالقان، واستولى على مرو الروذ وبعث إلى جنقر يأمره بالخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارقها فأساء الجواب ظاهرا، واستأمن إلى غياث الدين سرا.

ولما علم غياث الدين بذلك قوي طمعه في البلاد، وكتب إلى أخيه شهاب الدين بالمسير إلى خراسان فسار من غزنة في عساكره في منتصف سنة ست وتسعين. ولما انتهى إلى الطالقان استحثه جنقر صاحب مرو للبلد، وأخبره بطاعته، حتى إذا وصل إليه خرج في العساكر فقاتله، وهزمه شهاب الدين، وزحف بالفيلة إلى السور فاستأمن من جنقر وخرج إليه، وملك شهاب الدين مرو، وبعث بالفتح إلى غياث الدين فجاء إلى مرو وبعث جنقر إلى هراة مكرما، وسلم مرو إلى هندوخان بن ملك شاه المستنجد به، وأوصاه بالإحسان إلى أهلها.

وسار إلى سرخس فحاصرها ثلاثا وملكها على الأمان، وأرسل إلى علي شاه نائب علاء الدين محمد بنيسابور، وينذره الحرب إن امتنع من الطاعة فاستعد للحصار، وخربوا العمائر بظاهرها وقطعوا الأشجار، وحمل محمود بن غياث الدين فضايق البلد، وملك جانبها ورفع راية أبيه على السور.

وحمل شهاب الدين من الناحية الأخرى فسقط السور بين يديه، وملك البلد ونهب الجند عامتها. ثم نادوا بالأمان، ورفع النهب، واعتصم الخوارزميون بالجامع فأخرجهم أهل البلد إلى غياث الدين. ثم سار إلى قهستان فذكر له عن قرية في نواحيها أن أهلها إسماعيلية فدخلها، وقتل المقاتلة وسبى الذرية وخرب القرية. ثم سار إلى مدينة أخرى ذكر له عنها مثل ذلك، وأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يستغيثون من شهاب الدين، ويذكرونه العهد فأرسل غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بالرجوع عنهم طوعا أو كرها، ووصل الرسول بذلك فامتنع فقطع طنب خيمته، ورحل العسكر فرحل شهاب الدين كرها، ورجع إلى غزنة.

فتح نهرواكد من الهند:

لما رجع شهاب الدين من خراسان غاضبا من فعل أخيه لم يعرج على غزنة، ودخل بلاد الهند غازيا سنة ثمان وتسعين. وبعث في مقدمته مملوكه قطب الدين ايبك ولقيه عساكر الهند دون نهرواكد فهزمهم ايبك، واستباحهم وتقدم إلى نهرواكد فملكها عنوة. وفارقها ملكها وجمع، ورأى شهاب الدين أنه لا يقوم بحمايتها إلا مقامه فيها ؛ فصالح ملكها على مال يؤديه إليه عنها، ورجع إلى غزنة.

إعادة علاء الدين محمد صاحب خوارزم ما أخذه الغورية من خراسان:

لما فصل الغورية عن خراسان، وملكوا ما ملكوه منها، وسار شهاب الدين إلى الهند غازيا بعث علاء الدين محمد صاحب خوارزم إلى غياث الدين يعاتبه على ما فعل في خراسان، ويطلب إعادة بلده، ويهدده باستدعاء عساكر الخطا فصانعه في الخطا حتى قدم شهاب الدين فطمع بالمصانعة. وبعث إلى نائبهم بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور، ويتهدده فكتب إلى غياث الدين بذلك، وبميل أهل نيسابور إلى عدوهم فوعده النصر.

وسار إليه علاء الدين صاحب خوارزم آخر سنة تسع وتسعين فلما انتهى إلى نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخيه، ولحق بغياث الدين في فيروز كوه، وملك علاء الدين مدينة مرو. وسار إلى نيسابور وحاصرها شهرين فلما أبطأ عن نائبها المدد من غياث الدين استأمن لصاحب خوارزم، وخرج إليه هو وأصحابه فأحسن إليهم، وطلب علاء الدين ألط

يسعى في الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه فوعده بذلك، وسار إلى هراة فأقام بها و لم يمض إلى غياث الدين سخطه لتأخر المدد عنه.

واختص صاحب خوارزم الحسن بن حرميل من أعيان الغورية، واستحلفه أن يكون

معه عند غياث الدين. ثم سار إلى سرخس، وبها الأمير زنكي فحاصره أربعين يوما، وتعددت بينهما حروب. ثم بعث ابنه زنكي بأن يتأخر عن البلد قليلا حتى يخرج هو وأصحابه فتأخر بأصحابه، وخرج زنكي فشحن البلد بالأقوات والحطب، وأخرج من ضاق به الحصار. وتحصن فندم صاحب خوارزم على تأخره وجهز عسكرا لحصاره ورجع. فلما بعد سار محمد بن خربك من الطالقان، وأرسل إلى زنكي بأن يكبس العسكر الذي عليه، ونذر بذلك أهل العسكر فأفرجوا عن سرخس. وخرج زنكي ولقي محمد بن خربك في مرو، وجبوا خراج تلك الناحية، وبعث إليهم صاحب خوارزم عسكراً من الثلاثة آلاف فارس فلقيهم محمد بن خربك في تسعمائة فهزمهم، وغنم معسكرهم وعاد صاحب خوارزم إلى بلده، وأرسل إلى غياث الدين في الصلح فأجابه مع أمير من أكابر الغورية اسمه الحسن بن محمد المرغني فقبض عليه صاحب خوارزم، وحبسه. ومرغن من قرى الغور.

حصار هرا ة:

لما بعث صاحب خوارزم إلى غياث الدين في الصلح، وجاء عند الحسن المرغني

تبين عنه المغالطة فحبسه، وسار إلى هراة وحاصرها، وكان بها اخوان من خدمة السلطان شاه تكش فكتبا إلى صاحب خوارزم، ووعداه بالثورة له في البلد، وكانا يليان مفاتح الأبواب وأمور الحصار من داخل، فاطلع الأمير الحسن المرغني المحبوس عند صاحب خوارزم على أمرهما فبعث بذلك إلى أخيه عمر صاحب هراة فاعتقلهما. وبعث غياث الدين العساكر مددا لهراة مع ابن أخته ألب غازي فترل على خمسة فراسخ منها، ومنع الميرة عن عسكر صاحب خوارزم فبعث صاحب خوارزم عسكراً إلى الطالقان للغارة عليها فقاتلهم الحسن بن خربك فظفر بهم، و لم يفلت منهم أحد. ثم سار غياث الدين في عساكره، ونزل قريباً من هراة فاعتزم صاحب خوارزم على الرحيل بعد حصار أربعين يوما لهزيمة أصحابه بالطالقان، ومسير العساكر مع ألب غازي، ثم مسير غياث الدين، ثم

توقعه عود شهاب الدين من الهند. وكان قد وصل إلى غزنة منتصف ثمان وتسعين فراسل أمير هراة وصالحه على مال حمله إليه، وارتحل عن البلد، وبلغ الخبر شهاب الدين، وجاء إلى طوس وشتى بها عازما على حصار خوارزم، فجاء الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فأثنى عزمه وسار إلى هراة.

وفاة غياث الدين وانفراد شهاب الدين بالملك:

ثم توفي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام صاحب غزنة وبعض خراسان، وفيروز كوه ولهاور ودهلي من الهند. وكان أخوه شهاب الدين بطوس كما ذكرنا فسار إلى هراة، وأظهر وفاة أخيه، وجلس للعزاء. وخلف غياث الدين ابنا اسمه محمود فلقب غياث الدين. ولما سار شهاب الدين عن طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن خربك، وبعث إليه صاحب خوارزم العساكر فبيتهم ولم ينج منهم إلا القليل، وأنفذ بالأسارى والرؤوس إلى هراة. وأعاد إليه صاحب خوارزم الجيوش مع منصور التركي فلقيهم على عشرة فراسخ من مرو فهزموه، وحاصروه خمسة عشر يوما حتى استأمن إليهم، وخرج فقتلوه. وترددت الرسل بين شهاب الدين وصاحب خوارزم في الصلح فلم يتفق بينهما أمر. ولما اعتزم شهاب الدين على العود إلى غزنة ولى على هراة ابن أخته ألب غازي، وقلد علاء الدين محمد الغوري مدينة فيروز كوه وبلد الغور، وجعل إليه حرب خراسان وأمور المملكة. وجاءه محمود ابن أخيه غياث الدين فولاه على بست وأسفرايين وتلك الناحية، وأبعده عن الملك جملة.

وكانت لغياث الدين زوجة مغنية، شغف بها وتزوجها فقبض عليها شهاب الدين وضربها ضربا مبرحا، وضرب ولدها غياث الدين. وزوج أختها، واستصفاهم وغربهم إلى بلاد الهند. وكانت بنت مدرسة ودفنت فيها أباها فخربها، ونبش قبورهم ورمى بعظامهم. وكان غياث الدين ملكا عظيما مظفراً على قلة حروبه فإنه كان قليل المباشرة للحروب، وكان ذا هيبة جوادا حسن العقيدة كثير الصدقة. بنى بخراسان وغيرها المساجد والمدارس للشافعية، وبنى الخوانك في الطرق، وبنى على ذلك الأوقاف الكثيرة، وأسقط المكوس. وكان لا يتعرض إلى مال أحد، ومن مات ووارثه غائب دفعه إلى أمناء التجار من أهل بلده ليوصلوه إلى - ورثته، فإن لم يجد تاجرا ختم عليه القاضي

إلى أن يصل مستحقه. وإن كان لا وارث له تصدق عنه بماله. وكان يحسن إلى أهل البلد إذا ملكها ويفرض الأعطيات للفقهاء كل سنة من خزائنه، ويفرق الأموال على الفقراء، ويصل العلوية والشعراء. وكان أديبا بليغا بارع الخط، ينسخ المصاحف ويفرقها في المدارس التي بناها. وكان شافعي المذهب من غير تعصب لهم، ويقول: التعصب في المذاهب هلاك.

فتنة الغور مع محمد بن تكش صاحب خوارزم وحصار هراة ثم حصارهم خوارزم وحلاب شهاب الدين مع الخطا:

لما هلك غياث الدين ملك أخوه شهاب الدين بعده فطمع محمد بن تكش صاحب خوارزم في ارتجاع هراة. وكان قد راسل شهاب الدين في الصلح فلم يتم. وسار شهاب الدين عن غزنة إلى لهاور غازيا فسار حينئذ محمد بن تكش إلى هراة منتصف سنة ستمائة، وحاصرها وكان بها ألب غازي، ابن أخت شهاب الدين. وطال حصارها إلى سلخ شعبان، وقتل بين الفريقين خلق: منهم رئيس خراسان المقيم يومئذ بمشهد طوس. وكان الحسين بن حرميل من أعيان الغورية بجوربان، وهو إقطاعه، فمكر بصاحب خوارزم، وأظهر له الموالاة.

وأشار بأن يبعث إليه فوارس يعطيهم بعض الفيلة. وقعد لهم هو والحسين بن محمد المرغني بالمراصد فاستلحموهم. ثم مات ألب غازي وضجر صاحب خوارزم محمد من الحصار فارتحل إلى سرخس وحاصرها، وبلغت هذه الأخبار شهاب الدين ببلاد الهند فكر راجعاً، وقصد مدينة خوارزم فأغذ محمد بن تكش السير من سرخس، ونزل أثقاله وسبقه إليها وقاتله الخوارزمية قتالا شديدا وفتكوا فيه. وهلك من الغورية جماعة: منهم الحسين بن محمد المرغني، وأسر جماعة من الخوارزمية فأمر شهاب الدين بقتلهم.

ثم بعث خوارزم شاه إلى الخطا يستنجدهم أن يخالفوا شهاب الدين إلى بلاد الغورية فساروا إليها. ولما سمع شهاب الدين كر راجعا إلى البلاد فلقي مقدمه عسكرهم بصحراء ايدخوي في صفر سنة إحدى وستمائة فأوقع بهم، وأثخن فيهم، وجاءت ساقتهم على أثر ذلك فلم يكن لشهاب الدين بهم قبل فانهزم، ونهبت أثقاله، وقتل الكثير من أصحابه. ونجا في الفل إلى ايدخوي، وحاصروه حتى أعطاهم بعض الفيلة، وخلص.

وكثر الارجاف في بلاد الغور بمهلكه ووصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد لحق بها نائبها الحسين بن حرميل ناجيا من الوقعة فاستكثر له من الزاد والعلوفة، وكفاه مهمه. وكان مستوحشا مع من استوحش من الأمراء بسبب انهزامهم عن شهاب الدين فحمله شهاب الدين إلى غزنة تأنيسا له، واستحجبه. ولما وقع الارجاف بموت شهاب الدين جمع مولاه تاج الدين العسكر، وجاء إلى غزنة طامعا في ملكها فمنعه مستحفظها فرجع إلى إقطاعه، وأعلن بالفساد، وأغرى بالخلج من الترك فكثر عيثهم، وكان له مولى آخر اسمه ايبك فلحق بالهند عند نجاته من المعركة، وأرجف بموت السلطان واستولى على المتان، وأساء فيها السيرة. فلما وصل خبر شهاب الدين جمع تاج الدين الذر - وهو مملوك اشتراه شهاب الدين - الناس من سائر النواحي. ثم جمع شهاب الدين لغزو الخطا والثأر منهم.

حلاب شهاب الدين مع بني كوكر والتتراهية:

كان بنو كوكر هؤلاء موطنين في الجبال بين لهاور والملتان معتصمين بها لمنعتها، وكانوا في طاعة شهاب الدين يحملون إليه الخراج فلما وقع الارجاف بموته، انتقضوا وداخلوا صاحب جبل الجودي وغيره من أهل الجبال في ذلك، وجاهروا بالعيث والفساد، وقطع السابلة ما بين غزنة ولهاور وغيرها. وبعث شهاب الدين إلى محمد بن أبي علي لهاور والملتان يأمره بحمل المال بعد أن قتل مملوكه ايبك. قال: ومهد البلاد فاعتذر بنو كوكر فبعث شهاب الدين مملوكه ايبك إلى بني كوكر يتهددهم على الطاعة فقال كبيرهم: لو كان شهاب الدين حيا لكان هو المرسل إلينا، واستخفوا أمر ايبك فعاد الرسول بذلك فأمر شهاب الدين بتجهيز العساكر في قرى سابور.

ثم عاد إلى غزنة في شعبان سنة إحدى وستمائة، ونادى بالمسير إلى الخطا. ورجع بنو كوكر إلى حالهم من إخافة السابلة، ودخل معهم كثير من الهنود في ذلك، وخشي على انتقاض البلاد فأثنى عزمه عن الخطا، وسار إلى غزنة، وزحف إلى جبال بني كوكر في ربيع الأول سنة اثنتين. ولما انتهى إلى قرى سابور أغذ السير وكبس بني كوكر في محالهم ، وقد نزلوا من الجبال إلى البسيط يرومون اللقاء فقاتلوه يوما إلى الليل، وإذا بقطب الدين ايبك في عساكره منادين بشعار الإسلام فحملوا عليهم، وانهزموا وقتلوا بكل مكان. واستنجوا

باجمة فأضرمت عليهم نارا، وغنم المسلمون أهاليهم وأموالهم حتى بيع المماليك خمسة بدينار. وقتل كبير بني كوكر الذي كان مملكاً عليهم، وقصد دانيال صاحب الجند الجودي، وسار إليها فأقام بها منتصف رجب، وهو يستنفر الناس. ثم عاد نحو غزنة، وأرسل بهاء الدين سام صاحب باميان بالنفير إلى سمرقند، وأن يتخذ الجسر لعبور العساكر. وكان أيضاً ممن دعاه هذا الإرجاف إلى الانتقاض التتراهية، وهم قوم من أهل الهند بنواحي قرى سابور دينهم المجوسية، ويقتلون بناتهم بعد النداء عليهن للتزويج فإذا لم يتزوجها أحد قتلوها، وتزوج المرأة عندهم بعدة أزواج. وكانوا يفسدون في نواحي قرى سابور ؛ ويكثرون الغارة عليها، وأسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغوري. ثم انتقضوا عند هذا الإرجاف، وخرجوا إلى حدود سوران ومكران، وشنوا الغارة على المسلمين فسار إليهم الخلخي نائب تاج الدين الذي بتلك الجهة فأوقع بهم، وأثخن فيهم، وبعث برؤوس الأعيان منهم فعلقت ببلاد الإسلام وصلح أمر البلاد.

مقتل شهاب الدين الغول ي وافتراق المملكة بعده:

لما قضى شهاب الدين شأنه من بلاد الغور، وأصلح ما كان بها من الفساد ارتحل

من لهاور عائدا إلى غزنة عازماً على قصد الخطا، بعد أن استنفر أهل الهند وأهل خراسان فلما نزل بدميل قريبا من لهاور طرق خيمته جماعة من الدعار فقتلوا بعض الحرس، وثار بهم الناس، وذهل باقي الحرس بالهيعة فدخل منهم البعض على شهاب الدين وضربوه في مصلاه، وقتلوه ساجدا، وقتلوا عن آخرهم أول شعبان سنة اثنتين وستمائة. فيقال إن هذه الجماعة من الكوكرية الذين أحفظهم ما فعل بهم، ويقال من الإسماعيلية لأنهم كانوا غفوا منه، وكانت عساكره تحاصر قلاعهم. ولما قتل اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين خواجا سحتا، واتفقوا على حفظ المال إلى أن يقوم بالأمر من يتولاه من أهله. وتقدم الوزير إلى أمير العسكر بضبط العسكر، وحملت جنازة شهاب الدين في المحفة، وحملوا خزائنه، وكانت ألفين ومائتي حمل.

وتطاول الموالي مثل صونج صهر الذر وغيره إلى نهب المال فمنعهم الأمراء الكبار، وصرفوا الجند الذين إقطاعهم عند قطب الدين ايبك ببلاد الهند أن يعودوا إليه، وساروا إلى غزنة متوقعين البيعة على الملك بين غياث الدين محمود ابن السلطان غياث

الدين، وبين بهاء الدين سام صاحب باميان ابن أخت شهاب الدين فيملك الخزانة والأتراك يريدون طريق سوران ليقربوا من فارس. وكان هوى الوزير مؤيد الملك مع الأتراك فلم يزل بالغورية حتى إذا وصلوا طريق كرمان ساروا عليها، ولقوا بها مشقة من غارات التتراهية واقعان وغيرهم. ولما وصلوا إلى كرمان استقبلهم تاج الدين الذر ونزل عن فرسه، وقبل الأرض بين يدي المحفة. ثم كشف عن وجهه فمزق ثيابه وأجد بالبكاء حتى رحمه الناس. وكان شهاب الدين شجاعا قرماً عادلا كثير الجهاد. وكان القاضي بغزنة يحضر داره أربعة أيام في كل أسبوع فيحكم بين الناس، وأمراء الدولة ينفذون أحكامه، وإن رافع أحد خصمه إلى السلطان سمع كلامه ورده إلى القاضي، وكان شافعي المذهب.

قيام الذر بدعوة غياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين:

كان تاج الدين الذر من موالي شهاب الدين وأخصهم به فلما قتل طمع في ملك غزنة، وأظهر القيام بدعوة غياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وأنه كتب إليه بالنيابة عنه بغزنة لشغله بأمر حران. وتسلم الخزائن من الوزير، وسار إلى غزنة فدفن شهاب الدين بتربته في المدرسة التي أنشأها، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وستمائة وأقام بغزنة.

مسير بهاء الدين سام إلي غزنة وموته وملك بهاء الدين ابنه بعده غزنة: كان بهاء الدين قد أقطع باميان ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود عندما ملكها، وأنكحه أخته فولدت ابنا هو سام، وكان له ابن آخر من امرأة تركية اسمه عباس فلما مات ملك ابنه الأكبر عباس، فغضب غياث الدين وشهاب الدين لابن أختهما، وعزلوا عباسا وولوه مكانه على باميان فعظم شأنه، وجمع الأموال وترشح للملك بعد أخواله لميل أمراء الغز إليه بعد أخواله. فلما قتل شهاب الدين كان في قلعة غزنة نائب اسمه أميردان فبعث ابنه إلى بهاء الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وابن حرميل عامل هراة بحفظ أعمالها، وإقامة الخطبة له بها. والغورية والأتراك على ما ذكرناه من الاختلاف فسار في عساكره إلى غزنة، ومعه ابنا علاء الدين وأمرهما جميعاً بالمسير إلى غزنة وبلاد الهند. فلما مات ثار ابناه في غزنة وخرج أمراء الغورية لغياث الدين وتلقوهما والأتراك معهم مغلبين فملكوا البلد، ونزلوا دار السلطنة مستهل رمضان من سنة اثنتين وستمائة، واعتزم الأتراك على منعهم وعاد لهم الأمير مؤيد الملك لاشتغال غياث الدين منهم بابن حرميل عامل هراة فلم يرجعوا، ونبذوا إلى علاء الدين وأخيه العهد وآذنوهما بالحرب إن لم يرجعا فبعثا إلى تاج الدين الذر، وهو بإقطاعه يستدعيانه ويرغبانه بالأموال والمراتب السلطانية والترغيب في الدولة.

استيلاء الذر علي غزنة:

كان الذر بكرمان لما بلغه مقتل شهاب الدين تسلم الأموال والخزائن من الوزير، وأظهر دعوة غياث الدين ابن مولاه السلطان غياث الدين. وسار بهاء الدين سام من باميان كما ذكرنا. ومات في طريقه وملك ابنه علاء الدين غزنة كما ذكرنا. واستعطف الأتراك، وبعث إلى الذر يرغبه ويسترضيه فأبى من طاعته، وأساء الرد عليه وسار عن كرمان في عساكر كثيفة من الترك والخلخ والغز وغيرهم. وبعث إلى علاء الدين وأخيه بالنذير فأرسل علاء الدين وزيره ووزير ابنه صلة إلى باميان وبلخ وترمذ ليحتشد العساكر، وبعث الذر إلى الأتراك الذين بغزنة بأن مولاهم غياث الدين، واجتمعت جماعة الغورية والأتراك فالتقوا في رمضان، ونزع الأتراك إلى الذر فالهزم محمد بن حدورون وأسر. ودخل عسكر الذر المدينة فنهبوا بيوت الغورية والباميانية. واعتصم علاء الدين بالقلعة، وخرج جلال الدين في عشرين فارسا إلى باميان، وحاصر الذر القلعة حتى استأمن علاء الدين في المسير من غزنة إلى باميان.

ولما نزل من القلعة تعرض له بعض الأتراك فأرجلوه عن فرسه، وسلبوه فبعث إليه الذر بالمال والمركب والثياب فوصل إلى باميان فشرع في الاحتشاد وأقام الذر بغزنة يظهر طاعة غياث الدين، ويترحم على شهاب الدين، و لم يخطب له ولا لأحد. وقبض على داود والي القلعة بغزنة. وأحضر القضاة والفقهاء، وكان رسول الخليفة

مجد الدين أبو علي بن الربيع الشافعي مدرس النظامية ببغداد وفد على شهاب الدين رسولا من قبل الخليفة وأحضره الذر ذلك اليوم، وشاورهم بالجلوس على التخت والمخاطبة بالألقاب السلطانية. وأمضى ذلك واستوحش الترك حتى بكى الكثير منهم، وكان هناك جماعة من

ولد ملوك الغور وسمرقند فأنفوا من خدمته، وانصرفوا إلى علاء الدين وأخيه في باميان، وأرسل غياث الدين محمود أن يصهر إليه في بنته بابنه فأبى من ذلك. ثم جاء في عس!كر من الغوريين من باميان، وأرسل غياث الدين وفرق في أهلها الأموال واستوزر مؤيد الملك فوزر له على كره.

أخبار غياث الدين بعد مقتل عمه:

لما قتل السلطان شهاب الدين كان غياث الدين محمود ابن أخيه السلطان غياث الدين في إقطاعه ببست. وكان شهاب الدين قد ولى على بلاد الغور علاء الدين محمد بن أبي علي من أكابر بيوت الغورية، وكان إماميا غالياً فسار إلى بيروز كوه يسابق إليها غياث الدين، وكان الأمراء الغورية أميل إلى غياث الدين، وكذا أهل بيروز كوه فلما دخل خوارزم دعا محمد المرغني، ومحمد بن عثمان من أكابر الغورية، واستحلفهم على قتال محمد بن تكش صاحب خوارزم. وأقام غياث الدين بمدينة بست ينتظر مال الأمر لصاحب باميان لأنهما كان بينهما العهد من أيام شهاب الدين إن تكون خراسان لغياث الدين، وغزنة والهند لبهاء الدين صاحب باميان بعد موت شهاب الدين، فلما بلغه موت شهاب الدين دعا لنفسه، وجلس على الكرسي في رمضان سنة ثلاث وستمائة، واستخلف الأمراء الذين في أثره فأدركوه وجاؤوا به، وملك بيروز كوه، وقبض على جماعة من أصحاب علاء الدين ولما دخل بيروزكوه جاء إلى الجامع فصلى فيه. ثم ركب إلى دار أبيه فسكنها، وأعاد الرسوم، وقدم عليه عبد الجبار محمد بن العشير إلى وزير أبيه فاستوزره، واقتفى بأبيه في العدل والإحسان. ثم كاتب ابن حرميلى بهراة: ولاطفه في الطاعة، وكان ابن حرميل لما بلغه مقتل السلطان بهراة خشي عادية خوارزم شاه فجمع أعيان البلد وغيرهم، واستحلفهم على الإنجاد والمساعدة وقال القاضي وابن زياد: يحلف كل الناس إلا ابن غياث الدين، وينتظر عسكر خوارزم شاه، وشعر غياث الدين بذلك من بعض عيونه فاعتزم على المسير إلى هراة. واستشار ابن حرميل القاضي وابن زياد فأشارا عليه بطاعة غياث الدين على مكر ابن حرميل، وميله إلى خوارزم شاه. وحثه على قصد هراة ليكون ذلك حجة عليه ففعل، وبعث به مع ابن زياد. ثم كاتب غياث الدين صاحب الطالقان وصاحب مرو يستدعيهما فتوقفوا عن إجابته. فقال أهل مرو

لصاحبها: إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين وتتوجه وإلا سلمناك وقيدناك وأرسلناك إليه فاضطر إلى المجيء إلى فيروزكوة فخلع عليه غياث الدين، ووفر له الإقطاع، وأقطع الطالقان لسونج مولى أبيه المعروف بأمير شكار.

استيلاء خوارزم شاه علي بلاد الغورية بخراسان:

كان الحسن بن حرميل نائب الغورية بهراة منتقضا عليهم كما ذكرنا، ومداخلا لخوارزم شاه في الباطن واستدعى العساكر من عنده، وبعث ابن زياد يستوثق له من غياث الدين، وأقام يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

ووصل ابن زياد بالولاية والخلع فلم يثنه ذلك عما هو فيه من المكاذبة لهم. ثم وصل عسكر خوارزم شاه فتلقاهم وأكرمهم. وبلغه أن خوارزم شاه في أثرهم على أربع فراسخ من بلخ فندم في أمره ورد إليه عسكره، وبلغ غياث الدين عسكر خوارزم شاه ووصولهم إلى هراة فاستدعى ابن حرميل فقبض على أملاكه، ونكب أصحابه. ورد أقطاعه فاعتزم أهل هراة على القبض عليه. وكتب القاضي وابن زياد بذلك إلى غياث الدين. ونمي الخبر إلى ابن حرميل فخشي على نفسه منهم وأوهمهم أنه يكاتب غياث الدين، وطلبهم في الكتاب مع رسوله، وأوصى الرسول أن يعدل إلى طريق خوارزم شاه، ولحق بهم فردهم، وأصبحوا على البلد لرابعة يوم من سفر الرسول فأدخلهم ابن حرميل البلد، وأمكنهم من أبوابها. وقبض على ابن زياد وسمله، وأخرج القاضي فلحق بغياث الدين في بيروزكوه، ونمي الخبر بذلك إلى غياث الدين، فاعتزم على المسير بنفسه، فبلغه سير علاء الدين صاحب باميان إلى غزنة فاقتصر عن ذلك، وأقام ينتظر شأنه مع الذر. وأما بلخ فإن خوارزم شاه لما بلغه مقتل شهاب الدين أطلق أسرى الغوريين الذين كانوا عنده، وخلع عليه واستألفهم. وبعث أخاه علي شاه في العساكر إلى بلخ فقاتله عمر بن الحسين الغوري نائبها. ونزل منها على أربعة فراسخ.

وجاء خوارزم شاه مددا بنفسه آخر سنة اثنتين وستمائة فحاصرها، فاستمد عمر بن الحسين علاء الدين وجلال الدين من باميان، وشغلوا عنه بغزنة فأقام خوارزم شاه محاصرا له أربعين يوما، وكان عنده محمد بن علي بن بشير، وأطلقه في أسرى الغورية،

وأقطعه فبعثه إلى عمر بن الحسين صاحب بلخ في الطاعة فأبى من ذلك، واعتزم خوارزم شاه على المسير إلى هراة. ثم بلغه ما وقع بين الذر وبين علاء الدين وجلال الدين، وأن الذر أسرهما، وأن عمر بن الحسين صاحب بلخ أبى ذلك فأعاد عليه ابن بشير، فلم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى أطاع صاحب خوارزم، وخطب له. وخرج إليه، فخلع عليه وأعاده إلى بلده في سلخ ربيع سنة ثلاث. ثم سار إلى جورقان ليحاصرها، وبها علي بن أبي علي فوقعت المراوضة بينهما. ثم انصرف عن جورقان وتركها لابن حرميل، واستدعى عمر بن الحسين الغوري، وصاحب بلخ فقبض عليه، وبعثه إلى خوارزم، ومضى إلى بلخ فملكها، وولى عليها جعفرا التركي ورجع إلى خوارزم.

استيلاء علاء الدين ثانيا علي غزنة ثم انتزاع الذر إياها من يده:

قد تقدم لنا استيلاء الذر على غزنة وإخراجه علاء الدين وجلال الدين منها إلى باميان فأقاما بها شهرين، ولحق كثير من الجند بعلاء الدين صاحبهم، وأقام الذر بغزنة متوقفا عن الخطبة لغياث الدين يروم الاستبداد، وهو يعلل الأتراك برجوع رسوله من عند غياث الدين مخافة أن ينفضوا عنه. فلما ظفر بعلاء الدين، وملك القلعة أظهر الاستبداد وجلس على الكرسي. وجمع علاء الدين وجلال الدين العساكر، وساروا من باميان إلى غزنة، وسرح الذر عساكره للقائهما فهزماها وأثخناها. وهرب الذر إلى بلد كرمان واتبعه بعض العسكر فقاتلهم ودفعهم. وسار علاء الدين وأخوه إلى غزنة وملكوها، وأخذوا خزانة شهاب الدين التي كان الذر أخذها من يد الوزير مؤيد الدين عند مقدمه بجنازة شهاب الدين إلى كرمان كما مر. ثم اعتزم علاء الدين وأخوه على

العود إلى غزنة وأهلها متوقعون النهب من عسكرهم والفيء. وكان بينهم رسول الخليفة مجد الدين بن الربيع مدرس النظامية، جاء إلى شهاب الدين فقتل وهو عنده، وأقام بغزنة فقصده أهل غزنة أن يشفع فيهم فشفع وسكن الناس. وعاد علاء الدين وأخوه إلى غزنة. ثم وقع بينهما تشاجر على اقتسام الخزانة، وعلى وزارة مؤيد الملك فندم الناس على طاعتهما. وسار جلال الدين ومعه عباس إلى باميان، وبقي علاء الدولة بغزنة، وأساء وزيره السيرة في الجند والرعية ونهب الأموال، حتى باعوا أمهات أولادهم. ويشكون فلا يشكيهم أحد فسار الذر في جموع الأتراك والغز والغورية فكبسهم ايدكن الشرفي مولى شهاب الدين في ألفين

وملك كرمان. وجاء الذر أثر ذلك، وأنكر على ايدكن وملك كرمان، وأحسن إلى أهلها. وبلغ الخبر إلى علاء الدين بغزنة فبعث وزيره إلى أخيه جلال الدين في باميان، وكانت عساكر الغورية قد فارقوه ولحقوا بغياث الدين، ووصل الذر آخر سنة اثنتين وستمائة إلى غزنة فملكها، وامتنع علاء الدين بالقلعة فسكن الذر الناس وأمنهم، وحاصروا القلعة. وجاء الخبر إلى الذر بأن جلال الدين قادم عليك بعساكره، ولحق سليمان بن بشير بغياث الدين ببيروز كوه فأكرمه، وجعله أمير داره، وذلك في صفر سنة ثلاث. وسار الذر فلقي جلال الدين وهزمه، وسيق أسيرا إليه. ورجع إلى غزنة وتهدد علاء الدين بقتل الأسرى إن لم يسلم القلعة. وقتل منهم أربعمائة أسير فبعث علاء الدين يستأمنه فأمنه. ولما خرج قبض على وزيره عماد الملك وقتله، وبعث إلى غياث الدين بالفتح.

انتقاض عباس في باميان ثم رجوعه إلى الطاعة:

لما أسر علاء الدين وجلال الدين كما قلناه في غزنة وصل الخبر إلى عمهما عباس

في باميان ومعه وزير أبيهما. وسار الوزير إلى خوارزم شاه يستنجده على الذر ليخلص صاحبيه فاغتنم عباس غيبته وملك القلعة، وكان مطاعا. وأخرج أصحاب علاء الدين وجلال الدين فرجع الوزير من طريقه فحاصره بالقلعة، وكان مطاعا في تلك الممالك من لدن بهاء الدين ومن بعده. فلما خلص جلال الدين من أسر الذر وصل إلى مدينة باميان واجتمع مع الوزير، وبعثوا إلى عباس ولاطفوه حتى نزل عما كان استولى عليه من القلاع، وقال: إنما أردت حفظها من خوارزم شاه.

استيلاء خوارزم شاه علي ترمذ ثم الطالقان من يد الغورية:

كان خوارزم شاه لما ملك بلخ من يد عمر بن الحسين الغوري سار منها إلى ترمذ، وبها ابنه. وقدم إليه محمد بن بشير بما كان من نزول أبيه عن بلخ، وأنه انتظم في أهل دولته وبعثه إلى خوارزم مكرما ورغبه بالإقطاع والمواعيد، وكان قد ضاق ذرعه من الخطا ووهن من أسر الذر أصحابه بغزنة فأطاع واستأمن. وملك خوارزم شاه ترمذ، ورأى أن يسلمها للخطا ليتمكن بذلك من خراسان، ثم يعود عليهم فينتزعها منهم. ولما فرغ من ذلك سار إلى الطالقان وبها سونج نائباً عن غياث الدين محمود وأرسل من يستميله فلج

وسار لحربه، حتى إذا التقيا نزل عن فرسه وسأل العفو فذمه بذلك، وأخذ ما كان بالطالقان بعض أصحابه، وسار إلى قلاع كاكوين وسوار فخرج إليه حسام الدين علي بن أبي علي صاحب كاكوين وقاتله، وطالبه في

تسليم البلاد فأبى. وسار خوارزم شاه إلى هراة ونزل بظاهرها وابن حرميل في طاعته فكف عس!اكره عن أهل هراة، ولقيه هنالك رسول غياث الدين بالهدايا. ثم سار ابن حرميل إلى أسفرايين في صفر، وقد كان صاحبها سار إلى غياث الدين فحاصرها حتى استأمن إليه وملك البلد. ثم أرسل إلى صاحب سجستان بطاعة خوارزم والخطبة له فأجاب إلى ذلك بعد أن طلبه في ذلك غياث الدين فامتنع. وعند مقام خوارزم شاه على هراة عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل الذي كان ابن حرميل أخرجه منها فلحق بشهاب الدين. ثم رجع من عنده إلى خوارزم شاه فسعى به ابن حرميل عنده حتى سجنه بقلعة زوزن وولى على القضاء بهراة الصفي أبا بكر محمد بن السرخسي.

خبر غياث الدين مع الذر وايبك مولى أبيه:

لما ملك الذر غزنة وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كتب إليه غياث الدين يأمره بالخطبة، وطاول في ذلك فبعث إليه يستحثه بأمر الخطيب بالترحم على شهاب الدين والخطبة لنفسه فاستراب الأتراك به، وبعث هو يشترط على غياث الدين العتق فأجابه إلى ذلك بعد توقف. وكان عزمه على أن يصالح خوارزم شاه ويستمده على الذر فلما طلب العتق أعتقه، وأعتق قطب الدين ايبك مملوك عمه شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند. وأرسل إلى كل منهما هدية وورد الخبر واستمر الذر على مراوغته وايبك على طاعته فاستمد غياث الدين خوارزم شاه على الذر فأمده على أن يرد ابن حرميل صاحب هراة إلى طاعته، وأن يقسم الغنيمة أثلاثا بينهما وبين العسكر.

وبلغ الخبر إلى الذر فسار إلى بكتاباد فملكها، ثم إلى بست وأعمالها كذلك. وقطع خطبة غياث الدين منها، وأرسل إلى صاحب سجستان بقطع خطبة خوارزم شاه وإلى ابن حرميل كذلك وبتهددهما، وأطلق جلال الدين صاحب باميان وزوجه بنته، وبعث معه خمسة آلاف فارس من ايدكين مملوك شهاب الدين ليعيدوا جلال الدين إلى ملكه بباميان. ويترلوا ابن عمه فلما سار معه ايدكين أغراه بالعود إلى غزنة، وأعلمه أن الأتراك مجمعون على خلاف الذر فلم يجبه جلال الدين إلى ذلك فرجع عنه ايدكين إلى إقطاعه بكابل ولقيه رسول من قطب الدين ايبك إلى الذر يتهدده على عصيانه على غياث الدين، ويأمره بالخطبة له، ووصل معه الهدايا والألطاف إلى غياث الدين، وأشار عليه ايبك بإجابة خوارزم إلى جميع ما طلب حتى يفرغ من أمر غزنة.

وكتب إلى ايبك يستأذنه في المسير إلى غزنة ومحاربة الذر فأذن له بمحاربته، ووصل ايدكين في رجب سنة ثلاث، وخطب لغياث الدين بغزنة وامتنعت عليه القلعة فنهب البلد ووصل الخبر إلى الذر بشأن ايدكين في غزنة ومراسلة ايبك له ففت ذلك في عضده، وخطب لغياث الدين في بكتاباد، وأسقط اسمه ورحل إلى غزنة فرحل ايدكين عنها إلى بلد الغور، وأقام في تمواز، وكتب إلى غياث الدين بالخبر، وأنفذ إليه أموالا فبعث إليه غياث الدين بالخلع وأعتقه وخاطبه بملك الأمراء. وسار غياث الدين إلى بست وأعمالها فاستردها وأحسن إلى أهلها وأقام الذر بغزنة.

مقتل ابن حرميل واستيلاء خوارزم شاه علي هراة:

كان ابن حرميل كما قدمناه استدعى عسكر خوارزم شاه إلى هراة وأنزلهم معه بهراة فساء أمرهم في الناس، وكثر عيثهم فحبسهم، وبعث إلى خوارزم شاه بصنيعهم ويعدده، وكان مشتغلا بقتال الخطا فكتب إليه يحسن فعله، ويستدعي الجند الذين حبسهم. وبعث إلى عز الدين خلدك أن يحتال في القبض على ابن حرميل فسار في ألفي فارس، وكان خلدك أيام السلطان سنجر واليا على هراة فلما قدم خرج ابن حرميل لتلقيه فترل كل واحد منهما إلى صاحبه، وأمر خلدك أصحابه بالقبض على ابن حرميل فقبضوا عليه. وانفض عنه أصحابه إلى المدينة فأمر الوزير خواجة الصاحب بغلق الأبواب والاستعداد للحصار، ونادى بشعار غياث الدين محمود فحاصره خلدك وبذل له الأمان، وتهدده بقتل ابن حرميل، وخاطبه بذلك ابن حرميل ففعل، وكتب بالخبر إلى خوارزم شاه فبعث ولاته بخراسان يأمرهم بحصار هراة فساروا في عشرة آلاف، وامتنعت هراة عليهم.

وكان ابن حرميل قد حصنها بأربعة أسوار محكمة وخندق وشحنها بالميرة، وصار يعدهم إلى حضور خوارزم شاه، وأسروه أياماً حتى فادى نفسه ورجع إلى خوارزم كما

يذكر في أخبار دولته. وأرجف بموته في خراسان فطمع أخوه علي شاه في طبرستان وكزل خان في نيسابور إلى الاستبداد بالملك فلما وصل خوارزم شاه هرب أخوه علي شاه، ولحق بشهاب الدين في بيروز كوه فتلقاه وأكرمه. وسار خوارزم شاه إلى نيسابور وأصلح أمرها واستعمل عليها، وسار إلى هراة، وعسكره على حصارها وقيل للوزير قد وصل خوارزم شاه لما وعدته. وتحدث في ذلك جماعة من أهل البلد فقبض عليهم ووقعت بذلك هيعة، وشعر بها خوارزم شاه فزحف إلى السور وخرب برجين منه، ودخل البلد فملكه وقتل الوزير وولى على هراة من قبله وذلك سنة خمس وستمائة ورجع إلى قتال الخطا.

مقتل غياث الدين محمود:

لما ملك خوارزم شاه مدينة هراة وولى عليها خاله أمير ملك، وأمره أن يسير إلى بيروز كوه ويقبض على صاحبها غياث الدين محمود بن غياث الدين الغوري، وعلى أخيه علي شاه بن خوارزم شاه فسار أمير ملك واستأمن له محمود فأمنه، وخرج إليه هو وعلي شاه فقبض عليهما أمير ملك وقتلهما، ودخل فيروز كوه سنة خمس وستمائة. وصارت خراسان كلها لخوارزم شاه.

استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها:

ولما استولى خوارزم شاه على عامة خراسان، وملك باميان وغيرها أرسل إلى تاج الدين الذر صاحب غزنة في الخطبة والسكة، وأن يقرر الصلح على غزنة بذلك فشاور أهل دولته، وفيهم قطلوتكين من موالي شهاب الدين، وهو النائب عن الذر بغزنة فأشار عليه بطاعته، وأعاد الرسول بالإجابة، وخطب له، وسار عن غزنة متصديا. وبعث قطلوتكين إلى خوارزم شاه سرا أن يبعث إليه من يسلمه غزنة فجاء بنفسه وملك غزنة. وهرب الذر إلى لهاور. ثم أحضر خوارزم شاه قطلوتكين وقتله بعد أن استصفاه وحصل منه على أموال جمة، وولى على غزنة ابنه جلال الدين، وذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة ورجع إلى بلده.

استيلاء الذر على لهاور ومقتله:

لما هرب الذر من غزنة أمام خوارزم شاه لحق بلهاور، وكان صاحبها ناصر الدين قباجة من موالي شهاب الدين وله معها ملتان وآمد والديبل إلى ساحل البحر، وله من العسكر خمسة عشر ألف فارس، وجاءه الذر في ألف وخمسمائة فقاتله على التعبئة ومعه الفيلة فانهزم الذر أولا، وأخذت فيوله. ثم كانت له الكرة وحمل فيل له على علم قباجة بإغراء الفيال، وصدق هو الحملة فانهزم قباجة وعسكره وملك الذر مدينة لهاور، ثم سار إلى الهند ليملك مدينة دلهي وغيرها من بلاد المسلمين، وكان قطب الدين ايبك صاحبها قد مات ووليها بعده مولاه شمس الدين فسار إليه، والتقيا عند مدينة سمابا واقتتلا فانهزم الذر وعس!كره وأسر فقتل. وكان محمود السيرة في ولايته كثير العدل والإحسان إلى الرعية لا سيما التجار والغرباء، وكان بملكه انقراض دولة الغورية والبقاء لله وحده.

دولة الديلم

الخبر عن دولة الديلم وما كان لهم من الملك والسلطان في ملة الإسلام ودولة بني بويه منهم المتغلبين علي الخلفاء العباسيين ببغداد وأولية ذلك ومصائده

قد تقدم لنا نسب الديلم في أنساب الأمم وأنهم من نسل ماذاي بن يافث، وماذاي معدود في التوراة من ولد يافث. وذكر ابن سعيد ولا أدري عمن نقله: إنهم من ولد سام بن باسل بن آشور بن سام، وآشور مذكور في التوراة من ولد سام. وقالى: إن الموصل من جرموق بن آشور، والفرس والكرد والخزر من ايران بن آشور، والنبط والسوريان من نبيط بن آشور. وهكذا ذكر ابن سعيد والله أعلم. والجيل عند كافة النسابين إخوانهم على كل قول من هذه الأقوال، وهم أهل جيلان جميعاً عصبية واحدة من سائر أحوالهم. ومواطن هؤلاء الديلم والجيل بجبال طبرستان وجرجان إلى جبال الرفي وكيلان وحفافي البحيرة المعروفة ببحيرة طبرستان من لدن أيام الفرس وما قبلها، ولم يكن لهم ملك فيما قبل الإسلام.

ولما جاء الله بالإسلام وانقرضت دولة الأكاسرة، واستفحلت دولة العرب وافتتحوا الأقاليم بالمشرق والمغرب والجنوب والشمال كما مر في الفتوحات، وكان من لم يدخل

من الأمم في دينهم دان لهم بالجزية، وكان هؤلاء الديلم والجيل على دين المجوسية، ولم تفتح أيام الفتوحات، وإنما كانوا يؤدون الجزية. وكان سعيد بن العاص قد صالحهم على مائة ألف في السنة، وكانوا يعطونها وربما يمنعونها، ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد، وكانوا يمنعون الطريق من العراق إلى خراسان على قومس.

ولما ولي يزيد بن المهلب خراسان سنة ست وثمانين للهجرة، ولم يفتح طبرستان ولا جرجان، وكان يزيد بن المهلب يعيره بذلك إذا قصت عليه أخباره في فتوحات بلاد الترك ويقول: ليست هذه الفتوح بشيء والشأن في جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور، فلفا ولاه سليمان بن عبد الملك خراسان سنة تسع وتسعين أجمع على غزوها ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال ومحاصر، يقوم الرجل على باب منها فيمنعه. وكانت طبرستان مدينة وصاحبها الأصبهبد.

ثم سار إلى جرجان مولاه فراسة، وسار الهادي إليهما وحاصرهما حتى استقاما على الطاعة. ثم بعث المهدي سنة ثمان وتسعين يحيي الحرشي في أربعين ألفا من العساكر فترل طبرستان وأذعن الديلم. ثم لحق بهم أيام الرشيد يحيى بن عبد الله بن حسن المثنى فأجاروه، وسرح الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي لحربهم فسار إليهم سنة خمس وتسعين ومائة فأجابوه إلى التمكين منه على مال شرطوه، وعلى أن يجيء بخط الرشيد وشهادة أهل الدولة من كبار الشيعة وغيرهم فبذل لهم المال، وكتب الكتاب. وجاء الفضل بيحيى فحبسه عند أخيه جعفر حسبما هو مذكور في أخباره. وفي سنة تسع وثمانين كتب الرشيد وهو بالري كتاب الأمان لسروين بن أبي قارن ورندا هرمز بارخشان صاحب الديلم، وبعث بالكتاب مع حسن الخادم إلى طبرستان فقدم بارخشان ورندا هرمز وأكرمهما الرشيد وأحسن إليهما، وضمن رندا هرمز الطاعة والخراج عن سروين بن أبي قارن.

ثم مات سروبن وقام مكانه ابنه شهريار، ثم زحف سنة إحدى وثمانين عبد الله بن خرداذبة وهو عامل طبرستان إلى البلاد والسيزر من بلاد الديلم فافتتحها وافتتح سائر بلاد طبرستان، وأنزل شهريار بن سروين عنها. وأشخص مازيار بن قارن ورندا هرمز إلى المأمون وأسر أبا ليلى. ثم مات شهريار بن سروين سنة عشر وقام مكانه ابنه سابور

فحاربه مازيار بن قارن بن رندا هرمز وأسره ثم قتله. ثم انتقض مازيار على المعتصم وحمل الديلم وأهل تلك الأعمال على بيعته كرها وأخذ رهنهم وجبى خراجهم، وخرب أسوار آمل وسارية، ونقل أهلها إلى الجبال، وبنى على حدود جرجان سورا من طميس إلى البحر مسافة ثلاثة أميال وحصنه بخندق. وكانت الأكاسرة بنته سدا على طبرستان من الترك.

وقد نقل أهل جرجان إلى نيسابور وأملى له في انتقاضه الأفشين مولى المعتصم وكبير دولته، طمعه في ولاية خراسان بما كان يضطغن ابن طاهر صاحب خراسان فدس إليه بذلك كتابا ورسالة حتى امتعض. وجهز عبد الله بن طاهر العساكر لحربه مع عمه الحسن ومولاه حيان بن جبلة. وسرح المعتصم العساكر يردف بعضها بعضا حتى أحاطوا بجباله من كل ناحية، وكان قارن بن شهريار أخو مازيار على سارية فدس إلى قواد ابن طاهر بالرجوع من كل ناحية، وكان قارن قد أتى إلى الطاعة والترول لهم عن سارية على أن يملكوه جبال آبائه، وأسجل له ابن طاهر بذلك فقبض على عمه قارن في جماعة من قواد مازيار، وبعث بهم فدخل قواد ابن طاهر جبال قارن وملكوا سارية. ثم استأمن إليهم قوهيار أخو مازيار ووعدهم بالقبض على أخيه على أن يولوه مكانه فأسجل له ابن طاهر بذلك، فقبض على أخيه مازيار، وبعث به إلى المعتصم ببغداد فصلبه واطلع منه على دسيسة الأفشين مولاه فنكبه وقتله.

ووثب مماليك مازيار بقوهيار فثاروا منه بأخيه وفروا إلى الديلم فاعترضتهم العساكر وأخذوا جميعاً. ويقال: إن الذي كان غدر بمازيار هو ابن عمه كان يضطغن عليه، عزله عن بعض جبال طبرستان، وكان مولاه ورأيه عن رأيه. ثم تلاشت الدعوة العباسية بعد المتوكل، وتقلص ظلها. واستبد أهل الأطراف بأعمالهم وظهرت دعاة العلوية في النواحي إلى أن ظهر بطبرستان أيام المستعين الحسن بن زيد الداعي العلوي من الزيدية وقد مر

ذكره، وكان على خراسان محمد بن طاهر بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، وقد ولى على طبرستان عمه سليمان بن عبد الله بن طاهر فكان محمد بن أوس ينوب عنه مستبدا عليه فاساء السيرة، وانتقض لذلك بعض عمال أهل الأعمال ودعوا جيرانهم الديلم إلى الا نتقاض.

وكان محمد بن أوس قد دخل بلادهم أيام السلم وأثخن فيها بالقتل والسبي، فلما

استنجدهم أولئك الثوار لحرب سليمان ونائبه محمد بن أوس نزعوا لإجابتهم، واستدعوا الحسن بن زيد من مكانه وبايعوه جميعاً، وزحفوا به إلى آمل فملكوها. ثم ساروا إلى سارية فهزموا عليها سليمان وملكوها. ثم استولى الحسن الداعي على طبرستان وكانت له ولأخيه بقده الدولة المعروفة كما هو معروف في أخبارهم أقامت قريبا من أربعين سنة، ثم انقرضت بقتل محمد بن زيد. ودخل الديلم الحسن الأطروش من ولد عمر بن زين العابدين، وكان زيدي المذهب فنزل فيما وراء السعيد دوى إلى آمل ولبث في الديلم ثلاث عشرة سنة، وملكهم يومئذ حسان بن وهشوذان وكان يدعوهم إلى الإسلام، ويأخذ منهم العشر ويدافع عنهم ملكهم ما استطاع فأسلم على يديه منهم خلق كثير وبنى لهم المساجد، وزحف بهم إلى قزوين فملكها وسالوس من ثغور المسلمين فأطاعوه، وملك آمل ودعاهم إلى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان فأجابوه، وساروا إليها سنة إحدى وثلاثمائة. وبرز إليها عاملها ابن صعلوك فهزمه الأطروش واستلحم سائر أصحابه، ولحق ابن صعلوك بالري ثم سار إلى بغداد. واستولى الأطروش على طبرستان وأعمالها، وقد ذكرنا دولته وأخبارها في دول العلوية، وكان استظهاره على أمره بالديلم وقواده في حروبه وولاته على أعماله منهم. ثم قتله جيوش السعيد بن سامان سنة أربع وثلاثمائة، ودال الأمر بين عقبه قواد الديلم كما هو مذكور في أخبارهم.

الخبر عن دولة الديلم وتغلبهم علي أعمال الخلفاء بفالس والعراقين:

كان للديلم جماعة من القواد بهم استظهر الأطروش وبنوه على أمرهم: منهم سرخاب بن وهشوذان أخو حسان، وهو معدود في ملوكهم، وكان صاحب جيش أبي الحسين بن الأطروش ثم أخوه علي، ولاه المقتدر على أصفهان. ثم ليلى بن النعمان من ملوكهم أيضاً وكان قائدا للأطروش، وولاه بعده صهره الحسن المعروف بالداعي الصغير على جرجان. ثم ماكان بن كالي وهو ابن عم سرخاب وحسان ابني وهشوذان، وولاه أبو الحسين بن الأطروش مدينة أستراباذ وأعمالها. ثم كان دون هؤلاء جماعة أخرى من القواد فمنهم من أصحاب ماكان بن كالي اسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار بن بادر وأخوه وشمكير ولشكري. ومن أصحاب مرداويج بنو بويه الملوك الأعاظم ببغداد والعراقين وفارس. ولما تلاشت دولة العلوية واستفحل هؤلاء القواد بالاستبداد على

أعقابهم في طبرستان وجرجان، وكانت خراسان عند تقلص الدولة العباسية على الأطراف قد غلب عليها الصفار وملكها من يد بني طاهر. ثم نازعه فيها بنو سامان والداعي العلوي فأصبحت مشاعا بينهم. ثم انفرد بها ابن سامان وكل منهم يعطي طاعة معروفة للخلفاء. ومركز ابن سامان وراء النهر وخراسان في أطراف مملكتهم. وزاد تقلص الخلافة عما وراءها فتطاول ملوك الديلم هؤلاء قواد الدولة العلوية بطبرستان إلى ممالك

البلاد، وتجافوا عن أعمال ابن سامان لقوة سورته واستفحال ملكه. وساروا في الأرض يرومون الملك وانتشروا في النواحي، وتغلب كل منهم على ما دفع إليه من البلاد. وربما تنازعوا بعضها فكانت لهم دون طبرستان وجرجان بلاد الري، وظفر بنو بويه منهم بملك فارس والعراقين. وحجر الخلفاء ببغداد فذهبوا بفضل القديم والحديث، وكانت لهم الدولة العظيمة التي باهى الإسلام بها سائر الأمم حسبما نذكر ذلك كله في أخبار دولتهم.

أخبار ليلي بن النعمان ومقتله:

كان ليلى بن النعمان من قواد الديلم، وكان أولاد الأطروش ينعتونه في كتابهم إليه المؤيد لدين الله المنتصر لأولاد رسول الله. وكان كريما شجاعا قد ولاه الحسن بن القاسم الداعي الصغير على جرجان بعد الأطروش سنة ثمان وثلاثمائة فسار من جرجان إلى الدامغان وهي في طاعة ابن سامان، وعليها مولاه قراتكين فبرزوا إليه وقاتلوه فهزمهم وأثخن فيهم، وعاد إلى جرجان فابتنى أهل الدامغان حصنا يمتنعون به. وسار قراتكين إلى ليلى فبرز إليه من جرجان وقاتله على عشرة فراسخ فانهزم قراتكين وأثخن في عسكره، وسار إليه فارس مولى قراتكين فأكرمه وزوجه أخته وكثرت أجناده، وضاقت أمواله فأغراه أبو حفص القاسم بن حفص بنيسابور، وأمره الحسن الداعي بالمسير إليها فسار وملكها آخر ثمان وثلاثمائة وخطب بها للداعي. وأنفذ السعيد نصر بن سامان عساكره من بخارى مع قواده حمويه بن علي ومحمد بن عبد الله البلغمي وأبو حفص بنيسابور وأبو الحسن صعلوك وسيجور الدواني فقاتلوا ليلى بن النعمان عن طوس، وهزموه فلحق بآمل واختفى فيها، وجاءه بقراخان وأخرجه من الاختفاء وأنفذ بالخبر إلى حمويه فأمره بقتله وتأمين أصحابه فقتل، وحمل رأسه إلى بغداد وذلك في ربيع سنة تسع وثلاثمائة. وبقي فارس غلام قراتكين بجرجان، وعاد قراتكين إلى جرجان فاستأمن إليه مولاه فارس فقتله قراتكين وانصرف عن جرجان.

أخبار سرخاب بن وهشوذان ومهلكه وقيام ماكان بن كالي بمكانه:

كان سرخاب بن وهشوذان الديلمي من قواد الأطروش وبنيه، وبايع لأبي الحسن بن الأطروش الناصر بعد مهلك أبيه بطبرستان وأستراباذ وكان صاحب جيشه. ولما انصرف قراتكين عن جرجان بعد مهلك ليلى بن النعمان سار إليها أبو الحسن بن الأطروش وسرخاب فملكوها، وأنفذ السعيد نصر بن سامان سنة عشر سيجور الدواني في أربعة آلاف فارس لقتاله، ونزل على فرسخين من جرجان وحاصرها أشهرا ثم برزوا إليه، وأكمن لهم سيجور كمينا فتباطأ الكمين وانهزم سيجور واتبعه سرخاب. ثم خرج الكمين بعد حين، وانهزم أبو الحسن إلى أستراباذ وترك جرجان، واتبعه سرخاب في الفل بمخلفه ومخلف أصحابه، ورجع سيجور إلى جرجان فملكها. ثم مات سرخاب ولحق ابن الأطروش بسارية فأقام بها واستخلف ماكان بن كالي، وهو ابن عم سرخاب فسار محمد بن عبيد الله البلغمي وسيجور لحصاره، وأقاموا عليه طويلا. ثم بذلوا له مالا على أن يخرج لهم عنها فتقوم لهم بذلك حجة عند ابن سامان ثم يعود ففعل ذلك، وخرج إلى سارية ثم نزل إلى الشمانية عن أستراباذ، وولوا عليها بقراخان فعاد إليها ماكان وملكها ولحق بقراخان بأصحابه في نيسابور.

بداية اسفار بن شيرويه وتغلبه علي جرجان ثم طبرستان:

كان اسفار هذا من الديلم من أصحاب ماكان بن كالي، وكان سيىء الخلق صعب العشرة وأخرجه ماكان من عسكره فاتصل ببكر بن محمد بن اليسع في نيسابور وهو عامل عليها من قبل ابن سامان فأكرمه واختصه بالعساكر سنة خمس عشرة لفتح جرجان. وكان ماكان بن كالي يومئذ بطبرستان وولى على جرجان أبا الحسن بن كالي، واستراب بأبي علي بن الأطروش فحبسه بجرجان فجعله عنده في البيت، وقام ليلة إليه ليقتله فأظفر الله العلوي به وقتله وتسرب من الدار. وأرسل من الغد إلى جماعة من القواد فجاؤوا إليه وبايعوه وألبسوه القلنسوة، وولى على جيشه علي بن خرشية، وكاتبوا اسفار بن شيرويه بذلك وهو في طريقه إليهم واستدعوه فاستأذن بكر بن محمد وسار إليهم، وسار علي بن خرشية في القيام بأمر جرجان بدعوة العلوي الذي معهم وضبط ناحيتها. وسار إليهم ماكان بن كالي في العساكر من طبرستان وقاتلوه فهزموه واتبعوه إلى طبرستان فملكوها من يده وقاموا بها.

ثم هلك أبو علي الأطروش وعلي بن خرشية صاحب الجيش، وانفرد اسفار بطبرستان. وسار بكر بن محمد بن اليسع إلى جرجان فملكها وأقام فيها دعوة نصر بن سامان. ثم رجع ماكان إلى طبرستان وبها اسفار فحاربه وغلبه، وملك طبرستان من يده، ولحق اسفار بجرجان فأقام بها عند بكر بن اليسع إلى أن توفي بكر فولاه السعيد على جرجان سنة خمس عشرة. ثم ملك نصر بن سامان الري بولاية المقتدر وولى عليها محمد بن علي بن صعلوك فطرقه المرض في شعبان سنة لمست عشرة، وكاتب الحسن الداعي اسفار ملك جرجان بولاية نصر بن سامان فاستدعى مرداويج بن زيار من ملوك الجبل وجعله أمير جيشه، وسار إلى طبرستان فملكها.

استيلاء اسفار علي الري واستفحال أمره:

لما استولى اسفار على طبرستان ومرداويج معه، وكان يومئذ على الري وملكها من

يد صعلوك كما ذكرناه. واستولى على قزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ، ومعه ا!سن بن القاسم الداعي الصغير وهو قائم بدعوته. فلما خالفه اسفار إلى طبرستان وملكها واستضافها إلى جرجان سار إليه ماكان والداير والتقوا بسارية واقتتلوا، وانهزم ماكان وقتل الداعي، وكانت هزيمته بتخاذل الديلم عنه فإن الحسن كان يشتد عليهم في النهي عن المنكر فنكروه، واستقدموا خال مرداويج من الجبل واسمه هزر سندان. وكان مع أحمد الطويل بالدامغان فمكروا بالداعي واستقدامه للاستظهار به، وهم يضمرون تقديمه عوض ماكان، ونصب أبي الحسن بن الأطروش عوض الحسن الداعي، ودس إليه بذلك أحمد الطويل صاحب الدامغان بعد موت صعلوك فحذرهم حتى إذا قدم هزر سندان أدخله مع قواد الديلم إلى قصره بجرجان. ثم قبض عليهم وقتلهم جميعاً، وأمر أصحابه بنهب أموالهم فامتعض لذلك سائر الديلم، وأقاموا على مضض، حتى إذا كان يوم لقائه اسفار خذلوه فقتل.

وفر ماكان واستولى اسفار على ما كان لهم من الرفي وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ واستضافها إلى طبرستان وجرجان، وأقام فيها دعوة السعيد بن سامان. ونزل سارية واستعمل على الري هرون بن بهرام

صاحب جناح، وكان يخطب فيها! لأبي جعفر العلوي فاستدعاه إليه وزوجه من آمل. وجاء أبو جعفر لوليمته مع جماعة من العلويين

فكبسهم اسفار وبعث بهم إلى بخارى فحبسهم بها إلى أن خلصوا مع يحيى أخي السعيد، وكانوا في فتية حسبما ذكرناه. ولما فرغ اسفار من الري تطاول إلى قلعة الموت ليحضن بها عياله وذخيرته، وكانت لسياه جشم بن مالك الديلمي ومعناه الأسود العين فاستقدمه اسفار وولاه قزوين، وسأله في ذلك فأجابه فنقل عياله إليها وسرب الرجال إليهم لخدمتهم حتى كملوا مائة. ثم استدعاه فقبض عليه، وثار أولئك بالقلعة فملكوها وكان في طريقه إلى الري استأمن إليه صاحب جبلي نهاوند وقم ابن أمير كان فملكها، ومر بسمنان فامتنع منه صاحبها محمد بن جعفر، وبعث إليه من الري بعض أصحابه فاستأمن إليه وخدعه حتى قتله وتدلى من ظهر القلعة.

ثم استفحل أمر اسفار وانتقض على السعيد بن سامان، وأراد أن يتزوج ويجلس على سرير الذهب، واعتزم على حرب ابن سامان والخليفة فبعث المقتدر العساكر إلى قزوبن مع هرون ابن غريب الحال فقاتله اسفار وهزمه. ثم سار ابن سامان إلى نيسابور لحربه فأشار على اسفار وزيره مطرف بن محمد الجرجاني بمسالمته وطاعته، وبذل الأموال له فقبل إشارته، وبعث بذلك إلى ابن سامان. وتلطف أصحابه في رجوعه إلى ذلك فرجع وشرط عليه الخطبة والطاعة فقبل، وانتظم الحال بينهما ورجع إلى السطوة بأهل الري. ولما كانوا عابوا عليه عسكر القتال ففرض عليهم الأموال وعسف بهم، وخص أهل تزوين بالنهب لما تولوا من ذلك وسلط عليهم الديلم فضاقت بهم الأرض.

مقتل اسفار وملك مرداويج:

كان مرداويج بن زيار من قواد اسفار، وكان قد سئم عسفه وطغيانه كما سئمه الناس

وبعثه اسفار إلى صاحب سميران الطر الذي ملك أذربيجان بعد ذلك يدعوه إلى طاعته ففاوضه في أمر اسفار وسوء سيرته في الناس، واتفقا على الوثوب عليه به فأجابوه وفيهم مطرف بن محمد وزيره فسار هو وسلار إليه، وبلغه الخبر فثار به الجند فهرب إلى الري، وكتب إلى ماكان بن كالي بطبرستان يستألفه على اسفار فسار إليه ماكان فهرب اسفار من بيهق إلى بست، ثم دخل مفازة الري قاصدا قلعة الموت التي حصن بها أهله وذخيرته. وتخلف عنه بعض أصحابه في المفازة، وجاء إلى مرداويج يخبره فسار إليه، وتقدم بين يديه بعض القواد فلقي اسفار وسأله عن قواده، فأخبره أن مرداويج قتلهم فسر بذلك. ثم

حمله القائد إلى مرداويج فأراد أن يحبسه بالري فحذره بعض أصحابه غائلته فأمر بقتله ورجع إلى الري. ولما قتل اسفار تنقل مرداويج في البلاد يملكها فملك قزوين ثم الري ثم همذان ثم كنكور ثم الدينور ثم دجرد ثم قم ثم قاشان ثم أصفهان ثم جرباد، واستفحل ملكه وعتا وتكبر، وجلس على سرير الذهب، وأجلس أكابر قواده على سرير الفضة وتقدم لعسكره بالوقوف على البعد منه ونودي بالخطاب بينهم وبين حاجبه.

استيلاء مرداويج علم طبرستان وجرجان:

قد ذكرنا أن الإلفة الواقعة بين مرداويج وماكان وتظاهرهما على اسفار حتى قتل وثبت مرداويج في الملك واستفحل أمره فتطاول إلى ملك طبرستان وجرجان. وسار إليهما سنة ست عشرة فالهزم ماكان أمامه، واستولى مرداويج على طبرستان وولى عليها اسفهسلان، وأمر على عسكره أبا القاسم، وكان حازما شجاعا. ثم سار إلى جرجان فهرب عامل ماكان عنها وملكها مرداويج، وولى عليها صهره أبا القاسم المذكور خليفة عنه، ورجع إلى أصفهان. ولحق أبو القاسم وهزمه فرجع السائر إلى الديلم ولحق ماكان بنيسابور، واستمد أبا علي بن المظفر صاحب جيوش ابن سامان فسار معه في عساكره إلى جرجان فهزمهما أبو القاسم ورجعا إلى نيسابور. ثم سار ماكان إلى الدامغان فدفعه عنها أبو القاسم فعاد إلى خراسان.

استيلاء مرداويج علي همذان والجبل وحروبه مع عساكر المقتدر:

لما ملك مرداويج بلاد الري أقبلت الديلم إليه فأفاض فيهم العطاء، وعظمت عساكره فلم تكفه جباية أعماله، وامتدت عينه إلى الأعمال التي تجاوره فبعث إلى همذان سنة تسع عشرة جيشا كثيفا مع ابن أخته، وبها محمد بن خلف وعسكر المقتدر فاقتتلوا* وأعان على همذان عسكر الخليفة فظفروا بعسكر مرداويج، وقتلوا ابن أخته فسار إليهم مرداويج من الري. وهرب عس!كر الخليفة من همذان ودخلها عنوة فأثخن فيهم واستلحمهم وسباهم ثم أمنهم وزحفت إليه عساكر المقتدر مع هرون ابن غريب الحال فهزمهم بنواحي همذان، وملك بلاد الجبل وما وراء همذان، وبعث قائدا من أصحابه إلى الدينور ففتحها عنوة، وبلغت عساكره نحو حلوان، وامتلأت أيديهم من الذهب والسبي ورجعوا.

خبر لشكري في أصفهان:

كان لشكري من الديلم ومن أصحاب أسفار واستأمن بعد قتله إلى المقتدر، وصار في جند هرون ابن غريب الحال. ولما الهزم هرون أمام مرداويج سنة تسع عشرة أقام في قرقلنين ينتظر مدد المقتدر. وبعث لشكري هذا إلى نهاوند يجيئه بمال منها فتغلب عليها، وجمع بها جندا، ثم مضى إلى أصفهان في منتصف السنة وبها أحمد بن كيغلغ فحاربه وهزمه، وملك أصفهان ودخل إليها عس!كره. وأقام هو بظاهرها فرأى لشكري فقصده يظنه من بعض جنده أي أحمد، فلما تراءى دافع أحمد بن كيغلغ عن نفسه فقتل، وهرب أصحابه ورجع ابن كيغلغ إلى أصفهان.

استيلاء مرداويج علي أصفهان:

ثم بعث مرداويج عس!كرا آخر إلى أصفهان سنة تسع عشرة فملكوها، وجددوا له مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فترلها، وعسكره يومئذ أربعون أو خمسون ألفا. ثم بعث عسكراً إلى الأهواز وخوزستان فملكوها وجبوا أعمالها، وبعث إلى المقتدر وضمن هذه البلاد بمائتي ألف دينار في كل سنة فقررت عليه، وأقطعه المقتدر همذان ورماه الكوفة.

قدوم وشمكير علي أخيه مرداويج:

وفي سنة ست عشرة بعث مرداويج رسوله من الجند ليأتيه بأخيه وشمكير فبعث إليه وأبلغه رسالة أخيه، وأعمه بمقامه في الملك فاستبعد ذلك ثم استغربه، ونكر على أخيه مشايعته للمسودة لأن الديلم والجيل كانوا شيعة للعلوية طبرستان فلم يزل الرسول به حتى سار به إلى أخيه. فخرج به إلى قزوين وألبسه السواد بعد مراوضة. وقدم على أخيه بدوياً حافياً مستوحشاً فلم يكن إلا أن رهف الملك أعطافه فأصبح أرق الناس حاشية وأكثر الناس معرفة بالسياسة.

خبر مرداويج مع ابن سامان علي جرجان:

كان أبو بكر المظفر صاحب جيوش ابن سامان بخراسان قد غلب على جرجان

وانتزعها من ملكه مرداويج، فلما فرغ مرداويج من أمر خوزستان والأهواز رجع إلى الري وسار منها إلى جرجان فخرج ابن المظفر عن جرجان إلى نيسابور، وبها يومئذ السعيد نصر بن سامان فسار لمدافعة مرداويج عن جرجان، وكاتب محمد بن عبد الله البلغمي من قواد ابن سامان مطرف بن محمد وزير مرداويج واستماله. وشعر بذلك فقتل وزيره، وبعث إليه البلغمي يعذله في قصد جرجان، ويطوق ذلك بالوزير مطرف، ويذكره حقوق السعيد بن سامان قبله وقصور قدرته عنه، ويشير عليه بالنزول له عن جرجان وتقرير المال عليه بالري فقبل مرداويج إشارته، وعاد عن جرجان وانتظم الحال بينهما.

بداية أمر بني بويه:

وكانوا إخوة ثلاثة أكبرهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد. لقبهم بهذه الألقاب الخلفاء عندما ملكوا الأعمال وقلدوهم إياها على ما نذكر بعد. وهم الذين تولوا حجر الخلفاء بعد ذلك ببغداد كما يأتي. وأبوهم أبو شجاع بويه بن قناخس. وللناس في نسبهم خلاف: فأبو نصر بن ماكولا أينسبهم إلى كوهى بن شيرزيك الأصغر بن شيركوه بن شيرزيك الأكبر ابن سران شاه بن سيرقند بن سيسانشاه بن سير بن فيروز بن شروزيل بن سنساد بن هراهم جور، وبقية النسب مذكور في ملوك الفرس. وابن مشكويه قال: يزعمون أنهم من ولد يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس.

والحق أن هذا النسب مصنوع تقرب إليهم به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، ولو كان نسبهم ذا خلل في الديلم لم تكن لهم تلك الرياسة عليهم، وإن كانت الأنساب قد تتغير وتخفى وتنتقل من شعب إلى شعب ومن قوم إلى قوم فإنما هو بطول الأعصار وتناقل الأجيال واندراس الأزمان والأحقاب. وأما هؤلاء فلم يكن بينهم وبين يزدجرد وانقطاع الملك من الفرس إلا ثلاثمائة سنة، فيها سبعة أجيال أو ثمانية أجيال ميزت فيها أنسابهم وأحصيت أعقابهم. فكيف يدرك مثل هذه الأنساب الخفاء في مثل هذه الأعصار. وإن قلنا كان نسبهم إلى الفرس ظاهرا منع ذلك من رياستهم على الديلم فلا شك في هذه التقادير في ضعة هذا النسب والله أعلم.

وأما بدايتهم فإنهم كانوا من أوسط الديلم نسبا وحالا. وفي أخبارهم أن أباهم أبا

شجاع كان فقيرا، وأنه رأى في منامه أنه يبول فخرج من ذكره نار عظيمة فاستضاءت الدنيا بها فاستطالت وارتفعت إلى السماء. ثم افترقت ثلاث شعب، ومن كل شعب عدة شعب فاستضاءت الدنيا بها والناس خاضعون لتلك النيران. وأن عابرا عبر له الرؤيا بأنه يكون له ثلاثة أولاد يملكون الأرض ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت النار، ويولد لهم ملوك بقدر الشعب. وأن أبا شجاع استبعد ذلك واستنكره لما كانوا عليه من توسط الحال في المعيشة فرجع المعبر إلى السؤال عن وقت مواليدهم فأخبروه بها، وكان منجما فعدل طوالعهم ، وقضى لهم جميعاً بالملك فوعدوه وانصرف.

ولما خرج قواد الديلم لملك البلاد، وانتشروا في الأعمال مثل ليلى وماكان وأسفار ومرداويج خرج مع كل واحد منهم جموع من الديلم رؤوس وأتباع، وخرج بنو أبي شجاع هؤلاء في جملة قواد ماكان فلما اضطرب أمره، وغلبه مرداويج عن طبرستان وجرجان مرة بعد مرة لحق آخرا بنيسابور مهزوما فاعتزم بنو بويه على فراقه، واستأذنوه في ذلك، وقالوا إنما نفارقك تخفيفا عليك فإذا صلح أمرك عدنا إليك. وساروا إلى مرداويج وتبعتهم جماعة من تواد ماكان فقبلهم مرداويج، وقلد كل واحد منهم ناحية من نواحي الجبل. وقلد علي بن بويه كرمس وكتب لهم العهود بذلك.

وساروا إلى الري وبها يومئذ أخوه وشمكير ومعه وزيره الحسين بن محمد العميد والد أبي الفضل. ثم بدا لمرداويج في ولاية هؤلاء القواد المستأمنة فكتب إلى أخيه وشمكير ووزيره الحميد بردهم عن تلك الأعمال.

وكان علي بن بويه قد أسلف عند العميد يدا في بغلة فارهة عرضها للبيع، واستأمنها العميد فوهبها له فرعى له العميد هذه الوسيلة. فلما قرأ كتاب مرداوبج دس إلى ابن بويه بأن يغذ السير إلى عمله فسار من حينه.

وغدا وشمكير على بقية القواد فاستعاد العهود من أيديهم، وأمر ابن بويه فأشار عليه أصحابه بترك ذلك لما فيه من الفتنة فتركه.

ولاية عماد الدولة بن بويه علي كرج وأصفهان:

ولما وصل عماد الدولة إلى كرج ضبط أمورها وأحسن السياسة في أهلها وأعمالها، وقتل جماعة من الخرمية كانوا فيها وفتح قلاعهم، وأصاب فيها ذخائر كثيرة فأنفقها في

جنده فشاع ذكره وحمدت سيرته. وكتب أهل الناحية إلى مرداويج بالنبأ فغص وجاء من طبرستان إلى الري، وأطلق مالا لجماعة من قواده على كرج فاستمالهم عماد الدولة وأحسن إليهم فأقاموا عنده. واستراب

مرداويج فكتب إلى عماد الدولة في استدعائهم فدافعه وحذرهم منه فحذروا. ثم استأمن إليه سيراذ من أعيان قواد مرداويج فكثف به جمعه وسار إلى أصفهان وبها المظفر بن ياقوت من قبل القاهر في عشرة آلاف مقاتل، وعلى خراجها أبو علي بن رستم فاستأذنهما في الانحياز إليهما والدخول في طاعة الخليفة فأعرضا عنه. ومات خلال ذلك ابن رستم وبرز ابن ياقوت من أصفهان لمدافعته واستأمن إليه من كان مع ابن ياقوت من الجيل والديلم ثم لقيه عماد الدولة في تسعمائة فهزمه وملك أصفهان.

استيلاء ابن بويه علي أرجان وأخواتها ثم علي شيراز وبلاد فارس:

ولما بلغ خبر أصفهان إلى مرداويج اضطرب وكتب إلى عماد الدولة بن بويه يعاتبه وش!تميله، ويطلب منه إظهار طاعته، ويمده بالعساكر في البلاد والأعمال، ويخطب له فيها. وجهز له أخاه وشمكير في جيش كثيف ليكبسه وهو مطمئن إلى تلك الرسالة. وشعر ابن بويه بالمكيدة فرحل عن أصفهان بعد أن جباها شهرين وسار إلى أرجان وبها أبو بكر ابن ياقوت من أصفهان والياً عليها ففصل عنها. ولما ملك ابن بويه أرجان كاتبه أهل شيراز يستدعونه إليهم وعليهم يومئذ ياقوت عامل الخليفة، وثقلت وطأته عليهم وكثر ظلمه فاستدعوا ابن بويه، وخام عن المسير إليهم فأعادوا إليه الكتاب بالحث على ذلك، وأن مرداويج طلب الصلح من ياقوت فعاجل الأمر قبل أن يجتمعا فسار إلى النوبندجان في ربيع سنة إحدى وعشرين، وسبقته إليها مقدمة ياقوت في ألفين من شجعان قومه. فلما وافاهم ابن بويه انهزموا إلى كرمان، وجاءهم ياقوت هنالك في جميع أصحابه. وأقام عماد الدولة بالنوبندجان، وبعث أخاه ركن الدولة الحسن إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس فلقي هنالك عس!كرا لياقوت فهزمهم وجبى تلك الأعمال، ورجع إلى أخيه با لأموال.

ثم وقعت المراسلة بين مرداوبج وياقوت في الصلح، وسار وشمكير إليه عن أخيه فخشيهما عماد الدولة وسار من نوبندجان إلى اصطخر، ثم إلى البيضاء وياقوت في

اتباعه. وسبقه ياقوت إلى قنطرة على طريق كرمان فصده عن عبوره، واضطره للحرب فتحاربوا واستأمن جماعة من أصحاب ابن بويه إلى ياقوت فقتلهم فخشيه الباقون واستماتوا. وقدم ياقوت أمام عسكره رجالة بقوار النفط فلما أشعلوها وقذفت أعادها الريح عليهم فعلقت بهم فاضطربوا، وخالطهم أصحاب ابن بويه في موقفهم وكانت الدبرة على ياقوت. ثم صعد إلى ربوة ونادى في أصحابه بالرجوع فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف نجارس، وأراد الحملة عليهم لاشتغالهم بالنهب ففطنوا له، وتركوا النهب وقصدوه فانهزم واتبعوهم فأثخنوا فيهم.

وكان معز الدولة أحمد بن بوبه من أشد الناس بلاء في هذه الحرب ابن تسع عشرة سنة لم يطر شاربه، ثم رجعوا إلى السواد فنهبوه، وأسروا جماعة منهم فأطلقهم ابن بويه وخيرهم فاختاروا المقام عنده فأحسن إليهم. ثم سار إلى شيراز فأمنها ونادى بالمنع من الظلم، واستولى على سائر البلاد وعرفوه بذخائر في دار الإمارة وغيرها من ودائع ياقوت وذخائر بني الصفار فنادى في الجند بالعطاء وأزاح عللهم، وامتلأت خزائنه. وكتب إلى الراضي وقد أفضت إليه الخلافة وإلى وزيره أبي علي بن مقلة تقرير البلاد عليه بألف درهم فأجيب إلى ذلك، وبعثوا إليه بالخلع واللواء. وكان محمد بن ياقوت قد فارق أصفهان عند خلع القاهر وولاية الراضي، وبقيت عشرين يوما دون أمير فجاء إليها وشمكير وملكها فلما وصل الخبر إلى مرداويج باستيلاء ابن بويه على فارس سار إلى أصفهان للتدبير عليه، وبعث أخاه وشمكير إلى الري.

استيلاء ماكان بن كالي علي الري:

قد ذكرنا في دولة بني سامان أن أبا علي محمد بن الياس كان سنة اثنتين وعشرين بكرمان منتقضا على السعيد فبعث إليه في هذه السنة جيشا كثيفا فاستولى على كرمان، وأقام فيها الدعوة لابن سامان. وكان أصل محمد

بن الياس من أصحاب السعيد فسخطه وحبسه، ثم أطلقه بشفاعة البلغمي. وبعث مع صاحب خراسان محمد بن المظفر إلى جرجان حتى إذا خرج أخوه السعيد من محبسهم وبايعوا ليحيى منهم كان محمد بن الياس معهم، حتى تلاشى أمرهم ففارقه ابن الياس من نيسابور إلى كرمان فاستولى عليها إلى هذه الغاية، فأزاله عنها ماكان ولحق بالدينور، وأقام ماكان واليا بكرمان بدعوة بني سامان.

مقتل مرداويج وملك أخيه وشمكير من بعده:

لما استفحل أمر مرداويج كما قلنا عتا وتجبر وتتوج بتاج مرصع على هيئة تاج كسرى، وجلس على كرسي الذهب وأجلس أكابر قواده على كراسي الفضة، واعتزم على قصد العراق والمدائن وقصور كسرى وأن يدعى بشاه. وكان له جند من الأتراك كان كثير الإساءة إليهم، ويسميهم الشياطين والمردة فثقلت وطأته على الناس، وخرج ليلة الميلاد من سنة ثلاث وعشرين إلى جبال أصفهان، وكانوا يسمونها ليلة الوقود لما يضرم فيها من النيران فأمر بجمع الحطب على الجبل من أوله إلى آخره أمثال الجبال والتلال، وجمع ألفي طائر من الغربان والحدآت وجعل النفط في أرجلها ليضرم الجبل نارا حتى يضيء الليل.

واستكثر من أمثال هذا اللعب، ثم عمل سماطاً للاكل بين يديه فيه مائة فرس ومائتا بقرة وثلاثة آلاف كبش وعشرة آلاف من الدجاج وأنواع الطير، وما لا يحصى من أنواع الحلوى، وهيأ ذلك كله ليأكل الناس ثم يقوموا إلى مجلس الشرب والندمان فتشعل النيران. ثم ركب آخر النهار ليطوف على ذلك كله بنفسه فاحتقره وسخط من تولى ترتيبه، ودخل خيمته مغضباً ونام فأرجف القواد بموته فدخل إليه وزيره العميد وأيقظه، وعرفه بما الناس فيه فخرج وجلس على السماط وتناول لقمتين، ثم ذهب وعاد إلى مكانه فقام في معسكره بظاهر أصفهان ثلاثا لا يظهر للناس. ثم قام في اليوم الرابع ليعود إلى قصره بأصفهان فاجتمعت العساكر ببابه، وكثر صهيل الخيل ومراحها فاستيقظ لكثرة الضجيج فازداد غضبه، وسأل عن أصحاب الدواب فقيل إنها للأتراك نزلوا للخدمة وتركوها بين يدي الغلمان فأمر أن تحل عنها السروج، وتجعل على ظهور الأتراك ويقودونهم إلى اصطبلات الخيل، ومن امتنع من ذلك ضرب فأمسكوا ذلك على أقبح الهيئات، واصطنعوا ذلك عليه واتفقوا على الفتك به في الحمام.

وكان كورتكين يحرسه في خلوته وحمامه فسخطه ذلك اليوم، وطرده فلم يتقدم إلى الحرس لمراعاته وداخلوا الخادم الذي يتولى خدمته في الحمام في أن يفقده سلاحه، وكان يحمل خنجرا فكسر حديد الخنجر وترك النصاب لمرداويج فلم يجد له حدا فأغلق باب الحمام، ودعمه من ورائه بسرير الخشب الذي كان صاعدا عليه فصعدوا إلى

السطح وكسروا الجامات ورموه بالسهام فانحجر في زوايا الحمام، وكسروا الباب عليه وتتلوه. وكان الذي لولى كبر ذلك جماعة من الأتراك، وهم: توزون الذي صار بعد ذلك أمير الأمراء ببغداد، ويارق بن بقراخان، ومحمود بن نيال الترجمان، ويحكم الذي ولي إمارة الأمراء قبل تورون. ولما قتلوه خرجوا إلى أصحابهم فركبوا

ونهبوا قصر مرداويج وهربوا وكان الديلم والجيل بالمدينة فركبوا في أثرهم فلم يدركوا منهم إلا من وقفت دابته فقتلوهم وعادوا لنهب الخزائن فوجدوا العميد قد أضرمها نارا.

ثم اجتمع الديلم والجيل وبايعوا أخاه وشمكير بن زيار وهم بالري، وحملوا معهم جنازة مرداويج فخرج وشمكير وأصحابه لتلقيهما على أربع فراسخ حفاة، ورجع العسكر الذي كان بالأهواز إلى وشمكير واجتمعوا عليه، وتركوا الأهواز لياقوت فملكها، وقام وشمكير بملك أخيه مرداويج في الديلم والجيل، وأقام بالري وجرجان في ملكه. وكتب السعيد بن سامان إلى محمد بن المظفر صاحب خراسان وإلى ماكان بن كالي صاحب كرمان بالمسير إلى جرجان والري فسار ابن المظفر إلى قومس ثم إلى بسطام، وسار ماكان على المفازة إلى الدامغان، واعترضه الديلم من أصحاب وشمكير في جيش كثيف فهزموهم ولحق بنيسابور آخر ثلاث وعشرين، وجعلت ولايتها لماكان بن كالي فأقام بها. وسار أبو علي بن الياس إلى كرمان بعد انصراف ماكان عنها فملكها وصفت له بعد حروب شديدة طويلة مع جيوش السعيد بن سامان، وكان له الظفر آخرا. وأما الأتراك الذين قتلوا مرداويج فافترقوا في هزيمتهم فرقتين. فسارت فرقة إلى عماد الدولة بن بويه وهم الأقل، وفرقة إلى الجيل مع بجكم وهم الأكثر فجبوا خراج الدينور وغيره. ثم ساروا إلى النهروان وكاتبوا الراضي في المسير إلى بغداد فأذن لهم واستراب الحجرية بهم فردهم الوزير ابن مقلة إلى بلد الجيل وأطلق لهم مالا فلم يرضوا به فكاتبهم ابن رائق، وهو يومئذ صاحب واسط البصرة فلحقوا به، وقدم عليهم بجكم فكاتب الأتراك من أصحاب مرداويج فقدم عليه منهم عدة وافرة واختص بجكم، وتولاه ونعته بالرائقي نسبة إليه، وأمره أن يرسمها في كتابه.

مسير معز الدولة بن بويه إلي كرمان وهزيمته:

لما ملك عماد الدولة بن بويه وأخوه ركن الدولة بلاد فارس والجيل بعثا أخاهما

الأصغر معز الدولة إلى كرمان خالصة له فسار في العسكر إليها سنة أربع وعشرين، واستولى على السيرجان. وكان إبراهيم بن سيجور الدواني قائد ابن سامان يحاصر محمد بن الياس بن اليسع فى قلعته هنالك. فلما بلغه خبر معز الدولة سار من كرمان إلى خراسان، وخرج محمد بن الياس من القلعة التي كان محاصرا بها إلى مدينة قم على طرف المفازة بين كرمان وسجستان فسار إلى جيرفت، وهي قصبة كرمان. وجاء رسول علي بن أبي الزنجي المعروف بعلي بن كلونة أمير القفص والبلوص، كان هو وسلفه متغلبين على تلك الناحية، ويعطون طاعتهم للأمراء والخلفاء على البعد، ويحملون إليهم المال. فلما جاء رسوله بالمال امتنع معز الدولة من قبوله إلا بعد دخول جيرفت، فلما دخل جيرفت صالحه وأخذ رهنه على الخطبة له.

وكان علي بن كلونة قد نزل بمكان صعب المسلك على عشرة فراسخ من جيرفت فأشار على معز الدولة بعض أصحابه أن يغدر به ويكبسه، ففعل ذلك، وأتى لعلي بن كلونة عيونه بالخبر فأرصد جماعة لمعز الدولة بمضيق في طريقه، فلما مر بهم ساريا ثاروا به من جوانبه وقتلوا من أصحابه وأسروا وأصابته جراح كثيرة وقطعت يده اليسرى من نصف الذراع وأصابع يده اليمنى، وسقط بين القتلى. وبلغ الخبر إلى جيرفت فهرب

أصحابه منها، وجاء علي بن كلونة فحمله من بين القتلى إلى جيرفت، وأحضر الأطباء لعلاجه. وكتب إلى أخيه عماد الدولة يعتذر ويبذل الطاعة فأجابه وأصلحه. وسار محمد بن الياس من سجستان إلى بلد خبابة فتوجه إليه معز الدولة وهزمه، وعاد ظافرا. ومر بابن كلونة فقاتله وهزمه وأثخن في أصحابه، وكتب إلى أخيه عماد الدولة بخبره مع ابن الياس وابن كلونة فبعث إليه قائدا من قواده، واستقدمه إليه بفارس فأقام عنده بإصطخر إلى أن قدم عليهم أبو عبد الله البريدي منهزما من ابن رائق ويحكم المتغلبين على الخلافة ببغداد، فبعث عماد الدولة أخاه معز الدولة، وجعل له ملك العراق عوضا عن ملك كرمان كما يذكر بعد.

استيلاء ماكان علي جرجان وانتقاضه علي ابن سامان:

قد ذكرنا انهزام ماكان على جرجان أيام بانجين الديلمي ورجوعه إلى نيسابور فأقام بها ثم بلغ الخبر بمهلك بانجين بجرجان فاستأذن ماكان محمد بن المظفر في الخروج

لاتباع بعض أصحابه هرب عنه وطالبه به عارض الجيش فأذن له، وسار إلى أسفرايين وبعث معه جماعة من عسكره إلى جرجان فاستولى عليها. ثم أظهر لوقته الانتقاض على ابن المظفر. وسار إليه بنيسابور فتخاذل أصحابه، وهرب عنها إلى سرخس، وعاد عنها ماكان خوفاً من اجتماع العساكر عليه، وذلك في رمضان سنة أربع وعشرين.

دولة بني بويه

الخبر عن دولة بني بويه من الديلم المتغلبين علي العراقين وفارس

والمستبدين علي الخلفاء ببغداد من خلافة المستكفي إلي أن صاروا

في كفالتهم وتحت حجرهم إلي انقراض دولتهم وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا التعريف ببني بويه وذكر نسبهم؟ وهم من قواد الديلم الذين تطاولوا للاستيلاء على أعمال الخلفاء العباسيين ولما لم يروا عنها مدافعاً ولا لها حامية فتنقلوا في نواحيها، وملك كل واحد منهم أعمالا منها.

واستولى بنو بويه على أصفهان والري، ثم انعطفوا على بلاد فارس فملكوا أرجان وما إليها. ثم استولوا على شيراز وأعمالها، وأحاطوا بأعمال الخلافة بنواحي بغداد من شرقها وشمالها، وكانت الخلافة قد طرقها الاعلال، وغلب عليها الموالي والصنائع. وقد كان أبو بكر محمد بن رائق عاملا بواسط ؛ واضطرب حال الراضي ببغداد فاستقدمه وقلده إمارة الجيوش، ونعته أمير الأمراء. وكان بنو البريدي في خوزستان والأهواز فغضوا به، ووقعت الوحشة بينه وبينهم فبعث ابن رائق بدرا الخرشني، ويحكم الذي نزع إليه أتراك مرداويج فساروا في العسكر لقتال ابن البريدي، واستولوا على الأهواز سنة خمس وعشرين، ولحق ابن البريدي بعماد الدولة بن بويه لما ملك العراق وسهل عليه أمره. وذلك عند رجوع أخيه معز الدولة من كرمان وامتناعها عليه كما ذكرناه فبعث معه العساكر.

استيلاء معز الدولة بن بويه علي الأهواز:

لما لحق أبو عبد الله البريدي بعماد الدولة ناجيا من الأهواز مستنجدا له بعث أخاه

معز الدولة في العساكر، بعد أن أخذ منه ابنيه أبا الحسن محمداً وأبا جعفر الفياض رهنا. وسار معز الدولة سنة ست وعشرين فانتهى إلى أرجان ويحكم جاء للقائهم، وانهزم

أمامهم إلى الأهواز فأقام بها، وأنزل بها بعض عسكره في عسكر مكرم فقاتلوا معز الدولة ثلاثة عشر يوما. ثم انهزموا إلى تستر فرحل معز الدولة إلى عسكر مكرم، وأنفذ ابن البريدي خليفته إلى الأهواز. ثم بعث إلى معز الدولة بأن ينتقل إلى السوس، ويبعد عنه فيؤمن له الأهواز فعذله وزيره أبو جعفر الصيمري وغيره من

أصحابه، وأروه أن البريدي يخادعه فامتنع معز الدولة من ذلك، وبلغ اختلافهم إلى يحكم فبعث محس!كرا من قبله فاستولى على ا!لناس، وجند نيسابور وبقية الأهواز بيد ابن البريدي، وعسكر مكرم بيد معز الدولة.

وضاق حال جنده وتحدثوا في الرجوع إلى فارس فواعدهم لشهر، وكتب إلى أخيه عماد الدولة بالخبر فبعث إليه مددا من العسكر فعادوا واستولوا على الأهواز. وسار يحكم من واسط فاستولى على بغداد، وقلده الراضي إمارة الأمراء، وهرب ابن رائق فاختفى ببغداد.

انتزاع وشمكير أصفهان من يد ركن الدولة ومسيره إلي واسط ثم استرجاعه أصفهان:

قد ذكرنا وشمكير المستولي بعد أخيه مرداويج على الري، وكان عماد الدولة استولى على أصفهان ودفعها إلى أخيه ركن الدولة فبعث إليها وشمكير سنة سبع وعشرين جيشا كثيفا من الري فملكوها من يده، وخطبوا فيها لوشمكير. ثم سار وشمكير إلى قلعة الموت فملكها، ورجع فلحق ركن الدولة بإصطخر، وجاءه هنالك رسول أخيه معز الدولة من الأهواز بأن ابن البريدي أنفذ جيشا إلى السوس، وقتل قائدها من الديلم، وأن الوزير أبا جعفر الصيمري كان على خراجها محتصرا بقلعة السوس فسار ركن الدولة إلى السوس، وهرب عساكر ابن البريدي بين يديه. ثم سار إلى واسط ليستولي عليها لأنه قد خرج عن أصفهان، وليس له ملك يستقل به فترل بالجانب الشرقي، وسار الراضي ويحكم من بغداد لحربه فاضطرب أصحابه، واستأمن جماعة منهم لابن

البريدي فخام ركن الدولة عن اللقاء، ورجع إلى الأهواز فسار إلى أصفهان، وهزم عسكر وشمكير بها وملكها. وكان هو وأخوه عماد الدولة بعثا لابن محتاج صاحب خراسان يحرضانه على ماكان ووشمكير، واتصلت بينهم مودة.

مسير معز الدولة إلي واسط والبصرة:

كان ابن البريدي بالبصرة وواسط قد صالح يحكم أمير الأمراء ببغداد، وحرضه

على المسير إلى الجبل ليرجعها من يد ركن الدولة بن بويه، ويسير هو إلى الأهواز فيرتجعها من يد معز الدولة. واستمد يحكم فأمده بخمسمائة رجل، وسار إلى حلوان فى انتظاره. وأقام ابن البريدي يتربص به وينتظر أن يبعد عن بغداد فيهجم هو عليها، وعلم ا يحكم بذلك فرجع إلى بغداد، ثم سار إلى واسط فانتزعها من يد ابن البريدي، وذلك ا لسنة ثمان وعشرين. وولي الخلافة المتقي، وكان ظل الدولة العباسية قد تقلص حتى قارب التلاشي والاضمحلال، وتحكم على الدولة بعد مولاه ابن رائق وابن البريدي الذي كان يزاحمه في التغلب على الدولة فبعث عس!اكره من البصرة إلى واسط فسرح إليه يحكم العساكر مع مولاه تورون فهزمهم، وجاء

يحكم على أثره ولقيه خبر هزيمتهم فاستقام أمره، وطفق يتصدى في تلك النواحي إلى أن عرض له بعض الأكراد ممن له عنده ثأر وهو منفرد عن عسكره فقتله، وافترق أصحابه فلحق جماعة من الأتراك بالشام، ومقدمهم تورون.

وولى الباقون عليهم يكسك مولى يحكم، وكان الديلم عند مقتله قد ولوا عليهم باسوار بن ملك بن مسافر بن سلار، وسلار جده، صاحب شميران الطرم الذي داخل مرداويج في قتل أسفار، وملك ابنه محمد بن مسافر بن سلار أذربيجان فكانت له ولولده بها دولة. ووقعت الفتنة بين الديلم والأتراك فقتله الأتراك، وولى الديلم مكانه كورتكين ولحقوا بابن البريدي فزحف بهم إلى بغداد. ثم تنكروا واتفقوا مع الأتراك على طرده فلحقوا بواسط، واستفحل الديلم وغلبوا الأتراك وقتل كورتكين كثيرا من الديلم، واستبد بإمرة الأمراء ببغداد. ثم جاء تورون من الشام بابن رائق، وهزم كورتكين الديلم وقتل أكثرهم، وانفرد ابن رائق بأمرة الأمراء ببغداد سنة اثنتين وثلاثمائة.

وكان ابن البريدي في هذه الفترة بعد يحكم قد استولى على واسط فبعث إليه ابن رائق واستوزره ففعل على أن يقيم بمكانه، ويستخلف ابن شيرزاد ببغداد. ثم سار إليهم إلى واسط فهرب ابن رائق والمقتفي إلى الموصل، وتخلف عنهم تورون، وعاث أصحاب ابن البريدي في بغداد فشكا له الناس. ولما وصل المقتفي ولى ابن حمدان إمرة الأمراء بمكانه وقصدوا بغداد فهرب وخالفه تورون إلى المقتفي وابن حمدان وملكوا بغداد. وسار سيف الدولة أمام ابن البريدي، وخرج ناصر الدولة في اتباعه فنزل المدائن، وانكشف سيف الدولة أمام ابن البريدي حتى انتهوا إلى أخيه ناصر الدولة

بالمدائن فأمده ورجع فهزم ابن البريدي وغلبه على واسط فملكها، ولحق ابن البريدي بالبصرة، وأقام سيف الدولة بواسط ينتظر المدد ليسير إلى البصرة. وجاءه أبو عبد الله الكوفي بالأموال فشغب عليه الأتراك في طلب المال وثاروا به، ومقدمهم تورون فهرب إلى بغداد وهم في اتباعه، وكان أخوه قد انصرف إلى بغداد ثم إلى الموصل فلحق به. ودخل تورون بغداد وولي الأمر بها.

ثم استوحش من المقتفي وتربص مسيره إلى واسط لقتال ابن البريدي، وسار إلى الموصل سنة إحدى وثلاثين ومعز الدولة بن بويه في أثناء هذا كله مقيم بالأهواز مطل على بغداد وأعمال الخليفة، يروم التغلب عليها وأخوه عماد الدولة بفارس، وركن الدولة بأصفهان والري فلما سار المقتفي من الرقة إلى تورون خلعه وسمله، ونصب المكتفي. وقد قدمنا هذه الأخبار كلها مستوعبة في أخبار الدولة العباسية وإنما أعدناها توطئة لاستيلاء بني بويه على بغداد واستبدادهم على الجلالقة. ثم عاد معز الدولة إلى واسط سنة ثلاث وثلاثين فسار تورون والمستكفي لدفاعه ففارقها وعاد إلى الأهواز.

استيلاء معز الدولة بن بويه علي بغداد واق راج أحكام الخلافة في سلطانه:

ثم إن تورون في فاتح سنة أربع وثلاثين عقد الأتراك الرياسة عليهم لابن شيرزاد، وولاه المستكفي أمرة الأمراء في الأرزاق فضاقت الجبايات على العمال والكتاب والتجار، وامتدت الأيدي إلى أموال الرعايا وفشا الظلم

وظهرت اللصوص وكبسوا المنازل وأخذ الناس في الجلاء عن بغداد. ثم استعمل ابن شيرزاد على واصل نيال كوشة وعلى تكريت الفتح اليشكري فانتقضا، وسار الفتح لابن حمدان فولاء على تكريت من قبله وبدعوته، وبعث نيال كوشة إلى معز الدولة وقام بدعوته. واستدعاه لملك بغداد فزحف إليها في عس!اكر الديلم ولقيه ابن شيرزاد والأكراد فهزمهم، ولحقوا بالموصل وأخفى المستكفي وقدم معز الدولة كاتبه الحسن بن محمد المهلبي إلى بغداد فدخلها، وظهر الخليفة من الاختفاء، وحضر عند المهلبي فبايع له عن معز الدولة أحمد بن بويه، وعن أخويه عماد الدولة وركن الدولة الحسن وولاهم المستكفي على أعمالهم ولقبهم بهذه الألقاب ورسمها على سكته. ثم جاء معز الدولة إلى بغداد فملكها وصرف الخليفة في

حكمه، واختص باسم السلطان، وبعث إليه أبو القاسم البريدي صاحب البصرة فضمن واسط وأعمالها وعقد له عليها.

خلع المستكفي وبيعة المطيع وما حدق في الجباية والإقطاع:

وبعد أشهر قلائل من استيلاء معز الدولة على بغداد نمي إليه أن المستكفي يريد الإدالة منه فتنكر له، وأجلسه في يوم مشهود للقاء وافد من أصحاب خراسان، وحضر معز الدولة في قومه وعشيرته. وأمر رجلين من نقباء الديلم بالفتك بالخليفة، فتقدما ووصلاه ليقبلا يد المستكفي. ثم جذباه عن سريره وقاداه ماشيا واعتقلاه بداره، وذلك في منتصف أربع وثلاثين فاضطرب الناس، وعظم النهب ونهبت دار الخلافة. وبايع معز الدولة للفضل بن المقتدر، ولقبه المطيع لله. وأحضر المستكفي فأشهد على نفسه بالخلع، وسلم على المطيع بالخلافة، وسلب الخليفة من معاني الأمر والنهي وصيرت الوزارة إلى معز الدولة يولي فيها من يرى. وصار وزير الخليفة مقصور النظر على إقطاعه ومقتات داره، وتسلم عمال معز الدولة وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وأراضيه ولاية وإقطاعا حتى كان الخليفة يتناول الإقطاع بمراسم معز الدولة، وإنما ينفرد بالسرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك، والجلوس للوفد وإجلال التحية والخطاب، ويقومون مع ذلك بأوضاع القائم على الدولة وترتيبه.

وكان القائم منهم على الدولة تفرد في دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان ولا يشاركه فيه غيره، ومعاني الملك من القدرة والأبهة والعز وتصريف الأمر والنهي حاصل للسلطان دون الخليفة. وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنصوب لفظا مسلوبة عنه معنى. ثم طلب الجند أرزاقهم بأكثر من العادة لتجدد الدولة فاضطر إلى ضرب المكوس، ومد الأيدي إلى أموال الناس، وأقطعت جميع القرى والضياع للجند فارتفعت أيدي العمال وبطلت الدواوين، لأن ما كان منها بأيدي الرؤساء لا يقدرون على النظر فيها، وما كان بأيدي الأتباع خرب بالظلم والمصادرات والحيف في الجباية وإهمال النظر في إصلاح القناطر وتعديل المشارب، وما خرب منها عوض صاحبه عنه بآخر فيخربه كما يخرب الاخر. ثم إن معز الدولة أفرد جمعها من المكوس والظلامات، وعجز السلطان عن ذخيرة يعدها لنوائبه. ثم استكثر من الموالي ليعتز بهم على قومه وفرض لهم الأرزاق والإقطاع فحدثت غيرة قومه من ذلك وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في الدول.

مسير ابن حمدان إلي بغداد وانهزامه أمام معز الدولة:

ولما بلغ استيلاء معز الدولة على بغداد، وخلعه المستكفي إلى ناصر الدولة بن حمدان امتعض لذلك. وسار من الموصل إلى بغداد في شعبان سنة أربع وثلاثين فقدم معز الدولة عساكره فأوقع بها ابن حمدان بعكبرا. ثم سار معز الدولة ومعه المطيع إلى مدافعته، ولحق به ابن شيرزاد فاستحثه إلى بغداد سنة أربع وثلاثين، وخالفه معز الدولة إلى تكريت ونهبها وتسابقوا جميعاً إلى بغداد فنزل معز الدولة والمطيع بالجانب الشرقي، وابن حمدان بالجانب الغربي، فقطع الميرة عن معسكر معز الدولة فغلت الأسعار وعزت الأقوات، ونهب عسكره مرارا فضاق به الأمر واعتزم على العود إلى الأهواز فأمر وزيره أبا جعفر الصيمري بالعبور في العساكر لقتال ابن حمدان فظفر به الصيمري، وغنم الديلم أموالهم وظهرهم.

ثم أمن معز الدولة الناس، وأعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين، ورجع ابن حمدان إلى عكبرا وأرسل في الصلح سرا فنكر عليه الأتراك التورونية وهموا بقتله، وفر إلى الموصل ومعه ابن شيرزاد، ثم صالحه معز الدولة كما طلب. ولما فر عن الأتراك التورونية أعلمهم تكين الشيرازي فقبضوا على من تخلف من أصحابه، وساروا في اتباعه وقبض هو في طريقه على ابن شيرزاد، وتجاوز الموصل إلى نصيبين فملكها تكين، وسار في اتباعه إلى السند فلحقه هنالك عسكر من معز الدولة كما طلب، وأمده به مع وزيره أبي جعفر الصيمري، وقاتل الأتراك فهزمهم، وسار إلى الموصل هو والصيمري فدفع ابن شيرزاد إلى الصيمري، وحمله إلى معز الدولة، وذلك سنة خمس وثلاثين.

استيلاء معز الدولة علي البصرة والموصل وصلحه مع ابن حمدان:

وفي سنة خمس وثلاثين انتقض أبو القاسم بن البريدي بالبصرة فجهز معز الدولة الجيش إلى واسط، ولقيهم جيش ابن البريدي في الماء وعلى الظهر فانهزموا إلى البصرة وأسروا من أعيانهم جماعة. ثم سار معز الدولة سنة ست وثلاثين إلى البصرة ومعه المطيع

كارها من قتال أبي القاسم البريدي، وسلكوا إليها البرية. وبعث القرامطة يعذلون في ذلك معز الدولة فكتب يتهددهم. ولما قارب البصرة استأمنت إليه عساكر أبي القاسم، وهرب هو إلى القرامطة فأجاروه وملك معز الدولة البصرة. ثم سار هو منها إلى الأهواز ليلقى أخاه عماد الدولة، وترك المطيع وأبا جعفر الصيمري بالبصرة، وانتقض على معز الدولة كوكير من أكابر الديلم فقاتله الصيمري وهزمه وأسره، وحبسه معز الدولة بقلعة رامهرمز.

ثم لقي أخاه معز الدولة بأرجان في شعبان من السنة، وسلك في تعظيمه وإجلاله من وراء الغاية. وكان عماد الدولة يأمره بالجلوس في مجلسه فلا يفعل. ثم عاد معز الدولة والمطيع إلى بغداد ونودي بالمسير إلى الموصل فترددت الرسل من ابن حمدان في الصلح وحمل المال. ثم سار إليه سنة سبع وثلاثين في شهر رمضان واستولى على الموصل، وأراد الاثخان في بلاد ابن حمدان فجاءه الخبر عن أخيه ركن الدولة بأن عساكر خراسان

قصدت جرجان، واضطر إلى الصلح. واستقر الصلح بينهما على أن يعطي ابن حمدان عن الموصل والجزيرة والشام ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة، ويخطب لعماد الدولة ومعز الدولة في بلاده، وعاد إلى بغداد.

استيلاء ركن الدولة علي الري ثم طبرستان وجرجان ومسير عساكر ابن سامان إليها: قد تقدم لنا استيلاء ركن الدولة على أصفهان من يد وشمكير حين بعث عساكره مددا لماكان بن كالي، وكان ركن الدولة وأخوه عماد الدولة بعثا إلى أبي علي بن محتاج قائد بني سامان يحرضانه على ماكان ووشمكير، ويعدانه المظاهرة عليهما فسار أبو علي إلى وشمكير بالري، ولقيه ركن الدولة بنفسه. واستمد وشمكير ماكان فجاءه في عساكره والتقوا فانهزم وشمكير ولحق بطبرستان. ثم سار بعساكره إلى بلد الجبل فاقتحمها واستولى على زنجان وأبهر وقزوين وقم وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان، ورتب فيها العمال وجبى أموالها. ثم وقع خلاف بين وشمكير والحسن بن الفيرزان ابن عم ماكان، واستنجد الحسن بأبي علي بن محتاج فأنجده حتى وقع بينهما صلح وعاد ابو علي إلى خراسان وصحبه الحسن بن الفيرزان ولقيه في طريقه رسل السعيد بن سامان، وأمر أبا علي بن محتاج سنة ثلاث وثلاثين بغدر الحسن بأبي علي،

ونهب سواده وعاد إلى جرجان فملكها وملك معها الدامغان وسمنان. وسار وشمكير من طبرستان إلى الري فاستولى عليها أجمع، وكان في قل من العسكر لفناء رجاله في حروبه مع أبي علي بن محتاج والحسن بن الفيرزان فتطاول حينئذ ركن الدولة إلى الاستيلاء على الري، وسار إلى الري. وقاتل وشمكير فهزمه فلحق بطبرستان، واستولى ركن الدولة على الري وأجمع مخالصة الحسن بن الفيرزان وزوجه ابنته، وتمسك بمواصلته ومودته، واستفحل بذلك ملك بني بويه وامتنع وصارت لهم أعمال الري والجبل وفارس والأهواز والعراق، ويحمل إليهم ضمان الموصل وديار بكر. ثم سار ركن الدولة بن بويه إلى بلاد وشمكير سنة ست وثلاثين ومعه الحسن بن الفيرزان مددا، ولقيهما وشمكير فانهزم أمامهما ولحق بخراسان مستنجدا بابن سامان، وملك ركن الدولة طبرستان وسار منها إلى جرجان فأطاعه الحسن بن الفيرزان وولاه ركن الدولة عليها، واستأمن إليه قواد وشمكير ورجع إلى أصفهان.

بنو شاهين

بداية بني شاهين ملوك البطيحة أيام بني بويه

كان عمران بن شاهين من أهل الجامدة، وكان يتصرف في الجباية وحصل منها بيده مال فصرفه وهرب إلى البطيحة ممتنعا من الدولة. وأقام هنالك بين القصب والآجام يقتات بسمك الماء وطيره، ويأخذ الرفاق التي تمر به، واجتمع إليه لصوص الصيادين فقوي وامتنع على السلطان، وتمسك بطاعة أبي القاسم بن البريدي بالبصرة فقلده حماية الجامدة وحماية البطائح ونواحيها فعز جانبه وكثر جمعه وسلاحه، واتخذ معاقل على التلال بالبطيحة وغلب على تلك النواحي. وأهم معز الدولة أمره، وبعث وزيره أبا جعفر الصيمري في العساكر سنة ثمان وثلاثين وحصره وأيقن بالهلاك وما نفس عن مخنقه إلا وصول الخبر بوفاة عماد الدولة بن بويه، ومبادرة الوزير الصيمري إلى شيراز فعاد عمران إلى حاله وقوي أمره كما يأتي في أخبار دولته.

وفاة عماد الدولة ابن بويه وولاية عضد الدولة ابن أخيه علي بلاد فارس مكانه:

ثم توفي عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز كرسي مملكة فارس

في منتصف سنة ثلاث وثلاثين، بعد أن كان طلب من أخيه ركن الدولة أن ينفذ إليه ابنه عضد الدولة فتأخر ليوليه عهده إذ لم يكن له ولد ذكر، فأنفذه إليه ركن الدولة في جماعة من أصحابه لسنة بقيت من حياته.

وركب عماد الدولة للقائه ودخل به إلى داره في يوم مشهود، وأجلسه على السرير وأمر الناس أن يحيوه بتحية الملك. وكان في قواد عماد الدولة جماعة أكابر لا يستكينون لعماد الدولة فضلا عن عضد الدولة مكانه بفارس، واختلف عليه أصحابه فجاء إليه ركن الدولة أبوه من الري بعد أن استخلف عليها علي بن كتامة وكتب معز الدولة إلى وزيره الصيمري بأن يترك محاربة ابن شاهين. ويسير إلى شيراز مدداً لعضد الدولة، وأقام ركن الدولة في شيراز تسعة أشهر، وبعث إلى أخيه معز الدولة بهدية من الأموال والسلاح، وكان عماد الدولة هو أمير الأمراء، وإنما كان معز الدولة نائبا عنه في كفالة الأموال وولاية أعمال العراق فلما مات عماد الدولة انقلبت إمرة الأمراء إلى ركن الدولة، وبقي معز الدولة نائبا عنه كما كان عن عماد الدولة لأنه كان أصغر منهما.

وفاة الصيمري ووزارة المهلبي:

كان أبو جعفر أحمد الصيمري وزير معز الدولة قد عاد من فارس إلى أعمال الجامدة، وأقام يحاصر عمران بن شاهين إلى أن هلك منتصف تسع وثلاثين، وكان يستخلف بحضرة معز الدولة في وزارته أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي فباشره معز الدولة، وعرف كفايته واضطلاعه فاستوزره مكان الصيمري فحسن أثره في جمع الأموال وكشف الظلامات وتقريب أهل العلم والأدب والإحسان إليهم.

مسير عساكر ابن سامان علي الري ورجوعها:

لما سار ركن الدولة إلى بلاد فارس بعث الأمير نوح بن سامان إلى منصور بن قراتكين صاحب جيوشه بخراسان أن يسير إلى الري فسار إليها سنة تسع وثلاثين، وكان لها علي بن كتامة خليفة ركن الدولة ففارقها إلى أصفهان، وملك منصور الري وبث العساكر في البلاد فملكوا الجبل إلى قرميس، واستولوا على همذان وبعث ركن الدولة من فارس إلى أخيه معز الدولة بإنفاذ العساكر إلى مدافعتهم فبعث سبكتكين الحاجب في جيش كثيف من الديلم وغيرهم فكبسهم، وأسر مقدمهم فعادوا إلى همذان. ثم سار إليهم ففارقوها. وملكها وورد عليه ركن الدولة بهمذان فعدل منصور بن قراتكين إلى أصفهان فملكها، وسار إليها ركن الدولة وسبكتكين في مقدمته، وشغب عليه بعض الأتراك فأوقع بهم وترددوا في تلك الناحية.

وكتب معز الدولة إلى ابن أبي الشوك الكردي يتبعهم فقتل منهم وأسر، ونجا بعض الموصل. وترك ركن الدولة قريبا من أصفهان، وجرت بينه وبين منصوبى حروب، وضاقت الميرة على الفريقين إلا أن الديلم كانوا أصبر على الجوع وشظف العيش من أهل خراسان لقرب عهدهم بالبداوة. ومع ذلك فهم ركن الدولة بالفرار لولا وزيره ابن العميد كان يثبته ويريه أنه لا يغني عنه، وأن الاستماتة أولى به فصبر وشغب على منصور بن

قراتكين جنده، وانفضوا جميعاً إلى الري وتركوا مخلفهم بأصفهان فاحتوى عليه ركن الدولة، وذلك فاتح سنة أربعين. ومات منصور بن قراتكين بالري في ربيع الأول من السنة، ورجعت العساكر إلى نيسابور.

استيلاء ركن الدولة ثانيا علي طبرستان وجرجان:

قد كنا قدمنا استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان سنة ست وثلاثين، وأنه م استخلف على جرجان الحسن بن الفيرزان. وسار وشمكير إلى خراسان مستنجدا بابن سامان فسار معه صاحب جيوش خراسان منصور بن قراتكين، وحاصر جرجان فصالحه الحسن بن الفيرزان بغير رضا من وشمكير لانحرافه عنه وعن الأمير نوح. ورجع إلى نيسابور وأقام وشمكير بجرجان والحسن بزوزن. ثم سار ركن الدولة سنة أربعين من الري إلى طبرستان وجرجان ففارقها وشمكير إلى نيسابور، واستولى ركن الدولة عليها، واستخلف بجرجان الحسن بن الفيرزان وعلي بن كتامة وعاد إلى الري فقصدهما وشمكير وانهزما منه، واسترد البلاد من ركن الدولة. وكتب الأمير نوح يستنجده على ركن الدولة فأمر أبا علي بن محتاج بالمسير معه في جيوش خراسان فسار في ربيع سنة اثنتين وأربعين وامتنع ركن الدولة ببعض معاقله. وحاربه أبو علي بن محتاج في جيوش خراسان حتى ضجرت عساكره وأظلهم فصل الشتاء فراسل ركن الدولة في الصلح على أن يعطيهم ركن الدولة مائتي ألف دينار في كل سنة، وعاد إلى خراسان. وكتب وشمكير إلى الأمير نوح

بأن ابن محتاج لم ينصح في أمرركن الدولة، وأنه ممالىء فسخطه من أجل ذلك وعزله عن خراسان. ولما عاد ابن محتاج عن ركن الدولة سار هو إلى وشمكير فانهزم وشمكير إلى أسفرايين، واستولى ركن الدولة على طبرستان.

إقامة الدعوة لبني بويه بخراسان:

ولما عزل الأمير نوح أبا علي بن محتاج عن خراسان استعمل مكانه أبا سعيد بكر بن مالك الفرغاني فانتقض حينئذ وخطب لنفسه بنيسابور، وتحيز عنه ابن الفيرزان مع وشمكير إلى الأمير نوح فخام ابن محتاج عن عداوتهم. واستأذن ركن الدولة في المسير إليه. ثم سار سنة ثلاث وأربعين فتلقاه بأنواع الكرامات، وسأل منه ابن محتاج أن يقتضي له عهد الخليفة بولاية خراسان فبعث ركن الدولة في ذلك إلى أخيه معز الدولة ببغداد، وجاءه العهد والمدد فسار إلى خراسان فخطب بها للخليفة وركن الدولة. ثم مات نوح خلال ذلك وولى ابنه عبد الملك فبعث بكر بن مالك من بخارى إلى خراسان لإخراج ابن محتاج منها فسار إليه، وهرب ابن محتاج إلى الري فآواه ركن الدولة وأقام عنده، واستولى بكر بن مالك على خراسان. ثم سار ركن الدولة إلى جرجان، ومعه ابن محتاج فتركها وملكها ولحق وشمكير بخراسان.

مسير عساكر ابن سامان علي الري وأصفهان:

ولما فرغ بكر بن مالك من أمر خراسان، وأخرج منها ابن محتاج وسار منها سنة أربع وأربعين في أتباعه إلى الري وأصفهان وكان ركن الدولة غائبا بجرجان فملكها ورجع إلى الري في المحرم من السنة، وكتب إلى أخيه معز الدولة يستمده فأمده بالعساكر مع ابن سبكتكين. وجاء مقدمة العساكر من خراسان إلى أصفهان من

طريق المفازة وبها الأمير منصور بن بويه بن ركن الدولة، ومقدم العساكر محمد بن ماكان فملك أصفهان وخرج في طلب ابن بويه، واتفق وصول الوزير أبي الفضل بن العميد فلقيه محمد بن ماكان فهزمه، وعاد أولاد ركن الدولة وحرمه إلى أصفهان. وراسل ركن الدولة بكر بن مالك صاحب العساكر بخراسان في الصلح على مال يحمله إليه، وتكون الري وبلد الجبل في ضمانه فأجابه بكر بن مالك إلى ذلك وصالحه عليه وكتب ركن الدولة إلى أخيه

معز الدولة بأن يبعث إلى بكر بن مالك خلعاً ولواء بولاية خراسان فبعث بها في ذي القعدة من السنة.

خروج روزبهان علي معز الدولة وميل الديلم إليه:

كان روزبهان ونداد خرشيد من كبار قواد الديلم، وكان معز الدولة قد رفعه ونوه بذكره فخرج سنة خمس وأربعين بالأهواز ومعه أخوه أسفار، وخرج أخوه بلكا بشيراز. ولما خرج روزبهان زحف إليه الوزير المهلبي لقتاله فنزع الكثير من أصحابه إلى روزبهان فانحاز عنه، وبعث بالخبر إلى معز الدولة فسار إليهم واختلفت عليه الديلم ومالوا مع روزبهان. وفصل معز الدولة من بغداد خامس شعبان من السنة قاصدا لحربه، وبلغ الخبر إلى ناصر الدولة بن حمدان فبعث ابنه أبا الرجال في العساكر للاستيلاء على بغداد فخرج الخليفة عنها منحدرا، وأعاد معز الدولة سبكتكين الحاجب وغيره لمدافعة ابن حمدان عن بغداد. وسار إلى أن قارب الأهواز والديلم في شغب عليه وعلى عزم اللحاق بروزبهان إلا نفراً يسيرا من الديلم كانوا خالصة فكان يعتمد عليهم وعلى الأتراك، وكان يفيض العطاء في الديلم فيمسكون عما يهمون به. ثم ناجز روزبهان الحرب سلخ رمضان فانهزم وأخذ أسيرا، وعاد إلى بغداد إلى أبي الرجال بن حمدان، وكان بعكبرا فلم يجده لأنه بلغه خبر روزبهان فأسرع العود إلى الموصل، ودخل معز الدولة بغداد، وغرق روزبهان وكان أخوه بلكا الخارج بشيراز أزعج عنها عضد الدولة. وسار إليه أبو الفضل بن العميد وقاتله فظفر به، وعاد عضد الدولة إلى ملكه وانمحى أثر روزبهان واخوته، وقبض معز الدولة على جماعة منهم ممن ارتاب بهم، واصطنع الأتراك وقدمهم، وأقطع لهم فاعتزوا وامتدت أيديهم.

استيلاء معز الدولة علي الموصل ثم عودها:

كان ناصر الدولة بن حمدان قد صالح معز الدولة على ألفي ألف درهم كل سنة، ثم لم يحمل فسار إليه معز الدولة منتصف سبع وأربعين ففارق الموصل إلى نصيبين، وحمل معه سائر أهل دولته من الوكلاء والكتاب ومن يعرف وجوه المال، وأنزلهم في قلاعه: كقلعة كواشي والزعفران وغيرهما. وقطع الميرة عن عسكر معز الدولة فضاقت

عليهم الأقوات فسار معز الدولة إلى نصيبين للميرة، وبلغه أن أبا الرجاء وهبة الله في محس!كر سنجار فبعث إليهم بعض عساكره، وكبسوهم فهربوا واستولى العسكر على مخلفهم ونزلوا في خيامهم. وكر عليهم أولاد ناصر الدولة وهم غارون فأثخنوا فيهم وأقاموا بسنجار. وسار معز الدولة إلى نصيبين فلحق ناصر الدولة بميافارقين، واستأمن الكثير من أصحابه إلى معز الدولة فلحق بأخيه سيف الدولة بحلب فبالغ في تكرمته

وخدمته، وتوسط في الصلح بينه وبين معز الدولة بثلاثة آلاف ألف فأجابه معز الدولة وتم ذلك بينهما، ورجع معز الدولة إلى العراق في محرم سنة ثمان وأربعين.

العهد لبختيار:

وفي سنة خمس طرق معز الدولة مرض استكان له وخشي على نفسه فأراد العهد لابنه بختيار، وعهد إليه بالأمر وسلم له الأموال وكان بين الحاجب سبكتكين والوزير المهلبي منافرة فأصلح بينهما ووصاهما بابنه بختيار، وعهد إليه بالأمور، واعتزم على العود إلى الأهواز مستوحشا هواء بغداد فلما بلغ كلواذا اجتمع به أصحابه وسفهوا رأيه في الانتقال من بغداد على ملكه، وأشاروا عليه بالعود إليها وأن يستطيب الهواء في بعض جوانبها المرتفعة ويبني بها دورا لسكنه ففعل، وأنفق فيها ألف ألف دينار وصادر فيها جماعة من أصحابه.

استيلاء ركن الدولة علي طبرستان وجرجان:

وفي سنة إحدى وخمسين سار ركن الدولة إلى طبرستان، وبها وشمكير فحاصره بمدينة سارية وملكها، ولحق وشمكير بجرجان، وترك طبرستان فملكها ركن الدولة وأصلح أمرها. ثم سار إلى جرجان فخرج عنها وشمكير، واستولى عليها ركن الدولة، واستأمن إليه من عسكر وشمكير ثلاثة آلاف رجل فازداد بهم قوة، ودخل وشمكير بلاد الجبل مسلوباً واهنا.

ظهور البدعة ببغداد:

وفي هذه السنة كتب الشيعة على المساجد بأمر معز الدولة لعن معاوية بن أبي
سفيان صريحا ولعن من غصب فاطمة فدك، ومن منع أن يدفن الحسن عند جده، ومن نفى أبا ذر الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى، ونسب ذلك كله لمعز الدولة لعجز الخليفة. ثم أصبح ممحوا وأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه الوزير المهلبي بأن يكتب مكانه لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ولا يذكر أحدا باللعن الا معاوية رضي الله عنه.

وفاة الوزير المهلبي:

وفي سنة اثنتين وخمسين سار المهلبي وزير معز الدولة إلى عمان ليفتحها فلما ركب البحر طرقه المرض فعاد إلى بغداد، ومات في طريقه في شعبان من السنة، ودفن ببغداد. وقبض معز الدولة أمواله وذخائره، وقبض على حواشيه وحبسهم، ونظر في الأمور بعده أبو الفضل بن العباس بن الحسن الشيرازي وأبو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس، ولم يتسموا باسم الوزارة.

استيلاء معز الدولة ثالثاً علي الموصل:

كان ناصر الدولة بن حمدان قد ضمن الموصل كما تقدم، وأجابه معز الدولة إلى ضمانه فبذل له ناصر الدولة زيادة على أن يدخل معه في الضمان أبو ثعلب فضل الله الغضنفر، ويحلف لهما معز الدولة فأبى من ذلك، وسار إلى الموصل منتصف ثلاث وخمسين ففارقها ابن حمدان إلى نصيبين وملكها معز الدولة. ثم خرج إلى طلب ابن حمدان منتصف شعبان واستخلف على الموصل بكتورون وسبكتكين العجمي. وسار ابن حمدان عن

نصيبين وملكها معز الدولة، وخالفه ابن حمدان إلى الموصل، وحارب محس!كر معز الدولة فيها فهزموه. وجاء الخبر إلى معز الدولة فظفر أصحابه بابن حمدان، وسار ونزل جزيرة ابن عمر فسار في اتباعه فوصل سادس رمضان فوجده قد جمع أولاده وعساكره إلى الموصل، فأوقع بأصحاب معز الدولة وأسر الأميرين اللذين خلفا بها، واستولى على ما خلفوه من مال وسلاح، وحمل الجميع مع الأسرى إلى قلعة كواشي فأعيا معز الدولة أمره، وهو من مكان إلى مكان في اتباعه فأجابه إلى الصلح، وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة بمال قرره فاستقر الصلح على ذلك، وأطلق ابن

حمدان الأسرى، ورجع معز الدولة إلى بغداد.

استيلاء معز الدولة علي عمان:

قد تقدم لنا أن عمان كانت ليوسف بن وجيه، وأنه حارب بني البريدي بالبصرة حتى قارب أخذها، حتى عملوا الحيلة في إضرام النار في سفنه فولى هاربا في محرم سنة اثنتين وثلاثين، وأنه ثار عليه مولاه في هذه السنة فغلبه على البلد وملكها من يده. ولما استوحش معز الدولة من القرامطة كتب إليهم ابن وجيه صاحب عمان يطمعهم في البصرة، واستمدهم في البر وسار هو في البحر سنة إحدى وأربعين، وسابقه الوزير المهلبي من الأهواز إليها، وأمده معز الدولة بالعساكر والمال فاقتتلوا أياما. ثم ظفر المهلبي بمراكبه وما فيها من سلاح وعدة.

و لم يزل القرامطة يناورونها حتى غلبوا عليها سنة أربع وخمسين، واستولوا عليها وهرب رافع عنها. وكان له كاتب يعرف بعلي بن أحمد ينظر في أمور البلد والقرامطة بمكانهم من هجر فاتفق قاضي البلد، وكان ذا مشير وعصابة، على أن ينصبوا للنظر في أمورهم أحد قوادهم فقدموا لذلك ابن طغان ففتك بجميع القواد الذين معه، وثأر منه بعض قرابتهم فقتلوه فاجتمع الناس على تقديم عبد الوهاب بن أحمد بن مروان من قرابة القاضي مكانه فولوه، واستكتب علي بن أحمد كاتب القرامطة قبله من الجند فامتعضوا لذلك فدعاهم إلى بيعته فأجابوه وسواهم في العطاء مع البيض فسخط البيض ذلك، ودارت بينهم حرب سكنوا آخرها واتفقوا وأخرجوا عبد الوهاب من البلد واستقر علي بن أحمد الكاتب أميراً فيها.

ثم سار معز الدولة إلى واسط سنة خمس وخمسين، وقدم إليه نافع مولى ابن أخيه الذي كان ملكها بعد مولاه فأحسن إليه وأقام عنده حتى فرغ من أمر عمران بن شاهين، وانحدر إلى الأبلة في رمضان من السنة، وجهز المراكب إلى عمان مائة قطعة، وبعث فيها الجيوش بنظر أبي الفرج محمد بن العباس، وتقدم إلى عضد الدولة بفارس أن يمدهم بالعساكر من عنده فوافاهم المدد بسيراف، وساروا إلى عمان فملكوها يوم الجمعة يوم عرفة من السنة وفتكوا فيها بالقتل وأحرقوا لهم تسعين مركبا، وخطب لمعز الدولة وصارت من أعماله.

وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار:

كان معز الدولة قد سار سنة خمس وخمسين إلى واسط لمحاربة عمران بن شاهين فطرقه المرض سنة ست وخمسين فسار إلى بغداد، وخلف أصحابه بواسط على أن يعود إليهم فاشتد مرضه ببغداد، وجدد العهد لابنه

بختيار. ثم مات منتصف ربيع الآخر من السنة فقام ابنه عز الدولة بختيار مكانه، وكتب إلى العساكر بمصالحة عمران بن شاهين ففعلوا وعادوا. وكان فيما أوصى به معز الدولة ابنه بختيار طاعة عمه ركن الدولة والوقوف عند إشارته، وابن عمه عضد الدولة لعلو سنه عليه وتقدمه في معرفة السياسة، وأن يحفظ كاتبيه أبا الفضل العباس بن الحسن وأبا الفرج بن العباس والحاجب سبكتكين فخالف جميع وصاياه، وعكف على اللهو وعشرة النساء والمغنين والصفاعين فأوحش الكاتبين والحاجب فانقطع الحاجب عن حضور داره. ثم طرد كبار الديلم عن مملكته طمعا في إقطاعاتهم فشغب عليه الصغار، واقتدى بهم الأتراك في ذلك، وطلبوا الزيادات. وركب الديلم إلى الصحراء وطلبوا إعادة من أسقط من كبارهم، ولم يجد بدا من إجازتهم لانحراف سبكتكين عنه فاضطربت أموره، وكان الكاتب أبو الفرج العباس في عمان منذ ملكها فلما بلغه موت معز الدولة خشي أن ينفرد عنه صاحبه أبو الفضل العباس بن الحسن بالدولة فسلم عمان لعضد الدولة، وبادر إلى بغداد فوجد أبا الفضل قد انفرد بالوزارة ونم يحصل على شيء.

مسير عساكر ابن سامان إلي الري ومهلك وشمكير:

كان أبو علي بن الياس قد سار من كرمان إلى بخارى مستنجدا بالأمير منصور بن نوح بن سامان فتلقاه بالتكرمة فأغراه ابن الياس بممالك بني بويه، وأشار له قواده في أمرهم فصدق ذلك عندما كان يذكر وشمكير عنهم، وتقدم إلى وشمكير والحسن بن الفيرزان بالى سير مع عساكره إلى الري. ثم جهز العساكر مع صاحب خراسان أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور الدواني، وأمره بطاعة وشمكير وقبول إشارته فسار لذلك سنة ست وخمسين، وأنزل ركن الدولة أهله بأصفهان، وكتب إلى ابنه عضد الدولة بفارس وإلى ابن أخيه عز الدين بختيار ببغداد يستنجدهما فأنفذ عضد الدولة العساكر على طريق خراسان ليخالفهم إليها فأحجموا وتوقفوا وساروا إلى الدامغان، وقصدهم

ركن الدولة في عساكره من الري. وبينما هم كذلك هلك وشمكير، عندما استعرض خيلا واختار منها واحدا وركب للصيد، واعترضه خترير فرماه بحربة، وحمل الخترير عليه فضرب الفرس فسقط إلى الأرض، وسقط وشمكير ميتا، وانتقض جميع ما كانوا فيه ورجعوا إلى خراسان.

استيلاء عضد الدولة علي كرمان:

كان أبو طي بن الياس قد ملك كرمان بدعوة بني سامان واستبد بها كما مر في أخبارهم، ثم أصابه فالج وأزمن به، وعهد إلى ابنه اليسع ثم لالياس من بعده، وأمرهما بإجلاء أخيهما سليمان إلى أرضهم ببلاد الروم ويقيم لهم ما هنالك من الأموال، لعداوة كانت بين سليمان واليسع فلم يرض سليمان ذلك، وخرج فوثب على السيرجان فملكها فسار إليه أخوه اليسع فحبسه. وهرب من محبسه واجتمع إليه العسكر وأطاعوه، ومالوا إليه مع أبيه. ثم إن أبا علي هم أن يلحق بخراسان فلحق. ثم سار إلى الأمير أبي الحارث ببخارى وأغراه بالري كما مر، وتوفي سنة ست وخمسين، وصفت كرمان لإليسع. وكان عضد الدولة مزاحما لإليسع في بعض عمله مدلا بجهل الشباب فاستحكمت القطيعة بينهما، وهرب بعض أصحاب عضد الدولة إليه فزحف

إليه واستأمن إليه أصحابه، وبقي في قل من أصحابه فاحتمل أهله وأمواله، ولحق ببخارى. وسار عضد الدولة إلى كرمان فملكها وأقطعها ولده أبا الفوارس الذي ملك العراق بعد، ولقب شرف الدولة. واستخلف عليها كورتكين بن خشتان وعاد إلى فارس وبعث إليه صاحب سجستان الطاعة وخطب له. ولما وصل اليسع إلى بخارى أنذر بني سامان على تقاعدهم عن نصره فنفوه إلى خوارزم، وكان قد خلف أثقاله بنواحي خراسان فاستولى عليها أبو علي بن سيجور، وأصاب اليسع رمد اشتد به بخوارزم فضجر منه، وقطع عرقه بيده. وكان ذلك سبب هلاكه و لم يعد لبني الياس بكرمان بعده ملك.

مسير ابن العميد إلي حسنويه ووفاته:

كان حسنويه بن الحسين الكردي من رجالات الكرد، واستولى عن نواحي الدينور واستفحل أمره، وكان يأخذ الخفارة من القوافل التي تمر به، ويخيف السابلة إلا أنه كان

فئة للديلم على عساكر خراسان متى قصدهم. وكان ركن الدولة يرعى له ذلك، ويغضي عن إساءته. ثم وقعت بينه وبين سلار بن مسافر بن سلار فتنة وحرب فهزمه حسنويه وحصره وأصحابه من الديلم في مكان. ثم جمع الشوك وطرحه بقربهم وأضرمه نارا حتى نزلوا على حكمه فأخذهم، وقتل كثيرا منهم فلحقت ركن الدولة الغيرة لعصبية الديلم، وأمر وزيره أبا الفضل بن العميد بالمسير إليه فسار في محرم سنة تسع وخمسين، وقعد ابنه أبو الفتح وكان شاباً مليحا قد أبطره العز والدالة على أبيه، وكان يتعرض كثيرا لما يغضبه. وكانت بأبي الفضل علة النقرس فتزايدت عليه وأفحشت عليه. ولما وصل إلى همذان توفي بها لأربع وعشرين سنة من وزارته، وأقام ابنه أبا الفتح مقامه، وصالح حسنويه على مال أخذه منه، وعاد إلى الري إلى مكانه من خدمة ركن الدولة. وكان أبو الفضل بن العميد كاتبا بليغا، وعالما في عدة فنون مجيدا فيها، ومطلعا على علوم الأوائل وقائماً بسياسة الملك مع حسن الخلق ولين العشرة والشجاعة المعروفة بتدبير الحروب، ومنه تعلم عضد الدولة السياسة وبه تأدب.

انتقاض كرمان علي عضد الدولة:

ولما ملك عضد الدولة كرمان كما قلناه اجتمع القفص والبلوص وفيهم أبو سعيد وأولاده، واتفقوا على الانتقاض والخلاف. واستمد عضد الدولة كورتكين بن حسان بعابد بن علي فسارا لي العساكر إلى جيرفت، وحاربوا أولئك الخوارج فهزموهم وأثخنوا فيهم وقتلوا من شجعانهم، وفيهم ابن لأبي سعد. ثم سار عابد بن علي في طلبهم وأوقع بهم عدة وقائع وأثخن فيهم، وانتهى إلى هرمز فملكها واستولى على بلاد التيز ومكران، وأسر منهم ألف أسير حتى استقاموا على الطاعة وإقامة حدود الإسلام. ثم سار عائدا إلى طائفة أخرى يعرفون بالحرومية والجاسكية يخيفون السبيل برا وبحرا، وكانت قد تقدمت لهم إعانة سليمان بن أبي علي بن الياس فلما أوقع بهم أثخن فيهم حتى استقاموا على الطاعة، وصلحت تلك البلاد مدة. ثم عاد البلوص إلى ما كانوا عليه من إخافة السبيل بها فسار عضد الدولة إلى كرمان في ذي القعدة سنة اثنتين، وانتهى إلى السيرجان وسرح عابد بن علي في العساكر لاتباعهم فأوغلوا في الهرب، ودخلوا إلى مضائق يحسبونها تمنعهم فلما

زاحمتهم العساكر بها آخر ربيع الأول من سنة إحدى وستين صابروا يوما. ثم انهزموا آخره فقتلت مقاتلتهم وسبيت ذراريهم ونساؤهم و لم ينج منهم إلا القليل ثم

استأمنوا فأمنوا ونقلوا من تلك الجبال، وأنزل عضد الدولة في تلك البلاد أكرة وفلاحين. ثم شملوا الأرض بالعمل، وتتبع العابد أثر تلك الطوائف حتى بدد شملهم ومحا ما كان من الفساد منهم.

عزل أبي الفضل وإزالة ابن بقية:

كان أبو الفضل العباس بن الحسن وزيراً لمعز الدولة ولابنه بختيار من بعده، وكان سيىء التصرف وأحرق في بعض أيامه الكرخ ببغداد فاحترق فيه عشرون ألف إنسان وثلاثمائة دكان وثلاثة وثلاثون مسجداً، ومن الأموال ما لا يحصى. وكان الكرخ معروفا بسكنى الشيعة وكان هو يزعم أنه يتعصب لأهل السنة، وكان كثير الظلم للرعية غصابا للاموال مفرطاً في أمر دينه. وكان محمد بن بقية وضيعاً في نفه، من الفلاحين في أوانا، من ضياع بغداد. واتصل ببختيار، وكان يتولى الطعام بين يديه، ويتولى الطبخ ومنديل الخوان على كفه: فلما ضاقت الأحوال على الوزير أبي الفضل، وكثرت مطالبته بالأرزاق والنفقات عزله بختيار وصادره وسائر أصحابه على أموال عظيمة أخذت منهم، واستوزر محمد بن بقية فاستقامت أموره، ونمت أحواله بتلك الأموال فلما نفدت عاد إلى الظلم ففسدت الأحوال وخربت تلك النواحي وظهر العيارون وتزايد شرهم وفسادهم. وعظم الاختلاف بين بختيار والأتراك، ومقدمهم يومئذ سبكتكين وتزايدت نفرته. ثم سعى ابن بقية في إصلاحه وجاء به إلى بختيار ومعه الأتراك فصالحه بختيار، ثم قام غلام ديلمي فرمى وتبنه بحربة في يده فأثبته فصاح سبكتكين بغلمانه فأخذوه، ويظن أنه وضع قتله وقرره فلم يعترف فبعث إلى بختيار فأمر به فقتل فعظم ارتيابه، وأنه إنما قتل حذراً من إفشاء سره فعظمت الفتنة، وق! د الديلم قتل سبكتكين، ثم أرضاهم بختيار بالمال فسكنوا.

استيلاء بختيار علي الموصل ثم !جوعه عنها:

فلما قبض أبو ثعلب بن ناصر الدولة بن حمدان على أبيه وحبسه، واستقل بملك الموصل وعصى طيه إخوته من سائر النواحي كلبهم، ولحق أخوه أحمد وإبراهيم ببختيار فاستصرخاه فوعدهما بالمسير معهما وأن يضمن حمدان البلاد. ثم أبطأ عليهما فرجع

إبراهيم إلى أخيه أبي ثعلب، وقارن ذلك وزارة ابن بقية وقصر أبو ثعلب في خطابه فأغرى به بختيار فسار إليه، ونزل الموصل وفارقها أبو ثعلب إلى سنجار وأخلاها من الميرة والكتاب والدواوين. ثم سار من سنجار إلى بغداد فحاربها و لم يحدث في سوادها حدثا. وبعث بختيار اثره العساكر مع ابن بقية والحاجب سبكتكين فدخل ابن بقية بغداد، وأقام سبكتكين بحدى. وثار العيارون واضطربت الفتنة بين أهل السنة والشيعة، وضربوا الأمثال لنشتد على الوزير بحرب الجمل، وهذا كله في الجانب الغربي.

ونزل أبو ثعلب حذاء سبكتكين بحدى واتفقا في سر على خلع الخليفة ونصب غيره والقبض على الوزير وعلى بختيار، وتكون الدولة لسبكتكين، ويعود أبو ثعلب إلى الموصل ليتمكن من بختيار. ثم قصر سبكتكين عن ذلك

وخشي سوء المغبة، واجتمع به الوزير ابن بقية وصالحوا أبا ثعلب على ضمان أعماله كما كانت، وزيادة ثلاثة آلاف كر من الغلة لبختيار، وأن يرد على أخيه حمدان أملاكه وأقطاعه إلا ماردين، وأرسلوا إلى بختيار بذلك. ودخل أبو ثعلب إلى الموصل فلما نزل الموصل وبختيار بالجانب الآخر فغضب أهل الموصل لأبي ثعلب لما نالهم من عسف بختيار فتراسلوا في الصلح ثانيا وسأل أبو ثعلب لقبا سلطانيا وتسليم زوجته ابنة بختيار فأبى ذلك، ورحل عنه إلى بغداد. وبلغه في طريقه أن أبا ثعلب قتل مخلفين من أصحاب بختيار فأقام بالكحيل، وبعث بالوزير وابن بقية وسبكتكين فجاؤوه في العساكر، ورجع إلى الموصل وفارقها أبو ثعلب، وبعث إلى الوزير كاتبه ابن عرس وصاحبه ابن حوقل معتذرا وحلفا عنه عن العلم بما وقع فاستحكم بينهم صلح آخر، وانصرف كل منهم إلى بلده، وبعث بختيار إليه زوجته واستقر أمرهما على ذلك.

الفتنة بين الديلم والأتراك وانتقاض سبكتكين:

كان جند بختيار وأبيه معز الدولة طائفتين من الديلم عشيرتهم والأتراك المستنجدين عندهم، وعظمت الدولة وكثرت عطاياها وأرزاق الجند حتى ضاقت عنها الجباية وكثر شذب الجند، وساروا إلى الموصل لسد ذلك فلم يقع لهم ما يسده فتوجهوا إلى الأهواز صحبة بختيار ليظفروا من ذلك بشيء، واستخلف سبكتكين على بغداد، فلما وصلوا إلى الأهواز صحبة بختيار حمل إليه حملين من الأموال والهدايا ملء عينه، وهو مع ذلك يتجنى عليه. ثم تلاحى خلال ذلك عاملان ديلمي وتركي وتضاربا ونادى كل منهما بقومه فركبوا في السلاح بعضهم على بعض، وسالت بينهما الدماء وصاروا إلى التراع واجتهدوا في تسكين الناس فلم يقدروا. وأشار عليه الديلم بالقبض على الأتراك فأحضر رؤساءهم واعتقلهم، وانطلقت أيدي الديلم على الأتراك فافترقوا ونودي في البصرة بإباحة دمائهم. واستولى بختيار على إقطاع سبكتكين، ودس بأن يرجفوا بموته فإذا جاء سبكتكين للعزاء قبضوا عليه. وقيل كان وطأهم على ذلك قبل سفره، وجعل موعده قبضه على الأتراك فلما أرجفوا بموته ارتاب سبكتكين بالخبر، وعلم أنها مكيدة، ودعاه الأتراك للأمر عليهم فأبى ودعا ابن معز الدولة أبا إسحق إليها فمنعته أمه فركب سبكتكين في الأتراك وحاصروا بختيار يومين. ثم أحرقها وبعث لأبي إسحق وأبي ظاهر ابني معز الدولة، وسار بهما إلى واسط فاستولى على ما كان لبختيار، وأنزل الأتراك في دور الديلم، وثار العامة بنصر سبكتكين وأوقعوا بالشيعة وقتلوهم وأحرقوا الكرخ.

مسير بختيار لقتال سبكتكين وخروج سبكتكين إلى واسط ومقتله:

ولما انتقض سبكتكين انتقض الأتراك في كل جهة حتى اضطرب على بختيار غلمانه الذين بداره، وعاتبه مشايخ الأتراك على فعلته، وعذله الديلم أصحابه وقالوا: لا بد لنا من الأتراك ينصحون عنا فأطلق المعتقلين منهم ورجع، وجعل أردويه صاحب الجيش مكان سبكتكين، وكتب إلى عمه ركن الدولة وابنه عضد الدولة يستنجدهما، وإلى أبي ثعلب بن حمدان يستمده بنفسه، ويسقط عنه مال الضمان، وإلى عمران بن شاهين بأن يمده بعسكر فبعث عمه ركن الدولة العساكر مع وزيره أبي الفتح ابن العميد، وأمر ابنه عضد الدولة بالمسير معهم فتربص به ابن العميد. وأنفذ أبو ثعلب بن حمدان أخاه أبا عبد الله الحسين بن حمدان إلى تكريت، وأقام

ينتظر خروج سبكتكين والأتراك عن بغداد ليملكها: وانحدر سبكتكين ومعه الأتراك إلى واسط وحمل معه الخليفة الطائع الذي نصبه وأباه المطيع مكانه افتكين. وساروا إلى بختيار ونازلوه بواسط خمسين يوما، والحرب بينهم متصلة والظفر للأتراك في كلها، وهو يتابع الرسل إلى عضد الدولة ويستحثه.

استيلاء عضد الدولة علي العراق واعتقال بختيار ثم عوده إلي ملكه:

ولما بلغ عضد الدولة ما فعله الأتراك مع بختيار اعتزم على المسير إليه بعد أن كان يتربص به فسار في عساكر فارس، وسار معه أبو القاسم بن العميد وزير أبيه من الأهواز في عساكر الري، وقصدوا واسط. ورجع افتكين والأتراك إلى بغداد. وكان أبو ثعلب عليها فأجفل وكتب بختيار إلى طبة الأسدي صاحب عين التمر، وإلى بني شيبان بمنع الميرة عن بغداد و.إفساد سابلتها فعدمت الأقوات، وسار عضد الدولة إلى بغداد ونزل في الجالب الشرقي وبختيار في الجانب الغربي. وخرج افتكين والأتراك لعضد الدولة فلقيهم بين دباني والمدائن منتصف جمادى سنة أربع وستين فهزمهم، وغرق كثير منهم.

وساروا إلى تكريت، ودخل عضد الدولة بغداد ونزل دار الملك، واسترد الخليفة الطائع من افتكين والأتراك وكانوا أكرهوه على الخروج معهم، وخرج للقائه في دجلة وأنزله بدار الخلافة، وحدثته نفسه بملك العراق، واستضعف بختيار ووضع عليه الجند يطالبونه بأرزاقهم ولم يكن عنده في خزانته شيء. وأشار عليه بالزهد في إمارتهم يتنصح له بذلك سرا والرسل تتردد إلى بختيار والجند فلا يقبل عضد الدولة تقربهم. ثم تقبض عليه آخرا ووكل به، وجمع الجند ووعدهم بالإحسان والنظر في أمورهم فسكنوا وبعث عضد الدولة عسكره إلى ابن بقية ومعه عسكر ابن شاهين فهزموا عسكر عضد الدولة، وكاتبوا ركن الدولة فكتب إليهم بالثبات على شأنهم.

فلما علم أهل النواحي بأفعال عضد الدولة اضطربوا عليه وانقطعت عنه مواد فارس. وطمع فيه الناس حتى عامة بغداد فحفل الوزير أبا الفتح بن العميد إلى أبيه ركن الدولة الرسالة بما وقع، وبضعف بختيار، وأنه إن عاد إلى الأمر خرجت المملكة والخلافة عنه، وأنه يضمن أعمال العراق بثلاثين ألف ألف درهم في كل سنة ويبعث إليه بختيار بالري وإلا قتلت بختيار وأخويه وجميع شيعتهم، وتركت البلاد فخشي ابن العميد من هذه الرسالة، وأشار بأن يبعث بها غيره ويمضي هو إلى ركن الدولة فيحاول على مقاصد عضد الدولة فمضى الرسول إلى ركن الدولة فحجبه أولا، ثم أحضره وذكر له الرسالة فهم بقتله. ثم رده وحمله من الإساءة في الخطاب فوق ما أراد، وجاء ابن العميد فحجبه ركن الدولة، وأنفذ إليه بالوعيد. وشفع إليه أصحابه واعتذر بأنه إنما جعل رسالة

عضد الدولة طريقا إلى الخلاص منه فأحضره، وضمن له ابن العميد إطلاق بختيار. ثم سار إلى عضد الدولة وعرفه بغضب أبيه فأطلق بختيار من محبسه ورده إلى ملكه على أن يكون نائبا عنه ويخطب له، ويجعل أخاه أبا إسحق أمير الجيش لضعفه عن الملك. وخلف أبا الفتح بن العميد لقضاء شؤونه فتشاغل هو مع بختيار فيما

كان فيه من اللذات عن ركن الدولة. وجاء ابن بقية فأكد الوحشة بين بختيار وعضد الدولة، وجبى الأموال واختزنها وأساء التصرف واحترز من بختيار.

أخبار عضد الدولة في ملك عمان:

لما توفي معز الدولة كان أبو الفرج بعمان فسار عنها لبغداد، وبعث إلى عضد الدولة بأن يتسلمها فوليها عمر بن نبهان الطائي بدعوة عضد الدولة. ثم قتلته الزنج وملكوا البلد وبعث عضد الدولة إليها جيشا من كرمان مع قائده أبي حرب طغان، وساروا في البحر وأرسوا على صحار، وهي قصبة عمان، ونزلوا إلى البر فقاتلوا الزنج وظفروا بهم. واستولى طغان على صحار سنة اثنتين وستين. ثم اجتمع الزنج إلى مدين رستاق على مرحلتين من صحار فأوقع بهم طغان واستلحمهم وسكنت البلاد. ثم خرج بجبال عمان طوائف الشراة مع ورد بن زياد منهم، وبايعوا لحفص بن راشد، واشتدت شوكتهم. وبعث عضد الدولة المظفر بن عبد الله في البحر فنزل في أعمال عمان وأوقع بأهل خرخان. ثم سار إلى دما على أربع مراحل وقاتل الشراة فهزمهم وهرب أميرهم، ورد بن حفص إلى يزوا، وهي حصن تلك الجبال. ولحق حفص باليمن فصار فيه معلما، واستقامت البلاد ودانت لطاعة عضد الدولة.

صفحة بيضاء

القسم الخامس

اضطراب كرمان علي عضد الدولة:

كان ظاهر بن الصنمد من الحرومية، وهي البلاد الحارة، قد ضمن من عضد الدولة ضمانات واجتمعت عليه أموال. ولما سار عضد الدولة إلى العراق، وبعث وزيره المظهر بن عبد الله إلى عمان خلت كرمان من العساكر فطمع فيها ظاهر، وجمع الرجال الحرومية. وكان بعض موالي بني سامان من الأتراك، واسمه مؤتمر، استوحش من ابن سيجور صاحب خراسان، فكاتبه ظاهر وأطمعه في أعمال يرمان فسار إليه وجعله ظاهر أميراً. ثم شنب عليه بعض أصحاب ظاهر فارتاب به مؤتمر وقاتله فظفر به وباصحابه، وبلغ الخبر إلى الحسين بن علي بن الياس بخراسان فطمع في البلاد، وسار إليها واجتمعت عليه جموع. وكتب عضد الدولة إلى المظهر بن عبد الله، وقد فرغ من أمر عمان بالمسير إلى كرمان فسار إليه سنة أربع وستين، ودوخ البلاد في طريقه. وكبس مؤتمرا بنواحي مدينة قم فلحق بالمدينة وحصره فيها حتى استأمن، وخرج إليه ومعه ظاهر فقتله المظهر، وحبس مؤتمرا ببعض القلاع، وكان آخر العهد به. ثم سار إلى ابن الياس وقاتله على باب جيرفت، وأخذه أسيرا وضاع بعد ذلك خبره، ورجع المظهر ظافرا، وصلحت كرمان لعضد الدولة.

وفاة ركن الدولة وملك ابنه عضد الدولة:

كان ركن الدولة ساخطاً على ابنه عضد الدولة كما قدمناه. وكان ركن الدولة بالري

فطرقه المرض سنة خمس وستين وثلاثمائة فسار إلى أصفهان. وتلطف الوزير أبو الفتح بن العميد إليه في الرضا عن ابنه عضد الدولة، وأن يحضره ويعهد إليه فأحضره من فارس، وجمع سائر ولده. وكان ركن الدولة قد خص من مرضه فعمل الوزير ابن العميد بداره صنيعا وأحضرهم جميعا. فلما قضوا شأن الطعام خاطب ركن الدولة أحد أولاده بولاية أصفهان وأعمالها نيابة عن أخيه عضد الدولة، وخلع عضد الدولة في ذلك اليوم على سائر الناس الأقبية والأكسية بزي الديلم. وحياه إخوته والقواد بتحية الملك المعتاد لهم، وأوصاهم أبوهم بالاتساق وخلع عليهم من الخاص، وسار عن أصفهان في رجب من السنة. ثم اشتد به المرض في الري فتوفي في محرم سنة ست وستين لأربع وأربعين سنة من ولايته، وكان حليماً كريما واسع المعروف حسن السياسة لجنده ورعيته عادلا فيهم، متحرياً من الظلم عفيفاً عن الدماء، بعيد الهمة عظيم الجد والسعادة محسنا لأهل البيوتات، معظما للمساجد متفقدا لها في المواسم، متفقدا أهل البيت بالبر والصلات، عظيم الهيبة لين الجانب مقرباً للعلماء محسنا إليهم، معتقدا للصلحاء براً بهم رحمه الله تعالى.

مسير عضد الدولة إلى العراق وهزيمة بختيار:

ولما توفي ركن الدولة ملك عضد الدولة بعده، وكان بختيار وابن بقية يكاتبان أصحاب القاصية مثل فخر الدولة أخيه، وحسنويه الكردي وغيرهم للتظافر على عضد الدولة فحركه ذلك لطلب العراق فسار لذلك وانحدر بختيار إلى واسط لمدافعته، وأشار عليه ابن بقية بالتقدم إلى الأهواز. واقتتلوا في ذي القعدة من سنة ست وستين، ونزع بعض عساكر بختيار إلى عضد الدولة فانهزم بختيار ولحق بواسط، ونهب سواده ومخلفه، وبعث إليه ابن شاهين بأموال وسلاح وهاداه وأتحفه فسار إليه إلى البطيحة، وأصعد منها إلى واسط. واختلف أهل البصرة فمالت مضر إلى عضد الدولة، وربيعة مع بختيار ضربت مضر عند انهزامه، وكاتبوا عضد الدولة فبعث إليهم عسكرا واستولوا على البصرة. وأقام بختيار بواسط، وقبض الوزير ابن بقية لاستبداده واحتجانه الأموال وليرضى عضد الدولة بذلك. وترددت الرسل بينهم في الصلح، وتردد بختيار في إمضائه. ثم و!له ابنا حسنويه الكردي في ألف فارس مددا فاعتزم على محاربة عضد الدولة. ثم بدا

له وسار إلى بغداد فأقام بها، ورجع ابنا حسنويه إلى أبيهما وسار عضد الدولة إلى البصرة فأصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهما مائة وعشرين سنة.

نكبة أبي الفتح في العميد:

كان عضد الدولة يحقد على أبي الفتح بن العميد مقامه عند بختيار ببغداد ومخالطته له، وما عقده من وزارته بعد ركن الدولة. وكان ابن العميد يكاتب بختيار بأحواله وأحوال أبيه، وكان لعضد الدولة عين على بختيار ويكاتبه بذلك ويغريه. فلما ملك عضد الدولة بعد أبيه كتب إلى أخيه فخر الدولة بالري بالقبض على ابن العميد وعلى أهله وأصحابه واستصفيت أموالهم ومحيت آثارهم، وكان أبو الفضل بن العميد ينذرهم بذلك لما يرى من مخايل أبي الفتح وإنكاره عليه.

استيلاء عضد الدولة علي العراق ومقتل بختيار وابن بقية:

ولما دخلت سنة سبع وستين سار عضد الدولة إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يدعوه إلى طاعته، وأن يسير عن العراق إلى أي جهة أراد فيمده بما يحتاج إليه من مال وسلاح فضعفت نفسه فقلع عينه وبعثها اليه، وخرج بختيار عن بغداد متوجها إلى الشام. ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها ولم يكن خطب لأحد قبله، وضرب على بابه ثلاث نوبات ولم يكن لمن تقدمه، وأمر أن يلقى ابن بقية بين أرجل الفيلة فضربته حتى مات وصلب على رأس الجسر في شوال سنة سبع وستين ولما انتهى بختيار إلى عكبرا، وكان معه حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان فزين له قصد الموصل، واستماله إليه عن الشام، وقد كان عقد معه عضد الدولة أن لا يقصد الموصل لموالاة بينه وبين أبي ثعلب فسار هو إلى الموصل ونقض عهده، وانتهى إلى تكريت فبعث اليه أبو ثعلب يعده المسير معه لقتال عضد الدولة؟ واعادة ملكه على أن يسلم إليه أخاه حمدان فقبض بختيار عليه وسلمه إلى سفرائه وحبسه أبو ثعلب وسار بختيار إلى الحديثة، ولقيه أبو ثعلب في عشرين ألف مقاتل ورجع معه إلى العراق، ولقيهما عضد الدولة بنواحي تكريت فهزمهما وجيء ببختيار أسيرا فأشار أبو الوفاء طاهر بن إسمعيل كبير أصحاب عضد الدولة بقتله فقتل لاثنتي عشرة سنة من ملكه، واستلحم كثير من أصحابه، وانهزم أبو ثعلب بن حمدان إلى الموصل.

استيلاء عضد الدولة علي أعمال بني حمدان:

ولما انهزم أبو ثعلب سار عضد الدولة في أثره فملك الموصل منتصف ذي القعدة سنة ست وستين، وكان حمل معه الميرة والعلوفات خوفاً أن يقع به مثل ما وتع بسلفه فأقام بالموصل مطمئنا، وبث السرايا في طلب أبي ثعلب ولحق بنصيبين ثم بميافارقين فبعث عضد الدولة في أثره سرية عليها أبو ظاهر بن محمد إلى سنجار وأخرى عليها الحاجب أبو حرب طغان إلى جزيرة ابن عمر فترك أبو ثعلب أهله بميافارقين، وسار إلى تدلس. ووصل أبو الوفاء في العساكر إلى ميافارقين فامتنعت عليه فسار في اتباع أبي ثعلب إلى أرزن الروم، ثم إلى الحسنية من أعمال الجزيرة. وصعد أبو ثعلب إلى قلعة كواشي فأخذ أمواله منها، وعاد أبو الوفاء وحاصره بميافارقين. وسار عضد الدولة وقد افتتح سائر ديار بكر، وسار أبو ثعلب إلى الرحبة، ورجع أصحابه إلى أبي الوفاء فأمنهم وعاد إلى الموصل فتسلم ديار مضر من يده. وكان سعد الدولة على الرحبة وتقرى أعمال أبي ثعلب وحصونه مثل هوا والملاسي وفرقى والسفياني وكواشي بما فيها من حزائنه وأمواله، واستخلف أبر الوفاء على الموصل وجميع أعمال بني ثعلب وعاد إلى بغداد. وسار أبو ثعلب إلى الشام فكان فيه مهلكه كما مر في أخباره.

إيقاع العساكر ببني شيبان:

كان بنو شيبان قد طال إفسادهم للسابلة، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا يمتنعون بجبال شهرزور لما بينهم وبين أكرادها من المواصلة فبعث عضد الدولة العساكر سنة تسع وستين فنازلوا شهرزور، واستولوا عليها وعلى ملكها رئيس بني شيبان فذهبوا في البسيط، وسار العسكر في طلبهم فأوقعوا بهم واستباحوا أموالهم ونساءهم، وجيء منهم إلى بغداد بثلاثمائة أسير. ثم عادوا الطاعة وانحسمت علتهم.

وصول ولد بن منير البطريق الخارج علي ملك الروم إلي ديار بكر والقبض عليه:

كان أرمانوس ملك الروم لما توفي خلف ولدين صغيرين ملكا بعده، وكان نقفور وهو يومئذ الدمستق غائبا ببلاد الشام، وكان نكاء فيها فلما عاد حمله الجند وأهل الدولة على النيابة عن الولدين فامتنع. ثم أجاب وأقام بدولة الولدين، وتزوج أمهما ولبس

التاج. ثم استوحشت منه فراسلت ابن الشمسيق في قتله، وبيته في عشرة من أصحابه فقتلوا نقفور واستولى ابن الشمسيق على الأمر، واستولى على الأولاد وعلى انجه ورديس واعتقلهم في بعض القلاع. وسار في أعمال الشام فعاث فمها وحاصر طرابلس فامتنعت عليه.

وكان لوالد الملك أخ خصي وهو الوزير يومئذ فوضع عليه من سقاه السم، وأحس به فأسرع العود إلى القسطنطينية، ومات في طريقه. وكان ورد بن منير من عظماء البطارقة فطمع في الملك، وكاتب أبا ثعلب بن حمدان عند خروجه ين يدي عضد الدولة، وظاهره واستجاش بالمسلمين بالثغور، وساروا إليه وقصد القسطنطينية، وبرزت إليه عساكر الملكين فهزمهم مرة بعد أخرى فأطلق الملكان ورديس بن لاون وبعثاه في العساكر لقتال ورد فهزمه بعد حروب صعبة، ولحق ورد ببلاد الإسلام، ونزل ميافارقين. وبعث أخاه إلى عضد الدولة ببذل الطاعة وبطلب النصرة. وبعث إليه ملك الروم، واستمالاه فجنح إليهما، وكتب إلى عامله بميافارقين بالقبض على ورد وأصحابه فيئسوا منه، وتسللوا عنه فبعث أبو علي الغنمي عنه إلى داره للحديث معه. ثم قبض عليه وعلى ولده وأخيه وجماعة من أصحابه واعتقلهم بميافارقين، ثم بعث بهم إلى بغداد فحبسوا بها.

دخول بني حسنويه في الطاعة وبداية أمرهم:

كان حسنويه بن حسن الكردي من جنس البرز، فكان من الأكراد من طائفة منهم يسمون الذولنية، وكان أميراً على البرز مكان خاله ونداد. وكان ابنا أحمد بن علي من طائفة أخرى من البرز فكانوا يسمون العيشائية، وغلبا على أطراف الدينور وهمذان ونهاوند والدامغان وبعض أطراف أذربيجان إلى حد شهرزور، وبقيت في أيديهم خمسين سنة. وكانت تجتمع عليها من الأكراد جموع عظيمة. ثم توفي عام ست وخمسين وثلاثمائة، وكانت له قلعة بسنان وغانم أباد وغيرها فملكها بعده ابنه أبو سالم إلى أن غلبه الوزير أبو الفتح بن العميد. وتوفي ونداد سنة تسع وأربعين وقام ابنه عبد الوهاب أبو الغنائم مقامه وأراد السادنجان، وأسلمه إلى حسنويه فاستولى على أملاكه وقلاعه. وكان حسنويه عظيم السياسة حسن السيرة، وبنى أصحابه حصن التلصص، وهي قلعة سرماج

بالصخور المهندسة، وبنى بالدينور جامعا كذلك، وكان كثير الصدقة بالحرمين. ثم توفي سنة تسع وستين وافترق أولاده من بعده، فبعضهم صار إلى طاعة فخر الدولة صاحب همذان وأعمال الجبل، والآخرون صاروا إلى عضد الدولة. وكان بختيار منهم بقلعة سرماج ومعه الأموال والذخائر فكاتب عضد الدولة بالطاعة، ثم انتقض فبعث عضد الدولة عسكرا فحاصروه، وملكوا القلعة من يده والقلاع الأخرى من إخوته. واستولى

عضد الدولة على أعمالهم واصطنع من بينهم أبا النجم بن حسنويه وأمده بالعسكر فضبط تلك النواحي، وكف عادية الأكراد بها واستقام أمرها.

استيلاء عضد الدولة علي همذان والري من يد أخيه فخر الدولة وولاية أخيهما مؤيد الدولة عليها:

قد تقدم أن ركن الدولة عهد إلى ابنه فخر الدولة، وكان يكاتب بختيار، وعلم بذلك عضد الدولة فأغضى فلما فرغ من شأن بختيار وابن حمدان وحسنويه وعظم استيلاؤه أراد إصلاح الأمر بينه وبين أخيه، وقابوس بن وشمكير فكالب مؤيد الدولة، وفخر الدولة يعاتبه ويستميله. وكان الرسول خواشادة من أكبر أصحاب عضد الدولة فاستمال أصحاب فخر الدولة، وضمن لهم الإقطاعات وأخذ عليهم العهود، واعتزم عضد الدولة على المسير إلى الري وهمذان، وسرب العساكر إليها مسالك: فأبو الوفاء طاهر في عسكر، وخواشادة في معسكر وأبو الفتح المظفر بن أحمد فى سس!كر. ثم سار عضد الدولة في أثرهم من بغداد ولما أطلت عساكره استأمن من قواد فخر الدولة وبنو حسنويه ووزيره أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه، ولحق فخر الدولة ببلاد الديلم ثم بجرجان، ونزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير مستجيرا فأمنه وأواه، وحمل إليه فوق ما أمله، وشاركه فيما بيده من الملك وغيره، وملك عضد الدولة همذان والري وما بينهما من الأعمال، وأضافها إلى أخيه مؤيد الدولة ابن بويه صاحب أصفهان وأعمالها.

ثم عطف على ولاية حسنويه الكردي، وفتح نهاوند والدينور وسرماج، وأخذ ما كان فيها لبني حسنويه، وفتح عدة من قلاعهم، وخلع على بدر بن حسنويه وأحسن إليه وولاه رعاية الأكراد، وقبض على إخوته عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان. ولما لحق فخر الدولة بجرجان، وأجاره قابوس بعث إليه أخوه عضد الدولة في طلبه فأجاره وامتنع

من إسلامه فجهز إليه عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة صاحب أصفهان بالعساكر والأموال والسلاح فسار إلى جرجان، وبرز قابوس للقائه والتقوا بنواحي أستراباذ في منتصف إحدى وسبعين فانهزم قابوس، ومر ببعض قلاعه فاحتمل منها ذخيرته، ولحق بنيسابور. وجاء فخر الدولة منهزما على اثره، وكان ذلك لأول ولاية حسام الدولة تاش خراسان من قبل أبي القاسم منصور من بني سامان فكتب بخبرهما إلى الأمير نوح ووزيره العتبي أبي العباس تاش فجاءه الجواب بنصرهما فجمع عس!اكر خراسان، وسار معهما إلى جرجان فحاصروا بها مؤيد الدولة شهرين حتى ضاقت أحوال مؤيد الدولة واعتزم هو وأصحابه على الخروج والاستماتة بعد أن كاتب فائقاً الخاصة السامانجي، ورغبه فوعده بالانهزام عند اللقاء. وخرج مؤيد الدولة، وانهزم فائق وتبعه العسكر، وثبت تاش وفخر الدولة وقابوس إلى آخر النهار. ثم انهزموا ولحقوا بنيسابور، وبعثوا بالخبر إلى الأمير نوح فبعث إليهم بالعساكر ليعود إلى جرجان. ثم قتل الوزير العتبي كما تقدم في أخبار دولتهم، وانتقض ذلك الرأي.

استيلاء عضد الدولة علي بلاد الهكارية وقلعة سندة:

كان عضد الدولة قد بعث عساكره إلى بلاد الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فحاصر قلاعهم وضيق عليهم، وكانوا يؤملون نزول الثلج فترحا عنهم العساكر. وتأخر نزوله فاستأمنوا ونزلوا من قلاعهم إلى الموصل، واستولت عليها العساكر وغدر بهم مقدم الجيش فقتلهم جميعا. وكانت قلعة بنواحي الجبل لأبي عبد الله المري مع قلاع أخرى، وله فيها مساكن نفيسة. وكان من بيت قديم فقبض عليه عضد الدولة وعلى أولاده واعتقلهم وملك القلاع، ثم أطلقهم الصاب ابن عباد يخما بمد، واستخدم أبا طاهر من ولده واستكتبه وكان حسن الخط واللفظ.

وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة:

ثم توفي عضد الدولة ثامن شوال سنة اثنتين وسبعين لخمس سنين ونصف من ولايته العراق، وجلس ابنه صمصام الدولة أبو كليجار المرزبان للعزاء فجاءه الطائع معزيا. وكان عضد الدولة بعيد الهمة شديد الهيبة حسن. السياسة ثاقب الرأي محبا

للفضائل وأهلها، وكان كثير الصدقة والمعروف، ويدفع المال لذلك إلى القضاة ليصرفوه في وجوهه. وكان محبا للعلم وأهله مقربا لهم محسنا إليهم، ويجلس معهم ويناظرهم في المسائل فقصده العلماء من كل بلد، وصنفت الكتب باسمه كالإيضاح في النحو والحجة في القراءات والملكي في الطب والتأخي في التواريخ، وعمل البيمارستانات وبنى القناطر. وفي أيامه حدثت المكوس على المبيعات، ومنع من الاحتراف ببعضها وجعلت متجرا للدولة. ولما توفي عضد الدولة اجتمع القواد والأمراء على ابنه أبي كاليجار المرزبان وولوه الملك مكانه، ولقبوه صمصام الدولة فخلع على أخيه أبي الحسن أحمد وأبي ظاهر فيروز شاه وأقطعهما فارس وبعثهما إليها.

استيلاء شرف الدولة بن عضد الدولة علي فارس واقتطاعها من أخيه صمصام الدولة:

كان شرف الدولة أبو الفوارس شرزيك قد ولاه أبوه عضد الدولة قبل موته كرمان وبعث إليه فلما بلغه رفاة أبيه سار إلى فارس فملكها، وقتل نصر بن هرون النصراني وزير أبيه لأنه كان يسيء عشرته، وأطلق الشريف أبا الحسن محمد بن عمر العلوي كان أبوه حبسه بما قال عنه وزيره المظهر بن عبد الله عند قتله نفسه على البطيحة. وأطلق النقيب أبا أحمد والد الشريف الرضى والقاضي أبا محمد بن معروف وأبا نصر خواشادة، وكان أبوه حبسهم. وقطع خطبة أخيه صمصام الدولة وخطب لنفسه، وتلقب بأخي الدولة ووصل أخوه أبو الحسن أحمد وأبو ظاهر فيروزشاه اللذان أقطعهما صمصام الدولة بشيراز فبلغهما خبر شرف الدولة بشيراز فعادا إلى الأهواز. وجمع شرف الدولة وفرق الأموال، وملك البصرة وولى عليها أخاه أبا الحسين. ثم بعث صمصام الدولة العساكر مع ابن تتش حاجب أبيه، وأنفذ مشرف الدولة مع أبي الأغر دبيس بن عفيف الأسدي، والتقيا بظاهر عقرقوف، وانهزم سس!كر صمصام الدولة، وأسر ابن تتش الحاجب، واستولى حينئذ الحسين ابن عضد الدولة على الأهواز وراء هرمز وطمع في الملك.

وفاة مؤيد الدولة صاحب أصفهان والري وجرجان وعود فخر الدولة إلي ملكه:

ثم توفي مؤيد الدولة يوسف بن بويه بن ركن الدولة صاحب أصفهان والري بجرجان سنة ثلاث وسبعين، واجتمع أهله للشورى فيمن يولوه فأشار الصاحب
إسمعيل بن عباد بإعادة فخر الدولة إلى ملكه لكبر سنه، وتقدم إمارته بجرجان وطبرستان فاستدعوه من نيسابور وبعث ابن عباد من استخلفه لنفسه، وتقدم إلى جرجان فتلقماه العسكر بالطاعة وجلس على كرسيه. وتفادى ابن عباس من الوزارة فمنعه واستوزره، والتزم الرجوع إلى إشارته في القليل والكثير. وأرسل صمصام الدولة وعاهده على الاتحاد والمظاهرة. ثم عزل الأمير نوح أبا العباس تاش عن خراسان، وولى عليها ابن سيجور فانتقض تاش ولقيه ابن سيجور فهزمه فلحق بجرجان، فكافأه فخر الدولة وترك له جرجان ودهستان وأستراباذ، وسار عنها إلى الري وأمده بالأموال والآلات، وطلب خراسان فلم يظفر بها فأقام بجرجان ثلاث سنين. ثم مات سنة سبع وتسعين كما ذكرنا في أخبار بني سامان.
انتقاض محمد بن غانم علي فخر الدولة:
قد تقدم لنا ذكر غانم البرزيكاني خال حسنويه، وأنهم كانوا رؤساء الأكراد. إنه مات سنة خمسين وثلاثمائة وكان ابنه دلسيم مكانه في قلاعه فستتان وغانم أبا، وملكها منه أبر الفتح بن العميد. ولما كان سنة ثلاث وسبعين انتقض محمد بن غانم بناحية كردون من أعمال قم على فخر الدولة، ونهبت غلات السلطان وامتنع بحصن الفهجان، واجتمع إليه البرزيكاني وسارت العساكر لقتاله في شوال فهزمها مرة بعد أخرى إلى أن بعث فخر الدولة إلى أبي النجم بدر بن حسنويه بالنكير في ذلك فصالحه أول أربع وسبعين. ثم سارت إليه العساكر سنة خمس وسبعين فقاتلها وأصيب بطعنة، ثم أخذ أسيرا ومات بطعنته.
تغلب باد الكردي علي الموصل من يد الديلم ثم رجوعها إليهم:
قد تقدم لنا استيلاء عضد الدولة على الموصل وأعمالها، وتقدم لنا ذكر باد الكودي خال بني مروان، وكيف خان عضد الدولة لما ملك الموصل، وطلبه فصار يخيف ديار بكر ويغير عليها حتى استفحل أمره. وملك ميافارقين كما ذكرنا ذلك كله في أخبار بني مروان. وأن صمصام الدولة جهز إليه العساكر مع أبي سعيد بهرام بن أردشير فهزمه باد، وأسر أصحابه فأعاد صمصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعيد الحاجب، وفتك باد في الديلم بالقتل والأسر. ثم اتبع سعيد خانور الحسينية من بلد كواشي فانهزم سعيد الحاجب إلى الموصل، وثارت العامة بالديلم. وملك باد سنة ثلاث وسبعين الموصل، وحدث نفسه بملك بغداد، وأخرج الديلم عنها واهتم صمصام الدولة بأمره وبعث زياد بن شهراكونه من أكبر قواد الديلم لقتاله، واستكثر له من الرجال والعدد والمال؟ وسار إلى باد فلقيه في صفر سنة أربع وسبعين، وانهزم باد وأسر أكثر أصحابه؟ ودخل زياد بن شهراكونه الموصل. وبعث سعيد الحاجب في طلب باد فقصد جزيرة ابن عمر وعسكر آخرا في نصيبين. وجمع باد الجموع بديار بكر؟ وكتب صمصام الدولة إلى سعد الدولة بن سيف الدولة بتسليم ديار بكر له فبعث إليها عساكره من حلب، وحاصره وميافارقين وخاموا عن لقاء باث فرجعوا عن حلب، ووضع سعيد الحاجب رجلاً لقتل باد فدخل عليه وضربه في خيمته فأصابه، وأشرف على الموت منها فطلب الصلح على أن

يكون ديار بكر والنصف من طور عبدين فأجابه الديلم إلى ذلك وانحدروا إلى بغداد. وأقام سعيد الحاجب بالموصل إلى أن توفي سبع وسبعين أيام مشرف الدولة فتجرد الكردي وطمع في الموصل، وولى شرف الدولة عليها أبا نصر خواشادة وجهزه بالعساكر. ولما زحف إليه باد الكردي كتب إلى مشرف الدولة يستمد العساكر والأموال فأبطأ عليه المدد، فاستدعى العرب من بني عقيل وبني نمير وأقطعهم البلاد ليدافعوا عنها، وانحدر باد واستولى على طورعبدين ولم يقدر على النزول على الصحراء؟ وبعث أخاه في عسكر لقتال العرب فهزموه وقتلوه. ثم أتاهم الخبر بموت مشرف الدولة فعاد خواشادة إلى الموصل، وأقامت العرب بالصحراء يمنعون باد من النزول وينتظرون خروج خواشادة لمدافعة باد وحربه، وبينما هم في ذلك جاء إبراهيم وأبو الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان فملكا الموصل كما ذكرنا في أخبار دولتهم.

استيلاء صمصام الدولة علي عمان ورجوعها لمشرف الدولة:

كان مشرف الدولة استولى على فارس وخطب له بعمان، وولى عليها أستاذ هرمز فانتقض عليه وصار مع صمصام الدولة، وخطب له بعمان فبعث مشرف الدولة إليه عسكراً فهزموا أستاذ هرمز وأسروه، وحبس ببعض القلاع وطولب بالأموال وعادت عمان إلى مشرف الدولة.

خروج أبي نصر بن عضد الدولة علي أخيه صمصام الدولة وانهزامه وأسره:

كان أسفار بن كردويه من أكابر قواد الديلم، واستوحش من صمصام الدولة فمال عن طاعته إلى أخيه مشرف الدولة وهو بفارس، وداخل رجال الديلم في صمصام الدولة، وأن ينصبوا بهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة نائباً عن أخيه مشرف الدولة حتى يقدم من فارس. وتمكن أسفار من الخوض في ذلك فمرض صمصام الدولة، وتأخر عن حضور الدار، وراسله صمصام الدولة أنه لا ذنب له لأنه كان صبيبا فاعتقله مكرما، وسعى إليه بابن سعدان وزيره أوهواه كان معهم فعزله وقتله، ومضى أسفار إلى أبي الحسن بن عضد الدولة بالأهواز، ومضى بقية العسكر إلى مشرف الدولة بفارس.

استيلاء القرامطة علي الكوفة بدعوة مشرف الدولة ثم انتزاعها منهم:

كان للقرامطة محل من البأس والهيبة عند أهل الدول وكانوا يدافعوهم في أكثر الأوقات بالمال، وأقطعهم معز الدولة وابنه بختيار ببغداد وأعمالها، وكان يأتيهم ببغداد أبو بكر بن ساهويه يحتكم بحكم الوزراء فقبض عليه صمصام الدولة، وكان على القرامطة في هجر ونيسابور مشتركان في إمارتهما، وهما إسحق وجعفر فلما بلغهما الخبر سارا إلى الكوفة فملكاها وخطبا لمشرف الدولة. وكاتبهما صمصام الدولة بالعتب فذكرا أمرهما ببغداد، وانتشر القرامطة في البلاد وجبوا الأموال، ووصل أبو قيس الحسن بن المنذر من أكابرهم إلى الجامعين فسرح صمصام الدولة العسكر، ومعهم العرب فعبروا الفرات وقاتلوه فهزموه وأسروه، وقتلوا جماعة من قواد القرامطة؟ ثم عاودوا عسكرا آخر. ولقيتهم عساكر صمصام الدولة بالجامعين فانهزم القرامطة وقتل مقدمهم وغيره وأسروا منهم العساكر، وساروا في اتباعهم إلى القادسية فلم يدركوهم.

استيلاء مشرف الدولة علي الأهواز ثم علي بغداد واعتقال صمصام الدولة:

ثم سار مشرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من فارس لطلب الأهواز، وقد كان أخوه أبو الحسين تغلب عليها عند انهزام عساكر صمصام الدولة سنة اثنتين وسبعين، وكان صمصام الدولة عدما ملك بعث أبا الحسين وأبا ظاهر أخويه على فارس كما قدمناه فوجدا أخاهما مشرف الدولة قد سبقهما إلى ملكها. وعندما ملك فارس والبصرة ولاهما

على البصرة. فلما انهزمت عساكر صمصام الدولة أمام عسكر مشرف الدولة بعث أبا الحسين على الأهواز فملكها وأقام بها. واستخلف على البصرة أخاه أبا ظاهر فلما سار مشرف الدولة هذه السنة إلى الأهواز قدم إليه الكتاب بأن يسير إلى العراق، وأنه يقره على عمله فثق ذلك على أبي الحسين، وتجهز للمدافعة فعاجله مشرف الدولة عن ذلك، وأغذ السير إلى أرجان فملكها ثم رامهرمز، وانتقض أجناده ونادوا بشعار مشرف الدولة فهرب إلى عملا فخر الدولة بالري، وأنزله بأصفهان ووعده بالنصر، وأبطأ عليه فثار في أصفهان بدعوة أخيه مشرف الدولة فقبض عليه جندها وبعثوا به إلى الري فحبسه فخر الدولة إلى أن مرض واشتد مرضه فأرسل من قتله في محبسه.

ولما هرب أبو الحسين من الأهواز سار إليها مشرف الدولة، وأرسل إلى البصرة قائدا فملكها، وقبض على أخيه أبي ظاهر وبعث إليه صمصام الدولة في الصلح، وأن يخطب له ببغداد، وسارت إليه الخلع والألقاب من الطائع، وجاء من قبل صمصام الدولة من يستحلفه. وكان معه الشريف أبو الحسن محمد بن عمر الكوفي فكان يستحثه إلى بغداد. وفي خلال ذلك جاءته كتب القواد من بغداد بالطاعة، وبعث أهل واسط بطاعتهم فامتنع من إتمام الصلح، وسار إلى واسط فملكها وأرسل صمصام الدولة أخاه أبا نصر يستعطفه بالسلافة فلم يعطف عليه. وشغب الجند على صمصام الدولة فاستشار صمصام الدولة أصحابه في طاعة أخيه فنهوه. وقال بعضهم نصعد إلى عكبرا ونتبين الأمر، وإن دهمنا ما لا ننوي عليه سرنا إلى الموصل وننتصر بالديلم، وقال آخرون: نقصد فخر الدولة بأصفهان ثم نخالفه إلى فارس فنحتوي على خزائن مشرف الدولة وذخائره فيصالح كرهاً فأعرض عنهم، وركب صمصام الدولة إلى أخيه مشرف الدولة في خواصه فتلقاه بالمبرة. ثم قبض عليه وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة ست وسبعين وأخوه صمصام الدولة في اعتقاله بعد أربع سنين من إمارته بالعراق.

أخبار مشرف الدولة في بغد اد مع جنده ووزرائه:

لما دخل مشرف الدولة بغداد كان الديلم معه في قوة وعدد تنتهي عدتهم إلى خمسة عشر ألفا، والأتراك لا يزيدون على ثلاثة آلاف فاستطال الديلم بذلك، وجرت ين اتباعهم لأول دخولهم بغداد مصاولة آلت إلى الحرب بين الفريقين فاستظهر الديلم على

الترك، وتنادوا بإعادة صمصام الدولة إلى ملكه فارتاب بهم مشرف الدولة، ووكل صمصام الدولة من يقتله إن هموا بذلك. ثم أتيحت الكرة للأتراك على الديلم وفتكوا فيهم، وافترقوا واعتصم بعضهم بمشرف الدولة. ثم دخل من الغد إلى بغداد فتقبله الطائع وهنأه بالسلامة. ثم أصلح بين الطائفتين واستحلفهم جميعا. وحمل

صمصام الدولة إلى قلعة ورد بفارس فاعتقل بها، وكان نحرير الخادم يشير بقتله فلا يجيبه أحد. واعتقل سنة تسع وسبعين وأشرف على الهلاك. ثم أشار نحرير في قتله أو سمله فبعث لذلك من يثق به فلم يقدم على سمله حتى استشار أبا القاسم بن الحسن الناظر هناك فأشار به فسمله.

وكان صمصام الدولة يقول إنما أعماني العلاء لأنه في معنى حكم سلطان ميت. ولما فرغ مشرف الدولة من فتنة الجند صرف نظره إلى تهذيب ملكه فرد على الشريف محمد بن عمر الكوفي جميع أملاكه، وكانت تغل في كل سنة ألفي ألف وخمسمائة ألف درهم، ورد على النقيب أبي أحمد والد الرضي جميع أملاكه، وأقر الناس على مراتبهم. وكان قبض على وزيره أبي محمد بن فسانجس، وأفرج عن أبي منصور الصاحب، واستوزره فأقره على وزارته ببغداد. وكان قراتكين قد أفرط في الدولة والضرب على أيدي الحكام فرأى أن يخرجه إلى بعض الوجوه، وكان حنقاً على بدر بن حسنويه لميله مع عمه فخر الدولة فبعثه إليه في العساكر سنة سبع وسبعين فهزمه بدر بوادي قرمسين بعد أن هزمه قراتكين أولا.

ونزل العسكر فكر عليهم بدر فهزمهم وأثخن فيهم، ونجا قراتكين في الفل إلى جسر النهروان حتى اجتمع إليه المنهزمون، ودخل بغداد واستولى بدر على أعمال الجبل. ولما رجع قراتكين أغرى الجند بالشغب على الوزير أبي منصور بن صالحان فأصلح مشرف بينه وبين قراتكين، وحقدها له فقبض عليه بعد أيام وعلى جماعة من اصحابه واستصفى أموالهم. وشغب الجند من أجله فقتله وقدم عليهم مكانه طغان الحاجب. ثم قبض سنة ثمان وسبعين على شكر الخادم خالصة أبيه عضد الدولة يخالصته، وكان يحقد عليه من أيام أبيه من سعاياته فيه: منها إخراجه من بغداد إلى كرمان تقربا إلى أخيه صمصام الدولة بإخراجه. فلما ملك مشرف الدولة بغداد اختفى شكر فلم يعثرعليه، وكان معه في اختفائه جارية حسناء فعلقت بغيره، وفطن لها فضربها

فخرجت مغاضبة له، وجاءت إلى مشرف الدولة فدلت عليه فأحضره وهم بقتله، وشفع فيه نحرير الخادم حتى وهبه له. ثم استأذن في الحج وسار هن مكة إلى مصر فاختصه خلفاء الشيعة وأنزلوه عندهم بالمترلة الرفيعة.

وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه بهاء الدولة:

ثم توفي مشرف الدولة أبو الفوارس سرديك بن عضد الدولة ملك العراق في منتصف تسع وسبعين لثمانية أشهر وسنتين من ملكه ودفن بمشهد علي، ولما اشتدت علته بعث ابنه أبا علي إلى بلاد فارس بالخزائن والعدد مع أمه وجواريه في جماعة عظيمة من الأتراك، وسأله أصحابه أن يعهد فقال: أنا في شغل عن ذلك فسألوه نيابة أخيه بهاء الدولة ليسكن الناس إلى أن يستفيق من مرضه فولاه نيابته. ولما جلس بهاء الدولة فى دست الملك ركب إليه الطائع فعزاه وخلع عليه خلع السلطنة، وأقر بهاء الدولة أبا منصور بن صالحان على وزارته.

وثوب صمصام الدولة بفارس وأخباره مع علي ابن أخيه مشرف الدولة:

قد تقدم لنا أن صمصام الدولة اعتقله أخوه مشرف الدولة بقلعة ورد، قرب شيراز من أعمال فارس، عندما ملك بغداد سنة ست وسبعين. فلما مات مشرف الدولة وكان قد بعث ابنه أبا علي إلى فارس، ولحقه موت أبيه بالبصرة فبعث ما معه في البحر إلى أرجان، وسار إليها في البر مخفا. والتف عليه الجند الذين بها، وكاتبه

العلاء بن الحسن من شيراز بخبر صمصام الدولة فسار إلى شيراز، واختلف عليه الجند، وهم الديلم بإسلامه إلى صمصام الدولة فتحرك الأتراك وقاتل الديلم أياما. ثم سار إلى نسا والأتراك معه فأخذوا ما بها من المال، وقتلوا الديلم ونهبوا أموالهم وسلاحهم. وسار أبو علي إلى أرجان، وبعث الأتراك إلى شيراز فقاتلوا صمصام الدولة والديلم ونهبوا البلد وعادوا إليه بأرجان. وجاءه رسول عمه اهباء الدولة من بغداد بالمواعيد الجميلة، ودس مع رسوله إلى الأتراك واستمالهم فح!نوا لأبي علي المسير إلى عمه بهاء الدولة فسار إليه ولقيه بواسط منتصف ثمانين وثلاثمائة وقد أعد له الكرامة والنزول. ثم قبض عليه لأيام وقتله وتجهز للمسير إلى فارس.

مسير فخر الدولة صاب الري وأصفهان وهمذان إلي العراق وعوده:

كان الصاحب أبو القاسم إسمعيل بن عباد وزير فخر الدولة ابن ركن الدولة يحب العراق ويريد بغداد، لما كان بها من الحضارة واستئثار الفضائل. فلما توفي مشرف الدولة سلطان بغداد رأى أن الفرصة قد تمكنت فدس إلى فخر الدولة من يغريه بملك بغداد حتى استشاره في ذلك فتلطف في الجواب بأن أحاله على سعادته فقبل إشارته، وسار إلى حمدان ووفد عليه بدر بن حسنويه ودبيس بن عفيف الأسدي، وشاوروا في المسير فسار الصاحب ابن عباد وبدر في المقدمة على الجادة، وفخر الدولة على خوزستان ثم ارتاب فخر الدولة بالصاحب ابن عباد خشية من ميله مع أولاد عضد الدولة فاستعاده، وساروا جميعا إلى الأهواز فملكها فخر الدولة وأساء السيرة في جندها وجنده، وحبس عنهم العطاء فتخاذلوا. وكان الصاحب منذ اتهمه ورده عن طريقه معرضا عن الأمور ساكتا فلم تستقم الأمور بإعراضه. ثم بعث بهاء الدولة عساكره إلى الأهواز فقاتلوهم، وزادت دجلة إلى الأهواز وانفتقت أنهارها فتوهم الجند وحبسوها مكيدة فانهزموا، وأشار عليه الصاحب بإطلاق الأموال فلم يفعل فانغضت عنه عساكر الأهواز وعاد إلى الري وقبض في طريقه على جماعة من قواد الديلم والري، وعادت الأهواز إلى دعوة بهاء الدولة.

مسير بهاء الدولة إلى أخيه صمصام الدولة بفارس:

ثم سار بهاء الدولة سنة ثمانين إلى خوزستان عازما على قصد فارس، وخلف ببغداد أبا نصر خواشادة من كبار قواد الديلم، ومر بالبصرة فدخلها، وسار منها إلى خوزستان وأتاه نعي أخيه أبي ظاهر فجلس لعزائه، ودخل أرجان وأخذ جميع ما فيها من الأموال، وكانت ألف ألف دينار وثمانية آلاف ألف درهم. وهرعت إليه الجنود وتفرقت فيهم تلك الأموال كلها. ثم بعث مقدمته أبا العلاء بن الفضل إلى النوبندجان فهزموا بها عسكر صمصام الدولة فأعاد صمصام الدولة العساكر مح فولاد بن هاندان، فهزموا أبا العلاء بمراسلة وخديعة من فولاد كبسه في أثرها فعاد إلى أرجان مهزوما، ولحق صمصام الدولة من شيراز بفولاد. ثم ترددت الرسل في الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق، وبكون لكل منهما إقطاع في بلد صاحبه

فتم ذلك بينهما وتحالفا عليه، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز. وبلغه ما وقع ببغداد من العيارين، وبين الشيعة وأهل السنة، وكيف نهبت الأموال وخرجت المساكين فأعاد السير إلى بغداد وصلحت الأحوال.

القبض علي الطائع ونصب القادر للخلافة:

قد ذكرنا أن بهاء الدولة وقد شغب الجند عليه لقفة الأموال وقبض وزيره فلم يغن عنه. وكان أبو الحسن بن المعلم غالبا على هواه فأطمعه في مال الطائع وزين له القبض عليه فأرسل إليه بهاء الدولة في الحضور عنده فجلس على العادة، ودخل بهاء الدولة في جمع كبير، وجلس على كرسيه وأهوى بعض الديلم إلى يد الطائع ليقبلها. ثم جذبه عن سريره وهو يستغيث ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. واستصفيت خزائن دار الخلافة فمشى بها الحال أياما، ونهب الناس بعضهم بعضا. ثم أشهد على الطائع بالخلع ونصبوا للخلافة عمه القادر أبا العباس أحمد المقتدر استدعوه من البطيحة. وكان فر إليها أمام الطائع كما تقدم في أخبار الخلفاء وهذا كله سنة أحد وثمانين وثلثمائة.

رجوع الموصل إلي بهاء الدولة:

كان أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل قتل أبا طاهر بن حمدان آخر ملوك بني حمدان بالموصل، وغلب عليها وأقام بها طاعة معروفة لبهاء الدولة، وذلك سنة ثمانين كما مر في أخبار بني حمدان وبني المسيب. ثم بعث بهاء الدولة أبا جعفر الحجاج بن هرمز من قواد الديلم في محس!كر كبير إلى الموصل فملكها آخر إحدى وثمانين فاجتمعت عقيل مع أبي الرواد على حربه، وجرت بينهم عدة وقائع، وحسن فيها بلاء أبي جعفر بالقبض عليه فخشي اختلاف أمره هناك وراجع في أمره، وكان بإغراء ابن المعلم وسعايته. ولما شعر الوزير بذلك صالح أبا الرواد وأخذ رهنه، وأعاده إلى بغداد فوجد بهاء الدولة قد نكب ابن المعلم.

أخبار ابن المعلم:

هو أبو الحسن بن المعلم قد غلب على هوى بهاء الدولة وتحكم في دولته، وصدر
كثير من عظائم الأمور بإشارته فمنها نكبة أبي الحسن محمد بن العلوي، وكان قد عظم شنأنه مع مشرف الدولة وكثرت أملاكه. فلما ولي بهاء الدولة سعى به عنده، وأطمعه في ماله فقبض عليه واستصفى سائر أملاكه، ثم حمله على نكبة وزيره أي منصور بن صالحان. سنة ثمان واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير قبل مسيره إلى خوزستان، ثم حمله على خلع الطائع واستصفى أمواله وحمل ذخائر الخلافة إلى داره، ثم حمله على نكبة وزيره أبي نصر سابور واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وبعد مرجعه من خوزستان. قبض على أبي حواشادة. وأبي عبد الله بن ظاهر سنة إحدى وثمانين، لأنهما لم يوصلا لابن المعلم هداياهما فحمل بهاء الدولة على نكبتهما. ولما استطال على الناس وكثر الضجر منه شغب الجند على بهاء الدولة، وطالبوه بإسلامه إليهم، وراجعهم فلم يقبلوا فقبض عليه وعلى سائر أصحابه ليسترضيهم بذلك فلم يرضوا إلا به فأسلمه إليهم وقتلوه. ثم اتهم الوزير أبا القاسم بمداخلة الجند في الشغب على الوزير فقبض عليه، واستوزر مكانه أبا نصر سابور وأبا نصر بن الوزير الأولين وأقاما شريكين في الوزارة.

خروج أولاد بختيار وقتلهم:

كان عضد الدولة قد حبس أولاد بختيار فأقاموا معتقلين مدة أيامه وأيام صمصام الدولة من بعده. ثم أطلقهم مشرف الدولة وأحسن إليهم وأنزلهم بشيراز وأقطعهم. فلما مات مشرف الدولة حبسوا في قلعة ببلاد فارس فاستمالوا الموكل الذي عليهم والجند الذي معه من الديلم فأفرجوا عنهم، وذلك سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليهم أهل تلك النواحي وأكثرهم رجالة. وبلغ الخبر إلى صمصام الدولة فبعث أبا علي بن أستاذ هرمز في عسكر فافترقت تلك الجموع، وتحصن بنو بختيار ومن معهم من الديلم، وحاصرهم أبو علي وأرسل أحد الديلم معام فأصعدهم سرا وملكوا القلعة وقتلوا أولاد بختيار.

استيلاء صمصام الدولة، على الأهواز ورجوعها منه:

ثم انتقض الصلح سنة ثلاث وثمانين بين بهاء الدولة صاحب بغداد وأخيه صمصام الدولة صاحب ض زستان، وذلك أن بهاء الدولة بعث أبا العلاء عبد الله بن الفضل الى

الأهواز، وأسرا إليه أن يبعث العساكر متفرقة فإذا اجتمعوا عنده صدم بهم بلاد فارس فسار أبو العلاء، وتشاغل بهاء الدولة عن ذلك، وظهر الخبر فجهز صمصام الدولة عسكره إلى خوزستان، واستمد أبو العلاء بهاء الدولة فتوافت عساكره والتقى العسكران. وانهزم أبو العلاء وأخذ أسيرا فأطلقته أم صمصام الدولة، وقلق بهاء الدولة لذلك وافتقد الأموال فأرسل وزيره أبا نصر سابور إلى واسط، وأعطاه جواهر وأعلاقا يسترهنها عند مهذب الدولة صاحب البطيحة فاسترهنها ولما هرب الوزير أبو نصر استعفى ابن الصالحان من الانفراد بالوزارة فأعفي. واستوزر بهاء الدولة أبا القاسم علي بن أحمد، ثم عجز وهرب. وعاد أبو نصر سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم. ثم بعث بهاء الدولة طغان التركي إلى الأهواز في سبعمائة من المقاتلة فملكوا السوس، ورحل أصحاب صمصام الدولة عن الأهواز وانتشرت عساكر طغان في أعمال خوزستان، وكان أكثرهم من الترك فغص الديلم بهم الذين في عسكر طغان فضل الدليل وأصبح على بعد منهم، ورآهم الأتراك فركبوا إليهم وأكمن ألوفا واستأمن كثير منهم وأمنهم طغان حتى نزلوا بأمر الأتراك فقتلوهم كلهم. وانتهى الخبر إلى بهاء الدولة بواسط وسار إلى الأهواز، وسار صمصام الدولة إلى شيراز وذلك سنة أربع وثمانين، وأمر صمصام الدولة بقتل الأتراك في جميع بلاد فارس سنة خمس وثمانين فقتل منهم جماعة وهرب الباقون فعاثوا في البلاد ولحقوا بكرمان، ثم ببلاد السند حتى توسطهم الأتراك فأطبقوا عليهم واستلحموهم.

استيلاء صمصام الدولة علي الأهواز ثم علي البصرة:

ثم بعث صمصام الدولة عساكره الديلم سنة خمس وثمانين إلى الأهواز، وكان نائب بهاء الدولة قد توفي وعزم الأتراك على العود إلى بغداد فبعث بهاء الدولة مكانه أبا كاليجار المرزبان بن سفهيعون، وأنفذ أبا محمد الحسن بن مكرم إلى رامهرمز مدداً لنائبها لفتكين، وقد انهزم إليها أمام عسكر صمصام الدولة فترك أبا محمد بن مكرم بها. ومضى إلى الأهواز وسار إلى خوزستان فكاتبه العلاء بن الحسن يخادعه. ثم سار إلى رامهرمز وحارب ابن مكرم ولفتكين وبعث بهاء الدولة ثمانين من الأتراك يأتون من خلف الديلم فشعروا بهم وقتلوهم أجمعين وخام بهاء الدولة عن اللقاء فرجع إلى الأهواز. ثم سار إلى البصرة ونزل بها، وانتهى خبره إلى ابن مكرم فعاد إلى

عسكر مكرم واتبعه العلاء والديلم فأجلوه عنها إلى قرب تستر. وتكررت الوقائع بين الفريقين فكان بيد الأتراك من

تستر إلى رامهرمز، وبيد الديلم من رامهرمز.

ورجع الأتراك واتبعهم العلاء فوجدهم قد سلكوا طريق واسط فرجع عنهم، وأقام بعسكر مكرم. ورجع بهاء الدولة إلى بغداد، وكان مع العلاء قائد من قواد الديلم اسمه شكراستان فاستأمن إليه من الديلم الذين مع بهاء الدولة نحو من أربعمائة رجل فاستكثر بهم، وسار إلى البصرة وحاصرها، ومال إليهم أبو الحسن بن جعفر العلوي من أهل البصرة وكانوا يحملون الميرة. وعلم بهاء الدولة فأنفذ من يقبض عليهم فهربوا إلى ذلك القائد وقوي بهم، وجمعوا له السفن فركبها إلى البصرة، وقاتل أصحاب بهاء الدولة وهزمهم وملك البصرة واستباحها. وكتب بهاء الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة بأن يرتجعها من يد الديلم ويتولاها فأمده عبد الله بن مرزوق، وأجلى الديلم عنها، ثم رجع للقاء شكراستان. وهجم عليها في السفن فملكها. وكاتب بهاء الدولة بالطاعة والضمان فأجابه وأخذ ابنه رهينة، وكان يظهر طاعة بهاء الدولة وصمصام الدولة.

وفاة الصاحب ابن عباد:

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة توفي أبو القاسم إسمعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالري، وكان أوحد زمانه علما وفضلا ورياسة ورأيا وكرما. وعرفاً بأنواع العلوم، عارفا بالكتابة؟ ورسائله مشهورة مدونة. وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد، حتى يقال كانت تنقل في أربعمائة حمل. ووزر بعده لفخر الدولة أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي الملقب بالكافي. ولما توفي استصفى فخر الدولة أمواله بعد أن أوصاه عند الموت فلم ينفذ و!يته. وكان الصاحب قد أحسن إلى القاضي عبد الجبار المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري وأعمالها. فلما مات قال عبد الجبار: لا أرى الترحم عليه لأنه مات على غير توبة ظهرت منه فنسب إليه قلة الوفاء بهذه المقالة. ثم صادر فخر الدولة عبد الجبار فباع في المصادرة ألف طيلسان وألف ثوب من الصوف الرفيع. ثم تتبع فخر الدولة اثار ابن عباد، وأبطل ما كان عنده من المسامحات، وقبض على أصحابه والبقاء لله وحده.

وفاة فخر الدولة صاحب الري وملك ابنه مجد الدولة:

ثم توفي فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه صاحب الري وأصفهان وهمذان في

شعبان سنة خمس وثلاثين بقلعة طبرك، ونصب للملك من بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم وعمر، أربع سنين، نصبه الأمراء وجعلوا أخاه شمس الدولة بهمذان وقرميس إلى حدود العراق، وكان زمام الدول!ة بيد أم رستم مجد الدولة، وإليها تدبير ملكه، وبين يديها في مباشرة الأعمال أبو ظاهر صاحب فخر الدولة وأبو العباس الضبي الكافي.

وفاة العلاء بن الحسن صاحب خوزستان:

ثم توفي العلاء بن الحسن عامل خوزستان لصمصام الدولة بعسكر مكرم فبعث صمصام الدولة أبا علي بن أستاذ هرمز بالمال ففرقه في الديلم، ودفع أصحاب بهاء الدولة عن جنديسابور بعد وقائع كان الظفر فيها له، ثم

دفعهم عن خوزستان إلى واسط واستمال بعضهم فتزعوا إليه ورتب العمال في البلاد وجبى الأموال سنة سبع وثمانين. ثم سار أبو محمد بن مكرم من واسط مع الأتراك فدافعهم، وكانت بينه وبينهم وقائع. ثم سار بهاء الدولة في أثرهم من واسط، وكان لحق بهم !في واسط أبو علي بن إسمعيل الذي كان نائبا ببغداد عند مسيره إلى الأهواز سنة ست وثمانين، وجاء المقلد بن المسيب من الموصل للعيث في جهات بغداد فبرز أبو علي لقتاله فنكر ذلك بهاء الدولة مغالطة، وبعث من يصالحه، ويقبض على أبي علي فهرب أبو علي إلى البطيحة. ثم لحق بهاء الدولة وهو بواسط فوزر له وزير أمره وأشار عليه بالمسير لإنجاد أبي محمد بن مكرم في قتال أبي علي بن أستاذ هرمز بخوزستان فسار بهاء الدولة ونزل القنطرة البيضاء، وجرت بينه وبين أبي علي بن أستاذ هرمز وقائع، وانقطعت الميرة عن معسكر بهاء الدولة فاستمد بدر بن حسنويه فأمده ببعض الشيء، وكثرت سعاية الأعداء في أبي علي بن إسمعيل فكاد ينكبهم، وبينما هم على ذلك بلغهم مقتل صمصام الدولة فصلحت الإحوال واجتمعت الكلمة.

مقتل صمصام الدولة:

كان أبو القاسم وأبو نصر ابنا بختيار محبوسين كما تقدم فخدعا المتوكلين بهما في القلعة، وخرجا فاجتمع إليهما لفيف من الأكراد. وكان صمصام الدولة قد عرفى جنده وأسقط منهم نحواً من ألف لم يثبت عنده نسبهم في الديلم فبادروا إلى ابني بختيار،

والتقوا عليهما في أرجان، وكان أبو جعفر أستاذ هرمز مقيما فثار به الجند ونهبوا داره فاختفى. ثم انتقضوا طى صمصام الدولة ونهبوه وهرب إلى الرودمان على مرحلتين من شيراز فقبض عليه صاحبها، وجاء أبو نصر بن بختيار فأخذه منه وقتله في ذي الحجة سنة ثمان لتسع سنين من إمارته بفارس، وأسلمت أمه إلى بعض قواد الديلم فقتلها، ودفنها بداره حتى ملك بهاء الدولة فارس فنقلها إلى تربة بني بويه.

استيلاء بهاء الدولة علي فارس وخوزستان:

ولما قتل صمصام الدولة وملك ابنا بختيار فارس بعثا إلى أبي علي بن أستاذ هرمز . يستميلانه، ويأمرانه بأخذ العهد لهما على الذين معه من الديلم، ومحاربة بهاء الدولة. وكتب إليه بهاء الدولة يستميله ويؤمنه ويؤمن الديلم الذين معه ويرغبهم، واضطرب رأي أبي علي لخوفه من ابني بختيار لما أسلف من قتل أخوتهما وحبسهما فمال عنهما، ومال الديلم عن بهاء الدولة خوفا من الأتراك الذين معه فما زال أبو علي بهم حتى بعثوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة، واستوثقوا يمينه ونزلوا إلى خدمته، وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان.

واستولى بهاء الدولة على سائر بلاد خوزستان، وبعث وزيره أبا علي بن إسمعيل إلى فارس فتزل بظاهر شيراز وبها ابنا بختيار فحاربهما، ومال بعض أصحابهما إليه. ثم انفضوا عنهما إلى أبي علي وأطاعوه واستولى على شيراز، ولحق أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم وأخوه أبو القاسم ببدر بن حسنويه ثم بالبطيحة. وكتب الوزير أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح فسار إلى شيراز وأمر بنهب قرية الرودمان فملكها، وأقام بهاء الدولة بالأهواز،

واستخلف ببغداد أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز، ولقبه عميد العراق. وبقي ملوك الديلم بعد ذلك يقيمون بفارس والأهواز ويستخلفون على العراق مدة طويلة.

مقتل ابن بختيار بكرمان واستيلاء بهاء الدولة عليها:

لما استقر أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم كاتب جند الديلم بفارس وكرمان، واستمالهم فاستدعوه إلى فارس فاجتمع إليه كثير من الربض والديلم والأكراد. ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن السيرجان، ومضى ابن بختيار إلى جيرفت فملكها، وملك

أكثر كرمان فبعث بهاء الدولة وزيره الموفق أبا علي بن إسمعيل في العساكر. ولما وصل جيرفت استأمن إليه أهلها وملكها، وهرب ابن بختيار فاختار الوزير من أصحابه ثلاثمائة رجل وسار في اتباعه، وترك باقي العسكر بجيرفت. ولما أدركه أوقع به، وغدر بابن بختيار بعض أصحابه فقتله وجاء برأسه إلى الموفق، واستلحم الباقين وذلك سنة تسعين. واستولى الموفق على كرمان وولى عليها أبا موسى سياه جشم. وعاد إلى بهاء الدولة فقبض عليه واستصفاه، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على أنسابه وأصحابه فدس إليهم سابور بذلك وهربوا. ثم قتل بهاء الدولة الموفق سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، ثم استعمل بهاء الدولة على خوزستان وأعمالها أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقبه عميد الجيوش، وعزل عنها أبا جعفر الحجاج بن هرمز لسوء سيرته وفساد أحوالها بولايته وكثرة مصادراته فصلحت حالها بولاية أبي علي، وحصل إلى بهاء الدولة منها الأموال مع كثرة العدل.

مسير ظاهر بن خلف إلي كرمان واستيلاؤه عليها ثم ارتجاعها:

قد تقدم لنا أن ظاهر بن خلف خرج عن طاعة أبيه خلف بن أحمد السجستاني، وحاربه فظفر به أبوه فسار إلى كرمان يروم التوثب عليها، وتكاسل عاملها عن أمره فكثر جمعه، واجتمع إليه بحيالها كثير من المخالفين فنزل بهم إلى جيرفت فملكها وملك غيرها سنة إحدى وتسعين. وكان بكرمان أبو موسى سياه جشم فسار إليه بمن معه من الديلم فهزمه ظاهر، وأخذ ما بقي بيده فبعث بهاء الدولة أبا جعفر أستاذ هرمز في العساكر إلى كرمان فهزم ظاهرا إلى سجستان وملك كرمان وعادت الديلم.

حروب عساكر بهاء الدولة مع بني عقيل:

كان قرواش بن المقلد قد بعث جمعا من بني عقيل سنة ثلاث وتسعين فحاصروا المدائن، وبعث أبو جعفر الحجاج بن هرمز وهو ببغداد نائب لبهاء الدولة عساكره فدفعوهم عنها فاجتمع بنو عقيل وأبو الحسن بن مزيد من بني أسد وبرز إليهم الحجاج، واستدعى خفاجة من الشام وقاتلهم فانهزم واستبيح عسكره، وانهزم ثانيا وبرز إليهم فالتقوا بنواحي الكوفة فهزمهم وأثخن فيهم، ونهب من حلل بني يزيد ما لا يعبر عنه من العين والمصاغ والثياب.

الفتنة بين أبي علي وأبي جعفر:

لما غاب أبو جعفر الحجاج عن بغداد قام بها العيارون واشتد فسادهم، وكثر القتل والنهب فبعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز لحفظ العراق فانهزم أبو جعفر بنواحي الكوفة مغضبا. ثم جمعوا الجموع من الديلم والأتراك والعرب فانهزم أبو جعفر، وأمن أبو علي جانبه فسار إلى خوزستان، وبلغ السوس فأتاه الخبر بأن أبا جعفر عاد إلى الكوفة فكر راجعاً، وعاد الحرب بينهم-. وبينما هم على ذلك أرسل بهاء الدولة إلى أبي علي يستدعيه سنة ثلاث وتسعين لحرب ابن واصل بالبصرة فسار إليه، وكانت الحرب بينه وبين ابن واصل كما يأتي في أخبار ملوك البطيحة، ورجع إلى بغداد. ونزل أبو جعفر على فلح حامي طريق خراسان وأقام هنالك، وكان فلح مباينا لعميد الجيوش أبي علي. وتوفي سلخ سنة سبع وتسعين فولى أبو علي مكانه أبا الفضل بن عنان، وكان بهاء الدولة في محاربة ابن واصل بالبصرة فأتاهم الخبر بظهور بهاء الدولة عليه فأوهن ذلك منهم وافترقوا. ولحق ابن مزيد ببلده؟ وسار أبو جعفر وابن عيسى إلى حلوان. وأرسل أبو جعفر في إصلاح حاله عند بهاء الدولة فأجابه إلى ذلك، وحضر عنده بتستر فأعرض عنه خوفا أن يستوحش أبو علي. وحقد بهاء الدولة لبدر بن حسنويه فسار إليه، وبعث إليه بدرا في المصالحة فقبله وانصرف، وتوفي أبو جعفر الحجاج بن هرمز بالأهواز سنة إحدى وأربعمائة.

الفتنة بين مجد الدولة صاب الري وبين أمه واستيلاء ابن خالها علاء الدين بن كاكويه علي أصفهان:

قد تقدم لنا ولاية مجد الدولة أبي طالب رستم بن فخر الدولة على همذان وقرميسين إلى حدود العراق، وتدبير الدولتين لأمه وهي متحكمة عليها فلما وزر لمجد الدولة الخطير أبو علي بن علي بن القاسم استمال الأمراء عنها، وخوف مجد الدولة منها فاسترابت وخرجت من الري إلى القلعة فوضع عليها من يحفظها فأعملت الحيلة حتى لحقت ببدر بن حسنويه مستنجدة به. وجاءها ابنها شمس الدولة في عساكر همذان وسار معهما بدر، وذلك سنة سبع وتسعين فحاصروا أصفهان وملكوها عنوة. وعاد إليها الأمر فاعتقلت مجد الدولة، ونصبت شمس الدولة للملك، ورجع بدر إلى بلده. ثم بعد سنة

استرابت بشمس الدولة فأعادت مجد الدولة إلى ملكه. وسار شمس الدولة إلى همذان، وانتقض بدر بن حسنويه لذلك، وكان فني شغل بفتنة ولده هلال. واستمد شمس الدولة فأمده بعسكر وحاصر قم فاستصعبت عليه، وكان علاء الدين أبو حفص بن كاكويه ابن خال هذه المرأة، وكاكويه هو الخال بالفارسية فلذلك قيل له ابن كاكويه، وكانت قد استعملته على أصفهان فلما فارق أمرها فسد حاله فسار هو إلى بهاء الدولة بالعراق، وأقام عنده فلما عادت إلى حالها هرب أبو حفص إليها من العراق فأعادته إلى أصفهان، ورسخ فيها ملكه وملك بنيه كما يأتي في أخبارهم.

وفاة عميد العراق وولاية فخر الملك:

كان أبو جعفر أستاذ هرمز من حجاب عضد الدولة وخواصه وصير ابنه أبا علي في خدمة ابنه صمصام الدولة فلما قتل صمصام الدولة رجع إلى بهاء الدولة. وبلغه ما وقع ببغداد في مغيبه من الهرج وظهور العيارين فبعث بهاء الدولة مكانه على العراق فخر الملك أبا غالب، وأصعد إلى بغداد فلقيه الكتاب والقواد والأعيان في ذي

الحجة من السنة، وبعث العساكر من بغداد لقتال أبي الشوك حتى استقام. وكانت الفتنة قد وقعت بين بدر بن حسنويه وابنه هلال، واستنجد بدر بهاء الدولة فأنجده من يده وأخذ ما فيها من الأموال، وفتح دير العاقول. وجاء سلطان وعلوان ورجب بنو ثمال الخفاجي في أعيان قومهم، وضمنوا حماية سقي الفرات من بني عقيل، وساروا معه إلى بغداد فبعثهم مع ذي السعادتين الحسن بن منصور للأنبار فعاثوا في نواحيها، وحبس ذو السعادتين نفرا منهم. ثم أطلقهم فهموا بقبضه، وشعر بهم فحاول عليهم حتى قبض على سلطان منهم وحبسهم ببغداد. ثم شفع فيهم أبو الحسن بن مزيد فأطلقهم فاعترضوا الحاج سنة اثنتين وأربعمائة، ونهبوهم فبعث فخر الملك إلى أبي الحسن بن مزيد بالانتقام منهم فلحقهم بالبصرة فأوقع بهم وأثخن فيهم، واسترد من أموال الحاج ما وجد، وبعث به وبالأسرى إلى فخر الملك. ثم اعترضوا الحاج مرة أخرى ونهبوا سواد الكوفة فأوقع بهم أبو الحسن بن مزيد مثل ذلك وبعث بأسراهم إلى بغداد.

وفاة بهاء الدولة وولاية ابنه سلطان الدولة:

ثم توفي بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة ح بن بويه، هلك بالعراق منتصف ثلاث

وأربعمائة بأرجان، وحمل إلى تربة أبيه بمشهد علي فدفن بها لأربع وعشرين سنة من ملكه، وملك بعده ابنه سلطان !الدولة أبو شجاع وسار من أرجان إلى شيراز، وولى أخاه جلال الدولة أبا ظاهر على البصرة وأخاه أبا الفوارس على كرمان.

استيلاء شمس الدولة علي الري من يد أخيه مجد الدولة ورجوعه عنها:

قد تقدم لنا أن شمس الدولة بن فخر الدولة كان ملك همذان وأخوه مجد الدولة ملك الري بنظر أمه، وكان بدر بن حسنويه أمير الأكراد وبينه وبين ولده هلال فتنة وحروب نذكرها في أخبارهم. واستولى شمس الدولة على كثير من بلادهم وأخذ ما فيها من الأموال كما يذكر في أخبارهم. ثم سار إلى الري يروم ملكها ففارقها أخوه مجد الدولة ومعه أمه إلى دنباوند. واستولى شمس الدولة على الري، وسار في طلب أخيه وأمه فشغب الجند عليه وطالبوه بأرزاقهم فعاد إلى همذان، وعاد أخوه مجد الدولة وأمه إلى الري.

مقتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان:

ثم قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك أبي غالب، وقتله في سلخ ربيع الأول سنة ست وأربعمائة لخمس سنين ونصف من ولايته، واستصفى أمواله وكانت ألف ألف دينار سوى العروض وما نهب. وولى مكانه بالعراق أبا محمد الحسن بن سهلان ولقبه عميد الجيوش، واستوزر مكانه الرجحي بعد أن كان ابن سهلان هرب إلى قرواش فأقامه عنده بهيت، وولى سلطان الدولة مكانه في الوزارة أبا القاسم جعفر بن فسانجس. ثم رجع ابن سهلان إلى سلطان الدولة فلما قتل فخر الملك ولاه مكانه فسار إلى العراق في محرم سنة تسع وأربعمائة، ومر في طريقه ببني أسد فرأى أن يثأر منهم من مضر بن دبيس بما كان قبض عليه قديما بأمر فخر الملك فأسرى إليه، والى أخيه مهارش، وفي جملته أخوهم طراد، وأتبعهما حتى أدركهما، وقاتله رجال

الحي فقتل جماعة من الديلم والأتراك. ثم انهزموا ونهب ابن سهلان أموالهم وسبى حريمهم، وبذل الأمان لمضر ومهارش، وأشرك بينهما وبين طراد في الجزيرة.

ونكر عليه سلطان الدولة ذلك، ورحل هو إلى واسط والفتن بها فقتل جماعة منهم

وأصلحها، وبلغه ما ببغداد من الفتنة فسار إليها ودخلها في ربيع من السنة، وهرب منه العيارون، ونفى جماعة من العباسيين وأبا عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وأنزل الديلم بأطراف البلد فكثر فسادهم وفساد الأتراك، وساروا إلى سلطان الدولة بواسط شاكين من ابن سهلان فوعدهم وأمسكهم، وبعث عن ابن سهلان فارتاب وهرب إلى بني خفاجة، ثم إلى الموصل، ثم استقر بالبطيحة. وبعث سلطان الدولة العساكر في طلبه فأجاره وإليها الشرابي، وهزم العساكر. وكان ابن سهلان سار إلى جلال الدولة بالبصرة، ثم أصلح الرجحي حاله مع سلطان الدولة ورجع إليه. وضعف أمر الديلم في هذه السنة ببغداد وواسط، وثارت لهم العامة فلم يطيقوا مدافعتهم.

ثم قبض سلطان الدولة على وزيره فسانجس وأخويه، واستوزر أبا غالب ذا السعادتين الحسن بن منصور.

وقبض جلال الدولة صاحب البصرة على وزيره أبي سعد عبد الواحد علي ابن ماكولا.

انتقاض أبي الفورس علي أخيه سلطان الدولة:

كان سلطان الدولة قد ولى أخاه أبا الفوارس على كرمان فاجتمع إليه بعض الديلم، وداخلوه في الانتقاض فانتقض، وسار إلى شيراز فملكها سنة سبع وأربعمائة. وسار سلطان الدولة فهزمه إلى كرمان، وسار في اتباعه فلحق بمحمود بن سبكتكين ببست ووعده بالنصرة، وبعث معه أبا سعيد الطائي في العساكر إلى كرمان، وقد انصرف عنها سلطان الدولة إلى بغداد فملكها أبو الفوارس، وسار إلى بلاد فارس فملكها، ودخل إلى شيراز فسار سلطان الدولة إليه فهزمه فعاد إلى كرمان سنة ثمان وأربعمائة. وبعث سلطان الدولة في أثره فملكوا عليه كرمان، ولحق بشمس الدولة صاحب همذان لأنه كان أساء معاملة أبي سعيد الطائي فلم يرجع إلى محمود بن سبكتكين. ثم فارق شمس الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة فبالغ في تكرمته، وأنزله بداره. وأنفذ إليه أخوه جلال الدولة مالا وعرض عليه المسير إليه فأبى. ثم ترددت الرسل بينه وبين أخيه سلطان الدولة فعاد إلى كرمان، وبعث إليه التقليد والخلع.

وثوب مشرف الدولة علي أخيه سلطان الدولة ببغداد واستبد اده اخرا بالملك:

ثم شغب الجند على سلطان الدولة ببغداد سنة إحدى عشرة، ونادوا بولاية مشرف

الدولة أخيه فهم بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك. ثم أراد الانحدار إلى واسط لبعض شؤون الدولة فطلب الجند أن يستخلف فيهم أخاه مشرف الدولة فاستخلفه. ورجع من واسط إلى بغداد. ثم اعتزم على قصد الأهواز فاستخلف أخاه مشرف الدولة ثانيا على العراق بعد أن كانا تحالفا أن لا يستخلف أحد منهما ابن سهلان. فلما بلغ سلطان الدولة تستر استوزر ابن سهلان فاستوحش من مشرف الدولة.

ثم بعث سلطان الدولة إلى الأهواز فنهبوها فدافعهم الأتراك الذين بها، وأعلنوا بدعوة مشرف الدولة فانصرف سلطان الدولة عنهم. ثم طلب الديلم من مشرف الدولة المسير إلى بيوتهم بخوزستان فأذن لهم، وبعث معهم وزيره أبا غالب ولحق الأتراك الذين كانوا معه بطراد بن دبيس الأسدي بجزيرة بني دبيس وذلك لسنة ونصف من ولايته الوزارة، وصودر ابنه أبو العباس على ثلاثين ألف دينار، وسر سلطان الدولة بقتل أبي غالب، وبعث أبا كاليجار إلى الأهواز فملكها. ثم تراسل سلطان الدولة ومشرف الدولة في الصلح وسعى فيه بينهما أبو محمد بن مكرم صاحب سلطان الدولة، ومؤيد الملك الرجحي وزير مشرف الدولة: على أن يكون العراق لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة وتم ذلك بينهما سنة ثلاث عشرة.

استيلاء ابن كاكويه علي همذان:

كان شمس الدولة بن بويه صاحب همذان قد توفي، وولي مكانه ابنه سماء الدولة. وكان فرهاد بن مرداوبج مقطع يزدجرد فسار إليها سماء الدولة، وحاصره فاستنجد بعلاء الدولة بن كاكويه فأنجده بالعساكر، ودفع سماء الدولة عن فرهاد. ثم سار علاء الدولة وفرهاد إلى همذان وحاصراها، وخرجت عساكر همذان مع عساكر تاج الملك الفوهي قائد سماء الدولة فدفعهم، ولحق علاء الدولة بجرباذقان فهلك الكثير من عسكره بالبرد.

وسار تاج الملك الفوهي إلى جرباذقان فحاصر بها علاء الدولة، حتى استمال بها قوما من الأتراك الذين مع تاج الملك. وخلص من الحصار وعاود المسير إلى همذان فهزم عساكرها. وهرب القائد تاج الملك. واستولى علاء الدولة على سماء الدولة فأبقى عليه رسم الملك، وحمل إليه المال، وسار فحاصر تاج الملك في حصنه حتى استأمن إليه فأمنه وسار به وبسماء الدولة إلى همذان فملكها، وملك سائر أعمالها. وقبض على جماعة من أمراء الديلم فحبسهم وقتل آخرين وضبط الملك، وقصد أبا الشوك الكردي فشفع فيه مشرف الدولة فشفعه وعاد عنه، وذلك سنة أربع عشرة.

وزارة أبي القاسم المغربي لمشرف الدولة ثم عزله:

كان عنبر الخادم مستوليا على دولة مشرف الدولة بما كان حظي أبيه وجده، وكان يلقب بالأثير، وكان حاكما في دولة بني بويه مسموع الكلمة عند الجند. وعقد الوزير مؤيد الملك الرجحي على بعض اليهود من حواشيه مائة ألف دينار فسعى الأثير الخاب م وعزله في رمضان سنة أربع عشرة، واستوزر لناصر الدولة بن حمدان، ونزع عنه إلى خلفاء العبيديين، وولاه الحاكم بمصر. وولد له بها ابنه أبو القاسم الحسين، ثم قتله الحاكم فهرب ابنه، أبو القاسم إلى مفرج بن الجراح أمير طيىء بالشام، وداخله في الانتقاض على العبيديين بأبي الفتوح أمير مكة فاستقدمه وبايع له بالرملة. ثم صونع من مصر بالمال فانحل ذلك الأمر، ورجع أبو الفتوح إلى مكة، وقصد أبو القاسم العراق واتصل بالعميد فخر الملك أبي غالب فأمره القادر بإبعاده فقصد الموصل، واستوزره صاحبها. ثم نكبه وعاد إلى العراق. وتقلب به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرجحي فساء تصرفه في الجند، وشغب الأتراك عليه وعلى الأثير عنبر بسببه فخرجا إلى السندية، وخرج معهما مشرف الدولة فأنزلهم قرواش. ثم ساروا إلى أوانا، وندم الأتراك فبعثوا المرتضى وأبا الحسن الزينبي يسألون الإقالة،

وكتب إليهم أبو القاسم المغربي بأن أرزاقكم عند الوزير مكرا به. وشعر بذلك فهرب إلى قرواش لعشرة أشهر من وزارته، وجاء الأتراك إلى مشرف الدولة والأثير عنبر فردهما إلى بغداد.

وفاة سلطان الدولة بفارس وملك ابنه أبي كاليجار وقتل ابن مكرم:

ثم توفي سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة صاحب فارس بشيراز، وكان محمد بن مكرم صاحب دولته، وكان هواه مع ابنه أبي كاليجار وهو يومئذ أمير على الأهواز فاستقدمه للملك بعد أبيه. وكان هوى الأتراك مع عمه أبي الفوارس صاحب كرمان فاستقدموه. وخشي محمد بن مكرم جانبه، وفر عنه أبو المكارم إلى البصرة، وسار العادل أبو منصور بن مافنة إلى كرمان لاستقدام أبي الفوارس، وكان صديقا لابن مكرم فحسن أمره عند أبي الفوارس، وأحال الأجناد بحق البيعة على ابن مكرم فضجر وماطلهم فقبض عليه أبو الفوارس وقتله، ولحق ابنه القاسم بأبي كاليجار بالأهواز فتجهز إلى فارس، وقام بتربيته بابن مزاحم صندل الخادم.

وسار في العساكر إلى فارس ولقيهم أبو منصور الحسن بن علي النسوي وزير أبي الفوارس فهزموه وغنموا معسكره. وهرب أبو الفوارس إلى كرمان وملك أبو كاليجار شيراز واستولى على بلاد فارس. وتنكر للديلم الذين بها فبعثوا إلى من كان منهم بمدينة نسا فتمسكوا بطاعة أبي الفوارس. ثم شغب معسكر أبي كاليجار عليه، وطالبوه بالمال فظاهرهم الديلم فسلم إلى النوبندجان ثم إلى شعب بوان. وكاتب الديلم بشيراز أبا الفوارس يستحثونه. ثم أصلحوا بينهما على أن تكون لأبي الفوارس كرمان، ويعود أبو كاليجار لفارس لما فارقه بها من نعمته. وكان الديلم يطيعونه فساروا في العساكر وهزموا أبا الفوارس فلحق بدارابجرد، واستولى أبو كاليجار على فارس. ثم زحف إليه أبو الفوارس في عشرة آلاف من الأكراد فاقتتلوا بين البيضاء واصطخر فانهزم أبو الفوارس ولحق بكرمان، واستولى أبو كاليجار على فارس، واستقر ملكه بها سنة سبع عشرة وأربعمائة.

وفاة مشرف الدولة وملك أخيه جلال الدولة:

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة بن بويه سلطان بغداد في ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة لخمس سنين من ملكه. ولما توفي خطب ببغداد لأخيه جلال الدولة وهو بالبصرة، واستقدم فلم يقدم، وانتهى إلى واسط فأقام بها يخطب لأبي كاليجار ابن أخيه سلطان الدولة، وهو يومئذ بخوزستان مشغول بحرب عمه أبي الفوارس كما قدمناه. فحينئذ أسرع جلال الدولة من واسط إلى بغداد فسار الجند ولقوه بالنهروان وردوه كرها بعد أن نهبوا بعض خزائنه، وقبض على وزيره أبي سعيد ابن ماكولا، واستوزر ابن عمه أبا علي، واستحث الجند أبا كاليجار فعللهم بالوعد وشغل بالحرب، وكثر الهرج ببغداد من العيارين وانطلقت أيديهم وأحرقوا الكرخ، ونهاهم الأمير عنبر عن ذلك فلم ينتهوا فخافهم على نفسه فلحق بقرواش في الموصل، وعظمت الفتن ببغداد.

استيلاء جلال الدولة على ملك بغداد:

ولما عظم الهرج ببغداد ورأى الأتراك أن البلاد تخرب، وأن العرب والأكراد والعامة قد طمعوا فيهم ساروا جميعا إلى دار الخلافة مستعتبين ومعتذرين عما صدر منهم من الانفراد باستقدام جلال الدولة، ثم رده واستقدم أبي كاليجار، مع أن ذلك ليس لنا وإنما هو للخليفة، ويرغبون في استدعاء جلال الدولة لتجتمع الكلمة وشمكن الهرج، ويسألون أن يستخلف فأجابهم الخليفة القادر، وبعث إلى جلال الدولة فسار من البصرة فبعث الخليفة القاضي أبا جعفر السمناني لتلقيه، ويستخلفه لنفسه فسار ودخل بغداد سنة ثمان عشرة وركب الخليفة لتلقيه. ثم سار إلى مشهد الكاظم ورجع، ودخل دار الملك، وأمر بضرب النوب الخمس فراسله القادر في قطعها فقطعها غصباً، ثم أذن له في إعادتها، وبعث جلال الدولة مؤيد الملك أبا علي الرحجي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش بالتأنيس والمحبة والعذر عن فعل الجند.

أخبار ابن كاكويه صاب أصفهان مع الأكراد ومع الأصبهبد:

كان علاء الدولة بن كاكويه قد استعمل أبا جعفر عليا ابن عمه على نيسابور خوست ونواحيها، وضم إليه الأكراد الجودرقان ومقدمهم أبو الفرج البابوني. فجرت بين أبي جعفر وأبي الفرج البابوني مشاجرة، وترافعا إليه فأصلح بينهما علاء الدولة وأعادهما. ثم قتل أبو جعفر أبا الفجر فانتقض الجودرقان وعظم فسادهم فبعث علاء الدولة عسكراً وأقاموا أربعة أيام ثم فقدوا الميرة، وجاء علاء الدولة وأعطاهم المال فافترقوا واتبعهم. وجاء إليه بعض الجودرقان وانتهى في اتباعهم إلى وفد وقاتلوه عندها فهزمهم وقتل ابني ولكين في المعركة، ونجا هو في الفل إلى جرجان، وأسر الأصبهبد وابنان له ووزيره، وهلك في الأسر منتصف سنة تسع عشرة. وتحصن علي بن عمران بقلعة كنكور فحاصره بهاء الدولة، وصار ولكين إلى صهره منوجهر قابوس وأطمعه في الدخكت. وكان ابنه صهر علاء الدولة على ابنته وأقطعه مدينة قم فعصى عليه، وبعث إلى أبيه ولكين. فسار بعساكره وعساكر منوجهر، ونازلوا مجد الدولة بن بويه بالري، وجرت بينهم وقائع فصالح علاء الدولة علي بن عمران ليسير إليهم فارتحلوا عن الري. وجاء علاء الدولة إليها وأرسل إلى منوجهر يوبخه ويتهدده فسار منوجهر، وتحصن بكنكور، وقتل الذين قتلوا أبا

جعفر ابن عمه وقبل الشرط وخرج إلى علاء الدولة فأقطعه الدينور عوضاً عن كنكور وأرسل منوجهر إلى علاء الدولة في الصلح فصالحه.

دخول خفاجة في طاعة أبي كاليجار:

كان هؤلاء خفاجة وهم من بني عمرو بن عقيل موطنين بضواحي العراق ما بين بغداد والكوفة وواسط والبصرة، وأميرهم بهذه العصور منيع بن حسان، وكانت بينه وبين صاحب الموصل منافسات جرتها المناهضة والجوار فترددت الرسل بين السلم والحرب. وسار منيع بن حسان سنة سبع عشرة إلى الجامعين من أعمال دبيس فنهبها، وسار دبيس في طلبه ففارق الكوفة وقصد الأنبار من أعمال قرواش فحاصرها أياما، ثم افتتحها وأحرقها. وجاء قرواش لمدافعته ومعه عريب بن معن فلم يجدوه فمضوا إلى القصر فخالفهم منيع إلى الأنبار فعاث فيها ثانية. فسار قرواش إلى الجامعين واستنجد دبيس بن صدقة فسار معه في بني أسد، ثم خاموا عن

لقاء منيع فافترقوا ورجع قرواش إلى الأنبار فأصلحها ورم أسوارها. وكان دبيس وقرواش في طاعة جلال الدولة فسار منيع بن حسان إلى أبي كاليجار بالأهواز فأطاعه وخلع عليه، ورجع إلى بلده يخطب له بها.

شغب الأتراك علي جلال الدولة:

ولما استقل جلال الدولة بملك بغداد، وكثر جنده من الأتراك واتسعت أرزاقهم من الديوان، وكان الوزير أبو علي بن ماكولا فطالبوه بأرزاقهم فعجز عنها، وأخرج جلال الدولة صياغات وباعها وفرقها في الجند. ثم ثاروا عليه وطالبوه بأرزاقهم وحصروه في : اره حتى فقد القوت والماء. وسأل الإنزال إلى البصرة وخرج بأهله ليركب السفن إلى البصرة، وقد ضرب سرادقا على طريقهم ما بين داره والسفن فقصد الأتراك السرادق فامتعض جلال الدولة لحريمه، ثم نادى في الناس وخرج الجند ونادوا بشعاره ثم شغبوا عليه بعد أيام قلائل في طلب أرزاقهم، واضطر جلال الدولة إلى بيع ملبوسه وفرشه وخيامه، وفرق أثمانها فيهم. وعزل جلال الدولة وزيره أبا علي واستوزر أبا طاهر، ثم عزله بعد أربعين يوما وولى سعيد بن عبد الرحيم وذلك سنة تسع عشرة.

استيلاء أبي كاليجار علي البصرة ثم علي كرمان:

ولما أصعد جلال الدولة إلى بغداد استخلف على البصرة ابنه الملك العزيز أبا

منصور، وكان بين الأتراك وبين الديلم من الفتنة ما ذكرناه فتجددت بينهم الفتنة فغلب الأتراك، وأخرجوا الديلم إلى الأبلة مع بختيار بن علي فسار إليهم الملك العزيز ليرجعهم فحاربوه، ونادوا بشعار أبي كاليجار بن سلطان الدولة وهو بالأهواز فعاد منهزما. ونهب الديلم الأبلة، ونهب الأتراك البصرة. وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فبعث من الأهواز عسكرا إلى بختيار والبصرة، الديلم فقاتلوا الملك العزيز وأخرجوه فلحق بواسط، وملكوا البصرة ونهبوا أسواقها سنة تسع عشرة، وهم جلال الدولة بالمسير إليهم وطلب المال للجند، وشغل بمصادرة أرباب الأموال. وبلغ خبر استيلاء أبي كاليجار على البصرة إلى كرمان، وكان بها عمه قوام الدولة أبو الفوارس، وقد تجهز لقصد بلاد فارس فأدركه أجله فمات فنادى أصحابه بشعار أبي كاليجار واستدعوه فسار ملك بلاد كرمان، وكان أبو الفوارس سيىء السيرة في رعيته وأصحابه.

قيام بني دبيس بدعوة أبي كاليجار:

كانت جزيرة بني دبيس بنواحي خوزستان لطراد بن دبيس وغلب عليه فيها منصور وخطب فيها لأبي كاليجار، ومات طراد فسار إلى منصور ابنه علي واستنجد جلال الدولة عليه فأمده بعسكر من الأتراك وسار عجلا. واتفق أن أبا صالح كوكين هرب من جلال الدولة إلى أبي كاليجار فأراد أن يفتتح طاعته باعتراض أصحاب جلال الدولة فسار إلى منصور بالجزيرة. وخرجوا لقتال علي بن طراد ولقوه بمبرود فهزموه وقتلوه، واستقر منصور بالجزيرة على طاعة أبي كاليجار.

استيلاء أبي كاليجار علي واسط ثم انهزامه وعودها لجلال الدولة:

ثم إن نور الدولة دبيس على صاحب حلب والنيل خطب لأبي كاليجار في أعماله لما بلغه أن ابن عمه المقلد بن الحسن ومنيع بن حسان أمير خفاجة سارا مع عساكر بغداد إليه، فخطب هو لأبي كاليجار. واستدعاه فسار

من الأهواز إلى واسط، وقد كان لحق بها الملك العزيز بن جلال الدولة ومعه جماعة من الأتراك. فلما وصل أبو كاليجار فارقها الملك العزيز إلى النعمانية واستولى أبو كاليجار على واسط. ووفد عليه دبيس وبعث إلى قرواش صاحب الموصل والأثير عنبر عنده، وأمرهما أن ينحدرا إلى العراق فانحدرا،

ومات الأثير عنبر بالكحيل. ورجع قرواش وجمع جلال الدولة العساكر واستنجد أبا الشوك وغيره وسار إلى واسط، وضاقت عليه الأمور لقلة المال.

وأشار عليه أصحابه بمخالفة أبي كاليجار إلى الأهواز لأخذ أمواله، وأشار أصحاب أبي كاليجار بمخالفة جلال الدولة إلى العراق. وبينما هم في ذلك جاءهم الخبر من أبي الشوك بمسير عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق ويشير بإجماع الكلمة. وبعث أبو كاليجار بكتابه إلى جلال الدولة فلم يعرج عليه. وسار إلى الأهواز ونهبها وأخذ من دار الإمارة خاصة مائتي ألف دينار سوى أموال الناس، وأخذت والدة أي كاليجار وبناته وعياله وحملن إلى بغداد. وسار جلال الدولة لاعتراضه، وتخلف عنه دبيس بن مزيد خشية أحيائه من خفاجة، والتقى أبو كاليجار وجلال الدولة قي ربيع سنة إحدى وعشرين فاقتتلوا ثلاثا. ثم انهزم أبو كاليجار وقتل من أصحابه نحو من ألفين ورجع إلى الأهواز. وأتاه العادل بن مافنة بمال أنفقه في جنده، ورجع جلال الدولة إلى واسط واستولى عليها وأنزل ابنه العزيز بها ورجع.

استيلاء محمود بن سبكتكين صاب خراسان علي بلاد الري والجبل وأصفهان:

كان مجد الدولة بن فخر الدولة متشاغلا بالنساء والعلم، وتدبير ملكه لأمه وتوفيت سنة تسع عشرة فاختلفت أحواله وطمع فيه جنده فكتب إلى محمود بن سبكتكين يشكو إليه فبعث إليه عسكرا مع حاجبه، وأمره بالقبض عليه فركب مجد الدولة لتلقيه فقبض عليه وعلى ابنه أبي دلف، وطير بالخبر إلى محمود فجاء إلى الري ودخلها في ربيع الآخر سنة عشرين، وأخذ منها مال مجد الدولة ألف ألف دينار، ومن الجواهر قيمة خمسمائة ألف دينار، وستة آلاف ثوب ومن الحرير والآلات ما لا يحصى. وبعث بمجد الدولة إلى خراسان فاعتقل بها.

كم ملك قزوين وقلاعها، ومدينة ساوة وآوة ويافث، وقبض على صاحبها ولكين وبعث به الى خراسان، وقتل من الباطنية خلقا، ونفى المعتزلة إلى خراسان وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة. وملك حدود أرمينية، وخطب له علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان، واستخلف على الري ابنه مسعودا فافتتح زنجان وأبهر، ثم ملك أصفهان من يد علاء الدولة، واستخلف عليها بعض أصحابه فثار به أهل أصفهان وقتلوه فسار إليها وفتك فيهم، ويقال قتل منهم خمسة آلاف قتيل وعاد إلى الري فأقام بها.

أخبار الغز بالري وأصفهان وأعمالها وعودهما إلي علاء الدولة:

قد تقدم لنا في غير موضع بداية هؤلاء الغز، وأنهم كانوا بمفازة بخارى وكانوا فريقين أصحاب ارسلان بن سلجوق وأصحاب بني أخيه ميكائيل بن سلجوق، وأن يمين الدولة محمود بن سبكتكين لما ملك بخارى وما وراء النهر قبض على ارسلان بن سلجوق، وسجنه بالهند ونهب أحياءه. ثم نهض إلى خراسان ولحق بعضهم بأصفهان، وبعث محمود في طلبهم إلى علاء الدولة بن كاكويه فحاول على أخذهم، وشعروا ففروا إلى نواحي

خراسان، وكثر عيثهم فأوقع بهم تاش الفوارس قائد مسعود بن سبكتكين فساروا إلى الري قاصدين أذربيجان، وكانوا يسمون العراقية، وكان أمراء هذه الطائفة كوكتاش ويرفأ وقزل ويعمر وناصفلي، فلما انتهوا إلى الدامغان خرج إليهم عسكرها فلم يطيقوا دفاعهم فتحصنوا بالجبل.

ودخل الغز"البلد ونهبوه، ثم فعلوا في سمنان مثل ذلك، ثم في جوار الري وفي اسحاقاباذ وما جاورها من القرى. ثم ساروا إلى مسكويه من أعمال الري فنهبوها وكان تاش الفوارس قائد بني سبكتكين بخراسان ومعه أبو سهل الحمدوني من قوادهم، فاستنجدوا مسعود بن سبكتكين وصاحب جرجان وطبرستان فأنجداهم وقاتلا الغز فانهزما وقتل تاش الفوارس. وسار إلى الري أبو سهل الحمدوني فهزموه وتحصن بقلعة طبرك، ودخل الغز الري ونهبوه، ثم قاتلوه ثانيا فأسر منهم ابن أخت لعمر من قوادهم فبذلوا فيه ثلاثين ألف دينار وإعادة ما أخذوا من عسكر تاش من المال والأسرى فأبى أبو سهل من إطلاقه، وخرج الغز من الري ووصل عسكر جرجان، وقاتلوا الغز عندما قاربوا الري وأسروا قائدهم وألفين معه، وساروا إلى أذربيجان وذلك سنة سبع وعشرين.

ولما سار الغز إلى أذربيجان سار علاء الدولة إلى الري فدخلها بدعوة مسعود بن سبكتكين، وأرسل إلى أبي سهل الحمدوني أن يضمنه على البلد مالا فأبى فأرسل علاء الدولة يستدعي الغز فرجع إليه بعضهم وأقام عنده. ثم استوحشوا منه وعادوا إلى العيث بنواحي البلاد فكرر علاء الدولة مراسلة أبي سهل في الضمان ليكون في طاعة مسعود بن سبكتكين. وكان أبو سهل بطبرستان فأجابه وسابر إلى نيسابور، وملك علاء الدولة الري. ثم اجتمع أهل أذربيجان لمدافعة الغز الذين طرقوا بلادهم وانتقموا من الغز فافترقوا

فسارت طائفة إلى الري ومقدمهم يرفأ، وطائفة إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش فحاصروا بها أبا كاليجار بن علاء الدولة. وأنجده أهل البلاد على دفاعهم وطال حصارهم لهمذان حتى صالحهم أبو كاليجار، وصاهر كوكتاش. وأما الذين قصدوا الري فحاصروا بها علاء الدولة بن كاكويه، وانضم إليهم فاخسرو بن مجد الدولة وكامد صاحب ساوة فطال حصارهم وفارق البلد في رجب ليلا إلى أصفهان، وأجفل أهل البلد وتمزقوا ودخلها الغز من الليل واستباحوها. وأتبع علاء الدولة جماعة منهم فلم يدركوه فعدلوا إلى كرج ونهبوها، ومضى ناصفلي منهم إلى قزوين فقاتلهم حتى صالحوه على سبعة آلاف دينار وصاروا إلى طاعته. ولما ملكوا الري رجعوا إلى حصار همذان ففارقها أبو كاليجار وصحبه الوجوه والأعيان وتحصنوا بكنكون. وملك الغز همذان ومقدمهم كوكتاش ومنصور ومعهم فناخسرو بن مجد الدولة في عدد من الديلم فاستباحوها، وبلغت سراياهم إلى أستراباذ وقرى الدينور وقاتلهم صاحبها أبو الفتح بن أبي الشوك فهزمهم، وأسر منهم حش صالحوه على إطلاقهم فأطلقهم. ثم راسلوا أبا كاليجار بن علاء الدولة في التقدم عليهم يدبر ملكهم بهمذان فلما جاءهم وثبوا به فنهبوا ماله وانهزم، وخرج علاء الدولة من أصفهان فوقع في طريقه بطائفة من الغز فظفر بهم ورجع إلى أصفهان منصورا. ولما أجاز الفريق الثاني من الغز السلجوقية من وراء النهر، وهم أصحاب طغرلبك وداود وجفر بيك وبيقوا وأخوهم إبراهيم نيال في العسكر لاتباع هؤلاء الذين بالري

وهمذان، ساروا إلى أذربيجان وديار بكر والموصل، وافترقوا عليها وفعلوا فيها الأفاعيل كما تقدم في أخبار قرواش صاحب الموصل، وابن مروان صاحب ديار بكر، وكما يأتي في أخبار ابن وهشودان.

استيلاء مسعود بن سبكتكين علي همذان وأصفهان والري ثم عودها إلى علاء الدولة بن كاكويه:

ولما فارق الغز همذان بعث إليها مسعود بن سبكتكين عسكرا فملكوها، وسار هو إلى أصفهان فهرب عنها علاء الدولة واستولى على ما كان بها من الذخائر، ولحق علاء الدولة إلى أبي كاليجار بتستر يستنجده عقب انهزامه أمام جلال الدولة سنة إحدى وعشرين كما قدمنا فوعده بالنصر إذا اصطلح مع عمه جلال الدولة. ثم توفي محمود بن

سبكتكين، ورجع مسعود من خراسان، وكان فناخسرو بن مجد الدولة معتصما بعمران فطمع في الري وجمع جمعا من الديلم والأكراد وقصدها فهزمه نائب مسعود بها، وقتل جماعة من عسكره وعاد إلى حصنه. وعاد علاء الدولة من عند أبي كاليجار، وقد كان خائفا من مسعود أن يسير إليهم ولاطاقة لهم به، فجاء بعد موت محمود، وملك أصفهان وهمذان والري، وتجاور إلى أعمال أنوشروان وسروا إليه بالري واشتد القتال، وغلبوه على الري ونهبوها ونجا علاء الدولة جريحا إلى قلعة فردخان على خمسة عشر فرسخا من همذان فاعتصم بها، وخطب بالري وأعمال أنوشروان لمسعود بن سبكتكين، وولى عليها تاش الفوارس فأساء السيرة فولى علاء الدولة.

استيلاء جلال الدولة علي البصرة ثم عودها لأبي كاليجار:

قد كنا قدمنا أن جلال الدولة خالف أبا كاليجار إلى الأهواز، واتبعه أبو كاليجار من واسط فهزمه جلال الدولة، ورجع إلى واسط فارتجعها. وبعث أبو منصور بختيار بن علي نائبا لأبي كاليجار فبعث أربعمائة سفينة للقائهم مع عبد الله السراني الركازي صاحب البطيحة فانهزموا، وعزم بختيار على الهرب. ثم ثبت وأعاد السفن لقتالهم والعسكر في البر، وجاء الوزير أبو علي لحربهم في سفينة فلما وصل نهر أبي الخصيب وبه عساكر بختيار رجع مهزوما وتبعه أصحاب بختيار. ثم ركب بختيار بنفسه، وأخذوا سفن أبي علي كلها وأخذوه أسيرا. وبعثه بختيار إلى أبي كاليجار فقتله بعض غلمانه اطلع له على ريبة وخشية فقتله. وكان قد أحدث في ولايته رسوما جائرة من المكوس، ويعين فيها. ولما بلغ خبره إلى جلال الدولة استوزر مكانه ابن عمه أبا سعد عبد الرحيم، وبعث الأجناد لنصرة الذين كانوا معه فملكوا البصرة في شعبان سنة إحدى وعشرين، ولحق بختيار بالأبلة في عساكره، واستمد أبا كاليجار فبعث إليه العساكر مع وزيره ذي السعادات أبي الفرج بن فسانجس فقاتلوا عساكر جلال الدولة بالبصرة، فانهزم بختيار أولا وأخذ كثير من سفنه. ثم اختلف أصحاب جلال الدولة بالبصرة وتنازعوا وافترقوا، واستأمن بعضهم إلى ذي السعادات فركبوا إلى البصرة وملكوها وعادت لأبي كاليجار كما كانت.

وفاة القادر ونصب القائم للخلافة:

وفي ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة توفي الخليفة القادر لإحدى وأربعين

سنة من خلافته، وكان مهيبا عند الديلم والأتراك. ولما مات نصب جلال الدولة للخلافة ابنه القائم بأمر الله أبا جعفر عبد الله بعد أبيه ولقبه القائم وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليجار في الطاعة فبايع، وخطب له في بلاده، وأرسل إليه بهدايا جليلة وأموال، ووقعت الفتنة ببغداد في تلك الأيام بين السنة والشيعة، ونهبت دور اليهود وأحرقت من بغداد أسواق، وقتل بعض جباة المكس وثار العيارون. ثم هم الجند بالوثوب على جلال الدولة، وقطع خطبته ففرق فيهم الأموال فسكتوا. ثم عاودوا فلزم جلال الدولة الأصاغر فشكا من قواده الأكابر وهما بأرسطعان وبلدوك، وأنهما استأثرا بالأموال فاستوحشا لذلك وطالبهما الغلمان بعلوفتهم وجراياتهم فسارا إلى المدائن، وندم الأتراك على ذلك. وبعث جلال الدولة مؤيد الملك الرجحي فاسترضاهما ورجعا. وزاد شغب الجند عليه ونهبوا دوابه وفرشه وركب إلى دار الخليفة مغضبا من ذلك وهو سكران فلاطفه ورده إلى بيته. ثم زاد شغبهم وطالبوه في الدواب لركوبهم فضجر وأطلق ما كان في اسطبله من الدواب وكانت خمس عشرة وتركها عائرة، وصرف حواشيه وأتباعه لانقطاع خزائنه فعوتب بتلك الفتنة، وعزل وزيره عميد الملك، ووزر بعده أبو الفتح محمد بن الفضل أياما، و لم يستقم أمره فعزله، ووزر بعده أبو إسحق إبراهيم بن أبي الحسين السهيلي وزير مأمون صاحب خوارزم وهرب لخمسة وعشرين يوما.

وثوب الأتراك ببغداد بجلال الدولة بدعوة أبي كاليجار ثم رجوعهم إلى جلال الدولة: ثم تجددت الفتنة بين الأتراك وجلال الدولة سنة ثلاث وعشرين في ربيع الأول فأغلق بابه، ونهب الأتراك داره، وسلبوا الكتاب وأصحاب الدواوين. وهرب الوزير أبو إسحق السهيلي إلى حي غريب بن محمد بن معن. وخرج جلال الدولة إلى عكبرا وخطبوا لأبي كاليجار، واستدعوه من الأهواز فمنعه العادل بن مافنة إلى أن يحضره بين قوادهم فعادوا إلى جلال الدولة وتطارحوا عليه فعاد لثلاث وأربعين يوما من مغيبه. واستوزر أبا القاسم بن ماكولا ثم عزله لفتنة الأتراك به، وإطلاق بعض المصادرين من يده.

استيلاء جلال الدولة علي البصرة ثانيا ثم عودها لأبي كاليجار:

ثم توفي أبو منصور بختيار بن علي نائب أبي كاليجار بالبصرة منتصف أربع

وعشرين فقام مكانه صهره أبو القاسم لاضطلاعه وكفايته، واستبد بها، ونكر أبو كاليجار استبداده وبعث بعزله فامتنع، وخطب لجلال الدولة. وبعث لابنه يستدعيه من واسط فجاء وملك البصرة وطرد عساكر أبي كاليجار. ثم فسد ما بين أبي القاسم والعزيز واستجار منه بعض الديلم بالعزيز، وشكوا منه فأخرجه العزيز عن البصرة وأقام بالأبلة، ثم عاد إلى محاربة العزيز حتى أخرجه عن البصرة، ورجع أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

إخراج جلال الدولة من دال الملك ثم عوده:

وفي رمضان من سنة أربع وعشرين استقدم جلال الدولة الوزير أبا القاسم فاستوح!ش الجند، واتهموه بالتعرض لأموالهم فهجموا عليه في دار الملك، وأخرجوه إلى مسجد في داره فاحتمل جلال الدولة الوزير أبا القاسم وانتقل إلى الكرخ. وأرسل إليه الجند بأن ينحدر عنهم إلى واسط على رسمه، ويقيم لإمارتهم بعض

ولده الأصاغر فأجاب، وبعث إليهم واستمالهم فرجعوا عن ذلك واستردوه إلى داره، وحلفوا له على المناصحة. واستوزر عميد الدولة أبا سعد سنة خمس وعشرين عوضا من ابن ماكولا فاستوحش ابن ماكولا، وسار إلى عكبرا فرده إلى وزارته، وعزل أبا سعد فبقي أياما. ثم فارقها إلى أوانا فأعاد أبا سعد عبد الرحيم إلى وزارته. ثم خرج أبو سعد هاربا من الوزارة ولحق بأبي الشوك، ووزر بعده أبو القاسم فكثرت مطالبات الجند له، وهرب لشهرين فحمل إلى دار الخلافة مكشوف الرأس، وأعيد أبو سعد إلى الوزارة وعظم فساد العيارين ببغداد. وعجز عنهم النواب فولي جلال الدولة البساسيري من قواد الديلم حماية الجانب الغربي ببغداد فحسن فيه غناؤه، وانحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى أغار الأكراد والجند على بستان الخليفة، ونهبوا ثمرته.

وطلب أولئك الجند جلال الدولة فعجز عن الانتصاف منهم أو إسلامهم للخليفة فتقدم الخليفة إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل رسومهم فوجم جلال الدولة، وحمل أولئك الجند بعد غيبتهم أياماً إلى دار الخليفة فاعترضهم أصحابهم وأطلقوهم، وعجز النواب عن إقامة الأحكام في العيارين ببغداد، وانتشر العرب في ضواحي بغداد وعاثوا فيها حتى سلبوا النساء في المقابر عند جامع المنصور، وشغب الجند سنة سبع وعشرين بجلال الدولة فخرج متنكرا في سيما بدوي إلى دار المرتضى بالكرخ، ولحق منها برافع بن الحسين بن معن بتكريت، ونهب الأتراك

داره وخربوها. ثم أصلح القائم أمر الجند وأعاده.

فتنة بادسطفان ومقتله:

قد قدمنا ذكر بادسطفان هذا وأنه من أكابر قواد الديلم ويلقب حاجب الحجاب، وكان جلال الدولة ينسبه لفساد الأتراك والأتراك ينسبونه إلى إحجاز الأموال فاستوحش واستجار بالخليفة منتصف سبع وعشرين فأجاره، وكان يراسل أبا كاليجار ويستدعيه فبعث أبو كاليجار عسكراً إلى واسط، وثار معهم العسكر الذين بها وأخرجوا العزيز بن جلال الدولة إلى بغداد، وكشف بادسطفان القناع في الدعاء لأبي كاليجار، وحمل الخطباء على الخطبة لامتناع الخليفة منها. وجرت بينه وبين جلال الدولة حرب وسار إلى الأنبار، وفارقه قرواش إلى الموصل، وقبض بادسطفان على ابن فسانجس فعاد منصور بن الحسين إلى بلده. ثم جاء الخبر بأن أبا كاليجار سار إلى فارس فانتقض عن بادسطفان الديلم الذين كانوا معه، وترك ماله وخدمه وما معه بدار الخليفة القائم وانحدر إلى واسط. وعاد جلال الدولة إلى بغداد، وبعث البساسيري وبني خفاجة في طلب بادسطفان، وسار هو ودبيس في اتباعهم فلحقوه بالخيزرانية فقاتلوه وهزموه، وجاؤوا به أسيرا إلى جلال الدولة ببغداد، وطلب من القائم أن يخطب له ملك الملوك فوقف عن ذلك إلا أن يكون بفتوى الفقهاء فأفتاه القضاة أبو الطيب الطبري وأبو عبد الله الصيمري وأبو القاسم الكرخي بالجواز ومنع أبو الحسن الماوردي، وجرت بينهم مناظرات حتى رجحت فتواهم وخطب له بملك الملوك. وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة فخجل وانقطع عنه ثلاثة أشهر، ثم استدعاه وشكر له إيثار الحق وأعاده إلى مقامه.

مصالحة جلال الدولة وأبي كاليجار:

ثم ترددت الرسل بين جلال الدولة وأبي كاليجار ابن أخيه، وتولى ذلك القاضي أبو الحسن الماوردي وأبو عبد الله المردوسي فانعقد بينهما الصلح والصهر لأبي منصور بن أبي كاليجار على ابنة جلال الدولة، وأرسل القائم إلى أبي كاليجار بالخلع النفيسة.

عزل الظهير أبي القاسم عن البصرة واستقلال أبي كاليجار بها:

قد قدمنا حال الظهير أبي القاسم في ملك البصرة بعد صهره أبي منصور بختيار،

وأنه عصى على أبي كاليجار بدعوة جلال الدولة. ثم عاد إلى طاعته واستبد بالبصرة، وكان ابن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان يكاتب أبا الجيش وأبا كاليجار بزيادة ثلاثين ألف دينار في ضمان البصرة فأجيب إلى ذلك، وجهز له أبو كاليجار العساكر مع العادل أبي منصور بن مافنة، وجاء أبا الجيش بعساكره في البحر من عمان وحاصروا البصرة برا وبحرا وملكوها، وقبض على الظهير واستصفيت أمواله وصودر على تسعين ألفاً فحملها في عشرة أيام، ثم على مائة ألف وعشرة آلاف فحملها كذلك، ووصل الملك أبو كاليجار إلى البصرة سنة إحدى وثلاثين، وأنزل بها ابنه عز الملوك والأمير أبا الفرج بن فسانجس وعاد إلى الأهواز ومعه الظهير أبو القاسم.

أخبار عمان وابن مكرم:

قد قدمنا خبر أبي محمد بن مكرم، وأنه كان مدبر دولة بهاء الدولة وقبله ابنه أبو الفوارس، وأن ابنه أبا القاسم كان أميرا بعمان منذ سنة خمس عشرة، ثم توفي سنة إحدى وثلاثين وخلف بنين أربعة وهم: أبو الجيش والمهذب وأبو محمد وآخر صغير لم يذكر اسمه. وكان علي بن هطال صاحب جيش أبي القاسم فأقره أبو الجيش، وبالغ في تعظيمه حتى كان يقوم له إذا دخل عليه في مجلسه فنكر ذلك المهذب على أخيه، وحقدها له ابن هطال فعمل دعوة واستأذن أبا الجيش في إحضار أخيه المهذب لها، وأحضره وبالغ في خدمته حتى إذا طعموا وشربوا وانتشوا فاوضه ابن هطال في التوثب بأخيه أبي الجيش، واستكتبه بما يوليه من المراتب ويعطيه من الإقطاع على مناصحته في ذلك. ثم وقف أبا الجيش على خطة أخبره أنه لم يوافقه ثم قال له: وبسبب ذلك كان نكيره عليك في شأني فقبض أبو الجيش على أخيه واعتقله ثم خنقه. ثم توفي أبو الجيش بعد ذلك بيسير وهم ابن هطال بتولية أخيه محمد فأخفته أمه حذرا عليه، ورفعت الأمر إلى ابن هطال فولي عمان وأساء السيرة وصادر التجار، وبلغ ذلك إلى أبي كاليجار فأمر العادل أبا منصور بن مافنة أن يكاتب المرتضى نائب أبي القاسم بن مكرم بجبال عمان، ويأمره بقصد ابن هطال في عمان. وبعث إليه العساكر من البصرة فسار إلى عمان وحاصرها واستولى على أكثر أعمالها. ثم دس إلى خادم كان لابن مكرم، وصار لابن هطال، وأمره باغتياله فاغتاله وقتله. ومات العادل أبو منصور بهرام بن مافنة وزير أبي كاليجار سنة ثلاث وثلاثين، ووزر بعده مهذب الدولة وبعث لمدافعتهم عنها، وكانوا

يحاصرون جيرفت فأجفلوا عنها، ولم يزل في اتباعهم حتى دخلوا المفازة ورجع مهذب الدولة إلى كرمان فأصلح فسادهم.

وفاة جلال الدولة سلطان بغداد وولاية أبي كاليجار:

ثم توفي جلال الدولة ببغداد في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لسبع عشرة سنة من ملكه وقد كان بلغ في الضعف وشغب الجند عليه واستبداد الأمراء والنواب فوق الغاية. ولما توفي انخذل الوزير كمال الملك عبد الرحيم وأصحاب السلطان الأكابر إلى حريم دار الخلافة خوفا من الأتراك والعامة، واجتمع قواد العسكر فمنعوهم من النهب. وكان ابنه الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط فكاتبه الجند بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيل حق البيعة فأبطأ عنهم. وبادر أبو كاليجار صاحب الأهواز فكاتبهم ورغبهم في المال وتعجيله فعدلوا عن الملك العزيز إليه. وأصعد بعد ذلك من الأهواز فلما انتهى إلى النعمانية غدر به أصحابه فرجع إلى واسط، وخطب الجند ببغداد لأبي كاليجار. وسار العزيز إلى دبيس بن مزيد، ثم إلى قرواش بن المقلد بالموصل ثم فارقه إلى أبي الشوك لصهر بينهما فغدر به، وألزمه على طلاق بنته فسار إلى إبراهيم نيال أخي طغرلبك. ثم قدم بغداد مختفيا يروم الثورة بقتل بعض أصحابه ففر ولحق بنصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميافارقين، وقدم أبو كاليجار بغداد في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وخطب له بها. واستقر سلطانه فيها بعد أن بعث بأموال فرقت على الجند ببغداد وبعشرة آلاف دينار وهدايا كثيرة للخليفة. وخطب له فيها أبو الشوك ودبيس بن مزيد كل بأعماله ولقبه الخليفة بمحيي الدولة. وجاء في قل من عساكره خوفا أن يستريب به الأتراك فدخل بغداد في شهر رمضان، ومعه وزيره أبو السعادات أبو الفرج محمد بن جعفر بن فسانخس، واستعفى القائم من الركوب للقائه، وتقدم بإخراج عميه من بغداد فمضيا إلى تكريت، وخلع على أصحاب الجيوش وهم البساسيري والساري والهمام أبو اللقاء وثبت قدمه في الملك.

أخبار ابن كاكويه مع عساكر مسعود وولايته علي أصفهان ثم ارتجاعه منها:

قد تقدم انهزام علاء الدولة بن كاكويه من الري ومسيره جريحا ومعه فرهاد بن

مرداويج الذي جاءه إلى قلعة فردخان مدداً وساروا منها إلى يزدجرد، واتبعهم علي بن عمران قائد تاش قرواش. وافترقوا من يزدجرد فمضى أبو جعفر إلى نيسابور عند الأكراد الجردقان، وصعد فرهاد إلى قلعة سمكيس، واستمال الأكراد الذين مع علي - بن عمران وحملهم على الفتك به فشعر علي وسار إلى همذان، واتبعه فرهاد والأكراد فحصروه في قرية بطريقه فامتنع عليهم بكثرة الأمطار ورجعوا عنه، وبعث علي بن عمران إلى الأمير تاش يستمده وعلاء الدولة إلى ابن أخيه بأصفهان يستمد المال والسلاح فاعترضه علي بن عمران من همذان، وكبسه بجردقان وغنم ما معه وأسره، وخالفه علاء الدولة وأقره على أصفهان على ضمان معلوم. وكذلك قابوس في جرجان وطبرستان وولى على الري أبا سهل الحمدوني.

وأمر تاش قرواش صاحب خراسان بطلب شهربوس بن ولكين صاحب ساوة، وكان يفسد السابلة ويعترض الحاج، وسار إلى الري وحاصرها بعد موت محمود فبعث تاش العساكر في أثره، وحاصروه ببعض قلاع قم، وأخذوه أسيرا فأمر بصلبه على ساوة ثم اجتمع علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن مرداويح على قتال أبي سهل الحمدوني وقد زحف في العساكر من خراسان فقاتلاه، وقتل فرهاد وانهزم علاء الدولة إلى جبل بين

أصفهان وجرجان فاعتصم به. ثم لحق بأيدج وهي للملك أبي كاليجار. واستولى أبو سهل على أصفهان ونهب خزائن علاء الدولة وحملت كتبه إلى غزنة إلى أن أحرقها الحسين بن الحسين الغوري، وذلك سنة خمس وعشرين. ثم سار علاء الدولة سنة سبع وعشرين وحاصر أبا سهل في أصفهان، وغدرته الأتراك فخرج إلى يزدجرد ومنها إلى الطرم فلم يقبله ابن السلار خوفا من ابن سبكتكين فسار عنه. ثم غلبه طغرلبك على خراسان سنة تسع وعشرين وارتجعها مسعود سنة ثلاثين كما ذكرناه ونذكره.

وفاة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه:

ثم توفي علاء الدولة شهربان بن كاكويه في محرم سنة ثلاث وثلاثين، وقد كان عاد إلى أصفهان عند شغل بن سبكتكين بفتنة طغرلبك فملكها. ولما توفي قام مكانه بأصفهان ابنه الأكبر ظهير الدين أبو منصور قرامرد. وسار ولده الآخر أبو كاليجار كرشاسف إلى نهاوند فملكها، وضبط البلد وأعمال الجيل. وبعث أبو منصور قرامرد إلى مستحفظ قلعة

نظير التي كان فيها ذخائر أبيه وأمواله فامتنع بها وعصى، وسار أبو منصور لحصاره ومعه أخوه أبو حرب فلحق أبو حرب بالمستحفظ، ورجع أبو منصور إلى أصفهان. وبعث أبو حرب إلى السلجوقية بالري يستنجدهم فسارت طائفة منهم إلى جرجان فنهبوها وسلموها لأبي حرب. فسير أبو منصور العساكر وارتجعها فجمع أبو حرب فهزموه، وحاصروا أبا حرب بالقلعة فأسرى من القلعة، ولحق بالملك أبي كاليجار صاحب فارس، واستنجده على أخيه أبي منصور فأنجده بالعساكر وحاصروا أبا منصور وأوقعوه عدة وقائع. ثم اصطلحوا آخرا على مال يحمله أبو منصور إلى أبي كاليجار، وعاد أبو حرب إلى قلعة نظيرا، واشتد الحصار عليه. ثم صالح أخاه أبا منصور على أن يعطيه بعض ما في القلعة وتبقى له فاتفقا على ذلك. ثم سار إبراهيم نيال إلى الري، وطلب الموادعة من أبي منصور فلم يجبه فسار إلى همذان ويزدجرد فملكهما وسعى الحسن الكيا في اتفاقه مع أخيه أبي حرب فاتفقا، وخطب أبو حرب لأخيه أبي منصور في بلاده، وأقطعه أبو منصور همذان.

ثم ملك طغرلبك البلاد من يد ابن سبكتكين، واستولى على خوارزم وجرجان وطبرستان. وكان إبراهيم نيال عندما استولى طغرلبك على خراسان، وهو أخوه لأمه، تقدم في عساكر السلجوقية إلى الري فاستولى عليها. ثم ملك يزدجرد، ثم قصد همذان سنة أربع وثلاثين ففارقها صاحبها ابن علاء الدولة إلى نيسابور وجاء إبراهيم إلى همذان بطلب طاعتهم فشرطوا عليه استيلاءه على عساكر كرشاسف فسار إليها، وتحصن في سابور خواست، وملك عليه البلاد وعاث في نواحيها، ونحصن هو بالقلعة، وعاد هو إلى الري. وقد صمم طغرلبك على قصدها فسار إليه، وترك همذان، ورجع كرشاسف، وملك طغرلبك الري من يد إبراهيم.

وبعث إلى سجستان، وأمر بعمارة ما خرب من الري، ووجد بدار الإمارة مراكب ذهب مرصعة بالجواهر، وبرنيتين من النحاس مملوءتين جواهر وذخائر مما سوى ذلك وأموالاً كثيرة. ثم ملك قلعة طبرك من يد مجد الدولة بن بويه، وأقام عنده محرماً. وملك قزوين ل!صالحه صاحبها بثمانين ألف دينار وصار في طاعته. ثم

بعث إلى كركتاش وموقا من الغز العراقية الذين تقدموا إلى الري، واستدعاهم من نواحي جرجان فارتابوا وشردوا خوفا منه، ثم بعث إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه المال فأجاب وحمل،
وبعث إلى سلار الطرم بمثل ذلك فأجاب وحمل مائتي ألف دينار وقرر عليه ضمانا معلوما. ثم بعث السرايا إلى أصفهان، وخرج من الري في اتباعها فصانعه قرامرد بالمال فرجع عنه. وسار إلى همذان فملكها، وقد كان سار إليه كرشاسف بن علاء الدولة وهو بالري فأطاعه، وسار معه إلى أبهر وزنجان فملكهما، وأخذ منه همذان وتفرق عنه أصحابه.
وطلب منه طغرلبك قلعة كشكور فأرسل إلى مستحفظها بترولهم عنها فامتنعوا، واتبعه طغرلبك إلى الري، واستخلف على همذان ناصر الدين العلوي، وكان كرشاسف قد قبض عليه فأخرجه طغرلبك، وجعله رديفاً للذي ولاه البلد من السلجوقية، ثم نزل كرشاسف على كشكور سنة ست وثلاثين، وجاء إلى همذان فملكها وطرد عنها عمال طغرلبك. وخطب للملك أبي كاليجار فبعث طغرلبك أخاه إبراهيم نيال سنة سبع وثلاثين إلى همذان، ولحق كرشاسف بشهاب الدولة أبي الفوارس منصور بن الحسين صاحب جزيرة بني دبيس،
وارتاع الناس بالعراق لوصول إبراهيم نيال إلى حلوان. وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فأراد التجمع لإبراهيم نيال فمنعه قلة الظهر.
وحدثت فتنة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم نيال، وأخذ الري وبلاد الجبل من يده. ثم سار إلى أصفهان فحاصرها في محرم سنة اثنين وأربعين، وبعث السرايا فبلغت البيضاء، وأقام يحاصرها حولا كاملا حتى جهدهم الحصار، وعدموا الأقوات وحرقوا السقف لوقودهم حتى سقف الجامع. ثم استأمنوا وخرجوا إليه، وملك أصفهان سنة ثلاث وأربعين، وأقطع صاحبها أبا منصور وأجناده في بلاد الجبل. ونقل أمواله وسلاحه من الري إليها وجعلها كرسيا لملكه. وانقرضت دولة فخر الدولة بن بويه من الري وأصفهان وهمذان. وبقي منهم بالعراق وفارس أبو كاليجار والبقاء لله وحده.
موت أبي كاليجار:
ولما رأى أبو كاليجار استيلاء طغرلبك على البلاد، وأخذه الري وأصفهان وهمذان والجبل من قومه، وإزالة ملكهم راسله في الصهر والصلح، بأن يزوجه ابنته، وزوج داود أخو طغرلبك ابنته من أبي منصور بن أبي كاليجار، وانعقد ذلك بينهما في منتصف تسع وثلاثين. وكتب طغرلبك إلى أخيه إبراهيم نيال عن العراق وأعماله ابن سكرستان من
الديلم، وقرر عليه مالا فطاول في حمله، ورافع فشكر له أبو كاليجار، وانتزع من يده قلعة يزدشير وهي تعلقه. ثم استمال أجناده فقتلهم بهرام، واستوحش فسار إليه أبو كاليجار، وانتهى إلى قصر مجامع من خراسان فطرقه المرض، وضعف عن الركوب فرجعوا به إلى مدينة خبايا وتوفي بها في جمادى الأول سنة أربعين وأربعمائة لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه العراق.

ولما توفي نهب الأتراك خزائنه وسلاحه ودوابه، وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيم الوزير أبي منصور وكانت منفردة عن العسكر فأقام عنده، واختلف الأتراك والديلم وأراد الأتراك نهب الأمير والوزير فمنعهم الديلم، واختلفوا إلى شيراز فملكها الأمير أبو منصور، وامتنع الوزير بقلعة حزقة. وبلغ وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ابنه أبو نصر فاستخلف الجند. وأمر القائم بالخطبة على عادة قومه. وسأل أن يلقب بالرحيم فمنع الخليفة من ذلك أدبا، ولقبه به أصحابه واستقر بالعراق وخوزستان والبصرة. وكان بالبصرة أخوه أبو علي فأقره عليها. ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر في شوال من السنة إلى شيراز فملكها وخطبوا له بها، وقبضوا على أخيه أبي منصور وأمه وجاؤوا بهما إليه. وكان الملك العزيز بن جلال الدولة عند إبراهيم نيال، الحق به بعد مهلك أبيه. فلما مات أبو كاليجار زحف إلى البصرة طامعا في ملكها فدافعه الجند الذين بها. وبلغه استقامة الملك ببغداد للرحيم فأقطع وذهب إلى ابن مروان فهلك عنده كما مر.

ملك الملك الرحيم بن أبي كاليجار ومواقعه:

قد تقدم لنا أن أبا منصور فلاستون بن أبي كاليجار سار إلى فارس بعد موت أبيه فملكها، وأنه بعث أخاه أبا سعيد بالعساكر فقبضوا عليه وعلى أمه ثم انطلق ولحق بقلعة اصطخر ببلاد فارس فسار الملك الرحيم من الأهواز في اتباعه سنة إحدى وأربعين، وأطاعه أهل شيراز وجندها، ونزل قريباً منها. ثم وقع الخلاف بين جند شيراز وبين جند بغداد، وعادوا إلى العراق فعاد معهم الملك الرحيم لارتيابه بجند شيراز، وبعث الجند والديلم جميعا ببلاد فارس إلى أخيه فلاستون. ولما عاد استخلف العساكر، وسار إلى أرجان عازماً على قصد الأهواز. وعاد الملك الرحيم للقائه من الأهواز في ذي القعدة من السنة، واقتتلوا وانهزم الملك الرحيم، وعاد إلى واسط منهزما. وسار بعض إلى الملك

الرحيم يستجيشون به للرجوع إلى فارس فأرسل إلى بغداد، واستنفر الجند، وسار إلى الأهواز فبلغه طاعة أهل فارس، وأنهم منتظرون قدومه فأقام بالأهواز ينتظر عساكر بغداد. ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة ثلاث وأربعين.

ثم اجتمع جمع من، لعرب والأكراد مقدمهم طراد بن منصور ومذكور بن نزار فقصدوا سرف فنهبوها ونهبوا درق. وبعث الملك الرحيم بعساكره في محرم سنة ثلاث وأربعين فهزموا العرب والأكراد، وقتل مطارد وأسر ابنه واسترد النهب. وبلغ الخبر إلى الملك الرحيم وهو بعسكر مكرم فتقدم إلى قنطرة اربق، ومعه دبيس بن مزيد والبساسيري وغيرهما. ثم سار هزارسب بن تنكر ومنصور بن الحسين الأسدي بمن معهما من الديلم والأتراك من أرجان إلى تستر فسابقهم الملك الرحيم فكان الظفر له. ثم زحف في محس!كر إلى رامهرمز وبها أصحاب هزارسب فهزموهم وأثخنوا فيهم، وتحيزوا إلى رامهرمز في طاعة الملك الرحيم. ثم قبض هزارسب عليهم وأرسل إلى الملك الرحيم بطاعته فبعث أخاه أبا سعيد إليه فملك إصطخر، وخدمه أبو نصر بعسكره وماله، وأطاعته جموع من عساكر فارس من الديلم والترك والعرب والأكراد وحاصروا قلعة بهندر فخالفه هزارسب ومنصور بن الحسين الأسدي إلى الملك الرحيم فهزموه.

وفارق الأهواز إلى واسط وعاد إلى سعد بشيراز فقاتلهم وهزمهم. ثم عاودوا القتال فهزمهم وأثخن فيهم واستأمن إليه كثير منهم، وصعد فلاستون إلى قلعة بهندر فامتنع بها وأعيدت الخطبة للملك الرحيم بالأهواز. ثم مضى فلاستون وهزارسب إلى ايدج، وبعثوا بطاعتهم إلى السلطان طغرلبك واستمدوه، وبعث إليهم العساكر والملك الرحيم بعسكر مكرم، وقد انصرف عنه البساسيري إلى العراق ودبيس بن مزيد والعرب والأكراد، وبقي معه ديلم الأهواز، وأنزل بغداد فسار من عسكر مكرم إلى الأهواز، وحاصروه بها فبعث أخاه أبا سعد صاحب فارس حين طلبه صاحب إصطخر ليفت ف!ر عضد فلاستون وهزارسب ويرجعوا عنه فلم يهجهم ذلك، وساروا إلى الأهواز قاتلوه فهزموه. ولحق في الفل بواسط ونهبت الأهواز. وفقد في الوقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي بن عبد الرحيم وكانت السلجوقية قد ساروا إلى فارس فاستولى ألب ارسلان ابن أخي طغرلبك على مدينة نسا وعاثوا فيها، وذلك سنة ثلاث وأربعين. ثم ساروا سنة أربع وأربعين إلى شيراز، ومعهم العادل بن مافنة وزير فلاستون فقبضوا عليه، وملكوا منه ثلاث قلا ع

وسلموها إلى أبي سعد أخي الملك الرحيم، واجتمعت عساكر شيراز فهزموا الغز الذين ساروا إليها وأسروا بعض مقدميهم. ثم ساروا إلى نسا وقد كان تغلب عليها بعض السلجوقية فأخرجوهم عنها وملكوها.

الفتنة بين البساسيري وبني عقيل واستيلاؤه علي الأنبار:

لما سار الملك الرحيم إلى شيراز سنة إحدى وأربعين ثار بعض بني عقيل باردوفا فنهبوها وعاثوا فيها، وكانت من أقطاع البساسيري فلما عاد من فارس سار إليهم من بغداد فأوقع بأبي كامل بن المقلد، واقتتلوا قتالا شديدا. ثم تحاجزوا ورفع إلى البساسيري أن قرواش أساء السيرة في أهل الأنبار، وجاء أهلها متظلمين منه فبعث معهم عسكرا فملكوها، وجاء على أثرهم فأصلح أحوالها. وزحف قريش إليها سنة ست وأربعين فملكها وخطب فيها لطغرلبك، ونهب ما كان فيها للبساسيري، ونهب حلل أصحابه بالنحاس. وجمع البساسيري وقصد الأنبار وخوي فاستعادها من يد قريش ورجع إلى بغداد.

استيلاء الخوارج علي عمان:

كان أبو المظفر بن أبي كاليجار أميرا على عمان، وكان له خادم مستبد عليه فأساء السيرة في الناس، ومد يده إلى الأموال فنفروا منه. وعلم بذلك الخوارج في جبالها فجمعهم ابن رشد منهم وسار إلى المدينة فبرز إليه أبو المظفر وظفر بالخوارج. ثم جمع ثانية وعاد لقتال أبي المظفر والديلم وأعانه عليهم أهل البلد لسوء سيرتهم فهزمهم ابن رشد وملك البلد، وقتل الخادم وكثيرا من الديلم والعمال، وأخرب دار الإمارة وأسقط المكوس، واقتصر على ربع العشر من أموال التجار والواردين. وأظهر العدل ولبس الصوف، وبنى مسجدا لصلاته وخطب لنفسه، وتلقب الراشد بالله. وقد كان أبو القاسم بن مكرم بعث إليه من قبل ذلك من حاصره في جبله وأزال طمعه.

الفتنة بين العامة ببغداد:

وفي صفر من سنة ثلاث وأربعين تجددت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والضيعة

وعظمت، وتظاهر الشيعة بمذاهبهم وكتبوا بعض عقائدهم في الأبواب، وأنكر ذلك أهل السنة واقتتلوا. وأرسل القائم نقيبي العباسية والعلوية لكشف الحال فشهدوا للشيعة ودام القتال. وقتل رجل من الهاشمية من أهل السنة فقصدوا مشهد باب النصر، ونهبوا ما فيه وأحرقوا ضريح موسى الكاظم وحافده محمد المتقي وضرائح بني بويه وبعض خلفاء بني العباس، وهموا بنقل شلو الكاظم إلى مقبرة أحمد بن حنبل فحال دون ذلك جهلهم بعين الجدث. وجاء نقيب العباسية فمنع من ذلك، وقتل أهل الكرخ من الشيعة أبا سعيد السرخسي مدرس الحنفية، وأحرقوا محال الفقهاء ودورهم وتعدت الفتنة إلى الجانب الشرقي. وبلغ إحراق المشهد إلى دبيس فعظم عليه، وقطع خطبة القائم لأنه وأهل ناحيته كانوا شيعة، وعوتب في ذلك فاعتذر بأن أهل الناحية تغري القائم بأهل السنة، وأعاد الخطبة بحالها. ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين واطرحوا مراقبة السلطان، ودخل معهم طوائف من الأتراك، وقتل بعض العلوية فصرخ النساء بثأره واجتمع السواد الأعظم، وركب القواد لتسكين الفتنة فقاتلهم أهل الكرخ قتالا شديدا وحرقت أسواق الكرخ. ثم منع الأتراك من الدخول بينهم فسكنوا قليلا.

استيلاء الملك الرحيم علي البصرة:

قد كنا قدمنا أن الملك الرحيم لما تولى بغداد بعد أبيه أقر أخاه أبا علي على إمارة البصرة، ثم بدا منه العصيان فبعث إليه العساكر مع البساسيري القائم بدولته فزحف إلى البصرة وبرزوا إليه في الماء فقاتلهم عدة أيام. ثم هزمهم وملك عليهم الأنهار، وسارت العساكر في البر إلى البصرة، واستأمنت ربيعة ومضر فأمنهم وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان يعتذرون، ومضى أبو علي فتحصن بشط عثمان وخندق عليه فمضى الملك الرحيم إليه وملكه، ومضى أبو علي وابنه إلى عبادان ولحق منها إلى جرجان متوجها إلى السلطان طغرلبك. فلما وصل إليه بأصفهان لاقاه بالتكرمة وأنزله بعض قلاع جرباذقان، وأقطع له في أعمالها. وأقام الملك الرحيم بالبصرة أياما، واستبدل من أجناد أخيه أبي علي بها. واستخلف عليها البساسيري وسار إلى الأهواز. وترددت الرسل بينه وبين منصور بن الحسين وهزارشب فدخلوا في طاعته، وصارت تستر إليه، وأنزل بأرجان فولاد بن خسرو الديلمي فسار في أعمالها، وحمل المتغلبين هناك على طاعة الملك الرحيم حتى أذعنوا.

استيلاء فلأستون علي شيراز بدعوة طغرلبك:

قد قدمنا أنه كان بقلعة إصطخر أبو نصر بن خسرو مستوليا عليها، وأنه أرسل بطاعته سنة ثلاث وأربعين إلى الملك الرحيم عندما ملك رامهرمز، واستدعى منه أخاه أبا سعيد ليملكه بلاد فارس فسار إليه بالعساكر وملك البلاد، ونزل شيراز، وكان معه عميد الدولة أبو نصر الظهير قد استبد في دولته، وساءت سيرته في جنده. وأوحش أبا نصر مستدعيهم للملك فانتقض عليهم، وداخل الجند في الانتقاض فشغبوا وقبضوا على عميد الدولة، ونادوا بدعوة أبي منصور فلاستون واستدعوه، وأخرجوا أبا سعيد عنهم إلى الأهواز، ودخل أبو منصور إلى الأهواز فملكها وخطب لطغرلبك وللملك الرحيم ثم لنفسه بعدهما.

وقائع البساسيري مع الأعراب والأكراد لطغرلبك:

لما استولى طغرلبك على النواحي وأحاط بأعمال بغداد من جهاتها، وأطاعه أكثر الأكراد إلى حلوان وكثر فسادهم وعيثهم، والتفت عليهم الأعراب، وأهم الدولة شأنهم فسار إليهم البساسيري، واتبعهم إلى البوازيج فظفر بهم وقتل وغنم وعبروا الزاب. وجاء الديلم فتمكن من العبور إليهم وذلك سنة خمس وأربعين. ثم دعاه دبيس صاحب الحلة إلى قتال خفاجة، وقد عاثوا في بلاده فاستنجد به وسار إليهم فأجلاهم عن الجامعين، ودخلوا المفازة واتبعهم فأدركهم بخفان فأوقع بهم وغنم أموالهم وأنعامهم، وحاصر حصن خفان وفتحه وخربه. وأراد تخريب القائم الذي به، وهو بناء في غاية الارتفاع كالعلم يهتدى به. قيل إنه وضع لهداية السفن لما كان البحر إلى النجف فصانع عنه ربيعة بن مطاعم بالمال وترك له، وعاد فصلب من كان معه من أسرى العرب. ثم سار إلى خوي فحصرها وقرر عليها سبعة آلاف دينار.

فتنة الأتراك واستيلاء عساكر طغرلبك علي النواحي:

كان الأتراك من جند بغداد قد استفحل أمرهم على الدولة، واشتطوا وتطاولوا إلى الفتنة عندما هبت ريحها بظهور طغرلبك واستيلائه على النواحي، فطالبوا الوزير في محرم سنة ست وأربعين بمبلغ كبير من أرزاقهم ورسومهم وأرهقوه، واختفى في دار

الخلافة فاتبعوه وطلبوه من أهل الدار فجحدوه فشغبوا على الديوان، وتعدوا إلى الشكوى من الخليفة، وساء الخطاب بينهم وبين أهل الديوان وانصرفوا، وشاع بين الناس أنهم محاصرون دار الخلافة فانزعجوا. وركب البساسيري، وهو النائب يومئذ ببغداد إلى دار الخلافة، وطلب الوزير وكبس الدور من أجله فلم يوقف له على خبر. وشغب الجند ونهبوا دار الروم وأحرقوا البيع، وكبسوا دار ابن عبيد وزير البساسيري. ووقف أهل الدروب لمنع بيوتهم من الأتراك فنهبوا الواردين، وعدمت الأقوات. والبساسيري في خلال ذلك مقيم بدار الخلافة إلى أن ظهر الوزير، وقام بهم بما عليهم من أثمان دوابه وقماشه.

واتصل الهرج، وعاد الأعراب والأكراد إلى العيث والإغارة والنهب والقتل. وجاءت أصحاب قريش صاحب الموصل فكبسوا حلل كامل ابن عمه بالبردوان، ونهبوا منها دواب وجمالا من البخاتي كانت هناك للبساسيري فتضاعف الهرج، وانحل نظام الملك. ووصل عساكر الغز إلى الدسكرة مع إبراهيم بن إسحق من أمراء طغرلبك ورستبارد فاستباحوها. ثم تقدموا إلى قلعة البردوان وقد عصى صاحبها سعدي على طغرلبك فامتنعت عليهم فعاثوا في نواحيها، وخربت تلك الأعمال وانجلى أهلها. وسارت طائفة أخرى إلى الأهواز فخربوا نواحيها، وقوي طمع السلجوقية في البلاد، وخافت الديلم ومن معهم من الأتراك وضعفت نفوسهم. ثم بعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان صاحب البصرة في عساكر السلجوقية إلى خوزستان فانتهى إلى سابورخواست، وكاتب الديلم بالوعد والوعيد فترع إليه أكثرهم واستولى على الأهواز، ونهبها عس!اكر السلجوقية وصادروا أهلها، وهرب أهلها منهم.

الوحشة بين القائم والبساسيري:

قد قدمنا ما وقع من قريش بن بدران في نهب حلل البساسيري أصحابه سنة ست وأربعين. ثم وصل إلى بغداد أبو الغنائم وأبو سعد ابنا المحلبان صاحب قريش، ودخلا في خفية فهم البساسيري بأخذهما فأجارهما الوزير رئيس الرؤساء عليه فغضب، وسار إلى حوي والأنبار فملكهما، ورجع و لم يعرج على دار الخلافة. وأسقط مشاهرات القائم والوزير وحواشي الدار من دار الضرب، ونسب إلى الوزير مكاتبته طغرلبك. ثم سار في ذي الحجة من سنة ست وأربعين إلى الأنبار، وبها أبو الغنائم بن المحلبان، ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة، وأسر أبا الغنائم في خمسمائة من أهلها، ونهب البلاد وعاد إلى بغداد. وقد شهر أبا الغنائم وهم بصلبه فشفع فيه دبيس بن صدقة، وكان قد جاء مددا له على حصار الأنبار فشفعه وصلب جماعة من الأسرى.

وثوب الأتراك بالبساسيري ونهب داره:

كان هذا البساسيري مملوكا لبعض تجار بسا من مدائن فارس فنسب إليها. ثم صار لبهاء الدولة بن عضد الدولة، ونشأ في دولته، وأخذت النجابة بضبعه. وتصرف في خدمة بيته إلى أن صار في خدمة الملك الرحيم. وكان يبعثه في المهمات ومدافعة الفتن هذه فدافع الأكراد من جهة حلوان، ودافع قريش بن بدران من الجانب الغربي، وهما قائمان بدعوة طغرلبك. ثم سارا إلى الملك الرحيم بواسط وقد تأكدت الوحشة بينه وبين الوزير رئيس الرؤساء كما تقدم. وبعث إليه وزيره أبو سعد النصراني بجرار خمر فلس عليها الوزير قوما ببغداد كانوا يقومون في تغيير المنكر فكسروها. وأراقوا خمرها فتأكدت الوحشة بذلك. واستفتى البساسيري الفقهاء الحنفية في ذلك فأفتوه باحترام مال النصراني، ولا يجوز كسرها عليه ويغرم من أتلفها. وتأكدت الوحشة بين الوزير وبين البساسيري، وكانت الوحشة بينه وبين الأتراك كما مر فدس الوزير بالشغب على البساسيري فشغبوا، واستأذنوا في نهب دوره فأذن لهم من دار الخلافة فانطلقت أيدي النهب عليها. وأشاع رئيس الرؤساء أنه كاتب المستنصر العلوي صاحب مصر، واتسع الخرق. وكاتب القائم الملك الرحيم بإبعاد البساسيري، وأنه خلع الطاعة. وكاتب المستنصر العلوي فأبعده الملك الرحيم.

استيلاء طغرلبك علي بغداد والخليفة ونكبة الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه:

كان طغرلبك قد سار غازيا إلى بلاد الروم فأثخن فيها، ثم رجع إلى الري فأصلح فسادها، ثم وصل همذان في المحرم سنة سبع وأربعين عاملا على الحج وأن يمر بالشام ويزيل دولة العلوية بمصر. وتقدم إلى أهل الدينور وقرميس وغيرهما بإعداد العلوفات والزاد في طريقه، وعظم الإرجاف بذلك في بغداد وكثر شغب الأتراك وقصدوا ديوان

الخلافة يطلبون القائم في الخروج معهم للمدافعة. وعسكروا بظاهر البلد فوصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان، وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وأصعد الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد عنه البساسيري بأمر القائم فلحق بدبيس بن صدقة صاحب الحلة لصهر بينهما.

وبعث طغرلبك إلى القائم بطاعته، وإلى الأتراك بالمواعيد الجميلة فرد الأتراك كتابه وسألوا من القائم رده عنهم فأعرض، وجاء الملك الرحيم يعرض نفسه فيما يختاره فأمر بتقويض الأتراك خيامهم، وأن يبعثوا بالطاعة

لطغرلبك ففعلوا وأمر القائم الخطباء بالخطبة لطغرلبك فبعث إلى طريقهم الوزير أبا نصر الكندري، وأمر الأجناد ثم دخل طغرلبك بغداد يوم الخميس ليومين من رمضان، ونزل بباب الشماسية، ووصل قريش صاحب الموصل وكان في طاعته قبل ذلك. ثم انتشرت عساكر طغرلبك في البلد وأسواقها فوقعت الهيعة، وظن الناس أن الملك الرحيم أذن بقتال طغرلبك فأقبلوا من كل ناحية، وقتلوا الغز في الطرقات إلا أهل الكرخ فإنهم أمنوهم وأجاروهم، وشكر الخليفة لهم ذلك وتمادى العامة في ثورتهم، وخرجوا إلى!سكر طغرلبك. ودخل الرحيم بأعيان أصحابه إلى دار الخلافة تفادياً من الظنة به، وركبت عساكر طغرلبك فهزموا العامة وكسروهم، ونهبوا بعض الدروب ودروب الخلفاء والرصافة ودرب الدروب. وكانت هذه الدروب قد نقل الناس إليها أموالهم ثقة باحترامها. وفشا النهب واتسع الخرق، وأرسل طغرلبك من الغد إلى القائم بالعتب على ما وقع، ونسبه إلى الملك الرحيم، ويطلب حضوره وأعيان أصحابه فيكون براءة لهم فأمرهم الخليفة بالركوب إليه، وبعث معهم رسوله ليبرئهم فساروا في ذمامه، وأمر طغرلبك بالقبض عليهم ساعة وصولهم.

ثم حمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان فحبس بها وذلك ل!ست سنين من ولايته، وانقرض أمر بني بويه ونهب في الهيعة حلة قريش صاحب الموصل، ونجا سليمان إلى خيمة بدر بن مهلهل فأجاره، ثم خلع عليه طغرلبك ورده إلى حلله. ونقم القائم على طغرلبك ما وقع، وبعث في إطلاق المحبوسين فاتهم في ذمامه، وهدده بالرحيل عن بغداد فاطلق بعضهم ومحا عسكر الرحيم من الدواوين، وأذن لهم في السعي في معاشهم فلحق كثير منهم بالبساسيري فكثر جمعه. واستصفى طغرلبك أموال الأتراك ببغداد من أجله، وبعث إلى دبيس بإبعاده، فلحق بالرحبة، وكاتب المستنصر

صاحب مصر بالطاعة.

وخطب دبيس لطغرلبك في بلاده، وانتشر الغز في سواد بغداد فنهبوه، وفشا الخراب فيه، وانجلى أهله وولى طغرلبك البصرة والأهواز هزارسب فخطب لنفسه بالأهواز فقط، وأقطع الأمير أبا علي ابن الملك أبي كاليجار قرميسين، وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم في نداء الصبح: الصلاة خير من النوم وأمر بعمارة دار الملك فعمرت على ما اقترحه، وانتقل إليها في شوال سنة سبع وأربعين واستقرت قدمه في الملك والسلطان، وكانت له الدولة التي ورثها بنوه وقومه السلجوقية ولم يكن للإسلام في العجم أعظم منها والملك لله يؤتيه من يشاء.

الخبر عن دولة وشمكير وبنيه من الجيل إخوة الديلم وما كان لهم من الملك والسلطان بجرجان وطبرستان و أولية ذلك ومصائره:

قد تقدم لنا ذكر مرداويج بن زيار، وأنه كان من قواد الديلم للأطروش، وأنه كان من الجيل إخوة الديلم وكانت حالهم واحدة. وكان منهم قواد للعلوية استظهروا بهم على أمرهم حتى إذا انقرضت دولة الأطروش وبنيه على حين فشل الدولة العباسية، ومحي أعمالها من السلطان ساروا في النواحي لطلب الملك متفرقين فيها فملكوا الري وأصفهانا وجرجان وطبرستان والعراقين وفارس وكرمان، وكل منهم في ناحية. وتغلب بنو بويه

على الخليفة وحجروه إلى آخر أيامهم. وذكرنا أن مرداويج عندما استفحل ملكة بعث عن أخيه وشمكير من بلاد كيلان سنة عشرين وأربعمائة فاستظهر به على أمره وولاه على الأعمال الجليلة، وكان قد استولى على أصفهان والري وأصبح من أعظم الملوك، وكان له أموال من الأتراك تنكروا له لشدته عليهم فاغتالوه، وقتلوه في محرم سنة ثلاث وعشرين فاجتمعت العساكر بعده على أخيه وشمكير بالري، وبعث إلى ماكان بن كالي وهو بكرمان بعدما ملكها من أبي علي بن الياس بالمسير إليه بالري مع ابن محتاج. وسار ماكان على المفازة إلى الدامغان، وبعث وشمكير قائده تاتجيز الديلمي مع جيش كثيف لاعتراضه، ومع ماكان عس!كر ابن مظفر مددا له فتقاتلوا وهزمهم تاتجيز فعادوا إلى نيسابور، وجعلت ولايتها لماكان، وقد مر ذكر ذلك كله. ثم سار تاتجيز إلى جرجان وأقام بها. ثم هلك آخر السنة من سقطة عن فرسه فاستولى عليها ماكان، وحاصره ابن محتاج

سنة ثمان وعشرين فملكها وسار ماكان إلى طبرستان فأقام بها. وكان ركن الدولة بن بويه غلب على أصفهان فبعث وشمكير عساكره إلى ماكان مددا له في حروبه مع ابن محتاج، فاغتنم ركن الدولة خلو وشمكير من العساكر فسار إلى أصفهان فملكها، واتصل ما بينه وبين صاحب خراسان وانفرد وشمكير بملك الري.

استيلاء عساكر خراسان علي الري والجيل وملك وشمكير طبرستان:

لما ملك ركن الدولة أصفهان وصل يده بأبي علي بن محتاج صاحب خراسان، هو وأخوه عماد الدولة صاحب فارس، وحرضاه على أخذ الري من وشمكير رجاء أن يكون طرفا لعمله فيتمكن به من ملكها فسار أبو علي لذلك، واستمد وشمكير ماكان للمدافعة فجاء بنفسه. وبعث ركن الدولة مددا لابن محتاج فلقوه بإسحاقاباد، وتقاتلوا فانهزم وشمكير، ولحق بطبرستان فملكها وقتل من كان بالمعركة، واستولى أبو علي على الري. ثم بعث أبو علي العساكر إلى بلد الجيل فاستولى على زنكان وأبهر وتزوين وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حلوان.

استيلاء الحسن في الفيرزان علي جرجان:

كان الحسن بن الفيرزان ابن عم ماكان وكان مناهضه في الصرامة فلما قتل ماكان، وملك وشمكير طبرستان بعث إليه بالدخول في طاعته فأبى، ونسبه إلى المواطأة على قتل ماكان فقصده وشمكير ففارق سارية وسار إلى ابن محتاج صاحب خراسان. واستنجده فسار معه ابن محتاج، وحاصر وشمكير بسارية حولا كاملا حتى رجع إلى طاعة ابن سامان؟ وأعطى ابنه سلار رهينة بذلك ورجع هو والحسن إلى خراسان، وهو مكابده للصلح ولقيهما موت سعيد بن سامان فثار الحسن بأبي علي بن محتاج، ونهب سواده وأخذ ابن وشمكير الذي كان عنده، ورجع فملكها من يد إبراهيم بن سيجور الدواني ولحق ابن سيجور بنيسابور فعصى أبا علي بن محتاج كما مر في أخبارهم.

رجوع الري لوشمكير واستيلاء ابن بويه عليها:

لما انصرف أبو علي إلى خراسان وفعل به الحسن ما ذكرناه سار وشمكير إلى الري

فملكها، وراسله ابن الفيرزان يستميله؟ ورد عليه ابنه سلار فصانعه و لم يبالغ محافظة على عهد ابن محتاج. ثم طمع ركن الدولة بن بويه في ملك الري لخلو يده وقلة عس!كره فسار إليه وهزمه، واستأمن كثير من عسكره إليه وملك الري، ورجع وشمكير إلى طبرستان فاعترضه الحسن وهزمه فلحق بخراسان، وراسل ابن الفيرزان ركن الدولة بويه وواصله.

استيلاء وشمكير علي جرجان:

لما ملك ابن بويه الري من يد وشمكير ولحق طبرستان واعترضه ابن الفيرزان، وهزمه ولحق بخراسان سار إلى نوح بن سامان مستنجدا به، وبعث معه عسكرا وأرسل إلى ابن محتاج صاحب خراسان بمظاهرته فبعثه فيمن معه إلى جرجان، وبها الحسن ابن الفيرزان فهزمه وشمكير وملك جرجان.

استيلاء لكن الدولة علي طبرستان وجرجان:

لما ملك وشمكير جرجان من يد الحسن بن الفيرزان سار إلى ركن الدولة بن بويه وأقام عنده بالري، ثم سار سنة ست وثلاثين إلى بلاد وشمكير ولقيهم فهزموه، وملك ركن الدولة طبرستان، وسار منها إلى جرجان، ورجع إلى الري. وسار وشمكير إلى خراسان مستنجدا بابن سامان فأمر منصور بن قراتكين صاحب خراسان أن يستوفد العساكر لإنجاده فسار معه، وكان مصطنعا عليه. وكتب وشمكير إلى ابن سامان يشكو من ابن قراتكين. ثم كتب الأمير نوح إلى أبي علي بن محتاج أن يسير معه إلى الري فسار معه وقاتلوا ركن الدولة فلم يظفروا به حتى صالحهم كما تقدم، ورجع إلى وشمكير فانهزم أمامه إلى أسفرايين، وملك ابن بويه طبرستان وحاصر سارية وملكها، ولحق وشمكير بجرجان وسار إلى جرجان في طلب وشمكير إلى بلد الجيل، واستولى ابن بويه عليها.

وفاة وشمكير وولاية ابنه بهستون:

لما غلب بنو بويه على كرمان من يد أبي علي بن الياس لحق وشمكير بالأمير

منصور بن نوح ببخارى مستنصراً به، وأطمعه في ممالك بني بويه. وأسر إليه أن قواده بخراسان لا يناصحونه في شأنه فكتب إلى أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور صاحب خراسان بالمسير إلى الري بطاعة وشمكير والتصرف عن رأيه، واستعد ركن الدولة للقائهم، واستنجد ابنه عضد الدولة، وخالفهم إلى خراسان وبلغهم الخبر فتوقفوا بالدامغان يستطلعون الأخبار. وركب وشمكير للصيد فاعترضه خنزير فرماه بحربة من يده فحمل عليه الخنزير فشب الفرس، وسقط وشمكير إلى الأرض ومات من سقطته في محرم سنة سبع وخمسين، وانتقض جميع من كانوا معه. ولما مات وشمكير قام ابنه بهستون مقامه، وراسل ركن الدولة وصالحه فأمده بالعساكر والأموال.

وفاة بهستون وولاية أخيه قابوس:

ثم توفي بهستون بن وشمكير بجرجان سنة ست وستين لسبع سنين من ولايته، وكان أخوه قابوس عند خاله رستم بجبل شهريار، وترك بهستون ابنا صغيرا بطبرستان في كفالة جده لأمه فطمع له جده بالملك، وبادر به

إلى جرجان، وقبض على من كان عنده ميل إلى قابوس من القواد، وفي خلال ذلك وصل قابوس فخرج الجيش إليه واجتمعوا عليه وملكوه، وهرب أصحاب ابن منصور فكفله عمه قابوس وجعله أسوة بنيه، وقام بملك جرجان وطبرستان.

استيلاء عضد الدولة علي جرجان وطبرستان:

لما توفي ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة عهد لابنه عضد الدولة، وولى ابنه فخر الدولة على همذان وأعمال الجبل وابنه مؤيد الدولة على أصفهان. وكان بختيار بن معز الدولة ببغداد فاستولى عليه. ثم سار إلى أخيه فخر الدولة بهمذان فهرب إلى قابوس، ونزل عضد الدولة الري. وبعث إلى قابوس في طلب أخيه فخر الدولة فأبى فأمر أخاه مؤيد الدولة بخراسان أن يسير إليه، وأمده بالأموال والعساكر. وسار إلى جرجان سنة إحدى وسبعين. ولقيه فخر الدولة بخراسان عندما وليها حسام الدولة أبو العباس تاش من قبل الأمير أبي القاسم بن نوح، وكتب إلى العباس تاش يأمر بإنجاد قابوس بن وشمكير وفخر الدولة على مؤيد الدولة، وإعادة قابوس إلى بلده فزحف في العساكر إلى جرجان

وحاصرها شهرين حتى ضاقت أحوالهم. وكاتب مؤيد الدولة فائقا الخاصة من قواد خراسان، واستماله فوعده أن ينهزم بمن معه يوم اللقاء.

وخرج مؤيد الدولة فقاتلهم وانهزم فائق بمن معه كما وعد، ووقف حسام الدولة وفخر الدولة قليلا ثم اتبعوه منهزمين إلى خراسان. ثم استدعى تاش لتدبير الدولة ببخارى بعد قتل الوزير العتبي فسار إليه سنة اثنتين وسبعين مؤيد الدولة، وكان من خبر وفاته ما قدمناه. ووقعت الفتنة بين تاش وابن سيجور، وانهزم تاش إلى جرجان، وقابله فخر الدولة بكثير من الكرامة والنصرة بما لم يعهد مثله حسبما مر في أخبارهم. ولما ملك فخر الدولة جرجان وطبرستان والري اعتزم على رد جرجان وطبرستان إلى قابوس رغبا لما كان بينهما بدار الغربة، وأنه الذي جر على قابوس الخروج عن ملكه فشاور عن ذلك وزيره الصاحب ابن عباد فلم يوافقه، وبقي مقيما بخراسان، وأنجده بنو سامان بالعساكر المرة بعد المرة فلم يقدر له الظفر حتى كان استيلاء سبكتكين.

عودة قابوس إلى جرجان وطبرستان:

ولما ولي سبكتكين خراسان وعد قابوس برده إلى ملكه جرجان وطبرستان. ثم مضى إلى بلخ فمات سنة سبع وثمانين فأقام قابوس إلى سنة ثمان وثمانين فبعث الأصبهبذ إلى جبل شهريار، وعليه رستم بن المرزبان خال مجد الدولة. وجمع له فقاتله وانهزم رستم واستولى أصبهبذ على الجبل. وخطب فيه لشمس المعالي قابوس. وكان نائب ابن سعيد بناحية الاستنداوية، وكان يميل إلى شمس المعالي فسار إلى آمد، وطرد عنها عسكر مجد الدولة واستولى عليها، وخطب فيها لقابوس، وكتب إليه بذلك ثم كتب أهل جرجان إلى قابوس يستدعونه فسار إليهم من نيسابور وسار أصبهبذ، ويأتي ابن سعيد إليها من مكانهما فخرج إليهما عساكر جرجان فقاتلوهما فانهزم العسكر، ورجعوا إلى جرجان فلقوا مقدمة قابوس عندها فانهزموا ثانية إلى الري.

ودخل شمس المعالي قابوس جرجان في شعبان سنة ثمان وثمانين. وجاءت العساكر من الري لحصاره فأقاموا، ودخل فصل الشتاء وتوالت عليهم الأمطار وعدمت الأقوات فارتحلوا وتبعهم قابوس، وقاتلهم فهزمهم، وأسر جماعة من أعيانهم. وملك ما بين جرجان وأستراباذ. ثم إن الأصبهبذ حدث نفسه بالملك، واغتر بما اجتمع له من

الأموال والذخائر فسارت إليه العساكر من الري مع المرزبان خال مجد الدولة فهزموه وأسروه، وأظهروا دعوة شمس المعالي بالجبل لأن المرزبان كان مستوحشا من مجد الدولة فانضافت مملكة الجبل جميعا إلى مملكة جرجان وطبرستان، وولى عليها قابوس ابنه منوجهر ففتح الري وايات وشالوش، وقارن ذلك استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان فراسله قابوس وهاداه، وصالحه على سائر أعماله.

مقتل قابوس وولاية ابنه منوجهر:

كان شمس المعالي قابوس قد استفحل ملكه، وكان شديد السطوة مرهف الحد فعظمت هيبته على أصحابه وتزايدت حتى انقلبت إلى العتو فأجمعوا على خلعه وكان ببعض القلاع فساروا إليه ليمسكوه بها فامتنع عليهم فانتهبوا موجوده، ورجعوا إلى جرجان وجاهروا بالخلعان، واستدعوا ابنه من طبرستان فأسرع إليهم مخافة أن يولوا غيره، واتفقوا على طاعته بأن يخلع أباه فأجاب إلى ذلك كرها، وسار قابوس من حصنه إلى بسطام يقيم بها حتى تضمحل الفتنة فساروا إليه، وأكرهوا منوجهر على المسير معهم وينفرد هو للعبادة بقلعة ابخيا، وأذن له أبوه بالقيام بالملك حذرا من خروجه عنهم، وبقي المتولون لكبر تلك الفتنة من الجند مرتابين من قابوس.

وكتبوا من جرجان إلى منوجهر يستأذنونه في قتله، و لم ينتظروا رد الجواب وساروا إليه فدخلوا عليه البيت، وجردوه من ثيابه فما زال يستغيث حتى مات من شدة البرد، وذلك سنة ثلاث وأربعمائة لخمس عشرة سنة من استيلائه، وقام بالملك ابنه منوجهر، وخطب له على منابره و لم يزل في التدبير على الرهط الذين قتلوا أباه حتى أباد كثيرا منهم وشرد الباقين.

وفاة منوجهر وولاية ابنه أنوشروان:

ولما سار محمود بن سبكتكين سنة عشرين وأربعمائة عندما قبض حاجبه على مجد الدولة، وملك الري بدعوة محمود. وسار إليه محمود فهرب منوجهر بن قابوس من جرجان وبعث إليه بأربعمائة ألف دينار ليصلحه، وتحصن منه بجبال وعرة. ثم أبعد المذهب ودخل في الغياض الملتفة. وأجابه محمود فبعث إليه منوجهر بالمال، ونكب عنه في رجوعه إلى نيسابور. ثم توفي منوجهر اثر ذلك سنة ست وعشرين وولي بعده ابنه

أنوشروان فأقره محمود على ولايته، وقرر عليه خمسمائة ألف أميري. وخطب لمحمود في بلاد الجبل إلى حدود أرمينية. ثم استولى مسعود بن محمود أعوام الثلاثين على جرجان وطبرستان، ومحا دولة بني قابوس كأن لم تكن، والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة مسافر من الديلم بأذربيجان ومصائره:

كانت أذربيجان عند ظهور الديلم وانتشارهم في البلاد؛ واستيلائهم على الأعمال أعوام الثلاثين والثلاثمائة بيد رستم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج. وكان من خبره أن أباه إبراهيم من الخوارج من أصحاب هرون الشاري الخارج بالموصل هرب بعد مقتله إلى أذربيجان. وأصهر في الأكراد إلى بعض رؤسائهم فولد له ابنه رستم، ونشأ في أذربيجان. ولما كبر استضافه ابن أبي الساج وتنقل في الأطوار إلى أن استولى على أذربيجان بعد يوسف بن أبي الساج، وكان معظم جيوشه الأكراد. ولما استولى الديلم على البلاد، وملك وشمكير الري ولى أعمال الجبل لشكري وجمع الأموال والرجال، وسار لشكري إلى أذربيجان ليملكها سنة ست وعشرين، وحاربه دسيم في بعض جهات أذربيجان، واستولى لشكري على سائر بلاد أذربيجان إلا أردبيل فإن أهلها امتنعوا ثقة بحصن بلادهم.

وراسلهم فلم يجيبوه وحاصرها وشد حصارها، وثلم سورها وملكها أياماً يدخل نهارا ويخرج إلى حس!اكره ليلا ثم سدوا ثلم السور وامتنعوا وعادوا إلى الحصار. واستدعوا دسيما فجاء لقتال لشكري من ورائه، وناشبته أهل أردبيل القتال من أمامه فانهزم وقتل عامة أصحابه، وتحيزوا إلى موقان. واستنجد أصبهبذ بن دوالة فجمعوا وساروا إلى دسيم فانهزم أمامهم، وعبر نهر ارس، وقصدوا وشمكير في الري واستنجده، وضمن له مالا كل سنة فبعث معه عسكرا واستمال عسكر لشكري فداخلوه وكاتبوا وشمكير بالطاعة.

وعلم بذلك لشكري فتأخر إلى الزوزن عازما على الموصل أن يملكها، ومر بأرمينية فنهب وسبى. ولما انتهى إلى الزوزن لقيه بعض الرؤساء من الأرمن، وصانعه بالمال على بلده حتى كف عنها وأكمن له في مضيق بطريقه، ودس لبعض الأرمن أن ينهبوا شيئاً من ثقله، ويسلكوا المضيق. وركب لشكري في اثرهم فقتله الكمين ومن معه وقدم أهل العسكر عليهم ابنه الشكرستان، ورجعوا إلى بلد الطرم الأرميني ليثأروا من الأرمن بصاحبهم. وكان أكثر بلده مضايق فقاتلهم الأرمن عليها وفتكوا فيهم، ولحق العسكر والشكرستان في الفل بالموصل فأقام بها عند ناصر الدولة بن حمدان، وكانت له معادن أذربيجان وولى عليها ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان. وبعث معه الشكرستان وأصحابه فقاتلهم دسيم على المعادن، وغلبهم عليها ورجعوا واستولى دسيم على أذربيجان.

استيلاء المرزبان بن محمد بن مسافر علي أذربيجان:

كان محمد بن مسافر من كبار الديلم، وكان صاحب الطرم. وكان له أولاد كثيرون منهم سلار ومنهم صعلوك ومنهم وهشودان والمرزبان، أمه بنت حسان. ووهشودان ملك الديلم، وقد مر خبره. وكان دسيم بن إبراهيم الكردي بعد مدافعة لشكري وابنه عن أذربيجان أقام عنده بعض الديلم من عسكر وشمكير الذين أنجدوه على شأنه. ثم إن قومه من الأكراد استبدوا عليه بأطراف أعماله، وملكوا بعض القلاع فاستظهر عليهم بأولئك الديلم وغلبهم، واستدعى صعلوك بن محمد من قلعة أبيه الطرم فجاء إليه جماعة من الديلم وسار بهم إلى التي تغلب عليها الأكراد فانتزعها منهم، وقبض على جماعة منهم. ثم استوحش منه وزيره أبو القاسم علي

بن جعفر من أهل أذربيجان فهرب إلى الطرم، ونزل على محمد بن مسافر عندما استوحش منه ابناه وهشودان والمرزبان، وغلبا على بعض قلاعه.

ثم قبضا عليه وانتزعا منه أمواله وذخائره فتقرب الوزير علي بن جعفر إلى المرزبان، وكان يشاركه في دين الباطنية، وأطمعه في أذربيجان فاستوزره المرزبان. وكانت الديلم الذين عند دسيم وغيره من جنده واستمالهم فأجابوه، وسار المرزبان إلى أذربيجان وبرز دسيم للقائه فترع الديلم إلى المرزبان، واستأمن إليه كثير من الأكراد، وهرب دسيم إلى أرمينية ونزل على صاحبها حاجيق بن الديراني. وملك المرزبان أذربيجان سنة ثلاثين وثلاثمائة وأساء وزيره علي بن جعفر السيرة مع أصحابه فتظافروا عليه وشرعوا في السعاية فيه فأطمع المرزبان في أموال بتبريز يضمنها له. وسار إليها في عسكر من الديلم وأسر لأهلها أنه جاء لمصادرتهم فوثبوا بمن معه من الديلم وقتلوهم، واستدعوا دسيم بن إبراهيم فجاء إلى تبريز وملكوه، ولحق به الأكراد الذين استأمنوا إلى المرزبان

فسار المرزبان في عساكره وحاصرهم دسيم بتبريز، وكاتب علي بن جعفر وحلف له على الوفاء بما يرومه منه فطلب منه السلامة، وترك العمل فأجابه واشتد الحصار على دسيم فهرب من تبريز إلى أردبيل، وخرج الوزير إليه فوفى له المرزبان. ثم طلب دسيم أن يترله بأهله بقلعة من قلاع الطرم ففعل وأقام المرزبان فيها.

الروس

استيلاء الروس علي مدينة بردعة وظفر المرزبان بهم

هؤلاء الروس من طوائف الترك ويجاورون الروم في مواطنهم، وأخذوا بدين النصرانية معهم منذ أزمان متطاولة، وبلادهم تجاور بلاد أذربيجان فركبت طائفة منهم البحر سنة اثنتين وثلاثين. ثم صعدوا من البحر في نهر اللكنهر، وانتهوا إلى مدينة بردعة من بلاد أذربيجان وبها نائب المرزبان فخرج إليهم في نحو خمسة آلاف مقاتل من الديلم وغيرهم فهزمهم الروس، وقتلوا الديلم وتبعوهم إلى البلد فملكوه ونادوا بالأمان، وأحسنوا السيرة وجاءت العساكر الإسلامية من كل ناحية فلم يقدر عليهم. وظاهرهم العوام والرعاع فلما انصرفت العساكر غدرت الروسية بهم فقتلوهم، ونهبوا أموالهم واستعبدوهم.

وأحزن المسلمين ذلك واستنفر المرزبان الناس وسار لهم وأكمن لهم كمينا، وزحف إليهم، وخرجوا إليه واستطرد لهم حتى جاوزوا موضع الكمين فاستمر أصحابه على الهزيمة ورجع هو مع أخيه وصاحب له مستميتين، وخرج الكمين من ورائهم واستلحم الروسية وأميرهم، ونجا ففهم إلى البلد فاعتصموا بحصنه. وكانوا قد نقلوا إليه السبي والأموال، وحاصرهم المرزبان وصابروه. ثم إن ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل بعث إلى ابن عمه الحسين بن سعد بن حمدان في هذه السنة إلى أذربيجان ليملكها فبلغ الخبر إلى المرزبان بأنه انتهى إلى سلماس فجهز عسكرا إلى الروس، وسار لقتال ابن حمدان فقاتله أياما. ثم أستدعاه ابن عمه ناصر الدولة من الموصل وأخبره بموت تورون وأنه سائر إلى بغداد، وأمره بالرجوع فرجع وأما الروس

فحاصرهم العسكر أياما واشتد فيهم الوباء فانقضوا من الحصن ليلا، وحملوا ما قدروا عليه من الأموال ولحقوا باللكن فركبوا سفنهم ومضوا إلى بلادهم، وطهر الله البلاد منهم.

مسير المرزبان إلي الري وهزيمته وجيشه:

ولما سارت عساكر خراسان إلى الري وظن المرزبان أن ذلك يشغل ركن الدولة بن بويه عنه، وكان قد بعث رسوله إلى معز الدولة ببغداد فصرفه مذموما مدحورا فاعتزم على غزو الري، وطمع في ملكه. واستأمن إليه بعض قواد الري، وأغراه بذلك دوراسله ناصر الدولة بن حمدان يستحثه لذلك، ويشير عليه ببغداد قبل الري. وكتب ركن الدولة إلى أخويه عماد الدولة ومعز الدولة يستنجدهما فبعثوا إليه بالعساكر، وسار بها من بغداد سبكتكين الحاجب. ولما انتهى الدينور انتقض عليه الديلم، ووثبوا به فركب في الأتراك فتخاذل الديلم وأعطوه الطاعة. وكان المرزبان قبل وصول العساكر زحف إلى الري، وهزمه ركن الدولة وحبسه، ورجع الفل إلى أذربيجان ومعهم محمد بن عبد الرزاق.

واجتمع أصحاب المرزبان على أبيه محمد بن مسافر، وأساء السيرة فهموا بقتله. وكان ابنه وهشودان قد هرب منه، واعتصم بحصن له فلحق به أبوه محمد فقبض عليه وهشودان وضيق عليه حتى مات. ثم استدعى دسيم الكردي من مكانه بقلعة الطرم حيث أنزله المرزبان عند ظفره به، وبعثه إلى محمد بن عبد الرزاق، وأقام بنواحي أذربيجان. ثم رجع إلى الري سنة ثمان وثلاثين، واستعتب إلى سلطانه نوح بن سامان فأعتبه وعاد إلى طوس. واستولى دسيم على أذربيجان لوالي القلعة حتى تمكنوا من قتله فقتله المرزبان، ولحق بأخيه وهشودان سنة اثنتين وأربعين. وكان علي بن منكلي من قواد ركن الدولة قد لحق بوهشودان، وأغراه بدسيم فبعثه وهشودان فى العساكر، وكاتب الديلم واستمالهم. وسار إليه دسيم، وخلف وزيره أبا عبد الله النعيمي بأردبيل فجمع مالأ كان صادره عليه، وهرب بما معه من المال إلى علي بن منكلي.

وبلغ الخبر إلى دسيم عند أذربيجان فعاد إلى أردبيل، وشغب عليه الديلم ففرق فيهم ما كان معه من المال، وسار للقاء علي بن منكلي فالتقيا. وهرب الديلم الذين معه إلى علي بن منكلي. وانهزم هو إلى أرمينية. ثم جاءه الخبر بأن المرزبان تخلص من محبسه بقلعة سيرم وملك أردبيل، واستولى على أذربيجان. وأنفذ العساكر في طلبه فهزم دسيم إلى بغداد فأكرمه معز الدولة وأقام عنده. ثم استدعاه شيعته بأذربيجان سنة ثلاث وأربعين فسار إليهم وطلب من معز الدولة المدد، لأن أخاه ركن الدولة كان قد صالح

المرزبان فسار دسيم إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، واستنجد به فلم ينجده فسار إلى سيف الدولة فأقام عنده بالشام. فلما كان سنة أربع وأربعين خرج على المرزبان خارج باب الأبواب فسار إليه، وخالفه دسيم إلى أذربيجان فاستدعاه مقدم من الأكراد وملك سلماس فبعث إليه المرزبان قائدا من قواده فهزمه دسيم. ولما فرغ المرزبان من أمر الخارج وعاد إلى أذربيجان هرب دسيم إلى أرمينية واستجاش بابن الديراني، وكتب إليه المرزبان بحمل دسيم إليه فسلمه وحبسه حتى إذا توفي المرزبان قتله بعض أصحابه حذرا من فتنته.

وفاة المرزبان وولاية ابنه خستان:

ثم توفي المرزبان صاحب أذربيجان سنة خمس وأربعين، وعهد بالملك إلى أخيه وهشودان وبعده لابنه خستان وكان قد أوصى نوابه بالقلاع أن يسلموها لابنه خستان، ثم لأخويه إبراهيم وناصر، ثم إلى أخيه وهشودان عندما عهد بالعهد الثاني إلى أخيه عرفه بإمارات بينه وبين نوابه يرجعون إليها في ذلك. وبعث إلى النواب عبد الله النعيمي. وهرب وهشودان من أردبيل فلحق بالطرم، وجاء قواد المرزبان إلى خستان بن شرمول فإنه كان مقيما على ارمينية فانتقض بها.

مقتل خستان وإخوته واستيلاء عمهم وهشودان علي أذربيجان:

ولما ولي خستان بن المرزبان انغمس في لذاته وعكف على اللهو وقبض على وزيره أبي عبد الله النعيمي، وكان خستان بن برسموه منتقضا بأرمينية وقد ملكها، وكان وزيره أبو الحسن عبد الله بن محمد بن حمدويه صهراً للوزير النعيمي فاستوحش لنكبته، وحمل صاحبه ابن سرمدان على مكاتبة إبراهيم بن المرزبان فأطمعه في الملك، وسار به إلى مراغة فملكها فراسله أخوه خستان، وسار إلى موقان. وكان بأذربيجان رجل من ولد المكتفي متنكراً يدعو للرضا من آل محمد، ويأمر بالعدل، ويلقب بالمجير، وكثرت جموعه فبعث إليه النعيمي من موقان وأطمعه في الخلافة، وأن يملكه أذربيجان على أن يقصد بغداد ويترك لهم أذربيجان فسار إليه خستان وإبراهيم ابنا المرزبان فهزماه وقتلاه. فلما رأى وهشودان الخلاف بين بني أخيه المرزبان استمال إبراهيم، وسار ناصر إلى

موقان وطمع الجند في المال فساروا إلى ناصر، وملكوا بهم أردبيل.

وطالبه الجند بالمال فعجز وقعد عمه وهشودان عن نصره، وتبين له أنه كان يخادعه فاجتمع مع أخيه خستان واضطربت عليهما الأمور وانتقضت أصحاب الأطراف فاضطرهما الحال إلى طاعة عمهما وهشودان وراسلاه في ذلك واستحلفاه، وقدما عليه مع أمهما فغدر وقبض عليهم وعقد الإمارة على أذربيجان لابنه إسمعيل.

وسلم له أكثر قلاعه. ولحق إبراهيم بن المرزبان بمراغة، وجمع لاستنقاذ أخويه ومنازعة إسمعيل فقتل وهشودان أخويه وأمهما، وأمر خستان بن سرمند بقتال إبراهيم بمراغة، وبعث إليه بالمدد. وانضم إبراهيم إلى نواحي ارمينية سنة تسع وأربعين فاستولى ابن سرمدن على مراغة واستضافها إلى أرمينية، وجمع إبراهيم. وكانت ملوك ارمينية من الأرمن والأكراد، وأصلح خستان بن سرمدن. ثم جاء الخبر بوفاة إسمعيل ابن عمه فسار إلى أردبيل فملكها، وانصرف ابن منكلي إلى وهشودان، وزحف إليهما إبراهيم وهزمهما فلحقا ببلاد الديلم. واستولى إبراهيم على أعمال وهشودان. ثم جمع وهشودان وعاد إلى قلعته بالطرم، وبعث أبو القاسم بن منكلي العساكر لقتال إبراهيم فهزموه ونجا إلى الري مستنجدا بركن الدولة لصهر بينهما.

استيلاء إبراهيم بن المرزبان ثانيا علي أذربيجان:

قد تقدم هزيمة إبراهيم بن المرزبان أمام عساكر ابن منكلي، وأنه لحق بركن الدولة مستنجدا به فبعث معه الأستاذ أبا الفضل ابن العميد في العساكر فاستولى على أذربيجان، وحمل أهلها على طاعة إبراهيم، وقاد له خستان بن سرمدن وطوائف الأكراد فتمكن من البلاد. وكتب ابن العميد إلى ركن الدولة أن يعطيه ملكها.

ولعله يعوض إبراهيم عنها لكثرة جبايتها وقلة معرفة إبراهيم بالجباية، وأن يشهد فيها بالخروج عن ملكه فأبى من ذلك، وقال لا أفعل ذلك بمن استجار بي فسلم له ابن العميد البلاد ورجع.

(تنبيه) أخبار بني مسافر المعروفين ببني السلار ملوك أذربيجان نقلتها من كتاب ابن الأثير وإلى ههنا انتهى في أخبارهم. وأحال على ما بعده فقال بعد ذلك: وكان الأمير كما ذكر ابن العميد قد أخذ إبراهيم وحبسه على ما ذكره، ولم نقف على ذكر شيء من أخذ إبراهيم بعد ذلك ولا من خبر قومه. وذكر أن محمود بن سبكتكين بعد خبر استيلائه على

الري سنة عشرين وأربعمائة أنه بعث إلى المرزبان بن الحسين بن حرابيل من أولاد ملوك الديلم، والتجأ إلى محمود فبعثه إلى بلاد السلار؟ وهو إبراهيم بن المرزبان بن إسمعيل بن وهشودان بن محمد بن مسافر الديلمي، وكان له من البلاد شهرخان وزنجان وشهرزور وغيرها فقصدها واستمال الديلم. وعاد محمود إلى خراسان فسار السلار إبراهيم إلى قزوين فملكها، وقتل من عساكر محمود الذين بها وتحصن بقلعة الري، وكان بينهم وقائع ظهر فيها السلار. ثم استمال مسعود بن محمود طوائف من عسكره وجاؤوا إليه ودلوه على عورة الحصن الذي فيه السلار، وسلكوا بعسكره من طرق غامضة. وبعث إليه العسكر في رمضان سنة ست وعشرين فانهزم. وقبض عليه مسعود وحمله إلى سرجهار، وبها ولده، وطالب أن يسلم إليه القلعة فأبى وعاود عنه. وتسلم بقية قلاعه، وأخذ أمواله، وقرر على ابنه بسرجهار مالا، وعلى الأكراد الذين في جواره. وعاد إلى الري. وهذا السلار الذي ذكر غير السلار الأول. ولم يتصل الخبر بالخبر المتقدم. ثم ذكر أخبار الغز الذين تقدموا بين يدي السلجوقية وانتشروا في بلاد الري وملكوها وكثيرا من بلادها. ووصلت طائفة منهم إلى أذربيجان الذين كان مقدمهم بوقا وكوكتاش ومنصور ودانا.

دخول الغز أذربيجان:

يقال دخل هؤلاء الغز إلى أذربيجان وسمى صاحبها يومئذ وهشودان بن غلاك فأكرمهم، وصاهرهم يدافع شرهم بذلك، ويستميلهم لنصرته فلم يحصل من ذلك بطائل. وعاثوا في البلاد أشد العيث، ودخلوا مراغة سنة تسع وعشرين وأربعمائة فقتلوا أهلها وحرقوا مساجدها. وفعلوا كذلك بالأكراد الهمذانية فاتفق أهل البلاد على مدافعتهم. وأصلح أبو الهيجاء ابن ربيب الدولة ووهشودان صاحبا أذربيجان، واتفقت كلمتهما واجتمع معهما أهل همذان فانصرفت تلك الطائفة عن أذربيجان، وافترقوا على الري كما تقدم في أخبارهم. وبقي الغز الذين تقدموا قبلهم فقاسى منهم أهل أذربيجان شدة وفتك فيهم وهشودان بتبريز سنة اثنتين وثلاثين فتكة أوهنت منهم. ودعا منهم جمعا كثيرا إلى صنيع، وقبض على ثلاثين من مقدميهم فقتلهم، وفر الباقون من ارمينية إلى بلاد الهكارية من أعمال الموصل، وكانت بينهم وبين الأكراد وقائع ذكرناها في أخبار الغز بالموصل. ولم يعد ابن الأثير لبني المرزبان ملوك أذربيجان ذكرا إلى أن ذكر استيلاء

طغرلبك على البلاد، والمفهوم من فحوى الأخبار أن الأكراد استولوا عليها بعد بني المرزبان، وابثه أعلم.

استيلاء طغرلبك علي أذربيجان:

قال ابن الأثير: وفي سنة ست وأربعين سار طغرلبك إلى أذربيجان وقصد تبريز، وصاحبها الأمير منصور بن وهشوذان بن محمد الروادي فأطاعه وخطب له وحمل إليه، ورهن عنده ولده فسار طغرلبك عنه إلى الأمير أبي الأسوار صاحب جترة فأطاع وخطب، وكذلك سائر النواحي أرسلوا إليه يبذلون الطاعة والخطبة، وانقاد العساكر إليه فأبقى عليهم بلادهم، وأخذ رهنهم وسار إلى أرمينية كذلك. وقصد ملاذكرد وهي للنصرانية فعاث في بلادها وخرب أعمالها، وغزا من هنالك بلاد الروم وانتهى إلى أرزن الروم فأثخن في بلادهم ودوخها، وعاد ابن السلار إلى العراق. وذكر ابن الأثير خلال هذا غزوة فضلون الكردي إلى الخزر من التركمان على ما مر أول الكتاب فقال: كان بيد فضلون الكردي قطعة كبيرة من أذربيجان فغزا إلى الخزر سنة إحدى وعشرين، ودوج البلاد وقفل فجاؤوا في أثره وكبسوه، وقتلوا أيضا بخطط ملك الإنجاز إلى مدينة تفليس فقال: وفي سنة تسع وعشرين زحف ملك الإنجاز إلى أذربيجان ليتعرف المسلمين على حين وصول الغز إلى أذربيجان وما فعلوه فيها، وسمع الإنجاز بأخبارهم فأجفلوا عن مخلفهم، ووصل وهشوذان صاحب أذربيجان وصرف نظره إلى ملاطفة الغز ومصاهرتهم ليستعين بهم كما مر. هذا آخر ما وجدناه من أخبار ملوك أذربيجان، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني شاهين ملوك البطيحة ومن ملكها من بعدهم من قرابتهم وغيرهم وابتداء ذلك ومصائره:

كان عمران بن شاهين من المصامدة، وكان يتصرف في الجباية، وحصل بيده منها مال فتخوف وألح عليه الطلب فهرب إلى البطيحة ممتنعا من الدولة. وكان له نجدة وبأس وصبر على الشظف فأقام هنالك بين القصب والآجام يقتات بسمك الماء والطير، ويتعرض للرفاق التي تمر بالطريق فيأخذها. واجتمع إليه لصوص الصيادين فقوي وامتنع

على السلطان، وتمسك بخدمة أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة فأمنه، ووصل حبل الطاعة بيده، وقلده حماية تلك النواحي إلى الجامدة دفعا لضرره عن السابلة فعز جانبه، وكثر جمعه وسلاحه واتخذ معاقل على التلال بالبطائح، وغلب على تلك النواحي ولما استولى معز الدولة على بغداد، وقام بكفالة الخلافة والنظر في أمورها أهمه شأن عمران هذا وامتناعه في معاقله في نواحي بغداد فجهز إليه وزيره أبا جعفر الصيمري في العساكر. وسار إليه سنة ثمان وثلاثين وتعددت بينهما الحروب والوقائع، ثم هزمه الصيمري. ثم أتاه الخبر بمسيره إلى شيراز كما تقدم في أخبار دولتهم.

مسير العساكر إلى عمران بن شاهين وانهزامها:

ولما انصرف الصيمري عن عمران عاد إلى حاله فبعث معز الدولة لقتاله روزبهان من أعيان الديلم في العساكر فتحصن منه في مضايق البطائح، فطاوله فضجر روزبهان، واستعجل قتاله فهزمه عمران، وغنم ما معهم فاستفحل وقوي وأفسد السابلة. وكان أصحابه يطلبون الخفارة من جند السلطان إذا مروا بهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة فبعث معز الدولة بالعساكر مع المهلبي، وزحف إلى البطائح سنة أربعين، ودخل عمران في مضائقه، وأشاروا عليه بالهجوم فلم يفعل فكتب إليه معز الدولة بذلك بإشارة روزبهان فدخل المهلبي المضائق

بجميع عسكره، وقد أكمن لهم عمران فخرج عليهم الكمين، وتقسموا بين القتل والغرق والأسر، ونجا المهلبي سابحا في الماء. وكان روزبهان متأخرا في الزحف فسلم، وأسر عمران كثيرا من قوادهم الأكابر ففاداه معز الدولة بمن في أسره من أهله وأصحابه، وقلده ولاية البطائح فاستفحل أمره.

ثم انتقض سنة أربع وأربعين لخبر بلغه عن مرض طرق معز الدولة، وأرجف أهل بغداد بموته، ومر به مال من الأموال يحمل إلى معز الدولة، ومعه جماعة من التجار فكبسهم وأخذ جميع ما معهم. ثم رد ذلك بعد ابلال معز الدولة من مرضه، وفسد ما بينهما من الصلح. ثم سار معز الدولة إلى واسط سنة خمس وخمسين فبعث العساكر من هنالك لقتال عمران مع أبي الفضل العباس بن الحسن. وقدم عليه نافع مولى ابن وجيه صاحب عمان يستنجده عليها فانحدر إلى الأبلة، وبعث معه المراكب إلى عمان. وسارت عس!اكره إلى البطائح فنزلوا الجامدة، وسدوا الأنهار التي نصب إليها.

ثم رجع معز الدولة من الأبلة، وطرقه المرض فجهز العساكر لقتال عمران ودعا إلى بغداد فهلك وولي بعده ابنه عز الدولة بختيار فأعاد العساكر المجمرة على عصران، وعقد معه الصلح فاستمر حاله. ثم زحف بختيار إليه سنة تسع وخمسين، وأقام بواسط يتصيد شهرا. ثم بعث وزيره إلى الجامدة، وطرق البطيحة فسد مجاري المياه، وقلبها إلى أنهارها وهي الجسور إلى العراق. ثم جاء المد من دجلة وخرب جميع ذلك. ثم انتقل عمران إلى معقل آخر ونقل ماله إليه، حتى إذا حسر المياه وانتهجت الطرق فقدوا عمران من مكانه، وطال عليهم الأمر، وشغب الجند على الوزير فأمر بختيار بمصالحته على ألف ألف درهم. ولما رحل العسكر عنه ثار أصحابه في أطراف الناس فنهبوا كثيرا من العساكر، ووصلوا إلى بغداد سنة إحدى وستين.

وفاة عمران بن شاهين وقيام ابنه الحسن مقامه ومحاربته عساكر عضد الدولة:

ثم توفي عمران بن شاهين فجأة في محرم سنة تسعة وستين لأربعين سنة من ثورته، بعد أن طلبه الملوك والخلفاء ورددوا عليه العساكر فلم يقدروا عليه. ولما هلك قام بعده ابنه الحسن فطمع عضد الدولة فيه، وجهز العساكر مع وزيره وسدوا عليه المياه وأنفق فيها أموالا وجاء المد فأزالها، وبقوا كلما سدوا فوهة فتق الحسن أخرى وفتح الماء أمثالا لها، ثم وافقهم في الماء فاستظهر عسكر الحسن، وكان معه المظفر أبو الحسن ومحمد بن عمر، العلوي الكوفي، فاتهمه بمراسلة الحسن وإفشاء سره إليه، وخاف أن تنقص منزلته عند عضد الدولة فطعن نفسه فمات، وأدرك بآخر رمق فقال: محمد بن عمر حملني على هذا، وحمل إلى ولده بكازرون فدفن هنالك، وأرسل عضد الدولة إلى العسكر من رجعه إليه، وصالح الحسن بن عمران على مال يحمله وأخذ رهنه بذلك.

مقتل الحسن بن عمران وولاية أخيه أبي الفرج:

كان الحسن بن عمران آسفا على أخيه أبي الفرج وحنقا عليه، ولم يزل يتحيل عليه إلى أن دعاه إلى عيادة أخت لهما مرضت، وأكمن في بيتها جماعة أعدها القتلة فدخل الحسن منفردا عن أصحابه فأغلقوا الباب دونهم وقتلوه. وصعد أبو الفرج إلى السطح فأعلمهم بقتله ووعدهم فسكنوا. ثم بذل لهم المال فأقره، وكتب إلى بغداد

بالطاعة فكتب له بالولاية، وذلك لثلاث سنين من ولاية الحسن.

مقتل أبي الفرج وولاية أبي المعالي بن الحسن:

ثم إن أبا الفرج لما قتل أخاه الحسن قدم الجماعة الذين قتلوه على أكابر القواد، وكان الحاجب المظفر بن علي كبير قواد عمران والحسن فاجتمع إليه القواد وشكوا إليه فسكنهم فلم يرضوا، وحملوه على قتل أبي الفرج فقتله، ونصب أبا المعالي ابن أخيه الحسن مكانه لأشهر من ولايته. ثم تولى تدبيره بنفسه لصغره، وقتل من كان يخافه من القواد واستولى على أموره كلها.

استيلاء المظفر وخلع أبي المعالي:

ثم إن المظفر بن علي الحاجب القائم بأمر أبي المعالي طمع في الاستقلال بأمر البطيحة فصنع كتابا على لسان صمصام الدولة سلطان بغداد بولايته، وجاء به ركابي عليه أثر السفر وهو بدست إمارته فقرأه بحضرتهم، وتلقاه بالطاعة. وعزل أبا المعالي وأخرجه مع أمه إلى واسط، وكان يصلهما بالنفقة. وأحسن السيرة بالناس وانقرض بيت عمران بن شاهين. ثم عهد إلى ابن أخته علي بن نصر ويكنى أبا الحسن ه وتلقب بالأمير المختار، وبعده إلى ابن أخته الأخرى ويكنى أبا الحسن وشمى علي بن جعفر.

وفاة المظفر وولاية مهذب الدولة:

ثم توفي الحاجب المظفر صاحب البطيحة سنة ست وسبعين لثلاث سنين من ولايته، وولي بعده ابن أخيه أبو الحسن علي بن نصر بعهده إليه كما مر. وكتب إلى شرف الدولة سلطان بغداد بالطاعة فقلده، ولقبه مهذب الدولة فأحسن السيرة، وبذل المعروف وأجار الخائف فقصده الناس وأصبحت البطيحة معقلا. واتخذها الأكابر وطنا وبنوا فيها الدور والقصور. وكاتب ملوك الأطراف وصاهره بهاء الدولة بابنته، وعظم شأنه واستجار به القادر عندما خاف من الطائع وهرب إليه فأجاره، ولم يزل عنده بالبطيحة ثلاث سنين إلى أن استدعي منها للخلافة سنة إحدى وثمانين.

بعث ابن واصل علي البطيحة وعزل مهذب الدولة:

كان من خبر أبي العباس بن واصل هذا أنه كان ينوب عن رزبوك الحاجب، وارتفع معه ثم استوحش منه ففارقه وسار إلى شيراز، واتصل بخدمة فولاد وتقدم عنده. ثم قبض على فولاد فعاد إلى الأهواز، ثم أصعد إلى بغداد، ثم خرج منها، وخدم أبا محمد بن مكرم. ثم انتقل إلى خدمة مهذب الدولة بالبطيحة وتقدم عنده. ولما استولى السكرستان على البصرة بعثه مهذب الدولة في العساكر لحربه فقتله وغلبه، ومضى إلى شيراز فأخذ سفن محمد بن مكرم وأمواله ورجع إلى أسافل دجلة فتغلب عليها، وخلع طاعة مهذب الدولة فأرسل إليه مائة سميرية مشحونة بالمقاتلة فغرق بعضها وأخذ ابن واصل الباقي وعاد إلى الأبلة فبعث إليه أبا سعيد بن ماكولا فهزمه ثانية، واستولى على ما معه، وأصعد إلى البطيحة وخرج مهذب الدولة إلى شجاع بن مروان وابنه صدقة فغدروا به، وأخذوا أمواله ولحق بواسط. واستولى ابن واصل على البطيحة وعلى أموال مهذب الدولة وجمع ما كان لزوجه ابنة بهاء الدولة. وبعث به إلى أبيها وكانت قد لحقت ببغداد. ثم اضطرب عليه أهل

البطائح وبعث سبعمائة فارس إلى البلاد المجاورة فقاتلهم أهلها وظفروا بهم، وخشي ابن واصل على نفسه فعاد إلى البصرة وترك البطائح فوضى، ونزل البصرة في قوة واستفحال. وخشي أهل النواحي عاديته فسار بهاء الدولة من فارس إلى الأهواز ليتلافى أمره، واستدعى عميد الجيوش من بغداد وسيره في العساكر إليه فجاء إلى واسط، واستكثر من السفن، وسار إلى البطائح. وسار إليه ابن واصل من البصرة فهزمه، وغنم ثقله وخيامه، ورجع ابن واصل مفلولا.

عود مهذب الدولة إلي البطيحة:

ولما انهزم عميد الجيوش أقام بواسط فجمع عساكره لمعاودة ابن واصل. ثم بلغه أن نائب بن واسط بالبطائح قد خرج مجفلا فبعث إلى بغداد وبعث بالعساكر، وهم بالانتقاض فاستدعى عميد الجيوش مهذب الدولة من بغداد، وبعثه بالعساكر في السفن إلى البطيحة سنة خمس وستين فاستولى عليها. واجتمع عليه أهل الولايات وأطاعوه، وقرر عليها بهاء الدولة خمسين ألف دينار في كل سنة. وشغل عن ابن واصل بتجهيز العساكر الى خوزستان وطمع في الملك، واجتمع عنده كثير من الديلم وأصناف الأجناد.

وسار إلى الأهواز، وسير بهاء الدولة عسكرا للقائه فهزموهم، ودخل دار الملك وأخذ ما كان فيها. وبعث إلى بهاء الدولة في الصلح فصالحه وزاد في إقطاعه. ثم بعث بهاء الدولة العساكر للقائه وسار إلى الأهواز، وزحف إليها ابن واصل ومعه بدر بن حسنويه فبعث بهاء الدولة الوزير بالبطيحة فهزمه الوزير ثانية، فمضى مع حسان بن محال الخفاجي الكوفي وملك إلى الكوفة، وملك البصرة. وسار ابن واصل إلى دجلة قاصدا بدر بن حسنويه فبلغ جامعين فأنزله أصحاب بدر، وكان أصحاب أبي الفتح بن عنان قريبا منه فكبسه، وجاء به إلى بغداد فبعثه عميد الجيوش إلى بهاء الدولة فقتله سنة ست وتسعين كما مر في أخبار الدولة.

وفاة مهذب الدولة وولاية ابي أخته عبد الله بن نسي:

ثم توفي مهذب الدولة عبد الله بن علي بن نصر في جمادى سنة ثمان وأربعمائة، وكان ابن أخته أبو عبد الله محمد بن نسى قائما بأموره ومرشحا للولاية مكانه. وقد اجتمع عليه الجند واستحلفهم لنفسه. وبلغه قبل وفاة خاله أن ابنه أبا الحسن أحمد داخل بعض الجند في البيعة له بعد أبيه فاستدعاه، وحمله إليه الجند فقبض عليه. ودخلت إليه أمه فخبرته الخبر فلم يزد على الأسف له. وتوفي مهذب الدولة من الغد، وولي أبو محمد بن نسى مكانه وقتل أبو الحسين ابن خاله لثلاث من وفاة أبيه.

وفاة ابن نسي وولاية السرابي:

ثم توفي أبو عبد الله محمد بن نسى لثلاثة أشهر من ولايته، واتفق الجند على ولاية أبي محمد الحسين بن بكر السرابي من خواص مهذب الدولة فولوه عليهم، وبذل لسلطان الدولة ملك بغداد مالا فأقره على ولايته.

نكبة السرابي وولاية صدقة المازياري:

وأقام أبو محمد السرابي على البطيحة إلى سنة عشر وأربعمائة، وبعث سلطان الدولة صدقة بن فارس المازياري فنكبه وملك البطيحة، وبقي عنده أسيراً إلى أن توفي صدقة وخلص على ما يذكر.

وفاة صدقة وولاية سابور بن المرزبان:

ثم توفي صدقة بن فارس المازياري في محرم لاثنتي عشرة سنة من ولايته، وكان سابور بن المرزبان بن مردان قائد جيشه. وكان أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين قد تنقل بعد موت أبيه في البلاد بمصر، وعند بدر بن حسنويه حتى استقر عند الوزير أبي غالب، ونفق عنده بما كان لديه من الأدب.

عزل سابور وولاية أبي نصر:

ثم إن أبا نصر بن مردان زاد في المقاطعة و لم يبلغها سابور، وتخلى عن الولاية وفارق البطيحة إلى جزيرة بني دبيس، واستقر أبو نصر في ولايتها. ثم عادت إلى أبي عبد الله الحسين بن بكر السرابي.

عصيان أهل البطيحة علي أبي كاليجار:

وبعث أبو كاليجار سنة ثمان عشرة وزيره أبا محمد بن نابهشاد إلى البطيحة، ومقدمها يومئذ أبو عبد الله الحسين بن بكر السرابي فعسف بالناس في أموالهم، وقسط عليهم مقادير تؤخذ منهم فانجلوا إلى البلاد. وعزم الباقون على قتل السرابي. ونما الخبر إلى السرابي فجاء إليهم واعتذر إليهم، وأوعدهم بالمساعدة. وأشار عليه الوزير بإصلاح السفن حتى زحزحها بحيث لا يتمكن منها. ثم وثبوا به فأخرجوه، وكان عندهم جماعة من عسكر جلال الدولة محبوسين فأخرجوهم، واستعانوا بهم وعادوا إلى الامتناع الذي كانوا عليه أيام مهذب الدولة فتم لهم ذلك. ثم جاء ابن العبراني فغلب على البطيحة وأخرج منها السرابي فلحق بيزيد بن مزيد، وأقام بها ابن العبراني سنة ثلاث وثلاثين فزحف إليه أبو نصر بن الهيثم فغلبه عليها ونهبها واستقر في ملكها على ما يؤديه لجلال الدولة.

استيلاء أبي كاليجار علي البطيحة:

ولما كانت سنة تسع وثلاثين بعث أبو كاليجار أبا الغنائم أبا السعادات الوزير في

عسكر لحصار البطيحة فحاصرها، وبها أبو منصور بن الهيثم حتى جنح إلى الصلح، واستأمن نفر من أصحابه إلى أبي الغنائم وأخبروه بضعفه وعزمه على الهرب فحفظ عليه الطرق. ولما كان شهر صفر من السنة واقعهم أبو الغنائم فظفر بهم، وقتل من أهل البطيحة خلقا كثيرا وغرقت منهم سفن متعددة وتفرقوا في الآجام، وركب ابن الهيثم السفن ناجيا بنفسه وأحرقت داره ونهب ما فيها.

ولاية مهذب الدولة بن أبي الخير علي البطيحة:

ثم كان بعد ذلك لبني أبي الخير ولاية على البطيحة فيما قبل المائة الخامسة وما بعدها ولا أدري ممن هؤلاء بنو أبي الخير إلا أن ابن الأثير قال: كان إسمعيل ولقبه المصطنع، ومحمد ولقبه المختص، هما ابنا أبي الخير، ولهما رياسة قومهما. وهلك المختص وقام مكانه ابنه مهذب الدولة. ونازع ابن الهيثم صاحب البطيحة إلى أن غلبه مهذب الدولة أيام كوهرايين الشحنة ببغداد. وكان بنو عمه وعشيرته تحت حكمه. وأقطع السلطان محمد سنة خمس وتسعين وخمسمائة مدينة واسط لصدقة بن مزيد صاحب البطيحة والحلة فضمنها منه مهذب الدولة أحمد بن أبي الخير صاحب البطيحة، وفرق أولاده في الأعمال. وطالبه صدقة بالأموال وحبسه وضمن حماد ابن

عمه واسط. وكان مهذب الدولة يصانع حماد ابن عمه إسمعيل ويداريه، وحماد يطمح إلى رياسته فلما هلك كوهراايين نازع حماد مهذب الدولة ابن عمه، واجتهد مهذب الدولة في إصلاحه فلم يقدر، فجمع النفيس بن مهذب الدولة فهرب حماد إلى صدقة مستجيشا به فعاد بالجيش، وحاربه مهذب الدولة وزاده صدقة المدد فانهزم مهذب الدولة. وهلك أكثر عس!كره وقوي طمع حماد. واستمد صدقة فأمده بالعساكر مع مقدم جيشه حميد بن سعيد. وبعث مهذب الدولة لصاحب الجيش بالإقامات والصلات فمال إليه، وأصلح ما بينه وبين صدقة. وبعث مهذب الدولة ابنه النفيس إلى صدقة فأصلح بينهم وبين حماد ابن عمهم، وكان ذلك أعوام الثلاثين.

ولاية نصر بن النفيس والمظفر بن حماد من بعده علي البطيحة:

ثم كان انتقاض دبي! بن صدقة أيام المسترشد والسلطان محمود، وكان البرسقي

شحنة ببغداد فانتزع السلطان البطيحة من يد دبيس، وأقطعها إلى سحان الخادم مولاه فولى عليها نصر بن النفيس بن مهذب الدولة أحمد بن محمد بن أبي الخير. وأمر السلطان محمود البرسقي بالمسير لقتال دبيس فاحتشد وسار لذلك، ومعه نصر بن النفيس صاحب البطيحة، وابن عمه المظفر بن حماد بن إسمعيل بن أبي الخير، وبينهما من العداوة المتوارثة ما كان بين سلفهما. والتقى البرسقي ودبيس، وهزمه دبيس، وجاءت العساكر منهزمة. وبقي نصر بن النفيس وابن عمه حماد عند ساباط النهر فقتله، ولحق بالبطيحة فملكها، وبعث إلى دبيس بطاعته وبعث دبيس إلى الخليفة يصانعه بالطاعة على البعد. وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فقبض على منصور بن صدقة أخي دبيس وولده فكحلهما فاستشاط دبيس وساء أثره في البلاد وبعث إلى أحيائه بواسط فمنعهم الأتراك الذين بها فبعث مهلهل بن أبي العسكر مقدم عساكره في جيش، وكتب إلى المظفر بن حماد صاحب البطيحة بمعاضدته على قتال واسط فتجهز وأصعد، وعاجل مهلهل الحرب قبل وصوله فهزمه أهل واسط وغنموا ما معه، وكان في جملتها بخط دبيس وصار معهم، وساءت آثار دبيس في البلاد، ولم يزل حال البطيحة على ذلك. ثم صار أمرها لبني معروف وأجلاهم الخلفاء عنها.

إجلاء بني معروف من البطيحة:

كان بنو معروف هؤلاء أمراء بالبطيحة في آخر المائة السادسة، ولا أدري ممن هم فلما استجمع للخلفاء أمرهم، وخرجوا عن استبداد ملوك السلجوقية، واقتطعوا الأعمال من أيديهم شيئا فشيئا فصار لهم الحلة والكوفة وواسط والبصرة وتكريت وهيت والأنبار والحديثة. وجاءت دولة الناصر وبنو معروف على البطيحة وكبيرهم معلى. قال ابن الأثير: وهم قوم من ربيعة كانت غربي الفرات تحت سورا وما يتصل بها من البطائح، وكثرت إذاياتهم وإفسادهم في النواحي. وبلغت الشكوى بهم إلى الديوان فأمر الخليفة الناصر مغذا الشريف متولي بلاد واسط أن يسير إلى قتالهم فاستعد لذلك، وجمع من سائر تلك الأعمال فسار إليهم سنة ست عشرة بالعير من بلاد البطيحة، وفشا القتل بينهم. ثم انهزم بنو معروف، وتفرقوا بين القتل والأسر والغرق، واستبيحت أموالهم وانتظمت البطيحة في أعمال الناصر، ولم يبق بها ملك ولا دولة.

دولة بني حسنويه

الخبر عن دولة بني حسنويه من الأكراد القائمين بالدعوة

العباسية بالدينور والصامغان ومبد أ أمولهم وتصاريف أحوالهم

كان حسنويه بن الحسين الكردي من طائفة الأكراد يعرفون بالريزنكاس، وعشيرة منهم يسمون الدويلتية، وكان مالكا قلعة سرياج وأميرا على البررفكان. وورث الملك عن خاليه ونداد وغانم ابني أحمد بن علي، وكان صنفهما من الأكراد يسمون العبابية وغلبا على أطراف الدينور وهمذان ونهاوند والصامغان، وبعض نواحي أذربيجان إلى حدود شهرزور فملكاها نحوا من خمسين سنة، ولكل واحد منهما ألوف من العساكر، وتوفي ونداد بن أحمد سنة تسع وأربعين، وقام مقامه ابنه أبو الغنائم عبد الوهاب إلى أن أسره الشادنجان من طوائف الأكراد، وسلموه إلى حسنويه فأخذ قلاعه وأملاكه.

وتوفي غانم سنة خمسين وثلثمائة فقام ابنه أبو سالم دسيم مكانه بقلعة فتنان إلى أن أزاله أبو الفتح بن العميد، واستصفى قلاعه المسماة بستان وغانم أفاق وغيرهما. وكان حسنويه حسن السيرة ضابطا لأمره، وبنى قلعة سرماج بالصخور المهندسة وبنى بالدينور جامعا كذلك، وكان كثير الصدقة للحرمين. ولما ملك بنو بويه البلاد واختص ركن الدولة بالري وما يليه كان شيعة ومددا على عدوه فكان يرعى ذلك، ويغضي عن أموره إلى أن وقعت بين ابن مسافر من قواد الديلم وكبارهم وقعة هزمه فيها حسنويه، وتحصن بمكان فحاصره فيه وأضرمه عليه نارا فكاد يهلك. ثم استأمن له فغدر به وامتعض لذلك ركن الدولة وأدركته نعرة العصبية، وبعث وزيره أبا الفضل بن العميد في العساكر سنة تسع وخمسين فنزل همذان وضيق على حسنويه، ثم مات أبو الفضل فصالحه ابنه أبو الفتح على مال ورجع عنه.

وفاة حسنويه وولاية ابنه بدر:

ثم توفي حسنويه سنة تسع وستين وافترق ولده على عضد الدولة لقتال أخويه محمد وفخر الدولة. وكانوا جماعة أبو العلاء وعبد الرزاق وأبو النجم بدر وعاصم وأبو عدنان وبختيار وعبد الملك. وكان بختيار بقلعة سرماج ومعه الأموال والذخائر فكاتب

عضد الدولة ورغب في طاعته، ثم رغب عنه فسير إليه عضد الدولة جيشاً وملك قلعته وغيرها من قلاعهم. ولما سار عضد الدولة لقتال أخيه فخر الدولة، وملك همذان والري وأضافهما إلى أخيه مؤيد الدولة، ولحق فخر الدولة بقابوس بن وشمكير، عرج عضد الدولة إلى ولاية حسنويه الكردي فافتتح نهاوند والدينور وسرماج وأخذ ما فيها من ذخائره، وكانت جليلة المقدار. وملك معها عدة من قلاع حسنويه، ووفد عليه أولاد حسنويه فقبض على عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان، واصطنع من بينهم أبا النجم بدر بن حسنويه وخلع عليه وولاه على الأكراد، وقواه بالرجال فضبط ملك النواحي وكف عادية الأكراد بها. واستقام أمره فحسده أخواه، وأظهر عاصم وعبد الملك منهم العصيان، وجمعا الأكراد المخالفين. وبعث عضد الدولة العساكر

فأوقعوا بعاصم وهزموه وجاؤوا به أسيرا إلى همذان، ولم يوقف له بعد ذلك على خبر، وذلك سنة سبعين. وقتل جميع أولاد حسنويه وأقر بدرا على عمله.

حروب بدر بن حسنويه وعساكر مشرف الدولة :

ولما توفي عضد الدولة وملك ابنه صمصام الدولة ثار علية أخوه مشرف الدولة !بفارس، ثم ملك بغداد. وكان فخر الدولة بن ركن الدولة قد عاد من خراسان إلى مملكة أصفهان والري بعد وفاة أخيه مؤيد الدولة، وأوقع بينه وبين مشرف الدولة فكان مشرف الدولة يحقد عليه. فلما استقر ببغداد وانتزعها من يد صمصام الدولة وكان قائده قراتكين الجهشاري مدلا عليه متحكما في دولته، وكان ذلك يثقل على مشرف الدولة، جهزه في العساكر لقتال بدر بن حسنويه يروم إحدى الراحتين فسار إلى بدر سنة سبع وسبعين، ولقيه على وادي قرميسين. وانهزم بدر حتى توارى ولم يتلقوه ونزلوا في خيامه، ثم كر بدر فأعجلهم عن الركوب، وفتك فيهم واحتوى على ما معهم. ونجا قراتكين في فل إلى جسر النهروان فلحق به المنهزمون، ودخل بغداد. واستولى بدر على أعمال الجبل وقويت شوكته واستفحل أمره. ولم يزل ظاهراً عزيزاً وقلد من ديوان الخلافة سنة ثمان وثمانين أيام السلطان بهاء الدولة، ولقب ناصر الدولة. وكان كثير الصدقات بالحرمين، وكثير الطعام للعرب بالحجاز لخفارة الحاج، وكف أصحابه من الأكراد عن إفساد السابلة فعظم محله وسار ذكره.

مسير ابن حسنويه لحصار بغداد مع أبي جعفر بن هرمز:

كان أبو جعفر الحجاج بن هرمز نائبا بالعراق عن بهاء الدولة، ثم عزل فدال منه بأبي علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز، وتلقب عميد الجيوش فأقام أبو جعفر بنواحي الكوفة وقاتل عميد الجيوش فهزمه العميد. ثم جرت بينهما حروب سنة ثلاث وستين، وأقاما على الفتنة والاستنجاد بالعرب من بني عقيل وخفاجة وبني أسد وبهاء الدولة مشتغل بحرب ابن واصل في البصرة. واتصل ذلك إلى سنة سبع وتسعين. وكان ابن واصل قد قصد صاحب طريق خراسان وهو قلج، ونزل عليه واجتمعا على فتنة عميد الجيوش. وتوفي هذه السنة فولى عميد الجيوش مكانه أبا الفتح محمد بن قلج عنان عدو بدر بن حسنويه. وفحل الأكراد المسامي لبدر في الشؤون وهو من الشادنجان من طوائف الأكراد، وكانت حلوان له فغضب لذلك بدر ومال إلى أبي جعفر، وجمع له الجموع من الأكراد مثل الأمير هندي بن سعدي وأبي عيسى سادي بن محمد وورام بن محمد وغيرهم.

واجتمع له معهم علي بن مزيد الأسدي. وزحفوا جميعا إلى بغداد ونزلوا على فرسخ منها.

ولحق أبو الفتح بن عنان بعميد الجيوش، وأقام معه ببغداد حامياً ومدافعا إلى أن وصل الخبر بهزيمة ابن واصل وظهور بهاء الدولة عليه فأجفلوا عن بغداد، وسار أبو جعفر إلى حلوان ومعه أبو عيسى وراسل بهاء الدولة. ثم سار ابن حسنويه إلى ولاية رافع بن معن من بني عقيل يجتمع مع بني المسيب في المقلد، وعاث فيها لأنه كان آوى أبا الفتح بن عنان حين أخرجه بدر من حلوان وقرميسين، واستولى عليها فأرسل بدر جيشا إلى أعمال رافع بالجناب ونهبوها وأحرقوها. وسار أبو الفتح بن عنان إلى عميد الجيوش ببغداد فوعده النصر، حش إذا فرغ بهاء الدولة من شأن ابن واصل وقتله أمر عميد الجيوش بالمسير إلى بدر بن حسنويه لإعانته على بغداد،

وإمداده ابن واصل فسار لذلك، ونزل جنديسابور، وبعث إليه بدر في الصلح على أن يعطيه ما أنفق على العساكر فحمل إليه ورجع عنه.

انتقاض هلال بن بدر بن حسنويه علي أبيه وحروبهما:

كانت أم هلال هذا من الشادنجان رهط أبي الفتح بن عنان وأبي الشوك بن

مهلهل، واعتزلها أبوه لأول ولادته فنشأ مبعدا عن أبيه، واصطفى بدر ابنه الآخر أبا عيسى وأقطع هلالا الصامغان فأساء مجاورة ابن المضاضي صاحب شهرزور، وكان صديقا لبدر فنهاه عن ذلك فلم ينته. وبعث ابن المضاضي يتهدده فبعث إليه أبوه بالوعيد فجمع وقصد ابن المضاضي وحاصره في قلعة شهرزور حتى فتحها. وقتل ابن المضاضي واستباح بيته ، فاتسع الخرق بينه وبين أبيه واستمال أصحاب أبيه بدر، وكان بدر نسيكا فاجتمعوا إلى هلال وزحف لحرب أبيه والتقيا على الدينور. وانهزم بدر وحمل أسيرا إلى ابنه هلال فرده في قلعته للعبادة، وأعطاه كفايته بعد أن ملك الحصن الذي تملكه بما فيه. للما استقر بدر بالقلعة حصنها، وأرسل إلى أبي الفتح بن عنان وإلى أبي عيسى سادي بن محمد بأستراباذ وأغراهما بأعمال هلال فسار أبو الفتح إلى قرميسين وملكها.

وأساء الديلم فاتبعه هلال إليها ووضع السيف في الديلم. وأمكنه ابن رافع من أبي عيسى فعفا عنه وأخذه معه، وأرسل بدر من قلعته يستنجد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير فخر الملك في العساكر، وانتهى إلى سابور خواست. واستشار هلال أبا عيسى بن سادي فأشار عليه بطاعة بهاء الدولة، وإلا فالمطاولة وعدم العجلة باللقاء فاتهمه وسار العسكر ليلا فكبسه. وركب فخر الملك في العساكر، وثبت فبعث إليه هلال بأني إنما جئت للطاعة. ولما عاين بدر رسوله طرده وأخبر الوزير أنها خديعة فسر بذلك، وانتفت عنه الظنة ببدر. وأمر العساكر بالزحف فلم يكن بأسرع من مجيء هلال أسيرا، فطلب منه تسليم القلعة لبدر فأجاب على أن لا يمكن أبوه منه، واستأمنت أمه ومن معها بالقلعة فأمنهم الوزير، وملك القلعة وأخذ ما فيها من الأموال يقال أربعون ألف بدرة دنانير، وأربعمائة ألف بدرة دراهم سوى الجواهر والثياب والسلاح، وسلم الوزير فخر الملك القلعة لبدر وعاد إلى بغداد.

استيلاء ظاهر بن هلال علي شهرزور:

كان بدر بن حسنويه قد نزل عن شهرزور لعميد الجيوش ببغداد، وأنزل بها نوبة فلما كانت سنة أربع وأربعمائة، وكان هلال بن بدر معتقلا سار ابنه ظاهر إلى شهرزور، وقاتل عساكر فخر الملك منتصف السنة وملكها من أيديهم، وأرسل إليه الوزير يعاتبه ويأمره بإطلاق من أسر من أصحابه ففعل وبقيت شهرزور بيده.

مقتل بدربن حسنويه وابنه هلال:

ثم سار بدر بن حسنويه أمير الجيل إلى الحسن بن مسعود الكردي ليملك عليه بلاده، وحاصره بحصن كوسجة، وأطال حصاره فغدر أصحاب بدر وأجمعوا قتله. وتولى ذلك الجورقان من طوائف الأكراد فقتلوه وأجفلوا فدخلوا في طاعة شمس الدولة بن فخر الدولة صاحب همذان. وتولى الحسين بن مسعود تكفين بدر

ومواراته في مشهد علي. ولما بلغ ظاهر بن هلال مقتل جده وكان هاربا منه بنواحي شهرزور، وجاء لطلب ملكه فقاتله شمس الدولة فهزمه، وأسره وحبسه بهمذان واستولى على بلاده. وصار الكرية والشادنجان من الأكراد في طاعة أبي الشوك. وكان أبوه هلال بن بدر محبوسا عند سلطان الدولة ببغداد فأطلقه، وجهز معه العساكر ليستعيد بلاده بن شمس الدولة فسار ولقيه شمس الدولة فهزمه وأسره وقتله، ورجعت العساكر منهزمة إلى بغداد. وكان في ملك بدر سابور خواست والدينور وبروجرد ونهاوند وأستراباذ وقطعة ة من إعمال الأهواز، وما بين ذلك من القلاع والولايات. وكان عادلاً كثير المعروف عظيم الهمة. ولما هلك هو وابنه هلال بقي حافده ظاهر محبوساً عند شمس الدولة بهمذان.

مقتل ظاهر بن هلال واستيلاء أبي الشوك علي بلادهم ورياستهم:

كان أبو الفتح محمد بن عنان أمير الشادنجان من الأكراد، وكانت بيده حلوان وأقام عليها أميرا وعلى قومه عشرين سنة. وكان يزاحم بدر بن حسنويه وبنيه في الولايات واعمال بالجيل. وهلك سنة إحدى وأربعمائة، وقام مكانه ابنه أبو الشوك وطلبته العساكر من بغداد فقاتلهم، وهزموه فامتنع بحلوان إلى أن أصلح حاله مع الوزير فخر الملك لما قدم العراق بعد عميد الجيوش من قبل بهاء الدولة. ثم إن شمس الدولة بن فخر الدولة ابن بويه أطلق ظاهر بن هلال بن بدر من محبسه بعد أن استخلفه على الطاعة، وولاه على قومه وعلى بلاده بالجبل، وأبو الشوك صاحب حلوان والسهل، وبينهما المنافسة القديمة فجمع ظاهر وحارب أبا الشوك فهزمه. وقتل سعدى بن محمد أخاه، ثم جمع ثانية فانهزم أبو الشوك أيضاً وامتنع بحلوان: وملك ظاهر عامة البسيط، وأقام بالنهروان. ثم تصالحا وتزوج ظاهر أخت أبي الشوك فلما أمنه ظاهر وثب عليه أبو الشوك فقتله بثأر أخيه سعدي، ودفنه أصحابه بمقابر بغداد، وملك سائر الأعمال ونزل الدينور.

ولما استولى علاء الدولة- بن كاكويه على همذان سنة أربع عشرة عندما هزم عساكر شمس الدولة بن بويه واستبد عليه سار إلى الدينور فملكها من يد أبي الشوك، ثم إلى سابور خواست وسائر تلك الأعمال. وسار في طلب أبي الشوك فأرسل إليه مشرف الدولة سلطان بغداد وشفع فيه فعاد عنه علاء الدولة. ولما زحف الغز إلى بلاد الري سنة عشرين وأربعمائة، وملكوا همذان وعاثوا في نواحيها إلى أستراباذ وقرى الدينور، خرج إليهم أبو الفتح بن أبي الشوفي وقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم جماعة. ثم عقد الصلح معهم على إطلاق أسراهم ورجعوا عنه. ثم استولى أبو الشوك سنة ثلاثين على قرميسين من أعمال الجبل، وقبض على صاحبها من الأكراد الترهية، وسار أخوه إلى قلعة أرمينية فاعتصم بها من أبي الشوك وكانت لهم مدينة خولنجان فبعث إليها عسكراً فلم يظفروا وعادوا عنها. ثم جهز آخر وبعثهم ليومهم يسابقون جندهم، ومروا بأرمينية فنهبوا ربضها، ص وقاتلوا عن ظفروا به وانتهوا إلى خولنجان فكبسوها على حين غفلة. واستأمن إليهم أهلها وتحصن الحامية بقمعه وسط البلد فحاصروها وملكوها عليهم في ذي القعدة من السمة.

الفتنة بين أبي الفتح بن أبي الشوك وعمه مهلهل:

كان أبو الفتح بن أبي الشوك نائبا عن أبيه بالدينور، واستفحل بها وملك قلاعا عدة وحمى أعماله من الغز فأعجب بنفسه، ورأى التفوق على أبيه. وسار في شعبان سنة إحدى وثلاثين إلى قلعة بكورا من قلاع الأكراد، وصاحبها غائب وبها زوجته فراسلت مهلهلا لتسلم له القلعة نكاية لأبي الفتح، وكانت حلة مهلهل في نواحي الصامغان فانتظر حتى عاد أبو الفتح عن القلعة. وجمر العساكر لحصارها. وسار إليها أبو الفتح فورى له عن قصده، ورجع فأتبعه أبو الفتح فقاتله عمه مهلهل، ثم ظفر به وأسره وحبسه. وجمع أبو الشوك وقصد شهرزور وحاصرها. ثم قصد بلاد مهلهل، وطال الأمر، ولج مهلهل في شأنه وأغرى علاء الدولة بن كاكويه ببلد أبي الفتح فملك عليه الدينور وقرميسين سنة اثنتين وثلاثين.

ثم سار أبو الشوك إلى دقوقا وقدم إليها ابنه سعدي فحاصرها وجاء على أثره فنقبوا سورها وملكها عنوة، ونهب بعض البلد، وأخذت أسلحة الأكراد وثيابهم، وأقام أبو الشوك بها ليلة. ثم بلغه أن أخاه سرخاب بن محمد قد أغار على مواضع من ولايته فخاف

على البندنجين. ورجع وبعث إلى جلال الدولة سلطان بغداد يستنجده فبعث إليه العساكر وأقاموا عنده، وسار مهلهل إلى علاء الدولة بن كاكويه يستصرخه على أخيه أبي الشوك على الاعتصام بقلعة السيروان. ثم بعث إلى علاء الدولة يعرض له بالرجوع إلى جلال الدولة صاحب بغداد فصالحه على أن يكون الدينور لعلاء الدولة ورجع عنه. ثم سار أبو الشوك إلى شهرزور فحاصرها وعاث في سوادها، وحصر قلعة بيزاز شاه فدافعه أبو القاسم بن عياض عنها ووعده بخلاص ابنه أبي الفتح من أخيه مهلهل فسار من شهرزور إلى نواحي سند من أعمال أبي الشوك. ولما بعث إليه ابن عياض بالصلح مع أخيه أبي الشوك امتنع فسار أبو الشوك من حلوان إلى الصامغان. ونهب ولاية مهلهل كلها. وأجفل مهلهل بين يديه. ثم تردد الناس بينهما في الصلح وعاد عنه أبو الشوك.

استيلاء نيال أخي طغرلبك علي ولاية أبي الشوك:

ثم سار إبراهيم نيال بأمر أخيه طغرلبك من كرمان إلى همذان فملكها، ولحق كرساشف بن علاء الدولة بالأكراد الجورقان وكان أبو الشوك حينئذ بالدينور ففارقها إلى قرميسين وملكها نيال. وسار في اتباعه إلى قرميسين ففارقها إلى حلوان، وترك كل من في عسكره من الديلم والأكراد الشادنجان. وسار إليها نيال وملكها عليهم عنوة واستباحها. وفتك في العسكر ولحق فلهم بأبي الشوك في حلوان فقدم أهله وذخيرته إلى قلعة السيروان وأقام. ثم سار نيال إلى الصيمرة فملكها ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لها في الجورقان فانهزموا. وكان عندهم كرساشف بن علاء الدولة فلحق ببلد شهاب الدولة . وشرد أهلها في البلاد، ووصل إليها نيال آخر شعبان فملكها وأحرقها وأحرق دار أبي الشوك وسارت طائفة من الغز في اثر جماعة منهم فأدركوهم بخانقين فغنموا ما معهم، وانتشر الغز في تلك النواحي. وتراسل أبو الشوك وأخوه مهلهل. وكان ابنه أبو الفتح قد مات في سجن مهلهل فبعث مهلهل ابنه وحلف له أنه لم يقتله، وإن ثبت فاقتل أبا الغنائم بثأره فقبل ورضي، واصطلحا على دفاع نيال عن أنفسهما. وكان أبو الشوك قد أخذ ممتلكات سرخاب أخيه

ما عدا قلعة دوربلونة، وتقاطعا لذلك فسار سرخاب إلى البندنجين، وبها سعدي بن أبي الشوك ففارقها سعدي إلى أبلة ونهبها سرخاب.

وفاة أبي الشوك وقيام أخيه مهلهل مقامه:

ثم توفي أبو الشوك فارس بن محمد سنة سبع وثلاثين بقلعة السيروان من حلوان، وقام مقامه أخوه مهلهل، واجتمع إليه الأكراد مائلين إليه عن ابن أخيه سعدي بن أبي الشوك فلحق سعدي بنيال أخي طغرلبك يستدعيه لملك البلاد. ولما استولى مهلهل بعد موت أخيه أبي الشوك، وكان نيال عندما غدا من حلوان، ولى على قرميسين بدر بن ظاهر بن هلال بن بدر بن حسنويه فسار إليها مهلهل سنة ثمان وثلاثين فهرب بدر عنها وملكها. وبعث ابنه محمدا الى الدينور وبها عساكر نيال فهزمهم وملكها.

استيلاء سعدي بن أبي الشوك علي أعمالهم بدعوة السلجوقية:

ولما ملك مهلهل بعد أخيه أبي الشوك تزوج بأم سعدي وأهله وأساء معاملة الأكراد الشادنجان فراسل سعدي نيال، وسار إليه بالشادنجان فبعث معهم عسكرا من الغز سنة تسع وثلاثين فملك حلوان، وخطب فيها لإبراهيم نيال. ورجع إلى مابدشت فخالفه عمه مهلهل إلى حلوان فملكها، وقطع منها خطبة نيال فعاد سعدي إلى عمه سرخاب فكبسه ونهب حلله. وسير إلى البندنجين جمعا فقبضوا على نائب سرخاب ونهبوها. وصعد سرخاب إلى قلعة دوربلونة، وعاد سعدي إلى قرميسين، وبعث مهلهل ابنه بدرا إلى حلوان فملكها فجمع سعدي وأكثر من الغز. وسار فملك حلوان، وتقدم إلى عمه مهلهل فلحق بتيراز شاه من قلاع شهرزور واستباح الغز سائر تلك النواحي وحاصر سعدي تيراز شاه ومعه أحمد بن ظاهر قائد نيال، ونهب الغز حلوان. وأراد مهلهل أن يسير إلى ابن أخيه فتكاسلوا ثم قطع سعدي البندنجين لأبي الفتح بن دارم على أن يحاصر معه عمه سرخاب بقلعة دوربلونة فساروا إليها، وكانت ضيقة المسلك فدخلوا المضيق فلم يخلصوا، وأسر سعدي وأبو الفتح وغيرهما من الأعيان، ورجع الغز عن تلك النواحي بعد أن كانوا ملكوها.

نكبة سرخاب واستيلاء نيال علي أعمالهم كلها:

ثم إن سرخاب لما قبض سعدي ابن أخيه أبي الشوك غاضبه ابنه أبو العسكر واعتزله، وكان سرخاب قد أساء السيرة في الأكراد فاجتمعوا وقبضوا عليه، وحملوه إلى

نيال فاقتلع عينه وطالبه بإطلاق سعدي بن أبي الشوك فأطلقه أبو العسكر ابنه، واستحلفه على السعي في خلاص أبيه سرخاب فانطلق سعدى، واجتمع عليه كثير من الأكراد. وسار إلى نيال فاستوحش منه، وسار إلى الدسكرة، وكاتب أبا كاليجار بالطاعة. ثم سار إبراهيم نيال إلى قلعة كلجان وامتنعت عليهم. ثم حاصروا قلعة دوربلونة فتقدمت طائفة إلى البندنجين فنهبوها. وسار إبراهيم فيها بالنهب والقتل والعقوبة في المصادرة حتى يموتوا.

وتقدمت طائفة إلى الفتح فهرب وترك حلله فعرجوا عليها واتبعوه فقاتلهم وظفر بهم وبعث مستنجدا فلم ينجدوه فعبر، وأمر بترول حلله إلى جانب الغز. وكان سعدي بن أبي الشوك نازلا على فرسخين من باجس

فكبسه الغز فهرب وترك حلله وغنمها الغز، ونهبوا تلك الأعمال والدسكرة والهارونية وقصر سابور. وتقسم أهلها بين القتل والغرق والهلاك بالبرد. ووصل سعدي إلى دبال ولحق منها بابي الأغردبيس بن مزيد فأقام عنده. وحاصر نيال قلعة السيروان وضيق عليها، وضربت سراياه في البلاد وانتهت إلى قرب تكريت. ثم استأمن أهل قلعة السيروان إلى نيال فملكها وأخذ منها ذخيرة سعدي، وولى عليها من أصحابه ثم مات صاحب قلعة السيروان وبعث وزيره إلى شهرزور فملكها، وهرب مهلهل وأبعد في الهرب، وحاصر عسكر نيال قلعة هواز شاه.

ثم راسل مهلهل أهل شهرزور بالتوثب بالغز الذين عندهم فقتلوهم، ورجع قائد نيال ففتك فيهم. ثم سار الغز المقيمون بالبندنجين إلى نهر سليلي وقاتلوا أبا دلف القاسم بن محمد الجاواني فهزمهم وظفر بهم وغنم ما معهم. وسار في ذي الحجة جمع من الغز إلى بلد علي بن القاسم فعاثرا فيها فأخذ عليهم المضيق فأوقع بهم واسترد ما غنموه. ولم يزل احمد بن ظاهر قائد نيال محاصرا قلعة تيراز شاه في شهرزور إلى أن دخلت سنة أربعين، ووقع الموتان في عسكره. واستمد نيال فلم يمده فرحل عنها إلى مايدشير. وبلغ ذلك مهلهلا فبعث أحد أولاده إلى شهرزور فملكها، وأجفل الغز من السيروان. وسارت عساكر بغداد إلى حلوان وحاصروا قلعتها ولم يظفروا فنهبوا مخلف الغز وخربوا الأعمال، وسار مهلهل إلى بغداد فانزل أهله وأمواله بها، وأنزل حلله على ستة فراسخ منها فسار عسكر من بغداد إلى البندنجين، وقاتلوا الغز الذين بها فهزمهم الغز وقتلوهم جميعا.

بقية أخبار مهلهل وابن أبي الشوك وانقراض أمرهم:

ثم سار مهلهل أخو أبي الشوك إلى السلطان طغرلبك سنة ثلاث وأربعين فأحسن إليه وأقره على إقطاعه السيروان ودقوقا وشهرزور والصامغان، وسعى في أخيه سرخاب وكان محبوسا عنده فأطلقه وسوغه قلعة الماهكي، وكانت له فسار إليها، وأقطع سعدي بن أبي الشوك الرادندبين. ثم بعثه سنة ست وأربعين في معسكر من الغز إلى نواحي العراق فتزل بمابدشت، ومار منها إلى أبي دلف الجاواني فهرب بين يديه وأدركه فنهب أمواله وفلت بنفسه. وكان خالد ابن عمه مع الوزير ومطر ابني علي بن معن العقيلي فوفد أولادهم على سعدي يشكون مهلهلا فوعدهم النصر، ورجعهم من عنده فاعترضهم أصحاب مهلهل فأسرهم بنو عقيل ففداهم مهلهل وأوقع بهم على تل عكبرا، ونهبهم فساروا إلى سعدي وهو بسامراء. واتبع عمه مهلهلا وظفر به وأسره، وأسر مالكا ابنه، ورد غنائم بني عقيل ورجع إلى حلوان.

واضطربت بغداد، واجتمعت عساكر الملك الرحيم ومعهم أبو الأغردبيس بن مزيد يسعى عند سعدي في أبيه. وكان ابن سعدي عند السلطان طغرلبك رهينة فرده على أبيه عوضا عن مهلهل، وأمره بإطلاق مهلهل فامتعض لذلك سعدي وعصى على طغرلبك. وسار إلى حلوان فامتنعت عليه، وأقام يتردد بين رشقباد والبردان. وأظهر مخالفة طغرلبك، ورجع إلى طاعة الملك الرحيم فبعث طغرلبك العساكر بدران بن مهلهل إلى شهرزور، ووجد إبراهيم بن إسحق من قواده فأوقعوا به، ومضى إلى قلعة رشقباد.

وسار بدر بن مهلهل إلى شهرزور، ورجع إبراهيم بن إسحق إلى حلوان فأقام بها. ثم نهض سنة ست وأربعين إلى الدسكرة فنهبها واستباحها، وسار إلى رشقباد وهي قلعة سعدي وفيها ذخيرته، وفي القلعة البردان فامتنعت عليه فخرب أعمالها ووهن الديلم في كل ناحية. وبعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار صاحب البصرة في عس!كر من الغز إلى الأهواز فملكها ونهبها الغز، ولقي الناس منهم عيثا بالنهب والمصادرة. وأحاطت دعوة طغرلبك ببغداد من كل ناحية. وانقرض الأكراد من أعمالهم واندرجوا في جملة السلطان طغرلبك. وتلك الأيام نداولها بين الناس، والله يؤتي ملكه من يشاء والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا راد لأمره.